تيسير العلي القدير

لاختصار

تفسير ابن كثير

اختصره وعلق عليه واختار أصح رواياته

محمد نسيب الرفاعي

مكتبة المعارف

الرياض

تيسير العلي القدير

لاختصار

تفسير ابن كثير

اختصره وعلق عليه واختار أصح رواياته

محمد نسيب الرفاعي

المجلد الأول

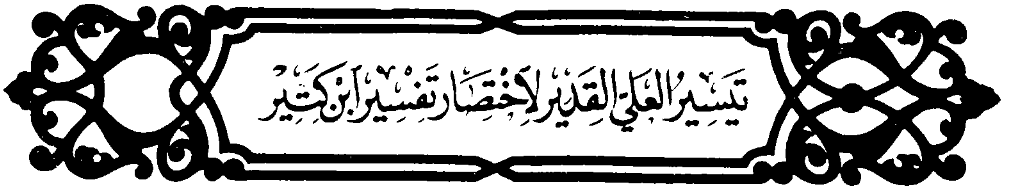
مكتبة المعارف

الرياض

طبعة جديدة
١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

مكتبة المعارف - ص.ب: ٣٢٨١ - هاتف ٤٠١٣٧٠٨ - ٤٠٢٣٩٧٩
الرياض - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم



اختصره وعلق عليه واختار أصح رواياته

محمد نسيب الرفاعي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد رسول الله، ومن والاه وتبع هداه إلى ما شاء الله.

أيها الأخ القارىء المسلم الكريم.

سلام الله عليك، ورحمته وبركاته، أما بعد:

فها إنني أعود إليك، حاملاً لك هذا الكتاب: (تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير) في طبعته الجديدة، مصححة ومنقحة ومزيدة؛ فالحمد لله جل وعلا على مزيد نعمه ووافر منّته وكرمه، بما وفقني إليه سُبحانه من القول والعمل.

وأي نعمة أحق بالحمد لموليها، وأجدر بالشكر لمعطيها، وأولى بالثناء الحسن على مسديها جل جلاله، من نعمة تقريب معاني كتابه إلى عبـاده ..؟ اللهم لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

أخي القارىء المسلم الحبيب:

حقاً .. لم تكن الستة آلاف نسخة من نسخ الطبعة الأولى من هذا الاختصار.. كافية لتغطية حاجـة القراء الأعزاء .. إذ بعد أن نفدت نسخُه الأولى .. كثر الطلب وفقد العرض، واشتدت الرغبة إليه، وتوالت أسئلة القراء عنه، هنا وهناك .. من دور النشر والمكتبات العامة وقد استأذنتْ أكثر من دارٍ للنشر بالسماح لأصحابها بإعادة طبع هذا الكتاب؛ لا سيما وقد طلبتْ وزارة المعارف السعودية الموقرة، تأمين خمسة آلاف نسخة منه، لتوزعه على مكتبات مدارسها في كافة أنحاء المملكة .. فينهل منه طلابها: الدينَ الخالص، والعلم النافع، ويزدادوا اطلاعاً على كتاب ربهم جل وعلا، ومعرفةً بمراده سبحانه من تنزيله، ووقوفاً على أحكامه، والتزاماً بها، فيخلصوا منه إلى العقيدة الصافية النقية، والفقه النبويّ الراشد.. ذلك لسهولة تلخيصه، وجزالة عرضه..إذْ قرّب مراد الله إلى الأفهام، حتى صارت معانيه العاليـة، دانية القطوف وفي متناول أكثر طلاّب العلم، وحتى المبتدئين بطلبه، لمـا اشتمل عليه من حذف المكرر، وتحسين المقرر، وتنحية الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وإبعاد الأخبار الاسرائيلية، وتصفيته من المفاهيم الخرافية، وتوضيح أبحـاثه ومراميه، بتعليقاتٍ: أظهرت العقيدة السلفية في أجلى مظاهرها، وأوضح معانيها الهادية المهديّة، والتي جلّت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبيّة، وتوحيد الألوهية في جميع أنواعها وأقسامها، وتوحيد الأسماء والصفات، على طريقة السلف الصالح بأمرار آيات وأحاديث الأسماء والصفات على ظاهرها كما وردت مع العلم بحقيقتها، بلا تكييف ولا تعطيل ولا تأويل ولا تشبيه ولا تجسيم. وأوضحتْ هذه التعليقـات، حقيقة التوسل المشروع والممنوع بالحجج القرآنية الصريحة، والأدلة الحديثية الصحيحة،

وفصّلتُ في هذا الموضوع الخطير الذي اختلف فيه السلف والخلف ...

وكل خير في اتباع من سلف   وكل شر في ابتداع من خلف

وقد تقصدتُ الإيجاز في موضوع التوسل في التعليقات لأحيل القارىء الكريم على كتابي / التوصل إلى حقيقة التوسل / المشروع والممنوع، الذي طبع منه طبعات عدة .. ووفّيتُ فيه البحث حقه . كما توخّيت في هذه التعليقات ، الكشف عن بعض المشاكل التي قد تعترض القارىء أثناء قراءة هذا الاختصار ، على ضوء الكتاب والسنة ، والعقل السليم والمنطق المستقيم . ومما يشجعني في المضي على تكرار الطبع بعد توفيق الله، ما ورد عليّ من الكلمات التشجيعية من أجلّة علماء المملكة العربية السعودية وسوريا ولبنان ومصر والمغرب العربي واليمن فإلى هؤلاء الأجلة الأفاضل الأعلام أرفع شكري الجزيل المقرون بالاحترام والتقدير .

وعلى هذا ... فقد استخرت الله تعالى وأقدمت متوكلا عليه وحده ، وعزمت على طبعه ثانيةً وإخراجه في حلة جديدة ، يزينها التحقيق والتدقيق، والاختيارات الموفقة، والاستدراكات المفيدة . ثم عمدت إلى تصحيح الأخطـاء المطبعية التي وقعت / عفواً / في الطبعة الأولى ... ثم نقحته ، وزدت عليه فوائد جمة .. فعكفت على فهارس أحاديثه الواردة فيه ، والتي كانت مجتمعة جميعها في آخر المجلد الرابع من الاختصار .. ففصلتها ، ووزعت كل فهرس منها، إلى موضعه في جزئه العائد إليه، فصار كل مجلد يحوي التفسير.. وفي آخره فهرس الآيات والسور .. ويليـه فهرس الأحاديث الواردة فيه مرقمـة بحسب تسلسل ورود الحديث .. ليسهل على القارىء الكريم الكشف عن أي حديث يريده ، مع درجته ملتزماً أن لا أختار إلاّ الصحيح المتفق على صحته أو الصحيـح الذي انفرد به البخاري أو مسلم ، والصحيح المروي في باقي الصحاح معتمداً الإشارات المصطلح عليها عند أئمة الحديث رحمهم الله . ولم أعمد للاستشهاد بالحديث الحسن إلاّ قليلا .. ونادراً .

فهاك يا أخي القارىء المسلم هذا الكتاب ، أثماراً يانعة شهيةَ الأكُل .. والله أسأل أن ينفعك به، ويجزل لي ولك الثواب يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

• • •

ولا أستطيـع –وأنا أختم هذه المقدمة– إلا أن أذكر من كان لله، ثم له الفضل والعون، والدافع الصادق لإظهار هذا الاختصار في طبعته الأولى .. فدمعة عليك وفاءً لعهدك ، ودعوة لك بالرحمة والمغفرة.. إي والله..لا أملك لك سوى دمعة ودعوة يا « فيصل.. » ولن أنساك ما حييت .

محمد نسيب الرفاعي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

ان الحمد لله نحمَدُه ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهدِهِ الله فلا مضلّ له ، ومن يضللْ فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه .

﴿ يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ اتقُوا ربَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْس وَاحِدَة وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذي تَسَاءَلُونَ به والأرْحَامَ إنَّ اللهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ ﴿ يَا أيّها الَّذِين آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قولاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾

أما بعدُ فإن خيرَ الكلام كلامُ الله وخيرَ الهدي هدْيُ محمَّدٍ — ﷺ — وشرَّ الأمورِ محدثاتُها وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ وكلَّ بدعةٍ ضَلالةٌ وكلَّ ضلالةٍ في النارِ .

* * *

أيها القارىءُ المسلمُ الكريم ، يا أخي الحبيب في الله تعالى :

أضع بين يديْك — بعد جهود خمس سنوات — مختصراً « لتفسير القرآن العظيم » المشهور بتفسير ابن كثير للإمام الجليل العلّامةِ الحافظِ عمادِ الدين أبي الفداءِ إسماعيلَ بنِ كثيرٍ القرشيِّ الدمشقيِّ المتوفّى سنة ٧٧٤ هجريّة .

وتفسير ابن كثير هذا ... غنيٌّ عن التعريف ؛ إذ يكاد أن يكونَ التفسيرَ الوحيدَ الذي حرص صاحبُه رحمه الله على أن يكون تفسيراً غيرَ مختلط بأي علم آخر ... فهو تفسير للتفسير فقط ، وإذا لجأ أحياناً لذكر بعض القواعد اللغوية ، أو الإعرابات النحوية أو النكات البلاغية ، فما ذلك إلاّ نادرٌ ، وليعينَ القارىءَ على فهم الآية ... فهو إذاً حريصٌ أولاً وآخراً... على أن يضعَ بين يدَي القارىءِ الكريم تفسيراً يهتمُّ بالتفسير... وبالتفسير

فحسب ، ويرجو بذلك، أن يصل إلى غاية سامية جليلة ... هي: تعيينُ مرادِ الله تعالى من كلامه العظيم ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ولهذا فقد انتهج المفسرُ الشيخ ابن كثير رحمه الله تعالى، منهجاً سليماً ، سلفياً كريماً، وهو : تفسير القرآن بالقرآن ، والقرآن بالحديث وبأقوالِ السلفِ الصالحِ من الصحابة والتابعين ، وبمفاهيم لغةِ العرب .

وهذا المنهج ... هو المنهج القويم ، والسَّنَنُ الحكيمُ ، وأقربُ الوسائل إلى بلوغ الغاية المتوخّاة ، لفهم كلام الله العظيم ، على مراده سبحانه وتعالى . ومن أجل هذا ... وتقرُّباً إلى الله جل وعلا ، صحَّ مني العزم مستخيراً الله تعالى أن أختار هذا التفسير الجليل « تفسير ابن كثير » لأقوم على اختصاره اختصاراً لا يخرج ولا يقيد أنملةٍ ، عن المنهج الذي حرص عليه المفسر رحمه الله بشكل غير مخلّ ، وعرضٍ غير مملّ ، أبتغي بذلك وجهَ الله العلي القدير ، ثم لأضعَ بين أيدي إخواني المسلمين ، تفسيراً مختصراً مفيداً ، ليتفقهوا في دينهم، ويفهموا مراد ربّهم ، ويعملوا بمقتضاه ، عقيدة وعبادةً وعملاً ... ويذيعوا كلمة الحق بين الناس ، لا يخافون في ذلك أحداً إلاَّ الله تعالى ، أملاً أن تكون فيهم الطائفة التي عناها رسول الله ﷺ بقوله : [ما تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ ، لا يضرُّهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتيَ أمرُ الله وهم على ذلك .]

ولما كان تفسير ابن كثير في أساسه ، تفسيراً لجأ مفسره رحمه الله إلى شيء من التفصيل تفصيلاً قد لا ينفع إلاَّ الخاصّة من العلماء ... حتى يُلمّوا بمواضيع الآيات المفسَّرة ، إلماماً يتفق مع رغبتهم الملحّة من التفصيل والتطويل ...وليتعمّقوا في أصول هذا العلم الكريم ، تعمّقاً يتكافأ مع غزارة علمهم ، ونهمهم في البحث عن المعضلات لتبسيطها ، وعن المشكلات لتحليلها وتوضيحها ، فهذا الميل في البحث ، والتتبعُ في كشف الخفايا ... ليس موفورُ الأسباب عند سائر طلاّبِ العلم ، ولا عند عامة المسلمين الذين قد تكون استفادتهم من تفسير ابن كثير على وضعه العلمي الخاص ... وشروحه وتطويلاته ، غير مُستوفاة ، إذ لم يمنح اللهُ لهم القدرةَ الكافية ، على فهمه فهماً يتفق مع نيّة المفسِّر رحمه الله ، وقصدِه من إبلاغ المسلمين مرادَ الله تعالى من كلامه العظيم وقرآنه الكريم ، وخوفاً من أن يفرّوا من تفصيلاته ، ويملّوا من تطويلاته — على جزيل نفعها ، وعظيم فائدتها — فقد عزمتُ معتمداً على الله تعالى ، أن أخطوَ هذه الخطوةَ الجريئة ... وأنا أعلم أنني أخوضُ غماراً فوق طاقتي ... وخضمّاً ... ليس لمثلي أن يخوضَ عبابَه ، لولا أنني

اعتمدتُ على الله وحده ودفعني إلى ذلك رغبةٌ أكيدة ، ونيةٌ مصممّة على الاستفادة من كتاب الله ، والعبِّ من منهله الفياض بالهدى .

وكلما تهيبتُ .. وترددّتُ ... أهاب بي نداء من الأعماق : أن أقدمْ. وأرجو من الله تعالى ، الهُدى والسَّداد ، والعصمةَ والرشاد ، فأقدمت وأقدمت ... أسير خطوة خطوة ... وأعرض خطاي على من أثق بعلمه ونصحه ، فما ألقى منهم إلاّ التشجيعَ ، والطلبَ الملحَّ .. بالمضيّ على الطريق ... والله الموفق للصواب في الوسيلة والغاية ، والابتداء والنهاية . وكنت كلما اختصرت بضع آيات ... أدرّسها لأخواني السلفيين ، وألقيها في حلقاتهم ، وأقرأها عليهم في كلّ درس ، ملاحظاً أثرها في نفوسهم ، وتطبيقها في حياتهم العامّة والخاصة ... مع بعض تعليقات أراها لازمةً في توضيح ما يجب توضيحهُ ، وأرجو الله تعالى أن يكون قد قَدَّر النفعَ فيما سمعوه وطبقوه من آيات الذكر الحكيم. على أنني توقّفتُ عن الاختصار مدةً من الزمن ، كنت خلالها أقرأ عليهم بعض الكتب السلفية الأخرى... في التوحيد، وآيات الأحكام والتاريخ الإسلامي ،وكتب الحديث ،وفقه السنّة .

ولما شرَّفني الله سبحانه وتعالى بالإذن لي بالتدريس في الحرم المكي عام ١٣٨٥ هجرية فقد عرضت ما أختصرته من التفسير على شيخ الحرم الرئيس العام للاشراف الديني في الحرم المكي فضيلة الشيخ عبدالله بن حميد فوافق على التدريس منه في الحرم ؛ وابتدأت يومياً بإلقاء الدروس مما اختصرته من تفسير ابن كثير ... ثم توكلت على الله في متابعة الاختصار وقد دعوت الله تعالى — وأنا أطوف حول بيته المحرّم — : اللهم لا تقبضني إليك ، قبل أن توفقني لأنهاءِ اختصارِ هذا التفسير ، إنك سميع قريب مجيب الدعاء ، فاستجاب لي ربيَّ جل وعلا دعائي . وها أنا ذا قد انتهيتُ من اختصار هذا التفسير الجليل حامداً شاكراً له سبحانه أنعمَه الجزيلة ، ومِنَنَهُ الوافرة ، متضرّعاً إليه سبحانه أن يرحم عجزي ، ويغفر زلاّتي ، وأن يزيدني من فضله ، متوسّلاً إليه بذاته العلية وبصفاته العلى وأسمائه الحسنى ، وبالمقبول من عملي الصالح ، وبحبّهِ لسيّد أنبيائه، وإكرامه لأوليائه وأصفيائه ، أن يوفّقني إلى ما فيه مرضاتُه تعالى وأن يثيبني من فضله فوق ما أستحق من جزيل عطيّاته ، وفسيحِ جنّاته ، وأن أشربَ من الحوضِ الذي لا يشربُ أحدٌ منه شربةً ويظمأ بعدها أبداً ، وذلك بيد أشرف خلقه ، وأفضل عباده ، رسول الحق ، وشفيع الخلق سيديَ وحبيبي وقرّة عيني عبدِ الله ورسولهِ محمدٍ ﷺ وعلى آله الأطهار ، وصحبه الأخيار ، ومن تبعهم على هداه ، إلى ما شاء الله وسلم تسليماً كثيراً .

* * *

طريقتي في الاختصار :

إعتمدت – فيما أرى – طريقةً طيبة في الاختصار .. وهي : أنني لخّصْتُ كلام المفسّر رحمه الله بشكل أبقيت على روح معانيه بدون أيّ خللٍ ، بأسلوب واضحٍ ، يفهمه العالِم، والمتعلّم ، والمبتدىء بطلب العلم ؛ وحتّى العامة إن قرأوه أو قريء عليهم . إذْ عمدتُ إلى أُسلوب المفسر الكتابيّ ، وتشبيهاتِه واستعاراتِه ، وكناياته ومترادفاته في المعاني والألفاظ ، فاستغنيت عما يمكن الاستغناءُ عنه من ذلك ... ثم عمدت إلى الأحاديث فاكتفيت بذكر الراوي والصحابي فأقول مثلاً : روَى البخاريُّ عن أبي هريرة ...

ثم اكتفيت مما أورده المفسر رحمه الله من الأحاديث المتعددة في الموضوع الواحد ، بحديث أو حديثين مما أخرجه الشيخان أو أحدهما، أو ما صح مما رواه أهل السنن والصحاح ... ضارباً صفحاً عن الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، معتمداً في ذلك ، أولاً على مـا اعتمد ابن كثير نفسه صحته ، ثم على ما أعلمه من صحة الأحاديث الواردة ، مما لم يشر إليه المفسّر رحمه الله .

وكذلك فإنني عمدت إلى الأخبار الإسرائيلية ، والأقوال المرجوحة ، والروايات الواهية فحذفتها ... أما الأفكارِ السخيفة مما أشار المفسر إلى سخفها ونبّه على وهنها ... ولم يذكرها في تفسيره إلا ليحيطَ القرّاءَ علماً بوهنها وسخفها ، أو وضعها ... – جزاه الله عن المسلمين خير ما يجزي به عباده الصالحين – فإنني استغنيت عن ذكرها ألبتة ، حباً بالاختصار الذي اتخذته سبيلاً ومنهجاً ، ولعلمي بأن الجهل بمثل هذه السخافات خير من العلم بهـا ، وبذلك أكون قد حققت للشيخ المفسر رحمه الله تعالى ، مطلبه مـن عدم اعتقادها ، والعمل بها من قبل أحد ، لأن ما لا يعلمه المرء لا يعمل به .

وقد أُضْطَرُّ في بعض الأحايين... أن أنقل عبارة المفسّر رحمه الله كاملةً دون أي اختصار ... وذلك لأنه رحمه الله تعالى ، كتبها هو بشكل مختصر ولم يتوسع فيها ... أو تكون الآية في الأحكام من غير المختلف فيها ، فأنقل عبارة المفسر رحمه الله ، برُمتها مهما كانت طويلة ، حرصاً على الفائدة المتوخاة ، فقد لا تحتمل أيَّ اختصار ، رغم طولها وسعتها...

وكذلك اخترت أصحّ الأقوال .. فيما ورد في الموضوع الواحد ، ضارباً صفحاً عن الأقوال الأخرى ...

وقد أكتب بعض التعليقات في أسفل الصفحة على بعض المواضيع التي أرى أنه يجب التعليق عليها ... نقداً أو تأييداً أو ترجيحاً ... وبخاصّة في الأمور والمواضيع السلفية التي يستحسن توضيحُها ، كتوضيح آيات وأحاديث الصفات والأسماء ، توضيحاً كاملاً ، وإجرائها على ظاهرها ، مع علم حقيقتها . بلا تكييف ولا تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تجسيم (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) . ثم أتعرض لبعض الإشكالات ، محاولاً حلَّها ، في حدود الكتاب والسنّة ، ومنهجِ السلف الصالح .

وأنني لم أدخل على تفسير ابن كثير أيَّ تفسير خارج عنه ... بل حرصت على أن اختصر فقط تفسيرَه رحمه الله ، وأن لا يكون هناك أيةُ جملة ، أو كلمةٍ مأخوذة من أيِّ تفسير كان ... مضافة إلى تفسير ابن كثير ، اللّهم ، إلاَّ ما أخذ به رحمهُ الله من غيره من المفسرين وذكره في تفسيره مشيراً إلى الجهة التي أخذ منها ... كما إنني لم أدخل أي كلامٍ مني إلى كلام المفسر رحمه الله دون أشارة اليه ضمن هلالين أو معترضتين قائلاً : هذا من كلامي لا من كلام المفسر رحمه الله تعالى .. وهذا إن وجد فنادر جداً .

وقد رقّمت الآيات أرقاماً متسلسلة لكل سورة ، كما أنني اعتمدت التقسيمات التي قسمها القراء ... وسجلتها أجزاءً وأحزاباً ، وأجزاء أحزاب ... وذكرت مواضع السجدات ، كما ذكرت أيضاً موضع كل سورة من ترتيب النزول ، كأن أقول مثلاً : سورة كذا ... نزلت بعد سورة كذا ... مع ذكر عدد الآيات من كل سورة وأيٍ منها مكية أو مدنية ، وتسجيل أرقامها بالنسبة لتسلسل السور ، كما وانني لخصت خلاصة الصفحة ، في جملةٍ جعلتها في رأس كل صفحة ، أو تكون هذه الخلاصة ، أهم ما ورد في الصفحة ، وجعلت من مجموع هذه الخلاصات فهرساً للتفسير في آخر كل مجلد ، كما جعلت أيضاً فهرساً للأحاديث الواردة في هذا المختصر ، ورقمتها بأرقام متسلسلة لكل مجلد ، وسجلت مطلع الحديث مع رقمه ورقم صفحته ، وألفت من مجموعها فهرساً يسترشد به عن مكان كل حديث وارد في أية سورة كانت ، كما وجعلت لهذا الفهرس ، حقلاً أشرت فيه إلى درجة كل حديث بالرموز المصطلح عليها عند السادة المحدثين رحمهم الله تعالى .

* * *

هذه هي طريقتي في الاختصار ... وأسأله تعالى أن أكون قد وفقت إلى مرضاته في عملي الذي لا أرجو عليه ثواباً إلاّ من الله وحده لا شريك له ، وإنني لا أزعم أني لم أخطىء

فقد أكون أخطأت فجلّ الذي لا يخطىء ولا يضل ولا ينسى ، وأتوب إليه تعالى وأدعوه أن يغفر لي ذنبي ، ويتجاوز عن خطئي ، ويعينني في جميع ما أعمل من خير ، وما أنتهي عن شر .

* * *

اللهم آتِ نفسي تقواها ، وزكّها أنت خير من زكّاها ، أنت وليها ومولاها. اللّهم اغفرْ لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي خطئي وعمدي ، وهز لي وجِدّي ، وكلّ ذلك عندي . اللّهم اغفر لي ما قدّمت وما أخّرتِ ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدّم وأنت المؤخّر ، وأنت على كلّ شيء قدير . لا إله إلاّ أنت ، ولا ربّ سواك .

* * *

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد . اللهمّ بارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم في العالمين إنك حميد مجيد

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

حلب : في العشر الأخير من رمضان المبارك سنة ١٣٩٠ للهجرةِ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

مؤسس الدعوة السلفية وخادمها بحلب

أبو عزوان

محمد نسيب الرفاعي

ترجمةُ المفسّر أبي الفداء إسماعيل بنِ عمرَ بنِ كثير

رحمه الله وغفر له

هو الشيخ الإمام العلامة الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن الشيخ العالم الخطيب أبي حفص شهاب الدين عمر، خطيب قريته، ابن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع القرشي، البُصروي الأصل، الدمشقي النشأة والتربية والتعليم، الشافعيّ السلفيّ المذهب والمنهج.

ولد رحمه الله تعالى وغفر له، بمجدل القرية من أعمال بُصرى شرق دمشق سنة ٧٠١. ومات أبوه رحمه الله وهو في الرابعة من عمره فربّاه أخوه الشيخ عبد الوهاب؛ ثم انتقل إلى دمشق سنة ٧٠٦ وهو في الخامسة من عمره وسمع بها من مُسنِد الشام بهاء الدين القاسم بن عساكر المتوفى سنة ٧٢٣ ومن اسحاق بن يحيى الآمدي شيخ الظاهرية المتوفى سنة ٧٢٥ ومن شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيميه المتوفّى سنة ٧٢٨ ولازمه وأحبّه، وانتفع بعلومه، وفتن بحبه، وامتحن بسببه، وكان من أعز تلاميذه. وتفقه على الشيخ برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري الشهير بابن الفركاح المتوفى سنة ٧٢٩ وسمع من أحمد بن أبي طالب الذي عمَّر أكثر من مئة سنة الشهير بابن الشحنة، المتوفى سنة ٧٣٠، وسمع من عيسى بن المطعم، ومحمد بن زراد. ولازم الشيخ جمال يوسف بن الزكي المِزّي صاحب تهذيب الكمال المتوفى سنة ٧٤٢، وبه انتفع وتخرّج وتزوّج بابنته، وسمع من ابن الرضي، والشيخ الحافظ شمس الدين الذهبي محمّد بن أحمد قايماز المتوفى سنة / ٧٤٨ /

وأجاز له من مصر: أبو الفتح الدبوسي، وعلي بن عمر الواني، ويوسف الختني وأبو موسى القرافي، والحسيني وغيرهم.

قال الحافظ ابن حجر في (الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة): اشتغل بالحديث مطالعة في متونه ورجاله، وجمع التفسير، وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يكمل ... وجمع التاريخ الذي سماه: (البداية والنهاية) وعمل طبقات الشافعية، وجرّح أحاديث التنبيه — في الفقه الشافعي — وأحاديث مختصر الحاجب الأصلي، وشرع في شرح البخاري، ولازم المِزّي وقرأ عليه تهذيب الكمال، وصاهره على ابنته، وأخذ عن ابن

تيمية ففتن به ، وامتحن بسببه ، وكان كثير الاستحضار ، حسن المفاكهة ، سارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته ، ولم يكن على طريق المحدثين في تحصيل العوالي ، وتمييز العالي من النازل ونحو ذلك من فنونهم ، وانما هو من محـــدثي الفقهاء ، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح [1] » وقد أجاب السيوطي عن قول ابن حجر المتقدم : « ولم يكن على طريق المحدثين ... إلى قوله : إنما هو من محدثي الفقهاء » فقال : « العمدة في علم الحديث على معرفة صحيح الحديث ، وسقيمه وعلله ، واختلاف طرقه ، ورجاله جرحاً وتعديلاً ، وأما العالي والنازل ونحو ذلك فهو من الفضلات لا من الأصول المهمة »

وقال عنه الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد قايماز الذهبي في المعجم المختص : « الإمام المفتي المحدث البارع ، فقيه متفنن ، ومفسر نقال ، وله تصانيف مفيدة ، مات في شعبان سنة ٧٧٤ وكان قد أضر في أواخر عمره . »

وقال الشيخ أبو عبدالله شمس الدين محمّد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي المتوفى سنة ٨٤٢ في كتابه « الرد الوافر على من زعم أن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر » : « ... ومنهم : الشيخ الإمام العلامة الحافظ عماد الدين ، ثقة المحدثين ، عمدة المؤرخين ، علم المفسرين ، أبو الفداء إسماعيل بن الشيخ العالم الخطيب أبي حفص عمر بن كثير ... ولد في سنة ٧٠١ بمجدل القرية من عمل بُصرى إذ كان أبوه خطيباً بها وتوفي سنة ٧٧٤ وكانت جنازته حافلة مشهورة ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية ... » وبجانبه .

وقال المؤرخ الشهير أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن سيف الدين المعروف بابن تغري بردي الحنفي في كتابه : « المنهل الصافي والمستوفى من الوافي » : « الشيخ الإمام العلامة عماد الدين أبو الفداء ... لازم الاشتغال ، ودأب وحصل وكتب ، وبرع في الفقه والتفسير والحديث وجمع وصنف ودرّس وحدّث وألّف ، وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك وأفتى ودرّس إلى أن توفي »

وفي « البدر الطالع » في ترجمة الحافظ ابن كثير : « عماد الدين بن اسماعيل بن عمر : برع في الفقه والتفسير والنحو ، وأمعن النظر في الرجال والعلل ومن جملة مشايخه :

---

(١) أي الكتاب الذي سماه ابن كثير : « اختصار علوم الحديث » وقد شرحه في عصرنا الحاضر الاستاذ العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله تعالى وسماه « الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث »

شيخ الإسلام ابن تيمية لازمه وأحبه حباً عظيماً ، وأفتى ودرّس ، وله تصانيف مفيدة ، منها : التفسير المشهور وهو في مجلدات وقد جمع فيه فأوعى . ونقل المذاهب والأخبار والآثار وتكلم بأحسن كلام وأنفسه وهو من أحسن التفاسير مات سنة ٧٧٤ رحمه الله تعالى »

وقد اشتهر المفسر ابن كثير رحمه الله بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير وهو القائل :

تمر بنا الأيام تترى ، وإنمـــــا نساق إلى الآجـال والعين تنظـرُ
فلا عائد ذاك الشباب الـذي مـضى ولا زائل هـذا المشيب المكـدرُ

وتلامذته كثيرة ، منهم : ابن حجي ، وقال فيه : « أحفظ من أدركنا لمتون الأحاديث وأعرفهم بجرحها وتعديلها ورجالها وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك ، وما أعرف أني اجتمعت به – على كثرة ترددي إليه – إلا واستفدت منه »

وقال ابن العماد الحنبلي في كتابه « شذرات الذهب : « الحافظ الكبير عماد الدين : « حفظ (التنبيه) و (مختصر ابن الحاجب) وكان كثير الاستحضار قليل النسيان ، جيد الفهم ، يشارك في العربية ، وينظم نظماً وسطاً . قال فيه ابن حبيب : سمع ، وجمع ، وصنف ، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنّف ، وحدث وأفاد ، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد واشتهر بالضبط والتحرير . »

مؤلفاته رحمه الله :

١ – : تفسير القرآن العظيم : وهو من أفيد كتب التفسير بالرواية ، يفسر القرآن بالقرآن ، ثم بالأحاديث المشهورة في دواوين المحدّثين بأسانيدها ، ويتكلّم على أسانيدها جرحاً وتعديلاً ، فيبيّن ما فيها من غرابة أو نكارة أو شذوذ غالباً . ثم يذكر آثار الصحابة والتابعين . قال السيوطي « لم يؤلَّفْ على نمَطِه مثلهُ » .

٢ – : التاريخ المسمّى : « البداية والنهاية »

٣ – : « كتاب التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل » جمع فيه كتابي شيخيه المزّي والذهبي وهما : « تهذيب الكمال في أسماء الرجال » و « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » مع زيادات مفيدة في الجرح والتعديل

٤ ـ : « كتاب الهدْي والسُّنَن في أحاديث المسانيد والسنن » وهو المعروف بجامع المسانيد، جمع فيه بين مسند الإمام أحمد ، والبزار ، وأبي يعلى ، وابن أبي شيبة ، مع الكتب الستة : الصحيحين والسنن الأربعة ، ورتّبه على الأبواب .

٥ ـ : « طبقات الشافعية » مجلد وسط ، ومعه مناقب الشافعي .

٦ ـ : « تخريج أحاديث التنبيه » في فقه الشافعية .

٧ ـ : « تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب » الأصلي .

٨ ـ : « شرح البخاري » ولم يكمله .

٩ ـ : « كتاب الأحكام » ولم يكمله ، وصل فيه إلى الحج .

١٠ ـ : « اختصار علوم الحديث » وهو اختصار مقدّمة ابن الصلاح والذي سُمي فيما بعد « الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث » .

١١ ـ : « مسند الشيخين » يعني أبا بكر وعمر .

١٢ ـ : « السيرة النبوية » .

١٣ ـ : « كتاب المقدمات » ذكره في مقدمة ابن الصلاح وأحال عليه .

١٤ ـ : « مختصر كتاب المدخل » للبيهقي ، كما ذكره في مقدمة الباعث الحثيث .

١٥ ـ : رسالة الجهاد وهي مطبوعة .

قال صاحب المنهل : توفي يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان سنه أربع وسبعين وسبعمأة عن أربع وسبعين سنة . رحمه الله ورضى عنه [1]

أبو غزوان

محمد نسيب الرفاعي

---

(١) اعتمدت في كتابة هذه الترجمة على : « كتاب الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة » للحافظ ابن حجر العسقلاني وكتاب « الرد الوافر على من زعم أن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر » لابن ناصر الدين الدمشقي، وكتاب « المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» لأبي المحاسن جمال الدين المعروف بابن تغري، وكتاب «شذرات الذهب » لابن عماد الحنبلي وكتاب «البدر الطالع» وعلى «ترجمة ابن كثير » للشيخ محمد عبد الرزاق حمزه المدرس بالمسجد الحرام رحمه الله الواردة في كتاب «الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث» . رحم الله الجميع رحمة واسعة

الكلمات التشجيعية

التي تفضل بها أصحاب السماحة والفضيلة السادة العلماء

حفظهم الله

تعريف

من دار الإفتاء والإشراف على الشوون الدينية في المملكة العربية السعودية

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه .

وبعد :

فأن حامل هذا التعريف هو فضيلة الشيخ محمد نسيب الرفاعي رئيس جمعية « الدعوة السلفية للصراط المستقيم بسوريا حلب » وهو يعد بحق من العلماء المجاهدين في سبيل نشر عقيدة التوحيد ، والمكافحين من أجلها ، وقد لقي في هذا السبيل مقاومة من أعداء الدعوة الألداء ، ولكنه صبر وكافح ، وقد قام الشيخ المذكور بمجهود يشكر عليه فقد اختصر تفسير العلامة أبي الفداء اسماعيل بن كثير ، وهو عازم على طبعه ونشره ... والله سبحانه وتعالى هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل . قال ذلك واملاه الفقير إلى عفو مولاه ابراهيم ابن محمد بن ابراهيم آل الشيخ نائب مفتي الديار السعودية سامحه الله .

في ١٥ / ١٢ / ١٣٩٠ هـ

(التوقيع)

كلمة العلامة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز
رئيس الجامعة الإسلامية

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه .

أما بعد فقد اطلعني الأخ العلامة الشيخ محمد نسيب الرفاعي على مختصره لتفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله وقرأت منه مواضع فالفيته مختصرا جيدا قد احتوى على مقاصد التفسير التي ذكرها الحافظ رحمه الله مع الإعراض عن الأخبار الاسرائيلية وكثير من الأحاديث الضعيفة والأقوال المرجوحه وكثير من الابحاث التي يمكن الاستغناء عنها فصار بذلك مقرّباً للفائدة للقارىء والمستمع وموفراً عليهما كثيراً من الوقت ونسأل الله عز وجل أن ينفع بعمله هذا وأن يضاعف له المثوبه وأن يوفقنا وإياه وسائر المسلمين للعلم النافع والعمل الصالح إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه واتباعهم باحسان إلى يوم الدين :

رئيس الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة
عبد العزيز بن عبدالله بن باز
(الخاتم)

كلمة سماحة الشيخ عبد الملك بن ابراهيم آل الشيخ

الرئيس العام لهيئات الأمر بالمعروف بالحجاز

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه

وبعد : لقد أطلعت على مختصر تفسير الامام ابن كثير رحمه الله للشيخ محمد نسيب الرفاعي فوجدته مفيداً قد حذف أكثر الاسرائليّات والمكررات فجزاه الله خيرا .

أملى ذلك عبد الملك بن ابراهيم ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه .

(التوقيع)

كلمة العلامة المحقق الدكتور تقي الدين الهلالي
المدرس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ، هدى وذكرى لأولي الألباب. والصلاة والسلام على من أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، محمد وآله وأصحابه أولي الألباب ، وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم المآب.. أما بعد فقد اطلعت على الكتاب المستطاب المسمى (تيسير العلي القدير لاختصار ابن كثير) وهو اختصار تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله فسررت بذلك أيما سرور ، لأني لم أزل أعتبر هذا العمل من أهم ما يتحتّم على علماء الكتاب والسنة الناصحين للأمة في هذا الزمان الذى تقاعست فيه الهمم عن بلوغ الغايات وكثرت فيه المشاغل والعوائق، وزهد اكثر الناس في علوم الكتاب والسنه، وقلّ من يهتم بها ويجد في طلبها. وكان تفسير الحافظ ابن كثير أحسن التفاسير الموجودة في هذا الزمان لما فيه من المزايا التى لا تكاد توجد فى غيره؛ أهمها تفسير القرآن، بالقرآن ثم بالسنة ثم بأقوال السلف الصالح، ثم بالاعتماد على دلائل اللغة العربية. وهو خال من الخصومات الكلامية والآلية والمذهبية. يتحرى الحق وينصره مع من كان، ويدعو إلى الاجتماع وينبذ الفرقه إلا أنه مع ذلك... لا يخلو من أمور تعكر على الطالب والمعلم والواعظ صَفْو دراسته، منها الأحاديث الضعيفة، وتكرار الأحاديث الصحيحة، وذكر أسانيدها واختلاف الفاظها وتعدد طرقها. ومنها آراء واهية غفل عنها رحمه الله، إلى غير ذلك مما يقتضى اختصاره وتقريبه، حتى يصير فى متناول عامة الدارسين والمدرسين ، وكم عزمت على القيام بهذا العمل وبدأت فيه فعلا ولكن لم يقدّر لي الاستمرار فيه ولذلك كان سرورى عظيما بهذا الكتاب الذى حرره اخونا العالم السلفى المحقق الاستاذ الشيخ محمد نسيب الرفاعي رفع الله فى الدارين درجته، وأجزل فيهما مثوبته، فقد جاء اختصاره طبق ما يؤمله كل طالب علم. موزوناً بقسطاس مستقيم نسأل الله ان ينفعنا به، كما نفع المسلمين بأصله. وأن يسهل طبعه ونشره كما سهل نشر أصله

آمين أمين لا أرضى بواحدة حتى أضيف لها آلاف آمينا

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أملاه الفقير إلى رحمة ربه محمد تقى الدين بن عبد القادر الهلالى الحسيني غفر الله ذنبه، وستر فى الدارين عيبه، لثمان خلون من صفر سنه إحدى وتسعين وثلاثمائه وألف بالمدينة النبوية زادها الله تشريفاً وتعظيما .

كلمة علامة الشام سماحة الشيخ محمد بهجة البيطار

« إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ..

تيسير العليّ القدير لاختصار تفسير ابن كثير

للأستاذ السلفي المحقق الشيخ محمد نسيب الرفاعي أدام الله توفيقه

الحمد لله الذي أنزل الكتاب ، هدى وذكرى لأولي الألباب ، والصلاة والسلام على من أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، نبينا محمد وعلى سائر إخوانه الأنبياء والمرسلين ، ومن تبعهم بإحسان .

وبعد فما زال هذا القرآن المجيد « الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » آيةً باقية على وجه الدهر في لفظه ونظمه وأسلوبه ، وهدايته وتأثيره وعلومه ، وفيه العظات والعبر ، وسائر ما بالعباد إليه حاجة ، ولقد أعزّ الله به هذه الأمة بعد ذلّة ، وكثّرهم بعد قلة ، وأغناهم بعد فقر ، وقوّاهم بعد ضعف ، وألّف بين قلوبهم بعد جفاء وعداء ، بل بعد تناحر مستمر ، وقتال مستحر ، كادت معه القبائل يفني بعضهم بعضاً .

هذا وإن الحافظ العماد ابن كثير – كالإمام محمد بن جرير الطبري – قد امتاز بتفسير القرآن بالقرآن ، وبذكر ما ورد من الأحاديث في معاني الآيات بأسانيدها ، مع العزو إلى مخرّجيها أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد ، وأقوال الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان .

وأعظم بهذا التفسير الذي يجدّ لذلك فهم القرآن الكريم بلسان عربي مبين ، فتعلم معانيه بمفرداته وأساليبه علماً يدعوك إلى العمل ، ويدنيك من الصدر الأول ، ويعرّفك الأسباب التي وردت الآيات في شأنها ، والمقاصد العليا التي أنزل القرآن من أجلها . وقد ترك ابن كثير الشيء الوفير من القصص الإسرائيلية ، ونبه على كذب بعضها ، غير أنه ذكر أشياء منها بلا تحقيق ولا تمحيص .

وقد بدا للأستاذ العلاّمة السلفي المحقق الشيخ محمد نسيب الرفاعي أن يختصر هذا التفسير (تفسير ابن كثير) اختصاراً غير مخلّ بالمقصود ، ليكون عوناً للطبقة المثقفة بل لسائر

الطبقات على فهم القرآن الكريم بالمعنى الصحيح ، وقد أوضح هذا الأستاذ طريقته في الاختصار بإيجازه من كلام ابن كثير ما أمكن إيجازه ، على أن يبقى المعنى الصحيح الصريح ثابتاً داعياً إلى العمل بمقتضى كلامه عزّ وجل : قولاً وفعلا واعتقاداً ، أمراً ونهياً ، أدباً وخُلقاً ، رغبة ورهبة . ومن كلمة هذا المختصِر الأديب « النسيب » أخذه من كتب الأحاديث النبوية ما يتبين به المعنى المراد من آي الذكر الحكيم . وقد استغنى عما لا يورث حذفُه الإخلال بالمعنى ، بأسلوب واضح كما قال حفظه الله : « يفهمه العالم والمتعلم والمبتدىء بطلب العلم » ، إذ حذف التشبيهات والاستعارات والكنايات والمترادفات في المعاني والألفاظ ، وعمد إلى الأحاديث الشريفة فاكتفى بذكر الراوي والصحابي ، وبرواية أوسعها وأمتعها... إذا كانت بموضوع واحد، ضارباً صفحاً عن الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، معتمداً في ذلك أولاً ما اعتمد ابن كثير نفسُهُ صحته ، ثم على ما يعلمه المختصِر من صحة الأحاديث الواردة... مما لم يشر إليه المفسّر رحمه الله ، هذا مع حذف الأخبار الإسرائيلية ، والأقوال المرجوحة ، والروايات الضعيفة أو السخيفة ، مما أشار المفسر إليه ، أو فاته التنبيه عليه .

ومما يؤيّد سلفية المؤلف (النسيب) تعليقاته الناصحة الراجحة على ما يرى وجوب التعليق عليه — كما قال فضيلته — نقداً أو تأييداً أو ترجيحاً ، وبخاصة في الأمور والمواضيع السلفية التي يستحسن توضيحها ، كتوضيح آيات الصفات والأسماء وأحاديثها توضيحاً كاملاً ، وإجرائها على ظاهرها مع علم حقيقتها بلا تكييف ولا تشبيه ، ولا تأويل ولا تعطيل ، ولا تمثيل ولا تجسيم (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ، ثم قال فضيلته : ثم أتعرّض لبعض الإشكالات محاولاً حلّها في حدود الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح » . ويقول الضعيف كاتب هذه السطور : كنت ولا أزال أقول — دفعاً للشبهة وإقامةً للحجة — : « يظن بعض الناس أن دعاة الإصلاح والتجديد لأمر الدين والتوحيد ، على أساس الكتاب والسنة ، وما كان عليه سلف هذه الأمة ، إنما يحاولون إحياء الدين وإماتة ما عداه من علوم السلف وحضارتهم ، أو عدم الانتفاع بما تدعو إليه الحاجة مما نقتبسه من نور العصور الذهبية للإسلام . إن تعجب فعجب لهذا الزعم الباطل ، إن سلفنا الصالح الذين نهتدي بهديهم ونقتفي أثرهم قد جعلهم الله هداة للناس في الدين والدنيا ، وأورثهم أرض كثير من الأمم القديمة ، ورضي الله عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس القائل « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » وهو رأي كل حكيم عليم بداء الأمة ودوائها قديماً وحديثاً .

ومن اهمّ ما اهتم به هذا الأستاذ « النسيب » وسجله في مقدمته للفهارس ، قال : كما وانني لخصت خلاصة الصفحة في جملة جعلتها في رأس كل صفحة ، أو تكون هذه الخلاصة أهمّ ما ورد فيها ، وجعلت من مجموع هذه الخلاصات فهرساً للتفسير في آخر كل مجلد ، كما جعلت أيضاً فهرساً للأحاديث الواردة في هذا المختصر ، ورقمتها بأرقام متسلسلة لكل مجلد ، وسجلت مطلع الحدث مع رقمه ورقم صفحته ، وألّفت من مجموعها فهرساً يُسترشد به عن مكان كل حديث وارد في أية سورة كانت ، كما وجعلت لهذا الفهرس حقلاً أشرت فيه إلى درجة كل حديث بالرموز المصطلح عليها عند السادة المحدّثين رحمهم الله تعالى .

ولعمري إن المختصِر قد فتح للقراء كل أسباب التيسير والتسهيل ، والعلم والمعرفة ، جزاه الله أفضل الجزاء عن إخوانه المسلمين بما بذل لهم من جهد ، وبما يسّر لهم من معرفة .

هذا ولا يخفى أن المفسّر يحتاج إلى معرفة الأسباب التي وردت الآيات في شأنها ، والمقاصد السامية التي دعا القرآن إليها ، وأنزل منجّماً مفرّقاً من أجلها ، ثم يفسّر القرآن بالقرآن ، وبما ورد عن النبي صلوات الله عليه فإنّ بيانه أفضل بيان ، وبأقوال الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان ، وكل هذا بفضل الله العلي الكبير ميسّر في هذا التفسير الجليل ومختصره الجميل .

ألا وإن هذا القرآن الحكيم هو الذي هدى هذه الأمة إلى الجمع بين مصالح الروح والجسد، فالمسلمون الأولون بعد أن سمت عقولهم بالتوحيد ، وزكت نفوسهم بضروب العبادات والأخلاق ، عُنُوا أشدّ العناية بالعلوم والفنون النافعة التي عدّها الإسلام من الفروض ، فكانوا بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وساسوا الأمم سياسة لم يشهد التاريخ لها مثيلاً ، وقد انتشرت العربية تبعاً للإسلام في قارّات الأرض ، ودخلت أمم كثيرة في العروبة والإسلام ، فصاروا عرباً ديناً ولغة وخُلقاً ، والإسلام هو الذي جعلهم أمة واحدة كما جاء في الكتاب المبين « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »، فهل كان هذا القرآن إلا خيراً محضاً تآخت فيه أمم كثيرة وتعاونت على مدنية كانت زينة الأرض وضياءً ونوراً لأهلها . والحمد لله رب العالمين .

كلمة سماحة مولاي احمد علي العدلوني الحسني
مفتي مراكش والجبل الأطلس

الحمد لله رب العالمين

تصفح كاتبه ، بعض ما دبّجه يراعُ العلامة الخبير ، والمجاهد الكبير ، الأديب الشيخ محمد نسيب الرفاعي ، أطال الله بقاءه وخلّد في الصالحات ذكره ، باختصار تفسير الإمام أبي الفداء ابن كثير ولقد أجاد في الاختصار وأفاد ، وعلق تعاليق أضاء بها أفكار العلماء ، وأثلج صدور من كانوا في تلهف إلى القول الفصل ، وبيّن بطريق العلم القويم ، والمنطق السليم ، والدليل المستقيم ، السَّنَن السويّ الذي ينبغي لكل مؤمن أن يسلكه ، ويعتقده وحيث أن الوقت في حاجةٍ ملحة ... إلى مثل هذا الاختصار ، حيث تقاصرت الهمم ، ودب في الناس داء الكسل والملل ، زيادة عن كثرة الاشغال ، ونزع البركة من الظرف نتيجة تقارب الزمن ، نسأل الله أن يعين العلامة المذكور ، على إبرازه لحيز الوجود ، حتى تنتفع به الأفراد والوفود ، وأن يجعله خالصاً لوجهه ، يجدُه يوم تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ من خيرٍ محضراً آمين وكتبه بالحرم المكي عابر سبيل مفتي مراكش وجبل الأطلس العدلوني أحمد على الحسني المراكشي غفر الله ذنبه

١٧ الحجة سنة ١٣٩١ الموافق ٣ شباط سنة ١٩٧٢

(التوقيع)

دار الفتوى
في الجمهورية اللبنانية
مكتب

رقم ....

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ نسيب الرفاعي حفظه الله ورعاه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته " وبعد " ،

فقد شكرت لكم هديتكم الثمينة ، كتابكم الكريم " تيسير العلي القدير " ، الذى اختصرتم به تفسير العلامة " ابن كثير " رحمه الله.

ولقد سرني بالفعل هذا الجهد الكبير الذى قمتم به وعكفتم له الليالي والأيام الطوال بخاصة في هذا الزمن الذى نشعر فيه بأننا أحوج ما نكون اليه ، لندرة القراء ووفرة الكتب الحاطبة وغزارة الكتابة غير المسئولة وتعدد الاغراءات فيها بحيث تصرف أبناءنا عن قراءة النافع فضلا عن الصبر على المجلدات منه.

اني بلساني ولسان كل حريص على الخير أشكر لكم هذا الجهد المخلص العظيم ، الذى أقدتم به المكتبة الاسلامية المعاصرة ، وأسأل الله العلي القدير أن ينفع به الناس ويكون ذخرا لكم ليوم تشخص فيه الأبصار وتزيغ القلوب.

حفظكم الله ورعاكم وانجح مقاصدكم الصالحة ونفع بكم الاسلام والمسلمين.

بيروت في ١٧ ربيع الاخر ١٣٩٤
و ٩ أيــار ١٩٧٤

مفتي الجمهورية اللبنانية

(الشيخ حسن خالد)

كلمة العلامة الفذ الشيخ محمد فهيم أبوعبية
رئيس بعثة الازهر الشريف في لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد :

فإن تفسير العلامة ابن كثير متعارف مشهور ، يتسم بشرحه آيات القرآن الكريم بمايسير في واديها من آيات القرآن ، وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام . وهو لذلك كان ولا يزال موزداً عذباً للراغبين في تفهّم كتاب الله ، والوقوف على أبعاده ومراميه .

على أنه قد يكون بعيداً عن متناول الكثيرين ... ممن لم تُسعدْهم الثقافة برقيّ فكريّ يمكّن لهم الإفادة من هذا الكتاب الجليل .

ومن أجل ذلك تصدّى العالم الفاضل الشيخ محمد نسيب الرفاعي إلى تعبيد الطريق لهذه الكثرة من الناس ، حتى يجتنوا من ثماره ، ويرتووا من أنهاره ، ويعيشوا في ضوء نهاره . فقام – مشكوراً – ببذل جهدٍ جهيدٍ ، لاختصار ذلك التفسير بأسلوب واضحٍ جليّ ، تتبيّن فيه قدرة المؤلّف على الاختصار المفيد ، الذي يحافظ على المعنى كاملاً ، مبتعداً عمّا لا حاجةَ إليه ، ولا ضرورةَ له .

إن القيامَ باختصار مؤلّفٍ من المؤلّفات ، يقتضي ممّن يقوم به ، ليكونَ عمله ناجحاً أن يكون ملمّاً إلماماً تاماً بمضمون ذلك المؤلّف ، وأن تكون له قدرة على التعبير السليم . وهاتان الصفتان ظاهرتان في كل سطر من سطور الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه « تيسير العليّ القدير . لاختصار تفسير ابن كثير » وهو بحق عمل مبرور ، يستحقُّ الثناء ، ويقتضي أن يُقبِل عليه القرّاء ، فهو مجاز واضح إلى لبّ اللباب في تفسير ابن كثير .

جزى الله مؤلّفه فضيلةَ الشيخ محمد نسيب الرفاعي أكرمَ الجزاء ، ونفع بعمله وبارك فيـــــه .

بيروت في ٢٧ / ١٢ / ١٩٧٣ م

(محمد فهيم أبو عبية)
رئيس بعثة الأزهر الشريف في لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة فضيلة الشيخ محمد امين المصري

المشرف على قسم الدراسات العليا في كلية الشريعة بمكة المكرمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه الغر الميامين .

وبعد: فلقد وفق الله الأخ الكريم الأستاذ محمد نسيب الرفاعي لفكرة فيها خير كبير ، هي تقريب تفسير ابن كثير ، ليستطيع ابناؤنا وشبابنا الاقبال عليه .

وإنها لفكرة ملهمة ، ومعنى جليل ، هدى الله المؤلف إليه ، لتقريب كتب أسلافنا إلى أبنائنا اليوم ، مع الحفاظ على روحها ، ومعناها وأسلوبها ، بل الاحتفاظ بألفاظها .

وقد جاء في (كشف الظنون) عند الكلام عن مختصر ابن الحاجب: الاختصار إذاجمع ثلاثة أشياء : احدها الاستقصاء في الصفة ، والثاني الاهتمام في المعنى ، والثالث الايجاز ، كان إفادة ذلك أبلغ منه .

وعلى هذا .. فأمر الاختصار ليس سهلاً ، إذ لا بد فيه من النظر العميق ، فيما كتب الكاتب واختصار قوله ، بحيث لا يفوّت على القارىء غرضاً من أغراض الكاتب ، أو فكرة من فكره ، فالدقائق التي يذكرها ، والوجوه المختلفة والأدلة التي يدلي بهـــا ، والروايات التي يسردها لتأييد وجهة نظر يحسن حسن الانتقاء منها ؛ فقد يورد المؤلف عشر روايات لتأييد وجهة نظر ، ثم يورد رواية أو روايتين لتأييد وجهة أخرى ؛ فعلى المختصر في مثل هذه الحال ، أن يراعي هذا ...فيكتفي من الروايات العشر الأولى ، بواحدة أو اثنتين ، ولكنه لا يدع ذكر الرواية الثانية التي تعطي وجهة اخرى .

إنها عملية تقريب مع الاحتفاظ بكل المعاني الأصيلة ، والدقائق الهامة ، وجمـــال أسلوب الكتاب وروعته .

ولقد بذل الأستاذ محمد نسيب الرفاعي في هذا جهداً مشكوراً ، فاحتفظ بألفـــاظ الكتاب نفسها التي تعطي المعنى الأصيل ، والغرض الدقيق ، وترك ذكر ما يعتبر تفصيلاً وتأييداً لمعنى واحد ، وبذلك يستطيع القارىء أن يدرك جمال الكتاب ، دون أن يتيه في

بحر الروايات العديدة ، التي يرمي الكاتب من ورائها إلى تقديم ذخيرة علمية للباحثين .

إن غرض البحث والتدقيق ، يختلف عن غرض التوجيه والتأثير ، ولقد جمع ابن كثير في كتابه الغرضين ، وأصاب الهدفين ، ولكن القارىء الناشىء من أمثالنا ، يضيع في كثرة الروايات ... ولا يصل إلى التأثر بالمعاني التي يذكرها ابن كثير ، مستمدة من كتاب الله إلا بعد جهد يفوّت عليه المطلوب .

وقد فصل الاستاذ الرفاعي بين الموضوعين ، وقدم إلينا كتاب ابن كثير بغرضه الثاني ، غير مغفل روح الغرض الأول ؛ كتابا يشتمل على المعاني التي فهمها المؤلف من كتاب الله جل شأنه ، تقرع الأسماع وتصل إلى القلوب ، ولا يصرفها عن ذلك كثرة الروايات ، وتفرّع الموضوعات ، ثم اكتفى الأستاذ المختصِر من الروايات الحديثية بالصحيح ، والأصح منها .

إنه لجهد مشكور وفكرة طيبة ، نسأل الله ان يثيب صاحبها ويجعلها خالصة لوجهه ؛ وحبذا لو سلك مسلك الأخ الرفاعي ... كثيرون ، فقرّبوا إلى شباننا ، كثيراً من تراثنا المجيد ، والله الموفق إلى الحق ، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

(التوقيع)

محمد امين المصري

المشرف على قسم الدراسات العليا في كلية الشريعة بمكة المكرمة

مكة المكرمة في ٥ ربيع الثاني ١٣٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة علامة اليمن

فضيلة الشيخ محمد سالم البيحاني

في يوم عشرين من ذى الحجة الحرام عام ١٣٩١ هـ اطلعت على مختصر تفسير العلامة ابن كثير للقرآن العظيم والمختصر المذكور لفضيلة الشيخ محمد نسيب الرفاعى الشامي الحلبي حفظه الله وقد قرأ لي بنفسه مقدمة المختصر وتفسير بعض الآيات من سورة البقرة وآل عمران والنسا ويوسف وأعجبت حقا بحسن الأسلوب، وجمال التركيب، وبديع الترتيب. وشكرت الله على هذا الفتح الجديد، والاختصار الجيد البعيد عن التطويل الممل، والإيجاز المخل، مع ما يشتمل عليه من حذف المكرر، وتحسين المقرر، وإخراج ما لا كبير فائدة فيه من قصة أو كلام مرجوح، أو رأي ضعيف لا يعتمد عليه. والعلامة ابن كثير رحمه الله قد جمع في تفسيره الغث والسمين، وقدمه لأهل العلم مأكولا هنيئاً مريئاً، ومشروباً بارداً عذبا حلواً. ولكنّ الهمم قد ضعفت، والعزائم قد فترت، وأصبح الناس لا يطلبون من القول إلا موجزه، ولا من الكلام الا مختصره، فعمد فضيلة الشيخ محمد نسيب الرفاعي إلى هذا التفسير العظيم المشهور... فلخّصه تلخيصاً وقرّبه تقريبا، بل وأقول: هذّبه تهذيبا؛ وجزاه الله خيرا فيما صنع من حذف القصص الإسرائيلية، والأسانيد الطويلة النّازله، لما يعلم من تصديق الناس بالخرافات وانصياعهم للأوهام، واحتجاجهم بما لا يصح الإحتجاج به، وبجهلهم بأحوال الرجال وما يتعلق بذلك من الجرح والتعديل ... في القبول والرّد والتعارض والترجيح. واهل العلم ولا سيما في آخر الزمان قد أضلّتهم الأهواء وزُينت لهم البدع، وفتنتهم الدنيا بالتزلّف إلى الملوك، وتحكيم الباطل والحرص على ما يعجب الناس ويرضيهم، ولو كان فيه سخط الله. ونعوذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته. ولقد أحسنت يا شيخ نسيب في تعليقاتك على بعض المسائل، وفي ترجيحاتك للأراء المأخوذ بها مؤيدة بالأدلة، غير ميّال إلاّ إلى الحق من أقوال السلف والخلف. ويعجبني عدم التعصّب منك، ووقوفك عند الحق إذا ظهر لك. والواقع أن تفاسير القرآن كثيرة، والكتب في ذلك لا تحصى ولا تعد، وكلها لا تخلو من

اثبات حكم شرعي، أو قاعدة لغوية، أو فائدة أدبية، أو طرفة حكمية، أو مسألة تاريخية. ولكن تفسير ابن كثير – قد أشتمل على كثير من ذلك وجاء من كل باب بالعجب العجاب. ثم تقفّيت أنت أثره، وجمعت ما نثره، وأوضحت ما أجمله. واخرجت بعملك المبرور وسعيك المشكور، ثمرةً جنيّة، وفوائد سنيّة، واسأل الله أن ينفع بعملك، وان يثيبك على صنعك. وما أنا من أهل هذا الشأن... ولا من فرسان هذا الميدان... حتى أوفي مختصرك العظيم، وشخصك الكريم، ما يستحقان من المدح والثنا. ولكنه جهد المقل وحرصا على اللحوق بأهل العلم فى نصرة الحق وانصاف المحقين وانا العاجز والمعترف بالتقصير .

(الخاتم)

محمد بن سالم البيحاني

مؤسس المعهد العلمي الإسلامي بعدن

فهرس المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

اختصار مقدمة المفسر رحمه الله

الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد ، وافتتح خلقه واختتمه بالحمد ، فله الحمد في الأولى والآخرة في جميع ما خلق وما هو خالق .

والحمد لله الذي أرسل رسله ﴿مبشرين ومنذرين لئلاّ يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل﴾ وختمهم بالنبيّ الأميّ مرسَلاً إلى جميع خلقه من الإنس والجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة . قال الله تعالى : ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إلّه إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماته واتّبعوه لعلكم تهتدون﴾ وقال تعالى :

﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم وأسود وأحمر وإنس وجان فهو نذير له . كما قال تعالى : ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ وحث الله عباده على فهم كتابه فقال تعالى: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ وقال تعالى : ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ وقال سبحانه : ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها .﴾

فالواجب على العلماء : الكشف عن معاني كلام الله وتفسيره ، وطلبه من مظانّه وتعلّم ذلك وتعليمه . كما قال تعالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾ وقال عزّ من قائل : ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يومَ القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ .

فقد ذمّ الله تعالى أهلَ الكتاب قبلنا، بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم ولاشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله . فعلينا أيها المسلمون أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى من أجله، وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلّم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهّمه وتفهيمه. قال الله تعالى : ﴿ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبُهم لذكر الله وما نزل من الحق .

ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون . إعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بيّنا لكم الآيات لعلكم تعقلون . ﴾

وفي ذلك تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها ، كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها ، والله نسأل أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم .

أحسن طرق التفسير :

ان أصح طرق التفسير : أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أُجمِلَ في مكان ، فإنه بُسِطَ في موضعٍ آخر . وإن أعياك ذلك ، فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن . قال الشافعي رحمه الله : كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو مما فهمه من القرآن : ﴿إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً .﴾ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ١ [ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه] يعني السنّة فإن لم تجد تفسير القرآن بالسنّة، فارجع في ذلك لأقوال الصحابة رضي الله عنهم فإنهم أدرى بذلك ، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصّوا بها، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح .

قال الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: كان الرجل منّا إذا تعلّم عشر آياتٍ لم يجاوزْهن حتى يعرف معانيَهُنّ، والعمل بهن ، وهكذا فقد كانوا رضي الله عنهم لا ينتقلون إلى آية قبل أن يَفهموا التي قبلها ، ويعملوا بها .

ومنهم ترجمان القرآن : عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ابنُ عمّ رسول الله ﷺ فقد دعا له رسول الله ﷺ حيث قال: ٢ [اللهم فقهْهُ في الدين وعلمه التأويل] ، وإذا لم تجد تفسير القرآن في القرآن ، ولا في السنة ، ولا في أقوال الصحابة ، فالتمس التفسير في أقوال التابعين : كمجاهد بن جبر ، وسعيد ابن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاءِ بن أبي رباح، والحسنِ البصري ، ومسروق بن الأجدع وسعيد بن المسيّب وأبي العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والضحاكِ بنِ مزاحم وغيرهِم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم ؛ فإذا أجمعوا فيكون تفسيرهم حجةً . وإن اختلفوا فلا يكون قولهم حجةً على قول بعض .

أما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام . لما رواه محمد بن جرير بسنده عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ٣ [من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوّأ

مقعده من النار] وأخرجه الترمذي والنسائي عن سفيان الثوري به ورواه أبو داود مرفوعاً وقال الترمذي هذا حديث حسن .

لهذا فقد تحرَّج جماعةٌ من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به ، كما روى شعبةُ بسنده عن أبي بكر الصديق أنه قال : « أيُّ أرضٍ تُقلّني ، وأي سماءٍ تُظلّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم .

وأما من تكلّم بما يَعلَمُ من كتاب الله لغةً وشرعاً فلا حَرَج عليه . وإن تَحرُّجَ السلفِ عن التفسير ، محمولٌ على الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه . وقد قال ابو عبيد بسنده عن مسروق قال : إتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله . وأكثر السلف قالوا هذا .

وقد روي عن السلف كثير من التفاسير ، وهذا هو الواجب على كل أحد فإنه كما يجب السكوتُ عمّا لا علمَ له به ، فكذلك يجب أن يجيب على ما سئل عنه مما يعلمه لقوله جل وعلا : ﴿ لتُبيننّه للناس ولا تكتمونه ﴾ ولما جاء في الحديث الذي روي من طرق :
٤ [من سئلَ عن عِلْم فكَتَمَهُ أُلجِمَ يَوْمَ القِيامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ]

أوجه التفسير :

روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال : التفسير على أربعة أوجه :

١ : وجه تعرفه العرب من كلامها

٢ : وتفسير لا يعذر أحدٌ بجهالته

٣ : وتفسير يعلمه العلماء

٤ : وتفسير لا يعلمه أحد إلاّ الله

أما التفسير الذي تعرفه العرب من كلامها فهو باعتبار الكلمات اللغوية . والتفسير الذي لا يعذر أحد بجهالته، هو الحلال والحرام ، والتفسير الذي يعلمه العلماء هو : ما يستنبطونه من تفسير القرآن بالقرآن والحديث ، وما ينطوي عليه من معانٍ لا يهتدَى إليها إلا بعد علم قويم (١) . وأما التفسير الذي لا يعلمه إلا الله فهو المتشابه ، ومن ادّعى علم المتشابه أحد سوى الله ، فهو كاذبٌ .

(١) ولا يجوز أن يخالف التفسير – على أي حال – ظاهر القرآن .

قال الله تعالى :

﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وما يعلم تأويله إلاّ الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يتذكّر إلاّ أولو الألباب ﴾ .

السور المدنيّة والمكيّة :

عن قتادة قال : نزل في المدينة من القرآن : البقرة وآل عمران و النساء والمائدة وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمّد والفتح والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق والتحريم إلى رأس العشر . وإذا زلزلت وإذا جاء نصر الله . وسائر السور نزلت بمكة .

فصل : نفى القرطبيّ ان يكون في القرآن شيء من التراكيب الأعجميّة سوى بعض أسماء الأنبياء وأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالا : وقع فيه مما يوافق الأعجمية مما توافقت فيه اللغات



(١) سُورَةُ الفَاتِحَةِ

مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا سَبْعٌ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾



نزلت بعد سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أسماء الفاتحة :

فاتحة الكتاب ، أي فاتحة الكتاب خطّاً ، وبها تفتتح القراءةُ في الصلوات .

وأمّ الكتاب ، وأمُّ القرآن . لأن معاني القرآن ترجع إلى ما تضمنته . والسبع المثاني والقرآن العظيم ، وقد ثبت في الصحيح عند الترمذي وصححه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٥ [الحمد لله رب العالمين : أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم] ويقال لها : الحمد ، والصلاة ، لقوله ﷺ عن ربه : ٦ [قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفَيْن فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله : حمدني عبدي ، الحديث. فسميت الفاتحة صلاة لأنها شرط فيها

ويقال لها الشفاء . لما رواه الدارمي عن أبي سعيد مرفوعاً : ٧ [فاتحة الكتاب شفاء من كل سُم] ويقال لها : الرقية . لحديث أبي سعيد الخدري حين رقي بها الرجل السليم فقال له رسول الله ﷺ ٨ : [وما يدريك أنها رقية] ويقال لها: أساس القرآن . لما رواه الشعبي عن ابن عباس أنه سماها أساس القرآن . قال : وأساسها بسم الله الرحمن الرحيم وسمّاها سفيان بن عيينة الواقية وسمّاها يحيى بن أبي كثير الكافية لمـــا جاء في بعض الأحاديث المرسلة : ٩ [أم القرآن عوض من غيرها وليس من غيرها عوض منها] ويقال لها : سورة الصلاة والكنز . ذكرهما الزمخشري في كشّافه .

نزولها :

نزلت سورة الفاتحة بمكة . قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية.فهي إذاً سورة مكّية

وقيل مدنية . وقيل نزلت مرتين بمكة ثم بالمدينة . [1]

فضلها :

روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ١٠ [خرج رسول الله ﷺ على أبيّ بن كعب وهو يُصلي فقال « يا أبيّ » فالتفت ، ثم لم يجبه ، ثم قال : « يا أبيُّ » فخفّف أبيُّ ، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال : السلام عليك أي رسول الله فقال « وعليك السلام ، ما منعك أي أبيُّ إذْ دعوتك أن تجيبني ؟ » فقال أي رسول الله : إني كنت في الصلاة . قال (أولست تجد فيما أوحى الله تعالى إليّ ﴿إستجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ قال بلى يا رسول الله ، لا أعود . قال : « أتحب أن أعلمك سورة لم تنزل لا في التوراة ولا في الأنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلُها ؟ » قلت : نعم أي رسول الله . قال رسول الله ﷺ : « إني لأرجو أن لا أخرج من هذا الباب حتى تعلمَها » قال : فأخذ رسول الله بيدي ، يحدثني وأنا أتباطأ مخافة أن يبلغَ قبل أن يقضي الحديثَ فلما دنونا من الباب ، قلت : أي رسول الله : ما السورة التي وعدتني ؟ قال : « ما تقرأ في الصلاة ... ؟ » قال : فقرأت عليه أمَّ القرآن ، قال : [والذي نفسي بيده ، ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان ، مثلهَا إنها السبعُ المثاني] ورواه الترمذي فذكره ... وعنده : ١١ [إنها السبع المثاني والقرآنُ العظيم الذي أعطيتـُه] ثم قال : هذا حديث حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده : عن أبي سعيد بن المعلّى رضي الله عنه قال : ١٢ [كنت أصلي فدعـاني رسول الله ﷺ فلم أجبْهُ ، حتى صليت ، قال فأتيته . فقـال : « ما منعك أن تأتيني ؟ » قـال : قلت : يا رسول الله إني كنت أصلي قال : « ألم يقل الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ ثم قال : « لأعلمنّك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد » قال فأخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج من المسجد ، قلت : يا رسول الله إنك قلت لأعلمنّك أعظم سورة في القرآن قال : « نعم ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته »] وهكذا رواه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجة من طرق .

(١) والأصح : أنها نزلت في مكة لقوله تعالى : ولقد آتيناك سبعاً من المثاني « أي لأنها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة . وعليه ولما فرض الله الصلاة وكان ذلك بمكة تبين الحق واضحاً بأنها نزلت بمكة بدليل أن الفاتحة تقرأ في كل ركعة من الصلاة منذ أن فرضت الصلاة وبدليل الحديث : (قسمت الصلاة ...) وهي سبع آيات بلا خلاف إنما الاختلاف بالبسملة ... هل إنها آية من الفاتحة أم لا .

* حديث آخر :

وروى مسلم في صحيحه والنسائي في سننه بالسند عن ابن عباس قال ١٣ [بينا رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل إذ سمع نقيضاً فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال : فنزل منه ملك فأتى النبيَّ ﷺ فقال : أبشر بنورَيْن قد أوتيتَهما لم يؤتهما نبي قبلك:فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لم تقرأ حرفاً منه إلاَّ أوتيتَهُ] وهذا لفظ النسائي ولمسلم نحوُه .

* حديث آخر :

وروى مسلم : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال : ١٤ [« من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خَداجٌ ـ ثلاثا ـ غير تمام » فقيل لأبي هريرة : إنّا نكون خلفَ الإمام فقال إقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول :قال الله عز وجل : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، فإذا قال: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الله : حمدني عبدي ، وإذا قال ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال الله: أثنى عليَّ عبدي فإذا قال ﴿مالك يوم الدين﴾ قال الله مجّدني عبدي ، أو قال مرةً : فوض إليَّ عبدي فإذا قال : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال ﴿إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين ﴾ قال الله هذا لعبدي ولعبدي ما سأل »] وهكذا رواه النَسّائي ...

« حكم قراءة الفاتحة في الصلاة »

فيه ثلاثة أقوال :

١ ـ تجب القراءة أي قراءة الفاتحة للإمام والمأموم والمنفرد لعموم الأحاديث الواردة في هذا الباب ١٥ [لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب] و ١٦ [من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج] أي غير تمام و ١٧ [لا تجزيءُ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن] وهذا ما عليه الشافعي رحمه الله .

٢ ـ لاتجب على المأموم قراءةٌ بالكلية للفاتحة ولالغيرها لافي الصلاة الجهرية ولاالسرية ، لما رواه أحمد بن حنبل في مسنده عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ انه قال : ١٨

[من كان له ، امام فقراءة الإمام له قراءة] ولكن في سنده ضعف ورواه مالك عن وهب ابن كيسان عن جابر من كلامه . وقد روي هذا الحديث من طرق لا يصح شيء منها عن النبي ﷺ ، والله أعلم .

٣ إنه تجب القراءة على المأموم في السرية ، ولا يجب ذلك في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ ١٩ : [إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا ...] وذكر بقيّة الحديث ... وهكذا رواه أهل السنن أبو داود والترمذي والنّسائي وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال ٢٠ [وإذا قرأ فأنصتوا] وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضاً فدلّ هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعي رحمه الله تعالى [١] .

(تفسير الاستعاذة واحكامها)

قال الله تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم. ﴾ وقوله تعالى : ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون.﴾ أي بربهم قالت طائفة : من القراء وغيرهم : يتعوذ بعد القراءة . واعتمدوا على ظاهر سياق الآية . ولدفع الإعجاب عن النفس بعد فراغ العبادة ، واستغرب ذلك أبو بكر بن العربي . وقيل قولٌ آخر : إن الاستعاذة تكون أول القراءة وبعدها. والمشهور الذي عليه الجمهور ، إنما الاستعاذة تكون قبل القراءة لدفع الموسوس عنها ، ومعنى الآية عندهم : ﴿فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ أي إذا أردت القراءة كقوله تعالى : ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم﴾ الآية : أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة والدليل على ذلك: الأحاديث عن رسول الله ﷺ . روى أحمد بن حنبل رحمه الله عن أبي سعيد الخدري قال ٢١ : [كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبّر قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدّك ولا إله غيرك» ثم يقول: «لا إله إلا الله (ثلاثا) » ثم يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطـــان الرجيم ، من همزه [٢] ونفخه ونفثه] . وقد رواه أهل السنن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان عن علي بن علي

(١) راجع الصفحة /١٩/ ففيها متعلق بالبحث ...
(٢) الهمزة : الموتة وهي الخنق . والنفخ : الكبر . النفث : الشعر .

الرفاعي اليشكري . وقال الترمذي:وهو أشهر شيءٍ في هذا الباب . وقال أبو حنيفة رحمه الله ومحمد : الاستعاذة إنما هي للتلاوة وقال أبو يوسف بل للصلاة .

ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللّغو والرفث وتطييب له . وهي لتلاوة كلام الله ، وهي استعاذة بالله ، واعتراف له بالقدرة ، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدوّ المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلاّ الله الذي خلقه ولا يقبل مصانعة ، ولا يدارى بالإحسان بخلاف العدوّ من نوع الأنسان . ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ، ولا يراه الشيطان . ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أي : استجير بجناب الله من الشيطان الرجيم ألاّ يضرّني في ديني أو دنياي أو يصدّني عن فعلٍ ما أمرت به ، أو يحثّني على فعل ما نهيت عنه ، فإن الشيطان لا يكفّه عن الإنسان إلاّ الله ، لذلك أمر الله بالاستعاذة به من الشيطان .

وجمهور العلماء : أن الاستعاذة مستحبّة ليست بمتحتّمةٍ يأثم تاركها . قال ابن سيرين : إذا تعوذ مرة واحدة في عمره ، فقد كفى في إسقاط الوجوب [١] وان رسول الله صلى الله عليه وسلم واظب عايها . وأنها تدرأ الشيطان وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب . وأن الجهر بالاستعاذة أو الإسرار واحد قاله الشافعي — بالمعنى —

والشيطان مشتق من (شَطَنَ) إذا بَعُدَ . فهو بعيد بطبعه وبفسقه عن كل خير . والرجيم : أي أنه مرجوم أي مطرود من الخير كلّه . [٢]

« بسم الله الرحمن الرحيم »

روى أبو داود بإسنادٍ صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتّى ينزل عليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾) واتفق العلماء على إنها بعض آيةٍ من سورة « النمل » ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كلّ سورة ، أم أنها في الفاتحة دون غيرها ، أو أنها للفصل بين السور والأرجح أنها للفصل بين السور ، كما سبق من قول ابن عباس الذي رواه أبو داود آنفا ومن قال أنها آية من

(١) و(٢) قلت : وحاصله : إذا قلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : أي التجيء الى الله واحتمي به من شر الشيطان المطرود من رحمة الله ومن كل خير من أن يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن فعل ما أمرت به أو يحثني على فعل ما نهيت عنه فان الشيطان لا يكفه الا الله تعالى .

الفاتحة ، فقد رأى الجهرَ بها في الصلاة ، والذين لم يروا ذلك فقد أسرُّوا بها . ولكلٍّ من أصحاب القولين جماعةٌ من الصحابة رأوا ما رأوا... والذي ثبت عن الخلفاء الأربعة أنهم كانوا يُسرُّون بالبسملة ، وكذلك طوائف من سلف التابعين والخلف وهو أيضا مذهب أبي حنيفة والثوري وابن حنبل وعند الإمام مالك : انه لا يقرأ البسملة لا جهراً ولا سراً وخلاصة القول: روي عن رسول الله ﷺ والأئمة أجمعوا على صحة من جهرَ ومن أسر .

ــ فضلهـــا ــ

روى الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم رحمه الله في تفسيره بسنده عن عثمان ابن عفان ٢٢ [سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فقال « هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين الاسم الأكبر إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب »] .

وروى وكيع بسنده عن ابن مسعود قال : من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فيجعل الله له من كل حرف منها جُنَّةً من كل واحد . ذكره ابن عطية والقرطبي ووجّهه ابن عطية ونصره بحديث ٢٣ : [لقد رأيت بضعاً وثلاثين ملكاً يبتدرونها لقول الرجل : ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه] من أجل أنها بضعة وثلاثون حرفاً .

ومن حديث بشر بن عمارة عن الضحاك عن ابن عباس قال: [إن أول ما نزل به جبريل على محمّد ﷺ قال ٢٤ (يا محمّد قل أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال : قل : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾] وروى النسائي في اليوم والليلة وابن مردويه في تفسيره من حديث خالد الحذاء عن الهجيمي عن أبي مليح بن أسامة بن عمير عن أبيه قال ٢٥ : (كنت رديف النبيّ ﷺ عثر بالنبيّ ﷺ فقلت : تعس الشيطان فقال النبيّ ﷺ « لا تقل هكذا فإنه يتعاظم حتى يكون كالبيت ولكن قل : بسم الله فإنه يصغر حتى يكون كالذبابة»] فهذا من تأثير بركة بسم الله .

وتستحبُّ البسملة عند دخول الخلاء ، وعند أول الوضوء ، وعند الأكل وعند الذبيحة وبعضهم أوجبها عند الذبيحة ، وتستحب عند الجماع لما في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال ٢٦ : (لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدَّر بينهما ولد لم يضرّه الشيطان أبداً]

﴿ الله ﴾ علَمٌ على الربّ أي اسم للربّ تبارك وتعالى ، ويقال إنه الاسم الأعظم . لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصوّر له الأسماء الحسنى يسبّح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٢٧ (إن لله تسعة وتسعين إسماً مئة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة) [١] ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة . ﴿ الرحمن ﴾ أشد مبالغة من الرحيم . والرحمن مشتقٌ بخلاف من زعم أنه غير مشتق وسيأتي تفصيل ذلك في تفسير ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ عند تفسير سورة الفاتحة إن شاء الله تعالى وبه التوفيق وعليه التكلان .

﴿ اَلْحَمْدُ لله رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ١ ﴾

﴿ الحمد لله ﴾ الشكر له خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد من غير استحقاق منهم ذلك عليه . فلربّنا الحمد على ذلك أولاً وآخراً .

والألف واللام في الحمد ، لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى ؛ كما جاء في الحديث : ٢٨ [اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله ...] الحديث .

﴿ رب العالمين ﴾ الرب : هو المالك المتصرف . ولا يقال « الرب » معرّفاً بالألف واللام إلاّ لله تعالى . ولا يجوز استعمال كلمة الرب لغير الله إلا بالإضافة... فنقول: ربّ الدار ، وربّ السيف ، وأما الرب فلا يقال إلاّ لله عز وجل .

(١) قلت. : ومعنى أحصاها. : أي فهم معناها حق الفهم وعمل بحقها . وحقها أن يكون موحداً بها توحيد الذات وتوحيد الصفات وتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية من كل جوارحه . وفي قرارة نفسه ، ثم مات على ذلك من التوحيد الخالص دون أن يخل بأي معنى من معانيها . وله من العمل ما لا ينافيها لا قولا ولا اعتقاداً دخل الجنة . أما فهم معنى الإحصاء بالحفظ غيباً . ، فإن كثيراً من الناس من يحفظها ويغيبها عن ظهر قلب ويرددها بسرعة دون تفهم لمعانيها وله من العمل ما ينافيها فهذه المنافاة نقض للقول ....!! ومثل هذا ... لا يكون قد أحصاها إذ ليس المقصود من الإحصاء إلا الفهم والإخلاص لما فهم. ، والعمل بما فهم. ، على وجه مطابق لمراد الله تعالى. ، ولما بلغ رسول الله (ص) .

﴿ العالمين ﴾ جمع عالم . وهو كل موجود سوى الله جل وعلا والعالم جمع لا واحدَ له من لفظه . والعوالم أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر فالإنس عالم ، والجن عالم ، والملائكة عالم... وهكذا قال بشر بن عمارة بسنده عن ابن عباس: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ الحمد لله الذي له الخلق كله في السموات والأرض وما فيهن وما بينهن مما نعلم ومما لا نعلم .

(الرحمن الرحيم) ٢

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ إسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، والرحمن أشدُّ مبالغةً من الرحيم . والرحمن مشتق بخلاف من قال وزعم أنه غير مشتقّ ودليل ذلك ما أخرجه الترمذي وصحّحه عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ٢٩ : [قال الله تعالى : أنا الرحمن خلقتُ الرحِمَ وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته] قال هذا نص في الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق .

روى ابن جرير بسنده عن العزرمي يقول : ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال الرحمن بجميع الخلق [1] الرحيم قال بالمؤمنين . قالوا ولهذا قال ﴿ثم استوى على العرش الرحمن﴾ وقال : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ فذكر الاستواء باسمه الرحمن ، ليعم جميع خلقه برحمته. وقال : ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ فخصّهم باسمه الرحيم . قالوا : فدلّ على أن الرحمن أشدّ مبالغةً في الرحمة لعمومها في الدارَيْن [2] .

---

(١) قلت. : (الرحمن) أي يرحم أهل الدنيا والآخرة و (الرحيم) خاص بالمؤمنين يوم القيامة . إن الله يرحم المؤمنين والكافرين في الدنيا على السواء وذلك من نواحي أمورهم المعاشية.، وأسباب حياتهم.، ومما يكفل لهم حياتهم الدنيا . فرحمته هنا عامة وإذا لم تكن الرحمة هذه عامة.، لا تتكامل أسباب التكليف من الإنعام عليهم بنعمة العقل الذي بواسطته يعرفون الحق من الباطل ، ونعمة تسخير ما في الكون ليستفيد منها أهل الأرض من الإنس والجن ««هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً»» فتكامل أسباب التكليف في الدنيا سيكون عليه في الآخرة مدار الحساب .

(٢) قلت. : وأما ما جاء في الدعاء المأثور.:.٣٠ (يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها) . فقوله رحيمها محمول على معنى أنه يرحم المؤمنين في الدنيا فيما أطاعوه من الإيمان به ، وتنفيذ أوامره.، واجتناب نواهيه وتسهيل سبل ذلك لهم . ويرحمهم في الآخرة بإدخالهم الجنةجزاء ما أسلفوا من إيمان وطاعة.؛ فطاعتهم له في الدنيا رحمة منه تعالى.، وجزاؤهم بالجنة ، رحمة منه تعالى وهذا معنى قوله. : ورحيمهما والله أعلم .

وقال القرطبي : إنما وصف نفسه بالرحمٰن الرحيم بعد قوله ربّ العالمين ، ليكون من باب الترغيب بعد الترهيب . فالرحمن الرحيم فيه ترغيب جاء من بعد«رب العالمين» الذي فيه ترهيب وذلك مطابقةً للآية : ﴿نبىءْ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم .﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٣١
[لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد] ﴿الرحمن﴾ اسم ليس للناس أن ينتحلوه ، ولا يجوز أن يسمى أحد من الناس به . فهو خاص به تعالى ، ولمّا تجهرم مسيلمةُ الكذاب ، وتسمَّى به/ رحمن اليمامة / كساه الله جلباب الكذب وشهّر به ، فلا يقال إلاّ : (مسيلمةُ الكذّاب) وصار يضرَب به المثل بين أهل الحضر والبادية فيقال : (أكذب من مسيلمة) .

(مٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ٣)

قرأ بعض القراء : ﴿مَلِكِ يوم الدين﴾ وقرأ آخرون ﴿مالِك﴾ وكلا القراءتين صحيح متواتر في السبع . ويقال ﴿ مِلْك ﴾ بكسر اللام وإسكانها . وليس تخصيص المُلْك بيوم الدين خاصاً بيوم الدين من غير الدنيا ، فهو مالك يومَيْ الدنيا والدين لأنه تقدّمَ الإخبار بأنه رب العالمين . وذلك عامّ في الدنيا والآخرة ؛ إنما أضيف إلى يوم الدين لأنّه لا يدّعي هنالك أحد شيئاً غيره ولا يتكلم أحد إلاّ بإذنه كما قال تعالى : ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلاّ من أذن له الرحمٰن وقال صوابا﴾ وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿مالك يوم الدين﴾ يقول لا يملك من أحد في ذلك اليوم كملكهم في الدنيا أن يقول أحد ــ تجوّزاً ــ هذا ملكي ... هذا مالي . . أما هناك أي في يوم القيامة ليس لأحد ملك ولا مال .

﴿يوم الدين﴾ يوم الحساب للخلائق ، وهو يوم القيامة ، يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ . إلاّ من عفا عنه . أللهم إنك عفوٌّ تحب العفو فاعفُ عنا .

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)٤

﴿إيّاك﴾ مفعول قدّم للحصر ، ليحصر مراد المتكلم فيما يريد أن يفصح عنه ، ﴿إياك نعبد﴾ أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك وهذا هو كمال الطاعة . والعبادة في اللغة من الذلة ، يقال طريق معبّد ، وبعير معبّد ، أي مذلّل . وفي الشرع عبارة عما

يجمع كمال المحبّة والخضوع والخوف. قال بعض السلف : الفاتحة سر القرآن وسرها ـ أي سر الفاتحة ـ هذه الكلمة: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فالأول أي: ﴿إياك نعبد﴾ تبرؤٌ من الشرك . والثاني أي ﴿وإياك نستعين﴾ تبرؤٌ من الحول والطول والقوة . والتفويض إلى الله عز وجل .

وفي هذه الآية : تحوَّلَ الكلامُ من صيغة الغائب إلى صيغة المخاطب بكاف الخطاب بقوله ﴿إيّاك﴾ وذلك مناسب ، لأن العبد لما حمد الله وأثنى عليه ومجّده وتبرأ من عبادة غيزه ، ومن الاستعانة بسواه فكأنه اقترب من الله عز وجل ، وأصبح حاضراً بين يديه تعالى، فناسب أن يخاطبه بكاف الخطاب بقوله : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿إياك نعبد﴾ يعني إياك نوحّد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك ﴿وإياك نستعين﴾ أي على طاعتك ، وعلى أمورنا كلها وإنما قدم (إياك نعبد) على (وإياك نستعين) ، لأن العبادة هي الغاية ، والاستعانة هي الوسيلة إليها .

(اهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ٥)

لما تقدّم الثناء على المسؤول تبارك وتعالى ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال :

٣٢ [فنصفها لعبدي ولعبدي ما سأل] وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسؤوله ثم يسأل حاجته، وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله : ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ وفي هذا دليل على الحضّ على التوسّل بالصفات العلى وبالأعمال الصالحة ، فقد حمد الله وأثنى عليه ومجّده بصفاته، رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، ثم افرده بالعبادة والاستعانة . فبعد أن قدم بين يدي ربه هذه الأعمال الصالحة تقدم منه سائلاً حاجته وهي أن يهديه وإخوانه المؤمنين صراطه المستقيم الذي هو الإسلام الصحيح الخالي من الزيادة والنقصان ، النقي من كل بدعة وخرافة، هذا الصراط الذي هو أقرب الطرق للوصول إلى ما يحب الله ويرضى طبق ما أمر ، وبلغ رسوله ﷺ . وإذا أمعن المسلم في آيـــات القرآن فإنه يرى جميع آيات الدعاء ، لا بد أن يسبقها توسل إليه تعالى ، إمّا بذات الله ، أو بأسمائه الحسنى ، أو صفاته العلى، أو بالأعمال الصالحة التي يتقرب بها إلى ربّه، أو أن يتوسل إليه بدعاء إخوانه المؤمنين له أو بدعائه لهم .

قال الله تعالى : على لسان ذي النون عليه السلام ﴿ لا إلَه إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فإن ذا النون لما ابتلعه الحوت لم يجد من التوسل إلى الله أقرب من توحيده تعالى

وتنزيهه ، والإقرار والاعتراف بذنبه الذي ظلم به نفسه . فهذا الإقرار بالذنب ، والمصحوب بالندامة على ما فرط هو بمثابة التوبة إليه تعالى ، والتوبة ولا شك من أمّهات الأعمال الصالحة التي يتقبلها الله وسيلةً اليه للمغفرة . وشواهد القرآن كثيرة من هذا القبيل ومن ذلك قوله تعالى على لسان أبوينا آدم وحواء : لما اقترفا الخطيئة ﴿قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ وتلك هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه . وكذلك قوله تعالى:﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ﴾ ولا شك أن الايمان بالله ورسول الله ﷺ رأس الأعمال الصالحة فبعد أن قدموا بين يدي الله من هذا العمل الصالح وهو الإيمان به ﷺ بادروا الى ذكر حاجتهم بطلب الغفران فقالوا : ﴿... ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئآتنا وتوفّنا مع الأبرار﴾ وهذا تعليم منه تعالى كيف نتوسل إليه ... (١)

﴿ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ٦ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ مفَسِّرٌ للصراط المستقيم . والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال الله تعالى ﴿ومن يُطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما﴾ وقال الضحاك عن ابن عباس : صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين وذلك نظير ما قال ربُنا تعالى ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ . وقوله تعالى : ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ أي غير صراط المغضوب عليهم . المغضوب عليهم وهم الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه.وغير صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم هائمون في الضلالة ، لا يهتدون إلى الحق وأكد الكلام بـ﴿لا﴾ ليدل أن ثمّ مسلكَيْن فاسدين وهما : طريقة اليهود وطريقة النصارى .

وإن طريقة أهل الإيمان مشتملةٌ على العلم بالحق والعمل به واليهود فقدوا العمل والنصارى فقدوا العلم ، ولهذا كان الغضب لليهود ، والضلال للنصارى . لأن من علم وترك استحق الغضب بخلاف من لم يعلم . والنصارى كما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إليه لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه وهو اتباع الحق ... ضلّوا ... وكل من اليهود والنصارى ضالٌّ مغضوب عليه . لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾ وأخص أوصاف النصارى الضلال كمال قال تعالى : ﴿قد ضلوا من قبل

(١) راجع كتابنا : (التوصل إلى حقيقة التوسل)

وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل﴾ روى حماد بن سلمة عن عدي بن حاتم قال : ٣٣ [سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿غير المغضوب عليهم﴾ قال : اليهود ﴿ولا الضالين﴾ قال النصارى هم الضالون .] وهكذا رواه سفيان بن عيينة بسنده عن عدي ابن حاتم . وروى ابن مردويه عن أبي ذر قال : ٣٤ [سألت رسول الله ﷺ عن ﴿المغضوب عليهم﴾ قال : اليهود . قلت و ﴿الضالين﴾ قال : النصارى .]

والخلاصة :

قد اشتملت هذه السورة الكريمة ــ وهي سبع آيات ــ على حمد الله ، وتمجيده ، والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العلىٰ وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين وعلى إرشاد عباده إلى سؤآله والتضرع إليه، والتبرُّىء من حولهم وقوتهم وإلى اخلاص العبادة له وتوحيده توحيد الألوهية تبارك وتعالى ، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل . وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم وهو الدين القويم وتثبيتهم عليه حتى يقضي لهم بذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة، المفضي إلى جنات النعيم في جوار النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين ، واشتملت على الترغيب في الاعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة ، وعلى الترهيب والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة وهم المغضوب عليهم والضالون .

وما أحسن ما جاء في إسناد الإنعام إليه سبحانه في قوله تعالى : ﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم﴾ وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى ﴿غير المغضوب عليهم﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة . كما قال تعالى : ﴿من يهدِ الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ وقال : ﴿ومن يضلل فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المتفرد بالهداية والإضلال . لا كما تقول الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم : إن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ويتركون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم وهذا حال أهل الضلال والغي ، وقد ورد في الحديث الصحيح ٣٥ [إذا رأيتم الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم]يعني الذين وصفهم الله في قوله تعالى : ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ فليس بحمد الله لمبتدعٍ في القرآن حجة. لأن القرآنجاء ليفصل الحق من الباطل، مفرقاً بينالهدى والضلال،

وليس فيه تناقض ولا اختلاف ، لأنه من عند الله تنزيل من حكيم حميد . [1]

ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها : آمين ، ومعناه : اللهم استجب . والصحيح : أنه يستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة ؛ ويتأكد في حق المصلي سواءٌ كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً وفي جميع الأحوال . لما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : ٣٦ (إذا أمّن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه) ولمسلم : أن رسول الله ﷺ قال: ٣٧ (اذا قال أحدكم في الصلاة آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه) . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ ٣٨ (أعطيت « آمين » في الصلاة وعند الدعاء لم يُعطَ أحد قبلي إلاّ أن يكون موسى ، كان موسى يدعو وهارون يؤمن فاختموا الدعاء بـ « آمين » فإن الله يستجيبه لكم .]

ومن هنا نزع بعضهم في الدلالة بهذه الآية الكريمة وهي قوله :

﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياةالدنيا ربّنا ليضلّوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ٭ قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾

---

(١) قلت : لا شك ولا ريب أن الهداية والإضلال من الله تعالى . ولكن ليس هناك من شيء إلا وله سبب . فلما كان العناد والكفر حاصلين من قبل المشركين والكفار بعد بيان الحجة وقيامها عليهم ... كان من المناسب أن يعاقبهم الله على عنادهم وكفرهم من جنس العمل ، فعاقبهم بأن مدهم في الضلال كما في قوله تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » وقوله سبحانه « وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » فكان جزاء وفاقاً .

أما المؤمنون فإنهم لما أصغوا إلى الحق وأخلصوا النية بالفهم والتعقل وآمنوا كان من المناسب أن يكافئهم من جنس العمل فيسر لهم طريق الهداية ومدهم بزيادة من الفهم والعقل والإيمان ... كما في قوله تعالى : « وأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » فكان ذلك جزاء وفاقاً .

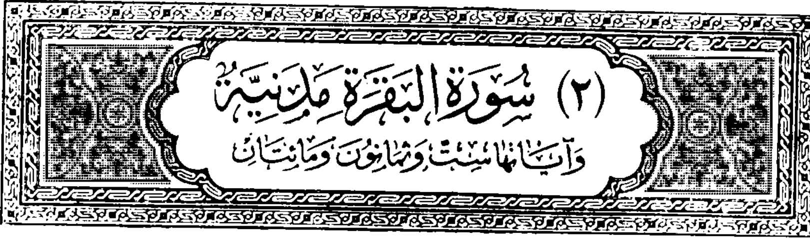
ومما هو معلوم أن الهداية والإضلال من الله خلق . فهو الذي هدى المؤمنين بسبب استجابتهم للإيمان ، وأضل الكافرين بسبب عنادهم وإعراضهم ، فكان كما قلنا جزاء وفاقاً وهذا هو الذي رمى اليه المؤلف « ابن كثير » رحمه الله بقوله : (لا كما تقول الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه) أي الضلال والهدى لأن الهادي والمضل هو الله تعالى ولكن العباد يهيئون الأسباب وهذه الأسباب هي التفهم والعمل من المؤمنين ، والعناد والاعراض من الكافرين ، وهذه أفعال اختيارية محضة والاختيار عليه مدار الثواب والعقاب أما الهداية نفسها ، والإضلال نفسه ، فهما قطعاً من الله تعالى ولو أن الهداية من نفس المؤمن ومختار فيها ... لما طلبها منه تعالى بقوله : «« اهدنا الصراط المستقيم »» وقوله «« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ... »» والله سبحانه وتعالى أعلم وهو الموفق للصواب .

فذكر الدعاء عن موسى وحده ومن سياق الكلام ما يدل على أن هارون أمّن فنزل منزلة من دعا، لقوله تعالى: ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾ فدل ذلك على أن من أمّن على دعاء فكأنما قاله . فلهذا قال من قال أن المأموم لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها . فدل هذا المنزع ايضاً على ان المأموم لا قراءة عليه في الجهرية والله أعلم . [1]

---

(١) قلت. : وهذا هو الحق الموافق لما جاء في القرآن من قوله تعالى. : «وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » فالاستماع والانصات أمر من الله تعالى حتى نرحم . فإذا استمعنا وأنصتنا تفرغ القلب للفهم.، وإذا فهمنا مراده تعالى ، عملنا بمقتضاه ، فيرحمنا الله جزاء ما عملنا بما فهمنا . أما إذا قرأ الإمام جهراً ونحن قرأنا معه فلا نستطيع في آن واحد فهم ما نقرأ وفهم ما نسمع.، وإذا لم يحصل الفهم لا يحصل العمل.، وإذا لم يحصل العمل فلا نرحم . وكذلك فإنه موافق لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ٣٩. : (إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا ...) الحديث . هذا في الصلاة الجهرية أما في الصلاة السرية فتجب قراءة الفاتحة وراء الإمام وها هنا يأتي دور الحديث. ٤٠ (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) والله تعالى أعلم

بسم الله الرحمن الرحيم



وهي أول سورة نزلت في المدينة بعد سورة المطففين التي نزلت آخر سورة في مكة قبل الهجرة.

فضلها :

روى أحمد ومسلم والترمذي والنسائي من حديث سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ٤١ [لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله شيطان] وقال الترمذي حديث حسن صحيح .

وروى الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث عبد الحميد بن جعفر بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ٤٢ : [بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كلّ واحد منهم ما معه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال: «ما معك يا فلان فقال معي كذا وكذا وسورة البقرة فقال « أمعك سورة البقرة ؟ » قال: نعم ، قال: « إذهب فأنت أميرهم » فقال رجل من أشرافهم والله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلاّ أني خشيت أن لا أقوم بها فقال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن واقرءوه فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به ، كمثل جراب محشو مسكاً يفوح ريحه في كل مكان ، ومثل من تعلّمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب أوكي على مسك] . حديث حسن . وروى البخاري عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال ٤٣ : [بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس. فسكت، فسكنت . فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت. ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً منها ، فأشفق أن تصيبه ، فلما أخذهُ رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها فلما أصبح حدّث النبيَّ ﷺ فقال : « إقرأ يا ابن حضير » قال قد أشفقت يا رسول الله على يحيى ، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي وانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، فخرجت حتى لا أراها قال « وتدري ما ذاك » قال لا ، قال « تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم »] قال بعض العلماء إنها – أي سورة البقرة – مشتملة على ألف خبر وألف أمر وألف نهي .

ما ورد في فضل سورة البقرة مع سورة آل عمران :

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قرأ بسورتي البقرة وآل عمران في ركعة واحدة . روى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال : ٤٤ [سمعت رسول الله ﷺ يقول : [اقرأوا القرآن فانه شافع لأهله يوم القيامة إقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف ، يحاجّان عن أهلهما يوم القيامة » ثم قال : « أقرأوا البقرة فإنّ أخذَها بركة ، وتركَها حسرة ، ولا تستطيعها البطلَة] وقد رواه مسلم . الزهراوان – المنيرتان . والغياية – ما أظلك من فوقك . والفرق – القطعة من الشيء . والصواف – المصطفّة المتضامّة . والبطلة – السحرة .

ومعنى لا تستطيعها أي لا يمكنهم حفظها ، وقيل لا تستطيع النفوذ في قارئها والله أعلم .

نزولها :

سورة البقرة : جميعها نزلت في المدينة . وهي أول ما نزل من السور فيها لكن قوله فيها : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ... الآية ﴾ يقال إنها آخر ما نزل من القرآن ، وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل .

قال ابن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وزيد بن ثابت : نزلت بالمدينة سورة البقرة وهكذا قال غير واحد من الأئمةِ والعلماءِ والمفسرين ولا خلاف فيه .

(بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ الٓمٓ) ١

التفسير :

﴿ آلم ﴾ وجميع فواتح السور اختلف المفسرون في تفسيرها .

١ – : فمن قائل : هي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه بها والله أعلم بمراده منها.

٢ – : ومن قائل أنها أسماء الله تعالى .

٣ – : ومن قائل إنّ لها معاني ، ولم ينزلها الله عبثاً ولا سدى بخلاف من قال من الجهلة إن في القرآن ما هو تعبّد لا معنى له بالكليّة ، فقد أخطأ خطأ كبيرا . وعليه فإن فواتح السور لها معنى ولا شك . فإن صحَّ لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به ، وإلاَّ وقفنا

حيث وقفنا وقلنا: ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾ أما الحكمة من إيراد هذه الحروف، فقد قال بعضهم :

٤ ـ : لتنبيه المشركين حتى يسمعوا كلام الله.وهذا ضعيف جداً لعدم وجود الأحرف المقطعة في كل السور.ثم إن هذه السورة سورة البقرة والتي تليها «آل عمران» نزلتا في المدينة وليس فيها مشركون [1] .

٥ ـ ومن قائل أن فيها بياناً لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته وإلى هذا ذهب كثير من المحققين،منهم شيخ الإسلام ابن تيمية ودليل ذلك أن جميع الأحرف المقطعة الواردة في القرآن،يأتي بعدها ذكر القرآن وتنزيله عن رب العالمين . مثال ذلك ﴿ألٓمٓ . ذلك الكتاب﴾ . ﴿حمٓ ... والكتاب المبين﴾ ، ﴿آلم . الله لا إلٰه إلا هو الحي القيوم . نزّل عليك الكتاب﴾ ﴿الٓر . كتاب أنزلناه اليك ...﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ ﴾

﴿ذلك﴾ معناه : هذا . وكثير مثل ذلك في لغة العرب. والقرآن الذي هو الموئل الوحيد للغة العرب أتى بهذا الأسلوب . قال تعالى :

﴿لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك﴾ وقال تعالى : ﴿ذلكم حكم الله يحكم بينكم﴾ وقال تعالى ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ .

﴿ الكتاب ﴾ فسّر بالتوراة والإنجيل ، وهذا بعيد جداً وتكلّف ما لا علم لهم به . والحق أنه القرآن .

﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك فيه . ومنهم من قرأ : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب ﴾ فوقف.ثم قرأ : ﴿فيه هدى للمتقين﴾ ولكن الوقوف على ﴿لا ريب فيه﴾ ثم متابعة قراءة : ﴿ هدى للمتقين ﴾ أولَى ؛ باعتبار أن الهدى صفةٌ له جميعاً وذلك أبلغ من كون :فيه هدى ... أي فيه هدى وفيه غير ذلك .

﴿ هدى للمتقين ﴾ أي نوراً للمتقين أي المؤمنين الذين يتقون الشرك بالله ويوحدونه

---

(١) قلت : ومما يزيد في ضعف هذا القول ... أن الاحتجاج بما في القرآن قد يكون في وسط السورة أو آخرها حسب المناسبة والاستشهاد، وهناك ليس من أحرف مقطعة أيضاً حتى يقرأها لينبه بها المشركين إلى ما سيقول من الحق .

ويعملون بطاعته ، ويخافون عذابه ، ويرجون رحمته ، ويتقون حرماته . وهذا موافق للمعنى في الآية التي بعدها ، والتي فيها صفات المؤمنين المتقين الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ .

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ٣ ﴾

« الإيمان » هو التصديق قولاً وعملاً واعتقاداً . يزيد بالطاعات ، وينقص بالعصيان . والإيمان بالوصف المتقدم ، يولّد الخشية لله تعالى ، فلا يعمل المؤمن ذو الخشية من الله أعمالاً أو يعتقد عقائد ، أو يقول قولاً يخالف أمر الله .

والإيمان ﴿ بالغيب ﴾ هو إيمانك بالشيء دون أن تراه. وإيمانك هو تصديقٌ، بل شدّة تصديق للذي بلّغك . والإيمان بالغيب في مفهوم الشرع : هو الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وبالبعث بعد الموت وبالجنة والنار ، فهذا غيب كله.

﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ الصلاة في الأصل الدعاء ثم استعملت في الشرع في العبادة ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة ، في الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة ، وصفاتها وأنواعها المشهورة التي فرضها الله على عباده خمس مرات في اليوم والليلة وهي الركن الثاني من أركان الإسلام .

وإقامتها : أي المحافظة عليها في مواقيتها ، وإسباغ الطهور فيها وإتمام قيامها وركوعها واعتدالها وسجودها وتلاوة القرآن فيها ، والتشهد والصلاة على النبيّ ﷺ فهذه إقامتها .

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣ ﴾

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ كانت النفقة ، نفقة الرجل على أهله قبل أن تنزل الزكاة.والمراد هنا النفقة من الصدقة والزكاة. وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك ثم الأجانب . والنفقة تكون ولا شك لوجه الله وطاعةً له . لا طمعاً في ثواب أحد من المخلوقين أو خوفاً من عقابهم ... إنما طمعاً في ثواب الله ورضاه ، وخوفاً من سخطه وعقابه وحده لا شريك له وكل نفقة ـ نفلاً كانت أو فرضاً ـ داخلةٌ في قوله تعالى ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ولهذا ثبت في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ٤٥ [بُني الإسلام على خمس . شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت] . وسيأتي الكلام مفصلاً عن الزكاة إن شاء الله .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ ﴾

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥ ﴾

﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك ﴾ أي الذين يصدّقون بهذا القرآن الذي أنزل إليك من ربك .

﴿ وما أنزل من قبلك ﴾ أي يصدقون بما جاء به الرسل من قبلك من التوراة والإنجيل والزبور والصحف الأخرى ولا يفرّقون بين الرسل ولا يجحدون ما جاءوهُم به من ربّهم . ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ اليقين ضد الشك لا يخامرهم أدنى شك بالآخرة أي البعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان . والآخرة إنما سمّيت آخرة لأنها بعد الدنيا .

وهؤلاء هم المؤمنون عامة من العرب وأهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول ﷺ وكل من آمن به وصدقه من الإنس والجن وكان متحققا بمعنى ما سبق من أوصاف المؤمنين في الآيات المتقدمة إلى يوم القيامة، أولئك ﴿على هدى من ربّهم﴾ أي على نورٍ وبيانٍ وبصيرةٍ من الله تعالى ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أي الناجحون بما طلبوا من الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب والخلود في الجنات ، والنجاة مما أعدّ الله لأعدائه من العقاب والعذاب .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦ ﴾

﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي الذين غطوا الحق وستروه ، وكفروا بما أنزل على محمّد ﷺ علم الله منهم أنهم سيكفرون عندما تأتيهم الآيات ، فقدّر ذلك عليهم وكتبه ، فهؤلاء لن يؤمنوا ، فسواء عليهم أأنذرتهم يا محمّد أم لم تنذرهم فإنّهم استحبوا الكفر على الإيمان وجحدوا ما آتاهم الرسول من البينات عن ربه . وكأن هذه الآية تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتعزيةٌ له . لأنه كان يحرص على أن يؤمن الناس جميعهم ويتابعوه على الهدى فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلاّ من سبق علم الله بهم أنهم سيؤمنون بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وسبقت لهم من الله السعادة والحسنى ولا يضل إلا من علم الله منهم أنهم سيكفرون، وسبقت لهم من الله الشقاوة والعياذ بالله تعالى. فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ وبلّغهم الرسالة ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب . إنما أنت نذير والله على كل شيءٍ وكيل ﴾ .

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٧ ﴾

قال قتادة في هذه الآية : إستحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون . يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وقوله ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ وشبيه ذلك في القرآن كثير ... وفيه دلالة على أن الله تعالى ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاءً وفاقاً ، على تماديهم بالباطل وتركهم الحق ، وهذا عدل منه تعالى .

وفي الحديث : ٤٦ [يا مقلّب القلوب ثبت قلوبنا على دينك] وروى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٧ [إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه . فإن تاب ونزع واستعتب ، صقل قلبُه وإن زاد زادت حتّى تعلو قلبه ، فذلك الرّان الذي قال الله تعالى : ﴿ كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾] وهكذا فقد ذكر الله تعالى في الآيات الأولى : حال المؤمنين ، ثم ذكر في هاتين الآيتين حال الكافرين ، ثم شرع تعالى في بيان حال المنافقين ، الذين يظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر ، ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس،أطنب الله في ذكرهم بصفاتٍ متعدّدة كلٌّ منها نفاق . قال الله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ٨
يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٩ ﴾

« النفاق » هو إظهار الخير وإسرار الشر . وهو نوعان :

إعتقادي : وهو الذي يخلّد صاحبه في النار أبداً

وعملي : وهو من أكبر الذنوب ، وقد نزلت صفات المنافقين في السُّوَر المدنية ، لأن مكة لم يكن فيها نفاق ، بل كان خلافه ؛ فمن الناس من كان يظهر الكفر مستكرهاً وهو في الباطن مؤمن ، فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة ، وكان فيها الأنصار من الأوس والخزرج ، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب ؛ وفيها

اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم وكانوا ثلاث قبائل :

١ – بنو قينقاع ، وكانوا حلفاء الخزرج ، ٢ – وبنو النضير . ٣ – وبنو قريظة حلفاء الأوس فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، أسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج ، وقلّ من أسلم من اليهود مثل « عبدالله بن سلام » رضي الله عنه ولم يكن يومذاك نفاقٌ أيضاً ، لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تُخاف ، بل كان النبي عليه الصلاة والسلام وادع اليهود، وقبائل كثيرة من أحياء العرب حول المدينة. فلما كانت وقعة بدر العظمى ، وأظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله ؛ قال عبد الله بنُ أبيّ بنُ سلول – وكان رأساً في المدينة – وهو من الخزرج . وكان سيد الطائفتين في الجاهلية . وكانوا قد عزموا على أن يُمَلّكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه ، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله ، فلما كانت وقعة بدر قال : هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام ، ودخل وطوائف ممن هم على طريقته ونحلته . وآخرون من أهل الكتاب ، فمن ثم وجد النفاق في أهـل المدينه ومَن حولها من الأعراب فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحِد منافقاً لأنهم لم يهاجروا مكرَهين من قومهم بل يهاجر الواحد منهم مختاراً ويترك ماله ، وولدَه ، وأرضَه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة .

إذن فالمنافقون هم من قبيلتي الأوس والخزرج واليهود . ولذا فقد نبّه الله سبحانه على المنافقين لئلا يغترّ المؤمنون بظاهر أمرهم ، ويقع فساد عريض من اعتقاد إيمانهم وهم في الحقيقة كفار .

ولهذا فمن المحذور أن يُظنّ جزماً بأهل الفُجور خيرٌ فقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنّك لرسوله ﴾ أي إنما يقولون ذلك بأفواههم وقد كذبهم الله في آخر الآية ، فقال ﴿ والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون ﴾ وبقوله ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ وقوله تعالى ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ أي يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بقولهم : ﴿ آمنا ﴾ ظانّين أنّ ذلك نافعُهم عنده ... وأنه يُرَوَّج عليه كما قد يُرَوَّج على بعض المؤمنين كما قال تعالى: ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿ وما يخدعون إلا أنفسَهم وما يشعرون ﴾ أي إذا كان خِداعاً للمؤمنين في عاجل الدنيا فهو لنفسه بذلك خادع . لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها ، أنه يعطيها أمنيّتها ، ويَسقيها كأس سرورها وهو موردُها حياضَ عطبِها ، ومجرّعُها كأسَ عذابها، وموقعها في غضب الله وأليم عقابه ما لا

قِبَل لهابه ، فذلك خديعة المنافق نفسَه ، ظناً منه أنه محسن إليها كما قال تعالى : ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ .

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ١٠ ﴾

﴿ في قلوبهم مرض ﴾ قيل شك وقيل رياء ، وقيل رجس ، والصحيح جميعها . أي أن المرض الذي في قلوب المنافقين هو شك ورياء ورجس . إنه شك ، لأنهم شاكون في رسالته ﷺ ، ورياء ، لأنهم يُظهرون الإيمان وهم كافرون . ورجس لأنهم كافرون بما أنزل الله على محمد ﷺ . والكفر ولا شك رجس ﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾ أي شكاً ورياءً ورجساً . وهكذا فالجزاء من نوع العمل ، وذلك كقوله تعالى: ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون • وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ وقوله : ﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ أي يكذبون على الله والمؤمنين بمخادعتهم. وقولهم : ﴿ آمنا ﴾ وما هم بمؤمنين ، وقد أعلم الله رسوله قسماً من المنافقين واستأثر بمعرفته بالباقين، فلم يُعْلِمْه بهم ؛ فقد قال تعالى : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ وقد يقول قائل : لمَ لم يقتل رسولُ الله المنافقين مع علمه بقسم منهم ؟ فجواب ذلك ما ورد في الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : ٤٨ [أكره أن تتحدث العرب أن محمّداً يقتل أصحابه] ومعنى هذا خشية أن يقع تغيير لكثير من الأعراب عن دخول الإسلام فإن العرب لا يعلمون نفاق هؤلاء ، فيظنون أنه يقتلهم رغم إيمانهم به ، فيقولون : محمّدٌ يقتل اصحابه . : وقال مالك : « إنما كفَّ رسول الله ﷺ عن المنافقين ليبيّن لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه [١] . »

وقال الشافعي : انما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرون من الإسلام مع العلم بنفاقهم لأن ما يظهرونه يَجُبُّ ما قبله يؤيد ذلك حديث : ٤٩ (امرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله فإذا قالوها [٢] ..] الحديث ... هذا متعلق بشأن

---

(١) قلت في هذا الكلام نظر ... لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ينطق عن الهوى. ، بخلاف الحاكم الذي هو غير نبي فلا يوحَى إليه ولماذا نعدل عن جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم. : (أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه) ؟ أما أن الحاكم لا يحكم بعلمه فهذا بحق غير الأنبياء الذين إذا أتاهم العلم إنما يأتيهم من الله ، وأمر الله يجب تنفيذه .

(٢) قلت. : إن من طبع المنافق أن يقول (لا إلّه إلاّ الله) إنما يجحدها قلبُه. ، ولو أن الله أمره بقتلهم ، لما توقف رسول الله عن قتلهم من أجل أنهم يقولون. : (لا إلّه إلا الله) ما دام قد ثبت منهم نقضها . ، وثبت كفرهم ونفاقهم . ولماذا نعدل عن قوله صلى الله عليه وسلم. : (أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه). ؟

من يعلم أعيانهم وأسماءهم وأن الذين لم يعلم الله رسوله بنفاقهم فقد قال فيهم سبحانه وتعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينّكَ بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتّلوا تقتيلاً . ﴾ ففيها دليل على أنه لم يُغْرَ بهم ولم يُدرك أعيانهم وإنما كان تُذكَر له صفاتهم فيتوسّمها في بعضهم كما قال تعالى : ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنّهم في لحن القول ﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ١١
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ١٢ ﴾

الفساد هنا : هو الكفر والنفاق والمعصية فقوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ﴾ أي بالكفر والنفاق والمعصية في الأرض ، لأن من عصى الله أو أمر بمعصية فقد أفسد في الأرض ، لأن الصلاح إنما يكون بالطاعة . والمنافقون ظنوا أنهم بدعواهم بالإيمان يخدعون المؤمنين ، ولكن الله فضح أمرهم ، كيلا يغترّ بهم المؤمنون ، فيتّخذوهم أولياء من دون المؤمنين ، بينما هم في الحقيقة منافقون . فاتخاذهم أولياء من قبل المؤمنين في الوقت الذي هم من أعدى أعداء المؤمنين ، هو الفساد الكبير في الأرض . ولما كان ظاهرهم الإيمان ، إشتبه أمرهم على المؤمنين فكان الفساد من جهة المنافق حاصلاً لأنه هو الذي غرّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له ، ووالى الكافرين على المؤمنين ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم لا تُفسدوا في الأرض قالوا إنمّا نحن مصلحون ﴾ إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين والكافرين من المشركين وأهل الكتاب . لكن الله المطلع على ضمائرهم وما تخفي صدورهم ، كذّبهم بقوله تعالى : ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ أي إن هذا الذي يعتمدونه ، ويزعمون أنه إصلاح ، إنما هو عين الفساد ، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً . (اللهم ثبتنا على دينك وطاعتك واجعلنا من المؤمنين الذين لا يخالف ظاهرُهم باطنهم) .

﴿ وإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ
ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ١٣ ﴾

يقول تعالى : وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس ، أي كإيمان الناس بالله وملائكته

وكتبه ورسله والبعث والجنة والنار وغير ذلك ، إيماناً حقيقياً . وأطيعوا الله ورسوله بامتثال الأوامر وتركِ النواهي قالوا : ﴿ أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ يقصدون بالسفهاء أصحاب الرسول ﷺ ويقولون : أنصبح وهؤلاء ... في منزلة واحدة وهم سفهاء ؟ !! وقد تولىّ الله سبحانه جوابَهم فقال : ﴿ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ أي لا يعلمون حالهم الدالة على ضلالهم وجهلهم . وإن عدم علمهم هو أردى لهم ، وأبلغ لهم في العمى ، والبعد عن طريق الهدى ، حتى يزداد طغيانهم فيزداد غضب الله وعذابُه عليهم ، فيكون الجزاءُ من نوع العمل ، ولا يظلم ربك أحدا .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ١٤ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٥ ﴾

يقول الله تعالى : وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا : آمنّا وأظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وتقيّةً وليشركوهم فيما أصاب المؤمنون من خير ومغنم ﴿ وإذا خلَوْا إلى شياطينهم ﴾ يعني وإذا مضوا إلى رؤسائهم وسادتهم وكبرائهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين ﴿ قالوا إنّا معكم ﴾ أي نحن معكم على مثل ما أنتم عليه من الكفر والشرك ﴿ إنّما نحن مستهزئون ﴾ أي إنما نحن مستهزئون بأصحاب محمّد ﷺ فقال تعالى جواباً لهم ومقابلة على صنيعهم : ﴿ الله يستهزيء بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون ﴾ أي إن الله يستهزىء بهم ، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا يعني من عصمة أموالهم ودمائهم بإظهارهم الإيمان ، وقولهم لا إلَه إلا الله محمّد رسول الله ، خلاف الذي لهم عنده في الآخرة من العذاب والنكال ، هذا هو اختيار ابن جرير وذلك : لأن المكر والخداع والسخرية ، على وجه اللعب والعبث ، منتفٍ عن الله عزّ وجل بالإجماع . وأما على وجه الانتقام ، والمقابلة بالعدل والمجازاة ، فلا يمتنع ذلك ؛ ويؤيده قول الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ قال : يسخر بهم للنقمة منهم . وقوله تعالى : ﴿ ويمدّهم في طغيانهم يعمهون ﴾ فقد روي عن ابن عباس وابن مسعود عن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ : يمدهم أي يُملي لهم . وقال مجاهد يزيدهم . وقال بعضهم كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمةً وهي في الحقيقة نقمة كقوله تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء حتى إذا فرحوا بما

رتوا أخذناهم بغتةً فإذاهم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ . قال ابن جرير : والصواب : نزيدهم على وجه الإملاء والترك في عتوّهم وتمردهم كما قال تعالى : ﴿ ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ والعمهُ : الضلال ، والعمى : يكون في العين ، والعمهُ : في القلب وقد يستعمل العمَى في القلب .

﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٦ ﴾

أي أخذ أولئك المنافقون الكفر والضلال وتركوا الإيمان والهدى واستحبّوا فعلهم هذا . ويشبهه في المعنى قوله تعالى : ﴿ فأما ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمَى على الهدى ﴾ وهكذا فإنهم اعتاضوا عن الهدى بالضلال ، وبذلوا الإيمان ثمناً واشتروا به الكفر ولهذا قال تعالى : ﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ أي ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة ، ولم يكونوا راشدين في صنيعهم ذلك ، وإنهم خرجوا من الهدى إلى الضلال ومن الجماعة إلى الفرق ، ومن الأمن إلى الخوف ومن السنّة إلى البدعة .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ١٨ ﴾

إن المنافقين باشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى : مثلهم كمن استوقد ناراً أي طلب الاستنارة بالنار ليرى ما حوله ، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله ، وأنس بها.فبينما هو كذلك إذ طفئت النار وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، ومع هذا فهو أصم لا يسمع ، أبكم لا ينطق ، أعمى ولو كان ضياءً لما أبصر ... فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك وهكذا ، هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد،كانوا موضع مضرب المثل في الغي والضلالة والعمى . وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم في قوله : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ والتشبيه ها هنا في غاية الصحة لأن المنافقين لما آمنوا باديء ذي بدء اكتسبوا نوراً ثم أبطلوا ذلك بالنفاق فوقعوا في حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين .

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٠ ﴾

وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لنوع آخر من المنافقين ، وهم قوم يظهر الحق لهم تارةً ويشكّون به تارة أخرى. فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم .. ﴿ كصيّب ﴾ والصيب المطر نزل في حال ﴿ ظلمات ﴾ وهي الشكوك والكفر والنفاق ﴿ ورعد ﴾ وهو ما يزعج القلوب من الخوف فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع ، كما قال تعالى ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ ﴿ والبرق ﴾ هو ما يلمع في قلوب هذا النوع من المنافقين أحياناً من نور الإيمان . ولهذا قال ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ﴾ أي لا ينفع حذرُهم شيئاً لأن الله محيط بهم بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته ثم قال ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ أي لشدّته وقوته في نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان وعن ابن عباس يقول : يكاد محكم القرآن يدلّ على عورات المنافقين ، ﴿ كلما أضاء لهم مشوْا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ يقول ابن عباس : أي يعرفون الحقّ ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أي متحيرين وكذا روي عن الصحابة ، وهو أظهر وأصح ما قيل في تفسير هذه الآية، وهكذا يكونون يوم القيامة ، عندما يعطي الناس النور بحسب إيمانهم فمنهم من يُعطى من النور ما يضيء له مسيرة فرسخ ، وأكثر من ذلك وأقل ، ومنهم من يطفأ نوره تارةً ويُضيءُ أخرى ، ومنهم من يمشي على الصراط تارة ، ويقف أخرى ، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية ، وهم الخلّص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾ وقال في المؤمنين : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ ﴿ بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ الآية ... وقال تعالى ﴿ يوم لا يخزي الله النبيَّ والذين آمنوا معه نورُهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربّنا أتممْ لنا نورنا واغفر لنا إنك على كلّ شيء قدير ﴾ وقوله تعالى :

﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إنّ الله على كل شيء قدير ﴾ قال ابن

عباس : أي بسبب ماتركوا من الحق بعد معرفته ﴿ان الله على كل شيء قدير﴾ قال ابن عباس : أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير » وقال ابن جرير : انما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط وعلى إذهاب سمعهم وأبصارهم قدير ، ومعنى ﴿قدير﴾ قادر

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾

قال محمد بن اسحق بالسند عن ابن عباس : ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربّكم﴾ خطاب للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين أي وحّدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ، وفي هذه الآية شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض فراشاً أي مهداً كالفراش مقرّرة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات . ﴿والسماء بناء﴾ وهو السقف كما قال في الآية : ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾ ﴿وانزل من السماء ماءً ...﴾ المراد به السحاب ها هنا في وقته عند احتياجهم إليه ، فأخرج لهم من انواع الزروع والثمار ما هو مشاهد رزقاً لهم ولأنعامهم ، وهو الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم . فهذا يستحق أن يُعبدَ وحده لا شريك له . لهذا قال : ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ أي لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا رب يرزقكم غيره . وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : ٥٠ (قلت : يا رسول الله : أي الذنب أعظم عند الله قال : [أن تجعل لله نداً وهو خلقك] وكذا حديث معاذ ٥١ [« أتدري ما حق الله على عباده؟» أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً] وفي الحديث الآخر : ٥٢ [لا يقولنّ أحدكم ما شاء الله وشاء فلان ولكن ليقل ما شاء الله ثم شاء فلان] وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ قال : الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي ، ويقول لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل لولا الله وفلان ...

هذا كله به شرك وفي الحديث : ٥٣ [إن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : ما شاء الله وشئت قال : أجعلتني لله نداً] وفي الحديث الآخر : ٥٤ [نعم القوم انتم لولا أنكم تندّدون تقولون: ما شاء الله وشاء فلان .]

﴿وأنتم تعلمون﴾ أي وأنتم تعلمون أنه لا ربّ لكم يرزقكم غيره . والآية: دالّة على توحيده بالعبادة وحده لا شريك له ، وقد استدلّ كثير من المفسّرين على وجود الصانع، وهي دالة على ذلك بطريق الأولى . فإنّه من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة ، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه ، وعظيم سلطانه . كما قال بعض الأعراب : وقد سئل ما الدليل على وجود الله تعالى ... قال: يا سبحان الله ! ! ! إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام ليدلُّ على المسير ، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدلُّ ذلك على وجود اللطيف الخبير...؟!

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٣ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ٢٤ ﴾

بعد أن قرر الله تعالى أنه لا إله إلا هو ، وذلك في الآيات السابقة شرع سبحانه في تقرير النبوة لعبده ورسوله محمد ﷺ فقال مخاطباً للكافرين : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ أي محمّد ﷺ فأتوا بسورة من مثل ما جاء به، إن زعمتم أنه من عند غير الله ، فعارضوه بمثل ما جاء به ، واستعينوا على ذلك إن شئتم من دون الله بآلهتكم وبلغائكم وفصحائكم ، وحكام فصحائكم وبمن تشاءون جميعاً إن كنتم صادقين في زعمكم ، وفي هذا تحدّ من الله لهم ، وقد تحداهم في غير موضع من القرآن فقال في سورة القصص : ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ وقال في سورة سبحان : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ وقال في سورة هود : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ وقال في سورة يونس : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . ﴾

وكل ما تقدّم فآياتٌ مكية . ثم تحدّاهم بذلك أيضاً في المدينة فقال في هذه الآية ﴿ وإن كنتم في ريبٍ مما نزّلنا على عبدنا ﴾ يعني محمّداً ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ يعني فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن . وقد تحدّى اللهُ الجميع ، متفرّقين ومجتمعين ، سواءً في ذلك اميّوهم وكتابيّوهم ، وذلك أكمل في التحدي وأشمل من أن يتحدّى آحادهم الأميّين ممن لا يكتب ولا يعاني شيئاً من العلوم ، فالتحدي كان عاماً لهم في مكة والمدينة مرات عديدة ، مع شدة عداوة المشركين والمنافقين للنبيّ ﷺ وبغضهم لدينه . ومع هذا عجزوا عن ذلك.ولهذا قال تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار ﴾ أي فإذا لم تستطيعوا ولن تستطيعوا ذلك أبداً وهنا معجزة يتحدّى بها الكافرين عامةً ـ بسورة من مثله ـــ إلى يوم القيامة ، وهذه المعجزة هي أنهم لن يستطيعوا ذلك أبد الآبدين.ودهر الداهرين ،وكذلك قد وقع الأمر ،فلم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا وإلى الأبد . لأن القرآن كلام الله ، وكلام الله لا يشبه كلام المخلوقين لفظاً ولا معنى . ﴿ الر . كتاب أحكمت آياتُه ثم فصّلتْ من لدنْ حكيمٍ خبيرٍ ﴾ .

يقول تعالى لهم : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ إلى الأبد مجاراةَ القرآن والإتيان بمثله فما عليكم إلاّ أن تسلّموا بعد عجزكم ، بأنه كلام الله تعالى وتؤمنوا وتعملوابأحكامه ، فتتقوا بذلك النار التي أعدت للكافرين .

قال الله تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ والاتقاء : التجنب . أي تجنبوا النار التي سيكون وقود هايوم القيامة الناس أي الكافرون بهذا القرآن . والحجارة أي تلك الحجارة،التي يعبدها الكافرون من دون الله . قال الله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها وكل فيها خالدون ﴾ ولا مانع أن يكون المعنى أيضاً أنها حجارة من كبريت بالإضافة إلى الأصنام تسعَّرُ بها النار فتلتهب وتشتد ليكون ذلك أشدَّ عذاباً لأهلها . كما ذكر ذلك عن ابن مسعود وناس من الصحابة . وقوله تعالى : ﴿ أعدت للكافرين ﴾ أي هيئت وأرصدت للكافرين الذين هم كانوا على ما أنتم عليه من الكفر ، واستدل كثير من الأئمة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن . لقوله تعالىً ﴿ أعدت للكافرين﴾ أي أرصدت وهيّئت . وقال رسول الله ﷺ : ٥٥ [تحاجّت الجنة والنار] فتحاجّهما دليل على وجودهما.وهناك أحاديث صحيحة أخرى تدل على ذلك. وهكـــذا فإن الله تحدّى الكافرين ، أن يأتوا بسورة من القرآن وأُخبر أنهم لن يأتوا بمثله لا قليلاً ولا كثيراً ، أي لا سورة طويلة ولا قصيرة لأن كل سورة من القرآن ، معجزة للعالمين أن

يأتوا بمثلها ، وقد روي أن عمرو بن العاص وفد قبل إيمانه على مسيلمة الكذاب ، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم بمكة ، في هذا الحين ؟ فقال له عمرو : لقد نزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال : وما هي فقال ﴿ والعصر ٭ إنّ الإنسان لفي خسر إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر ﴾ ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال : ولقد أنزل عليّ مثلُها فقال : وما هو ؟ فقال مسيلمة : يا وَبْر يا وَبْر ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك حقر فقر . ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم إني لأعلم أنك تكذب .

﴿ وَبَشِّرِ ٱلذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَـٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٢٥ ﴾

ربع الحزب

لما ذكر الله تعالى ما أعدّه لأعدائه المنافقين والكافرين من العذاب والنكال ، ناسب أن يذكر بالمقابل حال المؤمنين وما أعدّ لهم من النعيم المقيم . الذين صدّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة. وقد جرى القرآن على هذا الأسلوب من الترغيب والترهيب . وهذا معنى تسمية القرآن بالمثاني على أصح الأقوال عند العلماء لأنه لا يذكر حال المؤمنين وما أعدّ لهم من النعيم إلاّ ويذكر مباشرة أحوال الكافرين وما أعدّ لهم من النكال والعذاب ولهذا قال : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ فوصف الجنات التي تجري من تحتها الأنهار أي من تحت أشجارها وغرفها وقد جاء في الحديث : أن أنهارها تجري في غير أخدود وجاء في الكوثر أن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف ولا منافاة بينهما فطينها المسك الأزفر وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر ، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لدخولها بفضله ورحمته وقوله تعالى : ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ﴾ . قال جمع من الصحابة فيما روى السدي بالسند عنهم أنهم أتُوا بالثمرة في الجنة فلما نظروا إليها قالوا هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا ، وقيل التشابه حاصل بين أثمارها نفسها بعضها ببعض. ولكن اللون واحد والطعم مختلف وقوله تعالى : ﴿ ولهم فيها أزواج مطهّرة وهم فيها خالدون ﴾ أي أزواج مطهّرة من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمنيّ والولد . وقوله : ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ هذا هو تمام السعادة فإنهم مع هذا النعيم ، في مقام أمين من الموت والانقطاع ، فلا آخر له ولا انقضاء . بل في نعيم سرمدي ، أبدي على الدوام والله المسؤول أن يحشرنا في زمرتهم إنّه جواد كريم .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ
مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ
بِهِ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ
مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ٢٧﴾

قال السدي في تفسيره بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعني قوله تعالى : ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ وقوله ﴿أو كصيب من السماء﴾ قال المنافقون : الله أعلا وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل هذه الآية : ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما﴾ إلى قوله : ﴿... هم الخاسرون﴾ وقد أخبر تعالى ، أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر، مثل البعوضة . فكما أنه لا يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها . كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في غير موضع من القرآن .

ومعنى ﴿لا يستحيي﴾ لا يستنكف وقيل لا يخشى أن يضرب مثلاً ما بأي شيء صغيراً كان أو كبيراً و ﴿ما﴾ هنا للتقليل كما تقول : لأضربنَّ ضرباً ما ، فيصدق بأدنى شيء ﴿فما فوقها﴾ بمعنى أي فما دونها في الصغر والحقارة كما اذا وُصِفَ لك رجل باللؤم والشح فيقول السامع نعم وهو فوق ذلك أي من الشحّ والبخل . وهذا قول الكسائي وأبي عبيد، قاله الرازي وأكثر المحققين. ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربّهم﴾ أي إن الذين آمنوا يؤمنون بما يضرب الله من الأمثال صغيرها وكبيرها ويعلمون أنها الحق من ربّهم ويهديهم الله بها لأنه كلام الرحمن .

﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ مستصغرين هذه الأمثال ضلالاً منهم كما قال في سورة المدثر : ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلاّ ملائكةً وما جعلنا عدّتهم إلاّ فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً . كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ وكذلك قال ها هنا : ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾ فعن السدّي أنه قال ، في تفسيره عن أبي مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة : أن المقصود من

﴿ يضل به كثيراً ﴾ أي المنافقين ، ﴿ ويهدي به كثيراً ﴾ أي المؤمنين فيزيد المنافقين ضلالاً لتكذيبهم بما علموه حقاً ويقيناً من المثل الذي ضربه الله ، وأنه لما ضرب له موافق . فذلك إضلال الله إياهم به ويهدي به كثيراً من أهل الإيمان والتصديق فيزيدهم إيماناً وهدى إلى هداهم ، لتصديقهم بما قد علموه حقاً ويقيناً أنه موافق لماضربه الله له مثلاً وإقرارهم به وذلك هداية من الله لهم ﴿ وما يضلّ به إلاّ الفاسقين ﴾ الفاسق في اللغة : هو الخارج عن الطاعة وتقول العرب فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها فالفاسق يشمل الكافر والعاصي ولكن الفسق في الكافر أشد وأفحش والمراد من الآية بالفاسق الكافرُ والله أعلم بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون . ﴾ وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين وقوله : ﴿ عهد الله ﴾ هو ما عهد إليهم في القرآن فأقروا به ثم كفروا فنقضوه . ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصلَ ﴾ أي كل ما أمر الله بوصله وفعله فقطعوه وتركوه ﴿ ويفسدون في الأرض ﴾ أي يفسدون بكفرهم بعدم تمسكهم بما أمر الله فيحلون المحرمات ويحرمون المحللات ويشيعون الشرك والكفر بين الناس ، ويزينونه لهم بأنه هو الصواب والحق ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ في الآخرة قال الضحاك عن ابن عباس : كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الاسلام من اسم مثل خاسر فإنما يعني به الكفر وما نسبه إلى أهل الأسلام . فإنما يعني به الذنب . والخاسرون جمع خاسر وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم من رحمة الله بمعصيتهم إياه . وفي قوله الخاسرون أي الخاسرون في الآخرة ، دليل على الصفات المتقدمة مقصود بها صفاتُ الكفار لأنهم خسروا الآخرة ولا يخسرها الا الكافرون .

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٨ ﴾

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته ، وأنه الخالق المتصرف في عباده ﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ أي كيف تجحدون وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف ، أو تشركون به فتعبدون سواه . ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ ويفسر هذا قوله تعالى كما قال ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة ﴿ ربنا أمتّنا اثنتَين وأحييتنا اثنتَين ﴾ قال كنتم تراباً قبل أن يخلقكم فهذه ميتة . ثم أحياكم فخلقكم ، فهذه حياة . ثم يميتكم فترجعون إلى القبور ، فهذه ميتة أخرى . ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى . فهذه ميتتان وحياتان . وهو تفسير قوله ﴿ كيف تكفرون ... ﴾

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٩ ﴾

لما ذكر الله دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ، ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض فقال ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهنّ سبع سموات .. ﴾ قال مجاهد وخلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان – بإذن الله – فذلك حين يقول ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ أي قصد إلى السماء . والاستواء ها هنا ، مضمّن معنى القصد والإقبال لأنه عُدّي بإلى ﴿ فسواهن سبع سموات ﴾ أي فخلق السماءَ سبعاً . يوجد خلاف بين المفسرين من حيث خلق الأرض قبل السماء أو السماء قبل الأرض . ولكل من الطرفين حجّة إلاّ أن حجة القائلين بابتداء خلق الأرض ثم السماء أقوى لقوله تعالى : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء ﴾ فقوله «ثمّ» يفيد الترتيب أي أن الله خلق الأرض وما فيها ، ثم من بعد ذلك قصد السماء فسواهنّ سبعاً . وحجة القائلين بابتداء خلق السموات ثم الأرض قوله تعالى : ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسوّاها ، واغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها. ﴾ نقل هذا ابن جرير عن قتاده ولكن هذا القول أي تقدم السماء على الأرض ليس صحيحاً. والصحيح بخلافه أي تقدم الأرض على السماء . ففي صحيح البخاري أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه فأجاب : بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء . وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها . ﴾ ففسر الدحي بإخراج ما كان مُودعاً فيها من المياه فنبتت النباتات على اختلاف أنواعها وصفاتها وأصنافها وألوانها وأشكالها .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠ ﴾

يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم ، فقال تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾ أي : أقصص يا محمّد على قومك ذلك : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن ،وجيلاً بعد جيل ، كما قال تعالى :

﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ وهذا هو الصواب في تفسير ﴿ خليفة ﴾ لا قول من يقول أن آدم خليفة الله في الأرض مستدلاً بقوله تعالى : إني جاعل في الأرض خليفة (١)

---

(١) قلت : إن معنى الخليفة يستلزم قطعاً غياب المخلوف، كلياً كان ذلك أو جزئياً . أعني إما بموت أو ارتحال أو عزل او اعتزال ، أو أي أسباب أخرى تحول دون متابعة المخلوف مزاولة عمله ؛ كقولك مثلا : أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي بعد موته . أو كقولك : استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً على المدينة ، أي حال غيابه صلى الله عليه وسلم عنها في إحدى غزواته . فاذا اتضح هذا وحصلت به القناعة ، أدرك المقتنع حالا خطأ قول القائل أن آدم عليه السلام جعله الله خليفة عنه في الأرض وذلك للأسباب الآتية :

١ – يستحيل غياب الله سبحانه عن ملكه كلياً أو جزئياً ، فهو قيوم السموات والأرض ، ولا تعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء فلا يحتاج إذاً لخليفةٍ ولا لوكيل ولا لنائب ولا لمن يليه ، وهو الغني عن العالمين .

٢ – من أجل أن يكون آدم أو النوع الإنساني صالحاً للخلافة عن الله، يستلزم أن تكون له صفات مماثلة لصفات الله تعالى وتقدس ، ولما كان الإنسان – ككل مخلوق – لا يحمل صفات مماثلة لصفات الله ، بل هو ناقص في جميع صفاته والله سبحانه كامل في جميع صفاته صار تباين كلي ... فكيف تجوز خلافة الناقص للكامل ... ؟ تعالى الله عن المثيل والنظير « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . »

٣ – ثبت أن الانسان لا يصلح أن يكون خليفة لله ولا وكيلا عنه . بل العكس هو الصواب فالله سبحانه هو الوكيل والخليفة . وإليك قوله تعالى : « حسبنا الله ونعم الوكيل » و « والله على كل شيء وكيل » « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » و « وكفى بالله وكيلا » وقوله صلى الله عليه وسلم : في دعاء السفر : ٥٦ (اللهم أنت الرفيق في السفر والخليفة في الأهل) .

٤ – ليس في الكتاب ولا في السنة أي دليل ظاهر أو خفي أو مستنتج ... بأن الإنسان خليفة الله في الأرض ، لأنه قال « إني جاعل في الأرض خليفة » ولا يفهم من هذا القول أن آدم عليه الصلاة والسلام خليفة الله في الأرض لأنه قال : « إني جاعل في الأرض خليفة » نعم . قال هذا ... إنما لم يقل : إني جاعل لي في الأرض خليفة ، أو : إني جاعل في الأرض خليفة لي . أو خليفتي . فمن أين استنتجنا أن آدم عليه السلام أو النوع الانساني خليفة الله في الأرض ... ؟ ألا إن شأن الله لأجل وأعظم من ذلك ، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيراً . على أن أكثر المفسرين قالوا : أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلا بعد جيل أو على قول من قال : خلائف لمن قبلهم من الجن أو المخلوقين الآخرين الذين يحتمل أنهم كانوا على ظهر الأرض قبل أن يكون النوع الانساني على ظهرها . والتفسير الأول أظهر ومؤيد بالكتاب والسنة . أما من قال : أن المقصود بالخلافة هي الخلافة فقط بالأحكام ... فهذا قول ليس مسلماً به . لأن الحكم المعتبر المأخوذ من الوحيين الذي حكم به ، ليس حكمه ... إنما هو حكم الله ... وهو تعبّدٌ لله ، وشتانَ ما بين العبادة وبين النيابة والخلافة . وهكذا يتضح أن الذي حكم إنما حكم بحكم الله لا نيابة عنه .

على أن القائلين بهذه الخلافة (خلافة الله في الحكم) ليس لهم أي دليل من الكتاب والسنة على ذلك ، وكما اتضح أن الدليل بخلاف قولهم ، فلم يبق إلا اجتهادات الرجال ، واحتمالاتهم ومعلوم أن الإجتهاد والاحتمال شيء ... وقوله الله ورسوله شيء آخر ، إذ لااجتهاد في مورد النص ، وإذا طرأ الاحتمال بطل الاستدلال . لا سيما كهذه القضية التي لا تثبت إلا بخبر عن الله أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم الذي ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . والله الموفق للصواب .

وقال عبدالرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ كأن الله أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خلق، أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فذلك حين ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فقول الملائكة هذا، ليس على وجه الإعتراض على الله كما قد يُتوهّم: لأن الملائكة وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه.

قال ابن جريج: إنما تكلموا بما أعلمهم الله أنه كائن من خلق آدم فقالوا: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ قال ابن جرير: وقال بعضهم إنما قالت الملائكة ما قالت... لأن الله أذن لهم في السؤال عن ذلك بعد ما أخبرهم: أن ذلك كائن من بني آدم، فقالوا: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء. ﴾ فإنهم أرادوا أنّ من هذا الجنس من يفعل ذلك. وهو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة. فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿ قال إني أعلم ما لا تعلمون. ﴾ أي أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها، ما لا تعلمون أنتم. لأني سأجعل فيهم الأنبياء والرسل والصالحين والأولياء. وسيأتي إن شاء الله عن ابن مسعود وابن عباس وبعض الصحابة والتابعين أقوال في حكمة قوله تعالى ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾.

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَاءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣

هذا مقامٌ ذكر الله فيه آدم وشرّفه على الملائكة، لأن الله تعالى علّمه ما لم يُعلّم الملائكة فقد قال: ﴿ وعلّم آدم الأسماء كلها ﴾ أي أسماء جميع المخلوقات جليلها ودقيقها ويؤيد هذا ما جاء في حديث الشفاعة العظمى قوله ﷺ: ٥٧ [« ... فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس، خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء] من حديث صحيح البخاري فدل هذا على أنه علمه أسماء المخلوقات ولهذا قال: ﴿ ثم عرضهم على الملائكة ﴾ يعني المسمَّيات وقوله: ﴿ عرضهم ﴾ بصيغة من يعقل للتغليب فيدخل معهم غير العاقل كما قال تعالى: ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ... الآية ﴾ قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن

مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة﴾ أي عرض الخلق على الملائكة. ﴿ فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ أي أنبئوني بأسماء من عرضتهم عليكم من المخلوقات وكانت الملائكة تظن أن الله لا يخلق خلقاً إلاّ ويكونون هم أعلمَ منهم ، فإن كنتم صادقين بأنكم أعلم من كل خلقي الذي منهم آدم ، فأنبئوني بأسماء الخلق الذين عرضتهم عليكم . قاله الحسن وقتادة . وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود عن ناس من الصحابة : ﴿ان كنتم صادقين﴾ أن كل بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء .

قال ابن جرير عن ابن عباس بمعناه : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء من غيرنا أم منا ؟ فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي أنهم ظنوا أنهم جميعاً سيسفكون الدماء، ويفسدون في الأرض ، ولم يعلموا أنه سيكون منهم أنبياء وأولياء صالحون . ولذلك قال الله لهم ﴿ أنبئوني بأسماء هؤلاء ﴾ إعجازاً لهم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في قولكم أنهم سيسفكون وسيفسدون في الأرض . فإن كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم ، وأنتم تشاهدونهم ، فأنتم بالأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين بها .

﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك ، وفي تعليمك ما تشاء، ومنعك ما تشاء لك الحكمة في ذلك والعدل التام . وسبحان الله : تنزيه الله نفسَه عن السوء . وقال عمر لعلي : لا إله الا الله قد عرفناها ، فما سبحان الله ؟ فقال علي : كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال . وسأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله فقال : اسم يُعظِّم اللهُ به ، ويُحاشَى به عن الله . وأوكلوا العلم بذلك له سبحانه لأنه هو العليم الحكيم . فقال الله : ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

قال زيد بن أسلم قال أنت جبرائيل ، أنت ميكائيل ، أنت أسرافيل حتى عدد الأسماء كلها . وقال مجاهد: إسم كل شيء وروي عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك ... فلما ظهر فضلُ آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علّمه الله تعالى من الأسماء قال الله تعالى للملائكة ، ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ قال ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك قول ابن عباس وهو أن المعنى من قوله تعالى ﴿وأعلم ما تبدون﴾ أي قولهم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ والذي كانوا يكتمون : ما كان منطوياً عليه إبليسُ من الخلاف على الله في أوامره والتكبرّ عن

طاعته . أما شبهة أن الله تعالى قال : ﴿وما كنتم تكتمون﴾ أي أن الفعل وارد في صيغته الجمع بينما المقصود هو إبليس الذي كان يكتم عصيان الله تعالى وهو مفرد ، فنقول : إن العرب كانت تقول مثلاً قتل الجيش وهزموا ... وإنما قتل الواحدُ أو البعض وهزم الواحد أو البعض. وعلى هذا أيضاً جرى أسلوب القرآن في بعض الآيات ،كقوله تعالى : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ ﴿فينادونك﴾ فعل وارد بصيغة الجمع بينما المنادي كان واحداً من بني تميم . وكذلك قوله : ﴿ وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ٣٤ .

وهذه كرامة عظيمة لآدم عليه السلام من الله تعالى إمتنَّ الله بها على ذريّته ، فأخبر أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم ،كما في حديث الشفاعة المتقدم : ٥٨ [... وأسجد لك ملائكته] وذلك أكراماً وإعظاماً،واحتراماً وسلاماً،وطاعة لله عز وجل.لأنها امتثال لأمره تعالى. وقال قتادة: قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ فكانت الطاعة لله والسجود لآدم وهكذا سجد الملائكة طائعين لأمر الله إلاّ إبليس. ﴿ فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ وقد وردت أقوال في وصف إبليس قبل أن يرتكب المعصية ، نذكرها هنا للبيان : فقيل أنه كان من حيّ الملائكة ، يقال له الجن ، وكان رئيساً لهم ، وخازناً للجنان ، وله سلطان سماء الدنيا وله سلطان على الأرض إلى آخر ما ورد في وصفه . ولكن ابن جرير نقل السند عن الحسن أنه قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط . وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم أصل الأنس . هذا إسناد صحيح عن الحسن .

وهكذا لما أمر الله له الملائكة بالسجود ، فدخل إبليس في خطابهم ؛ وكان قبل المعصية عبداً صالحاً يتعبد مع الملائكة ، فلما أمر الله بالسجود لآدم فسجد الملائكة طاعةً لله ، إلاّ إبليس أبى واستكبر عدوُّ الله أن يسجد لآدم عليه السلام ، حسداً منه على ما أعطاه الله من الكرامة وقال : أنا ناري ، وهذا طيني ، وكانت المعصية ابتداء ذنوبه وسببها الكِبر . وقد ثبت في الصحيح: ٥٩ [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبةمن خردل من كبر] وقد كان في قلب إبليس من الكِبرْ والكفر والعناد ما اقتضى طرده ، وإبعاده عن جناب الرحمة ، وكان من الكافرين، بسبب امتناعه، أي صار من الكافرين.وقيل: أن السجود كان خاصاً بملائكة الأرض . والراجح : أن الملائكة جميعهم سجدوا أي ملائكة الأرض والسماء ، وظاهر الآية الكريمة العموم ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس ... ﴾ .

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ٣٥ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٣٦ ﴾

يقول الله تعالى إخباراً عمّا أكرم به ادم ، أنه أمر الملائكة بالسجود فسجدوا إلا إبليس، وإنه أباح له الجنّة يسكن فيها حيث يشاء ، ويأكل منها حيث يشاء ما شاء ، رغداً أي هنيئاً واسعاً طيباً ، وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي ذر رضي الله عنه قال : ٦٠ [قلت يا رسول الله أرأيت آدم ...أنبياً كان ؟ قال : « نعم نبيّاً رسولاً يكلّمه الله قبيلا »] – يعني عياناً – فقال : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ وقد اختلف في الجنة التي أسكنها اللهُ آدم ، أهي في السماء أم في الأرض فالأكثرون على أنها في السماء ، وقال المعتزلة والقدرية بأنها في الأرض ، وسيأتي بيان ذلك في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى . وسياق الآية يقتضي أن حوّاء خلقت قبل دخول آدم الجنــة ، كما صرح بذلك محمد بن اسحق . وقيل أن خلق حواء كان بعد دخول آدم الجنة كما صرح بذلك السدى في خبرٍ ذكَرهُ عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ما خلاصته : إن آدم كان يمشي وحيشاً في الجنة ليس له زوج فنام فاستيقظ وعند رأسه امرأة خلقها الله من ضلعه، فسألها من أنتِ؟ قالت: امرأةقال ولمخاقتِ؟ قالت: لتسكن إليّ فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه : ما أسمُها يا آدم ؟ قال: حواء، قالوا ولمَ حوّاء؟ قال لأنها خاقت من شيء حي .

وأما قوله : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ فهو إخبار من الله تعالى، وامتحان آدم وقــد اختلف في هذه الشجرة ما هي ؟ فمن قائل أنها الكرم ، وقائلٍ أنها الحنطة ، وقائل أنها التينة وقائلٍ أنها السنبلة وقائل أنها النخلة .

والصواب : إنها شجرةٌ مّا ... في الجنة، ولم يعين الكتاب ولا السنة نوعها، ومعرفة نوعها لا ينفع والجهل به لا يضرّ . هذا ما ذكره ابن جرير ملخصاً وكذلك رجّح الرازي الإبهام في تفسيره .

وقوله تعالى : ﴿ فأزلّهما الشيطان عنها ﴾ أي بسبب أكلهما منها فنحّاهما، ووقعا في

الزلل والخطيئة، ومعصية أمر الله ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ من اللباس والمنزل الرحب، والراحة والنعيم.

﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين﴾ أي قرار وأرزاق وآجال ﴿إلى حين﴾ إلى وقت معيّن، ثم تقوم القيامة، وقد اختلفت الروايات في محل هبوط آدم، وحواء والشيطان؛ فقيل أن آدم نزل في الهند، ونزل معه الحجر الأسود، وحواء بجدّة، وإبليس بدستميسان بالقرب من البصرة. رواه ابن أبي حاتم. وقال عبد الرزاق: قال معمر: اخبرني عوف وساق السند إلى أبي موسى قال: ان الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علّمه صنعة كل شيء، وزوّده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير، وتلك لا تتغير. وروى مسلم والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ٦١ [خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة. فيه خُلقَ آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أُخرِج منها.] وقال الرازي: إعلم أن في هذه الآية تهديداً عن كل المعاصي.

﴿فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾

قيل أن هذه الكلمات مفسَّرة بقوله تعالى: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمْنا لنكونَنَّ من الخاسرين﴾ روي ذلك عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب القرظي وخالد بن معدان وعطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. قال سفيان الثوري عن عبد العزيز بن رفيع، أخبر من سمع من مجاهد عن عبيد بن عمير أنه قال: قال آدم: يا رب خطيئتي التي أخطأت شيء كتبتَه عليَّ قبل أن تخلقني أو شيء ابتدعتُه من قِبل نفسي؟ قال: بل شيء كتبتُه عليك قبل أن أخلقك. قال فكما كتبته عليَّ فاغفره لي، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربّه كلماتٍ فتاب عليه﴾ وعن ابن عباس: قال آدم عليه السلام: ألم تخلقني بيدك؟ قيل له بلى، ونفخت فيَّ من روحك؟ قيل له بلى، وكتبتَ علي أن أعمل هذا. قيل له بلى؟ قال: أفرأيت إن تبتُ هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم. وكذا رواه العوفي، وسعيد بن جبير، وسعيد بن معبد ورواه الحاكم في مستدركه إلى ابن عباس.

وروى ابن أبي حاتم حديثاً مرفوعاً شبيهاً بهذا وعن مجاهد قال: الكلمات: اللّهم لا إله إلّا أنت سبحانك وبحمدك ربي إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خيرُ الغافرين. اللّهم لا إله

إلا أنت سبحانك وبحمدك ربي إني ظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم (١)

(١) قلت : كل ما تقدم يؤيده قوله تعالى : «قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» ومعنى ذلك أن آدم وحواء إعترفا بذنبيهما وجعلا هذا الاعتراف الذي هو مضمون ما علمهما الله سبحانه من التوسل وهو : (الاعتراف بالذنب) ثم طلبا المغفرة متوسلين اليه تعالى بتوبتيهما إليه أن يغفر لهما ذنبيهما ؛ فتاب عليهما إنه هو التواب الرحيم .

وأما ما رواه البيهقي في كتابه « دلائل النبوة » عن عمر بن الخطاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب أسألك بحق محمد الا ما غفرت لي فقال الله تعالى : يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه . قال يا رب إنك لما خلقتني رفعت رأسي ، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحبَّ الخلق إليك فقال الله تعالى صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي، وإذا سألتني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك.». رواه الحاكم وصححه . في هذا الحديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.قال الهيثمي:(رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم وان تصحيح الحاكم له خطأ لأنه هو الذي طعن بعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في كتابه : (الضعفاء) فكيف يصححه وفيه من طعن هو به ... ! ! ؟؟ أجل إن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه هي قوله تعالى « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . ولا عبرة لما خالف ذلك لأن الحجة بما يثبت عن الصحابة وعن سلف الأمة وأئمتها. ، ولا يجوز تفسير القرآن بأقوال شاذة أو موضوعة لا تثبت عند أهل العلم ، والحديث وأئمة التصحيح والترجيح . كما ينسب أيضا حكاية إلى مالك رضي الله عنه مع أبي جعفر المنصور وفيها أنه أي أبو جعفر سأل مالكاً فقال : يا أبا عبد الله : أأستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة. ، بل استقبله واستشفع به.هذا ما رواه ابن حميد عن مالك . وقد ردَّ الحفاظ على ابن حميد هذه الحكاية وذكروا أن أسنادها مظلم منقطع مشتمل على من يتهم بالكذب . أما من جهة الكذب فهناك أقوال الأئمة قالوا : إبن حميد هذا، تكلم فيه غير واحد من الأئمة ونسبه بعضهم إلى الكذب فقال يعقوب بن أبي شيبة السدوسي : محمد بن حميد الرازي كثير المناكير . وقال البخاري : حديثه فيه نظر . وقال النسائي : ليس بثقة . وقال الجوزجاني : رديء المذهب غير ثقة » قال فضلك الرازي : عندي عنه خمسون ألف حديث لا أحدث عنه بحرف . وقال أبو العباس أحمد بن محمد الأزهري سمعت إسحق بن منصور يقول.أشهد على محمد بن حميد الرازي وعبيد بن اسحق العطار بن يدي الله أنهما كذابان . وتكلم فيه غير هؤلاء من الحفاظ.وقال صالح بن محمد الحافظ : كل شيء كان يحدثنا به ابن حميد ، كنا نتهمه فيه .

وأما من جهة الانقطاع ، فيقول ابن تيمية رحمه الله : قلت:وهذه الحكاية منقطعة ، فإن محمد بن حميد الرازي لم يدرك مالكاً ، لا سيما في زمن أبي جعفر المنصور ، فإن أبا جعفر توفي بمكة سنة ١٥٨ وتوفي مالك سنة ١٧٩. ، وتوفي محمد بن حميد الرازي. ٢٤٨ ولم يخرج من بلده حين رحل في طلب العلم. ، إلا وهو كبير مع أبيه وهو مع ذلك ضعيف عند أكثر أهل الحديث. ، كذبه أبو زرعة وابن وارة ، وقال صالح بن محمد الأسدي. : ما رأيت أحداً أجرأ على الله منه ، وأحذق بالكذب منه . وآخر من روى الموطأ عن مالك هو أبو مصعب وتوفي سنة ٢٤٢ وآخر من روى عن مالك على الإطلاق هو أبو حذيفة أحمد بن اسماعيل السهمي توفي سنة ٢٥٩ وفي الإسناد من لا تعرف حاله لا سيما وإن مذهب مالك يناقض هذه الحكاية،فالمعروف من مذهب مالك وغيره،من الأئمة وسائر السلف.أن الداعي إذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم استقبل القبر ودعا له ، أما إذا دعا لنفسه فيستقبل القبلة ويدعو .

وقوله تعالى : « انه هو التواب الرحيم » أي انه يتوب على من تاب اليه وأناب . وهذا من رحمته بعبيده .

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٣٩ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته ، وإبليس حين أهبطهم من الجنة والمراد ذرية الجميع ، أنه سينزّل الكتب ، ويبعث الرسل ، والبينات والبيان ﴿ فمن تبع هداي ﴾ أي من أقبل على ما أنزلت من الكتب ، وأرسلت به الرسل ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة . ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا ، كما قال تعالى في سورة طه :

– وهكذا فإنه يؤخذ من هذا البحث المتقدم ، أن الوسيلة التي علمها الله لآدم ، ليغفر له ذنبه وخطيئته ، هي إعترافه بظلم نفسه ، وتوبته من هذا الظلم ، متوسلاً ، إلى الله تعالى بهذا الاعتراف ، وهذه التوبة . قال الله تعالى : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . ويؤخذ أيضا مما تقدم ... أن الأحاديث التي وردت بتوسل آدم عليه السلام بنبينا عليه الصلاة والسلام موضوعة ، فلا يحتجُّ بها قطعاً . وإن التوسل إليه تعالى لا يكون إلا بما شرع سبحانه من التوسل إليه بذاته وأسمائه وصفاته ، أو بالأعمال الصالحة التي هي من عمل المتوسل نفسه . لأن الله تعالى يقول : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » فعمل غيرك لا ينفعك ولا يصح أن تتوسل به ، لأنه ليس لك منه نصيب فلا ينفعك إلا ما عملته من الصالحات . مثال ذلك : توسل أصحاب الغار كل بعمله هو . أو التوسل بدعاء أخيك المؤمن لك ، فدعاء المؤمن لأخيه المؤمن جائز ، وهو من قبيل : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . ومثال التوسل بدعاء المؤمن لأخيه المؤمن ، كدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعمى الذي استجاب الله فيه دعاء رسوله صلى الله عليه وسلم فرد عليه بصره . واستسقاء المؤمنين بالعباس أي بدعاء العباس الذي دعا وقتئذ بناء على طلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي قال : اللهم كنا نتوسل بنبيك فتسقينا وإن نبيك قد قبضته إليك ، فها إننا نتوسل بعمه العباس ، ادع يا عباس . فرفع العباس يديه وقال : اللهم إننا نعلم أنك لا تنزل عقاباً إلا بذنب ، ولا ترفعه إلا بتوبة ، فها قد تبنا إليك اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين . فأرخت السماء . ومن هنا يتبين أنه لو كان قصد أمير المؤمنين ذات الرسول صلى الله عليه وسلم لقال : اللهم اننا نتوسل اليك بنبيك . إنما لما قال : وأن نبيك قد قبضته إليك أي أن نبيك كان يدعو لنا حال حياته ، أما الآن فقد قبضته إليك ، فلم يعد يدعو . لذلك نتوسل بعمه العباس أي بدعاء عمه العباس لأنه حي ويستطيع أن يدعو فدعا العباس كما تقدم بعد أن قال له عمر : ادع ، واختار عمر العباس للدعاء لأنه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما التوسل بذوات المخلوقين ، هذا مما ليس عليه دليل من الكتاب والسنة ، فلا يصح أبدا . وكل ما جاء من الأحاديث بجواز ذلك فهي موضوعة ومكذوبة والله الموفق . وإن شئت المزيد فراجع كتابنا : التوصل إلى حقيقة التوسل

﴿قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدوّ فإما يأتينّكم مني هدى فمن اتّبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص .

أورد ابن جرير ههنا حديثاً بالسند المتصل إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٢ [أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أقواماً أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم إماتةً حتى إذا صاروا فحماً ، أذن في الشفاعة .] وقد رواه مسلم من حديث شعبه عن أبي سلمة به .

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ٤٠ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ٤١﴾

يذكّر الله تعالى بني أسرائيل بمناداته لهم بهذا النداء .. يا بني إسرائيل «أي يا بني العبد الصالح المطيع لله ، كونوا مثل أبيكم في طاعته لله ، ومتابعته الحق ، كما تقول مثلاً : يا ابن الكريم كن كأبيك كريماً . وحاصله يا بني إسرائيل آمنوا بمحمّد ﷺ وكونوا متّبعين للحق الذي جاءكم به. وإسرائيل : هو يعقوب عليه السلام. ﴿أذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ أي نعمة الله التي نجاكم بها من عبودية فرعون ، وفجّر الحجر ، وأنزل المنّ والسلوى ، وجعل منكم الأنبياء والرسل. ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ أي أوفوا بعهدي الذي أخذته عليكم في التوراة ، أن تتبعوا محمّداً ﷺ فإن فعلتم ، أوفِ بعهدكم ، بوضع ما كان عليكم من الذنوب التي أحدثتموها ، وأدخلكم الجنّة .

﴿وإياي فارهبون﴾ أي فأخشوني وحدي. وقد انتقل من الترغيب إلى الترهيب بما نزل بمن كان قبلهم من آبائهم ، من النقمات التي عرفوها فدعاهم بالرغبة والرهبة لعلّهم يرجعون إلى الحق ويتّبعون محمّداً ﷺ . ﴿وآمنوا بما أنزلتُ مصدّقاً لما معكم﴾ أي آمنوا بالقرآن الذي فيه الإيمان بالله ورسوله كما في الذي معكم من التوراة التي تجدون فيها محمّداً ﷺ مكتوباً ومأمورون أن تؤمنوا به وتنصروه وتتّبعوا القرآن الذي أنزل عليه ﴿فلا تكونوا أول كافر به﴾ يعني أول من كفر به من بني إسرائيل في ذلك الزمن أي يهود المدينة الذين هم أول من بلغوا بالقرآن من اليهود وليس الأولية إطلاقاً لأن مشركي العرب هم أول من كفر به : إنما المقصود يهود المدينة ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ . أي لا تعاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي

بالدنيا وشهواتها ، فإنها قليلة فانية. كما قال عبدالله بن المبارك عن قوله تعالى : ﴿ ثمناً قليلاً ﴾ قال الثمن القليل الدنيا بحذافيرها أي تستبدلوا ما في القرآن من إيمان وعمل به بما في الدنيا من مباهج خلابة موقتة وعرض فان ﴿ وإياي فاتقون ﴾ التقوى : العمل بطاعة الله رجاء رحمته على نور من الله وان تترك المعاصي على نور من الله خوف عقاب الله. والمعنى : إن الله يتوعدهم فيما يتعمدون من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول ﷺ .

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٤٢ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣ ﴾

نهى الله سبحانه وتعالى عن شيئين هامين . وهما تمويه الحق، وكتمانه، وأمرهم بأن لا يخلطوا الحق بالباطل، وأن يظهروا الحق جلياً . أي لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام وأنتم تعلمون أن اليهودية والنصرانية إنما طور تموها إلى بدعة. والإسلام هو دينُ الله الحق . وروى ابن عباس : إن كتمان الحق هنا ، أي كتمان ما عند اليهود من معرفتهم بمحمد ﷺ وبما جـاء به ، بينما يجدونه مكتوباً عندهم في التوراه التي بين أيديهم . ﴿وأقيموا الصلاة﴾ أي مُرهُمْ بالصلاة وذلك بعد إيمانهم بما جاء به رسول الله عن ربه من البينات لأن الصلاة لا تصح بدون إيمان . وكذلك الزكاة والصوم والحج . فالإيمان برسالة محمد ﷺ أساس كل عمل ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ وأمرهم بالزكاة ، يدفعونها للنبي ﷺ ﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ أي كونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم وأكملها وهي الصلاة . والصلاة هنا تفيد الجماعة أي صلوا مع الجماعة . وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب صلاة الجماعة .

نصف الحزب

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ٤٤

يقول تعالى : كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير أن تنسوا أنفسكم ، فلا تأتمرون بما تأمرون به الناس ؟ وأنتم مـع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصّر في أوامر الله ؟ أفلا تعقلون ..؟ ! ما أنتم صانعون بأنفسكـم فتتنبهوا من رقدتكم وتبصّروا من عمايتكم . وهكذا فقد ذمّ الله تعالى أهل الكتاب في هذه الآية ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ لأنهم كانوا يأمرون الناس بالخير ولا يفعلونه فاستحقوا من الله الذم .

وليس المراد ذمهم على أمرهم بالمعروف مع تركهم له ، بل على تركهم له . فإن الامر بالمعروف معروف ، وهو واجب على العالم . ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ، ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب عليه السلام : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ .

وليس معنى ما تقدم ، أن العالم اذا كان يعمل منكراً مثلاً ، يجب أن لا ينهى عن المنكر الذي يرتكبه... قال مالك عن ربيعة : سمعت سعيد بن جبير يقول: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ... ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر . وقال مالك :وصدق ، من ذا الذي ليس فيه شيء ... ؟ قلت ـ يعني ابن كثير ـ لكنه والحالة هذه .. مذموم على ترك الطاعة ،وفعله المعصية ، لعلمه به ومخالفته على بصيرة . فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم ولهذا جاءت الأحاديث على ذلك في الوعيد .

روى الامام أحمد في مسنده : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ٦٣ [مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار قال : قلت : من هؤلاء .. ؟ قالوا خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون] .

وروى الإمام أحمد ـ بالسند ـ عن أبي وائل قال : قيل لأسامة وأنا رديفه : ألا تكلم عثمان ... ؟ فقال : إنكم ترون أني لا أكلمه إلاّ أسمعكم ... ؟ إني لأكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتتح أمراً أحب أن أكون أول من افتتحه ، والله لا أقول لرجل إنك خير الناس وإن كان عليّ أميراً بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول : قالوا وما سمعته يقول ؟ قال سمعته يقول : ٦٤ [يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون يا فلان ما أصابك .. ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه .] ورواه البخاري ومسلم .

وقال تعالى ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ وروى ابن عساكر في ترجمة الوليد بن عقبة عن النبي ﷺ قال : ٦٥ [إن أناساً من أهل الجنة يطّلعون على أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلاّ بما تعلّمنا منكم فيقولون : كنّا نقول ولا نفعل]

﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ٤٥
ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ٤٦ ﴾

يقول تعالى آمراً عبيده فيما يؤملون من خير الدنيا بالاستعانة بالصبر والصلاة ، قال ابن أبي حاتم بسنده إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الصبر صبران ، صبر عند المصيبة حسن وأحسن منه الصبر عن محارم الله . وقال ابن المبارك بسنده عن سعيد بن جبير قال : الصبر اعتراف العبد لله بما أصيب فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر .

وأما قوله : ﴿ والصلاة ﴾ فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر وعن حذيفة ابن اليمان ٦٦ [كان رسول الله ﷺ [إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة] وعن علي رضي الله عنه عنه قال ٦٧ [رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلي ويدعو حتى أصبح] وروى ابن جرير بسنده إلى عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه أن ابن عباس نعي إليه أخوه /قثم/ وهو في سفر فاسترجع ثم تنحىَّ عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ثم قام يمشي إلى راحلته، وهو يقول : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلاّ على الخاشعين ﴾ وقال ابن جرير معنى الآية : واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله ، وإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر المقربة لرضاء الله ، العظيمة أقامتها إلا على الخاشعين أي المتواضعين المستكينين لطاعته من مخافته . ا هـ

والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل فإنهم لم يُقصَدوا بها على سبيل التخصيص ، وإنما هي عامة لهم ولغيرهم والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم اليه راجعون ﴾ . هذا من تمام الكلام الذي قبله أي إن الصلاة لثقيلة إلاّ على الخاشعين الذين يظنّون أنهم ملاقوا ربهم أي يعلمون أنهم محشورون اليه يوم القيامة ، معروضون عليه وأنهم إليه راجعون.أي أمورهم راجعة إلى مشيئة الله يحكم فيها ما يشاء بعدله . فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات . فأما قوله: ﴿ يظنون أنهم ملاقو ربهم ﴾ قال ابن جرير عن مجاهد: كل ظن في القرآن يقين وفي رواية فهو علم .

قال ابن كثير : وفي الصحيح إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ٦٨ [ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخّر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربّع ، فيقول : بلى ، فيقول الله

تعالى : أظننت انك ملاقيّ ؟ فيقول : لا . فيقول الله تعالى : اليوم أنساك كما نسيتني] .
وسيأتي مبسوطاً عند قوله تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ إن شاء الله .

﴿ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ٤٧ ﴾

يذكرهم الله بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم ، وإنزال الكتب عليهم ، وعلى سائر الامم من أهل زمانهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ قال أبو العالية : قال : بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم زمانهم فإن لكلّ زمان عالماً وروي عن مجاهد وغيره : ويجب الحمل على هذا ، لأن هذه الأمة أي الأمة الاسلامية أفضل منهم ، لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾ ولا يجوز صرف المعنى إلى تفضيلهم على العالمين أي على من قبلهم ومن بعدهم. فإبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قبلهم وهو أفضل من كافة أنبيائهم . ومحمد ﷺ بعدهم ، وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ٤٨ ﴾

لما ذكّرهم الله تعالى بنعمه أولاً ... عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة فقال : ﴿ واتقوا يوماً ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ أي لا يغني أحد عن أحد كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ فهذا أبلغ المقامات. إن كلاً من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ﴾ يعني من الكافرين كما قال ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ أي فدية .كما قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ ويفسره قوله تعالى : ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم ﴾ فأخبر تعالى أنهم لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه الله به ، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه ولا يقبل منها فداءٌ

ولو بملء الأرض ذهباً . ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قيل له : ٦٩ [يا رسول الله : ما العدل ؟ قال : « العدل الفدية. »] ﴿ ولاهم ينصرون ﴾ أي ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله.وقال ابن جرير في قوله تعالى :﴿ ولاهم ينصرون ﴾ يعني إنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر ،كما لا يشفع لهم شافع،ولا يقبل منهم عدل ولا فدية ، بطلت هنالك المحاباة ، واضمحلت الرُّشى والشفاعات ، وارتفع من القوم التناصر والتعاون وصار الحكم للجبّار العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أمثالها وأضعافها.وذلك نظير قوله تعالى : ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون مالكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون ﴾ .

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٤٩ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٥٠ ﴾

يقول تعالى أذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم إذ خلّصتكم من آل فرعون، وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه الصلاة والسلام وقد كانوا يذيقونكم أشدّ العذاب ، وذلك إن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته ... ! رأى ناراً خرجت من بيت المقدس ، فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلاّ بيوت بني إسرائيل . مضمونها أن زوال ملكه على يد رجل من بني إسرائيل ويقال بعد تحدّث سمّاره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة . وهكذا جاء في حديث الفتون كما سيأتي في موضعه في سورة طه ... إن شاء الله . لذا فقد أمر فرعون بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل ، وترك البنات ، واستعمل بني إسرائيل في أشق الأعمال وأرذلها وسيأتي تفسير ذلك مفصلاً في سورة القصص ، إن شاء الله .

ومعنى ﴿ يسومونكم ﴾ أي يديمون عذابكم وإنما قال ها هنا : ﴿ يُذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ ليكون ذلك تفسيراً للنعمة عليهم بقوله آنفاً : ﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ بمعنى أن فرعون وآله كانوا يسومونهم سوء العذاب ، فيذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم . فيذكرهم الله بنعمته إذ نجاهم من ذلك بعد البلاء الشديد . وفرعون علَمٌ على كل ملك من ملوك مصر الكافرين في ذلك الزمن ويقال أنه من

العمالقة واسمه « الوليد بن مصعب بن الريّان » وقيل مصعب بن الريان وأيّاً من كان عليه لعنة الله .[١]

وقوله تعالى : ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ قال ابن جرير : وفي الذي فعلنا بكم من إنجائكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم ، أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك . وكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره كمجاهد وأبي العالية وأبي مالك والسدي وغيرهم وأصل البلاء : الأختبار . وقد يكون بالخير والشر كما قال تعالى : ﴿ ونبلوهم بالشر والخير فتنة ﴾ وقال ابن جرير : وأكثر ما يقال في الشر بلوته أبلوه بلاءً وفي الخير : أبليه إبلاءً وبلاءً . ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم ﴾ أي بعد أن أنقذناكم من آل فرعون ، وخرجتم مع موسى عليه السلام ، خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر أي أوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فلما ضرب موسى بعصاه البحر فانفلق ، فكان كل فرقٍ كالطود العظيم . ثم سار موسى ومن معه وأتبعهم فرعون في طريقهم، حتى إذا تتاموا فيه ، أطبقه الله عليهم : فلذلك قال الله تعالى: ﴿ وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ وكذلك قال غير واحد من السلف. وقد ورد أن هذا اليوم أي يوم غرق فرعون ونجاة بني اسرائيل كان يوم عاشوراء أي العاشر من المحرّم كما روى أحمد بن حنبل عن ابن عباس قال : ٧٠ [قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهوديصومون يوم عاشوراء فقال : (ما هذا اليوم الذي تصومون ؟) قالوا هذا يوم صالح . هذا يوم نجّى

---

(١) قلت : فرعون هذا ، كان يقول أنا ربكم الأعلى ... فرعون هذا ، إدعى الربوبية ، وعذب المؤمنين من بني إسرائيل ... فليس في المسلمين من لا يشهد بكفر فرعون وكونه خالداً في نار جهنم أبداً لا يخفف عنه العذاب . وهذا ما تشهد له الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة ولكن برغم هذا كله فإن هناك فرقة زعمت إنها من المسلمين !!! يقولون بنجاة فرعون من النار وأنه سيدخل الجنة وأنه آمن وما إلى ذلك من الكلام المخالف لصريح القرآن وصحيح السنة . أما ما يستندون إليه في إيمانه هو قوله أثناء غرقه وحين النزع ، وحين أن بلغت روحه الخبيثة الحلقوم ، ورأى ما كان يكفر به حاضراً أمام عينيه ؛ إذ رأى مقعده من النار —: „آمنت بالذي آمنت به بنو اسرائيل „ وفي هذه الحالة معلوم من نص القرآن أنه لا يقبل إيمان نفس لم تكن آمنت من قبل . وانه لما قال :" آمنت بالذي آمنت به بنو اسرائيل قال الله له « آلآن ... ؟ يعني الآن ... ؟ وبعد ما فات الأوان ... ؟ لأن الذي كان مكلفاً أن يؤمن به بظهر الغيب ، رآه شهادة وكان يكفر به قبل ذلك . فرؤيته شهادة وإيمانه به بعد هذه المشاهدة ، لا يقدم القضية ولا مثقال ذرة لأن الإيمان بالشيء المشاهد ، يؤمن به كل إنسان ، ولا يكفر به أحد ، لأنه مشاهد ، ولكن الإيمان الحقيقي هو الإيمان بالغيب ، أي أن تؤمن بالشيء الذي لا تراه كأنك تراه تماماً ، وفي ذلك يكون شدة تصديق بالمبلغ عليه الصلاة والسلام عندك . وعلى كل نحن نسأل الله تعالى أن يهدي هؤلاء الذين يؤمنون بنجاة فرعون إلى الحق والصواب فيشهدوا بكفره . وإذا أبوا ... فنسأل الله أن يحشرهم مع فرعون حيث كان . ألا لعنة الله على فرعون ، وآل فرعون الأولين ... (والآخرين ... ؟!!!) أعاذنا الله من الكفر والخذلان وسوء المنقلب .

الله عز وجل بني اسرائيل من عدوّهم فصامه موسى عليه السلام فقال رسول الله ﷺ : (أنا أحقّ بموسى منكم) فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه] البخاريُّ ومسلم والنسائي وابنُ ماجه من طرقٍ عن أيوب السختياني .

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ٥١ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٢ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ٥٣ ﴾

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى عليه السلام لميقات ربّه عند أنقضاء أمدِ المواعدة وكانت أربعين يوماً وهي المذكورة في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ﴾ قيل إنها ذو القعدة بكماله وعشر من ذي الحجة وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر . وقوله تعالى : ﴿ وإذْ آتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة . ﴿ والفُرقان ﴾ وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدىَ والضلالة.وقيل إنّ الواو هنا زائدة وهذا غريب . وقيل عطف عليه وإن كان المعنى واحداً كما في قول الشاعر :

وقدّمتُ الأديم لراقشيه فألفي قولَها كذِباً ومينا
وقول الآخر : ألا حبذاَ هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأيُ والبعدُ

فالكذب هو المين ، والنأيُ هو البعدُ.

﴿ لعلكم تهتدون ﴾ بالتوراة التي هي الفرقان بين الهدىَ والضلالة . وكانت المواعدة بعد خروجهم من البحر .كما دلّ على ذلك سياق الكلام في سورة الأعراف.ولقوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ... ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤ ﴾

في هذه الآية صفة توبتهِ تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل في غياب موسى عليه

الصلاة والسلام في مواعدة ربّه وقد شعروا بعظم الجريمة العظمى التي اقترفوها ... ! وهي الشرك بالله سبحانه ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا : ﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ويغفرْ لنا ... الآية ﴾ فقال موسى : ﴿ يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم ﴾ [1] وفي قوله هنا: ﴿ إلى بارئكم ﴾ تنبيه على عظم جرمهم أي فتوبوا إلى الله الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره .

وقد روى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث يزيد بن هارون بالسند إلى ابن عباس قال : فقال الله تعالى : إن توبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف . ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن فتاب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ما أطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول .

قال ابن جرير : اخبرني القاسم بن أبي برة أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهداً يقولان في قوله تعالى : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ قالا : قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضاً لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد حتى ألوىَ موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم فكشف عن سبعين ألف قتيل . وإن الله أوحى إلى موسى أن : حسبي فقد أكتفيت . فذلك حين ألوى موسى بثوبه . [2]

وروى ابن جرير باسنادٍ جيد عن الزهري قال فيما قاله بشأن هذا الأمر ... وحزن موسى وبنو اسرائيل للذي كانَ من القتل فيهم فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى . ما يحزنك؟أما من قتل منهم فحيٌّ عندي يرزقون وأما من بقي فقد قبلت توبته . فسُرَّ بذلك موسى وبنو إسرائيل فذلك قوله : ﴿ فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ٥٦

يقول تعالى : أذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم بعد الصعق إذ بعثتكم بعد أن سألتم رؤيتي جهرةِ عياناً مما لا يستطاع لكم ، ولا لأمثالكم. قال ابن عباس في هذه الآية : ﴿ وإذ

(١) قلت : إن عبادة العجل شرك بالله تعالى . والشرك أعظم الظلم عند الله ، ولذا قال موسى لهم : « ظلمتم أنفسكم » وما راعيتم حق الذي خلقكم وأنعم عليكم بإنجائكم من فرعون والغرق ، فكيف تعبدون سواه ؟ فالذي خلق وأنعم ونجى وحده هو الذي يستحق العبادة وحده. وهو الله تعالى وتقدس لا شريك له له الملك وله الحمد .

(٢) اكتفاء يليق بجلاله لا كاكتفاء المخلوقين فإن الله غني عن العالمين .

قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة ﴾ قال علانية . وعن الربيع بن أنس هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه قال فسمعوا كلاماً فقالوا ﴿ لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة ﴾ قال فسمعوا صوتاً فصعقوا . قال مروان بن الحكم فيما خطب به على منبر مكة : الصاعقة صيحةٌ من السماء ، وقال السدّي في قوله تعالى : « فأخذتكم الصاعقة » نار[١] » وقال عروة بن رويم في قوله : « وأنتم تنظرون » قال صعق بعضهم وبعض ينظرون ، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء[٢] قال السدى ؛ « فأخذتكم الصاعقة » فماتوا فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : ربي ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكتَ خيارهم ﴿ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا ﴾ فأوحى الله إلى موسى إن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجلاً رجلاً ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون[٣] ويقول السدى في ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾ قال الربيع بن أنس كان موتهم عقوبة لهم فبعثوا من بعد موت (العقوبة)ليستوفوا آجالهم وقد ذهب البعض إلى أن رؤية بني إسرائيل لهذه النعم وهذه المعجزات المتقدمة أسقطت عنهم التكليف لمعاينتهم الأمر جهرة حتّى صاروا مضطرين إلى التصديق وقد قال آخرون : هذا قول مردود لأن معاينتهم للأمور الفظيعة لا تمنع تكليفهم لأن بني إسرائيل قد شاهدوا أموراً عظاماً من خوارق العادات وهم في ذلك مكلفون وقد أورد القولين الماوردي ووافقه القرطبي على الثاني وهو الأصح لئلاً يخلو عاقل من التكاليف والله أعلم .[٤]

---

(١) قلت : ويمكن الجمع بين قولي مروان والسدي : بأن الصاعقة لها صوت، ولها نار ومصدر هامن السماء والله أعلم .

(٢) قلت : وهذا بعيد لأن المفهوم أن الصعق كان مرة واحدة للجميع ولعل قول السدي هو الأصح والله أعلم .

(٣) قلت : فذلك قوله تعالى : « وأنتم تنظرون » وهذا أقرب من قول عروة بن رويم والله أعلم .

(٤) قلت : وثمة دليل آخر على تأييد القول الثاني . وهو : أن الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام على علم حقيقي تام بمعاينتهم أموراً أعظم مما عاينه بنو اسرائيل بكثير ، كرؤية جبريل وإخبارهم بأنهم رسل الله إلى الناس وإنزال الوحي عليهم ، وتأييد الله لهم ، ورؤية أشياء من عالم الغيب ، كأنها شهادة ، كما حصل لنبينا عليه الصلاة والسلام من مواجهة الأنبياء ليلة الاسراء وإمامته فيهم، ورؤية السموات العلى سماء فسماء ورؤية من فيهن وما فيهن ، والجنه والنار والصراط، ورؤية بعض أشخاص في الجنة أو في النار والتحدث بذلك لصحابته وتكليم الله له ليلة المعراج بلا واسطة - دونما رؤية - ثم عودته إلى الأرض إلى مكة قبل أن ينصدع الفجر وسوى ذلك من المعجزات كل ذلك كان موجباً لاسقاط التكليف - فيما لو صح القول الأول - ولكن مع كل هذا لم تسقط التكاليف عن أحد منهم .

حتّى لما قيل له قد غفر الله لك من ذنبك ما تقدم وما تأخر فلم لجهاد النفس في العبادة؟ وكانت قد تورمت قدماه من طول القيام - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ٧١ (أفلا أكون عبداً شكوراً). وقوله تعالى «« واعبد ربك حتّى يأتيك اليقين » أما معاينتهم تلك تلزمهم بالتصديق فهذا مؤكد والله أعلم .

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ٥٧

لمّا ذكر الله تعالى ما دفعه عنهم من النقم ، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم فقال : ﴿ وظلّلناعليكم الغمام ﴾ وهو جمع غمامة لأنه يغم السماء أي يسترها وهو السحاب الأبيض ظُلّلوا به في التية ليقيهم حرّ الشمس . قال ابن جرير وآخرون : غمام أبرد من هذا وأطيب ، وهو ليس من نوع السحاب المعروف عندنا . وقد قال ابن أبي حاتم بالسند عن مجاهد قال : ليس بالسحاب . هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة و لم يكن إلاّ لهم . وهكذا رواه ابن جرير والثوري عن ابن عباس وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر وقال ابن عباس : وكان معهم في التيه وقوله تعالى : ﴿ وانزلنا عايكم المن والسلوى ﴾ اختلف المفسّرون في المنّ ما هو... ؟ فمن قال إنه كالطلّ ويشبه الربَّ الغليظ(١) ومنهم من قال: إنه كان ينزل مثل الثلج أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يأخذ الرجل منه قدر ما يكفيه يومه ذلك فاذا تعدّى ذلك فسد ولم يبق حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ ما يكفيه يوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه لشيء . والظاهر والله أعلم انه كل ما أُمتن الله بـه عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس فيه عمل ولا كدّ ، فالمنّ المشهور إن أُكل وحدَه ، كان طعاماً وحلاوة ، وإن مزج مع الماء ، صار شراباً طيباً ، وإن ركّب مع غيره صار نوعاً آخر ، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده . والدليل على ذلك ما رواه البخاري عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ ٧٢ : [الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين] ورواه أحمد والجماعة في كتبهم إلا أبا داود (٢)

واما السلوى : فقال عليٌّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : السلوى طائر يشبّهُ بالسماني كانوا يأكلون منه . وقال ابن أبي حاتم بالسند إلى ابن عباس قال : السلوى هو السماني وكذا قال مجاهد والشعبي والضحاك والحسن وعكرمة والربيع بن أنس رحمهم الله وقال قتادة : السلوى كان من طير أقرب إلى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب . وكان الرجل يذبح منها بقدر

(١) أي ما نسميه اليوم بالمربى وهو نوع من الحلوى .

(٢) قلت : من قوله (الكمأة من المان ...) يدل على أن المن ليس نوعاً واحدا انما هو أنواع ومن أنواعه الكمأة ... والله تعالى أعلم .

ما يكفيه يومه ذلك فإذا كان يوم جمعته أخذه وليوم سبته لأن السبت يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه . ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أي كلوا من هذه الطيبات التي رزقناكم ، وهو أمر إباحة وإرشاد وامتنان وقوله تعالى : ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا. كما قال ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له ﴾ وشكر الله عبادته كما أمر فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم بأخذهم الكفر وتفضيلهم له على الإيمان رغم ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات فاستحقوا من الله عذاب النار فذلك قوله : ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ومن ها هنا تتبيّن فضيلة أصحاب محمّد ﷺ رضي الله عنهم على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته ، منها عام تبوك في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق العادة ، ولا إيجاد أمر ، مع أن ذلك كان سهلاً على النبي ﷺ إلا سؤالهم له تكثير الطعام لما أجهدهم الجوع ، وكذلك لما أحتاجوا إلى الماء ، فسأل الله ودعاه فزاد الأكل حتى ملأوا كل وعاء .

وسأل الله من أجل المـاء ، فجاءتهم سحابة ، فأمطرتهم فشربوا وسقوا الإبل وملأوا أسقيتهم . فهذا هو الأكمل في اتّباع الشيء مع قدر الله مع متابعة الرسول ﷺ

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ٥٩ .

يقول الله تعالى على نكولهم عن الجهاد ، ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبةَ موسى عليه الصلاة والسلام فأمروا بدخول الأرض المقدّسة التي كانت ميراثاً لهم عن أبيهم إسرائيل عليه الصلاة والسلام . وقتال من فيها من العماليق الكفرة فنكلوا عن قتالهم وضعفوا فرماهم الله في التيه عقوبة لهم .

وقد اختلف المفسرون في تعيين اسم لهذه القرية ؛ فمن قائل : إنها أريحا فلسطين ومن قائل إنها مصر ، ولكن أصح الأقوال أنها بيت المقدس بدليل ما قاله الله تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام في سورة المائدة : ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ هذا ولما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة ، مع يوشع بن نون عليه السلام، وفتحها الله عليهم عشية جمعة ولما فتحوها أمرهم الله: ﴿ وادخلوا

الباب سجداً ﴾ أي باب بيت المقدس سجّداً أي ركّعاً وذلك شكراً لله تعالى على نعمة الفتح والنصر وانقاذهم من التيه والضلال، وأمرهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وقولوا حطّة ﴾ أي مغفرةٌ يا ربّ عما صدر منّا من الذنوب اللهم فحط عنا خطايانا (١)

ولكن بني إسرائيل عوضاً عن أن يدخلوا باب بيت المقدس سجّداً أي ركّعاً شاكرين لله، دخلوه زحفاً على أستاهم مستهزئين ، وعوضاً عن أن يقولوا ﴿حطّة﴾ أي احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزأوا وقالوا : / حبّة في شعرة / .

فقد روى عبد الرزاق عن أبي هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : ٧٣ [قال الله لبني إسرائيل : ﴿ أدخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفرْ لكم خطاياكم . ﴾ فبدّلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاهم فقالوا : حبّة في شعرة] وهذا حديث صحيح رواه البخاري عن إسحق بن نصر ومسلم : عن محمد بن رافع والترمذي عن عبد الرحمن بن حميد كلهم عن عبد الرزاق به . ﴿ فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ أي بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل فاستهزأوا ... ! ! ! وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته فقال : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب . والرجز أيضاً الطاعون لما قال ابن أبي حاتم بالسند المتصل إلى سعد بن مالك ، وأسامة بن زيد ، وخزيمة بن ثابت رضي الله عنهم قالوا : قال رسول الله ﷺ : ٧٤ [الطاعون رجز ، عذابٌ عذّب به من كان قبلكم]

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ٦٠

يذكّر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بنعمته عليهم بإجابة موسى عليه الصلاةُ والسلام حين استقى لهم فيسر الله الماء . وأخرجه سبحانه لهم من الحجر وفجر لهم منه اثنتا عشرة عيناً لكل سبط من أسباطهم عين قد عرفوها . وقال لهم : ﴿ كلوا واشربوا ﴾ أي كلوا من المنّ والسلوى واشربوا من هذا الماء الذي أنبعه الله بلا سعي منكم ولا كدّ ، واعبدوا الله الذي سخّر لكم ذلك ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ أي ولا تقابلوا النعم بالعصيان ، فتُسلَبوها

(١) قلت : وفيه دليل على التوسل بالأعمال الصالحة إلى الله سبحانه وذلك بأن الله تعالى طلب إليهم أن يعترفوا بذنوبهم حتى يكون هذا الاعتراف وسيلة لمغفرة الذنب .

وقد اختلف في نوع الحجر الذي انفجرت منه العيون الأثنتا عشرة هل هو حجر معيّن أو هو حجر مّا من الأحجار. فقيل وقيل وقيل. قال الحسن : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه قال: وهذا أظهر للمعجزة وأبين في القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه ثم يضربه فييبس . وهو أقرب للصواب والله أعلم .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾

يُذكّر الله بني إسرائيل بنعمته في إنزاله عليهم المنّ والسلوى طعاماً طيباً نافعاً ويذكّرهم بضجرهم من هذا الرزق الهنيء السهل، وسؤالهم موسى عليه السلام إستبداله ، بقولهم له : ﴿ يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربّك يخرجْ لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . ﴾ فإنهم لم يصبروا على طعام واحد وهو المن والسلوى دون أن يتبدّل أو يتغيّر ، فملّوه وكرهوه وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه قبل التيه وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقل، فأرادوا تنويع مآكلهم مما تنبت الأرض من هذه الأشياء التي كانوا يزرعونها . فأما البقل والقثاء والعدس والبصل فكلها معروفة . وأما الفوم فقد أختلف السلف في معناه . فمن قال : الفوم هو الثوم كما وقع في قراءة ابن مسعود : ﴿ وثومها ﴾ بالثاء . وكذا فسّره مجاهد والربيع بن أنس فإن كان ذلك صحيحاً فإنه أي حرف الفاء من الحروف المبدلة في أثافي : أثاثي . وأشباه ذلك مما تقلب فيه الفاء ثاءً والثاء فاءً لتقارب مخرجيهما والله أعلم .

وقال آخرون : إن للفوم : الحنطة . كما قال ابن عباس : إن الفوم الحنطة بلسان بني هاشم . وقال آخرون : إن الفوم هو ، كل ما يختبز منه . قال البخاري : وقال بعضهم : الحبوب التي تؤكل: كلها فوم (١)

---

(١) قلت : لعل تفسير الفوم بالحنطة أو بكل ما يختبز .. أقرب إلى الصواب من تفسيره بالثوم وذلك من وجهين
١ – يفهم من ترتيب ذكر هذه الأشياء في الآية الكريمة : أن الله ذكر البقل والقثاء إلى بعضهما لتقارب النوع في الأصل وهو البذور . ثم ذكر الفوم والعدس لتقارب نوعيهما في الأصل لأنهما من نوع الحبوب ولو أن الفوم هو الثوم لتأخر ترتيب ذكره مع البصل لتقاربهما في الأصل وفي الخبث .
٢ – إن الحنطة وكل ما يختبز منه ضرورة معاشية أكثر من الثوم إذ حاجة الناس للحنطة ، ولكل ما يختبز كالشعير والذرة ... أكثر من حاجتهم إلى الثوم والله أعلم . أضف إلى ذلك أن الفوم: الحنطة في لغة بني هاشم فلما طلب بنو إسرائيل هذه الأشياء ... وفضلوها على المن والسلوى وبخهم الله تعالى فقال : « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، إهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم » .

وقوله تعالى : ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ هكذا هو منوّن مصروف مكتوب بالألف بالمصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف . وقال ابن جرير : ولا أستجيز القراءة بغير ذلك لإجماع المصاحف على ذلك . والمعني : أن اهبطوا مصراً من الأمصار لا / مصر فرعون / لأن موسى عليه الصلاة والسلام قال لهم : هذا الذي سألتم ليس بأمرٍ عزيزِ المنال ؛ بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه . فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه . ولهذا قال : ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير إهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ﴾ أي ما طلبتم ولما كان سؤآلهم من باب البطر والأشر ، ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم .

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ ٦١

يقول تعالى : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ أي وضعت عليهم وألزموا بها شرعاً وقدَراً [١] أي لا يزالون مستذلّين ... وكل من وجدهم إستذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصَّغار وهم مع ذلك أذلاء في نفوسهم مستكينون بما أذنبوا . قال الحسن : أذلّهم الله فلا منعة لهم ، وجعلهم تحت أقدام المسلمين [٢] وقد أدركتهم هذه الأمة ، وإن المجوس لتجبيهم الجزية . ﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ يعني رجعوا بآثامهم ، وانصرفوا متحملين غضب الله وسخطه اللذين وجبا عليهم بما أسلفوا من الآثام .

﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيّين بغير الحق. ﴾ يقول تعالى : إن مجازاتهم بضرب الذلة والمسكنة عليهم ، وبغضب الله وسخطه كانت بسبب استكبارهم عن اتباع الحق . وإهانتهم حمَلةَ الشرع وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعدم اتباعهم . وقد انتقصوا

(١) قلت – : شرعاً : أي بما اقترفوه من الكفر والآثام لذا فإنهم – بعد ما كفروا – كانوا ولا يزالون مستذلين ... وكل من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار .
وقدراً : أي بما سبق في علم الله سبحانه مما سيكون منهم من اختيار الكفر على الإيمان بعد ما يهدون إليهما من قبل الله – هداية دلالة – وسيعاقبون على كفرهم بالذلة والمسكنة والغضب لذلك فإنهم في أنفسهم وجبلتهم أذلاء مستكينون .

(٢) قلت – : نعم « جعلهم تحت أقدام المسلمين – هم وغيرهم – لما كان للمسلمين دولة تحكم بما أنزل الله. وكانوا أهلا لحمل رسالة الإسلام فحملوها وتتنذ بإخلاص لله ولكتابه ولرسوله لا يحيدون عنها قيد أنملة . ولكنهم لما جعلوا كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم واستبدلوها بشرع أعداء الله وأعدائهم ، أذلهم الله وجعل بلادهم « فلسطين » تحت أقدام اليهود بينما كان اليهود بالأمس تحت أقدام المسلمين لا لأن اليهود خير فاليهود هم المغضوب عليهم... بل لأن المسلمين تخلوا عن مسؤولياتهم في حمل رسالة الاسلام وحكموا بغير ما أنزل الله . فهل للمسلمين أن يعودوا إلى الله ، ليعود مجدهم ويعود اليهود كما كانوا تحت أقدام المسلمين؟

حقهم لدرجة أن أفضى الحال إلى قتلهم بغير الحق أي بلا جرم فعلوه . فلا كفرَ أعظم ولا أبلغ من ذلك . روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : ٧٥ [أشد الناس عذاباً يوم القيامة ، رجل قتله نبي ، أو قتل نبياً، وإمام ضلالة ، وممثل من الممثلين .] وجاء في الحديث المتفق عليه : ٧٦ [الكِبْرُ بطر الحقّ وغمط الناس] أي ردّ الحق وانتقاص الناس والازدراء بهم والتعاظم عليهم ولذا أحلَّ الله بهم بأسه الذي لا يردُّ ، وكساهم ذلاً في الدنيا والآخرة ... جزاءً وفاقا . ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ وثمة علةٍ أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به، وذلك بموجب فعلهم المعاصي وارتكابهم محارم الله،واعتدائهم حدّ ما نُـهوا عنه والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَارَىٰ وَٱلصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ٦٢

لما بين الله سبحانه في الآيات السابقة ، حال الكفار والمنافقين واليهود وسائر من خالفوا أوامره ، وتعدوا فعل ما لا إذن لهم فيه منه تعالى ، وبين ما أحلّ بهم من النكال نبّه تعالى على أن كذلك من أحسن من الأمم السالفة، وأطاع أوامر الله كما أمر سبحانه فإن له جزاءً الحسنى . وكذلك الأمر إلى يوم القيامة ... فكل من اتبع رسول الله النبيّ الأمي فله السعادة الأبدية ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه في الآخرة ، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلّفونه في الدنيا . ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ وهم أمة محمّد ﷺ ، وسميت هذه الأمة : مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية [١]

﴿ والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر . ﴾

أي الذي آمن من اليهود والنصارى والصابئين [٢] سواءً في ذلك الأمم السابقة منهم الذين

(١) قلت : وسواء في ذلك من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه ، أو من آمن به قبل بعثته أمثال : قس بن ساعدة الأيادي ، وزيد بن عمر بن نفيل، وورقة بن نوفل ، والبراء الشني ، وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي ، وبحيرا الراهب ووفد النجاشي . فمنهم من أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وتابعه ومنهم من لم يدركه ... فهؤلاء جميعاً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم الذين عناهم الله فيمن عناهم إلى يوم القيامة في قوله بهذه الآية « إن الذين آمنوا » والله تعالى أعلم .

(٢) قلت – : اليهود والنصارى هم – كما هو معلوم – الأمتان اللتان تنتسبان إلى موسى وعيسى عليهما السلام وهذان الاسمان لزما اليهود والنصارى زمن موسى وعيسى عليهما السلام لما كانوا على الحق وبقيا لازمين لهما كاسم الإسلام لأمة محمد صلى الله عليه وسلم. أما «الصابئون فقد اختلف المفسرون في أمرهم ... فمنهم من –

آمنوا بأنبيائهم وكتبهم ولم يغيروها ولم يبدّلوها وماتوا على ذلك . أو ممن أدركوا منهم رسول الله ﷺ أمثال عبدالله بن سلام والنجاشي وسلمان الفارسي وآمنوا بالله ورسوله وعملوا صالحاً فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فإن الله لا يقبل عملاً من أحد إلاّ ما كان موافقاً لشريعة نبيّه عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين . ﴾

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٦٣ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَاسِرِينَ ٦٤

يذكّر الله تعالى بني إسرائيل ما أخذه عليهم من العهود والمواثيق باتباع التوراة وما فيها من التوحيد والأحكام . ولما أبوا أن يطيعوا أمر الله ، أمر الله الجبل أن يقع عليهم وقد غشيهم كأنه ظلّة ، وظنوا أنه واقع بهم فسقطوا سجّداً على شقٍ ، ونظروا بالشق الآخر ، تائبين لله . فكشف الله عنهم الجبل . وذلك قوله تعالى : ﴿ ورفعنا فوقكم الطور ﴾ ثم تولّيتم من بعد ذلك ونقضتم ما عاهدتم الله عليه ﴿ فلولا فضل الله عليكم ﴾ بتوبته ، وإرسال النبيّين والمرسلين إليكم لكنتم بنقض الميثاق المؤكّد العظيم من الخاسرين في الدنيا والآخرة .

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ٦٥ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ٦٦

— قال: هم قوم كانوا على فطرتهم ، ولا دين مقرر لهم يتبعونه. ولذا كان المشركون ينبزون من أسلم ... بالصابىء أي أنه خرج من سائر الأديان . وقال آخرون : الصابئون هم الذين لم تبلغهم دعوة نبي ومن قال : أنهم عبدة النجوم والكواكب. ومن قال أنهم سموا صابئة لأنهم خرجوا من دين اليهود وعبدوا الملائكة والكواكب.
وقال ابن تيمية : رحمه الله تعالى : — وقوله هو الأصح والله أعلم ــ نلخصه هنا من كتابه « الرد على المنطقيين » : كانت « حران » دار الصابئة وكان بها هيكل العلة الأولى ، وهيكل العقل الأول وهيكل النفس الكلية ، وهيكل زحل ، وهيكل المشتري ، وهيكل المريخ ، وهيكل الشمس وكذلك الزهرة وعطارد والقمر .
وكان دينهم قبل ظهور النصرانية ، ثم ظهرت النصرانية فيهم مع بقاء أولئك الصابئة المشركين وكان جامع دمشق معبداً كبيراً... له قبلة إلى القطب الشمالي . والصابئة نوعان : ١ – حنفاء موحدون ، ٢ : وصابئة مشركون . فالأول هم الذين أثنى عليهم الله بهذه الآية . فأثنى الله على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً . » اهـ

يقول تعالى : ولقد علمتم يا معشر اليهود ما أحل من البأس والنكال بأهل « إيلة » الذين عصوا أمر الله فيما أُخذَ عليهم من تعظيم يوم السبت وعدم العمل فيه . فتحايلوا على اصطياد الحيتان التي كانت ما تأيتهم إلاّ يوم السبت ، بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك فلا تستطيع الخروج منها طيلة يوم السبت فيأتون إليه ليلة الأحد ، ويأخذون زاعمين أنهم لم يصطادوه يوم السبت بحيلهم هذه مع أن فعل الصيد ، وقع في السبت بفعل ما فعلوه قبل يوم السبت فلذلك مسخهم الله قردة مسخاً حقيقياً .

وقد كان أهل هذه القرية قسمين .. قسم أحتالوا وقسم لم يحتالوا أبداً ، وهؤلاء على قسمين أيضاً قسم كان ينهى عن الصيد وقسم آخر لم ينه ، فلما حل العذاب نزل بالذين احتالوا ... وبالذين لم ينهوهم سواءً ... جزاء عدم النهي . ولم ينجُ إلا أولئك الذين نهوهم عن هذه المعصية . قال عطاء الخراساني : نودوا يا أهل القرية : كونوا قردة خاسئين فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون : ألم ننهكم ؟ فيقولون برؤوسهم أي بلى ولما كان المسخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام ، فبقوا قردة ثلاثة أيام لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون ثم ماتوا . قال ابن عباس : فلولا ما ذكر الله أنه نجّى الذين نهوا عن السوء لأهلك الله جميع القرية .

قوله تعالى : ﴿ وجعلناها نكالاً ﴾ فالضمير عائد على القرية وقيل على المسخة والعقوبة والصحيح القرية ، أي جعل الله أهل هذه القرية بسبب اعتدائهم في السبت نكالاً أي عاقبناهم عقوبة فجعلناها عبرةً ، ولمن حولها من القرى ولبني اسرائيل كيلا يعملوا مثل أعمالهم . وقوله تعالى : ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ أي موعظة للمتّقين الذين من بعدهم إلى يوم القيامة . فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم . وقد كان ذلك في عهد داود عليه السلام . قال الله تعالى : ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ۞ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ﴾

روى ابن بطة بالسند المتصل إلى أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٧٧ [لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارمَ الله بأدنى الحيل] وهذا إسناد جيد وفي سنده أحمد بن محمد بن مسلم وثقه الحافظ أُبو بكر الخطيب البغدادي وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح والله أعلم .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً
قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ ٦٧
قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ٦٨ قَالُوا
ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ
فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ٦٩ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ
ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ ٱللهُ لَمُهْتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا
ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْئٰنَ جِئْتَ
بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ٧١

روى ابن أبي حاتم بالسند المتصل إلى محمد بن سيرين عن عبيدة السلماني قال : « كان رجل من بني إسرائيل عقيماً، وكان له مال كثير وكان ابن أخيه وارثه فقتله. ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدَّعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض فقال ذوو الرأي منهم والنُّهى : علامَ يقتل بعضكم بعضاً ، وهذا رسول الله فيكم فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له، فقال ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرةً قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . ﴾ قال فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة . ولكنهم شددوا فشدَّد الله عليهم حتى أنتهَوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً فأخذوها بملء جلدها ذهباً . فذبحوها فضربوه ببعضها فقام فقالوا من قتلك ... ؟ فقال هذا ... وأشار إلى ابن أخيه ثم مال ميتاً . فلم يُعطَ من ماله شيئاً، فلم يورَّث قاتلٌ بعد . والظاهر أن هذه القصة مأخوذة من كتب بني إسرائيل . وهي مما يجوز نقلها ... ولكن لا تصدّق ولا تكذّب ، ولذلك لا يعتمد عليها إلا بما وافق الحق عندنا ... والله أعلم .

• • •

يقول تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ .

يذكّر الله تعالى بني إسرائيل بنعمته عليهم في خرق العادة لهم في شأن البقرة وبيان القاتل فلما شكوا أمرهم إلى موسى عليه السلام قال : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، قالوا أتتخذنا هزوا ﴾ أي تستهزيء بنا... ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ فهو يلجأ إلى الله عائذاً به أن يكون من المستهزئين الجاهلين والنبيّ لا يفعل هذا ... فلما تيقنوا الجدّ في قول موسى عليه السلام ﴿ قالوا أدعُ لنا ربك يبيّن لنا ما هي... ﴾ وما كان الله ليأمر إلاّ أن يذبحوا بقرةً ما ... أيّاً كانت ... ولكنّ عنادهم ، وكثرة سؤالهم على أنبيائهم ، دعاهم أن يقولوا : ﴿ أدع لنا ربّك يبينْ لنا ما هي ... قال أنه يقول إنها بقرةٌ لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ﴾ أي لا كبيرة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل ، بل هي أقوى ما تكون من البقر . وأطيعوا أمر الله فيما يأمركم به من ذبح البقرة . ﴿ قالوا : أدعُ لنا ربّك يبينْ لنا ما لونها ... قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . ﴾

قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس : ﴿ فاقع لونها ﴾ يعني شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض وقوله : ﴿ تسر الناظرين ﴾ أي تُعجب الناظرين

﴿ قالوا أدعُ لنا ربّك يبينْ لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنّا إن شاء الله لمهتدون ﴾ وهذا أيضاً من شدة عنادهم واختلافهم ؛ ﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلّمةٌ لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾

قوله : ﴿ لا ذلول تثير الأرض ﴾ أي أنها ليست مذلّلة بالحراثة. ﴿ ولا تَسقي الحرث ﴾ أي ولا معدّة للسقي في السانية ، بل هي مكرّمة حسنة صبيحة ﴿ مسلّمةٌ ﴾ أي صحيحة لا عيب فيها ﴿ لا شية فيها ﴾ أي ليس فيها لون غير لونها . ﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ أي مطابق للوصف الذي رأوه في البقرة عند الرجل ... ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : كادوا أن لا يفعلوا ... ولم يكن ذلك الذي أرادوا ... لأنهم أرادوا ألاّ يذبحوها يعني إنهم مع كل هذا البيان ، وكل هذه الأجوبة والأسئلة ، والاستيضاح ، ما ذبحوها إلا بعد الجهد ، وفي هذا ذم لهم . وذلك إنه لم يكن غرضهم إلاّ التعنّت فلهذا ما كادوا يذبحونها .

قال ابن جريج : قال رسول الله ﷺ ٧٨ [إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شدّدوا شدّد الله عليهم وأيم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد .]

مسألة : أستدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت، أو تم تقييدها بعد الإطلاق، على صحة السَّلَم في الحيوان كما هو مذهب مالك والأوزاعي والليث والشافعي وأحمد وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً بدليل ماثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ : ٧٩ [لاتنعت المرأة المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها] وكما وصف النبيّ ﷺ إبل الدية في قتل الخطأ وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث وقال أبو حنيفة والثوري والكوفيون : لا يصحّ السلم في الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله وحكى مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم .

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٢ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ٧٣

قوله تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ﴾ أي واذكروا يوم قتلتم نفساً فادّارأتم فيها قال البخاري : ﴿ فادارأتم فيها ﴾ أي أختلفتم وقال ابن جريج فادّارأتم فيها قال قال بعضهم انتم قتلتموه وقال آخرون بل انتم قتلتموه أي كل فريق يدرأعن نفسه الجريمة . ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ قال مجاهد: ما تغيبون ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ هذا البعض هوأي شيء كان من أعضائها فالمعجزة حاصلةٌ به فلو كان في تعيين هـذا البعض فائدة تعود علينا في أمر الدين والدنيا لبيّنه الله تعالى لنا، ولكنه أبهم ولم يجيء من طريق صحيح عن المعصوم بيانه فنحن نُبهمُ كما أبهم الله . وقوله تعالى : ﴿كذلك يحي الله الموتى﴾ أي فضربوا القتيل ببعض أجزاء البقرة فحي ... وفي ذلك تنبيه من الله تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من امر القتيل جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجةً لهم على المعاد ... وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والعناد . روى أبو داود الطيالسي عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه قال (قلت يا رسول الله : كيف يحي الله الموتى ... ؟ قال: ٨٠ [«أما مررت بواد ٍمَحْلٍ ثم مررتَ به خَضِراً ... » قال بلى . قال : « كذلك النشور » أو قال : «كذلك يحي الله الموتى»].

استدل لمذهب الإمام مالك في كون قول الجريح : فلان قتلني [1] لوثاً بهذه القصة ، لأن القتيل لما حيَّ سئل عمن قتله فقال : فلان قتلني ، فكان ذلك مقبولاً منه ، لأنه لا يخبر حينئذٍ إلا بالحق، ولا يتهم والحالة هذه، ورجحوا ذلك لحديث أنس: ٨١ [أن يهودياً قتل جارية على أوضاح لها [2] فرضخ رأسها بين حجرين ، فقيل : من فعل بك هذا ، أفلان ؟ أفلان ؟

---

(١) (اللوث) : شبه الدلالة (قاموس) .

(٢) الأوضاح : جمع (وضح) وهي الحلي من الفضة (قاموس) .

حتى ذكروا اليهودي ، فأومأت برأسها فأخذ اليهودي فلم يزل به حتى اعترف فأمر رسول الله ﷺ [أن يرضّ رأسه بين حجرين]

وعند مالك إذا كان لوثاً ، حلف أولياء القتيل قسامةً ، (١) وخالف الجمهور في ذلك ، ولم يجعلوا قول القتيل في ذلك لوثاً .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٧٤

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ فهي كالحجارة التي لا يكون من طبيعتها اللين أبداً ، لهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال : ﴿ ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل . فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون . ﴾

قوله تعالى : ﴿ فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ أي صارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسيةً بعيدةً عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات. فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها ﴿ أو أشد قسوة ﴾ من الحجارة ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار وإن منها لما يشّقّقُ فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ كما قال ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ قال مجاهد : كل حجر يتفجر منه الماء أو يتشقق عن ماء أو يتردّى من رأس جبل ، لمن خشية الله . نزل بذلك القرآن . فهذه الحجارة ألين من قلوب بني إسرائيل لأنهم كذّبوا بالحق بعد أن رأوه . وقد قال بعض المفسرين « إنّ ما ورد من وصف الحجارة من قبيل المجاز» . ولكن قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة : «لا حاجة إلى المجاز فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبَيْنَ أن يحملْنها وأشفقن منها ﴾» وقوله ﴿ تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ وقوله تعالى ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ وقوله تعالى

(١) القسامة : الجماعة يقسمون على الشيء ويأخذونه أو يشهدون (قاموس) .

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله ﴾ وفي الصحيح : ٨٢ [هذا جبل يحبنا ونحبه] ، وكحنين الجذع المتواتر خبره . وقوله تعالى : ﴿ وما الله بغافلٍ عما تعملون ﴾ (١) (٢)

حزب ٢

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٥ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٧٦ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٧

يقول تعالى: أفتطمعون أيها المؤمنون أن يؤمنوا لكم أي ينقادوا اليكم بالطاعة... لا.. إن هؤلاء الفرق الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ثم قست قلوبهم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه أي يتأوّلونه على غير تأويله من بعد ما عقلوه أي فهموه على الجلية ، ومع هذا يخالفونه على بصيرةٍ وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا اليه من تحريفه وتأويله وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ قال السدي : وقد كان فريقاً منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه ، قال : هي التوراة حرفوها قال قتادة : ﴿ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ قال هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه من نعت رسول الله ﷺ ومن تحليل الحرام وتحريم الحلال وإحقاق الباطل وإبطال الحق .

وعن ابن عباس : ﴿ واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ أي أن صاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة : ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون﴾ أي وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم

(١) قلت : أي ليس بغافل عما يعمل هؤلاء من المخالفات الظاهرة والباطنة وكيف يغفل ، وهو الذي لا تعزب عن ملكه مثقال ذرة في السموات والأرض .

(٢) قال صديق حسن خان رحمه الله : « بغافل عما تعملون » أي فيه من التشديد والتهديد والوعيد ما لا يخفى فإن الله عز وجل اذا كان عالما بما يعملونه مطلعاً عليه غير غافل عنه ، كان لمجازاتهم بالمرصاد والله أعلم .

قد كنتم تستفتحون به عليهم ، فكان منهم . فأنزل الله : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا ... الآية ﴾ أي تقرون بأنه نبيّ وقد علمتم أنه قد أخذله الميثاق عليكم باتباعه ، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجده في كتابنا ، إجْحدوه ولا تُقِرُّوا به . فيردُّ عليهم الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يُسرّون وما يعلنون ﴾ قال أبو العالية يعني ما أسرّوا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوباً عندهم .

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ ٧٩

يقول تعالى : ﴿ ومنهم أميّون ﴾ أي ومن أهل الكتاب والأمي عند العرب : هو الذي لا يكتب ولا يحسب . وقال عليه الصلاة والسلام : ٨٣ (إنا أمة اميَّة لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا ... الحديث] والمقصود أن ومن أهل الكتاب أميّون لا يقرأون ولا يكتبون ﴿ إلاّ أمانيّ ﴾ إلاّ أقوالاً وأحاديث يقولون بأفواههم كذباً ، ويتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله ويقولون هو من الكتاب ﴿ إن هم إلاّ يظنون ﴾ أي يكذبون ولا يدرون ما فيه وهم يجدون نبوتك بالظن . ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ﴾ هؤلاء صنف آخر من اليهود . وهم أحبارهم الداعون إلى الضلال بالزور والكذب وأكل أموال الناس بالباطل .

قال السدي : كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم يبيعونه من العرب ويحدثونهم أنه من عند الله ، فيأخذوا به ثمناً قليلاً . ومن حديث رواه البخاري عن الزهري من طرقٍ إلى ابن عباس ... أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيّروه وكتبوه بأيديهم وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً .

﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ أي فويل لهم مما كتبت أيديهم من الكذب والبهتان والافتراء وويل لهم مما أكلوا به من السحت . والله أعلم .

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٨٠

إدعى اليهود أن نار جهنم لن تمسَّهم أكثر من الأيام التي عبدوا فيها العجل ، وهي أربعين يوماً فقط فردّ الله عليهم : ﴿ قل أتخذتم عند الله عهداً ﴾ بذلك فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده ولكن ما جرى أبداً مثل هذا العهد ﴿ أم ﴾ بمعنى بل ﴿ تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ من الكذب والافتراء عليه . ومن حديث رواه أبو بكر بن مردويه بالسند المتصل إلى أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ٨٤ [سأل اليهود بعد فتح خيبر في جملة ما سألهم : (... من أهل النار ؟ فقالوا نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها فقال رسول الله ﷺ : [إخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً]

﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ٨٢

يردّ الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل الذين زعموا قائلين : ﴿ ... لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة ﴾ بأن الأمر ليس كما زعمتم وتمنيتم ولا كما تشتهون بل الأمر : إنّه من عمل سيّئة وأحاطت به خطيئته . وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة بل جميع أعماله سيئات ، فهذا من أهل النار . ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهم من أهل الجنة . قال ابن عباس : ﴿بلى من كسب سيئةً﴾ أي عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره فما له من حسنة وروى الإمام أحمد بسنده إلى ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٨٥ [إيّاكم ومحقراتِ الذنوبِ فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه] قال ابن عباس : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون. ﴾ أي من آمن بما كفرتم ، وعمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدين فيها . ويخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبداً بلا أنقطاع والله أعلم .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ٨٣ ﴾

يذكر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر ، وأخذ ميثاقهم على ذلك ، وأنهم أعرضوا عن ذلك كله عمداً وهم يعرفونه ويذكرونه . فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به

شيئاً ، وبهذا أمر جميعَ خلقهِ ولذلك خلقهم كما قال تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاَّ نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدونِ﴾ وهذا هو حق الله تبارك وتعالى أن يُعبدَ وحده لا شريك له ثم يأتي بعده حقُّ المخلوقين ، وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين . ولهـذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ... ﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود : ٨٦ [قلت يا رسول الله أي العمل أفضل قال : (الصلاة على وقتها) قلت ثم أي .. ؟ قال : (بر الوالدين) قلت ثم أي .. ؟ قال : (الجهاد في سبيـل الله] وجاء في الحديث الصحيح : ٨٧ [أن رجلاً قال يا رسول الله من أبر قال : (أمك) قال ثمَّ مَنْ ؟ قال : (أمّك) قال : ثمَّ مَنْ ؟ قال : (أباك ثم أدناك ثم أدناك] ﴿واليتامى﴾ وهم الصغار لا كاسب لهم من الآباء ﴿والمساكين﴾ الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم .

قال الحسن البصري ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ فالحُسْنُ من القول يأمر بالمعروفِ وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح ويقول للناس حسناً كما قال الله . وهو كل خُلقٍ حسن رضيه الله . روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ٨٨ [لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً وإن لم تجد فالقَ أخاك بوجه منطلق] وأخرجه مسلم .

ومن بعد ما أمرهم بالإحسان للناس بالفعل فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي ، ناسب أن يأمرهم أن يقولوا للناس حسْناً . ثم أكّد الأمر بعبادته ، والإحسان إلى الناس بالمتعيّن من ذلك ، وهو : الصلاة والزكاة . وأخبر أنهم أي بنو إسرائيل تولَّوا عن ذلك كله أي تركوه وراء ظهورهم ، وأعرضوا عنه على عمْد بعد العلم به إلاَّ القليل منهم . هذا حال هذه الأمة أي حال بني إسرائيل أما حال هذه الأمّة الاسلامية فقد أمرهم الله بنظير ذلك فقامت بمالم تقمْ به أمة من الأمم قبلها ولله الحمد والمنة . والله أعلم [١] .

---

(١) قلت : نعم كان حال الأمة الإسلامية كما ذكر المؤلف المفسر رحمه الله وذلك في صدر الاسلام عندما كانت الأمة الاسلامية تحكم بما أنزل الله . ولكن كلما تقادم العهد أنقصوا من تنفيذ أوامر الله فينقصهم الله بقدر ذلك من هيبتهم ودولتهم ، إلى أن وصلت الحال في زمننا الحاضر ــ القرن الرابع عشر ــ إلى تفكك الأمة الاسلامية إلى دويلات متخاذلة متفرقة ... ! ! ! وكلها محكومة بل أكثرها محكوم من الكفار حكماً مباشراً أو غير مباشر . ولن تعود أمة الإسلام لمثل ما وصفها المفسر رحمه الله إلاّ إذا عادت للحكم بما أنزل الله ، كما كانت في الزمن الأول . لأن مهمة المسلم أن يقيم حكم الله في نفسه وفي مجتمعه بل وفي العالم أجمع ، ليحقق الوصاية التي انتدبه الله إليها على الدنيا ، ليقيم حكمه فيها ، فإذا تنازل عن هذا الواجب المكلف به، أصابه الله بقارعة من نوع العمل ، فيسلبه الحكم ويحكم غيره فيه حتى يرجع إلى الله .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ٨٤ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٨٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٨٦ ﴾

يقول تبارك وتعالى منكراً على اليهود الذين كانوا في زمان الرسول ﷺ بالمدينة من القتال مع الأوس والخزرج أيام جاهليتهم . وكانوا إذ ذاك عبّادَ أصنام وكانت بينهم حروب كثيرة وكان يهود المدينة ثلاث قبائل : بنو قينقاع وبنو النضير وكانوا حلفاء الخزرج ، وبنو قريظة حلفاء الأوس . فكانت الحرب إذا نشبت بينهم كان كل فريق مع حلفائه . وقد يقتل اليهوديّ الآخرمن الفريق الآخر وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم . ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال . وبانتهاء الحرب استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة ، لهذا قال تعالى ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾ . أي لا يقتل بعضكم بعضاً ، ولا يخرجه من منزله ولا يظاهر عليه ، وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة . وقوله تعالى ﴿ ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ أي أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ﴾ وذلك ابتغاء عرض الدنيا وقد كانت العرب تعيّرهم بذلك ، يقولون لهم كيف تقاتلونهم وتفادونهم !؟ أجاب اليهود إنّا أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم . قالوا فلم تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحي أن تُستذَلَّ حلفاؤنا ! والحقيقة هي ابتغاء عرض الدنيا ...

والذي أرشدتْ إليه الآية ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها ، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة [١] فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على

(١) قلت : ولهذا غضب الله عليهم لأنهم يعرفون الحق وشهدوا أنه الحق ثم خالفوه فاستحقوا مقت الله وغضبه ولعنهم وجعلهم خالدين في جهنم لا يخفف عنهم العذاب ولا ينصرون .

نقلها ، ولا يصدّقون فيما كتموه من صفة النبيّ ﷺ ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره ، مما أخبرت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . واليهود – عليهم لعائن الله – يتكاتمونه بينهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزيٌ في الحياة الدنيا ﴾ أي بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ويوم القيامة يردُّون إلى أشد العذاب جزاءً على مخالفتهم التوراة .

﴿ وما الله بغافلٍ عما تعملون أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ أي استحبُّوها على الآخرة واختاروها ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ أي لا يفتر عنهم العذاب ساعةً واحدة ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي ولا يجيرهم منه . والله أعلم .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتوّ والعنادِ والمخالفة والاستكبار على الأنبياء ، وأنهم إنما يتّبعون أهواءهم ؛ فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب ، وهو التوراة ، فحرّفوها وبدّلوها وخالفوا أمرها وأوّلوها ، وأرسَلَ الرسُلَ والنبّيين من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيُّون ﴾ وقال تعالى ﴿ وقفّينا من بعده بالرسُل ﴾ وقال تعالى : ﴿ ثم أرسلنا رسلَنا تَترى ﴾ حتى ختم أنبياءَ بني إسرائيل بعيسى بن مريمَ فجاء بمخالفة التوراةِ في بعض الأحكام ؛ ولهذا أعطاه الله من البيّنات وهي المعجزات من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئةَ الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ، وإبراء الأسقام ، وإخباره بالغيوب ، وتأييده بروح القدس وهو : جبريل عليه الصلاة والسلام ، ما يدلّهم على صدقهِ فيما جاءهم به فاشتدّ تكذيبُ بني إسرائيل له . وحسدُهم وعنادُهم لمخالفة التوراة في البعض ، قال تعالى : إخباراً عن عيسى عليه الصلاة والسلام. ﴿ ولأحلّ لكم بعضَ الذي حرِّم عليكم وجئتكم بآية : من ربكم ... ﴾ الآية فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ معاملة ففريقاً يكذبونه ، وفريقاً يقتلونه وما ذاك إلاّ لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم ، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا بمخالفتها . فلهذا كان ذلك يشقُّ عليهم فكذبوهم وربّما قتلوا بعضَهم ولهذا قال تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾

تقدّم قولنا أن روحَ القدس : هو جبريل عليه الصلاة والسلام والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ وروى ابن حبان عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: ٨٩ [إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكملَ رزقها وأجلها ، فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب .] وعن عائشه : أن رسول الله ﷺ وضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد فكان ينافح عن رسول الله ﷺ : ٩٠ [اللهم أيدْ حسان بروح القدس...] رواه البخاري . وقول حسان :

« وجبريل رسول الله فينـــا وروح القدس ليس به خفاء »

قال ابن جرير : وأولى التأويلات بالصواب قول من قال : الروح في هذا الموضع [١] جبرائيل . فإن الله تعالى أخبر أنه أيدً عيسى به قال تعالى : ﴿ إذ أيدتك بروح القدس... ﴾ وليس هو الأنجيل على حدّ قول بعض المفسرين بدليل قوله تعالى : ﴿ وإذ أيدتك بـــروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ فلو كان روح القدس هـــو الأنجيل لكان قوله المتقدم تكرير قول لا معنى له وإن سبحانه لأعلى وأجل من أن يخاطـــب عباده بما لا يفيدهم به [٢] والله أعلم .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ٨٨ ﴾

قالوا عن قلوبهم أنها غلف يعني أنها ممتلئة بما سبق من علومنا، فهي لا تتسع لما عندك يا محمد وكأنها بامتلائها هذا مغلقةٌ ومغلّفَةٌ على ما فيهافلا يخلص إليها مما تقوله شيء. كمـــا في قوله تعالى : ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ ورجّحه ابن جرير واستشهد بمـــا روى من حديث عمرو بن مرة الجملي عن البختري عن حذيفة قال : القلوب أربعة ... فذكر منها : وقلب أغلف مغضوب عليه وذاك قلب الكافر ولهذا قال تعالى : ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون ﴾ أي ليس الأمر كما ادعوا ، بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها ، كما قال في سورة النساء : ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ أي ما آمن منهم إلاّ قليل . والله أعلم .

(١) قلت : أي في هذه الآية : « وأيدناه بروح القدس » .
(٢) قلت : إن روح القدس مخلوق لله ، والإنجيل كلام الله غير مخلوق . وقول الرسول : (اللهم أيد حسان بروح القدس) هل معناه أيده بالإنجيل ... ؟!!! لا. وقوله صلى الله عليه وسلم : (أن روح القدس نفث في روعي ...) هل معناه أن الأنجيل نفث في روعي ... ؟!!! لا . فهذا مما يدل على أن روح القدس ليس الإنجيل إنما هو جبريل عليه الصلاة والسلام .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ٨٩

يقول تعالى : ﴿ ولما جاءهم ﴾ يعني اليهود ﴿ كتاب من عند الله ﴾ وهو القرآن الذي نزل على محمد ﷺ ﴿ مصدّق لما معهم ﴾ يعني من التوراة، وقوله : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ أي وقد كانوا قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم المشركين إذا قاتلوهم ، يقولون إنه سيُبعَث نبيٌّ في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عادٍ وإرم . كما قال محمّد بن إسحق بسنده عن عكرمة أو إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه فلما بعثه الله من العرب كفروا وجحدوا ما كانوا يقولون فيه فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور ، وداود بن سلمة : يا معشر يهود : اتقوا الله وأسلِموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته . فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم في ذلك من قولهم : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم ... الآية ﴾

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ٩٠

قال السدي : أي بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به ، وعدلوا إليه من الكفر، بما أنزل الله على محمّد رسول الله ﷺ عن تصديقه ومؤازرته ونصرته ، وإنّما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية ، لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . ولا حسد أعظم من هذا . قال ابن عباس في الغضب على الغضب ، فغضب عليهم فيما كانوا ضيّعوا من التوراة وهي معهم وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم . فاستحقوا ، واستوجبوا واستقروا بغضب على غضب ﴿ وللكافرين عذاب مُهين ﴾ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ومنشأ ذلك التكبّر ، قوبلوا بالإهانة والصَّغار في الدنيا والآخرة . كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٩١ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ٩٢

يقول تعالى ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب آمنوا بما أنزل الله على محمّد ﷺ وصدّقوه واتبعوه ﴿ قالوا نؤمن بما أنزل علينا ﴾ أي يكفينا الأيمان بما أنزل علينا من التوراة والأنجيل ولا نقر إلا بذلك ﴿ ويكفرون بما وراءه ﴾ يعني بما بعده ﴿ وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴾ أي وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ الحق مصدقاً لما معهم فالحجة قائمة عليهم بذلك كما قال تعالى : ﴿ فلمَ تقتلون أنبياء الله من قبلُ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم فلم قتلتم الأنبياء الذين جاءوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم ، والحكم بها وعدم نسخها ، وأنتم تعلمون صدقهم . قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله فلستم تتبعون إلاّ مجرد الأهواء والآراء والتشهي . ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ﴾ أي بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على أنه لا إله إلاّ الله وأنه رسول الله . والآيات البيّنات هي الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم والعصا واليد وفرق البحر وتظليلهم بالغمام والمن والسلوى والحجر وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ أي من بعد ما ذهب إلى الطور ، لمناجاة الله فاتخذتم العجل معبوداً من دون الله ﴿ وانتم ظالمون ﴾ أي وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه وأنتم تعلمون أنه لا إله إلاّ الله.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ٩٣

يُعَدّد سبحانه وتعالى أخطاءهم ومخالفاتهم للميثاق ، وعتوّهم وإعراضَهم عنه ، حتى رفع الطور فوقهم أي عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه ولهذا ﴿ قالوا سمعنا وعصينا ﴾ وقد تقدم تفسير ذلك[1] ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ قال عبد الرزاق عن قتادة قال أشربوا حُبَّهُ

(١) راجع الآية ٦٣ و ٦٤ .

حتى خلص ذلك إلى قلوبهم وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس . كما روى أحمد بسنده إلى أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : ٩١ [حبّك الشيء يعمي ويصم] ورواه أبو داود .

وقوله﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أي بئسما تعتمدونه من قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الانبياء ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ . وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمور عليكم إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الانبياء والمرسلين المبعوث للناس أجمعين فكيف تدّعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة من نقض المواثيق والكفر بالله وعبادة العجل . ؟ !!!

۞ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ ٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ٩٦

روى محمّد بن إسحق عن ابن عباس رضي الله عنه : يقولى تعال لنبيّه محمد ﷺ : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب . فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿ولن يتمنّوه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ أي يعلمهم بما عندهم من العلم بل والكفر بذلك . ولو تمنّوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلاّ مات . روى ابن جرير : عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : ٩٢ [لو أن اليهود تمنّوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً] ونظير هذا قوله تعالى في سورة الجمعة : ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموتَ إن كنتم صادقين ٭ ولا يتمنّونه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين ٭ قل إنّ الموت الذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون﴾ فهم عليهم لعائن الله لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وقالوا : لن يدخل الجنة الا من كان هوداً او نصارى دُعوا إلى المباهله والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين فلمّا نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانـوا أقدموا على ذلك فلما تأخروا عُلـم كذبهم . وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة . فقال تعالى: ﴿فمن

حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ فلمّا رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض : والله لئن باهلتم هذا النبيّ لايبقى منكم عين تطرف. فعند ذلك جنحوا للسلم ، وبذلوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . وهكذا فإن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة امتنعوا عن المباهلة لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة ، لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت ولهذا قال تعالى : ﴿ ولن يتمنّوه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ . ﴿ ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة﴾ أي على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيء وعاقبتهم الخاسرة عند الله لأن الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر فهم يودّون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم .. وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة حتى . وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم . وهذا من باب عطف الخاص على العام . يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة أي يودّ أحد اليهود لو يعمّر ألف سنة قال مجاهد: حبّبتِ الخطيئة إليهم طول العمر ﴿ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر . ﴾ أي وما هو بمنجيه من العذاب وذلك أنّ المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت ، فهو يحب طول الحياة . وان اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما ضيّع ما عنده من العلم . قال العوفي عن ابن عباس : ﴿وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر﴾ قال هم الذين عادوا جبريل قال أبو العالية وابن عمر : فما ذاك بمغيثه من العذاب ولا منجيه ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ أي خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر وسيجازَى كل عاملٍ بعمله .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ٩٧ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ٩٨ ﴾

قوله تعالى : – ﴿ قل من كان عدوّاً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله . ﴾ أي من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذن له في ذلك ،فهو رسول من رسل الله ملكيّ ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ﴾ فحكم عليهم بالكفر المحقق إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو الله لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه ، وإنما ينزل بأمر ربه كما قال تعالى : ﴿ وما نتنزل

إلاَّ بأمر ربك ... الآية ﴾ وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : ٩٣ [من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب] ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه فقال تعالى: ﴿ من كان عدوّاً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدّقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المتقدمة ﴿ وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي هدًى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة وليس ذلك إلاَّ للمؤمنين كما قال تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ... الآية ﴾ ثم قال تعالى ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين﴾ تعالى من عاداني وملائكتي ورسلي . ورسله : تشمل رسله من الملائكة والبشَر .كما قال تعالى : تعالى : ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ ﴿وجبريل وميكال ﴾ وهذا من باب عطف الخاص على العام. فإنهما دخلا في الملائكة في عموم الرسل، ثم خصّصا بالذكر ، لأن السياق في الانتصار لجبرائيل، وهو السفير بين الله وأنبيائه وقرن معه ميكائيل باللفظ ، لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم وميكائيل وليُّهم ! ! فأعلَمهم الله تعالى أن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ فإن الله عدوٌّ للكافرين ﴾ فيه إيقاع المظهر مكان المضمر حيث لم يقل: فإنه عدوّ بل قال : ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾ كما قال الشاعر :

لا أرى الموتَ يسبق الموت شيءٌ سبق الموت ذا الغنى والفقيرا

وإنّما أظهر الله هذا الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى ، وإظهاره وإعلامهم أنّ من عادى لي ولياً فقد آذنته بالمحاربة وفي الحديث الآخر : ٩٤ [إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب] وفي الحديث الصحيح : ٩٥ [من كنت خصمَه خصمتُه]

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله : أجمع أهل العلم بالتأويل أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود إذ زعموا أن جبريل عدوٌّ لهم ، وأن ميكائيل وليٌّ لهم .

فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل ... ﴾ الآية

۞ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا ٱلْفَاسِقُونَ ٩٩
أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠٠ وَلَمَّا
جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا
ٱلْكِتَابَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١ وَٱتَّبَعُوا مَا

تَتْلُوا ٱلشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ
كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ
وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ
بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ
عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا
بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ١٠٢ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ
ٱللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ١٠٣

قوله تعالى : ﴿ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك وهي ما حواه القرآن من أسرار وأخبار اليهود ، التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم وما حرفه أوائلهم وأواخرهم من التوراة . فأطلع الله نبيه محمداً ﷺ عليها جميعاً فلا يسأله اليهود عن شيء من أمور التوراة . إلا أنزل الله سبحانه ما سألوا عنه فيخصمهم فلمّا رأوا ذلك قالوا : هذا أعلم منا بما أنزل الله إلينا ، وإن هذة الآيات البينات ملزمة ولا شك لكل ذي فطرة صحيحة ، تصديق ما جاء به ﷺ ، من غير تعلم تعلّمه من بشر . لا سيما وهو معروف عندهم أنه أمي ، لم يقرأ كتاباً فهذه الآيات البينات لا شك أنها حجة عليهم ولكنهم جحدوها وكفروا بها .

قال ابن عباس : قال ابن صوريا القطويني لرسول الله ﷺ : يا محمد : ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك . فأنزل الله في ذلك ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ وذكرهم بما أخذ الله عليهم من الميثاق وما عهد إليهم في محمد ﷺ : والله ما عهد إلينا في محمد ... وما أخذ علينا ميثاقاً... فأنزل الله تعالى : ﴿ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾ وقال الحسن في قوله تعالى ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ قال نعم ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه ... إلا نقضوه ونبذوه . يعاهدون اليوم وينقضونه غداً .

فالقوم ذمّهم الله بنبذهم العهود ، وتكذيبهم رسول الله ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة وهو الذي يجدون في كتبهم نعته وصفته ، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ونصرته. كما قال تعالى ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والأنجيل﴾ وقال ها هنا : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين

أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾ أي طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم مما فيه من البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم أي تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها ! وأقبلوا على تعلّم السحر واتّباعه ، وأرادوا كيداً برسول الله ﷺ وسحروه في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر ، تحت راعوفة بئر أروان . وتولّى ذلك منهم / لبيد بن الأعصم / لعنه الله وقبحه . وقد أطلع الله رسوله ﷺ على ذلك وشفاه منه وأنقذه ، كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها .

وقوله تعالى : ﴿ واتّبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ... ﴾ قال السدي : كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع ، فيستمعون من كلام الملائكة مما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر ، فيأتون الكهنة فيخبرونهم فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا. فلما أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره ، فزادوا مع كلّ كلمة سبعين كلمة . فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب ، وفشا ذلك في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب . فبعث سليمان في الناس ، فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق ثم دفنها تحت كرسيه. ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلاّ احترق . وقال : لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلاّ ضربت عنقه . فلما مات سليمان عليه السلام وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان . وخلف من بعد ذلك خلف ، تمثل الشيطان في صورة إنسان ... ثم أتى نفراً من بني إسرائيل فقال لهم : هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً قالوا : نعم ، قال : فاحفروا تحت الكرسي ، فذهب معهم وأراهم المكان وقام ناحيته فقالوا له: فادنُ ... فقال : لا .. ولكنني ها هنا في أيديكم فإن لم تجدوه فاقتلوني . فحفروا فوجدوا تلك الكتب. فلمّا أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر ثم طار وذهب . وفشا في الناس أنّ سليمان كان ساحراً واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب ، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها فذلك حين يقول الله تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ﴾ وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان آصف كاتب سليمان وكان يعلم الاسم الأعظم ، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيّه فلما مات سليمان ، أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً . وقالوا : هذا الذي كان سليمان يعمل بها قال : فأكفره جهال الناس وسبّوه ووقف علماء الناس ، فلم يزل جهال الناس يسبّونه حتى أنزل الله سبحانه على محمد ﷺ : ﴿ واتّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس

السحر . ﴾ وقال آخرون أقوالاً تدور حول هذا .. ولا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم . والله الهادي . والخلاصة أن اليهود الذين أوتوا الكتاب بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ اتبعوا ما تتلوه الشياطين أي ما ترويه وتخبر به وتحدّثه الشياطين على ملك سليمان [1] وعدّاه بعَلى / لأنه تضمن / تتلو / تكذب (لأنها تلاواتُ وأحاديثُ الشيطان .. وهل هي إلاّ الكذب ... ؟ ! !) وقوله تعالى : ﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحدٍ حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر . فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه﴾ كان يعتقد اليهود أن جبرائيل وميكائيل عليهما الصلاة والسلام هما اللذان أنزلا السحر على سليمان عليه السلام . فكذبهم الله سبحانه ، وأخبر نبيّه محمّداً ﷺ أن جبرائيل وميكائيل لم ينزّلا السحر وبرّأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وإنها تُعلّم الناس ذلك ببابل وإن الذين يعلمونهم رجلان أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت وعلى هذا : تكون / ما / في قوله تعالى : ﴿وما أنزل على الملكين﴾ نافيةً لا اسم موصول بمعنى الذي .

قال القرطبي : (ما : نافية ، ومعطوف على قوله ﴿وما كفر سليمان﴾ ثم قال : ﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين﴾ وذلك أن اليهودَ كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله تعالى وجعل قوله : ﴿هاروت وماروت﴾ بدلاً من الشياطين . قال وصح ذلك إما لأن الجمع يطلق على الأثنين كما في قوله تعالى : ﴿فإن كان له أخوة﴾ أو لكونهما لهما أتباع أو ذكرا من بينهم لتمرّدهما . تقدير الكلام : ولكن الشياطين يعلّمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ثم قال : وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصحّ . ولا يلتفت إلى ما سواه .

وروى ابن جرير باسناده من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿وما أنزل على الملكين ببابل﴾ يقول لم ينزل السحر . وباسناده – أي ابن جرير – عن الربيع بن انس في قوله تعالى : ﴿وما أنزل على الملكين﴾ قال : ما أنزل الله عليهما السحر . قال ابن جرير : (فتأويل الآية على هذا ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان﴾ من السحر وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل

(١) قلت إن معنى – ملك سليمان – والله أعلم – أي رعيته ... وبخاصة منهم كهنة بني اسرائيل تتلو فيها معنى / تكذب / كما قال ابن كثير . فيكون المعنى – والله أعلم – واتّبع بنو إسرائيل ما تكذب الشياطين على رعية سليمان وما تلقيه من السحر . وما كفر سليمان وليس له أن يكفر فهو نبي مكرّم معصوم ولكن الشياطين كفروا بسحرهم وكذبهم .

هاروت وماروت فيكون قوله ببابل هاروت وماروت من المؤخر الذي معناه المقدم .

وهناك أقوال أخرى ، فمن قائل : ﴿ وما أنزل على المَلِكين ﴾ بكسر اللام أنهما داود وسليمان عليهما السلام أي باعتبار أن / ما / نافية أيضاً وتقدير الكلام : أن الله تعالى ما أنزل السحر ولا علّمه للملِكَيْن داود وسليمان .

ومن قائل : أن هاروت وماروت ، قبيلان من الجن ، ومن قائل أنهما رجلان أسم أحدهما هاروت والآخر ماروت فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس والأصحّ ما قرره القرطبي آنفاً من أن هاروت وماروت بدل من الشياطين وهذا كما قال ــ أولى ما حُملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت إلى ما سواه . (١)

ومن قائل : أنهما ملَكان من الملائكة وتروى هنا قصة كوكب الزهرة ! ! مع الملَكين هاروت وماروت . وزعم الذين رووا هذه القصة أن هاروت وماروت ملكان أهبطهما الله من السماء وألقى عليهما الشهوة التي لبني آدم ، ثم عرضت عليهما امرأة كأجمل ما تكون من النساء ... فراوداها عن نفسها فأجابتهما إلى ذلك بشرط أن يشركا بالله فأبيا ذلك ... ثم عرَضت ثانية فراوداها ولكنها اشترطت أن يقتلا نفساً فأبيا ذلك ثم عرَضتْ ثالثةً فراوداها فخيرتهما بين الشرك بالله أو قتل النفس أو شرب قدحٍ من الخمر فاختارا اقل ذلك إثماً وهو شرب الخمر ، فشرباه ، فلعبت الخمرة بهما ، فأشركا بالله ، وقتلا النفس ، وزنيا بالمرأة ، فلما صحُوا من الخمر ، وأخبرتهما المرأة بما صنعا من تأثير الخمر فندما ... وأرادا العودة إلى السماء ، فلم يستطيعا ذلك ، فأحسّا بشناعة جرمهما . وقد خيرهما الله بين عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا الموقّت على عذاب الآخرة المؤبد. أما المرأة فقد سألتهما عن الكلمة التي إذا قالاها صعدا في السماء أو هبطا منها ، فأعلماها بها ، فقالتها فطارت إلى السماء ولكن مُسِخَتْ هناك نجمة ... ! ! ! فكانت كوكب الزهرة ... ! ! ! ؟ .

---

(١) قلت : إننا مع ابن كثير في تبنّيه تأويل القرطبي ... إلا في ما ذهب اليه القرطبي من أن هاروت وماروت بدل من الشياطين لأن الشياطين ليس من فطرتهم النصح لبني آدم حتى يقولوا لهم : « انما نحن فتنة فلا تكفر » بل إن من أولى مهماتهم وفطرهم التي جبلوا عليها أن يفتنوا بني آدم ويغووهم . لذا فإنني أرجح أن يكون هاروت وماروت بدلا من الناس وعلى هذا ... يكون تأويل الآية : وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين السحر ، ولكن الشياطين كفروا بتعليمهم السحر للناس أي يعلمون هاروت وماروت اللذين هما رجلان من الناس ثم يعلم هذان الناس ... وما يعلمان أحداً منهم حتى يقولا له إنما نحن فتنة فلا تكفر . فيكون هاروت وماروت بدلا من الناس الذين من فطرتهم النصح ، وفي هذا ينزّه الله عن تنزيل السحر على الملَكين ثم ننزههما من تعليم السحر للناس ، والسحر هو في أساسه كفر فلن يستطيع أحد أن يعلم السحر إلاّ أن يكفر ، ولا يستطيع المتعلم أن يتعلّم إلا أن يكفر والملائكة منزّهون عن الكفر وتعلّمه وتعليمه . وإن الله لا يرضى لعباده الكفر

هذه القصة ... رُويت من طرقٍ عديدة بلغت العشرين طريقاً ولكن ليس في هـذه الطرق على كثرتها ولا طريق واحدة مرفوعة إلى رسول الله ﷺ . وقد ردّها كثير من المحدّثين والحفاظ والمفسرين ، وحاصل ذلك راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ...إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الأسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي ما ينطق عن الهوى ... وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا أطناب فيها . فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراد الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال الموافقة لتنزيه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به ولا بملائكته (١) وقوله تعالى : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ قال أبو جعفر الرازي بسنده عن ابن عباس قال : فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي، وقالا له إنما نحن فتنة فلا تكفر . وذلك لأنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان فعرفا أن السحر من الكفر . قال فإذا أتى عليهما .. أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا ... فإذا أتاه عاين الشيطان فعلّمه خرج منه النور فنظر اليه ساطعاً في السماء فيقول : يا حسرتاه يا ويله ماذا صنع . قال السدي : إذا أتاهما إنسان يريد السحر ، وعظاه وقالا له : لا تكفر إنما نحن فتنة ... فإذا أبى قالا له : إئت هذا الرماد فبُلْ عليه ، فإذا بال خرج منه

(١) قلت : هذه القصة لا أساس لها من الصحة كما قاله كثير من المحدثين والمفسرين إذ ليس فيها حديث صحيح ، فهي واهية سنداً ومتناً ولا تصح من وجوه : «١» يزعمون أن الله أنزل على الملكين السحر والسحر كفر فكيف يأذن الله للملائكته المعصومين أن يكفروا ويعلموا الناس السحر والكفر ؟ والله يقول : إن الله لا يرضى لعباده الكفر . ٢ ـ إن مسخ الإنسان كوكباً هذا من المحال الذي لم تجر به سنة الله . ٣ ـ : مقتضى هذه القصة أن هاروت وماروت اختارا عذاب الدنيا فيلزم من ذلك أنهما حيّان إلى يوم القيامة حتى يتحقق عليهما عذاب الدنيا ويستكملانه ويجب أن يكونا أبداً في بئر بابل ويعلمان الناس السحر بشكل مستمر . فهذا مرده من وجوه :

أ ـ : قوله صلى الله عليه وسلم : ٩٦ [لا يبقى على ظهر الأرض بعد مئة عام من على ظهرها اليوم] . فعلى افتراض أنهما حيان إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيلزم أن يكونا قد ماتا بعد مئة عام من قوله عليه الصلاة والسلام . وهذا مخالف لعذابهما الدنيوي الخالد إلى يوم القيامة حسب ما جاء بالقصة .

ب ـ : اذا كانا ما يزالان إلى الآن ببئر بابل يعذبان ويعلمان الناس السحر فكان ولا بد أن يتعرض الرسول لهما بذكر ، أو تصلنا أخبارهما ، وأخبار الناس الذين عادوا متعلمين من مدرستهما [السحرية ! ! ! ؟]

جـ ـ إذا كان مكانهما مقصوداً من الناس لتعليم السحر لزم أن يكون معروفاً ببابل وبابل مكانها بالعراق ولكن لم يصلنا إلى الآن خبر اكتشاف هذا البئر أو أي خبر عنه .

٤ ـ : هذه القصة من أخبار بني اسرائيل وأكاذيب أحبارهم .

فحريٌّ بقصة مثل هذه ... قال عنها العلماء الأثبات والمفسرون أنها محكيّة عن أحبار اليهود أن تكون مكذوبة ولعلها من رموز الأولين كما ذكر ذلك الخطيب ، واستبعد الشيخ ابن حجر الهيتمي المكي هذه القصة في كتابه الزواجر بما لا مزيد عليه ، وقال القرطبي إن هذا كله ضعيف ، وبعيد عن ابن عمر ، ولا يصح منه شيء ، وقال الخفاجي : قال المحدثون وجميع رجاله غير موثوق بهم . أجل لحري بمثل هذه القصة المكذوبة الموضوعة الباطلة المهلهلة ألاّ يؤبهَ لها ، ولا تذكر أو تكتب إلا للتنبيه على ما فيها من طامات ، وقد فعلنا .

نور ساطع حتّى يدخل السماء وذلك الإيمان . وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في السماء وذلك الإيمان . وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتّى يدخل في مسامعه وكل شيء وذلك غضب الله ، فإذا أخبرهما ، بذلك علّماه السحر ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وما يعلّمان من أحد حتّى يقولا إنّما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ أي فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرّفون ، فيما يتصرفون فيه من الأفاعيل المذمومة ، ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف . وهذا من صنيع الشياطين كما رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٩٧ [إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه في الناس ، فأقربهم عنده منزلةً أعظمهم عنده فتنة . يجيء أحدهم فيقول ما زلت بفلان حتّى تركته وهو يقول كذا وكذا ... فيقول إبليس :لا والله ما صنعت شيئاً ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتّى فرّقت بينه وبين أهله فيقرّبه ويدنيه ويلتزمه ويقول : نعم أنت] . وسبب التفريق بين الزوجين ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء المنظر والخلق ، أو نحو ذلك من الأسباب المفضية للتفرقة .

قوله تعالى :﴿ وما هم بضارّين به من أحد إلاّ بإذن الله ﴾ قال سفيان الثوري : إلاّ بقضاء الله ، وقال الحسن البصري : نعم من شاء سلّطهم عليه ومن لم يشأ لم يسلطهم . وقوله تعالى : ﴿ ويتعلّمون ما يضرّهم ولا ينفعهم ﴾ أي يضرّهم في دينهم ولا ينفعهم بنفع يوازي ضرره . ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق . ﴾ أي ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ لمن فعل فعلهم ذلك ، ما له في الآخرة من خلاق أي من نصيب ، قاله ابن عباس ومجاهد والسدى . وقوله تعالى : ﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ يقول تعالى : ولبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول لو كان لهم علم بما وعظوا به ولو أنهم آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ ورسله من قبل عليهم الصلاة والسلام واتقوا المحارم لكان مثوبةً لهم من الله ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به . وقد استدلّ بقوله : ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا ﴾ على تكفير الساحر . وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة وقد أخرجه البخاري في صحيحه وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت وقال عليه الصلاة والسلام : ٩٨ [حدّ الساحر ضربه بالسيف] رواه الترمذي . وقد رواه الطبراني من وجه آخر عن الحسن عن جندب مرفوعاً . ولا يدفع السحر مثله ، إنما أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل

الله على رسوله ﷺ في إذهاب ذلك وهما المعوذتان (الفلق والناس) وفي الحديث : ٩٩ [لم يتعوّذ المتعوّذون بمثلهما] . وكذلك قراءة آية الكرسي ، فإنها مطردة للشيطان .

والسحر في الواقع له حقيقة خلافاً لمن أنكر ذلك من المعتزلة وغيرهم ، والسحر كفر وتعلمه كفر وتعليمه كفر والساحر كافر ومعلّم الساحر كافر واختلف في استتابته ، فمنهم ــ أي العلماء ــ من قال أنه يستتاب والاّ قتل . ومنهم من قال لايستتاب ويقتل آنياً . وذلك لقوله ﷺ [حدّ الساحر ضربه بالسيف] وفعلُ حفصة رضي الله عنها مع جاريتها التي سحرتها فأمرت بها فقتلت ولم يذكر أنها استتابتها وكذلك كتابة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عماله : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة (١) والسحر أنواع وكلها شرٌ إن كان باستعانة الشياطين أو كان شعبذة أو كان رُقىً وتعاويذ (٢) أو أدوية وأدخنة فكله باطل . والله أعلم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ ١٠٥

نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن التشبه بالكافرين . والآية هنا تخص اليهود فقد كانوا يورّون في كلامهم متنقّصين رسولَ الله ﷺ فكانوا ــ عليهم لعائن الله ــ إذا أرادوا أن يقولوا له ﷺ : إسمع لنا ؛ قالوا : / راعنا / يورّون بالرعونة . وكذلك إن سلّموا يقولون : / السّامُ عليكم / والسّامُ : هــو الموت . ولهذا أمرنا أن نردّ عليهم بـ / وعليكم / وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا . والغرض : أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً فقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ... ﴾ ومن حديث للإمام أحمد بالسند إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول ﷺ : ١٠٠ [بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعلت الذلة والصّغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم] . ورواه أبو داود ففيه دلالة على النهي الشديد ، والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في كل أحوالهم

(١) قلت : وأنا أرجح عدم استتابة الساحر بل قتله فوراً وذلك: (١) لما جاء في الآيات والأحاديث (٢) سداً لباب تعلم السحر وتعليمه ومزاولته وتفشّيه بين الناس . وقد أخطأ كثيراً من قال بجواز تعلم السحر ليدفع عنه أو عن غيره السحر . ما دام رسول الله قد علمنا دفعة بالمعوذتين

(٢) أي الرقى والتعاويذ غير الشرعية

وأمورهم التي لم تشرع . وقال عطاء : لا تقولوا راعنا كانت لغةً تقولها الأنصار فنهى الله عنها . وفي ذلك أقوال متقاربة . قال ابن جرير والصواب من القول في ذلك عندنا : أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيّه ﷺ ﴿ راعنا ﴾ لأنها كلمةٌ كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيّه ﷺ ونظير ذلك من كلامه ﷺ : ١٠١ [لا تقولوا للعنب الكرمَ ولكن قولوا/الحبلة / ولا تقولوا عبدي ولكن قولوا / فتاي /]

وقوله تعالى : ﴿ ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ يبين ذلك تعالى شدّة عداوة المشركين وأهل الكتاب للمؤمنين الذين حذر الله من مشابهتهم لهم ، ليقطع المودّة بين الفريقين ثم نبّه على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيّهم محمّد ﷺ حيث يقول تعالى : ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ١٠٧

أصل النسخ : من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة إلى غيرها . والنسخ الشرعي هو : رفع الحكم بدليل شرعيّ متأخّر . ويكون النسخ : إما بتثبيت الخط ورفع الحكم ، مثل نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ ، ونسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة اثنين ، ومن ذلك أيضاً أن يحوّل الحلال حراماً والحرامُ حلالاً ، والمباح محظوراً والمحظور مباحاً . ولا يكون ذلك إلاّ في الأوامر والنواهي والحظر والإطلاق ، والمنع والإباحة . فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ومنسوخ [1] . وإما بتثبيت الحكم ورفع الخط مثل قوله ﷺ ١٠٢ : [الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ...]

فقوله : « ما ننسخ من آية » أي نبدّل حكمها وقوله : « أوننسها » فقد قرئت على قراءتين : « نُنْسِهَا » و « نَنْسأُها » فعلى القراءة الأولى من النسيان أي يُنسي اللهُ رسولَه ما أنزل عليه ، وعلى القراءة الثانية من النسيئة أي التأجيل والتأخير

---

(١) قلت : وكذلك آيات التوحيد فلا يكون فيها ناسخ ومنسوخ فإن الله واحد أحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته فلا يكون في ذلك ناسخ ولا منسوخ .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أوننسها﴾ قال كان الله عز وجل ينسي نبيّه ﷺ ما يشاء وينسخ ما يشاء. وقال عبد بن عمير ومجاهد وعطاء أو ننسأها نؤخرها ونرجئها. وروى ابن أبي حاتم بالسند إلى ابن عباس قال خطبنا عمر رضي الله عنه فقال : يقول الله عز وجل: ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسأها ﴾ أي نؤخرها وقوله: ﴿ نأتِ بخير منها أو مثلها ﴾ أي في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلّفين وقال قتادة: ﴿ نأتِ بخير منها أو مثلها ﴾ ويقول : آية فيها تخفيف ، فيها رخصة ، فيها أمر ونهي .

وقوله تعالى : « ألم تعلم أن الله على كلّ شيء قدير•ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير » يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء فله الخلق والأمر فكما أنّه خلقهم كما يشاء ويسعد من يشاء ويشقي من يشاء ويُصحّ ويمرض من يشاء ويوفق ويخذل من يشاء ، كذلك يحكم في عباده بما يشاء فيحلّ ما يشاء ويحرّم ما يشاء ويبيح ما يشاء ، ويحظر ما يشاء ، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون . ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها ثم ينهى عنه لما يعلمه فالطاعة كلّ الطاعة في امتثال أمره واتّباع رسُلِهِ في تصديق ما أخبروا وامتثال ما أمروا، وترك ما نهوا وماعنه زجروا وفي هذا المقام ردّ عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم – لعنهم الله – في دعوى استحالة النسخ . فقد أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى ومحمّد عليهما الصلاة والسلام . فأخبرهم الله أن له ملكُ السموات والأرض وسلطانهما وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه وأن له أمرهم بما يشاء ، ونهيهم عما يشاء ونسخ ما يشاء وإقرار ما يشاء وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه .

واليهود أنكروا النسخ كفراً وعناداً ، إذ لا يمتنع على العقل امكانية النسخ في الأحكام لأنه يحكم بما يشاء ويفعل ويريد . وقد وقع النسخ في الكتب المتقدّمة والشرائع الماضية كما أحلّ لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرّم ذلك. كما أحلّ أكل الحيوانات لنوح بعد خروجه من السفينة ثم نسخ حِلّ بعضها . وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها . وأمر إبراهيم بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل وهم أي اليهود يعترفون بذلك ، ويصدفون عنه ، والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى لما له في ذلك من الحكمة البالغة .

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ١٠٨

نهى الله تعالى المؤمنين عن كثرة السؤال للنبيّ ﷺ عن الأشياء قبل وقوعها .

كما قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تُبْدَ لكُم﴾ . أي وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبيّن لكم ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه فلعلّه أن يحرّم من أجل تلك المسألة . ولهذا جاء في الحديث الصحيح ١٠٣ : [إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرّم فحرّم من أجل مسألته] وفي الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ : ١٠٤ [كان ينهى عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال] وفي صحيح مسلم ١٠٥ [ذروني ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤآلهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه] ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل..﴾ هذا القول يعم المؤمنين والكافرين فإنه عليه الصلاة والسلام رسول الله إلى الجميع كقوله ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرةً فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ والمراد: إن الله ذمّ من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنّت والاقتراح كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكذيباً وعناداً. قال الله تعالى: ﴿ومن يتبدّل الكفر بالإيمان﴾ أي ومن يشترِ الكفر بالإيمان﴿فقد ضل سواء السبيل﴾أي فقد خرج عن الصراط المستقيم الى الجهل والضلال .

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١٠٩
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ١١٠

يحذّر الله عباده المؤمنين من سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ، ويُعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيّهم .

ويأمر عباده بالصفح والعفو ، والاحتمال حتى يأتي الله بأمره من النصرة والفتح ، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

قيل إن هذه الآية نزلت رداً على حيي بن أخطب وأبي ياسر بن أخطب اللذين كانا أشد يهود حسداً للعرب إذ خصهم الله برسوله ﷺ . وهكذا فقد أخبر الله تعالى أن اليهود يودّون لو يرجع المسلمون كفاراً حسداً من قبل أنفسهم من بعد ما تحقّقوا من رسالة محمد ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل فكفروا به حسداً وبغياً لأنه كان من غيرهم

وقوله تعالى : « فاعفوا واصفحوا » أي عمن يهجون ويكيلون العداوة إنما كان هذا أول الأمر وقد نسخ ذلك قوله تعالى : ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ فنسخت هذه الآية وغيرُها العفوَ والصفحَ وكذا قال ابو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسري إنها منسوخة بآية السيف ويرشد إلى ذلك قوله تعالى ﴿ حتى يأتيَ الله بأمره إنّ الله على كل شيء قدير ﴾ أي حتى أذن الله لهم بالقتال . وقوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾.

يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم ، وتعود عاقبته يوم القيامة عليهم من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة حتى يمكّن لهم الله النصر في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد. ولذا قال تعالى: ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ يعني إنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ويضيع لديه سواء كان خيراً أو شراً فإنه سيجازي كلاً بعمله . قال ابن جرير انه أعلمَ القومَ أنه بصير بجميع أعمالهم ليجِدُّوا في طاعته ويحذروا معصيته .

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١١١ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٢ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١١٣ ﴾

يبيّن تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادّعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلاّ من كان على ملتها كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة :

أنهم قالوا : ﴿نحن أبناء الله وأحبّاؤه﴾ فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذّبهم بذنوبهم ولو كانوا كما ادّعوا لما عذّبهم . فقد قال تعالى : ﴿تلك أمانيّهم﴾ قال أبو العالية : أمانيّ تمنّوها على الله بغير الحق. ثم قال تعالى ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي هاتوا بيّنتكم وحجتكم إن كنتم صادقين فيما تدعونه ثم قال تعالى: ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾

قال سعيد بن جبير : بلى من أخلص وجهه لله وهو محسن أي متبع فيه الرسول ﷺ فإن للعمل المتقبّل شرطين ، أحدهما : أن يكون خالصاً لله وحده ، والآخرَ يكون صواباً موافقاً للشريعة . فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل ولهذا قال رسول الله ﷺ:١٠٦ [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد] رواه مسلم من حديث عائشة وقال تعالى : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ وأمّا إن كان العمل موافقاً للشريعة في الظاهر ولكن بدون إخلاص فهو أيضاً مردود على فاعله وهو حال المرائين والمنافقين. ولهذا قال تعالى : ﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعملْ عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ وقوله : ﴿ فله أجره عند ربّه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ضمن لهم على ذلك تحصيل الأجور وآمنهم مما يخافونه ، فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا يحزنون على ما مضى مما يتركونه .

وقوله تعالى : ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾ بيّن الله تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم كما قال ابن اسحق عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالأنجيل وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود ما أنتم على شيء وجحد نبوّة موسى وكفر بالتوراة فأنزل الله في ذلك من قولهما ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾ . قال إن كلاً يتلو في كتابه تصديق من كفر به.وقوله تعالى : ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ فقد اختلف فيمن عني بقوله تعالى: ﴿الذين لا يعلمون﴾ قال عطاء: هم أمم كانت قبل اليهود وقال السدّي فهم العرب قالوا : ليس محمّد على شيء ، واختار ابن جرير : أنها عامة تصلح للجميع وليس ثم دليل قاطع يعيّن واحداً من هذه الأقوال[1] وقوله تعالى : ﴿فالله

(١) قلت : قوله تعالى « قال الذين لا يعلمون » أرجح أن المراد منه – والله أعلم – : هم العرب وذلك مفهوم من السياق فقد ذكر اليهود والنصارى وهم أهل كتاب ، ويعلمون من كتابهم أنهم يخالفون –

يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي يفصل بينهم بقضائه العادل.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ج لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١٤ ﴾

اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسَعَوا في خرابها على قولين، فمن قائل: إنهم النصارى الذين ساعدوا /بختنصّر/ بخراب بيت المقدس. ومن قائل: إنهم المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخل هو وأصحابه مكة حتى نحر هديه بذي طوى وهادنهم وقال لهم: ما كان أحد يصد عن هذا البيت وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق. وفي قوله: ﴿ وسعى في خرابها ﴾ قالوا إذا قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحج والعمرة. واختار ابن جرير الأول، واحتجّ بأن قريشاً لم تسعَ في خراب الكعبة. وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس والذي يظهر والله أعلم القول الثاني كما روي عن ابن عباس لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في بيت المقدس كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك، لأنهم لعنوا من قبلُ على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. وإن المشركين أخرجوا رسول الله ﷺ وأصحابه من مكة ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام. وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسعَ في خراب الكعبة فأي خراب أعظم مما فعلوه ..؟

أخرجوا رسول الله ﷺ وأصحابه واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم كما قال تعالى: ﴿ وما لهم ألاّ يعذبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن

ـ علمهم ويكفرون به. أما العرب فليسوا أهل كتاب، فهم إذاً لا يعلمون. ولذا ذكرهم الله بقوله: « وكذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » أي قالوا: إن محمداً ليس على شيء. أما قول القائل بأن المراد هم الأمم التي سبقت اليهود فبعيد إذ لا مناسبة لذكرهم، ولماذا نترك واقع العرب وقتئذ المماثل لواقع اليهود من حيث قولهم: أن محمداً ليس على شيء، والذي هو أقرب للمثلية بينهم وبين اليهود والنصارى الذين قال كل منهم عن الآخر: ليسوا على شيء، ثم يتمسك بما كان عليه الأمم السابقة في الوقت الذي لا ندري ماذا قالوا لأنبيائهم ومن هذه المناقشة يرجح عندي قول السدي من أن العرب هم المقصودون (بالذين لا يعلمون) والله سبحانه وتعالى أعلم، وهو الهادي إلى الصواب.

أولياؤه إلاّ المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله ﴾ .

فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها، مصدوداً عنها، فأي خراب لها أعظم من ذلك وليس المراد بعمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط ، إنّما عمارتُها بذكر الله فيها وإقامة شرعة فيها ورفعها عن الدنس والشرك . (٢)

وقوله تعالى : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين » وهذا خبر معناه الطلب أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة، أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادىَ برحاب منَى : ١٠٧ [ألالايحُجَّنَّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له أجل فأجله إلى مدته] وهذا إذا كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدّم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام . وأوصى رسولُ الله ﷺ أن لا يبقى في جزيرة العرب دينان، وأن يجلي اليهود والنصارى منها ولله الحمد والمنّة . وما ذاك إلاّ تشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة التي بعث فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً صلوات الله عليه وسلامه .

وهذا هو الخزي في الدنيا لأن الجزاء من نوع العمل فكما صدّوا المؤمنين عن المسجد الحرام صُدُّوا عنه وكما أجلوهم من مكة أُجْلُوا عنها ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه من نصب الأصنام حوله ودعاء غير الله عنده والطواف به عرياً وغير ذلك .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ١١٥

---

(١) قلت : في هذه الآية دليل على أن المقصود من قوله تعالى « وكذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » هم العرب المشركون وليسوا الروم ولا الأمم السابقة ليهود، للصفة الواردة في هذه الآية أنهم يصدون عن المسجد الحرام ولا شك فإن هؤلاء هم مشركو العرب .

(٢) قلت : وهذه الصفات أيضاً تدل على أنهم مشركو العرب والله الموفق الهادي للصواب

وهذا – والله أعلم – فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاّهم. وقد كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة توجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾ وقال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه (الناسخ والمنسوخ) : أخبرنا الحجّاج بن محمّد ثم ساق السند إلى ابن عباس قال : أول ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم ، شأن القبلة قال الله تعالى : ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّ وجه الله﴾ فاستقبل رسول الله ﷺ فصلّى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ، ثم صرفه إلى بيته العتيق ، ونسخها فقال : « ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره . »

وقال مجاهد : ﴿فأينما تولُّوا فثمّ وجه الله﴾ حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة. وقال ابن جرير : وقال آخرون بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجّه إلى الكعبة . وقال آخرون : نزلت إذناً من الله أن يصلّي التطوع حيث توجه من شرق أو غرب في مسيره في سفره وفي حال شدة الخوف . وروى أبو كريب بالسند إلى ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهتْ به راحلته ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية : ﴿فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾ ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن عبد الملك بن أبي سليمان به . وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة من غير ذكر الآية .

وقال آخرون : بل نزلت في قوم عميت عليهم القبلة ، فلم يعرفوا شطرها فصلوا على أنحاء مختلفة فقد روى محمّد بن إسحق الأهوازي بالسند الى عامر بن ربيعة عن أبيه قال : كنّا مع رسول الله ﷺ في ليلة سوداء ومظلمة فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً يصلّي فيه فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا إلى غير القبلة فقلنا يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة ، فأنزل الله هذه : ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾ ، رواه الترمذي وابن أبي حاتم بطرق ضعيفة وورويت أيضاً من طرق أخرى عديدة بأسانيد فيها ضعف ولعلّه يشدّ بعضها بعضاً وأما إعادة الصلاة لمن يتبين خطأه ففيها خلاف (وهذه دلائل أي الآية نفسها ، والأحاديث المتقدمة، على عدم القضاء والله أعلم .)

وروى ابن جرير بالسند إلى مجاهد قال لما نزلت: ﴿ادعوني استجب لكم﴾ قالوا إلى أين ؟ فنزلت: ﴿فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾ قال ابن جرير ومعنى : ﴿أن الله واسع عليم﴾

يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال وأما قوله : عليم فإنه عليم بأعمالهم ما يغيب عنه منها شيء ، ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ١١٧ ﴾

إشتملت هذه الآية والتي تليها ، الردّ على النصارى ، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب من جعل الملائكة بنات الله فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم إن لله ولداً .

فقال تعالى : ﴿ بل له ما في السموات والأرض ﴾ أي ليس الأمر كما افتروا وإنّما له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وهو المتصرف فيهن ، وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء والجميع عبيد له وملك له فكيف يكون له ولد منهم ، والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد كما قال تعالى :

﴿ بديع السموات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم . ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من في السموات والأرض إلا آتِ الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدّاً وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾ فقرر في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له وأن جميع الأشياء غيره ، مخلوقة له ومربوبة ، فكيف يكون له منها ولد ؟ .

ولهذا روى البخاري في تفسير هذه الآية من البقرة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية عن النبي ﷺ قال ١٠٨ : [قال الله تعالى: «كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياي فقوله : أنّ لي ولداً فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً] . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال ١٠٩ : [لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله. إنهم : يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم .]

وقوله ﴿ كل له قانتون ﴾ روى ابن أبي حاتم بالسند عن ابن عباس قال : قانتين: مصلين. وقال عكرمة وأبو مالك: ﴿ كل له قانتون ﴾ مُقِرُّون له بالعبودية . وقال مجاهد مطيعون . وقوله تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أي: خالقها على غير مثال سابق. قال ابن جرير فمعنى الكلام : سبحان الله أن يكون له ولد وهو مالك السموات والأرض تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية ، وتقرُّ له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه ، وهذا إعلام من الله لعباده ، أن ممن يشهد له بذلك المسيح الذي أضافوا إلى الله بنوّته، وإخبار لهم: أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال، هو الذي ابتدع المسيح من غير والد بقدرته .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ١١٨ ﴾

حكى القرطبي : ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾، أي يخاطبنا بنبوتك يا محمد وهذا قول كفار العرب . ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ﴾ قالوا هم اليهود والنصارى . يؤيد هذا القول أن القائلين ذلك هم مشركو العرب قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجّر لنا من الأرض ينبوعا ... ﴾ إلى قوله ﴿ ... قل سبحان ربي هل كنت إلاّ بشراً رسولاً ﴾ . وقوله تعالى ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب [1] وعتوّهم وعنادهم وسؤآلهم ما لا حاجة لهم به ، كما قال مَنْ قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتاب وغيرهم كما قال تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ أي أشبهت قلوب مشركي العرب قلوبَ مَنْ تقدّمهم في الكفر والعناد والعتوّ . وقوله تعالى : ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ ، أي قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل لمن أيقن وصدق.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ١١٩ ﴾

(١) قلت : لقد تكرر وصف مشركي العرب / بعدم العلم / مما يؤيد ما رجحناه في تعليقنا ص ٩٢ و ٩٣ و ٩٤ في قوله تعالى : «وكذلك قال الذين لا يعلمون » وكذلك هنا في الآية رقم/١١٨/

روى ابن أبي حاتم بالسند عن ابن عباس عن النبي ﷺ : ١١٠ [أنزلت عليّ : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ قال : بشيراً بالجنة ونذيراً من النار] . وقوله تعالى : ﴿ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ قراءة أكثرهم : ﴿ ولا تُسألُ ﴾ أي لا نسألك عن كفرِ من كفرَ بك قوله تعالى : ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴾ وقرأ آخرون : ﴿ ولا تَسألْ عن أصحاب الجحيم ﴾ بفتح التاء على النهي أي لا تسأل عن حالهم كما روى عبد الرزاق عن محمد بن كعب القرظي قال : قال رسول الله ﷺ : ١١١ [ليت شعري ما فعل أبواي، ليت شعري ما فعل أبواي ، ليت شعري ما فعل أبواي فنزلت : ﴿ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ فما ذكرهما حتى توفاه الله] . أما الحديث المروي في حياة أبويه عليه الصلاة والسلام فليس في شيء من كتب السنة ولا غيرهـا. وإسناده ضعيف والله أعلم . ويحتمل أن رسول الله ﷺ كان يستغفر لأبويه قبل أن يعلم أمرهما فلما علم ذلك، تبرأ منهما وأخبر عنهما أنهما من أهل النار كما ثبت في الصحيح [1] .

﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ ٱلَّذِي جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ١٢١ ﴾

قال ابن جرير :

يعني بقوله جل ثناؤه : ﴿ ولن ترضىٰ عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ أي يا محمد ليست اليهود ولا النصارى براضية عنك أبداً حتى تتبع ما يرضيهم ويوافقهم فاطلب رضاء الله فيما بعثك الله من الحق . وقوله تعالى : ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾

(١) قلت : روى مسلم في صحيحه عن أنس : ١١٢ [أن رجلا قال يا رسول الله: أين أبي ... ؟ فقال : « في النار » فلما قفى دعاه فقال : « إن أبي وأباك في النار »] وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال : ١١٣ [زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، فقال: « إستأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يؤذن لي فاستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكر الموت »] وهناك أحاديث شتى في هذا الباب اقتصرنا منها على ما هو في صحيح مسلم ويتضح منها جميعاً أن أبوي الرسول ماتا على الشرك فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

أي قل يا محمد إنّ هدى الله الذي بعثني به هو الهدى يعني هو الدين الصحيح ﴿ ولئن أتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من وليّ ولا نصير ﴾ . فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طريق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة عياذاً بالله من ذلك.فإن الخطاب للرسول والأمر لأمته (١) .

وقوله تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾ قال سعيد وقتادة:هم أصحاب رسول الله ﷺ وقال ابن مسعود : والذي نفسي بيده إن حقّ تلاوته أن يُحلّ حلالَه ويُحرّمَ حرامَه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرّف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأوّل منه شيئاً على غير تأويله ، وقال ابن عباس مِثلَ ذلك. ورُوي عن النبي ﷺ : ١١٤ [أنه كان إذا مرّ بآية رحمة سأل ، وإذا مر بآية عذاب تعوّذ] . وقوله تعالى ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ خبر عن الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته . أي مَنْ أقام كتابَه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته ، آمن بما أرسلتك به يا محمد كما قال تعالى ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل اليكم من ربكم ﴾ أي إذا أقمتموها حق الإقامة ، وآمنتم بها حق الإيمان ، وصدّقتم بما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته ، والأمر باتباعه ونصره وموآزرته قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة . كما قال ﴿ الذين يتبعون الرسول النبيَّ الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ ... ويقول تعالى ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ وفي الصحيح : ١١٥ [والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهوديّ ولا نصرانيّ ثم لا يؤمن بي إلاّ دخل النار .]

﴿ يَـٰبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ١٢٣ ﴾

(١) قلت : فيه نهي كبير عن اتباع الكفار وتقليدهم في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم...وجعلهم مثلاً بالاقتداء كما هو الحال اليوم والعياذ بالله وخاصة في الحكم بغير ما أنزل الله . مع العلم بما جاء به القرآن والسنة من الأحكام . فمن يفعل ذلك فليس له من عذاب الله من ولي ولا نصير .

قد تقدم نظيرها في مختصر السورة وكررت هنا للتأكيد والحث على اتباع محمد ﷺ ولا يحسدوا بني عمّهم العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم فيكفروا بـــــه (١)



﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

أي اذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابيْن الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها وإنما الذي عليها مستقيم . فأنت والذين معك من المؤمنين اذكر لهؤلاء ابتلاءَ إبراهيم أي اختباره بما كلفه من الأوامر والنواهي ﴿ فأتمّهنّ ﴾ أي قام بهنّ كلهنّ كما قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفّى ﴾ أي وفّى جميع ما شرع الله له فعمل به صلوات الله عليه وسلامه . قال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين إن أولى الناس بابراهيم للّذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ وقوله تعالى: ﴿ بكلمات ﴾ أي بشرائع وأوامر ونواه . فإن الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدرية كقوله تعالى عن مريم عليها السلام ﴿وصدقت بكلمات ربّها وكتبه وكانت من القانتين﴾ وتُطلق ويراد بها الشرعية كقوله تعالى : ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ أي كلماته الشرعية وهي : إما خبر صدق ، وإما طلب عدل ، إن كان أمراً ونهياً ومن ذلك هذه الآية الكريمة ﴿ وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهنّ ﴾ أي قام بهن. قال : ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾ أي جزاء على ما فعل كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوةً وإماماً يقتدى به .

وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها ابراهيم الخليل عليه السلام . فروى محمد بن اسحق بالسند إلى ابن عباس قال : الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهنّ : فراق قومه في الله حين أُمرَ بمفارقتهم ، ومحاجتّه نمروذاً في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافه ، وصبره على قذفه إياه في النار ليحرّقوه في الله على هول ذلك من أمرهم ، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم . وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله ، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه . فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء قال الله له: ﴿ أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾

(١) قلت : راجع الآيات رقم ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ من هذه السورة .

وروى ابن أبي حاتم بالسند إلى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن﴾ قال الله لإبراهيم إني مبتليك بأمر فما هو... قال تجعلني للناس إماماً قال: نعم. قال ومن ذريتي قال: ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ قال تجعل البيت مثابة للناس قال : نعم قال : وأمناً . قال : نعم . قال : تجعلنا مسلمَيْن لك ومن ذريتنا أمةً مسلمة قال : نعم. قال : وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله قال : نعم . قال ابن جرير ما حاصله: أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر وجائز أن يكون بعض ذلك ، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلاّ بحديث أو إجماع . ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له .

وقوله : ﴿قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك ، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون ، وإنه لا ينالهم عهد الله ، ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم . والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ فكل نبي أرسله الله وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَٱتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى ﴾

﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَداً ءَامِناً وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٢٦ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ١٢٨

قال العوفي عن ابن عباس قوله تعالى : ﴿وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس﴾ يقول لايقضون

منه وطراً يأتونه ثم يرجعون منه ثم يعودون إليه . وروى ابن جرير بالسند إلى عبدة بن أبي لبابة في قوله تعالى : ﴿ وإذجعلنا البيت مثابة للناس ﴾ قال لا ينصرف عنه منصرف وهو يرى أنه قضى منه وطراً . وما أحسن ما قال الشاعر في هذا المعنى ، أورده القرطبي :

جعـــل البيت مثـابـاً لهـمُ ليس منه الدهرَ يقضونَ الوطرْ

ومضمون ما فسرت به هذه الآية : أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدراً ، من كونه مثابة للناس،أي جعله محلاً تشتاق إليه الأرواح وتَحنُّ إليه ولا تقضي منه وطراً ، ولو تردّدتْ إليه كل عام استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله : ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ إلى أن قال: ﴿ربنا وتقبّل دُعائي﴾ ويصفه بأنه جعله أمناًمن دخلهُ أمِنَ ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً . وقال تعالى : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي بمكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً﴾ وفي هذه الآية الكريمة نبّه علىمقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده فقال: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ . وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقامما هو... فقال ابن أبي حاتم بالسندالى ابن عباس: ﴿واتخذوا من مقام ابراهيم مصلىً ﴾ قال مقام إبراهيم الحرم كلّه . وعنه أيضاً قال: أما مقام ابراهيم الذي ذكر ههنا فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد . وقيل إن مقام إبراهيم « الحج كله » . والصحيح أنه الحجر الذي صلى خلفه رسول الله ﷺ ركعتي الطواف . فقد روى البخـــاري عن النبي ﷺ عن أنس بن مالك مالك قال : قال عمر بن الخطاب : « وافقت ربي في ثلاث أو وافقني ربي في ثلاث : قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت : ﴿ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ﴾ إلى آخر الحديث ... ورواه مسلم عن عمر قال : (وافقت ربي في ثلاث: في الحجـــاب . وفي أسارى بدر وفي مقام إبراهيم. وقال ابن جريج بالسند إلى جابر : ١١٦ [إن رسول الله ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلّى خلفه ركعتين ثم قرأ: ﴿واتخذوا منمقام إبراهيم مصلّى﴾]

وكل ما تقدم يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجَر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة. وهو واقف عليه كلما فرغ من جدار، نقلهُ إلى الناحية التي تليها. وهكذا حتى تم جدران الكعبة ،كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت.وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً ، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجَر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك . وإنما أخّره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمِرنا باتباعهم ولمينكر

أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين (١)

وقوله تعالى: ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود﴾ وعهدنا أي أمرنا وعُدّيَ بإلى لأنه بمعنى: تقدمنا وأوحينا. ﴿وطهرا بيتي للطائفين﴾ أي من الشرك بلا إله إلاّ الله. والطواف بالبيت معروف. وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى: للطائفين يعني من أتاه من غُربة يطوف به ﴿والعاكفين﴾ المقيمين فيه. وقيل من انتابه من الأمصار فأقام عنده. وعن ابن عباس قال: إذا كان جالساً فهو من العاكفين حتى النائمين في المسجد يعتبرون من العاكفين قال ابن عمر. وثبت أنه كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عزب ﴿والركع السجود﴾ قال ابن عباس: إذا كان مصلياً فهو من الركع السجود. وقد اختلف الفقهاء أيهما أفضل؟ الصلاة عند البيت أو الطواف به ...؟ قال مالك: الطواف لأهل الأمصار أفضل، وقال الجمهور: الصلاة أفضل مطلقاً.

والمعنى إذاً: وعهدنا إلى ابراهيم أي تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي ﴿للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ أي طهراه من الشرك والريب، وأبنياه خالصاً لله معقلاً للطائفين والعاكفين والركّع السجود. وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة، ومن قوله تعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ والآصال﴾ ومن السنّة من أحاديثَ كثيرةٍ من الأمر بتطهيرها وتطييبها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ١١٧ [إنما بنيت المساجد لما بنيت له] وقد اختلف في أول من بنى الكعبة. فقيل: الملائكة، وقيل آدم، وقيل شيث عليهما السلام وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردها وأما إذا صح حديث من ذلك فعلى الرأس والعين.

قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعلْ هذا بلداً آمناً﴾ أي اجعل هذه البقعة بلداً آمناً وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة. وقال تعالى في سورة ابراهيم: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ كأنه ـ والله أعلم ـ وقع دعاءٌ مرةٌ ثانية بعد بناء البيت

(١) قلت: إن من تتبع سبب نقل الحجر وتأخيره إلى مكانه اليوم ير أن عمر بن الخطاب رأى الحجر يتعثر به المسلمون أثناء طوافهم فأخره رضي الله عنه رحمة بهم، ولم ينكر أحد من الصحابة على ما فعله عمر وفي هذه الأيام عام ١٣٨٥ وما قبله وإلى ما بعده يكثر عدد الحجاج والحمد لله عاماً بعد عام لدرجة بلغ هذا العام ألف ألف وخمسمئة ألف حاج. حتى بلغ من أمر الزحام عنده ما أدّى إلى وفاة عدد من الحجاج وخاصة في العام الذي مضى ... فيا ليت أولي الأمر يؤخرونه أيضاً كما أخره عمر بن الخطاب بسبب التعثر فكيف بالوفاة؟

واستقرار أهله به وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سناً من إسماعيل بثلاث عشرة سنة ولهذا قال آخر الدعاء : ﴿الحمد لله وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربّي لسميع الدعاء﴾

وقوله : ﴿وأرزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ قال ابن عباس كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله ﴿قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ ومعناه : ومن كفر أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين أأخلق خلقاً ولا أرزقهم ؟ أمتعهم قليلاً ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير أي سأرزق الكافر أيضاً وأمتعه برزقه في الدنيا قليلاً ثم أضطره بما كفر إلى عذاب النار جزاءً وفاقاً ﴿وبئس المصير﴾ أي المرجع والمآل . وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة : ١١٨ [إلتمس لي غلاماً من غلمانكم يخدمني فخرج بي أبو طلحة يرد فني وراءه ، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلّما نزل. وقال في الحديث ثم أقبل حتى إذا بدا له أحُد قال : « هذا جبل يحبنا ونحبه » فلما أشرف على المدينة قال: اللهم إني أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم به إبراهيم مكة اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم .]

وفي لفظ لهما اللهم بارك لهم في مكيالهم وبارك لهم في صاعهم وبارك لهم في مدهم] (زاد البخاري) : يعني أهل المدينة .

وعن عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه عن النبي ﷺ ١١٩ [إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها وحرّمْتُ المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة] رواه البخاري .

أثبتنا هذه الأحاديث : لتعلقها بدليل حرمة مكة ومن أدلة ذلك : وقيل أنها محرمة منذ خلقت مع الأرض . وهذا أظهر وأقوى والله أعلم . وقد وردت أحاديث أُخر، تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والارض . كما جاء في الصحيحين عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : ١٢٠ [إن هذا البلد حرّمه الله يومَ خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلاّ ساعةً من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته ، إلاّ من عرّفها ولا يختلى خلاها » فقال العباس يا رسول الله إلاّ الأذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال : « إلا الإذخر »] وهذا لفظ مسلم. ولهما عن أبي هريرة نحو من ذلك . أما تفضيل مكة على المدينة أو بالعكس فيأتي بعد إن شاء الله تعالى

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾

القواعد جمع قاعدة . وهي السارية والأساس. يقول تعالى واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل البيت ورفعهما القواعد وهما يقولان : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما. ويدلُّ على هذا قولهما بعده: ﴿ ربنا واجعلنا مسلمَيْنِ لكَ ومن ذرّيتنا أمةً مسلمةً لك ﴾ فهما في عمل صالح ويسألان الله به أن يتقبل منهما وقد كانا يرفعان ويدعوان الله سبحانه أن يتقبل عملهما وقلباهما وجلان ألاّ يتقبّل منهما كما حكى الله عن حال المؤمنين الخلّص في قوله تعالى: ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ أي خائفة أن لا يتقبل منهم .

وقد روى عن البخاري رحمه الله في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ١٢١ [أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل،أم اسماعيل إتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي تُرضعه حتّى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعها هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء. ثم قفّا إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم اسماعيل فقالت: يا إبراهيم: أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ فقالت ذلك له مراراً .. وجعل لا يلتفت إليها . فقالت : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم. قالت: إذاً لا يضيّعنا... ثم رجعت . فانطلق إبراهيم حتّى إذا كان عند الثنيّة ، حيث لا يرونه، إستقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه .فقال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ... حتّى بلغ يشكرون. ﴾ وجعلتْ أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتّى إذا نفد ما في السقاء عطشَتْ وعطش أبنها وجعلت تنظر إليه يتلوّى أو قال يتلبّط . فانطلقت كراهة أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ، فلم ترَ أحداً فهبطت من الصفا حتّى إذا بلغتِ الوادي ، رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتّى جاوزت الوادي ثم أتت المروةفقامت عليها فنظرت هل ترى أحداًفلم ترَ أحداً ففعلت ذلك سبع مراتٍ. قال ابن عباس قال النبي ﷺ : «فلذلك سعى الناس بينهما» فلمّا أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت. فسمعت أيضاً فقالت قدأسمعتَ إن كان عندك غواث؟ فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه ، أو قال بجناحه ، حتّى ظهر الماء . فجعلت تحوّضه وتقول بيدها هكذا ... وجعلت تغرف الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ «يرحم الله أمَّ إسماعيل لو تركت زمزم » أو قال « لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً » قال فشربتْ وأرضعتْ ولدها

فقال لها الملَك : « لا تخافي الضيعة ، فإن ها هنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه . وأن الله لا يضيع أهله » وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله . فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من (جرهم) أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كذا ... فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء . لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء .. !

فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا . قال : وأم اسماعيل عندالماء فقالوا : أتأذنين لنا أن‌ننزل عندك؟ قالت : نعم ، ولكن لا حقّ لكم في الماء عندنا ، قالوا : نعم . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس » فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبياتٍ منهم ، وشبّ الغلام وتعلّم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته،فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت : خرج يبتغي لنا ... ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشرٍّ، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي‌له يغيّرعتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أننا في جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غيّر عتبة بابك . قال : ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك . وطلقها وتزوج منهم بأخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاءالله‌ثم أتاهم بعد، فلم يجده،فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت خرج يبتغي لنا قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم. فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل قال ما طعامكم ؟ قالت : اللحم . قال فما شرابكم؟ قالت الماء . قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء . قال النبي ﷺ : «ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم لدعا لهم فيه » – قال – فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه .) قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم‌من أحد؟ قالت: نعم،أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته.فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا بخير قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم. هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبي وأنت العتبة ، أمرني أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلاً له، تحت دوحة قريبة من زمزم. فلما رآه، قام إليه وصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد . ثم قال : يا إسماعيل : «إن

الله أمرني بأمر قال : فاصنع ما أمرك ربك قال : » وتعينني » ؟ قال : « وأُعينك » قال : فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً» وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر [1] فوضعه له فقام عليه ، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت ، وهما يقولان ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾]

وقد اختلف العلماء والمفسرون في قواعد البيت .. أهي قواعد بناها إبراهيم عليه السلام أم هي موجودة قبله ، وأُمِرَ أن يبني عليها ...؟ فالراجح — والله أعلم — إنها قواعد كانت مبنية قبل إبراهيم ... وإنما هُدِيَ إليها وبُوِّيء لها . قال الله تعالى : ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ فالبيت إذاً كان سابقاً موجوداً إنما بُوِّيء مكانه

قال ابن جرير : أخبرنا هناد بن السري وساق السند إلى خالد بن عرعرة قال:إن رجلاً قام إلى علي رضي الله عنه فقال : ألا تخبرني عن البيت ... أهو أول بيت وضع في الأرض فقال : لا ؛ ولكنه أول بيت وضع في البركة مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً وإن شئت أنبأتُك كيف بُنِيَ : إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابنِ لي بيتاً في الأرض فضاق إبراهيم ذرعاً بذلك . فأرسل الله السكينة وهي ريح خجوج ، ولها رأسان فأتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة ، فتطوّت على موضع البيت كطيّ الحجفة ، وأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة، فبنى إبراهيم وبقي الحجر فذهب الغلام يبغي شيئاً فقال إبراهيم: «لا... أبغني حجراً كما آمرك .» قال: فانطلق الغلام يلتمس حجراً فأتاه به فوجده قد ركّب الحجر الأسود في مكانه. فقال: «يا أبتِ من أتاك بهذا الحجر؟» فقال «أتاني به من لم يتكل على بنائك ، جاء به جبريل عليه السلام من السماء » ، فأتمّاه .

* * *

ويقال إن الحجرَ كان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة وكان آدم هبط به من الجنة فاسودّ من خطايا الناس . ويقال إن البيت بُني من أربعة أجبل : حراء ، وطور سيناء ، وطور زيتا ، والجودي . والله أعلم .

* * *

(١) قلت : هو الحجر الذي قام عليه ابراهيم في بناء الكعبة وهو مقام إبراهيم الذي جاء ذكره ص١٠٣

وروى ابن أبي حاتم بالسند إلى سعيد بن المسيب قال سعيد : وحدثنا علي بن أبي طالب أن إبراهيم أقبل من أرض أرمينية ومعه السكينة تدله على تبوّيء البيت كما تتبوأ العنكبوت بيتاً قال : فكشفتْ عن أحجار لا يطيق الحجرَ إلا ثلاثون رجلاً ، فقلت يا أبا محمد : فإن الله يقول : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . ﴾ قال كان ذلك بعدُ . (١)

« ذكر بناء قريش للكعبة »

بعد ابراهيم وقبل مبعث محمد ﷺ

قبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين ، أجمع أمر قريش على نقض الكعبة لتوهّنها وبنائها من جديد ، وتعاهدوا فيما بينهم ألاّ يدخلوا في بنيانها إلاّ كسباً طيباً ولا يدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس . وقد كانت الكعبة مجزأة فيما بين قبائل قريش ، أي كان كل شقٍ أو ركن لقبيلة من قبائل قريش حتّى شق الحجر وظهر الكعبة .

وقد هابوا جميعاً هدمها وفرقوا منه . فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم في هدمها . فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم إنا لا نريد إلا الخير ثم هدم من ناحية الركن . فتربص الناس تلك الليلة وقالوا : ننظر ... فإن أصيب لم نهدم منه شيئاً ورددْناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء ، فقد رضي الله ما صنعنا ، فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله ، فهدم وهدم الناس معه حتّى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس ، أساسِ إبراهيم عليه السلام أفضوا إلى حجارةٍ خضرٍ كالأسنة ، آخذ بعضها بعضاً .

قال محمد بن اسحق : وحدثني بعض من يروي الحديث بأنّ رجلاً من قريش ممن

---

(١) قلت : من عموم نصوص القرآن ، ومن الأخبار الواردة ، ورغم أن المحدثين قالوا انه لم يثبت منها أي حديث إنما من مجموع هذه الأحاديث يميل القلب إلى الظن الراجح بأن القواعد كانت موجودة قبل ابراهيم لا سيما وان الله تعالى يقول : « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت » ويقول تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت) يتضح أن الله هداه إلى مكان البيت ، وإن القواعد من البيت أي أركانه الأربعة ، وليست هي أسسه الراسية عليها أركان البيت ، والأخبار المتقدمة تصف القواعد أن الحجر منها لا يطيق حمله إلا ثلاثون رجلا . ثم قول إبراهيم (عند بيتك المحرم) وذلك قبل أن يبني البيت بأعوام ، لدليل على أن البيت كان موجوداً ومعروف البقعة ولا يعقل أن يكون بيت بلا قواعد والأخبار تقول : إنه كان مكان البيت وقتئذ ربوة حمراء مدرة ، ولعلها بعض أنقاض لابيت المردومة سابقاً والله تعالى أعلم .

كان يهدمها أدخل عتلةً بين حجرين منها ، ليقلع بها أيضاً أحدهما . فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس .

اشترك الجميع في جمع الحجر والبناء، حتى إذا بلغوا موضع الحجر الأسود، فاختصموا فيه ، وكل قبيلة تودُّ لو تنفرد بشرف وضعه في مكانه، لتنال هذا الشرف حتى لكـادوا يقتتلون ... لولا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي ، قال : يا معشر قريش إجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم . ففعلوا فكان أول داخلٍ محمداً ﷺ . فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ... رضينا هذا محمد فلما أخبروه الخبر قال قال ﷺ : ١٢٢ [«هلمَّ إليَّ ثوباً» . فأُتي به . فأخذ الحجر الأسود ، فوضعه بيده ، ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً » ففعلوا ... حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه بيده ﷺ ولم تزل الكعبة على بناء قريش ، حتى احترقت في أول إمارة عبدالله بن الزبير سنة ٦٠ وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية ، لمـا حاصروا ابن الزبير فحينئذٍ نقضها ابن زبير إلى الأرض وبناها على قواعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وأدخل فيها من الحِجْرِ خمسة أذرع ، وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً ملصقَيْن بالأرض . كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ ولم تزل الكعبة كذلك حتى قتله الحجاج فردَّها إلى ما كانت بأمر عبد الملك بن مروان ،كما روى مسلم في صحيحه عن عطاء بنحوه .

وقد كانت السُنّةُ إقرار ما فعله عبدالله بن الزبير (رض) لأنه هو الذي وَدَّهُ رسولُ الله ﷺ . ولكن خفيت هذه السُّنة على عبد الملك بن مروان ، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ ، قال : ودَدْنا أنَّا تركناه وما تولّى .

وروى مسلم فيصحيحهعن أبي قزعة : أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال : قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين ، يقول سمعتها تقول : قال رسول الله ﷺ ١٢٣ : [يا عائشة لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة حتى أزيد فيها من الحجر فإن قومك قصروا في البناء] فقال الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة : لا تقل هذا يـا أمير المؤمنين ، فإني سمعت أمَّ المؤمنين تحدّث هذا ... قال لو كنت سمعتهُ قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير . هذا الحديث كالمقطوع بـه إلى عائشة لأنه قد روي عنها من طرقٍ صحيحة متعدّدة ... فدلَّ هذا على صواب بما فعله ابن الزبير ، فلو ترك لكان جيداً . ونهى مالكٌ بنُ أنس (الرشيد) أو أباه (المهدي) عن هدم الكعبة لإرجاعها إلىقواعد إبراهيم، حتىلا تكونملعبةً للملوك،لا يشاء أحد أنيهدمها إلاّ هدمها .

وسوف تبقى لآخر الزمان إلى أن يخربها ذو السويقتين من الحبشة . كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ١٢٤:[يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة] ، وفي رواية عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ١٢٥ [يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ويسلبها حليتها ويجردها من كسوتها ولكأني أنظر إليه أصيلع أفيدع[1] يضرب عليها بمسحاته ومعوله]وهذا والله أعلم إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج ، لما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رض) قال: قال رسول الله ﷺ ١٢٦ : [ليُحَجنَّ البيتَ وليُعْتمَرنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج .]

وقوله تعالى : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمَيْن لك ومن ذريتنا أمةً مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتُبْ علَيْنَا إنّك أنْتَ التواب الرحيم ﴾

قال ابن جرير : يعنيان بذلك : واجعلنا مستسلمَيْن لأمرك ، خاضعَيْن لطاعتك لا نُشرِكُ معك في الطاعة أحداً سواك ، ولا في العبادة غيرَك ﴿ ومن ذريتنا أمةً مسلمة لك ﴾ قال السدي : يعنيان العرب وقال ابن جرير : والصواب أنه يعم العرب وغيرهم ، لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل . وهذا الذي قال ابن جرير لا ينفيه السدي فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم والسياق إنّما هو في العرب ولهذا قال بعده : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ والمراد بذلك محمد ﷺ وقد بعث فيهم ، كما قال تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾ ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأسود والأحمر . ويقول تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وغير ذلك من الأدلة القاطعة ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ أي أخرجها لنا وعلّمناها . وعن سعيد بن منصور بالسند إلى مجاهد قال – ما خلاصته – : إن جبرائيل قال لإبراهيم: إرفع القواعد فرفعها ، ثم أراه مناسك الحج جميعاً فأراد إبليس أن يُدخِلَ في الحج شيئاً ، فلم يستطع وأمره أن يرميه ثلاث مرات ، في كل مرة سبع حصيات عند الجمرات الثلاث فرماه . ثم أتى به المشعر الحرام ، حتى أتى به عرفاتٍ ، قال قد عرفت ما أريتك ؟ قال نعم .

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ١٢٩

(١) الأفدع : من كان فيه اعوجاج في الرسغين اليد أو الرجل ، وعوج المفاصل ...

وافقتْ تمامُ دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث فيهم رسولاً منهم ، قَدَرَ الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه وعليه رسولاً في الأميين (١) إليهم وإلى سائر الثقلين كما روى الإمام أحمد عن العرباض بن سارية قال قال رسول الله ﷺ ١٢٧ : [إني عند الله لخاتم النبيين (٢) وإن آدم لمجندل في طينته وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْنَ .]

والمراد من قوله : (وبشارة عيسى بي) قوله تعالى : ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ... ﴾ وأما قوله ﷺ ... ورؤيا أمي التي رأت فيوضحه قوله في الحديث الآخر الذي رواه أحمد : ١٢٨ [ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام .] أي أنها رأت مناماً ... رأته حين حملت بـه ، وقصّته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم . وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى أن الشام ستكون آخر الزمان معقل الإسلام وأهله ، بها ينزل عيسى ولهذا جاء في الصحيحين ١٢٩ : [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك .)

وفي صحيح البخاري : ... ١٣٠ [وهم بالشام] .

وقوله تعالى : ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ أي القرآن . « ﴿ والحكمة ﴾ أي السنّة .

وقوله : ﴿ ويزكيهم ﴾ يعني طاعة الله والإخلاص له قال ابن عباس . وقوله : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي العزيز الذي لا يعجزه شيء والحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالّها .

---

(١) قلت : أي العرب .

(٢) قلت : أي مكتوب عند الله في أم الكتاب أنه سيكون آخر النبيين بعثاً . ويستدل بعض الغلاة بهذا الحديث على أنه صلى الله عليه وسلم أول الخلق . مع أن هذا الحديث لا يدل في واقعه على ذلك البتة . بل إنه يدل على وجوده العلمي لا على وجوده الخلقي ، ويستوي في الوجود العلمي سائر المخلوقات مع النبي صلى الله عليه وسلم بدليل قوله عليه الصلاة والسلام : ١٣١ : (إن الله علم الأشياء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام) وعلم الله صفة لله غير مخلوقة ولم يسبق علم الله بعضه بعضاً . أما أول الوجود خلقاً هو القلم . وذلك كما أخبر عليه الصلاة والسلام بقوله : ١٣٢ (أول ما خلق الله القلم وقال اكتب قال رب وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة) أنظر رسالتنا : « محمد أفضل الخلق لا أوّل الخلق » مطبوعة.

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرٰهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ١٣٠ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ١٣٢

يقول تبارك وتعالى رداً على الكفار فيما ابتدعوه من الشرك بالله المخالف لملّة ابراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه تباركوتعالى فلم يدعُ معه غيره ولا أشرك به طرفة عين ، وتبرأ من كل معبود سواه . وقد خالف في ذلك سائر قومه حتى وإنه تبرأ من أبيه ...! قال تعالى: ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومهإنني براءٌ مماتعبدون. إلا الذي فطرني فإنهسيهدين ﴾

وقال تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدوٌلله تبرأ منه إن إبراهيم لأوّاهٌ حليم . ﴾

فقوله تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاّ من سفه نفسه ﴾ أي ظلم نفسه بسفهه، وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال ، ومخالفة طريق من اصطُفِيَ في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنّه ، إلى أن اتخذه الله خليلاً . وهو في الآخرة من الصالحين السعداء ، فأي سفه أعظم من ترك طريقة إبراهيم ومسلكه وملته ، وإتباع طرق الضلالة والغي ... ؟ وقوله تعالى : ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ أي أمره الله تعالى بالإخلاص له والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدراً . وقوله تعالى : ﴿ ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوبَ ﴾ أي وصّى بهذه الملة وهي الإسلام . وقد قرأ بعض السلف : ﴿ ويعقوبَ ﴾ بالنصب عطفاً على بنيه كأن إبراهيم وصّى بنيه وابن ابنه يعقوب بن اسحق وكان حاضراً ذلك .

والظاهر والله أعلم أن اسحق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة . لأن البشارة وقعت بهما في قوله تعالى : ﴿ فبشرناها بإسحق ومن وراء اسحق يعقوب ﴾ فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحق كبير فائدة .

وقوله تعالى : ﴿ يا بنيَّ إن الله اصطفى لكـم الدين فلا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه ، ويبعث على ما مات عليه .

وهذا لا يعارض حديث ١٣٣ : [وإنّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها...] الخ الحديث ..

لأنه قد جاء في بعض الروايات هذا الحديث ١٣٤ : [ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس] . وقد قال الله تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسره للعُسْرَى ﴾ .

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ١٣٣ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٣٤

يقول تعالى : محتجاً على مشركي العرب أبناء إسماعيل ، وعلى الكفار من بني إسرائيل وهو : (يعقوب بن اسحق) بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصّى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له ، فقال لهم : ﴿ ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وآله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق ﴾ وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه . قال النحاس : والعرب تسمى العمّ أباً . وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجدّ أباً وحجب به الأخوة ، كما هو قول الصديق حكاه البخاري من طريق ابن عباس وابن الزبير وهو مذهب أبي حنيفة ولتفصيل ذلك موضع آخر .

وقوله : ﴿ إلهاً واحداً ﴾ أي نوحده بالألوهية ولا نشرك به شيئاً غيره ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أي مطيعون وخاضعون . والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم ، والآيات والأحاديث في هذا كثيرة وقوله ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ أي مضت ﴿ لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ أي لا ينفعكم انتسابكم إلى الأنبياء كإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، إذا لم تفعلوا خيراً ، فإن لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿ ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ ولهذا جاء في الأثر : ١٣٥ [من أبطأ به عمله لم يسرعْ به نسبه] .

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٣٥ ﴾

روى محمد بن اسحق بسنده الى ابن عباس قال : قال عبدالله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد . وقالت النصارى مثل ذلك فأنزل عز وجل : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ وقوله : ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي لا نريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية ﴿ بل ﴾ نتبع ﴿ ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي مستقيماً وقال أبو قلابة : الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم .

﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ١٣٦

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلا وما أنزل على الأنبياء المتقدمين عليهم الصلاة والسلام مجملاً. ونص على أعيان من الرسل وأجمل ذكر بقية الأنبياء ، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم ولا يكونوا كمن قال الله فيهم : ﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ .

وقال أبو العالية والربيع وقتادة : الأسباط بنو يعقوب أثنا عشر رجلاً ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسمّوا الأسباط . والمراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم كما قال موسى لهم : ﴿ أذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً ﴾ وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ : ١٣٦ [آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن] .

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُمْ بِهِ فَقَدِ ٱهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٣٧ صِبْغَةَ ٱللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ ١٣٨

يقول تعالى : ﴿ فإن آمنوا ﴾ يعني الكفار من المشركين وأهل الكتاب بمثل ما آمنتم به من الإيمان بالله ورسله بلا تفريق بينهم ﴿ فقد اهتدوا ﴾ أي أصابوا الحق ﴿ وإن تولّوا ﴾ أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿ فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله ﴾ أي فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ﴿ وهو السميع العليم ﴾ وقوله تعالى: ﴿ صبغة الله ﴾ أي دين الله وانتصاب ﴿ صبغةَ الله ﴾ أي إلزموا صبغة الله أي فطرة الله ﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ ﴿ ونحن له عابدون ﴾ أي مطيعون

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ١٣٩ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٠ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٤١ ﴾

يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين . ﴿ قل أتحاجوننا في الله ﴾ أي تناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد ، واتباع أوامره وترك زواجره ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ المتصرف فينا وفيكم المستحق الإلهية وحده ولا شريك له ﴿ ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أي نحن براء منكم ومما تعبدون وأنتم براء منا ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ أي في العبادة والتوجه. ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن ابراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء كانوا على ملتهم اليهودية أو النصرانية فقال : ﴿ قل أنتم أعلمُ أم الله ﴾ يعني بل الله أعلم وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى .

وقوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ قال الحسن البصري : كانوا يقرأون في كتاب الله الذي أتاهم أن الدين الإسلامُ. وأن محمداً رسول الله، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا برآءَ من اليهودية والنصرانية، فشهدوا لله بذلك وأقروا على أنفسهم لله فكتموا الشهادة شهادة الله عندهم من ذلك .

وقوله تعالى: ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ تهديد ووعيد شديد أي أن علمه محيط بعلمكم

وسيجزيكم عليه . ثم قال تعالى : ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ أي مضت ﴿ لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿ ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة لهم ولا تغتروا بمجرد النسبة اليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين محمد ﷺ وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

(ابتداء الجزء الثاني)



﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ١٤٣

المراد بالسفهاء هم مشركو العرب وأحبار اليهود والمنافقون هؤلاء جميعاً لأن الآية عامة . وقد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال بيت المقدس . فكان بمكة يصلي بين الركنين [1] فتكون الكعبة بين يديه وهو مستقبل بيت المقدس [2] فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما ، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس . قاله ابن عباس والجمهور . ثم اختلفوا : هل كان الامربهبالقرآن أو بغيره ... ؟ على قولين : فعكرمة وأبو العالية والحسن البصري على أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه الصلاة والسلام .

والمقصود ... أن التوجه إلى بيت المقدس بعد مَقدَمه ﷺ إلى المدينة . واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً وكان يُكثِرُ الدعاءَ والابتهال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبلة

(١) المقصود بالركنين : هما الركن اليماني والركن الشامي

(٢) أي يقف من الجهة الجنوبية فيما يقابل اليوم« باب الوداع» ويتجه شمالا إلى بيت المقدس فتكون الكعبة بين يديه وهو في نفس الوقت مستقبل بيت المقدس .

إبراهيم عليه الصلاة والسلام فأجيب إلى ذلك، وأُمِرَ بالتوجه إلى الكعبة. فأعلمهم عليه الصلاة والسلام بذلك. وكان أولُ صلاة صلاها إليها ... صلاةَ العصر. كما جاء في الصحيحين من حديث البراء رضي الله عنه: ١٣٧ [أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت] وعند النسائي انها الظهر في مسجد بني سلمة وفي حديث نويلة بنت مسلم: ١٣٨ [أنهم جاءهم الخبر بذلك وهم في صلاة الظهر قالت فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال.]

أما أهل قباء... فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر. فأتاهم آتٍ فقال: ١٣٩ [أن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبةً فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة.] [(٢)] وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدّم نزولُه وإبلاغُه. لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء والله أعلم. ولما وقع هذا... حصل لبعض الناس من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك[(٣)] وقالوا: ﴿ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ أي ما لهؤلاء تارةً يستقبلون بيت المقدس، وتارةً يستقبلون الكعبة؟! فأنزل الله تعالى ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾ أي له الامر كله ﴿فأينما تولوا فثمَّ وجه الله﴾ و ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله﴾ أي حيثما وجّهَنا سبحانه توجّهْنا إذ كمال الطاعة بامتثال أوامره حتى ولـــو وجّهَنَا في كل يوم مراتٍ إلى جهاتٍ متعددة. فنحن عبيده وتحت تصرفه. ومن عنايته العظيمة بأمة محمد ﷺ أنَّ هداهم إلى قبلة خليله إبراهيم عليه السلام ولهذا قال: ﴿قل لله المشرق والمغرب يهدي مـــن يشاء إلى صـــراط

(١) (٢) قلت: لا شك أن عملية استقبال القبلة في الصلاة عبادة. إنما القول بأن جهة الكعبة من دون سائر الجهات، هي قبلة المسلمين في صلاتهم، فهذا مما لا يختلف فيه اثنان أنه عقيدة، وقد تقدم أن أهل المسجد صدقوا من أخبرهم وهو واحد فقط بأن القبلة قد تحولت إلى الكعبة بينما هم كانوا يصلون قبل بيت المقدس، فداروا كما هم، قبل البيت. فتصديقهم خبر هذا الواحد في أمر كهذا هو لا شك عقيدة، وقد ثبتت هذه العقيدة من خبر ذلك الواحد الذي شهد بالله بأنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم فداروا كما هم قبل البيت. ووقوع هذه الحادثة ثابت لا مرية فيه. وهذا من جملة الردود التي نرد بها على الذين يزعمون فيقولون: أن خبر الواحد أو حديث الآحاد لا تثبت به عقيدة بل يقولون ما هو أدهى من ذلك وهو: أن كل من يعتقد عقيدة ما من طريق حديث آحاد فهو آثم... !!! ؟ نعوذ بالله من الخذلان وسوء المنقلب

(٣) كل ذلك كان فيهم من قبل...

مستقيم﴾ وقد روى الأمام أحمد بسنده إلى عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ يعني أهل الكتاب : ١٤٠ [إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها ، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام : آمين] وقوله تعالى : ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ الوسط ها هنا ، الخيار كما يقال : محمد وسط في قومه أي أشرفهم نسباً ، وقريش أوسط العرب نسباً وداراً ، أي خيرها . ومن ذلك الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر . وهكذا فقد جعل هذه الأمة وسطاً لما خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى : ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد [١] قال : قال رسول الله ﷺ : ١٤١ [يدعَى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومُه فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، قال فلذلك قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً﴾ قال : الوسط العدل ، فتدعون فتشهدون لــه بالبلاغ ثم أشهد عليكم] رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن الأعمش . ومن حديث لأحمد عن أبي سعيد الخدري : ١٤٢ [... فيُدعَى محمد وأمته ، فيقال لهم هــل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون نعم ، فيقال وما عِلْمكُم فيقولون : جاءنا نبينــا فأخبرنا أن الرسل قد بلّغوا ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً﴾] قال : عدلاً ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ [٢] يقول تعالى : إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ، ويستقبل معك حيثما توجهتَ ، ممن ينقلب على عقبيه أي مرتداً عن دينه ﴿ وإن كانت لكبيرة ﴾ أي هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة أي وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول وإن كلً ما جاء به حق وصدق لا مرية فيه وإن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما شاء ولــه

(١) وهو الخدري (٢) وفي هذه الآية دليل على ان الذي أمر رسول الله بالتوجه إلى بيت المقدس هو الله تعالى لا اجتهاداً منه عليه الصلاة والسلام كما يرى البعض

الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك . بخلاف الذين في قلوبهم مرض فإنه كلما حدث أمر ، أحدث لهم شكاً ، كما يحصل للذين آمنوا إيقانٌ وتصديقٌ . كما قال تعالى : ﴿ ونتزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾

وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلّوا إلى القبلتين وهذا ما يدل على أن أمة محمد ﷺ كانت على كمال طاعتهم لله ولرسوله وانقيادهم لأوامر الله عز وجل رضي الله عنهم أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليُضيع إيمانكم ﴾ أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك أي ما كان يضيع ثوابها عند الله . وفي الصحيح عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس : ما حالهم في ذلك ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أي بالقبلة الأولى وتصديقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى أي ليعطيكم أجرهما جميعاً : ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾

وفي الصحيح : ١٤٣ (أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها ، فقال رسول الله ﷺ [« أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على أن لا تطرحه » قالوا : لا يا رسول الله قال « فوالله لله أرحمُ بعباده من هذه بولدها »] .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٤٤

قال علي بن طلحة عن ابن عباس : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة (١) وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها من اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود . فاستقبلها رسول الله بضعة عشر شهراً وكان يحب قبلة إبراهيم فكان

(١) قلت : اي التوجه إلى بيت المقدس

يدعو إلى الله تعالى وينظر إلى السماء فأنزل الله ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾ إلى قوله ﴿ فولّوا وجوهكم شطره . ﴾ أي قِبلَتَهُ . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال ١٤٤ [البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض، في مشارقها ومغاربها من أمتي .] ومن حديث نويلة بنت مسلم : ١٤٥ [لما كان الناس في مسجد بني حارثة وتحولوا إلى الكعبة بدل بيت المقدس لما أتاهم الآتي بتحويل القبلة إلى الكعبة قالت فحدثني رجل من بني حارثة أن النبي ﷺ قال : ١٤٦ « أولئك رجال يؤمنون بالغيب » (١) وقوله تعالى : ﴿ وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ﴾ أي أمرَ تعالى باستقبال القبلة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً جنوباً وشمالاً . ولا يستثنى من هذا شيء ، إلا النافلة في حال السفر فإنه يصليها حيثما توجّه قالبُه، وقلبُه نحو الكعبة . وكذا في حال المسايفة في القتال يصلي على كل حال ، وكذا من جَهِل جهة القبلة يصلي باجتهاده وإن كان مخطئاً ، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلاّ وسعها .

(مسألة) وقد استدل المالكية من قوله : ﴿ فولّوا وجوهكم شطره ﴾ أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده لأن فيه انحناء ينافي كمال القيام . أما الجمهور قالوا بل موضع سجوده لأنه أبلغ في الخضوع وأكد في الخشوع وقد ورد به الحديث . (٢)

وقوله تعالى : ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ أي أن اليهود الذين أنكروا أستقبالكم الكعبة ، وانصرافكم عن بيت المقدس يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها بما في كتبهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته . ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً . ولهذا تهددهم تعالى بقوله : ﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ (١٤٥)

(١) فما قول من يقول : إن من يعتقد عقيدة بحديث آحاد فهو آثم...!!!؟ مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد للذين صدقوا خبر الواحد بأنهم رجال يؤمنون بالغيب ؟ ...

(٢) ١٤٧ (وكان صلى الله عليه وسلم إذا صلى طأطأ رأسه ، ورمى ببصره إلى الأرض) (١٤٨ ولما دخل الكعبة ما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها) رواه البيهقي ، والحاكم وصححه ، وله شاهد من حديث عشرة من الصحابة .

يخبر تعالى رسوله ﷺ : أنه لو قام كل دليل على صحة ما جاء به ... لما اتبعه اليهود لكفرهم وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من حقيقة نبوّتـه . وقوله تعالى : ﴿وما أنت بتابـع قبلتهم﴾[1] أي أنه لا يتبع أهواءهم أبداً وليس اتجاهه لبيت المقدس لكونه قبلة اليهود ، إنما فعل ذلك عن أمر الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعدما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين﴾ هذا تحذير شديد من مخالفة الحق بعد العلم به ، لأن الحجة أقوم على العالم من غيره ، والخطاب هنا وإن كان للرسول ، إنما المراد به أمته .

الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤٦ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١٤٧

يخبر تعالى أن علماءَ أهل الكتاب يعرفون صحة رسالة محمد عليه الصلاة والسلام كمـا يعرفون أبناءهم من بين أبناء الناس إذ لا يشك أحدٌ ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه من أبناء الناس كلهم . ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق ، والإتقان العلمي ﴿ليكتمون الحق﴾ أي ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفات النبي عليه الصلاة والسلام ﴿وهم يعلمون﴾ ثم ثبّت تعالى نبيّه ﷺ والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به هو الحق لا مرية فيه ولا شك فقال ﴿ الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين ﴾

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٤٨

قال العوفي عن ابن عباس : ولكل وجهة هو موليها يعني بذلك أهل الأديان يقول : لكل قبيلة قبلة يرضونها ، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون ، وقال ابو العالية : لليهودي وجهة هو موليها ، وللنصراني وجهة هو موليها ، وهداكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة . وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمةً

(١) قلت : وفي هذه الآية دليل على أن الرسول لم يستقبل بيت المقدس تألفاً لقلوب اليهود اجتهاداً منه بل إن هذه الآية فصل في الخلاف وتؤكد أنه كان ذلك عن أمر الله تعالى « وما أنت بتابع قبلتهم »

واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ وقال ها هنا : ﴿ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير ﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٩ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٠

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض . وقد اختلف في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات ... أظهرها والله أعلم .. ما وجّهه الفخر الرازي وهو : الأول : لمن هو مشاهدُ الكعبة . والثاني لمن هو في مكة غائباً عنها والثالث لمن هو في بقية البلدان . وقيل أيضا الأول : إجابة لطلبته ﷺ بقوله تعالى ﴿ ... فلنولينك قبلةً ترضاها ﴾ والثاني انه بيان لما هو الحق الذي يحبه الله ويرتضيه . والثالث : قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم ، وقطع حجة المشركين لما صُرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف والله اعلم . وقوله : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ أي أهل الكتاب لئلاً يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجُّه إلى بيت المقدس . وقوله : ﴿ إلاّ الذين ظلموا منهم ﴾ يعني مشركي العرب . ووجه بعضهم حجة الظلمة أن قالوا : إن هذا الرجل يزعم أنه على دين ابراهيم فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم فلِمَ يرجعُ عنه ... ؟ والجواب : إن رسول الله ﷺ مطيع لله في جميع أحواله لا يخرج عن أمر الله طرفةَ عين ، وأمته تابعة له فلما أمره بالتوجه إلى بيت المقدس فأطاع ، ثم أمره بالتوجه إلى الكعبة فأطاع ، وقوله : ﴿ فلا تخشوهم واخشوني ﴾ أي لا تخشوا شُبَهَ الظَّلَمَة ، وأفردوا الخشية لي . وقوله : ﴿ ولأتمَّ نعمتي عليكم ﴾ أي فيما شرعت لكم من استقبال القبلة . وقوله : ﴿ولعلّكم تهتدون﴾ أي إلى ما ضلّت عنه الأمم هديناكم إليه ، وخصصناكم به ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وافضلها . ولله الحمد

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا
وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُوا
تَعْلَمُونَ ١٥١ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ ١٥٢

يذكّر تعالى عبادَه المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات مبينات ويزكيهم أيْ يطهرهم من الرذائل والدنس ، ويخرجهم من الشرك إلى التوحيد ، ويعلمهم الكتاب : أي القرآن. والحكمة : أي السنّة. ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، فبعد أن كانوا في جهل الجاهلية وسفَه القول ، إنتقلوا ببركة رسالته إلى حال الأولياء ، وسجايا العلماء فصاروا علماء أبراراً صادقين ، رافلين بنعمة الله بمحمد ﷺ ؛ ولهذا ندبَ الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ، ومقابلتها بذكره وشكره . وقال : ﴿ فاذكروني أذكرْكم واشكروا لي ولا تكفرونِ ﴾ أيْ فكما مُنَّت عليكم بمحمَّد فاذكروني ، وعن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال : يا ربِ كيف أشكرك ؟ قال له ربه : « تذكرني ولا تنساني فإذا ذكرتني فقد شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني » . قال الحسن البصري وغيره : إن الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره وقال بعض السلف في قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته﴾ قال: هو أن يطاع فلا يُعصى ، ويذكر فلا ينسى ،ويشكر فلا يكفر.وقال الحسن البصري في قوله : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ قال : أذكروني فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبتُ لكم على نفسي . وفي الحديث الصحيح : ١٤٩ [يقول الله تعالى : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومــن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منه] وقوله : ﴿واشكروا لي ولا تكفرونِ ﴾ أمر تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير فقال : ﴿وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد﴾ وروى أحمد بسنده إلى رجاء العطاردي قال : خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف مَن خزٍّ لم نرهُ عليه قبلَ ذلك ولا بعده فقال: إن رسول الله ﷺ قال١٥٠ [من أنعم الله عليه نعمةً فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه] وقال روح مرةً ، « على عبده »]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ
مَعَ الصَّابِرِينَ ١٥٣ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ
وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ ١٥٤

لما فرغ تعالى من بيان الشكر ، شرع في بيان الصبر والإرشاد والاستعانة بالصبر والصلاة فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها ، أو في نقمة فيصبر عليها.وبيّن سبحانه أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب ، الصبر والصلاة.وفي الحديث : ١٥١ [إن رسول الله ﷺ كان إذا حز به أمر صلىّ] والصبر صبران: فصبر على ترك المحارم والمآثم وصبر على فعل الطاعات والقربات . والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود . وأما الصبر الثالث فهو على المصائب والنوائب . كالاستغفار من المعايب . والصابرون كما قال علي بن الحسين زين العابدين : إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي مناد : أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ... ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ إنما يوفىٰ الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وقال سعيد بن جبير : الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله رجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر .

وقوله تعالى ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ﴾ يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون ، كما جاء في صحيح مسلم: ١٥٢ [إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا ؛ يا ربنا وأي شيء نبغي ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ثم عاد عليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردّنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرةّ أخرى – لما يرون من ثواب الشهادة – فيقول الرب جل جلاله : إني كتبت أنهم اليها لا يرجعون.] وفي الحديث الذي رواه أحمد بسنده عن كعب بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ١٥٣ [نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه] ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَنْفُسِ وَٱلثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٥٦ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ ١٥٧

أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده أي يختبرهم ... فتارة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع

كما قال تعالى : ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر عليه ذلك وقال ها هنا : ﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع﴾ أي بقليل من ذلك ﴿ونقص من الاموال﴾ أي ذهاب بعضها ﴿والأنفس﴾ كموت الأصحاب والأقارب ﴿والثمرات﴾ أي لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها فمن صبر أثابه ، ومن قنط أحلّ به عقابه. ولهذا قال : ﴿وبشر الصابرين ﴾ هم ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون﴾ أي تسلّوا بقولهم هذا ، عما أصابهم وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة ، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده ، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة ، ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ أي ثناء من الله عليهم ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ قال عمر بن الخطاب : نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ فهذان العدلان ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ فهذه العلاوة ، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً .

وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قوله تعالى ﴿إنّا لله وإنّا اليه راجعون﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة . فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ١٥٤ [ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : ﴿ إنا لله وإنا اليه راجعون﴾ اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها قالت : فاما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ] وروى الإمام أحمد بسنده عن الحسين بن علي عن النبي ﷺ قال : ١٥٥ [ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب]

وروى الامام أحمد عن أبي سنان [1] قال : ١٥٦ [دفنت إبناً لي فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة يعني الخولاني فأخرجني وقال لي : ألا أبشرك ؟ قلت : بلى. قال حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ . « قال الله يا ملك الموت قبضت ولد عبدي ، قبضت قرة عينه ، وثمرة فؤاده ؟ قال : نعم قال : فما قال ؟ قال حمدك واسترجع . قال : ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد »] .



﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِنْ شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ ١٥٨

(١) إسم أبي سنان : عيسى بن سنان

روى الامام أحمد بسنده عن عروة عن عائشة قال : ١٥٧ [قالت أرأيت قول الله تعالى ﴿ ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أنْ يطوف بهما ﴾ قلت : فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما ، فقالت عائشة : بئسما قلت يا ابن أختي إنها لو كانت على ما أوّلتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت أن الانصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهلّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فأنزل الله عز وجل ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما ﴾ قالت عائشة : ثم قدسنّ رسول الله ﷺ الطوف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما .] أخرجاه في الصحيحين .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل : ١٥٨ [وفيه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه . ثم خرج من باب الصفا وهو يقول ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ ثم قال : «أبدأ بما بدأ الله به »] وفي رواية النسائي : ١٥٩ [إبدأوا بما بدأ الله به] روى أحمد بسنده إلى حبيبة بنت أبي تجراة قالت : ١٦٠ [رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول : « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي »] وروى الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة أن أمرأة أخبرتها أنها سمعت النبي ﷺ بين الصفا والمروة يقول : ١٦١ [كتب عليكم السعي فاسعوا] وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج كما هو مذهب الشافعي ومن وافقه ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك ، وقيل واجب وليس بركن فمن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم ، وقيل بل مستحب واليه ذهب ابو حنيفة وغيره عن أنس وابن عمر وابن عباس قال القرطبي : واحتجوا بقوله تعالى ﴿ فمن تطوع خيراً ﴾ والقول الاول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينهما ، وقال : ١٦٢ [لتأخذوا عني مناسككم] فكل ما فعله في حجته تلك واجب لا بد من فعله في الحج إلا ما خرج بدليل والله أعلم . وقد تقدم قوله عليه السلام (اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي) فقد بين الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله ، أي مما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج وقد تقدم من حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وترددها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها متذللة خائفة ، وجلة مضطربة ، فقيرة إلى الله عز وجل ، حتى كشف الله كربتها ، وآنس غربتها وفرج شدتها وأنبع لها زمزم التي ماؤها ١٦٣ [طعام طعم وشفاء سقم] فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته

إلى الله ، في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنوبه وقوله : ﴿ فمن تطوع خيراً ﴾ أي يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع قاله الرازي . وقوله : ﴿ فإن الله شاكر عليم ﴾ أي يثيب على القليل بالكثير ، عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحداً ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . ﴾

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ
بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ١٥٩
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ١٦٠ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١٦١ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ١٦٢

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة ، والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله . قال أبو العالية : نزلت في أهل الكتاب ، كتموا صفة محمد ﷺ ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك ، فكما أن العالم يستغفر له كلُّ شيء حتى الحوتُ في الماء ، والطير في الهواء فهؤلاء بخلاف العلماء ، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . وعن أبي هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ قال : ١٦٤ [من سئل عن علم فكتمه ، ألجم يوم القيامة بلجام من نار] وفي الصحيح عن أبي هريرة انه قال : لولا آيةٌ في كتاب الله ما حدثت أحداً شيئاً ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى ﴾ الآية .

ورَوى ابنُ أبي حاتم بسنده إلى البراء بن عازب قال : ١٦٥ [كنا مع النبي ﷺ في جنازة فقال : « إن الكافر يضرب ضربة بين عينيه ، يسمعها كل دابة غير الثقلين ، فتلعنه كل دابة سمعت صوته . فذلك قول الله تعالى ﴿ أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ يعني دواب الارض] ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ﴾ أي رجعوا عما كانوا عليه وأصلحوا أعمالهم وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه ﴿ فأولئك أتوبُ عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ ثم أخبر تعالى عمّن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن

﴿ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها ﴾ أي في اللعنة إلى يوم القيامة ثم المصاحبة في نار جهنم التي ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ فيها ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يغير عنهم ساعة ولا يفتر بل هو متواصل دائم فنعوذ بالله من ذلك. اختلف العلماء في : هل يجوز لعن الكافر المعيّن فقد ذهب جماعة أنه لا يلعن لأنا لا ندري بما يختم الله له وقالت طائفة أخرى بل يجوز لعن الكافر المعين واختاره الفقيه ابو بكر بن العربي المالكي ولكنه احتج بحديث فيه ضعف واستدل غيره بقصة السكران الذي تكرر حدُّه فقال رجل لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به ، فقال رسول الله ﷺ : ١٦٦ [لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله] فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن والله اعلم .

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ١٦٣ ﴾

يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية ، لا شريك له ولا عديل بل هو الله الذي لا إله إلا هو سبحانه وإنه هو الرحمن الرحيم وقد تقدم تفسير هذين الإسمين في أول الفاتحة . ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما مما برأ من المخلوقات الدالة [١] على وحدانيته فقال :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤ ﴾

يقول تعالى ﴿ إنّ في خلق السموات والأرض ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها - وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع ، واختلاف الليل والنهار ، هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه ويعقبه ، لا يتأخر عنه لحظة كما قال تعالى : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ وتارةً يطول هذا ويقصر هذا ، وتارة يأخذ

(١) قلت : يعني إن الدليل على انه مستحق العبادة وحده، كونه تفرد بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما فالذي خلق و برأ وأنعم وحده لا شريك له لزم أن يكون المعبود وحده لا شريك له.

هذا من هذا ثم يتعاوضان كما قال تعالى : ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي يزيد من هذا في هذا ومن هذا في هذا . ﴿والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ أي في تسخيره البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس ، والانتفاع بما عند هـذا الأقليم ، ونقل هذا إلى هؤلاء ، وما عند أولئك إلى هؤلاء . ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ كما قال تعالى : ﴿وآية لهم الأرض الميتة – إلى قوله – ومما لا يعلمون﴾ ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ على اختلافها في كل شيء ، وهو يعلم ذلك كلـه ويرزقه ، لا يخفي عليه شيء من ذلك ، كما قال تعالى ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ ﴿وتصريف الرياح﴾ أي فتارةً تأتي بالرحمة ، وأخرى بالعذاب ، وتارة مبشرة بالغيث على اختلاف جهات مصدره ﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ أي سائر بين السماء والأرض ومسخر إلى ما يشاء الله مـن الأراضي والأماكن ، كما يصرفه الله تعالى ﴿لآياتٍ لقوم يعقلون﴾ تدل على وحدانية الله ، كما قال تعالى : ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب﴾ وروى الحافظ ابن مردويه عن ابن عباس : ١٦٧ [إن قريشاً سألت رسول الله ﷺ أن يجعل الله لنا الصفا ذهباً فنؤمن بك ، ونقاتل معك ، قال : « أوثقوا لي لئن دعوتُ ربي فجعل لكم الصفا ذهباً لتؤمنُنَّ بي؟» فأوثقوا له فدعا ربه فأتاه جبريل فقال : إنَّ ربك قد أعطاهم الصفا ذهباً على أنهم إن لم يؤمنوا بك ، عذبهم عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين ؛ قال محمد ﷺ : «ربِّ لا ... بل دعني وقومي فلأدعهُم يوماً بيوم» فأنزل الله هذه الآية»] ورواه ابن أبي حاتم بزيادة : ١٦٨ [وكيف يسألونك الصفا وهم يرون من الآيات ما هو أعظم من الصفا ؟] وروى وكيع بن الجراح عن أبي الضحى، قال: لما نزلت ﴿والهكم إله واحد﴾ الآية قال المشركون : إن كان هكذا فليأتنا بآية، فأنزل الله عز وجل : ﴿إنَّ في خلق السموات والأرض ...﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ١٦٥ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا ، وما لهم في الدار الآخرة من العذاب بما جعلوا لله انداداً أي أمثالاً يعبدونهم ويحبونهم كحبه ، وهو الإله الذي لا ضد له ، ولا شريك معه ، وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال قلت : ١٦٩ [يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك] وقوله تعالى ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ ولهذا لا يشركون به شيئاً بل يعبدونه وحده ، ويتوكلون عليه ، ويلجأون دائماً إليه • ثم توعد المشركين فقال سبحانه: ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ﴾ وتقدير الكلام: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً وأن كل الأشياء تحت قهره وسلطانه ﴿ وأن الله شديد العذاب ﴾ فلو يعلمون ما يعانونه هنالك ، وما سيحل بهم من العذاب الهائل ، على شركهم وكفرهم ، لانتهوا عمّا هم فيه من الضلال ، ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم ، وتبرىء المتبوعين من التابعين ، فقال: ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبَعوا ﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا ، فتقول الملائكة : ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ والجن أيضاً تتبرأ منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم ﴿ ومن أضل ممّن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون • وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وقال تعالى ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ إنيّ كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ أي عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص من النار ، قال ابن عباس : تقطعت المودة . وقوله تعالى: ﴿ وقال الذين اتّبعوا لو أنّ لنا كرّة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منّا ﴾ أي لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ، ونوحّد الله بالعبادة ، ولكنهم كاذبون في هذا بل لو رُدُّوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون كما أخبر تعالى . ولذا قال : ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ﴾ أي تذهب وتضمحل كما قال تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ١٦٨ • إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَٱلْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ١٦٩

لمّا بين الله تعالى أنه لا إله إلا هو ، بيّن أنه الرازق لجميع خلقه ، فامتنّ عليهم أن أباح لهم أكل الحلال الطيب ، ونهاهم عما حرم عليهم ، كما في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : ١٧٠ [يقول الله تعالى : إن كل مالٍ منحتُه عبادي فهو لهم حلال – وفيه – وإني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم .] وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن ابن عباس : قال : ١٧١ [تليت هذه الآية عند النبي ﷺ : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴾ فقام سعدبن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال : «يا سعد أطِبْ مطعمك ، تكن مستجابَ الدعوة والذى نفس محمد بيده ، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولىٰ به)

وقوله تعالى : ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ تنفير عنه وتحذير منه ، كما قال : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ كل معصية لله وكل نزعة وكل خطأ من خطوات الشيطان ، وكذلك النذر بالمعاصي . قال الشعبي (نذر رجل أن يذبح أبنه فأفتاه مسروق بذبح كبش قال : هذا من خطوات الشيطان .) وقال عبد بن حميد بسنده إلى ابن عباس قال : (ما كان من يمين أو نذر في غضب فهو من خطوات الشيطان ، وكفارته كفارة يمين .) وقوله تعالى : ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ أي إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة ، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ، وأغلظ من ذلك ، وهو القول على الله بلا علم ، فيدخل في هذا كل كافر وكل متبدع أيضاً

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠
وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ١٧١

يقول تعالى : وإذا قيل للمشركين : اتّبعوا ما أنزل الله على رسوله واتركوا الضلال والجهل قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من الشرك فقال تعالى منكراً عليهم : ﴿ أولَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ أي ليس لهم فهم ولا هداية ، وعن ابن اسحق أن ابن عباس قال نزلت في اليهود ، دعاهم ﷺ فقالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فأنزل الله هذه

الآية ، ثم ضرب الله لهم مثلاً فقال : ﴿ ومثل الذين كفروا ﴾ أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لاتفقه بل إنما تسمع صوت راعيها وقوله : ﴿ صم بكم عمي ﴾ أي صم عن سماع الحق ، بكم لا يتفوهون به ، عمي عن رؤية طريقه ، ﴿ فهم لا يعقلون ﴾ أي لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٧٣ ﴾

أمر الله عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى ، وأن يشكروه على ذلك إن كانوا عبيده ، والأكل من الحلال سبب لتقبّل الدعاء والعبادة ، كما ان الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة كما جاء في الحديث المروي عن أحمد بن حنبل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ١٧٢ [ايها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾ وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذّي بالحرام فأني يستجاب لذلك ؟] ورواه مسلم في صحيحه والترمذي من حديث فضيل بن مرزوق وقد ذكر الله سبحانه أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية ، وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو نطيحة أو عدا عليها السبع ، وقد استثنيت ميتة البحر لقوله تعالى : ﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه ﴾ على ما سيأتي أن شاء الله وحديث العنبر في الصحيح وفي المسند والموطأ والسنن قوله ﷺ في البحر ١٧٣ [هو الطهور ماؤه الحل ميتته] وعن ابن عمر مرفوعاً : ١٧٤ [أحل لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال] وسيأتي تقرير ذلك إن شاء الله في سورة المائدة .

«مسألة» : قيل أن لبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره ، وقيل طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة في رواية عن مالك وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم

نجاستها ، ولكن أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس [١]

وقد روى ابن ماجه بسنده عن سلمان رضي الله عنه : ١٧٥ [سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء، فقال : «الحلال ما أحل الله في كتابه ، والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه»] وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير سواء ذكيّ أم مات حتف أنفه ويدخل شحمه في لحمه تغليباً وكذا حرم عليهم ما أُهِلَّ به لغير الله ، وهو ما ذبح لغير الله وعلى غير اسمه تعالى ، من الأنداد ونحو ذلك من فعل الجاهلية : ١٧٦ [وأورد القرطبي عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت : ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه وكلوا من أشجارهم] . وقد أباح أكل ذلك عند الحاجة فقال ﴿ فمن أضطر غير باغٍ ولا عادٍ ﴾ أي في غير بغي ولا عدوان ﴿ فلا إثم عليه ﴾ في ذلك ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ وقوله ﴿ غير باغ ﴾ يعني غير مستحله وليس له من ذلك إلا القدر الذي يبلّغه الحلال وله أن يحمل منه ما يبلغه ذلك فإذا بلغه ألقاه وهو قوله ﴿ولا عاد﴾.

« مسئلة » لا خلاف في أكل طعام الغير إذا وجده المضطر من غير قطع ، أو أذى وهنا لا يحل له أكل الميتة ونحوها ، ولكن الخلاف هل يضمن ما أكل؟ الصحيح أنه لا يضمن لقوله ﷺ للرجل الذي منع جائعاً أن يحمل في ثوبه مما فرك من السنبل وضربه وأخذ ثوبه : ١٧٧ [« ما أطعمتَهُ إذ كان جائعاً ولا ساعياً أو لا علمته إذ كان جاهلاً » فأمره فرد اليه ثوبه ، وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق »] قاله ابن ماجه وسنده صحيح قوي جيد. وقوله تعالى ﴿فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ فيما أكل من اضطرار ومما يدل على أكل هذه المحرمات للمضطر انه عزيمة لا رخصة هو ما رواه وكيع بسنده عن مسروق قال « من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار وقال ابو الحسن الطبري : هذا هو الصحيح عندنا ، كالإفطار للمريض ونحو ذلك ، والله اعلم .

۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ

(١) قلت : أي أن جبن المجوس المعمول بالأنفحة المستخرجة من معدة الخراف ذبحاً من قبل المجوس كان يأكله الصحابة مع العلم أن ذبيحة المجوسي لا تؤكل وحكمها حكم الميتة إنما مع ذلك اكل الصحابة جبنها ، ومن هنا يستدل على أن الأنفحة مستثناة وهي من العفو بدلالة الحديث الوارد أعلاه من رواية ابن ماجه وكذلك البيض واللبن و السمن والجبن و الفراء مما سكت عنه فهو عفو والله تعال أعلم

ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟
ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ
نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ١٧٦

يقول تعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ﴾ يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم الشاهدة له بالرسالة والنبوة ، وذلك لئلاّ تذهب رياستهم وما يأخذونه من العرب من الهدايا على تعظيمهم آباءهم فخشوا – لعنهم الله – إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم ، فكتموا الحق ، بالنزر اليسير من عرض الدنيا فخسروا الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فإن الله أظهر صدق رسوله ﷺ بما وهبه تعالى من المعجزات فصدقه الناس وصاروا عوناً له على قتال اليهود الذين باؤوا بغضب على غضب ، وذمهم الله في هذه الآية : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلاّ النار ﴾ أي إنّ ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة . وقوله : ﴿ ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ لغضبه تعالى عليهم ، لكتمانهم بعد علم ، فلا ينظر إليهم ولا يثني عليهم بل يعذبهم عذاباً أليما ، ثم قال عنهم ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به واتباعه وتصديقه فاعتاضوا عن ذلك بالضلالة وذلك تكذيبه والكفر به ، وكتمان صفاته في كتبهم ﴿ والعذابَ بالمغفرة ﴾ أي اشتروا العذاب العظيم بدل المغفرة ﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ ! أي فما أدومهم لعمل المعاصي التي تُفضي بهم إلى النار فالعجب العجب من صبرهم على النار !! وهم يعلمون أنهم صائرون إليها بمعاصيهم ﴿ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴾ أي إنما استحقوا ذلك باتخاذ آيات الله هزواً فلا هم أظهروا ما في كتبهم من الحق ، ولا هم آمنوا بالرسول بل كذّبوه وجحدوا صفته ، وهو الذي يدعوهم إلى الحق يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فاستحقوا العذاب والنكال ولهذا قال : ﴿ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴾

نصف الحزب

۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ
وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى

ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّائِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝ ١٧٧

اشتملت هذه الآية الكريمة على قواعد عميمة ، وعقيدة مستقيمة ، كما روى ابن أبي حاتم بسنده إلى أبي ذر ١٧٨ [أنه سأل رسول الله ﷺ : ما الإيمان ؟ فتلا عليه ﴿ ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم ﴾ إلى آخر الآية؛ قال: ثم سأله أيضاً فتلاها عليه، ثم سأله فقال : إذا عملت حسنة أحبها قلبك وإذا عملت سيئةً أبغضها قلبك»] وهذا منقطع فإن مجاهداً لم يدرك أبا ذر فإنه مات قديماً .

ومعنى الآية : لما أمر الله سبحانه المؤمنين بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حوّلهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب ، وبعض المسلمين ، فأنزل الله بيان حكمته في ذلك ، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل ، وامتثال أوامره والتوجه حيثما وجّه ، واتباع ما شرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في التوجه إلى جهة المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ، ولهذا قال : ﴿ ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبَل المشرق والمغرب ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ الآية ؛ قال الثوري في قوله تعالى : ﴿ ولكن البرَّ من آمن بالله ﴾ الآية قال : هذه أنواع البر كلها . وصدق رحمه الله فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عُرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله ، وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا هو وصدق بوجود الملائكة ، الذين هم سفرة بين الله ورسله . ﴿ والكتاب ﴾ « اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء وخاتمها أشرفها وهو القرآن الذي انتهى إليه خيرا الدنيا والآخرة ، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله . وآمن بجميع أنبياء الله من أوّلهم إلى خاتمهم محمد ﷺ وعليهم أجمعين . وقوله تعالى : ﴿ وآتى المال على حبّه ﴾ أي أخرجه وهو محب له ، راغب فيه ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً :
١٧٩ [(أفضل الصدقة أن تَصدّق وأنت صحيح شحيح ، تأمل الغني وتخشى الفقر)] وقال تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . ﴾ وقال تعالى ﴿ لن تنالوا البر حتّى تنفقوا مما تحبون ﴾ وقوله ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ وهذا نمط آخر أرفع ، وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه ، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبّون له . وقوله

تعالى : ﴿ ذوي القربى ﴾ وهم أولى من أعطي من الصدقة كما ثبت في الحديث ١٨٠ [الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذوي الرحم ثنتان : صدقة وصلة ، فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك] ﴿ واليتامى ﴾ هم الذين مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ ولا قدرة لهم على التكسب . كما روى عبد الرزاق بسنده عن علي عن رسول الله ﷺ قال : ١٨١ (لا يُتْمَ بعد حُلُم) وقوله : ﴿ والمساكين ﴾ يفسره ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ١٨٢ [ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يُفطن له فيتصدق عليه] وقوله ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته فيعطي ما يوصله إلى بلده ويدخل في ذلك الضيف . ﴿ والسائلين ﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات كما روى أحمد بسنده عن عبد الرحمن حسين بن علي قال قال رسول الله ﷺ : ١٨٣ [للسائل حق وإن جاء على فرس] ﴿وفي الرقاب﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم . وسيأتي الكلام في ذلك ببحث الصدقات من سورة براءة إن شاء الله ﴿ وأقام الصلاة ﴾ أي وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها ، وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي . وقوله : ﴿ وآتي الزكاة ﴾ المراد زكاة المال فيكون إعطاء الجهات والأصناف المذكورة آنفاً إنما هو التطوع والبر والصلة ، ولهذا جاء في حديث فاطمة بنت قيس : ١٨٤ [في المال حق سوى الزكاة] والله أعلم .

وقوله : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ وعكس هذه الصفة : النفاق كما صح في الحديث : ١٨٥ [آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان] وقوله : ﴿ والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴾ أي حال الفقر وهو البأساء ، وفي حال المرض والأسقام وهو الضراء ﴿ وحين البأس ﴾ أي في حال القتال ولقاء الأعداء وإنما نصب ﴿ الصابرين ﴾ على المدح والحث على الصبر في الشدة . وقوله : ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم لأنهم حققوا الأيمان القلبي بالأقوال والأفعال ، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿ وأولئك هم المتقون ﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ

فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٨ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩

يقول تعالى كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون ، حرّكم بحرّكم ، وعبدكم بعبدكم ، وأنثاكم بأنثاكم ، ولا تتجاوزوا كما فعل مَن قبلكم وغيّروا حكم الله فيهم ، فقد كانت بنو النضير إذا غزت قريظة ، وقَتَلَ النضريُّ القرظيَّ لايقتل به ، بل يفادي بمئة وسقٍ من التمر وإذا قتل القرظيُّ النضريَّ قتل ، وإن فادوه فدي بمئتي وسقٍ من التمر ضعف ديَة القرظيّ فأمر الله بالعدل بالقصاص ، فلا تحرف أحكام الله كفراً وبغياً ، فقال تعالى ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ وروى أبو مالك أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ النفس بالنفس ﴾ فجعل الأحرار في القصاص سواءً فيما بينهم من العمد رجالهم ونساؤهم في النفس وفيما دون النفس ، وجعل العبيد مستوين فيما بينهم من العمد في النفس وما دون النفس رجالهم ونساؤهم .

مسألة : ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة وإليه ذهب الثوري وابن أبي ليلى وداود وكذلك مروي عن علي وابن مسعود بن المسيب وغيرهم مستندين إلى عموم حديث الحسن عن سمرة: ١٨٦ [من قتل عبده قتلناه ، ومن جدع عبده جدعناه ومن خصاه خصيناه] (١) وخالفهم الجمهور فقالوا لا يقتل الحر بالعبد ، لأن العبد سلعةٌ لو قتل خطأً لم يجب فيه دية وإنما تجب قيمته . وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بكافر ، لما ثبت في البخاري عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : ١٨٧ [لا يقتل مسلم بكافر] ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا . وذهب أبو حنيفة إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة .

مسألة – : قال الحسن وعطاء : لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية وخالفهم الجمهور لآية المائدة ، ولقوله ﷺ ١٨٨ [المسلمون تتكافأ دماؤهم]

مسألة – : ومذهب الأئمة الاربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد ، قال عمر في

---

(١) قلت : لعل هذا الحكم خاص فيما يتعلق بالسيد وعبده حتى يقلع من الأذهان أن العبد يفعل به سيده ما يشاء لمجرد كونه عبده، ولكن لو قتل حرٌّما عبداً لغيره، فلا يقتل حرٌّ بعبد لقوله تعالى: «الحر بالحر والعبد بالعبد» وعلى هذا فيكون الحديث مخصصاً فقط فيما بين السيد وعبده في أمور لا يستحق فيها العبد القتل ... أما إذا كان العبد مقترفاً ما يستحق عليه القتل شرعاً فله حكم آخر ويستوي فيه مع سائر المؤمنين من باب أولى . هذا ما أفهمه فان كنت أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي وأتوب إلى الله سبحانه والله أعلم .

غلام قتله سبعة فقتلهم ، وقال : (لو تمالأ عليه أهلُ صنعاء لقتلتُهم) . ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة ، وذلك كالإجماع .

وقوله تعالى : ﴿ فمن عُفي له من أخيه شيءٌ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾ يعني أخذ الدية بعد استحقاق الدم وذلك العفو ﴿ فاتباع بمعروف ﴾ فعلى الطالب اتباع المعروف إذا قبل الدية ، ﴿وأداء إليه بإحسان﴾ يعني من القاتل من غير ضرر ولا مدافعة .

مسألة ـ : قال مالك ، وأبو حنيفة وأصحابه ، والشافعي وأحمد في أحد قوليه ليس لولي الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل ؛ وقال الباقون : له ذلك وإن لم يرضَ .

مسألة ـ : وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو . وخالفهم الباقون .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ مما كان محتوماً على من قبلكم من القتل أو العفو . وعن ابن عباس قال : كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى،ولم يكن فيهم العفو.فقال الله لهذه الامة ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عُفي له من أخيه شيء . ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ، ذلك تخفيف مما كتب على بني إسرائيل من كان قبلكم فاتباع بالمعروف أو أداء إليه بإحسان .وقال قتادة : رحم الله هذه الامة وأطعمهم الدية،ولم تحل لأحد قبلهم . وقوله ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها ، فله عذاب من الله أليم موجع شديد وإنه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية . كما روى سعيد بن أبي عروبة بسنده عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : (ضع)١٨٩[لا أعافي رجلاً قتل بعد أخذ الدية]يعني لا أقبل منه الدية بل أقتله . وقوله : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهي بقاء المهج وصونها ، لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل ، إنكف عن صنيعه ، فكان في ذلك حياة للنفوس ﴿يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾ أي يا أولي العقول لعلكم تنزجرون عن محارم الله . والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقاً عَلَى الْمُتَّقِينَ١٨٠ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ١٨١ فَمَنْ خَافَ مِن مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ١٨٢

قبل أن تنزل آية المواريث كانت الوصية للوالدين والأقربين وكان ذلك واجباً على أصح القولين،إنما نسخته آية الفرائض التي جعلت المواريث فريضة من الله لأهليها حتماً من غير وصية ولا تحمل منة الموصي . وفي الحديث الوارد في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول : ١٩٠ [ان الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث] وروى أحمد عن ابن عباس أنه قرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية ﴿ إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين ﴾ قال نسخت هذه الآية وقيل أنها منسوخة فيمن يرث ، ثابتة فيمن لا يرث (قلت) ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخاً في اصطلاحنا المتأخر لأن آية المواريث إنما رَفَعَتْ حكم بعض أفراد ما دلّ عليه عموم آية الوصاية لأن الأقربين أعمّ ممن يرث ومن لا يرث ، فرفع حكم من يرث بما عيّن له ، وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الاولى ، وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم : إن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت ندباً حتى نسخت ، فأما من يقول أنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية ، فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث كما قال أكثر المفسرين ، والمعتبرين من الفقهاء ، فإن وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالأجماع بل منهي عنه للحديث المتقدم (ان الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث) فآية الميراث حكم مستقل ووجوب من عند الله لأهل الفروض والعصبات ، يرفع بها حكم هذه بالكليَّة. بقي الأقارب الذين لا ميراث لهم يستحب له أن يوصي لهم من الثلث استئناساً بآية الوصية وشمولها ، ولما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ : ١٩١ [ما حق امرىءٍ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلاّ ووصيته مكتوبة عنده] قال ابن عمر : ما مرّت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلاّ وعندي وصيتي .

وقوله تعالى : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ أي مالاً قاله ابن عباس وغيره . ثم منهم من قال : الوصية مشروعة سواء قل المال أو كثر كالوراثة . ومنهم من قال : إنما يوصي إذا ترك مالاً جليلاً . ثم أختلفوا في مقداره فروى ابن أبي حاتم عن هشام بن عروة عن أبيه قال قيل لعلي رضي الله عنه أن رجلاً من قريش قد مات وترك ثلاثمأة دينار أو اربعمأة ولم يوصِ ؟ قال : ليس بشيء إنما قال الله : « إن ترك خيراً»وعنه رضي الله عنه انه دخل على رجل من قومه يعوده فقال له أوصِ فقال له علي : إنما قال الله : ﴿ ان ترك خيراً الوصية ﴾ إنما تركت شيئاً يسيراً فاتركه لولدك وقال قتادة : كان يقال : ألفاً فما فوقها وقيل ستين وقيل ثمانين .

وقوله : ﴿ بالمعروف ﴾ أي بالرفق والإحسان كما قال الحسن : نعم الوصية حق على كل مسلم أن يوصي اذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر . والمراد بالمعروف أن يوصي لأقربيه

وصيةً لا تجحف بورثته من غير إسراف ولا تقتير ، كما ثبت في الصحيحين ان سعداً قال :
١٩٢ [يا رسول الله إن لي مالاً ولا يرثني إلاّ ابنة لي أفأوصي بثلثي مالي قال : لا قال : فبالشطر؟ قال لا قال : فالثلث ؟ قال : الثلث والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالةً يتكففون الناس] وقوله: ﴿ فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم ﴾ أي فمن بدل الوصية وحرفها فغيّر حكمها، وزاد فيها أو نقص ، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ﴿ فإنما إثمه على الذين يبدّلونه﴾ قال ابن عباس وغيره : قد وقع أجر الميت على الله، وتعلق الأثم بالذين بدّلوا ذلك ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ أي قد أطلع على ما أوصى به الميت وهو عليم بذلك وبما بدّله الموصى إليهم . وقوله تعالى : ﴿ فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً ﴾ قال ابن عباس وغيره : الجنف الخطأ ، وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها بأن زادوا وارثاً بواسطة أو وسيلة كما إذا أوصى ببيعة الشيء الفلاني محاباةً أو أوصى لابن ابنته ليزيدها أو نحو ذلك من الوسائل إما مخطئاً أو متعمداً فهو آثم في ذلك فللوصي والحالة هذه ، أن يصلح القضية ، ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي ، ويعدل عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب شيء من مقصود الموصي والطريق الشرعي . وهذا الاصلاح ليس من التبديل في شيء وروى ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال :
١٩٣ [الجنف في الوصية من الكبائر] وفي رفعه نظر ...

﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ١٨٣ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ١٨٤

يقول الله تعالى آمراً هذه الأمة بالصيام . وهو الإمساك عن الطعام والشراب والجماع ، بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الإخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة . وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلهم فيهم أسوة وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك ،كما قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم فاستبقوا

الخيرات ﴾ الآية ... ولهذا قال ههنا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . ﴾ لأن الصوم فيه تزكية للبدن ، وتضييقٌ لمسالك الشيطان وهذا ثبت في الصحيحين : ١٩٤ [يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء] .

كان الصيام في ابتداء الإسلام ثلاثة أيام من كل شهر ، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان وعن معاذ وابن مسعود وغيرهما : إن هذا الصيام لم يزل مشروعاً من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة ونام ، حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها . ثم بيّن حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فقال : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر .﴾ أي المريض والمسافر لا يصومان بل يُفطران ويقضيان بعدّة ذلك أياماً أخر ، وأما الصحيح المقيم إن شاء صام وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً . والصيام أفضل من الإطعام قاله ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من السلف وذلك لقوله تعالى : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوّع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون . ﴾ ثم أنزل الله تعالى الآية الأخرى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن – إلى قوله – فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام وروى البخاري عن سلمة بن الأكوع أنه قال لما نزلت ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ كان من أراد أن يفطر يفتدي ، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها ، وروي أيضاً عن ابن عمر أنها منسوخة ، وروى البخاري عن ابن عباس أنها ليست منسوخة ، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً . وحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ وأما الشيخ الفاني الهرم ،ففيه قولان.والصحيح منهما الإفطار،ويجب عليه فدية عن كل يوم. وفي صحيح البخاري: فقد أطعم أنس بعد ما كبر عاماً أو عامين عن كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً وأفطر رواه البخاري معلقاً وقد أسنده الحافظ أبو يعلي الموصلي في مسنده . ويلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع ، إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ١٨٥

يمدح الله تعالى شهرَ الصيام من بين سائر الشهور ، بأن أختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم وقد ورد في الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلٓهية تنزل فيه على الأنبياء. روى
الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن واثلة بن الأسقع : أن رسول الله ﷺ قال : ١٩٥
(أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان[1] . وأما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل ، فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه ، جملة واحدة واما القرآن فنزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه ، كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ وقال : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ثم نزل بعد مفرَّقاً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ وفي رواية عكرمة عن ابن عباس قال : نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر ، إلى هذه السماء الدنيا جملةً واحدةً وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء ولا يجيء المشركون بمثَل يخاصمون به إلاّ جاءهم الله بجوابه وذلك قوله : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملةً واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثَلٍ إلاّ جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ وقوله تعالى: ﴿ هُدًى للناس وبيّناتٍ من الهدى والفرقان﴾ وهذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدىً لقلوب العباد ممّن آمن به وصدّقه واتّبعه .

﴿ وبيّناتٍ ﴾ أي ودلائل على صحة ما جاء به من الهدى والرشاد مفرِّقاً بين الحق والباطل

---

(١) قال الله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » والرسول صلى الله عليه وسلم قال التمسوها في العشر الأخير من رمضان) وفي حديث آخر قال (التمسوها في الآحاد) ، وفي حديث آخر (في السابع والعشرين من رمضان)
فأما قوله في هذه الرواية اعلاه : وانزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان هو مخالف لنص القرآن : «إنا انزلناه في ليلة القدر » مما يدل على ضعف هذا الحديث لمخالفة نصه لنص القرآن ، لأن ليلة القدر كانت في ليلة السابع والعشرين من رمضان والله تعالى أعلم وهو الموفق للصواب .

والحلال والحرام . وقوله تعالى : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر ، إي كان مقيماً في البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة ، ونسخت الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم كما قدم بيانه ، ولما ختم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض والمسافر في الإفطار بشرط القضاء فقال : ﴿ ومن كان مريضاً أو على سفر فعدّة من أيام أخر ﴾ أي ومن كان به مرض يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه أو كان على سفر فله أن يفطر وعليه عدة ما أفطره . ولهذا قال : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ أي إنما رخص بالفطر في حال المرض والسفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح تيسيراً عليكم ورحمةً بكم .

وها هنا مسائل : الأولى : زعم بعضهم أنه لا يباح الإفطار إلاّ لمن استهل الشهر مسافراً لا لمن كان مقيماً أول الشهر ثم سافر اثناءه لقوله ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ ولكن هذا مردود ، إذ لا دليل في الآية على زعمهم لانه ثبت في الصحيحين ١٩٦ ان [رسول الله ﷺ لما بلغ الكديد لما خرج لغزوة الفتح في رمضان أفطر وأمر الناس بالفطر]

الثانية – : وقال آخرون : بوجوب الإفطار في السفر لقوله : ﴿فعدة من أيام أخر﴾ وهذا خلاف ما ثبت من فعله ﷺ من حديث أبى الدرداء قال : ١٩٧ [خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر ، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبدالله بن رواحة] .

الثالثة – : وقال آخرون : الصيام أفضل ، وقال جماعة : بل الإفطار أفضل أخـذاً بالرخصة لقوله ﷺ : ١٨٨ [عليكم برخصة الله التي رخص لكم]

وقيل : إن شق الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر : ١٩٩ [إن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظلل عليه فقال : ما هذا ؟ قالوا صائم فقال ليس من البر الصيام في السفر] أخرجاه

والصحيح قول الجمهور ان الأمر في ذلك على التخيير وليس بحتم لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان قال : ٢٠٠ [فمنا الصائم ، ومنا المفطر فلم يعبِ الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم .]

فأما إن رغب عن السنّة ، ورأى أن الفطر مكروه إليه ،فهذا يتعين عليه الإفطار ويحرم عليه الصيام لما جاء في مسند أحمد وغير عن ابن عمر وجابر : ٢٠١ [من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة]

ولا يجب التتابع في قضاء صيام المعذور ... فإن شاء فرّقَ وإن شاء تابع ، وهذا قول

جمهور السلف والخلف تؤيده الدلائل ، لأن التتابع إنما وجب في شهر رمضان لضرورة أدائه فيه ، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام عدة ما أفطرولهذا قال تعالى : ﴿ فعدةٌ من أيام أخر ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ وروى الإمام أحمد عن عامر بن عروة ... جعل الناس يسألونه ﷺ : علينا حرج في كذا ؟ فقال رسول الله ﷺ ٢٠٢ [إن دين الله في يسر] ثلاثاً وروى أحمد أيضاً بسنده عن أنس بن مالك يقول : إن رسول الله ﷺ قال : ٢٠٣ [يسّروا ولا تعسّروا وسكّنوا ولا تنفروا] أخرجاه في الصحيحين وقوله تعالى ﴿ ولتكملوا العدة ﴾ أي إنما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر ، وإنما أمركم بالقضاء ، لتكملوا عدة شهركم . وقوله : ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ أي ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم كما قال : ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ﴾

قال ابن عباس : ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر وأوجبه داود الظاهري لظاهر الأمر وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة رحمه الله أنه لا يشرع التكبير في عيد الفطر والباقون على استحبابه وقوله ﴿ولعلكم تشكرون ﴾ أي إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين لذلك .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ ١٨٦

وفي ذكره تعالى : هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللةً بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الـــدعاء عند إكمال العدة ، بل وعند كل فطر ، كما رواه الامام أبو داود الطيالسي في مسنده عن عبدالله بن عمرو قال : سمعت رسول الله (ص يقول : ٢٠٤ [للصائم عند افطاره دعوة مستجابة]

قال ابن ابي حاتم بسنده عن معاوية بن حيدة القشيري ٢٠٥ [ان إعرابياً قال : يا رسول الله ﷺ ، أقريب ربنا فنناجيه ... أم بعيد فنناديه ؛ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله : ﴿ واذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان]الآية... إذا أمرتهم أن يدعوني فدعوني استجبت . روى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري قال ؛ ٢٠٦ [كنا مـــع رسول الله ﷺ في غزوة ، فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نعلو شرفاً ولا نهبط وادياً إلاّ رفعنـــا

اصواتنا بالتكبير ، قال : فدنا منا فقال: «يا أيها الناس : إربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً بصيراً ، إن الذين تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته (١) يا عبدالله بن قيس ، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلاّ بالله] أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة . وروى مالك عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : ٢٠٧ [يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول دعوت فلم يستجب لي] أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : ٢٠٨ [لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل . » قالوا وكيف يستعجل ؟ قال: « يقول قد دعوت ربي فلم يستجب لي »] رواه الامام أحمد

(١) قلت : لقد وقع الخاصة والعامه في زمننا الحاضر – إلا من رحم ربك – في أمر خطير عظيم وهو دعاء غير الله تعالى من الأنبياء والأولياء والصالحين في أمور لا يقدرون عليها فيما لو كانوا على قيد الحياة،فكيف وقد اختارهم الله إليه، وقضى عليهم بالموت؟ هذه الأمور التي لايقدر على إجابتها إلا الله وحده لا شريك له. فترى العامة وكثيراً من الخاصة يعكفون على اصحاب القبور ، يطوفون حولها سبعة أشواط وينادون أصحابها لقضاء حوائجهم ، كالمغفرة والهداية ودفع الضر ، وكشف الكربات ، وجلب الرزق، وهبة الأولاد ذكوراً أو اناثاً ، ويقولون يا فلان أنا دخيلك ، وفي جوارك .. .. أدركني أغثني ... العارف لا يُعرّف !!! أنت أعلم بحالي.وأمثال ذلك من الشرك الأكبر .. !!! وإذا دفعتك عقيدتك الطيبة لأن تنصحهم وتفهمهم أن مثل هذه الأمور من العبادات ...ولا يمكن أن تصرف إلا لمستحقها وهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، قامت قيامتهم. وإن مما يدمي القلوب، ويفري المهج حزناً ولوعة على ما آلت إليه حال المسلمين،هو أن يهب بعض الذين هم محسوبون على الأمة من العلماء ، هبة عظيمة ويقولوا لك:أتركهم يا أخي .. نواياهم طيبة ، إنهم لا يقصدون طلب الدعاء من أصحاب القبور ، ولكن لجهلهم وعدم معرفتهم لا يعبرون عن مرادهم ، إلا بدعائهم إنما يريدون التوسل بهم إلى الله . وإذا قلت له : حسناً تفضل يا صاحب الفضيلة وعلمهم وعدل من ألفاظهم حتّى لا يقعوا في الشرك الأكبر.. وهذا الذي قلته لي قله لهم، فيقول لك: لا لايا أخي اتركهم على نواياهم فنواياهم طيبة!!! ولا يتقدم ولا خطوة واحدة لنصحهم وإذا نصحتهم انت قامت قيامته ونعتك بشتّى النعوت التي أقل ما يقال فيها انها تنابذ بالألقاب. ولكن إياك ياأخي المسلم أن يصدّنّك عن إذاعة الحق أمثال هؤلاء ... فاصدع بالحق والله ناصرك . « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز » وإنك لترى أيضاً في حلقات الرقص التي يسمونها كذباً وزوراً وبهتاناً « حلق الذكر » من المنكرات التي أسلفنا ما تتصدع له القلوب من دعوة غير الله تعالى ، وفي شكل مزري . ولو أبصره أعداء الإسلام لشمتوا بالإسلام وأهله ولجعلونا أضحوكة ، من ارتفاع بالأصوات إلى القفز ، والرقص ، والتمايل ، والضرب على الدف والصنج والطنبور ، والأغاني من المرْدان والتكسر والتمايل، والدمدمة والهمهمة بما لا معنى له ويسمون ذلك ذكر الله!! وحاشا أن يكون ذكر الله متدنياً إلى مثل هذا الدرك الأسفل هذا عداعن الشركيات في الفاظهم كقولهم مثلا : / يا شيخي يا رفاعي * ادركني بالفرج * وإذا لم تدركني * فالى من آلتجي / ؟ وأمثال ذلك والرفاعي بريء مما يشركون. فقوله تعالى : واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دعاني » وقوله صلى الله عليه وسلم : (اربعوا على انفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائباً) لأكبر وأبلغ رد على أولئك الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً هداهم الله أو عاملهم بما يستحقون .

وروى ابن مردويه عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، حدثني جابر بن عبدالله
٢٠٩ [ان النبي ﷺ قرأ : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ﴾ الآية ، فقال رسول الله ﷺ « اللهم امرتَ بالدعاء وتوكلتَ بالإجابة لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، أشهد أنك فرد أحد صمد لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، وأشهد أن وعدك حق ، ولقاءك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وأنت تبعث من في القبور]
روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس عن النبي ﷺ قال : ٢١٠ [يقول الله تعالى يا ابن آدم واحدة لك ، وواحدة لي ، وواحدة فيما بيني وبينك ، فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً ، وأما التي لك فما عملت من شيء أو من عمل وفيتكَهُ ، وأما الذي بيني وبينك ، فمنك الدعاء وعليَّ الإجابة] وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللةً بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر . كما رواه الإمام أبو داود الطيالسي بسنده عن عبدالله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٢١١ [للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة] فكان عبدالله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا .
وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرةقال:قال رسول الله ﷺ : ٢١٢ [ثلاثة لا تردُّ دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول بعزّتي لأنصرنك ولو بعد حين]

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔانَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ١٨٧

هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ، فإنه

كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك ، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة ، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة ؛ والرفث هنا هو الجماع قاله جمع منهم : ابن عباس وبعض التابعين. وقوله : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ قال ابن عباس وغيره : هن سكن لكم وأنتم سكن لهن . وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان لئلا يشقّ ذلك عليهم ويحرجوا ؛ قال الشاعر :

إذا ما الضجيج ثنى جيدها تداعت فكانت عليه لباسا

وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم : ٢١٣ [إن الرجل من الصحابة – وذلك قبل افتراض رمضان – إذا كان صائماً فنام قبل أن يفطر لم يأكل إلى مثلها ، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً وكان يومه ذلك يعمل في أرضه ، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال : هل عندكِ طعام ؟ قالت : لا ، ولكن أنطلقُ فأطلب لك ، فغلبته عينه فنام ، وجاءت امرأته ، فلما رأته نائماً قالت : خيبة لكَ أنمت؟ فلما انتصف النهار غشي عليه فذكِرَ ذلك للنبي ﷺ فنزلت : ﴿ أحل لكم ليلةَ الصيام الرفثُ إلى نسائكم ﴾ – إلى قوله – ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ ففرحوا فرحاً شديداً .] وقوله تعالى : ﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن ... ﴾ وأسباب نزول هذا حال قيس بن صرمة المذكور آنفاً ٢١٤ [ثم إن هناك رجالاً من المسلمين كانوا يختانون أنفسهم أي يجامعون نساءهم في شهر رمضان بعد العشاء وبعدما ينامون وكان منهم عمر بن الخطاب وكان ذلك العمل ممنوعاً كما تقدم إذ كان المسلمون قبل ذلك إذا صلوا العشاء حرّم عليهم النساء والطعام إلى مثلها في القابلة ، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله تعالى : ﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ...﴾] يعني تجامعوهن وتأكلون وتشربون بعد العشاء ﴿ فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن﴾ يعني جامعوهن ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ يعني الولد﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ فكان ذلك عفواً من الله ورحمة ، فأباح الطعام والشراب والنكاح في جميع الليل رحمة ورخصةً ورفقاً . وقوله : ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي ابتغوا الرخصة التي كتب لكم ولكن تفسيرها بالولد أصح . قوله : ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . ﴾ أي إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل ، وليرتفعَ الالتباس ، قال : ﴿ من الفجر ﴾

وروى البخاري بسنده عن عدي بن حاتم قال : ٢١٥ [قلت يا رسول الله : ما الخيط

الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان ؟ قال : إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين ثم قال : لا بل هو سواد الليل وبياض النهار]

وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب ، وحثّتِ السنّةُ على السحور ، ففي الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ٢١٦ [تسحروا فإن في السحور بركة] وقد ورد أحاديث كثيرة : ٢١٧ [إن رسول الله ﷺ سماه : الغداء المبارك] وقد ورد في الصحيحين من حديث القاسم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : ٢١٨ [لا يمنعنكم أذانُ بلال عن سحوركم ، فإنه ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذانَ ابنِ أمّ مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلعَ الفجرُ]

(مسألة) ومِنْ جعلِهِ تعالى الفجر غايةً لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام يستدل على أنه من أصبح جنباً فليغتسل وليتم صومه ولا حرج عليه ،وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً،لما رواه البخاري ومسلم،من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أنهما قالتا : ٢١٩ [كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم] وفي حديث أم سلمة عندهما : ٢٢٠[ثم لا يفطر ولا يقضي] .

﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكماً شرعياً، كما جاء في الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٢٢١ [إذا أقبل الليل من ها هنا ، وأدبر النهار من ها هنا فقد أفطر الصائم] وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٢٢ [لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر] أخرجاه ثم ورد في الأحاديث الصحاح النهي عن الوصال . وهو : أن يَصِلَ يوماً بيوم آخر ، ولا يأكل بينهما شيئاً . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٢٣ (لا تواصلوا قالوا:يا رسول الله إنك تواصل.قال : فاني لست مثلكم ، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني قال فلم ينتهوا عن الوصال. فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليلتين ثم رأوا الهلال ، فقال : [« لو تأخر الهلال لزدتكم »] كالمنكّلِ لهم ؛ وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به . فقد ثبت النهي عنه أنه من خصائصه عليه الصلاة والسلام وأنه كان يقوّى على ذلك ويُعان . والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسياً وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسي . ولكن لا بأس من الوصال إلى السحر : لبعض حديث رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ٢٢٤ [لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر ...] أخرجاه في الصحيحين. وقوله تعالى : ﴿ ولا

تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد ﴾ فقد كان المعتكفون في المساجد يخرجون منها ويجامعون إن شاءوا، حتى نزلت هذه الآية فمنعوا من ذلك ليلاً أو نهاراً حتى يقضوا اعتكافهم . أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد . ولذا فإن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في المسجد ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بدّ له منها أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه .

فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت ٢٢٥ [كان رسول الله ﷺ يدني إليّ رأسه فأرجّله وأنا حائض ، وكان لا يدخل البيت إلاّ لحاجة الإنسان . قالت عائشة : ولقد كان المريض يكون في البيت فما أسأل عنه إلاّ وأنا مارة .]

وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر رمضان كما ثبت في السنّة عن رسول الله ﷺ ٢٢٦ [انه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه من بعده] أخرجاه وقوله تعالى : ﴿ تلك حدود الله ﴾ أي هذا الذي بيناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه ، وما أبحنا فيه وما حرمنا ، وذكرنا غاياته ، ورخصته وعزائمه ، حدود الله ، أي شرعها الله وبيّنها بنفسه . فلا تقربوها أي لا تجاوزوها وتتعدُّوها ﴿ كذلك يبين الله آياته للناس ﴾ أي : كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿ للناس لعلهم يتقون ﴾ أي يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون • كما قال تعالى : ﴿ هو الذي ينزّل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم . ﴾

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨ ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة ، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام ، وهو يعرف أن الحق عليه ، وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام ، وقال بعض السلف : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم . وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال : ٢٢٧ [ألا إنما أنا بشر ، وإنما يأتيني الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من نار

فليحملها أو ليذرها] فدلت الآية والحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر ، فلا يحل في نفس الأمر حراماً وهو حرام، ولا يحرم حلالاً وهو حلال وإنما هو ملزم في الظاهر ، فإن طابق في نفس الأمر فذاك وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره ولهذا قال تعالى ﴿ ولا تأكلوا أموالكم ... وأنتم تعلمون ﴾ أي تعلمون بطلان ماتروّجونه في كلامكم



﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ١٨٩

٢٢٨ [سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلّة قالوا : يا رسول الله لم خُلقت الأهلّة ؟ فأنزل الله يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس ﴾] يقول [جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومَحل دينهم .] وروى عبد الرزاق بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ٢٢٩ [جعل الله الأهلةَ مواقيتَ للناس ، فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوماً] ورواه الحاكم من حديث ابن أبي رواد به وقال : كان ثقةً عابداً مجتهداً شريف النسب فهو صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقوله : ﴿ وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ روى البخاري عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره ، فأنزل الله : ﴿ وليس البر ... الآية ﴾ وقال عطاء بن رباح : كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم ، دخلوا منازلهم من ظهورها ، ويرون أن ذلك أدنى إلى البر ، قال الله تعالى : ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ غداً إذا وقفتم بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال .

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ

ٱلْكَافِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٢ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣

قال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾ قال هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ، ويكف عمن كفَّ عنه حتى نزلت سورة ﴿براءة﴾ وقوله تعالى : ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ أي لتكون همتكم منبعثةً على قتالهم كما همتهم منبعثةٌ على قتالكم وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً .

وقوله : ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ أي قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي : من المُثْلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم ، والرهبان وأصحاب الصوامع ، وتحريق الأشجار ، وقتل الحيوان لغير مصلحة ، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز وغيرهما ولهذا جاء في صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول : ٢٣٠ [أغزوا في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، أغزوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع] ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال ، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطمّ من القتل ، ولهذا قال : ﴿والفتنة أشد من القتل ﴾ يعني الشرك أكبر من القتل وأشد منه ، وقوله تعالى : ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام﴾ كما جاء في الصحيحين : ٢٣١ [إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، ولم يحل إلا ساعةً من نهار وإنها ساعتي هذه ، حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه ، فإن أحد ترخّص بقتال رسول الله ﷺ ، فقولوا : إن الله أذِن لرسوله ولم يأذن لكم] وذلك يوم فتح مكة فانه فتحها عنوةً .

وقوله تعالى : ﴿ حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فأقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾ يقول تعالى ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدأوكم بالقتال فيه فلكم حينئذٍ قتالهم وقتلهم دفعاً للصائل وقوله تعالى : ﴿ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ﴾ أي فأن انتهوا عن قتالكم في الحرم وأنابوا إلى الإسلام والتوبة ، فإن الله يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله فانه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه ثم أمر الله بقتال الكفار ﴿ حتى لا

تكون فتنة ﴾ أي شرك قاله ابن عباس وغيره ﴿ ويكون الدين لله ﴾ أي يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان. وفي الصحيحين ٢٣٢ [أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله.]

وقوله تعالى : ﴿ فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ يقول تعالى فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكفوا عنهم ، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وهذا معنى قول من قال : أن لا يقاتل إلا من قاتل . أو يكون تقريره فإن انتهوا فقد تخلصوا من الظلم وهو الشرك ، فلا عدوان عليهم بعد ذلك والمراد بالعدوان ها هنا : المعاقبة والمقاتلة كقوله تعالى : ﴿وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ ولهذا قال عكرمة : الظالم من أبى أن يقول : لا إله إلا الله .

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ١٩٤

قال عكرمة : عن ابن عباس وغيره : لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل ، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان من المسلمين وأقصه الله منهم ، فنزلت في ذلك هذه الآية : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾ وروى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبدالله قال : ٢٣٣ [لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام ، إلا أن يُغزى وتغزوا فإذا حضره أقام حتى ينسلخ] هذا إسناد صحيح . ولهذا لما بلغ النبي ﷺ وهو مخيم في الحديبية أن عثمان قتل — وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين — بايع أصحابه وكانوا ألفاً وأربعماية تحت الشجرة ، على قتال المشركين ، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل ، كف عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة فكان ما كان ... وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصن فلهم بالطائف عدل اليها فحاصرها، ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق ، واستمر عليها إلى كمال الأربعين يوماً كما ثبت في الصحيحين عن أنس ولما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تفتح ، ثم كر راجعاً إلى مكة واعتمر من / الجعرانه / حيث قسم غنائم / حنين / وكانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضاً ، عام ثمان صلوات الله وسلامه عليه . وقوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى

عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ أمر بالعدل حتى في المشركين كما قال : ﴿«وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾وروي عن ابن عباس أن قوله:﴿ فمن اعتدى عليكم...»﴾ الآية أنها نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد ، ثم نسخ بآية القتال بالمدينة ، ونقل ابن جرير عن مجاهد: بل الآية مدنية بعد عمرة القضيّة.وقوله تعالى﴿ واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين ﴾أمرٌ لهم بطاعة الله وتقواه ، وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥ ﴾

روى البخاري عن حذيفة ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ نزلت في النفقة . وروي عن ابن عباس وجمع من التابعين نحوه وقال الليث بن سعد عن أسلم أبي عمران قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ، ومعنا أبو أيوب الأنصاري ، فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية ، إنما نزلت فينا ؛ صحبنا رسول الله ﷺ ، وشهدنا معه المشاهد ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وظهر ، اجتمعنا معشر الأنصار نجياً فقلنا : قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله ، وكنا قد آثرنا على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما فنزل فينا : ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. رواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال أبو بكر بن عياش بسنده إلى البراء بن عازب قال له رجل : إن حملتُ على العدو وحدي فقتلوني أكنتُ القيتُ بيدي إلى التهلكة ؟ قال : لا ، قال الله لرسوله : ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ وإنما هذه في النفقة . رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الترمذي وقيس بن الربيع عن إسحق عن البراء فذكره. وقال بعد قوله: ﴿ ... لا تكلف إلاّ نفسك ﴾ ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقي بيده إلى التهلكة ولا يتوب . وعن النعمان بن بشير أنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له فيلقى بيده إلى التهلكة ، أي يستكثر من الذنوب فيهلك، ومضمون الآية الأمر بالانفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات ، وخاصةً صرف الأموال في قتال الأعداء ، وبذلها فيما يَقوىَ به المسلمون على عدوهم ، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده ، ثم عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة فقال : ﴿وأحسنوا ان الله يحب المحسنين ﴾.

﴿ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٩٦ ﴾

لما ذكر تعالى أحكام الصيام ، وعطف بذكر الجهاد ، شرع في بيان المناسك ، فأمر بإتمام الحج والعمرة وظاهر السياق إكمال أفعالها بعد الشروع فيهما ولذا قال بعده : ﴿ فإن أحصرتم ﴾ أي صُدِدْتم عن الوصول إلى البيت ، ومنعتم من إتمامها . ولهذا اتفق العلماء ، على أن الشروع في الحج والعمره ملزم ، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها كما هما قولان للعلماء ، وقد ذكرناهما بدلائلهما في كتابنا الأحكام وعن علي أنه قال في هذه الآية : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ قال : أن تحرم من دويرة أهلك ، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاووس ، قال سفيان : إتمامهما أن تحرم من أهلك لا تريد إلا الحج والعمرة وتهلُّ من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة ، حتى إذا كنت قريباً من مكة قلتَ لو حججتُ أو اعتمرتُ . وذلك يجزىء ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره ، قال مكحول : إتمامهما إنشاؤهما جميعاً من الميقات [1] وقال عبد الرزاق بسنده إلى الزهري قال : بلغنا أن عمر قال فى قول الله : ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ من تمامهما أن تفرد كل واحد منهما من الآخر وأن تعتمر فى غير أشهر الحج [2] وهذا القول فيه نظر لأنه قد ثبت أن عمرات رسول الله ﷺ كلها فى أشهر الحج في ذى القعدة ، فإن عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست ، وعمرة القضاء في ذى القعدة سنة سبع ، وعمرة الجعرّانة في ذى القعدة سنة

(١) على قول من قال أن القران أفضل
(٢) على قول من قال أن الإفراد أفضل

ثمان وعمرته التي مع حجته، أحرمَ بهما معاً[١] في ذي القعدة سنة عشر، وما اعتمر في غير ذلك بعد هجرته، ولكن قال لأم هاني : ٢٣٤ [عمرة في رمضان تعدل حجةً معي] وما ذاك إلا لأنها قد عزمت على الحج معه عليه السلام فاعتاقت، عن ذلك بسبب الطهر . وثبت أن رسول الله ﷺ جمع في إحرامه بحج وعمرة [٢] وقال في الصحيح ايضاً : ٢٣٥ [دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة .]

ورد في الصحيحين عن يعلىَ بن أمية في قصة الرجل الذي سأل النبي ﷺ وهو بالجعرانة فقال : ٢٣٦ [كيف ترى في رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وخلوق، ؟ فسكت رسول الله ﷺ ثم جاءه الوحي، ثم رفع رأسه فقال أين السائل ؟ فقال : ها أناذا . فقال : « أما الجبة فانزعها ، وأما الطيب الذي بك فأغسله ، ثم ما كنت صانعاً في حجك فأصنعه في عمرتك »]

وقوله : ﴿ فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ﴾ ذكروا ان هذه الآية نزلت في سنة ست ، أي عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكمالها ، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدي ؛ وكان سبعين بدنة . وأن يحلقوا رؤوسهم وأن يتحللوا ، فلم يفعلوا ، إنتظاراً للنسخ ، حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس ، وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلقه فلذلك قال ﷺ ٢٣٧ [رحم الله المحلقين قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ فقال في الثالثة « والمقصرين »] وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كل سبعة بدنة وكانوا الفاً وأربعمأة وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم وقيل بل كانوا على طرف الحرم .

وقد اختلف العلماء : هل يختص الحصر بالعدو ... فلا يتحلل إلا من حصره عدو لا مرض ولا غيره على قولين: فعن ابن عباس قال لا حصر إلاّ حصر العدو فأمّا من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء إنما قال تعالى: ﴿ فإذا أمنتم ﴾ فليس الأمن حصراً ، وأيد هذا القول جمع فيهم ابن عمر وبعض التابعين . والقول الثاني إن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال عن الطريق أو نحو ذلك . روى الإمام أحمد بسنده إلى الحجاج

(١) ثبت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ٢٣٨ (لو استقبلت من امري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة) فتبين من هذا الحديث أن التمتع هو الأفضل ان لم نقل ما يقوله الموجبون فنحن إلى قولهم أميل

(٢) هذا لا يدل على أفضلية القران فانه صلى الله عليه وسلم بقي على إحرامه ولم يحل لأنه ساق الهدي من الحل، ولولا ذلك لأحل مع الذين أمرهم أن يحلو ويفسخوا حجهم إلى عمرة وثبت في الصحيح انه قال لأصحابه (دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة) وعلى هذا فالأفضلية للتمتع .

ابن عمر الأنصاري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٢٣٩ [من كسر أو وجع أو عرج فقد حل وعليه حـَجة أخرى] قال فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة فقالا صدق . وروي عن ابن مسعود وابن الزبير وعلقمة وسعيد بن المسيب وغيرهم قالوا الإحصار من عدو أو مرض أو كسر .

وثبت في الصحيحين عن عائشة : ٢٤٠ [أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب فقالت يا رسول الله اني أريد الحج وأنا شاكية ، فقال « حجي واشترطي أن محلى حيث حبستنى »] فمن العلماء من أيد الاشتراط وقد علق الشافعي قوله بصحة هذا المذهب على صحة الحديث قال البيهقى وغيره من الحفاظ : وقد صح ولله الحمد .

وقوله : ﴿ فما استيسر من الهدي ﴾ كان عليٌّ يقول : شاة . وقال ابن عباس نحوه وكذا قال جمع من التابعين وهو مذهب الأئمة الأربعة وهناك من لا يرى الهدي إلاّ من الإبـل والبقر (قلت) والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قصة الحديبية ، فانه لم ينقل عن أحد منهم انــه ذبح في تحلله ذلك شاةً وإنما ذبحوا الإبل والبقر كل سبعة في بقرة كما جــاء في الصحيحين عن جابر بن عبدالله قال ٢٤١ [أمرنا رسول الله ﷺ ان نشترك في الإبل والبقر كل سبعه منا في بقرة] وعن ابن عباس قال : بقدر يسارته ان كان موسراً فمن الإبل والإّ فمن البقر وإلاّ فمن الغنم ، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشه أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : ٢٤٢ [أهدى النبيُّ ﷺ مرةً غنماً]

وقوله تعالى : ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله﴾ معطوف على قوله تعالى : ﴿وأتموا الحج والعمرة لله » لأنه لا يجوز الذبح إلاَّ في الحرم في حالة الأمن. أمّا ما وقع في الحديبية فكان ذبحهم خارج الحرم يعزى ذلك للإحصار الذي أحصرتهم قريش ، عن الدخول إلى الحرم فقوله ﴿حتى يبلغَ الهديُ مَحِلَّه ﴾ يعني يفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كـان قارناً أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً أو متمتّعاً ، كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت : ٢٤٣ [يا رسول الله ما شأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال : « اني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر »] وقوله تعالى : ﴿ فمن كان منكـم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ روى البخاري بسنده إلى عبدالله بن معقل قال : ٢٤٤ [قعدت إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد – يعني مسجد الكوفة – فسألته عن فدية من صيام فقال : حملت إلى النبي ﷺ ، والقمل يتناثر عــلى وجهي ، فقال : ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا أما تجد شاةً ؟ قلت : لا قال : صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع من طعام ، واحلق رأسك .

فنزلت فيَّ خاصة وهي لكم عامة] ورواه أحمد عن كعب بن عجرة قال : ٢٤٥ [أتى عَلَيَّ النبي ﷺ وأنا أوقد تحت قدرٍ والقمل يتناثر على وجهي أو قال حاجبي ؛ فقال : يؤذيك هوام رأسك ؟ قلت : نعم . قال : فاحلقه وصُمْ ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك نسيكةً] (١).

(قلت) وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أن يخير في هذا المقام : إن شاء صام وان شاء تصدق بفرق وهو ثلاثة آصع لكل مسكين نصف صاع وهو مدّان ، وإن شاء ذبح شاةً وتصدّق بها على الفقراء ، أيّ ذلك فعل ، أجزأه . ولما كان لفظ القران في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل ﴿ ففدية من صيام أو صدقة أو نسك . ﴾ أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بذلك وأرشده إلى الأفضل فالأفضل فقال أنسك شاة ، أو أطعم ستة مساكين ، أو صم ثلاثة أيام . فكلٌ حسن في مقامه ولله الحمد والمنة .

قال هشام : أخبرنا ليث عن طاووس انه كان يقول: ما كان من دم فبمكة، وما كان من طعام وصيام فحيث شاء . وقوله تعالى : ﴿ فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي . ﴾ أي إذا تمكنتم من أداء المناسك ، فمن كان منكم متمتعاً بالعمره إلى الحج ، وهو يشمل من أحرم بهما ، أو أحرم بالعمرة أولاً فلما فرغ منها أحرم بالحج ، أما قوله : ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي﴾ أي فليذبح ما قدر عليه من الهدي ، وأقله شاة ، وله أن يذبح البقر ، لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر . وقال الأوزاعي (عن أبي هريرة : ٢٤٦ [أن رسول الله ﷺ ذبح البقر عن نسائه وكن متمتعات] . وفي الصحيحين عن عمران بن حصين قال : ٢٤٧ [نزلت آية المتعة في كتاب الله وفعلناها مع رسول الله ﷺ ، ثم لم ينزل قرآن يحرمها ولم ينه عنها ، حتى مات ؛ وقال رجل برأيه ما شاء] روى البخاري يقال إنه عمر ، وهذا الذي رواه البخاري قد جاء مصرحاً به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ويقول : إنْ نأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام يعني قوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ وفي نفس الأمر لم يكن عمر رضي الله عنه ينهى عنها محرّماً (٢) لها ، إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجّين

(١) قلت : يعني فدية حلق الرأس قبل بلوغ الهدي محله لمن به أذى في رأسه وليس له علاقة بالهدي .

(٢) قلت : سبحان من حصر العصمة بأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام . فأمر صلى الله عليه وسلم الصحابة جميعاً ان يفسخوا حجهم إلى عمرة ولما تلكأوا غضب ودخل على عائشة غاضباً فقالت أغضب الله من أغضبك وقد سأله أحد الصحابة قال هل دخلت العمرة في الحج لهذا العام ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ٢٤٢ (بل إلى أبد الأبد إلى أبد الأبد) وشبك بين اصابعه وقال عليه الصلاة والسلام: ٢٤٣ (لواستقبلت من أمري ما استدبرت ا ا=

ومعتمرين . كما قد صرح به رضي الله عنه. وقوله تعالى : ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ﴾ أي فمن لم يجد هدياً فصيام ثلاثة أيام في الحج أي في أيام المناسك . قال العلماء : والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر ، أما صيامها في أيام التشريق فيه قولان للعلماء : أنه يجوز لقول عائشة وابن عمر في صحيح البخاري : ٢٤٨ [لم يُرَخَّصْ في أيام التشريق أن يُصَمْنَ إلا لمن لا يجد الهدي .] وعن علي أنه كان يقول : من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج ، صامهن أيام التشريق وقال ذلك أيضاً عكرمة والحسن وعروة بن الزبير وإنما قالوا ذلك لعموم قوله ﴿ فصيام ثلاثة أيام في الحج ﴾ وهذا قول الشافعي في القديم والجديد من مذهبه أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق لما رواه مسلم عن قتيبة الهذلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٤٩ [أيام التشريق أيام أكل وشرب ، وذكرُ الله عز وجل] وقوله تعالى : ﴿ وسبعة إذا رجعتم ﴾ أي رجعتم إلى الوطن والأهل لقوله : ﷺ[1] في بعض حديث للبخاري عن ابن عمر ٢٥٠ [... فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله] أخرجاه. وقوله تعالى : ﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ تأكيد لقوله : ثلاثة وسبعة أي كاملة والأمر بإكمالها وإتمامها .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ﴾ أجمع أهل التأويل أن أهل الحرم معنيون به ، وأنه لا متعة لهم. وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عباس كان يقول : يا أهل مكة ، لا متعة لكم ، أحلت لأهل الآفاق وحرمت عليكم ، إنما يقطع أحدكم

= سقت الهدي ولجعلتها عمرة) كل هذا يدل على ان التمتع بالعمرة باق إلى الأبد ، ولكن ... رحم الله عمر وغفر له ورضي عنه وأرضاه على أن قول عمر رضي الله عنه بمنعه التمتع بالعمرة قد حرفه الرافضة إلى أبعد حد ... وهم يعلمون أنهم لكاذبون ... وذلك أنهم يقولون أن المتعة كانت على زمن الرسول وخلافة أبي بكر وما حرمها إلا عمر مستغلين التشابه اللفظي بين التمتع بالعمرة إلى الحج وبين ما يرمون إليه من حل المتعة أي الزواج الموقت الذي حرمه الرسول صلى الله عليه وسلم مرة في خيبر ثم أحله في فتح مكة ثم حرمه في مكة نفسها وفي نفس الوقت وأعني في أثناء وجوده في مكة فقال : ٢٥١ : (أيها الناس إني كنت قد أذنت لكم في الاستمتاع بالنساء وان الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة) رواه مسلم عن سبرة الجهني ج ٤ ص ١٣٢ وفي صحيح مسلم عن سبرة الجهني قال : ٢٥٢ (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً بين الركن والباب) وهو يقول بنحوه . وفي مسلم ج ٤ ص ١٣٣ عن سبرة الجهني قال : ٢٥٣ (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمتعة عام الفتح حين دخلنا مكة ثم لم نخرج منها حتى نهانا عنها .) فتأمل يا أخي المسلم ما يحرفه الرافضة من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يستغلون من تشابه الألفاظ وهم يعلمون انهم لكاذبون هداهم الله سواء السبيل .

(١) هذا الحديث عام ويخصصه الحديثان أعلاه أو الخبران : (لم يرخص ...) و (من فاته صيام ...)

وادياً ، أو قال يجعل بينه وبين الحرم وادياً ثم يهل بعمرة ، وعن طاووس قال : المتعة للناس لا لأهل مكة من لم يكن اهله من الحرم .

وقوله تعالى: ﴿ واتقوا الله ﴾ أي فيما أمركم ونهاكم ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ أي لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره .

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ ١٩٧ ﴾

إختلف أهل العربية في قوله تعالى : ﴿ الحج أشهر معلومات ﴾ قال بعضهم : تقديره الحج أشهر معلومات فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام فيما عداها وإن كان ذاك صحيحاً ، والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة ، مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم ... واحتج لهم بقوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ وبأنه أحد النسكين ، فصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة . وذهب الشافعي رحمه الله إلى انه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره ، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به وهذا القول مروي عن ابن عباس وجابر وبه يقول عطاء وطاووس ومجاهد رحمهم الله والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ الحج أشهر معلومات ﴾ فلا يصح قبلها كميقات الصلاة ، وروى الشافعي رحمه الله عن ابن عباس أنه قال : لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلاّ في أشهر الحج من أجل قوله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ ورواه ابن مردويه في تفسيره عن ابن عباس : ٢٥٤ [من السنّة أن لا يحرم بالحج إلاّ في اشهر الحج] . وروى ابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس قال: ٢٥٥ [لا يُحرم بالحج إلاّ في أشهر الحج فإن من سنّة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج .] وهذا اسناد صحيح. وقول الصحابي : من السنّة كذا في حكم المرفوع عند الأكثرين ، ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن وهو ترجمانه . وقد ورد فيه حديث مرفوع رواه ابن مردويه بسنده عن جابر عن النبيّ ﷺ أنه قال: ٢٥٦[لا ينبغي لأحد أن يُحرم بالحج إلاّ في أشهر الحج] وإسناده لا بأس به . ولكن رواه الشافعي من طرق إلى جابر بن عبدالله سئل ٢٥٧ [أيُهل بالحج قبل أشهر الحج فقال : لا] وهذا الموقوف أصحُّ وأثبت من المرفوع ، ويبقى حينئذ

مذهب صحابي يتقوّى بقول ابن عباس [من السنّة أن لا يُحرم بالحج إلا في أشهره] والله أعلَم .

وقوله تعالى ﴿ أشهر معلومات﴾ روى البخاري : عن ابن عمر : ٢٥٨ [هي شوال وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة] وهذا الذي علقه البخاري بصيغة الجزم رواه ابن جرير موصولاً إلى ابن عمر بنحوه وإسناده صحيح وقد رواه الحاكم ايضاً وقال علـى شرط الشيخين . (قلت) وهو مروي عن جمع من الصحابة والتابعين وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم ، وقال ابن جرير : (وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب ، كما تقول العرب : رأيته العام ورأيته اليوم وإنما وقع ذلك في بعض العام واليوم ...

كقوله تعالى : ﴿ فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ﴾ وإنما تعجلٌ في يومٍ ونصف يوم) وقوله تعالى : ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ قال ابن جرير أجمعوا على أن المراد من الفرض ها هنا الايجاب والإلزام . أي أوجب باحرامه حجاً وقال عطاء : الفرض : الإحرام وكذا قال غيره وعن ابن عباس أنه قال : فلا ينبغي أن يلبي بالحج ثم يقيم بأرض ﴿فلا رفث ولا فسوق﴾ قال عطاء : الرفث : الجماع وما دونه من قول الفحش . ﴿ولا فسوق﴾ أي إتيان المعاصي في الحرم والسباب وثبت في الصحيح : ٢٥٩ [سباب المسلم فسوق وقتاله كفر] والفسوق جميع المعاصي وفي الصحيحين عن أبي هريرة : قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٦٠ [من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه]

وقوله تعالى ﴿ ولا جدال في الحج﴾ أي قطع التنازع في مناسك الحج وإبّانها ... وقد بينها الله أتم بيان ، ووضحها أكمل إيضاح ، وقد كان يقع جدل بين قريش وبقية العرب فقريش كانت تقف عند المشعر الحرام بمزدلفة ، وبقية العرب كانت تقف بعرفة فكانوا يتجادلون وكل يدعي أن حجه وموقفه موقف وحج ابراهيم وقد قطع الله التنازع في ذلك وبين المناسك جميعاً وحرم الجدال فيها وفي وقتها . وقيل أيضاً أن الجدال هنا هنا المخاصمة والمراء والسبّاب والخصومات والغضب . إلا أن تستعتب مملوكاً مغضبه من غير أن تضربه (قلت) ولو ضربه لكان جائزاً سائغاً : والدليل أن أبا بكر ضرب غلامه لأنه أضل بعيره الذي عليه الزاد والماء فكان رسول الله ﷺ ينظر إلى فعل أبي بكر ويبتسم ويقول : ٢٦١ [انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع] كهيئة الإنكار اللطيف . إن الأوْلى ترك ذلك والله أعلم .

فمن رواية أحمد مختصراً . وقال أحمد عن جابر : ٢٦٢ [من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه] . وقوله تعالى : ﴿ وماتفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ لمّا نهاهم عن إتيان القبيح قولاً أو فعلاً حثّهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ فقد أخرج البخاري بسنده عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزوّدون ويقولون نحن المتوكلون ، فأنزل الله تعالى ﴿ وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ فنهوا عن ذلك وأمروا أن يتزوّدوا ... كالدقيق والسويق والكعك . وعن مجاهد : أن ابن عمر كان يشترط على من صحبه الجودة وقوله تعالى : ﴿ فإن خير الزاد التقوى ﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا ، أرشدهم إلى زاد الآخرة ، وهو استصحاب التقوى إليها كما قال سبحانه ﴿وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ﴾وهو الخشوع والطاعة والتقوى يعني زاد الآخرة

وقال مقاتل بن حيان لما نزلت هذه الآية ﴿ وتزوّدوا ﴾ قام رجل من فقراء المسلمين فقال : يا رسول الله ما نجد ما نتزوّده فقال رسول الله ﷺ : ٢٦٣ [تزوّد ما تكف به وجهك عن الناس وخير ما تزوّدتم التقوى »] رواه ابن حاتم . وقوله تعالى : ﴿ واتقونِ يا أولي الألباب ﴾ يقول : واتقوا عذابي ونكالي . وعذابي لمن خالفني ، ولم يأتمر بأمري ، يا ذوي العقول ، والأفهام .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنتُم مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ﴾

قال البخاريّ عن ابن عباس: كانت عكاظ، ومجنة، وذو المجاز، أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجرّوا في الموسم ، فنزلت ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ في مواسم الحج. وروى أحمد عن أبي أمامة التيمي قال : قلت لابن عمر : إنا نكري فهل لنا من حج، قال : أليس تطوفون بالبيت ، وتأتون المعروف ، وترمون الجمار ، وتحلقون رؤوسكم قال: قلنا: بلى. فقال ابن عمر : ٢٦٤ [جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فسأله عن الذي سألتني فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم ﴾] . روى ابن جرير بسنده عن أبي صالح مولى عمر ، قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، كنتم تتّجرون في الحج ؟ قال : وهل كانت معايشهم إلاّ في الحج . ؟

وقوله تعالى : ﴿ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾ عرفة موضع الوقوف في الحج ، وهي عمدة أفعال الحج ولهذا روى الإمام أحمد وأهل السنن باسناد صحيح عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٢٦٥ [الحج عرفات - ثلاثا - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك . وأيام منى ثلاثة ، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه] ووقت الوقوف من الزوال يومَ عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر ، لأن النبي ﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال : ٢٦٦ [لتأخذوا عني مناسككم] وقال في هذا الحديث ٢٦٧ [فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك] وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي رحمهم الله ، وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنَّ وقت الوقوف من أول يوم عرفة مستندين في ذلك إلى حديث حارثة بن لام الطائي قال : ٢٦٨ [أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت : يا رسول الله إني جئت من جبل طيء ، أكْلَلْتُ راحلتي ، وأتعبت نفسي والله ما تركت من جبل إلاَّ وقفت عليه ، فهل لي من حج ؟ فقال رسول الله ﷺ من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع ، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفثه]

وتسمى عرفات : المشعر الحرام ، والمشعر الأقصى، وإِلالٌ على وزن هِلال ، ويقال للجبل في وسطها : جبل الرحمة .

روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال : ٢٦٩ [كان أهل الجاهليه يقفون بعرفة ، حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال كأنها العمائم على رؤوس الرجال دفعوا ، فأخّر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس] ورواه ابن مردويه من حديث زمعة بن صالح وزاد : ٢٧٠ [ثم وقف بالمزدلفة وصلى الفجر بغلس ، حتى إذا أسفر كل شيء ، وكان في الوقت الآخر ، دفع] وهذا أحسن الإسناد .

قال أبو إسحق السبيعي عن عمر بن ميمون سألت عبدالله بن عمرو عن المشعر الحرام، فسكت حتى إذا هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة قال : أين السائل عن المشعر الحرام ؟ هذا المشعر الحرام .

وفي حديث جابر بن عبدالله الطويل الذي في صحيح مسلم ، قال فيه : ٢٧١ [فلم يزل واقفاً - يعني بعرفة - حتى غربت الشمس وبدت الصفرة قليلا حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه ، ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى أن رأسها

ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : أيها الناس: السكينة السكينة . كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد واقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذانٍ واقامةٍ ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة ، فدعا الله وكبره وهلله ووحده فلم يزل واقفاً حتى اسفر جداً ، فدفع قبل ان تطلع الشمس] وعن ابن عمر : (المشعر الحرام المزدلفة كلها) .

(قلت) والمشاعر هي المعالم الظاهرة ، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام ، لأنها داخل الحرم . وقوله تعالى : ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج على ما كان عليه من الهداية إبراهيم الخليل عليه السلام ؛ ولهذا قال ﴿ وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ قيل من قبل هذا الهدى وقبل القرآن وقبل الرسول ، والكل متقارب ومتلازم وصحيح .

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٩٩)

﴿ ثم ﴾ ـ ها هنا ـ لعطف خبر على خبر وترتيبه عليه ، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام . وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات كما كان الجمهور يصنعون ، يقفون بها إلاّ قريشاً فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحِل ، ويقولون : نحن أهل الله في بلدته وقطانُ بيته .

روى البخاري بسنده عن عائشة ، قالت : ٢٧٢ [كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمّون /الحُمْس/ وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ، ثم يقف بها ثم يفيض منها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ من حيث أفاض الناس﴾] وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وغيرهم ... واختاره ابن جرير وحكى عليه الإجماع .

وروى الإمام أحمد بسنده إلى محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: ٢٧٣ [أضللت بعيرا لي بعرفة فذهبت أطلبه ، فإذا النبي ﷺ واقف] قلت: ٢٧٤ [إن هذا من الحمس مـا

شأنه ها هنا ؟] أخرجاه في الصحيحين ثم رواه البخاري عن ابن عباس : ما يقتضي أن المراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار وعن مزاحم قال : والمراد بالناس إبراهيم عليه السلام . قال ابن جرير : ولولا إجماع الحجة على خلافه لكان هو الأرجح .

وقوله تعالى : ﴿ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات ، ولهذا ثبت في صحيح مسلم : ٢٧٥ [أن رسول الله ﷺ ، كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً .] وفي الصحيحين : ٢٧٦ [انه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثاً وثلاثين] وروى البخاري عن شداد بن أوس ، قال : قال رسول الله ﷺ ٢٧٧ [سيد الإستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت ، خلقتني وانا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة ، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة] وفي الصحيحين عن عبدالله بن عمر أن أبا بكر قال : ٢٧٨ [يا رسول الله علمني دعاءً أدعو به في صلاتي فقال : قل: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فأغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم] والأحاديث في الاستغفار كثيرة .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * (٢٠٢) ﴾

يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها؛ وقوله تعالى: ﴿كذكركم آباءكم ﴾ روى عن ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم : كان أبي يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على محمد ﷺ : ﴿ فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾ فعن أنس وجمع غفير من التابعين نحوه. وحكاه ابن جرير عن جماعة والله أعلم . و﴿ أو ﴾ ههنا لتحقيق

المماثلة في الخبر كقوله تعالى: ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ وقوله ﴿يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾ فليست ههنا للشك قطعاً، وإنما هي لتحقيق المخبر عنه كذلك أو أزيد منه؛ ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره فإنه مظنّة الإجابة. وذم من لا يسأله إلاّ في أمر دنياه وهو معرض عن أخراه فقال: ﴿ومنَ الناس من يقول ربنا أتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق﴾ أى من نصيب ولا حظ، مثل أن يقول: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً فأنزل الله فيهم: ﴿فمن الناس ...﴾ الآية وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: ﴿ربنا أتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار﴾ فأنزل الله: ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾ ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى فقال: ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا وصرفت كلّ شر، فإن الحسنة تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية ودار، وزوجة، ورزق، وعلم نافع وعمل صالح، ومركب هين، وثناء جميل، فكل ذلك مندرج في الحسنة في الدنيا؛ واما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر، وتيسير الحساب وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام. وقال القاسم أبو عبد الرحمن: من أعطي قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وجسداً صابراً فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووُقي عذاب النار ولهذا وردت السنة بالترغيب بهذا الدعاء.

روى الإمام أحمد عن أنس: ٢٧٩ [إن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرخ فقال له رسول الله ﷺ: هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم. كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله لا تطيقه أولا تستطيعه، فهلاً قلت: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ قال فدعا الله فشفاه] انفرد به مسلم.

روى الإمام الشافعي بسنده عن عبدالله بن السائب: ٢٨٠ [أنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين الركنين - ركن بني جمح والركن الأسود: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار﴾] روى ابن مردويه بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ٢٨١ [ما مررت على الركن إلا رأيت عليه ملكاً يقول: آمين فإذا مررتم عليه فقولوا: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾]



﴿ وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * (٢٠٣) ﴾

قال ابن عباس : الأيام المعدودات أيام التشريق ، والأيام المعلومات أيام العشر . وقال عكرمة ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ يعني التكبير ، في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات الله أكبر الله أكبر وقال الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٨٢ [يوم عرفة ، ويوم النحر ، وأيام التشريق ، عيدنا أهلَ الإسلام ، وهي أيام أكل وشرب] روى ابن جرير : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبدالله بن حذافة يطوف في منى : ٢٨٣ [لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل .]

وفي رواية للزهري : ٢٨٤ [إلاّ من كان عليه صوم من هدي] وهذه زيادة حسنة ولكن مرسلة وعن عائشة قالت : ٢٨٥ [نهى رسول الله ﷺ عن صوم أيام التشريق وهي أيام أكل وشرب وذكر الله] وعن ابن عباس : الأيام المعدودات أيام التشريق أربعة أيام : يوم النحر ، وثلاثة بعده وعليها دل ظاهر الآية الكريمة حيث قال تعالى : ﴿ فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر ، ويتعلق بقوله ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ ذكر الله على الأضاحي. ويتعلق به الذكر المؤقت خلف الصلوات والمطلق في سائر الأحوال . وأشهر الأقوال للعلماء: ما عليه العمل أنه من صلاة الصبح يومَ عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق وهو آخر النفر الآخر . ويتعلق بذلك التكبير وذكر الله عند رمي الجمرات كل يوم من أيام التشريق.وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره : ٢٨٦ [إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار ، لإقامة ذكر الله عز وجل .] ولما ذكر الله تعالى النفر الأول والثاني وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف ، قال : ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم اليه تحشرون ﴾ كما قال : ﴿ وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون ﴾ .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝ (٢٠٦) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ ۝ (٢٠٧) ﴾

وعن ابن عباس أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلّموا في خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم ، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه : ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ وقيل بل ذلك عامٌ في المنافقين كلهم ، وفي المؤمنين كلهم وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغير واحد ، وهو الصحيح. وقال ابن جرير بسنده إلى نوف وهو البكالي ــ وكان ممن يقرأ الكتب ، قال : إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل : (قوم يحتالون على الدنيا بالدين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، يلبسون للناس مسوك الضأن ؛ وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول تعالى : فعليَّ يجترئون وبي يغترّون ، حلفت بنفسي لأبعثنَّ عليهم فتنةً تترك الحليم فيها حيران . قال القرظي : تدبرتّها في القرآن فإذا هم المنافقون فوجدتّها ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه ﴾ الآية ... قال سعيد بن هلال : وقد عرفت فيمن نزلت هذه الآية فقال محمد بن كعب : إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامةً فيما بعد . وهذا الذي قاله القرظي حسن صحيح . وأما قوله : ﴿ ويُشهد الله على ما في قلبه ﴾ فقرأه ابن محيصن بفتح الياء وضم الجلالة « يَشْهَد » ومعناها : أن هذا وإن أظهر لكم الحيل لكن الله يعلم ما في قلبه من القبيح كقوله تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يَشهَد إن المنافقين لكاذبون ﴾ وقرأه الجمهور بضم الياء ونصب الجلالة ﴿ ويُشْهِدُ ﴾ ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق كقوله تعالى : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ﴾ الآية ... وقيل : معناه أنه يقسم بالله ويُشهده على أن ما في قلبه موافق للسانه . وهذا صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ وهو ألدُّ الخصام ﴾ الألد في اللغة الأعوج ﴿ وتنذر به قوماً لدّاً ﴾

أي عوجاً ، وهكذا في حال خصومته يكذب ويزورّ عن الحق ولا يستقيم معه بل يفتري ويفجر كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ انه قال : ٢٨٧ [آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر] روى البخاري عن عائشة ترفعة : ٢٨٨ [إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم] . وقوله تعالى :

﴿وإذا تولىّ سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ أي هو أعوج المقال سيء الفعال . والسعي – ها هنا – هو القصد كما قال إخباراً عن فرعون : ﴿ثم أدبر يسعى ...﴾ وقال : ﴿... فاسعوا إلى ذكر الله﴾ أي اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة ، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنّة النبوية : ٢٨٩ [إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة والوقار] فهذا المنافق ليس له همة إلاّ الفساد في الأرض وإهلاك الحرث : وهو محل نماء الزروع والثمار. والنسل: وهو نتاج الحيوانات ، اللّذَيْن لا قوام للناس إلا بهما . وقال مجاهد: إذا سعى في الأرض إفساداً ، منع الله القطر فهلك الحرث والنسل . ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أي لا يحب من هذه صفته ولا من يصدر منه ذلك .

وقوله ﴿وإذا قيل له إتق الله أخذته العزّة بالأثم﴾ أي إذا وعظ هذا الفاجر وقيل له : أنزعْ عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق ؛ امتنعَ وأبىَ وأخذته الحمية والغضب بالأثم كقوله تعالى : ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر ...﴾ الآية ... ولهذا قال في هذه الآية ﴿فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ أي كافية عقوبةً في ذلك.

وقوله ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة ، ذكر صفات المؤمنين الحميدة . قال ابن عباس وجمع من التابعين : نزلت في صهيب بن سنان الرومي ، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله ، وإن أحب ان يتجرد منه ويهاجر فعل ، فتخلص منهم وأعطاهم ماله فأنزل الله فيه هذه الآية ، فتلقّاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له : ربح البيع ، فقال : وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم . وما ذاك ؟ فأخبروه ان الله أنزل فيه هذه الآية ... روى ابن مردويه عن عثمان النهدي عن صهيب ، قال : ٢٩٠ [لما أردت الهجرة من مكة إلى النّبي ﷺ قالت لي قريش : يا صهيب ، قدمت إلينا ولا مال لك وتخرج أنت ومالك؟ والله لا يكون هذا أبداً ... فقلت لهم : أرأيتم إن دفعت إليكم مالي ، تخلّون عني ؟ قالوا نعم . فدفعت إليهم مالي ، فخلوا عني ، فخرجت حتى قدمت المدينة ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال « ربح صهيب ، ربح صهيب ، مرتين »] أما الأكثرون فحملوا ذلك على

أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله كما قال تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ... ﴾ الآية .

ولما حمل هشام بن عامر بين الصفين أنكر عليه بعض الناس ، فردّ عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما وتلوا هذه الآية : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد ﴾ .

﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱدْخُلُوا فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ • (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُم مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ • (٢٠٩) ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين به ، المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك .

وعن ابن عباس وجماعة من التابعين في قوله تعالى : ﴿ أدخلوا في السلم كافة ﴾ أي أدخلوا في الإسلام وأطيعوا أوامره جميعا ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً : ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ أي أجتنبوا ما يأمركم به الشيطان ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ و ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ ولهذا قال ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ قال مطرف : أغشُّ عباد الله لعبيد الله الشيطان وقوله تعالى : ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات ﴾ أي عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجج ﴿ فاعلموا ان الله عزيز ﴾ أي في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب ، ﴿ حكيم ﴾ في أحكامه ونقضه وإبرامه .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ • (٢١٠) ﴾

يهدد الله الكافرين : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة ﴾ يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير . وإن شراً فشر ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وقضي الأمر والى الله ترجع الأمور﴾ كما قال

تعالى : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً . وجاء ربك والملك صفاً صفاً . وجيء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى ﴾ وقد ذكر ابن جرير -ها هنا- حديث الصور بطوله من أوله عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ، وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم ، وفيه : ٢٩١ [... إن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفّعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً من آدم فمن بعده ، فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ فإذا جاءوا اليه قال : أنا لها أنا لها ... فيذهب فيسجد لله تحت العرش ، ويشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد ، فيشفّعه الله ويأتي في ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا ، وينزل من فيها من الملائكة ، ثم الثانية ثم الثالثة ، إلى السابعة ، وينزل حملة العرش والكروبيون ، قال : وينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة ، ولهم زجل من تسبيحهم يقولون : سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت ، سبّوح قدّوس رب الملائكة والروح ، سبوح قدوس سبحان ربنا الأعلى ، سبحان ذي السلطان والعظمة ، سبحانه سبحانه أبداً أبداً .].

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ (٢١٢) ﴾

يخبر تعالى عن بني إسرائيل : كم شاهدوا مع موسى من آية بيّنة أي حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به كيده وعصاه وفلقه البحر ، وضربه الحجر ، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر ، ومن إنزال المن والسلوى ، وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار ، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه ، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها وبدّلوا نعمة الله كفراً ، أي استبدلوا بها ، الكفرَ والإعراض عنها ﴿ ومن يبدّل نعمة الله من بعدما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ كما قال تعالى إخباراً عن كفار قريش : ﴿ ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار. جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها ،

واطمأنوا إليها وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها مما يرضي الله عنهم وسخروا من الذين آمنوا ، الذين أعرضوا عنها ، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم وبذلوه ابتغاء وجه الله فلهذا فازوا يوم معادهم ، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم ومسراهم ومأواهم فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين ، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ أي يرزق من يشاء من خلقه ويعطيه عطاءً لا تعداد له في الدنيا والآخرة . وقال النبي ﷺ : ٢٩٢ [أنفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالا] وقال تعالى : ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ وفي الصحيح : ٢٩٣ [إن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم فيقول أحدهما اللهم اعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم اعط ممسكاً تلفاً] وفي الصحيح ٢٩٤ [يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، وما لبست فأبليت ، وما تصدقت فأمضيت وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس]

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾

روى جرير عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعةٍ من الحق فاختلفوا ... فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . وقيل أقوال أخرى والصحيح قول ابن عباس وهو أصح سنداً ومعنىً لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام ، فبعث الله اليهم نوحاً عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم ، وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض : ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ روى عبد الرزاق

عن أبي هريرة في قوله ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ الآية... قال قال النبي ﷺ : ٢٩٥ [نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولاً الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع فغداً لليهود وبعد غد للنصارى] وقال الربيع بن أنس في تفسير هذه الآية : فهدى الله الذين آمنوا ... أي كان الذين آمنوا من هذه الأمة على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف ، أقاموا على الأخلاص لله عز وجل وحده ، وعبادته لا شريك له ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة ... إن رسلهم قد بلغوهم وإنهم قد كذبوا الرسل . وكان أبو العالية يقول في هذه الآية : المخرج من الشبهات والضلالات والفتن . وقوله : ﴿بإذنه﴾ أي بعلمه بهم وبما هداهم له قاله ابن جرير ﴿والله يهدي من يشاء﴾ أي من خلقه ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة . وفي الصحيحين عن عائشة : أن رسول ﷺ ، كان إذا قام من الليل يصلي يقول ٢٩٦ [اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، إهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم] .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)

يقول تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾ قبل أن تبتلوا وتختبروا كما فُعِلَ بالذين من قبلكم.ولهذا قال : ﴿ ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسَّتهم البأساء والضراء ﴾ وهي الأمراض والنوائب . قال ابن مسعود وابن عباس وجمع من التابعين ﴿ البأساء ﴾ الفقر و ﴿ الضراء ﴾ السقم و ﴿ زلزلوا ﴾ أي خُوِّفوا من الأعداء ، وامتحنوا امتحاناً عظيماً ؛ كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت قال : ٢٩٧ [قلنا : يا رسول الله ، ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا ؟ فقال : إنَّ من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه، ثم قال : والله لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى

يسيرَ الراكب من صنعاء إلى حضر موت ، لا يخاف إلاّ الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم قوم تستعجلون] وقوله تعالى : ﴿ مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ أي سنتهم ، كما قال تعالى : ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿وزلزلوا حتّى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ أي يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة ، قال الله تعالى : ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسرا ﴾ وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها . وفي الحديث : ٢٩٨ [عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيثه ، فينظر إليهم قنطين ، فيظل يضحك يعلم أن فرجهم قريب ...] الحديث

﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ . (٢١٥) ﴾

يسألونك كيف ينفقون فبيّن لهم تعالى ذلك.أي إصرفوها في هذه الوجوه كما جاء في الحديث : ٢٩٩ [... أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك] وتلا ميمون هذه الآية ثم قال : هذه مواضع النفقة، ما ذكر فيها طبلاً ولا مزماراً ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان . ثم قال تعالى : ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ أي مهما صدر منكم من فعل معروف فالله يعلمه وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . (٢١٦) ﴾

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام وقال الزهري : الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد ، فالقاعد عليه إذا استُعين أن يُعين ، وإذا استُنفِر أن ينفر وإن لم يُحتَج إليه قعد . (قلت) ولهذا ثبت في الصحيح : ٣٠٠ [من مات ولم يغزُ ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات ميتة جاهلية] وقال عليه السلام

يوم الفتح ٣٠١ [لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونية وإذا استُنفِرتم فانفرُوا .] وقوله : ﴿ وهو كره لكم ﴾ أي شديد عليكم ثم قال تعالى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم . ﴿ وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم ثم قال تعالى : ﴿ والله يعلم وانتم لا تعلمون ﴾ أي هــو أعلم بعواقب الأمور منكم ، وأخبر بما فيه صلاحكم في الدارين فاستجيبوا له وانقادوا لأمره لعلكم ترشدون .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ ٱللهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ (٢١٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللهِ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ (٢١٨) ﴾

روى ابن ابي حاتم بسنده عن جندب بن عبدالله ٣٠٢ [ان رسول الله بعث رهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة ابن الجراح ، فلما ذهب ينطلق بكى صبابةً إلى رسول الله ﷺ فحبسه ، فبعث عليهم مكانه عبدالله بن جحش وكتب له كتاباً (وأمره ان لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذاوكذا وقال لا تكرهنّ أحداً على السير معك من أصحابك ...]

وفي رواية ابن مسعود ٣٠٣ [أنهم كانوا سبعة نفر عليهم عبدالله بن جحش الأسدي ، وفيهم عمار بن ياسر وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وسعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان السلمي حليف لبني نوفل ، وسهيل بن بيضاء ، وعامر بن فهيرة ، وواقد بن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب وإن رسول الله ﷺ كتب لأبن جحش كتاباً وأمره ان لا يقرأه حتى ينزل ببطن نخلة فلما نزل بطن نخلة فتح الكتاب ، فإذا فيه : أن سِرْ حتّى

تنزلَ بطنَ نخلة ، فقال لأصحابه : من كان منكم يريد الموت فليمضِ وليُوصِ فإنني موص وماض لأمر رسول الله ﷺ ».

روى عبد الملك بن هشام راوي السيرة عن محمد بن اسحق ... ٣٠٤ [فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه « إذا نظرت في كتابي في هذا .. فامض حتّى تنزل نخلة بين مكة والطائف ترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم] فلما نظر عبد الله بن جحش الكتاب قال : سمعاً وطاعةً ثم قال لأصحابه قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضِ إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتّى آتيه منهم بخبر وقد نهاني أن استكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ؛ فأما أنا ، فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ . فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد . فسلك على الحجاز حتّى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له نجران أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يتعقبانه ، فتخلفا عليه في طلبه . ومضى عبدالله بن جحش وبقية أصحابه حتّى نزل نخلة . فمرّت به عير لقريش تحمل زيتاً وأُدُماً وتجارة من تجارة قريش ، فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبدالله بن المغيرة ، وأخوه نوفل بن عبدالله المخزوميان ، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة فلما رآهم القوم هابوهم ، وقد نزلوا قريباً منهم ... وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يومٍ من رجب [1] فقال القوم : والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم ، فليمتنعُنَّ منكم ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام ، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا قتل من قدروا عليه منهم ، وأخذ ما معهم . فرمى واقد بن عبدالله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان ، وأفلت القوم نوفل بن عبدالله فأعجزهم ، وأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتّى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة . قال ابن اسحق : ... فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » فوقف العير ، والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، أسقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال ... فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة

---

(١) وفي رواية جندب بن عبدالله ، : لم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادي ...

أكبر من القتل﴾ أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدّوكم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله ﴿أكبر عند الله﴾ من قتل من قتلتم منهم ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردّوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ أي ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين. قال ابن اسحق: فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت اليه قريش في فداء عثمان بن عبدالله والحكم ابن كيسان، فقال رسول الله ﷺ: لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا يعني سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان فإنا نخشاكم عليهما، فان تقتلوهما نقتل صاحبكم فقدم سعد وعتبة ففداهما رسول الله ﷺ منهم؛ فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن اسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً؛ وأما عثمان بن عبدالله فلحق بمكة فمات بها كافراً قال ابن اسحق: فلما تجلّى عن عبدالله بن جحش وأصحابه ما كان حين نزل القرآن طمعوا في الأجر فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم.﴾] وقال عبدالله بن جحش في تلك الغزوة أبياتاً يردُّ فيها على قريش لما قالت: قد أحل محمد وأصحابه الشهر الحرام فسفكوا فيه الدم وأخذوا المال وأسروا الرجال:

تعدّون قتلاً في الحرام عظيمةً ... وأعظم منه لو يرى الرشدَ راشدُ
صدودكمُ عما يقول محمد ... وكفرٌ به والله راءٍ وشاهدُ
وإخراجكم من مسجد الله أهلَه ... لئلا يُرى لله في البيت ساجدُ
فإنا وإن عيرتمونا بقتله ... وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسدُ
سقينا من ابن الحضرمي رماحنا ... بنخلة لما أوقد الحربَ واقدُ
دماً وابن عبدالله عثمان بيننا ... ينازعه غلٌّ من القيد عائدُ



﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۞ (٢١٩) فِي ٱلدُّنْيَا

وَٱلْآخِرَةِ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * (٢٢٠)

قوله : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ أما الخمر ، فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) : إنه كلّ ما خامر العقلَ . كما سيأتي بيانُه في سورة المائدة وكذا الميْسِر وهو القمار . وقوله : ﴿ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾ أما إثمهما فهو في الدين وأما المنافع فدنيوية كبيعها والانتفاع بثمنها ، وما كان ينتفعه بعضهم في الميسر فينفقه على نفسه وعياله ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة لتعلّقها بالعقل والدين ولهذا قال تعالى : ﴿ وإثمهما أكبرُ من نفعهما ﴾ ولهذا كانت هذه الآية ممهِّدة لتحريم الخمر على البتات ، ولم تكن مصرِّحةً بل معرِّضة ، ولهذا قال عمر بن الخطاب (رض) لما قرئت عليه : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً ، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنّما يريد الشيطان أن يوقعَ بينكم العداوةَ والبغضاءَ في الخمر والميْسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ وسيأتي الكلام في ذلك في سورة المائدة إن شاء الله تعالى وبه التتمة ٣٠٥ : [وكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقربنَّ الصلاة سكران].

وقوله : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفوُ ﴾ قال ابن أبي حاتم عن يحيى أنه بلغه أن مُعاذ بن جبل وثعلبة ، أتيا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله إنَّ لنا أرقاء وأهلين فما ننفق من أموالنا ؟ فأنزل الله : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون ﴾

وقوله : ﴿ قل العفوَ ﴾ أي ما يفضل عن أهلك قاله ابنُ عباس وابنُ عمر وجماعةٌ من التابعين وقال عبد بنُ حميد في تفسيره عن الحسن في الآية : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفوَ ﴾

قال : ذلك ألاّ يجهد مالك ثم تقعد تسأل الناس ، ويدل على ذلك ما رواه ابن جرير عن أبي هريرة قال ٣٠٦ : [قال رجل : يا رسول الله ، عندي دينار قال : أنفقه على نفسك قال : عندي آخر قال : أنفقه على أهلك قال عندي آخر قال أنفقه على ولدك قال :

عندي آخر قال : فأنت أبصر .] ورواه مسلم في صحيحه . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٣٠٧ : [خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول] .

وقوله : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة ﴾ أي كما فصّل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبيّن لكم سائرَ الآيات في أحكامه ووعده ووعيده ، لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة . قال ابن عباس يعني في زوال الدنيا وفنائها ، وإقبال الآخرة وبقائها وفي رواية عن قتادة : فآثروا الآخرة على الأولى .

وقوله : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ الآية .

قال ابن جرير عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالّتي هي أحسن ﴾ و ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ إنطلقَ من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم وهكذا رواه أبو داود والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم من طرق عن عطاء بن السائب به وكذا رواه السدّي عن ابن عباس وابن مسعود بمثله . وروى وكيع بن الجراح بسنده عن عائشة (رض) : إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي على حدة حتى أخلط طعامه بطعامي وشرابه بشرابي فقوله : ﴿ قل إصلاح لهم خير ﴾ أي على حدة ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ أي وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم . وقوله : ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ أي يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح . وقوله : ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم ﴾ أي ولو شاء لضيّق عليكم ، ولكنه وسّع عليكم وخفّف عنكم بمخالطتهم . وسيأتي في سورة النساء تفصيلُ معاملة اليتيم إن شاء الله وبه الثقة .

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ • (٢٢١) ﴾

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين ، أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان وقد خص الله من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله : ﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ﴾ قال ابن عباس استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب . قال عمر بن الخطاب : المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصراني المسلمة ، وعن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ ٣٠٨ [نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا] إن هذا الخبر وإن كان في إسناده ما فيه فالقول به لإجماع الجميع من الأمة عليه . وقوله : ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾ قال السدي ٣٠٩ : [نزلت في عبدالله بن رواحة كانت له أمة سوداء فغضب عليها فلطمها ، ثم فزع فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهما فقال له: «ما هي؟» قال تصوم وتصلي وتحسن الوضوء وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فقال : « يا أبا عبدالله هذه مؤمنة » فقال والذي بعثك بالحق لأعتقنّها ولأتزوجنّها ، ففعل ، فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا: نكح أمته وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبةً في أحسابهم فأنزل الله هذه الآية] . وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : ٣١٠ [تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك] . .

ولمسلم عن جابر مثله . وله عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : ٣١١ [الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة .].

وقوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ﴾ أي لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات ، كما قال تعالى : ﴿ لا هنّ حل لهم ولا هم يحلّون لهن ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾ أي ولرجل مؤمن ولو كان عبداً حبشياً خير من مشرك وإن كان رئيساً سرياً ﴿أولئك يدعون إلى النار ﴾ أي معاشرتهم ومخالطتهم ، تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة وعاقبة ذلك وخيمة ﴿والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه﴾ أي بشرعه وما أمر به وما نهى عنه ﴿ ويبين الله آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ .

۞ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ

أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

روى الإمام أحمد عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت [١] فسأل أصحاب النبي ﷺ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ويسألونك عن المحيض ...﴾ حتى فرغ من الآية فقال رسول الله ﷺ ٣١٢ [« اصنعوا كلَّ شيء إلاَّ النكاح » فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه ، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر ، فقالا : يا رسول الله : ان اليهود قالت : كذا وكذا ، أفلا نجامعهن فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا ان قد وجد عليهما ، فخرجا فاستقبلهما هديةٌ من لبن إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفا أنه لم يجد عليهما] رواه مسلم .

وروى أبو داود بسنده عن عكرمة عن بعض أزواج النبي ﷺ : ٣١٣ [كان إذا أراد من الحائض شيئاً ألقى على فرجها ثوباً]فقوله : ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ يعني الفرج لقوله : [إصنعوا كل شيء إلا النكاح] ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج . (قلت) : ويحل مضاجعتها ومؤاكلتها بلا خلاف . قالت عائشة : ٣١٤ [كان يأمرني رسول الله ﷺ فأغسل رأسه وأنا حائض ، وكان يتكىء في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن .] وفي الصحيح عنها قالت : ٣١٥ [كنت اتعرَّقُ العِرْقَ [٢] وأنا حائض فأعطيه النبي ﷺ ، فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه ، واشرب الشراب فأناوله فيضع فمه في الموضع الذي كنت اشرب منه] ومن يطأ في الحيض فقد أثم ويستغفر الله ويتوب اليه . وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا...؟ فيه قولان : أحدهما : نعم لما رواه احمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ : ٣١٦ [في الذي يأتي أمرأته وهي حائض يتصدق بدينار أو نصف دينار] . وفي لفظ الترمذي : ٣١٧ [إذا كان دماً أحمر فدينار ، وان كان دماً أصفر فنصف دينار] والقول الثاني : وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعي وقول الجمهور أنه لا شيء في ذلك بل يستغفر الله عز وجل لأنه

(١) المراد بالمجامعة – هنا – الاجتماع بهن ، لا الوقاع–
(٢) عرق اللحم ، وتعرقه واعرقه : تناوله بفمه من العظم

لم يصح عندهم رفع الحديث وهناك من يرى - فيما يتعلق بالحائض - انما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الأزار كما ثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت : ٣١٨ [كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فأتزرت وهي حائض] وهذا لفظ البخاري ولهما عن عائشة نحوه فقوله تعالى : ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ تفسير لقوله : ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ ونهي عن قربهن بالجماع ما دام الحيض موجوداً ومفهومه : حله إذا انقطع . وقال الإمام أحمد فيما أملاه في الطاعة : وقوله : ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهَّرن فأتوهن من حيث ...﴾ الآية الطهر يدل على أن يقربها ، فلما قالت ميمونة وعائشة : ٣١٩ [كانت إحدانا إذا حاضت ائتزرت ودخلت مع رسول الله ﷺ في شعاره] دل ذلك على أنه إنما أراد الجماع .

وقوله : ﴿فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال . وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم إن تعذر ذلك بشروطه إلا أبو حنيفة رحمه الله يقول إنها تحل فيما إذا انقطع دمُها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده ولا تفتقر إلى غسل والله أعلم .

قال ابن عباس : ﴿حتى يطهرن﴾ أي من الدم ﴿فإذا تطهَّرن﴾ أي بالماء وكذا قاله جماعة من التابعين .

وقوله : ﴿من حيث أمركم الله﴾ قال ابن عباس يعني الفرج ولا تعدوه الى غيره فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى . وفيه دلالة على تحريم الوطء في الدبر كما سيأتي تقريره إن شاء الله تعالى . وقوله : ﴿إن الله يحب التوّابين﴾ أي من الذنب وإن تكرر غشيانه ﴿ويحب المتطهرين﴾ أي المتنزهين عن الأقذار والأذى وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض في غير المأتي .

وقوله ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ الحرث موضع الولد ﴿فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾ أي كيف شئتم مقبلة ومدبرة في صمّامٍ واحد كما ثبتت بذلك الأحاديث . وروى البخاري عن جابر قال : ٣٢٠ [كانت اليهود تقول : اذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول ، فنزلت : ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾] ورواه مسلم وأبو داود . روى ابن أبي حاتم عن جابر : ٣٢١ [إن اليهود قالوا للمسلمين : من أتى أمرأة وهي مدبرة جاء الولد أحول فانزل الله : ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾] قال ابن جريج في

الحديث : فقال رسول الله ﷺ : ٣٢٢ [مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج] . وهناك أحاديث كثيرة تبيح كيفية المباشرة على أن تكون من صمام واحد وهو الفرج . وقد ورد النهي عن إتيان النساء في أدبارهن .

وروي عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده ان النبي ﷺ قال : ٣٢٣ [الذي يأتي امرأة في دبرها هي اللوطية الصغرى .] وروى الإمام أحمد بسنده عن علي بن طلق قال: ٣٢٤ [نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء في أدبارهنّ ، فإن الله لا يستحي من الحق .] وروي أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ٣٢٥ [ان الذي يأتي أمرأته في دبرها لا ينظر الله اليه .] وروى أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ انه قال : ٣٢٦ [ملعون من أتى أمرأته في دبرها .] وكل ما أتى من الإخبار في إباحة ذلك فهي أخبار غير صحيحة وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبدالله الذهبي في جزء جمعه في ذلك وكلها ضعيفة واهية وقد روي عن ابن عمر ومالك والشافعي والطحاوى أنه حلال ولكن كل ذلك لا يصح عنهم رضي الله عنهم قال النصر الصباغ : كان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد كذب - يعني : ابن عبد الحكم - على الشافعي في ذلك فإن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه والله أعلم . وكذلك فإن ابن عمر رضي الله عنه أنه يحرمه : قال الدارمي في مسنده عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال : قلت لأبن عمر : ما تقول في الجواري أيحمّض لهن قال : وما التحميض ؟ فذكر الدبر فقال : وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين ؟ وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك فكل ما ورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم . وروى معمر بن عيسى عن مالك أن ذلك حرام . وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري بسنده إلى اسرائيل بن روح سألت مالك بن أنس ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن ؟ قال : ما أنتم إلا قوم عرب ، هل يكون الحرث إلا موضع الزرع ، لا تعدوا الفرج قلت يا أبا عبدالله ، انهم يقولون أنك تقول ذلك . قال يكذبون عليّ يكذبون عليّ . فهذا هو الثابت عنه وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة . وقول التابعين وغيرهم من السلف ، أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار ومنهم من يُطلقُ على فعله الكفر .

وقوله : ﴿ وقدّموا لأنفسكم ﴾ أي من فعل الطاعات مع أمتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات ، ولهذا قال : ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ أي فيحاسبكم على أعمالكم جميعها ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي المطيعين لله فيما أمرهم ، التاركين ماعنه زجرهم وقال ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ قال : تقول باسم الله التسمية عند

الجماع وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٢٧ [لو أن أحدكم إذا أراد ان يأتي أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يقدّر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً]

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَٰنِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ • (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ • (٢٢٥) ﴾

يقول تعالى : لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعةً لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها كقوله تعالى : ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ فالاستمرار على اليمين آثمُ لصاحبها من الخروج منها بالتكفير ؛ وقال رسول الله ﷺ : ٣٢٨ [والله لأن يلج أحدكم بيمينه في أهله آثم له عندالله من ان يعطي كفارته التي افترض الله عليه] وهكذا رواه مسلم وأحمد .

وقال ابن عباس في معنى هذه الآية : لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير وكذا قال جماعة من التابعين . ويؤيد ما قاله هؤلاء ما جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٢٩ [إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلاّ أتيت الذي هو خير وتحللتها] وروى مسلم عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال : ٣٣٠ [من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير] وقد وردت أحاديث أخرى ليس فيها كفارة والصحيح عنه ﷺ فيه ٣٣١ [فليكفر عن يمينه] وقوله : ﴿ لا يؤآخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ أي لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية وهي التي لا يقصدها الحالف بل تجري على لسانه عادةً من غير تعقيد ولا تأكيد كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال : ٣٣٢ [من حلف باللات والعزى فليقل: لا إله الا الله] فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية ، قد أسلموا وألسنتهم قد أَلِفَت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد فأمرو أن يتلفظوا بكلمة التوحيد حتى تكون هذه بهذه [1] روى أبو داود في باب اللغو في اليمين عن عائشة :

(١) قلت : وقوله : ... فليقل لا اله الا الله دليل على أن الحلف بغير الله شرك ولو كان الأمر دون الشرك لما أمره بأن يقول : لا إله الا الله إذ فيه معنى تجديد الإيمان ونفي العبادة عما سوى الله .

إن رسول الله ﷺ قال : ٣٣٣ [اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته : كلا والله ، وبلى والله] روى ابن جرير عن الحسن بن أبي الحسن قال: ٣٣٤ [مر رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون ، يعني يرمون ، ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه ، فقام رجل من القوم فقال : أصبت والله ، وأخطأت والله ، فقال الذي مع النبي ﷺ : حنث الرجل يا رسول الله ؛ قال كلا أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة .] وهذا مرسل حسن عن الحسن .

روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : هو قوله : لا والله ، بلى والله وهو يرى أنه صادق ولا يكون كذلك وقال ابن عباس لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك فذلك ما ليس عليك فيه كفارة .

روى أبو داود «باب اليمين في الغضب» عن سعيد بن المسيب : أن أخوين من الإنصار كان بينهما ميراث فسأل أحدهما صاحبه القسمة ، فقال : إن عدت تسألني عن القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك ، كفر عن يمينك وكلم أخاك ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٣٣٥ [لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب عز وجل ولا في قطيعة الرحم ، ولا فيما لا تملك] .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن يؤآخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب . قال مجاهد وغيره : وهي كقوله تعالى : ﴿ ولكن يؤآخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ الآية . ﴿ والله غفور حليم ﴾ أي غفور لعباده حليم عليهم .

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) ﴾

الإيلاء : الحلف . فإذا حلف الرجل ان لا يجامع زوجته مدةً ، فلا يخلو اما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها ، فإن كانت أقل ، فله ان ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته ، وعليها أن تصبر وليس لها مطالبته بالفيئة - أي بالعودة إلى الجماع - في هذه المدة ؛ وهذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة ان رسول الله ﷺ ، آلى من نسائه شهراً فنزل لتسعٍ وعشرين وقال ؛ ٣٣٦ [الشهر تسع وعشرون] فأمّا إن زادت المدة على

أربعة أشهر ، فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر إما أن يفيء أي يجامع ، وإما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا ، وهذا لئلاَّ يضرَّ بها . ولهذا قال تعالى : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم ﴾ أي يحلفون على ترك الجماع من نسائهم ، فيه دلالة على أنّ الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء ﴿ تربص أربعة أشهر ﴾ أي ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف ثم يوقف ويطالَب بالفيئة أو الطلاق ؛ ولهذا قال ﴿ فإن فاءوا ﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه ، وهو كناية عن الجماع قاله ابن عباس وجمع من التابعين. ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين (١) والذي عليه الجمهور أن عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حالف . كما تقدم في الأحاديث الصحاح والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وإن عزموا الطلاق ﴾ فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر ؛ كقول الجمهور من المتأخرين ، وقيل يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر تطليقة واحدة ، وقيل تطليقة رجعية وقيل بائنة وكل من قال : إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر أوجب عليها العدة إلاّ ما روى عن ابن عباس وأبي الشعثاء : إنها إن كانت حاضت ثلاث حيضات فلا عدة عليها . والذي عليه الجمهور من المتأخرين أن يوقف المولي فيطالب أما بهذا أي بالرجوع إلى جماعها، أو بالطلاق ولا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر طلاق . وروى مالك عن ابن عمر قال : إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف فإما أن يطلق وإما أن يفيء ، أخرجه البخاري . وهذا ما عليه أيضاً عمر وابن عمر وعائشة وعثمان وزيد بن ثابت وبضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ وكثير من التابعين والفقهاء وكل هؤلاء قالوا إن لم يفيء ألزم بالطلاق وإلاَّ طلَّق عليه الحاكم والطلقة رجعية، لها رجعتها في العدة .

وقد ذكر الفقهاء وغيرهم في مناسبة تأجيل المُولي بأربعة أشهر الأثر الذي رواه مالك بن أنس في الموطأ عن عبدالله بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسودَّ جانبُه — وأرّقني أن لا خليل أُلاعبُه
فوالله لولا الله أني أراقبه — لحُرِّك من هذا السرير جوانبه

---

(١) قلت : فيه إلفات نظر لطيف من الباري عز وجل إلى أن الإيلاء فيه ذنب، وهو أن المولي حرم زوجته من حقها في الجماع تلك المدة، وذلك بدليل قوله : «فان الله غفور رحيم» ولولا الذنب ما كانت المغفرة. وان هذا الذنب هو التقصير بحق الزوجة بسبب اليمين كما فيه إلفات نظر إلى أن ترك الإيلاء أولى .

فسأل عمرا بنته حفصة رضي الله عنها : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها فقالت ستة أشهر أو اربعة أشهر فقال عمر : لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك .

ورويت هذه الأبيات عن السائب بن جبير مولى ابن عباس أطولَ من الأولى :

تطاول هذا الليل وازورّ جانبُه ... وأرّقني أن لا ضجيعَ ألاعبُه
ألاعبُه طوراً ، وطوراً كأنّما ... بدا قمراً في ظلمة الليل حاجبه
يُسرُّ به من كان يلهو بقربه ... لطيفُ الحشا لا يحتويه أقاربه
فوالله لولا الله لا شيء غيره ... لنُقِّضَ من هذا السرير جوانبه
ولكنني أخشى رقيباً موكَّلاً ... بأنفاسنا لا يفتر الدهرَ كاتبه
مخافة ربيّ والحياءُ يَصُدُّني ... وإكرامُ بعلي أن تُنالَ مراكبُه[١]

وقد روي هذا من طرق عديدة وهو من المشهورات .

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ﴾

هذا أمر من الله تعالى للمطلقات ، المدخول بهن ، من ذوات الأقراء بأن يتربصْن بأنفسهن ثلاثة قروء ، أي بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ثم تتزوج إن شاءت . وقد اختُلِفَ في الأَمَة فمن قال : إذا طُلِّقت تعتد بقُرأيْن لأنها على النصف من الحُرَّة ، والقرءُ لا يتبعَّضُ فكمل لها قُرآنِ لحديث : ٣٣٧ [طلاقُ الأَمَة تطليقتان وعدّتها حيضتان] ولكن لم يثبت هذا الحديث فقد قال الدارقطني أنه من كلام القاسم بن محمد ثم فيه مظاهر بن أسلم المخزومي المدني ضعيف بالكلية ومروي أيضاً من قول ابن عمر غير مرفوع ، وقالوا : لم يعرف بين الصحابة خلاف ، وهو مذهب الأئمة الأربعة . وقال بعض السلف : بل عدّتها كعدة الحرة لعموم الآية ولأن هذا الأمر

(١) وفي نسخة (مراتبه)

جبلّي ، فكان الحرائر والإماء في هذا سواء حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر وضعفه . (١)

وقد اختلف بين السلف والخلف والأئمة في المراد بالأقراء ما هو ... ؟ على قولين : « أحدهما » أنها الأطهار . وعن عائشة : ... إنما الأقراء الأطهار ، وعن ابن عمر انه كان يقول : اذا طلق الرجل امرأته فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرىء منها . وقال مالك : وهو الأمر عندنا وروي مثله عن ابن عباس وزيد بن ثابت وجماعة من التابعين وبقية الفقهاء السبعة وهو مذهب مالك والشافعي ، وداود وأبي ثور ورواية عن أحمد واستدلوا عليه بقوله تعالى : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ أي الأطهار . ولما كان الطهر الذي يطلّق فيه محتَسَباً ، دلّ على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها ، ولهذا قال هؤلاء : إن المعتدّة تنقضي عدتها وتبين من زوجها بالطعن في الحيضة الثالثة . (والقول الثاني) أن المراد بالأقراء ، الحيض ، فلا تنقضي العدة حتّى تطهر من الحيضة الثالثة . زاد الآخرون وتغتسل منها . فالقول ان الأقراء الحيض مروي عن أكابر الصحابة وفيهم الخلفاء الأربعة وكبار التابعين وهو مذهب أبي حنيفة وأصح الروايتين عن أحمد بن حنبل ، وهو مذهب الثوري والأوزاعي وابن أبي ليلى وغيرهم ويؤيد هذا ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي من طريق المنذر بن المغيرة عن عروة بن الزبير عن فاطمة بنت أبي حبيش ، أن رسول الله ﷺ قال لها : ٣٣٨ [دعي صلاتك أيام أقرائك] فهذا لو صحّ لكان صريحاً في أن القرء هو الحيض ولكن المنذر قال فيه أبو حاتم : مجهول ليس بمشهور وذكره ابن حبان في الثقات قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض ، ويراد به الطهر ، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين .

وقوله تعالى ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ﴾ أي من حبَل أو حيض وقوله تعالى : ﴿ إن كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر ﴾ تهديد لهن على مخالفة الحق ، ودل على أن هذا يرجع إليهن لأنه أمر لا يُعلَم إلا من جهتهن ، ويتعذر إقامة البيّنة غالباً على ذلك ، فرُد الأمر إليهن وتُوعِّدن فيه لئلا يُخبرن بغير الحق ،.

وقوله تعالى : ﴿ وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ﴾ أي وزوجها

---

(١) قلت : اذا ثبت حديث : (طلاق الأمة تطليقتان ، وعدتها حيضتان) سمعنا وأطعنا ... وإلا فالقول بأن الحرة والأمة في هذا الأمر سواء هو مطابق لعموم الآية ، وهو موافق للجبلة والفطرة .

الذي طلقها أحق بردّها ما دامت في عدّتها ، إذا كان مراده بردّها الإصلاحَ والخير ، وهذا في الرجعيات ؛ فأما المطلقات البوائن ، فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلّقةٌ بائن ، وإنما كان ذلك في الطلاق الثلاث ، فأما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مئة مرة ، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث تطليقات ، صار للناس مطلّقةٌ بائن وغير بائن . وقوله تعالى : ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ أي ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن فليؤدّ كلٌّ ما وجب عليه للآخر بالمعروف .

وثبت في صحيح مسلم عن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع : ٣٣٩ [... فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف]

وقوله تعالى : ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ أي في الفضيلة في الخلْق والمنزلة وطاعة الأمر والانفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ أي عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره حكيم في أمره وشرعه وقدره .

﴿ ٱلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ۝ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ ٱللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ (٢٣٠) ﴾

هذه الآية الكريمة رافعةٌ لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق

برجعة امرأته وإن طلقها مئة مرة ما دامت في العدة ، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهن الله إلى ثلاث طلقات ، وأباح الرجعة في المرة والثنتين ، وأبانها بالكلية بالثالثة . فقال تعالى : ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ قال أبو داود في (باب نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث) عن ابن عباس ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ﴾ الآية وذلك أن الرجل كان إذا طلّق أمرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثاً ، فنسخ ذلك فقال : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ الآية .

وهكذا فقد وُقّتَ الطلاق ثلاثاً لا رجعة فيه بعد الثالثة حتى تنكح زوجاً غيره . ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ أي إذا طلقها واحدة أو اثنتين فهو مخير ما دامت عدتها باقية بين أن تردها اليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها ، وبين ان تتركها حتى تنقضي عدتها فتبين منك وتطلق سراحها محسناً إليها ، لا تظلمها من حقها شيئاً ولا تضار بها . روى ابن أبي حاتم عن اسماعيل بن سميع ، قال سمعت أبا رزين يقول : ٣٤٠ [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أرأيت قول الله ، عز وجل ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ أين الثالثة ؟ قال : التسريح بإحسان] وفي رواية عبد بن حميد في تفسيره : ٣٤١ [... التسريح بإحسان الثالثة]

وقوله تعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ﴾ أي لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن ، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه كما قال تعالى : ﴿ ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشةٍ مبيّنة ﴾ فأمر إنْ وهبته المرأةُ شيئاً عن طيب نفسها فقد قال تعالى : ﴿ فإن طبن لكم عنْ شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ وأما إذا تشاقق الزوجان ، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل ، وأبغضته ، ولم تقدر على معاشرته ، فلها أن تفتدي منه بما أعطاها ولا حرج عليها في بذلها له ، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ الآية ... فأما إذا لم يكن لها عذر ، وسألت الافتداء منه ، فقد روى ابن جرير عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : ٣٤٢ [أيما امرأة سألت زوجها طلاقها في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة] وفي رواية أحمد عن أبي قلابه وذكر أبا أسماء وذكر ثوبان بنحوه . ورواه ابن جرير بزيادة : ٣٤٣ ﴿ المختلعات هن المنافقات ﴾ وقال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف : أنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب

المرأة فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله .﴾ قالوا فلم يشرع الخلع إلا في هذه الحالة فلا يجوز في غيرها إلا بدليل ، والأصل عدمه ، وممن ذهب إلى هذا ابن عباس وجماعة من التابعين والجمهور حتى قال مالك والأوزاعي : لو أخذ منها شيئاً وهو مضار لها ، وجب ردُّه إليها وكان الطلاق رجعياً ، قال مالك : وهو الأمر الذي أدركت الناس عليه .

وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق ، وعند الاتفاق بطريق الأولى والأحرى ، وهذا قول جميع أصحابه قاطبةً .

روى البخاري عن ابن عباس : ٣٤٤ [إن أمرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ما أعيب عليه في خلق ولادين ولكن أكره الكفر في الإسلام فقال رسول الله ﷺ : «أتردين إليه حديقته ؟» قالت : نعم . قال رسول الله ﷺ : «إقبل الحديقة وطلقها تطليقة »

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال بعد أن سأله عكرمة : هل كان للخلع أصل ؟ قال : ٣٤٥ [إن أول خلع كان في الإسلام في أخت عبدالله بن أبي ، إنها أتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبدا إني رفعت جانب الخبـاء فرأيته قد أقبل في عدة ، فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة ،وأقبحهم وجهاً ؛ فقال زوجها : يا رسول الله إني قد أعطيتها أفضل مالي حديقة لي فإن ردت عليَّ حديقتي ، قال : ما تقولين ؟ قالت : نعم وان شاء زدتُه قال : ففرق بينهما .]

وفي رواية الإمام أبي عبدالله بن بطة بسنده عن ابن عباس : ٣٤٦ [أن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ . فقالت والله ما أعتب على ثابت بن قيس في دين ولا خلق ولكنني اكره الكفر في الإسلام لا أطيقه بغضاً فقال لها النبي ﷺ:تردّين عليه حديقته؟ قالت :نعم فأمره النبي ﷺ «ان يأخذ ما ساق ولا يزداد»]

• • •

ذهب الجمهور إلى جواز مفاداة الزوج زوجته بأكثر مما أعطاها ذلك لعموم قولـه تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ ولقول عمر بن الخطاب لزوج الزوجة الناشزة اخلعها ولو من قرطها . وفي رواية : خذ ولو عقاصها ، وقال البخاري : واجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها . ومعنى هذا أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير

ولا يترك لها سوى عقاص شعرها وبه يقول ابن عمر وابن عباس وجمع من التابعين وهذا مذهب مالك والليث والشافعي وأبي ثور واختاره ابن جرير .

وقال أصحاب أبي حنيفة : إن كان الإضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاها ولا يجوز الزيادة عليه ، فإن ازداد جاز في القضاء ، وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئاً فإن أخذ جاز بالقضاء . وقال أحمد وابو عبيد واسحق بن راهويه : لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها وهذا قول سعيد بن المسيب وغيره من كبار التابعين . وقال معمر والحكم : كان علي يقول : لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها . وقال الأوزاعي : القضاة لا يجيزون ان يأخذ منها أكثر مما ساق اليها . (قلت) : ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية قتادة عن عكرمة عن ابن عباس في قصة ثابت بن قيس ، فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها الحديقة ولا يزداد . وبما روى عبد بن حميد حيث قال بسنده إلى عطاء : أن النبي ﷺ كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها ، يعني المختلعة ، وحملوا معنى الآية على معنى ﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أي من الذي أعطاه لتقدم قوله : ﴿ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله فإن خفتم ألاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أي من ذلك ، وهكذا كان يقرأها الربيع بن أنس : ﴿فلا جناح عليهما فيما أفتدت به ﴾ رواه ابن جرير ، ولهذا قال بعده : ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ .

فصل : ذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن الخلع ليس بطلاقٍ وانما هو فسخ فقد قال الشافعي بسنده إلى ابن عباس في رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه بعدُ ، يتزوجها إن شاء لأن الله تعالى يقول ﴿الطلاق مرتان ــ قرأ إلى ــ ان يتراجعا﴾ وروى الشافعي عن عكرمة قال : كل شيء أجازه المال فليس بطلاق . وهو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان وابن عمر وهو قول طاوس وابن عمر واحمد بن حنبل واسحق ابن راهوية وابو ثور وداود الظاهري وهو مذهب الشافعي القديم وهو ظاهر الآية .

وقال آخرون في الخلع أنه طلاق بائن إلاّ أن ينوي أكثر من ذلك فبحسب نيته واليه ذهب مالك وابو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي وأبو عثمان البتي والشافعي في الجديد غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالع بخلعه تطليقةً أو اثنتين أو أطلق ، فهو واحدة بائنة ، وإن نوى ثلاثاً فثلاث . وللشافعي قول آخر في الخلع ، وهو أنه متى لم يكن

بلفظ الطلاق وعُرّي عن البيّنة ، فليس هو بشيء بالكلية .(١)

مسألة : إختلف في عدة المختلعة هل هي كالمطلقة بثلاثة قروء إن كانت ممن تحيض أم أن عدتها حيضة واحدة فقد أيد القول الأول : عمر وعلي وابن عمر وجمع من التابعين ومأخذهم في هذا : أن الخلع طلاق فتعتد كسائر المطلقات ، وأيد آخرون القول الثاني وظل ابن عمر يفتي بقوله الأول حتى سمع عثمان بن عفان يفتي بالقول الثاني فأفتى به هو أيضاً وقال : عثمان خيرنا وأعلمنا وحدث عبدة عن عبيدالله عن نافع عن ابن عمر قال : (عدة المختلعة حيضة) وحدث ابن عباس قال : عدتها حيضة وبه يقول عكرمة وأبان بن عثمان وكل من تقدم ذكره ممن يقول أن الخلع فسخ يلزمه القول بهذا واحتجوا بما رواه أبو داود و الترمذي حيث قال كل منهما عن ابن عباس : ٣٤٧ [ان امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبي ﷺ فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة] ثم قال الترمذي حسن غريب وروى الترمذي عن الربيع بنت معوذ بن عفراء ٣٤٨ [أنها اختلعت على عهد رسول الله ﷺ فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة] قال الترمذي : الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة .

وروى ابن ماجة عن الربيّع بنت معوذ بن عفراء قالت لعبادة بن الوليد بن عبادة بن

---

(١) قلت : سئلت من أحد الإخوان ... (هل الخلع طلاق أم فسخ ؟)
فأجبت : الحمد لله والصلاة والسلام على مصطفاه أما بعد :
فان الجمهور على أن الخلع طلاق بائن لحديث : (... خذ الحديقة ، وطلقها تطليقة) وليس بفسخ .
وذهب بعض أهل العلم ، منهم : ابن عباس وعثمان بن عفان وابن عمر من الصحابة وأحمد بن حنبل و داود الظاهري وإسحق بن راهويه وطاوس والشافعي في القديم من الأئمة والفقهاء إلى أنه فسخ. لأن الله تعالى قال : الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان – إلى ان قال – فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره » ٢/٢٣٠/فلو كان الافتداء طلاقاً ، لكان الطلاق الذي لا تحل فيه إلا بعد الزواج ، هو الطلاق الرابع ... !!! ؟ ولم يشرع الله طلاقاً رابعاً ... !
قال ابن القيم : والذي يدل على أنه ليس بطلاق أنه سبحانه وتعالى رتب الطلاق بعد الدخول الذي لم يستوف عدده ثلاثة أحكام ، كلها منتفية عن الخلع :
١ – : إن الزوج أحق بالرجعة فيه
٢ – : انه محسوب من الثلاث فلا تحل بعد استيفاء العدد إلا بعد دخول زوج وإصابته .
٣ – : ان العدة فيه ثلاثة قروء
وقد ثبت بالنص والإجماع أنه لا رجعة في الخلع ، وثبت في السنة وأقوال الصحابة أن العدة فيه حيضة واحدة ، وثبت بالنص جوازه بعد طلقتين ووقوع ثالثة بعدها وهذا ظاهر جداً في كونه ليس بطلاق .
ويقول ابن القيم : يعد الخلع فسخاً بأي لفظ حتى بلفظ الطلاق
فاذا أمعنت النظر فيما تقدم يتبين لك جلياً ان الخلع ليس طلاقاً بل هو فسخ والحمد لله رب العالمين .

الصامت لما سألها قائلاً : حدثيني حديثكِ ، قالت : اختلعت من زوجي ثم جئت عثمان فسألت عثمان : ماذا عليَّ من العدة ؟ قال : ٣٤٩ [لا عدة عليكِ إلا أن يكون حديثَ عهد بكِ ، فتمكثين عنده حتى تحيضي حيضةً ؛ قالت: وإنما اتَّبَعَ في ذلك قضاءَ رسول الله ﷺ في مريم المغالية وكانت تحت ثابت بن قيس فاختلعت منه] [1]

مسألة : وليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء،لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء . قال سفيان الثوري : إن كان الخلع بغير لفظ الطلاقَ فهو فرقة ولا سبيل له عليها ، وإن كان يسمى طلاقاً فهو أملك لرجعتها ما دامت في العدة .وبه يقول داود بن علي الظاهري [2] واتفق الجميع على أن للمختلع أن يتزوجها في العدة .

مسألة : واختلف في : هل له أن يوقع عليها طلاقاً آخر في العدة ، فيه ثلاثة أقوال والأصح منها : ليس له ذلك لأنها قد ملكت نفسها وبانت منه .

وقوله تعالى : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون . ﴾ أي هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها . كما ثبت في الحديث الصحيح ٣٥٠ [إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها ، وفرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم محارم فلا تنتهكوها،وسكت عن أشياء رحمةً بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها]

وقوله تعالى : ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ أي أنه إذا طلق الرجل امرأته طلقةً ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين ، فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، أي حتى يطأها زوج آخر في نكاحٍ صحيح ، فلو وطئها واطىء في غير نكاح ولو في ملك اليمين ، لم تحل للأول ، لأنه ليس بزوج ؛ وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول ؛ واشتهر بين الفقهاء عن سعيد بن المسيب رحمه الله انه

---

(١) قلت : ان الدليل واضح مع الذين يقولون : عدة المختلعة حيضة واحدة ، وهذا ما يؤيد من قال أن الخلع ليس بطلاق ، ولو كان طلاقاً لكانت عدتها ثلاثة قروء .
حتى ولو كان الخلع بلفظ الطلاق. لأن النية والواقع ، انه خلع وليس طلاقاً ولا عبرة للفظ مع وضوح النية

(٢) قلت : وقول سفيان الثوري هو الأصح والله أعلم يعني إذا أراد الرجعة لأن الخلع فرقة ولا سبيل له عليها إلا برضاها. أي بعقد جديد لأنه لا رجعة في الخلع ، وكأنه في الشطر الثاني من قوله يرد على من يقول أن الخلع طلاق من قولهم نفسه الوارد في أول هذه المسألة وهو : لا تُراجع المختلعة إلا برضاها في العدة . وكأن سفيان يقول : إن كنتم تعتقدون ان الخلع طلاق ، فالمطلق أملك للرجعة ما دامت في العدة .

يقول : يحصل المقصود من تحليلها للأول بمجرد العقد على الثاني ، وفي صحته عنه نظر . لأن سعيد بن المسيب يروى خلافه ، فقد روى أبو جعفر بن جرير رحمه الله بسنده عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبي ﷺ : ٣٥١ [في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة ، فيتزوجها زوج آخر فيطلقها قبل ان يدخل بها، أترجع إلى الأول؟ قال : «لا حتّى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها»] وروى الإمام أحمد بسنده إلى سالم بن عبد الله بن عمر عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ : ٣٥٢ [في الرجل تكون له المرأة فيطلقها ثم يتزوجها رجل فيطلقها قبل أن يدخل بها فترجع إلى زوجها الأول؟فقال رسول الله ﷺ : « حتّى تذوق العسيلة »] فبعيدٌ أن يخالف سعيد بن المسيب ما رواه بغير مستند والله أعلم .

روى ابن جرير عن عائشة ٣٥٣ : [أن رجلاً طلق أمرأته ثلاثاً ، فتزوجت زوجاً فطلقها قبل أن يمسها ، فسئل رسول الله ﷺ أتحل للأول ؟ فقال : « لا حتّى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأول »] أخرجه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن عبيدالله بن عمر العمري.

والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة ، قاصداً لدوام عشرتها ، كما هو المشروع من التزويج،وليس المراد بالعسيلة المني ... لما رواه الإمام أحمد والنسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ٣٥٤ [ألا إن العسيلة الجماع] فأما إذا كان الثاني قصده أن يُحِلَّها للأول ، فهذا هو المحلِّلُ الذي وردت الأحاديث بذمه ولعنه . ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عندجمهور الأئمة .

﴿ الأحاديث في المحلِّلِ والمحلَّلِ لهُ ﴾

١ — : عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : ٣٥٥ [لعن الله الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلِّل والمحلَّل له وآكل الربا ومؤكله]

٢ — : عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ٣٥٦ [«لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه ، والواشمة والمستوشمة للحسن ، ومانعَ الصدقة ، والمحلِّل والمحلَّل له » وكان ينهى عن النوح .] رواه الإمام أحمد

٣ ـ : عن جابر رضي الله عنه : ٣٥٧ [ان رسول الله ﷺ : لعن الله المحلّل والمحلّل له] ضعيف رواه الترمذي

٤ ـ : عن عقبة بن عامر : قال رسول الله ﷺ : ٣٥٨ [الا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال : هو المحلِل . لعن الله المحلِل والمحلّلَ له .] تفرد به ابن ماجه .

٥ ـ : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ٣٥٩ [لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له] ابن ماجه

٦ ـ : وروى أبو بكر بن أبي شيبة بسنده عن عمر بن الخطاب انه قال : لا أوتى بمحلّل ولا محلل له إلاّ رجمتهما . وعن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها ففرق بينهما وكذا روى عن علي وابن عباس وغير واحد من الصحابة رضي الله عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ فإن طلقها ﴾ أي الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا ﴾ أي المرأة والزوج الأول ﴿ إن ظنا أن يقيما حدود الله ﴾ أي يتعاشرا بالمعروف قال مجاهد : إن ظنا أن نكاحهما على غير دلسة ﴿ وتلك حدود الله ﴾ أي شرائعه وأحكامه ﴿ يبيّنها ﴾ أي يوضحها ﴿ لقوم يعقلون ﴾

وقد أختلف الأئمة رحمهم الله في أن المرأة إذا تزوجت ثانيةً بعد طلقة أو طلقتين وانقضاء عدتها من زوجها الأول ، ثم طلقها الثاني ، وانقضت عدتها وتزوجها الأول ، هل تعود إليه بما بقي من الثلاث كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد ، أو يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق ، فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموعها أي الثلاث كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله . وحجتهم : أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث ، فلأن يهدم ما دونها من باب أولى . والله أعلم .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَاتِ ٱللَّهِ هُزُواً وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * (٢٣١) ﴾

أمر الله الرجال بالإحسان إذا طلق أحدهم امرأته طلاقاً له عليها فيه رجعة ، إذا انقضت عدتها ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها ، فإما أن يمسكها أي يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف ، وهو أن يُشهد على رجعتها ، وينوي عشرتها بالمعروف ؛ أو يسرحها أي يتركها حتى تنقضي عدتها ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن ؛ قال الله تعالى : ﴿ ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ﴾ قال ابن عباس وجماعة من التابعين : إذا قارب انقضاء عده المرأة راجعها زوجها ضراراً لئلا تذهب إلى غيره ثم يطلقها فتعتد وهكذا ... لتطول عليها عدتها . فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال : ﴿ ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾ أي بمخالفته أمر الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزواً ﴾ وعن عبادة بن الصامت في قوله تعالى : ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزواً ﴾ قال كان الرجل على عهد النبي ﷺ يقول للرجل : زوجتك ابنتي ثم يقول كنت لاعباً ، ويقول قد اعتقت ويقول : كنت لاعباً فأنزل الله ﴿ ولاتتخذوا آيات الله هزواً ﴾ فقال رسول الله ﷺ : ٣٦٠ [ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب فهن جائزات عليه : الطلاق والعتاق والنكاح .]

وقوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ﴾ في إرسال رسوله بالهدى إليكم ﴿ وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة ﴾ أي السنة ﴿ يعظكم به ﴾ أي يأمركم وينهاكم ﴿ واتقوا الله ﴾ أي فيما تأتون وفيما تذرون ﴿ واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية وسيجازيكم على ذلك .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * (٢٣٢) ﴾

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين ، فتنقضي عدتها ، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها ، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها وكذا قال جماعة من التابعين . وفيها

دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها وانه لا بد من ولي . كما في الأثر ٣٦١ [لانكاح إلا بولي مرشد وشاهدي عدل .] وفي هذه المسألة نزاع بين العلماء وقد قررنا ذلك في كتاب الأحكام ، ولله الحمد والمنة .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وصححه واللفظ له عن معقل بن يسار ٣٦٢ [إنه زوّج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها ، فهويها وهويته ، ثم خطبها مع الخُطّاب ، فقال له : يالكع بن لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ، والله لا ترجع إليك أبداً آخر ما عليك ، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فانزل الله : ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ... إلى قوله ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ فلما سمعها معقل قال : سمع لربي وطاعة ثم دعاه فقال : أزوجك وأكرمك — زاد بن مردويه — وكفّرت عن يميني]

وقوله تعالى : ﴿ ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ أي عليكم أن لا تمنعوا الولايا أن يتزوجن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف إن كنتم تؤمنون بالله وبشرعه وتخافون عذاب اليوم الآخر ﴿ ذلكم أزكى لكم وأطهر ﴾ أي اتباعكم شرع الله في رد الموليات إلى أزواجهن وترك الحمية في ذلك أزكى لكم وأطهر لقلوبكم ﴿ والله يعلم ﴾ أي الخيرة فيما تأتون وما تذرون ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ذلك .

نصف الحزب

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

يرشد الله تعالى الوالدات أن يرضعن اولادهن كمال الرضاعة ، وهي سنتان فلا

اعتبار بالرضاعة بعد ذلك ، ولهذا قال ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يُحرّم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما، لم يحرم . روى الترمذي : (باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلاّ في الصغر دون الحولين) عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : ٣٦٣ [لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام] هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم : أن الرضاعة لا تحرّم إلا ما كان دون الحولين ، وما كان بعد الحولين الكاملين، فإنه لا يحرّم شيئاً.(قلت) : تفرد الترمذي برواية هذا الحديث ورجاله على شرط الصحيحين. ومعنى قوله : إلا ما كان في الثدي، أي في محال الرضاعة قبل الحولين ، كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن البراء بن عازب قال : لما مات إبراهيم بنُ النبي ﷺ قال : ٣٦٤ [إن ابني مات في الثدي ، إن له مرضعاً في الجنة] وهكذا اخرجه البخاري من حديث شعبه . يعني أن ابنه إبراهيم عليه السلام مات وله سنة وعشرة أشهر فقال : (إن له مرضعاً) ، يعني تكمل رضاعته . وروى الدار قطني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٦٥ [لا يحرّم من الرضاع الا ما كان في الحولين] (قلت) ورواه مالك في الموطأ عن ابن عباس مرفوعاً ورواه الدراوردي عن ابن عباس وزاد ٣٦٦ [وما كان بعد الحولين فليس بشيء] وهذا أصح . وروى أبو داود الطيالسي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٦٧ [لارضاع بعد فصال ولا يتم بعد احتلام] وتمام الدلالة من هذا الحديث في قوله تعالى ﴿وفصاله في عامين أن اشكر لي﴾ وقال : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ والقول بأن الرضاعة لا تحرّم بعد الحولين يروى عن علي وابن عباس وابن مسعود وجابر وابي هريرة وابن عمر وأم سلمة وسعيد بن المسيب وعطاء والجمهور ؛ وهو مذهب الشافعي وأحمد واسحق والثوري وأبي يوسف ومحمد ومالك في رواية . قال مالك ولو فطم الصبي دون الحولين ، فأرضعته امرأة بعد فصاله ، لم يحرّم لأنه قد صار بمنزلة الطعام . وهو رواية عن الأوزاعي . وقد روي عن عمر وعلي أنهما قالا : (لا رضاع بعد فصال) فيحتمل أنهما ارادا الحولين ، كقول الجمهور : سواء فطم أو لم يفطم ، ويحتمل أنهما أرادا الفعل كقول مالك والله أعلم .

وأما قول عائشة رضي الله عنها برضاع الكبير، وأنه يؤثر في التحريم، وتحتج بحديث سالم مولى أبي حذيفة حيث ٣٦٨ [أمر النبي ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وكان كبيراً فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة .] وأبى ذلك سائر ازواج النبي ﷺ، ورأين ذلك من الخصائص. وهو قول الجمهور. وحجة الجمهور وهم الأئمة الأربعة ، والفقهاء السبعة ،

والأكابر من الصحابة وسائر أزواج رسول الله ﷺ سوى عائشة ، ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : ٣٦٩ [انظرن مَنْ إخوانكن فإنما الرضاعة من المجاعة] وسيأتي الكلام على مسائل الرضاع وفيما يتعلق برضاع الكبير (١) ، عند قوله تعالى ﴿ وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ أي وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف ، أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار بحسب قدرته ويساره ، وتوسطه وإقتاره ، كما قال تعالى : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدّر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا ﴾ قال الضحاك : إذا طلق زوجته وله منها ولد فأرضعت له ولده ، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف .

وقوله تعالى : ﴿ لا تضارَّ والدة بولدها ﴾ أي بدفعه عنها لتضر أباه بتربيته ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللباء الذي لا يعيش بدونه غالباً ، ثم لها دفعه عنها إذا شاءت على أن لا تكون مضارةً لأبيه . كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار بها ، ولهذا قال : ﴿ ولا مولود له بولده ﴾ أي بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضراراً بها . قاله جماعة من التابعين وغيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ أي:عليه مثل ما على والد الطفل من الأنفاق على والدة الطفل،والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها ، وهو قول الجمهور . وقد استدل بذلك من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ؛ وهو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف ، ويرجّح ذلك بحديث سمرة مرفوعاً : ٣٧٠ [من ملك ذا رحم محرم ، عتق عليه] وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما في بدنه أو في عقله وعن علقمة : أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين فقال : لا ترضعيه .

وقوله تعالى : ﴿ فإن أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح عليهما ﴾ أي اذا أجمعا على فطامه قبل الحولين،ورأيا في ذلك مصلحةً له فلا جناح عليهما في ذلك ، ولا ينبغي انفراد أحدهما بذلك دون الآخر أو يستبد من غير مشاورة الآخر . وهذا فيه احتياط للطفل،وإلزام للنظر في أمره،وهو من رحمة الله بعباده حيث نبه الوالدين وأرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه .كما قال في سورة الطلاق : ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾

(١) سورة النساء،الآية رقم /٢٣/ .

وقوله تعالى : ﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ﴾ إذا اتفقا على استلام الوالد ولده لعذر، فلا جناح عليهما في بذله إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن ، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف. ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أحوالكم ﴿ واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * (٢٣٤) ﴾

هذا أمر من الله تعالى للنساء اللاتي يُتَوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعةَ أشهر وعشرَ ليال ، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهنّ بالإجماع. ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة والحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي : ٣٧١ [إن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها ، فترددوا إليه مراراً في ذلك ؛ فقال أقول فيها برأيي ، فان يك صواباً فمن الله ، وان يك خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئآن منه : لها الصداق كاملاً ، وفي لفظ : لها صداق مثلها لا وكس ولا شطط وعليها العدة . ولها الميراث ؛ فقام معقل بن يسار الأشجعي فقال : سمعت رسول الله ﷺ ، قضى به في بروع بنت واشق ففرح عبدالله بذلك فرحاً شديداً .] وفي رواية : ٣٧٢ (فقام رجال من اشجع فقالوا : نشهد أن رسول الله ﷺ ، قضى به في بروع بنت واشق) ولا يخرج من ذلك الا المتوفي عنها زوجها وهي حامل فإن عدتها بوضع الحمل ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ ولما ثبت في السنّة في حديث سبيعة الأسلمية المخرّج في الصحيحين من غير وجه : ٣٧٣ [أنها توفي عنها زوجها سعد بن خولة وهي حامل ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته — وفي رواية — فوضعت حملها بعده بليال ، فلما تعلّت من نفاسها، تجمّلت للخُطّاب، فدخل عليها أبو السنابل ابن بعكك فقال لها : مالي أراكِ متجمّلةً ، لعلك ترجين النكاح ؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك اربعةُ أشهر وعشرٌ . قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك ، جمعت عليّ ثيابي حين

أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزويج إن بدا لي .]

واستثنيتْ من ذلك الزوجة إذا كانت أمةً فان عدتها على النصف من عدة الحرة : شهران وخمس ليال على قول الجمهور ، لأنها لما كانت على النصف من الحرة في الحد فكذلك فلتكن على النصف منها في العدة [1] ومن العلماء كمحمد بن سيرين وبعض الظاهرية من يسوي بين الزوجات الحرائر والإماء في هذا المقام لعموم الآية . ولأن العدة من باب الأمور الجبلّيَّة التي تستوي فيها الخليقة .

وذكر سعيد بن المسيب وغيره أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً لاحتمال اشتمال الرحم على حمل ، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر أن كان موجوداً ، كما جاء في حديث ابن مسعود في الصحيحين وغيرهما : ٣٧٤ [إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح] فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر والعشر أيام بعدها لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه ، ولذا ذهب الإمام أحمد إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ههنا لأنها صارت فراشاً كالحرائر (*) وروى الإمام أحمد عن عمر بن العاص أنه قال : ٣٧٥ [لا تلبّسوا علينا سنّة نبينا ، عدة أم الولد اذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشر] ورواه أبو داود ، وابن ماجه .

وقوله تعالى : ﴿ فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفّى عنها زوجها مدة عدّتها ، ولما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمّيْ

(*) قلت : حال الحرة كالأمة لا يختلفان فيما يتعلق بالعدة أبداً إن كانت الأمة زوجة عبد أو كانت أم ولد فعدتهما كالحرة سواء بسواء لأن خلقهما واحد فهل العبودية تغير الخلق ... ؟

(١) قلت: لا يلزم اذا كان الحد يتام نصفاً على الأمة ان تكون العدة كذلك نصفاً... لأن حال الحرة غير حال الأمة، ولكن ليس رحم الحرة غير رحم الأمة، وان الملك لما يؤمر بنفخ الروح في جنين الحرة تكون مدة وجوده عند الحرة والأمة سواء. وان مراحل نموه من نطفة إلى علقة إلى مضغة ايضاً، واحدة عند الحرة والأمة. ومراد الشارع تحديد نسبة الولد لمن ... ؟ فمادام مراحل نموه لا تختلف في الخليقة البشرية فلا لزوم لتفريق عدة الحرة عن عدة الأمة واذا كان الله تعالى لم يفرق في ذلك بل أطلق وكذلك رسوله صلى الله عليه وسلم لم يخبرنا بان عدة الأمة. على النصف من عدة الحرة فالى أي مستند استند المفرقون بين العدتين؟ أما قياس العدة على الحد فهذا قياس مع الفارق كما لا يخفى ...

المؤمنين أن رسول الله ﷺ، قال: ٣٧٦ [لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلاّ على زوج أربعة اشهر [1] وعشراً] وفي الصحيحين أيضاً عن أم سلمة: ٣٧٧ [أن أمرأة قالت: يا رسول الله، إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها؟ فقال: لا. كل ذلك يقول ـ لا ـ مرتين أو ثلاثا، ثم قال: « إنما هي أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن في الجاهلية تمكث سنة. »]

والغرض من الإحداد ترك الزينة من الطيب ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي وغير ذلك. وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً، ولا يجب في عدة الرجعية قولاً واحداً. وفي وجوبه على عدة البائن قولان، ويجب على جميع الزوجات الإحداد وسواء في ذلك الصغيرة والآيسة والحرة والأمة والمسلمة والكافرة لعموم الآية. واستثنى الثوري وأبو حنيفة الكافرةَ لكفرها، والصغيرة لعدم التكليف.

وقوله تعالى: ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ أي انقضت عدتهن ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أي على أوليائها ﴿ فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف ﴾ أي تتزين وتتصنع، وتتعرض للتزويج، فذلك المعروف. قاله ابن عباس.

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَابُ أَجَلَهُ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ * (٢٣٥) ﴾

يقول تعالى ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح وعن ابن عباس: التعريض: ان يقول: إني أريد التزويج واني أحب أمرأة ومن امرها ... ـ يعرض لها بالقول بالمعروف ـ. ولا ينتصب لها ما دامت في عدتها وهكذا حكم المطلقة المبتوتة، يجوز التعريض لها. كما قال النبي ﷺ لفاطمة

---

(١) قلت: وليس للحداد لباس معين فتلبس ثيابها العادية متجنبة الزينة في كل شي. أما اعتقاد لزوم لبس السواد دون غيره للحادة فحرام.

بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات فأمرها ان تعتد في بيت ابن أم كلثوم ، وقال لها ٣٧٨ : [فإذا حللت فآذنيني ، فلما حلّت ، خطب عليها أسامة بن زيد مولاه فزوجها إياه] فأما المطلقة (١) فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها والله أعلم .

وقوله ـ ﴿ أو أكننتم في أنفسكم ﴾ أي أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ ولهذا قال ﴿ علم الله أنكم ستذكرونهن ﴾ في أنفسكم فرفع الحرج عنكم في ذلك ، ثم قال : ﴿ ولكن لا تواعدوهن سراً ﴾ قال ابن عباس : أي لا تقل لها : إني عاشق وعاهديني أن لا تتزوجي غيري.ونحو هذا في عدتّها فنهى الله عن ذلك . وقوله تعالى : ﴿ إلاّ أن تقولوا قولاً معروفاً ﴾ يعني من إباحة التعريض أو يقول لوليّها : لا تسبقني بها، يعني : لا تزوجها حتى تعلمني. رواه ابن أبي حاتم .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ﴾ يعني ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضي العدة . وقد أجمع العلماء على أنه لايصح العقد في مدة العدة . واختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدتّها، فدخل بها فانه يفرّق بينهما . وهل تحرم عليه أبداً؟ على قولين : الجمهور على أنها لا تحرم عليه بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتّها .

وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه مؤبداً بناءً على قول لعمر بن الخطاب ... ولكن ثبت أن هناك انقطاعاً فيما بين من نقل القول وبين عمر . ثم روى الثوري أن عمر رجع عن ذلك وجعل لها مهرها وجعلهما يجتمعان .

وقوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ توعدهم على ما يقع في ضمائرهم بشأن النساء وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر ثم لم يؤيسهم من رحمته فقال : ﴿ واعلموا أنّ الله غفور حليم ﴾ .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ * (٢٣٦) ﴾

(١) قلت : يعني طلاقاً رجعياً فزوجها أحق برجعتها

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها ، وقبل الدخول بها . قال ابن عباس وغيره : المس النكاح ، بل ويجوز أن يطلقها ويحق لها المهر إن كانت قد تزوجت بلا مهر ولهذا أمر الله تعالى بإمتاعها وهو تعويضها عمّا فاتها ، بشيء تُعطاه من زوجها بحسب حاله ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . قال ابن عباس أعلا متعة الطلاق الخادم ،ودون ذلك شيء من المال ، ودون ذلك الكسوة .

وقد اختلف العلماء : هل تجب المتعة لكل مطلقة ، أو انما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها مهر . على أقوال : فمن العلماء من استحبها لكل مطلقة ، ومن قال: للمطلقة قبل الدخول بها وإن كان لها مهر معلوم والقول الثالث وهو الراجح والله أعلم : ان المتعة انما تجب للمطلقة اذا لم يُدخَلْ بها ولم يُفرضْ لها مهر،فإن دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا لم يكن لها مهر ، وإن كان قد فُرض لها مهر،وطلقها قبل الدخول وجب عليه نصف المهر المسمى ، فإن دخل بها استقر الجميع ، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة ؛ وإنما المصابة التي لم يفرض لها ولم يدخل بها . فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها﴿ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ . وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) ﴾

وهذه الآية الكريمة مما يدُل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى ، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول،فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لَبيّنها لا سيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية ، والله أعلم . ومما هو مجمع عليه أنه متى كان قد سَمّى لها صداقاً ثم فارقها قبل دخوله بها فإنه يجب لها نصف ما سَمّى من الصداق . إلا أنه عند الثلاثة يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج وإن لم يدخل بها. وبه حَكَم الخلفاء الراشدون لكن قال الشافعي بسنده عن ابن عباس انه قال في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسها ثم يطلقها : ليس لها إلا نصف الصداق لأن الله يقول : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن

فريضة فنصف ما فرضتم ﴾ قال الشافعي : بهذا أقول وهو ظاهر الكتاب.

وقوله : ﴿ إلا أن يعفون ﴾ أي النساء ، عما وجب لها على زوجها ، فلا يجب لها عليه شيء وقوله : ﴿ أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح ﴾ روى ابن أبي حاتم : ذكر عن ابن لهيعة حدثني عمر بن شعيب ، عن ابيه عن جده ، عن النبي ﷺ قال ٣٧٩ : [ولي عقدة النكاح الزوج] وقال ابن أبي حاتم : عن عيسى بن عاصم ، قال : سمعت شريحاً يقول : سألني علي بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح فقلت له: هو ولي الأمر فقال علي: لا ، بل هو الزوج. وبهذا يقول ابن عباس وجبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وجمع من التابعين. وقيل أن ولي عقدة النكاح أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلا بإذنه، ورجح بعض من قال هذا القول، إلى أنه الزوج. وقوله تعالى : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ أي أقربهما للتقوى من الرجال والنساء الذي يعفو . قال مجاهد وغيره : الفضل – ها هنا – أن تعفو المرأة عن شطرها أو إتمام الرجل الصداق لها ، ولهذا قال : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ أي الإحسان فلا تهملوه واستعملوه بينكم . روى أبو بكر بن مردويه بسنده عن علي بن أبي طالب ، ان رسول الله ﷺ قال : ٣٨٠ [ليأتين على الناس زمان عضوض ، يعض المؤمن على ما في يديه وينسى الفضل] وقد قال الله تعالى : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ « شرار يبايعون كل مضطر » وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطر وعن بيع الغرر ، فإن كان عندك خير فعُدْ به على أخيك ولا تزده هلاكاً إلى هلاكه فإن المسلم أخو المسلم لا يحزنه ولا يحرمه .] وقوله تعالى : ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أموركم واحوالكم وسيجزي كل عامل بعمله .

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۝ (٢٣٨)
فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم
مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝ (٢٣٩)

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : ٣٨١ [سألت رسول الله ﷺ ، أي العمل أفضل ؟ قال : الصلاة في وقتها قلت ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله قلت ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » قال حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني .]

وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى ، وقد اختلف السلف والخلف فيها أيُّ الصلاة هي ؟ وقيل ، وقيل ... إنما المدار ومعترك النزاع في الصبح والعصر . وقد ثبتت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها . والدليل على ذلك : روى الإمام أحمد بسنده عن علي قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ٣٨٢ [شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً . ثم صلاها بين العشاء ين المغرب والعشاء] وكذا رواه مسلم من حديث أبي معاوية محمد بن حازم الضرير • ورواه مسلم أيضاً من طريق شعبة ، عن علي بن أبي طالب • وأخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وغير واحد من أصحاب المسانيد والسنن والصحاح،من طرق يطول ذكرها عن عبيدة السلماني عن علي به .

روى الإمام أحمد عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : ٣٨٣ [﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ وسماها لنا أنها هي صلاة العصر] وقال ابن جرير بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٨٤ [الصلاة الوسطى صلاة العصر]

وقوله تعالى : ﴿وقوموا لله قانتين﴾ أي خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه ، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها . ولهذا امتنع رسول الله ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه وهو في الصلاة ، اعتذر اليه بذلك وقال : ٣٨٥ [إن في الصلاة لشغلاً] . وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة ٣٨٦ [إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس انما هي التسبيح والتكبير وذكرُ الله] وروى الإمام أحمد بن حنبل عن زيد بن أرقم ، قال : ٣٨٧ [كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة حتى نزلت هذه الآية ﴿وقوموا لله قانتين﴾ فأمرنا بالسكوت] رواه الجماعة سوى ابن ماجه .

روى الحافظ أبو يعلى بسنده عن ابن مسعود ، قال : ٣٨٨ [كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة ، فمررت برسول الله ﷺ فسلمت عليه فلم يرد علي ، فوقع في نفسي أنه نزل في شيء فلما قضى النبي ﷺ صلاته قال « وعليك السلام أيها المسلِّم ورحمة الله، ان الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء، فاذا كنتم في الصلاة فاقنتوا[٢] ولا تكلموا »][٣]

---

(١) وهكذا ثبت بالأدلة الصحيحة من السنة المطهرة أن صلاة العصر هي الصلاة الوسطى فلا عبرة للاقوال الضعيفة التي يرويها المخالفون لأن العبرة فيما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم .

(٢) قلت : اقنتوا : أي اخشعوا وتذللوا واستكينوا بين يديه كما جاء آنفاً في التفسير

(٣) ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا سُلِّم عليه في الصلاة كان يرد إشارةً.فقد رُوي عن ابن عمر قال : ٣٨٩ (قلت لبلال: كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله يرد عليهم – حين كانوا يسلمون عليه وهو =

وقوله تعالى : ﴿ فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها وشدد الأمر بتأكيدها ، ذكر الحال الذي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل،وهي حال القتال والتحام الحرب فقال : ﴿ فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً ﴾ أي فصلوا على أي حال كان،رجالاً أو ركباناً ، يعني مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ، كما قال مالك عن نافع : ٣٩٠ [ان ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ، ثم قال : فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً على أقدامهم أو ركباناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها ، قال نافع : لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن رسول الله ﷺ] ورواه البخاري وهذا لفظ مسلم : ٣٩١ [وفي حديث عبدالله بن أنيس الجهني لما بعثه النبي ﷺ إلى خالد بن سفيان ليقتله ، وكان نحو عرفة أو عرفات فلما واجهه حانت صلاة العصر ، قال : فخشيت أن تفوتني فجعلت أصلي وأنا أومىء إيماء] الحديث بطوله،رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد وهذا من رخص الله تعالى التي رخص لعباده ووضعه الأصار والأغلال عنهم . وعن ابن عباس قال في هذه الآية : يصلي الراكب على دابته والرجل على رجليه.وقد ذهب الإمام أحمد فيما نص عليه : إلى أن الصلاة في الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعةً إذا تلاحم الجيشان.وعن ابن عباس قال : ٣٩٢ [فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً ، وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة] وسئل الحكم وحماد وقتادة عن صلاة المسايفة فقالوا : ركعة .

وقوله تعالى : ﴿ فإذا أمنتم فاذكروا الله ﴾ أي أقيموا صلاتكم كما أمركم فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها ﴿ كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ أي مثل ما أنعم عليكم وهداكم للإيمان وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة فقابلوه بالشكر والذكر .

= في الصلاة قال يشير بيده.) رواه الخمسة. ورواه البيهقي عن نافع قال سمعت ابن عمر يقول : ٣٩٣ (خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى مسجد قباء يصلي فيه ، قال : فجاءته الأنصار فسلموا عليه وهو يصلي قال : فقلت لبلال : ...) الحديث . وكذلك هو عند أبي داود – ٣٩٤ (وفيه يقول هكذا – وبسط كفه وبسط جعفر بن عون كفه . وجعل بطنه أسفل ، وجعل ظهره إلى فوق .)

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ * (٢٤١) كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * (٢٤٢) ﴾

* قال الأكثرون : هذه الآية منسوخة بالّتي قبلها ، وهي : قوله تعالى : ﴿ يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ فقد روى البخاري عن ابن الزبير قال : قلت : لعثمان بن عفان ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً ... ﴾ نسختها الآية الأُخرى ، فلم تكتبها ـ أو تدعها ـ قال : « يا ابن أخي : لا أغيّر شيئاً منه من مكانه » ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان : إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة أشهر ، فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها ، وبقاء رسمها بعد الّتي نسختها يوهم بقاء حكمها ؟ فأجابه أمير المؤمنين : بأن هذا أمر توقيفي وأنا وجدتّها مثبتةً في المصحف كذلك بعدها فأثبتها حيث وجدتّها .

* وروي من طريق على بن أبي طلحة عن ابن عباس ، قال : كان الرجل إذا مات وترك امرأته إعتدّت سنة في بيته يُنفَق عليها من ماله ، ثم أنزل الله بعدُ : ﴿ والذين يتوفّونّ منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾ فهذه عدة المتوفىً عنها زوجها ، إلا أن تكون حاملاً ، فعدّتها أن تضع ما في بطنها ، وقال : ﴿ ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم ﴾ فبيّن ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة .

وقد استدل جماعة من هذه الآية على وجوب مكوثها سنة معتدةً . وقال آخرون منهم مجاهد وعطاء : إن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة ، وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات ان يُمكّنّ من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً إن اخترن ذلك ، ولهذا قال : ﴿ وصية لأزواجهم ﴾ أي يوصيكم الله بهن وصيةً ولا يُمنعن من ذلك لقوله : ﴿ غير إخراج ﴾ فأما إذا انقضت عدتّهن بالأربعة أشهر والعشر

أو بوضع الحمل ، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل ، فانهن لا يمنعن من ذلك لقوله تعالى : ﴿ فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف ﴾ . وهذا القول له اتجاه ، وفي اللفظ مساعدة له وقد اختاره جماعة ، منهم الإمام أبو العباس بن تيمية ، ورده آخرون منهم الشيخ أبو عمر بن عبد البر وقول عطاءو من تابعه ، على أن ذلك منسوخ بآية الميراث ، إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلَّم . وإن أرادوا إن سكنى الأربعة أشهر وعشر ، لا تجب في تركة الميت ، فهذا محل خلاف بين الأئمة . وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج ، بما رواه مالك في موطئه : ٣٩٥ [إن الفريعة بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة ، فإن زوجها خرج في طلب أعبد لــه أبقُوا حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه قالت : فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة ، فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة . قالت : فقــال رسول الله ﷺ : «نعم» قالت : فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمر بي فنوديت له فقال : «كيف قلتِ» ؟ فردَّدت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي ؛ فقال : «أمكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» فقالت : فاعتَددْتُ فيه أربعة أشهر وعشرا ، قالت : فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي فسألني عن ذلك فأخبرته فاتّبعه وقضى به .] وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث مالك به ورواه النسائي أيضاً وابن ماجة عن سعد بن اسحق به وقال الترمذي حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ وفي هذه استدل العلماء الموجبون المتعة لكل مطلّقة ومن قال إنها مخصصة بالآية ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾ (١) . وقوله تعالى ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ﴾ أي في إحلاله وتحريمه وفروضه وحدوده فيما أمركم به ونهاكم عنه ، بينه ووضحه وفسره ، ولم يتركه مجملاً في وقت احتياجكم إليه ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي تفهمونه وتتدبرونه .

(١) راجع تفسير هذه الآية وهي برقم ٢٣٦ البقرة



﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * (٢٤٤) مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * (٢٤٥) ﴾

عن ابن عباس قال : كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون . قالوا نأتي أرضاً ليس بها موت ، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم ﴿ موتوا ﴾ فماتوا ، فمر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم فذلك قوله عز وجل ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ﴾ الآية وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة ولهذا قال : ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ أي فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أي لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم . وفي هذه القصة عبرة ودليل : على أنه لا يغني حذر من قدر وأنه لا ملجأ منه إلا إليه . فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء ، طلباً لطول الحياة فعوملوا بنقيض قصدهم ، وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد .

ومن هذا القبيل ، الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد عن عبدالله بن عباس :
٣٩٦ [ان عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ ، لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، فذكر الحديث ، فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً لبعض حاجته فقال : إن عندي من هذا علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » فحمد الله عمر ثم انصرف] وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به .

وقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴾ أي كما أن الحذر

لا يغني من القدر ، كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه ، لا يقرب أجلاً ولا يبعده ، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقنن لا يزاد فيه ولا ينقص منه ، كما قال تعالى : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ وقال تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾

وقوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة ﴾ يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيل الله وقد روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ... قال أبو الدحداح الأنصاري : ٣٩٧ [يا رسول الله وان الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ قال : « نعم يا أبا الدحداح » قال : أرني يدك يا رسول الله قال فناوله يده ؛ قال : فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي ؛ قال : وحائط له فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها . قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح قالت: لبيك ، قال : أخرجي ، قد أقرضته ربي عز وجل] وقوله تعالى : ﴿ قرضاً حسناً ﴾ روى عن عمر وغيره من السلف : هو النفقة في سبيل الله . وقوله تعالى : ﴿ فيضاعفه له اضعافاً كثيرة ﴾ كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ﴾ الآية ... وسيأتي الكلام عليها . ومن بعض حديث رواه ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة قال : والذي نفسي بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٣٩٨ [ان الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة] وقوله تعالى : ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ أي أنفقوا ولا تبالوا فالله هو الرزاق يضيق على من يشاء ويوسع على آخرين له الحكمة البالغة ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ؟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝ (٢٤٦) ﴾

كان بنو إسرائيل على طريق الاستقامة مدة من الزمان ، ثم أحدثوا الأحداث ، وعبد

بعضهم الأصنام ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على التوراة ، إلى أن فعلوا ما فعلوا ، فسلّط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا خلقاً كثيراً ، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة ، وكانوا لا يقاتلهم أحد إلا غلبوه وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان • وكان ذلك موروثاً لخلفهم،عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام.فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعضُ الملوك في بعض الحروب،وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل ، وانقطعت النبوة من أسباطهم ، ولم يبق من سبط لا وي الذي يكون فيه الأنبياء إلاّ امرأة حامل من بعلها وقد قتل • فأخذوها فحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم ، ولم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلاماً ، فسمع الله لها ووهبها غلاماً ، فسمته شمويل أي سمع الله دعائي ومنهم من يقول : شمعون وهو بمعناه ، فأنبته الله نباتاً حسناً،فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله اليه ، وأمره بالدعوة اليه وتوحيده ، فدعا بني اسرائيل ، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم.فقال لهم النبي : فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه ، ﴿ قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ أي وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد . قال الله تعالى : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولّوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ أي ما وفوا بما وعدوا،بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * (٢٤٧)

بعث الله طالوت ملكاً على بني اسرائيل ، وكان من أجنادهم.ولم يكن من سبط يهوذا فقالوا:﴿ أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقُّ بالملك منه ولم يؤتَ سعةً من المال ﴾ أي ليس هو من سبط المُلْك وهو فقير لا مال له يقوم بالملك • وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت ، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف• فأجابهم النبيّ قائلاً : ﴿ إن الله أصطفاه

عليكم ﴾ والله أعلم به منكم، ولست أنا الذي عينته، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك. ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ أي وهو مع هذا أعلم منكم وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة ومن ههنا ينبغي أن يكون الملِكُ ذا علم، وشكل حسن، وقوة، شديدة في بدنه ونفسه. ثم قال : ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾ بحكمته ورأفته ولهذا قال : ﴿والله واسع عليم﴾ أي واسع الفضل، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ (٢٤٨) ﴾

يقول لهم نبيهم إن علامة بركة مُلْك طالوت عليكم، أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم ﴿ فيه سكينة من ربكم ﴾ معناه : فيه وقار وجلالة.وقال عطاء : ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه . وقوله تعالى : ﴿ وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ﴾ قال ابن عباس : عصاه ورضاض الألواح وزاد عكرمة : والتوراة، وزاد أبو صالح : والمن وقوله تعالى : ﴿ تحمله الملائكة ﴾ قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعته بين يدي طالوت، والناس ينظرون فآمنوا. بنبوّة شمعون وأطاعوا طالوت.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ (٢٤٩) ﴾

يخبر تعالى عن طالوت ملك بني اسرائيل حين خرج في جنوده وكان جيشه ثمانين الفاً والله أعلم أنه قال : ﴿ إن الله مبتليكم ﴾ أي مختبركم بنهر ؛ قال ابن عباس وهو نهر الشريعة بين الأردن وفلسطين ﴿ فمن شرب منه فليس مني ﴾ أي فلا يصحبني ﴿ ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ أي فلا بأس عليه . قال الله تعالى : ﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ قال ابن عباس : من اغترف منه بيده روي ، ومن شرب منه لم يروَ فشرب ستةٌ وسبعون الفاً وتبقّى معه أربعة آلاف.وروي عن البراء بن عازب قال : ٣٩٩ [كنا نتحدث أن أصحاب محمدﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمأة وبضعة عشر على عدّةَ أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر ، وما جاوزه معه إلا مؤمن] [1] رواه البخاري ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ فشجّعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق وليس النصر بالكثْرة العَددية والعُددية ولهذا قالوا : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرةً بإذن الله ، والله مع الصابرين ﴾

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ • (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ • (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ • (٢٥٢)

لما واجه أصحابُ طالوت المؤمنون القليلون ، أصحابَ جالوت الكثيرين الكافرين ، ﴿ قالوا ربّنا أفرغ علينا صبراً ﴾ أي أنزل علينا صبراً من عندك ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ أي في لقاء الأعداء وجنبنا الفرار والعجز ،﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾

قال الله تعالى : ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾ أي غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم.﴿ وقتل داودُ جالوت ﴾ فآل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ، ولهذا

---

(١) يعني أن عدد جنود طالوت ثلاثمئة وبضعة عشر مثل عدد أهل بدر

قال تعالى : ﴿وآتاه الله الملك﴾ الذي كان بيد طالوت ﴿والحكمة﴾ أي النبوة بعد شمويل ﴿وعلمه مما يشاء﴾ أي من العلم الذي اختصه به ﷺ . ثم قال تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ أي لولا الله يدفع عن قوم بآخرين ،كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت ، وشجاعة داود عليه السلام لهلكوا .

وقوله : ﴿ ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ أي ذو منٍّ عليهم ورحمة ، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً . وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه،في جميع أفعاله وأقواله .

ثم قال تعالى :﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾ أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق ، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل ، وإنك يا محمد ﴿لمن المرسلين﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقسم .

حزب ٥ جزء ٣

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ • (٢٥٣) ﴾

يخبر تعالى أنه فضّل بعض الرسل على بعض ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا ﴾ وقال ههنا:﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ﴾ يعني موسى ومحمداً ﷺ ، وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي ﷺ ، الأنبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل . والجمع بين هذه الآية والحديث الثابت في الصحيحين،عن أبي هريرة وهو قوله ﷺ:[لا تفضلوني على الأنبياء ...] يستلزم الاطلاع على الأسباب الموجبة لوروده ، لذا فإن سبب ورود هذا الحديث : كان من أجل سباب قد وقع بين مسلم ويهودي فقال اليهودي في قسم يقسمه : لا والذي اصطفى موسى على العالمين فلطم المسلم اليهودي ،

فقال: أي خبيث؟ وعلى محمد ﷺ؟ فاشتكى اليهودي لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: ٤٠٠[لا تفضلوني على الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدري، أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور فلا تفضلوني على الأنبياء.] فالجواب من وجوه: (أحدها): أنه ﷺ ما كان يعلم التفضيل ... وفي هذا نظر (الثاني): ان هذا قاله من باب التواضع (الثالث): ان هذا نهيٌ عن التفضيل في حال التشاجر. (الرابع): التفضيل لمجرد العصبية [١] (الخامس) ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هولله وعليكم التسليم والإيمان وقوله تعالى: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء به بني إسرائيل من أنه عبدالله ورسوله إليهم ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي بجبريل عليه السلام ثم قال الله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما أقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولوشاء الله ما اقتتلوا﴾ أي كل ذلك عن قضاء الله وقدره، ولهذا قالوا ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ (٢٥٤) ﴾

يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله ليدّخروا الثواب عنده ﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ أي يوم القيامة ﴿لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ أي لا يشتري نفسه ولو دفع ملء الأرض ذهباً ولا تنفعه الصحبة ولا القرابة، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين.[٢]

وقوله: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ أي ولا ظالم أظلم ممن لقي الله كافراً.

---

(١) أرجح: ان التفضيل الممنوع هو المبني على عصبية مجردة حاصلة بمجرد كون النبي المفضل هو من قوم ذلك الشخص أو أن هذا الشخص من أتباع ذلك النبي ... أما التفضيل إذا كان مبنياً على النصوص الشرعية الثابتة من القرآن والسنة، كقوله تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وقوله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ... وكحديث الشفاعة العظمى ... فهذا التفضيل إنما هو من قبيل الواقع لا عن عصبية فحسب.

(٢) إذا لم يكونوا مؤمنين

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ (٢٥٥) ﴾

هذه آية الكرسي ، ولها شأن عظيم ، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله . روى الإمام أحمد بن حنبل عن أبيّ بن كعب ٤٠١ [أن النبي ﷺ سأله : أي آية في كتاب الله أعظم ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فردّدها مراراً ، ثم قال : آية الكرسي ، قال : ليهنك العلم أبا المنذر.والذي نفسي بيده ، إن لها لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش] وقد رواه مسلم وليس عنده زيادة : والذي نفسي بيده ..

حديث آخر : روى الإمام أحمد عن أبي ذر جندب بن جنادة – في بعض حديث له – [... قلت يا رسول : ٤٠٢ أي ما أنزل عليك أعظم ؟ قال : آية الكرسي : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾] ورواه النسائي .

وقد ذكر البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال : ٤٠٣ [وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته وقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعني فإني محتاج وعليّ عيال ولي حاجة شديدة. قال : فخلّيت عنه فأصبحت.فقال النبي ﷺ : « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ » قال : قلت : يا رسول الله ، شكا حاجة شديدة وعيالاً ، فرحمته وخلّيت سبيله ؛ قال : « أما إنه قد كذبك وسيعود » فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ : أنه سيعود ؛ فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعني فإني محتاج وعليّ عيال ، لا أعود . فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ » قلت : يا رسول الله ، شكا حاجةً وعيالاً ، فرحمته وخليت سبيله . قال : « أما إنه قد كذبك وسيعود » فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، وهذا آخر ثلاث مرات إنك

تزعم أنك لا تعود ثم تعود فقال : دعني أعلـّمْك كلماتٍ ينفعكْ الله بها ؛ قلت : ومـا هي ؟ قال إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ حتى تختم الآية ؛ فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتّى تصبح ، فخليتُ سبيلـَه ؛ فأصبحت ، فقال لي رسول الله ﷺ : « ما فعل أسيرك البارحة ؟ » قلت : يا رسول الله ، زعم أنه يعلمني كلماتٍ ينفعني الله بها ، فخليت سبيله . قال : « ما هي ؟ » قال لي : إذا أويت إلى فراشك ، فاقرأ آية الكرسي من أولها حتّى تختم الآية « الله لا إله الا هو الحي القيوم » وقال لي : لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتّى تصبح ، وكانوا أحرص شيء على الخير ؛ فقال النبي ﷺ : « أما إنه صدقك وهـو كذوب » ، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قلت: لا قال : ذاك شيطان] وعن أبي أمامة مرفوعاً : ٤٠٤ [إسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث : البقرة،وآل عمران،وطه]

﴿ وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة ﴾

فقوله تعالى: ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهيّة لجميع الخلائق ﴿ الحي القيوم ﴾ أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً ، القيم لغيره ، ولا قوام للموجودات بدون أمره . وقوله تعالى : ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ لا تأخذه أي لا تغلبه سنة وهي النعاس ولهذا قال : ﴿ ولا نوم ﴾ لأنه أقوى من السنة . وفي الصحيح عن أبي موسى، قال:قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : ٤٠٥ [ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل ، وعمل الليل قبل عمل النهار ، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقتْ سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه .]

وقوله تعالى : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه . كقوله تعالى : ﴿ إنْ كل من في السموات والأرض إلاّ آت الرحمن عبداً ... ﴾

وقوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل ، أنه لا يتجاسر أحد عـلى أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة ، كما في حديث الشفاعة : ٤٠٦ [آتي تحـت العرش فأخر ساجداً فيدعني ما شاء أن يدعني ، ثم يقال إرفع رأسك وقل تسمع ، واشفع

تشفعْ – قال – فيحدُ لي حداً فأدخلهم الجنة .] وقوله تعالى: ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات، ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، كقوله إخباراً عن الملائكة : ﴿ وما نتنزَّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعه عليه [١] وقوله تعالى : ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس : لو أن السموات السبع والأرضين السبع ، بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ، ماكن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة وقال أبو ذر سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٤٠٧ [ما الكرسي في العرش الا كحلقة من حديد القيت بين ظهراني فلاة من الأرض] روى أبو بكر بن مردويه بسنده عن أبي ذر الغفاري أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي . فقال رسول الله ﷺ : ٤٠٨ [والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي ، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وان فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة .]

وقوله تعالى : ﴿ ولا يؤودُه حفظهما ﴾ أي لا يثقله ولا يكترثه حفظ السموات والأرض ، ومن فيهما ، ومن بينهما ، بل ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه ، محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد ، الفعال لما يريد ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو القاهر لكل شيء ، الحسيب على كل شيء ، الرقيب العلي العظيم ، لا إله الا هو، ولا إلّه غيره، ولا رب سواه . فقوله تعالى ﴿وهو العلي العظيم﴾ كقوله تعالى : ﴿ الكبير المتعال ﴾ . وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح، الأجود فيها والأصح طريقة السلف الصالح، أَمَرُّوها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه [٢] .

---

(١) وهذا خاص بالأنبياء والرسل مصداقه قوله تعالى : عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ...

(٢) أي لا تؤولوها بآراء الناس . بل آمنوا بها مع تنزيه الله تعالى عن الشبه بشيء من خلقه .

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾

يقول تعالى : ﴿لا إكراه في الدين﴾ أي لا تُكرِهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام ، فإنه بيّن واضح ، جلي دلائله وبراهينه ، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله للإسلام ، وشرح صدره ، ونوّر بصيرته ، دخل فيه على بيّنة ، ومن أعمى الله قلبه ، وختم على سمعه وبصره [١] فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً .

وقد ذكر أن أسباب نزول هذه الآية : أن الأنصار كانت المرأة منهم تجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده ، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿لا إكراه في الدين ...﴾ رواه ابن جرير عن ابن عباس ورواه أبو داود والنسائي عن بندار به ، وأبو حاتم وابن حبان من حديث شعبة به، وهكذا ذكر مجاهد وغيره أنها نزلت في ذلك . وقال محمد بن اسحق عن ابن عباس أنها نزلت في رجل من بني سالم بن عوف، يقال له الحصيني. تنصّر ابناه وكان هو رجلاً مسلماً فقال للنبي ﷺ : [ألا أستكرههما فقد أبيا إلا النصرانية فأنزل الله فيه ذلك وهذه الآية منسوخة بآية القتال : ﴿ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾ وقال تعالى : ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ وقال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾

---

(١) قلت : أي إن عليكم أن تعرضوا الإسلام في عقيدته السمحة الهادية المهدية على الناس . وعلى الناس أن يتدبروها ويطلعوا على أدلتها وحججها وبراهينها التي هي في مستوى مفاهيمهم ولا شك . لأن الله تعالى جعل الإسلام من السهولة والسماحة لدرجة : أن الناس في مقدورهم بما وهبهم الله من عقل وفهم أن يتدبروه على اختلاف درجاتهم في ذلك ... اللهم إلا أن يكون مجنوناً أو ما يشبه فلا يكون مكلفاً . وما سوى ذلك من الإنس والجن فمكلفون أن يفهموا ويتدبروا كما أراد الله وأمر فان اتخذوه ديناً يسره الله لهم وأعانهم على ذلك . ومن ركب رأسه ، وتعصب لباطله رغم فهم الأدلة ، وأعرض عن الاسلام فان الله تعالى جزاء طغيانه : يعمى قلبه ، ويختم على سمعه وبصره جزاء وفاقاً وذلك كقوله تعالى : «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى» .

وعلى هذا فإنه يجب أن يُدعَى جميع الأمم إلى الدخول في الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ، أو لم يبذل الجزية ، قوتل حتى يقتل،وهذا معنى الإكراه . وفي الصحيح : ٤٠٩ [عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل] أي الأسارى يُقدَمُ بهم بلادَ الإسلام في الوثاق والأغلال ثم بعد ذلك يسلمون ، وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة . وقوله تعالى : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت [١] ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . ﴾ أي من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة غير الله ، ووحّد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله الا الله . والطاغوت الشيطان فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها .

وقوله تعالى : ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ أي فقد استمسك من الدين بأقوى سبب وشبه ذلك بالعروة الوثقى التي لا تنفصم لأنها في نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوي شديد والعروة الوثقى هي الإيمان والإسلام .ولا تنافي بين من قال هذا ومن قال:هي لا اله الا الله أو هي القرآن ، أو هي الحب في الله والبغض في الله،وكل ذلك صحيح . وقال معاذ بن جبل في قوله ﴿ لا انفصام لها ﴾ دون دخول الجنة . روى الإمام أحمد عن محمد بن قيس بن عبادة قال : ٤١٠ [كنت في المسجد ، فجاء رجل في وجهه اثر من خشوع ،فصلى ركعتين أوجز فيهما فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله ، فدخلت معه فحدثته ، فلما استأنس ، قلت له : ان القوم لما دخلت المسجد ، قالوا : كذا وكذا قال : سبحان الله ما ينبغي لأحد ان يقول ما لا يعلم ، وسأحدثك لمَ ... إني رأيت كأني في روضة خضراء – قال ابن عون [٢] ، فذكر من خضرتها وسعتها – وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض واعلاه في السماء ، في أعلى عروة ، فقيل لي إصعد عليه ، فقلت : لا أستطيع ، فجاءني منصف – قال ابن عون : هو الوصيف – فرفع ثيابي من خلفي فقال : اصعد ، فصعدت حتى أخذت بالعروة ، فقال : استمسك بالعروة ، فاستيقظت وإنها لفي يدي ؛ فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه ، فقال : « أما الروضة ، فروضة الإسلام ، واما العمود فعمود الإسلام ، واما

---

(١) قلت : قدم هنا الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله وفي ذلك إشارة لطيفة إلى وجوب تطهير القلوب أولاً ونزع ما فيها من الإيمان بالطاغوت حتى إذا فرغت وطهرت ملئت بالايمان بالله وتشربت بذلك ، عندها لا يمكن إلا أن يكون الله حافظاً لها فلا يستطيع أحد أن ينتزع هذا الإيمان الراسخ منها فتستمسك بالعروة الوثقى

(٢) احد رواة الحديث الوارد في السند .

العروة فهي العروة الوثقى ، انت على الإسلام حتى تموت] أخرجاه في الصحيحين وهو (عبدالله بن سلام) رضي الله عنه وأرضاه .

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ ٱلطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * (٢٥٧) ﴾

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام ، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي السهل ، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان يُزيّن لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿ أولئك اصحاب النار هم فيهم خالدون ﴾ ولهذا وحّد تعالى لفظ النور ، وجمع الظلمات ، لأن الحق واحد ، والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون . ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَاجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ * (٢٥٨) ﴾

هذا الذي حاجّ ابراهيم في ربه هو ملك بابل نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح . ومعنى قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ﴾ أي في وجود ربه ، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره ، وما حمله على هذا ... إلا تجبُّرُه ، وطول مدته في الملك.ولذا قال تعالى : ﴿ ان آتاه الله الملك ﴾ وكان طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه فقال إبراهيم : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ أي هو محدث الإشياء من العدم ، ويعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ، ضرورة ،

لأنها لم تحدث من نفسها فلا بد لها من موجد أوجدها ، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له قال النمرود : ﴿ أنا أحيي وأميت ﴾ وذلك أني أوتي بالرجلين قد استحقا القتل فآمر فيقتل أحدهما ، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل. هذا ما قاله قتادة وغيره ـ والظاهر والله أعلم ـ أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قال ابراهيم ، وإنما أراد النمرود أن يدّعي الربوبية عناداً ومكابرةً ، ويوهم أنه الفاعل لذلك ، وأنه هو الذي يحيي ويميت . ولهذا قال له إبراهيم : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب ﴾ أي إذا كنت أنت تحيي وتميت ، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته ، (وهذه الشمس جزء صغير من هذه المخلوقات) ، وهي تبدو كل يوم من المشرق ، فإن كنت إلهاً كما تدعي فأت بها من المغرب ؟ فلمّا علم عجزه وانقطاعه عن المكابرة بُهت أي أخرس ... وقامت عليه الحجة ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي لا يلهمهم حجةً ولا برهاناً . بل حجتهم داحضة ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد . وقول المنطقيين : إن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى دليل أوضح منه ... وليس كما قالوه ... بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ولدحض ما ادعاه النمرود في الأول والثاني ولله الحمد والمنة . (١)

أما النمرود ، فقد ظل معانداً رغم خرسه عن الجواب ، ولم يؤمن بالله تعالى الذي هو يحيي ويميت لذا فقد أرسل الله عليه وعلى قومه بأباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس ، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم ، وتركتهم عظاماً بالية ودخلت واحدةٌ منها في منخري الملك، عذّبه الله بها فكان يضرب برأسه بالمرازب مدةً من الزمن حتى أهلكه الله بها . (٢)

---

(١) قلت : رحم الله ابن كثير فقد أوتي في هذا المعنى الذي فسر به هذه الآية بياناً شافياً للمقامين ، جزاه الله خيراً وحباه من فضله رحمة ومغفرة ، وغرفاً في جنات النعيم

(٢) قلت : هذا الذي ادعى أنه يحيى ويميت لم يستطع أن يميت بعوضه صغيرة دخلت منخريه وسببت له ألماً لم يعالجه إلا بالمرازب وقيل بالنعال حتى هلك... وفي هذا عبرة للمعتبرين. أجل عجز عن أن يميت بعوضة آذته وأودت بحياته والإماتة مستطاعة ، فهذا المستطاع عجز عنه، فكيف اذا كلف أن يحيي بعوضة ماتت، أو جناح بعوضة ... فسبحانك ربي ما أعظمك .

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ (٢٥٩) ﴾

تقدم قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي حاجّ ابراهيم في ربه ﴾ وهو في قوة قوله : هل رأيت مثل الذي حاج ابراهيم في ربه ، ولهذا عطف عليه بقوله تعالى : ﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ﴾ اختلفوا في هذا المار من هو ... ؟ أهو عزير أم الخضر أو هو أرميا بن حلقيا ، أو حزقيل بن بوار ، أم هو رجلٌ مّا من بني اسرائيل ، ولعله العزير أما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس ، مرّ عليها بعد تخريب (بختنصّر) لها وقتل أهلها ﴿ وهي خاوية ﴾ أي ليس فيها أحد .

وقوله تعالى : ﴿ على عروشها ﴾ أي ساقطة سقوفها وجدرانها على الأرض ، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة ، وقال: ﴿ أنىّ يحيي هذه الله بعد موتها ﴾ وذلك لما رأى شدة خرابها ، واستبعاد عودتها لعمرانها . قال الله تعالى : ﴿ فأماته الله مئة عام ثم بعثه ﴾ فبعد مضي سبعين سنة على موته ، عمرت البلدة وتكامل ساكنوها وتراجع بنو إسرائيل إليها . فلما بعثه الله عز وجل بعد مئة عام من موته ، كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه ، لينظر بهما إلى صنع الله فيه : كيف يحيي بدنه فلمّا استقل سوياً ﴿ قال ﴾ الله له ، أي بواسطة الملك ﴿ كم لبثتَ قال لبثتُ يوماً أو بعض يوم ﴾ لأنه لما مات كان ذلك أول النهار ولما بعثه بعدمائةعام كان ذلك في آخر النهار، فلما رأى الشمس باقيةً، ظن أنها شمس ذلك اليوم! فقال: ﴿أو بعض يوم، قال بل لبثتَمائةعام.فانظر إلىطعامك وشرابك لم يتسنّه ﴾ فقد كان معه عنب وتين وعصير فوجده لم يتغير ﴿ وانظر إلى حمارك ﴾ كيف يحييه الله عز وجل ، وأنت تنظر ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ أي دليلاً على المعاد ﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ﴾ أي نرفعها ، فيركب بعضها على بعض ، وقريء ﴿ ننشرها ﴾

أي نحييها ﴿ ثم نكسوها لحماً ﴾ فبعد تفرقها يميناً ويساراً بعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع حوله ، ثم ركّب كل عظم موضعَه ، حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم فيها ، ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً ، وبعث الله ملكاً فنفخ في منخريْ الحمار ، فنهق. كله بإذن الله عز وجل ، وذلك كله بمرأى من العزير فلمَّا تبين له هذا كله.﴿ قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ أي أنا عالم بهذا ، وقد رأيته عياناً ، فأنا أعلم أهل زماني بذلك .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٦٠)

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام ، أسباباً منها أنه لمَّا قال النمرود : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة ، فقال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى . قال ألم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾.فأما الحديث الذي رواه البخاري عند هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٤١١ [نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال أوَ لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾] وكذا رواه مسلم، فليس المراد ههنا بالشك الذي قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف. وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة أحدها : ... (١)

(١) هنا بياض ... ولم يذكر المفسر الحافظ ابن كثير الأجوبة ... ولتمام الفائدة نذكر ما ذكره البغوي في تفسيره حكاية عن محمد بن اسحق بن خزيمة عن أبي ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزني أنه قال:على هذا الحديث : لم يشك النبي صلى الله عليه وسلم ولا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في أن الله قادر على أن يحيى الموتى وإنما شكا في أنه هل يجيبهما إلى ما سألا ؟ ... ففيه الإعلام أن المسألة من ابراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك ، ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان فان العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال .

وقوله تعالى : ﴿ قال فخذ أربعةً من الطير فصرهنّ إليك ﴾ أي أوثقهن واذبحهن وقطعهن . فلمّا أوثقهن ذبحهن ، ثم جعل على كلّ جبل منهن جزءًا بعد أن قطعهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن. قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله عزوجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتّى قام كل طائر على حدته ، وأتينه يمشين سعياً ، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها ، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدّم له غير رأسه أباه ، فإذا قدم إليه رأسه تركّب مع بقية جسده بحول الله وقوته . ولهذا قال : ﴿ واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ أي عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع من شيء وما شاء كان بلا ممانع ، لأنه القاهر لكل شيء ، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره . قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن أيوب في قوله تعالى : ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ قال : قال ابن عباس : ما في القرآن آية أرجى عندي منها . وقال ابن أبي حاتم عن ابن المنكدر أنه قال : إلتقى عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص : أي آية في القرآن أرجى عندك فقال ابن عمرو بن العاص : قول الله عز وجل : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا ... ﴾ الآية فقال ابن عباس : لكن أنا أقول قول الله عز وجل : ﴿ وإذْ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أوَ لم تؤمن قال بلى ﴾ فرضي من إبراهيم قوله ﴿ بلى ﴾ قال: فهذا لما يعترض في النفوس ، ويوسوس به الشيطان. وهكذا رواه الحاكم وصححه .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ‌* (٢٦١) ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمأة ضعف ، فقال : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ﴾ يعني في طاعة الله من الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك . وعن ابن عباس : الجهاد والحج يضعّف الدرهمُ فيهما إلى سبعمائة ضعف ولهذا

قال : ﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ﴾ وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمأة ، فإن فيه اشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينمّيها الله عز وجل لأصحابها ، كما ينمّي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة ، وقد وردت السنّة بتضعيف الحسنة إلى سبعماءة ضعف .

روى أحمد عن ابن مسعود أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله،فقال رسول الله ﷺ : ٤١٢ [لتأتيَنّ يومَ القيامة بسبعماءة ناقةٍ مخطومة] ورواه مسلم والنسائي .

وقوله تعالى : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ أي بحسب اخلاصه في عمله ، وقد تقدم حديث أبي عثمان النهدي عن أبي هريرة في تضعيف الحسنة إلى ألفي ألف حسنة عند قوله : ﴿ من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة ﴾ [1] ﴿ والله واسع عليم ﴾ أي فضله واسع كثير، أكثر من خلقه ، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق سبحانه وبحمده .

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * (٢٦٣) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ * (٢٦٤) ﴾

ربع الحزب

يمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون في سبيله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منّاً على ما أعطوه ، فلا يمنّون به على أحد ، ولا يمنّون به لا بقول ولا بفعل . وقوله تعالى : ﴿ ولا أذى ﴾ أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان ، ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك ، فقال تعالى : ﴿ لهم

(١) راجع الحديث رقم /٣٩٨/

أجرهم عند ربهم ﴾ أي ثوابهم على الله لا على أحد سواه . ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة . ﴿ ولاهم يحزنون ﴾ على ما خلفوا وراءهم من الحياة الدنيا وبهجتها . ثم قال تعالى : ﴿ قول معروف ﴾ أي من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿ومغفرة﴾ أي عفو وغفر عن ظلم ﴿خير من صدقة يتبعها أذى﴾ والله ﴿غني﴾ عن خلقه ﴿حليم﴾ أي يحلم ويغفر ويصفح . وقد وردت أحاديث في النهي عن المنّ في الصدقة ، ففي صحيح مسلم عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : ٤١٣ [ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنّان بما أعطى، والمسبل إزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب] .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى ، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى ؛ ثم قال تعالى : ﴿ كالذي ينفق ماله رئاء الناس ﴾ أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس ، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله ، وإنما قصده مدح الناس له ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية ، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته . ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه : ﴿ فمثله كمثل صفوان ﴾ وهو الصخر الأملس ، ﴿ عليه تراب فأصابه وابل ﴾ وهو المطر الشديد ﴿ فتركه صلداً ﴾ أي أملس يابساً لم يبق عليه شيء من ذلك التراب ، وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب.ولهذا قال تعالى : ﴿ لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ .

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * (٢٦٥) ﴾

وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله عنهم في ذلك ، ﴿ وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ أي متحققون يقيناً أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء ، ونظير هذا في معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح المتفق عليه : ٤١٤ (من صام رمضان إيماناً واحتساباً) أي مؤمناً بشرعيته ومحتسباً ثوابه عند الله .

وقوله تعالى : ﴿ كمثل جنّة بربوة ﴾ أي كمثل بستان في مرتفع من الأرض،تجري فيه الأنهار.وقوله تعالى : ﴿أصابها وابل﴾ وهو المطر الشديد، كما تقدم ، ﴿فآتت أكلها﴾ أي ثمرتها ﴿ ضعفين ﴾ أي بالنسبة لغيرها من الجنان ﴿فإن لم يصبها وابل فطلّ﴾ أي اللّين من المطر لا تمحل أبداً لأنهاإن لم يصبها وابل فطل ، وأياً ما كان ، فهو كفايتها ، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً بل يتقبله الله ويكثره ، كل بحسب عمله ، ولهذا قال : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أي لا يخفي عليه من أعمال عباده شيء .

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * (٢٦٦) ﴾

قال البخاري عند تفسير هذه الآية عن عبيد بن عمير، قال:قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب رسول الله ﷺ : فيمن ترون هذه الآية نزلت ؟ ﴿ أيوّد أحدكم ان تكون له جنة من نخيل وأعناب ﴾ قالوا : الله أعلم ، فغضب عمر فقال : قولوا : نعلم أولا نعلم فقال ابن عباس رضي الله عنهما : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ضربت مثلاً بعمل ، قال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عباس : لرجل غني يعمل بطاعة الله ، ثم بعث الله لـه الشيطان فعمل بالمعاصي ، حتّى أغرق أعماله .

وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية ، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً ... ثم انعكس سيره فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه من الصلاح ، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال فلم يحصل منه شيء ، وخانه أحوج ما كان إليه ، ولهذا قال تعالى ﴿ وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار ﴾ وهو الريح الشديد ﴿ فيه نار فاحترقت ﴾ أي أحرق ثمارها ، وأباد أشجارها ، فأي حال يكون حاله ؟ وكذلك حال الكافر يكون يوم القيامة إذا رُدّ إلى الله عز وجل ، ليس له خير فيستعتب كما ليس لهذا قوة فيغرس بستانه . ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه ، كما لم يغنِ عن هذا ولـده .

وحرم أجره عند أفقر ما كان إليه ، كما حرم هذا جنته عند ما كان أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته . ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلك يبيّن الله لكم الآياتِ لعلكم تتفكرون ﴾ أي تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني ، وتنزلونها على المراد منها .كما قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربِ بها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * (٢٦٧) ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * (٢٦٨) يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو ٱلْأَلْبَابِ * (٢٦٩)

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق والمراد به الصدقة ههنا ، قال ابن عباس : من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها ، وقال أيضاً : أمرهم بالأنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ، ونهاهم عن التصدّق برذالة المال ودنيّه وهو خبيثه ، فإن الله طيب لا يقبل إلاّ طيباً ، ولهذا قال : ﴿ ولا تيمّموا الخبيث ﴾ أي تقصدوا الخبيث ﴿ منه تنفقون ولستم بآخذيه ﴾ أي لو أعطيتموه ما أخذتموه ، إلاّ أن تتغاضوا فيه فالله أغنى عنه منكم فلا تجعلوا لله ما تكرهون . نزلت في جماعة من الأنصار كانوا يتصدقون برديء التمر ...

وقوله تعالى : ﴿ إلاّ أن تُغمضوا فيه ﴾ يقول : لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحقٍ دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه ؛ فكيف ترضون لربكم ما لا ترضون لأنفسكم؟ وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه!؟.رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ورواه ابن جرير وزاد فيه وهو قوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتّى تنفقوا مما تحبون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله غني حميد ﴾ أي وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها

فهو غني عنها ، وما ذاك إلا ليساوي الغني الفقير ، كقوله تعالى : ﴿ لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم . ﴾ وهو غني عن جميع خلقه ، وجميع خلقه فقراء إليه وهو واسع الفضل ، لا ينفد ما لديه ؛ فمن تصدق بصدقة من كسب طيب ، فليعلم أن الله غنّي واسع العطاء ، كريم جواد وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافاً كثيرة ، فالذي يقرضه غير عديم ولا ظلوم ، وهو الحميد أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

وقوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً والله واسعٌ عليم . ﴾ روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٤١٥ [إن للشيطان لمّةً بابن آدم ، وللملَكِ لمّة ، فأمّا لمّةُ الشيطان ، فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق . وأمّا لمّة الملَكِ فإيعاد بالخير وتصديق بالحق . فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله ؛ ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان » - ثم قرأ - : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ﴾] الآية ... رواه الترمذي والنسائي وأخرجه ابن حبان في صحيحه .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾ أي يخوفكم الفقر لتُمسِكوا ما بأيديكم فلا تُنفِقوه في مرضاة الله . ﴿ ويأمركم بالفحشاء ﴾ وإضافةً إلى ذلك يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ، ومخالفة الخلاّق . قال تعالى : ﴿ والله يعدكم مغفرةً منه ﴾ أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿ وفضلاً ﴾ أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر. ﴿ والله واسع عليم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ﴾ يعني المعرفةَ بالقرآن ، ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله قاله ابن عباس .

وقد روى ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً : ٤١٦ [رأس الحكمة مخافة الله] وقال مجاهد : الحكمة الإصابة بالقول ، وقال ليث بن سليم : العلم والفقه والقرآن ، وقال أبو العالية : الحكمة خشية الله ، وقيل الفهم ، وقيل السنة ، وقيل العقل وقال مالك هو الفقه في الدين وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله وقال السدي : الحكمة النبوة.

والصحيح : ما قاله الجمهور : لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها ، وأعلاها النبوة ، والرسالة أخص ؛ ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع كما جاء في بعض الأحاديث :

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ : ٤١٧ [لا حسد إلاَّ في اثنتين : رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل أتاه الله حكمةً فهو يقضي بها ويعلمها] وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه من طرق متعددة عن اسماعيل بن أبي خالد . وقوله تعالى : ﴿ وما يذكَّر إلاَّ أولو الألباب ﴾ أي وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل ، يعني به الخطاب ومعنى الكلام .

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ • (٢٧٠) إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ • (٢٧١) ﴾

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده • وتوعّد من لا يعمل بطاعته بل خالف أمره ، وكذب خبره ، وعبد معه غيره • فقال : ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أي يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته .

وقوله تعالى : ﴿ إن تبدو الصدقات فنعماً هي ﴾ أي إن أظهرتموها فنعم شيء هي . وقوله تعالى : ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ فيه دلالة على إن إسرار الصدقة خير من إظهارها ، لأنها أبعد عن الرياء إلا اذا كان القصد اقتداء الناس به فذلك أفضل.والأفضل في الأصل الإسرار.ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة من حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : ٤١٨ [... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه]

وقال رسول الله ﷺ : ٤١٩ [الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة .] وان الآية عامة في أن إخفاء الصدقة أفضل سواء كانت مفروضة أو مندوبة ولكن روى ابن جرير عن ابن عباس في تفسيره هذه الآية قال : جعل الله صدقه السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفاً ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً .

وقوله تعالى : ﴿ ويكفّر عنكم من سيئاتكم ﴾ أي بدل الصدقات ولا سيما إذا كانت سراً، يحصل لكم الخير في رفع الدرجات،ويكفّر عنكم السيئآت . وقوله تعالى : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي لا يخفى عليه من ذلك شيء وسيجزيكم عليه .

نصف الحزب

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * (٢٧٣) ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * (٢٧٤) ﴾

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس عن النبي ﷺ : ٤٢٠ [أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية : ﴿ ليس عليك هداهم ﴾ فأمر بالصدقة على كل من سألك من كل دين]﴿ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ﴾ كقوله : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ ونظائرها في القرآن كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ قال عطاء الخراساني : يعني إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله ، وهذا معنى حسن ، وحاصله : أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله تعالى فقد وقع أجره على الله سبحانه ، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب البرّ أو الفاجر أو مستحق أو غيره ، وهو مثاب على قصده ، ومستند هذا تمام الآية : ﴿ وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾

والحديث المخرج في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٢١ [قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية فأصبح الناس يتحدثون

تصدق على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن الليلة بصدقة فوضعها في يد غني ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غني • قال : اللهم لك الحمد على غني ، لأتصدقن الليلة بصدقة ، فخرج فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق ، فأُتي فقيل له : أما صدقتك فقد قبلت ، وأما الزانية فلعلها أن تستعفف بها عن زنا،ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله ، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته.] وقوله تعالى : ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ﴾ يعني المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله ورسوله وسكنوا المدينة ، وليس لهم سبب يردّون به على أنفسهم ما يغنيهم و ﴿ لا يستطيعون ضرباً في الأرض ﴾ يعني سفراً للتسبّب في طلب المعاش،والضرب في الأرض هو السفر.قال الله تعالى : ﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ أي الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم وفي هذا المعنى الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة قال: ٤٢٢ [قال رسول الله ﷺ : ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان،واللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان،ولكن المسكين الذي لا يجد غنىً يغنيه ولا يفطن له فيتصدّق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً] وقد رواه أحمد وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال : ٤٢٣ [سرحتني أمي إلى رسول الله ﷺ أسأله ، فأتيته فقعدت ، قال فاستقبلني فقال : «من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفّه الله ، ومن استكفَ كفاه الله ، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف . قال فقلت (في نفسي) ناقتي الياقوتة خير من أوقية ، فرجعت فلم أسأله]

وقوله تعالى : ﴿ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ أي لا يخفى عليه شيء منه وسيجزي عليه أوفر الجزاء يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات ، حتى النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضاً روى الإمام أحمد عن أبي [٢] مسعود رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال : ٤٢٤ [إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة] أخرجاه من حديث شعبة به وقوله تعالى : ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ أي يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات.﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ تقدم تفسيره .

---

(١) (٢) هو أبو مسعود البدري والله أعلم واسمه عقبة بن عمرو

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ • (٢٧٥) ﴾

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات ، المخرجين للزكوات ، المتفضلين بالبر والصدقات لذوي الحاجات والقرابات،في جميع الأحوال والأوقات ، شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات • فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها ، إلى بعثهم ونشورهم • فقال تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة الا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له وقال ابن عباس : آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنق.رواه ابن أبي حاتم ، وروي عن جمع من التابعين نحو ذلك . وروى ابن جرير عن ابن عباس ، قال : (يقال يوم القيامة لآكل الربا : خذ سلاحك للحرب [1] ، وقرأ : ﴿ الذين يأكلون الربا ... ﴾ الآية وذلك حين يقوم من قبره . وقد روى البخاري عن سمرة بن جندب في حديث المنام الطويل : ٤٢٥ [فأتينا على نهر ، حسبت انه كان يقول : أحمر مثل الدم ، واذا في النهر سابح يسبح ، واذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابح يسبح ، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع الحجارة عنده ، فيفغر له فاه فيلقمه حجراً] وذكر في تفسيره انه آكل الربا .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ أي إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه . وقوله تعالى : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام رداً عليهم ، أي على ما قالوه من الاعتراض ، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً ، وهو العليم الحكيم الذي لا

---

(١) قلت : وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ... » الآية وأي سلاح يستطيع أن يحمل وقتئذ : ... ؟ الجواب لا سلاح .. ولا حجة . فكيف حاله أمام حرب الله له إذ ذاك ؟ اللهم أجرنا من عذابك •

معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وما ينفع عباده ، فيبيحه لهم ، وما يضرهم فينهاهم عنه ، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل ، ولهذا قال : ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ﴾ أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه ، فله ما سلف من المعاملة ؛ لقوله : ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة ٤٢٦ [وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدميَّ هاتين ، وأول ربا أضع ربا العباس.] ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية بل عفا عما سلف ، كما قال تعالى : ﴿ فله ما سلف وأمره إلى الله ﴾ . أيما كانأ كل من الرباقبل التحريم. روى ابن أبي حاتم عن العالية بنت أبقع : ٤٢٧ [ان عائشة زوج النبي ﷺ قالت لها أم بحنة أم ولد زيد ابن أرقم : يا أم المؤمنين : أتعرفين زيد بن ارقم ؟ قالت : نعم قالت : فإني بعته عبداً إلى العطاء بثمانمائة ، فاحتاج إلى ثمنه ، فاشتريته قبل محل الأجل بستمأة فقالت : بئس ما اشتريت وبئس ما اشتريت ؛ أبلغي زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ قد بطل إن لم يتب ، قالت : فقلت أرأيت إن تركت المئتين واخذت الستمأة ؟ قالت : نعم ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ﴾] وهذا الأثر مشهور . وهو دليل لمن حرم مسألة العينة ، مع ما جاء فيها من الأحاديث ...

ثم قال تعالى : ﴿ ومن عاد ﴾ إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهي الله عنه، فقد استوجب العقوبة وقامت عليه الحجة.ولهذا قال تعالى : ﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وقد قال أبو داود عن جابر،قال: لما نزلت ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم ... ﴾ الآية قال رسول الله ﷺ : ٤٢٨ [من لم يذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله] ورواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه

وإنما حرمت المخابرة : وهي المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض ، والمزابنة : وهي اشتراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض . والمحاقلة : وهي اشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض . إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسماً لمادة الربا لأنه لا يُعلم التساوي بين الشيئين قبل الجفاف . ولذا فقد ضيق الفقهاء المسالك المفضية إلى الربا والوسائل الموصلة إليه وحرموها . لأن ما أفضى إلى الحرام حرام ، كما أن ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب .

وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم فالأصل اتقاء الشبهات . وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٤٢٩ [ان

الحلال بيّن والحرام بيّن وبين ذلك أمور مشتبهات ، فمن أتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه،ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.] وفي السنن عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٤٣٠ [دع ما يريبك إلى ما لا يريبك] وفي الحديث الآخر ٤٣١ [الإثم ما حاك في القلب وترددت فيه النفس وكرهتَ أن يطّلع عليه الناس]

وعن ابن عباس قال : آخر ما نزل على رسول الله ﷺ ، آية الربا رواه البخاري وروى أحمد عن عمر قال : من آخر ما نزل آية الربا وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها لنا فدعوا الربا والريبة .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٤٣٢ [« يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا» قال : قيل له : الناس كلهم؟ قال«من لم يأكله منهم ناله من غباره»] ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجة . ومن هذا القبيل تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات ، الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عائشة ، قالت : ٤٣٣ [لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فقرأهن ، فحرم التجارة في الخمر] وقد أخرجه الجماعة ، سوى الترمذي من طرق عن الأعمش به وهكذا لفظ رواية البخاري . وعن علي وابن مسعود قوله ﷺ : ٤٣٤ [لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه] .

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * (٢٧٧) ﴾

يخبر تعالى أنه يمحق الربا ، أي يذهبه إما بالكلية من يد صاحبه ، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به ، بل يعدمه به في الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾ روى أحمد عن ابن مسعود عن النبي ﷺ ، قال : ٤٣٥ [إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل] وهذا من باب

المعاملة ، بنقيض المقصود.وقوله تعالى : ﴿ ويربي الصدقات ﴾ قرىء بضم الياء والتخفيف ، من ربا الشيء يربو وأرباه يربيه ، أي كثّره ونمّاه . وقرىء يربّي بالضم والتشديد من التربية.. روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٣٦ [من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه ، حتى يكون مثل الجبل] وقوله تعالى : ﴿ والله لا يحب كل كفّار أثيم ﴾ أي لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل ، ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة ، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله من الحلال له فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل ، بأنواع المكاسب الخبيثة ، فهو جحود لما عليه من النعمة ، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل .

ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين بربهم ، المطيعين أمره ، المؤدين شكره ، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، مخبراً عما أعدّ لهم من الكرامة ، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ • (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ • (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ • (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ • (٢٨١) ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بتقواه ، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه ، ويبعدهم عن رضاه . فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون ﴿ وذروا ما بقي من الربا ﴾ أي أتركوا مالكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال ، بعد هذا الأنذار ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك . ٤٣٧ [وقد ذكر زيد بن أسلم وغيره أن هذا السياق نزل في بني عمر بن عمير من ثقيف ،

وبني المغيرة من بني مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم ، فتشاوروا وقالت بني المغيرة لا نؤدي الربا في الإسلام بكسب الإسلام ، فكتب في ذلك عتاب ابن أسيد ، نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية ؛ فكتب بها رسول الله ﷺ إليه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ فقالوا : نتوب إلى الله ونذر ما بقي من الربا فتركوه كلهم] ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، لمن استمر على تعاطي الربا بعد الأنذار ، قال ابن جريج قال ابن عباس : فأذنوا بحرب أي استيقنوا بحرب من الله ورسوله . وقال ابن أبي حاتم عن الحسن وابن سيرين قالا : والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا وأنهم قد أذنو بحرب من الله ورسوله ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم فإن تابوا وإلا قتلوا . وقال قتادة : أوعدهم الله بالقتل كما يسمعون ، وجعلهم بهرجاً اين ما أ توا ، فإياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا فان الله قد أوسع الحلال وأطابه ، فـــلا يلجأنكم إلى معصيته فاقة .

ثم قال تعالى : ﴿ وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون ﴾ بأخذ الزيادة ﴿ ولا تُظلَمون ﴾ أي بوضع رؤوس الأموال أيضاً بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه ولا نقص منه . وقوله : ﴿ وان كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تَصَدَّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاءً ، لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين : إما أن تقضي وإما أن تُربي . ثم يندب الله إلى الوضع عنه ، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل ؛ فقال : ﴿ وأن تَصَدَّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين ؛ وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي ﷺ بذلك :

روى الطبراني عن أبي أمامه أسعد بن زرارة قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٣٨ [من سرَّهُ أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله ، فلييسر على معسر أو ليضع عنه]

روى الإمام أحمد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : ٤٣٩ [سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة» قال ثم سمعته يقول : «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة .» قلت : سمعتك يا رسول الله تقول : من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة ثم سمعتك تقول من انظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة. قال : له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين فإذا حل الدين فأنظرَهُ فله بكل يوم مثلاه صدقة.]

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٤٤٠ [كان تاجر

يداين الناس ، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه : تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه]

ثم قال تعالى يعظ عباده ، ويذكرهم زوال الدنيا ، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا ، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ، ويحذرهم عقوبته فقال تعالى : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات يوم الأثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول ؛ رواه ابن أبي حاتم . وقد رواه ابن مردويه عن ابن عباس قال : آخر آية نزلت : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ قال ابن جريج : يقولون : إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال وبدء يوم السبت ومات يوم الأثنين رواه ابن جرير.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝ (٢٨٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ هــذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها ، وأضبط للشاهد فيها ؛ وقد نبّه على هذا في آخر الآية حيث قال عز وجل ﴿ ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ﴾ وقال سفيان الثوري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ قال : أنزلت في السَّلَم إلى أجل معلوم . وقال أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحلّه وأذن فيه ، ثم قرأ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى ﴾ رواه البخاري وثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال : قدم النبي ﷺ المدينة وهــم يسلفون في الثمار السنة والسنتين والثلاث ؛ فقال رسول الله ﷺ : ٤٤١ [من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم .] وقوله : ﴿ فاكتبوه ﴾ أمرٌ منه تعالى بالكتابة للتوثقة والحفظ . والأمر هنا أمر أرشاد لا أمر إيجاب. وقال أبو سعيد والشعبي والربيع بن أنس وغيرهم : كان ذلك واجباً ، ثم نسخ بقوله تعالى﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤدِّ الذي أئتمن أمانته ﴾ [1] روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ انه ذكر : ٤٤٢ [إن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال: إئتني بشهداء أشهدهم. قال: كفى بالله شهيداً قال: إئتني بكفيل؛ قال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقت. فدفعها إليه إلى أجل مسمى. فخرج في البحر فقضى حاجته،ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ، ثم زجّج موضعها ، ثم أتى بها البحر ثم قال : اللهــم إنك قد علمتَ أني استسلفت فلاناً ألف دينار ، فسألني كفيلاً ، فقلت : كفى بــالله كفيلاً ، فرضي بذلك ، وسألني شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً ، فرضي بذلك ؛ وإني قد جهدت أن أجد مركباً أبعث بها إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركباً، وإني استَوْدَعتُكها فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه . ثم انصرف ، وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلــده ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعلّ مركباً يجيئه بما له ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطباً ، فلما كسرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الرجل الذي كان تسلّف منه فأتاه بألف دينار وقال : والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت

(١) نسخ الوجوب في الكتابة ، لا الكتابة نفسها ؛ والكتابة أفضل .

مركباً قبل الذي أتيت فيه . قال : هل كنت بعثت إليّ بشيء ؟ قال ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت فيه ؟ قال : فإن الله قد أدّى عنك الذي بعثت به في الخشبة . فانصرف بألفك راشداً .] وهذا إسناد صحيح وقد رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم .

وقوله تعالى : ﴿ فليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾ أي بالقسط والحق ولا يَجُرْ في كتابته على أحد ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان . وقوله تعالى : ﴿ ولا يأبَ كاتب أن يكتب كما علّمه الله فليكتبْ ﴾ أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس،ولا ضرورة عليه في ذلك ، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم ، فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب ، كما جاء في الحديث : ٤٤٣ [إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق] وقوله تعالى : ﴿ وليملل الذي عليه الحق وليتقِ الله ربه ﴾ أي وليملِلِ المدين على الكاتب،ما في ذمته من الدين،وليتق الله في ذلك.﴿ ولا يبخس منه شيئاً ﴾ أي لا يكتم منه شيئاً.﴿ فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً ﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه. ﴿ أو ضعيفاً ﴾ أي صغيراً ، أو مجنوناً.﴿ أو لا يستطيع أن يمل هو ﴾ إما لعيّ أو جهل بموضع الصواب.﴿فليملل وليُّه بالعدل﴾ وقوله تعالى : ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة.﴿فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان﴾ وهذا إنما يكون في الأموال وما يقصد به المال ، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة ، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ انه قال : ٤٤٤ [« يا معشر النساء تصدَّقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار » فقالت المرأة منهن جزلةٌ : وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار قال : ﴿ تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن ﴾ قالت : يا رسول الله : ما نقصان العقل والدين ؟ قال أما نقصان عقلها ، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل ، فهذا نقصان العقل ؛ وتمكث الليالي لا تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين »]

وقوله تعالى : ﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود وقد استدل من رد المستور،بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً . وقوله تعالى: ﴿ أن تضلّ إحداهما ﴾ يعني المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾ أي يحصل لها ذكر بما وقع به من الإشهاد .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يأبَ الشهداء إذا ما دُعوا ﴾ قيل معناه : إذا دُعوا للتحمّل (١)

---

(١) قلت : التحمل هو : دعوتك لتشهد واقعةَ حالٍ .

فعليهم الإجابة ومن ها هنا استفيد أن تحمُّل الشهادة فرض كفاية ، وقيل وهو مذهب الجمهور والمراد بقوله تعالى : ﴿ ولا يأبَ الشهداء إذا ما دُعوا ﴾ للأداء [١] قال مجاهد وغيره : إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار ، وإذا شهدتَ فدعيت فأجب.وقد روي عن ابن عباس أنها تعم الحالين : التحمُّل ، والأداء . وقوله تعالى : ﴿ ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ﴾ أي ولا تسأموا أي لا تملّوا أن تكتبوا الحق على أي حال من القِلة والكثرة إلى أجله . وقوله تعالى : ﴿ ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألّا ترتابوا ﴾ أي هذا الذي أمرناكم به أعدل وأقوم للشهادة أي أثبت للشاهد إذا رأى خطه تذكر به الشهادة لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه وأقرب إلى عدم الريبة ويرجع عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة .

وقوله: ﴿ إلاّ أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألاّ تكتبوها﴾ أي إذا كان البيع حاضراً يداً بيد فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور من تركها .

فأما الإشهاد على البيع، فقد قال تعالى : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ يعني أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل،أو لم يكن فيه أجل . وهذا الأمر محمول عند الجمهور، على الإرشاد والندب، لا على الوجوب. والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري وقد رواه الإمام أحمد عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدّثهُ وهو من أصحاب النبي ﷺ ٤٤٥ [إن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي ، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه ، فأسرع النبي ﷺ وأبطأ الأعرابي ، فطفق رجال يعترّضون الأعرابي فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه حتّى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ فنادى الأعرابيُّ النبيَّ ﷺ فقال : إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه وإلاّ بعته ؛ فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي ، قال:أوليس قد ابتعته منك ؟ قال الأعرابي : لا والله ما بعتك ؛ فقال النبي ﷺ : بل قد ابتعته منك ، فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي ، وهما يتراجعان ، فطفق الأعرابي يقول : هلم شهيداً يشهد أني بايعتك ، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي ويلك إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً حتّى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول : هلم شهيداً يشهد أني بايعتك ؛ قال خزيمة : أنا أشهد أنك قد بايعته فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال : بم تشهد ؟ فقال : بتصديقك يا رسول الله فجعل رسول الله ﷺ شهادةَ خزيمة بشهادة رجلين .] وهكذا رواه أبو داود والنسائي .

---

(١) والأداء : تأديتك الشهادة بما رأيت من تلك الواقعة التي دعيت لحضورها .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يضارّ كاتب ولا شهيد ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : قال (يأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة ، فيقولان : إنا على حاجة : فيقول إنكما قد أمرتما أن تجيبا ، فليس له أن يضارّهما. وروى عن عكرمة ومجاهد وطاوس وغيرهم نحوه. وقوله تعالى : ﴿ وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ﴾ أي إن خالفتم ما أُمرتم به أو فعلتم ما نهيتم عنه فإنه فسق كائن بكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون . وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره . ﴿ ويعلمكم الله ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعلْ لكم نوراً تمشون به ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ أي عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها فلا يخفى عليه شيء من الأشياء بل علمه محيط بجميع الكائنات .



وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

يقول تعالى ﴿ وإن كنتم على سفر ﴾ أي مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ﴿ ولم تجدوا كاتباً ﴾ يكتب لكم ؛ قال ابن عباس : أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواةً أو قلماً فرهان مقبوضة في يد صاحب الحق واستدل جماعة من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعاً إلا في السفر . وقد ثبت في الصحيحين عن أنس ٤٤٦ [ان رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير رهنها قوتاً لأهله] وفي رواية (من يهود المدينة .) (١)

---

(١) قلت : فيه دليل على أن الرهن يجوز في الحضر * وهناك أمر خطير في تحويل مفهوم الرهن الشرعي إلى احتيال على الشرع ، لاستحلال الربا ويسمونه رهناً . وصورته : أن ترهن دارك أو أرضك أوغير ذلك عند زيد على مبلغ معلوم بشكل تصبح العين المرهونة في حوزة المسترهن يستعملها سكنا أو إسكاناً ، أو فلاحة بلا أي عوض مدة الرهن مع بقاء المبلغ في ذمة الراهن لاينتقص منه شيء ، فعوضاً عن أخذ الربا نقداً أخذه أجرة وسكناً ... وهذا هو الربا الصريح ... ولا عبرة لتغيير اسمه من ربا إلى «رهن» أو «بيع بالوفا» كما افتى بحله متأخرة الأحناف وسموه تلك الأسماء «إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ... » على أن الرهن المشروع أن ترهن الدار أو الارض أو غير ذلك دون ان يستثمر المسترهن المرهون وإن فعل المسترهن ، فللراهن =

وقوله تعالى : ﴿ فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤدِّ الذي أُوتُمن أمانته ﴾ روى ابن أبي حاتم بسند جيد عن أبي سعيد الخدري أنه قال : (هذه نَسخَتْ ما قبلها)(١) **إذا ائتمن بعضكم بعضاً** فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا ، وقوله تعالى : ﴿ وليتقِ الله ربَّه ﴾ يعني المؤتمن كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن الحسن وسمرة أن رسول الله ﷺ قال : ٤٤٧ [على اليد ما أخذت حتى تؤدِّيَهُ]

وقوله تعالى : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ﴾ أي لا تخفوها. ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبهُ ﴾ يعني فاجر قلبه .كقوله تعالى : ﴿ ولا نكتمْ شهادة الله إنّا إذاً لمن الآثمين ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكنْ غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلْوا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ وهكذا قال ها هنا : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم ﴾

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • (٢٨٤) ﴾

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن ، وأنه المطَّلع على ما فيهن ، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقّت وخفيت. وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : ٤٤٨ [لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ إشتدَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوْا رسول الله ﷺ ثم جثوْا على الركب وقالوا يا رسول الله : كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها . فقال رسول الله ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما

= أجر المثل يقتطع من أساس المبلغ. حتى يستوفى لأن الرهن الشرعي ما هو إلا ضمانة للدين حتى إذا لم يدفع المدين يصار إلى بيع المرهون .هذا اذا كان الراهن قادراً على الدفع وإلاّ «فنظرة إلى ميسرة» وهذا هو الرهن الشرعي... أو فالربا

(١) قلت : أي قوله تعالى : « ... فاكتبوه » أي نسخ وجوب الكتابة اما الكتابة فبقيت للندب لا للوجوب

قال أهل الكتابيْن من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا ﴿ سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير ﴾ فلما أقرّ بها القوم ونطقت بها ألسنتهم ، أنزل الله في أثرها ﴿ آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما أكتسبت ربنا لا تؤآخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾] إلى آخره ورواه مسلم مفرداً به ولفظه ٤٤٩ [فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما أكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ قال : نعم ، ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ قال : نعم ، ﴿ ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقةَ لنا به ﴾ قال : نعم ، ﴿ واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ قال : نعم .] وفي رواية ابن عباس [قد فعلت]

روى البخاري عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أحسبه ابن عمر ٤٥٠ [﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه ﴾ قال : نسختها الآية التي بعدها] وهكذا ثبت . روي عن علي وابن مسعود وكعب الأحبار والشعبي والنخعي ومحمد بن كعب القرظي وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة أنها منسوخة بالتي بعدها .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٥١ [قال الله : إذا هَمَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها سيئة ؛ وإذا هم بحسنةٍ فلم يفعلها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشراً .]

ولفظ مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : ٤٥٢ [قال الله : إذا هَمَّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة ، فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمأة ضعف واذا هم بسيئةٍ فلم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئة واحدة]

وروى مسلم عن عبدالله ، قال : ٤٥٣ [سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة[1] ، قال تلك صريح الإيمان]

---

(١) يعني كراهية الوسوسة

﴿ آمَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ • (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ • (٢٨٦) ﴾

﴿ ذكر الاحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما ﴾

* * *

روى البخاري عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٥٤ [من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلته كفتاه] . وهو في الصحيحين .

• قال الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ ٤٥٥ : [أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش]

• روى أبو عيسى الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال : ٤٥٦ [إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، ولا يقرأ بهن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان] ثم قال : هذا حديث غريب وهكذا رواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه

روى ابن مردويه عن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ : ٤٥٧ [أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش ، والمفصل نافلة]

* * *

وقوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه﴾ إخبار عن النبي ﷺ بذلك أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت عليه هذه الآية ٤٥٨ [ويحق له أن يؤمن] رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرّجاه

وقوله تعالى: ﴿والمؤمنون﴾ عطف على الرسول.ثم أخبر عن الجميع فقال: ﴿كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾ فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد فرد صمد لا إله غيره ولا رب سواه، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارّون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نُسِخ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تقوم الساعة على شريعته ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين.وقوله تعالى: ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾ أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه وقمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه، ﴿غفرانك ربنا﴾ سؤال للمغفرة والرحمة واللطف. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: في قول الله تعالى: ﴿آمن الرسول ــ إلى قوله ــ غفرانك ربنا﴾ قال قد غفرت لكم ﴿وإليك المصير﴾ أي المرجع والمآب يوم الحساب. روى ابن جرير عن جابر قال: ٤٥٩ [لما نزلت على رسول الله ﷺ: «آمن الرسول ــ إلى قوله ــ ﴿وإليك المصير﴾ قال جبريل: إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه فسأل: ﴿لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها﴾] إلى آخر الآية.

وقوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ أي لا يكلّف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه وإحسانه تعالى وهذه الآية هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما في انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ أي هو وإن حاسب وسأل، لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعَه، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿لها ما كسبت﴾ أي من خير.﴿وعليها ما أكتسبت﴾ أي من شر.وذلك ما هو ضمن التكليف. ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ أي إن تركنا فرضاً نسياناً أو فعلنا حراماً كذلك أو أخطأنا أيّ الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي [1] وروى ابن ماجه عن ابن عباس: قال قال: رسول

---

(١) قلت: ما عدا توحيد الله سبحانه ومعرفته في توحيد الذات والصفات والأسماء والأفعال فهذه لا يعذر صاحبها بالجهل بها إذ أن عليها مدار الإيمان أو الكفر

الله ﷺ : ٤٦٠ [إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه] ورواه ابن حبان والأوزاعي والطبراني .

روى ابن أبي حاتم عن أم الدرداء عن النبي ﷺ قال : ٤٦١ [إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث : عن الخطأ والنسيان والاستكراه] [١] قال أبو بكر فذكرت ذلك للحسن فقال أجل أما تقرأ بذلك قرآناً : ﴿ربنا لا تؤآخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾

وقوله تعالى : ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة ، وإن أطقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم ، وبعثت نبيك محمداً نبي الرحمة بوضعها .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ، قال : ٤٦٢ [«قال الله نعم] وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : ٤٦٣ [قال الله قد فعلت]

وجاء في الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٤٦٤ [بُعِثتُ بالحنيفية السمحة] وقوله تعالى : ﴿ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به﴾ أي من التكليف والمصائب والبلاء.لا تبتلينا بما لا قِبَلَ لنا به.وقوله تعالى : ﴿ واغفر لنا ﴾ أي فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا . ﴿ واغفر لنا ﴾ أي فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة ﴿ وارحمنا ﴾ أي فيما يستقبل، فلا توقعنا في ذنب آخر. ولهذا قالوا : إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء : أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه ، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم ، وأن يحفظه فلا يوقعه في نظيره . وقد تقدم في الحديث أن الله قال : نعم. وفي الحديث الآخر قال الله : قد فعلت . وقوله تعالى : ﴿ أنت مولانا ﴾ أي أنت وليّنا وناصرنا ، وعليك توكلنا وأنت المستعان وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلاّ بك . ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ أي الذين جحدوا دينك ، وأنكروا وحدانيتك ، ورسالة نبيك ، وعبدوا غيرك ، فانصرنا عليهم ، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة.قال الله : نعم . وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس . قال الله قد فعلت .

قال ابن جرير عن معاذ بن جبل أنه إذا فرغ من هذه السورة ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين﴾ قال : آمين ورواه وكيع عنه . انه كان إذا ختم البقرة قال : آمين

تم اختصار تفسير سورة البقرة وله الحمد

(١) في سنده : شهر فان كان ابنَ حوشب فضعيف .

(٣) سورة آل عمران مدنية وآياتها مائتان

نزلت بعد سورة الأنفال

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ الٓمٓ ۝ (١) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝ (٤) ﴾

قد ذكرنا الحديث الوارد أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : ﴿ الله لا إلٓه إلا هو الحي القيوم ﴾ و ﴿ الٓم . الله لا إلٓه إلا هو الحي القيوم ﴾ عند تفسير آية الكرسي وقد تقدم الكلام على قوله : ﴿ الٓم ﴾ في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ؛ وتقدم الكلام على قوله : ﴿ الله لا إلٓه إلا هو الحي القيوم ﴾ في تفسير آية الكرسي .

وقوله تعالى : ﴿ نزّل عليك الكتاب بالحق ﴾ يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق أي لا شك فيه ولا ريب وقوله تعالى : ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب المنزلة قبله ، فهي تصدقه بما أخبرت به ، وبشّرت في قديم الزمان من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ ، وأنزال القرآن العظيم عليه . وقوله تعالى : ﴿ وأنزل التوراة ﴾ أي على موسى بن عمران ﴿ والإنجيل ﴾ أي على عيسى بن مريم عليهما السلام ﴿ من قبل ﴾ هذا القرآن ﴿ هدى للناس ﴾ أي في زمانهما ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال بما يذكره الله من الحجج والدلائل والبراهين ويوضحه وينبّه عليه من ذلك . وقال قتادة والربيع بن أنس

الفرقان ـ ها هنا ـ القرآن وقوله تعالى : ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ أي جحدوا بها وردّوها بالباطل ﴿لهم عذاب شديد﴾ أي يوم القيامة ، ﴿والله عزيز﴾ أي منيع الجناب عظيم السلطان ﴿ذو انتقام﴾ ممن كذب بآياته وخالف رسله .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ • (٥) هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ • (٦)﴾

يخبر تعالى أنه عالم الغيب والشهادة ، لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض ، وهو الذي يخلقكم في الأرحام كما يشاء ، ذكراً أو انثى حسناً أو قبيحاً وشقياً أو سعيداً ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ أي هو الخالق فهو إذاً المستحق للآلهية وحده لا شريك له، له العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام. وهذه الآية فيها تصريح بأن عيسى بن مريم عبد مخلوق كما خلق سائر البشر ، لأن الله صوَّره في الرحم وخلقه كما يشاء ، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى ... ! ! ! ؟ وقد تقلّب في الأحشاء وتنقّل من حال إلى حال .

﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ • (٧) رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهَّابُ • (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ • (٩)﴾

يخبر تعالى ان في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أي واضحات لا التباس فيها على أحد . ومنه آيات أُخَر فيها اشتباه في الدلالة على كثير أو بعض من الناس . فالأصل في ذلك، ردُّ المتشابه إلى المحكم فمن فعل ذلك اهتدى، ومن عكس انعكس . ولهذا قال : ﴿ هن أم الكتاب ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿ وأخر متشابهات ﴾ أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، أو شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد .

وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه فقال ابن عباس : المحكمات : ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وأحكامه، وما يؤمر به ويعمل به وعنه أيضاً : المحكمات قوله تعالى: ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلاّ إياه ﴾ والآيات بعدها [١] وقال يحيى بن يعمر : الفرائض والأمر والنهي والحلال والحرام .

والمتشابهات قال أبو فاختة ، فواتح السور . وقيل في المتشابهات : المنسوخة والمقدم والمؤخر والأمثال والأقسام وما يؤمن به ولا يعمل به رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وقال محمد بن اسحق : المحكمات هن حجة الرب وعصمة العباد ورفع الخصوم الباطل ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه . والمتشابهات في الصدق ليس لهن تصريف ولا تحريف ولا تأويل ، إبتلى الله فيهن العباد ، كما ابتلاهم في الحلال والحرام ، ألاّ يصرفن إلى الباطل ، ولا يحرَّفن عن الحق .

ولهذا قال : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ ﴾ أي خروج عن الحق إلى الباطل ﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم تحريفه إلى مقاصدهم الفاسدة ، لاحتمال صرف اللفظ ، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دامغ لهم وحجة عليهم . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ ابتغاء الفتنة ﴾ أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهو حجة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وتركوا الاحتجاج بقوله : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ وغير ذلك من الآيات

---

(١) يعني الآيات رقم (٢٣) و ٢٤ – ٣٩ .

المحكمات الصريحة بأنه خلْقٌ من مخلوقات الله وعبدٌ ورسولٌ من رسل الله .

وقوله تعالى : ﴿ وابتغاء تأويله ﴾ أي تحريفه على ما يريدون . مثل أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء وروى البخاري ومسلم وأبو دواد عن العقبني ... عن عائشة رضى الله عنها قالت : ٤٦٥ [قال رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب – إلى قوله – وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ قالت : قال رسول الله ﷺ: « فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم »] لفظ البخاري وكذا رواه الترمذي .

روى الامام أحمد ... عن أبي أمامة يحدث عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ٤٦٦ [﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ قال « هم الخوارج »] وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي ، ومعناه صحيح فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج. وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسّم النبي ﷺ غنائم حنين فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة ، ففاجأوه بهذه المقالة ... فقال قائلهم وهو ذو الخويصرة : أعدل فإنك لم تعدل ؛ فقال رسول الله ﷺ : ٤٦٧ [لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل ، أيأمني على أهل الأرض ولا تأمنوني ! فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب وفي رواية خالد بن الوليد في قتله ؛ فقال دعه .. فانه يخرج من ضئضيء هذا ، أي من جنسه، قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم] ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، وقتلهم بالنهروان ثم تشعبت منهم شعوب ، وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة ، ثم انبعثت القدرية ، ثم المعتزلة ، ثم الجهمية وغير ذلك من البدع، التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ في قوله : ٤٦٨ (وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. قالوا وما هم يا رسول الله ؟ قال من كان على ما أنا عليه وأصحابي) أخرجه الحاكم بهذه الزيادة في مستدركه .

وقوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ اختلف القراء في الوقف ههنا ، فقيل على الجلالة ؛ كما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : التفسير على أربعة أنحاء : (فتفسير لا يعذر أحد في جهله به ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه

الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله) روى ابن مردويه بسنده إلى ابن العاص ، عن رسول الله ﷺ قال : ٤٦٩ [ان القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به .] روى عبد الرزاق عن ابن طاووس عن أبيه قال : كان ابن عباس يقرأ وما يعلم تأويله إلا الله . ويقول الراسخون آمنا به . وكذا رواه ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله.وعن ابن جرير إن في قراءة عبدالله بن مسعود : أن تأويله عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به . وكذا عن أبي بن كعب ، واختار ابن جرير هذا القول .

روى محمد بن اسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير : وما يعلم تأويله الذي أراد ما أراد إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمات التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد.فاتسق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضاً فنفذت الحجة،وظهر به العذر وزاح به الباطل ، ودفع به الكفر . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لأبن عباس فقال : ٤٧٠ [اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل .]

وقوله تعالى إخباراً عنهم أنهم يقولون :﴿ آمنّا به ﴾ أي المتشابه ﴿ كل من عند ربنا﴾ أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق ، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له لأن الجميع من عند الله وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد ، كقوله : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها،أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة . روى الإمام أحمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : ٤٧١ [سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارَءُون.فقال : « إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً ، فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا به ، وما جهلتم فكِلوه إلى عالمِه]

ثم قال تعالى عن الراسخين في العلم انهم دعوا ربهم قائلين : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ أي لا تُملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ، ﴿ وهب لنا من لدنك رحمةً ﴾ تثبت بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا ، وتزيدنا بها إيقاناً وإيماناً﴿ إنك أنت الوهاب﴾ . روى ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ٤٧٢ [كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قلت : يا رسول الله ما أكثر

ما تدعو بهذا الدعاء ؛ فقال : ليس من قلب إلاّ وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيغَه أزاغه ، أما تسمعي قوله : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمةً انك أنت الوهاب ﴾] غريب من هذا الوجه ولكن أصله ثابت في الصحيحين وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الآية الكريمة .

وقوله تعالى : ﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ﴾ أي يقولون في دعائهم : إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم ، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه ، وتجزي كلاً بعمله وما كان عليه في الدنيا من خير وشر .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً وَأُولٰئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ • (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ • (١١) ﴾

﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي بآيات الله وكذبوا رسله وخالفوا كتابه ﴿ لن تغنيَ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وَقود النار ﴾ أي حطبها الذي تسجر بــه كقوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ وروى ابن مردويه بسنده عن أم الفضل : ٤٧٣ [ان رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة ، فقال : هل بلغت يقولهـا ثلاثا ؛ فقام عمر بن الخطاب وكان أواها ، فقال : اللهم نعم ، وحرصت وجهدت ، ونصحت ، فاصبر فقال النبي ﷺ « ليظهرن الإيمان حتى يُرَدَّ الكفرُ إلى مواطنه ، وليخوضنّ رجال البحار بالأسلام ، وليأتين على الناس زمان يقرأون القرآن ، فيقرأونه ويعلمونه ، فيقولون : قد قرأنا وقد علمنا ، فمن هذا الذي هو خير منا ؟ فما في أولئك من خير قالوا ويا رسول الله فمن أولئك ؟ قال أولئك منكم ، أولئك هم وقود النار] .

وقوله تعالى : ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ أي كصنيع آل فرعون ، والمعنى أن الكافرين لا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم بل يهلكون ويعذبون كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاء وابه من آيات الله وحججه ﴿ والله شديد العقاب ﴾ أي شديد الأخذ ، أليم العذاب ، لا يمتنع منه أحد وهو الفعال لما يريد الذي غلب كل شيء ، لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ۝ (١٣) ﴾

ذكر محمد بن اسحق : أن رسول الله ﷺ ٤٧٤ [لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود وقال « يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب به قريشاً] فقالوا ، يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنّا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا . فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ـ إلى قوله ـ لعبرة لأولي الأبصار ﴾] أي قل يا محمد للكافرين ستغلبون في الدنيا ، وتحشرون يوم القيامة إلى جهنم وبئس المهاد . ولهذا قال تعالى : ﴿ قد كان لكم آية ﴾ أي عبرة ﴿ في فئتين ﴾ أي طائفتين ﴿ التقتا ﴾ للقتال ﴿ فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ﴾ أي يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليْهم ، وذلك قوله تعالى:﴿ يرونهم مثليهم رأي العين ﴾ أي جعل ذلك سبباً لنصرة المسلمين عليهم.هذا ما حكاه ابن جرير عن بعض العلماء .

كما روى محمد بن اسحق عن عروة بن الزبير ٤٧٥ [أن رسول الله ﷺ لما سأل العبد الأسود لبني الحجاج عن عدة قريش قال كثير قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قال : يوماً تسعاً ويوماً عشراً قال النبي ﷺ : القوم ما بين تسعمأة إلى ألف]

والظاهر أن الله تعالى قلّل المشركين في أعين المسلمين ، وقلل المسلمين في أعين المشركين وذلك لما حصل التصاف ليقدم كل منهما على الآخر ، ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ﴾ ولما التحم الجيشان بقي المسلمون يرون المشركين قليلين . قال أبو إسحق ، عن عبدالله بن مسعود لقد قُلِّلوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي : تراهم سبعين ؟ قال : أراهم مئة قال فأسرنا رجلاً منهم ، فقلنا كم كنتم ؟ قال ألفاً ، أما المشركون فرأوا المسلمين مثليهم ليحصل الرعب والخوف والجزع والهلع في قلوبهم وذلك قوله تعالى : ﴿ يرونهم مثليهم رأى العين ﴾ أي رأوهم ألفين بأعينهم تأييداً من الله للمسلمين ولهذا قال الله تعالى : ﴿ والله يؤيد بنصره من يشاء إن في

ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ أي يعز المؤمنين ويذل الكافرين وفي ذلك عبرة لمن له بصيرة وفهم، ليهتدي به إلى حكم الله وأفعاله وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ • (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ • (١٥) ﴾

حزب ٦

يخبر تعالى عما زيّن للناس في هذه الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين ، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد. كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : ٤٧٦ [ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء] فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد ، فهذا مطلوب مرغوب فيه ، مندوب إليه قال رسول الله ﷺ : ٤٧٧ [الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة ، إن نظر إليها سرته ، وان أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله] وقال عليه الصلاة والسلام : ٤٧٨ [تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة] . وكذلك المال تارة يكون للفخر والتكبر فهذا مذموم ، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح محمود شرعاً . وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار وحاصلها : المال الجزيل. روى ابن أبي حاتم عن أنس عن رسول الله ﷺ في قوله : ٤٧٩ [القنطار يعني ألف دينار] .

« وحب الخيل على ثلاثة أقسام » تارة يكون في سبيل الله للغزو عليها فمن نوى ذلك فيثاب وتارة تربط فخراً ونواءً لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر ، وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر ، كما سيأتي الحديث بذلك إن شاء الله عند قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ الآية .

وأما المسومة : الراعية ، وقيل الغرة والتحجيل ، وقيل غير ذلك . روى الإمام أحمد عن سويد بن هبيرة عن النبي ﷺ : ٤٨٠ (خير مال امرىء له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة) المأمورة . الكثيرة النسل ، والسكة النخل المصطف ، والمأبورة الملقحة. وقوله تعالى : ﴿ والأنعام ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم ﴿ والحرث ﴾ يعني الأرض المتخذة للغراسة والزراعة . ثم قال تعالى ﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا ، وزينتها الفانية الزائلة ﴿ والله عنده حسن المآب ﴾ أي حسن المرجع والثواب . روى ابن جرير عن عمر بن الخطاب لما نزلت ﴿ زين للناس حب الشهوات ﴾ قال قلت : الآن يا رب حين زينتها لنا ؛ فنزلت ﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ﴾ أي قل يا محمد للناس أؤخبركم بخيرٍ مما زين للناس في هذي الحياة الدنيا من نعيمها الذي هو زائل لا محالة ... ثم اخبر عن ذلك فقال ﴿ للذين اتّقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد ﴿ وأزواج مطهرة ﴾ أي من الدنس والحيض والنفاس ﴿ ورضوان من الله ﴾ أي يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبدا كقوله تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم . ثم قال تعالى : ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ أي يعطي كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء .

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ (١٦) ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝ (١٧) ﴾

يصف تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل فقال تعالى : ﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمنّا ﴾ أي بك وبكتابك وبرسولك ، ﴿ فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي بإيماننا بك وبما شرعته لنا [١] فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك ﴿ وقنا عذاب

(١) قلت : أي نتوسل إليك بإيماننا بك وبكتابك وبرسولك. وهذا توسل مشروع، لأنه توسل بالأعمال الصالحة وهو أعلى الأعمال ، كيف لا وهو إيمان بالله وكتابه ورسوله ، وهناك توسل ممنوع ما علمنا إياه الله ولا بلغناه رسوله صلى الله عليه وسلم وهو : التوسل بذوات المخلوقين الذي ما هو إلا الزلفى الممنوعة التي كان يفعلها المشركون منذ الجاهلية الأولى ، فلم يتقبلها الله بل منعها ...وعلمنا خيراً منها .

النار ﴾ ﴿ الصابرين ﴾ على فعل الطاعات وترك المحرمات ﴿ والصادقين ﴾ فيما أخبروا به من الإيمان ﴿ والقانتين ﴾ الخاضعين الطائعين ﴿ والمنفقين ﴾ من أموالهم في جميع ما أمروا به من صلة الأرحام ومواساة ذوي الحاجات ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار وثبت في الصحيحين والمسانيد والسنن عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ ، قال : ٤٨١ [ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟] ... وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ، ثم يقول : يا نافع هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح . رواه ابن أبي حاتم . وقال ابن جرير عن حاطب قال : سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد وهو يقول : يا رب ، أمرتني فأطعتك ، وهذا السحر فاغفر لي . فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضي الله عنه . وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : ٤٨٢ [كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة] .

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَآئِمَاً بِٱلْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ (١٨) إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ (١٩) فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ ٱهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝ (٢٠)

شهد تعالى وكفى بالله شهيداً ، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم ، وأصدق القائلين ﴿ أنه لا إله إلا هو ﴾ أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق كما قال تعالى : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك ﴾ الآية ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته ، فقال : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ﴿ قائماً بالقسط ﴾ وهو كذلك في جميع الأحوال ﴿ لا إله إلا هو ﴾

تأكيد لما سبق ﴿ العزيز الحكيم ﴾ العزيز الذي لا يرام جنابة الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . روى ابن أبي حاتم بسنده إلى الزبير : ٤٨٣ [قال سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ هذه الآية ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة ﴾. قال وأنا أشهد أي رب] روى أبو القاسم الطبراني في المعجم الكبير بسنده عن غالب القطان : ٤٨٤ [قال أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر قام فتهجد من الليل فمر بهذه الآية ﴿ شهد الله ﴾ إلى قوله ﴿ ان الدين عند الله الإسلام ﴾ ثم قال الأعمش ، وأنا أشهد بما شهد الله به واستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة ﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾ قالها مراراً ؛ قلت : لقد سمع فيها شيئاً فغدوت إليه فودعته ثم قلت : يا أبا محمد ، إني سمعتك تردد هذه الآية قال : أو ما بلغك ما فيها ؟ قلت : أنا عندك منذ شهر لم تحدثني . قال : والله لا أحدثك بها إلى سنة ، فأقمت سنة فكنت على بابه ، فلما مضت السنة قلت : يا أبا محمد ، قد مضت السنة . قال حدثني أبو وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل : عبدي عهد إلي وأنا أحق من وفى بالعهد ، أدخلوا عبدي الجنة»] وقوله تعالى :

﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾ إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الاسلام وهو أتباع الرسل فيما بعثهم به الله حتى ختمهم بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه الا من جهة محمد ﷺ ، فمن لقي الله بعد بعثه محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبَّلٍ . كما قال تعالى : ﴿ ومن يبتغِ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ أي بغى بعضهم على بعض ، فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم فحمل ذلك على مخالفة بعضهم في جميع الأقوال والأفعال وإن كانت حقاً ، ثم قال تعالى : ﴿ ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب ﴾ في مجازاته ومحاسبته على تكذيبه وعقابه على ذلك .

ثم قال تعالى ﴿ فإن حاجُّوكَ ﴾ أي جادلوك في التوحيد ﴿ فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعنِ ﴾ أي فقل : أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ﴿ ومن اتبعنِ ﴾ أي على ديني . ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو أهل الكتاب والمشركين إلى الاسلام فقال تعالى : ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ أي والله عليه حسابهم وإليه مآبهم وهو الذي

يُضل ويَهدي من يشاء وله الحجة البالغة ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية أو الضلالة ، هذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على بعثته ﷺ العامة لجميع الخلق ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً ﴾ وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت توافره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف من بني آدم من عربهم وعجمهم كتابيهم وأميهم امتثالاً لأمر الله له بذلك

وقد روى عبد الرزاق بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : ٤٨٥ [والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودي ولا نصراني ، ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار] رواه مسلم . وقال ﷺ : ٤٨٦ [بعثت إلى الأحمر والأسود وقال : ٤٨٧ [كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * (٢١) أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ * (٢٢) ﴾

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً التي بلّغتهم إياها الرسل استكباراً أوعناداً ، واستنكافاً عن اتباع الحق وفوق ذلك قتلوا النبيين بغير ما سبب إلاّ لدعوتهم إياهم إلى الحق ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ وهذا هو غاية الكبر كما قال النبي ﷺ : ٤٨٨ [الكبر بطر الحق وغمط الناس] روى ابن أبي حاتم عن أبي عبيدة الجراح رضي الله عنه قال : ٤٨٩ [قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال : « رجل قتل نبياً ، أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ : « يا أبا عبيدة قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة فقام مائة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف

ونهوهم عن المنكر . فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم. فهم الذين ذكر الله عز وجل »] . ولذلك قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ ٱللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * (٢٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * (٢٥) ﴾

يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بالتوراة والأنجيل فإذا دُعُوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من اتّباع محمّد ﷺ أعرضوا : وهذا غايةٌ في ذمهم لمخالفتهم وعنادهم ثم قال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ أي إنهم افتروا على الله بأنهم إنّما يعذبون في النار سبعة أيام فقط وقد تقدّم تفسير ذلك في سورة البقرة [1] ثم قال تعالى : ﴿ وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ثبتهم على باطلهم ما خدعوا به أنفسهم بأن النار لا تمسهم إلا أياما معدودات وهذا محض اختلاق منهم . فتوعّدهم الله بقوله جل وعلا: ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ﴾ أي كيف يكون حالهم يوم القيامة أمامَ الله وهم الذين كذّبوا رسله وأنبياءه وقتلوهم ، وقتلوا مصلحيهم فهو سائلهم عن ذلك ومجازيهم به ذلك اليوم الذي لا شك في وقوعه ﴿ ووفيت كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ .

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * (٢٦) تُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ

---

(١) قلت : راجع قوله تعالى : «وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة» من سورة البقرة رقم الآية/٨٠

وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * (٢٧)

يقول تبارك وتعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد معظماً لربك وشاكراً له ومفوضاً إليه ومتوكلاً عليه ﴿ اللهم مالك الملك ﴾ أي أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد، لك الملك كله. ﴿ تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ﴾ أي أنت المعطي والمانع ، ما شئت كان ، وما لم تشأ لم يكن . وفي هذه الآية : تنبيه وإرشاد إلى شكره سبحانه على نعمته على هذه الأمة بتحويله النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي خاتم الأنبياء على الاطلاق ورسوله إلى الإنس والجن والذي خصته خصائص لم يُعطها نبي قبله، ولا رسول من نشر أمته في الآفاق، واظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع صلوات الله عليه وسلامه . وهكذا يعطي النبوة لمن يريد كما قال تعالى : ﴿ الله يعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ﴾ أي تأخذ من طول هذا فتزيده في قِصَرِ هذا فيعتدلان ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان ، وهكذا في فصول السنة الأربعة . وقوله تعالى : ﴿ وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ﴾ أي تخرج الزرع من الحب ، والحب من الزرع ، والنخلة من النواة والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء . ﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ أي تعطي من شئت وتقتّر على من شئت لحكمتك البالغة وطبق إرادتك ومشيئتك . روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : ٤٩٠ [اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآية من آل عمران ﴿ قل اللهم مالك الملك ــ إلى قوله ــ انك على كل شيء قدير ﴾] .

لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَـٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ • (٢٨)

نهى تبارك وتعالى المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء يسرون إليهم بالمودة من

دون المؤمنين ، ثم توعّد على ذلك ، فقال تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ﴾ أي فقد برىء من الله كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إلاّ أن تتقوا منهم تقاة ﴾ أي إلاّ من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتّقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته ، كما قال البخاري عن أبي الدرداء : إنه قال : إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم. وروى الثوري : عن ابن عباس : ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان ويؤيد هذا ، ما قاله تعالى ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلاّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ روى البخاري : قال الحسن : التقية إلى يوم القيامة ؛ ثم قال تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أي يحذركم نقمته في مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه ، وعادى أولياءه . ثم قال تعالى : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي إليه المرجع والمنقاب ليجازي كل عامل بعمله ، روى ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران ، قال : قام فينا معاذ فقال : يا بني أود إني رسول رسول الله إليكم تعلمون أن المعاد إلى الله إلى الجنة أو إلى النار .

﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ • (٣٠) ﴾

يخبر تعالى : عباده أنه يعلم سرائرهم وظواهرهم . ولا تخفى عليه منهم خافية ، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان ، في السموات والأرض لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك فيهما . ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ أي قدرته نافذة في جميع ذلك . وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما يبغضه منهم . فهو عالم بما يفعلون ، وقادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإن أمهلهم فإنما يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . ولهذا قال بعد هذا : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ يعني يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير أو شر ، فإن خيراً سرّه ، أو شراً ساءه

وودلوأنه تبرأ منه وأن يكون بينهما أمد بعيد ثم قال تعالى مؤكداً ومتوعداً ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أي يخوفكم عقابه ، ثم قال مُرجِّياً لعباده لئلا يقنطوا من رحمته ﴿ والله رؤوف بالعباد ﴾ أي رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ويتبعوا رسوله الكريم ﷺ .

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ • (٣١) قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ • (٣٢) ﴾

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع للمحمدي في كافة أقواله وأفعاله ؛ كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٤٩١ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) ولهذا قال : ﴿ ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ أي يحصل لكم وفوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم . وهو أعظم من الأول كما قال بعض الحكماء : ليس الشأن أن تُحِبَّ ، إنما الشأن أن تُحَبَّ . ثم قال تعالى : ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ أي باتباعكم الرسول ﷺ يحصل لكم هذا من بركة سفارته ، ثم قال تعالى آمراً لكل أحد من خاصٍ وعامٍ : ﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا ﴾ أي تخالفوا عن أمره : ﴿ فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر ، والله لا يحب من اتصف بذلك ، وان ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم رسل الله ورسوله للجن والإنس الذي لو كان الأنبياء والرسل بل وأولو العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلاّ أتباعه والدخول في طاعته ، واتباع شريعته ، كما سيأتي تقريرهُ عند قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ الآية ... إن شاء الله تعالى .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحاً وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ • (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ • (٣٤) ﴾

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض فاصطفى آدم عليه السلام خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجدَ له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه الجنة ، ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة ، واصطفى نوحاً عليه السلام أول رسولٍ بعثه إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله. واصطفى آلَ ابراهيم ومنهم سيدُ البشر خاتمُ الأنبياء محمد ﷺ . وآل عمران والمراد والد مريم بنت عمران أم عيسى بن مريم عليه السلام . وعيسى من ذرية أبراهيم كما سيأتي :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾

أمرأة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام وقد دعتِ الله تعالى أن يهبَها ولداً فاستجاب دعاءها ، فواقعها زوجُها فحملتْ منه . فلما تحققت الحملُ ، نذرت أن يكون مفرَّغاً للعبادة لخدمة بيت المقدس ، فقالت : يا رب ﴿ إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبّل مني إنك أنت السميع العليم ﴾ أي السميع لدعائي العليم بنيّتي ﴿ فلما وضعتها قالت ربِّ إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى ﴾ أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿ وإنّي سمَّيتها مريم ﴾ فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق لأنه شرع من قبلنا ، وقد حكي مقرراً ، وبذلك أثبتت السنّة عن رسول الله ﷺ حيث قال : ٤٩٢ [ولد لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم] أخرجاه وكذلك ثبت فيهما : ٤٩٣ [أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله ﷺ فحنكه وسمّاه عبدَ الله] فأما حديث الحسن عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال : ٤٩٤ [كل غلام مرتهن بعقيقته ، يذبح عنه يوم السابع ويسمى ويحلق رأسه] فقد رواه أحمد ، وأهل السنن ،

وصححه الترمذي ، وروي : يدعى ، وهو أثبت واحفظ والله أعلم ، وقوله إخباراً عن أم مريم أنها قالت ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ أي عوذتها وذريتها أي وهو ولدها عيسى عليه السلام فاستجاب الله لها ذلك كما روى عبد الرزاق عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٩٥ [ما من مولود يولد الا مسّه الشيطان حين يولد ، فيستهل صارخاً من مسّه إياه إلا مريم وابنها) ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿ وإنّي أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾] أخرجاه .

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ • (٣٧) ﴾

يخبر ربنا تعالى أنه تقبّلها نذيرةً ، وأنه أنبتها نباتاً حسناً بأن قرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين فلهذا قال : ﴿ وكفّلها زكريا ﴾ أي جعله كافلاً لها ، وإنما قدر الله كون زكريا كفلها لسعادتها ، لتقتبس منه علماً جماً نافعاً وعملاً صالحاً ، لكونه كان زوج أختها كما ورد في الصحيح : ٤٩٦ « [... فإذا بيحيي وعيسى وهما ابنا الخالة] وأخبر عن سيادتها وجلادتها في محل عبادتها فقال تعالى : ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ﴾ قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ، وقيل علماً أو صحفاً فيها علم رواه ابن أبي حاتم والأول أصح وفيه دلالة على كرامات الأولياء ؛ وفي السنّة لهذا نظائر كثيرة ... فاذا رأى زكريا هذا عندها ﴿ قال يا مريم أنّى لك هذا ﴾ أي يقول من أين لكِ هذا ؟ ﴿ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ • (٣٨) فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي

ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ • (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ • (٤٠) قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ • (٤١)

لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، تاقت نفسه للولد وإن كان شيخاً كبيراً قد وهن عظمه، واشتعل رأسه. وكانت امرأته كبيرةً وعاقراً فسأل ربه بنداء خفي وقال: ﴿رب هب لي من لدنك﴾ أي من عندك ﴿ذريةً طيبة﴾ أي ولداً صالحاً ﴿إنك سميع الدعاء﴾ قال الله تعالى: ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب﴾ أي خاطبته وأسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته [1] أي محل ومجلس صلاته. ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة: ﴿إن الله يبشرك بيحيى﴾ أي بولد من صلبك اسمه يحي ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ أي بعيسى بن مريم إذ هو أول من صدّق به وعلى سنته ومنهاجه.

وقوله تعالى: ﴿وسيّداً﴾ أي سيداً في العلم والحلم والعبادة والخلق. وقوله تعالى: ﴿وحصوراً﴾ قيل أنه لا يأتي النساء، أو لا ينزل الماء، أو ذكرُه مثل هدبة الثوب أو مثل القذاة ... !!!

وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء: (إعلم ان ثناء الله على يحي أنه كان ﴿حصوراً﴾ ليس كما قاله بعضهم ... بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين، ونقاد العلماء وقالوا: هذه نقيصة وعيب، ولا يليق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب كأنه حصور عنها.

إن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى عليه الصلاة والسلام، أو بكفاية من الله عز وجل ليحي عليه الصلاة والسلام، ثم هي في حق من قدر عليها، وقام بالواجب فيها، ولم تشغله عن ربه

(١) المحراب هو المسجد كله. وليس هو الفجوة الموجودة في جدار القبلة، فهذه بدعة محدثة... ما كانت في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا في زمن صحابته، والوليد بن عبد الملك قيل إنه هو الذي أحدثها وأحدث بدعة إدخال قبر الرسول في المسجد بالمدينة رغم نهيه فالله حسيبه

درجة علياً . وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة ، بتحصينهن وقيامه عليهن ، وإكسابه لهن وهدايته إياهن، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو ، وان كانت من حظوظ دنيا غيره . فقال : ٤٩٧ (حبب إلي من دنياكم ...) هذا لفظه والمقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء ، بل معناه كما قاله هو وغيره : انه معصوم من الفواحش والقاذورات ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلاءهن بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال ﴿ هب لي من لدنك ذرية طيبة ﴾ كأنه قال : ولداً له ذرية ونسل وعقب والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * * *

وقوله تعالى ﴿ ونبياً من الصالحين ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى عليه السلام بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى كقوله لأم موسى ﴿ إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة ، عجب من وجود الولد بعد الكبر ﴿ قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال ﴾ أي الملك ـ ﴿ كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء ﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ أي علامة استدل بها على وجود الولد مني ﴿ قال آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ﴾ أي إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح ثم أمر بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح في هذه الحال ، فقال تعالى ﴿ واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار ﴾ وسيأتي طرف آخر في بسط هذا المقام في أول سورة مريم ان شاء الله تعالى .

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ * (٤٢) يَا مَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ * (٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * (٤٤)

يخبر تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم بنت عمران عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك إن الله اصطفاها لكثرة عبادتها وطهارتها من الأكدار والوساوس ، واصطفاها ثانية

مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين ، وقد روى مسلم بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٤٩٨ [خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد] اخرجاه في الصحيحين .

روى الترمذي بسنده عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : ٤٩٩ [حسبك من نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون] تفرد به الترمذي وصححه .

روى ابن جرير بسنده عن أبي موسى الأشعري ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٠٠ (كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلاّ مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون) وقد أخرجه الجماعة إلاّ أبا داود من طرق عن شعبة به .

ولفظ البخاري : ٥٠١ (ويكمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا اسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) وقد أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروا مريم بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل لما يريد الله من الأمر الذي قدره الله وقضاه ، مما فيه محنة لها ، ورفعة في الدارين بما أظهر الله فيها من قدرته العظمى حيث خلق منها ولداً من غير أب فقال تعالى : ﴿ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ أما القنوت فهو الطاعة في خشوع قال مجاهد : كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها ، والقنوت هو طول الركوع في الصلاة ، ﴿ وإسجدي واركعي من الراكعين ﴾ أي كوني منهم ثم قال تعالى لرسوله بعدما أطلعه على جليّة الأمر ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ أي نقصه عليك ﴿ وما كنت لديهم ﴾ أي ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر ، وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيّهم يكفلها ، وذلك لرغبتهم في الأجر .

قال ابن جرير عن عكرمة قال : ثم خرجت أم مريم بمريم تحملها في خرقها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى عليهما السلام قال : وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجبة من الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فاني حررتها ، وهي أنثى ، ولا يدخل الكنيسة حائض وأنا لا أردها إلى بيتي ، فقالوا : هذه ابنة إمامنا ـ وكان عمران يؤمهم في الصلاة ـ وصاحب قربانا؛ فقال زكريا : إدفعوها لي فإن خالتها تحتي ، فقالوا : لا تطيب أنفسنا ، هي ابنة إمامنا ، فذلك حين اقترعوا بأقلامهم التي يكتبون

بها التوراة فقرعهم زكريا فكفلها ، وكان مع ذلك - أي زكريا - كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبيهم ، صلوات الله على نبينا وعليه وعلى سائر النبيين .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ • (٤٥) وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ • (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ • (٤٧) ﴾

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأن سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير . قال الله تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمةٍ منه ﴾ أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله ، أي يقول له : كن فيكون ، وهذا تفسيرُ قوله تعالى : ﴿ مصدّقاً بكلمةٍ من الله ﴾ كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه ﴿ اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾ نسبة إلى أمه حيث لا أب له . ﴿ وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين ﴾ أي له وجاهةٌ ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه إليه من الشريعة ، وينزل عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه الله به ؛ وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله تعالى : ﴿ ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ﴾ أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره ، معجزة وآيةً وفي حال كهولته حين يوحي الله إليه ﴿ ومن الصالحين ﴾ أي في قوله وعمله ، له علم صحيح وعمل صالح .

روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : ٥٠٢ (لم يتكلم في المهد إلاّ ثلاث : عيسى ، وصبي كان في زمن جريج ، وصبي آخر) [1] فلما

(١) قلت: لعله الرضيع الذي قال لأمه: (اصبري يا أماه فإنك على الحق) من حديث قصة الأخدود لما أن تقاعست أن تقع في النار التي أضرمها ذو نواس اليهودي باليمن، ليرجع النصارى المؤمنين عن دينهم الحق، الى اليهودية.

سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله عز وجل قالت: ﴿ربي أنّى يكونُ لي ولد ولم يمسسني بشر﴾ كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج ولا من عزمي أن أتزوج فقال لها الملك ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ أي هكذا أمرُ الله عظيم لا يعجزه شيء وصرّح ههنا بقوله تعالى: ﴿يخلق ما يشاء﴾ ولم يقل: يفعل، كما في قصة زكريا بل نص ههنا بقوله ﴿يخلق ما يشاء﴾ لئلاّ تبقى لمبطل شبهة. وأكّد ذلك بقوله تعالى: ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي فلا يتأخر شيئاً بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة كقوله تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ أي إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح البصر.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ (٤٩) وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ (٥٠) إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ (٥١)﴾

يخبر تعالى عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام: إن الله يعلّمه الكتاب والحكمة والظاهر أن المراد بالكتاب ههنا: الكتابة. والحكمة تقدم تفسيرها في سورة البقرة[1] ﴿والتوراة﴾ الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام ﴿والإنجيل﴾

---

(١) ورد لفظ الحكمة في سورة البقرة في عدة مواضع، وخلاصة المعنى أن الحكمة هي: معرفة الحقيقة في كل شيء، ووضع الأشياء في محلها مع مراعاة الصحة في الحكم. فتحري الحقائق العلمية والفقه في الدين لمعرفة مراد الله من أحكامه هي الحكمة البالغة «ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» فهي أمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله.

الكتاب الذي أنزل على عيسى عليه السلام وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا . وقوله تعالى ﴿ ورسولاً إلى بني اسرائيل ﴾ قائلاً لهم : ﴿ أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﴾ فكان يصوّر من الطين شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل ﴿ وأبرىء الأكمه ﴾ الذي يولد أعمى وهو أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي ﴿ والأبرص ﴾ معروف ﴿ وأحيي الموتى بإذن الله ﴾ قال كثير من العلماء بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه . فزمان موسى عليه السلام غلب عليه السحر فلقفت عصاةموسى ثعابينهم التي ما هي إلاّ الحبال والعصيّ . وفي زمان عيسى عليه السلام غلب الطب فجاءهم بما لا قبل لهم به وهو إحياء الموتى وشفاء الأكمه والأبرص وكذلك محمد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء فأتاهم بكتاب من الله عز وجل ، فلو اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . وقوله تعالى : ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم ﴾ الآن وغداً ﴿ إن في ذلك لآية لكم ﴾ على صدقي فيما جئتكم به ﴿ إن كنتم مؤمنين ، ومصدقا لما بين يديّ من التوراة ﴾ أي مقرراً لها ومثبتاً ﴿ ولأحلّ لكم بعض الذي حرّم عليكم ﴾ فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين ثم قال تعالى : ﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ أي بحجّة دالة على صدقي فيما أقول لكم ﴿ فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه ﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له والخشوع والاستكانة إليه ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾

نصف الحزب

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ • (٥٢) رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّاهِدِينَ • (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ • (٥٤) ﴾

يقول تعالى ﴿ فلمّا أحسّ عيسى ﴾ أي استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار

على الضلال ﴿ قال من أنصاري إلى الله ﴾ أي من أنصاري في الدعوة إلى الله ﴿ قال الحواريّون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ الحواريون جمع حواري وهو الناصر كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب ، فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير رضي الله عنه ، فقال النبي ﷺ : ٥٠٣ [لكل نبي حواري وحواريّ الزبير] وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ قال : مع أمة محمد ﷺ وهذا إسناد جيد .

ثم قال تعالى عن ملإٍ من بني إسرائيل ، فيما هَمُّوا به من الفتك بعيسى عليه السلام وإرادته بالسوء والصلب حين تمالؤوا عليه ، ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان ، وكان كافراً : أن هنا رجلاً يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك ويفسد الرعايا. وأنه ولد زنية حتى استثاروا غضب الملك. فبعث في طلبه فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به، نجاه الله تعالى من بينهم ورفعه إليه وألقى شبهه على أحدهم فاعتقدوه عيسى فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك . وكان هذا من مكر الله بهم فإنه نجّى عبده ورسوله ورفعه،وتركهم في ضلالهم يعمهون . ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ • (٥٥) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ • (٥٦) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ • (٥٧) ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَاتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ • (٥٨) ﴾

اختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ إني متوفّيك ورافعك إليّ ﴾ فقال قتادة وغيره

هذا من المقدم والمؤخر ، تقديره إني رافعك ومتوفيك ، يعني بعد ذلك . وقيل : متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت ، وقيل : تَوَفِّيهِ رفعُهُ ، وقال الأكثرون : المراد بالوفاة — ها هنا — النوم ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ وقال تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم : ٥٠٤ [الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا] وقيل : رفعه في منامه [1] . وقال تعالى : ﴿ ... وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قبل موته ﴾ عائد على عيسى عليه السلام ، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة على ما سيأتي بيانه — إن شاء الله — ﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ وهكذا وقع فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إليه ، تفرقت أصحابه شيعاً بعده. فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته . ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله ، وآخرون قالوا : هو الله ، وآخرون قالوا : هو ثالث ثلاثة . وقد حكى الله مقالتهم في القرآن ورد على كل فريق ، فاستمروا على ذلك قريباً من ثلاثمئة سنة ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان اسمه قسطنطين ، فدخل في دين النصرانية، قيل حيلة ليفسده، فزاد فيه ونقص منه ووضعت له القوانين وأحل في زمانه لحم الخنزير ، وصلّوا له إلى الشرق وصوروا له الكنائس والمعابد والصوامع وزاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه وصار دين المسيح (دين قسطنطين) إلا أنه بنى لهم من الكنائس والصوامع والمعابد والأديرة مـــا يزيد على اثني عشر ألف معبد وبنى المدينة المنسوبة إليه. وهم في هذا كله قاهرون لليهود أيده الله عليهم ، لأنه أقرب إلى الحق منهم وإن كان الجميع كفاراً .

فلما بعث الله محمداً ﷺ فكان كل من آمن به، يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق ، فكان أتباع محمد هم أتباع كل نبيّ على وجه الأرض لأنه دعاهم إلى التصديق بجميع الحق فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته ، فلهذا ولما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقاً ، سلبوا النصارى بلاد الشام وألجؤوهم إلى الروم . فلجأوا إلى مدينتهم القسطنطينية . ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة .

---

(١) قلت : والراجح عندي والله أعلم قول قتادة وغيره : هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إليّ ومتوفيك

وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ويستفيئون ما فيها من الأموال [١] ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها. ولهذا قال تعالى: ﴿ وجاعل الذين أتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ وكذلك فعل بمن كفر من اليهود أو غلا فيه أو أطراهُ من النصارى، عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وإزالة الأيدي عن الممالك وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق. ﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم ﴾ أي في الدنيا بالنصر والظفر وفي الآخرة بالجنات العاليات ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ أي هذا الذي قصصنا عليك يا محمد في أمر عيسى عليه السلام ومبدأ ميلاده وكيفية أمره لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ وها هنا قال تعالى:

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * (٥٩) ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * (٦٠) فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ

(١) قلت: صدقت يا رسول الله. أشهد أنك رسول الله. فقد فتح المسلمون القسطنطينية، وصارت بلادَ إسلام بعد أن كانت بلاد كفر، بل صارت دار الخلافة الاسلامية واستولوا بعدها على ثلث أوروبا وكادوا أن يفتحوا (روما) لولا أن الموت [illegible]. وان المسلمين اليوم وإن كانوا متأخرين لأنهم هجروا أحكام الإسلام والحكم على أساسه، إنما سيرجعهم الله بعد الردة إلى الإسلام من جديد، وسيعلو الإسلام [illegible] بفتح القسطنطينية، وإذا شاء الله تعالى أن [illegible] بالإسلام [illegible] المسلمين من جهلهم أولاً ثم تطرد بلادهم من كل أثر للكفر ظاهراً كان أو باطناً، [illegible] من بعدنا الأجيال جيلاً فجيلاً... نسلم كلاً منهم هذه الأمانة حتى يحققها الله.

ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ (٦١) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ
ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ (٦٢)
فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝ (٦٣)

يقول جل وعلا : ﴿ إن مثل عيسى عند الله ﴾ في قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿ كمثل آدم ﴾ حيث خلقه من غير أب ولا أم بل ﴿ خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى . وإن جاز ادعاء البنوّة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب ، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى ومعلوم اتفاقاً إن ذلك باطل ، فدعواه في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً . ولكن الربّ جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى وحواء خلقها من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، كما خلق بقية البريّة من ذكر وأنثى . ولهذا قال تعالى في سورة مريم ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ وقال ههنا : ﴿ الحقّ من ربّك فلا تكن من الممترين ﴾ أي هذا هو الحق في شأن عيسى الذي لا محيدَ عنه ولا صحيحَ سواه ، وماذا بعدَ الحق إلاّ الضلال .

ثم قال تعالى : ﴿ فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءَكم ونساءنا ونساءَكم وأنفسنا وأنفسَكم ﴾ أيْ نُحضرهم في هذه المباهلة ﴿ ثم نبتهل ﴾ أي نلتعن ﴿ فنجعل لعنةَ الله على الكاذبين ﴾ أي منّا ومنكم .

وسبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران . فإن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجّون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوّة والإلهية فأنزل الله صدر هذه السورة ردّاً عليهم ؛ كما ذكر الإمام محمد بن اسحق بن يسار في سيرته تلخيصاً وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم : وهم العاقب وكان أميرهم وصاحب الرأي والمشورة ، والسيد وكان عالمهم ، وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وكان من بكر بن وائل فتنصّر فعظمته الروم وملوكها وشرّفوه وكان يعرف أمر رسول الله ﷺ وصفته وشأنه بما علمه من الكتب المتقدمة ولكن حمله ذلك على الاستمرار في النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها ، وجاهه عند أهلها قال

قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر عليهم الحبّرات والجبب والأردية ، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ : ٥٠٥ [فقال رسول الله ﷺ دعوهم فصلوا إلى المشرق قال فكلّم الثلاثة رسول الله ﷺ فقالوا عن عيسى أنه الله وابن الله وثالث ثلاثة تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

ويحتجون في قولهم هو الله ... بأنه كان يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص والأسقام ويخبر بالغيوب وغير ذلك . وفي قولهم بأنه ابن الله انه لم يكن له أب يعلم وقد تكلم في المهد ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى : فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فيقولون لو كان واحداً ما قال إلا فعلتُ وأمرت وقضيت وخلقت ولكنه هو وعيسى ومريم تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون علواً كبيراً . وفي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن، فلما كلمه الحبران، قال لهما رسول الله ﷺ : (أسلما) قالا قد أسلمنا . قال :«أنكما لم تسلما فأسلما»قالا : بلى قد أسلمنا قبلك . قال : «كذبتما يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير» قالا فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ فلم يجبهما . فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها. قال ابن اسحق فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم أن ردّوا ذلك عليه ، ودعاهم إلى ذلك فقالوا: يا أبا القاسم ، دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه. ثم انصرفوا عنه. ثم خلوا بالعاقب، وكان صاحب رأيهم فقالوا : يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال:والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبيٌّ مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قومٌ نبياً قط ، فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم فأتوا النبي ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا ، فإنكم عندنا رضا . قال محمد بن جعفر فقال رسول الله ﷺ:« أئتوني العشية أبعثْ معكم القويّ الأمين » فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما أحببت الأمارة قط ، حبي إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجراً ، فلمّا صلى رسول الله ﷺ الظهر ، سلّم ثم نظر عن يمينه وعن شماله ، فجعلت أتطاول له ليراني فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه

فقال : « أخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه » قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة رضي الله عنه .]

والغرض : أن وفودهم كان في سنة تسع ، لأن الزهري قال : كان أهل نجران أول من أدّى الجزية إلى رسول الله ﷺ ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح وهي قوله تعالى ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ـ إلى قوله ـ حتّى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾ قال جابر : ﴿ أنفسنا وأنفسكم ﴾ رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ﴿ وابناءنا ﴾ الحسن والحسين ﴿ ونساءنا ﴾ فاطمة . ثم قال تعالى ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد. ﴿ وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم فإن تولّوا فإن الله عليم بالمفسدين﴾ أي من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به وسيجزيه على ذلك شر الجزاء وهو القادر الذي لا يفوته شيء سبحانه وبحمده ونعوذ به من حلول نقمته

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * (٦٤) ﴾

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا . ثم وصفها بقوله ﴿ سواء بيننا وبينكم ﴾ أي عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها ، ثم فسرها بقوله ﴿ أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾ لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً ، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له ، وهذه دعوة جميع الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ؛ ثم قال تعالى : ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ قال ابن جريج : يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله ﴿ فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ أي فإن تولّوا عن هذا النصَف وهذه الدعوة ، فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم

وقد ذكرنا في شرح البخاري عند روايته من طريق الزهري بالسند إلى أبي سفيان في قصته حين دخل على قيصر فسأله عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه فأخبره بجميع ذلك على الجلية ، مع أن ابا سفيان إذ ذاك كان مشركاً ، لم يسلم إلا بعد... وكان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح ، كما هو مصرح به في الحديث... والغرض أنه قال ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه :

٥٠٦ [بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من أتبع الهدىٰ أما بعد ، فأسلم تسلمْ ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن تولّيت فإنما عليك إثم الأريسيّين و﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباًمن دون الله فإن تولَّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون ﴾] .

وقد ذكر ابن اسحق وغير واحد أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها ، نزلت في وفد نجران ، وقال الزهري هم أول من بذل الجزية ، لا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح ، فما الجمع بين كتابة هذه الآيةقبل الفتح إلى هرقل في جملة الكتاب ، وبين ما ذكره ابن اسحق والزهري ؟ والجواب عن وجوه (١) يحتمل نزولها مرتين قبل الحديبية ومرة بعد الفتح (٢) أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى هذه الآية وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك (٣) يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية ، وبذل الصلح عن المباهلة من دون الجزية (٤) يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكتب هذا في كتابه إلى هرقل لم يكن أنزل بعد ثم أنزل القرآن موافقة له ﷺ (١)

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٦٥) ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٦٦) ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا

(١) والظاهر – والله أعلم – أن الأمر كما احتمله ابن كثير في الوجه الثاني : أي أن صدر سورة آل عمران نزلت في وفد نجران إلى هذه الآية وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك .

وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * (٦٧) إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ * (٦٨)

ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى في محاجّتهم في إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ودعوى كل طائفة أنه كان منهم كما قال محمد بن اسحق بن يسار عن ابن عباس قال : إجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ ، فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجّون في إبراهيم ... ﴾ أي كيف تدّعون أيها اليهود أنه كان يهودياً وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً مع تقدمه في الزمن إذ أن اليهودية والنصرانية كانتا بعد زمنه بدهر ، ولذا قال تعالى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم . فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم ﴾ الآية فالطرفان تحاجّا في إبراهيم بلا علم . ولو أنهما تحاجّا فيما يعلمون من دينَيْهما لكان أولى . لذا فقد أنكر الله على اليهود والنصارى ذلك ، وأمرهم برد العلم إليه تعالى ولهذا قال : ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ أي مائلاً عن الشرك إلى الإيمان ﴿ وما كان من المشركين ﴾ ثم قال تعالى ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتّبعوه وهذا النبيُّ والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ أي أحق الناس بابراهيم هم الذين أتبعوه على دينه في حينه . وهذا النبي أي محمد ﷺ والذين آمنوا من أصحابه ومن تبعهم بعدهم . روى سعيد بن منصور بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ان رسول الله ﷺ : ٥٠٧ [لكل نبي ولاة من النبيين ، وإن وليّ منهم أبي وخليل ربي عز وجل إبراهيم عليه السلام ثم قرأ : « إن أولَى الناس بإبراهيم للذين أتبعوه ... » الآية] والله وليّ المؤمنين » أي جميع المؤمنين بأنبيائه ورسله .

وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * (٦٩) يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ

بِآيَاتِ اللهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * (٧١) وَقَالَت طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * (٧٤)

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين ويبغون إضلالهم ، ولم يعلموا أنهم ممكور بهم ، وأن وبال ذلك يعود على أنفسهم دون أن يشعروا ، ثم أنكر عليهم فقال تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ أي تعلمون صدقها وحقها ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ أي تكتمون الحق الذي في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره ﴾ هذه مكيدة بضعفاء الناس تلبيساً عليهم فإنهم اتفقوا أن يظهروا إيمانهم أول النهار ويصلّوا مع المسلمين الصبح ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ، ليوهموا الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ أي لا تطمئنوا أو تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين من التوراة من ذكر رسول الله ﷺ ولزوم اتباعه فيحتجون به عليكم فلا تظهروه إلاّ لأهل ملّتكم ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان وقوله تعالى : ﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، أو يحاجّوكم عند ربكم ﴾ يقولون : خشية أن يساووكم بالعلم ، أو يتخذوه حجةً عليكم في الدنيا والآخرة فلا تظهروه . قال تعالى : ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴾ أي تحت تصرفه، وهو المعطي المانع ، يمنُّ على من يشاء بالإيمان والعلم والتصرف التام، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته، بما صرف عن الحق وله الحجة التامّة والحكمة البالغة

﴿ والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ أي اختصكم أيها المؤمنون بالفضل، وهداكم إلى أكمل شرع ، وجعلكم أتباع أشرف نبيٍّ .



﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ • (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ • (٧٦) ﴾

يخبر تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة ، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم فإن منهم ﴿ من إن تأمنه بقنطار ﴾ أي من المال ﴿ يؤدّه إليك ﴾ أي وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك ﴿ ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك إلا ما دمت عليه قائماً ﴾ أي بالمطالبة الملحَّة في استخلاص حقك، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار، فما فوقه أولى أن لا يؤدّيَه إليك . وقد تقدّم الكلام على القنطار في أول السورة [١] وأما الدينار فمعروف ، ومناسب أن يذكر ها هنا الحديث الذي علّقه البخاري في غير موضع من صحيحه ومن أحسنها سياقةً في كتاب الكفالة ـ وقد رواه الأمام أحمد وتقدم ذكره في سورة البقرة فلا حاجة لإعادته [٢] ـ

وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ﴾ أي إنما حملهم على الجحود أي جحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا في ديننا حرجٌ في أكل أموال الأميين وهم العرب ، فإن الله قد أحلّها لنا . قال الله تعالى ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ أي وقد اختلقوا هذه المقالة وائتفكوها بهذه الضلالة فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنما هم قوم بُهْتٌ . روى ابنُ أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : ٥٠٨

(١) عند قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات ... » رقم /١٤/ .

(٢) هو في الجزء الثالث من سورة البقرة عند قوله تعالى .. « فاكتبوه » ثم نسخ ذلك بقوله تعالى « فان أمن بعضكم ... » رقم الحديث /٤٤٢/ فليرجع إليه من يشاء .

[لما قال أهل الكتاب : ليس علينا في الأميين سبيل قال نبي الله ﷺ : « كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميَّ هاتين إلاَّ الأمانة ، فإنها مؤدَّاة إلى البر والفاجر »][1] ثم قال تعالى : ﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى ﴾ أي لكن من أوفَى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بعث كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك ، واتقى محارم الله ، واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيدهم ﴿ فإن الله يحب المتقين ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٧٧)

يقول تعالى : إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتّباع محمد ﷺ ، وذكر صفته للناس وبيان أمره ، وعن أيمانهم الكاذبة بالأثمان القليلة الزهيدة وهي ، عروض دنيوية فانية ﴿ أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿ ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ﴾ برحمته ولا يكلمهم كلام لطفٍ بهم ﴿ ولا يزكّيهم ﴾ أي من الذنوب والأدناس بل يأمر بهم إلى النار ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر :

١ – أخرج الشيخان من حديث الأعمش : عن شقيق عن عبد الله[2] قال : قال رسول الله ﷺ ٥٠٩ [من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال أمرىء مسلم لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان فقال الأشعث : فيَّ والله كان ذلك ، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض ، فجحدني أرضي فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ : ألك بيّنة ؟ قلت : لا ، فقال اليهودي أحلف . فقلت : يا رسول الله ، إذاً يحلف فيذهب مالي ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ الآية .]

---

(١) قلت : وشتان ما بين ما عليه اليهود من أكل الأموال بالباطل بحجة مختلقة مؤتفكة ، وبين ما يدعو إليه الإسلام الحنيف : فقد قال ابن عباس : انهم اذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب نفس وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم – أعلاه ٥٠٨ – فيه الفصل .

(٢) ابن مسعود .

٢ً – : روَى الإمام أحمد عن عدي بن عميرة الكنْدي قال : ٥١٠ [خاصم رجل من كِندة ، يقال له امرؤ القيس بن عامر رجلاً من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض ، فقضى على الحضرمي بالبّينة ؛ فلم يكن له بينة فقضى على امرىء القيس باليمين ، فقال الحضرمي أمكنته من اليمين يا رسول الله ؟ ذهبتْ وربّ الكعبة أرضي ، فقال النبي ﷺ « من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال أحد لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان قال رجاءُ:وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ...﴾ فقال امرؤ القيس : ماذا لمن تركها يا رسول الله ؟ فقال: «الجنة» قال فاشهد أني قد تركتها له كلها] .

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * (٧٨) ﴾

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله، أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه، ويبدّلون كلام الله ويزيلونه عن المراد به ، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك وينسبونه إلى الله وهو كذب عليه، وهم يعلمون أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ وقال مجاهد وغيره : ﴿ يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ يحرّفونه . ولا شك أن ما بأيديهم من ذلك، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * (٨٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ما كان لبشر : أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ـ إلى قوله ـ بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ أي ما ينبغي لنبيّ ولا مرسل أن يقول للناس اعبدوني مع الله ! فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولىٰ والأحرىٰ. وذلك أن أهل الكتاب كان يعبد بعضهم بعضاً يعني أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى : ﴿ إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ الآية ... وفي المسند والترمذي كما سيأتي : ٥١١ [أن عديّ بن حاتم قال : يا رسول الله ما عبدوهم . قال : بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم] فالجهلة من الأحبار والرهبان، ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به، وبلّغتهم إياه الرسل الكرام ، وينهون عما نهى الله ورسُلُه ، فالرسل هم السفراء الأمناء بين الله وخلقه فقاموا بذلك أتم قيام ، ونصحوا الخلق ، وبلغوا الحق . وقوله تعالى : ﴿ ولكن كونوا ربانيِّين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ أي ولكن يقول الرسول للناس كونوا ربانيّين أي علماء حلماء فقهاء أهل عبادة وتقوى . وقال الضحاك في قوله تعالى : ﴿ بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ أي تُفهمون الناس معانيه وتعلّمونهم أحكامه وأوامره ونواهيه، لا أن تحفظوا ألفاظه فحسب...[1] ثم قال الله تعالى : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ﴾ أي ولا يأمركم النبي بعبادة أحد غير الله : لا نبي مرسل ولا ملك مفضل ﴿ أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ أي لا يأمر النبي بالكفر ولا عبادة غير الله ، والأنبياء إنما يأمرون بالايمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ وذلك إخباراً عن الملائكة .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ

(١) قلت : لقد صار حفظ ألفاظ ... القرآن فقط في زماننا ، صنعةً عند الذين اتخذوا قراءة القرآن في الحفلات والمآتم... يتعجلون أجره ولا يتأجلونه! وهو لا يتجاوز حناجرهم. وسموا ظلماً بالقرّاء..!!! وما القرّاء في مفهوم الشرع، إلا العلماء والفقهاء ... فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وإنا إليه راجعون .

قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ * (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ * (٨٢)

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبيّ بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام ، لمهما آتى الله أحدهم من كتابٍ وحكمةٍ ، وبلغ أي مبلغ ، ثم جاء رسول من بعده ليؤمنَنّ به ولينصرنّه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من أتباع من بعث بعده ونصرته. ولهذا قال تعالى وتقدس : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ﴾ أي لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنّه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني عهدي ﴿ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولّى بعد ذلك ﴾ أي عن هذا العهد والميثاق ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ قال علي وابن عمه ابن عباس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق ، لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمننّ به ولينصرنّه . وقال طاووس والحسن البصري وقتادة : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً . وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس ولا ينفيه ، بل يستلزمه ويقتضيه . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت قال : ٥١٢ [جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني أمرت بأخ لي يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله بن ثابت: قلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضيت بالله ربّاً ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، قال : فسرّي عن النبي ﷺ وقال : « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه ، وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين »] وروى الحافظ أبو يعلى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ ٥١٣ [لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا ... وإنكم إما أن تصدّقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق ، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتّبعني] .

فرسول الله ﷺ ، هو الإمام الأعظم ، الواجب الطاعة ، المقدم على الأنبياء جميعاً ، وهو إمامهم ليلة الاسراء ببيت المقدس ، وصاحب الشفاعة العظمى ، والمقام المحمود ، صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ * (٨٥) ﴾

ينكر الله سبحانه على من أراد ديناً غير دين الله الذي أنزل به كتبه ، وأرسل به رسله وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، الذي له أسلم من في السموات والأرض أي استسلم له من فيهما طوعاً وكرهاً. كما قال تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالَف ولا يمانَع . وقال وكيع في تفسيره عن مجاهد : ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ . قال : هو كقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ وقيل : حين أخذ الميثاق ، قاله ابن عباس . ﴿ وإليه يرجعون ﴾ ، أي يوم المعاد فيجازي كلاً بعمله . ثم قال تعالى : ﴿ قل آمنا بالله وما أُنزل علينا ﴾ يعني القرآن ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ﴾ أي من الصحف والوحي، ﴿والأسباط﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل – وهو يعقوب – الإثني عشر ، ﴿ وما أوتي موسى وعيسى ﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل ، ﴿ والنبيّون من ربهم ﴾ وهذا يعمُّ جميع الأنبياء ، ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ يعني بل نؤمن بجميعهم ، ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبيٍّ أرسل ، وبكل كتابٍ أنزل ، لا يكفرون بشيء من ذلك ، بل هم مصدقون بما أنزل من عند الله وبكل نبيٍّ بعثه الله .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ الآية... أي من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله ، فلن يقبل منه ﴿ وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ كما قال ﷺ في الحديث الصحيح : ٥١٤ [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ] .

﴿ كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ * (٨٦) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * (٨٨) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * (٨٩) ﴾

قال ابن جرير عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله هل لي من توبة ؟ فنزلت ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات ﴾ أي قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاء به الرسول ووضح لهم الأمر ، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك ، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية . ولهذا قال الله تعالى: ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ثم قال تعالى ﴿ أولئك جزاؤهم أنَّ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ أي يلعنهم الله ويلعنهم خلْقُه ﴿ خالدين فيها ﴾ أي في اللعنة ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يفتّر عنهم العذاب ساعةً واحدةً ثم قال تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾ وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته بخلقه ، أن من تاب إليه تاب عليه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلضَّالُّونَ * (٩٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * (٩١) ﴾

توعد الله من كفر بعد إيمانه ثم استمر على ذلك حتى مات، وأخبر بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات كما قال تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى

إذا حضر أحدهم الموت ﴾ الآية ولذا قال هنا : ﴿ لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالّون ﴾ أي التاركون الحق إلى الباطل . روى البزار بسنده عن ابن عباس : ٥١٥ (إن قوماً أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا ، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم ﴾ وإسناده جيد . ثم قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ أي من مات كافراً لن يقبل منه خير أبداً ، ولو كان يقري الضيف ، ويفك العاني ، ويطعم الطعام ، لا ينفعه ذلك ، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيمـــا يراه قربة : ٥١٦ كمـــا [سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جدعان وكان يقري الضيف ، ويفك العاني ، ويطعم الطعام ، هل ينفعه ذلك ؟ فقال « لا إنه لم يقل يوماً من الدهر : ﴿ رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾] وكذلك لو افتدى بملء الأرض ذهباً ما قبل منه كما قال تعالى : ﴿ ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ ويقتضي ذلك أن لا ينقذهُ من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : ٥١٧ [يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء ، أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول : نعم فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك] وهكذا أخرجه البخاري ومسلم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ أي وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه .

﴿ لَنْ تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * (٩٢) ﴾

جاء في الصحيحين : أن عمر قال : ٥١٨ [يا رسول الله لم أصب مالاً قط هو

أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر ، فما تأمرني به ؟ قال : حبّس الأصل وسبّل الثمرة] (١) .

وقال البزار عن حمزة بن عبد الله بن عمر ، قال : قال عبد الله ، حضرتني هذه الآية : ﴿ لن تنالوا البرحتّى تنفقوا مما تحبون ﴾ فذكرت ما أعطاني الله فلم أجد شيئاً أحبَّ إليَّ من جارية رومية ، فقلت : هي حرة لوجه الله فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها ، يعني تزوجتها .

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * (٩٣) فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * (٩٤) قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * (٩٥) ﴾

روى الامام أحمد عن ابن عباس : ٥١٩ [حضرتْ عصابة من اليهود نبيَّ الله ﷺ فقالوا : حدثنا عن خلال : نسألك عنهن ولا يعلمهن إلاَّ نبيٌّ ؛ قال : سلوني عما شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمة الله ، وما أخذ يعقوب على بنيه ، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه ، لتتابعنِّي على الإسلام ... ؟ قالوا : فذلك لك . قالوا : أخبرنا عن أربع خلال : أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه ؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ، ومن وليه من الملائكة ؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنَّه ، فقال : أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن اسرائيل مرض مرضاً شديداً ، وطال سقمه فنذر لله نذراً لئن شفاه الله من سقمه ليحرمنَّ أحبَّ الطعام والشراب إليه ، وكان أحبُّ الطعام اليه لحم الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها . فقالوا : اللهم نعم . فقال : اللهم أشهد عليهم ...] (٢) .

---

(١) قلت : وهذا الحديث هو أصل وقف الخيرات .

(٢) إكتفيت بإيراد هذا الجزء من الحديث لمناسبته . وتمامه في سورة البقرة

قال ابن جرير في تفسيره : فاتبعه بنوه في تحريم ذلك استناناً به واقتداءً بطريقه .قال : وقوله تعالى : ﴿ من قبل أن تنزل التوراة ﴾ أي حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . قلت [1] : ولهذا السياق بعد ما تقدم مناسبتان (إحداهما) أن اسرائيل عليه السلام حرم أحب الأشياء اليه ، وتركها لله ، وكان هذا سائغاً في شريعتهم ، فله مناسبة بعد قوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتّى تنفقوا مما تحبون ﴾ فهذا هو المشروع عندنا ، وهو الأنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهيه ، كما قال تعالى : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ الآية ... (المناسبة الثانية) لما تقدم بيان الرد على النصارى ، واعتقادهم الباطل في المسيح وأمه وظهور الحق في ذلك ، شرع في الرد على اليهود قبحهم الله تعالى ، وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه ، قد وقع . فإن الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة : أن نوحاً عليه السلام لما خرج من السفينة ، أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها ، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها ، فاتبعه بنوه في ذلك ؛ وجاءت التوراة بتحريم ذلك واشياء أخرى زيادة على ذلك ، وكان الله عز وجل قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه ، وقد حرم ذلك بعد ذلك ، وكان التسرّي على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم عليه السلام ، وقد فعله ابراهيم في هاجر لما تسرّى بها على سارة ، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم ، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً ، وقد فعله يعقوب عليه السلام فجمع بين الأختين ، ثم حرم عليهم ذلك في التوراة . وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم . وهذا هو النسخ بعينه . فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح عليه السلام في إحلاله بعض ما حرم في التوراة ، فما بالهم لم يتبعوه بل كذّبوه وخالفوه ؟ وكذلك الذي بعث الله به محمداً ﷺ من الدين القويم ، والصراط المستقيم وملة أبيه ابراهيم فما بالهم لا يؤمنون ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ كل الطعام كان حلاً لنبي اسرائيل إلا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ﴾ أي كان حلاً لهم جميع الأطعمة ما عدا الذي حرمه إسرائيل على نفسه منها قبل نزول التوراة . ثم قال تعالى : ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿ فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون ﴾ أي فمن كذب على الله ، وادعى أنه شرع لهم السبت ، والتمسك بالتوراة دائماً ، وانه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله تعالى بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرنا ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قل صدق الله ﴾ أي قل يا محمد صدق الله فيما

(١) أي هذا قول ابن كثير رحمه الله .

أخبر به، وفيما شرعه في القرآن. ﴿ فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ هذه الملة التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ ، فهي الطريقة التي لم يأت نبيٌ بأكمل منها ، ولا أبين ، ولا أوضح ولا أتم ، كما قال تعالى:﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ • (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ • (٩٧) ﴾

يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس عامةً لعبادتهم ونسكهم ، يطوفون به ، ويصلُّون إليه ويعتكفون عنده. ﴿ لَلَّذي بِبَكَّةَ ﴾ يعني الكعبة التي بناها ابراهيم الخليل عليه السلام، الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه ، ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ونادى الناس إلى حجه . ولهذا قال تعالى : ﴿مباركاً﴾ أي وضع مباركاً ﴿ وهدى للعالمين ﴾ . روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : ٥٢٠ [قلت يا رسول الله أي مسجدٍ وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أيٌّ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة قلت :ثم أيٌّ ؟ قال : ثم حيث أدركتك الصلاة فصلِّ فكلها مسجد] واخرجه البخاري ومسلم .

وروى ابن أبي حاتم عن خالد بن عرعرة قال : قام رجل إلى علي رضي الله عنه فقال: ألا تحدثني عن البيت ، أهو أول بيت وضع في الأرض ؟ قال : لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً. وذكر تمام الخبر في كيفية بناء ابراهيم البيت(١).

وقوله تعالى : ﴿ لَلَّذي ببكّة ﴾ بكة : من أسماء مكة على المشهور وقد ذكروا لمكّة اسماءً كثيرةً ، منها : مكة ، وبكة ، والبيت العتيق ، والبيت الحرام ، والبلد الأمين ، وأم القرى وغير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ فيه آيات بيّنات ﴾ أي دلالات ظاهرة أنه من

---

(١) قلت : راجع الصفحة ١٠٧ من المجلد الأول من هذا المختصر.

بناء إبراهيم وأن الله عظمه وشرفه ؛ ثم قال تعالى: ﴿مقام إبراهيم﴾ [(١)] وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخّره عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف منه ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف ، لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ وعن ابن عباس : أن من الآيات مقام ابراهيم والمشاعر وقال مجاهد : أثر قدميه في المقام آية بينة وكذا روى عن عمر بن عبد العزيز وغيره وقال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة :

وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

وقوله تعالى : ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ يعني حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء.وكذلك كان الأمر في الجاهلية وقال تعالى : ﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن ابن عباس ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : ٥٢١ [لا هجرة ولكن جهاد ونيّةٌ وإذا استنفرتم فانفروا] وقال يوم الفتح : ٥٢٢ [ان هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وانه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاها فقال العباس : يا رسول الله إلاّ الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال إلاّ الإذخر] وعن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٥٢٣[لا يحل لأحدٍ أن يحمل السلاح بمكة» رواه مسلم]

وعن عبدالله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحزورة بسوق مكة ، يقول : ٥٢٤ [والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله] رواه الامام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي حديث حسن صحيح[(٢)]

وقوله تعالى : ﴿ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ هذه آية وجوب

---

(١) أي الحجر الذي كان يقف عليه ابراهيم عليه السلام حتى يبني الكعبة وهو الآن على ما وضعه عمر بن الخطاب . وهناك عزم من أولي الأمر ، بتأخيره منعاً للزحام المميت ، وقيل أنه شرع بذلك ولا بأس من هذا التأخير ما دام قد ثبت أن عمر أخره للسبب ذاته فجزاهم الله خيراً .

(٢) قلت : فما قول من يقول من الغلاة الجهلاء حديثاً يعزيه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وهو : اللهم أخرجتني من أحب البقاع إليّ فأسكني في أحب البقاع إليك . فأسكنه في المدينة زاعماً أن المدينة أحبُّ إلى الله من مكة ، والصحيح : إن مكة أحب أرض الله إلى الله ، كما جاء في الحديث الصحيح ، وهل يخالف رسول الله بحبه ما أحب الله ؟ فمكة أحب البقاع إلى الله وإلى رسوله ، شاءوا أم أبوا .

الحج عند الجمهور ، وقيل بل هي قوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ والأول أظهر . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الأسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً ، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع . روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ٥٢٥ [أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكلَّ عامٍ يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ؛ فقال رسول الله ﷺ : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم. ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤآلهم واختلافهم على أنبيائهم ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه] ورواه مسلم

وفي الصحيحين من حديث ابن جريج عن عطاء عن جابر عن سراقة بن مالك قال يا رسول الله : ٥٢٦ [متعتنا هذه لعامنا هذا ، أم للأبد ؟ قال : لا ـ بل للأبد] وفي رواية [بل لأبد الأبد] روى ابو عيسى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ٥٢٧ [قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : من الحاج يا رسول الله ؟ قال : الشعث التفل ، فقام آخر فقال : أي الحج أفضل يا رسول الله ؟ قال : العج والثج فقام آخر فقال : ما السبيل يا رسول الله ؟ قال : الزاد والراحلة] وهكذا رواه ابن ماجة من حديث إبراهيم بن زيد وهو الجوزي . قال الترمذي : ولا يرفعه إلا من حديثه وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه وقال : ولكن قد تابعه غيره ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وأنس والحسن ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة ، نحو ذلك . ورواه الحاكم عن أنس ٥٢٨ [ان رسول الله ﷺ سئل عن قوله عز وجل ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ فقيل ما السبيل؟ قال : الزاد والراحلة .] ثم قال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه

وقال أحمد بن حنبل عن ابن عباس : قال : قال رسول الله ﷺ ٥٢٩ [تعجّلوا إلى الحج ـ يعني الفريضة ـ فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له] روى أحمد أيضاً عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ ٥٣٠ [من أراد الحج فليتعجّل] ورواه أبو داود ، وقوله تعالى : ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه روى سعيد بن منصور عن عكرمة ، قال : ٥٣١ [لما نزلت ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ قالت اليهود : فنحن مسلمون ، قال الله عز وجل : فأخصمهم فحجهم ، يعني فقال لهم النبي ﷺ : إن الله فرض على المسلمين

حج البيت من استطاع اليه سبيلاً فقالوا : لم يكتب علينا وأبوا ان يحجوا ، قال الله تعالى : ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ .]

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَٱللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ۞ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ (٩٩) ﴾

هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق ، وكفرهم بآيات الله ، وصدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان . مع علمهم بصدق ما جاء به الرسول ﷺ ، لما يعلمون ذلك عن أنبياء الله الأقدمين وما بشّروا به ونوّهوا من ذكر النبي الأمي خاتم النبيّين ورسول رب العالمين ومع ذلك جحدوا وعاندوا فأخبر تعالى أنه ليس غافلاً عن أعمالهم وسيجزيهم على ذلك يوم الدين .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۞ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ ٱللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِٱللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ (١٠١) ﴾

يحذر تبارك وتعالى المؤمنين من طاعة بعض أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على إيمانهم كما قال تعالى : ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾ الآية ثم قال : ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ﴾ يعني حاشاكم من الكفر ما دامت آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهاراً كما جاء في الحديث إن النبي ﷺ قال لأصحابه يوماً : ٥٣٢ [أي المؤمنين أعجب اليكم إيماناً؟ قالوا : الملائكة . قال وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟ قالوا : فنحن . قال : وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ قالوا : فأي الناس أعجب إيماناً؟ قال قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها .] ثم قال تعالى : ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدي

إلى صراط مستقيم ﴾ أي ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هما العمدة في الهداية ، ووسيلة الرشاد ، إلى طريق السداد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۞ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ (١٠٣) ﴾

روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ قال : أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر . وهذا إسناد صحيح موقوف . وروى عنه مرفوعاً والوقف أصح . وروى عن أنس أنه قال : لا يتقي اللهَ العبدُ حق تقاته حتى يخزن لسانه. وقد ذهب سعيد بن جبير وغيره إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وعن ابن عباس انها لم تنسخ ، ولكن ﴿ حق تقاته ﴾ أن يجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وابنائهم . وقوله تعالى : ﴿ ولا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ أي حافظوا على الإسلام ، في كل حال لتموتوا عليه فمن سنته تعالى : أنه من عاش على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء بعث عليه ، فعياذاً بالله من خلاف ذلك . روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٣٣ [﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ولو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن ليس له طعام إلاّ الزقوم .] رواه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر وقال : قال رسول الله ﷺ : ٥٣٤ [من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه]

وقوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ قيل ﴿ بحبل الله ﴾ أي بعهد

الله كما قال في الآية بعدها ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ أي بعهد وذمة . وحبل الله قيل القرآن كما في حديث الحارث الأعور عن علي مرفوعاً في صفة القرآن : ٥٣٥ [هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم] وقد ورد حديث خاص بهذا المعنى فقد روى الحافظ الطبري بسنده عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٣٦ [كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض] وقوله تعالى : ﴿ ولا تفرقوا ﴾ أمرهم بالجماعة ، ونهاهم عن التفرقة وقد وردت الأحاديث المتعددة في ذلك كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : ٥٣٧ [ان الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويسخط لكم ثلاثاً ، يرضى لكم : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاّه الله أمركم ، ويسخط لكم ثلاثاً : قيل وقال، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال .] وقد ضُمنت لهم العصمة من الخطأ عند اتفاقهم وخيف عليهم الافتراق والاختلاف فقد وقع ذلك في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومسلّمة من عذاب النار وهم الذين على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه . (١)

وقوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ إلى آخر الآية . وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج وكانت بينهم في الجاهلية حروب طويلة فلما دخلوا في الاسلام صاروا إخواناً متحابين بجلال الله ،متواصلين في ذاته متعاونين على البر والتقوى .

قال الله تعالى : ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفتَ بين قلوبهم ، ولكن الله ألّفَ بينهم ﴾ إلى آخر الآية ؛ وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم الله منها أنْ هداهم للإيمان .

وقد ذكر محمد بن اسحق وغيره: ٥٣٨ [أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج وذلك أن رجلاً من اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج ، فساءه اتفاقهم وإلفتهم ، فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعاث وتلك الحروب ، ففعل ، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم ، وغضب بعضهم على بعض ، وتثاوروا ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرة ، فبلغ ذلك

(١) قلت : نرى نحن السلفيين أننا نحاول مجتهدين قدر الاستطاعة أن نكون من الفرقة الناجية والله الموفق وهو المستعان وعليه التكلان وحده لا شريك له .

النبي ﷺ فأتاهم فجعل يسكّنهم ويقول « أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهرانيكم ؟ » وتلا عليهم هذه الآية ... فندموا على ما كان منهم ، واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح رضي الله عنهم .] [1]

﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ (١٠٦) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ ۞ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۞ (١٠٩) ﴾

يقول تعالى : ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله، في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون . يعني المجاهدين والعلماء . وقال أبو جعفر الباقر : ٥٣٩ [قرأ رسول الله ﷺ ﴿ ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ﴾ ثم قال : (الخير اتباع القرآن وسنتي)] رواه ابن مردويه والمراد من هذه الآية، أن تقوم فرقة من هذه الأمة تتصدى لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد بحسبه كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٤٠ [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان] وفي رواية ٥٤١ [وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل] روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال : ٥٤٢ [والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعُنَّهُ فلا يستجيب لكم] ورواه ابن ماجه والترمذي وحسّنه وأحاديث الباب كثيرة .

(١) فهل تتأسى الدول العربية بهم ، ويتناسون فرقتهم ويصدقون في حرب اليهود حتى يزيحوهم عن فلسطين ، فتعود لأهلها العرب ...؟ هذا ما ندعو الله أن يكون .

ثم قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ ينهانا سبحانه عن طريق الذين اختلفوا وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم . وقوله تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ يعني يوم القيامة ، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما . ﴿ فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ﴾ وهم المنافقون ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ وهذا الوصف يعم كل كافر ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ يعني الجنة لا يبغون عنها حولا . ثم قال تعالى : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك ﴾ أي هذه الآيات آيات الله وحججه وبيناته نتلوها عليك يا محمد ﴿ بالحق ﴾ أي نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة ﴿ وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾ أي ليس بظالم لهم ، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور ، لأنه القادر على كل شيء ، العالم بكل شيء ، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي الجميع ملكٌ له وعبيد له ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَاسِقُونَ ۞ (١١٠) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ۞ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ ٱللهِ وَحَبْلٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ (١١٢) ﴾

يخبر تعالى عن هذه الأمة بأنهم خير الأمم ؛ فقال : ﴿ كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس ﴾ قال البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿ كنتم خير أمة أخرجتْ للناس ﴾

قال: خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام، وهكذ قال ابن عباس وجماعة من التابعين والمعنى: انهم خير الأمم وأنفع الناس للناس. ولهذا قال تعالى: ﴿ تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ قال الإمام أحمد عن درة بنت أبي لهب قالت: ٥٤٣ [قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: « خير الناس أقراهم واتقاهم لله، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم »] وهذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم. كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً ﴾ أي خياراً ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ الآية.

وثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة حدثه قال: ٥٤٤ [سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفاً، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » قال أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرةً عليه فقال: يا رسول الله: ادعُ الله أن يجعلني منهم؛ فقال رسول الله ﷺ « اللهم اجعله منهم » ثم قام رجل من الأنصار فقال مثله؛ فقال: « سبقك بها عكاشة. »]

* وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ قال: ٥٤٥ [« إن ربي أعطاني سبعين الفاً يدخلون الجنة بغير حساب » فقال عمر: يا رسول الله: فهلا استزدته؟ فقال « استزدته فأعطاني مع كل ألـف سبعين ألفاً » قال عمر فهلا استزدته؟ قال « قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفاً » قال عمر فهلا استزدته؟ قال « قـد استزدته، فأعطاني هكذا »؛ وفرج عبد الرحمن بن أبي بكر بين يديه وقال عبد الله: وبسط باعيه، وحثا عبد الله، وقال هاشم وهذا من الله لا يدري ما عدده

* روى الطبراني عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: ٥٤٦ [« يدخل الجنة من أمتي سبعون الفاً بغير حساب ولا عذاب » قيل: من هم قال « هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون »] رواه مسلم من طريق هشام بن حسان

* روى مسلم عن حصين بن عبد الرحمن قال: ٥٤٧ [كنت عند سعيد بن جبير فقال أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لدغت. قال: فما صنعت؟ قلت: استرقيت. قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي. قال: وما حدثكم الشعبي؟ قلت: حـدثنا

عن بريدة بن الحصيب الأسلمي أنه قال « لا رقية إلا من عين أو حمة » . قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال « عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : انظر إلى الأفق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الاسلام ولم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ ، فقال « ما الذي تخوضون فيه ؟ » فأخبروه ، فقال « هم الذين لا يرقون ، ولا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . « قال : أنت منهم » ، ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال « سبقك بها عكاشة » ، وأخرجه البخاري ، وليس عنده : لا يرقون .

ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال : قال لنا رسول الله ﷺ : ٥٤٨ [« اما ترضون ان تكونوا ربع أهل الجنة ؟ » فكبرنا ، ثم قال « أما ترضون ان تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ » فكبرنا ، ثم قال « إني لأرجوا أن تكونوا شطر أهل الجنة . »]

• روى الطبراني : عن أبي هريرة ، قال : ٥٤٩ [لما نزلت : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ قال رسول الله ﷺ : أنتم ربع أهل الجنة ، أنتم ثلث أهل الجنة أنتم نصف أهل الجنة أنتم ثلثا أهل الجنة]

• روى عبد الرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : ٥٥٠ [نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولاً الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق . فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه ، الناسُ لنا فيه تبعٌ غداً ، لليهود وللنصارى بعد غدٍ]

* * *

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح . كما قال قتاده : بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة

حجها، رأى من الناس دعةً ، فقرأ هذه الآية : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس... ﴾ ثم قال : من سره أن يكون من هذه الأمة ، فليؤدّ شرط الله فيها . رواه ابن جرير . ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴾ الآية ... ولذا قال تعالى : ﴿ ولو آمن أهل الكتاب] أي بما أنزل على محمد ﴿ لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ أي قليل مؤمنوهم وأكثرهم الكافرون الفاسقون .

ثم أخبر تعالى عباده المؤمنين ومبشراً لهم بالنصر على أهل الكتاب الكفرة الملحدين. فقال تعالى : ﴿ لن يضرّوكم إلاّ أذى وإن يقاتلوكم يولّوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ هكذا وقع ، فإنهم إذّلهم الله يوم خيبر وقبلهم بنو قينقاع ، والنضير ، وقريظة ،كلهم أرغم الله أنوفهم . وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة وسلبوهم ملكهم أبد الآبدين ، ولا تزال عصابة الشام قائمة بالاسلام حتى ينزل عيسى بن مريم [١] وهم كذلك ، ويحكم بملّة الاسلام وشرع محمد عليه الصلاة والسلام فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام . ثم قال تعالى : ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس ﴾ أي ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا ، فلا يأمنون إلاّ بحبلٍ من الله ، أيّ بذمةٍ من الله وهو عقد الذمة لهم، وضرب الجزية عليهم وإلزامهم

(١) قلت : هذا حسن ظن من المفسر الحافظ ابن كثير رحمه الله وما كان ليدري أن عصابة الإسلام بالشام لم تعد قائمة بالإسلام كما كان يعهد في زمانه.إنما خلفهم خلف أضاعوا الصلاة بل أضاعوا الاسلام برمته فلا حكم بالإسلام ولا شعور بمسؤولياته،بل ولا إيمان ولا إسلام.فقد تحلل المسلمون ليس في الشام فحسب، بل في أكثر بلاد العرب والاسلام،من كل عروة تربطهم بالإسلام . فالبلاد كان الكفار يحكمونها مباشرة بجيوشهم ثم رحلت الجيوش،ولكن ظلت القوانين الكافرة والثقافة الكافرة فولّدت حكماً كافراً منذ أن كان الاستقلال المزعوم ... ؟!!! فمن البدهي أن لا ينصرهم الله في أي ميدان لأنهم لم ينصروا الله تعالى « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» فمنذ أيام فقط من كتابة هذه الأسطر...واخجلتاه انهزم المسلمون والعرب ـ ويشكلون دولاعديدة وجيوشاً ذات قوة ـ أمام دويلة من اليهود هزيلة وهي: حثالات الأمم ورذالات الشعوب، نعم ... انهزمت دول العرب العديدة أمام هذه الدويلة اليهودية وما ذلك إلا انتقام من الله العلي العزيز الجبار لدينه الذي ضيعه العرب، وقرآنه الذي هجره العرب، وشرعه الذي تنكر له العرب، فمن أين يأتي النصر للعرب ؟ إذا هم أضاعوا الرسالة ، وخانوا الأمانة وغشوا الأمة ... فالحقيقة التي ما بعدها حقيقة أنهم انهزموا انهزاماً شنيعاً ذليلا خانعاً ... فأصبحوا هزءة الأمم وسخرية الشعوب ، لأنهم كانوا لا يعتمدون على الله ولا يؤمنون بالله ... بل يتبجحون بعروبتهم الكاذبة ، ويعتمدون على عنجهيتهم الفارغة ، وعلى كفرهم بمبادىء الاسلام وشرعه الذي لولاه لما حكم العربُ المسلمون في أول الأمر أكثر من نصف الكرة الأرضية.أجل لتد كسرهم الله ليعتبروا ويعودوا إلى الحق ، ويرجعوا إلى الهدى ... فهل يرجعون ... ؟ وإننا لمنتظرون ..؟؟!!! أقول هذا وقلبي يتفطرّ ألماً ولوعة وأسى وإنا لله وإنا إليه راجعون

أحكام الملة ﴿ وحبل من الناس ﴾ أي بعهد من الله وعهد من الناس . وقوله : ﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ أي ألزموا : فالتزموا بغضب من الله وهم يستحقونه ﴿ وضربت عليهم المسكنة ﴾ أي ألزموها قدراً وشرعاً . ولهذا قال : ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ﴾ أي إنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة ابداً متصلاً بذل الآخرة ؛ ثم قال تعالى : ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ أي إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله وكثرة المعاصي والعصيان والعدوان ، روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمئة نبي ، ثم يقوم سوق بقلهم في آخر النهار .



لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ ٱللهِ آنَاءَ ٱللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ❁ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ❁ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ❁ (١١٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ❁ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ❁ (١١٧)

المشهور عند كثير من المفسرين هو كما ذكره محمد بن اسحق وغيره ، ورواه العوفي عن ابن عباس ، أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب ، كعبدالله بن سلام وأسد بن عبيد ، وثعلبة بن شعبة وغيرهم ، أي لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب ، وهؤلاء الذين أسلموا ولهذا قال تعالى : ﴿ ليسوا سواء ﴾ أي ليسوا كلهم على حد سواء ، بل منهم المؤمن ، ومنهم المجرم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ أي قائمة بأمر الله ، مطيعة لشرعه ، متبعة نبي الله . فهي قائمة ، يعني مستقيمة

﴿ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ أي يقيمون الليل ويتلون القرآن في صلواتهم ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ وهؤلاء هم المذكورون في السورة ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله ﴾ الآية ... ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ﴾ أي لا يضيع عند الله بل يجزيهم به أوفر الجزاء ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل ، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً ثم أخبر تعالى عن الكفرة المشركين بأنه ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ أي لا ترد عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أرادهم بهم ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار في هذه الدار فقال تعالى : ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر ﴾ أي برد شديد ﴿ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ﴾ أي فأحرقته ، يعني بتلك السعفة إذا نزلت على حرث قد آن جذاذه أو حصاده فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع ، فذهبت به وأفسدته ، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه . فكذلك الكفار يمحق الله الثواب من أعمالهم في هذه الدنيا وثمرها كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه . وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس ﴿ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ۞ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۞ (١٢٠) ﴾

يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانةً ، أي يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم ، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم ، لا يألون المؤمنين خبالاً أي يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعون من المكر والخديعة ويودّون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم. وقوله تعالى: ﴿ لا تتخذوا بطانة من دونكم ﴾ أي من غيركم من الأديان ، وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره وقد روى البخاري والنسائي عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : ٥٥١ [ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضّه عليه ، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه ؛ والمعصوم من عصمه الله] وقال ابن أبي حاتم عن ابن أبي الدهقانة قال : قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتباً فقال: (قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين .) ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الاعداء من أهل الحرب . ولهذا قال تعالى : ﴿ لا يألونكم خبالا ودّوا ما عنتم ﴾ أي رغب المنافقون في فعل ما يحرجكم ويشقّ عليكم .

وقوله تعالى : ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ﴾ أي ظهر على وجوههم وفلتات ألسنتهم من العداوة، مع ما خفي في صدورهم من البغضاء وما لا يخفى على لبيب عاقل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ﴾ أي تحبّونهم بما يظهرون لكم من الإيمان ، وهم لا يحبونكم لا باطناً ولا ظاهراً. ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ أي ليس عندكم شيء منه شك ولا ريب وقال ابن عباس : أي تؤمنون بكتابكم وكتابهم وبما مضى من الكتب وهم يكفرون بكتابكم فأنتم أحق بالبغضاء لهم ، منهم لكم. ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيْظ ﴾ والأنامل أطراف الأصابع وهذا شأن المنافقين يظهرون الإيمان والمودّة ، ويبطنون الكفر والبغض. كما قال تعالى : ﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ وذلك أشد الغيظ والحنَق قال الله تعالى : ﴿ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾ أي إن كان إيمانهم يغيظكم، فإن الله سيعلي كلمته ويظهر دينه على أيديهم فموتوا غيظاً فالله يعلم ما تضمرون من البغضاء للمؤمنين ، وسيجازيكم بخزيكم ونصرهم في الدنيا ولكم عذاب الحريق خالدون فيه أبداً في الآخرة ثم قال تعالى : ﴿ إن تمسسْكم حسنة تسؤهم وإن تصبْكم سيئة يفرحوا بها ﴾ وهذا من شدة العداوة

للمؤمنين ، فان أصابهم خير ونصر ساءهم ، وإن أصابهم شر وانكسار لما يعلمه الله من الحكمة ـ كما جرى يوم أحد ـ فرح المنافقون . فخاطب الله المؤمنين : ﴿وإن تصبروا وتتّقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ أي أن تتوكلوا على الله لا يصلكم كيدهم لأنكم بحفظ الله ، فلا يقع شيء إلا بتقديره ومشيئته ، ومن توكل عليه كفاه . ثم شرع الله تعالى بذكر قصة أُحُد من اختبار المؤمنين ، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين ، وبيان الصابرين . فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ❁ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ❁ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ❁ (١٢٣) ﴾

المراد بهذه الوقعة ، يوم أُحُد عند الجمهور . قاله ابن عباس وغيره ، وكانت الوقعة يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة . وسببها إرادة المشركين بأخذ الثأر لقتلاهم يوم بدر ، وكان قد بقي من أموال التجارة التي سلمت يوم بدر مع أبي سفيان ، وأرصدوها جميعاً لقتال محمد ﷺ هذا ما أراد أبناء القتلى إرصاده وإنفاقه فجمعوا الأُحابيش والجموع العديدة ، وأقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من أُحُد تلقاء المدينة ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من صلاة الجمعة استشار الناس : أيخرج إليهم أم يمكث في المدينة ؟ فأشار عبدالله بن أُبيّ بالمقام بالمدينة ، وأشار آخرون ممن لم يشهدوا بدراً بالخروج إليهم . فدخل رسول الله ﷺ فلبس لامته وخرج عليهم ، وقد ندم بعضهم وقالوا : لعلنا استكرهنا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله : إن شئت أن نمكث ، فقال رسول الله ﷺ : ٥٥٢ [ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يرجع حتى يحكم الله له] فسار ﷺ في ألف من أصحابه فلما كانوا بالشوط ، رجع عبدالله بن أبي بثلث الجيش مغضباً ، لكونه لم يُرجَع إلى قوله ، واستمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشعْبَ من أُحُد في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أُحُد ، وقال : ٥٥٣ [لا يقاتلنَّ أحَدٌ حتى نأمره بالقتال] وكان جيش المسلمين سبعمئة وأمّر على الرماة عبدالله بن جبير وكان عددهم خمسينَ رجلاً . وقال رسول الله ﷺ : ٥٥٤ [إنضحوا الخيل عنّا ولا نُؤتَيَنَّ من

قبلِكُم والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطّفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم] وقد أعطى اللواء مصعب بن عمير وأجاز بعض الغلمان وأخّر آخرين . وتهيأ قريش وهم ثلاثة آلاف ، ومعهم مئة فرس قد جنبوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، ودفعوا اللواء إلى بني عبد الدار ، ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى . ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوّيء المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ أي تنزلهم منازلهم وتجعلهم ميمنه وميسرة ﴿ والله سميع عليم ﴾ بما تقولون في ألسنتكم وضمائركم . وقوله تعالى: ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ الآية روى البخاري : عن جابر بن عبدالله قال فينا نزلت : ﴿ إذ همت طائفتان ... ﴾ قال : نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلَمة﴿والله وليهما﴾ ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ أي يوم بدر،وكان يوم الجمعة وافق السابع عشر من رمضان من سنة اثنتين من الهجرة وهو يوم الفرقان الذي أعزّ الله فيه الإسلام وأهله،ودمغ فيه الشرك ، وخرّب محله وحزبه،هذا مع قلة المسلمين يومئذ وكان عددهم ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً فيهم فارسان وسبعون بعيراً ، والباقون مشاة والعدّة قليلة . وكان العدو بين التسعمئة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة والخيول المسوَّمة ، والحلي الزائد فأعز الله رسوله وتنزيله وقبيله ، وأخزىَ الشيطان وجيله . ولهذا قال تعالى ممتناً على عباده المؤمنين وحزبه المتقين . ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ أي قليل عددكم ، لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العَدد والعُدد ، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً – إلى – غفور رحيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ أي تقومون بطاعته – وبدر محلة بين مكة والمدينة تعرف ببئرها منسوبة إلى رجل حفرها اسمه (بدر)

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۞ (١٢٤) بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۞ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم

بِهِ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ❁ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ❁ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ❁ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ❁ (١٢٩)

اختلف المفسرون في هذا الموعد ، هل كان يوم بدر أو يوم أُحُد ؟ والأصح يوم بدر لقوله تعالى : ﴿ إذ تقول للمؤمنين ﴾ فهو متعلق بقوله تعالى : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر﴾ وهذا عن الحسن البصري وغيره واختاره ابن جرير . قال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف . وقتال الملائكة إنما كان يوم بدر والله أعلم.

وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ ألن يكفيكم أن يمدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴾ هذا يوم بدر .وقوله تعالى : ﴿ بَلى إن تصبروا وتتقوا ﴾ يعني تصبروا على لقاء عدوكم وتتقوني وتطيعوا أمري وقوله تعالى : ﴿ ويأتوكم من فورهم هذا ﴾ قال الضحاك أي من غضبهم ووجههم وقوله تعالى : ﴿ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ﴾ أي لهم علامات في نواحي خيولهم وقال قتادة وعكرمة « مسوّمين » أي بسيما القتال . وكان سيما الملائكة عمائم بيض قد أرسلوها في ظهورهم وسيما نواحي خيولهم الصوف الابيض وعن أبي هريرة : بالعهن الأحمر . وقوله تعالى : ﴿ وما جعله الله إلاّ بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ﴾ أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم وتطييباً لقلوبكم وتطميناً، وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ، من غير احتياج إلى قتالكم لهم ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ... ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ وما جعله الله إلاّ بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ أي هوذو العزة التي لا ترام ، والحكمة في قدره والأحكام . ثم قال تعالى : ﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا ﴾ أي أمركم بالجهاد ، والجلاد ، لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير. ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين فقال تعالى : ﴿ ليقطع طرفاً ﴾ أي ليهلك أمة ﴿ من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا ﴾ أي يرجعوا ﴿ خائبين ﴾ في آمالهم .

ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له ، فقال تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ بل الأمر كله إليّ كما قال تعالى : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم ثم ذكر بقية الأقسام فقال ﴿ أو يتوب عليهم ﴾ فيهديهم بعد الضلالة ﴿ أو يعذبهم ﴾ في الدارين على كفرهم ولهذا قال : ﴿ فإنهم ظالمون ﴾ أي يستحقون ذلك روى البخاري عن سالم عن أبيه : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر ٥٥٥ [اللهم العن فلاناً وفلاناً ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية] فنزلت هذه الآية : ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ فتيب عليهم كلهم . ثم قال تعالى : ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ الآية .. أي الجميع ملك له ، وأهلهما عبيد بين يديه ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ أي هو المتصرف فلا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون ، والله غفور رحيم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۞ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۞ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۞ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۞ (١٣٦) ﴾

نصف الحزب

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافاً مضاعفة ، كما كانوا في الجاهلية يقولون : إذا حل أجل الدين، إما أن تقضي وإما أن تربي. فإن قضاه وإلاَّ زاد في المدة وزاده الآخر في القدر • وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً ؛ وأمر عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى والآخرة ، ثم توعَّدهم بالنـــار وحذرهم منها ؛ فقال تعالى ﴿ واتقوا النار التي أعدت للكافرين . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾ ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات . فقال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعـــدت للمتقين ﴾ أي كما أعدت النار للكافرين ، وقد قيل أن معنى قوله تعالى : ﴿ عرضها السموات والأرض ﴾ تنبيهاً إلى اتساع طولها ، كما قال في صفة الجنة : ﴿ بطائنها مـــن استبرق ﴾ فما ظنك بظهائرها وقيل بل عرضها كطولها لأنها قبة فيه تحت العرش والشيء المقبب المستدير عرضه كطوله وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح : ٥٥٦ ﴿ إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فانه اعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة وسقفهـــا عرش الرحمن ﴾

وروى أحمد في مسنده : ٥٥٧ ﴿ أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فأين النار فقال النبي ﷺ [سبحان الله فأين الليل اذا جاء النهار ؟] وروى البزار عن أبي هريرة قال : ٥٥٨ [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : أرأيت قوله تعالى : ﴿ جنة عرضها السموات والأرض ﴾ فأين النـــار ؟ قال : « أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء ، فأين النهار ؟ » قال : حيث شاء الله ، قال : « وكذلك النار تكون حيث شاء الله » ﴾ يعني : فكما أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذ جاء النهار أن لا يكون في مكان ، وان كنا لا نعلمه وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل ، وهذا أظهر كما تقدم في حديث أبي هريرة عن البزار .

• ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال : ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ أي في الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض وفي جميع الحال والأحوال كما قال تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ﴾ والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مراضيه . وقوله تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه ، وعفوا مع ذلك عمَّن أساء اليهم . وقد ورد في بعض الآثار ٥٥٩ ﴿ يقول الله تعالى : يا ابن آدم أذكرني اذا غضبت ، أذكرك اذا غضبت فلا أهلكك فيمن أهلِكُ ﴾ رواه ابن أبي حاتم . وروى

الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ٥٦٠ ﴿ ليس الشديد بالصُرَعة ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ﴾ وقد رواه الشيخان .

• روى الإمام أحمد عن حارثة بن قدامة السعدي أنه سأل رسول الله ﷺ ، فقال : ٥٦١ [يا رسول الله ، قل لي قولاً ينفعني وأقلل عليّ لعليّ أعيه ؛ فقال رسول الله ﷺ : « لا تغضب » فأعاد عليه حتى أعاد عليه مراراً كل ذلك يقول : « لا تغضب»] .

• روى الإمام أحمد عن عطية بن سعد السعدي - وقد كانت له صحبة - قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٦٢ [« إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ »] وهكذا رواه أبو داود .

• روى أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ ٥٦٣ [أن النبي ﷺ قال : « من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله جوفه أمناً وإيماناً »]

• روى ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٦٤ [ما تجرع عبد من جرعة أفضل أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله]

وقوله تعالى : ﴿ والعافين عن الناس ﴾ أي يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم ، فلا يبقى فيها موجدة على أحد ، وهذا أكمل الأحوال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ فهذا من مقامات الإحسان ، وفي الحديث ٥٦٥ [ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه الله]

• وروى الحاكم في مستدركه من حديث موسى بن عقبه بسنده عن عباده بن الصامت عن أُبيّ ابن كعب أن رسول الله ﷺ قال : ٥٦٦ [من سره أن يشرف له البنيان ، وترفع له الدرجات ، فليعفُ عمّن ظلمه ، ويعطِ من حرمَه ، ويصل من قطعه] ثم قال صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه . وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ أي اذا صدر منهم ذنب ، اتبعوه بالتوبة والاستغفار ، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ عن النبي ﷺ قال : ٥٦٧ [« إن رجلاً أذنب ذنباً فقال : رب إني أذنبت ذنباً فاغفره لي ؛ فقال الله عز وجل : عبدي عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي . ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره ؛ فقال تبارك وتعالى : علم عبدي أن له رباً

يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي . ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره لي ؛ فقال عز وجل : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره ، فقال الله عز وجل : عبدي علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء . «] أخرجاه في الصحيحين من حديث اسحق بن أبي طلحة ، بنحوه .

• ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة ، لما رواه أحمد بن حنبل عن علي رضي الله عنه قال : ٥٦٨ [كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء منه ، وإذا حدثني عنه غيره استحلفه فاذا حلف لي صدقته ؛ وإن أبا بكر رضي الله عنه حدثني – وصدق أبو بكر – أنه سمع رسول الله ﷺ ، قال : « ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ، فيستغفر الله عز وجل إلاّ غفَر له »] رواه على المديني أيضاً والحميدي وابن أبي شيبة وأهل السنن وابن حبان في صحيحه والبزار ، والدارقطني من طرق عن عثمان بن المغيرة به وقال الترمذي : هو حديث حسن . وبالجملة فهو حديث حسن وهو من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق رضي الله عنهما .

• ويشهد لصحة هذا الحديث ما في الصحيحين ٥٦٩ [عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ لهم وضوءَ النبي ﷺ ثم قال : سمعت النبيّ ﷺ يقول : « من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلىّ ركعتين لا يُحَدِّث فيهما نفسه ، غفر له ما تقدم من ذنبه »] فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين عن سيد الأولين والآخرين ، ورسول رب العالمين ، كما دل عليه الكتاب المبين ، من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين .

• وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : ٥٧٠ [قال إبليس : يا رب وعزتك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الله تعالى : وعزّتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني] .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يغفر الذنوب إلاّ الله ﴾ أي لا يغفرها أحد سواه . كما روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع ٥٧١ [أن النبيّ ﷺ أتي بأسير فقال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ؛ فقال النبي ﷺ « عرف الحق لأهلِه »] . وقوله تعالى : ﴿ ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ أي تابوا ولم يستمروا على المعصية

ويصروا عليها ولو تكرر الذنب منهم تابوا منه كما روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن مولى لأبي بكر عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٧٢ [« ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة »] وهو حديث حسن . وقوله تعالى : ﴿ وهم يعلمون ﴾ أن من تاب تاب الله عليه وهذا كقوله تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ ونظائر هذا كثيرة جداً . وقوله تعالى : ﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم ﴾ أي جزاؤهم على هذه الصفات ﴿ مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي من أنواع المشروبات ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها ﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ يمدح تعالى الجنّة .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞(١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ۞ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَافِرِينَ۞ (١٤١)أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّابِرِينَ ۞ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۞ (١٤٣) ﴾

يواسي الله عباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أُحُد ، وقتل منهم سبعون،بقوله تعالى : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ أي قد جرى نحو هذا على من قبلكم من أتباع الأنبياء ، ثم كانت العاقبة لهم ، والدائرة على الكافرين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ هذا بيانٌ للناس ﴾ يعني القرآن

فيه أخبار الغابرين مع أعدائهم جليّة ﴿ وهدى وموعظة ﴾ يعني القرآن ، فيه خبر ما قبلكم ، وهدى لقلوبكم ، وموعظة أي زاجر عن المحارم والمآثم ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين ﴿ ولا تهنوا ﴾ أي لا تضعفوا بسبب ما جرى ﴿ ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ أي العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون . ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ أي إن كنتم قد أصابتكم جراح وقُتِلَ منكم طائفة ، فقد أصاب أعداءكم كذلك جراح وقتل . ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ فقدر عليكم فوز أعدائكم عليكم ، وإن كانت العاقبة لكم لحكمة نعلمها ، ولهذا قال تعالى : ﴿[1] وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ قال ابن عباس : في مثل هذا الذي[2] من يصبر على مناجزة الأعداء ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ يعني يُقتَلون في سبيله ويبذلون مهجهم في مرضاته ﴿ والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ﴾ أي يُكفِّر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب وإلاّ رفع درجاتهم بحسب ما أصيبوا به.وقوله تعالى : ﴿ ويمحق الكافرين ﴾ أي فإنهم إذا ظفروا بطروا وبغوا،فيكون ذلك سبب دمارهم وفنائهم.ثم قال تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلمَ الصابرين ﴾ أي حسبتم أن تدخلوا الجنة ، دون أن تمتحنوا بالقتال والشدائد ويرى الله منكم المجاهدين الصامدين في سبيله، **والصابرين على** مقاومة الأعداء . وقوله تعالى : ﴿ ولقد كنتم تمنّوْن الموت من قبل أن تلقَوْهُ فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ أي قد كنتم تتمنّون لقاء العدو ، وتودّون مناجزتهم فهاقد حصل لكم الذي طلبتموه ، فدونكم فقاتلوا وصابروا . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٥٧٣ ﴿ لا تتمنّوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ فقد رأيتموه ﴾ وقت التحام الصفوف . ﴿ وأنتم تنظرون ﴾

۞ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّاكِرِينَ ۞(١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا

(١ ــ و ٢) قلت : أن الله جل وعلا عندما يقول(ليعلم) ليس معناه أن علمه بهم،متوقف على نتيجة أعمالهم فالله خلقهم وما يعملون « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ولكن ليقيم الحجة عليهم من أعمالهم خيراً كانت أو شراً فيجزيهم بما يستحقون . وهو الذي يعلم السر وأخفى وهو عالم بما سيكون وما كان وما هو كائن قبل أن يخلق الأرض والسموات بخمسين ألف عام .

بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي ٱلشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أُحُد ، وقتل من قتل منهم ، وقيل أن الشيطان نادى : ألا إن محمداً قد قتل ، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس ، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل ، وأنه يجوز عليه ذلك كما أخبرنا الله بمثله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام ، وقد حصل بين المسلمين ضعف وتأخر عن القتال ففي ذلك أنزل الله تعالى ﴿ وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه . قال ابن أبي نجيح عن أبيه : أن رجلاً من المهاجرين مرَّ على رجل من الأنصار يتشحّط في دمه فقال له : يا فلان أشعرت أن محمداً ﷺ قد قتل ؟ فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قتل فقد بلّغ ، فقاتلوا عن دينكم . رواه البيهقي في دلائل النبوة .

ثم قال تعالى منكراً على من ضعف : ﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ أي تقهقرتم ؟ ﴿ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾ أي الذين قاموا بالطاعة وقاتلوا عن دينه واتبعوا رسوله حياً وميتاً .

قال البخاري عن ابن شهاب أخبرني أبو سلمة أن عائشة رضي الله عنها ، أخبرته أن أبا بكر رضي الله عنه ، أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة ، فتيمّم رسول الله ﷺ وهو مغطّى بثوب حبرة : فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى ، ثم قال : بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقدْ مِتّها وقال الزهري : وحدثني أبو سلمة عن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس وقال : أجلس يا عمر ؛ قال أبو بكر :

أما بعد : فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . قال الله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول فدخلت من قبله الرسل ــ إلى قوله ــ وسيجزي الله الشاكرين ﴾ قال فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتّى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلاها منه الناس كلهم فما أسمع بشراً من الناس إلاّ يتلوهـا . وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال ، والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرقت حتّى ما تقلّني رجلاي وحتّى هويت إلى الأرض .

وقوله تعالى : ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجّلاً ﴾ أي لا يموت أحدٌ إلا بقدر الله وحتّى يستوفي المدة التي ضربها الله له، ولهذا قال : ﴿ كتاباً مؤجلاً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وما يعمّر من معمّر ولا ينقص من عمره إلاّ في كتاب ﴾ وفي هذه الآية تشجيع للجبناء على القتال فإن إلا قدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يُرِد ثوابَ الدنيا نؤتِه منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ﴾ أي من عمل للدنيا فحسب، ينال ما قدّره الله له ، وما له في الآخرة من نصيب، ومن عمل لآخرته أعطاه الله منها وما قسم له في الدنيا. كما قال تعالى: ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نَزِدْلَهُ في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤتِهِ منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾ أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم . ثم قال تعالى مسلّياً للمؤمنين عما وقع في نفوسهم يوم أحد : ﴿ وكأيّن من نبيٍّ قاتل معه ربيّون كثير ﴾ قيل معناه : كم من نبي قُتل وقُتل معه ربيون من أصحابه كثير هذا على قراءة من قرأ : ﴿ قتل معه ربيون كثير ﴾ لأن الله عاتب بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحُد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمداً قد قتل فعذلهم الله على فرارهم وتركِ القتال ، فقالِ لهم : ﴿ أفئن مات أو قتل ﴾ أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم و ﴿ انقلبتم على أعقابكم ﴾ وقيل وقيل ... ولكن قول ابن اسحق في السيرة موافق والله أعلم ــ وهو : « وكأيّن من نبيٍّ أصابه القتل ومعه ربّيّون أي جماعات فما وهنوا بعد نبيّهم ، وما ضعفوا عن عدوّهم ، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم وذلك الصبر ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ فجعل قوله تعالى : ﴿ معه ربيّون كثير ﴾ حالاً ، وقد نصر هذا القول السهيلي وبالغ فيه وله اتجاه لقوله تعالى: ﴿ فما وهنوا لما أصابهم ﴾ الآية ... ، وقد حكاه الأموي في مغازيه عن كتاب محمد بن إبراهيم ولم يحكِ غيره . وقوله تعالى : ﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ﴾ وقال قتادة والربيع : ﴿ وما ضعفوا ﴾ بقتل نبيّهم

﴿ وما استكانوا ﴾ أي فما ارتدّوا عن نُصرتهم ولا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبيّ الله حتى لحقوا بالله .

وقوله تعالى : ﴿ والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ أي النصر والظفر والعاقبة ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ أي جمع لهم ذلك مع هذا . ﴿ والله يحب المحسنين . ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * (١٤٩) بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّاصِرِينَ * (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّالِمِينَ * (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ * (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * (١٥٣) ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين طاعة الكافرين والمنافقين ، فان طاعتهم تورث الرّدى في الدنيا والآخرة ؛ ولهذا قال : ﴿ إن تطيعوا الذين كفروا يردّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به ، والتوكل عليه ، فقال تعالى : ﴿ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ ثم بشرهم بأنه سيُلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم ؛ مع ما لهم من العذاب في الآخرة ، فقال تعالى : ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم

ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين ﴾ .

وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال : ٥٧٤ : [أعطيت خمساً لم يُعطَهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي : نصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلّت لي الغنائم ، وأعطيتُ الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة] .

وروى العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ قال : قذف الله الرعب في قلب أبي سفيان فرجع إلى مكة ، فقال النبي ﷺ ٥٧٥ : [إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً ، وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب] رواه بن أبي حاتم . وقوله تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ قال ابن عباس وعدهم الله النصر .

لما واجه المسلمون المشركين كان الظفر والنصر أول النهار ، فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة وفشل بعض المقاتلة تأخر الوعد الذي كان مشروطاً بالطاعة والثبات لقوله تعالى : ﴿ إذ تحسّونهم ﴾ أي تقتلونهم ﴿ بإذنه ﴾ أي بتسليطه إياكم عليهم ﴿ حتّى إذا فشلتم ﴾ أي جبنتم قال ابن عباس : الفشل الجبن ، ﴿ وتنازعتم في الأمر وعصيتم ﴾ كما وقع للرماة ﴿ من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ من الظفر بهم أول الأمر .

﴿ منكم من يريد الدنيا ﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا هزيمة المشركين ﴿ ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ ثم نصرهم عليكم ليختبركم ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ أي غفر لكم ذلك الصنيع [1] ﴿ والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ أي لم يستأصلكم بما خالفتم أمر رسول الله ﷺ فعفا عنكم والله يتفضل على المؤمنين برحمته ويخصهم بها لإيمانهم به وبرسوله .

روى البخاري عن البراء قال ٥٧٦ : [لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة وأمرَّ عليهم عبدالله بن جبير ، وقال : « لا تبرحوا ، ان رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وان رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » فلما لقيناهم هربوا حتّى

---

(١) قلت : لقد اجتهد الرماة من جهة وغرتهم الدنيا من جهة أخرى فخالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بينما كان أمر رسول الله صريحاً (... لو رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم) وهذه دلالة صريحة على لزوم التقيد بأمر المعصوم دون أي اجتهاد فيه . ففي الاتباع الخير كله ، وفي الابتداع الشر كله .

رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة . فقال عبدالله بن جبير : عهد إليّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا فأبَوْا... فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً . فأشرف أبو سفيان فقال : أفي القوم محمد ؟ « فقال لا تجيبوه » فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ قال : « لا تجيبوه » فقال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه فقال له : كذبت يا عدو الله أبقى الله لك ما يحزنك ؛ قال أبو سفيان : أعلُ هبل ، فقال النبي ﷺ ، «أجيبوه» قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا الله أعلى وأجل » . قال أبو سفيان لنا العزّى ولا عزّى لكم . فقال النبي ﷺ : « أجيبوه » قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ؛ وستجدون مُثْلَةً لم آمرْ بها ولمْ تَسؤْني]

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما كان يوم أحد هزم المشركون، فصرخ إبليس : أي عباد الله أخراكم ، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم ، فبصر حذيفة ، فإذا بأبيه اليمان فقال : أي عباد الله أبي أبي قال : قالت : فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه ؛ فقال حذيفة : يغفر الله لكم . قال عروة : فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله عز وجل .

قال ابن اسحق : حدثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أحد بني عدي بن النجار قال : انتهى أنس ابن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله في رجال من المهاجرين والأنصار قد القوا ما بأيديهم ؛ فقال : ما يُخلّيكم ؟ فقالوا : قتل رسول الله ﷺ . قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه .

روى البخاري عن أنس بن مالك أن عمه أنس بن النضر ، غاب عن بدر فقال : غبت عن أول قتال النبي ﷺ لئن أشهدني الله مع رسول الله ﷺ ، ليرينّ الله ما أجد ، فلقي يوم أحد فهزم الناس فقال : اللهم أني أعتذر اليك مما صنع هؤلاء — يعني المسلمين — وأبرأ اليك مما جاء به المشركون ؛ فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ فقال : أين يا سعد إني أجد ريح الجنة دون أحد فمضى فقتل ، فما عُرِفَ حتى عرفته أخته بشامة أو ببنانه ، وبه بضعٌ وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم ورواه مسلم .

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال ٥٧٧ : [ان النساء كنّ يوم أحد خلف

المسلمين يجهزن على جرحى المشركين ، فلو حلفت يومئذٍ رجوت أن أبرَّ أنه ليس منّا أحد يريد الدنيا حتى أنزل الله : ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أُمِرُوا به ، أفرد النبي ﷺ في تسعةٍ : سبعة من الأنصار ، ورجلين من قريش ، وهو عاشرهم ﷺ ؛ فلما أرهقوه قال : « رحم الله رجلاً ردَّهم عنا » قال : فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعةً حتى قتل فلما أرهقوه أيضاً قال : « رحم الله رجلاً ردَّهم عنا » فلم يزل يقول ذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه : « ما أنصفنا أصحابنا » فجاء أبو سفيـان فقال : أعلُ هُبَل ؛ فقال رسول الله ﷺ : قولوا : « الله أعلى وأجل » فقالوا : الله أعلى وأجل . فقال أبو سفيان : لنا العزى ولا عُزَّى لكم فقال رسول الله ﷺ : « قولوا الله مولانا والكافرون لا مولى لهم ، فقال أبو سفيان يوم بيوم بدر ، فيوم علينا ويوم لنا ، ويوم نُساءُ ويوم نسر ، حنظلة بحنظلة ، وفلان بفلان فقال رسول الله ﷺ لا سواء . أما قتلانا فأحياء يرزقون ، وأما قتلاكم ففي النار يعذبون . فقال أبو سفيان : لقد كان في القوم مثلة ، وإن كانت لَعَنْ غير ملأمنا ما أمرتُ ولا نهيت ، ولا أحببت ولا كرهت ولا ساءني ولا سرّني قال فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه ، وأخذت هند كبده فلاكتها... فلم تستطع أن تأكلها . فقال رسول الله ﷺ : « أكلتْ شيئاً » ؟ قالوا : لا. قال : « ما كان الله ليدخل شيئاً من حمزة في النار » قال : فوضع رسول الله ﷺ حمزة فصلّى عليه ،وجيء برجل من الأنصار فوضع إلى جانبه فصلى عليه ، فرفع الأنصاري وترك حمزة حتى جيء بآخر فوضع إلى جنب حمزة فصلى عليه ثم رفع وترك حمزة حتى صلى عليه يومئذ سبعين صلاة] . تفرد به أحمد .

وقوله تعالى :﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ﴾ أي صرفكم عنهم إذ تصعدون في الجبل هاربين من أعدائكم وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب﴿والرسول يدعوكم في أخراكم ﴾ أي وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء وإلى الرجعة والعودة والكرّة . ويدعو الناس ٥٧٨ : [إليَّ عباد الله إليَّ عباد الله] قال ابن عباس ولم يبقَ مع رسول الله ﷺ إلاّ اثنا عشر رجلاً جاهدوا دونه ﷺ وفيهم طلحة الذي بقي منهم وقتل الآخرون فاستأذن طلحة فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله وأصيبت أنامله فقال : حِسِّ[1] فقال رسول الله ﷺ ٥٧٩ : « لو قلت بسم

(١) كلمة يقولها من أصابه على حين غفلة ما آلمه، أو أحرقه. كقول بعضنا في هذا الزمن : (أخ ...)

الله وذكرت اسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تلج بك في جو السماء] ثم صعد رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم مجتمعون . وقد روى البخاري عن قيس بن أبي حازم ، قال ٥٨٠ : رأيت يد طلحة شلاّء، وقى بهـا النبي ﷺ ، يعني يوم أحد ـ وفي الصحيحين من حديث معتمر بن سليمان عن أبيه عن أبي عثمان النهدي ، قال ٥٨١ : [لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ إلا طلحة بن عبيد وسعد] وقال الحسن بن عرفة عن سعيد بن المسيب قال سمعت سعد بن أبي وقاص ، يقول : ٥٨٢ [نثل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد وقال : إرم فداك أبي وأمي »]

وأخرجه البخاري عن سعد بن أبي وقاص ٥٨٣ : [أنه رمى يوم أحد دون رسول الله ﷺ قال سعد : فلقد رأيت رسول الله ﷺ يناولني النبل ويقول « إرم فداك أبي وأمي » حتى انه ليناولني السهم ليس له نصل فأرمي به .]

وثبت في الصحيحين من حديث إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه قال : ٥٨٤ [رأيت يوم أُحد عن يمين النبي ﷺ ، وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده ، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام]

وقال أبو الأسود عن عروة عن الزبير ٥٨٥ : [كان أُبَيُّ بنُ خلف ، أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ، ليقتلنّ رسول الله ﷺ ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته ، قال : « بل أنا أقتله إن شاء الله » فلما كان يوم أُحد ، أقبل أُبَيٌّ في الحديد مقنعاً وهـو يقول : لا نجوت إن نجا محمد ، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه ، فقتل مصعب بن عمير . وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة ، وطعنه فيها بحربته فوقع إلى الأرض عن فرسه ولم يخرج من طعنته دم.فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور فقالوا : ما أجزعك انما هو خدش ؟ فذكر لهم قول رسول الله ﷺ بل أنا أقتل أبياً » ثم قال : والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون ، فمات إلى النار ﴿ فسحقاً لأصحاب السعير ﴾]

روى البخاري عن ابن عباس. قال ٥٨٦ : ﴿ إشتد غضب الله على من قتله رسول الله بيده في سبيل الله ، واشتد غضب الله على قومأدموا وجه رسول الله ﷺ

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : ٥٨٧(إشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله ﷺ ـ وهو حينئذ يشير إلى رباعيته ـ واشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله . ﴾

وقال ابن اسحق : أصيبت رباعية رسول الله ﷺ وشجّ في وجنته وكلمت شفته ، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص ، فحدثني صالح بن كيسان عمن حدثه ، عن سعد بن أبي قاص ٥٨٨ ، قال : [ما حرصت على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص ، وإن كان مـــا علمته لسيء الخلق مبغضاً في قومه ولقد كفاني فيه قول رسول الله ﷺ واشتد غضب الله على من دمّى وجه رسول الله ﷺ »]

قوله تعالى : ﴿ فأثابكم غماً بغم ﴾ أي فجزاكم غماً على غم. وكذا قوله تعالى ﴿ ولأصلبنّكم في جذوع النخل ﴾ أي على جذوع النخل . فالغم الأول الحرمان من غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم وما أصاب المسلمين من القتل والجراح يومئذ ، بعد النصر الذي أحرزوه بادىء الأمر ، والذي ما فاتهم أخيراً الا بمعصية أمر الله وخلافّ أمر رسول الله ﷺ . والغم الثاني ظنهم أن النبي ﷺ قد قتل وميل العدو عليهم وإشرافه وعلوّه عليهم فوق الجبل .

وقوله تعالى : ﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ﴾ أي على ما أتاكم من الغنيمة والظفر بعدوكم ﴿ ولا ما أصابكم ﴾ من الجراح والقتل قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ سبحانه وبحمده لا إله إلا هو جل وعلا .

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي

قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

يمتن الله تعالى على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة ، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مشتملون السلاح في حال همهم وغمهم . والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان كما قال في سورة الأنفال في قصة بدر ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ﴾ الآية ... روى بن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : النعاس في القتال من الله ، وفي الصلاة من الشيطان وروى البخاري عن أنس عن أبي طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ، حتى سقط سيفي من يدي مراراً ، يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه هكذا رواه في المغازي معلقاً . ورواه في كتاب التفسير مسنداً عن شيبان ، عن قتادة عن أنس عن أبي طلحة قال : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد قال فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه . وفي هذا يقول تعالى :

﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم ﴾ يعني أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق. وهم الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله ويُنجز له مأموله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من من القلق والجزع والخوف ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ﴾ إلى آخر الآية . واعتقد هؤلاء أن انتصار المشركين أصبح فاصلاً ، وان الإسلام قد باد وأهله ، وهكذا شأن أهل الشك تحصل لهم مثل هذه الظنون الشنيعة ثم أخبر تعالى أنهم : ﴿ يقولون ﴾ في تلك الحال ﴿ هل لنا من الأمر من شيء ﴾ فقال تعالى : ﴿ قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ﴾ ثم فسّر ما أخفوه في أنفسهم ، بقوله تعالى ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ .

روى ابن اسحق عن الزبير قال : لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم ، فما منا من رجل إلا وذقنه في صدره ، قال فوالله أني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم يقول : ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ﴾ فحفظتها منه . وفي ذلك أنزل الله تعالى ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ﴾ رواه ابن أبي حاتم .

قال الله تعالى : ﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ أي هذا قدر قدَّره الله عز وجل ، وحُكْم حتم لا محيد عنه ولا مناص منه . وقوله تعالى : ﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحّص ما في قلوبكم ﴾ أي يختبركم بما جرى عليكم ، ليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر أمر المؤمن من المنافق في الأقوال والأفعال ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر. ثم قال تعالى: ﴿ إن الذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ﴾ أي ببعض ذنوبهم السابقة ، كما قال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة ، الحسنة بعدها ، وإن من جزاء السيئة ، السيئة بعدها . ثم قال تعالى : ﴿ ولقد عفا الله عنهم ﴾ أي عما كان منهم من الفرار ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أي يغفر الذنب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ۞ (١٥٧) وَلَئِن مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ۞ (١٥٨) ﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار ، في اعتقادهم الفاسد في قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم . فقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم ﴾ أي عن إخوانهم ﴿ إذا ضربوا في الأرض ﴾ أي سافروا للتجارة ونحوها ﴿ أو كانوا غُزًّى ﴾ أي في الغزو ﴿ لو كانوا عندنا ﴾ أي في البلد ، ﴿ ما ماتوا وما قتلوا ﴾ في السفر أو في الغزو . وقوله تعالى : ﴿ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ﴾ أي خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ، ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم. ثم رد تعالى عليهم ﴿ والله يحيي ويميت ﴾ أي بيده الخلق وإليه يرجع الأمر ، فلا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره ولا يزاد في عمر أحد ولا ينقص منه شيء إلاّ بقضائه وقدره ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أي علمه وبصره نافذ في جميع مخلوقاته ، ولا يخفى

عليه من أمورهم شيء ، وقوله تعالى ﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ﴾ تضمن هذا أن القتل في سبيل الله والموت أيضاً وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه ، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجميع حطامها الفاني . وان كل من مات فمرجعه اليه تعالى، فيجزيه بعمله إن خيراً كان أو شراً. فقال تعالى : ﴿ ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ ٱللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَ ٱللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ ٱللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ ٱللهِ وَٱللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾

يخاطب الله تعالى رسوله ﷺ ، ممتناً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان قلبه على أمته المتبعين لأمره التاركين لزجره وأطاب لهم لفظه ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ أي رحمة من الله . وقال الحسن البصري : هذا خُلُق محمد ﷺ بعثه الله به وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾

أي لو كنت سيء الكلام قاسي القلب عليهم، لانفضوا عنك وتركوك ، ولكن الله جمعهم عليك وألان جانبك لهم تأليفاً ــ لقلوبهم كما قال عبدالله بن عمرو : إني أرى صفة رسول رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة : انه ليس بفظ ، ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح

وقال تعالى : ﴿ فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث ، تطييباً لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه ، كما شاورهم ــ يوم بدر في الذهاب الى العير ، فقالوا : يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : إذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون ولكن نقول إذهب، فنحن معك وبين يديك، وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج الى العدو ، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم ، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الأحزاب في المصالحة على ثلث ثمار المدينة فأبى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة ، فترك ذلك . وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين، فقال له الصديق : إنا لم نجيء لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال .

وقال في قصة الإفك ٥٨٩ [اشيروا عليّ معشر المسلمين في قوم أبنوا [١] أهلي ورموهم ، وأيم الله ما علمت على أهلي من سوء وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه إلاّ خيراً] ، وكان يشاورهم في الحروب ونحوها . وقد قال ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ٥٩٠ : [المستشار مؤتمن] وقال أيضاً عن جابر . قال رسول الله ﷺ ٥٩١ : [اذا استشار أحدكم أخاه فليُشِر عليه] وقوله تعالى : ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ أي إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ هذه الآية كما تقدم من قوله ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال تعالى : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما كان لنبي أن يغلّ ﴾ قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا : لعل رسول الله ﷺ أخذها فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان لنبي أن يغل ﴾ أي يخون . وهذا تنزيه له صلوات الله وسلامه عليه من جميع وجوه الخيانة

(١) أبنوا أهلي : أي عابوهم يوم الإفك .

في أداء الأمانة ، وقسم الغنيمة وغير ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ ومن يغلل يأتِ بما غلَّ يوم القيامة ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضاً في أحاديث متعددة حديث : روى الامام احمد عن أبي مالك الأشجعي ، عن النبي ﷺ قال : ٥٩٢ [أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض ، تجدون الرجلين جارين في الأرض ــ أو في الدار فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعاً ، فإذا قطعه طوّقه من سبع أرضين يوم القيامة .]

حديث آخر : روى الامام أحمد عن المستورد بن شداد يقول: سمعت رسول الله ﷺ ٥٩٣ يقول : ﴿ من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً ، أو ليس له دابة فليتخذ دابة ، ومن أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غال]

حديث آخر : روى الأمام أحمد عن أبي حميد الساعدي قال: ٥٩٤(استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له إبن اللّتبيّة على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي. فقام رسول الله ﷺ على المنبر ، فقال: « ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي ؟ أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدي إليه أم لا ؟ والذي نفسي بيده لا يأتي أحدكم منها بشي إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر [1] » ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه،ثم قال: « اللهم هل بلغت » ثلاثاً] أخرجاه من حديث سفيان بن عيينة .

حديث آخر ــ : روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : ٥٩٥ [قام فينا رسول الله ﷺ فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال : « لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء ، فيقول : يا رسول الله أغثني ؛ فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد بلَّغتك، لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة ، فيقول : يــا رسول الله أغثني ؛ فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك ، لا ألفين أحدكم على رقبته صامت[2] ، فيقول : يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قــد بلغتك »] أخرجاه من حديث أبي حيان .

حديث آخر ــ : عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ

(١) تيعر : تصيح .
(٢) الصامت : المال : من الذهب والفضة .

٥٩٦ [ردوا الخياط والمخيط ، فان الغلول عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة] .

حديث آخر – : روى أبو بكر بن مردويه عن بريدة عن النبي ﷺ قال ٥٩٧ : [إن الحجر يرمى به في جهنم فيهوي سبعين خريفاً ما يبلغ قعرها ويؤتى بالغلول فيقذف معه ثم يقال لمن غل به إئت به ، فذلك قوله تعالى ﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾]

* روى أبو داود عن سمرة بن جندب قال ٥٩٨ : [كان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمة أمر بلالاً فينادي بالناس ،فيجوزوا بغنائمهم، فيخمسه ويقسمه ، فجاء رجل يوماً بعد النداء بزمام من شعر فقال : يا رسول الله ، هذا كان مما أصبناه من الغنيمة ، فقال : « أسمعت بلالاً ينادي » ثلاثاً قال نعم . قال « فما منعك أن تجيء ؟ » فاعتذر اليه فقال « كلا أنت تجيء به يوم القيامة فلن أقبله منك »]

وقوله تعالى : ﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ أي لا يستوي من اتبع شرع الله فاستحق رضوانه وثوابه ، وأجير من وبيل عقابه ، ومن استحق غضب الله وألزم به فلا محيد له عنه ومأواه جهنم وبئس المصير.وهذا كقوله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ هم درجات عند الله ﴾ يعني أهل الخير وأهل الشر درجات ، درجاتهم في الجنة ودركاتهم في النار كقوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ الآية ... ولهذا قال تعالى : ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ أي وسيوفيهم إياها ، وقوله تعالى: ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾ أي من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به ، كما قال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ وهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه ولهذا قال تعالى : ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ يعني القرآن ﴿ ويزكيهم ﴾ أي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ،لتزكو نفوسهم،وتطهر من الدنس والخبث في حال شركهم وجاهليتهم ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ يعني القرآن والسنة . ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ أي من قبل هذا الرسول ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ أي لفي غي وجهل ظاهر جلي بين لكل أحد .

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ (١٦٥) وَمَا

أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَٱتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَٱدْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

يقول تعالى : ﴿ أولمّا أصابتكم مصيبةٌ ﴾ هي ما أصيب منهم يوم أحد من القتلى منهم ﴿ قد أصبتُم مثليْها ﴾ يعني يوم بدر فان المسلمين قتَلوا من المشركين سبعين وأسروا سبعين أسيراً ﴿قلتم أنّى هذا ﴾ أي من أين جرى علينا هذا ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم ، يعني بذلك الرماة ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ أي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ثم قال تعالى : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ﴾ أي فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين ، كان بقضاء الله وقدره وله الحكمة بذلك ﴿ وليعلم المؤمنين ﴾ أي الذين صبروا و ثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿ وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ﴾ يعني بذلك أصحاب عبدالله بن أبي بن سلول الذين رجعوا معه أثناء الطريق وكانوا ثلث الناس وقال عبدالله بن أبي : أطاعهم فخرج وعصاني ووالله لاندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ، فرجع بمن اتّبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب . ولحقهم عبدالله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة ، يقول : يا قوم أذكّركم الله أن لا تخذلوا نبيّكم وقومكم عندما حضر من عدوكم قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكن لا نرى أن يكون قتال ، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الإنصراف عنهم، قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم ، ومضى رسول الله ﷺ

قال الله عز وجل : ﴿ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴾ يعني أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته،

ومنه قولهم هذا ﴿ لو نعلم قتالا لاتبعناكم ﴾ فإنهم يتحققون أن المشركين جاءوا من بلاد بعيدة ليثأروا من المسلمين ما أصيب به أشرافهم يوم بدر ، وإن القتال كائن بينهم لا محالة. ولهذا قال تعالى : ﴿ والله أعلم بما يكتمون ﴾ ثم قال : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل . قال الله تعالى: ﴿ قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ أي إن كان القعود يسلم به الشخص من الموت ، فينبغي أنكم لا تموتون ، والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين .

قال مجاهد عن جابر بن عبدالله : نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبيّ بن سلول وأصحابه .

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَانَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

حزب ٨

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار ، فإن أرواحهم حيّة مرزوقة في دار القرار .

روى محمد بن جرير عن إسحق بن أبي طلحة ٥٩٩ [قال حدثني أنس بن مالك في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله إلى أهل بئر معونة ، قال : لا أدري أربعين أو سبعين وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري ، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ حتى أتوا غاراً مشرفاً على الماء فقعدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض : أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهلَ هذا الماء ؟ فقال ـ أراه أبو ملحان الأنصاري ـ أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ فخرج حتى أتى حول بيتهم فاجتثى أمام البيوت ثم قال : يا أهل بئر معونة : إني رسول رسول الله إليكم ، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فآمنوا بالله ورسوله . فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح . فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر فقال : الله أكبر فزت وربِّ الكعبة ، فاتبعوا أثره حتى أتوا صاحبه في الغار فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل] .

* وقال ابن اسحق : حدثني أنس بن مالك ٦٠٠ : [أن الله أنزل فيهم قرآناً /بلغوا عنا قومنا أنّا قد لقينا ربنا فرضي عنا ، ورضينا عنه / ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناها زماناً ، وأنزل الله تعالى : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾]

* وقد روى مسلم في صحيحه عن مسروق قال : ٦٠١ [إنا سألنا عبدالله عن هذه الآية : ﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ فقال : أما إنّا قد سألنا رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟فقالوا أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة ، تركوا .]

حديث آخر ـ : روى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ ٦٠٢ : [ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلاَّ الشهيد ، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة .]

حديث آخر ـ : وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما ٦٠٣ [إن أبا جابر وهو عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنه قتل يوم أحد شهيداً .]

حديث آخر ـ : روى الإمام أحمد عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ ٦٠٤ : [أعلمت أن الله أحيا أباك فقال له : تمنّ ، فقال له : أردُّ إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى . قال : أني قضيت أنهم إليها لا يرجعون .]

حديث آخر ـ : روى البخاري عن ابن المنكدر٦٠٥ : [سمعت جابراً قال لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهونني والنبيّ ﷺ لم ينهَ ؛ فقال النبي ﷺ « لا تبكيه ـ أو ما تبكه ـ ما زالت الملائكة تظلّه بأجنحتها حتّى رفع »] وقد أسنده مسلم والنسائي من طرق ...

حديث آخر ـ : روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ٦٠٦ : [لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ، وحسن مقيلهم قالوا : يا ليت اخواننا يعلمون ما صنع الله بنا ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هذه الآيات : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ وما بعدها ...]

حديث آخر : روى الإمام أحمد عن محمد بن إدريس الشافعي عن مالك بن أنس الأصبحي عن الزهري عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٦٠٧ : [نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتّى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه] .

ففي هذا الحديث البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها وتأكل من ثمارها وترى ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة وهو حديث عزيز عظيم ، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب الأربعة المتبعة .

أما أرواح الشهداء فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح المؤمنين فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الإيمان . وقوله تعالى : ﴿ فرحين بما آتاهم الله ﴾ أي من النعمة والغبطة ﴿ ويستبشرون ﴾ أي ويسرون بلحوق مَن لحقهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم ، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم. قال سعيد بن جبير لما دخلوا الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا : يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما

عرفناه من الكرامة التي أخبر بها رسول الله ﷺ ، فأخبرهم أي ربُّهم : أني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه فاستبشروا بذلك فذلك قوله تعالى : ﴿ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾ وقد تقدم في الصحيحين ذكر أصحاب بئر معونـــــة ...

ثم قال تعالى: ﴿ ألاَّ خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ أي أنهم لا يخافون ممَّا أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم . ثم قال تعالى : ﴿ يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ وأنَّ الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ قال محمد بن اسحق استبشروا أي سروا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب وقوله تعالى : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد مـــا أصابهم القرح ﴾ هذا كان يوم حمراء الأسد ، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم ، فلما استمروا في سيرهم ندموا لمَ لا تَمَّمُوا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة،فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ، ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم،ويريهم أن بهم قوة وجلداً.ولما يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد إلاَّ جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، ليخلف على أخواته السبع لا رجل فيهن . فانتدب المسلمون على ما فيهم من الجراح والإثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ

قال بن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما رجع المشركون من أُحد قالوا : لا محمـــداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم،بئسما صنعتم ، أرجعوا فسمع رسول الله ﷺ ، فندب المسلمين فانتدبوا حتّى بلغوا حمراء الأسد فأنزل الله تعالى : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ .

ولما بلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ يطلبه ، قذف الله في قلبه الرعب ، فلقي عيراً مـــن التجار فقال : ردوا محمداً ولكم من الجعل كذا وكذا . وأخبرُوهم أني قد جمعت جموعاً وإني راجع اليهم . فجاء التجار فأُخبروا رسول الله ﷺ بذلك فقال النبي ﷺ : « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وذكر ابن هشام عن أبي عبيدة قال : قال رسول الله ﷺ حين بلغه رجوعُهم ٦٠٨ [والذي نفسي بيده لقد سُوِّمت لهم حجارة لو أصبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب] .

وقوله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ﴾ أي الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء فما اكترثوا لذلك بل توكلوا على الله واستعانوا به ، ﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾

روى البخاري عن ابن عباس : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ قالها ابراهيم عليـــه

السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ أي لما توكلوا على الله ، كفاهم ما أهمهم ورجعوا إلى بلدهم ﴿ بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ مما أضمر لهم عدوهم . ﴿ واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾ قال: هذا أبو سفيان ، قال لمحمد ﷺ موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا . فقال محمد ﷺ «عسى» فانطلق رسول الله ﷺ لموعده حتى نزل بدراً فوافقوا السوق فيها ، فابتاعوا ؛ فذلك قول الله عز وجل : ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ قال وهي غزوة بدر الصغرى، رواه ابن جرير .

ثم قال تعالى : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ﴾ أي يخوفكم أولياءه ، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وشدة ؛ قال الله تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ فإني كافيكم وناصركم ،كما قال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ـ الى قوله ـ قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ .

۞ وَلَا يَحْزُنْكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ (١٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۞ (١٧٨) مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۞ (١٧٩)

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ (١٨٠)

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾ وذلك من شدة حرصه عليه السلام على الناس إذ كان يحزنه مبادرة الكفار، إلى المخالفة والعناد والشقاق فقال تعالى : ولا يحزنك ذلك ﴿ إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة ﴾ أي حكمته فيهم كذلك ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان ﴾ أي استبدلوا هذا بهذا ﴿ لن يضروا الله شيئاً ﴾ أي ولكن لا يضرون إلاّ أنفسهم ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴾ كقوله : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق نفوسهم وهم كافرون ﴾

ثم قال تعالى ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ أي لا بد أن يعقد شيئاً من المحنة ، يعرف به المؤمن الصابر ، والمنافق الفاجر ، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين فظهر به إيمانهم وصبرهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ ، وهتك به أستار المنافقين ، فظهرت خيانتهم لرسول الله ﷺ . قال السري : قالوا : إن كان محمد صادقاً فليخبرنا عمن يؤمن به منا ومن يكفر بـه فأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ أي حتى يخرج المؤمن من الكافر ، روى ذلك ابن جرير .

ثم قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ أي إنكم لا تعلمون الغيب حتى يميز المؤمن من الكافر ﴿ ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴾ كقوله تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ۞ إلا من ارتضى من رسول ... ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ أي أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ﴾ أي لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه في

دينه ، وربما كان في دنياه ، ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة ، فقال : ﴿ سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٦٠٩ : [من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته مُثّل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه يعني بشدقيه ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك » ثم تلا هذه الآية ﴿ ولا يحسبَنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم ﴾ إلى آخر الآيـة]

قال العوفي عن ابن عباس نزلت في أهل الكتاب الذين بخلوا بما في أيديهم من الكتب المنزلة أن يبينوها ، رواه ابن جرير ، والصحيح الأول وان دخل هذا في معناه . وقوله تعالى : ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ أي ﴿ فانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عز وجل . فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم . ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي بنيَّاتكم وضمائركم .

﴿ لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۞ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۞ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَاتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ (١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ ۞ (١٨٤) ﴾

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ قالت اليهود : يا محمد ، إفتقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله سبحانه ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾

الآية ... وقوله تعالى : ﴿ سنكتب ما قالوا ﴾ تهديد ووعيد ، ولهذا قرنه تعالى بقوله عز وجل ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ أي هذا قولهم في الله ، وهذه معاملتهم رسل الله وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ونقول ذو قوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ أي يقال لهم ذلك ، تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً .

وقوله تعالى : ﴿ الذين قالوا إن الله عهد الينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ يقول تعالى مكذباً زعمهم بأن الله عهد إليهم في كتبهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته، فتُقُبِّلَتْ منه. أن تنزل نار من السماء تأكلها قاله ابن عباس وغيره .

قال الله عز وجل ﴿ قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات ﴾ أي بالحجج والبراهين ﴿ وبالذي قلتم ﴾ أي وبنار تأكل القرابين المتقبلة . ﴿ فلم قتلتموهم ﴾ أي قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة وقتلتموهم ـ ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ إنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل ـ ثم قال تعالى : مسليّا لنبيه محمد ﷺ ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ أي لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك ، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كُذِّبوا مع ما جاءوا به من البينات وهي الحجج والبراهين القاطعة. ﴿ والزبر ﴾ وهي الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿ والكتاب المنير ﴾ أي الواضح الجلي .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ
فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا
مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ ۞ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ربع الحزب
ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ
تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۞ (١٨٦) ﴾

يخبر تعالى جميع خلقه بأن كل نفس ذائقة الموت كقوله تعالى : ﴿ كل من عليها

فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾ فهو تعالى وحده الحي الذي لا يموت ، والجن والانس يموتون وكذلك الملائكة وحملة العرش ، وينفرد الواحد القهار بالديمومة والبقاء ، فيكون آخراً كما كان أولاً ، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس ، فانه لا يبقى أحد على وجه الأرض . فاذا انتهت البرية أقام الله القيامة وحاسب الخلائق حساباً عدلاً . ولذا قال تعالى : ﴿ وإنما توفَّون أجوركم يوم القيامة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنّة فقد فاز ﴾ أي من جُنِّب النار وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز .

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٦١٠ [موضع سوط في الجنة ، خير من الدنيا وما فيها » قال ثم تلا هذه الآية : ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾] وقوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها وأنها فانية زائلة كما قال تعالى : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ وفي الحديث ٦١١ [والله ما الدنيا في الآخرة ، إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم ، فلينظر بم ترجع إليه] والمعنى أن الدنيا هي متاع متروكة ، أوشكت والله الذي لا آله الا هو أن تضمحل عن أهلها ، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ولا قوة إلا بالله . قال قتادة : وقوله تعالى : ﴿ لتُبلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولنبلُوَنكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ إلى آخر الآيتين ... أي لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ، ويبتلى المؤمن على قدر دينه ﴿ ولتَسْمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ﴾ يخبر تعالى المؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر بما سينالهم من الأذى من الكتابيين والمشركين ويأمرهم أن يقابلوه بالصبر والصفح حتى يفرج الله فقال تعالى مسلّياً لهم : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أسامة بن زيد ٦١٢ قال : [كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى ؛ قال الله تعالى : ﴿ ولتَسمعُنَّ من الذين أوتو الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ﴾ قال وكان رسول الله ﷺ يتأوّل في العفو ما أمر الله به حتى أذن الله له فيهم] هكذا ذكره مختصراً .

فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً فقتل الله به صناديد كفار قريش . قال عبدالله بن أبيّ بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان : (هذا أمر قد توجه) فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام فكل من قام بحق أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر فلا بد أن يؤذى فما له من دواء إلا الصبر في الله والاستعانة به . والرجوع إلى الله .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ۞ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ (١٨٩) ﴾

يوبخ الله ويهدد أهل الكتاب، الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوهوا بذكره في الناس. فيكونوا على أهبة من أمره. فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وُعدوا من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف من الحظ الدنيوي السخيف فبئست الصفقة والبيعة، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم؛ فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئاً، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال ٦١٣ : [من سئل عن علم فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار]. وقوله تعالى: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ الآية، يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا، كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ ٦١٤ [من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة] وفي الصحيحين أيضاً ٦١٥ [المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور]

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري : ٦١٦ [إن رجالاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ، كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو وتخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فاذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت : ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا﴾] وكذا رواه مسلم.

وقد روى ابن مردويه عن ثابت بن قيس الأنصاري قال : ٦١٧ [يا رسول الله والله لقد خشيت أن أكون هلكت قال « لمَ ؟ » قال: نهى الله المرء أن يحب أن يحمد بمالم

يفعل ، وأجدني أحب الحمد ، ونهى الله عن الخيلاء وأجدني أحب الجمال ، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤٌ جهير الصوت ، فقال رسول الله ﷺ « أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيداً وتدخل الجنة . ؟ فقال بلى يا رسول الله فعاش حميداً ، وقتل شهيداً يوم مسيلمة الكذاب] .

وقوله تعالى ﴿ فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ﴾ أي لا تحسب أنهم ناجون من العذاب ، بل لا بد لهم منه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير ﴾ أي هو مالك كل شيء والقادر على كل شيء ، فلا يعجزه شيء ، فهابوه ولا تخالفوه ، واحذروا غضبه ونقمته ، فانه العظيم الذي لا أعظم منه ، والقدير الذي لا أقدر منه .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ (١٩٠) ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۞ (١٩١) رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۞ (١٩٢) رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۞ (١٩٣) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۞ (١٩٤) ﴾

يقول الله تعالى : ﴿ إنَّ في خلق السموات والأرض ﴾ أي هذه في ارتفاعها واتساعها وهذه في انخفاضها وكثافتها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة ، من سيارات وثوابت ، وبحار وقفار وحيوان ونبات ومعادن ومنافع مختلفات الطعوم والألوان والروائح. ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أي تعاقبهما وتعارضهما من طول وقصر واعتدال ، وكل ذلك تقدير العزيز العليم. ولهذا قال تعالى : ﴿ لآيات لأولي الألباب ﴾ أي العقول التامة الزكيّة التي تدرك حقائق الأشياء ، وليسوا كالصمّ البكم الذين لا يعقلون ، الذين قال

الله فيهم : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون . ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ ثم وصف تعالى أولي الألباب ، فقال : الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن عمر ان بن حصين : أن رسول الله ﷺ قال ٦١٨ : [صلّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنبك] أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وألسنتهم ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ أي يفهمون ما فيها من الحكم الدالّة على عظمة الخالق ، وعلمه وحكمته واختياره ورحمته .

قال سفيان بن عيينة : الفكرة نورٌ يدخل قلبك . وربما تمثّل بهذا البيت .

إذا المرء كانت له فكرة   ففي كل شيء له عبرة

وعن ابن عباس : أنه قال : ركعتان مقتصدتان في تفكر ، خير من قيام ليلة والقلب ساه . وكان ابن عمر إذا أراد أن يتعهد قلبه ، يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟

ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ وقال الحسن عن عامر بن عبد القيس ، قال : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون : إن ضياء الإيمان: أو نور الإيمان التفكّر .

وقد ذمّ الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته ، فقال : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض ... إلى قوله : ... وهم مشركون ﴾ ومدح عباده المؤمنين ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ قائلين : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً ، بل بالحق لتجزي الذين أساءوا بما عملوا ، وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى . ثم نزّهوه عن العبث فقالوا : ﴿ سبحانك ﴾ عن أن تخلق شيئاً إلاّ بالحق والعدل ، يا من هو منزّه عن النقائص والعيب والعبث [1] ﴿ فقنا عذاب النار ﴾ بحولك وقوتك ويسرنا لأعمال ترضى عنها وعنا فتهدينا بها الى جنات النعيم ، وتجيرنا من عذابك الأليم ثم قالوا : ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴿ ومـــا

(١) قلت : أن الله منزه ولا شك عن فعل الباطل والعبث والعيب والنقيصة ولكنه هو الخالق لكل شيء وشتان بين فعله وخلقه لأن فعله صفة من صفاته ولكن خلقه ليسوا صفاته .

للظالمين من أنصار ﴾ أي يوم القيامة، لا مجير لهم منك، ولا محيد لهم عنك. ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ أي داعياً يدعو للايمان وهو الرسول ﷺ أي يقول آمنوا بربكم فآمنا ، أي فاستجبنا له واتّبعناه ﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي بسبب إيماننا واستجابتنا لنبيك وأتباعه، أغفر لنا ذنوبنا واسترها ﴿ وكفّر عنا سيئآتنا ﴾ فيما بيننا وبينك، ﴿ وتوفّنا مع الأبرار ﴾ أي ألحقنا بالصالحين . ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ أي على ألْسِنَةِ رسلك ﴿ ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾ أي لا تخزنا علناً على رؤوس الخلائق يوم القيامة الذي وعدت ، فإنك لا تخلف الميعاد الذي أخبرتَ عنه رسلك وهو المثول بين يديك .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذ قام من الليل لتهجُّدهِ . وروى البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ٦١٩ : [كنت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب ﴾ الآيات . ثم قام فتوضأ واستن ، ثم صلى إحدى عشرة ركعة . ثم أذّن بلال فصلى ركعتين ، ثم خرج فصلى بالناس الصبح .] وهكذا رواه مسلم ، ورواه أبو داود من وجوه أخر عن مخرمة .

روى ابن مردويه عن عطاء ، قال ٦٢٠ : [إنطلقتُ أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها ، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول الشاعر : زرغباً تزدد حبّاً. فقال ابن عمر : ذرينا أخبرينابأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت : كل أمره كان عجباً ، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ، ثم قال « ذريني أتعبد لربي عز وجل » قالت : فقلت والله إني لأحب قربك ، وإني أحب أن تعبد ربك ، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح . قالت : فقال : يا رسول الله ، ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال « ويحك يا بلال ، «وما يمنعني أن أبكي ، وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب ﴾ ثم قال « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها] قال الحسن بن عبد العزيز عن الأوزاعي قيل له : ما غاية التفكر فيهن ؟ قال : يقرؤهن وهو يعقلهن .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (١٩٥)

روى سعيد بن منصور بسنده إلى أم سلمة قالت : ٦٢١ [يا رسول الله لا نسمع اللهَ ذكرَ النساءَ في الهجرة بشيء فأنزل الله تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكر أو أنثى ﴾ إلى آخر الآية ... وقالت الانصار : هي أول ظعينة قدمت علينا .] وقد رواه الحاكم في مستدركه من حديث سفيان بن عيينة ثم قال : صحيح على شرط البخاري ، ولم يخرجاه .

ومعنى الآية : إن المؤمنين ذوي الألباب لما سألوا ما سألوا مما تقدم ذكرُه ، فاستجاب لهم عقب ذلك بفاء التعقيب كما قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾ هذا تفسير للإجابة ، أي قال لهم مخبراً أنه لا يضيع عمل عامل منكم لديه ، بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى ؛ وقوله تعالى : ﴿ بعضكم من بعض ﴾ أي جميعكم في ثوابي سواء ﴿ فالذين هاجروا ﴾ أي تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران ، ﴿ وأُخرجوا من ديارهم ﴾ أي ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجأوهم إلى الخروج من بين أظهرهم ولهذا قال تعالى : ﴿ وأوذوا في سبيلي ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ . وقولُه تعالى : ﴿ وقاتلوا وقتلوا ﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيعقر جواده ويعفَّر وجهه بدمه وترابه . وقد ثبت في الصحيحين : ٦٢٢ [ان رجلاً قال : يا رسول الله ، أرأيت إن قتلتُ في سبيل الله صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، أيكفّر الله عني خطاياي ؟ قال : « نعم » ثم قال : « كيف قلت ؟ » فأعاد عليه ما قال. فقال « نعم » إلا الذي قاله لي جبريل آنفا]

ولهذا قال تعالى : ﴿ لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن ، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وقوله تعالى : ﴿ ثواباً من عند الله ﴾ أضافه ونسبه إليه ليدل على أنه العظيم الكريم الذي لا يعطي إلا جزيلاً كثيراً .

وقوله تعالى : ﴿ والله عنده حسن الثواب ﴾ أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي ٱلْبِلَادِ ۞ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۞ (١٩٧) لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ ٱللهِ وَمَا عِنْدَ ٱللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ۞ (١٩٨) ﴾

يقول تعالى : لا يغرّك ظاهرُ ما عليه الكفارُ من الترف والنعمة والسرور ، إنما هو استدراجٌ فعمّا قليل يزول هذا كله عنهم ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة ، لأن ما هم فيه ﴿ متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ إن الذين يفترَون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ أي قليلاً ، وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا ، وذكر أن مآلهم إلى النار ، قال بعده : ﴿ لكن الذين اتقوا ربّهم لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار ﴾ روى ابن مردويه عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، عن النبي ﷺ قال : ٦٢٣ [إنما سمّوا الأبرارَ لأنهم برّوا الآباء والأبناء كما أن لوالديك عليك حقاً كذا لولدك عليك حق .]

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۞ (١٩٩) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ (٢٠٠) ﴾

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الأيمان ، ويؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة ، وأنهم خاشعون لله أي مطيعون له متذلّلون بين يديه ، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً. أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ وذكر صفته وصفة أمته ، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم سواءً كانوا هوداً أو نصارى ؛ وقد قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ﴾ وقد قال تعالى في سورة القصص : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ الآية وهذه الصفات توجد في اليهود ولكن قليلاً كعبدالله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس ؛ وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق ، كما قال تعالى : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى – إلى قوله تعالى – فأثابهم الله بما قالوا جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ... ﴾ الآية . وهكذا قال هنا : ﴿ أولئك لهم أجرهم عند ربّهم ﴾ الآية ؛ وقد ثبت في الحديث ٦٢٤ [أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لما قرأ سورة كهيعص بحضرة النجاشي ملك الحبشة وعنده البطاركة والقساوسة بكى وبكوا معه حتى أخضبوا لحاهم .] وثبت في الصحيحين ٦٢٥ [أن النجاشي لما مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه وقال : « إن أخاكم بالحبشة قد مات ، فصلوا عليه » فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلّى عليه] وروى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك ، قال : ٦٢٦ [لما توفي النجاشي قال رسول الله ﷺ « إستغفروا لأخيكم » فقال بعض الناس : يأمرنا ان نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة ، فنزلت : ﴿ وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله ﴾ الآية .]

وروى ابن جرير عن جابر قال : ٦٢٧ [قال لنا رسول الله ﷺ حين مات النجاشي « إن أخاكم أصحمة قد مات » فخرج رسول الله ﷺ فصلى كما صلى على الجنائز فكبر أربعاً . فقال المنافقون : يصلي على علج مات بأرض الحبشة فأنزل الله تعالى : ﴿ وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾] الآية ... وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : ﴿ وان من أهل الكتاب ﴾ يعني مسلمة أهل الكتاب . وقال الحسن البصري قال هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ فاتّبعوه ، وعرفوا الإسلام فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ واتباعهم محمداً ﷺ . وقد ثبت في الصحيحين عن أبي

موسى ، قال : ٦٢٨ [قال رسول الله ﷺ « ثلاثة يأتون أجرهم مرتين » فذكر منهم « رجلاً من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي »] وقوله تعاله تعالى : ﴿ لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ أي لا يكتمون ما بأيديهم من العلم كما فعله الطائفة المرذولة منهم ، بل يبذلون ذلك مجاناً ؛ ولهذا قال تعالى ﴿ أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ أي سريع الإحصاء رواه ابن أبي حاتم عن مجاهد . وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ قال الحسن البصري : أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم وهو الإسلام ، فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ولا لشدة ولا ارخاء حتى يموتوا مسلمين ، وان يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم ، وكذلك قال غير واحد من علماء السلف ؛ وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العباده والثبات ، وقيل : انتظار الصلاة بعد الصلاة .

وروى مسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : ٦٢٩ [ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ، إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة ، بعد الصلاة فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط]

روى ابن مردويه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، قال : أقبل عليّ أبو هريرة يوماً فقال : أتدري يا ابن أخي فيم نزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ ؟ قلت : لا . قال : أما أنه لم يكن في زمان النبي ﷺ غزو يرابطون فيه ، ولكنها نزلت في قوم يعمرون المساجد ويصلون الصلاة في مواقيتها ثم يذكرون الله بها فعليهم أنزلت ﴿ اصبروا ﴾ أي على الصلوات الخمس ﴿ وصابروا ﴾ أنفسكم وهواكم ، ﴿ ورابطوا ﴾ في مساجدكم ، ﴿ وأتقوا الله ﴾ فيما عليكم ﴿ لعلكم تفلحون ﴾

وقيل : المراد بالمرابطة هنا مرابطة الغزو في نحورالعدو ، وحفظ ثغور الأسلام ، وصيانتها عن دخول الاعداء إلى حوزة بلاد المسلمين ، وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك ، وذكر كثرة الثواب فيه [1] . فروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي : أن رسول الله ﷺ ، قال : ٦٣٠ [رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها .]

حديث آخر : روى مسلم عن سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ انه قال : ٦٣١

(١) قلت : والمراد يشمل القولين : الصلاة ، والمرابطة على ثغور المسلمين .

[رباط يوم وليلةٍ خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذي كـان يعمله ، وأجري عليه رزقه وأمن الفتان] وقوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم وأحوالكم كما قال النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : ٦٣٢ [اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها ، وخالقِ الناس بخلقٍ حسن] ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي في الدنيا والآخرة . وقال ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقول في قول الله عز وجل ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ يقول : اتقوني فيما بيني وبينكم لعلكم تفلحون غداً اذا لقيتموني .

انتهى اختصار تفسير سورة آل عمران ، ولله الحمد والمنة ، ونسأله الموت على الكتاب والسنة ، آمين



(نزلت بعد سورة الممتحنة)

قال العوفي عن ابن عباس : نزلت سورة النساء بالمدينة . وكذا روى ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير ، وزيد بن ثابت

روى الحاكم في مستدركه عن معن بن عبد الرحمن بن عبدالله بن مسعود قال : ان في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ الآية ... و ﴿ ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ الآية ... ؛ و ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ و ﴿ لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك ﴾ الآية[1] ... ثم قال : هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه فقد اختُلِف في ذلك ثم روي من طريق صالح المري عن قتادة عن ابن عباس قال : ثماني آيات نزلت في سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت : أولهن ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب الله عليكم والله عليم حكيم ﴾ والثانية : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ والثالثة ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ ثم ذكر قول ابن مسعود سواء يعني في الخمسة الباقية .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ۝ (١) ﴾

(١) قلت : فأين الخامسة ... ؟

يقول تعالى آمر خلقه بتقواه ، وهي عبادته وحده لا شريك له ، ومنبّهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفسٍ واحدة ، وهي آدم عليه السلام ﴿وخلق منها زوجها﴾ وهي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم ، فاستيقظ فرآها فأعجبته ، فأنس إليها وأنست إليه، وفي الحديث الصحيح : ٦٣٣ [ان المرأة خلقت من ضلع وإنَّ أعْوَجَ شيْءٍ في الضلعِ اعلاهُ ، فإن ذهبتَ تقيمهُ كسرتَه ، وإن استَمْتَعْتَ بها استمتعت بها وفيها عِوَجٌ] . وقوله : ﴿ وبث منهما رجالا كثيراً ونساءً﴾ أي وذرأ منهما أي من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء ، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم ، وألوانهم ولغاتهم ، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر ثم قال تعالى : ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ﴾ أي واتقوا الله بطاعتكم إياه. قال الضحاك : واتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن برّوها وصلوها : ﴿ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ أي هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم كما قال : ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ وفي الحديث الصحيح ٦٣٤ [أعبُدِ اللهَ كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك] وهذا أمْر بمراقبة الرقيب ، ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ليعطف بعضهم على بعض ، ويحثهم على ضعفائهم ، وقد ثبت في صحيح مسلم : ٦٣٥ [أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر ـ وهم مجتابو النمار أي من عريهم وفقرهم ـ قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ حتى ختم الآية. ثم قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد ﴾ ثم حضهم على الصدقة فقال : تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من صاع بره ، من صاع تمره] وذكر تمام الحديث . وهكذا رواه أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود في خطبة الحاجة (١)

﴿ وَءَاتُوا ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ

---

* ليس في هذه الآية حجة لمن يجيزون التوسّل بالمخلوقين.. إذ ليس المقصود السؤال بالأرحام ، إنما المراد صلةُ الأرحام .

(١) وهذا نص خطبة الحاجة : راجع « التمهيد » من المجلد الأول من هذا المختصر فهو مفتتح بصلاة الحاجة التي أولها : (إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ... الخ) .

وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۞ (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ۞ (٤)

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم، كاملةً موفرةً، وينهى عن أكلها وضمّها إلى أموالهم . ولهذا قال: ﴿ ولا تتبدّلوا الخبيث بالطيب ﴾ قال سعيد بن جبير : لا تتبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم. وقال السدي: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من مال اليتيم، ويجعل مكانها الشاة المهزولة ويقول شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد ويطرح مكانه الزيف ويقول درهم بدرهم . وقوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ ، أي لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً . وقوله تعالى : ﴿ إنه كان حوباً كبيراً ﴾ أي إثماً عظيماً قاله ابن عباس وجماعة من التابعين . وفي الحديث المروى في سنن أبي داود : ٦٣٦ [اغفر لنا حوبنا وخطايانا] والمعنى أن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه . وقوله تعالى : ﴿ وإن خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى ... ﴾ أي اذا كانت تحت حجر أحدكم يتيمة، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها من النساء ، فإنهن كثير ولم يضيق الله عليه .

قال البخاري عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : ﴿ وإن خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى ﴾ قالت : يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . قال عروة : قالت عائشة وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله : ﴿ ويستفتونك في النساء ﴾ قالت عائشة : وقول الله في الآية الأخرى ﴿ وترغبون أن تنكحوهن ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال .

وقوله تعالى : ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهن ، إن شاء أحدكم ثنتين ، وإن شاء ثلاثا ، وإن شاء أربعاً. وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة

عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ ان يجمع بين أكثر من أربع نسوة ، لأن ذلك من خصائصه عليه الصلاة والسلام .

روى الإمام أحمد عن سالم عن أبيه ٦٣٧ [أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة فقال له النبي ﷺ:« اختر منهن أربعاً » فلما كان في عهد عمر طلق نساءه وقسم ماله بين بنيه ، فبلغ ذلك عمر فقال : إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه في نفسك ، ولعلك لا تلبث إلا قليلاً . وأيم الله لتراجعن نساءك ولترجعن مالك أو لأورثهن منك ولآمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال] وهكذا رواه الشافعي وغيره إلى قوله « اختر منهن أربعاً » وباقي الحديث في قصة عمر من أفراد أحمد وهي زيادة حسنة وهي مضاعفة لما علل به البخاري هذا الحديث فيما حكاه عنه الترمذي أن البخاري يقول هذا الحديث غير محفوظ - أي ينفي الزيادة وهذا التعليل فيه نظر والله أعلم - والاسناد الذي قدمناه من مسند أحمد رجاله ثقات على شرط الشيخين . وهناك أحاديث عن أبي داود ، وابن ماجة ، والشافعي شواهد لحديث غيلان كما قاله البيهقي .

وقوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ﴾ أي أن خفتم من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن ، كما قال تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة ، أو على الجواري السراري فإنه لا يجب قسم بينهن ، ولكن يستحب ، فمن فعل فحسن ، ومن لا فلا حرج ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك أدنى ألاّ تعولوا ﴾ أي لا تجوروا . يقال عال في الحكم إذا قسط وظلم وجار.وفي الحديث الموقوف على عائشة على الصحيح ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ أي لا تجوروا قاله ابن أبي حاتم . وقوله تعالى : ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴾ وعن ابن عباس: النحلة المهر ، وقيل فريضة مسماة والنحلة في كلام العرب الواجب يقول : لا تنكحها الا بشيء واجب لها ، ولا ينبغي تسمية الصداق كذباً بغير حق ، وإن الرجل عليه دفع المهر عن طيب نفس ، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه فليأكله حلالاً طيباً . ولهذا قال : ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ وقال هشيم عن سيار عن أبي صالح : كان الرجل إذا زوج بنته أخذ صداقها دونها فنهاهم الله عن ذلك ونزل ﴿ وآتوا النساء صدقاتيهن نحلة ﴾ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

۞ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا

وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً ۞ (٥) وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيباً ۞ (٦)

ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال الّتي جعلها الله للناس قياماً، تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها . ومن ههنا يؤخذ الحَجْرُ على السفهاء وهم أقسام : فتارة يكون الحَجْر للصِّغَر ، فإن الصغير مسلوبُ العبارة . وتارة يكون للجنون ، وتارةً لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين ، وتارة للمفلس وهو المديون ضاق ماله عن وفاء دينه، فاذا سأل الدائنون الحاكمَ الحَجْرَ عليه ؛ حجر عليه.وعن ابن عباس ، في قوله تعالى: ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ﴾ قال : هم بنوك والنساء، وقال الضحاك : هم النساء والصبيان قال سعيد بن جبير : هم اليتامى . وقال ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ ٦٣٨ [إن النساء سفهاء إلاّ الّتي أطاعت قيِّمها] وقيل هم الخدم وشياطين الأنس . ورجل كان له على رجل دين فلم يُشهِدْ عليه . قال العبارة الأخيرة ابن جرير عن أبي موسى من حديث له وقوله تعالى : ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول : لا تعمد إلى مالك وما خوّلك الله وجعله لك معيشةً فتعطيه امرأتك أو بنتك ثم تنظر إلى ما في أيديهم ولكن امسك مالك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم . وهذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة ومن تحت الحجر بالفعل من الإنفاق في الكساوي والأرزاق بالكلام الطيب وتحسين الأخلاق.وقوله تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى ﴾ أي اختبروهم ﴿ حتى إذا بلغوا النكاح ﴾ يعني الحلم وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد ، وفي الصحيحين : ٦٣٩ [عن ابن عمر ، قال : عُرضتُ على النبيّ ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يجزني وعرضتُ عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني] . قال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث : إن هذا هو الفرق بين الصغير والكبير .

وقوله عز وجل : ﴿ فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ قال الفقهاء : إذا بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله انفك الحَجْر عنه،فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليّه ؛ وقوله : ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ﴾ ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية ﴿ إسرافاً وبداراً ﴾ أي مبادرة قبل بلوغهم ثم قال تعالى : ﴿ ومن كان غنياً فليستعففْ ﴾ عنه ولا يأكل منه شيئاً وقال ابن أبي حاتم عن عائشة : ﴿ ومن كان فقيراً فليأكلْ بالمعروف ﴾ نزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه ، بقدر قيامه عليه . واختلفوا هل يرد إذا أيسر ؟ والصحيح : لا . لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً، ولأنّ الآية أباحتْ الأكل من غير بدل . وروى احمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال : ليس لي مال ولي يتيم ؟ فقال : ٦٤٠ [كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل مالاً ومن غير أن تقي مالك – أو قال – تفدي مالك بماله « شك حسين أحد الرواة – وإذا استغنى استعفف] وقوله تعالى : ﴿ فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴾ يعني بعد بلوغهم الحلم وإيناسكم الرشد منهم فسلموا إليهم اموالهم ﴿ فأشهدوا عليهم ﴾ وهذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يُشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحُلُم وسلّموا إليهم أموالهم،لئلاّ يقع من بعضهم جحود لما قبضه وتسلّمه ثم قال تعالى : ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ أي محاسباً وشاهداً ورقيباً على الأولياء في كل أحوالهم فلتسلّم كاملةً غير منقوصة . ولهذا ثبت في صحيح مسلم : ٦٤١ [أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمَّرنَّ على اثنين ولا تَليَنَّ مال يتيم . »]

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ۞(٧) وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً ۞ (٨) وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ۞ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ۞ (١٠) ﴾

قال سعيد بن جبير وقتادة : كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ، ولا يورّثون النساء ولا الأطفال شيئاً فأنزل الله ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ الآية . ؛ أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى ، يستوون في أصل الوراثة وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلي به إلى الميت من قرابة ، أو زوجية أو ولاء . فإنّه لحمة كلحمة النسب . وروى ابن مردويه عن جابر قال : أتتْ أمُّ كَحّة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن لي ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شيء ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ الآية ، وسيأتي هذا الحديث عند آيتي الميراث بسياق آخر ... وقوله تعالى : ﴿وإذا حضر القسمة﴾ قيل : المراد وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث ﴿واليتامى والمساكين﴾ فليرضخ لهم من التركة نصيب ، وإن ذلك كان واجباً في ابتداء الإسلام ، وقيل يستحب . واختلفوا هل هو منسوخ أم لا ؟ على قولين : فقال البخاري عن ابن عباس في الآية ، قال : هي محكمة وليست بمنسوخة هي قائمة يعمل بها . وعن مجاهد ، هي واجبة على أهل الميراث ما طابت بها أنفسهم . وهكذا روي عن ابن مسعود وأبي موسى وعبد الرحمن بن أبي بكر وجماعة من التابعين ...

* وعن ابن عباس : ... إنما هذه الآية في الوصية يريد الميت يوصي لهم رواه ابن أبي حاتم .

* قال سفيان الثوري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ﴿وإذا حضر القسمة ..﴾ قال : منسوخة وعنه أيضاً قال : نسختها الآية التي بعدها : ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ وقال العوفي عن ابن عباس كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض ، فأنزل الله بعد ذلك الفرائض فاعطي كلَّ ذي حق حقه . وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم .

والمعنى أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون ، واليتامى والمساكين ، قسمة مال جزيل ، فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ ، وهم يائسون لا شيء يُعْطَوْنَهُ فأمر الله تعالى ، وهو الرؤف الرحيم ، أن يرضخ لهم شيء من الوسط يكون براً بهم وصدقةً عليهم وإحساناً إليهم وجبراً لكسرهم . كما قال تعالى : ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾ وذم الذين ينقلون المال خفيةً خشية أن يطّلع عليهم المحاويج وذوو الفاقة كما أخبر عن أصحاب الجنة ﴿إذ أقسموا ليصرِمُنّها مصبحين﴾ فمن جحد حق الله عليه عاقبه في أعز ما يملكه ، ولهذا جاء في الحديث ٦٤٢ [ما خالطت الصدقة مالاً إلا أفسدته] وقوله تعالى : ﴿وليخش الذين لو تركوا من

خلفهم ... ﴾ الآية قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هذا في الرجل يحضره الموت ، فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته ، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله ويوفقه ويسدده للصواب فينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي الضيعة عليهم . وثبت في الصحيحين ٦٤٣ [أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده ، قال : يا رسول الله إني ذو مال ولا يرثني إلاّ ابنة أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : « لا » قال فالشطر ؟ قال « لا » قال : فالثلث ؟ قال : « الثلث ، والثلث كثير » ثم قال رسول الله ﷺ « إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالةً يتكففون الناس »]

وقيل المراد بالآية فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى ﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً﴾ وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد في أكل أموال اليتامى ظلماً . أي كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك ، فعامل الناس في ذراريهم إذا وليتهم ، ثم أعلمهم أن من أكل أموال اليتامى ظلما إنما يأكل في بطنه ناراً ولهذا قال : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فانما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة وقد ثبت في الصحيحين في جملة السبع الموبقات التي أمرنا رسول الله ﷺ أن نجتنبها ... « وأكل مال اليتيم » روى ابن مردويه عن أبي برزة ٦٤٤ [إن رسول الله ﷺ قال « يبعث يوم القيامة القوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً » قيل : يا رسول الله من هم ؟ قال : « ألم ترَ أن الله قال : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ﴾) الآية ...

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ۞ (١١) ﴾

هذه الآية والتي بعدها ، والآية التي هي خاتمة هذه السورة هنّ آيات علم الفرائض وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك ، ولنذكر منها ما هو متعلق بالمقصود . وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة فموضعه .كتب الأحكام والله المستعان . وقد ورد الترغيب في تعلم الفرائض ، وهــذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك .

روى ابو داود وابن ماجه عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً ٦٤٥ [العلم ثلاثة ، وما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة ، أوسنة قائمة، أو فريضةعادلة] قال ابن عيينة : إنما سمى الفرائض نصف العلم ، لأنه يبتلى به الناس كلهم .

وروى البخاري عن جابر بن عبدالله قال : ٦٤٦ [عادني رسول الله ﷺ وأبــو بكر في بني سلمة ماشيين ، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً ، فدعا بماء فتوضأ منه ، ثم رش علي فأفقت ، فقلت : ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله ؟ فنزلت : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾] وكذا رواه مسلم والنسائي ورواه الجماعة كلهم من حديث سفيان بن عيينة .

حديث آخر عن جابر في سبب نزول الآية : روى أحمد عن جابر قال : ٦٤٧ [جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتــا سعد بن الربيع ، قتل أبوهما معك في يوم أُحُدٍ شهيدا ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ، ولا ينكحان إلا ولهما مال فقال : « يقضي الله في ذلك » فنزلت آية الميراث ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : « اعط ابنتي سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقي فهو لك] والظاهر أن حديث جابر الأول ــ الذي رواه البخاري آنفاً ــ إنما نــزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي ، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات ، ولم يكن له بنات ، وانما كان يورث كلالة ، ولكن ذكرنا الحديث ها هنا تبعاً للبخاري فانه ذكره ها هنا ، والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية ، والله أعلم .

فقوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ أي يأمركم بالعدل فيهم ففي الجاهلية كان الميراث للذكور دون الإناث فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث وفاوت بين الصنفين فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة فناسب أن يعطي ضعفي ما تأخذه الأنثى ، ويستنبط من هذه أن الله أرحم بخلقه من الوالدة بولدها حيث أوصى الوالدين بأولادهم في هذه الآية فعلم أنه أرحم بهم منهم .

روى البخاري عن ابن عباس ، قال : كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين ، فنسخ الله من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث ، وجعل للزوجة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع .

وقوله تعالى : ﴿ فإن كنَّ نساءً فوق اثنتين فلهنَّ ثلثا ما ترك ﴾ قال البعض : ... قوله تعالى : ﴿ فوق ﴾ زائدة ! ! ! وهذا ممتنع فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه . ثم قوله تعالى : ﴿ فلهن ثلثا ما ترك ﴾ لو كان المراد ما قالوه ... لقال : فلهما ثلثا ما ترك . وإنما استفيد كون الثلثين للبنتين، من حكم الأختين في الآية الأخيرة ، فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين ؛ فإذا ورث الأختان الثلثين ، فَلأَنْ يرثَ البنتان الثلثين بالطريق الاولى وقد تقدم في حديث جابر أن النبي ﷺ ، حكم لابنتي سعد بن الربيع بالثلثين ، فدل الكتاب والسنة على ذلك . وأيضاً فإنه قال ﴿ وإن كانت واحدة فلها النصف ﴾ فلو كان للبنتين النصف لنص عليه أيضاً فلما حكم به للواحدة على انفرادها دل على أن البنتين في حكم الثلاث والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس ﴾ إلى آخره ، الأبوان لهما في الأرث أحوال « أحدها » أن يجتمعا مع الأولاد فيفرض لكل واحد منهما السدس ، فان لم يكن للميت إلاَّ بنت واحدة ، فرض لها النصف ، وللأبوين لكل واحد منهما السدس ، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعّصيب ، فيجمع له والحالة هذه بين الفرض والتعصيب .

« الحال الثاني » : أن ينفرد الأبوان بالميراث فيفرض للأم الثلث ، والحالة هذه أخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض ، فيكون قد أخذ ضعفي ما حصل للأم وهو الثلثان ، فلو كان معهما زوج أو زوجة ويأخذ الزوج النصف والزوجة الربع . ثم اختلف العلماء ماذا تأخذ الأم بعد ذلك على ثلاثة أقوال : أصحها : أنها تأخذ ثلث الباقي في المسألتين ، لأن الباقي كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما وقد جعل الله لها النصف مما جعل للأب ، فتأخذ ثلث الباقي ، ويأخذ الأب الباقي في ثلثيه . هذا قول عمر وعثمان وأصح الروايتين عن علي ، وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت ، وهو قول الفقهاء السبعة ، والأئمة الأربعة وجمهور العلماء .

الحال الثالث : وهو اجتماعهما مع الأخوة ؛ سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم ، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس ، فيفرض لها مع وجودهم السدس ، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب ، أخذ الأب الباقي .

وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الأخوة عند الجمهور . وقوله تعالى : ﴿ فان كان له أخوة فلأمه السدس ﴾ أضروا بالأم ولم يرثوا ، ولا يحجبها الأخ الواحد عن الثلث ويحجبها ما فوق ذلك وقوله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصي بها أو دين ﴾ أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدَّين مقدم على الوصية ، وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة .

وروى أحمد والترمذي وابن ماجه وأصحاب التفاسير من حديث مروي عن علي ابن أبي طالب ، قال : ٦٤٨ [إنكم تقرأون : ﴿ من بعد وصية يوصي بها أو دين ﴾ وان رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية ، وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه ، دون أخيه لأبيه] ثم قال الترمذي : لا نعرفه إلاّ من حديث الحارث ، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم (قلت) لكن كان حافظاً للفرائض ، معتنياً بها وبالحساب ، فالله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ آباؤكم وابناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً ﴾ أي إنما فرضنا للآباء والأبناء وساوينا بين الكل في أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية. وعلى خلاف ما كان عليه الأمر في ابتداء الاسلام من كون المال للولد ، وللأبوين الوصية كما تقدم عن ابن عباس ، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا..ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوي أو الأخروي أو كلاهما من أبيه ، مالا يأتيه من ابنه ، وقد يكون بالعكس ولذا قال: ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم اقرب لكم نفعاً ﴾ أي إن النفع متوقع ومرجو من هذا ، كما هو متوقع ومرجو من الآخر ، فلهذا فرضنا لهذا ولهذا ، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث،والله أعلم.وقوله تعالى : ﴿ فريضة من الله ﴾ أي هذا الذي ذكرناه من تفصيل الميراث ، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض ، هو فرض من الله حكم به وقضاه ، والله عليم حكيم الذي يضع الأشياء في محالها ، ويعطي كلاًّ ما يستحقه بحسبه ، ولهذا قال : ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ .



۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ

بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ۞ (١٢)

يقول تعالى ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم ، إذا متن عن غير ولد فإن كان لهن ولد ، فلكم الربع مما تركن من بعد الوصية أو الدين ، وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية وبعده الوصية ثم الميراث ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء .

وحكم أولاد البنين وإن سفلوا كحكم أولاد الصلب . ثم قال تعالى : ﴿ولهن الربع مما تركتم﴾ الى آخره ... وسواء في الربع أو الثمن ، الزوجة والزوجتان والاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه . وقوله تعالى : ﴿من بعد وصية﴾ الخ الكلام عليه كما تقدم ــ آنفاً ــ وقوله تعالى : ﴿وإن كان رجل يورث كلالة﴾ والكلالة كما عرفها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : أقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وان يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه ، الكلالة من لا ولد له ولا والد ، ومروي كذلك عن عمر وهكذا قال علي وابن مسعود ، وصح عن غير واحد عن ابن عباس وزيد بن ثابت وبه يقول الشعبي والنخعي والحسن وقتادة وجابر بن زيد والحكم ، وقال به السلف والخلف وأهل المدينة ، وأهل الكوفة والبصرة وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف بل جميعهم وقد حكى الإجماع عليه غير واحد . وقوله تعالى : ﴿وله أخ أو أخت﴾ أي من أم كما هو في قراءة بعض السلف منهم سعد بن أبي وقاص ، وكذا فسرها أبو بكر الصديق فيما رواه عنه قتادة ﴿فلكل واحد منها السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه:(أحدها) أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم و (الثاني) أن ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء . و (الثالث) لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلالة فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن و (الرابع) انهم لا يزادون على الثلث وإن كثر ذكورهم واناثهم . وقال ابن أبي حاتم ، عن الزهري قال : قضى عمر أن ميراث

الأخوة من الأم بينهم للذكر مثل حظ الأنثى ؛ قال الزهري : ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم ذلك من رسول الله ﷺ ، وهذه الآية هي التي قال الله تعالى فيها ﴿ فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث ﴾ واختلف العلماء في المسألة المشتركة وهي زوج وأم أو جدة ، واثنان من ولد الأم ، وواحد أو أكثر من ولد الأبوين ، فعلى قول الجمهور ، للزوج النصف وللأم أو الجدة السدس ، ولولد الأم الثلث ، ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو أخوة الأم ، وقد وقعت هذه المسألة في زمان أمير المؤمنين عمر ، فأعطى الزوج النصف ، والأم السدس ، وجعل الثلث لأولاد الأم . فقال له أولاد الأبوين : يا أمير المؤمنين ، هب أن أبانا كان حماراً ، ألسنا من أم واحدة ؟ فشرّك بينهم وصح التشريك عن عثمان ، وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهم ، وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح القاضي ومسروق وطاووس ومحمد بن سيرين وابراهيم النخعي ، وعمر بن عبد العزيز والثوري وشريك ، وهو مذهب مالك والشافعي واسحق ابن راهويه ، وكان علي بن أبي طالب لا يشرّك بينهم ، بل يجعل الثلث لأولاد الأم ، ولا شيء لأولاد الأبوين ، والحالة هذه لأنهم عصبة . وقال وكيع بن الجراح : لم يختلف عنه في ذلك . وهذا قول أبي بن كعب ، وأبي موسى الأشعري . وهو المشهور عن ابن عباس وهو مذهب الشعبي وابن أبي ليلى وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن ، والحسن ابن زياد ، وزفر بن الهزيل ، والإمام أحمد ويحيى بن آدم ، ونعيم بن حماد وأبي ثور وداود الظاهري ، واختاره أبو الحسين بن اللبان الفرضي رحمه الله في كتابه الإيجاز .

وقوله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصي به أو دين غير مضار ﴾ أي لتكن وصيته على العدل لا على الإضرار والجور والحيف بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه ، أو يزيده على ما فرض الله له من الفريضة ، فمن سعى في ذلك ، كان كمن ضادّ الله في حكمه وشرعه . ولهذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس عن النبي ﷺ ٦٤٩ قال : [الإضرار في الوصية من الكبائر]

وروي موقوفاً على ابن عباس ، وذلك عن النسائي وابن أبي حاتم وابن جرير وقال :

والصحيح الموقوف . ولهذا اختلف الأئمة في الإقرار للوارث هل هو صحيح أم لا(١) على قولين (أحدهما) : لا يصح لأنه مظنة التهمة . وقد ثبت في الحديث أن رسول الله

(١) قلت : أي اقرار الموصي بشيء دون باقي الورثة بمعنى أنه يخص أحدهم بشيء دون الآخرين .

ﷺ قال : ٦٥٠ [إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصيّة لوارث] وهذا مذهب مالك وأحمد وأبي حنيفة والقول القديم للشافعي رحمهم الله وذهب في الجديد إلى أنه يصح الإقرار ، وهو مذهب طاوس وعطاء وعمر بن عبد العزيز وهو أختيار أبي عبدالله البخاري في صحيحه واحتج : بأن رافع بن خديج أوصى أن لا تكشف الفزارية عما أغلق عليه بابها قال . وقال بعض الناس لا يجوز إقراره لسوء الظن بالورثة ، وقد قال النبي ﷺ ٦٥١ [إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث] وقال الله تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ فلم يخص وارثاً ولا غيره ، إنتهى قول البخاري . (١) فمتى كان الإقرار صحيحاً مطابقاً في نفس الأمر ، جرى فيه هذا الخلاف ، ومتى كان حيلةً ووسيلةً إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم فهو حرام بالإجماع وبنص هذه الآية الكريمة : ﴿ غير مضار وصيةً من الله والله عليم حليم ﴾ ثم قال تعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ وَمَن يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ (١٣) وَمَن يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ (١٤) ﴾

أي هذه هي الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه، هي حدود الله فلا تعتدوها ولا تجاوزوها ، ولهذا قال : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ أي فيها فلم يزد بعض الورثة ، ولم ينقص بعضها بحيلة ووسيلة ، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿ يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعصِ الله ورسوله ويتعدَّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين . ﴾ أي لكونه غيَّر ما حكم الله ، وضادَّ الله في حكمه ، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به ، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم

(١) هذا قول مجرد للبخاري رحمه الله ولكن فيما يبدو والله أعلم أن حجة خصومه أقوى؛ لأن الله يقول « غير مضار » والرسول يقول « لا وصية لوارث » إلا أن يكون الإقرار ناتجاً عن أن الموصَى له، له أتعاب خاصة على الموصي فخصَّه بشيء لقاءها .

﴿ وَٱللَّاتِي يَأْتِينَ ٱلْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ۞ (١٥) وَٱللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً ۞ (١٦) ﴾

كان الحكم في ابتداء الإسلام،أن المرأة اذا ثبت زناها بالبيّنة العادلة ، حبست في بيت ، فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت ، ولهذا قال﴿ واللاتي يأتين الفاحشة ﴾ يعني الزنا ﴿ من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعةً منكم فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهنّ الموت أو يجعلَ الله لهن سبيلاً ﴾ فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك . قال ابن عباس رضي الله : كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور ، فنسخها بالجلد أوالرجم وكذا روى عن جماعة التابعين أنها منسوخة ، وهو أمر متفق عليه - روى الامام أحمد عن عبادة بن الصامت ٦٥٢ [كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي ، أثر عليه وكرب لذلك ، وتغير وجهه ، فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم فلما سرّي عنه قال : « خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً ، الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر ، الثيب جلد مئة ورجم بالحجارة ، والبكر جلد مائة ثم نفي سنة.»] وقد رواه مسلم وأصحاب السنن من طرق ...

وذهب ابن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث ، وهو الجمع بين الجلد والرجم في حق الثيب الزاني ، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يرجم فقط من غير جلد ، قالوا : لأن النبي ﷺ رجم ماعزاً والغامدية واليهوديين ، ولم يجلدهم قبل ذلك ، فدلّ على أن الجلد ليس بحتم ، بل هو منسوخ على قولهم ، والله أعلم . وروى الطبراني عن ابن عباس ٦٥٣ قال : [لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ [« لا حبس بعد سورة النساء »]

وقوله تعالى : ﴿ واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي بالشتم والتعيير والضرب بالنعال ، وكان الحكم كذلك ، حتى نسخه الله تعالى بالجلد

والرجم ، وقال عكرمة وغيره : نزلت في الرجل والمرأة إذا زنيا ، وقال السدي : نزلت في الفتيان قبل أن يتزوجوا . وقال مجاهد : نزلت في الرجلين إذا فعلا ـ لا يكني ، وكأنه يريد عمل قوم لوط والله أعلم ، وقد روى أهل السنن عن ابن عباس مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ ٦٥٤ : [من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به] وقوله تعالى : ﴿ فإن تابا وأصلحا ﴾ أي أقلعا وصلحت أعمالهما ﴿ فأعرضوا عنهما ﴾ أي لا تعنفوهما بعد ذلك ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿ إنّ الله كان تواباً رحيماً ﴾ وقد ثبت في الصحيحين ٦٥٥ [إذا زنت أمة أحدكم ، فليجلدها الحد ولا يثرّب عليها] أي لا يعيّرها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت .

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * (١٧) وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * (١٨) ﴾

يقول سبحانه وتعالى : إنما يقبل الله التوبة من عمل السوء بجهالة ثم يتوب ولو بعد معاينة الملك يقبض روحه قبل الغرغرة قال مجاهد وغير واحد وكل من عصى الله خطأً أو عمداً ، فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب . وقال أبو صالح عن ابن عباس : من جهالته عمل السوء ﴿ ثم يتوبون من قريب ﴾ عن ابن عباس : ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت ، وقال الضحاك ما كان دون الموت فهو قريب وقال الحسن : ما لم يغرغر وقال عكرمة : الدنيا كلها قريب .

﴿ ذكر الأحاديث في ذلك ﴾

روى الأمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ ٦٥٦ [ان الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر] ورواه الترمذي وابن ماجة .

روى ابن مردويه عن عبدالله بن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ ٦٥٧ يقول [ما

من عبد مؤمن يتوب قبل الموت بشهر إلا قبل الله منه أدنى من ذلك ، وقبل موته بيوم وساعة يعلم الله منه التوبة والإخلاص إليه إلا قبل منه] .

روى أبو بكر بن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٦٥٨ : [ان الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر] .

روى الامام أحمد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ٦٥٩ [قال ابليس : يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم ؛ فقال الله عز وجل : وعزتي وجلالي لا أزال اغفر لهم ما استغفروني] .

فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله عز وجل، وهو يرجو الحياة فإن توبته مقبولة ولهذا قال الله تعالى ﴿ فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً ﴾ وأما متى غرغرت النفس صاعدة في الغلاصم فلا توبة مقبولة حينئذٍ ، ولات حين مناص . ولهذا قال تعالى :

﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ﴾ كما حكم على أهل الأرض بعدم قبول توبتهم إذا عاينوا الشمس طالعةً من مغربها في قوله تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل. أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ يعني أن الكافر إذا مات على كفره وشركه ، لا ينفعه ندمه ولا توبته ، ولا يقبل منه فدية ولو بملء الأرض ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ أي موجعاً شديداً مقيماً .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا ٱلنِّسَاءَ كَرْهاً وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ۞ (١٩) وَإِنْ أَرَدْتُمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا

مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴿٢١﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٢٢﴾

قال البخاري عن ابن عباس : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً قال : إذا مات الرجل ، كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوّجوها ، فهم أحق بها من أهلها ؛ فنزلت هذه الآية : ﴿ياأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ﴾ هكذا ذكر البخاري وأبو داود والنسائي وابن مردويه وابن أبي حاتم وغيرهم أحاديث وأخبار بنفس المآل . وقال ابن جريج : ٦٦٠ قال عكرمة [أنزلت في كبيشة بنت معن بن عاصم بن الأوس ، توفي عنها أبو قيس بن الأسلت ، فجنح عليها ابنه ، فجاءت رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، لا أنا ورثت زوجي ، ولا أنا تركت فأنكح ، فأنزل الله هذه الآية .] وقال السدي عن أبي مالك : كانت المرأة في الجاهلية إذا مات زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوباً ، فإن كان له ابن صغير ، أو أخ ، حبسها حتّى يشب ، أو تموت فيرثها فإن هي انفلتت فأتت أهلها ولم يُلقِ عليها ثوباً ، نجت . فأنزل الله ﴿ لا يحل لكم أن ترثوا .. ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ﴾ أي تضارّوهن في العشرة ، لتترك لكم ما أصدقتموها أو بعضه أو حقاً من حقوقها عليك ، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والإضرار. قال عبدالله بن المبارك : يعني قوله تعالى : ﴿ لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ﴾ في الجاهلية ، ﴿ ولا تعضلوهن ﴾ في الإسلام . وقوله تعالى : ﴿ إلا أن يأتين بفاحشةٍ مبينة ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وجماعة التابعين ، يعني بذلك الزنا ، يعني إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها ، وتضاجرها حتّى تتركه لك وتخالعها وقيل : أنها النشوز والعصيان وقال ابن جرير : إنه يعم ذلك كله : الزنا والعصيان والنشوز وبذاء اللسان وغير ذلك ، يعني هذا كله يبيح مضاجرتها حتّى تُبرئه من حقها أو بعضه ويفارقها ، وهذا جيد والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿وعاشروهن بالمعروف ﴾ أي طيّبوا أقوالكم لهن وحسّنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها ، فافعل أنت بها مثله ؛ كما قال تعالى : ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ وقال رسول الله ﷺ : ٦٦١ [خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي]

وكان من أخلاقه ﷺ أنـه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ، ويتلطف بهم ويوسعهم نفقته ، ويضاحك نساءه ، حتّى أنه كان يسابق عائشة يتودّد إليها بذلك . يجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام يوآنسهم بذلك ﷺ ، وقد قال الله تعالى: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ أي فعسى إن صبرتم على إمساكهن مع الكراهة فيه أن يكون في ذلك خيركثيرلكم في الدنيا والآخرة كما قال ابن عباس في هذه الآية : هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولداً ويكون فيه خير كثير . وقوله تعالى ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكـان زوج وآتيتم إحداهـن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتانا وإثماً مبيناً ﴾ أي إذا أراد أحدكم مفارقـة زوجته ، والزواج من غيرها فما له أن يسترد من مهرها شيئاً ولو كان قنطاراً من المال . وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل . وقد كان عمر نهى عن كثرة الإصداق ، ثم رجع عن ذلك .

روى ابن المنذر عن أبي عبد الرحمن السلمي قال قال عمر بن الخطاب : [لا تغالوا في مهور النساء فقالت امرأة : ليس ذلك لك ، إن الله يقول : ﴿ وآتيتم إحداهن قنطاراً ﴾ — من ذهب — قال وكذلك هي في قراءة ابن مسعود فلا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئاً ، فقال عمر : ان امرأة خاصمت عمر فخصمته .] وقد ثبت في الصحيحين ٦٦٢ : [أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعنهما:الله يعلم أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب ؟ قالها ثلاثاً فقال الرجل : يا رسول الله : ما لي ؟ — يعني ما أصدقها — قال : لا مال لك ، إن كنت صدقت ، فهو بما استحللت من فرجها ، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها .] وفي سنن أبي داوود عن نضرة بن أبي نضرة ٦٦٣ : [أنه تزوج امرأة بكراً في خدرها فإذا هي حامل من الزنا فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فقضى لها بالصداق وفرّق بينهما وأمر بجلدها ، وقال : « الولد عبد لك والصداق في مقابلة البضع .] ولهذا قال تعالى . ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً . ﴾ روي عن ابن عباس أن المراد بذلك العقدُ . وعنه أيضاً قال : ﴿ إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ وقوله هو قوله ﷺ ٦٦٤ : [أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله] وعن الربيع بن أنس : إن كلمة

الله هي التشهد في الخطبة . وفي صحيح مسلم : عن جابر في خطبة حجة الوداع أن النبي ﷺ قال فيها ٦٦٥ : [... واستوصوا بالنساء خيراً فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله .]

وقوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم ... ﴾ الآية ... يحرم الله تعالى زوجات الآباء تكرمةً لهم ، وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من بعده ، حتى إنها لتحرم على الأبن بمجرد العقد عليها ، وهذا أمر مجمع عليه . وقال ابن جرير عن ابن عباس : قال : كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله ، إلاّ امرأة الأب والجمع بين الأختين فأنزل الله تعالى :

﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ و ﴿ وان تجمعوا بين الأختين ﴾ على أن هذا الأمر حرام في هذه الأمة ، مبشع غاية التبشع ولهذا قال تعالى ﴿ إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ﴾ إن الله تعالى قال : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ فزادها ها هنا : ﴿ ومقتاً ﴾ أي بغضاً أي هو أمر كبير في نفسه ويؤدي إلى مقت الأبن أباه بعد أن يتزوج بامرأته فإن الغالب ، أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله ولهذا حرّمت أمهات المؤمنين على الأمة لأنهن أمهاتهم لكونهن زوجات النبي ﷺ وهو كالأب بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع ، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أي وبئس طريقاً لمن سلكه من الناس فمن تعاطاه بعد هذا ، فقد ارتد عن دينه ، ويقتل ويصير ماله فيئاً لبيت المال كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من طرق عن البراء بن عازب قال : ٦٦٦ [مرَّ بي عمي الحارث بن عمير ، ومعه لواء قد عقده له النبي ﷺ فقلت له أي عم اينَ بعثك النبي ؟ قال : بعثني إلى رجل تزوج امرأة أبيه فأمرني أن اضرب عنقه]

وقد أجمع العلماء على تحريم من وطئها الأب بتزويج أو شبهة ، واختلفوا فيمن باشرها بشهوةٍ دون الجماع ، أو نظر إلى ما لا يحل له النظر إليه منها لو كانت أجنبية .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ ٱلرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ ٱللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ ٱللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا

دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴿٢٤﴾



هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب وما يتبعه من الرضاع ، والمحارم بالصهر . كما قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : حرمت عليكم سبعٌ نسباً وسبعٌ صهراً. وقرأ : ﴿حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم وأخواتكم﴾ الآية ... وعن ابن عباس ايضاً قال : يحرم من النسب سبعٌ ومن الصهر سبعٌ. ثم قرأ : ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأُخواتكم وعمّاتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت﴾ فهنَّ النسب . وقد استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى : ﴿وبناتكم﴾ فانها بنت فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وابن حنبل وقد حكى عن الشافعي شيء في إباحتها لأنها ليست بنتاً شرعية فكما لم تدخل في قوله تعالى : ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ فإنها لا ترث بالإجماع فكذلك لا تدخل في هذه الآية ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾ أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك. ولهذا ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين ٦٦٧ [أن رسول الله ﷺ قال « إن الرضاعة تحرّم ما تحرِّم الولادة »] وفي لفظ مسلم ٦٦٨ [يحرُم من الرضاعة ما يحرُم من النسب] دون استثناء ثم اختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرّمة . فذهب ذاهبون إلى أن مجرد الرضاع يحرم لعموم هذه الآية وهذا قول مالك ويروى عن ابن عمر وبعض التابعين وقال آخرون لا يحرّم أقل من ثلاث

رضعات لما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة ٦٦٩ [أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا تحرّم المصة ولا المصتان] وذهب إلى هذا الإمام أحمد وغيره وهو مرويّ عن علي وعائشة وأم الفضل وغيرهم وقال آخرون : لا يحرم أقل من خمس رضعات لما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : ٦٧٠ [كان فيما أنزل من القرآن «عشر رضعات معلومات يحرمن » ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفي النبي ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن] وروى عبد الرزاق عن عائشة نحو ذلك وفي حديث سهلة بنت سهيل ، ٦٧١ [ان رسول الله ﷺ أمرها أن ترضع سالماً مولى أبي حذيفة خمس رضعات] وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يرضع خمس رضعات . وبهذا قال الشافعي وأصحابه . ثم ليعلم انه لا بد ان تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين، على قول الجمهور . وقد قدمنا الكلام على هذه المسألة في سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ يرضعن اولادهن حولين كاملين [١] ﴾ ثم اختلفوا هل يحرم لبن الفحل ، كما هو قول جمهور الأئمة الأربعة وغيرهم أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط ، ولا ينتشر إلى ناحية الأب كما هو قول لبعض السلف على قولين . تحرير هذا في كتاب الأحكام الكبير [٢] وقوله تعالى : ﴿ وامهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها سواء دخل بها أو لم يدخل بها ، وأما الربيبة وهي بنت المرأة فلا تحرم حتى يدخل بأمها ، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ في تزويجهن فهذا خاص بالربائب وحدهُنّ بخلاف من فهم أن عود الضمير إلى الأمهات والربائب فقال : لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها . **لقوله﴿ فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾**

روى ابن جرير عن علي(رض) في رجل تزوج امرأةً فطلقها قبل أن يدخل بها، أيتزوج بأمها ؟ قال هي بمنزلة الربيبة . وحدثنا ابن بشار عن زيد بن ثابت قال: إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوج أمها ، ولكنّ جمهورَ العلماء على أن الربيبة لا تحرم بالعقد على الأم بخلاف الأم فأنها تحرم بمجرد العقد على البنت وقال ابن عباس : إذا طلق الرجل المرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت ، لم تحل له أمها وهذا مذهب الأئمة الاربعة والفقهاء السبعة وجمهور الفقهاء قديماً وحديثاً ولله الحمد والمنة .

---

(١) راجع سورة البقرة : الأحاديث رقم ٣٦٣ - ٣٦٧ .

(٢) للمفسر ابن كثير رحمه الله .

قال ابن جريج والصواب قول من قال : الأم [1] من المبهمات ، لأن الله تعالى لم يشترط معهن الدخول كما اشترط مع أمهات الربائب مع أن ذلك أيضاً إجماع الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه . وقد روي بذلك عن النبي ﷺ خبر غريب وفي اسناده نظر وهو ما حدثني به ابن المثنّى بسنده عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال ٦٧٢ : [إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالبنت أو لم يدخل فإذا تزوج بالأم فلم يدخل بها ثم طلقها فان شاء تزوج الابنة .] وهـذا الخبر وان كان في إسناده ما فيه ، فإن في إجماع الحجة على صحة القول به مستغنى عن الاستشهاد على صحته بغيره .

وأما قوله تعالى : ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم ﴾ فالجمهور على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل ، أو لم تكن في حجره ، قالوا : وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له . كقوله تعالى : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ﴾ وفي الصحيحين ٦٧٣ : [إن أم حبيبة قالت : يا رسول الله أنكح أختي بنت أبي سفيان ، وفي لفظ مسلم : عزة بنت أبي سفيان ، قال : « أو تحبين ذلك ؟ » قالت : نعم لست بك بمخلية ، وأحب من شاركني في خيرٍ أختي ، قال « فإن ذلك لا يحل لي » قالت : فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة ، قال : « بنت أم سلمة » ؟ قالت نعـم . قال : إنها لم لو تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي ، إنها لبنت أخي من الرضاعـة ، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة . فلا تعرُضنَّ عليَّ بناتكن ولا أخواتكن »] وفي رواية البخاري ٦٧٤ : [انها لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي ... [2]] فجعل مناط التحريم تزوجه أم سلمة وحكم بالتحريم بذلك [3] وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف .

وقد قيل : بأنه لا تحرم الربيبة إلا إذا كانت في حجر الرجل ، فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم ، وقد ثبت عن علي بن أبي طالب أنه قال بهذا واحتج بمفهوم الآية : ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم ﴾ وهو قول غريب جداً ، وإلى هذا ذهب داود بن علي الظاهري

---

(١) قلت : المقصود بالأم : أم الزوجة . وبأمهات الربائب : الزوجات اللاتي لهن بنات من أزواج آخرين ومعنى المبهمات أي عامة في المدخول بها وغير المدخول بها فتحرم بمجرد العقد عليها أي على البنت .

(٢) قلت : والمعنى : وكيف وأني متزوج أم سلمة ... وهي ربيبتي في حجري ... ؟ زيادة على كونها ابنة أخي من الرضاع .

(٣) بل بالجهتين معاً : كونها ابنة أخيه من الرضاع ، وكونها ربيبته في حجره . .

وأصحابه وحكي عن مالك واختاره ابن حزم ، وروى الذهبي عن ابن تيمية رحمه الله إنَّه إستشكله وتوقف في ذلك والله أعلم .

وروي عن قتادة : بنت الربيبة وبنت ابنتها، لا تصلح وإن كانت أسفل ببطون كثيرة ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ اللاتي دخلتم بهن ﴾ أي نكحتموهن وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأة لا تحرم إبنتها عليه ، إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها .

وقوله تعالى : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ أي وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم ، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين يتبنَّونهم في الجاهلية ، كما قال تعالى : ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم ﴾ الآية ... قال عطاء : كنا نحدث ـ والله أعلم ـ أن النبي ﷺ لما نكح امرأة زيد ، قال المشركون في ذلك ، فأنزل الله تعالى ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ ونزلت ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ ونزلت . ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ وقال ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد : إن هؤلاء الآيات مبهمات : ﴿ وحلائل أبنائكم ﴾ ﴿ وأمهات نسائكم ﴾ وروى عن جماعة من التابعين نحو ذلك (قلت) معنى مبهمات أي عامة في المدخول بها وغير المدخول ، فتحرم بمجرد العقد عليها ، وهذا متفق عليه ، فإن قيل : من أين تحرم امرأة ابنه من الرضاعة كما هو قول الجمهور ، ومن الناس من يحكيه إجماعاً وليس من صلبه ، فالجواب من قوله ﷺ ٦٧٥ « [يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب]

وقوله تعالى : ﴿ وإن تجمعوا بين الأختين ﴾ أي وحرم عليكم الجمع بين الأختين معاً في التزويج ، وكذا في ملك اليمين ﴿ إلا ما قد سلف ﴾ إلا ما كان في جاهليتكم فقد عفونا عنه وغفرناه ، قال ابن ماجة عن أبي خراش الرعيني، قال ٦٧٦ [قدمت على رسول الله ﷺ وعندي أختان تزوجتهما في الجاهلية فقال ٦٧٧ : [إذا رجعت فطلقْ إحداهما] (قلت) فيحتمل أن أبا خراش هذا هو الضحاك بن فيروز الديلمي ، والله أعلم . روى ابن مردويه عن الديلمي قال : قلت يا رسول الله ، إن تحتي أختين . قال ٦٧٨ : [طلق أيّهما شئتَ] فالديلمي المذكور أولا هو الضحاك بن فيروز الديلمي رضي الله عنه ، وكان من جملة الأمراء باليمن الذين تولّوا قتل الأسود العنسي المتنبيء لعنه الله .

وأما الجمع بين الأختين في ملك اليمين فحرام أيضاً لعموم الآية وقال الإمام مالك عن ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن رجلاً سأل عثمان بن عفان عن الأختين في ملك

اليمين ، هل يجمع بينهما فقال عثمان : أحلتهما آية وحرمتهما آية ، وما كنت لأمنع ذلك فخرج من عنده ، فلقي رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فسأله عن ذلك فقال : لو كان لي من الأمر شيء ، ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالاً . وقال مالك قال ابن شهاب : أراه علي بن أبي طالب .

قال أبو عمر بن عبد البر عن إياس بن عامر ، سألت علي بن أبي طالب فقلت : إن لي أختين مما ملكت يميني اتخذت إحداهما سريةً فولدت لي أولاداً ثم رغبت في الأخرى فما أصنع؟ فقال علي رضي الله عنه. تعتق التي كنت تطأ ثم تطأ الأخرى... (إلى أن قال) انه يحرم عليك مما ملكت يمينك ما يحرم عليك في كتاب الله عز وجل من الحرائر إلا العدد ، أو قال إلاّ الأربع ، ويحرم عليك من الرضاع ما يحرم عليك في كتاب الله عز وجل من النسب . ثم قال أبو عمر : هذا الحديث : رحلة رجل و لم يصب من أقصى المغرب والمشرق إلى مكة غيره لما خابت رحلته . قال أبو عمر وقد روي مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس ولكن اختلف عليهم ، ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار ... وقد أجمع المسلمون على أن معنى : ﴿حرمت عليكم أمهاتكم ..﴾ أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهم سواء .

وقوله تعالى : ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ﴾

أي وحرم عليكم من الأجنبيات المحصنات وهن المزوجات إلا ما ملكت أيمانكم ، يعني إلا ما ملكتموهن بالسبي فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن فإن الآية نزلت في ذلك روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال ٦٧٩ : [أصبنا سبياً من سبي أوطاس، ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج ، فسألنا النبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت ايمانكم ﴾ فاستحللنا فروجهن .] وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ورواه مسلم في صحيحه .

وقد روى الطبراني عن ابن عباس : أنها نزلت في سبايا خيبر . وذكر مثل حديث أبي سعيد ، وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة طلاقها ومن ابن مسعود قال : إذا بيعت الأمة ولها زوج فسيدها أحق ببضعها وعن ابن عباس : بيعها طلاقها ، وكذا قال أبي بن كعب وجابر بن عبدالله وعن ابن عباس قال : طلاق الأمة ست : بيعها طلاقها وعتقها طلاقها ، وهبتها طلاقها وبراءتها طلاقها ، وطلاق زوجها طلاقها . (١)

---

(١) قلت : وأين السادسة فلتحرر الرواية وراويها ابن جرير عن يعقوب عن ابن علية عن خليد عن عكرمة عن ابن عباس . أقول ولعلّها : بيعُهُ طلاقُها، أي بيع زوجها والله أعلم .

روى عبد الرزاق عن ابن المسيب قوله : ﴿ والمحصنات من النساء ﴾ قال : ذوات الأزواج حرم الله نكاحهن إلا ما ملكت يمينك ، فبيعها طلاقها .

وقد خالفهم الجمهور قديماً وحديثاً . فرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقها ... واعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخرَّج في الصحيحين وغيرهما : فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها وأعتقتها ولم ينفسخ نكاحها من زوجها مغيث بل خيَّرها رسول الله ﷺ بين الفسخ والبقاء ، فاختارت الفسخ وقصتها مشهورة ، فلو كان بيع الأمة طلاقها كما قال هؤلاء ما خيرها النبي ﷺ فلما خيرها دل على بقاء النكاح ، وإن المراد من الآية : المسبيّات فقط والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ أي هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم يعني الأربع فالزموا كتابه وحدوده وشرعه وما فرضه . وقوله تعالى : ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ أي ما عدا من ذكرن من المحارم ، هنَّ لكم حلال .

وقوله تعالى : ﴿ أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ﴾ أي تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع ، أو السراري ما شئتم بالطريق الشرعي ولهذا قال ﴿ محصنين غير مسافحين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ﴾ أي كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك كما قال تعالى : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ وقد استُدِل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام ، ثم نسخ بعد ذلك وقد ذهب الشافعي وطائفة من العلماء أنه أبيح ثم نسخ مرتين وقال آخرون أكثر من ذلك وقال جماعة بإباحتها للضرورة ، ولكن الجمهور على خلاف ذلك والعمدة ما ثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال : [نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة ، وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر] ٦٨٠ وفي صحيح مسلم عن الربيع بن سبره بن معبد الجهني ، عن أبيه ٦٨١ [أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقال « يا أيها الناس : إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهنَّ شيء فليخلِّ سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً »] وفي رواية مسلم ٦٨٢ : [في حجة الوداع] وله ألفاظ موضعها كتب الأحكام .

وقوله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ﴾ قال ابن جرير عن المعتمد بن سليمان عن أبيه قال زعم الحضرمي أن رجالاً كانوا يفرضون المهر ، ثم

عسى أن يدرك أحدهم العسرة ، فقال تعالى﴿ ولا جناح عليكم﴾أيها الناس ﴿ فيماتراضيتم به من بعد الفريضة ﴾ يعني إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ ، واختار هذا القول ابن جرير وقوله تعالى : ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ ٱلْمُحصَنَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَاتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٢٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً ﴾ أي سعة وقدرةً ﴿ أن ينكح المحصنات المؤمنات ﴾ أي الحرائر العفائف المؤمنات ﴿ فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾ اي فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون. ولهذا قال تعالى: ﴿ من فتياتكم المؤمنات﴾ قال ابن عباس وغيره فلينكح من إماء المؤمنين ثم اعترض بقوله تعالى : ﴿ والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ﴾ أي هو العالم بحقائق الأمور ؛ ثم قال تعالى : ﴿ فانكحوهن بإذن أهلهن ﴾ فدل على أن السيد هو وليّ أمته لا تتزوج إلا بإذنه ، وكذلك هو وليّ عبده ليس له أن يتزوج إلاّ بإذنه كما جاء في الحديث ٦٨٣ : [أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو عاهر] أي زان . فإن كان مالكُ الأمَة امرأةً ، زوّجها من يزوج المرأة بإذنها لما جاء في الحديث ٦٨٤ : [لا تزوج المرأةُ المرأةَ ، ولا المرأةُ نفسها ، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها] .

وقوله تعالى : ﴿ وآتوهن أجورهن بالمعروف ﴾ أي وادفعوا مهورهن عن طيب نفس منكم ولا تبخسوا منه شيئاً استهانةً بهن،لكونهن إماء مملوكات ، وقوله تعالى :

﴿محصنات﴾ أي عفائف عن الزنا لا يتعاطينه؛ ولهذا قال ﴿غير مسافحات﴾ أي الزواني المعلنات ﴿ولا متخذات أخدانٍ﴾ يعني أخلاَّء ، فقد نهى الله عن تزويجها ما دامت كذلك . وقوله تعالى :

﴿فإذا أحصنَّ فإن آتين بفاحشةٍ فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾

اختلف القُرَّاء في ﴿أُحْصِنَّ﴾ قيل المراد بالإحصان ههنا الإسلام والأظهر – والله أعلم – التزويج لأن سياق الآية يدل عليه. يقول سبحانه تعالى ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ والله أعلم . والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات فتعين أن المراد بقوله تعالى : ﴿فإذا أحصنَّ﴾ أي تزوَّجْنَ كما فسره ابن عباس وغيره .

وقد وقع خلاف على حدّ الأمة إذا زنت ، فالجمهور يقولون : إن الأمةَ إذا زنت فعليها خمسون جلدة سواء كانت مسلمة أو كافرة ، مزوجة أو بكراً مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حد على غير المحصنة ممن زنى من الإماء ، وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك ، فأما الجمهور فقالوا : لا شك أن المنطوق مقدم على المفهوم . وقد وردت أحاديث عامة في إقامة الحد على الإماء ، فقدمناها على مفهوم الآية فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن علي (رض) أنه خطب ٦٨٥ فقال: [يا أيها الناس أقيموا الحد على إمائكم من أحصن منهن ومن لم يحصن ، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت ، فأمرني أن أجلدها ، فإذا هي حديثة عهد بنفاس فخشيت إن جلدتها أن أقتلها فذكرت ذلك لنبي الله ﷺ فقال : « أحسنت اتركها حتى تتماثل »] .

وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ٦٨٦ : [إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها ، فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر.] ولمسلم ٦٨٧ [إذا زنت ثلاثاً فليبعها في الرابعة] وروى مالك بسنده إلى عبدالله بن عباس بن أبي ربيعة المخزومي قال : أمرني عمر بن الخطاب في فتيةٍ من قريش فجلدنا من ولائد الامارة خمسين خمسين من الزنا .

وقيل إنه ليس على الأمة حد قبل الإحصان وإنما تضرب تأديباً وعمدتهم مفهوم الآية وهو من مفاهيم الشرط وهو حجة عند أكثرهم فقدم على العموم عندهم ؛ وحديث أبي هريرة وزيد بن خالد ٦٨٨ [أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن ؟

قال : إن زنت فحدوها ثم إن زنت فاجلدوها ، ثم بيعوها ولو بضفير] أخرجاه وأصرح من ذلك ما رواه سعيد بن منصور بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ٦٨٩ [ليس على أمة جلد حتى تحصن - يعني حتى تزوج فإذا أحصنت بزوج فعليها نصف ما على المحصنات] ولكن قال ابن خزيمة رفعه خطأ إنما هو من قول ابن عباس وكذلك قال البيهقي وقيل ... وقيل ... والله أعلم بالصواب (١) .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك لمن خشي العنت منهم ﴾ أي إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا ، وشق عليه الصبر عن الجماع ، وعنت بسبب ذلك كلــه ، فله حينئذ أن يتزوج بالأمة وإن ترك تزوجها وجاهد نفسه في الكف عن الزنا فهو خير له لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدها ... ولهذا قال تعالى : ﴿ وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ﴾ وهذه الآية عامة في الحرائر والإماء ،كما قال الجمهور. والله أعلم .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ (٢٦) وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ۝ (٢٧) يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَانُ ضَعِيفًا ۝ (٢٨) ﴾

يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها ﴿ ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ يعني طرائقهم الحميــدة ﴿ ويتوب عليكم ﴾ أي من الاثم والمحارم ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله ، وقوله تعالى : ﴿ ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ أي يريد اتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيماً ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ أي في شرائعه وأوامره أن تميلوا عن الحق إلى الباطل أي في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم . ولهذا أباح الإماء بشروط ﴿ وخُلِقَ

(١) قلت : والراجح - والله أعلم - قول الجمهور لورود الأحاديث الصحيحة في حدها خمسين جلدة فيمن أحصنت أو لم تحصن كما تقدم من حديث علي رضي الله عنه لأن حديث علي وعمر قضايا أعيان .

الإنسان ضعيفاً ﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه وعزمه وهمته وقال طاوس : أي في أمر النساء .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ۞ (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ۞ (٣٠) إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً ۞ (٣١) ﴾

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن أكل أموال بعضهم بعضاً بالباطل ، أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا والقمار [١] ، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل ، وان ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا. حتى قال ابن جرير عن ابن عباس: في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول إن رضيته أخذته وإلا رددت معه درهماً قال : هو الذي قال الله عز وجل فيه : ﴿ لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ وقال ابن أبي حاتم عن علقمة عن عبدالله في الآية ، قال : إنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ إلا أن تكون تجارةً عن تراض منكم ﴾ أي لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال ، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها،وتسببوا بها في تحصيل الأموال ، وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: بيعاً أو عطاءً يعطيه أحد أحداً. وقال ابن جرير عن ميمون بن مهران قال: قال رسول الله ﷺ ٦٩٠ : [البيع عن تراض ، والخيار بعد الصفقة ولا يحل لمسلم أن يغش مسلماً [٢] ، ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال ٦٩١ : [البيّعان بالخيار مالم يتفرقا]

---

(١) قلت : من أنواع الربا ما هو مشهور تعامله في زماننا هذا كبيع التقسيط والبيعتين في بيعة بأن يبيع بالحاضر بعشرة وللأجل باثنا عشر وما أشبه . وكذلك عمل اليانصيب فهو قمار صرف .

(٢) هذا حديث مرسل ميمون تابعي .

وفي لفظ البخاري ٦٩٢ : [إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا] وقال بذلك أحمد والشافعي وأصحابهما وجمهور السلف والخلف ، ومن ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد ، إلى ثلاثة أيام بحسب ما يتبين فيه مال البيع ولو إلى سنة في القرية ونحوها ، كما هو المشهور عن مالك رحمه الله . وقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ أي بارتكاب محارم الله ، وتعاطي معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل ﴿ إن الله كان بكم رحيماً ﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه . وروى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص رض ٦٩٣ أنه قال : [لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل قال : احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن أغتسلت أن أهلك . فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح قال : فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له فقال : « يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب »؟ قال : يا رسول الله إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فذكرت قول الله عز وجل : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ﴾ فتيممت ثم صليت ، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً.] وهكذا رواه أبو داود ، وذكر نحوه ، وهذا والله أعلم أشبه بالصواب. وقال أبو بكر بن مردويه عن ابن عباس أن عمرو بن العاص ... وذكر نحوه ثم أورد عنه هذه الآية الكريمة من حديث الأعمش بسنده إلى أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٦٩٤ : [من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأبها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ومن قتل نفسه بسم فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً][1] وهذا الحديث ثابت في الصحيحين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً ﴾ ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه معتدياً فيه ظالماً في تعاطيه ، أي عالماً بتحريمه ، متجاسراً على انتهاكه ﴿ فسوف نصليه ناراً ﴾ الآية وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد .

وقوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ أي إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نهيتم عنها ، كفرنا عنكم صغائر الذنوب وأدخلناكم الجنة ، ولهذا قال : ﴿ وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر :

روى الإمام أحمد عن سلمان الفارسي قال : قال رسول الله ﷺ ٦٩٥ : [أتدري ما يوم الجمعة ؟ » قلت : هو اليوم الذي جمع فيه أباكم قال : « لكن أدري ما يوم الجمعة ، لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره ، ثم يأتي الجمعة فينصت حتى يقضي الإمام

(١) فما يقول أهل الطرق الذين يضربون أنفسهم بالحديد (الشيش) ويزعمون أنهم يتحسون السم إدعاء منهم أن هذه من (الكرامات ...؟!!) زعموا ... ألا فليتوبوا إلى الله ، وإلا فإن الخاتمة السيئة تنتظرهم ، ونار جهنم ترتقبهم ، كما في الحديث أعلاه .

صلاته إلا كانت كفارة له ما بينها وبين الجمعة المقبلة ما اجتنبت المقتلة »] وقد روي البخاري من وجه آخر عن سلمان نحوه .

روى أبو جعفر عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا ٦٩٦ : [خطبنا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « والذي نفسي بيده » ثلاث مرات ثم أكب فأكب كل رجل منا يبكي لا ندري ماذا حلف عليه ، ثم رفع رأسه وفي وجهه البشرى ، فكان أحب إلينا من حمر النعم فقال : « ما من عبد يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويُخرج الزكاة ، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة ، ثم قيل له : أدخل بسلام . »] وهكذا رواه النسائي والحاكم في مستدركه وابن حيان في صحيحه ثم قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

تفسير هذه السبع : وذلك بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ وسلم قال ٦٩٧ : [« اجتنبوا السبع الموبقات » قيل : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »]

فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر لا ينفي ما عداهن ... كما سنورده من الكبائر الواردة في أحاديث يحتج بها ، ومن أقوال بعض الصحابة والتابعين مثل التعرُّب بعد الهجرة وهو أن يهاجر الرجل حتى إذا وقع سهمه في الفيء ووجب عليه الجهاد خلع ذلك من عنقه فرجع أعرابياً كما كان ، وعقوق الوالدين ، واستحلال البيت الحرام قبلتنا أحياء وأمواتاً ، والذي يستسخر [1] وبكاء الوالدين من العقوق وقول الزور أو شهادة الزور وقتل الولد وشرب الخمر واليمين الغموس وأن يسب الرجل أباه فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه ، ومن أقوال بعض الصحابة : كالجمع بين الصلاتين بلا عذر وترك الصلاة ، والأمن من مكر الله ، واليأس من روح الله ، والزنا والسرقة ، والاضرار بالوصية ، والغلول والذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً فقد قال رسول الله ﷺ : فأين تجعلون الذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمناً قليلاً إلى آخر الآية .

ومن أقول بعض السلف : وفراق الجماعة ، ونكث الصفقة ، ومنع فضول الماء بعد الري ومنع طروق الفحل إلا بجُعل والبهتان . قال أبو القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي في

(١) إما إنها من السخرية والاستهزاء بالناس .. أو من السخرة بأن يكلف الناس عملا يعملونه له بلا أجر ولكن أميل إلى أنها من السخرية والاستهزاء بالناس . أو لعلها الأثنتان والله تعالى أعلم .

كتابه الشرح الكبير في كتاب الشهادات : ثم اختلف الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم في الكبائر ،وفي الفرق بينها وبين الصغائر. ولبعض الأصحاب في تفسير الكبيرة وجوه أحدها : انها المعصية الموجبة للحد والثاني : انها المعصية التي يلحق صاحبها الوعيد الشديد،بنص كتاب أو سنة ،وهذا أكثر ما يوجد لهم.وإلى الأول أميل،لكن الثاني أوفق لما ذكروه عند تفسير الكبائر. والثالث،قال إمام الحرمين في الإرشاد وغيره : كل جريمة تنبيء بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة ،فهي مبطلة للعدالة. والرابع،ذكر القاضي أبو سعيد الهروي:أن الكبيرة كل فعل نص الكتاب على تحريمه وكل معصية توجب في جنسها حداً من قتل أو غيره. وترك كل فريضة مأمور بها على الفور ، والكذب في الشهادة والرواية واليمين هذا ما ذكروه على سبيل الضبط ثم قال :

وفصّل القاضي الروياني فقال : الكبائر سبع : قتل النفس بغير الحق ، والزنا ، واللواطة ، وشرب الخمر ، والسرقة، واخذ المال غصباً ، والقذف ؛ وزاد في الشامل على السبع المذكورة : شهادة الزور ، أضاف اليها صاحب العدة: أكل الربا، والإفطار في رمضان بلا عذر، واليمين الفاجرة وقطع الرحم ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف وأكل مال اليتيم ، والخيانة في الكيل والوزن، وتقديم الصلاة على وقتها وتأخيرها عن وقتها بلا عذر ، وضرب المسلم بلا حق، والكذب على رسول الله ﷺ عمداً ، وسب الصحابة، وكتمان الشهادة بلا عذر ، وأخذ الرشوة ، والقيادة بين الرجال والنساء ، والسعاية عند السلطان ، ومنع الزكاة ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة ، ونسيان القرآن بعد تعلّمه ، وإحراق الحيوان بالنار ، وامتناع المرأة من زوجها بلا سبب ، واليأس من رحمة الله ، والأمن من مكر الله ويقال : الوقيعة في أهل العلم وحملة القرآن ، ومما يعد من الكبائر ــ الظهار ، وأكل لحم الخنزير والميتة إلاّ عن ضرورة ثم قال الرافعي : وللتوقف مجال في بعض هذه الخصال . (قلت) وقد صنف في الكبائر مصنفات منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبدالله الذهبي الذي بلغ نحواً من سبعين كبيرة . واذا قيل : إن الكبيرة ما توعّد عليها الشارع بالنار بخصوصها كما قال ابن عباس وغيره وما يتبع ذلك اجتمع منه شيء كثير ، وإذا قيل كل ما نهى الله عنه فكثير جدا والله أعلم .

قال ابن عباس لما ذكروا عنده الكبائر وقالوا هي سبع فقال هي أكثر من سبع وسبع قال فلا أدري كم قالها من مرة . وقال ابن ابي حاتم عن طاوس قال : قلت لأبن عباس : ما السبع الكبائر قال : هي إلى السبعين اقرب منها إلى السبع .

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَٱسْئَلُوا ٱللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ (٣٢)

روى الأمام أحمد عن مجاهد قال : قالت أم سلمة : ٦٩٨ (يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو ، ولنا نصف الميراث فانزل الله : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾] ورواه الترمذي وغيره ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه والحاكم في مستدركه عن مجاهد قال:قالت أم سلمة : ٦٩٩ [يا رسول الله لا نقاتل فنستشهد ، ولا نقطع الميراث فنزلت الآية ، ثم أنزل الله تعالى : ﴿إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى﴾] الآية . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال : ولا يتمنّى الرجل فيقول : [ليت لو أن لي مال فلان وأهلَه ، فنهى الله عن ذلك ولكن يسأل الله من فضله .] وهو الظاهر من الآية ولا يرُّد على هذا ما ثبت في الصحيح : ٧٠٠ [لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق فيقول رجل لو أن لي مثل ما لفلان لعملت مثله فهما في الأجر سواء] فإن هذا شيء غير ما نهت عنه الآية وذلك أن الحديث حضَّ على تمنيِّ مثل نعمة هذا،والآية نهت عن تمنيِّ عين نعمة هذا ، يقول تعالى ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ أي في الأمور الدنيوية والدينية .

ثم قال تعالى : ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ أي كل له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، قاله ابن جرير ، وقيل : المراد بذلك في الميراث أي كل يرث على حسبه. قال ابن عباس. ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم فقال : ﴿ واسألوا الله من فضله﴾ لا تتمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض . فالتمني لا يجدي شيئاً ولكن سلوني من فضلي أعطكم فإني كريم وهاب . وروى أبو نعيم عن ابن عباس: قال قال رسول الله ﷺ : ٧٠١ [سلوا الله من فضله،فإن الله يحب أن يسأل وإن أحب عباد الله إلى الله الذي يحب الفرج] . ثم قال تعالى:﴿ إن اللهَ كان بكل شيء عليماً ﴾ أي عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه وبمن يستحق الفقر فيفقره،وبمن يستحق الآخرة فيقيّضه الله لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه؛ولهذا قال: ﴿ إن اللهَ كان بكل شيء عليما ﴾

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴾ (٣٣)

قال ابن عباس وجماعة من التابعين في قوله تعالى : ﴿ ولكل جعلنا موالي ﴾ أي ورثة ، والمعنى : ولكلكم أيها الناس جعلنا عصبة يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له . وقوله تعالى : ﴿ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ﴾ أي والذين تحالفتم بالأيمان المؤكدة فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة ، وقد كان هذا في ابتداء الاسلام ، ثم نسخ. روى البخاري عن ابن عباس: ٧٠٢ [﴿ ولكل جعلنا موالي ﴾ قال ورثة ﴿ والذين عقدت أيمانكم ﴾ الآية كان المهاجرون حين قدموا المدينة يــرث المهاجريُّ الأنصاريَّ دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم ؛ فلما نزلت هذه : ﴿ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ نسخت . ثم قال : والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم] فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل ويقول : وترثني وأرثك ، وكان الأحياء يتحالفون ، فقال رسول الله ﷺ : ٧٠٣ [كل حلف في الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلا شدة ولا عقد ولا حلف في الإسلام] ثم نسخ الميراث بالحلف وبقي تأثير الحلف بعد ذلك وهكذا رد الميراث إلى ذوي الرحم والعصبة كما قال ابن عباس آنفاً : كان المهاجريُّ يرث الأنصاريَّ دون قرابته وذى رحمه حتى نسخ ذلك . وفي هذا رد على من يقول أن هذه الآية محكمة غير منسوخة .

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى ٱلنِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً ﴾ (٣٤)

يقول تعالى : ﴿ الرجال قوّامون على النساء ﴾ أي الرجل رئيس المرأة وكبيرها والحاكم، عليها ومؤدّبها إذا اعوجّت. ﴿ بما فضل الله بعضكم على بعض ﴾ أي لأن الرجال أفضل من النساء والرجل خير من المرأة ، ولهذا كانت النبوّة مختصة بالرجال، وكذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ : ٧٠٤ [لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة] رواه البخاري وكذا منصب القضاء وغير ذلك ﴿ وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ أي من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن، في كتابه وسنة نبيه ﷺ ولما كان الرجل أفضل من المرأة ناسب أن يكون قيّماً عليها. كما قال تعالى: ﴿وللرجال عليهن درجة ﴾ الآية وعليها أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعتِه وطاعتُه ، أن تكون محسنة لأهله ، حافظة لماله . وكذا قال مقاتل والسدي والضحاك .

روى ابن مردويه عن علي ، قال : ٧٠٥ [أتى رسول الله ﷺ رجل من الأنصار بامرأة له فقالت : يا رسول الله إن زوجها فلان بن فلان الأنصاري وأنه ضربها فأثر في وجهها فقال رسول الله ﷺ « ليس له ذلك » فأنزل الله تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ أي في الأدب فقال رسول الله ﷺ « أردت أمراً وأراد الله غيره »] وقوله تعالى: ﴿ بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ قال الشعبي : الصداق الذي أعطاها ألا ترى أنه لو قذفها لاعنها ، ولو قذفته جلدت . وقوله تعالى : ﴿ فالصالحات ﴾ أي من النساء ﴿ قانتات ﴾ أي مطيعات لأزواجهن ﴿ حافظات للغيب ﴾ أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله . وقوله تعالى : ﴿ بما حفظ الله ﴾ أي المحفوظ من حفظه الله روى ابن جرير بسنده إلى أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٠٦ [خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك] قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ الرجال قوّامون على النساء ﴾ إلى آخرها . وقوله تعالى : ﴿ واللاتي تخافون نشوزهن ﴾ أي والنساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن ، والمرأة الناشزة المترفعة على زوجها ، الناكرة لأمره ، المعرضة عنه المبغضة له ، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه ، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته ، وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال وقد قال رسول الله ﷺ : ٧٠٧ [لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها] وروى االبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ٧٠٨ [إذ دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه ، لعنتها الملائكة حتى تصبح] ورواه مسلم . ولهذا قال تعالى : ﴿ واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن ﴾

وقوله تعالى : ﴿ واهجروهن في المضاجع ﴾ قال ابن عباس: يعظها فإن هي قبلت، وإلا هجرها في المضجع وعن ابن عباس، الهجر هو: أن لا يجامعها ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره.

وفي السنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال : ٧٠٩ [يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه قال : أن تطعمها إذا طعمتَ ، وتكسوها إذا اكتسيتَ ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ، ولا تهجر إلاّ في البيت] وقوله تعالى : ﴿ واضربوهن ﴾ أي اذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران ، فلكم أن تضربوهن ضرباً غير مبرح .كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ في حجة الوداع : ٧١٠ [واتقوا الله في النساء فانهن عندكم عوان ، ولكم عليهن ان لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فان فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف] قال الفقهاء : الضرب غير المبرح : أن لا يكسر فيها عضواً ولا يؤثر فيها شيئاً .

وقوله تعالى : ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ﴾ أي إذا أطاعت زوجها في جميع ما يريده منها مما أباحه الله له منها فلا سبيل له عليها بعد ذلك وليس له ضربها ولا هجرانها . وقوله تعالى : ﴿ إن الله كان علياً كبيراً ﴾ أي فإنه تعالى وليهن إذا بغى الرجال على النساء من غير سبب سينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ۝ (٣٥) ﴾

ذكر حال نشوز الزوجة ، ثم شرع بذكر حال نفور الزوجين فقال تعالى : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴾ أي حكماً ثقة من أهل المرأة وحكماً ثقة من قوم الرجل.ليجتمعا فينظرا في أمرهما، ويفعلا ما في المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق؛ وتشوّف الشارع إلى التوفيق . ولهذا قال تعالى : ﴿ إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ فينظر الحكمان فإن كان الرجل هو المسيء حجبوا عنه امرأته ،وقصروه

على النفقة ، وان كانت المرأة هي المسيئة قصروها على زوجها ومنعوها النفقة ، فإن اجتمع رأيهما على التفريق أو التجميع، فأمرهما جائز . فإن رأيا أن يجمعا فرضي أحد الزوجين وكره الآخر ، ثم مات أحدهما فإن الذي رضي يرث الذي لم يرض ولا يرث الكاره الراضي رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس . قال عبد الرزاق عن ابن عباس : بعثت أنا ومعاوية حكمين، قال معمر بلغني أن عثمان بعثهما وقال لهما : إن رأيتما أن تجمعا جمعتما وإن رأيتما أن تفرقا ففرقا . وروى عن علي رضي الله عنه بمثله ، وقد أجمع العلماء : على أن الحكمين لهما الجمع والتفرقة حتى قال ابراهيم النخعي : إن شاء الحكمان أن يفرقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاث فعلا . وهو رواية عن مالك ومن قال بأن الحكمين يحكمان في الجمع لا في التفرقة ومأخذهم قوله تعالى : ﴿ إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ ولم يذكر التفريق وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين فإنه ينفذ حكمهما في الجمع والتفرقة بلا خلاف • وقد اختلف الأئمة في الحكمين ، هل هما منصوبان من جهة الحاكم ، فيحكمان وإن لم يرض الزوجان ؟ أوهما وكيلان من جهة الزوجين ؟ على قولين والجمهور على الأول لقوله تعالى : ﴿ فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴾ فسمّاهما حكمين ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه وهذا ظاهر الآية . وقال ابن عبد البر : وأجمع العلماء على أن الحكمين إذا اختلف قولهما فلا عبرة بقول الآخر .



﴿ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝ (٣٦) ﴾

يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات ، فهو المستحق منهم أن يوحّدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته. كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل : ٧١١ [أتدري ما حق الله على العباد ؟ قال الله ورسوله أعلم ، قال : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » ثم قال « أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم] ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين ، فإن الله سبحانه جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود ، وكثيراً ما يقرن الله بين عبادته

والإحسان إلى الوالدين كقوله : ﴿ أنِ اشكرْ لي ولوالديك ﴾ وكقوله ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ ثم عطف عليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء كما جاء في الحديث : ٧١٢ [الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة] ثم قال تعالى : ﴿ واليتامى ﴾ وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم والإنفاق عليهم فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم ثم قال تعالى : ﴿ والمساكين ﴾ وهم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون من يقوم بكفايتهم ، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم وسيأتي الكلام على الفقير والمسكين في سورة براءة – رقم ٩ – وقوله تعالى : ﴿ والجار ذي القربى والجار الجُنُب ﴾ قال ابن عباس : والجار ذي القربى الذي بينك وبينه قرابة ، والجار الجنب الذي ليس بينك وبينه قرابة

• روى الامام أحمد عن عبدالله بن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : ٧١٣ [ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه] أخرجاه في الصحيحين ورواه الترمذي وابو داود . وروى أحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : ٧١٤ [خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره]

• روى الإمام أحمد عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ ٧١٥ [إن لي جارين فإلى أيهما أهدي ؟ قال : « إلى أقربهما منك باباً »] ورواه البخاري .

وقوله تعالى : ﴿ والصاحب بالجُنْب ﴾ وعن علي وابن مسعود أنهما قالا : هي المرأة وقوله تعالى : ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر وسيأتي الكلام على أبناء السبيل في سورة براءة وبالله الثقة وعليه التكلان .

وقوله تعالى : ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ وصيةٌ بالأرقاء ، لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس وقد ثبت قوله ﷺ في مرض الموت : ٧١٦ [الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم]

وروى مسلم عن عبدالله بن عمرو ٧١٧ [أنه قال لقهرمان له: هل أعطيت الرقيق قوتهم ؟ قال : لا قال : فانطلق فأعطهم ، فإن رسول الله ﷺ قال : « كفى بالمرء إثماً ان يحبس عمن يملك قوتهم »] وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ أي مختالاً في نفسه ، معجباً متكبراً فخوراً على الناس ، يرى أنه خير منهم فهو في نفسه كبير وهو عند الله حقير . وروى ابن أبي حاتم عن رجل من بني الهجيم قال:قلت يا رسول الله ، أوصني . قال : ٧١٨ [إياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة] .

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * (٣٧) وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا * (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا * (٣٩) ﴾

يقول تعالى ذاماً الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم من الأرقاء، ولا يدفعون حق الله فيها، ويأمرون الناس بالبخل أيضاً. وقد قال رسول الله ﷺ ٧١٩ [وأي داء أدوأ من البخل]! وقال ٧٢٠ [إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة، فقطعوا. وأمرهم بالفجور، ففجروا.]

وقوله تعالى: ﴿ ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ فالبخيل جحودٌ لنعمة الله، ولا يظهر عليه في ملبسه أو في مأكله أو في بذله ولهذا توعده بقوله: ﴿ وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ والكفر هو الستر، فالبخيل يستر نعمة الله عليه، فهو كافر لنعمة الله عليه، وفي الحديث ٧٢١ [إن الله إذا أنعم نعمةً على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه]. إن سياق الآية البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى فإن السياق في الإنفاق على الأقارب والضعفاء وكذلك الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس﴾ فإنه ذكر الممسكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون السمعة؛ وأن يمدحوا بالكرم لا لوجه الله. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن عبدالله بن جدعان: هل ينفعه إنفاقه وإعتاقه؟ فقال: لا، انه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين ولهذا قال تعالى: ﴿ ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ الآية؛ أي إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح، وعدو لهم عن فعل الطاعات على وجهها، الشيطان، فإنه سوّل لهم وأملى لهم. وقارنهم فحسّن لهم القبائح. ولهذا قال

تعالى : ﴿ ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وماذا عليهم لوآمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ﴾ الآية أيْ وأيُّ شيء يضرهم لو آمنوا بالله وسلكوا الطريق الحميدة ، وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص،والإيمان بالله رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن يحسن عمله ، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها؟ وقوله تعالى : ﴿ وكان الله بهم عليما ﴾ أي وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة ، وبمن يستحق التوفيق فيوفقه ويلهمه رشده،فيعمل صالحاً يرضاه ، وبمن يستحق الخذلان والطرد عن جنابه الأعظم، فيخسر الدنيا والآخرة نعوذ بالله من ذلك .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ۞ (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً ۞ (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثاً ۞ (٤٢) ﴾

يخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة،بل يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة ، كما قال تعالى: ﴿ ونضع الموازين القسط ﴾ وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل وفيه : ٧٢٢ [فيقول الله عز وجل ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار وفي لفظ أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقول أبو سعيد : إقرأوا إن شئتم ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾] وقوله تعالى : ﴿ وان تك حسنةً يضاعفها ويؤت من لدنه اجراً عظيماً ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي عثمان قال: قلت : ٧٢٣ [يا أبا هريرة سمعت إخواني بالبصرة يزعمون أنك تقول : سمعت رسول ﷺ يقول « إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة » فقال أبو هريرة : والله بل سمعت نبي الله ﷺ يقول : « ان الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة » ثم تلا هذه الآية : ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ .] وقوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه فكيف يكون الأمر يوم القيامة حين يجيء من كل أمةٍ بشهيد ، يعني الأنبياء عليهم الصلاة

والسلام كما قال تعالى : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ الآية .

روى البخاري عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٢٤ [« إقرأ عليّ » فقلت يا رسول الله أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال « نعم إني أحب أن أسمعه من غيري » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ فقال : « حسبك الآن » فإذا عيناه تذرفان] ورواه هو ومسلم من حديث الأعمش به .

روى ابن جرير عن عبدالله بن مسعود في هذه الآية قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٢٥ [شهيد عليهم ما دمت فيهم فإذا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم] وقوله تعالى : ﴿ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ أي لــو انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ وقوله تعالى : ﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتمون منه شيئاً . وقال ابن جرير عن سعيد بن جبير ، قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال له : سمعت الله عز وجل يقول – يعني إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا – ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ وقال في الآية الأخرى : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ فقال ابن عباس : أما قوله : ﴿ والله ربّنا ما كنا مشركين ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الاسلام ، قالوا تعالوا فلنجحد ، فقالوا : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ . فذلك قوله : ﴿ يود الذين كفروا وعصوا ... ﴾ الآية ...

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً ۞ (٤٣) ﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر، الذي لا يدري معه المصلي ما يقول ، وعن قربان محالها التي هي المساجد للجنب، إلا أن يكون مجتازاً من باب إلى باب من غير مكث ؛ وقد كان هذا قبل تحريم الخمر ، كما دل عليه الحديث الـذي ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ الآية . [1] فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر فقال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً . فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات حتى نزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ فقال عمر : انتهينا انتهينا . وفي رواية اسرائيل عن عمر بن الخطاب في قصة تحريم الخمر فذكر الحديث وفيه : فنزلت الآية التي في النساء ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ينادي ٧٢٦ [إن لا يقربنّ الصلاة سكران] . لفظ أبي داود

وذكر ابن أبي شيبة في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم عن مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال : ٧٢٧ [نزلت في أربع آيات ، صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعا أناساً من المهاجرين ، وأناساً من الأنصار ، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا ، ثم افتخرنا فرفع رجل لحي بعير فغرز بها أنف سعد فكان سعد مغروز الأنف وذلك قبل تحريم الخمر فنزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾] الآية الحديث بطوله عند مسلم ورواه أهل السنن إلا ابن ماجه

روى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال : ٧٢٨ [صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمرة منا ، وحضرت الصلاة فقدموا فلانا قال فقرأ : قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون ؛ فأنزل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾] وكـذا رواه الترمذي وقال حسن صحيح وفي رواية ابن جرير أن القارىء كان عبد الرحمن بن عوف وفي رواية أخرى له أنه كان علي بن أبي طالب والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران أنه الذي لا يدري ما يقول ، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة وعدم تدبّره وخشوعه فيها .

---

(١) (٢١٩) الآية رقم البقرة والحديث في الصفحة ذاتها : (ان لا يقربن الصلاة سكران)

روى الامام أحمد عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٢٩ [إذا نعس أحدكم وهو يصلي فلينصرف وليم حتى يعلم ما يقول] انفرد بأخرجاه البخاري دون مسلم ورواه النسائي وفي بعض الفاظه ٧٣٠ [فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه] وقوله تعالى : ﴿ ولا جنباً إلاّ عابري سبيل حتى تغتسلوا ﴾ أي لا تدخلوا المسجد وانتم جنب إلاّ عابري سبيل ، تمرّ به مراً ولا تجلس . قاله ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ : ٧٣١ [ناوليني الخمرة من المسجد فقلت : إني حائض فقال : إنّ حيضتك ليست في يدك] وله عن أبي هريرة مثله وفيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد والنفساء في معناها ، والله أعلم . وقال بعضهم يجوز مرور الحائض إذا امِنَتْ التلويثَ حال المرور ، وإلاّ فلا . واحتج أكثر الأئمة من هذه الآية على حرمة المكث في المسجد للجنب حديث آخر في معنى الآية قال ابن أبي حاتم عن علي ﴿ ولا جنباً إلاّ عابري سبيل ﴾ قال : لا يقرب الصلاة ، إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة فلا يجد الماء فيصلي حتى يجد الماء .

ويستشهد لهذا القول بالحديث الذي رواه أحمد وأهل السنن عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٣٢ [الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم تجد الماء عشر حجج فإذا وجدتَ الماء فأمسه بشرتك فإن ذلك خير لك] وقال ابن جرير بعد حكايته القولين : والأولى قول من قال : ﴿ ولا جنباً إلا عابري سبيل ﴾ أي إلاّ عابري طريق فيه [1] ، وذلك انه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب ، في قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر ﴾ إلى آخره فكان معلوماً بذلك إن قوله تعالى : ﴿ ولا جنباً إلاّ عابري سبيل حتى تغتسلوا ﴾ لو كان معنياً به المسافر ، لم يكن لإعادة ذكره في قوله تعالى : ﴿ وان كنتم مرضى أو على سفر ﴾ معنى مفهوم وقد مضى حكم ذكره قبل ذلك ، وهذا الذي نصره هو قول الجمهور وهو الظاهر من الآية . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ حتى تغتسلوا ﴾ دليل لما ذهب إليه أبو حنيفة ومالك والشافعي أنه يحرم على الجنب المكثَ في المسجد حتى يغتسل أو يتيمّم إن عدم الماء ، أو لم يقدر على استعماله . وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد لما روى هو وسعيد بن منصور في سننه بسند صحيح ، أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك ، روى سعيد بن منصور عن عطاء بن يسار قال : ٧٣٣ [رأيت رجالاً من الصحابة أصحاب

---

(١) أي في المسجد .

رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون ، إذا توضأوا وضوء الصلاة] وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم والله أعلم .

وقوله تعالى ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً ﴾ أما المرض المبيح للتيمم ، فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شينهُ أو تطويل البُرء ومن العلماء من جوّز التيمم بمجرد المرض لعموم الآية . والسفر معروف ، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير . وقوله تعالى: ﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط ﴾ هو الحدث الأصغر ، وأما قوله : ﴿ أو لامستم النساء ﴾ فقرىء لمستم ولامستم ، واختلف المفسرون والأئمة في معنى ذلك على قولين : (أحدهما) أن ذلك كنايةٌ عن الجماع لقوله تعالى : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضةً فنصف ما فرضتم ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾ روى ابن أبي حاتم [عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ أو لامستم النساء ﴾ قال: الجماع. وروى علي وأبيّ بن كعب وجماعة من التابعين نحو ذلك وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس إن اللمس والمس والمباشرة : الجماع ، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء . (والثاني) وقال آخرون عنى الله تعالى بذلك كلَّ لمسٍ بيد أو بغيرها من أعضاء الإنسان وأوجب الوضوء على كل من مسَّ بشيء من جسده شيئاً من جسدها مفضياً إليه وعن عبدالله مسعود قال : اللمس ما دون الجماع وعنه أيضاً قال : القبلة من المس وفيها الوضوء وكان يقول : [﴿ أو لامستم النساء ﴾ هو الغمز وعن ابن عمر أنه كان يتوضأ من قبلة المرأة وروي كذلك عن ابن عمر وغيره وأبي عثمان النهدي ، وأبي عبيدة يعني ابن عبدالله بن مسعود وغيرهم من التابعين . وروي عن عمر بن الخطاب نحو ذلك (قلت) ولكن روينا عنه من وجه آخر أنه كان يقبل امرأته ثم يصلي ولا يتوضأ فالرواية عنه مختلفة والقول بالوضوء من المس هو قول الشافعي واصحابه ومالك والمشهور عن أحمد بن حنبل . قال ناصروه : قد قريء في هذه الآية : لامستم ولمستم واللمس يطلق على الجس باليد قال تعالى : ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم ﴾ أي جسوه وفي الحديث الصحيح : ٧٣٤ [واليد زناها اللمس] وثبت في الصحيحين : ٧٣٥ [ان رسول الله ﷺ نهى عن بيع الملامسة] [1]

---

(١) قلت : لا خلاف في أن من معاني اللمس،الجس باليد ؛ ولكن هل هو مقتصر على ذلك فقط ؟ الجواب : لا ... فتارة يعني الجس باليد أو بغيرها وتارة يعني الجماع ... فإذا كان يعني مرة الجس باليد فليس معناه أنه لا يعني شيئاً آخر محتملا أن يكون، بل هو قد يعني شيئاً آخر يوجبه السباق والسياق. فقوله تعالى: ـ

واستأنسوا أيضاً بالحديث الذي رواه أحمد عن معاذ ـ ومفاده ـ ٧٣٦ [ان رجلاً أصاب امرأة فعل معها كل شيء إلا الجماع فسأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال رسول الله ﷺ توضأ ثم صل" قال معاذ فقلت يا رسول الله : ألـهُ خاصة أم للمؤمنين عامة فقال : بل للمؤمنين عامة] ورواه الترمذي وقال ليس بمتصل ورواه النسائي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسلاً" فقالوا : فأمره بالوضوء لأنه لمس المرأة ولم يجامعها وأجيب بأنه منقطع بين ابن أبي ليلى ومعاذ ثم يحتمل أنه انما أمره بالوضوء والصلاة المكتوبة كما تقدم في حديث الصديق ٧٣٧ [ما من عبد يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر الله له] ثم قال ابن جرير : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : عنى الله بقوله تعالى : « أو لامستم النساء » الجماع دون غيره من معاني اللمس لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ انه قبّل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ ثم قال عن عروة عن عائشة قالت : ٧٣٨ [كان رسول الله ﷺ يتوضأ ثم يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ] ثم روى ابن جرير عن حبيب عن عروة عن عائشة ٧٣٩ [إن رسول الله ﷺ قبّل بعض نسائه ولم يتوضأ قلت : من هي إلا أنت فضحكت] وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن جماعة من مشايخهم وقد ضعفه بعض أهل الحديث فقال من قال أن حبيباً لم يسمع من عروة وقال آخرون أن حبيباً ما حدثنا إلا عن عروة المزني وأبلغ من ذلك: ما رواه الامام أحمد من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة وهذا نص في كونه عروة بن الزبير ويشهد له قوله : من هي إلا أنت فضحكت ... ثم روى ابن جرير عن أم سلمة ٧٤٠ [أن رسول الله ﷺ كان يقبلها وهو صائم ثم لا يفطر ولا يحدث وضوءً] ثم روى أيضاً عن زينب الأسهمية عن عائشة عن النبي ﷺ ٧٤١ [انه كان يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ] وقد رواه الإمام أحمد عن زينب الأسهمية عن عائشة عن النبي ﷺ به .

وقوله تعالى : ﴿ فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً ﴾ فالتيمم في اللغة هو القصد والصعيد قيل هو كل ما صعد على وجه الأرض فيدخل فيه التراب والرمل والشجر والحجر والنبات وهو قول مالك وقيل ما كان من جنس التراب كالرمل والزرنيخ والنورة وهذا مذهب أبي حنيفة وقيل هو التراب فقط وهو قول الشافعي وأحمد وأصحابهما ، واحتجوا

= أو لا مستم النساء » فقد يعني الجس باليد ويعني الجماع فمن أجل تحديد المعنى نرجع إلى فهم من نزلت عليه هذه الآية صلى الله عليه وسلم وكيف طبقها ؟ فمن تحرى معاني هذه الآية يجد أن القرآن عنى باللمس الجماع وكذلك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل عائشة وما توضأ كما ثبت ذلك عنه عليه الصلاة والسلام . وقال الشافعي : إذا صح هذا الحديث فأنا أقول به . وقد صح ...

بقوله تعالى : ﴿ فتصبح صعيداً زلقاً ﴾ أي تراباً أملس طيباً ، وبما ثبت في صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان:قال قال رسول الله ﷺ ٧٤٢ [فُضّلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً ، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء] قالوا فخصص الطهورية بالتراب في مقام الأمتنان ، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه . والطيب ههنا قيل الحلال ، وقيل الذي ليس بنجس ، كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا ابن ماجة من حديث أبي قلابة عن عمرو بن نجدان عن أبي ذر،قال: قال رسول الله ﷺ : ٧٤٣ [الصعيد الطيب طهور المسلم إن لم يجد الماء عشرَ حجج فإذا وجده فليمسه بشرته فإن ذلك خير له] وقال ابن عباس : [أطيب الصعيد تراب الحرث] ورفعه ابن مردويه في تفسيره .

وقوله تعالى : ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾ التيمم بدل الوضوء في التطهير به ، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه ، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع ، ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال : فمنهم من قال : أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين.والقول الثاني:أن يمسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين.والقول الثالث أن يمسح الوجه والكفين بضربة واحدة وهذا هو الأصح لحديث عمار فقد روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه ٧٤٤ [أن رجلاً أتى عمر ، فقال : إني أجنبت فلم أجد ماءً فقال عمر : لا تصلِّ ، قال عمار : أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماءً فأما أنت فلم تصلِّ وأما أنا فتمعكت في التراب فصليت ، فلما أتينا النبي ﷺ ذكرت ذلك له فقال « إنما كان يكفيك ، وضرب النبي ﷺ بيده الأرض ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه »] روى أحمد عن عمار ، [ان رسول الله ﷺ ٧٤٥ قال في التيمم « ضربة للوجه والكفين »]

وقد خص الله تعالى أمة عبده ورسوله محمد ﷺ بمشروعية التيمم دون سائر الأمم كما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ ٧٤٦ [أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ، : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعِلتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيمّا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِ » وفي لفظٍ : « فعنده مسجده وطهوره »] ثم ذكر بقية الحديث ... وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ان الله كان عفواً غفوراً ﴾ أي ومن عفوه عنكم وغفرانه لكم ، أن شرع لكم التيمم ، وأباح لكم فعل الصلاة به ، إذا فقدتم الماء ، توسعة عليكم ورخصة لكم . وفي هذه الآية تنزيه الصلاة ، أن تفعل على هيئة ناقصة ، من سكر حتى

يصحو المكلف ويعقل ما يقول ، أو جنابة حتى يغتسل ، أو حدث حتى يتوضأ إلا أن يكون مريضاً أو عادماً للماء فأنه تعالى قد أرخص في التيمم رحمة ورأفة وتوسعة .

سبب مشروعية التيمم :

روى البخاري عن عائشة ، قالت : ٧٤٧ [خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش ، انقطع عقد لي ، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه ، وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ، أقامت برسول الله ﷺ وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام ، فقال حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء ؟وليس معهم ماء ؟قالت عائشة : فعاتبني أبو بكر ، وقال ما شاء الله أن يقول وجعل يطعن بيده في خاصرتي ولا يمنعني من التحرك إلاّ مكان رأس رسول الله ﷺ على فخذي فقام رسول الله ﷺ على غير ماء حين أصبح ، فأنزل الله آية التيمم ، فتيمَّموا فقال أسيد بن حضير : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر ؛ قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته]وقد رواه البخاري أيضاً عن قتيبة ، ورواه مسلم عن يحيى بن يحيى .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا ٱلسَّبِيلَ ۞ (٤٤) وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً ۞ (٤٥) مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِنْ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ۞ (٤٦) ﴾

يخبر تعالى عن اليهود ــ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ــ أنهم يشترون الضلالة بالهدى ، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله ﷺ ، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا ﴿ ويريدون أن

تضلوا السبيل ﴾ أي يودون لو تكفرون وتتركون ما أنتم عليه من الهدى ﴿ والله أعلم بأعدائكم ﴾ أي هو أعلم بهم ويحذركم منهم ، ﴿ وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيرا ﴾ أي ولياً لمن لجأ اليه ونصيراً لمن استنصره . ثم قال تعالى ﴿ من الذين هادوا ﴾ من هنا لبيان الجنس كقوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل ﴿ ويقولون سمعنا ﴾ أي سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه ، وهذا أشد في الكفر والعناد ويصدون عن كتاب الله بعدما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من العقوبة وقولهم : ﴿ واسمع غير مسمع ﴾ أي أسمع ما نقول لا سمعت. وهذا استهزاء منهم واستهتار عليهم لعنة الله. ﴿ وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ﴾ أي يوهمون أنهم يقولون راعنا سمعك ، وانما يريدون الرعونة بسبهم النبي ، وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ﴾ ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود: أنهم يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ، يعني بسبهم النبي ﷺ . ثم قال تعالى : ﴿ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلاّ قليلاً ﴾ أي قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة عنه ، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم. وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ المقصود أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ۞ (٤٧) إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ ٱفْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ۞ (٤٨) ﴾

يأمر تعالى أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على رسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الاخبار التي بأيديهم من البشارات . ومتهدداً لهم إن لم يفعلوا بقوله تعالى : ﴿ من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها ﴾ قال بعضهم : معناه أن نطمس وجوها

فطمسها هو ردّها إلى الأدبار وجعلُ أبصارِهم من ورائهم . فيمشون القهقرى وهذا أبلغ في العقوبة . وهذا مثل ضربه الله تعالى لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم .

وقد ذكر أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية فقد روى ابن جرير عن عيسى بن المغيرة قال تذاكرنا عند ابراهيم إسلام كعب ، فقال أسلم كعب زمان عمر أقبل وهو يريد بيت المقدس فمر على المدينة ، فخرج إليه عمر فقال : يا كعب أسلم . فقال : ألستم تقولون في كتابكم : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً ﴾ وأنا قد حملت التوراة ، قال: فتركه عمر ثم خرج حتى انتهى إلى حمص ، فسمع رجلاً من أهلها حزيناً وهو يقول: ﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها ﴾ الآية قال كعب : يا رب أسلمت. مخافة أن تصيبه هذه الآية ثم رجع فأتى أهله في اليمن ثم جاء بهم مسلمين ، وكذا رواه ابن أبي حاتم بلفظ آخر من وجه آخر ... وقوله تعالى : ﴿ أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت ﴾ يعني الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد وقد مسخوا قردةً وخنازير [(١)] وسيأتي بسط قصتهم في سورة الاعراف إن شاء الله . وقوله تعالى : ﴿ وكان أمر الله مفعولا ﴾ أي إذا أمر بأمر فانه لا يخالف ولا يمانع . ثم أخبر تعالى أنه لا يغفر أن يشرك به أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ، ويغفر ما دون ذلك أي من الذنوب لمن يشاء من عباده ، وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة نذكر ما تيسر منها :

الحديث الاول : روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ : ٧٤٨ [الظلم ثلاثة : فظلم لا يغفره الله ، وظلم يغفره الله ، وظلم لا يترك الله منه شيئاً،فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك ، وقال ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ واما الظلم الذي يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم؛وأما الظلم الذي لا يتركه فظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يدين لبعض من بعض .]

الثاني ـ : روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : ٧٤٩ [إن رسول الله ﷺ قال : « ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك ، إلاّ دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق قال « وإن زنى وإن سرق » قلت : وإن زنى وإن سرق ، قال : « وإن زنى وإن سرق » ثلاثاً ثم قال في الرابعة : « على رغم أنف أبي ذر » قال فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره وهو

(١) راجع سورة البقرة الآية ٦٥ و ٦٦ . من هذا المختصر ، وراجع سورة الأعراف الآية : ١٦٦ واقرأ التعليق

يقول : وإن رغم أنف أبي ذر وكان أبو ذر يحدث بهذا بعدُ ويقول : وإن رغم أنف أبي ذر .] أخرجاه من حديث حسين به .

الثالث ـ : وروى الحافظ أبو يعلى في مسنده عن جابر : ٧٥٠ [أن النبي ﷺ قال : « لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع الحجاب » قيل : يا نبيّ الله ، وما الحجاب ؟ قال : « الإشراك بالله ما من نفس تلقى الله لا تشرك به شيئاً إلاّ حلّت لها المغفرة من الله تعالى ، إن شاء أن يعذبها وان شاء أن يغفر لها » ثم قرأ نبيُّ الله : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾]

الرابع ـ : روى الطبراني عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : ٧٥١ [قال الله عز وجل : من علم أني ذوقدرة على مغفرة الذنوب ، غفرت له ولا أبالي ما لم يشرك بي شيئا]

وعن ابن عمر قال : كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا نبينا ﷺ يقرأ ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وقال ﷺ : ٧٥٢ [أخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة] وإن المغفرة مشروطة بالتوبة فمن تاب من أي ذنب وإن تكرر منه تاب الله عليه ولهذا قال تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ أي بشرط التوبة (١) وقوله تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيماً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ وثبت في الصحيحين عن ابن مسعود انه قال : ٧٥٣ [قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : « ان تجعل لله نداً وهو خلقك »] وذكر تمام الحديث وروى ابن مردويه عن عمران بن حصين : ٧٥٤ [أن رسول الله ﷺ قال : « أخبركم بأكبر الكبائر ، الإشراك بالله » ثم قرأ : ﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾ « وعقوق الوالدين » ثم قرأ : ﴿ أنِ اشكر لي ولوالديك إليّ المصير ﴾]

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ۞ (٤٩) ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ

(١) قلت : حتى أن الشرك نفسه يغفره الله إذا تاب صاحبه منه في الحياة ولكن الذي لا يغفره الله أبداً هو الشرك الذي مات عليه صاحبه وسيخلد في جهنم أبداً لا يخفف عنه العذاب كلما نضج جلده بدله الله جلداً غيره ليذوق العذاب .

ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْماً مُّبِيناً ۞ (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ ٱلْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلاً ۞ (٥١) أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيراً ۞ (٥٢)

قال الحسن وقتادة نزلت هذه الآية وهي قوله تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم﴾ في اليهود والنصارى حين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وفي قولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . على أنها وإن كانت قد نزلت بخصوص اليهود والنصارى إنما هي أيضاً عامة في كل من يمتدح أو يزكي نفسه أو غيره وهي . في ذم التمادح والتزكية ففي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال : ٧٥٥ [أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب] وفي الصحيحين عن أبي بكرة : ٧٥٦ [أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل فقال : « ويحك قطعت عنق صاحبك » ثم قال : « إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة ، فليقل أحسبه كذا ولا يزكي على الله أحدا »]

روى الإمام أحمد عن معبد الجهني قال : كان معاوية قلما كان يحدّث عن النبي ﷺ قال وكان قلما يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدّث بهن عن النبي ﷺ يقول ٧٥٧ [من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإن هذا المال حلو خضر . فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه ؛ وإياكم والتمادح فإنه الذبح] وسيأتي الكلام على ذم التمادح والتزكية عند قوله تعالى : ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ (١) ولهذا قال تعالى : ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ أي المرجع في ذلك إلى الله عز وجل لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها ثم قال تعالى : ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ ولو بمقدار فتيل وهو ما يكون في شق النواة أو ما فتلت بين أصابعك وقوله تعالى : ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ أي في تزكية اليهود والنصارى أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه وقولهم ﴿ لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى » وقولهم : ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾ واتكالهم على اعمال آبائهم الصالحة ، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئاً في قوله تعالى : ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ الآية ثم قال تعالى : ﴿وكفى

(١) راجع سورة النجم آية رقم /٣٢/ .

به إثماً مبيناً ﴾ أي وكفى بصنيعهم هذا كذباً وافتراءً ظاهراً . وقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ أما الجبت : فكلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك.وفي الحديث : ٧٥٨ [الطيرة والعيافة والطرق من الجبت] ورواه الإمام أحمد في مسنده عن قبيصة بن مخارق إنه سمع النبي ﷺ قال:٧٥٩ [إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت] وقال عوف : العيافة : زجر الطير ، والطرق : الخط يخط في الأرض (١) أما الطاغوت فقد تكلمنا عنه في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته وذلك عند قوله تعالى ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾(٢) روى ابن أبي حاتم عن أبي الزبير انه سمع جابر بن عبدالله انه سئل عن الطواغيت فقال هم كهان تنزل عليهم الشياطين وقال الإمام مالك : هو كل ما يعبد من دون الله عز وجل وقوله تعالى : ﴿ ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ أي يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم ، وقلة دينهم ، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم.روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : لما قدم كعب بن الاشرف مكة قالت قريش : ألا ترى هذا الصنبور المنبتر من قومه؟يزعم أنه خير منا...! ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية قال:أنتم خير.قال:فنزلت : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ ونزلت ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ـ إلى ـ نصيراً ﴾ . وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة ، لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين ، وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق ، فكفى الله شرهم ﴿ وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيراً ۞ (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً ۞ (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ۞ (٥٥) ﴾

---

(١) ولعله الذي تسميه (المندل) الرملي في زماننا هذا وهو علم خبيث كاذب يزعم أصحابه أنهم يستكشفون به المغيبات . وهم أكذب الناس وأجهلهم .
(٢) الآية رقم /٢٥٦/ و /٢٥٧/ من سورة البقرة المجلد الأول من هذا المختصر .

يقول تعالى : ﴿ أم لهم نصيب من الملك ﴾ وهذا استفهام إنكارى ، أي ليس لهم نصيب من الملك ثم وصفهم بالبخل فقال : ﴿ فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ أي لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف ، لما أعطوا أحداً من الناس ولا سيما محمداً ﷺ شيئاً ولا ما يملأ النقير ، وهو النقطة التي في النواة في قول ابن عباس والأكثرين . ثم قال تعالى : ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ يعني بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوّة العظيمة ، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل . قال ابن عباس : نحن الناس دون الناس (١) قال الله تعالى : ﴿ فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً ﴾ أي فقد جعلنا في بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم النبوّة ، وأنزلنا عليهم الكتب وحكموا فيهم بالسنن وهي الحكمة ، وجعلنا منهم الملوك . ومع كل هذا فمنهم من آمن ومنهم من كفر وأعرض وصد الناس عن الإيمان بأنبيائهم وهم من جنسهم فكيف بك يا محمد ولست من بني اسرائيل ؟ ﴿ وكفى بجهنم سعيراً ﴾ أي وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ، ومخالفتهم كتب الله ورسله

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ❁ (٥٦) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلّاً ظَلِيلاً ❁ (٥٧) ﴾

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصدّ عن رسله فقال : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا ﴾ الآية أي ندخلهم ناراً دخولاً يحيط بكل ذرة من أجسامهم مع دوام العقوبة والنكال فقال : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ قال الأعمش عن ابن عمر : إذا احترقت جلودهم بُدّلوا جلوداً غيرها بيضاً أمثال القراطيس

(١) أي المقصود بالناس في هذه الآية هم العرب من دون الناس فإن اليهود كانوا يظنون أن النبي الذي سيأتي هو منهم فلما أتى من العرب ، حسدوهم على هذه النعمة العظمى . اللهم أوزعنا أن نشكر نعمتك التي أنعمت علينا بهذا النبي الكريم ، ونتمسك بهداه ، والحمد لك أولا وآخراً .

رواه ابن أبي حاتم ٧٦٠ [وقرأ رجل عند عمر هذه الآية فقال عمر : أعِدْها عَليَّ، فأعادها فقال معاذ بن جبل : عندي تفسيرها: تبدَّلُ في ساعة مأة مرة.فقال عمر : هكذا سمعت رسول الله ﷺ.] وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهارخالدين فيها أبداً﴾ هذا إخبارعن مآل السعداءفي جنات عدنالتي تجري من تحتها الأنهار في جميع فجاجها، خالدون فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون، ولا يبغون عنها حولاً . وقوله تعالى : ﴿لهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أي من الحيض والنفاس ، والأذى والأخلاق الرذيلة ، والصفات الناقصة . وقوله تعالى : ﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ أي ظلاً عميقاً غزيراً طيباً أنيقاً . روى ابن جرير عن شعبة ، قال سمعت الضحاك يحدث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : ٧٦١ [إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائةعام لا يقطعها ــ شجرة الخلد]



﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (٥٨)

يأمر تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها وفي حديث الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : ٧٦٢ [أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك] رواه الإمام أحمد وأهل السنن وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عز وجل على عباده كالصلاة والزكاة والصيام ، والكفارات والنذور،وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه،لا يطلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك،مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك ، فأمَرَ الله تعالى بأدائها ، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه يوم القيامة ، كما ثبت في الصحيح ٧٦٣ [أن رسول الله ﷺ قال : [لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء] وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة حاجب الكعبة المشرفة وسبب نزولها فيه لما أخذ رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه قال ابن اسحق : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة ، فقال : ٧٦٤ [لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدَّعَى فهو تحت قدميَّ هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج » وذكر بقية

الحديث في خطبة النبي ﷺ يومئذ إلى أن قال: ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي ابن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال يا رسول الله، أجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ «أين عثمان بن طلحة؟» فدُعِيَ له فقال له: «هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم وفاء وبر»] إن هذه الآية وإن كانت قد نزلت في رد مفتاح الكعبة لأنه كان أمانة سلمه عثمان بن طلحة لرسول الله ﷺ، ثم ردّه إليه كما في الحديث آنفاً، فحكمها أي حكم هذه الآية عام في كل أمانة يأتمنها الإنسان. ولهذا قال ابن عباس: هي للبر والفاجر، أي هي أمر لكل أحد بردّ الأمانات إلى أهلها.

وقوله تعالى: ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس؛ وفي الحديث ٧٦٥ [ان الله مع الحاكم ما لم يجُرْ فإذا جار وكله إلى نفسه.] وقوله تعالى: ﴿ إنّ الله نعمّا يعظكم به ﴾ أي يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة. وقوله تعالى: ﴿ إن الله كان سميعاً بصيراً ﴾ أي سميعاً لأقوالكم، بصيراً بأفعالكم. روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة يقرأ هذه الآية: ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ إن الله نِعِمّا يعظكم به إنّ الله كان سميعاً بصيراً ﴾ ويضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه ويقول ٧٦٦ [هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرأها ويضع أصبعيه.] رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه، وابن مردويه في تفسيره. وأبو يونس هذا مولى أبي هريرة واسمه سليم بن جبير.

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۞ (٥٩) ﴾

روى البخاري عن ابن عباس ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ قال: ٧٦٧ [نزلت في عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية ...] وهكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجة وروى الامام أحمد عن علي قال: ٧٦٨ [بعث رسول الله ﷺ سريةً واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا

وجد عليهم في شيء ، قال : فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا بلى . قال فاجمعوا لي حطباً ، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنها ، قال : فقال لهم شاب منهم إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار ، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ،فإن أمركم أن تدخلوها،فادخلوها.قال فرجعوا إلى رسول الله ﷺ،فأخبروه.فقال لهم : « لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً إنما الطاعة في المعروف »] أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش به وروى ابو داود عن عبدالله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال : ٧٦٩ [السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ، مالم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة] أخرجاه

وروى البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : ٧٧٠ [إسمعوا وأطيعوا وإن أمّر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة] . روى ابن جرير عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ٧٧١ [سيليكم ولاةٌ بعدي ، فيليكم البَرُّ ببرّه والفاجرُ بفجوره فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق ، وصلّوا وراءهم فإن أحسنوا فلكم ولهم وإن أساءوا فلكم وعليهم] وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ ٧٧٢ [من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر ، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلامات ميتةً جاهلية] رواه مسلم والبخاري . وقوله تعالى : ﴿ وأولي الامر منكم ﴾ من قال هم الأمراء ومن قال هم العلماء والظاهر والله أعلم،أنها عامة في كل أولى الأمر،من الأمراء والعلماء . وفي الحديث الصحيح المتفق على صحته،عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ انه قال : ٧٧٣ [من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني] ، فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء ولهذا قال تعالى : ﴿ أطيعوا الله ﴾ أي اتّبعوا كتابه ، ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أي خذوا بسنّته ، ﴿ وأولي الأمر منكم ﴾ أي فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله فأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله،كما تقدم في الحديث ، إنما الطاعة في المعروف . وقوله تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول ﴾ أي إلى الكتاب والسنة وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة . كما قال تعالى: ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق،وماذا بعد الحق الا الضلال . ولهذا قال تعالى : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم وهذه الآية فيها دلالة على أن من لم يتحاكم

في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك ، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر . وقوله تعالى : ﴿ ذلك خير ﴾ أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ أي وأحسن عاقبة ومآلاً وأحسن جزاء .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى ٱلطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ ٱللهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴿٦٣﴾ ﴾

هذا إنكار من الله عز وجل على من يدَّعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين على نبينا وعليهم الصلاة والسلام وهو مع ذلك يتحاكم إلى غير الكتاب والسنة . وهكذا فإن هذه الآية ذامة لمن عدل عن حكم الله ورسوله وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هنا . ولهذا قال تعالى ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ﴾ إلى آخرها . وقوله تعالى : ﴿ يصدّون عنك صدودا ﴾ أي يعرضون عنك إعراضا ، كالمستكبرين عن ذلك كما قال تعالى عن المشركين : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ ثم قال تعالى في ذم المنافقين : ﴿ فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ﴾ أي فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم ، واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ ثم جاءوك يحلفون بالله إنْ أردنا إلاّ إحساناً وتوفيقاً ﴾ أي يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك إلاّ للمداراة والمصانعة لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة . ثم قال تعالى : ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ﴾ هذا الضرب من الناس هم المنافقون ، والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزيهم على ذلك فانه لا

تخفى عليه خافية فاكتفِ به يا محمد فيهم فانه عالم بظواهرهم وبواطنهم . ولهذا قال له: ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أي لا تعنفهم على ما في قلوبهم. ﴿ وعظهم ﴾ أي وانههم عمّا في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿ وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ أي وأنصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا ٱللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ۞ (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ۞ (٦٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول الا ليطاع ﴾ أي فرضت طاعته على من أرسله إليهم وقوله تعالى : ﴿ بإذن الله ﴾ قال مجاهد : أي لا يطيع أحد إلاّ بإذني ، يعني لا يطيعه إلاّ من وفقته لذلك ، كقوله تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ أي عن أمره وقدره ومشيئته وتسليطه إياكم عليهم . وقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ﴾ يرشد تعالى العصاة ، والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يستغفر لهم ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ (١)

(١) قلت : يستدل بعض من المسلمين بهذه الآية على جواز التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته وهذا كما يبدو خطأ واضح .لأن الآية صريحة في أن من أذنب ذنباً ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، و ذلك حال حياته فاستغفر الله عند رسول الله ثم سأل رسول الله أن يستغفر له، فإذا فعل ذلك ، غفر الله له ذنبه باستغفاره هو ، أي المذنب، ثم استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم له. هذا هو معنى الآية ... فأين هذا من فهم من يجيزون التوسل به صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ... ؟؟!!! ولو أمعنوا جيداً في الآية لرأوا أنهم ينقصهم عنصر هام وهو : استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ... وهذا غير ممكن وقوعه اليوم !! إذ كيف يستغفر لهم بعد ما توفي وانقطع عمله؟ إن عنصر الشفاعة الذي كان قائماً حال حياته ... لم يعدْ قائماً بعد وفاته ... والقياس بينهما قياس مع الفارق . أما حديث «العتبي» الذي يستدلون به أيضاً، فهو حديث غير صحيح البتة .لما فيه من علل ذكرناها في كتابنا : « التوصل إلى حقيقة التوسل » والله الموفق للصواب

وقوله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ﴾ يقسم تعالى بنفسه المقدسة انه لا يؤمن أحد حتى يحكّم الرسولَ ﷺ في جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ أي إذا حكّموك يطيعونك في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به ، وينقادون إليه في الظاهر والباطن ، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة كما ورد في الحديث : ٧٧٤ [والذي نفسي بيده ، لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به] . روى البخاري عن عروة قال : ٧٧٥ [خاصم الزبير رجلاً في شراج الحرة ، فقال النبي ﷺ « إسقِ يا الزبير ثم ارسل الماء إلى جارك » فقال الأنصاري : يا رسول الله إن كان ابن عمتك فتلوّن وجه رسول الله ﷺ ثم قال : « اسق يا زبير . ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ثم أرسل الماء إلى جارك » فاستوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري ، وكان أشار عليهما ﷺ بأمرٍ لهما فيه سعة ، قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلاّ نزلت في ذلك : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ الآية .] ورواه أحمد منقطعاً بين عروة وبين أبيه الزبير فإنه لم يسمع منه والمقطوع به أنه سمعه من أخيه عبدالله كما رواه ابن أبي حاتم أن عروة حدثه ان عبدالله بن الزبير حدثه الزبير بن العوام وساق الحديث ... وهكذا رواه النسائي ورواه أيضاً ابن أبي حاتم — عن سعيد بن المسيب ... ٧٧٦ [قال نزلت في الزبير بن العوام وحاطب بن أبي بلتعة] هذا مرسل ولكن فيه فائدة تسمية الأنصاري . . . « ذُكر سببٌ آخر لنزول هذه الآية » :

روى الحافظ أبو اسحق ابراهيم بن عبد الرحمن عن ضمرة قال : ٧٧٧ [إن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ فقضى للمحق على المبطل فقال المقضي عليه : لا أرضى ، فقال صاحبه : فما تريد ؟ قال : أن نذهب إلى أبي بكر الصديق ، فذهبا إليه ، فقال الذي قضي له : قد اختصمنا إلى النبي ﷺ فقضى لي ، فقال أبو بكر : انتما على ما قضى به رسول الله ﷺ ، فأبى صاحبه أن يرضى فقال : نأتي عمر بن الخطاب ، فقال المقضي له : قد اختصمنا إلى النبي ﷺ فقضى لي عليه ، فأبى أن يرضى ، فسأله عمر بن الخطاب ، فقال : كذلك ، فدخل عمر منزله وخرج والسيف في يده قد سلّه ، فضرب رأس الذي أبى أن يرضى فقتله . فأنزل الله تعالى : ﴿ فلا وربّك لا يؤمنون ﴾ الآية] .

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً * (٦٦) وَإِذاً لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً * (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * (٦٨) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً * (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً * (٧٠) ﴾

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبوه من المناهي لما فعلوه ، لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر ، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن، فكيف بما كان ويكونُ ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ﴾ الآية وروى ابن أبي حاتم عن الأعمش قال: ٧٧٨ [لما نزلت ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ﴾ الآية قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ : لو فعل ربنا لفعلنا فبلغ النبي ﷺ فقال : « لَلايمانُ أثبت في قلوب أهله من الجبال الرواسي »] وروى ابن أبي حاتم عن شريح ابن عبيد قال : ٧٧٩ [لما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ﴾ الآية أشار رسول الله ﷺ هذه بيده إلى عبدالله بن رواحة فقال « لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل »] يعني ابن رواحة ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به ﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه، ﴿ لكان خيراً لهم ﴾ أي من مخالفة الأمر وارتكاب النهي. ﴿ وأشد تثبيتاً ﴾ قال السدي : أي وأشد تصديقاً ﴿ وإذاً لآتيناهم من لدنا ﴾ أي من عندنا ﴿ أجراً عظيماً ﴾ يعني الجنة ، ﴿ ولهديناهم صراطاً مستقيماً ﴾ أي في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ أي من عمل بما أمره الله به ورسوله وترك ما نهاه الله عنه ورسوله يسكنه الله دار كرامته ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة من الصديقين فالشهداء فالصالحين ، الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم ، ثم أثنى عليهم تعالى فقال : ﴿ وحسن أولئك رفيقا ﴾

وروى البخاري عن عائشة ، قالت : ٧٨٠ [سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من نبي يمرض إلاّ خيرّ بين الدنيا والآخرة » وكان في شكواه التي قبض فيها أخذته بحّة شديدة فسمعته يقول : ﴿ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ فعلمت أنه خيرّ ؛] وكذا رواه مسلم وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر : ٧٨١ [اللهم الرفيق الأعلى] ثلاثاً ثم قضى ـ بأبي هو وأمي ـ عليه أفضل الصلاة والسلام .

روى أبو بكر بن مردويه عن عائشة ، قالت : ٧٨٢ [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ، إنك لأحب إليّ من نفسي ، وأحب إليّ من أهلي وأحب إليّ من ولدي ؛ وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك وإذا ذكرت موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك ، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾) وثبت في صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي ، أنه قال : ٧٨٣ [كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته ، فقال لي : « سل » فقلت يا رسول الله : أسألك مرافقتك في الجنة فقال « أو غير ذلك » قلت : هو ذاك . قال « فأعني على نفسك بكثرة السجود »]

قال تعالى : ﴿ ذلك الفضل من الله ﴾ أي من عند الله برحمته وهو الذي أهّلهم لذلك لا بأعمالهم ﴿ وكفى بالله عليماً ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا جَمِيعاً ۞ (٧١) وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً ۞ (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ۞ (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ۞ (٧٤) ﴾

ربع الحزب

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم ، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعُدد ، وتكثير العدد بالنفير في سبيل الله ﴿ ثباتٍ ﴾ أي جماعة بعد جماعة ﴿ أو انفروا جميعاً ﴾ يعني كلكم . وقوله تعالى : ﴿ وإنَّ منكم لمن ليُبَطِّئَنَّ ﴾ أي ليتخلّفنَّ عن الجهاد ويبطّىء غيرَه كما كان يفعل عبدالله بن أبي بن سلول ــ قبحه الله ــ ولهذا قال تعالى عن المنافق إخباراً أنه يقول : إذا تأخر عن الجهاد ﴿ فإن أصابتكم مصيبة ﴾ أي قتلٌ وشهادةٌ وغلبكم العدو لحكمة يعلمها الله ﴿ قال قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكن معهم شهيداً ﴾ أي حاضراً وقعة القتال ، يعدّ ذلك من نعم الله عليه ولم يدرِ ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل . ﴿ ولئن أصابكم فضل من الله ﴾ أي نصر وغنيمةٌ ﴿ ليقولنّ كأن لم تكن بينكم وبينهُ مَودَّةٌ ﴾ أي كأنه ليس من أهل دينكم ﴿ يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ﴾ بأن يُسهم لي معهم وهذا منتهى مراده . ثم قال تعالى : ﴿ فليقاتلْ ﴾ أي المؤمنُ النّافرُ ﴿ في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ أي يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا ، وما ذلك إلا لكفرهم ثم قال تعالى : ﴿ ومن يقاتلْ في سبيل الله فيُقتلْ أو يَغلبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ أي كل من قُتِل أو غَلَبَ فله عند الله مثوبة عظيمة كما ثبت في الصحيحين ٧٨٤ [وتكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجرٍ أو غنيمة .]

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً ۞ (٧٥) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ۞ (٧٦) ﴾

يُحرِّض الله تعالى المؤمنين على الجهاد في سبيله ، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين من المقام بها ولهذا قال تعالى : ﴿ الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية ﴾ أي مكة ﴿ الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا ﴾ أي سخرْ لنا من عندك ولياً ونصيرا .

روى البخاري عن ابن عباس قال : كنت أنا وأمي من المستضعفين ثم قال تعالى : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ﴾ أي المؤمنون يقاتلون في طاعة الله، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان. ثم هيج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله : ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝ (٧٧) أَيْنَ مَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ ٱللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ ٱللهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ۝ (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِٱللهِ شَهِيداً ۝ (٧٩) ﴾

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، وإن لم تكن ذات النصب وكانوا مأمورن بمواساة الفقراء منهم ، وبالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرّقون شوقاً إلى قتال أعدائهم ليشتفوا منهم ولكنهم كانوا قليلي العـــدد والعُدد ، وهم في البلد الحرام ، ولذا فلم يشرع الجهاد إلا في المدينة التي صارت دار منعةٍ وأنصار ، ولما أمروا بالجهاد جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً ﴿ وقالوا ربنا لمَ كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجلٍ قريب ﴾ أي أخّرت فرضَهُ إلى مدة أخرى . روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ٧٨٥ [أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا يا نبي الله كنا في عزةٍ ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة ،

قال : « إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ﴾] الآية ورواه النسائي والحاكم وابن مردويه من حديث علي بن الحسن بن شقيق به . وقال السدى : لم يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال ، فلما فرض عليهم القتال : ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لمَ كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ وهو الموت . قال الله تعالى : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾ أي من أعمالكم بل توفونها أوفى الجزاء وهذه تسلية لهم عن الدنيا وترغيب لهم في الآخرة ، وتحريض لهم على الجهاد ، وكان أبو مصهر ينشد :

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن لــــه ... من الله في دار المقام نصيـــبُ
فإن تُعجبِ الدنيا رجالاً فإنهـــا ... متاع قليـــل والزوال قريـــبُ

وقوله تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ أي أنتم ميتون حتماً جميعاً كما قال تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ فكلٌ له أجل محتوم ومُقام مقسوم .

وقوله تعالى : ﴿ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ أي حصينة منيعة فلا يغني حذر ولا تحصن من الموت كما قال زهير بن أبي سُلمى :

ومن هاب أسباب المنايا ، ينلنـــه ... ولو رام أسباب السماء بسلّـم

وقوله تعالى : ﴿ وإن تصبهم حسنة ﴾ أي خصب ورزق وثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك ﴿ يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة ﴾ أي قحط وجدب ونقص في الثمار والزروع ﴿ يقولوا هذه من عندك ﴾ أي من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك كما قال تعالى عن قوم فرعون ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطّيّروا بموسى ومن معه ﴾ وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الاسلام ظاهراً وهم كارهون له في نفس الأمر ، فعندما تصيبهم حسنة كالخصب في الزروع والمواشي والخيول وتلد نساؤهم الغلمان قالوا : ﴿ هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة ﴾ كالجدب والضرر في الأموال والأولاد تشاءموا بمحمد ﷺ وقالوا : ﴿ هذه من عندك ﴾ بتركنا ديننـــا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ قل كل من عند الله ﴾ أي الجميع بقضاء الله وقدره وهو نافذ في البر والفاجر ، والمؤمن والكافر. قال ابن عباس قل كل من عند الله أي الحسنة والسيئة . ثم قال تعالى منكراً على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة

عن شك وريب ، وقلة فهم وعلم ، وكثرة جهل وظلم ﴿ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ ثم قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ أي من فضله ومنه وكرمه ولطفه ورحمته ، ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ أي فمن قبلك ، ومن عملك أنت ، كما قال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ وفي الصحيح ٧٨٦ [والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا حزن ، ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه] روى ابن أبي حاتم عن مطرف بن عبدالله قال : ما تريدون من القدر أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء : ﴿ وإن تصبهم حسنة ... ــ إلى قوله ــ من عندك ﴾ ؟ أي من نفسك والله ما وكلوا إلى القدر وقد أمروا وإليه يصيرون ؛ وهذا كلام متين قوي في الرد على القدرية والجبرية أيضاً ، ولبسطه موضع آخر . وقوله تعالى : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ أي تبلغهم شرائع الله وما يحبه ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه. ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ أي على إنك مرسل منه وهو شهيد ايضاً بينك وبينهم ، وعالم بما تبلغهم إياه ، وبما يردون عليك من الحق كفراً وعناداً .

﴿ مَنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ۞ (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ۞ (٨١) ﴾

يخبر تعالى بأن من أطاع عبده ورسوله محمداً ﷺ فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٧٨٧ [من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ، ومن عصى الأمير فقد عصاني] وهذا الحديث في الصحيحين عن الأعمش به . وقوله تعالى : ﴿ ومن تولىٰ فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ أي ما عليك إلا البلاغ من اتبعك سعد ونجا وكان لك من الأجر نظير ما حصل له . ومن تولىٰ عنك خاب وخسر وليس عليك من أمره شيء. كما جاء في الحديث : ٧٨٨ [من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه] وقوله

تعالى : ﴿ ويقولون طاعة ﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ، ﴿ فإذا برزوا من عندك ﴾ أي خرجوا ﴿ بيّت طائفة منهم غير الذي تقول ﴾ أي استسرّوا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه لك ؛ فقال تعالى : ﴿ والله يكتب ما يبيّتون ﴾ أي يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين والمعنى أنه تعالى عالم بما يُسِرّون من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه بعد إظهار الطاعة وسيجزيهم على ذلك .كما قال تعالى : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أي أصفح واحلم ، ولا تكشفهم ، ولا تخف منهم ﴿ وتوكلْ على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ أي كفى به ناصراً ومعينا لمن توكل عليه وأناب .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافاً كَثِيراً ۞ (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً ۞ (٨٣) ﴾

يأمر تعالى بتدبر القرآن وتفهم معانيه وينهاهم عن الإعراض عنه وعن مفاهيمه المحكمة والفاظه البليغة ومخبراً لهم بأنه لا أختلاف ولا اضطراب فيه ولا تعارض لأنه حق نزل من حق ثم قال : ﴿ ولو كان من عند غير الله ﴾ أي لو كان مختلقاً كما يقول المشركون والمنافقون سراً ، لوجدوا فيه تضاداً كثيراً والمعنى أنه سالم من الاختلاف فهو من عند الله كما أخبر عن الراسخين في العلم إذ قالوا : ﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾ أي محكمهُ ومتشابههُ حقٌ فردّوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا وأما الزائغون ردّوا المحكمَ إلى المتشابه فغوَوْا . روى الإمام أحمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : ٧٨٩ [لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم ، أقبلت أنا وأخي واذا مشيخةٌ من أصحاب رسول الله ﷺ على باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا حجزة. إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم فخرج رسول الله ﷺ مغضباً حتى احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول : « مهلاً يا قوم بهذا أهلكت الأمم من قبلكم ،

باختلافهم على انبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً إنما نزل يصدق بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمِه »] ورواه مسلم والنسائي من حديث حماد بن زيد . وقوله تعالى : ﴿ واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف اذاعوا به ﴾ إنكار على من يبادر إلى إفشاء الأمور قبل تحققها فقد روى مسلم في مقدمة صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ٧٩٠ [كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع] وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ قال : ٧٩١ [بئس مطية الرجل زعموا] ومن المتفق على صحته ٧٩٢ [أن عمر بن الخطاب بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه فجاء من منزله حتّى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك . فلم يصبر حتّى أستأذن على النبي ﷺ فاستفهمه : أطلّقت نساءك فقال « لا » فقلت الله أكبر ...] وعند مسلم ٧٩٣ [فقلت : أطلقتهن ؟ فقال : « لا » فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه ونزلت هذه الآية : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر] ومعنى يستنبطونه أي يستخرجونه من معادنه. وقوله تعالى : ﴿ لا تبعتم الشيطان إلاّ قليلاً ﴾ يعني كلكم . قاله قتادة ولكن قال ابن عباس : يعني المؤمنين وهذا أصح واللهُ أعلم .

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ۞ (٨٤) مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً ۞ (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً ۞ (٨٦) اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثاً ۞ (٨٧) ﴾

يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه ومن نكل عنه فلا عليه

منه ولهذا قال : ﴿ لا تكلف إلا نفسك ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي اسحق قال : ٧٩٤ [قلت للبراء : [1] الرجل يحمل على المشركين أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة ؟ قال لا ، إن الله بعث رسوله ﷺ وقال : ﴿ فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ﴾ إنما ذلك في النفقة [2] وقوله تعالى : ﴿ وحرض المؤمنين ﴾ أي على القتال ورغبهم فيه كما قال يوم بدر وهو يسوي الصفوف ٧٩٥ [قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض] ومن ذلك ما رواه البخاري ٧٩٦ [... إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض؛ فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه وسط الجنة، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة] وقوله تعالى : ﴿ عسى اللهُ أن يكفَّ بأس الذين كفروا ﴾ أي بتحريضك إياهم على القتال تنبعث هممهم على مناجزة الأعداء ، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وقوله تعالى : **أشد بأساً وأشد تنكيلا**﴾ أي هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى · ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ﴾ أي من يسعى في أمر فيترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك ﴿ ومن يشفع شفاعةً سيئة يكن له كفل منها ﴾ أي يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال : ٧٩٦ [اشفعوا تؤجروا ،] ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء وقال مجاهد بن جبر : نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض .

وقوله تعالى : ﴿ وكان الله على كل شيء مقيتا ﴾ أي حفيظاً وقيل شهيداً وحسيباً وقوله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ أي إذا سلم عليكم المسلم فردوا أفضل مما سلّم أو ردوا عليه بما سلم فالزيادة مندوبة والمماثلة مفروضة . روى ابن جرير عن سلمان الفارسي قال : ٧٩٧ [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله فقال : « وعليك السلام ورحمة الله » ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله فقال رسول الله ﷺ « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته فقال له : وعليك » فقال

(١) ابن عازب . (٢) راجع سورة البقرة عند تفسير الآية رقم /١٩٥/ .

له الرجل يا نبي الله بأبي أنت وأمي ، أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت علي فقال : « إنك لم تدعْ لنا شيئاً قال الله تعالى : ﴿ وإذا حييتّم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ فرددناها عليك » .]

وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة في السلام على هذه الصفة ، : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ فإن بلغ المسلم غاية ما شرع في السلام ، رد عليه مثل ما قال فأما أهل الذمة فلا يبدأون بالسلام ولا يزادون بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر ان رسول الله ﷺ قال : ٧٩٨ [اذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم : السام عليكم فقل : وعليك]

قال ابن عباس : من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسياً ، ذلك بأن الله يقول : ﴿ فحيوا بأحسن منها أو ردّوها ﴾ وعن الحسن البصري ، قال : السلام تطوع والرد فريضة ، وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة ، أن الرد واجب على من سُلِّم عليه فيأثم إن لم يفعل لأنه خالف أمر الله في قوله ﴿ فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ وجاء في الحديث الذي رواه أبو داود بسنده إلى أبي هريرة ، قال : ٧٩٩ [قال رسول الله ﷺ « والذي نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »] وقوله تعالى : ﴿ الله لا إله الا هو ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات وتضمن قسماً لقوله تعالى : ﴿ ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ وهذه اللام موطئة للقسم ، فقوله : ﴿ الله لا إله الا هو ﴾ خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد فيجازي كل عامل بعمله . وقوله تعالى : ﴿ ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ أي لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعده ووعيده فلا إله إلا هو ولا رب سواه .



۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۝ (٨٨) وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا

نَصِيراً ۞ (٨٩) إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ
جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ
ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا
إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۞ (٩٠) سَتَجِدُونَ
ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى
ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوا
أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ
عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً ۞ (٩١)

يقول تعالى منكراً على المؤمنين اختلافهم في المنافقين على قولين : روى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت ٨٠٠ [أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحُد فرجع ناس خرجوا معه ، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين : فرقة تقول نقتلهم وفرقة تقول : لا .. هم المؤمنون فانزل الله تعالى : ﴿ فمالكم في المنافقين فئتين ﴾ فقال رسول الله ﷺ « إنها طيبة وانها تنفي الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد »] أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة وقد ذكر محمد بن اسحق بن يسار في وقعة أحد أن عبدالله بن أُبَيْ بن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش ، رجع بثلاثمأة وبقي النبي ﷺ في سبعمأة .

وقوله تعالى : ﴿ والله أركسهم ﴾ أي ردّهم وأوقعهم في الخطأ وقوله تعالى : ﴿ بما كسبوا ﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل ﴿ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾ أي لا طريق له إلى الهدى ، وقوله تعالى : ﴿ ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ أي لشدة عداوتهم يودون لكم الضلالة لتستووا وإياهم فيها ولهذا قال : ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا ﴾ أي تركوا الهجرة ﴿ فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيرا ﴾ أي لا توالوهم ولا تستنصروهم على أعداء الله ما داموا كذلك ، ثم استثنى الله من هؤلاء ، فقال : ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ أي الذين لجأوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة ، أو عقد ذمة ، فاجعلوا حكمهم كحكمهم ، وفي

صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية : فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم ، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد ﷺ وأصحابه وعهدهم . وقد روي عن ابن عباس أنه قال : نسخها قوله تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ أو جاؤوكم حصرت صدورهم ﴾ الآية ؛ هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم وهم الذين يجيئون إلى المصاف ضيقةً صدورهم ، مبغضين أن يقاتلوكم ولا يهون عليهم أن يقاتلوا قومهم معكم بل هم لا لكم ولا عليكم ﴿ ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ﴾ أي من لطفه بكم أن كفّهم عنكم ﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم ﴾ أي المسالمة ﴿ فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك ، وهؤلاء الجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن قتل العباس وأمر بأسره . وقوله تعالى : ﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ﴾ الآية ... هؤلاء في الظاهر كمن تقدمهم ولكن النية مختلفة ، فهؤلاء منافقون يظهرون الاسلام ليأمنوا بذلك عند المسلمين على دمائهم وأموالهم وذراريهم ، ويصانعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم وهم في الباطن مع أولئك كما قال تعالى : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ﴾ وقال تعالى ههنا ﴿ كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها ﴾ قال السدي : الفتنة ها هنا الشرك . وحكى ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياءً ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا ها هنا وها هنا فأمر بقتلهم ان لم يعتزلوا ويصلحوا ، ولهذا قال تعالى ﴿ فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ﴾ ، المهادنة والصلح ﴿ ويكفوا أيديهم ﴾ أي عن القتال ، ﴿ فخذوهم ﴾ أسراء ﴿ وأقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ أي اين لقيتموهم ، ﴿ وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً ﴾ أي بيناً واضحاً .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ

وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ❁ (٩٢) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ❁ (٩٣)

يقول تعالى : ليس لمؤمن أن يقتل اخاه المؤمن بوجه من الوجوه ، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال ٨٠١: [لا يحل دم امريء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلاّ باحدى ثلاث النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة] ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله وانما ذلك إلى الإمام أو نائبه ؛ وقوله تعالى (إلاّ خطأً) قالوا : هو استثناء منقطع .

وسبب نزول هذه الآية فقال مجاهد وغير واحد : نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه وهي أسماء بنت مخرمة . وذلك أنه قتل رجلاً يعذبه مع أخيه على الإسلام وهو الحارث بن يزيد الغامدي ، فأضمر له عياش السوء ، فأسلم ذلك الرجل وهاجر وعياش لا يشعر ، فلما كان يوم الفتح رآه ، فظن أنه على دينه فحمل عليه فقتله ، فأنزل الله هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنه ودية مسلمة إلى أهله ﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ ، أحدهما الكفارة ، لما ارتكبه من الذنب العظيم وإن كان خطأً، ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزيء الكافرة ، ولا يجزىء الصغير الكافر حتى يكون قاصداً للإيمان والجمهور على أنه متى كان مسلماً أجزأ إن كان كبيراً أو صغيراً .

روى أحمد عن رجل من الأنصار : ٨٠٢ [أنه جاء بأمة سوداء فقال يا رسول الله إن عليّ عتق رقبة مؤمنة فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها ، فقال رسول الله ﷺ « أتشهدين أن لا اله الا الله » قالت : نعم . قال : « أتشهدين أني رسول الله ؟ » قالت : نعم قال « أتؤمنين بالبعث بعد الموت ! » قالت : نعم قال : أعتقها »] وهذا اسناد

صحيح وجهالة الصحابي لاتضره وفي موطأ مالك ، ومسند الشافعي وأحمد وصحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي من طريق هلال بن أبي ميمونة عن عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم ٨٠٣ : [أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء قال لها رسول الله ﷺ : « أين الله ؟ » قالت : في السماء . قال : « من أنا ؟ » قالت : رسول الله ﷺ ، قال : « أعتقها فإنها مؤمنة »] [(١)] وقوله تعالى : ﴿ ودية مسلمة إلى أهله ﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتيل عوضاً لهم عما فاتهم من قتيلهم . وهذه الدية انما تجب على عاقلة القاتل لا في ماله ؛ قال الشافعي رحمه الله : لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة ــ والعاقلة عصبةُ القاتل أو قرابته من قبل الأب ــ فقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : ٨٠٤ [أقتتلت امرأتان من هذيل ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها ، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنينها غرة عبد أو أمة وقضى بدية المرأة على عاقلتها ،] وهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ المحض في وجوب الدية لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً لشبهة العمد أما الخطأ الذي مر ذكره آنفاً في قوله : هو الواجب الثاني ففيه الدية أخماس كما رواه الامام أحمد عن ابن مسعود قال ٨٠٥ : [قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض وعشرين بني مخاض ذكوراً وعشرين بنت لبون ، وعشرين جذعة وعشرين حقة] لفظ النسائي ؛ وقال الترمذي : لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه وروي موقوفاً عن عبد الله بن مسعود وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر قال : ٨٠٦ [بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون : صبأنا صبأنا ، فجعل خالد يقتلهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فرفع يديه وقال « اللهم إني أبرأ اليك مما صنع خالد » وبعث علياً فودَى قتلاهم ، وما أتلف من أموالهم حتى ميلغة الكلب] وهذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال .

وقوله تعالى : ﴿ إلا أن يصَّدقوا ﴾ أي إلاّ أن يتصدّق أهل القتيل فيعفوا عن الدية فلا تجب وقوله تعالى : ﴿ فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أي إذا كان القتيل مؤمناً وأولياؤه كفار أهل حرب فلا دية لهم ، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير . وقوله تعالى : ﴿ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ الآية فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتيلهم ، فإن كان مؤمناً فدية كاملة ، وإن كان

---

(١) قلت : فما بال الذين يقولون ــ والعياذ بالله ــ « « إن الله في كل مكان » ولا يخفى ما في هذا الكلام من معاني الحلول والاتحاد والوحدة تعالى الله عن ذلك وهناك من يقول : « أن الله ليس فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف وليس هو في داخل الكون ولا في خارجه » وهذا كما لا يخفى ، وصف للمعدوم والعياذ بالله . والقولان من دسائس اليهود لعنهم الله

كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء ، وقيل : يجب في الكافر نصف دية المسلم ؛ وقيل : ثلثها كما هو مفصل في كتب الأحكام . ويجب على القاتل تحرير رقبة مؤمنة ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ﴾ أي لا إفطار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف ، واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا ، على قولين ...

وقوله تعالى : ﴿ توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً ﴾ أي هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين ، واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام : هل يجب عليه إطعام ستين مسكيناً كما في كفارة الظهار ، على قولين أحدهما : نعم كما في الظهار ولم يذكره هنا لأن هذا مقام تهديد وتحذير فلا يناسب ذكر التسهيل والترخيص . والثاني لا يعدل إلى الطعام لأنه لو كان واجباً لما أخر بيانه عن وقت الحاجة ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ قد تقدم تفسيره غير مرة هذا قتل الخطأ أما بيان حكم القتل العمد ، فقال : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان :
﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾
وقال تعالى والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٠٧ [أول ما يقضي بين الناس يوم القيامة في الدماء] وروى أبو داود عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٠٨ [لا يزال المؤمن معنقاً[1] صالحاً ما لم يصب دماً حراماً ، فإذا أصاب دماً حراماً بلح[2]]

وفي الحديث الآخر : ٨٠٩ [لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم لأكبهم الله في النار]

وفي حديث آخر : ٨١٠ [لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم] وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً لقوله تعالى : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ﴾ وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء، وقد روى هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة . وممن ذهب إلى ذلك أيضاً زيد بن ثابت وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وأبو سلمة

---

(١) معنقاً : أي مسرعاً في سيره .
(٢) « بلح » بالتخفيف والتشديد ، أي انقطع من الأعياء والوهن .

ابن عبد الرحمن وعبيد بن عمير والحسن وقتادة والضحاك نقله ابن أبي حاتم ــ وهناك بعض أحاديث في الباب قد لا تبلغ مبلغ الاحتجاج بها .

والذي عليه جمهور السلف والخلَف : ان القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل فإن تاب وأناب وخشع وخضع وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات ، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن ظلامته قال الله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ إلى قوله ــ ﴿ إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴾ وهذا خبر لا يجوز نسخه وحمله على المشركين ، وقال تعالى ﴿ قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ وهذا عام في جميع الذنوب من كفر وشرك وشك ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك ما عدا الشرك إذا مات عليه قال الله تعالى: ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وهذه الآية مذكورة في هذه السورة الكريمة قبل قوله تعالى [(١)] : ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً ... ﴾ وبعدها لتقوية الرجاء والله أعلم . وثبت في الصحيحين : ٨١١ [خبر الاسرائيلي الذي قتل مئة نفس ثم سأل عالماً هل لي من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه ، فهاجر إليه فمات في الطريق فقبضته ملائكة الرحمة ...] واذا كان هذا في بني اسرائيل فلأن تكون التوبة مقبولةً في هذه الأمة ، بطريق الأولى والأحرى ، لأن الله وضع عنّا الآصار والأغلال التي كانت عليهم ، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة . وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد من قوله تعالى : ﴿ ... خالداً فيها ... ﴾ والله أعلم بالصواب وبتقدير دخول القاتل في النار . أما على قول ابن‌عباس ومن وافقه انه لا توبة له ، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به فليس بمخلد فيها أبداً ، بل الخلود هو المكث الطويل.وقد تواترات الأحاديث عن رسول الله ﷺ عليه وسلم أنه : ٨١٢ [يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان] وأما حديث معاوية : ٨١٣ [كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً] فعسى للترجي ، فإذا انتفى **الترجى** في هاتين الصورتين ، لا تنفي وقوع ذلك في أحدهما وهو القتل لما ذكرنا من الأدلّة ، وأما من مات كافراً ، فالنص أن الله لا يغفر له ألبتة ، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الآدميين . وهي لا تسقط بالتوبة بل بردها إليهم ولا فرق بين المقتول والمسروق منه والمغصوب منه والمقذوف وسائر حقوق الآدميين ، فإن تعذر رد الحقوق فلا بد من المطالبة يوم القيامة ، ولكن لا يلزم من وقوع

(١) الآية /٤٨/ الآية /١١٦/ من هذه السورة .

المطالبة وقوع المجازاة فقد يُعطى من أعمال القاتل الصالحة ما يفي حق المقتول، ويبقى فضل يدخل به الجنّة أو يعوض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها ، ورفع درجته فيها ونحو ذلك والله أعلم ، ولقاتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة ، فأما في الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه قال الله تعالى : ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾ الآية ... ثم هم مخيرون بين : أن يقتلوا ، أو يعفوا ، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثاً : ثلاثون حقّه ، وثلاثون جذعة ، وأربعون خلفة ، كما هو مقرر في كتاب الأحكام . واختلف الأئمة في الكفاءة هل تجب عليه كما وجبت على القاتل خطأً وهي عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ، على أحد القولين . ففي ذلك قولان أحدهما أن ما عليه كفارة ولا سبيل إلى ذلك لأن قتل العمد أعظم من أن يكفّر فلا كفارة فيه . لكن الذين أوجبوا الكفارة فقد احتجوا بما رواه الإمام احمد قال بسنده إلى واثلة بن الأسقع ، قال : أتى النبيَّ ﷺ نفرٌ بن بني سليم فقالوا : ٨١٤ [إن صاحباً لنا قد أوجب ، قال : « فليعتق رقبة يفدي الله بكل عضو منها عضوا منه من النار »]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرا ۞ (٩٤) ﴾

عن ابن عباس ، قال : لحق المسلمون رجلاً في غنيمة له ، فقال : السلام عليكم ، فقتلوه وأخذوا غنيمته ؛ فنزلت (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا) .

وقد ورد [١] في ترجمة : أن أخاه فزاراً هاجر إلى رسول الله ﷺ ، عن أمر أبيه بإسلامهم وإسلام قومهم ، فلقيته سرية لرسول الله ﷺ في عماية الليل ، وكان قد قال لهم إنه مسلم ، فلم يقبلوا منه فقتلوه فقال أبوه : فقدمت على رسول الله ﷺ فأعطاني ألف دينار ودية أخرى، وسيّرني ، فنزل قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله ﴾

وروى البخاري عن ابن عباس قال : (قال رسول الله ﷺ للمقداد : إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار ، فأظهر إيمانه فقتلته ؟ ! وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة من قبل .) هكذا رواه البخاري مختصراً معلقاً .

---

(١) بياض في الأصل .

روى الامام أحمد عن ابن عباس قال : ٨١٥ [مرَّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب رسول الله ﷺ يرعى غنماً له فسلّم عليهم فقالوا : لا يسلم علينا إلاّ ليتعوذ منا فعمدوا إليه فقتلوه ، وأتوا بغنمه النبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله ...﴾ إلى آخرها] كما روى البخاري عن ابن عباس : ٨١٦ [﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ﴾ قال ابن عباس : كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون ، فقال : السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته ؛ فأنزل الله في ذلك : ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً ﴾] قال ابن عباس : عرض الدنيا تلك الغنيمة . وقوله تعالى : ﴿ فعند الله مغانم كثيرة ﴾ أي خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام ، وأظهر لكم الإيمان فتغافلتم عنه ، واتّهمتموه بالمصانعة والتقية لتبتغوا منه ما أخذتموه فما عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا . وقوله تعالى : ﴿ كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم ﴾ ، اي كنتم مثل هذا الذي يُسرّ إيمانه ، ويخفيه من قومه كما تقدم في الحديث آنفاً . وكما قال تعالى : ﴿ واذكروا إذْ أنتم قليـــل مستضعفون في الأرض ﴾ قال سعيد ابن جبير في قوله تعالى : ﴿ كذلك كنتم من قبل ﴾ أي تخفون إيمانكم في المشركين ﴿ فمنّ الله عليكم ﴾ أي تاب عليكم . وقوله تعالى ﴿ فتبيّنوا ﴾ تأكيد لما تقدم وقوله تعالى : ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ قال سعيد بن جبير : هذا تهديد ووعيد .

﴿ لَا يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۞ (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ (٩٦) ﴾

٨١٧ [روى البخاري عن البراء قال : لما نزلت ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين .. ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً[1] فكتبها ، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته

(١) زيد بن ثابت رضي الله عنه أحد كتاب الوحي .

فأنزل الله ﴿ غير أولي الضرر ﴾] روى البخاري أيضاً عن سهل بن سعد الساعدي ٨١٨ [أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد قال: فأقبلت حتّى جلستُ إلى جنبه، فأخبرنا : أن زيداً بن ثابت أخبره : أن رسول الله ﷺ أملى عليَّ : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ﴾ فجاء ابن أم مكتوم وهو يمليها عليّ ، قال : يا رسول الله ، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى ؛ فأنزل الله على رسوله ﷺ ، وكان فخذه على فخذي فثقلت عليَّ حتّى خفت أن ترض فخذي ثم سُرّي عنه ، فأنزل الله ﴿ غير أولي الضرر ﴾ تفرّد به البخاري دون مسلم وروي من وجه آخر عند أحمد ورواه أبو داود ورواه عبد الرزاق .

روى الترمذي عن ابن عباس قال : ٨١٩ [لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ﴾ عن بدر والخارجون إلى بدر ، ولما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم : إنّا أعميان يا رسول الله ، فهل لنا رخصة ؟ فنزلت : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ﴾ ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة ﴾ فهؤلاء القاعدون غير أولى الضرر ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجاتٍ منه ﴾ على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر .) هذا لفظ الترمذي ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

فقوله ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون﴾ كان مطلقاً ؛ فلما نزل بوحي سريع : ﴿ غير أولي الضرر ﴾ صار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد من العمى والعرج والمرض ، عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين ، قال ابن عباس : غير أولي الضرر وكذا ينبغي أن يكون ، كما ثبت في صحيح البخاري من طريق زهير بن معاوية ، عن حميد عن أنس : ان رسول الله ﷺ قال : ٨٢٠ [إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسيرٍ ولا قطعتم من واد إلاّ وهم معكم فيه ، قالوا : وهم بالمدينة يا رسول الله ؟ قال : نعم حبسهم العذر .] وهكذا رواه أحمد وأبو داود وقوله تعالى: ﴿ وكلاّ وعدالله الحسنى ﴾ أي الجنة والجزاء الجزيل. وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين بل هو فرض على الكفاية . (١) قال تعالى : ﴿ وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ بما فضلهم به من

(١) قلت : هذا في حالة الهجوم أما في حالة الدفاع وهجوم العدو الكافر علينا فالجهاد فرض عين على كل مسلم على الشكل الذي يطيق ولو بكلمة ... كل بحسب عذره وطاقته وتحمله والله أعلم. أما المخلّفون عن الجهاد وهم يستطيعون،فلهم من الله عذاب أليم .

الدرجات في غرف الجنان والمغفرة والرحمة والبركة إحساناً منه وتكريماً . ولهذا قال : ﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : ٨٢١ [ان في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰٓئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً ۞ (٩٧) إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ۞ (٩٨) فَأُولَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً ۞ (٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِراً إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ۞ (١٠٠) ﴾



روى البخاري عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود قال : قطع على أهل المدينة بعث ، فاكتتبت فيه ، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته ، فنهاني عن ذلك أشد النهي ، قال : ٨٢٢ [أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ ، يأتي السهم يرمي به فيصيب أحدهم ، فيقتله أو يضرب عنقه فيقتل،فأنزل الله.﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾] رواه الليث عن أبي الأسود . فقوله تعالى: ﴿ ... ظالمي أنفسهم ﴾ أي بترك الهجرة ﴿ قالوا فيم كنتم ﴾ أي لمَ مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة ﴿ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ﴾ أي لا نقدر على الخروج من البلد ، ولا الذهاب في الأرض ﴿ قالوا ألم تكن أرض الله واسعة ﴾ الآية روى أبو داود عن سمرة بن جندب أما بعد : قال رسول الله ﷺ : ٨٢٣ [من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله] وقال : ٨٢٤ [لما أسر العباس وعقيل ونوفل قال رسول الله ﷺ

للعباس « افدِ نفسَك وابنَ أخيك » فقال : يا رسول الله ، ألم نصلّ إلى قبلتك ، ونشهد شهادتك ، قال يا عباس « إنكم خاصمتم فخصمتم » ثم تلا عليه هذه الآية ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة ﴾] الآية رواه ابن أبي حاتم .

وقوله تعالى : ﴿ إلا المستضعفين ﴾ إلى آخر الآية هذا عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة ، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق ، ولهذا قال : ﴿ لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً ﴾ يعني طريقاً . وقوله تعالى : ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ﴾ أي بترك الهجرة و ﴿ عسى ﴾ من الله موجبة ﴿ وكان الله عفواً غفوراً ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة قال : [بينا رسول الله ﷺ يصلي العشاء إذ قال : سمع الله لمن حمده ، ثم قال قبل أن يسجد : ٨٢٥ : [اللهم أنجِ عياش بن ربيعة ، اللهم أنجِ سلمة بنَ هشام ، اللهم أنج الوليد بن الوليد ، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف] روى البخاري عن ابن عباس ﴿ إلا المستضعفين ﴾ قال : كنت أنا وامي ممن عذر الله عز وجل. وقال عبد الرزاق عن ابن عباس ، كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان. وقوله تعالى : ﴿ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراغَماً كثيراً وسعة ﴾ وهذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين ، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحةً ، وملجأً يتحصّن فيه ، والمُراغمَ مصدر تقول العرب : راغم فلان قومه مراغَماً ومُراغَمةً وقال ابن عباس : المُراغَم : التحول من أرض إلى أرض ، وقوله تعالى ﴿ وسعة ﴾ يعني الرزق . وقوله تعالى : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ أي من يخرج من منزله ناوياً الهجرة إلى الله ورسوله ، ثم مات . فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من الصحاح والمسانيد والسنن عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٢٦ [إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه] وهذا عام في الهجرة وفي جميع الأعمال ومنه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ثم أكمل بذلك العابد المئة ... الذي قبض في طريق هجرته فقبضته ملائكة الرحمة .[1] وفي رواية أنه لما جاءه الموت ناءَ بصدره إلى الأرض التي هاجر إليها .

(١) راجع الحديث رقم (٨٠٤) .

روى الامام أحمد عن عبدالله بن عتيك ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٨٢٧ [من خرج من بيته مجاهداً في سبيل الله ثم قال وأين المجاهدون في سبيل الله فخرّ عن دابته فمات ، فقد وقع أجره على الله ، أو لدغته دابة فمات ، فقد وقع أجره على الله أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله] .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، قال : ٨٢٨ [خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ فنزلت : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ﴾) الآية ...

روى الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٢٩ [من خرج حاجاً فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ، ومن خرج معتمراً فمات ، كتب لهأجر المعتمر الى يوم القيامة ؛ ومن خرج غازياً في سبيل الله فمات ، كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة] وهذا حديث غريب من هذا الوجه .

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ ٱلْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً ﴾ (١٠١)

يقول تعالى : ﴿ وإذا ضربتم في الأرض ﴾ أي سافرتم كما قال تعالى : ﴿ علم أنْ سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ أي تخففوا فيها إمّا من كمّيتها بأن تجعل الرباعية ثنائية كما فهمه الجمهور من هذه الآية . واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك : فمن اشترط أن يكون السفر في طاعة [١] ، ومنهم مَنْ لم يشترط ذلك ... على أن يكون السفر مباحاً يعني في الأمور المباحة فخرج من ذلك السفر في المعصية وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة . ومن قال : يكفي مطلق السفر حتى ولو كان في معصية. وهذا قول أبو حنيفة والثوري وداود لعموم الآية وخالفهم الجمهور [٢] . وأما قوله تعالى : ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية ... فإن في ابتداء الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة،

(١) كما هو مروي عن ابن عمر ، وعطاء ، ويحيى عن مالك في رواية عنه نحوه .
(٢) ما دامت الآية عامة فعلى المخالفين الدليل .

بل ما كانوا ينهضون إلاّ إلى غزو عام أو في سرية خاصة ، وسائر الأحيان حرب للاسلام وأهله. والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له(١) كقوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ﴾(٢) . روى الامام أحمد عن يعلى بن أميه قال : سألت عمر بن الخطاب قلت له : قوله ـ تعالى ـ ٨٣٠ [﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ وقد أمن الناس ؟ فقال لي عمر رضي الله عنه : عجبتُ مما عجبتَ منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقال : صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته »] وهكذا رواه مسلم وأهل السنن وقال الترمذي حديث حسن صحيح . وقال علي بن المديني : هذا حديث حسن صحيح من حديث عمر ولا يحفظ إلا من هذا الوجه ورجاله معروفون .

روى ابو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس ، قال : ٨٣١ [صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة ، ونحن آمنون لا نخاف بينهما ركعتين ركعتين] وهكذا رواه النسائي والترمذي وروى البخاري عن يحيى بن أسحق عن أنس قال : ٨٣٢ [خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة قلت : أقمتم بمكة شيئاً ؟ قال : أقمنا بها عشراً] وهكذا أخرجه بقية الجماعة عن يحيى بن اسحق الحضرمي به .

روى البخاري عن حارثة بن وهب قال: ٨٣٣[صلى بنا رسول الله ﷺ آمن ما كان بمنى ركعتين] روى البخاري عن عبدالله بن عمر قال : ٨٣٤ [صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين وأبي بكر وعمر وعثمان صدراً من إمارته ثم أتمها] وكذا رواه مسلم (٣)

فهذه الأحاديث دالة صريحاً على أن القصر ليس من شروطه الخوف . ولهذا قال من قال من العلماء ان المراد من القصر ههنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية . (٤) وهو قول مجاهد والضحاك والسدي واعتضدوا أيضاً بما رواه الامام مالك عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ٨٣٥ [فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر ، فأقرت صلاة السفر ، وزيد في صلاة الحضر] (٥) وقد روى هذا الحديث البخاري ومسلم وأبو داود

---

(١) وهذه قاعدة أصولية .
(٢) أي لا يفهم من ذلك أنه اذا لم يردن تحصناً يكرهن على البغاء ! !
(٣) قلت : اعتذر لعثمان رضي الله عنه بأنه تزوج في منى، فاعتبر نفسه مقيماً، فأتم .
(٤) لأن الكمية في الأساس ركعتان كما في حديث عائشة : (فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر ... فأقرت صلاة السفر وزيدت في صلاة الحضر) .
(٥) وهذا يدل على ان الركعتين في السفر عزيمة لا رخصة . وقد قال بعض أهل العلم أنها سنة مؤكدة

والنسائي أربعتهم عن مالك به . قالوا : فإذا كان أصل الصلاة في السفر هي الثنتين ، فكيف يكون المراد بالقصر ههنا قصر الكمية ؟ لأن ما هو الأصل لا يقال فيه : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ وأصرح من ذلك دلالة على هذا ... ما رواه الامام أحمد عن عمر رضي الله عنه ، قال : ٨٣٦ [صلاة السفر ركعتان ، وصلاة الأضحى ركعتان ، وصلاة الفطر ركعتان وصلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر ، على لسان محمد ﷺ .] وهكذا رواه النسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من طرق عن زبيد اليامي به وهذا إسناد على شرط مسلم . اعترض يحي بن معين على صحة هذه الحديث لأنه يقول : آن عبد الرحمن بن أبي ليلى الذي روى الحديث المتقدم عن عمر لم يسمع من عمر ولكن ثبت في مقدمة مسلم في صحيحه سماع ابن أبي ليلى عن عمر في الحديث المتقدم وفي غيره وهو الصواب إن شاء الله . لا سيما وقد روى هذا الحديث موصولاً إلى عمر هكذا : عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة عن عمر وقد روى مسلم في صحيحه وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي عوانه الوضاح عن عبدالله اليشكري ، زاد مسلم والنسائي وأيوب بن عائذ كلاهما عن بكير بن الاخنس عن مجاهد عن عبدالله بن عباس ، قال : ٨٣٧ [فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد ﷺ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة . فكما يصلي في الحضر قبلها وبعدها فكذلك يصلي في السفر] ولا ينافي ما تقدم عن عائشة رضي الله عنها إنما اتفق على أن صلاة السفر ركعتان وأنها تامة غير مقصورة كما هو مصرح به في حديث عمر رضي الله عنه [1] ، فإذا كان كذلك فيكون المراد بقوله تعالى : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ قصر الكيفية كما في صلاة الخوف ، ولهذا قال : ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ الآية ولهذا قال بعدها: ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ الآية فبين المقصود من القصر ها هنا ، وذكر صفته وكيفيته ، ولهذا لما عقد البخاري كتاب صلاة الخوف صدره بقوله: ﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ـ إلى قوله ـ ان الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ وهكذا قال جويبر عن الضحاك في قوله : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ قال : ذاك عند القتال يصلي الرجل الراكب تكبير تين حيث كان وجهه .

قال السدي : إن الصلاة إذا صليت ركعتين في السفر ، فهي تمام التقصير لا يحل إلاّ أن يخاف من الذين كفروا أن يفتنوه عن الصلاة فالتقصير ركعة . وقال مجاهد : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ يوم كان النبي ﷺ وأصحابه بعسفان ، والمشركون

(١) راجع الحديث رقم /٨٣٦/

بضجنان فتواقفوا ، فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات بركوعهم ، وسجودهم ، وقيامهم معاً جميعاً فهم بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم واثقالهم ؛ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير واختاره بعد ما حكى كثيراً من الأقوال وقال : وهو الصواب .

وروى ابن جرير عن سماك الحنفي قال : ٨٣٨ [سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال : ركعتان تمام غير قصر ، انما القصر في صلاة المخافة ، فقلت : وما صلاة المخافة ؟ فقال : يصلي الإمام بطائفة ركعة ، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء ، ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء فيصلي بهم ركعة فيكون للإمام ركعتان ولكل طائفة ركعة ركعة .] (*)

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۞ (١٠٢) ﴾

صلاة الخوف أنواع كثيرة ، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة ، وتارة يكون في غير صوبها ، والصلاة تارة تكون رباعية ، وتارة تكون ثلاثية كالمغرب ، وتارة تكون ثنائية كالصبح وصلاة السفر ، ثم تارة يصلون جماعة ، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ورجالاً وركباناً ، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة ومن العلماء من قال : يصلون والحالة

(*) هذا الحديث وان كان موقوفاً على ابن عمر إلا أن له حكم المرفوع إذ ليس له أن يقول فيه برأيه لا سيما وان الأحاديث الصحيحة تؤيد ما قاله ابن عمر .

هذه ركعة واحدة لحديث ابن عباس المتقدم [١] وبه قال أحمد ابن حنبل وجماعة من التابعين . وعن محمد بن نصر المروزي أنه يرى رد الصبح إلى ركعة واحدة في الخوف وإليه ذهب ابن حزم أيضاً . وقال ابن راهويه : أما عند المسايفة فتجزيك ركعة واحدة تومىء بها إيماءً . وقال آخرون : يكفي تكبيرة واحدة وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بخت المكي حتى قال: فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يتركها في نفسه يعني بالنية . رواه سعيد بن منصور في سننه فالله أعلم . ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال كما أخر النبي ﷺ يوم الأحزاب الظهر والعصر فصلاهما بعد الغروب ثم صلى بعدها المغرب ، ثم العشاء وأما الجمهور فقالوا : هذا منسوخ بصلاة الخوف فانها لم تكن نزلت بعد ؛ فلما نزلت ، نُسِخَ تأخير الصلاة لذلك ؛وهو الصواب

وقوله تعالى ﴿ واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ أي إذا صليت بهم إماماً في صلاة الخوف وهذه حالة غير الأولى ، فإن تلك قصرها إلى ركعة كما دل عليه الحديث [٢] فرادى ورجالاً وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها . ثم ذكر حال الاجتماع والائتمام بإمام واحد . وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب صلاة الجماعة من هذه الآية الكريمة حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة فلولا أنها واجبة ما ساغ ذلك .

أما سبب نزول هذه الآية قال ابن جرير عن علي رضي الله عنه قال : ٨٣٩ [سأل قوم من بني النجار رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله إنا نضرب في الأرض فكيف نصلي ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ ثم انقطع الوحي فلما كان بعد ذلك بحول ، غزا النبي ﷺ فصلى الظهر ؛ فقال المشركون لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم ، هلاّ شددتم عليهم ؟ فقال قائل منهم : إن لهم أخرى مثلها في أثرها ، قال : فأنزل الله تعالى بين الصلاتين : ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ فنزلت صلاة الخوف ،] وهذا سياق غريب جداً ولكن لبعضه شاهد من رواية أبي عياش الزرقي واسمه زيد بن الصامت رضي الله عنه عند الإمام أحمد وأهل السنن ، فقال الإمام أحمد عن أبن عياش الزرقي قال : ٨٤٠ [كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان ، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر ، فقالوا : لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ، ثم قالوا : يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب اليهم من أبنائهم وأنفسهم ، قال : فنزل جبريل

(١) راجع الحديث رقم ٨٣٧ . * : هذا من كلامي

(٢) حديث ابن عباس نفسه

بهذه الآيات بين الظهر والعصر : ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ قال : فحضرت فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح ، قال : فصفنا خلفه صفين ، قال : ثم ركع فركعنا جميعاً ثم رفع فرفعنا جميعاً ، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم ، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ، ثم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ، ثم ركع فركعوا جميعاً ، ثم رفع فرفعوا جميعاً ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا ثم سلم عليهم ، ثم انصرف قال فصلاها رسول الله ﷺ مرتين : مرة بعسفان ، ومرة بأرض بني سليم .] ورواه أحمد وأبو داود والنسائي وعبد العزيز بن عبد الصمد كلهم عن منصور به ، وهذا اسناد صحيح وله شواهد من البخاري ومسلم وابن أبي حاتم .

وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية وهو أحد قولي الشافعي ويدل عليه قول الله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم ﴾ أي بحيث تكونون على أهبة إذا احتجتم اليها لبستموها بلا كلفة ﴿ إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴾

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰباً مَّوْقُوتاً ۞ (١٠٣) وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَاءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ۞ (١٠٤) ﴾

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف وإن كان مشروعاً مرغباً فيه أيضاً بعد غيرها ، ولكن ها هنا أكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها ، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب ، وغير ذلك مما لا يوجد في غيرها ، كما قال تعالى في الأشهر الحرم ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ وان كان منهياً عنه في سائر الاشهر ولكن في الأشهر الحرم أكد لحرمتها وعظمها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً

وعلى جنوبكم ﴾ أي في سائر أحوالكم ثم قال تعالى : ﴿ فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ﴾ أي فإذا أمنتم وذهب الخوف فأتموا الصلاة وأقيموها بأركانها .

وقوله تعالى : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ أي مفروضاً ووقتها كوقت الحج [1] قاله ابن عباس وقيل منجماً كلما مضى نجم جاء نجم أي كلما مضى وقت جاء وقت .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تهنوا في ابتغاء القوم ﴾ أي لا تضعفوا في طلب عدوكم بل قاتلوهم وأرصدوهم ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ﴾ أي يصيبكم الجراح والقتل كذلك يحصل لهم ، كما قال تعالى : ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ ثم قال تعالى ﴿ وترجون من الله ما لا ترجون ﴾ أي ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد وهم لا يرجون شيئاً من ذلك فأنتم أولى منهم بالجهاد وأشد رغبة فيه لتعلوا كلمة الله ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ أي هو أعلم وأحكم فيما يقدّره ويقضيه ويمضيه، في احكامه الشرعية والكونية وهو المحمود على كل حال .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً ۞ (١٠٥) وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ۞ (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً ۞ (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً ۞ (١٠٨) هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ۞ (١٠٩) ﴾

(١) أي إذا خرج وقتها لم يعد الوقت الثاني وقتها إنما هو وقت الصلاة التي تليها لذا فليس لمخرج الصلاة عن وقتها صلاة يصليها في الوقت... الآخر إنما قد ارتكب إثماً عظيماً نرجو الله أن يغفره بالتوبة النصوح، والعزم على عدم العودة إلى إخراجها عن وقتها، وان القول بقضاء الفائتة سبب للناس إخراج الصلاة عن وقتها بل لتركها والعياذ بالله.

يقول تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ أي هو حق من الله وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه ؛ وقوله تعالى : ﴿ لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له ان يحكم بالاجتهاد بهذه الآية وبما ثبت في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال : ٨٤١ [ألا أنما أنا بشر وإنما أقضي بنحوٍ مما أسمع ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له. فمن قضيت له بحقّ مسلم، فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو ليذرها .] ورواه الامام أحمد قريباً منه وزاد ابو داود على رواية أحمد: ٨٤٢ [إنما أقضي بينكما برأي فيما لم ينزل عليّ فيه]

وقد روى ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس : ٨٤٣ [إن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته ، فسرقت درع لأحدهم ، فأظنّ بها رجل من الأنصار فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعي فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء وقال لنفر من عشيرته : إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده . فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلاً فقالوا : يا نبي الله أن صاحبنا بريء وإن صاحب الدرع فلان ، وقد أحطنا بذلك علماً ، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس ، وجادل عنه ، فانه إن لم يعصمه الله بك يهلك ، فقام رسول الله ﷺ ، فبرأه وعذره على رؤوس الناس (١) فأنزل الله تعالى : ﴿ إنا انزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً . واستغفر الله ان الله كان غفوراً رحيماً ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ الآية .]

ثم قال تعالى للذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ﴾ الآيتين ، يعني الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين : أي عن السارق والذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب ، ولا يستخفون من الله وهذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لئلاّ ينكروا عليهم ويجاهرون الله بها ، لأنه مطلع على سرائرهم ، ولهذا قال : ﴿ وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً ﴾ تهديد لهم ووعيد ثم قال تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا ﴾ الآية أي هب ان هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أبدي لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر وهم متعبدون بذلك فماذا يكون

(١) وهذا دليل على عدم معرفة الغيب من أحد ، حتى ولا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا ما أطلعه الله عليه. فلينتبه المبطلون . . .

صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ؟ ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ في ترويج دعواهم ؟ أي لا أحد يومئذ يكون لهم وكيلاً ولهذا قال : ﴿ أم من يكون عليهم وكيلاً ﴾ .

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً * (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً * (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً * (١١٣) ﴾

يخبر تعالى عن كرمه أن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان. فقال تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس انه قال في هذه الآية : اخبر الله عباده بعفوه وكرمه ومغفرته ، فمن اذنب ذنباً صغيراً أو كبيراً ﴿ ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال . رواه ابن جرير

وقال ابن مردويه عن كعب بن ذهل الأزدي ، قال سمعت أبا الدرداء يحدث قال : كان رسول الله ﷺ إذا جلسنا حوله وكانت له حاجة فقام إليها وأراد الرجوع ، ترك نعليه في مجلسه أو بعض ما عليه وانه قام فترك نعليه ، قال ابو الدرداء : فأخذ ركوة من ماء فاتبعته فمضى ساعةً ثم رجع ولم يقض حاجته ، فقال : ٨٤٤ [إنه أتاني آت من ربي فقال : انه : ﴿ من يعمل سوءً أو يظلم نفسه يُجزَ به ﴾ فقلت : يا رسول الله وإن زنى وإن سرق ، ثم استغفر ربه غفر له ؟ قال « نعم » ثم قلت الثانية ، قال « نعم » . قلت الثالثة قال : « نعم » وإن زنى وإن سرق ثم استغفر الله ، غفر الله له على رغم أنف أبي

الدرداء . قال فرأيت أبا الدرداء يضرب أنف نفسه بأصبعه] هذا حديث غريب جداً من هذا الوجه بهذا السياق وفي اسناده ضعف (١)

وقوله تعالى : ﴿ ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه ﴾ الآية كقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ الآية يعني أنه لا يغني أحد عن أحد وإنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ أي من علمه وحكمته ، وعدله ورحمته كان ذلك ، ثم قال : ﴿ ومن يكسب خطيئةً أو إثماً ثم يرم به بريئاً ﴾ الآية يعني كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح وهو لبيد بن سهل ، وقد كان بريئاً وهم الظلمة الخونة ، كما أطلع الله على ذلك رسولَه ﷺ ، ثم هذا التقريع عام فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بصفتهم فارتكب مثل خطيئتهم فعليه مثل عقوبتهم .

وقوله تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمّت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلاّ أنفسهم وما يضرّونك من شيء ﴾ قال الإمام ابن أبي حاتم عن قتادة الأنصاري ... وذكر قصة بني أبيرق فأنزل الله تعالى : ﴿ لهمّت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء ﴾ يعني أسيد بن عروة وأصحابه ، يعني بذلك لما أثنوا على بني أبيرق ولاموا قتادة بن النعمان في كونه اتهمهم وهم صلحاء برآء ، ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله ﷺ ، ولهذا انزل الله فصل القضية وجلاءها لرسول الله ﷺ ثم امتنّ عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال ، وعصمته له ، وما أنزل عليه من الكتاب وهو القرآن ، والحكمة وهي السنّة ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ أي قبل نزول ذلك عليك كقوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمةً من ربك ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾

نصف الحزب

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) ﴾

(١) ولكنّ له شاهداً من الصحيح سبق ذكره عن أبي ذر

يقول تعالى : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم ﴾ يعني كلام الناس ﴿ إلاّ من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ أي إلاّ نجوى من قال ذلك ، كما جاء في الحديث الذي رواه ابن مردويه عن أم حبيبة قالت : قال رسول الله ﷺ ٨٤٥ [كلام ابن آدم كله عليه لاله ، إلاّ ذكر الله عز وجل ؛ أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر »]

روى الامام أحمد عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول :٨٤٦ [« ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً ؛ أو يقول خيراً » وقالت : « لم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلاّ في ثلاث : « في الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها »] وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ . وقد رواه الجماعة سوى ابن ماجه .

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ ٨٤٧ [« ألاأخبركم بأفضل من درجة الصيام ، والصلاة ، والصدقة » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : «إصلاح ذات البين » قال « وفساد ذات البين هي الحالقة »] ورواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح .

وقال تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله ﴾ أي مخلصاً محتسباً ﴿ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ أي ثواباً جزيلاً واسعاً .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ﴾ أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شق ، والشرع في شق ، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح . وقوله تعالى : ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ هذا ملازم للصفة الاولى ، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون المخالفة لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً ، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفاً لهم ، وتعظيماً لنبيهم ؛ وقد وردت احاديث كثيرة صحيحة في ذلك . ومن العلماء من ادعى تواتر معناها . والذي عول عليه الشافعي رحمه الله تعالى في الاحتجاج على كون الإجماع حجة ، تحرّم مخالفته هذه الآية الكريمة بعدالتروّي والتفكير وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها ، ومنهم من استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك . ولهذا توعد تعالى على ذلك بقوله تعالى : ﴿ نولّه ما تولّى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ أي إذا سلك طريق غير المؤمنين جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ، ونزينها

استدراجاً له كما قال تعالى : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ وجعل النار مصيره في الآخرة وما بعد الحق الا الضلال .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيداً ❁ (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً ❁ (١١٧) لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ❁ (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ ٱلْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً ❁ (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً ❁ (١٢٠) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً ❁ (١٢١) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ❁ (١٢٢) ﴾

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى : ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السوره[1] وقوله تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ أي فقد سلك غير الطريق الحق وضل عن الهدى وبعد عن الصواب ، وأهلك نفسه وخسرها في الدنيا والآخرة وفاتته سعادتهما .

وقوله تعالى : ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثاً ﴾ وقال ابن جرير عن الضحاك في الآية قال المشركون للملائكة ، بنات الله ؛ وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، قال : فاتخذوهن أرباباً وصوروهن جواري فحكموا وقلدوا وقالوا : هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبده ، يعنون الملائكة ، وهذا التفسير شبيه بقوله تعالى : ﴿ افرأيتم اللات والعزى ﴾

(١) عند الآية رقم /٤٨/ من هذه السورة والأحاديث رقم /٧٥١/ و /٧٥٢/ و /٧٥٣/ و /٧٥٤/

الآيات ... وقوله تعالى : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ . وقوله تعالى: ﴿ وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً ﴾ أي هو الذي أمرهم بذلك وحسنه وزينه لهم ، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألاّ تعبدوا الشيطان ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ لعنه الله ﴾ أي طرده من رحمته ؛ وقال تعالى حكايةً عنه : ﴿ لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ﴾ أي معيّناً مقدراً معلوماً ﴿ ولأضلّنهمّ ﴾ أي عن الحق ﴿ ولأمنيّنهم ﴾ أي أزين لهم ترك التوبة ، وأعدهم الأماني ، وآمرهم بالتسويف وأغرهم من أنفسهم ؛ وقوله تعالى : ﴿ ولآمرنّهم فليبتكنّ آذان الأنعام ﴾ يعني تشقيقها وجعلها سمةً ، وعلامةً للبحيرة ، والسائبة ، والوصيلة .[1] ﴿ ولآمرنهم فليغيرنّ خلق الله ﴾ كخصي الدواب والوشم وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : ٨٤٨ [لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والنامصات والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل ثم قال ألا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ وهو في كتاب الله عز وجل : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وعن ابن عباس وجماعة من التابعين في قوله تعالى : ﴿ ولآمرنهم فليغيرنّ خلق الله ﴾ أي دين الله عز وجل ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ أي لا تبدلوا فطرة الله ودعوا الناس على فطرتهم كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله (ص : ٨٤٩ (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تجدون بها من جدعاء ثم قال تعالى : ﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴾ أي فقد خسر الدنيا والآخرة ، وقوله تعالى : ﴿ يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان ... ﴾

وقوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ أي المستحسنون له فيما وعدهم ومنّاهم ﴿ مأواهم جهنم ﴾ أي مآلهم يوم القيامة ﴿ ولا يجدون عنها محيصاً ﴾ أي مخلص منها ثم ذكر تعالى حال السعداء والأتقياء فقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه ﴿ سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار

(١) البحيرة : هي التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس . والسائبة : كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء . والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بل تثنى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت احداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر (ابن كثير) من سورة المائدة الآية (١٠٣) .

خالدين فيها أبداً ﴾ أي بلا زوال ولا انتقال ﴿ وعد الله حقاً ﴾ أي واقع لا محالة ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ أي لا أحد أصدق منه قولاً أي خبراً لا إله الا هو ولا رب سواه وكان رسول الله ﷺ يقول : ٨٥٠ [إن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .]

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٢٦) ﴾

قال قتادة : ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم . وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس **بأمانيكم** ولا أمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوءً يجزَ به ﴾ والمعنى أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه ، ولا كل من قال أنه على الحق سمع قوله بمجرد ذلك ، حتى يكون له من الله برهان والعبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام ولهذا قال : ﴿ **من يعمل سوءً يجزَ به** ﴾ وقد روي أن هذه الآية شقّت على كثير من الصحابة

• روى الإمام أحمد عن أبي بكر الصديق انه قال : ٨٥١ [يا رسول الله **كيف الفلاح** بعد هذه الآية ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءً يجز به ﴾ **فكل سوء** عملناه جزينا به ؟ فقال رسول الله ﷺ « **غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض ، ألست**

تنصب ، ألست تحزن ، ألست تصيبك اللأواء ؟ » قال : بلى قال : « فهو مما تجزون به »]
ورواه سعيد بن منصور به ورواه ابن حبان به .

• روى ابن جرير عن عطاء بن أبي رباح قال : ٨٥٢ [لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر : جاءت قاصمة الظهر ، فقال رسول الله ﷺ « إنما هي المصيبات في الدنيا »]

روى سعيد بن منصور عن أبي هريرة قال : ٨٥٣ [لما نزلت : ﴿ من يعمل سوءً يجزَ به ﴾ شق ذلك على المسلمين ، فقال لهم رسول الله ﷺ « سدّدوا وقاربوا فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها »] وهكذا رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وقوله تعالى : ﴿ ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ إلاّ أن يتوب فيتوب الله عليه رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكرأوأنثى وهو مؤمن (١) ﴾ الآية ، لما ذكر الجزاء على السيئات وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا أو الآخرة ،والصفح والعفو والمساحة ، شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ، ذُكرانهم وإناثهم بشرط الإيمان وانه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير وهو النقرة التي في ظهر نواه التمرة ، وقد تقدم الكلام على الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة ، وهذا النقير وهما في نواة التمرة ، والقطمير ،وهو اللفافة التي على نواة التمرة والثلاثة في القرآن . ثم قال تعالى : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ﴾ أي أخلص العمل لربه عز وجل فعمل إيماناً واحتساباً ، ﴿ وهو محسن ﴾ أي اتبع في عمله ما شرعه الله له ، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق . وهذان الشرطان لا يصح عمل بدونهما . والصواب دائماً يكون متابعاً للشريعة فمن تابع الشريعة وصح ظاهره بذلك وكان باطنه مخلصاً وصحيحاً كظاهره كان عمله مقبولاً ، ولكن إذا فقد الأخلاص كان منافقاً ، وإذا فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً ومتى جمعهما كان عمله عمل المؤمنين الذي يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيآتهم ، الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ واتبع ملة ابراهيم حنيفاً ﴾ وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم لَلَّذين اتبعوه وهذا النبي ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين والحنيف هو المائل عن الشرك قصداً أي تاركاً له عن بصيرة ، ومقبل على الحق بكليته لا يصده عنه صاد .

---

(١) قلت : وهكذا فإن الإيمان أساس كل عمل وبدونه لا يقبل أي عمل صالح ولو كان زنة السموات والأرض قال الله تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » .

وقوله تعالى: ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه، لأنه إمام يقتدى به حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به في قوله تعالى: ﴿ وابراهيم الذي وفّى ﴾ قال كثير من علماء السلف: أي قام بجميع ما أمر به، وفي كل مقام من مقامات العبادة فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، ولا كبير عن صغير وقال تعالى: ﴿ إن ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾ الآية والآية بعدها. وقال البخاري عن عمرو بن ميمون قال: إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ: ﴿ واتخذ الله ابراهيم خليلاً ﴾ فقال رجل من القوم: لقد قرت عين أم ابراهيم. وقد ثبت في الصحيحين من رواية أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها، قال: ٨٥٤ [أما بعد، أيها الناس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً ولكن صاحبكم خليلُ الله] وجـاء من طريق جندب ابن عبدالله بسنده إلى عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: ٨٥٥ [إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلاً]. وقوله تعالى: ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي الجميع ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع ذلك [1] لاراد لما قضى، ولا معقب لما حكم ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته. وقوله تعالى: ﴿ وكان الله بكل شيء محيطاً ﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لاتخفى عليه خافية من عباده ولا يعزب عن علمه مثقـال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. (وهو عليّ على خلقه، بائن عنهم ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾)

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَاءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ فِي يَتَامَى ٱلنِّسَاءِ ٱللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً ﴾ (١٢٧)

(١) قلت: ولكن رغم كل ما في القرآن الكريم من التصريح بأن لله ملك السموات والأرض، تسمع من حلقات الذكر البدعية اليوم، أصواتاً منكوة تقول: (عبد القادر الجيلاني المتصرف بالأكوان) ونسوا ان المتصرف في الأكوان (هو القادر) جل وعلا لا (عبد القادر) اللهم نعوذ بك من الكفر ومن سوء المنقلب.

قال البخاري عن عائشة رضي الله عنها في هذه الآية : ﴿ ويستفتونك في النساء... ﴾ قالت : هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها ، فأشركته في ماله حتى في العذق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوجها رجلاً فيشركه في ماله بما شركته ، فيعضلها. فنزلت هذه الآية وكذلك رواه مسلم . والمقصود : ان الرجل اذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها ، فتارة يرغب في أن يتزوجها ، فأمره الله تعالى أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء ، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسّع الله عز وجل. وهذا المعنى في الآيات الأولى التي في أول السورة .[1] وتارة لا يكون له رغبة لدمامتها عنده أو في نفس الأمر ، فنهاه الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية وهي قوله تعالى : ﴿ في يتامى النساء ﴾ كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً ، فإن كانت جميلة وهويها ، تزوجها وأكل مالها ، وان كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت فإذا ماتت ورثها فحرم الله ذلك ونهى عنه . وقال في قوله تعالى : ﴿ والمستضعفين من الولدان ﴾ كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات وذلك قوله تعالى : ﴿ لا تؤتونهن ما كتب لهن ﴾ فنهى الله عن ذلك وبيّن لكل سهم سهمه فقال تعالى : ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ صغيراً أو كبيراً قال سعيد بن جبير في قوله تعالى ﴿ وأن تقوموا لليتامى بالقسط ﴾ إن كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها ، كذلك إذا لم تكن ذات جمال فأنكحها واستأثر بها . وقوله تعالى : ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً ﴾ تهييجاً على فعل الخيرات وامتثالاً للأوامر ، وأنه تعالى عالم بجميع ذلك ، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه .

۞ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ۝ (١٢٨) وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ

(١) راجع الآية ٢ و ٣ من سورة النساء

فَلا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ❁ (١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِن سَعَتِهِ وَكَانَ ٱللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً ❁ (١٣٠)

يخبر تعالى مشرِّعاً من حال الزوجين: تارة في حال نفور الرجل عن المرأة، وتارة في حال اتفاقه معها، وتارة في حال فراقه لها. فالحالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر أو يعرض عنها، فلها أن تسقط عنه حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه وله ان يقبل ذلك منها فلا حرج عليها في بذلها ذلك له، ولا عليه في قبوله منها. ولهذا قال تعالى: ﴿ فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ والصلح خير ﴾ أي من الفراق. ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعة عزم رسول الله ﷺ على فراقها فصالحته على أن يمسكها وتترك يومها لعائشة، فقبل ذلك منها وأبقاها على ذلك[1].

روى ابو داود الطيالسي عن ابن عباس قال: ٨٥٦ [خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، لا تطلقني وأجعلُ يومي لعائشة ففعل ونزلت هذه الآية: ﴿ وإن امرأة خافت... ﴾ قال ابن عباس: فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز] ورواه الترمذي وقال حسن غريب وفي الصحيحين عن عائشة قالت: ٨٥٧ [لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة فكان النبي ﷺ يقسم لها بيوم سودة] وفي صحيح البخاري عن عائشة نحوه.

روى البخاري عن عائشة: الرجل تكون عنده المرأة المسنة ليس بمستكثر منها يريد ان يفارقها فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية: ﴿ وإن امرأة خافت... ﴾ وقوله تعالى: ﴿ والصلح خير ﴾ أي صلحها على ترك بعض حقّها للزوج وقبول الزوج ذلك خير من المفارقة بالكلية كما أمسك النبي ﷺ سوده بنت زمعة وقد فعل ﷺ ذلك لتتأسَّى به أمته في مشروعية ذلك وجوازه فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام. ولما كان الوفاق أحبَّ إلى الله من الفراق قال تعالى: ﴿ والصلح خير ﴾ بل الطلاق بغيض إليه سبحانه وتعالى. وقوله تعالى: ﴿ وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ وان تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن وتقسموا لهن كأمثالهن فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم أوفر الجزاء. وقوله تعالى: ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ أي لن تستطيعوا أيها الناس المساواة بين النساء من جميع الوجوه فإنه وإن وقع

---

(١) وقصده صلى الله عليه وسلم تعليم أمته وإلا فهو الرؤوف الرحيم بسائر أمته فكيف بزوجه نداه أبي وأمي وقصده من إمساكها، بقاء الزوجية بينهما لتضمن لنفسها الجنة، لأن نساءه يحشرن معه

القسم الصوري ليلةً ليلةً فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع . قاله ابن عباس وجماعة من التابعين وقال ابن أبي حاتم عن ابن أبي مليكة قال : نزلت هذه الآية : ﴿ ولن تستطيعوا ... ﴾ في عائشة ، يعني أن النبي ﷺ كان يحبها أكثر من غيرها ؛ كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن عائشة قالت : ٨٥٨ [كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » يعني القلب]

وقوله تعالى : ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ أي لا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿ فتذروها كالمعلقة ﴾ لا ذات زوج ولا مطلقة . روى أبو داود الطيالسي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٨٥٩ [من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما[1] ، جاء يوم القيامة وأحد شقّيه ساقط] وهكذا رواه الإمام أحمد وأهل السنن. وقوله تعالى : ﴿ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ أي إن أصلحتم في أموركم وقسمتم بالعدل فيما تملكون واتقيتم الله في جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض ثم قال تعالى : ﴿ وإن يتفرقا يغنِ الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً ﴾ وهذه الحالة الثالثة وهي حالة الفراق وقد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها ويغنيها عنه ويعوض لكل خيراً ﴿ وكان الله واسعاً حكيماً ﴾ أي واسع الفضل ، عظيم المنّ ، حكيماً في جميع أفعاله وأقداره وشرعه .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً ۞ (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۞ (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيراً ۞ (١٣٣) مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً ۞ (١٣٤) ﴾

(١) ليس الميل هنا ، الميل القلبي ... فهذا بيد الله تعالى ، ولا يستطيع أحد أن يبدي فيه ولا يعيد ، إنما الميل المنهي عنه في هذا الحديث : هو الميل في المعاملة ؛ كأن ينام هنا ليلة ، وينام هناك أكثر ، أو يشتري لهذه أشياء من مأكل وكساء دون الأخرى ، فلا يعدل في المعاملة ... فهذا الذي يأتي يوم القيامة ، وشقّه ساقط. والله أعلم.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض والحاكم فيهما ولهذا قال : ﴿ ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم ﴾ أي وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله عز وجل بعبادته وحده لا شريك له ، ثم قال: ﴿ وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ الآية.كقوله تعالى : ﴿ فكفروا وتولوّا واستغنى الله والله غني حميد ﴾ أي غني عن عباده ﴿ حميد ﴾ أي محمود في جميع ما يقدّره ويشرّعه ؛ وقوله تعالى : ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ أي هو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب الشهيد على كل شيء . وقوله تعالى: ﴿ إن يشأ يذهبْكم أيها الناس ويأتِ بآخرين وكان الله على ذلك قديراً ﴾ أي هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ قال بعض السلف : ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره.وقال تعالى:﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾ أي : يا من ليس له هم إلاّ الدنيا ، إعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة وإذا سألته مِنْ هذه وهذه أعطاك وأغناك كما قال تعالى : ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ الآية فلا يقتصرنّ قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط ، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة ، فإن مرجع ذلك كله، إلى الذي بيده الضر والنفع ، وهو الله سبحانه لا إله إلا هو الذي قسم السعادة والشقاوة بين الناس في الدنيا والآخرة وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا وممن يستحق هذا . ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان الله سميعاً بصيراً ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ (١٣٥)

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوّامين بالقسط أي بالعدل ، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالا ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، وأن تناصروا فيه . وقوله تعالى : ﴿ شهداء لله ﴾ أي أدّوا شهادتكم لله وابتغاء وجهه تعالى ، فحينئذ تكون صحيحة غير محرّفة . ولهذا قال تعالى : ﴿ ولو على أنفسكم ﴾ أي أشهد الحق ولو عادت مضرته عليك ، فإن الله سيجعل لمن اطاعه فرجاً من كل ضيق . وقوله تعالى : ﴿ أو الوالدين والأقربين ﴾ أي وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم واشهد الحق وإن تضرروا ، فإن الحق حاكم على كل أحد .

وقوله تعالى : ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ﴾ أي لا ترعاه لغناه ، ولا تشفق عليه لفقره فالله أولى بهما منك . وقوله تعالى : ﴿ فلا تتَّبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ أي فلا يحملنكم الهوّى والعصبيةُ والبغضُ على ترك العدل في أموركم بل الزموا العدل كما قال تعالى ﴿ ولا يجرمنَّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإن تلووا أو تعرضوا ﴾ أي تحرفوا الشهادة وتغيروها . والَّليُّ هو التحريف وتعمُّد الكذب . كما قال تعالى : ﴿ وإن منهم لفريقاً يلْوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها . كما قال تعالى : ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ ، وقال النبي ﷺ ٨٦٠ [خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يُسألها) وقولــه تعالى : ﴿ فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ أي سيجازيكم على كتمانها .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۞ (١٣٦) ﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتثبيته، والاستمرار عليه كما يقول المؤمن في صلاته : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ أي بصّرنا فيه وزِدْنا هدى وثبتنا عليه فأمرهم بالإيمان به وبرسوله . وقوله تعالى : ﴿ والكتاب الذي نَزّل على رسوله ﴾ يعني القرآن ﴿ والكتاب الذي أُنْزِل من قبلُ ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة .

وقال في القرآن نزّل لأنه نزل مفرقاً منجماً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم ، وأما الكتب المتقدمة ، فكانت تنزل جملة واحدة لهذا قال تعالى : ﴿ والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ ثم قال تعال : ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ أي فقد خرج عن طريق الهدى ، وبعد عن القصد كل البعد .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿(١٣٧)﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴿(١٣٨)﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ﴿(١٣٩)﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ﴿(١٤٠)﴾

يخبر تعالى عمن دخل في الايمان ثم تردّد بين الإيمان والكفر ثم ازداد كفراً حتى مات . فإنه لا يغفر الله له لأنه لم يمت إلا وقد زاد كفراً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾ وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ثم ازدادوا كفراً ﴾ قال : تمادوا على كفرهم حتى ماتوا ، وعن علي رضي الله عنه أنه قال:يستتاب المرتد ثلاثاً ثم تلا هذه الآية : ﴿ ان الذين آمنوا ثم كفروا ـ إلى قوله ـ سبيلاً ﴾ ثم قال : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما ﴾ يعني إن المنافقين من هذه الصفة ، فانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ، لأنهم أظهروا أنهم مع المؤمنين ثم قالوا للكفار إنما نحن معكم إنما نحن مستهزئون ، أي بالمؤمنين ، في إظهارنا لهم الموافقة فأنكر الله عليهم بقوله تعالى : ﴿ أيبتغون عندهم العزة ﴾ ثم أخبر تعالى بأن العزة كلها له وحده لاشريك له ولمن جعلها له كما قال تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله

وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ والمقصود طلب العزة من الله والإقبال على عبوديته ، والأنتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا والآخرة .. ويناسب هذا ما رواه الإمام أحمد عن أبي ريحانة أن النبي ﷺ قال : ٨٦١ [من انتسب إلى تسعة أباء كفار يريد بهم عزاً وفخراً ، فهو عاشرهم في النار] تفرد به أحمد .

وقوله تعالى : ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم ﴾ أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم وأقررتموهم (١) على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه فلهذا قال تعالى : ﴿ إنكم إذاً مثلهم ﴾ في المأثم كما في الحديث : ٨٦٢ [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر] وقوله تعالى : ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً ﴾ أي كما أشركوهم في الكفر كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم .

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ۝ (١٤١) ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين: ينتظرون زوال دولتكم وظهور الكفار عليكم وذهاب دينكم ﴿ فان كان لكم فتح من الله ﴾ أي نصر وغنيمة ﴿ قالوا ألم نكن معكم ﴾ أيّ يتودّدون للمؤمنين بهذه المقالة ﴿ وإن كان للكافرين نصيب ﴾ أي انتصر الكافرون كما وقع يوم أحد فإن الرسل تُبتلى ثم تكون العاقبة لهم ﴿ قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾ أي ساعدناكم باطناً فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم وماذاك إلا لضعف ايمانهم. قال تعالى : ﴿ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ﴾ أي

(١) قوله : (وأقررتموهم) الإقرار على الكفر كفر، إن جلس مع المستهزئين أو لم يجلس. وما أظن أن في الآية معنى الإقرار إنما فيها مجرد الاستمرار في الجلوس مع المستهزئين مع استطاعة القيام وهجر المجلس نعم ان مجرد الأستمرار في الجلوس حكمه أنه مثلهم تغليظاً له لرضائه عن البقاء في مجلس يستهزأ فيه بآيات الله .

أيها المنافقون يعلم الله بواطنكم ، فلا تغترّوا بما له تعالى من الحكمة في جريان حكم الشريعة عليكم ظاهراً،فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم . وقوله تعالى : ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ قال ابن عباس : ذاك يوم القيامة أي فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً كما قال رضي الله عنه ويحتمل أن يكون المعنى : أي لن يجعل للكافرين في الدنيا سبيلاً على المؤمنين بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان ، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة [1] وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على منع بيع العبد المسلم للكافرين ، لما في صحة ابتياعه من التسليط لهم عليه والإ ذلال ، وفي هذا يكون للكافر على العبد المسلم سبيل ، ويكون هذا العمل مخالفاً للآية المتقدمة ولذلك حرم بيع العبد المسلم للكافر .

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ (١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۞ (١٤٣) ﴾

قد تقدم في أول سورة البقرة قولُه تعالى : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ [2] وقال ههنا : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ ولا شك أن الله لا يخادع فإنه العالم بالسرائر ولكن المنافقين لقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً ، فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة ، وأن أمرهم يروج عنده.كما قال تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ﴾ الآية ؛ وقوله تعالى : ﴿ وهو خادعهم ﴾ أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ، ويخذلهم عن الوصول إلى الحق في الدنيا وكذلك يوم القيامة وقد ورد في الحديث : ٨٦٣

(١) قلت : إن الله تعالى لن يجعل للكافرين حجة ولا نصراً عليهم.أي على المؤمنين ما داموا مؤمنين حقاً وإن الله ليضيع من دولة المسلمين بقدر ما يضيع أهلها من دينهم فإن حكموا بما أنزل الله في جميع شئونهم العامة والخاصة كان الله معهم وقواهم على أعدائهم وإلا فحالتنا اليوم تدل على أن الله تعالى نصر علينا اليهود، لأننا حاربناه في جميع أحكامه،فسلط علينا أحقر عباده وقهرنا بهم لنتعظ ونعتبر ونعود إلى ديننا القويم

(٢) قلت : راجع سورة البقرة الآية رقم /٩/

[إن الله يأمر بالعبد إلى الجنةفيما يبدو للناس ويعدل به إلى النار] وقوله تعالى : ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالىٰ ﴾ الآية . هذه صفات المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها ، وهي الصلاة إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها لأنه لانيّةً لهم فيها ولا إيمان ولا خشية ، ولا يعقلون معناها،وهذه صفة ظواهرهم.ثم ذكر صفة بواطنهم الفاسدة،فقال تعالى : ﴿ يراؤون الناس ﴾ أي لا إخلاص لهم ، إنما يصلون أمام الناس تقيّة لهم ومصانعةً ولهذا يتخلّفون كثيراً عن الصلاة التي لا يُرَوْنَ فيها كصلاتَيْ العشاء والصبح .كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٨٦٤ [أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر . ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً ، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس ، ثم انطلق معي برجالٍ ومعهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأُحَرِّق عليهم بيوتهم بالنار] وفي رواية : ٨٦٥ [والذي نفسي بيده لو علم أحدهم أنه يجد عرقاً سميناً أو مرماتين حسنتين ، لشهد الصلاة ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يذكرون الله إلاَّ قليلاً ﴾ أُي في صلاتهم لا يخشون ولا يعقلون، بل هم ساهون لاهون معرضون . وقد روى مالك عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٦٦ [تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ،يجلس يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرني الشيطان ، قام فنقر اربعاً لا يذكر الله فيها الا قليلا،] وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث اسماعيل بن جعفر وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ أي لا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً،ولا مع الكافرين.كذلك إنمّا ظواهرهم مع المؤمنين ، وبواطنهم مع الكافرين . ومنهم الحيرَى بين الإيمان والكفر فتارة يميل إلى هؤلاء وطوراً يميل إلى أولئك. روى ابن جرير عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : ٨٦٧ [مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة ، لا تدري أيّهما تتبع] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً ﴾ أي ومن صرفه عن طريق الهدى ﴿ فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ والمنافقون الذين ضلوا عن سبيل النجاة فلا هادي لهم ، ولا منقذ لهم مماهم فيه ،فإنه تعالى لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ۞ (١٤٤) إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۞(١٤٥) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَٱعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۞ (١٤٦) مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ۞ (١٤٧) ﴾

ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وذلك بمصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم، وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين إليهم. كما قال تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاةً ويحذّركمُ الله نفسَه ﴾ أي يحذركم الله عقوبته في ارتكابكم نهيه . ولهذا قال هنا ﴿ أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ أي حجة عليكم في عقوبته إياكم ، وعن ابن عباس : [كل سلطان في القرآن حجة] وهذا إسناد صحيح . وكذا قال جماعة من التابعين . ثم أخبر تعالى : ﴿ إن المنافقين في الدرْك الأسفل من النار ﴾ أي يوم القيامة جزاءً على كفرهم الغليظ . وعن ابن عباس : أي في أسفل النار، وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود انه سئل عن المنافقين فقال : يُجعلون في توابيت من نار تطبق عليهم في أسفل درك من النار . ﴿ ولن تجد لهم نصيراً ﴾ أي ينقذهم من أليم العذاب. ثم أخبر تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ﴾ أي بدّلوا الرياء بالإخلاص فينفعهم العمل الصالح وإن قل . روى ابن أبي حاتم عن معاذ ابن جبل أن رسول الله ﷺ قال : ٨٦٨ [أخلص دينك يكفك القليل من العمل] ﴿ فأولئك مع المؤمنين ﴾ أي في زمرتهم ﴿ وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾ ثم قال تعالى بقوله : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ أي إنْ أصلحتم العمل ، وآمنتم بالله ورسوله ، فهو غني عما سواه ، وإنه إنما يعذب العباد بذنوبهم . ﴿ وكان الله شاكراً عليماً ﴾ أي يشكر له عمله ، ويعلم ما في قلبه ويجازيه على ذلك أوفر الجزاء .



﴿ لَا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ۝ (١٤٨) إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ۝ (١٤٩) ﴾

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية يقول : لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلاّ أن يكون مظلوماً فإنه قد أرخص له يدعو على من ظلمه وذلك قوله تعالى : ﴿ إلاّ من ظُلم ﴾ وإن صبر فهو خير له. روى أبو داود عن عائشة قال سُرِق لها شيء، فجعلت تدعو عليه ، فقال النبي ﷺ : ٨٦٩ [لا تسبخي عنه] (١) .

وقال الحسن البصري : لا يدعُ عليه وليقل : اللهم أعنّي عليه ، واستخرج حقي منه.

وقيل في هذه الآية : هو الرجل يشتمك فتشتمه، ولكن إن افترى عليك فلا تفترِ عليه وعن مجاهد قال : ضاف رجل رجلاً فلم يؤدّ إليه حق ضيافته ، فلما خرج أخبر الناس فقال : ضفت فلاناً فلم يؤدّ إليَّ حق ضيافتي .قال فذلك الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم حتى يؤدي الآخر إليه حق ضيافته .

روى الامام أحمد عن المقدام بن أبي كريمة ، عن النبي ﷺ أنه قال : ٨٧٠ [أيّما مسلم ضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً ، فإن حقاً على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقرى ليلته مِن زرعه وماله] ومن هذا الحديث وأمثاله ذهب أحمد وغيره إلى وجوب الضيافة .

وقد روى الحافظ البزار عن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : ٨٧١ [إن لي جاراً يؤذيني فقال له « أخرج متاعك فضعه على الطريق » فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق؛ فكل من مر به قال له ما لك؟ قال : جاري يؤذيني ، فيقول : اللهم العنه اللهم أخزه قال : فقال الرجل : إرجع إلى منزلك والله لا أوذيك أبداً] وقوله تعالى : ﴿ إنْ تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً ﴾ أي أن تظهروا الخير أو تخفوه أو تعفوا عمن أساء إليكم فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه. فان من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم. ولهذا قال تعالى:

(١) أي:لا تغضبي بمعنى لا تدعي عليه .

﴿ عفواً قديراً ﴾ وفي الحديث الصحيح : ٨٧٢ [ما نقص مال من صدقة ، ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَـٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴿١٥٢﴾ ﴾

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله ، من اليهود والنصارى ، حيث فرقوا بين الله ورسله في الايمان ، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض ، بمجرد التشهّي والعادة ، وما ألفوْا عليه آباءهم ، لا عن دليل قادهم إلى ذلك ، بل بمجرد الهوى والعصبية . فاليهود — عليهم لعائن الله — آمنوا بالأنبياء إلاّ عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، والنصارى كفروا بمحمد ﷺ وآمنوا بغيره من الأنبياء ، والسامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى والمجوس يقال أنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له زرادشت ، ثم كفروا بشرعه فرفع من بين أظهرهم والله أعلم . والمقصود أن من كفر بنبيّ من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء.ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ﴾ فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله ﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ﴾ أي في الايمان ﴿ ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ﴾ أي طريقاً ومسلكاً. ثم قال تعالى : ﴿ أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به، لأنه ليس شرعياً إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسولَ الله ، لآمنوا بنظيره وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه ، أو نظروا حق النظر في نبوّته .

وقوله تعالى : ﴿ واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ أي كما استهانوا بمن كفروا به ، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته. كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان رسول الله ﷺ حيث حسدوه على ما آتاه الله

من النبوة العظيمة وخالفوه وكذبوه ، فسلط الله عليهم الذل الدنيوي ، الموصول بالذل الأخروي . وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴾ يعني بذلك أمة محمد ﷺ ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله وكل نبي بعثه الله كقوله تعالى : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله ﴾ الآية ثم أخبر تعالى بأنه قد أعدّ لهم الجزاء الجزيل فقال : ﴿ أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ﴾ على ما آمنوا بالله ورسله ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي لذنوبهم .

﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَاناً مُبِيناً (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (١٥٤) ﴾

وقال محمد بن كعب القرظي والسدي وقتادة : سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة . قالوا ذلك على سبيل التعنت والكفر وقد سألوا موسى أكبر مما سألوك ، فقد قالوا : ﴿ أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ أي بطغيانهم وبغيهم وهذا مفسر في سورة البقرة عنه قوله تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ... ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ أي على يد موسى عليه السلام بمصر وما كان من اهلاك عدوهم فرعون وجنوده في اليم ، فما جاوزوه إلا يسيراً حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة في سورتي الأعراف (٢) و طه (٣) بعد

(١) البقرة : /٥٥/ . (٢) الأعراف : /١٥٢/ . (٣) طه : /٨٨/ .

ذهاب موسى إلى مناجاة الله عز وجل وقال تعالى : ﴿ فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبيناً ﴾ ثم قال تعالى ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ وذلك حين امتنعوا عما جاءهم به موسى عليه السلام رفع الله على رؤوسهم جبلاً ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا كما قال تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ... ﴾ الآية ﴿ وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً ﴾ أي أمِروا أن يدخلوا باب بيت المقدس سجداً ويقولوا حطّة أي اللهم حطّ عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه ، فلم يقولوا ، ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا في السبت ﴾ أي وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرم الله عليهم فيه ﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ أي شديداً فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب ما حرم الله عز وجل كما هو مبسوط في سورة الأعراف [١] وسيأتي حديث صفوان بن عسال في سورة الإسراء عند قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ [٢] وفيه :وعليكم خاصة يهود أن لا تعدوا في السبت .

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ ٱللهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ ٱللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ۞ (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ۞ (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ ٱللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ۞ (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ۞ (١٥٩) ﴾

---

(١) الأعراف : /١٦٣/ . (٢) الاسراء : /١٠١/ .

وهذا من الذنوب التي ارتكبوها ، مما أوجب لعنتهم وطردهم ، وإبعادهم عن الهدى ، وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم ، وكفرهم بآيات الله أي حججه وبراهينه ، والمعجزات التي شاهدوها على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقوله تعالى : ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ وذلك لكثرة أجرامهم واجترائهم على أنبياء الله ، فإنهم قتلوا جماً غفيراً من الأنبياء عليهم السلام ﴿ وقولهم قلوبنا غلف ﴾ قال ابن عباس وجماعة من التابعين : أي في غطاء . أي كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول ، لأنها في غُلَفٍ وأكنّة . وقيل أن معناه : إنهم ادّعوا أن قلوبهم غلفٌ للعلم أي أوعية للعلم قد حوته وحصلته ، رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . فقال الله تعالى راداً عليهم : ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ فعكس عليهم ما ادعوه من كل وجه.وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة : ﴿ فلا يؤمنون إلاّ قليلاً ﴾ أي تمرّنت قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان . ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني أنهم رموها بالزنا وكذلك قال جماعة من السلف وهو ظاهر من الآية . أي أنها حملت بولدها من ذلك ، زاد بعضهم : وهي حائض فعليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ﴾ أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه ، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء ، كقول المشركين : ﴿ يا أيها الذي نزّل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه ، انه لما بعث الله عيسى بن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات التي كان يبرىء بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، ويصور من الطين طائراً ثم ينفخ فيه ، فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل • ومع هذا .... كذبوه وخالفوه وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم حتى جعل نبيّ الله عيسى عليه السلام لا يساكنهم في بلدة بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام ، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا فيه إلى ملك دمشق في ذلك الزمن وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب ، وكان يقال لأهل ملته اليونان وأنهى اليهود إلى هذا الملك أن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه [1] فغضب الملك ، وكتب إلى نائبه بالمقدس ان يقبض على هذا المذكور وأن

---

(١) قلت : وهذا شأن كل السعاة عند الحكام في أي زمان يشون على المصلحين بأنهم يفسدون على الحاكم رعاياه ليجعلوا منه عدواً شخصاً للمصلحين والأنبياء . فيستثيرون غضبه ويصلون من وراء ذلك إلى مبتغاهم من المصلحين بمنعهم من الدعوة أو قتلهم ... وما إلى ذلك .

يصلبه ويضع الشوك على رأسه ، فلما وصل الكتاب امتثل والي بيت المقدس ذلك وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى عليه السلام ، وهو في جماعة من أصحابه اثنى عشر أو ثلاثة عشر ، ويقال انه كان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت ، فحصروه هنالك فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم ، قال لأصحابه : (أيكم يلقيَ عليه شبهي وهو رفيقي في الجنة ؟ فانتدب لذلك شاب منهم ، فكأنه استصغره عن ذلك ، فاعادها ثانية وثالثة ، وكل ذلك لا ينتدب إلاّ ذلك الشاب ، فقال : أنت هو وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو وفتحت روزنة من سقف البيت ، وأخذت عيسى سِنَةٌ من النوم ، فرفع إلى اسماء وهو كذلك ، كما قال الله تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي [1] ﴾ الآية فلما رفع خرج أولئك النفر ، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ، ظنوا أنه عيسى ، فأخذوه في الليل وصلبوه ، ووضعوا الشوك على رأسه ، وأظهر اليهود ، أنهم سعوا في صلبه ، وتبجحوا بذلك ، وسلّم لهم طوائف النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقولهم ، ما عدا من كان في في البيت مع المسيح ، فإنهم شاهدوا رفعه .

وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود ، أن المصلوب هو عيسى عليه السلام . وقد أوضح الله الأمر وجلاّه وأظهره في القرآن العظيم الذي أنزله على رسوله الكريم فقال تعالى وهو أصدق القائلين ، المطلع على الأسرار والسرائر ، والعالم بما كان وما سيكون : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم ﴾ أي رأوا شبهَهُ فظنوه إياه ولهذا قال ﴿ وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ يعني بذلك من ادّعى أنه قتله من اليهود ، ومن سلمّه إليهم من جهال النصارى ، ولهذا قال : ﴿ وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ أي منيع الجانب ، لايرام جنابه ، ولا يضام من لاذ ببابه، حكيماً في جميع ما يقدّره ويقضيه من الأمور التي يخلقها ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس ما ملخصه لا يختلف عما ورد آنفاً من خبر عيسى ورفعه إلى السماء إلى أن قال : ... وافترقوا ـ أي جماعة عيسى ـ ثلاث فرق ، فقالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة : كان ابن الله فينا ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبدالله

---

(١) راجع الآية ٥٥ من آل عمران .

ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون ؛ فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامساً حتّى بعث الله محمداً ﷺ . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس . ورواه النسائي وكذا ذكره غير واحد من السلف ، انه قال لهم : أيّكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ، وهو رفيقي في الجنة . أما الحواريون فكانوا اثني عشر رجلاً : فرطوس ، ويعقوبس ، ويلاونحس أخو يعقوب ، واندرايس ، وفيلبس ، وابن يلما ، ومنتا ، وطوماس ، ويعقوب بن حلقايا ، ونداوسيس ، وقتابيا ، وليودس ركريايوطا (١)

وقال ابن اسحق : وكان فيما ذكر لي رجل اسمه سرجس وكانوا ثلاثة عشر رجلاً رجلاً سوى عيسى عليه السلام جحدته النصارى ؛ وذلك أنه هو الذي شبه لليهود مكان عيسى قال : فلا أدري هو من هؤلاء الأثني عشر أو كان ثالث عشر . وكان هو الذي صلبوه وشبه لهم به . وكان الذين قبضوا عليه لا يعرفون عيسى ، حتّى جعلو ليودس ركريا يوطا ثلاثين درهماً على أن يدلهم عليه ويعرفهم إياه فقال لهم : إذا دخلتم عليه فإني سأقبله ، وهو الذي أقبّل فخذوه فلما دخلوا ، وقد رفع عيسى ورأى سرجس في صورة عيسى فلم يشك أنه هو ، فأكب عليه فقبله فأخذوه وصلبوه . ثم أن ليودس ركريا يوطا ندم على ما صنع فاختنق بحبل حتّى قتل نفسه وهو ملعون في النصارى . وبعض النصارى يزعم أن ليودس ركريا يوطا هو الذي شبه لهم فصلبوه وهو يقول : إني لست بصاحبكم أنا الذي دللتكم عليه والله اعلم أي ذلك كان . وهكذا فقد رفع عيسى إلى السماء حياً .

وقوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل في معنى ذلك فقال بعضهم : يعني قبل موت عيسى يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال ، فتصير الملل كلها واحدة ، وهي ملة الإسلام الحنيفية ، دين إبراهيم عليه السلام .

« ذكر من قال ذلك »

عن أبن عباس وعن سعيد بن جبير : ﴿وان من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به قبل موته﴾ قال : قبل موت عيسى عليه السلام وفي قول له أيضاً مثل ذلك عن العوفي . وقال ابو مالك : ذلك عند نزول عيسى وقبل موته عليه السلام لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا

(١) ولكن المنقول عن الكتب اليونانية المعوّل عليها نصه هكذا : سمعان الملقب بطرس ، واندراوس ويعقوب بن زبدي ، ويوحنا ، وفيلبس ، ورتولماوس ، وتوما ، ومتّى العشار ، ويعقوب ابن حلفي ، ولباوس الملقب تداوس ، وسمعان القانوي ، ويهوذا الأسخريوطي ، أهـ .

آمن به وهذا القول هو الحق ، كما سنبينه بعد بالدليل القاطع إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان ، وقيلت تفاسير شتى في تفسير هذه الآية ولكن أولى الأقوال بالصحة القول الأول وهو انه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام . وهذا هو الصحيح ، لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادّعته اليهود من قتل عيسى وصلبه ، وتسليم من سلّم لهم من النصارى الجهلة ذلك ، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك ، وإنّما شبه لهم ، فقتلوا الشبهَ وهم لا يتبينون ذلك ثم إنه رفعه إليه وإنه باقٍ حيٌّ ، وإنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلّت عليه الأحاديث المتواترة التي سنوردها إن شاء الله قريباً ، فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان ، بل لا يقبل إلاّ الإسلام أو السيف . والمراد بهذا الذي ذكرناه من تقرير وجود عيسى عليه السلام وبقاء حياته في السماء وانه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ، ليكذب هؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه ، وتصادمت وتعاكست ، وتناقضت ، وخلت من الحق ، ففرط هؤلاء اليهود ، وأفرط هؤلاء النصارى ، تنقّصه اليهود بما رموه به وأمه من العظائم ، وأطراه النصارى بحيث ادّعوا فيه ما ليس فيه ، فرفعوه في مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية،تعالى الله عما يقول هؤلاء وهؤلاء علواً كبيراً ، وتنزّه وتقدس لا آله الا هو .

أحاديث مختارة صحيحة واردة في نزول عيسى بن مريم إلى الأرض

من السماء آخر الزمان قبل يوم القيامة وانه يدعو إلى عبادة

الله وحده لا شريك له

* روى البخاري رحمه الله عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٧٣ [« والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وحتى تكون السجدة خيراً له من الدنيا وما فيها »] ثم يقول أبو هريرة إقرأوا ان شئتم : [وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنَنَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً]

وكذا رواه مسلم وأخرجه البخاري ومسلم ورواه ابن مردويه عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٧٤ [يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، يقتل

الدجال ، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ويفيض المال وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين » قال أبو هريرة : أقروا إن شئتم ﴿ وإن من أهل الكتاب إلاَّ ليؤمنُنَّ به قبل موته ﴾موت عيسى بن مريم ، ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات] .

• طريق أخرى : روى الامام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٨٧٥ [ليهلَّنَّ عيسى بن مريم بفج الروحاء بالحج أو العمرة أو ليثنينهما جميعاً]كذا رواه مسلم منفرداً به .

• قال البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٧٦ [كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح بن مريم وإمامكم منكم] .

• طريق أخرى : روى الامام أحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ٨٧٧ [الأنبياء إخوةٌ لعلاّت(١) أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإني أولى الناس بعيسى بن مريم ،لأنه لم يكن نبي بيني وبينه ، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه : رجل مربوع إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان ممصّران ، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ؛ فيدّق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويدعو الناس إلى الاسلام ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجّال ، ثم تقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمار مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرُّهم فيمكث أربعين سنة ثم يُتَوفىَّ ، ويُصلي عليه المسلمون .] وكذا رواه أبو داود .

• حديث آخر : روى مسلم في صحيحه عن النواس بن سمعان قال : ٨٧٨ [ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا فقال : « ما شأنكم ؟ قلنا : يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل قال : غير الدجال أخوفني عليكم ... إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم ، فامرؤٌ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم . إنه شاب قطط (٢) عينه طافية ، كأني أشّبهه بعبد العزّى بن قطن ، من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف إنه خارج من خلة بين الشام والعراق ، فعاث يميناً وعاث شمالاً ، ياعباد الله فاثبتوا قلنا : يا رسول

---

(١) الأخوة لعلات : أمهاتهم شتى وأبوهم واحد . (٢) قصير شعر الرأس اجعده .

الله فما لبثه في الأرض ؟ قال أربعون يوماً يوم كسنة ، ويوم كشهر ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا : يا رسول الله وذلك اليوم الذي كسنة ، أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا... أقدروا له قدره. قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض ؟ قال: كالغيث استدبرته الريح فيأتي على قوم فيدعوهم فيؤمنون به ، ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذُرىً ، وأسبغه ضروعاً ، وأمده خواصر ، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردّون عليه قوله ، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل ، ويتهلل وجهه ويضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، اذا طأطأ رأسه قطر ، واذا رفعه تحدّر منه كجمان اللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات. ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لدّ ، فيقتله ، ثم يأتي عيسى عليه السلام قوماً قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرّز عبادي إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون. فيمر أولهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقدكان بهذه مرةً ماء ويحضر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم، خيراً من مئة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه ، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرْسَى [1] كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلاّ ملأ زهمهم ونتنهم ، فيرغب نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت ، فتحملهم فتطرحهم . حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطراً لا يكنُّ منه بيت مدرولاوبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة [2] ثم يقال للأرض : أخرجي ثمرك وردي بركتك . فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ، ويبارك الله

(١) يعني هلكي والنغف : دود يكون في أنوف الأبل والغنم . والمعنى أن الله يرسل عليهم الدود في رقابهم فيهلكهم هلكة واحدة . (٢) الزلفة بالتحريك : المرآة .

في الرسل[1] حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام. فبينما هم كذلك، إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم ، فيقبض الله روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة] ورواه الإمام أحمد ، وأهل السنن

* روى أحمد عن مجمع بن جارية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٨٧٩ [يقتل ابنُ مريم ، المسيحَ الدجال بباب لد - أو إلى جانب لد -] وكذا رواه الترمذي وقال هذا حديث صحيح فأما أحاديث ذكر الدجال فقط . فكثيرة جداً ، وهي أكثر من أن تحصى لانتشارها ، وكثرة روايتها في الصحاح والحسان والمسانيد وغير ذلك .

* روى الامام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : ٨٨٠ [أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة، ونحن نتذاكر الساعة فقال : «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى بن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ،وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق — أو تحشر — الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا .]

الدجال يهودي وجنوده من اليهود

وفي بعض حديث لعبد الرحمن المحاربي عن اسماعيل بن رافع قال : ٨٨١ [... فقالت أم شريك : يا رسول الله ، فأين العرب يومئذ ؟ قال : « هم قليل وجلّهم يومئذ ببيت المقدس ، وإمامهم رجل صالح[2] فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم ، فرجع ذلك الإمام يمشي القهقرى ليتقدم عيسى عليه السلام ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول : تقدم فصلّ فانها لك أقيمت . فيصلي بهم إمامهم ، فإذا انصرف قال عيسى : افتحوا الباب ، فيفتح ووراءه الدجال،معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلّى وتاج ، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء وينطلق هارباً ، فيقول عيسى : إن لي فيك ضربة لن تسبقني بهـا ، فيدركه عند باب لدّ الشرقي فيقتله ، ويهزم الله اليهود فلا يبقى شيء ممـا خلق الله تعالى يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك شيء لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة ، الا الغرقدة — فإنها من شجرهم لا تنطق — إلا قال : يا عبدالله المسلم هذا يهودي فتعال أقتلهُ ..]

---

(١) الرسل بالتحريك : القطيع . الجمع أرسال . واللقحة : ذات اللبن . والفئام : الجماعة . (٢) هو المهدي المنتظر من نسل فاطمة .

وهكذا فقد تقدم كثير من الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة، وابن مسعود، وعثمان بن أبي العاص، وأبي أمامة، والنورس بن سمعان وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومجمع بن جارية، وأبي شريحة، وحذيفة بن أسيد رضي الله عنهم وفيها دلالة على صفة نزول عيسى عليه الصلاة والسلام ومكانه من أنه بالشام بل بدمشق عند المنارة الشرقية وإن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح، فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام كما تقدم في الصحيحين فتنزاح علل أهل الكتاب وترتفع شبههم من أنفسهم، ولهذا كلهم يدخلون في دين الاسلام متابعين لعيسى عليه السلام ولهذا قال تعالى: ﴿وان من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنَنّ به قبل موته﴾ الآية؛ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وإنه لعِلْم للساعة﴾ وقرىء: ﴿لَعَلَمٌ﴾ بالتحريك أي أمارة ودليل على اقتراب الساعة وذلك لأنه ينزل بعد خروج الدجال فيقتله الله على يديه؛ كما ثبت في الصحيح إن الله لم يخلق داء إلا أنزل له شفاء، ويهلك الله ببركة دعائه يأجوج ومأجوج وقد قال تعالى: ﴿حتىٰ اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَبٍ ينسلون واقترب الوعد الحق﴾ الآية.

* * *

﴿ صفة عيسى عليه السلام ﴾

روى مسلم عن ابن عمر قال:

قال رسول الله ﷺ: ٨٨٢ [وأراني الله عند الكعبة في المنام، واذا رجل آدم كأحسن ما ترى من آدم الرجال، تضرب لمته بين منكبيه، رجل الشعر، يقطر رأسه ماءً، واضعاً يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو المسيح بن مريم - ثم رأيت وراءه رجلاً جعداً قططاً أعور العين اليمنى، كأشبه من رأيت بابن قطن، (١) واضعاً يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت من هذا قالوا المسيح الدجال].

روى عن ابن عمر [أنه - أي عيسى - يمكث سبع سنين] وتوفيقاً بين هذا القول وبين من يقول اربعين سنة فانه يحتمل أن يكون المراد بلبثه في الأرض أربعين سنة مجموع إقامته فيها قبل رفعه، وبعد نزوله؛ فإنه رفع وله ثلاث وثلاثون سنة في الصحيح.

---

(١) قال الزهري: ابن قطن رجل من خزاعة هلك في الجاهلية.

وفي حديث عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة : ٨٨٣ [أن عيسى عليه السلام يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة ثم يُتوفَّى ويصلي عليه المسلمون .] رواه الإمام أحمد وكذا رواه ابو داود وذكر الحافظ ابو القاسم بن عساكر في ترجمة عيسى بن مريم من تاريخه عن بعض السلف انه يدفن مع النبي ﷺ في حجرته والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ قال قتادة ، يشهد عليهم انه قد بلغهم الرسالة من الله وأقر بعبوديته لله عز وجل وهذا كقوله تعالى في آخر سورة المائدة ﴿ وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس - إلى قوله - العزيز الحكيم ﴾ .

﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ كَثِيراً ۞ (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ۞ (١٦١) لَٰكِنِ ٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً ۞ (١٦٢) ﴾

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة ، حرم عليهم طيبات كان أحلّها لهم كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس انه قرأ : طيبات كانت أحلت لهم . والمراد أن جميع الأطعمة كانت حلالاً لهم من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرّم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل ، وألبانها ، ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرة في التوراة كما قال في سورة الأنعام : ﴿ وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلاّ ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون [1] ﴾ أي إنما حرمنا عليهم ذلك ، لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله

(١) الأنعام الآية /١٤٦/ .

كثيراً ﴾ أي صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق وهذه سجية لهم ، متصفون بها من قديم الدهر وحديثه ، ولهذا كانوا أعداء الرسل ، وقتلوا خلقاً من الأنبياء ، وكذبوا عيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهما .

وقوله تعالى : ﴿ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ﴾ أي أن الله تعالى قد نهاهم عن الربا فأخذوه محتالين عليه بأنواع الحيل وصنوف من الشبه ، وأكلوا أموال الناس بالباطل ، قال تعالى: ﴿ وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم ﴾ أي الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع وقد تقدم الكلام في ذلك في سورة آل عمران[1] ، ﴿ والمؤمنون ﴾ عطف على الراسخين وخبره ﴿ يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ﴾ قال ابن عباس : أنزلت في عبدالله بن سلام ، وثعلبة بن سَعَيْه ، وأسد بن سَعَيْه ، وأسد بن عبيد الذين دخلوا في الاسلام وصدّقوا بما أرسل الله به محمد ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ هكذا هو في جميع مصاحف الأئمة وكذا هو في مصحف أبيّ بن كعب وهو منصوب على المدح ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴾ قال : وهذا سائغ في كلام العرب. كما قال الشاعر : لا يبعدنْ قومي همو * أسد العداة وآفة الجزر * النازلين بكل معترك * والطيبون معاقد الأزر . وقوله تعالى : ﴿ والمؤتون الزكاة ﴾ أي زكاة الأموال ﴿ والمؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي يصدّقون بأنه لا إله إلا هو، ويؤمنون بالبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها . وقوله تعالى: ﴿ أولئك ﴾ هو الخبر عما تقدم ﴿ سنؤتيهم أجراً عظيماً ﴾ يعني الجنة .



﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً * (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً * (١٦٤) رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً * (١٦٥) ﴾

---

(١) آل عمران الآية /٧/ .

ذكر الله سبحانه أنه أوصَى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ كما أوصى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين فقال : ﴿ انا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ — إلى قوله — ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ والزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام وسنذكر ترجمة كلّ نبي من هؤلاء الأنبياء عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام عند قصصهم من سورة الأنبياء إن شاء الله وبه الثقة،وعليه التكلان . روى محمد بن اسحق عن ابن عباس : قال سكن وعدي بن زيد : يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ إلى آخر الآيات .

وقوله تعالى : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ أي من قبل هذه الآية ، يعني في السور المكية وغيرها وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله تعالى على اسمائهم في القرآن وهم : أدم وإدريس ونوح وهود وصالح وابراهيم ولوط واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى ، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين وسيدهم محمد ﷺ .

٨٨٤ : روى الحافظ أبو بكر البزار عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : [إني لخاتم ألف نبي أو أكثر ، وإنه ليس منهم نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال ، وإني قد بُيّنَ لي ما يُبيّن لأحد منهم وإنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور] وقوله تعالى : ﴿ ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ اي خلقاً آخرين لم يذكروا في القرآن وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين ففي حديث أبي ذر أنّهم ٨٨٥: [«مائة الف واربعة وعشرون ألفاً» قال قلت يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ قال « ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير كثير طيب » قلت : فمن كان أولهم ؟ قال « آدم » قلت : أنبي مرسل ؟ قال : « نعم ، خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وسواه قبيلاً » ثم قال : « يا أبا ذر ، أربعة سريانيون : آدم وشيث وخنوخ وهو إدريس ، وهو أول من خط بقلم ، ونوح ؛ وأربعة من العرب : هود وشعيب وصالح ونبيك يا أبا ذر ، وأول أنبياء بني إسرائيل موسى ، وآخرهم عيسى ، وإن أول الرسل آدم وآخرهم محمد »] ... رواه محمد بن حسين الآجري بطوله . ورواه الامام أحمد عن أبي أمامة أن أبا ذر سأل النبي ﷺ فذكر أمر الصلاة والصيام والصدقة وفضل آية الكرسي ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، وأفضل الشهداء ، وأفضل الرقاب ونبوة آدم وأنه مكلم وعدد الأنبياء والمرسلين كنحو ما تقدم .

وقال عبدالله بن الإمام أحمد : وجدت في كتاب أبي بخطّه بالسند إلى أبي الوداك قال : قال أبو سعيد هل تقول الخوارج بالدجال ؟ قال : لا ، فقال : قال رسول الله ﷺ ٨٨٦ [إني خاتم الف نبي أو أكثر، وما بُعِثَ نبيٌّ يتبع إلا وقد حذر أمته منه ، وإني قد بين لي فيه ما لم يبين ، وإنه أعور ، وان ربكم ليس بأعور ، وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى كأنها نخامة في حائط مجصص ، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري ، معه من كل لسان ، ومعه صورة الجنة الخضراء يجري فيها الماء ، وصورة النـار سوداء تدخن]

وقوله تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهـذه الصفة ، ولهذا يقال له الكليم ، وقد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن عبد الجبار بن عبدالله ٨٨٧ قال : [جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال سمعت رجلاً يقرأ : ﴿ وكلّم اللهَ مُوسى تكليماً ﴾ أي قرأ لفظ الجلالة بالنصب فقال أبو بكر : ما قرأ هذا إلا كافر . قرأت على الأعمش ، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب ، وقرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن السلمي وقرأ عبد الرحمن السلمي على علي بن أبي طالب ، وقرأ علي بن أبي طالب على رسول الله ﷺ : ﴿ وكلم اللهُ مُوسى تكليماً ﴾] أي لفظ الجلالة بالرفع ، إنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ لفظ الجلالة بالنصب وموسى بالرفع لأنه حرف لفظ القرآن ومعناه ، وكان هذا الذي قرأ لفظ الجلالة بالنصب مـن (المعتزلة) الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحداً من خلقه كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ عن بعض المشايخ : ﴿ وكلم اللهَ موسى تكليماً ﴾ فقال له يا ابن اللخناء ، كيف تصنع بقوله تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمَهُ ربُّهُ ﴾؟ يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل .

وقوله تعالى : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين ﴾ أي يبشرون من أطاع الله بالخيرات وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب . وقوله تعالى : ﴿ لئلاً يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة ، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه ، لئلا يبقى لمعتذر عذر كما قال تعالى : ﴿ ولولا أنّا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينـا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ الآية ... وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ٨٨٨ [لا أحد أغيرَ من الله . من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب اليه المدح من الله عز وجل ، من أجل

ذلك مدح نفسه، ولا احد أحب اليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين] وفي لفظ آخر : أنزل رسله وأنزل كتبه » .

﴿ لَكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَٱلْمَلَٰئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً ۞ (١٦٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً ۞ (١٦٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً ۞ (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً ۞ (١٦٩) يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ۞ (١٧٠) ﴾

لما تضمن قوله تعالى : ﴿ إنّا أوحينا اليك ﴾ الآية اثبات نبوته ﷺ ، والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب ، قال الله تعالى : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك ﴾ أي وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك ، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم ، ولهذا قال : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع عليه عباده من البينات والهدى والفرقان وما يرضاه الله ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمهانبي مرسل أو ملك مقرب إلاّ أن يُعلمه الله به ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾

روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن السائب قال : أقرأني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال : قد أخذت علم الله ، فليس أحد اليومَ أفضل منك إلاّ بعمل . ثم يقرأ قوله تعالى : ﴿ أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والملائكة يشهدون ﴾ أي بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك

مع شهادة الله بذلك ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ قال محمد بن اسحق عن ابن عباس قال :
٨٨٩ [دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود ، فقال لهم : « إني لأعلم والله أنكم لتعلمون أني رسول الله » فقالوا : ما نعلم ذلك فأنزل الله عز وجل : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ﴾ الآية] .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً ﴾ أي كفروا فلم يتبعوا الحق وصدوا الناس عنه ، وضلّوا أي بعدوا منه بعداً عظيماً شاسعاً ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين الظالمين لأنفسهم بانتهاك المحارم ، بأنه لا يغفر لهم ﴿ ولاليهديهم طريقاً ﴾ أي سبيلاً إلى الخير ﴿ إلاّ طريق جهنم ﴾ وهذا استثناء منقطع ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ الآية ... ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم ﴾ أيّ قد جاءكم محمد صلوات الله عليه وسلامه بالهدى ودين الحق من الله عز وجل ، فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيراً لكم . ثم قال : ﴿ وان تكفروا فإن لله ما في السموات والأرض ﴾ أي فهو غني عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم كما قال تعالى : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ وقال هاهنا : ﴿ وكان الله عليماً ﴾ بمن يستحق منكم الهداية فيهديه ، وبمن يستحق الغواية فيغويه ﴿ حكيماً ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

﴿ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى ٱللهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَىٰ ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَـآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلٰثَةٌ ٱنْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا ٱللهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ۞ (١٧١) ﴾

ينهى الله تعالى أهل الكتاب عن الغلوّ والإطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى عليه السلام حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله اياها ، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه ، بل غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه ، فادّعوا فيهم العصمة ، واتبعوهم في كل ما قالوه ،

سواء كان حقاً أو باطلاً ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ الآية ...روى الإمام أحمد عن ابن عباس عن عمر أن رسول الله ﷺ قال٨٩٠ : [لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله] ورواه البخاري بهذا اللفظ . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يا محمد يا سيدنا وابن سيدنا ، وخيرنا وابن خيرنا فقال رسول الله ﷺ ٨٩١[أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينّكم الشيطان ، أنا محمد بن عبدالله ، عبدالله ورسوله ، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل] تفرد به أحمد من هذا الوجـــه .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبةً وولداً ، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً ، وتنزه وتقدس وتوحد في سؤدده وكبريائه وعظمته ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه . ولهذا قال تعالى : ﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ أي إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه.قال الله له: كن فكان ، ورسول من رسله وكلمته ألقاها إلى مريم ، خلقه بالكلمة (١) التي أُرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم ، فنفخ فيها من روحه بإذن الله عز وجل فكان عيسى بإذنه عز وجل وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم ، والجميع مخلوق لله عز وجل ، ولهذا قيل لعيسى : إنه كلمة الله وروح منه لأنه لم يكن له أب تولد منه ، وانما هو ناشىء عن الكلمة التي قال له بها كن فكان . والروح التي أرسل بها جبريل . قال تعالى : ﴿ ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها ﴾ روى البخاري عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال ٨٩٢ : [من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق والنار حق،

---

(١) قلت : نعم هو مخلوق بالكلمة وليس هو الكلمة ، لأن الكلمة هي (كن) وكلمة كن عندما يقولها الله فهي إذاً من كلامه تعالى، وكلامه غير مخلوق. وعيسى عليه السلام هو مخلوق لله وعبده ورسوله. وبهذا وضح أن عيسى عليه السلام ليس هو نفس (كن) إنما هو مخلوق تحت أمر (كن) فكان. وفي هذا سقطت حجة من يحتج على من يحرم الحلف بغير الله : (بأنه لا يجوز الحلف بكلام الله، لأنه اذا جاز ذلك، لجاز الحلف بعيسى لأنه كلمة الله) ، وهذا كما لا يخفى مردود بالحجة الآنفة أي أن عيسى ليس هو كلمة (كن) إنما كان بـ (كن) فإذا اتضح هذا ... فإنه يجوز الحلف بكلام الله لأنه كلامه ، وهو صفة له سبحانه . أما عيسى عليه السلام ، لا يجوز الحلف به لأنه مخلوق خلق بـ (كن) وليس هو (كن) والحمد لله على توفيقه .

أدخله الله الجنة على ما كان من العمل] وقال الوليد عن جنادة زاد ٨٩٣ : [من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء] وكذا رواه مسلم فقوله تعالى في الآية والحديث ﴿ وروح منه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ أي من خلقه ومن عنده وليست من للتبعيض كما يقول النصارى ــ عليهم من الله ما يستحقون ــ بل هي لابتداء الغاية . وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله تعالى : ﴿ ناقة الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ وطهّر بيتي للطائفين ﴾ .

وكما روي في الحديث الصحيح ٨٩٤ [فأدخل على ربي في داره] أضافها إليه إضافة تشريف وهذا كان من قبيل واحد .وقوله تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ﴾ أي فصدقوا بأن الله واحد أحد ، لا صاحبة له ولا ولد ، وان عيسى عبده ورسوله ولا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وهذه الآية والتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ﴾ وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ . الآية . والنصارى ــ عليهم من الله ما يستحقون ــ ليس لهم ضابط ، ولا لكفرهم حد فمنهم من يعتقد المسيح إلهاً ، ومنهم من يعتقده شريكاً ، ومنهم من يعتقده ولداً وهم طوائف ، أراؤهم مختلفة وأقوالهم غير مؤتلفة ؛ ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال : لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً .

ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بطريق بترك الاسكندرية أنهم اجتمعوا المجمع الكبير أيام قسطنطين ، وأنهم اختلفوا عليه اختلافاً لا ينضبط ولا ينحصر فكانوا أزيد من ألفين أسقفاً ، فكانوا أحزاباً كثيرة : كل خمسين منهم على مقالة ، وعشرون على مقالة ،ومائة على مقالة ، وسبعون على مقالة ، فلما رأى قسطنطين عصابة منهم قد زادوا على الثلثمائة بثمانية عشر وتوافقوا على مقالة فأخذها الملك قسطنطين ونصرها وأيدها.. ومحق ما عداها من الأقوال ، وبنى لهم الكنائس ووضعوا لهم كتباً وقوانين واتباع هؤلاء هم الملكانية . ثم اجتمعوا مجمعاً ثانياً فحدث فيهم اليعقوبية ، ثم مجمعاً ثالثاً فحدث فيهم النسطورية ، وكل هؤلاء يثبتون الأقانيم الثلاثة في المسيح ويختلفون في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدا ، أو ما اتحدا أو امتزجا ، أو حل فيه على ثلاث مقالات ، وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى . ونحن نكفر الثلاثة . ولهذا قال تعالى : ﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ أي يكن خيراً لكم ﴿ إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ﴾ أي تعالى وتقدس عن ذلك ﴿ له ما في السموات وما

في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ أي الجميع ملكه وخلقه ، وجميع ما فيهما عبيده ، وهم تحت تدبيره وتصريفه ، وهو وكيل على كل شيء ، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد كما قال في الآية الأخرى : ﴿ بديع السموات والأرض أنىَّ يكون له ولد ﴾ الآية ..

لَنْ يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلهِ وَلَا ٱلْمَلَٰئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً ❁ (١٧٢) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا وَٱسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً ❁ (١٧٣)

﴿ لن يستنكف ﴾ أي لن يستكبر ويمتنع ﴿ المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ إنما ذكر الملائكة هنا لأنهم اتُّخذوا أيضاً آلهةً مع الله كما اتُّخذ المسيح، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عباده وخلق من خلقه. كما قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ الآيات. ولهذا قال : ﴿ ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ أي فيجمعهم إليه يوم القيامة ، ويفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجور فيه ولا يحيف. ولهذا قال : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ أي فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه ﴿ وأما الذين استنكفوا واستكبروا ﴾ أي امتنعوا عن طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك . ﴿ فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين حقيرين ذليلين كما كانوا ممتنعين مستكبرين .

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ❁ (١٧٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَٱعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ❁ (١٧٥)

يخاطب الله تعالى جميع الناس ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم ، وهو الدليل القاطع للعذر ، والحجة المزيلة للشُّبه ، ولهذا قال ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ أي ضياء واضحاً على الحق وهو القرآن . ﴿ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به ﴾ أي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم ، وقال ابن جريج : آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن ﴿ فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ﴾ أي يرحمهم فيدخلهم الجنة ، ويزيدهم ثواباً ، ومضاعفةً ورفعاً في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم ﴿ ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً ﴾ أي طريقاً لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة ، وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات ، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال ٨٩٥ [القرآن صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين] .

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَالَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١٧٦)

روى البخاري عن البراء قال : آخر سورة نزلت ﴿ براءة ﴾ ، وآخر آية نزلت : ﴿ يستفتونك . ﴾

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبدالله قال ٨٩٦ : [دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل قال : فتوضأ ثم صب عليَّ أو قال : صبّوا عليه ، فعقلت . فقلت : إنه لا يرثني إلا كلالة فكيف الميراث؟ فأنزل الله آية الفرائض] أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة ورواه الجماعة من طريق ابن عيينة . وفي بعض الألفاظ : فنزلت آية الميراث : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾ الآية . وكأن معنى الكلام ـ والله أعلم ـ يستفتونك عن الكلالة ﴿ قل الله يفتيكم ﴾ فيها ، فدل المذكور على المتروك .

وقد تقدم الكلام على الكلالة واشتقاقها ، وأنها مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد ومنهم من يقول : الكلالة من لا ولد له ، كما دلت عليه الآية : « إن امرؤ هلك ليس له ولد » وقد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجد والكلالة وباب من أبواب الربا. روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال ٨٩٧ : [ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه في صدري ، وقال : يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء »] هكذا رواه مختصراً وأخرجه مسلم مطولاً أكثر من هذا وكأن المراد بآية الصيف ، أنها نزلت في فصل الصيف والله أعلم ولما أرشده النبي ﷺ إلى تفهمها ، فإن فيها كفاية نسي أن يسأل النبي ﷺ عن معناها .

وذكر لنا أنّ أبا بكر الصديق قال في خطبته : ألا أن الآية التي نزلت في أول سورة النساء [1] في شأن الفرائض أنزلها الله في الولد والوالد ، والآية الثانية [2] أنزلها في الزوج والزوجة والأخوة من الأم ، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الأخوة والأخوات من الأب والأم [3] . والآية التي ختم بها سورة الأنفال [4] أنزلها في أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، مما جرت الرحم من العصبة ، رواه ابن جرير .

﴿ ذكر الكلام على معناها ﴾

وبالله المستعان وعليه التكلان . قوله تعالى : ﴿ إن امرؤ هلك ﴾ أي مات ﴿ ليس له ولدَ ﴾ ، تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد ، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد وهو رواية عن عمر بن الخطاب بأسناد صحيح من رواية بن جرير . ولكن الذي يرجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق : أنه الذي لا ولد له

---

(١) راجع النساء الآية ١١ . (٢) راجع النساء الآية / ١٢ / . (٣) النساء الآية رقم / ١٧٦ / .
(٤) الأنفال : الآية رقم /٧٥/ .

ولا والد . ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وله أخت فلها نصف ما ترك ﴾ ولو كان معها أبٌ لم ترثْ شيئاً لأنه يحجبها بالإجماع ، فدلّ على أنه من لا ولَد له بنص القرآن ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً ، لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد بل ليس لها ميراث بالكلية .

روى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت ٨٩٨ [أنه سئل عن زوج ، وأخت لأب وأم ، فأعطى الزوج النصف . والأخت النصف ، فكُلِّم في ذلك فقال : حضرت رسول الله ﷺ قضى بذلك] تفرد به أحمد من هذا الوجه . وقد نقل ابن جرير وغيره عن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت : ترك بنتاً وأختاً إنه لا شيء للأخت لقوله تعالى : ﴿ إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ﴾ فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً فلا شيء للاخت .

وخالفهما الجمهور فقالوا في هذه المسألة : للبنت النصف بالفرض ، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب بغير هذه الآية وهذه الآية نصت أن يفرض لها في هذه الصورة ، وأما وراثتها بالتعصيب فلما رواه البخاري عن الأسود قال ٨٩٩ : [قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ النصف للبنت والنصف للأخت ثم قال سليمان : قضى فينا ولم يذكر على عهد رسول الله ﷺ] وفي صحيح البخاري أيضاً عن هزيل بن شرحبيل ٩٠٠ قال : [سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة ، وابنة ابن ، وأخت . فقال : للإبنة النصف ، وللأخت النصف ، وأتِ ابن مسعود فسيتابعني ... فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى فقال : لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين ... !!! أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ : النصف للبنت ، ولبنت الابن السدس تكملة الثلثين ، وما بقي فللأخت . فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال : لا تسألوني ما دام هذا الحَبْرُ فيكم .]

وقوله تعالى : ﴿ وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ﴾ أي والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلالة ، وليس لها ولد أي ولا والد ، لأنها لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً ، فإن فرض أن معه من له فرض صرف إليه فرضه كزوج أو أخ أو أم ، وصرف الباقي إلى الأخ ، لما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال ٩٠١ : [الحقوا الفرائض بأهلها ، فما أبقت الفرائض فلأولي رجل ذكر] وقوله تعالى : ﴿ فإن كانتا اثنتين

فلهما الثلثان مما ترك﴾ أي فإن كان لمن يموت كلالة أختان ، فرض لهما الثلثان وكذا ما زاد على الأختين في حكمها ومن ههنا أخذ الجماعة حكم البنتين كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله (فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك)

وقوله تعالى : ﴿ وإن كانوا أخـــوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظّ الأنثيين ﴾

هذا حكم العصبات من البنين ، وبني البنين والأخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم ، أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين . وقوله تعالى : ﴿ يبين الله لكم ﴾ أي يفرض لكم فرائضه ويحد لكم حدوده ويوضح لكم شرائعه . وقوله تعالى : ﴿ أن تضلوا ﴾ أي لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ أي هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيهما من الخير لعباده ، وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من المتوفىً .

ولقد روي عن عمر بن الخطاب أن الكلالة من لا ولد له ثم رجع إلى قول أبي بكر الصديق . قال ابن جرير : وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : إني لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر ، وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول : هو ما عدا الولد والوالد. وهذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه ، وهو مذهب الأربعة والفقهاء السبعة ، وقول علماء الأمصار قاطبة ، وهو الذي يدل عليه القرآن ، كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه في قوله تعالى : ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم ﴾ والله تعالى أعلم .

* * *

تم بعونه تعالى المجلد الأول ويليه المجلد الثاني وأوله سورة المائدة .

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

فهرس الأحاديث
الجزء الأول

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢	صح	ألا أني أوتيت القرآن ومثله معه	١
٢	صح	اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل	٢
٢	حسن	من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار	٢
٣	ض	من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار . . .	٤
٦	صح	(الحمد لله ربّ العالمين) أم القرآن ، وأم الكتاب	٥
٦	صح	قسمت الصلاة بيني وبين عبدي	٦
٦	صح	فاتحة الكتاب شفاء من كل سم	٧
٦	صح	وما يدريك أنها رقية	٨
٦	مرسل	أم القرآن عوض من غيرها ، وليس غيرها عوضاً منها . .	٩
٧	صح	خرج رسول الله ﷺ على أبيّ بن كعب وهو يصلّي ، فقال: يا أبيُّ	١٠
٧	ح صح	إنها السبع المثاني والقرآن العظيم	١١
٧	صح بخ	كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتّى صليت .	١٢
٨	صح م	بينا رسول الله ﷺ وعندهُ جبرائيل إذ يسمع نقيضاً فوقه . .	١٣
٨	صح م	من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج — ثلاثا — غير تمام	١٤
٨	صح م	لا صلاة لمن يقرأ بفاتحة الكتاب	١٥
٨	صح م	،ن صلى صلاة لم يقرأ فيها أم القرآن فهي خداج	١٦

سورة الفاتحة

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١١١	صح	لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم	١٢٩
١١١	ض	وهم بالشام	١٣٠
١١١	صح	إن الله علم الأشياء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام (التعليق)	١٣١
١١١	صح	أول ما خلق الله القلم ، وقال أكتب قال ربي وما أكتب ... التعليق	١٣٢
١١٣	صح	وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع	١٣٣
١١٣	صح	... فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس	١٣٤
١١٣		من أبطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه	١٣٥
١١٤	صح	آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل ، وليسعكم القرآن . . .	١٣٦
١١٧	صح	وصلى معه قوم فخرج رجل منهم فمرّ على أهل المسجد فقال	١٣٧
١١٧	صح	... إنهم جاءهم الخبر بذلك وهم في صلاة الظهر قال فتحوّل الرجال	١٣٨
١١٧	صح	إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة القرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة	١٣٩
١١٨	صح	إنهم لا يحسدوننا على شيء ، كما يحسدوننا على يوم الجمعة	١٤٠
١١٨	صح بح	فيدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم	١٤١
١١٨	صح	فيدعى محمد وأمته ، فيقال لهم هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون نعم	١٤٢
١١٩		إن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها	١٤٣
١٢٠	صح	البيت لأهل المسجد ، والمسجد قبلة أهل الحرم والحرم قبلة أهل الأرض	١٤٤

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٥٦	صح نق	(يا رسول الله : ما شأن الناس حلّوا من العمرة ولم تحل انت من عمرتك ؟	٢٤٣
١٥٦	صح بخ	... ما كنت أرى أن الجهد بلغ منك هذا ... أما تجد شاة ؟ قلت : لا	٢٤٤
١٥٧	صح	... يؤذيك هوام رأسك ؟ قلت : نعم قال فاحلقه وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة	٢٤٥
١٥٧	صح	إن رسول الله ﷺ ذبح البقر عن نسائه وكن متمتعات	٢٤٦
١٥٧	صح فق	نزلت آية المتعة في كتاب الله وفعلناها مع رسول الله ﷺ	٢٤٧
١٥٨	صح بخ	لم يرخص في أيام التشريق أن يُصَمْنَ إلا لمن لم يجد الهدي	٢٤٨
١٥٨	صح م	أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجـــل	٢٤٩
١٥٨	صح فق	... فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله	٢٥٠
١٥٨	صح م	أيها الناس إني كنت قد أذنت لكم في الاستمتاع بالنساء وان الله قد حرم ذلك	٢٥١
١٥٨	صح م	رأيت رسول الله ﷺ قائماً بين الركن والباب وهو يقول بنحوه	٢٥٢
١٥٨	صح م	أمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة عام الفتح حين دخلنا مكة ثم لم نخرج منها حتى نهانا عنها	٢٥٣
١٥٩	صح	من السنة أن لا يحرم بالحج إلاّ في أشهر الحج	٢٥٤
١٥٩	صح	لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج	٢٥٥
١٥٩	صح	لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلاّ في أشهر الحج . . .	٢٥٦
١٥٩	صح	أَيُهَلُّ بالحج قبـــل أشهر الحج فقال – يعني جابر – لا	٢٥٧
١٦٠	صح	الأشهر المعلومات عن ابن عمر قال : هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة	٢٥٨
١٦٠	صح	سباب المسلم فسوق وقتاله كفر	٢٥٩
١٦٠	صح فق	من حج هذا البيت فلم يرفث ، ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه	٢٦٠

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٩٠	صح	إن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ فقالت والله ما اعتب .	٣٤٦
١٩٢	صح	ان إمرأة ثابت بن قيس اختلعت زوجها على عهد رسول الله ﷺ	٣٤٧
١٩٢	صح	إنها اختلفت على عهد رسول الله ﷺ فأمرها النبي ﷺ ان تعتد بحيضة	٣٤٨
١٩٣	صح	لا عدة عليك إلا ان يكون حديث عهد بك ، فتمكثين عنده	٣٤٩
١٩٣	صح	إن الله حد حدوداً فلا تعتدوهـا ، وفرض فرائض فلا تضيعوها	٣٥٠
١٩٤	صح	في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة ...	٣٥١
١٩٤	صح	في الرجل تكون له المرأة فيطلقها ثم يتزوجها رجل فيطلقها قبل	٣٥٢
١٩٤	صح فق	ان رجلاً طلق امرأته ثلاثا فتزوجت زوجاً فطلقها قبل أن يمسها	٣٥٣
١٩٤	صح	الا إن العسيلة الجماع	٣٥٤
١٩٤	صح	لعن الله الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلّل والمحلّل له	٣٥٥
١٩٤	صح	لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وشاهداه وكاتبه	٣٥٦
١٩٥	ض	ان رسول الله ﷺ : لعن الله المحلّل والمحلّل له	٣٥٧
١٩٥	صح	الا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال : هو المحلّل	٣٥٨
١٩٥		لعن رسول الله ﷺ المحلّل والمحلّل له	٣٥٩
١٩٦	صح	ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب فهن جائزات عليه : الطلاق والعتاق والنكاح	٣٦٠
١٩٧	صح	لا نكاح إلا بولي مرشد (وشاهدي عدل .) وزيادة شاهدي عدل ضعيفة	٣٦١
١٩٧		إنه زوّج اخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت ...)	٣٦٢

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٠٥	صح فق	سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : الصلاة في وقتها قلت ...	٣٨١
٢٠٦	صح فق	شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ملأ الله قلوبهم .	٣٨٢
٢٠٦	صح	﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ وسماها لنا صلاة العصر ...	٣٨٣
٢٠٦		الصلاة الوسطى صلاة العصر ...	٣٨٤
٢٠٦		إن في الصلاة لشغلاً .	٣٨٥
٢٠٦	صح م	إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هي التسبيح ...	٣٨٦
٢٠٦	صح	كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة	٣٨٧
٢٠٦	صح	كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة ، فمررت برسول الله فسلمت عليه ...) .	٣٨٨
٢٠٦	صح	قلت لبلال : كيف كان رسول الله ﷺ وآله يرد عليهم حين كانوا يسلمون عليه ...	٣٨٩
٢٠٧	صح غ	ان ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ، ثم قال : فإن كان خوف أشد	٣٩٠
٢٠٧	صح م	وفي حديث عبد الله بن أنيس الجهني لما بعثه النبي ﷺ إلى خالد بن سفيان ليقتله ...	٣٩١
٢٠٧	صح	فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً ، وفي السفر ركعتين	٣٩٢
٢٠٧	صح	خرج النبي ﷺ إلى مسجد قباء يصلي فيه ، قال : فجاءته الأنصار ...	٣٩٣
٢٠٧	صح	وفيه يقول هكذا ــ وبسط كفه وبسط جعفر بن عون كفه ...	٣٩٤
٢٠٩	صح	إن الفريعه بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما جاءت	٣٩٥

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٣٦	صح	ان عائشة زوج النبي قالت لها ام بحنه أم ولد زيد بن أرقم : يا أم المؤمنين :	٤٢٧
٢٣٦	صح م	من لم يذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله	٤٢٨
٢٣٦	صح فق	ان الحلال بيّن والحرام بيّن وبين ذلك أمور مشتبهات.	٤٢٩
٢٣٧	صح	دع ما يريبك إلى ما لا يريبك	٤٣٠
٢٣٧	صح	الإثم ما حاك من القلب وترددت فيه النفس وكرهت أن ...	٤٣١
٢٣٧	صح	يأتي على للناس زمان يأكلون فيه الربا » قال : قيل له الناس كلهم ؟ قال	٤٣٢
٢٣٧	صح بخ	لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد	٤٣٣
٢٣٧	صح	لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه.	٤٣٤
٢٣٧	صح	إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل	٤٣٥
٣٧٨	صح	من تصدّق بعدل تمرة عن كسب طيب ، ولا يقبل الله الا الطيب	٤٣٦
٢٣٨	صح	وقد ذكر زيد بن أسلم وغيره أن هذا السياق نزل في بني عمر بن عمير من ثقيف	٤٣٧
٢٣٣	صح	من سرّه أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو يضع عنه .	٤٣٨
٢٣٩	صح	سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقه » ...	٤٣٩
٢٣٩	صح بح	كان تاجر يداين الناس فان رأى معسراً قال لفتيانه تجاوزوا عنه	٤٤٠
٢٤١	صح فق	من أسلف فليسلف من كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم	٤٤١
٢٤١	صح	أن رجلاً من بني اسرائيل سأل بعض بني بعض بني إسرائيل ان يسلفه الف دينار	٤٤٢
٢٤٢		إن من الصدقة أي تعين صانعاً أو تصنع لأخرق .	٤٤٣

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٤٩	صح	أن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه .	٤٦٠
٢٤٩	صح	إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث : عن الخطأ والنسيان والاستكراه	٤٦١
٢٤٩	صح م	قال الله نعم	٤٦٢
٢٤٩	صح	قال الله قد فعلت	٤٦٣
٢٤٩	صح	بعثت بالحنيفية السمحة	٤٦٤
		سورة آل عمران	
٢٥٣	صح فق	فاذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم	٤٦٥
٢٥٣	موقوف	﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾ قال هم الخوارج	٤٦٦
٢٥٣	صح	لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل ، أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني	٤٦٧
٢٥٣	صح	وستفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار الا واحدة	٤٦٨
٢٥٤	صح	ان القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به	٤٦٩
٢٥٤	صح	اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل	٤٧٠
٢٥٤	صح	سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارءون	٤٧١
٢٥٤	صح	كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يدعو يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك	٤٧٢
٢٥٥		. ان رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة فقال : هل بلغت يقولها ثلاثاً	٤٧٣
٢٥٦		لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود	٤٧٤
٢٥	صح	أن رسول الله ﷺ لما سأل العبد الأسود لبني الحجاج عن عدة قريش	٤٧٥
٢٥٧	صح	ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء	٤٧٦

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٨٨	صح	من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ	٥١٤
٢٩٠	صح	ان قوماً أسلموا ثم ارتدّوا ثم أسلموا ثم ارتدّوا	٥١٥
٢٩٠	ضح	سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جدعان وكان يقري الضيف. .	٥١٦
٢٩٠	صح فق	يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت	٥١٧
٢٩٠	صح فق	يا رسول الله لم أصب مالا قط هو أنفس عندي	٥١٨
٢٩١		حضرتْ عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا	٥١٩
٢٩٣	صح فق	قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال المسجد الحرام	٥٢٠
٢٩٤	صح فق	لا هجرة ولكن جهاد ونيّةٌ واذا استنفرتم فانفروا	٥٢١
٢٩٤	صح فق	إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض	٥٢٢
٢٩٤	صح م	لا يحل لأحدٍ أن يحمل السلاح بمكة	٥٢٣
٢٩٤	صح	والله إنك لخيرُ أرض الله وأحب أرض الله إلى الله	٥٢٤
٢٩٥	صح م	أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجّوا	٥٢٥
٢٩٥	صح فق	متعتنا هذه لعامنا هذا ، أم للأبد ؟ قال : لا . بل للأبد .	٥٢٦
٢٩٥	صح	قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال من الحاج يا رسول الله ... ؟	٥٢٧
٢٩٥	صح م	أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله عز وجل من استطاع إليه سبيلاً	٥٢٨
٢٩٥	صح	تعجلوا إلى الحج – يعني الفريضة – فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له	٥٢٩
٢٩٥	صح	من أراد الحج فليتعجل	٥٣٠
٢٩٥	صح	لما نزلت ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه	٥٣١
٢٩٦	صح	أي المؤمنين أعجب إليكم إيمانا ؟ قالوا : الملائكة	٥٣٢
٢٩٧	صح	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته	٥٣٣
٢٩٧	صح	من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة	٥٣٤
٢٩٨	صح	من كلام عليّ هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم . . .	٥٣٥
٢٩٨		كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض ...	٥٣٦

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣١٩	صح بخ	لقبنا المشركين يومئذ ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة	٥٧٦
٣٢٠		إن النساء كن يوم أحد خلف المسلمين يجهزن على جرحى...	٥٧٧
٣٢١	صح	إليّ عباد الله إليّ عباد الله	٥٧٨
٣٢١	.	لو قلت بسم الله وذكرت اسم الله لرفعتك الملائكة ...	٥٧٩
٣٢٢	صح بخ	رأيت يد طلحة شلاّء ، وقَى بها النبيّ ﷺ – يعني يوم أحد ...	٥٨٠
٣٢٢	صح فق	لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام الّتي قاتل فيهن	٥٨١
٣٢٢	صح	نثل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد وقال : إرم ...	٥٨٢
٣٢٢	صح بخ	إنّه رمى يوم أحد دون رسول الله ﷺ قال سعد : فلقد رأيت	٥٨٣
٣٢٢	صح فق.	رأيت يوم أحد عن يمين النبيّ ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب ...	٥٨٤
٣٢٢	صح	كان أُبيّ بن خلف أخو بني جمح قد حلف وهو بمكّة ، لَيقتلن ...	٥٨٥
٣٢٢	صح بخ	اشتد غضب الله على من قتله رسول الله ﷺ بيده في سبيل الله	٥٨٦
٣٢٣	صح فق	اشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله ﷺ وهو حينئذ يشير ...	٥٨٧
٣٢٣		ما حرصت على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص ...	٥٨٨
٣٢٧	صح	أشيروا عليّ معشر المسلمين في قوم أبنوا أهلي ورموهم ...	٥٨٩
٣٢٧	صح	المستشار مؤتمن	٥٩٠
٣٢٧	صح	إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه	٥٩١
٣٢٨	صح	أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض تجدون الرجلين	٥٩٢
٣٢٨	.	من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً ، ...	٥٩٣
٣٢٨	صح	استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية.	٥٩٤
٣٢٨	صح فق	ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول هذا لكم وهذا أهدي لي	٥٩٥

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٢٩	صح	ردوا الخياط والمخيط ، فان الغلول عارونار	٥٩٦
٣٢٩	صح	إن الحجر يرمى في جهنم فيهوى سبعين خريفاً مـا يبلغ قعرها	٥٩٧
٣٢٩	صح	فان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمةً أمر بلالاً فينادي بالناس	٥٩٨
٣٣٢	صح	قال حدثني أنس بن مالك في أصحاب رسول الله الذين أرسلهم نبيُّ الله إلى بئر معونة	٥٩٩
٣٣٢	صح	إن الله أنزل فيهم قرآناً بلّغوا عنا قومنا إنّا قد لقينا ربّنا فرضي عنّا	٦٠٠
٣٣٢	صح م	الشهداء ... (أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقه بالعرش	٦٠١
٣٣٢	صح	ما من نفس تموت لها عند الله خير ، يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلاّ الشهيد ...)	٦٠٢
٣٣٢	صح فق	إن أبا جابر هو عبد الله بن عمرو بن حرام الانصاري ...	٦٠٣
٣٣٣	صح	أعلمت أن الله أحيا أباك فقال له : تمنَّ فقال له : أردّ إلى الدنيا	٦٠٤
٣٣٣	صح فق	سمعت جابراً قال: لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه	٦٠٥
٣٣٣	صح	لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر	٦٠٦
٣٣٣	صح	نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنّة حتى يرجعَه الله إلى جسده	٦٠٧
٣٣٤		والذي نفسي بيده لقد سوِّمت لهم حجارة لو أصبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب	٦٠٨
٣٣٧	صح بخ	من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مُثّل له يوم القيامة شجاع أقرع	٦٠٩
٣٣٩	.	موضع سوطٍ في الجنّة خير من الدنيا وما فيها	٦١٠

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٧٨	مرسل	البيع عن تراض والخيار بعد الصفقة ولا يحل لمسلم أن يغش مسلماً ...	٦٩٠
٣٧٨	صح فق	البيّعان بالخيار ما لم يتفرقا	٦٩١
٣٧٩	صح بخ	اذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا	٦٩٢
٣٧٩	صح	لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل قال : احتلمت في ليلة باردة ...	٦٩٣
٣٧٩	صح	من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه يوم القيامة...	٦٩٤
٣٨٠	صح	أتدري ما يوم الجمعة ؟ » قلت هو اليوم الذي جمع فيه أباكم ...	٦٩٥
٣٨٠	صح	خطبنا رسول الله ﷺ يوما فقال « والذي نفسي بيده » ثلاث مرات ثم اكب ...	٦٩٦
٣٨٠	صح فق	« اجتنبوا السبع الموبقات » قيل يا رسول ما هن ؟ قال « الشرك بالله ...	٦٩٧
٣٨٢	صح	قالت أم سلمة يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزوا ...	٦٩٨
٣٨٢	صح	قالت أم سلمة يا رسول الله لا نقاتل فنستشهد ...	٦٩٩
٣٨٢	صح	لا حسد إلاّ في اثنتيْن رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هكلته بالحقّ ...	٧٠٠
٣٨٢	.	سلوا الله من فضله ، فإن الله يحبُّ أن يسأل ...	٧٠١
٣٨٣	صح بخ	ولكلّ جعلنا موالي) أي ورثة	٧٠٢
٣٨٣	صح	كلُّ حلفٍ في الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلاّ شدة ...	٧٠٣
٣٨٤	صح بخ	لن يفلح قوم ولو أمرهم إمرأة	٧٠٤
٣٨٤	للنظر	أتى رسول الله ﷺ رجل من الأنصار بامرأة فقلت يا رسول الله ان زوجها ...	٧٠٥
٣٨٤	صح	خير النساء امرأة إذا نظرت اليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ...	٧٠٦
٣٨٤	صح	لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ...	٧٠٧

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٨٤	صح فق	إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة ...	٧٠٨
٣٨٥	صح	يا رسول الله ما حقّ امرأة أحد عليه قال : أن تطعمها إذا طعمت	٧٠٩
٣٨٥	صح م	واتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان	٧١٠
٣٨٦	صح	أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم ...	٧١١
٣٨٧	صح	الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة	٧١٢
٣٨٧	صح فق	ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . . .	٧١٣
٣٨٧	.	خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران ...	٧١٤
٣٨٧	صح بخ	إن لي جارين فالى أيهما أهدي ؟ قال : إلى أقربهما باباً »	٧١٥
٣٨٧	صح	الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم	٧١٦
٣٨٧	صح م	إن له قهرمان قال له : هل أعطيت الرقيق قوتهم ؟	٧١٧
٣٨٧	صح	إياك وإسبال الإزار فان إسبال الإزار من المخيلة	٧١٨
٣٨٨		وأي داء أدوأ من البخل	٧١٩
٣٨٨	صح	إياكم والشحّ فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالقطيعة .	٧٢٠
٣٨٨	صح	إن الله إذا أنعم نعمةً على عبدٍ أحبَّ أن يظهرَ أثرُها عليه . .	٧٢١
٣٨٩	صح فق	فيقول الله عز وجل ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان	٧٢٢
٣٨٩		إن الله يجزي بالحسنه ألف ألف حسنة	٧٢٣
٣٩٠	صح بخ	« إقرأ عليّ » فقلت يا رسول الله أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال نعم	٧٢٤
٣٩٠	صح	شهيد عليهم ما دمت فيهم فإذا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم	٧٢٥
٣٩١	صح	لا يقربنّ الصلاة سكران	٧٢٦
٣٩١	صح م	نزلت في أربع آيات ، صنع رجل من الانصار طعاماً فدعا أناساً من المهاجرين	٧٢٧
٣٩١	صح	صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر	٧٢٨
٣٩٢	صح بخ	إذا نعس أحدكم وهو يصلي فلينصرف وليتم حتى يعلم ما يقول	٧٢٩

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٩٢	صح	وفي بعض ألفاظه: فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه . . .	٧٣٠
٣٩٢	صح	ناوليني الخمرة من المسجد فقلت : إني حائض فقال حيضتك ليست في يدك	٧٣١
٣٩٢	صح	الصعيد الطيّب طهور المسلم وإن لم تجد الماء عشرَ حجج ...	٧٣٢
٣٩٢	صح	رأيت رجالاً من الصحابة َصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون	٧٣٣
٣٩٣	صح	واليد زناها اللمس	٧٣٤
٣٩٣	صح فق	إن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الملامسة	٧٣٥
٣٩٤	منقطع	أن رجلا أصاب امرأة فعل معها كل شيء إلاّ الجماع فسأل رسول الله ﷺ عن ذلك توضأثم صل	٧٣٦
٣٩٤	صح	ما من عبد يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلاّ غفر الله له	٧٣٧
٣٩٤	صح	كان رسولُ الله ﷺ يتوضأ ثم يقبّل ثم يصلي ولا يتوضأ	٧٣٨
٣٩٤	صح	إنّ رسول الله ﷺ قبّل بعض نسائه ولم يتوضأ ، قلت : من هي إلاّ أنتِ فضحكت	٧٣٩
٤٩٤	صح	أن رسول الله ﷺ كان يقبّلها وهو صائم لا يفطر ولا يحدث وضوء	٧٤٠
٣٩٤	صح	إنه كان يقبل ثم لا يصلي ولا يتوضأ	٧٤١
٣٩٥	صح م	فضلّنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة	٧٤٢
٣٩٥	صح	الصعيد الطيّب طهور المسلم إن لم يجد الماء عشر حجج . .	٧٤٣
٣٩٥	صح	أن رجلاً أتى عمر ، فقال : إني أُجنبت فلم أجد ماء ...	٧٤٤
٣٩٥	صح	قال في التيمم « ضربة للوجه والكفين	٧٤٥
٣٩٥	صح فق	أعطيتُ خمساً لم يعطهنّ أحدٌ قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ،	٧٤٦
٣٩٦	صح بخ	خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أوبذات الجيش انقطع عقد لي.... (حديث التيمّم).	٧٤٧
٣٩٨	٧٤٨	**الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر الله، وظلم يغفره الله و... . .**	**٧٤٨**

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٩٠	صح	إن رسول الله ﷺ قال ما من عبد قال لا إله الا الله ثم مات على ذلك ، إلا دخل الجنة ...	٧٤٩
٣٩٩	صح	إن النبيَّ ﷺ قال لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع الحجاب	٧٥٠
٣٩٩	.	قال الله عز وجل : من علم إني ذو قوة على مغفرة الذنوب . غفرت له ولا أبالي ...	٧٥١
٣٩٩	صح	أقرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة ...	٧٥٢
٣٩٩	صح فق	قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال ان تجعل لله نداً وهو خلقك	٧٥٣
٣٩٩	.	ان رسول الله ﷺ قال : ألا أخبركم بأكبر الكبائر ، الإشراك بالله	٧٥٤
٤٠٠	صح م	أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب	٧٥٥
٤٠٠	صح فق	ان رسول الله سمع رجلاً يثني على رجل فقال : ويحك قطعت عنق صاحبك ...	٧٥٦
٤٠٠	صح	من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ...	٧٥٧
٤٠١	صح	الطيرةُ والعيافةُ والطرْقُ من الجبت	٧٥٨
٤٠١	صح	إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت	٧٥٩
٤٠٣	.	وقرأ رجُل عند عمر هذه الآية فقال عمر أعِدْها عليَّ فأعادها	٧٦٠
٤٠٣	صح	إن في الجنة الشجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها ــ شجرة الخلد	٧٦١
٤٠٣	صح	أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك	٧٦٢
٤٠٣	صح	أنّ رسول الله ﷺ قال : لتؤدَّنَّ الحقوق إلى أهلها حتى يقتصّ للشاة الجمّاء من القرناء)	٧٦٣
٤٠٣	صح	لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، صدَق وعده ، ونصر عبدَه وهزم الأحزاب وحدَه ...	٧٦٤
٤٠٤	حسن	إن الله مع الحاكم مالم يَجُرْ فإذا جار وكّله إلى نفسه	٧٦٥
٤٠٤	صح	هكذا سمعت من رسول الله ﷺ يقرأها ويضع أصبعيه	٧٦٦
٤٠٤	صح بخ	نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية ...	٧٦٧

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٢١	صح م	قال لها رسول الله ﷺ : أين الله ؟ قالت . في السماء	٨٠٣
٤٢٢	صح فق	إقتتلتْ امرأتان من هذيل . فرمت إحداهما الآخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها	٨٠٤
٤٢٣	صح	قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض وعشرين بني مخاض و	٨٠٥
٤٢٣	صح	بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ، فدعاهم إلى الاسلام	٨٠٦
٤٢٣	صح فق	أول ما يقضي بين الناس يوم القيامة في الدماء	٨٠٧
٤٢٣	.	لا يزال المؤمن معنقاً صالحاً ما لم يصب دماً حراماً	٨٠٨
٤٢٣	.	لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم — لأكبّهم الله في النار	٨٠٩
٤٢٣	صح	لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم	٨١٠
٤٢٤	صح فق	خبر الإسرائيلي الذي قتل مئة نفس ثم سأل عالماً هل لي من توبة	٨١١
٤٢٤	صح	يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرّة من إيمان .	٨١٢
٤٢٤	صح	كلّ ذنبٍ عسى الله أن يغفره إلاّ الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً	٨١٣
٤٢٥		إنّ صاحباً لنا قد أوجب قال : فليعتق رقبة يفدي الله بكل عضوٍ منها	٨١٤
٤٢٦	صح	مرَّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب رسول الله ﷺ يرعى غنماً له فسلم عليهم	٨١٥
٤٢٦	صح بح	أسباب نزول قوله تعالى : (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام	٨١٦
٤٢٦	صح بخ .	دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها ، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته	٨١٧
٤٢٧	صح بخ	... أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد قال : فأقبلتُ حتى جلستُ	٨١٨

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٢٧	صح	لا يستوي القاعدون من المؤمنين ... أسباب نزولها . . .	٨١٩
٤٢٧	صح	إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسيرٍ ولا قطعتم من واد . .	٨٢٠
٤٢٨	صح فق	إن في الجنة مئة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ...	٨٢١
٤٢٨	صح بخ	أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم	٨٢٢
٤٢٨		من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله	٨٢٣
٤٢٨	صح	لما أسر العباس وعقيل ونوفل قال رسول الله ﷺ للعباس « أفد نفسك	٨٢٤
٤٢٩	صح بخ	اللهم أنج عياش بن ربيعة ، اللهم انج سلمة بن هشام ، ...	٨٢٥
٤٢٩	صح فق	إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى	٨٢٦
٤٣٠	صح	من خرج من بيته مجاهداً في سبيل الله	٨٢٧
٤٣٠	صح	خرج حمزة بن جندب إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق	٨٢٨
٤٣١	غريب	من خرج حاجّاً فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ..	٨٢٩
٤٣١	صح م	صدقة تصدّق بها الله عليكم فاقبلوا صدقته	٨٣٠
٤٣١	صح	صلّينا مع رسول الله ﷺ بين مكّة والمدينة ونحن آمنون لا نخاف	٨٣١
٤٣١	صح بخ	خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكّة فكان يصلّي ركعتين	٨٣٢
٤٣١	صح بخ	صلّى بنا رسول الله ﷺ آمن ما كان بمنى ركعتين	٨٣٣
٤٣١	صح فق	صليتُ مع رسول الله ﷺ ركعتين وأبي بكر وعمر وعثمان صدراً من أمارته	٨٣٤
٤٣١	صح فق	فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر	٨٣٥
٤٣٢	صح م	صلاة السفر ركعتان ، وصلاة الأضحى ركعتان	٨٣٦
٤٣٢	صح م	فرض الله الصلاة على لسان نبيّكم محمد ﷺ في الحضر أربعا	٨٣٧
٤٣٣	صح	سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال ركعتان تمام غير قصر ..	٨٣٨
٤٣٤	غريب	أسباب نزول الآية ﴿ وإذا ضربتم في الأرض ... ﴾ . . .	٨٣٩
٤٣٤	صح	كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان فأستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد	٨٤٠

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٥٢		من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر	٨٦٢
٤٥٤	صح	إن الله يأمر بالعبد إلى الجنة فيما يبدو للناس ويعدل به إلى النار	٨٦٣
٤٥٤	صح فق	أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر . . .	٨٦٤
٤٥٤	صح	والذي نفسي بيده لو علم أحدهم أنه يجد عِرْقاً سميناً أو مرماتين	٨٦٥
٤٥٤	صح م	تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان	٨٦٦
٤٥٤	.	مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين	٨٦٧
٤٥٥	صح	أخلص دينك يكفك العمل القليل	٨٦٨
٤٥٦		لا تسبخي عنه	٨٦٩
٤٥٦	صح	أيّما مسلم ضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً	٨٧٠
٤٥٦	صح	إنّ لي جاراً يؤذيني فقال له أخرج متاعك فضعه على الطريق	٨٧١
٤٥٧	صح	ما نقص مال من صدقه ، ولا زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزا ...	٨٧٢
٤٦٣	صح بخ	والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً	٨٧٣
٤٦٣	صح بخ	يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، يقتل الدجال.	٨٧٤
٤٦٤	صح م	ليهلّنّ عيسى بن مريم بفجّ الروحاء بالحج أو العمرة ...	٨٧٥
٤٦٤	صح بخ	(كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح بن مريم وإمامكم منكم)	٨٧٦
٤٦٤	صح	الأنبياء إخوة لعلاّت أمهاتهم شتّى ودينهم واحد... . . .	٨٧٧
٤٦٤	صح م	ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع	٨٧٨
٤٦٦	صح	يقتل ابن مريم المسيح الدجال بباب لد ــ أو جانب لد ــ ...	٨٧٩
٤٦٦	صح	أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة ونحن نتذاكر الساعة.	٨٨٠
٤٦٦	صح	فقالت أم شريك : يا رسول الله ، فأين العرب يومئذٍ ؟ قال : هم قليل	٨٨١

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٦٧	صح	وأراني الله عند الكعبة في المنام ، وإذا رجل آدم كأحسن ما ترى	٨٨٢
٤٦٨	صح	إن عيسى عليه السلام يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة	٨٨٣
٢٧٠	ص	إني لخاتم ألف نبيّ أو أكثر	٨٨٤
٤٧١		قلت يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ قال « ثلاثمئة وثلاثة عشر جم غفير	٨٨٥
٤٧١	صح	إني خاتم الف نبيّ أو أكثر وما بعث نبيٌّ يتّبع إلاّ وقد حذر امته منه – أي من الدجال	٨٨٦
٤٧١	صح	جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال سمعت رجلاً يقرأ « وكلّم اللهَ موسى تكليما	٨٨٧
٤٧١	صح فق	لا أحد أغير من الله . من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن	٨٨٨
٤٧٣	.	دخل عليّ رسول الله جماعة من اليهود فقال لهم : إني لأعلم والله أنكم لتعلمون أني رسول الله	٨٨٩
٤٧٤	صح بخ	لا تطروني كما أطرتُ النصارى عيسى بن مريم	٨٩٠
٤٧٤	صح	أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينّكم الشيطان	٨٩١
٤٧٤	صح بخ	من شهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله	٨٩٢
٤٧٥	صح فق	زاد : من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيّها شاء	٨٩٣
٤٧٥	صح	فأدخل على ربّي في داره....	٨٩٤
٤٧٧	.	القرآن صراط الله المستقيم وحبل الله المتين	٨٩٥
٤٧٧	صح فق	دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل . قال : قال : فتوضأ ثم صبّ عليّ	٨٩٦
٤٧٨	صح فق	ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة	٨٩٧
٤٧٩	صح	أنه سئل عن زوج ، وأخت وأب وأم. فأعطى الزوج النصف	٨٩٨
٤٧٩	صح بخ	قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ النصف للبنت	٨٩٩

انتهى المجلد الأول ويليه المجلد الثاني

(٥) سُورَةُ المائِدَة مَدَنِيَّة وآياتها عشرون ومائة

(نزلت بعد سورة الفتح)

روى ابن مردويه عن أم عمر وعن عمها ١ [أنه كان في مسير مع رسول الله ﷺ فنزلت عليه سورة المائدة فانْدقَّ عنقُ الراحلة من ثقلها .]

روى الحاكم عن جبير بن نفير قال : ٢ [حججت فدخلت على عائشة فقالت لي : يا جُبير ، تقرأ المائدة ؟ فقلت : نعم . فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت (١) ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم فيها من حرام فحرّموه.] ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

ورواه الإمام أحمد عن معاوية بن صالح وزاد : ٣ [وسألتُها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : القرآن] . ورواه النسائي من حديث ابن مهدي .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نصف الحزب

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝ (١) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ

---

(١) وروي عن ابن عباس أنه قال : آخر سورة نزلت «إذا جاء نصر الله والفتح » فتلك من الأحكام ، وهذه من السور

يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ❁ (٢)

روى ابن أبي حاتم عن معن وعوف، أو أحدهما ، أن رجلاً أتى ابنَ مسعود فقال : أعهدْ إليّ ؛ فقال : إذا سمعتَ الله يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأرعِها سمعك ، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه . وقوله تعالى : ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : يعني العهود .

والعهود يعني ما أحلّ الله وما حرّم ، وما فرض وما حدّ في القرآن كله ، ولا تغدروا ولا تنكثوا ، ثم شدّد فقال تعالى : ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ ويدخل في ذلك كافة العقود : كعهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين . وقوله تعالى: ﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعام ﴾ هي الإبل ، والبقر والغنم. وقد استدل ابن عمر وابن عباس وغير واحد بهذه الآية، على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذبحت. فقد روى أبو داود والترمذي وابن ماجه ، عن أبي سعيد قال : قلنا : ٤ [يا رسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين ، أنلقيه أم نأكله ؟ فقال : « كلوه إن شئتم فإن ذكاته ذكاة أمه »] وقال الترمذي : حديث حسن .

وقوله تعالى : ﴿ إلاّ ما يتلى عليكم ﴾ أي إلاّ ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال . والمراد بذلك قوله تعالى : ﴿ حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع ﴾ وقوله: ﴿ غير محلّي الصيد وأنتم حُرُم ﴾ والمراد بالأنعام ما يعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم ويعم الوحشي ، كالظباء والبقر الوحشي، والحمر . فاستثنى من الإنسي ما تقدم ،

واستثنى من الوحشي الصيد في حال الإحرام ، أي كما أحللنا الأنعام في جميع الأحوال فحرّموا الصيد في حال الإحرام فإن الله قد حكم بهذا . وهو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إن اللهَ يحكم ما يريد ﴾ ثم قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحلّوا شعائر الله ﴾ قال ابن عباس يعني بذلك مناسك الحج ﴿ ولا الشهر الحرام ﴾ يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه ، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال وتأكيد اجتناب المحارم ، وقوله تعالى : ﴿ ولا الهدْي ولا القلائد ﴾ يعني لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام ، فإنّ فيه تعظيمَ شعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميَّزَ به عمّا عداها من الأنعام ، وليُعلمَ أنها هدْيٌ إلى الكعبة ، فيجتنبها من يريدها بسوء ، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها ، فإن من دعا إلى هدي كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ولهذا لما حجّ رسول الله ﷺ بات بذي الحليفة ، وهو وادي العقيق. فلما أصبح طاف على نسائه وكُنَّ تسعاً ، ثم اغتسل وتطيّب وصلى ركعتين (١) ، ثم أشعر هديه وقلّده ، وأهلَّ للحج والعمرة ، وكان هديه إبلاً كثيرة تنيف على الستين، من أحسن الأشكال والألوان. كما قال تعالى : ﴿ ذلك ومن يعظّم شعائر الله فإنّها من تقوى القلوب ﴾ قال علي بن أبي طالب : ٥ [أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرفَ العين والأذن] ، رواه أهل السنن .

وقوله تعالى : ﴿ ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً ﴾ أي ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام، الذي من دخله كان آمناً. وكذا من قصده طالباً فضلَ الله، وراغباً في رضوانه، فلا تصدّوه . قال مجاهد وجماعة من التابعين وغيرهم، في قوله تعالى : ﴿ يبتغُون فضلاً من ربهم ﴾ أي التجارة. وهذا كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أُن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ورضواناً ﴾ قال ابن عباس : يترضون الله بحجّهم. وإن هذا الحكم نزل في حق بعضَ المشركين ثم نسخ في حقهم والله أعلم . فأما من قصده بالإلحاد فيه، والشرك عنده والكفر به، فهذا يمنع . قال الله تعالى : ﴿ إنما المشركون نجس. فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع لما أمَّر الصديقَ على الحجيج علياً وأمره أن ينادي نيابةً عن رسول الله ﷺ ببراءة (٢) وأن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾ أي إذا فرغتم من إحرامكم ، وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم ، في حال الإحرام من الصيد وهذا أمر بعد الحظر .

---

(١) لعلها ركعتا الصبح . (٢) أي سورة براءة

والصحيح أنه يرد الحكمُ إلى ما كان عليه قبل النهي.فإن كان واجباً فواجب . أو مستحباً فمستحب . أو مباحاً فمباح. وقوله تعالى: ﴿ولا يجرمنّكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أَن تعتدوا﴾ أي لا يحملنكم بغضُ قوم قد كانوا صدّوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام وذلك عام الحديبية،على أن تعتدوا حكمَ الله فيهم، فتقتصّوا منهم ظلماً وعدواناً ، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل،في حق كل أحد . روى ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : ٦ [كان رسول الله ﷺ بالحديبية واصحابه حين صدّهم المشركون عن البيت وقد اشتد ذلك عليهم ، فمرَّ بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة ، فقال أصحاب النبي ﷺ : نصد هؤلاء كما صدّنا أصحابهم فأنزل الله هذه الآية .] وقوله تعالى : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر ، وترك المنكرات وهو التقوى . وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ٧ [« أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قيل : يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال : « تحجزه وتمنعه من الظلم فذاك نصره »] أخرجاه من طريق ثابت عن أنس .

وفي الصحيح : ٨ [من دعا إلى هدي كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة لا يُنقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الأثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة لا يُنقص ذلك من آثامهم شيئاً]روى ابو القاسم الطبراني عن أبي الحسن نمران بن صخر أن رسول الله ﷺ قال ٩[من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم انه ظالم فقد خرج من الإسلام]

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِٱلْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٣)

ينهي الله عباده عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة ، وهي ماماتت من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد ، لما فيها من المضرة من الدم المحتقن فهي ضارة للدين وللبدن ، فلهذا حرمها الله عز وجل ويستثنى من الميتة السمك ، فإنه حلال سواءً مات بتذكية أو غيرها ، لما رواه مالك والشافعي وأحمد وأُبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر ، فقال : ١٠ [هو الطهور ماؤه الحل ميتته] وهكذا الجراد ، لما سيأتي من الحديث.

وقوله تعالى : ﴿ والدم ﴾ يعني به المسفوح ، كقوله تعالى : ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ قاله ابن عباس وغيره روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن الطحال فقال : كلوه ، فقالوا : إنه دم.فقال : إنما حرم عليكم الدم المسفوح.وكذا رواه حماد عن عائشة : انما نهي عن الدم السافح . وروى الشافعي عن ابن عمر مرفوعاً قال قال رسول الله ﷺ ١١ [أحل لكم ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالسمك والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال .]

قال الأعشى : وإياك والميتات لا تقربنّها ولا تأخذنْ عظماً حديداً فتفصدا

أي لا تفعل فعل الجاهلية ، وكان أحدهم إذا جاع يأخذ شيئاً محدّداً من عظم ونحوه ، فيفصد به بعيره فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه . ولهذا حرم الله الدم على هذه الأمة .

قوله تعالى : ﴿ ولحم الخنزير ﴾ يعني إنسيّه ووحشيّه ، واللحم يعمّ جميع أجزائه حتى الشحم ولا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية وإعادة الضمير على الخنزير في قوله تعالى : ﴿ إلاّ أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس ﴾ فالهاء من : ﴿ فإنه ﴾ يعيدونها على لفظ الخنزير حتى يعم معنى الرجس سائر الخنزير لحمه وشحمه وكل جزء .. فلا حاجة إلى ذلك ، لأن مجرد قوله تعالى : ﴿ فإنه رجس ﴾ فيعم اللحم وسائر أجزائه . فإن قول الظاهرية من أن الضمير عائد على الخنزير ، فهذا بعيد من حيث اللغة فإنه لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه ، والأظهر ان اللحم يعم جميع الأجزاء،كما هو المفهوم من لغة العرب ، ومن العرف المطرد . وفي صحيح مسلم عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ قال : ١٢ [من لعب بالنردشير ، فكأنما

صبغ يده في لحم الخنزير ودمه] وفيه دليل على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره .(١)

وقوله تعالى : ﴿ وما أهلّ لغير الله به ﴾ أي ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله ، فهو حرام لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم ، فمتى عُدل بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات ، فإنها حرام بالإجماع ، إنما اختلف العلماء في متروك التسمية إما عمداً أو نسياناً كما سيأتي تقريره في سورة الأنعام إن شاء الله .

روى ابن أبي حاتم عن الجارود بن أبي سبرة ، قال هو جدّي (٢) قال : كان رجل من بني رباح يقال له ابن وائل ، وكان شاعراً ، نافر غالباً أبا الفرزدق بماء بظهر الكوفة على أن يعقر هذا مائة من إبله وهذا مائة من إبله اذا وردت الماء فلما وردت الماء قاما إليها بسيفيهما فجعلا يكشفان عراقيبها ، قال : فخرج الناس على الحمرات والبغال يريدون اللحم ، قال : وعليٌّ بالكوفة قال : فخرج علي على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وهو ينادي : يا أيها الناس لا تأكلوا من لحومها فإنها أُهِلَّ بها لغير الله . هذا أثر غريب ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود عن ابن عباس قال : ١٣ [نهى رسول الله ﷺ عن معاقرة الأعراب] وقال أبو داود عن عكرمة قال : ١٤ [إن رسول الله ﷺ نهى عن طعام المتباريين أن يؤكل .] ثم قال أبو داود أكثر من رواه غير ابن جرير لا يذكر فيه ابن عباس تفرد به ابو داود .

وقوله تعالى : ﴿ والمنخنقة ﴾ وهي التي تموت بالخنق قصداً أو اتفاقاً فهي حرام . ﴿ والموقوذة ﴾ فهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدَّدٍ حتى تموت . كما قال ابن عباس وغير واحد : هي التي تضرب بالخشبة حتى يوقذها فتموت . وفي الصحيح ان عدي بن حاتم قال : ١٥ [قلت : يا رسول الله إني أرمي بالمعراض الصيدَ فأصيب ؛ قال : « إذا رميت بالمعراض فخزق فكله ، وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيذ ، فلا تأكله »] ففرق بين ما أصابه بالسهم أو بالمزراق ونحوه بحده ، فأحلّه . وما أصاب بعرضه فجعله وقيذاً لم يحله . وهذا مجمع عليه عند الفقهاء ، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله ولم يجرحه ، على قولين ، هما قولان للشافعي رحمه الله (أحدهما) لا يحل كما في السهم

(١) وفيه دليل على تغليظ حرمة اللعب بالنردشير وهو : الطاولة ، والضومنو و ورق الإسكمبيل، والمنقلة، والبرجيس ولو للتسلية . .

(٢) القائل هو عبد الله، والجارود يكون جده .

والجامع أن كلاً منهما [١] ميت بغير جرح فهو وقيذ (والثاني) إنه يحل لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب ولم يستَفْصِلْ ، فدل على إباحة ما ذكرناه لأنه قد دخل في العموم .

* * *

(فصل) اختلف العلماء رحمهم الله تعالى فيما إذا أرسل كلباً على صيد فقتله بثقله، ولم يجرحه أو صدمه : هل يحل أم لا على قولين (أحدهما) أن ذلك حلال لعموم قوله تعالى : ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم ﴾ ، وكذا عمومات حديث عدي بن حاتم . (والقول الثاني) : ان ذلك لا يحل وهو أحد القولين عن الشافعي رحمه الله . اختاره ورجحه كثير من الأئمة وهذا القول أشبه بالصواب ، والله أعلم • واحتج ابن الصباغ له بحديث رافع بن خديج ١٦ [قلت يا رسول الله ، إنا لاقو العدو غداً ، وليس معنا مدًى ، أفنذبح بالقصب ؟ قال : « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه »] والحديث بتمامه [٢] ، وهو في الصحيحين وهذا وإن كان وارداً على سبب خاص فالعبرة بعموم اللفظ عند جمهور من العلماء في الأصول والفروع ؛ فما صدمه الكلب أو غمّه بثقله ليس مما أنهر الدم ، فلا يحل لمفهوم هذا الحديث إنما لا بد من إنهار الدم بآلة ليست سناً ولا ظفراً ، هذا مسلك ...

والمسلك الثاني : طريقة المُزَنيّ ، وهي أن السهم جاء التصريح فيه بأنه إن قتل بعرضه فلا تأكل ، وإن خزق فكل ، والكلب جاء مطلقاً ، فيحمل على ما قيد هناك من الخزق ، لأنهما اشتركا في الموجب وهو الصيد ، فيجب الحمل هنا وإن اختلف السبب . وله أن يقول هذا قتله الكلب بثقله فلم يحل ، قياساً على ما قتله السهم بعرضه ، والجامع أن كلاً منهما آلة للصيد ، وقد مات بثقله فيهما ، ولا يعارض ذلك بعموم الآية ، لأن القياس مقدم على العموم ، كما هو مذهب الأئمة الأربعة والجمهور ؛ وهذا مسلك حسن .

مسلك آخر : إن آية التحريم ، أعني قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ إلى آخرها محكمة لم يدخلها نسخ ولا تخصيص ، وكذا ينبغي أن تكون آيةُ التحليل محكمةً أعني قوله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا أُحِل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾ الآية فينبغي أن لا يكون : بينهما تعارض أصلاً ، وتكون السنّة جاءت لبيان ذلك ؛ وشاهد ذلك قصة السهم فإنه ذكر حكم ما دخل في هذه الآية ، وهو ما خزقه المعراض فيكون حلالاً ، لأنه من الطيبات ، وما دخل في حكم تلك الآية ، آية التحريم ، وهو ما إذا أصابه بعرض فلا

(١) أي الصيد بالسهم عرضاً أو الصيد بثقل الجارحة ، كلاهما ميت بغير جرح . (٢) تمام الحديث في الحديث رقم / ١٩/ لمراجعته لمن يشاء .

يؤكل لأنه وقيذ فيكون أحدَ أفراد آية التحريم وهكذا يجب أن يكون حكم هذا سواءً إن كان قد جرحه الكلب فهو داخل في حكم آية التحليل ، وان لم يجرحه بل صدمه أو قتله بثقله ، فهو نطيح أو في حكمه فلا يكون حلالاً .

والكلب من شأنه أنه قد يأكل من الصيد،لذا فقد ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد فقال : ١٧ [إن أكل فلا تأكلْ ، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه] وهذا صحيح ثابت في الصحيحين ؛ وهو أيضاً مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين فقالوا : لا يحل ما أكل منه الكلب . حكي ذلك عن أبي هريرة وابن عباس وبه قال جماعة من التابعين وأبي حنيفة وابن حنبل والشافعي في المشهور عنه .

وروى ابن جرير في تفسيره عن علي وسعيد وسلمان وأبي هريرة وغيرهم : يؤكل ولو لم يبق منه إلاّ بضعة ؛ وإلى ذلك ذهب مالك ، والشافعي في قوله القديم .

وروى ابن جرير أيضاً عن سلمان الفارسي ، عن رسول الله ﷺ قال : ١٨ [إذا ارسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه وقد أكل منه ، فليأكل ما بقي] ثم علله ابن جرير بأنه موقوف على سلمان .

فأما الجوارح من الطيور لا يحرم أكل ما أكلت منه وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد قالوا لأنه لا يمكن تعليمها كما يعلمُ الكلبُ بالضرب ونحوه ، وأيضاً فإنها لا تعلم الا بأكلها من الصيد فيعفى عن ذلك ، وأيضاً فالنص إنما ورد في الكلب لا في الطير . وأما المتردية : فهي التي تقع من شاهق أو من موضع عال فتموت بذلك، فلا تحل. وأما النطيحة : فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهي حرام، وإن جرحها القرن وخرج منها الدم، ولو من مذبحها . وقوله تعالى : ﴿ وما أكل السبع ﴾ أي ما عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب ، فأكل بعضها فماتت بذلك ، فهي حرام وإن كان قد سال منها الدم،ولو من مذبحها فلا تحل بالإجماع وقدكان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع فحرم الله ذلك على المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ إلا ما ذكيتم ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه، مما انعقد به سبب موته، فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة والمراد يعني : إلاّ ما ذكيتم من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع . روى ابن أبي حاتم عن علي في الآية قال : إن مصعت بذنبها،أو ركضت برجلها،أو طرفت بعينها،فكُلْ .

وقد روي عن طاووس وغيرُه من التابعين أُن المذكّاة متى تحركتْ بحركةٍ تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح،فهي حلال . وهذا مذهب جمهور الفقهاء .

وفي الصحيحين عن رافع بن خديج إنه قال : ١٩ [قلت : يا رسول الله ، إنّا لاقو العدو غداً وليس معنا مِدَى ، أفنذبح بالقصب ؟ فقال : « ما أنهر الدم ، وذكر اسم الله عليه فكلوه ليس السن والظفر ، وسأحدثكم عَن ذلك : أما السن فعظم ، وأما الظفر فمدى الحبشة »] وعن عمر موقوفاً وفي الحديث الذي رواه أحمد وأهل السنن عن أبي العشراء الدارمي عن أبيه قال : ٢٠ [قلت يا رسول الله أما تكون الذكاة إلا من اللبة والحلق ؟ فقال « لو طُعنتْ في فخذها لأجزأ عنك »] وهو حديث صحيح ولكنه محمول على ما لا يقدر على ذبحه في الحلق واللبة . (١)

وقوله تعالى : ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ قال مجاهد وابن جريج : كانت النصب حجارة حول الكعبة ، وهي ثلثمائة وستون نصباً كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت،بدماء تلك الذبائح.ويشرحون اللحم،ويضعونه على النصب ، وكذا ذكره غير واحد . فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع،وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فُعِلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها،اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك الذي حرّمه الله ورسوله ، وينبغي أن يحمل هذا على هذا ، لأنه قد تقدم تحريم ما أُهلّ لغير الله به . وقوله تعالى : ﴿ وأن تستقسموا بالأزلام ﴾ أي حرّم عليكم أيها المؤمنون ان تستقسموا بالأزلام واحدها زلم وقد تفتح الزاي ، فيقال زَلم ، وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك ، وهي عبارة عن قداح ثلاثة ، على أحدها مكتوب : افعل ، وعلى الآخر : لا تفعل ، والثالث غُفْلٌ ليس عليه شيء . فإذا آجالها فطلع سهم الأمر فعله ، أو النهي تركه ، وإن طلع الفارغ أعاد ؛ والاستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام هكذا قرر أبو جعفر بن جرير وقال ابن عباس : ﴿ وان تستقسموا بالأزلام ﴾ قال والأزلام قداح كانوا يستقسمون بها في الأمور وفي الصحيحين : ٢١ [ان النبي ﷺ لما دخل الكعبة ، وجد إبراهيم واسماعيل مصورين فيها ، وفي أيديهما الأزلام فقال « قاتلهم الله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبداً »]

وروى ابن مردويه عن ابي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ ٢٢ [لن يلج الدرجات من تكهن أو استقسم أو رجع من سفرٍ طائراً] (ذلكم فسق) أي تعاطيه فسق

---

(١) فهم جيد ، واستدراك مهم .

وعيّ وضلالة وجهالة وشرك ولا شك ... وقد أمر الله المؤمنين إذا تردّدوا في أمورهم، أن يستخيروه بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه . كما روى الإمام البخاري وأهل السنن عن جابر بن عبدالله قال : ٢٣ [كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن ، ويقول : « إذا هم أحدكم بالإمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني استخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم ان هذا الأمر، ريسميه باسمه،خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري أو قال : - عاجل أمري وآجله - فأقدره لي ويسره لي ، ثم بارك لي فيه ، اللهم وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفني عنه واصرفه عني وأقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضّني به »] لفظ أحمد .

وقوله تعالى : ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ﴾ أي يئسوا من مشابهة المسلمين لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله ، ولهذا قال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار ، ولا يخافوا أحداً إلاّ الله.فقال تعالى : ﴿ فلا تخشوهم واخشون ﴾ أي لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم واخشوني أنصركم عليهم وأبدهم وأظفركم بهم ، وأشف صدوركم منهم،وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة . وقوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة،حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ، ولا إلى نبيّ غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن فلا حلال إلا ما أحلّه ، ولا حرام إلاّ ما حرّمه ولا دين إلاّ ما شرعه ، وكل شيء أخبر به فهو الحق والصدق لا كذب فيه ولا خلف ، كما قال تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا ﴾ أي صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأوامر والنواهي ، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ أي فارضوه أنتم لأنفسكم ، فانه الدين الذي رضيه الله وبعث به أفضل الرسل الكرام ، وأنزل به أشرف كتبه . وبعد هذه الآية لا يحتاج المؤمنون المسلمون إلى زيادة أبداً ، وقد أتم الله الإسلام فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه فلا يسخطه أبداً . وقد نزلت هذه الآية يوم عرفة ، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام ، ومات رسول الله ﷺ بعد عرفة بأحد وثمانين يوماً .

روى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب قال : ٢٤ [جاء رجل من اليهود إلى عمر

(١) وهو ما يسمى في عصرنا الحاضر : « باليانصب » فإنه قمار واضح ... ولا عبرة لمقصده الخيري ! ! ! فهذا لا يحلل الحرام ، وحكمه كحكم : (مطعمة الأيتام من كد ...)

ابن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين، إنكم تقرأون آيةً في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال وأي آية؟ قال: قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم جمعة.] ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وقد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فمن اضطُرَّ في مخمصةٍ غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾ أي فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك، فله تناوله، والله غفور رحيم له، لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وافتقاره إلى ذلك فيتجاوز عنه ويغفرله وفي المسند وصحيح ابن حبان عن ابن عمر مرفوعاً قال قال رسول الله ﷺ ٢٥ [إن الله يحب أن تؤتى رخصته كما يكره أن تؤتى معصيته] لفظ ابن حبان وفي لفظ لأحمد ٢٦ [من لم يقبلْ رخصةَ الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة]

ولهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان، وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها، وقد يكون مندوباً، وقد يكون مباحاً بحسب الأحوال. واختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد الرمق به، أوله أن يشبع، أو يشبع ويتزود؟ على أقوال كما هو مقرر في كتاب الأحكام، وليس من شرطِ جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم بل متى اضطر إلى ذلك جاز له

• روى ابو داود عن النجيع العامري أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: ٢٧ [ما يحل لنا من الميتة؟ قال « ما طعامكم » قلنا: نصطبح ونغتبق. قال أبو نعيم فسّرهُ لي عقبة قدح غدوة، وقدح عشية قال: ذاك وأبي الجوع وأحل لهم الميتة على هذه الحال.] تفرد به أبو داود وكأنهم كان يصطبحون ويغتبقون شيئاً لا يكفيهم، فأحل لهم الميتة لتمام كفايتهم وقد يحتج به من يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حد الشبع ولا يتقيد ذلك بسد الرمق، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿غير متجانف لإثم﴾ أي غير متعاطٍ لمعصية الله فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر. كما قال في سورة البقرة: ﴿فمن اضطر غير باغٍ ولا عاد فلا إثم عليه إنَّ الله غفور رحيم﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٤)

لما ذكر الله تعالى ما حرّمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها . إمّا في بدنه أو في دينه أو فيهما ، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة كما قال تعالى: ﴿ وقد فصّل لكم ما حرّم عليكم إلاّ ما اضطررتم إليه ﴾ قال بعدها : ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾ كما في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ أنه يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث . روى ابن أبي حاتم عن عدي بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين ، ٢٨ [سألا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها ؟ فنزلت : ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾] قال سعيد : يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم . وقد سئل الزهري عن شرب البول للتداوي فقال : ليس هو من الطيبات [1] رواه ابن أبي حاتم .

وقوله تعالى : ﴿ وما علّمتم من الجوارح مكلّبين ﴾ أي أحلّ لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها ، والطيبات من الرزق ، وأحل لكم ما صدتموه بالجوارح ، وهي الكلاب والفهود والصقور وأشباهها كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة .

والمحكي عن الجمهور : أن الصيد بالطيور كالصيد بالكلاب ، لأنها تكلّب الصيد بمخالبها كما تكلّبه الكلاب فلا فرق وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم واختاره ابن جرير واحتج في ذلك بما رواه عن عدي بن حاتم ، قال : سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي فقال : ٢٩ [ما أمسك عليك فكل] واستثنى الإمام أحمد الكلب الأسودَ . لأنه عنده مما يجب قتله، ولا يحل اقتناؤه. لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال: ٣٠ [يقطع الصلاة الحمارُ والمرأةُ والكلب الأسودُ فقلت: ما بال الكلب الأسود من الأحمر ؟ قال : الكلب الأسود شيطان] وفي الحديث الآخر ٣١ [أن رسول الله ﷺ

(١) لا يعني أنه من المحرمات والمقصود بول الحيوانات التي يؤكل لحمها ، أما بول غير ذلك فمعلوم الحرمة .

أمر بقتل الكلاب ، ثم قال ما بالهم وبال الكلاب ، اقتلوا منها كلّ أسود بهيم] وسميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهنّ جوارح من الجرح ، وهو الكسب ، كما تقول العرب : فلان جرح أهله خيراً ، أي كسبهم خيراً ، ويقولون : فلان لا جارح له أي لا كاسب له • وقال الله تعالى : ﴿ ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ أي ما كسبتم من خير أو شر . وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية الشريفة الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ ٣٢ [ان رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب فقلت فجاء الناس فقالوا : يا رسول الله ما يحل لنا من هذه الأمّة التي أمرت بقتلها فسكت ، فأنزل الله تعالى : « يسألونك ما اذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين » الآية فقال النبي ﷺ « إذا ارسل الرجل كلبه وسمى ، فأمسك عليه فليأكل ما لم يأكل »]

وقوله تعالى : « مكلّبين » أي وما علـّمتم من الجوارح في حال كونهن مكلبات للصيد وذلك أن تقتنصه بمخالبها أو أظفارها ، فيستدل بذلك والحالة هذه على أن الجارح إذا قتل الصيد بصدمته وبمخلابه وظفره أنه لا يحل له ، كما هو أحد قولي الشافعي وطائفة من العلماء ولهذا قال تعالى : ﴿ تعلمونهن مما علمكم الله ﴾ هو أنه إذا أرسله استرسل ، وإذا أشلاه (١) استشلى ، واذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ، ولايمسكه لنفسه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾ فمتى كان الجارح معلماً وأمسك على صاحبه ، وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله ، حل الصيد ، وإن قتله بالإجماع ، وقد وردت السنّة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة ؛ كما ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال : ٣٣ [قلت : يا رسول الله إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر أسم الله ؛ فقال « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكُلْ ما أمسك عليك » فقلت : وإن قتلن ؟ قال « وان قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها ، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسمِّ على غيره » قلت له : فإني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب فقال : « إذا رميت بالمعراض فخزق فكله ، وإن أصابه بعرض فإنه وقيذ، فلا تأكله»] وفي لفظ لهما ٣٤ [إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله فإن أمسك عليك فأدركته حياً ، فاذبحه وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فكله ، فإن أخذَ الكلب ذكاتُه] وفي رواية لهما ٣٥ [فإن أكل فلا تأكلْ فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه] فهذا دليل للجمهور وهو الصحيح من مذهب الشافعي وهو أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً ، ولم

(١) قلت : إذا أشلاه استشلى : أي إذا دعاه أتى .

يستفصلوا كما ورد بذلك الحديث ؛ وحكي عن طائفة من السلف أنهم قالوا : لا يحرم مطلقاً . – أي هناك تفصيل –

﴿ ذكر الآثار بذلك ﴾

ذكرت آثار ثابتة عن سلمان الفارسي وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وابن عمر وهو محكي عن علي وابن عباس تتلخص : في أن الكلب إذا أرسل وكان معلماً فصيده يؤكل إذا أكل الكلب منه أولم يأكل حتى لو أكل ثلثيه فيؤكل الثلث الباقي .

وقد روى ابو داود عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن أعرابياً يقال له أبو ثعلبة قال : يا رسول الله إنّ لي كلاباً مكلّبة فأفتني في صيدها.فقال النبي ﷺ ٣٦ [« إن كان لك كلاب مكلبة ، فكل مما أمسكن عليك » فقال : ذكياً وغير ذكي ، وإن أكل منه قال « نعم وإن أكل منه » فقال يا رسول الله ، أفتني في قوسي ، قال : « كل ما ردت عليك قوسك ، » قال ذكياً وغير ذكي ؟ قال « وإن تغيب عنك ما لم يصل أو تجد فيه أثر غير سهمك » قال أفتني في آنية المجوس إذا اضطررنا إليها ، قال : « إغسلها وكل فيها »] هكذا رواه ابو داود وقد أخرجه النسائي ، وكذا رواه ابو داود من طريق يونس بن سيف عن أبي أدريس الخولاني عن أبي ثعلبة ، قال قال رسول الله ﷺ ٣٧ [إذا أُرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وان أكل منه ، وكل ما ردت عليه يدك .] وهذان إسنادان جيدان .

وقد روى الثوري عن عدي قال : قال رسول الله ﷺ ٣٨ [« ما كان من كلب ضار أمسك عليك فكل « قلت : وإن أكل ؟ قال « نعم »] فهذه آثار دالةعلى أنه يغتفر ، وإن أكل منه الكلب ، وقد احتج بها من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه كما تقدم .. وقد توسط آخرون فقالوا : إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم لحديث عدي بن حاتم وللعلة التي اشار اليها النبي ﷺ : [فإن [1] أكل فلا تأكل ، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه وجاع فأكل منه لجوعه ، فإنه لا يؤثر في التحريم وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخشني وهذا تفريق حسن ، وجمع صحيح بين الحديثين .

---

(١) ورد في الحديث رقم /٣٥ /

وقوله تعالى : ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾ أي عند إرساله له كما قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم : [إذا أرسلت (١) كلبك المعلم ، وذكرتَ اسم الله فكلْ ما أمسك عليك] وفي الحديث عن أبي ثعلبة المخرج في الصحيحين أيضاً : [اذا (٢) أرسلت كلبك فاذكر اسم الله وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله] ولهذا اشترط من اشترط من الأئمة كالإمام أحمد رحمه الله في المشهور عنه ، التسمية عند إرسال الكلب والرمي بالسهم . وهذا القول هو المشهور عن الجمهور أنّ المراد بهذه الآية عند الإرسال وقال ابن عباس : إذا أُرسلت جارحك فقل:بسم الله وإن نسيت فلا حرج .

وقال بعض الناس : المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله علّم ربيبه عمر بن أبي سلمة فقال : ٣٩ [سمّ الله وكل بيمينك وكل مما يليك]

* وفي صحيح البخاري عن عائشة أنهم قالوا : ٤٠ [يا رسول الله ، إنّ قوماً يأتوننا حديثٌ عهدهم بكفر بلُحمان لا ندري أذكر اسم الله عليها أم لا ؟ فقال : « سموا الله أنتم وكلوا »]

وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن عبيد بن عمير ان امرأةً منهم يقال لها أم كلثوم حدثته عن عائشة ٤١ [إن رسول الله ﷺ كان يأكل طعاماً في ستة نفر من أصحابه ، فجاء أعرابي جائع فأكله بلقمتين ، فقال « أما إنه لو ذكر اسم الله لكفاكم ، فإذا أكل أحدكم ، فليذكرِ اسمَ الله ، فإن نسيَ اسم الله في أوله ، فليقل باسم الله أوله وآخره »] رواه أحمد أيضاً وأبو داود والترمذي والنسائي من غير وجه عن هشام الدستوائي به وقال الترمذي : حسن صحيح . وروى مسلم وأهل السنن إلا الترمذي من طريق ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر بن عبدالله عن النبيّ ﷺ قال : ٤٢ [إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء ، وإذا دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله . قال الشيطان : أدركتم المبيت فإذا لم يذكراسم الله عند طعامه قال أدركتم المبيت والعشاء] لفظ أبو داود .

۞ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ

---

(١) و (٢) : راجع الحديث رقم / ٣٣ / و الحديث رقم /٣٧ /.

حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ * (٥)

لما ذكر تعالى ما حرّمه على عباده المؤمنين ، من الخبائث وما أحل لهم من الطيبات ، قال بعده : ﴿ اليوم أحلّ لكم الطيبات ﴾ ثم ذكر ذبائح أهل الكتابيْن ، من اليهود والنصارى فقال تعالى : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعني ذبائحهم ، وهذا أمر مجمَع عليه بين العلماء ، إن ذبائحهم حلال للمسلمين ، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله ، وإن اعتقدوا فيه تبارك وتعالى ما هو منزه عنه ، تعالى وتقدس .

وقد ثبت في الصحيح : عن عبدالله بن مغفل ، قال : ٤٣ [أدلى بجراب من شحم يوم خيبر ، فحضنته ، وقلت : لا أعطي اليوم من هذا أحداً ، والتفت فإذا النبي ﷺ يبتسم] فاستدل به الفقهاء ، على أنه يجوز تناولُ ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة ، وهذا ظاهر ، واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة على المالكية في منعهم أكلَ ما يعتقد اليهودُ تحريمَه من ذبائحهم ، كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم. واجود منه في الدلالة؛ ما ثبت في الصحيح، ٤٤ [أن أهل خيبر أهدوا لرسول‌الله ﷺ شاة مصليّة وقد سمّوا ذراعها وكان يعجبه الذراع ، فتناول فنهش منه نهشةً فأخبره الذراع أنه مسموم فلفظه ، وأثر ذلك في ثنايا رسول الله ﷺ وفي أبهره وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور فمات ، فقتل اليهودية التي سمتها ، وكان اسمها زينب] ، ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه ، ولم يسألهم هل نزعوا منها ما يعتقدونه حراماً من شحمها أم لا . ولم يبح ذبائح من عدا اليهود والنصارى من أهل الشرك ، ومن شابههم ، لأنهم لم يذكروا اسم الله على ذبائحهم بل ويأكلون الميتة بخلاف أهل الكتابين. ومن غير أهل الكتاب من يعاملون بأخذ الجزية منهم تبعاً وإلحاقاً لأهل الكتاب ، ومع ذلك فإنّه لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم ، وإن قوله تعالى : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ دل بمفهومه مفهومَ المخالفة على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يحل .

وقوله تعالى : ﴿ وطعامكم حلٌ لهم ﴾ أي ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة فأما الحديث الذي فيه ٤٥ [لا تصحب إلاّ مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلاّ تقي] فمحمول على الندب والاستحباب ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ والمحصنات من المؤمنات ﴾ أي وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات وذكر هذا توطئة لما بعده ، وهو قوله تعالى : ﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ أي المحصنات العفيفات عن الزنا . كما قال تعالى : ﴿ محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ﴾ . وقد كان الناس لا ينكحون الكتابيات بعد أن نزلت الآية التي في سورة البقرة وهي : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ﴾ حتى نزلت الآية : ﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ فجعلوا هذه مخصصةً للتي في سورة البقرة : ﴿ ولا تنكحوا المشركات ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إذا آتيتموهن أجورهن ﴾ أي مهورهن أي كما هن محصنات عفائف فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس . وقوله تعالى : ﴿ محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ﴾ فكما شرط الإحصان في النساء ، وهي العفة عن الزنا ، كذلك شرطها في الرجال ان يكونوا محصنين عفيفين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ غير مسافحين ﴾ وهم الزناة ، ﴿ ولا متخذي أخدان ﴾ أي ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلاّ معهن ، ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصحُّ نكاح المرأة البغي حتى تتوب ، وكذلك لا يصح عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوبَ لهذه الآية ، وللحديث : ٤٦ [لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله] وقال ابن جرير عن الحسن ، قال : قال عمر بن الخطاب لقد هممت أن لا أدع أحداً أصاب فاحشةً في الإسلام أن يتزوج محصنةً ؛ فقال له أُبيُّ بنُ كعب : يا أمير المؤمنين ، الشرك أعظم من ذلك ، وقد يقبل منه إذا تاب . وسيأتي الكلام على هذه المسألة مستقصى عند قوله تعالى : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ (١) ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾

---

(١) راجع الآية رقم /٣/ من سورة / النور / رقم /٢٤/

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ (٦) ﴾

قال كثيرون من السلف في قوله تعالى : ﴿ إذا قمتم الى الصلاة ﴾ يعني وأنتم محدثون وقال آخرون : إذا قمتم من النوم إلى الصلاة ، وكلاهما قريب . وقال آخرون : بل المعنى أعم من ذلك ، فالآية آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ولكن هو في حق المحدث واجب ، وفي حق المتطهّر ندب ، وقيل : إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجباً في ابتداء الإسلام ثم نسخ فصار مستحباً كما يستأنس من مداومة ابن عمر على إسباغ الوضوء لكل صلاة فيه دلالة على استحباب ذلك كما هو مذهب الجمهور .

روى ابن جرير عن ابن سيرين : أن الخلفاء كانوا يتوضأون لكل صلاة . روى الإمام أحمد عن بريدة قال ٤٧ : [كان رسول الله ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه ، وصلى الصلوات بوضوء واحد ، فقال له عمر : يا رسول الله ، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله قال : « إني عمداً فعلته يا عمر »] وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث سفيان وقال الترمذي حسن صحيح . روى ابن جرير عن النزال بن سبرة قال : [رأيت علياً صلى الظهر ثم قعد للناس في الرحبة ، ثم أتى بماء فغسل وجهه ويديه ، ثم مسح برأسه ورجليه ، وقال : هذا وضوء من لم يحدث] وروى ابن جرير عن إبراهيم : [إن علياً اكتال من حب فتوضأ وضوءاً فيه تجوز فقال : هذا وضوء من لم يحدث] [1] روى ابن جرير أيضاً عن أنس : [توضأ عمر بن الخطاب

(١) وهذه طرق جيدة عن علي يقوي بعضها بعضاً .

وضوءً فيه تجوّز خفيفاً فقال : هذا وضوء من لم يحدث] وهذا إسناد صحيح وهكذا فإن مشروعية الوضوء استحباباً فقد دلت عليه السنة .

وقوله تعالى : ﴿ فاغسلوا وجوهكم ﴾ قد استدل طائفة من العلماء بقوله تعالى : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ على وجوب النية في الوضوء ، لأن تقدير الكلام ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ لها ، كما تقول العرب إذا رأيت الأمير ، فقم ، أي له ، وقد ثبت في الصحيحين : ٤٨ [الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرىء ما نوى] ويستحب أن يذكر اسم الله على الوضوء ، لما ورد في الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ أنه قال ٤٩ : [لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه] ويستحب غسل الكفين قبل إدخالهما في الإناء ، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم ، لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال ٥٠ : [إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الإناء قبل أن يغسلها ثلاثاً فان أحدكم لا يدري أين باتت يده] .

حدُّ الوجه من منبت الشعر طولاً إلى منتهى اللحيين والذقن ، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً وفي المسترسل من اللحية عن محل الفرض ، قولان (أحدهما) أنه يجب إفاضة الماء عليه لأنه تقع به المواجهة . وروي في الحديث ٥١ : [إن النبي ﷺ رأى رجلاً مغطياً لحيته فقال : « اكشفها فإن اللحية من الوجه »] ويستحب تخليل اللحية الكثيفة وصح أنه خلَّل لحيته ثلاثاً من غسل وجهه ، روى الامام أحمد عن شقيق ٥٢ [قال رأيت عثمان توضأ ، فذكر الحديث ؛ قال وخلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ فعل الذي رأيتموني فعلتُ] رواه الترمذي وحسنه ورواه ابن ماجه ، وحسنه البخاري . قال البيهقي ... وروينا في الرخصة في ـ ترك تخليل اللحية ـ عن ابن عمر والحسن بن علي ثم عن النخعي وجماعة من التابعين .

٥٣ [وثبت عن النبي ﷺ في الصحاح أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق] . فاختلف الأئمة في ذلك ، هل هما واجبان في الوضوء والغسل[1] أو مستحبان؟ روى الإمام أحمد عن ابن عباس ٥٤ [أنه توضأ فغسل وجهه ، أخذ غَرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر ثم أخذ غرفةً فجعل بها هكذا ، يعني أضافها إلى يده الأخرى ، فغسل بها وجهه ثم أخذ

(١) قلت : صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ٥٤ (الفم والأنف من الوجه والأذنان من الرأس) فثبت بهذا الحديث وجوب المضمضة والاستنشاق لكون الفم والأنف من الوجه والوجه غسله واجب كما ثبت بهذا الحديث وجوب مسح الأذنين .

غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى ، ثم مسح رأسه ، ثم أخذ غرفة من ماء ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى ؛ ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يعني يتوضأ] ورواه البخاري . وقوله تعالى : ﴿ وأيديكم إلى المرافق ﴾ أي مع المرافق عن جابر بن عبدالله قال ٥٥ : [كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه (١) /ض/] . ويستحب أن يغسل العضد مع ذراعيه لما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ ٥٦ : [إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرّته فليفعل] .

وقوله تعالى : ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ الباء هنا للإلصاق وقد ثبت في الصحيحين في صفة وضوئه ﷺ عن عبدالله بن زيد بن عاصم أن رجلاً قال له ٥٧ : [هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ فقال عبدالله بن زيد : نعم فدعا بوضوء ... ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر بدأ بمقدم رأسه ، ثم ذهب بهما إلى قفاه ، ثم ردّهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه ثم غسل رجليه] وعن عليّ نحو هذا (٢) وروى أبو داود عن معاوية والمقداد بن معديكرب في صفه وضوئه ﷺ مثله ؛ ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس كما هو مذهب مالك وأحمد ..

وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس ، وهو مقدار الناصية ، وقال الشافعية إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح ، فلو مسح بعض شعره من رأسه أجزأه واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة الذي فيه ... فغسل ذراعيه ومسح بناصيته ، وعلى العمامة، وعلى خفّيه وباقي الحديث في صحيح مسلم وغيره فقال لهم أصحاب الإمام أحمد : إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة ونحن نقول بذلك ، وانه يقع عن الموقع .كما وردت بذلك أحاديث كثيرة وإنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين ، فهذا أولى وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة . وقوله تعالى : ﴿ وأرجلَكم إلى الكعبين ﴾ قريء وأرجلُكم بالنصب عطفاً على فاغسلوا وجوهكم وأيديكم . قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قرأهـــا وأرجلَكم يقول : رَجَعَتْ الى الغَسْلِ .

---

(١) فيه القاسم بن محمد متروك وجده ضعيف والله أعلم / ابن كثير/. (٢) من رواية عبد خير فما يقول الشيعة ...؟

وروي عن عبدالله بن مسعود وعروة وعطاء وعكرمة والحسن ومجاهد ، وإبراهيم والضحاك والسدي ومقاتل بن حيان والزهري وإبراهيم التيمي نحو ذلك ، وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل كما قاله السلف ، ومن هاهنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء كما هو مذهب الجمهور خلافاً لأبي حنيفة الذي لم يشترط الترتيب ؛ بل لو غسل قدميه ، ثم مسح رأسه ، وغسل يديه ، ثم وجهه ، أجزأه ... ! ! ! لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء ، والواو لا تدل على الترتيب وقد أجاب الجمهور : الآية دلت على وجوب التعقيب المقتضي للترتيب من /الفاء/ من قوله تعالى : ﴿ ... فاغسلوا وجوهكم ﴾ فدل على وجوب غسل الوجه ابتداءً عند القيام إلى الصلاة لأنه مأمور به بفاء التعقيب وهي مقتضية للترتيب ، وقال آخرون قولاً آخر رداً على الحنفية لا يخلو إما أن يكون الرسول ﷺ توضأ مرتباً ، فيجب الترتيب ، أو يكون توضأ غير مرتب فيجب عدم الترتيب ، ولا قائل به ، فوجب ما ذكرناه ، أي وجوب الترتيب .

* * *

وأما القراءة الأخرى وهي قراءة الخفض ... فقد احتج بها الشيعة في قولهم بوجوب مسح الرجلين ، لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس ، وقد جاءت هذه القراءة بالخفض . إما على المجاورة وتناسب الكلام كما في قول العرب : جحر ضبٍ خربٍ ، وكقوله تعالى : ﴿ عاليهم ثياب سندسٍ خضرٍ وإستبرق ﴾ وهذا شائع في لغة العرب سائغ . وإما محمول على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان . وقال الشافعي رحمه الله تعالى : محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان ، وعلى كل فالواجب غسل الرجلين فرضاً لا بدّ منه للآية والأحاديث التي سنوردها .

على أن جماعة قالوا : هي دالّة على المسح ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف ومن أحسن ما يستدل على ذلك ما رواه الحافظ البيهقي حيث قال بسنده ٥٨ [عن علي بن أبي طالب أنه صلى الظهر ، ثم قعد في حوائج الناس في رحبة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر ثم أتي بكوز من ماء فأخذ منه حفنة واحدة فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه ثم قام فشرب فضلته وهو قائم ثم قال : ان أناساً يكرهون الشرب قائماً ، وان رسول الله ﷺ صنع كما صنعت وقال هذا وضوء من لم يحدث »] رواه البخاري في الصحيح عن آدم ببعض معناه . ومن أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف فقد ضل وأضل .

﴿ ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه ﴾

روي عن أمير المؤمنين عثمان وعلي بن أبي طالب وابن عباس ومعاوية وعبدالله بن زيد بن عاصم والمقداد بن معد يكرب ٥٩ [أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه إما مرةً وإما مرتين أو ثلاثاً] ، على اختلاف رواياتهم. وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ٦٠ [أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه . ثم قال : « هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلاّ به »] .

وفي الصحيحين عن عبدالله بن عمرو قال ٦١ : [تخلّف عنا رسول الله ﷺ في سفرةٍ سافرناها ، فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة ، صلاة العصر ، ونحن نتوضأ ، فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى بأعلى صوته [« أسبغوا الوضوء ويلٌ للأعقاب من النار »] وكذلك هو في الصحيحين من حديث أبي هريرة .

وفي صحيح مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال ٦٢ : [أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار] .

روى ابن جرير عن أبي أمامة أو عن أخي أبي أمامة ٦٣ [أن رسول الله ﷺ أبصر قوماً يصلون ، وفي عقب أحدهم أو كعب أحدهم مثل موضع الدرهم أو موضع الظفر لم يمسه الماء فقال « ويل للأعقاب من النار » قال فجعل الرجل إذا رأى في عقبه شيئاً لم يصبه الماء أعاد وضوءه] .

ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة ، وذلك لو كان فرض الرجلين مسحهما ، أو أنه يجوز ذلك فيهما لما توعّد على تركه ، لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف . وهكذا وجّه هذه الدلالة على الشيعة الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى .

وقد روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب ٦٤ : [« أنّ رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه فأبصره النبي ﷺ وقال « إرجع فأحسن وضوءك . »] ومن رواية أحمد ٦٥ [أمره أن يعيد الوضوء] (١)

وقال الامام أحمد وأهل السنن عن لقيط بن صبره قال ٦٦ [قلت يا رسول الله

(١) وفي رواية أبي داود زيادة : « والصلاة » وهذا اسناد جيد قوي صحيح .

أخبرني عن الوضوء فقال : « أسبغ الوضوء ، وخلل بين الأصابع ، وبالغ في الاستنشاق إلاّ أن تكون صائماً »]

وقال الإمام أحمد من بعض حديث له ٦٧ : [... ثم يغسل قدميه كما أمره الله ...][١] عن عمرو بن عبسة (رض) وهو في صحيح مسلم من وجه آخر ، وفيه : ... ثم يغسل قدميه كما أمر الله . فدلّ على أن القرآن يأمر بالغسل . وهكذا روى أبو اسحق السبيعي عن الحارث عن علي بن أبي طالب (رض) أنه قال ٦٨ .: [اغسلوا القدمين الى الكعبين كما أُمرتم] .

ومن ههنا يتضح لك المراد من الحديث الذي رواه عبد خير عن علي ٦٩ [أن رسول الله ﷺ رش على قدميه الماء وهما في النعلين ، فدلكهما] ، إنما أراد غسلاً خفيفاً ، وهما في النعلين ولا مانع من إيجاد الغسل والرجل في نعلها ، ولكن في هذا رد على المتعمقين والمتنطعين من الموسوسين .

وهكذا روى ابن جرير عن حذيفة قال ٧٠ : [أتى رسول الله ﷺ سباطة قوم، فبال قائماً ثم دعا بماء فتوضأ ومسح على نعليه] وهو حديث صحيح وقد أجاب ابن جرير عنه بأن الثقات الحفاظ رووه عن الأعمش عن أبي وائل عن حذيفة ، قال ٧١ [فبال قائماً ثم توضأ ومسح على خفيه .] قلت : ويحتمل الجمع بينهما بأن يكون في رجليه خفان وعليهما نعلان . وفي رواية أحمد عن أوس بن أبي أوس قال ٧٢ : [رأيت رسول الله ﷺ توضأ ومسح على نعليه ، ثم قام إلى الصلاة] وفي رواية أبي داود عن أوس نفسه قال ٧٣ : [رأيت رسول الله ﷺ أتى سباطة قوم ، فبال وتوضأ ومسح على نعليه وقدميه]

قال ابن جرير : وهذا محمول على أنه توضأ كذلك هو غير محدث وهكذا فقد صح عنه ﷺ الأمر بعموم غسل القدمين في الوضوء بالماء بالنقل المستفيض ، القاطع عذر من انتهى اليه وبلغه . وقد زعم البعض أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين استناداً إلى رواية لم تصح عن علي (رض) بينما الثابت عن علي (رض) ثبوت المسح على الخفين ، كما ثبت أن النبي ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة . قال الإمام أحمد عن جرير بن عبدالله البجلي ٧٤ : [أنا أسلمت بعد نزول المائدة وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح [٢] بعدما أسلمت .]

---

(١) عن عمرو بن عبسة ... وقال في آخر الحديث : لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا ، لقد سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع مرات وأكثر من ذلك . وإسناده صحيح . (٢) أي على الخفين .

وفي الصحيحين عن همام قال ٧٥ : [بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه ، فقيل : تفعل هذا ؟ فقال نعم ، رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه] وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلاً .

* * *

وقد خالفت الروافض في ذلك بلا مستند ، بل بجهل وضلال مع أنه ثابت في صحيح مسلم من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رض) مثلما ثبت في الصحيحين عن علي (رض) عن النبي ﷺ النهي عن نكاح المتعة وهم يستبيحونها ، وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت عليه الآية الكريمة ، وهم مخالفون لذلك كله . وكذلك خالفوا في الكعبين اللذين هما العظمان الناتئآن عند مفصل الساق والقدم كما دلت عليه السنة ، ففي الصحيحين :
٧٦ [عن عثمان أنه توضأ فغسل رجله اليمنى إلى الكعبين واليسرى مثل ذلك] .

وروى البخاري تعليقاً مجزوماً به ، وأبو داود ، وابن خزيمة في صحيحه عن النعمان بن بشير قال : ٧٧ [أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال : « أقيموا صفوفكم - ثلاثاً - والله لتقيمن صفوفكم أو ليخالفنّ الله بين قلوبكم » قال : فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه ، وركبته بركبة صاحبه ، ومنكبه بمنكبه .] لفظ ابن خزيمة . فليس يمكن أن يلزق كعبه بكعب صاحبه إلا والمراد به العظم الناتيء في الساق حتى يحاذي كعبه كعب الآخر . فدل ذلك على ما ذكرناه من أنهما العظمان الناتآن عند مفصل الساق والقدم كما هو مذهب أهل السنة . وعند الروافض أنهما في ظهر القدم وفي كل رجل كعب واحد فتأمل ...

وقوله تعالى : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمّموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ﴾ كل ذلك قد تقدم الكلام عليه في تفسير آية النساء [1] فلا حاجة بنا إلى إعادته لئلا يطول الكلام وقوله تعالى : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾ أي يسر ولم يعسر بل أباح التيمم عند المرض وفقد الماء توسعة عليكم ورحمة وأقامه مقام الماء إلاّ من بعض الوجوه كما تقدم بيانه .

---

(١) راجع الآية رقم /٤٣/ من سورة النساء رقم /٤/ .

وقوله تعالى : ﴿ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلّكم تشكرون﴾ أي فيما شرعه لكم من التوسعة والرأفة ، وقد حثت السنة على الدعاء عقب الوضوء بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة وفي صحيح مسلم عن عمر (رض) عن النبي ﷺ ٧٨ [ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ، يقول : أشهد أن لا آله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء] ولمسلم أيضاً عن كعب بن مرة قال : قال رسول الله ﷺ ٧٩ : [ما من رجل يتوضأ فيغسل يديه أو ذراعيه ، إلاّ خرجت خطاياه منهما ، فاذا غسل وجهه خرجت خطاياه من وجهه ، فإذا مسح رأسه خرجت خطاياه من رأسه فإذا غسل رجليه خرجت خطاياه من رجليه] . وله أيضاً عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : ٨٠ [الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض ، والصوم جنة والصبر ضياء والصدقة برهان ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها .] وله أيضاً رحمه الله تعالى عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ ٨١ : [لا يقبل الله صدقة من غلول ، ولا صلاة بغير طهور] . وكذا رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث شعبة .

﴿ وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ (٧) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ (٨) وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۞ (٩) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ ۞ (١٠) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللهَ وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ (١١) ﴾

يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمته عليهم في شرعه لهم الدّين العظيم ، وإرساله اليهم هذا الرسول الكريم ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعته ومناصرته وإبلاغ دينه وقبوله منه ؛ فقال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ . وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم كما قالوا : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرةٍ علينا وأن لا ننازع الأمر أهله ؛ وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ أمر بالمواظبة على التقوى في كل حال ، ثم أعلمهم أنه يعلم ما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر ، فقال تعالى ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ﴾ أي كونوا قوامين بالحق لله عز وجل لا لأجل الناس والسمعة وكونوا ﴿ شهداء بالقسط ﴾ أي بالعدل ، وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال ٨٢ : [نحلني أبي نحلاً فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ ، فجاءه ليشهده على صدقتي ، فقال : « أكلُّ ولدك نحلتَ مثله » فقال : لا... فقال : « اتقوا الله واعدلوا في أولادكم »وقال « إني لا أشهد على جور . قال : فرجع أبي فرد تلك الصدقة .] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يجرمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ أي لا يحملنّكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ، بل اعدلوا في الصديق والعدو. ولهذا قال : ﴿ إعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ أي عدلكم أقرب للتقوى من تركه . وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي وسيجزيكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها خيراً أو شراً ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ﴾ أي لذنوبهم ﴿ وأجر عظيم ﴾ وهو الجنة التي هي من رحمته على عباده لا ينالونها بأعمالهم بل برحمةٍ منه وفضل . مع العلم أن أعمالهم جعلها تعالى سبباً إلى نيل رحمته ، وفضله وعفوه ورضوانه ، فالكل منه وله ، فله الحمد والمنة .

ثم قال تعالى:﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ وهذا من عدله تعالى وحكمته وحكمه الذي لا يجور فيه ، بل هو الحكم العدل الحكيم القدير . وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم ﴾

روى عبد الرزاق عن جابر ٨٣ : [أن النبي ﷺ نزل منزلاً وتفرق الناس في

العضاه [1] يستظلون تحتها ، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة ، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسلّه ، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال : من يمنعك مني ؟ قال : « الله عز وجل » قال الأعرابي مرتين أو ثلاثاً : من يمنعك مني ؟ والنبي ﷺ يقول «الله» قال [2] فشام الأعرابي السيف ، فدعا النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي وهو جالس إلى جنبه ، ولم يعاقبه .] وقال معمر : كان قتادة يذكر نحو هذا ويذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ فأرسلوا هذا الإعرابي .

وتأوّل ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم إذ همَّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم ... ﴾ الآية ؛ وقصةُ هذا الأعرابي وهو غورث بن الحارث ، ثابتة في الصحيح .

وقيل أنها نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يغدروا بالنبي ﷺ وأصحابه في دار كعب بن الأشرف . رواه ابن أبي حاتم .

وقيل أنها نزلت في بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى ، لما جاءهم بستعينهم في دية العامريين فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالأوا عليه . وقوله تعالى : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ يعني من توكل على الله كفاه الله ما أهمه ، وحفظه من شر الناس وعصمه ، ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدو إليهم فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم .



﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا

(١) العضاه : كل شجر يعظم و له شوك . (٢) شام السيف : أغمده .

قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۞ (١٣)
وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا
بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ
اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۞ (١٤)

لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ وأمرهم بالقيام بالحق ، والشهادة بالعدل ، وذكرهم نعمَهُ عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم إليه من الحق والهدى ، شرع يبيّن لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلَهم من أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه ، أعقبهم ذلك لعناً منه لهم ، وطرداً عن بابه وجنابه ، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق ، وهو العلم النافع ، والعمل الصالح ؛ فقال تعالى : ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ يعني عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه . وقد ذكرت التوراة في السفر الرابع تعداد النقباء على أسباط بني اسرائيل : فعلى بني روبيل : البصور بن سادون ، وعلى بني شمعون ، شموال بن صور شكي ، وعلى بني يهوذا : الحشون بن عمياذاب . وعلى بني يساخر شال بن صاعون ، وعلى بني زبولون : الياب بن حالوب ، وعلى بني افرايم : منشا بن عمنهور وعلى بني منشا حمليا ئيل بن يرصون ، وعلى بني بنيامين : أبيدن بن جدعون ، وعلى بني دان : جعيذر بن عميشذي ، وعلى بني أشار : نحايل بن عجران ، وعلى بني كان : السيف بن دعوابيل وعلى بني نفتالي أجزع بن عمينان . وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة ، كان فيهم إثنا عشر نقيباً : ثلاثة من الأوس ، وهم : أسيد بن الحضير ، وسعد بن خيثمة ، ورفاعة بن عبد المنذر ، ويقال بدله أبو الهيثم بن التيهان . وتسعة من الخزرج وهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبدالله بن رواحة ورافع بن مالك بن العجلان ، والبراء بن معرور ، وعبادة بن الصامت ، وسعد بن عبادة وعبدالله بن عمرو بن حرام ، والمنذر بن عمر بن حنيش رضي الله عنهم أجمعين .

وهؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتئذٍ عن أمر النبيّ ﷺ لهم بذلك ، وهم الذين

وُلـوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة .

وفي الصحيحين من حديث جابر بن سمرة ، قال ٨٢ : [سمعت النبي ﷺ يقول : « لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً » ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عليّ فسألت أي ماذا قال النبي ﷺ ؟ قال : كلهم من قريش »] وهذا لفظ مسلم .

ومعنى هذا الحديث : البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً يقيم الحق ، ويعدل فيهم ، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم . بل قد وجد منهم أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي . رضي الله عنهم ، ومنهـــم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة ، وبعض بني العباس ، ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة ، والظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره فذكر أنه يواطىء اسمه اسم النبي ﷺ ، واسم أبيه اسم أبيه ، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً .

وليس هذا ، بالمنتظر الذي تتوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامرا ، فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود له بالكلية ، بل هو من هوس العقول السخيفة [1] وتوهم الخيالات الضعيفة وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الإثني عشر الذين يعتقد فيهم الروافض من الأئمة الاثني عشر الذين يزعمون فيهم العصمة = وفي هؤلاء من الأخيار من لا يرضى المقالات التي تقال فيهم لم يدَّعها أحدٌ منهم لنفسه ألبتَّة ، وكل قول ينسب إليهم مؤيداً هذه الترهات ، هم برآء منه . ويعلمون أنفسهم (رض) أنهم غير معصومين . وما العصمة إلا للأنبياء فحسب. وان الله سينصر دينه ويعلي كلمته ويحق الحق بإذنه وسيعود المسلمون ــ بإذن الله ــ أمةً واحدة تهتدي بخير الكلام كلام الله ، وبخير الهدى هدى محمد ﷺ. = [2]

وقوله تعالى : ﴿ وقال الله إني معكم ﴾ أي بحفظي ونصري ﴿ لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي ﴾ أي صدقتموهم ﴿ وعزرتموهم ﴾ أي نصرتموهم في الحق ﴿ وأقرضتم الله قرضاً حسناً ﴾ وهو الإنفاق في سبيله ، وابتغاء مرضاته . ﴿ لأكفرنَّ عنكم سيآتكم ﴾ أي ذنوبكم أمحوها وأسترها ، ولا أؤاخذكم بها ، ﴿ ولأدخلنكم جنات

---

(١) قلت : بل من مؤامرات الشعوبيين الذين ملئت قلوبهم حقداً على الاسلام والمسلمين حتى يعلقوا أحلام الناس بمجهول مفقود ، ويتواكلوا فيتركوا الجهاد حتى يلد السرداب هذا المنتظر ... ؟ مسكين هذا السرداب المتهم بابتلاع هذا المهدي المعدوم ، إنه وذئب ابن يعقوب ، المتهمان البريئآن .

(٢) قلت : إن الكلام ما بين « المساويين » من كلامي وليس من كلام ابن كثير رحمه الله .

تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي أدفع عنكم المحذور . وأحصل لكم المقصود . وقوله تعالى : ﴿ فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ أي فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده . وجحده فقد أخطأ الطريق . وعدل إلى الضلال . ثم أخبر تعالى عما حلّ بهم من العقوبة عند مخالفتهم لميثاقه . فقال تعالى : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم ﴾ بسبب نقضهم الميثاق وطردناهم عن الهدى ﴿ وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ فلا يتعظون لغلظها وقساوتها ﴿ يحرّفون الكلم عن مواضعه ﴾ أي تصرفوا في آيات الله وتأوّلوها على غير ما أنزلت وقالوا على الله ما لم يقل عياذاً بالله من ذلك ﴿ ونسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ أي رغبوا عن العمل بدينهم فآلوا إلى أردىء حال ، فلا فطر مستقيمة ولا أعمال قويمة . ﴿ ولا تزال تطلع على خائنة منهم ﴾ يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك حين تمالأوا على الفتك برسول الله ﷺ ، ﴿ فاعف عنهم واصفح ﴾ وهذا هو عين النصر ﴿ إن الله يحب المحسنين ﴾ يعني به الصفح عمن إساء إليك . وقال قتادة : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ﴾ أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ومؤازرته ومناصرته وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ، ففعلوا كما فعل اليهود خالفوا المواثيق ، ونقضوا العهود ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فنسوا حظاً مما ذُكّروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ أي أن طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفّر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبدها ، فالملكية تكفّر اليعقوبية وكذلك الآخرون ، وكذلك النسطورية والآريوسية ، كل طائفة تكفّر الأخرى ثم قال تعالى : ﴿ وسوف ينبّئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ وهذا تهديد ووعيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ ، وما نسبوه إلى الرب عز وجل وتعالى وتقدّس عن قولهم علواً كبيراً ، من جعلهم له صاحبة وولداً ، تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ

مِنَ اللهِ نورٌ وَكِتابٌ مُبينٌ ❁ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتبَعَ رِضوانَه سُبُلَ ٱلسَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ❁ (١٦)

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض عربهم وعجمهم ، أمّيهم وكتابيّهم فقال تعالى : ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير﴾ أي يبين ما بدلوه وحرفوه وأوّلوه وافتروا على الله فيه ، ويسكت عن كثير مما غيروه ، ولا فائدة في بيانه . وقد روى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس (رض) قال : من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب قوله تعالى : ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ فكان الرجم مما أخفوه ؛ ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيّه الكريم فقال تعالى : ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾ أي طرق النجاة ، ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ أي ينجيهم من المهالك ، ويوضح لهم أبين المسالك .

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَٱللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ❁ (١٧) وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ ٱللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ❁ (١٨)

يخبر تعالى حاكياً عن كفر النصارى في ادعائهم في المسيح بن مريم ، وهو عبد من

عباد الله ، وخلق من خلقه أنّه هو الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء ، وكونها تحت قهره وسلطانه ﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه ومن في الأرض جميعاً ﴾ أي لو أراد ذلك ، فمن يملك منعه من ذلك ، ويقدر على صرفه عن ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء ﴾ أي جميع الموجودات ملكُه وخلقه ، وهو على كل شيء قدير . وهذا ردٌ على النصارى ، عليهم من الله ما يستحقون . ثم قال تعالى راداً على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم : ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه ، وله بهم عناية ، وهو يحبنا ، فرد الله عليهم : ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ أي لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءَه ، فلمَ أعدَّ لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم ؟ ﴿ بل أنتم بشر ممَّن خلق ﴾ أي لكم أسوة أمثالكم من بني آدم وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ أي هو فعال لما يريد لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴿ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه وإليه المرجع والمآب ، فيحكم في عباده بما يشاء ، وهو العادل الذي لا يجور .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٩)

يخاطب الله أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً ﷺ خاتم النبيين والرسل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ على فترة من الرسل ﴾ أي بعد مدة متطاولة ما ما بين إرساله ، وعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي ؟ فقد روى البخاري عن سلمان الفارسي أنها ستمأة سنة وثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال ٨٥ : [أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي] وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يقال له خالد بن سنان . والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل فكانت النعمة به أتم النعم ، والحاجة إليه أمر عممَ ، فان الفساد والجهل قد ظهر في سائر العباد إلاّ قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين من بعض أهل الكتاب : ومن بعض حديث رواه الامام أحمد

عن عياض عن حماد المجاشعي (رض) جاء فيه : ان النبي ﷺ خطب فيما خطب ٨٦ : [: ... وان الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بني اسرائيل . ـ وفي لفظ لمسلم : ـ من أهل الكتاب] وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمداً ﷺ ، فهدى الخلائق وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور ، وتركهم على المحجة البيضاء والشريعة الغراء ولهذا قال تعالى : ﴿ أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾ أي لئلا تحتجوا أو تقولوا يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيروه ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر ، فقد جاءكم بشير ونذير محمد ﷺ ، ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ قال ابن جرير : معناه إني قادر على عقاب من عصاني ، وثواب من أطاعني .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۞ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۞ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۞ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ۞ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۞ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۞ (٢٦) ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام فيما ذكر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه لديهم في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة ، لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة فقال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء ﴾ أي كلما قبض نبيٌ قام فيكم نبيّ من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعَده حتى عيسى عليه السلام الذي هو خاتم أنبياء بني اسرائيل ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء من الرسل كافة : محمد بن عبدالله المنسوب إلى اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام وهو أشرف من كل من تقدمه من الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾ قال عبد الرزاق عن ابن عباس قال : الخادم والمرأة والبيت .

وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سمّي ملكاً ، وقال ابن شوذب : كان الرجل من بني اسرائيل إذا كان له منزل وخادم واستؤذن عليه ، فهو ملك . وقال قتادة : كانوا أول من اتخذ الخدم . وقال مالك : بيت وخادم وزوجة . وقد ورد في الحديث ٨٧ [من أصبح منكم معافى في جسده ، آمناً في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها .]

وقوله تعالى : ﴿ وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين ﴾ يعني عالمي زمانكم ، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ﴾ والمقصود أنهم كانوا أفضل زمانهم ، وإلاّ فهذه الأمة أشرف منهم ، وأفضل عند الله ، وأكمل شريعة ، وأقوم منهاجاً ، وأكرم نبياً ، وأعظم ملوكاً ، وأغزر أرزاقاً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، وأوسع مملكة ، وأدوم عزاً . قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى عليه السلام لبني اسرائيل على الجهاد ، ودخول بيت المقدس الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام ، ثم لم يزالوا فيها حتى خرجوا مع موسى ، فوجدوا فيها قوماً من العمالقة الجبارين قد استحوذوا عليها وتملّكوها ، فأمرهم رسول الله موسى ﷺ بالدخول اليها وبقتال أعدائهم وبشّرهم بالظفر عليهم فنكلوا وعصوا

أمره ، فعوقبوا بالذهاب في التيـــه ، والتمادي في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد ، مدة أربعين عاماً عقوبة لهم ، على تفريطهم في أمر الله **فقال تعالى** مخبراً عن موسى أنه قال : ﴿ يا قومي ادخلوا الأرض المقدسة ﴾ أي المطهرة ـ وهي بيت المقدس ـ . وقوله تعالى : ﴿ التي كتب الله لكم ﴾ أي التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل أنه وراثة من آمن منكم ، ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم ﴾ أي لا تنكلوا عن الجهاد ﴿ فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون ﴾ أي اعتذروا بأن في هذه البلدة قوماً جبارين أهل قوة هائلة شديدة ، فلا نقدر على حربهم ، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها ، فإن يخرجوا منها دخلناها ، وإلاّ فلا طاقة لنا بهم .

وقوله تعالى : ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ﴾ أي فلمّا نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ، ومتابعة رسول الله ﷺ ، حرّضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة ، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه ، ويقال إنهما يوشع بن نون ، وكالب بن يوفنا قاله ابن عباس وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله . فقالا : ﴿ ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين ﴾ أي إن توكلتم على الله واتبعتم أمره ووافقتم رسوله ، نصركم الله على أعدائكم ، ودخلتم البلد التي كتبها الله لكم ، فلم ينفع ذلك فيهم شيئاً ﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون ﴾ **وهذا نكول منهم عن الجهاد** ، ومخالفة لرسولهم ، ﷺ ، وكم من الفارق العظيم بين قوم موسى عليه السلام وصحابة نبينـــا محمد ﷺ ، وما أحسن ما أجابوا به رسول الله ﷺ يوم بدر حين استشارهم في قتال النفير الذين جاءوا لحماية العير الذي كان مع أبي سفيان ، فلما فات اقتناص العير ، واقترب منهم النفير وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدة ، والبيض واليلب .

فتكلم أبو بكر (رض) فأحسن ثم تكلم من المهاجرين **امن تكلم** ورسول الله ﷺ يقول « أشيروا علي أيها المسلمون » وما يقول ذلك إلاّ ليستعلم ما عند الأنصار ، لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذٍ فقال سعد بن معاذ : كأنك تعرّض بنا يا رسول الله ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنّا لصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقرّبه عينك ، فسر بنا على بركة الله فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشّطه ذلك.

وكان ممن أجاب يومئذ أيضاً المقداد بن عمرو الكندي (رض) كما روى الإمام أحمد: عن طارق هو ابن شهاب ٨٨ [إن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله: انا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ إذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون] وقد رواه أيضاً عن عبدالله بن مسعود (رض) قال ٨٩: [لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبَهُ أحب إليّ مما عدل به، أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو اسرائيل لموسى: ﴿ إذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون ﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله ﷺ أشرق لذلك وسرّه ذلك] وهكذا رواه البخاري في المغازي وفي التفسير.

وقوله تعالى: ﴿ قال رب إني لا أملك إلاّ نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ يعني لما نكل بنو إسرائيل عن القتال، غضب عليهم موسى عليه السلام وقال داعياً عليهم: ﴿ رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ﴾ أي ليس أحد يطيعني منهم فيمتثل أمر الله ويجيب إلى ما دعوت إليه إلاّ أنا وأخي هارون ﴿ فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: يعني أقضِ بيني وبينهم وكذا قال الضحاك: اقض بيننا وبينهم، وافتح بيننا وبينهم.

وقوله تعالى ﴿ قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ﴾ لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم مدة أربعين سنة فوقعوا في التيه يسيرون دائماً لا يهتدون للخروج منه وفيه كانت أمور عجيبة وخوارق كثيرة من تظليلهم بالغمام وإنزال المنّ والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً تجري لكل شعب عين، وغير ذلك من المعجزات التي أيّد الله بها موسى بن عمران. وهناك نزلت التوراة وشرعت لهم الأحكام ثم كانت وفاة هارون عليه السلام، ثم بعده ثلاث سنوات وفاة موسى الكليم عليه السلام، وأقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السلام، نبياً خليفةً عن موسى بن عمران ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة، ويقال: إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع، وكالب فلما انقضت المدة، خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام أو بمن بقي منهم وبسائر الجيل الثاني، فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها، فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر، فلما تضيّفت الشمس

للغروب وخشي دخول السبت عليهم، قال ـ يوشع ـ إنكِ مأمورة وأنا مأمور. اللهم احبسها عليّ فحبسها الله تعالى حتى فتحها، وأمر الله يوشع بن نون أن يأمر بني اسرائيل حين يدخلون بيت المقدس أن يدخلوا بابها سجداً، وهم يقولون ﴿حطة﴾ أي حط عنا ذنوبنا، فبدّلوا ما أمروا به، ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون: حبة في شعرة وقد تقدم هذا كله في سورة البقرة.[1]

وقوله تعالى: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ تسليةٌ لموسى عليه السلام عنهم أي لا تأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به فانهم مستحقون ذلك. وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود، وبيان فضائحهم، ومخالفتهم لله ولرسوله، ونكولهم عن الجهاد، وضعف نفوسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر، هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق هو وجنوده وهم ينظرون لتقرّبهِ أعينهم وما بالعهد من قدم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم، فظهرت قبائحهم وفضائحهم هذا وهم في جهلهم يعمهون، وهم البُغَضَاء إلى الله وأعداؤه، ويقولون مع ذلك: نحن أبناء الله وأحباؤه، فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقردة، وألزمهم لعنة، تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضي لهم فيها بتأبيد الخلود. ولله الحمد والفضل.



۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ (٢٧) لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ

---

[1] وذلك عند الآية /٥٨/ من تفسير سورة البقرة

مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ۞ (٣٠) فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّادِمِينَ ۞ (٣١)

يبيّن الله عاقبة البغي الوخيمة والحسد والظلم في خبر ابنيْ آدم ، وهما قابيل وهابيل ، كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله ، بغياً وحسداً ، فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل ، ففاز المقتول هابيل بوضع الآثام والدخول إلى الجنة وخاب القاتل قابيل ، ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين. فقال تعالى: ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ﴾ ، أي اقصص على هؤلاء البغـاء الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم ، وأشباههم خبر ابنيْ آدم ... وقوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ أي على الجليّة ، والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ، ولا وهـم ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقصان ؛ كقوله تعالى ﴿إن هذا لهو القصص الحق ﴾ وكان خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف : إن الله تعالى شرع لآدم عليه السلام ، أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال ، ولكن قالوا : كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر ، وكانت أخت هابيل دميمة ، وأخت قابيل وضيئة ، فأراد أن يستأثر بها على أخيه ، فأبى آدم ذلك إلاّ أن يقربا قرباناً ، فمن تقبل منه فهي له ، فتُقُبِّلَ من هابيل ولم يُتَقَبَّلْ من قابيل فكان من أمرهما ما قصّه الله في كتابه .

قال ابن ابي حاتم عن ابن عباس قال : نُهي أن تنكح المرأة أخاها توأمها ، وأمر أن ينكحها غيره من أخوتها . وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة ؛ فبينما هم كذلك إذ ولد له امرأة وضيئة وولد له أخرى قبيحة دميمة ، فقال أخو الدميمة : أنكحني أختك وأنكحك أختي ، فقال: لا ، أنا أحق بأختي ، فقرّبا قرباناً فتُقبِلَ من صاحب الكبش ولم يتقبلْ من صاحب الزرع فقتله . إسناده جيد .

* * *

وروى العوفي عن ابن عباس قال: من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه، وإنما كان القربان يقربه الرجل فبينا ابنا آدم قاعدان ، إذ قالا لو قرّبنا قرباناً وكان الرجل اذا قرب قرباناً فرضيه الله أرسل إليه ناراً فتأكله ، وإن لم يكن رضيه الله خبت النار ، فقرّبا

قرباناً ، وكان أحدهما راعياً وكان الآخر حراثاً ، وإن صاحب الغنم قرّب خير غنمه وأسمنها ، وقرب الآخر بعض زرعه ، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة وتركت الزرع ، وإن ابنَ آدم قال لأخيه : أتمشي في الناس وقد علموا أنك قربت قرباناً فتُقُبِّل منك ورُدَّ عليَّ ؛ فلا والله لا ينظر النّاسُ إليَّ وأنت خير مني . فقال : لأقتلنّكَ ، فقال له أخوه : ما ذنبي ؟ إنمّا يتقبل الله من المتقين . رواه ابن جرير . فهذا الأثر يقتضي أن تقريب القربان كان لا عن سبب ولا عن تدارؤ في إمرأة كما تقدم وهو ظاهر القرآن ﴿ إذ قرّبا قرباناً فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتَقَبّلْ من الآخر قال لأقتلنّك قال إنمـا يتقبل الله من المتّقين ﴾ فالسياق أنه إنما غضب عليه وحسده بقبول قربانه دونه . ثم المشهور عند الجمهور أن الذي قرب الشاة هو هابيل وان الذي قرب الطعام هو قابيل وأنه تُقُبّلَ من هابيل شاتَه ، حتى قال ابن عباس وغيره إنها الكبش الذي فدي به الذبيح وهو مناسب ، والله أعلم .

ومعنى قوله تعالى ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ أي ممن اتَّقى الله في فعله ذلك . روى ابن أبي حاتم عن تميم يعني ابن مالك المقري ، قال : سمعت أبا الدرداء يقول : [لئن استيقن ان الله قد تقبّل لي صلاة واحـــدة أحب إليَّ من الدنيا ومـــا فيها إن الله يقول : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن ميمون بن أبي حمزة قال : [كنت جالساً عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له أبو عفيف من أصحاب معاذ ، فقال له شقيق بن سلمة : يا أبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل ؟ قال : بلى سمعته يقول : يقول : يُحبس الناس في بقيعٍ واحد فينادي منادٍ : أين المتقون ؟ فيقومون في كنف الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر . قلت : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا العبادة فيمرّون إلى الجنة] وقوله تعالى : ﴿ لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلّك إني اخاف الله رب العالمين ﴾ ، يقول له أخوه الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه ، حين توعده أخوه بالقتل عن غير ما ذنب منه إليه : لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله ، فأكون انا وأنتِ سواء في الخطيئة ﴿ إني أخاف الله رب العالمين ﴾ من أن اصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب . قال عبدالله بن عمرو : وأيم الله إن كان أشد الرجلين ولكن منعه الورع .

روى الامام أحمد عن بشر بن سعيد أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان :

٩٠ . [أشهد ان رسول الله ﷺ قال : « انها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي » قال : أفرأيت أن دخل على بيتي

فبسط يده إلي ليقتلني فقال : « كن كابن آدم »] وكذا رواه الترمذي وحسنه وقد رواه أبو داود عن حسين بن عبد الرحمن الأشجعي أنه سمع سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ في هذا الحديث ، قال : ٩١ [يا رسول الله أرأيت إن دخل بيتي وبسط يده ليقتلني ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ « كن كابن آدم » وتلا : ﴿ لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين ﴾] . وقوله تعالى : ﴿ إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ﴾ أي بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل قال مجاهد : ﴿ إني أريد أن تبوء بإثمي ﴾ قال : بقتلك إياي ﴿ وإثمك ﴾ قال بما كان منك قبل ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ أي فحسّنت وسوّلت له نفسه وشجعته على قتل أخيه فقتله ، أي بعد هذه الموعظة والزجر وقوله تعالى : ﴿ فأصبح من الخاسرين ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، وأي خسارة أعظم من هذه ؟ وقد روى الامام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٩٢ [لا تقتل نفسٌ ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها ، لأنه كان أول من سنّ القتل] رواه الجماعة إلا ابو داود .

وقوله تعالى : ﴿ فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين .] قال السدي باسناده إلى الصحابة رضي الله عنهم : لما مات الغلام تركه بالعراء ، ولا يعلم كيف يدفن ؛ فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا ، فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حثى عليه ، فلما رآه قال : ﴿ يا ويلتا أعجزت أن اكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فأصبح من النادمين ﴾ قال الحسن البصري : علاه الله بندامة بعد خسران .

وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال : ٩٣ [ما من ذنب أجدر أن يعجّل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة ، من البغي وقطيعة الرحم] . وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا

وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى : من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً ﴿ كتبنا على بني اسرائيل ﴾ أي شرعنا لهم وأعلمناهم : ﴿ أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ أي من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض ، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية فكأنما قتل الناس جميعاً ، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ، ومن أحياها ، أي حرّم قتلها واعتقد ذلك فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار ؛ ولهذا قال تعالى :﴿ فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ وروى الأعمش وغيره ، عن ابي صالح عن أبي هريرة قال : دخلت على عثمان يوم الدار فقلت : جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين فقال : يا أبا هريرة ، أيسرُّكَ أن تقتل الناس جميعاً وإياي معهم ؟ قلت : لا . قال : فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً ، فانصرف مأذوناً لك مأجوراً غير مأزور ، قال فانصرفت ولم أقاتل . وعن مجاهد : من قتل النفس المؤمنة متعمداً جعل الله جزاءه جهنم وغضب عليه ولعنه ، وأعدَّ له عذاباً عظيماً ، يقول : لو قتل الناس جميعاً لم يزد على مثل ذلك العذاب ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ، قال : من لم يقتل احداً فقد حيي الناس منه .

قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ﴾ ، أي بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ ثم ان كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون ﴾ ، وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها ، كما كانت بنو قريظة والنضير ، وغيرهم من بني قينقاع ممن حول المدينة من اليهود الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج ، اذا وقعت

بينهم الحروب في الجاهلية ، ثم اذا وضعت الحرب أوزارها ، فدوا من أسروه وودُّوا من قتلوه ، وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة . (١)

* * *

وقوله : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾ .

المحاربة هي المضادة والمخالفة : وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل ، وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر .

هذه الآية وإن كانت نزلت في جماعة من عرينة أو عكل إنما هي عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات ؛ كما روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك : ٩٤ - [ان نفراً من عكل ، ثمانية ، قدموا على رسول الله ﷺ ، فبايعوه على الإسلام ، فاستوخموا المدينة ، وسقمت أجسامهم ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك ، فقال : « ألا تخرجون مع راعينا في إبله ، فتصيبوا من أبوالها وألبانها » فقالوا : بلى ، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحّوا ، فقتلوا الراعي ، وطردوا الإبل ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فبعث في آثارهم فأدركوا فجيء بهم ، فأمر بهم فقطعت ايديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم ، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا] لفظ مسلم وفي لفظ لهما : من عكل أو عرينة ، وفي لفظ : ٩٥ [وألقوا في الحرة فجعلوا يستسقون ، فلا يسقون] . وعن قتادة : من عكل وعرينة ، ورواه مسلم من طريق سليمان التيمي ، عن أنس قال : ٩٦ [انما سمل النبي ﷺ أعين أولئك، لأنهم سملوا أعين الرعاء](٢) قال أنس: فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشاً حتى ماتوا ؛ ونزلت : ﴿ انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ... ﴾ الآية وقد رواه أبو داوود والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح . وفي رواية ابن أبي حاتم عن أنس : ٩٧ [فارتدوا عن الاسلام وقتلوا الراعي ، واستاقوا الإبل ، وأخافوا السبيل ، وأصابوا الفرج الحرام]

روى ابن أبي حاتم ، عن عبد الله بن عمر أو عمرو – شك يونس – عن رسول الله بذلك يعني بقصة العرنيين ونزلت فيهم آية المحاربة ، ورواه أبو داود .

---

(١) في الآية رقم /٨٤/ من سورة البقرة . (٢) أي عاقب عقاباً بالمثل .

وقوله تعالى : ﴿ أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : [من شهر السلاح في فئة الإسلام وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار ، ان شاء قتله وان شاء صلبه وان شاء قطع يده ورجله] - وإن شــاء نفاه - ومستند هذا القول ان ظاهر أَوْ للتخيير كما في نظائر ذلك من القرآن كقوله تعالى في جزاء الصيد : ﴿ فجزاء مثل مــا قتل من النَّعَم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبــة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ﴾ فهذا كله على التخيير ، فكذلك فلتكن هذه الآية . وأما قولــه تعالى : ﴿أوينفوا من الأرض ﴾ قال عطاء الخراساني : ينفى من جند إلى جند سنين ولا يخرج من دار الإسلام وقال آخرون : المراد بالنفي ههنا بالسجن واختار ابن جرير أن المراد بالنفي ههنا أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ أي هذا الذي ذكرته من قتلهم ومن صلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم ، خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة ، وهذا يؤيد قول من قال : أنها نزلت في المشركين ، فأما أهل الإسلام ففي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : ٩٨ [أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء ألاّ نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا يعضه بعضنا بعضاً ، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له ، ومن ستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذبه وان شاء عفا عنه] رواه وابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب .

وقال ابن جرير : لهم عقوبة في عاجل الدنيا وفي الآخرة لهم عذاب عظيم أي إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتي هلكوا ، وقوله تعالى : ﴿ إلاّ الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم ﴾ أما على قول من قاله : أنها في أهل الشرك فظاهر . وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انحتام القتل والصلب وقطع الرجل ، وهل يسقط قطع اليد أم لا ؟ فيه قولان للعلماء ؛ وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع ، وعليه عمل الصحابة ، كعلي وأبي موسى الأشعري وهو على الكوفة في أمارة عثمان .

قال ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة وكان قد أفسد في الأرض وحارب ، فكلّم رجالاً من قريش منهم الحسن بن علي وابن عباس

وعبدالله بن جعفر ، فكلموا علياً فيه فلم يؤمّنه ، فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه في داره ، ثم أتى علياً فقال : يا أمير المؤمنين أرأيت من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً فقرأ حتى بلغ : ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ قال : فكتب له أماناً .

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوا إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ (٣٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ۞ (٣٧)﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وهي إذا قرنت بطاعته ، كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات ، وقد قال بعدها : ﴿وابتغوا اليه الوسيلة﴾ قال ابن عباس : أي القربة وقال قتادة : أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه .[1]

---

(١) قلت : لقد بحثت هذه المسألة بحثاً مستفيضاً في كتابي « التوصل إلى حقيقة التوسل » ألخصها فيما يلي :
الحمد لله والصلاة والسلام على محمد رسول الله ، ومن والاه . أما بعد :
فإن هذه قضية شذ فيها الخلف عن السلف وسلكوا فيها طرائق أقل ما يقال فيها : أنها على غير نهج السلف الصالح، ولا تستند إلى أي مستند شرعي ، مدعوم بما جاء في الكتاب الكريم والسنة الصحيحة . ذلك شأنهم في كل ما يختلفون فيه مع السلف. فالخلف يتمسكون بآراء وأهواء، وإن أرادوا التمسك بالقرآن على زعمهم يتأولون الآيات ويحملونها من المعاني ما لا تتحمل ، فيتأولون ويعطلون ما شاءت لهم أهواؤهم واذا أرادوا أن يستشهدوا بحديث، فلا يستشهدون إلا بأحاديث أقوى ما فيها الشديد الضعيف. فضلا عن الموضوع والمكذوب والباطل وما لا أصل له . ولا أدري اذا كان ذلك عن علم منهم أو جهل .
فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة * وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم » فكأنهم والسلف على طرفي نقيض ، ولن يلتقيا إلا أن يشاء الله وما ذلك على الله بعزيز . ثم أقول وبالله المستعان :
التوسل على نوعين : ١ – : توسل مشروع . ٢ : توسل ممنوع .
فالتوسل المشروع : هو ما شرعه الله وبلغه رسوله صلى الله عليه وسلم وهو على ثلاثة أنواع : ١ – التوسل بذات الله وصفاته العلى وأسمائه الحسنى ، ٢ – التوسل إليه تعالى بأعمال المتوسل الصالحة ، ٣ – : التوسل بدعاء المؤمنين لبعضهم ولا فرق إذا كان من أعلى إلى أدنى أو بالعكس . وهذا ما جرى عليه محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته وأهل القرون الخيرة وكل من نهج منهجهم إلى يوم الدين أما التوسل الممنوع : هو ما =

والوسيلة : هي التي يُتوصَّل بها إلى تحصيل المقصود . والوسيلة أيضاً علَمٌ على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة ، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش . وقد ثبت في صحيح البخاري من طريق محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ : ٩٩ [من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التّامّة ، والصلاة القائمة آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، إلاّ حلت له شفاعتي يومَ القيامة] وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول : ١٠٠ [اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ، ثم صلّوا عليّ فأنّه من صّلى عليّ صلاة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا لي الوسيلة ، فانها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاّ لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن اكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة .]

ـــ لم يشرعه الله تعالى ولا بلغه رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يعرف من فعل الصحابة كالتوسل بذوات المخلوقين إما بمعنى القسم بهم إلى الله ، أو بمعنى جعلهم وسائط بين الله وبين خلقه لقبول الدعاء، أو اتخاذهم زلفى إلى الله تعالى لقضاء حوائجهم . ويدلون على الله بصلاحهم ، بينما هؤلاء الصالحون المتوسل بذواتهم إلى الله تعالى قبضهم الله إليه وهم عنده في منزلة عالية إن شاء الله ومنزلتهم هذه لم ينالوها إلا بأعمالهم الصالحة، وكان أجدر بالمتوسلين، لو أنهم عملوا صالحاً كما عمل المتوسَّل بهم، إذاً لرأوا من أعمالهم الصالحة خير وسيلة إليه تعالى. ولكن الشيطان صدهم عن الطريق السوي، والصراط المستقيم ، فجعلوا ربهم لا يرحم ولا يشفق ولا يغفر ، إلا بتأثير أولئك الذين زعموا فيهم الوسائط ...! بينما الله لا يؤثر عليه أحد ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . فهو اذاً ليس بحاجة لأن يعرفه أحد بخلقه « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » رأوا أن الحكام لا يقضون حاجات الناس إلا إذا توسط لديهم الوسطاء فشبهوا خالقهم بهؤلاء الحكام والعياذ بالله تعالى . وكثيراً ما يوردون في كلامهم هذا الحجج الواهية ، فيقولون : كما أنه ينبغي لمن يدخل على الحكام أن يوسط إليهم أحداً ، ممن هم أعزاء عليهم ، كذلك يجب أن نوسط لله تعالى أحباءه من الأنبياء والأولياء والصالحين ليقضي حاجاتنا . ! وهكذا فقد شبهوا الخالق القادر الذي يعلم ما في السموات والأرض العليم الخبير الفعال لما يريد بالمخلوق العاجز الذليل الذي لا يملك مع الله شيئاً ، والذي له من صفات النقص ما هو مستحيل على الله أن يتصف بمثلها فقد يكون العبد جاهلا أو ظالماً ، أو لئيماً أو محتاجاً لتبادل المنافع مع الذين يتوسطون عنده وسوى ذلك من صفات النقص ... أما سبحانه وتعالى فمنزه عن كل هذه الصفات الدنيا الدنيئة وله سبحانه الصفات العلى والأسماء الحسنى ... فهل بعد هذا الفارق الكبير بين المخلوق والخالق في صفاتهما يجوز أن نشبه حال المتوسط لله كالمتوسط للعبد حاشا فإن الله لا يحتاج إلى وسطاء وهو الغني عن العالمين وحده لا شريك له وهو أقرب إلى عبده من حبل الوريد، والواسطة لا تكون الا للبعيد وقد أخبرنا الله تعالى أنه قريب : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) فلا حاجة للتوسل إليه إلا بما يتقربنا إليه من الأعمال الصالحة . وهذا ما يوافق مراد الله من التوسل المشروع الذي تقدم ذكره آنفاً والله الموفق للصواب .

وروى ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال ١٠١ [إن الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة ، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة على خلقه]

وقوله تعالى : ﴿ وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون ﴾ أي أمرهم تعالى بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الصراط المستقيم ، ورغبّهم في ذلك بالذي أعدّه للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح ، والسعادة العظيمة الخالدة الآمنة ، في الغرف العالية في الجنة التي يسكنها ، لا تبلى ثيابُه ، ولا يفنى شبابُه ثم أخبر تعالى بما أعدّ لأعدائه من الكفار من العذاب والنكال فقال : ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم ﴾ أي لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً وبمثله ، ليفتدي بذلك من عذاب الله ، ما تقبل الله ذلك منه فلا محيص ولا مناص من العذاب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي موجع ﴿ يريدون ان يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غمٍ أعيدوا فيها ﴾ أي عذابهم دائم مستمر ، لا خروج لهم منها ، ولا محيد لهم عنها . وفي الصحيحين عن أنس بن مالك ، قال رسول الله ﷺ : ١٠٢ [يؤتي بالرجل من أهل النار فيقال له : يا ابن آدم ، كيف وجدت مضجعك ؟ فيقول : شر مضجع ، فيقال : هل تفتدي بقراب الأرض ذهباً ؟ قال : فيقول : نعم يا رب فيقول الله تعالى : كذبت ، قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل ، فيؤمر به إلى النار] .

روى الإمام أحمد ومسلم عن يزيد بن صهيب الفقير ، عن جابر بن عبد الله ان رسول الله ﷺ قال يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة قال : فقلت لجابر بن عبدالله يقول الله تعالى : ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ﴾ قال : اتلُ أول الآية : ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به ﴾ الآية ... ألا إنهم الذين كفروا .

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ❁ (٣٨) فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ❁ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ❁ (٤٠) ﴾

يقول الله تعالى حاكماً وآمراً بقطع يد السارق والسارقة . فذهب بعض فقهاء الظاهرية إلى انه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به سواءً كان قليلاً أو كثيراً لعموم هذه الآية : ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً ، بل أخذوا بمجرد السرقة ، واستدلوا متمسكين بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ١٠٣ [لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده] .

وأما الجمهور ، فاعتبروا النصاب في السرقة ، وان كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره ، فمالك اعتبر النصاب ثلاثة دراهم كما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر : ١٠٤ . [أن رسول الله ﷺ قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم] . واعتبر الشافعي النصاب ربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً أوالحجة في ذلك ما أخرجه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ١٠٥ [تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً] ولمسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ١٠٦ [لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً] قالوا : وحديث ثمن المجن وأنه كان ثلاثة دراهم لا ينافي هذا ، لأنه إذ ذاك كان الدينار باثني عشر درهماً ، فهي ثمن ربع دينار ويروى هذا المذهب عن عمر وعثمان وعلي ، وبه يقول عمر بن عبد العزيز ، والليث بن سعد والأوزاعي والشافعي وأسحق بن راهويه في رواية و ابو ثور وداود بن علي الظاهري .

وذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى أن كل واحد من ربع الدينار ، والثلاثة دراهم مردٌّ شرعي فمن سرق واحداً منهما أو ما يساويه قُطِع . وروى الإمام أحمد عن عائشة : ان رسول الله ﷺ قال : ١٠٧ [اقطعوا في ربع دينار ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك] وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دارهم ، والدينار اثني عشر درهماً وفي لفظ للنسائي : ١٠٨ [« لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن » قيل لعائشة : ما ثمن المجن ؟ قالت : ربع دينار] .

وأما الامام ابو حنيفة وأصحابه أبو يوسف ومحمد وزفر وكذا سفيان الثوري رحمهم الله، ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة واحتجوا بأن ثمن المجن الذي قطع فيه السارق على عهد رسول الله ﷺ كان ثمنه عشرة دراهم لما روي عن ابن عباس قال : كان ثمن المجن على عهد النبي ﷺ عشرة دراهم رواه ابن مردويه ثم روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله قال ١٠٩ [« لا تقطع يد السارق في دون ثمن المجن »] وكان ثمن المجن عشرة دراهم ، فالاحتياط الأخذ بالأكثر لأن الحدود تدرأ بالشبهات .

وقد اجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث ابي هريرة : ١١٠ [يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده] بأجوبة : (أحدها) انه منسوخ بحديث عائشة وفي هذا نظر ، لأنه لا بد من بيان التاريخ (الثاني) أنه مؤوّل ببيضة الحديد وحبل السفن قاله الأعمش فيما حكاه البخاري وغيره عنه (الثالث) إن هذه وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده . ويحتمل أن يكون هذا ، خرج مخرج الاخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية ، حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة في الأشياء المهينة . (١)

وقد ذكروا أن أبا العلاء المعري لما قدم بغداد ، اشتهر أنه أورد اشكالاً على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار ونظم في ذلك شعراً فقال :

يد بخمس مئين عسجد وديــت ما بالها قطعت في ربـــع دينار
تناقض ما لنا الا السكـــوت لـــه وان نعوذ بمولانا من النار (٢)

فرد عليه القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله تعالى بقوله : لما كانت أمينة ، كانت ثمينة ، ولما خانت هانت . ولهذا قال تعالى : ﴿ جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم ﴾ أي مجازاةً على صنيعها السيء في أخذهما أموال الناس بأيديهم ، تناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك نكالاً من الله أي تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك . ﴿ والله عزيز ﴾ أي في انتقامه ﴿حكيم ﴾ في أمره ونهيه وشرعه وقدره .

ثم قال تعالى ﴿ فمن تاب من بعدظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم ﴾ أي من تاب من بعد سرقته فان الله يتوب عليه فيما بينه وبينه ، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور .

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو : ١١١ [ان امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ فجاء بها إلى الذين سرقتهم فقالوا : يا رسول الله ، إن هذه المرأة سرقتنا . قال قومها ، فنحن نفديها فقال رسول الله ﷺ « اقطعوا يدها » فقالوا نحن نفديها بخمسمأة

(١) قلت : أرجح ما ذهب إليه ابن كثير بقوله : (ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الأخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير) لا سيما وان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقطع في بيضة أو حبل بل قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم ، وأمر بذلك ونهى عما دون ذلك كما جاء في الصحيحين . وكذلك قطع عثمان في أترجة قومت بثلاثة دراهم .

(٢) قلت : وقد رد عليه أحد الشعراء بقوله : (عز الأمانة أغلا ها ، وأرخصها ذل الخيانة ، فافهم حكمة الباري) .

دينار فقال « إقطعوا يدها » فقطعت يدها اليمنى ؛ فقالت المرأة : هل لي من توبة يا رسول الله ؟ قال : « نعم أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك » فانزل الله في سورة المائدة : ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم . ﴾] وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت ، وحديثها ثابت في الصحيحين .

ثم قال تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾ أي هو المالك الحاكم الذي لا معقب لحكمه وهو الفعال لما يريد ﴿ **يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل** شيء قدير ﴾ .



يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ❁ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ❁ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ❁ (٤٣) إِنَّا أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ ٱللَّهِ

وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۞ (٤٤)

نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر ، الخارجين عن طاعة الله ورسوله ، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل ﴿ من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ﴾ أي أظهروا الأيمان بألسنتهم ، وقلوبهم خراب خاوية منه ، وهؤلاء هم المنافقون . ﴿ ومن الذين هادوا ﴾ أعداء الإسلام وأهلـه ، وهؤلاء كلهم ﴿ سمّاعون للكذب ﴾ أي مستجيبون له ﴿ سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾ اي يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد ، وقيل : المراد أنهم يتسمعون الكلام وينهونـه إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك ﴿ يحرفون الكلـم من بعد مواضعه ﴾ أي يتأوّلونه على غير تأويله ، ويبدلونه من بعد ما عقلوه ، وهم يعلمون . ﴿ يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾ نزلت في اليهوديين اللذين زنيـا ، وكانوا قد بدّلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجـم من أحصن منهم ، فحرّفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مئة جلدة والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين . فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم : تعالوا حتى نتحاكم إليه ــ أي إلى رسول الله ﷺ ــ فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجةً بينكم وبين الله ويكون نبي من انبياء الله قد حكم بينكم بذلك،وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك .

وقد وردت الأحاديث في ذلك فقال مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : ١١٢ . [ان اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ « ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ » فقالوا : نفضحهـم ويجلدون ، قال عبدالله بن سلام كذبتم،إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة ، فأتوا بالتوراة فنشروهـا ، فوضع أحدُهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدهـا ، فقال له عبدالله بن سلام : إرفع يدك فرفع يده ، فإذا آية الرجم ، فقالوا صدق يا محمد فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة .] أخرجاه وهذا لفظ البخاري ورواه مسلم وأبو داود وأحمد

وابن جرير . وليس حكم رسول الله ﷺ بحكم التوراة من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته ، ولكن هذا بوحي خاص من الله عز وجل إليه ــ ﷺ ــ بذلك وسؤآله إياهم عن ذلك ، ليقررهم على ما بأيديهم مما تواطأوا على كتمانه وجحده، وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة ؛ فلما اعترفوا به مع علمهم على خلافه ، بأن زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم ، وعدوُلهم إلى تحكيم الرسول ﷺ ، إنما كان عن هوى منهم ، وشهوة لموافقه آرائهم ، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به ولهذا قالوا : ﴿ إن أوتيتم هذا ﴾ أي : الجلد والتحميم ﴿ فخذوه ﴾ أي اقبلوا به ﴿وان لم تُؤْتوهُ فاحذروا ﴾ أي من قبوله واتباعه . قال الله تعالى : ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم سماعون للكذب ﴾ أي الباطل ﴿ أكالون للسحت ﴾ أي الحرام ، وهو الرشوة . كما قاله ابن مسعود وغير واحد . أي ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه ، وأنيَّ يستجيب له ، ثم قال تعالى لنبيــه ــ ﷺ ــ : ﴿ فإن جاءوك ﴾ أي يتحـــاكمون إليك ﴿ فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تُعرِض عنهم فلن يضروك شيئاً ﴾ أي فلا عليك أن لا تحكم بينهم لأنهم ،لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباعَ الحق، بل ما يوافق أهواءهم. قال ابن عباس وجماعة من التابعين : هي منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وأنِ احكم بينهم بما أنزل اللهَ ﴾ ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ﴾ أي بالحق والعدل ، وإن كانوا ظلمةً خارجين عن طريق العدل ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ .

ثم قال تعالى منكراً عليهم في آرائهم الفاسدة ، ومقاصدهم الزائغة ، في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم ، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به ابداً ، ثم خرجوا عن حكمه ، وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم،فقال تعالى : ﴿ وكيف يحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، فقال تعالى: ﴿ إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ أي لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها ، ﴿ والربانيون والأحبار ﴾ أي عبّادهم وعلماؤهم ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ أي بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به ﴿ وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون﴾ أي لا تخافوا منهم وخافوا مني ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ فيه قولان سيأتي بيانهما .

ـ سبب آخر في نزول هذه الآيات ـ

قال ابو جعفر بن جرير عن ابن عباس : إن الآيات التي في المائدة قوله تعالى : ﴿ فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ـ إلى ـ المقسطين ﴾ إنما أنزلتْ في الدية في بني النضير وبني قريظة ، وذلك إن قتلى بني النضير كـان لهم شرف تؤدّى لهم الدية كاملةً ، وإن قريظة كانوا يؤدى لهم نصف الدية ، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فأنزل الله ذلك فيهم ، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك فجعل الدية في ذلك سواءً . والله أعلم أي ذلك كان .

وقد روى العوفي وعلي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا كما تقدم . وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد ، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله ، والله أعلم . ولهذا قال بعد ذلك : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ﴾ إلى آخرها ، وهذا يقوي أن سبب النزول قضية القصاص ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ قال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهم : نزلت في أهل الكتاب ، زاد الحسن البصري وهي علينا واجبة وقال عبد الرزاق بسنده عن ابراهيم [١] قال : نزلت الآيات في بني إسرائيل ، ورضي الله لهذه الأمة بها . رواه ابن جرير .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ قال : من جحد ما أنزل الله فقد كفر ، ومن أقرّ به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق . رواه ابن جرير ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب ، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب وقال الشعبي : للمسلمين . وعن عطاء في قوله تعالى : ﴿ فأولئك هم الكافرون ﴾ قال : كفر دون كفر [٢] . وعن طاووس قال : ليس بكفر ينقل عن الملة . وعن طاووس عن ابن عباس قال : ليس بالكفر الذي تذهبون إليه ورواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

---

(١) لعله النخعي . (٢) قال طاووس وعطاء : كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق .

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ * (٤٥) ﴾

وقوله تعالى ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ﴾ في نص التوراة : أي تقتل النفس بالنفس ، وتفقأ العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتنزع السن بالسن ، وكانوا لا يُقيدون القُرظي من النضري، بل يعدلون إلى الدية ؛ كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن ، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار ولهذا قال هناك : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم ، وعناداً وعمداً ، وقال ههنا ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه فخالفوا وظلموا وتعدّى بعضهم على بعض .

وقد استدل بهذة الآية كثير من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حُكيَ مقرراً ولم ينسخ ، كما هو المشهور عند الجمهور وقال الحسن البصري : هي عليهم وعلى الناس عامةً ، رواه ابن أبي حاتم . وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة ، بعموم هذه الآية الكريمة ، وكذا ورد في الحديث الذي رواه النسائي وغيره : أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم : ١١٣ [أن الرجل يقتل بالمرأة] وفي الحديث الآخر : ١١٤ [المسلمون تتكافأ دماؤهم] وهذا قول جمهور العلماء وقد احتج ابو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمي ، وعلى قتل الحر بالعبد وقد خالفه الجمهور فيهما ففي الصحيحين عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ١١٥ [لا يقتل مسلم بكافر] ، أما العبد ففيه عن السلف آثار متعددة أنهم لم يكونوا يقيدون العبد من الحر ، ولا يقتلون حراً بعبد وجاء في ذلك أحاديث لا تصح [1] وحكى الشافعي الأجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك ، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصّصٍ للآية الكريمة .

(١) قلت : من قتل عبده قتلناه ومن جدع أنفه جدعنا أنفه وهكذا جاء في الحديث . راجع تعليقنا ص /١٣٧/ من المجلد الأول من هذا المختصر .

وقوله تعالى : ﴿ والجروح قصاص ﴾ قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : تقتل النفس بالنفس ، وتفقأ العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتنزع السن بالسن ، وتقتص الجراح بالجراح ؛ فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين فيما بينهم رجالهم ونساؤهم إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس ويستوي فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس ، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

﴿ قاعدة مهمة ﴾

الجراح تارة تكون في مفصل ، فيجب فيه القصاص بالإجماع ، كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك ، وأما إذا لم تكن الجراح في مفصل بل في عظم ، فقال مالك رحمه الله : فيه القصاص إلا في الفخذ وشبهها ، لأنه مخوف خطر . وقال أبو حنيفة وصاحباه : لا يجب القصاص في شيء من العظام إلا في السن بدليل حديث الربيع بنت النضر التي حكم عليها رسول الله ﷺ بالقصاص لما كَسَرَتْ ثنيةَ الجارية لولا أن عفا أهل الجارية وتركوا القصاص والحديث هذا في الصحيحين . وقال الشافعي لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقاً وهو مروي عن عمر بن الخطاب وابن عباس وبه يقول عطاء والشعبي والحسن البصري والزهري وإبراهيم النخعي وعمر بن عبد العزيز ، وإليه ذهب سفيان الثوري والليث بن سعد وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد .

ثم قالوا : لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجني عليه ، فإن اقتص منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه ، فلا شيء له والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن شعيب عن أبيه عن جده ١١٦[أن رجلاً طعن رجلاً بقرن في ركبته فجاء إلى النبي ﷺ فقال أقدني ؛ فقال « حتى تبرأ » ، ثم جاء إليه فقال : أقدني ، فأقاده فقال يا رسول الله عرجت فقال « قد نهيتك فعصيتني ، فأبعدك الله وبطل عرجك » ثم نهى رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه] تفرد به أحمد .

مسألة : فلو اقتص المجني عليه من الجاني فمات من القصاص ، فلا شيء عليه عند مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم . وقال أبو حنيفة تجب الدية في مال المقتص . وقال عامر والشعبي وعطاء وطاووس وغيرهم تجب الدية على عاقلة المقتص له . وقال ابن مسعود وابراهيم النخعي والحكم بن عتيبة وعثمان البستّي : يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة ويجب الباقي في ماله .

وقوله تعالى : ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ قال ابن عباس : فمن تصدق به

فهو كفارة للجارح وأجر للمجروح على الله عز وجل رواه ابن أبي حاتم . وفي رواية له عن جابر بن عبدالله في قول الله عز وجل: ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ قال للمجروج قال عبدالله بن عمرو : يهدم من ذنوبه بقدر ما تصدق به .

روى ابن مردويه عن الشعبي عن رجل من الأنصار عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ قال : ١١٧ [« هو الذي تكسر سنه ، أو تقطع يده أو يقطع الشيء منه أو يجرح في بدنه فيعفو عن ذلك » قال فيحط عنه قدر خطاياه فإن كان ربع الدية فربع خطاياه ، وان كان الثلث فثلث خطاياه ، وان كانت الدية ، حطت عنه خطاياه كذلك »] روى ابن مردويه عن عدي بن ثابت أن رجلاً أهتم[1] فمه رجل على عهد معاوية رضي الله عنه فأعطي دية ، فأبى إلا أن يقتص ، فأعطي ديتين فأبى ، فأعطي ثلاثاً فأبى ، فحدث رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ١١٨ [من تصدق بدم فما دونه ، فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت] . وقوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ قد تقدم عن طاووس وعطاء أنهما قالا : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق .

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ❁ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ❁ (٤٧) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وقفّينا ﴾ أي اتبعنا على آثار انبياء بني إسرائيل ﴿ بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة ﴾ أي مؤمناً بها حاكماً بما فيها ، ﴿ وآتيناه الأنجيل فيه هدى ونور ﴾ أي هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات ، ﴿ ومصدقاً لما بين يديه من التوراة ﴾ أي متبعاً لها غير مخالف لما فيها إلاّ في القليل مما بيّن لبني إسرائيل

(١) أهتم فمه : كسر أسنانه .

بعض ما كانوا يختلفون فيه . كما قال تعالى اخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل : ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ ولهذا كان المشهور من قولي العلماء إن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة وقوله تعالى : ﴿ وهدى وموعظة للمتقين ﴾ أي وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به ، وموعظة أي زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم ، للمتقين ، أي لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه .

وقوله تعالى : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾ قرىء ﴿ وليَحكُمَ ﴾ بالنصب على أن اللام لام كي ، أي وآتيناه الإنجيل ليحكم أهلُ ملته به في زمانهم ، وقرىء « ولْيَحكُمْ » بالجزم على أن اللام لام الأمر ، أي ليؤمنوا بجميع ما فيه ، وليقيموا ما أمروا به فيه ، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ﷺ ،والأمر باتباعه ، وتصديقه إذا وجد ، كما قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ الآية ولهذا قال ههنا : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن طاعة ربهم ، المائلون إلى الباطل ، التاركون للحق ، وهكذا فإن هذه الآية نزلت في النصارى ، وهو ظاهر من السياق .

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَٱسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

لما ذكر الله تعالى التوراة ومدحها وأمر باتباعها لما كانت سائغة الاتباع ، وذكر الأنجيل ومدحه وأمر أهله بإقامته ، شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم ﷺ فقال تعالى : ﴿ وأنزلنا اليك الكتاب بالحق ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ﴾ أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه ، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ ، فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقاً عند حامليها من ذوي الأبصار والبصائر الذين انقادوا لأمر الله ، واتبعوا شرائعه . وصدقوا رسله الذين وعدهم الله على ألسنتهم من مجيء محمد عليه الصلاة والسلام إنه لكائن لا محالة ولا بد ، وقد كان والحمد لله . وقوله تعالى : ﴿ ومهيمناً عليه ﴾ قال ابن عباس أي مؤتمناً عليه وعنه رضي الله عنه قال : القرآن أمين على كل كتاب قبله وقال ابن جريج : القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل وعن ابن عباس ﴿ ومهيمناً ﴾ اي حاكماً على ما قبله من الكتب وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى . جعل الله هذا الكتاب الكريم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره فلهذا جعله شاهداً وأمينا وحاكماً عليها كلها وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة ، فقال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ﴾ أي فاحكم يا محمد بين الناس كافة ، بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم ، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك . قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ مخيراً إن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم . فردهم إلى أحكامهم فنزلت : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ﴾ فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ أي لا تتبع آراءهم التي اصطلحوا عليها ، ولا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء الجهلة . وقوله تعالى ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً** ﴾ أي سبيلاً وسنة قاله ابن عباس . فإن الشرعة وهي الشريعة أيضاً هي ما يُبتدأ فيه إلى الشيء ، ومنه يقال شرع في كذا أي ابتدأ فيه . أما المنهاج فهو الطريق الواضح السهل . وهذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان . باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد ، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : ١١٩ [نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد] يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله

وضمَّنه كل كتاب أنزله كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي ، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ، ثم يحل في الشريعة الأخرى وبالعكس ، وخفيفاً فيزاد في الشدة في هذه دون هذه ، فله الحكمة البالغة والحجة الدامغة . وهذه الشريعة الخاتمة التي بعث بها الرسول الأعظم الخاتم ثم نسخ الله بها جميع ما تقدمها من الشرائع ،وجعلها لأهل الأرض كافة إنسها وجنها عربها وعجمها .

وقوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ أي أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه . أوعزموا عليه من ذلك كله .

وقوله تعالى : ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ وهي طاعة الله والتصديق بكتابه القرآن . ثم قال تعالى﴿ إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ أي معادكم أيها الناس إليه تعالى ﴿ فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ فيجزي الصادقين ، ويعذب المكذبين . وقوله تعالى : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ﴾ تأكيد لما تقدم ثم قال تعالى : ﴿ واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ أي أحذر اعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور ، فلا تغتر بهم ، فانهم كذبة كفرة خونة .﴿ فان تولوا ﴾ عما تحكم به بينهم من الحق ، وخالفوا شرع الله ﴿ فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾ أي فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم ان يصرفهم عن الهدى لما لهم من الذنوب السالفة ﴿ وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴾ أي خارجون عن طاعة ربهم كما قال تعالى : ﴿ وان تطع اكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾

وقوله تعالى : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون . ﴾ ينكر تعالى على من حكم بغير حكم الله ، فإن حكم الله مشتمل على كل خير ، وناهٍ عن كل شر ، فالعدول إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات ، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم واهوائهم . لذا قال تعالى : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ أي يريدون ، وعن حكم الله يعدلون . ﴿ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به ، وأيقن أن الله أحكم الحاكمين . قال الحسن من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية وروى الحافظ ابو القاسم الطبراني عن ابن عباس

قال : قال رسول الله ﷺ :١٢٠[أبغض الناس إلى الله عز وجل من يبتغي في الإسلام سنة الجاهلية ، وطالب دم امرىء بغير حق ليريق دمه] وروى البخاري باسناده نحوه .



﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ۞ (٥١) فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ۞ (٥٢) ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ۞ (٥٣) ﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى ، الذين هم أعداء الاسلام وأهله ـ قاتلهم الله ـ ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ، ثم تهدّد وتوعّد من يتعاطى ذلك فقال سبحانه : ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فترى الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك وريب ونفاق ، يسارعون فيهم ، أي يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين ، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى ، فينفعهم ذلك . عندها قال تعالى : ﴿ فعسى الله أن يأتي بالفتح ﴾ قال السدي : يعني فتح مكة وقال غيره : يعني القضاء والفصل ، ﴿ أو أمر من عنده ﴾ يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى ، ﴿ فيصبحوا ﴾ يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿ على ما أسرّوا في أنفسهم ﴾ من الموالاة ﴿ نادمين ﴾ أي على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئاً ، بل كان عين المفسدة ، فإنهم فضحوا ، وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين لا يعرف من حالهم شيء ، فلما انفضح أمرهم تعجب المؤمنون منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ، ويحلفون على ذلك ويتأولون فبان كذبهم وافتراؤهم ولهذا قال تعالى : ﴿ ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾ .

قال محمد بن اسحق عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبدالله بن أبي – ابن سلول – وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وكان أحد بني عوف بن الخزرج ، له من حلفهم مثل الذي لعبدالله بن أبي فجعلهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم وقال : يا رسول الله ، أبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وأتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم ، ففيه – أي في عبادة بن الصامت – وفي عبدالله بن أبي – ابن سلول – نزلت الآيات في المائدة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء – إلى قوله – ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون . ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۞ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۞ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَالِبُونَ ۞ (٥٦) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة ، أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته ، فإن الله سيستبدل به من هو خير لها منه ، وأشد منعة ، وأقوم سبيلاً ، كما قال تعالى : ﴿ وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ وقال تعالى ههنا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ﴾ أي يرجع عن الحق إلى الباطل ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري ، قال : ١٢١ [لما نزلت – أي هذه الآية – قال رسول الله ﷺ « هم قوم هذا »] [1] ورواه ابن جرير

(١) قلت – : وهذا ليس خاصاً في قوم دون قوم انما هي صفات خيرة طيبة اذا كانت في أي قوم مؤمنين فهم قوم يحبهم الله ويحبونه وقد وصفهم الله تعالى : « اذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين . يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . . . »

بنحوه وقوله تعالى : ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه متعززاً على خصمه وعدوه . كما قال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وفي صفة رسول الله ﷺ أنه الضحوك القتال ، فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه . وقوله عز وجل : ﴿ يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ أي لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله ، واقامة الحدود ، وقتال أعدائه ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لا يردهم عن ذلك راد ، ولا يحيك فيهم لومة لائم .

روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : ١٢٢ [أمرني خليلي ﷺ بسبع : أمرني بحب المساكين والدنو منهم ، وأمرني أن انظر إلى من هو دوني ، ولا أنظر إلى من هو فوقي وأمرني أن اصل الرحم وان أدبرت ، وأمرني ان لا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مُرّاً ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومةَ لائم ، وأمرني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة الا بالله . فإنهن من كنز تحت العرش .] روى الإمام أحمد أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ ١٢٣ [ألا لا يمنعن أحدَكم رهبةُ الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده ، فإنه لا يقرب من أجل ، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم) روى أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ ١٢٤ [لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله فيه مقال ، فلا يقول فيه ... فيقال له يوم القيامة ما منعك ان تكون قات في كذاوكذا ؛ فيقول : مخافة الناس ، فيقول : إياي أحق أن تخاف .] ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ أي من اتصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿ والله واسع عليم ﴾ أي واسع الفضل ، عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه . وقوله تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ أي ليس اليهود بأوليائكم بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين وقوله تعالى : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الصفات من اقام الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام ، وهي لله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين . وأما قوله تعالى : ﴿ وهم راكعون ﴾ فقد توهم بعض الناس ان هذه الجملة في موضع الحال من قوله تعالى : ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ أي في حال ركوعهم ولو كان هذا كذلك ، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره ، لأنه ممدوح ، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوىٰ وحتى أن بعضهم ذكر في هذا اثراً عن علي بن أبي طالب ان هذه الآية نزلت فيه ، وذلك أنه مرّ به سائل في حال ركوعه

فأعطاه خاتمه ولكن لم يصح في ذلك شيء ، إنما تقدم في الأحاديث السابقة أن هذه الآيات كلها ، نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه حين تبرأ من حلف اليهود ، ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين ؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : ﴿ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ كما قال تعالى : ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز . لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين ، فهو مفلح في الدنيا والآخرة ، ومنصور ، في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ .

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ❁ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ❁ (٥٨)

وقوله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعبا﴾**

هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين ، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون : وهي شرائع الأسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير ، يتخذونها استهزاءً ويعتبرونها نوعاً من اللعب في نظرهم الفاسد . (وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم) وقوله تعالى : ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء﴾ أي لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء والمراد بالكفار المشركون وقوله تعالى : ﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ أي اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذي اتخذوه هزواً ولعباً . كما قال تعالى : ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلاّ أن تتقوا منهم تُقاةً ويُحذّركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾ . وقوله تعالى : ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً﴾ أي وكذلك إذا أذنتم إلى الصلاة ﴿اتخذوها﴾ أيضاً ﴿هزواً ولعباً ذلك بأنهم

قوم لا يعقلون ﴾ معاني عبادة الله وشرائعه ، وهذه صفات أتباع الشيطان الذي اذا سمع الأذان أدبر وله حصاص أي ضراط حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قُضي التأذين أقبل فإذا ثُوِّبَ للصلاة أدبر ، فإذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه ، فيقول : اذكر كذا أذكر كذا ، لِمَا لم يكن يذكر حتى يظل الرجلُ لا يدري كم صلىّ ، فإذا وجد أحدكم ذلك ، فليسجد سجدتين قبل السلام . متفق عليه وقال الزهري : قد ذكر الله التأذين في كتابه فقال : ﴿ وإذا ناديتم إلى الصلاة ... ﴾ رواه ابن أبي حاتم .

قال أسباط عن السدي في قوله تعالى : ﴿ وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً » قال : كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي : أشهد أن محمداً رسول الله ، قال : حرق الكذاب ، فدخلت خادمه ليلة من الليالي بنار وهو نائم ، وأهله نيام فسقطت شرارة فأحرقت البيت ، فاحترق هو وأهله ، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ * (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ ٱللهِ مَنْ لَعَنَهُ ٱللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ * (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ * (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ ٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * (٦٣) ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد للذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب : ﴿ هل تنقمون منّا إلا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل ﴾ أي هل لكم علينا من مطعن أو عيب إلاّ هذا...؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمّة فيكون الاستثناء منقطعاً كما في قوله تعالى:

﴿ وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأن أكثركم فاسقون ﴾ معطوف على : ﴿ ... أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ﴾ أي وآمنّا بأن أكثركم فاسقون أي خارجون عن الطريق المستقيم . ثم قال تعالى :

﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ﴾ أي هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا ؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات ، المفسرة بقوله تعالى : ﴿ من لعنه الله ﴾ أي أبعده من رحمته ﴿ وغضب عليه ﴾ أي غضباً لا يرضى بعدهُ أبداً ﴿ وجعل منهم القردة والخنازير ﴾ كما تقدم بيانه في سورة البقرة كما سيأتي إيضاحه عند سورة الأعراف . (١)

روى سفيان الثوري عن ابن مسعود قال : ١٢٥ [سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير : أهي مما مسخ الله ؟ فقال : « ان الله لم يهلك قوماً – أو قال لم يمسخ قوماً فيجعل لهم نسلاً ولا عقباً ، وان القردة والخنازير كانت قبل ذلك » .] وقد رواه مسلم وقوله تعالى : ﴿ وعبد الطاغوت ﴾ أي وجعل منهم من عبد الطاغوت ، وقرئت قراآت أخرى يرجع معناها كلها إلى : أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه ، كيف يصدر منكم هذا وانتم قد وجد منكم جميع أنواعِ عبادة الطاغوت ولهذا قال : ﴿ أولئك شرٌ مكاناً ﴾ أي مما تظنون بنا ﴿ وأضل عن سواء السبيل ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة ، كقوله عز وجل : ﴿ أصحاب الجنة يومئذٍ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ﴾ وهذه صفة المنافقين منهم ، أنهم يصانعون المؤمنين في الظاهر ، وقلوبهم منطوية على الكفر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وقد دخلوا ﴾ عندك يا محمد ﴿ بالكفر ﴾ أي مستصحبين الكفر في قلوبهم دونما انتفاع بما قد سمعوا منك من العلم ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر ولهذا قال تعالى : ﴿ وهم قد خرجوا به ﴾ فخصهم به دون غيرهم ، وقوله تعالى : ﴿ والله أعلم بما كانوا يكتمون ﴾ أي عالم بسرائرهم وما تنطوي عليه ضمائرهم ، وإن أظهر خلاف ذلك فإن الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء . وقوله تعالى : ﴿ وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت ﴾ أي يبادرون إلى ذلك من تعاطي المآثم والمحارم ، والاعتداء على الناس ، وأكلهم السحت ﴿ لبئس ما كانوا يعملون ﴾ أي لبئس العمل كان عملهم ، وبئس الاعتداء اعتداؤهم .

(١) في سورة البقرة في الآية رقم /٦٥/ وفي سورة الاعراف في الآية رقم /١٦٦/ .

وقوله تعالى : ﴿ لولا ينهاهم الربّانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ يعني هلاّ كان ينهاهم الربّانيون والأحبار عن تعاطي ذلك والربانيون هم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم ، والأحبار هم العلماء فقط ﴿ لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ يعني من تركهم ذلك قاله ابن عباس . روى ابن جرير عن ابن عباس، قال : ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية وقال الضحاك : ما في القرآن آية أخوف عندي منها وقال ابن أبي حاتم ، وذكره يونس بن حبيب عن يحيى بن يعمر قال :

خطب علي بن أبي طالب فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال:

ايها الناس انما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار ، فلما تمادوا في المعاصي اخذتهم العقوبات ، فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل ان ينزل بكم مثل الذي نزل بهم ، واعلموا ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب اجلا . وعن المنذر بن جرير عن ابيه قال : قال رسول الله ﷺ :

١٢٦ [ما من قوم يكون بين أظهرهم من بعمل بالمعاصي هم أعز منه وأمنع ، ولم يغيروا، إلا أصابهم الله منه بعذاب] **تفرد به احمد ورواه ابو داود عن جرير قال :[سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون أن يغيروا عليه ، فلا يغيرون إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا »]وقد رواه ابن ماجة عن علي بن محمد ،عن وكيع عن إسرائيل ، عن أبي إسحق ، عن عبيد الله بن جرير ، عن أبيه به ؛ قال الحافظ المزي : وهكذا رواه شعبة عن أبي إسحق به .**

۞ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ

جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ ۞ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ۞ (٦٦)

يخبر تعالى عن اليهود – عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة – بأنهم وصفوه بأنه بخيل ، وأنه فقير وهم أغنياء ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ؛ وعبروا عن البخل بأن قالوا : ﴿ يد الله مغلولة ﴾ أي بخيلة كقوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ﴾ وهذا الذي أرادهُ هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله . وقد قال عكرمة : إنها نزلت في فنحاص اليهودي عليه لعنة الله وهو الذي قال ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ فضربه أبو بكر الصديق (رض)، وقد رد الله تعالى عليهم ما قالوه ، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه. فقال تعالى : ﴿ غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ﴾ وهكذا وقع لهم ، فان عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمرٌ عظيم. كما قال تعالى : ﴿ ضربت عليهم الذلة ... ﴾ الآية .. ثم قال تعالى :

﴿ بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ أي بل هو الواسعُ الفضلِ الجزيلُ العطاءِ ، الذي ما من شيء إلاّ عنده خزائنه ، وهو الذي ما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له. كما قال تعالى : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ والآيات في هذا كثيرة . وقد روى الإمام أحمد بن حنبل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ١٢٧ : [إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحّاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فانه لم يَغِضْ ما في يمينه . قال – وعرشه على الماء وفي يده الأخرى الفيض – أو القبض – يرفع ويخفض . وقال : يقول تعالى : أنفق أنفق عليك] أخرجاه في الصحيحين . وقوله تعالى : ﴿ وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً ﴾ أي فكما يزداد بما أنزل اليك المؤمنون تصديقاً وعملاً وعلماً ، يزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأمتك طغياناً وكفراً وتكذيباً. كما قال تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وألقينا بينهم العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة ﴾ يعني أنه لا تجتمع قلوبهم ، بل العداوة واقعة بين فرقهم ، لأنهم لا يجتمعون على حقّ وقد خالفوك وكذبوك .

وقوله تعالى : ﴿ كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾ أي كلما عقدوا أسباباً

يكيدونك بها وكلما برموا أموراً يحاربونك بها ، أبطلها الله ورد كيدهم عليهم ، وحاق مكرهم السيء بهم .

﴿ ويسعَوْن في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين ﴾ أي من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الأرض فساداً والله لا يحب مَنْ هذه صفتُه . ثم قال جل وعلا : ﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا ﴾ أي لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ﴿ لكفّرنا عنهم سيآتهم ولأ دخلناهم جنات النعيم ﴾ أي لأ زلنا عنهم المحذور وأنلناهم المقصود ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ﴾ قال ابن عباس : هو القرآن ﴿ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ أي لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه ، من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير ، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله محمداً ﷺ ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة . ﴿ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض . كما قال تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض . ﴾

وقوله تعالى : ﴿ منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾ جعل الله أعلى مقامات أتباع موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام الاقتصاد وهو أوسط مقامات هذه الأمة وفوق ذلك رتبة السابقين . كما في قوله عز وجل ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها ﴾ الآية والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الآية كلهم يدخلون الجنة .



﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ (٦٧)

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة وآمراً له بأبلاغ جميع ما أرسله الله به ، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك ، وقام به أتمّ قيام ، قال : البخاري عند تفسير هذه الآية عن عائشة (رض) قالت ١٢٨ : [من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب وهو يقول عز وجل : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما

أنزل إليك من ربك ﴾] هكذا رواه هاهنا مختصراً وقد أخرجاه في مواضع من صحيحيهما مطولاً .

وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت : ١٢٩ : [لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه »] . وفي صحيح البخاري من رواية أبي جحيفة وهب بن عبدالله السوائي قال : قلت لعلي بن أبي طالب (رض)، هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن . فقال : لا والذي فلق الحبَّة وبرأ النسمة إلاَّ فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن ، وما في هذه الصحيفة ، قلت وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر . وثبت في صحيح مسلم عن جابر عن عبدالله ١٣٠ [أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ : « أيها الناس إنكم مسؤولون عني ، فما أنتم قائلون ؟ » قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فجعل يرفع أصبعه الى السماء وينكسها إليهم ويقول : « اللهم هل بلغت ؟ »]

وقوله تعالى : ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ يعني وإن لم تؤدِّ إلى الناس ماأرسلتك به ، فما بلغت رسالته أي وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته .

وقوله تعالى : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ أي بلّغ أنت رسالتي ، وأنا حافظك من الناس ، وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم ، فلا تخف ولا تحزن فلن يصل أحد منهم إليك بسوء ؛ وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يحرس . كما روى الإمام أحمد عن عائشة (رض) كانت تحدث ١٣١ : [أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه قالت : فقلت : ما شأنك يا رسول الله ؟ قال : « ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة » ، قالت : فبينا أنا على ذلك ، إذ سمعت صوت السلاح ؛ فقال « من هذا ؟ » فقال : أنا سعد بن مالك ؛ فقال « ما جاء بك ؟ » قال : جئت لأحرسك يا رسول الله ، قالت : فسمعت غطيط رسول الله ﷺ في نومه] أخرجاه في الصحيحين وروى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت ١٣٢ : [كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ قالت فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة وقال : يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنا الله عز وجل] وهكذا رواه الترمذي ثم قال : هذا حديث غريب ، وهكذا رواه ابن جرير والحاكم في مستدركه وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ورواه ابن مردويه عن **عصمة** بن مالك الخطمي ١٣٣ قال : [كنا نحرس رسول الله ﷺ بالليل حتى نزلت ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ فترك الحرس .]

روى الامام أحمد عن جعدة بن خالد بن الصمة الجشمي (رض) قال ١٣٤ : [... وأُتِيَ النبيُّ ﷺ برجلٍ ، فقيل : هذا أراد أن يقتلك ؛ فقال له النبي ﷺ ﴿ لم تُرَعْ ولو أردت ذلك لم يُسَلِّطْكَ الله عليَّ ﴾]

وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ أي بلغ أنت ، والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ،كما قال تعالى : ﴿ ليس عليك هداهم ولكنَّ الله يهدي من يشاء ﴾ وقال تعالى : ﴿ فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ ۞(٦٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّابِئُونَ وَٱلنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ (٦٩) ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد ﴿ يا أهل الكتاب لستم على شيء ﴾ أي من الدين حتى تؤمنوا بجميع مـا بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء وتعملوا بما فيها ، ومما فيهـا الإيمان بمحمد ﷺ والأمر باتباعه والإيمان بمبعثه ، والاقتداء بشريعته ﴿ وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ أي القرآن العظيم ، قاله مجاهد . وقوله تعالى : ﴿ وليزيدن كثيراً منهم ما ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً ﴾ تقدم تفسيره [١] ﴿ فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ أي فلا تحزن عليهم ، ولا يهيبنّك ذلك منهم . ثم قال : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ وهم المسلمون ﴿ والذين هادوا ﴾ وهم حملة التوراة ﴿ والصابئون ﴾ لما طال الفصل حسن العطف بالرفع ؛ والصابئون : طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين قاله مجاهد ، وعنه أنهم من اليهود والنصارى وعن قتادة هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى غير القبلة ويقرأون الزبور وقال ابن وهب أخبرني ابن أبي زياد عن أبيه ، قال:الصابئون : هم قوم مما يلي العراق وهم بكوثى ، أو هم يؤمنون بالنبيين كلهم ، ويصومون كل سنة ثلاثين

(١) راجع الآية رقم /٦٤/ من سورة المائدة .

يوماً ، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات وقيل غير ذلك [١] وأما النصارى فمعروفون وهم حملة الإنجيل . والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر وعملت عملاً صالحاً. ولا يكون ذلك كذلك، حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين ، فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه – من الآخرة وأهوالها – ولا على ما تركوا وراء ظهورهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ تقدم تفسيرها في سورة البقرة [٢]

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ❁ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ❁ (٧١) ﴾

يذكر تعالى أنه أخذ العهود على بني اسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله ، فنقضوا تلك العهود واتبعوا أهواءهم.وقدموها على الشرائع فماوافقهم منها قبلوه،وما خالفهم ردوه . ولهذا قال تعالى : ﴿ كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون وحسبوا ألاّ تكون فتنة ﴾ أي وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا ، فترتب : وهو أنهم عموا عن الحق وصمّوا فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه ﴿ ثم تاب الله عليهم﴾مماكانوا فيه ، ﴿ ثم عموا وصموا ﴾ بعد ذلك ﴿ كثير منهم والله بصير بما يعملون ﴾ أي مطلع عليهم وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

---

(١) و (٢) راجع الآية رقم /٦٢/ من سورة البقرة تجد تفصيلا جيداً في تحقيق حقيقة الصابئة ، للإمام تقي الدين أحمد بن تيمية رضي الله عنه » .

أَنْصَارٍ ۞ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ (٧٤) مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَاتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۞ (٧٥)

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والنسطورية ، ، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله ، تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علواً كبيراً ؛ هذا وقد كان أول كلمة نطق بها وهو في المهد :﴿ إني عبد الله ﴾ ولم يقل : إني أنا الله ولا ابن الله بل قال : ﴿ إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ إلى أن قال : ﴿ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوّته ولهذا قال تعالى : ﴿ وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربّي وربّكم إنه من يشرك بالله ﴾ أي فيعبد معه غيره ﴿ فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وفي الصحيح ١٣٥ [أن النبي ﷺ بعث منادياً ينادي في الناس : « إن الجنة لا يدخلها إلاّ نفس مسلمة » « وفي لفظ « مؤمنة »] ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني اسرائيل : ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنّة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ أي ما له عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه . وقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ .

قال السدّي وغيره : نزلت في جعلهم المسيح وأمّه إلهين مع الله ؛ فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الإعتبار . قال السدي : وهي كقوله تعالى في آخر السورة : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأميَ إلهين من دون الله قال سبحانك ﴾ وهذا القول هو أظهر الأقوال التي قيلت في تفسير قوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ﴾ ــ والله أعلم ــ قال الله تعالى : ﴿ وما من إله إلاّ إله واحد ﴾ أي ليس متعدداً بل هو وحده لاشريك له ، إلّه جميع الكائنات ثم قال تعالى : ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ﴾

أي من هذا الافتراء والكذب ﴿ ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ أي في الآخرة من الأغلال والنكال ؛ ثم قال تعالى : ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ وهذا من كرمه تعالى ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم ، والافتراء والإفك يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، فكل من تاب إليه تاب عليه .

وقوله تعالى : ﴿ ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ أي أنه عبد من عباد الله كالرسل الذين تقدموه ﴿ وأمه صدّيقة ﴾ أي مؤمنة به مصدقة له ، وهذا أعلى مقاماتها ، فدلّ على أنها ليست نبيّة كما زعم ابن حزم وغيره إلى نبوة سارة أم اسحق ، ونبوة أم موسى ، ونبوة أم عيسى ، استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم وبقوله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ وهذا معنى النبوة بزعمهم ، ولكن الذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال قال الله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى الإجماع على ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ أي يحتاجان إلى التغذية به ، والى خروجه منهما ، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلٓهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة ، عليهم من الله ما يستحقون إلى يوم القيامة ، ثم قال تعالى : ﴿ انظر كيف نبيّن لهم الآيات ﴾ أي نوضحها ونظهرها ﴿ ثم انظر أنّى يؤفكون ﴾ أي ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون ! ! ! وبأي قول يتمسكون ، وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون .

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً وَٱللهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ ۞ (٧٧) ﴾

ينكر تعالى على من عَبَدَ غيرَه من الأنداد ومبيناً أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية فقال سبحانه : ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لهؤلاء العابدين وغيرهم ﴿ أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ﴾ أي لا يقدر على رفع ضرٍ عنكم ، ولا إيصال نفعٍ إليكم ﴿ والله هو

السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بكل شيء ، فلِمَ عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه ؟ ثم قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ﴾ أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلآهية ، كما صنعتم في المسيح وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله ، وما ذاك إلاّ لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال ، الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً ، ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً . وضلّوا عن سواء السبيل ﴾ أي وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال .

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۞ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۞ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞ (٨١) ﴾

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهرٍ طويل فيما أنزله على داود وعيسى عليهما الصلاة والسلام بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه. وعن ابن عباس : لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان ، ثم بيّن ما لهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم ؛ فقال تعالى : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ أي كان لا ينهي أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم ، ثم ذمهم على ذلك ليُحذِّر أن يُرتكب مثل الذي ارتكبوه ، فقال تعالى : ﴿ لبئس ما كانوا يفعلون ﴾

روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ١٣٦ [« إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيراً فإذا كان من الغد

لم يمنعه ما رأى منه ، أن يكون أكيله وخليطه وشريكه وشريبه ، فلما رأى الله ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى بن مريم ، ﴿ ١٣٧ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ : [والذي نفسي بيده لتأمـــرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد المسيء ، ولتأطرُنّه على الحقّ أطراً ، أو ليضربنّ الله قلوب بعضكم على بعض ، أو ليلعنكم كما لعنهم]

والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً ، ولنذكر منها ما يناسب المقام :

روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان ، أن النبي ﷺ قال ١٣٨ . : [والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم **عقاباً** من عنده ثم لتدعُنَّه فلا يستجيب لكم]

وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ ١٣٩ [من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان] رواه مسلم . وروى الإمام أحمد عن عدي بن عميرة (رض) قال : سمعت النبي ﷺ يقول ١٤٠ . : [إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكرَ بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه ، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة]

وقوله تعالى : ﴿ ترى كثيراً منهم يتولّوْن الذين كفروا ﴾ قال مجاهد : يعني بذلك المنافقين . وقوله تعالى : ﴿ لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ﴾ يعني بذلك موالاتهم للكافرين وتركهم موالاة المؤمنين التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم ، وأسخطت الله عليهم سخطـــاً مستمراً إلى يوم معادهم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ أن سخط الله عليهم ﴾ وفسر بذلك ما ذمهم به ، ثم أخبر عنهم أنهم ﴿ وفي العذاب هم خالدون ﴾ يعني يوم القيامة .

وقوله تعالى ﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ﴾ أي لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما والوا الكافرين وعادوا المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه ﴿ ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾ أي خارجون عن طاعة الله ورسوله مخالفون لما أنزل .



﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ
أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّا
نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۞ (٨٢)
وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ
مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّاهِدِينَ ۞(٨٣)
وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا
رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّالِحِينَ ۞ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ ٱللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (٨٥)
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ ۞ (٨٦) ﴾

نزلت هذه الآيات في وفدٍ بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ ليسمعوا كلامه ويروا صفاته ، فلما رأوه وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه . قال ابن جرير أن هذه الآيات قد نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أو غيرها على أن النجاشي ملك الحبشة أسلم ولما مات صلّى عليه النبي ﷺ .

فقوله تعالى : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ وما ذاك إلا لأن كفر اليهود ، كفر عنادٍ وجحود ، ومباهتة للحق وغمط للناس وتنقص بحملة العلم . ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء ، حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة ، وسمّوه وسحروه ، وألّبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة .

روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

١٤٠[ما خلا يهودي بمسلم إلاّ همّ بقتله] وقوله تعالى : ﴿ ولتجدن أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ﴾ أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج

إنجيله ، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة ، وما ذاك إلا لما في قلوبهم ـ اذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ﴾ وفي كتابهم : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » . وليس القتال مشروعاً في ملتهم ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾ فقد تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف. فقال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ أي مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ ﴿ يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ أي مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به وقد روى النسائي عن عبدالله بن الزبير قال : [نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه .]

روى الطبراني عن ابن عباس في قول الله تعالى ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ﴾ ١٤١ [قال إنهم كانوا كرابين أي فلاحين قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن ، آمنوا وفاضت أعينهم فقال رسول الله ﷺ « لعلكم إذا رجعتم الى أرضكم انتقلتم الى دينكم » فقالوا لن ننتقل عن ديننا ، فأنزل الله ذلك من قولهم : ﴿ وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴾] وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله ﴾ وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ـ إلى قوله ـ لا نبتغي الجاهلين ﴾ ولهذا قال الله تعالى هاهنا : ﴿ فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿ وذلك جزاء المحسنين ﴾ أي باتباعهم الحق ، وانقيادهم له حيث كان وأين كان ومع من كان . ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال عز من قائل : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أي جحدوا بها وخالفوها ، ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ أي هم أهلها والداخلون فيها .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۞ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۞ (٨٨) ﴾

جاء في الصحيحين عن عائشة (رض) ١٤٢ [إن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر فقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أتزوج النساء ؛ وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « ما بال أقوام يقول أحدهم كذا كذا ، لكني أصوم وأفطر وأنام وأقوم ،وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني »]

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ١٤٣ [نزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم .. ﴾ في رهط من أصحاب النبي ﷺ قالوا نقطع مذاكيرنا ، ونترك شهوات الدنيا ، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك ، فقالوا : نعم ؛ فقال النبي ﷺ : « لكني أصوم وأفطر وأصلي وأنام ، وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتي فهو مني ، ومن لم يأخذ بسنّتي فليس مني »] رواه ابن أبي حاتم .

روى الأعمش عن عمرو بن شرحبيل قال [جاء معقل بن مقرن الى عبدالله بن مسعود فقال إني حرمت فراشي ، فتلا هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم .

وروى الثوري عن مسروق ١٤٤ قال : [كنا عند عبدالله بن مسعود فجيء بضرع فتنحّى رجل فقال له عبدالله : أدنُ ؛ فقال : إني حرمت أن آكله ، فقال عبدالله : أدنُ فاطعم وكفّر عن يمينك ، وتلا هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيباتِ ما أحل الله لكم ﴾ ورواه الحاكم في مستدركه ثم قال على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

وقد ذهب بعض العلماء كالشافعي وغيره إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه ، ولا كفارة عليه أيضاً ولقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ ولأن الذي حرم اللحم على نفسه كما في الحديث المتقدم لم يأمره النبي ﷺ بكفارة ، وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو ملبساً أو شيئاً من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين ، كما إذا التزم تركه باليمين ، فكذلك يُؤَاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه ، كما أفتى بذلك ابن عباس . وكما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم ﴾ الآية ... وكذلك هاهنا لما ذكر هذا الحكم عقّبهُ بالآية المبينة لتكفير اليمين ، فدل على

أن هذا منزّل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير ، والله أعلم [١] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تعتدوا ﴾ أي لا تضيقوا على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم كما قاله من قاله من السلف ويحتمل أن يكون المراد ، كما لا تحرموا الحلال ، فلا تعتدوا في تناول الحلال ولا تجاوزوا الحدّ فيه كما قال تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ الآية . فشرع الله العدل بين الغالي فيه والجافي عنه .ولهذا قال تعالى : ﴿ لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ﴾ ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم ، واتبعوا طاعته ورضوانه ، واتركوا مخالفته وعصيانه.﴿ الذي أنتم به مؤمنون ﴾ .

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ ٱلْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ (٨٩) ﴾

قد تقدم الكلام على اللغو في اليمين في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا [٢] ولله الحمد والمنة وأنه قول الرجل في الكلام من غير قصد : لا والله ، وبلى والله ... وهذا مذهب الشافعي وقيل وقيل وقيل ... والصحيح أنه اليمين من غير قصد ، بدليل قوله تعالى : ﴿ ولكن يؤآخذكم بما عقدتم الأيْمان ﴾ أي بما صممتم عليه منها وقصدتموها ، ﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين ﴾ يعني محاويج من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه . وقوله

(١) قلت : فيما يبدو – والله أعلم – إن ما ذهب إليه بعض العلماء كالشافعي وغيره بعدم إلزام الكفارة على من حرم شيئاً من مأكل أو ملبس أو مشرب أو أي شيء آخر ما عدا النساء ، هو الحق ... لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أمره الله تعالى بأن يحل ما حرم على نفسه من بعض نسائه ويكفر عن ذلك، كما لو أنه حلف يميناً فكفر، وجعل تحريمه كأنه يمين ، ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر الذين حرموا على أنفسهم بعض المطعم والملبس والمشرب بكفارة ما ... ففهم من هذا ، أن من حرم على نفسه ما حرموا ليس عليه كفارة . لأن الكفارة جاءت بشأن تحريم النساء . (٢) راجع الآية رقم /٢٢٥/ من سورة البقرة .

تعالى : ﴿ من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ أي في عسرهم ويسرهم ، كالخبز واللحم ، والخبز والسمن ، والخبز واللبن ، والخبز والزيت ، والخبز والخل . أكلةً واحدةً حتى يشبعوا . وقال آخرون : يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر ونحوهما ، فهذا قول عمر وعلي وعائشة ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغيرهم . وقد روى أبو بكر بن مردويه عن ابن عباس قال ١٤٥ : [كفّر رسول الله ﷺ بصاع من تمر وأمر الناس به ، ومن لم يجد فنصف صاع من بر] .

وقوله تعالى : ﴿ أو كسوتهم ﴾ قال الشافعي رحمه الله : لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص ، أو سراويل ، أو إزار ، أو عمامة ، أو مقنعة أجزأه ذلك . وقال : مالك وأحمد لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلي فيه ، إن كان رجلاً أو امرأة كل بحسبه والله أعلم ، وقال ابن عباس عباءة لكل مسكين أو شملة ، وقال مجاهد أدناه ثوب وأعلاه ما شئت .

وقوله تعالى : ﴿ أو تحرير رقبة ﴾ قال الشافعي لا بد أن تكون مؤمنة ، وأخذ تقييدها بالأيمان من كفارة القتل لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب ، ومن حديث معاوية بن الحكم السلمي الذي هو في موطأ مالك ومسند الشافعي وصحيح مسلم ١٤٦ [إنه ذكر أن عليه عتق رقبة ، وجاء معه بجارية سوداء ، فقال لها رسول الله ﷺ : « أين الله ؟ » قالت : في السماء . قال : « من أنا » قالت : رسول الله . قال : « أعتقها فإنها مؤمنة »] الحديث بطوله ... فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين ، أيّها فعل الحانث أجزأ عنه بالإجماع ، وقد بدأ بالأسهل فالأسهل : فالإطعام أسهل وأيسر من الكسوة ، كما أن الكسوة أيسر من العتق ، فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى ، فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفّر بصيام ثلاثة أيام ، كما قال تعالى : ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ﴾ واختلف العلماء : هل يجب فيها التتابع ، أو يستحب ولا يجب ، ويجزىء التفريق ؟ قولان : أحدهما لا يجب لإطلاق قوله تعالى : ﴿ فصيام ثلاثة أيام ﴾ وهو صادق على المجموعة والمفرّقة كصيام قضاء رمضان ، والثاني الوجوب لانه قد روي عن أبي بن كعب وغيره أنهم كانوا يقرأونها : ﴿ فصيام ثلاثة أيام متتابعات ﴾ ومحكي ذلك عن ابن مسعود أيضاً ، وهذه إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً فلا أقل أن يكون خبراً واحداً أو تفسيراً من الصحابة وهو في حكم المرفوع [1] وقوله تعالى :

---

(١) لا يزال عدم الوجوب أقوى دليلا من الوجوب إلا أن يكون التتابع استحباباً فحسن .

﴿ ذلك كفارة ايمانكم اذا حلفتم ﴾ أي هذه كفارة اليمين الشرعية ﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ قال ابن جرير : معناه لا تتركوها بغير تكفير ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ﴾ أي يوضحها ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ۞ (٩١) وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ ۞ (٩٢) لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا ٱتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ ثُمَّ ٱتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ ٱتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (٩٣) ﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميْسر وهو القمار ، وقد ورد عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (رض) أنه قال: الشطرنج من الميْسر رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن علي به.وروي عن راشد بن سعد وضمرة بن حبيب مثله قالا : حتى الكعاب والجوز والبيض التي تلعب بها الصبيان.وقال موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : الميسر هو القمار • وقال الضحاك عن ابن عباس مثله.وقال : كانوا يتقامرون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام ، فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة .

روى ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري ، عن النبي ﷺ قال ١٤٧ :[اجتنبوا هذه الكعاب الموسومة التي يزجر بها زجراً ، فإنها من الميسر] حديث غريب ، وكأن المراد بهذا ، هو النرد الذي ورد الحديث به في صحيح مسلم عن بريدة بن الحصيب الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ ١٤٨ : [من لعب بالنرد شير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه]

وفي موطأ مالك عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ ١٤٩ : [من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله] روى الأمام أحمد عبد الرحمن سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول ١٥٠ : [مثل الذي يلعب بالنرد ثم يقوم فيصلي ، مثل الذي يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلي] أما الشطرنج ،فقد قال عبدالله بن عمر : إنه شر من النرد . وتقدم عن علي أنه قال : هو من الميسر ونص على تحريمه الأئمة الثلاثة وكرهه الشافعي رحمهم الله . وأما الأنصاب قال ابن عباس وجماعة من التابعين : هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها وأما الأزلام فقالوا أيضاً : هي قداح كانـــوا يستقسمون بها [1] رواه ابن أبي حاتم .

وقوله تعالى : ﴿ رجس من عمل الشيطان ﴾ أي سخط من عمل الشيطان ، قاله ابن عباس ﴿ فاجتنبوه ﴾ الضمير عائد على الرجس أي اتركوه ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ وهـــذا ترغيب .

ثم قال تعالى : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمروالميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ وهذا تهديد وترهيب .

﴿ ذكر أحاديث في بيان تحريم الخمر ﴾

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال ١٥١ قال [حرّمت الخمر ثلاث مرات ، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما ؛ فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾ إلى آخر الآية فقال الناس : ما حرما علينا إنما قال : ﴿ فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾

(١) قلت : القداح جمع / قدح / وهو سهم الميسر ، وما يسمى في عهدنا وعصرنا اليوم بـ / اليانصيب / هذا الوباء الوخيم الذي هو القمار بعينه قد تفشى تفشياً ذريعاً في مجتمعنا الذي عم فيه الفساد وقل أن تجد من لا يشتري أوراق اليانصيب هذه فتقع الخسارات العظيمة ومما يؤسف له أن أولي الأمر المفروض فيهم أن ينهوا عنه أفراد الأمة، اذا بهم يشجعونهم على اقتراف هذا المحرم وهذه السجية الرذيلة ، وها نحن أولاء نرى الحكومة تتبنى مشروع اليانصيب ويعود ماله الحرام على مشروع المعرض بدمشق ، ومما يؤسف له أيضاً أن بعض الجمعيات الخيرية تزاول هذه العادة القبيحة وتخصص على زعمها ريعه للأمور الخيرية ، فصدق فيها قول الشاعر :

أطعمة الأيتام من كسب (...) لك الويل لا تزني ولا تتصدقي

وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوماً من الأيام ، صلى رجل من المهاجرين ، أمَّ أصحابه في المغرب فخلط في قراءته فأنزل الله آيةً أغلظ منها : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ فكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مغبق ، ثم أنزلت آية أغلظ منها ﴿يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ قالوا: إنتهينا ربنا . وقال الناس : يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله ، وماتوا على سرفهم ، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان ، فأنزل الله تعالى : ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ إلى آخر الآية فقال النبي ﷺ : « لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم »] انفرد به أحمد .

وقد ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ . أيها الناس ١٥٢ [إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة : العنب ، والتمر ، والعسل ، والحنطة والشعير ، والخمر ما خامر العقل .]

وجاء في الصحيحين عن أنس قال ١٥٣ : [كنت ساقي القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة ، وما شرابهم الا الفضيخ البسر والتمر ، فإذا منادٍ ينادي قال :أخرج فانظر ؛ فإذا منادٍ ينادي ـ ألا ان الخمر قد حرّمت ، فجرت في سككِ المدينة . قال فقال أبو طلحة : أخرجْ فأهرقها فهرقتها ، فقالوا أو قال بعضهم : قتل فلان وفلان وهي في بطونهم قال: فأنزل الله ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾] الآية .

روى الإمام أحمد عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله ﷺ قال ١٥٤ : (إن ربي تبارك وتعالى حرم الخمر والكوبة والقنّين ، وإياكم والغبيراء ، فإنها ثلث خمر العالم)(١)

روى الامام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ١٥٥ : [لعنت الخمر على عشرة أوجه : لعنت الخمر بعينها ، وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها]

روى عبدالله بن وهب عن ثابت عن ابن عمر قال إني كنت مع رسول الله ﷺ في

---

(١) الكوبة بضم الكاف : النرد أو الشطرنج ، والطبل الصغير . القنين : الطنبور ولعبة للروم يتقامرون بها . الغبيراء : وهي شراب من الذره .

المسجد فبينما هو محتبٍ على حبوته ثم قال ١٥٦ : « من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتنا بها » فجعلوا يأتونه فيقول أحدهم : عندي راوية ، ويقول الآخر : عندي زق ، أو ما شاء الله أن يكون عنده ، فقال رسول الله ﷺ « أجمعوه ببقيع كذا وكذا » ثم آذنوني ففعلوا ثم آذنوه ، فقام وقمت معه ومشيت عن يمينه وهو متكىء عليّ ، فلحقنا أبو بكر (رض) ، فأخرني رسول الله ﷺ فجعلني عن شماله ، وجعل أبا بكر في مكاني ثم لحقنا عمر بن الخطاب (رض) فأخرني وجعله عن يساره ، فمشى بينهما حتّى إذا وقف على الخمر قال للناس « أتعرفون هذه ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله ، هذه الخمر ، قال : « صدقتم » ثم قال : « فإن الله لعن الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها وساقيها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وبائعها ، ومشتريها ، وآكل ثمنها » ثم دعا بسكين فقال : « اشحذوها » ففعلوا ، ثم أخذها رسول الله ﷺ يخرق بها الزقاق قال فقال الناس : في هذه الزقاق منفعة ، فقال : « أجل ولكن إنما أفعل ذلك غضباً لله عز وجل لما فيها من سخطه » فقال عمر : أنا أكفيك يا رسول الله ، قال « لا »] قال ابن وهب وبعضهم يزيد على بعض في قصة الحديث . رواه البيهقي .

روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن جابر بن عبدالله قال ١٥٧ : [كان رجل يحمل الخمر من خيبر إلى المدينة فيبيعها من المسلمين ، فحمل منها بمال فقدم بها المدينة فلقيه رجل من المسلمين فقال يا فلان ، إن الخمر قد حرمت ، فوضعها حيث انتهى على تل ، وسجّى عليها بأكسية ثم أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ، بلغني أن الخمر قد حرمت ؟ قال « أجل » قال : لي أن أردها على من ابتعتها منه ؟ قال : « لا يصلح ردها » قال : لي أن أهديها إلى من يكافئني منها ؟ قال : « لا » قال فإن فيها مالاً ليتامى في حجري . قال : إذا أتانا مال البحرين فأتنا نعوض أيتامك من مالهم ثم نادى بالمدينة فقال رجل : يا رسول الله ، الأوعية ننتفع بها ؟ قال : « فحلوا أوكيتها » فانصبّت حتّى استقرت في بطن الوادي] هذا حديث غريب.

روى الامام أحمد عن أنس بن مالك ١٥٨ [أن أبا طلحة سأل رسول الله ﷺ عن أيتام في حجره ورثوا خمراً فقال « أهرقها » قال: أفلا نجعلها خلاً ؟ قال « لا »] ورواه مسلم وأبو داود الترمذي

روى أبو داود عن عبدالله بن عباس عن النبي ﷺ ١٥٩ [« كل مخمر خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب مسكراً أبخست صلاته أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه فان عاد الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال » قيل وما طينة الخبال

يا رسول الله ؟ قال : صديد أهل النار . ومن سقاه صغيراً لا يعرف حلاله من حرامه كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال »] تفرد به أبو داود .

روى مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ١٦٠ : [كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام ومن شرب الخمر فمات وهو يدمنها ولم يتب منها ، لم يشربها في الآخرة] .

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال ١٦١ : [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن] .

قال الأعمش بن عبدالله بن مسعود إن النبي ﷺ قال ١٦٢ : [لما نزلت : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا ...» فقال النبي ﷺ « قيل لي أنت منهم »]

روى عبدالله بن الإمام أحمد : قرأت على أبي بالسند إلى عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ١٦٣ : [إياكم وهاتان الكعبتان الموسومتان اللتان تزجران **زجراً فإنهما ميسر العجم**]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۞ (٩٥) ﴾

قال ابن عباس قوله تعالى : ﴿ ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم﴾

وهو الضعيف من الصيد ، وصغيره يبتلي الله به عباده في إحرامهم حتى لو شاءوا لتناولوه بأيديهم فنهاهم الله أن يقربوه ، وقال مقاتل بن حيان أنزلت هذه الآية في صلح وعمرة الحديبية ﴿ ليعلم الله من يخافه بالغيب ﴾ يعني أنه تعالى يختبرهم بالصيد ، يغشاهم في رحالهم يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سراً وجهراً ، لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره أو جهره كما قال تعالى: ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ وقوله تعالى هاهنا : ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك ﴾ يعني بعد هذا الإعلام والإنذار ﴿ فله عذاب أليم ﴾ أي لمخالفته أمر الله وشرعه . ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾ وهذا تحريم منه تعالى عن تعاطي الصيد في حال الإحرام ، ولا يجوز للمحرم صيد أو قتل أي حيوان إلاّ ما استثناه الشارع الحكيم الذي ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال ١٦٤ : [خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم : الغراب ، والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور]

وروى النسائي عن عائشة عن النبي ﷺ قال ١٦٤ : [خمس يقتلهن المحرم : الحية ، والفأرة ، والحدأة والغراب الأبقع ، والكلب العقور] والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك، لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه . وروى هشيم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ١٦٥ [أنه سئل عما يقتل المحرم ؟ فقال : « الحية والعقرب، والفويسقة، ويرمي الغرابَ ولايقتله، والكلب العقور ، والحدأة، والسبع العادي»] رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل ، والترمذي وقال : هذا حديث حسن .

قال زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة : الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها ، واستأنس من قال بهذا بما روي ١٦٦ [أن رسول الله ﷺ لما دعا على عتبة بن أبي لهب قال : « اللهم سلط عليه كلبك بالشام » فأكله السبع بالزرقاء]قالوا فإن قتل المحرم سوى ذلك فداه إلا أن يصول عليه فيقتله ولا فداء عليه .

وقوله تعالى : ﴿ ومن قتله منكم متعمداً فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم ﴾ فالذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه . لدلالة الكتاب على تأثيم العامد، كقوله تعالى : ﴿ ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ وجاءت السنّة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ .

وقوله تعالى : ﴿ فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ وقد ذهب الجمهور بالمثلية إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي ، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله ، فقد أوجب القيمة سواء

كان الصيد المقتول مثلياً أو غير مثلي قال : وهو مخير إن شاء اشترى به هدياً أو تصدق بثمنه ، أما الذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع : فانهم حكموا في النعامة ببدنة ، وفي بقرة الوحش ببقرة ، وفي الغزال بعنز ، وذكر قضايا الصحابة وأسانيدها مقرر في كتاب الأحكام ، وإذا لم يكن الصيد مثلياً فقد حكم ابن عباس فيه بثمنه يحمل إلى مكة ، رواه البيهقي .

وقوله تعالى : ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ أي يحكم بالجزاء في المثل ، أو في القيمة في غير المثل عدلان من المسلمين ، واختلف العلماء في القاتل : هل يجوز أن يكون أحد الحكمين ؟ على قولين (أحدهما) : لا ... ، وهو مذهب مالك لأن الحاكم لا يكون محكوماً عليه في صورة واحدة (والثاني) نعم لعموم الآية وهو مذهب الشافعي وأحمد .

روى ابن جرير عن طارق قال : أوطأ أربد [1] ظبياً فقتله وهو محرم ، فأتى عمر ليحكم عليه . فقال له عمر : أحكم معي ، فحكما فيه جدياً قد جمع الماء والشجر ، ثم قال عمر ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ وفي هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين ، كما قال الشافعي وأحمد رحمهما الله تعالى ، واختلفوا أيضاً : هل يكتفي بما حكم بمثله الصحابة ، أم يرجع فيه إلى عدلين من المسلمين إن حكم بمثله الصحابة أو لم يحكم فالشافعي وأحمد جعلا أحكام الصحابة المتقدمة شرعاً مقرراً لا يعدل عنه ، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين ؛ وقال مالك أبو حنيفة : بل يجب الحكم في كل فرد فرد سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا ، لقوله تعالى : ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ أي واصلاً إلى الكعبة ، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ويفرق لحمه على مساكين الحرم ، وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة .

وقوله تعالى : ﴿ أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ﴾ أي إذا لم يجد المحرِم مثل ما قتل من النعم ، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال ، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام بين الجزاء والإطعام والصيام كما هو قول مالك وأبي حنيفة ، وأبي يوسف ، ومحمد بن الحسن ، وأحد قولي الشافعي والمشهور عن أحمد رحمهم الله تعالى لظاهر ﴿ أو ﴾ بأنها للتخيير أي بين أن يذبح مثل ما قتل من النعم ، أو يطعم كل مسكين

(١) اربد اسم رجل .

مُدَّيْن وعدد المساكين ستة فان الشارع أمر كعب بن عجرة أن يقسم فرقاً بين ستة ، أو يصوم ثلاثة أيام عن كل صاع يوم ، والفرق ثلاثة آصع ومكان الإطعام في الحرم .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مفسراً هذه الآية ... : إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد حكم عليه فيه؛ فإن قتل ظبياً أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، فإن قتل أيلاً أو نحوه ، فعليه بقرة فإن لم يجد أطعم عشرين مسكيناً فإن لم يجد صام عشرين يوماً ، فإن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحوه ، فعليه بدنة من الإبل ، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً ، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير [١] وروى عن ابن عباس الخيار بين الثلاثة . واختار ذلك ابن جرير رحمه الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ ليذوق وبال أمره ﴾ أي عقوبة فعله الذي إرتكب فيه المخالفة ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ أي عما كان في الجاهلية لمن أحسن في الاسلام ، واتبع شرع الله ، ولم يرتكب المعصية ، ثم قال تعالى : ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ أي ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام، وبلوغ الحكم الشرعي إليه. ﴿ فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام ﴾ وليس في العود حد على من عاد إنما هوذنب أذنبه فيما بينه وبين الله عز وجل ولكن يفتدي ويقال له : فينتقم الله منك كما قال عز وجل . وروى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري أن رجلاً أصاب صيداً فتجوز عنه ، ثم عاد فأصاب صيداً آخر ؛ فنزلت نار من السماء فأحرقته فهو قوله تعالى : ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ وقال جرير في قوله تعالى ﴿ والله عزيز ذو انتقام ﴾ يقول عز ذكره : والله منيع في سلطانه ، لا يقهره قاهر ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه ، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع ، لأن الخلق خلقه ، والأمر أمره ، له العزة والمنعة . وإنه ذو معاقبة لمن عصاه .

۞ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۞ (٩٦) جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ

ربع الحزب

---

(١) قلت : إن من يتأمل في حديث كعب بن عجرة يرى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يقسم فرقا بين ستة مساكين أو يصوم ثلاثة أيام ، بينما نرى فتوى ابن عباس ان الصيام عدل عدد المساكين وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن عدد أيام الصيام بنصف عدد المساكين ، فلعل عند ابن عباس حديثاً يوافق فتواه وإلا فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدم على كل فتوى .

ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

قال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه : صيده ما أخذه منه حياً ﴿ وطعامه ﴾ ما لفظه ميتاً وهكذا روي عن أبي بكر الصديق ، وزيد بن ثابت ، وعبدالله بن عمرو ، وأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهم وجماعة من التابعين . قال ابن جرير : وقد روي في ذلك خبر ، وإن بعضهم يرويه موقوفاً ، قال حدثنا هناد بسنده إلى أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ١٦٧ [﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم ﴾ قال « طعامه ما لفظه ميتاً »] ثم قال وقد وقف بعضهم هذا الحديث على أبي هريرة ...

وقوله تعالى : ﴿ متاعاً لكم وللسيارة ﴾ أي منفعةً وقوتاً لكم ﴿ وللسيارة ﴾ وهم جمع سيار قال عكرمة : لمن كان بحضرة البحر والسفروقال غيره : الطري منه لمن يصطاده من حاضرة البحر ، وطعامه ما مات فيه أو اصطيد منه ومُلّح وقد يكون زاداً للمسافرين ، والنائين عن البحر وقد روي نحوه عن ابن عباس ومجاهد والسدي وقد استدل الجمهور على حلّ ميتة البحر بهذه الآية الكريمة ، وبما رواه الإمام مالك ، عن جابر بن عبدالله قال : [بعث رسول الله ﷺ بعثاً قِبَلَ الساحل ، فأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلثمائة وأنا فيهم ، قال : فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش ، فجمع ذلك كله ، فكان مزودَيْ تمر ، قال : فكان يقوّتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني ، فلم يكن يصيبنا إلاّ تمرة تمرة ، فقال : فقد وجدنا فقدها حين فنيت ، قال : ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظرب ، فأكل منه الجيش ثماني عشرة ليلة ، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا ، ثم أمر براحلة فرحلت ومرت تحتهما فلم تصبهما .] وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله طرق عن جابر .

وجاء فيما جاء من رواية مسلم في صحيحه من رواية أبي الزبير عن جابر ١٦٨ : [... وتزودنا من لحمه وشائق ، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له

فقال : « هو رزق أخرجه الله لكم هل معكم من لحمه شيء فتطعمونا ؟ » قال فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله] .

وروى مالك بن صفوان بن سليم بن سعيد بن سلمة ... عن أبي هريرة يقول ١٦٩ : [سأل رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء ، فإن توضأنا به عطشنا ، أفنتوضأ بماء البحر ؟ فقال رسول الله ﷺ « هو الطهور ماؤه الحل ميتته »] رواه الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل وأهل السنن الأربع ، وصححه البخاري والترمذي ، وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم ، وقد روي عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ بنحوه .

وروى الإمام عبدالله الشافعي عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ ١٧٠ : [أحلت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال] ورواه أحمد وابن ماجه والدارقطني ، وله شواهد ، وروي موقوفاً والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً ﴾ أي في حال إحرامكم ، يحرم عليكم الإصطياد ، ففيه دلالة على تحريم ذلك ، فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمداً ، أثم وغرم . أو مخطئاً ، غرم وحرم عليه أكله ، لأنه في حقه كالميتة .

أما إباحته لغيره ففيه خلاف ، فمنهم من منع ، وقال آخرون بالإباحة لغير القاتل سواء المحرمون والمحلّون لحديث ١٧١ : [صيد البر لكم حلال وأنتم حرم ما لم تصيّدوه ، أو يُصَدْ لكم] رواه الامام أحمد عن جابر وأبو داود والترمذي والنسائي جميعاً عن قتيبة .

وأما إذا صاد حلال صيداً ، فأهداه الى محرم ، فإن كان صاده من أجله لا يأكله لحديث الصعْب بن جثامة ١٧٢ [إنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً وهو بالأبواء أو بودان فرده عليه ، فلما رأى ما في وجهه قال : « إنّا لم نردّه عليك إلاّ أنّا حُرُم »] وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة ؛ قالوا : فوجهه أن النبي ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله فردّه لذلك .

فأما إذا لم يقصده بالاصطياد فإنه يجوز له الأكل منه لحديث ١٧٣ [أبي قتادة حين صاد حمار وحش ، وكان حلالاً لم يحرم ، وكان أصحابه محرمين ، فتوقفوا في أكله ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال : « هل كان منكم أحد أشار إليها أو أعان في قتلها »

قالوا : لا . قال « فكلوا » وأكل منها رسول الله ﷺ .] وهذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين بألفاظ كثيرة .

روى مالك عن عبدالله بن عامر بن ربيعة ، قال رأيت عثمان بن عفان بالعرج وهو محرم في يوم صائف قد غطى وجهه بقطيفة أرجوان ، ثم أتي بلحم صيد ، فقال لأصحابه كُلُوا ؛ فقالوا : أولا تأكلُ أنت ؟ فقال إني لست كهيئتكم إنما صِيدَ من أجلي .

﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَا أُولِي ٱلْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ (١٠٠) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۞ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ۞ (١٠٢) ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك ﴾ أي يا أيها الإنسان ﴿ كثرة الخبيث ﴾ يعني أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار ، كما جاء في الحديث ١٧٤ : [ما قل وكفى خير مما كثر وألهى].

﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب ﴾ أي يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة ، وتجنبوا الحرام ودعوه ، واقنعوا بالحلال واكتفوا به ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم ﴾ هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء لا فائدة لهم فيها لأنها إن أظهرت لهم ساءتهم ، وشق عليهم سماعها كما في الحديث أن رسول الله ﷺ قال ١٧٥ : [لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر] . قال البخاري عن أنس بن مالك قال ١٧٦ : [خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، وقال فيها : « لو تعلموا ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » قال فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين ، فقال رجل من أبي ؟ قال : « فلان » فنزلت هذه الآية : ﴿ لا تسألوا عن أشياء ... ﴾] رواه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي .

روى ابن جرير عن أنس بن مالك قال ١٧٧ : [إن رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر فقال : « لا تسألوني اليوم عن شيء إلاّ بينته لكم » فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حضر ، فجعلتُ لا ألتفتُ يميناً ولا شمالاً إلا وجدت كلاً لافاً رأسه في ثوبه يبكي ، فأنشأ رجل كان يلاحى ، فيدعى إلى غير أبيه ؛ فقال : يا نبي الله ، من أبي ؟ قال « أبوك حذافة » قال : ثم قام عمر – أو قال : فأنشأ عُمر – فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، عائذا بالله – أو قال : أعوذ بالله من شر الفتن – قال وقال رسول الله ﷺ : لم أرَ في الخير والشر كاليوم قط ، صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط »] أخرجاه ورواه معمر عن الزهري ، عن أنس بنحو ذلك ، قال الزهري فقالت أم عبدالله بن حذافة : ما رأيت ولداً أعقَّ منك قط ، أكنت تأمن أن تكون امُّكَ قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية ، فتفضحها على رؤوس النَّاس ؟ فقال : والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته . وظاهر الآية النهي عن السؤال عن أشياء إذا علمها الشخص ساءته ، فالأولى الإعراض عن السؤال عنها وتركها .

وقوله تعالى : ﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تُبدَ لكم ﴾ أي وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ تبين لكم ﴿ وذلك على الله يسير ﴾ ثم قال : ﴿ عفا الله عنها ﴾ أي عما كان منكم قبل ذلك ﴿ والله غفور حليم ﴾ وقد ورد في الحديث ١٧٨ : [أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرّم فحرم من أجل مسألته] ولكن إذا نزل القرآن بها مجملةً فسألتم عن بيانها ، بينت لكم حينئذٍ لاحتياجكم إليها .

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال ١٧٩ : « [ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم .] وفي الحديث الصحيح أيضاً ١٨٠ [إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمةً بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها] .

ثم قال تعالى : ﴿ قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾ أي قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قوم من قبلكم ، فأجيبوا عنها ، ثم لم يؤمنوا بها ، فأصبحوا بها كافرين ، أي بسببها أي بينت لهم فلم ينتفعوا بها لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد بل على وجه الاستهزاء ، والعناد وقال العوفي عن ابن عباس في الآية ١٨١ : [إن رسول الله ﷺ أذّن في الناس فقال : « يا قوم كتب عليكم الحج » فقام رجل من بني أسد

فقال : يا رسول الله ، أفي كل عام ؟ فأغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ؛ فقال « والذي نفسي بيده لو قلت : نعم لو جبت ولو وجبت ما استطعتم ، وإذاً لكفرتم فاتركوني ما تركتكم ، وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا ، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه »] فأنزل هذه الآية ، نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت عنه النصارى من المائدة ، فأصبحوا بها كافرين ، فنهى الله عن ذلك وقال : لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك ، ولكن انتظروا فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء ، إلاّ وجدتم بيانه . رواه ابن جرير .

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنْ بَحِيْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۞ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ۞ (١٠٤) ﴾

روى البخاري عن سعيد بن المسيب قال : ١٨٢ [البحيرة : التي يمنع درُّها للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة : كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء . قال : وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ « رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار ، كان أول من سيب السوائب » والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ، بل تثنى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر ، والحام : فحل الأبل يضرب الضراب المعدود ، فإذا قضى ضرابه دعوه للطواغيت وأعفوه عن الحمل ، فلم يحمل عليه شيء ، وسموه الحامي .] وكذا رواه مسلم والنسائي .

فعمرو هذا هو ابن لُحَيْ بن قمعة ، أحد رؤساء خزاعة الذين وُلُّوا البيت بعد جرهم ، وكان أول من غيّر دين إبراهيم الخليل - ﷺ - فأدخل الأصنام إلى الحجاز ، ودعا الرّعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها ، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها ، كما ذكر الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله مما

ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ إلى آخر الآيات في ذلك .

وروى ابن أبي حاتم عن مالك بن نضلة قال : ١٨٣ [أتيت النبي ﷺ في خلقان من الثياب فقال لي « هل لك من مال ؟ » فقلت : نعم ، قال : « من أي المال ؟ » قال فقلت: من كل المال : من الإبل ، والغنم ، والخيل ، والرقيق ، قال : « فإذا آتاك الله مالاً فكثُر عليك ، » ثم قال : « تنتج إبلك وافية آذانها ؟ » قال : قلت نعم ، وهل تنتج الإبل إلاّ كذلك ؟ قال « فعلك تأخذ الموسى فتقطع آذان طائفة منها وتقول : هذه بحير ، وتشق آذان طائفة منها وتقول : هذه حرم » قلت : نعم قال : « فلا تفعل ان كل ما آتاك الله لك حل » ؛ ثم قال : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام »] أما البحيرة فهي التي يجدعون آذانها فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولا أشعارها ولا ألبانها فإذا ماتت اشتركوا فيها .

وأما السائبة فهي التي يسيبون لآلهتهم ويذهبون إلي آلهتهم فيسيبونها ، وأما الوصيلة ، فالشاة تلد ستة بطون ، فإذا ولدت السابع جدعت وقطع قرنها ، فيقولون قد وصلت فلا يذبحونها ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجاً في الحديث .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب واكثرهم لا يعقلون ﴾ أي لم يشرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربة ولكن المشركون افتروا ذلك وجعلوه شرعاً لهم فكان وبالاً عليهم .

﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه ، وترك ما حرمه ، قالوا : يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك . قال الله تعالى : ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾ أي لا يفهمون حقاً ولا يعرفونه ولا يهتدون اليه ، فكيف يتبعونهم والحالة هذه ، لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلاً .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ، ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم ،

ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس . قال العوفي عن ابن‌عباس في تفسير هذه الآية ، يقول تعالى : إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال ، ونهيته عنه من الحرام ، فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به ، فقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكم ﴾ منصوب على الإغراء ، ﴿ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعُكم فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي فيجازي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وان شراً فشر ، وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذا كان فعل ذلك ممكناً .

وقد روى الإمام أحمد رحمه الله عن قيس قال : ١٨٤ [قام ابو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس اذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه . » وسمعت أبا بكر يقول : يا أيها الناس إياكم والكذب ، فإن الكذب مجانب الإيمان] وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه ، وغيرهم من طرقٍ كثيرة عن جماعة كثيرة ، عن اسماعيل بن أبي خالد به متصلاً مرفوعاً .

روى أبو عيسى الترمذي عن أبي أمية الشعباني قال : ١٨٥ [أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له ، كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال : أيّة آية ؟ قلت : قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : « بل أئتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، واعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع العوام ، فإن من ورائكم أياماً ، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم . » قال عبدالله ابن المبارك ، : وزاد غير عتبة قيل يا رسول الله : أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ؟ قال : « بل أجر خمسين منكم »] ثم قال الترمذي حسن غريب صحيح .

قال سعيد بن المسيب : إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، فلا يضرك من ضل اذا اهتديت ، رواه بن جرير .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ۞ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۞ (١٠٨) ﴾

إشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز قيل أنه منسوخ رواه العوفي عن ابن عباس وغيره وقال آخرون وهم الاكثرون بل هذا محكم ، ومن ادعى نسخه فعليه البيان .

فقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموتُ حين الوصية اثنان ﴾ هذا هو الخبر لقوله تعالى : ﴿ شهادة بينكم ﴾ أي يشهد الوصية اثنان ﴿ ذوا عدل منكم ﴾ أي من المسلمين قاله الجمهور ، وروي عن ابن عباس وغيره ، وقال آخرون : من أهل الموصي ، روي ذلك عن عكرمة وعبيدة وعدة غيرهما . وقوله تعالى : ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ أي من غير المسلمين يعني أهل الكتّاب قاله ابن عباس ، وجماعة من التابعين وقيل من غير قبيلة الموصي قاله عكرمة وغيره ، والظاهر القول الأول والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ إن أنتم ضربتم في الأرض ﴾ أي سافرتم ﴿ فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين ؛ أن يكون ذلك في سفر ، وأن يكون في وصية رواه ابن جرير عن شريح وروي نحوهُ عن الإمام أحمد وهذه المسألة من

أفراده وخالفة الثلاثة فقالوا : لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين ، وأجازها ابو حنيفة فيما بينهم .

وقد اختلف في قوله تعالى ﴿ شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم ﴾ هل المراد أن يوصي إليهما أو يشهدهما ؟ على قولين ، والأصح انهما يكونان شاهدَيْنِ وهو ظاهر سياق الآية الكريمة فإن لم يكن وُصّيٌ ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان : الوصاية والشهادة كما في قصة تميم الداري وعدي بن بداء كما سيأتي ذكرها إن شاء الله وبه التوفيق .

وقوله تعالى : ﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة ﴾ يعني صلاة العصر ، قاله ابن عباس وجماعة من التابعين وقال الزهري : يعني صلاة المسلمين . والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهما ﴿ فيقسمان بالله ﴾ أي فيحلفان به تعالى ﴿ ان ارتبتم ﴾ أي إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا أو غلا ، فيحلفان حينئذٍ بالله ﴿ لا نشتري به ﴾ أي بأيماننا ﴿ ثمناً ﴾ أي لا نعتاض عنه بعوض من الدنيا الفانية الزائلة ﴿ ولو كان ذا قربى ﴾ أي ولو كان المشهود عليه قريباً لنا لا نحابيه . ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ أضافها إلى الله تشريفاً لها وتعظيماً لأمرها ﴿ إنا إذاً لمن الآثمين ﴾ أي ان فعلنا شيئاً من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها كلياً . ثم قال تعالى : ﴿ فإن عثر على أنهما استحقا إثماً ﴾ فان اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين أنهما خانا أو غلاَّ شيئاً من المال الموصى به إليهما ، ﴿ فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوّليان ﴾ هذه قراءة الجمهور ، فعلى هذه القراءة يكون المعنى بذلك أي متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما ، فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة ، وليكونا من أولى من يرث ذلك المال ﴿ فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ﴾ أي لقولنا أنهما خانا ، أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿ وما اعتدينا ﴾ أي فيما قلنا فيهما من الخيانة ، ﴿ إنّا إذاً لمن الظالمين ﴾ أي إن كنا قد كذبنا عليهما ؛ وهذا التحليف للورثة ، والرجوع إلى قولهما والحالة هذه .

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة فقال ابن ابن حاتم عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت ﴾ قال : ١٨٦ (برىء الناس منها غيري وغير عدي بن بداء ، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الاسلام ، فأتيا الشام لتجارتهما ، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارةٍ ، معه جام من فضه يريد به الملك ، وهو أعظم تجارته ،

فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك إلى أهله . قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ، واقتسمناه أنا وعدي ، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا وفقدوا الجام ، فسألونا عنه فقلنا : ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره . قال تميم : فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك ، فأتيت أهله ، فأخبرتهم الخبر ، ودفعت إليهم خمسمأة درهم ، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها ، فوثبوا عليه ، فأمرهم النبي ﷺ أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه ، فحلف فنزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادةُ بينكم — إلى قوله — فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم ، فحلفا ، فنزعت الخمسمأة من عدي بن بداء .] وهكذا رواه الترمذي وابن جرير وقال الترمذي هذا حديث غريب ، وليس إسناده بصحيح . وابو النضر الذي روى عنه محمد بن اسحق هذا الحديث هو عندي : محمد بن السائب الكلبي ، يكنى أبا النضر وقد تركه أهل الحديث وهو صاحب التفسير ؛ سمعت محمد بن إسماعيل يقول : محمد بن السائب الكلبي يكنى أبا النضر ، ثم قال : ولا نعرف لأبي النضر رواية عن ابي صالح مولى أم هانىء وقد روي عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه قال : ١٨٧ [خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء ، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم فلما قدما بتركته ، فقدوا جاماً من فضة مخوصاً بالذهب ، فأحلفهما رسول الله ﷺ ووجدوا الجام بمكة فقيل : اشتريناه من تميم وعدي ، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ، وان الجام لصاحبهم وفيهم نزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾ الآية ، وكذا رواه ابو داود ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب ، وهو حديث ابن أبي زائدة ، ومحمد بن أبي القاسم الكوفي ، قيل : أنه صالح الحديث.وقد ذكر هذه القصة مرسلةً غير واحد من التابعين منهم عكرمة ومحمد بن سيرين وقتادة وذكروا ان التحليف كان بعد صلاة العصر رواه ابن جرير وكذا ذكرها مرسلة مجاهد والحسن والضحاك ، وهذا يدل على اشتهار هذه القصة في السلف وعلى صحتها . ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضاً ما رواه ابو جعفر بن جرير عن الشعبي : ١٨٨ [ان رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا هذه قال : فحضرته الوفاة ولم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب ، قال فقدما الكوفة فأتيا الأشعري يعني أبا موسى الأشعري رضي الله عنه فأخبراه ، وقدما الكوفة بتركته ووصيته فقال الأشعري : هذا أمر لم يكن

بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ فقال : فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ، ولا كذبا ، ولا بدلا ولا كتما ولا غيرا وإنها لوصية الرجل وتركته . قال : فأمضى شهادتهما] ثم رواه ابن جرير عن عمر بن علي القلاس ، عن أبي داود الطيالسي ، عن شعبة ، عن مغيرة الأزرق ، عن الشعبي ان ابا موسى قضى به ، وهذان اسنادان صحيحان إلى الشعبي عن أبي موسى الأشعري فقوله هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ الظاهر ـــ والله أعلم ـــ أنه إنما أراد بذلك قصة تميم الداري وعدي بن بداء ، وقد ذكروا أن إسلام تميم الداري رضي الله عنه ، كان سنة تسع من الهجرة ، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً يحتاج مدعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام ، والله أعلم .

روى ابن جرير عن ابراهيم وسعيد بن جبير أنهما قالا في هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ... ﴾ الآية قالا : إذا حضر الرجل الوفاة في سفر فليشهد رجلين من المسلمين ، فإن لم يجد رجلين من المسلمين ، فرجلين من أهل الكتاب ، فإذا قدما بتركته فإن صدقهما الورثة قبل قولهما وان اتهموهما حلفا بعد صلاة العصر : بالله ما كتمنا ولا كذبنا ولا خنا ولا غيرنا . قال علي بن أبي طلحة في تفسير هذه الآية عن ابن عباس : فإن ارتيب في شهادتهما استحلفا بعد العصر: بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمناً قليلاً ، فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا في شهادتهما قام رجلان من الأولياء فحلفا : بالله أن شهادة الكافرين باطلة وإنا لم نعتد ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فإن عثر على أنهما استحقا إثماً ﴾ يقول : إن اطلع على أن الكافرين كذبا ﴿ فآخران يقومان مقامهما ﴾ أي من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة ، وإنا لم نعتد ، فترد شهادة الكافرين ، وتجوز شهادة الأولياء ؛ وهكذا روى العوفي عن ابن عباس ، رواهما ابن جرير . وهكذا قرر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين والسلف رضي الله عنهم ، وهو مذهب الإمام أحمد رحمه الله . وقوله تعالى : ﴿ ذلك أدنى ان يأتوا بالشهادة على وجهها ﴾ أي شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي . وقوله تعالى ﴿ أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ﴾ أي يكون الحامل لهم على الإتيان بها على وجهها هو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله ، والخوف من الفضيحة بين الناس ، إن ردت اليمين على الورثة ، فيحلفون ويستحقون ما يدعون . ولهذا قال تعالى : ﴿ أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ﴾ ثم قال : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم ﴿ واسمعوا ﴾ أي وأطيعوا ، ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ أي الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته .



﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ ۞ (١٠٩) ﴾

هذا إخبار عما يخاطب الله تعالى به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم اليهم ، كما قال تعالى : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ وقول الرسل : ﴿ لا علم لنا ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يقولون للرب عز وجل : لا علم لنا إلاّ علم أنت أعلم به منا رواه ابن جرير ثم اختاره على غيره من الأقوال .

ولا شك أنه قول حسن ، وهو من باب التأدب مع الرب جل جلاله ، أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء ، فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا من أجابنا ولكن منهم من كنا انما نطلع على ظاهره لاعلم لنا بباطنه وانت العليم بكل شيء المطلع على كل شيء ، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلاّ علم ، فإنك ﴿ أنت علام الغيوب ﴾

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَىٰ ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ۞ (١١١) ﴾

يذكر تعالى ما منّ به على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات فقال عز وجل : ﴿ أذكر نعمتي عليك ﴾ في خلقي إياك من أم بلا ذكر ، وجعلي إياك آية ودلالة على كمال قدرتي على

الأشياء ، ﴿ وعلى والدتك ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبه الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة ﴿ إذ أيدتك بروح القدس ﴾ وهو جبريل عليه السلام ، وجعلتك نبيــاً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك ، فأنطقتك في المهد صغيراً ، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب ، واعترفتَ لي بالعبودية ، وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوت إلى عبادتي ، ولهذا قال تعالى : ﴿ تكلم الناس في المهد وكهلاً ﴾ أي تدعو الى الله في صغرك وكبرك ــ أي من مهدك إلى رفعك ــ وقوله تعالى : ﴿ وإذ علمتك الكتاب والحكمة ﴾ أي الخط والفهم ﴿ والتوراة ﴾ وهي المنزّلة على موسى بن عمران الكليم . وقوله تعالى : ﴿ واذ تخلق من من الطين كهيئة الطير بإذني ﴾ أي تصوّره على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك ﴿ فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني ﴾ أي بإذن الله وخلقه ، وقوله تعالى : ﴿ وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني ﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران ــ عند الآية رقم / ٤٨ ، ٤٩ / ــ وقوله تعالى : ﴿ وإذ تخرج الموتى بإذني ﴾ أي تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وارادته ومشيئته [1] وقوله تعالى : ﴿ وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إنْ هذا إلاّ سحر مبين ﴾ أي واذكر نعمتي عليك في كف أذى بني إسرائيل عنك حين جئتهم بالبراهين الساطعة ، والحجج القاطعة ، على نبوتك ورسالتك من الله إليهم فكذبوك ، واتهموك بالسحر وسعوا في قتلك وصلبك فنجيتك منهم ورفعتك إليّ ، وطهرتك من دنسهم وكفيتك شرهم . وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله تعالى بعد رفعه إلى السماء ، أو يكون هذا الامتنان واقعاً يوم القيامة ، وعبَّر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة ، وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع اللهُ عليها نبيّه محمداً ﷺ وقوله تعالى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ﴾ وهذا أيضاً مــن الامتنان عليه عليه الصلاة والسلام ، بأن جعل له أصحاباً وحواريين وانصاراً ، ثم قيل : ان المراد بهذا الوحي وحي إلهام بلاخلاف وقوله تعالى : ﴿ قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ ولعل المراد أنه أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله ورسوله ، فاستجابوا لك وانقادوا اليك وتابعوك ، فقالوا : ﴿ آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون ﴾

---

(١) كل ما يفعله عبد الله ورسوله عيسى عليه السلام من المعجزات الباهرات انما هو باذن الله أي بفعله وقدرته وتأييده وقوته وحده لا شريك له . فكل معجزة هي في الحقيقة لله تعالى انما يجعلها الله ظاهرة على يد من يشاء من أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام وله وحده الخلق والأمر .

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَىٰ ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَاءِ قَالَ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ ۞ (١١٣) قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ ۞ (١١٤) قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (١١٥) ﴾

هذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة ، فيقال سورة المائدة ، وهي مما أمتن الله به على عبده ورسوله عيسى عليه الصلاة والسلام ، لمّا أجاب دعاءه بنزولها ، فانزل الله آية باهرة وحجة قاطعة ، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورةً في الأنجيل ، ولا يعرفها النصارى إلاّ من المسلمين ، فالله أعلم ؛ فقوله تعالى : ﴿ إذ قال الحواريّون ﴾ وهم أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربُّك ﴾ هــذه قراءة كثيرين ؛ وقرأ آخرون : ﴿ هل تستطيعُ ربَّك ﴾ أي هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿ أن ينزل علينا مائدة من السماء ﴾ والمائدة هي الخوان عليه الطعام ، وذكر بعضهم : أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم ، فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها ويتقوُّون بها على العبادة ﴿ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ أي فأجابهم المسيح : إتقوا الله ولا تسألوا هذا ، فعساه أن يكون فتنةً لكم ، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين ﴿ قالوا نريد أن نأكلَ منها ﴾ أي نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿ وتطمئن قلوبنا ﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء ﴿ ونعلمَ أن قد صَدَقتَنـــا ﴾ أي ونزداد ايماناً بك وعلماً برسالتك ﴿ ونكونَ عليها من الشاهدين ﴾ أي ونشهد أنها آية من عند الله ، ودلالة وحجة على نبوّتك وصدق ما جئت به . ﴿ قال عيسى بن مريم اللهم ربّنا أنزل علينا مائدةً من السماء تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا ﴾ قال السدي نتخذ ذلك اليوم الذي

نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا . وقال سلمان الفارسي : أي عظة لنا ولمن بعدنا ﴿وآية منك﴾ أي دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء وعلى إجابتك لدعوتي ، فيصدقوني فيما أبلغه عنك ﴿وارزقنا﴾ أي من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب ﴿وأنت خير الرازقين.قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم﴾ أي فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها ، ﴿فاني اعذبه عذاباً لا أعذبه احداً من العالمين﴾ أي من عالمي زمانكم كقوله تعالى : ﴿ويوم القيامة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ . وقد روى ابن جرير من طريق عوف الأعرابي عن أبي المغيرة القواس عن عبدالله بن عمرو قال : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة : المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون .

روى ابو جعفر بن جرير عن ابن عباس أنه كان يحدث عن عيسى أنه قال لبني إسرائيل : هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً ، ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم ، فإن أجر العامل على من عمل له ، ففعلوا ثم قالوا : يا معلم الخير ، قلت لنا : إن أجر العامل على من عمل له ، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا ، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نفرغ طعاماً ، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال عيسى : ﴿اتقوا الله ان كنتم مؤمنين * قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وانت خير الرازقين * قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ قال : فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات ، وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم . كذا رواه ابن جرير ورواه ابن ابي حاتم عن ابن عباس يحدث فذكر نحوه .

روى ابن أبي حاتم عن عمار بن ياسر ، عن النبي ﷺ قال : ١٨٩ [نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم ، وأمروا ان لا يخونوا ولا يرفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمسخوا قردة وخنازير [ورويت هناك أخبار أخرى وكلها تدل على أن المائدة نزلت على بني اسرائيل أيام عيسى بن مريم ، إجابة من الله لدعوته ، كما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم ﴿قال الله إني منزلها عليكم﴾ الآية .

وقال قائلون : أنها لم تنزل ، وهناك اسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن أنها لم تنزل ، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى ، وليس هو في كتابهم ، ولو كانت

قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله ، وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ، ولا أقل من آحاد والله أعلم . ولكن الذي عليه الجمهور وهو الذي اختاره ابن جرير قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى : ﴿ إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني اعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ قال ووعد الله ووعيده حق وصدق وهذا القول هو ــ والله أعلم ــ الصواب كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم .

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَىٰ ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ ❁ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ❁ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ❁ (١١٨) ﴾

هذا أيضاً مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه آلهين من دون الله ﴿ يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي آلهين من دون الله ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد هكذا قاله قتادة وغيره ، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى : ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ وقد روي بذلك حديث مرفوع ، رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبدالله مولى عمر بن عبد العزيز ، وكان ثقة ، قال : سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : ١٩٠ [إذا كان يوم القيامة دعي بالأنبياء وأممهم ، ثم يدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقر بها ، فيقول ﴿ يا عيسى بن مريم أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك ﴾ الآية ؛ ثم يقول ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي آلهين من دون الله ﴾ فينكر أن يكون قال ذلك فيؤتى بالنصارى

فيُسألون فيقولون : نعم هو أمرنا بذلك . قال : فيطول شعر عيسى عليه السلام فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدي الله عز وجل مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ، ويرفع لهم الصليب ، وينطلق بهم إلى النار] وهذا حديث غريب عزيز .

وقوله تعالى : ﴿ سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل . كما قال ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : يُلقَّى عيسى حجته ، ولقاه الله تعالى في قوله سبحانه : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي آلهين من دون الله ﴾ قال أبو هريرة ، عن النبي ﷺ : فلقاه الله : ﴿ سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ إلى آخر الآية وقد رواه الثوري من طاووس بنحوه .

وقوله تعالى : ﴿ إن كنت قلته فقد علمته ﴾ أي إن كان صدر منّي هذا فقد علمته يا رب فإنه لا يخفى عليك شيء . فما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته ولهذا قال : ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به ﴾ بإبلاغه ﴿ أن اعبدوا الله ربّي وربّكم ﴾ أي ما دعوتهم إلاّ إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه ﴿ أن أعبدوا الله ربي وربكم ﴾ أي هذا هو الذي قلت لهم .

وقوله تعالى : ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ﴾ أي كنت أشهد على أعمالهم حين كنتُ بين أظهرهم ﴿ فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ .

روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس ١٩١ : [قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاةً ، عراة ، غرلاً ، ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ، ألا وإنه يُجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتهم »] ورواه البخاري عند هذه الآية عن المغيرة بن النعمان .

وقوله تعالى : ﴿ إنْ تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾

هذا الكلام يتضمن ردّ المشيئة إلى الله عز وجل ، ويتضمن التبري من النصارى

الذين كذبوا على الله وعلى رسوله ، وجعلوا لله نداً وصاحبةً وولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وهذه الآية لها شأن عظيم ، ونبأ عجيب ، وقد ورد في الحديث : أن النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها .

روى الإمام أحمد عن أبي ذر (رض) قال ١٩٢ : [صلّى النبيُّ ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ إن تعذّبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فلما أصبح ، قلتُ : يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال « إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي ، فأعطانيها وهي نائلة ان شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً »]

روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن عمرو بن العاص ١٩٣ ، [أن النبي ﷺ تلا قول عيسى : ﴿ إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فرفع يديه فقال « اللهم أمتي » وبكى فقال الله : يا جبريل إذهب إلى محمد – وربك أعلم – فاسأله ما يبكيك ، فأتاه جبريل فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم ، فقال الله يا جبريل إذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك] .

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۞ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ (١٢٠) ﴾

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام ، فيما أنهاه إليه من التبّري من النصارى الملحدين ، الكاذبين على الله وعلى رسوله ، ومن ردّ المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل ، فعند ذلك يقول تعالى : ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ قال ابن عباس : يوم ينفع الموحدين توحيدهم . ﴿ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ أي ماكثين فيها لا يحولون ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾كما قال تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ أي هذا الفوز الكبير الذي لا أعظم منه ، كما قال تعالى : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ وكما قال تعالى :

﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ وقوله تعالى :

﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير﴾ أي هو الخالق للأشياء المالك لها ، المتصرف فيها ، القادر عليها فالجميع ملكه ، وتحت قهره وقدرته ، وفي مشيئته ، فلا نظير له ، ولا وزير ولا عديل ، ولا والد ولا ولد ، ولا صاحبة ولا إله غيره ، ولا رب سواه .

قال ابن وهب عن عبدالله بن عمر قال : آخر سورة أنزلت سورة المائدة .

انتهى والحمد لله اختصـــار تفسير سورة المائدة

(٦) سُورَةُ الأنعَامِ مَكيّة وآياتها خمسٌ وستون ومائة

إلاّ الآيات ذوات الأرقام : (٢٠) ، (٢٣) ، (٩١) ، (٩٣) ، (١١٤) ، (١٤١) ، (١٥١) ، (١٥٢) ، (١٥٣) فمدنيّة وقد نزلت بعد الحِجْر

قال العوفي عن ابن عباس : أنزلت سورة الأنعام بمكة . وقال الطبراني عن ابن عباس قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة ، وحولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح . روى الحاكم في مستدركه عن جابر قال١٩٤[لما نزلت سورة الأنعام ، سبح رسول الله ﷺ ثم قال : « لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سدالأفق»] ثم قال صحيح على شرط مسلم .

قال ابن مردويه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ ١٩٥ [نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والأرض بهم ترتج » ورسول الله يقول « سبحان الله العظيم سبحان الله العظيم »]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلْحَمْدُ لله ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۞ (١) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۞ (٢) وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۞ (٣) ﴾

يمدح الله تعالى نفسه الكريمة ويحمدها على خلق السموات والأرض قراراً لعباده وجعل

الظلمات والنور منفعةً لعباده في ليلهم ونهارهم ، فجمع لفظ الظلمات ووحّد لفظ النور لكونه أشرف . كقوله تعالى : ﴿ عن اليمين والشمائل ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ أي ومع هذا كله كفر به بعض عباده وجعلوا له شريكاً وولداً وصاحبةً ، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً . وقوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ يعني أباهم آدم الذي هو أصلهم . وقوله تعالى : ﴿ ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ ثم قضى أجلاً ﴾ يعني الموت . ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ يعني الآخرة . ومعنى قوله تعالى : ﴿ عنده ﴾ أي لا يعلمه إلا هو . كقوله تعالى : ﴿ إنما علمها عند ربي لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ قال السعدي وغيره : يعني تشكّون في أمر الساعة، وقوله تعالى: ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ماتكسبون ﴾ اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال،واتفقوا جميعاً على إنكار قول الجهمية الأُوَل القائلين — تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً — بأنّه في كل مكان حيث حملوا الآية على ذلك [1] فالأصح من الأقوال : انه المدعو الله في السموات وفي الأرض أي يعبده ويوحده ويقرُّ له بالألوهية من في السموات ومن في الأرض . ويسمونه الله ويدعونه رغباً ورهباً ، إلاّ من كفر من الجن والإنس . وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ أي هو اله من في السماء واله من في الأرض [2] وعلى هذا فيكون قوله تعالى : ﴿ يعلم سركم وجهركم ﴾ خبراً أو حالاً وقوله تعالى : ﴿ ويعلم ما تكسبون ﴾ أي جميع أعمالكم خيرها وشرها .

---

(١) قلت : ان مذهب الجهمية المنسوب إلى جهم بن صفوان رأس هذه الفرقة الضالة يقول: بأن الله سبحانه في كل مكان ! وهذا قول ظاهر البطلان ، ومتهافت من أول جولة يجولها أمام الحجج القرآنية الدامغة والبراهين السنية البالغة ، التي تقول بأن الله سبحانه عليٌ على خلقه، على العرش استوى ، وسبحانه وتعالى عما يقول الجهمية علواً كبيراً. ومما يؤسف له أشد الأسف،أنه ما يزال في هذه الأمة من يقول مثل هذا القول... وهم كثيرون مع الأسف « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) مع أن هذه البدعة الخبيثة متسربة الينا من اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة وهي متلقاة عن جهم بن صفوان ، عن الجعد بن درهم عن أبان بن سمعان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا فإن سند هذا المذهب — كما هو ظاهر وواضح — ظلمات بعضها فوق بعض... حتى ينحدر إلى الشيطان الرجيم . نعوذ بالله من الخزي والخسران وسوء المنقلب . **وعلى هذا فيكون القول بأن الله في كل مكان قول باطل بل هو الكفر**... وإنا لله وإنا إليه راجعون .

(٢) أي معبود من في السماء ومعبود من في الأرض .

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ • (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ • (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ • (٦) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين المكذبين المعاندين ، أنهم كلّما أتتهم معجزةٌ وحجة على وحدانية الله ، وصدق رسله الكرام ، يُعرضون ولا يبالون بها . قال الله تعالى : ﴿ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ وهذا تهديد ووعيد على تكذيبهم بالحق بأنه لا بدَّ أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب ، وليجدنَّ غِبَّه ، وليذوقنَّ وباله . ثم قال تعالى : واعظاً لهم ومحذراً لهم ، أن يصيبهم من العذاب والنكال في الدنيا ، ما حل بأشباههم من القرون السالفة الذين كانوا أشد قوةً منهم وأكثر أموالاً وأولاداً واستعلاءً ؛ فقال تعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن مكّناهم في الأرض ما لم نمكّن لكم ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وأرسلنا السماء عليهم مدراراً • وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ﴾ أي أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض . أي استدراجاً وإملاءً لهم ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم ﴾ أي بخطاياهم ﴿ وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ أي جيلاً آخر لنختبرهم . فعملوا مثل أعمالهم فأُهلكوا مثلهم ، فاحذروا من أن يصيبكم ما أصابهم ، فما أنتم بأعزّ على الله منهم ، ورسولكم أكرم على الله من رسولهم ، فأنتم أولى بالعقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ • (٧) وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ • (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً

وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ، ومباهتتهم ومنازعتهم فيه ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم ﴾ أي عاينوه ورأوا نزوله ، وباشروا ذلك ﴿ لقال الذين كفروا إنْ هذا الا سحر مبين ﴾ وهذا كما أخبر تعالى عن مكابرتهم للمحسوسات ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ أي ليكون معه نذيراً ، قال تعالى : ﴿ ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾ أي لو نزلت الملائكة على ما هم عليه من الكفر لجاءهم من الله العذاب كقوله تعالى : ﴿ يوم يرْون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولو جعلناهُ ملكاً لجعلناهُ رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : لو أتاهم ملك ، ما أتاهم إلا في صورة رجل ، لأنهم لا يستطيعون النظر في الملائكة من النور ﴿ وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ أي لو كان الملك على هيئة رجل لالتبس عليهم الأمر أيضاً كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول الرسالة فمن رحمته تعالى بخلقه ، أنه يرسل إلى كل صنفٍ من الخلائق رسلاً منهم ليدعو بعضهم بعضاً . وليمكّن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسوآل كما قال تعالى : ﴿ إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد استهزىء برسلٍ من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ، ووعدٌ له وللمؤمنين بالنصر في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ أي فكروا في أنفسكم ما أحلّ الله بالقرون الماضية ، الذين كذبوا رسله من النكال ، والعقوبة في الدنيا والآخرة ، وكيف نجىَّ رسُلَه ، وعباده المؤمنين .

قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا



يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهما ، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة ، كما ثبت في الصحيحين ، من طريق الأعمش عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ١٩٦ [إن الله لما خلق الخلق ، كتب كتاباً عنده فوق العرش ان رحمتي تغلب غضبي] وقوله تعالى : ﴿ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده إلى يوم القيامة وهو يوم لا يشك فيه المؤمنون أما الجاحدون فهم في ريبهم منه يترددون . وفي الترمذي ١٩٧ [ان لكل نبي حوضاً وارجو أن أكون أكثرهم واردة] وقوله تعالى : ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ أي لا يصدقون بالمعاد ولا يخافون شر ذلك اليوم . ثم قال تعالى : ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار ﴾ أي كل دابة في الكون عباده وخلقه ﴿ وهو السميع العليم ﴾ لأقوال عباده العليم بحركاتهم وسرائرهم ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ الذي بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم وأمر أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم ﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض ﴾ أي لا أتخذ وليّاً إلا الله لا شريك له خالق السموات والأرض ومبدعهما ﴿ وهو يطعِم ولا يُطعَم ﴾ أي لا يأكل ﴿ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ أي من هذه الأمة ، ﴿ ولا تكونن من المشركين . قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ من يُصرف عنه ﴾ أي العذاب ﴿ يومئذ فقد رحمه ﴾ أي : فقد رحمه الله ﴿ وذلك الفوز المبين ﴾ وإن الفوز حصول الربح ، ونفي الخسارة كقوله تعالى : ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * (٢١) ﴾

يخبر تعالى أنه مالك الضر والنفع ، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، لا معقّب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ وفي الصحيح · أن رسول الله ﷺ كان يقول ١٩٨ [اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد] ولهذا قال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ أي وهو الذي خضعت له الرقاب وعنت له الوجوه ودانت له الخلائق ، واستكانت بين يديه وتحت قهره وحكمه ﴿ وهو الحكيم ﴾ في جميع أفعاله ﴿ الخبير ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها ، فلا يعطي ولا يمنع إلا من يستحق ثم قال تعالى : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة ﴾ أي أعظم شهادة ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ أي هو العالم بما جئتكم به ﴿ وأوحي إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ أي وهو نذير لكل من بلغه فكل من بلغه هذا القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه ، روى عبد الرزاق : عن معمر عن قتادة أن رسول الله ﷺ قال ١٩٩ [بلغوا عن الله ، فمن بلغته آيةٌ من كتاب الله فقد بلغه أمر الله] وقوله تعالى : ﴿ أئنكم لتشهدون ﴾ ايها المشركون ﴿ أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فإن شهدوا فلا تشهد

معهم﴿ قل إنما هو اله واحد وانني بريء مما تشركون ﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن أهل الكتاب انهم يعرفون هذا الذي جئتهم به ، كما يعرفون أبناءهم لأن الرسل كلهم بشروا بمحمد ومبعثه وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته، ولهذا قال بعده : ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ بهذا الذي جاءت وبشرّت به الأنبياء ثم قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ﴾ أي لا أظلم ممن تقوّل على الله بأن الله أرسله ، ولم يكن أرسله ، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه ، ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي لا يُفلح المفتري ولا المكذّب .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ❁(٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ❁(٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ❁(٢٤) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ❁(٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ❁ (٢٦) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ﴾ يوم القيامة ، فيسألهم عن الأصنام والأنداد، التي كانوا يعبدونها من دونه قائلاً لهم: ﴿ أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلاّ أن قالوا والله ربّنا ما كنا مشركين ﴾ أي لم تكن حجتهم روى ابن جرير : والصواب ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم ، اعتذاراً عما سلف منهم من الشرك بالله ﴿ إلاّ أن قالوا والله ربّنا ما كنّا مشركين ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾

كقوله تعالى: ﴿ ثمّ قيلَ لهم أين‌ما كنتم تشركون من دون‌الله قالوا ضلّوا عنا ﴾ الآية

وقوله تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنَّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يَروْا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ أي يجيئون ليستمعوا قراءتك ولا تجزي عنهم شيئاً لأن الله جعل على قلوبهم أكنة أي أغطية لئلاّ يفقهوا القرآن وفي آذانهم صمماً عن السماع النافع لهم ، ومهما يَروْا من الآيات والحجج البيّنات لا يؤمنوا بها ، فلا فهمَ عندهم ولا إنصاف ، كقوله تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ :

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءوك يجادلونك ﴾ أي يحاجّونك ويناظرونك في الحق بالباطل ﴿ يقول الذين كفروا إنْ هذا إلاّ أساطير الأولين ﴾ أي مأخوذ من كتب الأوائل وقوله تعالى : ﴿ وهم ينهون عنه وينأوْن عنه ﴾ أي ينهون الناس عن اتباع الحق ، وتصديق الرسول والانقياد للقرآن ﴿ وينأوْن عنه ﴾ أي ويبعدون عنه ، فيجمعون بين الفعلين القبيحين ، لا ينتفعون ولا يدّعون احداً ينتفع ﴿ وإنْ يهلكون إلاّ أنفسهم وما يشعرون ﴾ أي وما يهلكون بهذا الصنيع ولا يعود وباله إلاّ عليهم ، وهم لا يشعرون .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۞ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ (٣٠) ﴾

يذكر تعالى حال الكفار ، إذا وقفوا يوم القيامة على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأوا عظائمها وأهوالها ، فعند ذلك قالوا : ﴿ يا ليتنا نُرَدُّ ولا نكذِّب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين ﴾ أي تمنوا لو رجعوا إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ، ولا يكذبوا بآيات ربهم ، بل يؤمنوا بها ، فكذبهم الله تعالى فقال سبحانه : ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴾ أي بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفونه من الكفر في أنفسهم ، فإنهم

ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبةً ومحبةً في الايمان ، بل خوفاً مما عاينوا من العذاب ، جزاءً على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ أي في طلبهم الرجعة رغبة ومحبةً في الإيمان ثم أخبر انهم لو رُدُّوا لعادوا إلى كفرهم ومخالفتهم وقولهم: إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ثم قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذْ وقفوا على ربّهم ﴾ اي أوقفوا بين يديه قال عز وجل : ﴿ أليس هذا بالحق ﴾ أي أليس هذا المعاد بحق ؟ وليس بباطل كما ظننتم ؟ ﴿ قالوا بلى وربّنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ أي بما كنتم تكذّبون به ، فذوقوا اليوم مسَّه

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ۝ (٣١) وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ (٣٢) ﴾

يخبر تعالى عن خسارة من كذّب بلقائه ، وعن خيبته إذا فاجأتْه الساعة ، وعن ندامته على ما فرّط من العمل ، وما أسلف من قبيح الفعل . ولهذا قال تعالى : ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتةً قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ﴾ أي على ما فرّطنا في الدنيا من الأعمال المغضبة لله تعالى ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾ أي يحملون .. قال ابن أبي حاتم عن أبي مرزوق: يستقبل الكافر أو الفاجر عند خروجه من قبره ، كأقبح صورة ، وأنتنه ريحاً ، فيقول من أنت ؟ فيقول أو ما تعرفني ؟ فيقول : لا والله ، إلاّ أن الله قبح وجهك ، وأنتن ريحك ، فيقول : أنا عملك الخبيث هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه ، فطالما ركبتني في الدنيا ، هلمّ أركبك ؛ فهو قوله تعالى : ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلاّ لعب ولهوٌ ﴾ أي إنمّا غالبها كذلك ﴿ وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ .

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ
وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۞ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ
قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ
اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ۞ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ
فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۞ (٣٥) إِنَّمَا
حزب ١٤
يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۞ (٣٦) ﴾

يسلّي الله نبيّه ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه : ﴿ قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون ﴾ أي قد علمنا بتكذيبهم لك ، وحزنك وتأسفك عليهم كقوله تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فانّهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ أي لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ولكنهم يعاندون الحق ، ويدفعونه بصدورهم ، كما قال سفيان الثوري عن علي قال : قال ابو جهل للنبي ﷺ : إنّا لا نكذبك ، ولكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ .

وروى ابن جرير من طريق أسباط عن السدي : لما كان يوم بدر... فخلا الأخنس بأبي جهل فقال : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ها هنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا ؟ فقال ابو جهل : ويحك والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهبت بنو قصي ، باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ولقد كُذِّبَتْ رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له ، فيمن كذبه من قومه ، وأمرٌ له بالصبر ، كما صبر أولو العزم من الرسل ووعدٌ له بالنصر والظفر بعد التكذيب والأذى . ثم جاءهم النصر في الدنيا كما هو لهم في الآخرة ولهذا قال : ﴿ ولا مبدِّل لكلمات الله ﴾ أي التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ كتب الله

لأغلبنَّ أنا ورسلي إنَّ الله قويٌّ عزيز ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ أي من خبرهم كيف نُصِروا وأُيِّدوا على من كذبهم ، فلك فيهم أُسوةٌ ، وبهم قدوة .

ثم قال تعالى : ﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم ﴾ أي شقَّ عليك إعراضهم عنك ، ﴿ فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء ﴾ قال ابن عباس : النفق السرب فتذهب فيه فتأتيهم بآية ، أو تجعل لك سلماً في السماء فتصعد فيه ، فتأتيهم بآية أفضل مما آتيتهم به فافعل. وقوله تعالى: ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾ أي لا يؤمن إلاّ من قد سبق بعلم الله تعالى أنه سيختار الإيمان على الكفر فسبق له بذلك من الله السعادة في الذكر الأول ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ أي إنمّا يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه ، كقوله تعالى : ﴿ لينذر من كان حيّاً ويحق القول على الكافرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾ يعني بذلك الكفار ، لأنهم موتى القلوب فشبههم بأموات الأجساد ، فقال تعالى ﴿ والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾ وهذا من باب التهكم والإزراء عليهم .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۞ (٣٨) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ (٣٩) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين ، أنهم كانوا يقولون : ﴿ لو لا نُزّل عليه آية من ربه ﴾ أي خارق على مقتضى ما كانوا يريدون ، ومما يتعنتون كقوله تعالى : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ الآيات ﴿ قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن اكثرهم لا يعلمون ﴾ أي إنه تعالى قادر على ذلك ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك انه لو أنزلها ثم لم يؤمنوا ، لعاجلهم بالعقوبة ، كقوله تعالى : ﴿ إنْ نشأْ ننزّلْ عليهم من السماء آيةً فظلّت أعناقهم لها خاضعين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم ﴾ قال قتادة : الطير أمّة ، والأنس أمّة ، والجن

أمة . وقال السدي : أي خلقٌ أمثالكم . وقوله تعالى : ﴿ ما فرّطنا في الكتاب من شيء ﴾ أي الجميع علمهم عند الله ولا ينسى أحداً من رزقه وتدبيره من أي نوع كان في كتاب عنده مفصح بأسمائها، وأعدادها ومظانّها ، وحاصر لحركاتها ، وسكناتها . وقوله تعالى : ﴿ ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ أي تبعث يوم القيامة ، لقوله تعالى : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي ذر ٢٠٠ [أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان فقال : « يا أبا ذر هل تدري فيما تنتطحان ؟ » قال : لا . قال « لكن الله يدري وسيقضي بينهما »]

وقوله تعالى : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات ﴾ أي مثلهم في جهلهم وقلة علمهم ، وعدم فهمهم ، كمثل أصم لا يسمع ، وأبكم لا يتكلم وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق ، أو يخرج مما هو فيه كقوله تعالى: ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾ ولهذا قال : ﴿ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ أي هو المتصرف في خلقه بما يشاء .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ❁(٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ❁ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ❁ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ❁ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ❁(٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ❁(٤٥) ﴾

يخبر تعالى أنه الفعّال لما يريد ، المتصرّف في خلقه بما يشاء ، وأنه لا معقب لحكمه ، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه ، إلاّ هو وحده لا شريك له ، الذي إذا سئل

يجيب لمن يشاء ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ﴾ أي هذا أو هذا ، ﴿ أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ﴾ أي لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع ذلك سواه ، ولهذا قال ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي في اتخاذكم آلهة معه ﴿ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾ أي في وقت الضرورة لا تدعون أحداً سواه ، وتنسون أصنامكم ، كقوله : ﴿ فإذا ركبوا الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء ﴾ يعني بالفقر والضيق ، ﴿ والضراء ﴾ وهي الأمراض والآلام ﴿ لعلهم يتضرعون ﴾ أي يدعون الله في ذلٍ وخشية . وقوله تعالى : ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ أي فهلا إذ ابتليناهم بذلك دعونا بانكسار ؟ ﴿ ولكن قست قلوبهم ﴾ أي ما رقّت ولا خشعت ﴿ وزيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾ أي حسَّن الشيطان لهم الشرك والمعاصي ، ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ أي أعرضوا عنه وتناسوه ، ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ أي فتحنا عليهم أبواب كلّ الرزق من ما يختارون وهذا استدارج منه تعالى وإملاء لهم عياذاً بالله من مكره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ حتى إذا فرحوا بما أُوتوا ﴾ أي من الأموال والأولاد والأرزاق ، ﴿ أخذناهم بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ فاذاهم مبلسون ﴾ أي آيسونَ من كل خير .

روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال ٢٠١ [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدارج ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ـ إلى قوله ـ فإذا هم مبلسون ﴾] كما قال تعالى : ﴿ فقُطِع دابرُ القوم الذين ظلَموا والحمد لله رب العالمين ﴾

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ٱنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ۞ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّالِمُونَ ۞ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۞ (٤٩) ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ، قل لهؤلاء المكذبين : ﴿ أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴾ وهذا عبارة عن منع الانتفاع بهما ، ولهذا قال : ﴿ وختم على قلوبكم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ من إلَه غير الله يأتيكم به ﴾ أي من غير الله يردُّ ذلك إليكم ، إذا سلبَه الله منكم أي لا يقدر على ذلك أحد سواه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أُنظر كيف نصرف الآيات ﴾ أي نبينها وفيها الدلالة على أنه لا إله إلا الله ، وما سواه باطل وضلال : ﴿ ثم هم يصدفون ﴾ أي يعرضون عن الحق ، ويُصدّون الناس عنه . وقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتةً ﴾ أي فجأة وأنتم لا تشعرون ؛ ﴿ او جهرة ﴾ أي عياناً ﴿ هل يهلك إلاّ القوم الظالمون ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله . وقوله تعالى : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ أي مبشرين المؤمنين بالخيرات ، ومنذرين الكفار بالنقمات والعقوبات ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن آمن وأصلح ﴾ أي فمن آمن قلبه بما جاءوا به ، وأصلح عمله باتباعه إياهم . ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ مما يستقبلونه ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما فاتهم من الدنيا ، والله وليّهم فيما خلفوه ، وحافظهم فيما تركوه، ثم قال تعالى: ﴿ والذين كذبوا بآياتنا يمسُّهم العذابُ بما كانوا يفسقون ﴾ أي ينالهم العذاب ، بما كفروا بما جاءت به الرسل وخرجوا عن أوامر الله وطاعته وارتكبوا نواهيه ، وانتهكوا محارمه .

قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ ٱللهِ وَلَا أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَى وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۞ (٥٠) وَأَنْذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۞ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ ٱللهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ ٱللهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّاكِرِينَ ۞ (٥٣)

وَإِذَا جَاءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ أي لا اتصرف فيها ولا أملكها ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ أي إني لا أعلم من الغيب إلاّ ما علمني الله ، واطلعني عليه ، ﴿ ولا أقول لكم إني ملك ﴾ ولا أدعي اني ملك ، إنما أنا بشر من جملة البشر ، شرفني وأنعم علي ربي بالوحي من لدنه.ولهذا قال : ﴿ إنْ أتبع إلا ما يوحي إلي ﴾ أي لا أتعداه قط ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ أي هل يستوي من اتّبع الحق ومن ضلّ عنه ﴿ افلا تتفكرون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربّهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾ أي وأنذر به أي بهذا القرآن يا محمد ﴿ الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ليس لهم ﴾ يومئذ ﴿ من دونه ولي ولا شفيع ﴾ أي ولا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي يعملون في هذه الدار عملا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ، ويضاعف لهم الجزيل من ثوابــه .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ أي لا تبعد هؤلاء عنك ، بل اجعلهم جلساءك وأخصّاءك . وقوله تعالى : ﴿ يدعون ربهم ﴾ أي يعبدونه ويسألونه ﴿ بالغداة والعشي ﴾ قال سعيد بن المسيب وغيره : المراد به الصلاة المكتوبة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ أي أتقبّل منكم .

وقوله تعالى : ﴿ يريدون وجهه ﴾ أي يعملون لوجهه الكريم مخلصين في عبادتهم وطاعتهم وقوله تعالى : ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ كقول نوح عليه السلام في جواب الذين قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون إنْ حسابهم إلاّ على ربي لو تشعرون ﴾ أي إنما حسابهم على الله عز وجل ليس عليّ من حسابهم من شيء ، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء ، وقوله تعالى ﴿ فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ أي إن فعلت هذا والحالة هذه .

روى سفيان الثوري عن المقدام بن شريح عن أبيه ، قال : **قال سعد ٢٠٢**[نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي ﷺ منهم ابن مسعود قال: كنا نستبق إلى رسول الله ﷺ ، وندنو منه ونسمع منه ، فقالت قريش : تدني هؤلاء دوننا ، فنزلت : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾] رواه الحاكم في مستدركه من طريق سفيان، وقال : على شرط الشيخين . وأخرجه ابن حبان في صحيحه من طريق المقدام بن شريح به .

وقوله تعالى : ﴿ وكذلك فتّنا بعضهم ببعض ﴾ أي ابتلينا وامتحنّا بعضهم ببعض ﴿ ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول بعثته ، ضعفاء الناس من الرجال والنساء ، والعبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل كما قال قوم نوح لنوح ﴿ وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾ وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، فقال له : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقال بل ضعفاؤهم ، فقال : هم أتباع الرسل؛ والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ، ويعذبون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ؟ أي ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير ، لو كان ما صاروا إليه خيراً ويدعنا ، وقال في جوابهم حين قالوا : ﴿ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ أي أليس هو أعلم بالشاكرين له ، بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيوفقهم ويهديهم سبل السلام . ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم كما قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ وفي الحديث الصحيح : **٢٠٣**[ان الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ، وأعمالكم] . قال ابن جرير عن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴾ مخبراً أنه جاء نفر من أشراف قريش إلى أبي طالب فقالوا : لو ان ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له قال ، وكانوا – أي هؤلاء المستضعفين – بلالاً وعمار بن ياسر وسالما مولى أبي حذيفة، وصبيحاً مولى أسيد ، ومن الحلفاء ابن مسعود ، والمقداد بن عمرو ، ومسعود وابن القاري ، وواقد بن عبدالله الحنظلي ، وعمرو بن عبد عمرو ، وذو الشمالين ، ومرثد بن أبي مرثد وأبو مرثد الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب ، وأشباههم من الحلفاء . ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾ أي فأكرمهم ، برد السلام عليهم

وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ أي أوجبها على نفسه الكريمة ، تفضلاً منه وإحساناً ﴿ إنه من عمل منكم سوءً بجهالة ﴾ قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ ثم تاب من بعده [1] وأصلح ﴾ أي رجع عما كان عليه من المعاصي واقلع وعزم على أن لا يعود وأصلح العمل في المستقبل ، ﴿ فانه غفور رحيم ﴾ قال رسول الله ﷺ وسيأتي كثير من الأحاديث الموافقة لقوله تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ ومما يناسب هذه الآية قوله ﷺ لمعاذ بن جبل ٢٠٤ «[اتدري ما حق الله على العباد؛ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » ثم قال : « أتدري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم »] وقد رواه أحمد .

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ (٥٥)
قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ
أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۞ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ
بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَاصِلِينَ ۞ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ
بِهِ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّالِمِينَ ۞ (٥٨) وَعِندَهُ
مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن
وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۞ (٥٩)

ربع الحزب

يقول تعالى وكما بيّنا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد ، وذم المجادلة والعناد ، ﴿ وكذلك نفصل الآيات ﴾ أي التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها

(١) قلت : يقتضي أن الجهل ليس عذراً ، فلو أن هذا الجاهل لم يتب من سوئه ، لما كان جهله عذراً عند ربه .

﴿ ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ أي ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل ، وقوله تعالى : ﴿ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قلْ لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين ﴾ .(١)

وقوله تعالى : ﴿ قل إني على بيّنة من ربي ﴾ أي على بصيرة من شريعته تعالى التي أوحاها إليّ ﴿ وكذبتم به ﴾ أي بالحق الّذي جاءني من الله ﴿ ما عندي ما تستعجلون به ﴾ أي من العذاب ﴿ إن الحكم إلاّ لله ﴾ في تعجيل مـا سألتموه من العذاب أو تأجيله طبق حكمته ولهذا قال تعالى : ﴿ يقصّ الحق وهو خير الفاصلين ﴾ أي وهو خير من فصل القضايا ، وخير الحاكمين بين عباده . وقوله تعالى : ﴿ قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم ﴾ أي لو كان مرجع ذلك إليّ لأوقعت بكم ما تستحقونه ﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ فإن قيل فما الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أنها قالت : لرسول الله ﷺ ٢٠٥ : [يا رسول الله ، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال : « لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة . إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم استفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فاذا أنا بسحابة قد ظللتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردّوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم ، قال فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردّوا عليك ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين ، فقال رسول الله ﷺ « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم ، من يعبد الله لا يشرك به شيئاً »] وهذا لفظ مسلم فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم ، فاستأنى بهم وسأل لهم التأخير لعل الله يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً ، فمـا الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين ﴾ فالجواب – والله أعلم – أن هذه الآية دلّت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم ، وأما

(١) يعني نهاني ربي عن أن أعبد ما تعبدون من الأصنام ، وعن المسلك الذي سلكتموه ، في اتباع الأهواء ، كيلا ينتج عن ذلك ... الوقوع في الضلال ، لأن ذلك المسلك بلا دليل ؛ ولو فعلت ذلك ، فانا إذاً ضال ، ولست على هدىً من ربي .

الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين ، وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً وشمالاً ، فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم . وقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ﴾ روى البخاري عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال٢٠٦ : [« مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله » ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾.] ﴿ ويعلم ما في البر والبحر ﴾ أي محيط علمه الكريم بجميع الموجودات لا يخفي عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وقوله تعالى : ﴿ وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ﴾ أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات فما ظنك بالحيوانات ، ولا سيما المكلفون منهم جنهم وإنسهم كما قال تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : خلق الله النون وهي الدواة ، وخلق الألواح ، فكتب فيها أمر الدنيا حتى ينقضي ما كان من خلق مخلوق ، أو رزق حلال أو حرام ، أو عمل برٍ أو فجور ، وقرأ هذه الآية : ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ (١)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ (٦٠) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۞ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى ٱللهِ مَوْلَاهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَاسِبِينَ ۞ (٦٢) ﴾

يقول تعالى إنه يتوفّى عباده في منامهم بالليل ، وهذا هو التوفّي الأصغر ، كما قال

(١) قلت : فيه رجل لم يسم .

تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك [١] ورافعك إليّ ﴾ وقال تعالى : ﴿ الله يتوفّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى ﴾ فذكر في هذه الآية الوفاتين الكبرى والصغرى ، وهكذا ذكر في هذا المقام الوفاتين هاتين فقال : ﴿ وهو الذي يتوفّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ أي ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار ، وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه ليلاً ونهاراً ، حركةً وسكوناً . كما قال تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً ﴾ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم يبعثكم فيه ﴾ أي في النهار . وقد روى ابن مردويه بسنده عن الضحاك ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ ٢٠٧ [مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نفسه ويرد إليه ، فإن أذن الله في قبض روحه قبضه وإلا رد إليه] فذلك قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ليُقضى أجلٌ مسمّى ﴾ يعني أجل كل واحدٍ من الناس ﴿ ثم إليه مرجعكم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثم ينبئكم ﴾ أي يخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أي ويَجزيكم على ذلك خيراً أو شراً وقوله تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده [٢] ﴾ أي وهذا الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿ ويرسل عليكم حفظةً ﴾ أي من الملائكة يحفظون بدن الإنسان ، كقوله تعالى : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ وحفظة يحفظون عمله ويحصونه كقوله تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدَكم الموت ﴾ أي احتضر وحان أجله ﴿ توفته رسلنا ﴾ أي ملائكة موكلّوُن بذلك ، وإن لملك الموت أعواناً من الملائكة يُخرجون الروح من الجسد فيقبِضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحُلقوم . وقوله تعالى : ﴿ وهم لا يفرطون ﴾ أي في حفظ الروح وإنزالها حيث يشاء الله تعالى ، إن كان من الأبرار ففي عليين وإن كان من الفجار ففي سجّين عياذاً بالله من ذلك وقوله تعالى : ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ يعني الملائكة ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى

(١) متوفيك أي منيمك . وإن الله رفع عيسى إلى السماء وهو نائم .

(٢) قلت : هذه الآية الكريمة تشير إلى فوقية الله تعالى وعلوه على جميع خلقه أي عال على كرسيه وعرشه علواً مطلقاً بائن عن خلقه لا يشبه في حال من الأحوال علو المخلوقين « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » وإن ذلك العلو حقيقة لا مجازاً كما أخبر هو عن نفسه وعلى مراده تعالى بلا تكييف ولا تأويل ولا تعطيل ولا تجسيم ولا تشبيه ولا تمثيل ، وكذلك تماماً سائر الصفات العلى .

﴿ ثم رُدّوا ﴾ يعني الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة ، فيحكم فيهم بعد له ، كما قال عز وجل ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يومٍ معلوم ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ٱنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده ، في انجائه المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر ، أي الحائرين الواقعين في هذه المهامه البرية ، وفي اللجج البحرية ، إذا هاجت الرياح العاصفة ، فحينئذٍ يفردون الدعاء له ، وحده لا شريك له . كقوله تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضرُّ في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ الآية ... وقال تعالى هاهنا : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية ﴾ أي جهراً وسراً ﴿ لئن أنجانا ﴾ أي من هذه الضائقة ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ أي بعدها قال الله تعالى : ﴿ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾ أي بعد ذلك تدعون معه حال الرفاهية آلهة أخرى . وقوله تعالى : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً ﴾ أي بعد إنجائه إياكم . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ فوقكم أو من تحت أرجلكمُ ، أويلبسكم شيعاً ، ويذيق بعضكم بأس بعض أنظر كيف نصرّف الآيات لعلّهم يفقهون ﴾ قال مجاهد هذا لأمة محمد ﷺ وعفي عنهم ، وهناك أحاديث واردة في ذلك ، نذكر بعضاً منها ، وبالله المستعان ، وعليه التكلان .

روى البخاري رحمه الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ قل هو القادر ـ إلى قوله ـ يفقهون ﴾ عن جابر بن عبدالله قال ٢٠٨ [لما نزلت هذه الآية : ﴿ قل هو القادر

على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال رسول الله ﷺ ﴿أعوذ بوجهك ﴾ ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : « أعوذ بوجهك « ﴿ أو يلبسكم شيعاًويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هذه أهون — أو — أيسر »] وهكذا رواه النسائي عن قتيبة ، وابن حبان في صحيحه ، وأبو بكر بن مردويه .

روى الامام أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال٢٠٩: [أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية ، فدخل فصلّى ركعتين ، فصلينا معه ، فناجى ربه عز وجل طويلاً ، ثم قال : « سألت ربي ثلاثاً : سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يهلك أمتي بالسَّنَة فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها »] انفرد بأخراجه مسلم عن عثمان بن حكيم به .

روى ابن مردويه عن ابن عباس قال ٢١٠: [لما نزلت هذه الآية : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال : فقام النبي ﷺ فتوضأ ثم قال « اللهم لا ترسل على أمتي عذاباً من فوقهم ولا من تحت أرجلهم ، ولا تلبسهم شيعاً ولا تذق بعضهم بأس بعض » قال فأتاه جبريل فقال : يا محمد ان الله قد أجار أمتك أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم] .

روى ابن مردويه عن ابن عباس ٢١١ [إن رسول الله ﷺ قال : « دعوت ربي عز وجل أن يرفع عن أمتي أربعاً فرفع الله عنهم ثنتين وأبى عليّ أن يرفع عنهم ثنتين ، دعوت ربي أن يرفع الرجم من السماء والغرق من الأرض ، وأن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض، وأبى الله أن يرفع اثنتين القتل والهرج . »]

روى سفيان الثوري بسنده عن أبيّ بن كعب قال : أربع في هذه الأمة ، قد مضت اثنتان وبقيت اثنتان : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال الرجم ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال الخسف . وهذا اختيار ابن جرير ويشهد به بالصحة قوله تعالى : ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴾ وفي الحديث ٢١٢ : [ليكونن في هذه الأمة قذف وخسف ومسخ] وذلك مذكور مع نظائره في أمارات الساعة وستأتي في موضعها إن شاء الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ أو يلبسكم شيعاً ﴾ يعني يجعلكم ملتبسين

شيعاً فرقاً متخالفين وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال ٢١٣ [... وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ..] [1] وقوله تعالى : ﴿ ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعني يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل . وقوله تعالى : ﴿ انظر كيف نصرف الآيات ﴾ أي نبينها ونوضحها مرةً ونفسرها ؛ ﴿ لعلهم يفقهون ﴾ أي يفهمون ويتدبرون عن الله ، آياتِه وحججَه وبراهينَه .

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝ (٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ (٦٧) وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ (٦٨) وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ (٦٩) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وكذَّبَ به ﴾ أي بالقرآن ﴿ قومك ﴾ يعني قريشاً ﴿ وهو الحق ﴾ الذي ما بعده إلا الضلال ﴿ قل لست عليكم بوكيل ﴾ أي لست عليكم بحفيظ ، إنما عليَّ البلاغ وعليكم السمعَ والطاعةَ فمن تبعني سعِدَ ، ومن خالفني شقي ، ولهذا قال : ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ أي لكل خبر وقوع ولو بعد حين كما قال تعالى : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد ، ولهذا قال تعالى بعده : ﴿ وسوف تعلمون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾ أي بالتكذيب والاستهزاء ؛ ﴿ فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ أي حتى يأخذوا في كلام آخر غير

(١) قلت ـ : وتمام الحديث : (... قالوا من هم يا رسول الله ؟ قال هم على ما أنا اليوم عليه وأصحابي) فليعد المسلمون إذن ، إلى معرفة ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم وأصحابه رضي الله عنهم، ويسعوا جهدهم إلى التأسي به تماماً، فكرة وعملا وتطبيقاً، حتى يكونوا ناجين في الآخرة وسعداء أعزاء في الدنيا ، فيا ليتهم يفعلون .

ما كانوا فيه من التكذيب ، ﴿ وإمّا ينسينك الشيطان ﴾ والمراد بذلك كل فرد من آحاد الأمة ، أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها ، فإن جلس أحد معهم ناسياً ، ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى ﴾ أي بعد التذكر ﴿ مع القوم الظالمين ﴾ ولهذا ورد في الحديث ٢١٤[رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه].

وهذه الآية هي المشار إليها في قوله تعالى : ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم ﴾ الآية... أي إذا جالستموهم فكأنكم قد أقررتموهم ، فتكونون ساويتموهم فيما هم فيه ، وقوله تعالى : ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ إذا برئوا منهم فلم يجلسوا معهم فلا إثم عليهم فيما يخوض غيرهم به وقوله تعالى : ﴿ ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴾ أي ولكن تذكيراً للخائضين عما هم فيه من الخوض فيه بآيات الله لعلهم عندما يرون مفارقة المؤمنين لمجالسهم أن لا يعودوا لخوضهم واستهزائهم .

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٠)

يقول تعالى : ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ أي أعرض عنهم وأمهلهم قليلاً ، فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم . ولهذا قال تعالى: ﴿ وذكر به ﴾ أي ذكر الناس بالقرآن ، وحذرهم عذاب الله يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ أن تبسل نفس بما كسبت ﴾ أي يسلمها صاحبها للهلكة ، والحبس عن الخير ، وإدراك المطلوب وقوله تعالى : ﴿ ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ﴾ أي لا قريب ، ولا أحد يشفع فيها وكقوله تعالى : ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ

منها ﴾ أي ولو بذلت كل مبذول ، ما قُبِلَ منها ، كقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ﴾ الآية ... وكذا قال هاهنا : ﴿ أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذابٌ أليم بما كانوا يكفرون ﴾

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَاطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي ٱلصُّورِ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (٧٣) ﴾

قال السدي : قال المشركون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا ﴾ أي في الكفر ﴿ بعد إذ هدانا الله ﴾ فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض ، يقول مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم ، كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق ، فضلّ الطريق ، فحيرته الشياطين ، واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق ، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون ائتنا فإنّا على الطريق ، فأبى أن يأتيهم ، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ . ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق والطريق هو الإسلام ، رواه ابن جرير . وقال قتادة : ﴿ استهوته الشياطين في الأرض ﴾ أضلّته في الأرض ، يعني استهوته سيرتـه كقوله تعالى : ﴿ تهوي إليهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ حيران ﴾ قال مجاهد : رجل حيران يدعوه أصحابه إلى الطريق ، وذلك مثَلُ من يضل بعد أن هدي . وهكذا فإن المقصود أن هذا الذي استهوته الشياطين في الأرض في حال حيرته وضلاله وجهله وجه المحجة ، وله أصحاب على المحجة سائرون ، فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى ، وتقدير الكلام فيأبى عليهم ، ولا يلتفت إليهم ، ولو شاء الله لهداه ولردّه إلى الطريق . ولهذا قال تعالى : ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ومن يهد الله

فماله من مضل ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾ أي نخلص له العبادة وحده لا شريك له ، ﴿ وأن أقيموا الصلاة واتقوه ﴾ أي وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال ﴿ وهو الذي إليه تحشرون ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أي بالعدل ، فهو خالقهما ومالكهما ، والمدبر لهما ولمن فيهما ،وقوله تعالى : ﴿ ويوم يقول كن فيكون ﴾ يعني يوم القيامة الذي يقول الله كن فيكون ، عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب . وقوله تعالى : ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ أي القرن الذي ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام وقد تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال ٢١٥ : [ان اسرافيل قد التقم الصور ، وحنى جبهته ، ينتظر متى يؤمر فينفخ] رواه مسلم في صحيحه . روى الأمام أحمد عن عبدالله بن عمرو قال ٢١٦ : [قال إعرابي يا رسول الله ما الصور ؟ قال « قرن ينفخ فيه »]



﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۞ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ۞ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّالِّينَ ۞ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ (٧٩) ﴾

اختلف في اسم أبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام أهو آزر أم هو تارخ كما ذكره النسابون ، قال ابن جرير والصحيح أن اسم أبيه آزر ثم وفق بين القولين فأجاب بأنه قد يكون له اسمان كما لكثير من الناس ، أو يكون أحدهما لقباً ، وهذا الذي قاله جيد قوي والله أعلم . والمقصود من الآية أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعظ أباه في عبادة

الأصنام وزجره عنها ، ونهاه فلم ينته كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ﴾ أي أتتألّه لصنم تعبده من دون الله ﴿إني أراك وقومك ﴾ أي السالكين مسلكك ﴿في ضلال مبين ﴾ أي تائهين لا يهتدون أين يسلكون ، بل في حيرة وجهل.كما قال تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً ۞ إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً۞ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني اهدك صراطاً سوياً۞ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً۞ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً۞ قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً۞قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً ۞وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألاّ أكون بدعاء ربّي شقياً ﴾ فكان إبراهيم عليه السلام ، يستغفر لأبيه مدة حياته فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك ، رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدةٍ وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأوّاه حليم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ أي نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما ، على وحدانية الله عز وجل ، في ملكه وخلقه ، وإنه لا اله غيره ولا رب سواه . وقوله تعالى : ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ أي نريه ذلك ليكون عالماً وموقنا وقوله تعالى : ﴿ فلما جنّ عليه الليل ﴾ أي تغشاه وستره ﴿رأى كوكباً ﴾ أي نجماً ﴿قال هذا ربي فلما أفل ﴾ أي غاب قال : ﴿لا أحب الآفلين ﴾ قال قتادة : علم أن ربه دائم لا يزول. ﴿ فلما رأى القمر بازغاً ﴾ أي طالعاً ﴿قال هذا ربي.فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبرَ ﴾ أي جرماً من النجم والقمر وأكثر إضاءة.﴿ فلما أفلت ﴾ أي غابت ﴿قال يا قوم إني بريء مما تشركون ۞ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ أي أخلصت ديني ، وأفردت عبادتي ﴿ للذي فطر السموات والأرض ﴾ أي خلقَهما وابتدعَهما على غير مثالٍ سابق ﴿ حنيفاً ﴾ أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال : ﴿ وما أنا من المشركين ﴾

وقد اختلف المفسرون في هذا المقام : هل هو مقام نظر أو مناظرة ؟ والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه ، مبيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبيّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنـــــام

الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم ، الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنّما يتوسلون إليه بعبادة الملائكة ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه . وبيّن في هذا المقام ، خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل ، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة ، وهي : القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل وأشدهن إضاءةً وأشرفهن عندهم الشمسُ ، ثم القمر ، ثم الزهرة ، فبين أولا صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للآلهية ، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين ، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً ، ولا تملك لنفسها تصرفاً ، بل هي جرم من الأجرام خلقها منيرة ، لما له في ذلك من الحكم العظيمة ، القمر والشمس كذلك وهكذا انتقل من جرم إلى جرم ، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة ، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع . ﴿ قال يا قوم إنّي بريء ممّا تشركون ﴾ أي أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن فإن كانت آلهةً فكيدوني بها جميعاً ، ثم لا تنظرون . ﴿ إنّي وجهت وجهيَ للّذي فطر السمواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ أي إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ، ومسخرها ومقدرها ومدبرها ، الذي بيده ملكوت كل شيء وخالقه وربّه ومليكه وإلهه . كما قال تعالى : ﴿ إنَّ ربكم اللهُ الذي خلق السموات والأرضَ في ستّة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمسَ والقمَرَ والنجومَ مسخراتٍ بأمره ألا له الخلقُ والأمرُ تبارك اللهُ رب العالمين ﴾ .

وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشدَه من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ الآيات . وقال تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنةً وإنّه في الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أنِ اتّبعْ مِلّةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كان من المشركين . ﴾

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال ٢١٧ : [كل مولود يولد على الفطرة .] وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد ٢١٨ [أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله إني خلقت عبادي حنفاء »] فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة فكيف يكون إبراهيم الخليل ، الذي جعله الله أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ، ناظراً في هذا المقام ؟ بل هو أولى النّاس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة ، بعد رسول الله

ﷺ بلا شك ولا ريب ، ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه ، فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً ، قولُه تعالى :

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي ٱللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۞ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ (٨١) أَلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۞ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۞ (٨٣) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم ، حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد وناظروه بشبه من القول ، أنه قال : ﴿ أتحاجّوني في الله وقد هدان ﴾ أي تجادلونني في أمر الله ، وأنه لا إله إلا هو ، وقد بصّرني وهداني إلى الحق ، وأنا على بينة منه فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة ؟ وقوله تعالى : ﴿ ولا أخاف ما تشركون به إلاّ أن يشاء ربّي شيئاً ﴾ أي ومِن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه ، أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً ، وأنا لا أخافها ، فإن كان لها كيدفكيدوني بها وعاجلوني بذلك . وقوله تعالى : ﴿ إلاّ أن يشاءَ ربي شيئاً ﴾ استثناء منقطع أي لا يضر ولا ينفع إلاّ الله عز وجل . ﴿ وسع ربّي كل شيء علماً ﴾ أي أحاط علماً بجميع الأشياء فلا تخفى عليه خافية ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ أي فيما بينته لكم أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها ؟ وهذه نظير حجة هود عليه الصلاة والسلام فيما يقول الله تعالى : ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببيِّنة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ۞ إنْ نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أُشهِدُ الله واشْهَدُوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظِرون ۞ إنّي توكلت على الله ربّي وربِّكم ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها ﴾ الآية .. وقوله تعالى : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ﴾ أي كيف أَخاف من هذه الأصنام ﴿ ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزّلْ به عليكم سُلطاناً ﴾ أي حجةً كقوله تعالى : ﴿ إنْ هي إلاّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل

الله بها من سلطان﴾ وقولـه تعالى : ﴿ فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾ أي أيُّ الطائفتين أصوب وأحق بالأمن من عذاب الله أهي التي تعبد من بيده الضر والنفع ، أم التي تعبد ما لا يضر ولا ينفع بلا دليل ؟ ﴿ هنا تولّى الله تعالى بالإجابة فقال سبحانه : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة له لا شريك له هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخـــــرة .

روى البخاري عن عبدالله [1] ٢١٩ قال [لما نزلت ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ قال أصحابه ﷺ : وأيّنا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

روى الإمام أحمد عن عبـــدالله [2] ٢٢٠ قال : [لما نزلت هذه الآية : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ شق ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه ؟ قال : « انه ليس الذي تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ﴿ يا بُنَيَّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ إنما هو الشرك »] .

روى الامام أحمد عن جرير بن عبدالله قـــال ٢٢١ : [خرجنا مع رسول الله ﷺ فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا ، فقال رسول الله ﷺ « كأن هـــــذا الراكب إياكم يريد » فانتهى إلينا الرجل فسلّم فرددنا عليه فقال له رسول الله ﷺ « من أين أقبلت » قال من أهلي وولدي وعشيرتي ، قال : « فأين تريد » ؟ قـــال أريد رسول الله ﷺ قال : « فقد أصبته » قال يا رسول الله علّمني ما الإيمان قال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت » قال: قد أقررت قال ثم إن بعيره دخلت يده في جحر جرذان فهوَى بعيره وهوَى الرجل ، فوقع على هامته فمات فقال رسول الله ﷺ « عليّ بالرجل » فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه فقالا : يا رسول الله قبض الرجل ، قال فأعرض عنهما رسول الله ﷺ ثم قال لهما رسول الله ﷺ « أما رأيتما إعراضي عن الرجل » فإني رأيت ملكين يدسان في فيه من ثمار الجنة فعلمت أنه مات جائعاً ! ثم قال رسول الله ﷺ « هذا من الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ الذينَ آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ الآية .. « ثم قال « دونكم أخاكم » فاحتملْناه إلى الماء ، فغسلناه وحنطناه ، وكفنّاه وحملناه إلى القبر ، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر فقال « ألحدوا ولا تشقّوا فإن اللحدَ لنا والشقّ لغيرنا »] .

---

(١) و (٢) : هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وروى ابن مردويه عن عبدالله بن سخبرة قال : قال رسول الله ﷺ ٢٢٢: [من أُعطي فشكرَ ، ومُنعَ فصبرَ . وظلَم فاستغفر ، وظُلِمَ فغفرَ . وسكت ؛ قال فقالوا يا رسول الله ما له ؟ قال : ﴿ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ »]

وقوله تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ أي وجهنا حجته عليهم ؛ يعني بذلك قوله تعالى : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتُمْ ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزّلْ به عليكم سلطاناً فأيّ الفريقين أحق بالأمن ﴾وقد صدّقهُ الله وحكى له بالأمن والهداية ، فقال تعالى : ﴿ الذين آمنوا ولم يَلبسوا إيمانَهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ ثم قال بعد ذلك كله : ﴿ وتلك حُجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجاتٍ من نشاء ﴾ قرىء بالإضافة وبلا إضافة . وكلاهما قريب في المعنى . وقوله تعالى : ﴿ إنّ ربّك حكيم عليم ﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله ، عليم بمن يهديه ومن يُضلُّه

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ۞ (٨٥) وَإِسْمٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ (٨٧) ذٰلِكَ هُدَى ٱللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (٨٨) أُوْلٰئِكَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۞ (٨٩) أُوْلٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ۞ (٩٠) ﴾

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحق بعد أن طعن في السن ، وأيس هو وامرأتُه سارة من الولد . فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروهما بإسحق ، فتعجبت

المرأة من ذلك ، وقالت : ﴿ يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إنَّ هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميد مجيد ﴾. فقوله تعالى : ﴿ ووهبنا له أسحق ويعقوب كلاً هدينا ﴾ هذه بشرى بأن له نسلاً وعقباً كما قال تعالى : ﴿ وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين ﴾ وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة ، وقال أيضاً سبحانه وتعالى : ﴿ فبشرناها بإسحق ومن وراء اسحق يعقوب ﴾ أي ويولد لهذا المولود في حياتكما ولد ، فتقرَّ أعيُنكمابه ، كما قرّت بوالده ، فوقعت البشارة به أي بإسحق وبولده يعقوب ، وكان هذا مجازاةً لإبراهيم عليه السلام ، حين اعتزل قومه ، وتركهم ونزح عنهم ، وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض فعوضه الله عن قومه وعشيرته ، بأولاد صالحين من صلبه على دينه كما قال تعالى : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ونوحاً هدينا من قبل ﴾ وكل منهما له خصوصية عظيمة . أما نوح عليه السلام ، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلاّ من آمن به ، وهم الذين صحبوه في السفينة ، جعل الله ذريته هم الباقين ، فالناس كلهم من ذريته . وأما الخليل إبراهيم عليه السلام ، فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً إلا من ذريته ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا في ذريته النبّوة والكتاب ﴾ الآية وكما قال تعالى أيضاً : ﴿ وجعلنا في ذريتهما النبوّة والكتاب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن ذريته ﴾ أي هدينا من ذريته ﴿ داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحي وعيسى والياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضّلنا على العالمين ﴾ وعود الضمير إلى نوح ، لأنه أقرب المذكورين ، ظاهر لإشكال فيه وهو اختيار ابن جرير ، وعود الضمير إلى ابراهيم ، لأنه الذي سيق الكلام من أجله حسن . لكن يشكل عليه لوط ، فانه لبس من ذرية ابراهيم بل ابن أخيه هاران بن آزر اللهم إلا انه يقال دخل تغليباً في الذرية. كما في قوله تعالى : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾. فإسماعيل عمه أي عم يعقوب دخل في آبائه تغليباً ، وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح على القول الآخر دليل على دخول ولد البنات في ذرية الرجل ، لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام ، بأمه مريم عليها السلام ، فإنه لا أب له ، وقد ثبت في صحيح البخاري ، أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي : ٢٢٣ [إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين] فسمّاه ابناً فدل على دخوله في الأبناء .

وقوله تعالى : ﴿ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم﴾ ذكر أصولهم وفروعهم ، وذوي طبقتهم وأن الهداية والأجتباء شملهم كلهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾ ثم قال تعالى : ﴿ذلك هُدى الله يهدي به من يشاء من عباده﴾ أي إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته لهم ﴿ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملابسته .

وقوله تعالى : ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة﴾ أي أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم ولطفاً منا بالخليقة ﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾ أي فإن يكفر أهل مكة بالكتاب والحكم والنبوة وغيرهم من سائر أهل الأرض من عرب وعجم وملّيين وكتابيين ﴿فقد وكلنا بها قوماً﴾ أي المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة . ﴿ليسوا بها بكافرين﴾ أي لا يجحدون منها شيئاً ، ولا يردّون منها حرفاً واحداً ، جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه وإحسانه .

ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ : ﴿أولئك﴾ يعني الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والاخوان ﴿الذين هَدى الله﴾ أي هم أهل الهدى لا غيرهم ﴿فبهداهم اقتده﴾ أي اتبع ، وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ ، فأمته تبع له ، فيما يشرعه ويأمرهم به . وقوله تعالى : ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً﴾ أي لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم ، هذا القرآن أجراً ، ولا أريد منكم شيئاً ﴿إنْ هو إلاّ ذكرى للعالمين﴾ أي يتذكرون به ، فيرشد وامن العمى إلى الهدى ، ومن الغي إلى الرشاد ، ومن الكفر إلى الإيمان .

﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝ (٩١) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ (٩٢)﴾

يقول تعالى وما عظموا الله حقّ تعظيمه حينما كذّبوا رسله إليهم وإنها نزلت في قريش الذين كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ لأنه من البشر ، كما قال تعالى : ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر الناس﴾ وقال ها هنا : ﴿وما قد روا الله حق قدره إذْ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ فقال تعالى : ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله في جواب سلبهم العام ، بإثبات قضية جزئية موجبة ، ﴿من أنـــزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ وهو التوراة التي قد علمتم وكل أحد أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نوراً وهدى للناس أي ليستضاء بها في كشف المشكلات ، ويهتدى بها من ظُلَم الشبهات ، وقوله تعالى ؛ ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾ أي تجعلون جملتها قراطيس ، أي قطعاً تكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديكم وتحرّفون منها وتبدلون وتتأوّلون ما شاء لكم هواكم **ثم تقولون هذا من عند الله وما هو من عنده الله** وقوله تعالى : ﴿وعُلّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ أي ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه من خبر ما سبق ، ونبأ ما يأتي ، ما لم تكونوا تعلمون ذلك ، لا أنتم ولا آباؤكم . وقد قال قتادة : هؤلاء مشركو العرب [1] .

وقوله تعالى : ﴿قل الله﴾ قال ابن عباس أي قل الله أنزله . وهذا هو المتعيّن في تفسير هذه الكلمة ، لا ما قاله بعض المتأخرين ، من أن معنى : « قل الله » أي لا يكون خطابك لهم ، إلاّ هذه الكلمة ، كلمة ﴿الله﴾ وهذا الذي قاله هذا القائل ، يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب ، والإتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها . [2] وقوله تعالى : ﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ أي ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون ، حتى يأتيهم من الله اليقين ، فسوف يعلمون ألهم العاقبة أم لعباد الله المتقين ؟ وقوله تعالى : ﴿وهذا كتاب﴾ يعني القرآن ﴿أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذرَ أم القرى﴾ يعني مكة ﴿ومن حولها﴾ من أحياء العرب ومن سائـــر

---

(١) قيل إن هذه الآية نزلت مرتين ، مرة بمكة والخطاب فيها للمشركين ولعلها قراءة « يجعلونه » بالياء . ومرة في المدينة ولعلها قراءة : « تجعلونه » بالتاء لأنه خطاب لليهود .

(٢) وهذا رد مفحم على من يزعمون أنه يجوز ترداد كلمة (الله.الله.الله) منفردة في أذكارهم البدعية في زمننا الحاضر مستندين في جواز ذلك إلى قوله تعالى : «قل الله» مع ان هذه الجملة من هذه الآية جاءت هداهم الله . جواباً لقوله تعالى : قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى) فجاء هنا قوله تعالى جواباً : (قل الله) أي قل الله أنزله . فأي مناسبة في هذه الآية للاستدلال بـ (قل الله) على جواز الذكر باسم الجلالة فقط ؟ دون أن يضاف اليه كلمة أخرى مثلا : الله عظيم ، الله كريم وما أشبه ذلك ... ولكن هذا شأن المبتدعين الذين يحكمون هواهم في كل ما يبتدعون .

طوائف بني آدم، من عرب وعجم كما قال تعالى: ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكونَ للعالمين نذيراً﴾ وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: ٢٢٤ [أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي» وذكر منهن «وكان النبيّ يبعث إلى قومه خاصةً وبعثت إلى الناس عامةً»] ولهذا قال تعالى: ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾ أي كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك، الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن ﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾ أي يقيمون بما فرض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ۞ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۞ (٩٤)﴾

يقول تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي لا أحد أظلم، ممن كذب على الله فجعل له شركاء أو ولداً، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله، ولهذا قال تعالى: ﴿أو قال أوحي إلي ولم يوحَ إليه شيء﴾ قال عكرمة وقتادة: نزلَتْ في مسيلمة الكذاب ﴿ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله﴾ أي يعارض ما جاء من عند الله افتراءً، كقوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ الآية قال الله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ أي في سكراته وكرباته، ﴿والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم﴾ أي تضربهم الملائكة حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم لأن الكافر إذا احتضر، بشّرتْه الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والجحيم والحميم، وغضب المنتقم الجبار فتعصىَ روحه وتتفرق في جسده وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة

حتى تخرجَ أرواحُهم من أجسادِهم قائلين لهم : ﴿ أَخرجوا أنفسكم اليومَ تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ﴾ أي اليومَ تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله .

وقوله تعالى: ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ أي يقال لهم يوم معادهم هذا ، أي كما بدأناكم أعدناكم وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه . وقوله تعالى : ﴿ وتركتم ما خوّلناكم وراءَ ظهوركم ﴾ أي تركتم كل ما اقتنيتموه في الدنيا وراء ظهوركم . وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ٢٢٥ [يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس] وقوله : ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ تقريع لهم وتوبيخ على ما اتخذوه في الدنيا من الأنداد والأصنام ظانّين أنّها تنفعهم في معاشهم ومعادهم ، إن كان ثَمَّ معاد ، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ويناديهم الرب عزّ وجلّ على رؤوس الخلائق : ﴿ أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ ولهذا قال ها هنا : ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم ... ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ ما كان من الأسباب ﴿ وضل عنكم ﴾ أي ترككم ﴿ ما كنتم تزعمون ﴾ من رجاء الأصنام والأنداد كما قال تعالى : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾



﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۞ (٩٥) فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ (٩٦) وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ (٩٧) ﴾

يخبر تعالى أنه يشقّ الحبّ والنوى في الثرى ، فتنبت الحبوب والثمار على اختلاف ألوانها ، واشكالها وطعومها من النوى . وقوله تعالى ﴿ يُخرج الحيَّ من الميت ومُخرجُ الميت

من الحي ﴾ تفسير لقوله : ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ أي يخرج النبات الحي من الحب والنوى الذي هو كالجماد الميت ، وقيل يخرج الدجاجة من البيضة وبالعكس ، وقيل يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه وكل ذلك جيد . ثم قال تعالى : ﴿ ذلكم الله ﴾ أي فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له ﴿ فأنىّ تؤفكون ﴾ أي كيف تعدلون عن الحق إلى الباطل ، فتعبدون مع الله غيره . وقوله تعالى : ﴿ فالق الإصباح وجَعَلَ الليل سكناً ﴾ أي مظلماً لتسكنَ فيه الأشياء كما قال تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ أي يجريان بحساب مقنَّن مقدّر ، لا يتغير ولا يضطرب بل لكلٍ منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء ، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار ، طولاً وقصراً ، كما قال تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل ﴾ الآية وقوله تعالى ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ اي الجميع جاء بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالَف ، العليمُ بكل شيء ، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلْقَ الليل والنهار ، والشمس والقمر ، يختم الكلام بالعزة والعلم . كما في قوله تعالى : ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ وكما في غير موضع من القرآن . وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ قال بعض السلف : من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه ، إن الله جعلها زينةً للسماء ، ورجوماً للشياطين ، ويُهتدىَ بها في ظلمات البر والبحر ، وقوله تعالى : ﴿ قد فصّلنا الآيات ﴾ أي قد بيّناها ووضحناها ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي يعقلون ويعرفون الحق ويتجنّبون الباطل .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۞ (٩٨) وَهُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ٱنظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ (٩٩) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأكم من نفسٍ واحدة ﴾ يعني آدم عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدةٍ وخلق منها زوجَها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فمستقرٌ ومستودع ﴾ أي مستقر في الأرحام ، ومستودع في الأصلاب . قاله ابن مسعود وابن عباس وطائفة من التابعين وقوله تعالى : ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ أي يفهمون كلام الله ، ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماءً ﴾ أي بقدرٍ مباركاً ورزقاً للعباد وإحياءً وغياثاً للخلائق ، رحمةً من الله بخلقه ﴿ فأخرجنا به نبات كل شيء ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيءٍ حي ﴾ ﴿ فأخرجنا منه خضراً ﴾ أي زرعاً وشجراً أخضر ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ نخرج منه حباً متراكباً ﴾ أي يركب بعضه بعضاً كالسنابل ونحوها . ﴿ ومن النخل من طلعها قنوان ﴾ أي جمع قنوٌ وهي عذوق الرُطَب (دانية) أي قريبة من المتناول أي قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض . وقوله تعالى : ﴿ وجناتٍ من أعناب ﴾ وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز ، وربمّا كانا خيار الثمار في الدنيا . وقوله تعالى : ﴿ والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ﴾ في الورق والشكل ، قريب بعضه من بعض ، ومتخالف في الثمار شكلاً وطعماً ، وقوله تعالى : ﴿ أنظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه ﴾ أي نضجه أي فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود ، بعد أن كان حَطباً ، صار عنباً ورطباً وغير ذلك مما خلق سبحانه وتعالى ، من الألوان والأشكال ، والطعوم والروائح ، كقوله تعالى : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماءٍ واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ الآية ولهذا قال ها هنا : ﴿ إن في ذلكم ﴾ أيها الناس ﴿ لآيات ﴾ أي دلالات على كمال قدرة الخالق وحكمته ورحمته ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ أي يصدقون به ويتبعون رسله .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾

هذا ردٌ على المشركين ، الذين عبدوا مع الله غيرَه ، وأشركوا به في عبادته ، أن عبدوا الجن ، فجعلوهم شركاء له في العبادة ، تعالى الله عن شركهم وكفرهم . فإن قيل : فكيف عبدوا الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب : انهم ما عبدوها إلاّ

عن طاعة الجن وأمرهم إيّاهم بعبادتها . كقوله تعالى : ﴿ إنْ يدعون من دونه إلاَّ إناثاً وإنْ يعبدون إلاّ شيطاناً مريداً ﴾ وتقول الملائكة يوم القيامة : « ﴿ سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ﴾ أي وقد خلقهم ، فهو الخالق وحده لا شريك له ، فكيف يعبدون معه غيره . ومعنى الآية : أنه سبحانه وتعالى هو المنفرد بالخلق وحده فلزم أن يكون منفرداً بالعبادة وحده لا شريك له . وقوله تعالى : ﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ ينبه تعالى على ضلال من ضلّ وزعموا أن لله ولداً كاليهود في عزير ، والنصارى في عيسى ومشركي العرب في الملائكة أنها بنات الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ومعنى ﴿ وخرقوا له بنين وبنات ﴾ أي أختلقوا وأتفكوا وتخرّصوا وكذبوا . وقال ابن جرير : وتأويله : وجعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياهم . وهو المنفرد سبحانه بخلقهم بغير شريك ولا ظهير ﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ أي جهلاً بالله وبعظمته ، فلا ينبغي أن يكون له سبحانه بنون وبنات ، ولا صاحبة ، ولا أي شريك ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ أي تقدّس وتنزّه عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالّون ، من الأولاد والنظراء والشركاء .

﴿ بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ (١٠١) ﴾

﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أي خالقها على غير مثال سابق ، ومنه سميت البدعة بدعةً لأنه لا نظير لها فيما سلف ﴿ أنّى يكون له ولد ﴾ أي كيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين ، والله تعالى لا يناسبه شيء ولا يشابهه شيء من خلقه لأنه خالق كل شيء ، فلا صاحبة له ولا ولد . ﴿ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ فبيّن تعالى أنه هو الذي خلق كل شيء ، وأنه بكل شيء عليم ؛ فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه وتشابهه ، وهو الذي لا نظير له ، فأنّى يكون له ولد ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۞ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۞ (١٠٣) ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى أنه خالق كل شيء ، ولا ولد له ولا صاحبة قال سبحانه : ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ أي هذا هو ربكم الذي له هذه الصفات وحده ﴿ لا إله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾ أي فاعبدوه وحده لا شريك له ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ أي حفيظ ورقيب ، يدبّر خلقه ويرزقهم ويكلأهم بالليل والنهار . وقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ في الدنيا ولكن تراه في الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ثابتة في الصحاح والمسانيد والسنن وقد ثبت عن عائشة أنها قالت كل من زعم ان محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية فان الله تعالى قال ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ وخالفها ابن عباس ، فعنه : إطلاق الرؤية ، وعنه أنه رآه بفوآده مرتين والمسألة تذكر في أول سورة النجم إن شاء الله [١] والرؤية لله تعالى في الآخرة ثابتة للمؤمنين بخلاف المعتزلة الذين ينكرون الرؤية في الدنيا والآخرة فخالفوا جهلاً منهم ما دلّ عليه الكتاب والسنّة . أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ وجوه يؤمئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ وقال عن الكافرين ﴿ كلا إنهم عن ربّهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾ قال الإمام الشافعي : فدلّ هذا ، على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى . أمّا السُنَّة فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد ، وأبي هريرة ، وأنس ، وجريج ، وصهيب ، وبلال ، وغيرهم من الصحابة عن النبي ﷺ : ٢٢٦ [إن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنات] جعلنا الله تعالى منهم بمنّه وكرمه آمين .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً : ٢٢٧ [ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار ، حجابه النور ـ أو النار ـ لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه .] . ولا منافاة بين اثبات الرؤية ونفي الإدراك . والإدراك المنفي هو معرفة الحقيقة ، فإن هذا لا يعلمه إلا هو ، وإن رآه المؤمنون ؛ كما

(١) راجع الآية رقم /١٠١/ من تفسير سورة النجم .

إن من رأى القمرَ فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته ، فالله العظيم سبحانه أولى بذلك وله المثل الأعلى والإدراك هو الإحاطة قالوا : ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم والمقصود الرؤية في الآخرة لأن الرؤية في الدنيا غير ممكنة كما قال تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ ربي أرني أنظر إليك قال : لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعِقاً فلما أفاق قال سبحانك تبتُ إليك وأنا أول المؤمنين . ﴾ أما في الآخرة فيتجلّى الله لعباده المؤمنين كما يشاء ، فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه ، تعالى وتقدس وتنزه ، فلا تدركه الأبصار . وقوله تعالى : ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ أي يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه لأنه خلَقها وقوله تعالى : ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ قال ابو العالية : اللطيف لاستخراجها ، الخبير بمكانها والله أعلم. وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان ، فيما وعظ به ابنه : ﴿ يا بُني إنها إن تكُ مثقال حبّةٍ من خردلٍ فتكن في صخرةٍ أو في السموات أو في الأرض يأتِ بها الله إن الله لطيف خبير ﴾

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ۞(١٠٤) وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ (١٠٥) ﴾

البصائر هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن والسنّة ﴿ فمن أبصر فلنفسه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنّما يضل عليها ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن عمي فعليها ﴾ أي إنما يعود وبالُه عليها . كقوله تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أي بحافظ ولا رقيب ، بل إنما أنا مبلغ . وقوله تعالى : ﴿ وكذلك نصرّف الآيات ﴾ أي نبينها في كل موطن بما فيها من التوحيد ، ﴿ وليقولوا درست ﴾ أي دارست يا محمد مَنْ قبلك من أهل الكتاب وقارأتهم ، وتعلمت منهم . هكذا قاله ابن عباس ، ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم . وهذا كقوله تعالى إخباراً عن كذب المشركين وعنادهم : ﴿ وقال الذين كفروا إنْ هذا إلاّ إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلْماً وزوراً وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ ولنبيّنه لقوم يعلمون ﴾ أي ولنوضّحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه . والباطل فيجتنبونه . كقوله تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدًى

وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين ، وأنه يضل به من يشاء ويهدي به من يشاء . واختلف في قراءة « درست » أهي دارست أم درست فقد روى ابن مردويه عن أُبي بن كعب قال : ٢٢٨ [أقرأني رسول الله ﷺ ﴿ وليقولوا درسْتَ ﴾] ورواه الحاكم في مستدركه من حديث وهب بن زمعة ، وقال : يعني بجزم السين ونصب التاء ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

﴿ ٱتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ ولمن اتبع طريقته : ﴿ اتبع ما أوحي إليك من ربك ﴾ أي اقتدِ به، واعمل به . فهو الحق الذي لا مرية فيه ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ أي اصفح ، واحتمل أذا هم حتى يفتح الله عليك بالنصر عليهم ، وإن لله حكمةً بإضلالهم فلو شاء لهداهم ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ (١) أي بل له المشيئة والحكمة ، فيما يشاء ويختاره لا يسأل عما يفعل وهم يسألون (٢) وقوله تعالى : ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظاً ﴾ يحفظ أقوالهم وأعمالهم ﴿ وما أنت عليهم بوكيلٍ ﴾ أي موكل على أرزاقهم وأمورهم ﴿ إنْ عليك إلاَّ البلاغ ﴾ كما قال تعالى:﴿فذكّر إنما أنتَ مذكّر لست عليهم بمصيطر ﴾وقال: ﴿ إنما عليك البلاغُ وعلينا الحساب ﴾ .

﴿ وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(١) قلت : إنه سبحانه علم منهم أنهم سيختارون الشرك بعد أن يعرض عليهم التوحيد والأيمان ولا يلزم من مشيئة الله إجبارهم على الكفر والشرك ، فقبل أن يشاءوا الكفر علم الله منهم ذلك فقدر عليهم وشاءه لهم ، ثم لما عرض عليهم التوحيد والأيمان في الدنيا شاءوا الشرك والكفر .

(٢) ولا يفعل سبحانه إلا الحق والعدل والخير ، ومنزه عن النقيض لذا فإنه لا يسأل عن الخير لم فعله ، ولا يسأل عن الشر لأنه لا يفعل شراً وإن كان هو خالقه وكل شيء .

ينهى الله رسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين ، وإن كان فيه مصلحة ، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم من المصلحة ، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين ، وهو الله لا إله إلا هو كما قال ابن عباس في هذه الآية : قالوا : يا محمد لتنتهينّ عن سبك آلهتنا ، أو لنهجون ربّك ، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿ فيسبّوا الله عدواً بغير علم ﴾ وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها ، ومن هذا القبيل ما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ٢٢٩ [« ملعون من سب والديْه » قالوا يا رسول الله وكيف يسب الرجل والديْه ؟ قال : « يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمّهُ فيسب أمّهُ »] أو كما قال ﷺ ﴿ كذلك زينا لكل أمة عملهم ﴾ أي وكما زيّنا لهؤلاء القوم حبّ أصنامهم ، والمحاماة لها والانتصار ، كذلك زينا لكل أمة أي من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه ، ولله الحجة البالغة والحكمة التامة ، فيما يشاؤه ويختاره ﴿ ثم إلى ربهم مرجعهم ﴾ أي معادهم ومصيرهم . ﴿ فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ أي يجازيهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝(١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝ (١١٠) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم حلفوا أيماناً مؤكّدةً ﴿ لئن جاءتهم آية ﴾ أي معجزة ﴿ ليؤمننّ بها ﴾ أي ليصدقنها ﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ أي قل يا محمد للمشركين الذين يسألونك الآيات كفراً وعناداً لا استهداءً واسترشاداً إنما مرجع هذه الآيات إلى الله تعالى ، إن شاء جاءكم بها أو ترككم ، وهنا نورد حديثاً مرسلاً ولكن له شواهد من وجوه أخر فقد روى ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : ٢٣٠ [كلم رسولَ الله ﷺ قريشٌ ، فقالوا : يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجرفانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى ، وتخبرنا ان ثمود كانت لهم ناقة ، فأتنا من الآيات حتى نصدّقكَ . فقال رسول الله ﷺ : « أي شيء تحبون أن آتيكم به » قالوا تجعل لنا الصفا ذهباً فقال لهم : فإن فعلتُ تصدقوني » ؟ قالوا : نعم والله لئن

فعلت لنَتبعنّك أجمعون ، فقام رسول الله ﷺ يدعو فجاء جبريل عليه السلام ، فقال له : ما شئت ، إن شئت أصبح الصفا ذهباً ، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا ، عند ذلك ليعذبنَّهم ، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله ﷺ « بل يتوب تائبهم » فأنزل الله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم – إلى قوله تعالى – ولكنّ أكثرهم يجهلون ﴾ .]

وقوله تعالى : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ أي وما يدريكم يا أيها المؤمنون الحريصون على إيمان المشركين فلعلّ المعجزات اذا جاءت لا يؤمنون وتفسير (أن) بـ (لعل) ذكر ذلك عن العرب سماعاً : إذهب إلى السوق انك تشتري لنا شيئاً بمعنى لعلك تشتري . وكقول عدي بن زيد العبادي :

أعاذل مـا يدريـك أنّ منيـتي إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغـد

أي بمعنى – لعل منيتي – وقد اختار هذا القول ابن جرير وذكر عليه من شواهـد اشعار العرب والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا بـه أول مرة ﴾ قال ابن عباس : لما جحد المشركون ما أنزل الله ، لم تثبت قلوبهم على شيء وردّت عن كل أمر [1] وقوله تعالى : ﴿ ونذرهم ﴾ أي نتركهم ﴿ في طغيانهم ﴾ أي في ضلالهم ﴿ يعمهون ﴾ أي في كفرهم يتردّدون .

جزء ٨

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ۞ (١١١) ﴾

يقول تعالى : ولو أجبنا هؤلاء الذين أقسموا بالله لئن جاءتهم آية ليؤمنُنّ بها ، فنزّلنا عليهم الملائكة تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل ، كما سألوا فقالوا : ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وكلمهم الموتى ﴾ أي فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل ﴿ وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ﴾ أي ولو تعرض عليهم كل أمةٍ بعد أمة ،

(١) قلت : أي ان الله سبحانه قلب أفئدتهم وأبصارهم ولم يجعلها تثبت على شيء وردها عن كل أمر جزاء لهم من نوع عملهم لأنهم لم يؤمنوا لما عرض عليهم الإيمان أول مرة كقوله تعالى : « وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى» .

فيخبرونهم بصدق الرسل فيما جاءوهم به ﴿ ما كانوا ليؤمنوا إلاّ أن يشاء الله ﴾ أي إن الهداية إليه لا إليهم ، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الفعال لما يريد . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

يقول تعالى : وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك ويعاندونك ، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء ، فلا يحزنك ذلك . كما قال تعالى : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأُوذوا ﴾ وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ : إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلاّ عودي . وقوله تعالى : ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ بدل من ﴿ عدوّاً ﴾ أي لهم أعداء من شياطين الأنس والجن ، ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء قبحهم الله ولعنهم . روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : ٢٣١ [أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد فجلست ، فقال : « يا أبا ذر هل صليتَ ؟ » قلت : لا قال : « قم فصلِّ » قال : فقمت فصلّيت ثم جلست فقال : « يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن » قال : قلت يا رسول الله . وللإنس شياطين ؟ قال : « نعم »] . وهكذا فإن للإنس شياطين منهم ، وشيطان كل شيء ما رده . ولهذا جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : ٢٣٢ [الكلب الأسود شيطان] — ومعناه والله أعلم — شيطان في الكلاب ، وقال ابن جريج : قال مجاهد في تفسير هذه الآية : كفار الجن شياطين يوحون إلى شياطين الإنس كفار الإنس ، زخرف القول غروراً .

وقوله تعالى : ﴿ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ أي يُلقي بعضهم إلى بعض القول المزيّنَ المزخرفَ ، وهو المزوقُ الذي يغترُّ سامعه من الجهلة بأمره ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ أي وذلك كله بقدر الله وقضائه ، وإرادته ومشيئته ، أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ أي فدعهم وما يكذبون ودع

أذاهم ، وتوكّل على الله في عداوتهم ، فإن الله تعالى كافيك وناصرُك عليهم . وقوله تعالى : ﴿ ولتصغي إليه ﴾ أي لتميل إليه ﴿ أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة . ﴾ أي قلوبهم وعقولهم وأسماعهم ، ﴿ وليرضوه ﴾ أي يحبوه ويريدوه وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة . ﴿ وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ قال ابن عباس : أي وليكتسبوا ما هم مكتسبون وقال السدي وابن زيد : وليعملوا ما هم عاملون .

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۞ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (١١٥) ﴾

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ قل لهؤلاء المشركين بالله الذين يعبدون غيره ﴿ أفغير الله أبتغي حكماً ﴾ أي بيني وبينكم ﴿ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ أي مبيناً ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ أي من اليهود والنصارى ﴿ يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ أي بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين ﴾ وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي وقوعه ؛ ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٢٣٣ [لا أشكّ ولا أسأل] وقوله تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ قال قتادة : صدقاً فيما قال وعدلاً فيما حكم ، يقول صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الطلب فكل ما أخبر به فحق لامرية فيه ولا شك ، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه ، وكل ما نهى عنه فباطل فإنه لا ينهى إلاّ عن مفسدة . كما قال تعالى : ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ إلى آخر الآية ﴿ لا مبدّل لكلماته ﴾ أي ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ وهو السميع العليم ﴾ السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم الذي يجازي كل عامل بعمله .

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

يخبر تعالى : عن حال أكثر أهل الأرض ، من بني آدم أنه الضلال [1] كما قال تعالى : ﴿ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ﴾ وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم ، وانما هم في ظنون كاذبة ، وحسبان باطل ، ﴿ إنْ يتبعون إلاّ الظن وإنْ هم إلاّ يخرصون ﴾ الخرص الحزر ، ومنه خرص النخل ، وهو حزر ما عليها من التمر ، وذلك كله عن قدر الله ومشيئته ، ﴿ هو أعلم من يضل عن سبيله ﴾ فييسره لذلك ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ فييسرهم لذلك وكل ميسر لما خلق له .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

يبيح الله لعباده المؤمنين من الذبائح ما ذكر عليه اسمه ، ومفهومه منع أكل الذبائح التي لم يذكر اسمه تعالى عليه ، كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات ، وما ذبح لغير الله تعالى ، ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه فقال تعالى : ﴿ وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصّل لكم ما حرّم عليكم ﴾ أي قد بيّن لكم ما حرّم عليكم ووضحه ﴿ إلاّ ما اضطرتم إليه ﴾ أي إلا في حال الاضطرار ، فانه يباح لكم ما وجدتم ، ثم بيّن تعالى جهالة المشركين ، في آرائهم الفاسدة من استحلالهم الميتات ، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى فقال : ﴿ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إنّ ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ أي هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم .

---

(١) قلت : النص جاء عاماً فتخصيصه ببني آدم يحتاج إلى دليل والظاهر – والله أعلم – أنه داخل في النص الإنس والجن عامة لأن الجن هم أيضاً ممن في الأرض .

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ۞ (١٢٠) ﴾

قال مجاهد : ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ أي المعصية في السر والعلانية كقوله تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الذين يكسبون الإثم سيجزَوْن بما كانوا يقترفون ﴾ أي سواء كان ظاهراً أو خفياً فإن الله سيجزيهم عليه .

روى ابن أبي حاتم عن النواس بن سمعان ، قال٢٣٤: [سألت رسول الله ﷺ عن الأثم ، فقال : « الإثم ما حاك في صدرك وكرهتَ أن يطلعَ الناسُ عليه »] .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ۞ (١٢١) ﴾

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وإن كان الذابح مسلماً ، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى في هذه المسألة ، على ثلاثة أقوال .

[المذهب الاول] مالك وأحمد ؛ فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة ، وسواء متروك التسمية عمداً أو سهواً ، وهو يروي عن ابن عمر وبعض التابعين ورواية عن مالك وأحمد وهو اختيار أبي ثورورواه داود الظاهري واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية وبقوله تعالى في آية الصيد : ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾ ثم قد أكد في هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ وإنّه لفسقٌ ﴾ والضمير قيل عائد على الأكل ، وقيل عائد على الذبح لغير الله . وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد كحديثي عدي بن حاتم ، وأبي ثعلبة٢٣٥ : [إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك] وحديث رافع بن خديج [ما أنهر الدم . وذكر اسم الله عليه فكلوه] والحديثان في الصحيحين . وحديث ابن مسعود٢٣٦ [إن رسول الله

ﷺ قال للجن « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه »] رواه مسلم ــ والله أعلم ــ

[المذهب الثاني] الشافعي ؛ إنه لا يشترط التسمية بل هي مستحبة فإن تركت عمداً أو نسياناً لا يضر . وهذا مذهب الشافعي وجميع أصحابه ورواية عن أحمد ومالك وحمل الشافعي الآية الكريمة : ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾ على ما ذبح لغير الله ، كقوله تعالى : ﴿أو فسقا أهلّ لغير الله به﴾ وهذا المسلك قوي . وقد استدل لهذا المذهب بحديث عائشة (رض) [أن ناساً قالوا يا رسول الله ، إن قوماً حديثي عهد بجاهلية يأتوننا بلحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : سمّوا أنتم وكلوا »] قالوا فلو كان وجود التسمية شرطاً ، لم يرخص لهم إلاّ مع تحققها ، والله أعلم .

[المذهب الثالث] ان ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر وإن تركها عمداً لم تحل ، هذا هو المشهور من مذهب مالك وأحمد وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه ومحكي عن علي وابن عباس وبعض التابعين وقد نقل الإمام أبو الحسن المرغيناني في كتاب الهداية الإجماع على تحريم متروك التسمية عمداً .

وقال الامام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : من حرّم ذبيحة الناسي فقد خرج من قول جميع المحجة وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ في ذلك يعني ما رواه البيهقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ ٢٣٧ [المسلم يكفيه اسمه إن نسي أن يسمي حين يذبح ، فليذكر اسم الله وليأكله] وهذا الحديث وقفه على ابن عباس أصح من رفعه . نص عليه البيهقي وغيره من الحفاظ . واحتج لهذا المذهب بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجه عن ابن عباس وأبي هريرة وأبي ذر وعقبة بن عامر ، وعبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ ٢٣٨ [إن الله وضع عن أمّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه] .

وقد أفردت هذه المسألة على حدة ، وذكرت مذاهب الأئمة ومأخذهم وأدلتهم ووجه الدلالات والمناقضات والمعارضات والله أعلم .

قال ابن جرير : وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية : هل نسخ من حكمها شيء أم لا ؟ فقال بعضهم : لم ينسخ منها شيء ، وهي محكمة فيما عنيت به وعلى هذا قول مجاهد وعامة أهل العلم ، وروي عن عكرمة والحسن البصري قالا : قال الله تعالى : ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ وقال تعالى ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسقٌ﴾ فنسخ واستثنى من ذلك فقال جل وعلا : ﴿وطعام الذين أوتوا

الكتاب حلّ لكم وطعامكم حلّ لهم ﴾ وكذلك روي عن مكحول ، ثم روى ابن جرير : والصواب انه لا تعارض ، بين حل طعام أهل الكتاب ، وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليـــه .

وهذا الذي قاله صحيح ، ومن أطلق من السلف النسخ هاهنا فإنما أراد التخصيص ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي زميل قال : كنت قاعداً عند ابن عباس ، – وحج المختار بن أبي عبيد – فجاءه رجل فقال : يا ابن عباس ، زعم أبو اسحق أنه أوحى إليه الليلة ، فقال ابن عباس : صدق ، فنفرت وقلت يقول ابن عباس صدق ؟ فقال ابن عباس : هما وحيان : وحي الله ووحي الشيطان ، فوحي الله إلى محمد ﷺ ووحي الشيطان إلى أوليائه ، ثم قرأ : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ .

وقال الطبراني عن ابن عباس قال لما نزلت ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً وقولوا له : فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب ، يعني الميتة فهو حرام ؟ فنزلت هذه الآية : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ أي وإن الشياطين من فارس ليوحون إلى أوليائهم من قريش .

روى أبو داود عن ابن عباس في قوله تعالى : « وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » يقولون : ما ذبح الله فلا تأكلوه ، وما ذبحتم أنتم فكلوه فأنزل الله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » ورواه ابن ماجة وابن أبي حاتم عن عمرو بن عبدالله ، عـــن وكيع ، عن اسرائيل به ، هذا اسناد صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره ، فقدمتم عليه غيره ، فهذا هو الشرك كقوله تعالى : ﴿ إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدي بن حاتم أنه قال : ٢٣٩ [يا رسول الله ما عبدوهم ، فقال « بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم »] .

﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ● (١٢٢) ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً ، أي في الضلالة هالكاً حائراً فأحياه الله أي أحيا قلبه بالإيمان ، وهداه الله ووفّقه ، لاتباع رسله ﴿ وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ أي يهتدي في سلوكه وتصرفه ، والنور هو القرآن أو الاسلام والكل صحيح ﴿ كمن مثله في الظلمات ﴾ أي الجهالات والضلالة المتنوعة ؛ ﴿ ليس بخارج منها ﴾ أي لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه . كقوله تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وان وجه المناسبة في ضرب المثلين هاهنا بالنور والظلمات ما تقدم في أول السورة : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ وليس المقصود من الآية أحداً معيناً من المؤمنين والكافرين كما قيل ... ولكنها عامة يدخل فيها كل مؤمن وكافر .

وقوله تعالى : ﴿ كذلك زُيّن للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ حسّنا لهم ضلالتهم قدراً من الله وحكمة بالغة منه تعالى لا إله إلا هو وحده لا شريك له [1] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ●(١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ● (١٢٤) ﴾

(١) قلت : حسنها لهم جزاء وفاقا لما اختاروه من الضلال كقوله تعالى : « ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم» وحاشاه تعالى أن يحسن لهم الضلال وهم مهتدون .

يقول تعالى : وكما جعلنا في مكة رؤساء ودعاة إلى الكفر يخالفونك يا محمد ويعادونك فإن الرسل قبلك كانوا كذلك مبتلين بمثل هؤلاء ، ولكن العاقبة لرسله ، كما قال تعالى : ﴿وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ الآية ... أي أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمرناهم . وقوله تعالى : ﴿أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾ قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس سلطنا شرارهم ، فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب(١)

وقوله تعالى : ﴿وما يمكرون إلاّ بأنفسهم وما يشعرون﴾ أي وما يعود وبال مكرهم وإضلالهم من أضلوه ، إلا على أنفسهم كما قال تعالى : ﴿ليحملوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾ وقوله تعالى : ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نُؤتيَ مثل ما أوتي رسل الله﴾ أي إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا : ﴿لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله﴾ أي من الله بالرسالة كما تأتي إلى الرسل كقوله جل وعلا : ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ أي يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه ، كقوله تعالى : ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك﴾ يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل كبير مبجل في أعينهم من مكة أو الطائف ، وذلك أنهم كانوا يزدرون بالنبي ﷺ ، بغياً وحسداً وعناداً واستكباراً ، هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه وطهارة بيته ومرباه ومنشئه . حتى أنهم كانوا يسمونه قبل أن يوحى إليه « الأمين » وقد اعترف بذلك رئيس الكفار — وقتئذٍ — أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم : وكيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب، قال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ... الحديث. روى الامام أحمد عن واثلة بن الأسقع (رض) أن رسول الله ﷺ قال ٢٤٠ : [ان الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم]. وذكر ابن أبي حاتم عن أبي الحسين قال أبصر رجل ابنَ عباس وهو داخل باب المسجد فلما نظر إليه (٢) راعه فقال : من هذا ؟ قالوا : ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ فقال ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾

---

(١) قلت : إن الله أمرهم بالطاعة فخالفوا أمره وعصوه فجزاء عصيانهم فتح لهم باباً من المعصية والمكر هو دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف القول والفعل. وفي الحقيقة ما يمكرون الا بأنفسهم لأنهم. بفعلهم هذا يردونها الهلاك بارسال العذاب الشديد عليهم في الدنيا وسيلقون في الآخرة عذاباً أشد جزاء مكرهم وإضلالهم الناس . (٢) أي راعته هيبته

وقوله تعالى : ﴿ سيصيب الذين أجرموا صغارٌ عند الله وعذاب شديد ﴾ هذا وعيد شديد من الله لمن لم يتبع وينقَدْ لرسله فيما جاءوا به ، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله تعالى صغار ، وهو الذلة الدائمة ، وهذا جزاء من نوع العمل ، أي فكما أنهم استكبروا في الدنيا فأعقبهم الله لذلك يوم القيامة ذلاًّ دائماً كقوله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين ذليلين حقيرين . وقوله تعالى : ﴿ وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً ،أوهو التلطف في التحيّل والخديعة ، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاءً وفاقاً كما قال تعالى : ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ أي تظهر المستترات والمكنونات والضمائر وجاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ ٢٤١ [ينصب لكل غادر لواء عند أسته يوم القيامة ، فيقال هذه غدرة فلان بن فلان] والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس ، فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل .

﴿ فَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ (١٢٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ أي ييسره له وينشطه ويسهله [١] ، لذلك فهذه علامات على الخير ، كقوله تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره

(١) قلت : لا شك ولا ريب أنه لا راد لإرادة الله تعالى فالذي لا يريده لا يمكن أن يكون قطعاً. والذي يريده لا بد أنه واقع قطعاً. ولا تكون حركة ولا سكنة إلا بإرادته، وإلا فيكون هناك مريد يغالب إرادة الله؛ وتنزه الله سبحانه أن يكون في الكون مريد غيره يغالبه. فالذي آمن ما آمن إلا بإرادة الله والذي كفر ما كفر إلا بإرادة الله ، ولكن يجب أن لا يفهم من هذا أن هذه الإرادة مجبرة على فعل الخير أو الشر ، بمعنى أنه ليس للعبد أية إرادة فإن فعل خيراً فهو مجبر عليه أو فعل شراً فهو مجبر عليه... لا وألف لا... لأن إرادة الله غير أوامره فإن الله أراد وما أمر ، أراد لأنه لا يمكن أن يكون شيء إلا بإرادته ، وما أمر لأنه لا يأمر بالفحشاء ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولما كان الله تعالى أمر بأوامر ونهى عن نواهي من أجل أن يطاع فإن أطيع فللمطيع الجنة، وإن عصي فللعاصي النار . وجعل للمكلف عقلا مميّزاً للخير من الشر فإن فعل الخير فلأنه مختار بذلك ، ولولا اختياره هذا ما استحق عليه الجنة . وإن فعل الشر فلأنه مختار أيضاً ، ولولا اختياره هذا ما استحق عليه النار . فإن كان مجبراً على فعله ما استحق جنة ولا ناراً. فمن أجل أن يستحق المكلف جزاء عمله جعله الله مخيراً فيما كلفه به ، وكل ما فعله ، خيراً كان أو شراً ، هو بإرادته تعالى لأن الله تعالى يقدر على أن يمنع عبده من فعل الشر ، كما أنه يقدر أن يمنع عبده من فعل الخير ، ولكن لما سبق الوعد =

للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ الآية وكقوله تعالى ﴿ ولكن الله حبَّبَ إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ﴾ وقال ابن عباس (رض) في تفسير هذه الآية ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدرَه للإسلام ﴾ يقول تعالى : يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به وكذا قال أبو مالك وغير واحد. وهو ظاهر ... روى ابن جرير عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ ٢٤٢ قال : [« فمن يردِ الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » قالوا : يا رسول الله وكيف يشرح صدره ؟ قال « يدخل فيه النور فينفسح » قالوا : وهل لذلك علامة يا رسول الله قال « التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل أن ينزل الموت »] ولهذا الحديث طرق مرسلة ومتصلة يشدُّ بعضها بعضاً ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يرد أن يضله يجعل صدرهُ ضيقاً حرجاً ﴾ قال السدي : أي هو الذي لا يتسع لشيء من الهُدَى ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ، ولا ينفذ فيه . وقوله تعالى : ﴿ كأنما يصَّعَّدُ في السماء ﴾ لا يجد فيه مسلكاً إلاَّ صعداً ، ذلك من ضيق صدره .

وقوله تعالى : ﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ، ضيقاً حرجاً . كذلك يسلّط الله الشيطانَ عليه وعلى أمثاله ، ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيغويه ، ويصده عن سبيل الله .(١)



﴿ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ (١٢٧) ﴾

= بالجنة إن فعل الخير ، والوعيد بالنار إن فعل الشر ، كان من حكمته تعالى ، أن يكون عبده مخيراً لا مجبراً لأنه اذا كان مخيراً وفعل الخير فهو يستحق الجنة بفعله وعمله واختياره وإن فعل الشر فهو يستحق النار بعمله واختياره وإن كان مجبراً على ذلك فأي نعيم أو عذاب يستحق ... ؟ فلكي لا يكون للناس على الله الحجة جعلهم مخيرين في عمل الخير والشر هذا ضمن دائرة التكليف الذي يحصل بوجود العقل والتمييز لأن على العقل مدار التكليف أما الأمور التي لا يستطيع العقل أن يبدي فيها أو يعيد وخارجة عن نطاق التكليف فالمخلوق مجبر في هذا المضمار وبالله التوفيق .

(١) قلت : وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة هذه كما يلي : أن من رغب مخلصاً فهم حقيقة الإسلام فان الله تعالى يعينه على ذلك بإرادة الهدى له ثم يشرح صدره للإسلام فيؤمن ومن أبى الاستجابة لذلك فإن الله تعالى يضله عنها ويجعل صدره ضيقاً فلا يقبل الدعوة جزاء صدوده عن الاستجابة للدعوة ويسلط عليه الشيطان برجسه ونفثه فيغويه ويصده عن سبيل الله .

لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله ، نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق . فقال تعالى : ﴿ وهذا صراط ربك مستقيماً ﴾ منصوب على الحال ، أي هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد مما أوحينا إليك هذا القرآن الذي هو صراط الله المستقيم وحبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ أي وضحناها ﴿لقوم يذّكرون ﴾ أي لمن له وعي يعقل عن الله ورسوله ﴿ لهم دار السلام ﴾ وهي الجنة ﴿ عند ربهم ﴾ أي يوم القيامة ، وإنما وصف الله الجنة بدار السلام ، لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم ، والمقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم . فكما سلموا من آفات الاعوجاج ، أفضوا الى دار السلام . ﴿ وهو وليّهم ﴾ أي حافظهم وناصرهم ومؤيدهم ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ أي جزاءً على أعمالهم الصالحة ، تولاّهم وأثابهم الجنة بمنّه وكرمه .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا ٱلَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ ٱللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۞ (١٢٨) ﴾

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ اذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتنذرهم به ﴿ يوم يحشرهم جميعاً ﴾ يعني الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ، ويعوذون بهم ويطيعونهم ، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً . ﴿ يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ﴾ أي من إغواء الإنس . كقوله تعالى : ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبّلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾

وقال ابن جريج : كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض فيقول : أعوذ بكبير هذا الوادي فذلك استمتاعهم أي استمتاع الإنس بالجن ، في قوله تعالى : ﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾ قال الحسن : وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس ، وأما استمتاع الجن

بالإنس فانه كان فيما ذكر ، ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم في استعانتهم بهم ، فيقولون قد سدنا الإنس والجن وقوله تعالى :﴿ وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾ قال السدي : يعني الموت ﴿ قال النار مثواكم ﴾ أي مأواكم ومنزلكم ، أنتم وإياهم وأولياءكم ﴿ خالدين فيها ﴾ فيها مكثاً مخلّداً ﴿ إلاّ ما شاء الله ﴾ (وقد قيل في هذا الاستثناء أقوال كثيرة ، وأصحها : ما رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً : ان الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ، من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حتى أنهم يشفعون في أصحاب الكبائر ثم تأتي رحمة الله أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيراً قط إنما قال يوماً من الدهر لا إله إلا الله كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة ، وغيرهم من الصحابة ولا يبقى بعد ذلك في النار إلاّ من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد عنها وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً.[1]) وقوله تعالى : ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ قال ابن عباس : ان هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ، ولا ينزلهم جنةً ولا ناراً .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١٢٩)

روى الحافظ بن عساكر عن ابن مسعود مرفوعاً ٢٤٣ [من أعان ظالماً سلّطه الله عليه] وهذا حديث غريب . وقال سعيد عن قتادة في تفسير هذه الآية : إنما يولي الله الناس بأعمالهم ، فالمؤمن وليُّ المؤمن أينما كان وحيث كان والكافر ولي الكافر أينما وحيثما كان ، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي واختاره ابن جرير وقال بعض الشعراء :

وما من يدٍ إلا يد الله فوقها ... ولا ظالم إلا سيبلى بأظلم

ومعنى الآية الكريمة : كما ولّينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم

---

١) قلت : ان الكلام الذي ما بين القوسين هو نقل عما جاء في سورة هود الآية (١٠٧) عند قوله تعالى « خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريده) كما أشار المفسر رحمه الله بقوله (سيأتي تقريرها عند قوله في سورة هود :«خالدين فيها...» فأحببنا إتماماً للفائدة أن نثبت ماجاء من تفسيرها بدلا من أن نحيل القارىء على سورة هود ليراجعها بنفسه وذلك تسهيلا عليه.

من الجن كذلك نفعل بالظالمين فنسلّط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض وننتقم من بعضهم ببعض ، جزاءً على ظلمهم وبغيهم .

﴿ يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ۞ (١٣٠) ﴾

وهذا أيضاً مما يقرِّع الله به كافري الإنس والجن يوم القيامة ، حيث يسألهم وهو أعلم هل بلَّغتهم الرسل رسالاته ؟ وهذا استفهام تقرير : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ أي من جملتكم ، والرسل من الانس فقط ، وليس من الجن رسل ، قاله مجاهد وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف . وقال ابن عباس : الرسل من بني آدم ومن الجن نذر . وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن في الجن رسلا واحتج بهذه الآية الكريمة وفيه نظر ، لأنها محتملة وليست بصريحة . وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ يا معشر الجن والأنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على انفسنا ﴾ أي اقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك ، وأنذرونا لقاءك ، وأن هذا اليوم كائن لا محالة . وقال تعالى : ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ أي قد فرطوا في حياتهم الدنيا وهلكوا بتكذيبهم للرسل ، ومخالفتهم للمعجزات ، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها . ﴿ وشهدوا على أنفسهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ أنهم كانوا كافرين ﴾ أي في الدنيا بما جاءتهم به الرسل عليهم الصلاة والسلام .

﴿ ذٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ۞ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۞ (١٣٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ أي إنما

أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، لئلاّ يؤآخذ أحد بظلمه ، وهو لم تبلغه دعوة ولكن أعذرنا إلى الأمم ، وما عذّبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم . كما قال تعالى : ﴿ وإن من قرية إلاّ خلا فيها نذير ﴾ والآيات في هذا كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ بظلم ﴾ أي ذلك من أجل﴿أنْ لم يكن ربُّك مهلكَ القرى بظلم وأهلها ﴾بالشرك ونحوه وهم﴿غافلون﴾أي لم يكن ليعاجلهم بالعقوبة ، حتى يبعث إليهم رسولاً ينبههم على حجج الله عليهم ، وينذرهم عذاب الله يوم معادهم ، ولن يؤاخذهم غفلةً ، حتى لا يقولوا : ما جاءنا من بشير ولا نذير . وقوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ أي ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله ، يثيبه الله عليها خيراً كان أو شراً ، قاله ابن جرير .

قلت ويحتمل أن يعود قوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ أي من كافري الجن والإنس أي ولكل درجة في النار بحسبه ، كقوله تعالى : ﴿ قال لكل ضعف ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ قال ابن جرير أي وكل ذلك من أعمالهم ويثبتها لهم عنده ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ، ومعادهم إليه .

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ۞ (١٣٣) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۞ (١٣٤) قُلْ يَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ ۞ (١٣٥) ﴾

يقول تعالى: ﴿ وربك ﴾ يا محمد ﴿ الغني ﴾ عما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه، ﴿ ذو الرحمة ﴾ أي وهو مع ذلك رحيم بهم. كقوله تعالى: ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن يشأْ يذهبْكم ﴾ إذا خالفتم أمره ﴿ ويستخلفْ من بعدكم ما يشاء ﴾ أي قوماً آخرين يطيعونه ﴿ كما أنشأكم من ذرية قومٍ آخرين ﴾ أي كما أذهب القرون الأولى وأتى بمن بعدها كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بغيرهم، كما قال تعالى : ﴿ والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولّوا يستبدلْ قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ إنَّ ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي هو قادر على إعادتكم إن صرتم تراباً ولا يعجزه شيء ، روى ابن أبي حاتم في تفسيرها عن أبي سعيد الخدري (رض) ، عن النبي ﷺ أنه قال ٢٤٤ [يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذي نفسي بيده إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين] . وقوله تعالى : ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون ﴾ هذا تهديد شديد ووعيد أكيد أي استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هُدًى فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي أتكون لي أو لكم ، وقد أنجز الله موعده لرسوله صلوات الله وسلامه عليه وإنه تعالى مكّنه في البلاد وحكّمه في نواصي مخالفيه من العباد وفتح له مكة واستقر أمره على سائر جزيرة العرب واليمن والبحرين وكل ذلك في حياته ، ثم فتحت الأمصار بعد وفاته في أيام خلفائه (رض) عنهم أجمعين ، كما قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ الآية ... وقد فعل ذلك رب العالمين بهذه الأمة المحمدية وله الحمد والمنة أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً (١)

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۞ (١٣٦) ﴾

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً ، وجعلوا لله شركاء وجزءاً من خلقه وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى . ولهذا قال تعالى : ﴿ وجعلوا

(١) قلت : هذا لما كان المسلمون دولة واحدة تحكم بما أنزل الله ، وكان الحكام يتحرون في كل أحكامهم مرضات الله تعالى في السر والعلن ، لكن لما بدلوا مناهجهم واستبدلوها بأحكام الكفار بدلا من أحكام الله ، رفع الله هيبتهم من قلوب أعدائهم ، فاجترأوا عليهم ، واحتلوا بلادهم ، وأصبحوا أذلاء ليس لهم دولة ، فإن أرادوا عودة ما كانوا عليه في الزمن الأول فعليهم الرجوع إلى الله حتى يبدلهم بعد خوفهم أمناً .

لله مما ذرأ﴾ أي مما خلق ﴿من الحرث﴾ أي من الزروع والثمار ﴿والأنعام نصيباً﴾ أي جزءً وقسماً ﴿فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾ وقوله تعالى: ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم﴾. قال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية ما ملخصه: إن ما يحصل عند المشركين من زروع أو ثمار جعلوه بين الله والوثن. فيحفظون نصيب الوثن ويحصونه. وإن سقط مما كان لله شيء ردوه الى ما جعلوه للوثن، واذا سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً مما جعلوه لله، جعلوه للوثن، وإذا اختلط ثمرٌ وزرعٌ فيما ما جعلوه لله وجعلوه للوثن، جعلوه للوثن وقالوا هذا فقير. وان سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن. وكانوا يحرّمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه قربةً إلى الله، فقال الله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي ساء ما يقسمون فانهم أخطأوا أولاً في القسم من أساسه لأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه وخالقه، ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة، لم يحفظوها بل جاروا فيها كقوله جل وعلا: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ وقال: ﴿تلك إذا قسمةٌ ضيزى﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ (١٣٧)﴾

يقول تعالى وكما زيّنت الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، ووأد البنات خشية العار.

وقوله تعالى: ﴿ليُرْدُوهم وليَلْبِسوا عليهم دينهم﴾ أي أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات فيهلكوهم، كقوله تعالى: ﴿وإذا الموْؤودة سئلت بأي ذنب قتلت﴾ وليلبسوا عليهم دينهم، أن يخلطوا عليهم دينهم. وقوله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾ أي كل هذا واقع بمشيئته تعالى، وإرادته كوناً [1] والحكمة التّامة في ذلك. وقوله تعالى:

---

(١) قلت: نعم ولو شاء ما فعلوه لأنه سبق أن أنذرهم بأن لا يفعلوا ونهاهم عن ذلك فلا يمكن أن يجبرهم على فعل الشر - مع قدرته على منعهم من عمله وفعله - ولكنه لا يمنعهم لاختبارهم وابتلائهم هل يطيعون أوامره بعدم قتل الأولاد وعدم جعل قسم من قربهم أو أنعامهم لغير الله؟ فإن أطاعوا أوامره دخلوا الجنة، وإن عصوه دخلوا النار. ولذلك لم يشأ أن يمنعهم حتى يكونوا مختارين في فعل الخير أو الشر ليكونوا مستحقين نعيمه أو عذابه بما اختاروا من عمل.

﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ أي فدعهم واجتنبهم وما هم فيه ، فسيحكم الله بينك وبينهم يوم القيامة أو في الدنيا بتسليطك عليهم ، أو بجماع الأمرين .

﴿ وَقَالُوا هَـٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۞ (١٣٨) ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الحِجْرُ : الحَرامُ مما حرّموا الوصيلة وتحريم ما حرموا . وقال قتادة : ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر ﴾ تحريم كان عليهم من الشياطين في أموالهم وتغليظ وتشديد ، ولم يكن من الله تعالى . وقال ابن زيد بن أسلم ﴿ حجر ﴾ إنما احتجروها لآلهتهم . وقال السدي ﴿ لا يطعمها إلاّ من نشاء بزعمهم ﴾ يقولون حرام أن يطعم إلاّ من شئنا وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام [1] ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ وهذه هي الأنعام التي حرمت ظهورها وكان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها ، لا إنْ رُكبوا ، ولا إنْ حلبوا ، ولا إن حُمّلوا ، ولا إنْ نَتجوا ولا إنْ عملتْ شيئاً ﴿ افتراءً عليه ﴾ أي على الله وكذباً منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه فإنه لم يأذنْ لهم بذلك ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ أي عليه ، ويسندون إليه .

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۞ (١٣٩) ﴾

(١) قلت : البحيرة هي ، التي يمنع درُّها للطواغيت فلا يحلبها الناس . والسائبة : كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء . والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل إن وصلت أحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر . والحام : فحل الإبل إذا قضى ضرابه ، دعوه للطواغيت .

قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وقالوا ما في بطون هذا الأنعام خالصة لذكورنا ﴾ فهو اللبن ، ﴿ ومحرم على أزواجنا ﴾ ، ويشربه ذكرانهم ، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه ، وكان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة ، فهم فيه شركاء فنهى الله عن ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ أي قولهم الكذب في ذلك يعني كقوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب * إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ ﴿ إنه حكيم ﴾ في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ﴿ عليم ﴾ بأعمال عباده من خير وشر ، وسيجزيهم عليها أتم الجزاء .

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللهُ ٱفْتِرَاءً عَلَى ٱللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۞ (١٤٠) ﴾

يقول تعالى قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم ، وضيقوا عليهم في أموالهم فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم ، وأما في الآخرة ، فيصيرون إلى أسوإ العذاب بكذبهم على الله وافترائهم كقوله تعالى : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية عن ابن عباس (رض) قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب – المشركين – فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ وهكذا رواه البخاري

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ (١٤١) وَمِنَ ٱلْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۞ (١٤٢) ﴾

يقول تعالى مبيناً أنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام ، التي تصرّف فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة ، وقسموها وجزؤوها ، فجعلوا منها حراماً وحلالاً ، فقال تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : معروشات مسموكات - أي عاليات - وقال عطاء عن ابن عباس : معروشات ما عرش من الكرم ، وغير معروشات ما لم يعرش من الكرم وقوله تعالى : ﴿ متشابهاً وغير متشابه ﴾ قال ابن جريج متشابهاً في المنظر ومختلفاً في الطعم .وقوله تعالى : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ أي من رطبه وعنبه وقوله تعالى : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال ابن جرير : قال بعضهم هي الزكاة المفروضة ، وهذا مروي أيضاً عن أنس بن مالك (رض) وابن عباس (رض) .

وروى الإمام أحمد عن جـــابر بن عبدالله ٢٤٥: [إن النبي ﷺ أمر من كل جاذ عشرة أوسق من التمر بقنو يعلّق في المسجد للمساكين] وهذا إسناد جيد قوي .

وقال الحسن البصري : هي الصدقة من الحب والثمار . وقال آخرون : وهو حق سوى الزكاة وعن ابن عمر في قوله تعالى : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال : كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة رواه ابن مردويه وعن عبدالله بن المبارك عن عبد الملك بن أبي سلمان عن عطاء بن أبي رباح في هذه الآية قال يعطى من حضره يومئذ ما تيسر وليس بالزكاة وكذا قال جماعة من التابعين وغيرهم ، وقال آخرون : هذا شيء ، كان واجباً ثم نسخه الله بالعُشر أو نصف العُشر حكاه ابن جرير عن ابن عباس ومحمد بن حنفية وابراهيم النخعي والحسن والسدي واختاره ابن جرير رحمه الله (قلت) وفي تسمية هذا نسخاً نظر ... لأنه قد كان شيئاً واجباً في الأصل ثم إنه فُصّل بيانه وبيّن مقدار المخرج وكميته ، وقالوا : وكان هذا في السنة الثامنة من الهجرة [1] وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة ﴿ ن ﴾ : ﴿ إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين ولا يستثنون - إلى قوله - ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ قيل في تفسير هذه الآية أقوال شتى ثم اختار ابن جرير قول عطاء : أنه نهى عن الإسراف في كل شيء ، ولا شك أنه

---

(١) قلت : الراجح والله أعلم أن هذه الآية الكريمة كان حكمها قبل الزكاة ثم لما فرضت الزكاة حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنطة والشعير والتمر والزبيب وفي رواية الذرة ولا بأس أن يعطى من كل ما تنبت الأرض صدقة منه كالقبضة وما يشبه .

صحيح ولكن الظاهر والله أعلم من سياق الآية حيث قال تعالى : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا ﴾ أن يكون عائداً على الأكل أي لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن كقوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ وفي صحيح البخاري تعليقاً : ٢٤٦ [كلوا واشربوا والبسوا من غير إسرافٍ ولا مخيلة] وهذا من هذا والله أعلم .

وقوله عز وجل : ﴿ ومن الأنعام حمولةً وفرشاً ﴾ أي وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحمولة ما تركبون ، والفرش ما تأكلون وتحلبون ، شاة لا تحمل تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفراشاً . وهذا الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسن يشهد له قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴾

وقوله تعالى : ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ أي من الثمار والزروع والأنعام فكلها خلقها الله وجعلها رزقاً لكم ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ أي طريقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله ، أي من الثمار والزروع افتراءً على الله ﴿ إنه لكم عدو ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مبين ﴾ أي ظاهر العداوة ، كقوله تعالى : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌ بئس للظالمين بدلاً ﴾ .

ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ❁ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ❁ (١٤٤)

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام ، فيما كانوا حرّموا من الأنعام ، وجعلوها أجزاء وانواعاً : بحيرة وسائبة ووصيلةً وحاماً ، وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار . فبين تعالى أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً ، وبين أصناف الأنعام : الغنم والماعز ذكوراً وإناثاً والإبل ذكورها واناثها والبقر كذلك . وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولادها بل كلها مخلوقة لبني آدم ، أكلاً وركوباً وحمولة وحلباً ، وغير ذلك من وجوه المنافع . وقوله تعالى : ﴿ قل آلذكرين حرم أم الأنثيين ﴾ يقول لم أحرّمْ شيئاً من ذلك ﴿ أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾ يعني هل يشتمل الرحم إلاّ على ذكر وأنثى ، فلمَ تحرمون بعضاً وتحلّون بعضاً ؟ [١] ﴿ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ [٢] أي كله حلال ، وقوله تعالى : ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ﴾ تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله ما لم يحرمه ﴿ فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ﴾ أي لاأحد أظلم منه. ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ وأول من أضل في هذه الآية الكريمة : عمرو بن لحي بن قمعة ، لأنه أول من غيّر دين الأنبياء ، وأول من سيب السوائب ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي ، كما ثبت ذلك في الصحيح ...

❁ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ❁ (١٤٥)

(١) أي : أم أنه حرم الذي هو في أرحام الأنثيين أي أولادهما ؟ والمراد أنه تعالى ما حرم شيئاً .

(٢) أي أخبروني عن يقين كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه ؟ والمراد أيضاً أنه تعالى ما حرم شيئاً وكل ما تقدم من المعاني التي فيها أسئلة لهم ، إنما هي أسئلة استنكارية فيها معاني الرد عليهم وتوبيخهم على ما زعموه وعلى شدة إفترائهم عليه تعالى ، فما أظلمهم لأنفسهم وأبعدهم عن الهداية .

يأمر تعالى عَبده ورسولَه محمداً ﷺ ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين حرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله : ﴿ لا أجد فيما أوحي إليّ محرّماً على طاعم يطعمه ﴾ أي آكل يأكله . والمعنى : لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه . فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة المائدة ، وفي الأحاديث الواردة ، رافعاً لمفهوم هذه الآية (١) ومن الناس من يسمي هذا الرفع نسخاً والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخاً لأنه من باب رفع مباح الأصل والله أعلم وقوله تعالى : ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ أي مهراقاً ، قال قتادة : حرم من الدماء ما كان مسفوحاً ، فأما اللحم خالطه الدم فلا بأس به .

روى ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون اشياء ويتركون أشياء تقذراً ، فبعث الله نبيّه وأنزل كتابه ، وأحل حلاله وحرم حرامه ، فما أحلّ فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس ، قال :٢٤٧(ماتت شاة لسودة بنت زمعة فقالت يا رسول الله ماتت فلانة تعني الشاة ، قال « فلم لا أخذتم مسكها » (٣) قالت : نأخذ مسك شاة قد ماتت ؟ ! فقال لها رسول الله ﷺ « إنما قال الله : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلاّ أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ﴾ وإنكم لا تطعمونه أن تدبغوه فتنتفعوا به . فأرسلت فسلخت مسكها فدبغته فاتخذت منه قربة حتى تخرّقت عندها] ورواه البخاري والنسائي .

روى سعيد بن منصور عن نميلة الفزاري قال : ٢٤٨ [كنت عند ابن عمر فسأله رجل عن أكل القنفذ فقرأ عليه : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي ... ﴾ الآية فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول ذكر عند النبي ﷺ فقال : « خبيث من الخبائث » فقال ابن عمر : إن كان النبي ﷺ قاله فهو كما قال .] ورواه ابو داود .

وقوله تعالى﴿ أهلّ لغير الله به ﴾أي ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ، ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له وذكر القرطبي عن ابن عطية أنه نقل عن الحسن البصري :انه سئل عن امرأة عملت عرساً للعبها فنحرت فيه جزوراً ،فقال: لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم . وعن عائشة : ما يذبحه العجم لأعيادهم فلا تأكلوا منه

(١) قلت : « قوله رافعاً لمفهوم هذه الآية » يعني أن مفهومها مؤداه أنه ليس هناك ما يحرم طعامه إلا ما ورد في هذه الآية ، ولما كانت سورة المائدة نزلت بعد الأنعام وفيها قوله تعالى : « حرمت عليكم الميتة » إلى آخر الآية أي زيادات على ما حرمت آية الأنعام فهذه الزيادات وما ورد أيضاً من الأحاديث في ذلك يرفع مفهوم آية الأنعام فلا يبقى ما ورد فيها فقط محرماً ، إنما هناك محرمات أخرى وليرجع القارىء الكريم إلى آية المائدة رقم (٣) من هذا المختصر يجد الزيادات المحرمة . (٣) مسكها أى جلدها .

وقوله تعالى : ﴿ فمن اضطُرَّ غير باغٍ ولا عادٍ ﴾ أي فمن اضطُر إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية غير متلبس ببغي ولا عدوان ﴿ فإن ربَّك غفور رحيم ﴾ أي غفور له رحيم به ، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية .[١]

والغرض من سياق هذه الآية الكريمة ، الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم ، فمن اين حرموه ولم يحرمه الله ، إنما حرم ما أمر الله رسوله ﷺ أن يبلغهم تحريمه من نص هذه الآية ، وما عدا ذلك ، إنما هو عفو مسكوت عنه . كما جاء النهي أيضاً في السُنّة عن لحوم الحمر الأهلية ولحوم السباع ، وكل ذي مِخْلَبٍ من الطَّيْرِ على المشهور من مذاهب العلماء .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ ٱلْحَوَايَا أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (١٤٦)

قال ابن جرير يقول تعالى وحرّمنا على اليهود كل ذي ظفر . وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنّعام والأوزّ والبط . قال ابن جريج عن مجاهد : كل ذي ظفر ، قال : النعامة والبعير شقاشقاً ، قلت للقاسم بن أبي بزة وحدثته ما شقاشقاً ؟ قال : كل ما لا ينفرج من قوائم البهائم ، قال وما انفرج أكلته ؟ قال انفرجت قوائم البهائم والعصافير قال : فيهود تأكله ، قال ولم تنفرج قائمة البعير ـ خفّه ـ ولا خف النعامة ولا قائمة الوز فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعامة ولا الوز ولا كل شيء لم تنفرج قائمته ، ولا تأكل حمار الوحش .

وقوله تعالى : ﴿ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ﴾ قال السدي يعني الثَّرَب[٢] وشحم الكليتين وقوله تعالى : ﴿ إلاّ ما حملت ظهورهما ﴾ أي ما علق بالظهر من الشحوم، والإلية مما حملت ظهورهما قاله السدي وأبو صالح وقوله تعالى : ﴿ أو الحوايا ﴾ الحوايا جمع واحدها حاوياء وحاوية وحويّة وهو ما تحوّى من البطن فاجتمع واستدار وهي بنات اللبن وهي المباعر وتسمى المرابض وفيها الأمعاء قال ومعنى الكلام : ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورهما وما حملت الحوايا ـ أي من الشحم ـ

---

(١) راجع الآية رقم /١٧٣/ من سورة البقرة . (٢) الشحم الذي على المعدة والأمعاء .

وقوله تعالى : ﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ يعني إلا ما اختلط من الشحوم بعظم كالعصعص وكل شيء في القوائم . والجَنْب والرأس والعين فهو حلال . وقوله تعالى : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم ﴾ أي هذا التضييق إنما ألزمناهم به مجازاةً لهم على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا .كما قال تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلتْ لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وإنا لصادقون ﴾ أي وإنا لعادلون فيما جازيناهم به . روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال :٢٤٩ [كان رسول الله ﷺ قاعداً في المسجد مستقبلاً الحجْر فنظر إلى السماء فضحك فقال : ﴿ لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه ﴾]

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ (١٤٧) ﴾

يقول تعالى : فإن كذّبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم ، ﴿ فقل : ربكم ذو رحمة واسعة ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسوله ﴿ ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين . وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن كما قال تعالى في آخر هذه السورة : ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۞ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۞ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۞ (١٥٠) ﴾

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى ، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا. فان الله مطلع على ما هم فيه من الشرك . والتحريم لما حرموه وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان ، ويحول بيننا وبين الكفر . فلم يغيره فدل على أن بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك ولهذا قالوا : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ الآية قال الله تعالى : ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ أي بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء وهي حجة داحضة باطلة ، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ، ودمر عليهم . وأذاقهم أليم انتقامه . ﴿ قل هل عندكم من علم ﴾ أي بأن الله راضٍ عنكم فيما أنتم فيه ﴿ فتخرجوه لنا ﴾ أي فتظهروه لنا ﴿ إنْ تتبعون إلاّ الظن ﴾ أي الوهم والخيال ، والمراد بالظن ها هنا . الاعتقاد الفاسد ﴿ وإن أنتم إلاّ تخرصون ﴾ أي تكذبون على الله فيما ادّعيتموه . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾ وقال ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ ثم قال : ولو شاء الله ما أشركوا فإنهم قالوا : عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زلفى فأخبرهم الله أنها لا تقربهم . فقوله تعالى : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾ يقول تعالى لو شئت لجمعتهم على الهدى اجمعين .

وقوله تعالى ﴿ قل فلله الحجة البالغة ﴾ أي له الحكمة التامة . والحجة البالغة . في هداية من هدي ، وإضلال من ضل . ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره . وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين . ويبغض الكافرين. كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل هلمّ شهداءكم ﴾ أي احضروا شهداءكم ﴿ الذين يشهدون أن الله حرّم هذا ﴾ أي هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه ﴿ فإن شهدوا فلا تشهد معهم ﴾ أي لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً ﴿ ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون ﴾ أي يشركون ويجعلون له عديلاً .



﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ (١٥١) ﴾

روى داود الأودي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :٢٥٠ [من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه ، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً – إلى قوله تعالى لعلكم تتقون ﴾]

وروى الحاكم في مستدركه ، من حديث يزيد بن هارون عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٥١[أيكم يبايعني على ثلاث ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ قلْ تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم ﴾ حتى فرغ من الآيات . فمن وفىّ فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته ، ومن أُخر إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وان شاء عفا عنه »] ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وانما اتفقا على حديث الزهري عن أبي أدريس عن عبادة : ٢٥٢ [بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ...] الحديث وقد روي سفيان بن حسين كلا الحديثين ، فلا ينبغي أن ينسب إلى الوهم في أحد الحديثين اذا جمع بينهما ، والله أعلم .

أما تفسيرها فيقول تعالى لنبيّه ورسوله محمد ﷺ قل : يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله وحرّموا ما رزقهم الله ، وقتلوا أولادهم ، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ تعالوا ﴾ أي أقبلوا ﴿ أتل ما حرّم ربّكم عليكم ﴾ أي أخبركم بما حرم ربكم عليكم ﴿ ألاّ تشركوا به شيئاً ﴾ وتقديره أوصاكم أن لا تشركوا به شيئاً ولهذا قال تعالى في آخر الآية ﴿ ذلكم وصّاكم به ...﴾

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٢٥٣ [أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دخل الجنة ، قلت وإن زنى وإن سرق ؟ قال وان زنى وان سرق قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر] وفي بعض الروايات أن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود ٢٥٤ [من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة .] وروى ابن مردويه من حديث عبادة وأبي الدرداء ٢٥٥ : [ألاّ تشركوا بالله شيئاً وإن قُطعتم أو صُلبتم أو حُرّقتم]

وقوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أي أوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً أي أن تحسنوا إليهم ، والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين كما قال تعالى ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾ فأمر بالإحسان إليهما وإن كانا مشركين والآيات في هذا كثيرة .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود (رض) أنه قال ٢٥٦ [سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال «الصلاة على وقتها» قلت ثم أي؟ قال «بر الوالدين» قلت: ثم أيٌّ ؟قال «الجهاد في سبيل الله» ثم قال ابن مسعود حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني.]

وقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾ لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد ، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد فقال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ ﴾ أي خشية الفقر ولهذا قال تعالى : ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ أي كل ذلك على الله ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ...﴾ وقد تقدم تفسيرها عند قوله تعالى : « وذروا ظاهر الإثم وباطنه » (١)

وفي الصحيحين عن ابن مسعود (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٢٥٧ : [لاأحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن] وقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً ، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن . فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٢٥٨ [لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة] وقد جاء النهي والزجر والوعيد ، في قتل المعاهد ، وهو : المستأمن من أهل الحرب. فروىٰ البخاري عن عبدالله بن عمرو (رض) عن النبي ﷺ مرفوعاً : ٢٥٩ [من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً] وقوله تعالى : ﴿ ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون ﴾ أي هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون على الله أمره ونهيه .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٥٢)

(١) راجع الآية رقم /١٢٠/ من هذه السورة .

لما نزلت هذه الآية وآية : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ﴾ انطلق كل من عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله او يفسد فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإنْ تخالطوهم فإخوانكم ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم رواه أبو داود عن ابن عباس ، وقوله تعالى : ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ يعني حتى يحتلم (١) وقوله تعالى﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء كما توعد على تركه في قوله تعالى : ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ۞ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ وقد أهلك الله أمةً كانت تبخس المكيال والميزان وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لا نكلف نفساً إلاّ وسعها ﴾ أي من اجتهد في اداء الحق وأخذه ، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده ، فلا حرج عليه .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾وقوله تعالى:﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ قال ابن جرير : يقول : وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا . وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه وتعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ وذلك هو الوفاء بعهد الله ﴿ ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون ﴾ أي هذا الذي أكّد عليكم فيه لعلكم تتعظون وتنتهون عمّا كنتم فيه قبل هذا .

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ (١٥٣) ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة ، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله ، ونحو هذا ، قاله مجاهد وغير واحد .

روى الإمام أحمد بن حنبل عن عبدالله بن مسعود (رض) قال .٢٦: [خط رسول

(١) قلت : الاحتلام وحده لا يكفي بل حتى يكون راشداً لأن معنى يبلغ أشده : يعني في جسمه وعقله . والله تعالى أعلم .

الله ﷺ خطاً بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، وخطّ عن يمينه وشماله ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلاّ عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ : ﴿ وإنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ﴾] وكذا رواه الحاكم وقال صحيح ولم يخرّجاه . وروى ابن مردويه عن ابن عمر أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الصراط المستقيم فقال ابن مسعود : تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ﴾ إنّما وحّد سبيله لأن الحق واحد ، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها . كما قال تعالى : ﴿ الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وروى ابن أبي حاتم عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله ﷺ ٢٦١ [أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث ؟ . ثم تلا : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ حتى فرغ من ثلاث آيات ثم «قال : ومن ، وفىّ بهن فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته ومن أخّره إلى الآخرة كان أمره الى الله ان شاء أخذه وإن شاء عفا عنه] .

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى ٱلَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * (١٥٤) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * (١٥٥) ﴾

إنَّ « ثمَّ » ها هنا لعطف الخبر بعد الخبر لا للترتيب هاهنا كما قال الشاعر :

قل لمن ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جدُّه

وهاهنا لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ عطف بمدح التوراة ورسولها ، فقال تعالى : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة ، كقوله تعالى : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً ﴾ وقوله تعالى ﴿ تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً ﴾ أي آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً جامعاً لما يحتاج إليه في شريعته جزاءً على إحسانه في العمل وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله تعالى : ﴿ هل

جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة ﴾ فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليه ﴿ لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾ فيه الدعوةُ الى اتباع القرآن. يرغّب سبحانه عباده في كتابه ويأمرهم بتدبّره والعمل به والدعوة إليه . ووصفه بالبركة ، لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة لأنه حبل الله المتين .

﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ ٱلْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ * (١٥٧) ﴾

قال ابن جرير : معناه وهذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا ﴿ إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾ يعني لينقطع عذركم كقوله تعالى : ﴿ ... لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ على طائفتين من قبلنا ﴾ قال ابن عباس وغيره اليهود والنصارى . وقوله تعالى : ﴿ وإن كنا عن دراستهم لغافلين ﴾ أي وما كنا نفهم ما يقولون لأنهم ليسوا بلساننا ونحن في غفلةٍ وشغل مع ذلك عما هم فيه

وقوله تعالى : ﴿ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنّا أهدى منهم ﴾ أي وقطعنا تعلّلكم أن تقولوا لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنا أهدى منهم فيما أوتوه ﴿ فقد جاءكم بينة من ربّكم وهدى ورحمة ﴾ أي جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم فيه بيان للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه .

وقوله تعالى: ﴿ فمن أظلم ممن كذّب بآيات الله وصدف عنها ﴾ أي لم ينتفع بما جاء به الرسول ، ولا اتبع ما أرسل به ، ولا ترك غيره بل صدف عن اتباع آيات الله، أي صرف الناس وصدهم عن ذلك . قال السدي : كما قال الله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن

سبيل الله ، زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ ثم قال ﴿ سنجزي الذين يَصدِفون عن آياتِنا سُوءَ العذاب بما كانوا يَصدِفونَ ﴾ أي بسبب كفرهم وصدّهم الناسَ عن الإيمان .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَٰئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ (١٥٨)

يتوعد الله الكافرين به وبرسله، والصادّين عن سبيله: ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ﴾ وذلك كائن يوم القيامة ﴿ أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها ﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها حين يرون شيئاً من أشراط الساعة ، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٢٦٢ [لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها »] فذلك حين ﴿ لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل ﴾ .

وروى ابن جرير عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٢٦٣ [ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً ايمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض] ورواه أحمد ومسلم .

وفي الصحيحين عن أبي ذر جندب بن جنادة (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٢٦٤ : [أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت قلت لا أدري قال : « إنها تنتهي دون العرش فتخر ساجدة ثم تقوم حتى يقال لها ارجعي فيوشك يا أباذر أن يقال لها ارجعي من حيث جئت] وذلك حين ﴿ لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل ﴾

روى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال ٢٦٥ : [أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى بن مريم وخروج الدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق

وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا »] وهكذا رواه مسلم ، وأهل السنن الأربعة .

روى الثوري عن حذيفة بن اليمان قال٢٦٦ : [سألت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ما آية طلوع الشمس من مغربها ؟ فقال النبي ﷺ « تطول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين فينتبه الذين كانوا يصلون فيها فيعملون كما كانوا يعملون قبلها ، والنجوم لا ترى قد غابت من مكانها ثم يرقدون ثم يقومون فيصلون ثم يرقدون ثم يقومون تبطل عليهم جنوبهم حتى يتطاول عليهم الليل فيفزع الناس ولا يصبحون . فبينما هم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها ، إذ طلعت من مغربها فإذا رآها الناس آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم »] رواه ابن مردويه وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه - والله أعلم - فقوله تعالى : ﴿ لا ينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ أي إذا أنشأ الكافر ايماناً يومئذ لا يقبل منه. فأما من كان مؤمناً قبل ذلك فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم وإن لم يكن مصلحاً فأحدث توبةً حينئذ لم تقبل منه توبته ، كما دلت عليه الأحاديث الكثيرة المتقدمة وعليه يحمل قوله تعالى : ﴿ أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ أي ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك . وقوله تعالى : ﴿ قل انتظروا إنا منتظرون ﴾ أي تهديد شديد للكافرين ، ووعيد أكيد لمن سوّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها ، لاقتراب الساعة وظهور اشراطها كما قال تعالى : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتةً فقد جاء أشراطها فأنّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١٥٩)

إن هذه الآية عامةٌ في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق فمن اختلف فيه ﴿كانوا شيعاً﴾ أي فرقاً كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برّأ رسوله ﷺ مما هم فيه ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين

ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك ﴾ الآية . وفي الحديث٢٦٧ [نحن معاشر الأنبياء، أولاد علاّت ديننا واحد [1]] فهذا هو الصراط المستقيم ، وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له ، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر ، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات ، وآراء وأهواء ، والرسل برآء منها كما قال تعالىٰ : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنّما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ الآية . ثم بين لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة فقال تعالى :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ● (١٦٠) ﴾

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾[2] وقد وردت الأحاديث مطابقةً لهذه الآية كما روى الامام أحمد بن حنبل رحمه الله عن ابن عباس (رض) أن رسول الله ﷺ قال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى ٢٦٨ [إن ربكم عز وجل رحيم. من همَّ بحسنة فلم يعملها ، كتبت له حسنة. فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة . ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة ، أو يمحوها الله عز وجل ولا يهلك على الله إلا هالك] ورواه البخاري ومسلم والنسائي واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام : تارةً يتركها لله فهذه تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى . وهذا عمل ونيةٌ ، ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة كما جاء في بعض الفاظ الصحيح ، فإنما تركها من جرائي أي من أجلي . وتارةً يتركها نسياناً وذهولاً عنها فهذا لا له ولا عليه لأنه لم ينو خيراً ، ولا فعل شراً ، وتارة يتركها عجزاً وكسلاً عنها بعد السعي في أسبابها ، والتلبس بما يقرب منها ، فهذا بمنزلة فاعلها كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال ٢٦٩ : [إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قالوا يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه »]

---

(١) إن أولاد العلات هم الأخوة من أب واحد وأمهات شتى . (٢) من سورة النحل . الآية /٨٩/

روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ ٢٧٠ : [الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام ، وذلك لأن الله تعالى قال : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾] والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً وفيما ذكر كفاية إن شاء الله وبه الثقة .

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يخبر بما أنعم عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿ ديناً قيماً ﴾ أي قائماً ثابتاً ﴿ ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاّ من سفه نفسه ﴾ ولا يلزم من كونه ﷺ أمر باتباع ملة ابراهيم الحنيفية ، أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها ، لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً . وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال ، ولهذا كان خاتم الأنبياء ، وسيد ولد آدم على الإطلاق ، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى الخليل عليه السلام . وقد روى ابن مردويه عن ابن أبزى عن أبيه قال : [كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال٢٧١ : [« أصبحنا على ملة الاسلام ، وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »]

وقوله تعالى : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ، ويذبحون لغير اسمه ، انه مخالف لهم في ذلك ، فإن صلاته لله ، ونسكه على اسمه وحده لا شريك له ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ أي أخلص له صلاتك وذبحك لله وحده لا شريك له . والنسك هو الذبح .

وقوله عز وجل : ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ قال قتادة : أي من هذه الأمة ، وهو كما قال فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام ، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له . كما قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا اله إلاّ أنا فاعبدون ﴾ وهكذا فإنه تعالى أخبر أنه بعث رسله بالإسلام ولكنهم متفاوتون فيه

بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضاً إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ ، التي لا تنسخ أبد الآبدين ، ولا تزال قائمة منصورة ، وأعلامها منشورة ، إلى قيام الساعة . ولهذا قال النبي ﷺ [نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد] فإن أولاد العلات هم الأخوة من أب واحد وأمهات شتى ، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات ، كما أن أخوة الأخياف عكس هذا بنو الأم الواحدة من آباء شتى ، والأخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة . والله أعلـــم .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) ﴾

في هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل ، كما تضمنت التي قبلها ، إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له فيقول تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ أغير الله أبغي ربا ﴾ أي أطلب رباً سواه ﴿ وهو رب كل شيء ﴾ أي لا أتوكل إلاّ عليه ، ولا أنيب إلا إليه لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر ، ومعنى العبادة والتوكل كثيراً ما يـــأتي مقروناً بالآخر في القرآن كقوله تعالى : ﴿ إياك نعبد واياك نستعين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾

وقوله تعالى: ﴿ ولا تكسب كل نفس إلاّ عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي إنّما تجازى كل نفس بأعمالها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد وهذا من عدله تعالى كقوله سبحانه : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ﴾ أي كل نفس مرتهنة بعملها السيء ، وكقوله تعالى : ﴿ وإن تدعُ مثلقة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ أي اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه ، فستعرضون ونعرض عليه ،وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم وما كنا تختلف فيه في الدار الدنيا كقوله تعالى : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بينا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * (١٦٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ أي جعلكم تعمرونها جيلا بعد جيل وخلفاً بعد سلف كقوله تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ (١) وقولُه تعالى : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والأشكال والألوان وله الحكمة في ذلك كقوله تعالى : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضُهم بعضاً سخرياً ﴾

وقولُه تعالى : ﴿ ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به . ليختبر الغني في غناه . ويسأله عن شكره . والفقير في فقره ويسأله عن صبره . وفي صحيح مسلم من حديث ابي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ٢٧٢ إن الدنيا حلوة خضرة . وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون . فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . فإن أول فتنة بني اسرائيل كانت في النساء]

وقولُه تعالى : ﴿ إن ربّك سريع العقاب وإنّه لغفور رحيم ﴾ ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع ، فيمن عصاه وخالف رسله ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خبر وطلب . وكثيراً ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله تعالى : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم . وإن ربّك لشديد العقاب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ نبىءْ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر . وترك ما عنه نهى وزجر ، وصدّقه فيما أخبر انه سميع مجيب الدعاء . وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول٢٧٣ : [جعل الله الرحمة مائة جزء : فأمسك عنده تسعةً وتسعين جزءً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء تراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه] آخر اختصار تفسير سورة الأنعام ولله الحمد والمنة .

---

(١) راجع التعليق على قوله تعالى : « اني جاعل في الأرض خليفة » في الآية رقم /٣٠/ من سورة البقرة .

(٧) سُورة الأعراف مكيّة وآياتها ستّ ومائتان

إلاّ من آية ١٦٣ – ١٧٠ فمدنيّة . وقد نزلت بعد سورة (ص)

بسم الله الرحمن الرحيم

حزب ١٦

المص * (١) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * (٢) ٱتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * (٣)

قد تقدم في أول سورة البقرة فيما يتعلق بالحروف المقطعة، وبسطه، واختلاف الناس فيه. وقوله تعالى : ﴿ كتاب أنزل إليك ﴾ أي هذا الكتاب أنزل إليك من ربك ، ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ أي لا تتحرّج به في ابلاغه والأنذار به ﴿ فأصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ لتنذر به ﴾ أي تنذر به الكافرين ﴿ وذكرى للمؤمنين ﴾ ثم قال تعالى مخاطباً العالم أجمع : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ أي اقتفوا آثار النبي الأمي ، الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ أي لا تخرجوا عما جاء به هذا القرآن إلى حكم غيره ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس لو حرصت بمؤمنين ﴾

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * (٥) فَلَنَسْأَلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ * (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ * (٧)

يقول الله تعالى: ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ بسبب مخالفتهم رسلنا وتكذيبهم، فجوزوا بخزي الدنيا وذل الآخرة. كما قال تعالى: ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلاً وكنّا نحن الوارثين ﴾

وقوله تعالى: ﴿ فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ﴾ أي فجاءهم العذاب والنقمة، ليلاً أو وقت القيلولة. وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو كما قال تعالى: ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾. وقوله تعالى: ﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنّا ظالمين ﴾ أي اعترفوا بذنوبهم عند مفاجأة العذاب الذي هم حقيقون به كقوله تعالى: ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة – إلى قوله تعالى – خامدين ﴾ قال ابن جرير: في هذه الآية: الدلالة الواضحة، على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ ٢٧٤ [ماهلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم] وقوله ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ كقوله تعالى: ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ وقوله تعالى: ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علاّم الغيوب ﴾ أي فيسأل الله الأمم عما أجابوا الرسل فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل عن ابلاغ رسالاته.

روى ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ ٢٧٥ [كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته، والرجل يسأل عن أهله، والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده،] وقوله تعالى: ﴿ فلنقصّنّ عليهم بعلم ﴾ أي على الرسل والمرسل اليهم، ما وقع بينهم، عالمين بما يسرون وما يعلنون.

ويوضع الكتاب فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿ وما كنا غائبين ﴾ أي إن الله تعالى هو الشهيد على كل شيء. لا يغيب ولا يغفل، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ * (٩) ﴾

يقول تعالى: ﴿ والوزن ﴾ أي للأعمال يوم القيامة ﴿ الحق ﴾ أي لا يظلم تعالى أحداً. كقوله تعالى: ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن

كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ . والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قبل الأعمال ، وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً ، قال البغوي ، يروي نحو هذا عن ابن عباس كما جاء في الصحيح من ٢٧٦ [ان سورتي البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف]وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر ٢٧٧ [... فيأتي المؤمن شابٌ حسن اللون ، طيب الريح ، فيقول : من أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح] وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق . وقيل يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة (١) وقيل يوزن صاحب العمل كما في الحديث في مناقب عبدالله بن مسعود [إن النبي ﷺ قال ٢٧٨ [أتعجبون من دقّة ساقيه ، والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أُحُدٍ] (٢) وذلك كلّه صحيح فتارة توزن الأعمال ، وتارة توزن محالُّها ، وتارة يوزن فاعلها . والله تعالى أعلم .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ۞ (١٠) ﴾

يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما مكّن لهم ، من أنه جعل الأرض بما فيها من الخيرات والمكاسب والمنافع أسباباً لمعايشهم ، وأكثرهم مع هذا التفضل منه سبحانه ، قليل الشكر على ذلك . كقوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ وقد قرأ الجميع معايش بلا همز وهو الصواب .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلسَّاجِدِينَ ۞ (١١) ﴾

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم ، ويبين لهم عداوة عدوّهم إبليس ، وما انطوى عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ويخالفوه فقال تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ﴾ أي لما خلق

(١) إشارة إلى (الرجل الذي له تسع وتسعون سجلا مد البصر ذنوباً ثم يؤتى له بتلك البطاقة وفيها (لا إله الا الله) فيقول يا رب ، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ... فيقول تعالى : (إنك لا تظلم : فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فطاشت السجلات وثقلت البطاقة) .

(٢) هذه بشرى لابن مسعود بالجنة .

آدم عليه السلام بيده من طين لازب ، وصوره بشراً سوياً ، ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأنِ الله تعالى وجلالهِ ، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلاَّ إبليس لم يكن من الساجدين على أن المراد من قوله تعالى : ﴿ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم﴾ هو آدم وإنما قيل ذلك بالجمع ، لأنه أبو البشر كقوله تعالى : ﴿وظلّلنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾ لبني إسرائيل الذين كانوا بزمن النبي ﷺ ، ومراده تعالى آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام ، ولكن لما كان ذلك منّةً على الآباء الذين هم أصل ، صار كأنه واقع على الأبناء .

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۝ (١٢)﴾

يقول تعالى : ﴿ما منعك الاّ تسجد إذ أمرتك﴾ ما ألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا . وقول إبليس لعنه الله : ﴿أنا خير منه﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب يعني أنا أفضل منه فكيف تأمرني بالسجود له ؟ ثم بيّن أنه خير منه ، بأنه خلق من النار والنار أشرف من الطين الذي خلق منه آدم فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو خلق آدم بيده ، ونفخه فيه من روحه . فقاس لعنه الله قياساً واحداً وفاسداً ، بدعواه أن النار أشرف من الطين فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبّت ، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح ، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة ، ولهذا خان ابليسَ عنصرُه ونفع آدمَ عنصرُه بالرجوع والإنابة والاستكانة والاستسلام لأمر الله تعالى والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة .

وفي صحيح مسلم عن عائشة (رض) قالت : قال رسول الله ﷺ ٢٧٩ [خُلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار . وخلق آدم مما وُصِفَ لكم]

وقال ابن جرير عن الحسن في قوله تعالى : ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ قال : قاس إبليس وهو أول من قاس ، إسناده صحيح وقال أيضاً عن ابن سيرين قال : إن أول من قاس ابليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس إسناد صحيح أيضاً .

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ

إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

يخاطب تعالى ابليس : فاهبط من منزلتك التي كنت فيها في الملكوت الأعلى ، لأن التكبر على أوامره تعالى ومخالفتها ، يناقض رفعة المنزلة التي لا تنال إلاّ بإخلاص الطاعة لوجهه الكريم فجزاء ذلك الخروج من الجنة صاغراً ذليلاً حقيراً كِفاءَ تكبُّرِه .وهكذا فقد عومل بنقيض قصده وكوفيء على مراده بضده . وهذا عين العدل منه سبحانه ، ولما استدرك اللعين سأل تعالى تأجيلَ قبضه إلى يوم القيامة ، فأجابه تعالى إلى ما سأل وهو الحكيم الخبير .

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى أنه لما أنظر ابليس ، واستوثق بذلك الإنظار ، أخذ في المعاندة والتمرّد فقال : ﴿ فبما أغويتني لأقعدّن لهم صراطك المستقيم ﴾ أي أقسم بإغوائك لي ، لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ، وقيل كما أغويتني لأقعدن لعبادك من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه . والصراط المستقيم هو كل طرق الخير التي تؤدي إلى رضاه تعالى ، من إسلام وهجرة وجهاد وجميع الطاعات التي يرضى عنها سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿ ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ أي يأتيهم من كل وجه وجهة ، ليزلّ أقدامهم عن طرق الطاعات ، ويعدّد لهم الغوايات أشكالاً وألواناً ، حتى يوقعهم في المعاصي (١) .

وقيل من بين أيديهم ﴿ وعن أيمانهم ﴾ من حيث يبصرون ﴿ ومن خلفهم وعن شمائلهم ﴾ حيث لا يبصرون واختار ابن جرير : أن المراد جمع طرق الخير والشر ، فالخير يصدهم عنه والشر يحسّنه لهم . وعن ابن عباس : ولم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل من

(١) قلت : ويبتدع لهم بدعاً ظاهرها الطاعة وباطنها المعصية ، فيعصون ربهم ولا يستغفرون لأنها طاعات في نظرهم كما زينها لهم الشيطان... حتى يموتوا عليها ، والعياذ بالله من شر الشيطان الرجيم .

فوقهم . وقوله تعالى : ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ أي موحدين . وقول إبليس هذا ، إنما هو ظن منه وتوهم . وقد وافق في هذا الواقع . كما قال تعالى : ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنَّه فاتبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين * وما كان له عليهم من سلطان إلاّ لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربّك على كل شيء حفيظ ﴾ ولهذا ورد في حديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها . كما روى الحافظ ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً : ٢٨٠ [اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي . وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بك اللهم ان أغتال من تحتي] قال وكيع : من تحتي يعني الخسف .

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ * (١٨) ﴾

أكّد الله تعالى على إبليس اللعنة والإبعاد والنفي عن الملأ الأعلى ، بقوله عز وجل ﴿ أخرج منها مذؤوماً مدحوراً ﴾ أي معيباً متقصياً مطروداً ، لعيناً مقيتاً ، وقوله تعالى : ﴿ لمن تبعك منهم لأملأنَّ جهنم منكم أجمعين ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ قال إذهب فمن تبعك منهم فإنَّ جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴾

﴿ وَيَا آدَمُ ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ * (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَالِدِينَ * (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّاصِحِينَ * (٢١) ﴾

أباح تعالى لآدم وزوجه حواء الجنّة ، أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدةً وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة ، فعند ذلك حسدهما الشيطان ، وسعى في المكر والخديعة والوسوسة ، ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ﴿ وقال ﴾ كذباً وافتراءً ﴿ ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكَيْن ﴾ أي لئلاتكونا ملكين ﴿ أو تكونا من الخالدين ﴾ أي هاهنا ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما ﴿ وقاسمهما ﴾ أي حلف لهم بالله ﴿ إني لكما لمن الناصحين ﴾ فإني من قبلكما هاهنـا وأعلم بهذا المكان حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله . وكان بعض أهل العلم يقول : من خدعنا بالله انخدعنا له .

﴿ فَدَلَّـٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَـــدُوٌّ مُّبِينٌ ❁ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَـــا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ❁ (٢٣) ﴾

روى سعيد بن أبي عروبة عن أُبَيْ بن كعب (رض) قال : كان آدم رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحوق ، كثير شعر الرأس ، فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة ، بدت لـه عورته عند ذلك وكان لا يراها ، فانطلق هارباً في الجنة ، فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة فقال لها . أرسليني ، فقالت : إني غير مرسلتك فناداه ربه عز وجل يا آدم أمنّي تفر؟ قال يا رب إني استحييتك . وقوله تعالى : ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ وعن ابن عباس : أي ورق التين يلزقان بعضه إلى بعض بعد أن بدت لهما سوآتهما وقيل أن نوراً كان يحجب عورة كل منهما عن الآخر فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما فطفقا يخصفان ويستتران بورق الجنة .

روى عبد الرزاق عن قتادة قال : قال آدم أي رب أرأيت ان تبتُ واستغفرت قال : إذاً أدخلك الجنة وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة فأعطي كل واحد منهماالذي سأله ..

وقال الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه [1].

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۞ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۞ (٢٥)﴾

المراد بالخطاب في ﴿اهبطوا﴾ آدم وحواء وإبليس. وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات والله أعلم بصحتها، ولو كان هناك كبير أمر أو فائدة من ذكر الأماكن لذكرها الله تعالى أو رسوله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ أي قرار وأعمار إلى أجل معلوم سطرت في الكتاب الأول وقال ابن عباس ﴿مستقر﴾ فوق الأرض وتحتها رواه أبو حاتم. وقوله تعالى: ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ كقوله تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۞ (٢٦)﴾

يمتّن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس ستر العورات وهي السوآت، والرياش والريش ما يتجمّل به ظاهراً، فالأول من الضروريات والريش من التكملات والزيادات. روى الإمام أحمد ٢٨١[عن علي (رض)، أنه أتى غلاماً حدثاً فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ولبسه ما بين الرسغين إلى الكعبين، يقول حين لبسه: الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأواري به عورتي، فقيل له: هذا شيء سمعتَه من رسول الله ﷺ أو ترويه عن نفسك؟ قال: هذا شيء سمعته من رسول الله

---

(١) قلت: وهذا هو الصحيح وذلك بخلاف من قال أن أسباب مغفرة الله لآدم هي توسله بمحمد صلى الله عليه وسلم وهذا مما لم يصح فيه شيء من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم راجع التعليق ص ٤٥ و ٤٦ من المجلد الأول الآية رقم /٣٧/ من سورة البقرة.

ﷺ يقول عند الكسوة : « الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأواري به عورتي »]

وقوله تعالى : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ اختلف المفسرون في معناه ، فقال عكرمة : يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة ، رواه ابن أبي حاتم وقيل الإيمان ، أو العمل الصالح ، أو السمت الحسن في الوجه وكلها متقاربة .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ (٢٧) ﴾

يحذر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله [(١)] ، مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام ، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء ، والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه وما هذا إلاّ عن عداوة أكيدة . وهذا كقوله تعالى: ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ۝ (٣٠) ﴾

(١) قلت : ان إبليس وقبيله يرون بني آدم في الوقت الذي لا يراهم بنو آدم وهذا مما يوجب على بني آدم شدة الحذر منهم فالذي يراك ولا تراه يكون أشد مكراً بك ويكيد لك من حيث لا تشعر ، وهذا مما يدعو بني آدم أن يلتجئوا إلى الله منه بطاعته سبحانه والانتهاء عما نهى . عندها : فلا يجعل الله للشيطان على المؤمن الطائع سبيلا .

كان العرب سوى قريش يطوفون بالبيت عرياً . يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون بثياب عصوا الله فيها . أما قريش وهم الحمس يطوفون في ثيابهم ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه . ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد . ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً ، طاف عرياناً ، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة ، وأكثر ما كان النساء يطفن عراةً بالليل . وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ، متوهمين أن فعل آبائهم يستند إلى شرع الله فأنكر تعالى عليهم ذلك فقال﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ فقال تعالى رداً عليهم : ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لمن ادعى ذلك ﴿ ان الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ أي ينفي سبحانه وتعالى عنه ذلك ، ويقول ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ أي تسندون إلى الله ما لا تعلمون صحته ﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾ أي بالعدل والاستقامة ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ أي أمركم بالاستقامة في عبادته في محالّها . وهي متابعة المرسلين فيما أخبروا به عن ربهم وما جاءوا به من الشرائع ، وبالاخلاص لـــه تعالى في عبادته ، لأنه لا يتقبل العمل حتى يكون موافقاً للشريعة وأن يكون خالصاً من الشرك . فمتى جُمع هذان الركنان يكون العمل مقبولاً .

وقوله تعالى : ﴿ كما بدأكم تعودون – إلى قوله – الضلالة ﴾ اختلف فيهمـــا المفسرون فمن قال : كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخراً واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير ، وأيده بما رواه من حديث سفيان الثوري بسنده إلى ابن عباس قال ٢٨٢ : [قام فينا رسول ﷺ بموعظةٍ فقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاةً عراةً غرلاً ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾] وهذا الحديث مخرج في الصحيحين .

وعن مجاهد قال : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ أي يحييكم بعد موتكم . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ قال : ان الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً كما قال تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً قلت : ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري ٢٨٣ : [فوالذي لا آله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة

فيدخل الجنة .]

روى أبو القاسم البغوي عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ ٢٨٤ [إن العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار ، وانه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار ـ وانه من أهل الجنة وانما الأعمال بالخواتيم] هذا قطعه من حديث البخاري .

روى مسلم عن الأعمش بسنده إلى جابر عن النبي ﷺ أنه قال٢٨٥ : [يبعث كل عبد على ما مات عليه] ووجه الجمع بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال ، وإن كان قد فطر الخلق على معرفته ، وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك ، وجعله في غرائزهم وفطرهم . ومع هذا قدّر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً ـ أي علم منهم من سيختار الشقاوة ، ومن سيختار السعادة ، فقدّر وكتب على كلٍّ ما اختار ـ (٢) ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ وفي الحديث٢٨٦ [كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها] (١) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ ثم علل ذلك فقال : ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ﴾ الآية ...

ربع الحزب

﴿ يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ (٣١) ﴾

هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة ، الرجال بالنهار والنساء بالليل . فقال تعالى : ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ والزينة اللباس وهو ما يواري السوأة، وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد ، ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند

---

(١) قلت : يعني ليس الأمر جبرياً انما العبد مختار في كل ما هو مكلف به من فعل الطاعات وترك المعاصي فإنه ان كان طائعاً خيّراً فيقي نفسه من النار ، أو يكون عاصياً شريراً يأبق ويفسق عن طاعة مولاه فيردي نفسه ويهلكها ، فالله جعله مختاراً ليكون مستحقاً نعيمه أو عذابه ولا يظلم ربك أحداً .

(٢) ما بين المعترضتين من كلامي توضيحاً لقول المفسر رحمه الله .

الصلاة ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد والطيب والسواك من تمام الزينة .

ومن أفضل اللباس البياض كما روى الامام أحمد عن ابن عباس مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ ٢٨٧ [إلبسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم وان خير أكحالكم الإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر ،] هذا حديث جيد الإسناد . ورجاله على شرط مسلم ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ الآية ... روى الإمام أحمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده ، أن رسول الله ﷺ قال ٢٨٨ : [كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده] ورواه النسائي وابن ماجه .

روى الإمام أحمد عن المقدام بن معديكرب الكندي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ٢٨٩ : [ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان فاعلاً لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلت لشرابه ، وثلث لنفسه .] ورواه النسائي والترمذي وقال حسن صحيح . وقد كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون الوَدَك(١) ما أقاموا في الموسم فقال الله تعالى لهم : ﴿ كلوا واشربوا ﴾ أي لا تسرفوا في التحريم قال السدي . وقوله تعالى : ﴿ انه لا يحب المسرفين ﴾ يقول الله تعالى : ﴿ ان الله لا يحب المعتدين ﴾ حدّه في الحلال والحرام ، الغالين فيما أحل بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال ، ولكنه تعالى يحب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم وذلك العدل الذي أمر به .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ (٣٢) ﴾

يرد الله تعالى على المشركين بقوله تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ، الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم . ﴿ من حرم زينة الله التي أخرج

(١) الودك الدسم من اللحم والشحم .

لعباده ﴾ الآية أي هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا، وإن أشركهم فيها الكفار حساً في الدنيا، فهي للمؤمنين خاصة يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرّمة على الكافرين. قال أبو قاسم الطبراني عن ابن عباس قال: نزلت في الذين كانوا يطوفون بالبيت عراةً يصفرون ويصفقون فأمروا بالثياب.

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ❁ (٣٣) ﴾

روى الإمام أحمد عن عبدالله [١] قال قال رسول الله ﷺ. ٢٩[لا أحد أغير من الله فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبّ إليه المدح من الله] أخرجاه في الصحيحين وقد تقدم الكلام على ما يتعلّق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن، في سورة الأنعام، وقوله تعالى: ﴿ والإثم والبغي بغير الحق ﴾ الإثم هو الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه والبغي هو التعدي على الناس بغير الحق. وقوله تعالى: ﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك مما لا علم لكم به كقوله تعالى: ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ❁ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ❁ (٣٥) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ❁ (٣٦) ﴾

(١) هو ابن مسعود.
(٢) الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

يقول تعالى: ﴿ ولكل أمة أجل ﴾ أي لكل قرن وجيل وقتٌ ﴿ فإذا جاء أجلهم ﴾ أي ميقاتهم المقدّر لهم ﴿ لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون ﴾ ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته وبشّرَ وحذّرَ ، فقال تعالى : ﴿ فمن اتقى وأصلح ﴾ أي ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ﴾ أي كذّبت بها قلوبهم ، واستكبروا عن العمل بها ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي ماكثون فيها أبداً .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ ۞ (٣٧)

يقول تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ﴾ أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، أو كذّب بآياته المنزلة . ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾

قال العوفي عن ابن عباس : ينالهم ما كتب عليهم ، وكتب لمن كذب على الله ان وجهه مسود . وقال مجاهد : ما وعدوا به من خير وشر . وكذا قال قتادة والضحاك واختاره ابن جرير .

وقال محمد بن كعب القرظي : ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ قال : عمله ورزقه وعمره ، وهذا القول قوي في المعنى ، والسياق يدل عليه وهو قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ الآية يخبر تعالى أن الملائكة اذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت ويقولون لهم : أين شركاؤكم في الحياة الدنيا الذين كنتم تدعونهم من دون الله ؟ أدعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه قالوا : ﴿ ضلّوا عنا ﴾ أي ذهبوا عنا فلا نرجوا نفعهم ﴿ وشهدوا على أنفسهم ﴾ واعترفوا ﴿ أنهم كانوا كافرين ﴾

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ❁ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ❁ (٣٩)﴾

يخبر تعالى عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه، المكذبين بآياته: ﴿أدخلوا في أمم﴾ أي من أمثالكم وعلى صفاتكم ﴿قد خلت من قبلكم﴾ أي من الأمم السالفة الكافرة ﴿من الجن والإنس في النار﴾ أي مع هؤلاء الأمم. وقوله تعالى: ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ كما قال الله تعالى: ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض﴾ وقوله تعالى: ﴿حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً﴾ أي اجتمعوا فيها كلهم ﴿قالت أخراهم لأولاهم﴾ أي أخراهم دخولاً وهم الأتباع لأولاهم، وهم المتبوعون. لأنهم أشدهم جرماً، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة لأنهم هم الذين أضلوهم، فيقولون:

هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ أي أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً﴾ الآية... وقوله تعالى: ﴿قال لكل ضعف﴾ أي قد فعلنا ذلك وجازينا كلاً بحسبه كقوله تعالى: ﴿وليحملُنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ وقوله تعالى: ﴿وقالت أولاهم لأُخراهم﴾ أي قال المتبوعون للاتباع: ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ أي قد ضللتم كما ضللنا ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ❁ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ❁ (٤١)﴾

قوله تعالى : ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ قيل المراد لا يرفع لهم عمل صالح ولا دعاء وقيل لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ويؤيده ما رواه ابن جرير : عن البراء بن عازب : ٢٩١ [ان رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر وانه يصعد بها إلى السماء ، فيصعدون بها ، فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا ، حتّى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون بابها له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾] الآية هكذا رواه وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من طريق عن المنهال بن عمرو به . وقد قال ابن جريج في قوله تعالى : ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم وهذا فيه جمع بين القولين والله تعالى أعلم . وقوله تعالى : ﴿ولا يدخلون الجنة حتّى يلج الجمل في سم الخياط﴾ هكذا قرأه الجمهور وفسروه بأنه البعير قال ابن مسعود وهو الجمل ابن الناقة أو زوج الناقة وكذا قال الحسن البصري وأبو العالية والضحاك وغيرهم. وروي أنه الجُمّل أي الحبل الغليظ وقوله تعالى: ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ أي فرش ﴿ومن فوقهم غواشٍ﴾ أي اللحف قال محمد بن كعب القرظي وغيره ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لله ٱلَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ (٤٣) ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ، عطف بذكر حال السعداء ، فقال سبحانه : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم ، وعملت جوارحهم الصالحات . ثم نبه الله تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل ، لأنه سبحانه قال : ﴿لا نكلف نفساً إلاّ وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون۞ ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ﴾ أي من حسد

وبغض كما جاء في صحيح البخاري من حديث قتادة بسنده إلى أبي سعيد الخدري **قال** : قال رسول الله ﷺ ٢٩٢ [إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين **الجنة** والنار **فاقتص** لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا] وقوله تعالى : ﴿ تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾

فقد روى النسائي وابن مردويه واللفظ له من حديث أبا بكر بن عباس بسنده إلى أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٢٩٣ [كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول لولا أن الله هداني فيكون له شكراً وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول لو أن الله هداني فيكون له حسرة] ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا : ﴿أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم ، وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال ٢٩٤ : [واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة » قالوا ولا أنت يا رسول الله قال « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»] .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَابَ ٱلنَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٤٤) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَافِرُونَ ۞ (٤٥) ﴾

اذا استقر أهل النار في منازلهم يوبخهم الله تعالى ويقرعهم . ويقول أهل الجنة لأصحاب النار ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم مــا وعد ربكم حقاً قالوا نعم ﴾ كما أخبر الله في سورة الصافات عن الذي كان له قرين من الكفار : ﴿ فاطلع فرآه في سواء الجحيم * قال تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾ أي ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال . وكذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * أصلوها فاصبروا أو لا تصبروا

سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر فنادى ٢٩٥ : [يا أبا جهل بن هشام ويا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة – وسمى رءوسهم – هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » وقال عمر : يا رسول الله تخاطب قوماً قد جيفوا ؟ فقال : « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا »] [1]

وقوله تعالى ﴿ فأذن مؤذن بينهم ﴾ أي نادى منادٍ : ﴿ أن لعنة الله على الظالمين ﴾ أي مستقرة عليهم ثم وصفهم بقوله تعالى : ﴿ والذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ﴾ أي يَصُدُّون عَن سبيل الله وشرعه **يبغون أن تكون معوجة غير مستقيمة** ﴿ وهم بالآخرة كافرون ﴾ أي جاحدون مكذبون فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً فهم شر الناس أقوالاً وأعمالاً .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۞ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٤٧) ﴾



لما ذكر الله تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبّه أن بين الجنة والنار حجاباً وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة . فقوله تعالى : ﴿ وبينهما حجاب ﴾ أي حاجز إنما سمي الأعراف أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس . والأعراف : هم قوم استوت حسناتهم وسيآتهم . نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله . قال ابن جرير عن يونس بن أبي اسحق قال : قال الشعبي أرسل اليّ عبد الحميد بن عبد الرحمن وعنده أبو الزناد عبدالله بن ذكوان مولى قريش فإذا هما ذكرا من أصحاب الأعراف ذكراً ليس كما ذكرا . فقلت لهما : إن شئتما

(١) قلت : وفي رواية : ... (أحياهم الله له فأسمعهم) وهذا كلام الصحابي الذي روى الحديث وهذا رد على من يزعم أن الأموات يسمعون ؛ بينما الواقع أنهم لا يسمعون بدليل قوله تعالى : « وما أنت بمسمع من في القبور » وقوله سبحانه : « انك لا تسمع الموتى » أما هذه الحادثة – حادثة القليب – هو تخصيص للحكم العام ومعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فالحكم العام أن الأموات لا يسمعون وقد خصص بان الله أحياهم له فأسمعهم .

أنبأتكما بما ذكر حذيفة ، فقالا هات : فقلت إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال : هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال لهم إذهبوا فادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم .

قال ابن المبارك عن ابن مسعود قال : الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح .

وقال ابن مسعود : ان العبد إذا عمل حسنة ، كتب له بها عشر واذا عمل سيئة ، لم تكتب إلا واحدة . ثم يقول : هلك من غلبت آحاده عشراته .

وقوله تعالى : ﴿ يعرفون كلاً بسيماهم ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه . وكذا روى الضحاك عنه وقوله تعالى : ﴿ ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ أي فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم ولكن لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون بدخولها قال الحسن : والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها الله بهم .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ قال ابن عباس : ان أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم ﴿ قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ وقال ابن مسعود : لما نظروا إلى أهل النار ورأوا منازلهم تعوذوا بالله من منازلهم وقالوا : ﴿ ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۞ (٤٨) أَهَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۞ (٤٩) ﴾

يخبر تعالى عن تقريع أهل الأعراف وهم رجال تكاثفت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة وقصرت بهم سيئاتهم عن النار فجعلوا على الأعراف يعرفون الناس بسيماهم .

يخبر تعالى عن تقريعهم لأهل النار وهم رجال من صناديد قريش وصناديد المشركين

وقادتهم : ﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾ كثرتكم ﴿وما كنتم تستكبرون﴾ أي لا تنفعكم كثرتكم واستكباركم من عذاب الله الذي صرتم اليه وما تعانونه من النكال ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة﴾ أي قال الله تعالى لأهل التكبر والأموال ﴿أهؤلاء﴾ أي أهل الأعراف ﴿الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة﴾ فقال الله لأهل الأعراف : ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ أي برغم أنوف الكافرين ، ويقول حذيفة (رض) بعد أن يذكر استشفاع أهل الأعراف بآدم ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليه وعليهم الصلاة والسلام واعتذار الجميع إلا محمد عليه الصلاة والسلام فيقول ٢٩٦ [فيأتوني فأضرب بيدي على صدري ثم أقول : « أنالها »] فيشفع بهم كما جاء في خبر حذيفة ثم يقول عليه الصلاة والسلام : « فآتي بهم الجنة فأستفتح فيفتح لي ولهم فيذهب بهم إلى نهر يقال له نهر الحيوان حافتاه قصب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك وحصباؤه الياقوت فيغتسلون منه فتعود إليهم ألوان أهل الجنة وريح أهل الجنة فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ويبقى في صدورهم شامات بيض يعرفون بها يقال مساكين أهل الجنة »]

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ❁(٥٠) ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِـَٔايَاتِنَا يَجْحَدُونَ ❁ (٥١)﴾

يخبر تعالى عن ذلّة أهل النار ، وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم ، وأنهم لا يجابون إلى ذلك فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرّمهما على الكافرين﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سئل أي الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ ٢٩٧ : [أفضل الصدقة الماء . ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله] ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا باتخاذهم الدين لهواً ولعباً واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفتها ، عما أمروا به من العمل للآخرة ، وقوله تعالى : ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ أي يعاملهم معاملة من نسيهم ، لأنه تعالى لا يشذّ عن علمه شيء ولا ينساه كما قال تعالى : ﴿في كتاب لا يضل ربي ولا

ينسى ﴾ وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ (١) أي يتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا . وفي الصحيح ٢٩٨ : [إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذَرْك ترأس وتربّع ؟ فيقول : بلى فيقول أظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول : لا . فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني .]

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۞ (٥٣) ﴾

يخبر تعالى عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول وإنه كتاب مفصل مبين . كقوله تعالى : ﴿ كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ فصلناه على علم ﴾ للعالمين أي على علمٍ منّا بما فصلناه به كقوله تعالى : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ فقوله تعالى : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ﴾ أي أنّه قد أزاح عللهم في الدنيا بأرسال الرسل وإنزال الكتب . كقوله تعالى : ﴿ وما كنّا معذّبين حتى نبعثَ رسولاً ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ أي ما وُعِدوا به من العذاب والنكال، والجنة والنار . قال الربيع : لا يزال يجيء من تأويله أمر حتى يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيتم تأويله يومئذ . وقوله تعالى : ﴿ يوم يأتي تأويله ﴾ أي يوم القيامة ﴿ يقول الذين نسوه من قبل ﴾ أي تركوا العمل به ، وتناسوه في الدار الدنيا ﴿ قد جاءت رسلُ ربّنا بالحق فهل لنا من شفعاءَ فيشفعوا لنا ﴾ أي في خلاصنا مما صرنا إليه ، مما نحن فيه . ﴿ أو نُرَدُّ ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿ فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وُقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدّ ولا نكذب بآيات ربنا

(١) قلت : أي كان من نتيجة نسيانهم الله نسيان عقابه. ثم كانت من جراء ذلك المعصية. فلما عصوا الله عرّضوا أنفسهم في مقابلة ذلك، إلى عقاب الله فكأنه نسيهم من الخير. أما النسيان الذي يكون بمعنى نسيان المخلوق، فهذا ما لا يليق به سبحانه « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو رُدوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ كما قال تعالى ﴿ قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله ، فلا يشفعون فيهم ، ولا ينصرونهم ، ولا ينقذونهم ، مما هم فيه .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ (٥٤) ﴾

يخبر تعالى أنه خالق العالم، سمواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام . كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن ؛ والستّة أيام هي الأحد والأثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وفيه اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم عليه السلام ، واختلفوا في هذه الأيام ، هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس ، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع ومنه سمي السبت وهو القطع .

وأما قوله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً أما نحن فنسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ، وغيرهم من أئمة المسلمين ، قديماً وحديثاً ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله تعالى ، فإنّ الله تعالى لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم شيخ البخاري قال : من شبّه الله بخلقه كفرَ ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر . وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ـ فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله . ونفَى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى .

وقوله تعالى : ﴿ يُغشي الليلَ النهار يطلبه حثيثاً ﴾ أي يذهب ظلام هذا بضياء هذا ، وضياء هذا بظلام هذا ، وكلٌ منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً أي سريعاً لا يتأخر عنه بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه . كقوله تعالى : ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ أي لا يفوته بوقت يتأخر عنه بل هو في أثره بلا واسطة بينهما ولهذا قال تعالى : ﴿ يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ أي الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته . ولهذا قال سبحانه : ﴿ ألاله الخلق والأمر ﴾ أي له الملك والتصرف ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء ، وروي مرفوعاً : ٢٩٩ [اللهم لك الملك كله ولك الحمد كله وإليك يرجع الأمر كله ، أسألك من الخير كله ، وأعوذ بك من الشرِّ كلـــه] .

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۞(٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (٥٦) ﴾

أرشدَ تبارك وتعالى عبادَه إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم ، فقال : ﴿ أدعوا ربكم تضرعاً وخفيةً ﴾ أي تذللاً واستكانة وبصوت خافت وخشوع قلب كقوله تعالى : ﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾ الآية ... وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله ﷺ : ٣٠٠ [أيها الناس إربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ، إن الذي تدعون سميع قريب] وقال ابن جرير : ﴿ تضرعاً ﴾ تذللاً واستكانةً لطاعته ﴿ وخفية ﴾ يقول بخشوع قلوبكم ، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهاراً مراآةً . وقال الحسن : إن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال : ﴿ إذ نادى ربّه نداءً خفياً ﴾ وقال ابن جريج : ويُكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ، ويؤمر بالتضرع والاستكانة .

وقوله تعالى : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ قال ابن عباس لا في الدعاء ولا في غيره . روى أحمد عن مولى لسعد أن سعداً قال ؛ ... وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٣٠١ [إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء وفي لفظ يعتدون في الطّهور والدعاء وقرأ هذه الآية : ﴾ ادعوا ربكم تضرعاً ... ﴾ الآية وإن بحسبك أن تقول : اللهم اني

أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل . وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول أو عمل] ورواه أبو داود . وقوله تعالى : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض ، وما أضره بعد الإصلاح ، فإنه إذا كانت الأمور مسددة ثم وقع الإفساد كان أضرّ ما يكون على العباد ، فنهى تعالى عن ذلك فأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه . فقال تعالى : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ أي خوفاً مما عنده من وبيل العقاب ، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب [١] ثم قال تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ أي إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ، ويتركون زواجره . وقال « قريب » ولم يقل قريبة ، لأنه تعالى ضمّن الرحمة معنى الثواب أو لأنها مضافة إلى الله (ولكن القول الأول أصح) والله أعلم .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ (٥٧) وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝ (٥٨) ﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض ، والمتصرف المدبّر ، وأرشد إلى دعائه وحده ، لأنه على كل شيء قدير . نبّه تعالى على أنه الرزاق ، وانه معيد الموتى يوم القيامة . فقال عز من قائل : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ومن

---

(١) قلت : ولكن لا يزال في مجتمعنا الإسلامي من يردد القول المنسوب إلى علي رضي الله عنه وعليٌّ بريء منه ومن يتقوله عن لسانه وهو : « ربي ما عبدتك خوفاً من نارك ، ولا طمعاً في جنتك ولكنني أعبدك لأنك إله تستحق أن تعبد » فهل يعقل أن علياً الراضي المرضي ، يقول مثل هذا القول ! !؟ والله تعالى يقول : « وادعوه خوفاً وطمعاً »؟ حاشا علياً من مثل هذه الأقوال التي اصطنعها قوم أكل الإسلام أكبادهم غيظاً على الاسلام والمسلمين فدسوا مثل هذه الأقوال على المسلمين ونسبوها إلى المخلصين منهم كعلي /رض/ حتى يتلقفها عامتهم وبعض خاصتهم بالقبول ثقة منهم بالمنسوب إليهم وهم برآء منه ... ولكن قيض الله للمسلمين من يفضح أعداء الإسلام ويحبط مؤامراتهم ، وله وحده الحمد والمنة . كما أن هذا القول منسوب أيضاً إلى رابعة العدوية واننا نستبعده عنها أيضاً لأنه لا يوجد مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، يتلفظ بمثل ذلك .

آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ بين يدي رحمته ﴾ أي بين يدَيْ المطر ، كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد ﴾ وقولُه تعالى ﴿ حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً ﴾ أي حملت الرياح سحاباً ثقالاً من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة . وقولُه تعالى : ﴿ سقناه إلى بلدٍ ميّت ﴾ أي إلى أرض ميتة ، مجدبة ، كقوله تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ﴾ الآية ولهذا قال تعالى : ﴿ فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى ﴾ أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميماً . يوم القيامة يُنزِل الله سبحانه وتعالى ماءً من السماء فتمطر الأرض أربعين يوماً فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض وهذا المعنى كثير في القرآن ، يضرب الله مثلاً ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال سبحانه : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ﴾ أي والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً . كقوله عز وجل ﴿ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ والذي خبث لا يخرج إلا نكداً ﴾ قال مجاهد وغيره كالسباخ ونحوها وعن ابن عباس، قال : هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ (٥٩) قَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ (٦٢) ﴾

لم يلْقَ نبيٌ من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبيٌ قتل ، وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهم السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام . وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك فيها ، ليتذكروا حالهم وعبادتهم ، فيتشبهوا بهم فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور فلما تمادَى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسمّوها بأسماء أولئك الصالحين : ودّاً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسرا ، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة رسوله

نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ أي من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به ﴿ قال الملأ من قومه ﴾ أي الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم : ﴿ إنّا لنراك في ضلال مبين ﴾ أي في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا ، وهكذا حال الفجار إنما يَرَوْنَ الأبرار في ضلالة .كقوله تعالى : ﴿ وإذا رأوهم قالوا إنَّ هؤلاء لضالّون ﴾ ﴿ قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ﴾ أي ما أنا ضال ولكن أنا رسول من ربّ كل شيء ومليكه ﴿ أبلغكم رسالات ربّي وأنصحُ لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله ، لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات كما جاء في صحيح مسلم : [٣٠٢ ان رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً : « أيها الناس : انكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون ؟قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول : « اللهم اشهد اللهم اشهد »]

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ (٦٤) ﴾

يخبر تعالى أن نوحاً قال لقومه : ﴿ أو عجبتم ﴾ أي لا تعجبوا فليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمةً بكم ، ولطفاً وإحساناً إليكم ، لينذركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به . ﴿ ولعلكم ترحمون ﴾ قال تعالى : ﴿ فكذبوه ﴾ أي تمادوا في تكذيبه وما آمن معه إلا قليل ﴿ فأنجيناه والذين معه في الفلك ﴾ أي السفينة ﴿ وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ أي عميٌ عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون إليه ، فبيّن تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه ، وأنجى رسوله والمؤمنين . كقوله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ الآية ... وهذه سُنّة الله في عباده في الدنيا والآخرة إن العاقبة للمتقين ، وقال ابن وهب

عن ابن عباس: أنه نجا مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً.



﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ (٦٥) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ۞ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۞ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً فَٱذْكُرُوا آلَاءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ (٦٩) ﴾

يقول تعالى وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. وهؤلاء هم عاد الأولى. الذين ذكرهم الله وهم أولاد عادٍ بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر. كما قال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، وكانت مساكنهم باليمن بالأحقاف وهي جبال الرمل. قال محمد بن اسحق عن أبي الطفيل عامر بن وائلة سمعت عليا يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراكٍ وسدْر كثير ... بناحية كذا وكذا، من أرض حضرموت، هل رأيته؟ قال نعم يا أمير المؤمنين، والله إنك لنعتَّه نعت رجل قد رآه. قال لا ولكني قد حُدِّثتُ عنه فقال الحضرمي وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال فيه قبر هود عليه السلام. رواه ابن جرير وهذا يفيد أن مساكنهم كانت باليمن فان هوداً عليه السلام دفن هناك ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ أي السادة والقادة منهم ﴿إنا لنراك في سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين﴾ أي في ضلالة لأنك تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي لستُ كما تزعمون إنما جئتكم بالحق من الله الذي خلق كلَّ شيء ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ والبلاغ والنصح

والأمانة هي الصفات التي يتصف بها الرسل ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾ أي لا تعجبوا من إرسال رسول إليكم من أنفسكم لينذركم أيام الله، ولقاءه بل احمدوا الله على ذاكم ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم ممن آمن من قوم نوح، الذي أهلك الله الأرض، أي أهلها لما خالفوه وكذبوه فدعا عليهم دعوته المعروفة التي استجابها الله فأهلك بها كل كافر على الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾ أي زاد طولكم على الناس كقوله تعالى في قصة طالوت: ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ وقوله تعالى: ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ أي نعمه ومننه عليكم ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي تنجحون فتدخلون الجنة بمنه وكرمه.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ *(٧١) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ * (٧٢)﴾

يخبر تعالى عن تمردهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام: ﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده﴾ الآية كقول الكفار من قريش: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ وقد ذكر محمد بن اسحق وغيره أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فصنم يقال له صمد، وآخر يقال له صمود، وآخر يقال له الهنا. ولهذا قال هود عليه الصلاة والسلام: ﴿قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾ أي قد وجب عليكم بمقالتكم هذه، من ربكم رجس وهو السخط والغضب ﴿أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ أي اتحاجونني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة

ولا دليلاً ولهذا قال جلّ وعلا : ﴿ ما نزّل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه ، ولهذا عقّبه بقوله عز من قائل : ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم ، في أماكن أخرَ من القرآن ، بأنه أرسل عليهم الريحَ العقيم ، ما تذر من شيء أتتْ عليه إلاّ جعلته كالرميم . كما قال جلّ وعلا في الآية الأخرى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانية أيام حُسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية . فهل ترى لهم من باقية ﴾ لما تمرّدوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية ، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتثلّغ[1] رأسه حتى تُبينَه من بين جثته.ولهذا قال تعالى: ﴿ كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية ﴾ وقال محمد بن اسحق : كانوا يسكنون باليمن ما بين عمان وحضرموت ، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله وكانوا أصحابَ أوثان يعبدونها من دون الله فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً فأمرهم أن يوحّدوا الله ، ولا يجعلوا معه إلها غيره ، وأن يكفّوا عن ظلم الناس . فأبوا عليه وكذّبوه وقالوا : من أشدُّ منّا قوة ؟ واتّبعه منهم ناس وهم يسيرٌ يكتمون إيمانهم فلما عتتْ عادٌ على الله وكذبوا نبيّه ، وأكثروا في الأرض الفساد، وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع ، كلمهم هود . فقال: ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون۞وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ۞ وإذا بطشتم بطشتم جبارين۞ فاتقوا الله وأطيعونِ۞ قالوا يا هود ما جئتنا ببيّنةٍ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ۞ إنْ نقول إلاّ اعتراك بعضُ آلهتنا بسوء ﴾ أي بجنون ﴿ قال إني أُشهِدُ اللهَ وأَشهَدُ اني بريٌ مما تشركون ۞ من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظِرون ۞ إنّي توكّلت على اللهِ ربّي وربّكم ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها إنَّ ربي على صراط مستقيم ﴾ وكانت الريح التي أتت عليهم هي شبه النار سخرها الله عليهم سبعَ ليال وثمانية أيام حسوماً . والحسوم أي الدائمة فلم تدَعْ من عاد أحداً إلاّ هلك ، واعتزل هود عليه السلام ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبهم ، إلاَّ ما تلين عليهم الجلود وتلذ الأنفس وإنها لتمرُّ على عاد بالظعن ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة وقد قال الله تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا ونجيناهم من عذابٍ غليظ ﴾ .

---

(١) تثلّغ : إنشدخ أي تكسر .

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۞ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۞ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۞ (٧٨) ﴾

قال علماء التفسير والنسب ، ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح . وهو أخو جَديس بن عاثر ، وكذلك قبيلة طسم كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله وقد مرّ رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنةَ تسعٍ . روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال ٣٠٣ : [لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر ، عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا لها القدور ، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : « إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم »]

روى أحمد عن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر ٣٠٤ . [لا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين ، إلاّ أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم] وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين من غير وجـــه .

وقوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود رسولهم صالحاً ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ وهكذا جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قد جاءتكم بيّنة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية ﴾ أي قدجاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به . وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيّنوها بأنفسهم ناقةً عشراءَ تمخض فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق : لئن أجابهم الله إلى سؤآلهم ، وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمِنُنَّ به وليتبعُنّه فلما أعطوا على ذلك عهودهم ، ومواثيقهم ، قام صالح عليه السلام ، ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفـــاء وبراء ، يتحرك جنينها بين جنبيها ، كما سألوا . فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره ، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم ذؤآب بن عمرو بن لبيد ، والحباب صاحب أوثانهم ، ورباب بن صعر بن جلهس ، وكان لجندع بن عمر ابن عم يقال له شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن حراس . وكان من أشراف ثمود ، وأفاضلها فأراد أن يسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم . وأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوماً ، وتدعه لهم يوماً ، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها ، فيملأوون ما شاءوا من أوعيتهم ، وأوانيهم كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴾ وقال تعالى : ﴿ هذه ناقة لها شرب ولكم شربُ يوم معلوم ﴾ وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ، تردُ من فج ، وتصدر من غيره ليسعها ، لأنها كانت تتصلّع من الماء ، وكانت على ما ذكر خلقاً هائلاً ، ومنظراً رائعاً ، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه الصلاة والسلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم . فيقال انهم اتفقوا كلهم على قتلها ، قال قتادة : بلغني إن الذي قتلها طافَ عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء ، في خدورهن ، وعلى الصبيان . قلت وهذا هو الظاهر لقوله تعالى : ﴿ فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربُّهم بذنبهم فسواها ﴾ فأسند ذلك على

مجموع القبيلة ، فدلّ على رضى جميعهم بذلك ، والله أعلم . فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة ، وبلغ الخبر صالحاً عليه الصلاة والسلام فجاءهم وهم مجتمعون ، فلما رأى الناقة بكى وقال : ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ الآية ...

* * *

وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء ، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيِّتنّه وأهله ثم لنقولن لوليّه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ﴾ الآية ... فلما عزموا على ذلك وتواطأوا عليه وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبي الله ، فأرسل الله سبحانه وتعالى وله العزة ولرسوله عليهم حجارة فرضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم ، وأصبح ثمود يوم الخميس هو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام ، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ، ووجوههم محمرة ، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة ، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه ، عياذاً بالله من ذلك ، لا يدرون ما يفعل بهم ، ولا كيف يأتيهم العذاب ، وما أشرقت الشمس إلاّ وجاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة شديدة من أسفل منهم ، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس ، في ساعة واحدة . ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ أي صرعى لا أرواح فيهم . ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير لا ذكر ولا أنثى . قالوا إلاّ جارية كانت مقعدةً واسمها كلبة ابنة السلق ، ويقال لها الذريعة ، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام ، فلما رأت ما رأت من العذاب أطلقت رجلاها ، فقامت تسعى كأسرع شيء فأتت حياً من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ثم استسقتهم من الماء فلما شربت ماتت .

ويقال أن رجلاً يقال له أبو رغال كان لما وقعت الواقعة والنقمة بقومه مقيماً إذ ذاك في الحرم فلم يصبه شيء ، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله ، والله أعلم .

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٧٩)

لما أهلكهم الله تعالى بمخالفتهم إياه وتمردهم عليه ، قال لهم صالح بعد هلاكهم ﴿ لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ﴾ أي فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحاً . ولهذا قال : ﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ وذلك كما ثبت في الصحيحين ٣٠٥ : [أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً ، ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ثم سار حتى وقف على القليب قليب بدر فجعل يقول : « يا أبا جهل بن هشام ، يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » فقال له عمر : يا رسول الله ما تكلم من أقوام قد جيفوا ، فقال : « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون [1] »] وفي السيرة أنّه عليه الصلاة والسلام قال لهم ٣٠٦ : [بئس عشيرة النبيّ كنتم لنبيّكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس ، فبئس عشيرة النبيّ كنتم لنبيّكم] وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه كما تقدم ...

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ ٱلنِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ۞ (٨١) ﴾

يقول تعالى ﴿ و ﴾ ولقد أرسلنا ﴿ لوطاً ﴾ أو تقديره ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ لوطاً إذ قال لقومه ﴾ ولوط هو ابن هاران بن آزر وهو أبو إبراهيم عليهما السلام ، وكان قد آمن مع ابراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى أرض الشام [2] فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى ، يدعوهم إلى الله عز وجل ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر الذي كانوا يرتكبونه ، وهو المحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث . ولهذا قال لهم لوط عليه السلام :

---

(١) راجع التعليق على الحديث رقم ١٠٢/

(٢) الظاهر أنه التحق به بعد هجرته إلى بلاد كنعان ولأن ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، قال لسارة لما أرسلها إلى الجبار – كما طلب – قال لها : اني قلت للجبار : أنت أختي فلا تكذبيني ... فأنت أختي في الله... فليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك (ويريد أرض الشام) والله أعلم فلو أن لوطاً كان معهما لما قال ذلك ... ولأشرك لوطاً معهما في وجودهما في الأرض والله تعالى أعلم .

﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء ﴾ أي عدلتم عن النساء ، وما خلق لكم ربُّكم منهنّ إلى الرجال ، وهذا إسراف منكم وجهل لأنه وضع الشيء في غير محله ، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى : ﴿ هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ﴾ فأرشدهم إلى نسائهم فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن ﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾ أي لقد علمت أنه لا أربَ لنا في النساء ، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك ووصل الحال بهم - كما قال المفسرون - إن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض ، كذلك نساؤهم قد استغنى بعضهن ببعض أيضاً .

﴿ وَمَا كَانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۞ (٨٢) ﴾

أي ما أجابوا لوطاً إلا أن همُّوا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم ، فأخرجه الله تعالى سالماً وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين ، وقوله تعالى : ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ قال قتادة : عابوهم بغير عيب ، وقال مجاهد : إنهم أناس يتطهّرون من الأدبار رجالاً ونساءً .

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۞ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۞ (٨٤) ﴾

يقول تعالى فأنجينا لوطاً وأهله ، أي لم يؤمن أحد به سوى أهل بيته فقط . كما قال تعالى : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ إلا امرأته فإنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها تمالئهم عليه ، وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أُمِر لوط عليه السلام ليسري بأهله، أُمِر أن لا يُعلمها ولا يخرجها من البلد ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ إلاّ امرأته كانت من الغابرين ﴾ أي الباقين وقيل من الهالكين وهو تفسير باللازم ، وقوله تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ مفسر بقوله تعالى ﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ أي انظر

يا محمد كيف كان عاقبة من يجترىء على معاصي الله عز وجل ويكذب رسله .

اختلف في كيفية مجازاة من يعمل بعمل قوم لوط والصحيح ما يفهم من قوله ٣٠٧ [من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به] .

أما إتيان النساء في الأدبار ، فهو اللوطية الصغرى ، وهو حرام بإجماع العلماء، وفي ذلك أحاديث كثيرة ، عن النبي ﷺ وقد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة [1]

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ (٨٥) ﴾

« مدين » تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز . قال الله تعالى : ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمةً من الناس يسقون ﴾ وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره ان شاء الله تعالى وبه الثقة ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ وهذه دعوة الرسل كلهم قد جاءتكم بيّنة من ربكم على صدق ما جئتكم به ثم وعظهم بأن يوفوا الكيل والميزان ، ولا يخونوا الناس في أموالهم على وجه البخس ، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً . كما قال تعالى : ﴿ ويل للمطففين ﴾ إلى قولـــه تعالى ﴿ لرب العالمين ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد . نسأل الله العافية منه ، ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب الذي يقال له خطيب الأنبياء لفصاحته .

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَٱذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ

(١) راجع الآية رقم (٢٢٢) من سورة البقرة والأحاديث رقم ٣٢٣ – ٣٢٦ .

آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ❁ (٨٧)

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله تعالى : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾ أي تتوعدون الناس بالقتل ، إن لم يعطوكم أموالهم ﴿ وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً ﴾ أي وتودون أن تكون سبيل الله عوجاء مائلة ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ﴾ أي كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم ، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أي من الأمم الخالية وما حل بهم من النكال باجترائهم على المعاصي والكفر . وقوله تعالى : ﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ﴾ أي قد اختلفتم علي ﴿ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ﴾ أي يفصل بيننا وبينكم ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ ومن هذا الخير أنه سيجعل العاقبة للمتقين والدمار على الكافرين .



قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ❁ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ❁ (٨٩)

يخبر تعالى عن تهديد الكفار لشعيب عليه السلام ، ولمن معه من المؤمنين بالنفي ، أو العودة إلى دينهم ، وقوله تعالى : ﴿ أو لو كنا كارهين ﴾ أي قال شعيب : ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه فإذا عدنا إلى دينكم ﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾ أي من الشرك وهذا تنفير عن اتباعهم ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن

يشاءَ الله ربّنا ﴾ وهذا رد إلى الله مستقيم ، فإنه يعلم كل شيء وإليه يعود المراد ،والمشيئة[1] ﴿ على الله توكلنا ﴾ في أمورنا ما نأتي منها وما نذر ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ أي انصرنا عليهم ﴿ وأنت خير الفاتحين ﴾ بالعدل فتنصرنا على أعدائك وأعدائنا ، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ۞ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۞ (٩١) ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ ٱلْخَاسِرِينَ ۞ (٩٢) ﴾

يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمرّدهم على الحق ، ولهذا أقسموا وقالوا : ﴿ لئن اتّبعتم شعيباً إنكم اذاً لخاسرون ﴾ فلهذا عقّبه بقوله تعالى : ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ وذلك كما توعّدوا شعيباً وأصحابه بالجلاء كما أخبر عنهم في سورة هود فقال تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ .

والمناسبة هنا ــ والله أعلم ــ أنهم لما تهكّموا به في قولهم : ﴿ أصلاتك تأمرك ﴾ الآية فجاءت الصيحة فأسكتتهم وقوله تعالى : ﴿ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها ﴾ أي كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا اجلاء الرسول وصحبه منها . ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم : ﴿ الذينَ كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين ﴾

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ۞ (٩٣) ﴾

أي فتولّى عنهم شعيب عليه السلام بعدما أصابهم العذاب ، وقال لهم موبخاً : ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ﴾ أي قد أديت الرسالة فلا آسف على ما

(١) قلت : ولكن لا يمكن أن يضل الله قوماً بعد إذ هداهم إلا اذا استحبوا هم الضلالة على الهدى ، أو أن قلوبهم تغيرت فيجازيهم على ذلك من نوع عملهم فيضلهم جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد .

أصابكم ﴿ فكيف آسى على قوم كافرين ﴾

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۞ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ (٩٥) ﴾

يخبر تعالى عمّا اختبر به الأمم الماضية ، الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء،والبأساء ما يصنيبهم في أبدانهم من الأمراض ، والضراء ما يصيبهم من الفقر والحاجة لعلهم يضّرّعون ، فقد ابتلاهم سبحانه بالشدة ليرجعوا إليه ويتوبوا ، فلم يفعلوا ،فابتلاهم بالرخاء ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم بد لنا مكان السيئة الحسنة ﴾ ليشكروه سبحانه على ذلك فما فعلوا . وقوله تعالى : ﴿ حتى عفَوْا ﴾ أي كثروا مالاً وولداً . يقال عفا الشيء إذا كثر ﴿ وقالوا قد مسَّ آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتةً وهم لا يشعرون ﴾ أي قد مسّنا من البأساء ثم الرخاء ما مسَّ آباءنا من قبل ، دون أن ينتبهوا لأمر الله فيهم ، ولااستشعروا ابتلاءه لهم في الحالين ، وهذا بخلاف المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ، ويصبرون على الضراء ، كما ثبت في الصحيحين ٣٠٨ : [عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له ، إن اصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له] فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله من الضراء والسراء ولهذا جاء في الحديث ٣٠٩ : [لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه ، والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري فيم ربطه أهلُه ولا فيم أرسلوه] أو كما قال ﷺ ولهذا عقب هذه الصفة بقوله جل وعلا : ﴿ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ أي أخذناهم بالعقوبة فجأة كما في الحديث ٣١٠ : [موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر]

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ (٩٦)

أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۞ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ ۞ (٩٩)

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل فقوله تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ﴾ أي لو صدقت قلوبهم بما جاءت به الرسل ، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرّمات ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ أي قطر السماء ونبات الأرض . قال تعالى : ﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ أي ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم ، ثم قال تعالى محذراً من مخالفة أوامره ، والتجرؤ على زواجره ﴿ أفأمن أهل القرى ﴾ أي الكافرة ، ﴿ أن يأتيَهم بأسُنا ﴾ أي عذابنا ﴿ بياتاً ﴾ أي ليلاً ﴿ وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيَهم بأسُنا ضحىً وهم يلعبون ﴾ أي حال شغلهم وغفلتهم. ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ ولهذا قال الحسن البصري : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن .

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۞ (١٠٠)

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ﴾ : يقول تعالى أو لم يتبين للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم ، وعتوا على ربهم . ﴿ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ﴾ يقول تعالى : لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿ ونطبع على قلوبهم ﴾ يقول سبحانه ونختم على قلوبهم ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ موعظة ولا تذكيراً . وذلك كما قال تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ أي هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً ؟ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه **وحصول نعمه لأوليائه** .

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ۞ (١٠٢) ﴾

لما قصَّ تعالى على نبيِّه ﷺ خبرَ قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما كان من إهلاكه للكافرين، وإنجائه للمؤمنين. وانه تعالى أعذر اليهم بأن بيّن لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين قال تعالى: ﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ﴾ أي نقص عليك يا محمد من أخبارها ﴿ ولقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات ﴾ أي الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به. كما قال تعالى: ﴿ وما كنّا معذبين حتى نبعثَ رسولاً ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبل ﴾ الباء سببية أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل، بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم [1]. حكاه ابن عطية رحمه الله وهو متّجه حسن. ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا لأكثرهم ﴾ أي لأكثر الأمم الماضية ﴿ من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ أي ولقد وجدنا أكثرها فاسقين، خارجين عن الطاعة والامتثال، والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم، وإنه لا آله الا هو، وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك. وجاءت الرسل الكرام جميعاً بالنهي عن ذلك، كما جاء في صحيح مسلم بقول الله تعالى ٣١١ : [اني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم.] وفي الصحيحين ٣١٢ : [كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه] الحديث.

---

(١) قلت: لما عرض عليهم الحق أول مرة ولم يؤمنوا به، جازاهم الله تعالى بالطبع على قلوبهم فلم يدعهم يؤمنون، مجازاة لهم على كفرهم بالمرة الأولى وذلك جزاء من نوع العمل فكان جزاء وفاقاً.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۞ (١٠٣) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾ أي بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين ﴿ موسى بآياتنا ﴾ أي بحجتنا ودلائلنا البيّنة ﴿ الى فرعون ﴾ وهو ملك مصر في زمن موسى ﴿ وملئه ﴾ أي قومه ﴿ فظلموا بها ﴾ أي جحدوا وكفروا بها ظلماً وعناداً ، ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أي انظر يا محمد كيف فعلنا بهم ، وأغرقناهم عن آخرهم ، بمرأى من موسى وقومه ، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه ، وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ (١٠٦) ﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون ، وإلجامه إياه بالحجة ، وإظهاره الآيات البينات بحضور فرعون وقومه . فقال تعالى : ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين ۞ حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق ﴾ أي واجب عليّ وحقٌ أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ﴿ قد جئتكم ببيّنة من ربكم ﴾ أي بحجة قاطعة من الله ، دليلاً على صدقي فيما جئتكم به ﴿ فأرسل معي بني اسرائيل ﴾ أي أطلقهم من أسرك وقهرك ، ودعهم وعبادة ربهم وربك ، فإنهم من سلالة نبيّ كريم ، إسرائيل وهو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم خليل الرحمن ﴿ قال إن كنتَ جئت بآية فأتِ بها إن كنت من الصادقين ﴾ أي لست بمصدّقك ولا بمعطيك فيما طلبت ، فإن كنت صادقاً فهات حجتك فأظهرها لنراها ونؤمن بها .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ۝ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ۝ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۝ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ (١١٠) ﴾

الثعبان هو الذكر من الحيات فقوله تعالى : ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ قال السدي الثعبان هو الذكر من الحيات فاتحة فاها واضعةً لحيها الأسفل في الأرض، والأعلى على سور القصر ، ثم توجهتْ نحو فرعون لتأخذه فلما رآها ذعر منها ووثب ، وأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك ، وصاح يا موسى خذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني اسرائيل ، فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصا . وروي عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا . وقوله تعالى : ﴿ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ أي أخرج يده من درعه تتلألأ من غير برص ولا مرض ، كما قال تعالى : ﴿ وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ الآية ... قال ابن عباس أي من غير برص ثم أعادها إلى كمّه فعادت إلى لونها الأول . وقوله تعالى : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون ﴾ أي قال الجمهور من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع إليه روعه ، واستقر على سرير مملكته ، بعد ذلك قال للملأ حوله : ﴿ إنَّ هذا لساحر عليم ﴾ فوافقوا وقالوا مقالته وتشاوروا كيف يخمدون كلمته ، ويطفئون نوره ، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره ، فيكون سبباً لظهوره عليهم ، وإخراجهم من أرضهم والذي خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى : ﴿ ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ واتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى :

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ۝ (١١٢) ﴾

قال ابن عباس ﴿ أرجه ﴾ أخّرْه ﴿ وأرسل ﴾ أي ابعث ﴿ في المدائن ﴾ أي الأقاليم ومدن ملكك ﴿ حاشرين ﴾ أي من يحشر السحرة من سائر البلاد ويجمعهم ، وقد كان السحر في زمانهم غالباً ، كثيراً ظاهراً ، وظنوا ان ما جاء به موسى عليه السلام من

قبيل ما تشعبذه سحرتهم . فلهذا جمعوهم . ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات فواعدوه . كما قال تعالى : ﴿ قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾ وقال تعالى هاهنا :

﴿ وَجَاءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ * (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * (١١٤) ﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام ، إن غلبوا موسى ليثيبنّهم وليعطينّهم عطاءً جزيلاً فوعدهم بما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده فلما توثقوا من فرعون لعنه الله .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ *(١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * (١١٦) ﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم : ﴿ إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ أي قبلك فقال لهم موسى عليه السلام : ألقوا أنتم أولا ، حتى يرى الناس صنيعهم ، ويتأملوه ، فإذا فرغوا من بهرجهم جاءهم الحق الجلي بعد التطلب له ، والانتظار منهم لمجيئه فيكون أوقع في النفوس وهكذا كان . ولهذا قال تعالى : ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾ أي خيّلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه حقيقة . كما قال تعالى : ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقفْ ما صنعوا إنّ ما صنعوا كيدَ ساحرٍ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾

﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾ ، فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً وذلك من سحرهم الذي اختطفوا به بصر موسى وبصر فرعون ثم أبصار الناس ولهذا قال تعالى : ﴿ وجاءوا بسحر عظيم ﴾



﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۞(١١٧) فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞(١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَٱنْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ۞ (١١٩) وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۞(١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۞(١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۞(١٢٢) ﴾

أوحى الله إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام بأن يلقي عصاه ﴿ فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ أي تأكل ما يوهمون أنه حق وهو باطل. قال ابن عباس فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ليس هذا بسحر فخروا سجداً وقالوا : ﴿ آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾ فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞(١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۞(١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ۞(١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۞ (١٢٦) ﴾

يخبر تعالى عما توعَّد به فرعون لعنه الله السحرةَ ، لما آمنوا بموسى عليه السلام ، وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله تعالى : ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها ﴾ أي إن غلبته لكم في يومكم هذا ، إنما كان عن تشاورٍ منكم ورضا لذلك. كقوله في الآية الأخرى : ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ وهو يعلم وكل عاقل يعلم ، أن هذا القولُ باطلٌ. لأن موسى لا يعرف أحداً من السحرة ولا رآه ، ولا اجتمع به . وفرعون يعلم ذلك . وإنّما قال هذا تستراً وتدليساً على رعاع دولته

وجهلتهم كما قال تعالى : ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ فإن قوماً صدقوه في قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ من أجهل خلق الله وأضلهم . وقوله تعالى : ﴿ لتخرجوا منها أهلها ﴾ لتخرجوا منها الرؤساء والأكابر وتكون الدولة والتصرف له ولكم ﴿ فسوف تعلمون ﴾ ما سأصنع بكم ثم فسر هذا الوعيد بقوله : ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ يعني يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ وقال في الآية الأخرى ﴿ في جذوع النخل ﴾ أي على الجذوع .

قال ابن عباس : وكان أول من صلب واول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون.وقول السحرة : ﴿ إنَّا إلى ربنا منقلبون ﴾ أي قد تحققنا انا اليه راجعون ، وعذابه أشد من عذابك فلنصبر اليوم على عذابك . لنخلص من عذاب الله . ولهذا قالوا : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفّنا مسلمين ﴾ أي عُمّنا بالصبر على دينك وتوفنا متابعين لنبيك موسى عليه السلام ، وقالوا لفرعون ﴿ فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى * إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العُلى ﴾ فكانوا أول النهار سحرة ، فصاروا في آخره شهداء بررة .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ۝ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝ (١٢٩) ﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وقومه ، وما أضمروه لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغيضة ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون ﴾ أي لفرعون ﴿ أتذر موسى وقومه ﴾ أي تدعهم ليفسدوا رعيّتك ويدْعوهم إلى عبادة ربهم دونك ؟ ولهذا قالوا : ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ قال السدي : وآلهته فيما زعم ابن عباس كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم

أن يعبدوها . فلذلك أخرج لهم السامري عجلاً جسداً له خوار. والمعنى : أتذره وقومه يفسدون رعيتك وقد ترك عبادتك وعبادة آلهتك . فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله : سنقتل أبناءهم ، ونستحيي نساءهم ، وكان قد نكل بهم ذلك قبل ولادة موسى عليه السلام خوفاً من وجوده فكان المقدّر خلاف ما رامه فرعون ، وهكذا عومل في صنيعه أيضاً لما أراد إذلال بني اسرائيل وقهرَهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد : أعزهم الله وأذلّه ، وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده . ولما صمم فرعون على إساءته لبني إسرائيل ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ﴾ ووعدهم بأن الدار ستصير لهم، في قوله تعالى : ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ أي قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضر وما سيصيرون إليه في ثاني حال : ﴿ عسى ربّكم أن يُهلك عدوكم ﴾ وهذا : تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ (١٣١) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون ﴾ أي امتحناهم ﴿ بالسنين ﴾ وهي سنيّ الجوع بسبب قلة الزروع ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ أي كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة ، ﴿ لعلهم يذكرون فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ أي من الخصب والرزق ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أي هذا لنا بما نستحقه ﴿ وإن تصبْهم سيئة ﴾ أي جدب وقحط ﴿ يطيّروا بموسى ومن معه ﴾ أي هذا بسببهم وما جاءوا به ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ أي مصائبهم عند الله ومن قِبَله تعالى ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ

آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ۞ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ۞ (١٣٥)

هذا إخبار من الله عز وجل ، عن تمرد قوم فرعون ، وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل ـ في قولهم : ﴿ مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾ يقولون : أيّ آية جئتنا بها ، ودلالة وحجة أقمتها ، رددناها . فلا نقبلها منك ، ولا نؤمن بك ، ولا بما جئت به . قال الله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ قال ابن عباس كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار ﴿ والجراد ﴾ وأما الجراد فمعروف مشهور ومأكول لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور قال سألت عبدالله بن أبي أوفى عن الجراد فقال : ٣١٣ [غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد] وروى الشافعي وأحمد وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال ٣١٤ [أحلت لنا ميتتان ودمان الحوت والجراد والكبد والطحال] وروى ابن ماجه عن أنس وجابر عن رسول الله ﷺ ٣١٥ : [أنه كان إذا دعا على الجراد قال : « اللهم أهلك كباره واقتل صغاره وأفسد بيضه واقطع دابره وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا انك سميع الدعاء » فقال له جابر : يا رسول الله أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال : « إنما هو نثرة حوت في البحر . »] وهكذا فإن الجراد جند الله أرسله الله على فرعون وقومه ، حتى انه كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم ، وأكل الشجر والثمر والزروع .

﴿ والقمل ﴾ وقد أرسل الله عليهم القمل وقال ابن اسحق بن يسار رحمه الله من حديث له ... فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار ﴿ والضفادع ﴾ ثم أرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجدوا فيه الضفادع قد غلبت عليه حتى ان الرجل إذا هم أن يتكلم وثب الضفدع في فيه ﴿ والدم ﴾ ثم ارسل الله عليهم الدم فصارت

مياه آل فرعون دماً، لا يستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً[١] ﴿آيات مفصلات﴾ أي كل هذه الآيات الظاهرات أرسلها الله عليهم ، ليؤمنوا فما آمنوا . وكلما أتتهم آية يُهرَعون إلى موسى قائلين : أدع لنا ربك أن يكشف عنا فنؤمنَ لك ، ونرسلَ معك بني اسرائيل فيدعو موسى ربَّه فيكشف الله عنهم ما هم فيه ولكن لا يَفُونَ له بشيء ، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل . وهكذا فقد ظلّوا على كفرهم وعنادهم ، فحقّت عليهم النقمة من الله سبحانه ، فانتقم منهم فأغرقهم ، وأورث المؤمنين من بعدهم الأرضَ المقدسة ، بما صبروا ودمر الكافرين .

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمرّدوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة ، واحدة بعد واحدة انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم . وهو البحر الذي فرقه موسى فجاوزه وبنو اسرائيل معه .

ثم ورده فرعونُ ، وجنوده على أثرهم . فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله . وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو إسرائيل مشارقَ الأرض ومغاربَها . كما قال تعالى : ﴿ونريد أن نمنَّ على الذين استضعِفوا في الأرض ونجعلَهم أئمةً ونجعلَهم الوارثين * ونمكّن لهم في الأرض ونُريَ فرعون وهامان وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون﴾

وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ يعني الشام . وقوله تعالى : ﴿وتمّت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا﴾ قال مجاهد وابن جرير : وهي قوله تعالى : ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكّن لهم في الأرض ونُريَ فرعون وهامان

(١) أي دماً خالصاً .

وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ﴾ أي وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾ قال ابن عباس ومجاهد ﴿ يعرشون ﴾ يبنون ..

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَل لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۞ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (١٣٩) ﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلةُ بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر ، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ... ﴿ فأتوا ﴾ أي فمرّوا ﴿ على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴾ قال بعض المفسرين كانوا من الكنعانيين . قال ابن جرير : وكانوا يعبدون أصناماً على صورة البقر فلهذا أثار ذلك شبهةً لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك ، فقالوا : ﴿ يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ﴾ أي تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزّه عنه من الشريك والمثيل ﴿ إنّ هؤلاء متبّرٌ ما هم فيه ﴾ أي هالك ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ وروى الامام أبو جعفر بن جرير في تفسير هذه الآية ٣١٦ [— ان[1] المسلمين — خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين قال وكان للكفار سدرةٌ يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم ، يقال لها : ذات أنواط . قال فمررنا بسدرة خضراء ، عظيمة . قال : فقلنا يا رسول الله : إجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذاتُ انواط فقال : « قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى : إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال : ﴿ إنكم قوم تجهلون . إنّ هؤلاء متبرّ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾]

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ (١٤٠)

(١) عن أبي واقد الليثي .

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * (١٤١)﴾

يذكّرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم من إنقاذهم من أسْر فرعون وقهره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة ، وما صاروا اليه من العزة ، والاشتفاء من عدوهم ، والنظر اليه حال ذله وغرقه ودماره .[١]



﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ * (١٤٢)﴾

يقول تعالى ممتناً على بني اسرائيل ، بما حصل لهم من الهداية ، بتكليمه موسى عليه السلام وإعطائه التوراة ، وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم ، فذكر تعالى انه واعد موسى ثلاثين ليلةً . قال المفسرون فصامها موسى عليه السلام وطواها . فلمّا تمّ الميقات استاك بلحاء شجرة [٢] . فأمره تعالى أن يكمل بعشر أربعين ، وأكثر المفسرين على ان الثلاثين هي ذو القعدة والعشر عشر ذي الحجة روى عن ابن عباس وغيره فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر ، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام ، وفيه اكمل الله لمحمد ﷺ الدين كما قال تعالى : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا﴾ فلمّا تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور ، استخلف اخاه هارون على بني إسرائيل ، ووصّاه بالإصلاح وعدم الإفساد . وهذا من قبيل التذكير وإلاّ فهارون عليه السلام نبيٌ شريف كريم على الله ، له وجاهةٌ وجلالة صلى الله على نبينا ، وعليه وعلى سائر الأنبياء وسلّم .

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ

---

(١) وقد تقدم تفسيرها في سورة البقرة الآية رقم (٤٩) في المجلد الأول من هذا المختصر .
(٢) أي بقشر شجرة .

إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿ ١٤٣ ﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام ، انه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكليم من الله سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال : ﴿رب أرني أنظر اليك قال لن تراني﴾ وقد أشكل حرف ﴿لن﴾ ها هنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأبيد فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة ، وهذا اضعف الأقوال والصحيح أنها لنفي الرؤية في الدنيا فقط وهناك الأدلة القاطعة بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة كما سنوردها عند قوله تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ [1] وفي الكتب المتقدمة ، أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام « يا موسى إنه لا يراني حي إلاّ مات ولا يابس إلا تدهده » ولهذا قال تعالى : ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً﴾ روى ابن جرير عن أنس قال : ٣١٧ [قرأ رسول الله ﷺ : ﴿فلما تجلىّ ربّه للجبل جعله دكاً﴾ قال ووضع الإبهام قريباً من طرف خنصره قال : فساخ الجبل قال حميد لثابت يقول هكذا ؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد ، وقال : يقوله رسول الله ﷺ ويقوله أنس ، وأنا أكتمه ؟] وهكذا رواه الامام أحمد والترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلاّ من حديث حماد . وهكذا رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ورواه أبو محمد الحسن بن محمد بن علي الخلال . وقال هذا اسناد صحيح لا علة فيه ﴿جعله دكاً﴾ أي تراباً ﴿وخر موسى صعقاً﴾ قال مغشياً عليه وقيل ميتاً . والصحيح الأول لقوله تعالى : ﴿فلما أفاق﴾ والإفاقة لا تكون إلاّ عن غشي . ﴿قال سبحانك﴾ تنزيهاً وتعظيماً واجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات . وقوله تعالى : ﴿تبت إليك﴾ أي تبت إليك من سؤالك الرؤية ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ قال ابن عباس أي أول المؤمنين من بني اسرائيل . وقال ابو العالية : قد كان قبله مؤمنون ولكن يقول أنا أول من آمن بك بأنه لا يراك احد من خلقك إلى يوم القيامة .

قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي

(١) أنظر سورة القيامة الآية رقم /٢٣/

فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ ۞(١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَاسِقِينَ ۞ (١٤٥)

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنّه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه ، ولا شك أن محمداً ﷺ سيّد ولد آدم من الأولين والآخرين ولهذا اختصّه الله تعالى بأن جعله خاتم النبيين والمرسلين كلهم ؛ وبعده في الشرف والفضل إبراهيم عليه السلام ثم موسى بن عمران كليم الرحمن عليه السلام ولهذا قال الله تعالى له : ﴿ فخذ ما آتيتك ﴾ أي من الكلام والمناجاة ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ أي على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به . ثم اخبر تعالى : انه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة ، وتفصيلاً لكل شيء . وان الله تعالى كتب له فيها مواعظ واحكاماً ، مفصلة مبينة للحلال والحرام ، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فخذها بقوة ﴾ أي بعزم على الطاعة ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ أي بأشد ما أمر قومه ، وقوله تعالى : ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ أي سترون عاقبة من خالف أمري ، وخرج عن طاعتي ، كيف يصير إلى الهلاك والدمار .

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ۞(١٤٦) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (١٤٧)

يقول تعالى : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ أي سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي ، قلوب المتكبرين عن طاعتي ،

ويتكبرون على الناس بغير حق ، أي كما استكبروا بغير حق ، أذلهم الله بالجهل . كما قال تعالى : ﴿ ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ وقال بعض السلف لا ينال العلم حيي ولا مستكبر . وقوله تعالى : ﴿ وإن يروا كل آيةٍ لا يؤمنوا بها ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقّتْ عليهم كلمةُ ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آيةٍ حتى يرَوُا العذاب الأليم ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ﴾ أي وإن ظهر لهم طريق النجاة لا يسلكوها ، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً ؛ ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ أي بسبب ما كذّبت بها قلوبهم ﴿ وكانوا عنها غافلين ﴾ أي لا يعملون بما فيها . وقوله تعالى : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم ﴾ أي من فعل منهم ذلك واستمر إلى الممات عليه حبط عمله . وقوله تعالى : ﴿ هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ أي إنما نجازيهم بحسب اعمالهم التي أسلفوها إن خيراً فخير وان شراً فشر وكما تدين تدان .

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ۞(١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ۞(١٤٩) ﴾

يخبر تعالى عن ضلال من ضلّ من بني اسرائيل ، في عبادتهم العجل ، الذي اتخذه لهم السامريُّ ، من حُليّهم ، فشكّل لهم منه عجلاً ، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من اثر فرس جبريل عليه السلام فصار عجلاً له خوار . والخوار صوت البقر ، وحصل ذلك بعد ذهاب موسى للميقات ، فأعلمه الله تعالى بذلك ، وهو على الطور . كما قال تعالى : ﴿ قال فإنّا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامريُّ ﴾ ويقال إنهم لما صوت لهم العجل رقصوا حوله وافتتنوا به [1] ، وقالوا هذا إلهكم وإله موسى . قال الله تعالى : ﴿ أفلا يرون ألاّ يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾ ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل ،

(١) ذكر أن حلقات (الرقص) التي يقيمها أهل الطرق في زمننا الحاضر ، ويسمونها (حلق الذكر) - وجلّ ذكر الله عنها - مأخوذة من رقصات بني اسرائيل حول العجل !!! فتأمل !!!

وذهولهم عن خالق السموات والارض . فعبدوا معه عجلاً جسداً له خوار ، لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ، ولكن عمى الجهل غطى على بصائرهم . روى أحمد عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ ٣١٨ [حبك الشيء يعمي ويصم] .

وقوله تعالى : ﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ أي ندموا على ما فعلوا ﴿ ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ أي من الهالكين . وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل .

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ (١٥٠) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۞ (١٥١) ﴾

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى غضبان أشد الغضب ﴿ قال بئسما خلفتموني من بعدي ﴾ أي بئس ما صنعتم في غيابي ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ أي ان الله هو الذي قدّر غيابي وتأخري ﴿ وألقى الالواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه ﴾ أي القى الالواح غضباً على قومه ، وفي غضبته هذه دلالة على ما جاء في الحديث ٣١٩ [ليس الخبر كالمعاينة] واخذ برأس أخيه يجره إليه خوفاً من أن يكون قد قصّر في نهيهم كما قال في الآية الاخرى : ﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت أمري ۞ قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ۞ إني خشيت أن تقول فرّقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي ﴾ وقال ها هنا : ﴿ ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تُشمِتْ بي الاعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ أي لا تسقني مساقهم ولا تخلطني معهم . وإنما قال : ابن أمَّ ليكون أرقَّ وأنجعَ عنده وإلاّ فهو شقيقه لأبيه وأمه فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام ، ﴿ قال رب اغفر لي ولأخي وادخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال

قال رسول الله ﷺ : ٣٢٠ . [يرحم الله موسى ليس المعاين كالمُخبَرِ أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلقِ الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح .]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِن رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ۞ (١٥٢) وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (١٥٣) ﴾

الغضب الذي نالهم من الله تعالى ، هو أنه لم يقبل توبتهم حتى قتل بعضهم بعضاً . كما تقدم في سورة البقرة (١) واما الذلة ، فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا ، وقوله تعالى : ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ أي نعاقب بذلك كل مفتر بدعة ، فإن ذل البدعة ، ومخالفة الرشاد متصلة من قلبه على كتفيه ، ثم نبَّه تعالى عباده وارشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان ، حتى الكفر والشرك والنفاق ولهذا عقب هذه القصة بقوله تعالى : ﴿ والذين عملوا السيئآت ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها ﴾ أي تلك الفعلة ﴿ لغفور رحيم ﴾

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ۞ (١٥٤) ﴾

يقول تعالى : ﴿ولما سكت﴾ أي سكن ﴿عن موسى الغضب﴾ أي غضبه على قومه ﴿أخذ الالواح﴾ أي التي القاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل،غيرة لله وغضباً له ﴿وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ يقول كثير من المفسرين أنها لما ألقاها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك ، ولهذا قال بعض السلف فوجد فيها هدى ورحمة ، وأما الدليل الواضح على أنها تكسرت حين القاها وهي من جوهر الجنة فقد اخبر تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها ﴿هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾

---

(١) راجع الآية /٥٤/ من سورة البقرة عند قوله تعالى : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ... »

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ۞ (١٥٥) وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾



﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۞ (١٥٦)﴾

كان الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يختار من قومه سبعين رجلاً. فاختارهم من أخير بني اسرائيل وقال لهم : انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم من عبادة العجل وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقّته له ربه، وكان لا يأتيه إلاّ بإذن منه تعالى، فلما فعلوا ما أمرهم به وخرجوا للقاء ربهم قالوا لموسى عليه السلام : أطلب لنا نسمع كلام ربنا ، فقال : أفعل ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشّى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم : أدنوا فدنوا حتى إذا دخلوا في الغمام ووقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه إفعل ولا تفعل فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا : ﴿لن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرةً فأخذتهم الصاعقة﴾ أي فماتوا جميعا ،
فقام موسى يناشد ربّه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : ﴿رب لو شئتَ اهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلاّ فتنتك تُضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ فقوله تعالى حكايةً عن موسى : ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا﴾ أي أتهلك هؤلاء بما فعل السفهاء منا من عبادة العجل قال ابن عباس وقتادة وابن جرير : إنهم أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ولانهوهم . ويتوجه هذا القول بقول موسى . ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ وقوله : ﴿إن هي إلاّ فتنتك﴾ أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من علماء السلف والخلف ، ولا معنى له غير ذلك

يقول : إن الأمر إلاّ أمرُك ، وإن الحكم إلا حكمك ، لك الخلق والأمر ، وقولــه : ﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ الغفر هو السّتر وترك المؤآخذة بالذنب والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها ان لا يوقعه في مثله في المستقبل ﴿وانت خير الغافرين﴾ أي لا يغفر الذنب إلا أنت ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾ فالذي تقدم من الدعاء هو لدفع المحذور ... أي ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾ لتحصيل المقصود أي أوجب لنا واثبت لنا فيهما حسنة وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة [1] ﴿إنّا هدنا اليك﴾ أي تبنا ورجعنا وأنبنا اليك [2] . وقوله تعالى : ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء﴾ أي أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد ولي الحكمة والعدل في كل ذلك سبحانه وتعالى لا إله إلا هو . وقوله تعالى : ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ أي عظيمة الشمول والعموم كقوله تعالى اخباراً عن حملة العرش ومن حوله انهم يقولون : ﴿ربنا وسعت كل شيءٍ رحمةً وعلماً﴾ روى الامام احمد عن سلمان عن النبي ﷺ قال
[إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش ٣٢١
على أولادها وأخرّ تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة] وأخرجه مسلم . وقوله تعالى : ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾ الآية يعني فسأوجبها أي فسأوجب حصول رحمتي منّةً مني وإحساناً إليهم وقوله تعالى : ﴿للذين يتقون﴾ أي يتقون الشرك والعظائم من الذنوب وقوله تعالى : ﴿ويؤتون الزكاة﴾ قيل زكاة النفوس ، وقيل الاموال ، ويحتمل ان تكون عامةً لهما فإن الآية مكية ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ أي يصدقون .

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ (١٥٧) ﴾

(١) راجع تفسيرها في سورة البقرة عند الآية /٢٠١/ .
(٢) ثم أحياهم الله بدليل قوله تعالى : « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون البقرة آية /٥٦/ .

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والأنجيل﴾ وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الانبياء ، بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته ولم تـزل صفاته موجودةً في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم . كما روى الإمام أحمد عن أبي صخر العقيلي قال حدثني رجل من الأعراب قال ٣٢٢ [جلبت حلوبةً إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ فلما فرغت من بيعي قلت : لألقيّن هذا الرجل فلأسمعن منه قال فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون فتبعتهم حتى أتوا على رجلٍ من اليهود ناشراً التوراة يقرأها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها فقال رسول الله ﷺ : « انشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي » فقال برأسه هكذا ، أي : لا . فقال ابنه : أي والذي انزل التوراة إنّا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك وإني أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أنك رسول الله فقال : « أقيموا اليهودي عن أخيكم » ثم تولىّ كفنه والصلاة عليه] هذا حديث قوي له شاهد في الصحيح عن أنس .

وقال ابن جرير عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبدالله بن عمرو فقلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال أجل والله انه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن : ﴿يا أيها النبي إنا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ وحرزاً للأميين انت عبدي ورسولي اسمك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله الا الله ويفتح به قلوباً غلفاً وآذاناً صماً وأعيناً عمياً ، قال عطاء : ثم لقيت كعبـاً فسألته عن ذلك فما اختلف حرفاً إلا ان كعباً قال بلغته : قال : قلوباً غلوفياً وآذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً . وقد رواه البخاري في صحيحه وزاد قوله ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح

هذه صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر كما قال عبدالله بن مسعود : إذا سمعت الله يقول : ﴿يا ايها الذين آمنوا﴾ فأرعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه . وقوله تعالى : ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ، ويحرم عليهم الخبائث : كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى . قال بعض العلماء فكل ما أحل الله فهو طيب نافع في البدن والدين وكل

ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين [1] وقوله تعالى : ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ أي انه جاءبالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٣٢٣ [بعثت بالحنيفية السمحة] وقوله ﷺ لأميريه معاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن ٣٢٤ [بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطاوعا ولا تختلفا] وعن أبي برزة الأسلمي **قال** قال عليه الصلاة والسلام ٣٢٥ [ان الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أوتعمل [وقال ﷺ : ٣٢٦ [رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه] ولهذا قال : ٣٢٧ [ارشد الله هذه الامة أن يقولوا : ﴿ ربنا لا تؤآخذنا إن نسينا أو اخطأنا ربناولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ وثبت في صحيح مسلم ٣٢٨ [ان الله تعالى قال بعد كل سؤآل من هذه: قدْ فعلت قدْ فعلت] وقوله تعالى : ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه﴾ أي عظموه ووقروه . وقوله تعالى : ﴿ واتبعوا النور الذي أنزل معه ﴾ أي القرآن والسنة ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ في الدنيا والآخرة .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(١٥٨)

يقول الله لنبيه ورسوله محمد ﷺ : ﴿قل﴾ يا محمد ﴿ يا أيها الناس﴾ وهذا خطاب عام للأحمر والأسود والأبيض والعربي والعجمي ﴿ إني رسول الله اليكم جميعاً ﴾ وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وانه مبعوث إلى الناس كافة كما قال الله تعالى : ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ وقال تعالى : ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾ والآيات في هذا كثيرة والأحاديث أكثر من أن تحصر ؛ وهو أمر معلوم من دين الاسلام ضرورةً انه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم .

---

(١) قلت : ومن ذلك الدخان ويشمل التمبغ والتنباك والقات والمضغة فهو خبيث الرائحة والطعم ، ومضر ضرراً بالغاً بالجسم. وقد قرر الاطباء أن أكثر من ٦٠٪ من إصابات السرطان بالرئة والشفة والحنجرة ، متأتٍ من شرب الدخان ! ! **فهل** يتوقف أحد في تحريمه ؟ هذا عدا عن أنه مضر ، وفيه سموم ، يكفي قليل منها لقتل بعض الحيوانات فوراً .

روى الامام احمد عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده ٣٢٩ [ان رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتى اذا صلى انصرف اليهم فقال لهم : « لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامةً وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملىء مني رعباً، وأحلت لي الغنائم أكلها وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يحرقونها ، وجعلت لي الارض مسجداً وطهوراً أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت وكان من قبلي يعظمون ذلك انما كانوا يصلون في بيعهم وكنائسهم ، والخامسة هي ما هي قيل لي سل فان كل نبي قد سأل فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة فهي لكم ولمن شهد أن لا إله الا الله »] إسناد جيد قوي ولم يخرجوه.روى مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ٣٣٠ [والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلاّ دخل النار] روى الامام أحمد عن أبي موسى رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ٣٣١ [من سمع بي من امتي يهودي او نصراني فلم يؤمن بي لم يدخل الجنة] وقوله تعالى : ﴿الذي له ملك السموات والارض لا اله الا هو يحي ويميت﴾ صفة لله تعالى في قول رسول الله ﷺ أي الذي ارسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي بيده الاحياء والإماتة وله الحكم ، وقوله تعالى : ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي﴾ اخبرهم انه رسول الله اليهم وهو الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة فانه منعوت بذلك في كتبهم ولهذا قال النبي الأمي . وقوله تعالى : ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ أي يصدق قولَه عملُه وهو يؤمن بما أنزل اليه من ربه ﴿واتبعوه﴾ أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي إلى الصراط المستقيم .

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

يخبر تعالى عن طائفة من بني اسرائيل يتبعون الحق ويعدلون به كما قال تعالى : ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب﴾ وكما قال تعالى : ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ الآية ويقال أن بني اسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا، وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله عز وجل أن يفرق بينهم وبينهم . = فهؤلاء ظلوا على الحق وهم

يحكمون به بالعدل ، وهناك بعض أخبار عنهم أي عن هذه الفئة المؤمنة لم تثبت بنقل صحيح عن الثقات فلذلك نضرب صفحاً عن ذكرها =[1]

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ ٱسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ ٱضْرِب بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ (١٦١) فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ۝ (١٦٢) ﴾

تقدَّم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدنية وهذا السياق مكي فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب لأن الله تعالى يقصُّ على رسوله ﷺ ما فعل بهم ، أما في سورة البقرة وهي مدنية فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً اليهم وأخبرهم بقوله تعالى : ﴿فانبجستْ منه اثنتا عشرةَ عيناً﴾ وهو أول الانفجار ، وأخبر هناك بما آل اليه الحال آخراً وهو الانفجار فناسب ذكر الانفجار هناك والانبجاس هنا والله أعلم .

﴿ وَٱسْأَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝ (١٦٣) ﴾

هذا بسط لقوله تعالى: ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ﴾ الآية يقول تعالى لنبيّه صلوات الله وسلامه عليه : ﴿واسألهم﴾ أي واسأل عن هؤلاء اليهود الذين

(١) ما بين المساويين من كلام المختصر لا من كلام المفسر رحمه الله وغفر له .

بحضرتك عن قصة اصحابهم الذين خالفوا امر الله ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واحتيالهم في المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم ، وهذه القرية هي (أيلة) وهي على شاطيء بحر القلزم وقوله تعال : ﴿إذ يعدون في السبت﴾ أي يعتدون فيه ويخالفون امر الله ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً﴾ أي ظاهرة على الماء من كل مكان وقوله تعالى : ﴿ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم﴾ أي نختبرهم بإظهار السمك لهم في اليوم المحرم عليهم واخفائه عنهم في اليـــوم الحلال ﴿كذلك نبلوهم﴾ نختبرهم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ يقول بخروجهم عن طاعة الله ، واحتيالهم على انتهاك محارم الله بما تعاطوه من الأسباب التي معناها في الباطن تعاطي الحرام وقد روى الفقيه ابن بطة رحمه الله عن ابي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٣٣٢ [لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل] وهذا إسناد جيد فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه وباقي رجاله مشهورون ثقات

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ۝ (١٦٦) ﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق ، فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت كما تقدم بيانه في سورة البقرة . وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم. وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنهَ، ولكنها قالت للمنكرة ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ قالت لهم المنكرة : ﴿معذرة إلى ربكم﴾ أي فيما أخذ علينا من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ولعلهم يتقون﴾ أي يتوبون إليه تعالى . وقوله تعالى : ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا﴾ أي ارتكبوا المعصية ﴿ بعذاب بئيس﴾ فنصَّ على

(*) راجع الآية رقم /٦٦/ من سورة البقرة - المجلد الأول .

نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين لأن الجزاء من جنس العمل فهـــم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الناجين أم الهالكين على قولين [1] وقوله تعالى: ﴿ وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا وقوله تعالى : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ أي مسخوا قردةً حقيقةً ، و ﴿ خاسئين ﴾ أي ذليلين حقيرين مهانين .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

﴿ تأذّن ﴾ تفعّلٌ من الأذان أي أعلَمَ ، قاله مجاهد وقال غيره:أمَرَ ، وفي قوة الكلام مايفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا اتبعت باللام في قوله تعالى : ﴿ ليبعثنّ عليهم ﴾ أي على اليهود ﴿ إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ أي بسبب عصيانهم أوامر الله واحتيالهم عليها. ويقال إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج ثلاث عشرة سنة وكان أول من ضرب الخراج ، ثم قهر اليونان والكلدان وغيرهم ومن النصارى ثم من المسلمين يؤدون أي اليهود لهم الجزية والخراج ثم يكون آخر أمرهم ان يكونوا انصاراً للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى عليه الصلاة والسلام آخر الزمان . وقوله تعالى: ﴿ إن ربك لسريع العقاب ﴾ لمن عصاه ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن تاب، لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف .

(١) قلت : بل نحن مع الذين قالوا بهلاك الساكتين كما هلك الظالمون لأنهم استحقوا ذلك بسكوتهم وعدم نصحهم. فلعل سكوتهم كان سبباً لتمادي الظالمين بظلمهم، ــ إذ عدم التناهي عن المنكر له عقاب عند الله. قال تعالى: «لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون» ولا شك أن السكوت عن فعل الظالم هو ظلم بحد ذاته ، واشتراك مع الظالم بظلمه، وإن كانوا لا يتقصدون ذلك وإن الرسول صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نأخذ على يد الظالم ونأطره على الحق أطراً وإذا لم نفعل فإن الله تعالى يعاجلنا بعقاب منه ، جزاء إهمالنا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لذلك فإننا نرجح أن الذين لم ينهوا عاقبهم الله بعقاب لا نعلمه جزماً ما هو ... فقد يكون عقاباً خاصاً يتلاءم مع جرمهم وقد يكون مسخاً مع الذين ظلموا واعتدوا والله تعالى أعلم.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ۝ (١٧٠)﴾

يذكر تعالى أن فرقهم في الأرض طوائف وفرقاً ﴿منهم الصالحون ومنهم دون ذلك﴾ أي فيهم الصالح وغير ذلك ، كقول الجن ﴿وأنا منا الصالحون ومنّا دون ذلك كنا طرائق قددا﴾ ﴿وبلوناهم﴾ أي اختبرناهم ﴿بالحسنات والسيئآت﴾ أي بالرخاء والشدة والرغبة والرهبة والعافية والبلاء ﴿لعلهم يرجعون﴾ ثم قال تعالى : ﴿فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي خلف من بعدهم جيل فيهم الصالح والطالح ، خلْفٌ آخر لا خير فيهم ورثوا دراسة التوراة ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي يعتاضون عن بَذْلِ الحق ونشره ، بعَرَض الحياةِ الدنيا ويُسوّفون أنفسَهم ويعِدُونها بالتوبة ، وكلما لاح لهم مثل الأولَ وقعوا فيه ، ولهذا قال : ﴿وإن يأتِهم عـرَض مثله يأخذوه﴾ يعملون الذنب ثم يستغفرون الله منه ويعترفون لله ، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه ، وقال قتادة في الآية : أي والله لـخَلْفُ سُوء ﴿ورثوا الكتاب﴾ بعد أنبيائهم ورسلهم ، أورثهم الله وعهد إليهم ، وقال الله تعالى في آية أُخرى : ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة﴾ الآية ، وكلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه لا يبالون حلالاً كان أو حراماً ، ثم يستغفرون الله ويتمنون على الله الأماني وغرة يغترون بها . قال الله تعالى : ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله الا الحق﴾ قال ابن عباس فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها ، وقوله تعالى : ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ أي أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي ، عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والاجتراء على محارمي .

ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقال تعالى : ﴿والذين يُمَسِّكُون بالكتاب﴾ أي اعتصموا به واقتدوا بأوامره وتركوا زواجره ، ﴿ وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾

حزب ١٨

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ (١٧١) ﴾

قوله تعالى : ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ أي رفعناه قاله ابن عباس ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾ أي رفعته الملائكة فوق رؤوسهم لما أبوا أن يأخذوا أحكام التوراة جميعها وقالوا لموسى عليه السلام : أنشر علينا ما فيها فإن كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها ، قال اقبلوها بما فيها فراجعوه مراراً حتّى يروا ما فيها،فأوحى الله للجبل فانقلع فارتفع في السماء حتّى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى:ألا ترون ما يقول ربي عز وجل لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل.فخرّ كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمني إلى الجبل،خوفاً من أن يسقط عليه • فكذلك ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر يقولون هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۝ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ (١٧٤) ﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله تعالى ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ وفي الصحيحين

عن أبي هريرة (رض) قال قال رسول الله ﷺ ٣٣٣ [« كل مولود يولد على الفطرة »]

– وفي رواية -« على هذه الملة » فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه،أو يمجّسانه،كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء »] وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ ٣٣٤ : [يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم] روى الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله عن الأسود بن سريع من بني سعد (رض) ٣٣٥ قال [غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال « ما بال أقوام يتناولون الذرية » فقال رجل يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين فقال « إن خياركم أبناء المشركين إلا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها »]

وقد ورد أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال . وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم : روى الإمام أحمد عن أنس ابن مالك (رض) عن النبي ﷺ قال ٣٣٦ [يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به قال فيقول نعم فيقول قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلاّ أن تشرك بي]

روى الترمذي عند تفسيره هذه الآية عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٣٣٧ [لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ...]

ومما تقدم من الأحاديث دليل على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه ، أما إشهادهم على أنفسهم بأنه ربهم انما المراد به . انما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم من حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي [1] ولهذا قال تعالى : ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ ولم يقل من آدم ﴿من ظهورهم﴾ ولم يقل من ظهره ﴿ذريتهم﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ قال تعالى : ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وأشهدهم على أنفسهم

(١) رقم /٣٣٣/ و /٣٣٤ من هذه الصفحة .

ألست بربكم قالوا بلى ﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالاً وقالاً والشهادة تارة تكون بالقول ، كقوله تعالى : ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾ وتارة تكون حالاً كقوله تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك وكذا قوله تعالى :﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾وعلى هذا فإن قولهم في قوله تعالى : ﴿ بلى شهدنا ﴾ كان شهادة حال وقال : وجعل الله هذه الشهادة حجةً عليهم في الإشراك ، ودلَّ على أن الفطرة التي فطروا عليها ، هي الإقرار بالتوحيد ولهذا قال تعالى : ﴿ أن تقولوا ﴾ اي لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿ إنَّا كنَّا عن هذا ﴾ أي التوحيد ﴿غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذريةً من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون . * [١] وكذلك نفصّل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾[٢]

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ * (١٧٧) ﴾

روى عبد الرزاق عن عبدالله بن مسعود (رض) في قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ الآية قال هو رجل من بني اسرائيل يقال له بلعم بن باعوراء ورواه كذلك غير واحد عن منصور به وقيل صيفى بن الراهب وقيل إنه رجل من أهل البلقاء وكان يعلم الإسم الأعظم ، وقيل انه من أهل اليمن يقال له بلعم آتاه الله آياته فتركها ، وقالت ثقيف هو أمية بن أبي الصلت روى ذلك عن ابن عمرو وكأنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه فإنه كان لديه علم كثير من الشرائع المتقدمة وأدرك

(١) قلت : أي لئلا يحتجوا بأن الشرك من فعل آبائهم وأنهم بريئون من فعلهم فقد أخذ تعالى على كل منهم الإقرار والشهادة بأنه تعالى ربهم فكل فعل يخالف هذا الإقرار مسؤولون عنه بعد البلاغ .

(٢) قلت : أي إلى ما أقروا به من التوحيد فيرجعون عن شركهم إلى التوحيد .

رسول الله ﷺ فلم يتبعه رغم أنه اجتمع به ووالى المشركين عليه ، ورثى أهل بدر من المشركين وهو ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه فان له أشعاراً ربانية وحكماً وفصاحة ولكنه لم يشرح صدره للإسلام! والمشهور أن الذي نزلت فيه هذه الآية انما هو رجل من المتقدمين في زمن بني اسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف (قلت) [١] هو بلعام بن باعوراء ويتصل نسبه بلوط بن هاران بن آزر قال ابن عساكر : وهو الذي كان يعرف الاسم الأعظم فانسلخ من دينه وله ذكر في القرآن . وقيل كان قد أوتي النبوة فانسلخ منها وهذا مستحيل . [٢]

روى محمد بن اسحق بن يسار عن سالم أبي النضر أنه حدّث : أن موسى عليه السلام لما نزل بأرض بني كنعان من أرض الشام أتى قومُ بلعام إليه فقالوا له : هذا موسى بن عمران في بني اسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني اسرائيل ، وإنّا قومُك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة ، فاخرج فادعُ الله عليهم ، قال ويلكم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون ، كيف أذهب أدعو عليهم ، وأنا أعلم من الله ما أعلم ؟ فلم يزالوا به حتى فتنوه فافتتن فسار متوجهاً الى الجبل الذي يطلُّ على عسكر بني اسرائيل ، وهو جبل حسبان حتى إذا أشرف على رأس حسبان وعلى عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم ، ولا يدعو عليهم بشرٍ إلا صرف الله لسانه إلى قومه ، ولا يدعو لقومه بخير إلاّ صرف لسانه إلى بني اسرائيل ، فقال له قومه : أتدري يا بلعام ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا قال فهذا ما لا أملك ، هذا شيء ، قد غلب الله عليه ثم قال لهم : قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة . ولم يبق الا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال : جمّلوا النساء وأعطوهن السِّلع ثم أرسلوهن إلى المعسكر يبعنها فيه . ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كُفيتموهم ، ففعلوا فلما دخلت النساء المعسكر مرت امرأة من الكنعانين برجل عظيم من بني اسرائيل فلما رآها أعجبته، فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال: إني أظنك ستقول هذا حرام عليك لا تقربها ؟ قال:أجل هي حرام عليك . قال فوالله لا أطيعك في هذا . فدخل بها قبته فوقع عليها . وأرسل الله عز وجل الطاعون في بني إسرائيل ، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى غائباً ، فجاء... والطاعون يجوس فيهم ، فأُخبِرَ الخبرَ

(١) يعني ابن كثير رحمه الله .

(٢) نعم مستحيل... كيف يعطيه الله النبوة، ويعلم انه سينسلخ منها لا سيما والله يقول : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » بل ويعلم ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة من قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام كما ورد ذلك في صحيح مسلم ... ؟

فأخذ حربته ، وكانت من حديد كلها ، ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء ، وجعل يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ورُفع الطاعون ، فبلغ عدد الهالكين سبعين ألفاً ، ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ــ إلى قوله ــ لعلّهم يتفكرون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ أي صار مثل الكلب في ضلاله واستمراره فيه هذا من حيث أن الكلب من عادته أن يلهث ، إنْ زجرته أو تركته . وكذلك بلعام لم يعد ينتفع بالدعاء إلى الإيمان أو عدم الدعاء ، ففي الحالتين لا ينتفع بالموعظة ولا بالدعوة الى الايمان أو بعدمهما وذلك كما قال تعالى : ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فاقصص القصص لعلهم ﴾ أي لعل بني اسرائيل والعالمين ، ﴿ يتفكرون ﴾ أي بما آل إليه بلعام وما جرى له من إضلال الله إياه ، وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الأعظم ، الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب ، في غير طاعة ربه ، بل دعابه على حزب الرحمن وشعب الإيمان ، أتباع عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الزمان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ أي لعل مشركي قريش الذين بلغهم نبأ بلعام بالقرآن ، يحذرون ويعتبرون بما وقع به ، فإنهم أي مشركو العرب واليهود المعاصرون لهم يعرفون محمداً ﷺ كما يعرفون أبناءهم . فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ، ومناصرته ومؤآزرته .

وإن من ينصرف عن الإيمان به ﷺ ، منهم ، وخالف ما في التوراه من صفته ، وكتمها أحلّ الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي ساء مثلاً مَثلُ القوم الذين كذبوا بآيات الله ، فشبهوا بالكلاب الذين لا همَّ لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج من حوزة العلم والهدى ، وأقبل على شهوة نفسه ، واتبع هواه صار شبيها بالكلب وبئس المثل مثله . وقوله تعالى : ﴿ وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ أي ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى ، والركون إلى دار البلى ، وموافقة الهوى .

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١٧٨)

يقول تعالى من هداه الله فإنه لا مضلّ له، ومن أضلّه فقد خاب وخسر وضل لا محالة. فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود ٣٣٨ [إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئآت أعمالنا من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له ...] الحديث بتمامه رواه أحمد وأهل السنن وغيرهم.

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١٧٩)

يقول تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم ﴾ أي خلقنا لها ﴿ كثيراً من الجن والإنس ﴾ أي هيأناهم وبعمل أهلها يعملون. فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون (١)، قبل كونهم فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة. كما ورد ذلك في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال ٣٣٩ : [إن الله قدّر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة وكان عرشه على الماء] ومسألة القدر كبيرة وليس هذا موضع بسطها. وقوله تعالى : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ﴾ أي لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: ﴿صمٌ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ ولم يكونوا صماً ولا بكماً ولا عمياً إلا عن الهدى كقوله تعالى ﴿إنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ وقولُه تعالى : ﴿أولئك كالأنعام﴾ أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق، ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها، إلا في الذي يقيتُها في ظاهر الحياة الدنيا، تسمع صوت

(١) أي علم سبحانه ما سيختارون من العمل فكتب ذلك عنده في كتاب الله لايتبدل ولا يتغير وهو أم الكتاب.

راعيها ولا تفقه ما يقول ولهذا قال في هؤلاء ﴿ بل هم أضل ﴾ من الدواب لأنهـا قد تستجيب لراعيها إذا دعاهاوإن لم تفقه كلامه ، فتفعل ما خلقت له إما بطبعها وإمـا بتسخيرها بخلاف الكافر ، فانه إنّمـا خلق ليعبد الله ويوحده ، فكفر بالله وأشرك به تعالى . ولهذا من أطاع الله من البشر ، كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده ، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتمّ منه . ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (١٨٠) ﴾

عن أبي هريرة (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٣٤٠ : [إن لله تسعا وتسعين اسماًمائة الا واحداً من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر] أخرجاه في الصحيحين ورواه البخاري وأخرجه الترمذي عن شعيب فذكر بسنده مثله وزاد بعد قوله : يحب الوتر ٣٤١ : [هو الله الذي لا آله الا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار ، المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدىء المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي ، البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والاكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور] ثم قال الترمذي : هذا حديث غريب وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة ، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء الا في هذا الحديث ورواه ابن حبان في صحيحه من طريق صفوان به .

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد عن عبدالله ابن مسعود (رض) عن رسول الله ﷺ أنه قال ٣٤٢ : [ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم اني عبدك ابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ماض في حكمك

عدل فيَّ قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك سميتَ به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلاَّ اذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرجاً» فقيل يا رسول الله: افلا نتعلمها؟ فقال «بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها»]

وقوله تعالى: ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ قال قتادة: يشركون في أسمائه وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد والميل.

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾

أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

يقول تعالى ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ وقد جاءت الآثار أن المراد بهذه الأمة هي هذه الأمة المحمدية ﴿وبه يعدلون﴾ يعملون ويقضون.وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال قال رسول الله ﷺ ٣٤٣: [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة» وفي رواية «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»] وقوله تعالى: ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ ومعناه يفتح لهم أبواب الرزق، ووجوه المعاش، في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه، ويعتقدوا أنهم على شيء. كما قال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وأملي

لهم ﴾ أي أطول لهم ما هم فيه ، ﴿ إنّ كيدي متين ﴾ أي قوي شديد . وقوله تعالى : ﴿ أو لم يتفكروا ﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿ ما بصاحبهم ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ من جنّة ﴾ أي ليس به جنون بل هو رسول الله حقاً دعا إلى حق ﴿ إنْ هو إلا نذير مبين ﴾ أي ظاهر لكل عاقل واعٍ وقال قتادة بن دعامة ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا فدعا قريشاً فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً : يا بني فلان وفلان فحذرهم بأس الله ووقائع الله فقال قائلهم : إن صاحبكم لمجنون بات يصوت حتى الصباح فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شي ﴾ أي أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وفيما خلق فيه ، فيتدبروا ويعتبروا به ويعلموا ان ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله ويطيعوه ويوحّدوه ، ويحذروا اقتراب آجالهم فيهلكوا وهم على كفرهم فيصيروا إلى عذاب الله الأليم .

وقوله تعالى : ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ اي فبأي ترهيب بعد تحذير رسول الله وتخويفه الذي أتاهم به من عند الله عز وجل يصدقون ؛ إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاء بهم النبي ﷺ وقوله تعالى : ﴿ من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون . ﴾ أي فمن يضلل الله تعالى بعد تبليغه وانذاره جزاء إعراضه فإنه لا يهديه أحد مهما كان شأنه .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٨٧)

يقول تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة ﴾ نزلت في قريش يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها ، وتكذيباً بوقوعها ووجودها . كما قال تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أيان مرساها ﴾ أي متى محطّها وقيامها ﴿ قل إنما علمها عند ربي لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو ﴾ أي إنّ علمها عند الله، وهو الذي يعلم متى تقوم على التحديد ، ولا يعلمها سواه أحد ، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾ أي ثقل علم وقتها على أهلهما ، وخفيت

فلا يعلم قيامها أحد منهم ، ﴿ لا تأتيكم إلاّ بغتة ﴾ أي إلاّ فجأة والناس كل في عمله ومتجره ومختلف شأنه وقال مسلم في صحيحه عن أبي هريرة يبلغ به قال : ٣٤٤ [تقوم الساعة والرجل يحلب لقحته ، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم الساعة ...] وقوله تعالى : ﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾ كأنك عالم بها وقد أخفى الله علمها على خلقه ولهذا قال تعالى : ﴿ قل إنما علمها عند الله ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ ولهذا أجاب رسولُ الله ﷺ جبريلَ عليه السلام لما سأله عن الساعة : ٣٤٥ [... ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ...] أي لست أعلم بها منك ، ولا أحد أعلم بها من أحد ، ثم قرأ النبي ﷺ ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ الآية ... فهذا النبيّ الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة ونبي التوبة ، ونبي الملحمة والعاقب والمقفي والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه ، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما : ٣٤٦ [بعثت أنا والساعة كهاتين » وقرن بين أصبعيه السبابة والتي تليها] ومع هذا كله قد أمره الله أن يردّ علمَ وقت الساعة إليه تعالى ، إذا سئل عنها فقال سبحانه : ﴿ قل إنما علمُها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ❁ (١٨٨) ﴾

أمره الله تعالى أن يفوّض الأمورَ إليه ، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطّلاع له على شيء من ذلك ، إلا بما أطلعه الله عليه ، كما قال تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ﴾ الآية ... وقوله تعالى ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ﴾ أي لو كنت أعلم الغيب ، لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربحَ فيه فلا أبيع شيئاً إلاّ ربحت فيه ،ولا يصيبني الفقر . قاله ابن عباس وقال ابن جرير وآخرون : معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة ولوقّت الغلاءَ من الرخص . وقوله تعالى : ﴿ وما مسني السوء ﴾ أي لاجتنبت الشر قبل أن يقع ثم

أخبر أنه إنمّا هو نذير وبشير ، أي نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات . كما قال تعالى ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشرّ به المتقين وتنذر به قوماً لُدّاً ﴾ .



هوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ ۞ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ (١٩٠)

ينبّه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام ، وأنه خلق منه زوجته حواء ثم انتشر الناس منهما ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً . ﴾ قال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ وجعل منها زوجهاليسكن إليها . ﴾ أي ليألفها ويسكن بها كقوله تعالى ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ فلا إلفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه ﴿ فلما تغشّاها ﴾ أي وطئها ﴿ حملت حملاً خفيفاً ﴾ وذلك أن الحمل لا تجد المرأة له ألماً إنمّا هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة .

وقوله تعالى : ﴿ فمرّت به ﴾ ثم قال مجاهد : استمرّت بحمله ﴿ فلما أثقلت ﴾ أي صارت ذات ثقلٍ بحملها ﴿ دَعوا اللهَ ربهما لئن آتيتنا صالحاً ﴾ أي بشراً سويا واشفقا ان يكون بهيمةً وقال الحسن البصري : لئن أتيتنا غلاماً ﴿ لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون ﴾ ذكر المفسرون ههنا آثاراً واحاديث هي ــ والله أعلم ــ عن أهل الكتاب تدور كلها حول أن اللذيْن جعلا له شركاءهما آدم وحواء ... !! ويذكر هنا أحد هذه الأحاديث كما رواه ابن ابي حاتم عن أُبيْ بنِ كعب قال : لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال لها اطيعيني ويسلم لك ولدك ؟

سمّيه عبد الحارث ، فلم تفعل فولدت فمات ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل ، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال: ان تطيعيني يسلمْ والا فانه يكون بهيمةً ، فهيّبهما فأطاعا .

وأما نحن نقول ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، [1] وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ قاله الحسن البصري ونحن نؤيده . ثم قال فذكر آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين ، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله تعالى: ﴿ ولقدزيّنّاالسماءالدنيا بمصابيح ﴾ الأية ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زُيّنت بها السماء ليست هي التي يرمي بها وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها ولهذا نظائر في القرآن والله أعلم .

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞(١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ۞(١٩٢)وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ۞ (١٩٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞(١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ ۞(١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ ۞ (١٩٦) وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ۞ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۞ (١٩٨) ﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من مخلوقاته ، وهي لا تملك من الأمر شيئاً ضراً أو نفعاً ، بصراً أو سمعاً ، ولا تنتصر لعابديها فهي جماد لا روح فيها ولا حركة ، وعابدوها أكمل منها سمعاً وبصراً وبطشاً . ولهذا قال ﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ﴾ اتشركون به ما لا يخلق شيئاً بل هم مخلوقون لغيرهم كما قال الخليل

(١) قلت : ونحن نؤيد هذا القول لأن آدم نبي معصوم ، ويستحيل أن يشرك بالله أحداً .

عليه السلام ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ الآية ثم قال تعالى: ﴿ولا يستطيعون لهم نصراً﴾ أي لعابديهم ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ يعني ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء. كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه في قوله عز وجل: ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾ وكما صنع معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما وكانا شابين قد اسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، فكان لعمرو بن الجموح صنم يعبده ويطيبه فكانا يجيئان ليلاً فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة، فيجيء عمرو فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضاً حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت، ودلياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، فعلم ان ما كان عليه من الدين باطل، ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل في أحد شهيداً رضي الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه.

وقوله تعالى: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم﴾ الآية يعني كما قال ابراهيم لأبيه: ﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ ثم ذكر أنها عبيد مثل عابديها أي مخلوقات مثلهم. وقوله تعالى: ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ الآية ... أي استنصروا بها عليّ فلا تؤخروني طرفة عين، وأجهدوا جهدكم ﴿إن وليّي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولّى الصالحين﴾ أي الله حسبي وكافيني وعليه متكلي، وهو نصيري وملتجئي، ووليّي وولي كل صالح في الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: ﴿والذين تدعون من دونه﴾ الآية ... أي والذين تعبدون من دون الله ﴿لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ وقوله تعالى: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ كقوله تعالى: ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ إنّما قال سبحانه ﴿ينظرون اليك﴾ أي يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد لا تبصر لأنها أوثان مصنوعة من حجر او خشب أو غير ذلك قال السدي المراد بهذا المشركون، والأول أولى [ـ قلت أنا نسيب ـ ولعل الصواب في بيان مراد الله تعالى هو أنه سبحانه عنى في تعبيره عن الأصنام بضمير العاقل بقوله: ﴿وتراهم ينظرون اليك﴾ يريد من عناهم المشركون بشخص أصنامهم، وهم أولئك الصالحون الذين صور المشركون هذه الأصنام على صورتهم وسموها بأسمائهم، وعندما يخاطبونها إنما يعنون بخطابهم لها أولئك الصالحين الذين

اتخذوهم وسائط بينهم وبين الله تعالى ، وما كانوا أبداً يعنون بخطابهم تلك الأحجار والأخشاب لذاتها فهم يعلمون أنهم صنعوها بأيديهم فهي لا تسمع ولا تبصر انما يخاطبونها كما لو كان أصحابها حاضرين وظنوا أنهم يقربونهم إلى الله زلفى فلذلك عبر عنهم تعالى بضمير العاقل من أول الآية من قوله تعالى : ﴿ والذين تدعون من دونه — إلى قوله — وهم لا يبصرون ﴾ اه نسيب] والله تعالى أعلم .

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ ۞ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ (٢٠٠) ﴾

روى ابن جرير وابن أبي حاتم جميعاً حدثنا يونس حدثنا سفيان هو ابن عيينة عن أبيّ قال : ٣٤٧ [كما أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ خذ العفو وأمرْ بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ قال رسول الله ﷺ : ما هذا يا جبريل ؟ قال : إن الله أمرك ان تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك »] ورواه ابن مردويه عن جابر وقيس بن سعد بن عبادة مرفوعاً . وقال البخاري : قوله تعالى : ﴿ خذ العفو ... ﴾ الآية العرف المعروف ، ثم روى عن ابن عباس رضي الله عنهما وذكر خبراً عن عمر أن أحد الداخلين عليه أغضبه فقال له الحر بن قيس : يا أمير المؤمنين ان الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿ خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وان هذا من الجاهلين ، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقّافاً عند كتاب الله عز وجل انفرد بإخراجه البخاري وقول البخاري : العرف المعروف ، نص عليه عروة بن الزبير والسدي وقتادة وابن جرير وغير واحد . قال ابن جرير : وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف ، ويدخل في ذلك جميع الطاعات ، وبالإعراض عن الجاهلين . وذلك وان كان أمراً لنبيه ﷺ ، فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله ، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته ، وهو للمسلمين حرب وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ خذ العفو ... ﴾ الآية قال : هذه أخلاق أمر الله بها نبيَّه ﷺ ودلّه عليها ، وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى فسبكه في بيتين فيهما جناس ، فقال :

خذ العفو وامر بعرفٍ كما * أمرتَ وأعرض عن الجاهلين
ولِنْ في الكلام لكل الأنام * فمستحسن من ذوي الجاه لين

ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به سبحانه من شيطان الجن فإنه لا يكفّه عنك الإحسان وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك .

قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ ﴾ وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ، ويحملك على مجازاته ﴿ فاستعذ بالله ﴾ يقول فاستجر بالله من نزغه ، وأصل النزغ : الفساد . إما بالغضب أو بغيره ﴿ إنّه سميع عليم ﴾ سميع لجهل الجاهل عليك ، والاستعاذة به من نزغه ، ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شيء ، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه . والعياذ : الالتجاء ، والاستناد ، والاستجارة من الشر ، وأما الملاذ ففي طلب الخير ، كما قال الحسن بن هانيء في شعره :

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً انت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير بما أغنى عن اعادته ها هنا (١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝(٢٠١) وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝(٢٠٢) ﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر وتركوا ما عنه زجر أنهم ﴿إذا مسهم﴾ أي أصابهم طيف وقرأ الآخرون طائف. وهما قراءتان مشهورتان فقيل بمعنى واحد او بينهما فرق ومنهم من فسره بالغضب ، ومنهم بالصرع ، ومنهم بالهم بالذنب أو بإصابته (٢) وقوله تعالى : ﴿ تذكروا ﴾ أي عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده ووعيده ، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا اليه من قريب ﴿فإذا هم مبصرون﴾ أي قد استقاموا وصحوا مما كانوا عليه . وقوله تعالى : ﴿ واخوانهم يمدونهم ﴾ أي واخوان الشياطين من الأنس كقوله تعالى : ﴿ ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ﴾ وهم اتباعهم والمستمعون لهم ﴿ يمدونهم في الغي ﴾ أي تساعدهم الشياطين على المعاصي وتحسنها لهم فيمدونهم بالجهل والسفه ﴿ ثم لا يقصرون ﴾ أي أن الشياطين يمدّون أولياءهم من الإنس ، ولا

---

(١) راجع المجلد الأول عند تفسير الاستعاذة من هذا المختصر .
(٢) وأنا أرجح الهم بالذنب .

تسأم من إمدادهم في الشر . لأن ذلك طبيعة لهم وسجية ﴿لا يُقصِرون﴾ أي لا تفتر فيه ولا تبطل عنه .

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠٣)

قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ أي لولا تلقيتها من الله وقال مرة أخرى : لولا أحدثتها فأنشأتها ومعنى قوله تعالى : ﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾ أي معجزة يقولون لرسول الله ﷺ ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها قال الله تعالى له ﴿قل إنما اتبع ما يوحى الي من ربي﴾ أي أنالا أتقدم اليه تعالى في شيء وإنما اتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إلي ، فإن بعثت آية قبلتها وان منعها لم أسأله ابتداءً إياها ، إلا أن يأذن لي في ذلك ، فانه حكيم عليم . ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات ، وأبين الدلالات ، وأصدق الحجج ، والبينات ، فقال ﴿هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ .

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٤)

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أمر سبحانه بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً ، لا كما كان يعتمده كفار قريش في قولهم : ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة . كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الاشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٤٨ [إنما جعل الإمام ليؤتم به فاذا كبر فكبروا ، واذا قرأ فانصتوا ...] وكذا رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة ايضاً .

روى ابن جرير عن بشير بن جابر قال : صلى ابن مسعود ، فسمع ناساً يقرأون مع الامام ، فلما انصرف قال : أما آن لكم أن تفهموا ، أما آن لكم أن تعقلوا ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ كما أمركم الله .

وقد روى الامام احمد وأهل السنن من حديث الزهري عن أبي أكتمة الليثي عن ابي هريرة ٣٤٩ [ان رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال : « هل

قرأ أحد منكم معي آنفاً ؟ » قال رجل : نعم يا رسول الله ، قال : « إني أقول مالي أنازع القرآن » قال فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ] وقال الترمذي هذا حديث حسن ، وصححه أبو حاتم الرازي .

وهناك اقوال أخر: فقد قيل بعدم القراءة وراء الامام لا في الصلاة الجهرية ولا السرية وروى ذلك عن جابر موقوفاً ، وهو أصح من المروي عنه مرفوعاً .

وقيل : تقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام ، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم . وعن ابن عباس أن الانصات في الصلاة المفروضة . وعن مجاهد أنــه في الصلاة والخطبة يوم الجمعة ، وقد اختار ابن جرير أن يكون الإنصات يوم الاضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة . والمراد من ذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة كما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الامام ، وحــال الخطبة . وقال الحسن : إذا جلست إلى القرآن فأنصت له .

روى الامام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٣٥٠ [من استمع إلى آية من كتاب الله ، كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة] . تفرد به أحمد رحمه الله تعالى .

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَافِلِينَ ﴾ (٢٠٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ (٢٠٦)



يأمر تعالى بالذكر أول النهار وآخره كثيراً . وقوله تعالى : ﴿ تضرعاً وخيفة ﴾ أي اذكر ربك في نفسك رغبةً ورهبةً ، وبالقول لا جهراً . ولهذا قال تعالى : ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر،لا يكون نداءً ، وجهراً بليغاً ، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا : ٣٥١ [أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فأنزل الله عز وجل : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ﴾] وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : ٣٥٢ [رفع الناس أصواتهم

بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبي ﷺ : « يا أيها الناس إربَعُوا على أنفسكم [1] فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً إن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »] وهكذا فقد أمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن لا يجهر بالقرآن لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم ، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار . وكذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿ ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ﴾ فالمراد الحض على الذكر وكثرته بالغدو والآصال لئلا يكون من الغافلين . ولهذا مــدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال : ﴿ ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ﴾ الآية ... وانما ذكرهم بهذا ليقتدي بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ، ولهذا شرع لنا السجود ها هنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل وقوله تعالى : ﴿ وله يسجدون ﴾ وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع . وقد ورد في حديث رواه ابن ماجه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ ٣٥٣ [انه عدها في سجدات القرآن] .

آخر اختصار تفسير سورة الأعراف ولله الحمد والمنة .

---

(١) أي ارفقوا بأنفسكم .

(٨) سورة الأنفال مدنيّة
وآياتها خمس وسبعون

(إلاّ من الآية ٣٠ – ٣٦ فمكيّة نزلت بعد البقرة)

بسم الله الرحمن الرحيم



﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾

روى البخاري : عن ابن عباس : الأنفال : المغانم . وعن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة الأنفال قال : نزلت في بدر . أما ما علقه عن ابن عباس فكذلك رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال : الأنفال الغنائم ، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء وقد فسر ابن عباس باسناد صحيح أن النفل هو ما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل ، والله أعلم .

قال ابن مسعود ومسروق : لا نفلَ يوم الزحف ، إنما النفل قبل التقاء الصفوف وقال عبد الله بن المبارك وغيره عن عطاء بن ابي رباح في الآية : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ قال يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال ، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء . وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال ، وقال ابن جرير : وقال آخرون هي أنفال السرايا وهو ما ينفله الامام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش . واختاره ابن جرير ؛ ويشهد لذلك ما ورد فى سبب نزول الآية ، وهو ما رواه الامام أحمد عن سعد بن مالك قال : ٣٥٤ [قلت يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين ، فهب لي هذا السيف ، فقال : « إن هذا السيف لا لك ولا لي ، ضعه » قال فوضعته ثم رجعت فقلت عسى أن

يعطي لهذا السيف من لا يبلي بلائي . قال : واذا رجل يدعوني من ورائي قال : قلت قد أنزل الله في شيئاً ؟ قال : « كنتَ سألتني السيف وليس هو لي وإنه قد وهب لي ، فهو لك » قال : وأنزل الله هذه الآية : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾] ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن أبي بكر بن عياش به وقال الترمذي حسن صحيح .

﴿ سبب آخر في نزول الآية ﴾

روى أحمد عن أبي أمامة قال : ٣٥٥ [سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا اصحابَ بدر ، نزلت حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين .]

وروى أبو داود والنسائي وابن جرير وابن مردويه واللفظ له وابن حبان والحاكم من طرق عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : ٣٥٦ [لما كان يوم بدر ، قال رسول الله ﷺ : « من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا » فتسارع في ذلك شبان القوم ، وبقي الشيوخ تحت الرايات . فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذي جعل لهم ، فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا فإنا كنا ردءً لكم لو انكشفتم لفئتم إلينا ، فتنازعوا فأنزل الله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال — إلى قوله — واطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾]

وقال ابو عبيد الله القاسم بن سلام في (كتاب الأموال الشرعية) ... أما الأنفال فهي المغانم ، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب . فكانت الأنفال الأولى لرسول الله ﷺ يقول الله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾ فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخمسها على ما ذكرناه من حديث سعد ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى .

والأنفال أصلها جماع الغنائم . إلاّ أنّ الخمس منها ، مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب ، وجرت به السنّة ، والنفل الذي أحلّه الله للمؤمنين من أموال عدوهم ، وهو شيء خصهم الله به تطولاً منه عليهم ، بعد أن كانت الغنائم محرمة على الأمم قبلهم ، فنفلها الله تعالى هذه الأمة ، فهذا أصل النفل . وشاهد هذا في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٣٥٧ [أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ، فذكر الحديث إلى أن قال وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحدٍ قبلي] وذكر تمام الحديث .

وفي النفل الذي ينفله الامام سنن أربع لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى .

١ ً ــ : النفل لا خمس فيه وذلك السلب ٢ ً ــ : النفل الذي يكون من الغنيمة بعد اخراج الخمس ، وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب ، فتأتي بالغنائم ، فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس ٣ ً ــ : في النفل من الخمس نفسه ، وهو أن تحاز الغنيمة كلها ، ثم تخمَّس . فإذا صار الخمس في يدي الإمام ، نفل منه على قدر ما يرى . ٤ ً ــ : النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء ، وهو أن يعطي الإدلاء ورعاة الماشية والسواق لها . وفيما تقدم من كلامه ــ أي كلام أبي عبيد ــ وهو قوله : أن غنائم بدر لم تخمس ، فيه نظر . ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارفَيْه اللذين حصلا له من الخمس يوم بدر وقد بينت ذلك في كتاب السيرة بياناً شافياً ولله الحمد والمنة

وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ أي : اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم ، ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا ، فما آتاكم الله من الهدى والعلم ، خير مما تختصمون بسببه . ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ أي في قسمه بينكم على ما أراد الله ، فإنه إنمّا يقسمه كما أمره الله تعالى من العدل والإنصاف . ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ❁(٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ❁(٣) أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ❁(٤)﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه . ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون عليه ولا يصلّون إذا غابوا ، ولا يؤدّون زكاة أموالهم ﴿ إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ أي فزعت وخافت ، فأدوا فرائضه وفعلوا الأوامر وتركوا الزواجر ، وهذه صفة المؤمن الحق . وقوله تعالى : ﴿ واذا تليت عليهم آياتُه زادتهم إيماناً ﴾ أي تصديقاً.وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان ، وتفاضله في القلوب . كقوله تعالى : ﴿ ... فأما الذين

آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾ وهذا مذهب جمهور الأمة بل قد حُكيَ الإجماعُ عليه وقوله تعالى : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلاّ منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له ولا معقّب لحكمه ، وهو سريع الحساب ولهذا قال سعيد بن جبير : التوكل على الله جماعُ الإيمان .

وقوله تعالى : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقنا هم ينفقون ﴾ إقامة الصلاة : هي المحافظة على مواقيتها ، ووضوئها ، وتمام أركانها من الركوع والسجود ، وتلاوة القرآن فيها والاطمئنان في الأركان ، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ . والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة ، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب ، وليُعلم أن هذه الأموال إنّما هي عواري ، وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها . وقوله تعالى : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ قال عمرو بن مرة : إنما أُنزل القرآن بلسان العرب ، كقولك فلان سيد حقاً وفي القوم سادة وفلان تاجر حقاً وفي القوم تجار ، وفلان شاعر حقاً وفي القوم شعراء وقوله تعالى : ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ أي منازل ومقامات ودرجات في الجنات ﴿ ومغفرة ﴾ أي يغفر لهم السيئات ، ويشكر لهم الحسنات ، وجاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٣٥٨ [« إن أهل عليين ليراهم مَن أسفلَ منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء » قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم فقال : « بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين »]

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) ﴾

يقول تعالى : كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها ، فانتزعها الله منكم وجعلها

إلى قسمه تعالى ، وقسم رسوله ﷺ . فقسمها على العدل والتسوية ، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم . وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة ، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز عيرهم ، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدّره لكم وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد ، رشداً وهدى ، ونصراً وفتحاً . وقد خرج رسول الله ﷺ مع المؤمنين إلى بدر للقاء المشركين الذين نفروا من مكة لحماية العير ، الذي فيه تجارة قريشٍ القادمة من الشام ، برئاسة أبي سفيان الذي أخبر بخروج رسول الله ﷺ في طلبه . فبعثٌ أبو سفيان ضمضم بن عمرو نذيراً إلى أهل مكة ، فنهضوا في قريب من ألف مقنّع ، وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر فنجا وجاء النفير فوردوا ماء بدر وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد ، لما يريد الله من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم ، والتفرقة بين الحق والباطل . فلما بلغ رسول الله ﷺ خروج النفير ، أوحى الله اليه ، يعده إحدى الطائفتين : إما العير وإما النفير . ورغب كثير من المسلمين إلى العير لأنه كسب بلا قتال . كما قال تعالى : ﴿ وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحقّ بكلماته ويقطعَ دابرَ الكافرين ﴾ وأمر رسول الله ﷺ الناس أن يتهيأوا للقتال وأمرهم بالشوكة فكره ذلك أهل الإيمان فأنزل الله تعالى : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون * يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ وقال السدي : ﴿ يجادلونك في الحق بعد ما تبين ﴾ أي بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلاّ ما أمرك الله به ومعنى قوله تعالى : ﴿ وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ أي يحبون أن الطائفة التي لا منعة لها ولا قتال تكون لهم وهي العير ﴿ ويريد الله ان يُحقّ الحقّ بكلماته ﴾ أي هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم ، وينصركم عليهم ، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ، ويجعله غالباً على الأديان . وهو أعلم بعواقب الأمور ، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره ، وان كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم .

وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه وكان عددهم ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً حتى بلغ وادياً يقال له ذفران فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال : فأحسن . ثم قام عمر رضي الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمر فقال : يا رسول الله إمض لما أمرك الله به فنحن معك . والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ إذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون ﴾ ولكن

اذهب انت وربك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بـرك الغماد – يعني مدينة الحبشة – لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال له رسول الله ﷺ خيراً ، ودعا له بخير . ثم قال رسول الله ﷺ « أشيروا علي أيها الناس » وانما بريد الانصار وذلك أنهم كانوا عدد الناس ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يا رسول الله إنّا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه ابناءنا ونساءنا . وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته ، إلاّ ممن دهمه بالمدينة من عدوّه . وان ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم ، فلما قال رسول الله ذلك ، قال له سعد بن معاذ والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : « أجل » فقال فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أمرك الله فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما يتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسُرّ رسول الله ﷺ بقول سعد ثم قال : « سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن انظر إلى مصارع القوم »

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾

روى الامام أحمد عن عمر بن الخطاب (رض) قال : ٣٥٩ [لما كان يوم بدر نظر النبي إلى أصحابه وهم ثلثمائة ونيف ، ونظر إلى المشركين ، فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : « اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام فلا تعبد في الارض أبداً » قال فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدّكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ فلما كان يومئذ التقوا ، فهزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً ...]

روى البخاري عن ابن مسعود يقول : ٣٦٠ (شهدت من المقداد بن الاسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به • أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسى : « اذهب انت وربك فقاتلا » ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره يعني قوله .) وروى البخاري ايضاً عن ابن عباس قال : ٣٦١ (قال النبي ﷺ يوم بدر : « اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد » فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك ، فخرج وهو يقول ﴿ سيهزم الجمع ويولّون الدبر ﴾) وقوله تعالى : ﴿ أنيّ ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ أي نجدة لكم ومدداً . وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : وأمد الله نبيّه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمأة من الملائكة مجنبةً وميكائيل في خمسمائة مجنبة .

وروى مسلم عن ابن عباس قال : ٣٦٢ [بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه اذ سمع ضربةً بالسوط فوقه ، وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً . قال فنظر إليه فإذا قد حطم وشق وجهه كضربة السوط فاخْضرَّ ذلك أجمع فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال : « صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة »] وروى البخاري : (باب شهود الملائكة بدراً) عن رفاعة عن رافع الزرقي وكان من أهل بدر قال : ٣٦٣ [جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدّون أهل بدر فيكم ؟ قال : « من أفضل المسلمين ــ أو كلمة نحوها ــ قال وكذلك من شهد بدراً من الملائكة .] وفي الصحيحين ٣٦٤ [أن رسول الله ﷺ قال لعمر ــ لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة : « إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله قد اطّلع على أهل بدر فقال إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »] وقوله تعالى : ﴿ وما جعله الله إلاّ بشرى ﴾ الآية ... أي ما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه اياكم بهم إلاّ بشرى ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾ وإلاّ فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم ولتطمئن به قلوبكم ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ أي بدون ذلك كما قال تعالى ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ أي بعقابهم كما عاقب الأمم السالفة بالقوارع التي تعم الأمم المكذبة ﴿ ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ . وقتل المؤمنين للكافرين ، أشد إهانةً للكافرين ، وأشفى لصدور المؤمنين ؛ كما قال تعالى : ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ويشفِ صدور قوم مؤمنين ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الله عزيز ﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة ﴿ حكيم ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم واهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى .

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۞ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ الَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۞ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۞(١٣) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ۞(١٤) ﴾

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من القائه النعاس عليهم أماناً أمَّنهم به من خوفهم الحاصل من كثرة عدوّهم وقلة عَددهم ، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد كما قال تعالى : ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ قال أبو طلحة : كنت ممن أصابه النعاس يوم أحُد ، ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه ، ولقد نظرت إليهم يميدون تحت الحَجَف [1] وعن علي (رض) قال : ٣٦٥ [ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم ، إلاّ رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح .] وفي الصحيح ٣٦٦ [أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق (رض) وهما يدعوان أخـذت رسول الله ﷺ سِنَةٌ من النوم ثم استيقظ متبسماً فقال : « أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع » ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ سيهزم الجمع ويولّون الدبر ﴾] وقوله تعالى : ﴿ وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : نزل النبي ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملةٌ دعصةٌ [2] وأصاب المسلمين ضعفٌ شديد ، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم : تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين ، فأمطر

(١) الحجف جمع حجفة : الترس من جلد بلا خشب .
(٢) الدعصة : كثيب الرمل المجتمع .

الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون وتطهّروا وأذهب الله عنهم رجس الشيطان [١] وكما ثبّت الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم وثبت الله عليه الأقدام . كذلك فإنّه عزّ وجل ، ثبّت الأقدام . بالصبر على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن ، ويثبّتهم فلا ينهزمون وهو شجاعة الظاهر ، والمعروف أن رسول الله ﷺ ، لما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال يا رسول الله هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلكه الله فليس لك ان تجاوزه ، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة فقال : « بل منزل نزلته للحرب والمكيدة » فقال يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ونغوّر ما وراءه من القلب [٢] ونستقي الحياض فيكون لنا ماءٌ وليس لهم ماء . فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك .

وقوله تعالى : ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ أي قاتلوا معهم وكثّروا سوادهم . حتى قيل أن الملك كان يأتي الرجل من اصحاب النبي ﷺ فيقول : سمعت هؤلاء القوم يعني المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك ، فتقوى أنفسهم . حكاه ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ أي الخوف والذلة والصغار في قلوب الذين خالفوا أمري وكذبوا رسولي ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ أي اضربوا الهام ففلّقوها ، واحتزوا الرقاب فقطعوها ، وقطعوا الأطراف منهم وهي الأيدي والأرجل منهم [٣] وقال الربيع بن أنس : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم ، بضربٍ فوق الأعناق . وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي خالفوهما فساروا في شق ، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق آخر ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ أي هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه . ﴿ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾ أي ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا ، واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة .

﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ

---

(١) أي وسوسته .

(٢) القلب : الآبار .

(٣) فيما يبدو لي– والله أعلم – ان المقصود من قوله تعالى «واضربوا منهم كل بنان» أي شلوّا أصابع اليد حتى لا تقوى اليد على حمل السيف ولا تستطيعه فيبقى المشركون هكذا بلا عدة وتحيق بهم الهزيمة .

الْأَدْبَارَ ﴿(١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿(١٦)

يقول تعالى متوّعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ﴾ أي دنوتم إليهم ﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ أي تفرّوا وتتركوا أصحابكم ﴿ ومن يولّهم يومئذ دُبُرَه إلاّ متحرفاً لقتال ﴾ أي يفر مكيدةً لخصمه يوهمه أنه فرَّ فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله ، فلا بأس عليه ﴿ أو متحيزاً إلى فئة ﴾ أي فرَّ من ها هنا إلى فئة أخرى من المسلمين ، يعاونهم ويعاونونه فيجوز له ذلك ، حتى لو كان في سريّة ففرّ إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة .

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر (رض) قال : ٣٦٧ [كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ ، فحاص الناس حيصةً فكنت فيمن حاص . فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا لو دخلنا المدينة ، ثم بتنا ، ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كان لنا توبة .. وإلاّ ذهبنا . فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال : « من القوم ؟ » فقلنا نحن الفرارون فقال « لا بل أنتم العكارون أي ــ الكرّارون ــ أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين » قال فأتيناه حتى قبلنا يده] وهكذا رواه ابو داود والترمذي وابن ماجه من طريق يزيد بن أبي زياد وقال الترمذي حسن لا نعرفه إلاّ من حديث ابن أبي زياد به وزاد ابن أبي حاتم في آخره ، وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ أو متحيزاً إلى فئة ﴾ وقال عبد الملك بن عمير عن عمر : أيها الناس لا تغرنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر وأنا فئة لكل مسلم . وقال ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال ... إنما انزلت هذه الآية في يوم بدر لا قبلها ولا بعدها . والفرار من الزحف بلا سبب من الكبائر ، لما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة (رض) قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٦٨ [« اجتنبوا السبع الموبقات » قيل يا رسول الله وما هنّ ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس ، التي حرم الله الا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »] ولهذا قال تعالى : ﴿ فقد باء ﴾ أي رجع ﴿ بغضب من الله ومأواه ﴾ أي مصيره يوم القيامة ﴿ جهنم وبئس المصير ﴾ .

وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنمّا كان حراماً على الصحابة . لأنه ــ أي الجهاد ــ

كان فرض عين عليهم ، وقيل على الأنصار خاصةً ، لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره ، وقيل المراد أهل بدر خاصة ، يروى هذا عن عمر وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وأبي نضرة ، ونافع مولى ابن عمر وجماعة من التابعين وغيرهم ، وحجتهم في هذا انه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون إليها إلا عصابتهم ، تلك كما قال النبي ﷺ : ٣٦٩ [اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض]

وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار حراماً على غير أهل بدر ، وإن كان سبب نزول الآية فيهم ، كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم ، من أن الفرار من الزحف ، من الموبقات . كما هو مذهب الجماهير والله أعلم .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞(١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَافِرِينَ ۞(١٨) ﴾

يبيّن تعالى أنّه خالق أفعال العباد ، وأنه سبحانه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير ، لأنه هو الذي وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ أي ليس بحولكم ولا قوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم ، أي بل هو الذي أظفركم عليهم .كما قال تعالى : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾

ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضاً ، في شأن القبضة التي قبضها من التراب ، وحصب بها وجوه الكافرين يوم بدر ، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته . فرماهم بها وقال ٣٧٠ : [شاهت الوجوه] ثم أمر أصحابه أن يَصدُقوا الحملة إثرها ، ففعلوا . فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلاّ ناله منها ما شغله عن حاله ولهذا قال تعالى : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ٣٧١ : [رفع رسول الله ﷺ يديه ، يعني يوم بدر ، فقال : [يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً » فقال له جبريل خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضةً من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلاّ أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين .]

وقد روي في هذه القصة عن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة إنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر ، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضاً .

وروى محمد بن اسحق عن عروة بن الزبير في قوله تعالى : ﴿ وليُبلِيَ المؤمنين منه بلاءً حَسَنَاً ﴾ أي ليعرّفَ المؤمنين نعمتَه عليهم من إظهارهم على عدوهم ، مع كثرة عدوّهم وقلة عددهم . وليعلمهم أيضاً أنّ النصر لا بكثرة العدد بل منه سبحانه وتعالى وحده لا شريك له . ليعرفوا بذلك حقّه ويشكروا بذلك نعمتَه ، وقوله تعالى : ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ أي سميع الدعاء عليم بمن يستحق النصر والغلبَ . وقوله تعالى : ﴿ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر ، أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل ، مصغر أمرهم ، وأنهم كل ما لهم في تبارٍ ودمار ، ولله الحمد والمنة .

﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٩)

يقول تعالى للكفار ﴿ إن تستفتحوا ﴾ أي تستنصروا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتم ، فقد قال أبو جهل يوم بدر : اللهم أينا كان أقطع للرحم ، وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة ، وكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ الى آخر الآية . وقوله تعالى : ﴿ وإن تنتهوا ﴾ أي عما أنتم فيه من الكفر بالله ، والتكذيب لرسوله ﷺ ، ﴿ فهو خير لكم ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، وقوله تعالى : ﴿ وإن تعودوا نعد ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ أي وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة ، نعد لكم بمثل وقعة بدر ﴿ ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت ﴾ أي ولو جمعتم الجموع ما عسى أن تجمعوا ، فإن من كان الله معه فلا غالب له . ﴿ وأن اللهَ مع المؤمنين ﴾ وهم الحزب النبوي والجناب المصطفوي .



﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ۝ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ۝ (٢٣) ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ . ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا تولوا عنه ﴾ أي تتركوا طاعته ، وامتثال أوامره، وترك زواجره ﴿ وأنتم تسمعون ﴾ أي بعدما علمتم ما دعاكم إليه ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ قيل المراد المشركون وقيل المنافقون فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك (قلت) ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا لأن كلاً منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح ، ثم أخبر تعالى أن هذا النوع من بني آدم شر الخلق والخليقة فقال عز من قائل : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم ﴾ أي عن سماع الحق ﴿ البكم ﴾ عن فهمه ولهذا قال سبحانه ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ فهؤلاء شر البرية لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له ، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا ، ولهذا شبههم بالأنعام في قوله عز وجل ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم ولا قصد لهم صحيح فقال تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ أي لأفهمهم وتقدير الكلام ﴿ و ﴾ لكن لا خير فيهم فلم يفهمهم لأنه يعلم أنه ﴿ لو أسمعهم ﴾ أي أفهمهم ﴿ لتولّوا ﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿ وهم معرضون ﴾ عنه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ (٢٤) ﴾

روى البخاري ﴿ استجيبوا ﴾ أجيبوا ﴿ لما يحييكم ﴾ لما يصلحكم ثم روى بسنده إلى أبي

سعيد بن المعلى (رض) قال ٣٧٢ : [كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيته فقال : « ما منعك أن تأتيني ؟ » ألم يقل الله : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » « ثم قال : « لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج » فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له] وقال معاذ عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أنه بهذا سمع وقال ٣٧٣ [« الحمد لله رب العالمين » هي السبع المثاني] . هذا لفظه بحروفه وقد تقدم الكلام عنه بذكر طرقه في أول تفسير الفاتحة .

وقوله تعالى : « لما يحييكم » قالوا : للحق ، وقالوا هو هذا القرآن فيه النجاةوالبقاء والحياة ، وقالوا : في الاسلام احياؤهم بعد موتهم بالكفر وقالوا : أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل والضعف والقهر وكله قريب وصحيح .

وقوله تعالى : ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ قال ابن عباس يحول بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان . روى الامام أحمد عن أنس بن مالك (رض) قال ٣٧٤ : [كان النبي ﷺ يكثر أن يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك « قال فقلنا يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينـــا ؟ قال : « نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها »] ورواه الترمذي وقال حسن . روى الامام أحمد عن عائشة قالت ٣٧٥ : [دعوات كان رسول الله ﷺ يدعو بها : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قالت : فقلت : يا رسول الله انك تكثر أن تدعوَ بهذا الدعاء فقال « ان قلب الآدمي بين أصبعين من أصابع الله فإذا شاء أزاغه وإذا شاء أقامه » (١)] روى الامام أحمد عن ابن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ٣٧٦ : [« ان قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يُصرفها كيف شاء » ثم قال رسول الله ﷺ « اللّهم مصرّف القلوب صرّفْ قلوبنَا إلى طاعتك »] انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري فرواه مع النسائي من حديث حيوة بن شريح المصري به .

﴿ وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٥) ﴾

(١) قلت : وهذا يوضحه قوله تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » وذلك جزاء وفاقاً « وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون » .

يحذر تعالى عباده المؤمنين اختباراً ومحنة يعم بها المسيء وغيره لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع فترفع ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين أن لا يُقروا المنكر بين ظهرانيهم ، فيعمهم الله بالعذاب . وهذا تفسير حسن جداً . ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ هي أيضاً لكم . يعني نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ وفي غيرهم . والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم ، وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح . ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن . ومن أخص ما يذكر هاهنا ما رواه الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : ٣٧٧ [والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر أو ليوشكَنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتَدْعُنُنَّه فلا يستجيب لكم .] وقال عنه أيضاً : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقاً ، واني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات ، لتأمرن بالمعروف ولتَنْهَوُنّ عن المنكر ولتحاضُنّ على الخير أو ليسحتكم الله جميعاً بعذاب ، أو ليؤمرنّ عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم . روى الامام أحمد عن أم سلمة زوج النبي ﷺ وقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول ٣٧٨ : [« إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده » فقلت يا رسول الله أما فيهم أناس صالحون قال « بلى » قالت فكيف يَصْنَعُ أولئك قال « يصيبهم ما أصاب النّاس ، ثم يَصيرون إلى مغفرةٍ من الله ورضوانٍ »]

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢٦)

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه ، إذ كانوا قليلين فكثرهم ومستضعفين وخائفين فقواهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات ، واستشكرهم فأطاعوه في جميع أوامره ، هكذا كانوا بمكة قليلين مستضعفين مستخفين ، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر البلاد ، فلم يزل ذلك شأنهم حتى أذن الله لهم بالهجرة إلى المدينة فآواهم اليها ، وقيض لهم أهلها ، آووا ونصروا يوم بدر وغيره ، وواسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله ورسوله ﷺ . قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في قوله

تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ﴾ قال : كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً ، وأشقاه عيشاً ، وأجوعه بطوناً ، وأعراه جلوداً ، وأبينه ضلالاً ، من عاش منهم عاش شقياً ، ومن مات منهم ردي في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذٍ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالاسلام فمكّن به البلاد ، ووسع به الرزق ، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه فإنّ ربكم منعم يحب الشكر ، وأهلُ الشكر في مزيد من الله تعالى .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ (٢٧) وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۞ (٢٨) ﴾

اختلف المفسرون في أسباب نزول هذه الآية . فمنهم من قال : ٣٧٩ [أنزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك، وأشار بيده إلى حلقه . أي : أنه الذبح . ثم فطن أبو لبابة ورأى أنه قد خان الله ورسوله ، فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه ، وانطلق إلى مسجد المدينة ، فربط نفسه في ساريةٍ منه ، فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد ، حتى أنزل الله توبته على رسوله فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه ، وأرادوا أن يحلوه من السارية . فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده ، فحلّه ، فقال : يا رسول الله إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقةً فقال : « يجزيك الثلث أن تصدّق به »] رواه عبد الرزاق عن قتادة والزهري . روى ابن جرير عن المغيرة بن شعبة قال نزلت في قتل عثمان ! ! ! وقال أيضاً نزلت في رجل من المنافقين أخبر أبا سفيان أن محمداً يريدكم فخذوا حذركم ، ... وهذا حديث في سنده وسياقه نظر ! ! ! وقيل نزلت في حاطب بن أبي بلتعه لما كتب الى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح فأطلع الله رسوله على ذلك ، فبعث في أثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطباً فأقر بما صنع ... كما هو معلوم من هذه القصة ... (قلت) والصحيح : ان الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص ، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء . والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار

اللازمة والمتعدية ، وقوله تعالى : ﴿ وتخونوا أماناتكم ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الأمانة : الأعمال التي ائتمن عليها العباد ، يعني الفريضة . يقول : لا تخونوا لا تنقضوها . وقال في رواية : لا تخونوا الله والرسول بترك سنته ، وارتكاب معصيته وقال السدي : إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم .

وقوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ أي اختبار وامتحان منه لكم إذا أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونَه فيها أو تشتغلون بها عنه ؟ كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وان اللهَ عنده أجر عظيم ﴾ أي ثوابه وعطاؤه وجنَّاتُه خيرٌ لكم من الأموال والأولاد ، فإنه قد يوجد منهم عدو ، وأكثرهم لا يغني عنك شيئاً ، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة . وهكذا فإن حب الله ورسوله ﷺ مقدم على الأموال والأولاد . وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ ٣٨٠ : [ثلاث من كنَّ فيه ، وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلاَّ لله ، ومن كان أن يلقى في النار ، أحبَّ إليه من أن يرجِعَ الى الكفر ، بعد إذ أنقذَهُ الله منه .]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝(٢٩) ﴾

قال ابن اسحق : ﴿ فرقاناً ﴾ أي فصلاً بين الحق والباطل ، وهذا التفسير عام شامل فهو يستلزم المخرج والنجاة والنصر . فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره ، وفّق لمعرفة الحق من الباطل . فكان ذلك سبب نصره ونجاته ، ولنيل الثواب الجزيل . كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم . ﴾

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝(٣٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ لما ضاقت قريش ذرعاً بدعوة رسول الله ﷺ . فتآمروا عليه واجتمعوا بدار الندوة وائتمروا به ، فمنهم من أشار بأن يحبسوه ﷺ في وثاق ، ثم يتربصوا به ريب المنون ، حتى يهلك . وكان إبليس – كما يقال – دخل معهم متمثلاً هيئة شيخ نجدي[1] وناصحاً لهم . فلما سمع إبليس رأيَ من أشار بالوثاق ، صرَخ عدو الله وقال ما هذالكم برأي . ومنهم من أشار بالإخراج فإذا خرج تستريحون منه فأبى إبليس هذا الرأي ، إلى أن قام أبو جهل لعنه الله وأشار بأن يأخذوا من كل قبيلة غلاماً شاباً ، وسيطاً نهداً ، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها . فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقْوُونَ على حرب قريش كلها ، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا ، وقطعنا عنا أذاه . فقال إبليس – الشيخ النجدي – هذا والله الرأي ، القول ما قال الفتى ، لا أرى غيره . فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له ، فأتى جبريل النبي ﷺ . فأمره أن لا يبيت تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك بالخروج . وأنزل الله بعد قدومه المدينة ، الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده : ﴿ واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ فكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة . للذي اجتمعوا عليه من الرأي وعن ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ إلى أن أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فأمره أن لا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب ، فأمره أن يبيت على فراشه ، ويتسجَّى ببرد له أخضر ففعل ، ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه ، وخرج ومعه حفنة من تراب فجعل يذرها على رؤوسهم وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ وهو يقرأ : ﴿ يس والقرآن الحكيم – الى قوله – فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾

روى الإمام أحمد عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك ﴾ ... وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار . وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه رسول الله ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا علياً ردَّ الله تعالى مكرهم . فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال لا أدري ، فاقتَفوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار (ولكن الله أعماهم)[2] فمكث فيه ﷺ ثلاث ليال .

(١) كان أهل نجد – منذ ذلك الزمان – قد اشتهروا بالنصح ، وحكمة الرأي . فتمثل الشيطان بزيهم ليوهم قريشاً أنه ينصحهم ، فيطمئنوا لرأيه .

(٢) ما بين القوسين من كلامي ... أما رواية ابن عباس ففيها قصة نسج العنكبوت ... ولم تصح عنه .

وروى محمد بن اسحق عن عروة بن الزبير في قوله ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ أي فمكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وعنادهم ، ودعواهم الباطل عند سماع آياته ، إذا تتلى عليهم أنهم يقولون : ﴿ قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ وهذا منهم قول بلا فعل ، وإلاَّ فقد تُحُدُّوا غير ما مرة ، أن يأتوا بسورة من مثله ، فلا يجدون الى ذلك سبيلاً . إنما هو الغرور يغرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطلهم . وقد قيل أن قائل ذلك هو النضر بن الحارث لعنه الله كما نص على ذلك سعيد بن جبير ، والسدي وابن جريج وغيرهم . فإنه لعنه الله بعد أن عاد من فارس وتعلم أخبار ملوكهم ، وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن . فإذا قام جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ثم يقول بالله أينا أحسن قصصاً أنا أو محمد ؟ ولما وقع أسيراً يوم بدر ، أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبراً [١] بين يديه ففُعل ذلك ولله الحمد وكان الذي أسره المقداد بن الأسود (رض) وفي النضر نزلت [٢] هذه الآية : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلاَّ أساطير الأولين ﴾ ومعنى أساطير الأولين ، وهو جمع أسطورة ، أي كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس ، وهذا هو الكذب البحت . وقوله تعالى : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ هـذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم ، وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هوالحق من عندك فاهدنا له ، ووفقنا لاتباعه ، ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب ، وتقديم العقوبة .

(١) قتله صبراً أي حبسه على القتل حتى يقتل . (٢) وكذا قال ابن عباس وابن جبير والسدي ومجاهد وعطاء .

وقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ان الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم، فأمان قبضه الله إليه وأمان بقي فيكم (١) وروي عن أبي موسى الأشعري وقتادة وأبي العلاء النحوي المقري نحواً من هذا.

وروى الترمذي عن ابن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ٣٨١ [أنزل الله عليّ أمانين لأمتي: ﴿وما كان ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ فإذا مضيتُ تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة»] ويشهد لهذا ما رواه الامام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه عن ابن سعيد أن رسول الله ﷺ قال: ٣٨٢ [إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الرب: وعزّتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني] ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُۥ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُۥ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ (٣٥)﴾

يخبر تعالى أنهم أي الكفار أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع بهم لبركة مُقام الرسول ﷺ بين أظهرهم، ولهذا لمّا خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم وأسر سراتهم، وأرشدهم إلى الاستغفار من الذنوب المتلبسين بها من الشرك والفساد. وقال قتادة والسدي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا واختاره ابن جرير فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين المؤمنين المستغفرين، لوقع بهم البأس الذي لا يرد، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، ولما خرج المستضعفون من مكة إلى المدينة، أنزل الله قوله تعالى: ﴿وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم

(١) ولهذا لم يعذب الله كفار مكة لما كان رسول الله (ص) والمؤمنون المستخفون فيهم، ولما هاجروا عذبهم ببدر.

يصدّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ﴾ فأذن الله في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم ، أي فكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون المؤمنين الذين هم بمكة عن المسجد الحرام والصلاة فيه والطواف بالبيت وهم أهله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وما كانوا أولياءَه إنْ أولياؤه إلاّ المتقون ﴾ أي إن المشركين ليسوا أهل المسجد الحرام وإنما أهل بيته هم النبي ﷺ وأصحابه . كما قال تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلاَّ الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وصدٌ عن سبيل الله وكفر به والمسجدِ الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴾

روى الحافظ ابن مردويه عن أنس بن مالك (رض) قال ٣٨٣ : [سئل رسول الله ﷺ : من أولياؤك ؟ قال : « كل تقي » وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾] ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام ، وما كانوا يعاملونه به فقال : عز من قائل : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلاَّ مكاءً وتصدية ﴾ قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق ، والمكاء الصفير ، والتصدية التصفيق . وقال عكرمة : كانوا يطوفون بالبيت على الشمال . قال مجاهد : وانما كانوا يصنعون ذلك ، ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته وقوله عز وجل: ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ وهو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي . واختاره ابن جرير ولم يحكِ غيرُه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۞ (٣٦) لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ۞ (٣٧) ﴾

نزلت هذه الآية في كفار قريش ، الذين أصيب آباؤهم وأبناؤهم واخوانهم ببدر ،

كعبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير التي نجا بها أبو سفيان من المسلمين إلى مكة قبيل وقعة بدر تجارة ، فقالوا يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ففعلوا ، ففيهم أنزل الله عز وجل : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ـ إلى قوله ـ هم الخاسرون ﴾ وهذا مروي عن ابن عباس وبعض التابعين .

وعلى كل تقدير فهي عامة وإن سبب نزولها خاصاً فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك . ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرةً لا تجديهم شيئاً ، لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . ولهذا قال عز وجل : ﴿ فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرةً ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . ﴾ وقوله تعالى ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ أي يميز أهل السعادة من أهل الشقاء في الدنيا والآخرة ، كقوله تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ فمعنى الآية على هذا إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم ، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه ﴾ أي يجمعه متراكماً متراكباً ﴿ فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة .

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَٱعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَى وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۞ (٤٠) ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا ﴾ أي عمّا هم فيه من الكفر والعناد ، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة . ﴿ يغفرْ لهم ما قد سلف ﴾ من كفرهم

وخطاياهم كما جاء في الصحيح عن ابن مسعود (رض) : أن رسول الله ﷺ قال : ٣٨٤ [من أحسن في الإسلام لم يؤآخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر] وفي الصحيح أنه ﷺ قال ٣٨٥ : [الإسلام يجبُّ ما قبله ، والتوبة تجب ما كان قبلها] وقوله تعالى : ﴿ وإن يعودوا ﴾ أي يستمروا على ما هم عليه ﴿ فقد مضت سنّةُ الأوّلين ﴾ أي قد مضت سنّتنا في الأولين ، أنهم إذا كذّبوا واستمروا على ذلك نعاجلهم بالعذاب والعقوبة . كما فعل بقريش يوم بدر وغيرها من الأمم ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ روى البخاري عن سعيد بن جبير قال ٣٨٦ : [خرج علينا أو إلينا ابن عمر (رض) فقال : كيف ترى في قتال الفتنة ؟ فقال وهل تدري ما الفتنة ؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين ، وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس بقتالكم على الملك .] وروى أيضاً عن نافع عن ابن عمر أن رجلاً جاء فقال : ٣٨٧ [... فإن الله تعالى يقول : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذْ كان الإسلام قليلاً ، وكان الرجل يفتن في دينه إما أن يقتلوه ، وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ...]

قال أبو عوانة عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : قال ذو البطين يعني أسامة بن زيد لا أقاتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبداً فقال سعد بن مالك : وأنا والله لا أقاتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبداً فقال رجل : ألم يقل الله تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ فقالا : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله [1] رواه ابن مردويه . وقال ابن عباس : يعني لا يكون شرك و كذا قال جمع من التابعين . وثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال ٣٨٨ : [أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يقولوا لا إله الا الله . فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل] .

وقوله تعالى : ﴿ فإن انتهوا ﴾ أي بسبب قتالكم لهم عما هم فيه من الكفر ، فكفوا عنهم ، وإن لم تعلموا بواطنهم ، ﴿ فإن الله بما يعملون بصير ﴾ كقوله تعالى ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ وكما جاء في الصحيح ٣٨٩ : [إن رسول الله ﷺ قال لأسامة ، لما علا ذلك الرجل بالسيف ، فقال لا إله الا الله فضربه فقتله ،

(١) قلت : تبين من الأحاديث المتقدمة أن القتال إنما كان دفاعاً عن التوحيد ليكون خالصاً لله وحده لا شريك له ويخلع ما دون الله من الأنداد فخرج بذلك قتال أهل القبلة . أما إذا عاد الأمر كما كان من اضطهاد المسلمين فيصار إلى قتال من اضطهدهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله

فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة : « أقتلته بعدما قال لا إله الا الله ؟ وكيف تصنع بلا إله الا الله يوم القيامة ؟ » فقال يا رسول الله إنما قالها تعوذاً قال : « هلاّ شققت عن قلبه ؟» وجعل يقول ويكرر عليه من لك بلا إله الا الله يوم القيامة قال أسامة حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلاّ يومئذ] وقوله تعالى : ﴿ وإن تولّوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ أي وإن استمروا على خلافكُم ومحاربتكم فاعلموا أن الله مولاكم ، سيدكم وناصركم على أعدائكم ، فنعم المولى ونعم النصير .



﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤١)

خصّ الله تعالى هذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة بإحلال الغنائم . والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار ، [١] بإيجاف الخيل والركاب ، والفيء ما أخذ منهم بغير ذلك ، كالأموال التي يصالحون عليها ، أو يتوفّون عنها ، ولا وارث لهم ،والجزية والخراج ونحو ذلك ، وهذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف . ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة ، وبالعكس أيضاً . فمن يفرّق بين معنى الفيء والغنيمة يقول : تلك آية الحشر : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى ﴾ نزلت في أموال الفيء ، وهذه أي : ﴿ واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ... ﴾ نزلت في الغنائم . ومن يجعل أمر الغنائم والفيء راجعاً الى رأي الإمام ، يقول : لا منافاة بين آية الحشر ، وبين آية التخميس ، إذا رآه الإمام والله تعالى أعلم . فقوله تعالى : ﴿ واعلموا أنّ ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه ﴾ توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط ، قال الله تعالى : ﴿ ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأن لله خمسه وللرسول ﴾ فقد اختلف المفسرون ههنا وأصح ما ورد هو ما قاله ابن عباس (رض) : [٣٩٠ كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا ، خمّس الغنيمة ، فضرب ذلك الخمس في

(١) الإيجاف : تسيير الخيل يوم الزحف على العدو.

خمسة ثم قرأ : ﴿ واعلموا ان ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ﴾ فان لله خمسه مفتاح كلام ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ فجعل سهم الله وسهم الرسول ﷺ واحداً] وهكذا قال إبراهيم النخعي والحسن بن محمد بن الحنفية والحسن البصري وغيرهم: أن سهم الله ورسوله واحد ويؤيد هذا ما رواه البيهقي بإسناد صحيح عن رجل ــ من الصحابة ــ قال ٣٩١ : [أتيت النبي ﷺ ، وهو بوادي القرى ، وهو يعرض فرساً ، فقلت يا رسول الله ، ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : «لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش» قلت فما أحد أولى به من أحد ؟ ــ قال: « لاولا السهم تستخرجه من جيبك ليس أنت أحق به من أخيك المسلم »]

روى عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح قال: خمس الله والرسول واحد يحمل منه ويصنع فيه ما شاء ، يعني النبي ﷺ وهذا أعم وأشمل وهو أنه يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء ، ويرده في أمته كيف شاء . ويشهد له ما رواه الإمام أحمد عن المقداد بن معد يكرب الكندي ، أنه جلس مع عبادة بن الصامت وأبي الدرداء ، والحارث بن معاوية الكندي (رض) ، فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ ، فقال أبو الدرداء لعبادة : يا عبادة: كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس فقال عبادة : ٣٩٢ [إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم ، فلما سلّم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنملتيه فقال : إن هذه من غنائمكم وإنه ليس لي فيها إلاّ نصيبي معكم الخمس، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمخيط ، وأكبر من ذلك وأصغر ، ولا تغلوّا فإن الغلول عار ونار على أصحابه في الدنيا والآخرة ، وجاهدوا الناس في الله القريب والبعيد ولا تبالوا في الله لومة لائم ، وأقيموا حدود الله في السفر والحضر ، وجاهدوا في سبيل الله فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، عظيم ينجي الله به من الهم والغم] . هذا حديث حسن عظيم ولم أره في شيء من الكتب الستة ، من هذا الوجه . ولكن روى الإمام أحمد أيضاً وأبو داود والنسائي عن عبدالله بن عمرو ، عن رسول الله ﷺ نحوه ، في قصة الخمس والنهي عن الغلول ، إلى قوله : « والخمس مردود عليكم » . رواه أبو داود والنسائي عن عمر بن عنبسة وقد كان للنبي ﷺ من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه ، عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك كما نص عليه محمد بن سيرين وعامر الشعبي وتبعهما على ذلك أكثر العلماء ، وقد تنفّل رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر ، وصفية من الصفى . وروى أبو داود بأسناده والنسائي عن يزيد بن عبدالله قال ٣٩٣ : [كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم فقرأناها فإذا فيها

« من محمد رسول الله ﷺ إلى بني زهير بن أقيش إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وأدّيتم الخمس من المغنم وسهم النبي ﷺ وسهم الصفى ، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله »] فقلنا من كتب لك هذا ؟ فقال : رسول الله ﷺ .

فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا وثبوته – أي أن للرسول أن يصطفي لنفسه ما يشاء من الخمس وهو من خصائصه عليه الصلاة والسلام – وقال آخرون : إن الخمس يتصرف فيه الامام بالمصلحة للمسلمين ، كما يتصرف في مال الفيء ، وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله : وهذا قول مالك وأكثر السلف وهو أصح الأقوال . وقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس ، ماذا يصنع به من بعده ، فقال قائلون : يكون لمن يلي الأمر من بعده . روى هذا عن أبي بكر وعلي وقتادة وجماعة ، وجاء فيه حديث مرفوع وقال آخرون : يصرف في مصالح المسلمين ، وآخرون : بل هو مردود على بقية الأصناف من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل اختاره ابن جرير ، وقال آخرون : بل سهم النبي ﷺ ، وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل ، وقيل إن الخمس جميعه لذوي القربى . وقد اجتمع الرأي على أن يجعلوا هذين السهمين أي سهم النبي وذوي القربى في الخيل والعدة في سبيل الله فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر (رض) . قال الأعمش عن إبراهيم : كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع [(١)] والسلاح فقلت لإبراهيم ما كان علي يقول فيه ؟ قال : كان أشدهم فيه [(٢)] وأمّا سهم ذوي القربى ، فإنه يصرف إلى بني هاشم وبني عبد المطلب .

وقوله تعالى : ﴿ واليتامى ﴾ أي أيتام المسلمين الفقراء ﴿ والمساكين ﴾ هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد مسكنتهم ﴿ وابن السبيل ﴾ هو المسافر أو المريد للسفر الى مسافة تقصر فيها الصلاة ، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك ، وسيأتي تفسير ذلك في آية الصدقات من سورة براءة إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان . [(٣)]

وقوله تعالى : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا ﴾ أي امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس من الغنائم ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وما أنزل على رسوله . ولهذا

---

(١) الكراع : اسم يجمع الخيل والسلاح .
(٢) وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله .
(٣) راجع تفسير الآية رقم /٦٠/ من سورة التوبة .

جاء في الصحيحين من حديث عبدالله بن عباس في حديث وفد عبد القيس أن رسول الله ﷺ قال لهم : ٣٩٤ [وآمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع ، آمركم : بالإيمان بالله ثم قال هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم ...] الحديث بطوله فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان . وقال مقاتل بن حبان : ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ أي في القسمة (١) وقوله تعالى : ﴿ يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾ يوم الفرقان هو يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل. وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ وذلك في سبع عشرة مضت من رمضان وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير وكان ذلك يوم الجمعة وهو قول الجمهور والله تعالى أعلم .

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ (٤٢) ﴾

يخبر تعالى عن يوم الفرقان ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا ﴾ أي إذا أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة الى المدينة ﴿ وهم ﴾ أي المشركون نزول ﴿ بالعدوة القصوى ﴾ أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ﴿ والركب ﴾ أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ، ﴿ أسفل منكم ﴾ أي مما يلي سيف البحر ﴿ ولو تواعدتم ﴾ أي أنتم والمشركون إلى مكان ﴿ لاختلفتم في الميعاد ﴾ قال محمد بن اسحق عن عبدالله بن الزبير عن أبيه في هذه الآية ، قال : ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم ، ثم بلغكم كثرة عددهم ، وقلة عددكم ، ما لقيتموهم . ﴿ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ أي ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله من غير ملأ منكم ، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه . وفي حديث كعب بن مالك قال : إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولما نجا أبو سفيان بعيره

(١) أي قسمة الغنائم من أن الخمس لله ولرسوله وأربعة الأخماس للمجاهدين وذلك نزل يوم الفرقان أي يوم بدر وتقسيم الخمس لله ورسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

بعث إلى قريش فقال : إن الله قد نجّى عيركم وأموالكم ورجالكم ، فارجعوا ؛ فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نأتي بدراً ــ وكانت بدر سُوقاً من أسواق العرب ــ فنقيم بها ثلاثاً فنطعم بها الطعام وننحر بها الجزر ، ونسقي بها الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا ، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً ٣٩٥ [١] [قال وبعث رسول الله ﷺ حين دنا من بدر علي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام في نفر من أصحابه يتجسسون له الخبر ، فأصابوا سقاةً لقريش غلاماً لبني سعيد بن العاص ، وغلاماً لبني الحجاج فأتوا بهما رسول الله ﷺ فقال لهما « أخبراني عن قريش » قالا : هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى فقال لهما رسول الله ﷺ « كم القوم » قالا كثير قال « ما عدّتُهم ؟ » قالا ما ندري قال : « كم ينحرون كل يوم ؟ » قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً قال رسول الله ﷺ « القوم ما بين التسعمأة إلى الألف » ثم قال لهما « فمن فيهم من أشراف قريش ؟ » قالا : عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل وطعيمة بن عدي بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ودّ ، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال : « هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها »] رواه محمد بن اسحق عن عروه بن الزبير قال ابن اسحق : وارتحلت قريش حين أصبحت . فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ فقال ٣٩٦ [اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذّب رسولك اللهم أحِنْهُمُ الغداة]

وقوله تعالى : ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيّ عن بينة ﴾ قال محمد بن اسحق : أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة ، ويؤمن من آمن على مثل ذلك وهذا تفسير جيد وقوله تعالى : ﴿ وإن الله لسميع ﴾ أي لدعائكم وتضرعكم واستعانتكم به ﴿ عليم ﴾ بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم .

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝(٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝(٤٤) ﴾

(١) وأطاع بنو زهرة الأخنس بن شريق بالعودة فلم يشهدوها ، ولا بنو عدي .

قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلاً، وأخبر عليه الصلاة والسلام بذلك أصحابه فكان تثبيتاً لهم وقوله تعالى﴿ ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ﴾ أي لجبنتم عنهم، واختلفتم فيما بينكم ﴿ ولكن الله سلّم ﴾ أي من ذلك بأن أراكهم قليلاً ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما في الضمائر كقوله تعالى ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ﴾ وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين. فيجرؤهم عليهم ويطمعهم فيهم. قال أبو اسحق السبيعي عن عبدالله بن مسعود (رض) قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: لا بل هم مائه، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، فقال: كنّا ألفاً، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. وقوله تعالى: ﴿ ويقللكم في أعينهم ﴾ قال ابن أبي حاتم عن عكرمة قال حضّض بعضهم على بعض، إسناد صحيح وقوله تعالى: ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ أي أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، وقلّله في عينه ليطمع فيه عند المواجهة، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه كما قال تعالى: ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين فإن كلاً منها حق وصدق ولله الحمد والمنة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۞ (٤٦) ﴾

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال عز وجل: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن أبي أوفى ٣٩٧ [أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال « يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قام النبي ﷺ وقال: « اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب،

أهزمهم وانصرنا عليهم »] وروى عبد الرزاق عن عبدالله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ ٣٩٨ : [لا تتمنَّوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله ، فإن صخبوا وصاحوا ، فعليكم بالصمت] وفي الحديث الآخر المرفوع ٣٩٩ : [يقول الله تعالى إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه] أي لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي واستعانتي .

وهكذا فقد أمر الله تعالى : بالثبات عند قتال الأعداء ، والصبر على مبارزتهم ، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا وأن يذكروا الله تعالى في تلك الحال ولا ينسوه ، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ، ويسألوه النصر على أعدائهم وأن يطيعوا الله ورسوله في كل الأمور ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم ﴿وتذهب ريحكم﴾ أي قوتكم وحدتكم، وماكنتم فيه من الإقبال ﴿واصبروا ان الله مع الصابرين﴾. وقد كان للصحابة (رض) في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به وامتثال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد ممن بعدهم . فإنهم ببركة الرسول ﷺ الحاصلة لهم بطاعته فيما أمرهم ونهاهم فتحوا الدنيا ، وظهر دينهم على سائر الأديان مع قلة عددهم ، فامتدت ممالكهم في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين ، وحشرنا في زمرتهم إنه كريم وهاب .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) ﴾

بعدما أمر الله المؤمنين بالأخلاص في القتال في سبيله ، وكثرة ذكره ، نهاهم

عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم مضادّين للحق ﴿ ورئاء الناس ﴾ أي مفاخرة وتكبراً ، كما قال أبو جهل لما قيل له : إن العير قد نجا فارجعوا ؛ فقال لا والله لا نرجع ، حتى نرد ماء بدر ، وننحر الجزر ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتتحدث العرب بمكاننا فيها أبداً ، فانعكس ذلك عليه أجمع ولهذا قال تعالى : ﴿ والله بما يعملون محيط ﴾ أي عالم بما فرطوا فجازاهم عليه شر الجزاء . وقوله تعالى : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ﴾ الآية ... حسّن لهم لعنه الله ما جاءوا له وما هموا به ، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ، ونفى عنهم الخشية من عدوهم بني بكر فقال إني جار لكم وذلك أن تبدى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، سيد بني مدلج ، وكلٌ ذلك منه كما قال تعالى عنه : ﴿ يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال :

٤٠٠ : [جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته ، في صورة رجل من بني مدلج ، في صورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما اصطفّ الناس ، أخذ رسول الله ﷺ قبضةً من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولّوا مدبرين وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولّى مدبراً وشيعته فقال الرجل (١) : يا سراقة أتزعم أنك لنا جار ؟ فقال إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله والله شديد العقاب وذلك حين رأى الملائكة] وهكذا ﴿ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريءٌ منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له ، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شرّ مسلم وتبرأ منهم عند ذلك ، قال قتادة . (قلت) يعني بعادته لمن أطاعه . كقوله تعالى : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين » وأقبل أبو جهل يحضّض أصحابَه ، ويقول لا يهولنّكم خذلان سراقة إياكم ، فإنه كان على موعد مع محمد وأصحابه . ثم قال : واللات والعزى ، لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه في الحبال ، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً .

وقوله تعالى : ﴿ إذْ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرَّ هؤلاء دينهم ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية : لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين ، وقلل المشركين في أعين المسلمين ، فقال المشركون غرّ

(١) هو الحارث بن هشام .

هؤلاء دينهم ، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم . فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك . وقوله تعالى : ﴿ومن يتوكّل على الله﴾ أي يعتمد على جنابه ﴿فان الله عزيز﴾ أي لا يضام مَنِ التجأ إليه. فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿حكيم﴾ في أفعاله لا يضعها إلاّ في مواضعها ، فينصر من يستحق النصر . ويخذل من هو أهل لذلك .

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١)﴾

يقول تعالى : ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار ، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيعاً منكراً إذ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ويقولون ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ وذلك يوم بدر ، وهذه الآية وإن كان سببها وقعة بدر ولكنها عامة في حق كل كافر ، كقوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم﴾ أي باسطو أيديهم بالضرب فيهم بأمر ربهم . إذ استصعبت أنفسهم ، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرجَ قهراً . وذلك إذا بشّروهم بالعذاب والغضب من الله تعالى ؛ كما في حديث البراء أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة يقول : أُخرجي أيتها النفسُ الخبيثةُ إلى سموم وحميم ، وظلٍ من يحموم . فتتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السفود من الصوف المبلول فتخرج معها العروق والعصب ولهذا أخبر تعالى : أن الملائكة تقول لهم ذوقوا عذاب الحريق . وقوله تعالى : ﴿ذلك بما قدمتْ أيديكُم﴾ أي هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا جازاكم الله بها هذا الجزاء ﴿وأن الله ليس بظلاّم للعبيد﴾ أي لا يظلم أحداً من خلقه ، بل هو الحكَم العدل الذي لا يجور . تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغني الحميد . ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن مسلم رحمه الله من رواية أبي ذر (رض) ، عن رسول الله ﷺ ٤٠١ [أنَ الله تعالى يقول : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد اللهَ ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلاّ نفسه »] ، ولهذا قال تعالى :

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۞(٥٢) ﴾

يقول تعالى ان هؤلاء المشركين المكذبين بما أرسلتَ به يا محمد فعلوا كما فعل الأمم المكذبة قبلهم . ففعلنا بهم كما فعلنا بأمثالهم من الأمم المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم ، الكافرين بآيات الله ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ أي بسببها أهلكهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ إن الله قوي شديد العقاب ﴾ أي لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞(٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ۞(٥٤) ﴾

يخبر تعالى عن تمام عدله ، وقسطه في حكمه ، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه ، كقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا اراد الله بقوم سوءً فلا مردّ له وما لهم من دونه من والٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ أي كما صنع بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته ، أهلكهم بسبب ذنوبهم وسلبَهُمْ تلك النعم التي أسداها إليهم ، من جناتٍ وعيون وزروع وكنوز ، ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين .

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞(٥٥) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۞(٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۞(٥٧) ﴾

أخبر تعالى : إن شر ما يدبّ على وجه الارض ، هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون

الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه . وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه ﴿ وهم لا يتقون ﴾ أي لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام . ﴿ فإما تثقفنّهم في الحرب ﴾ أي تظفر بهم في حرب ﴿ فشرّدْ بهم من خلفهم ﴾ أي غلّظ عقوبتهم . وأثخنهم قتلاً . ليخاف من سواهم من الأعداء . من العرب وغيرهم . ويصيروا لهم عبرة ﴿ لعلّهم يذّكّرون ﴾ يقول لعلّهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك .

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ۞ (٥٨) ﴾

يقول تعالى لنبيّه ﷺ : ﴿ وإما تخافنّ مِنْ قوم ﴾ قد عاهدتهم ﴿ خيانة ﴾ أي نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق ، ﴿ فانبذ إليهم ﴾ أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم . أيضاً وتستوي أنت وهم في ذلك أي أنت تعلم أنهم حرب عليك ، وهم يعلمون أنك حرب عليهم﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ أي حتى ولو في حق الكفار لا يحبها أيضاً . روى الإمام أحمد عن سليم بن عامر قال : ٤٠٢ [كان معاوية يسير في أرض الروم وكان بينه وبينهم أمد . فأراد أن يدنو منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم . فاذا شيخ على دابة يقول : الله اكبر . الله اكبر ، وفاءً لا غدراً إن رسول الله ﷺ قال : « ... ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلّنّ عقدة ولا يشدها حتى ينقضي أمدها ، أو ينبذ اليهم على سواء » قال فبلغ ذلك معاوية . فرجع ، فإذا بالشيخ عمرو بن عنبسة (رض) .] وهذا الحديث رواه ابو داود الطيالسي عن شعبة ، وأخرجه ابو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه من طرق عن شعبة به ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۞ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۞ (٦٠) ﴾

يقول تعالى لنبيّه ﷺ ﴿ ولا يحسبن [١] ﴾ يا محمد ﴿ الذين كفروا سبقوا ﴾ أي فاتونا، فلا نقدر عليهم... بل هم تحت قهر قدرتنا. وفي قبضة مشيئتنا، فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئآت أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾ أي يظنون. ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان فقال: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم ﴾ أي مهما أمكنكم ﴿ من قوة ومن رباط الخيل ﴾ روى الامام مسلم عن عقبة ابن عامر قال: ٤٠٣ [سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ألاَ إن القوة الرمي الا أن القوة الرمي »] رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه ثلاثتهم عن عبدالله بن وهب. وروى الامام أحمد وأهل السنن عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ: ٤٠٤ [ارموا واركبوا وإن ترموا خير من ان تركبوا] روى الامام مالك عن أبي هريرة (رض) ان رسول الله ﷺ قال: ٤٠٥ [« الخيل لثلاثة: لرجل أجر. ولرجل ستر. وعلى رجل وزر. فأما الذي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج او روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة. كانت له حسنات ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقى به كان ذلك حسنات له، فهي لذلك الرجل أجر. ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء فهي على ذلك وزر » وسئل رسول الله ﷺ عن الحُمر [٢] فقال « ما أنزل الله علي فيها شيئاً الا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾] وفي صحيح البخاري عن عروة بن أبي الجعد البارقي، ان رسول الله ﷺ قال: ٤٠٦ [الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم] وقوله تعالى: ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ أي تخوفون به الكفار اعداء الله واعداءكم ﴿ وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هم المنافقون. ويشهد له قوله تعالى: ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وانتم لا تظلمون ﴾ أي مهما أنفقتم في الجهاد فإنه يوفّى إليكم على التمام والكمال. ولهذا جاء في الحديث الذي رواه ابو داود: ٤٠٧ [ان الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف] كما تقدم في قوله تعالى.

---

(١) مشى المفسر على قراءة « ولا تحسبن » بالتاء.

(٢) الحمير.

﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبةٍ أنبتت سبعَ سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللهُ هُوَ ٱلَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۞ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ (٦٣)﴾

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة، فانبذ اليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم ﴿وان جنحوا﴾ أي مالوا ﴿للسلم﴾ أي المسالمة ﴿فاجنح لها﴾ أي فملْ إليها واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر وقوله تعالى: ﴿وتوكل على الله﴾ أي صالحهم وتوكل على الله، فإنه كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة، ليتقوّوا ويستعدوا ﴿فإن حسبك الله﴾ أي كافيك وحده، ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار فقال جل وعلا: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم﴾ أي جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك فقد كان بين الأنصار حروب كثيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾ وفي الصحيحين
٤٠٨ [ان رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار، في شأن غنائم حنين، قال لهم: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ.] ولهذا قال تعالى: ﴿ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ أي عزيز الجناب، فلا يخيّب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه. قال الحافظ ابو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني رحمهُ الله عن سلمان الفارسي ان رسول الله ﷺ قال٤٠٩: ان المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ

بيده ، تحاتت عنهما ذنوبهما كما تحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحار .]

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٤)
يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ
صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿ (٦٥) ٱلْآنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ
أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ
مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ ﴿ (٦٦)

يحرض الله نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ، ويخبرهم أنه تعالى كافيهم وناصرهم على عدوهم وان كثر عَدده وعُدده ، ولو قل عدد المؤمنين . قال ابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله تعالى : ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ قال : حسبك الله وحسب من شهد معك ولهذا قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال ﴾ أي حثهم عليه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال . عند صفهم ومواجهة العدو كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم : ٤١٠ [قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ...]

ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين وآمراً : ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾ كل واحد بعشرة ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة قال عبدالله بن المبارك عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ شق ذلك على المسلمين ، حين فرض الله عليهم ان لا يفر واحد من عشرة ثم جاء التخفيف ، فقال عز وجل : ﴿الآن خفف الله عنكم –إلى قوله – يغلبوا مئتين﴾ قال خفف الله عنهم من العدة ، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم . وروى البخاري عن ابن عباس ، قال : لما نزلت هذه الآية ثقل على المسلمين وأعظموا ان يقاتل عشرون مائتين، ومائة الفاً. فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال : ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً ﴾ الآية فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم ،

لم يسغ لهم أن يفروا من عدوهم ، واذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم ، وجاز لهم ان يتحوزوا عنهم .

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * (٦٩) ﴾

روى الأعمش عن عبدالله [١] قال ٤١١ : [لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ « ما تقولون في هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر يا رسول الله : كذبوك وأخرجوك ، فقدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبدالله بن رواحة : يا رسول الله أنت في واد كثير الحطب ، فاضرم الوادي عليهم ناراً ، ثم ألقهم فيه ، قال فسكت رسول الله ﷺ فلم يردّ عليهم شيئاً ثم قام فدخل ؛ فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول عبدالله بن رواحة .

ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وان مثلك يا أبا بكر كمثل ابراهيم عليه السلام قال : ﴿فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ وان مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال : ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ وإن مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام، السلام ، قال : ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام : ﴿قال رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ أنتم عالة فلا ينفكن أحد منهم الا بفداء أو ضربة عنق » قال ابن مسعود قلت يا رسول الله إلاّ سهيل بن بيضاء ، فإنه يذكر الاسلام ، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع علي حجارة من السماء مني في ذلك اليوم

(١) ابن مسعود .

حتّى قال رسول الله ﷺ : « الا سهيل بن بيضاء » فأنزل الله عز وجل : « ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض » إلى آخر الآية .] رواه الامام أحمد والترمذي والحاكم في مستدركه وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

وقوله تعالى : ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني في أم الكتاب الأول ، ان الغنائم والأسارى حلال لكم ﴿لمسّكم فيما أخذتم﴾ من الأسارى ﴿عذاب عظيم﴾ قال الله تعالى : ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين عن جابر بن عبدالله (رض) الحديث الذي فيه قوله عليه الصلاة والسلام ٤١٢ [... وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ...] فعند ذلك اخذوا من الأسارى الفداءَ . وقد روى الإمام أبو داود في سننه عن ابن عباس ٤١٣ [ان رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة] وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء ، ان الامام مخير فيهم ، ان شاء قتل كما فعل ببني قريظة ، وإن شاء فادى كما فعل بأسرى بدر ، أو بمن أُسِرَ من المسلمين ، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها ، اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع حيث ردّهما وأخذ مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وان شاء استرق من أسر . هذا مذهب الشافعي وطائفة من العلماء وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة ، مقرر في موضعه من كتب الفقه .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * (٧١) ﴾

روى محمد عن عبدالله بن عباس (رض) ان رسول الله ﷺ قال يوم بدر ٤١٤ [إني قد عرفت أن أناساً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقى منكم أحداً منهم فلا يقتله ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه انما خرج مستكرَهاً » فقال أبو حذيفة بن عتبة : أنقتل آباءنا وأبناءنا واخواننا وعشائرنا ونترك العباس والله لئن لقيته لألجمنّهُ بالسيف فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب « يا أبا حفص ــ قال عمر والله إنه لأول يوم

كنّاني فيه رسول الله ﷺ أبا حفص – أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ – بالسيف ؟» فقال عمر : يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه فوالله لقد نافق ، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت ولا أزال منها خائفاً الا أن يكفرها الله تعالى عني بشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيداً (رض) وبه عن ابن عبـــاس قال ٤١٥ : [لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر والأسارى محبوسون بالوثاق ، بات رسول الله ﷺ ساهراً أول الليل ، فقال له أصحابه يا رسول الله مالك لا تنام؟ وقد أسر العباسَ رجلٌ من الأنصار فقال رسول الله ﷺ « سمعت أنين عمي العباس في وثاقه» فأطلقوه فسكت فنام رسول الله ﷺ]

روى يونس بن بكير عن الزهري عن جماعة سماهم قالوا : ٤١٦[بعثت قريش الى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم ففدى كل قوم أسيرهم ...وقال العباس يا رسول الله قد كنت مسلماً فقال رسول الله ﷺ « الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتدِ نفسَك وابنَ أخيك نوفل ابن الحارث بن عبد المطلب وعقيلَ بنَ أبي طالب بن عبد المطلب ، وحليفَك عتبةَ بن عمر أخي بن الحارث بن فهر » قال ما ذاك عندي يا رسول الله . قال : « فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل ؟ فقلتَ لها إن أصبت في سفري هذا ، فهذا المال الذي دفنتيه لبَنيّ الفضلِ وعبدِ الله وقثم » قال والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله ، إنّ هذا الشيء ما علمه أحد غيري وغيرأم الفضل فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي فقال رسول الله ﷺ « لا ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك » ففدى نفسَه وابنَيْ أخويهِ وحليفَه ، فأنزل الله عز وجل فيه : ﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾قال العباس فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل .]

روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن أنس بن مالك قال ٤١٧ [أتى رسولُ الله ﷺ بمالٍ من البحرين فقال : انثروه في مسجدي قال وكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة ، جاء فجلس إليه فما كان يرى أحداً الا أعطاه إذ جاءه العباس فقال يا رسول الله أعطني فإني فاديت نفسي ، وفاديت عقيلاً فقال له رسول الله ﷺ « خذ » فحثا في ثوبه ثم ذهب يقلّه فلم يستطع فقال مُرْ بعضَهم يرفعه إليّ قال : « لا » قال فارفعه أنت عليّ قال : « لا » فنثر منه ثم احتمله على كاهله

ثم انطلق فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي عنه ، عجباً من حرصه ، فما قام رسول الله ﷺ وثَـمَّ منها درهم .] وقد رواه البخاري في مواضع من صحيحة تعليقاً بصيغة الجزم .

وقوله تعالى : ﴿وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل﴾ أيْ وان يريدوا خيانتك فيما أظهروا لك من الأقوال فقد خانوا الله من قبل بدر بالكفر به ﴿فأمكن منهم﴾ أي أي بالأسارى يوم بدر ﴿والله عليم حكيم﴾ عليم بفعله حكيم فيه . وتفسير هذه الآية على العموم أي أنها عامة في العباس وغيره هو أشمل وأظهر والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * (٧٢) ﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم الى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا لنصر الله ورسوله واقامة دينه وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك . وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك ، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء : ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد . ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار كل اثنين أخوان فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث . ثبت ذلك في صحيح البخاري عن ابن عباس . روى الامام أحمد عن جرير بن عبدالله البجلي (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٤١٨ : [المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض ، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة] تفرد به أحمد .

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار ، في غير ما آية في كتابه المبين : ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً

وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ الآية ...

وأحسن ما قيل في قوله تعالى : ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾أي لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم ، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون في ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين ، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا ، بل أقاموا في بواديهم فهؤلاء ليس لهم في المغانم من نصيب ، ولا في خمسها إلاّ ما حضروا فيه القتال .

كما روى الامام أحمد عن يزيد بن الحصيب الأسلمي (رض) ٤١٩ : [... أدعهم إلى الاسلام فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ثم ادعهم الى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأعلمهم إن فعلوا ذلك ان لهم ما للمهاجرين ، وان عليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا واختاروا دارهم ، فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، ويجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم] انفرد به مسلم وعنده زيادات أخر .

وقوله تعالى : ﴿ وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر ﴾ أي الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدولهم فانصروهم ، فانه واجب عليكم نصرهم ، لأنهم اخوانكم في الدين إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ، بينكم وبينهم ميثاق أي مهادنة إلى مدة ، فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم ، وهذا مروي عن ابن عباس (رض) .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ۝ (٧٣) ﴾

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار ، وفي الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ ٤٢٠ [لا يرث

المسلم الكافر ولا الكافر المسلم] وفي المسند من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٢١ [لا يتوارث أهل ملتين شتى] وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقال ﷺ ٤٢٢ : [« أنا بريءٌ من كل مسلم بين ظهراني المشركين » ثم قال : « لا يترآى ناراهما »] ومعنى قوله تعالى : ﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ أي ان لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت فتنة في الناس وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل .

﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۞(٧٤) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنْكُمْ وأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ (٧٥) ﴾

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر ما لهم في الآخرة فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم في أول السورة وانه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب – إن كانت – وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف دائم مستمر أبداً لا ينقطع ولا ينقضي ، ثم ذكر متبعيهم على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال تعالى : ﴿والسابقون الأولون﴾ الآية ...

وقال تعالى : ﴿والذين جاءوا من بعدهم﴾ الآية ... وفي الحديث المتفق عليه ٤٢٣ [المرء مع من أحب] وفي الحديث الآخر ٤٢٤ : [من أحبَّ قوماً فهومنهم . وفي رواية : حشر معهم]

وأما قوله تعالى : ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ تشمل جميع القرابات فهي أي هذه الآية كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للإرث بالحلف والأخاء اللذَيْن كانوا يتوارثون بهما ،أولاً .

وعليه فانها تشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص ، ومن لم يورثهم يحتج بأدلة أقواها حديث ٤٢٥ [ان الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث] قالوا فلو كان ذا حق لكان ذا فرض في كتاب الله مسمّى ، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً والله أعلم .

آخر اختصار تفسير سورة الأنفال ولله الحمد والمنة وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(٩) سورة التوبة مدنية
وآياتها تسع وعشرون ومائة

الا الآيتين الأخيرتين فمكيتان نزلت بعد : المائدة



﴿ بَرَآءَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدتُّم مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ (١)
فَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَافِرِينَ ۝ (٢) ﴾

هذه السورة الكريمة ، من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ ، كما روى البخاري عن البراء قال ٤٢٦ : [آخر آية نزلت : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾ وآخر سورة نزلت : « براءة » وانما لم يبسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان (رض) وأرضاه]

وروى الترمذي عن ابن عباس – ملخصاً – ٤٢٧ [أنه سأل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن عدم الفصل بين سورة الأنفال وسورة التوبة بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال عثمان ... كانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر : « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتها في السبع الطوال]

وروى نحوه الإمام أحمد أبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه من طريق آخر وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وأول هذه السورة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهمَّ بالحج . ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك ، ويطوفون بالبيت عراةً فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق (رض) أميراً على الحج تلك السنة ليقيم للناس

مناسكهم ويُعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا وأن ينادى في الناس : « براءة من الله ورسوله » فلما قفل اتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبة له ...

* * *

وقوله تعالى : ﴿براءة من الله ورسوله﴾ أي تبرؤٌ من الله ورسوله ﴿الى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر فأما من كان عهده مؤقت فأجله الى مدته مهما كان. لقوله تعالى: ﴿فأتموا إليهم عهدهم الى مدتهم﴾ الآية ولما سيأتي من الحديث ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته وهذا أحسن الأقوال وأقواها ، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله .

قال أبو معشر المدني : حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : ٤٢٨ [بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع ، وبعث علياً بن أبي طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس ، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة ، أجّلهم عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول وعشراً من ربيع الآخر وقرأها عليهم في منازلهم وقال : لا يحجنّ بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان] قال ابن أبي نجيح عن مجاهد فآذنوا أصحاب العهد بأن يؤمَّنوا أربعة أشهر فهي الأشهر المتواليات عشرون من ذي الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ثم لا عهد لهم ، وآذن الناس كلهم بالقتال الا أن يُؤمِنوا . وهكذا روى عن السدي وقتادة .

﴿ وَأَذَانٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * (٣) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وأذان ﴾ أي وإعلام ﴿ من الله ورسوله ﴾ وتقدم وإنذار الى الناس

﴿يوم الحج الأكبر﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكبرها جميعاً ﴿إن الله بريء من المشركين ورسولُه﴾ أي ورسوله بريء منهم أيضاً ثم دعاهم إلى التوبة اليه فقال عز من قائل : ﴿فإن تبتم﴾ أي مما أنتم فيه من الشرك ﴿فهو خير لكم وان توليتم﴾ أي استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ بل أنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ أي في الدنيا بالخزي والنكال ، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال .

روى البخاري عن أبي هريرة قال ٤٢٩ : [بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى ألاَّ يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ويوم الحج الأكبر يوم النحر ، وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر ، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك] هذا اللفظ للبخاري في كتاب الجهاد .

روى الإمام أحمد عن محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال ٤٣٠ [كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة بـ (براءة) فقال ما كنتم تُنادون ؟ قال : كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر [1] فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله ، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك ، قال كنت أنادي حتى صحل صوتي .] روى ابن جرير عن علي (رض) ٤٣١ : [بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت براءة بأربع : أن لا يطوف بالبيت عريان ، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد ، فهو الى مدته . ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة .]

أما يوم الحج الأكبر فهو يوم النحر كما روى الإمام ابو جعفر الطبري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ٤٣٢ [وقف رسول الله ﷺ عند الجمرات في حجة الوداع فقال : « هذا يوم الحج الأكبر »] .

وقال روى شعبة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : ٤٣٣ [قام فينا رسول الله ﷺ على ناقة حمراء مخضرمة فقال : « أتدرون اي يوم يومكم هذا » قالوا : يوم النحر قال : « صدقتم يوم الحج الأكبر »] .

(١) قلت : هذا لمن كان عهده أقل من أربعة أشهر أو له عهد مطلق غير موقت . أما من كان له عهد موقت لأكثر من أربعة أشهر ولمدة معينة فعهده إلى مدته كما هو واضح من الحديث الذي بعده عن علي رضي الله عنه .

روى ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : ٤٣٤ [لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير له وأخذ الناس بخطامه أو زمامه فقال : ﴿أي يوم هذا﴾ قال فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه فقال : أليس هذا يوم الحج الأكبر»](١) وهذا اسناد صحيح وأصله مخرج في الصحيح .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ (٤) ﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت ، فأجله كما تقدم أربعة اشهر يسيح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء ، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها ، وقد تقدمت الأحاديث : ... ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته ؛ وذلك بشرط ان لا ينقض المعاهد عهده إلى مدته ، ولهذا حرض تعالى على الوفاء بذلك فقال تعالى : ﴿ ان الله يحب المتقين ﴾ أي الموفين بعهدهم .

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ (٥) ﴾

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ها هنا ما هي ؟ فمن قال أنها هي المذكورة بقوله تعالى : ﴿ منها أربعة حرم ... ﴾ (٢) وفيه نظر ... والذي يظهر من السياق وما

---

(١) قلت : يعتقد العامة أن كل حج يصادف يوم الجمعة (أعني يوم عرفة) يكون الحج حجاً أكبر . وهذا خطأ ... إنما الحج الأكبر : هو يوم النحر . فيكون في كل عام حج أكبر ، لأن يوم النحر يأتي كل عام إلى يوم القيامة .

(٢) وهي الآية رقم /٣٦/ من هذه السورة الكريمة

ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله تعالى: ﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ ثم قال سبحانه: ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم ﴾ أي اذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم لأن عودَ العهد على مذكور، أولىَ من مقدر. ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية قادمة من هذه السورة الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ أي من الأرض وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله تعالى: ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم ﴾ وقوله جل ثناؤه: ﴿ وخذوهـــم ﴾ أي وأسروهم إن شئتم قتلاً، أو شئتم أسراً.وقوله تعالى: ﴿ واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصَد ﴾ أي اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، وضيقوا عليهم مسالكهم فتضطروهم إلى القتل أوالاسلام. ولهذا قال جل وعلا: ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفورٌ رحيم ﴾ ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال ما نعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها. وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: ٤٣٥ [أمرتُ ان اقاتل الناس حتى يَشهدوا أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله. ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة] الحديث.فقوله تعالى: ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ قال انس: توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم انها نَسخت كلَّ عهدٍ بين النبي ﷺ وبين أحَدٍ من المشركين، وكلَّ عقد وكل مدة [(١)] وقد اختلف المفسرون في آية السيف هذه فقال الضحاك والسدي: هي منسوخة بقوله تعالى﴿فإما منّاً بعد وإمّا فداءً﴾ وقال قتادة بالعكس.

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٦) ﴾

يقول تعالى لنبيّه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وإنْ أحد من المشركين ﴾ الذين أمرتك بقتالهم وأحللتُ لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿ استجارك ﴾ أي استأمنك فأجبه إلى

(١) إلا من كان عهدهم إلى مدة مؤقتة فعهدهم إلى مدتهم إذا لم ينقضوا عهدهم.

طلبته حتى يسمع كلام الله. أي القرآن تقرأه عليه. وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله تعالى ﴿ ثم أبلغه مأمنه ﴾ أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده.

ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً أو في رسالة. كما جاء يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش كعروة بن مسعود وغيره من المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم، وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، فكان ذلك وامثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم. والغرض ان من قدم من دار الحرب إلى دار الاسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه.

لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكّن من الإقامة في دار الإسلام سنة. ويجوز ان يمكّن من إقامة أربعة أشهر. وهناك من زاد على أربعة ونقص عن سنة.

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (٧)

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين، وتأجيله إياهم اربعة أشهر ثم بعد ذلك السيف المرهف اين ثقفوا فقال تعالى﴿ كيف يكون للمشركين عهد ﴾أي أمان ويتركون وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿ الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ﴾ يعني يوم الحديبية ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ أي مهما تمسكوا بعهدكم لهم وما عاهدتموهم عليه من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿ فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون. استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد وما لأوا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنه، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء. وكانوا

قريباً من ألفين ، ومن استمر على كفره وفرّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث يشاء ومنهم صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما ، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام ، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله .

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۞ (٨) ﴾

يحرض تعالى المؤمنين على معاداتهم والتبري منهم ويبين أنهم لا يستأهلون أن يكون لهم عهد : لشركهم به تعالى ، وكفرهم برسول الله ﷺ ، ولو انتصروا عليكم لا يراعوا فيكم قرابةً ولا عهداً ولا حِلفاً فالمشرك الذي ما راعى الله في توحيده كيف يراعي في المؤمنين عهداً أو قرابةً أو ذمةً ، وان عاهدوكم بأفواههم فإن قلوبهم تأبى ذلك .

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۞ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ (١١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ اشتروا بآياتِ الله ثمناً قليلاً ﴾ أي إن المشركين اعتاضوا عن اتّباع آيات الله بما التهوْا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿ فصدّوا عن سبيله ﴾ أي منعوا المؤمنين من اتّباع الحق . ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذِمّة ﴾ أي لا قرابةً ولا عهداً ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصّل الآيات لقوم يعلمون ﴾ قال أنس: وتوبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

« فإن فعلوا ذلك ﴿ فإخوانكم في الدين ﴾ أي لهم ما لنا وعليهم ما علينا ويتوب الله على من تاب » (١) .

(١) ما بين القوسين الصغيرين ليس من كلام المفسر رحمه الله إنما هو من كلامي .

﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * (١٢) ﴾

يقول تعالى وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم أي عهودهم ومواثيقهم ﴿ وطعنوا في دينكم ﴾ أي عابوه وانتقصوه ، ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه أو من طعن في دين الاسلام أو ذكره بنقص ولهذا قال عز من قال : ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلّهم ينتهون ﴾ أي يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال . والآية عامة وان كان سبب نزولها أئمة كفار قريش فهي عامة لهم ولغيرهم .

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * (١٥) ﴾

وهذا أيضاً تحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين همّوا بإخراج الرسول من مكة ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وهم بدأوكم أول مرة ﴾ أي نقضوا العهد الذي أبرموه يوم الحديبية وقاتلوا مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان ولله الحمد والمنة .

وقوله تعالى : ﴿ أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ أي لا تخشوهم واخشون فأنا أهل أن يخشى العبادُ من سطوتي وعقوبتي ، ثم عزم الله على المؤمنين وحرضهم على قتال المشركين بياناً لحكمته من مشروعيته الجهاد مع قدرته على اهلاك الأعداء بأمر

منه تعالى ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ ويذهب غيظ قلوبهم﴾ عليهم ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾أي من عباده ﴿ والله عليم﴾ بما يصلح لهم ويصلحهم ، ﴿ حكيم ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء،ويحكم ما يريد .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ (١٦) ﴾

يقول تعالى : ﴿ أم حسبتم ﴾ أيها المؤمنون ان تهملوا فلا نختبركم بما يميز أهل العزم الصادق من الكاذب. ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجةً ﴾ أي بطانة ودخيلة بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله كما قال تعالى : ﴿ الم * أحسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ واختبار المؤمنين هنا حصل بمشروعية الجهاد لهم وفيه الاختبار لعبيده من يطيعه فيه ممن يعصيه ، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه ، لا إله الا هو ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وأمضاه .

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِٱلْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ۞ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللهِ مَنْ آمَنَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَآتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۞ (١٨) ﴾

يقول تعالى ما ينبغي للمشركين بالله تعالى ان يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه

وحده لا شريك له وهناك من قرأ : مسجد الله فأراد به المسجد الحرام اشرف مساجد الأرض وقوله تعالى : ﴿ شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ اي لو سألت النصراني واليهودي والصابىء كلاّ عن دينه لأجابك بأنه كذلك، مقراً على نفسه بالكفر ﴿ أولئك حبطت أعمالهم ﴾ أي بشركهم ﴿ وفي النار هم خالدون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ومالهم ألاّ يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه أن أولياؤه الا المتقون ولكن اكثرهم لا يعلمون ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ فشهد تعالى بالايمان لعمار المساجد ، كما روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري ، ان رسول الله ﷺ قال : ٤٣٦ : [إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله تعالى : ﴿ انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾] ورواه الترمذي وابن مردويه والحاكم في مستدركه . وروى الحافظ ابو بكر البزار عن ثابت بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٣٧[إنما عمّار المساجد هم أهــل الله] وقوله تعالى: ﴿ واقام الصلاة ﴾ التي هي أكبر عبادات البدن ، ﴿ وآتي الزكاة ﴾ وهي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق . وقوله تعالى : ﴿ ولم يخشَ إلا الله ﴾ اي لم يخشَ سواه ﴿ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ كل عسى في القرآن فهي واجبة ، قال ابن اسحق : وعسى من الله حق .



﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ ٱللهِ وَٱللهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ۞(١٩) ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ ٱللهِ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ ۞(٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ۞ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ ٱللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۞ (٢٢) ﴾

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية : ان المشركين قالوا : عمارة البيت وسقاية الحاج خير ممن آمن وجاهد ، فأعرضوا عن القرآن والنبي ﷺ ، ففضل الله الايمان والجهاد مع النبي ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ، ولم يكن ينفعهم عند الله

مع الشرك به ، قال الله تعالى : ﴿ لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ يعني الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم الله ظالمين بشركهم ، فلن تغني عنهم العمارة شيئاً .

روى الوليد بن مسلم عن النعمان بن بشير الأنصاري قال : ٤٣٨ [كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من اصحابه ، فقال رجل منهم : ما أبالي ان لا أعمل لله عملاً بعد الاسلام إلا أن اسقي الحاج ، وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام ، وقال آخر بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم ، فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ولكن اذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه قال ففعل فأنزل عز وجل : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ـ إلى قوله ـ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾] رواه مسلم في صحيحه وابو داود وهذا لفظه ، وابن مردويه وابن أبي حاتم في تفاسيرهم وابن حبان في صحيحه .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ۞ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ ۞ (٢٤) ﴾

أمر تعالى بمقاطعة الكفار وان كانوا آباء وأبناء ، ونهى عن موالاتهم إن اختاروا الكفر على الإيمان وهدّدهم على ذلك كقوله تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ الآية . وروى الحافظ البيهقي عن عبدالله بن شوذب ان الآية المتقدمة نزلت في أبي عبيدة بن الجراح لما حاول ابوه الجراح ان يقتله بينما ابو عبيدة يحيد عنه فلما اكثر

الجراح قتله ابنه ابو عبيده وذلك يوم بدر فأنزل الله فيه : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله ﴾ ثم توعّد الله من آثر أهله وقرابته على الله ورسوله بقوله تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ﴾ اي اكتسبتموها ﴿ وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها ﴾ أي تحبونها لطيبها وحسنها . أي إن كانت هذه الأشياء ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا ﴾ أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

روى الإمام أحمد عن زهرة بن معبد عن جده قال : ٤٣٩ [كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي فقال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه » فقال عمر فأنت الآن والله أحب إليَّ من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ « الآن يا عمر »] انفرد به البخاري . وثبت في الصحيح عنه ﷺ انه قال : ٤٤٠ [والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ اليه من والده وولده والناس أجمعين] روى الامام أحمد وابو داود واللفظ له عن ابن عمر قال : ٤٤١ [سمعت رسول الله ﷺ يقول : اذا تبايعتم بالعينة ، واخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم] .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ❁ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ ❁ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ❁ (٢٧) ﴾

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم ، واحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسول الله ﷺ وان ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره ، لا بعددهم

وعُددِهم ونبههم على ان النصر من عنده تعالى سواء قلّ الجمع أو كثر فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً . فولّوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلاً ، ليعلمهم ان النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وان قل الجمع ، فكم من فئةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة .

وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ، وأن اميرهم مالك ابن عوف النضري ومعه ثقيف بكمالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر ،وأوزاع من بني هلال وهم قليل ، وناس من بني عمر وبن عامر ، وعون بن عامر ، وقد اقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم ، وجاءوا بقضهم وقضيضهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح ، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين ، فسار بهم إلى العدو فالتقوا بوادٍ بين مكة والطائف يقال له « حنين » فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح ، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن ؛ فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلاّ بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال ، واصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم ، فعند ذلك ولّى المسلمون مدبرين كما قال عز وجل ، وثبت رسول الله ﷺ ، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء، يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن ، وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير وهو ينوّه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ، ويقول : ٤٤٢ [أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب] ويقول قبلها : ٤٤٣ [إليّ عباد الله إلي أنا رسول الله .] وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال ثمانون فمنهم ابو بكر وعمر رضي الله عنهما والعباس وعلي والفضل بن العباس ، وأبو سفيان بن الحارث وايمن بن أم أيمن ، واسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم ثم أمر ﷺ عمّه العباس ، وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته : ٤٤٤ [يا أصحاب الشجرة] يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على ان لا يفرّوا عنه فجعل ينادي بهم : [يا أصحاب الشجرة ،] ويقول تارةً : ٤٤٥ [يا أصحاب سورة البقرة] فجعلوا يقولون : يا لبيك يا لبيك ، وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ ، حتى أن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ،

ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ ، فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم عليه الصلاة والسلام أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضةً من تراب بعدما دعا ربه واستنصره ، وقال : ٤٤٦ [اللهم أنجز لي ما وعدتني] ثم رمى القوم بها فما بقي إنسان منهم إلاّ أصابه منهـا في عينيه وفمه مـا شغله عن القتال ، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلاّ والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ .

* وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلاً قال له : ٤٤٧ [يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر إن هوازن كانوا قوماً رماة فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام ، فانهزم الناس ؛ فلقد رأيت رسول الله ﷺ ، وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب »] .

قلت : وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة ، إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغي ، وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجري ولا تصلح لفر أو كر او هرب ، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم ، وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، وما هذا كله إلاّ ثقةً بالله وتوكلاً عليه وعلماً منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان . ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم انزل الله سكينته على رسوله ﴾ أي طمأنينة وثبات على رسوله ﴿ وعلى المؤمنين ﴾ الذين معه ﴿ وانزل جنوداً لم تروها ﴾ وهم الملائكة . كما روى الامام أبو جعفر بن جرير عن عبد الرحمن مولى ابن برثن حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال : ٤٤٨ [لـما التقينا نحن واصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة ، قال : لما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ . قال فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا : شاهت الوجوه ارجعوا قال فانهزمنا وركبوا أكتافنا ، فكانت إياها]

* وعن شيبة بن عثمان قـال : ٤٤٩ [خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، والله ما أخرجني اسلام ولا معرفة به ، ولكنني أبيت ان تظهر هوازن على قريش فقلت وانا واقفاً معه : يا رسول الله إني أرى خيلاً بلقا فقال : [يا شيبة إنه لا يراها إلاّ كافر] فضرب بيده على صدري ثم قال : « اللهم اهد شيبة » ثم ضربها ثانيةً ثم

قال : « اللهم اهد شيبة » ثم ضربَـها الثالثة ثم قال : اللّهم إهد شيبة. قال: فوالله ما رفع يده عن صدري في الثالثة حتّى ما كان أحد من خلق الله أحبَّ إليَّ منه ...] وذكر تمام الحديث في التقاء الناس ، وانهزام المسلمين ، ونداء العباس واستنصار رسول الله ﷺ حتّى هزم الله المشركين .

* وقال سعيد بن السائب بن يسار عن أبيه قال سمعت يزيد بن عامر السوائي ، وكان شهد حنينا مع المشركين ثم اسلم بعد ؛ فكنا نسأله عن الرعب الذي القى الله في قلوب المشركين يوم حنين فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطست فيطن فيقول : كنا نجد في اجوافنا مثل هذا . وله شاهد من حديث الفهري يزيد ابن أسيد فالله أعلم .

وفي صحيح مسلم عن ابي هريرة أن رسول الله (ص قال : ٤٥٠ [نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم] ولهذا قال تعالى ﴿ ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ﴾ قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا ولحقوا برسول الله ﷺ ، وقد قارب مكة عند الجعرانة ، ذلك بعد الوقعة بقريب عشرين يوماً فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم ، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة ، فرد سبيهم ، وقسم الأموال بين الغانمين ، ونفل أناساً من الطلقاء ، لكي يتألف قلوبهم على الاسلام فأعطاهم مائة مائة من الإبل ، وكان من جملة من أعطي مائة ، مالك ابن عوف النضري ، واستعمله على قومه كما كان أميراً من قبل عليهم ، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها : *

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهم بمثل محمد
أوفىَ وأعطىَ للجزيل إذا اجتدىَ ... ومتى يَشَأْ يخبرك عما في غد [1]
واذا الكتيبة عرّدت أنيابها ... بالسمهري وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله ... وسط المباءة خادر في مرصد

(*) بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما أحلمك، ما أكرمك وما أبعد نظرك، نعم النبي والرسول أنت، ونعم القائد أنت ، ونعم الأب الحاني الرفيق ، ونعم الأسوة الحسنة انت ، عليك أفضل صلاة وأتم تسليم .

(١) قلت : لا ... بل متى يشاء الله ، يخبر نبيه عما في غد ، ولا يستطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أي رسول غيره ان يخبر عما في غد أو عن أي غيب من عند نفسه إلا بعد ما يخبره الله تعالى .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ * (٢٩) ﴾

أمر الله عباده المؤمنين ، الطاهرين ديناً وذاتاً ، بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً ، عن المسجد الحرام ، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية وذلك سنة تسع ؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة ابي بكر رضي الله عنهما عامئذ ، وأمره أن ينادي في المشركين ألاّ يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريانٌ ، فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً . وقال الإمام الأوزاعي : كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ان امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجدالمسلمين وأتبع نهيه قوله تعالى : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وإن خفتم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾ قال ابن إسحق ،وذلك أن الناس قالوا : لتقطعن عنا الأسواق ، ولتهلكن التجارة ، وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق فأنزل الله تعالى : ﴿ وإن خفتم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾ وروى ابن عباس وجماعة من التابعين في قوله تعالى : ﴿ إن شاء — إلى قوله — وهم صاغرون ﴾ أي هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق فعوضهم الله مما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية وقوله تعالى : ﴿ إن الله عليم ﴾ أي بما يصلح لكم ﴿ حكيم ﴾ أي بما يأمر به وينهي عنه لكماله في أفعاله وأقواله ، العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى . ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة .

وقوله تعالى :﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخرولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾ هذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس

في دين الله أفواجاً ، واستقامت جزيرة العرب أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى وكان ذلك سنة تسع لأنهم كفروا بمحمد ﷺ فلم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به ، وانما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه ، لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه فلما جاء كفروا به ولهذا تجهز الرسول ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك فاجتمع نحو من ثلاثين ألفاً وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك عام جدب ، وقيظ وحر فخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وأقام عشرين يوماً ، ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك ، لضيق الحال،وضعف الناس كما سيأتي بيانه بعد إن شاء تعالى . وهذه الآية استدل بها من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب ، أو من أشبههم كالمجوس كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر ، وهذا مذهب الشافعي ، وأحمد في المشهور عنه ، وقال أبو حنيفة رحمه الله : بل تؤخذ من جميع الأعاجم كتابيّين أو مشركين ، ولا تؤخذ من العرب إلاّ من أهل الكتاب منهم وقال الإمام مالك : بل يجوز ان تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك وقوله تعالى : ﴿ حتّى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون ﴾ أي إن لم يُسلموا،عليهم أن يدفعوا الجزية عن قهر لهم وغلبة،وهم ذليلون حقيرون مهانون.فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولارفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء كما جاء في صحيح مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي ﷺ قال : ٤٥١ [لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه] .

ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم ، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال : كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا ، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا واهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا ان لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ولا نحيي منها ما كان خططاً للمسلمين وان لا نمنع كنائسنا أن ينزلها

أحد من المسلمين في ليل ولا نهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وأن ننزل من مرّ بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً،ولا نكتم غشاً للمسلمين،ولا نعلم أولادنا القرآن،ولا نظهر شركاً ، ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الاسلام إن ارادوه ، وأن نوقر المسلمين ، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن ارادوا الجلوس ولا نتشبه بهم في شيء ، من ملابسهم في قلنسوة ، ولا عمامة ، ولا نعلين ، ولا فرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم ، ولا نركب السروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش خواتيمنا بالعربية ولا نبيع الخمور ، وأن نجز مقاديم رؤوسنا وأن نلزم زينا حيثما كنا وان نشد الزنانير على أوساطنا وان لا نظهر الصليب على كنائسنا وان لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلاّ ضرباً خفيفاً ، وان لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ولا نخرج سعانين ولا بعوثاً ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين وان نرشد المسلمين ولا نطّلع عليهم في منازلهم.) قال فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه (ولا نضرب أحداً من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق .)

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * (٣٠) ٱتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهاً وَاحِداً لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * (٣١) ﴾

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى فأما اليهود فقالوا في العزير أنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر حيث جعلوه ابن الله أو هو الله بعينه أو هو ثالث ثلاثة . ولهذا كذبّ الله سبحانه الطائفتين فقال سبحانه : ﴿ ذلك قولهم

بأفواههم ﴾ أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلافهم ﴿ يضاهئون ﴾ أي يشابهون ﴿ قول الذين كفروا من قبل ﴾ أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هولاء ﴿ قاتلهم الله ﴾ قال ابن عباس لعنهم الله ﴿ أني يؤفكون ﴾ أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل ؟ وقوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ﴾ روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه : ٤٥٢ [أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرَّ إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية ، فأسرت اخته وجماعة من قومه. ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام ، وفي القدوم على رسول الله ﷺ. فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيء ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة ،وهو يقرأ هذه الآية ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ قال : فقلت إنهم لم يعبدوهم فقال « بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إيّاهم » وقال رسول الله ﷺ : يا عدي ما تقول ؟ أيضرك أن يقال الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً اكبر من الله؟ ما يضرك... أيضرك أن يقال لا إله الا الله ، فهل تعلم إلهاً غير الله؟» ثم دعاه الى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال : « إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون »] وقوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾ أي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتّبع وما حكم به نفذ ﴿ لا إله الا هو سبحانه عما يشركون ﴾ أي تنزّه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا ربّ سواه .

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَىٰ ٱللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ ۞ (٣٢) هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۞ (٣٣) ﴾

يقول تعالى يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿ أن يطفئوا نور الله ﴾ أي الذي بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق . بمجرد افترائهم ، فمثلهم كمن يريد ان يطفيء نورَ الشمس أو القمر بنفخه وهذا لا سبيل إليه ؛ فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر . ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما أرادوه: ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه ومنه سمي الليل كافراً

لانه يستّر الأشياء ثم قال تعالى : ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ فالهدى هو ماجاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع . ودين الحق هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة .

﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي على سائر الاديان كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٤٥٣ [إن الله زوَى لي الأرض مشارقَها ومغاربَها وسيبلغ ملكُ أمتي ما زُوي لي منها]روى الإمام أحمد عن تميم الداري (رض) قال : ٤٥٤ [سمعت رسول الله ﷺ : « ليبلغن هذا الامر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيزاً ويذل ذليلاً ، عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر »] فكان تميم الداري يقول قد عرفت ذلك أهل بيتي لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغار والجزية . **(الحزب العشرون)**



﴿ يا أيُّها ٱلَّذينَ آمَنُوا إنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلْأَحبارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيأكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ❁ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ❁ (٣٥) ﴾

الأحبار هم علماء اليهود ، كما قال تعالى : ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾ والرهبان عبّاد النصارى ، والقسيسون علماؤهم كما قال تعالى﴿ بأن منهم قسيسين ورهبانا﴾ والمقصود التحذير من علماء السوء وعبّاد الضلال . كما قال سفيان بن عينية : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبّادنا كان فيه شبه من النصارى . وفي الحديث الصحيح : ٤٥٥ [« لتركبن سَنَن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة » قالوا : اليهود والنصارى قال : « فمن ؟ » وفي رواية . فارس والروم قال : « فمن الناسُ إلاّ هؤلاء ؟ »] والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم ولهذا قال تعالى : ﴿ ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴾ وذلك أنهم كانوا يأكلون الدنيا بالدين، ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خَرج وهدايا وضرائب

تجيء إليهم ، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم و كفرهم وعنادهم طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوّة وسلبهم إياها ، وعوضهم الذل والصغار وباءوا بغضب من الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أي ومع أكلهم الحرام ، يصدون الناس عن اتباع الحق ويلبسونه بالباطل ، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير ، وليسوا كما يزعمون بل هم دعاة الى النار ويوم القيامة لا ينصرون .

وقوله تعالى : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ الآية ... هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على العلماء وعلى العبّاد وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس .

وأما الكنز : فعن ابن عمر هو المال الذي لا تؤدي زكاته . وروى الثوري عن ابن عمر قال : ما أدي زكاته فليس بكنز وان كان تحت سبع أرضين وقال عمر بن الخطاب نحوه ... وقد جاء في مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثر منهما احاديث كثيرة ، منها : قال عبد الرزاق عن علي (رض) في قوله تعالى : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ قال النبي ﷺ : ٤٥٦ [« تباً للذهب تباً للفضة » يقولها ثلاثاً قال فشق ذلك على اصحاب رسول الله ﷺ وقالوا فأي مالٍ نتخذ ؟ فقال عمر (رض) أنا أعلم لكم ذلك، فقال : يا رسول الله إن أصحابك قد شقّ عليهم وقالوا . فأي المال نتخذ ؟ قال : « لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة تعين أحدكم على دينه »]

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ٤٥٧ [لما نزلت هذه الآية : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ الآية ... كبر ذلك على المسلمين وقالوا : ما يستطيع أحد منا يدع لولده مالاً يبقى بعده فقال عمر : أنا أفرج عنكم. فانطلق عمر ، واتبعه ثوبان فأتى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية . فقال رسول الله ﷺ : « إن الله لم يفرض الزكاة الا ليطيب بها ما بقي من أموالكم وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم » قال فكبّر عمر ثم قال له النبي ﷺ « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سَرّتْهُ ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته »] ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه وابن مردويه من حديث يحي بن يعلى به وقال الحاكم صحيح على شرطهما ولم يخرجاه .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ أي يقال لهم هذا الكلام تبكيتاً وتقريعاً وتهكماً. كما في قوله تعالى : ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك انت العزيز الكريم ﴾ أي هذا بذاك وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم . ولهذا يقال : من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عذب به. وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضاء الله عنهم، عُذّبوا به. وإن هذه الأموال لما كانت أعز الاشياء على أربابها، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة ، فيحمي عليها في نار جهنم وناهيك بحرّها فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .

* وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٤٥٨ [ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين الف سنةٍ حتى يقضي بين العباد ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار] روى الامام أبو جعفر بن جرير عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول : ٤٥٩ [من ترك بعده كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يتبعه ويقول : ويلك ما أنت فيقول : أنا كنزك الذي تركته بعدك[1] ولا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ، ثم يتبعها سائر جسده] رواه ابن حبان في صحيحه وأصل هذا الحديث في الصحيحين .

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٦)

روى الامام أحمد عن أبي بكرة عن النبي ﷺ خطب في حجته فقال ٤٦٠ : [« ألا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان» ثم قال «أي يوم هذا»؟ قلنا : الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيُسمّيه بغير اسمه قال : « أليس يوم النحر ؟ » قلنا بلى ثم قال : « أيّ شهر هذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه قال : « أليس ذا الحجة ؟ » قلنا : بلى ثم

(١) قلت : ان هذا الحديث محمول على من لم يدفع زكاة ماله فيكون ماله كما ذكر الحديث ...

قال : « أي بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيُسمّيه بغير اسمه قال : « أليست البلدة ؟ » قلنا بلى قال : « فإن دماءَكم وأموالكم — وأحسبه قال — وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . وستلقون ربّكم فيسألكم عن أعمالكم ألا لا ترجعوا بعدي ضُلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ألا هل بلغت ؟ ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه »]ورواه البخاري ومسلم

وقوله ﷺ في الحديث « إن الزمان استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض » تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه ، وتثبيت للأمر على ما جعله الله ، وتثبيت في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ، ولا زيادة ولا نقص ، ولا نسيء ولا تبديل كما قال في تحريم مكة : ٤٦١ [ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة] وهكذا قال ها هنا « ان الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والارض » أي الامر اليوم شرعاً كما ابتدع الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والارض . من غير تقديم ولا تأخير ولا نسيء ولا تبديل كما يفعله العرب ، فكان حج النبي ﷺ في ذى الحجة ، وان العرب بفعل النسيء الذي كانوا يفعلونه كانوا يحجّون أحياناً بل في أكثر الأحيان في غير ذي الحجة .

فصل : وقد ذكر الشيخ علم الدين السخاوي فيجزء جمعه ، سمّاه : [المشهور في أسماء الأيام والشهور] أسماء الاشهر القمرية : المحرّم ... الخ واشتقاق تسميتها بذلك مما لا طائل تحت ذكره مفصلاً كما ذكر كذلك أيام الاسبوع ابتداءً من الاحد ... الخ ومما يجب الإشارة إليه ان أسماء الأيام عند العرب العاربة العرباء المتقدمة غير الاسماء المعروفة فقال : وكانت العرب تسمي الأيام : أول ، ثم أهون ثم جبار ثم دبار ثم مُؤنس ثم العُروبة ثم شيَار .

قال الشاعر من العرب العرباء المتقدمين :

أرجّي أن أعيش وإن يومي ... بأول أو بأهون أو جبارُ
أو التالي دبار فإن أفته ... فمؤنس أو عروبة أو شيار

وقوله تعالى : ﴿ منها أربعة حرم ﴾ فهذا مما كانت العرب ايضاً تحرّمه وهو الذي كان عليهم جمهورهم إلا طائفة منهم يقال لها : البسل كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقاً وتشديداً . وأما قوله ﷺ « ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » فإنما أضافه إلى مضر ليبين صحة قولهم في رجب أنه

الشهر الذي بين جمادى وشعبان لا كما تظنه ربيعة من ان رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال أي هو رمضان اليوم فبيّن ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة ، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ، ثلاثه سرد وواحد فرد ، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة ، فحرّم قبل أشهر الحج شهراً وهو ذو القعدة ، لأنهم يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك وحرم بعده شهراً آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى الجزيرة فيزوره ثم يعود إلى وطنه آمناً وقوله تعالى : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أوامر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق في كتاب الله الأول ، قال تعالى : ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ أي في هذه الأشهر المحرمة لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها ، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف لقوله : ﴿ومن يرد فيه بالحادٍ بظلم نذُقه من عذاب أليم﴾ وكذلك الأشهر الحرم تغلظ فيها الآثام فلا تجعلوا حرامها حلالاً ولا حلالها حراماً كما فعل أهل الشرك بالنسيء الذي كانوا يفعلونه فإنه من ذلك ، أي هو تحليل الحرام وتحريم الحلال وهو زيادة في الكفر .

وقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ أي جميعاً ﴿ كما يقاتلونكم كافة ﴾ أي جميعهم ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين أحدهما وهو الأشهر انه منسوخ لأنه تعالى قال ها هنا ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ وأمر بقتال المشركين ، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً ولو كان محرماً في الشهر الحرام لأوشك أن يقيّده بانسلاخها ، ولأن الرسول ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين انه خرج إلى هوازن في شوال واستفاء أموالهم لجأوا إلى الطائف فعمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوماً ، وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام والقول الآخر انه غير منسوخ وان ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام وانه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ﴾ ويحتمل أنه تعالى أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام اذا كانت البداءة من المشركين كما قال تعالى : ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم ﴾ الآية ... وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام فإنه من تتمة قتال هوازن ، وأحلافها من ثقيف فانهم هم الذين ابتدأوا القتال وجمعوا الرجال، ودعوا إلى الحرب والنزال. فعندها قصدهم رسول الله ﷺ .

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَالِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ (٣٧)

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة ، وتحليلهم ما حرم الله ، وتحريمهم ما أحل الله ماستطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال اعدائهم ، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة ، تحليل المحرم فأخّروه إلى صفر ، فيُحلون الشهر الحرام ويحرّمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة . وكان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل رجل يقال له القلمس وهو حذيفة بن عبد فقيم بن عدي بن عامر ويتصل نسبه بمالك بن كنانة بن خزيمة إلى معد بن عدنان ثم خلفه من بعده أبناؤه وأحفاده في ذلك،إلى أن كان آخرهم أبو ثمامة جنادة بن عوف ،كان يوافي الموسم في كل عام فينادي ألا أن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب ألا وإن صفر العام الأول ، العام حلال فيُحله للناس ، فيحرّم صفراً عاماً ويحرّم المحرّم عاماً فذلك قوله تعالى ﴿ إنّما النسيء زيادة في الكفر ﴾ أي يتركون المحرّم عاماً ، وعاماً يحرّمونه ﴿ ليواطئوا عدة ما حرم الله ﴾ يعني الأربعة فيحلوا ما حرم الله بتأخير هذا الشهر الحرام .

وقيل أنهم كانوا يسمّون ذا الحجة المحرّم والمحرّم صفروصفر ربيع وهكذا إلى أن يكون ذو القعدة هوذا الحجة فيحجّون في الحقيقة بذي القعدة وهم يسمونه ذا الحجة ويقال انه وافق حجة أبي بكر في ذي القعدة قاله مجاهد وفيه نظر .. وكيف تصح حجة ابي بكر وقد وقعت في ذي القعدة وأنى هذا ... ؟ وقد قال الله تعالى : ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ﴾ الآية وإنّما نودي به في حجة أبي بكر فلو لم تكن في ذي الحجة لما قال تعالى ﴿ يوم الحج الأكبر ﴾ ولا يلزم من فعلهم النسيء هذا الذي ذكره من دوران السنة عليهم وحجّهم في كل شهر عامين فإن النسيء حاصل بدون هذا فإنهم لما كانوا يحلّون شهر المحرم عاماً يحرمون عوضه صفراً وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه وبعده صفر وربيع وربيع إلى آخرها ﴿ فيحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَاتضرّوهشَيْئاً وَٱللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * (٣٩) ﴾

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر ، وحمارة القيظ فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله ﴾ أي إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿ اثاقلتم إلى الارض ﴾ أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار . ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ أي مالكم فعلتم هكذا رضا منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة ؟ ثم زهّد تبارك وتعالى في الدنيا ورغّب في الآخرة فقال سبحانه : ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل ﴾ كما روى الامام أحمد عن المستورد أخي بني فهد قال : قال رسول الله ﷺ :
٤٦٢ [ما الدنيا في الآخرة إلاّ كما يجعل أحدكم اصبعه هذه في اليم فلينظر بما ترجع ؟ وأشار بالسبابة] إنفرد بإخراجه مسلم فالدنيا ما مضى منها ، وما بقي منها عند الله قليل . ثم توعّد تعالى من ترك الجهاد فقال عز من قائل : ﴿ إلاّ تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ قال ابن عباس : استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتثاقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم ﴿ ويستبدل قوماً غيركم ﴾ أي لنصرة نبيه وإقامة دينه كما قال تعالى : ﴿ وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ولا تضروه شيئاً ﴾ أي ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد ، وتثاقلكم عنه ﴿ والله على على كل شيء قدير ﴾ أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم .

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * (٤٠) ﴾

يقول تعالى : ﴿ إلا تنصروه ﴾ أي تنصروا رسول الله ﷺ فإن الله ناصره ومؤيده كما تولّى تأييده ﴿ إذْ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين ﴾ أي عام الهجرة لما همّ المشركون بقتله فخرج منهم هارباً صُحْبَةَ صدّيقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة فلجأ إلى الغار غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب عنهما من الذين خرجوا في آثارهما. فجزع أبو بكر أن يطلع عليهما أحد، فيخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذى ، فجعل النبي ﷺ يسكنه ، ويقول : «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» كما روى الامام أحمد عن أنس أن ابا بكر حدثه قال : ٤٦٣ [قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار لو أن احدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال : فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما »] أخرجاه في الصحيحين ولهذا قال تعالى : ﴿ فأنزل الله سكينته عليه ﴾ اي تثبيته وتأييده ونصرته أي على رسول الله ﷺ (١) ﴿ وأيّده بجنود لم تَرَوْها ﴾ أي الملائكة ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ﴾ قال ابن عباس يعني كلمة الذين كفروا : الشرك . وكلمة الله : هي لا إله إلا الله . وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : ٤٦٤ [سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حميةً ويقاتل رياءً أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: « من قاتل لتكونَ كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »] وقوله تعالى : ﴿ والله عزيز ﴾ أي في انتقامه وانتصاره يمنع من لاذ ببابه ﴿ حكيم ﴾ في اقواله وافعاله .

﴿ ٱنفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ (٤١) ﴾

قال سفيان الثوري عن مسلم بن صبيح : هذه الآية : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ أول ما نزل من سورة براءة .

روى علي بن زيد عن أنس عن أبي طلحة قال : كهولاً وشباناً ، ما سمع الله عذر أحد ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل . وفي رواية : قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ فقال : أرى ربّنا استَنْفَرَنا شيوخاً وشباناً جهزوني يا بُنيَّ ، فقال بنوه يرحمكَ الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع ابي بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ؛ فنحن

(١) أي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أبي بكر بالتبعيّة .

نغزو عنك فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه فيها. وهكذا روي عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح والحسن البصري وسهيل بن عطية ومقاتل بن حيان والشعبي وزيد بن أسلم أنهم قالوا في تفسير هذه الآية: ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ كهولاً وشباناً، وقال مجاهد شباناً وشيوخاً وأغنياء ومساكين وقال الحسن البصري أيضاً في العسر واليسر وهكذا كله من مقتضيات العموم في الآية وهذا اختيار ابن جرير.

وقد روي عن ابن عباس ومحمد بن كعب وعطاء الخراساني وغيرهم، أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ (١) وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله وقال السدي: لما نزلت آية: ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ اشتدّ على الناس فنسخها الله تعالى فقال جلَّ وعلا: ﴿ ليس على الضعفاء، ولا على المرضَى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ ... ثم رغب الله تعالى في النفقة في سبيله وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسول الله ﷺ فقال سبحانه: ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، لأنكم تغرمون في النفقة قليلاً فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة كما قال النبي ﷺ: ٤٦٥ [تكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة].

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ (٤٢) ﴾

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا بعد ما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك. فقال تعالى: ﴿ لو كان عرَضاً قريباً ﴾ أي غنيمة قريبة ﴿ وسفراً قاصداً ﴾ أي قريباً ﴿ لا تبعوك ﴾ أي لكانوا جاءوا

---

(١) قلت هذه والله أعلم متعلقة بالنفير لطلب العلم والتفقه في الدين، لا من أجل الجهاد فحسب وأرجح ما ذهب اليه السدي بأن آية « ليس على الضعفاء ... » هي الناسخة والمستثنية للضعفاء والمرضى من الجهاد فقد عذرهم الله وخفف عنهم ما كان عليهم في قوله تعالى. «خفافاً وثقالا».

معك ﴿ ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾ أي المسافة إلى الشام ﴿ وسيحلفون بالله ﴾ أي لكم اذا رجعتم اليهم ﴿ لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ أي لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم قال الله تعالى : ﴿ يهلكون انفسهم والله يعلم انهم لكاذبون ﴾ (١)

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ ٱلْكَاذِبِينَ ۞ (٤٣) لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ۞ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۞ (٤٥) ﴾

قال ابن أبي حاتم عن عون قال : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة فقال عزّ من قائل : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ وقال قتادة : عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال تعالى : ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذَنْ لمن شئت منهم ﴾ الآية وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في أناس قالوا : استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذنْ لكم فاقعدوا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ حتى يتبيّن لك الذين صدقوا ﴾ أي في إبداء الأعذار ﴿ وتعلم الكاذبين ﴾ يقول تعالى هلاّ تركتهم لمّا استأذنوك فلم تأذن لهم في القعود لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب فإنهم قد كانوا مصرّين على القعود عن الغزو ، أذنت أم لم تأذن لهم فيه . ولهذا أخبر تعالى : ﴿ لا يستأذنك ﴾ أي في القعود عن الغزو ﴿ الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ لأنهم يرون الجهاد قربةً ، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا ﴿ والله عليم بالمتقين إنما يستأذنك ﴾ أي في القعود ممن لا عذر له : ﴿ الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي لا يرجون ثوابه سبحانه في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿ وارتابت قلوبهم ﴾ أي شكّت في صحة ما جئتهم به ﴿ فهم في ريبهم يترددون ﴾ أي يتحيّرون وليست لهم قدم ثابتة في شيء . فهم قوم حيارى هلكة ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً

(١) قلت : أي يهلكون أنفسهم بجرم الحلف بالله كذباً وهم يعلمون ، والعياذ بالله تعالى .



﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ۞ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞ (٤٧) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولو أرادوا الخروج ﴾ أي معك الى الغزو ﴿ لأعدُّوا له عدة ﴾ أي لكانوا تأهبّوا له ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ أي أبغضَ ان يخرجوا معك قدراً (١) ﴿ فثبطهم ﴾ أي أخرهم ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ أي قدّر أيضاً قعودهم عن الجهاد - ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال عز من قائل : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خبالاً ﴾ أي لأنهم جبناء مخذولون ﴿ ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ﴾ أي لأسرعوا المشي إليكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿ وفيكم سمّاعون لهم ﴾ أي مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وان كانوا لا يعلمون حالهم ، فيؤدي ذلك الى وقوع فساد كبير بين المؤمنين ، فثبطهم الله لعلمه بهم أنهم لو خرجوا معكم لأفسدوا عليكم من كان معكم من اتباعهم وهؤلاء هم السمّاعون لهم أي من جماعتهم . قال محمد بن اسحق كان الذين استأذنوا فيما بلغني من ذوي الشرف منهم عبد الله بن أُبيْ بن سلول والجد بن قيس فلو ان مثل هذين خرجوا مع جيش الرسول لأفسدوا من كان في جيش الرسول من جماعتهم الذين يحبونهم ويطيعونهم لشرفهم فيهم ، ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال جل وعلا : ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ فأخبر أنه عليم بهم وما سيكون منهم قبل ان يخلق السموات والارض ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا. ومع هذا ما خرجوا كما قال تعالى : ﴿ ولو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ .

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ۞ (٤٨) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن

(١) قلت : أي سبق بعلمه أنهم كفار منافقون فأبغض خروجهم معك وقدر عدمه قدراً فأخرهم

لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)
إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ
أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا
إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٥١)

يحرّض الله نبيَّه ﷺ على المنافقين : ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور ﴾ لقد أعملوا أفكارهم في الكيد لك ولأصحابك ، وإخماد دينك ، وذلك أول مَقْدَم النبيّ ﷺ المدينة ، رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله ببدر وأعلى كلمته قال عبدالله بن أبي بن سلول وأصحابه : هذا أمر قد توجَّه ، فدخلوا في الإسلام ظاهراً ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم. ولهذا قال تعالى : ﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ ثم يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد ﴿ ائذن لي ﴾ في القعود ﴿ ولا تفتنّي ﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم . قال الله تعالى : ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ أي سقطوا في الفتنة بقولهم هذا . كما روى محمد بن اسحق قال راوياً عن الزهري ويزيد بن رومان وعبدالله ابن أبي بكر وعاصم وقتادة وغيرهم قالوا : قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة : ٤٦٦ [هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني واني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وقال أذنت لك ففي الجد بن قيس نزلت هذه : ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنّي ﴾ الآية أي إنما كان يخشى نساء بني الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم .] وهكذا روى عن ابن عباس وغيره أنها نزلت في الجد بن قيس وهو من أشراف بني سلمة وسيدهم . وقوله تعالى : ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب ، وكان بنو سلمة ملّوا سيادة الجد بن قيس عليهم لبخله فسوّد رسول الله ﷺ بشر بن البراء بن معرور كما ثبت ذلك في الصحيح . وقوله تعالى : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ﴾ فإنه تعالى يُعلم رسوله ﷺ بعداوة هؤلاء له لأن أيّ حسنة تصيب الرسول وأصحابه يسوءهم ﴿ وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ﴾ أي

احترزنا من متابعته من قبل هذا ﴿ ويتولّوا وهم فرحون ﴾ فأرشد الله تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال سبحانه : ﴿ قل ﴾ أي لهم : ﴿ لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا ﴾ أي نحن تحت مشيئته وقدره ﴿ هو مولانا ﴾ أي سيدنا وملجأنا ﴿ وعلى الله فليتوكّل المؤمنون ﴾ أي عليه متوكّلون وهو حسبنا ونعم الوكيل .

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿ ٥٢ ﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴿ ٥٣ ﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿ ٥٤ ﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ هل تربَّصون بنا ﴾ أي تنتظرون بنا ﴿ إلاّ إحدى الحسنيين ﴾ شهادة أو ظفر بكم قاله ابن عباس وغيره ﴿ ونحن نتربَّص بكم ﴾ أي ننتظر بكم ﴿ أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴾ يعني هذا أو هذا أي بسبيٍ أو بقتل. ﴿ فتربّصوا إنّا معكم متربّصون ﴾ وقوله تعالى: ﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرها ﴾ أي مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿ لن يُتـقبّل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴾ ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنه لا يتقبّل منهم ﴿ لأنهم كفروا بالله وبرسوله ﴾ أي والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿ ولا يأتون الصلاة إلاّ وهم كسالى ﴾ أي ليس لهم قدم صحيح ولا هِمَّة في العمل ﴿ ولا ينفقون ﴾ نفقة ﴿ إلاّ وهم كارهون ﴾ وقد أخبر الصّادق المصدوق ﷺ : ٤٦٧ [إن الله لا يملّ حتى تملّوا وإن الله طيّب لا يقبل إلاّ طيّباً .] فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً لأنه إنّما يتقبل من المتّقين .

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿ ٥٥ ﴾ ﴾

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝ (٥٧) ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ قال قتادة : هذا من المقدم والمؤخر ، وتقديره : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة ولكن الحسن البصري قال : أي بعذبهم بدفع زكاتها والنفقة منها في سبيل الله ، وقد اختاره ابن جرير وهو القول القوي الحسن ؛ وقوله تعالى : ﴿ وتزهق انفسهم وهم كافرون ﴾ أي ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ليكون ذلك آنكى لهم وأشد لعذابهم . عياذاً بالله من هذا الاستدراج لهم فيما هم فيه ثم يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفرقهم ، أنهم : ﴿ يحلفون بالله أنهم لمنكم ﴾ يميناً مؤكدة ﴿ وما هم منكم ﴾ أي في حقيقة الأمر ﴿ ولكنهم قوم يفرقون ﴾ أي فهو الذي حملهم على الحلف ﴿ لو يجدون ملجأ ﴾ أي حصناً يتحصنون ﴿ أو مغارات ﴾ وهي التي في الجبال ﴿ أو مدخلاً ﴾ وهو السرب في الأرض والنفق ﴿ لولوا إليه وهم يجمحون ﴾ أي يسرعون في ذهابهم عنكم لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة ، وودوا أنهم لا يخالطونكم ، ولكن للضرورة أحكام ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم لأن الاسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة فلهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ولهذا قال تعالى : ﴿ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون ﴾ .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ۝ (٥٩) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ومنهم ﴾ أي ومن المنافقين ﴿ من يلمزك ﴾ أي يعيب عليك ﴿ في قَسْمِ ﴾ ﴿ الصدقات ﴾ إذا فرقتها ، ويتهمك في ذلك وهم المتهمون ، وهم مع هذا لا ينكرون للدين ولكن لحظ أنفسهم ، ولهذا ﴿ فإن أعطوا منها رضوا ﴾ أي من الزكاة ﴿ وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾ أي يغضبون لأنفسهم وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ أي ومنهم من يطعن عليك في الصدقات ، وذكر لنا : ٤٦٨ [ان رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبي ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة فقال : يا محمد والله لئن كان الله أمرك ان تعدل ما عدلت ، فقال نبي الله ﷺ : « ويلك فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي » ؟ ثم قال نبي الله ﷺ « إحـذروا هذا واشباهه فإن في أمتي أشباه هذا يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم اذا خرجوا فاقتلوهم »]

وذكر لنا ان نبي الله ﷺ كان يقول : ٤٦٩ [والذي نفسي بيده ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكموه إنما أنا خازن] .

ثم قال تعالى منبهاً لهم على ما هو خير لهم من ذلك فقال : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ فتضمنت هذه الآية الشريفة أدباً عظيماً ، وسراً شريفاً حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله ، والتوكل على الله وحده وهو قوله تعالى : ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾ وكذلك الرغبة الى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتثال أوامره وترك زواجره وتصديق أخباره والأقتفاء بآثاره .



﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦٠)

ذكر الله تعالى اعتراض المنافقين الجهلة ، على النبي ﷺ ، ولمزهم إياه في قسم الصدقات ، بيّن تعالى أنه هو الذي قسّمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه ، ولم يكِلْ قسمها لأحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين كما رواه الامام ابو داود عن زياد بن الحارث الصدائي رضي الله عنه قال : ٤٧٠ [أتيت النبي ﷺ فبايعته فأتى رجل فقال : أعطني من

الصدقة فقال له : « ان الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك »] وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها . والأصح والله أعلم أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع إلى واحد منها ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقين وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وابن عباس وابو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران وهو قول عامة أهل العلم ، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ههنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعابها .

ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية ، فأما الفقراء ، فعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٧١ [لا تحل الصدقة لغني ، ولا لذي مرة سوي] رواه أحمد وأبو داود والترمذي ولأحمد ايضاً والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة مثله .

وعن عبيد الله بن عدي بن الخيار : ٤٧٢ [أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة فقلّب فيهما البصر فرآهما جَلْدَين فقال : « إن شئتما اعطيتكما ولاحظّ فيها لغنيّ ، ولا لقويّ مكتسب »] رواه أحمد وابو داود والنسائي بإسناد جيد قوي .

وأما المساكين ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٤٧٣ [ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان. قالوا فما المسكين يا رسول الله؟ قال : « الذي لا يجد غنىً يغنيه، ولا يُفطن له فيُتَصدّق عليه ولا يسأل الناسَ شيئاً »]

وأما العاملون عليها فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطاً على ذلك . ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء الرسول ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة لما ثبت في صحيح مسلم (عن عبد المطلب عن ربيعة بن الحارث ، أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة فقال ٤٧٤ : [« ان الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس »]

وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام : منهم من يُعطى ليُسلِمَ ، كما أعطى النبيُّ ﷺ لصفوان ابن أمية كما روى الإمام أحمد عن صفوان بن أمية قال : ٤٧٥ [أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين ، وإنه لأبغض الناس إلي ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي] ورواه مسلم والترمذي . ومنهم من يعطى ليَحْسُنَ إسلامُه وَيَثْبُتَ قلبُه ، كما أعطى يوم

حنين ايضاً جماعة من صناديد الطلقاء واشرافهم مائة من الإبل وقال : ٤٧٦ : [إني لأعطي الرجل ، وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم] وفي الصحيحين عن أبي سعيد : ٤٧٧ [أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بذهيبة في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر : الأقرع بن حابس ، وعيينة بن بدر ، وعلقمة بن علاثة ، وزيد الخير وقال : « أتألفهم »] . وهل تعطي المؤلفة قلوبهم على الإسلام بعد النبي ﷺ فيه خلاف فروي عن عمر وعامر والشعبي وجماعة : أنهم لا يعطون بعده لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ، ومكّن لهم البلاد ، وأذلّ لهم رقاب العباد ، (وهذا القول أقوى – والله اعلم – من القول بإعطائهم في حالة عز الإسلام واهله)[1] .

وأما الرقاب فروي عن بعض التابعين انهم المكاتبون ، وقال ابن عباس وغيره لا بأس من أن تعتق الرقبة من الزكاة ، والإعطاء للعتق أعم من الإعطاء للمكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً . وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة احاديث كثيرة ، وان الله يعتق بكل عضو منها عضواً من معتقها حتى الفرج بالفرج ، وما ذاك إلا لأن الجزاء من نوع العمل ﴿وما تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ .

وفي المسند عن البراء بن عازب قال : ٤٧٨ [جاء رجل فقال يا رسول الله دلّني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار ؟ فقال : « اعتق النسمة وفك الرقبة » فقال يا رسول الله أو ليسا واحداً ؟ قال : « لا ، عتق النسمة ان تفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها »].

واما الغارمون فهم اقسام ، فمنهم : من تحمّل حمالة ، أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله ، أو غرم في أداء دينه ، أو في معصية ثم تاب ، فهؤلاء يدفع إليهم . والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي . قال : ٤٧٩ [تحملت حمالةً فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها ، فقال « أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها » قال : ثم قال : « يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلاّ لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة ، فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش – أو قال سداداً من عيش – ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجى من قرابة قومه فيقولون : لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش – أو قال سداداً من عيش – فما سواهن من المسألة سحت يأكلها صاحبها سحتاً »] رواه مسلم .

(١) ما بين القوسين من كلامي . واذا عادت أسباب تألف القلوب يعاد الإعطاء .

وأما في سبيل الله فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان . وعند الإمام أحمد والحسن وإسحق : والحج من سبيل الله للحديث ... (١)

وكذلك ابن السبيل وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره ، فيعطي من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال ، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء ، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه .

والدليل على ذلك الآية ... وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٨٠ [« لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة : العامل عليها أو رجل اشتراها بماله ، أو غارم ، أو غازٍ في سبيل الله ، أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغني »] وقوله تعالى : ﴿ فريضة من الله ﴾ أي حكماً مقدراً ، بتقدير الله وفرضه وقسمه ﴿ والله عليم ﴾ أي بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده ﴿ حكيم ﴾ فيما يقوله ويفعله ويشرعه ويحكم به لا إله الا هو ولا رب سواه .

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٦١) ﴾

يقول تعالى ، ومن المنافقين قوم يؤذون رسولَ الله ﷺ بالكلام فيه ، ويقولون : ﴿ هو أُذُن ﴾ أي من قال له شيئاً صدقه فينا ، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا . قال الله تعالى : ﴿ قل أُذُن خير لكم ﴾ أي هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ أي ويصدق المؤمنين ﴿ ورحمةٌ للذين آمنوا منكم ﴾ أي وهو حجة على الكافرين ولهذا قال : ﴿ والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » .

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ۞ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ۞ (٦٣) ﴾

(١) قلت : ولكن لم يذكر الحديث الذي يدل على أن الحج من سبيل الله .

قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ﴾ الآية قال : ٤٨١ [ذكر لنا ان رجلاً من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا واشرافنا وان كان ما يقول محمد حقاً ، لهم شر من الحمير . قال : فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت أشرُّ من الحمار . قال فسعى بها الرجال إلى النبي ﷺ فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : « ما حملك على الذي قلت » ؟ فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب ،] فانزل الله الآية .
وقوله تعالى: ﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله ﴾ الآية، أي لم يعلموا أنّ من شاقّ الله وحاربه وخالفه ، وكان في حدٍّ والله ورسوله في حدٍ ﴿ فان له نار جهنم خالداً فيها ﴾ أي مهاناً معذباً و ﴿ ذلك الخزي العظيم ﴾ أي الذل والشقاء الكبير .

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوا إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * (٦٤) ﴾

قال مجاهد : يقولون القول بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا هذا ، فردَّ عليهم الله بقوله تعالى : ﴿ قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ أي إن الله تعالى سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم ولهذا قال تعالى : كانت تسمّى هذه السورة (الفاضحة) .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * (٦٦) ﴾

قال ابن اسحق : ٤٨٢ [وقد كان جماعة من المنافقين ، منهم وديعة بن ثابت اخو بني أمية بن زيد بن عمروٍ بن عوف ، ورجل من اشجع حليف لبني سلمة يقال له : مخشي بن حمير ، يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم

لبعض : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال ... إرجافاً وترهيباً للمؤمنين ، فقال مخشي بن حمير : والله لوددت أن أقاضي على ان يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وإننا نغلب أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه . وقال رسول الله فيما بلغني لعمار بن ياسر : « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا فإن انكروا فقل بلى قلتم كذا وكذا » فانطلق اليهم عمار فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ، فقال وديعة بن ثابت ورسول الله واقف على راحلته فجعل يقول وهو آخذ بحقبها [1] : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب فقال مخشي بن حمير : يا رسول الله : قعد بي اسمي واسم أبي ؛ فكان الذي عفي عنه في هذه الآية مخشي بن حمير فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم مكانه فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر] وقوله تعالى : ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ أي بهذا المقال الذي استهزأتم به ، ﴿ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة ﴾ أي لا يعفى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضكم ﴿ بأنهم كانوا مجرمين ﴾ أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة .

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ (٦٧) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝ (٦٨) ﴾

يقول تعالى منكراً على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، كان هؤلاء : ﴿ يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ﴾ أي عن الانفاق في سبيل الله ﴿ نسوا الله ﴾ أي نسوا

---

(١) الحقب : الحزام الذي يلي حقو البعير . والحقو : الخصر : والمعنى أنه أخذ بالحزام الذي يلي خصر ناقة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ذكر الله ﴿ فنسيهم ﴾ أي عاملهم معاملة من نسيهم كقوله تعالى : ﴿ فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ ﴿ ان المنافقين هم الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة . وقوله تعالى : ﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ﴾ أي على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها مخلدين هم والكفار ﴿ هي حسبهم ﴾ أي كفايتهم في العذاب ﴿ ولعنهم الله ﴾ أي طردهم وأبعدهم ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ . - أي خالد لا ينتهي -

﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۞ (٦٩) ﴾

يقول تعالى : أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة ، كما أصاب من قبلهم ، وقوله تعالى : ﴿ بخلاقهم ﴾ قال الحسن : بدينهم . وقوله تعالى : ﴿ وخضتم كالذي خاضوا ﴾ أي في الكذب والباطل ﴿ أولئك حبطت أعمالهم ﴾ أي بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿ في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب . قال ابن جرير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ الآية ... قال : ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ هؤلاء بنو اسرائيل شبهنا بهم لا أعلم الا أنه قال : ٤٨٣ [والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه] .

روى ابن جريج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٨٤ [والذي نفسي بيده لتتبعن سَنَنَ الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع وباعاً بباع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه] قالوا : ومن هم يا رسول الله ، أهلُ الكتاب ؟ قال : فمن ؟] وهكذا رواه ابو معشر عن ابي سعيد المقبري عن ابي هريرة عن النبي ﷺ فذكره وزاد : قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم القرآن : ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ الآية ...

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۞ (٧٠) ﴾

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين : ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ﴾ أي ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ﴿ قوم نوح ﴾ وما أصاب مكذبيه من الغرق ﴿ وعاد ﴾ كيف اهلكوا بالريح لما كذّبوا هوداً عليه السلام ﴿ وثمود ﴾ كيف اخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً[١] وعقروا الناقة ﴿ وقوم إبراهيم ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات، وأهلك ملِكَهم نمروذَ بنَ كنعان بنِ كوش الكنعاني لعنه الله ﴿ وأصحاب مدين ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيفَ اصابتهم الرجفة ، وعذاب يوم الظلة ﴿ والمؤتفكات ﴾ قوم لوط عليه السلام وكانوا يسكنون سدوم . والغرض أنه تعالى أهلكهم جميعاً بتكذيبهم رسلهم عليهم الصلاة والسلام : ﴿ أتتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلائل القاطعات ﴿فما كان الله ليظلمَهم﴾ أي بإهلاكه إياهم لأنه أقام عليهم الحجةَ بإرسال الرسل وإزاحةِ العِللِ ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي بتكذيبهم الرسل ، ومخالفتهم الحق فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار .

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ (٧١) ﴾

لما ذكر الله تعالى صفاتِ المنافقين الذميمةَ عطف بذكر صفاتِ المؤمنين المحمودة ، فقال سبحانه : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ أي يتناصرون ويتعاضدون كما جاء في الصحيح : ٤٨٥ [مثَلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثلِ الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.] وقوله تعالى : ﴿ يأمرون بالمعروف

(١) عليه الصلاة والسلام .

وينهون عن المنكر ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ أي يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾ في الأوامر والنواهي ﴿ أولئك سيرحمهم الله ﴾ أي سيرحم الله من اتّصف بهذه الصفات ﴿ إن الله عزيز ﴾ أي يعز من أطاعه ﴿ حكيم ﴾ في قسمته هذه الصفات لكل من المؤمنين وللمنافقين، فإن الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۞ (٧٢) ﴾

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ ومساكن طيبة ﴾ أي حسنة البناء طيبة القرار كما جاء في الصحيحين من حديث أبي عمران الجوني بالسند إلى أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٨٦ [جنتان ، من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين ان ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن .]

وفي الصحيحين : ٤٨٧ [ان أهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة كما ترون الكوكب في السماء] ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكان يقال له الوسيلة لقربه من العرش وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة . وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، انه سمع رسول الله ﷺ يقول : ٤٨٨ [إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لي الله الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله . وأرجوا أن أكون هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة .]

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة (رض) قال : ٤٨٩ [قلنا يا رسول حدثنا عن الجنة ما بناؤها قال : ﴿ لبنة ذهب ولبنة فضة وملاطها المسك ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران . من يدخلها ينعم لا ييأس ، ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفني شبابه ﴾] وقوله تعالى : ﴿ ورضوان من الله اكبر ﴾ أي رضا الله عنهم أكبر

وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم كما روى الإمام مالك رحمه الله عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٤٩٠ [ان الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك . فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك ؟ فيقولون يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخَط عليكم بعده أبداً] أخرجاه من حديث مالك .

﴿ يا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۞ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ ولا نَصِيرٍ ۞ (٧٤) ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، كما أمره بخفض جناحه للمؤمنين ، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة وقال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ جاهد الكفار والمنافقين واغلُظ عليهم ﴾ الآية ... قال بيده فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه . وقوله تعالى : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ﴾ روى الاموي بالسند إلى كعب بن مالك قال : لما قدم رسول الله ﷺ اخذني قومي فقالوا : انك امرؤ شاعر فإن شئت ان تعتذر إلى رسول الله ﷺ ببعض العلة ثم يكون ذنباً تستغفر الله منه ، وذكر الحديث بطوله إلى أن قال : وكان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن ، منهم ممن كان مع النبي ﷺ الجلاّس بن سويد بن الصامت ، وكان على أمّ عمير بن سعد ، وكان عمير في حجره ، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين قال الجلاس : والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول لنحن شر من الحمير ؟ فسمعها عمير بن سعد فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليّ ، وأحسنهم عندي بلاءً وأعزهم علي أن يصلَه شيء يكرهُه ، ولقد قلتَ مقالةً

لئن ذكرتها لتفضحني ولئن كتمتها لتهلكني ، ولإحداهما أهون عليّ من الأخرى ؛ فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب عليّ ، فأنزل الله عز وجل فيه : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم ﴾ إلى آخر الآية فوقفه رسول الله ﷺ عليها ، فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن النزوع . هكذا جاء هذا مدرجاً في الحديث متصلاً به وكأنه – والله أعلم – من كلام ابن اسحق نفسه لا من كلام كعب بن مالك . وقوله تعالى : ﴿ وهمُّوا بما لم ينالوا ﴾ روى الحافظ ابو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال :

٤٩١ [كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به ، وعمار يسوق الناقة ، أو أنا اسوقه وعمار يقوده حتى إذا كنّا بالعقبة فإذا أنا بإثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها قال فانتهرهم رسول الله ﷺ ، وصرخ بهم فولوا مدبرين ، فقال لنا رسول الله ﷺ « هل عرفتم القوم ؟ » قلنا لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين ولكنا قد عرفنا الركاب قال : « هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا ؟ » قلنا لا قال : « أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة فيلقوه منها » قلنا يا رسول الله أفلا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كلّ قوم برأس صاحبهم ؟ قال : « لا ، أكره أن تتحدث العرب بينها ان محمداً قاتل بقوم حتى اذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم – ثم قال – اللهم ارمهم بالدبيلة » قلنا يا رسول الله وما الدبيلة ؟ قال : « شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك . »] قال الضحاك ففيهم نزلت هذه الآية : ﴿ وهمُّوا بما لم ينالوا ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وما نقموا إلاّ أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ أي وما للرسول عندهم من ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سعادته ، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به . ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال جل وعلا : ﴿ فإن يتوبوا يك خيراً لهم وان يتولّوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ﴾ أي وان يستمروا على طريقهم يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا أي بالقتل والهم والغم ، والآخرة أي بالعذاب والنكال والهوان والصَّغار ﴿ وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يُحصّل لهم خيراً ، ولا يدفع عنهم شراً .



﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ ٱللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ

مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ❁ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ❁ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ❁ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ ❁ (٧٨)

يقول تعالى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقنّ من ماله وليكوننَّ من الصالحين ، فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادّعَى ، فأعقبهم هـذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة عياذاً بالله من ذلك ، وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصري أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ها هنا وابن أبي حاتم من حديث معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري ما ملخصه : ان ثعلبة طلب من رسول الله ﷺ أن يدعو الله له ان يغنيه ووعد أنه ليعطي كل ذي حق حقه أي من الزكاة فدعا له الرسول ﷺ وأمره أن يتحد غنمـاً فنمت كما ينمو الدود فضاقت بغنمه المدينة وتلهى بغنمه عن الصلوات ولما نزلت فرائض الصدقة حاول ثعلبة ان لا يؤديها وقال ما هذه إلاّ جزية فطولب بها مراراً ولم يعطها إلى ان نزلت في حقة الآية : ﴿ومنهم من عاهد الله ...﴾ إلى آخر الآية فهرع ثعلبة بعدها لاعطاء الزكاة لرسول الله ﷺ فلم يأخذها منه عليه الصلاة والسلام لأن الله منعه ان يقبل منه صدقته فقبض رسول الله ﷺ ولم يأخذها منه وكذلك امتنع عن ذلك كل من الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان وكلهم قال لم يقبلها منك رسول الله فكيف اقبلها منك إلى ان هلك ثعلبة في خلافة عثمان .[1] وقوله تعالى : ﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه ...﴾ الآية أي أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم . كما في الصحيحين عـن رسول الله ﷺ انه قال : ٤٩٢ [آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب وإذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان .] وقوله تعالى : ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾ الآية أي أنه أعلم بضمائرهم وأعلم بهم من أنفسهم لأنه علام الغيوب أي يعلم كل غيب وشهادة وكل سر ونجوى ويعلم ما ظهر وما بطن .

---

(١) قلت : هذه القصة عن ثعلبة لم تثبت صحتها وفيها علي بن يزيد شديد الضعف والله أعلم .

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٧٩) ﴾

وهذا أيضاً من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الاحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم ، إن جاء أحد بمال جزيل قالوا هذا مُراءٍ وإن جاء بشيء يسير قالوا ان الله لغنيّ عن صدقة هذا ؛ كما روى البخاري عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : ٤٩٣ [لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا مرائي وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله لغنيّ عن صدقة هذا . فنزلت ﴿ الذين يلمزون المطوّعين ﴾] الآية . وقد رواه مسلم أيضاً في صحيحه من حديث شعبة به .

روى الامام أحمد عن أبي السليل قال : ٤٩٤ [وقف علينا رجل في مجلسنا بالبقيع فقال حدثني أبي أو عمّي أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول : «من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة» ؟ قال فحللت من عمامتي لوثاً أو لوثين (١) وأنا اريد أن اتصدق بهما فأدركني ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتي ، فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلاً أشد منه سواداً ولا أصغر منه ولا أذم ، ببعير ساقه لم أر بالبقيع ناقةً أحسن منها فقال يا رسول الله أصدقة ؟ قال : «نعم» قال : دونك هذه الناقة ، قال فلمزه رجل فقال : هذا يتصدق بهذه فوالله لهي خير منه قال فسمعها رسول الله ﷺ فقال : « كذبت بل هو خير منك ومنها » ثلاث مرات ثم قال « ويل لأصحاب المئين من الإبل» ثلاثاً قالوا : إلاّ من يا رسول الله ؟ قال : « إلاّ من قال بالمال هكذا وهكذا » وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله. ثم قال : « قد افلح المزهد المجهد » ثلاثاً] المزهد في العيش المجهد في العبادة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال : ٤٩٥ [جاء عبد الرحمن ابن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاء رجل من الأنصار بصاعٍ من طعام فقال بعض المنافقين : والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياءً ، وقالوا ان الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع] وفي رواية عن العوفي عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف جاء بمائة أوقية ذهباً وقوله تعالى : ﴿ فيسخرون منهم سخر الله منهم ﴾ هذا من باب

(١) اللوث ما يعصب على العمامة .

المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين لأن الجزاء من نوع العمل فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً لأن الجزاء من جنس العمل .

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۞ (٨٠) ﴾

يخبر تعالى نبيّه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار وأنه لو استغفر لهم سبعين مرةً فلن يغفر الله لهم ، وقد قيل إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم لأن العرب تذكر السبعين للمبالغة في كلامها لا التحديد ، وقيل بل لها مفهوم كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : ٤٩٦ [لما نزلت هذه الآية أسمع ربي قد رخص لي فيهم فوالله لاستغفرنّ لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله ان يغفر لهم] فقال الله من شدة غضبه عليهم : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ﴾ الآية وقال الشعبي : ٤٩٧ ﴿ لما ثقل عبدالله بن أبي انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال إن أبي قد احتضر فأحب ان تشهده وتصلي عليه فقال له النبي ﷺ : ﴿ ما اسمك ﴾ ؟ قال : الحباب بن عبدالله قال ﴿ بل انت عبدالله بن عبدالله إن الحباب اسم شيطان ﴾ فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصلى عليه فقيل له : أتصلي عليه ؟ فقال : « ان الله قال : ﴿ ان تستغفر لهم سبعين مرة ﴾ ولأستغفرن لهم سبعين ، وسبعين وسبعين »] وكذا روي عن عروة بن الزبير ومجاهد وقتادة بن دعامة ورواه ابن جرير بأسانيده .

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۞ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ (٨٢) ﴾

يذم الله تعالى المنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ﴿ وكرهوا ان يجاهدوا ﴾ معه ﴿ بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا ﴾ أي بعضهم لبعض ﴿ لا تنفروا في الحر ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار فلهذا قالوا : ﴿ لا تنفروا في الحر ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ نار جهنم ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿ أشدُّ حراً ﴾ مما فررتم منه من الحر بل ﴿ اشد حراً ﴾ من النار كما روى الإمام مالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :٤٩٨ [« نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » فقالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية؟قال : « فضلت عليها بتسعةوستين جزءاً »] أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به . وقال الاعمش عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ ٤٩٩ [إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وشراكان من نار جهنم يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ، لا يرى أن أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه وانه أهونهم عذاباً] أخرجاه في الصحيحين من حديث الاعمش . وقال تعالى في وصف بعض عذاب جهنم : ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾ وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ﴾ أي لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع رسول الله ﷺ في سبيل الله في الحر ليتقوا به من حر جهنم الذي هو اضعافاً مضاعفة عن هذا الحر .

ثم قال تعالى جل جلاله متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا : ﴿ فليضحكوا قليلاً ﴾ الآيـــة ... روى الحافظ أبو يعلى عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٥٠٠ [يا أيها الناس أبكوا فإن لم تبكوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون ، فلو أن سفناً أزجيت فيها لجرت] ورواه ابن ماجه .

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ ٱلْخَالِفِينَ ﴾ (٨٣)

يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ ﴿ فإن رجعك الله ﴾ أي ردك الله من غزوتك هذه ﴿ إلى طائفة منهم ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً [١] ﴿ فاستأذنوك للخروج ﴾ أي معك إلى غزوة أخرى ﴿ فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ أي تعزيراً لهم وعقوبة ثم علل ذلك بقوله سبحانه : ﴿ انكم رضيتم بالقعود أول مرة ﴾ فإن جزاء السيئة السيئةُ بعدها ، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها كقوله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ فاقعدوا مع الخالفين ﴾ قال ابن عباس : أي مع الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة .

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ۞ (٨٤) ﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين وان لا يصلي على أحد منهم إذا مات وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا على ذلك وهذا حكم عام من عرف نفاقه وإن كان سبب نزول الآية في عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين كما روى البخاري عن ابن عمر قال : ٥٠١ [لما توفي عبدالله بن أبي جاء ابنه عبدالله بن عبدالله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ، تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ « إنما خيرني الله فقال : ﴿ إستغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرةً فلن يغفر الله لهم ﴾ وسأزيده على السبعين » قال : إنّه منافق . قال فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل آيــة : ﴿ ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾] وكذا رواه مسلم والإمام أحمد .

روى الامام أحمد عن جابر قال : ٥٠٢ [لما مات عبدالله بن أبي أتى ابنُه النبيَّ ﷺ فقال يا رسول الله إنك إن لم تأته لم نزلْ نعيّر بهذا ، فأتاه النبيُّ ﷺ فوجده قد أدخل في حفرته فقال « أفلا قبل أن تدخلوه » فأخرج من حفرته وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه وألبسه قميصه] ورواه النسائي ، روى البخاري عن جابر بن عبدالله قال :

(١) راجع الصفحة /٣٥٥/ عند تفسير الآية رقم ٧٤ وقوله تعالى : « وهموا بما لم ينالوا » . من هذا المجلد

٥٠٣ [أتى النبي ﷺ عبد الله بن عبدالله بن أبي بعد ما أدخل في قبره فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه] والله أعلم .

وقال قتاده : ٥٠٤ [أرسل عبدالله بن أبي إلى رسول الله ﷺ وهو مريض فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ « أهلكك حب يهود » قا ل يا رسول الله إنما ارسلت اليك لتستغفر لي ، ولم ارسل اليك لتؤنبني ، ثم سأله عبدالله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه إياه وصلى عليه وقام على قبره فأنزل الله عز وجل ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ الآية ...] وقد ذكر بعض السلف إنه إنما كساه قميصه لأن عبدالله بن أبي لما قدم العباس طلب له قميص فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبدالله بن أبي لأنه كان ضخماً طويلاً ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له فالله أعلم . ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلي على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره كما روى الإمام أحمد عن قتادة قال : ٥٠٥ [كان رسول الله ﷺ إذا دعي إلى جنازة سأل عنها ، فإن اثني عليها خيراً قام فصلى عليها ، وإن كان غير ذلك قال لأهلها « شأنكم بها » ولم يصل عليها]

ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم ، كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين فشرع ذلك ، وفي فعله الأجر الجزيل كما ثبت في الصحاح وغيرها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : ٥٠٦ [« من شهد الجنازة حتى يصلي عليها فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان » قيل وما القيراطان ؟ قال : « أصغرهما مثل أحد » وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فروى أبو داود عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : ٥٠٧ (كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل »] انفرد باخراجه ابو داود رحمه الله .

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ۝ (٨٥) ﴾

تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة ولله الحمد والمنّة [١]

---

(١) سبق أن فسرت هذه الآية الكريمة فراجع الآية رقم /٥٥/ من سورة التوبة .

﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ❁ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ❁ (٨٧) ﴾

يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد الناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة، واستأذنوا الرسول في القعود وقالوا: ﴿ ذرنا نكن مع القاعدين ﴾ ورضوا لأنفسهم بعار القعود مع النساء وهن الخوالف بعد خروج الجيش، وهكذا فإنهم إذا دُعوا للجهاد كانوا جبناءَ وإذا أمِنُوا كانوا أكثر الناس كلاماً وتشدّقاً كما قال تعالى عنهم ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدورُ أعينهم كالذي يغشَى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكُم بألسنة حدادٍ ﴾ أي علت ألسنتهم بالكلام الحاد، القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة، فإذاأنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشيّ عليه من الموت فأولي لهم طاعة وقول معروف فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ وطبع على قلوبهم ﴾ أي بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿فهم لا يفقهون ﴾أي لا يفهمون ما فيه صلاحهم فيفعلوه،ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ❁ (٨٨) أَعَدَّ اللهُ لَهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ❁ (٨٩) ﴾

لما ذكر تعالى ذنبَ المنافقين، وبيّن ثناءَه على المؤمنين وما لهم في آخرتهم، فقال جلّ وعلا ﴿ لكنِ الرسولُ والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ... ﴾ إلى آخر

الآيتين من بيان حالهم ومآلهم ، وقوله تعالى : ﴿وأولئك لهم الخيرات﴾ أي في الدار الآخرة في جنات الفردوس ، والدرجات العلى .

﴿وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * (٩٠)﴾

ثم بيّن حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون اليه ويبيّنون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة . عن ابن عباس أنه كان يقرأ : ﴿وجاء المُعْذَرُون﴾ بالتخفيف ويقول هم أهل العذر ، وكذا روي عن مجاهد ، وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية لأنه قال تعالى بعد هذا : ﴿وقعد الذين كذبوا اللهَ ورسوله﴾ أي وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال جل وعلا : ﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم .﴾

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * (٩١) وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ * (٩٢) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * (٩٣)﴾



ثم بيّن تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال ، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه ، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد ومنه العمى والعرج ونحوهما ، ولهذا بدأ به ومنها ما هو عارض بسبب مرض عنّ له في

بدنه شغلَهُ عن الخروج في سبيل الله. أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب، فليس على هؤلاء حرج اذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس ولم يثبّطوهم وهم محسنون في حالهم هذا. ولهذا قال تعالى: ﴿ ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ﴾

روى ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت قال: ٥٠٨ [كنت أُكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب « براءة » فإني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت: ﴿ ليس على الضعفاء ﴾ الآية ...] وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك ٥٠٩ [إن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبدالله بن مغفل بن مقرن المزني فقالوا: يا رسول الله احملنا، فقال لهم: ﴿ والله لا أجد ما أحملكم عليه ﴾ فتولّوا وهم يبكون، وعزّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً. فلمّا رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال تعالى ﴿ ليس على الضعفاء ﴾ الآية].

وفي الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: ٥١٠ [«إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولا سرتم سيراً إلاّ وهم معكم» قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نعم حبسهم العذر»]

ثم ردّ تعالى الملامة على الذين يستأذنونك في القعود وهم أغنياء، وأنّبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال ﴿ وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴾.

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ ۞ (٩٦) ﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم اذا رجعوا إلى المدينة سيعتذرون اليكم ﴿ قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم ﴾ أي لن نصدقكم ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ أي قد أعلمنا الله أحوالكم ، ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ اي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا ﴿ ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها ويجزيكم عليها . ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عن تأنيبهم ، فأعرضوا عنهم احتقاراً لهم إنهم رجس ، اشارة إلى نجاسة بواطنهم واعتقادهم ، ومأواهم في آخرتهم جهنم جزاءً بما كانوا يكسبون من الآثام والخطايا ، وأخبر تعالى أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿ فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ أي الخارجين عن طاعة الله ورسوله فإن الفسق هو الخروج ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها .

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٩٩) ﴾

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ، ومنافقين ، ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر ، أي أحرى أن لا يعلموا حدود الله كما قال الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان ، وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند فقال الأعرابي : والله إن حديثك ليعجبني ، وان يدك لتريبني ، فقال زيد : ما يريبك من يدي .. إنها الشمال ؟ فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال ؟ فقال زيد بن صوحان : صدق الله ﴿ ... واجدر أن لايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ ويروى عنه ﷺ انه قال : ٥١١ [من سكن البادية جفا] رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن سفيان الثوري به وحسنه الترمذي ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً وإنما كانت البعثة من

أهل القرى الذين هم ألطف اخلاقاً من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ .

روى مسلم عن عائشة قالت : ٥١٢ [قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبّلون صبيانكم ؟ قالوا نعم ، قالوا لكنا والله ما نُقبّل ، فقال رسول الله ﷺ « وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة[1] ؟ »] وقوله تعالى : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بمن يستحق ان يُعلِمه الإيمان والعلم ، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق .

وقوله تعالى : ﴿ من يتخذ ما ينفق ﴾ أي في سبيل الله ﴿ مغرماً ﴾ أي غرامة وخسارة ﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ أي يرتقب بكم المصائب ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ أي هي منعكسة عليهم ﴿ والله سميع عليم ﴾ أي سميع لدعاء عباده عليم بما يستحقونه . وقوله تعالى : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب يتقربون إلى الله بما ينفقون ويبتغون أن يدعو الرسول لهم ﴿ ألا إنها قربة لهم ﴾ أي حاصل لهم ذلك ، ولهـذا ﴿ سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم ﴾ .

﴿ وَٱلسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۞(١٠٠) ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، ورضاهم عنه بما أعدلهم في الجنات و النعيم المقيم . روى محمد بن كعب القرظي : ٥١٣ [مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾ الآية ... فأخذ عمر بيده فقال : من أقرأك هذا ؟ قال : أبي بن كعب ، فقال : لا تفارقني حتى أذهب بك إليه ، فلما جاءه ، قال عمر : أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال : نعم قال وسمعتها من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : لقد كنت أرى أنّا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا فقال أبي : تصديق هذه الآية في أول

(١) وفي البخاري : (أو أملك لك إن نزع الله من قلبك الرحمة) .

سورة الجمعة : ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾ وفي سورة الحشر : ﴿والذين جاءوا من بعدهم﴾ وفي الأنفال : ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم﴾] رواه ابن جرير فيا ويل من أبغضهم أو سبّهم – كلهم أو بعضهم – ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ، وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه ، فكل من يبغضهم أو يسبهم فإن عقولهم معكوسة ، وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء ممن وصفهم القرآن العظيم بالآية : ﴿والسابقون الأولون ...﴾ فيسبون من رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه ، ويسبُّون من سبَّه اللهُ ورسوله ، ويوالون من يوالي الله ورسوله ويعادون من يعادي الله ورسوله ، وهم متبعون لا مبتدعون ، ويقتدون ولا يبتدون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون .

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ۞ (١٠١) ﴾

يخبر تعالى رسوله ﷺ أن من حول المدينة وفي أهل المدينة نفسها منافقين ﴿مردوا على النفاق﴾ أي استمروا عليه ، وقوله تعالى : ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ من هنا يتبين أنه ﷺ لا يعلم جميع من عنده من أهل النفاق إنمّا يعرف بعضهم ولا يعرف البعض الآخر ، وقد كان يعرف قسماً منهم توسُّماً كما قال تعالى : ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾ وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً وإن كان يراه صباحاً ومساءً . وقد تقدم عند تفسير قوله تعالى : ﴿وهمُّوا بما لم ينالوا﴾ أنه ﷺ أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً ، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم والله أعلم . وروى ابن عساكر في ترجمة أبي عمر البيروتي عن أبي الدرداء : ٥١٤ [أن رجلاً يقال له حرملة أتى النبيَّ ﷺ فقال : الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه ، والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلاً فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اجعل له لساناً ذاكراً ،

وقلباً شاكراً ، وارزقه حبي وحب من يحبني ، وصيِّرْ أمره إلى خير » فقال يا رسول الله انه كان لي أصحاب من المنافقين ، وكنت رأساً فيهم ، أفلا آتيك بهم ؟ قال : « من أتانا استغفر نا له ، ومن أصرَّ فالله أولى به ، ولا تخرقنَّ على أحد ستراً »] وكذا رواه أبو أحمد الحاكم . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ سنعذّبهم مرتين ﴾ يعني القتل والسبي. وقال في رواية الجوع وعذاب القبر وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال ٥١٥ : قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال : أخرج يا فلان فإنك منافق ، واخرج يا فلان فإنك منافق فأخرج من المسجد ناساً منهم فضحهم قال ابن عباس فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد والعذاب الثاني عذاب القبر وكذا قال الثوري عن السدي عن أبي مالك نحو هذا . ﴿ ثم يردّون إلى عذاب عظيم ﴾ أي عذاب الآخرة وهو الخلود في النار والعياذ بالله تعالى .

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٠٢)

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الجهاد تكذيباً وشكاً، بيَّن حال المذنبين المتأخرين عن الجهاد كسلاً مع إيمانهم بالحق ، فقال جل وعلا : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ أي أقروا بها فيما بينهم وبين الله، ولهم أعمال أُخَرُ صالحة، خلطوها بتلك، فهم تحت عفو الله وغفرانه . وهذه الآية عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوّثين . ﴿ وآخرون ﴾ قال ابن عباس نزلت في أبي لبابة وجماعة من اصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فلما رجع عليه الصلاة والسلام ربطوا أنفسهم بسواري المسجد وحلفوا ان لا يحلّهم إلاَّ رسول الله ﷺ فلما أنزل الله هذه الآية أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم . روى البخاري عن سمرة بن حندب قال : قال رسول الله ﷺ لنا : ٥١٦ [أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتهيا بي إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقّانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ ، وشطر كأقبح ما أنت راءٍ قالا لهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة ، قالا لي هذه جنة عدن وهذا منزلك ، قالا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح ، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم .] هكذا رواه البخاري مختصراً في تفسير هذه الآية .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ (١٠٤) ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها ، وهذا عام في كل من يخلط عملاً صالحاً بآخر سيء ولو كانت الآية نزلت بالذين تخلفوا عن الجهاد كسلاً وهم مؤمنون واعترفوا بذنوبهم فكل من كان بعدهم مثلهم فحكمهم واحد .

وقوله تعالى : ﴿ وصل عليهم ﴾ أي ادع لهم واستغفر لهم كما رواه مسلم في صحيحه عن عبدالله بن أبي أوفى قال : ٥١٧ [كان النبي ﷺ إذا أُتي بصدقة قوم صلى عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال : « اللهم صل على آلِ أبي أوفىَ »] وقوله تعالى : ﴿ إن صلاتك سكن لهم ﴾ قال ابن عباس : رحمة لهم وقوله تعالى : ﴿ والله سميع عليم ﴾ اي سميع لدعائك عليم بمن يستحقه منك . روى الإمام أحمد عن ابن حذيفة ، ان صلاة النبي ﷺ لتدرك الرجل وولَدَه وولَدَ ولدِه .

وقوله تعالى : ﴿ ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقاتِ ﴾ هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما تحط الذنوب وتمحقها ، وأخبر تعالى ان كلّ من تاب إليه تاب عليه ، ومن تصدق بصدَقة من كسب حلالٍ ، فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه ، فيربيها لصاحبها حتى تصير الثمرةُ مثلَ أُحُد . كما روى الثوري ووكيع عن أبي هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : ٥١٨ [ان الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربّيها لأحدكم كما يربي أحدُكم مهره حتى إنَ اللقمةَ لتكون مثلَ أُحد ﴾] وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وان الله هو التواب الرحيم ﴾

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ (١٠٥) ﴾

قال مجاهد : هذا وعيد من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين . وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ وقوله تعالى : ﴿وحُصّل ما في الصدور﴾ وقد يُظهِرُ الله تعالى ذلك في الدنيا للناس .

روى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : ٥١٩ [لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له ، فإن العامل يعمل زماناً من عمره أو برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً ، وان العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيء لو مات عليه دخل النار ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً ، وإذا اراد الله بعبده خيراً استعمله قبل موته ﴾ قالوا يا رسول الله وكيف يستعمله؟ قال « يوفّقه الله لعمل صالح ثم يقبضه عليه »] تفرد به أحمد من هذا الوجه.

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٠٦)

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد : هم الثلاثة الذين خُلّفوا أي عن التوبة ، وهم مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك كسلاً وميلاً إلى الدّعة وطيب الثّمار والظّلال ، لا شكاً ونفاقاً. فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري ، كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجي هؤلاء عن التوبة حتى نزلت : ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ الآية : ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ الآية كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك ، وقوله تعالى : ﴿إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾ أي هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا ، وان شاء فعل بهم ذاك ، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بمن يستحق العقوبة أو العفو ، وحكيم في أفعاله وأقواله لا إله الا هو ولا رب سواه .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ

أَرَدْنَا إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ❁ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ❁ (١٠٨)

سبب نزول هذه الآيات الكريمة : أنه كان في المدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ رجل قد تنصّر في الجاهلية يقال له : أبو عامر الراهب . وبعد أن قدم رسول الله ﷺ المدينة وعلا شأن الإسلام والمسلمين في بدر ... دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأبى وتمرّد ... وفرّ إلى مكة ، ثم إلى هرقل ، واستنصره على حرب المسلمين ، فوعده ومنّاه ، وأقام عنده . ثم كتب إلى جماعة من قومه بأن سيقدم بجيش يردُّ فيه محمداً عمّا هو فيه . وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً ومرصداً . فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء . وبعد فراغهم منه ... سألوا رسول الله ﷺ أن يصلي فيه فقال : (إنّا على سفر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله) . وفي عودته من تبوك... وعلى مسافة بعض يوم من المدينة نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار ، وما عزم بانوه من الكفر وتفريق المسلمين ؛ فبعث رسول الله إلى ذلك المسجد من هدمه قبل وصوله إلى المدينة . فأنزل عز وجل : ﴿ لا تقم فيه أبداً – إلى قوله – الظالمين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وليَحلِفُنَّ ﴾ أي الذين بنوه ﴿ إن أردنا إلا الحسنَى ﴾ أي إلاّ خيراً قال الله تعالى : ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ أي فيما قصدوا ونووا . وانما بنوه ضراراً لمسجد قباء وكفراً بالله وتفريقاً بين المؤمنين وارصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل : وهو ابو عامر الفاسق الذي يقال له الراهب لعنه الله . وقوله تعالى : ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ نهيٌ له ﷺ والأمة تبع له في ذلك ، عن ان يقوم فيه أي يصلي أبداً . ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنيانه على التقوى وهي طاعة الله وطاعة رسول الله ﷺ ، وجمعاً لكلمة المسلمين ومعقلاً للإسلام وأهله ولهذا قال تعالى : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق ان تقوم فيه ﴾ والسياق انما هو في معرض مسجد قباء ولهذا جاء الحديث الصحيح ان رسول الله ﷺ قال : ٥٢٠ [صلاة في مسجد قباء كعمرة] وفي الصحيح : ٥٢١ [ان رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً] .

روى الطبراني عن ابن عباس قال : ٥٢٢ [لما نزلت هذه الآية : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال : « ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم ؟ » فقال يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلاّ غسل فرجه أو قال مقعدته فقال النبي ﷺ : « هو هذا »]

وقد ورد في الحديث الصحيح : ٥٢٣ [أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسّس على التقوى ،] وهذا صحيح ، ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه اذا كان مسجد قباء قد أُسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى. ولهذا روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال : ٥٢٤ [المسجد الذي أُسس على التقوى مسجدي هذا] تفرد به أحمد . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد أنه قال : ٥٢٥ [تمارَى رجلان في المسجد الذي أُسس على التقوى من أول يوم فقال رجل هو مسجد قباء وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ « هو مسجدي »] وكذا رواه الترمذي وصححه والنسائي ورواه مسلم .

وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف ، وهو مرويّ عن عمر ابن الخطاب وابنه عبدالله ، وزيد بن ثابت ، وسعيد بن المسيب ، واختاره ابن جرير وقوله تعالى : ﴿ لمسجد أسّس على التقوىَ من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبّون أن يتطهروا والله يحب المطهرّين ﴾ دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين ، المحافظين على إسباغ الوضوء والتنزه عن ملابسة القاذورات .

ربع الحزب

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ۝ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ (١١٠) ﴾

يقول تعالى لا يستوى من أسّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ومن بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المسلمين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، فهؤلاء

إنما يبنون بنيانهم على طرف حفرة فانهارت بهم ﴿ في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي لا يصلح عمل المفسدين . قال جابر بن عبدالله : رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ . وقوله تعالى : ﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم ﴾ أي شكّاً ونفاقاً ، بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقاً في قلوبهم كما أشرب عابدو العجل حبه ، وقوله تعالى : ﴿ إلاّ أن تقطع قلوبهم ﴾ أي بموتهم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم من علماء السلف ﴿ والله عليم ﴾ أي بأعمال خلقه ﴿ حكيم ﴾ في مجازاتهم عنها من خير أو شر .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۞ (١١١) ﴾

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إن بذلوها في سبيله بالجنة وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له ، ولهذا قال الحسن البصري وقتادة بايعهم والله فأغلى ثمنهم ، وقال شمر بن عطية : ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عنقه بيعة ، وفىَ بها أو مات عليها ، ثم تلا هذه الآية . ولهذا يقال من حمل في سبيل الله بايع الله أي قبل هذا العقد ووفى به .

روى محمد بن كعب القرظي وغيره : عن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة : ٥٢٦ [اشترط لربّك ولنفسك ما شئتَ ، فقال : « اشترطُ لربّي أن تعبُدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ... ﴾] وقوله تعالى : ﴿ يقاتلون في سبيل الله فيَقتُلون ويُقتَلون ﴾ أي سواء قتَلوا أو قُتِلوا أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة ولهذا جاء في الصحيحين : ٥٢٧ [وتكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وتصديق برسلي بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً مانال من أجر أو غنيمة] وقوله تعالى : ﴿ وعْداً عليه

حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ تأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله في كتبه الكبار التي ذكرها . وقوله تعالى : ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ فانه لا يخلف وعده كقوله تعالى : ﴿ ومن أصدق من الله قيلاً ﴾ ولهذا قال سبحانه : ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ اي فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم .

﴿ التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۞ (١١٢) ﴾

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الحميدة ﴿ التائبون ﴾ من الذنوب كلها التاركون للفواحش ، ﴿ العابدون ﴾ اي القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهي الأقوال والأفعال فمن أخص الأقوال الحمد. فلهذا قال جل وعلا : ﴿ الحامدون ﴾ . ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع،وهو المراد بالسياحة ها هنا ، ولهذا قال سبحانه ﴿ السائحون ﴾ كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى : ﴿ سائحات ﴾ أي صائمات . وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة ولهذا قال تعالى : ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه ، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علماً وعملاً ، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وبشّر المؤمنين ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله ، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به .

(بيان أن المراد بالسياحة الصيام) روى ذلك عن عبدالله بن مسعود وابن عباس وعائشة رضي الله عنهم وكذلك روي عن مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وغيرهم .

روى ابن جرير عن ابي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٢٨ [السائحون هم الصائمون]

روى ابن جرير عن عبيد بن عمير ، قال : ٥٢٩ [سئل النبي ﷺ عن السائحين فقال : هم الصائمون] وهذا مرسل جيد ، وهذا أصح الأقوال وأشهرها .

وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد وهو ما روي عن أبي داود في سننه من حديث أبي أمامة : ٥٣٠ [أن رجلاً قال يا رسول الله ائذن لي في السياحة فقال النبي ﷺ سياحة امتي الجهاد في سبيل الله .] وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري ، [1] فان هذا ليس بمشروع إلا في ايام الفتن والزلازل في الدين ، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : ٥٣١ [يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن] . [2]

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۞ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ۞ (١١٤) ﴾

روى الإمام أحمد عن ابن المسيب عن أبيه قال : ٥٣٢ : [لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية ، فقال : أي عم ، قل لا إله الا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله عز وجل . فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال : أنا على ملة عبد المطلب ، فقال النبي ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فنزلت ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ قالت ونزلت فيه : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾] أخرجاه .

روى الإمام أحمد عن بريدة قال : ٥٣٣ [كنّا مع النبي ﷺ ونحن في سفر ، فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب ، فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان ، فقام اليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال : يا رسول الله مالك ؟ قال : « إني سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمّي فلم يأذن لي فدمعت عيناي رحمةً لها من النار واني كنت نهيتكم عن ثلاث : نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها لتذكركم زيارتها خيراً.

(١) هؤلاء هم المتصوفة الذين يتعبدون الله بما لم ينزل به سلطاناً .

ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث فكلوا وأمسكوا ما شئتم ، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية فاشربوا في أي وعاءٍ شئتم ولا تشربوا مسكراً] .

وروى السهيلي في الروض بسند فيه جماعة مجهولون : أن الله أحيا له أباه وأمّه فآمنا به . [١] وقد قال الحافظ ابن دحية : هذا الحديث موضوع يردّه القرآن والإجماع قال الله تعالى : ﴿ ... ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ [٢]

وقال قتادة في تفسير الآية : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى : ٥٣٤ [ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا : يا نبي الله : إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ، ويصل الأرحام ويفك العاني ويوفي بالذمم ، أفلا نستغفر لهم ؟ قال « بلى والله إني لأستغفر لأبي كما استغفر ابراهيم لأبيه » فأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين – حتى بلغ قوله تعالى – ﴿ الجحيم ﴾ ثم عذر الله تعالى إبراهيم عليه السلام ، فقال عز وجل : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها إياه ... ﴾] وقال قتادة : وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال : ٥٣٥ (« قد أوحي إلي كلمات فدخلن في أذني ، ووقرن في قلبي : أمرت ان لا استغفر لمن مات مشركاً ، ومن أعطى فضل ماله فهو خير له ،

---

(١) يجهد بعض أهل الأغراض المعروفة...!!!؟ أن يوردوا هذا الحديث وأمثاله ليضربوا ما جاء في قوله تعالى : « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ويجعلوا الله محابياً لرسوله صلى الله عليه وسلم فقالوا : (أن الله أحيا له أبويه فآمنا به) أي تغاضى الله عن شرك أبويه في حياتهما فأحياهما له فآمنا به ثم ماتا ؛ محاولين أن يوهموا العامة بل وحتى الخاصة ... أن الله أحياهما ... إكراماً له وحاشا رب العباد ان يعامل أبوي رسوله بخلاف ما يعامل آباء بقية المسلمين .

(٢) وهذا هو الحق الذي ما بعده إلا الضلال وهذه الآية رقم/١٨/من سورة/النساء/على أن حكم الشرك واحد، إن صدر عن أبوي الرسول أو عن آباء بقية الناس. وجزاء المشركين هو هو...لا فرق بين مشرك ومشرك. وأن هؤلاء الذين وضعوا هذا الحديث ، مثلهم في نواياهم الخبيثة ، كمثل من يتوارى بأصبعه ظاناً أنه يستتر بها نفسه..!! أو كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمل وتظن الحمقاء أنها لا يراها أحد . فهؤلاء قد اعترفوا بأن أبوي الرسول صلى الله عليه وسلم ... ماتا مشركين وهذا ظاهر من قولهم (أحياهما الله له فآمنا به) . إذ لو كانا مؤمنين لما كان من داع لإحيائهما حتى يؤمنا به من جديد ... !!! فهما وسائر أهل عصرهما مكلفون بدين ابراهيم وهم الذين بدلوه.. إذاً فقد ماتا مشركين باعتراف المخالفين أنفسهم، فبقي عليهم اثبات صحة حديث إحيائهما... وهيهات !!! إذ أن الحديث موضوع مكذوب وقد فضح الله كذبهم عليه وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وكما قال الحافظ ابن دحية : (هذا الحديث موضوع يرده القرآن والإجماع) . إنهم يضعون هذا الحديث لا حباً برسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم بعيدون عن هذا الحب، إنما فعلوا ذلك بقصد تكذيب كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ففضحهم الله وهتك أستارهم شأنهم في كل حديث يضعونه افتراء وكذباً. والله الموفق للصواب .

ومن أمسك فهو شر له ولا يلوم الله على كفاف »] وقوله تعالى ﴿ فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ قال ابن عباس : ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم رحمهم الله .

وقوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم لأوّاهٌ حليم ﴾ روى سفيان الثوري وغير واحد عن عبدالله بن مسعود انه قال : الأوّاه : الدّعاء ، وقيل في معنى الأوّاه أقوال متقاربة وأولاها قول من قال : إنه الدعّاء وهو المناسب للسياق ؛ وذلك إن الله تعالى لما ذكر إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه ، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليماً عن من ظلمه وأناله مكروهاً ، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه في قوله تعالى : ﴿ أراغب انت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني مليّاً * قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا ﴾ فحلم عنه مع أذاه له، ودعا له واستغفر. ولهذا قال تعالى: ﴿ إنّ ابراهيم لأوّاه حليم ﴾ .

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدٰىهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * (١١٥) إِنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * (١١٦) ﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة ، وحكمه العادل ، انه لا يُضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى تقومَ عليهم الحجة .كما قال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ فما كان ليقضي عليكم بالضلال بسبب استغفاركم لموتاكم المشركين ، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا ، فأما قبل ان يبين لكم كراهة ذلك بالنهي عنه،إنَ فعلتموه فلا يحكم عليكم بالضلال بعد أن رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله ، لأن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأموربه والمنهي عنه،وقوله تعالى : ﴿ إن الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير ﴾ قال ابن جرير : هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين على قتال المشركين وملوك الكفر ، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ولا يرهبوا من أعدائه فإنه لا وليّ لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه .

﴿ لَقَدْ تَابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ (١١٧) ﴾

قال مجاهد وغير واحد : نزلت هذه الآية في غزوة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر ، جدب ، وحر ، وعسر من الزاد والماء. حتى أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما . روى ابن جرير عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب قال : ٥٣٦ [... وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله إن الله عز وجل قد عوّدك في الدعاء خيراً فادعُ لنا فقال:« تحب ذلك ؟ » قال : نعم . فرفع يديه فلم يرجعْهما حتى سالت السماء فأهطلت ثم سكنت، فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر .] وقال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ لقد تاب الله ... ﴾ الآية ... قال : (العسرة ...) في النفقة والظهر والزاد والماء ﴿ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ﴾ أي عن الحق ، ويشك في دين الرسول ﷺ ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ يقول رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿ إنه بهم رؤوف رحيم ﴾ .

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝ (١١٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ (١١٩) ﴾

روى الإمام أحمد عن عبيد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال كعب بن مالك : ٥٣٧[1] [لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها

(١) قلت : لم أختصر شيئاً من قصة كعب بن مالك لما فيها من العبرة والعظة والأحكام .

ط ... إلا في غزوة تبوك ، غير أني تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتَبْ أحدٌ تخلّف عنها وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عيرَ قريش حتّى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وماأحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس وأشهر ، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتّى جمعتهما في تلك الغزاة ، وكان رسول الله ﷺ قلمّايغزوغزوة إلاّ ورّى بغيرها حتّى كانت تلكالغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدواً كثيراً فخلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوّهم ، فأخبرهم وجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب : فقَلَّ رجل يريد أن يتغيب إلاّ ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة ، حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصعر ، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً ، فأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتّى استمرَّ بالناس الجدُّ ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً ، وقلت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعدما فصلوا لأتجهّز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً . ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادَى بي حتّى أسرعوا وتفارط الغزو فهمَمْتُ أن أرتحل فألحقهم ، وليت أني فعلت ، ثم لم يقدَّرْ ذلك لي ، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى إلاّ رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك « ما فعل كعب بن مالك» فقال رجل من بني سلمة : حبسه يا رسول الله برداه والنظر في عطفيه فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلاّ خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك ، حضرني بثّي وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً واستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظلّ قادماً زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً ، فأجمعت صدقه ؛ فأصبح رسول الله ﷺ وكان

إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المتخلّفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً ، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ، ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال لي : « تعال » فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي :« ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهراً » فقلت : يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك بصدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، قال : فقال رسول الله ﷺ « أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك » فقمت وقام إليَّ رجال من بني سلمـــة واتبعوني فقالوا لي والله مـــا علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، قال فوالله ما زالوا يؤنّبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي. قال: ثم قلت لهم هل لقي معي هذا أحد ؟ قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثلما قيل لك فقلت : فمن هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامري ، وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة ، قال فمضيت حين ذكروهما لي قال ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا كثيراً حتى تنكرتْ لي في نفسي الأرضُ فما هي بالأرض التي كنت اعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت اشد القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلّم وأقول في نفسي أحرّك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا ؟ ثم أصلّي قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ ، فإذا التفتُّ نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسوّرت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ . فسلمت عليه ، فوالله ما ردَّ علي السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ قال فسكت ، قال فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فقال : الله ورسوله أعلم قال ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار فبينـــا أنا أمشي بسوق المدينـــة ، إذا أنا بنبطيٍّ من انباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب

ابن مالك ؟ قال فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاء فدفع إلي كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً فإذا فيه:

أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وأن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . قال : فقلت حين قرأته : وهذا أيضاً من البلاء ، قال فتيممتُ به التنورَ ، فسجرتُه به حتى إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين ، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول : يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل أمرأتك قال فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربْها ، قال وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك قال فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء ، قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ان هلالاً شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال : « لا ولكن لا يقربك » قالت وانه والله ما به من حركة إلى شيء، وإنه والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . قال فقال لي بعض أهلي لو استأذنتَ رسولَ الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه قال فقلت : والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب .

قال فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنافبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت عليّ نفسي ، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك ، قال : فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا ، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض إلى رجل فرساً وسعى ساعٍ من أسلم وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشارته والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أؤمُّ رسول الله ﷺ ، وتلقاني الناسُ فوجاً فوجاً يهنؤنني بتوبة الله ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس حوله فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره قال فكان كعب لا ينساها لطلحة قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور : «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك» . قال:

قلت أمن عندك يا رسول الله ام من عند الله قال : « بل من عند الله » قال وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، حتى يعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله ، قال : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » قال : فقلت فإني أمسك سهمي الذي بخيبر وقلت يا رسول الله إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلاّ صدقاً ما بقيت قال فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك رسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، واني لأرجو ان يحفظني الله عز وجل فيما بقي .

قال : وأنزل الله تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ إلى آخر الآيات. قال كعب : فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد ان هداني للاسلام أعظم في نفسي من صدقي مع رسول الله ﷺ يومئذ ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه فإن الله تعالى قال للذين كذَبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، فقال الله تعالى : ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فلذلك قال الله عز وجل ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ وليس تخليفُه إيَّانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبِل منه .]

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبا الصحيح البخاري ومسلم من حديث الزهري بنحوه ، فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها ، وكذا روي عن غير واحد من السلف في تفسيرها .

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فلا يهتدون ما يصنعون ، فصبروا لأمر الله ، واستكانوا له ، وثبتوا حتى

كوفئوا بالفرج بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم ، وإنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك ، هذه المدة ... ثم تاب عليهم فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم ولهذا قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ أي اصدقوا ، والزموا الصدق تكونوا من أهله ، وتنجوا من المهالك .

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
٥٣٨ [عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتبَ عند الله صدّيقاً ؛ وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً] أخرجاه في الصحيحين . وروى شعبة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، إقرأوا إن شئتم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ هكذا قرأها ثم قال : فهل تجدون لأحد فيه رخصة .

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ (١٢٠) ﴾

يعاتب تبارك وتعالى المتخلّفين عن رسوله ﷺ في غزوة تبوك عامة ، ورغبتهم بأنفسهم عن الجهاد معه ومواساته فيما حصل له من المشقّة ،فإنّهم حرّموا أنفسهم من الأجر لأنهم ﴿ لا يصيبهم ظمأ ﴾ وهو العطش ﴿ ولا نصب ﴾ وهو التعب ﴿ ولا مخمصة ﴾ وهي المجاعة ، ﴿ ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ﴾ أي ينزلون منزلاً يرهب عدوّهم ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً ﴾ أي ظفراً ﴿ إلا كتب لهم ﴾ بهذه ، أعمالاً صالحة

وثواباً جزيلاً ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ .

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ (١٢١) ﴾

يقول تعالى : ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿ نفقة صغيرة ولا كبيرة ﴾ أي قليلاً ولا كثيراً ﴿ ولا يقطعون وادياً ﴾ أي إلى الأعداء ﴿ إلا كتب لهم ﴾ ولم يقل ها هنا : به ، لأن هذه أفعال صادرة عنهم ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة ، حظ وافر ، ونصيب عظيم ، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة ، والأموال الجزيلة ، كما روى عبد الله بن الإمام احمد عن عبد الرحمن بن حباب السلمي قال : ٥٣٩ [خطب رسول الله ﷺ ، فحث على جيش العسرة فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : عليّ مائة بعير باحلاسها وأقتابها ، قال ثم حث فقال عثمان بن عفان : عليّ مائة بعير أخرى بأحلاسها واقتابها ثم نزل مرقاةً من المنبر ثم حث ، فقال عثمان بن عفان : على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها . قال فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحركها ، وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب : « ما على عثمان ما عمل بعد هذا »] روى عبدالله أيضاً عن عبد الرحمن بن سمرة قال : ٥٤٠ [جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حتى جهز النبي ﷺ جيش العسرة قال : فصبها في حجر النبي ﷺ ، فرأيت النبي ﷺ يقلّبها بيده ويقول : « ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم » يرددها مراراً] وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ﴾ الآية : ما ازداد قوم في سبيل الله بعداً من أهليهم إلا إزدادوا قرباً من الله .



﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝ (١٢٢) ﴾

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفير أحياء العرب مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك ، فانه قد ذهبت طائفة من السلف إلى انه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ (١)

وقال سبحانه ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ... ﴾ (٢) فنسخ ذلك بهذه الآية . وقد يقال : إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير أحياء العرب كلها وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم ، ليتفقه الخارجون مع الرسول ﷺ ، بما ينزل من الوحي عليه ، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو ، فيجتمع لهم الأمران في هذا النفير المعين ، وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد .

وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون فيه ويقولون للنبي ﷺ : ما تأمرنا ان نفعله ؟ وأخبرْنا بما نأمر به عشائرنا إذا قدمنا عليهم ، قال فيأمرهم نبي الله ﷺ بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة ، وكانوا إذا أتوا قومهم قالوا : من أسلم فهو منّا وينذرونهم ، حتى أن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان النبي ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم ، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ (١٢٣) ﴾

أمر الله تعالى المؤمنين بقتال الكفّار ، الأقرب فالأقرب إلى ديار الإسلام ، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب ، ولما فرغ منهم وفتح الله عليه كافة بلاد الجزيرة ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، شرع في قتال أهل الكتاب ، فتجهّز لقتال الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب ، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل كتاب ، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس ، وجدب البلاد

---

(١) الآية (٤١) التوبة (٢) الآية (١٢٠) التوبة

وضيق الحال وذلك سنة ٩ لهجرته عليه الصلاة والسلام . ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع ، ثم التحق بربه تعالى بعد حجته بأحد وثمانين يوماً فخلفه أبو بكر الذي ثبَّت الله به الدين، وشرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران . ففتح الله عليه البلاد وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد وانفق كنوزهما في سبيل الله ثم ولي عهده الفاروق عمر بن الخطاب فأرغم الله به أنوف الكفرة والملحدين، واستولى على المماليك شرقاً وغرباً ، وحملت إليه الخزائن من سائر الأقاليم بعداً وقرباً . ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً. أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة عثمان بن عفان . فظهر الإسلام وعلت كلمة الله وكلّما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم. ثم الذين يلونهم امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي في قتالهم ، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً بأخيه المؤمن ، غليظاً على عدوه الكافر . كقوله تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم وفي الحديث : ٥٤١ [أنا الضحوك القتال] أي الضحوك في وجه وليّه قتّال لهامة عدوّه . وقوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ أي إن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه . وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة ، في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك ، طمع الأعداء في اطراف البلاد واستحوذوا على قسم من بلاد الإسلام ولله الأمر من قبل ومن بعد . فكلما قام ملك من ملوك الاسلام وأطاع أوامر الله وتوكل عليه تعالى فتح الله عليه من البلاد بقدر ما فيه من ولاية الله . والله المسؤول أن يمكن المسلمين نواصي الكافرين ، وان يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم انه جواد كريم .

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ (١٢٤) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ۞ (١٢٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة ﴾ فمن المنافقين ﴿ من يقول أيكم زادته هذه

إيماناً ﴾ أي يقول ذلك بعضهم لبعض ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً وهم يستبشرون ﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ أي شكاً إلى شكهم .كقوله تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ وهذا من جملة شقائهم ، أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم ، كما أن سيء المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً .

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ● (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ● (١٢٧) ﴾

يقول تعالى : أو لا يرى هؤلاء المنافقون ﴿ أنهم يفتنون ﴾ أي يختبرون ﴿ في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ أي لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم . قال مجاهد يختبرون بالسنة والجوع وقال قتادة بالغزو في السنة مرتين . وقوله تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض ﴾ أي تلفتوا ﴿ هل يراكم من أحد ثم انصرفوا ﴾ أي تولوا عن الحق وانصرفوا عنه وهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه . كقوله تعالى : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ● كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ أي لا يفهمون عن الله خطابه بل هم في شغل عنه ونفور منه .

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ● (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ● (١٢٩) ﴾

يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ أي منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي والمغيرة بن شعبة – رضي الله عنه – لرسول كسرى : ان الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته وذكر الحديث ...

روى الحافظ ابو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي في كتابه الفاصل بين الراوي والواعي بسنده إلى محمد بن جعفر بن محمد قال أشهد على أبي لحدثني عن أبيه عن جده عن عليّ قال : قال رسول ﷺ : ٥٤٢ [خرجت من نكــاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ولم يمسني من سفاح الجاهلية شيء] وقوله تعالى : ﴿ عزيز عليه ما عنتّم ﴾ . أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليهــا ، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق : ٥٤٣ [بعثت بالحنيفية السمحة] ﴿ حريص عليكم ﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع إليكم دنيا وأخرى . .

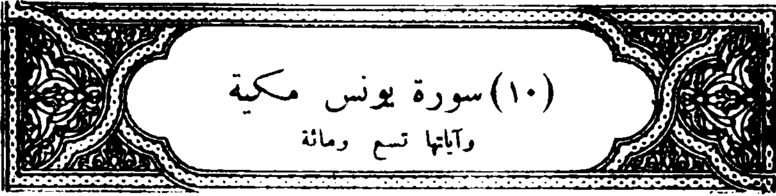
روى الطبراني عن أبي ذر قال : ٥٤٤ [تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلّب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً] وقال رسول الله ﷺ ٥٤٥ ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بُيّن لكم »] روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٤٦ [إن الله لم يحرّم حرمة إلاّ وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش أو الذباب]

وقوله تعالى : ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ واخفض جناحك لمن تبعك من المؤمنين ٭ فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ٭ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ وهكذا أمره تعالى : في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ فإن تولّوا ﴾ أي عما جئتَهم به من الشريعة العظيمة الكاملة : ﴿ فقل حسبي الله لا إله الا هو ﴾ أي الله كافيَّ لا إله الا هو عليه توكلت .كما قال تعالى : ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله الا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه لأنه ربُّ العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شيء ، وقدره نافذ في كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل . روى الإمام أحمد عن أُبي بن كعب قال : ٥٤٧ : [آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ إلى آخر السورة .] .

روى أحمد عن عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال : ٥٤٨ [أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ إلى عمر بن الخطاب فقال من معك على هذا ؟ قال لا أدري والله اني لأشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها فقال عمر : وأنا اشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ثم قال لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فضعوها في آخر براءة] .

آخر اختصار تفسير سورة التوبة ولله الحمد والمنة والله الموفق المعين


(١٠) سورة يونس مكية
وآياتها تسع ومائة

إلا الآيات : ٤٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ . نزلت بعد الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ * (٢) ﴾

أما الحروف المقطعة في أوائل السور ، فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة . ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ أي هذه آيات القرآن الحكيم المبين وقوله تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً ﴾ أي ينكر تعالى على الكفار الذين تعجبوا من إرسال المرسلين من البشر !!! فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد ، فأنزل الله عز وجل ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذرِ الناس وبشّرِ الذين آمنوا أنّ لهم قدمَ صدق عند ربهم ﴾ قال مجاهد : أي الأعمال الصالحة ، صلاتهم وصومهم وصدقتهم ، ومحمد ﷺ يشفع لهم ، واختاره ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ أي ظاهر – ومعناه – أي مع أنّا بعثنا إليهم رسولاً منهم ، رجلاً من جنسهم بشيراً ونذيراً ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ وإنهم لكاذبون في قولهم الذي قالوه.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * (٣) ﴾

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، قيل كهذه الأيام ، وقيل كل يوم كألف سنة مما تعدّون كما سيأتي بيانه ثم استوى على العرش والعرش اعظم المخلوقات وسقفها . وقوله تعالى : ﴿ يدبر الأمر ﴾ أي يدبر الخلائق ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾ ولا يشغله شأن عن شأن وقوله تعالى : ﴿ ما من شفيع إلاّ من بعد إذنه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقولـه تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ﴾ أي افردوه بالعبادة وحده لا شريك له . ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله آلهاً غيره وانتم تعلمون ، أنه المتفرد بالخلق ، كقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم عن خلقهم ليقولن الله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله قل أفلا تتقون ﴾

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ ٱللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ● (٤) ﴾

يخبر تعالى أن اليه مرجع الخلائق يوم القيامة ولا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه . وذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ أي بالعدل والجزاء الأوفى ﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم ، وظل من يحموم .

﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَاءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ● (٥) إِنَّ فِي ٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللهُ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ● (٦) ﴾

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنه جعل الشعاع

الصادر عن جرم الشمس ضياءً وجعل شعاع القمر نوراً هذا نوع وهذا نوع آخر ففاوت بينهما لئلا يشتبها ، وقدر القمر منازل فأول ما يبدو صغيراً ، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يكمل إبداره ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر كقوله تعالى : ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ الآية وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وقدره ﴾ أي القمر ﴿ منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ فبجريان الشمس والقمر تعرف الأيام والشهور والأعوام ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ اي لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة . كقوله تعالى : ﴿ أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم إلينا لا ترجعون ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ نفصل الآيات ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ان في اختلاف الليل والنهار ﴾ اي تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا وإذا ذهب هذا لا يتأخر عنه شيئاً ، كقوله تعالى : ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ . وقولُه تعالى : ﴿ وما خلق الله في السموات والأرض ﴾ من الآيات الدالة على عظمته تعالى كقوله تعالى : ﴿ ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ أي العقول ، وقال هاهنا : ﴿ لآيات لقوم يتقون ﴾ اي عقاب الله وسخطه وعذابه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * (٧) أُوْلَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * (٨) ﴾

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة، ولا يرجون في لقائه شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها نفوسهم . قال الحسن : والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها ، والشرعية فلا يأتمرون بها بأن مأواهم يوم المعاد النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام، مع ما هم فيه من الكفر بالله تعالى ورسوله ﷺ واليوم الآخر .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ * (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا

سُبْحَانَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ❋ (١٠)

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات بأنه سيهديهم بإيمانهم . يحتمل ان تكون الباء ههنا سببية ، فتقديره بسبب إيمانهم في الدنيا ، يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم. حتى يجوزوه ويخلصوا الى الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ قال يكون لهم نوراً يمشون به . وقال ابن جريج في الآية : يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة فذلك قوله تعالى : ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة ، وريح منتنة فيلزم صاحبه ويلادُّه (١) حتى يقذفه في النار وقوله تعالى : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين ﴾ أي هذا حال أهل الجنة وقال سفيان الثوري إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال : ﴿ سبحانك اللهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ كقوله تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين ﴾ هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً المعبود على طول المدى ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره ، وفي ابتداء كتابه ، وعند ابتداء تنزيله . وانه المحمود في الدنيا والآخرة وفي جميع الأحوال . ولهذا جاء في الحديث **٥٤٩** [إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النَفَس] . فلا إله الا هو ولا رب سواه .

وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُمْ بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ❋ (١١)

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده انه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضجرهم وغضبهم ، وانه يعلم منهم عدم القصد إلى ارادة

(١) أي يجادله ويغلبه .

ذلك ، فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفاً ورحمة كما يستجيب لهم اذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والنماء والبركة ، ولهذا قال سبحانه ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم ﴾ أي لأهلكهم ولكن لا ينبغي الإكثار في ذلك ، كما جاء في الحديث : الذي رواه البزار عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ ٥٥٠ [لا تدعوا على أنفسكم لا تدعوا على أولادكم لا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم] وهذا كقوله تعالى : ﴿ ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير ﴾ الآية .

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنْسَانَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ❁ (١٢) ﴾

يخبر تعالى عن قلق الإنسان إذا مسّه الضر . كقوله تعالى : ﴿ واذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ أي كثير لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع واكثر الدعاء في كشفها ورفعها في كافة أحواله فإذا فرج الله شدته أعرض ونأى بجانبه وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ﴿ مر كأن لم يدعنا الى ضر مسّه ﴾ ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال عز وجل : ﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ فأما من هُديَ الى الرشاد والسداد فانه مستثنى من ذلك كقوله تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ❁ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ❁ (١٤) ﴾

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم به من البينات

والحجج الواضحات ، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل اليهم رسولاً لينظر طاعتهم له ، واتباعهم رسوله في صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ ٥٥١ [ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني اسرائيل كانت من النساء]

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ✽ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ✽ (١٦) ﴾

يخبر تعالى عن تعنت مشركي قريش الجاحدين ، المعرضين عنه تعالى ، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له ائت بقرآن غير هذا يكون من نمط آخر ، أو بدّله إلى وضع آخر. قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قل ما يكون لي أن ابدله من تلقاء نفسي ﴾ اي ليس هذا إليّ إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلّغٌ عن الله ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به ﴾ أي هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته والدليل على أني ما افتريته من عندي أنكم عاجزون عن معارضته . وانكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ أن نشأت بينكم الى حين بعثني الله عز وجل لا تنتقدون عليّ شيئاً تغمصوني به ولهذا قال . ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفــلا تعقلون ﴾ أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل ولهذا لما سأل هرقل ملكُ الروم أبا سفيان وقد كان إذ ذاك زعيم المشركين هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال ؟ قال ابو سفيان فقلت لا ، فقال له هرقل فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ

لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۞ (١٧)

يقول تعالى لا أحد أظلم ﴿ ممن افترى على الله كذباً ﴾ وتقوّل على الله وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك . ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف بالأنبياء فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد ان الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس . فان الفرق ما بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب ، لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين حندس الظلماء ، فمن شيم كل منهما وافعاله وكلامه يستدل من له بصيرة ، على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي .

قال عبدالله بن سلام لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انْجَفَلَ الناس [1] فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب فكان أول ما سمعته يقول :
٥٥٢ [يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام] وقال حسان بن ثابت :

لو لم تكن فيه آيات مبيّنَةٌ كانت بديهتُه تأتيك بالخبر

وأما مسيلمة الكذاب فكل من شاهده من ذوي الأبصار والبصائر علم أمره ولا محالة ، بأقواله الركيكة غير الفصيحة ، وأفعاله الرديئة القبيحة ، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة . وكم من فرق بين قوله تعالى : ﴿ الله لا إله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ الى آخرها ، وبين قول مسيلمة قبحه الله ولعنه : يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي كم تنقين لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين . وقوله قبحه الله ولعنه : الفيل وما ادرك ما الفيل له خرطوم طويل ، وقوله لعنه الله وأبعده عن رحمته : والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزا ، واللاقمات لقماً إهالة وسمناً ، ان قريشاً قوم يعتدون ، الى غير ذلك من الخرافات والهذيانات التي يأنف الصبيان ان يتلفظوا بها إلا على وجه السخرية والاستهزاء . وقال الصديق (رض) للذين أتوا من قومه تائبين بعد أن أسمعوه من هذا الذي ذكرناه واشباهه : ويحكم أين كان يذهب بعقولكم ؟. والله إنَّ هذا لم يخرج من إلٍّ [2]

(١) يعني قومه اليهود ، وأما العرب وهم الأنصار فكانوا في أشد الغبطة والسرور من قدومه صلى الله عليه وسلم.
(٢) من إل أي من وحي .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممَّن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء. ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾وقال في هذه الآية الكريمة ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾ وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل ، وقامت عليه الحجج ، لا أحد أظلم منه كما في الحديث :

٥٥٣ [أعتى الناس على الله رجل قتل نبياً أو قتله نبيٌّ] .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ ٱللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ (١٨) وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۞ (١٩) ﴾

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره ، ظانين أن تلك المعبودات تنفعهم شفاعتها عنده سبحانه. فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً ولا يقع شيء مما يزعمون فيها . ولهذا قال عز وجل : ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ﴾ أي أتخبرون الله بما لا يعلمه في السموات ولا في الأرض ... ! ! !؟ ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم فقال سبحانه : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس ، كائن بعد أن لم يكن وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام. قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان ، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة. ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حيَّ عن بينة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ الآية . أي لولا أن سبق في حكمه تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وأنه قد أجل الخلق إلى أجلٌ معدود لقضي بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين [1] .

---

(١) أي شدد الإثم عليهم بما كفروا وأشركوا

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * (٢٠) ﴾

يقول هؤلاء الكفرة المكذبون : لولا أنزل على محمد آية من ربه ، أي يحول لهم الصفا ذهباً (١) أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً أو نحو ذلك مما الله قادر عليه وهو على كل شيء قدير – حكيم في افعاله وأقواله . كما قال تعالى : ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ الآية يقول تعالى : ان سنتي في خلقي أني اذا آتيهم ما سألوا ، فإن آمنوا والا عاجلتهم بالعقوبة ، ولهذا لما خُيّر الرسول ﷺ بين إعطائهم ما سألوا فإن آمنوا وإلاّ عذبوا ، وبين إنظارهم اختار إنظارهُم كما حلم عنهم غير مرة رسولُ الله ﷺ . ولهذا قال تعالى ارشاداً لنبيه ﷺ الى الجواب عما سألوا :

﴿ فقل انما الغيب لله ﴾ أي الأمر كله لله وهو يعلم عواقب الأمور .

﴿ فانتظروا إني مِعكم من المنتظرين ﴾ اي فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم ، هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم ممّا سألوا حين أشار بحضرتهم الى القمر ليلة البدر فانشق فرقتين ، فرقة من وراء الجبل ، وفرقة من دونه . وهذا أعظم ممّا سألوا و ما لم يسألوا . ولو علم الله منهم انهم سألوا ذلك استرشاداً و تثبتاً لأجابهم ، ولكن علم أنهم إنما يسألون عناداً وتعنتاً فتركهم فيما رابهم وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد كقوله تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ﴾ فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا الى ما سألوا لأنه لا فائدة في جوابهم لتعنتهم وفسادهم ولهذا قال تعالى : ﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ *(٢١) ﴾

(١) راجع الحديث رقم /١٦٧/ من سورة البقرة عند الآية رقم ١٦٤ .

هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * (٢٢) فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * (٢٣)

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمةً بعد ضراء كالرخاء بعد الشدة : ﴿ إذا لهم مكر في آياتنا ﴾ أي استهزاء وتكذيب كقوله تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ قل الله أسرع مكراً ﴾ أي اشد استدراجاً وإمهالاً حتّى يظن الظان من المجرمين انه ليس بمعذَّب ، وانما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الجليل والحقير .

ثم اخبر تعالى انه ﴿ هو الذي يسير كم في البر والبحر ﴾ اي يحفظكم ﴿ حتّى اذ كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ﴾ اي جرين بسرعة رفيقة إذ ﴿ جاءتها ﴾ أي تلك السفن ﴿ ريح عاصف ﴾ أي شديدة ﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ اي اشتد موج البحر عليهم أي لا يدعون معه صنماً ولا وثناً بل يفردونه بالدعاء والابتهال ، كقوله تعالى : ﴿ واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾ وقال هاهنا ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه، ﴾ أي هذه الحال ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ اي لنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء هاهنا ، قال تعالى : ﴿ فلما انجاهم ﴾ أي من تلك الورطة ﴿ اذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ﴾ أي كقوله تعالى : ﴿ كأن لم يدعُنا إلى ضرٍ مسّه ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنّما بغيكم على أنفسكم ﴾ فلا تضرُّن به أحداً غيركم . وقوله تعالى : ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ ثم إلينا مرجعكم ﴾ أي مصيركم ﴿ فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي نخبركم بجميع اعمالكم ونوفّيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ (٢٤) وَٱللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ (٢٥) ﴾

ضرب الله مثلاً لزهرة الحياة الدنيا ، وسرعة زوالها ، كالنبات الذي أخرجه الله تعالى من الأرض ، بماء أنزل من السماء ، مما يأكل الناس من زروع وثمار مختلفة ، وما تأكل الأنعام من ابّ وقَضب . ﴿ حتى إذا اخذت الأرض زخرفها ﴾ أي زينتها الفانية ﴿ وازّيّنت ﴾ أي حسنت بما يخرج منها من زهور مختلفة ﴿ وظن أهلها ﴾ الذين زرعوها ﴿ انهم قادرون عليها ﴾ أي على حصادها ، فتفاجئهم صاعقة أو ريح شديدة ، فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها. ولهذا قال تعالى : ﴿ أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً ﴾ أي يابساً بعد النضارة ﴿ كأن لم تغنَ بالأمس ﴾ وقال قتادة : أي كأن لم تنعم وكأن لم تكن وذلك كقوله تعالى : ﴿ فاصبحوا في دراهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ كذلك نفصل الآيات ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فيعتبرون بهذا المثل من زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها ، وثقتهم بمواعيدها وتفلُّتها عنهم لأن من طبعها الهرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها .

وقوله تعالى : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ الآية . لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها ، رغّب في الجنة ودعا إليها وسماها دار السلام أي من الآفات والنقائص والنكبات فقال سبحانه ﴿ والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ . وقد جاء من حديث الليث بسنده عن جابر بن عبدالله (رض) قال ٥٥٤ : [خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال : « اني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي ، وميكائيل عند رجليّ يقول أحدهما لصاحبه أضرب له مثلاً فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولاً يدعو الناس الى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه فالله الملك ، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وانت يا محمد الرسول. فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها . »] رواه ابن جرير .



﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * (٢٦) ﴾

يخبرُ تعالى أنَّ لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح : الحسنى في الدار الآخرة كقوله تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وزيادة ﴾ فقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم عن ابي بكر الصديق وحذيفة ابن اليمان وعبدالله بن عباس وسعيد بن المسيب وجمع من التابعين وغيرهم من السلف والخلف فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن صهيب الرومي رضي الله عنه ٥٥٥ [ان رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى منادٍ يا أهل الجنة : إن لكم عند الله موعداً يريد ان ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل موازنينا ؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار – قال – فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب اليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم »] .

روى ابن جرير ٥٥٦ [عن أبيّ بن كعب انه سأل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل ﴿ للذين احسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : « الحسنى الجنّة والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل »] وقوله تعالى : ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ﴾ أي قتام وسواد في عرصات المحشر ، كما يعتري وجوه الكفار الفجار من القترة والغبرة ﴿ ولا ذلة ﴾ أي هوان وصَغار أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر بل هم كما قال تعالى في حقهم ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسروراً ﴾ أي نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم ، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين .

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * (٢٧) ﴾

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات وزيادة ، عطف يذكر حال الاشقياء فذكر تعالى عدله فيهم وانه يجازيهم على النية بمثلها لا يزيدهم على ذلك ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ أي تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها كما قال تعالى : ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾

أي من مانع ولا واقٍ يقيهم العذاب . كقوله تعالى : ﴿ يقول الإنسان يومئذٍ أين المفر * كلاّ لا وزر إلى ربك يومئذٍ المستقر ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى ٱللهِ مَوْلَاهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * (٣٠) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ﴾ أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر ﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم انتم وشركاؤكم ﴾ أي الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم وافترقوا عن مقام المؤمنين كقوله تعالى : ﴿ وامتازوا اليوم ايها المجرمون ﴾ وكما في الحديث ٥٥٧ [نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس] وقولُه تعالى : ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ أي فرقنا بينهم وبين شركائهم أي أنهم أنكروا عبادتهم وتبرأوا منهم كقوله تعالى : ﴿ سيكفرون بعبادتهم ﴾ وفي هذه الآية إخبار عن قول الشركاء لعابديهم ﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم إيّانا تعبدون ﴾ ما كنا نشعر بعبادتكم ﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴾ أننا ما كنا نعلم بها ، وانما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم والله يشهد اننا ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا امرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك . وهذا تبكيت عظيم للمشركين في وقت هم أحوج ما يكونون إلى تأييدهم ، وكيف ذلك وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع البصير القادر على كل شيء ، وقد اقام الحجة على عباده فأرسل الرسل وأنزل الكتب آمراً ناهيا كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل امة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليهم الضلالة ﴾ والمشركون أنواع قد ذكرهم الله في كتابه وبين أحوالهم وأقوالهم ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد ، وقوله تعالى : ﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ﴾ أي في موقف الحساب يوم القيامة تخبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها خيراً كان أو شراً كقوله تعالى : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخّر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ورُدّوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ أي رجعوا في جميع أمورهم إلى الله الحكم العدل ففصلها وادخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار

﴿ وضل عنهم ﴾ أي ذهب وتخلّى عن المشركين ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه سبحانه وتعالى عما يشركون .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقيم الله حجته الدامغة على المشركين المعترفين بوحدانيته وبربوبيته على وحدانية ألوهيته فقال تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر بقدرته ومشيئته فيخرج الحب والزرع والثمر . كقوله تعالى : ﴿ أمّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ أمّن يملك السمع والأبصار ﴾ أي من وهبكم السمع والبصر ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها كقوله تعالى : ﴿ قل هو الذي انشأكم وجعل لكم السمع والأبصار ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ أي يخرج الثمر من النواة والنواة من الثمر ويخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن والبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة وما جرى هذا المجرى من جميع الاشياء ﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ أي من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿ فسيقولون الله ﴾ أي يعترفون بأن الله تعالى هو الرازق الخالق المدبر ويعلمون ذلك ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم [1] وقوله تعالى : ﴿ فذلكم الله ربكم الحق ﴾ أي فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الذي يجب ان تفردوه بالعبادة ﴿ فماذا بعد الحق الا الضلال ﴾ أي فكل

(١) قلت : ان الله الزمهم إلزاماً بالحجة والبرهان من اقرارهم واعترافهم بأن من كان هو الخالق الرازق المدبر المنعم هو أولى استحقاقاً بالعبادة من الذي لم يخلق ولم يرزق ولم ينعم ولم يدبر فكيف تعبدون مع الله الصم البكم الذين لا يعقلون وأنتم تعلمون في الله الصفات التامة الكاملة وتعلمون في آلهتكم الصفات الناقصة أفلا تخافون الله .

معبود سواه باطل لا إله إلا هو وحده لا شريك له ﴿ فأنّى تصرفون ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره وانتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء والمتصرف في كل شيء ، وقوله تعالى : ﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾ أي كما أن هؤلاء المشركين أصروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره مع اعترافهم له بصفات الربوبية فمن أجل هذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار جزاءً وفاقاً من نوع العمل كقوله تعالى : ﴿ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ ٱللهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ❁ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّآ أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ❁ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ❁ (٣٦) ﴾

هذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره ، وقطع لحجتهم ﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أي هل فيمن تعبدونهم من دون الله من يخلق كخلق السموات والأرض ثم يفنيهما ثم يعيدهما من جديد ؟ ﴿ قل الله ﴾ هو الذي يفعل هذا وحده ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل وأنتم تعلمون ﴿ قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق قل الله يهدي للحق ﴾ أي لا أحد منهم يقدر على هدايته وأنتم تعلمون ذلك وانه لا يهدي الحياري ، ولا يقلب القلوب من الغي الى الرشد إلا الله وحده لا شريك له ﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهدي إلا أن يُهدَى ﴾ أي أفيتّبع من يهدي إلى الحق ويبصّر بعد العمى ، أم يتّبع الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يُهدَى من قبل غيره ؟ كما قال تعالى اخباراً عن ابراهيم: ﴿ يا أبت لمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فمالكم كيف تحكمون ﴾ اي كيف سويتم بين الله وبين خلقه وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا ، وهلا أفردتم الرب جل جلاله بالعبادة واخلصتم إليه الدعوة والإنابة .

ثم بين تعالى انهم يتبعون في دينهم الظن والتخيُّل والتوهم. وكل هذا لا يغني من الحق شيئاً ﴿ ان الله عليم بما يفعلون ﴾ تهديد، لهم ووعيد شديد لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٣٩) وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۞ (٤٠) ﴾

هذا بيان لإعجاز القرآن وانه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور ، ولا بسورة من مثله . لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته ، واشتماله على المعاني العزيزة الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة لا يمكن ان يكون إلاّ من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله ، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ولهذا قال تعالى : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفتري من دون الله ﴾ أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ولا يشبه كلام البشر ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أي من الكتب المتقدمة ومهيمناً عليها ومبيّناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل ، وقوله تعالى : ﴿ وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ أي وبيان الأحكام والحلال والحرام بياناً شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين وقوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ اي إن شككتم في أن هذا من عند الله وقلتم أنه من عند محمد افتراءً وكذباً على الله وعليه ﷺ فمحمد ﷺ بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا إن شئتم بمثله ، أي من جنس هذا القرآن واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجانّ ﴿ . قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ ثم تقاصر معهم الى عشر

سور منه فقال في أول سورة هود: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين﴾ ثم تنازل الى سورة فقال في هذه السورة: ﴿ام يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين﴾ وهذا هو المقام الثالث في التحدي وكذلك في سورة البقرة وهي مدنية تحداهم بسورة منه وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال: ﴿فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار ...﴾ هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، واشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهي في هذا الباب.

ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لهم به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وطلاوته وإفادته فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأشدهم له انقياداً، كما عرف السحرة ان ما جاء به موسى عليه السلام لا يصدر الا عن مؤيد مسدد مرسل من الله وكذلك ما أتى به عيسى عليه الصلاة والسلام من احياء الموتى وبرء الأكمه والأبرص لا مدخل للعلاج والدواء فيه فعرف من عرف من قومه أنه عبد الله ورسوله.

ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ انه قال ٥٥٨: [ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وانما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن اكون اكثرهم تابعاً] وقوله تعالى: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله﴾ يقول بل كذّب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿ولما يأتهم تأويله﴾ أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق جهلاً وسفهاً ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم السالفة ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ وليحذر المكذبون أن يصيبهم ما أصابهم. وقوله تعالى: ﴿ومنهم من يؤمن به﴾ أي ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع برسالتك ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ فيموت على ذلك ويبعث عليه ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ فيعطي كلاً ما يستحق من الهداية أو الضلالة وهو العادل الذي لا يجور سبحانه وتعالى. لا إله الا هو ولا رب سواه.

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ

يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ۞ (٤٣) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئاً وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۞ (٤٤)

يقول تعالى لنبيه ﷺ وإن كذّبك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم ﴿ فقل لي عملي ولكم عملكم ﴾ [١] كقوله تعالى : ﴿ قل يا ايها الكافرون لا اعبد ما تعبدون ﴾ الى آخرها . وقوله تعالى : ﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ اي يسمعون كلام الله وكلامك اللذين لهما الاثر العظيم في القلوب ليس بمقدورك أن تفهمهم وتهديهم ، فكما انك لا تستطيع ان تسمع هؤلاء الصم ولا أن تهدي العمي ، كذلك لا تستطيع هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله تعالى . ثم أخبر تعالى انه لا يظلم أحداً شيئاً وإن كان قد هدى من هدى بالقرآن ، ففتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفا وأضل به عن الإيمان آخرين فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته وعدله [٢] ولهذا قال : ﴿ ان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ وفي الحديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل ٥٥٩ [يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا - إلى أن قال في آخره - يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه] رواه مسلم بطوله .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۞ (٤٥)

يذكر تعالى الناس بقيام الساعة ، وحشرهم من أجداثهم الى عرصات القيامة ﴿ ويوم يحشرهم ﴾ الآية ... كقوله تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاّ عشية أو ضحاها ﴾ وهذا دليل

(١) هذا طبعاً قبل نزول آية السيف .

(٢) قلت : لا يفعل سبحانه الا الحق والعدل والحكمة والخير . ومنزه عن نقيض ذلك ... لذا فإنه لا يسأله أحد عن الخير الذي فعله ، لم فعله ؟ لأن الخير مرغوب محبوب ، وغير مستنكر . كما لا يجوز أن يسأله أحد عن شرحل به لم فعلت ذلك بي يا رب ... ؟ لأنه لم يكن هو الذي فعله به لأن الله لا يفعل شراً قط ، وإن كان هو خالقه وخالق كل شيء ... إنما أنت الذي فعلت الشر وظلمت نفسك .

على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كقوله عز من قائل : ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ أي يعرف الآباء الأبناء والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه.كقوله تعالى﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ويل للمكذبين ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين .

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يخاطب الله تعالى نبيه ﷺ : ﴿ واما نرينّك بعض الذي تعدهم ﴾ أي ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم ﴿ أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ﴾ أي مصيرهم ومنقلبهم والله شهيد على افعالهم بعدك . وقد روى الطبراني عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ ٥٦٠ : [عرضت عليَّ أمتي البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها ، فقال رجل : يا رسول الله عرض عليك من خُلِق فكيف من لم يخلق؟ فقال «صوروا لي في الطين حتى إني لأعرف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه »] وقوله تعالى : ﴿ ولكل امة رسول فإذا جاء رسولهم ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ قضي بينهم بالقسط ﴾ أي فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها وكتاب أعمالها من خير أو شر موضوع شاهد عليهم ، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً ، أمة بعد أمة ، وهذه الأمة الشريفة وان كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم ويقضي لهم كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ انه قال : ٥٦١ [نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضي لهم قبل الخلائق] فأمته انما حازت قصب السبق بشرفه ﷺ .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا

جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿ ٤٩ ﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿ ٥٠ ﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿ ٥١ ﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿ ٥٢ ﴾

يخبر تعالى عن كفر المشركين في استعجالهم العذاب وسؤآلهم عن وقته قبل التعيين مما لا فائدة لهم فيه فأمر تعالى رسوله ﷺ أن يجيبهم فقال سبحانه : ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ﴾ الآية ... أي لا اعلم شيئاً مما استأثر الله بعلمه إلا ان يطلعني عليه وقد أخبرتكم أن الساعة كائنة ولم يطلعني على وقتها ولكن ﴿ لكل أمةٍ أجل ﴾ أي لكل قرن مدة مقدرة من العمر فإذا انقضى أجلهم ﴿ فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولن يؤخر الله نفساً اذا جاء أجلها ﴾ الآية ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال : ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ﴾ أي ليلاً أو نهاراً ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون * أثم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون ﴾ يعني أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا : ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾ وكقوله تعالى جواباً لهم : ﴿ فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ... ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ﴾ أي يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيتاً وتقريعاً ﴿ هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾ أي إلا بما كسبت ايديكم من اعمال ...



وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿ ٥٣ ﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ ٥٤ ﴾

يقول تعالى : ﴿ ويستنبئونك أحقٌ هو ﴾ أي يطلبون اخبارك عن المعاد والقيامة أحق

... ؟ ﴿ قل اي وربي انه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ أي اعادتكم بعد الموت ليس معجزاً لله فكما بدأكم يعيدكم ، وذلك كقوله في سورة سبأ : ﴿ ... قل بلى وربي لتأتينّكم ﴾ أي الساعة وكقوله تعالى في سورة التغابن : ﴿ قل بلى وربي لتبعثن ﴾ ثم اخبر تعالى ان الكافر يود يوم القيامة لو يفتدي نفسه من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ﴿ واسرّوا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط ﴾ أي بالحق ﴿ وهم لا يظلمون ﴾

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

يخبر تعالى انه مالك السموات والارض ، ووعده الحق ، وانه يحي ويميت وإليه المعاد ، وانه القادر على ذلك ، العليم بما تفرق من الأجسام ، وتمزق في سائر اقطار الأرض بحراً وبراً ثم يمتن على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ﴾ أي زاجر عن الفواحش ﴿ وشفاء لما في الصدور ﴾ أي من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس الشرك ودنس الكفر ، ﴿ وهدى ورحمة أي يحصل به الهداية والرحمة منه تعالى ، وانما ذلك للمؤمنين به الموقنين بما فيه ، كقوله تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خسارا . وقوله تعالى : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ فإنه أولى ما يفرحون به : ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ أي من حطام الدنيا الفانية الذاهبة .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم : نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحللون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل [1] كقوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ روى وقال الإمام أحمد عن مالك بن نضلة قال :
٥٦٢ [أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيئة فقال : « هل لك مال ؟ » قلت نعم . قال : «من أي المال؟» قال : قلت : من كل المال من الإبل والرقيق والخيل والغنم ، فقال : « إذا آتاك الله مالاً فليُرَ عليك » وقال : « هل تنتج إبلك صحاحاً آذانها فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول هذه بحر وتشق جلودها وتقول هذه صرم وتحرمها عليك وعلى أهلك » قال : نعم قال : فإن ما آتاك الله لك حل ، ساعد الله أشد من ساعدك ، وموسى الله أحد من موساك »] وذكر تمام الحديث ، ثم رواه عن سفيان ابن عيينة نحوه بسند قوي جيد .

وقد أنكر تعالى على من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم الله بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها . ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال عز وجل : ﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾ أي ما ظنهم أن يُصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ ان الله لذ وفضل على الناس ﴾ أي ذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا ولم يحرم عليهم إلاً ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم . ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ أي إنهم يحرمون ما أنعم الله به عليهم ، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً . وهذا قد يقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٦١)

---

(١) قلت : البحيرة هي التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها الناس ، والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء . والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل إن وصلت احداهلا بالاخرى ليس بينهما ذكر.

يخبر تعالى نبيه ﷺ انه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل آن وأنه لا يغيب عن علمه وبصره مثقال ذرة في السموات والأرض ولا أصغر منها ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين ، كقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ فأخبر تعالى أنه يعلم حركة كل شيء فإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة ، كما قال تعالى : ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلاّ كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ﴾ أي إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان : **٥٦٣** [ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك] .(١)

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾

يخبر تعالى أن أولياءه الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم بهم ، فكل من كان تقياً كان لله ولياً ﴿ لا خوف عليهم ﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما وراءهم في الدنيا ، وعن البزار عن ابن عباس قال : **٥٦٤** [قال رجل يا رسول الله مَنْ أولياء الله ؟ قال الذين اذا رُؤوا ذُكر الله] روى ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **٥٦٥** [إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء » قيل من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم ؟ قال : « هم قوم تحابوا في الله من غير أموال : ولا أنساب ، وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس » ثم قرأ : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ثم رواه أيضاً ابو داود عن عمر بن الخطاب وهذا أيضاً إسناد جيد . روى الامام أحمد عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ فقال :

(١) ولكن ياللأسف إن بعض الفرق (المعرّفة) يعطون هذه المرتبة (مرتبة الإحسان) التي هي لله وحده يعطونها لشيخ طريقتهم باسم (الرابطة الشريفة) وهي : أن يتصور المريد شيخه الغائب أو الميت كأنه واقف أمامه يفيض عليه من علومه ومعارفه (اللدنية ... ؟!) . إن رسول الله يقول إن هذه المرتبة هي لله وحده لاشريك له ، وهم ـ هداهم الله ـ يجعلونها لشيوخهم ، (ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً) .

٥٦٦ [يا رسول الله : أرأيت قول الله تعالى : ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ فقال لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي – أو قال أحد قبلك – تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له »] روى الإمام أحمد عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر أنه قال : ٥٦٧ [يا رسول الله : الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به فقال رسول الله ﷺ « تلك عاجل بشرى المؤمن »] رواه مسلم وقال ابن جرير عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : ٥٦٨ [الرؤيا الحسنة هي البشرى يراها المسلم أو ترى له] روى ابن جرير عن ام كريز الكعبية : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٥٦٩ [ذهبت النبوة وبقيت المبشرات] وهكذا روي عن ابن عباس وابن مسعود وابي هريرة ومجاهد وعروة وغيرهم أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة .

وقيل المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كقوله تعالى : ﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نز لاً من غفور رحيم ﴾ .

وفي حديث البراء رضي الله عنه : ٥٧٠ [إن المؤمن اذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب فقالوا أخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء] وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقر مثبت كائن لا محالة : ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٦٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنَ دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۞ (٦٦) هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۞ (٦٧)

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ ولا يحزنك ﴾ قول المشركين واستعن بالله عليهم ، وتوكل عليه ﴿ ان العزة لله جميعاً ﴾ أي جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ﴿ هو السميع العليم ﴾ السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم ، ثم أخبر تعالى ان لله ملك السموات والأرض وان المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئاً لا ضراً ولا نفعاً. ولا دليل لهم على عبادتها ، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم . ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه ، أي يستريحون فيه من نصبهم وحركاتهم ﴿ والنهار مبصراً ﴾ أي مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها .

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿ ٦٨ ﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿ ٦٩ ﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿ ٧٠ ﴾ ﴾

ينكر تعالى على من ادعى أن له ﴿ ولداً سبحانه هو الغني ﴾ أي تنزه عن ان يكون له ولد بل هو الغني عن كل ما سواه ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك وعبد له ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ إنكار ووعيد وتهديد ، كقوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّا تكاد السموات يتفطرّن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ۰ إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا ۰ لقد أحصاهم وعدّهم عدّا ۰ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ۰ ﴾ ثم توعد تعالى الكاذبين عليه ممن زعم ان له ولداً بأنهم لا يفلحون في الدنيا والآخرة ، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متّعهم قليلاً ﴿ ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ كما قال تعالى ها هنا : ﴿ متاع في الدنيا ﴾ أي مدة قريبة ﴿ ثم إلينا مرجعهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد ﴾ أي الموجع المؤلم ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ أي بسبب كفرهم

وافترائهم وكذبهم على الله فيما ادّعوه من الإفك والزور .



﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ ٱللهِ فَعَلَى ٱللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ۞ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ ۞ (٧٣) ﴾

﴿ واتل عليهم ﴾ أقصص على قومك يا محمد ﴿ نبأ نوح ﴾ أي خبره وقومه الذين كذبوه . كما كذبك قومك كيف أهلكهم بالغرق عن آخرهم ليحذر هؤلاء ما أصاب أولئك ﴿ إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي ﴾ أي عظم عليكم مقامي فيكم ﴿ وتذكيري ﴾ اياكم ﴿ بآيات الله ﴾ أي بحججه ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ أي لا أبالي سواء عظم عليكم مقامي أو لا ﴿ فاجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ فهيئوا أنفسكم واستعدوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ أي ملتبساً غير واضح . بل بيّنوا حالكم معي فإن زعمتم انكم محقون فلا تؤخروني ساعةً واحدة ومهما قدرتم فافعلوا فإني لا أخافكم لأنكم لستم على شيء وبريء مما تشركون . وقوله تعالى : ﴿ فإن توليتم ﴾ إن أدبرتم عن الطاعة ﴿ فما سألتكم من أجر ﴾ أي لم أطلب منكم على نصحي أجراً ﴿ ان أجري إلاّ على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ أي وأنا ممتثل أوامر الاسلام الذي هو دين الأنبياء جميعاً وان تنوعت شرائعهم كما قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ وقد قال الله تعالى عن الأنبياء جميعاً في القرآن انهم من المسلمين . وقال سبحانه وتعالى عن خاتمهم وسيدهم ﷺ : ﴿ ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ وقال في الحديث الثابت عنه ﷺ : ٥٧١ [نحن معاشر الأنبياء أولاد علاّت وديننا واحد]

أي وهو عبادة الله وحده لا شريك له وان تنوعت شرائعنا وذلك معنى قوله أولاد علات : وهم الأخوة من أمهات شتى والأب واحد . وقوله تعالى : ﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه ﴾ اي على دينه ﴿ في الفلك ﴾ وهي السفينة ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ أي في الأرض ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أي كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ۞ (٧٤) ﴾

يقول تعالى : ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى أقوامهم فجاؤوهم بالآيات ، المبينات بالحجج والأدلة على حد قولهم ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ أي ما آمنوا برسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول مرة ، كقوله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء بسبب تكذيبهم المتقدم كذلك يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . وهذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل وخاتمهم فانه اذا كان قد أصاب من كذّب بأولئك الرسل ما ذكره الله تعالى من النكال فما ظن هؤلاء العرب وقد ارتكبوا أكبر من أولئك .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ ۞ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ۞ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُونَ ۞ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَاءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۞ (٧٨) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾ أي من بعد الرسل ﴿ موسى وهارون إلى فرعون وملئه ﴾ أي قومه ﴿ بآياتنا ﴾ أي حُجَجِنَا وبراهيننا ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ باستكبارهم عن اتباع الحق ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إنّ هذا لسحر مبين ﴾ كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أنهم يكذبون كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ الآية ... ﴿ قال موسى ﴾ منكراً عليهم ﴿ أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون * قالوا أجئتنا لتلفتنا ﴾ أي تثنينا ﴿ عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي الدين الذي كانوا عليه ﴿ وتكون لكما ﴾ أي لك ولهارون ﴿ الكبرياء ﴾ أي العظمة والرياسة ﴿ في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ .

وقد كرر الله سبحانه قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز لأنها من أعجب القصص فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر ، فسخّره القدر وساقه إلى هذا الذي يحذر منه إلى فراشه ومائدته حتى صار عنده بمنزلة الولد ثم ترعرع . وعقد الله له سبباً فأخرجه من بين أظهرهم ، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم ، وبعثه اليه ليدعوه إلى الله تعالى وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام فتمرد واستكبر فرعون وتولىّ بركنه وادعى الربوبية ، وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء ، ومرة بعد مرة ، مما يبهر العقول ويدهش الألباب ، مما لا يقوم ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله . وصمم فرعون وملأه — قبّحهم الله — على التكذيب والجحد حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد ، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين ، ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ * (٨١) وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ * (٨٢) ﴾

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف [١] ، وقد تقدم الكلام عليها هناك وفي هذه السورة وسورة طه [٢] وفي الشعراء [٣] وذلك أن فرعون لعنه الله . أراد ان يبهرج على الناس معارضاً ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين . بزخارف السحرة المشعبذين فلم يحصل له ذلك المرام وظهرت البراهين الإلهية جهاراً ﴿ والقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون »﴾ فخاب استنصار فرعون بالسحّار ونصر الله رسوله الذي استنصر به ، وخذل عدوّه فرعون الذي استوجب من الله النار وقوله تعالى : ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم * فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفّوا وقد وعدهم فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل . أراد موسى أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا ثم يأتي بالحق بعده فيرفع باطلهم . ﴿ فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ .

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ (٨٣) ﴾

يخبر تعالى انه لم يؤمن بموسى عليه الصلاة والسلام برغم ما جاء به من المعجزات الباهرات ، إلا قليل من قوم فرعون من الذرّية ، وهم الشباب على وجلٍ وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى الكفر ، لسطوة فرعون وإسرافه في تمرده . قال العوفي عن إبن عباس في قوله تعالى : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ﴾ قال فإن الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني اسرائيل من قوم فرعون يسير منهم : امرأة فرعون ، وخازن فرعون ، وامرأة خازنه .

وقد أبعد من قال ان المقصود بالذرية هم بنو اسرائيل ، فالمعروف ان بني اسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام واستبشروا به . والذرية معناها القليل قاله ابن عباس والضحاك وقتادة ، ومما يدل على ان بني اسرائيل كانوا كلهم مؤمنين قوله تعالى :

١) الآية /١١٦/ الأعراف (٢) الآية ٧١ و ٧٣ / (٣) الآية /٤٩/ الشعراء .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ۞ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ (٨٦) ﴾

يخبر تعالى عن موسى انه قال لبني اسرائيل : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين ﴾ أي فإن الله كافٍ من توكل عليه ، كقوله تعالى : ﴿ رب المشرق والمغرب لا آله إلاّ هو فاتخذه وكيلا ﴾ وقد امتثل بنو اسرائيل ذلك فقالوا : ﴿ على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ أي لا تظفرهم بنا ، وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم انما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك . وقال مجاهد : يعني لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وقوله تعالى : ﴿ ونجنا برحمتك ﴾ أي خلّصْنا برحمةٍ منك وإحسان ﴿ من القوم الكافرين ﴾ ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك . .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۞ (٨٧) ﴾

يذكر تعالى سبب انجائه بني اسرائيل من فرعون وقومه ، وكيفية خلاصهم منهم وذلك ان الله تعالى أمر موسى واخاه هارون عليهما الصلاة والسلام أن يتبوآ أي يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ واقرب ذلك صواباً قولُ من قال : كانوا خائفين فأمروا ان يُصلّوا في بيوتهم. قاله : ابن عباس ومجاهد وابو مالك والربيع بن أنس والضحاك وغيرهم ، وكأن هذا – والله أعلم – لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيّقوا عليهم، أُمروا بكثرة الصلاة . كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ وفي الحديث : ٥٧٢ [كان رسول الله ﷺ اذا حزبه أمر صلّى] أخرجه ابو داود ولهذا قال تعالى : ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلةً وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين ﴾ أي بالثواب، والنصر القريب .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ❁ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ❁ (٨٩) ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه ، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم ، معاندين جاحدين ظلماً وعلواً وتكبّراً . قال موسى : ﴿ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينةً ﴾ أي من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿ وأموالاً ﴾ أي جزيلة كثيرة ﴿ في ﴾ هذه ﴿ الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ أي ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ليظن من أغريته ، أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم ، واعتنائك بهم . ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ أي أهلكها . وقوله تعالى : ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ اي اطبع عليها ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله تعالى ولدينه ، على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء ، كما دعا نوح عليه السلام فقال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أمّنَ عليها أخوه هارون فقال تعالى : ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ قال ابو العالية ، وأبو صالح ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب القرظي ، والربيع بن أنس : دعا موسى ، وأمّن هارون ؛ أي قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون . وقد يحتج بهذه الآية من يقول أن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزّلُ منزلة قراءتها لأن موسى دَعَا وهارون أَمّن [1] وقوله تعالى : ﴿ فاستقيما ﴾ أي كما أجبت دعوتكما فاستقيما على أمري .

---

(١) قلت : وهذا احتجاج قوي لأن موسى هو الذي دعا وحده فقوله تعالى : قد أجيبت دعوتكما » فكأن كليهما دعوا إذ أن موسى كان يدعو وهارون كان يؤمن . فتبين أن التأمين بمثابة الدعاء ، وكذلك فإن التأمين بعد الفاتحة بمثابة قراءتها أيضاً ، راجع تفسير الفاتحة في المجلد الأول .



﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

يذكر تعالى كيفية إغراق فرعون وجنودهُ . فإن بني اسرائيل لما خرجوا من مصر صحبةَ موسى عليه السلام، وهم فيما قيل ستمائة الف مقاتل سوى الذرية. فركب وراءهم فرعون في أبهة عظيمة وجيوش هائلة ولم يتخلف عنه أحد في سائر مملكته ممن له دولة وسلطان فلحقوهم وقت شروق الشمس وبلغت قلوب بني اسرائيل لدى الحناجر من الخوف والذعر فعندما ضاق الأمر اتسع فأمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم وصار اثني عشر طريقاً ، لكل سبط واحد ، وأمر الله الريح فنشّفت أرضه ﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ وجاوزت بنو اسرائيل البحر فلما خرج آخرهم منه ، انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى فلما رآى ذلك هاله ، فهاب وهمّ بالرجوع ، وهيهات ولات حين مناص ، نفذ القدر وأستجيبت الدعوة ... ويروى أنه جاء جبريل عليه الصلاة والسلام على فرس وديق (١) حائل (٢) فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها واقتحم جبريل البحر فاقتحم الحصان وراءه ، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئاً فتجلّد لأمرائه ، وقال لهم : ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا ، فاقتحموا كلهم عن آخرهم وميكائيل في ساقتهم (٣) لا يترك منهم واحداً إلاّ ألحقه بهم فلما تكاملوا في البحر وهم أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم فارتطم ، فلم ينج منهم أحد وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم وتتراكم فوق فرعون وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وجاوزنا بني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً

---

(١) الفرس الوديق : وهي التي تريد الفحل . (٢) الحائل : غير الحامل . (٣) ساقة الجيش : مؤخرته

وعدوا حتى إذا ادركه الغرق ﴾ وغشيته سكرات الموت ﴿ قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان وذلك كقوله تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال : ﴿ آلآن وقد عصيت قبل ﴾ أي أهذا الوقت تقول : ﴿ آمنت ... ﴾ وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ﴿ وكنت من المفسدين ﴾ في الارض الذين أضلوا الناس ﴿ وجعلناهم أئمةً يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * واتبعناهم في هذه الدنيا لعنةً ... [1] ﴾

وهذا الذي حكي الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم اللهُ بها رسولَه .

وقوله تعالى : ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ... ﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف ان بعض بني اسرائيل شكُّوا في موت فرعون فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع ليتحققوا موته وهلاكه وقوله تعالى : ﴿ وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ اي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها . وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء كما روى البخاري عن ابن عباس قال :٥٧٣ [قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال : « ما هذا اليوم الذي تصومونه » فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبي ﷺ لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموه »] .

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * (٩٣) ﴾

(١) ومع هذا ... لا يزال (بعض المتصوفة) يشفقون على فرعون ويقولون بإيمانه ... ! ! ! فما قولهم إذا دعونا الله أن يحشرهم مع فرعون حيثما كان ... ؟
(٢) حال البحر : أي طينه الأسود .

يخبر تعالى عما أنعم به على بني اسرائيل من النعم الدينية والدنيوية وقوله تعالى : ﴿ مبو أصدق ﴾ قيل هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها كما قال تعالى عن قوم فرعون : ﴿ فأخرجناهم من جناتٍ وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني اسرائيل ﴾ ولكن استمروا معَ موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس وكان فيه العمالقة فنكل بنو اسرائيل عن قتالهم فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حيناً من الدهر ، ثم عادت إليهم ثم أخذها ملوك اليونان فحكموا مدة طويلة وبعث الله عيسى عليه السلام في عهدهم ، فاستعان اليهود لعنهم الله على معاداته بملوك اليونان ، ووشوا عليه عندهم (١) بأنه يفسد عليهم الرعايا فقبضوا على من القى الله عليه شبه عيسى فصلبوه معتقدين أنه هو ﴿ وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ ثم بعد المسيح وثلثمائة سنة دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية حيلةً ليفسده وكان فيلسوفاً ، فوضعت له الأساقفة قوانين وشريعة ابتدعوها فبنىّ لهم الكنائس والمعابد واشتهر دين النصرانية بما فيه من تبديل وتحريف ومخالفة لدين المسيح ولم يبق على دينه إلا القليل من الرهبان فرّوا بدينهم إلى الصوامع في البراري والقفار واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم ولم تزل يدهم على هذه البلاد إلى ان انتزعها منهم الصحابة رضي الله عنهم على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولله الحمد والمنة . وقوله تعالى : ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ اي الرزق الحلال ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ اي ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم (٢) وكيف يختلفون وقد أزال الله عنهم اللبس والغموض بما أنزل عليهم من علم التوراة ، وقد افترق اليهود كما بيّن رسول الله ﷺ في حديثه الصحيح على إحدى وسبعين فرقة ...

﴿ إن ربك يقضي بينهم ﴾ أي يفصل بينهم ﴿ يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

---

(١) ولكن أوجدوا في هذا العصر (من يبرئهم) من مسؤوليتهم ... ! ! ! ؟

(٢) العلم يعني التوراة فكان اليهود قبلها لا يعرفون أحكامها فلا ينفذونها ومن بعد أن نزلت التوراة وبين الله حكمه فيها ، فمنهم من نفذه ومنهم من امتنع عن ذلك وبقي على جاهليته ، فاختلفوا بينهم فذلك قوله تعالى : « فما اختلفوا حتى جاءهم العلم » والله تعالى أعلم .

﴿ فَإِنْ كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ ٱلْحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ❀ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ❀ (٩٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ❀ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ❀ (٩٧) ﴾

قال قتادة بن دعامة بلغنا ان رسول الله ﷺ قال : ٥٧٤ [لا أشك ولا أسأل] وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري وهذا فيه تثبيت للأمة ، واعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب . كما قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ الآية ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبّسون ذلك ويُحرّفون ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ أي لا يؤمنون ايماناً ينفعهم ، بل حين لا ينفع نفس ايمانها أي حين يكشف الغطاء فيرون الغيبَ الذي كانوا يكفرون به شهادة ويرون العذاب الأليم هناك لا ينفع الايمانُ صاحبَه إذا لم يكن آمن من قبل ثم قال تعالى :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ❀ (٩٨) ﴾

يقول تعالى فهلاّ كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا اليهم الرسل بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلاّ كذبه قومه أو اكثرهم . كقوله تعالى : ﴿ يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزئون ﴾ وفي الحديث

الصحيح : ٥٧٥ _[عرض علي الأنبياء فجعل النبي يمرُّ ومعه الفئام [1] من الناس والنبي يمرُّ معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد] ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه كثرةً سدّت الخافقين الشرقي والغربي والغرض : أنه لم توجد قرية آمنت أجمعين بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس وهم أهل نينوى وما كان إيمانهم الا تخوفاً من وصول العذاب الذي انذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه ، وخرج رسولهم من بين أظهرهم ، فعندما جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا واحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى ان يرفع عنهم العذاب الذي انذرهم به نبيهم فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأخِّروا كما قال تعالى : ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ واختلف المفسرون هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط ؟ على قولين واظهرهما أنه فيهما لقوله تعالى : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ فأطلق عليهم الإيمان والإيمان منقذ من العذاب الأخروي والله أعلم وتمام القصة سيأتي مفصلاً في سورة الصافات ان شاء الله تعالى (عند الآية / ١٤٨ /)

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۞ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۞ (١٠٠) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولو شاء ربك ﴾ يا محمد لأذِنَ لأهلِ الأرض كلّهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كقوله سبحانه ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم [2] وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ أي تلزمهم وتلجئهم ﴿ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ أي ليس ذلك عليك ولا

---

(١) الفئام : الجماعة من الناس .

(٢) قلت : أي ما خلقهم الا ليكونوا غير مختلفين فيما أمر سبحانه ونهى ، والذين هم متفقون جميعاً ، فيما أنزل الله من الأوامر والنواهي في العقائد والعبادات والمعاملات هم المرحومون منه تعالى برحمته ومن أجل هذه النتيجة خلقهم .

إليك بل الله ﴿ يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد الهادي من يشاء ، المضل لمن يشاء لعلمه وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى : ﴿ ما كان لنفس ان تؤمن إلا بإذن (١) الله ويجعل الرجس ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿ على الذين لا يعقلون ﴾ أي حجج الله وأدلته ، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى وإضلال من ضل .

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَاتُ وَٱلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۞ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ (١٠٣) ﴾

يرشد تعالى عباده إلى التفكر في خلق السموات والأرض ، مما في السموات من نجوم وشمس وقمر ، واختلاف الليل والنهار وإيلاج أحدهما في الآخر ، وارتفاع السماء واتساعها وزينتها ونزول المطر منها بإذنه تعالى واحياء الأرض به بعد موتها . وأخرج فيها الثمار والزرع والأزاهير وما ذرأ من دواب وما في البحر من عجائب وما يحمل من السفن برفق بتسخير القدير لا اله الا هو . وقوله تعالى : ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ أي وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية وما يأتي به الرسل من المعجزات والحجج الدالة على صدقهم ، عن قوم لا يؤمنون . وقوله تعالى : ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء

(١) قلت : لا شك ولا ريب أنه لا يحدث شيء في الأرض ولا في السماء وما بينهما إلا بمشيئه وإذنه تعالى ؛ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . ولما كان الإيمان هو رأس الأعمال التكليفية فهو عمل اختياري كباقي الأعمال التكليفية ، ذلك ليستحق فاعله الجنة ، ويستحق تاركه النار . وإن كل مكلف لا شك أنه عرض عليه الإيمان والكفر ، فمن اختار الإيمان عن قناعة مستندة إلى العقل والعلم والفهم ، كان جزاؤه من الله تعالى ان يشاء ويأذن لنفسه أن يستقر في أعماقها الإيمان ، ومن أهمل عقله فلم يلتفت للحجج والأدلة الإلهية ورضي أن يخرج بنتيجة خاسرة ، بأن اختار الكفر على الإيمان ، كان جزاءه من الله تعالى أن يجعل الرجس عليه لأنه لم يستعمل عقله ، فكأنه مخلوق بلا عقل ولذلك وصف الله هؤلاء الصنف بأنهم : « لا يعقلون » فالهداية والإضلال لن يكونا إلا بعد اختيار العبد طريق الكفر أو الإيمان ، فيضله الله أو يهديه جزاء وفاقاً على ما كان من العمل ولا يظلم ربك أحداً لا إله غيره ولا رب سواه .

المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسلهم ﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين ﴾ وهذا حق أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة كقوله عز وجل : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ وكما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ انه قال :٥٧٦ [إن الله كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش ان رحمتي سبقت غضبي] (١)

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَاأَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ ٱللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ ٱللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ (١٠٧) ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ قل يا أيها الناس ان كنتم في شك من هذا الدين الذي جئتكم به من الله عز وجل فإني لا اعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن اعبد الله وحده لا شريك له وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم ثم إليه مرجعكم واني لا أعبد ما تعبدون من دون الله فادعوها فلتضرني فانها لا تضر ولا تنفع وأمرت أن أكون من المؤمنين ، وقوله تعالى : ﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ﴾ الآية أي أخلص العبادة له سبحانه وحده حنيفاً أي منحرفاً عن الشرك ﴿ ولا تكونَنَّ من المشركين ﴾ وهو معطوف على قوله تعالى : ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإن يمسسك الله بضرٍ ﴾ في بيان أن النفع والضر إنما هو راجع إليه تعالى وحده فهو يستحق العبادة وحده لا شريك له . روى الحافظ ابن عساكر عن

(١) قلت : ولكنه سبحانه وتعالى حرم الكافرين منها يوم القيامة وكتبها للذين آمنوا واتقوا وآتوا الزكاة « فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » الأعراف/١٥٦/

أنس بن مالك ان رسول الله ﷺ قال : ٥٧٧ [اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده واسألوه ان يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم] وقوله تعالى : ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ أي لمن تاب حتى من الشرك به ، فإنه يتوب عليه .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۞ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۞ (١٠٩) ﴾

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يخبر الناس أن ما جاءهم به من الله هو الحق لا شك فيه فالمهتدي انما ينفع نفسه ومن ضل فراجع ذلك عليه ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ اي ما أنا موكل على هدايتكم إنما أنا نذير لكم والهداية من الله تعالى . وقوله عز وجل : ﴿ واتبع ما يوحي إليك واصبر ﴾ أي تمسك بما أوحاه اليك ربك واصبر على مخالفيك ﴿ حتى يحكم الله ﴾ بينك وبينهم ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ بعدله وحكمته سبحانه وتعالى لا رب غيره

آخر اختصار تفسير سورة يونس وسيليها اختصار تفسير سورة هود والله الموفق أولاً وآخراً

(١١) سورة هود مكيّة
وآياتها ثلاث وعشرون ومائة

إلاّ الآيات : ١٢ و ١٧ و ١١٤ فمدنيّة. نزلت بعد يونس

روى الحافظ ابو يعلي عن أبي بكر قال : ٥٧٨ [سألت رسول الله ﷺ ما شيّبك ؟ قال « شيبتني هود والواقعة وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كورت »] .

روى الترمذي عن أبي بكر قال : ٥٧٩ [يا رسول الله قد شبت فقال : « شيبتني هود ، والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت »] وفي رواية « هود واخواتها » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * (٤)

﴿ آلر ﴾ تقدم في أول سورة البقرة الكلام على الأحرف المقطعة في أوائل السور وبالله التوفيق. وأما قوله تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت ﴾ أي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها ، فإن هذا الكتاب كامل صورةً ومعنى . قاله مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير وقوله تعالى : ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ أي الحكيم في أقواله وأفعاله ، الخبير بعواقب

الأمور وقوله تعالى : ﴿ ألاّ تعبدوا إلاّ الله ﴾ أي تفردونه بالعبادة. كقوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقوله تعالى ﴿ إنني لكم منه نذير وبشير ﴾ أي إني لكم نذير من العذاب ان خالفتموه ، وبشير بالثواب إن اطعتموه كما جاء في الصحيح : ٥٨٠ [ان رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب ، فاجتمعوا فقال : « يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم ألستم مصدقيّ فقالوا : ما جربنا عليك كذباً قال : فاني نذير لكم بين يديْ عذاب شديد »] وقوله تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ أي وآمركم بالاستغفار والتوبة وبالاستمرار على ذلك ﴿ يمتعكم متاعاً حسناً ﴾ في الدنيا ﴿ إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ أي في الدار الآخرة كقوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ وقد جاء في الصحيح : ٥٨١ [أن رسول الله ﷺ قال لسعد : « وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله الاّ أجرت بها حتى ما تجعل فى امرأتك »] .

وقال ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ ويؤتِ كل ذي فضل فضله ﴾ . قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وان لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول : هلك من غلب آحاده على أعشاره . وقوله تعالى : ﴿ وان تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ هذا تهديد شديد لمن تولىّ مكذباً أوامر الله تعالى فالعذاب نائله لا محالة ﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ أي معادكم يوم القيامة ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي وهو القادر على الإحسان إلى أوليائه والتنكيل بأعدائه ، وعلى بعث الخلائق يوم القيامة ، وهذا مقام الترهيب كما أن الأول مقام ترغيب .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾(٥)

قال ابن عباس : كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم فأنزل الله هذه الآية . روى البخاري عن ابن عباس قال · أناس كانوا يستحيون أن يتخلّوا فيفضوا إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيها .روى البخاري

وغيره عن ابن عباس ﴿ يستغشون ﴾ يغطون رؤوسهم . والمعنى : انهم كانوا يثنون صدورهم إنْ قالوا شيئاً أو عملوه فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك فأخبرهم سبحانه أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿ يعلم ما يسرّون ﴾ من القول والعمل ﴿ وما يعلنون ۝ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي يعلم ما تكنّ صدورهم من النيات والضمائر والسرائر ، وما أحسن ما قال زهير بن أبي سُلمى في معلقته المشهورة :

فلا تكتُمُنَّ الله ما في قلوبكم ... لتخفى ، ومهما يُكتَم الله يُعلم
يؤخرْ فيوضَع في كتاب فيدخر ... ليوم حساب ، أو يعجّل فينقم

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات وبالمعاد وبالجزاء وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة .

جزء ١٢ ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝ (٦) ﴾

اخبر تعالى انه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض جميعها براً وبحراً وجواً ويعلم سبحانه أين تأوي واين تموت وان جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك . كقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين ﴾ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) ﴾

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء وانه خلق السموات والأرض في ستة أيا م وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك. وجاء في الصحيحين عن النبي ﷺ بألفاظ كثيرة فمنها : ٥٨٢ [... قالوا جئناك نسألك عن أول هذا الأمر [١] فقال : « كان الله ولم يكن شيء قبله » – وفي رواية – « غيره » – وفي رواية « معه » وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ثم خلق السموات والأرض »] وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٨٣ [ان الله قدر مقادير الخلائق قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء] وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض وقال ابن عباس: إنما سمّي العرش عرشاً لارتفاعه. وقال محمد بن اسحق في قوله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾ فكان كما وصف نفسه تعالى إذ ليس الا الماء وعليه العرش وعلى العرش ذو الجلال والإكرام والعزة والسلطان والملك والقدرة ، والحلم والعلم والرحمة والنعمة الفعال لما يريد .

وقوله تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ أي ليختبركم ولم يقل أكثركم عملاً بل أحسن عملاً ولا يكون العمل حسناً حتى يكون – أولاً – خالصاً لله عز وجل – ثانياً – على شريعة رسول الله ﷺ فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط العمل . وقوله تعالى : ﴿ ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ﴾ الآية ... يقول تعالى ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين ان الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض كما قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنّ الله ﴾ وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقول الله حكاية عنهم : ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أي يقولون كفراً وعناداً وما نصدقك على وقوع البعث وما يذكر ذلك إلاّ مَنْ سَحَرْتَهُ فهو يتبعك على ما تقول . وقوله تعالى : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾ الآية ... يقول تعالى ولئن أخّرنا العذاب والمؤآخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ﴿ ليقولن ﴾ تكذيباً واستعجالاً ﴿ ما يحبسه ﴾ أي يؤخر هذا العذاب عنا ، فإن سجاياهم قد ألفت

(١) السائلون هم جماعة من أهل اليمن .

التكذيب فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد . والأمّة ، تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة فيراد بها الأمد كقوله تعالى في هذه الآية : ﴿ إلى أمة معدودة ﴾ وتستعمل بمعنى الامام المقتدى به ﴿ إن ابراهيم كان أمةً ﴾ وتستعمل في معنى الملة والدين كقوله تعالى إخباراً عن المشركين أنهم قالوا : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ... ﴾ وتستعمل في معنى الجماعة ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولكل امة رسول ... ﴾ والمراد من الأمة ها هنا الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم كما في صحيح مسلم : ٥٨٤ [والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني لا يؤمن بي إلا دخل النار] أما أمة الاتّباع فهم المصدقون للرسل كما قال تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ وفي الصحيح : ٥٨٥ [فأقول أمتي أمتي ..] وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة كقوله تعالى : ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۞ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۞ (١٠) إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُو۟لَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۞ (١١) ﴾

يخبر تعالى عن صفات الإنسان الذميمة ـ إلاّ من رحم الله من عباده المؤمنين أنه اذا أصابته شدة بعد نعمة قنط من الخير بالنسبة إلى المستَقبل ، وجحد ماضي النعمة كأنه لم يرَ خيراً ، وهكذا ان أصابته نعمة بعد نقمة ﴿ ليقولَنّ ذهب السيئات عني ﴾ أي لا أضام أبداً ﴿ إنه لفرح فخور ﴾ أي بطر فخور على غيره . وقوله تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ على الشدائد ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أي في الرخاء والعافية ﴿ أولئك لهم مغفرة ﴾ أي بسبب ما يصيبهم من الضراء ﴿ وأجر كبير ﴾ بسبب ما أسلفوه في زمن الرخاء وذلك كقوله تعالى : ﴿ والعصر ٭ ان الانسان لفي خسر ٭ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۞ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۞ (١٤) ﴾

يسلّي تعالى رسوله ﷺ عما كان يتعنّت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى : ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ۞ أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ فأمر الله تعالى رسوله ﷺ وأرشده ان لا يضيق بذلك ولا يثنيه عن الدعوة اليه تعالى أبداً ، فخاطبه : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا ... ﴾ أي لقولهم ذلك فإنما أنت نذير ولك اسوة بإخوانك من الرسل قبلك فإنهم كُذّبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل ، ثم بين تعالى إعجاز القرآن وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين ، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات،وذاته لا يشبهها شيء تعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو ولا رب سواه ثم قال تعالى : ﴿ فان لم يستجيبوا لكم ﴾ بمعارضة ما دعوتموهم إليه فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك وان هذا الكلام منزل من عند الله متضمن علمه وامره ونهيه ﴿ وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (١٦) ﴾

قال مجاهد نزلت هذه الآية في أهل الرياء وقال قتادة مفسراً لها : من كانت الدنيا همه ونيته وطلبه جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يُعطى بها جزاء وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة كقوله تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب ﴾ .

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٧)

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى من الاعتراف له بانه لا لا إله إلا هو كما قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ فالمؤمن باقٍ على الفطرة هذه ، ما غيّرها ولا بدّلها . ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٨٦ [كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء] ؟ وقوله تعالى ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه** ﴾ **أي وجاءه شاهد من الله** من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختتمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . وقوله تعالى : ﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب موسى أي التوراة كذلك يشهد برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فإن هذه التوراة من آمن بها حقا قاده هذا الإيمان إلى الإيمان بالقرآن فالتوراة ولا شك كما قال الله تعالى : ﴿ إماماً ورحمة ﴾ أي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم وقدوة يقتدون بها ورحمة من الله بهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ أي بكتاب موسى الذي فيه البشرى برسالة محمد ﷺ . ثم قال الله تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ . أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم واشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن كما قال تعالى : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وقال تعالى ها هنا :

﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ . في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلاّ دخل النار) وقوله تعالى : ﴿ فلا تَكُ في مرية منه إنه الحق من ربك ﴾ أي القرآن حق من الله لا مرية فيه . وقوله تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وان تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين ﴾

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِباً أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ ۞ (١٨) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۞ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ۞ (٢٠) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۞ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۞ (٢٢) ﴾

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان كما روى الامام أحمد عن صفوان بن محرز قال (كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل قال كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة قال سمعته يقول: ٥٨٧ «إن الله عز وجل يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له: أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم ثم يعطي كتاب حسناته وأما الكفار والمنافقون فيقول ﴿ ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم الا لعنة الله على الظالمين ﴾

الآية أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث قتادة به وقوله تعالى : ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ﴾ أي يردُّون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله تعالى ويجنبونهم الجنة ، ويسلكونهم طريقاً غير معتدلة ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أي مكذبون بوقوعها ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ بل هم تحت قهره وسلطانه قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة ﴿ ولكن يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ وفي الصحيحين : ٥٨٨ [إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته] ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾ الآية كقوله تعالى : ﴿ زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ فيعذَّبون على كل أمر تركوه أو نهي ارتكبوه ولهذا كان أصحَّ الأقوال أنهم مكلّفون بفروع الشرائع وقوله تعالى : ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ أي لم يستفيدوا مما جعل الله لهم من السمع والبصر فكانوا صُمّاً عن سماع الحق ، عمياً عن اتباعه كقوله تعالى : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا ناراً حامية لا يفتر عنهم العذاب طرفة عين وتبرّأ منهم ما كانوا يعبدون من دون الله من الأصنام والأوثان فلم تنفعهم شيئاً بل ضرتهم كل الضرر . ولهذا قال تعالى : ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ أي لا شك ان من يستبدل الخير بالشر ، والإيمان بالكفر ، والجنة بالنار ، وقرب الرحمن ورؤية الديّان بعقوبته وغضبه ، فهو الأخسر مآلاً يوم القيامة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ● (٢٣) مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ● (٢٤) ﴾

ربع الحزب

بعد أن ذكر تعالى حال الأشقياء ثنّى بذكر السعداء وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتركوا المنكرات وبهذا ورثوا الجنات ذات الغرف العاليات وجميع ما فيها من النعيم المقيم والنظر إلى خالق الأرض والسموات ، ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال تعالى : ﴿ مثل الفريقين ﴾ أي مثل الأشقياء كالأعمى والأصم ، والسعداء

كالبصير والسميع فالكافر أعمى عن وجه الحق ، أصم عن سماعه فلا ينتفع به . وأما المؤمن ففطن ذكي بصير بالحق سميع للحجة فلا يرّوج عليه الباطل ... فهل يستوي هذا وهذا ؟ ﴿ أفلا تذكرّون ﴾ أي أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء كما قال تعالى : ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام إنه قال لقومه ﴿ إني لكم نذير مبين ﴾ أي ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غيره ولهذا قال سبحانه حكاية عن نوح : ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ وقوله : ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ إن استمررتم على كفركم ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ والملأ هم السادة والكبراء من الكافرين منهم ﴿ ما نراك إلاّ بشراً مثلنا ﴾ كأنهم يظنون أنه لا ينبغي أن يكون الرسول بشراً ، فكيف أوحي اليك من دوننا ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾ أي الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ، ثم ان الذين اتبعوك كان ذلك منهم بلا فكر ولا نظر ، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ أيْ أيّ فضيلة في خلْق ولا خلُق ولا رزق ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ أي فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الآخرة.وكلامهم هذا دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم ، فإنه ليس عاراً على الحق رذالة من اتبعه ، فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل فإن الذين يتبعون الحق هم الأشراف حقيقة ولو كانوا فقراء والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء ثم الواقع غالباً ان ضعفاء الناس هم أتباع الحق ، والكبراء والأشراف هم مخالفوه كما قال تعالى : ﴿ وكذلك

ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ وقولهم ﴿ بادي الرأي ﴾ ليس بمذمة ولا عيب لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال بل لا بد من اتّباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء ، بل لا يفكر ها هنا إلاّ غبيٌ أو عييٌ ، وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : ٥٨٩ [ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلاّ كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم] أي ما تردد ولا تروّى لأنه رأى أمراً جلياً عظيماً فبادر إليه . وقوله تعالى : ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ لأنهم لا يرون هذا الفضل لعماهم عن الحق بل هم في ريبهم يترددون في ظلمات الجهل وهم الأفاكون الكاذبون لا أهل الحق ، وهم الأخسرون لا أهل الصدق .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ❁ (٢٨) ﴾

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ❁ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ❁ (٣٠) ﴾

يخبر تعالى عمّا ردَّ به نوحُ على قومه في ذلك : ﴿ أرأيتم إن كنت على بينةٍ من ربي ﴾ أي على يقين وأمر جليّ ونبوة صادقة من الله ﴿ فعميتْ عليكم ﴾ أي خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها بل بادرتم إلى تكذيبها ﴿ أنلزمكموها ﴾ أي نغصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً ﴾ أي أجرة آخذها منكم إنما ابتغي الأجر عند الله عز وجل ، وكأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه حتى يجلسوا معه مجلساً خاصاً فقال : ﴿ وما أنا بطاردِ الذين آمنوا ﴾ كما سأل أمثالهُم خاتمَ الرسل محمداً ﷺ فأنزل الله : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ .

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ (٣١) ﴾

يخبرهم أنّ نوحاً عليه السلام رسول من الله تعالى يدعو إلى عبادته سبحانه وحده لا شريك له ولا يسألهم أجراً ، وانه يدعو من لقيه من شريف ووضيع فمن استجاب نجا ، كما ليس له التصرف في خزائن الله ، ولا يعلم من الغيب إلاّ ما أطلعه الله عليه ، وليس هو بملك بل هو بشر مرسل ، ولا أقول عمن تحتقرونهم بأنهم لا ثواب لهم على أعمالهم الله أعلم بما في أنفسهم فإن كانوا مؤمنين وباطنهم كظاهرهم فلهم جزاء الحسنى ولو قطع أحد لهم بشرٍّ بعد إيمانهم لكان ظالماً قائلاً ما لا علم له به .

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۞ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ (٣٤) ﴾

يخبر تعالى عن استعجال قوم نوح نعمة الله وعذابه وسخطه ، والبلاء موكل بالمنطق ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ أي حاججتنا فأكثرت فلا نتبعك ، ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ أدع علينا بما شئت فليأتنا ما تعدنا من العذاب ﴿ ان كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴾ أي انما يعجل عقابكم هو الله الذي لا يعجزه شيء ﴿ ولا ينفعكم نُصحي إن اردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم ﴾ اي إغواءكم ودماركم ﴿ هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ أي هو المتصرف بأزمّة الأمور الحاكم العدل الذي لا يظلم . له الخلق وله الأمر وهو المبديء المعيد مالك الدنيا والآخرة .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ۞ (٣٥) ﴾

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة مؤكد لها . مقرر لها يقول تعالى لمحمد ﷺ أم يقول هؤلاء الكافرون افترى هذا القرآن وافتعله من عنده ﴿ قل إن افتريته فعليّ إجرامي ﴾ أي قائم فعل الإجرام عليّ ﴿ وأنا بريء مما تجرمون ﴾ وانا بريء مما تجرمون وتفترون عليّ والمعنى أي ليس القرآن مفتعلاً ولا مفترى مني ، لأني اعلم ما عند الله من شديد العقوبة لمن كذب عليه .

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۞ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ۞ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۞ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ۞ (٣٩) ﴾

يخبر تعالى انه استعجل قوم نوح نقمة الله بهم فأوحى اليه الله تعالى فدعا عليهم دعوته : التي أخبر الله عنها أنه قال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ فعند ذلك أوحى الله إليه : ﴿ انه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن ﴾ فلا تحزن ولا يهمنّك أمرهم ﴿ واصنع الفلك ﴾ يعني السفينة ﴿ بأعيننا ﴾ أي بمرأى منا ﴿ ووحينا ﴾ اي تعليمنا لك ما تصنعه ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ﴾ أي لا تكلمني بترك اهلاك الذين كفروا فإنهم لا محالة مغرقون ﴿ ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ وعندما كان يصنع السفينة كان يمر عليه الملأ من قومه ويسخرون منه ويقولون تعمل سفينة في البر فكيف تجري ؟ ﴿ قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ۞ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ وهذا وعيد شديد وتهديد

أكيد بعذاب مخزٍ في الدنيا ، وسيحلُّ بهم في الآخرة عذاب دائم مستمر أبداً وهذا جزاء الكافرين المكذبين المستهزئين .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٤٠)

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أمرنا ﴾ أي جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة ، الهتانة التي لا تقلع ولا تفتّر ، والعيون التي تفجرت من الأرض كقوله تعالى : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾ وقوله تعالى ﴿ وفار التنور ﴾ اي فار الماء من الأرض ، فحينئذ أمر الله نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح وغيرها من النباتات ذكر وانثى . وقوله تعالى : ﴿ وأهلك إلاّ من سبق عليه القول ﴾ واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقرابته الا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله فكان منهم ابنه يام الذي انعزل وحده وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله ، وقوله تعالى : ﴿ ومن آمن ﴾ أي من قومك ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم الف سنة الاّ خمسين فعن ابن عباس كانوا ثمانين منهم نساؤهم ، وقيل ما كان إلاّ نوح وبنوه الثلاثة سام ، وحام ، ويافث وكنائنه الأربعة نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام . والله أعلم [1] .

﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى

---

(١) قلت : إذا صحت رواية أن جميع سكان الأرض منسوبون إلى أولاد نوح الثلاثة سام وحام ويافث . فتكون الرواية الثانية هي الأصح أي ما آمن معه إلا أولاده الثلاثة ونساؤهم وإلا فرواية ابن عباس (الثمانون منهم نساؤهم) أصح .

لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ ٱلْكَافِرِينَ ۞ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۞ (٤٣)

يخبر تعالى أن نوحاً قال لمن أُمِرَ بحملهم معه في السفينة : ﴿ اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ﴾ أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء وبسمه تعالى يكون منتهى سيرها كما قال تعالى : ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وقل ربي أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴾ ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور ، عند الركوب على السفينة ، وعلى الدابة : كقوله تعالى : ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ﴾ الآية ... وجاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه كما سيأتي ذلك في سورة الزخرف إن شاء الله وبه الثقة (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إن ربي لغفور رحيم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إن ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم ﴾ وذلك مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين والرحمة والغفران للمؤمنين ، والآيات كثيرة في إقرانه تعالى فيها رحمته بانتقامه وقوله تعالى ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾السفينة سائرة بهم على الماء الذي قد طبق جميع الأرض حتى طفت على رؤوس الجبال ماخرةً باذن الله ، وتحت كنفه وعنايته وحفظه .

وقوله تعالى : ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ وهو الابن الرابع واسمه : يام وكان كافراً دعاهأبوه للأيمان وركوب السفينة كيلا يكون له خاتمة الكافرين فأبى ﴿ قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء ﴾ إعتقدَ ان الطوفان لن يبلغ الى رؤوس الجبال.فقال له أبوه نوح عليه السلام : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم ﴾ أي لا معصوم كما يقال طاعم وكاس بمعنى مطعوم ومكسو ﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾

(١) عند الآية /١٣/ وقوله تعالى : « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » الزخرف .

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٤٤) ﴾

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلاّ أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها وامر السماء ان تقف عن المطر ﴿ وغيض الماء ﴾ أي ابتلعته الأرض ﴿ وقضي الأمر ﴾ أي قضى الله أمره في أهل الأرض ممن كفر به فلم يبق ديار ﴿ واستوت على الجودي ﴾ قال مجاهد وهو جبل بالجزيرة ارست عليه السفينة قال قتادة : قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من ارض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة .

روى الإمام أحمد عن ابي هريرة قال ٥٩٠ : [مرّ النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال : « ما هذا الصوم » قالوا هذا اليوم الذي نجّى الله به موسى وبني اسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل . فقال النبي ﷺ « أنا أحق بموسى . واحق بصوم هذا اليوم » فصام وقال لأصحابه « من كان أصبح منكم صائماً فليتم صومه ومن كان أصاب من غذاء أهله فليتم بقية يومه »] وهذا حديث غريب من هذا الوجه ولبعضه شاهد في الصحيح . وقوله تعالى : ﴿ وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ أي هلاكاً وخساراً لهم . وبعداً من رحمة الله فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية .

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ ۞ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ ۞ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ۞ (٤٧) ﴾

هذا سؤال كشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق ﴿ فقال رب إن ابني من أهلي﴾ أي وقد وعدتني بنجاة أهلي وإن وعدك الحق الذي لا يخلف . فكيف غرق وانت أحكم الحاكمين ﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾ أي ليس من اهلك الذين وعدتُ إنجاءهم لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك . ولهذا قال سبحانه ﴿ وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ﴾ فكان هذا الولد ممّن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه عليه الصلاة والسلام . وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا ... إلى أنه ليس بابنه وانما كان ابن زنية . قال ابن عباس وغير واحد من السلف ٥٩١ ما زنت امرأة نبيٍّ قط . وقول ابن عباس في هذا .. هو الحق الذي لا محيد عنه فإن الله سبحانه أغير من أن يُمَكِّنَ امرأةَ نبيٍّ من الفاحشة ، ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلّموا بهذا وأشاعوه . ولهذا قال تعالى : ﴿ ان الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم - إلى قوله تعالى - وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾

قال عبد الرزاق عن ابن عباس قال ـ هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنيّة قال ابن عيينة عن سعيد بن جبير عن ذلك فقال ـ كان ابنَ نوح إن الله لا يكذب ـ قال تعالى : ﴿ ونادى نوح ابنه ﴾ قال وقال بعض العلماء : ما فجرت امرأة نبيّ قط وكذا روى عن مجاهد ايضاً وعكرمة والضحاك وميمون بن مهران وثابت بن الحجاج وهو اختيار ابي جعفر ابن جرير وهو الصواب الذي لا شك فيه .

قِيلَ يَا نُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٤٨)

يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أرست السفينة على الجودي من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين . وعلى كل مؤمن من ذريته الى يوم القيامة كما قال محمد بن كعب دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة . وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة . وقال محمد بن اسحق : لما أراد الله ان يكف الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر وأبواب

السماء. يقول الله تعالى: ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ﴾ فجعل الماء ينقص ويغيض . وقيل ان نوحاً عليه السلام ومن معه ركبوا السفينة في عاشر شهر رجب فساروا فيها مائة وخمسين يوماً واستقرت بهم على الجودي شهراً وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم وقد ورد نحو هذا . في حديث مرفوع رواه ابن جرير ، وانهم صاموا يومهم ذلك والله أعلم .

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ * (٤٩) ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ هذه القصة واشباهها ﴿ من أنباء الغيب ﴾ يعني من أخبار الغيوب السالفة ، ﴿ نوحيها إليك ﴾ نعلمك بها وحياً منا إليك على وجهها الصحيح كأنك شاهدها ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ أي ليس عندك ولا قومك علم بها قبلما أخبرك الله بها مطابقة للواقع كما تشهد كتب الأنبياء قبلك ﴿ فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ أي اصبر على تكذيب من كذبك من قومك وعلى أذاهم لك فإنّا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا الآخرة . كما قال تعالى: ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * (٥١) وَيَا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ * (٥٢) ﴾

يقول تعالى « و » لقد ارسلنا ﴿ إلى عاد أخاهم هوداً ﴾ يأمرهم بعبادة الله وحده لا

شريك له ناهياً لهم عن عبادة الأوثان التي افتروها، ويسمونها كذباً آلهةً، وأخبرهم انه لا يريد منهم أجرةً على هذا النصح والبلاغ من الله تعالى، إنما يرجو ثوابه منه تعالى أفلا تعقلون من يدعوكم الى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة. ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه. وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ولهذا قال: ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ وفي الحديث. ٥٩٢: [من لزم الاستغفار جعل الله لهمن كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب].

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ❁ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ❁ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ❁ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ❁ (٥٦)

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم ﴿ ما جئتنا ببينة ﴾ أي بحجة وبرهان على ما تدعيه ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ﴾ اي بمجرد قولك اتركوهم نتركهم. ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ أي بمصدقين ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ أي ما نظن الا أن بعض الآلهة أصابك بخبل في عقلك لنهيك عن عبادتها ﴿ قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء ممـا تشركون من دونه ﴾ يقول إني بريء من جميع الأنداد والأصنام ﴿ فكيدوني جميعاً ﴾ أي انتم وآلهتكم إن كانت حقاً ﴿ ثم لا تنظرون ﴾ أي لا تؤجلون ولا لحظة. وقولـه تعالى ﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ أي تحت سلطانه وقهره، وهو الحاكم العدل الذي لا يجور في حكمه فانه على صراط مستقيم آخذ بنواصي عباده وهو أشفق من الوالد لولده. بينما الأصنام التي يعبدونها من دون الله جماد لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر. وفي هذه المقارنة حجة على صدق ما جاءهم به هود وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ * (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ * (٦٠)﴾

يقول تعالى: ﴿فإن تولّوا﴾ عن الحق [١] ﴿فقد ابلغتكم ما أرسلت به اليكم﴾ من وجوب عبادة الله وحده لا شريك له فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي اياكم رسالة الله. ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به، فانكم: ﴿ولا تضرونه شيئاً﴾ بكفركم بل وباله عليكم: ﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها بما يستحقون من خير أو شر ﴿ولما جاء أمرنا﴾ وهو الريح العقيم فأهلكهم الله عن آخرهم ونجى هوداً والمؤمنين به من عذاب غليظ برحمة الله ولطفه ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم﴾ كفروا وعصوا رسل الله جميعاً. فمن كفر بنبيّ فقد كفر بجميع الأنبياء، لأنه لا فرق بينهم في وجوب الإيمان بهم، فعاد كفروا بهود فنزل كفرهم بمنزلة الكفر بجميع الأنبياء والرسل. ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد. فلهذا ﴿وأُتْبِعُوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة﴾ وينادي على رؤوس الأشهاد: ﴿إلا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعادٍ قوم هود﴾. قال السدي ما بعث نبيٌّ بعد عاد إلاّ لعنوا على لسانه.



﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ * (٦١)﴾

---

(١) أي فقل ياهود: «قد أبلغتكم ...»

يقول تعالى « و » لقد ارسلنا ﴿ إلى ثمود ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحِجْرِ بين تبوك والمدينة وكانوا بعد عاد فبعث الله منهم ﴿ أخاهم صالحاً ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده ولهذا قال ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾ ابتداءً ﴿ واستعمركم فيها ﴾ أي جعلكم عماراً تعمرونها ﴿ فاستغفروه ﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلونه ﴿ ان ربي قريب مجيب ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادك عني فإني قريبٌ أجيب دعوة الداعي إذا دعانِ ﴾ .

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۞ (٦٢)، قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۞ (٦٣) ﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم ﴿ قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾ أي كنا نرجوك في عقلك قبل أن قلت ما قلت ﴿ اتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ أي شك كثير ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربّي ﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان ﴿ وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده ، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿ غير تخسير ﴾ أي خسارة .

﴿ وَيَا قَوْمِ هٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۞ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۞ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ

يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ۞ (٦٦) وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۞ (٦٧) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ ۞ (٦٨)

تقدّم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف [1] بما أغنى عن اعادته ههنا والله ولي التوفيق .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۞ (٦٩) فَلَمَّا رَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۞ (٧٠) وَٱمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحٰقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحٰقَ يَعْقُوبَ ۞ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۞ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللهِ رَحْمَتُ ٱللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ۞ (٧٣)

يقول تعالى : ﴿ ولقد جاءت رسلنا ﴾ وهم الملائكة ﴿ ابراهيم بالبشرى ﴾ أي تبشره بإسحق بدليل قوله تعالى: ﴿ ولما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ﴾ ﴿ قالوا سلاماً قال سلام ﴾ أي سلام عليكم ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ أي أسرع وقدم لهم عجلاً مشوياً على الحجارة المحماة . وقوله تعالى : ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾ وذلك ان الملائكة لاهمة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه ، فلهذا أعرضوا عنه، عندها نكرهم ﴿ وأوجس منهم خيفة ﴾ فلما نظرت سارة أنه قد أكرم ابراهيم أضيافه وقامت هي تخدمهم وهم لا يأكلون ... تعجبت وقالت : عجباً لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون طعامنا .

---

(١) سورة الأعراف من الآية رقم ٧٣ – ٧٨ .

وقوله تعالى : ﴿ قالوا لا تخف ﴾ أي لا تخف منا ﴿ إنّا ﴾ ملائكة ﴿ أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ لنهلكهم ﴿ فضحكت ﴾ سارة استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم ، وغلظ كفرهم وعنادهم فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس ﴿ فبشرناها بإسحق ومن وراء اسحق يعقوب ﴾ أي بولدٍ لها يكون له ولد وعقب ونسل ، فإن يعقوب ولَدُ اسحق وقد استدل من استدل بهذه الآية على ان الذبيح هو اسماعيل . وانه يمتنع أن يكون هو اسحق ؛ لأنه وقعت البشارة به وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمر ابراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لا خلف فيه فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ... ؟ ! فتعين أن يكون الذبيح اسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحّه وأبينِه ولله الحمد (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ﴾ الآية ... كما في الذاريات : ﴿ فأقبلت امرأته في صرّة فصكّت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴾ كما جرت عادة النساء في أقوالهن وافعالهن عند التعجب ﴿ قالوا اتعجبين من أمر الله ﴾ اي قالت الملائكة : لا تعجبي فانه جل وعلا اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون ، ولو كنتِ عجوزاً ، وبعلك شيخاً كبيراً فان الله على كل شيء قدير ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد ﴾ أي هو الحميد في جميع افعاله وأقواله ، محمود مُمجّد في ذاته وصفاته ، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا : ٥٩٣ [قد علمتنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال « قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم في العالمين إنك حميد مجيد . »]

---

(١) يريد مناالذين يقولون بإن اسحق هو الذبيح ،أن نتصور شيئاً يستحيل العقلُ وقوعــه. وهو: أن نتصور ولادة مولود من أب مات طفلا؟ ! ! وهل هذا معقول وموافق لسنة الله في خلقه...؟ لا سيما وإنه يفقد عنصر الاختبار والأمتحان لأبراهيم...لأنه لما بشر بولادة اسحق وبأنه سيولد له ولد اسمه يعقوب،علم إبراهيم بالاستنتاج انه لن يصيب اسحق مكروه قبل أن يلد له يعقوب وعندما يأمره الله بذبحه، يكون مطمئناً إلى عدم اكتمال عملية الذبح ... لأن البشارة المسبقة تفيد وتعطى هذا الاطمئنان ، بينما الأمر من الله فيه عنصر الأختبار... بمعنى: هل يطيع ابراهيم أمر ربه ويذبح وحيده اسحق طاعةً لله؟ دون أن يكون له علم بالنتائج... فإن كان يعلم ابراهيم ذلك ... لم يعد هناك اختبار له من الله لأنه مطمئن إلى أن هذا الولد اسحق لن يذبح بل سيبقى حياً بل وسيتزوج وسينجب ولداً اسمه يعقوب. وكل هذا يعلمه علم اليقين من بشارة الله له بذلك... فأين إذاً ذلك الاختبار الذي أراده الله من إبراهيم ... ؟ لا شك أنه ثبت ثبوتاً تاماً أن الاختبار أصبح مفقوداً بينما هو المطلوب. فمن هذا يتضح ان الذبيح ليس اسحق قطعاً إنما هو إسماعيل بلا شك ولا ريب .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ❀ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ❀ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ❀ (٧٦) ﴾

يخبر تعالى أنه لما ذهب عن ابراهيم الخوف من الملائكة حين لم يأكلوا، ثم بشروه بعد ذلك بالولد وولد الولد، واخبروه بهلاك قوم لوط اخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية قال لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له : ﴿ انا مهلكوا أهل هذه القرية ﴾ قال لهم أتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن قالوا لا – ثم تدرج بتقليل العدد إلى أن قال : أرأيتكم ان كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها ؟ قالوا لا فقال ابراهيم عليه السلام عند ذلك ﴿ ان فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته ﴾ الآية فسكت عنهم واطمأنت نفسه . وقوله ﴿ إن ابراهيم لحليم أواه منيب ﴾ مدح لابراهيم بهذه الصفات الجميلة وقد تقدم تفسيرها – في سورة التوبة عند الآية رقم / ١١٤ / – وقوله تعالى : ﴿ يا ابراهيم اعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ﴾ الآية ... أي إنه قد نفذ فيهم القضاء وحق عليهم الهلاك وحلول العذاب الذي لا يرد عن القوم المجرمين .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ❀ (٧٧) وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ❀ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ❀ (٧٩) ﴾

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعدما أعلموا ابراهيم ،واخبروه بإهلاك الله

لقوم لوط هذه الليلة فانطلقوا من عنده فأتوا لوطاً وقوله تعالى﴿ سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب ﴾ اي ساءه شأنهم وضاقت نفسه بسببهم وخشي ان لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء ﴿ وقال هذا يوم عصيب ﴾ وكان لا يعلم أنهم ملائكة فتضيّفوه، فاستحيا منهم فانطلق أمامهم وقال لهم في اثناء الطريق كالمعرّض لهم بأن ينصرفوا عنه فانه والله يا هؤلاء ، ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء . ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات . قال قتادة : قد كانوا أمروا ان لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك . وكانوا على هيئة شبان حسان ما رأى الراءون أحسن منهم وجوهاً ، فجاء بهم لوط ، فلم يعلمْ بهم أحد إلاّ أهل بيته فخرجت امرأته فأخبرت قومها ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ﴾ أي يسرعون مهرولين من فرحهم بذلك ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئآت ﴾ أي لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال ... وقوله تعالى : ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ يرشدهم إلى نسائهم فإن النبيَّ للأمة بمنزلة الوالد فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة قال مجاهد : لم يكنَّ بناته ولكن كُنَّ من أمتـه وكل نبيٍّ أبو أمته وكذا روي عن قتادة وغير واحد. قال ابن : جريج أمرهم ان يتزوجوا النساء لم يعرض عليهم سفاحاً وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي ﴾ أي اقبلوا ما أمركم به من الاقتصار على نسائكم ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ أي فيه خير يقبل ما آمره به ويترك ما أنهاه عنه ﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ﴾ أي إنك لتعلم أن نساء نا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ أي ليس لنا غرض إلا في الذكور وانت تعلم ذلك فأيُّ فائدة من تكرار القول علينا في ذلك .

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (٨٠)

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٨١)

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام ، أن لوطا توعّدهم بقوله: ﴿ لو أن لي بكم قوة ﴾ أي لكنت نكّلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي ، ولهذا

أوردني الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٥٩٤ [رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد – يعني الله عز وجل – فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه] فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه وأنهم لا وصول لهم إليه : ﴿ قالوا يا لوط إنارسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ وأمروه أن يسري بأهله من آخر الليل وأن يكون سائقاً لهم يمنعهم من الالتفات كما أمره الله تعالى : ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ إي اذا سمعت ما نزل بهم ، ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة ولكن استمروا ذاهبين ﴿ إلاّ امرأتك ﴾ قال الأكثرون هو استثناء من المثبت وهو قوله تعالى : ﴿ فأسر بأهلك ﴾ تقديره فأسر بأهلك إلاّ امرأتك . ﴿ إنه مصيبها ما أصابهم ﴾ هذا وقوم لوط وقوف على الباب ولوط يدافعهم وينهاهم عما هم فيه من القصد السيء والمراد الخبيث بالنسبة لضيوف لوط ، وهم لا يرتدعون بل يتوعدون ويتهددون . فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق . كما قال تعالى : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ﴾ ثم قرّب الملائكة للوط خبر هلاك قومه تبشيراً له فقالوا : ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ – (ونفذ لوط أمر ربّه فسرى بأهله إلا امرأته . وأمرهم أن لا يلتفت منهم أحد إلى ورائه فيما إذا سمعوا ما نزل بهم من العذاب) –

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ❁ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ❁ (٨٣) ﴾

يقول تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿ جعلنا عاليها ﴾ وهي سدوم ﴿ سافلها ﴾ أي نكسناها رأساً على عقب ﴿ وأمطرنا عليها حجارةً من سجيل ﴾ اي من طين متحجر قوي شديد كبير ، وقوله تعالى : ﴿ منضود ﴾ اي متلاصق بعضها ببعض في نزولها عليهم وقوله تعالى : ﴿ مسومة ﴾ اي معلّمة مختومة عليها اسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه وذكروا أنها نزلت على أهل البلد وعلى المتفرقين في القرى مما حولها فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره فتتبعتهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم

عن آخرهم فلم يبق منهم أحد .

قال مجاهد : اخذ جبريل قوم لوط وحملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم كفأها . وقال قتادة وغيره : بلغنا ان جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتسف بها ارضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها فضمها في جناحه فحواها وطواها في جوف جناحه ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء اصوات الناس والكلاب ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة فدمر بعضها بعضاً فجعل عاليها سافلها وأتبعها حجارة من سجّيل ، وقال محمد بن كعب القرظي :كانت قرى قوم لوط خمس قريات (سدوم وهي العظمى ، وصعبه وصعود وغمرة ودوحاء) احتملها جميعاً جبريل بجناحه ثم قلبها فقتلهم واهلكهم وما حولهم من المؤتفكات فذلك قوله تعالى ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ ثم امطر الله عليهم حجارة من سجيل وقوله تعالى : ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ أي وما هذه النقمة ممن تشبّه بهم في ظلمهم ببعيد . وقد ورد في الحديث المروي في السنن عن ابن عباس مرفوعاً : **٥٩٥** [من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل ، والمفعول به] وذهب الإمام الشافعي في قوله : عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل سواء كان محصناً أو غير محصن عملاً بهذا الحديث ، وذهب الإمام ابو حنيفه أنه يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

حزب ٢٤

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * (٨٤) ﴾

يقول تعالى ولقد أرسلنا إلى مدين ، وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان وبلادهم تعرف بهم يقال لها مدين فأرسل الله إليهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً ، ولهذا قال ﴿ أخاهم شعيباً ﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿ إني أراكم بخير ﴾ أي في معيشتكم ورزقكم وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه ، بانتهاككم محارم الله ﴿ وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ أي في الدار الآخرة .

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ (٨٥) بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ۞ (٨٦) ﴾

ينهاهم الله تعالى عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس ، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط أخذاً واعطاءً ، ونهاهم عن العتو في الأرض بالفساد وقد كانوا يقطعون الطريق ، وقوله تعالى : ﴿ بقية الله خير لكم ﴾ قال ابن جرير أي ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس قال وقد روي هذا عن ابن عباس قلت : ويشبه قوله تعالى : ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أي برقيب ولا حفيظ أي افعلوا ذلك لله عز وجل لا من أجل أن يراكم الناس

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَآءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۞ (٨٧) ﴾

يقولون متهكمين قبحهم الله ﴿ أصلاتك ﴾ أي قراءتك ﴿ تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا ﴾ أي الأوثان والأصنام ﴿ أو ان نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ فنترك التطفيف عن قولك وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد وقال الثوري في قوله تعالى : ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ يعنون الزكاة ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ قال ابن عباس وغيره يقولون ذلك استهزاء قبحهم الله ولعنهم .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۞ (٨٨) ﴾

يقول لهم أرأيتم يا قوم ﴿ إن كنت على بينة من ربي ﴾ أي على بصيره فيما أدعو اليه ﴿ ورزقني منه رزقاً حسناً ﴾ أي النبوة وقيل الرزق الحلال ويحتمل الأمرين وقوله تعالى :﴿ وما أريد أن اخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ قال قتادة : يقول لم اكن أنهاكم عن أمر وارتكبه : ﴿ ان أريد إلا الإصلاح ما استطعت ﴾ أي فيما آمركم وأنهاكم إنما أريد اصلاحكم جهدي وطاقتي ﴿ وما توفيقي ﴾ أي في اصابة الحق فيما أريده ﴿ إلا بالله عليه توكلت ﴾ في جميع أموري ﴿ وإليه أنيب ﴾ أي أرجع قاله مجاهد .

روى الامام أحمد عن أبي أسيد يقولان عنه ﷺ انه قال : ٥٩٦ [إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ، وتلين له اشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، واذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفرمنه اشعاركم وأبشاركم وترون انه منكم بعيد فانا أبعدكم منه] إسناده صحيح ومعناه والله أعلم : مهما بلغكم عني من خير فأنا أولاكم به . ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ .

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ۞ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۞ (٩٠) ﴾

يقول لهم ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي ﴾ أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فيصيبكم ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النقمة والعذاب وقوله تعالى : ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ يعني إنما هلكوا بين ايديكم بالأمس ﴿ واستغفروا ربكم ﴾ من سالف الذنوب ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة وقوله تعالى : ﴿ إن ربي رحيم ودود ﴾ لمن تاب .

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۞ (٩١) قَالَ

يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ ٱللهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ❁ (٩٢)

يقولون : ﴿ يا شعيب ما نفقه ﴾ ما نفهم ﴿ كثيراً ﴾ من قولك ﴿ وانا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ يعني واحداً ذليلاً لأن عشيرتك ليسوا على دينك ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ أي لولا معزة قومك علينا لرجمناك بالحجارة ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ أي ليس عندنا لك معزّة ﴿ قال يا قوم : أرهطي أعز عليكم من الله ﴾ يقول أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى ان تنالوا نبيه بمساءة وقد اتخذتم جانب الله ﴿ وراءكم ظهرياً ﴾ أي نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه ﴿ إن ربي بما تعملون محيط ﴾ أي هو يعلم جميع اعمالكم وسيجزيكم عليها خيراً أو شراً .

وَيَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَٱرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ❁ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ❁ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ❁ (٩٥)

لما يئس نبيُّ الله شعيب من استجابتهم له قال : ﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ أي طريقتكم ، وهذا تهديد شديد ﴿ إني عامل ﴾ على طريقتي ﴿ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ﴾ أي مني ومنكم ﴿ وارتقبوا ﴾ أي انتظروا ﴿ اني معكم رقيب ﴾ قال الله تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا واخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ جاثمين ﴾ أي هامدين لا حراك بهم . وذكر ههنا أنه أتتهم صيحة . وفي الأعراف رجفة . وفي الشعراء عذاب يوم الظلة . وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها . وانما ذكر في كل سياق ما يناسبه ؛ ففي الأعراف لما قالوا : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا

معك من قريتنا ﴾ ناسب ان يذكر هناك الرجفة فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها وارادوا إخراج نبيهم منها ، وها هنا لما أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ذكر الصيحة التي استلبثتهم وأخمدتهم ، وفي الشعراء لما قالوا : ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء ان كنت من الصادقين ﴾ قال تعالى : ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ وهذا من الأسرار الدقيقة ولله الحمد والمنة كثيراً دائماً . وقوله تعالى : ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أي يعيشوا في دارهم قبل ذلك «﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار ، وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق وكانوا عرباً مثلهم .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۞ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۞ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ۞ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ۞ (٩٩) ﴾

يخبر تعالى عن ارسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ أي طريقته في الغي ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى . وانما هو جهل وضلال وكفر وعناد ، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم ، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها ، وشربوا من حياض رداها ، ولفرعون في ذلك الحظ الأوفر ، من العذاب الأكبر كما قال تعالى : ﴿ فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ فكذب وعصى ۞ ثم أدبر يسعى ۞ فحشر فنادى ۞ فقال أنا ربكم الأعلى ۞ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ۞ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى [1] ﴾

وقال تعالى ها هنا : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ﴾ وكذلك شأن المتبوعين يكونون مضاعفين في العذاب يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة ﴾ أي

(١) قلت : فماذا يقول الذين يقولون بإيمان فرعون ونجاته بهذه الآيات البينات ... ؟ فهل ما يزالون على قولهم بايمانه ونجاته فإن استغفروا وإلاّ فندعوا الله تعالى أن يحشرهم مع فرعون أينما كان... ويحشرنا نحن مع موسى بن عمران في أعلا الجنان .

أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا ﴿ ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾ قال مجاهد : زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان ، كقوله تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۞ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۞ (١٠١) ﴾

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء ، وكيف أهلك الكافرين ونجّى المؤمنين قال : ﴿ ذلك من أنباء القرى ﴾ أي أخبارهم ﴿ نقصه عليك منها قائم ﴾ أي عامر ﴿ وحصيد ﴾ أي هالك ، ﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي إذ أهلكناهم ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم ﴾ أي أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿ من دون الله من شيء ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم بإهلاكهم ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ أي غير تخسير وذلك انها سبب هلاكهم ودمارهم وخسران الدنيا والآخرة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۞ (١٠٢) ﴾

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۞ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۞ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ۞ (١٠٥) ﴾

يقول تعالى كما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا ، كذلك نفعل بأشباههم

﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ وفي الصحيحين عن ابي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٩٧ [ان الله ليملي للظالم حتى إذا اخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك اخذربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ... ﴾ الآية] ثم يقول تعالى : إن في اهلاكنا الكافرين وانجائنا المؤمنين ﴿ لآية ﴾ أي عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة كقوله تعالى : ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكنّ الظالمين ﴾ وقولهُ تعالى : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ أولهم وآخرهم كقوله تعالى : ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ فهو يوم عظيم تحضره الملائكة والرسل والخلائق جميعاً من الأنس والجن والحيوانات ويحكم فيه بالعدل لا يظلم الله فيه مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ، وقوله تعالى : ﴿ وما نؤخره الا لأجل معدود ﴾ أي ما نؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم وضرب مدة معينة اذا انقطعت وتكامل أولئك المقدّر خروجهم قامت الساعة ﴿ يوم يأتي لاتكلم نفس إلاّ بإذنه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لا يتكلمون إلاّ من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ وفي الصحيحين من حديث الشفاعة : ٥٩٨ [... ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم] وقوله تعالى : ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ أي من أهل الجمع – اي في يوم القيامة – شقي ومنهم سعيد كما قال تعالى : ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ (١) ثم بين تعالى حال الفريقين فقال : عز وجل :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۞ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ۞ (١٠٧) ﴾

يقول تعالى : ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ اي تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق لما هم فيه من العذاب عياذاً بالله من ذلك ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾ قال الإمام ابو جعفر بن جرير : من عادة العرب إذا ارادت ان تصف الشيء بالدوام أبداً ، قالت : هذا دائم دوام السموات والأرض ، أو : هو باق ما اختلف الليل والنهار ،

(١) قلت : أي من أطاع الأوامر وانتهى عن النواهي في الجنة ، ومن عصى ولم ينته ففي جهنم .

ويعنون بذلك كله : أبداً . فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال عز من قائل : ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إلا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد ﴾ كقوله تعالى ﴿ النار مثواكم خالدين فيها الا ما شـاء الله ان ربك حكيم عليم ﴾ وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على اقوال كثيرة واختار ابو جعفر بن جرير ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة وابن سنان ورواه ابن ابي حاتم عن ابن عباس : ان الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ،من الملائكة والنبيين والمؤمنين حتى يشفعوا في أصحاب الكبائر ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيراً قط ، وقال يوماً من الدهر لا إله الا الله كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها.وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً،في تفسير هذه الآية الكريمة . وقال السدي : هي منسوخة بقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ .



﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (١٠٨)

يقول تعالى : ﴿ وأما الذين سعدوا ﴾ وهم اتباع الرسل ﴿ ففي الجنة ﴾ اي فمأواهم الجنة ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ ما دامت السموات والأرض الا ما شاء ربك ﴾ معنى الاستثناء ها هنا : أن دوامهم في النعيم ليس أمراً واجباً بذاته بل هو تحت مشيئته تعالى فله المنة عليهم دائماً ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النَفَسُ وعقّب بذلك بقوله تعالى : ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ أي غير مقطوع ، قال ابن عباس ومجاهد ابو العالية وغير واحد لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثَمّ انقطاع بل حتم له بالدوام وعدم الانقطاع كما بيّن هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته وأنه بعدله وحكمته عذبهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [1] وهنا طيب القلوب وثبت

(١) راجع التعليق سورة يونس آية ٤٤ في توضيح معنى قوله تعالى : « لا يسأل عما يفعل ... »

المقصود بقوله عز وجل : ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ وقد جاء في الصحيحين : ٥٩٩ [يؤتى بالموت على صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا اهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت .]

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ۞ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۞ (١١٠) وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ (١١١) ﴾

يقول تعالى : ﴿ فلاتك في مرية مما يعبد هؤلاء ﴾ المشركون انه باطل وجهل وضلال فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات فسيعذبهم الله عذاباً لا يعذبه أحداً وان كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة ، ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به ، فلك بمن سلف من الأنبياء يا محمد أسوة ، فلا يغيظك تكذيبهم لك ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ﴾ قال ابن جرير لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضي بينهم ، ويحتمل أن يكون المراد إنه لا يعذب أحداً الا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسل .

ثم أخبر تعالى انه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر فقال جل جلاله : ﴿ وإن كلاً لمّا ليوفينـّهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير ﴾ أي عليم بأعمالهم جميعاً خيرها وشرها ظاهرة كانت أو باطنة كما في قوله ﴿ وإن كلٌ لما جميع لدينا محضرون . ﴾

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۞ (١١٣) ﴾

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة [١] وذلك من اكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان وهو البغي فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك وأعلَمَ تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يخفى عليه شيء وقوله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ أي لا ترضوا بأعمالهم ولا تميلوا إليهم ولا تستعينوا بهم فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ﴿ فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ أي ليس لكم ما ينقذكم منه ولا ناصر يخلصكم من عذابه .

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ❁ (١١٤) وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ❁ (١١٥) ﴾

قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ قال الحسن في رواية عن قتادة والضحاك وغيرهم : هي الصبح والعصر . وقد يحتمل ان تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء . إنما كان يجب من الصلاة صلاتان : صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها . وفي اثناء الليل قيام عليه ﷺ وعلى الأمة ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه ثم نسخ عنه أيضاً في قول ... وقوله تعالى : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئآت ﴾ يقول ان فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان : ٦٠٠ [عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضألهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وقال « من توضأ وضوني هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه »] روى مسلم في صحيحه عن ابي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : ٦٠١ [الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر] وقال ابو جعفر بن جرير عن ابي مالك الأشعري قال قال رسول الله ﷺ : ٦٠٢ [جعلت الصلوات كفارات لما بينهن فإن الله تعالى قال ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئآت ﴾ .

---

(١) قلت : ان كل استقامة على غير ما أمر الله تعالى فهي ليست استقامة لذا يجب أن تكون الأعمال طبق ما أمر الله تعالى وبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم وإلا فهي مردودة غير مقبولة ولذا قال تعالى : فاستقم كما أمرت . » وقال /ص/ (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد) وعلى هذا فإن كل بدعة في الدين ضلالة وكل ضلالة في النار .

وروى الإمام مسلم والترمذي والنسائي وابن جرير عن ابن مسعود قال : : ٦٠٣ [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير اني لم أجامعها قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك فافعل بي ما شئت فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً فذهب الرجل . فقال عمر لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال « ردوه علي » فردوه عليه فقرأ عليه : ﴿ أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئآت ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ فقال معاذ - وفي رواية عمر - يا رسول الله أله وحده أم للناس كافة ؟ فقال : « بل للناس كافة »]

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٠٤ [إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وان الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلاّ من أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبُه ولسانهُ ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه قال : قلنا وما بوائقه يا نبي الله قال : « غشه وظلمه ولا يكسب عبد مالاً حراماً فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلاّ كان زاده إلى النار ان الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن ان الخبيث لا يمحو الخبيث] وقال الإمام أحمد عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال له : ٦٠٥ [يا معاذ اتبع السيئة الحسنة تمحُها وخالق الناس بخلق حسن] .

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۞ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۞ (١١٧) ﴾

يقول تعالى فهلاّ وجد من القرون الماضية من قبلكم بقايا من اهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من المفاسد في الأرض ، وقوله تعالى : ﴿ إلا قليلاً ﴾ أي قد وجد منهم من قليل من هذا النوع وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته ، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة بقوله عز وجل : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ و ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ وفي الحديث : ٦٠٦ [ان الناس إذا

رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب] ولهذا قال تعالى : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الارض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ﴾ أي استمروا على معاصيهم ، ولم ينكرها أحد منهم حتى فجأهم العذاب ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ أي لم يأت بأس الله وعذابه قريةً وأهلها صالحون قط بل حتى يكونوا هم الظالمين كقوله تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۞ (١١٩) ﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمةً واحدةً من إيمان أو كفر كقوله تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين ۞ الا من رحم ربك ﴾ أي ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم ، واعتقاد مللهم ونحلهم ومذاهبهم . قال عكرمة : مختلفين في الهدى وقوله تعالى : ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ أي إلاّ المرحومين من اتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمر الله من الدين الذي اخبرتهم به الرسل ، فكانوا من الفرقة الناجية . وقال قتادة : أهل رحمة الله أهل الجماعة وان تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة وان اجتمعت ديارهم وأبدانهم وقوله تعالى : ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ قال ابن وهب عن طاووس أن رجلين اختصما إليه إليه فأكثرا فقال طاووس اختلفتما واكثرتما فقال أحد الرجلين : لذلك خلقنا فقال طاووس : كذبت ، فقال : أليس الله تعالى يقول : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ قال لم يخلقهم ليختلفوا ولكن خلقهم للجماعة والرحمة كما قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة . ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون ﴾ وقال الحسن البصري في رواية عنه قوله تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلامن رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ قال: الناس مختلفون على أديان شتى ﴿ إلا من رحم

ربك ﴾ غير مختلف فقيل : لذلك خلقهم قال : خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره . وكذا قال عطاء والأعمش . وقال ابن وهب سألت مالكاً عن قوله تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ قال : فريق في الجنة وفريق في السعير . وقوله تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأ ن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ يخبر تعالى أنه سبق في علمه التام أن مِنْ خاتمه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار وأنه لا بد من أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والأنس وله الحجة البالغة والحكمة التامة .

ومن بعض حديث في الصحيحين : ٦٠٧ [... فقال الله عز وجل للجنة : انت رحمتي ارحم بك من أشاء وقال للنار : أنت عذابي انتقم بك ممن أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها] .

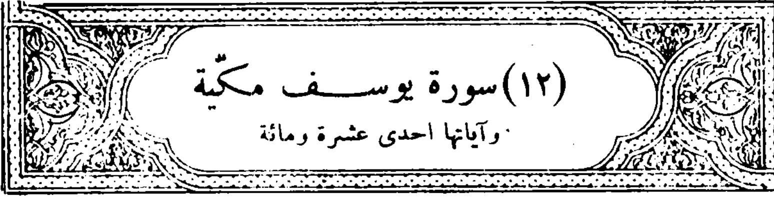
وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ۞ (١٢١) وَٱنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ۞ (١٢٢)

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ (١٢٣)

يقول تعالى وكل من الأخبار نقصُّها من أنباء الرسل المتقدمين وأممهم ، وما كان من المحاجَّات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى وما كان من نصره تعالى لحزبه المؤمنين وخذل اعدائه الكافرين . كل هذا مما نثبِّت به قلبك يا محمد ليكون لك اسوة بالأنبياء. وقوله تعالى: ﴿ وجاءك في هذه الحق ﴾ أي هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء ، والموعظة التي تردع الكافرين وتذكر المؤمنين ثم يأمر رسوله ﷺ ان يقول للكافرين ﴿ إعملوا على مكانتكم ﴾ اي على طريقتكم ﴿ إنا عاملون ﴾ أي على طريقتنا ﴿ وانتظروا إنا منتظرون ﴾ من تكون له العاقبة وقد أنجز الله وعده لرسوله فنصره وأيده وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى وإنَّه سبحانه عالم غيب السموات

والأرض وإليه المآب وسيؤتَى كلٌّ عملَه يوم الحساب فله الخلق والأمر ، فأمرَ تعالى بعبادته والتوكل عليه فانه كافٍ من توكّل عليه وأناب إليه ، وقوله تعالى : ﴿ وما ربك بغافلٍ عما تعملون ﴾ أي لا يخفَى ما عليه مكذبوك يا محمد بل هو عليم بأحوالهم واقوالهم وسيعاقبهم على كفرهم في الدنيا والآخرة ، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين .
آخر سورة هود والحمد لله على نعمائه أولاً وآخراً .

١٣٨٩/١/٩


(١٢) سورة يوسف مكيّة
وآياتها احدى عشرة ومائة

إلاّ الآيات : ١ و ٢ و ٣ و ٧ فمدنية نزلت بعد سورة هود

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ ۞ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَافِلِينَ ۞ (٣) ﴾

أما الكلام على الحروف المقطّعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله تعالى : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي ، المفصح عن الأشياء المبهمة ويفسّرها ويبيّنها ﴿ إنّا أنزلناه قرآنا عربيّاً لعلكم تعقلون ﴾ ذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأديةً للمعاني التي تقوم بالنفوس.فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة،وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وابتُدِىءَ إنزاله بأشرف شهور السنة وهو رمضان [١] فكمل من كل الوجوه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ نحن نقصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هـذا القرآن ﴾ وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير عن ابن عباس قال ٦٠٨ : [قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا ؟ فنزلت : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾]. بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن .

وبما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن ، وأنه كاف عن

(١) فصار العرب بهذا القرآن وهذا النبي أشرف الأمم حينما اتخذوا القرآن رائداً والرسول قائداً ولكن لما تخلوا عنهما صاروا نهباً لأذل الأمم وأقذر الشعوب جزاء تخليهم عن مهمّاتهم العظمى في العالمين .

كل ما سواه من الكتب ما رواه الامام أحمد عن جابر بن عبدالله ٦٠٩ [ان عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ . قال فغضب وقال : « امتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لاتسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه ، أو بباطل فتصدقونه ، والذي نفسي بيده ، لو أن موسى كان حياً ما وسعه الا أن يتبعني »] وروى الامام أحمد عن عبدالله ابن ثابت ٦١٠ : [جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظه ، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ قال فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبدالله بن ثابت فقلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله رباً ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً . قال : فسري عن النبي ﷺ وقال : « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، انكم حظي من الأمم وانا حظكم من النبيين »] .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) ﴾

يقول تعالى : اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه وهو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام كما روى الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : ٦١١ [الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم] انفرد باخراجه البخاري .

وقال ابن عباس : رؤيا الانبياء وحي ، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن اخوته ، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه . روي هذا عن ابن عباس وغيره وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة . وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره واخوته بين يديه ﴿ وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً . ﴾

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) ﴾

يخبر تعالى عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له ، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وتكريماً . فخشي يعقوب عليه السلام ان يحدث بهذا المنام أحداً من أخوته ، فيحسدونه فيغتالونه ، ولهذا قال : ﴿لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيداً﴾ أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها ولهذا ثبت عنه ﷺ انه قال : ٦١٢ [إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به وإذا رأى ما يكره ، فليتحول إلى جنبه الآخر ، وليتفل عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من شرها ، ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره .] ومن هذا يؤخذ الامر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر كما ورد في الحديث : ٦١٣ [استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها ، فإن كل ذي نعمة محسود .]

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ (٦) ﴾

يخبر تعالى عن قول يعقوب لولده يوسف : انه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ ويختارك لنبوته ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ أي تعبير الرؤيا ﴿ويتم نعمته عليك﴾ أي بإرسالك والإيحاء اليك ، ولهذا قال تعالى : ﴿كما أتمها على ابويك من قبلُ ابراهيم﴾ أي الخليل ﴿واسحق﴾ ولده ﴿ان ربك عليم حكيم﴾ أي هو أعلم حيث يجعل رسالته كما قال في الآية الأخرى .



﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَٰتٌ لِلسَّآئِلِينَ ۞ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُبِينٍ ۞ (٨) ٱقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَٰلِحِينَ ۞ (٩) قَالَ قَآئِلٌ

مِنهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى لقد كان في قصة يوسف مع أخوته عبرة وموعظة للسائلين عن ذلك : ﴿ اذ قالوا ليوسف واخوه أحب إلى أبينا منا ﴾ فكيف أحب أبونا يوسف واخاه بنيامين وكان شقيقه ﴿ ونحن عصبة ﴾ أي جماعة ﴿ ان أبانا لفي ضلال مبين ﴾ أي لا حق له في هذا التفضيل .

إعلم انه لم يقم دليل على نبوة اخوة يوسف ، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ومن الناس من يزعم أنهم أوحي اليهم بعد ذلك ، وفي هذا نظر ، ولم يذكروا من دليل سوى قوله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ﴾ وهذا قيد احتمال لأن بطون اسرائيل يقال لهم الأسباط ، ويذكر تعالى انه أوحى إلى الأنبياء من اسباط بني اسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون ولكن كل سبط من نسل رجل من اخوة يوسف ، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم والله اعلم . ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم ﴾ أي إنه يزاحمكم في محبة أبيكم لكم فإما أن تقتلوه ، أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه فيبقى أبوكم لكم وحدكم ﴿ وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ فأضمروا التوبة قبل الذنب ﴿ قال قائل منهم ﴾ أي أحدهم : ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ أي لا يؤدي بكم بغضه إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى مقدر له ان يكون نبيا ، وان يكون له التمكن ببلاد مصر والحكم بها ، فصرفهم الله عن قتله بمقالة أحد إخوته بـأن يلقوه في غيابة الجب اي أسفله ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ اي المارة من المسافرين فتستريحوا منه ﴿ ان كنتم فاعلين ﴾ أي ان كنتم عازمين على ذلك . قال محمد بن اسحق بن يسار : لقد اجتمعوا على امر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير دونما ذنب فقد احتملوا أمراً عظيماً غفر الله لهم [1] .

(١) وهذا مما يؤيد أن أخوة يوسف ليسوا أنبياء فمثل هذه الأعمال من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة ، ومحاولة القتل ، والكذب على أبيهم بالتالي . كل هذا ... يدل على أن من يحمل مثل هذه الأخلاق لا يكون من الأنبياء . هذا فيما يبدو والله تعالى أعلم .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۞ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۞ (١٢) ﴾

لما تواطأوا على طرحه في البئر جاءوا أباهم ﴿ مالك ﴾ ما بالك ﴿ لا تأمنّا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ وهذه توطئة ودعوى ، وهم يبطنون الوقيعة حسداً منهم لأخيهم ﴿ أرسله معنا ﴾ أي ابعثه معنا ﴿ يرتع ويلعب ﴾ أي يسعى وينشط ﴿ وانا له لحافظون ﴾ أي نحفظه ونحوطه .

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ۞ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ ۞ (١٤) ﴾

يخبر تعالى ان نبيه يعقوب عليه السلام أجاب بنيه : ﴿ إني ليحزنني ان تذهبوا به ﴾ أي يشق على مفارقته لحين رجوعه ، لفرط محبته ليوسف لما يتوسم فيه من شمائل النبوة والكمال في الخَلْق والخُلُق صلوات الله وسلامه عليه ، وقوله : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ أي اخشى ان تسهوا عنه فيأكله الذئب ﴿ قالوا لئن اكله الذئب ونحن عصبة إنّا إذاً لخاسرون ﴾ أي لئن عدا الذئب عليه ونحن جماعة إنا إذاً لهالكون عاجزون عن حمايته ـ والمعنى : لن نمكّن الذئب وكيف ذلك ، ونحن جماعة ؟ إذاً ما نحن برجال ـ

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ (١٥) ﴾

يقول تعالى : فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ﴾ اي إنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في اسفل البئر وقد أخذوه من

عند أبيه وهم يظهرون له الإكرام شرحاً لصدره ، وادخال السرور عليه فلما بعثه يعقوب معهم ضمه إليه وقبله ودعا له ، فما أن تواروا عن أعين ابيه إلاّ وشرعوا يؤذونه شتماً وضرباً ثم ربطوه بحبل ودلّوه في الجب . فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه ، واذا تشبث بحافة البئر ضربوا على يديه ، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة . فسقط في الماء فغمره . فصعد إلى صخرة في وسطه فقام فوقها .

وقوله تعالى : ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته . وانزاله اليسر حالَ العسر : إنه اوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيّق . تطييباً لقلبه وتثبيتاً له ، إنك لا تحزن مما أنت فيه فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً ، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع . وقوله تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ اي وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك .

﴿ وَجَآءُو أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۞ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ۞ (١٧) وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۞ (١٨) ﴾

يخبر تعالى عما اعتمده أخوة يوسف من الخداع لأبيهم بعدما ألقوه في أسفل الجب فقد رجعوا ليلاً يبكون . مظهرين الأسف على يوسف . معتذرين عما وقع فيما زعموا : ﴿ إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أي ثيابنا وأمتعتنا ﴿ فأكله الذئب ﴾ وهو الذي كان قد جزع يعقوب منه . وحذر عليه ، وقوله ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ أي ونحن نعلم انك لا تصدقنا ولو كنا عندك صادقين . فكيف وأنت تتهمنا في ذلك . لأنك خشيت أن يأكله الذئب وقد أكله فعلاً . وانا نعذرك في عدم تصديقك لنا لغرابة الحادثة ومن عجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب أي مفترى ، فقد عمدوا إلى سخلة فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها موهمين أنه قميصه الذي أكله فيه الذئب وقد أصابه من دمه . ولكنهم نسوا ان يُخرّقوه ، فلم يتقنوا

ترويج أكذوبتهم التي لم تنطلِ على يعقوب عليه السلام ولذا قال: ﴿ بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ أي فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ أي على ما تذكرونه من الكذب والمحال. والصبر الجميل هو الصبر الذي لا شكوى فيه كما ذكر ذلك في حديث مرسل.

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٩) ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّاهِدِينَ ﴾ (٢٠)

يخبر تعالى عما جرى ليوسف عليه السلام في الجب حين تركوه فيه وحيداً فمكث كذلك ثلاثة أيام فساق الله له سيّارةً. فنزلوا قريباً من البئر وأرسلوا واردهم، وهو الذي يتطلب لهم الماء فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه، واستبشر به وقال: ﴿ يا بشرى هذا غلام ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وأسرّوه بضاعة ﴾ أي وأسرَّه الواردون، من بقية السيارة، وقالوا: اشتريناه وتبضَّعناه مِنْ اصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره. وقوله تعالى: ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ أي بما يفعله أخوة يوسف ومشتروه، والله قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق فترك ذلك ليمضي قدره وقضاه[1] كما أنه أيضاً تعريض لرسوله محمد ﷺ بأنه عالم بأذى قومه له وستكون العاقبة له كما كانت ليوسف عليه السلام. وقوله تعالى: ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل ناقص أي اعتاض عنه إخوته بثمن أقل من القليل ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ أي ليس لهم رغبة فيه حتّى لو سألوه بلاشيء لأجابوا. قال ابن عباس ومجاهد والضحاك ان الضمير عائد في قوله تعالى: ﴿ وشروه ﴾ على اخوة يوسف لا على السيارة. وهذا أقوى لأن قوله تعالى: ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ إنما اراد اخوته لا أولئك السيارة، لان السيارة استبشروا به وأسرّوه بضاعة ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فترجّح هذا القول على غيره. وهكذا فقد باعته السيارة بمصر فاشتراه العزيز.

(١) قلت: وليعمل كل بما يختار من العمل ثم يجزى كل بما يستحق على عمله خيراً كان أو شراً لأن الإنسان في كل ما هو مكلف به خيرّه الله تعالى كل الاختيار ليكون مستحقاً للجزاء أو العقاب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِٱمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (٢٢)﴾

يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام أنه هيأ له من اشتراه من مصر حتى اعتنى به واكرمه وأوصى أهله به، وتوسّم فيه الخير والصلاح فقال لامرأته: ﴿اكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾ وكان الذي اشتراه وزيراً على خزائن مصر وكان العزيز ذا فراسة بيوسف وذلك ظاهر من قوله: ﴿اكرمي مثواه﴾. ويقول تعالى: ﴿وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض﴾ أي كما أنقذنا يوسف من اخوته كذلك مكناه في بلاد مصر ﴿ولنعلّمه من تأويل الأحاديث﴾ أي تعبير الرؤيا ﴿والله غالب على أمره﴾ أي إذا اراد لا يردّ. ولا يمانع بل هو الغالب لما سواه. فعال لما يشاء، وقوله تعالى: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يدرون حكمته وفعله لما يريد. وقوله تعالى: ﴿ولما بلغ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿أشده﴾ أي استكمل عقله وخلقه، وبلغ الحلُم، وكان ذلك في سن الثماني عشرة ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ يعني النبوة. انه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي انه كان محسناً في عمله، عاملاً بطاعة الله تعالى.

﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ ۞ (٢٣)﴾

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه فراودته عن نفسه، أي حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت الأبواب عليه

ودعته إلى نفسها ﴿ وقالت هيت لك ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع و ﴿ قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ﴾ وكانوا يطلقون الربَّ ، على السيد الكبير ، أي ان بعلك ربيّ أي سيدي أحسن مثواي أي منزلي ، وأحسن إليَّ فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿ انه لا يفلح الظالمون ﴾ وقد اختلف القراء في قوله : ﴿ هيت لك ﴾ أي تهيأت لك كما روي ذلك عن ابن عباس وأبي عبد الرحمن السلمي ، وأبي وائل ، وعكرمة وقتادة ، وقيل معناها : تعالَ ، واقتربْ ، وكلّها معانٍ متقاربة والله تعالى أعلم .

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ۞ (٢٤) ﴾

اختلفت أقوال المفسرين وعباراتهم ، في هذا المقام ، فقيل المراد بهمِّه خطرات حديث النفس ، وقيل همَّ بضربها ، وقيل تمنّاها زوجة ، وقيل همَّ بها لولا ان رأى برهان ربه ، أي : فلم يهمّ بها (١) وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال أيضاً والصواب أن يطلق كما جعله الله مطلقاً أي دون تحديد برهانٍ معين (٢) ، إنما هو برهان صرف الله به

(١) قلت : وهذا هو الحق والأليق بالنبي ابن النبي ابن النبي ابن النبي ، والكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم وهو يوسف الصديق النبي بن النبي يعقوب بن النبي اسحق بن النبي ابراهيم خليل الله صلى الله عليهم وسلم . وهذا الأليق بمقامه الكريم عليه الصلاة والسلام اذ لولا وجود البرهان لهمَّ ولكن لما وجد البرهان ما همَّ .

(٢) قلت : أما البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام فقد قيلت فيه أقوال شتى ... فمن قائل أنه رأى صورة أبيه يعقوب عاضاً على أصبعه بفمه . ، ومن قائل أنه رأى خيال العزيز حين دنا من الباب ، ومن قائل انه رفع رأسه إلى سقف البيت ، فاذا كتاب في حائط البيت : « لا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا » ومن قائل أنه رأى آيات أخرى وما إلى ذلك ... والذي يميل قلبي إليه ، والله تعالى أعلم ، فإن أصبت فمن الله ، وإن أخطأت فمن نفسي وأتوب إلى الله. وهو : ان البرهان صريح واضح في الآية رقم /٢٢/ من هذه السورة وهي قوله تعالى : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين » أي : ولما بلغ يوسف مبلغ الرجال آتاه الله الحكم والعلم أي النبوة ، وهذا قبل أن تراوده امرأة العزيز عن نفسه ، وذلك واضح من ورود الآية التي فيها خبر تكريم الله له بالنبوة ... قبل الآية التي فيها خبر المراودة ، إذاً فلما راودته كان نبياً عرفه الله بنبوته وبمقام الإحسان الذي هو عبادة الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه فالبرهان إذاً هو معرفته بنبوته وأنه سليل الأنبياء وأن الله يراه في جميع أحواله وهذا ظاهر من آخر الآية : « وكذلك نجزي المحسنين » ولذلك أجابها فوراً وبلا أي تردد : « معاذ الله ... » فتحققه في مقام الإحسان لم يدع مجالا له للهم بها مطلقاً فأين ومتى وكيف وقع الهم منه ... ؟ وهو المطمئن الموقن بأن الله يراه ويعلم سره ونجواه ، أجل إنه : « قال معاذ الله ... » واستبق الباب هارباً منها وهي التي لحقت به وقدت قميصه من دبر ، إلى أن فوجئآ بدخول العزيز ... فأين الهم وحديث النفس بالفاحشة مع هذا الموقف العظيم الذي لا يقفه إلا الأنبياء أمثاله ، وهكذا فلولا ان رأى برهان ربه لهمَّ ولكنه رأى البرهان فما همَّ إذ لما وجد البرهان امتنع الهم . والله تعالى أعلم وهو الموفق والهادي إلى الصواب .

يوسف عن السوء والفحشاء ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ أي كذلك نقيه السوءَ والفحشاء في جميع أموره ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ أي من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار ، صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٢٥) قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ (٢٧) فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۞ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ۞ (٢٩) ﴾

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب : يوسف هارب ، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت ، فلحقته وامسكت بقميصه من ورائه فقدته قداً فظيعاً وبينما هي في أثره فألفيا زوجها عند الباب ، عندها غيرت موقفها بمكرها وكيدها متنصلةً أمام زوجها وقاذفةً يوسف بدائها وقالت : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءً ﴾ أي فاحشةً ، ﴿ إلاّ أن يسجن ﴾ أي يحبس ، ﴿ أو عذاب أليم ﴾ أي يضرب ضرباً شديداً ، فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق ، وتبرأ مما رمته به من الخيانة و ﴿ قال ﴾ صادقاً : ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ وذكرانها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه ﴿ وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدَّ من قُبُلٍ ﴾ أي من قدّامه ﴿ فصدقت ﴾ في قولها انه راودها على نفسها لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه ودفعته في صدره ، فقدّت قميصه فيصح ما قالت ﴿ وان كان قميصه قدَّ من دُبُرٍ فكذبت وهو من الصادقين ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبته فأمسكت بقميصه لترده فقدت قميصه من ورائه . اختلفوا في هذا الشاهد ، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ قال كان صبياً في المهد ، وكذا روي عن أبي هريرة وهلال بن يساف ، والحسن ،

وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم أنه كان صبياً في الدار ، واختاره ابن جرير وقد ورد فيه حديث مرفوع فروى ابن جرير عن ابن عباس عن النبي ﷺ : ٦١٤ [« تكلم أربعة وهم صغار » فذكر فيهم شاهد يوسف] وقوله تعالى : ﴿ فلما رأى قميصه قدَّ من دبر ﴾ أي لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿ قال إنه من كيدكن ﴾ أي هذا البهت التي لطخت به عرض هذا الشاب من جملة كيدكن ﴿ ان كيدكن عظيم ﴾ ثم قال آمراً يوسف بكتمان ما وقع ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ أي لا تذكره لأحد ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ أي الذي وقع منك بإرادة السوء بيوسف ، ثم قذفه بما هو بريء منه ﴿ انك كنت من الخاطئين ﴾ .



﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّاغِرِينَ ۝ (٣٢) قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَاهِلِينَ ۝ (٣٣) فَٱسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ (٣٤) ﴾

يخبر تعالى ان خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة حتى تحدث به الناس ﴿ وقال نسوةٌ في المدينة ﴾ مثل نساء الكبراء بمصر ينكرن على امرأة العزيز ويعبْنَها ويقلن : ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ أي تدعو غلامها إليها ﴿ قد شغفها حباً ﴾ والشغف الحب القاتل ﴿ انا لنراها في ضلال مبين ﴾ أي في صنيعها هذا ﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾

اي بلغهن حسن يوسف فقلن ذلك القول ليتوصلن إلى مشاهدته ، عندها ﴿ ارسلت اليهن﴾ اي دعتهن لضيافتها ﴿ وأعتدت لهنّ متكأً ﴾ أي مفارش ومخاد وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين كالفاكهة ولهذا قال تعالى : ﴿ وآتت كل واحدة منهن سكيناً ﴾ تريد أن تمكر بهن بمكر أعظم من مكرهن ، ﴿ وقالت أخرج عليهن ، فلمّا ﴾ خرج و ﴿ رأينه أكبرنه ﴾ أي أدهشهنّ حسنُه فقطّعن أيديهن أثناء قطعهن الفاكهة ولم يشعرن لدهشهن بحسن يوسف ويظنّ أنهن يقطعن الفاكهة بينما هن يحززْن السكاكين بأيديهن ، فلما أحسسن جعلن يولولن ، فقالت امرأة العزيز : انتن من نظرة واحدة فعلتن هذا ... فكيف ألام أنا ؟ ﴿ فقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ ثم قلن لها : وما نرى عليك من لوم بعد ما رأينا ... فانه عليه الصلاة والسلام كان قد أعطي شطر الحسن كما ثبت ذلك في حديث الإسراء الصحيح : ٦١٥ [أن رسول الله ﷺ مرّ بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة قال : « فإذا هو قد اعطي شطر الحسن »] وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : قال رسول ﷺ : ٦١٦ [أعطي يوسف وأمه شطر الحسن] فلهذا قال هؤلاء النسوة : ﴿ حاش لله ﴾ أي معاذ الله ﴿ ما هذا بشراً إن هذا الا ملك كريم ﴿ قالت فذلكن الذي لمتنّني فيه ﴾ تقول هذا ... معتذرة إليهن بأن هذا حقيق ان يحب لجماله وكماله ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أي فامتنع وهذا الامتناع من جمال الخلق ، وهكذا اجتمع ليوسف كمال جمال الخلْقِ والخُلق أي كان جميلاً مستعصماً ثم قالت تتوعده مهددة : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكوناً من الصاغرين ﴾ فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهنّ وكيدهن ، و ﴿ قال رب السجن أحب إليّ مما يدعونني اليه ﴾ أي من الفاحشة ﴿ وإلاّ تصرف عني كيدهنّ أصبُ إليهن ﴾ أي إن وكلتني إلى نفسي فلا املك لها ضراً ولا نفعاً إلاّ بحولك وقوتك ، أنت المستعان وعليك التكلان . فلا تكلني إلى نفسي ﴿ أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه ﴾ وذلك بأن عصمه الله عصمةً عظيمةً وحماه فامتنع من امرأة العزيز واختار السجن على ذلك ، وهذا في غاية مقامات الكمال برغم وفور شبابه وجماله تدعوه سيدته وهي ايضاً في غاية الجمال والمال والرياسة فيمتنع ويختار السجن خوفاً من الله ، ورجاء ثوابه .

ولهذا ثبت في الصحيحين ان رسول الله ﷺ قال : ٦١٧ [سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله امام عادل ... – إلى ان ذكر – ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ...] الحديث ...

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ۞ (٣٥)

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۞ (٣٦)

يقول تعالى ثم ظهر من المصلحة لهم فيما رأوا ... انهم يسجنونه الى حين بعد ما تثبت دالة صدقه وعفّته ، إنما سجنوه لما شاع الحديث ، إيهاماً أنه راودها عن نفسها ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج نقي العرض طاهر الذيل صلوات الله عليه وسلامه . أما الفتيان اللذان دخلا معه السجن كان أحدهما ساقي الملك والآخر خبازه ، فأحبّاه حباً جماً لما رأيا منه ولما اشتهر في السجن بالجود والأمانة والصدق ، وحسن السمت ، وكثرة العبادة ،ومعرفة التعبير والإحسان الى أهل السجن وعيادة مرضاهم ، والقيام بحقوقهم ، وانهما رأيا مناماً فرأى الساقي انه يعصر خمراً يعني عنباً فقال يوسف تمكث في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقي الملك خمراً ، وقال الخباز اني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ، ففسر له أنه سيصلب وتأكل الطير من رأسه . وقيل انه لم يعين لكل منهما تفسير منامه وقد أبهمهما لئلاّ يحزن من فُسِّر منامُه بالصلب كما سيأتي ذكر ذلك قريباً...وقال ابن جرير عن عبدالله بن مسعود قال : ما رأى صاحبا يوسف شيئاً، إنما كانا تحالماليجرّباعليه.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۞ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۞ (٣٨)

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ولهذا قال : ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلاّ نبأتكما بتأويله ﴾ قال مجاهد : يقول : ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه ﴾ في يومكما ﴿ الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ وكذا في السدي . ثم قال : وهذا انما هو من تعليم الله إياي ، لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد ﴿ واتبعت ملة آبائي إبراهيم واسحق ويعقوب ﴾ الآية ... يقول هجرت طريق الكفر والشرك ، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . ومن يكون كذلك فإن الله يهدي قلبه ، ويعلمه ما لم يكن يعلم ، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير ، وداعياً الى سبيل الرشاد ﴿ ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ وهو الإقرار بالتوحيد بأنه لا إله الا الله وحده لا شريك له وفضله تعالى هو : ما أوحاه الينا وأمرنا به أما فضله على الناس إذ جعلنا دعاةً لهم الى ذلك ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل اليهم واتباعهم فيما أمروهم ونهوهم وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس انه كان يجعل الجد أباً ، ويقول : والله لمن شاء لاعنته عند الحجر ، ما ذكر الله جداً ولا جدةً قال الله تعالى : ﴿ واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب ﴾

﴿ يَاصَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۞ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٤٠) ﴾

لما رأى يوسف عليه السلام في سجية الفتيين من قبول الخير والأقبال عليه والإنصات له فقد ارتأى تقديم دعوة التوحيد والإيمان بالله الواحد القهار على تعبير رؤياهما ، لما في ذلك التقديم من الأهمية العظمى ، فأقبل عليهما يخاطبهما : ﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ اي الذي ذل كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه خير أم تلك التي يعبدونها ويسمّونها آلهة ، انما هي تسمية منهم ومن تلقاء أنفسهم تلقاها

خلفهم عن سلفهم وليس لذلك مستند من عند الله ولهذا قال: ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أي من حجة ولا برهان ثم أخبرهم ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ الذي لـه التصرف والمشيئة والملك ﴿ أمر الاّ تعبدوا إلا إياه ﴾ ثم قال سبحانه : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي هذا هو الدين الذي ادعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذي يحبه ويرضاه ﴿ ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي فلهذا كان اكثرهم مشركين . ولما فرغ من دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال فقال :

﴿ يَا صَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ۞ (٤١) ﴾

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ ٱلشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ۞ (٤٢) ﴾

يقول لهما : ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ﴾ باشر بتفسير منامهم بعد ان اطمأن عليه السلام أنه بلّغ الدعوة دعوة التوحيد وقدمهـا حسب اهميتها عـلى التفسير فقال : أما أحدكما تفسير منامه وانه سيسقي ربّه خمراً أي الملك .

﴿ وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ اي سيصلبه الملك وتأتي الطير وتأكل من رأسه ، وهكذا فإنه عليه السلام لم يعين كل واحد على حدة لئلا يحزن ذاك ولهذا أبهمه في قوله : ﴿ وأما الآخر ... ﴾ وهو – في نفس الأمر – الذي رأى أنه يحمـل فوق رأسه خبزاً . قال الثوري عن ابراهيم بن عبدالله قال : لما قالا ما قالا واخبرهما ، قالا : ما رأينا شيئاً فقال : ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ وكذا روي عن ابن مسعود وكذا فسره مجاهد وغيره وحاصله ان من تحلّم بالباطل ، وفسره فانه يلزم بتأويله والله تعالى أعلـم .

وروى الإمام أحمد عن معاوية عن حيدة ، عن النبي ﷺ : ٦١٨ [الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت] وفي مسند أبي يعلى عن أنس مرفوعا : ٦١٩ [الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبّر فإذا عبرت وقعت] وفي مسند أبي يعلى عن أنس مرفوعا

٦٢٠ [الرؤيا لأول عابر] وقوله تعالى : ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ أوصى يوسف عليه السلام من ظن أنه ناج : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ أي ذكِّر الملك بقصّتي فنسي ذلك ، وكان ذلك من جملة مكايد الشيطان لئلا يخرج نبي الله من السجن ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ أي أن الشيطان أنسى الذي أوصاه يوسف ان يذكره عند الملك ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ والبضع هو ما بين الثلاث إلى التسع والله تعالى أعلم .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ انَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قدر الله في الرؤيا التي رآها الملك السبب في خروج يوسف عليه السلام من السجن معززاً مكرماً ، وقد هالت الملك هذه الرؤيا وتعجب من أمرها فجمع الكهنة وكبار الدولة وامراءها فقصها عليهم فلم يعرفوا تأويلها واعتذروا إليه بأنها : ﴿ أضغاث أحلام ﴾ أي أخلاط أحلام ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ أي حتى ولو كانت رؤيا صحيحة

لماكان لنا معرفة بتأويلها » تذكّر الفتى الذي كان أوصاه يوسف أن يذكره عند الملك فقال لهم بعد نسيان امر يوسف : ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ أي فابعثوني إلى يوسف الصديق الى السجن فبعثوه ، فجاء ، فقال : ﴿ يوسف ايها الصديق أفتنا ﴾ وذكر المنام ... فعند ذلك ذكر اه يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى على نسيانه ما وصّاه به بل قال : ﴿ تزرعون سبع سنين دأباً ﴾ أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ففسر البقر بالسنين ، لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزروع ، وهن السنبلات الخضر ثم ارشدهم إلى ما يعتدونه في تلك السنين فقال : ﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ يعني ادخروا غلات السبع سنين في سنبله ليكون أبقى له ، وأبعد عن اسراع الفساد إليه الا المقدار الذي تأكلونه ، وليكن قليلاً قليلاً ، لا تسرفوا فيه لتنفقوا في السبع الشداد ، وهن السنون المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات ، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان ، لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب ، وهن السنبلات اليابسات ، وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئاً ، وما بذروه فلا يرجعون منه الى شيء ، ولهذا قال : ﴿ يأكان ما قدمتم لهن الاّ قليلاً مما تحصنون ﴾ ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس أي يمطرون وتغل البلاد . ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه وسكر ونحوه ويدخل فيه حلب اللبن ﴿ وفيه يعصرون ﴾ أي يحلبون .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۞ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ ۞ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَائِنِينَ ۞ (٥٢)

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِٱلسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٥٣)

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه وأيقنه، فعرف فضل يوسف عليه السلام وحسن اطلاعه وحسن اخلاقه على من ببلده فقال: ﴿ ائتوني به ﴾ أي احضروه ، فلما جاء الرسول بذلك امتنع من الخروج من السجن حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه مما نسب اليه من جهة امرأة العزيز وان سجنه كان ظلماً وعدواناً فقال : ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وصبره ، صلوات الله وسلامه عليه ففي الصحيحين والمسند عن ابي هريرة (رض) قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٢١ [نحن احق بالشك من ابراهيم إذ قال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ الآية ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي] وفي لفظ لأحمد عن ابي هريرة عن رسول الله ﷺ في قوله : ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴾ فقال رسول الله ﷺ ٦٢٢ [لو كنت أنا لأسرعت الإجابة ، وما ابتغيت العذر »] .

وقوله تعالى : ﴿ قال ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ اخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن ايديهن عند امرأة العزيز ، فقال مخاطباً لهن كلهن وهو يريد امرأة العزيز عما فعلن بأنفسهن يوم الضيافة ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ فعند ذلك : ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ﴾ أي ظهر وتبين ﴿ أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ﴾ أي في قوله : ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾تقول : انما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وانما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة﴿ وان الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرىء نفسي ﴾ تقول المرأة : ولست أبرىء نفسي فإن النفس تتحدث وتتمنّى ، ولهذا روادته لأن ﴿ النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾ إلاّ من عصمه الله تعالى ﴿ ان ربي غفور رحيم ﴾وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب لسياق القصة ومعاني الكلام . وقد حكاه الماوردي في تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام ابو العباس ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة .

وقد قيل : ان ذلك الكلام كلام يوسف عليه السلام يقول : ﴿ ذلك ليعلم اني لم أخنه ﴾ في زوجته ﴿ بالغيب ﴾ الآيتين ... والقول الأول أقوى وأظهر ، لأن سياق الكلام

كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم بل بعد ذلك أحضره الملك (١) .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ❁ (٥٤) قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ❁ (٥٥) ﴾

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ❁ (٥٦) وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ❁ (٥٧) ﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب اليه قال : ﴿ ائتوني به استخلصه لنفسي ﴾ أي اجعله من خاصّي واهل مشورتي ﴿فلما كلّمه﴾ أي خاطبه وعرف فضله وبراعته، وما هو عليه من خَلْق وخُلُق وكمال، قال له الملك : ﴿ انك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ أي إنك عندنا ذو مكانة وأمانة ، فقال يوسف عليه السلام : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ ويجوز للرجل مدح نفسه إذا جُهل أمرُهُ للحاجة فذكر أنه خازن أمين ذو علم وبصيرة بما يتولاّه ، ولما سيستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد ، فأجيب الى رغبته تكرمةً له ولهذا قال تعالى : ﴿ وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض ﴾ أي أرض مصر ، ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ أي يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ أي وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز (٢) فلهذا

(١) الآيتان /٥٢/٥٣/ من قوله تعالى : « ذلك ليعلم اني لم أخنه بالغيب إلى قوله غفور رحيم » السياق يدلُّ على ان هذا الكلام من كلام امرأة العزيز ولكنه كلام مؤمنة بالله فهل هي كذلك ؟ فإن كانت كذلك ... وإلا فهو أليق بأن يكون كلام يوسف عليه السلام .

(٢) وصبره على الامتحان العظيم الذي امتحنه الله به من عفة النفس وطهارة الذيل ، وعزوفه عما طلب إليه من الوقوع بالفاحشة وخروجه رغم المغريات الهائلة من هذه الامتحان ظافراً أبياً وطاهراً نقياً

أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ ويخبر تعالى ان ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا والغرض أنّ يوسف عليه السلام ولاّه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة مكان عزيز مصر وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام . قاله مجاهد ، وقيل أنه تزوج امرأة العزيز بعد وفاة زوجها

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ۞ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ ٱلْمُنْزِلِينَ ۞ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ۞ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ۞ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ٱجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا ٱنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ (٦٢) ﴾

صدق تفسير يوسف للرؤيا فوقعت السبع السنون المخصبة ثم تلتها السنون السبع المجدبة وكان خلالها يوسف يباشر الوزارة بمصر ويشرف على خزن الغلال في سنبلها إبان السنين الخصبة فجمعها أحسن جمع فاحتاط بذلك للسنين السبع المجدبة فوردَ الناس على يوسف من سائر الأقاليم ، يمتارون لأنفسهم وعيالهم ، وكان في جملة من ورد اخوة يوسف عن أمر أبيهم ، لما بلغهم ان عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه : ﴿ وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ وكان يوسف متربعاً أبّهته ورياسته وسيادته فما كان يدور في نفوسهم ان يوسف سيصير الى ما صار إليه لذلك لم يعرفوه أما هو فقد عرفهم ، وشرع يخاطبهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم إلى بلادي ؟ فقالوا للميرة قال فلعلّكم عيون ...؟ قالوا معاذ الله قال فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب النبي ، قال وله أولاد غيركم ؟ قالوا كنا اثني عشر ، فذهب أصغرنا ، وهلك في البرية وكان أحبنا إلى أبيه ، وبقي شقيقه فاحتبسه ابوه ليتسلى به عنه ، فأمر بإنزالهم واكرامهم ﴿ ولما جهز هم بجهازهم ﴾ أي أوفى لهم كيلهم وحمل لهم أحمالهم ﴿ قال

ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ أي هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ . يرغبهم في الرجوع إليه ، ثم رهّبهم فقال : ﴿ فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ﴾ أي ليس لكم عندي ميره ﴿ ولا تقربون * قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴾ أي لا ندخر مجهوداً في مجيئه لتعلم صدقنا فيما قلنا ﴿ وقال لفتيانه ﴾ أي غلمانه ﴿ اجعلوا بضاعتهم ﴾ التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿ في رحالهم ﴾ أي في أمتعتهم وهم لا يشعرون ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ بها أي خشي يوسف ان لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ * (٦٤) ﴾

يقول الله تعالى : انهم رجعوا إلى أبيهم ﴿ قالوا يا أبانا منع منا الكيل ﴾ يعنون بعد هذه المرة ان لم ترسل معنا أخانا بنيامين فأرسله معنا نكتل وانا له لحافظون أي وسنرجعه إليك ، وهذا كما قالوا له في يوسف ، فتذكر وعدهم له بإرجاعه ، فقال : ﴿ هل آمنكم عليه كما امنتكم على اخيه من قبل ﴾ أي هل أنتم صانعون به إلاّ كما صنعتم بأخيه من قبل ...؟ ﴿ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ أي سيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي ، وارجو الله أن يردّه علي ويجمع شملي به إنه أرحم الراحمين.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ ٱللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * (٦٦) ﴾

لما فتح أخوة يوسف متاعهم ووجدوا فيها بضاعتهم ردت إليهم ﴿ قالوا يا أبانا ما

نبغي ﴾ آي ماذا نريد بعد هذا ... ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ وقد اوفي لنا الكيل ﴿ ونمير أهلنا ﴾ إذا أرسلت اخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا ﴿ ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ﴾ لأن يوسف كان يعطي كل رجل حمل بعير ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ أي ان هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا ﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله ﴾ أي تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿ لتأتنَّني به إلاّ أن يحاط بكم ﴾ إلاّ ان تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه ﴿ فلما آتوه موثقهم ﴾ أكّده عليهم فقال : ﴿ الله على ما نقول وكيل ﴾ قال ابن اسحق : وانما فعل ذلك لأنه لم يجد بدأ من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها ، فبعثه معهم .

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ٱللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ * (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ ٱللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * (٦٨) ﴾

يخبر تعالى أن يعقوب عليه السلام ، لما جهز بنيه مع أخيهم بنيامين الى مصر أمرهم الاّ يدخلوا من باب واحد وليدخلوا من أبواب متفرقة خشيةً من أعين الناس ان تصيبهم فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه ، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ، ومنظر وبهاء . وقوله ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ أي إن هذا الاحتراز ، لا يرد قدر الله وقضاءه فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع ﴿ إن الحكمُ إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون،ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلاّ حاجة في نفس يعقوب قضاها ﴾ قالوا هي رفع إصابة العين عنهم ﴿ وانه لذو علم لما علمناه ﴾ قال ابن جرير : لذو علم لتعليمنا إياهُ ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * (٦٩) ﴾

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ * (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * (٧٢) ﴾

وصل أخوة يوسف عليه السلام ومعهم أخوهم بنيامين ، فأفاض عليهم يوسف عليه السلام من الإكرام والإلطاف والصلة والإحسان ما جعلهم في غاية الكرامة ، واختلى بشقيقه بنيامين فأطلعه على شأنه وعرفه أنه أخوه فقال لا تأسف على ما صنعوا بي ، وأمره بكتمان ذلك عنهم وتواطأ معه أنه سيحتال على إبقائه عنده .

فاما جهز يوسف عليه السلام أخوته وحمّل لهم أبعرتهم طعاماً ، أمر بعض غلمانه أن يضع صاع الملك في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد ثم نادى مناد بينهم ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ فالتفتوا الى المنادي وقالوا : ﴿ ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ﴾ أي صاعه الذي يكيل به ﴿ ولمن جاء به حمل بعير ﴾ وهذا من باب الجعالة ، ﴿ وأنا به زعيم ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ * (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ * (٧٦) ﴾

لما اتّهمهم أولئك الفتيان بالسرقة ، قال لهم اخوة يوسف : ﴿ تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ﴾ أي لقد تحققتم من سيرتنا منذ عرفتمونا أنّا : ﴿ ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ﴾ فقال لهم الفتيان : ﴿ فما جزاؤه ﴾ أي السارق ﴿ ان كنتم كاذبين ﴾ أي إن وجدنا فيكم من أخذه ؟ ﴿ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ﴾ وهكذا كانت شريعة ابراهيم عليه السلام ، أن السارق يسلّم إلى المسروق منه ، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام ، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ففتشها ﴿ ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم ، وإلزاماً لهم بما يعتقدون ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ وهذا من الكيد الذي يحبه الله ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة .

وقوله تعالى : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ أي في حكم ملك مصر انما كان ذلك في شريعة ابراهيم التي يدين بها إخوته – والمعنى انه ليس له ان يحكم في دين الملك الذي ما أنزل الله انما يحكم بشريعة آبائه ابراهيم واسحق ويعقوب ، ولهذا مدحه الله تعالى فقال عز من قائل : ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم ﴾ الآية ... ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ قال ابن عباس : يكون هذا أعلم من هذا . وهذا أعلم من هذا والله فوق كل عالم . وقال قتادة : أي حتى ينتهي العلم الى الله ، منه بديء وتعلمت العلماء واليه يعود .



﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۞ (٧٧) ﴾

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ ٱللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ ۞ (٧٩) ﴾

تنصل اخوة يوسف الى العزيز لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين : ﴿ قالوا

إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ يعنون به يوسف عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿ فأسرَّها يوسف في نفسه ﴾ يعني الكلمة التي بعدها وهي قوله : ﴿ أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴾ أي تذكرون . قال هذا في نفسه ، ولم يبده لهم . وهذا من باب الإضمار قبل الذكر ، وهو كثير وله شواهد كثيرة في القرآن والحديث واللغة في منثورها وأخبارها وأشعارها .

ثم لما تعيّن اخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم شرعوا يترقّقون له يعطفونه عليهم ﴿ فقالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً ﴾ يعنون أنه يحبه حباً شديداً ويتسلّى به عن ولده الذي فقده ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ أي بدله يكون عندك عوضاً عنه ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ أي العادلين المنصفين القابلين للخير ﴿ قال معاذ الله أن نأخذ إلاَّ من وجدنا متاعنا عنده ﴾ أي كما قلتم واعترفتم ، وان فعلنا ما تطلبون ... ﴿ إنّا إذاً لظالمون ﴾ أي نكون قد أخذنا بريئاً بمذنب .

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ ٱللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ ٱللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ ❁ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ❁ (٨١) وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ❁ (٨٢) ﴾

لمّا يئس أخوة يوسف من إقناع يوسف لاسترداد أخيهم بنيامين بسبب الموثق الذي قطعوهُ لأبيهم بردّه إليه .... ﴿ خلصوا ﴾ أي انفردوا ﴿ نجياً ﴾ أي يتناجون فيما بينهم ﴿ قال كبيرهم ﴾ وهو الذي أشار بإلقائه بالجب دون أن يقتلوه ، قال : ﴿ ألم تعلموا ان أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ لتردّنّه إليه فقد رأيتم كيف تعذر ذلك ﴿ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ أي ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ اي هذه البلدة ﴿ حتى يأذن لي أبي ﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿ أو يحكم الله لي ﴾

أي بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بما وقع ، عسى أن يعذرهم ، ويتنصلوا إليه مما وقع . وقوله : ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ اي ما كنا ندري بأن بنيامين سرق شيئاً ، إنما سألنا العزيز ما جزاء السارق فقلنا أخذه ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ أي مصر ﴿ والعير التي أقبلنا فيها ﴾ أي التي رافقناها عن صدقنا وحفظنا وحراستنا ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فيما أخبرناك به ، من أنه سرق وأخذوه بسرقته .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ❁ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ❁ (٨٤) قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَالِكِينَ ❁ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى ٱللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ❁ (٨٦)

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿ بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ ظن أنها كفعلتهم بيوسف ثم ترجّى من الله ان يرد عليه . أولاده الثلاثة : يوسف ، وبنيامين ، وروبيل ولده الأكبر الذي ظل في مصر منتظراً أمر أبيه بالعودة راضياً عنه أو يتمكن من أخذ أخيه بنيامين خفيةً ولهذا قال : ﴿ عسى الله ان يأتيني بهم جميعاً انه هو العليم ﴾ بحالي ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره ﴿ وتــولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف ﴾ أي جدّد له حزن الأبنين الحزن الدفين على يوسف ﴿ وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ أي ساكت لا يشكو أمره الى مخلوق . فعند ذلك رقّ له بنوه ، وقالوا مترفقين مشفقين : ﴿ تالله تفتؤ تذكر يوسف ﴾ أي لا تفارق ذكر يوسف ﴿ حتى تكون حرضاً ﴾ أي ضعيف القوة ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ أي نخشى عليك من التلف ﴿ قال إنما أشكو بثي وحزني الى الله ﴾ وحده ، ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أي أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأني سوف أسجد له .

يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رُوحِ ٱللهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ ❁ (٨٧)

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

يخبر تعالى عن يعقوب عليه السلام أنه ندب بنيه لاستكشاف خبر يوسف واخيه بنيامين وأراد منهم ألاَّ ييأسوا ولا يقطعوا أملهم من الله تعالى فيما يقصدونه ، فإنه لا يقطع الرجاء ولا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون وقوله تعالى ﴿ فلمّا دخلوا عليه ﴾ أي على يوسف ﴿قالوا يا أيها العزيز مسنا واهلنا الضر ﴾ يعنون الجدب وقلة الطعام ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاةٍ ﴾ أي ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره ولكنه قليل وأصل الإزجاء : الدفع لضعف الشيء .

وقوله تعالى إخباراً عنهم : ﴿ فأوفِ لنا الكيل ﴾ أي أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك ﴿ وتصدق علينا ﴾ قال ابن جريج ـ تصدق علينا بردّ أخينا إلينا وقال ابن جرير عن مجاهد : سئل هل يكره ان يقول الرجل في دعائه : اللهم تصدق عليّ ؟ قال : نعم ، إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب [1] ﴿ إن الله يجزي المتصدقين ﴾

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾

يخبر تعالى أن اخوة يوسف ذكروا له ما أصابهم من الجدب وقلة الطعام ، فتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه ، مع ما هو فيه من الملك وسعة التصرف عندها

(١) واين يذهب قوله صلى الله عليه وسلم : صدقة تصدقها الله عليكم فاقبلوا صدقته ... ؟

أخذت يوسف عليه السلام رقة ورأفة ورحمة على أبيه وإخوته ، فغلبه البكاء فتعرف إليهم ، وقال : ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾ والظاهر ـ والله أعلم ـ أن يوسف عليه السلام انما تعرف إليهم بنفسه بإذن من الله تعالى له في ذلك، كما أنه أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله أيضاً . ولما ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق فقال أتذكرون ما فعلتم بيوسف واخيه وانتم في حالة من الجهل مكنتكم مما فعلتموه من الذنب فعند ذلك قالوا : ﴿ أئنك لأنت يوسف ﴾ أي تعجبوا من كتمانه نفسه عنهم طيلة السنتين اللتين ترددوا اليه خلالهما وهم لا يعرفونه مع انه يعرفهم قالوا على سبيل الاستفهام ﴿ أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قدمن الله علينا ﴾ أي بجمعه بيننا بعد الفرقة طوال سنين وأعوام ، ﴿ انه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخَلْق والخُلُق والملك ، والنبوة أيضاً ـ على قول من لم يجعلهم أنبياء ـ واقـروا بخطئهم نحوه ، ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم ﴾ أي لا لوم ولا عتب ، إنما أصفح واسامح ثم زادهم بالدعاء لهم بالمغفرة فقال : ﴿ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ ثم قال :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ❁ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ❁ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ ٱلْقَدِيمِ ❁ (٩٥) ﴾

يقول : اذهبوا بهذا القميص ﴿ فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ أي بجميع بني يعقوب ﴿ ولما فصلت العير ﴾ أي خرجت من مصر ﴿ قال أبوهم ﴾ يعني يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من أهلـه ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ تنسبوني الى الفند وهو الخرف والكبر ، أي لما خرجت العير هاجت الريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام ـ والمعنى : لولا أن تنسبوني إلى الخرف والكبر وتسفهوا قولي لقلت لكم إني لأجد رائحة يوسف ، وقولهم : ﴿ انك لفي ضلالك القديم ﴾ قال ابن عباس : أي لفي خطئك القديم وهذا كلام غليظ لا ينبغي لهم أن يقولوه لوالدهم ولا لنبي الله ﷺ ، وكذا قال السدي وغيره .

﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * (٩٨) ﴾

قال مجاهد والسدي : كان يهوذا بن اسرائيل – يعقوب – إنما جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب فأحب أن يغسل ذلك بهذا فجاء بقميص يوسف فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً وقال لبنيه بعد ذلك ﴿ ألم أقل لكم اني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أي أعلم أن الله سيرده إلي ، وقلت لكم ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ عندها قالوا لأبيهم مترفقين له : ﴿ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انّا كنا خاطئين قال سوف استغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ أي من تاب إليه تاب عليه قال ابن مسعود وجماعة من التابعين : أجّلهم إلى وقت السّحر ، وقال ابن جرير عن محارب بن دثار قال : كان عمر (رض يأتي المسجد فيسمع انساناً يقول : اللهم دعوتني فأجبت ، وأمرتني فأطعت ، وهذا السحر فاغفر لي . قال : فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبدالله بن مسعود فسأل عبدالله عن ذلك ، فقال : إن يعقوب أخر بنيه الى السحر بقوله : ﴿ سوف استغفر لكم ربي ﴾

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ * (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * (١٠٠) ﴾

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام هو وبنوه وأهله فقد تحملوا عن آخرهم من بلاد كنعان الى مصر ، وخرج يوسف والملك والأمراء وأكابر

الناس لتلقّيهم ، وقوله تعالى : ﴿ آوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ أي قال لهم بعد ما دخلوا عليه وآواهم اليه : ادخلوا مصر اي اسكنوا مصر ان شاء الله آمنين أي مما كنتم فيه من الجهد والقحط . وقدر الله تعالى دخول يعقوب في السبع السنين المجدبة ويقال ـ والله أعلم ـ ان الله تعالى رفع بقية السنين المجدبة عن أهل مصر ببركة قدوم يعقوب عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ أي أجلسهما معه على السرير ﴿ وخرّوا له سجداً ﴾ اي سجد له أبواه وإخوته الباقون . وكانوا أحد عشر رجلاً ﴿ وقال يا ابتِ هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ أي التي كان قصها على أبيه من قبل : ﴿ إني رأيت أحدعشر كوكبا ﴾ الآية ... وقد كان السجود سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام ، فحرم هذا في هذه الملة ، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى وفي الحديث : ٦٢٣ : « ان معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم ، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال « ما هذا يا معاذ ؟ » فقال إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يـا رسول الله فقال : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها » ، والغرض : أن سجود التحية كان جائزاً في شريعتهم ، ولهذا خرّوا له سجداً فعندها قال يوسف عليه السلام : ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾ أي هذا ما آل اليه الأمر ، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر ، وقوله : ﴿ قد جعلها ربي حقاً ﴾ أي صحيحة صدقاً يذكر نعم الله عليه ﴿ وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو ﴾ أي البادية فقد كانوا أهل بادية وماشية . وكانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام ﴿ من بعد ان نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ أي إذا أراد أمراً قيض له أسباباً وقـدّره ويسّره ﴿ انه هو العليم ﴾ بمصالح عباده ﴿ الحكيم ﴾ في اقواله وافعاله وقضائه وقدره ، وما يختاره ويريد .

قال أبو عثمان النهدي ، عن سليمان : كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة . قال عبدالله بن شداد واليها ينتهي أقصى الرؤيا . وان يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه بمصر سبع عشرة سنة ، ثم قبضه الله إليه . وقال ابو اسحق السبيعي عن عبدالله بن مسعود ، قال : دخل بنو إسرائيل مصر وهم ثلاثة وستون إنساناً وخرجوا منهـا وهم ستماءة الف وسبعون ألفاً .



﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۞ (١٠١) ﴾

هذا دعاء من يوسف الصديق ، دعابه ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما منَّ الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا ان يستمر بها عليه في الآخرة ، وان يتوفاه مسلماً حين يتوفاه ، وان يلحقه بالصالحين . وهم إخوانه من النبيين والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وهذا الدعاء يحتمل ان يوسف عليه السلام ، قاله عند احتضاره : كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ٦٢٤ [ان رسول الله ﷺ جعل يرفع إصبعه عند الموت ويقول « اللهم في الرفيق الأعلى » ثلاثاً] ويحتمل انه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله ، ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً ، وكان ذلك سائغاً في شريعتهم . وكان ابن عباس يقول : ما تمنّى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام ولكن هذا لا يجوز في ملتنا . فقد جاء في الصحيحين ٦٢٥ : [لا يتمنّينَّ احدُكم الموت لضر نزل به : إمّا محسنا فيزداد ، وإما مسيئاً فلعلّه يستعتب ؛ ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي]

روى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال : ٦٢٦ [جلسنا الى رسول الله ﷺ فذكّرنا ورقّقنا فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء ، وقال : يا ليتني ميت فقال النبي ﷺ « يا سعد أعندي تتمنّى الموت ؟ » فردد ذلك ثلاث مرات ، ثم قال « يا سعد إن كنت خلقت للجنة ، فما طال من عمرك ، وحسن من عملك فهو خير لك »] وهذا فيما إذا كان الضر خاصّاً به وأما إذا كانت فتنةً في الدين فيجوز سؤآل الموت ، كما قال تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل ﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ وفي حديث معاذ الذي رواه أحمد والترمذي ٦٢٧ : [... وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني اليك غير مفتون .]

وقال ابن جرير : وذكر أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا ... استغفر لهم أبوهم ، فتاب الله عليهم ، وعفا عنهم ، وغفر لهم ذنوبهم ، وذكر السدي : أنَّ يعقوب

عليه السلام لما حضره الموت أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند ابراهيم واسحق فلما مات صبره وأرسله الى الشام ، فدفن عندهما عليهم الصلاة والسلام [1] .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ❁ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ❁ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ❁ (١٠٤) ﴾

يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قصّ عليه نبأ أخوة يوسف ، وكيف رفعه الله عليهم ، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿ نوحيه إليك ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك لمن خالفك ﴿ وما كنت لديهم ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم ﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾ أي على القائه في الجب ﴿ وهم يمكرون ﴾ به . ولكننا أعلمناك به وحياً إليك وإنزالاً عليك كقوله تعالى : ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم ﴾ الآية .

يقول تعالى : إنه رسوله وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق ، مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم .ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما تسألهم عليه من أجر ﴾ أي ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر . أي من جعالة ولا أجرة بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحاً لخلقه ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أي يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة .

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ❁ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ❁ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ❁ (١٠٧) ﴾

(١) ولكن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأنبياء يدفنون حيث يقبضون .

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب ثوابت ، وسيارات وأفلاك دائرات ، وكم في الأرض من قطع متجاورات وجنات وجبال وبحار وقفار ، وكم من احياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات مختلفات الطعوم ، والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد الخالق الفرد الصمد .

وقوله تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون ﴾ قال ابن عباس : من إيمانهم انهم اذا قيل لهم : منْ خلق السموات ومن خلق الأرض ومنْ خلق الجبال قالوا : الله وهم مشركون به . وفي الصحيحين : ٦٢٨ [إن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك] . وفي صحيح مسلم : [أنهم كانوا إذا قالوا : لبيك لا شريك لك ، قال رسول الله ﷺ : ٦٢٩ « قدقد »] . أي حسبُ لا تزيدوا على هذا . وقال الله تعالى : ﴿ ان الشرك لظلم عظيم ﴾ وهـذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره ، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت : ٦٣٠ [يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال ان تجعل لله نداً وهو خلقك »] .

وقال الحسن البصري في قول تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ قال ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس ، ذلك يعني قوله تعالى ﴿ ... واذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ وثَمّ شرك آخر خفيّ لا يَشعُر به غالباً فاعله ، كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن عروة قال : دخل حذيفة على مريض فرأى في عَضُده سيراً فقطعه – أو انتزعه – ثم قال : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون ﴾ وفي الحديث : ٦٣١ [من حلف بغير الله فقد أشرك] رواه الترمذي وحسّنه وروى أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ٦٣٢ [إن الرّقي والتمائم والتولة شرك] .

وروى الامام أحمد عن عيسى بن عبد الرحمن قال : ٦٣٣ [دخلت على عبد الله بن عكيم وهو مريض نعوده فقيل له لو تعلّقت شيئاً فقال : أتعلق شيئاً وقد قال رسول الله ﷺ : « من تعلق شيئاً وكل إليه » ورواه النسائي عن أبي هريرة .]

وفي مسند الامام أحمد حديث عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٣٤ [من تعلق تميمة فلا أتمّ الله له ومن تعلّق ودعة فلا ودع الله له] .

وعن أبي سعيد بن أبي نضالة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : : ٦٣٥

[إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي منادٍ : من كان أشرك في عمل لله فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك] رواه أحمد وروى الحاحظ أبو يعلي الموصلي عن معقل بن يسار ، قال : شهدت النبي ﷺ أو قال : حدثني ابو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٦٣٦ [الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل » فقال أبو بكر : وهل الشرك إلاّ من دعا مع الله إلهاً آخر ؟ فقال رسول الله ﷺ « الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل » ثم قال : « ألا أدلّك على ما يذهب عنك صغيرُ ذلك وكبيره ؟ قل اللهم اني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، واستغفرك مما لا أعلم »] .

وقوله تعالى : ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ﴾ الآية ... أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله ان يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون كقوله تعالى : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات ان يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

﴿ قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٠٨)

يقول تعالى لرسوله ﷺ آمراً له أن يخبر الأنس والجن أن هذه سبيله أي طريقته ومسلكه وسنته ، وهي الدعوة إلى شهادة ان لا إله الا الله وحده لا شريك له ، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا اليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي . وقوله تعالى : ﴿وسبحان الله﴾ أي وأنزه الله و أجلّه وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٠٩)

يخبر تعالى أنه أرسل رسله من الرجال لا من النساء ، وهذا قول جمهور العلماء كما

دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ان الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم ام عيسى نبيّات ، وكل ما جاء في القرآن من الايحاء إليهن أو تكليم الملائكة لهن ، لا يلزم منه أن يكنّ نبيات بذلك ، فإن أرادوا بالنبوة هذا القدر من التشريف فلا شك أنه تشريف لهن ولكن لا يكفي هذا للانتظام بسلك النبوة بمجرده ، والذي عليه أهل السنة والجماعة انه ليس في النساء نبية ، وإنما فيهن صدّيقات كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾ فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقيّة فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام فهي صديقة بنص القرآن . وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ﴾ أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، ويعضد هذا القول قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ وقوله تعالى : ﴿ من أهل القرى ﴾ المراد بالقرى : المدن لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعاً وألطف من أهل بواديهم . وقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم المكذبة للرسل كيف دمرّ الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فإذا استمع هؤلاء خبر أولئك رأو أن الله قد أهلك الكافرين ونجّى المؤمنين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ﴾ أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة وهي خير لهم من الدنيا بكثير ، كقوله تعالى : ﴿ إنَّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ٭ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ .

﴿ حَتَّى إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ٭ (١١٠) ﴾

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات كقوله تعالى : ﴿ وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ الآية في قوله تعالى ﴿ كذبوا ﴾ قراءتان احداهما

بالتشديد ﴿ قد كُذِّبُوا ﴾ وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرؤها . والأخرى بالتخفيف وفيه أيضاً روايتان عن ابن عباس ، ورواية ابن مسعود ، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بالتخفيف وانتصر لها ابن جرير فقد روى البخاري عن عروة بن الزبير عن عائشة انها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى : ﴿ حتّى إذا استيأس الرسل ... ﴾ قال : قلت : أكذّبوا أم كُذِبُوا ؟ قالت عائشة : كذّبوا . قلت : فقد استيقنوا ان قومهم كذّبهم فما هو بالظن ؟ قالت : أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك ، فقلت لها ﴿ وظنوا انهم قد كُذِبُوا ﴾ قالت معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر ﴿ حتّى إذا استيأس الرسل ﴾ ممن كذّبهم من قومهم ، وظنت الرسل ان أتباعهم قد كذّبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك . وحدثنا أبو اليمان ، أنبأنا شعبة عن الزهري قال أخبرنا عروة : فقلت لها : لعلها قد كُذِبوا مخففة ؟ قالت معاذ الله .

وقال ابن جريج عن عروة عن عائشة أنها خالفت – القول بالتخفيف – وأبته وقالت : ما وعد الله محمداً ﷺ إلا قد علم أنه سيكون حتّى مات ، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتّى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم . قال ابن أبي مليكة من حديث عروة : كانت عائشة تقرؤها : ﴿ وظنوا أنهم قد كُذِّبوا ﴾ مثقّلة من التكذيب (١) . وانتصر لعائشة ابن جرير ، ووجّه المشهور عن الجمهور وزيف القول الآخر بالكلية ، وردّه وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه . والله تعالى أعلم .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ (١١١) ﴾

يقول تعالى : لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم ، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿ عبرةٌ لأولى الألباب ﴾ وهي العقول ، ﴿ ما كان حديثا يفترى ﴾ أي ما

(١) قلت : والذي قالته أحسن الأقوال وأصحها وأليقها بحضرة الأنبياء والرسل عليهم السلام . ومن أحب أن يستطلع ما قاله الآخرون فليرجع إلى أصل تفسير ابن كثير .

ما كان لهذا القرآن أن يكذب ويختلق ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أي يصدّق ما صح من الكتب السماوية وينفي ما حُرّف وغُيّر ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ من أوامر ونواه في العقائد والعبادات والمعاملات وأنباء الأمم الغابرة والاعتبار بما كان منها من تأييد للرسل أو معادات لهم ، وما كان من نتائج ذلك فلهذا كان ﴿ هدىً ورحمةً لقوم يؤمنون ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ، ويبتغون به الرحمة من رب العباد في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة ، يوم يفوز بالربح المبيضة وجوههم الناضرة ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة .

آخر اختصار تفسير سورة يوسف عليه السلام ولله الحمد والمنة وبه المستعان .

١٣٨٩/٢/١٠

١٩٦٩/٤/٢٧

(١٣) سورة الرعد مدنية
وآياتها ثلاث وأربعون

نزلت بعد سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ وَٱلَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ (١) ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله تعالى : ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ أي هذه آيات القرآن ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال سبحانه ﴿ والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾ أي وهذا الكتاب الذي أنزل إليك هو الحق و ﴿ الحق ﴾ خبر تقدم مبتدؤه . وقوله تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ أي مع هذا البيان والوضوح لا يؤمن أكثر الناس لما فيهم من العناد والنفاق .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۞ (٢) ﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه ، أنه الذي بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد ، ارتفاعاً عن الأرض لا يدرك مداه ، ذلك من كل جانب ، ومحيطة بجميع الأرض سماءً فوق سماء وهكذا إلى السماء السابعة كما قال تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ﴾ الآية ... [١]

وفي الحديث : ٦٣٧ [ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، والكرسي في العرش المجيد كتلك الحلقة في تلك الفلاة] . وفي رواية : ٦٣٨ [والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل] . وقوله تعالى : ﴿ بغير عمد ترونها ﴾ أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها وهذا هو الأكمل في القدرة وأليق بالسياق .

وقوله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف عند الآية /٥٤/ وإنه يمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، ولا تمثيل ، تعالى الله علواً كبيراً . وقوله تعالى : ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ أي انهما يجريان إلى أجل معلوم عند الله تعالى . وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب إنما يدخل بالتسخير سائر الكواكب والنجوم بطريق الأولى والأحرى . كقوله تعالى ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ وقولهُ تعالى : ﴿ يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ أي يوضح الآيات ، والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه ، ولا رب سواه .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ (٣) وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ (٤) ﴾

لما ذكر تعالى العالم العلوي ، شرع في ذكر قدرته وحكمته ، وأحكامه للعالم السفلي ،

فقال تعالى : ﴿ وهو الذي مد الأرض ﴾ أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض ، وأرساها بجبال راسيات شامخات ، وأجرى فيها الأنهار ليسقي فيها الثمرات المختلفة الطعوم والأشكال والألوان والروائح ﴿ فيها من كل زوجين اثنين ﴾ أي من كل شكل صنفان ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ أي جعل كلاً منهما يطلب الآخر حثيثا ﴿ إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ أي في آلاء الله وحكمه ودلائله .

وقوله تعالى : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ ولكن هذه خصبة وهذه جدبة وهذه سبخة ،وهذه حمراء ، وهذه بيضاء ، وهذه صفراء وهذه سوداء ، وهذه محجرة وهذه سهلة أو سميكة أو رقيقة والكل متجاورات ، فهذا كله يدل على الفاعل المطلق لا إله الا هو ولا رب سواه وقوله تعالى : ﴿ وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ﴾ أي من أصل واحد ومتفرقات .

وقوله تعالى : ﴿ يسقي بماءٍ واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها وطعومها وكلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء . مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً ، هذا من أعظم الدلالات على الفاعل الخالق الذي فاوت بين هذه الأشياء بقدرته ، وخلقها على ما يريد ولهذا قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ءَإِذَا كُنَّا تُرَاباً ءَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ ٱلْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ (٥) ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وإن تعجب ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله ودلائله على قدرته مع انهم معترفون بأنه هو الخالق المبتديء للخلق من العدم فاعترافهم بما هو أعظم وتكذيبهم بما هو دونه لمما يثير العجب فإن تعجب من شيء ﴿ فعجبٌ قولهم أإذا كنا تراباً أإنّا لفي خلقٍ جديد ﴾ !؟ وقد علم كل عاقل ان من بدأ الخلق من العدم ، فالإعادة عليه أسهل كقوله تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ ثم وصف المكذبين بهذا ، فقال سبحانه : ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم

وأولئك الأغلال في أعناقهم ﴾ أي يسبحون بها في النار ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي ماكثون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ● (٦) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ويستعجلونك ﴾ أي هؤلاء المكذبون ﴿ بالسيئة قبل الحسنة ﴾ أي بالعقوبة كما أخبر عنهم في قوله تعالى : ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطّنا ﴾ أي عقابنا وحسابنا وقوله تعالى : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ فكانوا من شدة تكذيبهم ، وعنادهم وكفرهم يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله ، قال الله تعالى : ﴿ وقد خلتْ من قبلهم المثلات ﴾ أي قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم . وقوله تعالى : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ أي أنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار ، ثم قرن هذاالحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف كما قال تعالى : ﴿ فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ فلولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال سبحانه : ﴿ و لويؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة ﴾ .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ● (٧) ﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين إنهم يقولون كفراً وعناداً : لولا يأتينا بآية من ربّه كما أرسل الأوّلون ، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن يزيح عنهم الجبال ، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً ؛ قال تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلاّ ان كذب بها الأولون ﴾ الآية قال الله تعالى : ﴿ إنما أنت منذر ﴾ أي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها و ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولكل قوم هادٍ ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أي ولكل قوم داعٍ ،

وقال العوفي عن ابن عباس في الآية : يقول الله تعالى : أنت يا محمد منذر وانا هادي كل قوم ، وكذا قال جماعة من التابعين وغيرهم وعن مجاهد : ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ أي نبيّ ، كقوله تعالى : ﴿ وإن من أمةٍ إلاّ خلا فيها نذير ﴾ وبه قال قتاده وعبد الرحمن بن زيد .

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝ (٨) عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝ (٩) ﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفي عليه شيء وانه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات كما قال تعالى : ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناهُ نطفة في قرار مكين ۞ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٣٩ [إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وعمره ، وعمله ، وشقي أو سعيد] وقوله تعالى : ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ الغيض يعني السِقْط ﴿ وما تزداد ﴾ يقول ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً ؛ وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومن تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تزيد في الحمل ، ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه عز وجل . وقوله تعالى : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ أي بأجل ، حفِظ أرزاق خلقه وآجالهم وجعل لذلك أجلاً معلوماً . وقوله تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم ، ولا يخفى عليه شيء منه ﴿ الكبير ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء ﴿ المتعال ﴾ أي على كل شيء .

﴿ سَوَآءٌ مِنكُم مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۞ (١٠) لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۞ (١١) ﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه ، وإنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به ، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء كقوله تعالى : ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ وقالت عائشة رضي الله عنها : ٦٤٠ [سبحان الذي وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وأنا في جنب البيت ، وانه ليخفى عليّ بعض كلامها . فأنزل الله : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ .] وقوله تعالى . ﴿ ومن هو مستخف بالليل ﴾ أي مختف في قعر بيته في ظلام الليل ، ﴿ وسارب بالنهار ﴾ أي ظاهر ماش في بياض النهار . فإن كلاهما في علم الله على السواء ، كقوله تعالى : ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وقوله تعالى : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه . حرس بالليل ، وحرس بالنهار . يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ليلاً ونهاراً ، كما جاء في الصحيح : ٦٤١ [يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون .] وفي الحديث الآخر : ٦٤٢ [ان معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم]. روى الأمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : [« ما منكم من أحد إلاّ وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » قالوا : ٦٤٣ وإياك يا رسول الله ؟ قال « وإياي ، ولكن الله أعانني عليه ، فلا يأمرني إلاّ بخير »] انفرد به مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ يحفظونه من امر الله ﴾ أي يحفظونه من أمر الله بأمر الله كما جاء في الحديث أنهم قالوا : ٦٤٤ [يا رسول الله : أرأيت رقياً نسترقي بها ، هل تزد من قدر الله شيئاً فقال « هي من قدر الله »] وقوله تعالى ﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا

ما بأنفسهم ﴾ قال ابن أبي حاتم عن ابراهيم قال : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني اسرائيل أن قل لقومك : أنه ليس من أهل قرية : ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله ، الا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون ثم قال : إن تصديق ذلك في كتاب الله : ﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۞ (١٢) وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَٱلْمَلَٰئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي ٱللهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۞ (١٣) ﴾

يخبر تعالى انه هو الذي يسخر البرق ، وهو ما يرى من النور الساطع من خلل السحاب ، وقوله تعالى : ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته ، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله ، قاله قتادة. ﴿ وينشىء السحاب الثقال ﴾ أي ويخلقها منشأة جديدة ، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض . قال مجاهد:السحاب الثقال الذي فيه الماء ، قال تعالى : ﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وان من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ .

روى الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا ابراهيم بن سعد ، أخبرني أبي قال كنت جالساً إلى جنب حميد بن عبد الرحمن في المسجد ، فمرشيخ من بني غفار فأرسل اليه حميد فلما أقبل قال : يا ابن أخي : وسّع فيما بيني وبينك ، فانه قد صحب رسول الله ﷺ فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه ، فقال له حميد : ما الحديث الذي حدثتني عن رسول الله ﷺ ؟ فقال له الشيخ : سمعت عن شيخ من بني غفار أنه سمع النبي ﷺ يقول : ٦٤٥ [ان الله ينشىء السحاب فينطق أحسن النطق ، ويضحك أحسن الضحك] والمراد – والله أعلم – ان نطقها الرعد وضحكها البرق . وقال موسى بن عبيدة عن سعد بن ابراهيم قال : يبعث الله الغيث فلا أحسن منه مضحكاً ، ولا آنس منه منطقاً ؛ فضحكه البرق ، ومنطقه الرعد .

روى الإمام أحمد عن سالم عن أبيه قال : ٦٤٦ [كان رسول الله ﷺ إذا سمع

الرعد والصواعق قال: « اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك »] ورواه الترمذي ، والبخاري في كتاب الأدب ، والنسائي في اليوم والليلة والحاكم في مستدركه روى الامام أبو جعفر بن جرير عن أبي هريرة رفعه : ٦٤٧ [أنه كان إذا سمع الرعد قال : « سبحان من يسبح الرعد بحمده »] قال الأوزاعي كان ابن أبي زكريا يقول : من قال حين يسمع الرعد : سبحان الله وبحمده لم تصبه صاعقة . روى الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٤٨ [اذا سمعتم الرعد فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكراً] وقوله تعالى : ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ أي يرسلها نقمةً ينتقم بها ممن يشاء ، ولهذا تكثر في آخر الزمان . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ٦٤٩ [تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتي الرجل القوم فيقول : من صعق قبلكم الغداة ؟ فيقولون : صعق فلان وفلان وفلان] وقد روي في سبب نزول هذه الآية عدة روايات منها ما رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الرحمن بن صحار العبدي انه : ٦٥٠ [بلغه أن النبي ﷺ بعثه إلى جبار يدعوه فقال : أرأيتكم ربكم أذهبٌ هو ؟ أم فضة هو ؟ أم لؤلؤ هو ؟ قال : فبينما هو يجادلهم إذ بعث الله سحابة فرعدت فأرسل عليه صاعقة ، فذهبت بقحف رأسه ، فنزلت هذه الآية] وقيل أنها نزلت في قصة عامر بن الطفيل ، وإربد بن ربيعة لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة فسألاه ان يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما رسول الله ﷺ فقال له عامر أما والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً ورجالاً مردا فقال له رسول الله ﷺ : « يأبى الله عليك ذلك وابناء قيلة » يعني الأنصار ثم إنهما همّا بالفتك برسول الله ﷺ فحماه الله تعالى منهما وعصمه فخرجا يؤلّبان الناس لحربه فأرسل على اربد صاعقة فأحرقته وأما عامر فأصابه الله بالطاعون فخرجت فيه غدة فقتلته فنزلت فيهما هذه الآية : ﴿ ويرسل الصواعق ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وهم يجادلون في الله ﴾ أي يشكّون في عظمته ، وأنه لا إله الا هو . ﴿ وهو شديد المحال ﴾ قال علي رضي الله عنه شديد الأخذ .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۞ (١٤) ﴾

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (١٥) ﴾

سجدة

قال علي وابن عباس رضي الله عنهما ﴿ له دعوة الحق ﴾ التوحيد اي لا إله الا الله ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي ومثل الذين يعبدون من دون الله آلهة ﴿ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ﴾ أي يدعو الماء ، ويشير إليه فلا يأتيه أبداً ، أي فكما أن الذي يدعو الماء إليه لا يصل إلى فيه ، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلها غيره لا ينتفعون بهم أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة ولهذا قال تعالى : ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي وما عبادة الكافرين للأصنام إلاّ في ضياع . وقوله تعالى : ﴿ ولله يسجد من في السموات والأرض ﴾ ثم ان الله تعالى يخبر عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء ولهذا يسجد له كل شيء ، (طوعاً ، سجوداً حقيقياً بوضع الجبهة على الأرض تعظيماً وخضوعاً وتذللاً وذلك ظاهر في المؤمنين والملائكة ومسلمي الجن وكرهاً من الكافرين والمنافقين ، فالمؤمنون يسجدون طوعاً ولا يثقل عليهم السجود واما الكافرون والمنافقون يسجدون إكراهاً وخوفاً)[١] . وقوله تعالى : ﴿ وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ الغدوّ البكور ، والآصال جمع أصيل ، وهو آخر النهار والمعنى (أي تتبعهم ظلالهم بالسجود وخص الغدوّ والآصال بالذكر لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما ، وتسجد ظلالهم في هذين الوقتين تبعاً لأجسامهم)[٢] كقوله تعالى : ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون ﴾ .

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۞ (١٦) ﴾

يعترف المشركون بأن الله هو خالق السموات والأرض وهو ربها ومدبرها ، ومع

(١) و (٢) ما ضمن الهلالين ليس من كلام ابن كثير بل من كلامي .

هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم لا يملكو ن لأنفسهم ضراً ولا نفعاً فكيف لعابديهم ... ؟ فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ، ومن عبد الله وحده لا شريك له وهو على نور من ربه ؟ ولذا قال سبحانه : ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ﴾ أي ليس الأمر كذلك ... فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله ، ولا ندَّ لَهُ ولا عدل له ، ولا وزير له ولا ولد له ولا صاحبة . وانما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له ، عبيد له كما أخبر تعالى عنهم في قوله تعالى : ﴿ ما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ فأنكر الله عليهم ذلك حينما اعتقدوا ذلك وقال راداً عليهم ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ وقال أيضاً : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلاَّ آتى الرحمن عبداً ﴾ فإذا كان الجميع عبيده ، فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا برهان بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع ، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم ، تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة غير الله فكذبوهم وخالفوهم ، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة . ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ .

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ۞ (١٧) ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في اضمحلاله وفنائه ؛ فقال تعالى : ﴿ انزل من السماء ماء ﴾ أي مطراً ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ أي أخذ كل واد بحسبه فهذا كبير وسع ماءً كثيراً ، وهذا صغير وسع بقدره ، وهو اشارة إلى القلوب وتفاوتها ؛ فمنها ما يسع علماً كثيراً ، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم يضيق عنها ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عال عليه ، هذا مثل ؛ ومثل ثان وهو قوله تعالى : ﴿ ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع ﴾ الآية ... وهو ما يسبك في النار من

ذهب أو فضة ابتغاء حلية ، أي ليُجعل حليةً أو نحاساً أو حديداً ، فيُجعل متاعاً ، فانه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ أي إذا اجتمعا ، لا ثبات للباطل ولا دوام له ، كما ان الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ، ونحوهما مما يسبك في النار ، بل يذهب ويضمحل ولهذا قال تعالى : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ أي لا ينتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ، ويذهب في جانبي الوادي ، ويعلق بالشجر ، وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس ، يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء والذهب ونحوه ينتفع به ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وقال بعض السلف : كنت اذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه . بكيت على نفسي لأن الله تعالى يقول : ﴿ وما يعقلها الا العالمون ﴾ وهكذا روي في تفسير هذه الآية عن علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس وكذلك عن مجاهد والحسن البصري وعطاء وقتادة وغير واحد من السلف والخلف .

وفي الصحيحين عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
٦٥١ [ان مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ؛ وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا ، ورعوا ، وسقوا ، وزرعوا ؛ وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به ، فعلم وعلّم ؛ ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به]

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَٱفْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۞ (١٨) ﴾

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال سبحانه : ﴿ للذين استجابوا لربهم ﴾ أي أطاعوا الله ورسوله فلهم ﴿ الحسنى ﴾ وهو الجزاء الحسن كقوله تعالى : ﴿ واما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والذين لم يستجيبوا له ﴾ أي لم

يطيعوا الله ورسوله ﴿ لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ﴾ أي في الدار الآخرة لو أن يمكنهم ان يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به ، ولكن لا يتقبل منهم ، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿ أولئك لهم سوء الحساب ﴾ أي في الدار الآخرة أي يناقَشون على القير والقطمير والجليل والحقير ومن نوقش الحساب عُذِّب ولهذا قال تعالى : ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ .



﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴾ (١٩)

يقول تعالى : لا يستوي من يعلم من الناس ان الذي ﴿ أنزل إليك ﴾ يا محمد ﴿ من ربك ﴾ هو الحق الذي لا شك فيه ولا اختلاف ، بل كله حق يصدق بعضُه بعضاً ، وأوامره ونواهيه عدل ، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد إليه ولا صدقه ولا اتبعه كقوله تعالى : ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ أي لايستوي هذا وهذا . وقولهُ تعالى : ﴿ انما يتذكر أولو الألباب ﴾ أي إنما يتعظ ويعقل ، هم أهل العقول السليمة الصحيحة ، جعلنا الله منهم .

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ ۞ (٢٠) وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ ٱلْحِسَابِ ۞ (٢١) وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۞ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَٱلْمَلَٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۞ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۞ (٢٤) ﴾

يخبر تعالى عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم العاقبة والنصرة دنيا وأخرى ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ أي ليسوا كالمنافقين إذا عاهد أحدهم

غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف ﴿ ويخشون ربهم ﴾ أي فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، يخافون سوء الحساب في الآخرة، فلهذا كان أمرهم على السداد والاستقامة في جميع أحوالهم . ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ أي عن المحارم والمآثم ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي ﴿وانفقوا مما رزقناهم﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿ سراً وعلانية ﴾ أي في السر والجهر ، آناء الليل وأطراف النهار ﴿ ويدرأون بالحسنة السيئة ﴾ أي يدفعون القبيح بالحسن ويقابلون الأذى بالصبر الجميل احتمالاً وصفحاً ، وعفواً . كقوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ... ﴾ ولهذا أخبر عن حال السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله تعالى : ﴿ جنات عدن ﴾ أي جنات إقامة يخلدون فيها مع الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء لتقر أعينهم بهم حتى أنه ترفع درجات الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله وإحساناً . وقوله تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ أي تدخل الملائكة عليهم من ها هنا ومن ها هنا للتهنئة بدخول الجنة فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلّمين ، مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام والإقامة في دار السلام في جوار الرسل والأنبياء والصديقين. وقد جاء في الحديث : ٦٥٢ [أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾] .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۞ (٢٥) ﴾

هذا حال الأشقياء وصفاتهم ، وذكر ما لهم في الآخرة ، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون ، الذين كانوا يوفون بعهد الله ، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل

وهؤلاء ﴿ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل ويفسدون في الأرض ﴾ كما ثبت في الحديث : ٦٥٣ [آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف واذا أؤتمن خان » – وفي رواية – واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر] ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك لهم اللعنة ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ أي سوء العاقبة والمآل ، ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتر على من يشاء بحكمة منه وعدل وفرح الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً ، كما قال تعالى : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال عزوجل ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾كما قال تعالى : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ . روى الامام احمد عن المستورد أخي بني فهر قال قال رسول الله ﷺ ٦٥٤ : [ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم ، فلينظر بما ترجع » وأشار بالسبابه) رواه مسلم في صحيحه .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قيل المشركين ﴿ لولا ﴾ أي هلاّ ﴿ أنزل عليه آية من ربه ﴾ كقولهم : ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة ، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا وفي الحديث : ٦٥٥ [ان الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً ، وأن يجري لهم ينبوعاً ، وان يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين : إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه

أحداً من العالمين وان شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة ، فقال : ﴿ بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة »] ولهذا قال لرسوله ﷺ : ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب ﴾ أي هو المضل والهادي سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبهم إلى سؤالهم فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه كما قال تعالى : ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ ولهذا قال تعالى :
﴿ قل إن الله يضل من يشاءويهدي إليه من أناب ﴾ أي ويهدي إليه من أناب إلى الله ورجع إليه واستعان به وتضرع إليه ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ أي تطيب وتركن إلى جانب الله ، وتسكن عند ذكره وترضى به مولى ونصيراً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (١) أي هو حقيق بذلك .

وقوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس : فرح وقرة عين . وقيل : نعم مالهم ، وطوبى هي الجنة أو شجرة في الجنة كل شجر الجنة منها وكل دار فيها غصن منها ، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة من عسل وخمر وماءولبن . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٥٦ [في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة إقرأوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾] .

وفي الصحيحين : ٦٥٧ [أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذي يكون آخر أهل الجنة دخولاً الجنة : تمنَّ فيتمنى حتى اذا انتهت به الأماني يقول الله تعالى : تمنَّ من كذا ، تمنَّ من كذا ، يذكره ثم يقول : ذلك لك وعشرة أمثاله] وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل : ٦٥٨ [يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر] .

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ (٣٠)

(١) فما قول (القوم ...) حين يقول شاعرهم : بذكر الله تزداد الذنوب ...؟!!! ويعدون هذا القول ... من القربات ...؟! أرأيتم كيف يزين الشيطان الكفر للنفوس حتى يقنعها بأنه هو الإيمان بعينه ، وتنشرح صدورهم به !!! فيكفرون ولا يستغفرون ويلقون الله على ذلك ؟ اللهم اهدهم صراطك المستقيم .

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿ لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك ﴾ أي تبلغهم رسالة الله إليهم ، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله وقد كذب الرسلُ من قبلك ، فلك بهم أسوة . وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك ، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم ، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين . قال الله تعالى : ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله وقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ أي كيف نصرناهم ، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن ولهذا أَنِفوا يوم الحديبية ان يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم وقالوا ما ندري ما الرحمن الرحيم . قاله قتادة والحديث في صحيح البخاري . وقد قال الله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياماً تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٥٩ [إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن] ﴿ قل هو ربي لا إله إلا هو ﴾ أي هذا الذي تكفرون به ، أنا مؤمن به معترف ، مقر له بالربوبية والألوهية هو ربي لا إله الا هو ﴿ عليه توكلت ﴾ أي في جميع أموري ﴿ وإليه متاب ﴾ أي أرجع إليه وأنيب فإنه لا يستحق أحد ذلك سواه .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَاناً سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْئَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعاً وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١) ﴾

يمدح الله القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ويفضله على سائر الكتب المنزلة قبله فقال سبحانه : ﴿ ولو أن قرآناً سيّرت به الجبال ﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها ، أو تنشق به الأرض ، أو تكلم به الموتى في قبورها ، لكان هذا القرآن أولى الكتب اتّصافاً بذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن

عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله ، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به ﴿ بل لله الأمر جميعا ﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل . وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة لأنه جامع لها ؛ روى الامام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : ٦٦٠ [خفف على داود القرآن فكان يأمر بدابته أن تسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته ، وكان لا يأكل إلاّ من عمل يديه] انفرد به البخاري والمراد بالقرآن الزبور وقوله تعالى : ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ أي من ايمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا : ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن الذي ما تركه من جبار إلاّ قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم ﴾ أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا،أو تصيب من حولهم ليتّعظوا ويعتبروا . روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ قال سريّةٌ ﴿ أو تحل قريباً من دارهم ﴾ قال محمد ﷺ : ٦٦١ [﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ قال « فتح مكة »] وقوله تعالى﴿ ان الله لا يخلف الميعاد ﴾ أي لا ينقض وعده لرسله بالنصرة ولأتباعهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسلَه ان الله عزيز ذو انتقام ﴾ .

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه : ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك ﴾ أي فلك فيهم أسوة ﴿ فأمليت للذين كفروا ﴾ أي انظرتُهم وأجلتُهم ﴿ ثم أخذتهم ﴾ أخذةً رابيةً ، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأمليت لهم كما قال تعالى : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم اخذتها وإلى المصير ﴾ وفي الصحيحين : ٦٦٢ [إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد ﴾] .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۞ (٣٣) ﴾

يقول تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ أي حفيظ عليم رقيب على كل نفس يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ، ولا يخفى عليه خافية ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلاّ كنّا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ﴾ وقال تعالى : ﴿ وهو معكم اينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ أفمن كان كذلك كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، ولا تملك نفعاً لأنفسها فضلاً عن عابديها ولا كشف ضرٍ عنها ولا عن عابديها ... ؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ اي عبدوها معه من أصنام وأنداد ﴿ قل سمّوهم ﴾ أي اكشفوا عن اسمائهم حتى يعرفوا فانهم لا حقيقة لهم ولا وجود إذ لو كان لهذه الآلهة وجود في الأرض لعلمها فهو لا تخفى عليه خافية ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ أي بظن من القول اي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم انها تنفع وتضر وسميتموها آلهة ﴿ إن هي إلاّ أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان ۞ إن يتبعون إلاّ الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى . ﴾ وقال تعالى : ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ قال مجاهد : أي ضلالهم والدعوة إليه باستمرار ﴿ وصُدّوا عن السبيل ﴾ أي جزاء ما فعلوا من ضلال وإضلال وصدوا عن سبيل الله فجزاهم الله بأن صدهم عن سبيله . ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن يضلل الله فمـاله من هاد ﴾ كما قال جل وعلا : ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾ .



﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ۞ (٣٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ۞ (٣٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ﴾ أي للمشركين عذاب في الدنيا بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ أي المدّخر لهم مع هذا الخزي في الدنيا، ﴿ أشقّ ﴾ أي من هذا بكثير . كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : ٦٦٣ [إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة] كما قال تعالى : ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ وقال تعالى : ﴿ وأعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيراً * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً * وإذا أُلقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً * لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً * قل أذلك خير أم جنّة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً ﴾ ولهذا قرن هذا بقوله تعالى : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ أي صفتها ونعتها ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي سارحة في ارجائها وجوانبها ، يصرفونها كيف شاءوا واين شاءوا وقوله تعالى : ﴿ أكلها دائم وظلها ﴾ أي فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء ، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف وفيه : ٦٦٤ [قالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكعت فقال : « إني رأيت الجنة — أو أريت الجنة — فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا »] وعن عتبة بن عبد السلمي : ٦٦٥ [أن أعرابياً سأل النبي ﷺ عن الجنة فقال : فيها عنب ؟ قال « نعم » قال : فما عظم العنقود ؟ قال : « مسيرة شهر للغراب الأبقع ولا يفتر »] رواه الامام أحمد روى الطبراني عن ثوبان قال رسول الله ﷺ : ٦٦٦ [ان الرجل إذا نزع ثمرة من الجنّة عادت مكانها أخرى] روى الحسن بن عرفة عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال قال لي رسول الله ﷺ : ٦٦٧ [انك لتنظر إلى الطير في الجنة ، فيخرُّ بين يديك مشوياً] وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص كما قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾ ولما ذكر تعالى صفة الجنة بما ذكر قال سبحانه بعد ذلك : ﴿ تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لا يستوي أصحاب النار واصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ .

۞ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ

وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿ يفرحون بما أنزل إليك ﴾ أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به ، كما قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ قال مجاهد أي اليهود والنصارى من ينكر بعض ما جاءك من الحق ﴿ قل إنما أمرت أن أعبدالله ولا أشرك به ﴾ أي إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له كما أرسل الأنبياء من قبلي ﴿ إليه أدعو ﴾ إلى سبيله أدعو الناس ﴿ وإليه مآبِ ﴾ أي مرجعي ومصيري . وقوله تعالى : ﴿ وكذلك أنزلنا ه حكماً عربياً ﴾ أي محكماً معرباً ، شرفناك به ، وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي . وقوله تعالى : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ أي آراءهم ﴿ بعد ما جاءك من العلم ﴾ أي من الله سبحانه ﴿ مالك من الله من وليّ ولاواقٍ ﴾ وهذا وعيد لأهل العلم من أن يتّبعوا سبل أهل الضلالة، بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية ، على من جاء بها ... أفضل الصلاة والسلام .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً ، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً ، يأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ، ويأتون الزوجات ، ويولد لهم ، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ ﴾ . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٦٦٨ [... أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني] وقوله تعالى : ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلاّ بإذن الله ﴾ أي لم يكن يأتي

قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ لِكل أجل كتاب ﴾ قال الضحاك بن مزاحم في قوله تعالى : ﴿ لكل أجلٍ كتاب ﴾أي لكل كتاب أجل يعني لكل كتاب أنزله من السماء مدّة مضروبة عند الله، ومقدار معين فلهذا: ﴿ يمحو الله ما يشاء﴾ منها ﴿ ويثبت ﴾ يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله تعالى : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ اختلف المفسرون في ذلك، فقال الثوري عن ابن عباس : يدبر أمر السنة فيمحو الله بما يشاء الا الشقاء والسعادة والحياة والموت فإنهما قد فرغ منهما . وقال مجاهد : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ... ﴾ الآيتين : يقضي في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو مصيبة ، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يغيّر .[١] روى الأمام أحمد عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٦٩ [ان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلاّ الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلاّ البر] وثبت في الصحيح : ٦٧٠ [إن صلة الرحم تزيد في العمر [وفي حديث آخر : ٦٧١ [إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض] وقال عكرمة عن ابن عباس : الكتاب كتابان ، فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . وعن ابن عباس أيضاً يقول : يبدل ما يشاء فينسخه ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ وجملة ذلك عنده في ام الكتاب الناسخ ، وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب، وقال قتادة في هذه الآية كقوله تعالى ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخيرٍ منها أو مثلها ﴾ الآية ...[٢]

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ۞ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۞ (٤١) ﴾

(١ – ٢) يتضح من مجموع ما ورد في تفسير هذه الآية من أحاديث نبوية أوأقوال بعض الصحابة والتابعين أن أم الكتاب لا يتغير فيها شيء ولا يتبدل فهي علم الله بما كان وما هو كائن ... ثم قال لعلمه كن كتاباً فكان كتاباً . وأما ما يمحى ويثبت فهذا من الأقدار المعلقة... وكل ذلك أيضاً مسطور في أم الكتاب .

يقول تعالى لرسول الله ﷺ : ﴿ وإما نرينَّك ﴾ يا محمد ، ﴿ بعض الذي نعدهم ﴾ أي بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا ﴿ أونتوفينك﴾أي قبل ذلك ﴿ فإنّما عليك البلاغ ﴾ أي إنما أُرسلناك لتبلغهم وقد فعلت ﴿ وعلينا الحساب ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ... إن إلينا إيا بهم ثم إن علينا حسابهم ﴾ وقولهُ تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ قال الحسن والضحاك ، هو ظهور الإسلام والمسلمين على الشرك والمشركين وقيل أقوال أخرى والقول الأول أولى ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قريةً قريةً كقوله تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ وهذا اختيار ابن جرير .

﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾ (أي ليس لأحد أن يتعقّب حكمه فيرده ؛ كما يتعقب أهل الدنيا حكم بعض فيرده ؛ فإنّ شأن الله أعظم وأجل من ذلك وسيحاسب من يردُّ أحكامه حساباً عسيراً سريعاً) (١) .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ * (٤٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم ﴾ برسلهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين كقوله تعالى : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم إنّا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ الآيتين ، وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما تكسب كل نفس ﴾ أي انه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزي كلاً بعمله ، ﴿ وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ أي لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل كلاّ ، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة . ولله الحمد والمنة .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ * (٤٣) ﴾

يقول تعالى : يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون : ﴿ لست مرسلاً ﴾ أي ما أرسلك الله ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾ أي حسبي الله هو الشاهد عليّ وعليكم ، شاهد عليّ فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون ، فيما تفترونه من البهتان ،

(١) ما بين القوسين ليس من كلام ابن كثير رحمه الله بل من كلامي .

وقوله تعالى : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ ويشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة النبي محمد ﷺ في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به كما قال تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ الآية ... وقال تعالى : ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ الآية وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني اسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة .

آخر اختصار تفسير سورة الرعد ولله الحمد والمنة .

١٣٨٩/٢/٢٤

١٩٦٩/٥/١١

(١٤) سورة ابراهيم مكية وآياتها اثنتان وخمسون

إلاّ الآيتين ٢٨ و ٢٩ فمدنيتان نزلت بعد سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى
النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد * (١) الله الذي له ما
في السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد * (٢)
الذين يستحبون الحيوة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله
ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد * (٣) ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿ كتاب أنزلناه إليك ﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد ، وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب انزله الله من السماء على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ أي من ظلمات الضلال والغي إلى الهدى والرشد . كما قال تعالى : ﴿ الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ بإذن ربهم ﴾ أي هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿ إلى صراط العزيز الحميد ﴾ أي العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب القاهر لكل ما سواه والحميد اي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه، الصادق في خبره . وقوله تعالى : ﴿ الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾

وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ أي ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة اي يقدمونها ويؤثرونها عليها ، ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ أي اتّباع الرسّل ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ أي ويحبون ان تكون سبيل الله عوجاً مائلة وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها ولا من خذلها . فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق ، لا يرجى لهم صلاح .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * (٤)

وهذا من لطفه تعالى بخلقه انه يرسل رسلاً منهم بلغاتهم ، ليفهموا ما أرسلوا به اليهم كما روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٧٢ [لم يبعث الله عز وجل نبياً إلاّ بلغة قومه] وقوله تعالى : ﴿ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ أي بعد البيان وإقامة الحجة عليهم فيضل من يستحق الإضلال ويهدي من هو أهل لذلك ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ الحكيم ﴾ في افعاله .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ ٱللهِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * (٥)

يقول تعالى : وكما ارسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم ، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور ، كذلك أرسلنا موسى إلى بنى اسرائيل بآياتنا ، قال مجاهد : هي التسع الآيات ﴿ ان أخرج قومك من الظلمات إلى النور ﴾ أي ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات الضلال إلى نور الهدى والإيمان . ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ أي بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وظلمه ، وفلقه لهم البحر ، تظليله إياهم بالغمام وانزاله عليهم المن والسلوى إلى غيرذلك من النعم وقد ورد في الحديث المرفوع الذي رواه الامام أحمد عن أبيّ بن كعب : ٦٧٣ [عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ قال : « بنعم الله »] ورواه ابن جرير وابن ابي حاتم .

وقوله تعالى: ﴿ ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ أي إن فيما صنعنا بأوليائنا من بني اسرائيل من النعم لعبرة لكل صبار في الضراء . شكور في السراء وكذا جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٦٧٤ [ان أمر المؤمن كله عجب ، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له وان أصابته سرّاء شكر ، فكان خيراً له] .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۞ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۞ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ ٱللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۞ (٨) ﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام حين ذكرّ قومه بأيام الله ونعمه عليهم ، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب ، اذ كانوا يذبحون أبناءهم ويؤجلون نساءهم فانقذهم الله من كل ذلك وهذه نعمة عظيمة . ولهذا قال سبحانه ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ أي نعمة عظيمة عاجزون عن القيام بشكرها وقوله تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربكم ﴾ أي أذنكم وأعلمكم بوعده لكم ، ويحتمل أن يكون المعنى : وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله كقوله تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنّكم ﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيد لكم منها ﴿ ولئن كفرتم ﴾ أي بالنعم وسترتموها جحودا ﴿ إن عذابي لشديد ﴾ وذلك بسلبها عنهم وقوله تعالى : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ أي هو غني عن شكر عباده وهو الحميد المحمود وإن كَفَرَهُ مَنْ كَفَرَهُ كقوله تعالى : ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ﴾ الآية ... فسبحانه وتعالى الغني الحميد .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * (٩) ﴾

يقصُّ الله علينا أخبار قوم نوح وعاد ثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل مما لا يحصي عددَهم إلاّ الله عز وجل. ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات . قال ابن اسحق عن عمر بن ميمون عن عبدالله انه قال في قوله تعالى:﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾ كذب النسّابون . وقال عروة بن الزبير : ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان . وقوله تعالى ﴿ فَرَدُّوا أيديهم في أفواههم ﴾ قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة معناه : انهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم ، (قلت) ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام : ﴿ وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب ﴾ فكان هذا – والله أعلم – تفسير لمعنى ﴿ فَرَدُّوا أيديَهم في أفواههم ﴾وقال العوفي عن ابن عباس: لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم . وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به الآية ... يقولون : لا نصدقكم فيما جئتم به فان عندنا فيه شكاً قوياً .



﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * (١٢) ﴾

يخبر تعالى : عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة ، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿ أفي الله شك ﴾ ويحتمل معنى الشك في الوجود أو في الألوهية والأرجح أن الشك قائم لا في الوجود لأن السياق يدل على ذلك لأن الاعتراض من الكفار ينصبُّ على بشرية الرسل الداعين وعلى ما كان يعبد آباء الكفار من الأوثان التي كانوا يعتقدون أنها تقربهم إلى الله ولهذا قالوا : ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ ثم طلبوا إليهم أن يأتوهم بمعجزات ظاهرات على أنهم مرسلون من قبل الله ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ وهذا ما يوضح أن الشك قائم في الألوهية لا في الوجود ، فإنه غالب الأمم كانت مقرةً بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى ، وهذا ظاهر من قوله تعالى : ﴿ ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ إذاً فمحاجة الأمم لرسلهم في مقام الرسالة، بمعنى : كيف نتبعكم بمجرد ادعائكم بالنبوة وأنتم بشر مثلنا ... ؟ ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ أي صحيح أنّا بشر مثلكم في البشرية ﴿ ولكن الله يمنُّ على من يشاء من عباده ﴾ أي بالرسالة والنبوّة ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان ﴾ على وفق ما سألتم ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي بعد سؤآلنا إياه ثم إذنه لنا في ذلك ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي في جميع أمورهم ثم قالت رسلهم ﴿ وما لناألاّ نتوكل على الله ﴾ أي وما يمنعنا من ذلك وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها ﴿ ولنصبرن على ما أذيتمونا وعلى الله فليتوكّل المتوكّلون ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّالِمِينَ ۝ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝ (١٤) وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ۝ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝ (١٧) ﴾

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ وكذلك قال قوم لوط للوط عليه السلام وكذلك قال مشركو قريش لمحمد ﷺ واخبر الله عن حالهم بقوله تعالى : ﴿ وإن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ﴾ وكان من فضله تعالى أن نصر نبيه محمداً وصار له انصار واعون من سائر أهل الأرض حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان ولهذا قال تعالى : ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واستفتحوا ﴾ أي استنصرت الرسل ربها على قومها قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ، ويحتمل ان يكون المعنى أن الامم استفتحت على أنفسها كما قالوا : ﴿ اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ أي متجبر في نفسه عنيد معاند للحق ، وفي الحديث : ٦٧٥ [أنه يؤتى بجهنم يوم القيامة ، فتنادي الخلائق فتقول : وكلت بكل جبار عنيد] الحديث . وقوله تعالى : ﴿ من ورائه جهنم ﴾ أي من وراء الجبار العنيد جهنم ، أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلداً يوم المعاد ويعرض عليها غدوّاً وعشيّاً إلى يوم التناد ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ أي في النار ليس له شراب الا من حميم وغساق ، هذا حار في غاية الحرارة ، وهذا بارد في غاية البرد والنتن وقال الامام أحمد عن أبي امامة رضي الله عنه : ٦٧٦ [عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ﴾ قال : « يقرب إليه فيتكرّهه فإذا أدنيَ منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطّع أمعاءه حتى يخرج من دبره » قول الله تعالى : ﴿ وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ ويقول : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾] وهكذا رواه ابن جرير من حديث عبدالله بن المبارك به وقوله تعالى : ﴿ يتجرعه ولا يكاد يسيغه ﴾ اي يتغصّصه ويتكرّهه ولا يكاد يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ أي يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه قال الضحاك عن ابن عباس ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ قال : أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم . ليس منها نوع إلاّ يأتيه الموت منه لو كان يموت ولكن لا يموت لأن الله تعالى قال : ﴿ لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنه أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلاّ إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت ولكنه لا

يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال . ولهذا قال تعالى : ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ أي ولد من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ وقال تعالى : ﴿ ان شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك انت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم ، وتكراره واشكاله مما لا يحصيه إلا الله عز وجل جزاءً وفاقاً ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ ۝ (١٨) ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت ، وعدموها وهم أحوج ما يكونون إليها فقال تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم ﴾ أي مَثَلُ أعمالـهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى لأنهم كانوا يحسبون انهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئاً ، ولا ألفَوْا حاصلاً ، إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿في يوم عاصف﴾ فلم يقدروا على شيء من اعمالهم إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم العاصف كقوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ وقوله تعالى في هذه الآية ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة ، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝ (٢٠) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس أفليس الذي خلقهن بما ومن فيهن على اختلاف أصنافهن ومنافعهن بقادر على أن يخلق خلقاً جديداً ويذهبكم؟ بلى انه على كل شيء قدير ﴾كقوله تعالى : ﴿ أو لم يروا ان الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعيَ بخلقهن بقادر على ان يُحيي الموتى بلى انه على كل شيء قدير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أي ليس ذلك عليه تعالى بعظيم ولا ممتنع بل هو عليه هين إذا خالفتم أمره يذهبكم ويأتِ بآخرين على غير صفتكم ، كقوله تعالى : ﴿ وإن تتولوا يستبدلْ قوماً غيركم * ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ وقال هنا سبحانه: ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز ﴾ .

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ ٱلضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَحِيصٍ * (٢١) ﴾

يقول تعالى ﴿ وبرزوا ﴾ أي برزت الخلائق كلها برُّها وفاجرها لله الواحد القهار ﴿ فقال الضعفاء ﴾ وهم الأتباع لسادتهم وكبرائهم ﴿ للذين استكبروا ﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له وعن موافقة الرسل قالوا لهم : ﴿ إنا كنّا لكمُ تبعاً ﴾ أي مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ﴿ فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ﴾ أي فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فقالت القادة لهم ﴿ لو هدانا الله لهديناكم ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا ، وسبق فينا قدر الله وفيكم ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا أو جزعنا . والظاهر ان هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها كما قال تعالى : ﴿ واذ يتحاجّون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنّا كنا لكم تبعاً فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار قال الذين استكبروا إنّا كلٌ فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٢٢) وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۞ (٢٣) ﴾

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات وأسكن الكافرين الدركات فقام فيهم إبليس لعنه‌الله يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم ، وغبناً إلى غبنهم ، وحسرةً إلى حسرتهم ، فقال : ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ أي على ألسنة رسله ، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم ، كما قال تعالى : ﴿ يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً ﴾ ثم قال : ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان ﴾ أي ما كان لي من دليل ولا حجة فيما وعدتكم به ﴿ إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ بمجرد ذلك ، هذا وقد أقامت عليكم الرسلُ الحججُ والأدلة على صدق ما جاءوكم به فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿ فلا تلوموني ﴾ اليوم ﴿ ولوموا أنفسكم ﴾ فإن الذنب ذنبكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾ أي بمنقذكم من عذابكم ﴿ وما أنتم بمصرخيّ ﴾ بمنقذيَّ من العذاب والنكال ﴿ إني كفرت بما أشركتموني من قبل ﴾ أي إني جحدت أن أكون شريكا لله عز وجل ، قاله ابن جرير وهذا هو الراجح كما قال تعالى : ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ .

وقوله : ﴿ إن الظالمين ﴾ أي في إعراضهم عن الحق واتّباعهم الباطل ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا .

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال ، وأن خطيبهم

ابليس عطف بمآل السعداء فقال : ﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ حيث ساروا وأين توجهوا ﴿ خالدين فيها ﴾ ماكثين أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام ﴾كما قال تعالى : ﴿ حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ويلقون فيها تحيةً وسلاماً ﴾ وقال تعالى : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَاءِ ۞ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۞ (٢٦) ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى : ﴿ مثلاً كلمةً طيبة ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ كشجرة طيبة ﴾ وهو المؤمن ، ﴿ اصلها ثابت ﴾ يقول لا إله إلا الله في قلب المؤمن ﴿ وفرعها في السماء ﴾ يقول يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد : ان ذلك عبارة عن عمل المؤمن ، وقوله الطيب ، وعمله الصالح ، وان المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء وهكذا رواه السدي عن مرة عن ابن مسعود قال : هي النخلة .

روى البخاري عن ابن عمر قال : ٦٧٧ [كنا عند رسول الله ﷺ فقال « أخبروني عن شجرة تشبه – أو – كالرجل المسلم لا يتحاتّ ورقها صيفاً ولا شتاءً وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » قال ابن عمر : فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم ، فلم يقولوا شيئاً ، قال رسول الله ﷺ « هي النخلة » فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه ، والله لقد كان وقع في نفسي إنها النخلة قال : ما منعك ان تتكلم ؟ قلت : لم أركم تتكلمون ، فكرهت ان أتكلمَ أو أقولَ شيئاً ، قال عمر: لأن

تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا] .

روى احمد عن مجاهد : صحبت ابن عمر إلى المدينة فلم أسمعه يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً قال : ٦٧٨ [كنا عند رسول الله ﷺ فأتى بجمار فقال : من الشجر شجرةٌ مثَلُها مثلُ الرجل المسلم. فأردت أن أقول هي النخلة فنظرت فإذا أنا أصغر القوم فقال رسول الله ﷺ « هي النخلة »] أخرجاه . والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف وشتاء أو ليل أو نهار كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين ﴿ بإذن ربها ﴾ أي كاملاً حسناً طيباً مباركاً ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون

وقوله تعالى : ﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ﴾ هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات ، مشبه بشجرة الحنظل ، ويقال لها الشريان ، رواه شعبة بسنده عن أنس أحسبه رفعه قال : ٦٧٩ [﴿ مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴾ قال « هي النخلة » ﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ﴾ قال هي الشريان] روى ابن أبي حاتم عن أنس ابن مالك أن النبي ﷺ قال : ٦٨٠ [﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ﴾ « هي الحنظلة » فأخبرت بذلك أبا العالية فقال : هكذا كنّا نسمع] ورواه ابن جرير من حديث حمّاد بن سلمة به

وقوله تعالى : ﴿ اجتثَّتْ ﴾ أي استؤصلت ﴿ من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات ، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ولا يصعد للكافر عمل ، ولا يتقبل منه شيء .

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ ۞ (٢٧) ﴾

روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٦٨١ [المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾] ورواه مسلم وبقية الجماعة كلهم من حديث شعبة به .

روى الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال : ٦٨٢ [خرجنا مع رسول الله ﷺ

في جنازة رجل من الأنصار . فانتهينا إلى القبر ولما يلحد . فجلس رسول الله ﷺ ، وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال « استعيذوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثا ثم قال : « ان العبد المؤمن اذا كان في انقطاع من الدنيا ، واقبال من الآخرة ، نزل اليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة . وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : ايتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ــ قال ــ فتخرج تسيل ، كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدَعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرّون بها ، يعني على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هــذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له . فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله : اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض . فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى قال : فتعاد روحه في جسده . فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله . فيقولان له ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام فيقولان له : ما هــذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله ، فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادي منادٍ من السماء : أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة . وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة ــ قال ــ : فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مدَّ بصره ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب . طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي كنت يسرُّك هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي ــ قال ــ وإن العبد الكافر اذا كان في انقطاع من الدنيا واقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح . فجلسوا منه مــد البصر . ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه . فيقول : ايتها النفس الخبيثة . اخرجي إلى سخط من الله وغضب ــ قال ــ : فتفرّق في جسده فينتزعه كما ينتزع السفود مــن الصوف المبلول . فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك

المسوح فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فــلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ، فيقولون : فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له فلا يفتح له - ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لا تفتح له ابواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ فيقول الله : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحاً ثم قرأ : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدري فينادي مناد من السماء : أن كذب عبدي فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد فيقول : ومن أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر ؟ فيقول أنا عملك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة»] ورواه أبو داود من حديث الأعمش والنسائي وابن ماجة من حديث المنهال بن عمرو به .

روى الامام عبد بنُ حُمَيْد رحمه الله تعالى في مسنده عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : ٦٨٣ [« ان العبد اذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ، وانه ليسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ قال فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله و رسوله ، قال فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة » قال النبي ﷺ « فيراهما جميعاً »] قال قتادة : وذكر لنا انه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ويملأ عليه خضراً إلى يوم القيامة . رواه مسلم عن عبد بن حميد به وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدب به.روى جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٦٨٤ [والذي نفسي بيده ان الميت ليسمع خفق نعالكم حين تولون عنه مدبرين ، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه ، والزكاة عن يمينه ، والصوم عن يساره وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة : ما قِبَلي مدخل ، فيؤتى عن يمينه ، فتقول الزكاة : ما قبلي مدخل ، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام : ما قبلي مدخل فيؤتى من عند رجليه فيقول فعل الخيرات ما قبلي مدخل ، فيقال له : اجلس ، فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب فيقال له : أخبرنا عما نسألك ، فيقول :

دعني حتى أصلي ، فيقال له : انك ستفعل فأخبرنا عما نسألك ، فيقول وعما تسألوني ؟ فيقال : أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه ، وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول : أمحمد ؟ فيقال له : نعم ، فيقول : أشهد أنه رسول الله ، وأنه جاءنا بالبيّنات من عند الله فصدقناه ؛ فيقال له على ذلك حَيِيت وعلى ذلك مت وعليه تبعث إن شاء الله ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً وينوَّر له فيه ؛ ويفتح له باب إلى الجنة فيقال له : انظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً ، ثم تجعل نسمته في النسم الطيب ، وهي طير خضر يعلق بشجر الجنة ويعاد الجسد إلى ما بدىء من التراب « وذلك قول الله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ورواه ابن حبان.

وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية قال : ان المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة ، فسلموا عليه وبشروه بالجنة ـ ثم ذكر حاله كما تقدم في الأحاديث السابقة ـ ثم قال ... وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة فيبسطون أيديَهم.والبسط :هو الضرب ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ عند الموت فإذا أدخل قبره أقعد ، فقيل له : من ربك ؟ فلم يرجع إليهم شيئاً وأنساه الله ذكر ذلك ، وإذا قيل : من الرسول الذي بعث اليك ؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً ﴿ ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ .



﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۞ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۞ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۞ (٣٠) ﴾

قال البخاري : قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ ألم تعلم ؟ كقوله ﴿ ألم تر كيف ﴾ألم تعلم والبوار: الهلاك . ﴿ قوماً بوراً ﴾ هالكين . حدثنا علي بن عبد الله بالسند ـ إلى ابن عباس ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ قال : هم كفار مكة والمعنى يعم جميع الكفار وقد روي عن علي نحو ذلك . قال ابن ابي حاتم عن ابن أبي حسين قال : قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : ألا أحد يسألني عن القرآن ، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم به مني وان كان من وراء البحار لأتيته ؛ فقام عبدالله بن الكواء فقال : من الذين بدلوا نعمة الله كفراً واحلوا قومهم دار البوار ؟ قال : مشركو

قريش أتتهم نعمة الله الإيمان فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد هم كفار قريش قتلوا يوم بدر وكذا رواه مالك في تفسيره عن نافع عن ابن عمر .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله ﴾ أي جعلوا له شركاء عبدوهم معه ودعوا الناس إلى ذلك ثم قال تعالى مهدداً لهم ومتوعداً على لسان نبيه ﷺ ﴿ قل تمتعوا فان مصيركم إلى النار ﴾ أي مرجعكم إليها كما قال تعالى : ﴿ نمتّعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ .

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ۞ (٣١) ﴾

يأمر الله عباده بطاعته . والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك . وان ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب والمراد بإقامة الصلاة هو المحافظة عليها وقتاً وحدوداً وركوعاً وسجوداً وخشوعاً . والإنفاق خفية وجهراً وذلك لخلاص أنفسهم ﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ لا بيع فيه ولا خلال ﴾ أي ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه وقوله تعالى : ﴿ ولا خلال ﴾ اي ليس هناك مخالة خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة،بل هناك العدل والقسط.والمراد انه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية . ولا صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافراً.كما قال تعالى : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ﴾

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ ۞ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۞ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ

مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۞ (٣٤)

يعدد تعالى نعمه علي خلقه بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً ، والأرض فراشاً ﴿ وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع كقوله تعالى : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجاً من نباتٍ شتّى ﴾ فقال تعالى : ﴿ وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ﴾ أي وسخر لكم الفلك بأن جعلها طافيةً على تيار ماء البحر تجري عليه بأمره تعالى ، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من اقليم إلى آخر لجلب وتبادل السلع والتجارات وسخر الأنهار تشقُ الأرض من قطر الى آخر رزقاً للعبـاد من شربٍ وسقي ، وغير ذلك من المنافع ﴿ وسخر لكم الشمسَ والقمر دائِبَيْن ﴾ أي يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ أي والليل والنهار يتعارضان فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر كقوله تعالى : ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ يقول هيأ لكم ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم . وقوله تعالى : ﴿ وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها كما قال طلق بن حبيب رحمه الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد وإن نعم الله أكثر من أن يُحصيها العباد ، ولكن أُصبحوا تائبين وأمسوا تائبين وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول : ٦٨٥ [اللهم لك الحمد غير مكفيٍ ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا]

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۞ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ (٣٦)

يقول تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمناً ﴾ دعا إبراهيم عليه السلام

لمكة بالأمن وقد استجاب الله له فقال تعالى : ﴿ أولم يروا أنّا جعلنا حَرَماً آمنا ﴾ ولما قال ابراهيم : ﴿ هذا البلد آمناً ﴾ فعرّفَه لأنّه دعا بهذا الدعاء بعد بنائه ، ولهذا قال تعالى حاكياً عن لسان ابراهيم : ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق ﴾ ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحق بثلاث عشرة سنة ، فأما حين ذهب إبراهيم بإسماعيل وأمّه وهو رضيع إلى مكان مكة،فإنه عليه السلام دعا أيضاً فقال : ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ أي في حالة لم يكن هناك بلدٌ بعدُ فقال : ﴿ بلداً ... ﴾ فلم يعرّفه .

وقوله : ﴿ واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ﴾ ينبغي لكل داع أن يدعوُ لنفسه ولوالديه ولذريته . ثم ذكر انه افتتن بالأصنام خلائق من الناس ، وأنه تبرأ ممن عبدها وردّ أمرهم إلى الله فقال : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ أي إن شاء الله عذبهم وإن شاء غفر لهم كقول عيسى عليه السلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا تجويز وقوع ذلك .

روى عبدالله بن وهب عن عبدالله بن عمرو ٦٨٦ [إن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام ﴿ رب إنهن اضللن كثيراً من الناس ﴾ الآية ... وقول عيسى عليه السلام ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ... ﴾ ثم رفع يديه ثم قال : اللهم أمتي ، اللهم أمتي ، اللهم أمتي وبكى فقال الله : اذهب يا جبريل إلى محمد – وربك أعلم – وسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ فقال الله : اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءُك)

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (٣٧)

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول [١] الذي دعا به إبراهيم عليه السلام عندما ولّى عن هاجر وولدها ، وذلك قبل بناء البيت ، وهذا كان بعد بنائه تأكيد ورغبة إلى الله عز وجل ، ولهذا قال : ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ . وقوله : ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾

(١) راجع سورة البقرة الآية رقم /١٢٦/ « رب اجعل هذا بلداً آمناً ... »

قال ابن جرير : هو متعلق بقوله : ﴿ المحرّم ﴾ أي انما جعلته محرماً ليتمكن أهله من اقامة الصلاة عنده ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ فقوله من الناس اي اختص به المسلمون وقوله ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ أي ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك وقد استجاب الله ذلك كما قال عز وجل : ﴿ أولم نمكّن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ﴾ وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته انه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام (١) .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ ۞ (٣٨) ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ ۞ (٣٩) رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۞ (٤٠) رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۞ (٤١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي لأهل هذا البلد وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها ، لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء ثم **حمد ربه تعالى على ما رزقه من الولد بعد الكبر فقال:** ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء ﴾ أي إنه يستجيب لمن دعاه وقد استجاب لي فيما سألته من الولد ثم قال ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ﴾ أي محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿ ومن ذريتي ﴾ أي واجعلهم كذلك مقيمين لها ﴿ ربنا وتقبل دعاء ﴾ أي فيما سألتك فيه كله ﴿ ربنا اغفر لي ولوالديّ ﴾ وكان هذا قبل أن يتبرّأ من أبيه لما تبيّن له عداوته لله عز وجل ﴿ وللمؤمنين ﴾ أي كلهم ﴿ يوم يقوم الحساب ﴾ أي يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم خيراً كانت أو شراً .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ

(١) وتجبى الآن إليها – والجزيرة تبع لها – ثمرات كل شيء من كافة أنحاء المعمورة اللهم أوزعنا أن نشكر نعمتك.

لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَارُ ۞ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ۞ (٤٣)

يقول تعالى : ولا تحسبن يا محمد إذا أجَّل الظالمين أنه غافل عنهم ، مهمل لهم ، لا يعاقبهم على صنعهم . بل هو يحصي ذلك عليهم ويعدّه عداً .﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ أي من شدة الهول يوم القيامة . ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر فقال : ﴿ مهطعين ﴾ مسرعين كما قال تعالى : ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مقنعي رؤوسهم ﴾ قال ابن عباس وغيره : رافعي رؤوسهم ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ أي أبصارهم شاخصة مديمو النظر ، لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والمخافة مما سيحل بهم . عياذاً بالله العظيم من ذلك. ولهذا قال عز وجل : ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ أي أن قلوبهم ليس فيها شيء لكثرة الخوف والوجل. ثم قال تعالى لرسوله ﷺ :

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۞ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۞ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۞ (٤٦)

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب ﴿ ربنا أخِّرْنا إلى أجل قريب نجبْ دعوتك ونتبع الرسل ﴾ كقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني ... ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدَ ولا نكذب بآيات ربّنا ﴾ فقال تعالى رادّاً عليهم : ﴿ أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ أي أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة انه لا معاد ولا جزاء ... فذوقوا هذا بذلك كقوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾ أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿ حكمة بالغة فما تغني النذر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وان كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ وقد روى العوفي عن ابن عباس في تفسيرها يقول : ما كان مكرهم لتزول منه وقال كذا قال الحسن البصري ووجَّهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها ، وانما عاد وبال ذلك عليهم قلت : ويشبه هذا قول الله تعالى : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً . ﴾ والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ وان كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ يقول شركهم كقوله تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً ﴾ وهكذا قال الضحاك وقتادة (١) .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۞ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۞ (٤٨) ﴾

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ﴾ أي من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، ثم اخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يغالب وذو انتقام ممن كفر به وجحده ﴿ فويل يومئذ للمكذّبين ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض وهي هذه غير الصفة المألوفة المعروفة كما جاء في الصحيحين من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٨٧ [يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها معلم لأحد]

روى الامام احمد عن عائشة انها قالت : ٦٨٨ [أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ قالت : قلت أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « على الصراط »] رواه مسلم منفرداً عن البخاري والترمذي وحسنه وصححه قال حسن صحيح وابن ماجه .

---

(١) والتفسير الثاني مطابق لمراد الآية ، وإن كان الكلام الأول صحيحاً في حد ذاته .

وروى احمد أيضاً عن عائشة رضي الله عنها : ٦٨٩ [إنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ قالت : قلت يا رسول الله فأين الناس يومئذ ؟ قال : « لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي ذاك ان الناس على جسرهم . »] وفي حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ انه قال : ٦٩٠ [يبدل الله الأرض غير الأرض والسموات ، فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظي ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ثم يزجر الله الخلق زجرةً فإذا هم في هذه المبدلة »] وقوله تعالى : ﴿ وبرزوا لله ﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ الواحد القهار ﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب .

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝ (٥٠) لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ (٥١) ﴾

يقول تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ وتبرز الخلائق لديّانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ﴿ مقرّنين ﴾ أي بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف كقوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ والأصفاد هي القيود . وقولُه تعالى : ﴿ سرابيلهم من قطران ﴾ أي ثيابهم من قطران وهو الذي تطلى به الإبل وقال ابن عباس القطران هو النحاس المذاب وقولُه تعالى : ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ كقوله تعالى : ﴿ تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾ وفي حديث القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٦٩١ [النائحة اذا لم تتب توقف في طريق بين الجنة والنار وسرابيلها من قطران وتغشى وجهها النار] وقولُه تعالى : ﴿ ليجزيَ اللهُ كلَّ نفس ما كسبت ﴾ أي يوم القيامة « كقوله تعالى : ﴿ ليجزيَ الذين أساءوا بما عملوا ﴾ الآيه ... ﴿ ان الله سريع الحساب ﴾ أي سريع النجاز وان جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم ، كقوله تعالى ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾

﴿ هٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۞ (٥٢) ﴾

يقول تعالى : هذا القرآن بلاغ للناس كقوله تعالى : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ أي هو بلاغ لجميع الخلق من انس وجن كما قال في أول السورة : ﴿ آلر .كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ الآية ﴿ ولينذَروا به ﴾ أي ليتعظوا به ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو ﴿ وليذكَّرَ أولو الألباب ﴾ أي ذوو العقول . آخر سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين .

٤ / ٣ / ١٣٨٩

٢٠ / ٥ / ١٩٦٩

(١٥) سورة الحجر مكية وآياتها تسع وتسعون

إلاّ الآية /٨٧/ فمدنية نزلت بعد سورة يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

جزء ٢٧ حزب ١٤

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ * (١) رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ
ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * (٣) ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور . وقوله تعالى : ﴿ ربما يود الذين كفروا ﴾ الآية إخبار عنهم أنّهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين . ونقل السديُّ في تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة : أن كفار قريش لما عُرِضوا على النار تمنَّوا أن لو كانوا مسلمين . وقيل : المراد ان كل كافر يود عند احتضاره ان لو كان مؤمناً . وقيل هذا إخبار عن يوم القيامة كقوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ قال ابن جرير عن ابن عباس وأنس بن مالك أنهما كانا يتأولانها يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار . فيقول لهم المشركون : ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا ، قال : فيغضب الله لهم بفضل رحمته فيخرجهم . فذلك حين يقول تعالى : ﴿ ربما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ وقال عبد الرزاق عن مجاهد مثله وهكذا روي عن الضحاك وقتادة وأبي العاليه وغيرهم وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة منها ما رواه الطبراني عن انس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٩٢ [« إن ناساً من

أهل لا إله إلاّ الله يدخلون النار بذنوبهم فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم لا إله إلاّ الله وأنتم معنا في النار ؟ فيغضب الله لهم فيخرجهم فيلقيهم في نهر الحياة فيبرؤون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ويدخلون الجنة ويسمّون فيها الجهنميين » فقال رجل : يا أنس أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ فقال أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » نعم أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا] ثم قال الطبراني : تفرد به الجهبذ صالح بن اسحق ...

وروى الطبراني أيضاً عن ابي موسى الأشعري ، وعن أبي سعيد الخدري مرفوعاً بألفاظ متشابهة إلا ان رواية أبي سعيد الخدري : ٦٩٣ [« فيسمون في الجنة الجهنميين من أجل سواد في وجوههم فيقولون: يا رب أذهب عنا هذا الاسم ، فيأمرهم فيغتسلون في نهر في الجنة فيذهب ذلك الإسم عنهم » فأقر به أبو أسامة وقال : نعم] .

وكذلك رواه ابن أبي حاتم عن محمد بن علي عن ابيه عن جده مرفوعاً بهذا المال إلى أن يقول ﷺ ـ حكاية عن أهل الكتاب ومن في النار من أهل الأديان والأوثان لمن في النار من أهل التوحيد : ٦٩٤ [آمنتم بالله وكتبه ورسله فنحن وأنتم اليوم في النار سواء فيغضب الله لهم غضباً لم يغضبه لشيء فيما مضى . فيخرجهم إلى عين في الجنة وهو قوله : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾] وقوله تعالى : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾ تهديد شديد لهم ووعيد أكيد ، كقوله تعالى : ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ ولهذا قال : ﴿ ويلههم الأمل ﴾ أي عن التوبة والإنابة ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أي عاقبة أمرهم .

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتَابٌ مَعْلُومٌ ۞ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ ۞ (٥) ﴾

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها ، وانه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم، ولا يتقدمون عن مدتهم. وهذا تنبيه لأهل مكه وإرشادٌ لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك .

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ
لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا
نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ
نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم : ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ أي الذي تدّعي ذلك ﴿ إنك لمجنون ﴾ أي في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ماوجدنا عليه آباءنا ﴿ لوما ﴾ أي هلاّ ﴿ تأتينا بالملائكة ﴾ أي يشهدون لك بصحة ما جئت به ، كما قال فرعون ﴿ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾ بالرسالة والعذاب ثم قال تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن وهو الحافظ له من التغيير والتبديل ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى : ﴿ له لحافظون ﴾ على النبي ﷺ ولكن ظاهر السياق في قوله قوله تعالى : ﴿ انّا نحن نزلنا الذكر وانّا له لحافظون ﴾ يدل على ان الحفظ انما هو للقرآن العظيم من التبديل والتغيير، وهذا هو المراد من قوله سبحانه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ
مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي
قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ
الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

يسلّي الله تعالى رسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش : أنه أرسل من قبله من الأمم الماضية وإنه ما أتى أمةً من رسول إلا كذبوه واستهزأوا به ، ثم أخبر أنه تعالى سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى . قال أنس والحسن البصري ﴿ كذلك نسلكه ﴾ أي الشرك ، وقوله تعالى : ﴿ وقدخلت سنة الأولين ﴾ أي قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار وكيف أنجى الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ * (١٥) ﴾

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وشدة مكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك ، بل قالوا ﴿ إنما سكرت أبصارُنا ﴾ أي أخذت أبصارنا وشبّه علينا وإنما سحرنا .

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * (١٧) إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ * (١٨) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ * (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * (٢٠) ﴾

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات ، ما يحار نظره فيه ولهذا قال مجاهد وقتادة : البروج ههنا هي الكواكب . (قلت) وهذا كقوله تبارك وتعالى : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً ﴾ الآية ... ومنهم من قال : البروج هي منازل الشمس والقمر . وقال عطية العوفي : البروج ههنا هي قصور فيها الحرس وجعل الشهب حرساً لها من مردة الشياطين لئلا يسمعوا إلى الملأ الأعلى ، فمن تمرّد وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه...

فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى وليّه . كما جاء مصرحا به في الصحيح . كما روى البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال : ٦٩٥ [« إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان] قال علي وقال غيره صفوان ينفذ هم ذلك فإذا فزع عن قلوبهم قالوا :

ماذا قال ربكم قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر ، ووصف سفيان بيده ، وفرج بين أصابع يده اليمنى ، نصبها بعضها فوق بعض بما أدرك الشهابُ المستمع قبل أن يرمي إلى صاحبه فيحرقه ، فربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض ، وربما قال سفيان : حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى في فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مئة كذبة فيصدق ، فيقولون : ألم يخبرنا يوم كذا ويوم كذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقاً للكلمة التي سمعت من السماء] . ثم ذكر تعالى خلقه للأرض ومده إياها وتوسيعها وبسطها ، وما جعل فيها من الجبال الرواسي ، والأودية والأراضي والرمال ، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة .

وقوله تعالى : ﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء مرزون ﴾ قال ابن زيد : من كل شيء يوزن ويقدر بقدر وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش وهي جمع معيشة . وقوله تعالى : ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ أي انه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش وبما سخر لهم من دواب يركبونها وانعام يأكلونها وعبيدو إماء يستخدمونهم ورزق الجميع على خالقهم لا عليهم ، فلهم المنفعة وعلى الله الرزق .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ۝ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۝ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ۝ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ (٢٥) ﴾

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وان كل شيء سهل عليه يسير لديه وانعنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف ﴿ وما ننزله إلاّ بقدر معلوم ﴾ كما يشاء وكما يريد ، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه

الرحمة روى ابن جرير عن الحكم بن عيينة في قوله تعالى : ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ قال : ما عام بأكثر مطراً من عام ولا أقل ولكنه يمطر قوم ويحرم آخرون بما كان في البحر وقوله تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ اي تلقح السحاب فتدر ماءً ، وتلقح الشجر فتفتح عن أكمامها وأوراقها ، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الانتاج بخلاف الريح العقيم فإنه أفردها ووصفها بالعقيم وهو عدم الانتاج لأنه لا يكون إلاّ بين شيئين فصاعداً . وقال عبيد بن عمير الليثي : يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قماً ، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب ، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب ، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وارسلنا الرياح لواقح ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فأسقيناكموه ﴾ أي أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه لو نشاء جعلناه أجاجاً . كما قال تعالى في سورة الواقعة : ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ أي ما أنتم له بحافظين . بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معيناً وينابيع في الأرض ، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به . ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً ، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم .

وقوله تعالى : ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ﴾ إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع ، واخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها ، وإليه يرجعون . ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم ، فقال تعالى : ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾ الآية قال ابن عباس رضي الله عنهما : المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام . والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة . وروي نحوه عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة . ومحمد بن كعب ، والشعبي وغيرهم . وهو اختيار ابن جرير رحمه الله وقد قيل أقوال أخرى في تفسير الآية فيها نكارة شديدة فقال محمد بن كعب : ليس هكذا ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾ الميت والمقتول ﴿ والمستأخرين ﴾ من يخلق بعد . ﴿ وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم ﴾ فقال عون بن عبد الله ـ وهو أحد رجال السند ـ وفقك الله وجزاك خيراً . رواه ابن جرير .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * (٢٦) وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ ٱلسَّمُومِ * (٢٧) ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس. والظاهر انه كقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجان من مارج من نار﴾ وعن ابن عباس ومجاهد والضحاك: إن الحمأ المسنون هو المنتن.

وقوله تعالى: ﴿والجانّ خلقناه من قبل﴾ أي من قبل الإنسان ﴿من نار السموم﴾ وعن ابن عباس: إن الجان خلق من لهب النار. وقد ورد في الصحيح: ٦٩٦ [خلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار. وخلق آدم مما وصف لكم] والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محتده.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * (٢٩) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَنْ يَكُونَ مَعَ ٱلسَّاجِدِينَ *(٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّاجِدِينَ *(٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * (٣٣)﴾

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون﴾ كقوله ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ وقوله: ﴿أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ﴾.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ *(٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ * (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * (٣٨)﴾

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى ، وأنه رجيم أي مرجوم ، وأنه قد أتبعه لعنةً لا تزال متصلة به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة . وعن سعيد بن جبير انه قال : لما لعن الله إبليس تغيرت صورته التي كان عليها ، ورن رنّة فكل رنّة في الدنيا إلى يوم القيامة منها رواه ابن أبي حاتم ، وأنه لمّا تحقق الغضب الذي لا مرد له ، سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة وهو يوم البعث ، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً ، فلما تحقق النظرة قبحه الله .

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۞ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۞ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۞ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ۞ (٤٤) ﴾

يخبر تعالى عن ابليس وتمرده أنه قال للرب سبحانه ﴿ بما أغويتني ﴾ أي بسبب ما اغويتني وأضللتني ﴿ لأزيننَّ لهم في الأرض ﴾ أي لأحسنن لذرية آدم المعاصي وأأزهم إليها ﴿ ولأغوينهم أجمعين ﴾ أي كما أغويتني وقدّرتَ علي ذلك ﴿ إلاّ عبادك منهم المخلصين ﴾ كقوله : ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ ﴿ قال ﴾ الله تعالى متهدداً متوعداً : ﴿ هذا صراطي عليّ مستقيم ﴾ أي مرجعكم كلكم إليّ ، فأجازيكم بأعمالكم ان خيراً فخير وان شراً فشر ، كقوله تعالى : ﴿ إنّ ربك بالمرصاد ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ أي الذين قدّرتُ الهداية لهم فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم ﴿ الاّ من اتبعك من الغاوين ﴾ استثناء منقطع وقد أورد ابن جرير من حديث عبد الله بن المبارك ما خلاصته : أن نبياً كان إذا أراد أن يستنبيء ربه عن شيء خرج إلى مسجده خارج قريته فصلّى ما كتب الله له ثم سأله ما بدا له فبينا هو في مسجده إذ جاء عدو الله - يعني إبليس - حتى جلس بينه وبين القبلة فقال النبي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقال عدو الله : أخبرني بأي شيء تنجو مني ؟

فقال النبي بل اخبرني بأي شيء تغلب ابن آدم مرتين فأخذ كل على صاحبه إلى أن قال النبي قوله تعالى ﴿وإمّا ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم﴾ وإني والله ما أحسست بك قط إلا استعذت بالله منك قال عدوُّ الله: صدقت بهذا تنجو مني فقال النبي أخبرني بأي شيء تغلبُ ابنَ آدم قال: آخذه عند الغضب والهوى. وقوله تعالى: ﴿ وان جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ أي موعد جميع من اتبع ابليس كما قال عن القرآن ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ ثم أخبر ان لجهنم سبعة أبواب ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ أي لكل باب جزء من اتباع ابليس يدخلونه لا محيد لهم عنه، أجارنا الله منها كلٌّ بقدر عمله وعن ابن عباس: سبعة أبواب: أولها جهنم ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم. ثم الهاوية وروى عن ابن جريج والأعمش بنحوه، وهكذا فإن منازل أهل النار بأعمالهم.



إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ (٤٥) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ۞ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۞ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۞ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۞ (٥٠)

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون وقوله تعالى: ﴿ ادخلوها بسلام ﴾ أي سالمين من الآفات، مسلّم عليكم ﴿ آمنين ﴾ أي من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء..

وقوله تعالى: ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ﴾ وقد روى سعيد في تفسيره: حدثنا أبو فضالة عن لقمان عن أبي أمامة قال: لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما في صدره من غل حتى ينزع منه مثل السبع الضاري. وهذا موافق لما في الصحيح من رواية قتادة عن أبي سعيد الخدري حدثهم ان رسول الله ﷺ قال:

٦٩٧ [يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا، اذن لهم في دخول الجنة]

قال ابن جرير عن أبي حبيبة مولى لطلحة قال: دخل عمران بن طلحة على علي رضي الله عنه بعدما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾ وقال سفيان الثوري عن ابراهيم قال: جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على علي رضي الله عنه فحجبه طويلاً ثم أذن له فقال له: أمّا أهل البلاء فتجفوهم فقال علي: بفيك التراب إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾.

وقوله تعالى: ﴿لا يمسهم فيها نصب﴾ يعني المشقة والأذى وقوله ﴿وما هم منها بمخرجين﴾ كما جاء في الحديث: ٦٩٨ [يقال يا أهل الجنة ان لكم ان تصحّوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً. وإن لكم ان تشبّوا فلا تهرموا أبداً وان لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً]. وقال الله تعالى: ﴿خالدين فيها لا يبغون عنها حولا﴾. وقوله تعالى: ﴿نبىء عبادي إني أنا الغفور الرحيم * وان عذابي هو العذاب الأليم﴾ أي أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عذاب أليم وهي دالة على مقاميْ الرجاء والخوف، روى ابن جرير عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: ٦٩٩ [طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال: «ألا أراكم تضحكون» ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع الينا القهقرى فقال، «اني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله يقول: لم تُقْنِطْ عبادي: ﴿نبىء عبادي إني أنا الغفور الرحيم * وان عذابي هو العذاب الأليم﴾].

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرٰهِيمَ * (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ ٱلْقَانِطِينَ * (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا ٱلضَّالُّونَ * (٥٦)﴾

يقول تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ضيف إبراهيم﴾ وكيف ﴿دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون﴾ أي خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى

أيديهم لا تصل إلى العجل السمين الحنيذ [١] ﴿ قالوا لا توجل ﴾ أي لا تخف ﴿ إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ أي إسحق عليه السلام ﴿ قال ﴾ متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد ﴿ أبشرتموني على أن مسّني الكبر فبم تبشرون ﴾ فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً ، وبشارة بعد بشارة ﴿ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴾ فأجابهم بأنه ليس بقنط ، ولكن يرجو من الله الولد ، وإن كان قد كبر وأسنّت امرأته فإنه يعلم من قدرة الله تعالى ورحمته ما هو أبلغ من ذلك .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ۞ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۞(٥٩) إِلَّا إمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَابِرِينَ ۞(٦٠) ﴾

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى أنه شرع يسألهم عما جاءوا له فقالوا : ﴿ إنّا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعنون قوم لوط ، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من الهالكين ، ولهذا قالوا : ﴿ إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين ﴾ أي الباقين المهلكين .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۞ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ۞ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۞ (٦٤) ﴾

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شبان حسان الوجوه ، فدخلوا عليه داره قال ﴿إنكم قوم منكرون ۞ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكّون في وقوعه بهم ﴿ وأتيناك بالحق ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ما ننزل الملائكة إلاّ بالحق ﴾ وقولهُ تعالى : ﴿ وإنا لصادقون ﴾ تأكيد لخبرهم اياه بما أخبروه به من نجاته واهلاك قومه .

---

(١) سورة هود آية /٦٩/ والحنيذ : المشوي .

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۞ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ۞ (٦٦) ﴾

يذكر تعالى عن الملائكة انهم أمروا لوطاً ان يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل ويمشي وراءهم ليكون احفظ لهم ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو انما يكون ساقة يزجي الضعيف ويحمل المنقطع . وقوله ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ أي اذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل﴿وقضينا إليه ذلك الأمرَ﴾ أي تقدمنا إليه في هذا ﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ أي وقت الصباح كقوله تعالى في الآية الأخرى ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ .

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۞ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۞ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ۞ (٧٠) قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۞ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۞ (٧٢) ﴾

يخبر تعالى عن مجيءِ قوم لوط لما علموا بأضيافه ، وصباحة وجوههم ، مستبشرين فرحين ﴿ قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحونِ ۞ واتقوا الله ولا تخزونِ ﴾ وهذا قبل أن يعلم أنهم رسل الله ، وأما هاهنا فتقدم ذكر أنهم رسل وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجّتهم ولكن الواو لا تقتضي الترتيب ولا سيما إذا دل دليل على خلافه ، فقالوا له مجيبين : ﴿ أو لم ننهك عن العالمين ﴾ أي أوما نهيناك أن تضيّف أحداً ؟ فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم ايضاح القول في سورة هود بما أغنى من إعادته وقوله تعالى : ﴿ لعمرك إنّهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض ، قال ابن عباس : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ

وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره قال الله تعالى : ﴿ لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ أي في ضلالتهم يترددون وغافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء وماذا سيُصبِحهُم من العذاب المستقر .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ وهي ما جاء من الصوت القاصف ﴿ مشرقين ﴾ عند شروق الشمس – وقد تقدم في سورة هود كيف أن جبريل رفع بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها وجعل عاليها سافلها، وأرسل حجارة السجيل عليهم بما فيه كفاية – وقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ أي ان آثار هذه النقم ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته كما قال مجاهد : ﴿ للمتوسمين ﴾ قال : للمتفرّسين ، وقيل للناظرين والمعتبرين والمتأملين وكله قريب .

وقوله تعالى : ﴿ وانها لبسبيل مقيم ﴾ أي وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي والقذف بالحجارة ، حتى صارت بحيرةً منتنة خبيثة ، بطريق مهيع[1] مسالكه مستمرة إلى اليوم .كقوله تعالى : ﴿ وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ان في ذلك لآيةً للمؤمنين ﴾ أي ان الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وانجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله .

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ، وكان ظلمهم بشركهم بالله ، وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان ، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة ، وعذاب يوم الظلة ،

(١) المهيع : الطريق الواسع البين .

وقد كانوا قريباً من قوم لوط زماناً ومكاناً ولهذا قال تعالى ﴿ وإنهما لبإمام مبين ﴾ أي طريق ظاهر ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ (٨٠) وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۞ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً ءَامِنِينَ ۞ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۞ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ (٨٤) ﴾

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا نبيهم صالحاً عليه السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب الرسل جميعاً ، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين . وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح كالناقة التي أخرجها الله لهم من صخرة صماء بدعاء صالح ، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم فلما عتوا وعقروها قال لهم : ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ وذكر تعالى أنهم ﴿ كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ﴾ أي من غير خوف ولا احتياج اليها بل اشراً وبطراً وعبثاً كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مرّ به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فقنع رأسه وأسرع دابته وقال لأصحابه :
٧٠٠ [لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلاّ أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم] وقوله تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴾ أي صباحاً من اليوم الرابع ، ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أي ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عُقر وهالئلا تضيق عليهم في المياه فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۞ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٨٦) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وان الساعة لآتية ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء و الأرض وما بينهما باطلاً ﴾ بل بالحق اي بالعدل ليجزي كلاً بعمله ثم أخبر نبيه بقيام الساعة ﴿ وان الساعة لآتية ﴾ أي كائنة لا محالة ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به كقوله تعالى : ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ قال مجاهد وغيره كان هذا قبل القتال وهو كذلك فان هذه مكية والقتال انما شرع بعد الهجرة . وقوله تعالى : ﴿ إنَّ ربك هو الخلاق العليم ﴾ تقرير للمعاد وانه تعالى قادر على إقامة الساعة فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق شيء ، العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض كقوله تعالى : ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ ۞ (٨٧)
لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٨٨) ﴾

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : كما آتيناك القرآن العظيم ، فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها ، وما متعنا بها أهلها من الزهرة الفانية ، لنفتنهم فيه ، فلا تغبطهم عليه ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك ، ومخالفتهم دينك ، ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ أي ألِنْ لهم جانبك كقوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ . وقد اختلف في السبع المثاني ما هي ؟ فمن قال أنها هي السبع الطوال يعنون البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف والأنفال والتوبة سورة واحدة قال ابن عباس : ولم يعطهن أحد الا النبي ﷺ روي هذا القول عن ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وبعض التابعين وقال سعيد بن جبير بين فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام .

والقول الثاني : أنها الفاتحة وهي سبع آيات . وروي ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس قال ابن عباس والبسملة هي الآية السابعة وقد خصكم الله بها ، وبه قال ابراهيم النخعي والحسن البصري ومجاهد وغيرهم . وقال قتادة : ذكر لنا أنهن فاتحة

الكتاب ، وانهن يثنّين في كل ركعة مكتوبة أو تطوع واختاره ابن جرير واحتج في بالأحاديث الواردة في ذلك وقد قدمناها في فضائل سورة الفاتحة ولله الحمد . وقد أورد البخاري في ذلك حديثين (أحدهما عن أبي سعيد بن المعلى قال : مرّ بي رسول الله ﷺ (وفيه ...) : ٧٠١ [... الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته (والثاني) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ٧٠٢ [أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم] فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم . ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوال بذلك لما فيها من هذه الصفة كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، فلا تنافي فإن ذكر الشي لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ لا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ أي استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ، كأنه يعزيه عن الدنيا . قال ابن عباس : ﴿ لا تمدن عينيك ﴾ نهي الرجل أن يتمنّى ما لصاحبه.وقال مجاهد : ﴿ الى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ هم الأغنياء .

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝ (٩٠) ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْآنَ عِضِينَ ۝ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ (٩٣) ﴾

يقول تعالى آمراً نبيه ﷺ أن يقول للناس : ﴿ إني أنا النذير المبين ﴾ المبين النذارة للناس من عذاب أليم أن يحلّ بهم على تكذيبه كما حلّ بمن تقدمهم من الأمم المكذبّة لرُسُلها ، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام . وقوله تعالى : ﴿ المقتسمين ﴾ أي المتحالفين على الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم ، كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح إنهم ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيتّنه وأهله ﴾ الآية أي نقتلهم ليلاً ، قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا فكأنهم كانوا لايكذبون بشيء من الدنيا إلاّ أقسموا عليه فسمّوا مقتسمين ، وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ : ٧٠٣ [انما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل اتى قومه فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما

جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق] .

وقوله تعالى : ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ يعني أصنافاً أي من قال : سحر ومن قال ، كهانة. ومن قال أساطير الأولين وقال عطاء: قال بعضهم ساحر وقالوا مجنون وقالوا كاهن فذلك العضين . وكذا روي عن الضحاك وعن غيره .

وقال محمد بن إسحق عن محمد بن ابي محمد عن عكرمة او سعيد بن جبير عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا شرف فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ؛ فقالوا وأنت يا ابا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به ، قال : بل انتم قولوا لأسمع ، قالوا : نقول كاهن، قال: ما هو بكاهن ، قالوا : فنقول مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ، قالوا : فماذا نقول ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة، فما انتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف انه باطل، وإن اقرب القول ان تقولوا هو ساحر ، فتفرقوا عنه بذلك ، وانزل الله فيهم (الذين جعلوا القرآن عضين) أصنافاً (فوربك لنسألنهم اجمعين عما كانوا يعملون) وعن مجاهد في هذه الآية قال : عن لا إله إلا الله وروي كذلك عن أنس موقوفاً ورواه الترمذي وغيره من حديث أنس مرفوعاً ، وقال عبد الله هو ابن مسعود : والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر . فيقول : ابن آدم ماذا غرك مني بي ؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟

روى ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٠٤ [يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كُحْل عينيه . وعن فتات الطينة بأصبعه ، فلا ألفينّك يوم القيامة وأحدٌ غيرك أسعد بما آتاك الله منك] وعن ابن عباس : قال : لا يسألهم ــ الله ــ هل عملتم كذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ولكن يقول لمَ عملتم كذا وكذا ؟ .

فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۞ (٩٥) ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ ۞ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۞ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّاجِدِينَ ۞ (٩٨) وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۞ (٩٩)

يقول تعالى آمر رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه والصدع به ، وهو مواجهة المشركين به .كما قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ أي أمضه . وعن ابن مسعود : ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فخرج هو وأصحابه . وقولـه تعالى : ﴿ واعرض عن المشركين إنّا كفيناك المستهزئين.﴾ أي بلغ ما انزل اليك من ربك ولا تلتفت الى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿ ودّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ ولا تخفهم فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم . روى الحافظ ابو بكر البزار عن أنس قال : ٧٠٥ [« إنا كفيناك المستهزئين ﴿ الذين يجعلون مع الله إلٓهاً آخر ﴾ قال : مرّ رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم فجاء جبريل ، أحسبه قال فغمزهم ، فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا] . روى ابن اسحق عن ابن عباس قال : كان رأسهم الوليد بن المغيرة وهو الذي جمعهم وكانوا خمسة على أصح القولين وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم ، من بني أسد ، وزهرة ومخزوم ، وسهم . وخزاعة . وقوله تعالى : ﴿ الذين يجعلون مع الله إله آخر فسوف يعلمون ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر . وقوله تعالى : ﴿ ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ اي وإنا لنعلم يا محمد انه يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض فلا يثنيك عن إبلاغك رسالة الله . وتوكل عليه فانه كافيك وناصرك عليهم ، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة ولهذا قال سبحانه ﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ كما جاء في الحديث المروي عن الإمام أحمد عن نعيم بن عمار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ٧٠٦ [قال الله تعالى : يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النّهار أكفك آخره .) ورواه أبو داود والنسائي.

وقوله تعالى : ﴿ واعبد ربك حين يأتيك اليقين ﴾ قال البخاري : قال سالم : الموت وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وغيرهم والدليل على ذلك قوله تعالى : إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا : ﴿ لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ أي الموت . وفي الصحيح عن أم العلاء امرأة من الأنصار ٧٠٧ [أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات قالت

ام العلاء : « رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال رسول الله ﷺ : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ » فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ، فمن ؟ فقال : « أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير »]

ويستدل بهذه الآية : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً فيصلي بحسب حاله . ويستدل بها على تخطئة الملاحدة إلى ان المراد باليقين المعرفة . فمتى وصل أحدهم الى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم وهذا كفر وضلال وجهل [1] فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم . وكانوا مع هذا أعبد . واكثر الناس عبادة ، ومواظبة على فعل الخيرات الى حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين هنا الموت كما قدمناه والحمد لله على الهداية ، وعليه الاستعانة والتوكل . وهو المسؤول ان يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها فانه جواد كريم آخر اختصار تفسير سورة الحجر والحمد للهرب العالمين .

١٣٨٩/٣/١٩ هـ
٤ /٦/١٩٦٩ م

---

(١) قلت : هؤلاء الملاحدة هم أهل وحدة الوجود التي هي نهاية حقائق علم التصوف وآخر درجات الحقيقة عندهم وهي مرتبة الوصول بأن يعتقد الواصل إليها انه بلغ الحقيقة ... !!! وهي الاعتقاد بأن الخالق عين المخلوق مهما تعددت الأشكال والذوات. فالكل واحد وهو الله... !!! فإذا أصبح العبد رباً فمن يعبد...؟ أيعبد نفسه ...؟ وهنا تسقط التكاليف نعوذ بالله من الكفر والخذلان ، وسوء المنقلب ، ومن همز الشيطان ونفثه... فإن من يشرفه الله بالإسلام ويذوق حلاوته، ثم يختار مرارة هذا المنقلب الشركي المخيف فهو أهل لأحط دركات جهنم ، وأعظم عذاب أهل السعير .

(١٦) سورة النحل مكية وآياتها ثمان وعشرون ومائة

إلا الآيات الثلاث الأخيرة فمدنية نزلت بعد الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم



﴿ أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١)

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة، كقوله تعالى: ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ أي قرب ما تباعد، فلا تستعجلوه ويحتمل عود الضمير على الله أو عوده على العذاب، وكلاهما متلازم. كما قال تعالى: ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينّهم بغتةً وهم لا يشعرون ﴾

روى ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: ٧٠٨ [« تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس. فما تزال ترتفع في السماء، ثم ينادي منادٍ فيها: يا أيها الناس. فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم. ومنهم من يشك. ثم ينادي الثانية: يا أيها الناس، فيقول الناس بعضهم لبعض: هل سمعتم؟ فيقولون نعم. ثم ينادي الثالثة: يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه » قال رسول الله ﷺ فوالذي نفسي بيده إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبدا، وان الرجل ليمدن حوضه فما يسقي فيه شيئاً أبداً، وان الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً ـ قال ـ ويشتغل الناس »] ثم أنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه سواه تعالى وتقدس، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال: ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون. ﴾

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۞ (٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ينزل الملائكة بالروح ﴾ أي الوحي • وقوله تعالى : ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ وهم الأنبياء ،كما قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أن أنذروا ﴾ أي لينذروا ﴿ أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ أي فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري .

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ (٣) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۞ (٤) ﴾

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث بل ليجزي عباده كلاً بما قدم من عمل . ثم نزّه نفسه عن الشرك ، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له،فلهذا يستحق ان يعبد وحده لا شريك له • ثم نبه على خلق جنس الانسان من نطفة مهينة ضعيفة . فلما استقلّ ودرج إذا هو يخاصم ربه ويكذبه ويحارب رسُله ! ! ! وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضدّا • كقوله تعالى : ﴿ أو لم يرَ الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بشر بن جحاش قال : ٧٠٩ [بصق رسول الله ﷺ في كفه ، ثم قال : « يقول الله تعالى : ابن آدم أنّى تُعجزُني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت الحلقوم قلتَ : أتصدق ؟ ... وأنّى أوان الصدقة ؟] .

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞(٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞(٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ (٧) ﴾

يمتّن الله على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ، كما فصلها في سورة الأنعام الى ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافهـا وأوبارها واشعارها يلبسون ويفترشون ، ومن ألبانها يشربون ويأكلون من أولادهاوما لهم فيها من الجمال والزينة ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون ﴾ وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى فإنها تكون أمده خواصر ، وأعظمه ضروعاً ، وأعلاه أسنمةً . ﴿ وحين تسرحون ﴾ أي غدوة حين تبعثونها الى المرعىٰ ﴿ وتحمل اثقالكم ﴾ التي تعجزون عنها نقلاً وحملاً ﴿ إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس ﴾ وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة تستعملونها في الركوب والتحميل كما قال تعالىٰ : ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ ولهذا قال هاهنا بعد تعداد هذه النعم ﴿ ان ربكم لرؤوف رحيم ﴾ فقيّض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كما قال سبحانه ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾

قال ابن عباس : ﴿ لكم فيها دفء ﴾ أي ثياب ﴿ ومنافع ﴾ ما ينتفعون به من الأطعمة والأشربة .

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * (٨) ﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالىٰ لعباده ، يمتّن به عليهم ، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها الله للركوب والزينة بها ، وذلك أكبر المقاصد منها ، ولما فصلها من الأنعام وخصّها بالذكر ، استدل من استدل من العلماء ممن ذهب الى تحريم لحوم الخيل بذلك كالإمام أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه من الفقهاء ، بأنه تعالىٰ قرنها بالبغال والحمير وهي حرام فقد روى فيها أحاديث عن خالد بن الوليد مفادها لو صحت تحريم لحـوم الخيل ولكن ما صحت لأن فيها بقية بن الوليد (١) وصالح بن يحيىٰ بن المقدام ابن معد يكرب (٢) وهذا وإن ثبت عكسه في الصحيحين عن جابر بن عبدالله قال ٧١٠ [نهىٰ رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل] ورواه الإمام أحمد وأبو

(١) بقية بن الوليد مدلس . (٢) وصالح بن يحيى بن المقدام بن معد يكرب فيه كلام .

داود باسنادين كل منهما شرط مسلم عن جابر قال : ٧١١ [ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير ، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل] . وفي صحيح مسلم عن اسماء بنت ابي بكر رضي الله عنهما قالت : ٧١٢ [نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة] ؛ فهذه الأحاديث أدل وأقوى وأثبت [1] وإلى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم واكثر السلف والخلف.

﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ [2]

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۞ (٩) ﴾

لما ذكر الله تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسيّة نبّه على الطرق المعنوية الدينية ، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسيّة إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية • كقوله تعالىٰ : ﴿ وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ وفي القرآن من ذلك كثير وعلى هذا الأساس ذكر الله الطرق التي يسلكها الناس إليه تعالىٰ فبيّن ان الحق منها ما هي موصلةٌ إليه تعالىٰ فقال عز من قائل : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ وقال جل وعلا : ﴿ قال هذا صراط عليّ مستقيم ﴾ قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ قال : طريق الحق على الله . وهذا أقوى الأقوال من حيث السياق لأنه تعالىٰ أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه ، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق ، وهي الطريق التي شرعها ورضيها ، وما عداها مسدودة ، والأعمال فيها مردودة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ومنها جائر ﴾ أي حائد زائغ عن الحق . قال ابن عباس وغيره : هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة، كاليهودية والنصرانية والمجوسية. ثم أخبر تعالىٰ أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته فقال عز من قائل : ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾

---

(١) أي من الأحاديث التي ذكرنا أنها ضعيفة قبل قليل. (٢) أي ويخلق في المستقبل من المراكب ما لا تعلمون، كما رأينا في زماننا هذا من الدراجات والسيارات والطائرات . وغداً الصواريخ ... والله أعلم .

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ (١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۞ (١١)﴾

لما ذكر تعالىٰ ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء وهو العلو ، مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم ، فقال سبحانه : ﴿لكم منه شراب﴾ أي جعله عذباً زلالاً يسوغ لكم شرابه ، ولم يجعله ملحاً أجاجاً ﴿ومنه شجر فيه تسيمون﴾ أي وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم .

وقوله تعالى : ﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها ، ألوانها وروائحها وأشكالها ولهذا قال جل وعلا : ﴿ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ أي دلالة وحجة على أن لا إله إلا الله ، كما قال تعالىٰ : ﴿أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾ .

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۞ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ۞ (١٣)﴾

ينبه تعالى عباده على آياته ومننه العظام في تسخيره الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم الثوابت والسيارات ليهتدى بها في الظلمات ، وكلٌّ يسير في فلكه الذي خصص الله بلا زيادة ولا نقصان ، والجميع تحت قهره وتقديره.ولهذا قال : ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ أي لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله كلامه

ويفهمون حججه . وقوله تعالى : ﴿ وماذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ﴾ لما نبه تعالى على معالم السماء نبّه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة ، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يذكّرون ﴾ آلاء الله ونعمه فيشكرونها .

وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِياً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾

يخبر تعالىٰ عن تسخيره البحر العظيم ممتناً على عباده بتذليله لهم بتيسيرهم للركوب فيه وأكل ما فيه من السمك والحيتان ، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والإحرام . وبما يخلقه فيه من اللآلىء والجواهر وتسهيل استخراجها حليةً ، وبحمله السفن التي تمخره أي تشقه وهو الذي أرشد عباده إلى صنعتها إرثاً عن أبيهم نوح عليه السلام الذي أول من ركب السفن وأخذ الناس عنه صنعتها جيلاً بعد جيل . ويسيرون فيها من قطر الى قطر ويجلبون من كل قطرٍ وإليه ما هم بحاجةٍ اليه ولهذا قال سبحانه ﴿ ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ نعمه وإحسانه .

ثم ذكر سبحانه الأرضَ وما ألقى فيها من الجبال الشامخات كيلا تضطرب بما عليها ليهنأ عيشهم عليها ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ والجبال أرساها ﴾

وقوله تعالىٰ : ﴿ وأنهاراً وسبلاً ﴾ أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد ينبع من موضع وهو رزق لأهل موضع آخر فيقطع البقاع ويخترق الجبال والآكام ، فيصل إلى ما قدر الله وصوله إليه تجري حيناً وتنقطع حيناً آخر ما بين نبع وجمع فسبحان من قدَّر وسخَّر ويسّر فلا إله إلا هو ولا رب سواه . وكذلك جعل فيها

سبلاً أي طرقاً تسلك من بلاد إلى بلاد وتمر من الجبال إلى أي بلدٍ فيها أو أرض .

وقوله تعالى : ﴿ وعلامات ﴾ أي دلائل من جبال وآكام يستدل بها المسافرون بحراً وبراً إذا ضلوا الطريق . وقوله سبحانه : ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ في ظلام الليل ، ثم نبه تعالى على عظمته وانه لا تنبغي العبادة إلاّ لمولي هذه النعم دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون ، ولهذا قال : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ ثم نبههم على عميم نعمه على عباده واحسانه إليهم فقال عز من قائل : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ قال ابن جرير : يقول ان الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وانبتم الى طاعته واتباع مرضاته ، رحيم بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة .

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝ (١٩) وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝ (٢١) ﴾

يخبر تعالى أنه يعلم السرائر كما يعلم الظواهر ، وسيجزي كلاً بعمله خيراً كان أم شراً ، ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، وقوله تعالى : ﴿ أموات غير أحياء ﴾ أي لا أرواح فيها فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل : ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ أي لا يدرون متى يكون بعثهم فكيف يُرتجَى عند من هذه صفاته نفع أو ثواب أو جزاء ؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء [١] .

---

(١) قلت : ان الأصنام التي يعبدونها ما كانوا يعبدونها لذاتها ، إنما كانوا يعبدون مَنْ وراءها من الصالحين الذين نحتت هذه الأوثان والأصنام على صورتهم ، زاعمين أنهم يقربونهم إلى الله زلفى بعبادتهم تماثيلهم بأشخاصهم مع أنهم أمواتٌ لا يسمعون، ولا يبصرون ولا يعقلون، ولا يعلمون أيان يبعثون. فهذه الأوصاف ليست صفات جمادات وأحجار إنما هي صفات أولئك الصالحين الأموات بدليل أن الله يصفهم بصفات العقلاء الذكور أي أن جمعهم كان بالواو والنون . ولو كانوا جمادات لوصفهم بقوله . : لا تشعر أيان تبعث ولكن لما قال : « وما يشعرون أيان يبعثون » فُهم أن مرادُ الله منصرف إلى أولئك الصالحين الذين نُحتت هذه الأوثان والأصنام على صورهم. وما مشركو زماننا بأحسن حالا من أولئك، إنما بدلوا الأوثان بالقبور ولعل الافتتان بالقبر أعظمُ خطراً من الافتتان بالصنم لأن جثة ذلك الصالح موجودةٌ داخل القبر فذلك أدعى للافتتان بصاحب القبر المدعو، من دون الله من الصنم الذي يمثل صورته فقط، دون أن يعلم عابدوه مكان قبره حتى يقصدوه ويقتربوا من جثته . اللهم جنبنا مزالق الزلل ولا تجعل في قلوبنا محلاً لعبادة غيرك وأحسنْ خاتمتنا بالايمان الكامل .

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۞ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ۞ (٢٣) ﴾

يخبر تعالىٰ أنه لا إله إلا هو الواحد الفرد الصمد ، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك ، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿ واذا ذكر الله وحده اشمأزّت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذاذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ وقوله﴿ وهم مستكبرون ﴾ أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده كما قال تعالىٰ : ﴿ ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾

ولذا قال تعالى هاهنا : ﴿ لا جرم ﴾ أي حقاً ﴿ ان الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون ﴾ أي وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۞ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ۞ (٢٥) ﴾

يقول تعالىٰ : وإذا قيل لهؤلاء المكذبين ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا ﴾ معرضين عن الجواب ﴿ أساطير الأولين ﴾ أي لم ينزل شيئاً ، إنما هو الذي يتلىٰ علينا أساطير الأولين أي مأخوذ عن كتب المتقدمين كقوله تعالىٰ : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملىٰ عليه بكرةً وأصيلاً ﴾ أي يفترون على الرسول ويقولون أقوالاً متضادّة مختلفة باطلة ، وهكذا فإن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ . وقوله تعالى : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلّونهم بغير علم ﴾ أي ليتحملوا خطيئة ضلالهم في أنفسهم. وخطيئة إغوائهم لغيرهم ، واقتداء أولئك بهم ، كما جاء في الحديث : ٧١٣ [من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، لا يُنقص ذلك من اجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه ، لا يُنقص ذلك من آثامهم شيئاً] قال مجاهد : يحملون أثقالهم ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ، ولا يخفّف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً . ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ أي يحملون .

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۞ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ (٢٧) ﴾

قوله تعالىٰ : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾ قال ابن عباس : هو النمروذ وقال زيد ابن أسلم : أول جبار كان في الأرض النمروذ فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق ، وكان جباراً أربعمائة سنة فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه ، ثم أماته وهو الذي بنىٰ الصرح إلى السماء الذي قال الله تعالىٰ ﴿ فأتىٰ الله بنيانهم من القواعد ﴾ أي اجتثه من أصله وأبطل عملهم كقوله تعالىٰ : ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾ وقال الله ههنا : ﴿ فأتىٰ الله بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم يوم القيامة يخزيهم ﴾ أي يظهر فضائحهم ، وما كانت تجنّه ضمائرهم فيجعله علانية ، كقوله تعالىٰ : ﴿ يوم تبلىٰ السرائر ﴾ أي تظهر وتشتهر كما في الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ٧١٤ [ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند أسته بقدر غدرته ، فيقال هذه غدرة فلان بن فلان] وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرّونه من المكر ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرّعاً لهم وموبخاً ﴿ اين شركائي الذين كنتم تشاقّون فيهم ﴾ أي تحاربون وتعادون في سبيلهم ، أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا ؟ كقوله تعالى ﴿ هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فما له من قوة ولاناصر ﴾ فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة ، وحقت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار : ﴿ قال الذين أوتوا العلم ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة ، فيقولون حينئذ ﴿ إن الخزيَ اليوم والسوء على الكافرين ﴾ أي الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه .

﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ۞ (٢٨) فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ۞ (٢٩) ﴾

يخبر تعالىٰ عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿ فألقوا السلم ﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ كما يقولون يوم المعاد ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فقال الله مكذباً لهم في قيلهم ذلك ﴿ بلىٰ ان الله عليم بما كنتم تعملون ، فادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ أي بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله ، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم ، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها ، فاذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم ، كما قال تعالىٰ : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾



﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ۞ (٣٠) جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزي الله المتقين ۞ (٣١) الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ۞ (٣٢) ﴾

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء الذين قالوا لم ينزل الله شيئاً انما

هذا أساطير الأولين ، أما المؤمنون السعداء ، لما سئلوا عما أنزل الله قالوا خيراً . أي رحمةً وبركةً لمن اتبعه وآمن به ثم اخبر سبحانه فيما وعدهم به فقال عز من قائل : ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ الآية ... كقوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياةً طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ أي أخبر بأن دار الآخرة خير من الحياة الدنيا والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا ، كقوله تعالىٰ : لرسوله ﷺ : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ ثم وصف الدار الآخرة فقال سبحانه : ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾

وقوله تعالىٰ : ﴿ جنات عدن ﴾ بدل من دار المتقين ﴿ يدخلونها ﴾ أي يقيمون فيها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي بين اشجارها وقصورها﴿ لهم فيها ما يشاؤون ﴾ كقوله تعالىٰ : ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ﴾ وقوله تعالى : ﴿كذلك يجزي الله المتقين ﴾ أي كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله . ثم أخبر تعالىٰ عن حال المؤمنين عند الاحتضار أنهم طيبون أي مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء ، وان الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة كقوله تعالى : ﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا **تتنزل** عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ۞ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون ۞ نزلاً من غفور رحيم ﴾. وقد قدمنا الأحاديث في قبض الروح المؤمنة والروح الكافرة . عند قوله تعالى : ﴿ يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضلّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۞ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۞ (٣٤) ﴾

يهدد الله المشركين بأنهم لا ينتظرون إلاّ أن تقبض الملائكة أرواحهم أو تقوم القيامة بأمر الله وما فيها من أهوال ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أي هكذا أشرك سلفهم حتى ذاقوا بأس الله وحلّوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ لأنه بلغهم

واقام الحجة عليهم بإنزال كتبه ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي بتكذيب الرسل فأصابتهم عقوبة الله على ذلك ﴿ وحاق بهم ﴾ أي أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ عندما كان الرسل يهددونهم بعقاب الله تعالى، فلهذا يقال لهم يوم القيامة ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ ۝ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝ (٣٧) ﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك، واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شيء ﴾ أي من البحائر والسوائب والوصائل (١) وغير ذلك مما ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكننا منه، فرّد الله عليهم شبهتهم ﴿ فهل على الرسل إلاّ البلاغ المبين ﴾ أي ليس كما زعمتم بل أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي وبعث الرسل في كل أمة، وكلهم دعوا إلى عبادة الله وحده ﴿ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وذلك منذ أن حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل اليهم، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب كما قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله الا أنا فاعبدون ﴾ وقال

---

(١) البحيرة: التي يجدعون آذانها فلا تحلب لأحد من الناس بل تبقى ممنوعة لطواغيتهم والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء والوصيلة: الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بل تثنى بعد انثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر. رواه البخاري ومسلم.

تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ﴾ فمشيئته الشرعية منتفية عنهم ، لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله . وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدراً فلا حجة لهم فيها (١)

ثم إنه تعالى أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد انذار الرسل فلهذا قال تعالى : ﴿ فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ أي اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق ، كيف ﴿ دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ ان حرصه على هدايتهم لا ينفعهم اذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى : اخباراً عن نوح عندما قال لقومه : ﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد ان يغويكم ﴾ وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يُضِلّ (٢) ﴾ أي من أضلّه الله ، وما من مخلوق يستطيع ان يهديه من بعد الله ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ينقذونهم من عذابه ووثاقه ﴿ ألا لَهُ الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ۞ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ (٤٠) ﴾

(١) قلت : لأن المشيئة الكونية ليست مجبرة لهم بأخذ الكفر عقيدة إذ أن العقيدة من الأمور التكليفية التي جعل الله للإنسان فيها الاختيار المطلق ليكون الانسان أهلا للثواب أو للعقاب . ولما علم الله تعالى في أول الأمر – وقبل الخليقة – من هذا المكلف أنه سيعرض عليه الإيمان والكفر وإنه سيختار الكفر مثلا ... فكتبه عليه وقدره ، وشاءه له فهذه هي المشيئة الكونية ، ثم لما خلق هذا المكلف وبلغ سن التكليف وعرض عليه الإيمان والكفر فإنه اختار الكفر وفق ما علم الله منه ما سيختار ، فأين للكافر الحجة بالمشيئة الكونية والحالة هذه ... ؟ أما في الأمور غير التكليفية ، فالمشيئة الكونية مجبرة له كأن يخلقه الله أسود أو أعمى وما شابه ، مما لا دخل للاختيار به فهو مجبر على ذلك ولا يترتب عليه أية مسؤولية ، وله أن يحتج بالمشيئة الكونية وعلى هذا فكل مشيئة كونية تتعلق بمشيئة شرعية فلا حجة لصاحبها بالمشيئة الكونية أصلا والله أعلم وهو الموفق للصواب .

(٢) قلت : لا يضل الله أحداً إلا من بعد تبليغه واقامة الحجة عليه ، وبعد الإختيار المطلق من المكلف ، فإن اختار الضلال بعد ذلك وأمعن فيه فإن الله يضله نهائياً جزاء وفاقاً .

يخبر تعالىٰ عن المشركين أنهم غلظوا الأيمان بالله تعالىٰ بأنه لن يبعث الله الموتىٰ ، فحلفوا على نقيض ما أخبرهم الرسل مكذبين ما بلغوهم إياه ، فقال تعالى مكذباً لهم وراداً عليهم ﴿ بلىٰ ﴾ أي نعم سيكون البعث ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ أي لا بدّ منه ﴿ ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي فلجهلهم يخالفون الرسل ويكفرون . ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد ، وبعث الأجساد فقال عز من قائل : ﴿ ليبين لهم ﴾ أي للناس ﴿ الذي يختلفون فيه ﴾ أي من كل شيء ﴿ وليعلمَ الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ أي في أيمانهم وإقسامهم لا يبعث الله من يموت ؛ ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعّاً ، وتقول لهم الزبانية ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * إصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ ثم أخبرعن قدرته على كلّ شيء ممايشاء وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء كقوله تعالى : ﴿ وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر ﴾ أي أنْ نأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن . فلا يحتاج سُبحانه إلى تأكيد ولا يمانع ولا يخالف فقد قهر سلطانُه وجبروته وعزته كلّ شيء ، فلا إله الا هو ولا رب سواه ، روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال ٧١٥ : [يقول الله تعالى : شتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، وكذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقال ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ قال : وقلت : ﴿ بلىٰ وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أما شتمه إيّاي فقال : ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾ وقلت ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾] هكذا ذكره موقوفاً وهو في الصحيحين مرفوعاً بلفظٍ آخر .

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * (٤١) ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * (٤٢) ﴾

نزلت هذه الآية والله أعلم – في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة ، حتى خرجوا من بين أظهرهم الى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم ،، ومن أشرافهم : عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم

رسول الله ﷺ ، وابو سلمة بن عبدالله الأسود في جماعة قريب من ثمانين رجل وامرأة رضيَ الله عنهم وارضاهم ولقد فعل فوعدهم تعالى بالمثوبة في الدارين فقال تعالى : ﴿ لنبوئنّهم في الدنيا حسنة ﴾ فقد عوّضهم الله مسكناً طيباً في المدينة ورزقاً طيباً فيها خيراً مما كانوا فيه ، فإن من ترك شيئاً لله عوّضه الله بما هو خير له منه ، وكذلك وقع فقد مكّن الله لهم في البلاد ، وصاروا أمراءً وحكاما ، وكل منهم للمتقين إماما . ثم اخبر تعالىٰ بأن لهم ثواباً في الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال عز من قائل : ﴿ ولأجر الآخرة أكبر ﴾ أي مما أعطيناهم في الدنيا ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لهم جزاء طاعته وطاعة رسوله ﷺ ثم وصفهم تعالىٰ فقال : ﴿ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي صبروا على الأذى من قومهم، متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۞ (٤٤) ﴾

قال الضحاك عن ابن عباس : لما بعث الله محمداً ﷺ أنكر قسم من العرب ذلك وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ الآية ... وقال تعالىٰ هنا : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم فسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ﴾ يعني فاسألوا أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم ، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا ان يكون محمد ﷺ بشراً رسولاً وكذا قال مجاهد عن ابن عباس ان المراد بأهل الذكر هم أهلُ الكتاب . والغرض ان هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر ، كما قال تعالىٰ : ﴿ قل إنما انا بشر مثلكم يوحَى إلي ﴾ ثم أرشد تعالى الذين يشكّون في كون الرسل من البشر أن يسألوا أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة ، ثم ذكر تعالىٰ أنه أرسلهم ﴿ بالبينات والزبر ﴾ بالحجج والدلائل والزبر وهي الكتب قاله ابن عباس وغيره . والزبر جمع زبور ، تقول العرب : زبرت الكتاب اذا كتبته . وقال

تعالى : ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ ثم قال تعالىٰ : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر ﴾ يعني القرآن ﴿ لتبين للناس ما نزّل اليهم ﴾ أي من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك وحرصك عليه واتباعك له ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصّلُ لهم ما أجمل وتبيّن ما أشكل ﴿ ولعلّهم يتفكرون ﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين .

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۞ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ۞ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ (٤٧) ﴾

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئآت ويدعون إليها ، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم على ذلك ، مع قدرته تعالىٰ على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون كقوله تعالى : ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هي تمور ۞ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴾

وقوله تعالى : ﴿ أو يأخذهم في تقلّبهم ﴾ أي في تقلّبهم في المعايش واشتغالهم بها في أسفارهم ، وقوله تعالىٰ : ﴿ فما هم بمعجزين ﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليـــه .

وقوله تعالىٰ : ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم ، فإنه يكون أبلغ وأشد . فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد،ثم قال تعالى : ﴿ فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ أي لأنه لم يعاجلكم بالعقوبة وفي الصحيحين : ٧١٦ [إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾]

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۞ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي



ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلٰئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۞ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۞ (٥٠)

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي دانت له المخلوقات بأسرها : جماداتها وحيواناتها ونباتاتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة ، فأخبر ان كل ماله ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال ، أي بكرة وعشياً وعند زوال الشمس ، فإنه جميعاً ساجد بظلّه لله تعالى.وقوله تعالى : ﴿ وهم داخرون ﴾ أي صاغرون ، فسجود كل شيء فيؤُه ، وقوله تعالى : ﴿ والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾ أي عن عبادته ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ أي يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أي مثابرين على طاعته تعالى وامتثال أوامره ، وترك زواجره .



۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا إِلٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۞ (٥١) وَلَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۞ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۞ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۞ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ (٥٥)

يخبر تعالى أنه لا إله الا هو ، فلا تنبغي العبادة إلاّ له وحده لا شريك لـه ، فإنه مالك وخالق ورب كل شيء ﴿ وله الدين واصباً ﴾ أي دائماً خالصاً له ، أي له العبادة وحده فارهبوا أن تشركوا به شيئاً واخلصوا له الطاعة كما أمر كقوله تعـالى : ﴿ ألا

لله الدين الخالص ﴾ ثم أخبر انه مالك النفع والضر، وكل إحسان وفضل منه وحده ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ أي تلحون في الرغبةإليه، مستغيثين به، لعلمكم أنه لا يقدر على إزالة الضر إلا هو ﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم ﴾ بمعنى : قيضنا لهم ذلك ليكفروا أي يستروا الحق ويجحدوا نعم الله عليهم عقاباً لهم لاختيارهم لأنفسهم هذه العاقبة المرذولة ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ أي اعملوا ما شئتم فسوف ترون عاقبتكم السيئة بما كنتم تعملون.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۞ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۞ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۞ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ (٦٠) ﴾

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا : هذا لله – بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾ فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنّهم عن ذلك الذي افتروه وليجازيهم عليه أوفر الجزاء في نار جهنم. فقال سبحانه : ﴿ تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾ ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله فعبدوها معه سبحانه، فأخطأوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث [1] كما قال تعالى : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزىَ ﴾ وقوله تعالى ههنا : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ﴾ : أي تنزه عن قولهم وإفكهم ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ من الذكور ويأنفون البنات التي نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ﴿وإذا بشر أحدهم

(١) قلت : أي جعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله، ونسبوا لله ولداً ولا ولد له، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم.

بالأنثى ظل وجهه مسوداً ﴾ أي كئيباً من الهم ﴿ وهو كظيم ﴾ ساكت من شدة الحزن ﴿ يتوارى من القوم ﴾ أي يكره أن يراه الناس ﴿ من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ﴾ أي إن أبقاها أبقاها مُهانةً لا يورثها ولا يعتني بها ، ويفضل أولاده الذكور عليها. ﴿ أم يدسه في التراب ﴾ أي يدفنها فيه وهي حيّة كما كانوا يصنعون في الجاهلية ، أفمن يكرهونه هذه الكراهية ، ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟! ﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ أي بئس ما قالوا وبئس ما قسموا وبئس ما نسبوه إليه ، كقوله تعالى : ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوّداً وهو كظيم ﴾ وقوله ههنا : ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ﴾ أي النقص ، إنما هذا خليق أن ينسب إليهم ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ أي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَآبَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُفْرَطُونَ ۝ (٦٢) ﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم وأنه لو يؤآخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة تبعاً لإهلاك بني آدم ولكنه جل جلاله يحلم ويستر وينظر إلى أجل مسمّى أي لا يعاجلهم بالعقوبة قال أبو الأحوص : كاد الجُعَل أن يعذب بذنب بني آدم ولكن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله .

روى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال : ٧١٧ [ان الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر]

وقوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ أي من البنات ، والشركاء الذين هم عبيده وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله . وقوله تعالى : ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك ان لهم الحسنى في الدنيا

وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى كقوله تعالى : ﴿ ولئن أذقنا الأنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي ان لي عنده للحسنى فلننبئنَّ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنَّهم من عذاب غليظ . ﴾

فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمنّي الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً وهذا مستحيل. كما ذكر ابن اسحق انه وُجد حجرٌ في أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوب عليه حكم ومواعظ . فمن ذلك : تعملون السيئآت وتجزون الحسنات ؟ أجل كما يجتني من الشوك العنب .

ولهذا قال تعالى راداً عليهم في تمنيهم ذلك : ﴿ لا جرم ﴾ أي حقاً لا بد منه ﴿ أن لهم النار ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وانهم مفرطون ﴾ اي معجلون الى النار ، من الفرط وهو السابق الى الورْد وقيل منسيون مضيعون ، ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة الى النار وينسون فيها أي يخلدون .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ (٦٤) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝ (٦٥) ﴾

يذكر تعالى أنّه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل ، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة فلا يزعجنّك تكذيبُ قومك لك ، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه . ﴿ فهو وليّهم اليوم ﴾ أي هم تحت العقوبة والنكال ، والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصاً ولا صريخ لهم ، ولهم عذاب أليم . ثم قال تعالى لرسوله ﷺ إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه . فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿ وهدى ﴾ أي للقلوب ﴿ ورحمة ﴾ أي لمن تمسك به ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب

الميتة بكفرها ، كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿ إنَّ في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ۞ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ (٦٧) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وان لكم ﴾ أيها الناس ﴿ في الأنعام ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ؛ ﴿ لعبرةً ﴾ أي لآية دلالةً على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه ﴿ نسقيكم مما في بطونه ﴾ أفرده هاهنا عوداً على معنى النعم أو الضمير عائد على الحيوان ، فإن الأنعام حيوانات أي نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان ، وفي الآية الأُخرى مما في بطونها ويجوز هذا وهذا كما في قوله تعالى : ﴿ كلاّ إنها تذكره فمن شاء ذكره ﴾

وقوله تعالى : ﴿ من بين فرث ودم لبناً خالصاً ﴾ أي يخلّص الدمَ بياضُه وطعمه وحلاوته ما بين فرث ودم في باطن الحيوان ، فيسري إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته فيصرف منه دم إلى العروق ، ولبن الى الضرع ، وبول الى المثانة ، وروث إلى المخرج وكل منها لا يخالط الآخر بعد انفصاله عنه ولا يتغير به . وقوله تعالى : ﴿ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ أي لا يغصّ به أحد ، ولما ذكر اللبن وانه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً ثنّى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه . ولهذا أمتن عليهم فقال تعالى : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ﴾ دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه ودلَّ على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل أو العنب كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء ، وكذا حكم سائر الأشربة من الحنطة والشعير والذرة والعسل وغير ذلك وقوله تعالى : ﴿ سكراً ورزقاً حسناً ﴾ قال ابن عباس : السكر ما حرّم من ثمرتيهما والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ ناسب ذكر العقل ههنا فإنه أشرف ما في الإنسان ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانةً لعقولها .

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * (٦٩) ﴾

المراد بالوحي هنا: الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها ومن الشجر ومما يعرشون ، وبيوت النحل محكمة في غاية الإحكام والإتقان في تسديسها ورصها بحيث لا يكون بينها خلل ، ثم أذن الله تعالى إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التي سهّلها الله عليها حيث شاءت؛ في الجوّ والبراري والأودية والجبال ثم تعود إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة فتبني الشمع من أجنحتها وتقيء العسل من فيها ، وتبيض الفراخ من دبرها ، ثم تصبح إلى مراعيها .

وقوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ ما بين ابيض وأصفر وأحمر وغير ذلك على اختلاف مراعيها ومأكلها منها وقوله تعالى : ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ أي في العسل شفاء للناس ، أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة فانه حار والشيء يداوى بضده . والدليل على أن المراد بقوله تعالى ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ هو العسل ، الحديث المروي في الصحيحين من رواية قتادة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه :

٧١٨[ان رجلاً جاء الى رسول الله ﷺ فقال : ان أخي استطلق بطنه ، فقال : « اسقه عسلاً » فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال : يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده الا استطلاقاً ، قال : « اذهب فاسقه عسلاً » فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقاً ؛ فقال رسول الله ﷺ « صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلاً » فذهب فسقاه عسلاً فبرىء] قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات ، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت ، فأسرعت في الاندفاع فزاده إسهالاً ، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه ثم سقاه فازداد التحليل والدفع ، ثم سقاه فكذلك ، فلما اندفعت فضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، استمسك بطنه ، وصلح مزاجه ، واندفعت الأسقام والآلام ببركة اشارته ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

وقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون ﴾ أي ان في إلهام الله لهذه الدواب

الضعيفة الخلقة ، الى السلوك في هذه المهامه والاجتناء من سائر الثمار ، ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء ، لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها . فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر ، الحكيم العليم ، الكريم الرحيم .

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُم مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۞ (٧٠) ﴾

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده ، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ثم يتوفاهم ، ومنهم من يتركه حتّى يدركه الهرم وهو الضعف في الخلقة ، كما قال تعالى : ﴿ الله الـذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوةً ﴾ الآية وفي سن الهرم يحصل ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم ولهذا قال سبحانه : ﴿ لكيلا يعلم بعد علم شيئاً ﴾ أي بعدما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الخرف . ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو : ٧١٩ [اعوذ بك من البخل والكسل والهرم ، وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات]

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۞ (٧١) ﴾

يبيّن تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء ، وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون في تلبيتهم في حجّهم : لبيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك . فقال تعالى منكراً عليهم : أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم ، فكيف يرضى الله تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴾ الآية ... وقال مجاهد في هذه الآية : هذا مثل الآلهة الباطلة وقال قتادة : هذا مثل ضربه الله ، فهل منكم مـن أحد يشاركه مملوكه في زوجته وفي فراشه ، فتعدلون بالله خلقه وعباده ؟ فإن لم ترض لنفسك هذا ، فالله أحق أن ينزّه منك .

وقوله تعالى : ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ أي أنهم جعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فجحدوا نعمته ، وأشركوا معه غيره .

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ۞ (٧٢) ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً يتزاوجون وجعل منهم البنين والحفدة ، وهم أولاد البنين وعن ابن عباس قال : بنوك حيث يحفدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك . وقال مجاهد : بنين وحفدة : ابنه وخادمه وقال في رواية - الحفدة والأنصار والأعوان والخدام وقيل أختان الرجل وقيل : الأصهار ، وكل هذه الأقوال داخلة في معنى الحفدة وهو الخدمة الذي منه قوله في القنوت : وإليك نسعى ونحفد ، ولما كانت الحفدة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار فالنعمة حاصلة بهذا كله ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أي من المطاعم والمشارب ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره : ﴿ أفبالباطل يؤمنون ﴾ وهم الأنداد والأصنام ﴿ وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ أي يسترون نعم الله عليهم ، ويضيفونها إلى غيره ، وفي الحديث الصحيح : ٧٢٠ [ان الله يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه : ألم أزوِّجْك ، ألم أكرِمْك ، ألم أُسخِّر لك الخيل والإبل ، وأَذَرْك ترأَسُ وتَربَعُ]

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۞ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ (٧٤) ﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخلاّق الرزّاق ، وحده لا شريك له ، ومع هذا ...! يعبدون من الأصنام والأنداد

والأوثان ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ، أي لا يقدر على إنزال المطر ولا إنبات الزرع ولا الشجر ولا يملكون ذلك لأنفسهم ، أي ليس لهم ذلك ، ولا يقدرون عليه لو أرادوه ولهذا قال : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ أي لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً ﴿ ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ أي أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو ، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره .



﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَّمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥)

هذا مثل ضربه الله تعالى للكافر والمؤمن قاله ابن عباس فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ، مثلُ الكافر ، والمرزوق الرزق الحسن ، فهو ينفق منه سراً وجهراً ، مثَلُ المؤمن .

قال مجاهد : هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى ، فهل يستوي هذا وهذا ؟ ولمّا كان الفرق ظاهراً واضحاً لا يجهله إلاّ كل غبيّ قال الله تعالى : ﴿ الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون ﴾

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٧٦)

قال مجاهد : وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ، ولا يقدر على شيء بالكلية فلا مقال له ولا فعال ، وهو مع هذا كلٌّ ، أي عيال وكلفةٌ على مولاه ﴿ أينما يوجّهْهُ ﴾ أي يبعثه ﴿ لا يأتِ بخير ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿ هل يستوي ﴾ من هذه صفاته ﴿ هو ومن يأمر بالعدل ﴾ فمقاله حق وفعاله مستقيمة ﴿ وهو على صراطٍ مستقيم ﴾

وقيل الأبكم مولى لعثمان بن عفان ، ومن ﴿ هو على صراط مستقيم ﴾ هو عثمان بن

عفّان الذي كان ينفق عليه ، ويكفيه المؤونة وكان الآخر يكره الأسلام ويأباه ، وينهاه عن الصدقة والمعروف ، فنزلت فيهما . قاله ابن عباس ، واختاره ابن جرير .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ (٧٧) وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ (٧٩) ﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته ، وعلمه بغيب السموات والأرض واختصاصه به وحده ، فلا أحد يطلع على الغيب إلا أن يطلعه الله على ما يشاء ، وفي قدرته التي لا تخالَف ولا تمانَع ، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكن .كما قال : ﴿ وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر ﴾ أي كطرفة العين وهكذا قال ها هنا : ﴿ وما أمر الساعة إلاّ كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة ﴾ ثم ذكر تعالى منتهُ على عباده في إخراجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً . ثم يرزقهم السمع والأبصار والأفئدة التي هي العقول التي مركزها القلب على الصحيح ، فهذه القوى والحواس ، تحصل للانسان تدريجياً . كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله ، حتى يبلغ أشده وذلك ليتمكن من عبادة ربه تعالى فيستعين بها على طاعة مولاه . ولهذا قال سبحانه : ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ أي نعمه التي لا تعد ولا تحصى .

ثم نبّه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخّر بين السماء والأرض . كيف جعله يطير بجناحين ما يمسكه هناك إلا الله تعالى بقدرته . وسخر الهواء يحملها ويُسيّر الطيرَ كذلك كما قال تعالى : في سورة الملك : ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرّحمن إنه بكلّ شيءٍ بصيرٍ ﴾ وقال ها هنا : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۞ (٨٠) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۞ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۞ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ (٨٣) ﴾

يذكر تعالى وتبارك تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت سكناً لهم تأويهم وتستّرهم وينتفعون بها ، وجعل لهم في أسفارهم بيوتاً من جلود الأنعام يستخفونها حلاً وترحالاً. ولهذا قال تعالى : ﴿ تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها ﴾ أي الغنم ﴿ وأوبارها ﴾ أي الإبل ، ﴿ وأشعارها ﴾ أي المعز والضمير عائد على الأنعام ﴿ أثاثاً ﴾ أي تتخذون منه أثاثا أي مالا ﴿ ومتاعاً ﴾ وثياباً فيتخذ من الأثاث : البسط والثياب ويتخذ مالاً وتجارة وقوله تعالى : ﴿ إلى حين ﴾ أي إلى أجل مسمى . وقوله تعالى : ﴿ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ﴾ يعني الشجر ﴿ وجعل لكم من الجبال أكناناً ﴾ أي حصوناً ومعاقل ، كما ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ كالدروع من الحديد والزرد وغير ذلك • ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم ﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أموركم وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته ﴿ لعلكم تسلمون ﴾ بكسر اللام من تُسْلِمون أي من الإسلام . وقوله تعالى : ﴿ فإن تولّوا ﴾ أي بعد هذا البيان والامتنان ، فلا عليك منهم ﴿ فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ وقد أدّيته إليهم ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾ أي يعرفون أنه تعالى هو مُسدي النعم والمتفضّل بها عليهم ومع هذا ينكرونها ويعبدون معه غيره ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ۝ (٨٨) ﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة ، وانه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها ، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ أي في الاعتذار ، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ﴿ ولا هم يستعتبون ۝ وإذا رأى الذين ظلموا ﴾ أي الذين أشركوا ﴿ العذاب فلا يخفف عنهم ﴾ أي لا يفتر عنهم ساعةً واحدة ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب ، فإنه إذْ جيء بجهنم تقاد بسبعين الف زمام مع كل زمام سبعون الف ملك ، فيشرف عنق منها على الخلائق ، وتزفر زفرةً لا يبقى أحد إلاَّ جثا لركبتيه ، فتقول : إني وكلت بكل جبار عنيد الذي جعل مع الله إلها آخر وبكذا وبكذا ... وتذكر أصنافاً من الناس ، كما جاء في الحديث ثم تنطوي عليهم وتلتقطهم كما يلتقط الطائر الحب ، قال الله تعالى : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرّنين دعوا هنالك ثبوراً ، لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾

ثم أخبر تعالى عن تبرىء آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال جل وعلا : ﴿ واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ أي قالت لهم الآلهة كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا ، كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ۝ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وألقوا إلى الله يومئذٍ السلم ﴾ أي

ذلوا واستسلموا يومئذٍ لله جميعاً فلا أحد إلاّ سامع مطيع ، كقوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ والقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير ثم قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً ﴾ الآية ... أي عذاباً على كفرهم ، وعذاباً على صدّهم الناس عن اتّباع الحق ، كقوله تعالى : ﴿ وهم ينهون عنه وينأون عنه ﴾ أي ينهون الناس عن اتباعه ويبتعدون هم منه أيضاً كما قال تعالى : ﴿ قال لكلٍ ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم وقوله تعالى : ﴿ فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ أي بما كانوا يصدون الناس عن الحق وليس من فسادٍ أعظم من الصد عن الخير والحق والهدى .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ : ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ يعني أمتك ، أي اذكر ذلك اليوم وهوله، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى اليها عبدالله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل امةٍ بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ فقال له رسول الله ﷺ « حسبك » فقال ابن مسعود رضي الله عنه : فالتفتُّ فإذا عيناه تذرفان .

وقوله تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ قال ابن مسعود : قد بيّن لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء . فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي وكل حلال وكل حرام ، ﴿ وهدى ﴾ أي للقلوب ﴿ ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ والمراد – والله أعلم – إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي انزله عليك سائلك عن ذلك يوم القيامة .كما قال تعالى : ﴿ فلنسألنّ الذين أرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين ﴾



﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَائِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ (٩٠) ﴾

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة ، ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل . قال ابن عباس ﴿ ان الله يأمر بالعدل ﴾ شهادة ان لا إله إلا الله ، وقال سفيان بن عينية : العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً ، والإحسان ان تكون سريرته أحسن من علانيته ، والفحشاء والمنكر ان تكون علانيته أحسن من سريرته . وقوله تعالى : ﴿ وايتاء ذي القربى ﴾ أي يأمر بصلة الأرحام كما قال تعالى : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ فالفواحش المحرمات ، والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها ، ولهذا قال في الموضع الآخر : ﴿ قل إنّما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ وأما البغي فهو العدوان على الناس ؛ وقد جاء في الحديث : ٧٢١ [ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم] وقوله تعالى : ﴿ يعظكم ﴾ أي يأمركم بالخير وينهاكم عن الشر ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ وقال الشعبي عن بشير بن نهيك : سمعت ابن مسعود يقول : إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿ ان الله يأمر بالعدل والإحسان الآية ... رواه ابن جرير . وعن قتادة : قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ الآية ... ليس من خلق حسن ، كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به ، وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى عنه وقدم فيه . وانما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامّها . (قلت) ولهذا جاء في الحديث : ٧٢٢ [ان الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها] روى الحافظ أبو يعلى عن عبدالملك بن عمير قال : ٧٢٣ [بلغ أكثم ابن صيفي مخرجُ النبي ﷺ فأراد أن يأتيه ، فأبى قومه أن يدَعُوه ، وقالوا : أنت كبيرنا لم تكن لتخفّ إليه قال : فليأته من يبلغه عني ويبلغني عنه ، فانتدب رجلان فأتيا النبي ﷺ فقالا : نحن رسل أكثم بن صيفي ، وهو يسألك من أنت ؛ وما أنت ؟ فقال النبي ﷺ : أما من أنا ، فأنا محمد بن عبدالله ، وأما ما أنا ، فأنا عبد الله ورسوله » قال

ثم تلا عليهم هذه الآية : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ الآية قالوا : ردِّدْ علينا هذا القول ، فردَّده عليهم حتى حفظوه ، فأتيا أكثم فقالا أبىَ أن يرفع نسبه فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكي النسب وسطاً في مصر – أي شريفاً – وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعهن أكثم قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا فيه أذناباً]

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۞ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۞ (٩٢) ﴾

هذا مما يأمر الله تعالى به ، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأَيْمان المؤكدة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا تنقضوا الأَيمان بعد توكيدها ﴾ ولا تعارض بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأَيمانكم أن تبرَّوا و تتقوا ﴾ الآية ... لأن قوله تعالى : ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق لا الأيمان التي هي على حث أو منع والخاضعة للتكفير عنها ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ ولا تنقضوا الأَيمان بعد توكيدها ﴾ يعني الحِلف ، أي حِلف الجاهلية . ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله ﷺ : ٧٢٤ [لا حلف في الإسلام ، وأيَّما حلف كان في الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدَّة] وكذا رواه مسلم عن ابن أبي شيبة به . ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحِلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه ، فإن في التمسك بالإسلام كفايةً عمَّا كانوا فيه . وأما ما ورد في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه انه قال : ٧٢٥ [حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دورنا] فمعناه أنه آخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك والله اعلم .

روى الإمام أحمد عن نافع قال : ٧٢٦ [لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن

عمر بنيه ، وأهله ثم تشهد ، ثم قال : أما بعد فإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال : هذه غدرة فلان ، وان من اعظم الغدر – الا أن يكون الإشراك بالله – ان يبايع رجل رجلاً على بيعة الله ورسوله ثم ينكث بيعته فلا يخلعن أحد منكم يداً ولا يسرفنّ أحد منكم في هذا الأمر فيكون فصل بيني وبينه »] المرفوع منه في الصحيحين وقوله تعالى : ﴿ ان الله يعلم ما تفعلون ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الإيمان بعد توكيدها وقوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً ﴾ قال مجاهد وقتادة وابن زيد هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده وقوله تعالى : ﴿ انكاثاً ﴾ اي انقاضاً أو نكونوا انكاثاً أي ناكثي العهود ولهذا قال تعالى بعده : ﴿ تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم ﴾ أي خديعةً ومكراً ﴿ أن تكون أمة هي أربىَ مِن أمة ﴾ أي تحلفون للناس اذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم ، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم ، فنهى الله تعالى عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى اذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى . وقوله تعالى : ﴿ إنما يبلوكم الله به ﴾ أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿ وليبيننّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ فيجازي كل عامل بعمله من خير أو شر .

﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا ٱلسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ (٩٦) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولو شاء الله لجعلكم ﴾ أيها الناس ﴿ أمة واحدة ﴾ كقوله تعالى : ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم﴾ أي لوفّق بينكم ولما جعل اختلافاً ولا تباغض

ولا شحناء ﴿ ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ (١) ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على النقير والقطمير . ثم حذّر تعالى عباده عن اتخاذ الإيمان دخلاً أي خديعة ومكراً لئلا تزل قدم بعد ثبوتها ، مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها ، وزل عن طريق الهدى بسبب الايمان الحانثة ، المشتملة على الصد عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين ، فانصد بسببه عن الدخول في الاسلام ، ولهذا قال تعالى ﴿ وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴾

ثم قال تعالى : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ﴾ أي لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فما عند الله خير لكم من الدنيا بحذافيرها . ولهذا قال تعالى : ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد ﴾ أي ينقضي فإنه إلى أجل معدود مقدر متناهٍ ﴿ وما عند الله باق ﴾ أي وثوابه لكم في الجنة باقٍ لا انقطاع ولا نفاد له ﴿ ولنجزين الذين صبروا اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ قسم من الرب تعالى مؤكد باللام ، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم ، أي ويتجاوز عن سيئها .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو انثى من بني آدم ، وقلبه مطمئن بالإيمان بالله ورسوله ، بأن يحييه حياةً طيبة في الدنيا وان يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة ، والحياة الطيبة تشمل جميع انواع النعم التي تنشرح بها الصدور في الدنيا والآخرة ، كما جاء في الحديث الذي رواه الامام أحمد عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : ٧٢٧ [قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه] ورواه مسلم من حديث عبدالله بن يزيد المقري به وقال روى الامام أحمد عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : ٧٢٨ [إن الله

(١) قلت : ولا يشاء إضلال أحد من المؤمنين الذين أخلصوا وأفردوا العبادة له وأطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه طبق ما بلغ رسله أما الذين اختاروا الضلالة سبيلا وما حادوا عنها وأمعنوا في ذلك فإنه سبحانه وتعالى يضلهم أي يزيدهم ضلالا جزاءً ما فرطوا بحق ربهم ولا يظلم ربك أحداً .

لا يظلم المؤمن حسنة ، يُعطَى بها في الدنيا ، ويُثابُ عليها في الآخرة . وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً] إنفرد بإخراجه مسلم .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيّه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم ، وهذا أمر ندب ليس بواجب ، حكاه ابن جرير وغيره من الأئمة ، وقد تقدّمت الأحاديث الواردة في الاستعاذة في أول التفسير ولله الحمد والمنّة والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبّس على القارىء قراءته ، ويخلط عليه ويمنعه من التدبّر والتفكّر . وقوله تعالى : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي لا سلطان له على من كان مؤمناً متوكلاً على ربه حق التوكل فلا حجة له على المؤمنين المتوكلين ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولّونه ﴾ أي يطيعونه ، واتخذوه وليّاً من دون الله ﴿ والذين هم به مشركون ﴾ أي اشركوه في عبادة الله بسبب طاعتهم له .

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم وذلك لأنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها ومنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ ﴿ إنما أنت مفترٍ ﴾ أي كذاب ، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، كقوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ الآية ... فقال تعالى مجيباً لهم ﴿ قل نزله روح القدس ﴾ أي جبريل ﴿ من ربك بالحق ﴾ أي بالصدق والعدل ﴿ ليثبت الذين آمنوا ﴾ فيصدّقوا بما أنزل أولاً وثانياً ،

وتطمئنّ له قلوبهم ﴿ وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ أي وجعله هادياً وبشارةً للملسمين الذين آمنوا بالله ورسوله .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ * (١٠٣) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين ما كانوا يفترونه من الكذب والبهت بأن محمداً إنما يعلّمه القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم لا يعرف العربيّة إلاّ يسيراً بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه فردّ الله عليهم بقوله عز من قائل : ﴿ لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ اي القرآن ، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته،وبلاغته ومعانيه التامة من رجل أعجميّ لا يكاد يعرف شيئاً من العربيّة ؟ لا يقول هذا من له أدنى مِسكة من العقل .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ * (١٠٥) ﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ فهذا النوع من الناس لهم عذاب أليم موجع في الآخرة . ثم أخبر تعالى أن رسول الله ﷺ ليس بمفتر ولا كذّاب لأنه إنما يفتري الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرارُ الخلق ، ﴿ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس ، والرسول محمد ﷺ كان أصدقَ الناس وأبرَّهم وأكملَهم علماً وعملاً وإيماناً وايقانا ، معروفاً بالصدق في قومه لا يشك في ذلك أحد منهم وكان يدعى بينهم بالأمين ، ولهذا لما سأل هرقل ملكُ الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل .

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ❁ (١٠٦) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ❁ (١٠٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ❁ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ❁ (١٠٩) ﴾

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر ، وشرح صدره بالكفر واطمأنّ به أنه قد غضب عليه لعلمه بالإيمان ثم عدوله عنه ، فمثل هذا النوع من الناس لهم عذاب أليم عظيم في الآخرة ، لأنهم أقدموا على الردة لأجل الدنيا ، فطبع الله على قلوبهم جزاء نكولهم عن الحق فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم ، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها ، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد بهم . ﴿ لا جرم ﴾ أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿ أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، أما قوله تعالى : ﴿ إلاّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى ، وقلبه يأبى ما يقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله .

روى ابن جرير عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : ٧٢٩ [أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا ، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئناً بالإيمان فقال النبي ﷺ : « ان عادوا فعد »] . ولهذا اتفق العلماء على أن المكرهَ على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاءً على مهجته ، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم الكفر وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى أنهم ليضعوا الصخرةَ العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم ، وهو يقول : أحدٌ أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها ، رضي الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال مسيلمة الكذاب أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول نعم . فيقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا

أسمع . فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك رضي الله عنه . ولا شك أن الأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله كما ذكر ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي أحد الصحابة أنه أسرته الروم فقال له ملكهم تنصّر وانا اشركك في ملكي وأزوجك ابنتي فقال له : لو اعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على ان ارجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت . فقال إذاً أقتلك فقال انت وذاك ثم عذّب أمامه بعضُ أسرى المسلمين عذاباً تقشعر من هوله الأبدان فلم يكن ليترك دينه إلى ان يئسوا من ارتداده فقال له الملك قبّل رأسي أطلقك فقال وتطلق معي جميع أسارى المسلمين ؟ قال : نعم ، فقبل رأسه ، فأطلقه وأطلق معه جميع أسرى المسلمين عنده فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبدالله بن حذافة وأنا أبدأ فقام وقبل رأسه رضي الله عنهما .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۞ (١١١) ﴾

هؤلاء صنف آخر من المستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقوهم على الفتنة ، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه وانتظموا في سلك المؤمنين ، وجاهدوا معهم الكافرين ، وصبروا ، فأخبر تعالى أنه من بعدها ، أي تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم رحيم بهم يوم معادهم ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ ليس أحد يجادل عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة . ﴿ وتوفّى كل نفس ما عملت ﴾ من خير أو شر ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير ولا يزاد على ثواب الشر ولا يظلمون نقيراً .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا

رَغداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۞(١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ۞ (١١٣)

هذا مثل أريد به أهل مكة ، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمناً لا يخاف ، كما قال تعالى : ﴿ وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنّا ﴾ وهكذا قال ها هنا : ﴿ يأتيها رزقها رغداً ﴾ أي هنيئاً ﴿ من كل مكان فكفرت بأنعم الله ﴾ أي جحدت آلاء الله عليها ، وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم فلهذا بدّلهم بحاليهما الأوّلين خلافهما ، فقال : ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد ان كان يجبي اليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، وذلك انهمْ استعصوا على رسول الله ﷺ ، وأبوا إلاّ خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم فأكلوا العلهز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه .

وقوله تعالى : ﴿ والخوف ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه ، وجعل كلّ ما لهم ، في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم ومنهم ، وامتن به عليهم في قوله تعالى : ﴿ لقدمنّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾ وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغَد ، فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً ، ورزقهم بعد العيلة ، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم ، وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة ، قاله العوفي عن ابن عباس واليه ذهب جمع من التابعين ، بخلاف من يقول ان هذا المثل المضروب يعني المدينة .

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً وَٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۞ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ

وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

يأمر الله تعالى عباده أن يأكلوا رزقه الحلال الطيب ويشكروه على ذلك،فمن أنعم وحده لزم أن يعبد وحده ، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على غير اسم الله . ومع هذا : ﴿ فمن اضطُرَّ غيرَ باغ ﴾ أي احتاج إليه من غير بغي ولا عدوان ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ أي تقدم الكلام على مثلِ هذه الآية في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ولله الحمد [1]

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حلّلوا و حرّموا بمجرد ما وصفوه ، واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم ، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك مما ابتدعوه في جاهليتهم فقال سبحانه : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال و هذا حرام لتفتروا على الله الكذب ﴾ ويدخل في هذا كل ما ابتدعوه وحللوه وحرموه ثم توعد على ذلك فقال عز وجل : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة كما قال سبحانه : ﴿ نمتِّعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذابٍ غليظٍ ﴾

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾

---

(١) أي عند الآية رقم (١٧٣)

لما ذكر تعالى تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وانما أرخص فيه عند الضرورة ، ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرَّمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها وما كانوا فيه من التضييق ، فقال تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرَّمنا ما قصصنا عليك من قبل ﴾ [١] ولهذا قال ها هنا ﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي فيما ضيقنا عليهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي فاستحقوا ذلك وقوله تعالى : ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ﴾ قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ أي اقلعوا عن المعاصي وأقبلوا على الطاعات ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ أي تلك الفعلة والزلة ﴿ لغفور رحيم ﴾ .

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

يمدح تعالى عبده ورسوله ابراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال سبحانه : ﴿ إن ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ﴾ فأما الأمة فهو الإمام الذي يقتدى به ، والقانت : هو الخاشع المطيع ، والحنيف : المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال تعالى : ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ وقال مجاهد : أمة أي أمة وحده [٢] والقانت : المطيع . و قوله تعالى : ﴿ شاكراً لأنعمه ﴾ أي قائماً بشكر نعم

(١) أي في سورة الانعام الآية رقم (١٤٦)

(٢) قلت : إن كان تفسير « أمة » بمعنى إمام يقتدى به أو كما قال مجاهد : أمة أي أمة وحده فكلا الصفتين موجودتان فيه عليه الصلاة والسلام فلا شك إنه إمام يعلِّم الخير للناس كما أنه أيضاً وحده أمة أي يعادل الأمة كثرة ولو كان وحده لأن الحق معه فكلٌّ من كان الحق معه فهو أكثر ممن معهم الباطل ولو كانوا الأكثرين عدداً ، لأن الكثرة العددية لا قيمة لها البتة إلاّ إذا كانت متمسكةً بالحق . فإذا كان صاحب الحق وحده في جانب والناس كلهم مخالفون له في الجانب الآخر فالأكثرية الحقيقية هي ذلك الواحد الفرد صاحب الحق ولاعبرة لباقي الناس مهما كثروا وهم ليسوا شيئاً أبداً والحق وأهل الحق هم المنصورون في كل حين .

الله عليه ، كقوله تعالى : ﴿ وابراهيم الذي وَفىَّ ﴾ أي قام بجميع ما أمره الله تعالى به . وقوله تعالى : ﴿ اجتباهُ ﴾ أي اختاره .كقوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكّنا به عالمين ﴾ ثم قال عزَّ مِنْ قائل : ﴿ وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضيّ . وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿وانه في الآخرة لمن الصالحين﴾وقوله تعالى : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي يا محمد اتبعْ دين إبراهيم فإن إبراهيم كان كاملاً في طريقته وتوحيده ولذلك أوحينا إليك أن اتبع ما كان عليه ﴿ وما كان من المشركين ﴾ كقوله في الأنعام : ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراطٍ مستقيم ٭ ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ثم قال تعالى منكراً على اليهود :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٭ (١٢٤) ﴾

ان الله تعالى شرع لكل أمة يوماً يجتمع الناس فيه للعبادة فشرع للمسلمين يوم الجمعة ويقال انه كان مشروعاً كذلك لبني اسرائيل فعدلوا عنه إلى يوم السبت فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة ، ووصّاهم أن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه وأخذ مواثيقهم وعهودهم على ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ إنّما جُعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ قال مجاهد : اتبعوه ، وتركوا الجمعة حتى بعث الله عيسى بن مريم وانه لم يزل محافظاً على السبت حتى رفع ، وان النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى الأحد مخالفةً لليهود .كما تحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة والله أعلم . وقد روى مسلم عن أبي هريرة وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ
٧٣٠ [أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد،وكذلك هم تبع لنا القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا والأوّلون يوم القيامة والمقضيّ بينهم قبل الخلائق]

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُمْ

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۞ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۞ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ۞ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ۞ (١٢٨)

يأمر تعالى رسوله ﷺ لدعوة الخلق إلى الله بالحكمة ، أي بما في الكتاب والسنة من الزواجر والأوامر ليحذروا بأس الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ أي ناظرهم برفق ولين وحسن خطاب ، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله تعالى : ﴿ فقولا له قولاً ليناً لعلّه يتذّكر أو يخشى ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ﴾ أي علم الشقي منهم والسعيد وكتب ذلك عليهم عنده وفرغ منه ، فادعهم إلى الله تعالى ولا تذهب نفسك عليهم حسرات فليس عليك هداهم أي انما انت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب .

وقوله تعالى : ﴿ وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ أي يأمر تعالى بالعدل في القصاص والمماثلة في استيفاء الحق اي ان اخذ رجل منكم شيئاً فخذوا مثله ، قاله ابن سيرين وغيره . وقاله ابن زيد ، كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين ، فأسلم رجال ذوو منعة فقالوا : يا رسول لو أذن الله لانتصرنا من هؤلاء الكلاب ، فنزلت هذه الآية ثم نسخ ذلك بالجهاد روى عبدالله بن الإمام أحمد في مسند أبيه عن أبي بن كعب : ٧٣١ [لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلاً ومن المهاجرين ستة ؛ فقال أصحاب رسول الله ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا تعرف قريش بعد اليوم ، فنادى مناد : ان رسول الله ﷺ قد أمن الأسود والأبيض الا فلاناً وفلانا — ناساً سمّاهم — فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ إلى آخر السورة فقال رسول الله ﷺ « نصبر ولا نعاقب »] كما في قوله تعالى : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ .

وقولُه تعالى : ﴿ واصبر وما صبرك إلاّ بالله ﴾ تأكيد للأمر بالصبر واخبار بأن ذلك

لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته ، وحوله وقوته ثم قال تعالى : ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي على من خالفك فإن الله قدر ذلك ﴿ ولاتك في ضَيْقٍ ﴾ أي غم ﴿ مما يمكرون ﴾ أي مما يُجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك ، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم . وقوله تعالى ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ أي معهم بتأييده ونصره ، وهذه معية خاصة ، كقوله تعالى : ﴿ إذ يوحي إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ وأما المعيَّة العامة فبالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ألم ترَ أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا . ﴾ أي بعلمه وسمعه وبصره ـ(١)

وقولُه تعالى : ﴿ الذين اتَّقَوْا ﴾ أي تركوا المحرمات ﴿ والذين هم محسنون ﴾ أي فعلوا الطاعات فهؤلاء يحفظهم الله ، وينصرهم على أعدائهم ، آخر تفسير سورة النحل ولله الحمد والمنه وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

٥ / ٥ / ١٣٨٩
١٩ / ٧ / ١٩٦٩

---

(١) أمّا ذاته العليّة فقوق العرش بلا كيف وهو مع خلقه بصفاته العُلى يعلمُ خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، هذه عقيدة السلف الصالح ومـا كان عليه الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام رضي الله عنهم. اللهم أحينا عليها وأمتنا عليها وابعثنا عليها راضين مرضيّين بفضلك ومنّك وكرمك.

فهرس المحتويات

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة	

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضع الآيات المفسرة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة	الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

(١) وهي : من ربــّك ، ما دينــُك ، من نبيــُّك رحم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقد شرحها شرحاً [illegible]

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

فهرس أحاديث المجلد الثاني

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف.	رقمه
١٥	صح	يا رسول الله ، إن قوماً يأتوننا حديثٌ عهدهم بكفر بلحمان لا ندري ...	٤٠
١٥	صح	... فإن نسي اسم الله في أوله ، فليقل باسم الله أوّله وآخره	٤١
١٥	صح	إذا دخل الرجل بيتَه فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء ...	٤٢
١٦	صح	أدلى بجراب من شَحم يوم خيبر ، فحضنته ... والتفت فإذا النبيُّ ﷺ يبتسم	٤٣
١٦	صح	إن أهلَ خيبر أهدوا لرسول الله ﷺ شاة مصلية وقد سمُّوا ذراعها ...	٤٤
١٧	صح	لا تصحب إلاّ مؤمناً . ولا يأكل طعامك إلاّ تقي	٤٥
١٧	صح	لا ينكح الزاني المجلود إلاّ مثله	٤٦
١٨	صح	كان رسول الله ﷺ يتوضأ عند كل صلاة . فلما كان الفتح	٤٧
١٩	صح فق	إنّما الأعمال بالنيات وإنّما لكل امرىءٍ ما نوى	٤٨
١٩	صح	لا وضوءَ لمن لم يذكُرِ اسمَ الله عليه	٤٩
١٩	صح فق	إذا استيقظ أحدُكم من نومِه فلا يُدخل يده في الإناء ...	٥٠
١٩	صح	ان النبيّ ﷺ رأى رجلاً مغطياً لحيته فقال : اكشفها ...	٥١
١٩	صح حسن	قال رأيت عثمان توضّأ ، فذكر الحديث ، قال وخلّل اللحية ثلاثاً ...	٥٢
١٩	صح فق	وثبت عن النبيّ ﷺ في الصحاح أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق	٥٣
١٩	صح	أنه توضأ فغسل وجهه ، أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها..	٥٤
١٩	صح	الفم والأنف من الوجه والأذنان من الرأس	٥٤
٢٠	ض	كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه	٥٥
٢٠	صح بخ	إن أمتي يدعون يوم القيامة غرّاً محجّلين من آثار الوضوء	٥٦
٢٠	صح فق	هل تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ ؟ ...	٥٧
٢١	صح بخ	... هذا وضوء من لم يحدث	٥٨
٢٢	صح	أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في الوضوء إما مرّة أو او مرتين أو ثلاثاً	٥٩

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٥	صح م	ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ او فيسبغ الوضوء ، يقول أشهد ان لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له	٧٨
٢٥	صح م	ما من رجل يتوضّأ فيغسل يديه او ذراعيه إلاّ خرجت خطاياه منها	٧٩
٢٥	صح	الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان	٨٠
٢٥	صح	لا يقبل الله صدقة من غلول ، ولا صلاة بغير طهور . . .	٨١
٢٦	صح فق	نحلني أبي نحلاً فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتّى تشهد عليه رسول الله ﷺ	٨٢
٢٦	صح	... من يمنعك مني ؟ قال النبي ﷺ الله عز وجل	٨٣
٢٩	صح فق	سمعت رسول الله ﷺ يقول لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً	٨٤
٣٢	صح بخ	أنا أولى الناس بابن مريم لانه ليس بيني وبينه نبي	٨٥
٣٣	صح	... إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلاّ بقايا من بني اسرائيل – وفي لفظ لمسلم – عن أهل الكتاب	٨٦
٣٤	صح	من أصبح منكم معافى في جسده آمناً في سربه عنده قوت يومه	٨٧
٣٦	صح	... ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون ...	٨٨
٣٦	صح	لقد شهدتُ من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه	٨٩
٣٩	صح	أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « أنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم	٩٠
٤٠	صح	يا رسول الله أرأيْت إن دخل بيتي وبسط يده ليقتلني ؟ قال	٩١
٤٠	صح	لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الاول كفل منها ...	٩٢
٤٠	صح	ما من ذنب أجدر أن يجعل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخره لصاحبه في الآخرة	٩٣
٤٢	صح فق	... ألا تخرجون مع راعينا في إبله ، فتصيبوا من أبوالها وألبانها	٩٤
٤٢	صح	وألقوافي الحرَّة فجعلوا يستسقون ، فلا يُسقون	٩٥

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٨٣	صح	من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتنا بها »	١٥٦
٨٣	صح	كان رجل يحمل الخمر من خيبر إلى المدينة فيبيعها من المسلمين	١٥٧
٨٣	صح م	أن ابا طلحة سأل رسول الله ﷺ عن أيتام في حجره ورثوا خمراً	١٥٨
٨٣	صح	كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام	١٥٩
٨٤	صح	كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام	١٦٠
٨٤	صح فق	لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن	١٦١
٨٤		الآية : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ... فقال النبي ﷺ قيل لي : أنت منهم	١٦٢
٨٤	صح	إياكم وهاتان الكعبتان الموسومتان اللتان تزجران زجرة ...	١٦٣
٨٥	صح فق	خمس فواسق يقتلن في الحلّ والحرام	١٦٤
٨٥	صح	خمس يقتلهن المحرم : الحيَّة ، والفأرة	١٦٤
٨٥	صح فق	إنه سئل عما يقتل المحرم ؟ فقال : « الحيَّة والعقرب ...	١٦٥
٨٥	.	أن رسول الله ﷺ دعا على عتبة بن أبي لهب فقال : « اللهم سلط عليك كلبك بالشام	١٦٦
٨٨	صح	أحلّ لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم قال : طعامه ما لفظه ميتاً	١٦٧
٨٩	صح فق	بعث رسول الله ﷺ بعثاً قبل الساحل فأمرَّ عليهم أبو عبيدة ... (حديث الحوت)	
٨٩	صح م	... وزوّدنا من لحمه وشائق ،	١٦٨
٨٩	صح بخ	... فقال رسول الله ﷺ هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته . .	١٦٩
٨٩	صح	أحلت لنا ميتتان ودمان	١٧٠
٨٩	صح	صيد البرّ لكم حلالٌ وأنتم حرم ما لم تصيّدوه أو يُصَدْ لكم)	١٧١
٨٩	صح فق	إنه أُهدي للنبي ﷺ حماراً وحشياً فكان محرماً وهو بالأبواء أوبودان فردّه عليه	١٧٢
٨٩	صح فق	هل كان منكم أحد أشار إليها أو أعان على قتلها ؟ . . .	١٧٣

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٠٤	صح بخ	... فقال : يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة ، عراة غرلاً	١٩١
١٠٥	صح	... قال « إني سألت ربّي عزّ وجلّ الشفاعةَ لأمتي ، فأعطانيها	١٩٢
١٠٥		(اللهم أمّتي	١٩٣

انتهت سورة المائدة

٦ ـــ سورة الأنعام

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٠٧	صح	لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سدَّ الأفق	١٩٤
١٠٧		نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سدَّ ما بين	١٩٥
١١١	صح فق	ان الله لما خلق الخلق ، كتب كتاباً عنده فوق العرش	١٩٦
١١١		إن لكل نبيٍّ حوضاً وأرجو أن أكون أكثرهم واردة	١٩٧
١١٢	صح	اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت	١٩٨
١١٢	مرسل	بلغوا عن الله ، فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر	١٩٩
١١٨		... يا أبا ذر هل تدري فيم تنتطحان ؟ ... قال : لا قال	٢٠٠
١١٩	صح	إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب	٢٠١
١٢٢	صح	(ولا تطرد الذين يدعون ربهم) نزلت في ستة من	٢٠٢
١٢٢	صح	إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن إلى	٢٠٣
١٢٣	صح	انه يرى ما حق الله على العباد ؟ أن يعبدوه ولا يشركوا	٢٠٤
١٢٤	صح فق	يا رسول الله : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من	٢٠٥
١٢٥	صح بخ	مفاتح الغيب خمس لا يعلمهنَّ إلاّ الله	٢٠٦
١٢٦		مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نَفْسه ويرد إليه ...	٢٠٧
١٢٧	صح بخ	لما نزلت : (قل هو القادر ...) قال رسول الله (أعوذ	٢٠٨
١٢٨	صح م	... سألت ربي ثلاثاً : سألته أن لا يهلك أمّتي بالغرق	٢٠٩

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٢٨		لما نزلت : (قل هو القادر ...) فقام النبي ﷺ فتوضأ	٢١٠
١٢٨	صح	... دعوت ربي أن يرفع عن أمتي الرجم من السماء	٢١١
١٢٨	صح	ليكونن في هذه الأمة قذف وخسف ومسخ وذلك من	٢١٢
١٢٩	صح	... وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في	٢١٣
١٣٠	صح	رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . . .	٢١٤
١٣٢	صح	إن إسرافيل قد التقم الصور ، وحنى جبهته ، ينتظر متى	٢١٥
١٣٢	صح	قال أعرابي : يا رسول الله : ما الصور ؟ قال : قرن	٢١٦
١٣٤	صح	كل مولود يولد على الفطرة	٢١٧
١٣٤	صح	إن رسول الله ﷺ قال : قال الله إني خلقت عبادي	٢١٨
١٣٦	صح بخ	لما نزلت (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال أصحابه وأينا لم	٢١٩
١٣٦	صح	لما نزلت هذه الآية ... شق ذلك على الناس فقالوا :	٢٢٠
١٣٦	صح	... ألحدوا ولا تشقوا ، فإن اللحد لنا والشق لغيرنا . .	٢٢١
١٣٧		من أعطي فشكر ، ومنع فصبر ، وظلم فاستغفر ،	٢٢٢
١٣٨	صح بخ	إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به فئتين عظيمتين	٢٢٣
١٤١	صح فق	أعطيتُ خمساً لم يعطهن أحدٌ من قبلي	٢٢٤
١٤٢	صح	يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت . .	٢٢٥
١٤٦	صح	إن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي	٢٢٦
١٤٦	صح فق	أن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه .	٢٢٧
١٤٨	صح	أقرأني رسول الله ﷺ : (وليقولوا درست)	٢٢٨
١٤٩	صح	(ملعون من سب والديه ،) قالوا : يا رسول الله :	٢٢٩
١٤٩	مرسل	كلّم رسول الله قريش فقالوا : يا محمد تخبرنا موسى	٢٣٠
١٥١	صح	أتيت النبيّ وهو في المسجد فجلستُ ، فقال : يا أبا ذر :	٢٣١
١٥١	صح م	الكلب الأسود شيطان	٢٣٢
١٥٢	صح	لا أشك ولا أسأل	٢٣٣
١٥٤	صح	الإثم ما حاكَ في صدرك ، وكرهت أن يطلع الناس عليه .	٢٣٤
١٥٤	صح فق	إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما	٢٣٥
١٥٤	صح فق	ما أنهر الدم ، وذكر اسم الله عليه فكلوه	٢٣٦

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٥٥	صح	المسلم يكفيه اسمُه إنْ نسي أن يسميَ حين يذبح .	٢٣٧
١٥٥	صح	ان الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان و ما استكرهوا	٢٣٨
١٥٦	صح	... يا رسول الله ما عبدوهم ؟ فقال : بلى . إنهم أحلوا	٢٣٩
١٥٨	صح	إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل . واصطفى من بني	٢٤٠
١٥٩	صح فق	ينصب لكل غادر لواء عند أسته يوم القيامة . فيقال هذه	٢٤١
١٦٠	حسن لغيره	فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام قالوا يا	٢٤٢
١٦٥	غريب	من أعان ظالماً سلطه الله عليه	٢٤٣
١٦٥	.	يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى . .	٢٤٤
١٦٩	صح	إن النبيّ أمر من كل جاذٍّ عشرة أو سق من التمر بقنو	٢٤٥
١٧٠	صح بخ	كلوا واشربوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة . . .	٢٤٦
١٧٢	صح بخ	ماتت شاة لسودة بنت زمعة فقالت يا رسول الله ماتت	٢٤٧
١٧٢	صح	سمعت أبا هريرة يقول ذكر — أي القنفد — عند النبي	٢٤٨
١٧٤	صح	... لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا	٢٤٩
١٧٦	صح	من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها	٢٥٠
١٧٦	صح	أيكم يبايعني على ثلاث ثم تلا رسول الله ﷺ : (قل	٢٥١
١٧٦	صح فق	بايعوني على أن لا تشركو بالله شيئاً ... (حديث عبادة)	٢٥٢
١٧٦	صح فق	أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من	٢٥٣
١٧٦	صح م	من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة	٢٥٤
١٧٦	.	لا تشركوا بالله شيئاً وإن قطعتم أو صلبتم أو حُرِّقتم . .	٢٥٥
١٧٧	صح فق	سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : الصلاة	٢٥٦
١٧٧	صح فق	لا أحد أغير من الله . من أجل ذلك حرم الفواحش ما	٢٥٧
١٧٧	صح فق	لا يحلّ دم امرىء يشهد أن لا آله إلاّ الله وأني رسول الله	٢٥٨
١٧٧	صح بخ	من قتل معاهداً لم يرحْ رائحة الجنّة وإن ريحها ليوجد من مسيرة	٢٥٩
١٧٨	صح	خطّ رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال : هذا سبيل الله	٢٦٠
١٧٩	صح	مكرر في الحديث رقم /٥٨/	٢٦١
١٨١	صح بخ	لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها	٢٦٢
١٨١	صح م	ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانُها خيراً . طلوع	٢٦٣

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٨١	صح فق	أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ قلت : لا أدري	٢٦٤
١٨١	صح م	... لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس	٢٦٥
١٨٢		سألت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله : ما آية طلوع	٢٦٦
١٨٣	صح	نحن معاشر الأنبياء أولاد علاّت ديننا واحد	٢٦٧
١٨٣	صح فق	إنّ ربّكم عزّ وجلّ رحيم ، من همّ بحسنة فلم يعملها	٢٦٨
١٨٣	صح	إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قالوا	٢٦٩
١٨٤	صح	الجمعة كفّارة لما بينهما وبين الجمعة التي تليها وزيادة	٢٧٠
١٧٨	صح	أصبحنا على ملّة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبيّنا	٢٧١
١٨٦	صح م	إنّ الدنيا حلوة خضرة ، وأن الله مستخلفكم فيها فناظر	٢٧٢
١٨٦	صح م	جعل الله الرحمة مئة جزء فأمسك عنده تسعةً وتسعين	٢٧٣

٧ ـ سورة الاعراف

١٨٨	صح	ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم	٢٧٤
١٨٨	صح	كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته	٢٧٥
١٨٩	صح	إن سورتي البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة غمامتان..	٢٧٦
١٨٩	صح	... فيأتي المؤمنَ شابٌّ حسن اللون طيب الريح	٢٧٧
١٨٩	صح	أتعجبون من رقّة ساقيه ... والذي نفسي بيده لهما في	٢٧٨
١٩٠	صح م	خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار .	٢٧٩
١٩٢	صح	اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي	٢٨٠
١٩٤	صح	... الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في	٢٨١
١٩٦	صح فق	... يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً	٢٨٢
١٩٦	صح بخ	فوالذي لا إله غيره إن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة .	٢٨٣
١٩٧	صح بخ	ان العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة	٢٨٤
١٩٧	صح م	يبعث كل عبد على ما مات عليه	٢٨٥
١٩٧		كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها . . .	٢٨٦
١٩٨	صح	إلبسوا من الثياب البياض فإنها من خير ثيابكم . وكفنوا	٢٨٧
١٩٨	صح	كلوا واشربوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف . .	٢٨٨
١٩٨	صح	ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه ، حسب بن آدم أكلات	٢٨٩

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٩٩	صح فق	لا أحد أغير من الله ، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها	٢٩٠
٢٠٢	صح	إن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر وأنه يصعد	٢٩١
٢٠٣	صح بح	إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة من الجنة	٢٩٢
٢٠٣		كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لولا أن الله	٢٩٣
٢٠٣	صح فق	واعلموا أن أحدكم لن يُدخله عملُه الجنة ... قالوا ...	٢٩٤
٢٠٤	صح	يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن	٢٩٥
٢٠٦	صح	... فيأتوني فأضرب على صدري ثم أقول : أنالها . . .	٢٩٦
٢٠٦		أفضل الصدقة الماء . ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا	٢٩٧
٢٠٧	صح	إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أزوجك ؟ ألم	٢٩٨
٢٠٩	صح	اللهم لك الملك كله ، ولك الحمد كله ، وإليك يرجع	٢٩٩
٢٠٩	صح	أيها الناس إربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم	٣٠٠
٢٠٩	صح	إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء — وفي لفظ — في الطهور	٣٠١
٢١٢	صح	أيها الناس : إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون ...؟	٣٠٢
٢١٦	صح	لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك أنزل بهم الحجر	٣٠٣
٢١٧	صح فق	لا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلا أن تكونوا باكين	٣٠٤
٢١٩	صح فق	إن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثا ،	٣٠٥
٢١٩	صح	(بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني	٣٠٦
٢٢١	صح	من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول	٣٠٧
٢٢٤	صح فق	عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له ...	٣٠٨
٢٢٤		لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه	٣٠٩
٢٢٤	فيه متروك	موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر . . .	٣١٠
٢٢٦	صح	إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن	٣١١
٢٢٧	صح	كل مولود يولد على الفطرة فأبواه	٣١٢
٢٣٣	صح	غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد .	٣١٣
٢٣٣	صح	أحلت لنا ميتتان ودمان الحوت والجراد والكبد والطحال	٣١٤
٢٣٣	صح	انه كان إذا دعا على الجراد فقال : اللهم أهلك كباره .	٣١٥
٢٣٥	صح	... قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى ...	٣١٦

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٦٠	صح م	تقوم الساعة والرجل يحلب لقحته	٣٤٤
٢٦٠	صح	ما المسؤول عنها أعلم من السائل	٣٤٥
٢٦٠	صح	بعثت أنا والساعة كهاتين ، وقرن بين أصبعيه	٣٤٦
٢٦٤	صح	ان الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك .	٣٤٧
٢٦٦	صح	إنما جعل الإمام ليؤتمّ به فإذا كبّر فكبّروا وإذا قرأ فأنصتوا	٣٤٨
٢٦٦	صح	إني أقول مالي أنازع القرآن . قال فانتهى الناس عن	٣٤٩
٢٦٧	حسن	من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة	٣٥٠
٢٦٧	صح	أقريب ربّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت : وإذا سألك	٣٥١
٢٦٧	صح	يا أيها الناس إربعوا على أنفسكم فإنّكم لا تدعون أصمّ	٣٥٢
٢٦٨	صح	(وله يسجدون) ـ الأعراف إنّه عدّها من سجدات القرآن	٣٥٣

٨ ـ سورة الأنفال

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٦٩	صح صح	... كنت سألتني السيف وليس هو لي وإنه قد وُهبَ لي	٣٥٤
٢٧٠	صح	سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا أصحاب	٣٥٥
٢٧٠	.	لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ من صنع كذا ...	٣٥٦
٢٧٠	صح فق	أعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد قبلي	٣٥٧
٢٧٢	صح فق	إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب	٣٥٨
٢٧٤	صح	اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم أن تهلك هذه العصابة	٣٥٩
٢٧٥	صح بخ	... ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك	٣٦٠
٢٧٥	صح بخ	اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لن تعبد . .	٣٦١
٢٧٥	صح م	ـ أقدم حيزوم ـ ... صدقت ذلك مدد السماء الثالثة	٣٦٢
٢٧٥	صح بخ	جاء جبريل إلى النبيّ ﷺ فقال : ما تعدّون أهل بدر	٣٦٣
٢٧٥	صح فق	... إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله قد أطلع على أهل	٣٦٤
٢٧٦		وما فينا إلاّ رسول الله يصلي تحت شجرة ويبكي حتى	٣٦٥
٢٧٦	صح	... أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع	٣٦٦
٢٧٨	صح	... (من القوم ؟) فقلنا نحن الفرّارون فقال لا بل أنتم	٣٦٧
٢٧٨	صح فق	إجتنبوا السبع الموبقات الشرك بالله والسحر وقتل النفس	٣٦٨
٢٧٩	صح	اللهم أن تهلك هذه العصابة لن تعبد في الأرض أبداً . .	٣٦٩

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبي الشريف	رقمه
٢٧٩	صح	شاهت الوجوه	٣٧٠
٢٧٩	صح	... يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً	٣٧١
٢٨٢	صح بخ	كنت أصلّي فمرّ بي النبيُّ ﷺ فدعاني ، فلم آته حتى	٣٧٢
٢٨٢	صح	الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني	٣٧٣
٢٨٢	صح	كان النبيُّ ﷺ يُكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي	٣٧٤
٢٨٢	صح	إن قلب الآدمي بين أصبعين من أصابع الله فإذا شاء أزاغه	٣٧٥
٢٨٢	صح م	اللهم مصرّف القلوب صرّف قلوبنا إلى طاعتك . . .	٣٧٦
٢٨٣	صح	والذي نفسي بيده لتأمرُنّ بالمعروف ولتنهُنّ عن المنكر أو...	٣٧٧
٢٨٣	صح	إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمّهم الله بعذاب من عنده	٣٧٨
٢٨٤	صح	... نذرت أن أنخلع من مالي فقال : (يجزيك الثلث أن	٣٧٩
٢٨٥	صح	ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله و...	٣٨٠
٢٨٨	صح	أنزل الله عليّ أمانَيْن لأمّتي (وما كان ليعذّبهم وأنت	٣٨١
٢٨٨	صح	إن الشيطان قال : وعزّتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك	٣٨٢
٢٨٩	.	سئل رسول الله ﷺ : من أولياؤك ؟ قال : (كلُّ تقي)	٣٨٣
٢٩١	صح	من أحسن في الإسلام لم يؤآخذ بما عمل في الجاهلية . .	٣٨٤
٢٩١	صح	الإسلام يجبُّ ما قبله ، والتوبة تجب ما كان قبلها . . .	٣٨٥
٢٩١	موقوف	قال ابن عمر : كان محمّد يقاتل المشركين ، وليس	٣٨٦
٢٩١	موقوف	وكان الرجل يفتتن في دينه إما أن يقتلوه ... أو يوثقوه	٣٨٧
٢٩١	صح فق	أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله	٣٨٨
٢٩١	صح	... أقتلته بعد ما قال : لا إله إلاّ الله ؟	٣٨٩
٢٩٢	صح	كان رسول الله ﷺ إذا بعث سريّة خمّس الغنيمة . .	٣٩٠
٢٩٣	صح	ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : لله خمسها وأربعة أخماسها	٣٩١
٢٩٣	صح	... لا تغلّوا فإن الغلول عار ونار في الدنيا والآخرة .	٣٩٢
٢٩٣	.	كنا بالمربد إذ دخل علينا رجل معه قطعة أديم فقرأناها .	٣٩٣
٢٩٥	صح فق	... آمركم بأربع ، أنهاكم عن أربع ، آمركم	٣٩٤
٢٩٦	صح	هذه مكة قد ألقت إليكم بأفلاذ أكبادها	٣٩٥
٢٩٦	صح	اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك	٣٩٦

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٩٧	صح فق	... يا أيها الناس لا تتمنّوا لقاء العدوّ واسألوا الله العافية	٣٩٧
٢٩٨	صح	لا تتمنوا لقاء العدو وأسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم	٣٩٨
٢٩٨	.	إن كلّ عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه	٣٩٩
٢٩٩	صح	أخذ رسول الله قبضته من التراب فرمَى بها في وجوه	٤٠٠
٣٠٠	صح م	يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي و جعلته بينكم	٤٠١
٣٠٢	صح	... ومن كان بينه وبين قوم عهد ، فلا يحلنّ عقدةً ولا	٤٠٢
٣٠٣	صح م	ألا إن القوّة الرمي إلا أن القوّة الرمي	٤٠٣
٣٠٣	صح م	أرموا واركبوا وإن ترموا خير من أن تركبوا . . .	٤٠٤
٣٠٣	.	الخيل الثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل	٤٠٥
٣٠٣	صح بخ	الخيل معقود في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة ، الأجر	٤٠٦
٣٠٣	صح	إن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمئة ضعف	٤٠٧
٣٠٤	صح فق	يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلاّلاً فهداكم الله بي ...	٤٠٨
٣٠٤	.	إن المسلم اذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتت عنهما	٤٠٩
٣٠٥	صح	قوموا إلى جنّةٍ عرضها السموات والأرض	٤١٠
٣٠٦	صح	لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ ما تقولون في هؤلاء	٤١١
٣٠٧	صح فق	وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي	٤١٢
٣٠٧	.	إنَّ رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر	٤١٣
٣٠٧	صح	إني عرفت أن اناساً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا	٤١٤
٣٠٨	صح	... (سمعت أنين عمّي العباس في وثاقه) فأطلقوه فنام	٤١٥
٣٠٨	صح	... (الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فإن الله	٤١٦
٣٠٨	صح بخ	أتي رسول الله ﷺ بمال من البحرين فقال:انثره في	٤١٧
٣٠٩	صح بخ	المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض والطلقاء من	٤١٨
٣١٠	صح م	... ادعهم إلى الاسلام فإن أجابوك فأقبلْ منهم وكفَّ	٤١٩
٣١٠	صح فق	لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم	٤١٠
٣١١	صح حسن	لا يتوارث أهل ملّتين شتّى.	٤٢١
٣١١	صح حسن	أنا بريء من كل مسلم بين ظهراني المشركين	٤٢٢
٣١١	صح فق	المرء مع من أحب	٤٢٣

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣١٢		من أحبَّ قوماً فهو منهم (وفي رواية) حشر معهم .	٤٢٤
٣١٢	صح	إن الله قد أعطى كل ذي حق حقّه فلا وصية لوارث .	٤٢٥
		٩ ــ سورة التوبة	
٣١٣	صح بخ	آخر آية نزلت (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) .	٤٢٦
٣١٣	صح	سئل عثمان لماذا لم تفصل الأنفال عن التوبة بالبسملة ؟	٤٢٧
٣١٤	صح	بعث رسول الله ﷺ أبا بكر على الموسم سنة تسع وعلياً	٤٢٨
٣١٥	صح بخ	بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى ألاّ يحج بعد	٤٢٩
٣١٥	صح	كنت مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ...	٤٣٠
٣١٥	صح	... ألاّ يطوف بالبيت عريان ولا يقرب المسجد الحرام	٤٣١
٣١٥	صح	وقف رسول الله عند الجمرات فقال : هذا يوم الحج	٤٣٢
٣١٥	صح	... صدقتم يوم الحج الأكبر	٤٣٣
٣١٦	صح	أليس هذا يوم الحجّ الأكبر	٤٣٤
٣١٧	صح فق	أمرت أن أقاتل الناس حتّى يشهدوا أن لا إلّه إلاّ الله .	٤٣٥
٣٢٢	صح	إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالايمان . . .	٤٣٦
٣٢٢	.	إنما عمّار المساجد أهل الله	٤٣٧
٣٢٣	صح م	كنت عند خبر رسول الله ﷺ في نفرٍ من أصحابه . .	٤٣٨
٣٢٤	صح بخ	... الآن يا عمر	٤٣٩
٣٢٤	صح	والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحب	٤٤٠
٣٢٤	صح	إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع	٤٤١
٣٢٥	صح	أنا النبيُّ لاكذِب أنا ابنِ عبد المطلب	٤٤٢
٣٢٥	صح	إليَّ عبادَ الله أنا رسول الله	٤٤٣
٣٢٥	صح	يا أصحاب الشجرة	٤٤٤
٣٢٥	صح	يا أصحاب سورة البقرة	٤٤٥
٣٢٦	صح	اللهم انجز لي ما وعدتني	٤٤٦
٣٢٦	صح فق	يا أبا عمارة أفررْتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟	٤٤٧
٣٢٦	.	... فتلقّانا عنده رجال بيض حسان الوجوه فقالوا	٤٤٨
٣٢٦	.	يا شيبة إنه لا يراها إلاّ كافر ... اللهم اهدِ شيبة . . .	٤٤٩

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٢٧	صح م	نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم	٤٥٠
٣٢٩	صح م	لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم	٤٥١
٣٣١	صح	بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال . وأحَلّوا لهم الحرام	٤٥٢
٣٣٢	صح	إن الله زَوى لي الأرض مشارقَها ومغاربها	٤٥٣
٣٣٢	صح	ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليلُ والنهار	٤٥٤
٣٣٢	صح	لتركبنّ سنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة	٤٥٥
٣٣٣	.	(تبّاً للذهب والفضة) يقولها ثلاثاً فشقّ ذلك على . . .	٤٥٦
٣٣٣	صح	ألا أخبرك بما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة	٣٥٧
٣٣٤	صح م	ما من رجل لا يؤدّي زكاةَ ماله إلاّ جعل له يوم القيامة	٤٥٨
٣٣٤	صح فق	من ترك بعده كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع . .	٤٥٩
٣٣٤	صح فق	ألا إن الزمان استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض	٤٦٠
٣٣٥	صح	إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو	٤٦١
٣٣٨	صح م	الدنيا في الآخرة إلاّ كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم . .	٤٦٢
٣٣٩	صح فق	يا أبا بكر ما ظنك بأثنين الله ثالثهما ... ؟	٤٦٣
٣٣٩	صح فق	سئل الرسول ﷺ عن الرجل يقاتل بشجاعة ويقاتل	٤٦٤
٣٤٠	صح	تكفّل الله المجاهد في سبيله إن توفّاه أن يدخله الجنّة .	٤٦٥
٣٤٣	صح	هل لك يا / جد / العام في جلاد بني الأصفر.	٤٦٦
٣٤٤	صح	إن الله لا يملّ حتى تملّوا وإن الله طيّب	٤٦٧
٣٤٦	صح	(ويلك فمن ذا الذي يعدل عليك من بعدي ... احذروا	٤٦٨
٣٤٦	.	والذي نفسي بيده ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكموه إنّما	٤٦٩
٣٤٦	.	... إنّ الله لم يرض بحكم نبيّ ولا غيره في الصدقات .	٤٧٠
٣٤٧	صح	لا تحل الصدقة لغنيّ ولا لذي مِرّةٍ سويّ	٤٧١
٣٤٧	صح	... إن شئتما أعطيتكما ولاحظّ فيها لغنيّ ولا لقويّ	٤٧٢
٣٤٧	صح	ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس . .	٤٧٣
٣٤٧	صح	إنّ الصدقة لا تحلُّ لمحمّد ولا إلى آل محمّد إنما	٤٧٤
٣٤٧	صح م	... فما زال يعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليّ	٤٧٥
٣٤٨	صح	إني لأُعطي الرجلَ وغيره أحب إليّ منه ، خشية أن ...	٤٧٦

١٠ – سورة يونس

١١ — سورة هود

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٣٤	صح م	والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة. . .	٥٨٤
٤٣٤	صح	فأقول أمتي أمتي	٥٨٥
٤٣٦	صح فق	كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه .	٥٨٦
٤٣٧	صح	ان الله عز وجل يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره .	٥٨٧
٤٣٨	صح فق	ان الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته	٥٨٨
٤٤٠	صح	ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي	٥٨٩
٤٤٥	صح	مر النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا عاشوراء	٥٩٠
٤٤٦	موقوف وروي مرفوعاً	ما زنت امرأة نبيٍّ قط	٥٩١
٤٤٨	.	من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً . . .	٥٩٢
٤٥٢	صح فق	قد علمتنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك يا رسول الله	٥٩٣
٤٥٥	حسن	رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد . .	٥٩٤
٤٥٦	.	من وجدتموهم يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل و...	٥٩٥
٤٥٨	صح	إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم	٥٩٦
٤٦٢	صح فق	إن الله ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته	٥٩٧
٤٦٢	صح فق	ولا يتكلم يومئذٍ الا الرسل ودعوى الرسل يومئذٍ :	٥٩٨
٤٦٤	صح فق	يؤتى بالموت على صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة	٥٩٩
٤٦٥	صح فق	عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم وضوء	٦٠٠
٤٦٥	صح م	الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى	٦٠١
٤٦٥	صح	جعلت الصلوات كفارات لما بينهن	٦٠٢
٤٦٦	صح م	إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير . .	٦٠٣
٤٦٦	.	إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم .	٦٠٤
٤٦٦	صح	يا معاذ أتبعِ السيئة الحسنة تمحها، وخالقِ الناس بخلقٍ حسن	٦٠٥
٤٦٦	٤٠٣	ان الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك الله . . .	٦٠٦
٤٦٨	صح فق	فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من	٦٠٧

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
		١٢ – سورة يوسف	
٤٧٠		قالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت : (نحن	٦٠٨
٤٧١	صح	والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم	٦٠٩
٤٧١	صح	والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم أتبعتموه	٦١٠
٤٧١	صح بخ	الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب	٦١١
٤٧٢	صح	إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به ، واذا رأى ما	٦١٢
٤٧٢	صح	استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها فإن كل ذي نعمة	٦١٣
٤٨٠	صح	تكلم أربعة وهم صغار » فذكر منهم شاهد يوسف .	٦١٤
٤٨١	صح	إن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام في السماء	٦١٥
٤٨١	صح	أعطي يوسف وأمه شطر الحسن	٦١٦
٤٨١	صح فق	سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلّه . . . , .	٦١٧
٤٨٤	صح	الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت . . .	٦١٨
٤٨٤	صح	الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت . . .	٦١٩
٤٨٥		الرؤيا لأول عابر	٦٢٠
٤٨٧	صح	نحن أحق بالشك من إبراهيم	٦٢١
٤٨٧		لو كنت أنا لأسرعت الإجابة ، وما ابتغيت العذر . .	٦٢٢
٤٩٩	صح	إن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم . . .	٦٢٣
٥٠٠	صح فق	ان رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت . . .	٦٢٤
٥٠٠	صح فق	لا يتمنّينَّ أحدكم الموت لضرٍّ نزل به	٦٢٥
٥٠٠		جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ورققنا فبكى سعد .	٦٢٦
٥٠٠	صح	واذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون . . .	٦٢٧
٥٠٢	صح فق	إن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك	٦٢٨
٥٠٢	صح م	إنهم كانوا إذا قالوا : لبيك لا شريك لك قال رسول	٦٢٩
٥٠٢	صح فق	يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله نداً . .	٦٣٠
٥٠٢	صح	من حلف بغير الله فقد أشرك	٦٣١
٥٠٢	صح	ان الرقى والتمائم والتولة شرك	٦٣٢
٥٠٢	صح	من تعلّق شيئاً وكل إليه	٦٣٣

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
٥٠٢	صح	من تعلق تميمة فلا أتم له	٦٣٤
٥٠٢	صح	إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه . .	٦٣٥
٥٠٣	صح	الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل	٦٣٦
		١٣ ـ سورة الرعد	
٥٠٨	صح	ما السموات السبع وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة . .	٦٣٧
٥٠٩	صح	والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل	٦٣٨
٥٠٩	شح	ان خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً . . .	٦٣٩
٥١٢	صح	قالت عائشة : سبحان الذي وسع سمعه الأصوات	٦٤٠
٥١٢	صح	يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار . ويجتمعون	٦٤١
٥١٢	صح	إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع . .	٦٤٢
٥١٢	صح م	ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن و ..	٦٤٣
٥١٢	صح	يا رسول الله : أرأيت رقياً نسترقي بها	٦٤٤
٥١٢		ان الله ينشىء السحاب ، فينطق أحسن النطق ويضحك	٦٤٥
٥١٣	صح	كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال :	٦٤٦
٥١٤	صح	انه كان اذا سمع الرعد قال : (سبحان من يسبح الرعد	٦٤٧
٥١٤		اذا سمعتم الرعد فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكراً . .	٦٤٨
٥١٤		تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتي الرجل القوم	٦٤٩
٥١٤		أنَّ النبيَّ ﷺ بعثه إلى جبار يدعوه فقال:	٦٥٠
٥١٧	صح فق	إنَّ مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث . .	٦٥١
٥١٩		أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء	٦٥٢
٥٢٠	صح	آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف	٦٥٣
٥٢٠	صح م	ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم .	٦٥٤
٥٢٠	صح	ان الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا .	٦٥٥
٥٢٠	صح	في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة سنة . . .	٦٥٦
٥٢٠	صح فق	ان الله تعالى يقول لذلك الرجل الذي يكون آخر أهل	٦٥٧
٥٢٠	صح م	يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم . . .	٦٥٨
٥٢٢	صح م	إن أحب الأسماء إلى الله : عبد الله ، وعبد الرحمن . .	٦٥٩

١٤ — سورة إبراهيم

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
٥٧٣	صح	نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في	٧١٠
٥٧٤	صح	ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير فنهانا ... عن	٧١١
٥٧٤	صح	نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة	٧١٢
٥٧٨	صح	من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه	٧١٣
٥٧٩	صح	ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته	٧١٤
٥٧٩	صح فق	يقول الله تعالى: شتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك .	٧١٥
٥٨٦	صح	ان الله ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته	٧١٦
٥٨٩	صح	ان الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله	٧١٧
٥٩٢	صح	إنّ رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إن أخي	٧١٨
٥٩٣	صح	أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر و . .	٧١٩
٥٩٤	صح	ان الله يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه: ألم أزوجك ...؟	٧٢٠
٦٠٠		ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا . . .	٧٢١
٦٠٠	صح	ان الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها	٧٢٢
٦٠٠		بلغ أكثم بن صيفي مخرج النبي ﷺ فأراد أن يأتيه ! . .	٧٢٣
٦٠١	صح م	لا حلف في الإسلام ، أيّما حلف كان في الجاهلية . .	٧٢٤
٦٠١	صح فق	حالف رسول الله ﷺ بين المهاجر والأنصار في دورنا	٧٢٥
٦٠١	صح	لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه . . .	٧٢٦
٦٠٣	صح م	قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه . .	٧٢٧
٦٠٣	صح م	ان الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا	٧٢٨
٦٠٦	صح	... كيف تجد قلبك ؟ قال ... مطمئناً بالإيمان قال النبي	٧٢٩
٦١١	صح	أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم	٧٣٠
٦١٢	صح	لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلاً . .	٧٣١

انتهى المجلد الثاني ويليه المجلد الثالث

تيسير العلي القدير

لاختصار

تفسير ابن كثير

اختصره وعلق عليه واختار أصح رواياته

محمد نسيب الرفاعي

المجلد الثالث

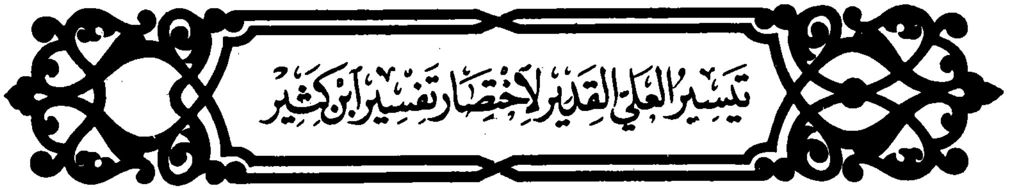
مكتبة المعارف

الرياض

طبعة جديدة
١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

مكتبة المعارف - ص.ب: ٣٢٨١ - هاتف ٤٠١٣٧٠٨ - ٤٠٢٣٩٧٩
الرياض - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم



اختصره وعلق عليه واختار أصح رواياته

محمد نسيب الرفاعي

(١٧) سورة الإسراء مكية وآياتها إحدى عشرة ومائة

إلا الآيات ٢٦ ، ٣٢ ، ٥٧ ومن آية ٧٣ – ٨٠ فمدنيّة نزلت بعد القصص

بسم الله الرحمن الرحيم

حزب ٢٩ جزء ١٥

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾

يمجّد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ولا ربّ سواه ﴿ الذي أسرى بعبده ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ ليلاً ﴾ أي في الليل ﴿ من المسجد الحرام ﴾ وهو مسجد مكة ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ وهو بيت المقدس الذي بالقدس ، معدن الأنبياء من لدن ابراهيم الخليل عليه السلام ، ولهذا جمعوا له هنالك فأمّهم في محلتهم ودارهم ، فدلّ على أنه هو الإمام الأعظم والرئيس المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . وقوله تعالى : ﴿ الذي باركنا حوله ﴾ أي في الزروع والثمار ﴿ لنريَه ﴾ أي محمداً ﴿ من آياتنا ﴾ أي العظام . كما قال تعالى : ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ وسنذكر من ذلك – ما ييسره الله – كما وردت به السنة من الأحاديث عنه ﷺ وقوله تعالى : ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ أي السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم ، مصدّقهم ومكذّبهم ، البصير بهم فيعطي كلاً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة .

* * *

ذكر الأحاديث المتيسرة في الإسراء :

في صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : ١ [أُتيتُ بالبراق وهو دابّة [١] ابيضُ طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرْفه. قال فركبته حتّى أتيت بيت المقدس.قال فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء.قال ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين،ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاختّرت اللبن فقال جبريل ﷺ اختّرت الفطرة ثم عرج بنا الى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما فرحبا ودعوا لي بخير ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد ﷺ قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف ﷺ إذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قال وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب ودعا لي بخير قال الله عز وجل : ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون ﷺ فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام ، قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل قد بعث إليه قال قد بعث إليه فإذا أنا بموسى ﷺ فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد ﷺ قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، واذا هو يدخله كل يوم سبعون الف ملك ، لايعودون إليه ثم ذهب بي الى السدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال قال فلما غشيها من أمر الله ما غشي ، تغيرت فمـا

---

(١) قلت : ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى رواية البخاري وفيها شريك بن عبد الله بن أبي نمر وهو ليس بالقوي ووهاه ابن حزم فانه اضطرب في هذا الحديث وساء حفظه ولم يضبطه وقال مسلم : فزاد ونقص وقدم وأخر . ورواه مسلم عن شيبان بن فروخ عن حماد بن سلمة بهذا السياق وهو أصح من سياق شريك ولذا ضربنا صفحاً عن الأخذ برواية شريك وأثبتنا بدلا عنها رواية مسلم كما هو أعلاه .

أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ، فأوحى الله إليّ ما أوحى ففرض عليّ خمسين صلاةً في كل يوم وليلة فنزلت الى موسى ﷺ فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإني قد بلوت بني اسرائيل وخبرتُهم قال فرجعت إلى ربي فقلت يا رب خفف على أمتي فحطّ عني خمساً فرجعت الى موسى فقلت حطّ عني خمساً قال فإن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف قال فلم أزل ارجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال يا محمد انهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشرٌ فذلك خمسون صلاة ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن همّ بسيئةٍ فلم يعملها لم تكتب شيئاً فإن عملها كتبت سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فقلت قد رجعت الى ربي حتى استحييت منه] .

وفي رواية الإمام أحمد عن قتادة يحدث عن انس بن مالك أن مالك بن صعصعة حدثه ... فذكر الحديث إلى ان قال ﷺ : ٢ ... [ثم رفعت الى سدرة المنتهى ، فإذا نبقها مثل قلال هجر ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة فقال هذه سدرة المنتهى ، قال وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ونهران ظاهران ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات – قال – ثم رفع الى البيت المعمور]

وفي رواية قتادة عن أبي هريرة ٣ : [... قال – قلت قد سألت ربي حتى استحييت ، ولكن أرضى وأسلم فنفذت فنادى منادٍ قد أمضيت فريضّي وخففت عن عبادي] وأخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة بنحوه .

وفي رواية البخاري في كتاب الصلاة : ٤ [... ثم انطلق بي حتى **انتهى** إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي ، ثم أُدخلت الجنة ، فإذا فيها حبائل اللؤلؤ واذا ترابها المسك] . وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال ٥ [سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنّى أراه »] وعن محمد بن بشار بسنده الى عبدالله بن شقيق قال : قلت لأبي ذر ٦ [لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته ، فقال : **عن** أي شيء كنت تسأله ؟ قال ء كنت أسأله : هل رأيت ربك ؟ قال أبو ذر : قد سألت فقال « رأيت نوراً »] وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي في حديث شريك زيادة تفرد بها ، على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عز وجل يعني قوله : ثم دنا الجبار رب العزة فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى . قال وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآية على رؤيته جبريل أصحّ . وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو

الحق . وقوله تعالى ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ إنما هو جبريل عليه السلام كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين ، وعن ابي مسعود وكذلك هو في صحيح مسلم عن ابي هريرة ، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية .

وفي صحيح مسلم : قال ابن شهاب وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبّة الأنصاري كانا يقولان قال رسول الله ﷺ : ٧ [ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام] .

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبدالله انه سمع رسول الله ﷺ يقول . ٨ [لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس ، قمت في الحجر فجلّى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر اليه] أخرجاه في الصحيحين .

وقال ابن شهاب قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : ٩ [فتجهز ، ـ أو كلمة نحوها ـ ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا : هل لك في صاحبك يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع الى مكة في ليلة واحدة ؟ فقال أبو بكر : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم قال فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا : فتصدقه في أن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع الى مكة قبل أن يصبح ؟ قال نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء ، قال أبو سلمة : فيها سمّي أبو بكر الصديق] .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ١٠ [« لما كان ليلة أسري بي ، فأصبحت بمكة فظعت وعرفت ان الناس مكذبيّ » فقعد معتزلاً حزينا ، فمرّ به عدوّ الله أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزىء : هل كان من شيء ؟ فقال له رسول الله ﷺ « نعم » قال : وما هو ؟ قال : « اني أسري بي الليلة » قال إلى أين ؟ قال : « إلى بيت المقدس » قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : « نعم » قال فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه فقال : أرأيت ان دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني ؟ فقال رسول الله ﷺ « نعم » فقال : يا معشر بني كعب بن لؤي ، قال فانفضت اليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما قال : حدث قومك بما حدثتني ، فقال رسول الله ﷺ « إني أسرى بي الليلة » فقالوا : إلى أين . قال : « إلى بيت المقدس » قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا قال : « نعم » قال فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب . قالوا : وتستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ وفيهم من سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد ؛ فقال رسول الله ﷺ : « فما زلت

أنعت حتى التبس علي بعض النعت » – قال : « فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل – أو عقال – فنعته وأنا أنظر إليه قال وكان مع هذا نعت لم أحفظه فقال القوم : أما النعت فوالله لقد أصاب فيه »] وأخرجه النسائي من حديث عوف ابن أبي جميلة وهو الأعرابي أحد الأئمة الثقات ورواه البيهقي من حديث النضر بن شميل بن عوف .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

١١ [« لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ، فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله إلي أنظر إليه ، ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء ، وإذا موسى قائم يصلي ، وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا ابراهيم قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به صاحبكم – يعني نفسه – فحانت الصلاة فأممتهم ، فلما فرغت قال قائل : « يا محمد هذا مالك خازن جهنم فالتفتُّ إليه فبدأني بالسلام »] .

﴿ فصل ﴾ : وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث [١] يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، وان اختلفت عبارات الرواة ، ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة ، فأثبت اسراآت متعدّدة ، فقد أبعد وأغرب ، وهرب إلى غير مهرب ، ولم يتحصل على مطلب . وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عليه السلام أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط ، ومرة من مكة إلى السماء فقط ، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء ، وفرح بهذا المسلك ، وانه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات ، وهذا بعيد جداً ولم ينقل هذا عن أحد من السلف ؛ ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبيُّ ﷺ به أمته ، ولنقله الناس على التعدد والتكرر .

روى موسى بن عقبة عن الزهري : كان الإسراء قبل الهجرة بسنة، وكذا قال عروة وقال السدي: بستة عشر شهراً . والحق أنه عليه الصلاة والسلام أسري به يقظة لا مناماً من

---

(١) قلت : لقد أورد الحافظ ابن كثير أحاديث مختلفة الدرجات صحة وضعفا ولكن انتقينا لك يا أخي القارىء المسلم ما صح منها كما هو مبين في محله ، مما يؤكد لك أن الاسراء والمعراج كان حقيقة لا خيالا ويقظة لا مناما وبجسمه وروحه معاً ولله الحمد على توفيقه .

مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد، ربط الدابة عند الباب ودخله، فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وابراهيم الخليل في السابعة ثم جاوز منزلتيهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام أي أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور، وابراهيم باني الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه . لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين ثم خففها إلى خمسٍ رحمةً منه، ولطفاً بعباده وفي هذا اعتناءٌ عظيم بشرف الصلاة وعظمتها .

ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ومن الناس من يزعم أنه أمَّهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع به هو واخوانه من النبيين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة من جبريل عليه السلام له في ذلك .

ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى أعلم . ثم اختلف الناس : هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط ؟ على قولين : فالاكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكرون أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً ثم رآه بعده يقظة، لأنه كان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ـ ثم وقع الإسراء والمعراج يقظة وحقيقة بعد ذلك ـ والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾ فالتسبيح انما يكون عند

الأمور العظام ، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ، ولم يكن مستعظماً ، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه ، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم ، وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد ، وقد قال تعالى : ﴿ أسرى بعبده ليلاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ قال ابن عباس : هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به. رواه البخاري. وقال تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ والبصر من آلات الذات لا الروح ، وأيضاً ، فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان ، وإنّما يكون هذا للبدن لا للروح ، لأن الروح لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه ، والله تعالى أعلم .

فائدة حسنة جليلة :

روى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب دلائل النبوة عن طريق محمد بن عمر الواقدي عن محمد بن كعب القرظي ما خلاصته : لما استدعى هرقل أبا سفيان وسأله عن رسول الله ﷺ وجهد أن يحقر أمره وقال : أُيها الملك ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب ؟ قال وما هو ؟ قال قلت إنه يزعم انه خرج من أرضنا أرض الحرم ، في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد ايلياء ، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح قال وبَطريق ايلياء عند رأس القيصر ، فقال بَطريق ايلياء قد علمت تلك الليلة قال ، فنظر إليه القيصر وقال : وما علمك بهذا ؟ قال : إني كنت لا أنام ليلةً حتى أغلق أبواب المسجد فلما كانت تلك الليلة أغلقتُ الأبواب كلها غير باب واحد غلبني فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني، كلهم فعالجته ، فغلبنا فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلاً ، فدعوت اليه النجاجرة فنظروا اليه فقالوا : إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ، ولا نستطيع ان نحركه حتّى نصبح ، فننظر من أين أتى . قال فرجعت وتركت البابين مفتوحين . فلما أصبحت غدوت عليهما ، فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب وإذا فيه أثر مربط الدابة ، قال فقلت لأصحابي ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي ، وقد صلّى الليلة في مسجدنا ... وذكر تمام الحديث .

فائدة : قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية : وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد ، وابن عباس ، وشداد بن أوس ، وأُبيّ بن كعب ، وعبد الرحمن بن قرط ، وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين ، وعبد الله بن عمر وجابر وحذيفة وبريدة

وأبي أيوب وأبي أمامة ، وسمرة بن جندب وأبي الحمراء ، وصهيب الرومي وام هانىء وعائشة وأسماء ابنتيّ أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين . فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمٌّ نوره ولو كره الكافرون ﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ❁ (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ❁ (٣) ﴾

كثيراً ما يقرن تعالى بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام وبين ذكر التوراة والقرآن ولهذا قال بعد ذكر الاسراء : ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة ﴿ وجعلناه ﴾ أي الكتاب ﴿ هدى ﴾ أي هادياً ﴿ لبني اسرائيل أن لا تتخذوا ﴾ أي لئلاّ تتخذوا ﴿ من دوني وكيلاً ﴾ أي ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً من دوني ، لأنه تعالى أنزل على أنبيائه جميعاً أن يعبدوه وحده لا شريك له .

ثم قال تعالى : ﴿ ذريّة من حملنا مع نوح ﴾ تقديره أي يا ذرية من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾ إنّما سمي عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله . قاله الطبراني عن سعد بن مسعود الثقفي الامام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ١٢ [ان الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها] وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي . وقد ذكر البخاري هنا حديث أبي زرعة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ١٣ [أنا سيد ولد آدم يوم القيامة – بطوله وفيه – : فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح إنك أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً فأشفعْ لنا إلى ربك . وذكر الحديث بكماله .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي ٱلْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً ❁ (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً

مَفْعُولاً ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴿٨﴾

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب ، أي تقدم إليهم وأخبرهم في التوراة أنهم سيفسدون في الأرض مرَّتَيْن ويعلون علوّاً كبيراً أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس وقوله تعالى : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾ أي أولى الإفسادتين ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴾ أي سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي قوّة وعدة ﴿ فجاسوا خلال الديار ﴾ أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم أي بينها ووسطها ﴿ وكان وعداً مفعولاً ﴾ أي كان وعد هذا اليوم واقعاً لا محالة وكائناً لا محيد عنه .

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلّطين عليهم من هم ؟ فعن ابن عباس وقتادة أنه جالوت الجزري وجنوده ، سلط عليهم أولاً ، ثم أديلوا عليه بعد ذلك وقتل داود جالوت ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم ردُدْنا لكم الكرّة عليهم ﴾ الآية وعن سعيد بن جبير أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده وعنه وعن غيره أنه بختنصر ملك بابل وقد وردت في هذا آثار كثيرة اسرائيلية لم أرَ تطويل الكتاب بذكرها . وفيما قص الله علينا في كتابه غنيةٌ عمّا سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم ، ولقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا ، سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد فإنهم كانوا قد تمرّدوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء ثم قال تعالى : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ أي فعليها كما قال سبحانه : ﴿ ... ومن أساء فعليها ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ أي الكرة الآخرة أي أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم : ﴿ ليسوءوا وجوهكم ﴾ أي يهينوكم ويقهروكم ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ أي بيت المقدس

﴿ كما دخلوه أول مرة ﴾ أي التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿ وليتبرّوا ﴾أي يدمروا ويخربوا﴿ ما علوا ﴾ أي ما ظهروا عليه ﴿ تتبيراً * عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ أي فيصرفهم عنكم ، ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ أي متى عدتم إلى الإفساد ﴿ عدنا ﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ أي مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه وقال قتادة : قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحي محمداً ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يدٍ وهم صاغرون [١] .

﴿ إِنَّ هَذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً * (٩) وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * (١٠) ﴾

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ، وهو القرآن بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل ، ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه أن لهم أجراً كبيراً أي يوم القيامة وان الذين لا يؤمنون بالآخرة أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذاباً أليماً ، أي يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ .

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَانُ بِٱلشَّرِّ دُعَاءَهُ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ عَجُولاً * (١١) ﴾

يخبر تعالى عن عجلة الانسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله

(١) قلت : ولقد عاد بنو اسرائيل في زماننا هذا إلى إفسادهم ، ولكن في هذه المرة لم يكن أمامهم أمة تتقي الله تعالى وتحكم فيها حكومة وأمة وأفراداً بما أنزل الله في جميع شؤونها بل رأى اليهود أمامهم غثاء كغثاء السيل فغلبوهم غلبة منكرة وما ذلك إلا لأن الله تعالى نظر إلى هذه الأمة التي تدعي أنها أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإذا بها أبعد ما تكون عن دين محمد وتعاليم محمد : فمقتها وسلط عليها من هم أقذر الأمم وأنجس الشعوب لتعتبر وتعود إلى منطلقها الأول يوم نادى رسولها محمد صلى الله عليه وسلم بلا إله الا الله محمد رسول الله ، فان عادت إلى ذلك المنطلق ، أعاد الله لها مكانتها ومجدها وحرّرها ... لا من اليهود فحسب ، بل من كل سلطة وراء اليهود ... ! ! ! وجعلها كما كانت خير أمة أخرجت للناس .

بالشر أي بالموت والهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه كما قال تعالى ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ﴾ وكذا فسره ابن عباس وغيره وقد تقدم في الحديث : ١٤ [لا تدعوا على أنفسكم ، ولا على أموالكم ان توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها] وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً * (١٢) ﴾

يمتنُّ تعالى على خلقه بآياته العظام فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل ، وينتشروا في النهار للمعايش والأعمال والأسفار ، وليعلموا عدد الأيام والجُمع والشهور والأعوام ، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والاجارات وغير ذلك ، ولهذا قال : ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ أي في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك ، ﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً لما عرف شيء من ذلك كما قال تعالى : ﴿ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ قال ظلمة الليل وسدف النهار قاله عبد الله بن كثير وقال مجاهد : الشمس آية النهار والقمر آية الليل .

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * (١٣) ٱقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً * (١٤) ﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ وطائره هو ما طار عنه من عمله ؛ كما قال ابن عباس ومجاهد

وغيرهما من خير وشر ويلزم به ويجازى عليه وكما يقول تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ ومكتوب في قوله تعالى : ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ أي نجمع له عمله في كتاب يعطاه يوم القيامة إما بيمينه ان كان سعيداً ، أو بشماله ان كان شقياً ، منشوراً أي مفتوحاً يقرأه هو وغيره فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ أي إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت ، لأنك ذكرت جميع ما كان منك ، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه ، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأميٍّ . وقوله تعالى : ﴿ ألزمناه طائره في عنقه ﴾ انما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له في الجسد ، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه . قال معمر ، وتلا الحسن البصري : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك ، ووكّل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر،حتّى إذا متّ طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ، إقرأ كتابك ... الآية فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك . هذا من أحسن كلام الحسن ، رحمه الله .

﴿ مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ۞ (١٥) ﴾

يخبر تعالى أن من اهتدى واتّبع الحق ، واقتفى أثرَ النبوّة ، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿ ومن ضلّ ﴾ أي عن الحق ، وزاغ عن سبيل الرشاد فانما يجني على نفسه ، والوبال عليها ؛ ثم قال تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد ، كما قال تعالى : ﴿ وان تدعُ مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ﴾ ولا ينافيه قوله تعالى : ﴿ وليحملُنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ فإن الدّعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم ، وإثم آخر بسبب ما أضلّوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك ، ولا يحمل عنهم شيئاً ، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده وكذا قوله تعالى :

﴿ وما كنا معذبين حتّى نبعث رسولاً ﴾ إخبار عن عدله تعالى ، وأنه « لا يعذّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بارسال الرسول إليه ، كقوله تعالى : ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مـــا نزّل الله من شيء إن أنتم إلاّ في ضلالٍ كبير ﴾ .

---

(١) قلت : الحمد لله الذي قال «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ولم يقل حتّى نبعث نبياً رسولا ؟ لأنه يمكن أن يكون رسول غير نبي ، وإليك البيان : لا شك مطلقاً في ختم النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الرسالة المبنية على نبوة ، والمعنى أنه لم يعد نبي أو رسول نبيٌّ، بعد محمد صلى الله عليه وسلم . والمعلوم أن النبوة هي تبليغ رجل من البشر بواسطه جبريل عليه السلام بأن الله اختاره نبياً وكلفه بشرع خاص به أما الرسول فهو النبي المكلف بشرع لنفسه ولقومه أوللناس كافة . فإذا قلنا قد انقضى زمن النبوات والرسالات بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ هل يعني ذلك أنه انقضى أيضاً زمن التبليغ؟ الجواب : لا فالتبليغ قائم لن ينقطع حتّى يوم القيامة، والمبلغون الحقيقيّون هم الذين يوصلون شرع محمد صلى الله عليه وسلم كاملا تاماً إلى الناس، أو يجددون للأمة أمر دينها على ما كان في زمن محمد صلى الله عليه وسلم فخرج بذلك تبليغ غير شرع محمد صلى الله عليه وسلم أو العمل به إذ كل شرع وكل عمل وكل هدي لا يستند إلى شرع وعمل وهدي محمد صلى الله عليه وسلم فهو رد ... فإذا فهم هذا تبين أن كل من حمل هذه الشريعة المحمدية، إلى أقوام لم تبلغهم من قبل ... وبلّغوهم إياها فهم حجة عليهم يوم القيامة... بل وعلى كل من يسمعون بالدعوة أو يبلّغونها... فإذا علم أن الداعين هم حجةٌ على المدعويين... تبين واضحاً معنى قوله تعالى : « حتّى نبعث رسولا» إذاً فالرسول المعنيُّ في هذه الآيةهو الرسولالنبي، والرسول غير النبي، إذ كل من حمل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغوها فهم رسل إليهم ، وسيعذبون إن لم يتبعوهم . وكذلك شأن الذين يرسلهم الأنبياء والرسل إلى أقوام آخرين ... أو من يعلم شريعة النبي ويبلغها لمن لم تصلهم إن في حياة النبي أو بعدها داخلون تحت معنى الآية المتقدمة كحواريي عيسى عليه السلام وكالحنفاء الذين كانوا يبلغون دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة الأيادي وغيرهم. ولنضرب لك مثلا موضحاً وهو : لو أنك يا أخي القارىء المسلم ذهبت إلى أقوام لم يبلّغوا الإسلام فقمت أنت بتبليغهم الرسالة فمنهم من اتبعك ، ومنهم من عصاك وبقي على كفره ووثنيته، فاذا قام يوم الحساب وقضى الله تعالى على من لم يتبعك منهم بالعذاب فدانعوا عن أنفسهم وقالوا : يا ربنا لم ترسل إلينا رسولاً يبلغنا الدعوة وأنت قلت يا رب في كتابك : « وما كنا معذبين حتّى نبعث رسولا» وأنت لم تبعث لنا رسولا فإذا قال لهم : كذبتم بل أرسلت إليكم فلاناً وسماكَ واستقدمكَ شاهداً عليهم بأنك بلغتهم فشهدت بما قمت من التبليغ ، ألا تكون أنت حجة عليهم...؟ ثم إذا عذبهم الله، إلا يكون ذلك عدلا ؟ أجل ... إنه العدل بعينه ... وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون وانقطعت حجتهم وقامت حجة الله عليهم ... بإلهام الله لك بالذهاب إليهم ودعوتهم إلى الإسلام وقد ذهبت وبلغت وقامت بك حجة الله ، إذاً فأنت الرسول الذي بك أمن الطائعون منهم من العذاب والرسول الذي بكَ حق العذاب على العاصين فأنت ولا شك رسول الدعوة إليهم . وكذلك إذا وصلهم كتاب يشرح لهم الإسلام فهو رسول لهم ، أو سمعوا بالمذياع عن الإسلام والعقيدة الإسلامية ، فكل ذلك تقوم به الحجة . إذن ... فأنت رسول ... والكتاب رسول ... وصوت المذياع رسول ... بمعنى مبلغ الرسالة والله تعالى أعلم .

وأما ما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال : ١٥ [« اختصمت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال : « وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحداً وانه ينشىء للنار خلقاً فيلقون فيها فتقول هل من مزيد ؟ ثلاثاً]وذكر تمام الحديث فهذا إنما جاء في الجنة لأنها ، دار فضل ؛ وأما النار فإنها دار عدل لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه . وقد تكلم جماعة من الحفاظ في هذه اللفظة وقالوا : لعله انقلب على الراوي بدليل ما أخرجاه في الصحيحين ، واللفظ للبخاري من حديث عبد الرزاق بن معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : تحاجّت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال : ١٦] ... فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع فيها قدمه فتقول : قط قط ، فهنالك تمتلىء وينزوي بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله ينشىء لها خلقاً » ...]

وهنالك مسألة اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى قديماً وحديثاًفيها وهي:الولدان الذين ماتوا صغاراً وآباؤهم كفار : ماذا حكمهم ؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف ومن مات في الفترة ولم تبلغه الدعوة فقد ورد في شأنهم أحاديث نذكرها بعون الله وتوفيقه ثم نذكر ملخصاً من كلام الأئمة في ذلك والله المستعان .

روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع أن رسول الله ﷺ قال : ١٧ [أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في فترة فأما الأصم فيقول : رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ، واما الأحمق فيقول : رب قد جاء الاسلام والصبيان يحذفوني بالبعر ، وأما الهرم فيقول : رب لقد جاء الاسلام وما أعقل شيئاً ، وأما الذي مات في الفترة فيقول ربّ ما أتاني لك رسول . فيأخذ مواثيقهم ليطيعُنّه فيرسل اليهم أن ادخلوا النار فوالذي نفس محمد بيده ، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً] . وبالاسناد عن قتادة إلى أبي هريرة مثله غير أنه قال في آخره ١٨ (« ... فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ومن لم يدخلها يسحب إليها »] روى الحافظ ابو يعلى الموصلي عن البراء بن عازب قال : ١٩ [سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين قال : هم مع آبائهم وسئل عن أولاد المشركين فقال : « هم مع آبائهم » فقل يا رسول الله ما يعملون ؟ قال : « الله أعلم بهم »] .

روى هشام بن عمار بسنده إلى معاذ بن جبل عن نبي الله ﷺ : ٢٠ [« يؤتى يوم القيامة بالمسوخ عقلاً وبالهالك في الفترة ، وبالهالك صغيراً ، فيقول المسوخ : يا رب لو أتيتني عقلاً ما كان من آتيته عقلاً بأسعد مني » وذكر في الهالك في الفترة والصغير

نحو ذلك فيقول الرب عز وجل إني آمركم بأمر تطيعوني ؟ فيقولون نعم ، فيقول : إذهبوا فادخلوا النار قال : ولو دخلوها ما ضرتهم ، فتخرج عليهم قوابص فيظنون انها قد أهلكت ما خلق الله من شيء ، فيرجعون سراعاً ، ثم يأمرهم الثانية ، فيرجعون كذلك ، فيقول الرب عز وجل قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون ، وعلى علمي خلقتكم ، وإلى علمي تصيرون ، ضميهم ، فتأخذهم النار »] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه أن رسول الله ﷺ قال : ٢١ [كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمةُ بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟] وفي رواية قالوا : ٢٢ [يا رسول الله ، أفرأيت من يموت صغيراً ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين »] .

روى الإمام أحمد عن موسى بن داوود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما أعلم - شك موسى - قال ٢٣ [ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم ابراهيم عليه السلام] وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل انه قال : ٢٤ [اني خلقت عبادي حنفاء] وفي رواية : (مسلمين) .

روى الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه المستخرج على البخاري من حديث عوف الأعرابي بسنده إلى سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٢٥ [كل مولود يولد على الفطرة فناداه الناس : يا رسول الله ، وأولاد المشركين ؟ قال « وأولاد المشركين »] روى الطبراني عن سمرة قال : ٢٦ [سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال « هم خدم أهل الجنة »] .

روى أحمد عن خنساء بنت معاوية عن بني صويم قالت : حدثني عمي قال قلت : ٢٧ [يا رسول الله من في الجنة ؟ قال : النبي في الجنة ، والشهيد في الجنة ، والمولود في الجنة ، والوئيد في الجنة] .

فمن العلماء من ذهب إلى الوقوف فيهم لهذا الحديث ، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري ٢٨ [انه عليه الصلاة والسلام قال في جملة ذلك المنام حين مر على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان فقال له جبريل : هذا ابراهيم عليه السلام وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين ، قالوا : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ قال : « نعم وأولاد المشركين »] ومنهم من جزم لهم بالنار لقوله عليه السلام » هم مع آبائهم ومنهم من ذهب انهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات ،

فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة ومن عصى دخل النار داخراً وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة . هذا القول يجمع بين الأدلة كلها ، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض ، وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة ، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب الاعتقاد ، وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد . وليعلم أن الخلاف مخصوص بأطفال المشركين ، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء في أنهم من أهل الجنة ، وهذا هو المشهور وهو الذي نقطع به ان شاء الله عز وجل .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ۞ (١٦) ﴾

اختلف القراء في قراءة قوله تعالى : ﴿ أمرنا ﴾ فالمشهور قراءة التخفيف والمعنى : أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش ، فاستحقوا العقوبة رواه ابن جريج عن ابن عباس .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ۞ (١٧) ﴾

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسل من بعد نوح ودل هذا على ان القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام كما قاله ابن عباس ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى . وقوله تعالى : ﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ أي هو عالم بجميع أعمالهم : خيرها وشرها لا يخفى عليه خافية سبحانه وتعالى .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً ۞ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ

ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ۞ (١٩)

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل عليه ، بل إنما يحصل لمن أراد الله و ما يشاء وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات ، فانه قال عز وجل ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ يصلاها ﴾ أي يدخلها حتى تغمره ﴿ مذموماً ﴾ من سوء تصرفه وصنيعه ، إذ اختار الفاني على الباقي ﴿ مدحوراً ﴾ مقصيّاً حقيراً مهانا .

روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :
٢٩ [الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له]
وقوله تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة ﴾ أي أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿ وسعى لها سعيها ﴾ أي طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿ وهو مؤمن ﴾ أي قلبه مؤمن أي مصدق بالثواب والجزاء ﴿ فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ .

كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ۞ (٢٠) أُنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ۞ (٢١)

يقول تعالى : ﴿ كُلاًّ ﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما فيه ﴿ من عطاء ربك ﴾ أي يعطي كلاً ما يستحقه من السعادة والشقاوة ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ أي ممنوعاً ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ في الغنى والفقر والحسن والقبح ، ومن يموت صغيراً ومن يعمر حتى يشيخ وما بين ذلك ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ أي لتفاوتهم في الدار الآخرة ، فمن يكون في دركات جهنم وأغلالها ومن يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها ثم أهل الدركات يتفاوتون كما أهل الدرجات يتفاوتون ، فإن الجنة مائة درجة ، وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض وفي الصحيحين ٣٠ : [ان أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء] ولهذا قال تعالى :

﴿ وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً ﴾ .

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾ (٢٢)

المراد المكلفون من الأمة فيقول تعالى : لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك شريكاً له ﴿ فتقعد مذموماً ﴾ أي على إشراكك به ﴿ مخذولاً ﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك بل يكلك إلى الذي عبدت معه ، وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً ، لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له وقد روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٣١ [من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما آجلاً ، وإما غنى عاجلاً] .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ﴾ (٢٣) ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ (٢٤)

يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له ، فان القضاء هاهنا بمعنى الأمر ولهذا قرن بعبادته برَّ الوالدين ، فقال سبحانه : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أي وأمر بالوالدين إحسانا كقوله تعالى: ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ﴾ أي لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء ﴿ ولا تنهرهما ﴾ أي لا تفعل قبيحاً معهما ، ولا تنفض يدك عليهما ، ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح ، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال عز من قائل : ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ أي ليناً حسناً طيباً بتأدُّب وتوقير وتعظيم ، ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ أي تواضع لهما بفعلك ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ أي ارحمهما في كبرهما وعند وفاتهما قال ابن عباس : ثم انزل الله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ .

وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة منها الحديث المروي عن أنس وغيره من طرق : ٣٢ [ان النبي ﷺ صعد المنبر ثم قال « آمين آمين آمين » قيل يا رسول الله علام ما أمنت ؟ قال « أتاني جبريل فقال : يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك قل آمين فقلت آمين ثم قال رغم انف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له ، قل : آمين ، فقلت آمين ثم قال رغم انف رجل ادرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، قل آمين ، فقلت آمين »] .

روى الإمام أحمد عن أبي أسيل وهو مالك بن ربيعة الساعدي قال : ٣٣ [بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول هل بقي علي من بر أبويَّ شيء بعد موتهما أبرهما به ؟ قال : « نعم خصال أربع : الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقيهما ، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلاَّ من قبلهما ، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما »] ورواه ابو داود وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن سليمان وهو ابن الغسيل به .

• روى الإمام أحمد عن معاوية بن جاهمة : ٣٤ [جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أردتُ الغزو وجئتك استشيرك فقال : « هل لك من أم » قال نعم قال : « فالزمها فان الجنة عند رجليها » ثم الثانية ثم الثالثة في مقاعد شتى كمثل هذا القول .] ورواه عن المقدام بن معد يكرب عن النبي ﷺ قال ٣٥ [إن الله يوصيكم بآبائكم ان الله يوصيكم بأمهاتكم ان الله يوصيكم بأمهاتكم . ان الله يوصيكم بامهاتكم ، ان الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب » .] واخرجه ابن ماجه .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ (٢٥)

قال سعيد بن جبير : هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه لا يريد إلا الخير بذلك أي في نيته وقلبه لا يريد إلا الخير ، فقال تعالى ﴿فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ أي للذين يصيبون الذنب ثم يتوبون ، ويصيبون الذنب ثم يتوبون قاله سعيد بن المسيب . وقال عبد الرزاق عن عبيد بن عمير قال : كنا نعد الأواب الحفيظ أن يقول: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا . قال ابن جرير : هو التائب من الذنب ، الرجاع من المعصية إلى الطاعة ، وهذا الذي قاله هو الصواب ، لأن الأوّاب مشتق من الأوب وهو الرجوع قال تعالى :

﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ وفي الحديث الصحيح [ان رسول الله ﷺ كان اذا رجع من سفر قال : ٣٦ [آيبون تائبون عايدون لربنا حامدون] .

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ۝ (٢٦) إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ ٱلشَّيَاطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ۝ (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً ۝ (٢٨) ﴾

لما ذكر الله تعالى بر الوالدين عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام وفي الحديث : ٣٧ [أمك وأباك ثم أدناك أدناك] وفي رواية : (ثم الأقرب فالأقرب) وفي الحديث ٣٨ [من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأله في أجله فليصلْ رحمه] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ لما أمر بالأنفاق ، نهى عن الإسراف فيه بل يكون وسطاً كما قال عز من قائل : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ ثم قال منفراً من التبذير والسرف : ﴿ ان المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ أي اشباههم في ذلك في التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته ولهذا قال سبحانه : ﴿ وكان الشيطان لربه كفوراً أي جحوداً لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته بل أقبل على معصيته ومخالفته قال ابن مسعود : التبذير الأنفاق في غير حق وكذا قال ابن عباس . وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً .

وقوله تعالى: ﴿ وإما تعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ﴾ الآية أي إذا سألك أقاربك ومن أمرناك باعطائهم وليس عندك شيء واعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ أي عدهم وعداً بسهولة ولين ، إذا جاء رزق الله فسنصلكم ان شاء الله كما فسر ذلك مجاهد وعكرمة وغير واحد .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ۝ (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ۝ (٣٠) ﴾

يأمر تعالى بالاقتصاد في العيش ويذم البخل ، وينهي عن السرف : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ أي لا تكن بخيلاً لا تعطي أحداً شيئاً ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ أي أي ولا تسرف في الإنفاق ، فتعطي فوق طاقتك ؛ فتقعد إن بخلت ملوماً يلومونك ويذمونك ومتى بسطت يدك فوق طاقتك ، قعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسير وهي الدابة التي عجزت عن المسير فوقفت ضعفاً وعجزاً ، فانها تسمى الحسير ، وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ يقول : ٣٩ [مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره واما البخيل فلا يريد ان ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع] هذا لفظ البخاري في الزكاة .

وفي الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قال رسول الله ﷺ ٤٠ [أنفقي هكذا وهكذا وهكذا ولا توعي فيوعي الله عليك ولا توكي فيوكي الله عليك] وفي لفظ (ولا تحصي فيحصي الله عليك) . وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ : ٤١ [ما من يوم يصبح العباد فيه إلاّ وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً] وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً : ٤٢ [ما نقص مال من صدقه ، وما زاد الله عبداً أنفق إلاّ عزّاً ، ومن تواضع لله رفعه الله .

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ٤٣ : [ما عال من اقتصد] وقوله تعالى : ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ إخبار انه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء ، فيغني من يشاء ، ويفقر من يشاء بحسب حكمته.ولهذا قال جل وعلا : ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ أي بمن يستحق الغنى ، ويستحق الفقر.كما جاء في الحديث : ٤٤ [إن من عبادي لَمَنْ لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى ، ولو افقرته لأفسدت عليه دينه] وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدارجاً ، والفقر عقوبةً ، عياذاً بالله من هذا وهذا .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ۞ (٣١) ﴾

هذه الآية الكريمة دالّة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده لأنه نهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث ، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلاّ تكثر عيلته ، فنهى الله عن ذلك وقال جل وعلا : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ أي مخافة أن تفتقروا في ثاني الحال ، ولهذا قدّم الاهتمام برزقهم فقال جل جلاله : ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ﴾ أي ذنباً عظيماً . وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قلت :
٤٥ [يا رسول أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » قلت : ثم أيٌّ ؟ قال : « ان تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت : ثم أي قال : « أن تزاني بحليلة جارك »]

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (٣٢)

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزني وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه ... ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً ﴾ أي ذنباً عظيماً ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أي وبئس طريقاً ومسلكاً . وقد قال الإمام أحمد عن أبي أمامة : ٤٦ [ان فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لي بالزنى فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا : مه مه ، فقال « أدنه » فدنا منه قريباً ، فقال : « إجلس » فجلس فقال « أتحبه لأمك » قال : لا والله جعلني الله فداك قال : « ولا الناس يحبونه لأمهاتهم » . قال أفتحبه لابنتك ؟ قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لبناتهم » . قال « أفتحبه لأختك ؟ » قال لا والله جعلني الله فداك قال « ولا الناس يحبونه لأخواتهم .. » قال « أفتحبه لعمتك » ؟ قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لعماتهم » ، قال « أفتحبه لخالتك » قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لخالاتهم » قال فوضع يده عليه وقال : « اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه ، وأحصن فرجه » قال فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء .]

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ (٣٣)

نهى تعالى عن قتل النفس بغير حق شرعي كما ثبت في الصحيحين ان رسول الله ﷺ قال : ٤٧ [لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلاّ بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزاني المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة] . وفي السنن : ٤٨ [لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم .] وقوله تعالى : ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾ أي سلطنة على القاتل ، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله فوراً ، وإن شاء عفا عنه على الدية ، وإن شاء عفا عنه مجاناً ، كما ثبت ذلك بالسنّة.وقوله تعالى : ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ قالوا : معناه فلا يسرفِ الوليُّ في قتل القاتل بأن يمثّلَ به أو يقتصَّ من غير القاتل . وقوله تعالى : ﴿ إنه كان منصوراً ﴾ أي أن الوليّ منصور على القاتل شرعاً وغالباً وقدراً .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً * (٣٤) وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً * (٣٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغَ أشدَّه ﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلاّ بالغبطة ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر : ٤٩ [يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمَّرن على اثنين ، ولا تولّينّ مال يتيم] وقوله تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ أي الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها فإن العهد والعقد كل منهما يُسألُ صاحبُه عنه ﴿ إن العهد كان مسؤولا ﴾ أي عنه . وقوله تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ﴾ أي من غير تطفيف ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴿ وزنوا بالقسطاس ﴾ قرىء بضم القاف وكسرها . كالقرطاس وهو الميزان وقوله تعالى : ﴿ المستقيم ﴾ أي الذي لا انحراف فيه ولا اضطراب ﴿ ذلك خير ﴾ أي لكم في معاشكم ومعادكم ، ولهذا قال : ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ أي مآلاً ومنقلباً في آخرتكم .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ۞ (٣٦) ﴾

﴿ ولا تقفُ ﴾ أي لا تقلْ ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ أي لا تقلْ رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم ، فان الله تعالى سائلك عن ذلك كله وقوله تعالى : ﴿ كل أولئك ﴾ أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤآد ﴿ كان عنه مسؤولا ﴾ أي سيسأل العبد عنها يوم القيامة ، وتسأل عنه وعما عمل فيها .

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ۞ (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً ۞ (٣٨) ﴾

ينهي الله تعالى عباده عن التجبر والتبختر في المشية ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ أي مشيَ الجبارين ﴿ إنك لن تخرق الأرض ﴾ أي لن تقطع الأرض بمشيك وقوله تعالى : ﴿ وان تبلغ الجبال طولاً ﴾ أي بفخرك وإعجابك بنفسك ، بل قد يجازي فاعل ذلك بنقيض قصده وفي الحديث : ٥٠ [من تواضع لله رفعه الله ، فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير ، ومن استكبر وضعه الله فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير حتى لهو أبغض اليهم من الكلب والخنزير] .

نظر الحسن إلى رجل هو الأهيم ويريد المنصور وعليه جباب خزٍ منضود بعضها فوق بعض وهو يمشي ويتبختر فقال له الحسن : أف أف شامخ بأنفه ، ثاني عطفه مصعرّ خده ... أي أحيمق ينظر في عطفه في نعم غير مشكورة ، غير المأخوذ بأمر الله فيها ، ولا المؤدي حق الله منها .. فسمعه ابن الأهيم فرجع يعتذر إليه فقال لا تعتذر إلي وتب إلى ربك أما سمعت قول الله تعالى : ﴿ ولا تمشِ في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض وان تبلغ الجبال طولاً ﴾ .

ورأى ابن عمر رجلاً يخطر في مشيته فقال : إن للشياطين إخواناً ، وقوله تعالى : ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴾ أي كل هذا الذي ذكرناه من قوله تعالى :

﴿ وقضى ربك ان لا تعبدوا إلاَّ إياه ﴾ إلى قوله ﴿ ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ فسيِّئه ... أي فقبيحه مكروه عند الله ، هكذا وجّه ذلك ابن جرير رحمه الله .

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول تعالى : هذا الذي أمرناك به من الأخلاق العالية ، ونهيناك عن الصفات الرذيلة ، مما أوحينا اليك يا محمد لتأمر به الناس ، ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ المراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم .

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول تعالى رادّاً على المشركين الكاذبين الزاعمين أن الملائكة بنات الله ، ألا لعنهم الله فقد جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، ثم ادعوا أنهم بناته ، ثم عبدوهم فأخطأوا في المقامات الثلاث خطأً عظيماً ، فقال تعالى منكراً عليهم : ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين ﴾ أي خصصكم بالذكور ﴿ واتخذ من الملائكة إناثاً ﴾ أي واختار لنفسه على زعمكم البنات ، ثم شدد الإنكار عليهم فقال سبحانه : ﴿ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾ أي في زعمكم ان لله ولداً ثم جعلكم ولده **الاناث** التي تأنفون أن يكنَّ لكم وربما قتلتموهن بالوَأدِ ، فتلك إذاً قسمة ضِيزَي ﴿ تكاد السموات يتفطّرنَ منه وتنشقّ الأرضُ وتخر الجبال هدّاً أنْ دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغي للرحمنْ أن يتخذ ولداً ... ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً ﴿٤١﴾ ﴾

هذه الآية كما قال تعالى : ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي صرفنا فيه من الوعيد لعلّهم يذّكّرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ **فينزجروا**

عماهُمْ فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿ وما يزيدهم ﴾ أي الظالمين منهم ﴿ إلا نفوراً ﴾ أي عن الحق وبعداً منه .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ۞ (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ۞ (٤٣) ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء الذين يقولون أن مع الله آلهة يعبدونها من دونه لتقربهم إليه وتشفع لديه .. ليس الأمر كما تقولون ... إنمّا المعبودون الذين تعبدونهم ، هم أنفسهم يعبدون الله ويتقرّبون إليه ، ويبتغون إليه الوسيلة فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونهم من دونه ، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطةً بينكم وبينه ، فإنه سبحانه لا يحب ذلك ولا يرضاه ، وقد نهى عنه على ألسنة جميع رسله وأنبيائه ، ثم نزه نفسه الكريمة فقال عز من قائل : ﴿ سبحانه عما يقولون ﴾ أي هؤلاء المشركون المعتدون ﴿ علوا كبيراً ﴾ أي تعاليا كبيراً بل هو الله **الأحد** الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ۞ (٤٤) ﴾

يقول تعالى : تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات وتنزهه وتعظمه وتكبره عما يقول المشركون ، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلٰهيته :

ففي كل شيء له آيــة   تدل على انه واحــد

روى الطبراني عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ قال لما رجع ليلة أسري به : ٥١ [سمعت تسبيحاً في السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى من ذي المهابة مشفقات لذي العلو بما علا ، سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى] .

وقوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده ﴾ أي كل مخلوق يسبح بحمد الله ،

﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ لأنه بخلاف لغاتكم ، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات وهذا أشهر القولين ؛ كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود انه قال : ٥٢ [كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكَل .] . وفي حديث ابي ذر : ٥٣ [أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسُمع لهن تسبيح كحنين النحل ...] وفي سنن النسائي عن عبدالله بن عمر قال : ٥٤ : [نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفادع ، وقال : «نقيقها تسبيح» وروى الامام أحمد عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ في الحديث الذي يذكر فيه وصية نوح لولديه ... إلى أن قال عليه السلام : ٥٥ ... [وآمركما بسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء] قال عكرمة : الاسطوانة تسبح ، والشجرة تسبح وقال بعض السلف صرير الباب تسبيحه ، خرير الماء تسبيحه وقال الثوري الطعام يسبح . وقال آخرون : إنما يسبح من كان فيه روح ، يعنون من حيوان ونبات (١) ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ أي انه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره ، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر كما جاء في الصحيحين : ٥٦ [« ان الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ﴾) ومن أقلع عما هو فيه من كفر وعصيان ، ورجع إلى الله وتاب إليه تاب عليه. كما قال تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ وقال ها هنا : ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ .

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً ۞ (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ۞ (٤٦) ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : واذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن ، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً أي حائلاً ساتراً عن الأبصار فلا تراه ، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى . ومال إلى ترجيحه ابن جرير رحمه الله وقال قتادة وابن زيد هو الأكنة على قلوبهم وهي جمع كنان الذي يغشي القلب ولهذا قال تعالى ﴿ وجعلنا على

(١) قلت : قوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » عام يشمل ذي الروح وغير ذي الروح .

قلوبهم أكنَّة أن يفقهوه ﴾ أي لئلا يفهموا القرآن ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به وذلك جزاء إعراضهم عنه وكفرهم به وقوله تعالى : ﴿ وإذا ذكرت ربَّك في القرآن وحده ﴾ أي إذا قلت في تلاوتك : لا اله الا الله ﴿ ولَّوْا ﴾ أي أدبروا راجعين ﴿ على أدبارهم نفوراً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ وقد أبى الله الا أن يعلي هذه الكلمة الطيبة ، ويظهرها على من ناوأها . إنها كلمة من خاصم بها فلج ، ومن قاتل بها نصر .

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُوراً ۝ (٤٧) ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ (٤٨) ﴾

يخبر تعالى بما يتناجى به رؤساء كفار قريش حين جاءوا يستمعون قراءته ﷺ سراً من قومهم بما قالوا من أنه رجل مسحور ، من السحر المشهور ، فمنهم من قال : شاعر ، ومنهم من قال : كاهن ، ومنهم من قال : مجنون ، ومنهم من قال : ساحر ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ أي فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصاً . قال محمد بن اسحق في السيرة ما خلاصته : أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة خرجوا ليستمعوا من رسول الله وهو يصلي بالليل في بيته فأخذ كل واحد مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق... تلاوموا وتكرّر هذا منهم ثلاثاً ثم أتى الأخنس أبا سفيان في بيته ، فقال اخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . قال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها فقال الأخنس وأنا والذي حلفت به . ثم خرج الأخنس حتى أتى أبا جهل فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ : قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسَيْ رهان ، قالوا : منا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه ...؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدِّقه . قال : فقام عنه الأخنس وتركه .



﴿ وَقَالُوا ءَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ۞ (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ۞ (٥٠) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً ۞ (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً ۞ (٥٢) ﴾

يخبر تعالى عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد والمستنكرين حدوثه بقولهم : ﴿ أئذا كنا عظاماً ورفاتاً ﴾ أي تراباً وغباراً ﴿ أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ أي يوم القيامة بعد البلاء والعدم ؟ ﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً ﴾ إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات ﴿ أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾ قال ابن عباس : هو الموت والمعنى انه لو استحلتم بعد الموت لا إلى عظام ورفات فحسب بل لو استحلتم إلى حجارة أو حديد لأحياكم الله حتى لو أنكم صرتم موتاً بذاته لجعلكم أحياءً إذا شاء ومتى شاء فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده . وقوله تعالى : ﴿ فسيقولون مــن يعيدنا ﴾ أي من يعيدنا إذا كنا حجارةً أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ﴿ قل الذي فطركم أول مرة ﴾ أي الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ثم صرتم بشراً تنتشرون، فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فسينغضون اليك رؤوسهم ﴾ أي يحركونها استهزاءً وهذا الذي تعرفه العرب من لغاتها .

وقوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هو ﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ أي احذروا ذلك فانه قريب إليكم سيأتيكم لا محالة ، وقوله تعالى : ﴿ يوم يدعوكم ﴾ أي الرب تبارك وتعالى اذا أمركم بالخروج من الأرض فإنه لا يخالف ولا يمانع بل كما قال تعالى : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ أي انما هو أمر واحد فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها ﴿ فتستجيبون بحمده ﴾ أي تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته ، وله الحمد في كل حال . وقد جاء في الحديث :

٥٧ [ليس على أهل لا إ لَه إلا الله وحشة في قبورهم ، كأني بأهل لا إ لَه إلا الله يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون لا إله الا الله] وفي رواية يقولون : ٥٨ [الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن] وقوله تعالى : ﴿ وتظنون ﴾ أي يوم القيامة من قبوركم ﴿ إن لبثتم ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ إلا قليلاً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ .

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً ۞ (٥٣) ﴾

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباده المؤمنين ألاَّ يتكلموا إلا الكلام الحسن والكلمة الطيبة وإلاَّ نزغ الشيطان بينهم وأخرج الكلام إلى الفعال ، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، إذ أن عداوته ظاهرة من لدن آدم ولهذا نهى ان يشير المسلم إلى اخيه المسلم بالسلاح فإن الشيطان ينزغ [1] في يده أي فربما أصابه بها . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٩ [لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار] أخرجاه من حديث عبد الرزاق .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ۞ (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ۞ (٥٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ أيها الناس أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿ إنْ يشأ يرحمْكم ﴾ بأن يوفقكم إلى طاعته والإنابة اليه ، ﴿ أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك ﴾ يا محمد ﴿ عليهم وكيلاً ﴾ أي إنما أرسلناك نذيراً ، فمن

(١) النزغ : وسوسة الشيطان . نزغه : طعنه بيد أو رمح . حركه أدنى حركة .

أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار . ﴿ وربك أعلم بمن في السموات والأرض﴾ أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية ، ﴿ ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض ﴾ كما قال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾ وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين ان رسول الله ﷺ قال : ٦٠ [لا تفضلوا بين الأنبياء] فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهيّ والعصبية لا بمقتضى الدليل ، فإذا دلّ الدليل على شيء ، وجب اتباعه ، ولا خلاف ان الرسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأن أولي العزم منهم أفضلهم وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب : ﴿ وإذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ وفي الشورى في قوله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن آقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم ، ثم بعده إبراهيم ثم موسى ، ثم عيسى عليهم السلام على المشهور. وقد بسطناه بدلائله في غير هذا الموضع ، والله الموفق. وقوله تعالى : ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ تنبيه على فضله وشرفه . والزبور الكتاب الذي نزل على داود ﷺ

﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ (٥٦) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝ (٥٧) ﴾

يقول تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ﴿ ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿ ف ﴾ إنهم ﴿ لا يملكون كشف الضر عنكم ﴾ أي بالكلية ، ﴿ ولا تحويلا ﴾ أي ولا يحوّلونه إلى غيركم ، والمعنى ان الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر ، وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ قال قتادة عن ابن مسعود قال : نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم الجنيّون ، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم ، فنزلت هذه الآية ... وقيل : الملائكة والعزير والمسيح ، وقيل الشمس والقمر ، والصحيح الذي اختار ابن جرير قول ابن مسعود ، لقوله تعالى :

﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ وهذا لا يعبّر به عن الماضي ، فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة ... وقال : الوسيلة هي القربة. قال قتادة : ولهذا قال تعالى : ﴿ أيّهم أقرب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ لا تم العبادة إلا بالخوف والرجاء ؛ فبالخوف ينكفّ عن المناهي ، وبالرجاء يكثر من الطاعات . وقوله تعالى : ﴿ إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ أي ينبغي أن يحذر منه ، ويُخافَ وقوعُه وحصوله ، عياذاً بالله منه .

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَابِ مَسْطُورًا ۞ (٥٨) ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ : انه ما من قرية كفرت إلاّ سيهلكها الله بأن يبيد أهلها جميعَهم ، أو يعذبهم ﴿ عذاباً شديداً ﴾ أمّا بقتل أو ابتلاء بما يشاء ، وذلك بسبب خطاياهم. كما قال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ .

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِٱلْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۞ (٥٩) ﴾

روى الامام أحمد عن ابن عباس ، قال : ٦١ [قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ، ونؤمن بك . قال « وتفعلون » قالوا : نعم . قال : فدعا فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفرمنهم بعد ذلك عذبتُه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم ابواب التوبة والرحمة ؛ فقال : « بل باب التوبة والرحمة »] .

وروى الحافظ ابو يعلي عن ام عطاء مولاة الزبير بن العوام حديثاً أطول وبنفس المآل إنما قالت اخيراً بروايتها عن الزبير عنه ﷺ : ٦٢ [... « والذي نفسي بيده لقد أعطاني ما سألتم ولو شئت لكان ، ولكنه خيرّني بين ان تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم

وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلّوا عن باب الرحمة ، فلا يؤمن منكم أحد ، فاخترت باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم ، وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم أنه يعذبكم عذاباً لا يعذّبه أحداً من العالمين » ونزلت : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلاّ أن كذب بها الأوّلون ﴾] والمعنى إن الله تعالى لم يرسل الآياتِ التي طلبها المشركون من قريش إلاّ أنه قد كذب بها الأوّلون بعد ما سألوها ، وجرت سنته تعالى فيهم وفي أمثالهم . انهم لا يؤخرون إن كذبّوا بها بعد نزولها كما قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ قال الله اني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ وقال تعالى عن ثمود حين سألوا آية ناقة تخرج من صخرة عيّنوها فدعا صالح عليه السلام ربّه فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوا ... ، فلما ظلموا بها أي كفروا بمن خلقها وأخرجها ، وكذبوا رسوله وعقروها ؛ فقال : ﴿ تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ أي دالة على من خلقها وأنه الواحد الأحد ، وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿ فظلموا بها ﴾ أي كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوها فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وقوله تعالى : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ قال قتادة : إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون ، ذكر لنا ان الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه ، فقال : يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه . وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات ، فقال عمر : أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً ﴾ (٦٠)

يحرّض تعالى رسوله ﷺ على تبليغ رسالته ، ويخبره بأنه قد عصمه من الناس فالكل في قبضته وذلك بقوله ﴿ وإذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس ﴾ : أي عصمك منهم . وقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنة للناس ﴾ الآية قال البخاري عن ابن عباس : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ﴿ والشجرة الملعونة

في القرآن ﴾ ﴿ شجرة الزقوم ، وكذا رواه احمد وعبد الرزاق ، وغيرهما عن سفيان بن عينيه به ، وكذا العوفي عن ابن عباس ، وقد رجع أناس من المسلمين عن دينهم بعدما كانوا على الحق لأنه لم تتحمل قلوبهم وعقولهم معجزة الاسراء فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وجعل الله ذلك ثباتاً ويقيناً لآخرين ولهذا قال : ﴿ إلا فتنة ﴾ أي اختباراً وامتحاناً ، وكل من فسر ﴿ الرؤيا التي أريناك ﴾ ليلة الاسراء ﴿ والشجرة الملعونة ﴾ بشجرة الزقوم ولهذا اختار ابن جرير ان المراد بذلك ليلة الإسراء وان الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم قال : لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك أي في الرؤيا والشجرة وقوله تعالى ، ﴿ وتخوفهم ﴾ أي الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿ فما يزيدهم إلا طغيانا كبيراً ﴾ أي تمادياً في الكفر والضلال وذلك من خذلان الله لهم .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۞ (٦١) قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۞ (٦٢) ﴾

يذكر تعالى عداوة ابليس لعنه الله لآدم وذريته ، وأنها قديمة منذ خلق آدم وامتناع ابليس عن السجود له تكبّراً واحتقاراً ﴿ أأسجد لمن خلقت طيناً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ وقال أيضاً متجرّئاً على الرب والرب يحلم وينظر : ﴿ قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني الى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريته إلا قليلاً ﴾ أي لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم .

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۞ (٦٣) وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۞ (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۞ (٦٥) ﴾

لما سأل ابليس النظرة قال تعالى : ﴿ اذهب ﴾ فقد أنظرتك كما قال تعالى : ﴿ فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ثم أوعده ومن تبعه من ذرية آدم جهنم﴿ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم ﴾ أي على أعمالكم ﴿ جزاءً موفوراً ﴾ أي لا ينقص لكم منه شيء .

وقوله تعالى : ﴿ واستفززْ من استطعت منهم بصوتك ﴾ قال ابن عباس : كل داع إلى معصية الله عز وجل واختاره ابن جرير ، وقيل هو الغناء واللهو .

وقوله تعالى : ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ أي كل راكب وماش في معصية الله ، واحمل عليهم بجنو دك خيالتهم ورجلتهم وتسلط عليهم بكل ما تقدر عليه ، كقوله تعالى : ﴿ ألم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزُّهم أزّاً ﴾ أي تسوقهم إلى المعاصي سوقاً .

وقوله تعالى : ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ أما مشاركة الأموال فهو ما حرموه من أنعامهم من البحائر والسوائب وما أمرهم به من إنفـاق الأموال في معاصي الله تعالى ، وكل مال جمع من خبيث وأنفق في حرام . أما الأولاد : فكل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه بتسميته بما يكّرهه الله أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله ، أو وأده أو غير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله فقد دخل في مشاركة إبليس . فكل ما عصى الله فيه أوبه أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة . فقد ثبت في الصحيحين ان رسول الله ﷺ وعلى آله قـال٦٣ : [لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنّب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدّر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً] .

وقوله تعالى : ﴿ وعدهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غروراً ﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس انه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضي بالحق : ﴿ ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ إخبار بتأييده تعالى لعباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ولهذا قال تعالى : ﴿ وكفى بربك وكيلاً ﴾ أي حافظاً ومؤيداً ونصيراً .

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ● (٦٦) ﴾

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر ، وتسهيله لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى اقليم ؛ ولهذا قال جل وعلا ﴿ انه كان بكم رحيماً ﴾ أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ كَفُوراً ﴾ (٦٧)

يخبر تعالى وتبارك أن الناس إذا مسّهم ضرٌّ دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين. ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذا مسّكم الضرُّ في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه ﴾ أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى ، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة ، فذهب هارباً فركب في البحر ليدخل الحبشة ، فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغني عنكم إلا ان تدعوا الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه : والله إن كان لا ينفع في البحر غيره ، فانه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك عليَّ عهد لئن اخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنّه رؤوفاً رحيماً ، فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه .

وقوله تعالى : ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾ أي سجيته هذا ، ينسى النعم ويجحدها إلاّ من عصم الله .

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ (٦٨)

يقول تعالى : أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه أن يخسف بكم جانب البر أو يمطركم بحجارة، كما قال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلاّ آل لوط نجيناهم

بسَحَرٍ نعمةً من عندنا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ﴾ أي ناصراً يرد ذلك عنكم وينقذكم منه .

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ﴿٦٩﴾ ﴾

يقول تبارك وتعالى : أم أمنتم أيها المعرضون عنا بعدما اعترفتم بتوحيدنا في البحر وخرجتم إلى البر أن يعيدكم في البحر مرة ثانية فيرسل عليكم قاصفاً من الريح يقصف الصواري ويغرق المراكب ﴿ فيغرقكم بما كفرتم ﴾ أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى . وقوله جل وعلا : ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ أي نصيراً يأخذ بثأركم بعدكم ولا نخاف احداً يتبعنا بشيء من ذلك .



﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئآت وأكملها كقوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ أي يمشي منتصباً على رجليه ويأكل بيديه وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه ، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله وينتفع به ، ويفرق بين الأشياء ، ويعرف خواصها نفعاً وضرراً في الأمور الدينية والدنيوية وحملناهم في البر على الدواب من الخيل والبغال وفي البحر على السفن الكبار والصغار ، ورزقناهم من الطيبات من زروع وثمار ولحوم وألبان ، والمناظر الحسنة ، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع مما يصنعون لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من الجهات الأخرى ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات . وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة .

روى الحافظ ابو القاسم الطبراني عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : ٦٤ [ان الملائكة قالت : يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو ، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة قال : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان]

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۞ (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۞ (٧٢) ﴾

يخبر تعالى وتبارك عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم قبل نبيّهم ولكن المراد هنا بالإمام هو كتاب الأعمال.ولهذا قال تعالى هنا : ﴿ يوم ندعوا كلَّ أُناس بإمامهم فمن أوتيَ كتابَه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ﴾ أي من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرأه ويحب قراءته.كقوله تعالى : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه ــ إلى قوله تعالى ــ وأما من أوتي كتابه بشماله ... كما قال تعالى : ﴿ وترى كلَّ أمة جاثية كل أُمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبيّ إذا حكم الله بين أمته ، فإنه لا بد أن يكون شاهداً على أمتّه بأعمالها ، كقوله تعالى : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أُمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً . ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ الفتيل هو الخيط المستطيل في شق النواة وقد روى الحافظ ابو بكر البزار حديثاً في هذا عن أبي هريرة رضي الله عنه ٦٥ [عن النبي ﷺ في قول الله تعالى : ﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ﴾ قال : [يدعى أُحدهم فيعطى كتابه بيمينه ، ويمد له في جسمه ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلألأ ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون : اللهم أتنا بهذا ، وبارك لنا في هذا فيأتيهم فيقول لهم : أبشروا فإن لكل رجل منكم مثل هذا ، وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له في جسمه ويراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا ، اللهم

لا تأتنا به ، فيأتيهم ، فيقولون : اللهم اخزه ، فيقول : أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا »] ثم قال البزار لا يروي إلاّ من هذا الوجه . وقوله تعالى : ﴿ ومن كان في هذه أعمى ﴾ قال ابن عباس وغيره ﴿ ومن كان في هذه ﴾ أي في الحياة الدنيا ﴿ أعمى ﴾ أي عن حجة الله وآياته ﴿ فهو في الآخرة أعمى ﴾ أي كذلك يكون ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ أي أضل مما كان في الدنيا عياذاً بالله من ذلك .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ۞ (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا ۞ (٧٤) إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيٰوةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ۞ (٧٥) ﴾

يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه ، وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار ، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره ، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليّه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه، وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۞ (٧٧) ﴾

نزلت في كفار قريش لما همُّوا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم ، فتوعّدهم الله بهذه الآية ، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً ، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلاّ سنة ونصف ، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد ، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم ، فقتل اشرافهم وسبى ذراريهم.ولهذا قال تعالى : ﴿ سنّة من قد أرسلنا ﴾ الآية أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ الآية

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۞ (٧٨) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۞ (٧٩) ﴾

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ قال ابن عباس : دلوكها زوالها وقال ابن عمر وابن مسعود والحسن والضحاك وغيرهما واختاره ابن جرير ، ومما استشهد عليه ما رواه ابن حميد عن جابر بن عبدالله قال : ٦٦ [دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندي ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج النبي ﷺ فقال : « أخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس »] .

ثم رواه عن سهل بن بكار عن أبي عوانة عن الأسود بن قيس عن نبيح العنزي عن جابر عن رسول الله ﷺ نحوه [1] فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس ، فمن قوله تعالى : ﴿ لدلوك الشمس إلى غسق الليل ﴾ وهو ظلامه أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

وقوله تعالى : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ يعني صلاة الفجر ، وقد تواترت السنة بتفاصيل هذه الأوقات مما تلقاه أهل الاسلام خلفاً عن سلف وقرناً بعد قرن ، كما هو مقرر في مواضعه ، ولله الحمد . ﴿ ان قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ٦٧ [« فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر » يقول أبو هريرة : أقرأوا إن شئتم : ﴿ وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾] وفي لفظ في الصحيحين عن ابي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : ٦٨ [يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون] وقوله تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة

(١) قلت : الرواية الأولى فيها رجل لم يسمَّ وفي الرواية الثانية الذي يرويه عن جابر هو نبيح العنزي فلعل الرجل الذي لم يسمَّ في الرواية الأولى هو نبيح العنزي والله أعلم .

لك ﴾ أمرٌ له بقيام الليل وبعد المكتوبة كما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : ٦٩ [أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال « صلاة الليل »] ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل فإن التهجد ما كان بعد نوم . قاله علقمة والأسود والنخعي وغير واحد ، وهو المعروف في لغة العرب وقوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ أي إفعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً ، يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى .

قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشّفاعة للناس ، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم .

(قلت) : لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد ، أو يساويه فيها أحد :

فهو أول من تنشق عنه الأرض ، ويبعث راكباً إلى المحشر ، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه ، وله الحوض الذي ليس في الموقف اكثر وارداً منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق.وذلك بعدما تسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى ، فكل يقول ، لست لها ، حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول : « أنالها أنالها » ومن ذلك أنه يشفع في اقوام قد أمر بهم إلى النار فيردّون عنها وهو أول الأنبياء يقضي بين أمته ، وأولهم إجازةً على الصراط بأمته ، وهو أول شفيع في الجنة كما ثبت في صحيح مسلم .

وفي حديث الصور : إن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلاّ بشفاعته ، وهو أول داخل إليها ، وأمته قبل الأمم كلهم ، ويشفع في درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم ، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلةٍ في الجنة لا تليق إلاّ له ، وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلاّ الله تعالى ، ولا يشفع أحد مثله ، ولا يساويه في ذلك ، ولنذكر الآن بعض الأحاديث الواردة في المقام المحمود والله المستعان .

روى البخاري عن ابن عمر يقول : ٧٠ [إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء كل أمة تتبع نبيّها يقولون : يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع ، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً] ورواه حمزة بن عبدالله عن أبيه عن النبي ﷺ .

روى البخاري عن جابر بن عبدالله ان رسول الله ﷺ قال : ٧١ [من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة . وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، حلّت له شفاعتي يوم القيامة] إنفرد به دون مسلم .

روى الإمام أحمد عن أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال : ٧٢ : [اذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر] أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح واخرجه ابن ماجه قال الإمام أحمد رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ٧٣ [أتي رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ، ثم قال ، «أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ... يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ، ولا يحتملون ، فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه مما قد بلغكم ، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : عليكم بآدم فيأتون آدم عليه السلام ... ـ فيعتذر ثم يأتون نوحاً فإبراهيم فموسى فعيسى وكلهم يعتذر بسبب ذنب يعتقد أنه اقترفه فيستحيي ربّه وكلهم يقول : نفسي نفسي ... ثم يأتون محمداً ﷺ ـ (١) ... فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأقوم فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي عز وجل ، ثم يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول : أمتي يا رب ، أمتي يا رب ، أمتي يا رب فيقال لي : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال : والذي نفس محمد بيده ان ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى] أخرجاه في الصحيحين .

وروى رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٤ [أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر يوم القيامة ، وأول شافع ، وأول مشفع] .

---

(١) قلت : ما بين المعترضتين من كلامي اختصاراً لمعنى الحديث .

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً ۞ (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ۞ (٨١) ﴾

قال قتادة ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق ﴾ يعني المدينة ﴿ وأخرجني مخرج صدق ﴾ يعني مكة قال الإمام أحمد عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل الله تعالى ﴿ وقل رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ قال الحسن في تفسير ها : وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له . قال قتادة فيها : ان نبي الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلاّ بسلطان فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله ، ولحدود الله ، ولفرائض الله ، ولإقامة دين الله ، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم . واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة ، وهو الأرجح لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه.ولهذا يقول تعالى : ﴿ ... وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ وفي الحديث : ٧٥ [إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن] أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع .

وقوله تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ... ﴾ تهديد ووعيد لكفار قريش ، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه، وهو ما أنزل من القرآن والإيمان والعلم النافع . وزهق باطلهم أي اضمحل وهلك ، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ روى البخاري عن ابن مسعود قال : ٧٦ [دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾]وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي وعبد الرزاق.

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً ۞ (٨٢) ﴾

يخبر تعالى عن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ الذي لا يأتيه الباطل ، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل ، فالقرآن يشفي من ذلك كله ، وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه وليس هذا إلاّ لمن آمن به وصدقه واتبعه ، أما الكافر الظالم نفسه بكفره فلا يزيده سماعه للقرآن إلاّ بعداً وكفراً ، والآفة من الكافر لا من القرآن . قال تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً * فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ أي لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَئُوساً * (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا * (٨٤) ﴾

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلاّ من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء ، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية ، ورزق ونصر أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه قال مجاهد : بَعُد عنّا وهذا كقوله تعالى : ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ ﴿ و ﴾ بأنه ﴿ إذا مسّه الشر ﴾ وهو المصائب والنوائب ﴿ كان يئوساً ﴾ أي قنط أن يحصل له خير بعد ذلك كقوله تعالى : ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منّا رحمةً ثم نزعناها منه إنّه ليؤوس كفور ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ أي على دينه وطريقته وهذه الآية – والله أعلم – تهديد للمشركين ووعيد لهم كقوله تعالى : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم ﴾ ولهذا قال جل وعلا : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ﴾ أي منّا ومنكم وسيجزي كل عامل بعمله فإنه لا تخفى عليه خافية .

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا * (٨٥) ﴾

روى الإمام أحمد بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ٧٧ [كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث في المدينة ، وهو متوكىء على عسيب فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح . وقال بعضهم : لا تسألوه . قال : فاسألوه عن الروح ، فقالوا : يا محمد ما الروح ؟ فما زال متوكئاً على العسيب . قال فظننت أنه يوحي إليه فقال : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قال : فقال بعضهم لبعض : قد قلنا لكم لا تسألوه] . وهكذا رواه البخاري ومسلم من حديث الأعمش به وهذا ... يقتضي فيما يظهر باديء الرأي أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة ، مع أن السورة كلها مكية والدليل على ذلك ما روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : ٧٨ [قالت قريش ليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل فقالوا سلوه عن الروح فسألوه ، فنزلت : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قالوا : أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً ، قال : وأنزل الله : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ﴾ وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية ، أو أنزل عليه الوحي بأن يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدمة .

روى محمد بن اسحق عن بعض أصحابه ، عن عطاء بن يسار قال : ٧٩ [نزلت بمكة : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً ﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود وقالوا : يا محمد ألم يبلغنا عنك أنك تقول : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أفعنيتنا أم عنيت قومك ، فقال : « كلاً قد عنيت » فقالوا إنك تتلو أنّا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء ؛ فقال رسول الله ﷺ « هي في علم الله قليل وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم » وأنزل الله تعالى : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم ﴾ .

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال . أحدها : أنها هي أرواح بني آدم التي في أجسادهم . وقيل المراد بالروح ههنا جبريل ، وقيل المراد به ههنا ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها ، وقيل المراد طائفة من الملائكة على صور بني آدم ، وقيل : طائفة يرون الملائكة ولا تراهم ، فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم [1] أما قوله

(١) فيما يبدو – والله أعلم – أن المراد بالروح ها هنا ... الروح التي في الجسد أما الروح اطلاقاً فلها معان عدة ، منها الروح التي في الجسد ، والروح هو جبريل ، والروح هي كلمة « كن » ويتجلى المراد منها بحسب موقعها ، وكل هذه المعاني وردت في القرآن . أما كونها ملك عظيم اسمه الروح أو هم قبيل من الملائكة فليس من دليل صحيح ثابت فيما أعلم والله تعالى أعلم .

تعالى ﴿ قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أي إن الروح من شأنه ومما استأثر بعلمه دونكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أي وما أطلعكم من علمه إلاّ على القليل فانه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلاّ بما شاء تبارك وتعالى .

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ۞ (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ۞ (٨٧) قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۞ (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۞ (٨٩) ﴾

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ ، فيما أوحاه إليه من القرآن العظيم المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد قال ابن مسعود رضي الله عنه ، يطرق الناسَ ريح حمراء – يعني في آخر الزمان – من قبل الشام فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية « ثم قرأ ابن مسعود : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ﴾ ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمع الإنس والجن واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لما أطاقوا ذلك لأن هذا الأمر لا يستطاع . وكيف يشبه كلامُ المخلوقين كلامَ الخالق الذي ليس كمثله شيء . وقوله تعالى : ﴿ ولقد صرفنا للناس ﴾ الآية ... أي بيّنا لهم الحجج والبراهين القاطعة وبسّطنا لهم الحق . ومع هذا فأبى أكثر الناس إلا جحوداً للحق وَرَداً للصواب .

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ۞ (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۞ (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ

تَأْتِيَ بِاللهِ وَٱلْمَلَٰئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

روى ابن جرير عن ابن عباس ما ملخصه : ٨٠ [دعا أكابر قريش محمداً ﷺ فجاءهم سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ، ويعزّ عليه عنتهم حتى جلس إليهم فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، فما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا وان كنت تريد ملكاً ملكناك عليناوان كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك –وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي – فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ، فقال رسول الله ﷺ « ما بي ما تقولون ؛ ما جئتكم بما جئتكم به ، أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكمَ الله بيني وبينكم »]أو كما قال رسول الله ﷺ تسليماً .

ثم طلبوا منه وسألوه أن يسأل ربه – على سبيل العناد والكفر – فليسيّر عنا هذه الجبال ، وليبسط لنا بلادنا وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ... فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل ؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك عند الله ، وانه بعثك رسولاً كما تقول .

ثم سألوه أن يسأل ربه ان يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ، ويغنيك بها عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن

كنت رسولاً كما تزعم . وكان يجيبهم ﷺ في كل مرة ما أجابهم في المرة الأولى ، قالوا فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك ، فإنا لن نؤمن لك إلاّ أن تفعل ، فقال لهم رسول الله ﷺ « ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك » فقالوا يا محمد : أما علم ربك إنّا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب ، فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلّمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن وإنّا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتّى نهلكك أو تهلكنا ، وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتّى تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، فلما قالوا ذلك ، قام رسول الله ﷺ عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي ، وهو ابن عمته عاتكة إبنة عبد المطلب ؛ فقال : يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبلْ منهم ، ثم سألوك أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك ، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب ، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتّى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه وأنا انظر حتّى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك ، ثم انصرف رسول الله ﷺ حزيناً أسفاً لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه) .

وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له ، لو علم الله منهم انهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه ، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً .

وقوله تعالى : ﴿ حتّى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ الينبوع : العين الجارية ، فقد سألوه أن يجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا ، وذلك سهل على الله تعالى يسير ، لو شاء لفعله ، ولأجابهم إلى جميع ما سألوا ، ولكن علم أنهم لا يهتدون كقوله تعالى : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت ﴾ أي عجل لنا العذاب الذي تعدنا به يوم القيامة من انشقاق السماء وتدلي أطرافها فأسقطها الآن قطعاً كما قال قوم شعيب له : ﴿ أسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم وأما نبيُّ الرحمة فسأل إنظارهم وتأجيلهم لعلّ الله أن يُخرج من أصلابهم من يعبده ولا يشرك به شيئاً ، وكذلك وقع فإن من هؤلاء الذين كفروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتّى عبد الله بن أبي أمية

الذي تقدم ذكره ... أسلم إسلاماً تاماً وأناب إلى الله عز وجل . وقوله تعالى : ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ ، أي من ذهب في قراءة ابن مسعود وقال ابن عباس وغيره نحوه ﴿ أو ترقى في السماء ﴾ أي تصعد في السماء في سلم ونحن ننظر إليك ﴿ ولن نؤمن لرقيّك حتى تُنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ أي مكتوب فيه إلى كل واحد منهم هذا كتاب من الله إلى فلان بن فلان تصبح موضوعة عند رأسه ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ أي سبحانه أن يتقدم أحدٌ بين يديه في أمرٍ من أمور سلطانه ، بل هو الفعال لما يشاء وما أنا إلا رسول اليكم أبلغكم الرسالة وأنصح لكم وقد فعلت ذلك . وأمركم فيما سألتموه إلى الله عز وجل .

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ ٱللهُ بَشَراً رَسُولاً ۞ (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلٰئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً ۞ (٩٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وما منع الناس ﴾ أي أكثرهم ﴿ أن يؤمنوا ﴾ ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً كما قال تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ والآيات في هذا كثيرة ، ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه ويخاطبوه ، ولو بعث رسولاً ملكاً لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ منه كما قال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ ولهذا قال ها هنا : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ أي من جنسهم ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمةً .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ۞ (٩٦) ﴾

يقول تعالى : مرشداً لنبيه ﷺ إلى الحجة البالغة على قومه في صدق ما جاءهم به : انه أي الله شاهد عليّ وعليكم ، عالم بما جئتكم به ، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني

أشد الانتقام .كما قال تعالى : ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ أي عليماً بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة (١) ؛ ولهذا قال سبحانه :

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۞ (٩٧) ﴾

يخبر تعالى عن تصرفه في خلقه ، ونفوذ حكمه ، وأنه لا معقِّب لحكمِهِ ، فمن يهده فلامضلَّ له ، ومن يُضللِ فلن تجد له أولياء من دونه أي يهدونهم.وقوله تعالى :﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾ روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك يقول : ٨١ [قيل يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال « الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم »] وأخرجاه في الصحيحين . وقوله تعالى : ﴿ عمياً ﴾ أي لا يبصرون ﴿ وبكماً ﴾ يعني لا ينطقون ، ﴿ وصماً ﴾ لا يسمعون جزاءً لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق ، فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿ مأواهم ﴾ أي مصيرهم ﴿ جهنم كلما خبت ﴾ أي طفئت ﴿ زدناهم سعيراً ﴾ أي لهباً ووهجاً وجمراً ، كما قال سبحانه : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلاّ عذابا » .

حزب ٣٠

﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۞ (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ۞ (٩٩) ﴾

(١) قلت : أي علم بسابق علمه من سيؤمن من خلقه فيستحق الإنعام والإحسان والهداية بتثبيته على الإيمان جزاء ما آمن ، ومن سيكفر منهم فيستحق منه الشقاء والإضلال والإزاغة جزاء ما كفر كما قال تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » والحمد لله على التوفيق بنعمة الإيمان .

يقول تعالى : هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم جزاؤهم الذي يستحقونه لأنهم كذّبوا ﴿ بآياتنا ﴾ أي بأدلّتنا وحججنا . واستبعدوا وقوع البعث ﴿ وقالوا أإذا كنّا عظاماً ورفاتاً ﴾ أي بالية نخرة ﴿ أإنّا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾؟ أي بعد البلى والهلاك تُعاد مرة ثانية !؟ فنبههم الله تعالى على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض ، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال تعالى : ﴿ لَخلقُ السموات والأرض أكبرُ من خلق النّاس ﴾ وقال ههنا : ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ﴾ أي يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم . وقوله تعالى : ﴿ وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ﴾ أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً لا بد من انقضائه ، كما قال تعالى : ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأبَى الظالمون ﴾ أي بعد قيام الحجة عليهم ﴿ إلا كفوراً ﴾ أي تمادياً في كفرهم .

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ۞ (١٠٠) ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ قل لهم يا محمد لو أنكم أيها الناس تملكون التصرفَ في خزائن الله لأمسكتم خشية الإنفاق أي خشية ان تذهبوها فتفتقرون مع أنها لا تنفد أبداً ، لأن هذا من طباعكم ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ وكان الإنسان قتورا ﴾ أي بخيلاً منوعاً ، كما قال تعالى : ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ أي لما أعطوا أحداً شيئاً لأن البخل والجزع والهلع صفة للإنسان ، وهذا عام فيه ، إلا من وفقه الله وهداه .كما قال تعالى : ﴿ إن الإنسان خُلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً واذا مسّه الخير منوعا إلا المصلّين ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ۞(١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ

وَٱلْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ❁ (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً ❁ (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ٱسْكُنُوا ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ❁ (١٠٤)

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته ، وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون ، وهي : العصا ، واليد ، والسنين والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات قاله ابن عباس ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ أي ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها ، كفروا بها وجحدوا ، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا ، وما نجعت فيهم ؛ فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا ، وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً إلى آخرها ... لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله ، كما قال فرعون لموسى وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات : ﴿ إني لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ قيل بمعنى ساحر والله تعالى أعلم . وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخر كثيرة ، منها ضربه الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه ، ومنها تظليلهم بالغمام ، وانزال المن والسلوى ، وغير ذلك مما أوتوه بنو اسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ولكن ذكرها هنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً .

وقوله تعالى : ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ أي ما أنزل هذه الآيات التسع إلا رب السموات والأرض حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿ وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ أي هالكاً مغلوباً ملعوناً .

وقوله تعالى : ﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض ﴾ أي يخليهم منها ﴿ فأغرقناه ومن معه جميعاً وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها فاتحاً وقهر أهلها ثم أطلقهم حلماً وكرماً ، وكما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني اسرائيل مشارق الأرض ومغاربها ، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾ أي جميعكم أنتم وعدوكم .

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً ۞ (١٠٥) وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ۞ (١٠٦) ﴾

يخبر تعالى عن كتابه العزيز أنه بالحق نزل أي متضمناً للحقّ كما قال تعالى : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ﴾ أي متضمناً علمَ الله الذي أراد أن يُطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه ، وقوله تعالى : ﴿ وبالحق نزل ﴾ أي ونزل إليك يا محمد محفوظاً محروساً لم يُشَب بغيره ولا زيد فيه ولا نقص منه بل وصل إليك بالحق وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ أي مبشراً لمن أطاع ونذيراً لمن عصى . وقوله تعالى : ﴿ وقرآناً فرقناه ﴾ أما قراءة التخفيف أي فصلّناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا وبالتشديد أي نزّلناه آية آية مفرقاً منجّماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة مبينا ومفسراً ولهذا قال سبحانه : ﴿ لتقرأه على الناس ﴾ أي لتبلغه لهم وتتلوه عليهم ﴿ على مُكثٍ ﴾ أي مهل ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ أي شيئاً بعد شيء .

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۞ (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ۞ (١٠٩) ﴾



يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بما جئتهم من القرآن العظيم : ﴿ آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ أي سواء آمنتم به أم لم تؤمنوا ، فهو حقٌ أنزله الله ، ونوّه بذكره في كتبه المتقدمة ولهذا قال تعالى : ﴿ إنَّ الذين أوتوا العلم من قبله ﴾ أي من صالحي أهل الكتاب العالمين العاملين به كما نزل ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ هذا القرآن ﴿ يخرُّون للأذقان ﴾ جمع ذقن ﴿ سجّداً ﴾ لله سبحانه شكراً على ما أنعم عليهم من إدراكهم هذا الرسول الكريم الذي أنزل عليه هذا الكتاب ، ولهذا يقولون : ﴿ سبحان

ربنا ﴾ أي تنزيهاً وتعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة وأنه لا يخلف وعده الذي وعده على ألسنة الأنبياء المتقدمين والمبشرين ببعثة محمد ﷺ ولهذا قال تعالى مخبراً عن قولهم : ﴿ سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ويخرّون للأذقان يبكون ﴾ خضوعاً له عز وجل ، وإيماناً بكتابه ورسوله ﷺ ﴿ ويزيدهم خشوعاً ﴾ أي تصديقاً وتسليماً كما قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ .

﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ (١١٠) وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ۝ (١١١) ﴾

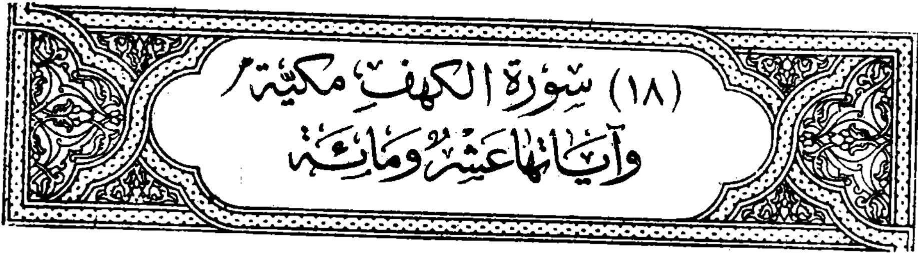
روى مكحول : ٨٢ [ان رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده : يا رحمن يا رحيم فقال : إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية .] وكذا روي عن ابن عباس ، رواهما ابن جرير .

فقوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل المانعين من تسميته بالرحمن لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن فإنه ذو الأسماء الحسنى كما قال تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ـ إلى قوله تعالى ـ ﴿ له الأسماء الحسنى يسبح اله ما في السموات والأرض ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ روى الامام أحمد عن ابن عباس قال : ٨٣ [نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوارٍ بمكة ، ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ قال : كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فلما سمع ذلك المشركون سبّوا القرآن وسبّوا من أنزله ومن جاء به قال فقال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ ولا تجهرْ بصلاتك ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿ ولا تخافت بها ﴾ عن أصحابكِ فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ أخرجاه في الصحيحين ، وكذا رواه الضحاك عن ابن عباس ، وزاد :

٨٤ [فلما هاجر إلى المدينة سقط ذلك ، يفعل أيَّ ذلك شاء] .

وقوله تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى نزَّه نفسه عن النقائص فقال سبحانه : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ﴾ بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴿ ولم يكن له ولي من الذلّ ﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى ولي أو وزير أو مشير ، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له ، ومدبرها بمشيئته وحده ﴿ وكبّره تكبيراً ﴾ أي عظّمْه ، وأجلَّه عما يقولُ الظالمون المعتدون علواً كبيراً . آخر اختصار سورة الإسراء ولله الحمد والمنة .

١٣٨٩/٧/١٩
١٩٦٩/٩/٣٠



إلاّ الآية /٢٨/ ومن آية ٨٢ - ١٠١ فمدنية نزلت بعد سورة الغاشية

* * *

ذكر ما ورد في فضلها :

روى الإمام أحمد عن البراء يقول : ٨٥ [قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة ، فجعلت تنفر ، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « إقرأ فلان فإنها السكينة تنزل عند القرآن أو تنزلت للقرآن »] أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن الحضير كما تقدم في سورة البقرة .

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال : ٨٦ [من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال] رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي

من حديث قتادة به ، ولفظ الترمذي : ٨٧ [من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف] وقال حسن صحيح .

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : ٨٨ [من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجّال] ورواه مسلم أيضاً والنسائي من حديث قتادة به ولفظ النسائي : ٨٩ [من قرأ عشر آيات من الكهف ...] فذكره .

وأخرج الحاكم في مستدركه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : ٩٠ [من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين] ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم



﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۜ (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) ﴾

قد تقدم في أول التفسير انه تعالى يحمد نفسه المقدسة ، عند فواتح الأمور وخواتمها ، فإنه المحمود على كل حال ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله عليه وسلامه . فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور ، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ بل يهدي إلى صراط مستقيم واضحاً بيّناً ، نذيراً للكافرين، بشيراً للمؤمنين. ولهذا قال تعالى: ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ أي ليس معوجاً ولا مائلاً بل ﴿ قيّماً ﴾ أي مستقيماً ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ أي لينذر به الذين لم يؤمنوا به عقوبة في الدنيا والآخرة ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ أي الذين صدّقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿ أن لهم أجراً حسناً ﴾ أي مثوبة من عند الله ﴿ ماكثين فيه ﴾ في ثوابهم وهو الجنة خالد فيه ﴿ أبداً ﴾ دائماً لا زوال له .

وقوله تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ المعنيّون بهذه الآية كل من قال هذا من أي أمة من الأمم وان كان نزولها من أجل المشركين العرب لما قالوا نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله ﴿ ما لهم به من علم ﴾ بهذا الافتراء والإفك ﴿ ولا لآبائهم ﴾ أي لأسلافهم ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم ﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ، ولا دليل عليها إلاّ كذبهم.ولهذا قال جل وعلا : ﴿ إن يقولون إلاّ كذباً ﴾ وقد ذكر

محمد بن اسحق سبب نزول هذه الآية الكريمة فقال – ما ملخصهُ – عن ابن عباس قال : ٩١ [بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته فإنهم أهل الكتاب ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله : فقالوا سلوه عن ثلاث فان أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلاَّ فرجل متقول فتروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية : ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، فعاد النضر وعقبة حتى قدما على قريش فأخبراهم بما قال أحبار اليهود فجاءت قريش وسألت النبي ﷺ عن ذلك فقال لهم ﷺ : « أخبركم غداً عما سألتم عنه » ولم يستثن[1] فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يأتيه جبريل بالوحي حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا فيها ، لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله عز وجل : ﴿ ويسألونك عن الروح ... ﴾ الآية] .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝ (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝ (٨) ﴾

يسلّي الله تعالى نبيّه ﷺ في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبُعدهم عنه ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ يقول لا تهلك نفسك أسفاً وحزناً ، أي لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تُذهب نفسك عليهم حسرات . وقوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا ما على

(١) قلت : أي لم يقل : ان شاء الله .

الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ أي أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار فقال تعالى : ﴿ وإنّا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ أي وإنّا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار ، لا ينبت صعيدها ولا ينتفع به . والصّعيد الجرز أي البلقع الذي ليس فيه شجر ولا نبات . ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً ❁ (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ❁ (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ❁ (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ❁ (١٢) ﴾

هذا إخبار مجمل من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف ، فقال سبحانه : ﴿ أم حسبت ﴾ يعني يا محمد ﴿ أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ أي ليس امرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرته تعالى أعجب من أخبار أصحاب الكهف . وأما الكهف فهو الغار في الجبل وهو الذي لجأ اليه هؤلاء الفتية المذكورون وأما الرقيم فقال العوفي عن ابن عباس : هو وادٍ قريب من أيلة قال الضحاك : أما الكهف فهو الغار والرقيم اسم الوادي وقال سعيد بن جبير : الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ، ثم وضعوه على باب الكهف . وقال ابن جرير : الرقيم فعيل بمعنى مرقوم كما يقال للمقتول قتيل واختاره **والرقيم الكتاب**

وقوله تعالى : ﴿ إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربّنا آتنا من لدنك رحمةً وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فرّوا بدينهم من قومهم لئلاّ يفتنوهم عنه ، فهربوا منهم فلجأوا إلى غارٍ في جبل ليختفوا عن قومهم ، فقالوا حين دخلوا : ﴿ ربنا آتنّا من لدنك رحمةً ﴾ أي هب لنا رحمة تسترنا عن قومنا ﴿ وهيء لنا

من أمرنا رشداً ﴾ أي اجعل عاقبتنا رشداً .كما جاء في الحديث : ٩٢ [وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشدا] وقوله تعالى : ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ﴾ أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف سنين عديدة ﴿ ثم بعثناهم ﴾ أي من رقدتهم تلك ﴿ لنعلم أي الحزبين ﴾ أي المختلفين فيهم ﴿ احصى لما لبثوا أمدا ﴾ أي أحصى عدداً لما لبثوا في الكهف اي غاية ما لبثوا فيه .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۞ (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ۞ (١٤) هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۞ (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ۞ (١٦) ﴾

وهنا شرع في تفصيل قصة أصحاب الكهف وشرحها ، فذكر تعالى أنهم فتية أي شباب ، وهم أقبل للحق من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل ، ولهذا كان اكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً ، وأما المشايخ من قريش ، فعامتهم بقوا على دينهم ولم يُسلمْ منهم إلاّ القليل . وهكذا اخبر تعالى عن اصحاب الكهف أنهم كانوا فتيةً شباباً ، فآمنوا بربهم أي اعترفوا له بالواحدانية ، وشهدوا أن لا إله إلا الله ﴿ وزدناهم هدى ﴾ وقد استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله وأنه يزيد وينقص.ولهذا قال تعالى : ﴿ وزدناهم هدى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً ﴾ وكما قال سبحانه : ﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك وقد قيل انهم كانوا على دين النصرانية ، والظاهر أنهم سبقوا زمن المسيح عليه الصلاة والسلام لاعتناء اليهود بحفظ خبرهم وقد تقدم عن ابن عباس ان قريشاً بعثوا إلى احبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم

أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ ، فبعثوا اليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء ، وعن خبر ذي القرنين ، وعن الروح فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه متقدم على دين النصرانية والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ يقول تعالى : وصبرناهم على مخالفة قومهم ، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة ، فقد ذكر غير واحد من السلف والخلف أنهم كانوا من ابناء ملوك الروم وسادتهم ، وقد فارقوا قومهم الذين كانوا يعبدون الاصنام والطواغيت ويذبحون لها ، وكان لهم ملك جبار يأمر الناس بذلك ، ولما خرج الناس يوماً في بعض أعيادهم خرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ونظروا إلى ما يصنع قومهم من السجود والذبح لغير الله تعالى عرفوا أن هذا لا ينبغي إلا لله خالق السموات والأرض فانحاز كل من الفتية عنهم ، فكان أول من جلس وحده أحدهم تحت ظل شجرة ، ثم أتى إليه الآخر فالآخر ولا يعرف واحد منهم الآخر وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان وقد جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ٩٣ [الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها أئتلف ، وما تناكر منها اختلف] واخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعاً . وقد جعل كل واحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفاً منهم ، ولا يدري أنهم مثله حتى قال أحدهم : تعلمون والله يا قوم ، أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء فليظهر كل واحد منكم بأمره ؛ فقال آخر : أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل ، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيء هو الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ، وقال كل واحد منهم ذلك حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة ، فصاروا يداً واحدةً وإخوانَ صدق فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه ، فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم ، فاستحضرهم فسألهم فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله جل وعلا : ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً ﴾ أي باطلاً وكذباً وبهتاناً ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهةً لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن ﴾ أي هلاّ أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ أي لا أظلم ممن يفتري على الله الكذب ، فغضب عليهم الملك ، وأمر بنزع لباس الزينة عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم ، وهددهم إن لم يعودوا إلى دين قومهم ، ثم أجلهم لينظروا في أمرهم

لعلهم يرجعون ، وكان هذا من لطف الله بهم لأنهم توصّلوا بهذا التأجيل إلى الهرب والفرار بدينهم من الفتنة ، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن بين الناس ، كما جاء في الحديث : ٩٤ [يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن] ولا تشرع العزلة فيما عدا ذلك ، فلما وقع عزمهم على الهرب واختار الله لهم ذلك بقوله جل وعلا : ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ أي فارقتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله ففارقوهم أيضاً بأبدانكم ﴿ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ أي يرحمكم ويستركم من قومكم ﴿ ويهيء لكم من أمركم ﴾ الذي انتم فيه ﴿ مرفقاً ﴾ أي أمراً ترتفقون به ، فعند ذلك هربوا إلى الكهف فأووا إليه ففقدهم قومهم من بين أظهرهم ، وتطلبهم الملك ولكن عمّى الله عليه خبرهم كما فعل بنبيه محمد ﷺ وصاحبه الصدّيق حين لجأ إلى الغار وعمّى الله عنهما المشركين فلم يهتدوا إليهما لذلك قال رسول الله ﷺ للصديق : ٩٥ [يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما] ، ولا شك أن قصة غار حراء أجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف .



﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۞ (١٧) ﴾

فهذا فيه دليل على ان هذا الكهف كان من جهة الشمال [١] ، لأنه تعالى أخبر ان الشمس اذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ ذات اليمين ﴾ أي يتقلّص الفيء يمنة وذلك إنها كلما ارتفعت في الأفق تقلّص شعاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل هذا المكان ولذلك قال عز وجل : ﴿ واذا غربت تقرضهم ذات الشمال ﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية المشرق ، فدل على صحة ما قلناه ، وقد اخبر الله

(١) أي هو في الجهة الشمالية لكن بابه متجه نحو الجنوب ، وعلى هذا فيكون يمينه غرباً وشماله شرقاً فإذا أشرقت الشمس دخلت أشعتها إلى الكهف وملأت الجهة الغربية وإذا غربت دخلت أشعتها إلى الكهف وملأت الجهة الشرقية منه وذلك لأن باب الكهف متجه إلى الجنوب .

تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبيره ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض، إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً فقيل في أيلة وقيل ببلاد الروم، وقيل: ببلاد البلقاء[1] والله أعلم بأي بلاد الله هو ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه فقد قال ﷺ : ٩٦ [ما تركت شيئاً يقرّبكم إلى الجنة ، ويباعدكم من النار إلاّ وقد أعلمتكم به] .

وقوله تعالى : ﴿ وهم في فجوةٍ منه ﴾ أي في متسع منه داخلاً بحيث لا تصيبهم والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء ، ثم قال سبحانه : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ أي هو الذي أرشد هؤلاء إلى الهداية من بين قومهم فإنه من هداه الله اهتدى ، ومن أضلّه فلا هادي له .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۞ (١٨) ﴾

لما ضرب الله عليهم بالنوم ، شاء سبحانه أن تبقى أعينهم مفتّحةً وهم رقود ولذا قال تعالى : ﴿ وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ﴾ وقوله جلا وعلا : ﴿ ونقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ قال ابن عباس : لو لم يقلّبوا لأكلتهم الأرض، وقوله تعالى : ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ الوصيد : الباب الموصد أي ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب وكان جلوسه بفناء الباب من الخارج ٩٧ [لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب] ، كما ورد في الصحيح ٩٨ [ولا صورة ولا جنب ولا كافر] كما ورد فيه الحديث الحسن ، وشملت بركتهُم كلبَهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال وهذا فائدة صحبة الأخيار فإنه صار لهذا الكلب ذكرٍ وخبر وشأن وقوله تعالى : ﴿ لو اطلعت عليهم لولّيت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ﴾ أي أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلاّ هابهم وذعر منهم ، لئلاّ يدنو منهم أحد ولا تمسّهم يدُ لامس ، حتى يبلغ الكتابُ أجلَه وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم ، لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة .

---

(١) أيلة : العقبة . بلاد الروم : هي الأناضول اليوم . البلقاء : بلاد الأردن .

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۞ (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَدًا ۞ (٢٠) ﴾

يقول تعالى : كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم ، لم يفقدوا من أحوالهم وهيأتهم شيئاً وذلك بعد ثلثمائة وتسع سنين ، ولهذا تساءلوا بينهم : ﴿ كم لبثتم ﴾ أي رقدتم ؟ ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار ، واستيقاظهم كان في آخر النهار ولهذا استدركوا فقالوا : ﴿ أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ أي الله أعلم بأمركم ، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم ، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا : ﴿ فابعثوا أحدكم بوَرِقِكم هذه ﴾ أي فضتكم هذه ، وذلك أنهم لما أَوَوا إلى الغار استصحبوا معهم دراهمَ من منازلهم لحاجتهم إليها ﴿ إلى المدينة ﴾ التي خرجوا منها ﴿ فلينظر أيها أزكى طعاماً ﴾ أي أطيب طعاماً ﴿ وليتلطف ﴾ أي في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه ﴿ ولا يُشعِرنَّ ﴾ أي ولا يعلمن ﴿ بكم أحداً ۞ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم ﴾ أي إنْ علموا مكانكم ﴿ أو يعيدوكم في ملتهم ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس ، فلا يزالون يعذبونهم إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا ، فإن وافقتموهم على العود في الدين الكافر فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة ولهذا قال : ﴿ ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ

بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً ۞ (٢١)

يقول تعالى : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾ أي أطلعنا عليهم الناس ﴿ ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ ذكر غير واحد من السلف : انه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث و القيامة ، ومنهم من قال تبعث الأرواح دون الاجساد ، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك ، ولما ذهب أحدهم ليشتري طعاماً دخل البلدة فأنكرها فرأى البلد غير البلد والأهل غير الأهل فظن به مساً وما به من شيء إنما تبدل الناس قرناً بعد قرن وأمة بعد أمة ، ثم رأى ان يتعجل بالخروج من البلدة ، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام فدفع إليه ما معه من النفقة ، فلما رأى نقوده أنكرها وانكر ضربها فدفعها إلى جاره ، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون : لعل هذا وجد كنزاً فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النقود فقال أنا من أهل هذه البلدة وعهدي بها عشية أمس وفيها دقيانوس ، فنسبوه إلى الجنون ، فحملوه إلى ملكهم فسأله عن شأنه فأخبره بأمره وهو متحيّر في حاله وما هو فيه فقام ملك البلد وأهلها .. حتى انتهى بهم إلى الكهف فقال لهم : دعوني اتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي فدخل ، فيقال انهم لا يدرون كيف ذهب فيه ، واخفى الله عليهم خبرهم ، ويقال بل دخلوا عليهم ورأوهم ، وسلم عليهم الملك واعتنقهم وكان مسلماً فيما قيل ، ففرحوا به وآنسوه بالكلام ثم ودعوه وسلموا عليه ، وعادوا إلى مضاجعهم وتوفاهم الله عز وجل والله أعلم (١) .

وكان اطلاع أهل ذلك الزمان على حقيقة أهل الكهف حجة للمسلمين منهم وحجة على منكري البعث وأهل الشرك منهم . وقوله تعالى : ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ أي في أمر القيامة فمن مثبت لها ومنكر ﴿ فقالوا ﴾ أي المسلمون (٢) منهم ﴿ ابنوا عليهم

(١) قلت : أرجح الرواية الثانية القائلة : بل دخلوا عليهم ورأوهم ... الخ وهذا مطابق لقوله تعالى : « وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها » . وإلا فكيف يقول الله : « وكذلك أعثرنا عليهم » ويتم مراد الله وحكمته من بعث أهل الكهف ، وتنجلي وتظهر الحجة والدلالة على قدرة الله على البعث فتقوم الحجة البالغة على الذين كانوا ينكرون البعث من أهل ذلك الزمان ويعلمون ان وعد الله حق وان الساعة آتية لا ريب فيها كما قال الله تعالى ..؟

(٢) قلت : جملة : « أي المسلمون منهم » ليس من كلام المفسر رحمه الله، بل من كلامي لأن هذا يوافق شريعة الاسلام التي لا تقول ببناء المساجد على القبور بل قولهم : « إبنوا عليهم بنياناً » هو الموافق لشريعة الإسلام لذلك استنتجت ان أصحاب هذا القول مسلمون .

بنياناً ربهم اعلم بهم ﴾ أي سدّوا عليهم باب كهفهم وذروهم على حالهم ﴿ قال الذين غَلَبُوا على أمرهم ﴾ أي أصحاب الكلمة والنفوذ : ﴿ لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ وليس هذا القول محموداً لأنه مخالف لقوله ﷺ : ٩٩ [لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد] يحذر ما فعلوا « وملة الإسلام ملة واحدة عقائدها هي هي من لدن آدم إلى نبينا عليهم الصلاة والسلام »[1]

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ۝ (٢٢) ﴾

حكى الله تعالى ثلاثة أقوال عن عدة أهل الكهف فدل على أنه لا قائل بقول رابع ولما ضعّف القولين الأولين بقوله عز وجل ﴿ رجماً بالغيب ﴾ أي قولاً بلا علم ، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله تعالى : ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ فدل على صحته وأنه هو الواقع في نفس الأمر ، وقوله تعالى : ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ ارشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى ، إذا لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم ، لكن اذا اطلعنا على أمرٍ قلنا به وإلاّ وقفنا . وقوله تعالى : ﴿ ما يعلمهم إلاّ قليل ﴾ أي من الناس . قال قتادة : قال ابن عباس أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل كانوا سبعة . أما اسماؤهم فليس هناك من قول صحيح بذلك ، فإن غالب ما في الأمر اخبار متلقاة من أهل الكتاب ولا يترتب على معرفة اسمائهم كبير فائدة وقد قال تعالى : ﴿ فلا تمار فيهم إلاّ مراءً ظاهراً ﴾ أي سهلاً هيناً ﴿ ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً ﴾ أي فإنهم لا علم لهم بذلك والذي عندهم فهو لا يستند إلى كلام معصوم وقد جاءك الله يامحمد بالحق الذي لا شك ولا مرية فيه فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ (٢٣) إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝ (٢٤) ﴾

---

(١) ما بين القوسين الصغيرين من كلامي .

هذا إرشاد منه تعالى لرسوله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى علام الغيوب . وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف (غداً أجيبكم) فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً وقد ذكرناه ملخصاً في أول السورة ... وقوله تعالى: ﴿ واذكر ربك إذا نسيت﴾ أي اذا نسيت ان تقول إن شاء الله لشيء ستفعله في المستقبل، فقل إن شاء الله عندما تذكره قاله ابو العالية والحسن البصري وعن ابن عباس قال : في الرجل يحلف له أن يستثني ولو إلى سنة وقوله تعالى : ﴿ وقل عسى ان يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾ أي اذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه ، وتوجه اليه في ان يوفقك للصواب وللرشد في ذلك والله أعلم .

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعاً ۝ (٢٥) قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۝ (٢٦) ﴾

يخبر تعالى رسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان وأنه كان مقدار لبثهم ثلثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية وهي ثلثمائة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين،فلهذا قال تعالى﴿ثلثمائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ أي اذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء بل قل في مثل هذا ﴿ الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض ﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلعه عليه من خلقه ، وهذا الذي قلناه قاله غير واحد من علماء التفسير كمجاهد وغير واحدٍ من السلف والخلف .

وقوله تعالى : ﴿ أبصر به واسمع ﴾ أي ما ابصره وأسمعه يعني لا أحد أبصر من الله ولا أسمع وقوله تعالى : ﴿ ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ أي انه تعالى له الخلق والأمر لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير تعالى الله وتقدس .

﴿ وَٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۞ (٢٧) وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۞ (٢٨) ﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه للناس ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل وقوله تعالى : ﴿ ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾ أي ملجأ قال ابن جرير ؛ يقول الله إن انت يا محمد لم تتل ما أوحي اليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشياً من عباد الله سواءً كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء . روى مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص قال : ١٠٠ [كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ : أطرد هؤلاء لا يجترئون علينا قال وكنت أنا وابن مسعود وبلال ورجل من هذيل ورجلان نسيت اسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ انفرد باخراجه دون البخاري .

روى الحافظ ابو بكر البزار عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا : ١٠١ [جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحج أو سورة الكهف ، فسكت ؛ فقال رسول الله ﷺ : « هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم . »]

روى الطبراني عن عبدالرحمن بن سهل بن حنيف قال ١٠٢[نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ الآية فخرج يلتمسهم ، فوجد قوماً يذكرون الله تعالى ، منهم ثائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب

الواحد ، فلما رآهم جلس معهم وقال : « الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم »]

وقوله تعالى : ﴿ ولا تعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ قال ابن عباس ولا تجاوزهم إلى غيرهم ، يعني تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ﴿ ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ أي شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿ وكان أمره فرطاً ﴾ أي أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع ، ولا تكن مطيعاً له ولا محباً له ولا محباً لطريقته ، ولا تغبط بما هو فيه .

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً ۝ (٢٩) ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : وقل يا محمد للناس ، هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إنّا اعتدنا ﴾ أي أرصدنا ﴿ للظالمين ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿ ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾ أي سورها قال ابن جريج : قال ابن عباس أي حائط من نار . وقوله تعالى : ﴿ وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾ قال ابن عباس : المهل : الماء الغليظ مثل دردي الزيت ـ اي عكر الزيت ـ وهو أسود منتن غليظ حار ولهذا قال سبحانه : ﴿ يشوي الوجوه ﴾ من حرّه إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه . وقوله تعالى : ﴿ بئس الشراب ﴾ أي بئس هذا الشراب كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وساءت مرتفقا ﴾ أي وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق كما قال تعالى في الآية الأحرى : ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ

مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝ (٣٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝ (٣١)

لما ذكر تعالى حال الاشقياء ، ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا ، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة ، فلهم جنات عدن والعدن الإقامة ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ أي من تحت غرفهم ومنازلهم ﴿ يحلّون ﴾ أي من الحلية ﴿ فيها من أساور من ذهب ﴾ وقال في المكان الآخر ﴿ ولؤلؤً ولباسهم فيها حرير ﴾ وفصله ها هنا فقال سبحانه : ﴿ ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق ﴾ فالسندس لباس رفاع رقاق كالقمصان وما جرى مجراها وأما الاستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق .

وقوله تعالى : ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ أي المتكآت والأرائك جمع أريكة وهي السرير تحت الحجلة [١] وقوله تعالى : ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾ أي نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم وحسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً .



وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝ (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ۝ (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝ (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ

(١) قلت : ما يزين بالثياب والبستور للعروس وهو ما يسمى في زماننا (بالقرنة / وما يسمى أيضاً / بالقياس/) اذا كان طويلا وله متكآت ومساند .

هٰذِهِ أَبَدًا ۞ (٣٥) وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۞ (٣٦)

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين ، وافتخارهم عليهم بأموالهم وأحسابهم ، فضرب لهم مثلاً برجلين جعل الله لأحدهما جنتين ، أي بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل ، المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع ، وكل ذلك مثمر في غاية الجودة ولهذا قال تعالى : ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ﴾ أي أخرجت ثمرها ﴿ ولم تظلم منه شيئاً ﴾ أي ولم تنقص منه شيئاً ﴿ وفجرنا خلالهما نهرا ﴾ أي والأنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا ﴿ وكان له ثمر ﴾ أي ثمار ﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره ﴾ أي يخاصمه ويجادله مفتخراً عليه : ﴿ أنا اكثر منك مالاً وأعز نفراً ﴾ أي اكثر خدماً وحشماً وولداً .

وقوله تعالى : ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ﴾ أي بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿ قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ﴾ وذلك اغترار منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار الجارية في أرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف ، وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله ، واعجابه بالحياة الدنياوزينتها ، وكفره بالآخرة ، ولهذا قال ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي كائنة ﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا .

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ۞ (٣٧) لَّٰكِنَّا هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۞ (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۞ (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ

ٱلسَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن
تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

يخبر تعالى عما وعظه به صاحبه المؤمن زاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب ﴾ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه كما قال تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ أي كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جلية لا ينكرها أحد ويعلمها من نفسه فإن كل أحد من المخلوقات يعلم أنه كان عدماً ، ولا يستند وجوده إلى شيء من المخلوقات لأنها مثله فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه ، وهو الله لا إله الا هو خالق كل شيء ، ولهذا قال المؤمن ﴿ لكنا هو الله ربي ﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقالتك بل اعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿ ولا أشرك بربي أحداً ﴾ بل هو المعبود وحده لا شريك له .

ثم قال : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ، لا قوة إلاّ بالله إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً ﴾ أي هلا إذا اعجبتك حين دخلتها ، ونظرت اليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك وقلت ما شاء الله لا قوة الا بالله .

وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له : ١٠٣ [ألا أدلّك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله]

وقوله تعالى : ﴿ فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ ويرسل عليها ﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ﴿ حسباناً من السماء ﴾ أي مطراً عظيماً يقلع زرعها وأشجارها ولهذا قال : ﴿ فتصبح صعيداً زلقاً ﴾ أي بلقعاً تراباً أملس لا تثبت فيها قدم وقوله تعالى : ﴿ أو يصبح ماؤها غوراً ﴾ أي غائراً في الأرض كما قال تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماءٍ معين ﴾ أي جار وسائح . والغور مصدر بمعنى غائر وهو أبلغ منه .

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ
خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾

وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۞ (٤٣) هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۞ (٤٤)

يقول تعالى : ﴿ وأحيط بثمره ﴾ بأمواله وثماره ، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته التي اغترّ بها وألهته عن الله عز وجل ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ أي يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها ﴿ ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً * ولم تكن له فئة ﴾ أي عشيرة أو ولد ﴿ ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً * هنالك الولاية لله الحق ﴾ أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب ، كقوله تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ ومنهم من كسر الواو من الولاية ، أي هنالك الحكم لله الحق ، ومنهم من خفض القاف من الحقِّ على أنه صفة لله عز وجل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هو خير ثواباً ﴾ أي جزاءً ﴿ وخير عقبا ﴾ أي الأعمال التي تكون لله عز وجل خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير .

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۞ (٤٥) ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۞ (٤٦)

يقول تعالى : ﴿ واضربلهم ﴾ يا محمد ﴿ مثل الحياة الدنيا ﴾ في زوالها وفنائها ، وانقضائها ﴿ كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ﴾ أي ما فيها من الحب ، فشبَّ وحَسُن ، ثُمَّ بعد ما علاه الزهر والنضرة ﴿ فأصبح هشيماً ﴾ يابساً ﴿ تذروه الرياح ﴾ أي تفرقه هنا وهناك ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ أي هو قادر في كل الأحوال . وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل ، كما قال تعالى في سورة يونس : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام » الآية ... وفي الحديث : ١٠٤ [الدنيا خضرة حلوة] . وقوله تعالى : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾

أي الاقبال عليه تعالى والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم ، والجمع لهم ، والشفقة المفرطة عليهم ولهذا قال عز وجل : ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ .

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف : الباقيات الصالحات الصلوات الخمس . وروى الإمام أحمد الحارث مولى عثمان رضي الله عنه يقول : ١٠٥ [جلس عثمان يوماً فجاءه المؤذن فدعا بماء في إناء أظنه سيكون فيه مدّ ، فتوضأ ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا ثم قال : « من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما كان بينها وبين الصبح ، ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر ، ثم صلى المغرب غفر له ما بينها وبين العصر ثم صلى العشاء غفر له ما بينها وبين المغرب ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ، ثم إن قام فتوضأ وصلىّ صلاة الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهن الحسنات يذهبن السيئآت » قالوا هذه الحسنات ، فما الباقيات الصالحات يا عثمان ؟ قال هي لا إله إلا الله وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ،] تفرد به . وروى الطبراني عن سعد بن جنادة رضي الله عنه قال : ١٠٦ [كنت في أول من أتى النبي ﷺ من أهل الطائف ، فخرجت من أعلى الطائف من السراة غدوةً ، فأتيت منى عند العصر ، فتصاعدت في الجبل ، ثم هبطت فأتيت النبي ﷺ فأسلمت وعلمني ﴿قل هو الله أحد الله﴾ و﴿ إذا زلزلت ﴾ وعلمني هؤلاء الكلمات : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلاّ الله ، والله أكبر ، وقال : « هــن الباقيات الصالحات »] وبهذا الإسناد : ١٠٧ [من قام من الليل فتوضأ ، ومضمض فاه ، ثم قال : سبحان الله مائة مرة ، والحمد لله مائة مرة والله أكبر مائة مرة ، ولا إله إلا الله مائة مرة غفرت ذنوبه إلا الدماء فإنها لا تبطل] . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قال : هي ذكر الله قول لا إله إلا الله والله اكبر وسبحان الله ، والحمد لله وتبارك الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، واستغفر الله ، وصلى الله على رسول الله والصيام والصلاة ، والحج ، والصدقة ، والعتق ، والجهاد ، والصلة ، وجميع اعمال الحسنات وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض . وقال العوفي عن ابن عباس : هي الكلام الطيب ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم : هي الأعمال الصالحة كلها ، واختاره ابن جرير .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝ (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُم مَوْعِدًا ۝ (٤٨) وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝ (٤٩) ﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظام كما قال تعالى : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ٭ فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا ﴾ أي تذهب الجبال ، وتتساوى المهاد ، وتبقى الأرض قاعاً صفصفاً ، أي سطحاً مستوياً لا عوج فيه ولا أمتا أي لا وادي فيه ولا جبل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ أي بادية ظاهرة ، لا مكان يواري أحداً ، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية . وقوله تعالى : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ فلم نترك أحداً من الأولين والآخرين كما قال تعالى : ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يومٍ معلوم ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وعرضوا على ربك صفاً ﴾ يحتمل انهم يقومون بين يدي الله تعالى صفاً أو صفوفاً . وقوله تعالى : ﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ هذا تقريع للمنكرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ولهذا قال سبحانه ﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ، ولا أن هــذا كائن . وقوله تعالى : ﴿ ووضع الكتاب ﴾ أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير والصغير والكبير ﴿ فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ أي من أعمالهم السيئة وأفعالهــم القبيحة ﴿ ويقولون يا ويلتنا ﴾ أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها ﴾ أي لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً الا أحصاه وضبطه وحفظه . وروى الطبراني بإسناده المتقدم في الآية قبلها إلى سعد بن جنادة قال : ١٠٨ [لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء ، فقال النبي ﷺ « إجمعوا من وجد عوداً فليأت به ، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به » قال فما كان الاّ ساعة حتى جعلناه ركاماً ، فقال النبي ﷺ « أترون هذا ؟

فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا فليتق الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة ، فانها محصاة عليه »]

وقوله تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ أي من خير أو شر كما قال تعالى : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً ولا يظلم أحداً من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله ، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي ، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين . وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم .

وعن شعبة عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ١٠٩ [ان الجماء لتقتصُّ من القرناء يوم القيامة]

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾

ينبه تعالى بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم ، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه ، وهو الذي أنعم عليه النعم التي لا تعد ولا تحصىٰ ، ثم بعد هذا والىَ ابليس وعادىٰ الله فقال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ أي لجميعهم ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ أي سجود تشريف وتكريم وقوله تعالى : ﴿ فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ﴾ خانه أصله فإنه خلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة من نور ، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : ١١٠ [خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم فعند الحاجة نضح كل وعاءٍ بما فيه وخانه الطبع عند الحاجة وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك ، فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة] ونبّه تعالى ههنا على أنه من من نار ، كما قال تعالى : ﴿ انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾

قال الحسن البصري : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل البشر . رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه .

وقوله تعالى : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ أي فخرج عن طاعة الله، ثم قال تعالى مقرعاً لمن يتبعه وموبخاً لمن أطاعه : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ﴾ أي بدلاً عني ولهذا قال سبحانه : ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾ .

﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۞ (٥١) ﴾

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآئِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۞ (٥٢) وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ۞ (٥٣) ﴾

يقول تعالى : إن الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد امثالكم لا يملكون شيئاً ، ولا أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا كانوا موجودين ، فأنا خالق الاشياء كلها وحدي ومدبرها ومقدرها ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ أي أعواناً قاله مالك وقوله تعالى : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم ﴾ أي في دار الدنيا ، ادعوهم اليوم ينقذوكم مما أنتم فيه ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضلَّ عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم فدَعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ وكما قال سبحانه ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له . ﴾ وقال أيضاً : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهةً ليكونوا لهم عزاً ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ قال ابن عباس وقتادة وغير واحد : مهلكاً . والمعنى ان الله تعالى بيّن أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا وأنه يفرّق بينهم وبينها في الآخرة فلا سبيل ولا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر ، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير .

وقوله تعالى : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾

أي أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين الف زمام مع كل زمام سبعون الف ملك ، تحقق المجرمون أنهم لا محالة مواقعوها ليكون ذلك من باب التعجيل، تعجيل الهم والحزن لهم ، فإن توقُّعَ العذاب، والخوف منه قبل وقوعه ، عذاب ناجز . وقوله تعالى : ﴿ ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾ أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بدّ لهم منها . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ انه قال : ١١١ [ان الكافر ليرى جهنم فيظن أنها مواقعتُه من مسيرة أربعين سنة]

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا (٥٦)

يقول تعالى ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الحق والهدى ومع هذا البيان وهذا الفرقان فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله وبصّره طريق النجاة . روى الإمام أحمد ١١٢ [عن علي بن أبي طالب ان رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ليلة ، فقال « ألا تصليان » فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً ، ثم سمعته وهو مولٍّ يضرب فخذه ويقول : ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾] أخرجاه في الصحيحين وقوله تعالى : ﴿ وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلاّ أن تأتيهم سنة الأولين ﴾ أي ان الكفرة في قديم الزمان وحديثه يتمردون على الحق ويكذبون به وهو بيّنٌ ظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات ، وانه ما منعهم من اتباع الحق إلاّ أن يشاهدوا العذاب الذي وُعِدوا به عياناً كما حكى الله عن قريش حين قالت : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ إلاّ أن تأتيهم سنة الأولين ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم ﴿ أو يأتيهم العذاب قُبُلاً ﴾ أي يرونه مواجهةً ثم قال تعالى : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ أي قبل العذاب مبشرين من صدقهم

وآمن بهم، ومنذرين من كذبهم، ثم أخبر عن الكفار بقوله تعالى: ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ أي ليضعفوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل على زعمهم ﴿ واتخذوا آياتي وما انذروا هزواً ﴾ أي اتخذوا الحجج والبراهين وما أنذرهم به الرسل وخوفوهم به من العذاب ﴿ هزواً ﴾ أي سخروا منهم في ذلك وهو أشد التكذيب.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩) ﴾

يقول تعالى: لا أَظْلَمُ من عباد الله أحدٌ، مثل من ذكر بآيات الله فأعرض عنها أي تناساها ولم يُلقِ لها بالاً ﴿ ونسي ما قدمت يداه ﴾ من الأعمال السيئة ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنةً ﴾ أي غشاوات ﴿ أن يفقهوه ﴾ أي لئلاّ يفهموا هذا القرآن ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ أي صمماً معنوياً عن الرشاد ﴿ وان تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾ أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة، ﴿ لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب ﴾ كما قال تعالى: ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ ثم اخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد. ومن استمر منهم على ضلاله، فلينتظر يوماً تشيب فيه الولدان ولهذا قال تعالى: ﴿ بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴾ أي ليس لهم عنه محيص ولا محيد وقوله تعالى: ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾ أي الأمم السالفة اهلكناهم بسبب كفرهم ﴿ وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾ أي جعلناه إلى مدة معلومة، ووقت معين، أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا ان يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم اشرف رسول وأعظم نبي ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابي ونذر.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۞ (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۞ (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۞ (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۞ (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۞ (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۞ (٦٥) ﴾

سبب قول موسى عليه السلام لفتاه وهو يوشع بن نون هذا الكلام أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى ، فأحب الرحيل اليه وقال لفتاه ذلك ﴿ لا أبرح ﴾ أي لا أزال سائراً ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ قال قتادة وغير واحد : هما بحر فارس مما يلي المشرق ، وبحر الروم مما يلي المغرب ، وقال محمد بن كعب القرظي بمجمع البحرين عند طنجة والله سبحانه وتعالى أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ أي ولو أني أسير دهراً . وقوله تعالى : ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ﴾ وذلك أنه قد أمر بحمل حوت يجعله بمكتل ، فحيثما فقد الحوت فثمَّ الرجل الذي يرحل اليه ، فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ثم انطلق وفتاه يوشع بن نون عليه السلام حتى اذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسها فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً فجعل يسير في الماء مثل السرب في الأرض لا يلتئم الماء بعده فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلاّ صار ماءً جامداً .

وقوله تعالى : ﴿ فلما جاوزا ﴾ أي المكان الذي نسيا الحوت فيه ، ونسب النسيان اليهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه كقوله تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وانما يخرج من المالح ، فلما ذهبا عن المكان الذي نسياه فيه بمرحلة ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ لفتاة آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا ﴾ أي الذي جاوزا فيه المكان ﴿ نصبا ﴾ أي تعباً ﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان أن

أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا * قال ذلك ما كنا نبغي ﴾ أي هذا الذي نطلب ﴿ فارتدا أي رجعا ﴿ على آثارهما ﴾ أي طريقهما ﴿ قصصاً ﴾ أي يقفوان أثرهما ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعلمناه من لدنّا علماً ﴾ وهذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

روى البخاري ، عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس : إن نوفاً البكالي (١) يزعم ان موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بني اسرائيل . قال ابن عباس كذب عدو الله حدّثنا أبي بن كعب رضي الله عنه انه سمع رسول الله ﷺ يقول :
١١٣ [إن موسى قام خطيباً في بني اسرائيل فسئل : أي الناس أعلم ؟ قال : أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يا رب وكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ ؛ فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل ، فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ ، نسي صاحبه ان يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى اذا كان من الغد قال موسى لفتاه : ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به فقال له فتاه : ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ قال : فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً فقال : ﴿ ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ قال : فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب ، فسلم عليه موسى فقال الخضر : واني بأرضك السلام . فقال أنا موسى فقال : موسى بني اسرائيل ؟ قال : نعم . قال أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا ﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه ، لا تعلمه انت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . فقال موسى : ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾ فقال له الخضر : ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة ، فكلموهم ان يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول ، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلاّ والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى :

(١) قلت : هو ابن امرأة كعب الأحبار .

قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمرا ﴿ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ قال : وقال رسول الله ﷺ ـ فكانت الأولى من موسى نسياناً ، قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة ، فنقر في البحر نقرةً أو نقرتين فقال له الخضر ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما أنقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله ، فقال له موسى ﴿ أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى ﴿ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عُذراً فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ ﴾ أي مائلاً فقال الخضر بيده ﴿ فأقامه ﴾ فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجرا قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ فقال رسول الله ﷺ « وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما »]

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۞ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۞ (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ۞ (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۞ (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۞ (٧٠) ﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام لذلك النبي الآخر ـ وهو الخضر ـ الذي خصّه الله بعلم لم يطلع عليه موسى كما أنه أعطى موسى علماً لم يعطه الخضر ﴿ قال له موسى هل أتبعك ﴾ سؤال تلطف، لا على وجه الإلزام وهذه آداب المتعلم مع معلمه ، وقوله : ﴿ اتبعك ﴾ أي أصحبك ﴿ على أن تعلمني مما عُلّمتَ رشداً ﴾ أي استرشد بما علمك الله من علم نافع وعمل صالح ، فعندها ﴿ قال ﴾ الخضر لموسى ﴿ انك لن تستطيع معي صبرا ﴾ أي انك لن تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك

فكلٌ منا على علم من الله لا يعلمه الآخر ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ﴾ وستنكر عليّ ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصلحته التي اطلعتُ عليها أنا دونك ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ على ما أرى من أمورك ﴿ ولا أعصي لك أمراً ﴾ فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام ﴿ قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء ﴾ ابتداءً ﴿ حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ أي حتى أبدأك أنا به قبل ان تسألني .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً * (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * (٧٣) ﴾

يخبر تعالى عن موسى وصاحبه الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا واشترط عليه ألاّ يبتدئه بالسؤال عن شيء ينكره قبل شرحه وبيانه، فركبا السفينة، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا السفينة ودخلت بلجة البحر قام الخضر فخرقها فلم يتمالك موسى أن انكر عليه ذلك فقال : ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها * لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ اي شيئاً منكراً فذكره الخضر عليه السلام بما تقدم من الشرط : ﴿ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ يعني فعلت ذلك قصداً وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليّ فيها ﴿ قال ﴾ أي موسى : ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ أي لا تضيق علي ولا تشدد عليّ. ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ انه قال : « كانت الأولى من موسى نسياناً » .



﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * (٧٦) ﴾

يقول تعالى: ﴿ فانطلقا ﴾ أي بعد ذلك ﴿ حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ﴾ وكان يلعب مع الغلمان، وكان أحسنهم وأجملهم روي أنه احتز رأسه. وقيل رضخه بحجر وقيل اقتلعه بيده والله أعلم فأنكر موسى عليه السلام فعل الخضر أشد من الأول وقال: ﴿ أقتلت نفساً زكيةً ﴾ أي صغيرةً لم تعمل الحنث ولا الإثم، فقتلته ﴿ بغير نفس ﴾ أي بغير مستند لقتله ﴿ لقد جئت شيئاً نكرا ﴾ أي ظاهر النكارة ﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا ﴾ فأكد أيضاً في التذكار بالشرط الأول. فلهذا قال له موسى: ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ﴾ أي قد أعذرت إلي مرةً بعد مرة. روى ابن جرير عن أبي بن كعب قال: ١١٤ [كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه. فقال ذا يوم « رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب. ولكنه قال: « إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً »].

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۞ (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَلَيْهِ صَبْرًا ۞ (٧٨) ﴾

يخبر تعالى عنهما أنهما ﴿ انطلقا ﴾ بعد المرتين الأوليين ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ روى ابن جريج انها الايلة وفي الحديث: حتى اذا أتيا أهل قرية لئاماً » أي بخلاء ﴿ فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾ أي يريد أن يسقط ﴿ فأقامه ﴾ أي فردّه إلى حالة الاستقامة. فعند ذلك قال موسى له ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجرا ﴾ أي لأجل أنهم لم يضيّفونا كان ينبغي ان لا تعمل لهم مجاناً ﴿ قال هذا فراق بيني وبينك ﴾ أي لانك شرطت عند قتل الغلام أنك ان سألتني عن شيء بعدها، فلا تصاحبني، فهذا فراق بيني وبينك. ﴿ سأنبئك بتأويل ﴾ أي بتفسير ﴿ ما لم تستطع عليه صبرا ﴾.

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۞ (٧٩) ﴾

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام . وما كان أنكر ظاهره . وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنة فقال : إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿ يأخذ كل سفينة ﴾ أي صالحة ﴿ غصباً ﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها ، فينتفعَ بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها .

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾

عن ابن عباس عن أُبَيّ بن كعب ، عن النبي ﷺ قال : ١١٥ [الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً] رواه ابن جرير ولهذا قال : ﴿ فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ﴾ أي يحملهما حبُّه على متابعته على الكفر وصح في الحديث : الحديث : ١١٦ [لا يقضي الله لمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له] وقال تعالى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ . وقوله : ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما ﴾ أي ولداً أزكى من هذا وهما أرحم به منه .

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة لأنه قال أولاً : ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ وقال ها هنا : ﴿ فكان لغلامين يتيمين في المدينة ﴾ كما قال تعالى : ﴿ فكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك ﴾ ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحتُهُ لأنه كان لغلامَيْن يتيمَيْن في المدينة وكان تحته كنز لهما أي تحته مال مدفون لهما وهو ظاهر السياق من الآية وهو اختيار ابن جرير رحمه الله وقوله : ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ فيه

دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم كما جاء في القرآن ووردت به السنة وقوله: ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ﴾ ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله وقال في الغلام ﴿ فأردنا ان يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة ﴾ وقال في السفينة ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ وقوله تعالى: ﴿ رحمةً من ربك وما فعلته عن أمري ﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو رحمة من الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ووالدَيْ الغلام وولَدي الرجل الصالح وما فعلته عن أمري لكني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضِر عليه السلام مع ما تقدم من قوله تعالى: ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنّا علماً ﴾

وقيل ان الخضِر ما يزال باقياً أي حيّاً وذكروا في ذلك حكايات ولا يصح شيء من ذلك وأشهرها أحاديث التعزية وهي غير صحيحة وأسانيدها واهية.

ورجح آخرون خلاف ذلك أي أنه ليس حياً ومات كما مات غيره من الأنبياء على نبيّنا وعليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام واحتج هؤلاء على وفاة الخضِر بقوله تعالى: ١ً ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ وبقول النبي ﷺ يوم بدر: ١١٧ [٢ً اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض] ٣ً وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلَيْن: الجن والإنس وقد قال: ١١٨ [لو كان موسى حياً لما وسعه الا اتباعي] ٤ً وأخبر عليه الصلاة والسلام قبل موته بقليل أنه [١١٩ لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته عين تطرف]. إلى غير ذلك من الدلائل.

وفي صحيح البخاري: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ١٢٠ [إنّما سمي الخضِر لأنه جلس على فروةٍ. فإذا هي تهتز من خضراء] والمراد بالفروة ههنا: الحشيش اليابس وهو الهشيم من النباتٌ، قاله عبد الرزاق. وقوله: ﴿ ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا ﴾ أي هذا تفسير ما ضِقت به ذَرعاً، ولم تصبر حتى أخبرَك به ابتداءً، ولما أن فسره له وبيّنه ووضّحه وأزال المشكل قال ﴿ تسطع ﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً، فقال: ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾، فقابل الأثقل بالأثقل والأخف

بالأخف ، كما قال تعالى : ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ﴿ وما استطاعوا له نقبا ﴾ وهو أشق من ذلك ، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى ، والله أعلم .

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً ۞ (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۞ (٨٤) ﴾

يقول تعالى لنبيّه ﷺ : ﴿ ويسألونك ﴾ يا محمد ﴿ عن ذي القرنين ﴾ أي عن خبره وقد قدّمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألونهم ما يمتحنون به النبي ﷺ فقالوا : سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وعن فتية ما يدري ما صنعوا ، وعن الروح ، فتنزلت سورة الكهف وفيها : ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً ﴾ وقد ظن بعضهم أنه رومي وهذا غير صحيح ، والصحيح هو ما ذكره الأزرقي وغيره أنه طاف بالبيت مع ابراهيم عليه السلام أول ما بناه واتّبعه وقرّب إلى الله قرباناً وقد ذكرنا طرفاً من اخباره في كتاب البداية والنهاية ، بما فيه كفاية ولله الحمد .

وقوله تعالى : ﴿ إنّا مكّنا له في الأرض ﴾ أي أعطيناه ملكاً عظيماً ممكّناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود والآلات الحربية وآلات الحصار ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له الملوك وخدمته الأمم من العرب والعجم ؛ ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها . وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ كقوله تعالى في حق بلقيس : ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ أي مما يؤتى مثلها من الملوك وهكذا ذو القرنين ، يسر الله له الأسباب أي الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والأراضي ، وكسر الأعداء وكبت ملوك الأرض ، وإذلال أهل الشرك قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبباً والله تعالى أعلم

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ۞ (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۞ (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ

نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

قال مجاهد : ﴿ فأتبع سبباً ﴾ أي منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب . وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس ﴾ أي فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وقوله تعالى : ﴿ وجدها تغرب في عين حمئة ﴾ أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن من انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرب فيه ، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تغادره . وفيما يؤثر من قول تُبعّ فيما ذكر به ذا القرنين في تخلّقه بالعلم واتباعه إياه :

بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب أمرٍ من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذا خلب وثاطٍ حرْمَد

وقد سمع ابن عباس هذين البيتين من ابن حاضر فسأله ابن عباس : ما الخلب ؟ قلت الطين بكلامهم . قال فما الثاط ؟ قلت الحمأة ، قال : فما الحرمد ؟ قلت الأسود ، فدعا ابن عباس رجلاً أو غلاماً فقال : اكتب ما يقول هذا الرجل [1] وقوله تعالى : ﴿ ووجد عندها قوماً ﴾ أي أمة من الأمم ، ذكروا انها كانت أمة عظيمة من بني آدم . وقوله تعالى : ﴿ قلنا يا ذا القرنين إما ان تعذب وإما ان تتخذ فيهم حسناً ﴾ اي ان الله مكّنه منهم ، وحكمه فيهم ، وأظفره بهم وخيره إن شاء قتل وسبى ، وإن شاء منّ أو فدى ، فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه في قوله : ﴿ أما من ظلم ﴾ أي استمر على كفره وشركه بربه ﴿ فسوف نعذبه ﴾ عذاباً أليماً يغشاهم من جميع جهاتهم والله أعلم . وقوله : ﴿ ثم يردّ إلى ربّه فيعذبه عذاباً نكراً ﴾ أي شديداً بليغاً وجيعاً أليماً.وفي هذا إثبات المعاد والجزاء . وقوله : ﴿ وأما من آمن ﴾ أي تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له : ﴿ فله جزاء الحسنى ﴾ أي في الدار الآخرة عند الله عز وجل ﴿ وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾ أي معروفاً في الدنيا .

(١) قلت لما كان البحر ذا لون أزرق مائل إلى السواد و « حمئة » فيها معنى السواد فيكون المعنى ان الشمس وجدها تغرب في البحر ذي اللون الأزرق الأسود .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞ (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۞ (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۞ (٩١) ﴾

يقول تعالى : ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها ، وكان كلما مرّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل ، فإن أطاعوه .. وإلاّ أذلّهم وأرغم آنافهم واستباح أموالهم وأمتعتهم واستخدم منهم جنداً له ، على قتال الإقليم المتاخم لهم ، ﴿ حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم ﴾ أي أمة ﴿ لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ أي ليس لهم بناء يكنّهم ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس قال سعيد بن جبير : كانوا حمراً قصاراً مساكنهم الغيران وأكثر معيشتهم من السمك ، وعن قتادة قال : هم الزنج وقوله تعالى : ﴿ كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ﴾ أي نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه ، لا يخفى علينا منها شيء وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض فإنه تعالى : ﴿ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞ (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۞ (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۞ (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ۞ (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۞ (٩٦) ﴾

يخبر تعالى عن ذي القرنين : ﴿ ثم أتبع سبباً ﴾ أي سلك طريقاً من مشارق الأرض ﴿ حتى إذا بلغ بين السدّين ﴾ وهما جبلان متناوحان ، بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك ، فيعيثون فيها فساداً ويهلكون الحرث والنسل ، ويأجوج

ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين : ١٢١ [ان الله تعالى يقول يا آدم فيقول لبيك وسعديك فيقول : ابعث بعث النار ، فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائةوتسع وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذاتِ حمل حملها فقال إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلاّ كثّرتاه : يأجوج ومأجوج] وقوله تعالى : ﴿ وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ﴾ أي لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس ﴿ قالوا يا ذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً ﴾ أي أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سدا فقال ذو القرنين بعفةٍ وديانةٍ وصلاح وقصد للخير : ﴿ ما مكني فيه ربي خير ﴾ أي ان الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه : ﴿ فأعينوني بقوة ﴾ أي بعملكم وآلات البناء ﴿ أجعل بينكم وبينهم ردماً آتوني زبر الحديد ﴾ والزبر جمع زبرة أي القطعة وهي كاللبنة ويقال ان كل لبنة زنة قنطار بالدمشقي أو تزيد عليه . ﴿ حتى إذا ساوى بين الصدفين ﴾ أي وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً ، واختلفوا في مساحة عرضه وطوله ﴿ قال انفخوا ﴾ أي أجّجوا عليه النار حتى صار كله ناراً ﴿ قال آتوني أفرغ عليه قطرا ﴾ قال ابن عباس وغيره هو النحاس المذاب ويستشهد بقوله تعالى : ﴿ وأسلنا له عين القِطر ﴾ ولهذا يشبه بالبُرْدِ المحبّر أي طريقة سوداء وطريقة حمراء . ثم قال تعالى :

﴿ فَمَا ٱسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۞ (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۞ (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۞ (٩٩) ﴾



يخبر تعالى عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله ، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كُلاً بما يناسبه فقال تعالى : ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شيء منه .

وقوله تعالى : ﴿ قال هذا رحمة من ربي ﴾ أي لما بناه ذو القرنين ﴿ قال هذا رحمة من ربي ﴾ أي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث في الأرض والفساد ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ أي إذا اقترب الوعد الحق ﴿ جعله دكّاء ﴾ أي ساواه بالأرض ، ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ أي كائناً لا محالة . وقوله تعالى : ﴿ وتركنا بعضهم ﴾ أي الناس يومئذ ، أي يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ، ويتلفون أشياءهم ، وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال كما سيأتي بيانه عند قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ قال السدي : هذا أول يوم القيامة ﴿ ونفخ في الصور ﴾ على أثر ذلك ، والصور كما جاء في الحديث : قرن ينفخ فيه ، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام ، وفي الحديث عن ابن عباس وأبي سعيد الخدري مرفوعاً : ١٢٢ [« كيف أنعَمُ وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ، واستمع متى يؤمر ؟ » قالوا : كيف نقول ؟ قال : « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا »] وقوله تعالى : ﴿ فجمعناهم جمعاً ﴾ أي أحضرنا الجميع للحساب . كقوله تعالى : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ .

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً ۝(١٠٠) ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ۝(١٠١) أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ۝ (١٠٢) ﴾

يخبر تعالى عما يفعله بالكفار يوم القيامة أنه يعرض عليهم جهنم ، أي يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ ، يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك ثم قال مخبراً عنهم : ﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ﴾ أي تغافلوا وتعاموا ، وتصامموا عن قبول الهدى واتباع الحق ، كما قال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ وقال ههنا ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ أي لا يعقلون عن الله

أمره ونهيه ؛ ثم قال تعالى : ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ﴾ أي اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك وينتفعون به ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً .

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً ﴿١٠٦﴾

﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ أي هل نخبركم بالأخسرين أعمالاً ، ثم فسرهم فقال عز من قائل : ﴿ الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا ﴾ أي عملوا أعمالاً باطلةً على غير شريعة مشروعة ، مرضية مقبولة ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ أي يعتقدون أنهم على شيء وأنهم مقبولون محبوبون ، وهم في الواقع مخطئون واعمالهم مردودة على أن هذه الآية لم تنزل في جماعة مخصوصة بل هي أعم من هذا ... فهي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها ، وأن عمله مقبولٌ بينما هو مخطىء مردود العمل كما قال سبحانه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ﴾ أي جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقامها على وحدانيته وصدق رسله وكذبوا بالدار الآخرة ، ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ أي لا نثقل موازينهم لأنها خالية عن الخير . روى البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : ١٢٣ ﴿ ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال : ﴾ اقرأوا إن شئتم : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾. وقوله تعالى ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ﴾ أي إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً ، أي استهزأوا بهم وكذَّبوهم أشدّ التكذيب .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۞ (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۞ (١٠٨) ﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به ، أنّ لهم جنات الفردوس . وفي الصحيحين : ١٢٤ [إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة] وقوله تعالى : ﴿ نزلاً ﴾ أي ضيافة ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبداً ﴿ لا يبغون عنها حولاً ﴾ أي لا يختارون عنها غيرها ولا يحبون سواها ، كما قال الشاعر :

فحلت سويدا القلب لا أنا باغياً   سواها ولا عن حبها أتحول

على أن المقيم في مكان عادي ، قد يتسرب إلى نفسه السأم أو الملل ، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يبغون متحولاً ، ولا انتقالاً ولا ظعنا ولا رحلةً ولا بدلاً .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ۞ (١٠٩) ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالّة عليه ، لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك ﴿ ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ أي بمثل البحر آخر ثم آخر وهلم جرّا لما نفدت كلمات الله ، كما قال تعالى : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾ إنّ ربّنا كما يقول وفوق ما نقول .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ۞ (١١٠) ﴾

روى الطبراني عن عمرو بن قيس الكوفي أنه سمع معاوية بن أبي سفيان أنه قال : هذه آخر آية أنزلت [١] ، يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله عليه وسلامه : ﴿ قل ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين **برسالتك** إليهم : ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ فمن زعم أني كاذب ، فليأت بمثل ما جئتُ به فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي عما سألتم من قصة أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين مما هو مطابق في نفس الأمر ، لولا ما أطلعني الله عليه ، وانما أخبركم ﴿ أنما إلٰهكم إلٰه واحد ﴾ لا شريك له ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ أي ثوابه وجزاءه الصالح ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ﴾ ما كان موافقاً لشرع الله ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له ، وهذان ركنا العمل المتقبل ، لا بد أن يكون خالصاً لله ، صواباً على شريعة رسوله ﷺ .

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : ١٢٥ [كنا نتناوب رسول الله ﷺ فنبيت عنده تكون له الحاجة أو يطرقه أمر من الليل فيبعثنا ، فكثر المحبوسون وأهل النوب ، فكنا نتحدث فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال « ما هذه النجوى ؟ » قال : فقلنا تبنا إلى الله أي نبي الله ، إنما كنا في ذكر المسيح وفرقنا منه فقال: ﴿ ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندي » قال : قلنا بلى قال : ﴿ الشرك الخفي ان يقوم الرجل يصلّي لمكان الرجل »] .

روى الامامأحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال ١٢٦ [أنا خير الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا بريء منه وهو للذي أشرك] تفرد به من هذا الوجه .

روى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : ١٢٧ [إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ﴾ قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال « الرياء . يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : إذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء . »]

روى أبو يعلى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ١٢٨ [من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو ، فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل] آخر تفسير سورة الكهف ولله الحمد والمنة .

١٣٨٩/٨/٦
١٩٦٩/١٠/١٧

(١) يعني معاوية أنها آخر آية أنزلت من سورة الكهف



سوى الآيتين (٥٨) و (٧١) فمدنيتان نزلت بعد فاطر

روى محمد بن اسحق في السيرة من حديث أم سلمة وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كهيعص ۞ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۞ (٢)
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۞ (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي
وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۞ (٤) وَإِنِّي
خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
وَلِيًّا ۞ (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۞ (٦) ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقدم تقدم في أول سورة البقرة . وقوله تعالى : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني اسرائيل وفي صحيح البخاري أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده في النجارة وقوله تعالى : ﴿ إذنادى ربه نداءً خفياً ﴾ إنما أخفى دعاءه لأنه أحب إلى الله تعالى الذي يعلم القلب التقي ، ويسمع الصوت الخفي ﴿ قال رب إني وهن العظم مني ﴾ أي ضعفت وخارت قواي ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ أي اضطرم المشيب في السواد ، والمراد الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة وقوله تعالى : ﴿ ولم أكن بدعائك ربّ شقياً ﴾ أي ولم أعهد

منك إلاّ الإجابة في الدعاء ، ولم تردني قط فيما سألتك ، وقوله تعالى : ﴿ وإني خفت الموالي من ورائي ﴾ أي أخشى أن يتصرف عصبتي من بعدي في الناس تصرفاً سيئاً ﴿ وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً ﴾ أي ولداً نبياً من بعدي يسوس الناس بما يوحى اليه من النبوة ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ أي يكون نبيّاً كما كانت آباؤه أنبياء ، وكل ما قيل من أنه طلب أن يرث ماله فهذا غير صحيح لأن النبي أجل شأناً وأعظم منزلةً ، وأعلا قدراً، من أن يشفق على ماله ، في الوقت الذي كان فيه زكريا نجاراً يأكل من كسب يديه ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا . وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : ١٢٩ (لا نورّث ما تركناه صدقة) وعلى هذا تعيّن حمل قوله : ﴿ فهب لي من لدنك ولياً • يرثني ويرث آل يعقوب ﴾ على ميراث النبوة لا على ميراث المال . وكل ما جاء من الأحاديث بميراث المال فهي أحاديث ضعيفة مرسلة لا تعارض الصحاح والله تعالى أعلم . وقوله : ﴿ واجعله ربي رضياً ﴾ أي مرضياً عندك وعند خلقك ، تحبّه وتحبّبه إلى خلقك في دينه وخلقه .

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۞ (٧) ﴾

ان الله تعالى أجاب عبده زكريا ما سأله فقال تعالى : ﴿ يا زكريا إنّا نبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء • فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيىٰ مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ قال قتادة وغيره : أي لم يسمّ أحداً قبله بهذا الاسم وقال مجاهد : سمياً أي شبيهاً ، أخذه من معنى قوله تعالى : ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ﴾ أي شبيهاً وقال ابن عباس ، أي لم تلد العواقر قبله مثله .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۞ (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۞ (٩) ﴾

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد ففرح فرحاً شديدا ، وسأل عن كيفية ما يولد له ، والوجه الذي يأتيه منه الولد ، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها ، ومع أنه قد كبر وعتا أي عسا عظمه ونحل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع قال مجاهد : عتياً يعني نحول العظم .

﴿ قال ﴾ أي الملك مجيباً لزكريا عما استعجب منه ﴿ كذلك قال ربك هو علي هين ﴾ أي إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها ، ﴿ هين ﴾ أي يسير سهل على الله تعالى ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل ، فقال جل وعلا : ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۞ (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۞ (١١) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه : ﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ أي علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني ، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني ، كما قال ابراهيم عليه السلام ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ وهاهنا ... ﴿ قال آيتك ﴾ أي علامتك ﴿ أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴾ أي تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال ، وأنت صحيح سوي ، من غير مرض ولا علة قال ابن عباس وغيره : اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة وقال ابن زيد بن أسلم : كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة .

والمراد من قوله تعالى : ﴿ ثلاث ليال سوياً ﴾ أي ثلاثة أيام بلياليها متتابعات ، وقال مالك ابن زيد بن أسلم : من غير خرس ، وكما قال تعالى في آل عمران : « إلا رمزاً ﴾ أي إشارة وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فخرج على قومه من المحراب »[1]

(١) قلت : «من المحراب » أي من المسجد وليس المحراب هو تلك الفجوة التي يقف فيها الإمام للصلاة فهذه ليس اسمها محراباً ولم تكن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا من السلف الصالح إنما أحدثت بعده

أي الذي بشر فيه بالولد﴿ فأوحى إليهم ﴾ أي أشار إشارة خفيةً سريعة ﴿ ان سبحوا بكرة وعشياً ﴾ أي موافقةً له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكراً لله على ما أولاه .

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۞ (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ۞ (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۞ (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۞ (١٥) ﴾

ان الله تعالى علم يحي التوراة التي كان الذين في ذلك العصر يتدارسونها بينهم ، ويحكم بها النبيون فقوله تعالى : ﴿ يا يحي خذ الكتاب بقوة ﴾ أي تعلم الكتاب وهو التوراة بجد وحرص واجتهاد وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ أي الفهم والعلم والجد والعزم والاقبال على الخير والاجتهاد فيه وهو صغير حدث.قال معمر : قال الصبيان يوما ليحيي بن زكريا : اذهبْ بنا نلعب فقال ما للّعب خلقنا قال فلهذا أنزل الله تعالى : ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ أي وآتيناه الحكم وحناناً وزكاة أي وجعلناه ذا حنان وزكاة ، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل .

وقوله : ﴿ وزكاةً ﴾ معطوف على وحناناً ، فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب ﴿ وكان تقياً ﴾ طُهِّرَ أي فلم يعمل بذنب . وقوله تعالى : ﴿ وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه ثنّي ببره لوالديه قولاً وفعلاً فجزاه بقوله تعالى : ﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾ أي له الأمان في هذه المواطن الثلاثة . قال سفيان بن عيينة : أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن : يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوماً لم يعاينهم ، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم قال فأكرم الله فيها يحي بن زكريا فخصه بالسلام عليه فقال

عز من قائل : ﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيّاً ﴾ .

﴿ وَاذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا ۞ (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا ۞ (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۞ (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيًّا ۞ (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۞ (٢٠) قَالَ كَذٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيًّا ۞ (٢١) ﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وانه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً مباركا ، عطف بذكر قصة مريم في ايجاده ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب ، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، ولهذا ذكرهما في آل عمران وههنا، وفي سورة الأنبياء يقرن بين القصتين ليقارب ما بينهما في المعنى ، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه ، وانه على كل شيء قدير . فقال جل ثناؤه : ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾ وهي مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام وان أمها نذرتها محررة أي تخدم بيت المقدس تقرّباً إلى الله تعالى ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ فنشأت نشأة عظيمة في بني إسرائيل ، وكانت أشهر العابدات تنسكاً وتبتّلاً ودأباً . ورأى لها زكريا عليه السلام زوجُ أختِها وكفيلُها من الكرامات الهائلة ما بهره: ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنىَّ لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ فلما أراد الله تعالى — وله الحكمة والحجة البالغة — أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام أحد الرسل أولى العزم الخمسة العظام ﴿ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ أي اعتزلتهم وتنحّت عنهم وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس .

وقوله تعالى : ﴿ فاتخذت من دونهم حجاباً ﴾ أي استترت منهم وتوارت ، ﴿ فأرسلنا

إليها روحنا ﴾ يعني جبرائيل عليه السلام ﴿ فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ أي على صورة إنسان تام كامل ﴿ قالت اني أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً ﴾ أي لما تبدى لها الملك في صورة بشر في مكان منفرد ، خافته وظنت أنه يريدها على نفسها ، فقالت : ﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ أي ان كنت تخاف الله ، تذكيراً له بالله تعالى ، وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل ، فخوفته أولاً بالله عز وجل . ﴿ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ أي لست كما تظنين ، ولكني رسول ربك ﴿ لأهب لك غلاماً زكياً * قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغياً ﴾ أي كيف يكون لي غلام ، ولست بذات زوج ، ولا يتصور مني الفجور ﴿ قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ﴾ أجابها جبريل عليه السلام : إن الله تعالى قد قال انه سيوجدُ منك غلاماً بلا بعل،ولا فاحشة فإنه على كلّ شيء قدير ولهذا قال سبحانه : ﴿ ولنجعله آيةً للناس ﴾ أي دلالة وعلامة لهم على قدرته تعالى ، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق بقية الذرية من ذكر وانثى إلا عيسى فإنه أوجده من انثى بلا ذكر فجلت قدرته ، وعظم سلطانه ولا إلٓه غيره ولا رب سواه .

وقوله تعالى : ﴿ ورحمة منا ﴾ نبياً يدعو إلى عبادة الله وتوحيده ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ أي لا بد منه .



﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا * (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا * (٢٣) ﴾

يخبر تعالى عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال ، استسلمت لقضاء الله تعالى عند ذلك نفخ جبريل في جيب درعها ، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى . فلما حملت به ضاقت ذرعاً ، ولم تدر ماذا تقول للناس فإنهم لا يصدّقونها فيما تخبرهم به ، غير أنها أفشت سرها ، وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا التي حملت بيحيي ، فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتنقتها وقالت : أشعرت يا مريم أني حبلى ؟ فقالت لها مريم : وهل علمت أيضاً أني حبلى ، رذكرت لها شأنها وما كان من خبرها ، وكانوا بيت إيمان وتصديق . وقد اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام ، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء

بأولادهن ، وقال محمد بن اسحق : فلما حملت به وملأت قلّتها ورجعت استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم وتغير اللون ، حتى فطر لسانها ، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا ، وشاع الحديث في بني اسرائيل فقالوا : إنما صاحبها يوسف النجار فلم يكن معها في الكنيسة غيره ، وتوارت من الناس واتخذت من دونهم حجاباً ، فلا يراها أحد ولا تراه وقوله تعالى : ﴿ فأجأها المخاض إلى جذع النخلة ﴾ أي فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة في المكان الذي تنحّت إليه . وقد اختلفوا فيه ، إنّما المشهور أنه بيت لحم وهي قرية تبعد عن بيت المقدس ثمانية أميال إلى الشرق وهذا هو المشهور الذي تلقّاه الناس بعضهم عن بعض ، ولا يشك فيه النصارى أنه ببيت لحم .

وقوله تعالى إخباراً عنها : ﴿ قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة ، فانها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يصدقها الناس من أمرها فيه ، بعد مكانها منهم من العبادة والتقوى والصلاح ، ويظنون أنها عاهرة زانية ، فتمنت أن تموت قبل هذا الحال من الولادة من غير بعل وان تكون شيئاً لا يعرف ولايذكر ككل شيء نسي وترك فكان نسياً منسياً . وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمني الموت الا عند الفتنة عند قوله تعالى : ﴿ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ [١] .

﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۞ (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا ۞ (٢٥) فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۞ (٢٦) ﴾

اختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى : ﴿ فناداها من تحتها ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وعمر بن ميمون والسدى وقتادة : أنه الملكُ جبريل عليه الصلاة والسلام ، أي ناداها من أسفل الوادي ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها وقال مجاهد والحسن : هو ابنها وهو إحدى الروايتين عن سعيد بن جبير واختاره ابن

(١) راجع الآية (١٠١) من سورة يوسف .

جرير في تفسيره - والله أعلم - .

وقوله تعالى : ﴿ أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ أي ناداها قائلاً : لا تحزني فقد جعل ربك تحتك نهراً تشربين منه والسري : هو النهر الصغير ثم قال : ﴿ وهزّي إليك بجذع النخلة ﴾ قيل كان الجذع يابساً فهزته مريم فتساقط عليها الرطب ولهذا امتنّ الله عليها بذلك، بأن جعل عندها طعامها وشرابها فقال : ﴿ تساقط عليك رطباً جنّيا * فكلي واشربي وقَري عيناً ﴾ أي طيبي نفساً ، ولهذا قال عمرو بن ميمون : ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب ، ثم تلا هذه الآية ...

وقوله : ﴿ فإما ترين من البشر أحداً ﴾ أي مهما رأيت من أحد ﴿ فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ المراد بهذا القول هو الإشارة إليه بذلك لا أن المراد به القول اللفظي لئلا ينافي : ﴿ فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ قال أنس بن مالك في قوله : ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ﴾ أي صمتاً وفي رواية عنه : صوماً وصمتاً . وكان في شريعتهم اذا صاموا يحرم عليهم الطعام والكلام .

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا * (٢٧) يَا أُخْتَ هٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا * (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * (٣٣)

يخبر تعالى عن مريم حين أمرها ألاّ تكلم أحداً من البشر ، فاستسلمت ، فكفاها أمرها وأقام حجتها ، فأتت قومها تحمل ولدها ، فلما رأوها أعظموا أمرها جداً واستنكروه

و﴿قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا﴾ امراً عظيما﴿ياأخت هارون﴾ ياشبيهة هارون في العبادة.﴿ ما كان ابوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً ﴾ أي أنت من بيت طاهر طيب معروف بالصلاح والعبادة والتّقوى . فكيف صدر هذا منك ؟ ﴿ فأشارت إليه ﴾ أي اسألوا هذا المولود يخبركم ﴿ قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً ﴾ أي فوق ما جاءت به من الداهية ، تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبياً أي : من هو موجود في مهده طفلاً كيف يتكلَّم ...؟ ﴿ قال ﴾ أي المولود عيسى : ﴿ إنّي عبد الله ﴾ أول ما تكلم به نزه جناب ربّه تعالى وبرأه عن الولد ، وأثبت لنفسه العبودية لربّه ثم قال : ﴿ آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً﴾ أي يؤتيني الكتاب والنبوة . وقوله : ﴿ وجعلني مباركاً أينما كنت ﴾ آي جعلني معلماً للخير ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر أينما كنت ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ﴾ إشارةً إلى عِظم هذين الركنين الركينين .

وقوله : ﴿ وبراً بوالدتي ﴾ أي لا أعصى لها أمراً . ذكر البِر بالوالدة بعد طاعة ربه لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين كما قال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ وقوله ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ استكبر عن عبادته وطاعته ، وبر والدتي فأشقَى بذلك وقوله ﴿ والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً ﴾ أي أثبت لنفسه العبودية لله عز وجل بأنه مخلوق كسائر المخاليق يحيا ويموت ويبعث حياً كبقية الخلائق عليه من الله أطيب الصلوات وأزكى التحيات .

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۞(٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ (٣٥) وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۞ (٣٦) فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ (٣٧) ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه : ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿ قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ أي يختلف فيه المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به ، ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبيّاً ، نزه نفسه المقدسة فقال سبحانه : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ﴾ عما يقول هؤلاء الجاهلون والظالمون المعتدون

علوّاً كبيراً ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أي إذا أراد شيئاً ، فإنّما يأمر فيصير كما يشاء وذلك كقوله تعالى : ﴿ إن مَثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون.الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ أي وممّا أمر به عيسى عليه السلام قومه وهو في المهد أن أخبرهم إذ ذاك ان الله ربّه وربهم وأمرهم بعبادته فقال : ﴿ فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ أي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم.من اتبعه رشد، وهَدى ، ومن خالفه ضل وغوى . وقوله تعالى : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى عليه السلام بعد بيان أمره بأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فصمّمتْ طائفة منهم ، وهم جمهور اليهود – عليهم لعائنُ الله – على أنه ولدُ زنية ، وقالوا : كلامه هذا سحر . وقالت طائفة أخرى : إنما تكلم الله ، وقال آخرون ، بل هو ابن الله وقال آخرون ثالث ثلاثة . وقال آخرون بل هو عبد الله ورسوله ، وهذا هو قول الحق الذي أرشد إليه المؤمنين ، وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون وابن جريج وقتادة وغير واحد من السلف والخلف .

وقوله تعالى : ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يومٍ عظيم ﴾ تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى وزعم أن له ولداً . ولكن أنظر هم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم علماً وثقة بقدرته عليهم ، فانه الذي لا يعجل على من عصاه كما جاء في الصحيحين : ١٣٠ [إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾] فقال تعالى: ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ ولهذا قال ها هنا : ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يومٍ عظيم ﴾ أي يوم القيامة . وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته،عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ١٣١ [من شهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له ، وان محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته القاها إلى مريم ، وروح منه ، وان الجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل] .

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ

فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۞ (٤٠)

يخبر تعالى عن الكفار يوم القيامة أنهم يكونون أسمع شيء وأبصره كما قال تعالى : ﴿ ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا و سمعنا ﴾ أي يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئاً ، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لكان نافعاً لهم ، ومنقذاً من عذاب الله ، ولهذا قال : ﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ أي ما أسمعهم وما أبصرهم ﴿ يوم يأتوننا ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ لكن الظالمون اليوم ﴾ أي في **الدنيا** ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون ، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك ثم قال تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ أي أنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿ إذ قضي الأمر ﴾ أي فصل بين أهل الجنة وأهل النار وصار كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه ﴿ وهم ﴾ أي اليوم ﴿ في غفلة ﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ أي لا يُصدقون به . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : ١٣٢ [« إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ – قال – فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت – قال – فيقال : يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ قال : فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت – قال – فيؤمر به فيذبح قال: ويقال يا أهل الجنة خلود ولا موت ، ويا أهل النار خلود ولا موت » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ وأشار بيده ثم قال : « أهل الدنيا في غفلة الدنيا »] هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن الأعمش به ولفظهما قريب من ذلك وفيهما عن ابن عمر و قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ : يخبر تعالى أنه هو الخالق المتصرف المالك ، وان الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس ولا أحد يدعى ملكاً ولا تصرفاً ، بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم الحاكم فيها ، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة .

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا ❁ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ❁ (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا ❁ (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ❁ (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ❁ (٤٥) ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ واذكر في الكتاب ابراهيم ﴾ أي اذكر لقومك الذين يعبدون الأصنام مع انهم يدعون انهم من ذريته وعلى ملته ﴿ إنه كان صديقاً نبياً ﴾ واتلُ خبره واذكر لهم ما جرى له مع أبيه وكيف نهاه عن عبادة الأصنام : ﴿ إذ قال لأبيه يا أبتِ لمَ تعبدُ ما لا يسمَع ولا يُبصر ولا يغنى عنك شيئاً ﴾ أي لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً ، ﴿ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ﴾ يقول وإن كنتُ من صلبك وتراني أصغرَ منك لأني ابنُك فاعلم أني قد اطلعتُ من العلم من الله تعالى على ما لم تعلمه أنت ، ولا اطلعتَ عليه ولا جاءك ﴿ فاتبِعْني أهدِك صراطاً سوياً ﴾ أي طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب والنجاة من المرهوب ﴿ يا أبت لا تعبدِ الشيطان ﴾ أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام فان الشيطان هو الداعي إلى ذلك والراضي به ، كما قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ان لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إنَّ الشيطان كان للرحمن عصِياً ﴾ أي مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه فطرده وأبعده ، فلا تتبعْه تَصِرْ مثله ﴿ يا أبت إني أخاف ان يمسّك عذاب من الرحمن ﴾ أي على شركك وعصيانك لما آمرك به ﴿ فتكون للشيطان وليّاً ﴾ يعني فلا يكون لك مولى ولا ناصراً ولا مغيثاً إلاّ إبليس ، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب لك ، كما قال تعالى : ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالَهم ، فهو وليُّهم اليومَ ولهم عذاب أليم ﴾ .

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ۞ (٤٦) قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۞ (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۞ (٤٨) ﴾

يخبر تعالى عن جواب أبي إبراهيم لولده ابراهيم فيما دعاه إليه انه قال : ﴿ أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ﴾ يعني ان كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها فلا تشتمها وإلاّ اقتصصت منك وشتمتك وهو قوله : ﴿ لأرجمنّك ﴾ قاله ابن عباس وغيره وقوله : ﴿ واهجرني مليّا ﴾ أي اهجرني أبداً قبل أن تصيبك مني عقوبةٌ واختاره ابن جرير . فعندها قال إبراهيم لأبيه ﴿ سلام عليك ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين : ﴿ واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ ومعنى قول ابراهيم لأبيه : ﴿ سلام عليك ﴾ يعني أما أنا فلا ينالك مني مكروه لحرمة الأبوّة ﴿ سأستغفر لك ربي ﴾ أي سأسأله أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿ إنه كان بي حفياً ﴾ الحفيُّ الذي يهتم بأمره. وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة حتى وبعد أن بنى المسجد الحرام هو واسماعيل عليه السلام في قوله : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهلهم من المشركين في ابتداء الإسلام وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك حتى أنزل الله تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله – إلى قوله – إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ﴾ الآية ... يعني إلا في هذا القول فلا تتأسوا به ثم بين تعالى أن ابراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه فقال تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم انهم أصحاب الجحيم * وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلاّ عن موعده وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه إن ابراهيم لأوّاه حليم ﴾ وقوله : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي ﴾ أي اجتنبكم واتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله ﴿ وأدعو ربي ﴾ أي واعبد ربي وحده لا شريك له ﴿ عسى ألاّ أكونَ بدعاء ربي شقياً ﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة فإنه عليه الصلاة والسلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۞ (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۞ (٥٠) ﴾

يقول تعالى : فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله ، أبدله الله من هو خير منهم ؛ ووهب له اسحاق ابنه،ويعقوب ابن ابنه أي جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء أقر الله بهم عينه في حياته أي اسماعيل واسحق وابنه يعقوب ولهذا قال تعالى : ﴿ وكلاً جعلنا نبياً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾ قال ابن عباس الثناء الحسن ، وقال ابن جرير : انما قال : ﴿ علياً ﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم ، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم أجمعين .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا ۞ (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۞(٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَرُونَ نَبِيًّا ۞ (٥٣) ﴾

لما ذكر تعالى ابراهيم الخليل ، وأثنى عليه ، عطف بذكر الكليم فقال تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلَصاً ﴾ بفتح اللام بمعنى أنه كان مصطفى كما قال تعالى : ﴿ إني اصطفيك على النّاس ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وكان رسولاً نبيّاً ﴾ جمع الله له بين الوصفين ، فإنه كان نبيّاً ورسولاً من أولى العزم . وقوله تعالى ﴿ وناديناه من جانب الطور ﴾ أي الجانب ﴿ الأيمن ﴾ من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة ، فكلّمه الله تعالى وناداه ﴿ وقربناه نجيّا ﴾ أي أدنيناه وكلمناه، وناجيناه بطور سيناء . وقوله تعالى : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيّاً ﴾ أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً ولهذا قال بعض السلف : ما شفع أحدٌ في أحدٍ شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً ، فكان نبياً .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ

رَسُولاً نَبِيًّا ۞ (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۞ (٥٥)

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد . قال ابن جريج : لم يعدْ ربّه عِدة إلاّ أنجزها ، يعني ما التزم عبادة قط بنذر إلاّ قام بها ووفاها حقها . وقال ابن جرير عن سهل بن عقيل حدثه أن إسماعيل النبيّ عليه السلام وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه فيه ، فجاء ونسي الرجل ، فظل به اسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد ، فقال : ما برحت من هاهنا قال : لا.قال : إني نسيت . قال : لم أكن لأبرح حتى تأتيني ، فلذلك : ﴿ كان صادق الوعد ﴾ وقال بعضهم : إنما قيل له : صادق الوعد لأنه قال لأبيه : ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ فصدق في ذلك وقوله تعالى : ﴿ وكان رسولاً نبيّاً ﴾ في هذا دلالة على شرف اسماعيل على أخيه اسحق لأنه إنما وصف بالنبوّة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة . وقد ثبت في صحيح مسلم ان رسول الله ﷺ قال : ١٣٣ [ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل] وذكر تمام الحديث . فدل على صحة ما قلناه وقوله تعالى : ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً ﴾ هذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة ، والخلّة السديدة حيث كان صابراً على طاعة ربه عز وجل آمراً بها لأهله ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ الآية ... وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ الآية ... أي مُروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر ولا تدَعُوهم هَمَلاً فتأكلهم النار يوم القيامة ، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ١٣٤ [رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فإن أبتْ نضح في وجهها الماء . رحم الله امرأةً قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجَها ، فإن أبى نضحت في وجهه الماء] أخرجه أبو داود وابن ماجة . وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ١٣٥ [اذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين ، كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات] رواه ابو داود والنسائي وابن ماجه واللفظ له .

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا ۞ (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا ۞ (٥٧)

ذكر إدريس عليه السلام بالثناء عليه ﴿ إنه كان صدّيقاً نبياً ﴾ وقال سبحانه : ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ وقد تقدم في الصحيح أن رسول الله ﷺ مر به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة وعن مجاهد قال ادريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى وقال : رفع إلى السماء الرابعة . وعن ابن عباس إنه كان خياطاً ، فكان لا يغرز إبرةً إلا قال سبحان الله فكان يمسي حين يمسي وليس في الأرض أحد أفضل منه عملاً . وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ قال : الجنة .

﴿ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ﴾



يقول تعالى : هؤلاء النبيون – وليس المراد بمن ذكروا في هذه السورة فقط بل جنس الأنبياء عليهم السلام استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس – ﴿ الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ﴾ الآية ... قال السدي وابن جرير رحمهما الله : فالذي عنى به من ذرية آدم : إدريس ، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوحٍ : ابراهيم ، والذي عنى به من ذرية ابراهيم : اسحق ويعقوب واسماعيل والذي عنى به من ذرية اسرائيل : موسى وهارون وزكريا ويحيي وعيسى بن مريم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام . قال ابن جرير : ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم ، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو ادريس فإنه جد نوح (قلت) هذا هو الأظهر .

ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء أنها كقوله تعالى : في سورة الأنعام : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له اسحق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيي وعيسى والياس كل من الصالحين * واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * – إلى قوله – أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ .

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً وبكياً ﴾ أي إذا سمعوا كلام الله المتضمّن حججَه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانةً وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة ، والبكي جمع باك ، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداءً بهم واتباعاً لهم . قال سفيان الثوري عن أبي معمر قال : قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم فسجد وقال : هذا السجود فأين البكي ؟ يريد البكاء .

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۞ (٥٩) إلا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً ۞ (٦٠) ﴾

لما ذكر تعالى حزب السعداء ، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره ، المؤدّين فرائضَ الله التاركين لزواجره ، ذكر أنه : ﴿ خلف من بعدهم خلف ﴾ أي قرون أخر ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع ، لأنها عماد الدين وقوامه ، وخير أعمال العباد ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ أي أقبلوا على الشهوات ، ورضوا بالحياة الدنيا وملاذّها واطمأنوا بها ، فهؤلاء سيلقَوْنَ غياً أي خساراً يوم القيامة ، وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة هاهنا فقال قائلون : المراد بإضاعتها تركها بالكلية . قاله محمد بن كعب القرظي وابن زيد بن اسلم والسرّي واختاره ابن جرير .

وقال الأوزاعي عن موسى بن سليمان عن القاسم بن مخيمرة في قوله تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ﴾ قال : إنما أضاعوا المواقيت ولو كان تركاً كان كفراً وقال وكيع عن ابن مسعود انه قيل له : إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ و ﴿ على صلاتهم دائمون ﴾ ﴿ وعلى صلاتهم يحافظون ﴾ فقال ابن مسعود : على مواقيتها . قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على الترك ؛ قال : ذلك الكفر ، وقال بذلك مسروق وعمر بن عبد العزيز قال : لم تكن اضاعتها تركها ولكن أضاعوا الوقت . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ قال :

عند قيام الساعة وذهاب صالحي أمة محمد ﷺ ينزو بعضهم على بعض في الأزقه . روى ذلك عن مجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح أنهم من هذه الأمة يعنون في آخر الزمان وقال مجاهد : يتراكبون تراكب الأنعام والحمر في الطرق لا يخافون الله في السماء ، ولا يستحيون من الناس في الأرض .

قال أبو الأشهب العطاردي : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة ، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا آثر شهوة من شهواته أن أحرمه طاعتي . وقوله تعالى : ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ أي خسراناً وقال سفيان الثوري عن عبد الله بن مسعود قال : واد في جهنم بعيد القعر ، خبيثُ الطعم . وقوله تعالى : ﴿ إلاَّ من تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ أي إلا من رجع عن ترك الصلوات واتّباع الشهوات ، فإن الله يقبل توبتَه ويُحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴾ وذلك لأن : ١٣٦ [التوبة تجب ما قبلها] ، وفي الحديث الآخر ١٣٧ [التائب من الذنب كمن لا ذنب له] ولهذا لا يُنقصُ هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً، ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها، لأن ذلك ذهب هدراً ، وعفي عنه تفضلاً،وذهب مجاناً من كرم الكريم وحلم الحليم . وهذا الاستثناء في قوله تعالى :﴿ إلا من تاب ... ﴾ الآية كقوله تعالى في سورة الفرقان : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق – إلى قوله تعالى – وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ۞ (٦١) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۞ (٦٢) تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۞ (٦٣) ﴾

يقول تعالى : الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي جنات عدن أي إقامة التي وعد الرحمن عباده بظهر الغيب ، أي هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم ، وقوله تعالى : ﴿ إنه كان وعده مأتياً ﴾ تأكيد لثبوت

الحصول عليه وأنهم حتماً صائرون اليه وسيأتونه كقوله تعالى : ﴿ كان وعده مفعولاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ أي في هذه الجنات ليس فيها كلام تافه لا معنى له وقوله تعالى : ﴿ إلاّ سلاماً ﴾ كقوله سبحانه : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ وقوله عز من قائل : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴾ أي صباحاً ومساءً وليس في الجنة ليل أو نهار ، ولكن أهلها في أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار مقدار الليل والنهار ، يعرفون ذلك بإرخاء الحجب ، وإغلاق الأبواب ، وبرفعها وفتحها .

وقال الحسن وقتادة وغيرهما : كانت العرب ، الأنعم فيهم من يتغدى ويتعشى ، فنزل القرآن على ما في أنفسهم من النعيم فقال تعالى : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشياً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ أي هذه الجنة التي وصفناها بهذه الصفات العظيمة ، هي التي نورثها عبادنا المتقين ، وهم المطيعون لله عز وجل في السرّاء والضرّاء والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس . كما قال تعالى : في أول سورة « المؤمنون » ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ إلى أن قال عز من قائل : ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ .

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۞ (٦٤) رَبُّ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۞ (٦٥)

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : ١٣٨ (قال رسول الله [ﷺ لجبرائيل : « ما يمنعك ان تزورنا أكثر مما تزورنا » قال : فنزلت : ﴿ وما نتنزل إلاّ بأمر ربك ﴾ إلى آخر الآية إنفرد باخراجه البخاري عن أبي نعيم عن عمر بن ذر به ..

ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير . فكان ذلك الجواب لمحمد ﷺ . قال مجاهد : وهذه الآية كالتي في الضحى : ﴿ ما ودّعك ربك وما قلى ﴾ وكذلك قال الضحاك وقتادة والسري وغير واحد أنها نزلت في احتباس جبريل وقوله : ﴿ له ما بين ايدينا وما خلفنا ﴾ أي ما يستقبل من أمر الآخره وما مضى من امر الدنيا ﴿ وما بين ذلك ﴾ أي ما بين الدنيا والآخرة ويروى نحوه عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم

واختاره ابن جرير والله أعلم .

وقوله : ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ قال مجاهد والسدي : معناه ما نسيك ربك وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء يرفعه ، قال : ١٣٩ [ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينسى ثم تلا هذه الآية : ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي خالق ذلك ومدبره والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ﴾ قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس : هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً . وقال عكرمة عنه : ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه .

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَانُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۞ (٦٦)
أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ۞ (٦٧)
فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۞ (٦٨)
ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۞ (٦٩) ثُمَّ
لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۞ (٧٠) ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ﴾ وقال ها هنا : ﴿ ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً * أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾

يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة ، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً أفلا يعيده وقد صار شيئاً كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ عليه ﴿ وفي الصحيح : ١٤٠ (يقول تعالى : كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني ، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني ، أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليَّ من آخره ، وأما أذاه إياي فقوله إن لي ولداً وأنا الأحد

الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد] .

وقوله تعالى : ﴿ فوربك لنحشرنهم والشياطين ﴾ أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة انه لا مناص من حشرهم وشياطينهم الذين عبدوهم من دون الله تعالى ﴿ ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً ﴾ أي جلوساً على ركبتهم وقوله تعالى : ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة ﴾ يعني من كل أمة ﴿ أيهم أشد على الرحمن عتياً ﴾ أي لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر حتى إذا تكاملت العدة ، بدأنا بالأكابر فالأكابر جرماً ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ـــ إلى قوله ـــ بما كنتم تكسبون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً ﴾ أي أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد : أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها ، وبمن يستحق تضعيف العذاب كما قال في الآية المتقدمة ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۞ (٧٢) ﴾

روى الامام أحمد عن أبي سمية قال : ١٤١[اختلفنا في الورود فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً ، ثم ينجي الله الذين اتقوا . فلقيت جابر ابن عبد الله فقلت له : إنا اختلفنا في الورود فقال يردونها جميعاً . وقال سليمان بن مرة : يدخلونها جميعاً وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه ، وقال صمتا ان لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً .] .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود : ١٤٢[﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ قال رسول الله ﷺ « يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم »] ورواه الترمذي وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ١٤٣ [لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم]وقال السدي عن

مرة عن ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ قال : قسماً واجباً . وقال مجاهد : حتماً ، قال قضاءً ، وكذا قال ابن جريج. وقوله تعالى: ﴿ ثم ننجّي الذين اتقوا ﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم ، نجّى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم ، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا ، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين ، فيشفع الملائكة والنبيون ، والمؤمنون فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار إلاّ دارت وجوههم وهي مواضع السجود وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان ، فيخرجون أولاً من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان ، ثم الذي يليه ثم الذي يليه حتى أنهم يخرجون من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر ، لا إله الا الله ولم يعمل خيراً قط ولا يبقى في النار إلاّ من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم ننجّي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۞ (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً ۞ (٧٤) ﴾

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة ، أنهم يصدون ، ويعرضون عن ذلك ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الباطل بأنهم ﴿ خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ أي أحسن منازل وناديهم أعمر وأكثر وارداً وطارقاً ، فكيف يكونون ــ بزعمهم ــ على باطل وأولئك الذين هم مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق ، كما قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ أي وكم من أمة من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم ﴿ هم أحسن أثاثاً ورئياً ﴾ أي كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً .

قال الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس : ﴿ خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ قال : المقام المنزل ، والندي المجلس ، والأثاث المتاع ، والرئي المنظر .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي ٱلضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ۞ (٧٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على الحق وانكم على الباطل ﴿ من كان في الضلالة ﴾ أي منا ومنكم ﴿ فليمدد له الرحمن مدّا ﴾ أي فأمهله الله فيما هو فيه ، ولْيدعْهُ في طغيانه إلى أن يلقى ربّه ﴿ إما العذاب ﴾ يصيبه ﴿ وإما الساعة ﴾ بغتة تأتيه ﴿ فسيعلمون ﴾ حينئذ ﴿ من هو شر مكاناً وأضعف جندا ﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندي . وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في سورة البقرة عندما ادعوا أنهم أولياء الله من دون الناس وكما ذكر تعالى في مباهلة النصارى في سورة آل عمران عندما ادعوا أن عيسى عليه السلام ابن الله ، سبحان الله وتعالى عما يصفون ، فنكلوا جميعاً عن المباهلة لعلمهم أنهم على الباطل وأن محمداً ﷺ على الحق . وإلاّ لباهلوه .

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۞ (٧٦) ﴾

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه ، وزيادته على ما هو عليه ، أخبر بزيادة المهتدي هُدًى ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قد تقدم تفسيرها والأحاديث المتعلقة بها في سورة الكهف [1] ﴿ خير عند ربك ثواباً ﴾ أي جزاءً ﴿ وخير مردّا ﴾ أي عاقبة ومردّاً على صاحبها .

---

(١) راجع الآية رقم /٤٦/ من سورة الكهف .

﴿ أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَداً ۞ (٧٧) أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْداً ۞ (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۞ (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً ۞ (٨٠) ﴾

روى الإمام أحمد عن الخبّاب بن الأرت ، قال : ١٤٤ (كنت رجلاً قيناً . وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث . قال : فإني إذا متُّ ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك ، فأنزل الله تعالى . ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتينَّ مالاً وولداً – إلى قوله تعالى – ويأتينا فرداً ﴾ أخرجه صاحبا الصحيح وغيرهما . وقوله تعالى : ﴿ اطلع الغيب ﴾ إنكار على هذا القائل : ﴿ لأوتيَنَّ مالاً وولداً ﴾ يعني يوم القيامة أي أعلمَ ماله في الآخرة حتى تألَّى وحلف على ذلك ﴿ أم اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ أم له عند الله عهد وموثق بأنه سيؤتيه ذلك ؟ وقال ابن عباس قال : لا إله الا الله فيرجو بها ؟ وقوله تعالى : ﴿ كلاَّ ﴾ حرف ردع لما قبلها ، وتأكيد لما بعدها ؛ ﴿ سنكتب ما يقول ﴾ أي من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما يتمنّاه وكفره بالله العظيم ﴿ ونمدُّ له من العذاب مدّا ﴾ أي في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ من مال وولد أي نسلبه ماله وولده وكل ما كان في الدنيا ، ﴿ ويأتينا فرداً ﴾ أي لا يتبعه مما قال كثير ولا قليل .

﴿ وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۞ (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۞ (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ۞ (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ۞ (٨٤) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم اتخذوا من دونه آلهة يعتزون بها ويستنصرونها ثم نفى الله

تعالى ما زعموه فقال عزّ من قائل : ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ويكونون عليهم ضدّاً ﴾ أي بخلاف ما ظنوا فيهم وزعموه فإذا بهم أصبحوا ضداً لهم وخصماء أشداء وأعداء ألداء ، وأعوانا عليهم تخاصمهم وتكذّبهم كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزّاً ﴾ أي تطغيهم طغياناً جزاء ما تنكبوا عن طرق الحق . وذلك كما قال تعالى : ﴿ ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيّضْ له شيطاناً فهو له قرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعدّ لهم عدّاً ﴾ أي لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم ﴿ إنّما نعدّ لهم عدّاً ﴾ أي إنّما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله كقوله تعالى : ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ نمتّعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذابٍ غليظ ﴾ .

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْداً * (٨٥) وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً * (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْداً * (٨٧) ﴾

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا ، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم ، وأطاعوهم فيما أمروهم به ، وانتهوا عما عنه زجروهم ، أنه يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه ، والوفد هم القادمون ركباناً ، والوفود إلى الله تعالى وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون إلى خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم ، فإنهم يساقون عنفاً إلى النار ﴿ ورداً ﴾ عطاشاً قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم وههنا يقال : ﴿ أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ وقال ابن أبي حاتم عن ابن مرزوق : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قال يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحاً فيقول : من أنت ؟ فيقول أما تعرفني ؟ فيقول : لا ، إلاّ أن الله قد طيب ريحك ، وحسّن وجهك فيقول أنا عملك الصالح وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل

طيبه في الدنيا ، فطالما ركبتك في الدنيا فهلمّ اركبني فيركبه، فذلك قوله تعالى : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل في مسند أبيه عن النعمان ابن سعيد قال : كنا جلوساً عند علي رضي الله عنه ، فقرأ هذه الآية : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ قال : لا والله ما على أرجلهم يحشرون ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم يرَ الخلائق مثلها ، عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة . وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عبد الرحمن بن اسحق المدني به ، وزاد عليها : رحائل من ذهب وأزمتها الزبرجد والباقي مثله .

وقوله تعالى : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾ أي عطاشاً ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ أي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض كما أخبر تعالى عنهم : ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ، ولا يرجو إلا الله عز وجل . وقال ابن أبي حاتم عن الأسود بن يزيد قال : قرأ عبد الله يعني ابنَ مسعود هذه الآية : ﴿ إلاّ من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ ثم قال : اتخذوا عند الله عهداً فإن الله يقول يوم القيامة من كان له عند الله عهد فليقم قالوا : يا أبا عبد الرحمن فعلِّمنا : قال : قولوا : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلْني إلى عملي يقرّبني من الشر ويباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلاّ برحمتك ، فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إليّ يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد » وكان يلحق ابن مسعود بهن ، خائفاً مستجيراً مستغفراً راهباً راغباً إليك .

﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَداً ۞ (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا ۞ (٨٩) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۞ (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَداً ۞ (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ۞ (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا آتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْداً ۞ (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْداً ۞ (٩٥) ﴾

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه الصلاة والسلام وذكر خلقه من مريم بلا أب ، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً ، تعالى وتقدس وتنزّه عن ذلك ، فقال سبحانه وتعالى علواً كبيراً : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم ﴾ أي في قولكم هذا ﴿ شيئاً إدّاً ﴾ أي عظيماً ، وقوله تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً * أن دعوا للرحمن وَلَدا ﴾ أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظاماً للرب وإجلالا ، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده ، وأنه لا إله إلاّ هو ، وانه لا شريك له ولا نظير له ، ولا ولد له ، ولا صاحبة له ، ولا كفء له بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . قال ابن جرير عن ابن عباس : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين . وكادت أن تزول منه لعظمة اللهَ ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين ، وقال رسول الله ﷺ : ١٤٥ [لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله ، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة ، فقالوا يا رسول الله فمن قالها في صحته ؟ قال تلك أوجب وأوجب ثم قال : « والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن ، فوضعوه في كفة الميزان ، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن] هكذا رواه جرير ، ويشهد له حديث البطاقة ، والله أعلم .

قال الضحاك : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ أي يتشققن فرقاً من عظمة الله الله تعالى . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وتنشق الأرض ﴾ أي غضباً له عز وجل ﴿ وتخر الجبال هدّاً ﴾ قال ابن عباس : هدماً وقال سعيد بن جبير : هداً ينكسر بعضها على بعض متتابعات . روى الإمام أحمد عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ١٤٦ [لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ان يُشرك به ويُجعل له ولد ، وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم] أخرجاه في الصحيحين .

وقوله تعالى : ﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ أي لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته ، لأنه لا كفء له من خلقه ، وكلهم عبيد له ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلاّ آت الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عداً ﴾ أي قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ أي لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له ، فيحكم في خلقه بما يشاء وهو العادل الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ❁ (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدًّا ❁ (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ❁ (٩٨) ﴾

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وهي الأعمال التي ترضي الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبةً ومودة وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه ، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ١٤٧ [ان الله إذا أحب عبداً دعا جبريل ، فقال : يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه ــ قال ــ فيحبه جبريل ، قال : ثم ينادي في أهل السماء : ان الله يحب فلاناً فأحبوه ، قال : فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض ، وان الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني ابغض فلاناً فأبغضه قال فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال : فيبغضه أهل السماء ثم يوضع له البغضاء في الأرض] . ورواه مسلم من حديث سهيل ، ورواه أحمد والبخاري من حديث ابن جريج عن موسى بن عتبة عن نافع مولى ابن عمر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ نحوه .

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ١٤٨ . [إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إني قد أحببت فلانا فأحبه ، فينادي في السماء ، ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض] فذلك قول الله عز وجل : ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا ﴾ ورواه مسلم والترمذي وقال : حسن صحيح .

وقال ابن أبي حاتم عن الحسن البصري رحمه الله قال : قال رجل : والله لأعبدن الله عبادة أذكرُ بها ، فكان لا يُرى في حين الصلاة إلا قائماً يصلي ، وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج ، فكان لا يعظم فمكث بذلك سبعة أشهر ، وكان لا يمر على قوم إلا قالوا : انظروا إلى هذا المرائي ، فأقبل على نفسه فقال : لا أراني أذكر إلاّ بشر ،

لأجعلن عملي كلّه لله عز وجل ، فلم يزد على ان قلب نيته ، ولم يزد على العمل الذي كان يعمله ، فكان يمر بعد بالقوم فيقولون : رحم الله فلانا الآن وتلا الحسن : ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فانما يسرناه ﴾ يعني القرآن ﴿ بلسانك ﴾ أي يا محمد . وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل — ﴿ لتبشر به المتقين ﴾ أي المستجيبين لله المصدقين لرسوله ﴿ وتنذر به قوماً لدّاً ﴾ أي عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل لا يستقيمون صماً فجاراً . وقوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرنٍ ﴾ أي من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله : ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمعُ لهم ركزاً ﴾ أي هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم من صوت . والركز في أصل اللغة: الصوت الخفي. آخر اختصار تفسير سورة مريم ولله الحمد والمنة

١٣٨٩/٨/٢٧
١٩٦٩/١١/٧

(٢٠) سُورَةُ طه مكيّة وآياتها خمس وثلاثون ومائة

سوى آيتي ١٢٠ و ١٢١ فمدنيتان

نزلت بعد مريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً
لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾
ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ
يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته . وقوله تعالى : ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ قال قتادة : أي لا والله ما جعله شقاءً ولكن جعله رحمةً ونوراً ودليلاً إلى الجنة ﴿ إلاّ تذكرة لمن يخشىٰ ﴾ أي إنَّ الله أنزل كتابه وبعث رسوله رحمةً رحم بها عباده ليتذكر ذاكر ، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذكرٌ أنزل الله فيه حلاله وحرامه . وقوله تعالى : ﴿ تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلىٰ ﴾ أي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك ، ربِّ كل شيء ومليكه القادر على كل شيء والذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها ، وخلق السموات العلى في ارتفاعها ولطافتها . وقوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوىٰ ﴾ تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضاً[1] ، وان المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف ، إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة ، من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل . وقوله تعالى : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ أي الجميع ملكه ، وفي قبضته ، وتحت تصرفه ومشيئته وإرادته وحكمه وهو خالق ذلك ومالكه وإلهُه لا إله سواه ولا رب غيره .

(١) راجع سورة الأعراف الآية /٥٤/

وقوله تعالى : ﴿ وإن تجهر بالقول فإنَّه يعلم السرَّ وأخفى ﴾ أي أنزل هذا القرآنَ الذي خلق الأرض والسموات العُلىٰ الذي يعلم السر وأخفى .كما قال تعالى : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ السّر ﴾ ما أسرّه ابن آدم في نفسه ، ﴿ وأخفىٰ ﴾ ما أخفي على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه ، فالله يعلم ذلك كله. وقوله تعالى : ﴿ الله لا اله إلاّ هو له الأسماء الحسنى ﴾ أي الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلاَّ هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العُلىٰ ؛ وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى في أواخر سورة الأعراف ولله الحمد والمنة .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾

من هنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى عليه السلام ، وكيف كان الوحي إليه وتكليمه إياه ، وذلك بعدما وفىَّ صهره ما كان عليه من رعاية الغنم ، وسار بأهله قاصداً بلاد مصر ومعه زوجته فأضلّ الطريق وكانت ليلة شاتية باردة،ذات ظلام وضباب فجعل يقدح بزند معه ليوري ناراً كما جرت به العادة ، فجعل لا يقدح شيئاً ولا يخرج منه شرر ولا شيء ، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطّور ناراً فبشّر أهله : ﴿ إني آنست ناراً لعليّ آتيكم منها بقبس ﴾ أي شهاب من نار ليستضيء ويصطلي هو وأهله ﴿ أو أجد على النار هدىٰ ﴾ أي أجد من يهديني الطريق فدل على أنه لم يهتد إلى الطريق فلما رأى النار قال : ان لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق أتيتكم بنارٍ توقدون بها

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ

نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۞ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ۞ (١٦)

يقول تعالى : ﴿ فلما أتاها ﴾ أي النار واقترب منها ﴿ نوديَ ﴾ من قِبَل الله ، ﴿ يا موسى ﴾ وفي الآية الأخرى : ﴿ نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله ﴾ وقال ههنا : ﴿ إني أنا ربّك ﴾ الذي يكلّمك ﴿ فاخلع نعليك ﴾ تعظيماً للبقعة المقدسة فـ ﴿ إنك بالوادي المقدس طوىً ﴾ وهو اسم الوادي ، وقوله تعالى : ﴿ وأنا اخترتك ﴾ كقوله عز وجلّ : ﴿ إني اصطفيتك على الناس ﴾ أي على ناس زمانه ﴿ فاستمعْ لما يوحى ﴾ أي لما أوحيه إليك : ﴿ إنني أنا الله لا إلَه إلاّ أنا ﴾ وهذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إلَه إلا الله وحده لاشريك له. وقوله تعالى : ﴿ فاعبدني ﴾ أي قم بعبادتي وحدي من غير شريك . ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ أي صلِّ عند ذكرك لي : ويشهد لهذا القول ما جاء في الصحيحين عن أنس قال قال رسول الله ﷺ ١٤٩ [من نام عن صلاة أونسيها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلاّ ذلك] وقوله تعالى : ﴿ إن الساعة آتية ﴾ أي قائمة لا محالة وكائنة لا بد منها . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أكاد أخفيها ﴾ أي اخفيها عن كل مخلوق ولم أُعلِمْ بموعدِها أحداً ، وأكاد أخفيها حتى من نفسي [١] والحكمة من ذلك : ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ أي من أجل أن أجزي كل عامل بعمله . وقوله تعالى : ﴿ فلا يصدنّك عنها من لا يؤمن بها ﴾ الآية ... المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة وأقبل على دنياه وعصى مولاه ، وأتبع هواه فتهلكوا .

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ۞ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۞ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ۞ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۞ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۞ (٢١)

---

(١)قلت : مبالغة في شدة الإخفاء وهذا معروف من لغة العرب . وإلا فإن الله لاتخفى عليه خافية

هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام ، ومعجزة عظيمة ، وخرق للعادة ، باهرٌ دالٌّ على انه لا يقدر على مثل هذا إلاَّ الله عز وجل ، وأنه لا يأتي به إلاَّ نبيٌّ مرسل .

وقوله تعالى : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ هذا سؤال على سبيل الإيناس له كما هو أيضاً استفهام تقرير ﴿ قال هي عصاي أتوكأ عليها ﴾ أي أعتمد عليها في المشي ﴿ وأهش بها على غنمي ﴾ أي أهزّ بها الشجرة برفق ليتساقط ورقها لترعاه غنمي وقوله : ﴿ ولي فيها مآرب أخرى ﴾ أي مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك ، وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية التي كانت تقول أنَّ له فيها بعض الخوارق ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعباناً فما كان يفرُّ منها هارباً . وقوله تعالى : ﴿ قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعىٰ ﴾ أي صارت حالاً ثعباناً عظيماً يتحرك حركة سريعة ، كأنها جان.وهو أكثر الحيات حركةً ولكنه صغير ، أما هذا الثعبان فهو في غاية الكبر وغاية السرعة فخاف منها خوفاً شديد وفرّ منها هرباً فقال تعالى : ﴿ خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى ﴾ فحاول موسى أن يأخذها بطرف مدرعته ولفّها على يده فقال له ملك: أرأيت يا موسى لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئاً ؟ قال لا ولكني ضعيف ومن ضعف خلقت ، فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حس الأضراس والأنياب ، ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدها وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ سنعيدها سيرتها الأولىٰ ﴾ أي حالها التي تعرف قبل ذلك . .

۞ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۞ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا ٱلْكُبْرَىٰ ۞ (٢٣) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۞ (٢٤) قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۞ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۞ (٢٦) وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۞ (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ۞ (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ۞ (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي ۞ (٣٠) ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ (٣١) وَأَشْرِكْهُ

فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ﴿٣٥﴾

وهذا برهان ثان لموسى عليه الصلاة والسلام وذلك قوله تعالى : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ أي كفّك تحت عضدك ، وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها ، تخرج متلألئةً كأنها فلقةُ قمر . وقوله تعالى : ﴿ تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ أي من غير برص ولا أذى ، ولا شين فعلم موسى انه قد لقي ربّه عز وجل.ولهذا قال تعالى : ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إذهب إلى فرعون إنه طغىٰ ﴾ أي إذهب إلى فرعون الذي خرجت منه هارباً ، فادْعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ومُرْهُ فليحسنْ إلى بني اسرائيل ولا يعذبهْم فانه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ونسي الربَّ الأعلى . ﴿ قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ هذا سؤآل من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدرَه فيما بعثه به فإنه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم ، بعثه إلى أعظم ملك علىٰ وجه الأرض إذ ذاك ، وأجبرهم وأشدهم كفراً ، واكثرهم جنوداً ، وأعمرهم ملكاً ، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً ، بلغ من أمره أن ادّعى أنه لا يعرف الله ، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره ؛ هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه ، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه فهرب منهم هذه المدة بكمالها ، ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له. ولذا قال موسى : ﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ أي إن لم تكن أنت عوني ونصيري وعضدي وظهيري وإلاّ فلا طاقة لي بذلك ﴿ واحْلل عقدةً من لساني يفقهوا قولي ﴾ وذلك لما أصابه من اللثغُ حين عرض عليه التمرة والجمرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، كما سيأتي بيانه ، وما سأل أن يزول بالكلية بل بحيث يزول العيّ ، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة ، ولو سأل الجميع لزال ولكن الأنبياء لا يسألون إلاّ بحسب الحاجة فآتاه الله سؤْلَه فحل عقدة لسانه وقوله : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ﴾ وهذا سؤآل من موسى عليه السلام بمساعدة أخيه هارونَ له قال الثوري عن ابن عباس أنه قال : نُبِّىءَ هارونُ ساعتئذ حين نبىء موسى عليهما السلام . وقوله : ﴿ اشددْ به أزري ﴾ قال مجاهد : أي ظهري ﴿ وأشركه في أمري ﴾ أي في مشاورتي ﴿ كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ﴾ قال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً

ومضطجعاً. وقوله : ﴿ إنك كنت بنا بصيراً ﴾ أي في اصطفائك لنا وإعطائك إيانا النبوَّة وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون فلك الحمد على ذلك.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ❁ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ❁ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ❁ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ❁(٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾

وقوله تعالى : ﴿ قال قد أوتيتَ سؤلك يا موسى ﴾ هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام فيما سأله ربه من حل عقدة اللسان ، وجعلِ هارونَ أخيه وزيراً يشد به أزره ونبياً مرسلاً معه ، ثم شرع سبحانه يذكره بنعمه السالفة عليه فيما كان من أمر أمه حين كانت ترضعه ، وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه ، لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان ، فاتخذت له تابوتاً ، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه وترسله في النيل، وتمسكه إلى منزلها بحبل ، فذهبت مرة لتربط الحبل فانفلت منها ، وذهب به النيل فحصل لها من الهم والغم ما ذكره الله عنها في قوله تعالى : ﴿ وأصبح فؤآد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ فذهب به النيل إلى دار فرعون ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ أي قدراً مقدوراً من الله حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني اسرائيل حذراً من وجود موسى ، فحكم الله وله السلطان العظيم والقدرة التامة أن لا يربّى إلا على فراش فرعون ، ويغذىٰ بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له ولهذا قال تعالى : ﴿ يأخذه عدو لي وعدو له ❁ وألقيت عليك محبة مني ﴾ أي عند عدوك جعلته يحبك ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ أي بحيث أرى ... فجعلتك في بيت الملك تنعم وتترف ، وغذاؤك عندهم غذاء الملك ، فتلك الصنعة.

وقوله تعالى : ﴿ إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى امك كي تقرَّ عينها ﴾ وذلك انه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأباها ،كما قال الله تعالى : ﴿ وحرّمنا عليه المراضع من قبل ﴾ فجاءت أخته وقالت : ﴿ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ تعني هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة ، فذهبت به وهم معها إلى أمه فعرضت عليه ثديها ، فقبله ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، واستأجروها على إرضاعه فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا ، وفي الآخرة أعظم وأجزل ، ولهذا جاء في الحديث ١٥٠[مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها .] .

وقال تعالى ها هنا : ﴿ فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن ﴾ أي عليك ﴿ وقتلتَ نفساً ﴾ يعني القبطي ﴿ فنجيناك من الغم ﴾ وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله ، ففرّ منهم هارباً حتى ورد ماء مدين وقال له ذلك الرجل الصالح : ﴿ لا تخف نجوتَ من القوم الظالمين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وفتنّاك فتوناً ﴾ روى النسائي رحمه الله في كتاب التفسير من سننه قوله﴿وفتنّاك فتوناً﴾بسنده إلى سعيد بن جبير قال سأل عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل : ﴿ وفتنّاك فتوناً ﴾ فسألته عن الفتون ما هو ؟ . فقال : استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً. فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون فقال : « ... وهنا قال ابن عباس حديثاً طويلاً موقوفاً عليه ، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه وكأنه تلقاه ابن عباس رضي الله عنه مما أبيح نقله من الاسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره والله أعلم .

ونحن نقتطف منه خلاصةً نحرص بقدر الإمكان ان تكون موافقة للواقع الذي حصل إذ ذاك.وذلك مما يوافق ما جاء في القرآن الذي نزل على نبينا محمد ﷺ .

يتلخص حديث الفتون الذي رواه ابن عباس موقوفاً عليه بمنّ الله تعالى على موسى عليه السلام منذ أن كان جنيناً في بطن أمه إلى أيام التيه ونزول المن والسلوى على بني اسرائيل فيها وضرب موسى الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها .

• وهنا نذكر أولاً : قرر فرعون أن يذبح كل مولود من بني اسرائيل ذكراً ويترك الأنثى لكيلا يأتي من ذرية إسرائيل ملك يقضي على فرعونَ وملكهِ ، فلمّا رأوا أن الكبار

من بني اسرائيل يموتون بآجالهم ، والصغار يذبحون قالوا : ليوشكنْ أن تُفنوا بني اسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر واتركوا بناتهم ، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً فقدر الله ان يلد هارون في العام الذي يعفى فيه الذبح،وولد موسى في العام المقرر فيه ذبح الذكور.فوقع في قلب أمه من الهم والحزن ما دخل عليه وهو في بطن أمه مما يراد به . وذلك من الفتون يا ابن جبير .

* ولما ولد موسى وألهم الله أمه أن تصنع تابوتاً وتجعله فيه وتلقيه في اليم إلى أن يصل إلى قصر فرعون ويلتقطه جواري امرأة فرعون ويعطينها إياه فتفتحه واذ بغلام ويلقي عليها الله محبةً منه في قلبها وتفرح به ، وتعرضه على المراضع فيأبى المولود أن يرضع من أحد إلى أن أتت أخت موسى التي كانت تتحسس خبر اخيها الوليد إلى أن رأته في بيت فرعون يفتشون له عن مرضع فلا يجدون.فقالت اخته أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فأخذوها فقالوا : ما يدريك ما نصحهم له هل تعرفينه ؟ حتّى شكّوا في ذلك – وذلك من الفتون يا ابن جبير – فقالت : نصحهم له هو رغبتهم في رجاء منفعة الملك فتركوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر فجاءت أمه فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصّه حتّى امتلأ جنباه ريّاً وانطلق البشير إلى امرأة فرعون فأتت بها وبه وراودتها على البقاء في بيت فرعون فاعتذرت لعدم استطاعتها ترك بيتها وولدها وذكرت أم موسى ما كان وعدها الله فيه فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت ان الله منجز وعده فرجعت به إلى بيتها من يومها وأنبته الله نباتاً حسناً وحفظه لما قد قضى فيه .

* طلبت امرأة فرعون من أم موسى أن تأتي بموسى لشدة شوقها إليه في زيارة لها فلما زارتها نحلت أمه الهدايا واخذته إلى فرعون ليهديه ويكرمه فلما جعله في حجره تناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون ألا ترى إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه ، وذلك من الفتون يا ابن جبير فتداخلت امرأة فرعون في الأمر وقالت هذا وليد لا يعقل إئت بجمرتين ولؤلؤتين فقدمهن اليه فإن أخذ اللؤلؤتين عرفت انه يعقل وان تناول الجمرتين علمت أن أحداً يعقـــل لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين فتناول الجمرتين فقالت المرأة : ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد همّ به .

* ولما بلغ أشده ورأى القبطي يريد قتل الإسرائيلي واستغاثة الإسرائيلي فوكز القبطي فقتله وما أحد يعلم ذلك إلا الله ثم الإسرائيلي فقال موسى حين قتل الرجل : هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين.ثم قال : ﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو

الغفور الرحيم﴾ ثم في الغد رأى موسى ذلك الإسرائيلي يقاتل قبطياً آخر فاستغاثه الاسرائيلي على الفرعوني القبطي فقال موسى للاسرائيلي إنك لغويّ مبين فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال فإذا موسى غضبان كغضبه بالأمس ، فخاف ان يكون موسى أراد قتلَه ـ ولم يكن يريد موسى قتله بل كان يريد أن يقتل الفرعوني ـ فخاف الإسرائيلي وقال : يا موسى أتريد ان تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس فتاركا وانطلق الفرعوني ليخبر فرعون بما سمع من الاسرائيلي فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى فجاء رجل من شيعته فاخبره . وذلك من الفتون يا ابن جبير .

ثم ذكر وصوله إلى مدين ونجاته من فرعون وزواجه بإحدى ابنتي ذلك الرجل الصالح(١) في مدين . ثم إتمام عدة الثماني سنوات التي رعى فيها موسى لذلك الصالح غنمه ثم أتمها بعشر . ثم لما انهى العشر وسار موسى بأهله وقال لهم : إني آنست ناراً فذهب ليأتي منها بقبس واذ نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة إني انا الله ... ثم اطلعه الله على معجزة العصا كيف تنقلب إلى حية ثم معجزة اليد ثم كلفه بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى الله ثم طلب موسى أن يشرك أخاه هارون في أمره ثم الذهاب إلى فرعون والقاء العصا ولألأة اليد ، ثم حشر السحرة والقاء عصيهم وحبالهم ثم القاء موسى عصاه فإذا هي ثعبان عظيم ما أبقى عصاً ولا حبلاً الأ ابتلعه ، ثم إيمان السحرة بالله تعالى وغضب فرعون عليهم وقتلهم لأنهم آمنوا ، وموقف امرأة فرعون المؤمنة التي كانت تدعو الله ان ينصر موسى على فرعون واشياعه ثم ارسال الطوفان على قوم فرعون والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات لعلّهم يؤمنون. فما زادهم ذلك إلا عتوّاً وكفراً وكان فرعون كلما أتته آيةٌ من الله يستغيث بموسى أن يكفّها عنه ويُواثقه على أن يرسل معه بني اسرائيل، فإذا كف عنهم ذلك أخلف فرعون موعده ونكث عهده . حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً فتبعه فرعون صباحاً بجنوده فضرب موسى البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى فانفرق البحر كما أمره ربه ، فلما أن جاز موسى واصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه التقىُ عليهم البحر كما أمره ربه ، فغرق فرعون وجنوده وخشي قوم موسى أن لا يكون فرعون قد غرق فعلاً، فأخرجه الله من البحر ليطمئنوا ويفرحوا بغرقه، ويروا آية الله فيه ظاهرةً جليةً . ثم مَرّوا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم : ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قومٌ تجهلون إن هؤلاء متّبرٌ ما هم فيه ﴾ الآية ... ثم

---

(١) يقال انه نبي الله شعيب والله تعالى أعلم .

استخلف موسى أخاه هارون على قومه لذهابه إلى ربه ثلاثين يوماً وقد صامهن ليلهن ونهارهن ثم أتمهن بعشر بأمر الله ثم لما استبطأ قوم موسى نبيهم عليه الصلاة والسلام ..

أضلهم السامري فعبدوا العجل ولم يصغوا إلى ردع هارون لهم عن ذلك ففرقة منهم عبدوا العجل وأخرى قالت هذا من عمل الشيطان وليس العجل ربنا ولا نؤمن به ، ثم رجع موسى إلى قومه ورآهم على ذلك فغضب وأسف أسفاً شديداً وأخذ برأس أخيه يجره وألقى الألواح من الغضب ثم عذر أخاه بعذره واستغفر له ، ثم حرق العجل ونسفه في اليم فاستيقن بنو اسرائيل أنه ليس آلهاً ثم سأل موسى عليه السلام التوبة لقومه مما فعلوا فقال الله : إن توبتهم ان يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل حتى بلغ القتل سبعين ألفاً ثم رفع الله عنهم القتل وغفر للقاتل والمقتول .

ثم سار موسى متوجهاً بهم إلى الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب وأمرهم بأن ينقذوا الأرض المقدسة ممن فيها ، قالوا ان فيها قوماً جبارين لا طاقة لنا بهم ، ولن ندخلها ما داموا فيها قال رجلان منهم : نعم من الجبارين ولكن لا قلوب لهم ولا منعة لهم فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فانكم الغالبون . قالوا لموسى عليه السلام : إذهب انت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون فغضب موسى ودعا عليهم فحرم الله الأرض المقدسة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ليس لهم فيها قرار ثم ظلل الله عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل لهم حجراً يتنقل معهم إذا ضربه موسى بعصاه انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً . وعلم كل أناس مشربهم ، أي كل سبط من أسباطهم علموا مشربهم.هذا تفسير قوله تعالى : ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ أي أنقذناك وتوليناك في كل ما مر عليك من هذه الفتون وخرجت منها مرعياً بعناية الله محفوفاً بتأييده ونصره ولله الحمد والمنـــة .

﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ۞ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۞ (٤١) اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۞ (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۞ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۞ (٤٤) ﴾

يخاطب تعالى موسى عليه السلام إنه لبث مقيماً في أهل مدين فاراً من فرعون وملئه ، يرعى على صهره قوله ﴿ ثم جئت على قدريا موسى ﴾ أي على موعد ﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ اي اخترتك رسولاً لنفسي كما أريد وأشاء . وقوله تعالى : ﴿ إذهب انت واخوك بآياتي ﴾ أي بمعجزاتي ، ﴿ ولا تنيا في ذكري ﴾ أي لا تضعفا ولا تفترا في ذكر الله تعالى ليكون ذكر الله عوناً لهما على فرعون وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له ، كما جاء في الحديث ١٥١ [إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه] وقوله تعالى : ﴿ إذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ أي تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه ﴿ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ وهذه الآية فيها عبرة عظيمة في أسلوب الدعوة في اللين والملاطفة كما قال يزيد الرقاشي : يا من يتحبب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاّه ويناديه ؟ .

اي ذكراه بأن له رباً وله معاداً وهناك جنة ونار .كل ذلك يكون بكلام رقيق سهل لين ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع . كما قال تعالى : ﴿ أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة أو يخشى ربّه ، فالتذكر الرجوع عن المحذور والخشية تحصيل الطاعة كل ذلك لإقامة الحجة عليه وإنذاره قبل عقابه .

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ۞ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۞ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ۞ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۞ (٤٨) ﴾

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام ، أنهما قالا مُستجيرْين بالله تعالى ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ يعنيان انهما يخافان أن يبطش بهما ويعتدي عليهما : ﴿ قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ أي لا يخفى عليَّ من أمركما شيء واعلما أن ناصيته بيدي ، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلاّ بإذني ، وبعد أمري ، وانا معكما بحفظي ونصري وتأييدي .

وقوله تعالى : ﴿ فأتياه فقولا إنّا رسولا ربك ﴾ عن ابن عباس انه قال مكثا على بابه حيناً لا يؤذن لهما حتى أذن لهما بعد حجاب شديد . وذكر السدي أنه لما قدم موسى بلاد مصر ضاف أمّه وأخاه وهما لا يعرفانه ، ثم عرفاه وسلما عليه فقال له موسى : يا هارون ان ربي قد أمرني أن آتي هذا الرجل فرعون فأدعوه إلى الله وأمرك ان تعاونني . قال : افعل ما أمرك ربك ، فذهبا وكان ذلك ليلاً ، فضرب موسى باب القصر بعصاه فسمع فرعون فغضب وقال : من يجترىء على هذا الصنيع الشديد ، فأخبره السدنة والبوابون بأن ها هنا رجلاً مجنوناً يقول انه رسول الله فقال : عليَّ به قالا : ﴿ إنّا رسولا ربك فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ﴾ أي قد جئناك بمعجزة من ربك والسلام عليك ان اتبعت الهدى ﴿ إنّا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه الينا من الوحي المعصوم ان العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته ، كما قال تعالى : ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى ﴾ .

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * (٤٩) قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ * (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى * (٥٢) ﴾

يخبر تعالى عن فرعون أنه أنكر على موسى وجود الصانع الخالق إلّه الكون وربه ومليكه ﴿ قال فمن ربكما يا موسى ﴾ أي مَن الذي أرسلك فإني لا أعرفه وما علمت لكم من إلّه غيري ﴿ قال ربنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلقه ثم هدى ﴾ قال سعيد بن جبير : أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه ، ولم يجعل للانسان من خلق الدابة ولا للدابة من خلق الكلب ، ولا للكلب من خلق الشاة وأعطى كل شيء ما ينبغي له ، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله ﴿ قال فما بال القرون الأولى ﴾ أي أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى شرع يحتج بالقرون الأولى ، أي الذين لم يعبدوا الله ، أي فما بالهم فقال موسى : هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله ، وهو اللوح المحفوظ ، وكتاب

الأعمار ﴿ لا يضلُّ ربي ولا ينسى ﴾ أي لا يشذ عنه شيء ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً وهو بكل شيء محيط بعلمه تبارك وتعالى وتقدس وتنزه. فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان: أحدهما عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزه الله نفسه عن ذلك.

ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ ۞ (٥٣) كُلُوا وَٱرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي ٱلنُّهَىٰ ۞ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۞ (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۞ (٥٦)

ربع الحزب

هذا من تمام كلام موسى عليه السلام فيما وصف به ربّه عز وجل حين سأله فرعون عنه فقال: ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ ثم اعترض الكلام بين ذلك ثم قال: ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾ أي قراراً تستقرون عليها، وتقومون وتنامون عليها، وتسافرون على ظهرها ﴿ وسلك لكم فيها سبلاً ﴾ أي جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها، كما قال تعالى: ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلّهم يهتدون ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتّى ﴾ أي من أنواع النباتات من زروع وثمار ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ أي شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضراً ويبساً ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي لدلالات وحججاً وبراهين ﴿ لأولي النهى ﴾ أي لذوي العقول السليمة المستقيمة، على انه لا إله إلا الله ولا رب سواه. ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ أي من الأرض مبدأكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض وفيها نعيدكم أي وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى كقوله تعالى: ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ وفي الحديث الذي في السنن ١٥٢] ان رسول الله ﷺ حضر جنازة فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر وقال: « منها خلقناكم » ثم أخذ أخرى وقال: « وفيها نعيدكم »

ثم أخرى وقال : « ومنها نخرجكم تارة أخرى »]

وقوله تعالى : ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذّب وأبى ﴾ يعني فرعون.أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات ، وعاين ذلك وأبصره فكذّب بها وأباها كفراً وعناداً وبغياً كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ الآية ...

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ۞ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوًى ۞ (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۞ (٥٩) ﴾

يخبر تعالى عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً ، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء ، فقال : هذا سحر جئت به لتسحرنا ، وتستولي به على الناس فيتبعونك ، وتكاثرنا بهم فلن نمكّنك ، فإنّ سحرنا مثل سحرك الذي أنت مغترٌّ به ﴿ فاجعل بيننا وبينك موعداً ﴾ أي يوماً نجتمع فيه في مكان معين لا نخلفه نحن ولا أنت ، عندها ﴿ قال ﴾ لهم موسى ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ وهو يوم عيدهم وتفرغهم واجتماعهم . ليشاهدَ الناسُ قدرةَ الله على كل شيء ، ويثبت لديهم ان معجزات الأنبياء تبطل معارضة السحر لها.ولهذا قال ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ ليكون الأمر أظهرُ وأجلى ، وهكذا شأن الأنبياء ، فإن كل أمرهم واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج قال ابن عباس : وكان يوم الزينة هو يوم عاشوراء ، وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده كما ثبت في الصحيح .

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ۞ (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۞ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَىٰ ۞ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ

مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ۞ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ۞ (٦٤)

يخبر تعالى عن فرعون أنه لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومين تولىّ أي شرع في جمع سحرة مملكته ، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً ، ثم اجتمع الناس في يوم الزينة الموعود فحضر فرعون واكابر دولته ورعاياه ، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئاً على عصاه ومعه أخوه هارون ، ووقف السحرة صفوفاً وفرعون يحرضهم ويرغبهم في العطايا إن هم تغلبوا على موسى ﴿ قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً ﴾ أي لا تخيلوا للناس بأعمالكم ... إيجاد أشياء لا حقائق لها وأنها مخلوقة ، وليست مخلوقة فتكونون قد كذبتم على الله ﴿ فيسحتكم بعذاب ﴾ أي يهلككم بعذاب هلاكاً لا بقية له ﴿ وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم ﴾ أي اختلفوا بينهم فمن يقول ليس هذا بكلام ساحر انما هذا كلام نبي وآخر يقول بل هو ساحر ﴿ وأسرُّوا النجوى ﴾ أي تناجوا بينهم : ﴿ قالوا إن هذان لساحران ﴾ وهذه لغة لبعض العرب ومنهم من قرأ : ﴿ إنْ هذان لساحران ﴾ وهذه اللغة المشهورة ، والغرض ان السحرة قالوا عن موسى وهارون ساحران عالمان خبيران بصنعة السحر يريدان في هذا اليوم ان يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس ، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده ويخرجاكم من أرضكم ﴿ ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ أي ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر وتنتهي اليهما الرياسة ويذهبا بملكنا ومعاشنا ويصرفا الناس عنا . ويتصرفا هما وبنو اسرائيل بأموالنا وما نحن فيه من الملك والعيش الرغيد ﴿ فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً ﴾ أي اجتمعوا كلكم صفاً واحداً والقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبهروا الابصار ، وتغلبوا هذا وأخاه ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى أي منّا ومنه فإن علونا نحن نحظ بعطاء الملك الجزيل ، وإن علا موسى واخوه فينالا الرئاسة العظيمة .

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۞ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۞ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ۞ (٦٧) قُلْنَا لَا

تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْأَعْلَىٰ ❁ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ❁ (٦٩) فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ❁ (٧٠)

يخبر تعالى عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام انهم قالوا لموسى: ﴿ إما أن تلقيَ ﴾ أي أنت أولاً ﴿ وإما أن نكون أول من ألقىٰ * قال بل ألقوا ﴾ أي أنتم أولاً لنرى سحركم ، وليظهر للناس حقيقة دجلهم ﴿ فإذا حبالهم وعصيّهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ وذلك أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها ، وإنما كانت حيلة، وكانوا جماً غفيراً . حتى صار الوادي مليئاً بحيّات يركب بعضها بعضاً ﴿ فأوجس في نفسه خيفةً موسى ﴾ أي خاف على الناس ان يفتنوا بسحرهم ﴿ قلنا لا تخفِ إنك أنت الأعلىٰ * وألق ما في يمينك تلقفْ ما صنعوا ﴾ أي من الدجل والتمويه ، وذلك أنها صارت تنّيناً عظيماً هائلاً ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبقِ منها شيئاً إلا ابتلعته ، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهرةً نهاراً ضحوةً ، فقامت المعجزة واتضح البرهان ، ووقع الحق وبطل السحر ولهذا قال تعالى ﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ روى ابن أبي حاتم عن جندب بن عبدالله البجلي قال : قال رسول الله ﷺ ١٥٣ [« إذا أخذتم » ـ يعني الساحر ـ « فاقتلوه » ثم قرأ : ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ قال « لا يؤمَّن حيث وجد »] وقد روى أصله الترمذي موقوفاً ومرفوعاً .

فلما شاهد السحرة ذلك علموا علم اليقين أن ما فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل وانه حق لا مرية فيه ولا يقدر على هذا إلاّ الذي يقول للشيء كن فيكون، عندها خرُّوا سجداً لله تعالى وقالوا : ﴿ آمنا برب هارون و موسى ﴾ ولهذا قال ابن عباس وعبيد بن عمير : كانوا أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة قال ابن عباس كان عددهم سبعين رجلاً ، وعن سعيد بن جبير قال : رأوا منازلهم تبين لهم وهم في سجودهم وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بزة .

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۞ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ (٧٢) إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۞ (٧٣) ﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون ، وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة ، والآية العظيمة ، ورأى من استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم ، وغُلبَ كل الغلب شرع في المكابرة والبهت ، وعدل إلى استعماله جاهه وسلطانه في السحرة فتهددهم وتوعدهم وقال : ﴿ آمنتم له ﴾ أي صدقتموه ﴿ قبل أن آذن لكم ﴾ أي دون أن آمركم بذلك ، ثم بهت وكذب عليهم بقوله : ﴿ انه لكبيركم الذي علّمكم السحر ﴾ أي إنما أخذتم السحر عن موسى وهو الذي علمكموه ، واتفقتم معه على نصرته وخذلاني ثم أخذ يتهددهم فقال : ﴿فلأقطّعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ أي لأجعلنكم مثلة ، ولأقتلنكم ولأشهّرنكم قال ابن عباس فكان أول من فعل ذلك . وقوله : ﴿ ولتعلمن أيّنا أشدُّ عذاباً وأبقى ﴾ أي تدعون أنني على ضلالة وإنكم عليٌّ مع موسى وقومه ، فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه ، فهانت عليهم أنفسهم في الله عز وجل و ﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ أي لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين ﴿ والذي فطرنا ﴾ أي لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم ، فهو المستحق للخضوع والعبادة لا أنت ﴿ فأقض ما أنت قاض ﴾ أي فأفعل ما شئت ﴿ انما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ إنما تسلطك في هذه الدنيا وهي دار زوال ، ونحن قد رغبنا في دار القرار : ﴿ إنّا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ﴾ أي آثامنا ﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه . ﴿ والله خير وأبقى ﴾ أي خير لنا منك وأدوم ثواباً مما وعدتنا به ، وهكذا

كان فعل فرعون بهم رحمةً لهم من الله ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف : أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء .

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۞ (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ۞ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ۞ (٧٦) ﴾

وهذا من تمام وعظ السحرة لفرعون يحذرونه نقمة الله وعذابه السرمدي ، ويرغبونه في ثوابه المخلّد فقالوا : ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً ﴾ أي يلقاه يوم القيامة مشركاً ﴿ فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ ١٥٤ [« أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم فتميتهم إماتةً حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة جيء بهم ضبائر ضبائر ، فبثّوا على أنهار الجنة فيقال : يا أهل الجنة افيضوا عليهم فينبتون نبات الحبّة تكون في حميل السيل ﴾ فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية] وهكذا أخرجه مسلم . وقوله تعالى : ﴿ ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات ﴾ أي ومن لقي ربه مؤمناً قولاً وعملاً ﴿ فأولئك لهم الدرجات العلىٰ ﴾ أي الجنة ذات الدرجات العاليات ، والغرف الآمنات ، والمساكن الطيبات ، روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال ١٥٥ [« الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة ، ومنها تخرج الأنهار الأربعة ، والعرش فوقها ، فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس) ورواه الترمذي .

وفي الصحيحين ١٥٦ [إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء لتفاضل ما بينهم – قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء قال : بلىٰ والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين] وفي السنن : وإن ابا بكر وعمر لمنهم وأنعما . وقوله تعالى : ﴿ جنات عدن ﴾ أي إقامة وهي بدل من الدرجات العلىٰ ﴿ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أي ماكثين أبداً . ﴿ وذلك جزاء من تزكىٰ ﴾ أي طهر

نفسه من الدنس والخبث والشرك واتبع المرسلين .

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي ٱلْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَىٰ ۞ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۞ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ۞ (٧٩) ﴾

يخبر تعالى أنه أمر موسى عليه السلام أن يسري بقومه ليلاً حين امتنع فرعون ان يرسلهم معه فخرج موسى بقومه أجمعين ، فغضب فرعون غضباً شديداً وأرسل يجمع الجند من جميع بلدانه فتهيأ له جيش عظيم ساقه في طلب بني اسرائيل عند شروق الشمس فلما تراءى الجمعان ظنّ أصحاب موسى أنهم لمدركون ، فوقف موسى بقومه والبحر أمامهم وفرعون وراءهم ، فعند ذلك أوحى الله إليه : ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ فضرب البحر بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم فلم يعد بنو اسرائيل يخافون أن يدركهم فرعون ولا يخشون الغرق في البحر ثم قال تعالى : ﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ أي ما هو معروف ومشهور من الغرق الذي حاق بفرعون وقومه كما انه تقدمهم فسلك بهم في البحر فأضلهم واغرقهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد كذلك يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار فبئس الورد المورود . (١)

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۞ (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ۞ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۞ (٨٢) ﴾

---

(١) فماذا يقول المشفقون ...؟!

يذكر تعالى نعمه على بني اسرائيل العظامَ ومننه الجسام لانجائهم من عدوهم فرعون وأقرّ أعينهم بهلاكه وهم ينظرون إليه وإلى جنده فقد غرقوا صبيحة واحدة ، لم ينج منهم أحد ، كما قال تعالى : ﴿ وأغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون ﴾ روى البخاري عن ابن عباس قال ١٥٧[لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء ، فسألهم فقالوا : هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون فقال : « نحن أولى بموسىٰ فصوموه »] رواه مسلم في صحيحه أيضاً .

ثم انه تعالى واعد موسى وبني اسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن وهو الذي كلمه الله تعالى عليه ، وسأل فيه الرؤية ، واعطاه التوراة هنالك . وفي خلال ذلك عبد بنو اسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريباً ، أما المنّ فحلوى كانت تنزل عليهم من السماء،والسلوى طائر يسقط عليهم فيأخذون من كلٍ قدر الحاجة إلى الغد لطفاً من الله ورحمة بهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ﴾ أي لا تخالفوا أمري فتأخذوه من غير حاجة فأغضب عليكم ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ أي فقد شقي . وقوله تعالى : ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ أي كل من تاب إليَّ تبت عليه من أي ذنبٍ كان،وقوله تعالى : ﴿ تاب ﴾ أي رجع عما كان فيه من كفر وشرك أو معصية أو نفاقٍ وقوله تعالى : ﴿ وآمن ﴾ أي بقلبه . ﴿ وعمل صالحاً ﴾ أي بجوارحه ، وقوله تعالى : ﴿ ثم اهتدى ﴾ اي استقام على السنة والجماعة ولزم الاسلام حتى يموت وعلم أن لهذا ثواباً من الله تعالى .



۞ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ۞ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۞ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۞ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ۞ (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۞ (٨٧)

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۞ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً ۞ (٨٩)

لما سار موسى عليه السلام ببني اسرائيل بعد هلاك فرعون ﴿ وأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبرّ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها عشراً ، فتمت اربعين ليلة أي يصومها ليلاً نهاراً ، فسارع موسى مبادراً إلى الطور واستخلف على بني اسرائيل أخاه هارون ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري ﴾ أي قادمون ينزلون قريباً من الطور ﴿ وعجلت اليك رب لترضى ﴾ أي لتزداد عني رضا ﴿ قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ﴾ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني اسرائيل وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري . وقوله تعالى : ﴿ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ﴾ أي بعدما أخبره تعالى بذلك فأصبح في غاية الغضب والحنق عليهم ، فبينما هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم ، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم وفيها شرف لهم اذا بهم قد عبدوا غير الله ، ولهذا رجع اسفاً حزيناً غاضباً على ما صنع قومه من بعده من سخافة عقل، وشركٍ بالله الذي أنعم عليهم وأنقذهم ﴿ قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ﴾ على لساني ، كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من نعم الله ﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ أي أنسيتم ما سلف من نعمه تعالى وما بالعهد من قدم ﴿ أم اردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴾ ؟ بل اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم ﴿ فأخلفتم موعدي قالوا ﴾ أي بنو اسرائيل ﴿ ما أخلفنا موعدك بملكنا ﴾ أي باختيارنا وقدرتنا ﴿ ولكنّا حُملنا أوزاراً من زينة القوم ﴾ وهو تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر ﴿ فقذفناها فكذلك ألقى السامري * فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ﴾ وعن ابن عباس قال : إنما أراد هارون حين أمرهم بالقاء الحلي في حفرة فيها نار ، وإن يجتمع الحلي كله في تلك الحفيرة ، ويُجعَل حجراً واحداً حتى اذا رجع موسى عليه السلام ، رأى فيه ما يشاء ثم جاء ذلك السامري فألقى عليها القبضة التي أخذها من أثر الرسول الذي جاوز ببني اسرائيل البحر ، فمرّ بهارون فقال له هارون عليه السلام :

يا سامري ألا تلقي ما في يدك ، والسامري قابض عليه لا يراه أحدٌ طول ذلك فقال السامري : لا ألقيها لشيء إلاّ ان تدعو الله إذا ألقيتها ان يجعلها ما أريد فألقاها ودعا له هارون فقال السامري : أريد أن يكون عجلاً فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح ولا خوار قال ابن عباس : لا والله ما كان له صوت قط إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه ، وكان ذلك الصوت من ذلك ﴿ فقالوا ﴾ أي الضُّلاّل من بني اسرائيل الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه : ﴿ هذا إلهكم وإلهُ موسى ... ﴾ فعكفوا عليه وأحبّوهُ حباً لم يحبّوا شيئاً مثله قط وقوله تعالى : ﴿ فنسي ﴾ أي ترك السامري ما كان عليه من الإسلام ، قال الله تعالى رداً عليهم وتقريعاً، لهم وبياناً لفضيحتهم، وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه : ﴿ أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ أي أفلا يرون ان العجل لا يجيبهم إذا سألوه ولا إذا خاطبوه ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً أي في دنياهم ولا في أخراهم .

وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة انهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم ، وعبدوا العجل ، فتورّعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير .

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَـٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ❁ (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ❁ (٩١) ﴾

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل ، واخباره إياهم انما هذا فتنة لكم وان ربكم هو الرحمن الذي خلق كل شيء ﴿ فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴾ أي فيما آمركم به ، واتركوا ما أنهاكم عنه ﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى ﴾ أي لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه وخالفوا في ذلك هارون وحاربوه وكادوا ان يقتلوه .

﴿ قَالَ يَا هَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ❁ (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ❁ (٩٣) قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا

بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه ، فرأى ما حدث فيهم من الشرك ، فامتلأ غضباً وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه وشرع يلوم أخاه هارون فقال له : ﴿ ما منعك إذ رأيتم ضلّوا ألاّ تتبعن ﴾ أي فتخبرني بما وقع فوراً ﴿ أفعصيْت أمري ﴾ فيما كنت قدمت اليك وهو قوله : ﴿ أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ ﴿ قال يا ابنَ أمَّ ﴾ ترقق له بذكر الأم مع انه شقيقه لأبويه لأن ذكر الأم ها هنا أرقّ وأبلغ في الحنو والعطف ولهذا قال : ﴿ يا ابن أمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴾ الآية وقوله : ﴿ إني خشيت ﴾ هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبره بما كان اي خشيت أن اتبعك فأخبرك بهذا ﴿ أن تقول ﴾ لم تركتهم وحدهم و ﴿ فرّقت بين بني اسرائيل ولم ترقبْ قولي ﴾ أي وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم قال ابن عباس : وكان هارون هائباً مطيعاً له .

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام للسامري ﴿ فما خطبك يا سامريّ ﴾ أي ما حملك على ما صنعتَ قال محمد بن اسحق عن ابن عباس : كان السامري من قوم يعبدون البقر وكان قد أظهر الإسلام مع بني اسرائيل وكان اسمه : موسى بن ظفر ﴿ قال ﴾ السامري

﴿ بصُرْت بما لم يَبْصُروا به ﴾ أي رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ أي من أثر فرسه ، وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو اكثرهم ﴿ فنبذتها ﴾ أي ألقيتها . وقال ابن أبي حاتم عن عكرمة : أن السامري رأى الرسول فألقي في روعه انك ان أخذت من اثر هذا الفرس قبضة فألقيتها في شيء فقلت له كن فكان فقذف القبضة وقال كن فكان عجلاً جسداً له خوار ﴿ وكذلك سولت لي نفسي ﴾ أي حسنته وأعجبها ، عندها ﴿ قال فاذهب فإن لك في الحياة ان تقول لا مساس ﴾ أي فكما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من اثر الرسول فعقوبتك في الدنيا ان تقول لا مساس اي لا تمس الناس ولا يمسّونك ﴿ وان لك موعداً ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لن تخلفه ﴾ أي لا محيد لك عنه ﴿ وانظر إلى إلهك ﴾ أي معبودك ﴿ الذي ظلت عليه عاكفاً ﴾ أي أقمت على عبادته يعني العجل ، ﴿ لَنحرِّقَنّهُ ﴾ قال ابن عباس : سحله بالمبرد وألقاه على النار ﴿ ثم لنَنْسِفَنّهُ في اليم نسفاً ﴾ في شاطىء النهر . وقوله ﴿ إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيءٍ علماً ﴾ يقول لهم موسى عليه السلام : ليس هذا إلهكم إنما إلهكم الله الذي لا إله الا هو ، أي لا يستحق ذلك على العباد إلا هو ، ولا تنبغي العبادة إلا له ، فإن كل شيء فقير إليه عبد له وقوله : ﴿ وسع كل شيء علماً ﴾ نصب على التمييز أي هو عالم بكل شيء أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً فلا يعزب عنه مثقال ذرة ، وما تسقط من ورقةٍ إلا يعلمها .

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۞ (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۞ (١٠٠) خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ۞ (١٠١) ﴾

كما يقص تعالى على نبيه محمد ﷺ خبر موسى عليه السلام تماماً بلا نقص ، فانه يقول سبحانه : ﴿ كذلك نقصُّ عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ أي كذلك نقص عليك الأخبار الماضية ، هذا ﴿ وقد آتيناك من لدنّا ﴾ أي من عندنا ﴿ ذكراً ﴾ وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل والذي لم يعط نبيٌّ كتاباً مثله ولا أكمل منه ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن ، وحكم الفصل بين الناس .

وقوله تعالى : ﴿ من أعرض عنه ﴾ أي كذب به ولم يتبعه ، وابتغى الهدى في غيره ﴿ فانه يحمل يوم القيامة وزراً ﴾ أي إثماً ، وهذا عام في كل من بلغه القرآن فهو نذير له

وداع فمن اتبعه هدي ، ومن أعرض عنه ضلّ وشقي في الدنيا والنار موعده في الآخرة . وقوله تعالى : ﴿ خالدين فيه ﴾ أي لا محيد لهم عنه أي عن ذلك الحمل ﴿ وساء لهم يوم القيامة حملاً ﴾ أي بئس الحمل حملهم .

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ۞(١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً ۞(١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً ۞ (١٠٤) ﴾

ثبت في الحديث عنه ﷺ ١٥٨[انه سئل عن الصور فقال : «قرن ينفخ فيه»] وقد جاء في حديث الصور من رواية أبي هريرة ١٥٩ [انه قرن عظيم ، الدائرة منه بقدر السموات والأرض ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام] وقوله تعالى : ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ﴾ معناه زرق العيون من شدة الهول ﴿ يتخافتون بينهم ﴾ اي يتسارّون بينهم : ﴿ إن لبثم إلاّ عشرا ﴾ أي في الدار الدنيا أي عشرة أيام فقال تعالى : ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ في حال تناجيهم بينهم ﴿ إذ يقول أمثلهم طريقةً ﴾ أي العاقل الكامل فيهم : ﴿ إن لبثم إلاّ يوماً ﴾ لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد ، لأن الدنيا وان تكررت أوقاتها وتعاقبت أزمانها كأنها يوم واحد كقوله تعالى : ﴿ كم لبثم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين * قال إن لبثم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ .

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ۞(١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ۞ (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً ۞(١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً ۞ (١٠٨) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ أي هل تبقى يوم القيامة أو تزول ؟ ﴿ فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾ أي يذهبها عن أماكنها ويمحقها ﴿ فيذرها ﴾ أي الأرض ﴿ قاعاً صفصفاً ﴾ أي بساطاً واحداً والقاع هو المستوى من الأرض والصفصف تأكيد لمعنى

ذلك وقوله تعالى : ﴿ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ أي لا ترى في الأرض وادياً ولا رابية قاله ابن عباس وغير واحد من السلف ﴿ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾ أي يوم يرون أهوال يوم القيامة يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أمروا بادروا إليه ، ولو كانوا يستمعون إليه في الدنيا لكان أنفعَ لهم ولكن كانت الاستجابة حيث لا ينفعهم كما قال تعالى : ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ أي مسرعين إليه ﴿ لا عوج له ﴾ أي لا يميلون عنه وقوله تعالى : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ قال ابن عباس : سكنت ﴿ فلا تسمع إلاّ همساً ﴾ بصوت خفي ، ومشي الأقدام في سكونٍ وخضوع .



﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۝ (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ۝ (١١٠) وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ۝ (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً ۝ (١١٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ يومئذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لا تنفع الشفاعة ﴾ أي عنده ﴿ إلاّ من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال١٦٠ [آتي تحت العرش وأخرُّ لله ساجداً ، ويفتح عليَّ بمحامد لا أحصيها الآن ، فيدعني ما شاء أن يدعني ثم يقول : يا محمد إرفع رأسك وقل يسمعْ واشفع تشفع ـ قال ـ فيحدُّ لي حداً ، فأدخلهم الجنةَ ثم أعود فذكر أربع مرات ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء] . وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي يحيط علماً بالخلائق كلهم ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ أي ذلت وخضعت واستسلمت الخلائق لجبّارها الحي الذي لا يموت القيوم الذي لا ينام وهو قيّم على كل شيء ولا قوام لشيء إلاّ به . وقوله تعالى : ﴿ وقد خاب من

حمل ظلماً ﴾ أي يوم القيامة ، فإن الله تعالى سيؤدي كل حق إلى صاحبه حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء وفي الصحيح :١٦١ « [إياكم والظلم فإن الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة ، والخيبة كل الخيبة من لقي الله وهو به مشرك فإن الله تعالى يقول إن الشرك لظلم عظيم] . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ لما ذكر تعالى الظالمينّ ووعيدهم ، ثني بالمتقين وحكمهم ، وهو أنهم لا يظلمون ولا يُهضَمون ، أي لا يزاد في سيآتهم ولا ينقص من حسناتهم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ❁ (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ❁ (١١٤) ﴾

يقول تعالى : ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة ، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه ولا عيّ ﴿ وصرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتّقون ﴾ أي يتركون المآثم والمحارم والفواحش ﴿ أو يحدث لهم ذكرا ﴾ وهو إيجاد الطاعات وفعل القربات ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ أي تنزه وتقدس الملك الحق في وعده ، ووعيده ، ورسله ، والجنة ، والنار وكل شيء منه حق . وعدله تعالى أن لا يعذب أحداً قبل الإنذار ، وبعثة الرسل ، والإعذار إلى خلقه لئلاّ يبقى لأحد حجة ولا شبهة .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه ﴾ كقوله تعالى ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجلَ به إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه * ثم إنّ علينا بيانه ﴾ وهنا قال تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضَى إليك وحيُه ﴾ أي بل أنصت فإذا فرغ الملَك من قراءته عليك فاقرأه بعده ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ أي زدني منك علماً وفي الحديث ١٦٢[إن الله تابع الوحي على رسوله حتى كان الوحي أكثر ما كان يوم توفي رسول الله ﷺ] وروى ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : ١٦٣[اللهم انفعني بما علّمتني ، وعلمني ما ينفعني وزدني علماً ، والحمد لله على كل حال] . وفي رواية البزار ... وزاد في آخره ١٦٤[وأعوذ بالله من حال أهل النار]

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ
عَزْماً ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا ءَادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا
يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا
تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ
إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَانُ قَالَ يَا ءَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا
يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ
عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ
رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إنما سمي الإنسان لأنه عهد اليه فنسي ، وقوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه وما فضّله به على كثير ممن خلق تفضيلاً ﴿ فسجدوا إلا أبليس أبَى ﴾ أي امتنع واستكبر ﴿ فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك ﴾ يعني حواء عليهما السلام ﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ أي إياك أن يسعى في إخراجك منها فتتعب في طلب الرزق فعيشك هاهنا رغيد هنيء بلا كلفة ولا مشقة ﴿ إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ إنما قرن بين الجوع والعري لأن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر ، ﴿ وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحَى ﴾ وهذان أيضاً متقابلان فالظمأ حر الباطن والضحى حر الظاهر . وقوله تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد وملكٍ لا يبلى ﴾ قد تقدم أنه دلاّهما بغرور ﴿ وقاسماهما إني لكما من الناصحين ﴾ وقد تقدم أن الله تعالى منعهما من ان يقربا شجرة معينةً في الجنة فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها . وقوله تعالى : ﴿ فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما ﴾ أي عوراتهما جزاء ما خالفا أمر الله وأطاعا وسوسة الشيطان وقوله تعالى : ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ أي ينتزعان من ورق الجنة

(١)الآية /٢٢/ من سورة الأعراف /٧/

فيجعلانه على سوآتهما ﴿ وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ – أي اصطفاه ربُّه فعلمه كيف يتوب إليه هو وزوجه : ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا فإن لم تغفر لنا وترحمْنا لنكوننّ من الخاسرين ﴾ وهذا ما تلقاه آدم من ربه كما قال تعالى : ﴿ فتلقّى آدم من ربّه كلماتٍ فتاب عليه إنّه هو التواب الرحيم (١) –

روى البخاريّ عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال ١٦٥[حاجَّ موسى آدم فقال له : أنت الذي أخرجتَ الناس من الجنّة بذنبك وأشقيتَهم ؟ قال آدم يـا موسى انت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومني على أمر كتبه الله عليَّ قبل ان يخلقني و قدّره الله عليَّ قبل أن يخلقني ؟ قال رسول الله ﷺ فحج آدمُ موسىَ] وهذا الحديث له طرق في الصحيحين وغيرهما من المسانيد .

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ * (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ * (١٢٦) ﴾

يقول تعالى لآدم وحواء وابليس : اهبطوا منها جميعاً ، أي من الجنة كلكم وقد بسطنا ذلك في سورة البقرة (٢) ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ قال آدم وذريته،وابليس وذريته وقوله تعالى : ﴿ فإمّا يأتينّكم مني هدى ﴾ قال ابو العالية : الأنبياء والرسل والبيـان ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ قال ابن عباس : لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ﴿ ومن اعرض عن ذكري ﴾ أي خالف الأمر الذي أنزلته على رسولي وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿ فإن له معيشةً ضنكاً ﴾ أي ضنكاً في الدنيا فلا طمأنينة ولاانشراح. بل صدره ضيق لضلاله فمهما تنعّم من نعم الدنيا فإن قلبه ... لم يخلص الى اليقين والهدى فهو دائماً في قلق وحيرة وشك وفي الآخرة ينتظره عذاب القبر . روى البزار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ قال : ١٦٦[المعيشة

---

(١) ما بين المعترضتين من كلامي لا من كلام المفسر رحمه الله . (٢) عند الآية رقم /٣٦/ راجع التعليق في سورة البقرة ص/ ٤٥ /

الضنك الذي قال الله انه يسلط عليه تسعة وتسعين حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة] . وقوله تعالى : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال عكرمة : عمى عليه كل شيء إلا جهنم ، ويحتمل أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر الى النار أعمى البصر ، والبصيرة أيضاً ، كما قال تعالى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم ﴾ الآية ... ولهذا يقول : ﴿ رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾ أي في الدنيا ﴿ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ أي لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها اليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها ، كذلك اليوم ، نعاملك معاملة من ينساك ﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل ، فأما نسيان لفظ القرآن ، مع فهم معناه والقيام بمقتضاه ، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص ، وان كان متوعداً عليه من جهة أخرى ، روى الإمام أحمد عن سعد ابن عبادة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال١٦٧ : [ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ۞ (١٢٧) ﴾

يقول تعالى : وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة : ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ أي أشد ألماً من عذاب الدنيا وأدوم عليهم فهم مخلدون فيه ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين١٦٨ [ان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة]

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ۞ (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ۞ (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۞ (١٣٠) ﴾

يقول تعالى : ﴿ أفلم يهْدِ ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمّد كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم ، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها يمشون فيها ﴿ ان في ذلك لآيات لأولي النهي ﴾ أي العقول الصحيحة والألباب المستقيمة ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمّىً ﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلاّ بعد قيام الحجة عليه لكان العذاب لازماً لهم في الدنيا ولجاءهم بغتةً ولكن قدر ان يكون عذابهم لأجل مسمّى أي في الآخرة ولهذا قال لنبيه مسلياً له : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ أي من تكذيبهم لك ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿ وقبل غروبها ﴾ يعني صلاة العصر ، كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبدالله البجلي رضي اللهعنه قال١٦٩: [كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر الى القمر ليلة البدر فقـــال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامُّون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فا فعلوا »] ثم قرأ هذه الآية ...

وقوله تعالى : ﴿ ومن آناء الليل فسبح ﴾ أي من ساعاته فتهجد به وحمله بعضهم على المغرب والعشاء : ﴿ واطراف النهار ﴾ في مقابلة آناء الليل ﴿ لعلك ترضى ﴾ كقولـــه تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وفي الصحيح ١٧٠[يقول الله تعالى : يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من خلقك ؛ فيقول : إني أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً] وفي الحديث الآخر ١٧١ [يا أهل الجنة إنلكم عند الله موعداً يريد ان ينجزكموه فيقولون : وما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ويزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة ، فيكشف الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه وهـــي الزيادة]

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۞ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۞ (١٣٢) ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وما هم فيه من النعيم فإنما هو زهرة زائلة ، لنختبرهم بذلك وقليل من عبادي الشكور ، فقد آتاك خيراً مما آتاهم. كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم لا تمدنّ عينيك ﴾ الآية وكذلك ما ادّخره الله تعالى لرسوله ﷺ في الآخرة أمر عظيم لا يحد ولا يوصف ولهذا قال تعالى : ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ وفي الصحيح١٧٢[أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن ، فرآه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير وليس في البيت إلاّ صبرة من قرظ واهية معلقة ، فابتدرت عينا عمر بالبكاء فقال له رسول الله ﷺ « ما يبكيك يا عمر » فقال : يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وانت صفوة الله من خلقه ؟ فقال « أو في شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا »] فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها إذا حصلت له يُنفِقُها هكذا وهكذا في عباد الله ولم يدّخر لنفسه شيئاً لغدٍ .

وقوله تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة واصبر أنت على فعلها ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم واهليكم ناراً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لا نسألك رزقاً نحن نرزقك ﴾ يعني اذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب .

روى ابن أبي حاتم عن ثابت قال :١٧٣[كان النبي ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله : « يا أهلاه صلّوا صلّوا » . قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا الى الصلاة] وقد روى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ١٧٤[يقول الله تعالى : يا ابن آدم تفرَّغْ لعبادتي املأ صدرك غنى وأسد فقرك وإن لم تفعل ، ملأت صدرك شغلاً ولم أسدّ فقرك] . وقوله تعالى : ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ أي وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة ، وهي الجنة لمن اتقى الله . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ١٧٥« [رأيت الليلة كأنّا في دار عقبة بن رافع وانّا أتينا برطب من رطب ابن طاب ، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة وأن ديننا قد طاب]

۞ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَى ۞ (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ

لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۞ (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ ٱلصِّرَاطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۞ (١٣٥)

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم ﴿ لولا ﴾ أي هلاّ يأتينا محمد بآية من ربه أي بعلامة دالّة على صدقه في أنه رسول الله فقال الله تعالى : ﴿ أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ يعني ألم يروا في القرآن العظيم أخبار الأولين وبما كان منهم في سالف الدهر مع أنه أميٌّ لا يكتب ولا يقرأ ولم يدارس أهل الكتاب ، فإنّ القرآن مهيمن على تلك الكتب ، يصدق الصحيح منها ويبين الخطأ المكذوب الذي فيها .

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ انه قال :١٧٦[ما من نبي الا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن اكون اكثرهم تابعاً يوم القيامة] وانما ذكر هنا أعظم الآيات التي أعطيها وهو القرآن ، وإلاّ فله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر كما هو مقرر في مواضعه . ثم قال تعالى : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً ﴾ أي لو أهلكناهم قبل ان نرسل اليهم هذا الرسول الكريم وأنزلنا هذا القرآن العظيم لقالوا : ﴿ ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً ﴾ قبل ان تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه. كما قال ﴿ فنتبع آياتك من قبل ان نذلّ ونخزي ﴾ يبين تعالى انهم متعنتون معاندون. كما قال تعالى : ﴿ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ ثم قال تعالى ﴿ قل ﴾ يا محمد لمن كذّبك واستمر كافراً ﴿ كلٌّ متربصٌ ﴾ أي منّا ومنكم ﴿ فتربصوا ﴾ أي فانتظروا ﴿ فستعلمون من أصحاب الصراط السويّ ﴾ أي الطريق المستقيم ﴿ ومن اهتدى ﴾ الى الحق وسبيل الرشاد وهذا كقوله تعالى : ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ آخر اختصار تفسير سورة طه ولله الحمد والمنه ونسأله التوفيق والسداد .

(٢١) سورة الأنبياء مكية وآياتها اثنتا عشرة ومائة

نزلت بعد سورة إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم



اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون * (١) ما
يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * (٢)
لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر
مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون * (٣) قال ربي يعلم القول
في السماء والأرض وهو السميع العليم * (٤) بل قالوا أضغاث
أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون * (٥)
ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون * (٦)

هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ، والناس في غفلة عنها فلا يعملون لها ولا يستعدون إليها.روى النسائي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ١٧٧[﴿ في غفلة معرضون ﴾ قال «في الدنيا»] وقال تعالى: ﴿ اتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ وقال ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ ثم أخبر تعالى انهم لا يصغون إلى الوحي الذي انزل الله على رسوله والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار ، فقال تعالى : ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ أي جديد إنزاله ﴿ إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ كما قال ابن عباس : ما لكم تسألون أهل الكتب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه ، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يشب.رواه البخاري بنحوه .

وقوله تعالى : ﴿ واسرّوا النجوى الذين ظلموا ﴾ اي قائلين فيما بينهم خفية

﴿ هل هذا إلاّ بشر مثلكم ﴾ يعنون رسول الله ﷺ ، يستبعدون ان يكون نبياً لأنه بشر مثلهم فكيف اختص بالوحي دونهم. ولهذا قال : ﴿ أفتأتون السحر وانتم تبصرون ﴾ أي أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر ويعلم أنه سحر ، فردَّ عليهم الله عما افتروه من الكذب ﴿ قال ربي يعلم القول في السماء والأرض ﴾ أي الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية ، ويعلم السر في السموات والأرض . وقوله تعالى : ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوالكم ، العليم بأحوالكم ، وفي هذا تهديد لهم ووعيد . وقوله تعالى : ﴿ بل قالوا اضغاث أحلام بل افتراه ﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار والحادهم ، وحيرتهم فيما يصفون به القرآن ، وضلالهم عنه فتارةً يجعلونه سحراً ، وتارة شعراً ، وتارةً أضغاث أحلام ، وتارة مفترى. كما قال تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ يعنون : كناقة صالح وآيات موسى وعيسى وقد قال الله تعالى : ﴿ وما منعنا ان نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ الآية ولهذا قال تعالى : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾ أي ما آتينا قريةً من القرى الذي بعث فيهم الرسل آيةً على يدي نبيها فآمنوا بها بل كذبوا فأهلكناهم بذلك أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون اولئك كلاّ . – لأنهم شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى وأبهر وأقطع وأقهر مما هو شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۞ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ۞ (٩) ﴾

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر ﴿ وما أرسلنا قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم ﴾ أي جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة كقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾

ولهذا قال تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ﴾ أي اسألوا أهل العلم من اليهود والنصارى وسائر الطوائف : هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة ؟ وهذا من تمام النعمة على الخلق ليتمكنوا من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴾ بل كانوا أجساداً يأكلون الطعام، وبشراً من البشر يأكلون ويشربون ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، ولا يضيرهم هذا ولا ينتقص منهم شيء. كما توهمه المشركون في قولهم : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا انزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ الآية ...

وقوله تعالى : ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ أي في الدنيا بل كانوا يعيشون ثم يموتون ، ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ أي الذي وعدهم ربهم ليُهلكنّ الظالمين، فصدقهم الله وعده وفعل ذلك ولهذا قال عز وجل : ﴿ فأنجيناهم ومن نشاء ﴾ أي أتباعهم من المؤمنين. ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ أي المكذبين بما جاءت به الرسل .

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ ۞ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ۞ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ ۞ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۞ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ۞ (١٥) ﴾

ينبّه تعالى على شرف القرآن ويحضّهم على معرفته ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ قال ابن عباس : شرفكم ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي هذه النعمة وتتلقونها بالقبول كما قال تعالى : ﴿ وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ أي وانه الشرف لك ولقومك [1] لأنه نزل بلغتهم .

(١) القرآن لاشك أنه شرف للعرب إن هم تمسكوا بأحكامه ، وحملوا رايته إلى العالمين

وقوله تعالى : ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وكأيّن من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها ﴾ الآية ...

وقوله تعالى : ﴿ وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ أي أمة أُخرى بعدهم ﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ أي تيقنوا وقوع العذاب كما وعدهم نبيهم ﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ أي يفرّون ﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم ﴾ هذا تهكم بهم واستهزاء أي لا تفروا وارجعوا الى مساكنكم ـ وكيف يرجعون إليها وقد دمرها العذاب ﴿ لعلكم تسألون ﴾ عما كنتم فيه من أداء الشكر للمنعم ﴿ قالوا يا ويلنا إنّا كنا ظالمين ﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك ﴿ فما زالت تلك دعواهم حتّى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ أي ما زالت تلك المقالة وهي الاعتراف بالظلم حتّى حصدناهم حصداً ، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۞ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ۞ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۞ (١٨) وَلَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ (١٩) يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۞ (٢٠) ﴾

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق ، أي بالعدل والقسط ، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، وانه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعبا كما قال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾

وقوله تعالى ﴿ لو أردنا ان نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ﴾ أي من عندنا واللهو المرأة بلسان أهل اليمن وقال عكرمة والسدي : والمراد باللهو ههنا الولد وهذا والذي قبله متلازمان . قال ابراهيم النخعي ﴿ لاتخذناه ﴾ من الحور العين والله تعالى منزه عن اتخاذ

الولد والزوجة مطلقاً ﴿ سبحان الله عما يقولون علواً كبيراً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ قال قتادة والسدي وابراهيم النخعي ومغيرة بن مقسم : أي ما كنا فاعلين وقال مجاهد : كل شيء في القرآن (إن) فهو إنكار وقوله تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل ﴾ أي نبين الحق فيدحض الباطل ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ أي ذاهب مضمحل ﴿ ولكم الويل ﴾ أي ايها القائلون لله ولد ﴿ مما تصفون ﴾ أي مما تقولون وتفترون . ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً فقال جل وعلا : ﴿ وله من في السموات والأرض ومن عنده ﴾ يعني الملائكة ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ أي لا يستنكفون عنها ، كما قال تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا يستحسرون ﴾ أي لا يتعبون ولا يملون ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً مطيعون قصداً وعملاً كما قال تعالى : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۞ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ (٢٢) لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۞ (٢٣) ﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾ أي أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض ، أي لا يقدرون على شيء من هذا ، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه ؟ ثم أخبر تعالى فقال عز وجل : ﴿ لو كان فيهما آلهة ﴾ أي في السموات والأرض ﴿ لفسدتا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾ وقال تعالى هاهنا : ﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ أي تنزه وتعالى وتقدس عن الذي يفترون ويأفكون علواً كبيراً . وقوله تعالى: ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، والحكيم الخبير الذي لا يماثله أحد في حكمته وعلمه وعدله ولطفه - فمن كانت هذه صفاته العلىَ فلا يسأل عما يفعل إذ لا يفعل إلا خيراً ، والشر ليس إليه ولا يفعله ، فلا يسأل عن شيء لم يفعله . أما الخلق فالله تعالى سائلهم عما يعملون من خير أو شر وهنا يتضح معنى قوله تعالى : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون - [1]

(١) الكلام الذي بين المعترضتين من كلامي لا من كلام المفسر رحمه الله تعالى .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ۞ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۞ (٢٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ام اتخذوا من دونه آلهة قل ﴾ يا محمد ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ أي دليلكم على ما تقولون ﴿ وهذا ذكر من معي ﴾ يعني القرآن ﴿ وذكر من قبلي ﴾ يعني الكتب المتقدمة فهي على خلاف ما تقولونه وتزعمون . فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأن لا إله الا الله ، ويدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والفطرة شاهدة بذلك والمشركون لا برهان لهم ، وحجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۞ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۞ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۞ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۞ (٢٩) ﴾



قال بعض من العرب : إن الملائكة بنات الله فقال : ﴿ سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ أي هم عنده في منازل عالية وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلا ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ لا يتقدمون بين يديه بأمر بل يبادرون إلى فعل أوامره وعلمه محيط بهم فلا تخفى عليه منهم خافية ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ وقولـه تعالى ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ من خوفه ورهبته ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه ﴾ أي من ادعى منهم أنه إلّه مع الله ﴿ فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ أي كل من قال ذلك وهذا شرط والشرط لا يلزم وقوعه ، كقوله

تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أو لم يرَ الذين كفروا ﴾ أي الجاحدون لإلٰهيته ، العابدون معه غيرَه ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المنفرد بالتدبير. ﴿ ان السموات والأرض كانتا رتقاً ﴾ أي كان من الجميع قطعةً واحدة ففتق هذه من هذه ، فجعل السموات سبعاً والأرض سبعاً ، وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ أي أصل لكل حي ، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال :١٧٨[قلت : يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني ، فأنبئني عن كل شيء قال : « كل شيء خلق من ماء » قال : قلت أنبئني عن أمر اذا عملت به دخلت الجنة ، قال : « أفشِ السلام ، وأطعم الطعامَ ، وصِلِ الأرحامَ ، وقمْ بالليل والناس نيام ثم ادخل الجنةَ بسلامٍ »] إسناده على شرط الصحيحين إلاّ أن أبا ميمونه من رجال السنن واسمه سليم ، والترمذي يصحح له . ﴿ أفلا يؤمنون ﴾ أي وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المطلق المختار الذي هو على كل شيء قدير .

ففي كل شيء له آية ... تدلُّ على أنه واحد

قال سفيان الثوري عن أبيه عن عكرمة قال : سئل ابن عباس : الليل كان قبل أو النهار ؟ فقال : أرأيتم السموات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلاّ ظلمة ؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي ﴾ أي جبالاً أرسىٰ الأرض بها وقرّرها

وثقلها لئلاّ تميد بالناس أي تضطرب وتتحرك ، فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء إلاّ مقدار الربع فإنه بادٍ للهواء والشمس ، ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلالات . وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً ﴾ أي ثغراً في الجبال يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر وإقليم الى إقليم ولذلك قال تعالى : ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ أي جعلها سقفا كالقبة عليها كما قال تعالى : ﴿ أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ ﴿ محفوظاً ﴾ أي محروساً أن ينال . وقوله تعالى : ﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ أي لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر ، وما زينت بـه من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها ، ثم قال منبهاً على بعض آياتـه عز وجل ﴿ وهو الذي خلق الليل والنهار ﴾ أي هذا في ظلامه وسكونه ، وهذا بضيائه وأنسه ، يطوّل هـذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسـه الآخر ﴿ والشمس والقمر ﴾ هذه لها نور يخصها وفلك بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص ، وهذا بنور آخر وسير آخر وتقدير آخر ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾ أي يدورون قال ابـن عباس : يدورون كما يدور المغزل في الفلكة .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ ۝ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝ (٣٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك ﴾ يا محمد ﴿ الخلد ﴾ في الدنيا ، وقـد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى ان الخضر عليه السلام مات وليس بحي إلى الآن لأنه بشر سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً وقد قال تعالى : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ وقوله تعالى: ﴿ أفإن مت ﴾ يا محمد ﴿ فهم الخالدون ﴾ أي يؤمّلون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا بل كلٌ إلى الفناء، ولهذا قال تعالى: ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنةً ﴾ أي نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى فننظر من يشكر ومن يكفر ، ومن يصبر ومن يقنط [1] ومن يطيع ومن يعصى

(١) قلت : ليس معنى هذا أن الله لا يعلم حتى ينظر ويختبر بل يعلم ما سيكون من العبد قبل أن يخلقه انما يكون هذا الأختبار لتقوم الحجة على العبد الفاعل لهذا الشر أو لذاك الخير ويقتنع بأنه فعل فعلا تستحق نتائجه ثواباً أو عقاباً .

وقوله تعالى : ﴿ والينا ترجعون ﴾ أي فنجازيكم بأعمالكم .

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝ (٣٦) خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ ۝ (٣٧) ﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ واذا رآك الذين كفروا ﴾ يعني كفار قريش كأبي جهل واشباهه ﴿ إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ أي يستهزئون بك وينتقصونك بقولهم : ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ يعنون : أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم قال تعالى : ﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ أي فعوضاً عن أن يؤمنوا بالله وبما جاء به رسول الله عن الله إذا بهم يستهزئون برسول الله ... !! ويكفرون بمن أرسله والعياذ بالله ، ويعتبرونه مضلاً لهم عن آلهتهم لولا صبرهم عليها فردَّ الله عليهم بقوله جل وعلا: ﴿ ... وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ كما قال تعالى الله : ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ والحكمة من ذكر عجلة الإنسان ههنا : أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك فقال الله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يؤجل ثم يعجل ، وينظر ثم لا يؤخر ولهذا قال عز من قائل : ﴿ سأريكم آياتي ﴾ أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿ فلا تستعجلون ﴾

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝ (٤٠) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً ، فقال جل وعز : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾

قال الله تعالى : ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفّون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾ أي لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوه ، ولكن العذاب محيط بهم من جميع جهاتهم كما قال تعالى : ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي لا ناصر لهم وقوله تعالى : ﴿ بل تأتيهم بغتة ﴾ أي تأتيهم النار فجأة ﴿ فتبهتهم ﴾ أي تذعرهم ،فيستسلمون لها حائرين لا يدرون ما يصنعون ﴿فلا يستطيعون ردها ﴾ أي ليس لهم حيلة في ذلك ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي ولا يؤخر عنهم ذلك ساعةً واحدة .

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۞ (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ۞ (٤٢) أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ۞ (٤٣) ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ يعني من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه ، كما قال تعالى : ﴿ لقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ ثم ذكر نعمته سبحانه على عبيده في حفظه لهم بالليل والنهار بعينه التي لا تنام فقال عز من قائل : ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾ أي بدل الرحمن يعني غيره ، وقوله تعالى : ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ أي لا يعترفون بنعمة الله عليهم ، بل يعرضون عن آياته ، ثم قال سبحانه : ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ ، أيألهم آلهة تحفظهم وتحرسهم غيرنا ؟ ليس الأمر كما زعموا وتوهموا ولهذا قال تعالى : ﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴾ أي هذه الآلهة لا يستطيعون نصر أنفسهم . وقوله تعالى : ﴿ ولاهم منا يُصحبون ﴾ أيولا هم منا يجارون ويمنعون .

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ۞ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ۞ (٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۞ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ۞ (٤٧) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين : إنما غرَّهم وحملهم على ما هم عليه من الضلال ، أنهم طال عليهم العمر بالنعم ، فاعتقدوا أنهم على شيء ... ثم وعظهم : ﴿أفلا يرون أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ أي كما قال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ قال الحسن البصري : يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر .

والمعنى : أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى وإنجائه لعباده المؤمنين ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ أفهم الغالبون ﴾ يعني بل هم المغلوبون والأسفلون الآخرون الأرذلون .

وقوله تعالى : ﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ﴾ أي ما أنذرتكم به إنما هو الوحي من الله تعالى ولكن لا يجدي الإنذار بالعذاب من أعمى الله بصيرته جزاء صدوده عن آيات الله ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ أي يعترفون بذنوبهم عندما يقع بهم أدنى شيء من العذاب ، وبما ظلموا أنفسهم في الدنيا. وقوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ أي نضع الموازين العدل ليوم القيامة ، والميزان واحد إنما جمع لتعدد الأعمال الموزونة فيه .

وقوله تعالى : ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ وقال سبحانه : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :١٧٩[كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم] . روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاص يقول : قال رسول الله ﷺ : ١٨٠[ان الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعةً وتسعين سجلاً ، كل سجل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمتْك كتبتي الحافظون قال : لا يا رب قال : أفلك عذر أو حسنة قال : فبهت الرجل فيقول : لا يا رب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنةً واحدةً لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقةٌ فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد ان محمداً رسول الله فيقول أحضروه ، فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لا تظلم ، قال فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، قال : ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم] [1] ورواه الترمذي وابن ماجة من حديث الليث بن سعد وقال الترمذي حسن غريب .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝ (٤٨) ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۝ (٥٠) ﴾

قد تقدم التنبيه على ان الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، وبين كتابيهما ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ يعني التوراة حلالها وحرامها وما فرّق الله بين الحق والباطل ، كما أن كل

(١) هكذا في الأصل . ورواية الترمذي : فلا يثقل مع اسم الله شيء . اهـ

الكتب السماوية مشتملة على هذا ، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب ، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين ﴾ أي تذكيراً لهم وعظة ثم وصفهم فقال : ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴾ كقوله: ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾ ثم قال تعالى: ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ يعني القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾ أي افتنكرونه وهو في غاية الجلاء؟



﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۞(٥١)
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۞(٥٢)
قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۞ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ
فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ (٥٤) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۞(٥٥)
قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ
ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ (٥٦) ﴾

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنّه أتاه رشده من قبل،أي من صغره ،وألهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ﴾ وهناك بعض أخبار إسرائيليّة قصها كثير من المفسرين ، عامتها مما حدّث به بنو اسرائيل فما وافق ما في شريعتنا قبلناه لذلك ، وما خالف رددناه وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذّبه بل نجعله وقفاً ... وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه وإلا لبيّنته هذه الشريعة الكاملة الشاملة . والذي نسلكه في هذا التفسير ، الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية لما فيها من تضييع الزمان ولما قد يكون فيها من الكذب المروّج عليهم فبنو إسرائيل لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرّره الأئمة الحفّاظ المتقنون من هذه الأمة ، والمقصود ههنا ان الله تعالى أخبر أنه قد آتى ابراهيم رشده من قبل ، أي من قبل ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وكنا به عالمين ﴾ بأنه أهل لذلك ثم قال جل وعلا : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ [1] هذا هو الرشد الذي

(١) قلت: وهذا دليل على أن الأصنام التي يعبدونها إنما هي تماثيل لرجال صالحين مضوا، فصنعوا لهم هذه =

أوتيه من صغره وهو الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله عز وجل ، والمعنى ما هذه التماثيل التي معتكفون على عبادتها . قال ابن أبي حاتم ، عن الأصبغ بن نباتة قال : مرّ علي رضي الله عنه على قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون !!؟ لأن يمسّ أحدكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسّها . وقوله تعالى : ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلاّل ، ولهذا قال لهم تعالى : ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ أي على غير الطريق المستقيم ، فلما سفه أحلامهم ، وضلل آباءهم ، واحتقر آلهتهم ﴿ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ أي هذا الكلام الذي تقوله ، أهو عبث ولعب أم أنك جادٌّ فيه ...؟ ﴿ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ﴾ أي ربكم الذي لا معبود غيره هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ﴿ وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۞ (٥٧)
فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۞ (٥٨) قَالُوا
مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى
يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرٰهِيمُ ۞ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۞ (٦١) قَالُوا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا
إِبْرٰهِيمُ ۞ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا
يَنْطِقُونَ ۞ (٦٣) ﴾

ـ التماثيل للذكرى في أول الأمر كما يفعل دعاة تقليد الكفار في زمننا الحاضر، إذ بدأنا نصنع تماثيل لأبطالنا بنية الذكرى بعد الموت ثم انتقل إلى التقدير والاحترام ليقتدي الأحياء بما يفعل الأموات من عمل عظيم، ثم يتطوّر هذا التقدير إلى أبعد من ذلك ، فيزين الشيطان للأحياء تعظيمهم ومخاطبتهم ثم دعاءهم ، كما صار تماماً بالتماثيل التي كانت لرجال صالحين مثل ود ، ويغوث، وسواع، ويعوق ونسر، الذين عُبدوا بعد قرون على أن الفتنة بالقبر أسرع وأوقع لأن الذي ينادى على بعد أشبار من المنادي. وهكذا تتضح حكمة الشارع الحكيم من تحريم صنع الصور والتماثيل ورفع القبور التي صارت أفتن من التماثيل .

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعضَ قومه ليكيدنّ أصنامهم أي ليكسرها بعد إدبارهم إلى عيدهم وقد سمعه بعض قومه يقول ذلك ، فلما خرجوا إلى عيدهم مرّوا عليه فقالوا : يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال : إني سقيم ، وقد كان بالأمس قال : ﴿ تالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولّوا مدبرين ﴾ فلما جاز عامتُهم إلى عيدهم هرع إلى أصنامهم ﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ أي حطاماً ... إلاّ كبير أصنامهم . ﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾ أي يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه وأنف أن نعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها ، فلما رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة الدالّة على عدم أهليتها لأن تعبد ، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ أي في صنيعه هذا ... ﴿ قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له ابراهيم ﴾ أي قال الذين سمعوه بالأمس يهدد أصنامهم بالتكسير : سمعنا شاباً يذكرهم بسوء يقال له ابراهيم . قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، قال : ما بعث الله نبياً إلاّ شاباً ولا أوتي القلم عالم إلاّ وهو شاب وتلا هذه الآية : ﴿ قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له ابراهيم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس ﴾ أي على ملأ منهم وكان هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرةَ جهلهم وقلةَ عقولهم في اتخاذ هذه الأصنام آلهة لم تستطع أن تدفع عن نفسها ضرّاً ، ولا تملك لها نصراً فكيف يطلب منها شيء من ذلك ...!!!؟ ﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا ﴾ يعني الذي تركه ولم يكسره ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ وانما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون وان هذه الأصنام عاجزة عن حماية نفسها فكيف تستطيع حماية غيرها ...!!!؟

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال ١٨١[وان ابراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث ! اثنتين في ذات الله ، قوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله : ﴿ إني سقيم ﴾ – قال – وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلاً فأتى الجبارَ رجلٌ فقال : إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس فأرسل إليه فجاء ، فقال : ما هذه المرأةُ منكَ ؟ قال أختي قال فاذهب فأرسل بها إليّ فانطلق إلى سارة فقال : إن هذا الجبار قد سألني عنك ، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده فإنّك أختي في كتاب الله ، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك فانطلق بها ابراهيم ثم قام يصلي ، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها فأُخِذَ أخذاً شديداً فقال : ادعي الله لي ولا أضرُّك ، فدعت له ، فأرسل فأهوى إليها فتناولها ، فأخذ بمثلها

أشدّ ، ففعل ذلك الثالثة ، فأخذ فذكر مثل المرتين الأولَيَيْن ، فقال : ادعي الله فلا أضرُّكِ ، فدعت له فأرسل ، ثم دعا أدنى حجابه فقال : إنّكَ لم تأتني بإنسان ، ولكنك أتيتني بشيطان ، أخرجها وأعطها هاجرَ فأخرجت وأُعطيت هاجر ، فأقبلت ، فلما أحسَّ إبراهيم بمجيئها ، انفتل من صلاته وقال : مَهيَم [1]. قالت : كفَى اللهُ كيدَ الفاجر وأخدمني هاجر] . قال محمد بن سيرين فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال : تلك أمّكم يا بني ماء السماء [2] .

فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ۞ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ۞ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۞ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ (٦٧)

يخبر تعالى أن قوم ابراهيم حين قال لهم ما قال ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ بالملامة لعدم حراستهم آلهتهم فقالوا : ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾ في إهمال حفظها ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ أي أطرقوا حيرةً وعجزاً عن الإجابة لمَّا قال لهم ابراهيم : ﴿ فسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ وكيف يسألونهم ويعلمون أنما هم جماد ، ولهذا قالوا : ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ فعندها قال لهم ابراهيم لما اعترفوا بذلك : ﴿ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ﴾ ثم وبخهم على ذلك وقال لهم : ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ أي أفلا تدركون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ ؟ فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها ولهذا قال تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ الآية ...

---

(١) مهيم : كلمة استفهام . أي ما حالك ، أو ما وراك ، أو : أحَدَثَ لك شيء ؟

(٢) قلت : من هذا الحديث المتفق عليه دليل قاطع من جملة الأدلة القاطعة على عصمة أزواج الأنبياء من الزنا إطلاقاً تبعاً لعصمة أزواجهن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا يمكن لزوجة نبي قط أن تزني لا باختيارها ولا رغماً عنها فإن الله يربط على قلبها فلا يدعها أن تزني صوناً لعصمة الأنبياء من أن يلحق ببيوتهم الطاهرة عار أو دنس يعيق الدعوة إلى الله تعالى ، حتى إذا حاول جبار على أن يفجر بها تولى الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سموات حمايتها وحفظها من المعتدي ؛ وأخذه أخذاً شديداً إلى أن يدعها دون أن يمسها بسوء كما حصل مع سارة التي حماها الله من ذلك الجبار بفضله ومنه وقوته التي لا تغلبها قوة في الأرض ولا في السماء وهو الغالب على أمره والقاهر فوق عباده .

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۞ (٦٨)
قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَٰهِيمَ ۞ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ
كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۞ (٧٠) ﴾

وهكذا ... فكل من يعدم قرع الحجة بالحجة يلجأ إلى استعمال القوة ، وهؤلاء قوم إبراهيم لما لم يحيروا جواباً ، ﴿ قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ فجمعوا حطباً كثيراً جداً ، وأضرموه ناراً فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع ، لم توقد نار قط مثلها ، وجعلوا إبراهيم في كفّة المنجنيق بإشارة رجل ، فخسف الله به الأرض ، فلما ألقوا ابراهيم في النار قال : حسبي الله ونعم الوكيل ؛ كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال ١٨٢[حسبي الله ونعم الوكيل ، قالها ابراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل] وروى الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ١٨٣[لما ألقي ابراهيم عليه السلام في النار ، قال : اللهم إنك في السماء واحد ، وأنا في الأرض واحد أعبدك] .

وقال سعيد بن جبير – ويروى عن ابن عباس أيضاً – قال : لما ألقي ابراهيم ، جعل خازن المطر يقول متى أومر بالمطر فأرسله ؟ قال فكان أمر الله أسرع من أمره قال الله : ﴿ يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم ﴾ قال ابن عباس : لولا ان الله عز وجل قال : ﴿ وسلاماً ﴾ لآذى إبراهيم بردها .

روى ابن أبي حاتم عن مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت ، [دخلت على عائشة ، فرأيت في بيتها رمحاً فقلت : يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح ؟ فقالت نقتل به هذه الأوزاغ ، ان رسول الله ﷺ قال : ١٨٤[ان ابراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلاّ تطفىء النار غير الوزغ فإنه كان ينفخ على ابراهيم » فأمرنا ﷺ بقتله] .

وقوله تعالى : ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الآخسرين ﴾ أي المغلوبين الأسفلين لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً فكادهم الله ونجاه من النار فغلبوا هنالك .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ۞ (٧١)
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۞ (٧٢)
وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ
ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ۞ (٧٣) وَلُوطاً آتَيْنَاهُ
حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ ٱلْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ۞ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ
ٱلصَّالِحِينَ ۞ (٧٥) ﴾

يخبر تعالى عن ابراهيم أنه سلمه الله من نار قومه ، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً الى بلاد الشام إلى الأرض المقدسة منها وكان بأرض العراق فأنجاه الله وابن أخيه لوطاً الى الشام التي كان يقال لها أعقار دار الهجرة ومنها فلسطين وكان يقال : هي ارض المحشر والمنشر وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام وبها يهلك المسيح الدجال . ثم تزوج ابراهيم ابنة عمه سارة وخرج بها مهاجراً من بلاده ﴿ الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة ﴾ قال ابن عباس وغيره : النافلة ولد الولد ، يعني ان يعقوب ولدُ اسحاق كما قال تعالى : ﴿ فبشرناه بإسحق ومن وراء اسحق يعقوب ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وكلاّ جعلنا صالحين ﴾ أي الجميع أهل خير وصلاح ﴿ وجعلناهم أئمةً ﴾ أي يقتدى بهم ﴿ يهدون بأمرنا ﴾ أي يدعون الى الله بإذنه ولهذا قال عز وجل ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقامَ الصلاة وايتاءَ الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ أي فاعلين لما يأمرون الناس به ، ثم عطف بذكر لوط وهو بن هاران بن آذر كان قد آمن بابراهيم عليهما السلام واتّبعه وهاجر معه ، كما قال تعالى : ﴿ فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ فآتاه الله حكماً وعلماً وأوحى إليه وجعله نبياً ، وبعثه إلى سدوم وأعمالها فخالفوه وكذبوه ، فأهلكهم الله ، ودمّر عليهم ولهذا قال عز من قائل : ﴿ ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قومَ سوءٍ فاسقين وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين ﴾

﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * (٧٧) ﴾

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه : ﴿ رب لا تذرْ على الأرض من الكافرين دَيّاراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ ونوحاً إذْ نادى من قبل فاستجبناله فنجيناه وأهله ﴾ أي الذين آمنوا به ، وقوله تعالى : ﴿ من الكرب العظيم ﴾ أي من الشدة والتكذيب والأذى ، فإنه لبث فيهم أُلف سنة إلاّ خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل ، فلم يؤمن به إلا القليل ، وكانوا يتصدّون لأذاه ، ويتواصُوْن قرناً بعد قرن على خلافه . وقوله تعالى : ﴿ ونصرناه من القوم ﴾ أي ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم ﴿ الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوءٍ فاغرقناهم أجمعين ﴾ ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد كما دعا عليهم نبيهم .

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ * (٨٠) وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * (٨١) وَمِنَ ٱلشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ * (٨٢) ﴾

النفش : الرعي ولا يكون إلاّ بالليل ، وقد كان ذلك الحرث كرماً قد تدلّت

عناقيده . قال ابن جرير عن ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ﴾ قال : كرم قد أنبتتْ عناقيده فأفسدته قال : فقضىٰ داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان : غير هذا يا نبيَّ الله . قال : وما ذاك قال ، تدفع الكرم الى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم الى صاحب الكرم فيصيب منها حتى اذا كان الكرم كما كان ، دفعت الكرم إلى صاحبه ودفعت الغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ ففهمّمْنَـا ها سليمانُ ﴾ وهكذا فقد أثنى الله على سليمان ولم يذم داود ، قاله الحسن البصري . ثم قال رحمه الله مجيباً لأياس بن معاوية لما استُقْضِيَ وأتاه باكياً .. فقال الحسن وما يبكيك ؟ قال يا أبا سعيد : بلغني ان القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار ، ورجل مال به الهوى فهو في النار ، ورجـــل اجتهد فأصاب فهو في الجنة . فقال الحسن : إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم . قال الله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشتْ فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود ثم قال – يعني الحسن – : ان الله اتخذ على الحكام ثلاثاً : لا يشتروا به ثمناً قليلاً ، ولا يتّبعوا فيه الهوى ، ولا يخشوا فيه أحداً ثم تلا : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبعْ الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشوني ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ قلت : أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيدون من الله عـــز وجل ، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف ، وأما مَـــنْ سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص انه قال : قال رسول الله ﷺ :
١٨٥[إذا اجتهد الحاكم فأصاب ، فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر] فهذا الحديث يرُدّ ما توهمه إياس من ان القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار والله أعلم . وفي السنن ١٨٦
[القضاة ثلاثة : قاض في الجنة وقاضيان في النار ، رجل علم الحق وقضي به فهو في الجنة ، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار] .

وقوله تعالى : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يُسبِّحنَ والطير ﴾ الآية ... وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء ، فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويباً ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل وكان صوته طيباً جداً فوقف واستمع لقراءته وقال : ١٨٧ [« لقد أوتي هذا مزماراً من

مزامير آل داود » قال : يا رسول الله لو علمتُ أنك تستمع لحبرّته لك تحبيرا] وقوله تعالى :

﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتُحصنكم من بأسكم ﴾ يعني صنعة الدروع كما قال تعالى : ﴿ وألنّا له الحديد أن اعمل سابغات وقدّر في السرد ﴾ أي لا توسع الحلقة فتقلق المسمار ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لتحصنكم من بأسكم ﴾ يعني في القتال ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ أي نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود فعلّمه ذلك من أجلكم . وقوله تعالى : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ﴿ تجري بأمره إلى الارض التي باركنا فيها ﴾ يعني ارض الشام ، ﴿ وكنا بكل شيء عالمين ﴾ وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج من أمور المملكة ثم تحمله الريح وتظله الطير تقيه الحرَّ حيث يشاء من الأرض ، فينزل وتوضع آلاته وحشمه ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب ﴾ وقال تعالى: ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ﴾ أي في الماء يستخرجون اللآلىء والجواهر وغير ذلك ﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ من البناء والغوص ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ أي يحرسه الله من أن يناله أحد من الشياطين بسوء ، بل الكل في قبضته وتحت قهره ولا يتجاسر أحد أن يدنو منه ، وهو الذي يحكم فيهم بإذن الله إن شاء أطلق وإن شاء حبس منهم من يشاء .



﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ۝ (٨٤) ﴾

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ، ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل مرضيّة ، فابتلي في ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلي في جسده بالجذام سوى قلبه ولسانه ، يذكر بهما الله عز وجل . قال النبي ﷺ :١٨٨[أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل] وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر ، وبه

يضرب المثل في ذلك . وقال يزيد بن ميسرة : لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهلِ والمال والولد ، ولم يبق شيء له ، أحسن الذكر . ثم قال عليه السلام : أحمدك رب الأرباب الذي أحسنت إلي ، اعطيتني المال والولد فلم يبق من قلبي شعبة إلا وقد دخله ذلك ، فأخذت ذلك كلَّه منيّ ، وفرّغت قلبي ، فليس يحول بيني وبينك شيء ، لو يعلم عدوّي إبليس بالذي صنعتَ حسدني .

روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن عبيد بن عمير : كان لأيوب عليه السلام أخوان فجاآ يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه ، فقاما من بعيد ، فقال أحدهما للآخر : لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط ، فقال : اللهم ان كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدِّقْني ، فصُدِّق من السماء وهما يسمعان . ثم قال : اللهم ان كنت تعلم أنيَ لم يكن لي قميصان قط ، وأنا أعلم مكان عار ، فصَدِّقْني فصُدِّق من السماء وهما يسمعان . ثم قال : اللهم بعزتك ، ثم خر ساجداً فقال : اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني ، فما رفع رأسه حتى كشف عنه [1] .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : وألبسه الله حلّةً من الجنّة فتنحّى أيوب فجلس في ناحية ، وجاءت امرأته فلم تعرفه ؛ فقالت : يا عبدالله أين ذهب هذا المبتلَى الذي كان هنا لعلّ الكلاب ذهبت به أو الذئاب ، فجعلَتْ تكلمه ساعةً فقال ويحك أنا أيوب ... ! قالت : أتسخر مني يا عبدالله ، فقال : ويحك أنا أيوب قد ردّ الله عليَّ جسدي .

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ١٨٩[لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه ، قال : فقيل له يا أيوب أما تشبع ؟ قال : يا رب ومن يشبع من رحمتك] أصله في الصحيحين وسيأتي في موضع آخر . وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قال مجاهد : ثم قيل له : يا أيوب إن أهلك لك في الجنّة ، فإن شئت أتيناك بهم ، وان شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم ؟ قال : لا بل اتركهم في الجنة ، فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيـــا .

وقوله تعالى : ﴿ رحمةً من عندنا ﴾ أي فعلنا به ذلك رحمةً من الله به ﴿ وذكرى

(١) قلت : فذاك قوله تعالى : « فكشفنا ما به من ضر »

للعابدين ﴾ أي وجعلناه في ذلك قدوةً لئلاً يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم وليتأسّوا به في الصبر على مقدورات الله ، وابتلائه لعباده بما يشاءءله الحكمة البالغة في ذلك .

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ (٨٥) وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ (٨٦) ﴾

وأما اسماعيل فهو ابن ابراهيم الخليل عليهما السلام ، وقد تقدم ذكره في سورة مريم وكذا إدريس عليه السلام وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قُرِنَ مع الأنبياء إلاّ وهو نبيٌّ وقال آخرون : إنما كان رجلاً صالحاً ، وكان ملكاً عادلاً ، وحكماً مُقسِطاً وتوقّف ابن جرير في ذلك والله أعلم .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ (٨٧) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٨٨) ﴾

هذه القصة مذكورة ههنا ، وفي سورة الصافات ، وفي سورة﴿ن﴾وذلك أن يونس ابن متّى عليه السلام ، بعثه الله إلى أهل قريته نينوى ، وهي قرية من أرض الموصل ، فدعاهم الى الله تعالى ، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم ، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلما تحققوا منه ذلك ، وعلموا أن النبي لا يكذب ، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ، وفرقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه ، ورغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، ونغت الغنم وسخالها ، فرفع الله عنهم العذاب ، قال الله تعالى : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ، إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتّعناهم إلى حين ﴾

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم ، وخافوا

أن يغرقوا فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً فأبوا ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً .

قال الله تعالى ﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾ أي وقعت عليه القرعة فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه ، ثم ألقى نفسه في البحر ، .

قال ابن مسعود : (وقد ارسل الله حوتاً من البحر الأخضر يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة ، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً ، فإن يونس ليس لك رزقاً ، وإنما بطنك تكون له سجناً .

وقوله تعالى : ﴿ وذا النون إذْ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ﴾ أي إنّ ذا النون أي صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام لما ذهب مغاضباً لقومه وتركهم لمّا لم يؤمنوا به ، وركب السفينة ، ووقعت عليه القرعة ورمىَ بنفسه في البحر والتقمه الحوت، ظنّ ان الله تعالى لن يضيّق عليه في بطن الحوت — وهذا ظن بالله حسن — فلن يقضي عليه أي لن يقدِّر عليه الموت وسينجيه من بطن الحوت ، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير فإن العرب تقول : قَدَرَ ، وقَدَّر بمعنى واحد ، وقال الشاعر :

فـلا عائد ذاك الزمـان الذي مضى تباركت ما تَقْدِرْيكُنْ ذلك الأمر

ومنه قوله تعالى : ﴿ فالتقى الماء على أمر قد قُدِرَ ﴾ أي قد قُدِّرَ .

وقوله تعالى : ﴿ فنادى في الظلمات ﴾ قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل وكذا روى ابن عباس وغيره . وذهب به الحوت في البحار يشقها حتى انتهى الى أسفل البحر سمع يونس حسّاً فقال في نفسه : ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر . وهنالك قال : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا إنّا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة ، قال : ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر ، قالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عملٌ صالح ؟ قال : نعم ، فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال الله تعالى : ﴿ وهو سقيم ﴾ [١] .

(١) قلت : رويناه مشتقاً من حديث فيه مجهول رواه محمد بن اسحق عن أبي هريرة مرفوعاً والجهالة: قول محمد بن اسحق : عمن حدثه ولم يسمه ... ؟ عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة مرفوعاً .

وقوله : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ﴾ أي أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ أي إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء ، فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء

روى الإمام أحمد عن سعد بن وقاص بعد أن ذكر قصة بينه وبين عثمان بن عفان ... إلى أن قال عنه ﷺ أنه قال :١٩٠[... دعوة ذي النون اذ هو في بطن الحوت : ﴿ لا إله إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فانه لم يدعُ بها مسلم ربّه في شيء قط إلا استجاب له] ورواه الترمذي والنسائي .

وهذا الدعاء وان كان ليونس خاصة عليه الصلاة والسلام إلاّ أنه لجماعة المؤمنين عامة فهو شرط من الله لمن دعاه به كما يستفاد ذلك من حديث رواه ابن جرير عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً وفيه١٩١[إسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب واذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متّى ...]

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۞ (٨٩) فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ ۞ (٩٠) ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله زكريّا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً ، وقد تقدمت القصة مبسوطةً في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضاً وههنا أخصر منها ﴿ إذ نادى ربّه ﴾ أي خفية عن قومه : ﴿ رب لا تذرني فرداً ﴾ أي لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسئلة. وقوله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ﴾ أي امرأته كانت عاقراً فولدت . وقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ﴾ أي في عمل القربات والطاعات ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ أي رغباً بما عند الله من الثواب ورهباً ممّا عنده من العذاب [1] ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً

(١) قلت : ولذا فلان دعاءُ(اللهم ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً بجنتك) ضلال .

وقيل : ﴿ خاشعين ﴾ أي متواضعين ومتذللين مؤمنين ومصدقين بما أنزل الله وكلٌ هذه الأحوال صحيحة قريبة المعنى .

﴿ وَٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝ (٩١) ﴾

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، فيذكر قصة زكريا ، وكيف يلد لشيخين طاعنين في السن ولد ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب ، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر فقال تعالى : ﴿ والتي أحصنت فرجها ﴾ أي من الدنس كما قال تعالى : في سورة التحريم : ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ أي دلالة على ان الله تعالى على كل شيء قدير وانه يخلق ما يشاء،وإنما أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون . وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولنجعله آيةً للناس ﴾ .

وقوله : ﴿ للعالمين ﴾ أي الجن والإنس .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ۝ (٩٣) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ۝ (٩٤) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ان هذه أمتكم أمةً واحدةً ﴾ إنَّ هذه إنَّ واسمها ، وأمتكم خبر إنَّ . أي هذه شريعتكم التي بينت لكم شريعة واحدة . وقوله تعالى ﴿ أمة واحدة ﴾ نصب على الحال ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وان هذه أمتكم امةً واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ وقال رسول الله ﷺ [١٩٢] [نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد] يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله .

وقوله تعالى : ﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ أي اختلف الأمم على رسلهم ، فمن

مصدق ومكذب ولهذا قال تعالى : ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ أي يوم القيامة فكل بحسب عمله خيراً كان أو شرا . ولهذا قال سبحانه : ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴾ أي قلبه مصدق وعمل صالحاً ﴿ فلا كفران لسعيه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ أي فلا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال جل وعلا ﴿ وإنّا له كاتبون ﴾ أي يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه شيء منه .

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾
حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا
قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾

يقول تعالى : ﴿ وحرام على قرية ﴾ قال ابن عباس : وجب ، يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون الى الدنيا قبل يوم القيامة ، هكذا صرح ابن عباس وابو جعفر الباقر وقتادة وغيرهم وقوله تعالى : ﴿ حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ انهم من سلالة نوح من أولاد يافث أبي الترك ﴿وهم من كل حدب ينسلون﴾ أي يسرعون في المشي الى الفساد ، والحدب هو المرتفع من الأرض ، وهذه صفتهم في حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ وهذا إخبار عالم ما كان وما يكون الذي يعلم غيب السموات والأرض لا إله إلا هو .

روى الامام أحمد عن النواس بن سمعان الكلابي قال :١٩٣[ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في ناحية النخل ، فقال : « غير الدجال أخوفني عليكم . فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وان يخرج ولست فيكم فكل امرىء حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، وانه شاب جعد قطط عينه طافية ، وانه يخرج خلة بين الشام والعراق فعاث يمينا وشمالاً . يا عباد الله أثبتوا - قلنا يا رسول الله ما لبثه في الأرض ؟ قال : « أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم » قلنا : يا رسول الله فذاك اليوم الذي هو كسنة ، أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة قال : « لا . اقدروا له قدره » قلنا : يا رسول الله فما اسراعه في الأرض ؟ قال : « كالغيث استدبرته الريح . قال : فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون

له . فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذرى ، وأمده خواصر ، واسبغه ضروعاً ، ويمر بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فتتبعه أموالهم فيصبحون ممحلين ليس لهم من أموالهم شيء ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها ، كيعاسيب النحل قال : ويأمر برجل فيقتل ، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل إليه ، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عزوجل المسيح عيسى ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً يديه على أجنحة ملكين ، فيتبعه فيدركه فيقتله عند باب لد الشرقي ــ قال ــ فبينما هم كذلك إذ أوحى الله عزّ وجل الى عيسى بن مريم عليه السلام أني قد أخرجت عباداً من عبادي لا يدان لك بقتالهم ، فحرر عبادي إلى الطور ، فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج كما قال : ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل ، فيرسل عليهم نغفاً في رقابهم ، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ، فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتاً الا وقد ملأه زُهمهم[١] ونتنهم . فيرغب عيسى وأصحابه الى الله عز وجل فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله]

روى ابن جرير عن كعب وغيره قال : ١٩٤[فتطرحم بالمهيل؛ قال ابن جابر فقلت يا أبا يزيد وأين المهيل ؟ قال : مطلع الشمس . قال « ويرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوماً ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة ، ويقال للأرض أنبتي ثمرك ودري بركتك قال : فيومئذٍ يأكل النفر من الرمانة فيستظلون بقحفها ويباركُ في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس ، واللقحة من البقر تكفي الفخذ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت ، قال : فبينما هم على ذلك اذ بعث الله عز وجل ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم ــ أو قال مؤمن ــ ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة »] انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري ورواه مع بقية أهل السنن من طرق عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر به وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقد ثبت في الحديث ١٩٥ [ان عيسى بن مريم يحج البيت العتيق]وقال الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ:١٩٦[ليحُجَنَّ هذا البيت ولَيُعتمرَنَّ بعد خروج

(١) الزهم : رائحة الدسم وريح لحم سمين منتن .

يأجوج ومأجوج] إنفرد به البخاري وقوله تعالى : ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل ، أزفت الساعة واقتربت فإذا كانت ووقعت ، قال الكافرون : هذا يوم عسر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ أي من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام : ﴿ يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا ﴾ أي في الدنيا ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك . .

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ۞ (٩٨) لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۞ (١٠٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۞ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۞ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۞ (١٠٣) ﴾

يقول تعالى ، مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ، ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ أي وقودها . وقوله تعالى : ﴿ أنتم لها واردون ﴾ أي داخلون ﴿ لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها ﴾ أي لو كانت الأصنام آلهةً حقاً ما دخلوا النار مع عابديها ﴿ وكل فيها خالدون ﴾ أي جميعاً مخلدون في النار ﴿ لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ والزفير خروج النفس والشهيق دخوله .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ أي الرحمة والسعادة ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾ أي عن النار وذلك بسبب إيمانهم بالله ورسوله وما أسلفوا من الأعمال الصالحة في الدنيا كما قال تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان ﴾ أي فكما احسنوا العمل في الدنيا أحسن الله لهم الثواب في الآخرة ونجاهم من العذاب فقال عز وجل :

﴿لا يسمعون حسيسها﴾ أي حريقها في الأجساد . وقوله تعالى : ﴿وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون﴾ فسلمهم من المحذور والمرهوب ، وحصل لهم المطلوب والمحبوب فأولئك أولياء الله يمرون على الصراط مراً هو أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثياً . وخرج بذلك من عُبد بغير رضاه كالملائكة والعزير وعيسى ومريم ، وغيرهم ممن عُبدوا وهم غير راضين ويبرأون إلى الله تعالى من ذلك .

وقوله تعالى : ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ قيل وقيل ... وقيل : حين تطبق النار على أهلها . وقوله تعالى : ﴿وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ اي تبشرهم الملائكة يوم معادهم : ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ أي فأملوا ما يسركم .

﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَاءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١٠٤)

يقول تعالى : هذا كائن يوم القيامة : ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ كما قال تعالى : ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويّاتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾

وقد روى البخاري رحمه الله عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: ١٩٧ إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماوات بيمينه] انفرد به من هذا الوجه البخاري رحمه الله . وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : يطوي الله السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة ، يطوي ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده بمنزلة الخردلة .

وقوله تعالى : ﴿كطيّ السجل للكتب﴾ قال ابن عباس : ان السجل هي الصحيفة قاله علي بن طلحة والعوفي عنه . ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة ؛ فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب أي على الكتاب بمعني المكتوب ، كقوله تعالى : ﴿فلما أسلما وتلّه للجبين﴾ أي على الجبين وله نظائر في اللغة والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنّا فاعلين﴾ يعني هذا

كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق جميعاً خلقاً جديداً كما بدأهم هو القادر على إعادتهم ، وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعد الله تعالى الذي لا يخلف ولا يبدل ، وهو القادر على ذلك ، ولهذا قال عز من قائل : ﴿ إنّا كنّا فاعلين ﴾ روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال :١٩٨[قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: « إنكم محشورون إلىٰ الله عز وجل حفاةً عراةً غرْلاً ، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنّا كنّا فاعلين» ...] أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة .

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّالِحُونَ ۝ (١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ۝ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ۝ (١٠٧) ﴾

يخبر تعالى عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدارين ، ووراثة الأرض فيهما كقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدريّة ، وهو كائن لا محالة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴾ الزبور : الكتب التي أُنزلت على الأنبياء وهو أيضاً اسم الكتاب الذي أُنزل على داود عليه السلام . والمراد من الذكر هاهنا : أم الكتاب الذي كتب الله فيه ما هو كائن الى يوم القيامة . والمعنى : ان الله تعالى كتب في التوراة والانجيل والقرآن وفي الصحف التي نزلت على الأنبياء جميعاً من بعد أمّ الكتاب ﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ من كل الأمم المؤمنة بالله تعالى ، فإنه تعالى يكفل لهم السعادة والمجد والحكم والفتح ويولّيهم على أمم الأرض بالحق والعدل وذلك في الدنيا . أما في الآخرة فيورثهم أرض الجنة وما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم .

وقوله تعالى : ﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ أي في هذا القرآن لبلاغاً لمنفعة ، وكفايةً لقوم عابدين الله بما شرع لهم ، وآثروا طاعته على طاعة الشيطان وشهواتهم وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ﴾ يخبر تعالى أنه جعل محمداً ﷺ رحمةً للعالمين ، أي أرسله رحمةً لهم جميعاً فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في

الدارين ، ومن جحدها خسر الدارَيْن كما قال تعالى : ﴿ ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال :١٩٩[قيل يا رسول الله أدعُ على المشركين . قال : « إني لم أبعثْ لعاناً وإنما بعثت رحمةً »] روى الإمام أحمد عن سلمان قال : ان رسول الله خطب فقال :٢٠٠[أيما رجل سببته في غضبي ، أو لعنته لعنة فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون وإنما بعثني الله رحمةً للعالمين فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة] فأي رحمة حصلت لمن كفر به ؟ فالجواب ما رواه ابو جعفر بن جرير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين ﴾ قال : من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ومن لم يؤمنْ بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۞ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۞ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۞ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۞ (١١٢) ﴾

يأمر تعالى رسوله صلواته وسلامه عليه أن يبلغ المشركين : ﴿ إنما يوحي إليّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ﴾ أي متّبعون على ذلك مستسلمون منقادون له ﴿ فإن تولّوا ﴾ أي تركوا ما دعوتهم إليه ﴿ فقل آذنتكم على سواء ﴾ أي أعلمتكم أني حرب لكم كما أنكم حرب لي بريء منكم كما أنتم برآء مني ، كقوله تعالى : ﴿ وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء ، مما تعملون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإمّا تخافَنّ من قوم خيانةً فانبذ إليهم على سواء ﴾ أي ليكن عاملك وعلمهم بنبذ العهود على السواء وهكذا هاهنا : ﴿ فإن تولّوا فقل آذنتكم على سواء ﴾ أي أعلمتكم

ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك.

وقوله تعالى: ﴿ وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ أي هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده ﴿ إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾ أي انه يعلم الغيب جميعه ويعلم ما يظهره عباده وما يسرون وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل وقوله تعالى: ﴿ وإن ادري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمّى ﴿ قال ربّ احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ أي افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق والله المستعان عليكم على ما تقولون وتفترون من الكذب بجعل الأنداد لله تعالى وعبادتها من دونه والعياذ بالله لا إله غيره ولا رب سواه. آخر تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام ولله الحمد والمنة.

(٢٢) سُورَةُ الحَجِّ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَسَبْعُون

إلاّ الآيات ٥٢ و٥٣ و٥٤ و٥٥ . فنزلت بيْن مكـّة والمدينـَة ونزلـَت الحجُ بعدَ النّور

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۞ (٢) ﴾

يأمر تعالى عباده بتقواه ، ويخبرهم بما سيستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة ، هل هي بعد قيام الناس من أجداثهم ؟ يوم نشورهم إلى عرصات القيامة أو ذلك قبل قيام الناس من قبورهم ... ؟ فقال قائلون هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة وهذا ما روي عن علقمة ، وعبيد بن عمير ، وعامر الشعبي ، وقد أورد ابن جرير في ذلك حديث [1] عن أبي هريرة مرفوعاً ومفاده إن ذلك يكون قبل يوم القيامة وفيه .. ٢٠١[والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك] والغرض منه انه دلّ على ان هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة أضيفت إلى الساعة لقربها منه كما يقال : أشراط الساعة ونحو ذلك والله أعلم . وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور واختار ذلك ابن جرير واحتجوا بأحاديث رواها الإمام أحمد والترمذي وصححه وابن أبي حاتم عن عمران بن الحصين ومن هذه الأحاديث ما رواه البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي سعيد قال : قال النبي ﷺ:٢٠٢« [يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم فيقول: لبيك ربنا

قلت : ولكنه حديث فيه مجهولان فلا يصح والله أعلم .

وسعديك فينادى بصوت : ان الله يأمرك ان تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار قال : يا رب وما بعث النار ؟ قال : من كل الف – أراه قال – تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الولد ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم . قال النبي ﷺ : من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ، أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الاسود ، إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة – فكبرنا ثم قال « ثلث أهل الجنة » فكبرنا ثم قال : « شطر أهل الجنة » فكبرنا] وقد رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع ، ومسلم ، والنسائي .

روى الإمام أحمد عن عائشة عن النبي ﷺ قال : ٢٠٣[إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حفاةً عراةً غرلاً » قالت عائشة : يا رسول الله الرجال والنساء ينظرون بعضهم إلى بعض ...؟ قال : « يا عائشة إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك »] أخرجاه والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جداً لها موضع آخر ولهذا قال تعالى ﴿ ان زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ أي أمر عظيم ، وخطب جليل ، وطارق مفظع وحادث هائل وكائن عجيب ، والزلزال هو ما يحصل للنفوس من الرعب والفزع كما قال تعالى : ﴿ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يوم ترونها ﴾ هذا من باب ضمير الشأن ، ولهذا قال مفسراً له ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ أي فتشتغل لهول ما ترى ، عن أحب الناس إليها ، والتي هي أشفق الناس عليه تدهش عنه في حال إرضاعها له . ولهذا قال : ﴿ كل مرضعة ﴾ ولم يقل كل مرضع وقال ﴿ عما أرضعت ﴾ أي عن رضيعها فطامه وقوله تعالى : ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ أي قبل تمامه لشدة الهول ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ أي من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم ، وغابت أذهانهم ، فمن رآهم حسب أنهم سكارىٰ ﴿ وما هم بسكارىٰ ولكن عذاب الله شديد ﴾

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ۝ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ (٤) ﴾

يذم تعالى من كذب بالبعث وبما أنزل على الأنبياء متبعاً في ذلك كل شيطان مريد

من الأنس والجنّ وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل يتركون ما أنزل الله على رسوله من الحق المبين ، ويتبعون البدع والأهواء والآراء ولهذا قال في شأنهم : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾ أي علم صحيح ﴿ ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه ﴾ أي كتابة قدرية ﴿ أنه من تولاّه ﴾ أي اتبعه وقلده ﴿ فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ أي يضلّه في الدنيا ، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير الحار المؤلم . قال السدي عن أبي مالك : نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث ، وكذلك قال ابن جريج وقال ابن أبي حاتم عن أُبي كعب المكي قال : قال خبيث من خبثاء قريش اخبرنا عن ربكم من ذهب هو ، أو من فضة هو أو من نحاس هو ؟ فتقعقعت السماء قعقعةً – والقعقعة في كلام العرب الرعد – فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه . وقال مجاهد : جاء يهودي فقال : يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو من در أم من ياقوت ؟ قال فجاءت صاعقة فأخذته .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَاءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ❁ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي ٱلْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ❁ (٦) وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي ٱلْقُبُورِ ❁ (٧) ﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث ، المنكر للمعاد ، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه الخلق فقال : ﴿ يا أيها الناس ان كنتم في ريب ﴾ أي في شك ﴿ من البعث ﴾ وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ أي أصل خلقه لكم من تراب وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام ﴿ ثم من نطفة ﴾ أي ثم

جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ ثم من علقة ثم من مضغة ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوماً يضاف إليه ما يجتمع اليها ، ثم تنقلب علقةً حمراء بإذن الله فتمكث كذلك أربعين يوماً ، ثم تستحيل فتصير مضغةً من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن ، وفخذان ورجلان وسائر الاعضاء ، فتارةً تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ أي كما تشاهدونها : ﴿ لنبيّن لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى ﴾ أي وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها ، قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ مخلقة وغير مخلقة ﴾ قال : هو السقط مخلوق وغير مخلوق ، فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهي مضغة ، أرسل الله تعالى ملكاً إليها فنفخ فيها الروح وسوّاها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح وذكر وأنثى ، وكتب رزقها وأجلها ، وشقيّ أو سعيد .

كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق ٢٠٤[إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلةً ثم يكون علقةً مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح]

وقوله تعالى : ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ أي ضعيفا في بدنه وعقله وكل خلقه ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً ، ويلطف به ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار ، ولهذا قال : ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ أي يتكامل الشباب عنفواناً ومنظراً ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ أي في حال شبابه وقواه ﴿ ومنكم من يردّ الى أرذل العمر ﴾ وهو الشيخوخة والهرم والخرف ولهذا قال تعالى : ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ كما قال تعا لى : ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوةً ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة ، اي القاحلة ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أي فإذا أنزل الله عليها المطر تحركت بالنبات وارتفع الثرى ثم انبتت ما فيها من الألوان والفنون والثمار وشتى الزروع والنباتات ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أي الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿ وأنه يحيي الموتى ﴾ أي كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿ وانه على كل شيء قدير ﴾ كما قال تعالى : ﴿ انما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وان

الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ أي كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿ وان الله يبعث من في القبور ﴾ أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمما ويوجدهم بعد العدم . كما قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم قل يحييها الذي انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ والآيات في هذه كثيرة .

روى الامام أحمد عن لقيط بن عامر انه قال ٢٠٥ [يا رسول الله أكلّنا يرىٰ ربه عز وجل يوم القيامة وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أليس كلكم ينظر إلى القمر مخلياً به ؟ » قلنا : بلى ، قال « فالله أعظم » قال قلت يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : « أما مررت بواد أهلك ممحلاً » قال : بلى قال : « ثم مررت به يهتز خضراً » قال : بلى قال : « فكذلك يحيي الله الموتى وذلك آيته في خلقه »] ورواه أبو داود وابن ماجه قال ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل قال : من علم ان الله هو الحق المبين ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، دخل الجنة .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ۞ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۞ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۞ (١٠) ﴾

لما ذكر تعالى حال الضُلاّل الجهّال المقلدين في قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ ذكر في هذه الحال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع فقال تعالى ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ أي بلا عقل صحيح ، ولا نقل صريح ، بل بمجزد الرأي والهوىٰ . وقوله تعالى : ﴿ ثاني عطفه ﴾ أي لاوي عطفه أي رقبتة معرضاً عما يدعى إليه من الحق ومستكبرا كقوله تعالى : ﴿ واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ أي ليصدهم عن سبيل الله.ثم قال تعالى : ﴿ له في الدنيا خزي ﴾ لاستكباره عن آيات الله لقّاه المذلة في الدنيا ﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ أي يقال له هذا

تقريعاً وتوبيخاً ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ أي وذلك يعني إذاقته عذاب الحريق يوم القيامة،ليس ظلماً بل هو العدل من الله تعالى جزاءً ما قدمت يداه من الكفر والعناد والاستكبار، وحاشا الله من الظلم فقد حرمه على نفسه .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۞ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ ۞ (١٢) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ۞ (١٣) ﴾

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن اصابه خير اطمأن به ﴾ قال كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ، ونتجت خيله قال : هذا دين صالح ، وان لم تلد امرأته ولم تنتج خيله،قال هذا دين سوء . وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ أنقلب على وجهه ﴾ أي ارتد كافراً . وقوله تعالى : ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ أي فلا هو حصل من الدنيا على شيء ، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾ أي هذه هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة . وقوله تعالى : ﴿ يدعو لمن ضرُّه أقرب من نفعه ﴾ أي ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن . وقوله تعالى : ﴿ لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ قال مجاهد : يعني الوثن ، يعني بئس هذا الذي دعاه من دون الله مولى ، يعني ولياً وناصراً ﴿ وبئس العشير ﴾ وهو المخالط والمعاشر .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۞ (١٤) ﴾

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء،عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا إيمانهم بأفعالهم ، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات ، وتركوا المنكرات فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات . ولما ذكر تعالى أنه أضلّ

أولئك وهدى هؤلاء قال : ﴿ ان الله يفعل ما يريد ﴾ .

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ ٱللهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ۞ (١٥) وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ ٱللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ۞ (١٦) ﴾

قال ابن عباس وأصحابه : من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة ﴿ فليمدد بسبب ﴾ أي بحبل ﴿ إلى السماء ﴾ أي إلى سماء بيته ﴿ ثم ليقطع ﴾ أي ثم ليختنق به ، وهذا القول أبلغ في التهكم فإن المعنى: من كان يظن ان الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه ، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه فإن الله ناصره لا محالة قال الله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ الآية ولهذا قال تعالى : ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ قال عطاء الخراساني : فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ ، من شأن محمد ﷺ . وقوله تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ أي القرآن ﴿ آيات بينات ﴾ واضحات وهن حجة من الله على الناس ، ﴿ وأن الله يهدي من يريد ﴾ والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وله الحكمة التامة والحجة القاطعة لا معقّب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّابِئِينَ وَٱلنَّصَارَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ ٱللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ (١٧) ﴾

يخبر تعالى عن أهل الأديان المختلفة مؤمنهم وكافرهم أنه تعالى يحكم بينهم بالعدل يوم القيامة فيدخل من آمن به الجنة ويدخل من كفر به النار فإنه تعالى شهيد على أفعالهم وأقوالهم وسرائرهم وما هو أخفى من ذلك .



﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ﴾

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً وسجود كل شيء مما يختص به.فقال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض ﴾ أي من الملائكة في أقطار السموات ، والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطير . وقوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر والنجوم ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص لأنها قد عبدت من دون الله فبيّن أنها تسجد لخالقها ، وأنها مربوبة مسخرة ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾ الآية ، وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال قال لي رسول الله ﷺ : ٢٠٦[أتدري أين تذهب هذه الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فانها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأمر فيوشِك أن يقال لها ارجعي من حيث جئتِ »] وقوله تعالى : ﴿ والجبال والشجر ﴾ فسجودُهما بفيْء ظلالهما عن اليمين والشمال ، وقوله تعالى : ﴿ والدواب ﴾ أي الحيوانات كلها ، قد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ : نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر ، فرب مركوبة خير أو أكثر ذكراً لله تعالى من راكبها .

﴿ وكثير من الناس ﴾ أي يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ أي ممن امتنع وأبى واستكبر ، ﴿ ومن يُهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ وقال ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي قال : قيل لعلي : إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة ، فقال له علي : يا عبدالله خلقك الله كما يشاء أو كما شئت ؟ قال : بل كما شاء . قال فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء قال فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء . قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء ؟ قال بل حيث شاء . قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف .

وعن أبي هريرة قال ٢٠٧ قال رسول الله ﷺ [إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان

يبكي، يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار] رواه مسلم وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال٢٠٨ [قلت يا رسول الله ﷺ أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: نعم فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما] إنه وإن كان فيه ابنُ لهيعة إنما صرح فيه بالسماع كما أن له شواهد يشد بعضها بعضاً



﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۞ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۞ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۞ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۞ (٢٢) ﴾

ثبت في الصحيحين عن أبي ذر أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية: ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر لفظ البخاري عند تفسيرها. ثم قال البخاري عن علي بن أبي طالب قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس بن عباد: وفيهم نزلت ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. انفرد به البخاري.

ولا يمنع أن يكون هذا عاماً. وهذا ما قاله مجاهد وعطاء: هم المؤمنون والكافرون. وقول مجاهد وعطاء يشمل الأقوال كلها وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل، وهذا اختيار ابن جرير، وهو حسن، ولهذا قال تعالى: ﴿ فالذين كفروا قطّعت لهم ثياب من نار ﴾ أي فصلت لهم مقطعات من النار ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ۞ يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴾ روى ابن جرير عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال:٢٠٩[ان الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه وهو الصهر، ثم يعاد كما كان] ورواه الترمذي وحسّنه وصحّحه وهكذا رواه ابن أبي حاتم وقوله تعالى: ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾

قال ابن عباس : يضربون بها ، فيقع كل عضوٍ حياله فيدعون بالثبور .

وقوله تعالى : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍ أعيدوا فيها ﴾ يرفعهم لهبها وتردُّهم مقامعها وقوله تعالى : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قـــولاً وفعلاً .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ❁ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ ٱلْحَمِيدِ ❁ (٢٤) ﴾

لما أخبر تعالى بما تقدم من حال أهل النار عياذاً بالله من حالهم ذكر أهل الجنة فقال عز من قائل : ﴿ ان الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي تترقرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها وتحت أشجارها وقصورها يصرفونها حيث شاءوا ﴿ يحلَّوْن فيها ﴾ من الحِلية ﴿ من أساورَ من ذهب ولؤلؤاً ﴾ أي في أيديهم .كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه ٢١٠ [تبلغ الحِلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء] وقوله تعالى: ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ في مقابلة ثياب أهل النار الــتي فصّلتْ تفصيلاً لهم ، لباس هؤلاء من الحرير استبرقه وسندسه كما قال تعالى : ﴿ عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق ﴾ وفي الصحيح :٢١١ [لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة] وقوله تعالى : ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ كقوله تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ فهدوا إلى المكان الطيب الذي لا يسمعون فيه إلا الكلام الطيب .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ❁ (٢٥) ﴾

ينكر تعالى على الكفار صدّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام وقضاء مناسكهم فيه ودعواهم أنهم أولياؤه ﴿ وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلاّ المتقون ﴾

وفي هذا دليل على ان هذه الآية مدنية فقوله تعالى : ﴿ ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴾ أي مع كفرهم يصدّون عن سبيل الله والمسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر . وقوله تعالى : ﴿ الــذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ﴾ أي يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام وقد جعله الله شرعاً سواءً لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها وقد اختُلِف في جواز التملك بمكة وتوريثها وتأجيرها فذهب الشافعي إلى جواز ذلك كله واحتج بحديث الزهري عن اسامة بن زيد قال :٢١٢ [قلت يا رسول الله أتنزل غداً في دارك بمكة ؟ فقال وهل ترك لنا عقيل من رباع ؟ ثم قال لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر] وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ، وبما ثبت ان عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أميه داراً بمكة ، فجعلها سجناً بأربعة آلاف درهم . وذهب اسحق بن راهويه إلى أنها لا تورّث ولا تؤجرً ، وهو مذهب طائفة من السلف واحتج بما رواه ابن ماجه عن علقمة بن نضلة قال : توفي رسول الله ﷺ وابو بكــر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى اسكن . وتوسط الإمام أحمد فقال : تملك وتورَّث ولا تؤجر ، جمعاً بين الأدلّة والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يردْ فيه بإلحادٍ بظلم نذقْه من عذابٍ أليم ﴾ أي نذقه عذابــاً أليماً والمعنى : أي من يهمُّ فيه بأمرٍ فظيع من المعاصي الكبار عامداً قاصداً وقال مجاهد من يعمل فيه عملاً سيئاً وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه الشر اذا كان عازماً عليه وان لم يوقعه وحاصله إن فعل الإنسان سيئةً فيه بشكل عام يجازى على قدرها زيادة على ما لو فعله بغير الحرم لحرمته عندالله ، وذلك من أصغر ذنب إلى أعظمه كل ذلك داخل بقوله تعالى ﴿ بظلمٍ ﴾ فلوشتم خادماً فما فوقه كاحتكار الطعام – إلى القتل والشرك والارتداد ، فهو ظلم.فعمل سيءٌ في الحرم،ليس كعمله في أي مكانٍ دونه،والله تعالى يعاقب عليه بما يناسب حرمةَ الحرم – (١) .

(١) ما بين المعترضتين من قوله : وحاصله – إلى قوله – حرمة الحرم – من كلامي .

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۞ (٢٦) وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۞ (٢٧) ﴾

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله واشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، فقال تعالى : ﴿ واذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ أي أرشدناه إليه وسلّمناه له وأذنّا له في بنائه وقد استدل به كثير ممن قال ان ابراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق وإنه لم يُبْنَ قبله ، كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذر [قلت١١٣ يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : «المسجد الحرام » قلت : ثم أيّ ؟ قال : « بيت المقدس » قلت كم بينهما ؟ قال « أربعون سنة »] وقد قدّمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح بما أغنى عن إعادته ههنا . وقال تعالى ههنا : ﴿ أن لا تشرك بي شيئاً ﴾ أي أبنه على اسمي وحدي ﴿ وطهّرْ بيتي ﴾ قال قتادة ومجاهد : من الشرك ﴿ للطائفين والقائمين والركّع السجود ﴾ أي اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ، فالطائف به معروف وهو أخص العبادات عند البيت ، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿ والقائمين ﴾ أي في الصلاة ولهذا قال جل وعلا : ﴿ والركّع السجود ﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت فالطواف عنده والصلاة إليه .

وقوله تعالى : ﴿ وأذّن في الناس بالحج ﴾ أي ناد في الناس داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه فذُكِرَ أنه قال : يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم ؟ فقال : نادِ وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه ، وقيل على الحجر وقيل على الصفا وقيل على أبي قبيس وقال:يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحُجّوه . فيقال إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع من في الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة لبيك اللهم لبيك . هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ ﴾

الآية وقد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً لأنه قدّمهم في الذكر والذي عليه الأكثرون أن الحج راكباً أفضل . إقتداءً برسول الله ﷺ فإنه حج راكباً مع كمال قوته عليه السلام . وقوله تعالى : ﴿ يأتين من كل فج ﴾ يعني طريق ﴿ عميق ﴾ بعيد وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن ابراهيم حين قال في دعائه : ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ فليس أحد من أهل الإسلام إلاّ وهو يحنّ إلى رؤية الكعبة والطواف ، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار .

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۞ (٢٨) ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۞ (٢٩) ﴾

قال ابن عباس : ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ قال : منافع الدنيا والآخرة ، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات ، وكذا قال مجاهد وغير واحد انها منافع الدنيا والآخرة كقوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الأيام المعلومات أيام العشر وعلقه البخاري بصيغة الجزم به وروي مثله عن أبي موسى الأشعري ومجاهد وعطاء وغيرهم . وروى البخاري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال :٢١٤ [«ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء »] رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه بنحوه .

روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ :٢١٥ [ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب اليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد .] قال البخاري : وكان ابن عمر وأبي هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر ، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما .

وقد روى أحمد عن جابر مرفوعاً٢١٦[أن هذا هو العشر الذي أقسم الله به في قوله : ﴿ والفجر وليالٍ عشر ﴾] وفي صحيح مسلم عن أبي قتادة قال : سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة ؛ فقال ٢١٧ [إحتسب على الله أن يكفرّ السنة الماضية والآتية] ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر . وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله . وبالجملة فهذا العشر قد قيل انه أفضل أيام السنة كما نطق به الحديث وفضله كثير على عشر رمضان الأخير ، وقيل بل عشر رمضان لاشتماله على ليلة القدر وتوسط آخرون فقالوا : أيام هذا أفضل وليالي ذاك أفضل وبهذا يجتمع شمل الأدلة والله أعلم .

والراجح : ان الأيام المعلومات كما صح ان ابن عباس وابن عمر والقول له : الأيام المعلومات والمعدودات هي جميعهن اربعة أيام فالأيام المعلومات : يوم النحر ويومان بعده والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر هذا إسناد صحيح إلى ابن عمر ويعضد هذا القول قوله تعالى : ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ يعني به ذكر الله عند ذبحها ومن أدخل في الأيام المعلومات يوم عرفة ثم يوم النحر ويوماً آخر بعده وهذا قول مرجوح والله أعلم . وقولُه تعالى : ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم كما فصلها تعالى في سورة الأنعام ﴿ ثمانية أزواج ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ والأكل من الأضاحي من باب الرخصة أو الاستحباب ، كما ثبت ، أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها وحسا من مرقها . وعن مالك أنه قال أحب أن يأكل من أضحيته لقوله تعالى : ﴿ فكلوا منها ﴾ قال سفيان الثوري عن منصور عن ابراهيم ﴿ فكلوا منها ﴾ قال كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل وروي عن مجاهد وعطاء نحو ذلك . وذلك على الاختيار . والأضحية تجزّأ ثلاثة أجزاء : ثلث له ، وثلث يهديه ، وثلث يتصدّق به لقوله تعالى : ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ ﴾ وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله وبه الثقة . وقوله تعالى : ﴿ البائس الفقير ﴾ هو المضطر البادي عليه البؤس وهو الفقير المتعفف فلا يبسط يده وقوله عز وجل : ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ التفث : وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر والشعر ونحو ذلك ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ قال مجاهد أي نذر الحج والهدي وما نذر الإنسان من نذر يكون في الحج ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ يعني الطواف الواجب – وهو طواف الإفاضة – وهكذا صنع رسول الله ﷺ فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمي الجمرة فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه وحلق رأسه ، ثم أفاض فطاف بالبيت . ويجب أن

يكون الطواف من وراء الحِجر ، لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت حين قصرت بهم النفقة . ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحِجر وأخبر ان الحِجر من البيت ولم يستلم الركنين الشاميين لأنهما لم يتمما على قواعد ابراهيم العتيقة ، ووصف بالعتيق لأنه أول بيت وضع للناس .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝ (٣١) ﴾

يقول تعالى : هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك وما يلقى عليها من الثواب الجزيل ﴿ ومن يعظم حرمات الله ﴾ أي ومن يجتنب معاصيَه ومحارمَه ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه ﴿ فهو خيرلهعند ربه ﴾ أي فله على ذلك خير كثير وثواب جليل . فكما على فعل الطاعات ثواب كثير ، كذلك على ترك المحرمات ثواب كثير . وقوله تعالى : ﴿ وأحِلَّت لكم الأنعام إلاّ ما يتلى عليكم ﴾ أي أحلَلْنا لكم جميع الأنعام وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حامٍ . وقوله تعالى : ﴿ إلاّ ما يتلى عليكم ﴾ أي من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به الآية ... ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ إن ﴿ من ﴾ ههنا لبيان الجنس ، أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان ، وقرن الشرك بالله بقول الزور كقوله تعالى : ﴿ قل إنمَّا حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغيَ بغير الحق وأن تُشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ومنه شهادة الزور . وفي الصحيحين عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال :٢١٨[« ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » قلنا : بلى يا رسول الله قال : « الإشراك بالله وعقوق الوالدين – وكان متكئاً فجلس فقال – : ألا وقول الزُور ألا وشهادة الزُور » فما زال يكرّرها حتى قلنا : ليته سكَتَ] روى الإمام أحمد عن خريم بن فاتك الأسدي قال : صلى ﷺ الصبح . فلما انصرف قام قائماً فقال : عدلت شهادة

الزور بالإشراك بالله عز وجل ثم تلا هذه الآية ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ حنفاء لله ﴾ أي مخلصين له الدين ، منحرفين عن الباطل إلى الحق ثم قال تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء ﴾ فقد ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى كأنما سقط هاوياً من السماء ﴿ فتخطفه الطير ﴾ أي تقطعه الطيور في الهواء ﴿ أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ أي بعيد مهلك لمن هوى فيه . ولهذا جاء في حديث البراء : ٢١٩ [إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت وصعدوا بروحه إلى السماء فلا تفتح له أبواب السماء بل تطرح روحه طرحاً من هناك ثم قرأ هذه الآية] وقد تقدم هذا الحديث في سورة إبراهيم بحروفه ، وألفاظه وطرقه .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۞ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۞ (٣٣) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ أي أوامره ﴿ فإنها من تقوى القلوب ﴾ ومن شعائر الله البُدْن أي الهدْي والأضاحي . وقال محمد بن أبي موسى : الوقوف ، ومزدلفة ، والجمار ، والرمي ، والحلْق ، والبدْن من شعائر الله وقال ابن عمر ، أعظم الشعائر البيت . ولما كان سوق الهدي والأضاحي وذبحها في محلها من شعائر الله لزم ان نستعظمها ، واستعظامها : استسمانها واستحسانها . قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله ﴾ قال : الاستسمان والاستحسان والاستعظام . روى أبو أمامة عن سهل : كنا نسمّن الأضحية بالمدينة وكان المسلمون يسمّنون رواه البخاري . وعن علي رضي الله عنه قال : ٢٢٠ [أمرنا رسول الله ﷺ ان نستشرف العين والأذن وان لا نضحي بمقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء .] رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي . وأما المقابلة فهي التي قطع مقدم أذنها ، والمدابرة من مؤخر أذنها ، والشرقاء هي التي قطعت أذنها طولاً ؛ قاله الشافعي والأصمعي . وأما الخرقاء فهي التي خرقت السمّة أذنها خرقاً مدوّراً ، والله أعلم .

ولأحمد وأهل السنن والترمذي عنه أي عن عليّ رضي الله عنه قال : ٢٢١ [نهى رسول الله ﷺ أن نضحي بأعضب القرن والأذن ،] قال سعيد بن المسيب : العضب النصف

فأكثر أي كسر نصف القرن فأكثر . وعن البراء قال : ٢٢٢[قال رسول الله ﷺ أربع لا تجوز في الأضاحي : العوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والعرجاء البين ضلعها ، والكسيرة التي لا تنقى] رواه أحمد واهل السنن وصححه الترمذي . وهذه العيوب تنقص اللحم ولضعفها وعجزها عن استكمال الرعي لأن الشاء يسبقنها إلى المرعى . وروى أبو داود عن عتبة بن عيد السلمي : أن رسول الله ﷺ نهى عن المُصفرة ، والمستأصلة والبخقاء والمشيعة والكسيرة . فالمصفرة قيل الهزيلة أو المستأصلة الأذن ، والمستأصلة مكسورة القرن والبخقاء : هي العوراء والمشيعة : هي التي لا تزال تشيع خلف الغنم ولا تتبع لضعفها ، والكسيرة : العرجاء فهذه العيوب كلها مانعة الإجزاء . فإن طرأ العيب بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر . فقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : ٧٥ [اشتريت كبشاً أضحّي به . فعدا الذئب فأخذ الإلية فسألت النبي ﷺ فقال « ضحّ به »] ولهذا جاء في الحديث :٢٢٣[أمرنا النبي ﷺ أن نستشرف العين والأذن ، أي أن تكون الهدية أو الأضحية سمينةً حسنةً ثمينةً »]

وقوله تعالى : ﴿ لكم فيها منافع ﴾ أي لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها إلى أجل مسمى كما ثبت في الصحيحين عن أنس ٢٢٤ أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنةً قال اركبها قال إنها بدنة قال « اركبها ويحك » في الثانية أو الثالثة] . وفي رواية لمسلم عن جابر عن رسول الله ﷺ انه قال ٢٢٥ [اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها .]

وقوله تعالى : ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ أي محل الهدي وانتهاؤه إلى البيت العتيق وهو الكعبة . كما قال الله تعالى : ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ❁ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ❁ (٣٥) ﴾

يخبر تعالى : أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل .

﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال : ٢٢٦ [أُتي رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ، فسمّى وكبّر ووضع رجله على صفاحهما .] روى أحمد عن زيد بن ارقم قال : ٢٢٧ [قلت يا رسول الله ما هذه الأضاحي ؟ قال « سنّة أبيكم إبراهيم » قالوا ما لنا منها ؟ قال : « بكل شعرة حسنة » . قال فالصوف قال « بكل شعرة من الصوف حسنة »] وأخرجه ابن ماجه.

وقوله تعالى : ﴿ فإلهكم آله واحد فله أسلموا ﴾ أي معبودكم واحد وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضاً فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له . ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾ ولهذا قال : ﴿ فله أسلموا ﴾ أي استسلموا لحكمه وطاعته.﴿ وبشر المخبتين ﴾ وأحسن ما يفسره ما بعده وهو قوله تعالى : ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ أي خافت منه قلوبهم ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ أي من المصائب ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ أي المؤدّين حقها في أوقاتها وأركانها ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي ينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله .. وهذا كله تفسير المخبتين وهذه صفاتهم اللهم فاجعلنا منهم .

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ (٣٦) ﴾

يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما خلق لهم من البُدن وجعلَها من شعائر الله ، تُهدى إلى بيته الحرام ، بل هي أفضل ما يهدى إليه ، كما قال تعالى : ﴿ لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهديَ ولا القلائدَ ولا آمّين البيت الحرام ﴾ الآية ... أما البُدْن فقد قال عطاء (البقرة والبعير) وإن كان فيه قولان إنما اصحهما البقرة والبعير كما صحَّ الحديث عند مسلم من رواية جابر بن عبدالله قال : ٢٢٨ [أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأضاحي البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة .]

وقوله تعالى : ﴿ لكم فيها خير ﴾ أي ثواب في الدار الآخرة وعن سليمان بن يزيد

الكعبي عن هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال :٢٢٩ [ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق دم ، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل ان يقع من الأرض فطيبوا بها نفساً] . رواه ابن ماجه والترمذي وحسّنه . وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : [٢٣٠ ما أنفقت الوَرِق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد] رواه الدار قطني في سننه .

وقوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ وعن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن جابر بن عبدالله قال : صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى ، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه فقال :٢٣١ [بسم الله والله أكبر ، اللهم هذا عني وعمن لم يضحِ من أمتي] ومعنى (صوافّ) أي قياماً على ثلاث قوائم ، معقولة يدها اليسرى ، يقول : بسم الله والله أكبر ولا اله الا الله اللهم منك ولك] قاله ابن عباس وكذلك مجاهد وابن أبي طلحة والعوفي عنه ، وفي الصحيحين ٢٣٢ [عن ابن عمر أنه أتى على رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها فقال : ابعثها قياماً مقيدة ، سنة أبي القاسم محمد ﷺ] .

وقوله تعالى : ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ يعني سقطت إلى الأرض وماتت فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت ، حتى تموت وتبرد حركتها وقد جاء في حديث مرفوع :٢٣٣ [لا تعجلوا النفوس أن تزهق] ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال ذلك ويؤيده حديث شداد بن أوس في صحيح مسلم :٢٣٤ [إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحدّ أحدُكم شفرته وليُرح ذبيحته] وعن أبي واقد الليثي قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٣٥[ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة] رواه أحمد وابو داود والترمذي وصححه .

وقوله تعالى : ﴿ فكلوا منها وأُطعموا القانع والمعترّ ﴾ قال بعض السلف : قوله تعالى : ﴿ فكلوا منها ﴾ أمر إباحة ، وقال مالك : يستحب ذلك . واختلفوا بالمراد بالقانع والمعترّ قال ابن عباس : القانع المستغني بما أعطيته وهو في بيته ، والمعترّ : الذي يتعرض لك ويلم بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل . وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تجزّأ ثلاثة أجزاء : فثلث لصاحبها يأكله،وثلث يهديه،وثلث يتصدق به على الفقراء .

وفي الحديث الصحيح ان رسول الله ﷺ قال للناس : ٢٣٦ [إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث ، فكلوا وادّخروا ما بدا لكم] وفي الحديث الآخر

٢٣٧ [فكلوا وادخروا وتصدقوا] أما الجلود ففي مسند أحمد عن النعمان في حديث الأضاحي ٢٣٨[فكلوا وتصدقوا واستمتعوا بجلودها ولا تبيعوها] .

وإن أولَ وقت ذبح الأضاحي إذا طلعت الشمس يوم النحر ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين . وعن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٣٩[ان أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ، ثم نرجعَ فننحرُ ، فمن فعل فقد أصاب سنتنا ، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء] أخرجاه . وفي صحيح مسلم : ٢٤٠ [لا تذبحوا قبل أن يذبح الإمام] .

وقوله تعالى : ﴿ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾ يقول تعالى : من أجل هذا ﴿ سخرْناها لكم ﴾ أي ذلّلناها لكم ، وجعلناها منقادةً لكم خاضعة إنْ شئتم ركبتم وإن شئتم حلبتم وإن شئتم ذبحتم .كما قال تعالى : ﴿ أو لم يرَوا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون – إلى قوله – أفلا يشكرون ﴾ .

﴿ لَنْ يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (٣٧) ﴾

يقول تعالى : إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها ، فإنه الخالق الرازق لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها فإنه تعالى هو الغني عمّا سواه وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ، ونضحوا عليها من دمائها. فقال تعالى : ﴿ لن ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ أي يتقبل ذلك ويجزي عليه ، كما جاء في الصحيح : ٢٤١[إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم] ولا يتقبّل الله إلاّ ممن أخلص في عمله لوجهه الكريم . وقوله تعالى : ﴿ كذلك سخّرها لكم ﴾ أي من أجل ذلك سخّر لكم البدن ﴿ لتكبّروا الله على ما هداكم ﴾ أي لتعظّموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبّه ويرضاه ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه.وقوله تعالى : ﴿ وبشر المحسنين ﴾ أي وبشر يا محمد المحسنين في عملهم ، القائمين بحدود الله المتبعين ما شرع لهم ، المصدقين الرسول

فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل . .

مسألة : لقد اختلف في وجوب الأضحية فمنهم من أوجبها كأبي حنيفة ومالك والثوري على من ملك نصاباً واشترط أبو حنيفة الإقامة واحتج لهم بحديث رواه أحمد واستنكره (١) ... وان فيه غرابة وقال الشافعي وأحمد بالاستحباب لما جاء في الحديث :
٢٤٢ [ليس في المال حق سوى الزكاة] وقد تقدم انه ﷺ ضحّى عن أمته فأسقط ذلك وجوبها عنهم وقال ابو سريحة كنت جاراً لأبي بكر وعمر فكانا لا يضحيان خشية أن يقتديُ الناس بهما . وتجزي الأضحية عن صاحبها وأهل بيته .

وعند الجمهور يجزي الثني من الإبل والبقر والمعز أو الجذع من الضأن . فأما التي من الإبل فهو الذي له خمس سنين ودخل في السادسة،ومن البقر ماله سنتان ودخل في الثالثة ، ومن المعز ماله سنتان،وأما الجذع من الضأن فقيل ماله سنة وقيل عشرة أشهر وقيل ثمانية وقيل ستة أشهر وهو أقل ما قيل في سنه ،وما دونه فهو حمَل الفرق بينهما أن الحمل شعر ظهره قائم ، والجذع شعر ظهره نائم قد انفرق صدعين والله أعلم .



﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (٣٨)

يخبر تعالى انه يدافع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه ويحفظهم من شر الأشرار وكيد الفجّار بتأييده ونصره .كما قال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يحبُّ كل خوان كفور ﴾ أي لا يحب من اتصف بخيانة العهود والمواثيق والوعود.والكفر هو جَحْدُ النعم فلا يعترف بها .

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٣٩) ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ

(١) قلت : الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً : (من وجد سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا قال ابن كثير : (على أن فيه غرابة) قلت ولعلها من مفهوم الحديث أن النحر قبل الصلاة ، بينما الصلاة قبل النحر « فصل لربك وانحر » واستنكره أحمد .

صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ (٤٠)

قال ابن جرير عن ابن عباس قال : لما أُخرج النبي ﷺ من مكة ، قال أبو بكر : أخرجوا نبيّهم، إنّا لله وإنّا إليه راجعون ليهلَكُنَّ . قال ابن عباس : فأنزل الله عز وجل : ﴿ أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظلِموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : فعرفت أنه سيكون قتال . ورواه أحمد وزاد : قال ابن عباس وهي أول آية نزلت في القتال . ورواه الترمذي وحسّنه . وهذا يدل على أن السورة مدنية . وقوله تعالى : ﴿ وان الله على نصرهم لقدير ﴾ أي قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكنه يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته . كما قال تعالى : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منّاً بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها . ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرّفها لهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوُ أخباركم ﴾ والآيات في هذا كثيرة . ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ وقد فعل وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به لأنّهم لما كانوا بمكة كان المشركون اكثرَ عدداً فلو أُمر المسلمون وهم أقل من العُشرْ بقتال الباقين لشقّ عليهم ، ولهذا ٢٤٣ [لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ ، وكانوا نيفاً وثمانين ، قالوا : يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي ، يعنون أهلَ منىً لياليَ منىً فنقتلهم ؟ فقال رسول الله ﷺ « إني لم أومرْ بعدُ » فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم وهمّوا بقتله وشردوا أصحابه شذر مذر ، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة ، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه ، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومعقلاً يلجأون إليه ، شرع الله جهاد الأعداء فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك فقال تعالى : ﴿ أُذِن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلِموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾] .

وقوله تعالى : ﴿ الذين أُخرِجوا من ديارهم بغير حق ﴾ يعني محمداً واصحابه أخرجوا من مكة بغير حق ﴿ إلاّ ان يقولوا ربنا الله ﴾ أي ما كان لهم إلى قومهم إساءة ،

ولا كان لهم ذنب إلاّ أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له . وأما عند المشركين فإنه أكبرُ الذنوب. كما قال تعالى في قصّة أصحاب الأخدود : ﴿ وما نقموا منهم إلاّ ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ، ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب ، لفسدت الأرض ولأهلك القوي الضعيفُ ﴿ لهدمت صوامعُ وبيعٌ وصلوات ومساجدُ يذكرُ فيها اسم الله كثيراً ﴾ أي لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود وهي كنائسهم ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً ، وقال بعض العلماء : هذا ترقٍّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد وهي اكثر عمّاراً وأكثر عباداً وهم ذوو القصد الصحيح .

وقوله تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصرْكم ويثبت أقدامَكم والذين كفروا فتعساً لهم وأضلَّ أعمالهم ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزّة ، فبقوته خلق كل شيء فقدّره تقديراً وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب ، ومن كان القوي العزيز ناصرَه فهو المنصور وعدوّه هو المقهور . قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسُلي إن الله قوي عزيز ﴾ .

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَآتَوُا الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ۞ (٤١) ﴾

هم أصحاب محمد ﷺ قاله أبو العالية . وقال ابن أبي حاتم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه : فينا نزلت ﴿ الذين ان مكناهم في الأرض ... ﴾ الآية فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلاّ أن قلنا : ربُّنا الله ثم مُكِّنّا في الأرض ، فاقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونَهَيْنا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور فهي لي ولأصحابي .

وقال الصباح بن سوادة الكندي : سمعت عمرَ بنَ عبد العزيز يخطب وهو يقول : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ﴾ الآية ... ثم قال : ألا إنها ليست على الوالي وحده ، ولكنها على الوالي والمولىَّ عليه ، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم وبما للوالي عليكم منه ؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يؤخذكم بحقوق الله عليكم وأن يأخذ

لبعضكم من بعض وان يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع ، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكره بها،ولا المخالف سرها علانيتها . وقال زيد بن أسلم ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ و عند الله ثواب ما صنعوا .

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۞ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۞ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۞ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ۞ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۞ (٤٦) ﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبتْ قبلهم قوم نوح – إلى أن قال – وكذب موسى ﴾ أي مع ما جاءوا به من الآيات البينات والدلائل الواضحات ﴿ فأمليتُ للكافرين ﴾ أي أُخرّتهم ﴿ ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم .

وذكر بعضُ السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه : أنا ربكم الأعلَى ، وبين إهلاك الله له أربعون سنة . وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال ٢٤٤ [إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذَه أليمٌ شديد ﴾] ثم قال تعالى : ﴿ فكأين من قريةٍ أهلكناها ﴾ أي كم من قرية أهلكتها ﴿ وهي ظالمة ﴾ أي مكذِبة لرُسُلِها ﴿ فهي خاوية على عروشها ﴾ أي خربت منازلها وتعطلت حواضرها ﴿ وبئر معطلة ﴾ اي لا يُستقىَ منها بعد ازدحام الواردين ﴿ وقصر مَشيد ﴾ أي مرتفع منيع لم يمنع أهله من بأس الله تعالى. كما قال تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموتُ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ أي بأبدانهم وفكرهم ، لينظروا آثار من مضوا ما فُعل بهم وما حلّ بديارهم من النقم والنكال : ﴿ فتكونَ لهم قلوب يعقلون بها

أو آذان يسمعون بها ﴾ أي فيعتبرون بها ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور ﴾ أي ليس العمىٰ عمىٰ البصر وانما العمىٰ عمىٰ البصيرة ، وما أحسن ما ما قاله في ذلك ابي محمد عبد الله بن محمد بن حيان الأندلسي الشنتريني ، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة و خمسائة :

يا من يصيخ إلى داعي الشقاء وقد ... نادىٰ به الناعيان : الشيب والكبرُ
إن كنت لا تسمع الذكرى ففيم ترىٰ ... في رأسك الواعيان : السمع والبصر
ليس الأصم ولا الأعمىٰ سوى رجلٍ ... لم يهده الهاديان : العين والأثر
لا الدهر يبقىٰ ، ولا الدنيا ولا الفلك ... الأعلىٰ، ولا النيّرانِ : الشمس والقمر
ليرحلنّ عن الدنيا وإن كرهـا ... فراقها الثاويان : البدو والحضر

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ ٱللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۞ (٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ۞ (٤٨) ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ أي هؤلاء الكفار المكذبون كما قال تعالى : ﴿ وقالوا ربنا عجّل لنا قِطّنا قبل يوم الحساب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولن يُخلفَ الله وعدَه ﴾ أي الذي قد وعد من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه والإكرام لأوليائه .

وقوله تعالى : ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ أي هو تعالى لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه ، لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شيء وإن أجّل ، ولهذا قال بعد هذا : ﴿ وكأين من قرية أمليتُ لها وهي ظالمة ثم أخذتُها وإليّ المصير ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٢٤٥ [يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام] وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ (٤٩) فَالَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ❁ (٥٠) وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ ❁ (٥١)

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب الكفار منه وقوع العذاب واستعجلوه به : ﴿ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾ أي إنما أنا رسول لكم أنذركم بين يدي عذاب شديد ، وليس إلي من أمره شيء فهو إلى الله تعالى إن شاء عجَّل عذابكم وان شاء أخَّره ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي آمنتْ قلوبهم وصدقت أعمالهم ﴿ لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ أي مغفرة لما سلف من سيئآتهم ، ومجازاة حسنة عن القليل من حسناتهم والرزق الكريم هو الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ والذين سَعوْا في آياتنا معاجزين ﴾ أي مثبطين الناسَ عن متابعة النبيّ ﷺ ﴿ أولئك أصحابُ الجحيم ﴾ وهي النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها أجارنا الله منها . قال الله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يُفسدون ﴾ .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَاتِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ❁ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ❁ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ❁ (٥٤)

قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم ان مشركي قريش قد أسلموا ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله اعلم . (*) (راجع التعليق في الصفحة التالية)

القصة المكذوبة (١) : نزلت سورة النجم فتلاها رسول الله ﷺ على المشركين وعند وصوله إلى قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ۝ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ ألقى الشيطان على لسانه كلمات : (وإنهن لهن الغرانيق العلى وان شفاعتهن لهي التي ترتجى) فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وزلت بها ألسنتهم وقالوا : إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه . فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر سورة النجم سجد ... وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك.فعجب الفريقان كلاهما ولم يكن سمع المسلمون الذي ألقى الشيطان ، ففشت تلك الكلمة في الناس ، وأظهرَها الشيطان حتى بلغتْ أرضَ الحبشة ومن بها من المسلمين وحدّثوا أن المسلمين قد أمِنُوا بمكة فأقبلوا سراعاً إلى مكة ، وقد نسخَ الله ما ألقى الشيطان واحكم الله آياتِه ، وحفظ من الفِرية نبيَّه فقال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا

(١) قلت : قصة الغرانيق هذه... من أخطر ما وضع الزنادقة... ليضربوا التوحيد والرسالةَ العظمى، وليردوا المسلمين عن دينهم الحق - زعموا - والله حافظ دينه وناصره ولو كره الكافرون على أن هذه القصة عدا عن أنها مكذوبة موضوعة فهي متهافتة ساقطة من وجوه :

١ - : منافية للعصمة التي هي للأنبياء جميعاً لأن فيها استطاعة تسلط الشيطان على النبي صلى الله عليه وسلم في أعظم ما تجب فيه العصمة وهو الوحي ، ومنافية لقوله تعالى: « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقوله تعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ».

٢ - : سياق سورة النجم وعدم احتماله لمسألة الغرانيق، لأن الله يذم فيها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى بقوله تعالى : « ... إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ...» فكيف يقول عنها : تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى ... !!!؟ مادحاً إياها على زعمهم ثم يذمها ويقول : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » فهل يعقل أن يمتدح الله الآلهة التي أشركه بها الكفار ثم في آن واحد يذمها فحاشا لله أن ينزل ذلك أو أن يتقول رسوله عليه ما لم يقل ... هذا ما لا يسلم به عقل ولا يقول به إنسان .

٣ - : كلمة الغرانيق ... لم ترد في نظم شعراء العرب ولا في خطبهم من أنها وصف لآلهتهم ، ولا جرى ذلك على ألسنتهم وإنما ورد الغرنوق والغرنيق على أنه اسم لطائر مائي أسود وأبيض والشباب الأبيض الجميل ، ولا شيء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب - قاله الشيخ محمد عبده -.

٤ - الرسول الذي بعث لتحطيم هذه الآلهة الخبيثة الكاذبة وللدعوة لتوحيد الله وحده لا شريك له، والذي لم يكذب (ويعرف ذلك منه قومه) ولا في الجاهلية فالذيلم يكذب على الناس كيف يقول على الله ما لم يقله . فلا أصل اذاً لمسألة الغرانيق إلا الوضع والاختراع، قامت به طائفة الذين أخذوا بالكيد للأسلام. (بتصرف عن محمد حسين هيكل من كتابه « حياة محمد » صلى الله عليه وسلم . ومن شاء التوسع العلمي فليراجع كتاب «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق) لأخينا الكبير الشيخ محمد ناصر الدين الألباني مد الله في عمره . وأجزل مثوبته

نبيّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في امنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ فلما بين الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضلالتهم وعداواتهم للمسلمين واشتدوا عليهم قلت (ابن كثير) وقد ذكرها محمد بن اسحق في السيرة بنحو من هذا ، وكل الطرق مرسلات ومتقطعات والله أعلم . وقد ساقها البغوي ثم سأل ها هنا سؤآلاً : كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ثم حكى أجوبة عن الناس من ألطفها : أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ وليس كذلك في نفس الأمر ، بل انما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن ﷺ والله أعلم .

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين ، هذا على فرض صحة القصة ... !!! ولكنّها لم تصح ... وقوله تعالى : ﴿ إلاّ إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾ هذا فيه تسلية من الله لرسوله صلاة الله وسلامه عليه أي لا يزعجك ولا يريبك هذا ... فقد أصاب الأنبياء والمرسلين قبلك مثله [1] ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ﴾ قال ابن عباس : أي فيبطل الله سبحانه وتعالى ما ألقى الشيطان ﴿ ثم يحكم الله آياته والله عليم ﴾ اي بما يكون من الأمور والحوادث ، لا تخفى عليه خافية ﴿ حكيم ﴾ أي في تقديره وخلقه وأمره ، له الحكمة التامة والحجة البالغة. ولهذا قال سبحانه : ﴿ ليجعل ما يُلقي الشيطان فتنةً للذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك وشرك كالمشركين ﴿ والقاسية قلوبهم ﴾ قال مقاتل بن حيان : هم اليهود ﴿ وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ أي في ضلال ومخالفة وعناد بعيد عن الحق

---

(١) قلت : – والمعنى – : ان كل نبي قبلك تمنى ما تمنيتَ من ايمان قومكَ واستجابتهم، فكانوا يتحدثون إليهم كما تتحدث أنت إليهم،وتنوع لهم أسباب الهداية فيلقي الشيطان ما ألقى... مع حديثك اليهم حديثاً منه غير حديثك فيوهمهم أنه حديثك،وهم لا يعلمون إلا أنه حديثك ، فيوافقونك لا على ما تقول أنت في الحقيقة،إنما على ما سمعوه من الشيطان وهم يتوهمون أنه حديثك، فهذه الموافقة منهم تظنها أنت أيضاً مطابقة لما قلت لهم ، فتحصل أمنيتك التي تمنيت ، من ظاهر هدايتهم كسجودهم الذي سجدوه في آخر سورة النجم ، لأنك لا تعلم ما ألقى الشيطان في أسماعهم، أما الله تعالى المطلع على الحقيقة التي جرت يبطل ما يلقى الشيطان وينسخه ويحكم آياته التي أنزلها عليك وبلغتها كما نزلت تماماً، والله عليم بما سيكون لا تخفى عليه خافية،وحكيم في تقديره وخلقه وأمره ، له الحكمة التامة والحجة البالغة . وقد علّل سبحانه لماذا قدّر ذلك فقال جلت حكمته : « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم » أي المشركون الذين نوع لهم رسولهم أسباب الهداية فلم يهتدوا ،فمكر الله بهم ليزيدَهم ضلالا على ضلالهم جزاء كفرهم وعنادهم وذلك كما قال تعالى : وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » أما المؤمنون الذين استجابوا للحسنى يسرهم الله لليسرى فزادهم إيمانا فأرشدَهم للحق وجعلهم من السعداء في الدارين .

والصواب ، ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم انه الحق من ربك فيؤمنوا به ﴾ أي وليعلمُ المؤمنون بالله ورسوله الذي يفرقون به بين الحق والباطل أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه ، وحرسه أن يختلط به غيره ﴿ فيؤمنوا به ﴾ أي يصدقوه وينقادوا له ﴿ فتخبت له قلوبهم ﴾ أي تخضع وتذل ﴿ وانّ الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ فيرشدهم في الدنيا إلى الحق ويوفّقهم لمخالفة الباطل ، وفي الآخرة يوصلهم إلى النعيم ، ويزحزحهم عن الجحيم .

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۞ (٥٥) ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ ۞(٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۞(٥٧) ﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم لا يزالون في شك وريب من هذا القرآن ﴿ حتى تأتيهم الساعة بغتةً ﴾ أي فجأة عند غرّتهم بنعمتهم . وقوله تعالى : ﴿ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ أي يوم القيامة ، لا ليل له ولهذا قال تعالى : ﴿ الملكُ يومئذٍ لله يحكم بينهم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ مالكِ يوم الدين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي آمنت قلوبُهم وعملوا بمقتضى ما علموا ﴿ في جنات النعيم ﴾ أي لهم النعيم الذي لا يبيد ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أي كفرت قلوبهم بالحق وهجرته وكذبوا به وخالفوا الرسل واستكبروا عن اتباعهم ﴿ فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي مقابلة استكبارهم عن الحق كقوله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين .

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ ۞ (٥٨)



لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۞ (٥٩) ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۞ (٦٠)

يخبر تعالى عمن خرج مهاجراً في سبيل الله ابتغاء مرضاته وطلباً لما عنده ، وفارق بلاده في الله ورسوله ، ونصرةً لدين الله ثم قتلوا أي في الجهاد ، أو حتف أنفهم فقد حصلوا على الأجر الجزيل كما قال تعالى : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ﴾ ليتفضل عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ﴿ وان الله لهو خير الرازقين ۞ ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ﴾ أي الجنة كما قال تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ﴾ فأخبر أنه يحصل على الراحة والرزق وجنة النعيم كما قال ها هنا : ﴿ ليرزقنّهم الله رزقاً حسناً ﴾ ثم قال سبحانه : ﴿ ليدخلنّهم مدخلاً يرضونه وان الله لعليم ﴾ بمن يهاجر ويجاهد في سبيله وبمن يستحق ذلك ﴿ حليم ﴾ أي يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ، ويكفّرها عنهم بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه .

قال ابن أبي حاتم عن أبي قبيل وربيعة بن سيف المعافري يقولان : كنا برودوس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ . فمر بجنازتين : إحداهما قتيل ، والأخرى متوفىً ، فمال الناس على القتيل في سبيل الله فقال : مالي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا : هذا القتيل في سبيل الله . فقال : والله ما أبالي من أي حفرتيهما بُعِثتُ ؟ إسمعوا كتاب الله : ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ﴾ حتى بلغ آخر الآية . وقوله تعالى : ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴾ الآية إنها نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعاً من المشركين في شهر محرم ، فناشدهم المسلمون لئلاّ يقاتلوهم في الشهر الحرام ، فأبى المشركون إلاّ قتالهم ، وبغوا عليهم فقاتلهم المسلمون ، فنصرهم الله عليهم ﴿ إن الله لعفوٌّ غفور ﴾ .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۞ (٦١) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ ٱلْبَاطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۞ (٦٢)

ينبِّه تعالى على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء ومعنى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل إدخاله من هذا في هذا،ومن هذا في هذا ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء ، وتارةً يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف . وقوله تعالى : ﴿ وان الله سميع بصير ﴾ أي سميع بأقوال عباده ، بصير بهم ، لا يخفى عليه منهم خافية في جميع أحوالهم ، ولما تبين أنه المتصرف في الوجود ، الحاكم الذي لا معقب لحكمه . قال تعالى : ﴿ ذلك بان الله هو الحق ﴾ أي الإلّه الذي لا تنبغي العبادة إلاّ له ، ﴿ وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾ أي كل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل، لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً . وقوله تعالى : ﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾ كما قال سبحانه ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ وقال جل وعلا : ﴿ وهو الكبير المتعال ﴾ فكل شيء تحت قهره وسلطانه ، فهو العظيم الذي لا أعظم منه ، العلي الذي لا أعلى منه ، الكبير الذي لا أكبر منه ، تعالى وتقدس وتنزه عز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً..

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۞ (٦٣) لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۞ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞(٦٥) وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ۞ (٦٦) ﴾

وهذا أيضاً دليل على قدرته تعالى ، وإنه يمطر الأرض المحلة ماءً من السماء — ﴿ فتصبح الأرض مخضرة ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ أي تصبح خضراء بعد يباسها ﴿ ان الله لطيف خبير ﴾ أي عليم بما في الأرض من الحب وان صغر لا يخفى عليه خافية فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به كما قال لقمان :

﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبةٍ من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيفٌ خبير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي كل شيء فيهما ملكه وحده لا شريك له ﴿ وان الله لهو الغني الحميد ﴾ الحميد أي المستغني عما سواه المستوجب الحمد من عباده في كل حال . وقوله تعالى : ﴿ ألم تر ان الله سخر لكم ما في الأرض ﴾ أي من حيوان وجماد وزروع ﴿ والفلك تجري في البحر بأمره ﴾ أي بتسييره ولطفه في عرض البحار لتبادل التجارة والأرزاق بين البلدان . ﴿ ويمسك السماء ان تقع على الأرض إلاّ بإذنه ﴾ أي لو شاء لأذن للسماء أن تقع على الأرض فتهلك بمن فيها ولكنه تعالى من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء ان تسقط على الأرض ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ان الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ أي مع ظلمهم ، كما قال جل وعلا : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور ﴾ أي كيف تجعلون لله أنداداً تعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف ﴿ وهو الذي أحياكم ﴾ أي خلقكم من العدم ﴿ ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ أي يبعثكم يوم يوم القيامة ولكن الإنسان كفور لنعم الله جحود لها .

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۞ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ (٦٨) ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۞ (٦٩)

أصل المنسك هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه إمّا لخيرٍ أو شرٍ ، ولهذه سمّيتْ مناسك الحج بذلك لتردد الناس إليها فقوله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوهُ ﴾ أي طريقاً سالكوه فالضمير عائد على هؤلاء المشركين الذين لهم مناسك وطرائق ، أي أن هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته ﴿ فلا ينازعنك في الأمر ﴾ أي فلا تتأثر بمنازعتهم لك ولا يصرفنْك ذلك عما أنت عليه من الحق ولهذا قال : ﴿ وادعُ إلى ربك إنك لعلى هدىً مستقيمٍ ﴾ أي طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود وهذا

كقوله تعالى : ﴿ ولا يصدنّك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادعُ إلى ربك ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وإن كذّبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ وقولهُ تعالى : ﴿ الله أعلم بما تعملون ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله تعالى : ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ وهذه كقوله تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ الآية .

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * (٧٠) ﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه ، وإن علمه محيط بما في السموات والأرض فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٤٦ [إنّ الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة . وكان عرشه على الماء] وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة أنّ رسول الله ﷺ قال : ٢٤٧ [أول ما خلق الله القلم قال له اكتب ، قال : وما أكتب ؟ قال اكتب ما هو كائن . فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة] فذلك قوله تعالى للنبيّ ﷺ : ﴿ ألم تعلم ان الله يعلم ما في السماء والأرض ﴾ وهذا من تمام علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه . فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره ، وهذا يعصى باختياره . وكتب ذلك عنده وأحاط بكل شيء علماً ، وهو سهل عليه يسير لديه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إنّ ذلك في كتاب إنّ ذلك على الله يسير ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ * (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمُنْكَرَ يَكَادُونَ

يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۞ (٧٢)

يخبر تعالى عن المشركين الذين عبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً أي حجة وبرهاناً فقال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ومن يدعُ مع الله إلها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ . وقولهُ تعالى : ﴿ وما ليس لهم به علم ﴾ إنما تلقوه عن آبائهم بلا دليل ولا حجة ، وأصله من تزيين الشيطان لهم ، ولهذا توعّدهم تعالى بقوله عز وجل : ﴿ وما للظالمين من نصير ﴾ أي ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب ، ثم قال تعالى : ﴿ وإذا تتلىٰ عليهم آياتنا بيّنات ﴾ أي ذكرت لهم آيات القرآن الدالة على **أنه** لا إله الا الله ، وأن رسله حقٌ وصدق ﴿ يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ أي يكادون يبطشون بمن يذكّرهم بالحق ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿ أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا ﴾ أي النار وعذابها ونكالها أشد وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا من بسط أيديكم وألسنتكم إليهم ، فعذاب الآخرة على كفركم وأذيّتكم أولياء الله أعظم مما تنالون منهم . وقوله تعالى : ﴿ وبئس المصير ﴾ أي وبئس النار مقيلاً ومنزلاً ومرجعاً ومقاماً .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۞ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ (٧٤)

ينبّه تعالى على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل ﴾ أي لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿ فاستمعوا له ﴾ أي أنصتوا وتفهموا ﴿ ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ أي لو اجتمعوا على أن يخلقوا ذباباً ما قدروا على ذلك كما أخرج الشيخان من طريق عمارة عن أبي زرعة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : ٢٤٨ [قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب

يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرةً ، فليخلقوا شعيرةً] ثم قال تعالى : ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ﴾ أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد ، بل أبلغ من ذلك ، عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب ، ثم أرادت أن تستنقذه منه لمـا قدرت على ذلك ، هذا. والذباب من أضعف مخلوقـات الله وأحقرها (١) ولهذا قال تعالى : ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ أي ضعف هذا المعبود الزائف أن يستنقذ الذباب ما أخذه منه وسلبه من شيء كان في حوذته أجل فقد ضعف الطالب والمطلوب ﴿ ما قدروا الله حقّ قدره ﴾ أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا غيره الذي لم يستطع أن يقاوم الذباب أو يستنقذ ما سلبه منه ﴿ إنّ الله لقوي عزيز ﴾ الذي يقول للشيء كن فيكون فهو قوي على كل شيء ، وعزيز عزّ كلّ شيء فقهره وغلبه فلا يمـانعُ ولا يغالب لعظمته وسلطانه وهو الواحد القهار .

﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝ (٧٦) ﴾

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره ، ويختار من الناس رسلاً لإبلاغ رسالته ﴿ ان الله سميع بصير ﴾ أي سميع لأقوال عباده ، بصير بهم ، عليم بمن يستحق منهم ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي يعلم ما يَفعل برسله فيما أرسلهم به فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ، كما قال سبحانه : ﴿ عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ـ إلى قوله ـ وأحصى كل شيء عددا ﴾ فهو سبحانه رقيب عليهم شهيد على ما يقال لهم ، حافظ لهم ،

(١) قلت : وقد علم الله أن عبيده سيكتشفون مخاليقَ صغيرة/ ميكروبات / وقد يكون / الذباب / اسم جنس لها وإنها لاتُرى إلا بالمجاهر التي تكبر آلافَ المرّات تفتك في جسم من يُعْبَدُ من دون الله ولا يستطيع هذا المتأله أن يُنقذَ نفسه منها إلا إذا أراد الله تعالى. وقد تفتك به وهو لا يستطيع لها دفعاً. والذين يؤلّهونَه يعلمون جزماً أن إلههم المزيف في هذا الدركِ الأسفلِ منَ الضعف... كما يعلمون أنه مربوب لله تعالى . ولكن مع كل هذا وذاك ... يبقى هؤلاء مؤلهين أولئك، بطاعتهم في معصية الله تعالى، بأن يعطوهم من الصفات التي لا تليق إلا لله تعالى وحده فيدعونهم في السراء والضراء، ويستغيثون بهم ، ويستعينون بهم، ويتوجهون إليهم بأنواع العبادة أحياءً كانوا أو أمواتاً . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا .

ناصر لجنابهم . ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ .



﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ۞ (٧٨) ﴾

اختلف الأئمة رحمهم الله في مشروعية هذه السجدة الثانية من سورة الحج والأصح أنها مشروعة لحديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ : ٢٤٩ [فضلت سورة الحج بسجدتين فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما] وقوله تعالى : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ أي بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم . وقوله تعالى : ﴿ هو اجتباكم ﴾ أي والله اختاركم على سائر الأمم ، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأشرف رسول وأكمل شرع ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ أي ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً ، فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تصلى تماماً وقصراً وجمعاً ورجالاً وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها قياماً وجلوساً وعلى جنب إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات.ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ٢٥٠ [بعثت بالحنيفيّة السمحة] وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن : ٢٥١ [بشّرا ولا تنفرا ، ويسّرا ولا تعسرا] .

ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ يعني من ضيق . وقوله تعالى : ﴿ ملة أبيكم ابراهيم ﴾ وهذا المعنى في هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملةَ إبراهيم حنيفاً ﴾ وقوله

تعالى : ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ أي والله عز وجل سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة ﴿ وفي هذا ﴾ أي في القرآن . وروى النسائي عن الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال : ٢٥٢ [« من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثيّ جهنم » قال رجل : يا رسول الله وان صام وصلى ؟ قال : « وإن صام وصلّى فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله »] وقوله تعالى : ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ أي إنما جعلكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً ، مشهوراً بعدالتكم عند جميع الأمم ، لتكونوا يوم القيامة ﴿ شهداء على الناس ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلّغها ذلك وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ الآية بما أغنى عن اعادته . وقوله تعالى : ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أي قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض علكم ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وقوله تعالى : ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي استعينوا به والتجئوا اليه وتأيدوا به ﴿ هو مولاكم ﴾ أي حافظكم وناصركم على أعدائكم ﴿ فنعم المولى ونعم النصير ﴾ أي نعم الولي والناصر من الأعداء آخر اختصار تفسير سورة الحج ولله الحمد والمنة .

١٣٨٩/١٢/١٣


(٢٣) سُورَةِ المؤمنون مكية
وآياتها ثماني عشرة ومائة

نزلت بعد : الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء ١٨ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ (١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَوٰتِهِمْ
خَاشِعُونَ ۞ (٢) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۞ (٣) وَٱلَّذِينَ
هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ ۞ (٤) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۞ (٥)
إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ (٦)
فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۞ (٧) وَٱلَّذِينَ هُمْ
لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۞ (٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ۞ (٩) أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَارِثُونَ ۞ (١٠) ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ
ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ (١١) ﴾

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب يقول : ٢٥٣[كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ساعةً فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، واكرمنا ولا تهنّا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا » – ثم قال – « لقد أنزل الله عليَّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى ختم العشر »] [١] .

(١) فيه يونس بن سليم قال الترمذي لا نعرفه .

روى النسائي في تفسيره عن يزيد بن بابنوس قال : ٢٥٤ (قلنا لعائشة أم المؤمنين : كيف كان خُلق رسول الله ﷺ قالت : كان خلقه القرآن فقرأت : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ – حتى انتهت إلى – والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ قالت : هكذا كان خلق رسول الله ﷺ] .

وقوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ أي فازوا بالجنة ، وهم المتصفون بهذه الأوصاف : ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ أي خاشعو القلوب ، فغضوا أبصارهم وخفضوا الجناح ولا تجاوزت أعينهم مصلاّهم . والخشوع في الصلاة يحصل لمن فرغ قلبه لها ، واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها ، وحينئذٍ تكون راحة له وقرة عين ، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن أنس عن رسول الله ﷺ انه قال : ٢٥٥ [حبب إليّ الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة] .

روى الإمام أحمد عن محمد بن حنفية قال : ٢٥٦ [دخلت مع أبي على صهر لنا من الأنصار فحضرت الصلاة ، فقال : يا جارية أتيني بوضوء لعليّ أصلي فاستريح فرآنا أنكرنا عليه ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قم يا بلال فأرحنا بالصلاة »]

وقوله تعالى : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ أي عن الباطل ، وهو يشمل الشرك والمعاصي وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال وقوله تعالى : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ أي زكاة الأموال قبل أن يفرض النصاب لأن الآية مكية وأصل الزكاة كان واجباً بمكة قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ انما فرضت بالمدينة الزكاة ذات النصب والمقادير الخاصة ، وقيل : زكاة النفس من الشرك والدنس ، كقوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾ والمؤمن الكامل هو الذي يزكي نفسه مالاً ونفساً . وقوله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون * إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ أي الذين حفظوا فروجهم من الحرام من زنا أو لواط لا يقربون إلاّ أزواجهم وسراريهم ، فمن تعاطىَ ما أحلّه الله له ، فلا لوم عليه ولا حرج ومن ابتغى غير الازواج والإماء فهم المعتدون .

وقد استدل الشافعي رحمه الله تعالى على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة . وقوله تعالى : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ أي إذا أئتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك ، لا كالمنافقين الموصوفين بقوله

ﷺ : ٢٥٧ [آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف وإذا أتمن خان]

وقوله تعالى : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ أي يواظبون عليها في مواقيتها ، كما قال ابن مسعود : ٢٥٨ [سألت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أي ؟ « الجهاد في سبيل الله »] أخرجاه في الصحيحين . وقد افتتح الله تعالى ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها ، ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة قال سبحانه : ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال ٢٥٩ [إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن] .

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٦٠ [ما منكم من أحد إلاّ وله منزلان : منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله] فذلك قوله تعالى : ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة ، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له ، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل . وأبلغ من ذلك ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي بردة عن أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ قال : ٢٦١ [يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال ، فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى] وفي لفظ له : قال رسول الله ﷺ : ٢٦٢ [اذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً ، فيقال هذا فكاكك من النار] فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات ، أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ بذلك ، قال فحلف له] .

۞ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۞ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ ۞ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ

ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۞ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۞ (١٦)

يخبر تعالى عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين ، وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون.روى الإمام أحمد عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : ٢٦٣ [إنَّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب وبين ذلك] وقد رواه ابو داود والترمذي من طرق عن عوف الأعرابي به نحوه وقال حسن صحيح .

﴿ ثم جعلناه نطفةً ﴾ هذا الضمير عائد على جنس الإنسان. كما قال تعالى : ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ أي ضعيف من قوله تعالى : ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ أي ثم صيّرنا النطفة ، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره ، وترائب المرأة وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة ، فصارت علقةً حمراء على شكل العلقة مستطيلة وهي دم ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ وهي قطعة كالبضعة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿ فخلقنا المضغة عظاماً ﴾ يعني شكلناها ذات رأس ويدَيْن ورجلَيْن بعظامها وعصبها وعروقها ﴿ فكسونا العظام لحماً ﴾ أي جعلنا على ذلك ما يستره ويشدّه ويقوّيه ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرّك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ٢٦٤ [حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوماً نطفةً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: رزقهوأجله وعمله وهل هو شقي أو سعيد . فوالذي لا إلّه غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتّى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتّى ما يكون بينه وبينها إلاّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنّة فيدخلها »] أخرجاه في الصحيحين .

وقوله تعالى : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ يعني حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال،وشكل إلى شكل،حتّى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق . قال تعالى : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴾ يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت

﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ يعني يوم المعاد وقيام الأرواح إلى الأجساد فيحاسب الخلائق ، ويوفّى كل عامل عمله إن خيراً فخيرا أو شراً فشر .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَافِلِينَ ۞ (١٧) ﴾

لما ذكر تعالى خلق الإنسان ، عطف بذكر خلق السموات السبع ، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الانسان • كما قال تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقوله تعالى : ﴿ سبع طرائق ﴾ يعني السموات السبع • وهذا كقوله تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزّل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ أي ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ، وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماءً ولا أرض أرضاً ، ولا جبل إلاَّ يعلم ما في وعره ، ولا بحر إلاَّ يعلم ما في قعره ، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار ﴿ وما تسقط من ورقة إلاَّ يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاَّ في كتاب مبين ﴾ .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ۞ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِينَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ۞ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۞ (٢٢) ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر ،

أي بحسب الحاجة ، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع .

وقوله تعالى : ﴿ فأسكناه في الأرض ﴾ أي جعلنا المطر يخلد في الأرض ، وجعلنا فيها قابلية له وتشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى . وقوله تعالى : ﴿ وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ أي لو شئنا ان لا تمطر لفعلنا ، ولو شئنا أذى لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري لفعلنا ، لو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشرب أو سقي لفعلنا ، ولو شئنا أن لا ينزل في الأرض ، أو يغور إلى مدى لا تصلون اليه ولا تنتفعون به لفعلنا ، ولكن بلطفه تعالى أنزله عذباً فراتاً وأسكنه وأسلكه في الأرض منه تسقون وتشربون وتغتسلون وتتطهرون فله الحمد والمنة .

وقوله تعالى : ﴿ فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب ﴾ وهذا ما كان يألفه أهــل الحجاز ﴿ لكم فيها فواكه كثيرة ﴾ أي من جميع الثمار ﴿ ومنها تأكلون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء ﴾ أي من جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام والشجرة هي شجرة الزيتون ﴿ تنبت بالدهن ﴾ أي تنبت الدهن أي الزيت ﴿ وصبغ للآكلين ﴾ أي أدم للآكلين أي فيها ما ينتفعون به من الدهن كما روى الإمام أحمد عن أبي أسيد واسمه مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٦٥ [كلوا الزيت وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة] .

وقوله تعالى : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ . يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع من شرب ألبانها،وأكل حملانها، ولبس صوفها وأوبارها وأشعارها،وركوب ظهورها ، وتحميلها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية ، كما قال تعالى : ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ ــ وكما أنه امتنّ على عباده بما خلق لهم من الأنعام التي تحملهم إلى بلاد نائية في البر فكذلك ذكر رأفته ورحمته بهم أنه يسر لهم السفن البحرية كذلك تنقلهم في عرض البحار إلى بلاد نائية [1] * ــ .

* ــ : ما بين الخطين المعترضين من كلامي لا كلام المفسر رحمه الله فقد أهمل تفسير « وعلى الفلك تحملون »

(١) قلت : وكذلك فقد هيأ لعباده ويسر ركوب الهواء في الفلك الهوائية (الطيارات التي تقطع مسافات الأشهر العديدة بساعات قليلة)وذلك من منه وكرمه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلٰئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ۞ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ۞ (٢٥) ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد وانتقامه ممن أشرك به وكذب رسله ﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره أفلا تتقون ﴾ ألا تخافون من الله في إشراككم به فقال سادة قومه : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾ أي يترفع عليكم بدعوى النبوّة وهو بشر مثلكم فكيف أوحي إليه من دونكم ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ أي لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكاً ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ أي ببعثة البشر﴿في آبائنا الأولين • إن هو الا رجل به جِنّة ﴾ أي مجنون يزعم أن الله اختصه بالنبوة ﴿ فتربصوا به حتى حين ﴾ أصبروا عليه حتى يموت ، فتستريحوا منه .

﴿ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۞ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ۞ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ۞ (٢٩) إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ۞ (٣٠) ﴾

استنصر نوح ربه تعالى كما قال تعالى : ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ وقال

ها هنا : ﴿ ربّ انصرني بما كذّبون ﴾ عندها أمره تعالى بصنع السفينة واتقانها وان يحمل فيها من كل زوجين اثنين أي ذكراً وأنثى من كلّ صنفٍ من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك وأن يحمل فيها أهله ﴿ إلاّ من سبق عليه القول منهم ﴾ أي وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته ، أما الذين آمنوا به فهم أهله .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ أي لا تأخذنك رأفة . بقومك الذين لم يؤمنوا بعدما بلّغوا فقد قضيتُ أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان وقد تقدمت القصة مبسوطةً في سورة هود بما أغنى عن إعادة ذلك هنا . وقوله تعالى : ﴿ فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ... وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ وقولهُ تعالى : ﴿ وقل رب أنزلني مُنزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴾ ــ أي فكما أنه تعالى منّ عليه وقومه بالنجاة من الغرق وحمد الله أن نجاهم من قومه وأغرقهم كذلك علمه الله تعالى ان يدعو﴿ وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴾ ــ وقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي إن في هذا الصنيع من إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين لآياتٍ أي لحجَجاً ودلالات واضحاتٍ على صدق الأنبياء فيما جاءوا به عن الله تعالى ، وأنه تعالى فاعل لما يشاء ، قادر على كل شيء عليم بكل شيء ، وقوله تعالى : ﴿ وإن كنا لمبتلين ﴾ أي لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين .

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ۞ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞(٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مَا هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۞ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ۞ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً



أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين قيل هم عاد فانهم كانوا مستخلفين بعدهم وقيل : ثمود لقوله تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق ﴾ وانه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم دعاهم إلى توحيده فكذبوه لأنه بشر مثلهم ، وأنكروا الآخرة والبعث الجثماني وقالوا : ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون ﴾ أي بعيداً جداً وقوع ذلك ﴿ ان هو إلاّ رجل افترى على الله كذباً ﴾ أي فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد ﴿ وما نحن له بمؤمنين * قال رب انصرني بما كذبون ﴾ أي استنصر الرسول ربه عليهم ﴿ قال عما قليل ليُصبحنَّ نادمين ﴾ بتكذيبهم لك ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق ﴾ أي استحقوا ذلك من الله بما كفروا وطغوا ، والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة وريح صرصر عاصفة باردة ﴿ فجعلناهم غثاء ﴾ أي صرعى هلكى كغثاء السيل ﴿ فبعداً للقوم الظالمين ﴾ أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم رسولهم ، فليحذر الذين نزل عليهم هذا القرآن وسمعوه أن يكذبوا رسولهم كيلا يحلّ بهم ما حل بأولئك ويتذكروا فتنفعهم الذكرى .

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ﴾ أي أمماً وخلائق ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ بل يؤخذون حسب تقديره تعالى وعلمه خلفاً بعد سلف ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترىٰ ﴾ أي تتتابع ﴿ كلما جاء أمةً رسولُها كذّبوه ﴾ يعني جمهورهم كقوله تعالىٰ : ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزئون ﴾ وقولهُ تعالى : ﴿ فأتبعنا بعضهم بعضاً ﴾ أي أهلكناهم ﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ أي أخباراً وعبرة للناس، كقوله تعالى : ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزّقناهم كل ممزق ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۞ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ ۞ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ۞ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ۞ (٤٨) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ ٱلْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۞ (٤٩) ﴾

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى وأخاه هارون عليهما السلام إلى فرعون وقومه ، بالآيات الباهرات والحجج الدامغات فاستكبروا عن اتباعهما لأنهما بشران كما قال الأمم قبلهم فتشابهت قلوبهم ؛ فأهلك الله فرعون وملأه ، وأغرقهم أجمعين في يوم واحد وأنزل على موسى التوراة ، فيها أحكامه وأوامره ونواهيه ، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك الله أمةً بعامة بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمةً لعلهم يتذكرون ﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۞ (٥٠) ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله عيسى بن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء

من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من انثى بلا ذكر وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى ، وقوله تعالى : ﴿ وآويناهما إلى ربوةٍ ذات قرار ومعين ﴾ الربوة : المكان المرتفع من الأرض وهو أحسن ما يكون فيه النبات ، والمعين الماء الجاري وقيل أقوال شتى في تعيين هذا المكان ولكن بيت المقدس هو الأظهر والله أعلم .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَٱعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ❁ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ❁ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ❁ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ❁ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ❁ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ❁ (٥٦) ﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمال ، فدل على ان الحلال عون على العمل الصالح فقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذا أتم قيام،فجزاهم الله عن العباد خيراً.قال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ﴾ قال : أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ، ولا حلوكم ولا حامضكم ، ولكن قال : انتهوا إلى الحلال منه.وفي الصحيح : ٢٦٦ [ان داود كان يأكل من كسب يده] وفي الصحيح : ٢٦٧ [« ما من نبي إلاّ رعى الغنم » قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال « نعم وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة »] .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٢٦٨ [يا أيها الناس إن الله طيّب لا يقبل إلاّ طيّباً ، وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾ وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، يمدُّ يديه إلى السماء : يا رب يا رب فانيَّ يستجاب لذلك] ورواه الإمام أحمد واللفظ له .

وقوله تعالى : ﴿ وان هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة ، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولهذا قال : ﴿ وأنا ربكم فاتقون ﴾ يعني أن المقصود عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله . وان قوله تعالى : ﴿ أمةً واحدةً ﴾ منصوب على الحال وقوله تعالى : ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زُبُرا ﴾ أي الأمم التي بعثت اليهم الأنبياء ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون ، ولهذا قال متهدّداً ومتوعّداً : ﴿ فذرهم في غمرتهم ﴾ أي في غيّهم وضلالهم ﴿ حتى حين ﴾ أي حين هلاكهم كما قال تعالى : ﴿ فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أيحسبون أنما نمدُّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ يعني أيظن هؤلاء المغرورون أن عطاءنا لهم،لكرامتهم علينا ؟ كلا ... فقد خاب رجاؤهم،بل هو استدراج وإملاء.ولهذا قال عزّ من قائل : ﴿ بل لا يشعرون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ... سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلاَّ من آمن وعمل صالحاً ... ﴾ الآية .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۞ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۞(٥٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۞(٥٩) وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۞(٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ۞ (٦١) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ أي خائفون من الله مع ما أحسنوا وآمنوا وعملوا من الصالحات ، ووجلون من مكره بهم . قال الحسن البصري : ان المؤمن جمع إحساناً وشفقةً ، وان المنافق جمع إساءة وأمناً ﴿ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾ أي يصدقون فأيقنوا أن ما كان فعن قدره وقضائه،وما شرعه من أوامر فمما يحبها ويرضاها،وما كان من نواه فمما يأباها ويكرهها ، وإن كان خيراً فهو حق . وقال سبحانه : ﴿ والذين هم بربهم لاَ يشركون ﴾ أي لا يعبدون معه غيره في جميع أنواع العبادة ويعلمون أن لا معبود إلاّ هو .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ أي يعطون وهم خائفون أن لا يتقبل منهم خوفاً من قيامهم بالعطاء على غير الشروط المطلوبة وهذا من باب الإشفاق والاحتياط. كما روى الإمام أحمد عن عائشة انها قالت :
٢٦٩ [يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة : هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال : « لا يا بنت أبي بكر ، لا يا بنت الصديق ، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل »] .

﴿ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ فجعلهم من السابقين — نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم وسائر المسلمين —

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ۞ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ۞ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ۞ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ ۞ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ۞ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ ۞ (٦٧) ﴾

يخبر تعالى عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلاّ بما تطيق ويوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء ولهذا قال تعالى : ﴿ ولدينا كتاب ينطق بالحق ﴾ يعني كتاب الأعمال ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يبخسون من الخير شيئاً ، أما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير من عباده المؤمنين ثم أنكر على المشركين من قريش ﴿ بل قلوبهم في غمرة ﴾ أي في غفلة ﴿ من هذا ﴾ أي القرآن وقوله تعالى : ﴿ ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ﴾ أي لهم أعمال سيئة من دون شركهم لتحق عليهم كلمة العذاب .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ﴾ يعني إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون في الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم إذا هم يصرخون ويستغيثون

﴿ لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ﴾ أي لا يجيركم أحد منا سَواء استغثم أو سكتم فلقد وجب العذاب ؛ ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال عز من قائل : ﴿ قد كانت آياتي تتلىٰ عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾ أي إذا دعيتم أبيتم ، واذا طُلبتم امتنعتم ، كما قال تعالى : ﴿ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مستكبرين به سامراً تهجرون ﴾ أي مستكبرين بعمارة البيت وبكونه هم أهله ، يسمرون فيه بذكر القرآن بالهجر من الكلام : إنه سحر ، انه شعر ، إنه كهانة وبذكر النبي محمد ﷺ بالهجر من الكلام أيضاً : بأنه شاعر ، أوكاهن أو ساحرأوكذاب أومجنون فكل ذلك باطل . بل هو عبد الله ورسوله الذي أظهره الله عليهم ، وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاّء ، فلا يعمر المشركون الحرم إلا بمثل هذا الكلام الخبيث وهذا ولا شك ليس إعماراً بل هدماً وهجراً له والعياذ بالله تعالى .

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۞ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۞ (٧٠) وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَوَاتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۞ (٧١) أَمْ تَسْئَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ ۞ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ (٧٣) وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ۞ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۞ (٧٥) ﴾



ينكر تعالى على المشركين عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له ، وإعراضهم عنه ، رغم أنهم قد خُصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسله أكملَ منه ولا أشرف ، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم ، بالقيام بشكرها وتفهمها

والعمل بمقتضاها دائماً ، كما فعله النجباء منهم ، ممن أسلم وأتبع رسول الله ﷺ ورضي عنهم ﴿أفلم يدّبروا القول﴾ إذا والله لوجدوا في القرآن زاجراً عن المعصية لو تدّبروه ولكنهم تركوه فهلكوا . ثم أنكر الله على كفار قريش : ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ أفهم لا يعرفون محمداً وصدقَه وأمانتَه وشهدوا له بذلك في الجاهلية والإسلام .

وقوله تعالى : ﴿أم يقولون به جِنة﴾ يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تقوّل القرآن وافتراه ، أو أن به جنوناً وهم يعلمون بطلان ما يقولونه وقد تحداهم الله وأهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولن يستطيعوا أبد الآبدين ، ولهذا قال تعالى : ﴿بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون﴾ قال قتادة :

ذكر لنا ٢٧٠ [إن النبي ﷺ لقي رجلاً فقال له : « أسلم » فقال الرجل : إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كاره فقال نبي الله ﷺ « وان كنت كارها »] مرسل .

وقوله ﴿ولو اتبع الحق أهواءَهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾ أي لو أجابهم الله تعالى إلى ما في أنفسهم من الهوى ، وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن لفساد أهوائهم واختلافها كما أخبر عنهم في قولهم : ﴿لولا نُزِّلَ هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ وإنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره تعالىٰ وتقدس ولهذا قال تعالى : ﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾ أي القرآن ﴿فهم عن ذكرهم معرضون﴾ .

وقوله تعالى : ﴿أم تسألهم خرجاً﴾ أي أجراً وجعلاً ﴿فخراج ربك خير﴾ كقوله تعالى : ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلاّ على رب العالمين﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وانك لتدعوهم إلى صراط مستقيم . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ أي لمنحرفون زائغون . وقوله تعالى : ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرٍ للجّوا في طغيانهم يعمهون﴾ يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم وعنادهم وطغيانهم كما قال تعالى : ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون﴾ فهذا من باب علمه تعالىٰ بما لا يكون لو كان كيف يكون .

وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۞ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ

إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۞ (٧٧) وَهُوَ ٱلَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۞ (٧٨) وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۞ (٧٩) وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَافُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۞ (٨١) قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ (٨٣)

يقول تعالى : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد : ﴿ فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ أي فما ردّهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة بل استمروا على غيّهم وضلالهم وما خشعوا وما دعوا متضرعين اليه تعالى كما قال سبحانه : ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم ﴾ الآية . قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال ٢٧١ [جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز ــ يعني الوبر والدم ــ فأنزل الله : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا ﴾ وأصله في الصحيحين: ٢٧٢ [ان رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال : « اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف »] .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ﴾ أي حتى إذا جاءهم أمر الله بقيام القيامة بغتةً ، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون فعند ذلك أبلسوا من كل خير ويئسوا من كل راحة ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ، وهي العقول والفهوم التي يذكرون بها الأشياء ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانيته تعالىٰ وانه الفاعل المختار لما يشاء .

وقوله تعالىٰ : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ « أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم كقوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس لو حرصت بمؤمنين ﴾ ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر في خلقه هذه الكائنات بما فيها من المخلوقات البشرية الذين أنشأهم الله في كافة أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة

يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم يعيدهم كما بدأهم. ولهذا قال : ﴿ وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴾ أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي خضع له كل شيء. ثم قال مخبراً عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين : ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون * قالوا ءَإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ﴾ يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلىٰ ﴿ لقد وُعِدْنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ يعنون المعاد محال، إنما يخبر بها من تلقّاها عن كتب الأولين، واختلافهم. وهذا إنكار وتكذيب منهم للبعث، وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم : ﴿ أو لم يرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾

قُلْ لِمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ❁ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ❁ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمٰوَاتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ❁ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ❁ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ❁ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ❁ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ❁ (٩٠)

يقرر الله تعالى وحدانيته، وانفرادَه بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلاّ هو، ولا تنبغي العبادة إلاّ له وحده لا شريك له. ولهذا قال لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وأنه لا شريك له فيها، إنما أشركوا معه في الإلٰهية فعبدوا معه غيره مع اعترافهم أن الذين عبدوهم عبادٌ له لا يملكون معه شيئاً، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إلى الله زلفىٰ كما أخبر تعالى. وقوله تعالى : ﴿ قل لمن الأرضُ ومن فيها إن كنتم تعلمون ﴾ أي من خلقها ومن عليها وسائر المخلوقات ﴿ سيقولون لله ﴾ أي يعترفون بأن الخلق كله لله ﴿ قل أفلا تذكرون ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلاّ للخالق الرازق لا لغيره ﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾

أي من خالق العالم العلوي ومن هو رب العرش العظيم . والعرش هو سقف المخلوقات ، كما جاء في الحديث الذي رواه ابو داود عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٢٧٣ [... شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سمواته هكذا » وأشار بيده مثل القبة] وفي الحديث الاخر ٢٧٤ [ما السموات السبع والأرضون السبع وما بينهن وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وان الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة] . و ﴿ العظيم ﴾ أي الكبير . وقوله تعالى : ﴿ سيقولون لله قل أفلا تتقون ﴾ وإذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات وربّ العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في إشراككم معه غيره ؟ وقوله تعالى : ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ﴾ أي بيده الملك ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يخفر جواره وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلاّ يفتات عليه ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه ﴾ أي هو السيد العظيم الذي لا أعظم منه الذي له الخلق والأمر لا معقب لحكمه . الذي لا يمانع ولا يخالف وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وقال الله تعالى : ﴿ سيقولون لله ﴾ أي سيعترفون أنه تعالى هو السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه لا شريك له . ﴿ قل فأنّى تسحرون ﴾ أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره،مع اعترافكم بكل ما له من صفات علىً .

ثم قال تعالى : ﴿ بل أتيناهم بالحق ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله ، وأقمنا الأدلة القاطعة على ذلك ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ أي في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك كما قال في آخر السورة ﴿ ومن يدعُ مع الله إلٰهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ فالمشركون لا يشركون عن حُجة ودليل إنّما تقليداً لآبائهم الجهال .كما قال الله عنهم ﴿ إنّا وجدنا آباءنا على أمة ونحن على آثارهم مقتدون ﴾ .

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ (٩١) عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ (٩٢) ﴾

ينزّه الله تعالى نفسه عن الولد والشريك في الربوبية والعبادة فقال عز من قائل : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلٰه إذاً لذهب كل إلٰه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾ أي لو فرض تعدد الآلهة لانفرد كل إلٰه بما خلق فما كان ينتظم الوجود ،

والمشاهد أن الوجود في غاية الانتظام ، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر ومخالفته فيعلو بعض على بعض ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ أي عما يصفه الظالمون المعتدون بالولد أو الشريك علواً كبيراً. ﴿ عالم الغيب والشهادة فتعالىٰ عما يشركون ﴾ أي تنزه وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون .

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾

يأمر الله نبيه محمداً ﷺ ان يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم : ﴿ رب إما تريني ما يوعدون ﴾ أي إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك ، فلا تجعلني فيهم كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد والترمذي وصححه : ٢٧٥ [واذا أردتَ بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون] وقوله تعالى : ﴿ وإنا على أن نُريَك ما نعدهم لقادرون ﴾ أي لو شئنا لأريناك ما تحل بهم من النقم ثم قال تعالى مرشداً إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء اليه ليستجلبَ خاطره فتعودَ عداوتُه صداقةً فقال تعالى : ﴿ إدفع بالتي هي احسن السيئةَ ﴾ وهذا كما قال تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ... » وقوله تعالى : ﴿ وقل ربِ أعوذ بك من همزات الشياطين ﴾ لما أمره بدفع الناس بالتي هي أحسن ، أمره تعالى أن يستعيذ به تعالىٰ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم وسيلة بالتي هي أحسن ولا ينقاد الشياطين بالمعروف فلا يدفع كيدهم إلا الله تعالىٰ : وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله ﷺ كان يقول : ٢٧٦ [أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه] وقوله تعالى : ﴿ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ أي في شيء من أمري ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور . ولهذا روى ابو داود : ٢٧٧ [إن رسول الله ﷺ كان يقول : اللهم إني أعوذ بك من الهدم ومن الغرق وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عندَ الموت] .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ (٩٩)
﴿ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم
بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (١٠٠)

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى ، وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته ولهذا قال : ﴿ رب ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت كلاّ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوالنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ وسؤال الرجعة يسألونه في عدة مواطن : عند الاحتضار ، ويوم النشور ، ووقت العرض على الجبار ، وحين يعرضون على النار ، وهم في غمرات عذاب الجحيم ، كما تخبر بذلك الآيات الكريمة .

ولكن الله تعالىٰ يقول : ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾ كلاّ حرف ردع وزجر أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه . وقوله تعالى : ﴿ إنها كلمة هو قائلها ﴾ كان يقول العلاء بن زياد يقول : لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله ، فليعمل بطاعة الله تعالى . وقال قتادة : والله ما تمنىّ إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله ، فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها ، ولا قوة إلا بالله .

وقال ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ويل لأهل المعاصي من أهل القبور تدخل عليهم في قبورهم حيات سوداءأُودهم ، حية عند رأسه ، وحية عند رجليه يقرصانه حتّى يلتقيا في وسطه فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ قال مجاهد : البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة وفي قوله تعالى : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلىٰ يوم يبعثون ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ ، كما قال تعالى : ﴿ ومن ورائهم جهنم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن ورائهم عذاب غليظ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أي يستمر به العذاب إلى يوم البعث ، كما جاء في الحديث ٢٧٨ [فلا يزال معذباً فيها] أي في الأرض (١) .

---

(١) قلت : إن قوله تعالى : « ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » عدا عما يفهم منه أن وراء الكفار أو العاصين عذاب البرزخ ، فكذلك يفهم أيضاً ان البرزخ منحيث كون معناه (حاجزاً) بين الدنيا =

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۞ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۞ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۞ (١٠٤) ﴾

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور من القبور ﴿ فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون ﴾ أي لا تنفع الأنساب يومئذ حتى ولا ينظر والد لولده وهو يبصره ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره وهو كان أعزّ الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة قال الله تعالى : ﴿ يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىءٍ منهم يومئذ شأنٌ يغنيه ﴾ وقال ابن مسعود رضي الله عنه : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد : ألا من كان له مظلمة فليجيءْ فليأخذْ حقّه قال فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وان كان صغيراً ومصداق ذلك في كتاب الله قال الله تعالىٰ : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون ﴾ رواه ابن أبي حاتم . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : ٢٧٩ [سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر : « ما بال رجال يقولون إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه ؟ بلى والله إن رَحمي موصولة في الدنيا والآخرة وإني أيها الناس فرط لكم إذا جئتم قال رجل : يا رسول الله أنا فلان بن فلان فأقول لهم : « أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدي وارتددتم القهقري »] وقوله تعالى : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ أي من رجحت حسناته على سيئآته ولو بواحدة قاله ابن عباس ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ أي الذين فازوا فنجوا من النار وادخلوا الجنة ﴿ ومن خفت موازينه ﴾ أي رجحت سيئآته على حسناته ، ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي خابوا وهلكوا وباءوا بالصفقة الخاسرة ﴿ في جهنم خالدون ﴾ أي دائمون فلا يظعنون ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين

= والآخرة هو حاجز بين أهل الدنيا وأهل القبور ولا يجوز أن يلتقي هؤلاء بهؤلاء إلى يوم القيامة بمعنى أنه لا رجعة للأموات إلى الدنيا فإذا فهم هذا من كلام الله تعالى ، فينتفي أن يستطيع أحد من الأموات أن يغيث أحداً استغاثه من أهل الدنيا كما يدعي المشعوذون وأهل الخرافات ، لأن الاستغاثة بغير الله تعالى شرك والعياذ بالله تعالى وان العودة مستحيلة بنص هذه الآية .

لا يُكفّون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾ روى ابن مردويه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : ٢٨٠ [قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ قال : « تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم »] وقوله تعالى : ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ روى الامام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : [﴿ وهم فيها كالحون ﴾ ٢٨١ قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرّته] .

﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ ۞ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۞ (١٠٧) ﴾

هذا توبيخ من الله لأهل الكفر والمآثم فقال تعالى : ﴿ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ أي قد أرسلت إليكم الرسل ، وأنزلت إليكم الكتب ، وأزلت شبهكم، ولم يبق لكم حجة، كما قال تعالى : ﴿ لئلاّ يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ولهذا قالوا : ﴿ ربنا غلبتْ علينا شقوتنا وكنّا قوماً ضالّين ﴾ أي قد قامت علينا الحجة ، ولكن كنّا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها ، فضللنا عنها ولم نُرزَقها ثم قالوا : ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدْنا فإنا ظالمون ﴾ أي أردُدْنا إلى الدنيا فإن عدنا إلى ما سلف منّا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة . كما قال تعالى : ﴿ فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ــ إلى قوله تعالى ــ فالحكم لله العلي الكبير ﴾ أي لا سبيل إلى الخروج لأنكم قوم كنتم تشركون بالله إذا وحّده المؤمنون .

﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۞ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۞ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۞ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ۞ (١١١) ﴾

هذا جواب من الله تعالىٰ للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار. يقول تعالىٰ: ﴿ إخسأوا فيها ﴾ أي امكثوا فيها صاغرين مهانين اذلاء ﴿ ولا تكلمونِ ﴾ أي لا تعودوا إلى سؤآلكم هذا فإنه لا جواب لكم عندي. قال عبد الله بن عمرو: فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم. قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق، رواه ابن أبي حاتم وروى أيضاً عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿ إخسأوا فيها ولا تكلمون ﴾ قال: ... فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد. ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه. فقال تعالى: ﴿ إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفرْ لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ۝ فاتخذتموهم سخرياً ﴾ أي فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إليَّ: ﴿ حتى أنسوكم ذكري ﴾ أي حملكم بغضهم على أن أنسيتم معاملتي ﴿ وكنتم منهم تضحكون ﴾ أي من صنيعهم وعبادتهم. كما قال تعالى: ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مرّوا بهم يتغامزون ﴾ أي يلمزونهم استهزاءً ثم أخبر تعالىٰ عما جازىٰ به أولياءه وعباده الصالحين، فقال تعالى: ﴿ إني جزيتهُم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ أي جزيتهم الجنّة، ونجيتهم من النار بما صبروا على أذاكم لهم واستهزائكم بهم.

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ ٱلْعَادِّينَ ۝ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ (١١٥) فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝ (١١٦) ﴾

ينبه تعالى هؤلاء على ما أضاعوه من طاعة الله تعالىٰ في عمرهم القصير في الدنيا وعبادته وحده لا شريك له، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون ﴿ قال كم لبثم في الأرض عدد سنين ﴾ أي كم كانت إقامتكم في الدنيا ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين ﴾ أي الحاسبين ﴿ قال إن لبثم إلا قليلاً ﴾ أي مدةً يسيرةً على كل تقدير ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ لما آثرتم الفاني على الباقي ولما تصرفتم

هذا التصرّف السيء ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة . روى ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبد الكلاعي يخطب الناس فقال : قال رسول الله ﷺ ٢٨٢ [إنّ الله إذا أدخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النار النار ، قال : يا أهل الجنّة كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ـ قال ـ لنعم ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم رحمتي ورضواني وجنّتي امكثوا فيها خالدين مخلّدين ثم قال : يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فيقول بئس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم ، ناري وسخطي امكثوا فيها خالدين مخلّدين] وقوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً ﴾ أي أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا . وقيل في تفسيرها : أي للعبث أي لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب ، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل ﴿ وأنكم إلينا لا تُرجعون ﴾ أي لا تعودون في الدار الآخرة . كما قال تعالى : ﴿ أيحسب الانسان ان يترك سدى ﴾ يعني هملاً .

روى أبو نعيم عن إبراهيم بن الحارث قال : ٢٨٣ [بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا : ﴿ أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ قال : فقرأناها فغنمنا وسلمنا] .

﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ أي تقدّس وتنزه عن أن يخلق شيئاً عبثاً فإنه الملك الحق المنزّه عن العبث ﴿ لا إلّه إلا هو رب العرش الكريم ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ووصفه بأنه كريم أي حسن المنظر بهيّ الشكل .

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٨٤ [أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا السفينة باسم الله الملك الحق ، ومـا قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه . سبحانه وتعالى عما يشركون ، باسم الله مجراها ومرساها ، إنّ ربّي لغفورٌ رحيم] .

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ ۞ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلرَّاحِمِينَ ۞ (١١٨) ﴾

يتوعّد الله من أشرك به غيره ، وعبد معه سواه ويخبر ان من أشرك بالله بلا برهان له على قوله فقال عز من قائل : ﴿ ومن يدعُ مع الله إلَهاً آخر لا برهان له به ﴾ وهذه جملة معترضة ، وجواب الشرط في قوله تعالى : ﴿ فإنما حسابه عند ربه ﴾ أي والله يحاسبه على ذلك ، ثم أخبر : ﴿ إنه لا يفلح الكافرون ﴾ أي لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاح ولا نجاة .

قال قتادة : ٢٨٥ [ذكر لنا ان نبي الله ﷺ قال لرجل : ما تعبد قال : أعبد الله ، وكذا وكذا حتى عدّ أصناماً ؛ فقال رسول الله ﷺ : « فأيهم إذا أصابك ضرّ فدعوته كشفه عنْك ؟ » قال : الله عز وجل . قال : « فأيهم إذا كانتْ لك حاجة فدعوتَه فأعطاكَها » قال : الله عز وجل ، قال : « فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه ؟ » قال : أردت أن أشكره بعبادة هؤلاء معه ؛ فقال رسول الله ﷺ : « تعلمون ولا يعلمون » فقال الرجل بعدما أسلم : لقيت رجلاً خصمني] هذا مرسل من هذا الوجه وقد روى أبو عيسى الترمذي في جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين عن أبيه عن رسول الله ﷺ نحو ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وقل رب اغفر وارحم وأنت خيرُ الراحمين ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس ، والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال .

آخر اختصار تفسير سورة المؤمنون ولله الحمد والمنّة

١٣٩٠/١/٥ و ١٩٧٠/٣/١٢

(٢٤) سُورَةُ النُّورِ مَدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ

نزلت بعد الحشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ (١) ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ سورة أنزلناها ﴾ أي هذه السورة أنزلناها ؛ فيه تنبيه على الاعتناء بها ، ولا ينفي هذا الاعتناء عما عداها من السور ﴿ وفرضناها ﴾ أي بينَّا الحلالَ والحرامَ والأمرَ والنهي والحدود . ﴿ وأنزلنا فيها آياتٍ بيناتٍ ﴾ أي مفسراتٍ واضحات ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ ثم قال : ﴿ الزانيةُ والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ يعني هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد . وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ؛ فإن الزاني إمّا أن يكون بكراً أي غير متزوج فحدُّه مائة جلدة كما في الآية ... وتغريب عام عن بلده عند جمهور العلماء خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله لأن التغريب أو عدمه متروك لرأي الإمام عند أبي حنيفة ، على أن حجة الجمهور وهو ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ، وزيد بن خالد الجهني في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما :

٢٨٦ [يا رسول الله إنّ ابني هذا كان عسيفاً – يعني أجيراً – على هذا فزنىٰ بامرأته فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلدمائة وتغريب عام وان على امرأة هذا الرجم ، فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده

لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى . الوليدة والغنم ردٌّ عليك ، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام ، واغدُ يا أنيس – لرجل بن أسلم – إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها] فغدا إليها فاعترفت فرجمها . وفي هذا أدلة على تغريب الزاني مع جلدمائة إذا كان بكراً لم يتزوج . فأما إذا كان محصناً ، وهو الذي قد وطيء في نكاح صحيح وهو حرّ بالغ عاقل فإنه يرجم .كما روى مالك رحمه الله عن عمر بن الخطاب : ٢٨٧ [انه قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمد ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها ووعيناها ، ورجمَ رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشى أن يطول بالناس زمان ان يقول قائل لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلّوا بترك فريضةٍ قد أنزلها الله فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال ومن النساء إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف] أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك مطولاً وقد اقتطفنا منه ما ثبت به مقصودنا ههنا .

روى الحافظ ابو يعلي الموصلي عن كثير بن الصلت قال : ٢٨٨ [كنا عند مروان وفينا زيد ، فقال زيد بن ثابت ، كنا نقرأ : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، قال مروان : ألا كتبتها في المصحف ؟ قال : ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب ، فقال : أنا أشفيكم من ذلك قال : قلنا فكيف ؟ قال جاء رجل إلى النبي ﷺ : قال فذكر كذا وكذا وذكر الرجم ، فقال يا رسول الله اكتب لي آية الرجم ، **قال** : « لا أستطيع الآن »] هذا أو نحو ذلك وقد رواه النسائي وقد روينا طرقاً متعددة متعاضدة ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة ، فنسخ تلاوتها ، وبقي حكمها معمولاً به ، والله أعلم .

وقد روي الجمع على الزاني المحصن بين الجلد مائة للآية والرجم للسنَّة وذلك من رواية أهل السنن الأربعة ومسلم عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٨٩ [خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم] . على ان رسول الله ﷺ ، أمر برجم المرأة التي زنى بها العسيف ورجم ماعزاً والغامدية ولم ينقل عنه ﷺ أنه جلدهم قبل الرجم (١) .

(١) قلت : لعل حديث الجمع بين الجلد والرجم للمحصن منسوخ بدليل أنه صلى الله عليه وسلم لم يطبقه لأن قوله صلى الله عليه وسلم « لقد جعل الله لهن سبيلا » فهذه قالها لما كان جزاء الزانية الإمساك في البيوت حتى يتوفاهن الله أو يجعل الله لهن سبيلا كما في سورة النساء الآية /١٥/ وهكذا يتضح ان الحديث جاء بعد هذه الآية لقوله صلى الله عليه وسلم قد جعل الله لهن سبيلا «فظهر ان الحديث متقدم على تطبيقه الرجم بحق =

وانما وردت الأحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة الطرق والألفاظ ، بالاقتصار على رجمهم وليس فيها ذكر الجلد . وقوله تعالى : ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ أي في حكم الله أي لا ترأفوا بهما في شرع الله أي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد . وفي الحديث ٢٩٠ : [لحدٌّ يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا اربعين صباحاً] وقال ابن أبي حاتم عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها ، قال نافع : أراه قال وظهرها قال قلت : ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ قال : يا بنيَّ ورأيتني أخذتني بها رأفة ان الله لم يأمرني أن اقتلها ، ولا أن اجعل جلْدها في رأسها ، وقد أوجعت حين ضربتها . وقوله تعالى : ﴿ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنىٰ وشددوا عليه الضرب ، ولكن ليس مبرحاً ، ليرتدعُ هو ومن يصنع مثله ذلك . وقوله تعالىٰ : ﴿وليشهد عذابُهما طائفة من المؤمنين﴾ يعني علانيةً بحضرة الناس وذلك أبلغ في زجرهما وأنجع فيَ ردعهما وانّ في ذلك تقريعاً وتوبيخاً وفضيحةً إذا كان الناس حضوراً ، وقيل : ليس ذلك للفضيحة انما ذلك ليدعى اللهُ تعالى لهما بالتوبة والرحمة . (١)

﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۞ (٣) ﴾

هذا خبر الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة أي لا يطاوعه على مراده من الزنا إلاّ زانية عاصية ، أو مشركة لا ترى حرمة ذلك وكذلك ﴿الزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك﴾ أي زان عاص بزناه أو مشرك لا يعتقد تحريمه قال سفيان الثوري عن ابن عباس رضي الله عنه : ﴿الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة﴾ قال : ليس هذا بنكاح إنما هو الجماع ، لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك ، وهذا اسناد صحيح عنه وكذلك روي عن جماعة من التابعين .

وقوله تعالى : ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ أي تعاطيه والتزوج بالبغايا ، أو تزويج

= المرأة التي زنىٰ بها العسيف وبحق ما عز والغامدية وعلى قوله لأنيس « أغد إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» لهذا كله فمن المحتمل بل من الراجح أن يكون حديث الجمع بين الجلد والرجم للمحصن منسوخاً ولذلك كان هذا مذهب جمهور العلماء وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي رحمهم الله ، أما أحمد فمذهبه الجمع ، للحديث المتقدم بالجمع .

(١) قلت : وللعظة والاعتبار لأن الحد أنفى للجرم ، وإظهاراً لحكم الله ، وإعزازاً للشرع وأهله .

العفائف بالرجال الفجار ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ﴾ وقوله ﴿ محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ﴾ الآية ، ولذا فعند أحمد لا يصح عقد الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب ، فإن تابت صحّ العقد وإلاّ فلا ، وكذلك لا يصح تزويج المرأة العفيفة بالرجل الفاجر والمسافح حتى يتوب توبة صحيحة لقوله تعالى : ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ٢٩١ [ان رجلاً من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح وتشترط له أن تنفق عليه ، قال فاستأذن رسول الله ﷺ أو ذكر له أمرها قال : فقرأ عليه رسول الله ﷺ : ﴿ الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين »] ورواه الترمذي والنسائي قال الترمذي حسن غريب ورواه أبو داود .

روى ابن حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٢٩٢ [لا ينكح الزاني المجلودُ إلا مثلَه] وهكذا أخرجه أبو داود في سننه .

روى الامام أحمد عن عبد الله بن عمر ان رسول الله ﷺ قال :٢٩٣ [ثلاثة حرم الله عليهم الجنة : مدمن الخمر ، والعاق لوالديه ، والذي يُقر في أهله الخبث] .

وأما إذا حصلت توبة فإنه يحلّ التزويج ، كما روى الإمام أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله عن شعبة مولى ابن عباس رضي الله عنه قال سمعت ابن عباس وسأله رجل فقال :٢٩٤ [إني كنت ألمُّ بأمرأة آتي منها ما حرم الله عز وجل علي ، فرزق الله عز وجل من ذلك توبةً فأردت أن اتزوجها ، فقال أناس : إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، فقال ابن عباس : ليس هذا من هذا ، [إنكحها فما كان من أثم فعليَّ] .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ ۞ (٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٥) ﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة ، وهي الحرة البالغة

العفيفة ، فإذا كان المقذوف رجلاً كذلك يجلد قاذفه أيضاً ، وليس فيه نزاع بين العلماء فإن أقام القاذف بينةً على صحة ما قاله درأ عنه الحد . ولهذا قال تعالى: ﴿ ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ﴾ فأوجب على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ، ثلاثة أحكام : « أحدها » أن يجلد ثمانين جلدة . « الثاني » أنه ترد شهادته أبداً . « الثالث » أن يكون فاسقاً ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس .

ثم قال تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ الآية واختلف العلماء في هذا الاستثناء هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط ، فترفع التوبة الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب ، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ وأما الجلد فقد ذهب وانقضى سواءً تاب أو أصر ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف ، فذهب الأئمة الثلاثة إلى أنه اذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق ، ونص عليه سعيد بن المسيب سيد التابعين وجماعة من السلف أيضاً ، وقال الإمام أبو حنيفة إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة أبداً ، وممن ذهب إليه من السلف القاضي شريح وابراهيم النخعي وسعيد بن جبير وغيرهم ، قال الشعبي والضحاك لا تقبل شهادته وان تاب إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان فحينئذ تقبل شهادته (١) والله أعلم .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ (٦) وَٱلْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ (٨)

---

(١) قلت : فيما يبدو والله أعلم أن تقرير الجمهور في قبول شهادته لا شك أنه أقرب إلى الصواب من قول أبي حنيفة برد شهادته أبداً لأن الاستثناء جاء عاماً والتخصيص يحتاج إلى دليل ثم لا يبقى معنى لقوله تعالى ... (فإن الله غفور رحيم) فأين المغفرة والرحمة أن بقي مردود الشهادة أبداً ...؟!! وكيف يقر على نفسه بالبهتان وهو لم يبهت ولم يكذب وقد رأى الفعل عياناً فكيف يتهم نفسه بالبهتان وهو لم يبهت بل إذا أقر على نفسه بالبهتان يكون قد كذب بالفعل على نفسه لأنه صادق برؤيته ولكنه اخطأ فكان عليه أن لا يدلي بشهادته قبل أن يدلي بها ثلاثة قبله وإلا فالجلد جزاؤه على تفريطه وهو العدل .

وَٱلْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ۞ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۞ (١٠)

في هذه الآية الكريمة فرج للأزواج ، وزيادة مخرج اذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة ، أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل ، فيحلّفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين أي فيما رماها به من الزنا ﴿ والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ﴾ عندها تبين منه بهذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء وتحرم عليه أبدا ، ويعطيها مهرها ويتوجه عليها حد الزنا ، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماها به ﴿ والخامسة ان غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ ويدرأ عنها العذاب ﴾ يعني الحد ، ﴿ ان تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة ان غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾ فخصها بالغضب ، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور ، وهي تعلم صدقه فيما رماها به ، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها ، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه . ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرَج والمخرَج ، من شدة ما يكون بهم من الضيق ، فقال تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ أي يشق عليكم كثير من أموركم ﴿ وأن الله توّاب ﴾ أي على عباده ، وان كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة ﴿ حكيم ﴾ فيما شرعه وأمر به ، ونهى عنه وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية وذكر سبب نزولها وفيمن نزلت **فيه من الصحابة**، نقتصر منها على ما جاء في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وما رواه البخاري عن ابن عبـــاس والنسائي في التفسير من حديث عبد الملك ابن أبي سليمان والامام أحمد عن سعيد بن جبير قال :

٢٩٥ [سئلت عن المتلاعنين أيفرق بينهما في إمارة ابن الزبير فما دريت ما أقول ، فقمت من مكاني إلى منزل ابن عمر فقلت : يا أبا عبد الرحمن ، المتلاعنان أيفرق بينهما ؟ فقال : سبحان الله إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال : يا رسول الله أرأيت الرجل يرى امرأته على فاحشة فإن تكلم تكلم بأمر عظيم ، وان سكت سكت على مثل ذلك فسكت فلم يجبه، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال: الذي سألتك عنه قد ابتليت به]

فأنزل الله تعالى هذه الآيات في سورة النور : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ حتى بلغ ﴿ أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾ فبدأ بالرجل فوعظه وذكره ، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقال : والذي بعثك بالحق ما كذبت ، ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذكرها ، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقالت المرأة : والذي بعثك بالحق إنه لكاذب . قال فبدأ بالرجل فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، ثم ثنى بالمرأة ، فشهدت أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ثم فرق بينها] رواه النسائي وأخرجاه في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس .

روى البخاري عن ابن عباس : ٢٩٦ [ان هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء ، فقال النبي ﷺ : « البينة أو حدٌّ في ظهرك » فقال يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبي ﷺ يقول : « البينة أو حدٌّ في ظهرك » فقال هلال : والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحد ، فنزل جبريل وأنزل عليه : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿ ... ان كان من الصادقين ﴾ فانصرف النبي ﷺ ، فأرسل إليهما ، فجاء هلال فشهد والنبي ﷺ يقول : « ان الله يعلم أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب ؟ » ثم قامت فشهدت فلما كان في الخامسة وقفوها وقالوا : إنها موجبةٌ ، قال ابن عباس : فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت، فقال النبي ﷺ : « أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين ، فهو لشريك بن سحماء » فجاءت به كذلك ، فقال النبي ﷺ « لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن »] انفرد به البخاري من هذا الوجه وقد رواه من غير وجه عن ابن عباس وغيره .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ (١١) ﴾

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوهُ من الكذب البحت والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيّه صلوات الله وسلامه عليه فأنزل الله براءتها صيانةً لعرض الرسول ﷺ فقال تعالى : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ﴾ وكان المقدّم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلّموا به وجوزه آخرون منهم ، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن ، وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة :

قال الإمام أحمد عن الزهري قال : أخبرني سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها الله تعالى ، وكلهم قد حدثني بطائفة من حديثها ، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصاً ، وقد وعيت عن كل رجل فهم الحديث الذي حدثني عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضاً ، ذكروا أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت : ٢٩٧ [كان رسول الله ﷺ اذا أراد أن يخرج لسفر أقرعَ بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمُها ، خرج بها رسول الله ﷺ معه قالت عائشة رضي الله عنها : فأقرعَ بيننا في غزوة غزاها ، فخرج فيها سهمي ، وخرجتُ مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعدما نزل الحجاب ، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه ، فسرنا حتى اذا فرغ رسول لله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة ، آذن ليلةً بالرحيل فقمت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري ، فاذا عقدلي من جذع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي ، فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذي كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعير الذي كنت أركب ، وهم يحسبون أني فيه ، قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن ولم يغشهن اللحم ، انما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جاريةً حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلي الذي كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون لي ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم ، فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان رآني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه

حين عرفني ، فخمرت وجهي بجلبابي ، والله ما كلمني كلمةً ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته ، فوطىء على يدها فركبتها فانطلق يقودني الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة ، فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولىٰ كبره عبد الله بن أبي ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهراً والناس يفيضون في قول أهل الأفك ولا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبني في وجعي أني لا أرىٰ رسول الله ﷺ اللطف الذي أرىٰ منه حين اشتكي ، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول : « كيف تيكم » ؟ فذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهتُ ، وخرجتْ معي أم مِسطَح قِبَلَ المناصع وهو متبرَّزنا ، ولا نخرج إلاّ ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه في البرية وكنا نتأذى بالكُنُفِ ان نتخذها في بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب ، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح ، قِبلَ بيتي حين فرغنا من شأننا ، فعثرتْ أم مُسْطِح في مرطها ، فقالت تعس مسطح ، فقلت لها : بئسما قلتِ تَسُبِّينَ رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت : أي هنتاه ألم تسمعي ما قال ؟ قلت وماذا قال ؟ قالت فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً إلى مرضي ، فلما رجعت إلى بيتي دخل رسول الله ﷺ ، فسلّم ثم قال : « كيف تيكم ؟ » فقلت له : أتاذن لي أن آتي ابويّ ؟ قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لي رسول الله ﷺ ، فجئت أبويّ فقلت لأمي : يا أمتاه لماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أي بنية هوّني عليكِ ، فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضئية عند رجل يحبها ولها ضرائر إلاّ أكثرنَ عليها . قالت : فقلت سبحان الله وقد تحدث الناس بها ، فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكي قالت : فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله قالت فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الودّ ؛ فقال أسامة : يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً . وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله لمَ يضيقِ اللهُ عليك والنساءُ سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر . قالت : فدعا رسولُ الله ﷺ بريرة فقال : « أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟ » فقالت له بريرة ، والذي بعثك بالحق ان رأيت منها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة

السن ، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله . فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرا ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي » فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله ان كان من الأوس ضربنا عنقه ، وان كان من أخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحميةُ فقال لسعد بن معاذ : كذبتَ لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببتَ أن يقتل ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنّه ، فانك منافق تجادل عن المنافق ، فتثاور الحيان : الأوس والخزرج حتى همُّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ، وسكت رسول الله ﷺ قالت : وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي ، قالت : فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنتْ عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي ، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ ، فسلم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل... وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء قالت : فتشهد رسول الله حين جلس ، ثم قال : « أما بعد يا عائشة فانه قد بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فان العبد اذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه » قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته ، قلص دمعي حتى ما أحسّ منه قطرة ، فقلت لأبي : أجب عني رسول الله فقال والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لأمي : أجيبي عني رسول الله ﷺ ، فقالت : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ قالت : فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن والله لقد علمت ، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني ، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقنّي ؟ فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف : ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ، قالت : وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحيٌ يتلى ، ولشأني كان أحقر في

نفسي من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلىٰ ، ولكن كنت أرجو أن يرىٰ رسول الله ﷺ ، في النوم رؤيا يبرئني الله بها ، قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه . قالت : فسّريَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها ان قال : « أبشري يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأكِ » قالت : فقالت لي أمي : قومي إليه . فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذي أنزل براءتي ، وأنزل الله تعالىٰ عز وجل ﴿ ان الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ﴾ العشر الآيات كلها ، فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق علىٰ مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ، فأنزل الله تعالى ﴿ ولا يأتلِ أولو الفضل منكم والسعة أن يُؤتوا أولي القربىٰ — إلى قوله — ألا تُحبون أن يغفرَ الله لكم والله غفور رحيم ﴾ فقال أبو بكر : بلىٰ والله إني لأحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً . قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري فقال : « يا زينب ماذا علمت ورأيت ؟ » فقالت : يا رسول الله أحمى سمعي وبصري ، والله ما علمت إلا خيرا . قالت عائشة : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع . وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك] أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث الزهري .

روى الامام أحمد عن عائشة قالت : لما نزل عذري ٢٩٨ [قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك ، وتلا القرآن ، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدّهم] ورواه أهل السنن الأربعة وقال الترمذي هذا حديث حسن ، ووقع عند أبي داود تسميتهم : حسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنةُ بنت جحش .

فقوله تعالى : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك ﴾ أي الكذب والبهت والافتراء ﴿ عصبة ﴾ أي جماعة منكم ﴿ لا تحسبوه شراً لكم ﴾ أي يا آل أبي بكر ﴿ بل هو خير لكم ﴾ أي في الدنيا والآخرة لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة واظهار شرفٍ لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم ﴿ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ الآية ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنه وعنها وهي في سياق الموت ، قال لها : أبشري فانك زوجة رسول الله

ﷺ ، وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرَك ، و نزلت براءتك من السماء وعن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت عائشة وزينب رضي الله عنهما فقالت زينب أنا التي نزل تزويجي من السماء ، وقالت عائشة : انا التي نزل عذري في كتاب الله .

وقوله تعالى : ﴿ لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ﴾ أي لكلٍ من تكلم في هذه القضيّة ورمىٰ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة ، نصيب عظيم من العذاب ﴿ والذي تولىّ كبرَه منهم ﴾ قيل ابتدأ به ، وقيل الذي كان يجمعه ويستوشيه ، ويذيعه ويشيعه ﴿ له عذاب عظيم ﴾ أي على ذلك والمقصود بذلك هو عبد الله بن أبي بن سلول قبحه الله تعالىٰ ولعنه .

﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ۞ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولٰئِكَ عِنْدَ ٱللهِ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ ۞ (١٣) ﴾

هذا تأديب من الله تعالىٰ للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء ، فقال تعالىٰ : ﴿ لولا ﴾ يعني هلاّ ﴿ إذ سمعتموه ﴾ أي كلام الإفك ﴿ ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى ، نزلت في أبي أيوب الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما فإن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها ؟ قال : نعم وذلك الكذب أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت لا والله ما كنت لأفعله ، قال : فعائشة والله خير منكِ فذلك قوله تعالى : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا هذا إفك مبين ﴾ كما قال أبو أيوب وصاحبته .

قال الله تعالى : ﴿ لولا ﴾ أي هلاّ ﴿ جاءوا عليه ﴾ أي على ما قالوه ﴿ بأربعة شهداء ﴾ يشهدون على صحة ما جاءوا به ﴿ فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ أي في حكم الله كاذبون فاجرون .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۞ (١٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة ﴾ يا أيها الخائضون في شأن عائشة بأن قبل توبتكم وانابتكم اليه في الدنيا وعفاعنكم في الآخرة من أجل إيمانكم ، ولولا فضل الله عليكم بهذه التوبة وقبولها ﴿ لمسّكم فيما أفضتم فيه ﴾ من قضية الإفك ﴿ عذاب عظيم ﴾ وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة ، كمسطح وحسان وحمنة . فأما من خاض من المنافقين كعبد الله بن أبي ابن سلول واضرابه فليس أولئك المقصودين من هذه الآية ، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا الفضل من الله تعالى على التائبين .

ثم قال تعالى : ﴿ إذ تلقونه بألسنتكم ﴾ أي يرويه بعضكم عن بعض وفي صحيح البخاري عن عائشة انها كانت تقرأها ﴿ إذ تَلِقُونَهُ بألسنتكم ﴾ وتقول : هو من ولق اللسان . يعني الكذب الذي يستمر صاحبه عليه ، تقول العرب : ولق فلان في السير إذا استمر فيه والقراءة الأولى : ﴿ إذْ تَلَقَّوْنَهُ ... ﴾ أشهر وعليها الجمهور ولكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة قال ابن أبي حاتم عن ابن عمر عن عائشة انها كانت تقرأ : ﴿ إذ تَلِقُونَهُ ﴾ قال ابن أبي مليكة : هي أعلم به من غيرها .

وقوله تعالى : ﴿ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ﴾ أي تقولون ما لا تعلمون .

ثم قال تعالى : ﴿ وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ أي تحسبون ذلك يسيراً سهلاً ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هيناً ، فكيف وهي زوجة النبي الأمي خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ؟ فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل ، فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا ، وهو سبحانه وتعالى لا يقدر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك حاشا وكلا ، ولما لم يكن ذلك فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء! ولهذا قال تعالى : ﴿ وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ﴾ وفي الصحيحين : ٢٩٩ [إنَّ الرجل ليتكلم

بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ ، يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض] وفي رواية : [لا يلقي لها بالاً] .

﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ۝ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ (١٨) ﴾

هذا تأديب آخر بعد الأول الآمر بظن الخير ، إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن المؤمنين فالأولى ينبغي الظن بهم خيراً ، وإن علق بنفسه شيء ، فلا ينبغي أن يتكلم به لقوله ﷺ : ٣٠٠ [ان الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل] أخرجاه في الصحيحين . وقال الله تعالى : ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ﴾ ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله .

ثم قال تعالى : ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ﴾ أي يتوعدكم الله أن يقع منكم مثل هذا في المستقبل ، ولهذا قال : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي ان كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسوله ﷺ ، فأما من كان متصفاً بالكفر فله حكم آخر ، ثم قال تعالى : ﴿ ويبين الله لكم الآيات ﴾ أي يوضح لكم الأحكام الشرعية ، والحكم القدرية ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بما يصلح عباده ، حكيم في شرعه وقدره .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ (١٩) ﴾

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيء ، فلا يشيعه ولا يذيعه فقد قال تعالى : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم ﴾ أي يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح ﴿ لهم عذاب أليم في الدنيا ﴾ أي بالحد ، وفي الآخرة بالعذاب ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ أي فردوا الأمور إليه ترشدوا . روى الإمام أحمد عن

ثوبان عن النبي ﷺ قال : ٣٠١ [لا تؤذوا عباد الله ولا تعيّروهم ، ولا تطلبوا عوراتهم فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته] .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ (٢٠) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ (٢١) ﴾

حزب ٣٦

يقول تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رؤوف رحيم ﴾ لولا ان قبل الله توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا لكان أمراً آخر ، ولكنه تعالى رؤوف بعباده فتاب على من تاب إليه ، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليهم ، ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ أي مسالكه وما يأمر به ﴿ ومن يتبعْ خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ هذا تنفير وتحذير بأفصح عبارة وأبلغها ﴿ خطوات الشيطان ﴾ كل معصية فهي من خطوات الشيطان .

ثم قال تعالى : ﴿ ولو لا فضل الله عليكم ورحمته ما زكىٰ منكم من أحد أبداً ﴾ أي لولا أن رزقكم التوبة وزكىٰ نفوسكم من شركها لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً ﴿ ولكن الله يزكى من يشاء ﴾ من خلقه ، ويضلّ من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغيّ . وقوله تعالىٰ : ﴿ والله سميع ﴾ أي لأقوال عباده ﴿ عليم ﴾ بمن يستحق منهم الهدىٰ أو الضلال .

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا ٱلْفَضْلِ مِنْكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٢٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ولا يأتل﴾ أي لا يحلف ﴿أولو الفضل منكم﴾ أي أهل الصدقة ﴿والسعة﴾ أي الغنى ﴿أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين . وهذا في غاية الترفق ، والعطف على الأرحام ، ولهذا قال تعالى ﴿وليعفوا وليصفحوا﴾ أي عمّا تقدّم منهم من الأساءة والأذى ، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم ، وهذه الآيات نزلت في الصدّيق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبداً بعدما قال عن عائشة ما قال ، كما تقدم في الحديث ، فلما نزلت براءة عائشة أم المؤمنين وطابت نفوس المؤمنين واستقرت ، وتاب الله على من تكلم من المؤمنين في ذلك وأقيم الحد على من أقيم عليه ، شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة ، يعطّف الصدّيق على قريبه وابن خالته مسطح بن أثاثة وكان مسكيناً لا مال له إلاّ ما ينفق عليه ابو بكر رضي الله عنه ، وكان من المهاجرين في سبيل الله وقد زلق وتاب وضرب الحد عليها ومعروف أبو بكر بالمعروف والأيادي على الأقارب والأجانب وسمع قوله تعالى : ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ الآية فقال الصديق : بلى والله وإنا نحب أن تغفر لنا يا ربّنا، ثم أرجع إلى مسطح صلته وقال: والله لا أنزعها منه أبداً. ولهذا كان صِدّيقاً رضي الله عنه وعن بنته ، – فهي البريئة المبرأة الطاهرة ، وزوجة اشرف مخلوق في السموات والأرض – عصمها الله وسائر زوجاته ﷺ بعصمته من الزنا وكذلك زوجات وأمهات سائر الأنبياء والمرسلين وهذا من تمام عصمتهم عليهم الصلاة والسلام –[1] .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْغَافِلَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ (٢٥)﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات ، خرج مخرج الغالب المؤمنات ، فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ، ولا سيما التي كانت سبب النزول ، وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما ، وقد أجمع العلماء

(١) هذا الكلام الذي بين الخطين – ... – من كلامي .

رحمهم الله قاطبة على أن من سبّها بعد هذا ورماها بما رماهـا به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية ، فإنه كافر لأنه معاند للقرآن ، وبقية أمهات المؤمنين لهنّ حكمها وقوله تعالى ﴿ لعنوا في الدنيا والآخرة ﴾ الآية كقوله تعالى : ﴿ ان الذين يؤذون الله ورسوله ﴾ الآية وقيل أنها نزلت خاصة في عائشة رضي الله عنها والصحيح إنها وان نزلت خاصة بعائشة إنما لهاحكم العموم فهي عامة في تحريم قذف كل محصنة غافلة مؤمنة ، وليس في هذه الآية ان الحكم خاص بها رضي الله عنها وانما فيه أنها سبب النزول دون غيرها وان كان الحكم يعمها كغيرها .

ويعضد تعميم الحكم ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ : ٣٠٢ [« إجتنبوا السبع الموبقات » قيل وما هنّ يا رسول الله ؟ قال : « الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »] . أخرجاه في الصحيحين من حديث سلمان بن بلال به . روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن حذيفة عن النبي ﷺ قال : ٣٠٣ [قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة] .

وقوله تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: انهم يعني المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا : تعالوا حتى نجحد فيجحدون ، فيختم على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثاً . وروى ابن أبي حاتم وابن جرير أيضاً عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : ٣٠٤ [اذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فيجحد ويخاصم ، فيقال له : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول : كذبوا ، فيقال أهلك وعشيرتك ، فيقول كذبوا ، فيقال : إحلفوا ، ثم يصمهم الله فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ، ثم يدخلهم النار] . وفي رواية مسلم والنسائي ٣٠٥ [... فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقي ، فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكُنّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل] .

وقوله تعالى : ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾ قال ابن‌عباس : ﴿ دينهم ﴾ أي حسابهم [1] .

---

(١) ومن ذلك « يوم الدين » أي يوم الحساب .

وقوله تعالى : ﴿ ويعلمون ان الله هو الحق المبين ﴾ أي وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه .

﴿ ٱلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَٱلطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۞ (٢٦) ﴾

نزلت في عائشة وأهل الإفك قاله ابن عباس وجماعة من التابعين والمعنى بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس ، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة من كلام ، هم أولى به ، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك مبرأون مما يقولون ﴾ أي ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة لأنه أطيب من كل طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعاً ولا قدراً. ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك مبرأون مما يقولون ﴾ أي هم بُعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿ لهم مغفرة ﴾ أي بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿ ورزق كريم ﴾ أي عند الله في جنات النعيم ، وفيه وعد أن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۞ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ۞ (٢٩) ﴾

هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين وذلك في الاستئذان . أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا ، أي يستأذنوا قبل الدخول ، ويسلموا بعده ،

وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات فإن أذن له ، وإلا انصرف ، كما ثبت في الصحيح ٣٠٦ [ان أبا موسى حين استأذن علىٰ عمر ثلاثاً فلم يؤذن له انصرف ، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن ؟ إئذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما أرجعك ؟ قال : إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي ، وإني سمعت النبي ﷺ يقول : « اذا استأذن أحدكم فلم يؤذن له فلينصرف » فقال عمر : لتأتينّ على هذا ببينة وإلاّ أوجعتك ضرباً . فذهب إلى ملأ الأنصار فذكر لهم ما قال عمر فقالوا لا يشهد لك إلاّ اصغرنا فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك فقال ألهاني عنه الصفق بالأسواق] .

روى الإمام أحمد عن أنس أو غيره ٣٠٧ [ان النبي ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال : « السلام عليك ورحمة الله » فقال سعد وعليك السلام ورحمة الله ، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً ، وردّ عليه سعد ثلاثاً ولم يسمعه فرجع النبي ﷺ فاتبعه سعد فقال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، ما سلّمت تسليمة إلا وهي بأذني ، ولقد رددتُ عليك ولم أُسمعْكَ وأردتُ أن استكثر من سلامك ومن البركة ، ثم أدخلهُ البيت فقرب اليه زبيباً فأكل نبي الله فلما فرغ قال : « أكل طعامكم الأبرار وصلّت عليكم الملائكة ، وأفطر عندكم الصائمون »] وروى أبو داود قال : حدثنا عثمان بن أبي شيبة بسنده إلى هذيل قال ٣٠٨ [جاء رجل ، قال عثمان سعد فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن فقام على الباب قال عثمان: مستقبل الباب ، فقال له النبي ﷺ هكذا عنك — أو هكذا — فإنما الاستئذان من النظر »] فعلم من هذا انه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل ان لا يقف تلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره .

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: ٣٠٩ [لو أن امرأً اطلع عليك بغير إذنٍ فخذفتهَ بحصاةٍ ففقأتَ عينَه ، ما كان عليكٌ مِن جناح] . وأخرج الجماعة عن جابر قال : ٣١٠ [أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي فدققت الباب فقال : « من ذا ؟ » فقلت : أنا.قال : « أنا أنا ... ! ! ! » كأنه كرهه] وانما كره ذلك لأنه لا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس وإلاّ فكل واحد يعبر عن نفسه بأنا فلا يعرف من الطارق إلاّ بالإفصاح عن الاسم حتى يحصل الإذن . وروى أبو داود عن ربعي قال : ٣١١ [أتىٰ رجل من بني عامر استأذن على رسول الله ﷺ وهو في بيته ، فقال : أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : « أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له :

قل السلام عليكم أأدخل ؟ » فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم أأدخل ؟ فأذن له النبي ﷺ ، فدخل] .

ويجب الاستئذان على الأمهات والأخوات ، فقد روى أشعث عن عدي بن ثابت
٣١٢ [أن امرأة من الأنصار قالت يا رسول الله : إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها لا والد ولا ولد ، وانه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال ؛ قال فنزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً ﴾] الآية .

وقال قتادة: ﴿ حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾ وهو الاستئذان ثلاثاً ، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع أما الأولى فليسمع الحي ، وأما الثانية فليأخذوا حِذرَهم ، وأما الثالثة فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا . ولا تقفن على باب قوم ردّوك عن بابهم ، فان للناس حاجاتٍ ولهم أشغال ، والله أولىٰ بالعذر .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ يعني الاستئذان خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذَنَ لكم ﴾ وذلك لما فيه من التصرف بملك الغير بغير إذنه ، فإن شاء أذِنَ ، وإن شاء لم يأذَن ، ﴿ وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ أي إذا ردّوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ﴿ فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ أي أطهر ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ وقال قتادة ، قال بعض المهاجرين : لقد طلبت عمري كله هذه الآية ، فما أدركتها ان استأذن على بعض اخواني فيقول لي ارجع وأنا مغتبط

وقوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتاً غير مسكونة ﴾ الآية ... هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها بغير إذن ، كالبيت المعد للضيف إذا اذن له فيه أول مرة كفىٰ . وقال آخرون : هي بيوت التجار كالخانات ومنازل الأسفار ، وبيوت مكة وغير ذلك ، اختاره بن جرير وحكاه عن جماعته ولكن الأول أظهر . والله أعلم وقيل هي بيوت الشعر .

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣٠)

هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين بغض البصر عما حرّم الله ، فلا ينظر إلاّ إذا وقع البصر فجأةً فإن حصل هذا فليصرِفْ بصرَه عنه سريعاً ، كما رواه مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد البجلي رضي الله عنه قال : ٣١٣ [سألت النبي ﷺ عن نظر الفجأة ، فأمرني أن اصرف بصري] وكذا رواه الامام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي حسن صحيح.روى أبو داود عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ لعلي : ٣١٤ [يا علي لا تُتبع النظرةَ النظرةَ ، فإنَّ لك الأولى ، وليس لك الآخرة] وفي الصحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ ٣١٥ [« إيّاكم والجلوس على الطرقات » قالوا : يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول الله ﷺ « إن أبيتم فأعطوا الطريقَ حقَّه » قالوا:وما حق الطريق يا رسول الله ؟قال« غضُّ البصر ، وكفُّ الأذى ، وردُّ السلام والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر »] .

قال بعض السلف : النظر سهم سم إلى القلب.ولذلك أمر الله بحفظ الفروج ، كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك.فقال تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارِهم ويحفظوا فروجَهم ﴾ وحفظُ الفرج تارةً يكون بمنعِه من الزّنا كما قال تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ الآية ... وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن » ٣١٦ [إحفظْ عورتَك إلاّ منْ زوجتك أو ما ملكت يمينك] ﴿ ذلك أزكىٰ لهم ﴾ أي أطهر لقلوبهم وأنقىٰ لدينهم ، كما قيل : من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾

وفي الصحيح عن أبي هريرة : ٣١٧ [كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العينين النظر ، وزنا اللسان النطق ، وزنا الأذنين الاستماع ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين الخُطىٰ ، والنفس تمنىّ وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه] .

۞ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي

أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ ٱلتَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ ٱلنِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات ، وغيرةٌ منه لأزواجهن . وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال : بلغنا – والله أعلم – انّ جابر بنَ عبدِ الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت مرثد كانت في محل لها في بني حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء ، ما أقبح هذا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ﴾ الآية ... أي عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن ؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب إطلاقاً واحتج كثيرٌ منهم بما رواه أبو داود والترمذي ٣١٨ [عن أمّ سلمة أنّها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة ، قالت فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعدما أُمِرْنا بالحجاب فقال رسول الله ﷺ « احتجبا منه » فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله ﷺ « أو عميوان أنتما ؟ ألستما تبصرانِه »] وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح .

وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة كما ثبت في الصحيح : ٣١٩ [إن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملّت ورجعت] وقوله تعالى : ﴿ ويحفظن فروجهن ﴾ عن الفواحش كالزنا وما يؤول إليه من نظر أو غيره وقوله تعالى : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلاّ ما ظهر منها ﴾ قيل : أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب ، إلا ما لا يمكن اخفاؤه كالرداء الذي يجلل الثياب وما يبدو من أسافل الثياب . وعن ابن عباس ﴿ ولا يبدين زينتهن إلاّ ما ظهر منها ﴾ قال : وجهها وكفيها والخاتم وروي نحوه عن ابن عمر وعطاء وغيره من التابعين ، وقال مالك ﴿ إلاّ ما ظهر منها ﴾ الخاتم والخلخال . ويحتمل ان ابن عباس ومن تابعه

أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين وهذا هو المشهور عند الجمهور ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن خالد بن دريك عن عائشة رضي الله عنها : أن اسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : ٣٢٠ [« يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلحْ أن يُرى منها إلاّ هذا» وأشار إلى وجهه وكفيه لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي هو مرسل : خالد بن دريك لم يسمعْ من عائشة رضي الله عنها وقوله تعالى : ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ أي على نحو رِهن وصدورهن ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية اللائي كن مسفحات بصدورهن وأعناقهن وذوائبَ شعورهن فأمر الله المؤمنات أن يستترْنَ في هيئاتهن ، كما قال تعالى ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرَفْنَ فلا يؤذَيْنَ ﴾

والخُمُرُ جمع خمار.وهو ما يغطى به الرأس وما يسميها الناس بالمقانع وقال البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأوُل لما أنزل الله ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققْنَ مروطهن فاختمرْنَ بها .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ﴾ أي أزواجهــنّ ﴿ أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن ﴾ كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ولكن من غير تبرّج . وقد روى ابن المنذر عن عكرمة في هذه الآية وقال بعد أن فرغ من قراءتها : لم يذكر العم ولا الخال لأنهما ينعتان لأبنائهما ولا تضع خمارها عند العم والخال ، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره .

وقوله تعالى : ﴿ أو نسائهن ﴾ يعني تظهر بزينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لئلاّ تصفهن لرجالهن ، وذلك وان كان محظوراً في جميع النساء إلاّ أنه في نساء أهل الذمة أشد فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع فأما المسلمة فانها تعلم ان ذلك حرام فتنزجر عنه ، وقد قال رسول الله ﷺ : ٣٢١ [لا تباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها] أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود . وروى سعيد بن منصور في سننه عن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة :

أما بعد فانه بلغني أن نساءً من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك فانه من قبلك فلا يحل لأمرة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلاّ أهل ملتها

وقال مجاهد في قوله : ﴿ أو نسائهن ﴾ قال : نساؤهن المسلمات ، ليس المشركات من نسائهن ، وليس للمرأة المسلمة ان تنكشف بين يدي مشركة . وأما ما رواه ابن أبي حاتم عن عطاء قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ بيت المقدس كان قوابل نسائهن اليهوديات والنصرانيات ، فهذا محمول على حال الضرورة .

وقوله تعالى : ﴿ أو ما ملكت أيمانهن ﴾ قال ابن جرير يعني من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها ، وان كانت مشركة لأنها أمتُها . وقال الأكثرون : بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء ، واستدلوا بالحديث الذي رواهابوداود عن أنس : ٣٢٢ [ان النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد وقد وهبه لها ، قال : وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها ، واذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى ، قال : « إنه ليس عليك بأس انما هو أبوك وغلامُكِ »][1] .

وقوله تعالى : ﴿ أو التابعين غير أولي الإربَةِ من الرجال ﴾ كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاءٍ ولا همة لهم إلى النساء ، ولا يشتهونهن ، قال ابن عباس : هو المغفل الذي لا شهوة له وروى الامام أحمد عن أم سلمة أنها قالت : ٣٢٣ [دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث ، وعندها عبد الله بن أبي أمية يعني أخاها ، والمخنث يقول : يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غداً فعليك بابنة غيلان فانها تقبل بأربع وتدبر بثمان ، قال : فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة « لا يَدْخُلَنَّ هذا عليك »] أخرجاه في الصحيحين وقوله تعال : ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾ يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك ؛ فلا بأس بدخوله على النساء ، فأما إن كان مراهقاً بحيث يعرف ذلك ويدريه ويفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلا يمكَّنُ من الدخول على النساء . وقد ثبت في الصحيحَيْنِ عن رسول الله ﷺ انه قال : ٣٢٤ [إيّاكم والدخول على النساء » قيل : يا رسول الله أفرأيت الحمو ؟ قال : « الحمو الموت »]

وقوله تعالى : ﴿ ولا يضربنَ بأرجلهن ﴾ الآية ؛ كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوتها ، ضربت برجلها الأرض

---

(١) إنما كان صغير السن فربَّته ثم اعتقته حينما كبر . كما أورده الحافظ ابن عساكر .

فيسمع الرجال طنينه ، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك ، وكذلك اذا كان شيء من زينتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي . من ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها . فقد روى الترمذي عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال ٣٢٥ [كل عين زانية والمرأة اذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا] يعني زانية

وقوله تعالى : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ أي افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات والأخلاق الجليلة واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الصفات والأخلاق الرذيلة ، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى الله ورسوله عنه والله تعالى المستعان .

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۞ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۞ (٣٤) ﴾

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة والأوامر المبرمة ؛ فقوله تعالى : ﴿ وانكحوا الأيامىٰ منكم ﴾ إلى آخره ، هذا أمر بالتزويج ،

فقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه ، واحتجوا بظاهر قوله ﷺ ٣٢٦ [يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء] أخرجاه في الصحيحين . وقد جاء في السنن من غير وجه . ان رسول الله قال ﷺ : ٣٢٧ [تزوجواالولود تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة] وفي رواية : [حتى السقط] .

الأيامى جمع أيم ، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها وللرجل الذي لا زوجة له ، سواء كان قد تزوج ثم فارق أو لم يتزوج واحد منهما ، حكاه الجوهري عن أهل اللغة يقال رجل أيم وامرأة أيم .

وقوله تعالى : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ الآية قال ابن عباس : رغبهم الله في التزويج وأمر به الأحرار والعبيد ووعدهم عليه الغنى ، وعن الليث من أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ ٣٢٨ [ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف والكاتب يريد الأداء ، والغازي في سبيل الله] .

وقوله تعالى : ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام كما قال ﷺ في الحديث المتقدم « يا معشر الشباب ... » .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ﴾ هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه ، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا أمر ارشاد واستحباب ، لا أمر تحتم وايجاب ، بل السيد مخير أن شاء كاتب عبده أو لم يشأ لم يكاتبه وقال البخاري : وقال روح عن ابن جريج قلت لعطاء : أواجب علي إذا علمت له مالاً ان أكاتبه قال : ما أراه إلا واجباً . وقال عمر بن دينار : قلت لعطاء أتأثره عن أحد ؟ قال : لا ثم أخبرني ان موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنساً المكاتبة ، وكان كثير المال فأبى ، فانطلق إلى عمر رضي الله عنه ، فقال : كاتبه فأبي فضربه بالدرة ، ويتلو عمر رضي الله عنه ﴿ فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ﴾ فكاتبه هكذا ذكره البخاري معلقاً . وروى عن الضحاك انها عزمة وذهب الشافعي في الجديد إلى أنه لا يجب وعند مالك ليس بواجب واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية .

وقوله تعالى : ﴿ إن علمتم فيهم خيراً ﴾ فقد روى أبو داود في المراسيل عن يحيى بن أبي كثير قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ﴾ قال إن علمتم فيهم حرفة ، ولا ترسلوهم كلاًّ على الناس » وقوله تعالى : ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾ أي اطرحوا لهم من الكتابة بعضها وقال آخرون بل المراد هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكاة ، واختاره ابن جرير وقال ابن عباس : أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب – يعني ان يعينوهم في تحرير أنفسهم بأن يضعوا عنهم من مكاتبتهم وقال ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال ربع الكتابة وروي مرفوعاً والأشبه أنه موقوف على علي رضي الله عنه كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السلمي .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ﴾ الآية ... ، كان أهل الجاهلية اذا كان لأحدهم أمةٌ أرسلها تزني ، وجعل عليها ضريبةً يأخذها منها كل وقت فلما جاء الاسلام نهىٰ الله عنها المؤمنين ، وكان سبب نزولها فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول ، فإنه كان له إماء ، فكان يكرههن على البغاء طلباً، لخراجهن ، ورغبة في أولادهن ورياسةً منه فيما يزعم . وقد تضافرت الآثار على ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ إن أردن تحصُّناً ﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، وقوله تعالى : ﴿ لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾ أي من خراجهن ومهورهن وأولادهن ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام ، ومهر البغي ، وحلوان الكاهن ، وفي رواية
٣٢٩ [مهر البغي خبيث ، وكسب الحجام خبيث ، وثمن الكلب خبيث] وقوله تعالى : ﴿ ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴾ فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم وأثمهن على من أكرههن ، كذا قال ابن عباس وجماعة من التابعين وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ انه قال ٣٣٠ [رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه] .

ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها قال تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا اليكم آيات مبيِّنات ﴾ يعني القرآن فيه آيات واضحات مفسرات ﴿ ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم ﴾ أي خبراً عن الأمم الماضية ، وما حلَّ بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ أي زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ أي لمن اتقىٰ الله وخافه . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفته القرآن: فيه حكم ما بينكم وخبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضلّه الله .



﴿ اللهُ نُورُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ (٣٥) ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ يقول : هادي أهل السموات والأرض . روى ابن جرير عن أنس بن مالك قال : ان الله يقول : (نوري هُدَى) اختار هذا القول ابن جرير ﴿ مثل نوره ﴾ أي مثل هدايته هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره وكان أبيُّ بنُ كعب يقرأها ﴿ مثل نور من آمن به ﴾ فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره ، وهكذا رواه سعيد بن جبير وقيس بن سعد عن ابن عباس انه قرأها كذلك ﴿ مثل نور من آمن بالله ﴾ وقرأ بعضهم : ﴿ الله منوّر السموات والأرض ﴾ وعن الضحاك : ﴿ الله نوَّر السموات والأرض ﴾ . وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال : ٣٣١ [كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك الحمد ، انت نور السموات والأرض ومن فيهن [1] ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن »] .

وقوله تعالى : ﴿ مثل نوره ﴾ في هذا الضمير قولان : (أحدهما) أنه عائد إلى الله عز وجل أي مَثَلُ هداهُ في قلب المؤمن ، قاله ابن عباس (والثاني) ان الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه السياق ، تقديره مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة ، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه كما قال تعالى : ﴿ أفمن كان على بينةٍ من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾ فشبه قلب المؤمن

(١) قلت : وهذا دليل على أن المراد من قوله تعالى : الله نور السموات والأرض « أي هادي أهلهما إذ ليس هذا النور هو نور ذاته الذي هو صفته انما هو النور الذي يقذفه في قلب المؤمن من الهداية . وإن القراآت المتقدمة تشهد لهذا أيضاً وهي : « الله منور السموات والأرض » و « الله نوَّر السموات والأرض » لا سيما وقوله تعالى في آخر هذه الآية : « يهدي لنوره من يشاء » فاتضح ماتقدم صحة قول من فسر نور الله بهدايته والله الموفق للصواب .

في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري ، وما يستهديه من القرآن ، والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف ، فقوله تعالى ﴿ كمشكاة ﴾ قال ابن عباس وجماعة من التابعين : هو موضع الفتيلة من القنديل هذا هو المشهور ولهذا قال تعالى بعده: ﴿ فيها مصباح ﴾ وهو النور الذي في الزبالة. قال أبي بن كعب : المصباح النور وهو القرآن والإيمان الذي في صدره ﴿ المصباح في زجاجة ﴾ أي زجاجة صافية مشرقة وهو نظير قلب المؤمن ﴿ الزجاجة كأنها كوكب درّي ﴾ أي كأنها كوكب من در مضيء مبين ضخم ﴿ يوقد من شجرة مباركة ﴾ أي يستمد من شجرة زيتون مباركة ﴿ زيتونة ﴾ بدل ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ أي ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ، ولا في غربيها فيقلص عنها الفيء قبل الغروب بل هي في مكان وسط تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره فيجيء زيتها صافيا معتدلاً مشرقاً وذلك أصفى ما يكون من الزيت . وقال نحو ذلك ابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير والسدي وقيل المراد انها وسط الشجر ليست بادية للمشرق ولا للمغرب ، وقيل وقيل ... ولكن أولى هذه الأقوال القول الأول ، وهو أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح باد ظاهر ضاح للشمس تقرعه من أول النهار إلى آخره ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف كما قال غير واحد مما تقدم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ يعني لضوء إشراق الزيت .

وقوله تعالى : ﴿ نور على نور ﴾ قال ابن عباس يعني بذلك : ايمان العبد وعمله . وكذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا ، فلا يكون واحد منهما الا بصاحبه .

وقوله تعالى : ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ أي يرشد الله إلى هدايته من يختاره كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٣٣٢ [ان الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم القى عليهم من نوره يومئذ ، فمن أصاب من نوره يومئذ اهتدى ومن أخطأ ضلّ فلذلك أقول : جف القلم على علم الله عز وجل] .

وقوله تعالى : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداه في قلب المؤمن ختم الآية بقوله تعالى : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال .

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٣٣

﴿ القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد : فقلب المؤمن سراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل المنافق فيه كمثل القرحة يمدها الدم والقيح ، فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه] اسناده جيد ولم يخرجوه .

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۞ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۞ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞ (٣٨) ﴾

لما ضرب الله تعالى مثل القلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم ، بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب وذلك كالقنديل مثلاً ، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحّد فقال تعالى : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ أي أمر الله بتعاهدها وتطهيرها من الدنس وكل ما لا يليق فيها كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : قال نهى الله سبحانه عن اللغو فيها وكذا قال جماعة من العلماء المفسرين .

• وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٣٣٤ من بنى لله مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة] .

• وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ٣٣٥ [أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور وان تنظف وتطيّب •] [1] وروى البخاري عن عمر بن الخطاب : ابن للناس ما

(•) رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي ، ولأحمد وأبي داود نحوه عن سمرة بن جندب .

(١) قلت : من حيث بناء المساجد في الدور فهذا خاص بالنساء لأن المرأة صلاتها في بيتها خير من صلاتها في المساجد أما من حيث تنظيفها وتطييبها فهذا معلوم انه عام في المساجد جميعها

يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس[1] وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٣٣٦ [لا تقوم الساعة حتّى يتباهى الناس في المساجد] رواه أحمد وأهل السنن والترمذي وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : ٣٣٧ [إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد ، فقولوا لا أربح الله تجارتك ، واذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا : لا ردها الله عليك] .

* وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٣٣٨ [صلاة الرجل في الجماعة ، تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً] وذلك أنه اذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خُطوة إلا رُفِعَ له بها درجة وحطّ عنه بها خطيئة فإذا صلّى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه : اللهم صلّ عليه ، اللهم ارحمه . ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة] .

* وفي السنن ٣٣٩ [بشر المشّائين إلى المساجد في الظُّلَم بالنور التام يوم القيامة] .

* وروى مسلم بسنده عن أبي حميد أو أبي أسيد قال : قال رسول الله ﷺ ٣٤٠ [إذا دخل أحدكم المسجد فليقل ، اللهم افتح أبواب رحمتك . واذا خرج فليقل : اللهم اني أسألك من فضلك] .

وقوله تعالى : ﴿ ويذكر فيها اسمه ﴾ أي يتلى كتابه قاله ابن عباس وقوله تعالى : ﴿ يسبح له فيها بالغدو ﴾ أي في البكرات والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار وعن ابن عباس كل تسبيح في القرآن هو الصلاة . ومن قرأ بفتح الباء وقف على قوله تعالى : ﴿ والآصال ﴾ وقفاً تاماً ، وابتدأ بقوله تعالى : ﴿ رجال ... ﴾ وكأنه مفسر للفاعل المحذوف ، وكأنه قيل من يسبح له فيها ؟ قال رجال . وأما على قراءة من قرأ بالكسر فجعله فعلاً ، وفاعله ﴿ رجالٌ ﴾ فلا يحسن الوقف الا على الفاعل لأنه تمام الكلام .

فقوله تعالى : ﴿ رجال ﴾ فيه إشعار بهممهم السامية ، ونياتهم وعزائمهم العالية ، التي بها صاروا عماراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه كما قال تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ الآية أما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن لما رواه الإمام أحمد عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي أنها جاءت النبي ﷺ فقالت : ٣٤١ [يا رسول الله إني أحب الصلاة معك . قال : « قد علمت انك تحبين الصلاة معي ، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك

(١) قات هذه قاعدة جليلة في بناء المساجد وعدم زخرفتها ويا ليتنا نتعظ ... ولكننا نتسابق في الزخرفة ، تقليداً للكنائس فلا حول ولا قوة إلا بالله .

في حجرتك ، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك ، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي » قال : فأمرت فبني لها مسجد في أقصى بيت من بيوتها فكانت والله تصلي فيه حتى لقيت الله تعالى] .

ويجوز لها شهود الجماعة في المساجد بشرط أن لا تؤذي أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر انه قال قال رسول الله ﷺ : ٣٤٢ [لا تمنعوا إماءَ الله ، مساجد الله] ولأحمد وأبي داود ٣٤٣ [وبيوتهن خير لهن] وفي رواية [وليخرجن وهن تفلات] أي لا ريح لهن. وفي الصحيحين عن عائشة أنها قالت : ٣٤٤ [لو أدرك رسول الله ﷺ، ما أحدث النساء لمَنَعَهُنَّ من المساجد كما منعت نساء بني اسرائيل .]

وقوله تعالى : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ الآية فمعنى قوله تعالى : ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ أي يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم . قال هشيم عن شيبان قال حدثت عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق حيث نودي للصلاة المكتوبة تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة فقال عبد الله بن مسعود : هؤلاء من الذين ذكر الله تعالى في كتابه ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ الآية وقال ابن عباس اي عن الصلاة المكتوبة وقال مقاتل بن حيان ... وأن يحافظوا على مواقيتها .

وقوله تعالى : ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ أي يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار ، أي من شدة الفزع وعظمة الأهوال ، كقوله تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً . وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ﴾ وقوله تعالى ههنا ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ﴾ أي هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم وقوله تعالى : ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم كما قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ وقال ها ههنا : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۞ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ۞ (٤٠) ﴾

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين : نارياً ومائياً (١) وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين : نارياً ومائياً وقد تكلمنا على كل منهما في موضعه ، بما أغنى عن إعادته ولله الحمد والمنة **فأما الأول من هذين المثلين**(٢) **فهو للكفار الدعاة الى كفرهم الذين يحسبون** أنهم على شيء وهم ليسوا كذلك ، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يُرى في القيعان من الأرض ، من بُعد كأنه بحرٌ طامٍ ، والقيعة : جمع قاع ، كجار وجيرة ، والقاع أيضاً واحد القيعان ، كما يقال جارٌ وجيران . وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب ، وانما يكون ذلك بعد نصف النهار ، وأما الآل ، فإنما يكون أول النهار يرى كأنه ماء بين السماء والأرض ، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء ، يحسبه ماءً ، قصده ليشرب منه ، فلما انتهى إليه ﴿ لم يجده شيئاً ﴾ فكذلك الكافر يحسب انه قد عمل عملاً وانه قد حصل شيئاً ، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله ، لم يجد له شيئاً بالكلية قد قُبل ، إما لعدم الإخلاص ، أو لعدم سلوك الشرع كما قال تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ وقال ههنا : ﴿ ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ وهكذا روي عن أُبيّ بن كعب وابن عباس وغيرهما. وفي الصحيحين أنه يقال يوم القيامة لليهود: ٣٤٥..[ما كنتم تعبدون؟ فيقولون : كنا نعبد عزير ابن الله فيقال : كذبتم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون ؟

---

(١) عند قوله تعالى الآية رقم /١٣ – ٢٠/ من سورة البقرة . (٢) في الآية رقم / ١٧ / من سورة الرعد .

فيقولون : يا رب عطشنا فاسقنا ، فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سرَبٌ يحطم بعضها بعضاً ، فينطلقون ، فيتهافتون فيها ، وهذا المثال لذوي الجهل المركب ، فأما أصحاب الجهل البسيط وهم الطماطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى : ﴿ أو كظلمات في بحر لجيّ ﴾ أي عميق ﴿ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام ، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده ، ولا يدري أين يذهب ، بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب ؟ قال معهم قيل : فإلى أين يذهبون قال : لا أدري .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ يغشاه موج ﴾ الآية ... يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر ، وهي كقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلىأبصارهم غشاوة ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل ، حائل ، بائر ، كافر ، كقوله تعالى : ﴿ من يضلل الله فلا هادي له ﴾ وهذا في مقابلة ما قال تعالى في مثل المؤمنين : ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً ، وعن أيماننا نوراً ، وعن شمائلنا نوراً ، وأن يعظم لنا نوراً .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۞ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۞ (٤٢) ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له من في السموات والأرض اي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد ، كما قال تعالى : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ والطيرُ صافاتٍ ﴾ أي في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه ، وهو يعلم ما هي فاعلة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ أي كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل . ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والله عليم بما يفعلون ﴾

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلاّ لَهُ ولا معقب لحكمه ﴿ والى الله المصير ﴾ أي يوم القيامة ، فيحكم فيه بما يشاء ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ﴾ الآية ، فهو الخالق المالك ، ألا له الحكم في الدنيا ، وله الحمد في الأولى والآخرة .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ۞ (٤٣) يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي ٱلْأَبْصَارِ ۞ (٤٤) ﴾

يخبر تعالى انه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة . وهو الازجاء ﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ أي يجمعه ﴿ ثم يجعله ركاماً ﴾ أي متراكماً ﴿ فترى الودق ﴾ أي المطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾ أي من خلله . وقوله تعالى : ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ أي جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب . وقوله تعالى : ﴿ فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ﴾ أي بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرَد ، فيكون قوله تعالى : ﴿ فيصيب به من يشاء ﴾ رحمة لهم ﴿ ويصرفه عمن يشاء ﴾ أي يؤخر عنهم الغيث ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ فيصيب به ﴾ أي بالبرد نقمةً على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم ، ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم . وقوله تعالى : ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ أي من شدته يخطف الأبصار وقوله تعالى : ﴿ يقلب الله الليل والنهار ﴾ أي يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيراً ويقصر الذي كان طويلا . والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه ﴿ ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ أي لدليلاً على عظمته تعالى : ﴿ ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ وما بعدها من الآيات الكريمات .

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)

يذكر تعالى قدرته التامة ، وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها ، وحركاتها وسكناتها من ماء واحد ، فمنهم من يمشي على بطنه كالحية وما شاكلها ، ﴿ ومنهم من يمشي على رجلين ﴾ كالإنسان والطير ﴿ ومنهم من يمشي على أربع ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ أي بقدرته لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ● (٤٦)

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحُكْم والحِكم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنهي ، ولهذا قال تعالى ﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ● (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ● (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ● (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ● (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ

ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ ۞ (٥٢)

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، يقولون قولاً بألسنتهم ، : ﴿ آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ﴾ أي يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون ما لا يفعلون ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ وقوله تعالى: ﴿واذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ﴾ الآية ، أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ــ إلى قوله ــ رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ . وعن سمرة مرفوعاً : ٣٤٦ [من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له] وقوله تعالى : ﴿ وان يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾ أي واذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاءوا سامعين مطيعين ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ مذعنين ﴾ واذا كانت الحكومة عليهم أعرضوا ودعوا إلى غير الحق ، وأحبوا أن يتحاكموا إلى غير النبي ﷺ ، ليروجوا باطلهم ، ثم إذعانهم أولاً لم يكن عن اعتقادٍ منهم أنّ ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لهواهم ولهذا لما خالف قصدهم عدلوا عنه إلى غيره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أفي قلوبهم مرض ﴾ الآية ... يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها ، أو قد عرض لها شك في الدين ، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم ، وأياً كان فهو كفر محض ، والله عليم بكل منهم وما هو منطوٍ عليه من هذه الصفات .

وقوله تعالى : ﴿ بل أولئك هم الظالمون ﴾ أي هم الظالمون والله ورسوله مبرّآن مما يظنون . ثم أخبر تعالى عن صفات المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يبغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقال تعالى : ﴿ إنما كان قول المؤمنين اذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ أي سمعاً وطاعةً ولهذا وصفهم الله بالفلاح . فقال تعالى : ﴿وأولئك هم المفلحون ﴾ وقال قتادة : ذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا في جماعة (١) ، والنصيحة لله

(١) قلت : قوله : ولا خير الا في جماعة هذا محدود في الجماعة التي تكون مجتمعة على الحق وهو موافقة الكتاب والسنة في الظاهر والباطن وليس مجرد الجماعة فقط هو دليل الخير وإلا فإن فرداً واحداً متمسكاً بحكم الكتاب والسنة هو جماعة ومصداقه قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة ... » ولو خالفه الناس جميعهم .

ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامةً . وقوله تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ قال قتادة : يطيع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه ويتّقه فيما يستقبل . وقوله تعالى : ﴿ فأولئك هم الفائزون ﴾ يعني الذين فازوا بكل خير وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة .



﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ ۞ (٥٤) ﴾

يخبر تعالى عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ لئن أمرتهم بالغزو ليخرجن فقال الله تعالى ﴿ قل لا تقسموا ﴾ أي لا تحلفوا . وقوله تعالى : ﴿ طاعة معروفة ﴾ أي طاعتكم معروفة انها لا فعل معها بل قول مجرد ، وحلفكم كاذب ، كما قال تعالى : ﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم ﴾

وقال تعالى : ﴿ اتخذوا ايمانهم جنةً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصى فلا فائدة من إظهار الطاعة والباطن بخلافه فإن الله لا يروج عليه شيء من التدليس فهو الخبير بسرائر عباده وإن أظهروا خلافها . ثم قال الله تعالى : ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ أي اتبعوا الكتاب والسنة .

وقوله تعالى . ﴿ فإن تولوا ﴾ أي تركوا ما جاءهم به ﴿ فإنما عليه ما حمل ﴾ أي إبلاغ الرسالة ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ أي بقبولها وتنفيذها ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم وقوله تعالى : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر ﴾ .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته الولاة على الناس فتصلح بهم البلاد ، وتخضع لهم العباد وليبدلنّهم بعد خوفهم أمناً وحكماً وقد فعله وتبارك وتعالى وله الحمد والمنة ففتح رسول الله ﷺ مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها ، وأخذ الجزية من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام وهاداه هرقل والمقوقس وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملّك بعد النجاشي المسلم أصحمة رحمه الله وأكرمه .

ثم تولى أبو بكر الصديق فلمَّ شعْث ما وهىَ بعد موته عليه الصلاة والسلام فمهّد الجزيرة العربية ، وفتح طرفاً من فارس بقيادة خالد بن الوليد وفتح بصري ودمشق وحوران بقيادة أبي عبيدة ، وبلاد مصر بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنهم أجمعين ، وألهم الله الصديق ان يستخلف عمر الفاروق الذي قام بعده بالأمر قياماً تاماً فتم في أيامه فتحُ الشام ومصر وأكثر اقليم فارس وتقهقر كسرى إلى أقصى مملكته ، وفر قيصر إلى القسطنطينية وأنفق أموالهما في سبيل الله .

ثم امتدت دولة عثمان إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت المغرب إلى البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق مدائن العراق وخراسان والأهواز ، وقتل المسلمون الترك مقتلة عظيمة جداً ، وخذل الله ملكهم (خاقان) ولهذا ثبت في الصحيح ان رسول الله ﷺ : قال ٣٤٧ [ان الله زوي لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها] . فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله ﷺ ، وصدق الله ورسوله ﷺ فنسأل الله الإيمان به وبرسوله ﷺ والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا (١) .

---

(١) قلت : نعم ... هذا لما كان المسلمون متمسكين بالكتاب والسنة فتح الله تعالى عليهم البلاد وأدان لهم العباد . ولكن يا للأسف فنحن المسلمين اليوم رغم ترامي أطراف بلادنا في الشرق والغرب ورغم عددنا وعديدنا محكومون في جميع بلادنا من قبل الكفار بشكل مباشر أو غير مباشر حتى اليهود المغضوب عليهم، =

قال البراء بن عازب : نزلت هذه الآية : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ... ﴾ ونحن في خوفٍ شديد . أي كانوا خائفين يمسون ويصبحون في السلاح .

وان رجلاً من الصحابة قال : ٣٤٨ [يا رسول الله : أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح فقال رسول الله ﷺ لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيه حديدة] . فأنزل الله هذه الآية الكريمة : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ... ﴾ كقوله تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ كما قال أحمد عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٤٩ [بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة ، والدين والنصر والتمكين في الأرض . فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب] .

وقوله تعالى : ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ يفسره ما جاء في الصحيحين من حديث قتادة عن أنس أن معاذ بن جبل حدّثه قال : ٣٥٠ ﴿ بينا أنا رديف النبيّ ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلاّ آخرة الرحل قال : « يا معاذ » قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » قلت،لبيك يا رسول الله وسعديك ثم سار ساعة ، ثم قال « يا معاذ بن جبل » **قلت:لبيك يا رسول الله وسعديك قال « هل تدري ما حق الله على العباد ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال« حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً »قال : ثم سار ساعة، ثم قال « يا معاذ ابن جبل »قلت:لبيك يا رسول الله وسعديك قال « فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قال : قلت الله ورسوله أعلم قال « فإن حق العباد على الله ان لايعذبهم» أخرجاه .**

وقوله تعالى : ﴿ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً فالصحابة رضي الله

ـــ اغتصبوا بيت المقدس وأسسوا دولتهم بفلسطين واستولوا على أطراف مصر والأردن وسوريا ... كل ذلك لأننا مسلمون إسماً فقط ...؟!!! نحكم بغير ما أنزل الله ، ولا نتبع كتاباً ولا سنة ونعصى الله جهرة ، وننقض عهد الله وميثاقه ... فأذاقنا الله لباس الجوع والخوف والذل وذلك بما كسبت أيدينا ويعفو عن كثير ... فإذا أردنا عودة الماضي العظيم فلنعد إلى شرع الله الكريم ودينه القويم ، وصراطه المستقيم .

عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم له ، كان نصرهم بحسبهم ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم ، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال : ٣٥١ [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة – وفي رواية – حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك – وفي رواية – حتى يقاتلوا الدجال – وفي رواية – حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون] وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۞ (٥٧) ﴾

يأمر عباده سبحانه بإقامة الصلاة له وحده وايتاء الزكاة لوجهه وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم سالكين طريق ما أمرهم به رسول الله ﷺ ، وترك ما زجرهم عنه ابتغاء مرضاته تعالى ورحمته . وقوله تعالى : ﴿ لا تحسبن ﴾ أي لا تظن يا محمد أن ﴿ الذين كفروا ﴾ أي خالفوك وكذبوك ﴿ معجزين في الأرض ﴾ أي لا يعجزون الله ، بل الله قادر عليهم ومعذبهم أشد العذاب ولهذا قال : ﴿ ومأواهم ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ النار ولبئس المصير ﴾ أي بئس المآل مآل الكافرين ، وبئس القرار والمهاد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ الْعِشَاءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

هذه الآيات الكريمات اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض ، وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض ، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال . (الأول) من قبل صلاة [1] الغداة لأن الناس إذ ذاك نيام في فرشهم (الثاني) : ﴿ وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ﴾ أي وقت القيلولة ، لأن الانسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله (الثالث) : ﴿ ومن بعد صلاة العشاء ﴾ لأنه وقت النوم ، فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال ، ولهذا قال تعالى ﴿ ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ﴾ أي إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم ، ولا عليهم إن رأوا شيئاً ، لأنه قد أُذنَ لهم في الهجوم ، ولأنهم طوافون عليكم في الخدمة وغير ذلك ، ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم ولما كانت هذه الآية محكمة ، وكان عمل الناس بها قليلاً ، أنكر عليهم عبد الله بن عباس روى أبو داود عن عبيد الله بن يزيد سمع ابن عباس يقول : لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن ، وإني لآمر جاريتي هذه أن تستأذن علي ، وقال الشعبي : لم تنسخ . والدليل على أنها لم تنسخ قوله تعالى : ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ يعني اذا بلغ الاطفال الحلم وجب عليهم الاستئذان في كل حال وان لم تكن في الأحوال الثلاث وقوله تعالى : ﴿ كما استأذن الذين من قبلهم ﴾ يعني مثلما كان الأطفال قبل أن يبلغوا الحلم يستأذنون فليستأذن الذين بلغوا الحلم دائماً . وقوله تعالى : ﴿ والقواعد من النساء ﴾

(١) قلت : أي صلاة الصبح (والغداة) ما بين الفجر إلى طلوع الشمس والمراد عدم الدخول قبل صلاة الفجر .

هن اللواتي انقطع حيضهن ويئسن من الولد ﴿ اللاتي لا يرجون نكاحاً ﴾ أي لم يبق لهن تشوف إلى التزوج ﴿ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ﴾ أي ليس عليها من الحجرْ في التستر كما على غيرها من النساء أي تضع الجلباب أو الرداء ، ولا يبرجن بوضع الجلباب ليرى عليهن من الزينة . وقوله تعالى : ﴿ وإن يستعففن خير لهن ﴾ أي وإنَّ وضعهن لثيابهن وان كان جائزاً ولكن الخير لهن والأفضل أن لا يفعلن ﴿ والله سميع عليم ﴾ .

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

قيل ان المراد هنا : أنه كان الناس يتحرّجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك . ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه ، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره ، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم فانزل الله على هذه الآية رخصة في ذلك . كما أن الرجل كان يدخل بيت أبيه ، أو أخيه أو ابنه ، فتتحفه المرأة بشيء من الطعام . فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثمَّ ، فقال الله تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ... ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم ﴾ إنما ذكر هذا وهو معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ ، وليساوى به ما بعده في الحكم ، وتضمّن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم ، ولهذا استدل من ذهب أن مال الولد بمنزلة مال أبيه وقد جاء في السنن من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٣٥٢ [أنت ومالك لأبيك]

وقوله تعالى : ﴿ أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ﴾ – إلى قوله – ﴿أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ هذا ظاهر ، وقد يستدل به من يوجب نفقه الأقارب بعضهم على بعض كما هو المشهور في مذهب أبي حنيفة وأحمد ، وأما قوله تعالى : ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾هوخادم الرجل من عبد وقهرمان فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف . وعن عائشة رضي الله عنها فيما معناه : كان المسلمون يدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم يحلون لهم أكل ما احتاجوا اليه في غيبتهم ولكن الضمناء كانوا يتحرجون لأن الإذن لهم ما كان عن طيب نفس فأنزل الله تعالى : ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أو صديقكم ﴾ أي بيوت أصدقائكم وأصحابكم فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك . وقوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾ كانوا يأنفون ويتحرّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره فرخص الله لهم في ذلك فقال تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾ فهذه رخصة منه تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة، وإن كان مع الجماعة أبرك .

وقوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ يعني فليسلم بعضكم على بعض . وعن جابر بن عبد الله قال : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركةً طيبة . قال أبو الزبير : ما رأيته إلاّ يوجبه .

وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل : السلام على رسول الله ،وإذادخلت على أهلك فسلّم عليهم واذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وقال قتادة : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإنه كان يؤمر بذلك . وحدثنا أن الملائكة ترد عليه . وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس قال : ٣٥٣ [أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال قال : « يا أنس اسبغ الوضوء يُزَد في عمرك ، وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك واذا دخلت – يعني بيتك – فسلم على أهلك يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك . يا أنس : إرحم الصغير ووقرّ الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة »] . وقوله تعالى : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ تنبيه منه تعالى لعباده وتبيين لهم الآيات بياناً شافياً ليتدبروها ويتعقّلوها ، لعلهم يعقلون .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا ٱسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ (٦٢) ﴾

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ثم أمر الله رسوله ﷺ إذا أستأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء ولهذا قال سبحانه : ﴿ فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم ﴾ الآية . وقد روى أبو داود عن أبي هريرة عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [٣٥٤ إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم وإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة] هكذا رواه النسائي والترمذي وقال : حديث حسن .

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٦٣) ﴾

عن ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد يا أبا القاسم ، فنهاهم عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ قال : فقولوا : يا نبي الله ، يا رسول الله ، كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ـ إلى قوله ـ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ۞ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ﴾ الآية فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده ، كما أُمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته .

وقوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ قال مقاتل بن حيان هم المنافقون كانت تثقل عليهم الخطبة يوم الجمعة فيلوذون ببعض أصحاب النبي ﷺ حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلاّ بإذن النبي ﷺ في يوم الجمعة بعدما يأخذ في الخطبة .

وقوله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ أي عن أمر رسول الله ﷺ وهو منهاجه وسنته وشريعته ، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قُبل ، ومن خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان . كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ انه قال : ٣٥٥ [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد] أي فليخش من خالف سنة رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً ﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ أي في الدنيا بقتلٍ أو حدٍّ أو حبس أو نحو ذلك ، كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٣٥٦ [مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللائي يقعن في النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه ، فيقتحمن فيها — قال — فذلك مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلمّ عن النار ، فتغلبوني وتقتحمون فيها] أخرجاه من حديث عبد الرزاق .

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ (٦٤) ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وعالم الغيب والشهادة ، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم ، فقال : ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ وقد للتحقيق[١] كما قال قبلها : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ قد نرى تقلب وجهك ... ﴾ فقوله تعالى : ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ أي هو عالم به مشاهِدٌ له لا يعزب عنه مثقال ذرة ، كقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم

(١) قلت : كل / قد / تدخل على المضارع وتتعلق بذات الله تعالى فهي للتحقيق قطعاً ، بخلاف ما إذا كانت تتعلق بالمخلوقين فهي للتقليل كما هو معلوم من قواعد اللغة العربية .

ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين ﴾ والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً .

وقوله تعالى : ﴿ ويوم يرجعون إليه ﴾ أي ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ أي يخبرهم بكل ما فعلوه في الدنيا صغيراً كان أو كبيراً كما قال تعالى : ﴿ ... ويقولون ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم ﴾ . آخر اختصار تفسير سورة النور نسأل الله التمام وله الحمد والمنة .

* * *

١٣٩٠/٢/٢٤
١٩٧٠/٤/٣٠

ندعو الله تعالى أن يوفقنا إلى اتمام هذا الاختصار على ما يرضيه سبحانه وأن يجنبنا الزلل والله الموفق أولا وآخرا والحمد لله رب العالمين .

(٢٥) سورة الفرقان مكية وآياتها سبع وسبعون

إلاّ الآيات ٦٨ و ٦٩ و٧٠ فمدنيّة
نزلت بعد يس

بسم الله الرحمن الرحيم

تبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً ❁ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ❁ (٢)

يحمد الله تعالى نفسه الكريمة على ما نزّل على رسوله الكريم من القرآن العظيم كما قال تعالى : ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً لينذر بأساً شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ﴾ وقال ههنا : ﴿ تبارك ﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرّة الثابتة الدائمة ﴿ الذي نزّل الفرقان ﴾ نزّل فعل من التكرر والتكثر لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملةً واحدة ، والقرآن نزل آيات بعد آيات وأحكاماً بعد أحكام وسوراً بعد سور وهذا أبلغ وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه ، كما قال تعالى في هذه السورة : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً. ولا يأتونك بمثل إلاّ جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ ولهذا سماه ههنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد والحلال والحرام .

وقوله تعالى : ﴿ على عبده ﴾ هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافة إلى عبوديته كقوله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ . وقولُه تعالى : ﴿ ليكون للعالمين نذيراً ﴾

كما قال ﷺ ٣٥٧« [إني أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي فذكر منهن : « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »] .

وقوله تعالى : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ﴾ أي هو مالك السموات والأرض المنزه عن الولد والشريك ثم أخبر أنه تعالى : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ أي كل شيء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره .

﴿ وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُوراً ۞ (٣) ﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين باتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء ، وعبدوا معه ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً فكيف يملكون لعابديهم ﴿ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ أي ليس لهم من ذلك شيء بل مرجعه جميعاً إلى الله تعالى الذي هو يحيي ويميت وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة ﴾ فهو الذي لا إلَه غيره ولا رب سواه ولا تنبغي العبادة إلاّ له لأنه هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً ۞ (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞ (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ۞(٦) ﴾

يخبر تعالى عن سخافة عقول الكفار في قولهم عن القرآن : ﴿ إن هذا إلاّ إفك ﴾ أي كذب ﴿ افتراه ﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿ وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلماً

وزوراً﴾ أي قالوا قولاً هم يعلمون أنهم يكذبون فيه ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها﴾ أي استنسخها ﴿فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ أي تقرأ عليه صباحاً ومساءً وهذا قول متهافت سخيف لأن الجميع يعلمون ما كان رسول الله يعلم شيئاً من الكتابة أبداً ويعرفون منه الصدق والأمانة وبُعده عن أي خُلق رذيل.بل وينادونه بالأمين لما يعلمون من صدقه وبره،فلما أكرمه الله بالرسالة والنبوة رموه بهذه الافتراآت،وحاروا فيما يقذفونه به، فيقولون تارةً ساحر،وتارة شاعر،وطوراً مجنون وكذاب.فأمر تعالى : ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾ أي أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين حقاً وصدقاً مطابقاً للواقع وقوله تعالى : ﴿الذي يعلم السر﴾ أي الله الذي يعلم غيب السموات ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر ، وقوله تعالى : ﴿إنه كان غفوراً رحيماً﴾ دعوة لهم إلى التوبة والإنابة ، واخبار لهم بأن رحمته واسعة وحلمه عظيم مع من تاب وأناب إليه . كقوله تعالى : ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾ قال الحسن البصري : انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة .

وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ۞ (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُوراً ۞ (٨) ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۞ (٩) تَبَارَكَ ٱلَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ۞(١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً ۞ (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ۞ (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً ۞ (١٣) لَّا تَدْعُوا ٱلْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَٱدْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً ۞ (١٤)

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم وانما تعللوا بقولهم : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾ يعنون كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿ ويمشي في الأسواق ﴾ أي طلباً للتكسب والتجارة ﴿ لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ أي هلاّ أنزل اليه ملك من عند الله فيكون له شاهداً على صدقه فيما يدعيه كما قال فرعون : ﴿ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم ولهذا قالوا : ﴿ أو يلقى إليه كنز ﴾ ينفق منه ﴿ أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ أي تسير معه حيث سار وهذا سهل يسير على الله ولكن له الحكمة والحجة البالغة في ترك ذلك ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً ﴾ أي يقذفونك بالكذب عليك، من قولهم ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر ، وكل ذلك باطل مخالف لسيرته عليه الصلاة والسلام ولهذا قال تعالى : ﴿ فضلّوا ﴾ عن طريق الهدى ﴿ فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ وذلك أن كل من خرج عن طريق الحق والهدى ، فهو ضال حيثما توجه . ثم قال تعالى : ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ﴾ روى سفيان الثوري عن خيثمة : ٣٥٨ [قيل للنبي ﷺ إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبياً من قبلك ، ولا نعطي أحداً من بعدك ولا ينقص ذلك ممّا لك عند الله فقال: « اجمعوها لي في الآخرة فأنزل الله عز وجل » ﴿ تبارك الذي ان شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً ﴾]

وقوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ قالوا هكذا عناداً لا استرشاداً لأنهم كافرون بالبعث لذا قال تعالى : ﴿ واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾ أي أرصدنا له عذاب الحريق .

وقوله تعالى : ﴿ إذا رأتهم ﴾ أي جهنم ﴿ من مكان بعيد ﴾ يعني في مقام المحشر ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ حنقاً عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور. تكاد تميز من الغيظ ﴾ أي تكاد تمزق من الغيظ على من كفر بالله.

وروى ابن أبي حاتم عن خالد بن دريك باسناده عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال قال رسول الله ﷺ : ٣٥٩ [« من يقل عليّ ما لم أقل، أو ادعى إلى غير والديه أو انتمىَ لغير مواليه فليتبوأ مقعده من النار — وفي رواية — فليتبوّأ بين عيني جهنم مقعداً » قيل يا رسول الله وهل لها من عينين ؟ قال : أما سمعتم الله يقول : ﴿ إذا رأتهم من مكان

بعيد ﴾ الآية »] وقوله تعالى ﴿ وإذا ألقوا منها مكانا ضيّقاً مقرنين ﴾ روى عبد الله بن وهب بن يحيى بن أبي أسيد يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ، ٣٦٠ [أنه سئل عن قول الله : ﴿ واذا القوا منها مكانا ضيقاً مقرنين ﴾ قال : « والذي نفسي بيده ، إنهم ليُستكرَهُون في النار كما يُستكرَهُ الوتد في الحائط »] وقوله تعالى : ﴿ مقرنين ﴾ أي مكتفين ﴿ دعوا هنالك ثبوراً ﴾ أي بالويل والحسرة والخيبة ﴿ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً ﴾ الآية قال ابن عباس أي لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً وادعوا ويلاً كثيراً . وقال الضحاك : الثبور الهلاك والأظهر : ان الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار .

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى : يا محمد قل لهم : هذا الذى وصفه الله من حال الأشقياء في جهنم وما يلقون فيها ، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده التي أعدّها لهم وجعلها لهم جزاءَ ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا وجعل مآلهم إليها ، ﴿ لهم فيها ما يشاؤون ﴾ من الملاذ المنوعة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بلا انقطاع ولا انقضاء ، وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم وأحسن به إليهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كان على ربك وعداً مسؤولاً ﴾ أي وعداً واجباً لا بد أن يقع

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم ، فقال سبحانه : ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السبيل ﴾ أي ، أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني ، أم هم عبدوكم من غير دعوة منكم لهم ؟ كما قال تعالى : ﴿ واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كُنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلاّ ما أمرتني به ﴾ الآية ولهذا قال تعالى مخبراً عما يجيب به المعبودون يوم القيامة ﴿ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ أي ليس للخلائق أن يعبدوا أحداً سواك لا نحن ولاهم فنحن ما دعوناهم إلى ذلك بل فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم هذا على تقدير فتح نون ﴿ نَتّخِذَ ﴾ أما على ضم النون وفتح الخاء ﴿ نُتّخَذَ ﴾ أي ما ينبغي لأحد أن يعبدنا ، فنحن عبيد لك فقراء إليك وهي قريبة المعنى من الأولى ﴿ ولكن متعتهم وآباءهم ﴾ أي طال عليهم العمر حتى نسوا ما أنزلته اليهم من الكتب الداعية إلى عبادتك وحدك لا شريك لك . ﴿ وكانوا قوماً بوراً ﴾ قال ابن عباس أىَ هلكيَ .

فقال تعالى : ﴿ فقد كذبوكم بما تقولون ﴾ أي فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله ، وزعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى كقوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ۞ واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ﴾ أي لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ﴿ ومن يظلم منكم ﴾ أي يشرك بالله ﴿ نذقه عذاباً كبيراً ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ۞ (٢٠) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن رسله المتقدمين انهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذي به ، ويمشون في الأسواق للتكسب ، وما ذلك بضائرهم فإن الله تعالى رزقهم من الصفات

الكاملة والأعمال الفاضلة والخوارق والمعجزات ما يستدل به كل ذي عقل سليم على صدق دعوتهم ولم يجعلهم الله إلا بشراً يأكلون ويشربون .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ﴾ أي اختبرنا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصي ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴾ أي بمن يستحق أن يوحى اليه كما قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ومن لا يستحق ذلك .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله ﷺ : ٣٦١ [يقول الله تعالى إني مبتليك ومبتلى بك] .

الجزء ١٩

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيراً ۝ (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ۝ (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ۝ (٢٣) أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ۝ (٢٤) ﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار في كفرهم ، وعنادهم في قولهم : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ عياناً فيخبرونا أن محمداً رسول الله ، كقولهم : ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ ولهذا قالوا ﴿ أو نرى ربنا ﴾ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ﴾ أي هم لا يرون الملائكة ... إلا في يوم لا بشرى لهم فيه ، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار والغضب من الجبار وقال آخرون بل المراد بقوله تعالى : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى ﴾ يعني يوم القيامة ، قال مجاهد والضحاك وغيرهما : ولا منافاة بين هذا وما تقدم فإن الملائكة في هذين اليومين ، يوم الممات

ويوم المعاد ، تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران فلا بشرى يومئذ للمجرمين ﴿ ويقولون حجراً محجوراً ﴾ أي وتقول الملائكة للكافرين : حرام محرم عليكم الفلاح اليوم.وأصل الحجر المنع ومنه سمى الحِجْر عند البيت الحرام ، لأنه يمنع الطوّاف ان يطوفوا فيه ، وإنما يطاف من ورائه ، والغرض أن الضمير في قوله تعالى : ﴿ ويقولون ﴾ عائد على الملائكة ، هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن وغيرهم واختاره ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ﴾ أي عمدنا إلى ما عملوا من الأعمال التي ظنوا انها منجاة لهم ، لكنها فقدت الشرط الشرعي ، فكل عمل لا يكون خالصاً ، وعلى الشريعة المرضية فهو باطل فأعمال الكفار ليست خالصة ولا موافقة للشريعة المرضية فتكون أبعد من القبول حينئذ ولهذا قال تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ والهباء المنثور قال علي رضي الله عنه هو شعاع الشمس إذا دخل الكوة . وقال الحسن البصري : هو الشعاع في كوة أحدكم ، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع . وهكذا فإن الكفار عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها على شيء ، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم إذا بها لا شيء بالكلية،كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ أي يوم القيامة أي بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا وصاروا إلى ما صاروا إليه بخلاف أهل النار فانهم ليس لهم عمل واحد يقتضي دخول الجنة ، والنجاة من النار . فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء فقال تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ قال ابن عباس : إنما هي الساعة يقيل فيها أولياء الله على الأسرّة مع الحور العين ، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرّنين .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَاءُ بِٱلْغَمَامِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰئِكَةُ تَنزِيلاً ۝(٢٥) ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى ٱلْكَافِرِينَ عَسِيراً ۝ (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ۝ (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً ۝ (٢٨) لَقَدْ

أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً ❁ (٢٩)

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام وهو ظُلَلُ النور العظيم الذي يبهر الأبصار ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء قال مجاهد : وهذا كما قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام والملائكة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لمَن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ وفي الصحيح : ٣٦٢ [ان الله تعالى يطوي السموات بيمينه ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول : انا الملك أنا الديان ، أين ملوك الأرض ، أين الجبارون أين المتكبرون ؟] . وقوله تعالى : ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ أي شديداً صعباً . . .فهذا حال الكافرين في هذا اليوم ، وأما المؤمنون فكما قال تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ويوم يعضّ الظالم على يديه ﴾ الآية يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول،وما جاء به من عند الله من الحق البيّن الذي لا مرية فيه ، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول.فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم ، وعض على يديه حسرةً وأسفاً ، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة في كل ظالم . كما قال تعالى : ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار ﴾ الآيتين فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ويعضّ على يديه قائلاً ﴿ يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ٭ يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة وسواء في ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبيّ بن خلف أو غيرهما ﴿ لقد أضلّني عن الذكر ﴾ وهو القرآن ﴿ بعد إذ جاءني ﴾ أي بعد بلوغه إليّ قال الله تعالى : ﴿ وكان الشيطان للانسان خذولاً ﴾ أي يخذله عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه .

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ مَهْجُوراً ❁ (٣٠) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ❁ (٣١)

يخبر تعالى عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال : ﴿ يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ وذلك أن المشركين إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعونه فهذا من هجرانه ، وترك الإيمان به ، وعدم تدبره ، وترك العمل به ، والعدول عنه إلى غيره .كل ذلك من هجرانه أيضاً ، نسأله تعالى ان يجنبنا ما يسخطه ، ويستعملنا في ما يرضيه من حفظ كتابه بفهمه والعمل بمقتضاه دائماً على الوجه الذي يرضاه انه سميع مجيب كريم وهاب . وقوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوّاً من المجرمين ﴾ أي كما أنَّ قومك عادوك لما دعوتَ إلى توحيدِ الله ، كذلك فعل الأمم الماضية مع رسلهم فكان منهم أعداء لهم يصدّون الناس عن الهدى،ولكن الله تعالى هو الهادي فلا يستطيع أحد أن يحول دون هدايته.ولذلك قال عز من قائل : ﴿ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ لمن اتبّع رسولَه وآمن بكتابه وصدّقه وأتبّعه فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة والله غالبٌ على أمره .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) ﴾

يخبر تعالى عن كثرة اعتراض الكفار ، وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيهم فقالوا : ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملةً واحدةً ﴾ أي كما نزلت التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية ، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به ولهذا قال ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ﴾ أي بيناه تبييناً ﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾ أي بشبهة ﴿ إلاّ جئنـاك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ أي ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلاّ أجبناهم بما هو الحق ، وأبين وأفصح من مقالتهم .

وهذا اعتناء ، وكبير شرف للرسول ﷺ حيث كان يأتيه الوحي من الله عز وجل بالقرآن صباحاً ومساءً ، وليلاً ونهاراً ، سفراً وحضراً ، لا كما أنزلت الكتب المتقدمة جملة واحدة ، وقد جمع الله للقرآن الصفتين معاً ، ففي الملأ الأعلى أنزل جملةً واحدة

من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض مفرقاً حسب الوقائع والحوادث .

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة ، وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ سبيلاً ﴾ وفي الصحيح عن أنس أن رجلا قال : ٣٦٣ [يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة فقال : «ان الذي أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة »] .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيراً ۞ (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً ۞ (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً ۞ (٣٧) وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيراً ۞ (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ۞ (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً ۞ (٤٠) ﴾

يتوعّد الله تعالى من كذب على رسوله ﷺ من مشركي قومه ومن خالفه ، ويحذرهم من عقابه، وأليم عذابه، مما أحلّه بالأمم الماضية المكذبين لرسله عليهم الصلاة والسلام فيبدأ بذكر موسى عليه السلام وأنه بعث معه أخاه هارون نبياً مؤآزراً، فكذّبهما فرعون وجنوده ﴿ فدمرناهم تدميراً ﴾ وكذلك قوم نوح عليه السلام لما كذبوا نوحاً فكأنما كذبوا الرسل قبله إذ لا فرق بين رسول ورسول ﴿فما آمن معه إلا قليلا﴾ ولهذا أغرقهم الله ولم يترك من بني آدم على وجه الارض سوى أصحاب السفينة فقط ﴿ وجعلناهم للناس آيةً ﴾ أي عبرة يعتبرون بها . وقوله تعالى : ﴿ وعاداً وثمود وأصحاب الرس ﴾ أما عادٌ وثمود فقد تقدم الكلام عليهما في غير ما سورة كالأعراف بما أغنى عن الإعادة.

وأما أصحاب الرس فهم أصحاب الرس بفلج من قرى اليمامة بنجد ، والرس بئر رسّوا فيها نبيهم ، أي دفنوه فيها .

وقوله تعالى : ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ أي وأمما كثيرةً أضعاف من ذكرنا فقد أهلكناهم بتكذيبهم رسلهم ﴿ وكلاً ضربنا له الأمثال ﴾ أي بيّنا لهم الحجج ووضحنا لهم الأدلة، كما قال قتادة : وأزحنا الأعذار عنهم ﴿ وكلاً تبّرنا تتبيراً ﴾ أي أهلكنا إهلاكاً، كقوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾ والقرن هو الأمة من الناس متعاصرون في الزمن الواحد وإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهو قرن آخر وقد قدروا لهذا الزمن مائة سنة . وقوله تعالى : ﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء ﴾ يعني قرية قوم لوط وهي سدوم التي أهلكها الله بالقلب وبالمطر بالحجارة التي من سجيل، كما قال تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً فساءَ مطر المنذَرين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإنكم لتمرّون عليها مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ أفلم يكونوا يرونها ﴾ أي فيعتبروا بما حلّ بأهلها من العذاب والنكال، بتكذيبهم بالرسول. ﴿ بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴾ يعني المارين بها من الكفار ، لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشوراً أي معاداً يوم القيامة .

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً * (٤١) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً * (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ اوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلَا * (٤٤) ﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ فقال تعالى : ﴿ وإذا رأوْك إن يتخذونك إلاّ هزواً ﴾ وقالوا : ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾ أي يتنقّصونه ويستخفون به، فلعنهم الله وقبحهم . وقالوا : ﴿ إن كادَ ليضلنا عن آلهتنا ﴾ يعنون أنه كاد يثنيهم عن عبادة الأصنام لولا أن صبروا واستمرّوا عليها. فقال الله متوعّداً لهم : ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ إلٰهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ وهنا ينبه تعالى نبيه ﷺ إلى أنَّ من كتب الله عليه الشقاوة والضلال لا يستطيع أحد أن يهديَهُ إلاّ الله تعالى فيستحسِن كلّ ما استهوته نفسُه ويجعله ديناً له ،كالذي أراد لنفسه اتباع هواه فإن الله تعالى يعاقبه من نوع عمله فيضلّه، ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ﴾ أي هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة لأنهم يعبدون غير الله ويشركون به مع قيام الحجّة عليهم، وارسال الرسل إليهم ، وإتمام التبليغ. ﴿ إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۞ (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ۞ (٤٦) وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاساً وَٱلنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُوراً ۞ (٤٧) ﴾

بعد أن بيَّن الله حال المشركين وإصرارهم على شركهم ، شرع ههنا سبحانه ببيان نعمه وقدرته.فقال عزّ من قائل:﴿ ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل ﴾ قال ابن عباس وابن عمر وبعض التابعين : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ أي دائماً لا يزول كما قال تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن جعل اللهُ عليكم الليل سرمداً ﴾ الآيات ... وقوله تعالى : ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ أي لولا ان الشمس تطلع عليه لما عرف إذ لا يتميز الضد إلا بضده . وقوله تعالى : ﴿ ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾ أي شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى في الأرض ظلٌّ إلاّ تحتَ سقفٍ أو شجرةٍ ، وقد أظلّت الشمس ما فوقه . وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً ﴾ أي يلبس الوجود ويغشاه ﴿ والنوم سباتاً ﴾ أي قاطعاً للحركة لراحة الأبدان فبسكون الليل تسكن الحركات وتستريح فيحصل النوم المريح للروح والبدن ﴿ وجعل النهار نشوراً ﴾ أي ينتشر الناس فيه لمعايشتهم ومكاسبهم.كما قال تعالى : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ الآية .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا

مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ۞ (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ۞ (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ۞ (٥٠)

وهذا أيضاً من نعمته التامة وقدرته وسلطانه العظيمين وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات أي بمجيء السحاب بعدها والرياح أنواع كثيرة ... ومنها ما يلقح السحاب ليمطر. ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً ﴾ أي آلة يتطهر بها .

وقوله تعالى : ﴿ لنحيي به بلدة ميتاً ﴾ أي أرضاً قد طال انتظارها للغيث فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء فلما جاء المطر ، عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان . كما قال تعالى : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسيَّ كثيراً ﴾ أي وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وثمارهم . كما قال تعالى : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها ﴾ الآية .

وقولُه تعالى : ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ أي أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب يمرُّ على الأرض ويتعدّاها ويتجاوزها إلى الأرض الأخرى فيمطرها ويكفيها ويجعلها غدَقاً ، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء ، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة . قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما : ليس عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه كيف يشاء ثم قرأ هذه الآية : ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكّروا فأبى أكثر الناس إلاّ كفوراً ﴾ أي ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات أو ليذكر من منع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه فليقلع عما هو فيه. قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ يعني الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ، كما صح في الحديث الذي رواه مسلم عن رسول الله ﷺ ٣٦٤ [انه قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل ﴿ أتدرون ماذا قال ربّكم؟ ﴾ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب »] .



﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً ❁ (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ❁ (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً ❁ (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ❁ (٥٤) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل ولكنّا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع الأرض ، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وفي الصحيحين : ٣٦٥ [«بعثت إلى الأحمر والأسود» – وفيهما – «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»] ولهذا قال تعالى : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به ﴾ يعني بالقرآن قاله ابن عباس ﴿ جهاداً كبيراً ﴾ أي غليظاً .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ﴾ أي خلق الماءين : الحلو والمالح. فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهو العذب الفرات، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس، فرّقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وعيوناً في كل أرض ، بحسب حاجتهم لأنفسهم وأراضيهم .

وقوله تعالى : ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ أي مالح مرّ لا يستساغ وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب من البحار الساكنة التي لا تجري ولكن تموج وتضطرب في زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجزر ، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض ، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى فإذا استهل الشهر الجديد شرعت البحار في المدّ إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرع في النقص فأجرى الله ذو القدرة التامة العادة بذلك ، وقد خلقها مالحةً لئلا يفسد الهواء فيفسد الوجود بذلك ،بل يكون هواؤها صحيحاً وميتتها طيبة . ولهذا قال رسول الله ﷺ ٣٦٦ [وقد سئل عن ماء البحر : أنتوضأ به ؟ فقال «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»] رواه الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السنن بإسناد جيد .

وقوله تعالى: ﴿ وجعل بينهما برزخاً وحِجراً ﴾ أين بين العذب والمالح حاجزاً وهو اليبس من الأرض ﴿ محجوراً ﴾ أي ممنوعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر. كقوله تعالى: ﴿ أمّنْ جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وهو الذي خلق من الماء بشراً ﴾ أي خلق الانسان من نطفة ضعيفة فجعله كامل الخلقة ذكراً وأنثى، كما يشاء ﴿ فجعله نسباً وصهراً ﴾ فهو في ابتداء أمره ولدٌ نسيبٌ، ثم يتزوج فيصير صهراً، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات وكل ذلك من ماءٍ مهين ولهذا قال تعالى: ﴿ وكان ربك قديراً ﴾.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ۞ (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً ۞ (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۞ (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ۞ (٥٨) ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ۞ (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ۞ (٦٠) ﴾



يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تضر ولا تنفع بمجرد الأهواء فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم، ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم. ولهذا قال تعالى: ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ أي عوناً للشيطان على حزب الله وحزب الله هم الغالبون • ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وما أرسلناك إلاّ مبشراً ونذيراً ﴾ أي بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين لمن خالف أمره. ﴿ قل ما اسألكم عليه من أجرٍ ﴾ أي على هذا البلاغ إنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى: ﴿ إلاّ من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ أي طريقاً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به.

ثم قال تعالى : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾ أي في أمورك كلها كن متوكلاً على الحي القيوم رب كلّ شيء ومليكه. واجعله ذخرك وملجأك فانه كافيك وناصرك ﴿ وسبح بحمده ﴾ أي اقرن بين حمده وتسبيحه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : ٣٦٧ [سبحانك اللهمّ ربّنا وبحمدك] أي أخلص له العبادة والتوكل. كقوله تعالى ﴿ فاعبده وتوكّل عليه ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ أي بعلمه التام الذي لا يخفىَ عليه خافية .

وقوله تعالى : ﴿ الذي خلق السموات والأرض ﴾ أي بقدرته وسلطانه وهو خالق كل شيء وربه ومليكه ﴿ في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمَنُ ﴾ أي علا عليه يدبر الأمر ويقضي الحق وهو خير الفاصلين . وقوله تعالى : ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ أي استعلمْ عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتدِ به وقد علمَ أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ، سيد ولد آدم وأفضل خلق الله على الإطلاق في الدنيا والآخرة . الذي لا ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى ، فما قاله هو الحق ، وما أخبر به هو الصدق ، وهو الإمام المحكم الذي اذا تنازع الناس في شيء وجب ردُّ نزاعهم إليه ، فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق ، وما خالفها فهو الباطل، ومردود على قائله وفاعله كائناً من كان. قال الله تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ وقيل ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ أي هذا القرآن خبير به ـ فلا منافاة فالرسول الأعظم صلوات الله عليه وسلامه هو الذي لا أحد أعلم بالله ولا بالقرآن منه ﷺ ـ [1] .

وقوله تعالى : ﴿ واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴾ أي لا نعرف الرحمن ولا نُقِرُّ بِهِ ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ أي لمجرد قولك ﴿ وزادهم نفوراً ﴾ فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ويسجدون له . وقد اتفق العلماء رحمهم الله على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها، كما هو مقرر في موضعه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً ۞ (٦١) وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ۞ (٦٢) ﴾

(١) ما بين المعترضتين من كلامي لا من كلام المفسر رحمه الله تعالى .

يمجد تعالى نفسه ويعظمها على جميل ما خلق في السموات من البروج وهي الكواكب العظام التي قيل انها قصور للحرس ، ويروى هذا عن علي وابن عباس وغيرهما. فقال تعالى : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً ﴾ وهي الشمس ﴿ وقمراً منيراً ﴾ أي مضيئاً وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خِلفةً ﴾ أي يخلف كل واحد منهما صاحبه ، يتعاقبان لا يفترقان كما قال تعالى : ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبَيْن ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً ﴾ أي جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة الله عز وجل فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل ، وقد جاء في الحديث الصحيح : ٣٦٨ « [ان الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل] .

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً ﴿٦٧﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين : ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ بتواضع ووقار وبلا تجبر واستكبار ولا أشر ولا بطر وليس المراد انهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياءً فقد كان ﷺ إذا مشى فكأنما ينحط من صبب ، والمراد بالهون هنا السكينة والوقار ، كما قال رسول الله ﷺ ٣٦٩ [اذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم منها فصلوا ، وما فاتكم فأتموا] وقوله تعالى : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ أي إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيء لم يقابلوهم عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلاّ خيرا كما قال تعالى : ﴿ واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ الآية ... روى الإمام أحمد عن النعمان بن مقرن المزني قال : قال رسول الله

ﷺ ٣٧٠ [- وسبّ رجل رجلاً عنده فجعل المسبوب يقول عليك السلام فقال رسول الله ﷺ « أما إن ملكاً بينكما يذب عنك ، كلما شتمك هذا قال له : بل انت وأنت أحق به واذا قلت له وعليك السلام ، قال : لا بل عليك وأنت أحق به »] اسناده حسن ولم يخرجوه .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ أي في طاعته وعبادته كقوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ خائفين من عذاب الله راجين رحمته ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾ أي محرقاً دائماً ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ أي بئس المنزل منظراً ، وبئس المقيل مقاماً يهوي في النار فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له مكانك حتى تُتْحفَ ، فيسقى كأساً من سم الأساود والعقارب ، فيتميز الجلد عن الشعر والعصب والعروق كل على حدة . كما هو مروي عن مالك بن الحارث .

وقوله تعالى : ﴿ والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ أي ليسوا بمبذرين ولا بخلاء ﴿ وكان بين ذلك قواماً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ روى أبو بكر عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ ٣٧١ [ما أحسن القصد في الغنى ، وما أحسن القصد في الفقر ، وما أحسن القصد في العبادة] ثم قال : لا نعرفه يروى إلاّ من حديث حذيفة رضي الله عنه . وقال الحسن البصري : ليس في النفقة في سبيل الله سرف .

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ۞ (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ۞ (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَٰلِحاً فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ۞ (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَاباً ۞ (٧١) ﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الله هو ابن مسعود قال : ٣٧٢ [سئل رسول الله ﷺ ، أي الذنب أكبر؟قال : « ان تجعل لله أنداداً وهو خلقك » قال : ثم أي ؟ قال : « ان تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قال : ثم أي ؟ قال « أن تزاني حليلة جارك » قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلٓهاً آخر ﴾ الآية] وهكذا رواه النسائي وقد أخرجه البخاري ومسلم . ولفظهما عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ...

روى النسائي عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : ٣٧٣[« ألا إنما هي أربع » فما أنا بأشح عليهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ « لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاّ بالحق ، ولا تزنوا ولا تسرقوا »] روى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه ٣٧٤ [ما تقولون في الزنا » قالوا : حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره » قال « فما تقولون في السرقة ؟ » قالوا : حرمها الله ورسوله فهي حرام . قال « لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره »] .

روى أبو بكر بن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ قال ٣٧٥ [ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له] .

روى ابن جريج عن ابن عباس يحدث ٣٧٦ [أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا : ان الذي تدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفّارة فنزلت : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إله آخر ... ﴾ ونزلت : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الآية] .

وذكر لنا ان لقمان كان يقول : يا بُنيّ إياك والزنا فإن أوله مخافة وآخره ندامة .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك يلقَ أثاماً ﴾ روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : واد في جهنم وقال عكرمة : ﴿ يلقَ أثاماً ﴾ أودية في جهنم يعذب فيها الزناة .

وقوله تعالى : ﴿ يضاعف له العذاب يوم القيامة ﴾ أي يكرر عليه ويغلّظ ﴿ ويخلد فيه مهاناً ﴾ أي حقيراً ذليلاً . وقوله تعالى : ﴿ إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً .. ﴾

أي جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ إلا من تاب ﴾ في الدنيا إلى الله ﴿ وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴾ فان الله يتوب عليه وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً ﴾ الآية فإن هذه وان كانت مدنية إلاّ أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب لأن هذه مقيدة بالتوبة ولقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ :

وقوله تعالى : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئآتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ فيه قولان أصحهما : ان تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات وما ذاك إلاّ لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ، فيوم القيامة وان وجده مكتوبا عليه فإنه لا يضره ، وينقلب حسنةً في صحيفته ، كما ثبت بالسنة وصحت به الآثار المروية عن السلف رضي الله عنهم . روى الامام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٧٧ [إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار ، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة ، يؤتى برجل فيقول نحّوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها قال فيقال له عملت يوم كذا، كذا وكذا ، وعملت يوم كذا، كذا وكذا فيقول: نعم ، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً ، فيقال فإن لك بكل سيئة حسنة ، فيقول : يا رب عملت أشياء لا أراها ههنا» قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه] انفرد باخراجه مسلم .

روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ ٣٧٨ [إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان: أعطني صحيفتك . فيعطيه إياها فما وجد في صحيفته من حسنة محابها عشر سيئآت من صحيفة الشيطان وكتبهن حسنات . فإذا أراد أحدكم أن ينام فليكبر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدة ، ويسبح ثلاثا وثلاثين تسبيحة فتلك مائة] .

روى الطبراني عن أبي فروة أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : ٣٧٩ [أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة ، فهل له من توبة ؟ فقال : « أسلمت ؟ » فقال : نعم قال « فافعل الخيرات واترك السيئات ، فيجعلها الله لك خيرات كلها » قال : وغدراتي وفجراتي ؟ قال : « نعم » فما زال يكبّر حتى توارى] .

ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده ، وانه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلاً أو حقيراً ، كبيراً أو صغيراً ؛ فقال تعالى : ﴿ ومن تاب وعمل

صا لحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾ أي فإن الله يقبل توبته كقوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ الاية ، أى لمن تاب إليه

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ۝ (٧٢) وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً ۝ (٧٣) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ۝ (٧٤) ﴾

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور وقد قيل في معنى الزور الشرك وعبادة الأصنام والكذب والفسق والكفر والغناء والخمر والباطل ومجالس السوء والخنا وأعياد المشركين وشهادة الزور ، فقوله تعالى : ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ أي لا يحضرون كل هذه المجالس ولهذا قال تعالى : ﴿ واذا مرّوا باللغو مرّوا كراما ﴾ أي لا يحضرون مجالس الزور واذا اتفق مرورهم به مرّوا ولم يتدنسوا منه بشيء ولهذا قال : ﴿ مرّوا كراماً ﴾ .

روى ابن أبي حاتم عن ابراهيم بن ميسر ٣٨٠ [ان ابن مسعود مرّ بلهوٍ فلم يقف فقال رسول الله ﷺ « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً »] ثم تلا ابراهيم بن ميسرة : ﴿ وإذا مرّوا باللغو مروا كراماً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا ذكِّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمّاً وعميانا ﴾ وهذه أيضاً من صفات المؤمنين قال الحسن : كم من رجل يقرأها ويخرّ عليها أصم وأعمى قال ابن أبي حاتم عن عون قال : سألت الشعبي قلت : الرجل يرى القوم سجوداً ولم يسمع ما سجدوا ، أيسجد معهم ؟ فتلا هذه الآية ... يعني لا يسجد معهم ، لأنه لم يتدبر أمر السجود ولا ينبغي للمؤمن أن يكون إمّعةً بل يكون على بصيرةٍ من أمره ويقين واضح بين .

وقال مجاهد : قوله تعالى : ﴿ لم يخرّوا عليها صُماً وعمياناً ﴾ قال لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئاً . وقوله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربّنا هب لنا من أزواجنا

وذرياتنا قرة أعين ﴾ . يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين . روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه ــ جبير ــ قال [جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً . فمرّ به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت ؛ فاستغضب المقداد ، فجعلت أعجب لأنه ما قال إلاّ خيراً ، ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيّبهُ الله عنه لا يدري لو شهدَه كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوامٌ أكبّهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلاّ ربكم ، مصدقين بما جاء به نبيكم ، قد كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث اللهُ النبيَّ ﷺ على أشر حال بَعثَ عليها نبياً من الأنبياء في فترة جاهلية ما يرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافراً وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه ، وهو يعلم أن حبيبه في النار ، وأنها التي قال الله تعالى : ، ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ وهذا اسناد صحيح ولم يخرجوه .

وقوله تعالى : ﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ أي أئمة يقتدى بنا في الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وان يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر ثواباً ، وأحسن مآباً .

ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ
٣٨١ [اذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث ، ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به ، أو صدقة جارية .]

﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً ۞ (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً ۞ (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ۞ (٧٧) ﴾

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكره من الصفات الجليلة ، قال بعد ذلك كله ﴿ أولئك ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات ﴿ يجزون ﴾ يوم القيامة ﴿ الغرفة ﴾ وهي الجنة ﴿ بما صبروا ﴾ أي على القيام بذلك ﴿ ويلقّون فيها تحية وسلاماً ﴾ أي يبتدَرون فيها بالتحية والإكرام فلهم السلام وعليهم السلام كما قال تعالى : حاكياً عن الملائكة قولهم : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مقيمين أبداً لا يزولون . وقوله تعالى : ﴿ حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ أي حسنت منظراً وطابت منزلاً ثم قال تعالى : ﴿ قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ أي إنما خلقكم لعبادته ولا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه ، إنما خلق الخلق لعبادته .

وقوله تعالى : ﴿ فقد كذبتم ﴾ أيها الكافرون ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ أي فسوف يكون تكذيبكم مقتضيا لتعذيبكم وإهلاككم في الدارين ويدخل في ذلك يوم بدر .

آخر اختصار تفسير سورة الفرقان

ولله الحمد والمنة

١٥ ربيع الأول سنة ١٣٩٠

٢٠ أيار سنة ١٩٧٠

(٢٦) سُورَةُ الشُّعَرَاءِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا سَبْعٌ وَعِشْرُونَ وَمِائَتَانِ

إلاّ الآية ١٩٧ ثم من الآية ٢٢٤ إلى آخر السورة فمدنية. نزلت بعد الواقعة
(ووقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها سورة الجامعة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



طسٓمٓ ❁ (١) تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ ❁ (٢) لَعَلَّكَ
بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ❁ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ
ٱلسَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ❁ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ
ذِكْرٍ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ❁ (٥) فَقَدْ
كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ❁ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا
إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ❁ (٧) إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ❁ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ❁ (٩)

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة.

وقوله تعالى : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي الفاصل بين الحق والباطل ، وقوله تعالى : ﴿ لعلك باخع ﴾ أي مهلك ﴿ نفسك ﴾ أي

من شدة ما تحرص وتحزن عليهم ﴿ ألاَّ يكونوا مؤمنين ﴾ وهذه تسلية من الله تعالى لرسوله ﷺ كما قال تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ لو نشاء لأنزلنا معجزة تضطرهم إلى الايمان قهراً ، ولكن لا نريد إلاّ الإيمان الاختياري . ثم قال تعالى : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين ﴾ أي كلّما جاءهم كتاب من السماء أعرض أكثر الناس عنه كقوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقال تعالى هنا : ﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي فقد كذبوا بما جاءهم من الحق فسيعلمون ما سيحيق بهم ، ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه ، وجلالة قدره وقدرته فقال تعالى : ﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ أي هو القادر العظيم الذي أنبت في الأرض بما فيها من كل زوج من زروع وثمار وحيوان .

ثم قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي دلالة على قدرة الخالق ... ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل كذبوا برسله وكتبه ؛ وقوله تعالى : ﴿ وإن ربك لهو العزيز ﴾ الذي عزّ كل شيء وقهره وغلبه ﴿ الرحيم ﴾ بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله وينظره ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . وقال سعيد بن جبير : ﴿ الرحيم ﴾ بمن تاب إليه وأناب .

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ❁(١٠)
قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ❁ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ
يُكَذِّبُونِ ❁ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ
هَٰرُونَ ❁ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ❁ (١٤) قَالَ
كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ❁ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا
إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ❁ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ❁(١٧)
قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ❁ (١٨)
وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ❁ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا

إِذًا وَأَنَا مِنَ ٱلضَّالِّينَ ۝ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ (٢٢)

قوله تعالى : ﴿ وإذ نادى ربُّك موسى أنِ ائْتِ القوم الظالمين ﴾ يخبر تعالى عما أمر عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام حين ناداه من جانب الطور الأيمن واصطفاه وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه . ولهذا قال تعالى: ﴿ أنِ ائْتِ القومَ الظالمين * قوم فرعون ألا يتقون * قال رب إني أخاف أن يكذبونِ * ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون * ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلونِ ﴾ هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه -كما قال في سورة طه : ﴿ قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري – إلى قوله – قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولهم عليَّ ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ أي بسبب قتل القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر ﴿ قال كلاّ ﴾ أي قال الله له : لا تخف من شيء من ذلك كقوله تعالى :﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما أنتما ومن أتبعكما الغالبون ﴾ ﴿ فاذهبا بآياتنا إنّا معكم مستمعون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ أي يسمعهما ماذا يقولان لفرعون ويراهما وهما تحت حفظه وتأييده ﴿ فأتيا فرعون فقولا إنّا رسول رب العالمين ﴾ أي كل منا أُرسل إليك ﴿ أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ أي أطلقهم من أسارك وتعذيبك فإنهم عباد الله المؤمنون، وحزبه المخلصون . فلما قال موسى ذلك ازدراه فرعون وامتنَّ عليه قائلاً : ﴿ ألم نُربّك فينا وليداً ﴾ الآية في بيتنا وعلى فراشنا وأنعمنا عليك مدة من السنين ، ثم قابلت ذلك الإحسان بقتلك رجلاً منا ، وجحدت نعمتنا عليك . ولهذا قال : ﴿ وانت من الكافرين ﴾ أي الجاحدين ﴿ قال فعلتها إذاً وانا من الضالين ﴾ أي في تلك كنت من الجاهلين قبل أن ينعم الله عليَّ بالنبوة ﴿ ففررت منكم لما خفتكم ﴾ أما الآن فقد جاء أمر آخر ، فقد أرسلني الله إليك ، فإن أطعته سلمت وإن عصيته هلكت ثم قال موسى : ﴿ وتلك نعمة تمنُّها عليَّ أن عبدتَ بني إسرائيل ﴾ أي ما أحسنت بتربيتي بقدر ما أسأت لبني اسرائيل فاستعبدتهم واستعملتهم في أعمالك الشاقة ، أحسنت إلى رجل واحد — واستعبدت أمة كاملة .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۞ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۞ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۞ (٢٧) قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ۞ (٢٨) ﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحده في قوله تعالى : ﴿ وما رب العالمين ﴾ أي من هذا الذي تزعمُ أنّه رب العالمين غيري ؟ هكذا فسّره علماء السلف وأئمة الخلف أنه كان يقول لقومه : ﴿ ما علمت لكم من إلٓه غيري ﴾ وهذا مما يدلّ على أنه كان جاحداً لله تعالى بالكلية. ولكن موسى عليه السلام أجابه على سؤآله : ﴿ وما رب العالمين ﴾ قال موسى : ﴿ قال ربُّ السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه وإلٓهه لا شريك له، فالجميع عبيد له خاضعون ذليلون. ﴿ إن كنتم موقنين﴾ أي إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة ﴿قال﴾ أي فرعون على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله : ﴿ ألا تستمعون ﴾ ؟! أي ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلهاً غيري ؟ فقال لهم موسى : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أي خالقكم وخالق آبائكم الذين كانوا قبلكم ﴿ قال ﴾ أي فرعون لقومه : ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ أي ليس له عقل في دعواه أن ثمّ رباً غيري ﴿ قال ﴾ أي موسى لقوم فرعون مجيباً ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون ﴾ أي هو الذي جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب فإن كان فرعون يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً ، فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً ، ولما انقطعت حجة فرعون وبهت ، عدل إلى استعمال قوته وسلطانه ، واعتقد أنّ ذلك نافع له ونافذ في موسى عليه السلام فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلٰهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۞ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ۞ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ۞ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ۞ (٣٢)

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل ، وكان فرعون خلواً من كل حجة يدحض بها حجة موسى لجأ إلى القوة والسلطان وهدّده بالسجن إن اتخذ آلهةً غيره فعند ذلك قال موسى : ﴿ أو لو جئتك بشيء مبين ﴾ أي ببرهان قاطع واضح ﴿ قال فأت به ان كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ أي ظاهر في غاية الجلاء والعظمة ، ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مروّع ﴿ ونزع يده ﴾ أي من جيبه ﴿ فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ أي تتلألأ كقطعة من القمر ، فأصر فرعون على تكذيبه وعناده ﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ﴾ أي بارع في السحر ، وفعله هذا سحر لا معجزة ثم حرّضهم على الكفر به فقال : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ أي يأخذ البلاد منكم فماذا تروني صانعاً به ؟ ﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم ﴾ أي أخّرهُ وأخاه حتى تجمعَ له من مملكتك كل سحّارٍ عليم يأتون بنظير ما جاء به ، فتغلبه وتكون لك النصرةُ عليه فأجابهم إلى ذلك ليجتمعَ الناسُ في صعيد واحد وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة .

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾

قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾

ذكر الله تعالى هذه المناظر الفعلية بين موسى عليه السلام والقبط في سورة الأعراف وطه وهذه السورة ، وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فأبى الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وهذا شأن الكفر والإيمان ما تواجها ، وتقابلا إلاّ غلبه الإيمان ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ﴾ ولهذا لما جاء السحرة من مختلف بلاد مصر وكانوا أسحر الناس وأشدهم تخييلاً عليهم وكانوا كثيرين جداً ، قيل كانوا بين اثني عشر ألفاً إلى ثمانين ألفاً والله أعلم بعدتهم ، واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم وقال قائلهم : ﴿ لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين﴾ ولم يقولوا نتبع الحق أياً كان بل الرعية على دين ملوكهم ﴿ فلما جاء السحرة ﴾ إلى مجلس فرعون وهو في أبهة في جمع من خدمه وحشمه ووزرائه ورؤساء دولته وجنوده فقال السحرة : ﴿ أإن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ٭ قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين ﴾ أي وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي ، فعادوا إلى مقام المناظرة . ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى ٭ قال بل ألقوا ﴾ فقال لهم موسى : ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ٭ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ وهكذا الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً هذا بثواب فلان ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ أي تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً . قال الله تعالى : ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ فكان هذا أمراً عظيماً جداً وبرهاناً قاطعاً للعذر ، وحجة دامغة ، وذلك ان الذين استنصر بهم غُلبوا وخضعوا ﴿ فألقي السحرة ساجدين﴾ لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة﴿ قالوا آمنا بربّ العالمين ٭ رب موسى وهارون ﴾ فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله ، ومن وقاحته وجرأته أن عدل إلى تهديد السحرة :

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * (٥١) ﴾

تهدد فرعونُ السحرة وتوعدهم ولكن ما زادهم ذلك إلاّ ايماناً وتسليماً ، كيف لا وقد ظهر لهم الحق بأن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر إلاّ أن يكون الله قد أيده،فعلموا من ذلك ما جهله قومهم وتمكنوا من إيمانهم ولم يلتفتوا إلى فرعون بما لديه من وعد أو وعيد ودون اكتراث به ولهذا فإن فرعون : ﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾ أي كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ وهذه مكابرة يعلم حتى فرعون بطلانها وكيف يعلمهم السحر ولم يجتمعوا به قبل ذلك ... ثم توعدهم فرعون بتقطيع الأيدي والأرجل والصلب فقالوا : ﴿ لا ضير ﴾ أي لا نبالي بذلك ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ أي راجعون إلى الله الذي لا يضيع أجر المحسنين ﴿ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ﴾ وهي ما أكرهتنا عليه من السحر ﴿ **ان** كنا أول المؤمنين ﴾ من القبط ، فقتلهم كلهم .



﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ *(٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ *(٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ *(٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *(٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ *(٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * (٥٩) ﴾

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر ، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون

وملئه ، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج ببني اسرائيل ليلاً من مصر ، وأن يمضي بهم حيث يؤمر ، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل . خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً ، وكان خروجه بهم وقت طلوع القمر وان موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام ، فدلته امرأة عجوز من بني اسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ، ويقال : إنه هو الذي حمله بنفسه عليهما السلام وكان يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك ، إذا خرج بنو إسرائيل أن يحتملوه معهم . وهناك حديث عن أبي موسى مرفوعاً في مآل ذلك والأقرب أنه موقوف والله أعلم . فلما أصبحوا ... غاظ فرعونَ خروجُهم فأرسلَ سريعاً من يحشد الجند ونادى فيهم : ﴿ إن هؤلاء ﴾ يعني بني اسرائيل ﴿ لشرذمة قليلون ﴾ أي لطائفة قليلة ﴿ وانهم لنا لغائظون ﴾ أي مديمون الإغاظةَ لنا ﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ أي نحذر من غائلتهم وإني أريد أن أستأصل شأفتهم فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم قال الله تعالى: ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم ﴾ أي فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم ، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين ،والأنهار،والأموال ،والأرزاق،والملك،والجاه الوافر في الدنيا.﴿ كذلك وأورثناها بني اسرائيل ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وأورثنا القومَ الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ ونريد أنْ نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ﴾ الآيتين .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۞ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَ ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۞ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۞ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۞ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ۞ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۞ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ۞ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۞ (٦٨) ﴾

لحق فرعون بني اسرائيل في جيش كبير فيه أولو الحل والعقد والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ولم يعين القرآن عدتهم إذ لا فائدة تحته لأنهم خرجوا بأجمعهم ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ أي وصلوهم عند طلوع الشمس ﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ أي رأى كل من الفريقين صاحبه ، عندها ﴿ قال أصحاب موسى إنّا لمدرَكون ﴾ وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر وهو بحر القلزم فصار أمامَهم البحر وقد أدركهم فرعون بجنوده ، فلهذا قالوا : ﴿ إنّا لمدركون * قال كلاّ إن معي ربي سيهدين ﴾ أي لا تحذروا فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم ، وهو لا يخلف الميعاد وكان هارون عليه السلام في المقدمة ، ومعه يوشع بن نون . ومؤمن آل فرعون ، وموسى عليه السلام في الساقة . وقد ذكر غير واحد من المفسرين أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون ، وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون ، يقول لموسى عليه السلام : يا نبي الله ههنا أمرك ربك أن تسير ؟ فيقول : نعم ، فاقترب فرعون وجنوده ولم يبق إلا القليل ، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر ، فضربه وقال : انفلق بإذن الله ، فانفلقَ . فذلك قوله تعالى : ﴿ فأوحينا إلى موسى أنِ اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ أي كالجبل الكبير قاله ابن عباس وابن مسعود وغيرهما . قال ابن عباس صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق وزاد السدي : وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض وقام الماء على حيله كالحيطان ، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته ، فصار يبساً كوجه الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ وقال تعالى ها هنا في هذه القصة : ﴿ وأزلفنا ثمّ الآخرين ﴾ أي هنالك . قال ابن عباس وغيره : ﴿ وأزلفنا ... ﴾ أي قرّبنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم إليه ﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين ﴾ أي أنجينا موسى وبني اسرائيل ومن اتبعهم على دينهم ، فلم يهلك منهم أحد ، واغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلاّ هلك . وعن عبد الله أي ابن مسعود قال : فلما خرج آخر أصحاب موسى ، وتكامل أصحاب فرعون ، إنْطمّ عليهم البحر ، فما رُؤي سواد أكثر من يومئذٍ ، وغرق فرعون لعنه الله [1] . ثم قال تعالى : ﴿ إنّ في ذلك لآية ﴾ أي في هذه القصة وما

(١) قلت : أجل ؛ لعن الله فرعون لكفره وعناده حتى آخر نفس ولا عبرة بقوله : آمنت بأن لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل » لأن هذا كان في الغرغرة التي لا يقبل الله عندها إيماناً ولكن ما يزال الشيطان يستحوذ على قلوب البعض فيقولون : فرعون ناج ويصرون على ذلك رغم ما تنبىء الآيات بكفره وان الله تعالى لم يقبل ايمانه إذ قال له : « الآن ...؟!!! وغيرها من الآيات ولكن «القوم ... » هم هم =

فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين ، لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة : ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ٭ وإن ربّك لهو العزيز الرحيم ﴾ وقد تقدم تفسيره .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ٭ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ٭ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ٭ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ٭ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ٭ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ٭ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ٭ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ٭ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٭ (٧٧) ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء ، أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبري من الشرك وأهله ، فإنه عليه السلام منذ نشأته أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ﴾ أي ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ ﴿ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ﴾ أي مقيمين على عبادتها ودعائها ﴿ قال هل يسمعونكم إذ تدعون ٭ أو ينفعوكم أو يضرون ٭ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ يعني اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك وإنّما رأوا آباءهم كذلك يفعلون ، فقال لهم إبراهيم : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون ٭ أنتم وآباؤكم الأقدمون ٭ فإنهم عدولي إلاّ رب العالمين ﴾ فإن كان لهذه الأصنام أي تأثير فلتنتقم مني فإني عدوٌّ لها لا أبالي بها .كما قال هود عليه السلام : ﴿ إني أشهد الله واشهدوا اني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم، فقال : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ﴾ الآية .

= اللهم العن فرعون وقومه في كل آن وزمان...؟واحشرهم معه طالما أحبـّوه وأشفقوا عليه إلى هذا الحد: «لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد اللهورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهمأو إخوانهم» ... الآية

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۞ (٧٨) وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۞ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۞ (٨٠) وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۞ (٨١) وَٱلَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ۞ (٨٢) ﴾

يعني لا أعبد إلاّ الذي يفعل هذه الأشياء ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ أي الذي خلقني قدّر هدايتي فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ والذي هو يطعمني ويسقين ﴾ أي هو رازقي بما سخّر ويسّر من الأسباب التي تؤدّي إلى رزق العباد طعاماً وشراباً ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ وإذا قدّر الله مرضي فمرضت فهو الذي يقدر الشفاء فأشفى ولا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدره من الأسباب ﴿ والذي يميتني ثم يحيين ﴾ أي هو الذي يحي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ أي لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلاّ هو .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۞ (٨٣) وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ۞ (٨٤) وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ۞ (٨٥) وَٱغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۞ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۞ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۞ (٨٩) ﴾

وهذا سؤآل من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربه حكماً قال السدّي : النبوّة وقوله تعالى : ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ أي اجعلني معهم في الدنيا والآخرة كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار ٣٨٢ [اللهم في الرفيق الأعلى] قالها ثلاثاً . وفي الحديث : ٣٨٣ [اللهم أحينا مسلمين ، وأمتنا مسلمين ، والحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مبدلين] وقوله تعالى : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ أي واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به ويقتدى بي في الخير ، كما قال تعالى : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ۞ سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ واجعلني من ورثة جنة النعيم ﴾ أي أنعم عليّ في الدنيا ببقـــاء الذكر الجميل بعدي وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم

وقوله تعالى : ﴿ واغفر لأبي ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي ﴾ وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرّأ منه إن إبراهيم لأوّاه حليم ﴾ وقد قطع تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه فقال تعالى : ﴿ قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه – إلى قوله – وما أملك لك من الله من شيء » [1] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون ﴾ أي أجرني من الخزي يوم القيامة .

روى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً: ٣٨٤ [يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصيني ؛ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقول : يا إبراهيم انظر تحت رجلك ، فينظر فإذا هو بذيخ متلطّخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار] تفرد به البخاري .

والذيخ هو الذكر من الضباع ، كأنه حوّل آزر إلى صورة ذيخ متلطخ بعذرته فيلقى في النار .

وقوله تعالى : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ أي لا يقي المرء من عذاب الله مالُه ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿ ولا بنون ﴾ أي ولو افتدى بمن على الأرض جميعاً ، ولا ينفع يومئذ إلاّ الإيمان بالله واخلاص الدين له ، والتبرّي من الشرك وأهله ولهذا قال : ﴿ إلاّ مَن أتى الله بقلب سليم ﴾ أي سالم من الدنس والشرك .

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ (٩٠) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ (٩٢) مِنْ دُونِ ٱللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ۝ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ ۝ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝ (٩٦) تَٱللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ (٩٧) إِذْ

---

(١) ٦٠ / ٤ /

نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾
فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ
لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

﴿ وأزلفت الجنة ﴾ أي قرّبت مزخرفة من أهلها المتقين الذين عملوا لها في الدنيا ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ أي أظهرت وبدت منها عنقها فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر : وقيل لأهلها تقريعاً : ﴿ أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ أي لا تغني عنكم اليوم شيئاً ولا تدفع عن أنفسها ، فإنكم وإياها حصب جهنم أنتم لها واردون . وقوله تعالى : ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون ﴾ أي ألقى فيها بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ﴿ وجنود إبليس أجمعون ﴾ أي ألقوا فيها عن آخرهم ﴿ قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين ﴾ أي نطيعكم كما يطاع أمر رب العالمين وعبدناكم معه ﴿ وما أضلّنا إلا المجرمون * فما لنا من شافعين ﴾ يشفعون لنا من الملائكة وغيرهم ﴿ ولا صديق حميم ﴾ أي قريب إلاّ صالحاً فيشفع ﴿ فلو أن لنا كرةً فنكون من المؤمنين ﴾ والله يعلم أنهم لكاذبون إذ لو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ أي إن في ذلك لدليلاً واضحاً في محاجّة إبراهيم لقومه أنه لا إله إلاّ الله ﴿ و إن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ تقدم تفسيره في أول السورة .

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ
أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾
فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾



هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الشرك ، ونزّل الله تكذيبهم لنوح منزلة تكذيبهم لجميع الرسل ، فلهذا قال تعالى : ﴿كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون﴾ أي ألا تخافون الله في عبادتكم غيره ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أي إني رسول من الله حقاً وأمين على رسالته لا أزيد فيها ولا أنقص منها ﴿ فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر ﴾ أي لا أطلب منكم جزاءً على نصحي لكم، ﴿إن أجري إلاّ على رب العالمين﴾ أي أدخر ثواب ذلك عنده تعالى ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ فقد وضح لكم صدقي ونصحي وأمانتي فأطيعوني فيما أدعوكم إليه من توحيد الله تعالى ونبذ الشرك .

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ * (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * (١١٥) ﴾

كأنهم سألوه أن يستبعد المستضعفين حتى يتابعوه وذلك استكباراً منهم ، ولهذا : ﴿ قالوا أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون ﴾ أي نستوي معهم في الحقوق والواجبات والمكانة ﴿ قال وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ أي وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه ، إنما علي أن أقبل إيمانهم والله يتولّى سرائرهم ﴿ إن حسابهم إلاّ على ربي لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ فأبى عليهم ذلك ، لأنه رسول ربه فمن أطاعه واتبعه وصدقه فيما نزل عليه قبله سواء كان شريفاً أو وضيعاً ، أو جليلاً أو حقيراً . ﴿ إن أنا إلاّ نذير مبين ﴾ أي إنما بعثت نذيرا

﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ *(١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي

ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۞ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ۞ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٢)

لما طال مقام نبيّ الله بين أظهرهم، يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً وسراً وجهراً، وكلما دعاهم ازدادوا كفراً وعناداً فيه وإصراراً عليه فقالوا أخيراً: ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكوننّ من المرجومين ﴾ أي لنرجمنك، عندها دعا عليهم دعوة استجابها الله منه فقال: ﴿ رب إن قومي كذبون * فافتح بيني وبينهم فتحاً ﴾ كقوله: ﴿ فدعا ربّه أني مغلوب فانتصر ﴾ إلى آخر الآيةَ ... وقال ههنا: ﴿ فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعدُ الباقين ﴾ والمشحون هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين، أي أنجينا نوحاً ومن اتبعه كلهم، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾. وقد تقدم تفسيره.

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ (١٢٥) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ (١٢٦) وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۞ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۞ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۞ (١٣٠) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ (١٣١) وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ (١٣٥)

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام ، أنه دعا قومه عاداً وكان قومه يسكنون الأحقاف ، وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت ، متاخمة بلاد اليمن وكان زمانهم بعد قوم نوح كما قال تعالى في سورة الأعراف ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة ﴾ ذلك أنهم كانوا في غاية القوة والطول المديد والبطش الشديد ، والأبناء والجنات والأنهار والزروع والثمار وكانوا مع كل هذه النعم يشركون بموليها جل وعز . فبعث الله اليهم هوداً عليه السلام رسولاً منهم بشيراً ونذيرا ، فدعاهم إلى توحيد الله وحذرهم نقمته وعذابه إلى أن قال : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ﴾ والريع المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة ، فيبنون بكل ريع بنياناً هائلاً ﴿ تعبثون ﴾ أي دون احتياج إليه إنما مجرد اللهو وإظهار القوة مما لا يجدي في الدنيا والآخرة وقال : ﴿ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ أي تتخذون بنياناً عظيماً زائلاً عنكم كما زال عمن قبلكم ، ـ لأن كفرهم سيسبّب دمارَهم واستئصالهم عقاباً على ما فرطوا وسيتركون أبنيتهم عبرة لمن بعدهم كان أبو الدرداء يقول لأهل دمشق فيما قاله : ... فمن يشتري منيّ ميراث عاد بدرهمين ؟ ... وقوله : ﴿ واذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ أي اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال : ﴿ واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعامٍ وبنين وجنات وعيون * إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ أي إنْ كذبتم وخالفتم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب فما نفع فيهم .

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * (١٣٦) إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * (١٤٠)

يخبر تعالى عن جواب قوم هود عليه السلام له بعدما حذرهم وأنذرهم ، ورغبهم ورهبهم وبيّن لهم الحق ووضحه : ﴿ قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾

أي لا نرجع عما نحن عليه ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ﴾ وهكذا الأمر كما قال تعالى : ﴿ ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ وقولهم ﴿ إن هذا إلاَّ خـُلق الأولين ﴾ بضم الخاء واللام يعنون دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد ، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم ، نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد ، ولهذا قالوا: ﴿ وما نحن بمعذَّبين ﴾ وعن ابن عباس في قولهم : ﴿ إن هذا إلاَّ خُلق الأولين ﴾ يقول : دين الأولين وقاله عكرمة وعطاء الخراساني وقتادة وغيرهم ، واختاره ابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿ فكذبوه فأهلكناهم ﴾ أي استمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده ، فأهلكهم الله بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتيه شديدة الهبوب فكان هلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره ، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة ، وعاد هذه قبيلة من نسل إرم بن سام بن نوح فقوله تعالى ﴿ إرم ذات العماد ﴾ أي القبيلة التي تسكن العمد ، ومن زعم أن إرم مدينة فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب وليس لذلك أصل أصيل ولهذا قال تعالى : ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ أي لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم ولو كان المراد بذلك مدينة ، لقال : التي لم يبنَ مثلها في البلاد . وعلى كل فقد أهلك الله عاداً لما عتتْ وتكبرت وتجبرت وأصرت على كفرها فأرسل عليها ريحاً عاتية فحصبت بلادهم ، وكل شيء لهم .كما قال تعالى : ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ وقال تعالى : ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجازُ نخل خاوية ﴾ أي بقوا أبداناً بلا رؤوس ، وذلك أن الريح كانت تقتلع الرجل وترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه وتكسر رأسه وتلقيه كأنهم أعجاز نخل منقعر فلم تغنِ عنهم الجبال والكهوف التي تحصنوا فيها من أمر الله شيئاً .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ● (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ● (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ● (١٤٣) فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ● (١٤٤) وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ● (١٤٥) ﴾

وهذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله صالح عليه السلام ، أنه بعثه إلى قومه ثمود ، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة وقد قدمنا في سورة الأعراف الأحاديث المروية في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام وكانت ثمود بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام . فدعاهم نبيهم صالح إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه ؛ وأخبرهم أنه لا ينبغي بدعوتهم أجراً منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عزّ وجلّ ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم . فقال :

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا ءَامِنِينَ ۞ (١٤٦) فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۞ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ۞ (١٤٩) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۞ (١٥٢) ﴾

يقول لهم واعظاً ، ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم ، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارّة ، وجعلهم في أمن من المحذورات ، وأنبت لهم من الجنات وفجر لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات. ولهذا قال : ﴿ ونخل طلعها هضيم ﴾ أي هو الطلع الرطب اللين إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضها بعضاً فهو هضيم وقوله : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ أي يتخذون من الجبال بيوتاً منحوتة أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكناها ، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ولهذا قال : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ أي أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم فتعبدوه وتوحدوه ، وتسبحوه بكرةً وأصيلاً ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ يعني رؤساءهم وكبراءهم ، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق .

﴿ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۞ (١٥٣) مَآ أَنتَ إِلَّا

بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِ
نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۞ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا
نَادِمِينَ ۞ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۞ (١٥٩)

يخبر تعالى عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل انهم : ﴿ قالوا إنما أنت من المسحّرين ﴾ أي المسحورين لا عقل لك ؛ ثم قالوا : ﴿ ما أنت إلاّ بشر مثلنا ﴾ يعني فكيف أوحي إليك دوننا ؟ كما قالوا في الآية الأخرى : ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر * سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ ثم إنهم طلبوا منه تدليلا على صدقه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء ، فأخذ نبيهم عليهم المواثيقَ لئن أجابهم الله إلى سؤآلهم أيؤمنون ... ؟ فأعطوه ذلك: فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ثم دعا الله تعالى أن يستجيب إلى سؤآلهم فانفطرت الصخرة عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها ، فآمن بعضهم ، وكفر أكثرهم ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ يعني ترد ماءكم يوماً ، ويوماً تردونه أنتم ﴿ ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ، ترد الماء وتأكل المرعى وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شُرباً وريّاً ، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تآمروا على قتلها وعقرها ﴿ فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب ﴾ وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها وأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربكَ لهو العزيز ﴾ الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿ الرحيم ﴾ بمن تاب إليه وأناب .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۞ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ
لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ (١٦٢) فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ

إِلَّا عَلَى رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام وهو ابن هاران بن آزر ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام وكان قد بعث إلى أمة ، كانوا يسكنون سدوم، وأعمالها، التي أهلكها الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور متاخمة لجبال البيت المقدس فدعاهم إلى توحيد الله وإطاعة رسوله ونهاهم عن معصية إتيان الذكور دون الإناث فقال:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

لما نهاهم نبيّ الله عن ارتكاب الفواحش من غشيان الذكور دون النساء ، فقالوا : ﴿ لئن لم تنته يا لوط ﴾ عما جئتنا به ﴿ لتكونن من المخرجين ﴾ أي نتفيك من بين أظهرنا ، كما قال تعالى عن قومه ﴿ قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم ... ﴾ فلما رأى أنهم لا يرتدعون عن ضلالتهم تبرأ منهم وقال : ﴿ إني لعملكم من القالين ﴾ أي المبغضين وأتبرأ منكم ثم دعا الله عليهم فقال : ﴿ رب نجني وأهلي مما يعملون ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فنجيناه وأهله أجمعين إلاّ عجوزاً في الغابرين ﴾ وهي امرأته ، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأعراف وهود والحجر حين أمره الله أن يسري بأهله إلاّ امرأته ، فأنجى المؤمنين ، وأهلك الكافرين وعمهم بعذاب أليم وأمطر عليهم حجارة من سجّيل فساء مطر المنذَرين .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ● (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ● (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ● (١٧٨) فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ● (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ● (١٨٠) ﴾

أصحاب الأيكة هم أهل مدين على الصحيح وكان نبي الله شعيب من أنفسهم والأيكة شجرة ، وقيل شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها فأمرهم شعيب بترك عبادتها وعبادة الواحد الأحد ، قيل إن شعيباً بعث إلى أمتين أو ثلاث أمم والحقيقة ما بعثه الله إلاّ لأصحاب الأيكة الذين هم أنفسهم أصحاب مدين ولكن وصفوا في كل مقام بشيء ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء الكيل والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء فدل ذلك على أنهم أمة واحدة .



﴿ أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ● (١٨١) وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ● (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ● (١٨٣) وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ● (١٨٤) ﴾

يأمرهم عليه السلام بإيفاء الكيل والميزان ، وينهاهم عن التطفيف فيهما فقال : ﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ﴾ أي اجعلوه تاما وافيا في البيع والشراء ، خذوا كما تعطون وأُعطوا كما تأخذون من غير تطفيف . ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ والقسطاس هو الميزان ، وقيل : القسطاس العدل وقوله : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ أي لا تنقصوهم أموالهم ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ يعني قطع الطريق وقوله : ﴿ واتقوا الذي خلقكم والجبلّة الأولين ﴾ يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل كما قال موسى عليه السلام : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۞ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۞ (١٩١) ﴾

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما اجابت به ثمود لرسولها ، تشابهت قلوبهم فقالوا : ﴿ إنما أنت من المسحّرين ﴾ أي المسحورين ﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ أي تتعمد الكذب وإنك لست مرسلاً ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ أي أسقط علينا قطعاً من السماء ، كما قالت قريش وأخبر عنهم الله تعالى في قوله عز وجل ﴿ وقالو لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً... ﴾ إلى أن قالوا ... ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾ وهكذا قال هؤلاء الكفار الجهلة : ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء ... ﴾ الآية ﴿ قال ربّي أعلم بما تعملون ﴾ أي الله أعلم بكم وما تستحقون من العذاب ، فوقع بهم ما سألوا جزاءً وفاقاً. ولهذا قال تعالى : ﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلّة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ قال قتادة : قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه : إن الله سلط عليهم الحرَّ سبعةَ أيامٍ حتى ما يظلهم منه شيء ، ثم إن الله تعالى أنشأ لهم سحابةً فانطلق إليها أحدهم فاستظل بها فأصاب تحتها برداً وراحة ، فأعلم بذلك قومه فأتوها جميعاً فاستظلوا تحتها ، فأججت عليهم ناراً. وهكذا روي عن عكرمة ، وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم قال ابن عباس : ... فذلك يوم الظلة انه كان عذابُ يومٍ عظيم ﴿ إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ أي العزيز في انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۞ (١٩٤)

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ● (١٩٥)

يخبر تعالى عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن ﴿ لتنزيل رب العالمين ﴾ الذي أوحاه إليك ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿ على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ أي نزل به على قلبك سالماً من من الزيادة والنقص لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتّبعين له ﴿ بلسان عربيّ مبين ﴾ أي أنزلنا القرآن باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل ليكون واضحاً قاطعاً للعذر مقيماً للحجة دليلاً إلى المحجة .

روى ابن أبي حاتم عن ابراهيم التيمي عن أبيه قال : ٣٨٥ـ[بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه في يوم دجن إذ قال لهم : « كيف ترون بواسقها ؟ » قالوا : ما أحسنها وأشد تراكمها قال : « فكيف ترون قواعدها ؟ » قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها ، قال « فكيف ترون جريها ؟ » قالوا ما أحسنه وأشد سواده قال : « فكيف ترون رحاها استدارت ؟ » قالوا : ما أحسنها وأشد استدارتها . قال : « فكيف ترون برقها : أوميض أو خفق أم يشق شقاً ؟ » قالوا بل يشق شقاً . قال « الحياء الحياء ان شاء الله » قال : فقال رجل : يا رسول الله ، بأبي وأمي ما أفصحك ، ما رأيت الذي هو أعرب منك قال : فقال « حق لي وإنما أنزل القرآن بلساني والله يقول : ﴿ بلسان عربي مبين ﴾] .

وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ● (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ● (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ● (١٩٨) فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ● (١٩٩)

يقول تعالى : وان ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بُشروا به في قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيباً في ملئه بالبشارة بأحمد : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ والزبر جمع زبور وهو الكتاب ، والزبور الكتاب الذي نزل على داود عليه السلام ومعنى زبر الأولين أي كتب الأولين. ثم قال تعالى : ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه

علماء بني اسرائيل ﴾ أي أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن علماء بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها ، والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأُمته كعبد الله بن سلام وغيره .

وقوله تعالى : ﴿ ولو نزّلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾ أي أن قريشاً من شدة عنادهم وكفرهم لهذا القرآن : أنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به كما قال تعالى : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكِرت أبصارُنا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إن الذين حقّت عليهم كلمةُ ربّك لا يؤمنون ﴾ .

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۞ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ۞ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۞ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۞ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ۞ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ۞ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۞ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ۞ (٢٠٩) ﴾

يقول تعالى : ﴿ كذلك سلكناه في قلوب المجرمين ﴾ أي كذلك أدخلنا التكذيب والكفر والجحود والعناد في قلوب المجرمين جزاءً وفاقاً لما كذبوا به أول مرة فسلكناه في قلوبهم عقاباً لهم وجعلناهم ﴿ لا يؤمنون به ﴾ أي بالحق الذي كفروا به ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ حين لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴿ فيأتيهم بغتةً ﴾ أي عذاب الله ﴿ وهم لا يشعرون * فيقولوا هل نحن منظرون ﴾ أي يتمنون لو يؤجلون ليعملوا في زعمهم بطاعة الله ، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندماً شديداً كما حصل لفرعون لعنه الله . ولكن ما ينفع الندم إذا أتى أمر الله .

وقوله تعالى : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ إنكار عليهم وتهديد لهم ، فقد كانوا

يكذبون بالعذاب ويستبعدون وقوعه ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ أي لو أخرناهم وأملينا لهم حيناً من الزمن ، فما يجدي ذلك إذا جاء أمر الله.كما قال تعالى : ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردّى ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلاّ لها منذرون * ذكرى وما كنا ظالمين ﴾ وهذا إخبار عن عدله تعالى انه لا يهلك أمةً إلاّ بعد الإنذار ببعثة الرسل وقيام الحجة عليهم.كقوله تعالى : ﴿ وما كنا معذّبين حتى نبعثَ رسولاً ﴾ .

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَاطِينُ * (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ * (٢١٢) ﴾

يخبر تعالى عن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك لأنه ما ينبغي لهم أي ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم لأن من سجاياهم الفساد ، وإضلال العباد ، والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة.ولهذا قال تعالى : ﴿ وما ينبغي لهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما يستطيعون ﴾ أي ولو انبغى لهم،ما استطاعوا حمله وتأديته،لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسول الله ﷺ فلم يخلص من الشياطين أحد إلى استماع حرف واحد منه لئلاّ يشتبه الأمر ، وهذا من رحمة الله بعباده ، وحفظه لشرعه ، وتأييده لكتابه ورسوله ولهذا قال عز من قائل : ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ .

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ *(٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ * (٢١٤) وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * (٢١٧) ٱلَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ *(٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّاجِدِينَ *(٢١٩) إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * (٢٢٠) ﴾

يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له ، ويخبر أن من أشرك به عذبه ٠ ثم أمر رسوله ﷺ أن يُنذر عشيرتَه الأقربين ، وانه لا يخلص أحداً منهم إلاَ إيمانُه بربّه عز وجل، وأمره أن يُلين جانبه لمن اتبعه من المؤمنين وليتبرأ ممن عصاه كائناً من كان من خلقه، ولهذا قال تعالى : ﴿ فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾ وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة بل هي جزء من أجزائها،كما قال تعالى : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ وفي صحيح مسلم ٣٨٦ [والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلاّ دخل النار] .

وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة فلنذكر ما تيسر منها :

. الحديث الأول : روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ٣٨٧ [لما أنزل الله عز وجل : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى ﴿ يا صباحاه ﴾ فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء اليه وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني لؤي أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟ » قالوا نعم قال « فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب ، تباً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلاّ لهذا؟ وأنزل الله : ﴿ تبتْ يدا أبي لهب وتب ... ﴾ ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الأعمش به .

. الحديث الثاني : قال الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ٣٨٨ [لما نزلت هذه الآية : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعمّ وخصّ فقال : « يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد انقذي نفسك من النار فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلاّ أن لكم رحماً سأبلها ببلالها»] . ورواه مسلم والترمذي وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة .

. الحديث الثالث ــ : روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : ٣٨٩ [لما نزلت : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال : ﴿ يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية ابنةَ عبد المطلب ، يا بني عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي

ما شئتم] انفرد بإخراجه مسلم . وقوله تعالى : ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ أي في جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومعلي كلمتك . وقوله تعالى : ﴿ الذي يراك حين تقوم ﴾ أي هو يراك ومعتنٍ بك حين تقوم إلى الصلاة . وقوله تعالى : ﴿ وتقلّبك في الساجدين ﴾ أي ويراك في الصلاة وحدك ويراك مع الجماعة من صحابتك وقوله تعالى : ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .كما قال تعالى : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلاّ كنّا عليكم شهوداً إذ تُفيضون فيه ﴾ الآية ...

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ ٱلشَّيَاطِينُ ۞ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۞ (٢٢٢) يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ۞ (٢٢٣) وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ ۞ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۞ (٢٢٦) إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا ٱللهَ كَثِيراً وَٱنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ۞ (٢٢٧) ﴾

يخاطب تعالى الذين زعموا من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ عن ربه ليس حقاً وإنّما افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رِئي من الجان فنزّه الله سبحانه وتعالى جناب رسوله ﷺ عن قولهم وافترائهم ، ونبّه ان ما جاء به إنما هو من عند الله وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم أمين عظيم ، وانه ليس من قبل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم ، وإنما ينزلون على من يشاكلهم . ويشابههم من الكهان الكذبة . ولهذا قال تعالى : ﴿ هل أنبئكم ﴾ أي أخبركم ﴿ على من تنزّل الشياطين ۞ تنزّل على كل أفاكٍ أثيم ﴾ أي كذوب في قوله وهو الأفاك ﴿ أثيم ﴾ وهو الفاجر في أفعاله . فهذا الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان ، وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة ﴿ يلقون السمع ﴾ من السماء ، فيسمعون الكلمة من علم الغيب ، فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيحدثون بها فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت

من السماء كما صح بذلك الحديث كما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها: ٣٩٠ [سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال : « إنهم ليسوا بشيء » قالوا : يا رسول الله فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً فقال النبي ﷺ « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاج فيخلطون معها اكثر من مائة كذبة]) وقوله تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ يعني الشعراء الكفار يتبعهم ضلاّل الإنس والجن قاله ابن عباس وغيره وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان فينتصر لهذا فئآم من الناس ، ولهذا فئآم من الناس.فأنزل الله تعالى : ﴿ والشعراء يتّبعهم الغاوون ﴾

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد، فقال النبي ﷺ « ٣٩١ [خذوا الشيطان — أو أمسكوا الشيطان . لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً] .

وقوله تعالى : ﴿ ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون ﴾ أي في كل لغوٍ وكل فن من الكلام يخوضون ، مرةً في شتيمة هذا ومرة في مديحه ، فيمدح ويذم بباطل ، وأكثر قولهم يكذبون فيه ، ويتبجحون بأقوالٍ وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم فيتكثرون بما ليس لهم . ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حداً هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ... ، لأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ على قولين والأصح أنه لا يقام عليه الحد إلاّ إذا قارف فعلاً يوجب حداً فإن عمر بن الخطاب بلغه أن عامله على ميسان من أرض البصرة أنه قال شعراً ذكر فيه معاقرة الخمرة والسماع من القيان فعزله ولم يُقِمْ عليه الحد، لأنه تأكّد أنه لم يفعل شيئاً مما ذكره بشعره ولما حضر عامله بين يديه قال : والله يا أمير المؤمنين ما شربتُها قط وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني فقال عمر أظن ذلك ولكن والله لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلتَ ما قلتَ .

والمراد : أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر لأن حاله منافٍ لحالهم كما قال تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين ﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروحُ الأمين * على قلبك لتكون من المنذِرين * بلسان عربيٍ مبين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون ﴾ إلى أن قال : ﴿ ... والشعراء يتبعهم الغاوون ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ إن هذا استثناء مما تقدم قاله ابن عبّاس وعكرمة ومجاهد وغيرهم ولا شك أن هذا الاستثناء يدخل فيه كل شاعرٍ مؤمن ولو كان سابقاً مشركاً آمن وتاب وأناب ورجع وأُقلع وعمل صالحاً وذكر الله كثيراً في ما تقدم من الكلام السيء فإن الحسناتِ يذهبن السيئاتِ وامتدحَ الاسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه كما قال عبدالله بن الزبعري حين أسلم :

يا رسولَ المليكِ إنّ لسـاني * راتقٌ مـا فتقتُ إذْ أنا بُورُ
إذ أجاري الشيطـانَ في سَنَنِ * الغيِّ ومن مـالَ ميلَهُ مثبورُ

وقوله تعالى : ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال ابن عباس: يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين ؛ وكذا قال مجاهد وقتادة . وهذا كما ثبت في الصحيح ٣٩٢[ان رسول الله ﷺ قال لحسان: اهجهم - أو قال - هاجهم وجبريل معك] روى الإمام أحمد عن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبيّ ﷺ : ٣٩٣[ان الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل فقال رسول الله ﷺ « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل »]

وقوله تعالى : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ ان هذه الآية عامة في كل ظالم من الشعراء وغيرهم . وفي الصحيح : أُن رسول الله ﷺ قال : ٣٩٤ [إياكم والظلم فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة] .

وإلى هنا آخر اختصار تفسير سورة الشعراء والحمد لله رب العالمين .

٣ ربيع الآخر سنة ١٣٩٠
الموافق ٧ حزيران سنة ١٩٧٠

(٢٧) سُورَةُ النمل مكيّة
وآياتها ثلاث وتسعون

نزلت بعد الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ۞ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۞ (٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ۞ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۞ (٦)

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور . وقوله تعالى : ﴿ تلك آيات ﴾ أي هذه آيات ﴿ القرآن وكتابٍ مبين ﴾ أي بين واضح ﴿ هُدَى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي هو بشارة وهدى لمن اتبعه وصدقه ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ أي يقيمون الصلاة المكتوبة ويؤتون الزكاة المفروضة وايقنوا بالدار الآخرة والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرها وشرها والجنة والنار. كما قال تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ﴾ الآية ولهذا قال هاهنا: ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي يكذبون بها ﴿ زيّنّا لهم أعمالهم فهم يعمهون ﴾ أي حسنّا لهم ما هم فيه ومدَدْنا لهم في غيّهم فهم يتيهون في ضلالهم جزاء تكذيبهم بالآخرة . ﴿ أولئك لهم سوء العذاب ﴾ أي في الدارين ﴿ وهم في الآخرة

هم الأخسرون ﴾ أي لا يخسر سواهم . وقوله تعالى : ﴿ وانك لتُلقّى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ أي إنك يا محمد لتأخذ القرآن من عند حكيم في أمره ونهيه عليم بالأمور جليلها وحقيرها فخبره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام .

إذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۞ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ ٱللهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا ٱللهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ۞ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۞ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ (١٤)

يذكر تعالى نبيّه محمداً ﷺ ما كان من أمر موسى عليه السلام ، كيف اصطفاه الله وكلّمه ، وأعطاه المعجزات الباهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه فكفروا بها ، واستكبروا عن اتّباعه فقال تعالى: ﴿ إذ قال موسى لأهله ﴾ حين سار بأهله فأضلّ الطريق في الليل ﴿ إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر ﴾ عن الطريق ﴿ أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ أي تستدفئون به وكان كما قال . فإنه رجع منها بخبرٍ عظيم، واقتبس منها نوراً عظيماً.ولهذا قال تعالى: ﴿ فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها ﴾ حيث رأى ناراً تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرةُ إلا خضرة"

ونضرة ثم رفع رأسه ، فإذا نورها متصل بعنان السماء ، قال ابن عباس وغيره . لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يتوهج ، فوقف موسى متعجباً مما رأى فـ﴿ نودي أن بورك من في النار ﴾ أي تقدس ﴿ ومن حولها ﴾ أي من الملائكة قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير .

وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن مرة ، سمع أبا عبيدة يحدث عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ٣٩٥ [إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عملُ الليل قبل النهار وعمل النهار ، قبل الليل » زاد المسعودي «وحجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصرُه» . ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾] وأصل الحديث مخرج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة . وقوله تعالى : ﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ المنزه عن مماثلة المحدثات . وقوله تعالى : ﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ أعلَمُهُ أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذي عزّ كل شيء وقهره ، الحكيم في أقواله وأفعاله.﴿ وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولّى مدْبراً ولم يعقب ﴾ أي أمَرَه أن يُلقيَ عصاه فألقاها من يده ، انقلبتْ في الحال حيّةً عظيمة في غاية الكِبرَ وسرْعةِ الحركة ، والجانّ نوع من الحيّات أسرعها حركةً وأكثرها اضطراباً . وفي الحديث نهي عن قتل جنان البيوت فلما عاين موسى ذلك﴿ولّى مدْبراً ولم يعقّب ﴾من خوفه.فقال تعالى :﴿ يا موسى لا تخفْ إني لا يخاف لدي المرسلون ﴾ أي لا تخف مما ترى وإنني اصطفيتك رسولاً ونبياً وجيهاً، وقوله تعالى : ﴿ الا من ظلمَ ثم بدل حسناً بعد سوءٍ فإني غفورٌ رحيم ﴾ هذا استثناء منقطع،وفيه بشارة عظيمة للبشر ، فمن عمل عملاً ثم أقلع عنه وتاب فالله يتوب عليه كقوله تعالى : ﴿ وإني لغفارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدىٰ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وأدخِلْ يدَك في جيبكَ تخرجْ بيضاءَ من غير سوءٍ ﴾ هذه آية أخرى ودليلٌ باهر على قدرة الله وهي انه إذا أدخلَ يدَه في جيب درعه خرجتْ بيضاءَ كأنها قطعةُ قمر،لها لمعان تتلألأ كالبرقِ الخاطف . وقوله تعالى : ﴿ في تسع آيات ﴾ أي هاتان ثنتان من تسع آيات أؤَ يدُكَ بهن وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ والتسعُ آيات هي التي قال الله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات ﴾ (١) كما تقدّم تقرير ذلك هنالك.وقوله تعالى : ﴿ فلما جاءتهم آياتُنا مبصرةً ﴾ أي

(١) أي في سورة الإسراء آية /١٠١/ فليرجع إليها .

واضحة ﴿ قالوا هذا سحر مبين ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا صاغرين ﴿وجحدوا بها ﴾ ظاهراً ﴿ واستيقنتها أنفسهم ﴾ أي علموها أنها حق من عند الله لكنهم عاندوها ﴿ ظلماً وعلواً ﴾ أي ظلماً من أنفسهم واستكباراً عن اتباع الحق ولهذا قال تعالى: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أي انظر كيف كانت عاقبتهم من الهلاك والغرق عن آخرهم في صبيحة واحدة. وفحوى الخطاب: تحذير قريش والمشركين عامة وسائر الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم من تكذيبهم لمحمد ﷺ أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من باب أولى، لأن محمداً أعظم من موسى وبرهانه أدل وأقوى، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ المواثيق له، عليه من ربّه وعلى الأنبياء عامة أفضل الصلوات وأتم التحيات.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْماً وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۞ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّالِحِينَ ۞ (١٩)

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود وابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة ما جمع لهما بين سعادة الدارين. والملك والتمكين التمام والنبوة والرسالة. ولهذا قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي

فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان عليهما السلام . وقوله تعالى : ﴿ وورث سليمان داود ﴾ أي في الملك والنبوة وليس المراد وراثة المال،فإن الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله [٣٩٦ نحن معاشر الأنبياء لا نورّث ، ما تركناه فهو صدقة] . وقال : ﴿ يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ أي أخبر سليمان عليه السلام بنعم الله وما وهبه من الملك التام حتى أنه سخر له الأنس والجن والطير ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً وهذا ما لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر به الله ورسوله ﴿ ان هذا لهو الفضل المبين ﴾ أي الظاهر البين علينا . ولما قبض ملك الموت روح داود عليه السلام أمر سليمان عليه السلام الطير أظلي داود فظلّلَتْ عليه الطير .

وقوله تعالى : ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾ أي وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، يعني ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس فالجن فالطير وكانت الطير تظله في الحر بأجنحتها وقوله : ﴿ فهم يوزعون ﴾ أي يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا أتوا على وادي النمل ﴾ أي حتى إذا مرَّ سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿ قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ ففهم سليمان مقالتها ﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن اشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ أي ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها عليّ من تعليمي منطق الطير والحيوان ، وعلى والديّ بالإسلام لك والإيمان بك وان أعمل عملاً تحبه ويكون متقبلاً عندك ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ أي إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك .

والغرض أن سليمان عليه السلام فهم قولها وتبسّم ضاحكاً من ذلك ، وهذا أمر عظيم جداً .

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ (٢١) ﴾

قال محمد بن اسحق : كان سليمان عليه السلام إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه تفقد الطير ، وكان فيما يزعمون يأتيه نوب من كل صنف من الطير كل يوم طائر ، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد ﴿ فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ أخطأه بصري من الطير ، أم غاب فلم يحضر ؟.

وقوله تعالى : ﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه ﴾ لأعذبنّه بنتف ريشه وتشميسه أو لأقتلنّه ﴿ أو ليأتينّي بسلطان مبين ﴾ أي بعذر واضح . ولما قدم الهدْهد قصد مجلس سليمان .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۞ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۞ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۞ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ (٢٥) ٱللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۞ (٢٦) ﴾



يقول تعالى : ﴿ فمكث ﴾ الهدهد ﴿ غير بعيد ﴾ أي غاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال لسليمان : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ أي بخبر صدق حق يقين ، وسبأهم حمير وهم ملوك اليمن ثم قال : ﴿ إني وجدت امرأة تملكهم ﴾ قال الحسن البصري : وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ ، وكانت بأرض يقال لها مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثني عشر رجلاً كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل والله أعلم .

وقوله : ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ أي ما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلىء تجلس عليه ، ولها ستمائة امرأة

تلي الخدمة وقوله : ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ﴾ أي عن طريق الحق ﴿ فهم لا يهتدون ﴾ وقوله ... ، ﴿ الاّ يسجدوا لله ﴾ أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي اخلاص السجود لله تعالى وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها. كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ولا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إنْ كنتم إياه تعبدون ﴾ والمعنى : ألا يا قوم اسجدوا لله .

وقوله : ﴿ الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ﴾ أي ما جعل فيهما من الأرزاق المطر من السماء ، والنبات من الأرض . وهذا مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاسية ما ذكره ابن عباس وغيره من أن الهدْهد يرى الماء يجري في تخوم الأرض وداخلهـــا .

وقوله ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ أي يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال كقوله تعالى : ﴿ سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ وقوله : ﴿ الله لا إله إلاّ هو رب العرش العظيم ﴾ الذي ليس في المخلوقات أعظم منه . ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير ، وعبادة الله وحده والسجود له نهي عن قتله ، كما رواه الإمام أحمد وابو داود وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :٣٩٧ [نهى النبي ﷺ عن قتل اربع دواب : النملةُ والنحلةُ والهدهُدُ[1] والصُّرَدُ وإسناده صحيح .



﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ۞ (٢٧) ٱذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۞ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ۞(٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞ (٣١) ﴾

يخبر تعالى عن سليمان وقوله للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم ﴿ قال سننظر

(١) الصرد : طائر ضخم الرأس أبيض البطن أخضر الظهر يصطاد صغار الطير .

أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ أي أصدقت في خبرك هذا أم وددتَ أن تتخلص بالكذب من العقاب ﴿ إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولَّ عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴾ فقد كتب سليمان كتابه وأعطاه ذلك الهدهد فحمله إلى بلقيس وقومها فجاء قصرها الى الخلوة التي تختلي فيها بنفسها فألقاه إليها من كوّة هنالك بين يديها ثم تولّى ناحية أدباً فتحيّرت وهالها ما رأت ، ثم عمدت إلى الكتاب فقرأته فإذا فيه : ﴿ إنّه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلُوا علي وأتوني مسلمين ﴾ فجمعت الأمراء والوزراء وأكابر مملكتها ، ثم قالت لهم : ﴿ يا أيها الملأ إني ألقيَ إليّ كتاب كريم ﴾ تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره كون طائر ذهب به فألقاه إليها ، ثم تولّى عنها أدباً وانه لا يقدر على مثل هذا أحد من الملوك ثم قرأته عليهم ... فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام ، وأنه لا قبل لهم به وانه يأمرهم ألاّ يتكبروا ويتجبروا عليه بل يأتوه مسلمين موحدين مخلصين طائعين . قال ميمون بن مهران كان رسول الله ﷺ يكتب : باسمك اللهم حتى نزلت هذه الآية فكتب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

قال العلماء : لم يكتب أحد ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ قبل سليمان عليه الصلاة والسلام . ﴿ أن لا تعلوا عليّ ﴾ لا تجبَّروا ﴿ وأتوني مسلمين ﴾ موحدين

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُو۟لُوا قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ (٣٥) ﴾

لمّا قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها وما قد نزل بها ، ولهذا قالت : ﴿ يا أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ﴾ أي حتى تحضرونيَ وتشيروا عليَ ﴿ قالو نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ﴾ أي نوهوا لها بعددهم وعدتهم وقوتهم ثم فوضوا الأمرُ إليها فقالوا : ﴿ والأمرُ إليك فانظري ماذا تأمرين ﴾ إن شئت

حاربناه أو هادنّاه فالأمر إليكِ نمتثله ونطيعه ، فلما علمت وعلموا بأنه لا قبل لهم بجنوده وما سُخِّرَ لَهُ من الأنس والجن والطير وما شاهدت من أمر الهدهد فقالت : إني أخشى أن يقصدنا بجنوده ويهلكنا ﴿ ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ أي إذا دخلوها عنوةً أفسدوها ﴿ وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ أي أهانوهم قتلاً أو أسراً قال الرب عز وجل : ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ ثم عدلت إلى المصالحة والمصانعة فقالت : ﴿ وإنّي مرسلة إليهم بهدية فناظرةٌ بم يرجع المرسلون ﴾ فإن قبلها أي قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه وان لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَانِيَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَاكُمْ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۞ (٣٦) ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ۞ (٣٧)

إن الهدية التي أُرسلتها بلقيس إلى سليمان عليه السلام لم ينظر إليها ولا اعتنى بها بل أعرض عنها وقال منكراً عليهم : ﴿ أتمدونن بمال ﴾ ؟ أي اتصانعونني بمال لأترككم على شركِكم وملكِكم ؟ ﴿ فما آتاني اللهُ خير مما آتاكم ﴾ أي الذي اعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ﴿ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ بالهدايا والتحف أما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف . قال الأعمش عن ابن عباس : أمر سليمان الشياطين فموّهوا له ألف قصر من ذهب وفضة ، فلما رأت رسلها ذلك قالوا : ما يصنع هـذا بهديتنا ؟ وفي هذا جواز بتهيؤ الملوك واظهارهم الزينة للرسل والقصّاد ، قال سليمان : ﴿ إرجع إليهم ﴾ أي بهديتهم ﴿ فلنأتينهم بجنود لا قبلَ لهم بها ﴾ أي لا طاقة لهم بقتالهم ﴿ ولنخرجنهم منها أذلة ﴾ أي من بلدتهم ﴿ وهم صاغرون ﴾ أي مهانون مدحورون . فلما رجع وفد بلقيس بهديتها وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها ، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة ، معظِّمةً لسليمان ناويةً متابعته على الاسلام ، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومَهم عليه ، ووفودَهم إليه فرحَ بذلك وسره .

قَالَ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي

مُسْلِمِينَ ❁ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ❁ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ❁ (٤٠)

فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد والله عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة وما نصنع بمكابرته شيئاً وبعثت إليه: إني قادمة اليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه وكان من ذهب ولؤلؤ وزبرجد فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض وأوصت بحفظه ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن وكانت الجن تأتي لسليمان بأخبار بلقيس كل يوم وليلة حتى إذا قربت جمع من عنده من الجن والإنس فقال: ﴿ يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴾ فكره أن يأخذه بعد إسلامهم قبل أن تحرم عليه دماؤهم وأموالهم ﴿ قال عفريت من الجن ﴾ أي مارد منهم ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ أي من مجلسك أي من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿ واني عليه لقويٌّ أمين ﴾ أي قوي على حمله أمين على ما فيه من الجواهر فأراد سليمان أعجل من ذلك إظهاراً لعظمة ما وهب الله له من الملك وما سخّر له من الجنود الذي لم يعطَ أحد من قبله ولا يكون لأحد من بعد، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن الإتيان بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه أمر خارق عظيم لاسيما وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾ قال ابن عباس: وهو اصف كاتبُ سليمان وكان صدّيقاً يعلم الاسم الأعظم [1] ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد

(١) قلت: وقيل جبريل عليه السلام، وقيل ملك أيّد الله به سليمان عليه السلام وقيل هو سليمان نفسه كأنه استبطأ العفريت فقال له أنا أريك ما هو أسرع مما تقول. وأرجح أنه سليمان عليه السلام نفسه لأنه نبي ورسول وملك فلا ينبغي أن يكون من حاشيته أعلم بالكتاب منه. فالذي عنده علم من الكتاب أيكون أحدَ حاشيته أو كاتبه ...؟ ويكون لديه من القوة أعظم مما لدى سليمان نفسه؟ وكيف يكون ذلك وقد استجاب الله دعوة سليمان «وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب» فكيف يكون لكاتبه قوة أقوى =

اليك طرفك ﴾ فلم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه ﴿ قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ﴾ أي هذا من نعم الله علي ليختبرني أأشكر نعمته أم أكفرها .

وقوله : ﴿ ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ أي هو غني عن العباد وعبادتهم . كريم في نفسه وان لم يعبدوه فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد وهذا كما قال موسى : ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۞ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۞ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ۞ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ (٤٤) ﴾

لما جيء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به فغيرت بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته أتعرفه أم لا فقال : ﴿ نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ فزادوا فيه ونقصوا ﴿ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ﴾ فكان فيها ثبات وعقل ولها دهاء وحزم فلم تقطع بأنه هو ﴿ قالت كأنه هو ﴾ أي يشبهه ويقاربه ، وهذا غاية في الذكاء والحزم . وقوله : ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ أي كان مسلماً قبلها وما منعها من عبادة الله وحده إلا ان كانت من قوم كافرين . لذا قال سليمان ﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم

= منه أو ليست القوة من أهم أسباب الملك ، لا سيما وإنه نبي مؤيد بالمعجزات ... فبدهي أن يكون عند سليمان علم من الكتاب وذلك من باب أولى من جميع أفراد مملكته ... وإلا فيكون في مملكته من هو أصلح للنبوة والملك منه ! ! ! يا سبحان الله ... آصف يكون عنده علم من الكتاب وسليمان يجهل هذا العلم ... ! ! ! ؟ فأما إذا لم يكن سليمان عليه السلام ، فلا بد من أن يكون جبريل عليه السلام أو يكون ملكاً آخر ... ويستبعد جداً أن يكون أحداً من حاشيته ... والله تعالى أعلم .

كافرين ﴾ وهذا من تمام كلام سليمان عليه السلام ، في قول مجاهد وسعيد بن جبير ويؤيد قول مجاهد أنها إنما اظهرت الاسلام بعد دخولها إلى الصرح كما سيأتي ...

وقوله : ﴿ قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجةً وكشفت عن ساقيها ﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين ، فبنوا لها قصراً عظيماً من الزجاج وأجرى تحته الماء فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء لكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه . وذلك ليريها ملكاً هو أعز من ملكها فلما رأته حسبته لجةً من ماء وكشفت عن ساقيها لتخوضه ﴿ قال إنّه صرح ممرد من قوارير ﴾ فلما وقفت على سليمان دعاها الى عبادة الله تعالى ، وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله فقالت بقول الزنادقة فوقع سليمان ساجداً لله إعظاماً لما قالت وسجد معه الناس فسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع فلما رفع سليمان رأسه قال : ويحك ماذا قلت ؟ فقالت : ﴿ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ فاسلمت وحسن إسلامها وأخلصت في عبادة الله وحده لا شريك له الذي خلقَ كل شيءٍ فقدره تقديراً .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۞ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ۞ (٤٧) ﴾

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيّها صالح عليه السلام حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ أي مؤمن وكافر كقوله تعالى : ﴿ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ وهاهنا : ﴿ قال يا قوم لمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ﴾ أي لمَ تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته ولهذا قال : ﴿ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك ﴾ أي ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً وذلك أنهم – لشقائهم – كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلاّ قال هذا من قِبَل صالح

وأصحابه كما قال تعالى مخبراً عن قوم فرعون : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيّروا بموسى ومن معه ﴾ وقال هؤلاء : ﴿ اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله ﴾ أي يجازيكم على ذلك ﴿ بل أنتم تفتنون ﴾ أي تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۞ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۞ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ (٥٣) ﴾

يخبر تعالى : عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم الى الضلال والكفر وتكذيب صالح عليه السلام حتى آل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة وهموا بقتل صالح عليه السلام بأن يُبيّتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلةً ، ثم يقولوا لأهله وأقربيه ، إنهم ماعلموا شيئاً من أمره وإنهم لصادقون.فقال تعالى : ﴿ وكان في المدينة ﴾ أي مدينة ثمود ﴿ تسعة رهط ﴾ أي تسعة نفرٍ ﴿ يفسدون في الأرض ولا يُصلحون ﴾ وهؤلاء هم الذين عقروا الناقةَ ، وكان أشقاهم اسمُه قدار بن سالف عاقر الناقة بيده وهو الذي ذكره الله بقوله : ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ والغرض ان هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الإفساد بكل طريق يقدرون عليها .

وقوله تعالى : ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنُبيّتنه وأهله ﴾ أي تحالفوا على اغتيال نبي الله صالح عليه السلام ، وبينما هم يتسلقون على صالح ليقتلوه ويفتكوا به إذ بعث عليهم صخرةً فاهمدتهم ، وأنجى الله صالحاً ومن معه ولهذا قال تعالى : ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا

مكراً وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين .
فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إنّ في ذلك لآيةً لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا
يتقون ﴾

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ۞ (٥٤)
أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ ٱلنِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ ۞ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ
لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۞ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا
ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ ٱلْغَابِرِينَ ۞ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ
مَطَرُ ٱلْمُنْذَرِينَ ۞ (٥٨) ﴾



يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه أنذر قومه نقمة الله بهم في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ، وهي إتيان الذكور دون الإناث فاستغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء.فقال : ﴿ أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾ أي يرى بعضكم بعضاً ، وتأتون في ناديكم المنكر ﴿ أإنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴾ أي لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً.﴿ فما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ أي يتحرجون من فعل ما تفعلونه وإقراركم عليه فاخرجوهم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم فعزموا على ذلك ، فدمّر الله عليهم وللكافرين أمثالهم.قال الله تعالى : ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ﴾ أي من الهالكين مع قومها ، لأنها كانت ردءً لهم على دينهم وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة ، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم ، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله ﷺ لا كرامة لها [1] . وقوله تعالى :

(١) قلت : وهذا ما يؤيد رأينا بعصمة نساء الأنبياء من اقتراف الزنا حتى لو كانت كافرة فانه قد يقدرُ عليها الكفرُ والشركُ ولا يقدر عليها الزنا تنزيهاً لبيوتهم الطاهرة وأنسابهم الطيبة أن تلوثها الفاحشة فالأنبياء معصومون من أن يكونوا أزواجاً لزانيات فلزم أن يكن نساؤهم طاهرات من الزنا ومعصومات منه بعصمتهم أي تبعاً لعصمة الأنبياء من هذه الفواحش .

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ أي حجارةً من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد. ولهذا قال: ﴿ فساءَ مطر المنذرين ﴾ أي الذين قامت عليهم الحجة، ووصل اليهم الإنذار فخالفوا الرسول وكذّبوه وهمّوا بإخراجه من بينهم .

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ (٦٠)

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول : ﴿ الحمد لله ﴾ آي على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى ، وأن يسلّم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم وهم الأنبياء والرسل الكرام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام .

كقوله تعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد الله رب العالمين ﴾ والمراد أن الله تعالى بعدما أخبر ما فعل بأوليائه من التأييد والنصر وما أحلّ بأعدائه من الخِزي والنَّكالِ والقهر، أمر رسوله ومن اتبعه أن يحمَدوه على جميع أفعاله وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار

وقوله تعالى : ﴿ الله خير أم ما يشركون ﴾ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى ثم قال تعالى : ﴿ أم من خلق السموات والأرض ﴾ أي خلق السموات وما فيها من الكواكب والأفلاك والشموس التي لا يعلمها ولا يحصيها إلاّ هو وخلق الأرض وما جعل فيها من الجبال والسهول والأوعار والفيافي والقفار والزروع والأثمار والبراري والبحار وما فيهن ومن فيهن ﴿ وأنزل لكم من السماء ماء ﴾ أي جعله رزقاً للعباد ﴿ فأنبتنا به حدائق ﴾ أي بساتين ﴿ ذات بهجة ﴾ أي منظر حسن بهي ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرُها ﴾ أي لم تكونوا تقدرون على ذلك فهو تعـالى المنفرد بالخلق المستقل بالرزق كما يعترف بذلك المشركون كما قال تعالى في الآية الأُخرى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُن الله ﴾ أي هم معترفون بأنه الفـاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره.فكما أنه خالق ورازق وحده لزم ان يكون معبوداً

وحده لا شريك له. ولهذا قال سبحانه : ﴿ أإله مع الله ﴾) أي أمعبود مع الله فالجواب أن لا أحد فيقال: كيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المنفرد بالخلق والرزق والتدبير ؟ كما قال تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يَخْلُق ﴾ الآية وقوله تعالى هاهنا ﴿ أم من خلق السموات والأرض ﴾ وكلمة ﴿ أمّن ﴾ في هذه الآيات كلها تقديره أمّن يفعل هذه الاشياء كمن لا يقدر على شيء منها ، لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك وقد قال الله تعالى : ﴿ الله خير أم ما يشركون ﴾ ؟ . وقال في الآية الأُخرى : ﴿ بل هم قوم يعدلون﴾ أي يجعلون لله نظيراً ومثيلاً مما لا يسمع ولا يبصر ولا يقدر على شيء من هذه الأصنام التي عبدوها من دون الله ؟ .

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ءَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦١)

يقول تعالى : ﴿ أمّن جعل الأرض قراراً ﴾ أي لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم فانها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ﴿ وجعل خلالها أنهاراً ﴾ أي جعل فيها الأنهار العذبة وسيرها في الأرض بحسب مصالح عباده ﴿ وجعل لها رواسي ﴾ اي جبالاً ترسيها وتثبتها لئلاّ تميد بكم ﴿ وجعل بين البحرين حاجزاً ﴾ أي بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً من الاختلاط لئلاّ يفسد هذا بهذا ، فان البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة العذبة تسقي النبات والثمار ، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء من كل جانب وجعل ماءها أجاجاً لئلا يفسد الهواء بريحها ﴿ أإله مع الله ﴾ يعبد ...!!؟ ﴿ بل اكثرهم لا يعلمون ﴾

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ ءَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٦٢)

قوله تعالى: ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلاّ إليه والذي لا يكشف ضرّ المضرورين سواه . كقوله تعالى : ﴿ واذا مسّكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إياه﴾ روى الإمام أحمد عن رجل(١) من بلهجيم قال : ٣٩٨ [قلت

(١) هو جابر بن سليم الهجيمي .

يا رسول الله إلامَ تدعو ؟ قال : « أدعو إلى الله وحده الذي إن مسّك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إذا أضللت بأرض قفر فدعوته ردَّ عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك » قال ؛ قلت أوصي ، قال : « لا تسبن أحداً ولا تزهدنَّ في المعروف ولو أن تلقى أخاك وانت منبسط اليه وجهك ، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي وأتزر إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعبين ، وإياك واسبال الإزار فإن اسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة»] ومن وجهٍ آخرَ، زاد الصحابيُّ فقال: فما سببت بعده أحداً ولا شاةً ولا بعيراً .]

وحكي أن رجلاً رافق رجلاً آخر في سفر فغدر به وهمَّ بقتله فحاول التخلص منه بالتضرع وبتخويفه من الله فما كان يزداد إلا إصراراً على قتله فقال : إذاً دعني اصلّي ركعتين قال: فخفّف.فوقف يصلّي ولكن ارتج عليه من شدة الخوف ولم يحضره من القرآن ولا حرف واحد قال فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول : هيه افرغ فأجرى الله على لساني قوله تعالى : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي وبيده حربة فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده فخرَّ صريعاً فتعلقت بالفارس وقلت : بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . قال فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً .

وقوله تعالى : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ أي يخلف قرن قرناً وخلف سلفاً كقوله تعالى : ﴿ واذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفةً ﴾ أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً كما قدمنا تقريره [١] وهكذا هذه الآية : أي أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل ﴿ أإله مع الله ﴾ أي بعد هذا التفصيل وإقامة حجج الله البالغة على أولئك الذين يعبدون مع الله إلهً آخر وعلموا ان الله هو المتفرد بالخلق ويجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وحده لا شريك له ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ أي ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ءَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ تَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٦٣)

---

(١) راجع سورة البقرة الآية رقم /٣٠/ والتعليق عليها

يقول تعالى: ﴿ أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ﴾ أي بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية . كما قال تعالى : ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ أي بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجدبين القنطين ﴿ أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾ .

﴿ أَمَّنْ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ ءَإِلَٰهٌ مَعَ ٱللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

أي هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أي بما ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الأرض كما قال تعالى : ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾ فهو تبارك وتعالى ويُنزل من السماء ماء مباركاً فيسلكه ينابيع في الأرض ، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار والأزاهير ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أإله مع الله ﴾ الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى التي مرّ ذكرها في الآيات المتقدمة ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ على صحة عبادتكم لغير الله ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في ذلك وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى : ﴿ ومن يدعُ مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ .

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلّماً لجميع الخلق انه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلاّ الله . وقوله تعالى : ﴿ إلاّ الله ﴾ استثناء منقطع ، أي لا يعلم أحد ذلك إلاّ الله عز وجل فانه المنفرد بذلك وحده لا شريك له . كما قال تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾

أي وما يشعر الخلائق جميعاً بوقت الساعة. كما قال تعالى : ﴿ ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلاّ بغتة﴾ روى ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها . قالت : ٣٩٩ [من زعم أنه يعلم – يعني النبي ﷺ – ما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية لأن الله تعالى يقول : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله »] .

وقوله تعالى : ﴿ بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها ﴾ أي انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها . وان علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لاينفعهم ذلك

وقوله تعالى : ﴿ بل هم في شك منها ﴾ والمراد عائد على الكافرين فهم شاكّون في وجودها ووقوعها ﴿ بل هم منها عمون ﴾ أي في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۞ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ (٦٨) قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۞ (٧٠) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين المنكرين للبعث الذين قالوا : ﴿ لقد وُعدْنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ﴾ أي نسمع ولا نرى حقيقةً ﴿ إنْ هذا إلاّ أساطير الأولين ﴾ أي خرافاتهم . فرد الله عليهم : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهم ﴿ سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ أي المكذبين ، وكيف حلّ بهم العذاب والنكال ، ونجى الله رسله الكرام ومن معهم . فدل على صحة رسالاتهم ، ثم قال تعالى مسلّياً نبيّه ﷺ ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي لا تأسف على المكذبين ﴿ ولا تكنْ في ضيق ممّا يمكرون ﴾ في كيدك وتكذيبك فإني سأنصرك وأعلي دينك .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ (٧١) قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ۞ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۞ (٧٣)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾

يخبر تعالى عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ فأجابهم تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ عسى أن يكون رَدِفَ لكم بعض الذي تستعجلون ﴾ قال ابن عباس : ان يكون قرب لكم بعض الذي تستعجلون كقوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وإن ربك لذو فضل على الناس ﴾ أي في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم وهم مع ذلك لايشكره إلاّ القليل منهم ﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ أي يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر كقوله تعالى: ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما من غائبة في السماء والأرض ﴾ أي كل ما غاب عن العباد علمُه في السماء والأرض إلا والله عالم به لا يعزب عن علمه ذرة ، وما من ذلك شيء ﴿ إلاّ في كتاب مبين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ .

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

يخبر تعالى عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان أنه يقص على بني اسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿ أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ كاختلافهم في عيسى فاليهود افتروا ، والنصارى غلوا ، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل

أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام ، عليه أفضل الصلاة والسلام كما قال تعالى : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن ربك يقضي بينهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ بحكمه وهو العزيز ﴾ أي في انتقامه ﴿ العليم ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم ﴿ فتوكل على الله ﴾ أي في جميع أمورك وبلّغ رسالة ربك ﴿ انك على الحق المبين ﴾ وإن خالفك الكافرون الذين لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية . ولهذا قال تعالى : ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ لأن حالهم في عدم سماع الحق يشبه حال الموتى الذين تعطل سمعهم بالموت ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولّوا مدبرين ٭ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ٭ إن تسمع إلاّ من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ أي إنما يستجيب لك من ينفعه سمعه وبصره الخاضع لله ولما جاء عنه على ألسنة الرسل الكرام على نبينا وعليهم أفضل الصلاة وأتم السلام .



﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝ (٨٢) ﴾

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابةً من الأرض ، قيل من مكه ، وقيل من غيرها كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى . فتكلّم الناس على ذلك وتخاطبهم مخاطبة ؛ وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة فلنذكر منها ما تيسر والله المستعان .

قال الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : ٤٠٠ [أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفته ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : ١ ــ طلوع الشمس من مغربها ، ٢ ــ الدخان ، ٣ ــ الدابة ، ٤ ــ خروج يأجوج ومأجوج ، ٥ ــ خروج عيسى ابن مريم عليه السلام ، ٦ ــ الدجال ، وثلاثة خسوف : ٧ ــ خسف بالمغرب ، ٨ ــ وخسف بالمشرق ، ٩ ــ وخسف بجزيرة العرب ، ١٠ ــ ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا] . وهكذا رواه مسلم وأهل السنن .

٭ حديث آخر : قال مسلم بن الحجاج عن عبدالله بن عمرو قال : ٤٠١ [حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابّة على الناس ضحى ، وأيتهما كانت

قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً »] .

* حديث آخر : روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : ٤٠٢ [بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان والدجال والدابة ، وخاصة أحدكم وأمر العامة] .

قال ابن جريج عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فيما وصف ... ثم تقول الدابة لهم : يا فلان ، أبشر أنت من أهل الجنة ، ويا فلان انت من أهل النار ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابةً من الأرض تكلمهم أنَّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

يخبر تعالى عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله عز وجل يسألهم عما فعلوه في الدنيا توبيخاً وتحقيراً فقال تعالى : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ﴾ أي من كل قوم وقرن فوجاً أي جماعة ﴿ ممّن يكذب بآياتنا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فهم يوزعون ﴾ أي يساقون ﴿ حتّى إذا جاءوا ﴾ ووقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المساءلة فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم : ﴿ فلا صدّق ولا صلّى * ولكن كذب وتولّى ﴾ فحينئذ قامت عليهم الحجة ولم يكن لهم عذر يعتذرون به أمام مقام المساءلة المتمثل في قوله تعالى : ﴿ قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أمْ ماذا كنتم تعملون ﴾ فما كان واقعهم إلاَّ كما قال الله تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذ ن لهم فيعتذرون ﴾ وهكذا قال هاهنا : ﴿ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾ أي بهتوا فلم يكن لهم جواب لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة ، الذي لا تخفى عليه خافية .

ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته ، والانقياد لأوامره وتصديق أنبيائه فيما جاءوا به من الحق الذي لا محيد عنه فقال تعالى : ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه﴾ أي في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه ويستريحون من التعب في نهارهم ﴿والنهار مبصراً﴾ أي منيراً مشرقاً ، فبسبب ذلك يتصرفون في المعايش والأسفار والتجارات وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها : ﴿ان في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون﴾ .

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ۝ (٨٧) وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝ (٨٨) مَن جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝ (٨٩) وَمَن جَاءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ (٩٠)

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور ، وهو كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه . وفي حديث الصور : إن اسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطوّلها وذلك في آخر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من في السموات ومن في الأرض ﴿إلاّ من شاء الله﴾ وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون . روى الإمام مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ : ٤٠٣] يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين ــ لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً[1] ــ فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحاً باردةً من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلاّ قبضته ، حتى لو أن أحداً دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه» قال : سمعتها من رسول الله ﷺ قال « فيبقى شرار الناس في خفّة الطير وأحلام السباع

(١) الشك من الراوي .

لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثل الشيطان لهم فيقول : الا تستجيبون فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيامرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك دارَ رِزقهم وحُسن عَيْشُهم ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلاّ أصغى ليتاً ورفع ليتاً –قال– أو قال ينزل الله –مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوهم أنهم مسؤولون ، ثم يقال : أخرجوا بعث النار فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال فذلك يوم يجعل الولدان شيباً ، وذلك يوم يكشف عن ساق] .

وقوله ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلاّ أصغى ليتاً ورفع ليتاً . الليت هو صفحة العنق ، أي أمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً ، فهذه نفخة الفزع ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت،ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور لجميع الخلائق . ولهذا قال تعالى : ﴿ وكل أتَوْه داخرين ﴾ أي صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره.كما قال تعالى : ﴿ ثم اذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ وفي حديث الصور انه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع في ثقب في الصور ثم ينفخ اسرافيل فيه بعدما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح تتوهج أرواح المؤمنين نوراً ، وأرواح الكافرين ظلمةً ، فيقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لترجعَنّ كل روح إلى جسدها ، فتجيء الأرواح إلى أجسادها فتدب فيها كما يدب السمُّ في اللديغ ، ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرَّ السحاب ﴾ أي تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه وهي تمر مرَّ السحاب ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ أي يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿الذي أتقن كل شيء﴾ أي أتقن كل ما خلق ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع : ﴿ انه خبير بما تفعلون ﴾ أي هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر وسيجازيهم عليه أتم الجزاء .

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ هي : لا إله الا الله ، ﴿ وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبّت وجوههم في النار ﴾ أي من لقي الله مسيئاً لا حسنة له ، أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه ، ولهذا قال

تعالى : ﴿ هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون ﴾ والسيئة التي جاءت في قوله تعالى : ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ قال جماعة من الصحابة والتابعين وغيرهم يعني الشرك .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ (٩٣) ﴾

يخبر تعالى رسوله ويأمره أن يقول : ﴿ انما أمرت أن أعبد ربَّ هذه البلدة الّذي حرَّمها وله كل شيء ﴾ كما قال تعالى : ﴿ قلْ يـا أيّها النّاسُ إنْ كنتم في شكٍّ من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفّاكم ﴾ وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها .كما قال تعالى : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الذي حرّمها ﴾ أي هو الذي حرمها فصارت حراماً شرعاً وقدراً .كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : ٤٠٤ [ان هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ، ولا ينفّر صيده ولا يُلتقط لقطته إلاّ من عرفها ولا يختلى خلاها] وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع ، كما هو مبين في موضعه من كتاب الأحكام ، ولله الحمد والمنّة .

وقوله تعالى : ﴿ وله كل شيء ﴾ من باب عطف العام على الخاص ، أي هو رب هذه البلدة ورب كلِّ شيء ومليكه لا إلّه إلاّ هو ﴿ وأمرتُ أن أكون من المسلمين ﴾ أي الموحّدين المطيعين له . وقوله تعالى : ﴿ وأن أتلو القرآن ﴾ أي على الناس أبلغهم إيّاه ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فقل إنما أنا من المنذرين ﴾ أي لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم وحساب أممهم على الله تعالى .كقوله تعالى : ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ﴾ أي لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلاّ بعد قيام

الحجة عليه ، والإنذار إليه. كقوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحق . ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وما ربّك بغافل عما تعملون ﴾ أي بل هو شهيد على كلّ شيء .

قال ابن أبي حاتمَ عن أبي هريرة يقول : ٤٠٥ قال رسول الله ﷺ [يا أيها الناس لا يغترَّنَّ أحدُكم بالله ، فإن اللهَ لو كان غافلاً شيئاً لأغفلَ البعوضةَ والخردلة والذرة] وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان ينشد هذين البيتين إمّا لـه وإمّا لغيره .

اذا ما خلوت الدهرَ يوماً فلا تَقُلْ خلَوتُ ولكنْ قلْ عليَّ رقيبُ
وَلا تَحسبنَّ اللهُ يَغفــلُ سَاعةً وَلاَ أنَّ ما يَخْفَى عَلَيْهِ يَغيبُ

آخر اختصار تفسير سورة النمل ولله الحمد والمنة .

١٣٩٠/٤/٩
١٩٧٠/٦/١٣

(٢٨) سُورَةُ القَصَصِ مكيّة وآياتها ثمانٍ وثمانون

إلاّ من الآية ٥٢ ـ ٥٥ فمدنية نزلت بعد النمل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ۞ (١) تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ ۞ (٢) نَتْلُوا
عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ (٣) إِنَّ
فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ
يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ (٤)
وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّـةً
وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ ۞ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۞ (٦) ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة ... وقوله تعالى : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي هذه آيات الكتاب الواضح الجلي ، الكاشف عن الحقائق ، وعلم ما قد كان وما هو كائن وقوله تعالى : ﴿ نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحقّ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ أي نذكر لك أخبار الأوّلين كأنك تشاهدها . ﴿ إنّ فرعون علا في الأرض ﴾ أي تكبّر وتجبّر ﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ أي أصنافاً قد صرف كل صنف فيما يحب من أمور دولته .

وقوله تعالى : ﴿ يستضعف طائفةً منهم ﴾ يعني بني إسرائيل ، وكانوا في ذلك الوقت خيارَ أهل زمانهم ، وقد تسلّط فرعون عليهم واستعملهم في أخس الأعمال ، ليلاً ونهاراً وفوق ذلك يقتل أبناءهم ، ويستحيي نساءهم خشية أن يأتي منهم مولود يكون هلاك فرعون على يدَيْه بناءً على البشارة التي بشّر بها إبراهيم عليه السلام بعد إنقاذ

الله لزوجته سارة التي أراد أن يغتصبها جبار مصر في زمنه فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون فأمر بذبح كل مولود ذكر من بني اسرائيل ولكن لن ينفع حذر من قدر ولكل أجل كتاب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض – إلى قوله – يحذَرون ﴾ وقد فعل تعالى ذلك بهم.كما قال تعالى ﴿ كذلك وأورثناها بني اسرائيل ﴾ فما نفع فرعونَ حذرُه مع قدرة الملِكِ العظيم جل جلالُهُ بل نفذ حكمُه وقدَرُه وأهلكَ فرعونَ وجنودَه لأن ربَّ السموات العلىَّ هو القاهرُ الغالبُ القويُّ العزيزُ .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

أكثر فرعون من قتل ذكور بني اسرائيل حتى ان القبط خافوا أن يفنَى بنو إسرائيل فلا يقومُ بعدَهم من يقوم وقتئذ بالأعمال الشاقة فكلموا فرعون بذلك فأمر فرعون بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً ، فكان أن قدر الله ولادة هارون في سنة الترْك وولد موسى في سِنَةِ القَتل .

ومن لطف الله تعالى بأم موسى أنها لم يظهر عليها مخايل الحمل ولم تفطن لها الدايات اللائي كن يدرْن بين نساء بني إسرائيل لمعرفة الحاملات ، فلما وضعت أم موسى ابنها موسى ضاقت به ذرعا وخافت عليه وأحبته حباً شديداً وكان لا يرى أحدٌ موسى إلاّ وأحبّه.قال الله تعالى : ﴿ وألقيتُ عليك محبة ًمنّي ﴾ وقد ألهمها الله تعالى ونفث في روعها ، كما قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه.فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ فلما ألقته في اليم أي في ساحل نهر النيل فذهب مع الماء واحتمله حتى مرَّ به على دار فرعون فالتقطه الجواري فاحتملنهُ فذهبن به إلى امرأةِ فرعونَ ولا يدرينَ ما فيه ، وخشِين أن يفتحنَه

دونها فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه ، فأوقع الله محبّته في قلبها حين نظرت إليه وذلك لما أراد الله من كرامتها ، وشقاوة بعلها ولهذا قال تعالى : ﴿ فالتقطه آلُ فرعون ليكونَ لهم عدوّاً وحزَناً ﴾ فإن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعلَه عدوّاً لهم وحَزَناً . ولهذا قال تعالى : ﴿ إنّ فرعون وهامان وجنودَهما كانوا خاطئين ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وقالت امرأةُ فرعون قرّة عين لي ولك ﴾ يعني إن فرعون لما رآه همّ بقتله خوفاً من أن يكون من بني اسرائيل فشرعت آسية بنت مزاحم ، تخاصم عنه وتحببهُ إلى فرعونَ فقالت : ﴿ قرة عين لي ولك ﴾ فقال فرعون أمّا لكِ فنعم ، وأمّا لي فلا ؛ فكان كذلك ، وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه .

وقوله تعالى : ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ فهداها الله به وأسكنها الجنة ، ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ أي أرادت أن تتّخذَه ولداً وتتبنّاه إذ لم يكن لها ولد منه. وقوله تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه ، من الحكمة العظيمة البالغـة ، والحجّة القاطعة .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ۝ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ (١٣) ﴾

نصف الحزب

يخبر تعالى عن فؤآد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغاً أي من كل شيء إلاّ من موسى [1] وقوله تعالى : ﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ أي تظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أن ثبّتها الله .

---

(١) قلت : ولكنني أفهم من قوله تعالى « وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغاً » أنه فرغ حتى من موسى نفسه لاطمئنانها وثقتها بالله الذي تولى حفظه وردّه إليها ، فإن كان هذا صواباً فمن الله أو خطأ فمن نفسي .

قال تعالى: ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها لتكونَ من المؤمنين * وقالت لأخته قصّيه ﴾ أي اتّبعي أثرَه وخذي خبرَه فخرجت لذلك ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ أي جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده ، ولما أحبته امرأة فرعون ، واستنقذَته منه عرضوا عليه المراضع فلم يقبلْ منها ثدياً فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون مرضعةً تصلح له فلما رأته أخته ، بأيديهم عرفته،ولم تظهر ذلك.قال الله تعالى : ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ أي تحريماً قدَريّاً ، وذلك لكرامته عند الله وجعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعُه ، وهي آمنة بعدما كانت خائفةً ، فلما رأتْهم حائرين فيمن يرضعه ﴿ قالت هل أدلّكم على أهل بيت يكفُلونَه لكمْ وهم له ناصحون ﴾ فوثقوا منها بعد أن شكّوا وذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا جداً وبشروا امرأة فرعون فاستدعت أم موسى وأحسنتْ إليها وأعطتْها عطاءً جزيلاً ، وتجهل أنها أمُّه حقيقةً ، وسألتها أن تقيم عندها فترضعُه ، فأبت عليها وقالت : إنَّ لي بعلاً وأولاداً فلا أستطيع المقام عندك ، وإن شئتِ أرضعتُه عندي فقبلتْ ... وأجرتْ عليها النفقةَ والصلاتِ والكساوي والإحسان الجزيل ، فرجعت أم موسى بولدها راضيةً مرضية قد أبدلها اللهَ بعد خوفها أمناً في عز وجاه ورزقٍ كريم . ولهذا جاء في الحديث : ٤٠٦ [مثَل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخيرَ كمَثَل أُم موسى ترضعُ ولدَها وتأخذُ أجرَها] فسبحان من بيده الأمر ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن الذي يجعل لمن أتقاه بعد كل همٍ فرَجاً ، وبعد كل ضيق مخرجاً ولهذا قال تعالى : ﴿ فردَدْناه إلى أمه كي تقرَّ عينُها ﴾ أي به ﴿ ولا تحزن ﴾ أي عليه ﴿ ولتعلمَ أن وعدَ الله حقٌ ﴾ أي فيما وعدها من رده إليها وجعله من المرسلين ، فحينئذ تحققت بردّه إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته في تربيته ما ينبغي لَهُ شرعاً وطبعاً .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة ، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس وعاقبتُه محمودةٌ في نفس الأمر.كما قال تعالى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحِبُّوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (١٤) وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ

فَاسْتَغَاثَهُ ٱلَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ❁ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ❁ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ❁ (١٧)

ذكر تعالى أنه لما بلغ موسى أشده واستوى آتاه الله حكماً وعلماً قال مجاهد : يعني النبوّة ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما قدّره له من النبوّة والتكليم في قضية قتله ذلك القِبْطي الذي تسبب في خروجه من الديار المصرية إلى بلادِ مدينَ فقال تعالى : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلةٍ من أهلها ﴾ وقيل كان ذلك بين المغرب والعشاء وقيل نصف النهار ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته ﴾ أي إسرائيلي ﴿ وهذا من عدوّه ﴾ أي قبطي فاستغاث [1] الاسرائيلي موسى عليه السلام ، فوجد موسى فرصة وهي غفلة الناس فعمد إلى القبطي ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ أي طعنه بجمع كفّه فقتله ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين * قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت عليَّ ﴾ بما جعلت من الجاه والعز والنعمة ﴿ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ أي معيناً للكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ❁ (١٨) فَلَمَّا

(١) استغاثة الاسرائيلي بموسى عليه السلام يحتج بها جهال زماننا على جواز الاستغاثة بغير الله مع علمهم بأن استغاثة الاسرائيلي بموسى عليه السلام هي استغاثة مخلوق بمخلوق في أمر يقدر عليه المستغاث به . أي اغاثته من القبطي ، وقد فعل ... فكيف يقيسونه على استغاثة مخلوق بمخلوق في أمر لا يقدر عليه ألا الله تعالى...؟ وشتان بين الاستغاثتين ... لأن الأولى عادة يمكن أن يفعلها من يستطيع من الناس أما الثانيـــة كالمغفرة وتفريج الكروب والرزق وما إلى ذلك ... فهي عبادة لله تعالى ؛ فمن صرفها لغير الله تعالى فقد وجه عبادة لغيره وهذا هو الشرك الأكبر والعياذ بالله تعالى فإذا فهم هذا ... تبين الفارق بين الأستغاثتين ولا قياس مع الفارق كما هو معلوم والله الموفق للصواب .

أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ۝ (١٩)

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام بعد أن قتل القبطي أصبح ﴿ في المدينة خائفاً يترقب » أي يتلّفت خائفاً من فعلته وما يكون منها ، إذ يصادف الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس على القبطي يقاتل قبطياً آخر واستصرخه عليه فقال له موسى : ﴿ إنك لغويٌّ مبين ﴾ أي ظاهر الغواية شرير ، ثم عزم على البطش بالقبطي فظن الإسرائيلي من جبنه أن موسى يريد قتله فقال يدفع عن نفسه ﴿ يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ فلما سمع القبطي ذلك لقفها من فمه ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده ، فعلم فرعون بذلك ، فاشتد حنَقُه وعزَم على قتل موسى فطلبوه ، وبعثوا وراءه ليحضروه لذلك .

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ۝ (٢٠)

قال تعالى : ﴿ وجاء رجل ﴾ وسلك طريقاً أقرب من الطريق الذي بعثوا وراءه منه فسبق إلى موسى فقال له : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ﴾ أي يتشاورون فيك ﴿ ليقتلوك فاخرج ﴾ أي من البلد ﴿ إنّي لكَ من الناصحين ﴾ .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ

ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝ (٢٤)

لما أخبر موسى ذلك الرجل بمؤامرة فرعون وجماعته عليه غادر مصر وحده، ولم يألفْ ذلك قبلاً بل كان في نعمة ورياسة ﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ أي يتلفت ﴿ قال رب نجني من القوم الظالمين ﴾ أي من فرعون وملئه ﴿ ولما توجه تلقاءَ مدين ﴾ أي أخذ طريقاً سالكاً فرح بذلك ﴿ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ أي الطريق الأقوم. فاستجاب الله دعوته فجعله هادياً مهديّاً ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ أي بئرها ﴿ وجد عليه أمةً من الناس يسقون ﴾ أي جماعة يسقون ﴿ ووجد من دونهم امرأتَيْن تذودان ﴾ أي تكفكفان غنمَهما أن تردَ مع غنم أولئك الرعاء لئلاّ يُؤذَيا فرقّ لهما موسى. ﴿ قال ما خطبُكُما ﴾ ما يمنعكما أن تردا مع هؤلاء ؟ ﴿ قالتا لا نسقي حتى يصدرَ الرّعاء ﴾ أي إلاّ بعدَ فراغِهم ﴿ وأبونا شيخٌ كبير ﴾ قال تعالىٰ : ﴿ فسقىٰ لهما ﴾ قال ابو بكر ابن أبي شيبةَ عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه قال : ... فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرةُ رجال فأتى موسى الحجر فرفعه ثم لم يستقِ إلا ذنوباً واحداً حتى رُويتِ الغنم . إسناد صحيح . قال تعالى : ﴿ ثم تولى إلى الظلّ فقال ربِ إني لما أنزلت إلي من خيرٍ فقير ﴾ أي جلس إلى ظلّ شجرةٍ ، وكان قد خرج من مصر حافياً فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس في الظل وهو صفوةُ الله من خلقه وإن بطنه للاصقٌ بظهره من الجوع وإنه محتاج إلى شِق تمرةٍ. ولما قال : ﴿ رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير ﴾ أسمع المرأةَ .

فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ۝ (٢٦) قَالَ

إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۞ (٢٨)

لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما ، استغرب هذه السرعة على غير العادة فقصّتا عليه ما فعل موسى عليه السلام ، فبعث إحداهما إليه لتدعوَه إلى أبيها. فقال تعالى : ﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ﴾ أي قائلة بثوبها على وجهها حييَّة متسترة ﴿ قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ هذا تأدب في العبارة أي ليثيبك على سقيك غنمنا ﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص ﴾ أي ذكر له الأسباب التي أدت به إلى خروجه من مصر ﴿ قال لا تخف نجوتَ من القوم الظالمين ﴾ أي طبْ نفساً واطمئن فقد خرجت من حكمهم ونجوتَ من مظالمهم .

وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو ... ؟ قيل إنه شعيب النبي عليه السلام وقيل هو ابن أخيه ثيرون والمشهور عند كثير من العلماء القول الأول فقد روى الطبراني عن سلمة بن سعد الغزي أنه وفد على رسول الله ﷺ فقال له : ٤٠٧ [مرحباً بقوم شعيب وأختان موسى هديت] .

وقوله تعالى : ﴿ قالت إحداهما يا أبتِ استأجره إن خيرَ من استأجرتَ القوي الأمين ﴾ قال لها أبوها وما علمك بذلك ؟ قالت له : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلاّ عشرة رجال وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي : كوني من ورائي ، فإذا اختلف عليّ الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتديَ إليه. ﴿ قال إني أريد أنْ أنكِحَك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾ أي طلب هذا الرجل الشيخُ الكبيرُ أنْ يرعىَ غنمه ثماني سنين وجعل أجرَه تزويجَه إحدى ابنتيه فإن تبرّع بزيادة سنتين فهو إليك وإلاّ ففي الثمان كفاية . وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال : بعتك أَحَدَ هذين العبدين بمئة ، فقال اشتريتُ ، صح البيع والله أعلم كما استدلّ أصحاب الإمام أحمد و من تبعهم في صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية ﴿ وما أريد أن أشقّ

عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ أي لا أشاقكك ولا أؤذيك ولا أماريك ﴿ قال موسى ﴿ ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيتُ فلا عدوان عليّ والله على ما نقول وكيل ﴾ أي الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين فإن اتممت عشراً فمن عندي فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئتُ من العهد وخرجت من الشرط ، ولهذا قال : ﴿ أيما الأجلين قضيتُ فلا عدوان عليّ ﴾ .

روى البخاريّ : عن سعيد بن جبير قال قال سألني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت على ابن عباس رضي الله عنه فسألته ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما إنّ رسول الله إذا قال فعل . وهناك أحاديث مراسيل عديدة وضعيفة مرفوعة مجمعة على أن موسى عليه السلام كان قضى أبرَّ الأجلين وأتمهما وأوفاهما ولا شك أنَّ هذا هو الأليقُ برسول من رسل الله تعالى وكما قال ابنُ عباس : إن رسول الله إذا قال فعل . ثم لما أتم موسى الأجلَين سألتْ زوجتُه أباها أن يعطيَها من غنمه ما يعيشون به . وقد روى ابن جرير عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما دعا نبي الله موسى عليه السلام صاحبَه إلى الأجل الذي كان بينهما قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها ، فلك ولدها .



﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَانَسَ مِنْ جَانِبِ ٱلطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَاراً لَعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۞ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِيءِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا ٱللهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ۞ (٣١) ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ۞ (٣٢) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ أي الأكمل منهما ﴿وسار بأهله ﴾ وما وكان معه من الغنم التي وهبها له أبو زوجته فسلك الطريق في ليلة مظلمة مطيرة باردة فنزل منزلاً فجعل كلما أورَى زندَه لا يضيء شيئاً ، فتعجَّب من ذلك فبينما هو كذلك : ﴿ آنس من جانب الطور ناراً ﴾ تضيء على بعده ﴿ فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً ﴾ أي حتى أذهب اليها ﴿ لعلّي آتيكم منها بخبر ﴾ لأنه قد ضل الطريق ﴿ أو جذوة من النار ﴾ أي قطعة منها ﴿ لعلكم تصطلون﴾ أي تستدفئون بها من البرد ﴿ فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن ﴾ أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب . كما قال تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ وجد النار تضطرم في شجرة خضراء في لحف الجبل مما يلي الوادي ، فوقف باهتاً في أمرها ، فناداه ربه ﴿ من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ﴾ وقوله تعالى : ﴿أن يا موسى إني أنا الله ربُّ العالمين﴾ أي الذي يخاطبك هو ربُّ العالمين الفعال لما يشاء لا إله إلاّ هو ولا ربَّ سواه تعالى وتقدس عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله .

وقوله تعالى : ﴿ وأن ألقِ عصاك ﴾ أي التي في يدك ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ أي تضطرب ﴿ كأنها جان ولّى مدبراً ﴾ أي في حركتها السريعة مع عظم خلقتها وقوائمها ، واتساع فمها واصطكاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها ، تنحدر في فيها تتقعقع كأنها حادرة في وادٍ . فعند ذلك ﴿ ولى مدبراً ولم يعقّب ﴾ أي ولم يلتفتْ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك . فلما قال الله تعالى : ﴿ يا موسى أقبل ولا تخف إنَّك من الآمنين ﴾ رجع فوقف في مقامه الأول ، ثم قال تعالى: ﴿ أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاءَ من غيرِ سوءٍ ﴾ أي إذا أدخلتَ يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فانها تخرج تتلألأ كأنها قطعةُ قمر ، في لمعان البرق . ولهذا قال تعالى : ﴿ من غير سوء ﴾ أي من غير برص ، فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء كن فيكون . وقوله تعالى : ﴿ واضمُمْ إليك جناحَك من الرهب ﴾ قال مجاهد : من الفزع والمراد أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهو يده فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف ، وربما فعل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤآده فإنه يزول ما يجده ، أو يخفُّ ان شاء الله تعالى وقد نزع تعالى ما كان في قلب موسى عليه السلام من الخوف من فرعون ، وجعله في قلب فرعون إذا رأى موسى . وقوله تعالى : ﴿ فذانِك برهانان من ربك ﴾ يعني إلقاء العصا وجعلها حيّة تسعى ، وإدخاله اليد

في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ، دليلان قاطعان واضحان على قدرة الله تعالى ، وصحة نبوّة من جرى هذا الخارق على يديه . ولهذا قال تعالى : ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ أي قومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ أي خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه .

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾

تقدم أن موسى عليه السلام خرج من مصر فراراً من فرعون ، فلما أمره الله تعالى بالذهاب إليه ﴿ قال رب إني قتلت منهم نفساً ﴾ يعني القبطي ﴿ فأخاف أن يقتلونِ ﴾ أي إذا رأوْني ﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ﴾ إذ كان في لسان موسى لثغةٌ بسبب تناوله الجمرة حين خُير بينها وبين التمرة أو الدرة فتناول الجمرة فوضعها على لسانه ، فحصل فيه شدةٌ في التعبير ولهذا قال : ﴿ واحلل عقدةً من لساني يفقهوا قولي ❊ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري ﴾ للقيام بأعباء النبوّة والرسالة إلى هذا الملك المتجبر العنيد.ولهذا قال : ﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رِدءً ﴾ أي وزيراً ومعيناً ومقوّياً لأمري وقال محمد بن اسحق : ﴿ ردءً يصدقني ﴾ أي يبين لهم عني ما أكلمهم به ﴿ إني أخاف أن يكذبونِ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ سنشد عضدَك بأخيكَ ﴾ أي سنقوّي أمرَك ونعز جانبك بأخيك وأجبنا سؤلك بأن جعلناه نبيّاً معك كما قال تعالى : ﴿ قد أوتيتَ سؤلك يا موسى ﴾ ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم منةً على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام ، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه ولهذا قال تعالى في حق موسى : ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ ونجعل لكما سلطاناً ﴾ أي حجة قاهرة ﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا ﴾

أي لا وصول لهم بأذاً كما بسبب إبلاغكما آيات الله . كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربّك ــ إلى قوله ــ والله يعصمك من الناس ﴾ ولهذا أخبرهما ان العاقبة لهما ولمن اتّبعهما في الدنيا والآخرة فقال تعالى : ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبنّ أنا ورُسُلي إن الله قوي عزيز ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (٣٦) ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣٧)

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه ، وعرضهما ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة ، والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عز وجل من توحيده واتّباع أوامره ، فلمّا أيقن فرعون وقومه بصدق ما جاآ به من عند الله تعالى عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمكابرة استكباراً عن اتباع الحق : ﴿ قالوا ما هذا إلاّ سحر مفترى ﴾ أي مفتعل مصنوع وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما استطاعوا .

وقوله تعالى اخباراً عنهم ﴿ وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ أي ما سمعوا بعبادة الله وحده لا شريك له،وما عبد آباؤهم إلاّ آلهةً أخرى فأجابهم موسى عليه السلام : ﴿ ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ﴾ يعني مني ومنكم ، وسيفصل بيني وبينكم ولهذا قال : ﴿ ومن تكون له عاقبة الدار ﴾ أي من النصر والظفر والتأييد ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي المشركون بالله عز وجل .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣٨) ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ

وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ۞ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ۞ (٤٢)

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعوى الإلهية لنفسه القبيحة لعنه الله فاعترف قومه له بذلك لقلة عقولهم وسخافة أذهانهم . ولهذا قال : ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلّه غيري ﴾ أيْ نادى فيهم بصوته العالي مصرحاً بذلك. فأجابوه : سامعين مطيعين ولهذا انتقم الله تعالى منه فجعله عبرةً لغيره في الدنيا والآخرة وحتّى أنه واجه موسى الكليم بذلك حينما قال له : ﴿لئن اتخذتَ إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأوقدْ لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلّي أطّلع إلى إله موسى ﴾ أي أمر هامان أن يتخذ له آجراً لبناء الصرح العالي فبناه فلم ير في الدنيا بناءً أعلى منه ، وإنما أراد أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إلهٍ غير فرعون.ولهذا قال : ﴿ وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ في قوله إنّ هناك رباً غير فرعون . وقوله تعالى : ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ أي طغوا وأفسدوا وأنكروا القيامة ولهذا قال تعالى : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ﴾ أي أغرقناهم في البحر في صبيحةٍ واحدة فلم يبق منهم أحد ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، وجعلناهم أئمة يدعونَ إلى النار ﴾ أي لمن أخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل،وتعطيل الصانع .﴿ ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ أي فاجتمع عليهم خزيٌ الدارَين ﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنةً ﴾أي جعلهم ملعونين على ألسنة المؤمنين في الدنيا ﴿ ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ أي أيضاً ملعونون يوم القيامة [1] .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ (٤٣)

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، من إنزال التوراة عليه بعد إهلاك فرعون وملئه . وقوله تعالى : ﴿ من بعد ما

(١) راجع التعليق في آخر تفسير الآيه رقم /٦٨/ من سورة الشعراء .

أهلكنا القرون الأولى ﴾ يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامّة ، بل أمر المؤمنين ان يقاتلوا أعداء الله من المشركين . روى ابن جرير عن أبي سعيد الخدري رفعه إلى النبي ﷺ قال : ٤٠٨ [ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى] ثم قرأ : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ الآية » وقوله تعالى : ﴿ بصائر للناس وهدى ورحمةً ﴾ أي من العمى والغي ، وهدى إلى الحق ورحمة أي إرشاداً إلى العمل الصالح ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ ۞ (٤٤) وَلَٰكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۞ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ (٤٦) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٤٧) ﴾

ينبّه تعالى على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بغيوب الأخبار الماضية كأنه سامع وشاهد لما تقدم مع أنه رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب ، ونشأ بين قوم أميين أيضاً وكذلك لما أخبر عن كل من سلف من سيرة الأنبياء مع أقوامهم كما قال تعالى في سورة طه : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ وقال ها هنا بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها ، وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ يعني ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقيّة على شاطىء الوادي ﴿ وما كنت من الشاهدين ﴾ لذلك . ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليكَ ذلك ، ليكون حجة

وبرهاناً على قرون تطاول عهدها ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين وقوله تعالى : ﴿ وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ﴾ أي ما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما كان له مع قومه ﴿ ولكنا كنا مرسلين ﴾ ولكن نحن أوحينا اليك ذلك وأرسلناك إلى الناس رسولاً . ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ قال ابو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه في تفسير هذه الآية قال : نودوا أن يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني وأجبتكم قبل أن تدعوني . وعن ابن عمرو بن جرير أنه قال ذلك من كلامه والله أعلم وقوله تعالى : ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ أي ما كنت شاهداً لشيء من ذلك ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به رحمةً منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم ﴿ لتنذر قوماً ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولاً ﴾ أي وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ، ولينقطع عذرُهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم ، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير . كما قال تعالى : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلاَّ يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ الآية ... والآيات في هذا كثيرة .

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ۞ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ (٥١)

حزب ٤٠

يخبر تعالى عن القوم الذين لو عذّبهم قبل قيام الحجة عليهم ، لاحتجوا بأنهم لم

يأتهم رسول ، ولما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعنّت والعناد والكفر : ﴿ لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ الآية ... من المعجزات مثل العصا واليد والطوفان والجراد وغير ذلك من معجزاته الباهرة وحججه القاهرة التي أجراها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام حجة" وبرهاناً على فرعون وملئه ومع ذلك لم ينجع معهم شيء بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قال تعالى : ﴿ فكذبوهما فكانوا من المهلكين ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾ أي أو لم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿ قالوا سحران تظاهرا ﴾ يعنون التوراة والقرآن ﴿ وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ أي بكل منهما كافرون أي بالتوراة والقرآن وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن كما في قوله تعالى : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس — إلى أن قال — وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ وقد علم بالضرورة لذوي الألباب ان الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ وهو القرآن ، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله الله ﷺ على موسى بن عمران عليه السلام، أي التوراة ولهذا قال تعالى: فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل . قال الله تعالى : ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ أي إن لم يتبعوا الحق ، ﴿ فاعلم إنما يتبعون أهواءهم ﴾ بلا دليل ولا حجة ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ أي بغير حجة من كتاب الله ﴿ ان الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ أي أخبرنا قريشاً بمن مضى وكيف صنعنا بهم ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ .

۞ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۞ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۞ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۞ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ

لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ (٥٥)

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن كما قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولتجدنّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى – إلى قوله – فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ قال سعيد بن جبير : نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم : ﴿ يسٓ والقرآن الحكيم ﴾ حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا ، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ۞ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنّا من قبله مسلمين ﴾ يعني من قبل هذا القرآن كنا مسلمين موحدين مخلصين لله مستجيبين له . قال تعالى : ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا ﴾ أي آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني ولهذا قال عز من قائل : ﴿ بما صبروا ﴾ أي على اتباع الحق وقد ورد في الصحيح من حديث عامر الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٠٩ [ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدّى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة ، فأدبها فأحسن تأديبها ، ثم اعتقها فتزوجها[1]

وقوله تعالى : ﴿ ويدرأون بالحسنة السيئة ﴾ أي لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي في الزكاة المفروضة ، والمستحبّة من الصدقات والقربات ، وقوله تعالى : ﴿ واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه ﴾ أي لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم ﴿ وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغي الجاهلين ﴾ أي إذا سفه عليهم سفيه ، وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه ، أعرضوا عنه ، ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم الاّ كلامٌ طيب .

قال محمد بن اسحق بعد أن ذكر مجيء وفد النجاشي إلى رسول الله ﷺ وخبر إسلامهم قال : فلما قاموا – من مجلس الرسول – اعترضهم أبوجهل بن هشام في نفرمن قريش فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل ... فلم تطمئن مجالسكم حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه لم نألُ أنفسنا خيراً .

---

(١) تمام الحديث : [... فله أجران] أخرجاه .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۞ (٥٦) وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٥٧) ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : إنك يا محمّد ﴿ لا تهدي من أحببت ﴾ أي ليس لك ذلك إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة . كما قال تعالى : ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ وقال هنا : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية وقد ثبت في الصحيحين انها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ وكان يحوطه وينصره ويقوم في صفّه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه واختطف من يده فاستمر على ما كان عليه من الكفر . ولله الحكمة التامة . قال الزهري : حدثني سعيد بن المسيب عن أبيه وهو المسيب ابن حزن المخزومي رضي الله عنه قال : ٤١٠ [لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فقال رسول الله ﷺ « يا عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغبُ عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب ، وأبىَ أن يقول لا إلَه إلا الله فقال رسول الله ﷺ « والله لأستغفرن لك ما لم أُنهَ عنك] فأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ وأنزل في أبي طالب ﴿ إنّك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ أخرجاه من حديث الزهري وهكذا رواه مسلم في صحيحه .

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نُتَخَطّفْ من أرضنا ﴾ أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين ، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا فأجابهم تعالى : ﴿ أو لم نمكّن لهم حرَماً آمناً ﴾ يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل لأن الله تعالى قد جعلهم في بلد أمين وحرم معظم

آمن منذ أن وضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق . وقوله تعالى : ﴿ يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ أي من سائر الثمار كذلك المتاجر والأمتعة ﴿ رزقاً من لدنا ﴾ أي من عندنا ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ولهذا قالوا ما قالوا .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ۞ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ۞ (٥٩) ﴾

يعرّض الله بأهل مكة في قوله جل وعلا : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾ أي طغت وكفرت نعمة الله فيما أنعم عليهم من الأرزاق ، كما قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون – إلى قوله – فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ﴾ أي دثرتْ ديارهم فلا ترى إلاّ مساكنَهم : ﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾ أي رجعت خراباً ليس فيها أحد .

وقوله تعالى : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها ﴾ أي عاصمتها ﴿ رسولاً يتلو عليهم آياتنا ﴾ يقيم الحجةَ عليهم بما نزل عليه من الحق . وقيل في قوله تعالى : ﴿ ... حتى يبعث في أمها ﴾ أي في مكة وقوله تعالى : ﴿ رسولاً يتلو عليهم آياتنا ﴾ فيه دلالة على أن نبينا محمداً رسول إلى جميع القرى من عرب وعجم وتمام الدليل بقوله تعالى : ﴿ وإن من قرية إلاّ نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً ﴾ فجعل بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى أي البلاد وفي الصحيحين عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : ٤١١ [بعثت إلى الأحمر والأسود] ولهذا ختم به النبوّة والرسالة فلا نبيَّ بعده ولا رسول ، بل شرعه باقٍ إلى يوم القيامة .

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ ٱللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝ (٦١) ﴾

يخبر تعالى عن حقارة الدنيا وما فيها من البهرج الزائف بالنسبة إلى ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم المقيم .كما قال تعالى : ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ وقال رسول الله ﷺ : ٤١٢ [والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم ، فلينظر ماذا يرجع إليه] .

وقوله تعالى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي ألا تعقلون فتقدمون الآخرة على الدنيا؟وقوله تعالى : ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ أي أفمن هو مؤمن مصدِّق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب كمن هو كافر مكذّب بلقاء الله ووعده ووعيده فهو ممتّع في الحياة الدنيا أياماً قلائل . ﴿ ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ أي من المعذبين .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ (٦٢) قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝(٦٣) وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ۝ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ۝ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ۝ (٦٧) ﴾

يخبر تعالى عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة يناديهم فيقول سبحانه : ﴿ أين شركائيَ الذين كنتم تزعمون ﴾ يعني أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من الأصنام والأنداد هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد. كما قال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قال الذين حقّ عليهم القول ﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿ ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ فشهدوا أنهم أغووهم فاتبعوهم ثم تبرأوا من عبادتهم ،كقوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً كلاّ سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم ﴾ أي ليخلّصوكم مما أنتم فيه،كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿ فدَعَوْهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب ﴾ أي تيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة .

وقوله تعالى : ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ أي تمنوا حين رأوا العذاب أنهم لو كانوا مهتدين.وقولُه تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ وهذا كما يسأل العبد في قبره : من ربّك ، ومن نبيك وما دينك فأما المؤمن فينطق بالشهادتين وأما الكافر فيجيب لا أدري ولهذا لا جواب له يوم القيامة إلا السكوت لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ولهذا قال تعالى : ﴿ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾ قال مجاهد : فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب . وقوله تعالى : ﴿ فأمـا من تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ أي في الدنيـا ﴿ فعسى أن يكونَ من المفلحين ﴾ أي يوم القيامة ، وعسى من الله موجبة فإن هذا واقع بفضل الله ومنّتـه لا محالـة .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۞ (٦٩) وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ (٧٠) ﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، لا منازع له ولا معقب . قال تعالى : ﴿ وربّك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ أي ما يشاء من الأمور خيرها وشرّها ومرجعها إليه.وقوله تعالى : ﴿ ما كان لهم الخِيَرَة ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرَة من أمرهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ أي من الأصنام التي لا تخلق ولا تختار شيئاً .

ثم قال تعالى : ﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ أي يعلم ما تُكِن الضمائر والسرائر وما تبديه الظواهر من سائر الخلق . وقوله تعالى : ﴿وهو الله لا إلّه إلا هو ﴾ المنفرد بالألوهيّة فلا معبود سواه ، كما لا رب غيره ﴿ له الحمد في الأولى والآخرة﴾ أي في جميع ما يفعل هو المحمود عليه بعدله وحكمته ﴿ وله الحكم ﴾ أي الذي لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ﴿ وإليه ترجعون ﴾ جميعاً يوم القيامة ، فيجزي كل عاملٍ بعمله من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۞ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ (٧٣) ﴾

يمتنّ الله على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذَيْن لا قوام لهم بدونهما ، وبيّن أنه لو جعل الليل دائماً لأضرَّهم وسئموه.ولهذا قال تعالى : ﴿ من إلّه غير الله يأتيكم بضياء ﴾ تبصرون به وتستأنسون ﴿ أفلا تسمعون ﴾ وكذلك لو جعل النهارَ دائماً لأضرّهم وتعبوا من الحركة والعمل ولهذا قال تعالى : ﴿ من إلّه غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ﴾ أي تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿ أفلا تبصرون ومن رحمته ﴾ بكم ﴿ جعل لكم الليل والنهار ﴾ أي خلق هذا وهذا ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ أي في الليل ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أي في النهار ﴿ولعلكم تشكرون ﴾ أي تشكرون الله بأنواع العبادات والطاعات ليلاً ونهاراً ، ومن فاته شيء في أحدهما استدركه في الآخر . كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي

جعل الليل والنهار خلفةً لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً ﴾ والآيات في هذا كثيرة .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۞ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۞ (٧٥) ﴾

وهذا نداء ثان منه تعالى على سبيل التوبيخ لمن عبد مع الله غيره يناديهم سبحانه علناً فيقول جل وعلا : ﴿ اين شركائي الذي كنتم تزعمون ﴾ في الدنيا ﴿ ونزعنا من كل أمة شهيداً ﴾ أي رسولاً ﴿ فقلنا هاتوا برهانكم ﴾ على صحة دعواكم بالشرك ﴿ فعلموا أن الحق لله ﴾ أي لا إله غيره فلم ينطقوا ﴿ وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم .



﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۞ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۞ (٧٧) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى ﴾ أي ابن عمه وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه من الكنوز ﴾ أي الأموال ﴿ ما إنّ مفاتحه لتنوءُ بالعصبة أولي القوة ﴾ لكثرتها وثقل حملهـا .

وقوله تعالى : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفَرِحين ﴾ أي الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم. وقوله تعالى : ﴿ وابتغ فيما آتاك اللهُ الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ﴾ أي مما أباحَ الله من المآكل والمشارب والملابس والمناكح والمساكن ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً ، ولزَوْرك عليكَ حقاً فأتِ كل ذي حقٍ حقه ﴿ وأحسنْ كما أحسن الله إليك ﴾ أي أحسن

إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿ ولا تبغِ الفساد في الأرض ﴾ أي لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض وتسيء الى خلق الله ﴿ إنّ الله لا يحبُّ المفسدين ﴾

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۞ (٧٨) ﴾

يخبر تعالى عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير : ﴿ إنّما أوتيته على علم عندي ﴾ أي أنا لا أفتقر إلى ما تقولون ، فإنّ الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ولمحبّته لي ، فتقديره إنما أُعطيتُه لعلم الله فيَّ أني أهل له. وهذا كقوله تعالى: ﴿ وإذا مسَّ الإنسان ضرٌ دعانا ثم إذا خوّلناه نعمةً منا قال إنما أوتيته على علم ﴾ أي على علم من الله بي ولقد ردَّ الله عليه فيما ادّعاه من اعتناء الله به فيما اعطاه من المال ﴿ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوةً وأكثر جمعاً ﴾ أي قد كان مَنْ هو أكثر منه مالاً وما كان ذلك عن محبة منّا لهُ . وقد أهلكهم مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ أي لكثرة ذنوبهم.

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ (٧٩) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ٱلصَّابِرُونَ ۞ (٨٠) ﴾

خرج قارون يوماً في زينته ، وأبّهته الباهرة ، فلما رآه محبّو الدنيا ، تمنّوا لو كان لهم مثله ﴿ قالوا يا ليتَ لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظٍ عظيم ﴾ أي وافر . فأجابهم العالمون المتّقون ﴿ ويلكم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ أي الجنّة ، مما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ ولا خطر على قلب بشرٍ . وقوله تعالى : ﴿ وما يلقّاها إلاّ الصابرون ﴾ أي عن محبة الدنيا ، والراغبون في الآخرة .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنْتَصِرِينَ ۞ (٨١) وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ ۞ (٨٢) ﴾

لما ذكر تعالى اختيالَ قارون في زينتهِ وفخره على قومه وبغيه عليهم عقب ذلك بأن خسف به الأرض وبدارهِ كما ثبت في صحيح البخاري عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال ٤١٣ [بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به ... فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة] . وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبيّ الله عليه السلام واختلف في سببه فعن ابن عباس والسدي أن قارون أعطى بَغِياً مالاً على أن تتهم موسى عليه السلام بنفسها ففعلت فأرعد موسى من الفرق ثم أقبل عليها بعد أن صلى ركعتين وناشدها الله أنْ تقول الحق فقالت إن قارون حملها على ذلك وقالت استغفر الله وأتوب إليه فخرَّ موسى ساجداً لله وسأل الله في قارون فأوحى الله إليه أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك﴿ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ أي ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه ولاحشمه ولا دفعوا عنه نقمةَ الله وعذابَهَ ونكالَه ولا كان هو منتصراً لنفسه ، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانَه بالأمس ﴾ أي الذين رأوه في زينته يقولون﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذ وحظ عظيم ﴾ فلما خسف به أصبحوا يقولون ﴿ ويكأنَّ اللهَ يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ﴾ أي ليس المال بدالٍّ على رضاء الله عن صاحبه ، هذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود ٤١٤ [إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم وإنَّ الله يُعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان إلاّ لمن يحب] وقوله تعالى : ﴿لولاأن منَّ الله علينا لخسف بنا ﴾ كما خسف بقارون لأنّا ودَدنا أن نكون مثله ﴿ ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ يعنون انه كان كافراً ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة واختلف النحاة في معنى قوله تعالى ﴿ ويكأن ﴾ ففيها أقوالٌ ، أقواها قول قتادة أي : (ألم تر أن) قاله ابن جرير .

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۞ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (٨٤) ﴾

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمُها المقيم جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علواً في الأرض،أي ترفّعاً على الخلق وتعاظماً وتجبّراً،ولا فساداً فيهم أي عملاً بالمعاصي . وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال : [٤١٥] [إنه أوحي إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد] وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمّل ، فهذا لا بأس به.فقد ثبت ٤١٦ [أن رجلاً قال:يا رسول الله إني أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنةً أفمِنَ الكِبرْ ذلك ؟ فقال « لا ، إن الله جميل يحب الجمال »] وقال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فله خير منها ﴾ أي ثواب الله خير من حسنة العبد فكيف والله يضاعفه اضعافاً كثيرةً ، وهذا مقام الفضل ، ثم قال تعالى : ﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ، هل تجزوْن إلا ما كنتم تعملون ﴾ وهذا مقام الفضل والعدل .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِٱلْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ ٱلْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ ۞ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ (٨٨) ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله عليه وسلامه عليه ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوّة ولهذا قال تعالى : ﴿ إنَّ الذي فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد ﴾ أي افترض عليك أداءَه إلى الناس ﴿ لرادّك الى معاد ﴾ أي إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ فلنسألن الذين أُرسل إليهم ولنسألنَّ المرسلين ﴾

قال البخاري في التفسير من صحيحه عن ابن عباس ﴿ لرادُّك الى معاد ﴾ أي لرادُّك الى مكة وهكذا رواه النسائي في تفسير سننه ، وابن جرير ، وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس : ﴿ لرادّك إلى معاد ﴾ أي لرادُّك إلى مكة كما أخرجك منها .

وقد روى ابن أبي حاتم عن نعيم القاري انه قال في قوله : ﴿ لرادّك الى معاد ﴾ قال إلى بيت المقدس . وهذا – والله أعلم – يرجع الى قول من فسّر ذلك بيوم القيامة لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر والله الموفق للصواب . ووجه الجمع بين الأقوال أن ابن عباس فسّر ذلك تارةً برجوعه الى مكة وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي ﷺ ، كما فسّر ابن عباس سورة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلى آخر السورة انه أجل رسول الله ﷺ نعي إليه وتارة فسرها ابن عباس بيوم القيامة وتارة بالجنة وكله متقارب ويلتقي بيوم القيامة الذي هو المعاد .

وقوله تعالى : ﴿ قل ربّي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين ﴾ أي ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار . ثم قال تعالى مذكراً لنبيّه نعمتَه العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ﴾ أي ما كنت تظن قبل إنزال الوحي اليك أنه سينزل عليك ﴿ إلاّ رحمةً من ربّك ﴾ أي إنّما كان إنزال الوحي عليك رحمةً من الله بك وبالعباد بسببك فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ، ﴿ فلا تكونَنَّ ظهيراً ﴾ أي معيناً ﴿ للكافرين ﴾ ولكن فارقْهم ونابذهم وخالفهم ﴿ ولا يصدنَّك عن آيات الله بعد إذْ أُنزلتْ إليك ﴾ أي لا تتأثر بصدِّهم الناس عن طريقك فلا تبالِ فإن الله معلٍ كلمتك ، ومؤيدٌ دينك ومظهرُه على سائر الأديان ولهذا قال تعالى : ﴿ وادعُ إلى ربّك ﴾ أي إلى عبادته وحده لا شريك له ﴿ ولا تكونَنّ من المشركين ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ولا تدعُ مع الله إلهاً آخر لا إلَه إلاّ هو ﴾ أي لا تليق الألوهية إلاّ له وقوله تعالى : ﴿ كلُّ شيء هالك إلاّ وجهه ﴾ إخباراً بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي لا يموت فعبر بالوجه عن الذات أي كلُّ شيء هالك إلاّ إيّاه ، وكل الذوات فانية وزائلة

إلاّ ذاته تعالى وتقدس فإنه الأول والآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء وقوله تعالى: ﴿ له الحكم ﴾ أي الملك والتصرف ولا معقّب لحكمه ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر. آخر اختصار تفسير سورة القصص ولله الحمد والمنة.

١٥ / ٤ / ١٣٩٠
١٩ / ٦ / ١٩٧٠

(٢٩) سُورَةُ العنكبُوتِ مكيَّة وآياتها تسع وستون

إلاَّ من الآية ١ ــ ١١ فمدنية نزلت بعد الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

نصف الحزب

الٓمٓ ۞ (١) أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ ۞ (٣) أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۞ (٤)

مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٦) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (٧)

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة وقوله تعالى : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ استفهام انكار ومعناه : إن الله سبحانه وتعالى لا بدَّ وان يختبر عباده المؤمنين بحسب إيمانهم وقد صح الحديث : ٤١٧ [أشد الناس بلاءً الأنبياءُ ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل،يبتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء] وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم ان تتركوا ولمَّا يعلم

الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين ﴾ أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة . وقوله تعالى : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾ فإن من ورائهم عقوبةً ونكالاً أغلظ . أم حسبوا أنهم سيفلتون من ذلك ؟ بئس ما يظنون وقوله تعالى : ﴿ من كان يرجو لقاء الله ﴾ أي الدار الآخرة ورجاء ثواب الله فيحقق رجاءه ويوفيه عمله كاملاً فإن ذلك كائن لا محالة ولهذا قال : ﴿ فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم ﴾ سميع الدعاء عليم بما يكون .

وقوله تعالى : ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ أي يعود لها فإن الله غنيٌّ عن أفعال العباد ولو كانوا على أتقى قلب رجل منهم ما زاد في ملكه شيء ولهذا قال : ﴿ إن الله لغنيٌّ عن العالمين ﴾ قال الحسن البصري : إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسيف ثم قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرنّ عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ﴾ أي مع ان الله غني عن العالمين يجازي المؤمنين الصالحين أحسن الجزاء ويكفّر عنهم أسوأ ما عملوا بأحسن أعمالهم فيقبل القليل من الحسنات ويثيب عليها حتى الى سبعمائة ضعف ويجزي السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ (٨) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّالِحِينَ ۝ (٩) ﴾

يأمر تعالى عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده ، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان ولهما عليه غاية الإحسان فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ومع هذه الوصيّة بالإحسان إليهما قال تعالى : ﴿ وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ أي وإن حرصا على متابعتك لهما على دينهما الشركي فلا تطعهما فإن

مرجعكم إليّ يوم القيامة فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب أي حباً دينياً، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ﴾

قال الترمذي عن سماك بن حرب يقول : سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه قال : نزلت في أربع آيات فذكر قصته وقال : قالت أم سعد : أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر ، قال فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها ، فنزلت : ﴿ ووصينا الانسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ الآية وهذا الحديث رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي فقال حسن صحيح .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي ٱللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ ۞ (١١) ﴾

يخبر تعالى عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت في قلوبهم ، بأنهم إذا أصابتهم مصيبة اعتقدوا أن هذا انتقام منه تعالى بهم فارتدّوا عن الإسلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأنّ به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ـ الى قوله ـ ذلك هو الضلال البعيد ثم قال تعالى : ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنّا كنا معكم ﴾ أي ولئن جاءك يا محمد فتح أو مغانم ليقولون نحن اخوانكم في الدين لتقاسموهم مغانمكم. ﴿ أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ﴾ أي إنه يعلم ما يكنّه الناس أجمعين فكيف بهؤلاء ...؟

وقوله تعالى : ﴿ وليعلمنّ الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ أي ليبتليهم بالسراء والضرّاء ليتميزَ هؤلاء من هؤلاءِ كما قال تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ وقد امتحن الله هؤلاء وهؤلاء فقال بعد وقعة أحد وما

كان فيها من الاختبار : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ الآية .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞(١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۞ (١٣) ﴾

يخبر تعالى عن كفار قريش قالوا لمن آمن منهم : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا ، واتبعوا سبيلنا ﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ أي كما يقول القائل : إفعل هذا وخطيئتك في رقبتي ، فقال تعالى تكذيباً لهم : ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾ فانه لا يحمل أحد وزر أحد . وقوله تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ الآيـــة .

وفي الصحيح ٤١٨ [من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير ان ينقص من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتّبعه إلى يوم القيامة من غير ان ينقص من آثامهم شيئاً] وفي الصحيح ٤١٩ [ما قتلت نفس ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل]. (١)

وقوله تعالى : ﴿ وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ أي يكذبون ويختلقون البهتان .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ۞ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ ۞ (١٥) ﴾

(١) أي قابيل الذي قتل أخاه هابيل .

يسلّي الله تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ بأخبار نوح عليه السلام وأنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم الى الله تعالى دوماً فما زادهم إلاّ فراراً وإعراضاً عن الحق وما آمن معه إلاّ قليل ولهذا قال تعالى : ﴿ فلبث فيهم الف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ أي بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار ، فلا تأسف يا محمد على من كفر من قومك ولا تحزن عليهم فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وسينصرك الله ويذل عدوك ويجعلهم في الأسفلين .

وقوله تعالى : ﴿ فانجيناه وأصحاب السفينة ﴾ أي الذين آمنوا مع نوح عليه السلام وتقدم ذكر ذلك في سورة هود بما أغنى عن إعادته .(١) وقوله تعالى : ﴿ وجعلناها آية للعالمين ﴾ أي جعلناها باقيةً إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي أو نوعها جعله للناس تذكرةً لنعمة الله على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان كما قال تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ وهذا تدريج من عين سفينة نوح إلى نوع السفن عامةً .

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۞ (١٨) ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله ابراهيم إمام الحنفاء ، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص له في التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، ﴿ إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ﴾ أي أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ﴾ أي إن فعلتم يحصل لكم خيرا الدنيا والآخرة ويندفع عنكم شرهما ، ثم قال تعالى : ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً ﴾ أي أنتم الذين اختلقتم لها أسماء

(١) راجع الآية ٤٤ سورة هود .

فسيمتموها آلهةً ، وإنما هي مخلوقة مثلكم فتصنعونها أصناماً وتعبدونها، وهي لا تملك لكم رزقاً ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ أي فاطلبوا عند الله الرزق، لا عند غيره الذي لا يملك شيئاً. ﴿ واعبدوه واشكروا له ﴾ على ما أنعم به عليكم ﴿ إليه ترجعون ﴾ فيجازي كل عامل بعمله . وقوله تعالى : ﴿ وإن تُكَذِّبوا فقد كذّب أمم من قبلكم ﴾ أي فبلغكم ما حلّ بهم من العذاب في مخالفة الرسل ﴿ وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين ﴾ يعني إنما على الرسول أن يبلغكم أوامرَ الله تعالى وهو الهادي لمن يشاء والمضل لمن يشاء فاحرصوا أن تكونوا من السعداء .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۞ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۞ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۞ (٢٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٢٣) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه الصلاة والسلام، أنه اثبت لهم المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، فالذي بدأ الخلق من العدم قادر على إعادته وهو يسير لديه ، وبالاعتبار من خلق السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات وما بينهما الدالة على وجود الصانع الفاعل المطلق، يقول للشيء كن فيكون. ولهذا قال جل وعلا : ﴿ أولم يرَوا كيف يُبدِيءُ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيءُ النشأة الآخرة ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ﴾ ولا يشاء إلا العدل فلا يظلم مثقال ذرة ، لأن الظلم حرمه

على نفسه وجعله بيننا محرماً . ﴿ وإليه تقلبون ﴾ أي ترجعون يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴾ أي لا يعجزه أحد في السماء ولا في الأرض وكل شيء مقهور له ، خائف منه ، فقير إليه وهو الغني عما سواه .﴿ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير والذين كفروا بآيات الله ولقائه﴾ أي جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿ اولئك يئسوا من رحمتي﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿ وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ أي موجع شديد في الدارين .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۞ (٢٥) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم ابراهيم أنهم لم يكن جوابهم بعد مقالته المشتملة على الهدى والبيان : ﴿ إلاّ أن قالوا اقتلوه او حرّقوه ﴾ وذلك لتوجه الحجة عليهم.فعدلوا عنها إلى استعمالهم قوة الملك ، فحشدوا أحطاباً عظيمة وأوقدوها ، ولم توقد نار قط أعظمُ منها، ثم قذفوا ابراهيم فيها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً بعدما مكث فيها أياماً ، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً ، فانه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع على محبته أهل الأديان . وقوله تعالى : ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ بأن جعلها برداً وسلاماً كما قال تعالى : ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين. وقولُه تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ﴾ يقول لقومه موبخاً لهم على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان، إنما اتخذتم هذه آلهةً لتجتمع إلفتكم بينكم عليها في الحياة الدنيا.﴿ ثم يوم القيامة ﴾ ترجع المودة بغضاً ثم ﴿ يكفر بعضكم ببعض ﴾ أي تتجاحدون ما كان بينكم ﴿ ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ أي يلعن الأتباع المتبوعين وبالعكس ـ كما قال تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلاَّ المتقين ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ومأواكم النار ﴾ أي ومصيركم إلى النار

﴿ وما لكم من ناصرين ﴾ ينصرونكم أو ينقذونكم منها . هذا حال الكافرين وأما المؤمنون أهل التوحيد يعفو بعضهم عن بعض بعد أن يخاطبهم المنادي : يا أهل التوحيد ليعفُ بعضكم عن بعض ، وعلى الله الثواب . كما جاء في الحديث ...

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۞ (٢٧) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن ابراهيم أنه آمن له لوط ، ويقال أنه ابن أخي ابراهيم ، يقولون هو : لوط بن هاران بن آزر ، ولم يؤمن به من قومه سواه وسارة امرأة إبراهيم الخليل ، لكن يقال كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد في الصحيح إن ابراهيم حين مر على ذلك الجبار فسأل ابراهيم عن سارة ما هي منه ، فقال : أختي ، ثم جاء إليها فقال لها : إني قد قلت له إنك أختي فلا تكذبيني ، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، فأنت أختي في الدين . وكأن المراد من هذا — والله أعلم — أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك[1] ، فإن لوطاً عليه السلام آمن به من قومه وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم واقليمها وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي .

وقوله تعالى : ﴿ وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ أي من بين أظهر المشركين قومه وابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك ولهذا قال : ﴿ إنه هو العزيز الحكيم ﴾ اي له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ، الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية .

وقوله تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً ﴾ أي انه لما فارق قومه ، أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبيّ ، وولدُ له ولدٌ صالح نبي في حياة جده ، ومما لا شك فيه أنه يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم قد نصَّ على ذلك القرآن والسنّة وقوله تعالى: ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً ،

(١) قلت : ولعلها أرض الجبار التي كانا فيها . والرواية التاريخية على أنها أرض مصر ، والجبار هو فرعون مصر الذي حال الله بينه وبين سارة زوجة ابراهيم .

وجعله للناس إماماً. وذلك أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلاّ وهو من سلالته، فجميع انبياء بني اسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم حتى كان آخرهم عيسى عليه السلام الذي قام في بني إسرائيل مبشراً بالنبي العربيّ القرشيّ الهاشميّ خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ولم يوجد نبيٌّ من سلالة إسماعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ أي جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني، والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل والذكر الحسن وكل أحد يحبه ويتولاّه، مع القيام بكامل وتمام طاعته تعالى. كما قال عز وجل: ﴿ وإبراهيم الذي وفّى ﴾ أي قام بجميع الأوامر والطاعات. ولهذا قال تعالى: ﴿ وآتيناه أجرهُ في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾.

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ۞ (٢٩) قَالَ رَبِّ ٱنْصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ۞ (٣٠) ﴾

يخبر تعالى عن نبيّه لوط عليه السلام أنه أنكر على قومه صنيعهم وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران من دون النساء، ولم يسبقهم الى هذه الفعلة أحدٌ من العالمين قبلهم. وكانوا مع هذا يكفرون بالله تعالى ويكذبون رسوله ويخالفونه ويقطعون الطريق على الناس، يقتلونهم ويسلبونهم أموالهم. ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ أي يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم، ولا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك: فقيل يفعلون فعلتهم القبيحة جهاراً وقيل يتضارطون ويتضاحكون، وقيل كانوا يناطحون بين الكباش أو يناقرون بين الديكة. روى الإمام أحمد عن أم هانيء قالت: ٤٢٠ [سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال « يحذفون أهل الطريق

ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه . »] ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وحسّنه الترمذي . وقوله تعالى : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ، ولهذا استنصر عليهم نبيُّ الله فقال : ﴿ ربّ انصرني على القوم المفسدين ﴾ .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۝ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ ۝ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ ۝ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ (٣٥)

لما استنصر لوط ربّه عز وجل ، بعث لنصرته ملائكة فمرّوا على إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف فلما قدّم لهم ما ينبغي للأضياف لم يأكلوا ... أوجس منهم خيفة ، فآنسوه وبشروه بولادة ولد له صالح من امرأته سارة وكانت حاضرة ، فتعجبت من ذلك كما تقدم بيانه في سورتي هود والحجر ثم أخبروه بأنهم مرسلون لإهلاك قوم لوط ، فاستمهل لعلّ الله يهديهم • ﴿ قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين • قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجّينّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أي من الهالكين ، لأنها كانت تمالئهم على كفرهم . وبغيهم ، ثم ساروا إلى لوط في صورة شبان حسان ، فلما رآهم كذلك : ﴿ سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ﴾ أي خاف عليهم من قومه وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم ، وما يدري من أمرهم شيئاً ﴿ وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجّوك وأهلك إلاّ امرأتك كانت من الغابرين • إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام

اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضودة مسوّمة عند ربك ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهمّ من أشد الناس عذاباً يوم المعاد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة ﴾ أي واضحة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱرْجُوا ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۞ (٣٧) ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام ، أنه أمر قومه بعبادة الله وحده لا شريك له ، وخوّفهم نقمته في الدارين فقال: ﴿ يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ﴾ أي اخشوا اليوم الآخر أي عذاب الله في الآخرة ، وقوله: ﴿ ولا تعثوا في الأرض ﴾ أي لا تفسدوا في الأرض وتبغوا على أهلها بإنقاص المكيال والميزان ، وقطع الطريق ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله فأهلكهم الله بالرجفة المروعة التي زلزلت بلادهم ، والصيحة التي أخرجت القلوب من حناجرها ، وعذاب يوم الظلة العظيم وتقدم ذكر ذلك في سورة الأعراف وهود والشعراء ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ ميتين .

﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ۞ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَٱسْتَكْبَرُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ۞ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۞ (٤٠) ﴾

يخبر تعالى عن الأمم الغابرة المكذبة للرسل كيف أبادهم ونوّع عذابهم ، وانتقم منهم فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف بالقرب من حضرموت ، وثمود قوم صالح عليه السلام كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى ، وكانت العرب تعرف مساكنهم جداً وتمر عليها كثيراً ، وقارون صاحب الكنوز الجزيلة ، وفرعون ملك مصر زمن موسى عليه السلام ووزيره هامان القبطيان الكافران ﴿ فكلاً اخذ نــا بذنبه ﴾ أي كانت عقوبته تناسبه ﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ﴾ وهم عاد فجاءتهم ريح صرصر تحمل حصباء الأرض فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض الى عنان السماء ثم تنكسه على أم رأسه فيبقى بدناً بلا رأس ﴿ ومنهم من أخذته الصيحة ﴾ وهم ثمود الذين عقروا ناقة الله بكفرهم فجاءتهم الصيحة فأخمدت أنفاسهم ﴿ ومنهم من خسفنا بــه الأرض ﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى وعصى الرب ، ومشى مرحاً ، وفرح وتــاه بنفسه واختال في مشيته ، فخسف به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامــة . ﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما فأغرقوا في صبيحة واحدة فلم ينجُ منهم مخبر . ﴿ وما كان الله ليظلمهم ﴾ أي فيما فعل بهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي إنما فعل بهم ذلك جزاءً مضافا بما كسبت أيديهم .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * (٤١) إِنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * (٤٢) وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ * (٤٣) ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ويرجونهم في الرزق والنصر والشدائد ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت فمثل من يعتمد على غير الله كمن يتمسك ببيت العنكبوت الواهن الضعيف الذي لا يجدي عنه شيئاً وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع ، والتمسك به لقوته وثباته . ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به ، إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الشرك وما يشركون به من الأنداد وسيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم ثم قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها

للناس وما يعقلها إلاّ العالمون ﴾ اي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منـــــه .

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قدرته العظيمة أنه خلق السموات والأرض بالحق يعني لا على وجه العبث واللعب .

وقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ أي لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية ، ثم أمر رسوله ﷺ والمؤمنين بتلاوة القرآن أي قراءته وتبليغه للناس ﴿ وأقم الصلاة ﴾ إقامةً تامة في خشوعها وأركانها وتدبر ما تقرأ من القرآن فيها ، ﴿ إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ أي إن الصلاة ذات الوصف المتقدم من الخشية والخضوع واداء الأركان والتدبر بصدق واخلاص ، هذه الصلاة لها الأثر الفعال في الانتهاء عن الفواحش والمنكرات فالصلاة بهذا الحضور في كل ما ذكر ، هي ذكر خالص لله تعالى يشترك فيه القلب واللسان وتتأثر به الجوارح عامة ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ أي إن ما ذكرت الله به في الصلاة باخلاص وحضور نية وقصد، يقابله من الله ذكر عبده في الملأ الأعلى .كما قال تعالى ﴿فاذكروني أذكركم ﴾ ولا شك أن ذكر الله وتذكّره دائماً في كل قول وعمل، سبب في ذكر الله لعبده الذي هو أعظم من ذكر العبد له.والمعنى أنه يجازيه على فعله بأعظم منه وأكبر ، فإذا ذكر العبدُ ربّه ذكر الربُّ عبدَه﴿ولذكر الله اكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم ونواياكم ويجزيكم عنها بما تستحقون .

روى الحافظ ابو بكر البزار عن جابر أو عن رجل قال للنبي ﷺ : ٤٢١ [ان فلانا يصلّي بالليل ، فإذا أصبح سرق . قال « سينهاه ما تقول »] روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ قال لها وجهان : قال ذكر الله عند مـــا حرمه ، قال وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم اياه .

الجزء ٢١ ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۝ (٤٦) ﴾

قال قتادة هذه الآية منسوخة بآية السيف ... وقال آخرون بل هي باقية محكمة لمن اراد الاستبصار منهم في الدين فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه ، كما قال تعالى : ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ وهذا القول اختاره ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ أي الذين لم ينفع معهم الجدل ، فيؤمرون بالجزية وإلاّ فقد صاروا أهل حرب فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم ، كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد – إلى قوله – إن الله قوي عزيز ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل اليكم ﴾ أي إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه فهذا لا نقدم على تكذيبه فقد يكون حقاً ، ولا تصديقه فقد يكون باطلاً ، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً معلقاً على شرط ، وهو أن يكون منزلاً لامبدلاً ولا مؤولاً .

روى البخاري رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : [٤٢٢ وكان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون »]

وليُعلَم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل ، وما أقل الصدق فيه ، ثم ما أقل فائدة كثير منه ، لو كان صحيحاً .

قال ابن جرير عن ابن مسعود قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا إما ان تكذبوا بحق او تصدقوا بباطل . وقال ابن عباس : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث ، تقرأونه محضاً لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن

مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي انزل عليكم . رواه البخاري .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ۞ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ۞ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ۞ (٤٩) ﴾

يقول ابن جرير : يقول الله تعالى : كما أنزلنا الكتب على مَنْ قبلَك يا محمد من الرسل كذلك أنزلنا هذا الكتاب . وهذا الذي قاله حسن جيد . وقوله تعالى : ﴿ فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ﴾ أي الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء ، كعبدالله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما . وقوله تعالى : ﴿ ومن هؤلاء من يؤمن به ﴾ أي العرب من قريش وغيرهم ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ أي ما يكذب بها إلاّ من يستر الحق بالباطل ، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل وهيهات .

ثم قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن ينزل الله عليك هذا القرآن عمراً لا تقرأ ولا تكتب ، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة كما قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين لا يخط ولا سطراً واحداً ولا حرفاً واحداً بل كان له كتّاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم . ولا صحة لكل ما قيل من أنه تعلم آخر عمره فلا أصل له ألبتة . قال الله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو ﴾ أي تقرأ ﴿ من قبله من كتاب ﴾ لتأكيد النفي ﴿ ولا تخطه بيمينك ﴾ أي ما كتبت شيئاً ، لأنه تعالى لم يعلّمه لا القراءة ولا الكتابة . وقوله تعالى: ﴿ إذاً لا رتاب المبطلون ﴾ اي لو كنت تحسن القراءة والكتابة لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقولون ، إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم انه أميّ ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً ﴾ فرد الله تعالى عليهم ﴿ قل أُنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ﴾ وقال هاهنا : ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ أي هذا

القرآن آيات بينات واضحة في الدلالة على الحق أمراً ونهياً وخبراً يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوةً وتفسيراً. وقوله تعالى: ﴿ وما يجحد بآياتنا إلاّ الظالمون ﴾ أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿ ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَاتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِٱللَّهِ أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ۞ (٥٢) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات، ترشدهم الى ان محمداً رسول الله كما أتى صالح بناقته. قال الله تعالى: ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إنما الآيات عند الله ﴾ أي إنما أمر ذلك إلى الله تعالى، ولو أنهم سيهتدون لأجابهم فهذا يسير عليه، ولكنه يعلم منهم التعنت فلا يجيبهم إلى ذلك كقوله تعالى: ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ وقوله: ﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ أي إنما بعثت نذيراً لكم فما عليّ إلاّ إبلاغكم رسالة الله تعالى و ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ ثم قال تعالى مبيناً جهلهم وسخافتهم لطلبهم آيات على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي هو أعظم معجزة، فقد عجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته بل وعن معارضة سورة منه فقال تعالى: ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ أي ألم تكفهم هذه المعجزة الكبرى وهي القرآن الذي أنزلناه عليك الذي فيه خبر ما قبلهم ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم وأنت رجل أميّ لا تقرأ ولا تكتب فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب فيما اختلفوا فيه كما قال تعالى: ﴿ أو لم يكن لهم آية أنْ يعلمُه علماء بني اسرائيل ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ٤٢٣ [ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه

البشر ، وإنّما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة] أخرجاه وقولُه تعالى : ﴿ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ أي بياناً للحقّ وإزاحةً للباطل وهذا هو الرحمة ، وفيه ذكرى ما حل من النقم بالأمم الخالية مما يُتّعظُ به ويزيد المؤمنين إيماناً .

ثم قال تعالى : ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ﴾ لما تكذبونني به من الأقوال التي أقولها لكم بأنني رسول الله إليكم فلو كنت كاذباً لانتقم منّي كما قال سبحانه : ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ولهذا أيّدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات . ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ﴾ أي ولا تخفى عليه خافية ﴿ والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾ أي سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم الرسل وكفرهم بالله وإيمانهم بالطواغيتِ وسيصلون سعيراً وساءت مصيراً .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ۞ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ (٥٥) ﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم . كما قال تعالى : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ وقال هاهنا : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾ أي لولا ما قدر الله من تأخير العذاب لجاءهم سريعاً ﴿ وليأتينّهم بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ وهم لا يشعرون. يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي يستعجلونك بالعذاب وهو واقع بهم لا محالة .

ثم قال عز وجلّ ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ أي تغشاهم النار من سائر جهاتهم ﴿ ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ وهذا عذاب معنوي – أي إخبارٌ به قبل وقوعه حسيّاً ، وتهديد به وسيلقونه فعلاً . ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسّ سقر ۝ إنّا كل شيء خلقناه بقدر ﴾

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ❁(٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ❁(٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ❁ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ❁ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ❁ (٦٠) ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى ارض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ولهذا قال عز وجل : ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ﴾ ولما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها،خرجوا مهاجرين الى الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين هناك : أصحمة النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى فآواهم وأيَّدهم بنصره ، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ ، والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة .

ثم قال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ أي أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا في طاعة الله خير لكم فإن الموت لا بد منه وإلى الله المرجع فمن أطاع الله جازاه أفضل الجزاء وأتم الثواب ولهذا قال سبحانه ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوِّئنّهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري الأنهار من تحتها ماءً وخمراً وعسلاً ولبناً على اختلاف أصنافها ﴿ خالدين فيها ﴾ ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً ﴿ نعم أجر العاملين ﴾أي نعمت هذه الغُرف أجراً على أعمال المؤمنين ﴿ الذين صبروا ﴾ على دينهم وهاجروا الى الله ونابذوا الأعداء ابتغاء وجهه تعالى ورجاء ما عنده . روى ابن أبي حاتم عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ حدثه ٤٢٤[ان في الجنة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام ، وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام ، وقام بالليل والناس نيام] ﴿ وعلى ربهم يتوكّلون ﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم ، ثم أخبرهم تعالى ان الرزق لا يختص ببقعة بل عام ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا ، أكثر

وأوسع وأطيب فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار،ولهذا قال تعالى : ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ﴾ أي لا تطيق جمعه وتحصيله ، ولا تدخر شيئاً لغد ﴿ الله يرزقها وإياكم ﴾ أي الله يقيض لها رزقها على ضعفها ، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض ، والطير في الهواء ، والحيتان في الماء قال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۞ (٦١) ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۞ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۞ (٦٣) ﴾

يقرر الله تعالى أن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وانه الرازق لعباده المقدر آجالهم ، العليم بما يُصلح كلاّ منهم ومقرّونَ بأنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها .

فإذا كان الأمر كذلك . فلمَ يعبد غيره ولمَ يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته ، فالاعتراف بتوحيد الربوبية لا يكفي إذا لم يعترف ايضاً بتوحيد الألوهية ومن أجل ذلك أي الاعتراف بتوحيد الألوهية بالاضافة الى توحيدالربوبية بعث أفضل الخلق محمد ﷺ ، وبعث الرسل والأنبياء من قبله عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۞ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى

ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۞ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۞ (٦٦)

يخبر تعالى عن حقارة الدنيا ، وزوالها وانقضائها ، وغاية ما فيها لهو ولعب ، ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ أي الحياة الدائمة التي لا زوال لها وقوله تعالى : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي لآثروا ما يبقى على ما يفنى ؛ ثم اخبر ان المشركين عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له ، فهلاّ يكون هذا منهم دائماً ﴿ فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ واذا مسّكم الضرّ في البحر ضل من تدعون إلاّ إياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم ﴾ وقال تعالى هاهنا ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ [1]

وقوله تعالى : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون ﴾ تهديد ما سيرونه وسيلقونه من العذاب الذي يكافىء ما قدموا في الدنيا من شرك وكفر والعياذ بالله تعالى .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ۞ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۞ (٦٨) وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (٦٩)

يمتنّ الله تعالى على قريش فيما أحلّهم من حرَمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم ، والأعراب حولهم ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً كما قال تعالى : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ إلى آخر السورة ...وقوله تعالى:

---

(١) قلت : كان مشركو العرب يشركون في الرخاء ويوحدون في الشدة أما مشركو زماننا فهم يشركون في الحالين وتشهد عليهم أقوالهم التي منها : / عند الضيق ناد عبد القادر .../ وعبد القادر بريء مما يشركون .

﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ فبدلاً من ان يشكروه تعالى على نعمة الأمن وغيرها بالاعتراف بألوهيته وافراده بالعبادة ... قابلوا شكر النعمة بالكفر بها وبموليها جل وعلا وعبدوا غيره . ولذا سلبهم ما أنعم عليهم به ، وقتل من قتل ببدر : ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ففتح الله على رسوله مكة ، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم ثم قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذبَ بالحق لما جاءه ﴾ أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله ، فقال : ان الله أوحى إليه ولم يوح إليه بشيء . ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبةً ممن كذّب بالحق لما جاءه . فالأول مفترٍ والثاني : مكذّب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾ يعني الرسول ﷺ وأصحابه واتباعه الى يوم الدين ﴿ لنهدينّهم سبلنا ﴾ أي طرقنا في الدنيا والآخرة . قال ابن أبي حاتم عن عباس الهمداني أبي أحمد من أهل عكا في قوله تعالى : ﴿ والذينَ جاهدوا فينا لنهدينهم سبلناوإن الله لمع المحسنين ﴾ قال : الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون . وقال ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام انما الاحسان ان تحسن الى من اساء اليك ، ليس الاحسان ان تحسن لمن أحسن إليك والله أعلم .

آخر اختصار سورة العنكبوت ولله الحمد والمنة

٢١ / ٤ / ١٣٩٠
٢٥ / ٦ / ١٩٧٠

(٣٠) سُورةُ الرُّومِ مكيّة وآياتها ستون

إلاّ الآية / ١٧/ فمدنية نزلت بعد سورة الانشقاق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



الٓمٓ ❁ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ❁ (٢) فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ❁ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ❁ (٤) بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ❁ (٥) وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ❁ (٦) يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ❁ (٧)

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم ، فاضطرَّ هرقلَ ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدةً طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي ، روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿آلم غلبت الروم في أدنى الأرض﴾ قال : غُلبت وغَلبت ، قال : ٤٢٥ [كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ؛ فذكر ذلك لأبي بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ « أما إنهم سيغلبون » فذكره ابو بكر لهم فقالوا : إجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وان ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين ، فلم يظهروا ،

فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : « ألا جعلتهاالى دون- أراه قال : العَشْر» قال سعيد بن جبير : البضع ما دون العشر ثم ظهرت الروم بعد ، قال فذلك قوله تعالى : ﴿ آلم غُلِبَتِ الرومُ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون - الى قوله تعالى - وهو العزيز الرحيم ﴾]

وقد ورد في رواية ابن ابي حاتم عن البراء في جملة الحديث وبعد أن كسب ابو بكر الرهان من المشركين بغلبة الروم على فارس - ... ٤٢٦ [فلم تمض تلك السنين (١) حتى غَلَبتِ الرومُ فارسَ وربطوا خيولهم بالمدائن ... فجاء ابو بكر إلى النبي ﷺ فقال : هذا السحت ، قال : « تصدّقْ به »] كما ورد في رواية الترمذي ... فقال الناس من قريش لأبي بكر فذاك بيننا وبينكم ، زعم صاحبكم ان الروم ستغلب فارس في بضع سنين ،أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال بلى ،- وذلك قبل تحريم الرهان ...- قيل ان انتصار الروم على فارس عام انتصار المسلمين على المشركين ببدر ، وقيل بل كان ذلك عام الحديبية . ووجّه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشينّ من حمص إلى أيلياء وهو بيت المقدس ، شكراً لله تعالى ففعل فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ الذي بعثه مع دحية بن خليفة ، فأعطاه دحية لعظيم بصري فدفعه عظيم بصري إلى قيصر فلما وصل إليه ، سأل : من بالشام من عرب الحجاز ، فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموي في جماعة من قريش... فاستدلّوا بهذا على ان نصر الروم على فارس كان عام الحديبية لأن قيصر إنما وفى في نذره بعد الحديبية والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ أي من قبل ذلك ومن بعده ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ أي للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى وهم المجوس فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به ، وقوله تعالى : ﴿ ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ العزيز في انتصاره وانتقامه من أعدائه، الرحيم بعباده المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ وعد الله لا يُخلفُ الله وعده ﴾ أي هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أنّا سننصر الروم على فارس وعدٌ من الله حق وخبر صدق لا يخلف، ولا بد من كونه ووقوعه ، لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين الى الحق ويجعل لها

(١) لعلها السنون .

العاقبة ﴿ ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي بحكم الله في كونه ، وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل .

وقوله تعالى : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ أي أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وشؤونها ، وهم غافلون في أمور الدين وما ينفعهم في الدار الآخرة كأن أحدهم لا ذهن له ولا فكرة . قال الحسن البصري : والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره ، فيُخبرُك بوزنه وما يحسن أن يُصلي . قال ابن عباس : يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ❁ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ❁ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَاءُوا ٱلسُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ❁ (١٠) ﴾

ينبه تعالى على التفكير في مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها وأنه لا إله إلا هو ولا ربَّ سواه فقال جل ثناؤه : ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ﴾ يعني ألم ينظروا ويتدبروا ويتأملوا في خلق الله للعوالم جميعاً وما فيها من المخلوقات فإنها ما خلقت سدى ولا باطلاً بل بالحق ، وأنها مؤجلة الى يوم القيامة . ولهذا قال سبحانه : ﴿ وإن كثيراً من الناس بلقاء ربّهم لكافرون ﴾ ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه، وما أيدهم به من المعجزات ، وأهلك من كفر بهم وأنجى من صدّقهم. فقال تعالى: ﴿ أولم يسيروا في الأرض ﴾ أي بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوة ﴾ أي انهم كانوا أقوى من العرب الذين بعث فيهم محمد ﷺ وأكثر أموالاً وأولاداً وأعماراً وإعماراً واستغلالاً ولما كفروا برسلهم

التي جاءتهم بالبينات أخذهم الله بعذابه الشديد ولم تغنِ عنهم أموالهم ولا أولادهم، ولا حالت بينهم وبين بأس الله وعذابه، وما كان الله ظالماً لهم.﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ وهم الذين اردوا مهالكها بذنوبهم وتكذيبهم للرسل ولهذا قال عز من قائل : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ أي كانت السوأى عاقبتهم لأنهم كذّبوا واستهزأوا بآيات الله .

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۞ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ۞ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۞ (١٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۞ (١٥) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۞ (١٦) ﴾

يقول تعالى : ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أي كما هو قادر على بداءته فهو قادر كذلك على إعادته ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة فيجازي كلاً بعمله وقوله تعالى : ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ أي يبهت المجرمون وييأسون ويكتئبون ﴿ ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ﴾ أي خانهم شفعاؤهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله وهم أحوج ما كانوا إليهم وتبرأ شفعاؤهم منهم ومن كفرهم.ثم قال جل وعلا﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ فيرتفع هذا إلى عليّين وينخفض هذا إلى أسفل سافلين فتلك الفرقة التي لا اجتماع بعدها ولهذا قال عز من قائل : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون ﴾= أي ينعمون بما أفاء الله عليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقوله تعالى : ﴿ وأما الذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ﴾ لما وصف الله تعالى حال المؤمنين من الرضا والحبور في جنة عرضها السموات والأرض اعدت للمتقين، جزاء ما أسلفوا من الطاعات والأعمال الصالحة، ذكر تعالى حال الكفار الذين كذّبوا بما نزّل الله تعالى من آيات هذا القرآن العظيم وبالبعث والجنة والنار ﴿ فأولئك في العذاب محضرون ﴾ أي مجموعون يوم القيامة في نار جهنم مقيمون

فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون . [١] =

﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۞ (١٧) وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۞ (١٨) يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۞ (١٩) ﴾

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وارشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته ، ففي المساء وهو اقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح وهو إسفار النهار بضيائه ، ثم اعترض بحمده مناسبة ـ للتسبيح فقال تعالى : ﴿ وله الحمد في السموات والأرض﴾ أي هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض ثم قال سبحانه : ﴿ وعشياً وحين تظهرون ﴾ فالعشاء وهو شدة الظلام ، والإظهار قوة الضياء فسبحان خالق هذا وهذا (وقيل المراد بالتسبيح هنا الصلوات الخمس ، فقوله حين تمسون صلاة المغرب والعشاء وقوله حين تصبحون صلاة الفجر وقوله وعشياً صلاة العصر وقوله وحين تظهرون صلاة الظهر) [٢] وقوله تعالى : ﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة واضدادها، ليدل على كمال قدرته فمن ذلك إخراج النبات من الحب والحب من النبات، والبيض من الدجاج والدجاج من البيض ، والإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وقوله تعالى : ﴿ ويحيي الأرض بعد موتها ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ـ الى قوله ـ وان الله يبعث من في القبور ﴾ ولهذا قال هاهنا ﴿ وكذلك تخرجون ﴾ أي تبعثون .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۞ (٢٠) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا

(١) الكلام الذي ما بين المساويين من هذه الصفحة هو من كلامي فإن المفسر رحمه الله تعالى لم يفسر الآيتين ١٥ و ١٦ فوضحت معناهما إتماماً للفائدة والله الموفق . (٢) ما بين القوسين قاله الضحاك وسعيد بن جبير ولم يذكره المفسر .

لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ (٢١)

يقول تعالى : ﴿ ومن آياته ﴾ الدالّة على عظمته وكمال قدرته أن خلق أباكم آدم من تراب ﴿ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ فأصلكم من تراب ثم من ماءٍ مهين ، ثم تسلسل : علقةً ثم مضغة ثم عظاما فكسيت لحماً ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج صغيراً ضعيفاً ثم تكاملت قواه إلى أن بنى المدائن والحصون وجال في أقطار الأرض براً وبحراً للكسب. وله مدارك ورأيٌ وعلم في أمور الدنيا والآخرة ، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وصرّفهم في فنون المعايش، وفاوت بينهم في الخلق والعلم، واليسر والعسر، وقال الإمام أحمد عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ ٤٢٧[ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك،والخبيث والطيب ،والسهل والحزن وبين ذلك]ورواه ابو داود والترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ أي من جنسكم إناثاً أزواجاً ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ أي ليحصل الائتلاف بينهم إذ لو كان من غير جنسهم لحصلت النفرة ، فمن رحمته ان جعلهم جميعاً من جنس واحد ذكوراً وإناثاً فحصلت المودّة والرحمة والرأفة ولهذا قال : ﴿ وجعل بينكم مودةً ورحمةً ﴾ لتبقى أسباب الترابط قائمةً ، ويبقى التناسل مستمراً ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ۞ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۞ (٢٣)

يقول تعالى : ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ أي خلق السموات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من المخلوقات وكذلك الأرض بما فيها

ومن فيها وعليها ﴿ واختلاف ألسنتكم ﴾ يعني اختلاف لغات البشر من عرب وعجم الى غير ذلك ﴿ وألوانكم ﴾ أي السمات الخاصة بكل انسان التي تختلف عن السمات في الإنسان الآخر وليس يشبه واحد منهم الآخر فلا بد من المقارنة في السمت والهيئة والكلام فلكل منهم أسلوب خاص يختلف عن الآخر ﴿ إن في ذلك لآيات للعالمين.ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ﴾ أي ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم الذي تحصل فيه الراحة والسكون ، وجعل لكم الأنتشار والسعي في أسباب الرزق والأسفار في النهار ﴿ إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون ﴾ أي يعون فينتفعون من معرفته هذه الآيات فتدلهم على موجدها .

روى الطبراني عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: ٤٢٨[أصابني أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « قل اللهم غارت النجوم وهدأت العيون وانت حي قيوم يا حي يا قيوم أنم عيني وأهدىء ليلي » فقلتها فذهب عني]

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ (٢٤) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ۝ (٢٥) ﴾

يقول تعالى ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظمته أنه : ﴿ يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ أي تارةً تخافون صواعقه وتارة ترجون مطره وغيثه.ولهذا قال تعالى : ﴿ وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها ﴾ أي بعد أن كانت هامدة لا نبات فيها ولما جاءها الماء ﴿ اهتزّت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعـــاد .

ولهذا قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ أي يوم تبدل الأرض غير الأرض وخرجت الأموات من قبورها أحياءً بأمره تعالى ودعائه إياهم ولهذا قال جل وعلا : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ أي من الأرض كما قال تعالى : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ۞ (٢٦) وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ (٢٧) ﴾

يقول تعالى ﴿ وله من في السموات والأرض ﴾ أي ملكه وعبيده ﴿ كل له قانتون ﴾ أي خاضعون خاشعون طوعاً وكرها . وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ أي كلٌّ عليه هيّن ، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٢٩ [يقول الله تعالى كذبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته ، وأما شتمه إيّاي فقوله : اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمَد الذي لم يلِد ولم يولَد ولم يكن له كفُواً أحد]

وقوله تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض ﴾ قال ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ قال قتادة : مثله:أنه لا إلَه إلا هو ولا ربَّ غيره ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي لا يغالب ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله شرعاً وقدراً .

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ (٢٨) بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ۞ (٢٩) ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به ، وهم مع ذلك معترفون بأن شركاءه من الأنداد عبيد له كما كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . فقال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً من أنفسكم ﴾ أي تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ﴿ هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾ أي أيرضي أحدكم

ان يكون عبدهُ شريكاً له في ماله فهو والعبد سواء في المال ...؟ ﴿ تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴾ أي تخافون أن يقاسموكم الأموال ، والمعنى أن أحدكم يأنف ان يكون شريكاً له فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ؟ وهذا كقوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ أي ينسبون لله ما يكرهونه ولا يرتضونه لأنفسهم، فهذا أغلظ الكفر . ولما كان التنبيه بمثل هذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأولى والأحرى . قال تعالى : ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ ثم قال تعالى مبيناً ان المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم وجهلاً ﴿ بل اتبع الذين ظلموا ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم باقترافهم جريمة الشرك اتبعوا ﴿ أهواءهم ﴾ في عبادتهم الأنداد بغير علم ﴿ فمن يهدي من أضلّ الله ﴾ أي فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم ﴿ ومالهم من ناصرين ﴾ أي ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير ولا محيد لهم عنه ، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ (٣١) مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۞ (٣٢) ﴾

نصف الحزب

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمرَّ على دينك ملّة إبراهيم الحنيفية ، التي هداك الله لها ، وأكملها لك غاية الكمال ، وانت مع ذلك ، لازِمْ فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى ﴾ وفي الحديث : ٤٣٠ [إنّي خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم] . وسنذكر في الأحاديث أنه تعالى فطر خلقه على الإسلام ، ثم طرأ على بعضهم اليهودية والنصرانية والمجوسية .

وقوله تعالى : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ أي لدين الله أي لا تبديل لدين الإسلام الذي فطر الناس عليه . روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : ٤٣١ [ما من مولود يولد إلا على الفِطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل

لخلق الله ذلك الدين القيّم »] ورواه مسلم .

روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع التيمي قال: ٤٣٢ [أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه فأصبت ظفراً . فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال ؛ ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية » فقال رجل يا رسول الله أما هم أبناء المشركين ؟ فقال : « لا إنما خياركم أبناء المشركين ــ ثم قال ــ لا تقتلوا ذرية ، لا تقتلوا ذرية ــ وقال ــ كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها ، فأبواها يهودانها أو ينصرانها »] وقوله تعالى : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي لا يعرفونه ، كقوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ منيبين إليه ﴾ أي راجعين اليه ﴿ واتقوه ﴾ أي خافوه وراقبوه ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ وهي الطاعة العظيمة ﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾ بل وحدوه وأخلصوا العبادة له ولا تريدوا بها الاّ وجهه تعالى . قال ابن جرير عن يزيد بن أبي مريم قال : مرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمعاذ ابن جبل فقال له عمر : ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث وهن المنجيات : الإخلاص وهي الفطرة ، فطرة الله التي فطر الناس عليها . والصلاة هي الملة ، والطاعة وهي العصمة ، فقال عمر : صدقت .

وقوله تعالى : ﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً أي بدّلوه وغيروه ، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض فكانوا فِرقاً وأحزاباً ... وهذه الأمة اختلفوا فيما بينهم كما اختلف أهل الأديان قبلهم هذا فقد اختلفت هذه الأمة على نحل كلها ضلالة إلاّ واحدة : وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين من قديم الدهر وحديثه كما رواه الحاكم في مستدركه أنه: ٤٣٣[سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم . قال : من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي]

۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۞ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ

بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن الناس انهم في حال الضراء يدعون الله وحده لا شريك له . وانه إذا أسبغ عليهم نعمة إذا فريق منهم يشركون بالله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ من النعم.ثم توعّدهم بقوله تعالى : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ قال بعضهم : والله لو توعّدني حارس درب لخفت منه ، فكيف والمتوعّد ههناهو الذي يقول للشيء كن فيكون ؟ ثم أنكر تعالى على المشركين عبادتهم غيره بلا حجة ولا برهان.فقال سبحانه : ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾ أي حجة ﴿ فهو يتكلم ﴾ أي ينطق ﴿ بما كانوا به يشركون ﴾ أي لم يكن لهم شيء من ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ هذا إنكار على النوع الإنساني إلاّ من عصمه الله ووفقه فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر. كما ثبت في الصحيح :٤٣٤[عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلاّ كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر،فكان خيراً له ، وان أصابته ضرّاء صبر ، فكان خيراً له.] وقوله تعالى : ﴿ أولم يرَوا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله فيوسّع على قوم ، ويضيّق على قومٍ آخرين . ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون ﴾

فَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ ٱللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

يأمر تعالى أمراً بإعطاء ﴿ ذي القربى حقّه ﴾ أي من البر والصلة ﴿ والمسكين ﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق منه ، ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المحتاج الى نفقة سفره ، ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله ﴾ أي الغاية القصوى من نعيم الجنة وهي النظر إليه تعالى ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ في الدنيا والآخرة ، ثم قال تعالى : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوَ في أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾ أي من أعطى عطيته يريد أن يرد الناس عليه اكثر مما أهدي لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله . قال ابن عباس وغيره وقال الضحاك : وهذا الصنيع مباح وان كان لا ثواب فيه ، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قال تعالى : ﴿ ولا تمنن تستكثرْ ﴾ أي لا تعطِ العطاء تريد أكثر منه .

وإنّما الثواب عند الله تعالى في الزكاة ولهذا قال سبحانه : ﴿ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعِفون ﴾ أي الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء كما جاء في الصحيح : ٤٣٥ [وما تصدق أحدٌ بعدل تمرةٍ من كسب طيب إلاّ أخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبه كما يربّي أحدكم فلوه أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحدٍ]

وقوله عز وجل : ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ﴾ أي هو الخالق الرازق روى الإمام أحمد عن حبّة وسواء ابنَي خالد،قالا : ٤٣٦[دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئاً فأعنّاه فقال « لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمرَ ليس عليه قشرةٌ ، ثم يرزقه الله عز وجل »] .

وقوله تعالى : ﴿ ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ أي يميتكم بعد هذه الحياة ثم يحييكم يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ هل من شركائكم ﴾ أي الذين تعبدونهم من دون الله ﴿ من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ هل يفعلون كما يفعل الله من الخلق والرزق والحياة والموت والبعث﴿سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ أي تنزّه الله وتعالى وتقدس وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ،أو ولد أو والد،بل هو لأحد الفرد والصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

۞ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي

ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ❁ (٤٢)

قال تعالى : ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ﴾ أي بان النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي وقال أبو العالية : من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض . لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه ابو داود: ٤٣٧ [لحدٌّ يقام في الأرض أحبُّ إلي أهلها من أن يُمطروا أربعين صباحاً]

والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت إنكفّ الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات ، وإذا تركت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض ولهذا إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت،من قتل الخنزير،وكسر الصليب،ووضع الجزية،وهو تركها. فلا يقبل إلاّ الإسلام أو السيف فإذا أهلك الله في زمانه الدجّال وأتباعه ويأجوج ومأجوج ، قيل للأرض أخرجي بركتك ، فيأكل من الرمانة الفئآم من الناس ويستظلون بقحفها ، ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس ، وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة محمد ﷺ فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير . ولهذا ثبت في الصحيحين : ٤٣٨ [ان الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب] .

وقوله تعالى : ﴿ ليذيقهم بعضَ الذي عملوا ﴾ أي يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختباراً منه لهم ومجازاة على صنيعهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي عن المعاصي كما قال تعالى : ﴿ وبلونا هم بالحسنات والسيئآت لعلهم يرجعون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ﴾ أي الذين من قبلكم ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ أي فانظر ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ❁ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ❁ (٤٤) لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ ❁ (٤٥)

يأمر تعالى عبادهَ بالاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله ﴾ أي يوم القيامة إذا اراد كونه فلا راد له . ﴿ يومئذ يصدّعون ﴾ أي يتفرقون، ففريق في الجنة وفريق في السعير ولهذا قال تعالى: ﴿ من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون * ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ﴾ أي يجازيهم مجازاة الفضل ، الحسنة بعشرة أمثالها الى سبعمأة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ ومع هذا ، فانه العادل فيهم الذي لا يجور .

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ * (٤٧) ﴾

يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرسال الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها ، ولهذا قال : ﴿ وليذيقكم من رحمته ﴾ أي المطر الذي ينزل فيحيي به العباد والبلاد ، ﴿ ولتجريَ الفلكُ بأمره ﴾ أي في البحر وإنما سيرها بالريح ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أي بالتجارات والمعايش والسير من إقليم إلى إقليم ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي تشكرون الله تعالى على نعمه الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا تحصى . ثم قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا ﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ بأنه وإن كذّبه قومه فقد كُذِّبَ المرسلون قبله مع ما معهم من الدلائل الواضحة ، فانتقم الله من المكذبين ، وأنجى المؤمنين برسله ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ أي حق أحقّهُ على نفسه الكريمة تكرماً منه وتفضّلاً كقوله تعالى : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرَّحمة ﴾ .

﴿ اللهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ

بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * (٤٩) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ * (٥١)

يبيّن الله تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء فقال تعالى : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ من تبخرات البحر ومن تبخرات ما يشاء سبحانه ﴿ فيبسطه في السماء كيف يشاء ﴾ أي يمدّه فيكثره وينميّه حتى يملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالاً مملوءة ،كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت ﴾ — الى قوله — ﴿ كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكّرون ﴾ وكذلك قال هاهنا : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً ﴾ أي قطعاً سوداء ثقيلة قريبة من الأرض . وقوله تعالى : ﴿ فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ أي فترى المطر ينهمر من السحاب ﴿ فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ أي لحاجتهم إليه وبنزوله ووصوله إليهم . وقوله تعالى : ﴿ وإن كانوا من قبل ان ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾ أي كانوا قانطين فلما جاءهم المطر جاءهم على فاقة ، فوقع منهم موقعاً عظيماً بعد أن انتظروه وقتاً بعد وقت ، فترقبوه في أثنائه ، فتأخر ثم مضت مدة فترقبوه فتأخر ثم جاءهم فجأة بعد الإياس منه فربت ارضهم بعد الهمود وأنبتت من كل زوج بهيج ولهذا قال تعالى : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله ﴾ يعني المطر ﴿ كيف يحيي الأرض بعد موتها ﴾ ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرّقها فقال تعالى : ﴿ إن ذلك لمحيي الموتى ﴾ أي إن الذي فعل ذلك لقادرٌ على إحياء الموتى ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرّاً لظلوا من بعده يكفرون ﴾ يقول تعالى : ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً ﴾ يابسةً على الزرع الذي زرعوه وشب واستوى على سوقه فرأوه مصفرّاً وشرع في الفساد لظلوا من بعده يجحدون ما تقدم إليهم من النعم ، كقوله تعالى : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ إلى قوله ﴿ بل نحن محرومون ﴾ .

والرياح ثمانية : أربعة منها رحمة ، وأربعة عذاب . فأما الرحمة : فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ، وأما العذاب : فالعقيم والصرصر وهما في البر ، والعاصف والقاصف وهما في البحر ، فإن شاء الله جعلها رحمةً وبشرى،أو شاء فجعلها عذاباً أليماً .

والرياح مختلفة في مهابّها : صبا ، ودبور ، وجنوب ، وشمال،وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف، فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان، وأخرى تجففه، وأخرى تسيّره وتصلبه ، وأخرى توهنه وتُضعفه .

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۞ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۞ (٥٣) ﴾

يقول تعالى : كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها ، ولا تبلغ كلامك الصمّ الذي لا يسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم بل ذلك إلى الله تعالى.فإنه عز وجل بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه.ولهذا قال تعالى : ﴿ إن تسمعُ إلاّ من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ أي خاضعونَ مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين كما قال تعالى : ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون ﴾ وقد استدلّت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية : ﴿فإنك لا تسمع الموتى ﴾ على توهيم عبدالله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم حتى قال له عمر : [٤٣٩ يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جيّفوا ، فقال « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » وتأولته عائشة على انه قال « انهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق »] وقال قتادة : أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعاً وتوبيخاً ونقمةً (١)

(١) قلت : لقد جاء في الطبعة البيروتية / طبعة دار الأندلس / لتفسير ابن كثير زيادات على نسخة تفسير ابن كثير الأميرية مثبتة في النسخة المكية ، وهذه الزيادات تشتمل على حديثين واهيين وعلى بعض روايات عن غير المعصوم. جاء فيها بعض الطامات، التي كانت وأمثالها من الخرافات.. سبباً في توهين جسم هذه الأمة التي=



﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝ (٥٤) ﴾

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار خلقه ، فأصله من تراب ، ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ، ثم يصير عظاماً ثم تُكسىَ لحماً ، ثم ينفخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه واهن القوى ، ثم يشبُّ قليلاً حتى يكون صغيراً ، ثم حدثاً ، ثم مراهقاً ثم شاباً ، وهو القوة بعد الضعف ثم يشرع في النقص فيكتهل ثم يشيخ فيهرم ، وهو الضعف بعد القوّة ، فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللمّة ، وتتغيّر الصفات الظاهرة والباطنة . ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء ﴾ أي يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد ﴿ وهو العليم القدير ﴾

= شاءها الله أن تكون خيرَ أمةٍ أخرجت للناس ، شريطةَ أن تتخذَ الإسلامَ الصحيحَ منهجاً لها وصراطاً مستقيماً إنّما غلبت عصور التأخر ، وما حملت في طياتها من كيدٍ للإسلام وأهله فدخلت مثل هذه الطامّات التي تعدل بالمسلمين عن منهجهم الهادي وطريقهم القويم .

لقد جاء في هذا التفسير (بل أُدخِل عليه ادخالا ودس عليه دُسا) أن الأموات يسمعون ويعقلون وتعرض عليهم أعمال الأحياء ! ثم قال أحد الرواة لهذه الطامات أنه رأى أهل القبور خارجين من قبورهم وجالسين عليها ويتكلمون مع هذا الراوي ونادوه بسمه ، ثم ذكرت بعض حكايات مستندة إلى منامات تؤيد سماع الأموات لكلام الأحياء ولسلاماتهم ، مما يخالف مخالفةً صريحةً لما جاء في الكتاب الكريم ، من ان الأموات لا يسمعون كقوله تعالى : «فإنك لا تسمع الموتى» وقوله تعالى : « وما أنت بمسمع من في القبور » وكقوله تعالى « و الذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير» وأمثال ذلك في القرآن كثير . واذا كان أهل القليب ببدر . خاطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووبخهم وقرعهم فهذا خاص بهذه الواقعة فقط؛ لأنه كان معجزة له صلى الله عليه وسلم لا سيما وإن أحد الرواة قال : [أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته توبيخاً وتقريعاً ونقمة .] فلما رد الله إليهم أسماعهم سمعوا مقالة النبي صلى الله عليه وسلم ليكون ذلك أبلغَ في عذابهم على أن أعداءَ الإسلام يحبون أن يدسوا سمومَهم هذه ، ليسهلَ عليهم أن يدسوا وراءَها عقائدَ شركيةً ، تجيز دعوةَ غير الله ، والاستغاثةَ بهم ، والذبح والنذر لهم ، وأمثال هذه الشركيات التي دسها أعداء الاسلام ، حتى ينالوا مآربهم وما يبغونه من الكيد للاسلام والمسلمين . وإننا نعتقد اعتقاداً جازماً ان أمثال هذه الطامات الخبيثات ؛ مدسوسة على تفسير ابن كثير رحمه الله الذي يُعد من أجل التفاسير بل هو أجلها وأهداها . . .

ولذا فقد ضربنا صفحاً عن ادخال هذه المنكرات في هذا المختصر الذي نحرص على أن يكون منزهاً عن كل ما يشين سمعة هذا الدين الكريم ، وفقاً لعقيدتنا السلفية الهادية المهدية وسوف نفرد -إن شاء الله- ردّاً خاصاً على هذه الترّهات . والله الموفق .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۝ (٥٥) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝ (٥٧) ﴾

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا عبدوا الأوثان وفي الآخرة أقسموا بالله انهم ما لبثوا في الدنيا غير ساعة ، ومقصدهم عدم قيام الحجة عليهم وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم .قال الله تعالى : ﴿ كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثم في كتاب الله الى يوم البعث ﴾ أي فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا فيقولون لهم حين حلفوا أنهم ما لبثوا غير ساعة : ﴿ لقد لبثم في كتاب الله ﴾ أي في كتاب الأعمال : ﴿ إلى يوم البعث ﴾ أي من يوم خلقتم إلى يوم بعثتم ﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فيومئذ ﴾ أي يوم القيامة : ﴿ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ وعمّا فعلوا ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أي ولا هم يرجعون الى الدنيا .كما قال تعالى : ﴿ وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝ (٥٨) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝ (٦٠) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولقد ضربْنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي قد بينا لهم الحق ووضّحناه لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتبعوه ﴿ ولئن جئتهم بآيـة ليقولنَّ الذين كفروا إن أنتم إلاّ مبطلون ﴾ أي مهما رأوا من آيات سواء كانت باقتراحهم أوَ

غيره لا يؤمنون بها .كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتّى يروا العذاب الأليم ﴾ ولهذا قال هاهنا : ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون. فاصبر إن وعد الله حق ﴾ أي اصبر على عنادهم ، ومخالفتهم فان الله وعدك بالنصر عليهم أنت ومن معك في الدنيا والآخرة ﴿ ولا يستخفنَّك الذين لا يوقنون ﴾ أي بل واثبت على ما بعثك الله به فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه، وليس فيما سواه هدي يتبع بل الحق كله منحصر فيه .

قال سعيد عن قتادة : نادى رجل من الخوارج علياً رضي الله عنه وهو في صلاة الغداة فقال : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ فأنصت له عليّ حتّى فهم ما قال ، فأجابه وهو في الصلاة : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾

آخر اختصار تفسير سورة الروم ، ولله الحمد والمنة وندعوه تعالى

أن ييسر الاختصار الى نهايته انه سميع قريب مجيب الدعاء

وسيليها اختصار تفسير سورة لقمان والحمد لله رب العالمين ٢٦ / ٤ / ١٣٩٠
٣٠ / ٦ / ١٩٧٠

(٣١) سورة لقمان مكيّة
وآياتها أربع وثلاثون

إلاّ الآيات : ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ فمدنية نزلت بعد الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ۞ (١) تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ ۞ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۞ (٣) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ (٤) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ (٥) ﴾

تقدم في أول سورة البقرة ، عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة وهو أنه سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاءً ورحمةً للمحسنين وهم الذين أحسنوا العمل في اتّباع الشريعة فأقاموا الصلاةَ المفروضة بحدودها وأوقاتها وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا أرحامهم ، وقرابتهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك فمن فعل فهو من الذين قال الله تعالى ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ أي على بصيرة وبيّنة ومنهج واضح جلي ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

مُهِينٌ ❁ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ❁ (٧)

لما ذكر حال السعداء وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه ،كما قال تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب كما قال ابن مسعود: في قوله تعالى﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم﴾قال : هو والله الغناء وكذلك قال ابن عباس وجابر وعكرمة وغيرهم ... قال الضحاك يعني الشرك، واختاره ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله . وقوله تعالى : ﴿ليضل عن سبيل الله ﴾ أي إنما يصنع هذا للتخالف للاسلام وأهله . وقوله تعالى: ﴿ ويتخذها هزواً ﴾ أي يستهزىء بها.وقوله تعالى : ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي كما استهانوا بآيات الله أهينوا يوم القيامة في العذاب المستمر. ثم قال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعْها كأنّ في أذنيه وقراً ﴾ أي هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنيّة ولّى عنها وأعرض ، وتصامم وما به من صمم لأنه يتأذى بسماعها ولا أرب له فيها . ﴿ فبشّره بعذاب أليم ﴾ أي يوم القيامة ، يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته . ولا شك فإن هذا كان جزاءاً وفاقاً من نوع العمل ولا يظلم ربك أحداً .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلنَّعِيمِ ❁ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ❁ (٩)

هذا ذكر خاتمة الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وعملوا الصالحات على مراد الله ﴿ لهم جنات النعيم ﴾ أي يتنعمون فيها بأنواع الملاذّ التي لا تخطر ببال أحد مقيمون فيها لا يبغون عنها حولاً . وقوله تعالى : ﴿ وعد الله حقاً ﴾ أي لا محالة كائن والله لا يخلف الميعاد لأنه الكريم المنان ، الفعّال لما يشاء القادر على كل شيء ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي قهر كل شيء ، ودان له. ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۞ (١٠) هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ (١١) ﴾

يبيّن سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، فقال تعالى : ﴿ خلق السموات بغير عمد ﴾ مرئية أو غير مرئية وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول سورة الرعد بما أغنى عن إعادته [1] ﴿ وألقى في الأرض رواسي ﴾ يعني الجبال أرست الأرض لئلا تضطرب بأهلها ولهذا قال جل وعلا: ﴿ أن تميد بكم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ أي بثّ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلاّ الذي خلقها ، وقد نبّه سبحانه على أنه الرازق بقوله جل وعلا : ﴿وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ أي من كل زوج من النبــات وقوله تعالى﴿هذا خلق الله ﴾ أي صادر عن خلق الله وفعله وتقديره وحده لا شريك له في ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ أي مما تعبدونه وتدعونه من دون الله من الأصنام والأنداد؟! ﴿ بل الظالمون ﴾ يعني المشركين بالله، العابدين غيره معه ﴿ في ضلال ﴾ أي جهل وعمى ﴿ مبين ﴾ أي واضح ظاهر .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۞ (١٢) ﴾

اختلف السلف في لقمان: هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة...؟ على قولين، الأكثرون على الثاني ، وعن ابن عباس أنه كان عبداً حبشياً نجاراً . وعن جابر بن عبدالله قال : كان قصيراً أفطس الأنف من النوبة . وعن سعيد بن المسيب قال كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوّة . وقال ابن جرير : كان لقمان عبداً

(١) سورة الرعد الآية رقم /٢/

حبشيّاً نجاراً فقال له مولاه اذبح لنا هذه الشاة فذبحها قال : أخرج أطيب مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب ، ثم مكث ما شاء الله ثم قال : إذبح لنا هذه الشاة ، فذبحها ، فقال أخرج أخبث مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما فقال لقمان : انه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا. ولا أخبث منهما إذا خبثا. وقد أتى رجل اليه وسأله : ما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث . والصمت عما لا يعنيني . ومما تقدم يتضح أنه كان عبداً قد مسّه الرق ، والرق ينافي كونه نبياً . لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها ولذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً . وسئل أيضاً عن أسباب ما وصل إليه فقال : يا ابن أخي إن صغيت إلى ما أقول لك . كنت كذلك قال لقمان : غَضّي بصري ، وكَفّي لساني . وعِفة طعمتي ، وحِفظي فرجي ، وقَولي بصدق ، ووَفائي بعهدي ، وتكرمتي ضيفي . وحِفظي جاري . وتَركي ما لا يعنيني، فذاك الذي صيرني إلى ما ترى .

وقوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ أي الفهم والعِلم والتعبير والفقه في الإسلام ولم يكن نبيّاً ولم يوحَ إليه . ﴿ ان اشكر لله ﴾ أي أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه من الفضل الذي خصصه بِه عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه ، ثم قال تعالى : ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ أي إنما يعود النفع على الشاكرين ، لقوله تعالى : ﴿ومن كفر فإن الله غني حميد ﴾ أي غني عن العباد لا يتضرر بذلك ، ولو كفر أهل الأرض جميعاً فإنه الغني عما سواه ، فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِٱبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝ (١٣) وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ۝ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ (١٥) ﴾

يخبر تعالى عن وصية لقمان لابنه . ولقمان هو ابن عنقاء بن سدون . واسم ابنه تاران في قول حكاه السهيلي . أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده لا شريك له ثم قال محذراً لـه ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ أي هو أظلم الظلم. روى البخاري عن عبدالله قال : ٤٤٠ [لما نزلت ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ : وقالوا أيّنا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « انه ليس بذلك ألا تسمع الى قول لقمان : ﴿ يا بني لا تشركْ بالله إن الشِّرك لظلم عظيم »] . ورواه مسلم من حديث الأعمش به.ثم قرن بوصية ابنه بعبادة الله وحده، البرَّ بالوالدين وقال ههنا : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن ﴾ أي ضعفاً على ضعف ، وقوله : ﴿ وفصاله في عامين ﴾ أي تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين كما قال تعالى : ﴿ والوالـدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ ومن ههنا استنبط ابن عباس : أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأنه قال في الآية الأخرى : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ وإنّما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً ، ليذكِّر الولـد بإحسانها المتقدّم إليه ولهذا قال تعالى : ﴿ أن اشكرْ لي ولوالديك إليَّ المصير ﴾ أي فإني سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء .

وقوله تعالى : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ أي في متابعتهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنع أن تحسن إليهما ﴿ واتبعْ سبيل من أنابَ إليَّ ﴾ يعني المؤمنين ﴿ ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾.

وروى الطبراني في كتاب العشرة بالسند الى سعد بن مالك قال : أنزلتْ فيّ هذه الآية : ﴿ وإن جاهداك... ﴾ الآية قال كنت رجلاً براً بأمي فلما أسلمتُ ، قالت : يا سعد ما هذا الذي أراك قدأحدثتَ ،لتدعَن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بي ، فيقال : يا قاتل أمّه ، فقلت لا تفعلي يا أمّه ، فإني لا ادع ديني هذا لشيء ، فمكثتْ يوماً وليلة ولم تأكل فأصبحت وقد جهدت ، فمكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً وليلةً أخرى لا تأكل فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمّه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء فإن شئت فكلي وان شئت لا تأكلي ، فأكلَتْ .

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي

(١) راجع تفسير الآية / ١٥ / من سورة الأحقاف ففيه تفصيل مفيد .

صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۞ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۞ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ (١٨) وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ۞ (١٩)

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم ليمتثلها الناس ويقتدوا بها، فقال: ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ﴾ أي إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل ﴿ يأت بها الله ﴾ أي يحضرها يوم القيامة ، ويجازي عليهما إن خيراً فخير أو شراً فشر . كقوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ۰ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ ومهما كانت الذرة خافية أي غائبة في أرجاء السموات والأرض، يأت بها من لا تخفى عليه خافية فيها. ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ أي لطيف العلم بالأشياء مهما تضاءل أو دقّ . وخبير بكل شيء حتى بدبيب النمل في الليل البهيم ، وكل مخلوق يُرى وما لا يُرى .

﴿يا بنيّ أقم الصلاة﴾ أي بفروضها وحدودها وأركانها وأوقاتها ﴿وأمر بالمعروف وانهَ عن المنكر﴾ بحسب استطاعتك ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ أي لأن الداعي الى الله تعالى لا بد أن يناله الأذى ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ أي إن الصبر على أذى الناس من العزائم التي يوهبها الله لأهل دعوته . وقوله: ﴿ ولا تصعّر خدك للناس ﴾ وأصل الصَعَر : داءٌ يأخذ الإبل في أعناقها حتى تفلت عن رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر الذي يعرض بوجهه عن الناس إذا كلمهم أو كلموه احتقاراً منه إليهم ، واستكباراً عليهم وإن الله ينهى عن ذلك، وقوله : ﴿ ولا تمشِ في الأرض مرحاً ﴾ أي خُيلاء متكبراً ، لا تفعل ذلك يبغضك الله ولهذا قال سبحانه : ﴿ إن الله لا يحبُّ كل مختال فخور ﴾ أي معجب في نفسه ، فخور على غيره . كقوله تعالى : ﴿ ولا تمشِ في الأرض مرَحاً إنك لن تخرقَ الأرض ولن تبلغَ الجبالَ طولاً ﴾ روى الحافظ الطبراني بسنده إلى ثابت بن قيس بن شماس قال :٤٤١ ذكر الكِبْر عند رسول الله ﷺ فشدّد فيه فقال : ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾

فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها ، ويعجبني شراك نعلي ، وعلاقة سوطي ؛ فقال « ليس ذلك الكبر ، إنما الكبر أن تسفه الحق وتغمط الناس »]

وقوله تعالى : ﴿ واقصد في مشيك ﴾ أي لا بطيئاً ولا مسرعاً إنّما مقتصد بين بين وقوله تعالى : ﴿ واغضض من صوتك ﴾ أي لا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ولهذا قال: ﴿ إنَّ أنكر الأصواتِ لصوتُ الحمير ﴾ أي أقبح الأصوات أي غايته من رفع صوته أن يشبّه بالحمير في علوّه ورفعه ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى ، والتشبيه بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم لأن رسول الله ﷺ قال: ٤٤٢ [ليس لنا مثل السوء ... العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه] وروى النسائي عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ٤٤٣ [إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، واذا سمعتم نهيق الحمير، فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً] وأخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجة .

فهذه وصايا نافعة من قصص القرآن الكريم عن لقمان الحكيم . وقد روي عنه من الحكم والمواعظ اشياء كثيرة . منها ما روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : اخبرنا رسول الله ﷺ قال: ٤٤٤ [إن لقمان الحكيم كان يقول : ان الله إذا استودع شيئاً حفظه]

وعن ابن أبي حاتم عن القاسم بن مخيمرة ان رسول الله ﷺ قال: ٤٤٥ [قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه: يا بني إياك والتقنع ، فإنه مخوفة بالليل مذمة بالنهار]

« من أقواله لابنه »

- يا بني ان الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .
- يا بني إذا أتيت نادي قوم ، فارمهم بسهم الإسلام يعني السلام ، ثم اجلس في ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا فإن أفاضوا في ذكر الله فأَجِلْ سهمك معهم وإن أفاضوا في غير ذلك ، فتحول عنهم إلى غيرهم .

« في التواضع »

أحاديث تتعلق بوصية لقمـــــان الحكيم لابنه »

* عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: ٤٤٦ [رُبَّ اشعث ذي طمرين يصفع عن أبواب الناس إذا أقسم، على الله لأبرّه]

• وعن أنس رضي الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ : ٤٤٧ [طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يُعرَفوا ، وإذا غابوا لم يُفتَقَدوا ، أولئك مصابيحُ مجرّدون من كل فتنة غبراء مشتّتة] .

• وعن معاذ بن جبل قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ سمعته يقول : ٤٤٨ [ان اليسير من الرياء شرك، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، واذا حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة] .

« في الشهرة ... »

• عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٤٤٩ [حسب امرىءٍ من الشر إلاّ من عصم الله ، أن يشيرَ الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه ، وان الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن الى قلوبكم وأعمالكم] فيه ابن لهيمة ضعيف لسوء حفظه بعد ان احترقت كتبه .

– قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : ما صدق الله من احب الشهرة .

– قال سليم بن حنظلة : بينا نحن حول أبي إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال : إنها مذلة للتابع وفتنة للمتبوع .

– قال إبراهيم النخعي : لا تلبس من الثياب ما يشهر في الفقهاء ولا ما يزدريك السفهاء .

« في حسن الخلق »

• عن أنس رضي الله عنه : ٤٥٠ [كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خُلُقاً]

• وعن ابن عمر رضي الله عنه : ٤٥١ [قيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضل ؟« قال أحسنهم أخلاقاً »]

• وعن عائشة مرفوعاً ٤٥٢ [ان العبدَ ليبلغ بحسن خلُقه درجةَ قائمِ الليل صائم النهار]

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه : ٤٥٣ [سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنّة فقال : « تقوى الله وحسن الخلق »] ، وسئل عن اكثر ما يدخل الناس النار فقال : « الأجوفان : الفم والفرج »] وعن أنس مرفوعاً : ٤٥٤ [ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة]

* عن الحسن بن علي قال : قال رسول الله ﷺ ٤٥٥ [ان الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه الأجر ويروح]

* وعن أبي هريرة مرفوعاً : ٤٥٦ [إنكم لا تَسَعُون الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسطُ وجوه وحسنُ خلق] .

« في ذم الكِبْر »

* عن ابن مسعود رفعه : ٤٥٧ [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كِبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرةٍ من إيمان]

عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً : ٤٥٨ [من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر أكبّه الله على وجهه في النار]

قال محمد بن الحسين بن علي – من ولد علي رضي الله عنه – ما دخل قلب رجل من شيء من الكِبر إلاّ نقص من عقله بقدر ذلك .

* في الاختيال – : عن بريدة مرفوعاً : ٤٥٩ [من جرَّ ثوبَه خيلاء لم ينظرِ الله إليه]

* وعن أبي هريرة مرفوعاً ٤٦٠ [لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ إزاره وبينما رجل يتبختر في بردَيْه أعجبته نفسُه ، خسف اللهُ به الأرضَ فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة][1] .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ

(١) هو قارون الذي خسف الله به الأرض لكفره وكبره واختياله والعياذ بالله .

فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۞ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۞ (٢١)

ينبه تعالى خلقه على نعمه بأن سخر لهم كل ما في السموات والأرض ليستعينوا بها في معاشهم في الدنيا فتكون معينةً لهم على عبادتهم لله تعالى كما أمر ، وأفاض عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل.ومع كل هذا ماآمن من الناس إلا قليل ، واكثرهم يجادل في توحيد الله وارساله الرسل ولكن بغير علم ولا حُجة من كتاب من الله مبين مضيء.﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ﴾ على رسولِهِ من الشرائع المطهرة ﴿ قالوا بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي ليس لهم أي حجة سوى اتباع الآباء الأقدمين.فما ظنكم أيها المفتونون بآبائكم إذا كانوا على ضلالة وأنتم خلفهم في ذلك؟ ولهذا قال : ﴿ أوَلو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ – وهكذا حال من يهجر سبيلَ الله المستقيم ، ويتبع كل شيطان من الجِنَّة والناس ليقذفوا بهم في قرار الجحيم .



وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۞ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ۞ (٢٤)

يخبر تعالى عمّن أسلم وجهه لله أي أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ولهذا قال تعالى : ﴿ وهو محسن ﴾ أي في عمله باتباع ما أمر به وترك ما زجر عنه ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أي فقد أخذ موثقاً متيناً من الله انه لا يعذبه ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ومن كفر فلا يحزنك كفره ﴾ أي لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله وبما جئت به ، وإلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا أي فيجزيهم عليه ﴿ إن الله عليم بذات الصّدور ﴾ فلا تخفىَ عليه خافية ثم قال تعالى : ﴿ نمتعهم قليلاً ﴾ أي في الدنيا ﴿ ثم نضطرهم ﴾ أي نلجئهم ﴿ إلى عذاب غليظ ﴾ أي فظيع صعب مشقّ على النفوس .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٢٥) لِلهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۞ (٢٦) ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء المشركين أُنهم يعترفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لا شريك له ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلْق له وملْك له ، ﴿ قل الحمد لله ﴾ إذْ قامت عليكم الحجة باعترافكم .﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لله ما في السموات والأرض ﴾ اي هو خلْقه وملكه ﴿إن الله هو الغني الحميد﴾ أي الغني عما سواه وكل شيء فقير إليه ، الحميد في جميع ما خلق ، له الحمد في السموات على ما خلق وما شرع وهو المحمود في الأمور كلها .

﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۞ (٢٨) ﴾

يخبر سبحانه عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلى وكلماته التامّة التي لا يحيط بها أحد ولا يحصيها كما قال سيد البشر : ٤٦١ [... لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك] فقال تعالى: ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً وجعل البحر مداداً وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله، لتكسّرت الأقلام ونفد ماءُ البحار ولو جاء أمثالها مدداً إن ربّنا كما يقول وفوق ما نقول . قال قتادة إنها نزلت لمّا قال المشركون : إنما هذا الكلام يوشك أن ينفد فقال الله تعالى : ﴿ ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام ...﴾ الآية .

وروي عن ابن عباس ٤٦٢ [أنها نزلت جواباً لليهود فإن أحبارهم قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة : يا محمد أرأيت قولك : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ إيّانا تريد أم

قومك ؟ فقال رسول الله ﷺ « كلا كما » قالوا ألست تتلو فيما جاءك أنّا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء ؟ فقال رسول الله ﷺ « إنها في علم الله قليل وعندكم من ذلك ما يكفيكم ، وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ﴾ الآية] وهذا يقتضي أن الآية مدنيّة لامكية والمشهور أنها مكية والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ أي عزيز قد عز كل شيء وقهرَه وغلبه ، حكيم في جميع شؤونه.وقوله تعالى : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفسٍ واحدة ﴾ أي ما خلق جميع الناس وبعثُهم يومَ المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كخلق نفسٍ واحدة . وقوله تعالى : ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ أي سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفسٍ واحدة .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۞ (٣٠) ﴾

يخبر تعالى أنه ﴿ يولج الليل في النهار ﴾ يعني يأخذ منه في النهار فيطول ذاك ويقصر هذا ، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار الى الغاية ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار وهذا يكون في الشتاء ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمّى ﴾ أي إلى غاية محدودة كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه الذي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٤٦٣ [يا أبا ذر أتدري أين تذهب هذه الشمس » قلت : الله ورسوله أعلم قال : فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال ارجعي من حيث جئت]

وقوله تعالى : ﴿ وان الله بما تعملون خبير ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ﴾ أي إنما يُظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أي الموجود الحق ، الإله الحق وإن كل ما سواه باطل والجميع خلقه وعبيده ولو اجتمع كل المخلوقات لا يقدرون على تحريك ذرة إلاّ بإذنه ولعجزوا أن يخلقوا ذباباً.ولذا قال سبحانه : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العليُّ الكبير ﴾

أي العلي الذي لا أعلى منه ، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ ءَايَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۞ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ۞ (٣٢) ﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره أي بلطفه وتسخيره ، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت ، ولهذا قال عز من قائل: ﴿ليريكم من آياته﴾ أي من قدرته ﴿إن في ذلك لآياتٍ لكل صبار شكور﴾ أي صبّار في الضراء شكور في الرخاء.ثم قال تعالى : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل ﴾ اي كالجبال والغمام ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ [1] ثم قال جل وعلا : ﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴾ قال مجاهد : أي كافر كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد ولهذا قال سبحانه : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلاّ كلّ ختار كفور﴾ فالختّار هو الغدار وهو الذي كلما عاهد نقض عهده . والخَتْرُ أتمُّ الغدر وأبلغه ، قال عمر بن معد يكرب :

وإنك لو رأيت أبا عميرٍ ملأتَ يديْك من غدرٍ وختْرِ

وقوله تعالى : ﴿ كفور ﴾ أي جحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۞ (٣٣) ﴾

يُنذر الله الناسَ يومَ المعاد ، ويأمرهم بتقواه والخوفِ منه والخشيةِ من يوم القيامة حيث : ﴿ لا يجزي والد على ولده ﴾ أي لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه ، وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه . ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله تعالى : ﴿ فلا

(١) أي موحدين تمام التوحيد لا يشركون به أحدا

تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ أي لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرورُ ﴾ الغرور هو الشيطان فانه يغر ابنَ آدم ويعدُه ويمنّيه وليس من ذلك من شيء بل كان كما قال تعالى : ﴿ يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلاّ غرُورا ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٣٤)

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بالعلم بها فلا يعلمها أحدٌ إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛ فعلم وقتَ الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب. ﴿ لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو ﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلاّ الله ولكن إذا أمر به عامته الملائكة الموكلون بذلك ، ولا يعلم ما في الأرحام من ذكر أو أنثى أو شقياً أو سعيداً إلا الله ثم يعلم الله الملائكة الموكلين بذلك ، وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخراها وكذلك ما تدري نفس في أي بلد أو غيره من بلدان الله ستقبض ولا يدري أحد بذلك ولا يعلمه .

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ﴾ وقد وردت السنّة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب .

روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ٤٦٤ [مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلاّ الله ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير ﴾] إنفرد بإخراجه البخاري .

روى الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ٤٦٥ [من حدثك أنه [١] يعلم ما في غدٍ فقد كذب ثم قرأت : ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾] .

وقوله تعالى : ﴿ وما تدري نفس بأي أرضٍ تموت ﴾ قال قتادة : أشياء استأثر الله بهن ، فلم يطلعْ عليهن ملكاً مقرّباً ولا نبيّاً مرسلاً. ﴿ إنّ الله عنده علم الساعة ﴾ فلا

(١) أي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي سنة أو في أي شهر أو ليل أو نهار ﴿ وينزّل الغيث ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلاً أو نهاراً. ﴿ ويعلم ما في الأرحام﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام ذكراً أم أنثى ، أحمر أم أسود وما هو ... ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ أخير أم شر ، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت لعلك الميت غداً ، لعلك المصاب غدا ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ أي ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض ، أفي بحر أو بر أو سهل أو جبل وقد جاء في الحديث: ٤٦٦ [اذا أراد الله قبض عبد بأرض ، جعل له إليها حاجة .]

آخر اختصار تفسير سورة لقمان والحمد لله رب العـــالمين

٢٨ / ٤ / ١٣٩٠
٢ / ٧ / ١٩٧٠

(٣٢) سُورَةُ السَّجدَةِ مكيّة وآياتها ثلاثون

إلاّ الآيات ١٦ - ٢٠ فمدنيّة نزلت بعد المؤمنين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۞ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ۞ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ
قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۞ (٣) ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن اعادته ههنا . وقوله تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿ من ربِّ العالمين ﴾ ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أي اختلقه من عند نفسه ﴿ بل هو الحقُّ من ربك لتنذرَ قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾ أي يتّبعون الحق الذي جاء به .

وقد روى البخاري في كتاب الجمعة عن أبي هريرة قال : ٤٦٧ [كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿ آلم . تنزيل ...﴾ السجدة و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾] ورواه مسلم من حديث سفيان الثوري به . روى الإمام أحمد عن جابر قال : ٤٦٨ [كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ: ﴿ آلم . تنزيل ﴾ السجدة ، و ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ ، تفرد به أحمد .

﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ

أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه خلق الأشياء فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش – استواءً يليق بجلاله بلا تكييف ولا تشبيه ولا تجسيم ولا تأويل ولا تعطيل – ﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ أي بل هو المالك لأزمَّة الأمور ، الخالق المدبر لكل شيء ، والقادر على كل شيء فلا وليّ لخلقه سواه ، ولا شفيع إلاّ من بعد إذنه ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ يعني أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه ، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو وزير أو نديد أو عديل لا إله الاهو ولا رب سواه . وقوله تعالى : ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ أي يتنزّل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة كما قال تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ﴾ الآية وترفع الأعمال إليه تعالى ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون ﴾ ولكن الملَك يقطعها بطرفة عين ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ أي إن الله تعالى هو شهيد على أعمال عباده ترفع اليه جميعاً جليلها وحقيرها وصغيرها وكبيرها . هو العزيز سبحانه الذي عزّ كل شيء فقهره وغلبه ، والرحيم بعباده المؤمنين ، فهو عزيز في رحمته ، رحيم في عزته وهذا هو الكمال ، العزة مع الرحمة ، والرحمة مع العزة ، فهو رحيم بلا ذل .

ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى مخبراً أنه الذي أحسنَ خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها. ثم لما ذكر خلق

السموات والأرض ، شرع في ذكر خلق الإنسان فقال تعالى : ﴿ وبدأ خلق الانسان من طين ﴾ يعني خلق أبا البشر آدم عليه السلام من طين ﴿ ثم جعل نسلَهُ من سلالة من ماء مهين ﴾ أي يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ﴿ ثم سواه ﴾ يعني آدم لما خلقه من تراب ، خلقه سوياً مستقيماً ﴿ ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ يعني العقول ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي بهذه القوى التي رزقكموها الله عز وجل فالسعيد من استعملها في طاعته عز وجل .



﴿ وَقَالُوا ءَإِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ ءَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ * (١١) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا : ﴿ أإذا ضللنا في الأرض ﴾ أي تمزقت أجسادنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿ أئنّا لفي خلق جديد ﴾ أي أنعود بعد تلك الحال ؟ يستبعدون ذلك بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة،لا إلى الذي يقول للشيء كن فيكون ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم ﴾ الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة كما هو المتبادر من حديث براء المتقدم ذكره في سورة ابراهيم ، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل[1] وهو المشهور قاله قتادة وغير واحد، وله أعوان، وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت . قال مجاهد : حويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء ورواه زهير بن محمد عن النبي ﷺ بنحوه مرسلاً وقوله تعالى : ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أي يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَأَرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ * (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

(١) لم تصح تسمية ملك الموت بعزرائيل ، فنكتفي ونقف عند التسمية التي سماه الله تعالى : (ملك الموت)

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة ، وقالهم حين عاينوا البعث وقاموا بين يدي الله عز وجل ، حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم ، من الحياء والخجل يقولون : ﴿ ربّنا أبصرنا وسمعنا ﴾ أي الآن نسمع ونطيع أمرك وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ وهكذا هؤلاء يقولون ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا ﴾ إلى دار الدنيا ﴿ نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ أي قد أيقنا أن وعدك حق ولقاءك حق ، ويعلم الله أنه لو أعادهم الى الدنيا لكانوا كفاراً يكذّبون بآيات الله ويخالفون رسله ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنّة والناس أجمعين ﴾ = أي لو أردنا لأجبرنا كلّ نفسٍ على أن تهتدي بأمرنا إلى الخير إجباراً وإننا لقادرون على ذلك ولكن حق منا القول ان تختار النفوس طريقها إلى الخير أو الشر اختياراً منهم لأنه سبق أن علموا مني ما هي خاتمة الطائعين لأوامري وما هي خاتمة العاصين من الجنّ والإنس فلأملأن جهنم منهم أجمعين أما الذين أطاعوا واتبعوا سبل السلام فلأجعلنهم في دار السلام ، والنعيم المقيم [1] =

نعوذ بالله من حال أهل النار فإنه يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنّا نسيناكم ﴾ أي سنعاملكم معاملة الناسي من باب المقابلة وإلاّ فإن الله تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء كما قال تعالى : ﴿ فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ أي بسبب كفركم ، وتكذيبكم كقوله تعالى : ﴿ فلن نزيدكم إلاّ عذاباً ﴾



إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

(١) قلت : إن بين المساويين ليس من كلام المفسر رحمه الله إنّما هو من كلامي والله الموفق .

يقول تعالى: ﴿ إنما يؤمن بآياتنا ﴾ أي يصدقها ﴿ الذين إذا ذُكّروا بها خرّوا سجّداً ﴾ أي استمعوا لها وأطاعوها قولاً وعملاً ﴿ وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴾ أي عن اتباعها والانقياد لها كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة . قال الله تعالى : ﴿ ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يعني بذلك قيامَ الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة. قال مجاهد والحسن في قوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يعني بذلك قيام الليل وقيل الصلاة بين العشاءَيْن وعن أنس : هو انتظار صلاة العتمة . ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ أي خوفاً من وبال عقابه ، وطمعاً في جزيل ثوابه. ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ كما قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه :

وفينا رسول الله يتلو كتابَهُ ... إذا انشقّ معروف من الصبح ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى ، فقلوبنا ... به موقنات أنّ ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : ٤٦٩ [عجب ربنا من رجلين رجل ثار من وطائه ولحافه من بين حبه وأهله الى صلاته رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي ، ورجل غزا في سبيل الله تعالى فانهزموا ، فعلم ما عليه من الفرار وماله في الرجوع فرجع حتى أهريق دمه رغبة فيما عندي ، وشفقةً مما عندي فيقول الله عز وجل للملائكة **انظروا إلى عبدي رجع** رغبة فيما عندي ، ورهبة مما عندي . حتى أهريق دمه »]

روى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال : ٤٧٠ [كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحتُ يوماً قريباً منه ونحن نسير فقلت : يا نبيّ الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال : « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ـ ثم قال ـ ألا أدلّك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنّة ، والصدقة تطفىءُ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل ـ ثم قرأ ـ ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿ ...جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ فقلت : بلى يا رسولَ الله فقال : « رأس الأمر الإسلام ، وعمودُه الصلاة ، وذروةُ سنامه الجهاد في سبيل الله ـ ثم قال ـ : ألا اخبرك بملاك ذلك كله ؟ فقلت : بلى يا نبيّ الله ، فأخذ بلسانه ثم قال « كفّ عليك هذا » فقلت : يا رسول الله وإنا لمؤآخذون بما نتكلم به ؛

فقال : « ثكلتك أمك يا معاذ وهل يُكَبُّ الناس في النار على وجوههم أو قال : على مناخرهم إلاّ حصائد ألسنتهم »] ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم من طرق عن معمر به وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ الآية أي فلا يعلم أحد عظمة ما اخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد لما أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب ، جزاءً وفاقاً فإن الجزاء من جنس العمل، قال الحسن البصري : أخفى قوم عملهم ، فأخفى الله لهم ما لم ترَعين ولم يخطرْ على قلب بشر ؛ رواه ابن أبي حاتم .

روى البخاري عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ٤٧١ قال الله تعالى : أعدَدتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر أخرجاه في الصحيحين بدون زيادة قال أبو هريرة : إقرأوا إن شئتم ...

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ ۞ (١٨) أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (١٩) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۞ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ۞ (٢٢) ﴾

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أن لا يساويَ في حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متّبعاً لرسله بمن كان فاسقاً،أي خارجاً عن طاعة ربه،مكذباً رسل الله إليه ، كما قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات

سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ أي عند الله يوم القيامة ، ذكر عطاء بن يسار السدّي وغيرهما أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط ولهذا فصل حكمهم فقال تعالى : ﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها وهي الصالحات ﴿ فلهم جنات المأوى ﴾ التي فيها المساكن والغرف العالية ﴿ نزلاً ﴾ أي ضيافة وكرامة ﴿ بما كانوا يعملون٭وأما الذين فسقوا ﴾ أي خرجوا عن طاعة الله ﴿ فمأواهم النار كلّما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدي لموثقة ، وان الأرجل لمقيدة ، وان اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمعهم ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً .

وقولُه تعالى : ﴿ ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ قال ابن عباس : يعني مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه . وروى البخاري عن ابن مسعود : ما أصابهم من القتل أو السبي يوم بدر ، وكذا قال مالك عن زيد بن أسلم قال السدي وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غرموا ، ومنهم من جمع له الأمران . وقوله تعالى: ﴿ ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ أي لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبيّنها له ووضّحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها ،كأنه لا يعرفها .ولهذا قال تعالى متهدّداً لمن فعل ذلك﴿ إنّا من المجرمين منتقمون ﴾ أي سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۞ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۞ (٢٥) ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه آتاه الكتاب وهو التوراة . وقوله تعالى : ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ أي من لقاء موسى ربه عز وجل ﴿ وجعلناه ﴾ أي الكتاب الذي آتيناه وهو التوراة ، ﴿ هدى لبني اسرائيل ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل أن لا تتخذوا من دوني وكيلاً ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ أي لما كانوا صابرين على أوامره تعالى وترك زواجره ، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوهم به كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمره ويدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ثم لما بدّلوا وحرفوا واوّلوا سُلبوا ذلك المقام وصارت قلوبهم قاسية يحرِّفون الكلم عن مواضعه فلا عمل صالحاً ولا اعتقاداً صحيحاً. ولهذا قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب ﴾ أي لما أخذوا برأس الأمر وصاروا رؤوساً وقوله تعالى : ﴿ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي من الاعتقادات والأعمال .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۞ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَاءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۞ (٢٧) ﴾

يقول تعالى: أولم يهدِ لهؤلاء المكذبين بالرسل، ما أهلك قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ، ومخالفتهم إياهم فيما جاءوهم به من قويم السبل فلم يبقَ منهم باقية ولا عين ولا أثر . ﴿ هل تحسّ منهم من أحدٍ أو تسمعُ لهم ركزا ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ أي وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين ، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها ، ذهبوا منها ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي عبرٌ ومواعظ ودلائل متناظرة بين من كذب وما آلت اليه حاله وبين من آمن وما آلت اليه حاله ﴿ أفلا يسمعون ﴾ أخبار من تقدم كيف كان أمرهم .

وقوله تعالى : ﴿ أولم يُروا أنا نسوق الماءَ إلى الأرض الجرز ﴾ يبيّن تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء إمّا من السماء أو من ما تحمله الأنهار ويتحدّر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته. ولهذا قال تعالى : ﴿ الى الأرض الجرز ﴾ وهي التي لا نبات فيها ﴿ فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ وليس المراد أرض مصر فقط ، بل هي بعض المقصود فانها في نفسها أرض رخوة فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من امطار الحبشة وفيه طين أحمر فيغشي أرض

مصر وهي أرض سبخة مرملة محتاجة الى ذلك الماء وذلك الطين ايضاً لينبت الزرع فيه فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور من غير بلادهم وطين جديد من غير أرضهم فسبحان الحكيم الكريم المنّان المحمود أبداً . ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ أفلا يبصرون ﴾ ويدخل في ذلك كل أرض جرز وهي التي لا نبات فيها. وهذا كقوله تعالى: ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ﴾ الآيتين

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ (٢٨) قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۞ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۞ (٣٠) ﴾

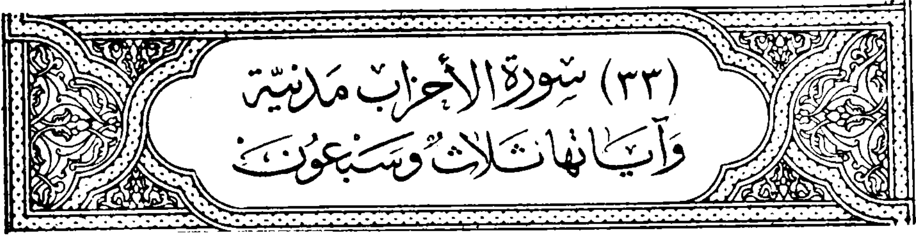
يخبر تعالى عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم وحلول غضبه ونقمته عليهم تكذيباً واستبعاداً وعناداً ﴿ ويقولون متى هذا الفتح ﴾ أي متى تُنْصَرُ علينا يا محمد ؟ كما تزعم، ما نراك أنت وأصحابك إلاّ مختفين خائفين ذليلين . قال الله تعالى: ﴿ قل يوم الفتح ﴾ أي إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا والآخرة ﴿ لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ ومن زعم ان المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة وأخطأ فأفحش ، فإن يوم فتح مكة من قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء وقد كانوا قريباً من ألفين ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى : ﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ وانما المراد : الفتح يوم القضاء والفصل كقوله تعالى : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾ أي أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل اليك من ربك وانتظر فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك وسينصرك على مخالفيك إنه لا يخلف الميعاد . وقوله تعالى : ﴿إنهم منتظرون﴾ أي أنت منتظر وهم منتظرون ويتربصون

(١) قلت : ويوم الفتح هذا كما قال المفسر رحمه الله تعالى يوم الفصل والقضاء أي يوم القيامة يوم يفصل الله فيما بين الخلائق ويقضي بحكمه لهم أو عليهم وذلك بدليل قوله تعالى « قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون . قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق ... »

بكم الدوائر ، وسترى عاقبة صبرك عليهم وسيجدون مغبة كفرهم من وبيل عقاب الله لهم وحلول عذابه بهم وحسبنا الله ونعم الوكيل .

آخر اختصار تفسير سورة السجدة ولله الحمد والمنة .

١ / ٥ / ١٣٩٠
٤ / ٧ / ١٩٧٠



نزلت بعد آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم



﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ۝ (١) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ۝ (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝ (٣) ﴾

روى الإمام أحمد عن زر قال : ٤٧٢ [قال لي أُبَيُّ بنُ كعب : كأيٍ تقرأ سورة الأحزاب أو كأيٍّ تعدُّها ؟ قال : قلت ثلاثاً وسبعين آية فقال : قط لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم] ورواه النسائي من وجه آخر ، وهذا يقتضي أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي اتقِ الله ﴾ هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى اذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلأن يأتمر مَنْ دونَهُ بذلك بطريق الأولى والأحرى.وقوله تعالى : ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ أي لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿ إن الله كان عليما حكيماً ﴾ أي فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم في أقواله وأفعاله.ولهذا قال تعالى : ﴿ واتبع ما يوحىَ إليك من ربك ﴾ أي من قرآن وسنّة ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ أي لا تخفى عليه خافية ، ﴿ وتوكل على الله ﴾ في جميع أمورك وأحوالك.﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأناب إليه .

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ ٱللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ❁ (٤) ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ ٱللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَٰكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ❁ (٥) ﴾

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوي أمراً معروفاً حسياً ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله : أنت عليَّ كظهر أمي أمّاً له، كذلك لا يصير الدعيُّ ولداً للرجل إذا تبنّاه فدعاه إبناً له ، فقال تعالى : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ ما هنّ أمهاتهم إنْ امهاتهم إلاّ اللائي ولدنهم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ هذا هو المقصود بالنفي ، فإنها نزلت بشأن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى النبي ﷺ ، كان النبي ﷺ قد تبنّاه قبل النبوّة ، فكان يقال له زيد بن محمد ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ كما قال تعالى في أثناء السورة : ﴿ ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ وقال تعالى ههنا : ﴿ ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ يعني تبنّيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً ، فانه مخلوق من صلب رجل آخر فكما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان كذلك لا يمكن أن يكون له أبان ﴿ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾ قال سعيد بن جبير ﴿ يقول الحق ﴾ أي العدل ، وقال قتادة ﴿ وهو يهدي السبيل ﴾ أي الصراط المستقيم .

وقال عبد الرزاق اخبرنا معمر عن الزهري في قوله تعالى : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ قال : بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة ضرب له مثل : يقول

ليس ابن رجل آخر ابنك . وقوله تعالى : ﴿ أُدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ هذا أمرٌ ناسخٌ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادّعاء الأبناء الأجانب وهم الأدعياء فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة وان هذا هو العدل والقسط والبر .

روى البخاري عن عبدالله بن عمر قال:٤٧٣ [إن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ ما كنّا ندعوه إلاّ زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾] وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي من طرق عن موسى بن عقبة به. ولهذا لما نسخ هذا الحكم، أباح تبارك وتعالى زوجة الدعي، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش مطلّقة زيد بن حارثة رضي الله عنه وقال تبارك وتعالى في آية التحريم : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ احترازاً عن زوجة الدعيّ فإنه ليس من الصلب وقوله تعالى : ﴿ أُدعوهم لآبائهم ﴾ في شأن زيد بن حارثه رضي الله عنه ، وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان .

وقوله عز وجل : ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ﴾ أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عُرفوا ، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، أي عوضاً عما فاتهم من النسب . ثم قال تعالى : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾ أي إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع ، فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع اثمه كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى : ﴿ ربّنا لا تؤآخذنا إنْ نَسينا أو أخطأنا ﴾ وثبت في صحيح مسلم ان رسول الله ﷺ قال:٤٧٤ [قال الله عز وجل: قد فعلتُ] وفي الحديث : ٤٧٥ [ليس من رجل ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلاّ كفر] وفي القرآن المنسوخ « فانه كفر بكم إن ترغبوا عن آبائكم »

روى الإمام أحمد عن عمر رضي الله عنه انه قال ٤٧٦ [ان الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل معه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ثم قال قد كنا نقرأ : « ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم . »]

۞ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً كَانَ ذَٰلِكَ

فِي ٱلْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴿٦﴾

قد علم الله تعالى شفقة رسوله على أمته ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ؛ وحكمه فيهم كان مقدّماً على اختيارهم لأنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ فلا وربّك لا يؤمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً ﴾

وفي الصحيح ٤٧٧ [والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين] ولهذا قال تعالى : ﴿ النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ٤٧٨ [ما من مؤمن إلاّ وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرأوا إن شئتم : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فأيّما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ، وإن ترك دَيْناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه] تفرد به البخاري .

وقوله تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ أي في الحرمة والاحترام والإعظام ، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع .

وقوله تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ أي في حكم الله ﴿ من المؤمنين والمهاجرين ﴾ أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار . وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحِلْفِ والمؤاخاة التي كانت بينهم . كما قال ابن عباس : كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ وكذا قال غير واحد من السلف والخلف . روى ابن أبي حاتم عن الزبير بن العوام فقال : أنزل الله عز وجل فينا خاصة معشر قريش والأنصار : ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة ، قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الأخوان فواخيناهم ووارثناهم ، فآخى ابو بكر رضي الله عنه خارجة بن زيد ، وآخى عمر رضي الله عنه فلاناً ، وآخى عثمان رضي الله عنه رجلاً من بني زريق ابن سعد الزرقي ، ويقول بعض الناس غيره ، قال الزبير رضي الله عنه : وواخيت انا كعب بن مالك فجئته فابتعلته ، فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى ، فوالله يا بُنَيَّ لو مات يومئذٍ عن الدنيا ما ورثه غيري حتّى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصّة فرجعنا إلى موارثينا .وقوله تعالى : ﴿ إلا أن تفعلوا إلى

أوليائكم معروفاً ﴾ أي ذهب الميراث وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية . وقوله تعالى : ﴿ كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾ أي هذا الحكم مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدّل ولا يغير أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض ؛ وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت...لما له في ذلك من الحكمة البالغة . وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأوّل وقضائه القدري الشرعي ، والله أعلم .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُوحٍ وَإِبْرٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (٧) لِيَسْئَلَ ٱلصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً (٨) ﴾

يخبر تعالى عن أولي العزم الخمسة وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله تعالى ، وابلاغ رسالته والتعاون والتناصر والاتفاق . كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرُنّه قال أأقررْتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررْنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ فأخذ عليهم هذا الميثاق والعهد بعد إرسالهم ، وكذلك هذا ، ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة وهم أولو العزم وهو من باب عطف الخاص على العام وقد صرح بذكرهم في هذه الآية وفي محل آخر من القرآن فبدأ في هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه ، ثم رتّبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم وسلامه .

وقوله تعالى : ﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ قال مجاهد : المبلغين المؤدّين عن الرسل وقوله تعالى : ﴿ وأعدّ للكافرين ﴾ أي من أممهم ﴿ عذاباً أليماً ﴾ أي موجعاً فنحن نشهد أن الرسل قد بلّغوا رسالاتِ ربّهم ، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلي وإن كذّبهم من كذّبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين فما جاءت به الرسل هو الحق ومن خالفهم فهو على الضلال ، كما يقول أهل الجنة : ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيراً ۞ (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ ٱلظُّنُونَا ۞ (١٠)

يخبر تعالى عن نعمته وفضله ، وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم عام تألبوا عليهم وتحزّبوا وذلك عام الخندق في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور . وسبب هذه الغزوة ان أشرافاً من يهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة إلى خيبر منهم سلام بن أبي الحقيق وسلام بن مشكم ، وكنانه بن الربيع اجتمعوا بأشراف قريش وألّبوهم على حرب النبي ﷺ فأجابوهم إلى ذلك ، ثم خرجوا إلى غطفان فاستجابوا لهم أيضاً . وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب . وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر الجميع قريب من عشرة آلاف ، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم . أمر المسلمين بحفر الخندق مما يلي الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه فحفروه. ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر . وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريباً من أحد ، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة كما قال الله تعالى : ﴿ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن اسفل منكم ﴾ وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين وهم نحو من ثلاثة آلاف ، وقيل سبعمائة فاسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم نحو العدو . والخندق حفير ليس فيه ماء يحجب الخيالة والرجالة أن تصل إليهم ، وجعل النساء والذراري في آطام المدينة . وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة ، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل ، فذهب إليهم حُيَيّ بن أخطب النضري ، فلم يزلْ بهم حتى نقضوا العهد ، ومالأوا الأحزاب على رسول الله ﷺ فعظم الخطب ، واشتد الأمر وضاق الحال .كما قال تبارك وتعالى : ﴿ هناك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ ومكث المسلمون محاصَرين قريباً من شهر .إلا أنهم لا يصلون إليهم ولم يقع بينهم قتال، إلاّ أنّ عمرَ بنُ عبدِ وُدٍّ العامري ــ وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية ، ركب ومعه فوارس ، فاقتحموا الخندق وخلصوا إلى ناحية المسلمين ، فأمر رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه فخرج إليه فتجاولا ساعةً ثم قتله علي رضي الله عنه فكان علامة

النصر . ثم ارسل الله سبحانه على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء ولمْ توقدْ لهم نار ولمْ يقر لهم قرار . حتى ارتحلوا خائبين خاسرين. كما قال الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً ﴾ وهي الصبا وفي الحديث : ٤٧٩ [نصرت بالصَّبا ، وأهلكت عاد بالدبور]

وقوله تعالى : ﴿ وجنوداً لم تروها ﴾ هم الملائكة زلزلتهم ، وألقتْ في قلوبهم الرعب والخوفَ. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : ٤٨٠ [كنّا عند حذيفة بن اليمانْ رضي الله عنه فقال له رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت فقال له حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقَرٍّ . فقال رسول الله ﷺ « ألا رجل يأتي بخبرِ القوم يكون معي يوم القيامة » فلم يجبه منا أحد . ثم الثانية ثم الثالثة مثله ثم قال ﷺ : « يا حذيفة قم فأتنا بخبرٍ من القوم » فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال : « إئتني بخبر القوم ولا تذعَرهم علي » قال فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم ، فإذا أبو سفيان يُصلّي ظهره بالنار ، فوضعتُ سهماً في كبد قوسي وأردت أن أرميه ، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ : لا تذعرهم علي ، ولو رميتُه لأصبتُه . قال فرجعت كأنما أمشي في حمام ، فأتيت رسول الله ﷺ ، ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت ، فأخبرت رسول الله ﷺ ، وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها ، فلم أزل نائماً حتى الصبح ، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ « قم يا نومان »] وجاء فيما رواه يونس بن بكير عن زيد بن أسلم فذكر نحوه إلى أنْ قال : ٤٨١ [.. وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرُهم شبراً ، فوالله اني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم ، الريح تضربهم بها ثم خرجت نحو النبي ﷺ فلما انتصفتِ الطريق أو نحواً من ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك معتمين ، فقالوا : أخبر صاحبك ان الله تعالى كفاه القوم . فرجعت إلى رسول الله ﷺ ... فأخبرته خبرَ القوم واخبرته أني تركتهم يرتحلون ، وانزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾] وأخرج أبو داود في سننه منه : ٤٨٢ [كان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر صلىّ .] من حديث عكرمة بن عمار به .

وقوله تعالى : « ﴿ إذا جاؤكم من فوقكم ﴾ أي الأحزاب ﴿ ومن أسفل منكم ﴾ تقدم عن حذيفة رضي الله عنهَ أنهم بنو قريظة ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب

الحناجر ﴾ أي من شدة الخوف ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ ظنون مختلفة تمكل ظن، وظهر النفاق وظنّ المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يُستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيُظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وروى ابن أبي حاتم عن ابي سعيد رضي عنه قال: ٤٨٣[قلنا يوم الخندق: يا رسول الله هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال ﷺ : نعم : قولوا : اللهم استر عوراتنا وآمن روعتنا قال فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح] ، وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبي عامر العقدي .

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ❁ (١١) وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ❁ (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ❁ (١٣) ﴾

يخبر تعالى عن حال المسلمين حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، وهم في غاية الجهد والضيق ورسول الله ﷺ بين أظهرهم أنهم اختبروا وزلزلوا زلزالاً شديداً ، فظهر النفاق وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً ﴾ فالمنافق نجم نفاقه والذي عنده شبهة أو حسكة ضعف حاله وضاق صدره لضعف إيمانه ، وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالى : ﴿ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب ﴾ يعني المدينة وقوله تعالى : ﴿ لا مقام لكم ﴾ أي المرابطة مع رسول الله ﷺ ﴿ فارجعوا ﴾ أي إلى بيوتكم ومنازلكم . ﴿ ويستأذن فريق منهم النبي ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السراق يعني اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة أي ليس دونها ما يحجبها عن العدو ، ﴿ وما هي بعورة ﴾ أي ليست كما يزعمون ﴿ إن يريدون إلا فراراً ﴾ أي هرباً من الزحف

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا

وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً ۞ (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولاً ۞ (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ۞ (١٧)

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين: ﴿يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلاّ فراراً﴾ انهم لو دخل عليهم الأعداء من جانب، ثم سئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعاً، وهم لا يستمسكون بالإيمان مع أدنى خوف، وهذا ذم لهم في غاية الذم. ثم قال تعالى يذكرهم بما عاهدوا الله من قبل هذا الخوف ان لا يولّوا الأدبار ﴿وكان عهد الله مسؤولاً﴾ أي وان الله سيسألهم عن ذلك العهد ولا بد، ثم أخبرهم أن فرارهم لا يؤخر آجالهم ولا يقدمها بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذاً لا تُمتَّعون إلا قليلاً﴾ أي بعد فراركم ﴿قل متاع الدّنيا قليل والآخرة خير لمن اتّقى﴾ ثم قال تعالى: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله﴾ أي يمنعكم ﴿إن اراد بكم سوءً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ أي ليس لهم من دون الله مجير ولا مغيث.



قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً ۞ (١٩)

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوِّقين لغيرهم من شهود الحرب والقائلين لاخوانهم أي أصحابهم ﴿ هلم إلينا ﴾ أي إلى الظلال والثمار . وهم مع ذلك ﴿ولا يأتون البأس إلا قليلاً أشحة عليكم ﴾ أي بخلاء بالمودة ، والشفقة عليكم ﴿ فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت﴾ أي من شدة خوفه وجزعه وجبنه من القتال ﴿ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴾ أي استقبلوكم بكلام بليغ ، وادعوا لأنفسهم الشجاعة والنجدة ، وهم كاذبون ثم يطلبون من الغنيمة ، بدعوى أنهم شهدوا معكم وهم مع ذلك ﴿أشحّة على الخير﴾أي ليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير. ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ أي سهلاً هيناً عنده .

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ۞ (٢٠) ﴾

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ أي قريبون منهم وسيعودون ﴿ وإن يأت الأحزاب يودُّوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ﴾ أي ويودّون إذا جاءت الأحزاب ألاّ يكونوا حاضرين معكم في المدينة بل في البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوّكم ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلاّ قليلاً ﴾ لكثرة جبنهم وضعف يقينهم والله سبحانه العالم بهم .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً ۞ (٢١) وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ۞ (٢٢) ﴾

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسّي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في مصابرته ومجاهدته وانتظار الفرج من الله عز وجل صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، ولهذا قال

للذين تزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب ﴿ لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ﴾ أي هلاّ اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدّقين بوعده : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ﴾ أي هذا ما وعدنا الله من الابتلاء والاختبار الذي يعقبه النصر القريب ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً ﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم ، كما قال جمهور الأئمة : إنه يزيد وينقص ، وقد قررنا ذلك في أول شرح البخاري ، ولله الحمد والمنة [1] ومعنى قوله جلت عظمته ﴿ وما زادهم ﴾ أي ذلك الحال والضيق والشدة ﴿ إلا إيماناً ﴾ بالله ﴿ وتسليماً ﴾ أي انقياداً لأوامره وطاعة له تعالى ولرسوله ﷺ .

﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۞ (٢٣) لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ۞ (٢٤) ﴾

لما ذكر تعالى المنافقين وكيف نقضوا العهد وولوا الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و ﴿ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ﴾ أي أجله ﴿ ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾ أي وما غيروا عهد الله ولا نقضوه ولا بدّلوه .

روى البخاري عن زيد بن ثابت قال : ٤٨٤'[لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأها لم أجدها مع أحد إلاّ مع خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ، الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾] تفرّد به البخاري دون مسلم وأخرجه أحمد والترمذي والنسائي وقال الترمذي : حسن صحيح .

(١) قلت : أن للمفسر الحافظ ابن كثير رحمه الله شرحاً على البخاري ولكن لم يكمله كما جاء في ترجمته في المجلد الأول صفحة / ي / من هذا المختصر .

روى البخاري أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ٤٨٥ [نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر رضي الله عنه : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ انفرد به البخاري] وروى أحمد عن أنس بن مالك قال : (عمي أنس ابن النضر رضي الله عنه سميت به ، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشقّ عليه ، وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ... لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ، ليرينّ الله عز وجل ما أصنع . قال فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد ، فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال له أنس رضي الله عنه : يا أبا عمرو أين واها لريح الجنة إني أجده دون أُحُد قال : فقاتلهم حتّى قتل رضي الله عنه ، قال فوجد في جسده بضع وثمانون بين طعنة وضربة ورمية ، فقالت أخته عمّتي الربيّع بنت النضر فما عرفت أخي إلاّ ببنانه قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ من المؤمنين رجال... ﴾ إلى قوله – ﴿ وما بدلوا تبديلا ﴾ قال فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه رضي الله عنهم] ورواه مسلم والترمذي والنسائي .

وروى ابن جرير عن موسى بن طلحة قال: ٤٨٦ [دخلت على معاوية رضي الله عنه، فلما خرجت دعاني فقال : ألا أضع عندك يا ابن أخي حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ؟ أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « طلحة ممن قضى نحبه »]

وقوله تعالى : ﴿ فمنهم من قضى نحبه ﴾ أي أجله على الصدق والوفاء ﴿ ومنهم من ينتظر ﴾ يوماً فيه القتال ، فيصدق في اللقاء ﴿ وما بدّلوا تبديلا ﴾ أي ما غيّروا بل استمروا على عهدهم لله وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ إن بيوتنا عورة ... ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ﴾ أي إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه . ولكن لا يعذب الله الخلق بعلمه فيهم حتّى يعملوا بما يعلمه منهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوُ أخباركم ﴾ فهذا علم بالشيء بعد كونه وان كان العلم السابق حاصلاً به قبل وجوده . وقوله تعالى : ﴿ بصدقهم ﴾ أي بصبرهم على عهدهم وقيامهم به ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ وهم الناقضون لعهد الله فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه . وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل به . ولما كانت رحمته غالبة لغضبه فقال تعالى : ﴿ ان الله كان غفوراً رحيما ﴾

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً ۝ (٢٥) ﴾

وهكذا نصر الله المؤمنين بالريح والجنود الإلهية ، لقد سلط عليهم الهواء ففرق شملهم . فكما كان الهوى سبب اجتماعهم وهم أخلاط من قبائل شتى احزاب وآراء فناسب ان يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم وردّهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم ، لم ينالوا خيراً في الدنيا مما كان في ظنهم من الظفر والمغنم ، ولا في الآخرة ، بما تحمّلوه من الآثام في مبارزة الرسول ﷺ بالعداوة وهمّهم بقتله واستئصال جيشه ، ومن همّ بشيء وصدق همّه بفعله فهو في الحقيقة كفاعله .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ أي لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده وأعز جنده ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : ٤٨٧ [لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ،وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده] أخرجاه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : ٤٨٨[دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، أهزم الأحزاب ، اللهم أهزمهم وزلزلهم »] روى محمد بن اسحق : لما انصرف أهل الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا : ٤٨٩ [لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم] روى الإمام احمد عن سليمان بن صرد قال قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : ٤٩٠ [الآن نغزوهم ولا يغزونا] وهكذا رواه البخاري في صحيحه .

وقوله تعالى : ﴿ وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ أي بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيراً وأعز الله الإسلام وأهله وصدَق وعدَه ونصرَ رسولَه وعبدَه فله الحمدُ والمنة .

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ۝ (٢٦)

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴿٢٧﴾

تقدم أن بني قريظة نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ وكان ذلك بتأثير من حُيَيّ بن أخطب النضري لعنه الله ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جداً. فلما أيده الله تعالى بنصره وردّهم خائبين ورجع رسول الله ﷺ مؤيداً منصوراً ٤٩١[فبينما هو يغتسل من وعثاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة رضي الله عنها إذ تبدّى له جبريل عليه الصلاة والسلام معتجراً بعمامة من استبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله قال ﷺ « نعم » قال لكن الملائكة لم تضع أسلحتها وهذا الآن رجوعي من طلب القوم ، ثم قال : ان الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض الى بني قريظة فإن الله تعالى أمرني أن أزلزل عليهم فنهض رسول الله ﷺ من فوره وأمر الناس بالمسير الى بني قريظة ، وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر وقال ﷺ « لا يصلّينّ أحد منكم العصر إلاّ في بني قريظة » فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق فصلى بعضهم في الطريق و قالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا في بني قريظة فلم يعنّف أحداً من الفريقين وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة ابنَ أمّ مكتوم رضي الله عنه ، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه . ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلةً ، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيّد الأوس رضي الله عنه ، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية ، واعتقدوا أن يحسب إليهم في ذلك كما فعل عبدالله بن أبيّ ابن سلول في مواليه بني قينقاع حين استطلقهم من رسول الله ﷺ ، فعند ذلك استدعى رسول الله ﷺ سعداً من المدينة ليحكم فيهم وكان مريضاً فيها من أثر نبل أصيب به في أكحله أيام الأحزاب ، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه فجعل الأوس يرققونه عليهم ، فلما أكثروا عليه قال رضي الله عنه : لقد آن لسعد ان لا تأخذه في الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » فأنزلوه قال رسول الله ﷺ « احكم فيهم » قال سعد رضي الله عنه : إني أحكم أن تقتلَ مقاتِلتُهم ، وتسبي ذراريهم ، وتقسَّم أموالُهم ؛ فقال رسول الله ﷺ « لقد حكمتَ فيهم بحكم الله تعالى وحكم رسولِه » وفي رواية : « لقد حكمتَ بحكم الله تعالى من فوق سبعةِ أرقعةٍ » ثم أمر رسول الله

ﷺ بالأخاديد فخدّت في الأرض، وجيء بهم مكتّفين ، فضرب اعناقهم وكانوا بين السبعمائة الى الثمانمائة وسبي من لم يُنبِتْ منهم ، مع النساء ، وأموالهم .]

ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾ أي عاونوهم يوم الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿ من أهل الكتاب ﴾ يعني بني قريظة من بعض أسباط بني اسرائيل كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديماً طمعاً في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ فعليهم لعنة الله .

وقوله تعالى : ﴿ من صياصيهم ﴾ يعني حصونهم ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ وهو الخوف لأنهم كانوا مالأوا المشركين على حرب النبي ﷺ وليس من يعلم كمن لا يعلم وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم فانعكس عليهم الحال ، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا مع شقاوة الآخرة فصارت صفقتهم هي الخاسرة ولهذا قال تعالى : ﴿ فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ﴾ . فالذين قُتِلوا هم المقاتِلة ، والأسراءُ همُ الأصغر والنساءُ .

وقوله تعالى : ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴾ أي جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ وأرضاً لم تطأوها ﴾ قيل خيبر وقيل مكة وقيل فارس والروم ويجوز ان يكون الجميع مراداً ﴿ وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا * (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً * (٢٩) ﴾

هذا أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن يخيّر نساءه بين أن يفارقهن إن كن يردْن الحياة الدنيا وزينتها وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله الثواب الجزيل فاخترْنَ رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

روى البخاري: ٤٩٢[عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ ان رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخيّر أزواجه ، قالت : فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال : «إني

ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك » وقد علم أن أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه ، قالت : ثم قال « إن الله تعالى قال: ﴿ يا أيها النبيُّ قل لأزواجك ﴾. إلى تمام الآيتين ، فقلت له : ففي أي هذا أستأمِرُ أبويَّ ، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة] .

وفي رواية لابن جرير زيادة : ٤٩٣ [ثم استقرأ الحُجَرَ[1] فقال : إن عائشة رضي الله عنها قالت : كذا وكذا » فقلن : ونحن نقول مثل ما قالت عائشة رضي الله عنهن كلهن] .

وكان تحته وقتئذٍ تسع نسوة : خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضي الله عنهن ، وكانت تحته ﷺ : صفية بنت حيي النضيرية وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت (الحارث) المصطلقية رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين .



﴿ يَا نِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً ۞ (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ۞ (٣١) ﴾

يعظ تعالى نساء النبي ﷺ اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأن من يأتِ منهن بفاحشةٍ مبينة . قال ابن عباس رضي الله عنهما : وهي النشوز وسوء الخلق وعلى كل تقدير فهو شرط ، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى : ﴿ ولقد أوحى اليك وإلى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ﴾ فلما كانت محلتهن رفيعة ناسب ان يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع ولهذا قال تعالى : ﴿من يأت منكن بفاحشة مبيِّنة يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ يعني في الدنيا والآخرة قاله زيد بن اسلم ﴿ وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ أي سهلاً هيناً ، ثم ذكر عدله وفضله في قوله تعالى : ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله ﴾ أي يطع الله ورسوله ويستجب ﴿ نؤتها أجرها

(١) قلت : أي حجر الزوجات رضي الله عنهن وأرضاهن ، أي سائر الزوجات .

مرتين واعتدنا لها رزقاً كريماً ﴾ أي في الجنة فانهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين ، فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة الى العرش .

﴿ يَا نِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ ٱلنِّسَاءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً ۞ (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَى وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَآتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ۞ (٣٣) وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ۞ (٣٤) ﴾

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك ، فقال مخاطباً لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن فانه لا يشبههن احد من النساء ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة ثم قال ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ يعني بذلك ترقيق الكلام اذا خاطبن الرجال ولهذا قال تعالى : ﴿ فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾ أي خيانة وفساد ... ﴿ وقلن قولاً معروفاً ﴾ اي قولاً حسناً معروفاً في الخير ليس فيه ترخيم كما تخاطب زوجها .

وقوله تعالى : ﴿ وقرن في بيوتكن ﴾ أي لا تخرجن لغير حاجة إلا حاجة شرعية كالذهاب الى المسجد بشرط كما قال رسول الله ﷺ : ٤٩٤ [لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن تفلات » وفي رواية : « وبيوتهن خيرٌ لهن »] وروى ابو داود عن النبي ﷺ قال: ٤٩٥ [صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها ، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها] وهذا اسناد جيد .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ أي إذا خرجن من بيوتهن كانت لهن مشية وتكسّر وتغنّج والتبرّج أنها تلقي الخمار على رأسها،ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كله منها،وذلك هو التبرج . ثم عمت نساءُ المؤمنين في التبرّج .

والجاهلية الأولى هي ما بين إدريس ونوح عليهما السلام وكانت الف سنة وهي أول تبرج النساء للرجال والرجال للنساء يستمعون إلى إبليس الذي اتخذ شيئاً مثل الذي يزمر فيه الرعاة فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله وكان آبليس يتمثل في صورة غلام ويزمر في مزماره فكان سبباً لحضور النساء والرجال للاستماع إليه وسبباً في تبرج النساء والرجال لبعضهم حتى ظهرت فيهم الفاحشة فهو قول الله تعالى ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ مختصراً عن قولٍ لابن عباس .

وقوله تعالى : ﴿ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ﴾ نهاهن أولاً عن الشر [١] ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان الى المخلوقين ﴿ وأطعن الله ورسوله ﴾ واطعن الله ورسوله وهذا من باب عطف العام على الخاص ـ أي عطف طاعة الله ورسوله وهي أمر عام على الأمر الذي هو الصلاة والزكاة ـ

وقوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية ، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً إما وحده على قول ، أو مع غيره على الصحيح.

وروى ابن جرير عن عكرمة ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس انها نزلت خاصة في نساء النبي ﷺ خاصة وقال عكرمة : ومن شاء باهلته إنها نزلت في شأن نساء النبي ﷺ ، فان كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وان اريد انهن المراد فقط دون غيرهن ففي هذا نظر ، فانه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك .

روى مسلم في صحيحه عن يزيد بن حيان قال : ٤٩٦[انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن سلمة الى زيد بن أرقم رضي الله عنه ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يازيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه ، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً ، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ قال : يا ابن أخي والله قد كبرت سني ، وقدم عهدي ، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ فما حدثتكم فاقبلوا ، وما لا فلا تكلّفوا فيه ، ثم قال : قام فينا رسول الله ﷺ

---

(١) قلت : وهذه قاعدة جليلة في الدعوة إلى الله تعالى وهي ان النهي عن الشر مقدم على الأمر بالخير ومنه قوله تعالى : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » فقدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ، حتى ينتزع من القلب ما وقر فيه من مانع الإيمان .

يوماً خطيباً بماءٍ يدعى خماً - بين مكة والمدينة ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه . ووعظ وذكر ثم قال: « أما بعد ، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله تعالى ، فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه ، ثم قال : « وأهل بيتي اذكركم الله في أهل بيتي ، اذكركم الله في أهل بيتي » ثلاثا فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس رضي الله عنهم ، قال : كل هؤلاء حرم الصدقة بعده ؟ قال : نعم]

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ٤٩٧ [ان رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : الصلاة يا أهل البيت ﴿ انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾] ورواه الترمذي عن عبد بن حميد عن عفان به وقال : حسن غريب .

روى ابن جرير عن أبي هريرة عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: ٤٩٨ [جاءت فاطمة رضي الله عنها الى رسول الله ببرمة لها قد صنعت فيها عصيدة تحملها على طبق ، فوضعتها بين يديه ﷺ فقال : أين ابن عمك وابناك ؟ » فقالت رضي الله عنها : في البيت فقال ﷺ : « ادعيهم » فجاءت إلى علي رضي الله عنه فقالت : أجب رسول الله ﷺ أنت وابناك ، قالت أم سلمة رضي الله عنها : فلما رآهم مقبلين. مد ﷺ يده إلى كساء كان على المنامة ، فمده وبسطه ، وأجلسهم عليه ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله ، فضمه فوق رؤوسهم ، وأومأ بيده اليمنى إلى ربه فقال « اللهم هؤلاء أهل بيتي ، فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً »]

والذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ فإن سياق الكلام معهن ، ولهذا قال تعالى : بعد هذا كله : ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ اي واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس ، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس ، وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما أولاهن وأحظاهن بهذه النعمة ، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأةٍ سواها كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه . قال بعض العلماء رحمهم الله : لأنه لم يتزوج بكراً سواها ، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه ﷺ ورضي

الله عنها فناسب ان تخصص بهذه المزية ، وان تفرد بهذه المرتبة العليا ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته ، فقرابته أحق بهذه التسمية كما جاء في الحديث :٤٩٩[وأهل بيتي أحق] رضي الله عن أزواجه وقرابته فهم أهل بيته أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ ان الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ أي ذا لطف بكن ، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة وهي السنة ، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله ازواجاً وقيل يمتن عليهم بذلك . رواه ابن جرير .

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْقَانِتِينَ وَٱلْقَانِتَاتِ وَٱلصَّادِقِينَ وَٱلصَّادِقَاتِ وَٱلصَّابِرِينَ وَٱلصَّابِرَاتِ وَٱلْخَاشِعِينَ وَٱلْخَاشِعَاتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَاتِ وَٱلصَّائِمِينَ وَٱلصَّائِمَاتِ وَٱلْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَافِظَاتِ وَٱلذَّاكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱلذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ۝ (٣٥) ﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي شيبة قال : ٥٠٠ [سمعت أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ تقول : قلت للنبي ﷺ مالنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟قالت فلم يرعني منه ذات يوم إلاّ ونداؤه على المنبر قالت : وأنا اسرح شعري ، فلففت شعري ثم خرجت الى حجرة بيتي ، فجعلت سمعي عند الجريد ، فإذا هو يقول على المنبر : يا أيها الناس ان الله تعالى يقول : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ إلى آخر الآية] وهكذا رواه النسائي وابن جرير من حديث عبد الواحد بن زياد به مثله .

روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ٥٠١ [قال النساء للنبي ﷺ : ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ فقوله تعالى : ﴿ ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام ، وهو أخص منه في لقوله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ وفي الصحيحين :٥٠٢ [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن] فيسلبه الإيمان ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين ، فدل على أن الإيمان أخص منه . وقوله تعالى : ﴿ والقانتين والقانتات ﴾ القنوت هو الطاعة في سكون ، كما قال تعالى : ﴿ أمّنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر

الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ فالاسلام بعده مرتبة يرتقي إليها وهو الإيمان ، ثم القنوت ناشيء عنهما . ﴿ والصادقين والصادقات ﴾ هذا في الأقوال ، فان الصدق خصلة محمودة وهو علامة الإيمان، كما أن الكذب أمارة النفاق ، ومن صدق نجا . وفي الحديث : ٥٠٣ [عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة . وإياكم والكذب . فإن الكذب يهدي الى الفجور ، وان الفجور يهدي الى النار . ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عنه الله كذّاباً] ﴿ والصابرين والصابرات ﴾ هذه سجية الأثبات ، وهي الصبر على المصائب ، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ، أي أصعبه في أول وهلة ، ثم ما بعده أسهل منه ﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ الخشوع : السكون والطمأنينة . والتؤدة والوقار والتواضع ، والحامل عليه خوف الله تعالى ومراقبته، كما في الحديث: ٥٠٤ [أعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك] .

﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾ الصدقة هي الاحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، يعطوْن من فضول الأموال طاعةً لله تعالى وإحسانا إلى خلقه . وقد ثبت في الصحيحين : ٥٠٥[سبعة يظلهُم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله — فذكر منهم — ورجل تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه] ﴿ والصائمين والصائمات ﴾ في الحديث الذي رواه ابن ماجة : الصوم زكاة البدن أي يزكيه وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً.وقوله تعالى : ﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ جاءت بعد قوله تعالى : ﴿ والصائمين والصائمات ﴾ لأن الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة كما جاء في الحديث: ٥٠٦[... ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء] فناسب ان يذكر بعده ﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ أي عن المحارم والمآثم إلا عن المباح كالزوجة وملكِ اليمين . وقوله تعالى : ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : ٥٠٧[إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات] وقد رواه ابو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الأعمش .

روى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٠٨ [ما عمل آدمي عملاً قط أنجى له من عذاب الله تعالى من ذكر الله عز وجل] . وقوله تعالى : ﴿ أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم أي

أن الله تعالى قد أعدَّلهم أي هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجراً عظيماً وهو الجنة . ـ اللهم أغفر لنا وادخلنا جنتك التي وعدت المتقين ـ (١)

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِيناً ۞ (٣٦) ﴾

قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾ الآية وذلك [٥٠٩ أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها ، فقالت : لست بناكحته ؛ فقال رسول الله ﷺ « بلى فانكحيه » قالت يا رسول الله أؤمرُ في نفسي ؟ فبينما هما يتحادثان أنزل الله تعالى هذه الآية على رسول الله ﷺ قالت قد رضيتَه لي يا رسول الله منكحاً ؟ قال رسول الله ﷺ « نعم » قالت إذاً لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي] وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان أنها نزلت في زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه .

وقيل نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن ابي معيط رضي الله عنها وهي أول أمرأة هاجرت بعد صلح الحديبية ، فوهبت نفسها للنبي ﷺ فقال قد قبلت ، فزوجها زيد بن حارثة رضي الله عنه يعني ـ والله أعلم ـ بعد فراقه زينب .

وذكر الحافظ ابو عمر بن عبد البر في الاستيعاب ان الجارية التي خطبها رسول الله ﷺ من أبيها أبي برزة الأسلمي لجليبيب رضي الله عنه لما قالت في خدرها : أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ نزلت هذه الآية : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾

وقال ابن جريج عن طاووس إنه سأل : ابن عباس عن ركعتين بعد العصر ، فنهاه ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنه ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ...﴾ الآية .

---

(١) و (٢) هذا من كلامي الذي بين المعترضتين .

فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك انه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا ، ولا رأي ولا قول ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾ تشديداً على من خالف ذلك.وهو كقوله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبَهم فتنة أو يصيبَهم عذابٌ أليم ﴾ ــ اللهم قنا عذابك واجعلنا طائعين لأمرك وأمر رسولك، ونعوذ بك من الخذلان وسوء المنقلب (١) ــ

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۞ (٣٧) ﴾

يخبر تعالى عن نبيه ﷺ انه قال لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه وهو الذي أنعم الله عليه بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ ﴿ وأنعمتَ عليه ﴾ أي بالعتق من الرق ، وكان سيداً كبير الشأن جليل القدر، حبيباً إلى رسول الله ﷺ يقال له الحِبُّ ويقال لابنه أسامة : الحِبُّ ابنُ الحِبِّ ، قالت عائشة رضي الله عنها : ما بعثه رسولُ الله ﷺ في سرية إلاّ أمّره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه ، رواه الامام أحمد .

وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها ، وأمها أميمة بنتُ عبد المطلب ، وأصدقَها عشرةَ دنانير وستين درهماً ، وخماراً ، وملحفةً ودِرعاً ، وخمسين مدّاً من طعام ، وعشرةَ أمدادٍ من تمر . قاله مقاتل بن حيان .

فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما... فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقول له﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾قال الله تعالى : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾

(١) من كلامي ما بين المعترضتين .

روى ابن أبي حاتم عن علي بن زيد بن جدعان [سألني علي بن الحسين رضي الله عنهما ما يقول الحسن في قوله تعالى : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴾ فذكرت له فقال:لا « ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد رضي الله عنه ليشكوها إليه قال « اتق الله وأمسك عليك زوجك فقال : قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه) . وهكذا روي عن السدي .

قال ابن جرير عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ﴾ الوطر : هو الحاجة والأرب أي لما فرغ منها وفارقها زوجناكها وكان الذي وُلِيَ تزويجَها منه هو الله عز وجل بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر .

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : ٥١٠ [لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة « اذهب فاذكرها عليَّ » فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال : فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما استطيع أن أنظر اليها ، وأقول ان رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي ، وقلت : يـا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك،قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أُآمرَ ربي عز وجل ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن ، ولقد رأيتنا حين دخلتُ على رسول الله ﷺ وأطعمنا عليها الخبز واللحم . فخرج الناس وبقي رجال يتحدّثون في البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ واتبعتُه ، فجعل ﷺ يتتبَّع حُجَرَ نسائه يسلّم عليهن ويقلنَ : يا رسول الله كيف وجدتَ أهلك ؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أُخبِرَ ، فانطلقَ حتى دخل البيت فذهبتُ ادخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب ووَعظ القوم بما وُعِظوا به : ﴿ لا تدخلوا بيوتَ النبيّ إلاّ أن يؤذَنَ لكم ﴾ الآية كلها] . ورواه مسلم والنسائي من طرق عن سليمان بن المغيرة به . وقد سبق في سورة النور تفاخرُ عائشةَ وزينب [1] رضي الله عنهما

روى ابن جرير عن الشعبي قال : كانت زينب رضي الله عنها تقول للنبي ﷺ إني لأدلُّ عليك بثلاث،ما من نسائك إمرأة تدلُّ بهنَّ : إن جدي وجدك واحد ، وإني

---

(١) قلت : عند تفسير الآية رقم /١١/ من سورة النور عند قوله تعالى : « لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم » .

أنكحنيكَ الله عز وجل من السماء ، وإنَّ السفيرَ جبريلُ عليه الصلاة والسلام .

وقوله تعالى : ﴿ لكيلا يكونَ على المؤمنين حرج في أزواج أُدعيائهم إذا قضَوْا منهنَّ وطراً ﴾ أي أبحنا لك تزويجها ، وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرجٌ على المؤمنين في تزوُّج مطلقات الأدعياء ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنَّى زيد بن حارثة رضي الله عنه ، فكان يقال له زيد بن محمد ، فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وما جعل أدعياءَكم أبناءَكم — إلى قوله تعالى — ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ ثم زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها لمّا طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه ، ولهذا قال تعالى في آية التحريم : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ ليُحترَزَ من الابنِ الدعيِّ فإن ذلك كان كثيراً فيهم وقوله تعالى : ﴿ وكان أمر الله مفعولاً ﴾ أي وكان هذا الأمر الذي وقع كائناً لا محالة ، بأن زينب رضي الله عنها في علم الله ستصير من أزواجه ﷺ .

﴿ مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝ (٣٨) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ﴾ أي فيما أحل له وأمره به من تزوّج زينب رضي الله عنها التي طلّقها دعيُّه زيدُ بنُ حارثة رضي الله عنه وقوله تعالى : ﴿ سنّة الله في الذين خلَوا مِنْ قبلُ ﴾ أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله لم يكن ليأمرَهم بشيء وعليهم في ذلك حرج ، وهذا رد على من توهَّم من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأةَ زيد مولاه ودعيِّه الذي كان قد تبنّاه ﴿ وكان أمر الله قدَراً مقدوراً ﴾ أي وكان أمر الله الذي يقدّره كائناً لا محالة وواقعاً لا محيدَ عنه ولا معدِلَ ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكنْ .

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝ (٣٩) مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝ (٤٠) ﴾

يمدح تبارك وتعالى: ﴿الذين يبلغون رسالاتِ الله﴾ أي إلى خلقه، ويؤدّونها بأماناتها ﴿ويخشونه﴾ أي يخافونه، ولا يخافون أحداً سواه، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالاتِ الله تعالى ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي ناصراً ومعينا، وسيد الناس في هذا المقام وفي كل مقام محمد ﷺ فانه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب إلى جميع ابناء آدم وأظهر الله دينه على جميع الأديان فإنه قد كان النبيُّ قبله إنما يُبعثُ إلى قومِهِ خاصةً، وأما هو ﷺ فإنه بُعث إلى جميع الخلق عربِهم وعجمِهم ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ ثم ورث مقام البلاغِ عنه، أمّتُهُ من بعدِهِ فكان أعلى من قام بها بعده، أصحابُه رضي الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسرِه وعلانيته، فرضي الله عنهم وأرضاهم، ثم ورِثهَ كل خلَف عن سلفِهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون (١)، فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلَفِهم.

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
٥١١ [لا يحقرن أحدُكم نفسَه أن يرى أمرَ الله فيه مقال ثم لا يقوله، فيقول الله ما يمنعك أن تقول منه؟ فيقول: ربِ خشيتُ الناسَ، فيقول: فأنا أحق أن يُخشَى] ورواه أيضاً عبدُ الرزاق، وابنُ ماجه.

وقوله تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم﴾ نهى أن يقال بعد هذا زيد بن محمد، أي لم يكن أباه وإن كان قد تبنّاه فإنه ﷺ لم يَعشْ له ولد ذكر حتى بلغ الحلم فإنه ﷺ ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجةٍ رضي الله عنها فماتوا صغاراً، وولد له ﷺ ابراهيم من مارية القبطية، فمات أيضاً رضيعاً، وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات زينبُ ورقيةُ وأم كلثوم، وفاطمةُ رضي الله عنهم أجمعين، فمات في حياته ﷺ ثلاث وتأخرت فاطمة رضي الله عنها حتى أصيبت به ﷺ ثم ماتت بعده بستة أشهر.

وقوله تعالى: ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾ فهذه تنص في أنه لا نبي بعده، ومن باب أولى ألاّ يكون رسول بعده لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولا عكس، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديثِ جماعة من الصحابة رضي الله عنهم نثبت منها ما يلي:

---

(١) قلت: لكن في عصرنا هذا.. هجر حكام المسلمين هذا المنهج وسلكوا نهج الكفرة! اللهم ردهم إلى دينك رداً جميلا. ووحد شملهم واجمع كلمتهم على الحق في دولة واحدة تحكم بما أنزلت من قرآنك وسنة نبيك.

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥١٢ [« إن الرسالة والنبوّة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبيّ » قال : فشقّ ذلك على الناس ، فقال : « ولكن المبشّرات » قالوا : يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال : « رؤيا الرجل المسلم ، وهي جزء من أجزاء النبوّة . »] وهكذا رواه الترمذي وقال : صحيح غريب من حديث المختار بن فلفل .

روى أبو داود الطيالسي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥١٣ [مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنىَ داراً فأكملها وأحسنها إلاّ موضع لَبِنةٍ، فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبِنة ؛ فأنا موضع اللبِنة خُتِمَ بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام] . ورواه البخاري ومسلم والترمذي .

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٥١٤ [فضلت على الأنبياء بستٍ : أعطيت جوامعَ الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلّت لي الغنائم ، وجعلتْ لي الأرض مسجداً وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كـافة ، وختم بي النبيون] ورواه الترمذي وابن ماجة .

روى الزهري عن جبـير بن مطعم عن ابيه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [٥١٥ إن لي أسماءَ : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنـا العاقب الذي ليس بعده نبيّ] أخرجاه في الصحيحين .

وهكذا فلقد أخبر تعالى في كتابه،ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه: أنه لا نبي بعده ليعلم الثقلان أن كل من ادّعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ،ولو تخرّق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم فكلها محال وضلال عند أولي الألباب ، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسي باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة مـن الأحوال الفاسدة ، والأقوال الباردة ما علِمَ كل ذي لب وفهم وحجيَ أنهما كذابان ضالاّن لعنهما الله ، وكذلك كل مدعٍ لذلك الى يوم القيامة (١) حتى يختموا بالمسيح الدجال

(١) قلت : ومن هؤلاء الكذابين الأفاكين رجل زنديق كافر مشرك ادعى النبوة بالهند في قرية / قاديان / اسمه : مرزا غلام أحمد القادياني لعنه الله لعنات متتابعات إلى يوم القيامة ، فقد زعم النبوة وان له قرآناً يزعم ان الله قد أنزله عليه ومن جملة أقواله فيه : (يا أحمد أنت بمنزلة ولدي أنت بمنزلة توحيدي وتفريدي) وقد هلك هذا الكافر الخبيث،فخلفه ابنه.ولهذه الدعوة الضالة جماعات في بعض البلدان،وهي صنيعة الأنكليز في الهند. ومن جملة وصاياهذا الخبيث الكافر/مرزا غلام أحمد/أنه إذا وقعت الواقعةبين المسلمين والأنكليز =

قال الله تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة ، والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به ، وينهون عنه مع ما يؤيّدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسموات .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً ❁(٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ❁(٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ❁ (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ❁ (٤٤) ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بذكره تعالى لنعمه الجزيلة ومننه العظيمة ولهم في ذلك جزيل الثواب وجميل المآب .

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الحمصي قال : سمعت أبا هريرة يقول : دعاء سمعته من رسول الله ﷺ لا أدعه :٥١٦ [اللهم اجعلني أُعظِمُ شكرك ، وأتبعُ نصيحتك ، وأكثر ذكرك(١) ، وأحفظ وصيتك] ورواه الترمذي .

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : [ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه إلاّ رأوه حسرةً يوم القيامة

وقال تعالى : ﴿ وسبحوه بكرةً وأصيلا ﴾ فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته

= فعلى أتباعه القاديانيين ان يكونوا من أنصار الأنكليز ... ! ! ولهم جماعة في دمشق قليلون جداً ؛ وحاولوا أن ينفثوا سمومهم بحلب فأرسلوا أحد دعاتهم :/غلام أحمد/فنشطت دعوتنا السلفية له واستطاعت بفضل الله وحده ، ثم بمعونة بعض طلاب العلم ومعونة الحكومة عام ١٣٧١ هـ ١٩٥١ م أن تقف الدعوة السلفية تجاه هذا الداعية الخبيث الكافر ، وقفة صامدة . فلاحقته في كل مكان وسدت عليه كل منافذ دعوته الكافرة الفاجرة.حتى قيض الله لنا النصر فطردته من حلب طردة لا رجعة له بعدها إن شاء الله وطهرت الشهباء من رجس دعوته القاديانية الخبيثة الكافرة . اللهم تقبل عملنا لوجهك الكريم وأثب من أعاننا من عبادك .

(١) قلت : وليس الذكر هو الرقص والتواجد وما يفعله بعض أهل الطرق والتصوف إنما الذكر هو الموسوم بالسكينة والخشوع ووجل القلوب وفيض الدموع من خشية الله .

أي سبحوه عند الصباح والمساء ، كقوله عز وجل : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ﴾ وهذا تهييج إلى الذكر ، أي أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم .كقوله تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ . وقال النبي ﷺ : ٥١٧ [يقول الله تعالى: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ،ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خيرٍ منه] .

والصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عند الملائكة ، حكاه البخاري عن أبي العالية ، وقال غيره : الصلاة من الله عز وجل الرحمة . وقد يقال : لا منافاة بين القولين والله أعلـــم .

وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الاستغفار والدعاء للناس ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربّنا وسعتَ كل شيء رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذابَ الجحيم . ربّنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتّهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقِهم السيئآت ﴾ وقوله تعالى ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ أي يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصّرهم الطريق الذي ضل وحاد عنـــه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة ، وأتباعهم من الطغام ؛ وأما رحمته بهم في الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار وما ذاك إلاّ لمحبته لهم ورأفته بهم .

وفي صحيح البخاري عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ٥١٨ [ان رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبياً لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته ، فقال رسول الله ﷺ : « أترون هذه تلقي ولدَها في النار وهي تقدر على ذلك » ؟ قالوا : لا. قال رسول الله ﷺ : «فوالله لَلّه أرحمُ بعباده من هذه بولدها»] وقوله تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ الظاهر أن المراد - والله أعلم - تحيتهم أي من الله تعالى يوم يلقونه سلام أي يوم يسلم عليهم ، كما قال عز وجل : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ وأعدَّ لهم أجراً كريماً ﴾ يعني الجنة وما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً * (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً * (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً * (٤٨) ﴾

روى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ، قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وحرزاً للإميين ، انت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظٍ ولا غليظٍ ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئةَ بالسيئةِ ، ولكن يعفو ويصفح ويغفر . ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ؛ وقد رواه البخاري ، ورواه ابن أبي حاتم .

قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وقد كان أمر علياً ومعاذاً رضي الله عنهما أن يسيرا إلى اليمن فقال: ٥١٩ [انطلقا فبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، إنه قد أنزل علي ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾] فقوله تعالى : ﴿ شاهداً ﴾ أي لله بالوحدانية وأنه لا إله غيره ، وشاهداً على الناس بأعمالهم يوم القيامة وقوله عز وجل : ﴿ ومبشراً ونذيراً ﴾ أي مبشراً للمؤمنين بجزيل الثواب ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب . وقوله جلّت عظمته : ﴿ وداعياً الى الله بإذنه ﴾ أي داعياً للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ أي وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلاّ معاند . وقوله جل وعلا ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودَعْ أذاهم ﴾ أي لا تطعهم وتسمع منهم في الذي يقولونه ﴿ ودع أذاهم ﴾ أي اصفح وتجاوزْ عنهم ، وكِلْ أمرَهم إلى الله تعالى ، فإن فيه كفايةً لهم . ولهذا قال تعالى جل جلاله: ﴿ وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا ﴾ (٤٩)

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة منها إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها. وقد اختلفوا في النكاح، هل هو حقيقة في العقد وحده، أو في الوطءِ أو فيهما؟ واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده إلاّ في هذه الآية. فإنه استعمل في العقد وحده. لقوله تبارك وتعالى: ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسّوهن ﴾ وفيها إباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها. وقوله تعالى: ﴿ المؤمنات ﴾ خرج مخرج الغالب إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابيّة في ذلك بالاتفاق. وقد استدل ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من السلف على أن الطلاق لا يقع إلاّ إذا تقدمه نكاح، لأن الله تعالى قال: ﴿ إذا نكحتم المؤمناتِ ثم طلقتموهن ﴾ فعقّب النكاح بالطلاق، فدلّ على أنه لا يصح ولا يقع قبله وهذا مذهب الشافعي وأحمد، وطائفة من السلف والخلف كثيرة. وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى الى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال: إن تزوجتُ فلانة فهي طالق. واختلفا فيما إذا قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة، وقال ابو حنيفة رحمه الله: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه. والجمهور على عدم وقوع الطلاق مستدلّين بهذه الآية... وبالحديث الذي رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: ٥٢٠ [لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك] رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب. وهكذا روى ابن ماجه عن علي والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ٥٢١ [لا طلاق قبل النكاح].

وقوله عز وجل: ﴿ فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾ هذا أمر مجمع عليه بين العلماء، أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عِدة عليها، فتذهب فتتزوج من فورها مَنْ شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفَّى عنها زوجُها فإنها تعتدُّ منه أربعةَ أشهر وعشراً وإنْ لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً. وقوله تعالى: ﴿ فمتعوهن وسرّحوهن سراحاً جميلاً ﴾ المتعة هٰهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمّى أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمّي لها. قال الله تعالى: ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهنّ فريضةً فنصف

ما فرضتم ﴾ وقال عز وجل : ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾ وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد وأبي أسيد رضي الله عنهما قالا : ٥٢٢ [ان رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين] ، قال علي بن طلحة طلحة رضي الله عنهما ، إن كان سمَّى لها صَداقاً فليس لها إلا النصف وإن لم يكن سمى لها صَداقاً أمْتعَها على قدر عسرِه ويسره ، وهو السراح الجميل .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ٱللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ ٱللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ ٱللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَّحِيماً * (٥٠) ﴾

يخاطب تعالى نبيّه ﷺ بأنه قد أحلّ له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن أجورهن أي مهورهن وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشز . وهو نصف أوقية ، فالجميع خمسمائة درهم إلاّ أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فانه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمائة دينار وإلاّ صفيّة بنت حُيَيّ فإنه اصطفاها من سبي خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صَداقها ، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدّى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها رضي الله عنهن أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ﴾ أي وأباح لك التسرّي مماأخذت من المغانم وكما تقدم فقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليهما السلام وكانتا من السراري رضي الله عنهما .

وقوله تعالى : ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ﴾ هذا عدل وسط بين إفراط النصارى الذين لايتزوجون المرأة إلا ّبينهوبينها سبعة أجداد فصاعداً وتفريط اليهود يتزوج أحدهم بنتَ أخيه أو بنتَ أخته وهذا شنيعٌ فظيع .. وقوله تعالى : ﴿ اللاتي هاجرنَ معك ﴾ أي إلى المدينة . وقوله تعالى : ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبيّ إن أراد النبيُّ أن يستنكحَها خالصة لك ﴾ أي ويحل لك أيها النبي المرأةَ المؤمنة إن وهبتْ نفسها لك أن تتزوّجَها بغير مهر إن شئت ذلك . قال ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم بن الأوقص من بني سليم ، وكانت امرأةً صالحة . وقد قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس : لم يكن عند النبي ﷺ امرأة وهبت نفسها بينما اللائي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير أي انه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له وان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به لأنه مردود إلى مشيئته كما قال تعالى : ﴿ إن أراد النبيُّ أن يستنكحها ﴾ أي إن اختار ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ قال عكرمة أي لا تحل الموهوبة لغيرك ولو ان امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما أي أنها إذا فوضت المرأة نفسها الى رجل فانه متى دخل بها وجب عليه لها مهرمثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ في تزويج بنت واشق لما فوضت ، بصداق مثلها لما توفي عنها زوجها . والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ ، فأما هو عليه الصلاة والسلام فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها ، لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود ، كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها.

وقوله تعالى : ﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم ﴾ أي من حصرهم في أربع نسوة حرائر ، وما شاءوا من الإماء واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم ، وهم الأمة وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه ﴿ لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيما ﴾



۞ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ

وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً ۞ (٥١)

قوله تعالى ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ اختار ابن جرير ان هذه الآية عامة في الواهبات أنفسهن له ﷺ وفي أزواجه ﷺ اي النساء واللائي عنده انه مخير فيهن إن شاء قسم وان شاء لم يقسم، وهو جمع بين الأحاديث الواردة عن عائشة تارة في الواهبات أي من شئت قبلتها ومن شئت رددتها. ومن رددتها فأنت فيها بالخيار بعد ذلك،إن شئت عدتَ فيها فآويتها. ولهذا قال : ﴿ومن ابتغيتَ ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ تارة أخرى يرد الحديث عن معاذ عن عائشة أيضاً : ٥٢٣ [ان رسول الله ﷺ كان يستأذن في اليوم المرأة منا بعد أن نزلت الآية : ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك﴾ فقلت لها ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : ان كان ذلك إلي فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً] . فهذا الحديث عنها يدل على ان المراد من ذلك عدم وجود القسم ، وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات ومن ههنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم ، وهذا الذي اختاره ابن جرير جيد وقوي وقد جمع بين الأحاديث . ولهذا قال تعالى : ﴿ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزنَّ ويرضين بما آتيتهن كلهن﴾ أي إذا علمن أن الله تعالى قد وضع عنك الحرج في القسم فإن شئت قسمت وان شئت لم تقسم ، ثم مع هذا أن تقسم لهن اختياراً منك ، فَرِحْنَ بذلك واستبشرْنَ به واعترفْن بجميلك ومنّتك عليهن في قسمتك ، وتسويتك بينهن . وإنصافك لهنّ وعدلك فيهنّ .

وقوله تعالى : ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾ أي من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه كما روى الإمام أحمد عن عائشة قالت . ٥٢٤ [كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا فعلي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك »]يعني القلب ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى ﴿وكان الله عليماً﴾ أي بضمائر السرائر ﴿حليماً﴾ أي يحلم ويغفر

لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً ﴿٥٢﴾

ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس وغيره أن هذه الآية نزلت مكافأة لأزواجه ﷺ على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم في الآية فكان جزاؤهن أن قصره الله تعالى عليهن وحرم عليه ان يتزوج بغيرهن أو يستبدلَ بهن أزواجاً غيرَهن ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراري فلا حرج عليه فيهن ثم إنه رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية وأباح له التزوج ، ولكن لم يقعْ منه بعد ذلك تزوّج ، لتكون المنّة لرسول الله ﷺ عليهن .

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : ٥٢٥ [ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له النساء] ورواه الترمذي والنسائي .

روى ابن أبي حاتم عن أم سلمة أنها قالت : ٥٢٦ [لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلاّ ذات محرم] ؛ وذلك قول الله تعالى : ﴿ ترجي من تشاء منهن ﴾ الآية .. فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة كآيتي عدة الوفاة في البقرة ، الأولى ناسخة للتي بعدها ، والله أعلم .

وروى ابن جرير ان رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها ، وعزم على فراق سودة حتى وهبت يومها لعائشة ، ثم قال بأن هذا كان قبل نزول قوله تعالى : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ﴾ الآية ، وهذا الذي قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح ، ولكن لا يحتاج إلى ذلك فإن الآية إنما دلّت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته وأنه لا يستبدل بهن غيرهن ، ولا يدل على انه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ﴾ فنهاه عن الزيادة عليهنّ إن طلق واحدة منهن واستبدال غيرها بها ، إلاّ ما ملكت يمينه (١) .

---

(١) قلت : هذا هو التفسير اللفظي للآية إنما إذا صح تفسير المفسر رحمه الله من أن آية «ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء » انها ناسخة لما بعدها : « لا يحل لك النساء من بعد » فيكون للرسول الخيرة في التزوج أو عدمه لا سيما إذا صح أيضاً الحديثان حديثا عائشة وأم سلمة فيكون النسخ واقعاً حتماً ، فيتغير حكم تفسير الآية المتأخرة من المنع إلى الإباحة وإن كان لم يقع فعل الإباحة منه صلى الله عليه وسلم أي لم يتزوج بعد ذلك أبداً لتكون له صلى الله عليه وسلم المنة على أزواجه « ذلك أدنى ان تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ... »

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً * (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً * (٥٤) ﴾

هذه آية الحجاب وفيها أحكام وآداب شرعية ، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه انه قال : ٥٢٧ [وافقت ربي عز وجل في ثلاث ، قلت : يا رسول الله : لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن ، فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة : ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ﴾ فنزلت كذلك] وفي رواية لمسلم ذكر اسارى بدر وهي قضية رابعة . وقد روى البخاري عن أنس بن مالك قال ٥٢٨ [قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب] وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش التي تولّى الله تعالى تزويجها بنفسه ، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة والله أعلم .

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ٥٢٩ [لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام ، قام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم أنهم قاموا فانطلقوا ، فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخلُ فألقى الحجابَ بيني وبينه ، فأنزل الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلاّ أن يؤذنَ لكم إلى طعام غيرنا ظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ﴾] ورواه مسلم والنسائي .

فقوله تعالى : ﴿ لا تدخلوا بيوت النبيّ ﴾ حظر على المؤمنين ان يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن ،كما كانوا قبل ذلك يصنعون في الجاهلية وابتداء الإسلام في بيوتهم . حتى غار الله تعالى لهذه الأمة فأمرهم بذلك ، إكراماً لهم . ولهذا قال رسول الله ﷺ : ٥٣٠ [إياكم والدخول على النساء] ثم إن الله تعالى استثنى من ذلك فقال عز وجل : ﴿ الا أن يؤذنَ لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ قال مجاهد وغيره : أي غير متحينين نضجه واستواءَه حتى اذا قارب ذلك تعرضتم للدخول ، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه . وهذا دليل على تحريم التطفيل وهو الذي تسميه العرب الضيفن . ثم قال تعالى : ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ﴾ وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ : ٥٣١ [لو دعيت إلى ذراع الأجبت ،ولوأهدي إلى كراع لقبلت.فإذا فرغتم من الذي دعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل ، وانتشروا في الأرض] ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا مستأنسين لحديث ﴾ أي كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين نسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ .كما قال تعالى : ﴿ إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم ﴾ وقيل إن الدخول بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذّى به ولكن كان يكره ان ينهاهم لشدة حيائه عليه الصلاة والسلام حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك . ولهذا قال تعالى : ﴿ والله لا يستحيي من الحق ﴾ أي ولهذا نهاكم وزجركم عنه .

ثم قال تعالى : ﴿ واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهنّ من وراء حجاب ﴾ أي لا ينظر إليهن ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب. ﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ أي هذا الذي شرعته لكم وأمرتكم به من الحجاب أطهر وأطيب . وقوله تعالى : ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾ لهذا أجمع العلماء قاطبةً على أنه يحرم على أي كان أن يتزوّج أياً من أزواج النبي ﷺ من بعده لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وهن أمهاتُ المؤمنين كما تقدم . وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك وشدّد فيه وتوعّد عليه بقوله تعالى : ﴿ إن ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً ﴾ أي يعلم كل شيء ولا تخفى عليه خافية .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَآئِهِنَّ وَلَا أَبْنَآئِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَآءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَآءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝ (٥٥) ﴾

لقد استثنى الله تعالى هؤلاء الأقارب فلا يجب الاحتجاب منهم كما ورد ذلك في سورة النور عند قوله تعالى : ﴿ ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن ـ إلى قوله تعالى ـ على عورات النساء ﴾ الآية / ٣١ / وقد سأل بعضُ السلف فقال : لمَ لمْ يذكر العم والخال في هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما لم يذكرا لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما . وقوله تعالى : ﴿ ولا نسائهن ﴾ يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات ، وقوله تعالى : ﴿ وما ملكت أيمانهن ﴾ يعني به أرقّاءهنّ من الذكور والإناث، كما تقدم التنبيه عليه وايراد الحديث فيه [1] وقوله تعالى : ﴿ واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيداً ﴾ أي واخشينه في الخلوة والعلانية ، فانه شهيد على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية فراقِبْنَ الرقيب سبحانه وتعالى .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝ (٥٦) ﴾

قال البخاري : قال أبو العالية : صلاة الله تعالى : ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون يبرّكون ، وقال أبو عيسى الترمذي : وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم ، قالوا : صلاة الرب الرحمة ، وصلاة الملائكة الاستغفار . وقوله تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ أي ان الله تعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقرّبين وان الملائكة تصلّي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمَيْنِ : العلوي والسفلي جميعاً .

---

(١) قلت : عند قوله تعالى : « أو ما ملكت ايمانهن » في سورة النور : الآية رقم ٣١ / وقوله (ص) لفاطمة (انه ليس عليك بأس ، انما هو أبوك وغلامك)

وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ ... هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ وفي قوله تعالى : ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم﴾ الآية... وفي الحديث : ٥٣٢ [إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف] وقال : ٥٣٣ [اللهم صلّ على آلِ أبي أوفىَ] وقد سألته أمرأة جابر أن يصلي عليها وعلى زوجها فقال : ٥٣٤ [صلّى الله عليكِ وعلى زوجك] وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ، ونحن نذكر منها أن شاء الله تعالى ما تيسر والله المستعان .

* روى البخاري عن كعب بن عجرة قال : قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة ؟ قال : ٥٣٥ [قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل ابراهيم ، إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم ، انك حميد مجيد]

* روى ابن أبي حاتم عن كعب بن عجرة قال : لما نزلت : ٥٣٦ [﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلّموا تسليماً﴾] قال : [قلنا يا رسول الله قد علمنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد »] ومعنى قولهم أما السلام عليك فقد عرفناه هو الذي في التشهد الذي كان يعلمهم إياه كما يعلمهم السورة من القرآن ، وفيه السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته .

* روى مسلم عن أبي مسعود الأنصاري قال : ٥٣٧ [أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله ان نصلي عليك يا رسول الله ، فكيف نصلّي عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد ، والسلام كما قد علمتم »] وقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير من حديث مالك به وقال الترمذي : حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد عن أبي مسعود البدري أنهم قالوا : ٥٣٨ [يا رسول الله أما السلام فقد عرفناه ، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا ؟ فقال : قولوا « اللهم صل على

محمد وعلى آل محمد »] وذكره ورواه الشافعي رحمه الله في مسنده عن أبي هريرة بمثله ؛ ومن ههنا ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلّي ان يصلّي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير فإن تركه لم تصح صلاته . والقول بالوجوب مؤيد بظاهر الآية ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود ، وابو مسعود البدري وجابر بن عبدالله ومن التابعين : الشعبي ، وابو جعفر الباقر ومقاتل بن حيان وإليه ذهب الشافعي لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه ايضاً وإليه ذهب أحمد أخيراً . والصحيح أنه وجه على ان الجمهور على خلافه والقول بوجوبه ، ظواهر الحديث والله أعلم وان الشافعي رحمه الله يقول بوجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة سلفاً وخلفاً ولله الحمد والمنة فلا إجماع على خلافه في هذه المسألة لا قديماً ولا حديثاً * ومما يؤيّد ذلك ، الحديثُ الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصحّحه والنسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما من رواية حيوة بن شريح بسنده عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال : ٥٣٩[سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجّد الله ولم يصلّ على النبي فقال رسول الله ﷺ عجل هذا ثم دعاه فقال له أو لغيره : « إذا صلّى أحدكم فليبدأ بتمجيدِ الله عز وجل والثناءِ عليه ، ثم ليصلّ على النبيّ ثم ليدعُ بعد بما شاء . »]

* روى ابن جرير عن يونس بن خباب قال : ٥٤٠[خطبنا بفارس فقال : أنبأني من سمع ابن عباس يقول : هكذا أنزل ، فقلنا : أو قالوا يا رسول الله علمّنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد . وارحم محمداً وآل محمد كما رحمت آل ابراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على ابراهيم ، انك حميد مجيد »] فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ كما هو قول الجمهور ؛ ويعضده حديث الأعرابي الذي قال : ٥٤١ [اللهم ارحمني ومحمدا ، ولا ترحم معنا أحداً ؛ فقال رسول الله ﷺ « لقد حجرّتَ واسعاً »]

* روى أبو عيسى الترمذي عن عبد الله بن مسعود ان رسول الله ﷺ قال : ٥٤٢ [أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاةً] تفرد به الترمذي ثم قال هذا حديث حسن غريب .

روى اسماعيل القاضي عن أُبيّ بن كعب عن أبيه قال : ٥٤٣ [كان رسول الله ﷺ يخرج في جوف الليل فيقول : « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه فقال أُبيّ : يا رسول الله إني أصلي من الليل ، أفأجعل لك ثلثَ صلاتي قال رسول الله ﷺ « الشطر »

قال : أفأجعل لك شطر صلاتي ؟ قال رسول الله ﷺ « الثلثان » قال : أفأجعل لك صلاتي كلّها ؟ قال : « اذن يغفرلك الله ذنبك كله »]

* روى الإمام أحمد عن الطفيل بن أبيّ عن ابيه : ٥٤٤ [قال رجل يا رسول الله أرأيت ان جعلت صلاتي كلها عليك ؟ قال : « إذن يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك »]

* روى مسلم وابو داود والترمذي والنسائي عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٤٥ [من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشراً .] وقال الترمذي حسن صحيح .

* روى الإمام أحمد عن أبي طلحة الأنصاري قال : ٥٤٦ [أصبح رسول الله ﷺ يوماً طيب النفس يُرى في وجهه البِشرُ ، قالوا : يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يرى في وجهك البِشرُ ؛ قال : [« أجل أتاني آتٍ من ربي عز وجل فقال : من صلّى عليك من أمتك صلاةً ، كتب الله له بها عشرَ حسناتٍ ، ومحا عنه عشرَ سيئاتٍ ، ورفع له عشرَ درجات ، وردّ عليه مثلها »] وهذا إسناد جيد ولم يخرجوه .

* روى الإمام أحمد عن علي بن الحسين عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : ٥٤٧ [البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصلِّ عليّ] ورواه الترمذي .

* روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ٥٤٨ [قال رسول الله ﷺ «رغم أنفُ رجلٍ ذُكرتُ عندَه فلم يصلِّ علي ، ورغمَ أنفُ رجلٍ دخلَ عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفرَ له ، ورغم أنفُ رجلٍ أدرك عنده أبواه الكِبرَ فلم يدخلاه الجنة»] ثم قال حسن غريب ورواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه . وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة على النبي ﷺ كلما ذُكِر ، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والحليمي . وذهب آخرون إلى وجوب الصلاة عليه في المجلس مرة واحدة ، وتستحب في بقيةِ ذلك المجلس . ويتأيد هذا القول بالحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ٥٤٩ [ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرةً يوم القيامة ، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم] وحكى عن بعضهم أنه انما تجب الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - في العمر مرة واحدة امتثالاً لأمر الآية ثم هي مستحبة في كل حال (قلت) وهذا قول غريب فانه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة .

* فمنه بعد النداء للصلاة الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص

يقول: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ٥٥٠ [إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا لي الله الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة] وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث كعب بن علقمة.

* ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه للحديث الذي رواه الإمام أحمد عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: ٥٥١ [كان رسول الله ﷺ اذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال: اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي ابواب رحمتك، واذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال: اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك.]

ومن ذلك الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنازة فإن السنّة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب، وفي الثانية أن يصلي على النبي ﷺ وفي الثالثة يدعو للميت، وفي الرابعة يقول اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده.

ومن ذلك الصلاة على النبي ﷺ بين تكبيرات العيد في صلاة العيد، وختم الدعاء ودعاء القنوت كما رواه النسائي في سننه، ومن ذلك الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة ومن ذلك حين زيارة قبره ﷺ. وان الصلاة والسلام عليه يُبلغُها لقوله ﷺ: ٥٥٢ [ان لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام] رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود وهكذا رواه النسائي وقالوا: ويستحب الصلاة على النبي ﷺ مع ذكر الله عند الذبح، واستأنسوا بقوله تعالى: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ قال بعض المفسرين: يقول الله تعالى: لا أذكر إلا وذُكرت معي، وخالفهم في ذلك الجمهور وقالوا: هذا موطن يفرد فيه ذكر الله تعالى كما عند الأكل والدخول والوقاع وغير ذلك مما لم ترد به السنة بالصلاة على النبي ﷺ.

ويجوز الصلاة على غير الأنبياء بالتبعية كما جاء في الحديث: ٥٥٣ [اللهم صل على محمد وآله وأزواجه وذريته] ويؤيده قوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم﴾ وقوله ﷺ: [٥٥٤ اللهم صل على آل أبي أوفى] أخرجاه في الصحيحين.

قال الجمهور من العلماء لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا فلا يلحق بهم غير؛ فلا يقال: قال أبو بكر صلى الله عليه، أو، قال علي صلى الله عليه وان كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال محمد عز وجل وإن كان عزيزاً وجليلاً لأن هذا من شعار ذكر الله عز وجل وحملوا ما ورد في الكتاب والسنة

على الدعاء لهم ولهذا لم يثبت شعاراً لآلِ أبي أوفى ولا لجابر وامرأته . وهذا مسلك حسن .

وأما إفراد السلام على غير الأنبياء قال : الشيخ محمد الجويني من أصحابنا هو في معنى الصلاة فلا يستعمل في الغائب ولا يفرد به لغير الأنبياء فلا يقال عليٌّ عليه السلام وسواء في هذا الأحياء والأموات ، وأما الحاضر فيخاطب به فيقال : سلام عليك وسلام عليكم أو السلام عليك أو عليكم وهذا مجمع عليه . (قلت) وقد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب أن يفرد علياً رضي الله عنه يقال عليه السلام من دون سائر الصحابة أو كرم الله وجهه وهذا وان كان معناه صحيحاً ، لكن ينبغي أن يسوّي بين الصحابة في ذلك فإن هذا من باب التعظيم والتكريم فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه رضي الله عنهم أجمعين .

قال النووي : إذا صليَ على النبيّ ﷺ فليُجمَع بين الصلاة والتسليم فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول : صلى الله عليه فقط ولا عليه السلام فقط وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ فالأولى أن يقال : صلى الله عليه وسلم تسليماً .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً ۞ (٥٧) وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ۞ (٥٨)﴾

يقول تعالى متهدداً متوعداً من آذاه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك وإيذاء رسوله ﷺ بعيب أو بنقص ـ عياذاً بالله من ذلك ـ قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿إن الذين يُؤذون الله ورسولَه﴾ نزلت في المصوّرين . وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : °°° [يقول الله عزّ وجلّ : يؤذيني ابن آدم، يسبّ الدهر وأنا الدهر أقلب ليلَه ونهارَه] أي إن الجاهلية كانوا يقولون يا خيبةَ الدهر فعل بنا كذا وكذا فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه ، وانما الفاعل لذلك هو الله عز وجل فنهىَ عن ذلك هكذا قرره الشافعي وابو عبيدة وغيرهما وقيل أنها نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حُييّ بنِ أخطب والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ومن آذاه فقد آذى الله ،كما أن من أطاعه فقد أطاع الله ،كما روى الإمام أحمد

عن عبد الله بن المغفل المزني قال : قال رسول الله ﷺ ٥٥٦ الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه] وقد رواه الترمذي .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ﴾ ينسبون إليهم ما هم براء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ﴿ فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ وهذا هو البهت الكبير ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد ، الكفرة بالله ورسوله ، ثم الرافضة الذين ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برّأهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله تعالى عنهم فإن الله عز وجل قد أخبر أنه قد رضي عنهم وهم المهاجرون والأنصار ومدحهم . وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم ويتهمونهم بما لم يفعلوا ، فهم في الحقيقة منكّسو القلوب يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين. وروى أبو داود عن أبي هريرة ٥٥٧ [انه قيل يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال « ذكرك أخاك بما يكره » قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته »] وهكذا رواه الترمذي وقال حسن صحيح .

وقد روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه ٥٥٨ [أي الربا أربى عند الله ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال : « أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم » ثم قرأ : ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾]

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ۞ (٥٩) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً ۞ (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ۞ (٦١) سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ۞ (٦٢) ﴾



يأمر الله تعالى رسوله ﷺ تسليماً ، أن يأمر النساء المؤمنات - خاصةً أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليتميّزْن عن سِمات نساءِ الجاهلية وسمات الإماء ، والجلباب هو الرّداء فوق الخِمار ؛ قاله ابن مسعود وعبيدة وقتادة وغيرهم وهو بمنزلة الإزار اليوم قال الجوهري الجلباب الملحفة . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههنّ من فوق رؤوسهنّ بالجلابيب ويبدين عينا واحدة ، وقال محمد بن سيرين سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل ﴿ يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ ﴾ فغطى وجهُه ورأسُه وأبرزَ عينه اليسرى وقال عكرمة : تغطّي ثغرة نحرِها بجلبابها تدنيه عليها وقال ابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت لما نزلت هذه الآيةِ ... خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهنّ الغربان من السكينة،وعليهن أكسية سود يلبسنها . وسئل الزهري عن الوليدة قال عليها الخمار دون الجلباب وقوله تعالى : ﴿ ذلك أدنى ان يعرفن فلا يؤذين ﴾ قال مجاهد يتجلببن فيعلم أنهن حرائر فـــلا يتعرض لهن فاسق بأذىً أو ريبة . وقوله تعالى : ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك . ثم توعّد الله المنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر : ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ هم الزناة ﴿ والمرجفون في المدينة ﴾ أي الذين يقولون جاء الأعداء وجاءت الحروب وهو كذب وافتراء لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿ لنغرينّك بهم ﴾ أي لنسلطنّك عليهم ﴿ ثم لا يجاورونك فيها ﴾ أي في المدينة ﴿ إلاّ قليلاً ملعونين ﴾ مطرودين مبعدين ﴿ أينما ثقفوا ﴾ أي وجدوا ﴿ أُخذوا ﴾ لذلتهم وقلتهم ﴿ وقتّلوا تقتيلاً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ أي هذه سنته في المنافقين إذا تمرّدوا على نفاقهم وكفرهم فإن أهل الإيمان يسلَّطون عليهم ويقهرونهم ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي وسنة الله قهر المنافقين لا تبدّل ولا تغيّر .

۞ يَسْئَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ❁ (٦٣) إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً ❁ (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً ❁ (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ❁ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا

وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۞ (٦٧) رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ۞ (٦٨)

يخبر تعالى رسوله ﷺ أنه إن سأله الناس عن الساعة ، أرشده تعالى ان يرد علمها إلى الله عز وجل. كما قال تعالى في سورة الأعراف وهي مكية ، وهذه مدنية فاستمرّ الحال في ردّ علمها إلى الذي يقيمها لكن أخبره أنها قريبة.بقوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشقّ القمر ﴾ .

ثم قال تعالى ﴿ ان الله لعن الكافرين ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿ وأعدّ لهم سعيراً ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ أي ماكثين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ﴿ لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ أي ليس لهم من ينقذهم مما هم فيه ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ أي يسحبون في النار على وجوههم وتلوى على جهنم ، يقولون وهم كذلك ، ليتنا كنا في الدنيا ممن اطاعوا الله والرسول ، كقوله تعالى : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه يتمنون لو كانوا من المؤمنين ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ قال طاووس : سادتنا يعني الأشراف ، وكبراءنا يعني العلماء رواه ابن ابي حاتم اي اتبعنا أمراءنا ، واتبعنا علماء السوء وخالفنا الرسل، فإذا هم ليسوا على شيء ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ أي بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿ والعنهم لعناً كبيراً ﴾ قرأ بعض القراء : ﴿ كبيراً ﴾ وقرأ البعض الآخر ﴿ كثيراً ﴾ وكلاهما بمعنى صحيح ، والأَوْلى أن القارىء مخير بين القراءتين ، لا أن يجمع بينهما أي أن يقول مثلاً : كبيراً كثيراً .

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ ٱللهِ وَجِيهاً ۞ (٦٩)

روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ٥٥٩ [ان موسى عليه السلام كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياءً منه فآذاه من آذاه من بني اسرائيل فقالوا ما يتستر هذا التستر إلاّ من عيبٍ في جلده إما برص وأما أدرة وإما آفة وان الله عز وجل أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى عليه السلام فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على

حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإنّ الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني اسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل وبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ــ قال ــ فذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾] وهذا الحديث من افراد البخاري دون مسلم .

روى الإمام أحمد عن عبدالله ــ ابن مسعود ــ قال ٥٦٠ [قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله ؛ قال : فقلت يا عدو الله أما لأخبرنَّ رسول الله ﷺ بما قلت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فاحمرَّ وجهه ثم قال « رحمة الله على موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر »] أخرجاه في الصحيحين .

وقوله تعالى : ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ أي له وجاهةٌ وجاه عند الله عز وجل وقال جماعة من السلف : لم يسأل اللهَ شيئاً إلاّ أعطاه ولكن مُنع من الرؤية لما يشاء عز وجل ، وقال بعضهم من وجاهته العظيمة عند الله تعالى انه شفع في أخيه هارون ان يرسله معه فأجاب الله سؤله فقال تعالى : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴾ (٧٠) ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (٧١)

يأمر تعالى عباده المؤمنين بتقواه وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه وأن يقولوا ﴿ قولاً سديداً ﴾ أي مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف ووعدهم أنهم اذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم أي يوفقهم للأعمال الصالحة وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها ثم قال تعالى: ﴿ ومن يطعِ الله ورسولَه فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ وذلك أنه يجارُ من نار جهنم ويصيرُ إلى النعيم المقيمْ . روى ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال: ٥٦١ [صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا فقال « إن الله تعالى أمرني ان آمركم أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً » ثم أتى النساء فقال : « ان الله أمرني أن آمركن ان تتقين الله وتقلن قولاً سديداً »] .

قال عكرمة : القول السديد : لا إلّه الا الله ، وقال غيره : السديد الصدق ، وقال غيره : هو الصدق ، والكلّ حقٌ .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا ۞ (٧٢) لِيُعَذِّبَ ٱللهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً ۞ (٧٣) ﴾

روى العوفي عن ابن عباس : يعني بالأمانة الطاعة ؛ عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها ، فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت وان أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ يعني غراً بأمر الله .

روى ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : ... فما كان إلا مقدار ما بين العصر الى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة . وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن البصري وغير واحد : ان الأمانة هي الفرائض ، وقال آخرون : هي الطاعة . وقيل : هي الدين والفرائض والحدود ،وقيل الغسل من الجنابة ، وقيل الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة ، وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ... وهو أنه ان قام بذلك أثيب وان تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله إلاّ من وفق الله ، والله المستعان .

روى ابن جرير عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ٥٦٢
[القتل في سبيل الله يكفر الذنوبَ كلها ـ أو قـال ـ يكفر كل شيء إلاّ الأمانة ، يؤتى بصاحب الأمانة ، فيقال له : أدِّ أمانتك ، فيقول أنّى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له أدِّ أمانتك ، فيقول أنّى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له أدِّ أمانتك ، فيقول أنّى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول اذهبوا به إلى أمه الهاوية ، فيذهب به إلى الهاوية ، فيهوي فيها حتى ينتهي إلى قعرها فيجدها هنالك كهيئتها ، فيحملها فيضعها على عاتقه ،

فيصعد بها إلى شفير جهنم ، حتى إذا رأى أنه خرج ، زلّت قدمه فهوى في أثرها أبد الآبدين » قال : والأمانة في الصلاة ، والأمانة في الصوم ، والأمانة في الوضوء ، والأمانة في الحديث ، وأشد ذلك الودائع ، فلقيت البراء فقلت : ألا تسمع ما يقول أخوك عبدالله فقال صدق]

ومما يتعلق بالأمانة ، الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن حذيفة رضي الله عنه قال : ٥٦٣ [حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، قد رأيت أحدَهما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا ان الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنّة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل [1] كجمر دحرجته على رجلك ، تراه منتبراً وليس فيه شيء – قال : ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله قال – فيصبح الناس يتبايعون [2] لا يكاد أحد يؤدّي الأمانة. حتى يقال إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل ما أجلده وأظرفه وأعقله وما في قلبه حبة خردل من إيمان ، ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت، ان كان مسلماً ليردّنه عليّ دينه ، وان كان نصرانياً أو يهودياً ليردّنه عليّ ساعيه فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلانا»] وأخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش به وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة حديث مرفوع . روى أبو داود عن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ٥٦٤ [من حلَف بالأمانة فليس منّا] تفرد به.وقوله تعالى: ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ أي إنّما حمل بني آدم وهي التكاليف ، ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله . ﴿ والمشركون والمشركات ﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسُلِه ﴿ ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ آخر اختصار تفسير سورة الأحزاب ولله الحمد والمنّة

١٣٩٠ / ٥ / ٢٣
١٩٧٠ / ٧ / ٢٦

(١) المجل : أن يكون بين الجلد واللحم ماء من كثرة العمل أو النار . (٢) من البيع .

(٣٤) سُورَةُ سَبَإٍ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا أَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ

إلا الآية / ٦ / فمدنيّة نزلت بعد سورة لقمان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۞ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۞ (٢) ﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة وهو المنعم على أهلهما فهو الحاكم المتصرف وحده لا شريك له ، والجميع ملكه وعبيده وتحت تصرفه وقهره، فلا ربّ غيره ولا معبود سواه . وهو الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، والخبير بخلقه لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء . ولهذا قال سبحانه ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ﴾ أي يعلم ما يدخل في الأرض من الحب والبذور الكامن فيها ويعلم ما يخرج من ذلك عدده وكيفيته وصفاته ﴿ وما ينزل من السماء ﴾ من قطر أو رزق وما يعرج فيها من الأعمال الصالحة ﴿ وهو الرحيم ﴾ بعباده ﴿ الغفور ﴾ عن ذنوب التائبين إليه المتوكّلين عليه .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي

كِتَابٍ مُبِينٍ ۞ (٣) لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۞ (٤) وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ۞ (٥) وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۞ (٦)

هذه إحدى الآيات الثلاث التي أمر تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد ، لما أنكره من أنكره فإحداهن في سورة يونس ، وهي : ﴿ ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق ... ﴾ والثانية هذه : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قلْ بلى وربي لتأتينَّكم ﴾ والثالثة في سورة التغابن وهي : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثُنَّ ... ﴾ ولما قال تعالى هاهنا ﴿ قل بلى وربي لتأتينَّكم ﴾ عقّب بما يؤكد ذلك ويقرره فقال عزّ من قائل : ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ أي لا يغيب عنه وجميع مخلوقاته تحت علمه لا يخفى عليه شيء . فالعظام وإن تلاشت ، فهو جل جلاله عالم اين استقرت ذراتها ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فإنه بكل شيء عليم ، ثم بيّن حكمته من البعث فقال تعالى : ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا في آياتنا معاجزين ﴾ أي صدّوا عن سبيله تعالى وكذبوا رسله ﴿ أولئك لهم عذاب من رجز أليم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾ وهذه حكمة أخرى مضافة إلى ما قبلها ، وهي أن المؤمنين لما يشاهدون قيام الساعة وإثابةَ الأبرار وعقوبةَ الفجّار ، كما وعد الله تماماً ، يرَوْن ذلك عينَ اليقين . كما قال تعالى: ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾ أي إن هذا القرآن هو الحق في كافّة ما أخبر ويهدي إلى طريق ﴿ العزيز ﴾ الذي لا يغالب ﴿ الحميد ﴾ في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره والمحمود في ذلك كله جل جلاله .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَالِ ٱلْبَعِيدِ ۞ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۞ (٩) ﴾

يستبعد المشركون قيام الساعة ويستهزئون بالرسول ﷺ في إخباره بذلك : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزّق ﴾ أي تفتّتتْ ذرّات أجسادكم ﴿ إنكم ﴾ أي بعد هذه الحال ﴿ لفي خلقٍ جديدٍ ﴾ أي تعودون أحياء ترزقون! ولا يخلو هذا الإخبار من قسمين : إما أن يكون قد تعوّد الافتراء على الله بأنه أوحى إليه ذلك ، أو أن الرجل به جنون.ولهذا قالوا : ﴿ افترى على الله كذباً أم به جنّة ﴾ فردَّ تعالى عليهم : ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الأمين، الذي جاء بالحق ، وهم الكذَبَةُ الأغبياء ﴿ في العذاب ﴾ أي في الكفر المفضي إلى العذاب ﴿ والضلال البعيد ﴾ من الحق في الدنيا.ثم قال تعالى : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ أي ألا يرون قدرةَ الله تعالى بإيجاد هذه المخلوقات العظيمة فما الذي يوجب أن يستبعدوا بعث الأجساد مرة ثانية وأرسل لهم رسولاً ينقذهم ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ﴿إن نشأ نخسفْ بهم الأرض أو نسقطْ عليهم كسفاً من السماء ﴾ أي لو شئنا لعاقبناهم على تكذيبهم بأن نخسفَ بهم الأرض أو نرجمَهم من السماء بعذاب غليظ،ولكن نؤخّر ذلك لحلمنا وعفونا ﴿ إنّ في ذلك لآيةً لكل عبدٍ منيب ﴾ أي إن في هذا الحلم والعفو عند القدرة العظيمة لدلالة على أن ما يقوله الله ورسوله هو الحق ، ودافع إلى الرجوع عن الباطل الى الحق والتوبة النصوح ، وهذا حضٌّ على التوبة والإيمان والتصديق والتسليم .



﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * (١١) ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضل المبين وجمع له النبوة والملك المتمكّن ، والجنود ذوي العُدَد والعَدَد ، وما أعطاه من الصوت الرخيم العظيم الذي كان إذا سبّح به ، تسبّح معه الجبال،وتقف له الطير السارحات، وتجاوبه بأنواع اللغات .

وفي الصحيح: ٥٦٥[أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته ثم قال ﷺ : « لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود »]

وقوله تعالى.﴿ أوِّبي ﴾ أي رجِّعي مسبحةً معه فأُمرتِ الجبال والطيرُ أنْ تُرجِّعَ معه بأصواتها .

وقوله تعالى : ﴿ وألنّا له الحديد ﴾ قال الحسن البصري وغيره : كان لا يحتاج أن يدخل الحديد النار ولا يضربه بمطرقة بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ولهذا قال تعالى : ﴿ أن اعملْ سابغات ﴾ وهي الدروع ، وهو أول من عملها من الخلق وإنما كانت قبل ذلك صفائح ﴿ وقَدّرْ في السَّردِ ﴾ أي لا تدق المسمار فيقلق في الحلقة ، ولا تغلظه فيقصمها واجعله بقدر . والسرد حِلق الحديد يقال : درع مسرودة اذا كانت مسمورة الحِلَق ، وكان يستغني بثمن الدروع التي يصنعها عن الراتب من بيت مال المسلمين.فقيل أنه كان يبيع الدرع بأربعة آلاف درهم ، يتصدق بثلثها ويشتري بثلثها ما يكفيه وعياله ، وأمسك الثلث يتصدق به يومياً إلى أن يعمل غيرها . وان الله تعالى أعطاه شيئاً لم يعطه غيره من حسن الصوت فكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما أُعطي سبعين مزماراً في حلقه .

وقوله تعالى : ﴿ واعملوا صالحاً ﴾ أي في الذي أعطاكم الله تعالى من النعم ﴿ إني بما تعملون بصير ﴾ أي مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم لا يخفى عليّ من ذلك شيء .

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ

عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۞ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۞ (١٣)

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له ، تحمل بساطه غدوُّها شهر ، ورواحها شهر . وقوله تعالى : ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من التابعين : القطر : النحاس . وقال قتادة وكانت باليمن فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام .

وقوله تعالى : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ أي سخّر له الجن فدانوا له يسخرّهم بإذن الله لما يشاء من عمل البنايات . والجن ولد إبليس ، كما أن الإنس من ولد آدم ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون ، وهم شركاء في الثواب والعقاب ، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولي الله تعالى ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان . وقوله تعالى : ﴿ ومن يزغ منهم عن أمرنا ﴾ أي ومن يعدل من الجن عن أمرنا له ويخرج منهم عن الطاعة ﴿ نذقه من عذاب السعير ﴾ وهو الحريق . ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ﴾ أما المحاريب قال الضحاك: هي المساجد[1] وأما التماثيل فهي الصور وكانت من نحاس وقيل من طين وزجاج وقوله تعالى : ﴿ وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ الجواب هي الأحواض، والقدور الراسيات أي الثابتات لا تتحرك لعظمها وأثافيها منها . وقوله تعالى : ﴿ إعملوا آل داود شكراً ﴾ قال ابو عبد الرحمن السلمي : الصلاة شكر والصيام شكر ، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر وأفضل الشكر الحمد قال : الشكر تقوى الله تعالى والعمل الصالح وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل ، وكان آل داود عليهم السلام كذلك قائمين بشكره تعالى قولاً وعملاً . قال ابن أبي حاتم عن ثابت البناني قال : كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل أو النهار إلا وانسان من آل داود قائم يصلي فغمرتهم هذه الآية : ﴿ إعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور ﴾ وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال :

(١) نعم .. المحراب هو المسجد كله ، وليس هو الفجوة التي يقف فيها الإمام فإنها مأخوذة عن مذابح النصارى في كنائسهم ولم تكن أيام السلف الصالح !!

٥٦٦ [إن أحب الصلاة إلى الله تعالى : صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه، وينام سدسه ، وأحب الصيام الى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوماً ، ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى] .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۞ (١٤) ﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام ، وكيف عمّى اللهُ موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئاً على عصاه وهي منسأته مدةً طويلة نحواً من سنة[1] فلما أكلتها دابة الأرض،وهي الأرضة ، ضعفت وسقط إلى الأرض وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة وتبينت الجن والإنس أيضاً أنّ الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهّمون ويُوهمون الناس ذلك . فذلك قوله تعالى : ﴿ فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ فأيقن الناس عند ذلك ان الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم يطلعون على الغيب ، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له وذلك قول الله تعالى: ﴿ ما دلّهم على موته إلاّ دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبيّنت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ قال أصبغ : بلغني انها قامت سنه تأكل منها قبل ان يخرّ ، وذكر غير واحد من السلف نحو هذا ، والله أعلم .

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۞ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۞ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۞ (١٧) ﴾

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التبابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان عليه السلام من جملتهم وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم

(١) وهذا دليل حسيٌّ على أن أجسادَ الأنبياء لا تبلىَ .

وثمارهم وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه ، بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ، ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرّق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر. كما سيأتي إن شاء الله تفصيله وبيانه قريباً وبه الثقة.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس يقول : [إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو ... أرجل أم امرأة أم أرض ؟ فقال ﷺ : « بل هو رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة ، والشام منهم اربعة.فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير.وأما الشامية : فلخم وجذام وعاملة وغسان »] وهو حديث حسن لما له من الشواهد فَقَوُيَ وحُسّنَ قال علماء النسب – منهم محمد بن اسحق – إسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وإنمــا سمّي سبأ لأنه أول من سبأ [1] – فقد ذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم ، وقال في ذلك شعراً جاء فيه :

... ويملك بعدَ قحطــان نبيٌ تقيٌّ مخبت خيرُ الأنـــامِ
يسمّى أحمداً يــا ليتَ أني أعَمّر بعدَ مَبعثِــه بعام
فأعضدهُ وأحبوه بنصري بكل مدجّجٍ وبكـــلّ رامِ
متى يظهرْ فكونــوا ناصريه ومن يلقاه يُبلغُـــه سلامي

ذكر ذلك الهمداني في كتاب – الأكليل – وهكذا فسبأ هذا كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم مَنْ بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر .

فجاءتهم الرسل تأمرهم بتوحيد الله تعالى فكانوا لذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال سيل العرم ، فمنهم من أقام ببلادهم ومنهم من نزح إلى غيرها . وكان من أمر السد ان الماء كان يأتيهم من بين جبلين ، وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقادم ، فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً ، حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار واستغلّوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة ان المرأة كانت تمشي تحت الأشجار ، وعلى رأسها مكتل أو زنبيل وهو الذي تغترف فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه . وكان

(١) قلت : وأسبأ في القاموس يعني خبت الى الله ولعله رجع عن وثنيته الى عبادة الله وحده كما هو ظاهر من شعره أعلاه .

هذا السد بمأرب ، بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ويعرف بسد مأرب . وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شيء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وهذا كله فضل من الله وعنايته بهم ليوحّدوه ويعبدوه . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ﴾ثم فسرها بقوله عز وجل : ﴿ جنتان عن يمين وشمال ﴾ أي من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾ أي غفور لكم إن استمررتم على التوحيد .

وقوله تعالى : ﴿ فأعرضوا ﴾ أي عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله كما قال الهدهد لسليمان عليه السلام : ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين * إني وجدت امرأةً تملكهم وأوتيتْ من كل شيء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومَها يسجدون للشمس من دون الله وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ المراد بالعرم : المياه . قال قتادة وغيره : ضعف السد ووهىٰ وجاءت أيام السيول فصدم الماء البناء فسقط ... فانساب الماء في أسفل الوادي وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال فيبست وتحطمت وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة كما قال تعالى : ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط ﴾ قال ابن عباس وهو الأراك وأكلة البربر ﴿وأثل﴾ قال ابن عباس : هو الطرفاء وقيل هو السمر والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وشيء من سدرٍ قليل ﴾ وهو أجود هذه الأشجار المبدّل بها . فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة ، والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة ، والأنهار الجارية ، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل ، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله تعالى . وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلاّ الكفور ﴾ قال مجاهد : ولا يعاقَب إلاّ الكفور وقال ابن أبي حاتم عن ابن خيره وكان من أصحاب علي رضي الله عنه قال : جزاء المعصية : الوهن في العبادة ، والضيق في المعيشة ، والتعسّر في اللذّة ، قيل : وما التعسّر في اللذّة قال : لا يصادف لذة حلالٍ إلاّ جاءه من ينغصنه إياها .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ * (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * (١٩) ﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث أن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماءً وثمراً ، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى ، بمقدار ما يحتاجون اليه في سيرهم. ولهذا قال سبحانه : ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها ﴾ أي كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة ، وقيل هي قرى بصنعاء ﴿ قرى ظاهرة ﴾ أي واضحة يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى ولهذا قال تعالى : ﴿ وقدرنا فيها السير ﴾ أي جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿ سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين ﴾ أي كان أمنهم دائماً ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ﴾ وذلك انهم بطروا هذه النعمة ، وأحبوا مفاوز وصحارى يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل، والسير في الحرور والمخاوف. كما قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً قريةً كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ وقال هؤلاء : ﴿ ربّنا باعد بين أسفارنا ... ﴾ ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزّقناهم كل ممزق ﴾ أي جعلناهم حديثاً للناس وسمَراً يتحدثون به من خبرهم وكيف مكر الله بهم وفرّق شملهم بعد الاجتماع والإلفة والعيش الهنيء. تفرقوا في البلاد ههنا وههنا حتى صاروا مضربَ المثل ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : تفرقوا أيدي سبأ ... وهكذا فقد تفرقوا ... فمنهم من خرج إلى عُمان ، وخرجت غسّان إلى بصرى ، وخرجت الأوس والخزرج إلى يثرب ذات نخل، فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان : هذا مكان صالح لا نبغي به بدلاً فأقاموا فيه فسموا لذلك خزاعة لأنهم انخزعوا من أصحابهم ، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة ، ونزلت ازد السراة السراة . ونزلت ازد عمان عمان، ثم ارسل الله تعالى على السد فهدمه. وفي ذلك أنزل الله تعالى هذه الآيات .

قال الأعشى أعشى بني قيس بن ثعلبة واسمه ميمون بن قيس :

وفي ذاك للمؤتسي اسوةٌ ومأرب قفىَّ عليها العرِمْ
رجام بنته لهم حمير إذا جاء ماؤهم لم يرمْ
فأروى الزروع وأعنا بَها على سعةٍ ماؤهم إذ قُسمْ
فصاروا أيادي ما يقدرون منه على شرب طفل فُطِمْ

وقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور ﴾ أي أن في هذا الذي حلَّ بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ، لعبرة ودلالة لكل عبد صبّار على المصائب، شكور على النعم . وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً ٥٦٧ [عجبا للمؤمن لا يقضي الله تعالى له قضاءً إلا كان خيراً له ، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ؛ وان أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن] كان مطرف يقول : نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۞ (٢١) ﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالف الرشاد والهدى . فقال تعالى : ﴿ ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه ﴾ كقوله : ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت عليَّ لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنكنَّ ذريته إلا قليلاً ﴾ وقال ﴿ ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾ أي من حجة ، قال الحسن البصري : والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شيء وما كان إلا غروراً وأماني دعاهم إليها فأجابوه. وقوله عز وجل : ﴿ إلاَّ لنعلمَ من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك ﴾ أي إنما سلّطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء ، فيحسن عبادة ربه عز وجل في الدنيا ، ممن هو منها في شك (وربك على كل شيء حفيظ) أي ومع حفظه ضل من ضل وسلم من سلم

﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۞ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۞ (٢٣) ﴾

بيّن تبارك وتعالى أنه لا إلّه إلاّ هو الأحد الفرد الصمد ، الذي لا نظير له ولا شريك له ، بل هو مستقلّ بالأمر وحده فقال جل وعلا : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ أي من الآلهة التي عبدت من دونه : ﴿ لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾ كما قال سبحانه ؛ ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما لهم فيهما من شرك ﴾ أي لا يملكون شيئاً استقلالا ولا على سبيل الشركة ﴿ وما له منهم من ظهير ﴾ أي وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور أي يساعده ، بل الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه ثم قال تعالى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ أي لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترىء أحد أن يشفع عنده إلاّ بإذنه .كما قال تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه ﴾ ولهذا ثبت في الصحيحين قال : (... فأسجد لله تعالى فيدَعُني ما شاء الله أن يدعَني ، ويفتح عليّ بمحامدَ لا أحصيها الآن،ثم يقال : يا محمد:إرفعْ رأسك ، وقلْ تُسمعْ ، وسلْ تُعطهْ ، واشفعْ تشفَّعْ ...) (١) وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق ﴾ وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة ، وهو انه تعالى اذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه ، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي ، قال ابن عباس وغيره في تفسير هذه الآية : ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ...﴾ أي خُلّي عن قلوبهم وزال الفزع عنها سأل بعضهم بعضاً : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا ولهذا قال تعالى : ﴿ قالوا الحق ﴾ أي أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وهو العلي الكبير ﴾ .

روى البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله

(١) راجع آية الكرسي رقم /٢٥٥/ من سورة البقرة عند قوله تعالى : « من ذا الذي يشفع ... »

عنه يقول: إنَّ نبي الله ﷺ قال ٥٦٨ [إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم ، قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترق السمع .ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض – ووصف سفيان بيده فحرفها و نشر بين أصابعه – فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء] انفرد باخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه ، وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة به والله أعلم .



﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ (٢٤) قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ (٢٧) ﴾

يقرر تعالى أنه منفرد بالخلق والرزق والألوهية فكما أنهم أقروا بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض إلاّ الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إلَه إلاّ هو وحده لا شريك له أي لا معبود سواه . وقوله تعالى : ﴿ وإنّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ أي واحد من الفريقين مبطل، والآخر محقّ، لا بدّ من ذلك . ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد فدلّ على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى وقوله تعالى : ﴿ قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون ﴾ أي لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وان كذّبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا . كما قال تعالى : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ﴾ أي يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد ﴿ ثم يفتح بيننا بالحق ﴾ أي يحكم بيننا بالعدل فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وان شراً فشر ﴿ وهو الفتاح العليم ﴾ أي الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور . وقوله

تبارك وتعالى : ﴿ قل أروني الذين ألحقتم به شركاء ﴾ أي أين الآلهة التي جعلتموها لله أنداداً وصيرتموها له عدلاً ﴿ كلا ﴾ أي ليس له شريك ولا عديل. ولهذا قال تعالى: ﴿ بل هو الله ﴾ أي الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿ العزيز الحكيم ﴾ أي ذو العزة الذي قد قهر بها كل شيء وغلبت كل شيء الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، تبارك وتعالى وتقدّس عما يقولون علوّاً كبيراً .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليماً : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ أي إلى جميع الخلائق من المكلفين كقوله تبارك وتعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وقولُه تعالى : ﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار. ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ كقوله عز وجل ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقد ثبت في الصحيحين رفعه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ٥٦٩ [أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل . وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحدٍ قبلي وأعطيتُ الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة] وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال ٥٧٠ [بعثت إلى الأسود والأحمر] قال مجاهد : يعني الجن والانس . ثم أخبر تعالى عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾ الآية ثم قال تعالى : ﴿ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ أي لكم ميعاد مؤجل محدود لا يؤخر ولا يقدم، كما قال تعالى : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ❁ (٣١) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ❁ (٣٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ❁ (٣٣) ﴾

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم وما أخبر به من أمر المعاد، ولهذا قال عز من قائل: ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ فتوعّدهم الله تعالى، وأخبر عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجّهم ﴿ يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا ﴾ وهم الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ منهم وهم قادتهم وسادتهم ﴿ لولا أنتم لكنّا مؤمنين ﴾ أي لولا أنتم تصدونا لكنا اتّبعنا الرسل وآمنّا بما جاؤونا به. فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا: ﴿ أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ﴾ أي نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل وتركتم حجج الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك ... ولهذا قالوا: ﴿ بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار ﴾ بل كنتم تغرونا وتمنونا وتمكرون ليلاً ونهاراً وتقنعونا أنّا على هدى، فإذا كل ذلك باطل وكذب. ﴿ إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ﴾ أي نظراء وآلهة معه، وتقيموا لنا شبهاً وأشياء تضلونا بها ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ أي كل من التابعين والمتبوعين ندموا على ما سلف منهم ﴿ وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿ هل يجزون إلاّ ما كانوا يعملون ﴾ أي إنما نجازيكم بأعمالكم كلٌّ بحسبه وبقدر ما يستحقّ. كقوله

تعالى : ﴿ لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

قال ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٧١ [إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقّاهم لهبها ، ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۞ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۞ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ۞ (٣٧) وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۞ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ ۞ (٣٩) ﴾

يسلّي الله نبيه ورسوله محمداً ﷺ : بأن ما أنت فيه من تكذيب المترفين من قومك لك ، إنما هذا حصل مع كل نبيّ قبلك ، فما من نبيّ إلاّ كذبه المترفون واتّبعه الضعفاء ، كما قال قوم نوحٍ عليه الصلاة والسلام : ﴿ أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون ﴾ وقال جل وعلا ها هنا : ﴿ وما أرسلنا في قريةٍ من نذير ﴾ أي رسول ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة ، قال قتادة : هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوس الشرّ فيهم : ﴿ إنّا بما أرسلتم به كافرون ﴾ أي لا نؤمن به ولا نتبعه .

روى ابن أبي حاتم عن أبي رزين قال ٥٧٢ [كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر ، فلما بُعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله : ما فَعَلَ ... ؟ فكتب إليه : أنه لم يتبعه أحد من قريش ، إنّما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم . قال فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلّني عليه ، قال : وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب ،

قال فأتى النبي ﷺ فقال : إلام تدعو ؟ قال : « أدعو إلى كذا وكذا ... » قال : أشهد أنك رسول الله . قال ﷺ « وما علمك بذلك » ؟ قال : إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم ، قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنّا بما أرسلتم به كافرون ﴾ الآية قال فأرسل اليه النبي ﷺ : « إن الله عز وجل قد أنزل تصديق ما قلت »]

ويخبر تعالى عن المترفين المكذبين : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ أي افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتنائه بهم ، وانه ما كان ليعطيهم هذه الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة ، ولكن هيهات لهم ذلك . قال الله تعالى : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وقال ها هنا : ﴿ قل إنّ ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة ، والحجة القاطعة الدامغة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ﴾ أي ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ولا اعتنائنا بكم .

قال الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ٥٧٣ [إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم] ورواه مسلم وابن ماجه ولهذا قال تعالى : ﴿ إلاّ من آمن وعمل صالحاً ﴾ أي إنّما يقرّبكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح : ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ أي تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿ وهم في الغرفات آمنون ﴾ أي في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى. ﴿ والذين يسعون في آياتنا معاجزين ﴾ أي يسعَوْن في الصدّ عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته ﴿ أولئك في العذاب محضرون ﴾ أي جميعهم مجزيّون بأعمالهم فيها بحسبهم .

وقوله تعالى : ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ أي بحسب ما له في ذلك من الحكمة ، يبسط على هذا ، ويقتر على هذا وحكمته لا يدركها غيره وكما هم متفاوتون في الدنيا فكذلك هم في الآخرة، هذا في الغرفات في أعلى الدرجات ، وهذا في الغمرات في أسفل الدركات . وأطيب الناس في الدنيا كما قال ﷺ : ٥٧٤ [قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه] رواه مسلم . وقوله تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ أي مهما انفقتم مما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم

في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب وفي الحديث ٥٧٥ [ان ملكين يُصبحان كل يوم يقول أحدُهما : اللهم أعط ممسكاً تلفاً.ويقول الآخر : اللهم أعط منفقاً خلفاً] قال سفيان الثوري : عن مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه الآية : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ إن كان عند أحدكم ما يقيمه ، فليقصد فيه فإن الرزق مقسوم.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝ (٤١) فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ (٤٢)

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يَعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربوهم إلى الله زلفى ، فيقول للملائكة : ﴿ أهؤلاءِ إياكم كانوا يعبدون ﴾ أي أنتم أمرتموهم بذلك؟ كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ﴾ ﴿ قالوا سبحانك ﴾ أي تنزهت وتقدست عن ان يكون معك إله ﴿ أنت ولينا من دونهم ﴾ أي نبرأ إليك من هؤلاء ونحن عبيدك ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ يعنون الشياطين لأنهم هم الذين أضلوهم وزينوا لهم عبادة الأوثان ﴿ أكثر هم بهم مؤمنون ﴾ أي تبرأ الملائكة من عابديهم بغير حق . قال الله عز وجل : ﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً ﴾ أي لا ينفعكم ما كنتم ترجون نفعه ، وادخرتم عبادتهم لمثل هذا اليوم. ﴿ ونقول للذين ظلموا ﴾ أي أنفسَهم بعبادة غير الله ﴿ ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ أي هذا جزاء من عبد غير الله تعالى وكذّب بعذابه ولقائه .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ

مُبِينٌ ❁ (٤٣) وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ❁ (٤٤) وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ❁ (٤٥)

يخبر تعالى عن استحقاق الكفار للعذاب عندما يسمعون آيات الله من لسان رسوله ﷺ ﴿ قالوا ما هذا إلاّ رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، ودين محمد هو الباطل عليهم وعلى من كفر من آبائهم لعائن الله تعالى ﴿ وقالوا ما هذا إلاّ إفك مفترى ﴾ يعنون القرآن ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلاّ سحر مبين ﴾ — أي إنهم وصفوا القرآن بأنه سحر واضح. ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ (١) . وقد كانوا يودون أن يبعث فيهم نبيٌّ فلما منّ الله عليهم به كذبوه .

ثم قال تعالى : ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ أي من القوة في الدنيافجحدوا بآيات الله فدمرهم الله وزلزل بلادهم ولهذا قال

(١) قلت : أي ما أنزل الله على العرب بعد إبراهيم صحفاً إلا القرآن ولا نبياً بعد اسماعيل إلا محمداً عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام فقد كان العرب منذ زمن اسماعيل عليه السلام إلى زمن عمرو بن لحي ملك العرب على التوحيد وعلى دين إبراهيم واسماعيل وما دخل الشرك وعبادة الأوثان إلا في زمن عمرو بن لحي وقد رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم في جهنم يتعثر في أقتابه جزاء إدخاله الشركَ على جزيرة العرب وعبادة الأوثان فيهاوبناء على هذا فإن العرب كانوا مكلفين بدين إبراهيم الذي بدّلوه وغيروه كما فعل اليهود والنصارى بدين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، ولم يكن بين عمرو بن لحي وبين محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من أربعماية سنة تقريباً تدرّج خلالها الشرك شيئاً فشيئاً في أحياء العرب ، إنما لم يخلُ زمان خلال هذه المدة ممن يلهمه الله تعالى فيذكّـر بدين ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلاموكان العرب يزعمونانهم ما يزالون على دين أبيهم ابراهيم صلى الله عليه وسلم ولكن كان أولئك الذين ألهموا بتذكير الناس لا يفوتهم موسم ولا سوق من أسواق العرب الا ويقفون خطباء يبينون للناس أنهم على دين غير دين ابراهيم أمثال : قس بن ساعدة الأيادي ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل وغيرهم كثيرون... وكانوا يسمّون بالحنفاء . فهؤلاء ولا شك قامت بهم الحجّة على كل من سمعهم من أهل زمانهم ... حتى أن امية بن أبي الصلت كان يبشر ويدعو إلى نبي سيأتي قريباً ، وكان يظن أنه سيكون ذلك النبي فلما منّ الله على الثقلين ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم كفّر أمية به لأن النبوة لم تأته ! ! !؟ والخلاصة ان العرب كانوا مكلفين بدين ابراهيم فكل من اتبعه فهو موحد ناج ، وكل من تركه فهو مشرك في النار والأحاديث الصحيحة تنطق بذلك فليعد اليها من شاء وصلى الله على محمد وآله وصحبه والحمد لله رب العالمين .

تعالى : ﴿ فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ﴾ أي فانظروا واتعظوا كيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي .



﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۞ (٤٦) ﴾

يقول تبارك وتعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين بأنك مجنون ﴿ إنما أعظكم بواحدة ﴾ وهي ﴿ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾ أي قفوا موقفاً خالصاً لوجه الله تعالى من غير هوى ولا عصبية ، واسألوا بعضكم بعضاً ثم اجيبوا بإخلاص : هل محمد به جنون ؟ ثم انصحوا بعضكم بعضاً بالحق اي بالاعتراف بأن محمداً عاقل ما به قط من جنة﴿إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال ٥٧٦ [صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : مالك ؟ فقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبّحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني » قالوا : بلى قال ﷺ « فإني نذيرلكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب ، تبّاً لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿تبت يدا أبي لهب وتب ﴾] وقد تقدم هذا الحديث عند قوله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (١)

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۞ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۞ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۞ (٥٠) ﴾

يأمر تعالى نبيّه محمداً ﷺ أن يقول للمشركين ﴿ ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾ أي لا أريد منكم أجراً على أداء رسالة الله عز وجل إليكم وأمركم بعبادة الله ﴿ ان

(١) سورة الشعراء / ٢١٤ /

أجري إلاّ على الله وهو على كل شيء شهيد ﴾ أي عالم بجميع الأمور وما أنا عليه من تبليغ دينه إليكم ، وما أنتم عليه من العمل . وقوله عز وجل : ﴿ قل إنّ ربي يقذف بالحق علام الغيوب ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ من أهل الأرض بالرسالة وهو علام الغيوب فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء . وقوله تعالى : ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ أي جاء الحق والشرع العظيم من الله تعالى واضمحل الباطل . ولهذا : ٥٧٧ [لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبةً حول الكعبة ، جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه ويقرأ : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً ﴾ ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾] رواه البخاري ومسلم والترمذي .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربّي ﴾ أي الخير كله من عند الله وما أنزل الله فيه من الهدى والبيان والرشاد ومن ضلّ فإنما يضلُّ من تلقاء نفسه ، كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، لما سئل عن تلك المسألة في « المفوّضة » أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه . وقوله تعالى : ﴿ انه سميع قريب ﴾ أي سميع لأقوال عباده ، قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۞ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۞ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۞ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ۞ (٥٤) ﴾

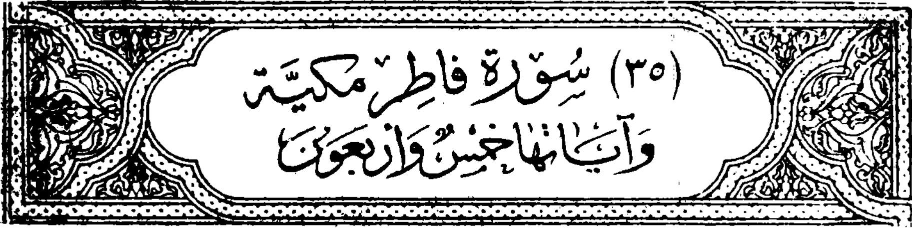
يقول تعالى : ﴿ ولو ترى ﴾ يا محمد ﴿ إذ فزعوا ﴾ أي هؤلاء المكذبون يوم القيامة ﴿ فلا فوت ﴾ أي فلا مفر لهم ولا ملجأ ﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ أي أخذوا من أول وهلة حين خرجوا من قبورهم يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى ﴿ وقالوا آمنّا به ﴾ أي يوم القيامة يقولون آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله. كما قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرْنا وسمعنا فأرجعنا نعملْ صالحاً إنّا موقنون ﴾ ولهذا

قال تعالى ﴿ وأنّى لهم التناوش من مكانٍ بعيد ﴾ أي لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد . وقوله تعالى : ﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ أي كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا الرسل ﴿ ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ كما قال تعالى : ﴿ رجماً بالغيب ﴾ فتارة يقولون شاعر وتارة يقولون كاهن ، وتارة يقولون ساحر ، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ويكذّبون بالبعث والنشور والمعاد ﴿ إن نظن إلاّ ظنّاً وما نحن بمستيقنين ﴾ أي بالبعث ولا بالجنة ولا بالنار . وقوله تعالى : ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ من الإيمان والتوبة . ولكن أنّى لهم ذلك وليس وقتهم ذلك بوقت إيمانٍ أو توبة إن لم يكونوا قد آمنوا من قبل . وقوله تعالى : ﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ أيْ كما جرى للأمم الماضية المكذبة من قبل بالرسل لما جاءهم بأسنا ، تمنوا لو أنّهم آمنوا فلم يقبل منهم ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنّا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنّةَ الله التي قد خلَتْ في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا في شكٍ مريب ﴾ فلهذا لم يتقبل إيمانهم عند معاينة العذاب ؛ قال قتادة :

إياكم والشك والريبة ، فإن من مات على شكٍ بُعِثَ عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

آخر اختصار تفسير سورة سبأ والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

١٣٩٠/٥/٣٠



نزلت بعد الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُولِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * (١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ أي مبدعهما من العدم ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ أي بينه وبين أنبيائه ﴿ أولي أجنحة ﴾ أي يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أي منهم من له جناحان ، ومنهم له ثلاثة ، ومنهم من له اربعة ومنهم من له اكثر من ذلك ، كما جاء في الحديث : ٥٧٨ [أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الاسراء وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب] ولهذا قال جل وعلا : ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ان الله على كل شيء قدير ﴾ قال السدي ـ يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء .

﴿ مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * (٢) ﴾

يخبر تعالى أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وانه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، روى الإمام أحمد عن ورّاد مولى المغيرة بن شعبة قال : ٥٧٩ [إن معاوية كتب إلى

المغيرة بن شعبة ، أكتب لي بما سمعت من رسول الله ﷺ فدعاني المغيرة فكتبت إليه : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصلاة : لا إله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد وسمعته ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات] . وأخرجاه **وقال الإمام مالك رحمة الله عليه : كان ابو هريرة رضي الله عنه إذا مطروا يقول : مطرنا بنوء الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم)**

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝ (٤) يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللهِ ٱلْغَرُورُ ۝ (٥) إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝ (٦) ﴾

ينبّهُ تعالى عباده ، ويرشدُهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق ، فكذلك فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ولهذا قال تعالى ﴿ لا إلَه إلاّ هو فأنّى تؤفكون ﴾ أي فكيف تُكذِّبون بعد هذا البيان ووضوح هذا البرهان وانتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان والله أعلم .

ويقول تبارك وتعالى : ﴿ وان يكذّبوك ﴾ يا محمد ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد فلك أسوة بمن سلفك من الرسل ، فكذلك كذبهم أقوامهم بما جاءوا به من البينات ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ وسوف يجازيهم بما يستحقون . ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق ﴾ أي المعاد كائن لا محالة ﴿ فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ﴾ أي فلا تتلهوا بزهـــرة

الدنيا الفانية عن الحياة الخالدة الهانئة الباقية. ﴿ ولا يغرنكم بالله الغَرورُ ﴾ أي لايفتننكم الشيطان بغروره . ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته . والغَرورُ هو الشيطان . ثم بيّن تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال جل وعلا : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ أي عادوه أشد العداوة وخالفوه وكذّبوه فيما يغركم به. ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه عذاب جهنم نسأله تعالى ان يجعلنا أعداء الشيطان ، وان يرزقنا اتباع كتابه وسنة رسوله ﷺ انه سميع مجيب .

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۞ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَناً فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَآءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞ (٨) ﴾

لما ذكر تعالى أن اتباع إبليس مصيرُهم الى السعير ، ذكر بعد ذلك أن للكافرين عذاباً شديداً لإطاعتهم الشيطان وعصيانهم الرحمن . وان الذين آمنوا بالله ورسله ﴿ وعملوا الصالحات لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم ﴿ وأجر كبير ﴾ على أعمالهم الصالحة . ثم قال عز من قائل : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ كالكفار الذين يسيئون ، ويعتقدون أنّهم يحسنون صنعاً فمثل هؤلاء ليس لك حيلة فيه ﴿ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ أي بقدره كان ذلك ﴿ فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات ﴾ أي لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره إنما يضل ويهدي من يشاء لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ولهذا قال تعالى : ﴿ ان الله عليم بما يصنعون ﴾ له أي علم بذلك وما سيكون منهم قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام .

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۞ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ

ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ❁ (١٠) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ❁ (١١)

كثيراً ما يَدُلُّ عبادهُ على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، كما في سورة الحج ينبّه عبادهَ أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فان الأرض تكون ميتةً هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل اليها السحاب تحمل الماء ، وأنزله عليها ﴿ اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ كذلك الأجساد إذا أراد الله بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً ، ونبتت الأجساد من قبورها كما تنبت الحبّة في الأرض ، ولهذا جاء في الصحيح : ٥٨٠ [كل ابن آدم يبلى إلاّ عجب الذنب ، منه خلق ومنه يركب] ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلك النشور ﴾ وتقدم في سورة الحج حديث أبي رزين ٥٨١ [قلت : يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال ﷺ : « يا أبا رزين أما مررتَ بوادي قومك ممحلاً ثم مررت به يهتز خضراً » قلت : بلى قال : ﷺ : «فكذلك يحيي الله الموتى »]

وقوله تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ أي من يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى ، فإنه يحصل له مقصوده . لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعاً. كما قال تعالى : ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ وقال جل جلاله : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ فليتعززِ المؤمنُ بطاعة الله عز وجل .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ يعني الذكر والتلاوة والدعاء قاله غير واحد من السلف ، وقوله تعالى : ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وقال ، إياس القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام ، وقال الحسن وقتادة : لا يقبل قول بلا عمل .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يمكرون السيئات ﴾ هم المراءون بأعمالهم أي يوهمون أنهم

في طاعة الله تعالى وهم بغضاء إلى الله عز وجل يراءون بأعمالهم . ويدخل في ذلك المشركون وغيرهم ... والمشركون داخلون بطريق الأولى.ولهذا قال تعالى : ﴿ لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ أي يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهى ، فإنه ما أسرَّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وكساه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير أو شراً فشر . فالمرائي لا يروج أمرُه ولايستمر إلاعلى غبي أما المؤمنون المتفرِّسون فلا يروَّج ذلك عليهم ، بل ينكشف لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ﴾ أي ابتداء خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماءٍ مهين ﴿ ثم جعلكم أزواجاً ﴾ أي ذكراً وأنثى ، لطفاً منه ورحمةً أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها ، وقوله عز وجل : ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلاّ بعلمه ﴾ أي هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء بل : ﴿ ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلاَّ في كتاب ﴾ أي ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول ﴿ وما ينقص من عمره ﴾ الضمير عائد على الجنس لا على العين لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره ، وإنما عاد الضمير على الجنس.وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وما يعمر من معمّر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إنَّ ذلك على الله يسير ﴾ يقول : ليس أحد قضيتُ له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرتُ له من العمر وقد قضيت ذلك له فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له فذلك قوله تعالى : ﴿ ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إنّ ذلك على الله يسير ﴾ يقول كل ذلك في كتاب عنده وهكذا قال الضحاك . وقال النسائي عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٥٨٢ [« من سرّه أن يبسط له في رزقه وينسأله في أثره فليصل رحمه »] وقد رواه البخاريّ ومسلم وأبو داود . روى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : ٥٨٣ض [ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال : « إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يُرزَقُها العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر »] وقوله عز وجل : ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أي سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك

وبتفصيله في جميع مخلوقاته فان علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ (١٢) ﴾

ينبه تعالى على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة ، خلق البحرين العذب الزلال وهو الأنهار السارحة العذبة السائغة الشراب ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ أي مرّ وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار وانما تكون مالحة مرّة ثم قال تعالى : ﴿ ومن كل تأكلون لحماً طرياً ﴾ يعني السمك ﴿ وتستخرجون حليةً تلبسونها ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ وترى الفلك فيه مواخر ﴾ أي تمخره وتشقه بمقدمها المسنم.وقوله جل وعلا : ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ أي بأسفاركم بالتجارة من قطر الى آخر ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم وتتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم . ولا يمتنع عليكم شيء منه بل بقدرته تعالى قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، الجميع من فضله ورحمته .

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۞ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۞ (١٤) ﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه ، والنهار بضيائه ، ويطول كل منهما ويقصر بحسب الفصول ﴿ وسخر الشمسَ والقمرُ ﴾ والنجوم السيارات والثوابت الثاقبات ، الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديراً من عزيز عليم ﴿ كل يجري لأجل مسمّى ﴾ أي إلى يوم القيامة ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾

أي الذي فعل هذا هو الرب العظيم لا إله غيره ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ أي من الملائكة والصالحين الذين صورتْ أصنامهم على صورهم أي ﴿ما يملكون من قطمير ﴾ هؤلاء الذين تدعونهم من الملائكة المقربين والأولياء والصالحين ما يملكون من السموات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير ـ وهو اللفافة الرقيقة التي تكون على نواة التمرة ـ ثم قال تعالى : ﴿ ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾ يعني هذه الآلهة التي اتخذتموها من دون الله لا تسمع دعاءكم لأنهم ميّتون وتماثيلهم كذلك جماد لا أرواح فيها ﴿ ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ أي وعلى افتراض المستحيل انه وقع وسمعوا ... فإنهم لا يستطيعون الإجابة على ما تطلبون منهم إذ لا يقدر على ذلك أحد الا الله تعالى وحده لا شريك له. كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا ينبّئك مثل خبير ﴾ ولا يخبرك بحقائق الأمور وظواهرها وخفاياها ، وعواقبها ومآلها ، مثل ما يخبرك بها خبير بصير ، وهل هو إلاّ الله تبارك وتعالى ، فانه أخبر بالواقع لا محالة .



﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ * (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ * (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ * (١٨) ﴾

يخبر تعالى بقوله عز من قائل : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ﴾ أي أنتم المحتاجون اليه في جميع الحركات وهو تعالى الغني عنكم بالذات ، ولهذا قال عز وجل ﴿ والله هو الغني الحميد ﴾ أي المنفرد بالغنى وحده لا شريك له وهو الحميد في جميع أقواله وافعاله قدراً وشرعاً وقوله تعالى : ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأتِ بخلقٍ جديد ﴾ أي لو شاء لأذهبكم وأتى بغيركم وما ذلك عليه صعب أو ممتنع. ولهذا قال تعالى : ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وإن تدعُ مثقلة إلى

حملها ﴾ أي وان تدعُ نفس مثقلة بأوزارها لتساعد على حمل ولو بعض شيء منه ﴿ لا يُحمَلُ منه شيء ولو كان ذا قربىً ﴾ اي حتّى ولو كان أباها أو ابنها أو أخاها أو زوجها أو جارها تتعلق به ليحمل عنها شيئاً من حملها فيقول ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل خوفك فلا استطيع ان أعطيك شيئاً وتطلب من جميع من ذكر فيكون الجواب هو هو فذلك قوله تعالى : ﴿ لا يُحمَل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ﴾ أي إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهىُ ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ﴿ ومن تزكّى فإنّما يتزكى لنفسه ﴾ أي ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي اليه المآب وسيجزي كلاً بما يستحق .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ❁ (١٩) وَلَا ٱلظُّلُمَاتُ وَلَا ٱلنُّورُ ❁ (٢٠) وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ❁ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَاءُ وَلَا ٱلْأَمْوَاتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي ٱلْقُبُورِ ❁ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ❁ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ❁ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ ❁ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ❁ (٢٦) ﴾

يقول تعالى : كما لا تستوي الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات ، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين الذين مثلهم بالأحياء ، والكافرين الذين مثلهم بالأموات ، فلا يستوون. فالمؤمن بصير يمشي في نورعلى صراطٍ مستقيم في الدارين،حتّى ينتهي الى الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى أصم يمشي في ظلمات لا خروج له منها،تائه في غيه وضلاله في الدارين حتّى يفضي به ذلك الى الحرور والسموم والحميم، وظلٍ من يحموم لا بارد ولا

كريم . وقوله تعالى : ﴿ إن الله يُسمع من يشاء ﴾ أي يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ أي كما لا ينتفع الموتى بعد موتهم وهم كفاراً بالهداية والدعوة إليها ، كذلك المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم [1] ﴿ إن أنت إلاّ نذير ﴾ أي إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً و نذيراً ﴾ أي بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ﴿ وإن من أمةٍ إلاّ خلا فيها نذير ﴾ أي وما من أمة خلت من بني آدم إلاّ وقد بعث الله تعالى إليهم النذر وأزاح عنهم العلل . كما قال تعالى : ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذّب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ وهي المعجزات الباهرات ﴿ وبالزبُر ﴾ وهي الكتب ﴿ وبالكتاب المنير ﴾ أي الواضح البيّن ﴿ ثم أخذت الذين كفروا ﴾ بالعقاب والنكال ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً . والله تعالى أعلم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ (٢٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَابِّ وَٱلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۞ (٢٨) ﴾

ينبه تعالى على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد ، وهو الماء الذي ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفة الألوان من أصفر وأحمر وأخضر

(١) قلت : لما كان الأموات لا يسمعون لأن حاسة السمع وسائر حواسهم قد تعطلت وفنيت بسبب الموت ، كذلك فإن حال الكفار الذين اختاروا الكفر على الإيمان ، صموا آذانهم عن كل حجة . . . فلم يسمعوها مهما كرر الداعي حججه وبراهينه . . . فشبه الله حالهم التي هم عليها ، كحال الأموات الذين لا يسمعون . فكما أن الأموات لا يسمعون الدعوة مهما كررت عليهم ، كذلك هؤلاء الكفار صار حالهم كحال الأموات من حيث عدم السماع . ولو أن الأموات يسمعون لما صح التشبيه بهم . ولكن لما شبه الله الكافرين بالأموات علم قطعاً أن الأموات لا يسمعون ؛ لا سيما وان الله تعالى يقول : « وما أنت بمسمع من في القبور » والله أصدق القائلين .

وأبيض الى غير ذلك من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، كما قال تعالى : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إنَّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ﴾ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان وفي بعضها طرائق وهي الجدَد جمع جدة فمن الجبال ما هو ابيض وأحمر ، ﴿ وغرابيب سود ﴾ قال عكرمة : الغرابيب الجبال الطوال السود ؛ وقوله تعالى : ﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ﴾ أي كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب والأنعام هي مختلفة أيضاً فالناس منهم بربر وحبوش وطماطم في غاية السواد وصقالبة وروم في غاية البياض والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك ، ولهذا قال تعالى في الآية الأُخرى : ﴿ واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتّى في الجنس الواحد بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون ومن هذا اللون فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقوله تعالى : ﴿ إنّما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ﴾ أي انمّا يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة بالعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ، أتم ... والعلم به أكمل ... كانت الخشية له أكبر وأعظم وأكثر . وقال الحسن البصري : العالم من خشي الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغّب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه ثم تلا الحسن : ﴿ انما يخشى اللهَ من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۞ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۞ (٣٠) ﴾

يخبر تعالى عن المؤمنين الذين يتلون كتابه ويعملونَ بما فيه من اقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً ﴿ سراً وعلانية يرجون تجارة لن

تبور ﴾ أي يرجون ثواباً لا بد من حصوله من عند الله تعالى لأن القرآن يقول لصاحبه : ان كل تاجر من وراء تجارته، وانك اليوم من وراء كل تجارة. ولهذا قال تعالى : ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ أي ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿ انه غفور ﴾ أي لذنوبهم ﴿ شكور ﴾ للقليل من أعمالهم . وقال قتادة : كان مطرف رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء .

﴿ وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَابِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * (٣١) ﴾

يقول تعالى : ﴿ والذي أوحينا اليك ﴾ يا محمد ﴿ من الكتاب ﴾ وهو القرآن . ﴿ هو الحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ من الكتب المتقدمة يصدقها كما شهدت له بالتنويه ، وأنه منزّل من ربّ العالمين ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ أي خبير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه،ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ * (٣٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ أي هذه الأمة فقد أورثها هذا القرآن العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ وهو المفرط يفعل بعض الواجبات ويرتكب بعض المحرمات ﴿ ومنهم مقتصد ﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات ، ﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات .

روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ﴿ فمنهم ظالم

لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ : ٥٨٤ [كلهم من هذه الأمة] .

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٥٨٥ [قال الله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون : ﴿ الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾]

قال بعضهم ان الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، والصحيح ان الظالم لنفسه من هذه الأمة وهذا اختيار ابن جرير ، كما هو ظاهر الآية وكما تقدمت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً واكتفينا بإيراد ما تيسر ... فاذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة وأولى الناس بهذه الرحمة ٥٨٦ [... وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر] [1] .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝ (٣٥) ﴾

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ، مأواهم جنات عدن يدخلونها يوم قدومهم على الله عز وجل ﴿ يحلَّوْن فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٥٨٧ [تبلغُ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء .] ﴿ ولباسهم

(١) من حديث رواه الامام أحمد عن أبي الدرداء مرفوعاً .

فيها حرير ﴾ ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « ٥٨٨ [من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة] وقال الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ٥٨٩ [ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور، وكأني أنظر اليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون: ﴿ الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن، ان ربنا لغفور شكور ﴾] قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: غفر لهم الكثير من السيئآت، وشكر لهم اليسير من الحسنات ﴿ الذي أحلنا دار المقامة من فضله ﴾ يقولون أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام من فضله ومنّه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك. كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: ٥٩٠ [لن يُدخل أحداً منكم عملهُ الجنة » قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال « ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل] ﴿ لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ أي لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء، أي لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم، وصاروا في راحة دائمة مستمرة ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما اسلفتم في الأيام الخالية ﴾

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ۞ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۞ (٣٧) ﴾

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء، شرع في بيان ما للأشقياء، فقال جل وعلا: ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضي عليهم فيموتوا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ وثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: ٥٩١ [« أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون] فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحةً لهم، ولكن لا سبيل الى ذلك ثم قال تعالى: ﴿ كذلك نجزي كل كفور ﴾ أي هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق. وقوله جلت عظمته: ﴿ وهم يصطرخون فيها ﴾ أي ينادون فيها يجأرون الى الله عز وجل بأصواتهم: ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي

كنا نعمل ﴾ أي يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردّهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون فلهذا لا يجيبهم الى سؤآلهم.ولهذا قال تعالى : ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾ أوَ ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لا تنفعتم به في مدة عمركم ؟ وقد اختلف المفسرون في مقدار المراد هنا فقيل سبع عشرة سنة ، وعشرين سنة ، واربعون سنة وستون سنة . والصحيح انه ستون . روى البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٥٩٢ [اعذر الله عز وجل الى امرىء أخر عمره حتى بلغ ستين سنة] ورواه أحمد والنسائي والبزار .

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى الى عباده ويزيح به عنهم العلل كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة كما ورد بذلك الحديث ، روى الحسن بن عرفة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ٥٩٣ [اعمار أمتي ما بين الستين الى السبعين ، وأقلهم من يجوز ذلك] . وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه عن الحسن بن عرفة به وابو بكر بن ابي الدنيا من وجه آخر وطريق أخرى .

وقوله تعالى : ﴿ وجاءكم النذير ﴾ روى عن ابن عباس وغيره : يعني الشيب قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعني به رسول الله ﷺ وقرأ ابن زيد ﴿ هـذا نذير من النذر الأولى ﴾ وهذا هو الصحيح عن قتادة قال : احتج عليهم بالعمر والرسل وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر.لقوله تعالى :﴿ ونادوا يا مالك ليقضِ علينا ربك قال إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن اكثركم للحق كارهون ﴾ أي لقد بيّنا لكم الحق على ألسنة الرسل فأبيتم وخالفتم.وقوله تعالى : ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ أي فذوقوا عذاب النار جزاءً على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعماركم ، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ (٣٨) هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ۞ (٣٩) ﴾

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السموات والأرض وانه يعلم ما تخفيه السرائر ، وسيجازي كلّ عامل بعمله ثم قال تعالى : ﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ أي يخلف قوم لآخرين قبلهم ، كما قال تعالى : ﴿ ويجعلكم خلائف الأرض فمن كفر فعليه كفره ﴾ أي فانما يعود وبال ذلك عليه ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ﴾ كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمرهم حسن عملهم وارتفعت درجاتهم ومنازلهم في الجنة وزاد أجرهم وأحبهم خالقهم وبارئهم رب العالمين

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ ٱلظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴿٤١﴾



يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ﴾ هذا تحدي من الله للذين يعبدون سواه وإعجاز لهم بأنه هو خالق السموات والأرض ، وكلّ شيء ، فماذا خلق الذين من دونه حتى تعبدوهم ؟ والجواب ليس للأنداد والمعبودين معه أيّ ملك ، وكيف وانهم هم المملوكون المربوبون لله تعالى ، انهم ما يملكون من قطمير ﴿ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر ؟ الجواب ليس : الأمر كذلك ﴿ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلاّ غروراً ﴾ أي بل إنما اتّبعوا في ذلك أهواءهم وما هي إلا غرور وباطل وزور . ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السموات والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما . فقال جل وعلا : ﴿ ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ أي تضطربا عن أماكنهما كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ ولئن زالتا إنْ أمسكهما من أحد من بعده ﴾ أي لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلاّ هو

ومع ذلك حليم غفور» أي يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم فيؤخر . وينظر ويؤجل ولا يعجل ، ويستر آخرين ويغفر. ولهذا قال تعالى ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً ۞ (٤٢) اسْتِكْبَاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّءِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللهِ تَحْوِيلًا ۞ (٤٣) ﴾

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الامم كقوله تعالى :﴿ وان كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون ﴾ قال تعالى : ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ وهو محمّد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم ﴿ ما زادهم إلاّ نفوراً ﴾ أي ما ازدادوا إلاّ كفراً إلى كفرهم . ثم بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ استكباراً في الأرض ﴾ عن اتباع آيات الله ﴿ ومكرَ السيِّءِ ﴾ أي مكروا بالناس في صدّهم إيّاهم عن سبيل الله ﴿ ولا يحيق المكر السّيءُ إلاّ بأهله ﴾ أي وما يعود وبال ذلك إلاّ عليهم أنفسهم دون غيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ فهل ينظرون إلاّ سنةَ الأولين ﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي لا تغير ولا تبدل بل هي جارية كذلك في كل مكذب.﴿ ولن تجد لسُنَّةِ الله تحويلاً ﴾ أي ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا مردَّ له ﴾ .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن

شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بك وبرسالتك ، سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة مكذّبي الرسل، كيف دمَّرهم الله ، فخلت منهم منازلهم وسُلبوا نعيمَهم برغم كثرة الأولاد والأموال والعَدد والعُدد فما أغنى كل ذلك شيئاً ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء ﴿ إنه كان عليماً قديراً ﴾ عليم بكل الكائنات قدير على مجموعها . ثم قال تعالى : ﴿ ولو يؤآخذ اللهُ الناسَ بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي لو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك أهل الأرض وما يملكونه من دواب وأرزاق قال سعيد بن جبير والسدي في قوله تعالى ﴿ ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي لما سقاهم المطر فماتت جميع الدواب. ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمّى ﴾ ولكن يؤجّلهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ ويثيب أو يعاقب كلاً بما يستحق. ولهذا قال تعالى : ﴿ فإذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيراً ﴾ أي يعطي كل ذي حق حقه .

آخر اختصار تفسير سورة فاطر ولله الحمد والمنة وهو الموفق وعليه التكلان

(٣٦) سورة يس مكية
وآياتها ثلاث وثمانون

إلاّ الآية / ٤٥ / فمدنية نزلت بعد سورة الجن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسٓ ۞ (١) وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۞ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ (٣) عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ (٤) تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۞ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۞ (٦) لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ (٧) ﴾

قد تقدم الكلام على الأحرف المقطعة في أول سورة البقرة . ﴿ والقرآنِ الحكيم ﴾ أي المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ إنك ﴾ يا محمد ﴿ لمن المرسلين على صراط مستقيم ﴾ أي على منهج ودين قويم وشرع مستقيم.﴿ تنزيلَ العزيز الرحيم ﴾ أي هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به تنزيل من ربّ العالمين ربّ العزة الرحيم بعباده المؤمنين ،كما قال تعالى : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ . وقولُه تعالى: ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ يعني بهم العرب فإنه ما أتاهم من نذير قبله [١] وقوله تعالى : ﴿ لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على اكثرهم بأن الله تعالى قد حتّم عليهم في أم الكتاب انهم لا يؤمنون ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ بالله ، ولا يصدقون رسله [٢] .

---

(١) راجع التعليق .سورة سبأ الآية /٤٤/

(٢) ليس في هذه الآية الكريمة مفهوماً جبرياً قط وسبحان الله عن ذلك . أما الحتم الوارد في كلام ابن جرير المعزو إلى الله سبحانه وتعالى فالمقصود منه ان الله تعالى حتم عليهم أنهم لا يؤمنون . لأنه علم تعالى =

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ۞ (٨)
وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا
يُبْصِرُونَ ۞ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ۞ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ
بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۞ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ
وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ
مُبِينٍ ۞ (١٢) ﴾

يقول تعالى : إنّا جعلنا نسبة هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء كنسبة من جُعِل في عنقه غل ، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه فارتفع رأسه فصار مقمحاً ولهذا قال تعالى : ﴿ فهم مقمحون ﴾ والمقمح هو الرافع رأسه ، كما قالت أم زرع في كلامها : وأشرب فأتقمح ، أي أشرب فأروى وأرفع رأسي تهنيئاً وترويّاً . كقوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ يعني بذلك أن أيديهم موثقةٌ إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يبسطوها بخير .
وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ﴾ عن الحق ﴿ ومن خلفهم سداً ﴾ عن الحق أيضاً ﴿ فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ أي أغشينا أبصارهم عن الحق فلا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه أي إلى الإسلام . قال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن فأنزلت : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا ﴾ – الى قوله – ﴿ فهم لا يبصرون ﴾ قال : وكانوا يقولون له : هذا محمد ، فيقول : أين هو أين هو ؟ لا يبصره . رواه ابن جرير .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ أي قد ختم عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الإنذار، ولا يتأثرون به. وقد تقدم نظيرها في أول سورة البقرة .

﴿ إنّما تنذر من اتبع الذكر ﴾ أي إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون المتبعون للقرآن العظيم

= منهم أنه ستعرض عليهم دعوة الحق، وسيختارون الكفر على الإيمان، بعد قيام الحجة عليهم من قبل الرسل ، أو ممن سيكونون على قدم الرسل في الحياة الدنيا ... أجل علم الله تعالى منهم كل ذلك ... وأنهم سيختارون الكفر وأنه سيقع منهم فعلا في الحياة الدنيا... فكتب عليهم ما سيفعلونه وقدره . وذلك قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام. فكلٌّ من علم الله منه ذلك وكتبه وقدّره عليه، فلا بد فاعله في الدنيا .

﴿ وخشي الرحمن بالغيب ﴾ أي من حيث لا يراه أحد إلاّ الله تبارك وتعالى ، ويعلم أن الله مطلع عليه ﴿ فبشره بمغفرةٍ ﴾ أي لذنوبه ﴿ وأجرٍ كريمٍ ﴾ أي كبير. كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرةٌ وأجر كبيرٌ ﴾ ثم قال عز وجل : ﴿ إنّا نحن نحيي الموتى ﴾ أي يوم القيامة ، ﴿ ونكتب ما قدّموا ﴾ أي من الأعمال . وفي قوله تعالى : ﴿ وآثارَهم ﴾ قولان :

الأول : نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التي تركوها من بعدهم : كقوله ﷺ : ٥٩٤[من سن في الإسلام سنةً حسنةً كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ومن سن في الإسلام سنةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا] رواه مسلم عن جرير بن عبدالله البجلي مرفوعاً وفيه قصة : مجتابي النّمار المضريين ، ورواه ابن أبي حاتم عن جرير رضي الله عنه مرفوعاً .

الثاني : أن المراد بذلك : آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية وقد وردت أحاديث في هذا المعنى نورد منها ما تيسر : قال الإمام أحمد عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : خلتِ البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد . فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال لهم إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قربَ المسجد ؟ قالوا : نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك ؛ فقال رسول الله ﷺ : ٥٩٥[يا بني سلمة ، ديارَكم تكتب آثاركم ديارَكم تكتب آثاركم] . وهكذا رواه مسلم عن جابر (١) .

ولا تنافي بين القولين بل في القول الثاني تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأَوْلَى والأحرى فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب فلأن تكتبَ تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ أي وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ ، والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب . أما كتاب الأعمال فهو الذي تحصى فيه أعمال المكلفين من خير أو شر وهو المعني في قوله تعالى : ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾

---

(١) يعني : التزموا ديارَكم فإن آثار خطاكم إلى المسجد تكتب لكم بعددها حسنات ، وتحط عنكم بعددها سيئآت . وفي رواية الترمذي : فلم ينتقلوا ...

وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ (١٧)

يقول تعالى: ﴿واضرب لهم﴾ أي لقومك الذين كذبوك ﴿مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون﴾ يقال إنها مدينة انطاكية وكان بها ملك يعبد الأصنام اسمه انطيخس، فبعث الله تعالى إليه ثلاثة من الرسل فكذّبهم وقد استشكل بعض الأئمة كونها انطاكية بما سنذكره بعد تمام القصة ان شاء الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿ اذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ﴾ أي بادروهما بالتكذيب ﴿ فعززنا بثالث ﴾ أي شددنا أزرهما برسول ثالث ﴿فقالوا﴾ أي لأهل تلك القرية ﴿ إنا إليكم مرسلون ﴾ أي من ربكم الذي خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له.﴿ قالوا ما أنتم إلاّ بشر مثلنا ﴾ أي فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر مثلنا !؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة، وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة. كما أخبر تعالى عنهم: ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبيّنات فقالوا أبشرٌ يهدوننا ﴾ ؟! أي استعجبوا من ذلك، وفي ذلك آيات عديدة ولذا قال هؤلاء: ﴿ ما أنتم إلاّ بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلاّ تكذبون قالوا ربنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون ﴾ أي أجابهم الرسل الثلاثة: الله يعلم أنّا رسله إليكم ولو كنا كذبْنا عليه لانتقم منا أشد الانتقام ولكنه سينصرنا عليكم. ﴿ وما علينا إلا البلاغُ المبين ﴾ أي ما علينا إلاّ إبلاغكم ما أرسلنا به إليكم فإن أطعتم فلكم سعادة الدارين وإن عصيتم فعليكم مغبة ذلك.

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩)

عندها قال لهم أهل القرية ﴿ إنّا تطيّرنا بكم ﴾ أي تشاء منا بكم فإن أصابنا شر فمن

أجلكم ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ﴾ بالحجارة ﴿ وليمسنَّكم منا عذاب أليم ﴾ أي عقوبة شديدة فقالت لهم رسلهم ﴿ طائركم معكم ﴾ أي مردود عليكم ﴿ أئن ذكرتم ﴾ أي من أجل أنا ذكّرنا كم بالحق قابلتمونا بالتهديد والوعيد؟ ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ (٢٠) ٱتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۞ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ (٢٢) ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ ۞ (٢٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ (٢٤) إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ۞ (٢٥)

قال ابن اسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن أهل القرية همُّوا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة ساعياً لينصرهم من قومه ﴿ قال يا قوم اتّبعوا المرسلين ﴾ أي يحضُّ على اتّباع رسلهم ﴿ إتبعوا من لا يسألكم أجرا ﴾ أي على إبلاغكم رسالة الله ﴿ وهم مهتدون ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني ﴾ أي ما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم المعاد ليجزي كلاً بعمله ﴿ أأتخذ من دونه آلهةً ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿ إن يردني الرحمن بضرّ لا تغن عنّي شفاعتهم شيئاً ولا يُنقذون ﴾ أي هذه الآلهة التي تعبدونها لا يملكون من الأمر شيئاً ، فلو أرادني الله تعالى بسوء لاتستطيع هذه الآلهة انقاذي ﴿ إني إذاً لفي ضلال مبين ﴾ أي إن اتّخذتها آلهةً من دون الله تعالى . ﴿ إني آمنت بربكم ﴾ أي يخاطب الرسلَ : إني آمنت بربكم الذي أرسلكم ﴿ فاسمعون ﴾ أي اسمعوا ما أقول لتشهدوا لي بما آمنت به من توحيد الله تعالى، وما اتبعتكم عليه من الحق . فلما قال ذلك للرسل عليهم الصلاة والسلام وثب عليه قومه فقتلوه ولم يكن أحد له يمنع عنه. وقال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول اللهمَّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون فلم يزل يقولها حتى لفظ أنفاسه رضي الله عنه وأرضاه. ﴿ قيل ﴾ أي قال الله له ﴿ أُدخل الجنة ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها ، فلما رأى ثوابه ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون ﴾

﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۞ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ۞ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ۞ (٢٩) ﴾

قيل « أي قال الله تعالى له : ﴿ ادخل الجنة ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها فلما رأى ما منَّ الله عليه من الثواب العظيم : ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون ﴾ قال ابن عباس : نصح قومه في حياته بقوله : ﴿ يا قوم اتّبعوا المرسلين ﴾ وبعد مماته في قوله : ﴿ يا ليتَ قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ . ومراده : أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من النعيم المقيم ، والثواب العظيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل فرحمه الله ورضي عنه كم كان حريصاً على هداية قومه .

روى ابن أبي حاتم عن ابن عمير قال : قال عروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه للنبي ﷺ : ٥٩٦ [ابعثني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام؛ فقال رسول الله ﷺ « إني أخاف أن يقتلوك » فقال : لو وجدوني نائماً لما أيقظوني. فقال له رسول الله ﷺ «انطلق» فانطلق ، فمر على اللات والعزّى ، فقال : لأصبحنّك غداً بما يسوءك فغضبت ثقيف فقال : يا معشر ثقيف إن اللات لا لات ، وإن العزّى لا عزّى وأسلموا تسلموا ، يا معشر الأحلاف إن العزّى لا عزّى وإن اللات لا لات أسلموا تسلموا ، فقال ذلك ثلاث مرات ، فرماه رجل فأصاب أكحله (١) فقتله فبلغ رسول الله ﷺ فقال : « هذا مثله كمثل صاحب يس» ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ »]

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ﴾ يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضباً منه تبارك وتعالى عليهم ، لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليَّه ، ويذكر عز وجل أنه ما أنزل عليهم من أجل إهلاكهم جنداً من الملائكة بل الأمر كان أيسر من ذلك ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ أي فصاح عليهم صائح - قيل جبريل عليه السلام - صيحة واحدة ﴿ فإذا هم خامدون ﴾ عن آخرهم لم تبق بهم روح تتردد في جسد .

(١) الأكحل عرق في الذراع .

قيل ان الرسل الثلاثة رسل المسيح عليه السلام الى بلدة انطاكية وهذا غير صحيح من وجـــوه :

١ – لو كانوا رسلاً للمسيح عليه السلام لقالوا عبارة تناسب انهم مرسلون من قبله .

٢ – المعلوم أن أهل انطاكية آمنوا برسل المسيح وهي أول مدينة آمنت بالمسيح بينمـــا ذكر الله ان أهل هذه القرية كذبوا رسله وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم

٣ – ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وغير واحد من السلف أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلكٌ أمةً من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين فعلى هذا يتعين ان هذه القرية غير انطاكية كما أطلق ذلك غير واحد من السلف فإن انطاكية لم يعرف أنها أهلكت « في النصرانية ولا قبل ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝(٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَـا مُحْضَرُونَ ۝ (٣٢) ﴾

قال الله تعالى : ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ أي يا حسرتهم على أنفسهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب كيف ضيعوا أمر الله تعالى وفرطوا في جنبه ولكن لا تنفعهم إذ ذاك الحسرات فسوف يلقون العذاب الأليم لأنهم : ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ أي يكذّبونه ويسخرون منه ويجحدون ما أرسل به من الحق . ثم قال تعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ أي ألم يتعظوا بمن أهلك قبلهم من المكذبين بالرسل كيف لم يكن لهم إلى الدنيا كرة ولا رجعة .كما قال الله عنهم : ﴿ إن هي إلاَّ حياتنا الدنيا نموت ونحيى ﴾ وهم القائلون بالدور من الدهرية وبعودتهم الى الدنيا ثانيةً فذكرهم بمن خلا من قبلهم هل عادوا ؟... فكيف هم يعودون ...!؟ ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب بين يدي الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم خيرِها وشرها . والقيامة هي هذه ليس قبلها قيامة وعودة

إلى الدنيا (١) .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۞ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ۞ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۞ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٣٦) ﴾

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وآية لهم ﴾ أي دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿ الأرض الميتة ﴾ أي إذا كانت هامدةً لا نبات فيها فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء أنبتت كل ما فيها. ولهذا قال تعالى: ﴿ أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾ أي جعلناه رزقاً لهم ولأنعامهم ﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴾ أي جعلنا فيها أنهاراً سارحةً في أمكنة يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره.وقوله جل وعلا : ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ أي غرسوه ونصبوه، وإلاّ ففي الحقيقة ما كان إلاّ رحمة الله تعالى بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم ولا بحولهم وقوّتهم ، ولهذا قال تعالى: ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أي فهلاّ يشكرونه على ما أنعم عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى ، ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ﴾ أي من زروع وثمار ونبات ﴿ ومن أنفسهم ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ أي من مخلوقات شتى لا يعرفونها كما قال جلت عظمته : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾

---

(١) قلت: ان فكرة العودة إلى الدنيا مرة ثانية مع انها عقيدة الكافرين الأول... ما يزال بين المسلمين من يقول بهذه العودة إلى الدنيا ويجعلون هذا لأوليائهم عندما ينادونهم ويستغيثون بهم لتفريج الكروب!! فيعتقدون أنهم يحضرون حالا لنجدتهم في هيآت مختلفة ويدعون أنهم يرونهم ويكلمونهم فتأمل يا أخي المسلم كم هو أثر إبليس اللعين في نفوسهم إلى درجة جعلهم يعتقدون بعقيدة الكفار السابقين وهم يظنون أنهم ما يزالون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويقولون : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يقولونها ترداداً من غير فهم بدليل أنهم ينقضونها وهم لا يشعرون وذلك بدعائهم واستغاثتهم بغير الله في أمور لا يكشفها عنهم إلا الله تعالى وإن ما يرونه من الخيالات ما هي إلا الشيطان تمثّل لهم بمن ينادون ليزيدهم طغياناً وتثبيتاً في الشرك نعوذ بالله من الخذلان وسوء المنقلب.اللهم ثبتنا على : « إياك نعبد وإياك نستعين » .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ❁ (٣٧) وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ❁ (٣٨) وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ❁ (٣٩) لَا ٱلشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ❁ (٤٠) ﴾

يقول تعالى ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة ، خلق الليل والنهار يتعاقبان بالظلام والضياء والمجيء والذهاب. كما قال تعالى : ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ أي نقتطعه منه فيذهب فيقبل الليل ﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ كما جاء في الحديث: ٥٩٧ [إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم] وقوله جل جلاله: ﴿ والشمس تجري لمستقرٍ لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ المراد مستقرّها المكاني ، وهو تحت العرش .

روى البخاري عن أبي ذر رضي الله عنه قال : ٥٩٨ [كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال ﷺ « يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس » قلت : الله ورسوله أعلم قال ﷺ « فإنها تذهب حتى تسجدَ تحت العرش فذلك قوله تعالى : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾] وقيل : المراد بمستقرها هو انتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف وهو أوجها ثم غاية انخفاضها في الشتاء وهو الحضيض ثم قال جل وعلا : ﴿ والقمر قدّرناه منازل ﴾ أي جعلناه يسيرُ سيراً آخر يستدل به على مضيِّ الشهور كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار. كما قال عز وجل: ﴿ يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ وقال تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ فجعل الشمس لها ضوء يخصها ، والقمر له نور يخصه ، وفاوت بين سير هذه وهذا فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره على ضوء واحد ، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاءً ، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار وجعل سلطانها بالنهار فهي كوكب نهاري . وأما القمر فقدره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور ، ثم يزداد نورا في الليلة الثانية ويرتفع منزلة.ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً وان كان مقتبساً

من الشمس حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم أي كعنق التمر اليابس المنحني • ثم بعد هذا يبديه الله تعالى جديداً في أول الشهر الآخر وهكذا ... وقوله تبارك وتعالى: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ قال المجاهد: لكل منهما حد لا يعدوه ولا يقصر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا واذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا.

وقوله تعالى: ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ أي لا فترة بين الليل والنهار بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ، لأنهما مسخّران دائبَيْن يتطالبان طلباً حثيثاً.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكلٌّ في فلك يسبحون﴾ يعني الليل والنهار والشمس والقمر كلهم يسبحون أي يدورون في فلك السماء. كفلكة المغزل لا يدور المغزل إلاّ بها ولا تدور إلاّ به.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ • (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ • (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ • (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ • (٤٤)﴾

يقول تبارك وتعالى: ودلالةٌ لهم أيضاً على قدرته تبارك وتعالى تسخيره البحر ليحمل السفن، فمن ذلك بل أوله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، التي أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام غيرهم، ولهذا قال عز وجل: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم﴾ أي آباءهم ﴿في الفلك المشحون﴾ أي في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات التي أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين وقال الضحاك وابن زيد: وهي سفينة نوح عليه الصلاة والسلام. وقوله جل وعلا: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ يعني بذلك الأبل فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها والأنعام جميعا [1] قال ابن عباس هي السفن جعلت من بعد سفينة نوح عليه السلام على مثلها. وقوله عز وجل: ﴿وإن نشأ نغرقهم﴾ يعني الذين في السفن ﴿فلا

(١) وقد امتن الله تعالى على عباده بأن هداهم إلى عمل السيارات والطيارات وجميع المراكب الآلية.

صريخ لهم ﴾ اي لا مغيث لهم ﴿ ولا هم يُنقَذون ﴾ أي مما أصابهم : ﴿ إلا رحمةً منّا ﴾ أي لا تنقذون إلا برحمة منّا. ولهذا قال تعالى : ﴿ ومتاعاً إلى حين ﴾ أي إلى أجل مسمّى ووقت معلوم عنده عز وجل .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۞ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ (٤٧) ﴾

يخبر تعالى عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم. فقال جل وعلا : ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم ﴾ أي ما بين أيديكم من الذنوب التي تقترفونها وما ستستقبلون من العذاب يوم القيامة ﴿ لعلكم ﴾ رجاء أن يغفر لكم باتقائكم ذلك ﴿ ترحمون ﴾ فتأمنون من عذابه ، ولكنهم أعرضوا عن ذلك ولهذا قال عز وجل : ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم ﴾ على صدق الرسل بما جاؤا به من عند ربهم. ﴿ إلاّ كانوا عنها معرّضين ﴾ أي لا يقبلونها ولا ينتفعون بها ﴿ وإذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله ﴾ أي على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿ قال الذين كفروا للذين آمنوا ﴾ من الفقراء أي قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به : ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ أي نحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم ﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ أي في أمركم لنا بالإنفاق .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۞ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۞ (٥٠) ﴾

يخبر تعالى عن استبعاد الكفار لقيام الساعة في قولهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ قال الله عز وجل ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون ﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه – والله أعلم –

نفخة الفزع ، ينفخ في الصور نفخة الفزع ، والناس في اسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فبينما هم كذلك إذ أمر الله إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلاّ أصغى ليتاً ورفع ليتا وهي صفحة العنق يتسمع الصوت من قبل السماء ، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم ولهذا قال تعالى : ﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ أي على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ من أعمالهم وأسواقهم ، ثم يكون بعد هذه النفخة الصعق التي تموت فيها المخاليق ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .



﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۞ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۞ (٥٣) فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ (٥٤) ﴾

هذه هي النفخة الثالثة وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث ولهذا قال تعالى : ﴿ فإذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون ﴾ والنسلان هو المشي السريع كما قال تعالى : ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم الى نصب يوفضون ﴾ ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من من مرقدنا ﴾ ؟ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلمّا عاينوا ما كذّبوا به في محشرهم : ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد فيقول المؤمنون منهم مجيبين : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ وقيل تجيبهم الملائكة . وقوله تعالى : ﴿ ان كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ فانما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ أي انما تأمرهم أمراً واحداً ، فإذا الجميع محضرون ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ﴾ أي من عملها ﴿ ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ۞ (٥٥) هُمْ

وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى ٱلْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ۞ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۞ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۞ (٥٨)

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات ، فنزلوا في روضات الجنات . ﴿ في شغل فاكهون ﴾ بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم . ﴿ هم وأزواجهم ﴾ أي حلائلهم ﴿ في ظلال ﴾ أي ظلال الأشجار ﴿ على الأرائك متكئون ﴾ الأرائك هي السرر في الحجال [1] وقوله عز وجل ﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ أي من جميع أنواعها ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ أي فيها كل ما يطلبون من جميع الملاذ . روى ابن أبي حاتم عن أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله ﷺ : ٥٩٩ [ألا هل مشمر الى الجنة ؟ فان الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور كلها يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سلامة ، وفاكهة خضرة ، وخير ونعمة ، في محلة عالية بهية » قالوا نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها قال ﷺ « قولوا إن شاء الله » فقال القوم : إن شاء الله]

وقوله تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ فان الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة وقيل أنه تعالى وتقدس يحييهم بالسلام .



وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۞ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ (٦٠) وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۞ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ۞ (٦٢)

يخبر تعالى عما يؤول إليه الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا أي يفترقوا عن المؤمنين في موقفهم كقوله عز وجل : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ هـذا

(١) الحجال جمع حجلة محركة وهي موضع يزين بالثياب والستور للعروس (القاموس) .

تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم. ولهذا قال تعالى: ﴿ وأن أعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ أي قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتي وهذا هو الصراط المستقيم فخالفتم أمري وأطعتم الشيطان ولهذا قال عز وجل : ﴿ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً ﴾ أي خلقاً كثيراً ﴿ أفلم تكونوا تعقلون ﴾ أي أفما كان لكم عقل لما خالفتم ربكم وعبدتم معه غيره وأطعتم الشيطان وهو عدوكم الظاهر العداوة .

﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ (٦٣) اصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ (٦٤) ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ (٦٥) وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا ٱلصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ۞ (٦٦) وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ۞ (٦٧) ﴾

يقال للكفار توبيخاً : هذه جهنم التي كنتم تكذبون الرسل بوجودها ، والتي كنتم بها توعدون ذوقوا عذابها وحريقها جزاء كفركم وتكذيبكم ، كيف رأيتم عذابها بل كما وصفت لكم ، ﴿ أصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ● اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت .

روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ٦٠٠ [كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجزه ، ثم قال ﷺ : « أتدرون مما أضحك » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم قال ﷺ : « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : رب ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجيز علي الا شاهداً من نفسي ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه انطقي فتنطق بعمله ، ثم يخلي بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل »] . ورواه مسلم والنسائي .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى

يبصرون ﴾ يقول ابن عباس : ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى فكيف يهتدون ﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ﴾ قال ابن عباس : لأهلكناهم وقال الحسن البصري : لأقعدهم على أرجلهم ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ فما استطاعوا مضياً ﴾ إلى الأمام ﴿ ولا يرجعون ﴾ الى الوراء بل يلزمون حالاً واحداً لا يتقدمون ولا يتأخرون .

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ❁ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ❁ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ❁ (٧٠)

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رُدَّ إلى الضعف بعد القوة ، والعجز بعد النشاط .كما قال تبارك وتعالى : ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبةً يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ وقال عز وجل : ﴿ ومنكم من يُرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ والمراد من هذه – والله أعلم – الأخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار . ولهذا قال عز وجل : ﴿ أفلا يعقلون ﴾ أي يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة ، ثم الى الشيخوخة،ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها،ولا انتقال منها،ولا محيد عنها وهي الدار الآخرة .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ يقول عز وجل مخبراً عن نبيه محمد ﷺ أنه ما علّمه الشعر ﴿ وما ينبغي له ﴾ أي ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته.ولهذا أورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم،بل إن أنشده زحّفه أو لم يُتمّه .

روى البيهقي في الدلائل : ٦٠١ [ان رسول الله ﷺ قال للعباس بن مرداس رضي الله عنه:أنت القائل : – « أتجعل نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة – » فقال إنما هو بين عيينة والأقرع فقال ﷺ : « الكل سواء »] يعني في المعنى.صلوات الله وسلامه عليه والله أعلم . وروى الأموي في مغازيه : ٦٠٢ [ان رسول الله ﷺ جعل يمشي بين القتلى يوم بدر وهو يقول « نفلق هاماً » فيقول الصديق رضي الله عنه متمماً للبيت : ...

من رجال أعزة * علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما] وهذا لبعض شعراء العرب في قصيدة له وهي في الحماسة .

وروى سعيد بن أبي عروة عن قتادة : ٦٠٣ [قيل لعائشة رضي الله عنها : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت رضي الله عنها : كان أبغضَ الحديث إليه غير أنه ﷺ كان يتمثّل ببيت أخي بني قيس ، فيجعل أولَه آخرَه وآخرَه أوّلَه.فقال أبو بكر رضي الله عنه : ليس هذا هكذا يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ « إني والله ما أنا بشاعر وما ينبغي لي »] رواه ابن ابي حاتم وابن جرير وهذا لفظه .

ووقع معه اتفاقاً وبلا قصد قوله يوم حنين وهو راكب بغلته يقدم بها في نحور العدو :

٦٠٤ [« أنا النبي لا كــــــذِبْ أنــــــا ابن عبدِ المطلب »]

وكذلك ما ثبت في الصحيحين عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال : ٦٠٥ [كنّا مع رسول الله ﷺ في غار فنكبت أصبعه فقال ﷺ :

هــــل أنتِ إلاّ أصبع دميتِ وفي سبيل الله مــــا لقيتِ »]

لكن قالوا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن الشعر وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعراً وما ينبغي له فإن الله تعالى إنما علّمه القرآن العظيم ﴿ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وليس هو بشعرٍ كما زعمه طائفة من جهلــة قريش ، ولا كهانة ولا مفتعل ولا سحر يؤثر .

روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : ٦٠٩ [لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً] انفرد به في هذا الوجه وإسناده عــلى شرط الشيخين ولم يخرجاه . على أن الشعر فيه ما هو مشروع وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام كحسان بن تابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة وأمثالهم رضي الله عنهم أجمعين ومنه ما فيه حكم ومواعظ ، وآداب كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية ، ومنهم امية ابن ابي الصلت الذي قال فيه رسول الله ﷺ : ٦٠٧ [آمن شعره وكفر قلبه]

وقد روى ابو داود من حديث أبي بن كعب وبريدةَ بن الحصيب وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : ٦٠٨ [إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة] ولهذا قال تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ أي وما يصلح له ﴿ إن هو إلاّ

ذكر وقرآن مبين ﴾ أي ما هذا الذي علّمناه ﴿ إلاّ ذكرٌ وقرآن مبين ﴾ أي بيّن واضح لمن تأمله وتدبره ولهذا قال تعالى : ﴿ لينذر من كان حيّاً ﴾[1] أي لينذر هذا القرآن كلَّ حيٍّ على وجه الأرض ، كقوله تعالى : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب مستنير البصيرة ﴿ ويحق القول على الكافرين ﴾ أي هو رحمة للمؤمنين وحجة على الكافرين .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۞ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۞ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۞ (٧٣) ﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿ فهم لها مالكون ﴾ أي ذليلة لا تمتنع منهم ولو كان القطار مائة بعير لسار الجميع بقيادة صغير من بني آدم ﴿ فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ أي منها ما يركبون في الأسفار ويحملون عليه الأثقال الى سائر الجهات ﴿ ومنها يأكلون ﴾ إذا شاء نحروا ﴿ ولهم فيها منافع ﴾ أي من أصوافها ، وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين ﴿ ومشارب ﴾ أي من ألبانها ، وأبوا لها لمن يتداوى ونحو ذلك ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أي أفلا يوحدون خالقَ ذلك ومسخِّره ولايشركون به غيره ؟

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ۞ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ۞ (٧٥) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۞ (٧٦) ﴾

ينكر الله تعالى على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى ، قال الله تعالى : ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ أي لا تقدر الآلهة على نصر عابديها ، بل هي أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدحر ، بل لا تقدر على الأستنصار لأنفسها ، ولا الأنتقام ممن أرادها بسوء ، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل .

---

(١) ليعلم الذين يقرأون القرآن للأموات ، أنه نزل نذارةً للأحياء ، وليحيي النفوسَ الموات .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ يعني عند الحساب يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة عند حساب عابديها ، ليكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة عليهم ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ أي تكذيبهم وكفرهم بالله ﴿ إنا نعلم ما يُسرّون وما يعلنون ﴾ أي نحن نعلم جميع ما هم فيه ، وسنجزيهم وصفهم ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ولا صغيراً ولا كبيراً بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ (٧٩) ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝ (٨٠) ﴾

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة : ٦٠٩ [جاء أُبيّ بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم ان الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ : « نعم يميتك الله تعالى ، ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار] ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿ أو لم يرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفة... ﴾ إلى آخرهن

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن العاصي بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ... وذكر الحديث وسواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف أو العاصي بن وائل أو فيهما فهي عامة في كل من أنكر البعث ﴿ أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ أي أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماءٍ مهين. كما قال عز وجل ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرارٍ مكين إلى قدر معلوم ﴾ فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته .

وقال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض للأجساد والعظام

الرميمة ، ونسي نفسه ، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده ولهذا قال عز وجل : ﴿ قل يحييها الذي انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ أي يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها اين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت .

روى الامام أحمد عن عقبة بن عمرو قال لحذيفة رضي الله عنهما : ٦١٠ [« ألا تحدّثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعته ﷺ يقول : « ان رجلاً حضره الموت فلما آيس من الحياة أوصى أهله إذا أنامتُّ فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلاً ، ثم أوقدوا فيه ناراً حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحشت ، فخذوها فدقوها فذروها في اليم ففعلوا فجمعه الله تعالى إليه ثم قال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك ، فغفر الله عز وجل له » فقال عمرو : وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك وكان نباشاً] وقد أخرجاه في الصحيحين .

وقوله تعالى : ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماءٍ حتى صار خَضِراً نضْراً ذا ثمروينع ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء قادر على ما يريد لا يمنعه شيء .

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٨١) إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۞ (٨٢) فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ (٨٣) ﴾

يخبر تعالى وينبه على قدرته في خلق السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن جميعاً وما بينهما ويرشد إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة كقوله تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقال عز وجل ههنا : ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ أي مثل البشر فيعيدهم كما بدأهم ﴿ بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ أي إنما يأمر بالشيء أمراً واحداً لا يحتاج إلى تكرر أو تأكيد . وروى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : ان رسول الله ﷺ قال : ٦١١ [ان الله تعالى يقول : « يا عبادي

كلكم مذنب إلاّ من عافيت ، فاستغفروني اغفرْ لكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إني جواد ما جد واجد أفعل ما أشاء عطائي كلام وعذابي كلام إذا أردت شيئاً فانما أقول له كن فيكون »]

وقوله تعالى : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ أي تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحيّ القيّوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر وإليه ترجع العباد يوم المعاد فيجازي كل عاملٍ بعمله وهو العادل المنعم المتفضل .

ومعنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ ، كقوله عز وجل ﴿ قل من بيده ملكوت كلِّ شيءٍ ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ والملك والملكوت واحد في المعنى ، كرحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت وجبر وجبروت ومن الناس من زعم ان الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح والصحيح الأول ، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

قال ابو داود عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : ٦١٢ [قمت مع رسول الله ﷺ ليلةً فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلاّ وقف وسأل ولا يمر بآية عذاب إلاّ وقف وتعوذ قال : ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه : « سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » ثم سجد بقدر قيامه ثم قال في سجوده مثل ذلك ، ثم قام فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة سورة] ورواه الترمذي في الشمائل والنسائي من حديث معاوية بن صالح به .

آخر اختصار تفسير سورة يس ولله الحمد والمنة والشكر

انتهى المجلد الثالث ويليه المجلد الرابع

فهرس محتويات المجلد الثالث

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة	
يوصي الله يحيى بالتوراة ، وبرّ والديه ، ويلقي عليه أماناً منه	١٠١
وجود الرزق عند مريم إثبات لوجود الكرامات	١٠٢
هيّن على الله تعالى أن يخلق مولوداً من غير أب	١٠٣
مدة حمل مريم بعيسى تسعة أشهر كالمعتاد	١٠٤
هزّت مريم جذع النخلة اليابس فأفرع وتساقط عليها رطباً جنيّاً	١٠٥
تكلمَ عيسى في المهد ، أثبتَ عبوديتَه ، وبرأ أمَّه مريمَ العذراء	١٠٦
ليس عيسى الله ، ولا ابنَه ، ولا ثالث ثلاثة . بل عبده ورسوله	١٠٧
مات الموت فالحياة خالدة في الجنة والنار	١٠٨
نهى إبراهيم أباهُ عن عبادة الأصنام	١٠٩
صدود أبي إبراهيم عن الحق الذي دعاه إليه	١١٠
إعتزال إبراهيم أباه وقومه – شفع موسى بها رون فكان نبيّاً	١١١
كان إسماعيل صادق الوعد آمراً أهله بالصلاة والزكاة	١١٢
الأنبياء قدوة البشر في جميع أعمالهم	١١٣
من أضاع الصلاة فهو لسواها أضيع . ومن إضاعتها إضاعة مواقيتها	١١٤
مَن تاب وأناب فله الجنة ولا يظلَم شيئاً	١١٥
الجنة منازل الأتقياء. سلام ونور، ونعيم خالد.	١١٦
من خلق الخلق من عدم ، ألا يعيده من وجود ؟ ! وهو أهون عليه	١١٧
تدخل الخلائق النار ، فتكون برْداً على المؤمنين وجحيماً على الكافرين	١١٨
يخرج من النار من كان في قلبه أدنى ذرةٍ من إيمان	١١٩
سيعلم الكافرون في الآخرة أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نَديّاً	١٢٠
كلاً ... سنسلبه ماله وولده ويأتينا فرداً	١٢١
الكافرون المؤملون النجاة بآلهتهم ، يُصبحون عليهم ضدّاً	١٢٢
المؤمنون يحشرون إلى الجنة على ركائب من نور ، رحائلها الذهب	١٢٣
الإنكار على من زعم ان الله ولداً سبحانه وتعالى	١٢٤
إذا أحب الله عبداً أمر جبريل بحبّه وأن ينادي الناس : أحبّوه	١٢٥
يسّر الله القرآن باللسان العربي المبين	١٢٦

٢٠ - سورة طه مكية نزلت بعد سورة مريم

٢١ – الأنبياء نزلت بعد سورة إبراهيم

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة	الصفحة
ألان الله الحديد لداود ، وسخر الريح والشياطين لسليمان	١٨٠
إبتلاء أيوب والأنبياء أشد الناس بلاءً	١٨١
ذو الكفل مختلف في نبوته والظاهر أنه نبيٌّ ﷺ	١٨٢
(لن نقدِر عليه) من التقدير لا من القدرة	١٨٣
دعاء يونس وإن كان له خاصة فإنّه كذلك لعامّة المؤمنين	١٨٤
قصة زكريا عجيبةٌ ولكن قصّة مريم أعجب	١٨٥
أيام الدجّال أربعون : يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة و	١٨٦
خروج يأجوج ومأجوج قبيل يوم القيامة	١٨٧
الكفار ومعبوداتهم في النار ، إلاّ من عبد بدون رضاه	١٨٨
من ابتدأ الخلقَ من عدم أقدرُ على إعادته من وجود	١٨٩
تعهّد الله للصالحين بوراثة الأرض في الدارين	١٩٠
محمّدٌ رسول الله رحمةٌ مهداة للعالمين	١٩١
أعلِموا الأعداء قبل البدْء بالحرب بأنكم ستحاربونهم	١٩٢
٢٢ ـ سورة الحج نزلت بعد سورة النور	
إن زلزلة الساعة تذهل الأمّ عن رضيعها من الفزع الأكبر	١٩٣
القيامة : أمر عظيم ، وخطب جليل ، وطارق مفزع ، وحادث هائل	١٩٤
من يتولّى الشيطان يضلّه في الدنيا ، ويرديه جهنم في الآخرة	١٩٥
تطوّر خلق الإنسان والنبات دليل من الله على القدرة والبعث	١٩٦
العذاب في الداريْن لمن يجادل بلا علم بل بالرأي والهوى	١٩٧
يعبد الله على حرف : إن انتفع بقيَ مسلماً وإلاّ كفر	١٩٨
من يغيظه إنتصار محمد ودينه فليأخذ حبلاً وليخنق نفسه	١٩٩
كل مخلوق في السموات والأرض يسجد لله تعالى	٢٠٠
فصّلت للكفار ثياب من نار ، والحميم يصهر رؤوسهم إلى الأقدام	٢٠١
ولباس المؤمنين في الجنّة ، سندس واستبرق وحليتهم الذهب واللؤلؤ	٢٠٢
أي عمل سيّءٍ في الحرم ، عقابه بما يناسب حرمة الحرم	٢٠٣
على إبراهيم النداءَ بالحج ، وعلى الله تعالى البلاغ	٢٠٤
في الحجّ منافع أخروية كالمغفرة ، ودنيوية كالتجارة وغيرها	٢٠٥
الأيام المعلومات والمعدودات هن : يوم النحر وثلاثة بعده	٢٠٦

٢٤ ـ سورة النور مدنيّة نزلت بعد سورة الحشر

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة	الصفحة
كل مخلوق في السموات والأرض وما بينهما يسبح الله تعالى	٢٨٩
قدرة الله ظاهرة في مخلوقاته المتنوّعة	٢٩٠
دليل الإيمان بالله ورسوله طاعتهما ، والتولّي عنهما كفر ونفاق	٢٩١
إطيعوا رسول الله تهتدوا ، وما على الرسول إلاّ البلاغ	٢٩٢
أنجز الله وعدَه للمؤمنين بالفتح والاستخلاف والتمكين	٢٩٣
على عباد الله ألاّ يشركوا بالله ، وعلى الله ألاّ يعذبهم	٢٩٤
الطائفة المنصورة هم المتّبعون رسول الله ﷺ فيما أمر	٢٩٥
ليستأذنكم الأطفال والخدَم ، في الفجر والظهر والعشاء	٢٩٦
إباحة الأكل من بيت الأبوين والإبن والسيد والأعمام والأخوال	٢٩٧
السلام على الأهل ، وعلى النفس عند دخول البيوت الخالية	٢٩٨
السلام عند الدخول ، والسلام عند الخروج	٢٩٩
التحذير الشديد من مخالفة أمرِ رسول الله ﷺ	٣٠٠
يعرض على الإنسان كتاب عمله يوم القيامة	٣٠١

٢٥ – سورة الفرقان مكية نزلت بعد سورة يـٰس

القرآن أنزله الله نذيراً للعالمين	٣٠٢
الله خالق السموات والأرض ، واتخذ الكفارُ من مخلوقاته آلهة ؟!!!	٣٠٣
يفترون على رسول الله الكذب ، ومتيقنون بأنه الصادق الأمين	٣٠٤
يريدون أن تنزل ملائكة من السماء يشهدون بصدقه	٣٠٥
أحال الأشقياء في جهنم خير ، أم حال المتقين في النعيم ؟!!	٣٠٦
يتبرّأ يوم القيامة المعبودون من العابدين	٣٠٧
كل الأنبياء والرسل بشر يأكلون ، ويمشون بين الناس	٣٠٨
أهل الجنة يقيلون مع الحور العين ، وأهل النار مع الشياطين	٣٠٩
يتمنّى الكفار يوم القيامة لو كانوا أتبعوا الرسل	٣١٠
من يخلص باتباع الرسول لن يستطيع أحدٌ صدّه عن ذلك	٣١١
تنزيل القرآن منجّما حسب الوقائع تثبيتٌ للقلوب وتمكينٌ لها	٣١٢
ذكر أخبار الأمم الخالية للعظة والتذكر والاعتبار	٣١٣
يستخفّون بالرسول ﷺ ويعلمون أنه أسماهم خلقاً وأعلاهم شرفاً	٣١٤
ذكر نِعَم الله تعالى وقدرتُه على الخلق والإيجاد	٣١٥

٢٧ – سورة النمل مكية نزلت بعد سورة الشعراء

٢٨ — سورة القصص مكيّة نزلت بعد سورة النمل

٣١ ـ سورة لقمان مكيّة نزلت بعد سورة الصافات

٣٢ ـ سورة السجدة مكية نزلت بعد سورة (المؤمنون)

٣٣ ـ سورة الأحزاب مدنيّة نزلت بعد سورة آل عمران

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة	الصفحة
الذكر الحقيقي قربة إلى الله ، والذكر البدعي بعدٌ عنه	٥٠١
الله أرحم بعباده المؤمنين من الأم الرؤوم بولدها	٥٠٢
صفته ﷺ في التوراة ، شاهداً بالوحدانيه ، مبشراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين	٥٠٣
عدة المتوفّى زوجها ولو قبل الدخول أربعة أشهر وعشرة أيام	٥٠٤
لا عدّة على المطلقة قبل الدخول ولها نصف المهر	٥٠٥
لا تحلُّ الموهوبةُ لغير النبيّ ﷺ إلاّ بمهرٍ	٥٠٦
خيّرهُ الله بتسريح من يشاء من نسائه ، وتزوّج من يشاء	٥٠٧
(لا يحلّ لك النساء من بعده) منسوخة بـ (ترجي من تشاء منهن)	٥٠٨
وافق عمرُ ربّه في ثلاث : منها آية حجاب نساء الرسول ﷺ	٥٠٩
حرام : دخول بيوته ﷺ بلا إذنه ، وتزوّج نسائه من بعده	٥١٠
المحارم الذي لا يجب الاحتجاب منهم	٥١١
الصلاة من الله ، ثناء على عبده في الملأ الأعلى	٥١٢
وجوب الصلاة على الرسول ﷺ في الصلاة ، الصيَغ الواردة منها	٥١٣
كلُّ صلاة عليه ﷺ بعشرٍ ، البخيل من لم يصلّ عليه	٥١٤
الصلاة عليه الصلاة (الشرعية) بعد الأذان جزاؤها شفاعته ﷺ	٥١٥
لا يجوز إفراد السلام على أحد من غير الأنبياء ﷺ	٥١٦
الأمر بالحجاب لنساء النبي ﷺ ويشمل نساء المؤمنين	٥١٧
هدّد الله المنافقين والزناة ومروّجي الشائعات بالنفي والتقتيل	٥١٨
علم الساعة عند الله ــ يتمنّى الكافرون لو كانوا مسلمين	٥١٩
من يتقِ الله ويقلِ الحق يصلحْ عمله ويغفرْ ذنبه	٥٢٠
الأمانة هي التكليف وقبول الأوامر والنواهي	٥٢١
الحلف بالأمانة حلف بغير الله ، والحلف بغير الله شرك	٥٢٢

٣٤ ــ سورة سبأ مكية نزلت بعد سورة لقمان

لله الحمد المطلق على نعمائه ، فهو الخالق الرازق المعبود وحده	٥٢٣
الحكمة من البعث ، أن يجزي تعالى كلاً بما يستحق	٥٢٤
التفكر في خلق السموات والأرض حافز لتفهم قدرته تعالى والتوبة إليه	٥٢٥
كان داود يكتفي بثمن الدروع عن الراتب من بيت المال	٥٢٦
سخر الله لسليمان الريح ، وكذلك الجن يعملون بين يديه	٥٢٧

٣٥ – سورة فاطر مكّيّة نزلت بعد سورة الفرقان

٣٦ – سورة يس مكية نزلت بعد سورة الجن

فهرس الأحاديث للمجلد الثالث

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٧	صح	من تواضع لله رفعه الله ، فهو في نفسه حقير	٥٠
٢٩		سمعت تسبيحاً في السموات العلى مع تسبيح كثير . . .	٥١
٣٠	صخ بح	كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل	٥٢
٣٠		إن النبيّ ﷺ أخذ في يده حصيات فسُمع لهنّ تسبيح .	٥٣
٣٠	صح	نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفادع وقال : نقيقها	٥٤
٣٠		وآمر كما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء . .	٥٥
٣٠	صح فق	إن الله ليملي للظالم حتّى إذا أخذه لم يفلته	٥٦
٣٣		ليس على أهل لا إلّه الا الله وحشة في قبورهم	٥٧
٣٣	صح	ـ وفي رواية ـ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . . .	٥٨
٣٣	صح	لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح	٥٩
٣٤	صح	لا تفضلوا بين الأنبياء	٦٠
٣٥	صح	ادعِ لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً	٦١
٣٥	صح	والذي نفسي بيده لقد أعطاني ما سألتم ولو شئت لكان	٦٢
٣٨	صح فق	لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال : اللهم . . .	٦٣
٤١		إن الملائكة قالت : يا ربّنا أعطيت بني آدم الدنيا . . .	٦٤
٤١		... يدعى أحدهم فيعطى بيمينه ، ويمدُّ له في جسمه	٦٥
٤٣	صح	... اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس	٦٦
٤٣	صح	فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون	٦٧
٤٣	صح فق	يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة في النهار . . .	٦٨
٤٤	صح م	إنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ، قال صلاةالليل	٦٩
٤٤	صح بح	إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء ، كل أمة تتبع نبيّها	٧٠
٤٥	صح بخ	من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة	٧١
٤٥	صح	إذا كان يوم القيامة كنتُ إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب	٧٢
٤٥	صح فق	... أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون ممّ ذلك . .	٧٣
٤٥	صح	أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر	٧٤
٤٦	صح	ان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن	٧٥
٤٦	صح فق	دخل النبيّ مكةَ وحولَ البيتِ ستون وثلاثمئة نصب . .	٧٦

١٨ — سورة الكهف

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
		١٩ - سورة مريم	
٩٩	صح	... لا نورث ما تركناه وصدقة	١٢٩
١٠٧	صح	ان الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته	١٣٠
١٠٨	صح فق	من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له	١٣١
١٠٨	صح فق	إذا دخل أهل الجنة الجنةَ ، وأهل النار النارَ يُجاء بالموت	١٣٢
١١٢	صح م	إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل	١٣٣
١١٢	صح	رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى فأيقظ امرأته	١٣٤
١١٢	صح	إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين	١٣٥
١١٥	صح	التوبة تجبُّ ما قبلها	١٣٦
١١٥	صح	التائب من الذنب كمن لا ذنب له	١٣٧
١١٦	صح بخ	قال محمد لجبريل : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا	١٣٨
١١٧	صح	ما أحلَّ الله في كتابه فهو حلال وما حرّمه فهو حرام .	١٣٩
١١٧	صح	يقول تعالى : كذّبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني . .	١٤٠
١١٨	صح	اختلفنا في الورود فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن . . .	١٤١
١١٨		يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم	١٤٢
١١٨	صح فق	لا يموت لأحد المسلمين ثلاثة من الولد تمسّه النار إلاّ تحلة	١٤٣
١٢١	صح فق	كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دين . .	١٤٤
١٢٢	صح	لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله	١٤٥
١٢٢	صح	لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله	١٤٦
١٢٥	صح	ان الله إذا أحب عبداً دعا جبريل اني أحبّ فلاناً . . .	١٤٧
١٢٥	صح	إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني قد أحببت فلاناً . .	١٤٨

٢٠ ـ سورة طه

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٥٥	.	المعيشة الضنك الذي قال الله انه يسلط عليه تسعة وتسعين	١٦٦
١٥٦		ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله.	١٦٧
١٥٦	صح	ان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة	١٦٨
١٥٧	صح فق	إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في	١٦٩
١٥٧	صح	يقول الله تعالى ، يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا	١٧٠
١٥٧	صح	يا أهل الجنة ان لكم عند الله وعداً يريد أن	١٧١
١٥٨	صح	إن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ . .	١٧٢
١٥٨	صح	كان النبي اذا أصابته خصاصة نادى أهله يا أهلاه صلّوا	١٧٣
١٥٨	صح	يقول الله تعالى : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك	١٧٤
١٥٨	صح	رأيت الليلة كأنّا في دار عقبة بن رافع وإنا أتينا برطب	١٧٥
١٥٩	صح فق	ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر	١٧٦
		٢١ — سورة الانبياء	
١٦٠	.	(في غفلة معرضون) قال « في الدنيا »	١٧٧
١٦٦	صح	قلت يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت	١٧٨
١٧١	صح	كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان	١٧٩
١٧١	صح	ان الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس	١٨٠
١٧٤	صح	وإن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث . اثنتين في	١٨١
١٧٦	صح بخ	حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقوه في النار	١٨٢
١٧٦	صح	لما ألقي إبراهيم في النار قال : اللهم أنك في السماء واحد	١٨٣
١٧٦	صح	دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحاً طويلاً فقلت :	١٨٤
١٧٩	صح بخ	اذا اجتهد الحاكم فأصاب ، فله أجران	١٨٥
١٧٩	صح	القضاة ثلاثة : قاض في الجنة وقاضيان في النار . . .	١٨٦
١٧٩	صح	لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داوود	١٨٧
١٨٠	صح	أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون	١٨٨
١٨١	صح فق	لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب	١٨٩
١٨٤	صح	دعوة ذي النون أذ هو في بطن الحوت: ﴿لا إله إلا أنت﴾	١٩٠
١٨٤	صح	اسم الله الذي اذا دعي به أجاب	١٩١

٢٢ ــ سورة الحج

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي	رقمه
٢١٧	حسن صح	يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم	٢٤٥
٢٢٥	صح م	إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض	٢٤٦
٢٢٥	صح	أول ما خلق الله القلم قال له اكتب ، قال وما أكتب ؟	٢٤٧
٢٢٦	صح	قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ،	٢٤٨
٢٢٨	صح	فضّلت سورة الحج بسجدتين فمن لم يسجد بهما فلا	٢٤٩
٢٢٨	صح	بعثت بالحنيفية السمحة	٢٥٠
٢٢٨	صح	بشّرا ولا تنفّرا، ويسّرا ولا تعسّرا	٢٥١
٢٢٩	صح	من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثيّ جهنم	٢٥٢

٢٣ ــ سورة المؤمنون

٢٣٠	ض	... وقال اللهم زدنا ولا تنقصنا ، واكرمنا ولا تهنا ،	٢٥٣
٢٣١	صح	... قالت : كان خلقه القرآن فقرأت (قد أفلح المؤمنون)	٢٥٤
٢٣١	صح	حبب إليّ الطيب والنساء وجعلت قرّة عيني في الصلاة	٢٥٥
٢٣١	صح	... سمعت رسول الله ﷺ يقول : قم يا بلال فأرحنا	٢٥٦
٢٣٢	صح	آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف	٢٥٧
٢٣٢	صح فق	... أي العمل أحب إلى الله ؟ قال الصلاة على وقتها ...	٢٥٨
٢٣٢	صح فق	اذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة	٢٥٩
٢٣٢	صح	ما من أحد إلاّ وله منزلان منزل في الجنة ، ومنزل . .	٢٦٠
٢٣٢	صح ح	يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال	٢٦١
٢٣٢	صح	اذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهوديا	٢٦٢
٢٣٣	صح ح	إن الله خلق آدم من قبضة من جميع الأرض	٢٦٣
٢٣٣	صح فق	إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً	٢٦٤
٢٣٥		كلوا الزيت وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة . . .	٢٦٥
٢٤٠	صح	ان داود كان يأكل من كسب يده	٢٦٦
٢٤٠	صح	ما من نبي إلاّ رعى الغنم	٢٦٧
٢٤٠	صح م	يا أيها الناس إن الله طيب ولا يقبل إلاّ طيبا	٢٦٨
٢٤٢		... ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله	٢٦٩
٢٤٤		ان النبيّ ﷺ لقي رجلاً فقال له : أسلم فقال الرجل ...	٢٧٠

(١) قلت : يعني الوبر ممزوجاً مع الدّم .

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الحديث	رقمه
٢٦٥	حسن	قام رسول الله ... وتلا القرآن ، فلما نزل أمر برجلين	٢٩٨
٢٦٧	صح فق	إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ	٢٩٩
٢٦٨	صح فق	إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تقل أو	٣٠٠
٢٦٩	صح	لا تؤذوا عباد الله ولا تعيّروهم ولا تطلبوا عوراتهم . .	٣٠١
٢٧١	صح فق	اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل وما هنّ يا رسول الله ؟	٣٠٢
٢٧١	صح	قذف المحصنة يهدم عمل مئة سنة	٣٠٣
٢٧١	صح	إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فيجحد . . .	٣٠٤
٢٧١	صح م	فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقي ،	٣٠٥
٢٧٣	صح	... اذا استأذن أحدكم فلم يؤذن له فلينصرف . . .	٣٠٦
٢٧٣	صح	... أكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة وأفطر	٣٠٧
٢٧٣	صح	... إنما الاستئذان من أجل النظر	٣٠٨
٢٧٣	صح فق	لو أن أمرأً اطلع عليك بغير إذن، فحذفته بحصاة ففقأت...	٣٠٩
٢٧٣	صح	؟ ... من ذا ... ؟ فقلت : أنا . قال : أنا أنا ... !!!	٣١٠
٢٧٣	صح	... فقال النبي ﷺ لخادمه : اخرج إلى هذا فعلّمه	٣١١
٢٧٤		أسباب نزول الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً)	٣١٢
٢٧٥	صح م	سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصدق	٣١٣
٢٧٥	حسن صح	... يا عليّ لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى ، وليس	٣١٤
٢٧٥	صح	إياكم والجلوس على الطرقات	٣١٥
٢٧٥	صح	احفظ عورتك إلاّ من زوجتك	٣١٦
٢٧٥	صح	كُتب على ابن آدم حظّه من الزنى أدرك ذلك لا محالة	٣١٧
٢٧٥	صح	... أأنتما عمياوان ... ؟	٣١٨
٢٧٥	صح	إن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون	٣١٩
٢٧٧	منقطع	يا أسماء إن المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى...	٣٢٠
٢٧٧	صح فق	لا تباشر المرأةُ المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها	٣٢١
٢٧٨	صح	ان النبي ﷺ أتى فاطمة بعبدٍ قد وهبه لها.	٣٢٢
٢٧٨	صح	دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث	٣٢٣
٢٧٨	صح فق	اياكم والدخول على النساء » قيل يا رسول الله أفرأيت	٣٢٤

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي	رقمه
٢٩٩	صح	... أنت ومالك لأبيك	٣٥٢
٢٩٩	٢٠٤	يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك، وسلم على من لقيك	٣٥٣
٢٩٩	حسن	اذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم	٣٥٤
٣٠٠	صح فق	من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ	٣٥٥
٣٠٠	صح فق	مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت . . .	٣٥٦

٢٥ ـ سورة الفرقان

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي	رقمه
٣٠٣	صح	إني أعطيت خمساً لم يعطهن من الأنبياء قبلي	٣٥٧
٣٠٥	.	قيل للنبي ﷺ إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض	٣٥٨
٣٠٥	.	من يقل علي ما لم أقل ، أو أدّعى لغير والديه	٣٥٩
٣٠٦	.	... ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط	٣٦٠
٣٠٨	صح م	... يقول الله تعالى إني مبتليك ومبتلي بك	٣٦١
٣١٠	صح	إن الله تعالى يطوي السموات بيمينه ويأخذ الأرضين . .	٣٦٢
٣١٢	صح	... يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم	٣٦٣
٣١٥	صح م	... قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال .	٣٦٤
٣١٦	صح فق	بعثت إلى الاحمر والاسود وكان النبي يبعث إلى قومه	٣٦٥
٣١٦	صح	... وقد سئل عن ماء البحر : أنتوضأ به ؟ فقال . . .	٣٦٦
٣١٨	صح	كان رسول الله ﷺ يقول سبحانك اللهم ربنا وبحمدك	٣٦٧
٣١٩	صح	ان الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ،	٣٦٨
٣١٩	صح	إذا أتيتم الصلاة فلا تأتون وأنتم تسعون	٣٦٩
٣٢٠		أما إن ملكاً بينكما يذب عنك ، كلما شتمك هذا . .	٣٧٠
٣٢٠		ما أحسن القصد في الغنى ، وما أحسن القصد في الفقر .	٣٧١
٣٢١	صح فق	... أي الذنب أكبر ؟ قال « ان تجعل لله أنداداً وهو	٣٧٢
٣٢١		... لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التي حرم	٣٧٣
٣٢١		... لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني	٣٧٤
٣٢١		ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة	٣٧٥
٣٢١		أسباب نزول الآية (قل يا عبادي الذين أسرفوا على	٣٧٦
٣٢٢	صح م	إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار.	٣٧٧

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٧٦		بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها ،	٤٠٢
٣٧٧	صح م	يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين	٤٠٣
٣٧٩	صح فق	إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض	٤٠٤
٣٨٠		... يا أيها الناس لا يغترّن أحدكم بالله ، فإن الله لو	٤٠٥
		٢٨ – سورة القصص	
٣٨٤	صح	مثَل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير كمثَل أم موسى	٤٠٦
٣٨٨	صح	مرحباً بقوم شعيب واختان موسى هدمت	٤٠٧
٣٩٤		ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولاَمن الأرض إلا	٤٠٨
٣٩٧	صح	ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن	٤٠٩
٣٩٨	صح	لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله ﷺ . . .	٤١٠
٣٩٩	صح فق	بعثت إلى الأحمر والأسود	٤١١
٤٠٠	صح	والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم	٤١٢
٤٠٥	صح بخ	بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل	٤١٣
٤٠٥		إن الله قسّم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم	٤١٤
٤٠٦	صح	إنه أوحي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد	٤١٥
٤٠٦	صح	إني أحب أن يكون ردائي حسناً ... أفمن الكبر ذلك ؟	٤١٦
		٢٩ – سورة العنكبوت	
٤٠٩	صح	أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل	٤١٧
٤١٢	صح	من دعا إلى هدي كان له من الأجر مثل أجور من أتبعه	٤١٨
٤١٢	صح	ما قتلتْ نفس ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كفل	٤١٩
٤١٧	حسن	قال : يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم	٤٢٠
٤٢١	صح	إن فلاناً يصلّي بالليل ، فإذا أصبح سرق قال : « سينهاه	٤٢١
٤٢٢	صح	لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي	٤٢٢
٤٢٤	صح فق	ما من الأنبياء من نبيٍّ إلاّ قد أعطي من الآيات	٤٢٣
٤٢٦		ان في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من	٤٢٤

الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
		٣٠ ـ سورة الروم	
٤٣٠	صح	كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم .	٤٢٥
٤٣١	حسن	... فقال : هذا السمت . قال : « أتصدّق به » . . .	٤٢٦
٤٣٥	حسن	ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض . .	٤٢٧
٤٣٦		قل : اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون وأنت حي	٤٢٨
٤٣٧	صح بخ	يقول تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني	٤٢٩
٤٣٨	صح	إني خلقت عبادي حنفاءفاجتالتهم الشياطين عن دينهم	٤٣٠
٤٣٨	صح فق	ما من مولود يولد إلاّ على الفطرة فأبواه يهودانه أو	٤٣١
٤٣٩	.	... لا إنّما خياركم أبناء المشركين ـ ثم قال ـ لا	٤٣٢
٤٣٩	صح	... من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي	٤٣٣
٤٤٠	صح	عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلاّ كان خيراً له .	٤٣٤
٤٤١	صح	ما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلاّ أخذها	٤٣٥
٤٤١		... لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما	٤٣٦
٤٤٢	صح	لحدٌ يقام في الأرض أحب إلى أهلها من أن يمطروا	٤٣٧
٤٤٢	صح فق	ان الفاجر اذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر	٤٣٨
٤٤٥	صح	يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جيفوا	٤٣٩
		٣١ ـ سورة لقمان	
٤٥٣	صح فق	إنه ليس بذلك ألا تسمع إلى قول لقمان (يا بني لا تشرك	٤٤٠
٤٥٤	صح	ليس ذلك الكبر ، إنما الكبر أن تسفه الحق وتغمط	٤٤١
٤٥٥	صح	ليس منا مثل السوء ... العائد في هبته كالكلب . . .	٤٤٢
٤٥٥	صح الجماعة	إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله	٤٤٣
٤٥٥	صح	ان لقمان الحكم كان يقول : ان الله اذا استودع شيئاً	٤٤٤
٤٥٥	صح	قال لقمان الحكم لابنه وهو يعظه يا بني إياك والتقنع .	٤٤٥
٤٥٥	صح	ربّ أشعث ذي طمرين يصفع عن أبواب الناس . .	٤٤٦
٤٥٦	.	طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا . .	٤٤٧
٤٥٦	.	إن اليسير من الرياء شرك ، وان الله يحب الأتقياء	٤٤٨

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٥٦	ض	حسب امرىء من الشر إلاّ من عصم الله ان يشير الناس	٤٤٩
٤٥٦	صح	كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس أخلاقاً	٤٥٠
٤٥٦	صح	قيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضل ؟ قال : أحسنهم	٤٥١
٤٥٦	صح	إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل ، صائم النهار	٤٥٢
٤٥٧		سئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال : الأجوفان :	٤٥٣
٤٥٧	صح	ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة	٤٥٤
٤٥٧	.	ان الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما . .	٤٥٥
٤٥٧	صح	إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط	٤٥٦
٤٥٧	صح	لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر . .	٤٥٧
٤٥٧	.	من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر أكبّه الله	٤٥٨
٤٥٧	صح	من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه	٤٥٩
٤٥٧	صح	لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره و	٤٦٠
٤٥٩	صح	... لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . .	٤٦١
٤٥٩	.	أسباب نزول آية : ولو أن ما في الأرض من شجرة	٤٦٢
٤٦٠	صح	يا أبا ذ أتدري أين تذهب هذه الشمس	٤٦٣
٤٦٢	صح بخ	مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلاّ الله	٤٦٤
٤٦٣	صح	من حدثك أنه [١] يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت	٤٦٥
٤٦٣	صح	إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة . . .	٤٦٦

٣٢ ــ سورة السجدة

٤٦٤	صح فق	كان النبيّ ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة (آلم تنزيل)	٤٦٧
٤٦٤	.	كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ : (آلم تنزيل) السجده	٤٦٨
٤٦٨	صح	عجب ربنا من رجلين رجل ثار من وطائه ولحافه . .	٤٦٩
٤٦٨	.	... يا نبيّ الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من	٤٧٠
٤٦٩	صح فق	قال الله تعالى : أعددّت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت	٤٧١

٣٣ ــ سورة الأحزاب

٤٧٤	صح	... لقد رأيتها وانها لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا	٤٧٢

(١) أي النبي صلى الله عليه وسلم .

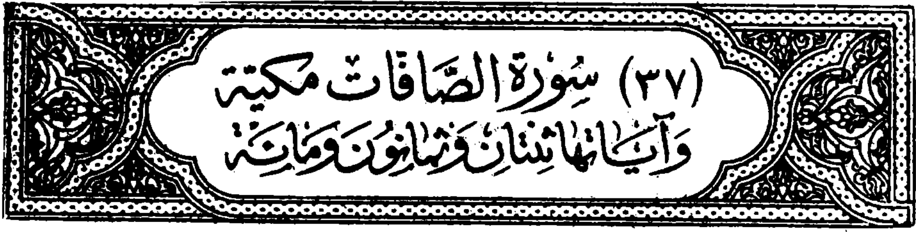
الصفحة	درجة الحديث	الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٩٣	صح	... ان الله تعالى يقول (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين	٥٠٠
٤٩٣	صح	أسباب نزول الآية . (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين	٥٠١
٤٩٣	صح فق	لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن	٥٠٢
٤٩٤	صح	عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر	٥٠٣
٤٩٤	صح فق	اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . .	٥٠٤
٤٩٤	صح فق	سبعة يظلّهم الله في ظله يوم لا ظل إلاّ ظلّه.	٥٠٥
٤٩٤	صح	كما جاء في الحديث (ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له	٥٠٦
٤٩٤	صح	... إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصلّيا ركعتين ،	٥٠٧
٤٩٤		... ما عمل آدمي عملاً قط أنجى له من عذاب الله	٥٠٨
٤٩٥	صح	ان رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثه	٥٠٩
٤٩٧	صح	لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد اذهب	٥١٠
٤٩٩	صح	لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ثم . .	٥١١
٥٠٠	صح غريب	... إن الرسالة والنبوّة قد انقطعت فلا رسول بعدي	٥١٢
٥٠٠	صح فق	مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها	٥١٣
٥٠٠	صح م	فضّلتُ على الانبياء بست : أعطيت جوامع الكلام ،	٥١٤
٥٠٠	صح فق	إن لي أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي	٥١٥
٥٠١		... اللهم اجعلني أعظم شكرك ، وأتبع نصيحتك ،	٥١٦
٥٠٢	صح	يقول الله تعالى : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي .	٥١٧
٥٠٢	صح بخ	أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيّا	٥١٨
٥٠٣	صح	... انطلقا فبشرا ولا تنفّرا ، ويسرا ولا تعسّرا ، . .	٥١٩
٥٠٤	حسن	... لاطلاق لابن آدم فيما لا يملك	٥٢٠
٥٠٥	-	... لاطلاق قبل النكاح.	٥٢١
٥٠٥	صح	ان رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن	٥٢٢
٥٠٧		ان رسول الله ﷺ كان يستأذن في اليوم المرأة منا . .	٥٢٣
٥٠٧	صح	كان رسول الله ﷺ يقسّم بين نسائه فيعدل ثم يقول .	٥٢٤
٥٠٨	صح	ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له النساء . . .	٥٢٥
٥٠٨	صح	لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له أن يتزوج من	٥٢٦

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٥٠٩	صح فق	وافقت ربي عز وجل في ثلاث ؛ قلت : يا رسول الله	٥٢٧
٥٠٩	صح بخ	قال عمر بن الخطاب يا رسول الله ، يدخل عليك البر	٥٢٨
٥٠٩	صح بخ	لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم	٥٢٩
٥١٠	صح	لهذا قال رسول الله ﷺ « اياكم والدخول على النساء »	٥٣٠
٥١٠	صح	لو دعيت إلى ذراع ، ولو أهدى إليّ كراع لقبلت . .	٥٣١
٥١٢	صح	إن الله يصلي على ميامن الصفوف	٥٣٢
٥١٢	صح	اللهم صلّ على آل أبي أوفى	٥٣٣
٥١٢		... صلّى الله عليك وعلى زوجك	٥٣٤
٥١٢	صح بخ	... قال : قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد .	٥٣٥
٥١٢		لما نزلت الآية : (إن الله وملائكته يصلون على النبي . .	٥٣٦
٥١٢	صح م	... أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله ، فكيف نصلي	٥٣٧
٥١٢	صح	... قالوا : يا رسول الله أما السلام فقد عرفناه ، فكيف	٥٣٨
٥١٣	صح	سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجّد الله	٥٣٩
٥١٣		... قال : اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت	٥٤٠
٥١٣		اللهم ارحمني ومحمدا ، ولا ترحم معنا أحدا	٥٤١
٥١٣	حسن صح	أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة	٥٤٢
٥١٣	صح	كان رسول الله ﷺ يخرج في جوف الليل فيقول :	٥٤٣
٥١٤	صح	قال رجل يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها	٥٤٤
٥١٤	صح م	من صلّى عليّ واحدة صلّى الله عليه بها عشرا	٥٤٥
٥١٤	جيّد	... قال : أجل أتاني آت من ربي عز وجل فقال : من	٥٤٦
٥١٤	حسن صح	البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصلّ عليّ	٥٤٧
٥١٤	صح	... رغِمَ أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ . .	٥٤٨
٥١٤	صح	ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا عليّ	٥٤٩
٥١٥	صح •	... اذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا عليّ	٥٥٠
٥١٥	صح	كان رسول الله ﷺ اذا دخل المسجد صلى على محمد	٥٥١
٥١٥	صح	إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام	٥٥٢

٣٤ ـ سورة سبأ

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٥٧٥	صح	... جعل يمشي بين القتلى يوم بدر وهو يقول : « نفلّق	٦٠٢
٥٧٦	صح	قالت عائشة.. كان – أي الشعر – أبغض الحديث إليه ﷺ	٦٠٣
٥٧٦	صح	أنا النبيُّ لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب	٦٠٤
٥٧٦	صح فق	هل أنت إلاّ أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت	٦٠٥
٥٧٦	صح	لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً	٦٠٦
٥٧٦	صح	آمن شعره وكفر قلبه	٦٠٧
٥٧٦	صح	إنّ من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة	٦٠٨
٥٧٨	صح	جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم	٦٠٩
٥٧٩	صح	إن رجلاً حضره الموت فلما آيس من الحياة أوصى أهله	٦١٠
٥٧٩	صح	... يا عبادي كلكم مذنب إلاّ من عافيت فاستغفروني	٦١١
٥٨٠	صح	... فقرأ سورة البقرة لا يمرّ بآية رحمة إلاّ وقف وسأل	٦١٢

انتهى المجلد الثالث ويليه المجلد الرابع



نزلتْ بعدَ الأنعام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۞(١) فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۞(٢) فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۞(٣)
إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۞(٤) رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
ٱلْمَشَٰرِقِ ۞(٥) ﴾

روى النسائي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : ١ [كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمّنا بالصافات] تفرد به النسائي .

روى سفيان الثوري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : ﴿ والصافات صفاً ﴾ هي الملائكة ﴿ فالزاجرات زجراً ﴾ هي الملائكة ﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ هي الملائكة

روى مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٢ [فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً ، وجعل لنا ترابها طهوراً إذا لم نجد الماء] وقد روى مسلم أيضاً وأبو داودوالنسائي وابن ماجه عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٣ [« ألا تصفّون كما تصف الملائكة عند ربهم » ؟ قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم قال ﷺ « يتمون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف »] .

وقال السدي وغيره معنى قوله تعالى : ﴿ فالزاجرات زجراً ﴾ انها تزجر السحاب ﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ أي الملائكة يجيئون بالقرآن من عند الله تعالى الى الناس كقوله

(١) وكذا قال ابن عباس ومسروق وغيره من التابعين .

تعالى : ﴿ فالملقيات ذكراً عذراً أو نذراً ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ إن الهكم لواحد رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي من المخلوقات ﴿ وربُّ المشارق ﴾ أي هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من أجرام السماء التي تظهر من المشرق وتغرب من المغرب ، واكتفى بذكر المشارق عن ذكر المغارب لدلالتها عليه كقوله تعالى : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنّا لقادرون ﴾ [١] وقوله تعالى : ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ يعني شروق الشمس والقمر في الصيف والشتاء ، واختلاف مطالعهما [٢]

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه زيّن السماء الدنيا ، للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ واعتدنالهم عذاب السعير ﴾ وقال تعالى هاهنا ﴿ وحفظاً ﴾ أي وحفظناه حفظاً ﴿ من كل شيطان مارد ﴾ يعني المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب فأحرقه ﴿ لا يسّمعُون إلى الملأ الأعلى ﴾ أي لئلاّ يصِلُوا إلى الملأِ الأعلى وهي السموات ومن فيها من الملائكة

(١) قلت: لما خلق الله تعالى الأرض كروية فإن نصف الكرة المواجه للشمس يكون فيهاليوم نهاراً والنصف الخلفي يكون ليلا ، ولما كانت الأرض أوالشمستدور بقدرته تعالى من الشرقإلى الغرب ففي كل لحظةمن هذا الدوران يتكون شروق وغروب لا يفترقان أبداً طالما الأرض والشمس كرويتان وكذلك سائر الكواكب . إذاً فهناك مشارق ومغارب لا تنتهي إلا بانتهاء عمر الكون ولما كان الله تعالى رب كل حركة في السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه ومحركه والمتصرف فيه بقدرته وحده لا شريك له فهو ولا شك « رب المشارق والمغارب » والله اعلم .

(٢) قلت : إن شروق الشمس في الصيف يكون من الشرق مع ميل إلى الشمال ، وغروبها يكون في الغرب مع ميل نحو الشمال . والقمر في الصيف يشرق من الشرق مع ميل نحو الجنوب ويغرب في الغرب مع ميل نحو الجنوب وأما في الشتاء : فتشرق الشمس من الشرق مع ميل إلى الجنوب وتغرب في الغرب مع ميل إلى الجنوب أما القمر في الشتاء فيشرق من الشرق مع ميل إلى الشمال ويغرب في الغرب مع ميل الشمال . وهكذا يتضح ان للشمس مشرقين ومغربين كما للقمر مشرقين ومغربين كل ذلك بقدرة الله تعالى وحده لا شريك ومن هذا يعلم أنه تعالى « رب المشرقين ورب المغربين » ورب كل شيء ومليكه لا إله غيره ولا رب سواه والله أعلم وهو الموفق للصواب .

أثناء تكلمهم بما يوحيه الله تعالى من شرعه وقدره كما تقدم ذكر ذلك عند قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ ... ولهذا قال تعالى : ﴿ ويقذفون ﴾ أي يُرمَوْنَ ﴿ من كل جانب دحوراً ﴾ أي رجماً ويدحرون عن الوصول ، ويرجمون ﴿ ولهم عـذاب واصب ﴾ أي موجع مستمر ﴿ إلاّ من خَطِفَ الخطفةَ ﴾ أي الكلمة التي يسمعها الشيطان من السماء فيلقيها إلى الذي تحته ويلقيها الآخر لمن تحته فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما القاها بقدر الله قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه فيذهب بها الآخر الى الكاهن كما تقدم في الحديث ولهذا قال تعالى : ﴿ إلاّ من خطف الخطفة ﴾....

وعن ابن عباس قال : كان للشياطين مقاعد في السماء يستمعون الوحي فينزلون الى الأرض فزادوا في الكلمة تسعاً ... فلما كانت بعثته عليه الصلاة والسلام فمنع الشياطينُ مقاعَدهم وأتبعهم شهابٌ لا يخطئُهم حتى يحرقهم فشكوا ذلك إلى إبليس فأرسل جنوده فرأوا رسول الله ﷺ يصلي بين جبلَيْ نخلة فرجعوا وأخبروا إبليس بما رأوا ... وقال هذا الذي حدث وستأتي ان شاء الله الأحاديث الواردة مع الآثار في هذا المعنى عند قوله تعالى اخباراً عن الجن أنهم قالوا : ﴿ وانّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ﴾..

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۞(١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۞(١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۞(١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۞(١٤) وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۞(١٥) ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞(١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۞(١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ۞(١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ۞(١٩) ﴾

يقول تعالى : فسل هؤلاء المنكرين للبعث أيّهما أشدُّ خلقاً .. هُم أم السموات والأرض وما بينهما من مخلوقاته ؟... فإنهم يقرون انها أشد خلقاً منهم وإذا كان الأمر كذلك فلمَ ينكرون البعث ؟ مع مشاهدة ما هو أعظم مما أنكروا ... كما قال عز وجل : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ثم بيّن انهم خُلِقوا من شيء ضعيف فقال : ﴿ إنّا خلقناهم من طين لازب ﴾ أي اللزج الجيد ﴿ بل

عجبت ويسخرون ﴾ أي بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث ، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب وهو إعادة الأجسام بعد فنائها ، وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقوله لهم من إعادة أجسامهم . ﴿ وإذا رأوا آيةً ﴾ أي دلالة واضحة على ذلك ﴿ يستسخرون ﴾ أي يستهزئون ﴿ وقالوا إنْ هذا إلاّ سحر مبين أإذامتناوكناترابآ وعظاماً أإنّالمبعوثون أو آباؤنا الأولون ﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به ﴿ قل نعم وأنتم داخرون ﴾ أي تبعثون وأنتم أذلاء حقيرون كقوله تعالى : ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ ثم قال جلّت عظمته ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴾ أي فإنما هو أمر واحد من الله عز وجل ، يدعوهم دعوةً واحدة أن يخرجوا من الأرض ، فإذا هم قيام بين يديه ينظرون الى أهوال يوم القيامة والله تعالى أعلم .



﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن وضع الكفار يوم القيامة كيف أنهم يلومون أنفسهم لظلمهم إياها في الدنيا ، وذلك عندما عاينوا أهوال القيامة فندموا حيث لا ينفعهم الندم ﴿ وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ﴾ فتقول لهم الملائكة والمؤمنون : ﴿ هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ﴾ تقريعاً وتوبيخاً ويأمر الله تعالى الملائكة بأن يفصلوا الكفار عن المؤمنين في المحشر. ولهذا قال تعالى : ﴿ أحشروا الذين ظلموا وازواجهم ﴾ قال النعمان بن بشير رضي الله عنه يعني يعني بأزواجهم : أشباهَهم وأمثالهم ، وكذا قال ابن عباس وجماعة من التابعين . ويحشرون مع ما كانوا يعبدون من دون الله من الأصنام والأنداد تحشر معهم في أماكنهم. وقولُه تعالى : ﴿ فاهدوهم الى صراط الجحيم ﴾ أي أرشدوهم إلى طريق جهنم . وقوله تعالى : ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ أي احبسوهم انهم محاسبون عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدنيا . روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤ [أيما داع دعا إلى شيء كان موقوفاً معه الى يوم القيامة لا يغادره

ولا يفارقه وان دعا رجل رجلاً ثم قرأ : ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾] ورواه الترمذي وابن جرير . ثم يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿ مالكم لا تناصرون ﴾ أي لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا ؟ ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ أي منقادون لأمر الله لا يخالفونه ولا يحيدون عنه والله أعلم .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا ٱللهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يذكر تعالى ان الكفار يتلاومون في عرصات يوم القيامة ، كما يتخاصمون في دركات النار ﴿ فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنّا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار * قال الذين استكبروا إنّا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾ وقالوا لهم ههنا ﴿ إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ قال ابن عباس : يقولون كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا لأنّا كنا أذلاء وكنتم أعزاء [1] فأقنعتمونا بالكفر. كقوله تعالى : ﴿ ... بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ... ﴾ ﴿ قالوا ﴾ أي الذين استكبروا ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ أي ليس الأمر كما تدعون بل كانت قلوبكم منكرة للايمان قابلة للكفر والعصيان ﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ أي من حجة على ما دعوناكم إليه ﴿ بل كنتم قوماً طاغين ﴾ أي متجاوزين عن الحق ولهذا استجبتم لنا فتركتم الحق وخالفتم الرسل ، ﴿ فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴾ أي فدعوناكم الى ما نحن فيه فاستجبتم قال تعالى : ﴿ فإنهم يومئذٍ في

(١) لما كانت اليد اليمين أقوى وهي المستعملة دائمة في القوة كنى سبحانه بها عن الهيمنة التي كانت للسادة والكبراء على العامة . والمعنى : أنهم جاءوهم عن طريق القوة والإجبار في تحبيذ الكفر على الإيمان .

العذاب مشتركون ﴾ أي الجميع في النار كلٌ بحسبه ﴿ إنا كذلك نفعل بالمجرمين إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ عن قولها بالمعنى الذي يقولها به المؤمنون.

﴿ ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعرٍ مجنون ﴾ يعنون رسول الله ﷺ قال الله تعالى رداً عليهم وتكذيباً لهم: ﴿ بل جاء بالحق ﴾ يعني ليس شاعراً ولا مجنوناً بل جاء بالحق الذي أرسلته به ﴿ وصدّق المرسلين ﴾ الذين أخبروا بصفاته الحميدة ودينه القويم في كتبهم السماوية السابقة فكانت حالهُ كما أخبروا عنه من الصدق والأمانة والصراط المستقيم الذي كان ينهجه في الدعوة إلى ربه تعالت قدرته وجلّت عظمته.

﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿ إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلاّ ما كنتم تعملون ﴾ ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين. كما قال تعالى: ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلاّ أصحاب اليمين ﴾ ولهذا قال عز وجل ههنا: ﴿ إلاّ عباد الله المخلصين ﴾ أي ليسوا يذوقون العذاب الأليم ولا يُناقَشون في الحساب بل يُتجاوز عن سيئآتهم ان كان لهم سيئآت ويجزون الحسنة بعشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلى ما يشاء الله من التضعيف. وقوله جل وعلا: ﴿ أولئك لهم رزق معلوم ﴾ يعني الجنة ثم فسره بقوله تعالى: ﴿ فواكه ﴾ متنوعة ﴿ وهم مكرمون ﴾ أي يخدمون ويرفّهون وينعّمون ﴿ في جنات النعيم على سرر متقابلين ﴾ مقابلةً ﴿ يطاف عليهم بكأسٍ من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ نزّه الله سبحانه وتعالى خمر الجنة عن الآفات التي في خمر الدنيا من صداع الرأس ووجع البطن، وهو الغول وذهابها بالعقل جملةً. فقال تعالى: ﴿ لا فيها غول ﴾ أي لا تغتال عقولهم. قال ابن عباس: في الخمر

أربعُ خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول فلما ذكر خمر الجنة نزههـا عن هذه الخصال . والمراد من : ﴿ لا فيها غول ﴾ ليس فيها سكر ولا صداع ولا قيء ولا بول وهذه الخصال المجموعة هي الغول . وقوله تعالى : ﴿ وعندهـم قاصرات الطرف ﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن ﴿ عين ﴾ أي حسان الأعين جميلات المظهر عفيفات تقيات نقيّات ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان وقد شبههن بالبيض المكنون كيف ان البيضة المكنونة بالقشرة الخارجية لم تمسّها يد فهن كذلك من حيث أنهن لم يمسهن أحد وبياضهن رقيق كرقة البيضة من الداخـل بيضاء شفافة قال السدي : ﴿ كأنهن بيضٌ مكنون ﴾ يقول بياض البيض حين ينزع قشره. واختاره ابن جرير لقوله مكنون قال والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش وتنالهـا الأيدي بخلاف داخلها والله أعلم . روى ابن ابي حاتم عن أم سلمة : ٥ [... قلت يا رسول الله اخبرني عن قول الله عز وجل : ﴿ كأنهن بيضٌ مكنون ﴾ قال : رقتهن كرقة الجلدة التي رأسها في داخل البيضة التي تلي القشرة وهي الغرْقيء] (١)

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون أي عن أحوالهم وكيف كانوا في الدنيا ، وما كانوا يعانون فيها وذلك من حديثهم على شرابهم واجتماعهم في تنادمهم ومعاشرتهم في مجالسهم وهم جلوس على السرر ، والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خير عظيم من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن

(١) القشرة الملتزمة ببياض البيض أو البياض الذي يؤكل« القاموس » غرقيء .

سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ قال قائل منهم إني كان لي قرين ﴾ من الكافرين ﴿يقول أإنك لمن المصدقين ﴾ أي أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء ... !!!!؟ يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد ، والكفر والعناد ﴿ أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون ﴾ لمحاسبون ومجزيّون بأعمالنا ﴿ قال هل أنتم مطلعون ﴾ أي يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة : هل أنتم مشرفون ﴿ فاطلع فرآه في سواء الجحيم ﴾ أي في وسط جهنم قال كعب الأحبار : ان في الجنة كُوَى إذا أراد أحد من أهلها ان ينظر إلى عدوه في النار اطلع فيها فازداد شكراً ﴿ قال تالله إن كدت لتردين ﴾ يقول المؤمن للكافر : والله ان كدت لتهلكني لو أطعتك ﴿ ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ﴾ أي ولولا فضل الله عليّ لكنت مثلك في سواء الجحيم حيث أُنت ، محضر معك في العذاب ، ولكنه تعالى تفضّل عليّ ورحمني فهداني للإيمان وأرشدني الى توحيده ﴿ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ أفما نحن بميتين إلاّ موتتنا الأولى وما نحن بمعذّبين ﴾ هذا من كلام المؤمن مغتبطاً نفسه بما أعطاه الله تعالى من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة بلا موت فيها ولا عذاب ولهذا قال عز وجل ﴿ إنّ هذا لهو الفوز العظيم ﴾ وقولُه جل جلاله : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ أي يقول الله تعالى لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا ليصيروا إليه في الآخرة .

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۞(٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ۞(٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۞(٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ ۞(٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۞(٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۞(٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۞(٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۞(٦٩) فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ۞(٧٠) ﴾

يقول الله تعالى أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة ، وما فيها من المآكل والمشارب والملاذ خيرٌ ضيافةً وعطاءً ﴿ أم شجرة الزقوم ﴾ أي تنبت في جهنم يقال أنها شجرة تمتّد فروعها الى جميع محالّ جهنم كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة إلاّ وفيها منها غصن . قال قتادة : ذكرت شجرة الزقوم فافتتن بها أهل الضلالة وقالوا : صاحبكم

ينبئكم أن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر فأنزل الله تعالى : ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ غذيت من النار ومنها خلقت. وقال مجاهد : في قوله تعالى : ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ قال أبو جهل لعنه الله ، إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه . قلتُ : ومعنى الآية : إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختباراً نختبر به الناس من يصدق منهم ممن يكذب . وانها أي شجرة الزقوم أصل منبتها في قرار النار ﴿ طلعهــا كأنه رؤوس الشياطين ﴾ تبشيع لها ، وتكريه لذكرها . وقوله تعالى : ﴿ وانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ﴾ لأنه لا طعام لهم إلاّ هي . كما قال تعالى : ﴿ ليس لهم طعام إلاّ من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال : ٦ [اتقوا الله حق تقاته فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيــا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم فكيف بمن يكون طعامه] ؟ رواه النسائي وابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح . وقوله تعالى : ﴿ ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني : شرب الحميم على الزقوم وقال في رواية عنه شوباً من حميم ، مزجاً من حميم . وقال غيره : يعني يمزج لهم الحميم بصديد وغساق مما يسيل من عيونهم و فروجهم (١) وقوله عز وجل : ﴿ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ ثم إن مردهم لإلى نارٍ تتأجج ، وجحيمٍ تتوقد ، وسعير تتوهج ، فتارة في هذا وتارةً في هذا. كما قال تعالى : ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية وهو تفسير حسن قوي .

وقوله تعالى : ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ﴾ أي إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان . ولهذا قال عز وجل : ﴿ فهم على آثارهم يُهرَعون ﴾ أي يهرولون .

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَـادَ ٱللَّهِ

(١) قلت : سيتزقم أبو جهل وأمثاله الزقوم مزيجاً بالحميم والصديد في قعر جهنم... كما كان يتزقم التمر بالزبد في الدنيا.

ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾

يخبر تعالى عن الأمم الماضية ان اكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهةً أخرى ، وذكر سبحانه أنه أرسل فيهم منذرين ينذرونهم بأس الله، ويحذرونهم نقمته، ممّن كفر به وعبد غيره وتمادوا في تكذيب رسله فأهلك المكذبين ونجى المؤمنين ونصرهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين إلاّ عباد الله المخلصين ﴾

وبعد أن ذكر تعالى أكثر الأولين انهم ضلوا عن سبيل النجاة ، شرع ببيان ذلك فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام وما لقي منْ قومه من التكذيب ورغم ما لبث فيهم من السنين الألف إلاّ خمسين عاماً في الدعوة إلى الله لم يؤمن منهم إلاّ القليل.دعا ربه ﴿ إني مغلوب فانتصر ﴾ فغضب الله تعالى لغضبه عليهم ولهذا قال سبحانه : ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ﴾ له ﴿ ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ وهو التكذيب والأذى ، ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم تبقَ إلاّ ذرية نوح عليه السلام وقوله تعالى : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ أي يذكر بخير وبثناء حسن ولسان صدقٍ للأنبياء كلهم . وقوله تعالى : ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم . ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى نجعل له لسان صدق يذكَر به بعده بحسب مرتبته في ذلك ثم قال تعالى : ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ أي المصدقين الموحدين الموقنين ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ أي أهلكناهم فلم تبقَ منهم عين تطرف ، ولا ذكر ولا عين ولا أثر ، ولا يُعرفون إلاّ بهذه الصفة القبيحة .



وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ

سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾

وقوله تعالى : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ أي من أهل دينه ومنهاجه وسنته ﴿ إذ جاء ربَّه بقلب سليم ﴾ أي من الشرك ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾ أنكر عليه عبادة الأصنام والأنداد ولهذا قال عز وجل ﴿ أإفكاً آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين ﴾ يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم يوم تلقونه وقد عبدتم غيره .

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

أزف لقوم إبراهيم أوان خروجهم إلى عيدٍ لهم ، فأحب أن يختليَ بآلهتهم ليكسِّرها فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر . فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه ﴿ فتولوْا عنه مدبرين ﴾ قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر في النجوم . يعني : أنه نظر الى السماء متفكراً فيما يلهيهم به . فقال : ﴿ إني سقيم ﴾ أي ضعيف وأما الحديث الذي رواه ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٧ [لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات : ثنتين في ذات الله تعالى : قوله : ﴿ إني سقيم ﴾ وقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله في سارة هي أختي ...] . فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله حاشا وكلاَّ ، وانما أطلق الكذب على هذا تجوّزاً وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني ، كما جاء في الحديث : ٨ [إن في المعاريض لمندوحةً عن الكذب]

ولما قال لهم : ﴿ إني سقيم فتولوا عنه مدبرين ﴾ أي فلما خرجوا من عنده ذهب إلى الأصنام في سرعة واختفاء، ولمّا دخل عليها وجد بين أيديها طعاماً قرباناً لتبارك لهم فيه وهي في بهو عظيم وفي الصدر صنم عظيم، إلى جانبه على الجانبين أصناماً أصغرَ منه فأصغر إلى باب البهو فلمّا نظر إبراهيم لما بين أيدي الأصنام من الطعام قال : ﴿ ألا تأكلون مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ فكسرهم جميعاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون كما تقدم في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تفسير ذلك مطوّلاً وهذه القصة ههنا مختصرة . فإنهم لمّا رجع قومه عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك وعرفوا أنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ فأقبلوا إليه يزفون ﴾ أي يسرعون ولما بدأوا يعاتبونه أخذ يؤنبهم ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ﴾ بأيديكم ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ أي خلقكم وخلق عملكم وقد روى البخاري عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً قال : ٩ [إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته] فلما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر فقالوا : ﴿ ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ونجّاه الله من النار وأظهره عليهم وأعلى حجته ونصرها. ولهذا قال تعالى: ﴿ فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۞(٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۞(١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۞(١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۞(١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۞(١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۞(١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۞(١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَاءُ ٱلْمُبِينُ ۞(١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۞(١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ۞(١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۞(١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۞(١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞(١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ۞(١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ۞(١١٣)

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام انه بعد ما نصره الله تعالى على قومه وآيس منهم ومن إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة ، هاجر من بين أظهرهم ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربّي سيهدينِ * ربّ هب لي من الصالحين﴾ يعني أولاداً مطيعين يكونون عوضاً عن قومه وعشيرته الذين فارقهم. قال الله تعالى: ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ وهو إسماعيل عليه السلام فإنه أول ولد بشّر به ابراهيم عليه السلام وهو أكبر من إسحق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب بل في نص كتابهم ان إسماعيل عليه السلام ولد ولابراهيم ست وثمانون سنة وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة وعندهم ان الله تعالى أمر إبراهيم ان يذبح ابنه وحيده وفي نسخة أخرى بكره فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً إسحق . ولا يجوز هذا لأنه مخالف نص كتابهم وإنما أقحموا إسحق لأنه أبوهم وإسماعيل أبو العرب فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا وحيدك بمعنى الذي ليس عندك غيره فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى مكة وهو تأويل وتحريف باطل فإنه لا يقال وحيدك إلا لمن ليس له غيره وأيضاً فإن أول ولد له معزةٌ ما ليس لمن بعده من الأولاد فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار . وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل: فإنه ذكر البشارة بغلام حليم وذكر أنه الذبيح= وذكر تسلسل قصة الذبح من ذكر المنام واستسلام اسماعيل لأمر الله ثم أمر أبيه ثم تلّه للجبين ونودي إبراهيم : ﴿ قد صدّقت الرؤيا ...﴾ إلى قوله تعالى ... ﴿إنه من عبادنا المؤمنين ﴾=(١) ثم قال بعد ذلك: ﴿ وبشّرناه بإسحق نبياً من الصالحين ﴾ ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحق قالوا : ﴿ إنا نبشّرك بغلام عليم ﴾ وقال تعالى : ﴿ فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ﴾ أي يولد لهما في حياتهما ولد يسمى يعقوب،فيكون من ذريته عقب ونسل وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير،لأن الله تعالى قد وعدهما بأنهما سيعقب ويكون له نسل فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير . واسماعيل وُصِف هاهنا بالحليم لأنه مناسب لهذا المقام . وقال تعالى : ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ أي كَبِر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويطيق ما يفعله أبوه من السعي والعمل ﴿ فلما بلغ معه السعيَ قال يا بنيَّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ إنما أعلم ابنَه بذلك ليكون أهون عليه وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ﴿ قال يا أبت افعل ما تؤمر ﴾ أي امض لما أمرك الله من ذبحي ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد

(١) ما بين المساويين من كلامي .

كما قال الله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربّه مرضياً ﴾ قال تعالى : ﴿ فلما أسلما وتلّه للجبين ﴾ أي استسلما وانقادا ، إبراهيم امتثل أمر الله تعالى، واسماعيل طاعة لله ولأبيه ، ومعنى ﴿ تلّه للجبين ﴾ أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه وكان على اسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض فقال يا أبتِ ، إنّه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفنني فيه ، فعالجه ليخلعه فنودِي من خلفهِ : ﴿ أن يا إبراهيم قد صدقتَ الرؤيا ﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين . قال ابن عباس : لقد رأيتنا أن نتتبع ذلك الضرب من الكباش وقوله تعالى : ﴿ وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ أي قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح . وقوله تعالى : ﴿ إنّا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً .كقوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغُ أمره قد جعل الله لكلّ شيءٍ قدراً ﴾ وقد استدل بهذه الآية والقصة ، جماعةٌ من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل ، خلافاً لطائفة من المعتزلة. والدلالة من هذه ظاهرة ، لأن الله تعالى شرّع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء ، وإنما كان المقصود من شرعه أولاً : إثابةَ الخليل على الصبر على ذبح ولده، وعزمه على ذلك. ولهذا قال تعالى : ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ أي الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى منقاداً لطاعته ولهذا قال تعالى في آية أخرى : ﴿ وإبراهيم الذي وفّى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وفديناه بذِبحٍ عظيم ﴾ قال سفيان الثوري عن علي رضي الله عنه: قال بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة . وعن ابن عباس قال : فوالذي نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الاسلام وإن رأس الكبش المعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة حتى وحش يعني يبس . وقال ابن عباس أيضاً : خرج عليه كبش من الجنة وقد رعى قبل ذلك أربعين خريفاً .

روى ابن اسحاق عن محمد بن كعب القرظي أنه ذكر لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام ـ قضية الذبيح ومن هو ؟ ـ فقال له عمر ان هذا لشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ـ أي اسماعيل ـ ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً فأسلمَ وحسنَ إسلامهُ، وكان يرى أنه من علمائهم

فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك قال محمد بن كعب وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر : أي ابْنَيْ إبراهيمَ أُمِر بذبحه ؟ فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن يهود لتعلمُ بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان مَنْ أَمَرَ اللهُ فيه والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحق أبوهم .

وعلى كل فإن كلاً من إسماعيل وإسحق عليهما الصلاة والسلام كان طاهراً وطيباً ومطيعاً لله عز وجل . وقوله تعالى : ﴿ وبشرناه بإسحق نبيّاً من الصالحين ﴾ لَمّا تقدّمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل (وبعد ان ترعرع إسماعيل وبلغ السعي مع أبيه وانتهت قصة الذبح والفداء وعاد إبراهيم الى بلاد كنعان جاءت إبراهيمَ البُشرى من قبل الملائكة كما أنهم بشروا سارة كذلك فضحكت وصكّتْ وجهها ولم يُعْلَمْ ان سارة أتت إلى الحجاز وهذا ما يدل ان البشارة بإسحق كانت في بلاد كنعان وكما يدل سياق الآية على أن البشارة بولادة إسحق ونبوته كانت بعد قصة الذبح الخاصة باسماعيل وفدائه وهذا أيضاً مما يدل على ان الذبيحَ إسماعيل لا إسحّق عليهما السلام [1]) .

وقوله تعالى : ﴿ وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ كقوله تعالى : **يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم** ثم يمسهم منّا عذاب أليم ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه ، وما كان يسيء إليهم من قتل الأبناء واستحياء النساء ، ثم بعد هذا

(١) قلت : ان الكلام الذي ما بين القوسين من كلامي لا من كلام المفسر رحمه الله تعالى .

كله نصرهم وأقر أعينهم فغلبوهم وأخذوا كل ما جمعوه طول حياتهم، ثم أنزل الله عز وجل التوراة على موسى وهي الكتاب المستبين ، وقال عز وجل: ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ أي في الأقوال والأفعال ﴿ وتركنا عليهما في الآخرين ﴾ أي أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جميلاً وثناءً حسناً ثم فسره بقوله تعالى : ﴿ سلام على موسى وهارون إنا كذلك نجزي المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞(١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۞(١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ۞(١٢٥) ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞(١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۞(١٢٧) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۞(١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ۞ (١٢٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۞(١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۞(١٣١) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞(١٣٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وان الياس لمن المرسلين ﴾ إلياس عليه الصلاة والسلام نبي رسول يقال إنه أرسل لأهل مدينة « بعلبك » غربي دمشق ﴿ إذ قال لقومه ألا تتقون ﴾ أي ألا تخافون من الله عز وجل في عبادتكم غيره ﴿ أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين ﴾

وقوله تعالى: ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ أي أتعبدون صنماً ﴿ وتذرون أحسن الخالقين ، اللهَ ربَّكم وربَّ آبائكم الأوّلين ﴾ أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له قال الله تعالى : ﴿ فكذّبوه فإنهم لمحضرون ﴾ أي للعذاب يوم الحساب ﴿ إلاّ عباد الله المُخلَصين ﴾ أي الموحّدين منهم . وقوله تعالى : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ أي ثناءً جميلاً ﴿ سلام على إلْياسين ﴾ يعني النبي إلياس فكما يقال في إسماعيل إسماعين وهي لغة بني أسد ويقال ميكال وميكائيل وميكائن وإبراهيم وأبراهام ، وإسرائيل إسرائين وطور سيناء وطور سينين، وهذا كله سائغ وقيل : ﴿ سلام على آل ياسين ﴾ يعني ال محمد ﷺ [1] وقوله

(١) قلت : وهذا أي قولهم « آل ياسين » يعني آل محمد بعيد جداً والله أعلم، والدليل : ١ – ليس من مناسبة دالة على ذلك ... فما دخل آل محمد صلى الله عليه وسلم في ذكر النبي الياس عليه السلام ؟ ٢ – ليس « يٓس » إسماً لمحمد صلى الله عليه وسلم. فهي كما هو معلوم أحرف مقطعة جاء مثلها في أوائل السور ما بين الله مراده =

تعالى : ﴿ إنّا كذلك نجزي المحسنين إنّه من عبادنا المؤمنين ﴾ تقدم تفسيره . والله أعلم .

﴿ وإنَّ لُوطاً لَمِنَ ٱلْمُرسَلِينَ ۝(١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۝(١٣٤) إِلَّا عَجُوزاً فِي ٱلْغَابِرِينَ ۝(١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝(١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُصْبِحِينَ ۝(١٣٧) وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝(١٣٨) ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنّه بعثه إلى قومه فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها . فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة نتنة، قبيحة المنظر والطعم والريح. وجعلها بسبيل مقيم، يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً. ولهذا قال تعالى : ﴿ وإنكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ أي أفلا تعتبرون بهم... كيف دمّر الله عليهم، وتعلمون أن للكافرين أمثالها .

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝(١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝(١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝(١٤١) فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝(١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝(١٤٣) لَلَبِثَ فِي

— منها فنقول الله أعلم بمراده وكذلك « طهٓ » فهي أيضاً من الأحرف المقطعة ، التي افتتحت بها بعض السور ، وليست إسماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنّما نقول فيها : الله أعلم بمراده .

٣–لو كانت لفظة «آل ياسين» – المحتمل ورودها في بعض القراآت – معناها آل محمد صلى الله عليه وسلم لقال الله بعدها: إنهم من عبادنا المؤمنين . لكنه سبحانه قال: « إنه من عبادنا المؤمنين» فدل أن المعنيّ بالآية شخص مفرد لا جماعة . ولما كان آل محمد صلى الله عليه وسلم جماعة... إذاً فليسوا هم المراد من هذه الآية ، إنما المراد هو: إلياس صلى الله عليه وسلم، كما هو مفهوم من الآية الكريمة التي لا يخفى معناها على كل ذي لب وفهم . وهكذا يتضح أن الذين فهموا ان اللفظة تعني آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قد أغربوا وأبعدوا النجعة، وليس لهم أي دليل صحيح، يشير إلى ما ذهبوا إليه. وإنه ليكفي آل البيت دلالة على مقامهم الرفيع، خطابه تعالى لهم بالآية الكريمة : « إنما يريد الله ليذهبَ عنكم الرجس أهلَ البيت ويطهرَكم تطهيراً. » وإنهم عليهم سحائب الرضوان المتتابعة إلى يوم القيامة لأجلّ شأناً وأرفع مقاماً، من أن نقحمهم في آيات الله تعالى، دون أن يكون له سبحانه مراد بذلك. وحسبهم ما أنزلهم الله من المنزلة السامية، الكريمة، من بين المسلمين.

حزب ٤٦

بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

قد تقدمت قصة يونس عليه الصلاة والسلام في سورة الأنبياء ، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ انه قال : ١٠ [ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متّى] وقوله تعالى : ﴿ إذ أبق إلى الفلك المشحون ﴾ أي المملوء أمتعةً ﴿ فساهم ﴾ أي قارع ﴿ فكان من المدحضين ﴾ أي المغلوبين . وذلك انالسفينة هاج بها البحر، وأشرف من فيها على الغرق.فاقترعوا من يلقي نفسه ليخفّ حملُ السفينة فوقعت القرعة ثلاث مرات على نبي الله يونس عليه السلام فتجرد من ثيابه وألقى نفسه فالتقمه الحوت الذي أمره الله تعالى ألاّ يهشم له لحماً ولا يكسر له عظماً .

ولما استقر يونُس في بطن الحوت ظن أنه قد مات ثم حرك رأسه ومد رجليهوأطرافه فاذا هو حيٌّ فقام فصلّى في بطن الحوت وكان من جملة دعائه : يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس ، واختلفوا في مقدار لبثه في بطن الحوت ، قال مجاهد : التقمه ضحى ولفظه عشية ، وقيل وقيل وقيل ... والله أعلم بمقدار ذلك .

وقوله تعالى: ﴿ فلولا انه كان من المسبِّحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ أي لولا كان من المصلين وقال بعضهم المراد هو قوله عز وجل : ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغمّ وكذلك ننْجي المؤمنين ﴾

روى ابن أبي حاتم عن يزيد الرقاشي أنه سمع أنس بن مالك ـ ولا أعلم أنساً إلاّ يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ : ١١ [ان يونس النبي عليه الصلاة والسلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت،فقال اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فأقبلت الدعوة تحن بالعرش ، قالت الملائكة : يا رب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة فقال الله تعالى : أما تعرفون ذلك قالوا : يا رب ومن هو ؟ قال عز وجل عبدي يونس قالوا عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبّل ، ودعوة مستجابة قالوا يا رب أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء،

قال بلى فأمر الحوت فطرحه بالعراء][1] وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيم ﴾ أي في أرض لا نبات فيها وهو سقيم ضعيف البدن كهيئة الصبي حين يولد ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ وعن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما: اليقطين هو القرع، وذكر بعضهم في القرع فوائد منها سرعة نباته وتظليل ورقه لكبره ونعومته وانه لا يقربها الذباب ...

وقوله تعالى: ﴿ وأرسلناه الى مئة ألف أو يزيدون ﴾ قال ابن جرير عن أبي بن كعب رضي الله عنه : ١٢ [انه سأل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ وأرسلناه إلى مائة الف أو يزيدون ﴾ وقال : يزيدون عشرين ألفاً] .

وقوله تعالى : ﴿ فآمنوا ﴾ أي فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس عليه السلام جميعهم ﴿ فمتعناهم إلى حين ﴾ أي إلى وقت آجالهم كقوله تعالى جلّت عظمته : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلاّ قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتّعناهم إلى حين ﴾

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝(١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ ۝(١٥٠) أَلَآ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝(١٥١) وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝(١٥٢) أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝(١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝(١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝(١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ۝(١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝(١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝(١٥٨) سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝(١٥٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝(١٦٠) ﴾

يقول تعالى منكرا على هؤلاء المشركين في جعلهم لله تعالى البنات سبحانه ولهم مايشتهون أي من الذكور أي يودّون لأنفسهم الجيد ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودّاً وهو كظيم ﴾ أي يسوءه ذلك ولا يختار لنفسه إلاّ البنين. يقول عز وجل فكيف نسبوا إلى

(١) يزيد الرقاشي ضعيف .

الله تعالى ما لا يختارونه لأنفسهم؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ فاستفتهم ﴾ أي سلهم على سبيل الإنكار عليهم : ﴿ ألربك البنات ولهم البنون ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾

وقولُه تعالى : ﴿ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ﴾ أي كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم . وقولُه جلت عظمته ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله ﴾ أي أنهم من كذبهم ليقولون صدر منه ولد ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ أي لأنهم افتروا على الله ثلاث كذبات في غاية الكفر . أولاً : جعلوهم بناتٍ لله فجعلوا لله ولداً تعالى الله وتقدّس . ثانياً : وجعلوا ذلك الولدَ أنثى . ثالثاً : ثم عبدوهم من دون الله تعالى وتقدس . وكل منها كافٍ في التخليد في نار جهنم . ثم قال تعالى منكراً عليهم : ﴿ أصطفى البناتِ على البنين ﴾ أي أيّ شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين كقوله عز وجل : ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾ ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ ما لكم كيفَ تحكمون ﴾ أي ما فعلتم بعقولكم ..!؟ أفلا تتدبرون ما تقولون ؟ ﴿ أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين ﴾ أي حجة على ما تقولونه ﴿ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴾ أي إذا كان لكم مستند إلى كتاب منزل من قبل الله بما تقولون ... فهاتوا برهانكم على صدقكم .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجِنّة نسباً ﴾ قال مجاهد : قال المشركون : الملائكة بنات الله تعالى : فقال أبو بكر رضي الله عنه : فمن أمهاتُهن ، قالوا بنات سروات الجن ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ ولقد علمت الجِنّةُ ﴾ أي الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿ أنهم لمحضرون ﴾ أي إن الذين قالوا ذلك لمحضَرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم في ذلك وافترائهم ، وقولهم الباطل بلا علم ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ أي تعالى وتنزه وتقدّس عن أن يكون له ولد وعمّا يصفه به الظالمون والملحدون علواً كبيراً . وقولُه تعالى : ﴿ إلاّ عباد الله المخلصين ﴾ أي استثنى من الناس ، المخلصين الذين هم متبعون للحق المنزّل على كل نبي مرسل .

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا

لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

يخاطب تعالى المشركين : ﴿ فإنكم وما تعبدون * ما أنتم عليه بفاتنين * إلاّ من هو صال الجحيم ﴾ أي إنما ينقاد لمقالتكم ، وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذُريء للنار ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والضلالة كما قال تبارك وتعالى : ﴿ إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك ﴾ أي إنما يضل به من هو مأفوك مبطل ، ثم قال تبارك وتعالى منزّهاً للملائكة مما نَسَبُوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله : ﴿ وما منّا إلاّ له مقام معلوم ﴾ أي له موضع مخصوص في السموات ، ومقامات العبادات لا يتجاوزه ولا يتعدّاه. روى ابن عساكر عن العلاء بن سعد وكان ممن بايع يوم الفتح أن رسول الله قال يوماً لجلسائه : ١٣ [أطّت السماء وحق لها أن تئطّ ليس فيها موضع قدم إلاّ عليه ملك راكع أو ساجد » ثم قرأ ﷺ : ﴿ وما منّا إلاّ له مقام معلوم وإنا لنحن الصافّون وإنا لنحن المسبّحون ﴾]

روى ابن جريج عن الوليد بن أُبي عبدالله بن أبي مغيث. قال : كانوا لا يصفّون في الصلاة حتى نزلت ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ أي نقف صفوفاً في الطاعة كما تقدم عند قوله تبارك وتعالى : ﴿ والصافاتِ صفّاً ﴾ وقال أبو نضرة : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : أقيموا صفوفكم استووا قياماً يريد الله تعالى بكم هدي الملائكة ، ثم يقول : ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ تأخر يا فلان تقدم يا فلان ثم يتقدم فيكبر . وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما ومجاهد : ﴿ وما منا إلاّ له مقام معلوم ﴾ الملائكة ﴿ وإنا لنحن الصافّون ﴾ الملائكة ﴿ وإنا لنحن المسبّحون ﴾ أي الملائكة تسبّح لله عز وجل . وقوله تعالى : ﴿ وإن كانوا ليقولون * لو أن عندنا ذكراً من الأولين * لكنّا عباد الله المخلصين ﴾ أي قد كانوا يتمنّون قبل أن تأتيهُم بكتاب الله ، لو كان عندهم من يذكّرهم بأمر الله وكتابه، حتى يتبعوه ويكونوا عباد الله المخلصين. كقوله تعالى : ﴿ وأُقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونُن أهدى من إحدى الأمم، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلاّ نفورا ﴾ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ فكفروا به فسوف يعلمون ﴾ وعيد أكيد، وتهديد شديد، على كفرهم بربهم عز وجل، وتكذيبهم رسول الله ﷺ .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝(١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝(١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ ۝(١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝(١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝(١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝(١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝(١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝(١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝(١٧٩) ﴾

يقول تبارك وتعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ أي تقدم في الكتاب الأوّل أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة .كما قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قويّ عزيز ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، وتقدّم خبر إهلاك الكافرين ونصر المؤمنين ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ أي لهم العاقبة وقوله جل وعلا : ﴿ فتولّ عنهم حتى حين ﴾ أي اصبر على أذاهم لك وانتظر إلى وقت مؤجل. فسننصرك ونظفرك بهم، وقوله جلّتْ عظمتُه: ﴿ وأبصرهم فسوف يبصرون ﴾ أي انظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك. ولهذا قال سبحانه: ﴿ فسوف يبصرون ﴾ أي ما سيلقونه جزاء ما اقترفوا من الشرك .ثم قال عز وجل : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ أي يطلبون إيقاع العذاب بهم بسرعة لشدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ﴿ فإذا نزل بساحتهم ﴾ أي يعني بدارهم ﴿ فساء صباح المنذَرين ﴾ أي بئس الصباح صباحهم ، ولهذا ثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : ١٤
[صبح رسول الله ﷺ خيبر فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون : محمد والله محمد والخميس فقال النبي ﷺ « الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »] ورواه البخاري .

وقوله تعالى : ﴿ وتولّ عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون ﴾ تأكيد لما تقدم من التهديد والوعيد والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝(١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝(١٨١) وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝(١٨٢) ﴾

ينزه الله تبارك وتعالى نفسَه الكريمة ويقدسها ويبرّئها عما يقول الظالمون والمكذبون وتنزه وتقدس وتعالى عن قولهم علواً كبيراً . ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ سبحان ربّك رب العزة ﴾ أي ذي العزة التي لا ترام ﴿ عما يصفون ﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفترين ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ أي سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيّته ﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال ، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص، ويستلزم إثبات الكمال ، كما أن الحمد يدلّ على إثبات صفاتِ الكمال ويستلزم التنزيه من النقص، قرن بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن. ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزةِ عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ .

روى الطبراني عن زيد بن الأرقم عن رسول الله ﷺ انه قال : ١٥ [من قال دبر كل صلاة : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ ثلاث مرات فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر]

آخر اختصار تفسير سورة الصافات ولله الحمد دائماً أبداً

ويليها سورة (صَ)

(٣٨) سُورَةُ صٓ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَثَمَانُونَ

نزلت بعد سورة القمر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِي ٱلذِّكْرِ (١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣)

أما الكلام على الأحرف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، بما أغنى عن اعادته. وقوله تعالى : ﴿ والقرآن ذي الذكر ﴾ أي والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ونفع لهم في المعاش والمعاد. وقد اختلف في جواب هذا القسم قالوا: هو كقوله تعالى : ﴿ إنْ كل إلاّ كذب الرسل فحق عقاب ﴾ قال قتادة جوابه : ﴿ بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ واختاره ابن جرير ، وقيل جوابه : ما تضمنه سياق السورة بكمالها والله أعلم .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ بل الذين كفروا في عزةٍ وشقاقٍ ﴾ أي إن هذا القرآن لذكرى لمن يتذكر وعبرة لمن يعتبر ، وإنّما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿ في عزة ﴾ أي استكبار عنه وحميّة ﴿ وشقاق ﴾ أي ومخالفة له ومعاندة ومفارقة ، ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذّبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء فقال تعالى : ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ أي من أمة مكذبة ﴿ فنادوا ﴾ أي حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى وليس ذلك بمجدٍ عنهم شيئاً كما قال عز وجل : ﴿ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ﴾ أي يهربونَ ﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ﴾ سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فنادوا ولات حين مناص ﴾ قال : ليس بحين نداء ولا نزو ولا فرار . أي نادوا النداء حين لا ينفعهم . وقال محمد بن كعب : نادوا بالتوحيد حين تولّت الدنيا عنهم وتابوا حين

لا تنفع التوبة . وقال قتادة : لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء . ويقول أهل اللغة : النوص التأخّر ، والبوص التقدّم . ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ ولات حين مناص ﴾ أي ليس الحين حين فرار ولا ذهاب والله الموفق للصواب .

﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ❁(٤) أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهاً وَاحِداً إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ❁(٥) وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ❁(٦) مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا ٱخْتِلَاقٌ ❁(٧) ءَأُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ❁(٨) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ❁(٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي ٱلْأَسْبَابِ ❁(١٠) جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ❁(١١) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً ، كما قال عزّ وجل : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أنِ انذر الناسَ وبشر الذين آمنوا أنَّ لهم قدم صدقٍ عند ربهم قال الكافرون إنّ هذا لساحر مبين ﴾ وقال جل وعلا هاهنا : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ أي بشر مثلهم ﴿ وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴾ أي أزعم أن المعبود واحد لا إلّه إلا هو ؟ فقد تعجبوا من ترك ما كان عليه آباؤهم من عبادة الأوثان ﴿ إنَّ هذا لشيء عجاب ﴾ ﴿ وانطلق الملأ منهم ﴾ أي سادتهم وكبراؤهم قائلين : ﴿ امشوا ﴾ أي استمرّوا على دينكم ﴿ واصبروا على آلهتكم ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمّد من التوحيد . وقوله تعالى : ﴿ إنّ هذا لشيءٌ يراد ﴾ أي يريد محمد بدعوته الشرف والاستعلاء عليكم .

« ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمات »

١٦ [استأذن نفر من مشيخة قريش فيهم ابو جهل والعاص بن وائل والأسود بن

المطلب وغيرهم على أبي طالب فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك،فمره فليكف عن شتم آلهتنا ، فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال : يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويَدَعوك وإلهك قال ﷺ « يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم » قال وإلى مَ تدعوهم؟ قال ﷺ : أدعوهم ان يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم » فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم ما هي وأبيك لنعطينكها وعشرَ أمثالها.قال ﷺ : « تقولون لا إله إلا الله » فنفروا وقالوا : سلنا غيرها قال ﷺ « لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها» فقاموا من عنده غضاباً وقالوا والله لنشتمنَّك وإلهك الذي أمرك بهذا ﴿ وانطلق الملأ منهم أنِ امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشيء يراد ﴾] عن السدّي مختصراً.ورواه ابن ابي حاتم ، وابن جرير وزاد : ١٧ [فلما خرجوا دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قوله لا إله إلا الله فأبى وقال : بل على دين الأشياخ ونزلتْ : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾]. وقولهم : ﴿ ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة ﴾ أي ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد في الملّة الآخرة ، قالوا لو كان هذا القرآن حقاً لأخبرتنا به النصارى.﴿ إنْ هذا إلاَّ اختلاق ﴾ وقولهم : ﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ يعني أنهم يستبعدون تخصيص محمّد ﷺ بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم كما حكى الله تعالى عنهم في الآية الأخرى : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ قال الله تعالى: ﴿ أهم يقسمون رحمةَ ربك نحن قسمنا بينهم، معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ﴾ ولهذا لما قالوا هذا الذي دلّ على جهلهم،وقلة عقولهم في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم قال الله تعالى : ﴿ بل لما يذوقوا عذابِ ﴾ أي إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا عذاب الله ونقمته ، ثم قال الله تعالى مُبيِّناً أنه المتصرف في ملكه الفعال لما يشاء يعز ويذلّ ويهدي ويضل من يشاء ويبعث رسولاً ممّن يشاء ، ويختم على قلب من يشاء ولا يملك معه أحد مثقال ذرة ولهذا قال تعالى منكراً عليهم : ﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربّك العزيز الوهّاب ﴾ العزيز الذي لا يرام جنابه ، الوهّاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد . كقوله تعالى : ﴿ لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب ﴾ أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب أي طرق السماء حتى السابعة . ثم قال تعالى : ﴿ جندٌ ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ أي هؤلاء الجند المكذّبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون. كقوله جلت عظمته : ﴿ سيهزم الجمع ويولّون الدّبُر ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ (١٦) ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقد تقدمت قصصهم مبسوطة في أماكنَ متعددة . وقوله تعالى : ﴿ أولئك الأحزاب ﴾ أي كانوا أكثر منكم شدةً وأكثر أموالاً وأولاداً فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمره تعالى.ولهذا قال عز وجل : ﴿ إنْ كل إلاّ كذّب الرّسل فحقّ عقابِ ﴾ فجعل علة إهلاكهم هوتكذيبهم بالرسل فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر . وقوله تعالى : ﴿ وما ينظر هؤلاء إلا صيحةً واحدة ما لها من فَواق ﴾ أي ما لها من رجعة تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها أي اقتربت ودنتْ وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها فلا يبقى أحد في السموات والأرض إلاّ فزع ، إلاّ من استثنى الله عز وجل .

وقوله جل جلاله : ﴿وقالوا ربّنا عجل لناقطنا قبل يوم الحساب ﴾ سألوا تعجيل نصيبهم الذي يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا، ولما كان هذا الكلام على وجه الاستهزاء والاستبعاد قال الله تعالى لرسوله ﷺ ، آمراً له بالصبر على أذاهم ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر . وقوله تعالى : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنّه أوّاب ﴾ أي إنه كان ذا قوة في العلم والعمل والعبادة والفقه في الإسلام وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : ١٨ [أحب الصلاة الى الله تعالى صلاة داود وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود . كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفرُّ إذا لاقىَ وإنّه كان أوّاباً] أي رجّاعاً إلى الله عز وجل في جميع أموره وشؤونه .

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ (١٨) وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَاهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ (٢٠) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ إنّا سخرنا الجبال معه يسبحنَ بالعشي والإشراق ﴾ أي أنه تعالى سخّر الجبالَ تسبّح أي تجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعاً له وقوله تعالى : ﴿ والطير محشورة ﴾ أي محبوسة في الهواء ﴿ كل له أوّاب ﴾ أي مطيع يسبح تبعاً له كما قال عزَّ وجل ﴿ يا جبال أوِّبي معه والطير ﴾ وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجِّع بترجيعه إذا مرَّ الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب بل يقف في الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات . وقوله تعالى : ﴿ وشددْنا ملكه ﴾ أي جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك . وقوله جل وعلا ﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ أي النبوة وكل ما تقتضيه من العقل والفهم والفطنة والعدل والصواب ﴿ وفصل الخطاب ﴾ أي الإصابة في الحكم وفي كل شيء .

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٢٥) ﴾

ربع الحزب

سجدة

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة ... أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات ولم يثبت فيها عن

المعصوم ﷺ حديث يجب اتباعه فالأَوْلى أن يُقتصَر على مجرد تلاوة هذه القصة، وان يُردَّ علمُها إلى الله عز وجلّ؛ فإن القرآن حق، وما تضمّنه فهو حق أيضاً [١] وقوله تعالى : ﴿ ففزع منهم ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه وهو أشرف مكان في داره وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم ، فلم يشعر إلاَّ بشخصين قد تسوّرا عليه المحراب أي احتاطا به يسألانه عن شأنهما ، وقوله عز وجل : ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ أي قهرني وغلبني ، وقوله تعالى : ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ أي اختبرناه. وقوله تعالى : ﴿ وخرَّ راكعاً ﴾ أي ساجداً ، ﴿ وأناب ﴾ أي تاب مما كان منه ، مما يقال فيه ، إن حسنات الأبرار ، سيئآت المقربين . وثبت أن السجدةَ التي في هذه السورة أي قوله تعالى : ﴿ وخرَّ راكعاً ﴾ أي ساجداً فقد كان رسول الله ﷺ يسجدها . قال البخاري عند تفسيرها عن العوام قال: ١٩ [سألت مجاهداً عن سجدة ﷺ» فقال سألت ابن عباس رضي الله عنهما من أين سجدت فقال : أو ما تقرأ : ﴿ ومن ذريته داود وسليمان ﴾ ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أُمِرَ نبيكم ﷺ أن يقتديَ به فسجدها داود عليه الصلاة والسلام فسجدها رسول الله ﷺ] .

وقد اختلف الأئمة هل هذه السجدة من عزائم السجود فمنهم من اعتبرها كذلك ومنهم من عدَّها سجدة شكر . وقوله تعالى : ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسنَ مآب ﴾ أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل ، وحسن مرجع،وهو الدرجات العالية لنبوته وعدله التام في ملكه. كما جاء في الصحيح: ٢٠ [المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين يقسطون في أهليهم وماوُلُّوا] .

﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ (٢٦) ﴾

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور ان يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده

---

(١) قلت : إن القصة الاسرائيلية التي نوه عنها المفسر رحمه الله تعالى تتلخص في أن داود أرسل أحد قواده إلى الحرب ليقتل — وقد قتل — ليضم زوجته إلى زوجاته التسع والتسعين ... هذا لا يفعله نبيٌّ معصوم عن الدنايا ... فحاشا داود منها عليه أفضل الصلاة وأتم التسليمات وأزكى التحيات .

تبارك وتعالى ولا يشذوا عنه فيضلوا عن سبيل الله وقد أعد الله لمن ضلّ وتناسى يوم الحساب عذاباً شديداً . قال ابن أبي حاتم عن ابراهيم ابو زرعة وكان قد قرأ الكتاب ، إن الوليد ابن عبد الملك قال له : أيحاسب الخليفة؟فانك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت . فقلت يا أمير المؤمنين : أقول؟ قال قل في أمان الله ، قلت:يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أم داود عليه الصلاة والسلام ، ان الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ، ثم توعّده في كتابه فقال تعالى : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ قال السدي : أي لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب ، والله الموفق للصواب .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ۝(٢٧) أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝(٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو ٱلْأَلْبَابِ ۝(٢٩) ﴾

يخبر تعالى انه ما خلق الخلق إلا ليعبدوه ويوحّدوه ، ثم يجمعهم يوم القيامة فيجزي كلاً بما يستحق ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا ﴾ أي بالبعث والمعاد ﴿ فويل للذين كفروا من النار ﴾ أي ويل لهم يوم القيامة من النار التي تنتظرهم . وقوله تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجّار ﴾ كلاً لا يستوون عند الله . ويرشدنا سبحانه الى أنه لا بد من إثابة المطيع ومعاقبة الفاجر . وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطرَ المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء فالظالم الباغي في هذه الدنيا قد يموت على بغيه وظلمه ، والمطيع المظلوم يموت كمداً فلا بد من أن ينصف هذا من هذا ، فإذا لم يقع هذا في هذه الدار ، فدل على أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة. وبهذا اقتضت حكمة العليم الخبير العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة ، وإلى هذا ارشد القرآن. فقال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته وليتذكرَ أولو الألباب ﴾ أي ذوو العقول والألباب جمع لبّ

وهو العقل.قال الحسن البصري : والله ما تدبُّرُه بحفظ حروفه ، وإضاعة حدوده ، حتى أن احدهم ليقول : قرأت القرآن كلّه مـــا يرى له القرآن في خلق ولا عمل ؛ رواه ابن أبي حاتم .

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَـٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝(٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝(٣١) فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝(٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ۝(٣٣) ﴾

يخبر تعالى انه وهب لداود سليمانَ أي نبيّاً كما قال تعالى ﴿ وورث سليمان داود ﴾ أي في النبوّة والاّ فقد كان له بنون غيره وقوله تعالى : ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عزّ وجل .

قال ابن أبي حاتم عن مكحول قال : لما وهب الله تعالى لداود سليمانَ قال له يا بني ما أحسن ؟ قال سكينة الله والإيمان . قال : فما أقبح ؟ قال : كفر بعد إيمان . قال : فما أحلى ؟ قال : روح الله بين عباده ، قال : فما أبرد ؟ قال عفو الله عن الناس وعفو الناس بعضهم عن بعض قال داود عليه السلام فأنت نبي .

وقوله تعالى : ﴿إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴾ أي اذ عرض على سليمان ﷺ في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات قـــال مجاهد : وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، والجياد السراع ، وكانت عشرين فرساً ذات أجنحة ، كذا رواه ابن جرير .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فقال إني احببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ﴾ ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت الصلاة صلاة العصر والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه من ذلك عن جابر رضي الله عنه قال: ٢١ [جاء عمر رضي الله عنه يوم الخندق بعد ما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش ويقول : يا رسول الله والله ما كدت

أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب . فقال رسول الله ﷺ « والله ما صليتها » فقال فقمنا إلى بطحان فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة وتوضأنا لها فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب] . وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف . وقوله تعالى : ﴿ ردوها عليّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ قال الحسن البصري لا ، قال : والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك ، ثم أمر بها فعقرت وكذا قال قتادة وقال السدّي : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها وهذا القول اختاره ابن جرير قال لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة ، ويهلك مالاً من ماله بلا سبب ، سوى انه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ (٣٨) هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٤٠) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولقد فتنّا سليمان ﴾ أي اختبرناه بأن سلبناه الملك ﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم يعني شيطاناً ﴿ ثم أناب ﴾ أي رجع الى ملكه وسلطانه وأبهته [1] .

وقوله تعالى : ﴿ قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهّاب ﴾ إنه سأل الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله وهذا هو ظاهر

(١) قلت : يروي ها هنا ابن كثير رحمه الله تعالى روايات وصفها هو نفسه بأنها قصص اسرائيلية مروية عن ابن عباس وقتادة والسدي ومجاهد . قال ابن كثير رحمه الله تعالى : (ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس رضي الله عنهما – ان صح عنه – من أهل الكتاب وفيهم طائفة لا يعتقدون بنبوة سليمان عليه الصلاة والسلام والظاهر أنهم يكذبون عليه ولهذا كان في هذه القصص منكرات) ولذلك ضربت صفحاً عن ذكرها .

السياق من الآية وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ .

روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٢٢ إن عفريتاً من الجن تفلّت عليّ البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع على الصلاة فأمكنني الله تبارك وتعالى منه ، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ قال روح[1] فرده خاسئاً] وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة به .

روى مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : ٢٣ [قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك ـ ثم قال ـ العنك بلعنة الله » ثلاثاً وبسط يده كأنه يتناول شيئاً فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك قال ﷺ : « ان عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات ثم أردت ان اخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به صبيان أهل المدينة »]

روى الطبراني عن رافع بن عمير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٢٤ [قال الله عز وجل لداود عليه الصلاة والسلام ابنِ لي بيتاً في الأرض فبنى داود بيتاً لنفسه قبل البيت الذي أمر به فأوحى الله إليه : يا داود نصبت بيتك قبل بيتي قال يا رب هكذا قضيتَ : من ملك استأثر ، ثم أخذ في بناء المسجد فلما تم السور سقط ثلاثاً فشكا ذلك إلى الله عز وجل فقال : يا داود إنك لا تصلح أن تبني لي بيتاً قال ولمَ يا رب ؟ قال لما جرى على يديك من الدماء ، قال يا رب أوما كان ذلك في هواك ومحبتك ؟ قال بلى ولكنهم عبادي وأنا أرحمهم فشقّ ذلك عليه ، فأوحى الله إليه : لا تحزن ، فإني سأقضي بناءه على يدي ابنِك سليمانَ فلما مات داود أخذ سليمان في بنائه ولما تمّ ، قرّب القرابين وذبح الذبائح وجمع بني اسرائيل فأوحى الله إليه قد أرى سرورك ببنيان بيتي فسلني أعطك ، قال أسألك ثلاث خصال : حكماً يصادف حكمك ، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلاّ الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ـ قال رسول الله ﷺ ـ أما الثنتان فقد أعطيهما ، وأنا أرجو أن يكون قد أعطي الثالثة]

قال الله تعالى وجلت عظمته ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب ﴾

(١) قلت : (روح) أحد رواة الحديث .

– كقوله تعالى – : ﴿ ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر ﴾... قال ابو القاسم ابن عساكر : والّتي بعدها – أي الآية الّتي بعدها – : ﴿ والشياطين كلّ بناءٍ وغواص ﴾ – فأعطاه ما أعطاه وفي الآخرة لا حساب عليه .

وقوله تعالى : ﴿ حيث أصاب ﴾ أي حيث أراد من البلاد . وقوله جل جلاله : ﴿ والشياطين كل بناءٍ وغواص ﴾ أي منهم ما هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ، وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة ، التي لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلىء والجواهر والأشياء النفيسة ،التي لا توجد إلا فيها.﴿ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ أي موثوقون في الأغلال والأكبال،ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء في صنيعه واعتدى .

وقوله عز وجل : ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ أي هذا الـــذي أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا ، فأعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك.أي مهما فعلت فهو جائز لك احكم بما شئت فهو صواب . ولما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا ،نبه تعالى على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً فقال تعالى : ﴿ وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ أي في الدار الآخرة وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ خُـيّـرَ بين أن يكون عبداً رسولاً وبين أن يكون نبياً ملكاً يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح ، اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل عليه الصلاة والسلام فقال له تواضع فاختار المنزلة الأولى لأنها أرفع قدراً عند الله تعالى،وأعلى منزلة في المعاد وان كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضاً في الدنيا .

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۞(٤١) ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۞(٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ۞(٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۞(٤٤) ﴾

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب عليه الصلاة والسلام وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله ولم يبق له من احد يستعين به على مرضه إلا زوجته. حفظت ودّه لإيمانها بالله تعالى ورسوله فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحواً من ثماني عشرة سنة وكان قبلاً ذا سعة في المال و الولد فلما طال المطال وتم الأجل المقدر تضرع الى رب العالمين فقال : ﴿ إني مسني الضر وانت أرحم الراحمين ﴾ وفي هذه الآية الكريمة قال : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربّه أني مسني الشيطان [1] بنُصْبٍ وعذاب ﴾ فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين ، وأمره أن يقوم حالاً وأن يركضَ الأرضَ برجله ففعل فأنبعَ الله تعالى عيناً وأمره أن يغتسل منها فأذهبت ما به من الأذى ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر فأنبع له عيناً أخرى ، وأمره أن يشرب منها فأذهبت جميع ما كان في بطنه من السوء وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٥
[بينما أيوب يغتسل عرياناً خرَّ عليه جراد من ذهب فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه فناداه ربه عز وجل: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال عليه الصلاة والسلام: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بَركتِك] . انفرد باخراجه البخاري . ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منّا وذكرى لأولي الألباب ﴾ فقد رحمه الله تعالى على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته بأن وهب له أهله قال الحسن وقتادة : أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم وقوله تعالى : ﴿ وذكرى لأولي الألباب ﴾ أي لأهل العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة .

وقوله جلّت عظمته : ﴿ وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ﴾ وذلك أنه كان غضب على زوجته لذنب فعلته، وأقسم أن يجلدها مائة ، ولما شفاه الله وكانت زوجته كما تقدم مخلصةً له في خدمته التامة والرحمة به والشفقة عليه والإحسان إليه، ما رأى أن يكافئها على ذلك بالضرب فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثاً، وهو الشمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة وقد برَّت يمينه وخرج من حنثه ووفّى بنذره . وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه. ولهذا قال جل وعلا ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنّه أواب ﴾ أي إنه رجّاعٌ منيب .

(١) قلت : لعله قصد بقوله : « اني مسني الشيطان بنصب وعذاب » أي مسني المرض كقوله في الآية الأخرى : « إني مسني الضر ... » فجعل الشيطان كناية عن المرض الذي انتابه .

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن فضائل عباده الأنبياء والمرسلين: ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ﴾ أي أهل العمل الصالح والعلم النافع والقوّة في العبادة والبصيرة النافذة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم همٌّ غيرها، ويذكّرون الناس بالعمل لها فكان جزاؤهم الجنة. وقوله تعالى: ﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ أي لمن المختارين والمجتبين الأخيار فهم أخيار مختارون. وقوله عز وجل ﴿ واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ﴾ قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أغنى عن إعادته ههنا. وقوله عز وجل: ﴿ هذا ذكر ﴾ أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر.

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾



يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة لحسن مآب أي لمرجع ومنقلب في: ﴿ جنات عدن ﴾ أي جنات إقامة مفتحة أبوابها أي إذا جاءوها فتحت لهم.

وقوله عز وجل: ﴿ متكئين فيها ﴾ متربعين على سرر تحت الحجال ﴿ يدعون فيها بفاكهة كثيرة ﴾ أي مهما طلبوا وجدوا، وأحضر كما أرادوا. ﴿ وشراب ﴾ من أي أنواعه شاءوا أتتهم به الخدم. ﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ أي عن غير أزواجهن فلا يلتفتن

إلى غيرهم ﴿أتراب﴾ أي متساويات في السن والعمر ﴿هذا ما توعدون ليوم الحساب﴾ أي وعدها لعباده المتقين، ثم أخبر تعالى عن الجنة انه لا زوال منها ولا انقضاء لنعيمها فقال تعالى: ﴿إن هذا لرزقنا ماله من نفاد﴾ كقوله تعالى: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ وكقوله تعالى: ﴿أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾

﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)﴾

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء، ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم، في دار معادهم وحسابهم. فقال عز وجل: ﴿هذا وإن للطاغين﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل المخالفون للرسل ﷺ ﴿لشر مآب﴾ أي لسوء منقلب. ثم فسره بقوله جل وعلا ﴿جهنم يصلونها﴾ أي يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿فبئس المهاد * هذا فليذوقوه حميمٌ وغسّاقٌ﴾ أما الحميم فهو الحار الذي بلغ أشد درجات الحرارة، وأما الغساق فهو البارد الذي لا يستطاع من شدة البرد المؤلم. ولهذا قال عز وجل: ﴿وآخر من شكله أزواج﴾ أي وأشياء من هذا القبيل: الشيء وضده يعاقبون بها كالزمهرير والسموم وشرب الحميم وأكل الزقوم، والصعود والهوي، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة، والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه.

وقوله عز وجل: ﴿هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض. كما قال تعالى: ﴿كلما دخلت أمة

لعنت أختها ﴾ يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ويكفر بعضهم ببعض. فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى للتي بعدها ﴿ **هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار** ﴾ فيقول الداخلون : ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا ﴾ أي أنتم **دعوتمونا إلى ما** أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿ فبئس القرار ﴾ أي فبئس المنزل والمستقر والمصير ﴿ **قالوا ربنا من** قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار ﴾ كما قال الله تعالى : ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ أي لكل منكم عذاب بحسبه . ﴿ وقالوا مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار اتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ هذا إخبار عن الكفار الذين افتقدوا المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا قالوا مالنا لا نراهم معنا في النار هذا قول أمثال أبي جهل يفتقدون أمثال بلال وصهيب افتقدوهم في النار فلم يجدوهم . فبدأوا يسلّون أنفسهم بالمحال يقولون : ﴿ أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ أي لعلهم معنا ولكن لم يقع بصرنا عليهم ... هنالك يعرفون أن من يسألون عنهم هم في الدرجات العاليات يجيبونهم كما قال تعالى : ﴿ ونادىٰ أصحابُ الجنة أصحابَ النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين – الى قوله تعالى – ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ **إن ذلك لحق تخاصم** أهل النار ﴾ أي أن هذا الذي اخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لبعض . إنه لحقٌ لا مرية فيه ولا شك .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ❊(٦٥) رَبُّ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ❊(٦٦) قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ❊(٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ❊(٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ❊(٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ❊ (٧٠)

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يقول للكفار والمشركين ﴿ **إنما أنا منذر وما من آله إلا الله** الواحد القهار ﴾ أي قهر كل شيء وحده وغلبه ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه ﴿ العزيزُ الغفار ﴾ أي غفار مع عظمته وعزتـــه

﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ خبر عظيم وهو إرسالي اليكم من قبله تعالى بالقرآن ﴿ انتم عنه معرضون ﴾ أي غافلون . وقوله تعالى : ﴿ ما كان لي من علم بالملأ الأعلى اذ يختصمون ﴾ أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى ؟ يعني في شأن آدم عليه الصلاة والسلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجّته ربه في تفضيله عليه : ﴿ الا انما أنا نذير مبين ﴾

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾
فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾
فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ
أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ
عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ
ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ
وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة ، وفي أول سورة الأعراف وفي سورة الحجر ، وسبحان ، والكهف ، وههنا . وهي ان الله سبحانه وتعالى أعلَمَ الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له ، إكراماً وإعظاماً واحتراماً ، وامتثالاً لأمر الله تعالى عز وجل . فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ولم يكن منهم جنساً . كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان اليه ، فاستنكف عن السجود لآدم ،

وخاصم ربه عز وجل. وادّعى انه خير من آدم فإنه مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين ، والنارُ خير من الطين في زعمه ، فقد خالف أمر ربه وكفر بذلك فأبعده الله عز وجل ، وأرغم أنفه وطرده عن باب رحمته وخضرة قدسه ، وسمّاه إبليس لانه قد أبلس من الرحمة وأُنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض . فسأل الله النظرة إلى يوم البعث فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه فلما أمن من الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى.وقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلاّ عبادك منهم المخاصين ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قال فالحقُّ والحقَّ أقول لأملأن جهنم منكَ وممن تبعك منهم أجمعين كقوله عز وجلّ : ﴿ قال إذهب فمن تبعك منهم فإنّ جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً ﴾ .

﴿ قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾

يقول تعالى ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ ما أسألكم عليه ﴾ أي على بلاغ الرسالة ، والنصح ﴿ من أجر ﴾ من عرض الدنيا تعطونيه ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ أي وما أمرت بتبليغه فقد بلغته وأدّيته لا أزيد عليه ولا أنقص منه.وانّما ابتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة . قال سفيان الثوري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : يا أيّها الناس من علم شيئاً فليقل به،ومن لم يعلم ، فليقل:الله أعلم.فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم ، الله أعلم فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ أخرجاه من حديث الأعمش به.وقوله تعالى : ﴿ إن هو إلاّ ذكر للعالمين ﴾ يعني القرآن العظيم لجميع المكلّفين من الإنس والجن ، كقوله تعالى : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ أي يوم القيامة قال الحسن : يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين .

آخر اختصار تفسير سورة ﴿ صٓ ﴾ ولله الحمد والمنة والشكر والفضل .

(٣٩) سُورَةُ الزُّمَرِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَسَبْعُونَ

إلاّ الآيات ٥٢ ـ ٥٤ فمدنية نزلتْ بعد سورة سبأ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ❁(١) إِنَّا أَنْزَلْنَا
إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ ٱلدِّينَ ❁(٢) أَلا لِلَّهِ ٱلدِّينُ
ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى
ٱللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي
مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ❁(٣) لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفَىٰ مِمَّا
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ❁(٤)

يخبر تعالى أن تنزيل القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى فهو الحق الذي لا شك فيه كما قال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسانٍ عربي مبين ﴾ وقال جل وعلا ها هنا : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز ﴾ أي المنيع الجَناب ﴿ الحكيم ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره. ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي فاعبده وادعُ الخلق إلى عبادته وحده لا شريك له إذ لا تصلح العبادة إلاّ له . ولهذا قال تعالى : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ أي لا عمل مقبولاً إلاّ ما كان خالصاً لله وحده لا شريك له . ثم أخبر تعالى عن عبّاد الأصنام من المشركين أنهم يقولون : ﴿ ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفىٰ ﴾ أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقرّبين في زعمهم فعبدوا تلك الصور، تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم

ورزقهم وما ينوبهم في أمور الدنيا فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به – وما كان الشفعاء والوسطاء في نظر المشركين إلا مخلوقين لله تعالى مربوبين له ، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم لبيك لا شريك لك ، إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك . وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه ، والرسل جاءت بردّها والنهي عنها والدعوة إلى أفراد العبادة له وحده لا شريك له ، وانّ هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه. ﴿ ولقد بعثنا في كلّ أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ على أن هؤلاء الذين اتخذهم المشركون شفعاء لا يستطيعون أن يشفعوا إلاّ بإذنه لمن ارتضى ، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبّه الملوك وأبَوْه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فيما هم فيه يختلفون ﴾ أي سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزي كل عامل بعمله ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت وليُّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ أي لا يرشد إلى الهداية من يفترون على الله الكذب ، ويكفرون بآياته . وقوله تعالى : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال. وإنما مراده تعالى تجهيلهم فيما ادّعوه وزعموه، فجل الله وتعالى وتقدس عن الولد والشريك . قال الله تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ كل هذا من باب الشرط ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم. وقوله تعالى : ﴿ سبحانه هو الله الواحد القهّار ﴾ أي تعالى وتنزه عن أن يكون له ولد فانه الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

۞ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ۞(٥) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَامِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ

أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه الخالق لكل شيء والمالك المتصرف بكل شيء ﴿ يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل ﴾ أي سخرهما يجريان متعاقبين لا يفتران كقوله تعالى : ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ وقولـه تعالى : ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجـل مسمّى ﴾ أي إلى مدة معلومة عنده تعالى ﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾ أي مع عزته وقوته وقدرته هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه . وقوله جلت عظمته : ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ أي من آدم عليه السلام ﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾ وهي حواء عليها السلام كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ أي من الضأن والمعز والإبل والبقر من كل اثنين . وقوله تعالى : ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم ﴾ أي قدّركم في بطون أمّهاتكم ﴿ خلقاً من بعد خلق نطفةً فعلقة ، فمضغةً ثم يكونُ لحماً وعظماً وعصباً ، وعروقاً وينفخ فيه الرّوح فيصير خلقاً آخر ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ وقوله تعالى ﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ يعني ظلمة الرحم ، والمشيمة ، والبطن ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك ﴾ أي ملك كلّ شيء والتصرف في جميع ذلك ﴿ لا إلّه إلاّ هو ﴾ أي الذي لا ينبغي العبادة إلاّ له لا شريك له ﴿ فأنّى تصرفون ﴾ أي إلى أين تصرف عقولكم فتعبدون معه غيره ... ؟

إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾



وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾

يخبر تعالى عن نفسه تبارك وتعالى أنه الغنيُّ عما سواه. كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ إنْ تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإنّ الله لغنيٌّ حميد ﴾ وفي صحيح مسلم: ٢٦ [يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً] وقوله تعالى: ﴿ ولا يرضىَ لعباده الكفر ﴾ أي لا يحبّه ولا يأمر به ﴿ وإن تشكروا يرضَه لكم ﴾ أي يحبّه لكم وَيزِدْكم من فضله ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا تحمل نفس عن نفس شيئاً بل كلٌّ مطالب بنفسه ﴿ ثم إلى ربّكم مرجعكم فينبّئكم بما كنتم تعملون إنّه عليم بذات الصدور ﴾ أي فلا تخفى عليه خافية.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وإذا مس الإنسان ضرٌّ دعا ربّه منيباً إليه ﴾ أي عند حاجته يستغيث بالله وحده لا شريك له ﴿ ثم إذا خوّله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل ﴾ ولكن في حالة الرضاء ينسى ذلك الدعاء والتضرّع، كما قال تعالى: ﴿ وإذا مسّكم الضرُّ في البحر ضلَّ من تدعون إلا إيّاه فلمَّا نجاكم إلى البرّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وجعل لله أنداداً ليضلَّ عن سبيله ﴾ أي في حالة العافية يشرك بالله ﴿ قل تمتع بكفرك قليلاً إنّك من أصحاب النّار ﴾ أي قل يا محمد لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه تمتّعْ بكفرك قليلاً وهو تهديد شديد ووعيد أكيد. كقوله تعالى: ﴿ نمتّعهم قليلاً ثمّ نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾.

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ﴾ أي أمّنْ كان خاشعاً في جوف اللّيل ساجداً قائماً لله تعالى مطيعاً له، كمن أشرك به تعالى وجعل له أنداداً؟ لا يستوون عند الله كما قال سبحانه: ﴿ ليسوا سواءً ... ﴾ وقوله تعالى: ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه ﴾ أي في حال عبادته خائف راج، ولا بدّ في العبادة من الخوف والرجاء، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب، ولهذا قال تعالى ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ فإذا كان عند الاحتضار فليكنْ الرجاءُ هو الغالب. روى الإمام عن عبد بن حميد في مسنده

عن أنس رضي الله عنه قال : ٢٧ [دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له : « كيف تجدك » فقال أرجو وأخاف ، فقال رسول الله ﷺ « لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلاّ أعطاه الله عز وجل الذي يرجو ، وأمنه الذي يخافه »] ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه . وقوله تعالى : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ يعني هل يستوي هذا القائم الساجد الخاشع الخائف الراجي، مع الذي جعل لله أندادا ليضلّ عن سبيل الله ﴿ إنّما يتذكر أولو الألباب ﴾ أي إنّما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل ، والله أعلم .

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞(١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ ٱلدِّينَ ۞(١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞(١٢) ﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه : ﴿ قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربّكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم ، وقوله تعالى : ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ قال مجاهد فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان والمعاصي و هربوا منها مهاجرين إلى أرض الإسلام والطاعة. وقوله تعالى : ﴿ إنمّا يوفىّ الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ أي ليس يوزن لهم إنمّا يغرف لهم غرفاً. وقوله تعالى : ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي لا أشرك به أحداً ﴿ وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾(١) قال السدّي: يعني من أمته ﷺ .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞(١٣) قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ۞(١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ

(١) قلت : « وأمرت أن أكون أول المسلمين » أي أول المسلمين في تنفيذ كل طاعة والأنتهاء عن كل معصية . كما أن فيها بالنسبة لباقي المسلمين معنى التسارع لتنفيذ أوامره تعالى وترك نواهيه بشكل يحاول كل أن يكون أول الجميع ائتماراً وانتهاء والله تعالى أعلم .

ٱلْخَاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۞(١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَٱتَّقُونِ ۞(١٦)

يقول تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إني أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم ﴾ وأنا رسول الله ، وهذا شرط ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى ، ﴿ قل اللهَ أعبُدُ مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ وهذا أيضاً تهديدٌ وتبرّؤٌ منهم ﴿ قل إن الخاسرين ﴾ أي كل الخسران هم : ﴿ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ أي تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً . وسواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وهم إلى النار ، أو أن الجميع أسكنوا النار ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور . ﴿ ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ أي الواضح الظاهر ، ثم وصف حالهم في النار فقال : ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ كما قال عز وجل ﴿ لهم من جهنم مهاد * ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ذلك يخوّف الله به عباده ﴾ إنما يقص خبر ما سيقع لا محالة ليزد جروا عن المحارم والمآثم ﴿ يا عبادِ فاتّقونِ ﴾ أي اخشوا بأسي وسطوتي ونقمتي وعذابي .

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞(١٧) ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ۞(١٨)

قوله تعالى : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها ﴾ أي الذين اجتنبوا عبادة الأوثان ورجعوا إلى عبادة الرحمن فهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الدنيا والآخرة ولهذا قال جل وعلا ﴿ فبشر عبادِ * الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه ﴾ أي يفهمونه ويعملون بما فيه ﴿ أولئك الذين هداهم الله ﴾ أي المتّصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدارين ﴿ وأولئك هم أولو الألباب ﴾ أي ذوو العقول السليمة والفطر المستقيمة .

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ۞(١٩)

لَـٰكِنِ ٱلَّـذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ۝(٢٠)

يقول تعالى أفمن كتب الله أنه شقي تقدر أن تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك أي لا يهديه أحد من بعد الله، لأنه من يضلل الله فلا هادي له، ومن يهده فلا مضلّ له ثم أخبر عز وجل عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة وهي القصور أي الشاهقة ﴿من فوقها غرف مبنيّة﴾ طباق فوق طباق مبنيّات محكمات مزخرفات عاليات.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ٢٨ [أن أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغرف كما تراءون الكوكب الدرّي الغارب في الأفق الطالع. في تفاضل أهل الدرجات – فقالوا يا رسول الله أولئك النبيون؟ فقال ﷺ «بلى والذي نفسي بيده وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل»]

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول ٢٩ [قلنا يا رسول الله إنّا إذا رأيناك رقّت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة. فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممْنا النساء والأولاد قال ﷺ: «لو أنكم تكونون على كل حال، على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله عز وجل بقوم يذنبون كي يغفر لهم» قلنا يا رسول الله حدّثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال ﷺ «لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك الاذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا ييأس ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه، ثلاثة لا تردّ دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم تحمل على الغمام، وتفتح لها أبواب السموات ويقول الرب تبارك وتعالى وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»] وقوله تعالى: ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تسلك الأنهار بين خلال ذلك كما يشاؤون وأين أرادوا. ﴿وعد الله﴾ أي هذا الذي ذكرناه وعدٌ وعَده الله عباده المؤمنين ﴿لا يخلف الله الميعاد﴾.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَـٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ

يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ ۞(٢١) أَفَمَنْ شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞(٢٢)

يخبر تعالى أن أصل الماء في الأرض من السماء، كما قال عز وجلّ : ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً ﴾ قال سعيد بن جبير أصله من الثلج يعني أن الثلج يتراكم على الجبال فيسكن في قرارها فتنبع العيون من أسافلها. وقال ابن عباس : ليس في الأرض ماء إلاّ نزل من السماء ولكن عروق في الأرض تُغيِّرُهُ . فلهذا قال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ﴾ في أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه ، ﴿ ثم يهيج فتراه مصفراً ﴾ خالطة اليبس ﴿ ثم يجعله حطاماً ﴾ أي يعود يابساً يتحطم ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾ أي الذين يتذكّرون فيتّعظون بأن الدنيا هكذا ، تكون خضرة حسناء ثم تعود عجوزاً شوهاء. والشاب يعود شيخاً ضعيفاً ثم يموت ، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير ، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بالزرع، الذي يكون ناضراً ثم يكون حطاماً . كما قال تعالى: ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ أي هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق كقوله عز وجل : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ أي فلا تلين عند ذكره ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿ أولئك في ضلال مبين ﴾ .

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰباً مُّتَشَٰبِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۞(٢٣)

هذا مدح من الله عز وجل لكتابه العظيم فقال جلّ وعلا : ﴿ الله نزل أحسن الحديث

كتاباً متشابهاً مثانيَ ﴾ قال بعض العلماء ومنهم سفيان بن عيينة : إن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذان من المتشابه ، وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه هذا ... فهذا من المثاني كقوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم ﴾ وأما إذا كان السياق كلّه في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً فهو المتشابهَ . وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله تعالى : ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ ذاك معنى آخر أي ليس هذا من المتشابه كقوله :﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنه وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلاّ الله . ﴾ كذلك المتشابه الوارد في قوله تعالى ها هنا : ﴿ كتاباً متشابهاً مثانيَ ... ﴾

وقوله تعالى : ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ أي هذه صفة الأبرار عند سماع كلامه جل جلاله ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف. ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ لما يرجون ويؤمِّلون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجّار من وجوه ... (أحدها) : ان سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات (الثاني) : أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجّداً وبُكيّاً بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم . كما قال تعالى: ﴿ والذين إذا ذكِّروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صمّاً وعمياناً ﴾ أي إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ، وتقليد أعمى ومتابعة لغيرهم . (الثالث) : انهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة رضي الله عنهم يسمعونها وتقشعر جلودهم وتلين قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم يكونوا يتصارخون ... ! ! ؟ ولا يتكلّفون ما ليس فيهم بل عندهم من الأدب والسكون والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك ولهذا فازوا بالرضا والمدح من الله في الدارين . بخلاف بعض الجماعات ... ! ! ؟ الذين تذهب عقولهم ! ! ويغشى عليهم !؟ إنما هذا في أهل البدع ، وهذا من الشيطان . وقوله تعالى : ﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ﴾ أي هذه هي صفات من هداه الله ومن كان على خلاف ذلك ، فهو ممن أضله الله ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد . ﴾

﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ ٱلْعَذَابُ

مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى : ﴿ أفمن يتّقي بوجهه سوءَ العذاب يوم القيمة ﴾ أي أفمن يواجهُ يومَ القيامة أعظم العذاب كمن يكون في ذلك اليوم آمناً منه ؟ ﴿ وقيل للظالمين ﴾ أي يقال له ولأمثاله من الظالمين تقريعاً لهم : ﴿ ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر ﴾ واكتفى في هذه الآية بذكر العذاب عن ذكر الأمن كقول الشاعر :

فما أدري إذا يممتُ أرضاً ... أريد الخيرَ أيُّهما يليني

يعني يريد بقوله : (أيُّهما) أي الخير أو الشر ، وذكر تعالى ههنا : ﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ﴾ والمراد : أيستوي من يلقى العذاب بوجهه ومن يكون آمنا منه ؟ . فلم يذكر الأمن اكتفاءً بذكر العذاب عنه وقولُه جلّت عظمته : ﴿ كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ أي أهلك الله القرون الماضية التي كذبت الرسل وما كان لهم من الله من واقٍ . وقوله جل وعلا : ﴿ فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ﴾ بما أوقع فيهم من النكال وتشفّي المؤمنين منهم ، فليحذر المخاطبون وهم كفّار قريش وغيرهم الذين كذّبوا أشرف الرسل وخاتم النبيّين ﷺ ، وما أعدَّهُ الله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾
ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ
مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

ويقول تعالى : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي بيّنا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿ لعلّهم يتذكرون ﴾ فإن المثل يقرِّب المعنى إلى الأذهان . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾ أي تعلمونه من أنفسكم ﴿ وقوله تعالى : ﴿ قرآناً عربياً غير ذي عوج ﴾ أي هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه ، ولا انحراف ولا لبس بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وإنّما جعله الله تعالى كذلك ، وأنزله بذلك. ﴿ لعلهم يتقون﴾ أي يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد . ثم قال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ﴾ أي يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم ﴿ ورجلاً سلَماً ﴾ أي سالماً ﴿ لرجل ﴾ أي خالصاً لا يملكه أحد غيره ﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ أي لا يستوي هذا وهذا كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهةً مع الله ، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له فأين هذا من هذا ؟ ولما كان هذا المثل ظاهراً بيّناً قال جل وعلا : ﴿ الحمد لله ﴾ على إقامة الحجة عليهم ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي فلجهلهم يشركون بالله .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إنك ميت وانهم ميتون ﴾ أي ستنتقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل، فيفصل بينكم ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين . ثم إن هذه الآية وإنْ كان سياقُها في المؤمنين والكافرين وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة .

روى ابن أبي حاتم عن ابن الزبير رضي الله عنهما قال : ٣٠ [لما نزلت : ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربّكم تختصمون ﴾ قال الزبير رضي الله عنه : يا رسول الله أتكرَّر علينا الخصومة ؟ قال ﷺ : « نعم » قال رضي الله عنه : إنَّ الأمر إذاً لشديد] وفي المسند عن أبي ذر رضي الله أنه قال : ٣١ [رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان فقال : » أتدري فيما ينتطحانِ يا أبا ذر ؟ » قلت : لا قال ﷺ « لكن الله يدري وسيحكم بينهما »] روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ يقول يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهتدي الضال ، والضعيف المستكبر .

٤٧ جزء ٢٤

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يخاطب الله عز وجل المشركين الذين افتروا على الله وجعلوا معه آلهة أخرى، وادّعوا أن الملائكة بناتُ الله وجعلوا لله ولداً، تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً. ومع هذا كذّبوا بالحقّ إذْ جاءهم على ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. ولهذا قال عز وجل: ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذّب بالصدق إذ جاءه ﴾ أي لا أحد أظلم من هذا لأنه جمع بين طرفي الباطل، كذب على الله وكذّب رسولَ الله ﷺ ولهذا قال جلت عظمته متوعّداً لهم: ﴿ أليس في جهنم مثوىً للكافرين ﴾ وهم الجاحدون المكذبون. ثم قال جل وعلا: ﴿ والذي جاء بالصدق ﴾ هو رسول الله ﷺ. ﴿ وصدّق به ﴾ أي المسلمون ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ أي الذين اتّقوا الشرك ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ﴾ يعني في الجنّة مهما طلبوا وَجَدوا ﴿ ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنّة وعد الصدق الذي كانوا يوعَدون ﴾.

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ

بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ۝(٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ۝(٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ۝(٤٠)

يقول تعالى: ﴿ أليس الله بكافٍ عبْدهَ ﴾ يعني أنه يكفي من عبَدَهُ وتوكّل عليه

روى بن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ٣٢ [أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به] رواه النسائي والترمذي وصححه ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ يعني من المشركين يخوّفون رسول الله ﷺ بأصنامهم ويتوعّدونه بآلهتهم التي يعبدونها جهلاً وضلالاً. ولهذا قال عز وجل: ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ۝ ومن يهدِ الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام ﴾ أي منيع الجناب، لا يضام من استند إلى جنابه فانه العزيز الذي لا أعز منه. والمنتقم ولا أشد انتقاماً منه، ممن كفر به واشرك وعاند رسوله ﷺ . وقوله تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله ﴾ يعني إن المشركين كانوا يعترفون بأن الله عز وجل هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيرَهُ مما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً. ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ﴾ أي لا نستطيع شيئاً من الأمر. وذكر ابن أبي حاتم ها هنا حديثاً بسنده إلى ابن عباس مرفوعاً: ٣٣ (احفظ الله يحفظْك، احفظ الله تجده تجاهك تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفْك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله، واعلم ان الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على ان ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك جفت الصحف ورفعت الأقلام ...] إلى آخر الحديث

وقوله تعالى: ﴿ قل حسبي الله ﴾ أي الله تعالى كافيَّ ﴿ عليه يتوكل المتوكلون ﴾

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: ٣٤ [من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله عز وجل أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عز وجل]

وقوله تعالى : ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ أي طريقتكم . وهذا تهديد ووعيد : ﴿ إني عامل ﴾ أي على طريقتي ومنهجي ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي ستعلمون وبال ذلك ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي في الدنيا ﴿ ويحلّ عليه عذاب مقيم ﴾ أي دائم مستمر لا محيد عنه وذلك يوم القيامة .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَى عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يخاطب تعالى رسوله محمداً ﷺ : ﴿ إنا انزلنا عليك الكتاب للناس بالحق ﴾ أي لجميع الخلق من الأنس والجن لتنذرهم به ﴿ فمن اهتدى فلنفسه ﴾ أي فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ﴿ ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها ﴾ أي يعود وبال ذلك على نفسه ، ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي بموكلٍ أن يهتدوا ﴿ إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الله يتوفي الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى ﴾ فيه دلالة على أنها تجتمع في الملأ الأعلى كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذي رواه ابن منده وغيره وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [إذا آوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره فانه لا يدري ما خلفَه عليه ثم ليقل : باسمك ربي وضعت جنبي ، وبك أرفعه ، إن أمسكتَ نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين] وقال بعض السلف في تفسير هذه الآية الكريمة : تقبض أرواح الأموات إذا ماتوا ، وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله أن تتعارف ﴿ فيمسك التي قضى عليها الموت ﴾ التي قد ماتت ﴿ ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى ﴾ أي إلى بقية أجلها وقال ابن عباس رضي الله عنهما يمسك أنفس الأموات ويرسل أنفس الأحياء ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَو كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ ۝(٤٣) قُلْ لِلهِ ٱلشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝(٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ ٱللهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝(٤٥) ﴾

يذمُّ الله تعالى المشركين لاتخاذهم شفعاء من دون الله وهم الذين على صورتهم هذه الأصنام التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك . ثم قال : عز من قائل : ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ أو لو كانوا ﴾ أي معبود وهم ﴿ لا يملكون شيئا ولا يعقلون ﴾ أي لا يملكون سمعاً ولا بصراً ولا عقلاً ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ أي أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلاّ لمن ارتضاه وأذن له . فمرجعها كلها إليه ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه ﴾ ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ أي هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ أي يحكم يوم القيامة بينكم بعدله ويجزي كلاً بعمله ثم قال واصفاً المشركين وذاماً لهم : ﴿ وإذا ذكر الله وحده ﴾ أي إذا قيل لا إله الا الله وحده ﴿ اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي انقبضت ونفرت واستكبرت كفراً وعناداً عن المتابعة والانقياد لها فقلوبهم لا تقبل الخير . ومن لم يقبل الخير يقبل الشر . ولذلك قال تعالى : ﴿ واذا ذكر الذين من دونه ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ أي يفرحون ويُسَرُّون .

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ عَالِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝(٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ ٱللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ۝(٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝(٤٨) ﴾

بعد ما ذمّ الله تعالى المشركين لحبهم الشرك ونفرتهم عن التوحيد. قال جل وعلا: ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ﴾ أي أدعُ أنت الله وحدّه فهو خالق كل شيء ويعلم السر والعلانية ﴿ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون أي في دنياهم، وستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم. روى مسلم في صحيحه عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن قال ٣٥ سألت [عائشة رضي الله عنها بأيّ شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل أفتتح صلاته : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون إهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم »].

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: ٣٦ [«من قال: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك في هذه الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا الله أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك فإنك إن تكلني إلى نفسي تقرّبني من الشر وتباعدْني من الخير وإني لا أثق إلاّ برحمتك فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد. إلاّ قال عز وجل لملائكته يوم القيامة إن عبدي قد عهد إليّ عهداً فأوفوه إياه فيدخله الله الجنة » قال سهيل فأخبرت القاسم بن عبد الرحمن أن عوناً أخبر بكذا وكذا فقال: ما فينا جارية إلاّ وهي تقول هذا في خدرها].

وقوله عزّ وجل ﴿ ولو أن للذين ظلموا ﴾ وهم المشركون ﴿ ما في الأرض جميعاً ومثله معه ﴾ أي ولو أن جميع ما في الأرض وضعفه معه ﴿ لافتدوا به من سوء العذاب ﴾ أي الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ أي وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في حسابهم ﴿ وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ أي وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي وأحاط بهم من العذاب ما كانوا يستهزئون به عند ذكره لهم في الدار الدنيا.

۞ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩)

قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾
فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان إنه في حال الضراء يتضرع إلى الله عزّ وجلّ وينيب إليه ويدعوه ، وإذا خوّله نعمة منه بغى وطغى وقال : ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ أي لما علم الله تعالى من استحقاقي له ولولا أني مستحقٌ لما خوّلني هذا . قال تعالى : ﴿ بل هي فتنة ﴾ أي ليس الأمر كما يزعم إنما نعمتنا كانت اختباراً له أيطيع أم يعصي ونحن أعلم بما سيكون منه ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون ، ﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ أي كثير ممن سلف من الأمم ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ فما نفعهم قولهم ولا دعواهم ﴿ فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ أي من المخاطبين من كفار قريش ﴿ سيصيبهم سيئات ما كسبوا ﴾ أي كما أصاب أولئك ﴿ وما هم بمعجزين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذَّبين ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يوسعه على قوم ويضيّقه على آخرين ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

ربع الحزب

قُلْ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن
رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾
وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا
تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن
قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ
نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾
أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ

تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ❁(٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ❁(٥٩)

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبارٌ من الله تعالى بأنه يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها وان كانت كزبد البحر. ولا يصح حمل هذه على غير توبة، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه. قال البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: ٣٧ [أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن،لو تخبرنا أن لما عملنا كفارةً؟ فنزل: ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلاّ بالحقّ ولا يزنون ﴾ ونزل: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾] وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس به والمراد من الآية الأولى، قوله تعالى: ﴿ إلاَّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴾ الآية روى الإمام أحمد عن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه قال: ٣٨ [جاء رجل إلى النبي ﷺ شيخ كبير يدعم على عصاً له فقال: يا رسول الله إنَّ لي غدرات وفجرات،فهل يغفرُ لي؟ فقال ﷺ: « ألست تشهد أن لا إله إلا الله » قال بلى وأشهد أنك رسول الله، فقال ﷺ: « قد غفر لك غدراتك وفجراتك »].

فيتضح مما تقدم أن المراد أنه يغفر جميعَ الذنوب بالتوبة، ولا يقنطنَّ عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبُه وكثرت فإن باب الرحمة والتوبة واسع. قال عزّ وجلّ: ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلمْ نفسَه ثم يستغفرِ الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ وقال جلّ وعلا في حق المنافقين ﴿ إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً * إلاّ الذين تابوا وأصلحوا ﴾ وقال جلّ وعلا: ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلهٍ إلا إلّه واحد وإنْ لم ينتهوا عمّا يقولون ليمسّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ ثم قال جلّت عظمته: ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿ ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا ... ﴾ قال الحسن البصري رحمة الله عليه (انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة). ان الله تعالى بفضله وكرمه ومنّه دعا الكفار جميعاً بلا استثناء إلى التوبة حتى الذي قال أنا ربكم الأعلى ولكنّه لم يؤمن إلاَّ في حين لا تنفعه توبة وذلك عند الاحتضار إذْ قال له تعالى:

﴿ الآن ... ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل . وقال عبدالله بن مسعود لقاصٍّ يذكّر الناس فقال : يا مذكّر لم تقنّط الناس من رحمة الله ؟ ثم قرأ : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ رواه ابن ابي حاتم .

روى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه انه قال حين حضرته الوفاة : ٣٩ [قد كنت كتمت منكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ ، يقول : « لولا أنكم تذنبون لخلق الله عز وجل قوماً يذنبون فيغفر لهم »] واخرجه مسلم في صحيحه والترمذي . روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٠ [كفارة الذنب الندامة] وقوله تعالى : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾ أي وارجعوا إلى الله تعالى واستسلموا له ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ أي من حيث لا تعلمون ولا تشعرون ثم قال عز وجل : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ﴾ أي يتحسر المجرم الذي فرط ولم يتب ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وإن كنتُ لمن الساخرين ﴾ أي إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزيء غير مصدّق ﴿ أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرّة فأكون من المحسنين ﴾ أي تودّ لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل فأخبر تعالى عز وجل ان لو رُدُّوا لما قدروا على الهدى .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤١ [كل أهل النار يرى مقعده من الجنة ، فيقول : لو أن الله هداني فتكون عليه حسرة ، قال ، وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول لولا أن الله هداني قال فيكون له الشكر] . ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آياتِ الله واتباع رسله قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ أي قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه – آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك، فكذبْت بها واستكبرت عن اتّباعها، وكنت من الكافرين بها ، الجاحدين لها .

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۞ (٦٠) وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ (٦١) ﴾

يخبر تعالى عن أهل الفرقة والاختلاف أن وجوههم تسودُّ يوم القيامة لافترائهم على الله تعالى بأن له شريكاً وولداً ﴿ أليس في جهنم مثوىً للمتكبرين ﴾ أي أليست جهنم كافيةً سجناً وموئلاً ومستقراً لهم؟فيها الخزي والهوان بسبب تكبرُّهم وتجبرُّهم، وإبائهم عن الانقياد للحق . روى بن أبي حاتم عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ٢ : ٤ [إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صورة الناس يعلوهم كل شيء من الصَّغار حتى يدخلوا سجناً من النار في وادٍ يقال له بولس من نار الأنيار ويسقون من عصارة أهل النار ومن طينة الخبال] وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم ﴾ أي بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله فتبيضُّ وجوههم ﴿ لا يمسّهم السوء ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ أي ولا يحزنهم الفزع الأكبر بل هم آمنون من كل فزع مزحزحون عن كل شر نائلون كل خير .

﴿ ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۞ (٦٢) لَّهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَاتِ ٱللَّهِ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ۞ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَاهِلُونَ ۞ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ۞ (٦٥) بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّاكِرِينَ ۞ (٦٦) ﴾

يخبر تعالى أنه خالق كل شيء ورب الأشياء ومليكها والمتصرّف فيها وكلٌّ تحت تدبيره وقهره وكلاءته . وقوله عز وجل : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ أي خزائن السموات والأرض والمعنى : ان ازمّة الأمور بيده تبارك وتعالى له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيءٍ قدير. ولهذا قال جلّ وعلا ﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ أي حججه وبراهينه ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قل أفغيرَ الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ ذكروا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما ان المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدون معه إلهه فنزلت:﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ۞ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ وهذه كقوله تعالى : ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ وقولُه عز وجل : ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ أي أخلص العبادة لله وحدهُ لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدَّقك .

﴿ وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ (٦٧) ﴾

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ أي ما قدَّر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر على كل شيء المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قدره وقدرته . قال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ هم الكفار الذين لم يؤمنو بقدرة الله عليهم ، فمن آمن أن الله على كلّ شيءٍ قدير فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره ، وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة ، والطريق فيها ، وفي أمثالها مذهب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف .

روى البخاري قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: ٤٣ [جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد ان الله عز وجل يجعل السموات على اصبع والأرضين على اصبع ، والشجر على اصبع والماء والثرىَ على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع فيقول أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحَبْر ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾] ورواه البخاري في غير هذا الموضع والإمام أحمد ومسلم والنسائي .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ٤٤ [سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يقبض الله تعالى الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض »] تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر .

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ٤٥ [ان رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر « يمجّد الربُّ نفسَه أنا الجبار أنا المتكبر أنا الملك أنا العزيز أنا الكريم » فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا : ليخرَّن به] وقد رواه مسلم والنسائي وابن ماجة من حديث عبد العزيز بن أبي حازم .

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۞ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۞ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۞ (٧٠) ﴾

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة.فقوله تعالى ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله ﴾ هذه النفخة هي الثانية وهي نفخـة الصعق وهي التي يموت بها الأحياء من أهـل السموات والأرض إلاّ من شاء الله، كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين.وآخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم الذي كان أوّلاً وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء. ويقول جل عظمته : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول تعالت قدرته وجلت عظمته : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ أنا الذي كنت وحدي ، وقد قهرت كل شيء ، وحكمت بالفناء على كل شيء ، ثم يحيي أول ما يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى وهي النفخة الثالثة نفخة البعث. قال الله عز وجل: ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ أي أحياء بعد ما كانوا رفاتاً صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة. كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ . روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : ٤٦ [« يخرج الدجال في أمتي فيمكث فيهم، أربعين لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً أو أربعين ليلة فيبعث الله

تعالى عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنـه عروة بن مسعود الثقفي فيظهر فيهلكه الله تعالى ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله تعالى ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى ان لو كان أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه » قال سمعتها من رسول الله صلى الله عليـه وسلم « ويبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا قال فيتمثل لهم الشيطان فيقول ألا تستجيبون فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها وهم في ذلك دارة أرزاقهم حسن عيشهم ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحـد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق ثم لا يبقى أحد إلا صعق ، ثم يرسل الله تعـالى أو ينزل الله عز وجل مطرا كأنه الطل ــ أو الظل شك نعمان ــ فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال أيها الناس هلموا الى ربكم (وقفوهم إنهم مسؤولون) ــ قال ــ ثم يقال أخرجوا بعث النـار فيقال كم ؟ فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فيومئـذ تبعث الولدان شيبا ويومئذ يكشف عن ساق » انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه .

وقوله تعالى : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ أي أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جلّ وعلا للخلائق لفصل القضاء ﴿ ووضع الكتاب ﴾ أي كتاب الأعمال ﴿ وجيء بالنبيّين ﴾ يشهدون على الأمم بأنهم بلّغوا رسالات الله إليهم ﴿ والشهداء ﴾ أي مـن الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ أي بالعدل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ قال الله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾

ولهذا قال عز وجل ﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ أي من خير أو شر ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾ .

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ۞ (٧١) قِيلَ ٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۞ (٧٢) ﴾

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار سوقاً عنيفاً ، يدفعون دفعاً وهم عطاش يروون من صديدها، ويحشرون على وجوههم صماً بكماً عمياً، كلما خبت نارهم زيدت سعيراً ﴿ حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ﴾ أي بمجرد وصولهم اليها فتحت أبوابها سريعاً لتعجل لهم العقوبة ﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ الذين هم غلاظ شداد على وجه التقريع والتوبيخ : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ أي من جنسكم ﴿ يتلون عليكم آيات ربّكم ﴾ أي يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحّة ما دعوكم إليه ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ أي ويحذرونكم من شر هذا اليوم فيقول لهم الكفار ﴿ بلى ﴾ أي نعم أنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ أي ولكن كذّبناهم ، وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة . كقوله تعالى: ﴿ قالوا بلىٰ قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزّل الله من شيء إن أنتم إلاّ في ضلال كبير ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها لا خروج لكم منها ولا زوال لكم عنها ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أي بئس حال ومآل من تكبر عن اتباع الحق فهو الذي صيّركم إلى ما أنتم فيه .

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۞ (٧٣) وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۞ (٧٤) ﴾

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حيث يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة زمراً أي جماعات، جماعة بعد جماعة... المقربون ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم ثم الذين، يلونهم كل طائفة مع من يناسبهم ؛ الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون والشهداء والعلماء كل صنف مع صنفهم ﴿ حتى إذا جاءوها ﴾ أي وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذّبوا ونقّوا أذن لهم في دخول الجنة .

وقد ورد في حديث الصور : أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة، تشاوروا فيمن يستأذن لهم في الدخول فيقصدون آدم ثم نوحاً ثم ابراهيم ثم موسى ، ثم عيسى ثم محمد

صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء وسلم تسليماً كثيراً، كما فعلوا في العرصات عند استشفاعهم إلى الله عز وجل أن يأتي لفصل القضاء ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر في المواطن كلها وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٧ [أنا أول شفيع في الجنة » وفي لفظ مسلم « وأنا أول من يقرع باب الجنة]

وروى الإمام أحمد عن انس بن مالك رضي الله عنه قال: ٤٨ قال رسول الله ﷺ : [آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول محمد - قال - فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك] ورواه مسلم .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٩ [أول زمرة تلج الجنّة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يتمخطون فيها ولا يتغوّطون فيها آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد يسبّحون الله تعالى بكرةً وعشيّاً] ورواه البخاري ومسلم .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ إكراما لهم وتعظيماً وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء أي حتى إذا كان هذا الإكرام والتعظيم ، سعدوا وطابوا وسرُّوا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم وفي الصحيحين عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ٥٠ [إنَّ في الجنة ثمانية أبواب باب منها يسمّى الريّان لا يدخله إلاّ الصائمون] وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٥١ [ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله إلاّ فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيّها شاء] .

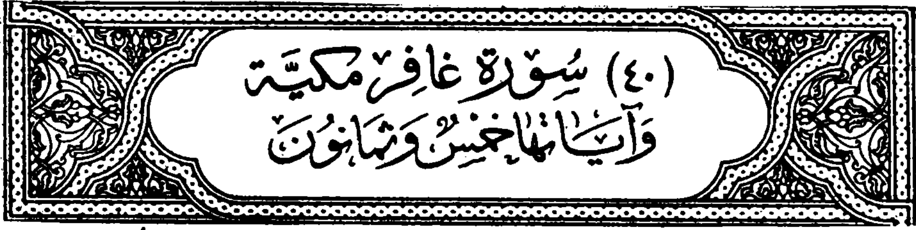
وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم ﴾ أي طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم وطاب جزاؤكم . وقوله تعالى : ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ أي يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم والنعيم المقيم، والملك الكبير يقولون عند ذلك: ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ أي الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام كما دعوا في الدنيا ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا

تخلف الميعاد ﴾ ويقولون في الجنة : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور ۞ الذي أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ وقولهم ﴿ وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ ولهذا قالوا : ﴿ نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ أي أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرنا على عملنا وفي الصحيحين من حديث الزهري عن أنس رضي الله عنه في قصة المعراج قال النبي ﷺ : ٥٢ [أُدْخِلْتُ الجنّةَ فإذا فيها جنابذُ اللؤلؤ وإذا ترابُها المسك] .

وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۞ (٧٥)

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار وأنه أنزل كلاً في المحل الذي يليق به وهو العادل الذي لا يجور ، أخبر عن ملائكته انهم مُحدِقون من حول العرش المجيد يسبِّحون بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور وقد فصل القضية ، وقضي الأمر ، وحكم بالعدل ولهذا قال عز وجل : ﴿ وقضي بينهم ﴾ أي بين الخلائق ﴿ بالحق ﴾ . ثم قال : ﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ أي نطق الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله. ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه فدلّ على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد ، قال قتادة افتتح الخلق بالحمد في قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ واختتمه بالحمد في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .

آخر اختصار تفسير سورة الزُمَر ولله الحمد والمنة
وبه التوفيق وله الشكر والفضل
وعليه التكلان



سوى الآيتين ٥٦ و ٥٧ فمدنيتان نزلت بعد سورة الزُّمَر

* * *

روى أبو بكر البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ٥٣ [من قرأ آية الكرسي وأول : ﴿حم﴾ عصم ذلك اليوم من كل سوء] .

وقد كره بعض السلف أن يقال : « الحواميم » وإنما يقال « آل حم » قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : آل حم ديباج القرآن . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ان لكل شيءٍ لُباباً ولُباب القرآن آل حم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة [١] وروى أبو داود عن المهلب بن أبي صفرة قال: حدثني من سمع رسول الله ﷺ يقول : ٥٤ [إن بيّتم الليلة فقولوا : حم لا ينصرون] وهذا إسناد صحيح . وقوله تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ أي تنزيل القرآن من الله ذي العزة والعلم، فلا يرام عزّه ولا يخفى عليه الذر

(١) ان أصح تفسير لهذه الأحرف المقطعة على الإطلاق أن يقال : الله أعلم بمراده منها .

وان تكاثف حجابه . وقوله عز وجل : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ أي يغفر ما سلف من الذنب ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب اليه وخضع لديه . وقوله جل وعلا ﴿ شديد العقاب ﴾ أي لمن تمرَّد وطغى. وهذه كقوله ﴿ نبيء عبادي أني انا الغفور الرحيم * وان عذابي هو العذاب الأليم ﴾ يقرن هذين الوصفين كثيراً في مواضع متعددة من القرآن ليبقى العبد بين الرجاء والخوف . وقوله تعالى : ﴿ ذي الطول ﴾ قال ابن عباس ذي الخـــير الكثير ، والمعنى أنه المتفضل على عباده ، المتطوّل عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها ﴿ وإن تعدّوا نعمةَ الله لا تحصوها ﴾ وقوله جلّت عظمته : ﴿ لا إله إلاّ هو ﴾ أي لا معبود في الأرض ولا في السماء بحق إلاّ هو ﴿ اليه المصير ﴾ أي المرجع والمآب فيجازي كلاًّ بعمله ﴿ وهو سريع الحساب ﴾

روى ابن أبي حاتم عن يزيد بن الأصم قال : كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ففقده عمر فقال : ما فعل فلان بن فلان فقالوا يا أمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب ... قال فدعا عمر كاتبه فقال اكتب : من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان : سلام عليك فإني أحمد اليك الله الذي لا إله إلاّ هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير . ثم قال لأصحابه أدعوا الله لأخيكم أن يُقبِلَ بقلبه ويتوبَ الله عليه . فلما بلغ الرجل كتاب عمر رضي الله عنه جعل يقرأه ويردده ويقول : غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب . قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي . وفي رواية أبي نعيم قال : فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع . فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زل زلةً فسددوه ووثقوه وادعوا الله أن يتوب عليه ولا تكونوا أعوان الشيطان عليه .

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي ءَايَاتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَادِ * (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِٱلْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * (٥) وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ * (٦) ﴾

يقول تعالى : ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البرهان ﴿ إلاّ الذين كفروا ﴾ أي الجاحدون لآيات الله ﴿ فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ أي في أموالها ونعيمها وزهرتها . كما قال جل وعلا ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذابٍ غليظ ﴾ ثم سلّى الله نبيه محمّداً ﷺ في تكذيبه من قِبَل قومه فإن من سَلَفَهُ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد كذبهم قومهم،وما آمن منهم إلاّ قليل.فقال : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ وهو أوّل رسول بعثه الله لينهى عن عبادة الأوثان ﴿ والأحزاب من بعدهم ﴾ أي من كل أمة ﴿ وهمَّت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾ أيْ حرصوا على قتله بكل ممكن ، ومنهم من قتل رسوله ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا الحق ﴾ أي ما حلوا بالشبهة ليردّوا الحق الواضح . وعن أبي القاسم الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ٥٥ [من أعان باطلاً ليدحض به حقاً فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله ﷺ] وقوله تعالى : ﴿ فأخذتهم ﴾ أي أهلكتهم بذنوبهم ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ أي كان شديداً مؤلماً وقوله جل جلاله : ﴿ وكذلك حقَّت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ أي كما حقت كلمة العذاب على كفار الأمم السابقة كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك بطريق الأوْلى والله تعالى أعلم .

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * (٨) وَقِهِمُ ٱلسَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * (٩) ﴾

يخبر تعالى عن الملائكة حملة العرش المقرَّبين ومن حوله من الملائكة يسبحون بحمد ربهم أي يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص ، والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح ﴿ ويؤمنون به ﴾ أي خاشعون أذلاء ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ من أهل الأرض ممن آمنوا بالغيب ، فقيض الله ملائكته المقربين أنْ يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب ، وقد ثبت في صحيح مسلم ٥٦ [إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملكُ آمين ولك بمثله] .

قال شهر بن حوشب رضي الله عنه : حملة العرش ثمانية : أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك ، واربعة يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، ولهذا يستغفرون للذين آمنوا : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً ﴾ أي رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم ﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ أي فاصفح عن المسيئين اذا تابوا وأنابوا واقلعوا واتّبعوا ما أمرتهم وتركوا ما نهيتهم ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ أي وزحزحهم عن عذابها الموجع الأليم ﴿ ربّنا وادخلهم جناتِ عدنٍ التي وعدتّهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أي اجمع بينهم وبينهم لتقرَّ أعينهم بالاجتماع معهم في منازل متجاورة وقوله تعالى : ﴿ إنك انت العزيز الحكيم ﴾ أي الذي لا يمانع ولا يغالب والحكيم في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك ﴿ وقهم السيئات ﴾ أي فعلها أو وبالها ممن وقعت منه ﴿ ومن تقِ السيئاتِ يومئذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فقد رحمتَه ﴾ أي لطفت به ونجّيته من العقوبة ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ۞ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِن سَبِيلٍ ۞ (١١) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ ٱللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَٱلْحُكْمُ لِلهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ۞ (١٢) هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (١٣) ۞ فَٱدْعُوا ٱللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ ۞ (١٤)

يخبر تعالى أن الكفّار لما لقوا العذاب الذي لا قبل لأحدٍ به، مقتوا عند ذلك أنفسهم وابغضوها بسبب ما أسلفوا من الأعمال التي كانت سبب دخولهم النار . فنادتهم الملائكة بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون ، أشد من مقتكم أنفسكم اليوم. ﴿ قالوا ربّنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ كقوله تعالى : ﴿كيف

تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ قاله ابن مسعود . والمعنى: أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله عز وجل في عرصات يوم القيامة فلا يجابون لأن الله علم منهم أنهم ولو رجعوا لعادوا إلى كفرهم. وذلك كقوله تعالى : ﴿ ولو ردُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ ولما قالوا : ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ وفي هذه الآية تلطفوا في السؤال أي أنهم قالوا : يا رب إن قدرتك عظيمة فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتاً ثم أمتّنا ثم أحييتنا فأنت قادر على كل شيء ، وقد اعترفنا بذنوبنا وإنّنا كنّا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا ﴿ فهل إلى خروج من سبيل ﴾ أي فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا فإنك قادر على ذلك لنعمل غير الذي كنّا نعمل فإنْ عدنا إلى ما كنّا فيه فإنا ظالمون فأُجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك. ثم علل المنعَ بأن سجاياكم لا تقبل الحق، بل تمجّه وتنفيه . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحدَه كفرتم وإن يُشْرَكْ به تؤمنوا ﴾ أيْ أنتم هكذا تكونون. وإنْ رُدِدتم إلى الدنيا ، كما قال عز وجل ﴿ ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ فالحكم لله العلي الكبير ﴾ أي هو الحَكم العدل الذي لا يجور، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو . وقوله جل جلاله : ﴿ هو الذي يريكم آياته ﴾ أي يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدون في خلقه العلوي والسفلي، من الآيات العظيمة الدالّة على كمال خالقِها ومبدعِها ومنشئها. ﴿ وينزّل لكم من السماء رزقاً ﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثّمار ما هو مشاهد بالحسّ، من اختلاف طعومه وروائحه، وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء. ﴿ وما يتذكَّر ﴾ أي يستدل بها على عظمة خالقها ﴿ إلاّ من ينيب ﴾ أي من هو بصير راجع إلى الله تبارك وتعالى . وقوله عز وجل : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ أي أخلصوا العبادة لله تعالى وخالفوا المشركين في مسلكهم . وقد ثبت في الصحيح عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ ٥٧ [كان يقول عقب الصلوات المكتوبات : لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله لا إلّه إلاّ الله ولا نعبد إلاّ إيّاه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إلّه إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٥٨ [أدعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاءً من قلب لاهٍ] .

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَاتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۞ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۞ (١٦) ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۞ (١٧) ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وكبريائه ، وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها. كما قال تعالى : ﴿ ... من الله ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ يلقي الروحَ من أمره على من يشاء من عباده ﴾ كقوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين ۞ على قلبك لتكون من المنذ رين ﴾ ولهذا قال عز وجل : ﴿ لينذر يومَ التلاق ﴾ أي يوم القيامة حذّر الله منه عباده ، وإن كل عامل سيلقي فيه ما عمله من خير وشر . وقوله جل وعلا : ﴿ يومَ هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ أي ظاهرون لا يسترهم شيء ، والجميع في علمه سواء . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحدِ القهار ﴾ أي هو وحده الذي قهر كل شيء وغلبه . وقوله تعالى : ﴿ اليوم تجزى كلُّ نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة . ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل انه قال: « ٥٩ [يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا – إلى أن قال – : يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إيّاها فمن وجد خيراً فليحمد الله تبارك وتعالى ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه] . وقوله تعالى ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال تعالى : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة ﴾ وقال جل وعلا ﴿ وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر ﴾ .

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۞(١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا

تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ
لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

يوم الآزفة اسم من اسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها. كما قال تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾ قال قتادة : وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها ومعنى كاظمين أي ساكتين لا يتكلم أحد إلاّ بإذنه ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلاّ من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم بل قد تقطعت بهم الأسباب من كلّ خير ، وقوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء ، ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى ويتقوه ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه ، فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور · وقال عز وجلّ : ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ أي يحكم بالعدل ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿ لا يقضون بشيء ﴾ أي لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ﴿ إنَّ الله هو السميع البصير ﴾ أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم ، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحكم العدل في جميع ذلك .



أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ
كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ
ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى : ﴿ أولم يسيروا ﴾ أي هؤلاء الكفار ﴿ في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ﴾ أي من الأمم المكذبة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما حلّ

بهم من العذاب مع أنهم كانوا أشدَّ من هؤلاء قوةً ﴿ وآثاراً في الأرض ﴾ من المعالم العظيمة ، فمع هذه القوة ، والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم ﴿ وما كان لهم من الله من واقٍ ﴾ أي ما وقاهم من عذاب الله من واقٍ ﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبيّنات ﴾ أي بالآيات الواضحات ﴿ فكفروا ﴾ رغم هذا البيان والبرهان ، ﴿ فأخذهم الله ﴾ أي أهلكهم ودمَّر عليهم وللكافرين أمثالها ﴿ إنَّه قويٌّ شديد العقاب ﴾ أي عقابه أليم شديد وجيع ، أعاذنا الله تبارك وتعالى منه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ * (٢٧) ﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيّه محمد ﷺ في تكذيب مَن كذّبه مِن قومه ، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة ، كما نصر موسى عليه السلام وأرسله بالآيات البيّنات ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بآياتنا وسلطان مبين ﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان ﴿ إلى فرعون ﴾ وهو ملك القبط بمصر ﴿ وهامان ﴾ وزيره ﴿ وقارون ﴾ أغنى أهل زمانه ﴿ فقالوا ساحر كذاب ﴾ أي كذبوه واتّهموه بالجنون والسحر ﴿ فلما جاءهم بالحقّ من عندنا ﴾ أي بالبرهان الدال على رسالته إليهم ﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه وأستحيوا نساءهم ﴾ وهذا أمر ثانٍ بقتل ذكور بني إسرائيل. أما الأول للاحتراز من وجود موسى أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم ، والثاني للتشاؤم بموسى عليه السلام ولهذا قالوا : ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما كيد الكافرين إلاّ في ضلال ﴾

أي وما مكرهم إلا ذاهب وهالك ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربّه ﴾ أي لا أبالي منه وهذا في غاية الكفر والجحود والتجهرم والعناد . وقوله تعالى : ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ أي يخشى فرعون ان يضل موسى الناس ويغير دينهم كما يقال في المثل : صار فرعون مذكراً وواعظاً يشفق على الناس من موسى عليه السلام ! ! ﴿ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ أي لما بلغه قول فرعون : ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ قال موسى عليه السلام استجرت بالله وعذت به . ولهذا قال : ﴿ إني عذت بربي وربكم ﴾ وفي الحديث عن ابي موسى رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ ، كان إذا خاف قوماً قال : (اللهم انا نعوذ بك من شرورهم وندرأ بك في نحورهم .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ ٱللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۞ (٢٨) يَاقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ ٱللهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۞(٢٩) ﴾

المشهور أن هذا الرجل المؤمن قبطي من آل فرعون وليس إسرائيلياً. وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وأمرأةُ فرعون وهو الذي قال : ﴿ يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ وقد كان يكتم إيمانه عن قومه فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ فأخذتِ الرجل غضبةٌ لله عز وجل كما ثبت بذلك الحديث : ٦٠ [وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر] ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله : ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبيّنات من ربّكم ﴾ أي كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول ربّي الله وقد أقام لكم البرهان تلو البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق ؟ ثم تنزّل معهم في المخاطبة فقال : ﴿ وإن يك كاذباً فعليه كذبه وانْ يكُ صادقاً يُصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ يعني إذا لم يظهر لكم

صحة قوله . فالعقل ان تتركوه ونفسه فلا تؤذوه ، وإن يك كاذباً فيعاقبه الله في الدنيا والآخرة وإنْ يك صادقاً وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يهددكم به من العذاب في الدنيا والآخرة . وهكذا أخبر الله عز وجل عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة في قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا إلي عباد الله إني لكم رسول أمين * وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين * وإني عذت بربي وربكم أن ترجموني * وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلوني * ﴾ وكذلك قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله تعالى عباد الله ، ولا يمسوه بسوء ويصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته . قال الله تعالى : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى ﴾ أي أن تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة ، واتركوا بيني وبين الناس . وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية وكان فتحاً مبيناً . وقوله جل وعلا : ﴿ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ أي لو كان هذا الذي يدعوكم إلى الله من المسرفين الكذابين لما هدَاه الله وأرشدَه إلى ما ترون من **انتظام** أمره وفعله ومنهجه المستقيم . ثم قال المؤمن محذراً قومَه زوال نعمة الله عنهم ، وحلول نقمته بهم : ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ﴾ أي لكم الملك والكلمة النافذة والجاه فقابلوا نعمه بشكره وتصديق رسوله واحذروا نقمته إن كذبتموه ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ أي لا تغني عنكم هذه الجنود والعساكر إن أرادنا الله بسوء ... قال فرعون راداً على ما أشار به هذا الرجل المؤمن الرشيد ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ أي لا أرى لكم إلاّ ما أرى لنفسي . وقد كذب فرعون لأنه كان متحققاً صدق موسى برسالته ، كقوله تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً ﴾ وقولُه : ﴿ وما أهديكم إلاّ سبيل الرشاد ﴾ أي إلى الطريق الحق وسبيل الهدى وقد كذب أيضاً في ذلك وغش قومَه . وفي الحديث : ٦١ [ما من إمامٍ يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلاّ لم يرحْ رائحة الجنة وإن ريحَها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام] والله الموفق للصواب .

۞ وَقَالَ ٱلَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۞ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ ۞ (٣١) وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۞ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ

وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ ٱللَّهِ وَعِنْدَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

قال مؤمن آل فرعون : ﴿ يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ كقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم ، كيف حل بهم بأسُ الله وما ردّه عنهم رادٌ ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ أي إنما أهلكهم الله بتكذيبهم رسله عليهم الصلاة والسلام ثم قال : ﴿ يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ يعني القيامة ينادي الناس بعضهم من الهول ، وقيل مناداة أهل الجنة لبعضهم ، وكذلك أهل النار . وقوله تعالى : ﴿ يوم تولّون مدبرين ﴾ أي هاربين ﴿ ما لكم من الله من عاصم ﴾ أي مانع يمنعكم من بأسه ﴿ ومن يضلل فما له من هاد ﴾ أي لا هادي لمن أضلّه الله . وقوله : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ يعني بعث الله في أهل مصر يوسفَ قبل موسى عليهما السلام فما أطاعوا يوسف إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي. ولهذا قال تعالى : ﴿ فما زلتم في شكٍ مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعثَ الله من بعده رسولاً ﴾ أي يئستم فقلتم طامعين لن يبعث بعده رسولاً وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في أفعاله ، وارتياب قلبه . ثم قال عز وجل : ﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ أي الذين يدفعون الحق بالباطل بلا دليل ولا حجة ، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت. ولهذا قال تعالى: ﴿ كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ﴾ أي والمؤمنون ايضاً يبغضون من تكون هذه صفته وإن الله يطبع على قلوبهم، جزاء ما فعلوا فلا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً . ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبرّ ﴾ أي متكبر على اتباع الحق ﴿ جبار ﴾ قال قتادة : آية الجبابرة : القتل بغير حق والله تعالى أعلم .

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧)﴾

يخبر تعالى عن عتوِّ فرعون وتكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام أنه أمر وزيره هامان ان يبنيَ له قصراً شاهقاً ﴿لعلي أبلغُ الأسباب * أسباب السموات﴾ أي أبوابها وطرقها ﴿فأطلعَ إلى إلَه موسى وإني لأظنه كاذباً﴾ أي أنه كذّبَ موسى عليه الصلاة والسلام في أن الله تعالى أرسله إليه ﴿وكذلك زيّن لفرعون سوءُ عمله وصُدَّ عن السبيل﴾ أي بفعله هذا الذي أراد أن يوهم رعيته ليصرفهم الى تكذيب موسى عليه السلام ولكن. ﴿وما كيد فرعون إلاّ في تباب﴾ أي في خسار.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٣٨) يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)﴾

يقول مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد﴾ أي أنا الذي اهديكم سبيل الرشاد لا فرعون الذي كذب عليكم ثم بدأ يزهدهم في الدنيا التي صدتهم عن الايمان بموسى عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾ قليل زائل ﴿وإن الآخرة هي دار القرار﴾ لا زوال لها فإما نعيم أو جحيم. ولذا قال تعالى: ﴿من عمل سيئة فلا يجزى إلاّ مثلها﴾ أي واحدة ﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة **يرزقون فيها بغير حساب**﴾ أي لا يتقدّر بجزاء بل يثيبه من فضله بلا انقضاء ولا نفاد والله الموفق للصواب.

حزب ٤٨

﴿ وَيَاقَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى ٱلنَّارِ ۞ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّارِ ۞ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ ۞ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ ۞ (٤٤) فَوَقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ ٱلْعَذَابِ ۞ (٤٥) ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۞ (٤٦) ﴾

يقول لهم المؤمن من آل فرعون ما بالي أدعوكم إلى النجاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله ﷺ الذي بعثه اليكم ﴿ وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ماليس لي به علم ﴾ أي على جهل بلا دليل ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾ أي هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه ﴿ لا جرم أنما تدعونني إليه ﴾ أي حقاً إن الذي تدعونني إليه من عبادة الأصنام ﴿ ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ أي هذه الأنداد لا تجيب داعيها لا في الدنيا ولا في الآخرة . وهذا كقوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وأن مردّنا إلى الله ﴾ أي في الدار الآخرة فيجازى كل بعمله. ولهذا قال :﴿ وأنَّ المسرفين هم أصحاب النار ﴾ أي خالدين فيها بإسرافهم وهو شركهم بالله عز وجل : ﴿ فستذكرون ما أقول لكم ﴾ أي سوف تعلمون صحة ما أقوله لكم ﴿ وافوض أمري إلى الله ﴾ أي وأتوكل على الله وأستعينه وأقاطعكم ﴿ إن الله بصير بالعباد ﴾ أي هو بصير بهم تعالى وتقدس فيهدي من يستحقّ الهداية،ويضلُّ من يستحق الإضلال،وله سبحانه الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ. وقوله تعالى : ﴿ فوقّاه الله سيئاتِ ما مكروا ﴾ أي وقاه في الدنيا أي نجّاه تعالى مع موسى عليه السلام من الغرق وفي الآخرة فوقاه النار وأدخله الجنة ﴿ وحاق بآل فرعون سوءُ العذاب﴾ وهو الغرق ثم الانتقال منه إلى الجحيم ، فإن النار يعرضون عليها

صباحاً مساءً إلى قيام الساعة فإذا كان يوم القيامة انتقلوا من عذاب القبر إلى عذاب جهنم. ولهذا قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشدّ العذاب ﴾ واستدل أهل السنة والجماعة بهذه الآية على عذاب البرزخ في القبور وهي قوله تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها غدوّاً وعشيّاً ﴾ .

وقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها : ٦٢ [أن يهودية دخلت عليها فقالت : نعوذ بالله من عذاب القبر ، فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال ﷺ : « نعم عذاب القبر حق » قالت عائشة رضي الله عنها : فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاةً إلا تعوّذ من عذاب القبر] وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً . وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه ـ في جملة ما قال : ... وإن أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود تغدو على جهنم وتروح عليها فذلك عرضها ... وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال فيه : ٦٣ [... ثم انطلق بي إلى خلق كثير من خلق الله رجالٍ كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم مصفّدون على سابلة آل فرعون ، وآل فرعون يعرضون على النار غدوّاً وعشيّاً ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ وآل فرعون كالإبل المسمومة يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون] .

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ ٱلنَّارِ ۞ (٤٧) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ۞ (٤٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ ٱلْعَذَابِ ۞ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۞ (٥٠) ﴾

يخبر تعالى عن تحاجِّ أهل النار في النار وتخاصمهم ، وفرعون وقومه من جملتهم فيقول الضعفاء وهم الأتباع للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء ﴿ إنّا كنا لكم تبعاً ﴾ أي أطعناكم في الكفر ﴿ فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ أي قسطاً تتحملونه

عنا ﴿ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ﴾ أي كفى ما حملنا من العذاب ﴿ ان الله قد حكم بين العباد ﴾ أي قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منّا ﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعو ربّكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ فلما علموا أن الله لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم بل قد قال : ﴿ إخسأوا فيها ولا تكلمون ﴾ سألوا الخزنة أن يدعوا لهم تخفيف العذاب ولو يوماً واحداً فردّوا عليهم ﴿ أولم تك تأتيكم رسلكم بالبيّنات ﴾ أي ألم تقم عليكم بالحجج على ألسنة الرسل؟ ﴿ قالوا بلى قالوا فادعوا ﴾ أي ادعوا أنتم لأنفسكم فنحن برآء منكم ولو دعوتم فلن يستجاب لكم ﴿ وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال ﴾ أي لا يقبل ولا يستجاب .

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ ۞ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ ٱلظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ ۞ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَاٰئِيلَ ٱلْكِتَابَ ۞ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ ۞ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَارِ ۞ (٥٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۞ (٥٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ فقد أورد ابن جرير رحمه الله عند هذه الآية سؤالاً فقال : قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية : كيحيى وزكريا وشعيا ، ومنهم من خرج من بين أظهرهم مهاجراً كإبراهيم ، ومنهم رفع إلى السماء كعيسى فاين النصرة في الدنيا ...؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين : أحدهما : أن يكون الخبر عاماً والمراد به البعض قال وهذا سائغ في اللغة . والثاني : ان يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم سواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم كما فعل بقتله يحيى وزكريا وشعيا سلط الله عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم . وقد ذكر ان النمروذ أخذه الله تعالى أخذ عزيز

مقتدر وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلّط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله عليهم، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، فلا يقبل إلاّ الإسلام وهذه نصرة عظيمة. وهذه سنّة الله في خلقه أن ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم؛ وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذّبه وعاداه، فجعل كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ودانت له الجزيرة العربية كلها ودخل الناس في دين الله أفواجاً. ثم من بعده خلفاؤه فبلّغوا عنه دين الله عز وجل ودعوا عباد الله إلى الله تعالى، وفتحوا البلاد والقلوب حتى بلغت الدعوه المحمدية مشارق الأرض ومغاربها وسيبقى هذا الدين ظاهراً منصوراً إلى يوم القيامة. ولهذا قال تعالى: ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ أي يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل وقوله تعالى: ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ أي لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿ ولهم اللعنة ﴾ أي الإبعاد والطرد من الرحمة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ أي بئس المنزل والمقيل والعاقبة ﴿ ولقد آتينا موسى الهدىٰ وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ﴾ وهو ما بعثه الله عز وجل به من الهدى والنور ﴿ وأورثنا بني اسرائيل الكتاب ﴾ أي جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى ﷺ. وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوراة: ﴿ هدىً وذكرى لأولي الألباب ﴾ وهي العقول السليمة. وقوله عز وجل: ﴿ فاصبر ﴾ أي يا محمد ﴿ انّ وعد الله حق ﴾ أي وعدناك أن نجعل العاقبة لك ولمن اتّبعك والله لا يخلف الميعاد. وقوله تعالى: ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ هذا حض للأمة على الاستغفار ﴿ وسبّح بحمد ربّك بالعشي ﴾ أي في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿ والإبكار ﴾ وهي أوائل النهار وأواخر الليل ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ أي يدفعون الحق بالباطل بلا برهان ولا حجة من الله ﴿ إنْ في صدورهم إلاّ كبرٌ ما هم ببالغيه ﴾ أي ما في صدورهم إلاّ كبر على أتباع الحق وليس ما يرومونه إلاّ إعلاء للباطل وما ذلك بحاصل لهم ﴿ فاستعذ بالله ﴾ من حال مثل هؤلاء ﴿ انه هو السميع البصير ﴾ هذا تفسير ابن جرير (ملخصاً).

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ❁ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ❁ (٥٨) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ❁ (٥٩)﴾

ينبّه تعالى على أنه يعيد الخلق يوم القيامة وإنَّ ذلك سهل عليه لأن خلقَ السموات والأرض أكبرُ من خلق الناس، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى كما قال تعالى: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعيَ بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلىٰ إنه على كل شيء قدير﴾ وقوله تعالى: ﴿ولكن اكثر الناس لا يعلمون﴾ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها فالذي يعترف بأن الله خلق السموات والأرضَ ثم يُنكر المعادَ فقد اعترف بما هو أولى مما أنكرتم.وقال تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون﴾ أي كما لا يستوي الأعمى والبصير بل بينهما فرق عظيم كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار بالمسيئين الكفرة الفجار ﴿قليلاً ما تتذكرون﴾ أي ما أقل ما يتذكر كثير من الناس. ثم قال تعالى: ﴿إن الساعة لآتية﴾ أي الواقعة ﴿لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ أي لا يصدّقون بها بل يكذبون بوجودها.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ❁ (٦٠)﴾

هذا من فضله سبحانه وكرمه، أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: يا من أحبُّ عباده إليه من سأله فأكثر سؤآله، ويا من ابغضُ عباده إليه من لم يسألْه، وليس أحد كذلك غيرك يا رب رواه ابن أبي حاتم.

روى أبو يعلى في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل قال: ٦٤ [أربع خصال واحدة منهن لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين عبادي. فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً،

واما التي لك علي فما عملتَ من خير جزيتك به ، وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعليّ الإجابة ، وأما التي بينك وبين عبادي فارض لهم ما ترضى لنفسك] وروى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ٦٥ [«ان الدعاء هو العبادة » ثم قرأ : ﴿ ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾] ومن رواية أحمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ ٦٦ [من لم يدعُ اللهَ عزَّ وجلَّ غضِبَ عليْه] وقوله عز وجل : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ أي عن دعائي وتوحيدي ﴿ سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين حقيرين .

﴿ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۞ (٦١) ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۞ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ۞ (٦٣) اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ (٦٥) ﴾

يمتن الله على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه ،ويستريحون من حركات المعايش بالنهار ، وجعل النهار مبصراً أي مضيئاً لينصرفوا فيه بالأسفار والعمل ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أي لا يقومون بواجب الشكر على النعمة.ثم قال عز وجل : ﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو ﴾ أي الذي فعل هذه الأشياء وخلقها لا إله غيره ولا رب سواه ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تعبدون من لا تخلق شيئاً بل هي مخلوقة منحوتة. وقوله عز وجل ﴿ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ أي كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان، إنما بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته. وقوله تعالى :

﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قراراً ﴾ أي جعلها لكم مستقراً ﴿ والسماء بناءً ﴾ أي سقفاً للعالم محفوظاً ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ أي فخلقكم في أحسن تقويم ﴿ ورزقكم من الطيّبات ﴾ أي من المآكل والمشارب في الدنيا فهو الخالق الرازق ﴿ ذلكم الله ربّكم فتبارك الله ربُّ العالمين ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه ثم قال تعالى : ﴿ هو الحي لا إله إلاّ هو ﴾ أي هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن،الذي لا معبود إلا هو سبحانه.﴿ فادعوه مخلصين له الدين ﴾ أي موحدين له مقرين بألوهيته وربوبيّته ثم روى ابن عباس قال : من قال لا إله إلا الله فليقلْ على أثرها الحمد لله رب العالمين وذلك قوله تعالى : ﴿ فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ .



﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ ٱلْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، إن الله عز وجل ينهي أن يعبد سواه إذ لا يستحقّ العبادة غيرُه ﴿ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا اشدّكم ثم لتكونوا شيوخاً ﴾ أي هو الذي يقلبكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له ، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله ﴿ ومنكم من يُتوَفى من قبل ﴾ أي من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم يسقط سقطاً ومنهم يُتَوفىَّ صغيراً وشاباً وكهلاً . وقال سبحانه : ﴿ ولتبلغوا أجلاً مسمّى ولعلكم تعقلون ﴾ أي تتذكرون البعث ﴿ هو الذي يحيي ويميت ﴾ أي هو المتفرد بذلك لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿ فإذا قضى أمراً فإنّما يقول له كنْ فيكون ﴾ أي لا يخالف ولا يمانع بل ما شاء كان لا محالة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ۞ (٦٩) ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِٱلْكِتَابِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۞ (٧٠) إِذِ ٱلْأَغْلَالُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۞ (٧١) فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۞ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۞ (٧٣) مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَافِرِينَ ۞ (٧٤) ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۞ (٧٥) ٱدْخُلُوٓا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۞ (٧٦) ﴾

ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ويجادلون في الحق بالباطل كيف يصرفون عقولهم عن الهدى إلى الضلال ﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ من الهدى والبيان ﴿ فسوف يعلمون ﴾ هذا تهديد ووعيد من الرب جل جلاله لهؤلاء كما قال تعالى: ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل ﴾ أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم وتارةً إلى الجحيم ولهذا قال تعالى: ﴿ يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ كما قال تعالى: ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ، يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ وقولُه تعالى: ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله ﴾ أي أين الأنداد التي كنتم تعبدونها من دون الله هل ينصرونكم اليوم. ﴿ قالوا ضلوا عنا ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعونا ﴿ بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ﴾ أي جحدوا عبادتهم كقوله جلت عظمته: ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلاّ أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ولهذا قال عز وجل: ﴿ كذلك يضل الله الكافرين ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ﴾ أي تقول لهم الملائكة هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق ومرحكم وأَشَركم وبطركم ﴿ أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أي فبئس

المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه . والله تعالى أعلم .

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَق فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۞ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۞ (٧٨) ﴾

يقول تبارك وتعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك،وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ فإمّا نرينّك بعض الذي نعدهم ﴾ أي في الدنيا ... وكذلك وقع فقد أقر الله عين نبيّه ﷺ والمسلمين يوم بدرٍ وأبيد رؤوس الشرك ، ثم فتح الله على نبيه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ .وقوله عز وجل : ﴿ أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾ أي فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة ، ثم قال تعالى مسلّياً لنبيه ﷺ ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ﴾ أي أوحينا إليك خبرهم ، وقصصهم مع أقوامهم كيف كذبوهم ثم كانت العاقبة والنصرة للرسل ﷺ . ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف. كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء ولله الحمد والمنة [١] وقوله تعالى : ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآيةٍ إلا بإذن الله ﴾ أي ليس لأحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق العادات إلا أن يأذن الله له في ذلك، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به: ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿ قضي بالحق ﴾ فينجّي المؤمنين ويهلك الكافرين ولهذا قال عز وجلّ : ﴿ وخسر هنالك المبطلون ﴾ .

(١) راجع الآية رقم / ١٦٤ / من سورة النساء من المجلد الأول .

﴿ اللهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
* (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا
وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * (٨٠) وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ ٱللهِ تُنكِرُونَ
* (٨١) ﴾

يمنّ الله على عباده بما خلق لهم من الأنعام المختلفة فمنها ركوبهم ومنها يأكلون كالإبل والبقر والخيل والغنم وما يشبه وينتفع بلحومها و لبنها وحمل الأثقال ويلبس صوفها ووبرها ولذا قال تعالى ﴿ لتركبوا منها ومنها تأكلون • ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجةً في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ ويريكم آياته ﴾ أي براهينه في الآفاق وفي أنفسكم ﴿ فأيَّ آيات الله تنكرون ﴾ أي لا تقدروا على إنكارِ شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَاراً فِي ٱلْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ * (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُمْ
مِنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا
قَالُوا ءَامَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * (٨٤) فَلَمْ يَكُ
يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ
وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَافِرُونَ * (٨٥) ﴾

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر وما حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم وآثارهم في الأرض **فما أغنى** عنهم ذلك ولا منعهم من بأس الله وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل ولم يلتفتوا لحججهم وبراهينهم ، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم

عما جاءتهم به الرسل . قال مجاهد : قالوا نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب. ﴿ وحاق بهم ﴾ أي أحاط بهم العذاب ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي الذي كانوا يكذبون به ﴿ فلما رأوا بأسنا ﴾ أي عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿ قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ أي وحدوا الله عز وجل وكفروا بالطاغوت ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع المعذرة. وهذا كما قال فرعون لعنه الله حين أدركه الغرق : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ قال الله تبارك وتعالى ﴿ الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ [1] أي فلم يقبل الله منه لأنه قد استجاب لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام دعاءه عليه حين قال : ﴿ واشدد على قلوبهم فلا يؤ منوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ وكذلك قال تعالى ههنا ﴿ فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده ﴾ أي هكذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل منه. ولهذا جاء في الحديث : ٦٧ [ان الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر] أي فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة وعاين الملك فلا توبة حينئذ. ولهذا قال تعالى : ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ .

آخر اختصار تفسير سورة المؤمن « غافر » ولله الحمد
والمنة والفضل والشكر وحده

---

(١) قلت : هذه الآية وما بعدها من التفسير.. لدليل واضح جلي، على ان فرعون عليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، لم يقبل إيمانه. لأنه تأخر إلى حين معاينة العذاب الذي كان يتوعده به موسى عليه الصلاة والسلام ولذلك قال له الله تعالى : « آلآن ... ؟ ! ! وقد عصيت قبل... وكنت من المفسدين» ولكن ما تزال طائفة من المسلمين -- زعموا -- يشفقون على فرعون ويقولون بإيمانه ونجاته فنسأله تعالى أن يهديهم إلى الحق وإن أبوا فاللهم احشرهم معه .

(٤١) سورة فصّلت مكيّة وآياتها أربع وخمسون

نزلت بعد سورة المؤمن « غافر »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ حمٓ * تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ يعني القرآن منزل من الرحمن الرحيم كقوله تعالى : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ كتاب فصلت آياته ﴾ أي بينت معانيه ، وأحكمت أحكامه ، ﴿ قرآناً عربياً ﴾ أي بيناً واضحاً فمعانيه مفصلة ، وألفاظه واضحة غير مشكلة. كقوله تعالى: ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ أي هو معجز بلفظه ومعناه . وقوله تعالى : ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي إنّما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ﴿ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ أي أكثر قريش لا يفهمون منه شيئاً مع بيان وضوحه ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة ﴾ أي مغطّاة ﴿ مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ﴾ أي صمم عمّا جئتنا به. ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول ﴿ فاعمل إننا عاملون ﴾ أي أعمل أنت على طريقتك ونحن على طريقتنا لا

نتابعك . روى الإمام العالم عبد بن حميد في مسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : ٦٨ [اجتمعت قريش يوماً فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه فقالوا ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة ، فقالوا أنت يا أبا الوليد فأتاه عتبة فقال : يا محمد أنت خير أم عبدالله؟ فسكت رسول الله ﷺ. فقال : أنت خير أم عبدالمطلب ، فسكت رسول الله ﷺ. فقال : إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك ، فقد عبدوا الآلهة التي عبت ، وان كنت تزعم انك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا وشتت أمرنا ، وعبت ديننا وفضحتنا في العرب ، حتى لقد طار فيهم ان في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهناً والله ما ننتظر إلاّ مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى ، أيها الرجل ان كان إنما بك الحاجة ، جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحدا. وان كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً . فقال رسول الله ﷺ : « فرغت » (١) قال نعم ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم. حمٓ . تنزيل من الرحمن الرحيم ـ حتى بلغ ـ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . ﴾ فقال عتبة : حسبك حسبك ما عندك غير هذا فقال رسول الله ﷺ « لا » فرجع إلى قريش فقالوا ما وراءك ؟ قال ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمون به إلاّ كلمته . قالوا فهل أجابك ؟ قال : نعم ... لا والذي نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قاله ، غير انه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . قالوا ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال ؟ قال ، لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة]

وهذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده مثله سواءً ، وقد ساقه البغوي في تفسيره بسنده عن جابر بن عبدالله فذكر الحديث إلى قوله تعالى ٦٩ [...مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم . فقال أبو جهل يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه ، وما ذاك إلا من حاجة أصابته فانطلقوا بنا إليه . فقال أبو جهل : يا عتبة ما حبسك عنّا إلا أنك صبأت إلى محمد وأعجبك طعامه ، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك

(١) قلت : وقوله / ص / « فرغت » فيه دليل على مراعاة أدب المناظرة أي يظل المناظر ساكتاً حتى تنتهي محدثه .

من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد ، فغضب عتبة ، وأقسم أن لا يكلم محمداً أبداً وقال : والله لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً ، ولكني أتيته وقصصت عليه القصة ، فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، وقرأ السورة إلى قوله تعالى : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخشيت ان ينزل بكم العذاب] وجاء في رواية محمد بن اسحق... ٧٠ [قالوا ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا ما بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به . قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم .]

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۞ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۞ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۞ (٨) ﴾

يقول تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين ﴿ إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ لا كما تعبدون من الأصنام والأنداد ، إنما الله إله واحد . ﴿ فاستقيموا إليه ﴾ أي اخلصوا له العبادة كما أمركم به على ألسنة الرسل. ﴿ واستغفروه ﴾ أي من سالف الذنوب ، ﴿ وويل للمشركين ﴾ أي دمار لهم وهلاك عليهم ﴿ الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ المراد هنا بالزكاة،الزكاة التي هي طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك . وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام ، وتكون سبباً لزيادته وبركته ، وتوفيقاً لاستعماله في الطاعات وهكذا فهي تشمل الطهارتين طهارة النفس من الشرك وطهارة المال من حق المستحقين منه . ثم قال جل جلاله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ أي غير منقطع فهو أجر متصل لا ينقطع أبداً كقوله تعالى : ﴿ ماكثين فيها أبداً ﴾ وذلك من فضل الله ومنّه وكرمه .



﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ۞ (١٠) ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۞ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ (١٢) ﴾

هذا انكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره وهو الخالق لكل شيء ، القاهر لكل شيء ، المقتدر على كل شيء فقال : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ﴾ أي نظراء وأمثالاً تعبدونها معه ﴿ ذلك رب العالمين ﴾ أي الخالق لكل شيء وهنا تفصيل لقوله تعالى : ﴿ خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴾ [١] ففصل ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء فذكر أنه خلق الأرض أولاً . كما قال تعالى : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ﴾ الآية فأما قوله تعالى : ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ، ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ ففي هذه الآية أن الدحو أي دحو الأرض كان بعد خلق السموات واما خلق الأرض فقبلها بالنص وبهذا أجاب ابن عباس رضي الله عنهما فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية في صحيحه ــ نقتطف منه ما يختص بالموضوع ... (وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ، ثم دحى الأرض ، ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى ، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام ، وما بينهما في يومين آخرين فذلك

(١) جاءت في أربعة مواضع في القرآن وذلك كما يلي : في الأعراف الآية /٥٤/ ، ويونس /٣/ وهود /٧/ والحديد /٤/ .

قوله تعالى: ﴿ دحاها ﴾ وقوله تعالى: ﴿ خلق الأرض في يومين ﴾ أي خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام وخلق السموات في يومين ... (وقوله تعالى: ﴿ خلق الأرض في يومين ﴾ يعني يوم الأحد ويوم الإثنين ﴿ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها ﴾ أي جعلها مباركة، قابلة الخير، والبذر والغراس وقدر فيها أقواتها وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس، يعني يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع اليومين السابقين أربعة [1] ولهذا قال: ﴿ في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه. وقوله تعالى: ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ أي جعل في كل أرضٍ ما لا يصلح في غيرها. وقوله تعالى: ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً ﴾ أي استجيبا لأمري طائعتين أو مكرهتين ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ أي بل نستجيب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ أي في يومين آخرين بعد خلق الأرض في يومين. ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ أي ما تحتاج اليه من مخلوقات كالملائكة وغيرهم من لا يعلمهم إلا هو سبحانه ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ﴿ وحفظاً ﴾ أي حرساً من الشياطين أن تستمع من الملأ الأعلى ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أي عزّ كل شيء فغلبه وقهره. والعليم بحركات مخلوقاته وسكناتهم جميعاً. سبحانه وتعالى وتبارك وله الحمد دائماً.

---

(١) قلت: على فرض ثبوت تعيين أسماء الأيام التي خلق الله فيها الأرض والسماء – مع أنني أرجح العكس – فان قول المفسر الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى (ان خلق الأرض كان في يومين يعني الأحد والأثنين، و «جعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها» أي جعلها مباركة قابلة الخير وقدر فيها أقواتها وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس يعني يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع اليومين السابقين أربعة) فيلزم من قوله هذا أن الدحو كان بعد خلق الأرض وقبل خلق السماء لأن الأرض في يومي الأحد والأثنين وتعيين الأرزاق والزرع الذي يستلزم الماء والرعي في يومي الثلاثاء والأربعاء. بينما يقول الله تعالى ... أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها» فثبت بهذه الآية أن الله تعالى أخرج من الأرض ماءها ومرعاها وأرزاقها بعد خلق السماء فعلى أساس ترتيب أسماء الأيام الذي ذكره ابن كثير رحمه الله يلزم ان يكون خلق السماء يوم الثلاثا والأربعا أي بعد خلق الأرض الذي كان في يومي الأحد والأثنين لا يوم الخميس والجمعة، وان يكون دحو الأرض واخراج مائها ومرعاها يوم الخميس والجمعة لا يوم الثلاثا والأربعا لأن الله أخبرنا: « والأرض بعد ذلك دحاها » أي بعد خلق السماء. لا شك ان التمسك بأسماء الأيام هو الذي أحدث هذه البلبلة والتناقض. مع أن ذكر الأسماء يظهر انه من اخبار بني اسرائيل ولم تثبت به الأحاديث عن المعصوم صلى الله عليه وسلم بل هي نقل عن كعب الأحبار. والله الموفق.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ
وَثَمُودَ ۞(١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا
تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ ۞ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا
مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ
قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۞ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا
فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ۞(١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا
الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ۞(١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞(١٨)﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق، إن أعرضتم عما جئتكم به من عنده تعالى فإني انذركم حلول نقمة الله بكم كما حلت بالأمم الماضين المكذبين بالمرسلين. ﴿صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ أي ومن كان على ما هم عليه من التكذيب ﴿إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ أي في القرى المجاورة لهم بعث الله إليهم الرسل يأمرون بعباده الله وحده لا شريك له مبشرين ومنذرين، ومع هذا لم يؤمنوا بل كذبوا وجحدوا وقالوا: ﴿لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ أي لكانوا رسلاً من الملائكة ﴿فإنا بما ارسلتم به﴾ يا أيها البشر ﴿كافرون﴾ أي لا نتبعكم وانتم بشر مثلنا. قال الله تعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض﴾ أي بغوا وعتوا وعصوا ﴿وقالوا من أشد منّا قوّة﴾ أي منّوا بشدة تركيبهم وقواهم، وأنهم يمتنعون بها من بأس الله ﴿أولم يروْا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوّة﴾ أي أن الذي خلق قوتهم لهم وخلق كلّ شيء أليس هو أقوى منهم؟ ومن البدهي أن يكون الذي خلق أقوى من

المخلوق فبارزوا الجبار، وجحدوا آياته، وعصوا رسله. فلهذا قال: ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ وهي شديدة الهبوب باردة لها صوت مزعج لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم. وقوله تعالى: ﴿ في أيام نحسات ﴾ أي متتابعات ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾ حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الحياة الدنيا بعذاب الآخرة. ولهذا قال تعالى: ﴿ لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ أشدّ خزياً لهم ﴿ وهم لا ينصرون ﴾ أي في الأُخرى كما لم ينصروا في الدنيا وما كان لهم من الله من يقيهم العذاب والنكال. وقوله تعالى: ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره بيّنا لهم. وقال الثوري دعوناهم ﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ أي وضّحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه السلام فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيّهم ﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ﴾ أي بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذابا ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ أي من التكذيب والجحود ﴿ ونجينا الذين آمنوا ﴾ أي من بين أظهرهم لم يمسّهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر بل نجّاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم وتقواهم لله عزّ وجلّ.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۞ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَاسِرِينَ ۞ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ۞ (٢٤) ﴾

يقول تعالى: ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴾ أي أذكر لهؤلاء المشركين يوم يُحشرون إلى النار يوزعون أي تجمع الزبانيةُ أولهم على آخرهم كما

قال تبارك وتعالى : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾ أي عطاشاً وقوله عز وجلّ ﴿ حتى إذا ما جاؤوها ﴾ أي وقفوا عليها ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ أي مما قدموه وأخروه لا يكتم منه حرف ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾ أي لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم فأجابتهم الأعضاء : ﴿ قالوا أنطقنا الله الذي انطق كلّ شيء وهو خلقكم أول مرة ﴾ أي فهو لا يخالف ولا يمانع وإليه ترجعون .

روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ٧١ [ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم فقال ﷺ « ألا تسألوني عن أي شيءٍ ضحكت » قالوا : يا رسول الله من أي شيء ضحكت ؟ قال ﷺ « عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة يقول أي ربّي أليس وعدتني أنْ لا تظلمني ، قال بلى فيقول فإني لا أقبل علي شاهداً إلاّ من نفسي ، فيقول تبارك وتعالى أوليس كفى بي شهيداً وبالملائكة الكرام الكاتبين - قال - فيردّد هذا الكلام مراراً - قال - فيختم على فيه وتتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول : بعداً لكن وسحقاً ، عنكنّ كنت أجادل] وقد أخرجه مسلم والنسائي جميعاً عن أبي بكر بن أبي النضر وقوله تعالى : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم ما كنتم تكتمون منّا الذي كنتم تفعلونه بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي ولا تبالون منه في زعمكم لأنكم كنتم لا تعتقدون انه يعلم جميع أفعالكم ولهذا قال تعالى : ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون . وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾ أي هذا الظن الفاسد، وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً ممّا تعملون، هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربّكم. ﴿ فأصبحتم من الخاسرين ﴾ أي في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم. روى الإمام أحمد عن عبدالله قال : ٧٢ [كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر ، قرشي وختناه ثقفيان - أو ثقفي وختناه قرشيان - كثيرٌ شحم بطونهم قليلٌ فقه قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهم : أترون الله يسمع كلامنا هذا ، فقال الآخر ، إنّا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر إن سمع منه شيئاً سمعه كله. قال فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم - إلى قوله - من الخاسرين ﴾] وهكذا رواه الترمذي وأخرجه البخاري ومسلم عن ابن مسعود به . وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ٧٣ [لا يموتنّ أحد منكم إلاّ وهو يحسن بالله

الظن، فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم بالله. فقال الله تعالى : ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فاصبحتم من الخاسرين ﴾ .]

وقوله تعالى : ﴿ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ أي سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا هم في النار لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها ، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذاراً فما لهم أعذار ولا تقال لهم عثرات .

قال ابن جرير : ومعنى قوله تعالى : ﴿ وإن يستعتبوا ﴾ أي يسألوا الرجعة إلى الدنيا فلا جواب لهم قال وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم : ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون . قال اخسأوا فيها ولا تكلمون ﴾



﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ۞ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۞ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۞ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ۞ (٢٩) ﴾

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته وهو الحكيم في أفعاله بما قيض لهم من القرناء من شياطين الأنس والجن [1] ﴿ فزيّنوا لهم ما بين أيديهم

---

(١) قلت : إن قول المفسر الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى ، (أن الله تعالى هو الذي أضل المشركين وان ذلك بمشيئته وكونه وقدرته) ليس معنى ذلك أنهم أي المشركون استجابوا لداعي الحق ولكن الله شاء لهم الضلال ... لا ... فان الله سبحانه وتعالى منزه عن أن يفعل ذلك كقوله تعالى « وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » يعني من أراد العسرى واختارها واستغنى عن الحق وكذب به فجزاء ذلك أن ييسره الله للعسرى حتى يكون الجزاء من نوع العمل وإن المشركين ما أضلهم الله إلا جزاء بما أعرضوا =

وما خلفهم ﴾ أي حسنوا لهم أعمالهم فلم يروا أنفسهم إلاّ محسنين.كما قال تعالى : ﴿ ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وحق عليهم القول ﴾ أي كلمة العذاب كما حقّ على أمم قدخلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين أي استووا وإياهم في الخسار والدمار . وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ أي تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا القرآن ولا ينقادوا لأوامره ﴿والغوا فيه﴾ أي إذا تلي لا تسمعوا له والغوا فيه يعني بالمكاء والتصدية أي الصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ ﴿ لعلكم تغلبون ﴾ هذا حال هؤلاء الجهلة والكفرة عند سماع القرآن، أمّا المؤمنون فهم يمتثلون أمرَ الله وقوله تعالى : ﴿ إذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ ثم قال عز وجل منتصرًا لكتابه ومنتقماً من أعدائه الكفرة : ﴿ فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ﴾ أي في مقابلة ما فعلوه عند سماعهم القرآن ﴿ ولنجزينّهم أسوأ الذي كانوا يعملون ﴾ أي بشرّ أعمالهم ﴿ ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاءً بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ ﴿ وقالالذين كفروا ربنا أرنا اللذَيْن أضلاّنا من الجن والإنس نجعلهما تحتأقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ قال هما إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه — روي ذلك عن علي رضي الله عنه وروى السدي عن علي رضي الله عنه فابليس يدعو به كل صاحب شرك وابنآدم يدعو به كل صاحب قتل كما ثبت في الحديث : ٧٤ [ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل] . وقولهم : ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ أي أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذاباً منا ولهذا قالوا : ﴿ ليكونا من الأسفلين ﴾ أي في الدرك الأسفل من النار كما تقدم في الأعراف — / ٣٨ / في سؤال الأتباع من الله تعالى أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ أي أنه تعالى قد أعطى كلاً منهم ما يستحقه من العذاب بحسب

= وقالوا : « ... قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون» وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغاً لهم عن رب العالمين : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين » وقوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فلما ظلّوا بعد كل هذا التهديد،والدعوة إلى الله تعالى ، على ما هم عليه من الشرك والعناد والكفر،واختيار هذه الصفات الخبيثة بعد الإنذار والبلاغ وصمموا على الكفر رغم ما تقدم من البيان والإنذار،فإن الله تعالى أضلّهم وأركسهم جزاء ما اختاروا لأنفسهم من الشرك والكفر والعصيان فكان إضلال الله لهم جزاء وفاقاً وذلك كقوله تعالى : « فلمـّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم » وحاشاه سبحانه من أن يضلهم بعد إذ هداهم فيما إذا سلكوا الصراط المستقيم ، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً . ولا شك أن مراد المفسر رحمه الله هو هذا الذي قلناه ولا ريب ، والحمد لله رب العالمين .

عمله كما قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝ (٣٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ اي أخلصوا العقيدة والعمل لوجه الله تعالى على ما شرع سبحانه وتعالى لهم وبقوا على ذلك حتى لقوا الله . كما روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ٧٥ [قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ إن الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا ﴾ قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها .] وكذا رواه النسائي في تفسيره والبزار وابن جرير عن عمرو بن علي الفلاّس عن مسلم بن قتيبة به ، كذا رواه ابن أبي حاتم عن الفلاس به . ثم قال ابن جرير عن سعيد بن عمران قال : قرأت عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه هذه الآية ... قال (هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً) وعن ابن ابي حاتم بسنده عن عكرمه قال سئل ابن عباس رضي الله عنهما : أي آية في كتاب الله تبارك وتعالى أرخص ؟ قال قوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ على شهادة ان لا اله إلا الله) وعن ابن عباس رضي الله عنهما : (﴿ قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ على أداء فرائضه .)

وروى مسلم في صحيحه والنسائي عن سفيان بن عبدالله الثقفي قال ٧٦ [قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال ﷺ : « قل آمنت بالله ثم استقم » قلت يا رسول الله : ما أكثر ما تخاف عليّ ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه ثم قال : « هذا »] .

وقوله تعالى : ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ قال مجاهد وغيره : يعني عند الموت قائلين : ﴿ أن لا تخافوا ﴾ قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا ﴿ وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشرّ وحصول الخير ، وهذا كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه

قال ٧٧ [إن الملائكة تقول لروح المؤمن أخرجي أيتها الروح الطيبة، في الجسد الطيّب، كنت تعمرينه أخرجي إلى روح وريحان وربٍّ غير غضبان] وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث، رواه ابن أبي حاتم، وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً وهو الواقع.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار نحن كنّا أولياءكم أي قرناءكم في الحياة الدنيا نسدّدكم ونوفّقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور ونؤمّنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم. ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ أي في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس وتقرّبه العيون ﴿ ولكم فيها ما تدّعون ﴾ أي مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم كما اخترتم ﴿ نزلاً من غفور رحيم ﴾ أي ضيافةً وعطاءً، وإنعاماً من غفور لذنوبكم رحيم رؤوف حيث غفر وستر ورحم ولطف. وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ٧٨ [من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه قلنا يا رسول الله: كلنا نكره الموت قال ﷺ ليس ذلك كراهية الموت ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر اليه فليس شيء أحب اليه من أن يكون قد لقي الله تعالى فأحب الله لقاءه. قال وإن الفاجرَ ــ أو الكافرَ ــ إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقى من الشر فكره لقاء الله فكرهَ الله لقاءه] وهذا حديث صحيح، وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۞ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٣٦) ﴾

يقول عز وجل: ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ أي دعا عباد الله إليه

﴿ وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ أي هو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ، ولا يأتونه ، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير، ويترك الشر ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى . وهذه عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك وقيل أن هذه الآية نزلت في المؤذنين الصلحاء. والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم . فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان بالكلية لأنها مكية والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة حين أُرِيَهُ عبدالله بن عبد ربه الأنصاري رضي الله عنه في منامه فقصَّه على رسول الله ﷺ ، فأمره أن يلقيه على بلال رضي الله عنه فإنه أندى صوتاً كما هو مقرر في موضعه ، فالصحيح إذاً ان هذه الآية الكريمة عامة .

على أن للمؤذنين لفضلاً وأجراً عظيمين كبيرين كما ثبت في صحيح مسلم ٧٩ [المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة] وفي السنن مرفوعاً ٨٠ [الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن فأرشد الله الأئمة وغفر للمؤذنين] روى ابن أبي حاتم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال [سهام المؤذنين عند الله تعالى يوم القيامة كسهام المجاهدين وهو بين الأذان والإقامة كالمتشحط في سبيل الله تعالى في دمه][1] وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٨١ [لو كنت مؤذناً لكمل أمري ، وما باليت أن لا انتصب لقيام الليل ولا لصيام النهار سمعت رسول الله ﷺ « اللهم أغفر للمؤذنين » ثلاثا ، قال فقلتُ : يا رسول الله تركتنا ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف قال ﷺ كلاّ يا عمر إنّه سيأتي على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم وتلك لحوم حرمها الله عز وجل على النار لحوم المؤذنين] وقوله تعالى : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ أيْ فرق عظيم بين هذه وهذه ﴿إدفع بالتي هي أحسن﴾ أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه . وقوله عز وجل : ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليّ حميم ﴾ وهو الصديق إذا أحسنت إلىٰ من أساء اليك قادته تلك الحسنة إلى مصافاتك حتى يصير كأنه وليّ لك حميم أي قريب إليك . ثم قال عزّ وجل: ﴿ وما يلقّاها إلاّ الذين صبروا وما يلقّاها إلاّ ذو حظ عظيم ﴾ أي ذو نصيب وافر من السعادة، لأنه صبر على الأذى في سبيل الله، فهو سعيد في الدنيا والآخرة . قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ،والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه وليّ حميم .

وقوله تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله ﴾ إن شيطان الجن لا حيلة

(١) ان هذا الحديث في حكم المرفوع لأن مثل هذا التقرير لا يمكن ان يقوله الصحابي برأيه والله أعلم .

فيه إذا وسوس إلاّ الإستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك فإذا استعذت بالله منه كفه عنك بعكس شيطان الإنس فقد تخدعه بالإحسان إليه وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول : ٨٢ [أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ❁ (٣٧) فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا فَٱلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ❁ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَاءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ❁ (٣٩) ﴾

سجدة

ينبّه تعالى خلقه على قدرته العظيمة فلا نظير له ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ أي خلق الليل والنهار متعاقبَين لا يفتران والشمس والقمر ليعرف باختلاف سيرهما مقادير الليل والنهار والجُمَع والشهور والأعوام ويتبين أوقات حلول الحقوق والعبادات والمعاملات ، ثم لمّا كانا أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي نبه سبحانه أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره. فقال : ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ أي ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادة غيره فإنه لا يغفر أن يشرك به. ولهذا قال تعالى: ﴿فإن استكبروا﴾ عن إفراده تعالى بالعبادة ﴿ فالذين عند ربك ﴾ يعني الملائكة ﴿ يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ فإنْ يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ وروى الحافظ أبو يعلى عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ ٨٣ [لا تسبوا الليل ولا النهار ولا الشمس ولا القمر ولا الرياح فانها ترسل رحمة لقوم وعذاباً لقوم] وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته ﴾ أي على قدرته على إعادة الموتى ﴿ انك ترى الأرض خاشعة ﴾ أي هامدةً لا نبات فيها بل هي ميتة ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ أي أخرجت من جميع الألوان من الزروع والثمار ﴿ إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيءٍ قدير ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّه بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * (٤٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * (٤١) لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ * (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ * (٤٣) ﴾

قوله تبارك وتعالى : ﴿ ان الذين يلحدون في آياتنا ﴾ قال ابن عباس : الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه . وقال قتادة هو الكفر والعناد . وقوله عز وجل : ﴿ لا يخفون علينا ﴾ فيه تهديد شديد ووعيد أكيد أي انه تعالى عالم بمن يلحد في آياته واسمائه وصفاته وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال. ولهذا قال تعالى ﴿ أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ ؟ أي أيستوي هذا وهذا ؟ لا يستويان . ثم قال عز وجل تهديداً للكفرة : ﴿ إعملوا ما شئتم ﴾ أي من خيرٍ أو شر إنه عالم بكم ، بصيرٌ بأعمالكم.ولهذا قال تعالى : ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ ثم قال جل جلاله : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ أي القرآن ﴿ وإنه لكتابٌ عزيز ﴾ أي منيع الجانب لا يرام أن يأتي أحد بمثله ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ أي ليس للبطلان إليه سبيل لأنه : ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله حميد أي محمود في جميع ما يأمر به وينهى عنه ، الجميع محمودة عواقبه وغاياته . ثم قال عز وجل : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ أي ما يقال لك من التكذيب إلاّ كما قيل للرسل من قبلك فكما كُذِّبتَ كُذّبوا وكما صبروا على الأذى فاصبرْ أنتَ كذلك على أذى قومك لك. وقوله تعالى: ﴿ إن ربك لذو مغفرة ﴾ أي لمن تاب إليه ﴿ وذو عقاب أليم ﴾ أي لمن استمر على كفره وطغيانه ومخالفته .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي

اذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَـٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ❁(٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ❁ (٤٥)

لما ذكر الله تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وأحكامه في ألفاظه ومعانيه ومع هذا لم يؤمن به المشركون ، نبّه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت كما قال عز وجلّ : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾ وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنّت والعناد : ﴿ لولا فصلت آياته أأعجمي وعربيّ ﴾ أي لقالوا هلاّ أنزل مفصلاً بلغة العرب ، ولأنكروا ذلك فقالوا أعجمي وعربي أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه ؟ هكذا روي هذا المعْنَى عن ابن عباس وغيره . ثم قال عز وجل : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ أي قل يا محمد هـــذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والرّيب [1] ﴿ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ﴾ أي لا يفهمون ما فيه ﴿ وهو عليهم عمى ﴾ أي لا يهتدون إلى ما فيه من البيان ﴿ أولئك ينادَوْن من مكان بعيد ﴾ قال ابن جرير : معناه كأنّ من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلِف فيه ﴾ أي كُذِّب وأوذي ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم مـــن

(١) إلاّ ما ورد فيه النص ، كالفاتحة للدّيغ والمعوّذتين للمسحور والمعيون ...
وهذا ردّ على من يعتقد انه شفاء للأمراض الجسدية فيتخذون من آياته تمائم وحجباً،يزعمون أنها تشفي أمراضهم. ولا يتخذون الوسائل التي أمر الله بأخذها كالادوية والعقاقير فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ٥٤٦«(ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء) ويروى عنه صلى الله عليه وسلم ٥٤٧(تداووا عباد الله فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء) ولا شك أن الدعاء جيد ومطلوب،والتوسل بكلام الله تعالى رجاء الشفاء مع الأخذ بالأسباب كالدواء جيد والله سبحانه يأذن بالشفاء إن شاء وقدر . أما أن نجعل القرآن تمائمَ وعزائمَ فالله سبحانه ما أنزله إلا ليكون دستوراً ينشىء دولة إسلامية عظمى، تقر حكم الله على الأرض، كما يحب ويرضى . ولو كان القرآن وآياته شفاءً للأجساد دون الأرواح ،لكان يشفي صدور وأجساد غير المؤمنين لأن الأجساد إن كان أصحابها مؤمنين أو غير مؤمنين هي هي وتركيبها واحد لا يتبدل ولا ولا يتغيّر فالشيء الذي يكون سبباً لشفاء جسد المؤمن يكون في الوقت نفسه سبباً لشفاء جسد غير المؤمن ولكن الله تعالى قال: «قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء» وقال أيضاً سبحانه « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خساراً » فعلم ان الشفاء معنوي أي من الشرك والشك والكفر، بما فيه من الحجج الدامغة والأدلة الواضحة على وجود الله تعالى وإرسال رسله وأنبيائه بالشرع القويم والصراط المستقيم وإنه هو الدواء الناجح لإنقاذ القلوب والنفوس من الضلال إلى الهدى وإنقاذ الأمم من الذل إلى العز الدائم في ظلال أحكامه التي لا يأتيها الباطل . ولو أن الأمة الاسلامية ظلت متمسكة بالقرآن وآياته لظلت خيرَ أمةٍ أخرجت للناس، ولما ضاعت أندلس الأمس.. مثلما ضاعت أندلس اليوم فلسطين. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

الرسل ﴾ ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربّك ﴾ إلى أجل مسمّى بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿ لقضيَ بينهم ﴾ أي لعجّل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴿ وإنهم لفي شكٍّ منه مريب ﴾ أي وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لمّا قالوا: بل كانوا شاكين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه، والله أعلم .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۞ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ۞ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ۞ (٤٨) ﴾ الجزء ٢٥

يقول تعالى : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك على نفسه ﴿ ومن أساءَ فعليها ﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿ وما ربك بظلّامٍ للعبيد ﴾ أي لا يعاقب أحداً إلاّ بذنبه ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجّة عليه وإرسال الرسول إليه. ثم قال جل وعلا : ﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ أي لا يعلم ذلك أحد سواه. كما قال جل جلاله : ﴿ لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلاّ بعلمه ﴾ أي الجميع بعلمه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم أين شركائي ﴾ ؟ أي يوم القيامة ينادي الله المشركين أين شركائي الذين عبدتموهم معي ﴿ قالوا آذنّاك ﴾ أي أعلمناك ﴿ ما منا من شهيد ﴾ أي ليس أحد منّا يشهد اليومَ أن معك شريكاً ﴿ وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم ﴿ وظنوا ما لهم من محيص ﴾ الظن هنا بمعنى اليقين، أي لا محيدَ لهم من عذاب الله. كقوله تعالى: ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ .

﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ۞ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ

لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

يقول تعالى لا يملُّ الإنسان من دعاء ربه بالخير وهو المال والصحة ، وغير ذلك وإن مسه الشر وهو البلاء أو الفقر ﴿ فيؤوس قنوط ﴾ أي يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير ﴿ ولئن أذقناه رحمةً منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي ﴾ أي إذا أصابه رزق بعد ما كان في شدة ليقولن هذا لي إني كنت استحقه عند ربي ﴿ وما أظن الساعة قائمةً ﴾ أي يكفر بقيام الساعة أي لأجل أنه خول نعمةً يبطر ويفخر ويكفر. كما قال تعالى : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى ﴾ ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ أي ولئن كان ثم معاد فليحسننَّ إليَّ ربي كما أحسن إلي في هذه الدار. يتمنى على الله عز وجل، مع إساءته العمل وعدم اليقين. قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فلننبئنَّ الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنَّهم من عذاب غليظ ﴾ يتهدَّد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده ، بالعقاب والنكال.

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأىٰ بجانبه ﴾ أي أعرض عن الطاعة واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عز وجل ﴿ وإذا مسه الشر ﴾ أي الشدة ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ أي يطيل المسألة في الشيء الواحد ، فالكلام العريض : ما طال لفظه وقلَّ معناه . والوجيز عكسه ، وهو ما قل ودل. وقد قال تعالى: ﴿ وإذا مس الإنسان الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلمّا كشفنا عنه ضرَّه مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضرٍ مسّه ﴾ الآية .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى: ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن ﴿ أرأيتم إن كان ﴾ القرآن ﴿ من عند الله ثم كفرتم به ﴾ أي كيف حالكم عند الذي أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال عزّ وجلّ ﴿ من أضلّ ممن هو في شقاق بعيد ﴾ ؟ أي في كفر وعناد ومشاقّة للحق، ومسلك بعيد من الهدى . ثم قال عز وجلّ: ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله ، على رسوله ﷺ بدلائل خارجية : ﴿ في الآفاق ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، ودلائل في أنفسهم مثل وقعة بدر وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم، نصر اللهُ فيها محمّداً ﷺ وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه . ويحتمل أن يكون المراد من قوله تعالى : ﴿ وفي أنفسهم ﴾ ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والاختلاط والهيئات العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى ، وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة من حسن وقبح وغير ذلك وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحذره أن يجوزها ولا يتعداها . وقوله تبارك وتعالى :

﴿ حتى يتبين لهم انه الحق أولم يكفِ بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ أي كفى بالله تعالى شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم وهو يشهد أن محمداً ﷺ صادق فيما أخبر به عنه. كما قال تعالى : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ ألا إنهم في مرية من لقاء ربّهم ﴾ أي في شكٍ من قيام الساعة والحساب. ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون له ولا يحذَرون منه، مع أنه كائن لا محالة. ﴿ ألا إنه بكل شيء محيط ﴾ أي بالمخلوقات كلها. وهي تحت قهره وفي قبضته، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، وحده لا شريك له ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا إله إلاّ هو وحده لا شريك له ولا ند ولا مثيل له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . .

آخر اختصار تفسير سورة فصلت ولله الحمد والمنة .

(٤٢) سورة الشورى مكية وآياتها ثلاث وخمسون

إلاّ الآيات ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٧ فمدنيّة نزلت بعد سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَلَا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

روى مالك رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها قالت : ٨٤ [إن الحارث بنَ هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ، فيُفصَم عني وقد وعَيْتُ ما قال . وأحياناً يأتيني الملكُ رجلاً ، فيكلمني فأعي ما يقول. » قالت عائشة رضي الله عنها فلقد رأيته ينزل عليه الوحيُ في اليوم الشديدِ البردِ، فيُفصَمُ عنه وإن جبينَه ﷺ ليتفصّد عرَقاً] ﴿ **كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلكَ الله العزيز الحكيم** ﴾ أي كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب **والصحف على الانبيــاء قبلك**

وقوله ﴿ له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم ﴾(١) كقوله تعالى: ﴿ وهو العلي الكبير ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ﴾ أي فرقاً من العظمة ﴿ والملائكة يسبّحون بحمد ربّهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ كقوله جل وعلا : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ وقوله ﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ إعلام بذلك وتنويه به . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ يعني المشركين ﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ أي شهيد عليهم ، وعلى أعمالهم يحصيها ويعدها عدّاً ، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي إنما أنت نذير ، والله على كلّ شيء وكيل .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝ (٧) وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ (٨) ﴾

يقول تعالى وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾ أي واضحاً جليّاً بيناً ﴿ لتنذرَ أم القرى ﴾ وهي مكة ﴿ ومن حوْلها ﴾ أي من سائر البلاد شرقاً وغرباً وسميت مكةُ أمّ القرى لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة.وأوجزها ، وأدلها ما روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عدي بن الحمراء الزهري أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة في سوق مكة : ٨٥ [والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجتُ منك ما خرجتُ] هكذا رواية الترمذي وقال حسن صحيح وكذا رواه النسائي وابن ماجة ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ وهو يوم القيامة. وقوله تعالى : ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لا شك في وقوعه وقوله جل وعلا : ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾ أي يغبن أهلُ الجنةِ أهلَ النار(٢) ، روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال : ٨٦ [خرج علينا رسول الله ﷺ ، وفي يده كتابان فقال : « أتدرون ما هذان الكتابان »

(١) قلت : اي علي على خلقه بائن عنهم. وإنه عظيم لا يجاريه في علوه وعظمته أحد، ليس كمثله شي وهو السميع البصير .
(٢) قلت : أي يغبن المؤمنون الكافرين بأخذ منازلهم في الجنة لو آمنوا .

قلنا لا إلاّ ان تخبرنا يا رسول الله . قال رسول الله ﷺ للذي في يمينه « هذا كتاب من ربّ العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم » ثم أجمل على آخرهم — « لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً » — ثم قال للذي في يساره « هذا كتاب أهل النار بأسمائهم ، وأسماء آبائهم وقبائلهم « ثم أجمل على آخرهم لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً » فقال أصحابُ رسول الله ﷺ فلأيّ شيء نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه قال رسول الله ﷺ « سدّدوا وقاربوا فان صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وان صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإنّ عمل أيَّ عمل » ثم قال ﷺ بيده فقبضها ثم قال : « فرغ ربكم عز وجل من العباد » ثم قال باليمني فنبذ بها فقال فريق في الجنة » ونبذ باليسرى وقال « فريق في السعير »] وهكذا رواه الترمذي والنسائي .

* * *

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمةً واحدة ﴾ أي إما على الهداية أو على الضلالة ولكنه تعالى فاوت بينهم فهدى من يشاء إلى الحق وأضل من يشاء عنه وله الحكمة والحجّةُ البالغة. ولهذا قال عزّ وجلّ : ﴿ ولكن يُدخِل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من وليّ ولا نصير ﴾ أي يدخل خلقهَ كلهم الجنة إلاّ ما لا خير فيهم .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ (٩) وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۞ (١٠) فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ ٱلْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۞ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ (١٢) ﴾

ينكر تعالى على المشركين ، اتخاذهم آلهة من دون الله ، ويخبر انه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلاّ له وحده فإنه هو القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير. ثم قال عزّ وجلّ ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله ﴾ اي في كل ما اختلفتم فيه من الامور

وهذا عام في الأشياء كلها ﴿ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب﴾ أي أرجع إليه، في جميع الأمور. وقوله جل جلاله: ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي خالقهما وما بينهما ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي وخلق لكم من جنسكم وشكلكم منةً عليكم وتفضلاً جعل من جنسكم ذكراً وأنثى ﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يذرؤكم فيه﴾ أي يخلقكم فيه أي في الرحم جيلاً بعد جيل، ونسلاً بعد نسل من الناس والأنعام ﴿ليس كمثله شيء﴾ في الخلق وفي سائر صفاته العُلى لأنه لا نِدّ لَهُ ولا نظيرُ له. ﴿وهو السميع البصير﴾ وقوله تعالى: ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ أي أنه المتصرف فيهما وتقدم تفصيل ذلك في سورة الزُّمَر ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسع ويضيق له الحكمة والعدل التام ﴿إنه بكل شيء عليم﴾.



﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَآءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ۞ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۞ (١٤)﴾

يقول تعالى لهذه الأمة ﴿شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم عليه السلام وهو نوح عليه السلام وآخرهم محمد ﷺ ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهم إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ أخذنا من النبيّينَ ...﴾ والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له. كما قال عز وجل: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون.﴾ وقوله تعالى: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ أي وصَّى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة ونهاهم عن الافتراق والاختلاف. وقوله تعالى: ﴿كبر

على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ أي شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد. ثم قال تعالى : ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ أي هو الذي يقدّر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشاد ولهذا قال تعالى: ﴿ وماتفرقوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي خالفوا الحق بعد قيام الحجة عليهم بدافع البغي والمشاقّة. ثم قال عز وجل ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمّى ﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بتأجيل العباد لإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجّل عليهم العقوبة في الدنيا سريعاً . وقوله جلت عظمته ﴿ وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ﴾ يعني الجيل المتأخر المكذب بالحق ﴿ لفي شكٍ منه مريب ﴾ اي ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم وإنّما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان ، وهم في حيرةٍ من أمرهم وشكٍ مريب وشقاق بعيد .

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (١٥)

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات ، كلٌ منها منفصلة عن التي قبلها حكم برأسها قالوا : لا نظير لها إلاّ آية الكرسي ، فانها عشرة فصول كهذه . وقوله تعالى : ﴿ فلذلك فادعُ ﴾ أي فللذي أوحينا إليك ممّا وصيّنا به قبلك من المرسلين فادعُ الناسَ إليه ، وقوله تعالى : ﴿واستقم كما أمرت ﴾ اي واستقم أنت ومن اتبعك في حدود أوامر الله تعالى بلا زيادة أو نقص ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ يعني المشركين فيما كذّبوه وافتروه من عبادة الأوثان . وقوله عز وجل : ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ أي جميع الكتب المنزلة . وقوله تعالى : ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ أي في الحكم كما أمرني الله ، وقوله جلت عظمته : ﴿ الله ربّنا وربكم ﴾ أي هو خالقنا وخالقكم ولذلك فهو وحده يستحق العبادة لا معبود إلا هو . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أي كما قال تعالى : ﴿ وإنْ كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ أي لا

خصومة وذلك قبل نزول آية السيف لأن هذه الآية مكية ، وآية السيف بعد الهجرة . وقوله عزّ وجل ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ أي يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ وإليه المصير ﴾ أي المرجع يوم الحساب .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ❁ (١٦) ٱللَّهُ ٱلَّذِي أَنْزَلَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَا إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ❁ (١٨) ﴾

يتوعد الله الذين يصدّون المؤمنين به عما سلكوه من الهدى . هؤلاء ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ أي باطلة ﴿ وعليهم غضب ﴾ منه ﴿ ولهم عذاب شديد ﴾ يوم القيامة قيل هؤلاء هم المشركون وقيل اليهود والنصارى ، وقد ضل الجميع سواء السبيل . ثم قال تعالى : ﴿ الله الذي أُنزل الكتاب بالحقّ ﴾ يعني الكتب المنزلة على أنبيائه ﴿ والميزان ﴾ وهو العدل والإنصاف . أي كقوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقومَ الناس بالقسط ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وما يدريك لعلّ الساعة قريب ﴾ فيه ترغيب فيها وترهيب منها وتزهيد في الدنيا . وقوله عز وجل : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ أي يقولون متى هذا الوعد ، وإنما يقولون ذلك تكذيباً وكفراً ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ أي خائفون من وقوعها ﴿ ويعلمون انها الحق ﴾ أي لا محالة واقعة ومستعدون عاملون من أُجلها . وقد روي حديث متواتر في الصحاح والسنن والمسانيد ؛ وفي بعض الفاظه : ٨٧ [أن رجلا سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري وهو في بعض أسفاره فناداه فقال : يا محمد فقال له رسول الله ﷺ نحواً من صوته « هاؤم » فقال له : متى الساعة ؟ فقال رسول الله ﷺ « ويحك إنها كائنة فما أعددت لها ؟ فقال : حب الله ورسوله فقال ﷺ « أُنت مع من أُحببت »] فقوله ﷺ « المرء مع من أحب » هذا متواتر لا محالة والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة بل أمره بالاستعداد لها .

وقوله تعالى : ﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة ﴾ أي يجادلون في وجودها ويدفعون وقوعها ﴿ لفي ضلال بعيد ﴾ أي في جهل بيّن ، لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى. كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ .

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۞ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ۞ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۞ (٢٢) ﴾

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه أنه لا ينسى أحداً من رزقه ويستوي البُر والفاجر كقوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها ... ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ يرزق من يشاء ﴾ أي يوسع على من يشاء ﴿ وهو القوي العزيز ﴾ أي لا يعجزه شيء . ثم قال عز وجل ﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ أي عمل الآخرة ﴿ نزِدلهُ في حرثه ﴾ أي نقويه ونعينه ونكثّر نماءه ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منهاوما له في الآخرة من نصيب ﴾ أي ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا وليس له إلى الآخرة همٌّ البتة بالكلية ، حرمه الله الآخرة والدنيا ، إن شاء أعطاه منها ، وإن لم يشأ لم يحصل له لا هذه ولا هذه . كما قال تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ .

وروى الثوري عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٨ [بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب] وقوله جل وعلا : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ أي هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس من تحريم الحلال وتحليل الحرام وقد ثبت في الصحيح ان رسول الله ﷺ قال : ٨٩ [رأيت عمرو بنَ لحَي بن قمعة يجر قُصُبهُ في النار] وكان أحدَ ملوك خزاعة وهو الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام لعنه الله وقبحه. ولهذا قال تعالى : ﴿ ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم ﴾ أي لعوجلوا بالعقوبة لولا إنظارهم إلى يوم المعاد . ﴿ وإن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ أي شديد موجع .

ثم قال تعالى : ﴿ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا ﴾ أي في عرصات القيامة ﴿ وهو واقع بهم ﴾ أي الذين يخافونه واقع بهم لا محالة ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ﴾ فأين هذا من هذا ؟ أي أين من هو في الذل والخوف والهوان ممن هو في روضات الجنات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ أي الفوز العظيم والنعمة السابغة الشاملة .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَاطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول تعالى لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات : ﴿ ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي هذه بشارة من الله تعالى حاصلة لهم لا محالة ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه وانما اطلب منكم ان تكفوا شركم

عني وتذروني أبلغ رسالات ربي ، ان لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة . قال البخاري عن طاووس يحدث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ الا المودة في القربى ﴾ فقال سعيد بن جبير قربى آل محمد فقال ابن عباس عجلت ... ان النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلاّ كان له فيهم قرابة فقال الا ان تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة . انفرد به البخاري . ورواه الإمام أحمد وغيره وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة وغيرهم .

وروى البخاري أيضاً عن سعيد بن جبير ما معناه أنه قال معنى ذلك أن تودّوني في قرابتي أي تحسنوا إليهم وتبرّوهم ... والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما كما رواه عنه البخاري ـ آنفاً ـ ولا ننكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم . فإنهم من ذرية طاهرة من اشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً ، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنّة النبويّة الصحيحة ، الواضحة الجلية ، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه وعليّ وأهل ذريته رضي الله عنهم أجمعين وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم٩٠ [إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي وانهما لم يفترقا حتى يردا عليّ الحوض] وروى الإمام أحمد عن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه، قال: ٩١ [قلت يا رسول الله إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشرٍ حسن ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها قال : فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً وقال « والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله »] وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : أُرقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته وفي الصحيح أن الصديق رضي الله عنه قال لعليّ رضي الله عنه قال والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي . وقال عمر بن الخطاب للعباس رضي الله عنهما : والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم لأن اسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب فحال الشيخين رضي الله عنهما هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك ، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين رضي الله عنهما وعن سائر الصحابة أجمعين . ولقد أوردنا أحاديث أخر وخاصة عند قوله تعالى : ﴿ إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً ﴾ الأحزاب / ٣٣ / بما أغنى عن إعادتها ههنا ، ولله الحمد والمنّة .

وقوله عز وجل : ﴿ ومن يقترف حسنة نزدْله فيها حسناً ﴾ أي ومن يعمل حسنة

نزدْله فيها حسناً أي أجراً وثوابا ، كقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ان الله غفور شكور ﴾ أي يغفر الكثير من السيئات ، ويكثّر القليل من الحسنات ، فيستّر ويغفر ويضاعف فيشكر ؛ وقوله جل وعلا : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾ أي لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يختم على قلبك ﴾ أي يطبع على قلبك ويسلبك ما كان آتاك من القرآن . كقوله جل وعلا : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ٭ ثم لقطعنا منه الوتين ٭ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ أي لانتقمنا منه أشد الانتقام . وما قدر أحد من الناس ان يحجزعنه. والشرط لا يقتضي الوقوع

وقوله جلّت عظمته : ﴿ ويمحُ الله الباطل ﴾ ليس معطوفاً على قوله تعالى : ﴿ يختمْ ﴾ فيكون مجزوماً بل هو مرفوع على الإبتداء . كما حذفت من قوله تعالى : ﴿ سندعُ الزبانية ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ ويحقّ الحقّ بكلماته ﴾ معطوف على : ﴿ ويمحُ ﴾ أي يحققه ويثبته ويوضحه بكلماته ، أي بحججه وبراهينه ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما تكنُّه الضمائر وتنطوي عليه السرائر .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ٭ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّنْ فَضْلِهِ وَٱلْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ٭(٢٦) وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ٭ (٢٧) وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ٭ (٢٨) ﴾



يمتن الله على عباده بقبول توبتهم إذا تابوا ورجعوا اليه أن من كرمه وحلمه انه يعفو ويصفح ويستر ويغفر. كقوله تعالى ﴿ ومن يعمل سوءً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ وقد ثبت في صحيح مسلم رحمه الله تعالى عن انس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ٩٢ [لله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى

شجرةً فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطــأ من شدة الفرح] . وقد ثبت في الصحيح من رواية ابن مسعود ذلك .. وقوله ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴾ أي يقبل التوبة في المستقبل ، ويعفو عن السيئات في الماضي ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ أي هو عالم بجميع ما فعلتم وقلتم وهو مع هذا يتوب على من تاب إليه . وقوله تعالى : ﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ يعني يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وهي كقوله عز وجل : ﴿ فاستجاب لهم ربهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك . ولهذا روى ابن أبي حاتم عن عبدالله رضي الله عنه قال : ٩٣ [قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ قال « الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع اليهم معروفاً في الدنيا»] وقوله عز وجل : ﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ موجع مؤلم يوم معادهم وحسابهم . وقوله تعالى : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً . وذكر قتادة حديث : ٩٤ [إنما أخاف عليكم ما يخرج الله تعالى من زهرة الحياة الدنيا] وقال قتادة : كان يقال : خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك .

وقوله عز وجل : ﴿ ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾ ولكن يرزقهم مما يختاره لهم،و مما فيه صلاحهم ، فيغني من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر كما في الحديث المروي : ٩٥ [ان من عبادي من لا يصلحه إلاّ الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينَه وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلاّ الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينَه]

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾ أي من بعد يأس من نزول المطر ،ينزله عليهم في وقت حاجتهم إليه. كقوله عز وجل: ﴿ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ وينشر رحمته ﴾ أي يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية . وقوله تعالى : ﴿ وهو الوليّ الحميد ﴾ أي هو المتصرّف وحده بخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله.

۞ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ۞ (٢٩) وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّنْ

مصيبةٍ فبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

يقول تعالى : ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظمته وقدرته وسلطانه ﴿ خلق السموات والأرض وما بثّ فيهما ﴾ أي ذرأ فيهما ﴿ من دابة ﴾ يشمل كل ذي رُوح على اختلاف أجناسهم وأنواعهم وقد فرّقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض ﴿ وهو ﴾ مع هذا كلّه ﴿ على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ أي قادر على جمع كافة الخلق يوم القيامة في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق .

وقوله عز وجل :﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ أي مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنها هي عن سيئات تقدّمت لكم ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ من السيئات فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة﴾ وفي الحديث الصحيح ٩٦ [والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وَصَب ولا همٍّ ولا حُزن إلا كفّر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يُشاكُها] .

وروى ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه قال ٩٧ [ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله عزّ وجلّ وحدّثنا به رسول الله ﷺ : قال :« وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ، وسأفسّرها لك يا عليّ : ما أصابكم من مرضٍ أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله تعالى أحلم من أن يثنّي عليه العقوبة في الآخرة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه »] .

وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٥﴾

ومن آياته على قدرته وسلطانه تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره وهي الجواري

في البحر كالجبال، ﴿ إن يشأ يسكن الريح ﴾ التي تسير بالسفن في البحر حتى لا تتحرك بل تبقى راكدة واقفة على ظهره : ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار ﴾ أي في الشدائد ﴿ شكور ﴾ في الرخاء وقوله عز وجل ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ أي ولو شاء لأهلك السفن وأغرقها بمن فيها بذنوبهم. ﴿ ويعفُ عن كثير ﴾ أي من ذنوبهم ، ولو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر . ولكن من لطفه تعالى ورحمته أن يرسل الريح بحسب الحاجة كما يرسل المطر بقدر الكفاية . وقوله تعالى : ﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴾ أي لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا فانهم مقهورون بقدرتنا .

﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ۞ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۞ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ۞ (٣٩) ﴾

يحقر الله شأن الحياة وزينتها وما فيها من النعيم الفاني. بقوله تعالى: ﴿ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ﴾ أي مهما حصّلتم وجمعتم فلا تغترّوا به فإنما هو متاع الحياة الدنيا الزائلة ﴿ وما عند الله خير وأبقى ﴾ أي وثواب الله تعالى خير من الدنيا ــ وما فيها ــ فلا تقدّموا الفاني على الباقي. ولهذا قال تعالى : ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي صبروا على ترك ملاذ الدنيا ﴿ وعلى ربّهم يتوكلون ﴾ ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرّمات .

ثم قال تعالى : ﴿ والذين يجتنبون كبائر الأثم والفواحش ﴾ وقد قدّمنا الكلام على الإثم والفواحش في سورة الأعراف (١) ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ أي يعفون ويصفحون بسجيتهم عن الناس وقد ثبت في الصحيح : ٩٨ [أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلاّ أن تنتهك حرماتُ الله] . وقال ابن ابي حاتم عن إبراهيم : كان المؤمنون يكرهون أن يستذلّوا وكانوا إذا قدروا عَفَوْا . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ والذين استجابوا

(١) الآية رقم /٣٣/

لربهم ﴾ أي اتَّبعوا رسلهُ وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ وهي أعظم العبادات لله عزّ وجلّ ﴿ وأمرُهم شورى بينهم ﴾ أي لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ويتساعدوا في كل أمرٍ. كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ الآية ... ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها ليُطيّبَ بذلك قلوبهم وهكذا فقد جعل عمر الأمر بعده شورى ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله تعالى : ﴿ والذين إذ أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ليسوا بالعاجزين ولا الأذلّين. بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم ، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوْا . كعفوه ﷺ عن غورث بن الحارث الذي أراد الفتك به ﷺ وهو نائم . فاستيقظ ﷺ وفي يد غورث السيف مصلتا فانتهره فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف في يده، ولكنه عفا عنه. وكذلك عفا ﷺ عن لبيد ابن الاعصم الذي سحره ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه ، وكذلك عفوه عن اليهودية زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري التي سمتْ الذّراع يومَ خيبر ، ولكن لما مات من السم بشر بن البراء رضي الله عنه قتلها به. وكعفو يوسف عليه السلام عن إخوته وقوله لهم : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ والأمثلة على ذلك كثيرة جداً والله تعالى أعلم .

﴿ وَجَزَاوُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ ۝ (٤٠) وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝ (٤٣) ﴾

قوله تبارك وتعالى : ﴿ وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ الآية ، فشرع العدل وهو القصاص ، وندب إلى الفضل وهو العفو ، ولهذ قال تعالى ها هنا : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ أي لا يضيع ذلك عند الله كما

صح ذلك في الحديث: ٩٩ [وما زاد الله تعالى عبداً بعفوٍ إلاّ عزّاً] ﴿ إنه لا يحب الظالمين﴾ أي المبتدئين بالسيئة . ثم قال جل وعلا ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ أي ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم . وقوله عز وجل : ﴿ إنما السبيل ﴾ أي الحرج والعنت ﴿ على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ﴾ أي يبدأون الناس بالظلم ﴿ أولئك لهم عذاب أليم ﴾ أي شديد موجع . ثم إنّ الله تعالى لما ذمّ الظلم وأهله ، وشرع القصاص ، قال نادباً العفو والصفح. ﴿ ولمن صبر وغفر ﴾ أي صبر على الأذى ، وستر السيئة. ﴿ إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ قال سعيد بن جبير : يعني لمن حق الأمور التي أمر الله تعالى بها ، أي لمن الأمور المشكورة ، والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ١٠٠ [إن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه والنبيّ ﷺ جالس ، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم ، فلما أكثر رد عليه بعض قوله ، فغضب النبي ﷺ وقام ، فلحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال : يا رسول الله انه كان يشتمني وأنت جالس ، فلما رددت عليه بعض قوله ، غضبتَ وقمت قال : « إنه كان معك ملَكٌ يرد عنك، فلما رددتَ عليه بعض قوله حضر الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان – ثم قال – يا أبا بكر : ثلاث كلهن حقّ : ما من عبد ظلم بمظلمةٍ فيغضي عنها لله ، إلا أعزه الله تعالى بها ونصره ، وما فتح رجل باب عطيةٍ يريد بها صلةً إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة ، إلا زادهُ الله عز وجل بها قلةً] وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى ، وهو مناسب للصديق رضي الله عنه .

وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى ٱلظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ❁ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ ٱلْخَاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ❁ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ❁ (٤٦)

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة انه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وانه من يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . ثم أخبر عن الظالمين وهم المشركون بالله : ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أي يوم القيامة تمنّوا الرجعة إلى الدنيا ﴿ يقولون هل إلى مردٍ من سبيل ﴾ كما قال عز وجلّ ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذّب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ ﴿ وتراهم يعرضون عليها ﴾ أي على النار ﴿ خاشعين من الذل ﴾ أي الذي قد اعتّراهم بما اسلفوا من عصيان الله تعالى ﴿ ينظرون من طرف خفي ﴾ أي مسارقةً خوفاً منها والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة ، وما هو أعظم مما في نفوسهم ، أجارنا الله من ذلك ﴿ وقال الذين آمنوا ﴾ أي يقولون يوم القيامة ﴿ إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ أي ذُهِبَ بهم إلى النار خسروا أنفسهم وخسروا أحبابهم وأصحابهم ﴿ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴾ أي دائم سرمديّ أبديّ. وقوله تعالى : ﴿ وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ﴾ أي ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال ، ﴿ ومن يضللِ الله فما له من سبيل ﴾ أي ليس له خلاص .

﴿ ٱسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ۞ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ كَفُورٌ ۞ (٤٨) ﴾

لما ذكر الله تعالى أهوال يوم القيامة ، حذر منه وأمر بالاستعداد له فقال تعالى : ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله ﴾ أي إذا أمر بكن يكون كلمح البصر. وقوله عز وجل ﴿ ما لكم من ملجأ يومئذٍ وما لكم من نكير ﴾ أي ليس لكم ما تتحصنون فيه ولا ما يستركم وتتنكرون فيه فتغيبونَ عن بصره تبارك وتعالى ، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته ، فلا ملجأ منه إلا إليه ﴿ فإن أعرضوا ﴾ يعني المشركين ﴿ فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ أي لست عليهم بمصيطر. كقوله تعالى : ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقال جل وعلا ها هنا ﴿ إنْ عليك إلاّ البلاغ ﴾ أي إنما كلفناك أن تبلّغهم رسالة الله إليهم .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمةً فرح بها ﴾ أي إذا أصابه رخاء ونعمة فرح ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أي تصب الناس نقمة وشدّة ﴿ بما قدمت إيديهم فإنّ الإنسان كفور ﴾ – أي بما أذنبوا يجحدون ما تقدّم من النعم إلاّ من هداهم الله وكانوا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فالمؤمن كما قال ﷺ: ١٠١ [إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن]

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ ٱلذُّكُورَ ۞ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۞ (٥٠) ﴾

يخبر تعالى أنه المتصرّف في السموات والأرض وله المشيئة في خلقه منعاً وعطاءً ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ﴾ أي يرزقه بناتٍ كلوط عليه السلام ﴿ ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ أي البنين فقط كإبراهيم عليه السلام ﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ أي يعطي لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى كمحمّد ﷺ ﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ أي لا يولد له كيحييَ وعيسى عليهما الصلاة والسلام . قاله البغوي ﴿ إنّه عليم قدير ﴾ أي عليم بمن يستحقّ كلّ قسم من هذه الأقسام قدير على تفاوت الناس في ذلك فسبحان العليم القدير .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۞ (٥١) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ أَلَا إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۞ (٥٣) ﴾

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل فتارةً يقذف في روع النبي ﷺ

شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله جل وعلا كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال ١٠٢ [إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب] وقوله تعالى : ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام . وقوله عز وجل: ﴿ أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على نبينا والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ إنه عليٌّ حكيم ﴾ فهو عليّ عليم خبير حكيم . وقوله عز وجل ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ يعني القرآن ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ أي على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿ ولكن جعلناه ﴾ أي القرآن ﴿ نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ الآية ...

وقوله تعالى : ﴿ وإنك ﴾ أي يا محمد ﴿ لتهدي إلى صراطٍ مستقيم ﴾ أي تدل ، ثم فسّره بقوله تعالى : ﴿ صراط الله ﴾ أي شرعه الذي أمرَ به الله ﴿ الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي ربهما ومالكهما والمتصرّف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ أي ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوّاً كبيراً . آخر اختصار تفسير سورة الشورى ولله الحمد والمنة ، والشكر والفضل ، وبه التوفيق وعليه التكلان .

(٤٣) سورة الزخرف مكية وآياتها تسع وثمانون

إلاّ الآية ٥٤ فمدنية نزلت بعد سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ ٱلْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِن نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى : ﴿ حم * والكتاب المبين ﴾ أي الواضح الجلي المعاني والألفاظ ، لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس . ولهذا قال تعالى : ﴿ انا جعلناه ﴾ أي انزلناه ﴿ قرآناً عربياً ﴾ أي بلغة العرب ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي تفهمونه وقوله تعالى : ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم ﴾ أي بين شرفه في الملأ الأعلى فقال تعالى :﴿ وإنه ﴾ أي القرآن ﴿ في أم الكتاب ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿ لدينا ﴾ أي عندنا ﴿ لعلي ﴾ أي ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل ، ﴿ حكيم ﴾ أي محكم بريءٌ من اللبس والزيغ ، وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين ﴾ ولهذا استنبط العلماء رضي الله عنهم من هاتين الآيتين ان المحدث لا يمس المصحف كما ورد به الحديث ان صح لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملأ الأعلى ، فأهل الأرض

بذلك أولى وأحرى ، لأنه نزل عليهم ، وخطابه متوجه إليهم ، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم ، والإنقياد له بالقبول ، والتسليم ، لقوله تعالى : ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعليٌ حكيم ﴾ .

وقوله عزّ وجلّ : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذه الآية فقيل وقيل ... والطف قول : انه تعالى من لطفه ، ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وهو القرآن وان كانوا مسرفين معرضين عنه بل أمر به ليهتدي به من قدّر هدايته ، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته ثم يسلّي تعالى نبيّه ﷺ بقوله عزّ وجلّ : ﴿ وكم أرسلنا من نبيٍ في الأوّلين ﴾ أي في شيع الأوّلين ﴿ وما يأتيهم من نبيّ إلاّ كانوا به يستهزئون ﴾ أي يكذبونه وبه يسخرون ﴿ فأهلكنا أشدّ منهم بطشاً ﴾ أي فأهلكنا المكذّبين بالرسل وقد كانوا أشدَّ بطشاً من قومك يا محمد كقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشدَّ قوّة ﴾ والآيات في ذلك كثيرة . وقوله جلّ وعلا ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ أي جعلناهم عبرةً لمن بعدهم من المكذّبين أن يصيبهم ما أصابهم .كقوله تعالى في آخر هذه السورة ﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٩) ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ❁ (١٠) وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ ❁ (١١) وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ❁ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ❁ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ❁ (١٤) ﴾

يقول تعالى : ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين : ﴿ من خلق السموات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم ﴾ أي ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له وهم

مع هذا يعبدون معه غيره ثم قال تعالى : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾ أي قراراً ثابتةً تسيرون عليها وتقومون وتنامون مع انها مخلوقة على تيار الماء ، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميدَ هكذا وهكذا.﴿ وجعل فيها سبلاً ﴾ أي طرقاً بين الجبال والأودية ﴿ لعلّكم تهتدون ﴾ أي في سيركم من بلد إلى بلد ﴿ والذي نزّل من السماء ماءً بقدر ﴾ أي بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم .

وقوله تعالى وتبارك : ﴿ فأنشرنا به بلدةً ميتاً ﴾ أي أرضاً ميتاً فلما أمطرت أنبتت من كل زوج ، ثم نبه تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد.فقال: ﴿كذلك تخرَجون ﴾ ثم قال عز وجلّ : ﴿ والذي خلق الأزواج كلها ﴾ أي مما تنبت الأرض من سائر أصناف الزروع والثمار وغير ذلك. ومن الحيوانات على اختلاف اجناسها ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ أي السفن وذلل الأنعام وسخرها أكلاً وشرباً وركوباً ولهذا قال جل وعلا:﴿ لتستَووا على ظهوره ﴾ أي لتعتلوا متمكنين ﴿ على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم ﴾ فيما سخر لكم ﴿ إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ أي مقاومين ، ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه ﴿ وإنّا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ أي لصائرون إليه بعد مماتنا وإليه سيرنا الأكبر ، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله تعالى : ﴿ وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى ﴾ وباللباس الدنيوي على الأخروي.في قوله تعالى : ﴿ وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ﴾ .

روى الإمام أحمد عن علي بن ربيعة قال ١٠٣[رأيت علياً رضي الله عنه أتى بدابة فلما وضع رجله في الركاب قال : بسم الله فلما استوى عليها قال الحمد لله ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنّا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ ثم حمد الله تعالى ثلاثا وكبر ثلاثاً ثم قال : سبحانك لا إله إلا انت قد ظلمت نفسي فاغفر لي ثم ضحك ، فقلت له : مم ضحكت يا أمير المؤمنين فقال رضي الله عنه : رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلتُ ثم ضحك ، فقلت مم ضحكت يا رسول الله ؟ فقال ﷺ « يعجب الرب تبارك وتعالى من عبده اذا قال رب اغفر لي ، ويقول علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري »] وهكذا رواه ابو داود والترمذي ، والنسائي وقال الترمذي حسن صحيح .

روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال ١٠٤[إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً ثم قال : ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربّنا لمنقلبون ــ ثم يقول ــ « اللّهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى ومن العمل ما

ترضى ، اللهم هوّن علينا السفر واطوِ لنا البعيد ، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال : « آيبون تائبون ان شاء الله عابدون لربنا حامدون »] وهكذا رواه مسلم وابو داود والنسائي والترمذي .

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ * (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * (١٧) أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * (٢٠) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله تعالى ، كما قال تبارك وتعالى في سورة الأنعام : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾ وكذلك جعلوا له من قسمي البنات والبنين أخسهما وأردأهما وهو البنات. كما قال تعالى : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ وقال جلّ وعلا ها هنا ﴿ وجعلوا له من عباده جزءً إن الإنسان لكفورٌ مبين ﴾ ثم قال جلّ وعلا : ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ﴾ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار ثم ذكر عام الإنكار فقال جلّت عظمته : ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم ﴾ أي إذا بشر بالأنثى أنف غاية الأنفة ويكتئب من سوء ما بشر به ويتوارى خجلاً من قومه يقول تعالى وتبارك فكيف تأنفون من ذلك وتنسبونه إلى الله عز وجل؟ ثم قال سبحانه : ﴿ أومن ينشّأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ﴾ أي المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ طفولتها واذا خاصمت فهي عاجزة عييّة كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت : ما هي بنعم الولد ،

نصرها بكاء وبرّها سرقة . فكيف بمن هذا حالها، ينسب إلى جناب الله العظيم ؟ ! ! ! .
وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ أي اعتقدوا فيهم ذلك فأنكر تعالى عليهم فقال سبحانه : ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ أي شاهدوه وقد خلقهم إناثاً ... ؟ ! ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ أي بذلك ﴿ ويسألون ﴾ عن ذلك يوم القيامة وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ أي لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله فإنه عالم بذلك وهو يقرنا عليه فجمعوا بين انواع كثيرة من الخطأ . ١ ـ : جعلوا لله تعالى ولداً ٢ ـ : دعواهم انه اصطفى البنات على البنين وجعلوا الملائكة بناته ٣ ـ : عبدوها بلا دليل بل بمجرّد الهوى وتقليد الآباء ٤ ـ : احتجاجهم بأن الله قدّر ذلك وشاءه لهم ولو كانت عبادتهم غير صحيحة ما عبدوا هذه الأصنام التي هي صور الملائكة وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً . فان الذين يحتجون بمشيئة سبحانه وتعالى قد أنكر عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعثة الرسل وإنزال الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له ، وينهى عن عن عبادة ما سواه .كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقال جلّ وعلا في هذه الآية بعد أن ذكر حجّتهم هذه : ﴿ ما لهم بذلك من علم إنْ هم إلاّ يخرصون ﴾ أي يكذبون ويتقوّلون .

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ۝ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ۝ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ۝ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۝ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝ (٢٥) ﴾

حزب ٥٠

ينكر تعالى على المشركين شركهم بلا برهان ﴿ أم آتيناهم كتاباً من قبله ﴾ أي من قبل أن يشركوا ﴿ فهم به مستمسكون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون ﴾ أي ليس الأمر كذلك ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة

وإنّا على آثارهم مهتدون ﴾ أي ليس لهم من مستند في شركهم إلاّ تقليد آبائهم ودعوى بلا دليل . ثم بين جل جلاله أن مقالتهم سبقهم إليها أشباههم من الأمم السابقة المكذّبة للرسل فقال تعالى : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مقتدون ﴾ ثم قال جلّ وعلا ﴿قل﴾ يا محمد للمشركين ﴿ أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ أي ولو علموا وتيقنوا صحّة ما جئتهم به لما انقادوا لذلك لسوء قصدهم ومكابرتهم. قال الله تعالى: ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ أي من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب كما فصّله تبارك وتعالى في قصصهم ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ من الهلاك وكيف نجّى الله المؤمنين .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء أنه تبرأ من أبيه

وقومه في عبادتهم الأوثان ، فقال : ﴿ إنني براء مما تعبدون إلاّ الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عَقِبه ﴾ هذه الكلمة هي لا إله إلاّ الله أي جعلَها دائمةً في ذريتـــه يقتدي به فيها من هداه الله تعالى من ذريته عليه الصلاة والسلام ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي إليها أي إلى لا إله إلاّ الله وهي إفراد العبادة لله تعالى وخلع ما سواه من الأوثان .

وقوله تعالى : ﴿ بل متّعت هؤلاء ﴾ يعني المشركين ﴿ وآباءهم ﴾ أي فتطاول عليهم العمر في ضلالهم ﴿ حتى جاءهم الحق ورسول مبين ﴾ أي – حتى جاءهم القرآن والذي أنزل عليه وهو محمد ﷺ – ﴿ ولما جاءَهم الحق قالوا هذا سحر وإنّا به كافرون ﴾ أي كابروه وعاندوه كفرا وحسداً وبغياً ﴿ وقالوا ﴾ معترضين على الذي أنزله تعالى وتقدّس ﴿ لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ أي هلاّ كان إنزال هذا القرآن على رجل كبير من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف كالوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي أو أي رجل من أي القريتين كان ، فردّ الله تبارك وتعالى عليهم : ﴿ أهم يقسمون رحمةَ ربك ﴾ ؟ أي ليس الأمر مردوداً إليهم بل إليه عز وجل وحده والله أعلم حيث يجعل رسالته فإنه لا ينزلها إلاّ على أزكى الخَلْق قلباً ونفساً وأشرفهم بيتاً ، وأطهرهم أصـــلاً .

ثم بيّن تعالى أنه فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة . فقال جل وعلا : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴾ الآية وقوله جلت عظمته : ﴿ ليتّخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ أي ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا وهذا إلى هذا. ثم قال عز وجل: ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ أي رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا. ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ أي ولولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة ان إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه ، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال! ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفاً من فضة ومعارج ﴾ أي سلالم ودرجاً من فضة قاله ابن عباس وغيره ﴿ عليها يظهرون ﴾ أي يصعدون ﴿ ولبيوتهم أبواباً ﴾ أي أغلاقاً على أبوابهم. ﴿ وسرُراً عليها يتكئون ﴾ أي جميع ذلك يكون فضةً ﴿ وزخرفاً ﴾ أي وذهباً . قاله ابن عباس وغيره .

ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ أي إنما ذلك كله من متاع الحياة الدنيا الزائلة، أي يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب ومساكن ليوافوا الآخرة ، وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها؛ كما ورد به

الحديث الصحيح . وورد في حديث آخر ١٠٥[لو أن الدنيا تزن عند الله جناحَ بعوضة ما سقىُ منها كافراً شربة ماء] أسنده البغوي عن سهل بن سعد رضي الله عنه . ثم قال تعالى : ﴿ والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ أي هي لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم .

وفي الصحيحين ١٠٦[انّ رسول الله ﷺ قال : لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنّها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة] وإنما خولهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها .

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ ٱلرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ۝ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ۝ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ۝ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ۝ (٤٤) وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ ٱلرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ۝ (٤٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ومن يعشُ ﴾ اي تعامت بصيرته عن القرآن وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ عن ذكر الرحمن ﴾ ﴿نقيِّض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وقيّضنا لهم قرناء ، فزيّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ الآية ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ وإنهم ليصدّونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا ﴾ أي هذا الذي تعامت بصيرته عن الحق وجاءنا يوم القيامة ومعه قرينه يتبرّم بالشيطان الذي وكّل به ﴿ قال يا

ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ أي لا ينفعكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم .

وقوله جلت عظمته : ﴿ أفأنت تسمع الصمّ أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين ﴾ أي ليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحكمُ العدل في ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ فإما نذهبنَّ بك فإنا منهم منتقمون ﴾ أي لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهبت أنت ﴿ أو نرينّك الـــذي وعدناهم فإنّا عليهم مقتدرون ﴾ أي نحن قادرون على هذا وعلى هذا ولم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقرّ عينَه من أعدائه وحكمه في نواصيهم وملّكه ما تضمنته صياصيهم . ثم قال عزّ وجل : ﴿ فاستمسكْ بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم ﴾ أي خــذ بالقرآن المنزل على قلبك فإن هذا الحق وما يهدي إليه هو الحق المفضي الى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنّات النعيم والخير المقيم . ثم قال جل جلاله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ قيل معناه لشرف لك ولقومك. قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، واختاره ابن جرير ولم يحكِ سواه. وأورد الترمذيّ ههنا حديثاً بسنده إلى معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ١٠٧ [إن هذا الأمر لا ينازعهم فيه أحد إلاّ أكبّه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدّين] رواه البخاري . ومعناه أنّه شرف لهم من حيث أنه أنزل بلغتهم فهم أفهم الناس له فينبغي أن يكونوا أقوم الناس وأعملهم بمقتضاه وهكذا كان خيارهـــم وصفوتهم من الخلّص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم وقيل إنّ معنى الآية عام يشمل العرب وغيرهم ﴿ وسوف تسألون ﴾ أي عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به ، والاستجابة له . وقوله تعالى ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنـــا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ أي جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد. كقوله تعالى: ﴿ ولقد بعثنا في كل أمّةٍ رسولاً أنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَقَالَ
إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا
يَضْحَكُونَ ۞ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا

وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۞ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ۞ (٥٠)

يخبر تعالى عن عبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام انه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والرعايا من القبط وبني اسرائيل، يدعوهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه. وانه بعث معه آيات عظاماً: كيده وعصاه ، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات . ومع هذا كله ... استكبروا عن اتباعها والانقياد لها ، وكذبوها وسخروا منها وضحكوا ممن جاءهم بها ﴿وما نريهم من آية إلاّ هي أكبر من أختها﴾ ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم وجهلهم وخبالهم . وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى عليه الصلاة والسلام ويتلطفون له في العبارة بقولهم : ﴿يا أيها الساحر﴾ وليست هذه التسمية على سبيل الانتقاص منهم لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب الانتقاص وإنما هو التعظيم في زعمهم ، ففي كل مرة يعدون موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا ، أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني اسرائيل ، وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوه عليه. وهذا كقوله تعالى : ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين.ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفتَ عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلنّ معك بني إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾

وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۞ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۞ (٥٣)

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ۞ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ ۞ (٥٦)

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وكفره وعناده وتمرّده ، انه جمع قومه فنادى فيهم متبجّحاً مفتخراً بملك مصر وتصرّفه فيها : ﴿ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ﴾ أي أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك ، يعني وموسى واتباعه ضعفاء فقراء . كقوله تعالى : ﴿ فحشر فنادى فقال أنا ربّكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ وقوله : ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ﴾ وأم ههنا بمعنى بل ويعني فرعون لعنه الله بقوله انه خير من موسى عليه الصلاة والسلام وقد كذب كذباً بيّناً واضحاً فعليه لعائن الله المتتابعة الى يوم القيامة . ويعني بقوله مهين أي حقير ولا ملك له ولا سلطان ولا مال ﴿ ولا يكاد يُبين ﴾ أي لا يكادُ يفهم وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق فقوله لعنه الله : ﴿ مهين ﴾ كذب بل هو المهين الحقير خلقةً وخلقاً وديناً وموسى هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد. وقوله ﴿ ولا يكاد يُبين ﴾ افتراء أيضاً فقد كان موسى عليه الصلاة والسلام من الجلالة ، والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوي الألباب وانه قد أصاب لسانه في حال صغره شيء ومن جهة تلك الجمرة ، فقد سأل الله عز وجل أن يحلّ عقدة من لسانه ليفقهوا قوله ، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله عزّ من قائل : ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ ولكن فرعون عليه لعائن الله يعلم هذا اي أنّه يكذب على موسى عليه أفضل الصلاة والسلام ، إنّما أراد الترويج على رعيته فانهم كانوا جهلة أغبياء . وهكذا أيضاً قوله : ﴿ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب ﴾ وهي ما يجعل في الأيدي من الحلي، قاله ابن عباس وغيره . ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ أي يخدمونه ويصدّقونه، إستخفافاً بشعبه الجاهل. ولهذا قال تعالى: ﴿ فاستخفَّ قومه فأطاعوه ﴾ أي استخف عقولهم فدعاهم الى الضلالة فاستجابوا له ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ ومعنى آسفونا أي أسخطونا . انتقمنا منهم بالغرق إجماعاً فلا يغترّ إنسان اذا أعطي ما يشاء وهو ما يزال مقيماً على معاصيه فإنما هذا استدراج من الله تعالى . وقوله سبحانه ﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ اي سلفاً لمن عمل بعملهم وعبرة لمن بعدهم والله سبحانه وتعالى أعلم .



﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝ (٥٧)
وَقَالُوا ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ
خَصِمُونَ ۝ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي
إِسْرَائِيلَ ۝ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ
يَخْلُفُونَ ۝ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا
صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُبِينٌ ۝ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ
وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ (٦٣)
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ (٦٤)
فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ
يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝ (٦٥)﴾

يخبر تعالى عن تعنت كفار قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل . : ﴿ ولمّا ضُرب ابنُ مريم مثلاً إذا قومك منه يصدّون ﴾ أي يضحكون وأعجبوا بذلك قاله : ابن عباس وغيره . وكأن السبب في ذلك ما ذكره محمد بن اسحق في السيرة حيث قال : « وجلس رسول الله ﷺ فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ الآيات ...

ثم قام رسول الله ﷺ ، وأقبل عبدالله بن الزبعري التميمي حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة له : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ، فقال عبدالله بن الزبعري : أما والله لو وجدته لخصمته ، سلوا محمداً ... أكلُّ ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد المسيح عيسى بن مريم فعجب

الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبدالله بن الزبعري ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم[1] فذُكِرَ ذلك لرسول الله ﷺ فقال ١٠٨ [كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع مَن عبَدَه فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومَنْ أمرهم بعبادته] فأنزل الله عز وجل : ﴿ إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ أي عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحبار والرّهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل فاتخذهم مَنْ بعدَهُم مِنْ أهل الضلالة أرباباً من دون الله . روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ١٠٩ يا معشر قريش إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير » فقالوا له : ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً فقد كان يعبد من دون الله ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ﴾] قال مجاهد : قالت قريش إنما يريد محمّد أن نعبدَه كما عبد قوم عيسى عليه السلام . ونحو هذا قال قتادة .

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا آلهتنا خير أم هو ﴾ أي آلهتنا خير منه وقال قتادة : قرأ ابن مسعود رضي الله عنه : ــ وقالوا أآلهتنا خير أم هذا ، يعنون محمداً ﷺ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ما ضربوه لك إلاّ جدلاً ﴾ أي مراءً وهم يعلمون أنه ليس بوارد .. لأنها لما لا يَعقِل ، وهي قوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ فإن « ما » لغير العاقل ثم هي خطاب لقريش ، وهم إنّما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه ، فتعيّن أنّ مقالتهم إنّما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدون صحتها .

روى الإمام أحمد عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ١١٠ [ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أورثوا الجدل » ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ ما ضربوه لك إلاّ جدلاً بل هم قوم خصِمون] وقد رواه الترمذي وابن ماجه وابن جرير وصحّحه الترمذي . وقوله تعالى : ﴿ إنْ هو إلاّ عبد أنعمنا عليه ﴾ يعني عيسى عليه الصلاة والسلام ما هو إلاّ عبد من عباد الله عزّ وجل أنعم الله عليه بالنبوّة والرسالة ﴿ وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾ أي دلالةً وحجةً وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء . وقوله تعالى:

---

(١) قلت : ذكر عبد الله بن الزبعري هذا ... وإنه قد أسلم فيما بعد ... وكان من الشعراء المشهورين . وقد كان يهاجي المسلمين أولا ... ثم تاب وقال معتذراً بعد إسلامه : يا رسول المليك إن لساني * راتقٌ ما فتقت إذ أنا بورُ * إذ أجاري الشيطانَ في سنن الغي م ومن مال ميله مثبور * .

﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ﴾ أي بدلاً منكم ﴿ ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ أي يخلفونكم فيها . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وانه لعلم للساعة ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو خروج عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام قبل يوم القيامة .. كما قال تعالى : ﴿ وإن من اهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به قبل موته ﴾ وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً .

وقوله تعالى : ﴿ فلا تمترنَّ بها ﴾ أي لا تشكّوا فيها انها واقعة وكائنة لا محالـة . ﴿ واتبعون ﴾ أي فيما أخبركم به ﴿ هذا صراط مستقيم ولا يصدنكم الشيطان ﴾ أي عن اتباع الحق ﴿ إنه لكم عدو مبين ولمّا جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ﴾ أي بالنبوة ﴿ ولأبين لكم بعض الذين تختلفون فيه ﴾ قال ابن جرير يعني من الأمور الدينية لا الدنيوية وهذا الذي قاله حسن جيد . وقوله عز وجل : ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي فيما أمركم به ﴿ وأطيعون ﴾ فيما جئتكم به ﴿ ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ أي هو عبادة الرب جل وعلا وحده ، وقوله سبحانه : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ أي منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ، ومنهم من يدعي أنه ولد الله ومنهم من يقول أنه الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ولهذا قال تعالى : ﴿ فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ (٦٦) ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۞ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۞ (٦٨) ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۞ (٦٩) ادْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۞ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ (٧١) وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ (٧٣) ﴾

يقول تعالى : ﴿ هل ينظرون إلاّ الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ أي إنها

واقعة لا محالة ، وهؤلاء المشركون غافلون عنها فستأتيهم فجأة ، عندها يندمون على عدم إيمانهم، ولكن في الوقت الذي لا ينفع الندم . وقوله تعالى : ﴿ الأخلاَّء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين ﴾ أي كل محبة لغير الله تنقلب إلى عداوة إلا ما كان منها لله عز وجل، فإنها دائمة بدوامه فالخليلان في الله إذا مات أحدهما قبل الآخر فيذكر خليله عند الله بخير ويدعو له : اللهم كما أمرني بطاعتك وطاعة رسولك وأُخبرني بلقائك هذا،اللهم فلا تضله بعدي حتى تريه ما أريتني وترضى عنه كما رضيت عني فيبشره الله بخليله خيراً ، أما الخليلان الكافران ، فبعكس ذلك تماماً . ملخصاً عن عليٍّ رضي الله عنه من رواية عبد الرزاق .

وروى ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ١١١[لو أن رجلين تحابّا في الله ، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب ، لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول هذا الذي أحببته فيَّ] وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ ثم بشرهم فقال سبحانه : ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ أي آمنت قلوبهم وبواطنهم ، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم . ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ أي يقال لهم ذلك : ﴿ أنتم وأزواجكم ﴾ أي نظراؤكم ﴿ تحبرون ﴾ أي تنعمون وتسعدون ﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب ﴾ أي آنية الطعام ﴿ وأكواب ﴾ أي آنية الشراب ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾ أي طيّب الطعام والريح ، وحسن المنظر . وقوله تعالى : ﴿ وأنتم فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ خالدون ﴾ أي لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولاً . ثم قيل لهم على وجه الفضل والامتنان : **وتلك** الجنة التي **أورثتموها** بما كنتم تعملون ﴾ أي أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول الجنه وإياكم ، **فإنه لا** يُدخِل أحداً عملُه الجنة ولكن برحمة الله وفضله ، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات ، وقوله تعالى : ﴿ لكم فيها فاكهة كثيرة ﴾ أي من جميع الأنواع ﴿ منها تأكلون ﴾ أي مهما اخترتم وأردتم . ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتمّ به النعمة والغبطة ، والله تعالى أعلم .

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ ٱلظَّالِمِينَ ۝ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم

مَاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنّى بذكر الأشقياء فقال : ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يُفَتَّرُ عنهم ﴾ ولا لحظة واحدة ﴿ وهم فيه مبلسون ﴾ أي آيسون من كلّ خير ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ أي بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم فكذبوا وعصوا فجوزوا بذلك جزاءً وفاقاً ، وما ربُّك بظلام للعبيد ﴿ ونادوا يا مالك ﴾ وهو خازن النار ﴿ ليقض علينا ربك ﴾ أي يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه فانهم كما قال تعالى : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ فأجابهم مالك : ﴿ قال إنكم ماكثون ﴾ أي لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها ثم ذكر سبب شقوتهم ، وهو مخالفتهم للحق فقال : ﴿ لقد جئناكم بالحق ﴾ أي بيناه لكم ووضحناه وفسرناه ﴿ ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ أي ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ، إنما كانت تنقاد للباطل وتصدّ عن الحق ، فلوموا أنفسكم ولكن هيهات أن ينفع الندم أو يجدي اللوم . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ أم أبرموا أمراً فإنّا مبرمون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ﴾ لأنهم كانوا يتحيّلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه . فكادهم الله تعالى وردّ وبالهم عليهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ﴾ أي سرهم وعلانيتهم ﴿ بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ أي نحن نعلم ما هم عليه ، والملائكة يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها .

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾
سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾
فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾
وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾
وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ

ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۞ (٨٧) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ۞ (٨٨) فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۞ (٨٩)

يقول تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إن كان للرحمن ولد فأنا أوّل العابدين ﴾ أي لو فرض هذا لعبدتُه على ذلك ، لأني عبد من عبيده مطيع لجميع ما يأمرني به ، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض هذا لكان هذا ، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى ، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً . كما قال عزّ وجل: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء . سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ . ولهذا قال جلّت عظمته ﴿ سبحان ربّ السموات والأرض ربّ العرش عما يصفون ﴾ أي تعالى وتقدّس وتنزّه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد فإنه فرد أحد صمد لا نصير له ولا كفء له فلا ولد له .

وقوله تعالى : ﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ أي في جهلهم وضلالهم ﴿ ويلعبوا ﴾ في دنياهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ وهو يوم القيامة أي فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وهو الذي في السماء إلّه وفي الأرض إلّه ﴾اي هو المعبود من أهل السماء والمعبود من أهل الأرض وكلهم خاضعون له أذلاّء بين يديه ﴿ وهو الحكيم العليم ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وهو الله في السموات والأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ أي هو المدعو في السموات والأرض ﴿ وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما فسبحانه وتعالى عن الولد ، وتبارك أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص بيده ملكوت كل شيء نقضاً وإبراماً ﴿ وعنده علم الساعة ﴾أي لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو. ﴿ وإليه ترجعون ﴾ فيجازي كلاً بما يستحق ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه ﴾من الأصنام والأوثان ﴿ الشفاعة ﴾ أي لا يقدرون على الشفاعة لهم ﴿ إلاّ من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ أي لا تنفع الشفاعة إلاّ

لمن شهد بالحق عن علم وبصيرة . ثم قال عز وجل : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله فأنى يؤفكون ﴾ أي لئن سألتَ المشركين من خلقهم ليقولن أي يعترفون أنه تعالى الخالق لكل شيء ومع كلّ ذلك يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء ، فإنّهم في غاية الجهل والسفاهة والسخافة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فأنَّى يؤفكون ﴾

وقوله جل وعلا ﴿ وقيلِهِ يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ أي شكا محمد ﷺ إلى ربّه أنّ قومه الذين كذبوه قوم لا يؤمنون . وقوله تعالى : ﴿ فاصفح عنهم ﴾ أي المشركين ﴿ وقل سلام ﴾ أي لا تجاوبهم بمثل ما يُخاطبونك من الكلام السيِّءِ ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً . ﴿ فسوف يعلمون ﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم ، أحل بهم بأسه الذي لا يرد وأعليْ دينه وكلمته ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب ، والله اعلم .

آخر اختصار تفسير سورة الزخرف بمنّه وكرمه وتوفيقه سبحانه وتعالى فله الحمد والشكر والفضل وعليه التكلان .

(٤٤) سورة الدخان مكية وآياتها تسع وخمسون

نزلت بعد سورة الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ
مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ (٤)
أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ (٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝ (٧)
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ (٨)﴾

يخبر تعالى عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة وهي ليلة القدر . كما قال عز وجل ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ وكان ذلك في شهر رمضان كما قال تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ذلك في سورة البقرة بما أغنى عن اعادته ومن قال انها ليلة النصف من شعبان فقد أبعد النجعة فإن نص القرآن انهـا في رمضان [1] وقوله عز وجل : ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ أي معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده .

وقوله تعالى : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ أي في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ الى الكتبة أمر السنة ، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها .

---

(١) وفي هذا دليل واضح على الخطاء الفادح الوارد في دعاء نصف شعبان ، وهو قوله : (إلهي بالتجلي الأعظم في ليلة النصف من شعبان المعظم التي يفرق فيها كل أمر حكيم.فكيف نتقرب إلى الله، بدعاء يخالف كلام الله...؟!!! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ...

وقوله جل وعلا ﴿ حكيم ﴾ أي محكم لا يبدل ولا يغير ، ولهذا قال جلّ وعلا : ﴿ أمراً من عندنا ﴾ أي جميع ما يوحيه ويقدره فبأمره وإذنه وعلمه. ﴿ إنّا كنا مرسلين ﴾ أي إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله لمسيس الحاجة . ولهذا قال تعالى: ﴿ رحمة من ربك إنه هو السميع العليم . رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي الذي أنزل القرآن رحمةً هو الله رب السموات والأرض ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ اي إن كنتم متحققين. ثم قال تعالى : ﴿ لا اله إلاّ هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا اله إلا هو يحيي ويميت ﴾ الآية ...

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۞ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۞ (١٠) يَغْشَى ٱلنَّاسَ هٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (١١) رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۞ (١٢) أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ۞ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ۞ (١٤) إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۞ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ۞ (١٦)

يقول تعالى : بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون،أي قد جاءهم الحق اليقين وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به. ثم قال عز وجل متوعداً لهم ومهدداً : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ قال ابن مسعود ومن وافقه : أن الدخان مضىٰ أي ظهر ومضىٰ ... وهو كما وصفه خيال رآه في أعينهم جماعة قريش لما دعا عليهم الرسول ﷺ بسنين كسني يوسف فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة وجعلوا يرفعون أبصارهم الى السماء فلا يرون إلا الدخان ، وفي رواية : فجعل الرجل ينظر الى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد .

وقال آخرون لم يمضِ الدخان بعد بل هو من آمارات الساعة . كما تقدم من حديث أبي سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال ١١٢[أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة ، ونحن نتذاكر الساعة. فقال ﷺ : لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج

عيسى بن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس ـ أو تحشر الناس ـ تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا] . تفرد به مسلم في صحيحه . و في الصحيحين :
١١٣[ان رسول الله ﷺ قال لابن صياد : « إني أخبأت لك خبأً » قال : هو الدخ ، فقال ﷺ له « اخسأ فلن تعدو قدرك » وخبأ له رسول الله ﷺ : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾] . روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ١١٤[يهيج الدخان بالناس ، فأما المؤمن فيأخذه كالزكمة واما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه] وهناك كثير من الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي وردت مما يقنع ويدل دلالة ظاهرة على ان الدخان من الآيات المنتظرة ، فهو أيضا ظاهر القرآن ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ أي بين واضح يراه كل أحد ، وعلى ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد ، وهكذا قوله تعالى : ﴿ يغشى الناس ﴾ أي يتغشاهم ويعمّهم ، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿ يغشى الناس ﴾

وقوله تعالى : ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ أي يقال لهم ذلك، تقريعاً وتوبيخاً. وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يوم يُدعون الى نار جهنم دعّا هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ربّنا اكشف عنا العذاب إنّا مؤمنون ﴾ أي يقول الكافرون هذا القول عند معاينة العذاب. فرد عليهم تعالى : ﴿ أنىّ لهم الذكرىٰ وقد جاءهم رسول مبين ثم تولّوا عنه وقالوا معلّم مجنون ﴾ يقول : كيف لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولاً بيِّن الرسالة والنذارة؛ ومع هذا تولّوا عنه وكذبوه وقالوا. متّهمين الرسول أنه معلّم من قبل آخرين. وكذلك هو مجنون أيضا ـ والمراد لما أتاكم الرسول في الدنيا كفرتم به ومتّم على ذلك، ثم بعد أن عاينتم العذاب آمنتم به؟ أوَ هذا ينفعكم...؟ هيهات هيهات... حتى ولو أرجعناكم الى الدنيا لكفرتم به أيضا ـ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ إنّا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ أي لو كشفنا عنكم العذاب وأرجعناكم إلى الدار الدنيا ، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب ،كقوله تعالى : ﴿ ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنّهم لكاذبون ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنّا منتقمون ﴾ فسّرها ابن مسعود رضي الله عنه بيوم بدر والظاهر أن ذلك يوم القيامة وإن كان يوم بدر يومَ بطشه أيضاً

قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال ابن مسعود رضي الله عنه : البطشة الكبرى يوم بدر وأنا أقول هي يوم القيامة وهذا إسناد صحيح عنه .

نصف الحزب

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝ (١٧)
أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا
عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ
أَنْ تَرْجُمُونِ ۝ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ۝ (٢١) فَدَعَا
رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ۝ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ
مُتَّبَعُونَ ۝ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ۝ (٢٤)
كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ (٢٦)
وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا
آخَرِينَ ۝ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا
مُنْظَرِينَ ۝ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝ (٣٠)
مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ۝ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ
عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ (٣٢) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ
بَلَاءٌ مُبِينٌ ۝ (٣٣) ﴾

يقول تعالى : ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين ، قوم فرعون ﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ أن أدّوا إلي عبادَ الله ﴾ كقوله عز وجل ﴿ أن أرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم وقد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أي مأمون على ما أبلغكموه . وقوله تعالى : ﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ أي لا تستكبروا عن اتباع آياته والإيمان بها والانقياد لبراهينه .

وقوله تعالى : ﴿ إني آتيكم بسلطان مبين ﴾ أي بحجة ظاهرة وهي المعجزات التي ارسل بها ﴿ واني عذت بربّي وربكم أن ترجمونِ ﴾ أي بالشتم أو تصلوا إلي بسوء من رجم بالحجارة أو غيرها ﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلونِ ﴾ فلا تتعرضوا لي وسالموني إلى أن يقضي الله بيننا ، فلما طال مقامه ﷺ بين أظهرهم وأقام الحجج عليهم وكل ذلك ما زادهم إلاّ كفراً وعناداً ﴿ فدعا ربّه أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ وهذه كقوله تعالى : ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلّوا عن سبيلك ربّنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتّى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبتْ دعوتكما فاستقيما ﴾ فعند ذلك أمره تعالى : ﴿ فأسر بعبادي ليلاً إنكم متّبَعُون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسرِ بعبادي فأضربْ لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾

وقوله عز وجل ههنا : ﴿ واترك البحر رهواً انهم جندٌ مغرقون ﴾ وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوز هو وبني اسرائيل البحر ، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتّى يعود كما كان ، ليصير حائلاً بينه وبين فرعون فلا يصل إليهم ، فأمره تعالى أن يتركه على حاله ساكناً وبشرهُ إنهم جند مغرقون فلا تخش منهم ، ولا تأمر البحر يرجع كما كان ماءً بل اتركه يبساً حتّى يدخل فيه آخر جند فرعون ثم أمره ان يعود كما كان فيكون فرعون وجنوده من المغرقين جزاء كفرهم وعنادهم . وهكذا كان والحمد لله رب العالمين .

ثم قال تعالى : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون ﴾ أي كم تركوا من بساتين وأنهار ﴿ وزروع ومقام كريم ﴾ أي ومزروعات خصبة ومساكن طيبة أنيقة ﴾ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾

كانت الجنات بحافتي نهر النيل من أوله الى آخره على الطرفين ما بين أسوان الى رشيد متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء وكانوا في عيشة يتفكهون فيها من مأكل ومشرب وملبس وأموال وجاهات وحكم في البلاد فسلبوا كل ذلك دفعةً واحدة وتركوا كل ذلك ، وصاروا إلى جهنم وبئس المصير ، واستولى بنو اسرائيل على كل ما ذكر من النعم كما قال تعالى : ﴿ كذلك أورثناها بني اسرائيل ﴾ وقال عز وجل هاهنا : ﴿ كذلك وأورثناها قوماً آخرين ﴾ وهم بنو اسرائيل كما تقدم ...

وقوله تعالى : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ أي لم تكن لهم اعمال صالحة

تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم ، ولالهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها ففقدتهم ، فلهذا استحقوا ان لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوّهم وعنادهم روى ابن جرير عن شريح بن عبيد الحضرمي قال : قال رسول الله ﷺ ١١٥[ان الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ . ألا لا غربة على مؤمن ، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ ثم قال : « انهما لا يبكيان على الكافر »] وقوله تعالى : ﴿ وما كانوا منظرين ﴾ أي ما كانوا مؤخرين عن العذاب .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولقد نجينا بني اسرائيل من العذاب المهين،من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين ﴾ يمتن عليهم تعالىٰ بذلك حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم ، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة . وقوله تعالى : ﴿ إنّه كان عالياً من المسرفين ﴾ أي كان مستكبراً جباراً عنيداً مسرفاً في أمره سخيفاً في رأيه على نفسه. وقوله جل جلاله : ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ أي على أهل زمانهم ﴿ وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ﴾ أي آتيناهم من الحجج والبراهين والمعجزات ما فيه اختبار ظاهر جليّ لمن اهتدىٰ به

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ۞ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ۞ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ۞ (٣٧) ﴾

ينكر الله تعالى على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد وأنه ما ثم إلاّ هذه الحياة الدنيا ولا حياة بعد الممات ولا بعث ولا نشور ، ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا فإن كان البعث حقاً ﴿ فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة فإن المعاد إنّما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا ، ثم قال تعالى متهدداً ، ومنذراً بأسه الذي لا يرد. كما حل من النكال بأشباههم من قوم تبّع وهم سبأ حيث أهلكهم وفرقهم شذر مذر ، كما تقدم في سورة سبأ. وكذلك هؤلاء الذين يجب أن يتعظوا بما حل بأولئك وكلاهما عرب. وتبّع لقب لكل من يملك في اليمن كما يقال كسرىٰ لمن ملك

الفرس، وقيصر لمن ملك الروم. وهكذا كان من التبابعة تبّع اسمه أسعد بن كريب بن مليكرب اليماني وقد تهوّد ودعا أهل اليمن الى التهود معه وكان اذ ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام وقد وصل تبع هذا إلى مكة وعظّم الكعبة وطاف بها وكساها المـلاء والوصائل والحبر. ووصل الى سمرقند واشتد ملكه وعظم سلطانه واتسعت مملكته، وهو الذي مصّر الحيرة. وذكر ابن عساكر انه ملك دمشق، انه ملك على قومه ثلاثمائة وستاً وعشرين سنة ولم يكن في حمير أطول مدة منه، وتوفي قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة سنة. وكان لديه حبران من اليهود أخبروه لما مر بالمدينة المنوّرة ان هذه البلدة مهاجر نبيّ آخر الزمان أسمه أحمد. وقال شعراً في ذلك، واستودعه عند أهل المدينة. فكانوا يتوارثونه ويروُونه خلفاً عن سلف، وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذي نزل رسول الله ﷺ في داره. وهو :

شهدت عـــلى أحمد أنـــه ... رسول مـــن الله باري النَّسمْ
فلو مـــد عمري إلى عمره ... لكنتُ وزيراً له وابنَ عَـــمْ
وجــاهدتُ بالسيف أعداءَهُ ... وفرجتُ عن صدْرِهِ كلَّ غَمْ

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حُفر قبر بصنعاء في الإسلام فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رأسيهما لوح فضة مكتوب فيه بالذهب، : هذا قبر حُيَيْ وتميس وروي: حُيُيْ وتُماضِر ابنتي تبع، ماتتا وهما تشهدان أن لا آله إلا الله ولا تشركان به شيئاً وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما. وروى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال ١١٦ [لا تسبّوا تبّعا فانه قد أسلم] وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ١١٧ [وما أدري تبع نبياً كان أم غير نبي] وكانت عائشة تقول لا تسبوا تبعاً فإنه قد كان رجلاً صالحاً. وقد حج البيت زمن الجرهميين وكساه الملاء والوصائل والحبر، ونحر عند البيت ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه ثم عاد إلى اليمن — من رواية ابن عساكر — وإن تبعاً هذا المشار إليه في القرآن الكريم أسلم قومُه على يديه ثم لمّا توفي عادوا بعده إلى عبادة النيران والأصنام فعاقبهم الله تعالى ما ذكره سبحانه في سورة سبأ.

قال قتادة : ذكر لنا أن كعباً كان يقول في تبع نعت الرجل الصالح : ذم الله تعالى قومُه ولم يذمّه.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۞ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۞ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۞ (٤٢) ﴾

يخبر تعالى عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل. كقوله جل وعلا: ﴿ وما خلقنا السماءَ والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾ وهو يوم القيامة ، وقوله عز وجل: ﴿ ميقاتهم أجمعين ﴾ أي أولهم وآخرهم ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾ أي لا ينفع قريب قريباً . كقوله تعالى: ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ ،اي لا يسأل أخاً له عن حاله وهو يراه عياناً !!! وقولـه جل وعلا: ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ لا يتناصرون ولا يأتيهم النصر من خارج ، ثم قال جل جلاله: ﴿ إلا من رحم الله ﴾ أي لا ينفع يومئذٍ إلاّ رحمة الله عز وجل بخلقه ﴿ إنه العزيز الرحيم ﴾ أي هو عزيز وذو رحمة واسعة .

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۞ (٤٣) طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۞ (٤٤) كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۞ (٤٥) كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ۞ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ ۞ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۞ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۞ (٤٩) إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ۞ (٥٠) ﴾

يخبر تعالى عما يعذب به الكافرين ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ أي الكافر. وقيل أنه أبو جهل ، ويدخل غيره من الكفار وهذه الشجرة لو وقعت قطرة منها في الأرض لأفسدت معايش أهلها وقد تقدم نحو هذا القول مرفوعاً[١] . وقوله تعالى: ﴿ كالمهل ﴾

(١) الصافات عند تفسير الآية رقم / ٦٢ /

قالوا كعكر الزيت ﴿ يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ من حرارتها ورداءتها ، وقوله تعالى: ﴿ خذوه ﴾ أي الكافر ﴿ فاعتلوه ﴾ أي سوقوه سحباً ودفعاً في ظهره ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ أي وسطها ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ فإن الملك يضربه بمقمعة من حديد فتفتح دماغه ثم يصب الحميم على رأسه فينزل في بدنه فيسلت ما في بطنه من امعائه حتى تمرق من كعبيه . أعاذنا الله تعالى من ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ وقد قال الأموي في مغازيه عن عكرمة قال ١١٨ [لقي رسول الله ﷺ أبا جهل لعنه الله فقال : «ان الله تعالى أمرني أن أقول لك : ﴿ أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ﴾ قال فنزع ثوبه من يده وقال : ما تستطيع لي انت ولا صاحبك من شيء ولقد علمت أني أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم قال فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيره بكلمته وأنزل : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ أي تقول له الزبانية في جهنم ذلك على وجه التهكم والتقريع أي لست بعزيز ولا كريم . ولهذا قال تعالى : ﴿ إنَّ هـذا ما كنتم به تمترون ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۞ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ۞ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۞ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ۞ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۞ (٥٦) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۞ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ۞ (٥٩) ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء ولهذا سمي القرآن مثاني. فقال سبحانه ﴿ إن المتقين ﴾ أي لله في الدنيا ﴿ في مقام أمين ﴾ أي في الآخرة هو الجنة قد أمنوا فيها الموت والخروج ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب ومن الشيطان وكيده وسائر الآفات والمصائب ﴿ في جنات وعيون ﴾ وهذا في مقابلته ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم وقوله تعالى : ﴿ يلبسون من سندس ﴾ وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوه

﴿ واستبرق ﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش وما يلبس على أعالي القماش ﴿ متقابلين ﴾ أي على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره. وقوله تعالى : ﴿ كذلك وزوجناهم بحور عين ﴾ أي هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسان الحور العين اللاتي ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ ﴿ هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان ﴾

وقولُه تعالى : ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ أي مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر ، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه ، بل يحضر إليهم كلما أرادوا. وقوله تعالى : ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ التي فارقوا فيها الدنيا أما في الآخرة وفي الجنة لا يذوقون فيها الموت أبداً كما ثبت في الصحيحين:إن رسول الله ﷺ قال ١١٩[ويؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت] . روى عبد الرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه وأبي سعيد رضي الله عنه قالا : قال رسول الله ﷺ ١٢٠[يقال لأهل الجنة إن لكم أن تصِحوّا فلا تسقَموا أبداً ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا ، وان لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، وان لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً] رواه مسلم .

روى ابو القاسم الطبراني عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال١٢١[سئل النبي ﷺ أينام أهل الجنة ؟ فقال ﷺ النوم أخو الموت وأهل الجنة لا ينامون]

وقوله تعالى : ﴿ ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ أي مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم الله وسلمهم وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم فحصل لهم المطلوب ، ونجاهم من المرهوب بفضله ومنه وكرمه وإحسانه. ولهذا قال تبارك وتعالى جده : ﴿ فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾ وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : ١٢٢ [اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً لن يُدخله عمله الجنة » قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ﷺ « ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل »] وقوله تبارك وتعالى ﴿ فإنما يسرناهُ وبلسانك لعلهم يتذكرون ﴾ أي يسّرنا القرآن بلسانك الذي هو لسان قومك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها سهلاً واضحاً بيناً جلياً ﴿ لعلهم يتذكّرون ﴾ أي يتفهّمون ويعملون . ومع هذا الوضوح والجلاء فكان من الناس من كفر وخالف وعاند. فقال الله تعالى لرسوله ﷺ مسلياً له وواعداً له بالنصر ، متوعداً لمن كذّبه بالعطب والهلاك. : ﴿ فارتقب ﴾ اي انتظر ﴿ إنهم مرتقبون ﴾ أي فسيعلمون لمن

تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدارين فانها لك يا محمد ولاخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار . ﴾

آخر اختصار تفسير سورة الدخان ولله الحمد والمنة والشكر والفضل
وبه التوفيق والعصمة وعليه التكلان .

(٤٥) سورة الجاثية مكيّة وآياتها سبع وثلاثون

إلاّ الآية / ١٤ / فمدنية ، نزلت بعد سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ۞ (١) تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ اللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۞ (٢) إِنَّ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۞ (٤) وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ ٱللهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ (٥)

يرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه . وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض ، وما ومن فيهما من المخلوقات المختلفة ، والأجناس المتنوعة في السموات وطباقها، والأرض برها وبحرها وجوها وما بينهما، وتعاقب الليل والنهار وما ينزل من السحاب من الأمطار فتحيي الأرض بعد موتها،وتصريف الرياح المتنوعة لسوق المطر وتلقيح الثمار وغذاء الأرواح ومنها ما هو عقيم لا ينتج ، كل ذلك آيات ودلالات تزيد المؤمنين إيماناً ويقيناً ، والعقول إدراكاً لصفات الله العلي ومعرفةً به سبحانه . فيزداد الحب والطاعة والرضا والاستسلام لجلاله العظيم و ما ينبغي للمؤمن ان يتخلّق به،حتى يكون قريباً من الله بما يحتوي قلبه من إسلام وإيمان وإحسان .

تِلْكَ آيَاتُ ٱللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ

ٱللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ❁ (٦) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ❁ (٧) يَسْمَعُ ءَايَاتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ❁ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئاً ٱتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ❁ (٩) مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ❁ (١٠) هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ❁ (١١)

يقول تعالى : ﴿ تلك آيات الله ﴾ أي القرآن ذو الحجج والبراهين ﴿ نتلوها عليك بالحق ﴾ الذي ما بعده إلاّ الضلال ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ إذا لم يؤمنوا وينقادوا إليها. ثم قال تعالى : ﴿ ويل لكلّ أفاك أثيم ﴾ أي كذاب في قوله أثيم في فعله وقلبه، كافر بآيات الله، ولهذا قال سبحانه : ﴿ يسمع آيات الله تتلى عليه ﴾ أي تقرأ عليه ﴿ ثم يُصر ﴾ على كفره عناداً ﴿ كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ﴾ أي أخبره أنّ له عذاباً موجعاً يوم القيامة . ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً ﴾ أي كفر بهذا الشيء واتخذه سخريةً ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي في مقابل ما استهان بآيات الله واستهزأ بها. ولهذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال١٢٣[نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو] ثم فسر العذاب بقوله تعالى: ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ أي كل من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم ﴿ ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ﴾ أي لا تنفعهم أموا لهم ولا أولادهم ﴿ ولا ما اتخذو من دون الله أولياء ﴾ أي ولا تغني عنهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله شيئاً ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ هذا هدى ﴾ يعني القرآن ﴿ والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجزٍ أليم ﴾ وهو المؤلم الموجع، والله تعالى أعلم .



ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ❁ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا

فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخَّر لهم من البحر ﴿ لتجري الفلك ﴾ وهي السفن فيه بأمره تعالى ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أي في المتاجر والمكاسب ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي على حصول المنافع المجلوبة إليكم من البلاد النائية . ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ﴾ من الكواكب والجبال والبحار والأنهار وما تنتفعون به كل ذلك من إحسانه ولهذا قال : ﴿ جميعاً منه ﴾ وحده لا شريك له لا ينازعه فيه أحد ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ أي الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين أن يصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم وكان هذا في ابتداء الإسلام تألُّفاً لقلوبهم ثم لما أصروا على العناد شرع الله الجلاد والجهاد ﴿ ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ أي اذا صفح المؤمنون عنهم في الدنيا فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أي تعودون اليه وتعرض أعمالكم عليه فيجزيكم بها خيراً أو شراً والله تعالى أعلم .

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ (١٩) هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۞ (٢٠)

يذكر تعالى نعمه على بني اسرائيل من إنزال الكتب وإرسال الرسل ، وجعل الملك فيهم . ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي من المآكل والمشارب والملابس والمساكن ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ أي في زمانهم ﴿ وآتيناهم بيّنات من الأمر ﴾ حججاً قاطعة قامت عليهم، ثم اختلفوا بعد ذلك بغياً منهم على بعضهم بعضاً ﴿ إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي سيفصل الله بينهم بحكمه العدل ، وهذا فيه تحذير لهذه الأمة من أن تسلك مسالكهم. ولهذا قال تعالى: ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ۞ انهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾ أي اتبع ما أنزل إليك ، وأعرض عن المشركين فإنهم لا يغنوا عنك بل ولا عن بعضهم بعضاً ولا يزيدون أنفسهم إلاّ خساراً ودماراً وهلاكاً.﴿ والله وليُّ المتقين ﴾ والكفار لا مولى لهم إلا الطواغيت الذينهم يخرجونهم من النور إلى الظلمات . ثم قال تعالى : ﴿ هذا بصائر للناس ﴾ يعني القرآن ﴿ وهدى ورحمة لقوم يوقنون ﴾ .

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۞(٢١) وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۞(٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ (٢٣)

يقول تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ أي عملوها وكسبوها ﴿ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ﴾ أي نساويهم بهم في الدنيا والآخرة ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي ساء ما ظنوا بنا وبعُدْ لنا أن نساويَ بين الأبرار والفجار

في الدارين !؟! ؟ وقد ذكر محمد بن اسحق في كتاب السيرة : أنهم وجدوا حجراً بمكة في أُسّ الكعبة مكتوب عليه : تعملون السيئات ، وترجون الحسنات ، أجل .. كما يُجنى من الشوك العنب ! وقال جل وعلا ﴿ وخلق الله السموات والارض بالحق ﴾ أي بالعدل ﴿ ولتجزَى كلّ نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ ثم قال جلا وعلا : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه ﴾ أي إنّما يأتمر بهداه فمهما رآه حسناً فعله ، ومهما رآه قبيحاً تركه . وقوله تعالى : ﴿ وأضلّه الله على علم ﴾ أي لعلمه إنّ هذا العمل يستلزم ذاك العقاب من الله تعالى ثم عمله رغم ذلك،فكان الجزاء من نوع العمل فأضلّه الله جزاء عمله بعد علم ! . ﴿ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴾ أي فلا يسمع ما ينفعه ، ولا يعي شيئاً يهتدي به ، ولا يرى حجّة يستضيىء بها . ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكّرون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ من يضلِلِ اللهُ فلا هادي له ويذرْهم في طغيانهم يعمهون ﴾ .

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ● (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ٱئْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ● (٢٥) قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ● (٢٦) ﴾

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد : ﴿ وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا ﴾ أي ما ثمّ إلاّ هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون،وليس من معاد ولا قيامة ، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد وتقوله الفلاسفة الدهريون المنكرون للصانع ،فكابروا العقول وكذّبوا المنقول.ولهذا قالوا : ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنون ﴾ أي يتوهّمون ويتخيّلون ، فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح وابو داود والنسائي ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ١٢٤[يقول

تعالى يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر أقلب ليله ونهاره »] . وفي رواية : ١٢٥[لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر] .

قال الشافعي وابو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله : ﷺ « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا يا خيبة الدهر ، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه وانما فاعلها هو الله تعالى فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهي عن سب الدهر بهذا الاعتبار ، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال . هذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد والله تعالى أعلم . وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث !!! .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ أي إذا استدل عليهم وبيّن لهم الحق ، وان الله قادر على اعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿ ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ أي أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً . قال الله تعالى : ﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ﴾ أي كما يشاهدون ذلك يخرجكم من العدم إلى الوجود،كقوله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ أي الذي قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى . كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ ثم قال ها هنا ﴿ ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه ﴿ ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي فلهذا ينكرون المعاد ويستبعدون قيام الأجساد. قال الله تعالى : ﴿ إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ● (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ● (٢٨) هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ● (٢٩) ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة . ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ أي يوم القيامة وقوله تعالى : ﴿ يومئذ يخسر

المبطلون ﴾ وهم الكافرون بما أنزل الله على رسله من الآيات البينات . وقوله تعالى : ﴿ وترى كل أمة جاثيةً ﴾ على ركبها من الشدة والهول ، ويقال ان هذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرةً ، لا يبقى أحد إلاّ جثا لركبتيه حتى ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يقول : نفسي نفسي نفسي ! لا أسألك اليوم إلا نفسي وحتى أن عيسى عليه الصلاة والسلام ليقول : لا أسألك اليوم إلا نفسي ، لا أسألك مريم التي ولدتني . وقوله عز وجل ﴿ كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ يعني كتاب أعمالها كقوله جل جلاله : ﴿ ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أي تجازون بأعمالكم خيرها وشرها كقوله تعالى : ﴿ ينبأ الإنسان بما قدم وأخر ﴾ ولهذا قال جلت عظمته : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ أي يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص كقوله تعالى ﴿ ... ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ أي نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم .

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ۞ (٣٠) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ۞ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۞ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۞ (٣٣) وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ۞ (٣٤) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ ٱللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۞ (٣٥) فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَوَاتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ

ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٣٦) وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَاءُ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ (٣٧)

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة فقال تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة الموافقة للشرع ﴿ فيدخلهم ربهم في رحمته ﴾ وهي الجنة كما ثبت في الصحيح١٢٦ [أن الله تعالى قال للجنة : انت رحمتي أرحم بك من أشاء] ﴿ ذلك هو الفوز المبين ﴾ أي البين الواضح . ثم قال تعالى : ﴿ وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم ﴾ أي يقال ذلك تقريعاً لهم وتوبيخاً ، ﴿ وكنتم قوماً مجرمين ﴾ أي في أفعالكم مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب ﴿ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها ﴾ أي إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿ قلتم ما ندري ما الساعة ﴾ أي لا نعرفها ﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾ أي نتوهم وقوعها توهماً ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾ أي بمتحققين وقوله تعالى : ﴿ وبدا لهم سيئات ما عملوا ﴾ أي وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ﴿ وحاق بهم ﴾ أي أحاط بهم ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي من العذاب والنكال ﴿ وقيل اليوم ننساكم ﴾ أي نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم ﴿ كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ أي فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به ﴿ ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ .

وقد ثبت في الصحيح ١٢٧ [أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة ألم أزوجك؟ ألم أكرمك ، ألم أسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ، فيقول : بلى يا رب فيقول أفظننت أنك ملاقيَّ فيقول : لا . فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني]

وقوله تعالى : ﴿ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً ﴾ أي إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله سخرية واستهزاء ﴿ وغرتكم الحياة الدنيا ﴾ أي خدعتكم فاطمأننتم إليها فأصبحتم من الخاسرين.ولهذا قال عز وجل : ﴿ فاليوم لا يخرجون منها ﴾ أي من النار ﴿ ولا هم لا يستعتبون ﴾ أي لا يعاتبون بل يعذبون بغير حساب ، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين قال جل جلاله : ﴿ فلله الحمد رب السموات ورب الأرض ﴾ أي المالك لهما وما فيهما . ولهذا قال سبحانه : ﴿ ربِّ العالمين ﴾ ثم قال جل وعلا : ﴿ وله الكبرياء في السموات والأرض ﴾ أي العظيم الممجّد الذي كل شيء خاضع له فقير إليه ، وقد ورد في الحديث

الصحيح ١٢٨ [يقول الله تعالى : العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري] ورواه مسلم وقوله تعالى : ﴿ وهو العزيز ﴾ أي الذي لا يغالب ولا يمانع ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وافعاله وشرعه وقدره تعالى .

آخر اختصار تفسير سورة الجاثية ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة .

(٤٦) سورة الأحقاف مكية وآياتها خمس وثلاثون

نزلت بعد سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

حزب ٥١ جزء ٢٦

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾
مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي
ٱلسَّمَٰوَاتِ ٱئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن
كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا
يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا
حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد ﷺ ، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام ، والحكمة في الأقوال والأفعال . ثم قال تعالى : ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق ﴾ أي لا على وجه العبث والباطل ﴿ وأجل مسمّى ﴾ أي وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص ، وقوله تعالى : ﴿ والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ أي لاهون عما يراد بهم ، وقد أنزل الله تعالى إليهم كتاباً وأرسل إليهم رسولاً ، وهم معرضون عن ذلك كله وسيعلمون مغبّة ذلك . ثم قال تعالى :﴿ قل﴾ أي لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره ﴿ أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ أي أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿ أم لهم

شرك في السموات ﴾ أي ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض وما يملكون من قطمير ، إن الملكُ والتصرف كله إلاّ لله عز وجل . فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به سواه ؟ من أرشدكم إلى هذا...؟! من دعاكم إليه؟ آلله أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ إئتوني بكتاب من قبل هذا ﴾ أي هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام يأمركم بعبادة هذه الأصنام ﴿ أو أثارة من علم ﴾ أي دليل بين على هذا المسلك ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي لا دليل لكم عقلياً كان أو نقلياً على ذلك وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ﴾ أي لا أضل ممن يدعو أصناماً ويسألها وهي لا تستطيع شيئاً ، وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تعي ولا تبطش لأنها جماد. وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهةً ليكونوا لهم عزاً * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ أي سيخونهم وهم أحوج ما يكونون إليهم .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * (٧) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * (٨) قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِنَ ٱلرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * (٩) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين وكفرهم وعنادهم أنهم إذا تتلى عليهم آيات القرآن الواضحات قالوا : ﴿ هذا سحر مبين ﴾ أي ظاهر وقد كذبوا وضلوا ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ يعنون محمداً ﷺ ﴿ قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً ﴾ أي لو تقوّلته لا يقدر أحد قط ان يجيرني من عقابه. كقوله تعالى : ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم ﴾ هذا وعيد أكيد وترهيب شديد .

وقولُه تعالى : ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ ترغيب لهم بالتوبة والعفو والمغفرة . وقوله تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ أي ما أنا بأوّل رسول. وقوله تعالى : ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما وكذا قال عكرمة والحسن وقتادة : انها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أمّ العلاء قالت ١٢٩ [... فاشتكى عثمان بن مظعون رضي الله عنه عندنا فمرضناه حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل فقال رسول الله ﷺ « وما يدريك أن الله تعالى أكرمه ؟ » فقلت لا أدري بأبي أنت وأمي ، فقال رسول الله ﷺ « أمّا هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي » قالت فقلت والله لا أزكي أحداً بعده أبداً ، وأحزنني ذلك فنمت فرأيت لعثمان رضي الله عنه عينا تجري ، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك فقال رسول الله ﷺ « ذاك عمله »] انفرد باخراجه البخاري دون مسلم وفي لفظ له١٣٠ [وما أدري وأنا رسول الله ﷺ ما يفعل به] وهذا اشبه ان يكون هو المحفوظ ، بدليل قولها فأحزنني ذلك ، وفي هذا الحديث وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعيّن بالجنة إلاّ الذي نص الشارع الحكيم على تعيينهم ، كالعشرة ، وابن سلام والعميصاء وبلال ، وسراقة ، وعبدالله والد جابر بن عبدالله والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة وزيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة وما اشبه هؤلاء رضي الله عنهم . وقوله تعالى : ﴿ ان أتبع إلاّ ما يوحى إلي وما أنا إلاّ نذير مبين ﴾ أي ما اتّبع إلاّ ما ينزل عليّ من الوحي ، وما أنا إلا مبلّغ عن ربي من النذارة الواضحة لكل ذي عقل . والله أعلم .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾

وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَـٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد للكافرين بالقرآن ﴿ أرأيتم إن كان ﴾ القرآن ﴿ من عند الله وكفرتم به ﴾ ما ظنّكم ان الله صانع بكم ... ؟ ﴿ وشهد شاهد من بني اسرائيل ﴾ وهو عبدالله بن سلام /رض/ ﴿ على مثله ﴾ أي على مثل ما في التوراة بصدق القرآن لمعرفته بحقيقته من التوراة ﴿ فآمن ﴾ أي هذا الشاهد بنبيّه وكتابه ﴿ واستكبرتم ﴾ أنتم عن اتباع القرآن فكفرتم بنبيكم وكتابكم . روى مالك عن سعد قال :١٣١ [ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لاحدٍ يمشي على وجه الأرض ، إنه من اهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام رضي الله عنه . قال : وفيه نزلت ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله] ﴾ رواه البخاري ومسلم والنسائي وقال ابن عباس وجماعة من التابعين أنه عبدالله بن سلام [١] .

وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ أي قال الكفار لو كان في القرآن خير ما سبقنا اليه أمثال المستضعفين كعمّار وبلال وصهيب وخباب رضي الله عنهم وأشباههم من المستضعفين والعبيد والإماء . كقوله تعالى : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا ﴾ أي يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دونهم لأنهم يعتقدون في أنفسهم انهم وجيهون عند الله ، وله بهم عناية . وهذا هو الخطأ الفاحش ، الذي دعاهم يقولون : ﴿ لو كان خيراً ما سبقونا اليه ﴾ وأما أهل السنة والجماعة فيقولون : كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضي الله عنهم هو بدعة لأنه لو كان خيراً لسبقونا اليه لأنهم لم يتركوا خصلةً من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها . وقوله تعالى : ﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾ أي بالقرآن ﴿ فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ أي كذب قديم مأثور عن الأقدمين ، انتقاصاً للقرآن وأهله وهذا هو الكبر الذي حدث عنه رسول

---

(١) قلت : ويجاب على ما يقال : «من ان السورة مكية وانما أسلم عبدالله بن سلام في المدينة» ، فلعل الآية نزلت في المدينة ، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن توضع هنا في هذه السورة المكية . ومثل هذا موجود في القرآن كما هو معلوم .

الله ﷺ [بطر الحق وغمط النـــاس] ثم قال تعالى : ﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ وهو التوراة ﴿ إماماً ورحمة وهذا كتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ مصدق ﴾ أي لما قبله من الكتب ﴿ لساناً عربياً ﴾ أي فصيحاً بيناً واضحاً ﴿ لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ أي مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين . وقوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ تقدم تفسيرها في سورة حم السجدة ... وقوله تعالى : ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ أي فيما يستقبلون ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما خلفوا ﴿ أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أي الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم ، والله أعلم .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَٰثُونَ شَهْراً حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ (١٥) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۝ (١٦) ﴾

لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له واخلاص العبادة له سبحانه عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن : ﴿ وقضى ربك الا تعبدوا وإلاّ اياه وبالوالدين إحساناً ﴾ وقال تعالى ها هنا : ﴿ ووصَّينا الإنسان بوالديه إحساناً ﴾ أي أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما . وقوله تعالى : ﴿ حملته أمه كرهاً ﴾ أي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً من وحم وغثيان وثقل وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل ... ﴿ ووضعته كرها ﴾ أي بمشقة أيضاً من الطلق وشدته ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ وقد استدل علي رضي الله منه بهذه الآية مع التي في لقمان : ﴿ وفصاله في عامين ﴾. وقوله تبارك وتعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم

راجع الآية ١٤ من سررة لقمان

الرضاعة ﴾ على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر. وهو استنباط قوي صحيح، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضيَ الله عنهم . قال محمد بن اسحق بن يسار عن معمر بن عبدالله الجهني قال : تزوج رجل منّا امرأةً من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر ، فانطلق زوجها إلى عثمان رضي الله عنه فذكر ذلك له فبعث اليها فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها فقالت : وما يبكيك ؟ فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قط ، فيقضي الله سبحانه وتعالى فيَّ ما شاء . فلما أتيَ بها عثمان رضي الله عنه أمر برجمها ، فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه فأتاه فقال له : ما تصنع ؟ قال ولدت تماماً لستة أشهر ، وهل يكون ذلك ؟ فقال له عليّ رضي الله عنه : أما تقرأ القرآن ؟ قال : بلى . قال : أما سمعت الله عز وجل يقول : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ وقال : ﴿ حولين كاملين ﴾ فلم نجده بقي إلا ستة أشهر قال : فقال عثمان رضي الله عنه والله ما فطنت بهذا، علي بالمرأة ، فوجدوها قد فرغ منهاقال فقال معمرفوالله ماالغراب بالغراب ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه ؛ فلما رآه أبوه قال : ابني والله لا أشك فيه . قال وابتلاه الله تعالى بهذه القرحة بوجهه الآكلة ، فما زالت تأكله حتى مات رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً ، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً ، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين لأن الله تعالى : يقول : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده ﴾ أي قوي وشب وارتجل . ﴿ وبلغ أربعين سنةً ﴾ أي تناهى عقله وكمل فهمه .

روى الحافظ أبو يعلى الموصلي : عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ١٣٢
[العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة خفف الله تعالى حسابه ، واذا بلغ ستين سنة رزقه الله تعالى الإنابة إليه ، واذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء ، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله تعالى حسناته ومحا سيئاته وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر وشفعه الله تعالى في أهل بيته وكتب في السماء أسير الله في أرضه] .

﴿ قال ربّ أوزعني ﴾ أي ألهمني ﴿ أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ أي في المستقبل [1] ﴿ وأصلح لي في ذريتي ﴾ أي نسلي

(١) قلت : لا يقبل الله عملا ولا يرضاه إلا اذا كان خالصاً لوجهه ، مطابقاً لشريعته . فإذا كان عملا يبتغي فيه رضاء الناس...ولو كان في حد ذاته صالحاً، فلا يتقبله الله ولا يرضاه. وقد يكون قاصداً به وجه الله ومخلصاً، ولكنه عمل بدعي غير مشروع. فكذلك لا يتقبله ولا يرضاه أما اذا كان خالصاً لوجه الله ذي الجلال

وعقبي ﴿ إني تبت إليك وإني من المسلمين ﴾ وهذا فيه ارشاد لمن بلغ الأربعين ان يجدد التوبة اليه تعالى ويعزم عليها. ثم قال تعالى : ﴿ أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ﴾ أي هؤلاء المتصفون بما ذكرنا التائبون إلى الله المنيبون اليه المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فيغفر لهم الكثير من الزلل ويتقبل منهم اليسير من العمل ، ويدخلون في جملة من يدخلون الجنة كما وعد الله التائبين ﴿ وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴾ روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ عن الروح الأمين عليه الصلاة والسلام قال : ١٣٣ [يؤتى بحسنات العبد وسيئاته فيقتص بعضها ببعض ، فإن بقيت حسنة وسع الله تعالى له في الجنة] .

﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ (١٧) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ۞ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۞ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ۞ (٢٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ والذي قال لوالديه أفٍ لكما ﴾ فبعد أن ذكر سبحانه وتعالى حال الداعين للوالدين ، البارين بهما وما لهم عنده تعالى من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء

والإكرام، وطبق ما في كتابه وسنة نبيه عليه الصلاةوالسلام، فهذا هو العمل الصالح الطيب الذي يتقبلهويرضاه، ويجزى عليه أضعافاً مضاعفة تفضلا منه وتكرماً. فإذا كان العمل هكذا تم به شكر النعمة ، وشكر النعمة طاعته كما أمر . « فاستقم كما أمرت » اللهم جنبنا ما لا ترضى وسلكنا صر اطك المستقيم .

العاقّين للوالدين . وهذه الآية عامة في كل من قال هذا لوالديه ولا عبرة لقول من خصصها بأحد أبناء أبي بكر الصديق فلم يصحّ شيء من هذا البتة . وإنما هذا عامّ في كل من عقّ والديه وكذّب بالحق. والذي صح من رواية البخاري والنسائي وابن أبي حاتم تبرئة عبد الرحمن بن أبي بكر من ذلك ذكرنا هذا كي لا يخوض بذلك خائض — وقوله تعالى : ﴿ أتعدانني أن أخرج ﴾ أي أبعث ... ! ﴿ وقد خلت القرون من قبلي ﴾ أي قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر ﴿ وهما يستغيثان الله ﴾ أي يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما : ﴿ ويلك آمن ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا أساطير الأولين ﴾ قال الله تعالى : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ أي دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة وهذه الآية تؤيد ما ذهبنا إليه من ان قوله تعالى : ﴿ والذي قال لوالديه اف لكما ... ﴾ عامٌ في كل من عقّ والديه وكذب بالحق . وقوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ أي لكل عذاب بحسب عمله ﴿ وليوفّيهم اعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يظلمون مثقال ذرة فما دونها وقوله عز وجل ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ أي يقال ذلك لهم تقريعاً وتوبيخاً ﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴾ فعاقبهم الله من جنس أعمالهم. فكما منعوا أنفسهم واستكبروا عن أتباع الحق وتعاطوا الفسق والمعاصي . جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة . والحسرات المتتابعة والمنازل في الدركات المفزعة المفظعة . أجارنا الله سبحانه وتعالى والمؤمنين من ذلك كله .



۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ (٢١) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۞ (٢٣)

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ❁ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ❁ (٢٥)

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه : ﴿ واذكر أخا عادٍ ﴾ وهو هود عليه الصلاة والسلام بعثه الله الى عاد الأولىٰ وكانوا يسكنون الأحقاف : وهي الجبال من الرمل من بلاد حضرموت مشرفة على البحر ، وقوله تعالى : ﴿ وقد خلت النذر من يديه ومن خلفه ﴾ يعني وقد أرسل الله تعالى إلى من حولهم في القرى مرسَلين ومنذرين ﴿ ألاّ تعبدوا إلاّ الله إني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ أي قال لهم هود ذلك ، فأجابه قومه : ﴿ أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ﴾ أي تصدّنا عن آلهتنا ﴿ فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم وقوعه . كقوله تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ ﴿ قال إنما العلم عند الله ﴾ أي هو أعلم بكم ان كنتم مستحقين تعجيل العذاب فما أنا إلا رسول بما أرسلت به ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ أي لا تعقلون ولا تفهمون . قال الله تعالى : ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم ﴾ أي لما رأوا العذاب يستقبلهم ، اعتقدوه بشرىٰ مطر فاستبشروا به ، وقد كانوا ممحلين بحاجةٍ إلى المطر. قال الله تعالى : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذاب أليم ﴾ أي هو العذاب الذي قلتم : فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴿ تدمّر ﴾ أي تخرب ﴿ كل شيء ﴾ من بلادهم ﴿ بأمر ربها ﴾ أي بإذنه تعالى ، كقوله سبحانه : ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلاّ جعلته كالرميم ﴾ أي كالشيء البالي. ولهذا قال عز وجل : ﴿ فأصبحوا لا يرى إلاّ مساكنهم ﴾ أي قد بادوا كلهم عن آخرهم ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ أي هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا .

روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ١٣٤[ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته ، انما كان يبتسم . وقالت : كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه . قالت يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم ، فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عـرفـتْ في وجهك الكراهية

فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ما يؤمنني ان يكون فيه عذاب . قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب وقالوا هذا عارض ممطرنا » وأخرجاه

روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ١٣٥ [كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما ارسلت به » قالت : وإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل ، وأقبل وأدبر ، فإذا أمطرت سُرِّيَ عنه ، فعرفت ذلك عائشة رضي الله عنها فسألته فقال رسول الله ﷺ « لعله يا عائشة كما قال قوم عاد » : ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾] وقد ذكرت قصة هلاك قوم عاد في سورتي الأعراف وهود .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۞ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۞ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۞ (٢٨) ﴾

يقول تعالى : ولقد مكنّا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد ، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله حتى ولا قريباً منه ﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه . والمراد تحذير المخاطبين المشركين ان يكونوا مثلهم فيصيبهم مثل ما أصابهم من العذاب في الدارين . وقوله تعالى : ﴿ ولقد اهلكنا ما حولكم من القرىٰ ﴾ يعني أهل مكة ، وقد أهلك الأمم المكذبة بالرسل مما حولها ، كعاد بالأحقاف بحضرموت وثمود ما

بينهم وبين الشام ، وسبأ باليمن ، ومدين في طريقهم الى غزة وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرّون بها أيضاً . وقوله عز وجل : ﴿ وصرفنا الآيات ﴾ أي أوضحناها ﴿ لعلهم يرجعون فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ﴾ أي فهل نصروهم عند احتياجهم إليهم ﴿ بل ضلّوا عنهم ﴾ أي بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿ وذلك إفكهم ﴾ أي كذبهم ﴿ وما كانوا يفترون ﴾ في اتخاذهم إياهم آلهة وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها والله تعالى أعلم .

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ❁ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ❁ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ❁ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ❁ (٣٢)

روى الإمام أحمد عن الزبير ١٣٦ [﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ قال بنخلة ، ورسول الله ﷺ يصلّي العشاء الآخرة ﴿ كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ قال سفيان ألبدَ بعضهم على بعضٍ كاللبد بعضه على بعض]

روى الإمام الشهير ابو بكر البيهقي في كتابه دلائل النبوة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ١٣٧ [ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم . انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وارسلت عليه الشهب فرجعت الشياطين الى قومهم فقالوا ما لكم ، فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلاّ شيء قد حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين

خبر السماء . فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة، عامداً الى سوق عكاظ وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر . فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء . فهنالك حين رجعوا الى قومهم، ﴿ فقالوا : إنّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ وأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ قل أوحي إليّ انه استمع نفرٌ من الجن ﴾ وإنما أوحي اليه قول الجن]. رواه البخاري عن مسدد بنحوه ، وأخرجه مسلم عن شيبان بن فروخ عن أبي عوانة ، ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من حديث ابي عوانة .

روى أبو بكر بن أبي شيبة عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال ١٣٨ [هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا قال : صه وكانوا تسعةً أحدهم زوبعة . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين – الى – ضلال مبين ﴾] فهذا .. مع رواية ابن عباس رضي الله عنهما يقتضي ان رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة وانما استمعوا قراءته ثم رجعوا الى قومهم ، ثم بعد ذلك وفدوا اليه أرسالاً قوماً بعد قوم وفوجاً بعد فوج ، كما ستأتي بذلك الأخبار في موضعها .

قال الحافظ البيهقي : وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما انما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ ، وعلمت حاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ، ولم يرهم ، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ودعاهم الى الله عز وجل كما رواه عبدالله بن مسعود ، رضي الله عنه .

روى الإمام أحمد عن علقمة قال : ١٣٩ [قلت لعبدالله بن مسعود رضي الله عنه : هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحدا ؟ فقال : ما صحبه منا أحد ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة ، فقلنا اغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال : فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم. فلما كان في وجه الصبح – أو قال – في السحر إذا نحن به يجيء من قبل حراء ، فقلنا يا رسول الله : فذكروا له الذي كانوا فيه فقال : « إنه أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم » قال : فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم قال : قال الشعبي : سألوه الزاد ، قال عامر : سألوه بمكة وكانوا من جن الجزيرة فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه

يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بعرة أوروثة علف لدوابكم ـ قال ـ فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم من الجن] » . هكذا رواه مسلم في صحيحه .

(طريق أخرى) فيها إنه ـ الى ابن مسعود ـ كان معه ليلة الجن. روى ابن جرير رحمه الله تعالى عن ابي عثمان بن شيبة الخزاعي وكان من أهل الشام قال : ان عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة ١٤٠ [من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل» فلم يحضر منهم أحد غيري . قال فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة ، خطَّ لي برجله خطاً ، ثم أمرني أن أجلس فيه. ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن فغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ، ثم طفقوا يتقطّعون مثل قطع السحاب ذاهبين ، حتى بقيَ منهم رهط ، ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر فانطلق فتبرّز ثم أتاني فقال : « ما فعل الرهط ؟» قلت : هم أولئك يا رسول الله فأعطاهم عظماً وروثاً زاداً . ثم نهىٰ أن يستطيب أحد بروثٍ أو عظـــم] .

= يتضح ممّا تقدم من أحاديث ، أن رسول الله ﷺ إستمع إليه نفر من الجن دون أن يعلم بهم وقد أخبره بذلك ثم تبين من حديث علقمة وحديث عثمان بن شيبة الخزاعي كلاهما عن ابن مسعود ان رسول الله ﷺ ذهب الى الجن قصداً ، فتلا عليهم القرآن ودعاهم الى الله عز وجل . وكان ابن مسعود معه ولكن أمره أن يجلس بعيداً بعد أن خط له خطاً أمره ﷺ ان لا يجتازه خشية ان تخطفه الجن. وكل هذا كان بمكة أما الجن الذين لقوه بنخلة ، فجن نينوى . وأما الجن الذين لقوه بمكة بالحجون ، فجن نصيبين .

على أن ابن عباس الذي رويُ عنه أنه نفى أن يكون عليه الصلاة والسلام اجتمع بالجن إنما هم اجتمعوا إليه ، وسمعوا منه القرآن دون أن يعلم. فقد روي عنه أيضاً أنه ﷺ اجتمع بهم ، كما قال ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وإذصرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ قال كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول ﷺ رسلاً إلى قومهم .

فهذا يدل على ان ابنُ عباس رضي الله عنهما قد رویٰ القصتين . نفياً وإثباتاً . وقد اختلف بعدد الجن الذين وفدوا على رسول الله ﷺ ، فقيل تسعة أتوه من أصل نخلة ، وقيل خمسة عشر ، وقيل ثلثمائة ، وقيل اثني عشر ألفاً . فلعل هذا الاختلاف دليل على

تكرار الوفادة عليه ﷺ من قبلهم . كما ان وفود الجن كانت تأتيه ﷺ الى المدينة. كما روي ذلك عن ابن مسعود والزبير بن العوام . ولكن في رواية ابن مسعود مجهولاً ورواية الزبير ابن العوام بقيّة بن الوليد وهو مدلس مما دعانا أن نضرب صفحاً عن تسجيل الحديثين وقد اخترنا من الأحاديث الواردة ما يفي بالمراد بغية الاختصار غير المخل وأهملنا ما لا كبير أهمية بذكره لبعض أخبار عن الجن ذكرها ابن كثير رحمه الله استطراداً [١] . =

وقوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ أي طائفة منهم ﴿ يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا ﴾ أي استمعوا ... وهذا أدب منهم .

وقد روى الحافظ البيهقي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال : ١٤١ [قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال: « ما لي أراكم سكوتاً ؟ لَلْجِنُّ كانوا أحسن منكم رداً ، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ إلاَّ قالوا : ولا بشيء من آلائك أو نعمك ، ربنا نكذب فلك الحمد »] ورواه الترمذي.

وقوله عز وجل : ﴿ فلما قُضِيَ ﴾ أي فرغ كقوله تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾ ﴿ ولَّوْا إلى قومهم منذرين ﴾ أي رجعوا الى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من القرآن من فم رسول الله ﷺ كقوله جل وعلا: ﴿ ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ وقد استُدِل بهذه الآية على انه في الجن نذر وليس فيهم رسل ،أنبياء — ولا شك أن الجن لم يبعث الله تعالى منهم رسولاً لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم من أهل القرى ﴾ فأما قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والأنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ فالمراد من مجموع الجنسين فيصدق على احدهما وهو الإنس كقوله ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ أي أحدهما .

ثم انه تعالى فسر انذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم : قالوا ﴿ يا قومنا إنا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى ﴾ ولم يذكروا عيسى ، لأن عيسى عليه الصلاة والسلام أنزل عليه الأنجيل فيه مواعظ ورقائق وقليل من التحليل والتحريم وهو في الحقيقة كالمتمّم لشريعة التوراة فالعمدة هو التوراة . فلهذا قالوا : ﴿ أنزل من بعد موسى ﴾ ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله . وقوله تعالى : ﴿ يهدي إلى الحق ﴾ أي في الاعتقاد والأخبار ﴿ وإلى طريق مستقيم ﴾ في الأعمال فإن القرآن مشتمل على شيئين : خبر وطلب ، فخبره صدق وطلبه عدل .

(١) ما بين المساوين من كلامي لا من كلام المفسر رحمه الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربّك صدقاً وعدلاً ﴾ . وقوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ يا قومنا أجيبوا داعي الله ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس. حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم ،وهي سورة الرحمن.ولهذا قال : ﴿ اجيبوا داعي الله وآمنوا به ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾ أي ويقيكم من عذابه الأليم ، وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنّة وإنّما جزاء صالحيهم أن يجارَ من عذاب النار يوم القيامة وهذا قول فيه نظر ، والحق أُن مؤمنيهم كمؤمني الأنس يدخلون الجنة كما هو مذهب جماعة من السلف بدليل : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ فقد امتن الله تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنّة وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الأنس فقالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد . فلم يكن تعالى ليمتن عليهم بجزاء لا يحصل لهم ، وإذا كان يجازي كافرهم بالنار وهو مقام عدل فلأن يجازي مؤمنهم بالجنة وهو مقام فضل بطريق الأولى والأحرى . ومما يدلّ أيضاً على ذلك عموم قوله تعالى: ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً ﴾ وما أشبه ذلك من الآيات ثم قال مخبراً عنهم ﴿ ومن لا يُجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ﴾ بل قدرة الله شاملة له محيطة به﴿ وليس لهم من دونه أولياء ﴾ أي لا يجيرهم منه أحد ﴿ أولئك في ضلالٍ مبين ﴾ وهذا مقام تهديد وترهيب فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب ، ولهذا نجع في كثير منهم وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً كما تقدم بيانه ولله الحمد والمنّة والله أعلم .

۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۞(٣٤) فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ

يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ۞ (٣٥)

يقول تعالى : أولم ير هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿ أن الله خلق السموات والأرض ولم يعْيَ بخلقهن ﴾ أي ولم يكن شديداً عليه ذلك بل قال لها: كوني فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجلة. أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ ﴿ بلى إنه على كل شيء قدير ﴾

ثم قال جل جلاله متهدداً لمن كفر به: ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق ﴾ أي يقال لهم أما هذا حقّ ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ؟ ﴿ قالوا بلى وربّنا ﴾ أي لا يسعهم إلاّ الاعتراف ﴿ قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ ثم أمر تعالى رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ أي على تكذيب قومهم لهم وأشهر الأقوال أن أولي العزم هم : نوح إبراهيم موسى ، عيسى ، محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام .

وقد روى ابن أبي حاتم عن مسروق قال ١٤٢ [قالت لي عائشة رضي الله عنها : ظلّ رسول الله ﷺ صائماً ثم طواه ثم ظل صائماً ثم طواه ثم ظل صائماً ثم قال : « يا عائشة ان الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله تعالى لم يرضَ من أولي العزم من الرسل إلاّ بالصبر على مكروهها والصبر على محبوبها ثم لم يرض مني إلا ان يكلفني ما كلفهم فقال : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ولا قوّة إلاّ بالله »] ﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ أي لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم كقوله تعالى: ﴿ فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾

وقوله تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار ﴾

كقوله تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاّ عشية أو ضحاها ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ بلاغ ﴾ أي هذا القرآن بلاغ وقوله تعالى : ﴿ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ أي وهذا من عدله عز وجل أنه لا يعذب إلاّ من يستحق العذاب والله أعلم .

آخر اختصار تفسير سورة الأحقاف ولله الحمد

والمنّة وبه التوفيق والعصمة والسداد

(٤٧) سورة محمد مدنية وآياتها ثمان وثلاثون

إلاّ الآية / ١٣ /فقد نزلت في الطريق أثناء الهجرة . نزلت بعد سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞(١)
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۞ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۞ (٣) ﴾

يقول تعالى : ﴿ الذين كفروا ﴾ أي بآيات الله ﴿ وصدوا ﴾ غيرهم ﴿ عن سبيل الله أضلّ أعمالهم ﴾ أي أبطلها.كقوله تعالى : ﴿ وقدِمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ ثم قال جل وعلا : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم بالله وانقادت جوارحهم لشرعه باطناً وظاهراً ﴿ وآمنوا بما نزّل على محمد ﴾ عطف خاص على عام وهو دليل على أنه شرط في صحة الايمان بعد بعثته ﷺ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وهو الحق من ربهم ﴾ جملة معترضة حسنة. ولهذا قال جل جلاله﴿ كفّر عنهم سيئآتـهم وأصلح بالهم ﴾ أي حالهم.وقد جاء في حديث تشميت العاطس : ١٤٣ [يهديكم الله ويصلح بالكم] ثم قال عز وجل : ﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ﴾ أي إنمـا أبطلنا أعمال الكفار لأن الذين كفروا اختاروا الباطل على الحق ﴿ وان الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ أي يبين لهم أعمالهم ، وما يصيرون إليه في معادهم والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۞ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۞ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۞ (٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۞ (٧) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۞ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۞ (٩) ﴾

يرشد تعالى المؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ أي فاحصدوهم حصداً بالسيوف ﴿ حتى اذا أثخنتموهم ﴾ أي أهلكتموهم قتلاً ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ أي وثاق الأسرى الذين تأسرونهم ، ﴿ فإما منّاً بعدُ وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيّرون في أمرهم : إن شئتم مننتم عليهم فاطلقتموهم مجاناً ، أو شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم ، وتشارطونهم عليه. والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، فقد عاتب الله تعالى المؤمنين على الاستكثار من الأسارى والتقليل من القتل ليأخذوا منهم الفداء فقال تعالى : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ وقيل إن آية : ﴿ فإما منّاً بعد وإما فداءً ﴾ منسوخة بقوله تعالى ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ وهذا قول ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي وقال آخرون وهم الأكثرون ، ليست منسوخة ثم قال بعضهم إنّما الإمام مخيّر بين المنّ والمفاداة فقط ، ولا يجوز قتله. وقال آخرون منهم: بل له ان يقتله ان شاء
لحديث١٤٤ [قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر] :
١٤٥[وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له : « ما عندك يا ثمامة »؟ فقال : ان

تقتل تقتل ذادَمٍ ، وإن تمنُن تمنُن على شاكر ، وإن كنت تريد المال فاسأل تعطَ منه ما شئت] وزاد الشافعي رحمة الله عليه فقال : الإمام مخير بين قتله أو المنّ عليه أو مفاداته أو استرقاقه أيضاً ، وهذه المسألة محررة في مواضعها من كتب الأحكام .

وقوله عز وجل : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ قال مجاهد : حتى ينزل عيسى بنُ مريم عليه الصلاه والسلام وكأنه أخذه من قوله ﷺ :١٤٦[لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجّال] وروى الإمام أحمد عن جبير بن نفير : ١٤٧[أن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : إني سيّبتُ الخيل ، وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها. وقلت : لا قتال ، فقال له النبي ﷺ « الآن جاء القتال لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يزيغ الله تعالى قلوب أقوام ، فيقاتلونهم ، ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ألا إن عقد دار المؤمنين بالشام ، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة »] وهكذا رواه النسائي من طريقين عن جبير بن نفير عن سلمة بن نفيل به وهذا ما يقويّ القول بعدم النسخ كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب . وقوله تعالى : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ أي لانتقم من الكافرين بعقوبة من عنده ﴿ ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد ليختبركم ، كقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ ولما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال تعالى : ﴿ والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ﴾ أي لن يذهبها بل يضاعفها وينميّها ، ومنهم من يجرى عليه عمله طول برزخه . روى أحمد عن قيس الجذامي – رجل كانت له صحبة – قال قال رسول الله ﷺ : ١٤٨[يعطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلّى حلة الإيمان] وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو وابي قتادة رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال :١٤٩[يغفر للشهيد كلّ شيء إلاّ الدَّيْن] وروى أبو الدرداء رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ ١٥٠[يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته] وقوله تبارك وتعالى : ﴿ سيهديهم ﴾ أي إلى الجنة وقوله تعالى : ﴿ ويصلح بالهم ﴾ أي أمرهم وحالهم ﴿ ويدخلهم الجنة عرّفها لهم ﴾ أي عرفهم بها وهداهم إليها. روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ١٥١[إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، يتقاصّون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هُذّبوا ونُقّوا أذن لهم في دخول الجنة ، والذي نفسي بيده

إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا] .

ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل ولهذا قال تعالى : ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾ كما جاء في الحديث ١٥٢ [من بلّغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع ابلاغها ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة] ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ والذين كفروا فتعساً لهم ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال ١٥٣ [تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش] أي فلا شفاه الله عز وجل وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ أي أحبطها وأبطلها. ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله ﴾ أي لا يريدونه ولا يحبونه ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾ .



﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۞ (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۞ (١١) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَامُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ۞ (١٢) وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۞ (١٣) ﴾

يقول تعالى : ﴿ أفلم يسيروا ﴾ يعني المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿ في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم ﴾ أي عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم ونجّى المؤمنين من بين أظهرهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ ثم قال جل جلاله ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ ولذلك أمر رسول الله

ﷺ المسلمين يوم فرغوا من وقعة أحد ـ أن يجيبوا أبا سفيان لما قال لهم : لنا العزّى لا عزّى لكم ـ « الله مولانا ولا مولى لكم » .

ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي يوم القيامة ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴾ أي في دنياهم ... وليس لهمَ همٌّ إلا ذلك ولهذا ثبت في الصحيح :٥٤[المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء] أي كأن له سبعة أمعاء كنايةً عن كثرة أكله ثم قال تعالى : ﴿ والنار مثوى لهم ﴾ أي يوم جزائهم . وقوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك ﴾ يعني مكة ﴿ أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ وهذا تهديد ووعيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ . فإذا كان الله عزّ وجل قد أهلك الأممَ قبلهم بسبب تكذيبهم لرسلهم ـ وقد كانوا أشدّ قوّة من هؤلاء فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والآخرة وقد كذبوا أعظم الرسل وأكرمَهم على الله وخاتمهم عبده ورسوله محمداً صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۞ (١٤) مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ۞ (١٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ أفمن كان على بيّنة من ربّه ﴾ أي على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه ﴿ كمن زيّن له سوء عمله واتّبعوا أهواءَهم ﴾ أي ليس هذا كهذا. كقوله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ ثم قال عز وجل : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ أي وصفها ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ أي غير متغير الرائحة ولا كدر فيه ، ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة ﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر

الدنيا بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل ﴿ وأنهار من عسل مصفّى ﴾ في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح .

قال الإمام أحمد عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ١٥٥[في الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر، ثم تشقق أنهار منها بعد]ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح . وفي الصحيح ١٥٦[إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن] .

وقوله تعالى : ﴿ ولهم فيها من كل الثمرات ﴾ كقوله جلّ وعلا : ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ ﴿ ومغفرة من ربهم ﴾ أي مع كل ذلك. وقوله تعالى: ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ أي هؤلاء الذين ذكرت منزلتهم في الجنة كمن هو خالد في النار ؟ أي ليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات ﴿ وسقوا ماءً حميماً ﴾ أي حاراً شديد الحر لا يستطاع ﴿ فقطع أمعاءهم ﴾ أي قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء عياذاً بالله من ذلك .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۞ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۞ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ۞ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ۞ (١٩) ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم ، إذ يستمعون منه ﷺ ولا يفهمون وإذا خرجوا من عنده ﴿ قالوا للذين أوتوا العلم ﴾ من الصحابة رضي الله عنهم ﴿ ماذا قال آنفاً ﴾ أي الساعة لا يعقلون ماذا قال ولا يكترثون ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح ثم قال عز وجل: ﴿ والذين

اهتدوا زادهم هدى ﴾ وزادهم وثبتهم على هدايتهم ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ أي ألهمهم رشدهم. وقوله تعالى : ﴿ فهل ينظرون إلاّ الساعة أن تأتيهم بغتةً ﴾ أي فجأةً ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ أي علامات اقترابها. كقوله جل وعلا : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل والأنبياء الذي أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين . وقال البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه ١٥٧.[رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تليها : « بعثت أنا والساعة كهاتين »] ثم قال تعالى: ﴿ فأنّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ أي فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرىٰ ﴾ وقوله عز وجل ﴿ فاعلم أنه لا إله إلاّ الله ﴾ هـــذا إخبار بأنه لا إله إلاّ الله ، ولا يتأتّى كونه آمراً بعلم ذلك [1] ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ وفي الصحيح : ان رسول الله ﷺ كان يقول ١٥٨[اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي واسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني ، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي] وفي الصحيح ١٥٩[انه كان يقول في آخر الصلاة اللهم أغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني انت إلهي لا إله إلاّ أنت»] وفي الصحيح أنه قال ١٦٠[يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فاني استغفر الله وأتوب اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة] .

وروى أبو يعلى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : ١٦[عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار فأكثروا منهما فإن إبليس قال: إنما هلكت الناس بالذنوب واهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون] وقوله تعالى : ﴿ والله يعلم متقلّبكم ومثواكم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ .

۞ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

(١) قلت : إن « لا إله إلا الله » هذه الكلمة الطيبة ، يجب أن يقولها المؤمن عالماً بمعناها و بمستلزماتها بنفي الألوهية عن كل شيء و إثباتها لله وحده لا شريك له. كما أن لها حقوقاً يجب أن يتحقق بها قائلها فهماً و تطبيقاً ، فلا ينقضها بقولٍ أو عمل. أما ترديدها بلا فهم و لا علم بمعناها و لا تحقق بما يجب من حقوقها. . . فلا ينتفع بها قائلها شيئاً.

يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۞ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ۞ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞ (٢٢) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ۞ (٢٣)

يخبر تعالى عن المؤمنين أنهم تمنّوا شرعية الجهاد . فلما فرضه الله عز وجل وأمر به نكل عنه كثير من الناس. كقوله تبارك وتعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفّوا أيديكم واقيموا الصلاة وآتو الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لما كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾ وقال عز وجل ها هنا : ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ﴾ أي مشتملة على حكم القتال.ولهذا قال تعالى : ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت ﴾ أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . ثم قال مشجّعاً لهم ﴿ فأولى لهم طاعة وقول معروف ﴾ أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا أي في الحالة الراهنة ﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ أي جدّ الحال . وحضر القتال ﴿ فلو صدقوا الله ﴾ أي أخلصوا له النيّة ﴿ لكان خيراً لهم ﴾ .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فهل عسيتم إن تولّيتم ﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿ أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ أي تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية الجهلاء تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام.ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم ﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً ، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال وقد وردت الأحاديث الصحيحة والحسان بذلك نذكر منها ما ييسره الله تعالى .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ١٦٢ [« خلق الله تعالى الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوي الرحمن عز وجل فقال : مه .فقالت

هذا مقام العائذ بك من القطيعة فقال تعالى : ألا ترضين أن أصل من وصلك واقطع من قطعك ؟ قالت بلى ، قال فذاك لك » قال أبو هريرة رضي الله عنه : اقرأوا ان شئتم ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتُقَطِّعوا أرحامكم ﴾] ثم رواه البخاري من طريقين آخرين عن معاوية بن أبي مزرد به قال١٦٣[قال رسول الله ﷺ إقرأوا ان شئتم : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتُقَطِّعُوا أرحامكم ﴾] ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبي مزرد به .

روى الإمام أحمد عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ١٦٤[ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم] ورواه ابو داود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي هذا حديث صحيح .

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ١٦٥[ان الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذي اذا قطعت رحمه وصلها] رواه البخاري .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝ (٢٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ۝ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ (٢٨) ﴾

يأمر تعالى بتدبُّر القرآن وتفهّمه وناهياً عن الإعراض عنه. فقال سبحانه: ﴿ أفلا يتدبَّرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ أي بل على قلوب أقفالها فهي مطبقة لا يخلص اليها شيء من معانيه. ثم قال تعالى: ﴿ إن الذين ارتدُّوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ﴾ أي فارقوا الايمان ورجعوا إلى الكفر ـ والعياذ بالله تعالى من سوء المنقلب ـ ﴿ من بعد ما

تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم ﴾ أي زين لهم ذلك وحسّنه ﴿ وأملى لهم ﴾ أي غرَّهم وخدعهم ﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر ﴾ أي مالؤوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون. ولهذا قال جل جلاله : ﴿ والله يعلم إسرارهم ﴾ أي ما يخفون كقوله تعالى : ﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فكيف إذا توفّتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم ، وتعاصَّت الأرواح في أجسادهم واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب كقوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفّى الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ الآية ... ﴿ ذلك بأنهم اتّبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ — نعوذ بالله من غضبه ونقمه —

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ۞ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ۞ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ۞ (٣١) ﴾

يقول تعالى : ﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يُخرجَ الله أضغانهم ﴾ أي أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر ، وقد أنزل الله تعالى في سورة براءة فبيّن فيها فضائحهم ، وما يعتمدونه من الأفعال الدّالة على نفاقهم ، ولهذا كانت تسمى الفاضحة .

والأضغان : جمع ضغن. وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله ، والقائمين بنصره . وقوله تعالى : ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ﴾ ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين حملاً للأمور على ظاهر السلامة ورداً للسرائر إلى عالمها ﴿ ولتعرفنّهم في لحن القول ﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم ، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول . كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : ما أسر أحد سريرة إلاّ أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين ، قال الإمام أحمد عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال ١٦٦ [خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله

تعالىٰ وأثنى عليه ثم قال : « ان منكم منافقين فمن سمّيتُ فليقمْ ، ثم – قال – قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان – » حتى سمىٰ ستة وثلاثين رجلاً ثم قال : « ان فيكم أو منكم – منافقين فاتقوا الله » قال فمر عمر رضي عنه برجل ممن سمّى مقنع قد كان يعرفه فقال : مالك ؟ فحدّثه بما قال رسول الله ﷺ فقال : بعداً لك سائر اليوم .]

وقوله عز وجل: ﴿ولنبلونّكم﴾ ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ وهو أعلم بها وليس في علم الله شك أو ريب انما المراد حتى يرى وقوع الأعمال المستندة للأوامر والنواهي ولهذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما : « إلاّ لنعلم ، أي لنرى » .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَاقُّوا ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ۞ (٣٢) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ۞ (٣٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۞ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ۞ (٣٥)﴾

يخبر تعالى عمن كفر وصدّ عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقّه وارتدّ عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى إنه لن يضر الله شيئاً ، وانما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف عمله الذي عقّبه بردةٍ ولا مثقال بعوضة من خير بل يحبطه ويمحقه بالكلية ، كما أن الحسناتِ يذهبن السيئات .

روى الإمام أحمد عن طريق عبدالله بن المبارك ... عن ابن عمر رضي الله عنهما قال ١٦٧[كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلاّ مقبول حتى نزلت : ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ فقلنا ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل قوله تعالى : ﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك فكنّا

نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها] .

ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدارين ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم﴾ أي بالردّة.ولهذا قال بعدها : ﴿ إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفّار فلن يغفر الله لهم ﴾ ثم قال جل وعلا لعباده المؤمنين : ﴿ فلا تهنوا ﴾ أي لا تضعفوا عن الأعداء ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ أي المهادنة والمسالمة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عددكم وعُددكم. ولهذا قال تعالى : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ﴾ أي في حال علوّكم على عدوّكم ، فأمّا إذا كان الكفار فيهم قوّة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة فله ان يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ حين صدّه كفّار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم ﷺ إلى ذلك. وقوله جلت عظمته : ﴿والله معكم﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ﴿ ولن يتركم أعمالكم ﴾ أي ولن يحبطها ويسلبكم إيّاها بل يوفّيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً ، والله تعالى أعلم .

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ❁ (٣٦) إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ❁ (٣٧) هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ❁ (٣٨) ﴾

يقول الله تعالى تحقيراً لأمر الدنيا : ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ إلاّ ما كان منها لله عز وجل ولهذا قال تعالى : ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴾ بل هو غنيّ عنكم إنّما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساةً لإخوانكم الفقراء ويعود ثوابه إليكم.ثم قال جل جلاله : ﴿ إن يسألكموها فيُحفِكم تبخلوا ﴾ أي

يحرجكم تبخلوا ﴿ ويخرج أضغانكم ﴾ صدق الله تعالى فإن إخراج المال إخراج الأضغان لأن المال محبوب لا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه وقوله تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ﴾ أي لا يجيب إلى ذلك ﴿ ومن يبخلْ فإنما يبخل عن نفسه ﴾ أي أضاع على نفسه الأجر وعود الوبال عليه ﴿ والله الغنيّ ﴾ عما سواه وفقير إليه ما عداه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنتم الفقراء ﴾ أي بالذات إليه فوصفه بالغنى ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكّون عنه . وقوله تعالى : ﴿ وإن تتولّوْا ﴾ أي عن طاعته واتباع شرعه ، ﴿ يستبدلْ قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره .

آخر اختصار تفسير سورة محمّد ﷺ ولله الحمد والمنة وبه العصمة وعليه التكلان

(٤٨) سُورَةُ الفَتْحِ مَدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ

نزلت في الحديبية بعد سورة الجمعة

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا شعبة عن معاوية بن قرة قال : سمعت عبد الله بن مغفل يقول : [قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجّع فيها . قال معاوية لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته] أخرجاه من حديث شعبة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ۝ (١) لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ
مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً
مُسْتَقِيماً ۝ (٢) وَيَنْصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ۝ (٣) ﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ ، من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، حين صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام.فيقضي عمرته فيه وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكرُّهٍ من جماعةٍ من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى . فلما نحر هديه حيث أُحصِر ورجع ، أنزل الله عزّ وجل هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة ، وما آل الأمر إليه . كما روى

ابن مسعود رضي الله عنه ، وغيره انه قال : انكم تعدّون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية. قال البخاري عن البراء رضي الله عنه قال ١٦٨ [تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ، كنّا مع رسول الله ﷺ أربع عشر مائة ، والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا... ثم صبّه فيها فتركناها غير بعيد ، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا] وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ١٦٩ [نزلت على النبي ﷺ ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ مرجعه من الحديبية . قال النبي ﷺ « لقد نزلت علي الليلة آية أحبّ إلي ممّا على الأرض » ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا : هنيئاً مريئاً يا نبي الله بين الله عز وجل ما يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه ﷺ : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار – حتى بلغ – فوزاً عظيماً ﴾] أخرجاه في الصحيحين من رواية قتادة به . وروى الإمام أحمد عن مجمع بن حارثة الأنصاري رضي الله عنه وكان أحدَ القراء الذين قرأوا القرآن قال ١٧٠ [شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحي إلى رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ قال فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أي رسول الله أو فتح هو ؟ قال ﷺ « إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح » قسّمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلاّ من شهد الحديبية فقسمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهماً ، وكان الجيش ألفاً وخمسمائة منهم ثلثمائة فارس فأعطى الفارس سهمين وأعطى الراجل سهماً] . ورواه أبو داود .

وروى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة يقول ١٧١ [كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ : « افلا أكون عبداً شكوراً »] أخرجاه وبقية الجماعة إلا أبا داود من حديث زياد به . فقوله تعالى : ﴿ إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ أي بيّناً ظاهراً. والمراد به صلح الحديبية حصل بسببه خير كثير وآمن الناس ، واجتمع بعضهم إلى بعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والايمان .

وقوله تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ وهذا من خصائصه ﷺ ، وهذا فيه تشريف وتعظيم لرسول الله ﷺ وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة

والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه وهو أكملهم وسيدهم في الدارين وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال عليه الصلاة والسلام يوم الحديبية ١٧٢ [والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله إلاّ أجبتهم إليها] فلما أطاع الله في ذلك واجاب إلى الصلح قال الله تعالى له : ﴿ انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ۞ ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ويتمّ نعمته عليك ﴾ أي في الدارين ﴿ ويهديك صراطاً مستقيماً ﴾ أي بما يشرعه لك من الدين القويم ﴿ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ أي بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل ويرفعك الله وينصرك على أعدائك كما جاء في الحديث الصحيح ١٧٣ [وما زاد الله عبداً بعفو إلاّ عزّاً ، وما تواضع أحد لله عزّ وجل إلاّ رفعه الله تعالى] .

﴿ هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ۞ (٤) لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِنْدَ ٱللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً ۞ (٥) وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ ٱلظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ۞ (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ۞ (٧) ﴾

يقول تعالى : ﴿ هو الذي أنزل السكينة ﴾ أي جعل الطمأنينة ﴿ في قلوب المؤمنين ﴾ يوم الحديبية الذين انقادوا لحكم الله ورسوله فلما اطمأنّت قلوبهم بذلك زادهم الله إيماناً، وفي هذا دليل على تفاضل الإيمان. ولهذا قال سبحانه ﴿ ليزدادوا إيماناً ﴾ ثم ذكر تعالى انه لو شاء لأرسل على الكافرين عقاباً من السماء فقال : ﴿ ولله جنود السموات والأرض ﴾ لأبادوهم ولكنه تعالى شرع الجهاد لما في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة. ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ ثم قال عز وجل : ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ قد تقدم حديث أنس رضي الله عنه حين

قالوا : هنيئاً لك يا رسول الله هذا لك فما لنا فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ ليدخل المؤمنين ــ إلى قوله ــ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ ويكفر عنهم سيئاتهم ﴾ أي خطاياهم وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها بل يعفو ويصفح ﴿ وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾ كقوله جلّ وعلا ﴿ فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز ﴾ وقوله تعالى ﴿ ويعذّب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانّين بالله ظنّ السوء ﴾ أي يتهمون الله تعالى في حكمه ويترقبون بالرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أن يُقتلوا ويذهبوا بالكلية . ولهذا قال تعالى : ﴿ عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿ وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ ثم قال عزّ وجل مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء أعداءِ الإسلام من الكفرة والمنافقين. ﴿ ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۝ (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللهَ يَدُ ٱللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ ٱللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ۝ (١٠) ﴾

يقول تعالى لنبيّه ﷺ : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ﴾ أي على الخلق ، ﴿ ومبشّراً ﴾ أي للمؤمنين ﴿ ونذيراً ﴾ أي للكافرين وقد تقدّم تفسيرها في سورة الأحزاب ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد : تعظموه ﴿ وتوقّروه ﴾ أي تحترموه وتجلّوه وتعظموه ــ هذا عائد لرسول الله ﷺ ــ ، ﴿ وتسبحوه ﴾ أي تسبّحون الله تعالى ﴿ بكرةً وأصيلاً ﴾ أي أول النهار وآخره. ثم قال عز وجل لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً : ﴿ ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ كقوله جل وعلا : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾[1] ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ أي هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرىَ مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم وهو : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ــ فالله تعالى هو المبايَع بواسطة رسوله ﷺ كقوله تعالى : ﴿ إن الله اشترى

(١) قلت : لكن « أهل وحدة الوجود يفسرون هذه الآية كما يلي بالحرف الواحد : (... لقد أخبر تعالى ان نبيه محمداً (ص) هو الله تعالى وتقدس...) نعوذ بالله من الكفر . راجع كتاب (شطحات الصوفية) تأليف عبد الرحمن البدوي في رسالة منسوبة لعبد الغني النابلسي . ويد الله صفة له ، معلومة الحقيقة ، مجهولة الكيفية ، لا هي نعمته ، ولا قدرته ، إنما هي يده صفة له حقيقةً لا كالأيدي ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ يد تليق بجلاله وعظمته ، تعالى وتقدس .

من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :١٧٤[من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله] ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه. ﴿ ومن أوفى بما عاهد عليه اللهَ فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾ أي ثواباً جزيلاً. وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت شجرة سمرة بالحديبية. وكان الصحابة رضي الله عنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ ألفاً واربعمائة .

(ذكر سبب هذه البيعة العظيمة)

دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال : يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب من يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها ، ولكني أدلك على رجل أعزّ بها مني عثمان بن عفان رضي الله عنه ، نبعثه إلى أبي سفيان وأُشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنّما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته ، فخرج عثمان رضي الله عنه إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص فأجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ فأتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم ما أرسل به فقالوا لعثمان إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين ، أن عثمان رضي الله عنه قد قتل . قال ابن اسحق : فحدثني عبدالله بن ابي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أنّ عثمان قد قتل ١٧٥ [لا نبرح حتى نناجز القوم] .

ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فبايع الناس ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة فكان جابر رضي الله عنه يقول : والله لكأني أنظر اليه لاصقاً بإبط ناقته قد صبأ إليها يستتر بها من الناس. ثم أتى رسول الله ﷺ أنّ الذي كان من أمر عثمان رضي الله عنه باطل . وقد كانت البيعة على ان لا يفروا أبداً فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين ، ودعوا إلى الموادعة والصلح .

روى ابو بكر الحميدي عن جابر رضي الله عنه قال:١٧٦[كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فقال لنا رسول الله ﷺ : « أنتم خير أهل الأرض »] وروى الإمام أحمد عن

جابر بن عبدالله رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ انه قال ١٧٧[لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة] وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه ١٧٨[ان عبداً لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطباً فقال : يا رسول الله ليدخلن حاطب النار فقال رسول الله ﷺ « كذبت لا يدخلها فانه قد شهد بدراً والحديبية »] ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم : ﴿ ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾ كما قال عز وجل في الآية الأخرى : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ .

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُون بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ ٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً ﴿١٣﴾ وَلِلهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴿١٤﴾

يخبر تعالى رسوله ﷺ ، باعتذار المخلّفين من الأعراب الذين فضّلوا المقام في أهليهم وشغلهم واعتذروا عن الاشتراك مع رسول الله ﷺ في السير معه وسألوه الاستغفار لهم تقيّة ومصانعة . ولهذا قال تعالى : ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ﴾ أي لا أحد يستطيع ردّ مراد الله وهو العليم بالسرائر والضمائر وإن صانعتمونا ونافقتمونا. ولهذا قال عز من قائل : ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ بل ظننتم أنْ لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ﴾ أي اعتقدتم انهم سيقتلون وتستأصل شأفتهم ولا يرجع منهم

مخبر ﴿ وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بورا ﴾ أي هلكى فاسدين. ثم قال تعالى : ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله ﴾ أي من لم يخلص العمل لله ظاهراً وباطناً فانه تعالى سيعذبه في السعير ولو تظاهر للناس بخلاف ما يبطن. ثم بيّن تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي لمن تاب إليه وأناب وخضع لديه .

سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ❁ (١٥)

يخبر تعالى عن الأعراب المتخلفين عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية إذ ذهب الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر يفتحونها - أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم ، وقد تخلّفوا حين محاربة الأعداء . فأمر الله تعالى رسوله ﷺ ألاّ يأذن لهم في ذلك عقاباً لهم من جنس ذنبهم ، فإن الله وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع غير ذلك شرعا ولا قدراً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ قال ابن جريج : يعني بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد ﴿ قل لن تتّبعونا كذلكم قال الله من قبل ﴾ أي وعد الله أهل الحديبية قبل سؤآلكم الخروج معهم ﴿ فسيقولون بل تحسدوننا ﴾ أي أن نشرككم في المغانم ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلاّ قليلاً ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم لهم .

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ❁ (١٦)

لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۞ (١٧)

= اختلف المفسرون في تعيين من هم أولو البأس الشديد الذين سيدعون إلى قتالهم وهذا الاختلاف في تعيينهم ليس ذي بال، فليكونوا من كانوا ... فإن أمر الله تعالى تجب فيه الطاعة والامتثال... مهما كانوا أولي بأس شديد. فما دام المسلمون هم على الحق، ويحاربون من اجل الحق، حتّى تعلو كلمته ويزهق الباطل. فلا شك والحالة هذه ان المسلمين انصار الحق، سيجعلهم الله تعالى أشد بأساً من كل ذي بأسٍ شديد. حتّى ينصر الله دينه ويعلي كلمته. وقد كانوا كذلك حتّى أنهم غلبوا بإذن الله فارسَ والروم، والسند والصين، وأهل مصر والبربر جميعاً، وبلاد الأندلس والفرنجة، فكانوا بحول الله وقوته أشدَّ من كل بأس شديد لأن الله معهم.

هذا من حيث المعنى العام. واما المعنى الخاص: المراد بهذه الآية فإن الخطاب للأعراب المخلَّفين. فهؤلاء هم الذين سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد في عصرهم كهوازن وثقيف وبني حنيفه وغيرهم من أشداء القبائل. =

وقوله تعالى: ﴿ تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ يعني شرع لكم جهادهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، ولكم النصرة عليهم أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار. ثم قال عز وجل: ﴿ فإن تطيعوا ﴾ أي تستجيبوا للجهاد ﴿ يؤتكم الله أجراً حسناً وان تتولَّوا كما تولَّيتم من قبل ﴾ يعني زمن الحديبية فتخلفتم ﴿ يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد فمنها لازم: كالعمى والعرج المستمر. وعارض: كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول فهو ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتّى يبرأ. ثم قال تبارك وتعالى مرغّباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولَّ ﴾ أي ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ﴿ يعذبه عذاباً أليماً ﴾ في الدنيا بالمذلة وفي الآخرة بالنار والله تعالى أعلم.

---

(١) الكلام الذي بين المساويين ليس من كلام المفسر رحمه الله تعالى إنما هو من كلامي.



لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ۞(١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ۞ (١٩)

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة التي كانت سمرة بأرض الحديبية ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ﴿ فأنزل السكينة ﴾ هي الطمأنينة ﴿ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ وهو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة.ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم ، وما قدّر الله لهم من العز والنصر والرفعة في الدارين.ولهذا قال تعالى : ﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ .

روى ابن أبي حاتم عن أياس بن سلمة عن ابيه قال:١٧٩ [بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ ، أيها الناس: البيعة البيعة نزل روح القدس . قال : فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ قال فبايع رسول الله ﷺ لعثمان بن عفان رضي الله عنه بإحدى يديه على الأخرى فقال الناس : هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ، ونحن ههنا فقال رسول الله ﷺ « لو مكث كذا وكذا سنةً ما طاف حتى أطوف»] .

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ۞ (٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ۞ (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً ۞ (٢٢) سُنَّةَ

ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝ (٢٣) وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ (٢٤)

قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ﴾ هي جميع المغانم إلى اليوم ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ يعني فتح خيبر. ﴿ وكفّ أيدي الناس عنكم ﴾ أي لم ينلكم سوءٌ مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال ، وكذلك كف أيدي الناس عنكم ، الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم. ﴿ ولتكون آيةً للمؤمنين ﴾ أي يعتبرون بذلك، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم، على سائر الأعداء مع قلة عددهم. وليعلموا بصنيع الله هذا بهم، أنه العالم بعواقب الأمور ، وان الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين كرهوه في الظاهر... كما قال عز وجل : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ ﴿ ويهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ أي بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته، وموافقتكم رسوله ﷺ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ أي وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسّرها الله عليكم وأحاط بها لكم، فانه تعالى يرزق عباده المتقين من حيث لا يحتسبون. وقد اختلف المفسرون في المراد من هذه الغنيمة ، والذي اختاره ابن جرير انها مكة ، وقال مجاهد : هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة قال ابن عباس رضي الله عنهما : هي هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم .

وقوله تعالى : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوُا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ وهذه بشرى للمؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون، لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولا نهزم جيش الكفر مدبراً لا يجدون ولياً ولا نصيراً، لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين. ثم قال تعالى : ﴿ سنّة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي هذه سنة الله وعادته في خلقه ، ما تقابل الكفر والايمان في موطن إلاّ نصر الله الإيمان على الكفر .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن اظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ هذا أمتنان من الله تعالى : على

عباده المؤمنين ، فكف ايدي المشركين عنهم ، وكف أيديهم عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلاً ...وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين، وعاقبة لهم في الدارين . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال١٨٠ [لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ، ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح من قبل جبل التنعيم ، يريدون غرّة رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا . قال عفان : فعفا عنهم ونزلت هذه الآية : ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ﴾] ورواه مسلم وابو داود في سننه والترمذي والنسائي.

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ۞ (٢٥) إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ۞ (٢٦) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن مشركي العرب من قريش ومن مالأهم على رسول الله ﷺ : ﴿ هم الذين كفروا ﴾ أي هم الكفار دون غيرهم ﴿ وصدّوكم عن المسجد الحرام ﴾ أي وأنتم أحقّ به وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿ والهدْي معكوفاً أن يبلغ محلّه ﴾ أي وصدّوا الهدي أن يصل إلى محلة وكان سبعين بدنة.وقوله عز وجل : ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾ أي بين أظهرهم ممن يكتم ايمانه خيفةً ، ولكن لا تعرفونهم وقد تقتلونهم ولهذا قال تعالى : ﴿ لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرّة ﴾ أي إثم وغرامة ﴿ بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء ﴾ أي يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنون وليرجع كثير منهم إلى الإسلام . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ لو تزيّلوا ﴾ أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿ لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾ أي لسلّطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلاً ذريعاً .

وقوله عزّ وجل : ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهلية ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم . وأبوا أن يكتبوا : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى ﴾ وهي قول « لا إله إلاّ الله » كما روى ابن جرير وعبدالله بن الإمام أحمد عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ١٨١[﴿ والزمهم كلمة التقوى ﴾ قال : « لا إله إلا الله »] وكذا رواه الترمذي وقال غريب لا نعرفه إلاّ من حديث الحسن بن قزعة.وقوله تعالى ﴿ وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ أي كان المسلمون أحقّ بها وكانوا أهلها.﴿ وكان الله بكل شيء عليما ﴾ أي هو عليم بمن يستحق النعيم ممن يستحق العذاب .

« ذكر قصة الحديبية والصلح »

١٨٢[خرج رسول الله ﷺ يريد زيارة البيت والاعتمار به.لا يريد قتالاً.وساق معه سبعين بدنة . ثم سار حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال : يا رسول الله : هذه قريش . قد سمعت بمسيرك فخرجتْ ومعها العوذ المطافيل [(١)] قد لبست جلود النمور يعاهدون الله تعالى ألاّ تدخلها عليهم عنوةً أبداً . وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدّموه إلى كراع الغميم [(٢)] فقال رسول الله ﷺ « يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر الناس فإن أصابوني كان الذي أرادوا وإن أظهرني الله تعالى دخلوا في الإسلام وهم وافرون ، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فماذا تظن قريش . فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهرني الله عز وجل أو تنفرد هذه السالفة [(٣)] ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين ، بين ظهريْ الحمض على طريق تخرجه على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة ، قال فسلك بالجيش تلك الطريق ، فلما رأت خيل قريش قترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم ، ركضوا راجعين إلى قريش ، فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك ثنية المرار بركت ناقته فقال الناس : خلأت [(٤)] فقال رسول الله ﷺ « ما خلأت وما ذلك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة والله لا تدعوني قريش إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلاّ أعطيتهم إياها » .

---

(١) أي النوق ذوات الأطفال . (٢) مكان . (٣)السالفة شعر طويل من مكان من القرظ حتى الترقوة. فقوله أو تنفرد هذا السالفة أي يضرب رأسي بالسيف فتنفرد سالفة عن اختها وهذا القول كناية عن الموت فكأنه يقول : حتى يظهرني الله عز وجل أو أموت بدون دينه . (٤) أي حرنت .

ثم قال ﷺ للناس : « انزلوا » قالوا يا رسول الله ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه ، فنزل في في قليب من القلب فغرزه فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن [1] فلما اطمأن رسول الله ﷺ إذا بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة ، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان ، فرجعوا إلى قريش فقالوا : يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد ﷺ إن محمداً لم يأت لقتال ، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه ، فاتهموهم ، وكانت خزاعة عيبة [2] نصح رسول الله ﷺ مشركها ومسلمها لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة ، فقالت قريش : وان كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عنوةً ولا يتحدث بذلك العرب ثم بعثوا اليه مكرز بن حفص أحد بني عامر بن لؤي. فقال رسول الله ﷺ : « هذا رجل غادر » فلما انتهى اليه ﷺ كلّمه بنحوٍ مما كلّم به من قبله ، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم ... ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ الحليس بن علقمة الكناني وهو يومئذ سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله ﷺ قال « هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدْي » فلما رأى الهدي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله رجع إعظاماً لما رأى فقال يا معشر قريش لقد رأيت ما لا يحل صد الهدي في قلائده قالوا : إجلس انما أنت أعرابي لا علم لك . فبعثوا عروة بن مسعود الثقفي فقال : يا محمد جمعتَ أوباش الناس ثم جئت بهم لبيضتك لنقضها ، إنها قريش قد خرجت بالعوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله تعالى أن لا تدخلها عليهم عنوةً أبداً ، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً ، قال : وابو بكر رضي الله عنه قاعد خلف رسول الله ﷺ فقال : أمصص بظر اللات أنحن ننكشف عنه ؟ قال من هذا يا محمد ؟ قال ﷺ « هذا ابن أبي قحافة » قال : أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ، ولكن هذه بها . ثم تناول لحية رسول الله ﷺ والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه واقف على رأس رسول الله ﷺ بالحديد ، قال : فقرع يده ثم قال أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل والله أن لا تصل إليك قال : ويحك ما أفظك وأغلظك ! فتبسّم رسول الله ﷺ قال : من هذا يا محمد ؟ قال ﷺ « هذا ابن اخيك المغيرة بن شعبة » قال : أغدر ، وهل غسلت سوأتك إلاّ بالأمس ؟ قال فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به من جاء قبله فقام من عند رسول الله ﷺ ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه لا يتوضأ وضوءً إلا ابتدروه ، ولا يبصق

(١) أي وردوا الماء ورووا منه ثم أقاموا عليه . (٢) أي موضع سره صلى الله عليه وسلم .

بصاقاً إلاّ ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شيء إلاّ أخذوه ، فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش : إني جئت كسرى في ملكه ، وجئت قيصر والنجاشي في ملكهما ، والله ما رأيت ملكاً قط مثل محمد ﷺ في أصحابه ولقد رأيت قوماً لا يسلّمونه لشيء أبداً فروْا رأيكم . وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها . ثم إن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو وقالوا : إئت محمداً فصالحه ولا تلن في صلحه إلا ان يرجع عنّا عامَه هذا. فأتاه سهيل بنُ عمرو فلمّا رآه رسول الله ﷺ قال : « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلّم رسول الله ﷺ في الصلح وأطالا الكلام وتراجعا حتى جرى الصلح بينهما فلما لم يبق إلاّ الكتاب وثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأتى أبا بكر رضي الله عنه فقال : يا أبا بكر أوليس برسول الله ؟ أو لسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ قال بلى فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ فقال ابو بكر : إلزم غرزه حيث كان فإني أشهد أنه رسول الله فقال عمر رضي الله عنه : وأنا أشهد ، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أولسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ قال ﷺ : بلى... قال : فعلامَ نعطي الدنيّة في ديننا ؟ فقال ﷺ : « أنا عبدالله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيّعني » ثم قال عمر رضي الله عنه : ما زلت أصوم وأصلي وأتصدّق وأعتق مِنَ الذي صنعت مخافةَ كلامي الذي تكلمتُ به يومئذٍ ، حتى رجوت ان يكون خيراً .

* * *

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن أكتب : باسمك اللهم . فقال رسول الله ﷺ « اكتب باسمك اللهم . « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » فقال سهيل بن عمرو : لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلْك ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله وسهيل ابنَ عمرو على وضع الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى رسول الله ﷺ من اصحابه بغير اذن وليه رده عليه.ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردّوه عليه.وأن بيننا عيبة مكفوفة وانه لا أسلال ولا أغلال . وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، فدخلت خزاعة في حلف رسول الله ﷺ ، وبنو بكر في حلف قريش . وانك ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا

مكة واذا كان عام قابل،خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك وأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب .

فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ . وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكّون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمّل رسول الله ﷺ على نفسه ، دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا أن يهلكوا . فلما رأى سهيلُ أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال : يا محمد قد تمّت القضيّة بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : « صدقت » فقام إليه فأخذه بتلابيبه وصرخ أبو جندل بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنونني عن ديني ؟ ! فزاد الناس شراً إلى ما بهم ، فقال رسول الله ﷺ « يا أبا جندل إصبر واحتسب فإن الله تعالى جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهداً وإنّا لن نغدر بهم » فوثب اليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فجعل يمشي مع أبي جندل إلى جنبه ويقول إصبر أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنّما دم أحدهم دم كلب ، قال ويدني قائم السيف منه يقول : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه . قال فضنّ الرجل بأبيه ، قال ونفذت القضيّة .

* * *

فلما فرغا من الكتاب ، وكان رسول الله ﷺ يصلي في الحرم وهو مضطرب في الحل قال فقام رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس انحروا واحلقوا فما قام أحد ثم عاد ﷺ بمثلها فما قام رجل ثم عاد ﷺ بمثلها فما قام رجل . فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة رضي الله عنها فقال يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت: يا رسول الله قد دخلهم ما رأيت ، فلا تكلمن منهم إنساناً واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق فلو قد فعلت ذلك، فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى إذا أتى هديه فنحره ثم فجلس فحلق ، فقام الناس ينحرون ويحلقون ، حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق نزلت سورة الفتح] رواه أحمد عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم هكذا ساقه أحمد من هذه الوجه.وهكذا رواه يونس بن بكير وزياد البكائي عن أبي إسحاق بنحوه.ورواه البخاري عنهما أي عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، يصدّق كل واحد منهما صاحبه قالا ... ثم ذكر نحوه ...

وفي رواية البخاري١٨٣[... ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من

قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا : العهد الذي جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً ، فاستلّه الآخر فقال : أجل والله إنّه لجيد لقد جربت منه ثم جربت . فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه حتى برد ، وفرّ الآخر حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه « لقد رأى هذا ذعراً » فلما انتهى إلى النبيّ ﷺ قال : قتل والله صاحبي وإني لمقتول . فجاء ابو بصير فقال : يا رسول الله قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني اليهم ثم نجاني الله تعالى منهم. فقال النبي ﷺ « ويل امّه مسعر حرب لو كان معه أحد »

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، قال وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة ، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرَّحِمَ لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم وانزل الله عز وجل : ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة ــ حتى بلغ ــ حمية الجاهلية ﴾ ...] هكذا ساقه البخاري من بعض حديثه .

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّؤْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ۞ (٢٧) هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً ۞ (٢٨) ﴾

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت ، فأخبر أصحابه بذلك وهو في المدينة ، فلما ساروا عام الحديبية لم يشكّ جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام ، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل ، وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء حتى سأل عمر بن

الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال ١٨٤[أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال« بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ » قال : لا. قال النبي ﷺ : « فإنك آتيه ومطوّف به »] ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده وليس من الاستثناء في شيء وقوله عزّ وجل: ﴿ آمنين ﴾ في حال دخولكم . وقوله تعالى: ﴿ محلّقين رؤوسكم ومقصّرين ﴾ فكان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره . وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال ١٨٥[رحم الله « المحلقين » قالوا : والمقصّرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « رحم الله المحلّقين » قالوا والمقصّرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ « رحم الله المحلّقين » قالوا : والمقصّرين يا رسول الله قال ﷺ : « والمقصّرين » في الثالثة أو الرابعة] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لا تخافون ﴾ فأثبت لهم الأمن حال الدخول ، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد . وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنةَ سبع فان النبيّ ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة سنه ست إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه، بعضها عنوة وبعضها صلحاً وهي اقليم عظيم كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وحدَهم ، ولم يشهدها أحد غيرهم ، إلا الذين قدموا من الحبشة جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضي الله عنهم .

فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذي الحليفة وساق معه الهدي ، قيل كان ستين بدنة فلبّى وسار أصحابه يلبّون فلما كان ﷺ قريباً من مرّ الظهران بعث محمد بن سلمة بالخيل والسلاح أمامه فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً... ! وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد، فأخبروا أهل مكة فأرسلوا مكرز بن حفص فقال: يا محمد ما عرفناك تنقض العهد! فقال ﷺ « وما ذاك»؟ قال دخلت علينا بالسلاح والقسيّ والرماح؟ ! ! ! فقال ﷺ « لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج » . فقال: بهذا عرفناك بالبر والوفاء . وخرجت رؤوس الكفّار من مكة، لئلاّ ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى اصحابه رضي الله عنهم غيظاً وحنقاً . وأما بقيّة أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطريق وعلى البيت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبّون ، والهدْي قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية ، وعبدالله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها وهو يقول :

باسم الـذي لا دين إلا دينـه باسم الذي محمـد رسولـه
خلوا بني الكفار عـن سبيلـه اليوم نضربكم عـلى تأويلـه
كما ضربناكم عـلى تنزيلـه ضرباً يزيل الهام عـن مقيله
ويذهـل الخليل عن خليلـه قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صحف تتلى عـلى رسوله بـأن خير القتـل في سبيله
يا رب إني مؤمن بقيله

روى أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ١٨٦ [قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها سوءً فقال المشركون : انه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها شراً. وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر ، فأطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ما قالوا ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، ليرى المشركون جلدهم . قال : فرملوا ثلاثة أشواط ، وأمرهم ان يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون ، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلاّ إبقاءً عليهم ، فقال المشركون : أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا] أخرجاه في الصحيحين وروى أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه قال ١٨٧ [إنّما سعى النبيّ ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة ليرى المشركون قوته] ورواه مسلم والنسائي .

وقوله تعالى : ﴿ فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ أي فعلم الله عز وجل من المصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ، ما لم تعلموا أنتم. ﴿ فجعل من دون ذلك ﴾ أي قبل دخولكم الذي وُعِدتم به في رؤيا النبي ﷺ ﴿ فتحاً قريباً ﴾ وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ﴾ أي بالعلم النافع والعمل الصالح ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ أي على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ أي أنه رسوله وهو ناصره والله أعلم .

۞ مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ

وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسول الله حقاً بلا شك ولا ريب فقال سبحانه ﴿ محمد رسول الله ﴾ وهذا مشتمل على كل وصفٍ كريم جميل ، ثم ثنّى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم فقال عز من قائل ﴿ والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبّونه أذلةٍ على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ وهذه صفة عامّة يدخل فيها كل مؤمن ورسول الله محمد والأنبياء جميعاً من باب أولى هم أشداء على الكفار رحماءُ باروّن بالأخيار ، غاضبون في وجوه الكفار باشّون في وجوه المؤمنين كما قال جل وعلا ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ﴾ وقال النبي ﷺ : ١٨٨[مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر.] وقال عليه الصلاة والسلام ١٨٩[« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وشبّك ﷺ بين أصابعه] كلا الحديثين في الصحيح. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا﴾ وصفَهم بكثرة العمل ، وإن الصلاة خيرُ الأعمال ، وبالإخلاص له تعالى واحتساب الأجر عنده،وهو الجنة المشتملة على الفضل وسعة الرّزق، ورضاه تعالى وهذا هو الأكبر. كقوله تعالى ﴿ ورضوان من الله اكبر ﴾ وقوله جل جلاله : ﴿ سيما هم في وجوههم من أثر السجود ﴾ والسيماء هو السمت الحسن وأثر الخشوع لله تعالى . قال بعض السلف : من كثُرتْ صلاتُه بالليل حسن وجهُه بالنهار ، فالمؤمن اذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله عز وجل ظاهره للناس. كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ١٩٠ [إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءً من النبوة] فالصحابة رضي الله عنهم خلصت نيّاتهم وحسنت أعمالهم – وأضاءت وجوههم – فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم . وقال مالك رضي الله عنه : بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون : والله لهؤلاء خير من

الحواريين فيما بلغنا ،وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد نوّه الله تعالى بذكرهم في الكتب المنزلة . ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا : ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾ ثم قال عزّ من قائل : ﴿ ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه ﴾ أي فراخه ﴿ فآزره ﴾ أي شدّه ﴿ فاستغلظ ﴾ أي شب وطال ﴿ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ﴾ أي فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء: مع الزرع ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ . ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه في رواية عنه بتكفير كل من يبغض الصحابة رضي الله عنهم . والأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم والنهي عن التعرُّض لهم كثيرة ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم ﴾ من هذه لبيان الجنس ﴿ مغفرةً ﴾ أي لذنوبهم ﴿ وأجراً عظيماً ﴾ أي ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً . ووعده تعالى حق وصدق لا يخلف ولا يبدّل . وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم ،فهو في حكمهم.قال مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ١٩١ [لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحُدٍ ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه] .

* * *

آخر اختصار تفسير سورة الفتح ولله الحمـــد والمنة وبه التوفيق والعصمة

وعليه التُّكلان

(٤٩) سورة الحجرات مدنية وآياتها ثماني عشرة

نزلت بعد سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

ربع الحزب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ
بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ
الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

هذه آيات أدّب الله تعالى بها عباده المؤمنين، فيما يعاملون به الرسول ﷺ، من التوقير والاحترام، والتبجيل والإعظام. فقال تبارك وتعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ أي لا تسرعوا في الأشياء بين، يديه أي قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي، حديث معاذ رضي الله عنه حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن١٩٢[« بم تحكم ؟» قال : بكتاب الله تعالى، قال ﷺ : « فإن لم تجد » ؟ قال : بسنة رسول الله ﷺ ، قال ﷺ « فان لم تجد » قال رضي الله عنه أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله ﷺ إلى ما يرضي رسول الله ﷺ »] وقد رواه أحمد وابو داود والترمذي وابن ماجه فالغرض

منه،أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة،ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله ﷺ .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما :﴿ لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ أي لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما أمركم به ﴿ إن الله سميع ﴾ لأقوالكم ، ﴿ عليم ﴾ بنياتكم . وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ هذا أدب ثان أدّب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبيّ ﷺ فوق صوته .

روى البخاري عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما :١٩٣[أنه قدم ركب بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر رضي الله عنه : أمـِّر القعقاع بن معبد . وقال عمر رضي الله عنه بل أمـِّر الأقرع بن حابس ، فقال ابو بكر رضي الله عنه : ما أردت إلاّ خلافي ، فقال عمر رضي الله عنه : ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت في ذلك: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ حتى انقضت الآية : ﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ﴾ الآية... وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه١٩٤ [أن النبي ﷺ أفتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك علمه.فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه.فقال له:ما شأنك ؟ فقال:شر.كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار ، فأتى الرجلُ النبيَّ ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا ، قال موسى – يعني ابن انس بن مالك – فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال « إذهب إليه فقل له إنك لست من أهل النار ولكنّك من أهل الجنّة »] تفرّد به البخاري من هذا الوجه . ثم نهىٰ عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه ، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم . ولهذا تبارك وتعالى قال : ﴿ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام لأنه محترم حياً وميتاً . وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت اصواتهما فجاء فقال : أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قالا: من أهل الطائف ، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً . وقوله عز وجل : ﴿ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ أي إنّما نهيناكم عن رفع الصوت عنده ، خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه ﷺ ، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري كما جاء في الصحيح١٩٥[إن

الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، لا يلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة . وان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض.] ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك ، وأرشد اليه ، ورغّب فيه.فقال تعالى : ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ أي أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحِلاً ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ وقد قال الإمام أحمد عن مجاهد قال : كتب إلى عمر : يا أمير المؤمنين ، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر رضي الله عنه : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۞ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ (٥)﴾

ثم إنه تبارك وتعالى : ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات،وهي بيوت نسائه كما يصنع أجلاف الأعراب.فقال تعالى : ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾ ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال عز وجل : ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾ أي لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة.ثم قال جل ثناؤه داعياً لهم إلى التوبة والإنابة ﴿والله غفور رحيم﴾ وقد ذكر انها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي رضي الله عنه فيما أورده غير واحد .

روى الإمام أحمد عن الأقرع بن حابس رضي الله عنه[١٩٦] [انه نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد يا محمد ، وفي رواية : يا رسول الله فلم يجبه،فقال : يا رسول الله إن حمدي لزَيْن وإن ذمّي لشين ، فقال : « ذاك الله عز وجل »] .

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۞ (٦) وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

يأمر تعالى بالتثبُّت في خبر الفاسق ليحتاط له لئلاَّ يُحكمَ بقوله ، فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً ، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه . وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين . ومن ها هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال ، لاحتمال فسقه في نفس الأمر. وقبلها آخرون لأنا إنما أُمرنا بالتثبُّت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال . وقد ذكر كثير أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق ، وقد روي ذلك من طرق ، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق ، وهو الحارث بن أبي ضرار والدجويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنهما .

روى الإمام أحمد عن دينار انه سمع الحارث بن أبي ضرار الخزاعي رضي الله عنه يقول : ١٩٧[قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به . ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت : يا رسول الله أرجعُ إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته وترسل إلي يا رسول الله رسولاً إبّان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الإبّانُ الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث اليه احتبس عليه الرسول ولم يأته وظـن الحارث انه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسادات قومه فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقّتَ لي وقتاً يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله ﷺ الخلفُ ، ولا أرى حبس رسوله إلاّ من سخطة ، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى الحارث ، ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة . فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق أي خاف ، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ان الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي ، فغضب رسول الله ﷺ ، وبعث البعث إلى الحارث رضي الله عنه . وأقبل الحارث بأصحابه حتى اذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث ، فلمّا غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك قال : ولمَ ؟ قالوا :

إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم إنك منعته الزكاة وأردت قتله . قال رضي الله عنه لا والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني .

فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ قال : والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني. وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول الله ﷺ خشيت أن يكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله . قال فنزلت الحجرات : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق – إلى قوله – حكيم ﴾]ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير . والطبراني وقوله تعالى : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ أي أعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم ، وأشفق عليكم من أنفسكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لكم ؛ كما قال تبارك وتعالى : ﴿ النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ ثم بيّن إنّ رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم. فقال تعالى : ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم ﴾ أي لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدّى ذلك إلى حرجكم . كما قال تعالى: ﴿ ولو اتبع الحقّ أهواءَهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ... ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم ﴾ أي حبّبه إلى نفوسكم وحسّنه في قلوبكم .

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : ١٩٨[كان رسول الله ﷺ يقول : « الإسلام علانية والإيمان في القلب » قال ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول : « التقوى ههنا التقوى ههنا »] ﴿ وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ أي وبغّض إليكم الكفر والفسوق وهي الذنوب الكبار والعصيان وهي جميع المعاصي ، وهذا تدريج لكمال النعمة. وقوله تعالى . ﴿ أولئك هم الراشدون ﴾ أي الذين لهم هذه الصفة قد آتاهم الله رشدهم وروى الإمام أحمد من بعض حديث له عن أبي رفاعة الزرقي عن أبيه قال من دعاء رسول الله ﷺ يوم أن انكفأ المشركون يوم أحُد قال رسول الله ﷺ – من بعض ما قال – ١٩٩[... اللهم حبّبْ إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا ، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين ...] وفي الحديث المرفوع : ٢٠٠[من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن] ثم قال تعالى : ﴿ فضلاً من الله ونعمة ﴾ أي هذا العطاء منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه ﴿ والله عليم حكيم ﴾ آي عليم بمستحق الهداية أو الغواية ، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

يأمر الله تعالى عباده بالاصلاح بين الفئتين المتقاتلتين ﴿ وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ فسمّاهم مؤمنين مع الاقتتال . وبهذا استدلّ البخاري وغيره . على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت . لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم . وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: ٢٠١ [ان رسول الله ﷺ خطب يوماً . ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنهما فجعل ينظر إليه مرةً . وإلى النّاس أخرى ويقول: إن ابني هذا سيد. ولعلّ الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين] فكان كما قال ﷺ . أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة . والواقعات المهولة .

وقوله تعالى : ﴿ فإن بغت أحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ أي حتى ترجع إلى أمره تعالى ورسوله ﷺ . وتسمع للحق وتطيعه . كما ثبت في الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ٢٠٢ [انصرْ أخاك ظالماً أو مظلوماً قلت : يا رسول هذا نصرته مظلوماً . فكيف انصره ظالماً قال ﷺ: « تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه »] .

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال :٢٠٣ [قيل للنبي ﷺ ، لو أتيت عبد الله بن أبي فانطلق اليه النبي ﷺ . وركب حماراً وانطلق المسلمون يمشون ، وهي أرض سبخة . فلما انطلق النبي ﷺ إليه قال: إليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك. فقال رجل من الأنصار والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك . قال فغضب لعبدالله رجال من قومه . فغضب لكل واحد منهما أصحابه قال فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال،فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿ إنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾] ورواه البخاري ومسلم.وقوله عز وجل : ﴿ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا

ان الله يحب المقسطين ﴾ أي اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالعدل ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ .

روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال : ٢٠٤ [ان رسول الله ﷺ قال : « ان المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن عز وجل بما أقسطوا في الدنيا »] ورواه النسائي وهذا إسناد جيّد قويّ رجاله على شرط الصحيح . وحدثنا عبدالله بن يزيد بسنده عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ٢٠٥ [المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما وُلّوا] ورواه مسلم والنسائي . وقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون أخوة ﴾ أي الجميع أخوة في الدين كما قال رسول الله ﷺ ٢٠٦ [المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه »] وفي الصحيح : ٢٠٧ [والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه] وفي الصحيح : ٢٠٨ [مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر] . وقوله تعالى : ﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ يعني الفئتين المقتتلتين ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١١)

ينهى تعالى عن السخرية بالناس واحتقارهم كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٢٠٩ [الكِبْرُ بطر الحق وغمص الناس – ويروى – وغمط الناس] أي استصغارهم وهذا حرام، فقد يكون المحتقَر أرفع قدراً عند الله تعالى . ولهذا قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أنْ يكن خيراً منهن ﴾ فنهى الرجال والنساء. وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ كقوله تعالى ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً وهذه معناها لا تلمزوا بعضكم بعضاً والهمز بالفعل واللمز بالقول ، وذلك احتقار الناس طغياناً عليهم

والمشي بالنميمة من اللمز بالمقال كما قال تعالى: ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ أي قولاً وفعلاً. وقوله تعالى: ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ أي لا تدعوا بعضكم بالألقاب وهي التي يسوء الشخص سماعها. روى الإمام أحمد عن أبي جبيرة بن الضحاك قال ٢٢١ [فينا نزلت في بني سلمة ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلاّ وله اسمان أو ثلاثة فكان اذا دَعَى أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا يا رسول الله إنه يغضب من هذا، فنزلت: ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾] ورواه ابو داود. وقوله جل وعلا: ﴿ بئس الأسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ أي بئس الصفة والاسم الفسوق، وهو التنابز بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون بعدما دخلتم في الإسلام وعقلتموه ﴿ ومن لم يتب ﴾ من هذا ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٢)

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخوّن للأهل والأقارب والناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً، فليُتَجنَّب كثير منه احتياطاً. ورَوينا عن امير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من اخيك المؤمن إلاّ خيراً، وانت تجد لها في الخير محملاً.

وروى مالك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ٢١١ [إيّاكم والظن فإن الظن أكذبُ الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله أخواناً] رواه البخاري ومسلم وابو داود عن العتبي عن مالك به ومن حديث عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ٢١٢ [... ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام] رواه مسلم والترمذي وصححه. عن حديث سفيان بن عيينة.

﴿ ولا تجسسوا ﴾ أي على بعضكم بعضاً، والتجسس غالباً يطلق في الشر ومنه الجاسوس ويطلق التحسس غالباً في الخير. كقوله تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام أنه

قال : ﴿ يا بُنيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه ... ﴾ وقد يستعمل كل منهما في الشرّ كما ثبت في الصحيح : لا تجسسوا ... كما تقدم آنفاً . وقوله تعالى : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ فيه نهي عن الغيبة وقد فسرها الشارع كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة قال ٢١٣ [قيل يا رسول الله : ما الغيبة ؟ قال ﷺ : « ذكرك أخاك بما يكره . » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ : قال ﷺ : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه »] ورواه الترمذي وقال : حسن صحيح ورواه ابن جرير .

والغيبة محرمة بالإجماع. ولا يستثنى من ذلك إلاّ من رجَحَت مصلحتُه ، كما في الجرح والتعديل والنصيحة، وكذا ما جرى مجرى ذلك ثم بقيّتُها على التحريم الشديد، والزجر الأكيد. ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت .كما قال عز وجل: ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحمَ أخيه مَيْتاً فكرهتموه ﴾ أي كما تكرهون هذا طبعاً فاكرهوا ذاك شرعاً فإن عقوبته أشدّ من هذا . وهذا من التنفير عنها والتحذير منها كما قال ﷺ في العائد في هبته : (« كالكلب يقيء ، ثم يرجع في قيئه ») .

روى أبو داود عن أبي هريرة قال:قال رسول الله ﷺ : ٢١٤ [كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرام مالُه وعرضُه ودمُه ، حسب امرىء من الشر أن يحقِر أخاه المسلم] ورواه الترمذي .

روى أبو داود عن أبي بردة البلوي قال : قال رسول الله ﷺ : ٢١٥ [يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته]

وروى ابو داود عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : ٢١٦ [لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم] ورواه أحمد .

وروى ابن أبي حاتم عن ابي سعيد الخدري قال: ٢١٧ [قلنا يا رسول الله حدثنا ما رأيت ليلة أسرى بك قال « ... ثم انطلق بي إلى خلق من خلق الله كثير ، رجال ونساء موكل بهم رجال يُعمدون إلى عرض جنب أحدهم فيجذون منه الجذة مثل النعل ثم يضعونها في فِيّ أحدِهم ، فيقال له :كل كما أكلت وهو يجد من أكله الموت يا محمد لو يجد الموت وهو يكره عليه فقلت : يا جبرائيل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الهمازون اللمازون أصحاب النميمة فيقال : أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه وهو يُكرَهُ على أكل

لحمه »] هكذا أورد هذا الحديث ، وقد أوردناه / بل / سقناه بطوله في أول تفسير سورة سبحان ولله الحمد والمنة .

وروى الحافظ أبو يعلى في روايته لقصته رجم ماعز رضي الله عنه إلى أن قال ٢١٨ [... سمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم تر أن هذا الذي ستر الله عليه ، فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ؟ ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار فقال : « أين فلان وفلان إنزلا فكلا من جيفة هذا الحمار . قالا : غفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل هذا ؟ قال ﷺ : « فما نلتما من أخيكما آنفاً أشد أكلاً منه ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها » .] إسناد صحيح .

وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال : ٢١٩ [كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة . فقال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يغتابون الناس »] .

وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه فراقبوه في ذلك واخشوا منه ﴿ إن الله تواب رحيم ﴾ أي تواب على من تاب إليه ، رحيم لمن رجع إليه واعتمد عليه . قال الجمهور من العلماء : طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك ويعزم على أن لا يعود ، وهل يشترط الندم على ما فات ، وأن يتحلل من الذي اغتابه ، فقال جماعة منهم بذلك ، وقال آخرون : لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه ، فطريقه إذاً ، أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها ، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته ، تكون تلك بتلك . كما روى الإمام أحمد عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٢٢٠ [من حمى مؤمناً من منافق يغتابه ، بعث الله تعالى اليه ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مؤمناً بشيء يريد سبّه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال] وكذا رواه أبو داود .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۞ (١٣) ﴾

يخبر الله تعالى الناس انه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ، وهما آدم وحواء وجعلهم شعوباً وقبائل ، فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء ؛ وانما يتفاضلون بالأمور الدينية وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ . ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً ، منبهاً على تساويهم في البشرية : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ أي ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته وروى ابو عيسى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٢٢١ [تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر] ثم قال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقوله تعالى : ﴿ إن إكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ أي إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالأحساب وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ : ٢٢٢ [... فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا] رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وروى مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ٢٢٣ [إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم] ورواه ابن ماجه .

روى ابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ٢٢٤ [طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخاً في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال ، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : « يا أيها الناس إن الله تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل بَرٌّ تقي كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقيٌّ هين على الله تعالى إن الله عز وجل يقول : ﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ثم قال ﷺ أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم »] هكذا رواه ابن حميد. وروى الإمام أحمد عن درّة بنت أبي لهب رضي الله عنها قالت ٢٢٥ [قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله : أي الناس خير؟ قال ﷺ : « خير الناس أقرأهم وأتقاهم لله عز وجل ، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم »] وقوله تعالى : ﴿ إنّ الله عليم خبير ﴾ أي عليم بكم ، خبير بأموركم وله المشيئة بكم، في الهداية والضلالة ، والرحمة والعذاب ، والتفضيل وهو

الحكيم العليم الخبير في ذلك كله. وقد ذهب بعض العلماء بدلالة ما تقدم من الآية الكريمة والأحاديث إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط سوى الدين لقوله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وذهب آخرون إلى أدلة أخرى موجودة في كتب الفقه ، وفي كتابنا كتاب الأحكام طرفاً من ذلك .

نصف الحزب

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (١٤) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ ۞ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ (١٧) إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ (١٨) ﴾

ينكر الله تعالى على الأعراب الذين ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان أول ما دخلوا في الإسلام في الوقت الذي لم يتمكن فيهم بل في قلوبهم الإيمان بعد. ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ويدل عليه حديث جبريل عليه الصلاة والسلام، حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه . فلما أدعى الأعراب لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك . وهؤلاء ليسوا من المنافقين خلافاً لمن يقول أنهم منهم ، فلو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقون في سورة براءة [1] وإنما قيل لهؤلاء

(١) الآية رقم / ٩٧ /

تأديباً ﴿ قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ أي لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد. ثم قال تعالى : ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يَلِتكم من أعمالكم شيئاً ﴾ أي لا يُنقصكم من أجوركم شيئاً. كقوله عز وجل : ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنّ الله غفور رحيم ﴾ أي لمن تاب إليه وأناب. وقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون ﴾ أي الكاملون في إيمانهم هم : ﴿ الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ أي لم يشكّوا ويتزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة وهي التصديق المحض. ﴿ وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴾ أي وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم، في طاعة الله ورضوانه. ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ إذا قالوا إنهم مؤمنون ، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة .

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد - الخدري - رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ قال : ٢٢٦ [« المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء : الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل . »] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قل أتعلّمون الله بدينكم ﴾ أي أتخبرونه بما في ضمائركم ﴿ والله يعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم ﴾ يعني الأعراب الذين يمنّون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ يقول الله تعالى رداً عليهم : ﴿ قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، ولله المنة عليكم فيه. ﴿ بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾ أي في دعواكم ذلك كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين : ٢٢٧ [يا معشر الأنصار ألم أجدْكم ضلالاً فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرّقين فألفكم الله بي ؟ وكنتم عالةً فأغناكم الله بي كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنّ .]

وروى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ٢٢٨ [جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلْك . فقال رسول الله ﷺ : إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطلق على ألسنتهم . ونزلت هذه الآية ﴿ يمنّون عليك أن أسلموا ...] ثم قال : لا نعلمه يروي إلاّ من هذا الوجه . ثم كرر تعالى الأخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات. فقال: ﴿ ان الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾ آخر تفسير سورة الحجرات ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة . واسأله تعالى ان يسدد الخطى ويهدي إلى الصواب ويوفّق مسعانا لانهاءِ هذا المختصر على خير ما يحب الله ويرضى .

(٥٠) سُورَةُ قٓ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ

إلا الآية ٣٨ فمدنية نزلت بعد سورة المرسلات

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح ، والدليل ما رواه أبو داود عن عثمان بن عبدالله بن أوس عن جده ، وقال عبدالله بن سعيد : حدثنيه أوس بن حذيفة ثم اتفقا قال : ٢٢٩ [قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف ، قال فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، وانزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبة له ، قال مسدّد : وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف قال كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا قال أبو سعيد قائماً على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ، فأكثر ما يحدثنا ﷺ ما لقي من قومه قريش ثم يقول ﷺ « لا أساء وكنا مستضعفين مستذلين – قال مسدد بمكة – فلما خرجنا إلى المدينة كانت الحرب سجالاً بيننا وبينهم ندال عليهم ، ويدالون علينا » فلما كانت ليلة أبطأ عنّا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، فقلنا : لقد أبطأت علينا الليلة ، قال ﷺ « إنه طرأ علي حزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمّه »] قال أوس : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزّبون القرآن ؟ فقالوا : (ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة . وحزب المفصل وحده) ورواه ابن ماجه ، والإمام أحمد ، إذا علم هذا فإذا عددت ثمانياً وأربعين سورة فالّتي بعدهن « ق » .

بيانه : ثلاث : البقرة ، وآل عمران والنساء . وخمس : المائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة . وسبع : يونس وهود ويوسف والرعد وابراهيم والحجر والنحل . وتسع : سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء ، والحج ، والمؤمنون والنور والفرقان . واحدى عشرة : الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان وآلم السجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس . وثلاث عشرة : الصافات ، وص والزمر وغافر وحم السجدة وحم عسق والزخرف والدخان والجاثية ، والأحقاف ، والقتال والفتح والحجرات .

ثم بعد ذلك الحزب المفصّل. كما قاله الصحابة رضي الله عنهم . فتعين أن أوله سورة ﴿ ق ﴾ وهو الذي قلناه ولله الحمد والمنة .

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عبدالله ان عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي : ٢٣٠ [ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد ؟ قال : بـ ﴿ ق ﴾ و « ﴿ اقتربت ﴾] ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة من حديث مالك به .

وروى الإمام أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت : ١٣١ « [لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة ، وما أخذت ﴿ ق . والقرآن المجيد ﴾ إلاّ على لسان رسول الله ﷺ. كان يقرأها كل يوم جمعة ، على المنبر إذا خطب الناس] رواه مسلم وأبو داود .

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيامة والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۞ (١) بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۞ (٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۞ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۞ (٤) بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۞ (٥) ﴾

﴿ ق ﴾ حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل بعض السور كقوله تعالى : ﴿ صٓ - و - نٓ - و - الٓمٓ - و - حمٓ - و - طسٓ - ﴾ ونحو ذلك ؛ قاله مجاهد وغيره وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ، وقد روي أن ق جبل - محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف ، وكأن هذا والله أعلم من خرافات بني اسرائيل وعندي ان هذا

وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبّسون به على الناس أمر دينهم . وقوله تعالى : ﴿ والقرآن المجيد ﴾ أي الكريم العظيم الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وجواب القسم هو مضمون الكلام بعد القسم ، وهو إثبات النبوّة وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه ، وإنْ لم يكن القسم يتلقى لفظاً وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ صۤ والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزّةٍ وشقاق ﴾ وهكذا قال ها هنا : ﴿ ق.والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ أي تعجّبوا من إرسال رسول إليهم من البشر . كقوله جلّ وعلا : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذرِ الناس ﴾ أي وليس هذا بعجيب فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ،ومن الناس ثم قال عز وجل مخبراً عنهم في تعجّبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه : ﴿أإذا مِتنا وكنّا تُراباً ذلك رجع بعيد﴾ أي إذا متنا وصرنا تراباً كيف يمكن رجوعنا هذا بعيد أي هذا مستحيل فردّ تعالى عليهم : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ أي لا يخفى علينا تفتت أجسادهم ولا أين تفرقت ، وإلى أين صارت ﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾ أي حافظ ضابط لكل الأشياء ، ثم بيّن تعالى سبب كفرهم واستبعادهم البعث فقال جل وعلا : ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريجٍ ﴾ أي مختلف مضطرب ملتبس وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال بعد ذلك فهو باطل .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۞ (٦) وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۞ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۞ (٩) وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۞ (١٠) رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۞ (١١) ﴾

نبّه تعالى عباده على قدرته العظيمة على ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّنّاها ﴾ أي بالمصابيح ﴿ وما لها من

فروج ﴾ أي من شقوق كقوله تعالى ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ والأرض مددناها ﴾ أي وسعناها ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ وهي الجبال لئلاً تميد بأهلها وتضطرب ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ أي من جميع الزروع والثمار والنبات من حسن المنظر والصنع ﴿ تبصرة وذكرى لكلِّ عبدٍ منيب ﴾ أي ومشاهدة السموات والأرض وما جعل فيهما من الآيات العظيمة تبصرةً ودلالةً وذكرى لكلِّ عبد منيب أي رجاع إلى الله عزّ وجلّ. وقوله تعالى : ﴿ ونزّلنا من السماء ماءً مباركاً ﴾ أي نافعاً ﴿ فأنبتنا به جناتٍ ﴾ أي حدائق من بساتين ونحوها ﴿ وحب الحصيد ﴾ وهو الزرع الذي يراد بــه لحبه وادّخاره ﴿ والنخل باسقاتٍ ﴾ أي شاهقات ﴿ لها طلعٌ نضيد ﴾ أي منضود بعضه فوق بعض ﴿ رزقاً للعباد ﴾ أي للخلق ﴿ وأحيينا به بلدة ميتاً ﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء أهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج فبعد ما كانت لا نبات فيها فأصبحت تهتزُّ خضراءَ . فهذا مثالٌ للبعث بعد الموت الذي أُنكروه واستبعدوه كذلك يحيي الله الموتى. ولهذا قال تعالى: ﴿ كذلك الخروج ﴾ أي البعث بعد الموت كقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت ان الذي أحياها لمحيي الموتى إنّه على كلّ شيءٍ قدير . ﴾

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝ (١٣) وَأَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝ (١٤) أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ (١٥) ﴾

يهدد تعالى الكفارَ من قريش وغيرهم بما أحله بأشباههم ونظرائهم من المكذّبين قبلَهم ، قد تقدّمت قصتهم في سورة الفرقان ﴿ وثمود . وعاد وفرعون وإخوان لوط ﴾ وهم أمّتُه الذين بعث إليهم من أهل سدوم ، ومعاملتها من الغور ، وكيف خسف بهم الأرض وأحال أرضَهم بحيرة منتنة خبيثة بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق ﴿ وأصحاب الأيكة ﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿ وقوم تبّع ﴾ وهو اليماني وقد ذكرنا من شأنه في سورة الدخان ما أغنَى عن إعادته ولله الحمد والشكر .

﴿ كلٌّ كذّب الرسل ﴾ أي كلٌّ من الأمم هذه كذبوا رسلهم ، ومن كذب رسولاً فكأنما كذب جميع الرسل ﴿ فحق وعيد ﴾ أي فحق ما أوعدهم الله من النكال والعذاب جزاء تكذيبهم. وقوله تعالى : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾ وهل أعجزنا ابتداء الخلق حتى أنهم في شكٍّ من الإعادة ﴿ بل هم في لَبْس من خلق جديد ﴾ أي أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه. كما قال عز وجل : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقد تقدم في الصحيح : ٢٣٢ [يقول الله تعالى : يؤذيني ابن آدم يقول لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته .]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۞ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۞ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۞ (١٩) وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۞ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۞ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۞ (٢٢) ﴾

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه وعلمه محيط بجميع أموره ، حتى أنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر، ومن كل شيء. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ انه قال : ٢٣٣ [ان الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل] وقوله عز وجل : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ يعني ملائكته تعالى أقرب إلى **الانسان** من حبل وريده إليه كما قال في المحتضر ﴿ ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾ يعني ملائكته ، وكما قال تبارك وتعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾ فالملائكة نزلت بالذكر بإذن الله عز وجل ، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، بإقدار الله جل وعلا لهم على ذلك. ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ اذ يتلقّى المتلقّيان ﴾ يعني الملكين اللذَيْن يكتبان عمل الإنسان ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ أي مترصّد ﴿ ما يلفظ ﴾ أي ابن آدم ﴿ من قول ﴾ أي ما يتكلم بكلمة ﴿ إلاّ لديه رقيب عتيد ﴾ **إلا ولها من** يرقبها ويكتبها لا يترك كلمة ولا حركة ولا شيئاً

من قول أو عمل .

روى الإمام أحمد عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٣٤[«ان الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، ما يظن أن تبلغ ما بلغت... يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى، ما يظن أن تبلغ ما بلغت...يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه» فكان علقمة يقول كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث] ورواه الترمذي وصححه وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاووس أنه قال : يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله تعالى ..

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ ان المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو مؤمناً كان أو كافراً.وقد ثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ : ١٣٥ [أنه لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : « سبحان الله إن للموت لسكرات »] وقوله تعالى : ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ أي ان الإنسان لا محيد له عن الموت مهما فرّ منه فإنه ملاقيه .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد ﴾ أي يوم القيامة . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : ٢٣٦ [كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له » قالوا : يا رسول الله: كيف نقول: قال ﷺ : « قولوا؟حسبنا الله ونعم الوكيل » فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل] ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ أي ملك يسوقه إلى المحشر وملك يشهد عليه بأعماله هذا هو الظاهر من الآية الكريمة وهو اختيار ابن جرير . وروي عن يحي بن رافع مولى لثقيف قال سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يخطب فقرأ هذه الآية : ﴿ وجاءت كلّ نفس معها سائق وشهيد ﴾ فقال سائق يسوقها إلى الله تعالى وشاهد يشهد عليها بما عملت، وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد .

وقوله تعالى : ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ أي كنت في غفلة من يومك هذا وهو يوم القيامة ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ أي قوي لأن كل أحد يوم القيامة ، يكون مستبصراً حتى الكفار في الدنيا ، يكونون يوم القيامة على الاستقامة ، لكن لا ينفعهم ذلك قال الله عز وجل : ﴿ ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحاً إنّا موقنون ﴾ .

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۞ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۞ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۞ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۞ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۞ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ۞ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۞ (٢٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وقال قرينه هذا ما لديّ عتيد ﴾ أي معتدٌ محضر بلا زيادة ولا نقصان وهذا يعم السائق والشهيد اختاره ابن جرير وله اتجاه وقوة . فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل ، فيقول سبحانه : ﴿ ألقيا في جهنم كل كفّار عنيد ﴾ فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب ، فلما أدّى الشهيد عليه ، أمرهما الله تعالى بإلقائه في جهنم وبئس المصير . والكفّار أي كثير الكفر والتكذيب بالحق والعنيد المعاند للحق المعارض له بالباطل ، مع علمه بذلك ﴿ مناع للخير ﴾ أي لا يؤدي ما عليه من الحقوق ، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة ﴿ معتد ﴾ أي فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد. وقال قتادة : معتد في منطقه وسيره وأمره . ﴿ مريب ﴾ أي شاكّ في أمره ، مريب لمن نظر اليه ﴿ الذي جعل مع الله إلهاً آخر ﴾ أي أشرك بالله تعالى فعبد معه غيره. ﴿ فألقياه في العذاب الشديد ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ٢٣٧ [يخرج عنق من النار يتكلم يقول: وكلت اليوم بثلاثة: بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلهاً آخر ، ومن قتل نفساً بغير نفس، فتنطوي عليهم فتقذفهم في غمرات جهنم][1] ﴿ قال قرينه ﴾ هو الشيطان الذي وكّل به – فكما أن للانسان قريناً من الجن فكذلك له قرين من الملائكة وكلاهما قرين له الملك يأمره بالخير ،والشيطان يأمره بالشر .فقوله تعالى في أول هذه الآية الكريمة : ﴿ وقال قرينه ﴾ هذا القرين الملك . أما قوله تعالى ههنا ﴿ قال قرينه ﴾ فهو الشيطان – ﴿ ربنا ما أطغيتُه ﴾ أي ما أضللته ﴿ ولكن كان في ضلال بعيد ﴾ أي بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق.﴿ قال لا تختصموا لديّ ﴾ يقول عز وجل للإنسيّ وقرينه من الجن ، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق تعالى ، فيقول الأنسي

(١) فيه عطية بن سعيد العوفي ضعيف .

يا رب هذا أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني ويقول الشيطان : ﴿ ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد ﴾ أي عن منهج الحق. فيقول الرب عز وجل لهما : ﴿ لا تختصموا لديَّ وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴾ أي قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل ، وأنزلت الكتب وقامت الحجة ﴿ ما يبدل القول لديَّ ﴾ أي قد قضيت ولا يرد قضائي. ﴿ وما أنا بظلاّمٍ للعبيد ﴾ أي لا أعذب أحداً إلاّ بذنبه بعد قيام الحجة عليه .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ۞ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۞ (٣١) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۞ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ۞ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۞ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۞ (٣٥) ﴾

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة : هل امتلأتِ ؟ وذلك لأنه تبارك وتعالى وعدها أن سيملأها من الجنّة والناس أجمعين. فهو سبحانه وتعالى يأمر بمن يأمر به إليها ويلقى وهي تقول : هل من مزيد ، أي هل بقي شيء تزيدوني هذا هو الظاهر من سياق الآية وعليه تدلّ الأحاديث .

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ٢٣٨ [يلقى في النار وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع قدمه فيها فتقول قط قط] وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ١٣٩ [لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة قدمه فيها فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط وعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر ، فيسكنهم الله تعالى في فضول الجنة] ثم رواه مسلم بنحوه .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ : ٢٤٠ [احتجّت الجنة والنار فقالت النار : فيَّ الجبارون والمتكبرون ، وقالت الجنة فيَّ ضعفاء **الناس ومساكينهم**، فقضى بينهما فقال للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحد منكما ملؤها .] وقوله تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ﴾ أي أدنيت وقُرّبت من

المتقين ﴿ غير بعيد ﴾ وذلك يوم القيامة وليس ببعيد لأنه واقع لا محالة وكل ما هو آت قريب ﴿ هذا ما توعدون لكل أواب ﴾ أي رجاع تائب مقلع ﴿ حفيظ ﴾ أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه وقال عبيد بن عمير الأواب الحفيظ الذي لا يجلس مجلساً فيقوم حتى يستغفر الله عز وجل ﴿ من خشي الرحمن بالغيب ﴾ أي من خاف الله في سرّه حيث لا يراه أحد إلاّ الله عزّ وجل كقوله ﷺ : ٢٤١ [...ورجل ذكر الله تعالى ففاضت عيناه] ﴿ وجاء بقلب منيب ﴾ رجاع إليه سليم من الشرك ﴿ أدخلوها ﴾ أي الجنة ﴿ بسلام ﴾ أي سلموا من عذاب النار وسلّم عليهم الملائكة ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ أي يخلدون في الجنة فلا يموتون أبداً ولا يظعنون ، ولا يبغون عنها حولاً . ﴿ لهم ما يشاءون فيها ﴾ أي مهما طلبوا وجدوا ، وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أن رسول الله ﷺ قال له ٢٤٢[إنك لتشتهي الطير في الجنة فيخر بين يديك مشوياً] وقوله تعالى: ﴿ ولدينا مزيد ﴾ كقوله عز وجل ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ وقد تقدم في صحيح مسلم انها النظر إلى وجه الله الكريم .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ۞ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۞ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ۞ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۞ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ۞(٤٠) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم ﴾ أي هؤلاء المكذبين ﴿ من قرن هم أشد منهم بطشاً ﴾ أي كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأثاروا الأرض وعمّروها أكثر مما عمّروها ، ولهذا قال تعالى ها هنا : ﴿ فنقّبوا في البلاد ﴾ أي فساروا في البلاد منقّبين عن الأرزاق والمعايش والمكاسب وطافوا بها أكثر مما طفتم .

وقوله تعالى : ﴿ هل من محيص ﴾ أي هل من مفر لهم من قضاء الله وقدره ، فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا محيص وقوله عز وجل : ﴿ إن في ذلك لذكرى ﴾ أي لعبرة ﴿ لمن كان له قلب ﴾ أي لبّ وعقل يعي به ﴿ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ أي استمع

الكلام فوعاه وتعقله بعقله وتفهمه بلبّه ، والعرب يقولون : ألقىٰ فلان سمعه إذا استمع بأذنيه وهو شاهد بقلب غير غائب. وهكذا قال الضحاك والثوري . وقوله سبحانه تعالى : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسّنا من لغوب ﴾ فيه تقرير للمعاد لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعيَ بخلقهن، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى. قالت اليهود – عليهم لعائن الله المتتابعة – خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت ، وهم يسمونه يوم الراحة ، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأوّلوه ﴿ وما مسّنا من لغوب ﴾ أي من إعياءٍ ولا تعب. كما قال تعالى : ﴿ ... ولم يعيَ بخلقهن ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ يعني المكذبين واهجرهم هجراً جميلاً ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر وقبل الغروب في وقت العصر ، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً ، ثم نسخ في حق الأمة وجوبُه . ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. وقد روى الإمام أحمد عن جرير بن عبدالله رضي الله عنهما قال: ٢٤٣[كنّا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : « أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامّون فيه ، فإن استطعتم ألاّ تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾] ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة من حديث إسماعيل به . وقوله تعالى : ﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ أي فصلِّ له. كقوله تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجّد به نافلةً لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ ﴿ وأدبار السجود ﴾ قيل انه التسبيح دبر كل صلاة والتحميد والتكبير ، وقيل الركعتان بعد المغرب وباقي الصلوات ما عدا العصر والفجر . روى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال: ٢٤٤[كان رسول الله ﷺ يصلي إثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلاّ الفجر والعصر] ورواه ابو داود والنسائي . ودليل التسبيح والتحميد والتكبير في الصحيحين = ومن هذا يتضح إن القولين صحيحان إنما المراد ههنا والله أعلم هي السنن التي تصلّى دبر المكتوبات، ما عدا الفجر والعصر، والله الموفق الصواب.=(١)

(١) ما بين المساويين من كلامي لا من كلام المفسر رحمه الله وطيب ثراه .

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝ (٤٤) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝ (٤٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ واستمع ﴾ يا محمّد ﴿ يوم ينادي المنادِ من مكان قريب ﴾ أي ينادي الملك اسرافيل عليه السلام بأمر الله تعالى : أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة ان الله تعالى يأمركن ان تجتمعن لفصل القضاء ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ﴾ يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ أي من الأجداث ﴿ إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير ﴾ أي هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وإليه المصير أي مصير الخلائق جميعاً ، فيجازي كلاً بعمله إنْ خيراً فخير أو شراً فشر . وقوله تعالى : ﴿ يوم تشقّق الأرض عنهم سراعاً ﴾ وذلك أن الله عز وجل ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق في قبورها كما ينبت الحب في الثرى والماء فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور فتخرج الأرواح منه تتوهج بين السماء والأرض ، فيقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره .فترجع كل روح إلى جسدها ، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ وتنشقّ الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً مبادرين إلى أمر الله عز وجل ﴿ مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٢٤٥ [أنا أول من تنشقّ عنه الأرض] وقوله تعالى : ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ أي تلك إعادة سهلة علينا ، كما قال جلَّ جلاله ﴿ وما أمرنا إلاَّ واحدة كلمح بالبصر ﴾ وقوله جلّ وعلا : ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ أي بما يقوله لك المشركون من التكذيب فلا يهولنّك ذلك. وقوله تعالى: ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ أي وما أنت بمجبرهم على الإيمان، إنما أنت مبلّغ. ثم قال عزّ وجل : ﴿ فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ أي بلّغ أنت رسالة ربك،فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده .كقوله تعالى، ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وكان قتادة يقول : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعودك يا بار يا رحيم .

آخر اختصار تفسير سورة ﴿ ق ﴾ والحمد لله وحده وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(٥١) سورة الذاريات مكية وآياتها ستون

نزلت بعد سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

●

وَٱلذَّارِيَاتِ ذَرْواً ◉ (١) فَٱلْحَامِلَاتِ وِقْراً ◉ (٢)
فَٱلْجَارِيَاتِ يُسْراً ◉ (٣) فَٱلْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ◉ (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ
لَصَادِقٌ ◉ (٥) وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَاقِعٌ ◉ (٦) وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ◉ (٧)
إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ◉ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ◉ (٩) قُتِلَ
ٱلْخَرَّاصُونَ ◉ (١٠) ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ◉ (١١) يَسْئَلُونَ
أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ◉ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ◉ (١٣) ذُوقُوا
فِتْنَتَكُمْ هٰذَا ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ◉ (١٤)

ثبت عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ، ولا عن سنّة رسول الله ﷺ إلاّ أنبأتكم بذلك فقام ابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين ما معنى قوله تعالى : ﴿ والذاريات ذرواً ﴾ قال عليّ رضي الله عنه الريح ، قال : ﴿ فالحاملات وقراً ﴾ قال رضي الله عنه : السحاب ، قال : ﴿ فالجاريات يسرا ﴾ قال رضي الله عنه : السفن ، قال : ﴿ فالمقسمات أمراً ﴾ قال : الملائكة . وهكذا فسرها عمر بن الخطاب ، وابنُ عباس وابنُ عمر رضي الله عنهم وسعيدُ بن جبير والحسنُ وقتادة ، والسديُّ وغيرُ واحد ، ولم يحك ابن جرير وابن أبي

حانث غير ذلك . وهذا قَسَم من الله تعالى على وقوع المعاد. ولهذا قال تعالى: ﴿إنما توعدون لصادق﴾ أي لخبر صِدق ﴿وإن الدين﴾ يوم الحساب ﴿لواقع﴾ أي لكائن لا محالة .
ثم قال تعالى : ﴿والسماء ذات الحبك﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء ﴿إنكم لفي قول مختلف﴾ أي إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل، لفي قول مختلف مضطرب لا يلتئم ولا يجتمع . وقال تعالى : ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي إن ذلك القول المختلف يروَّج على من هو ضال في نفسه ، لأنه قول باطل إنّما ينقاد له ضالٌّ غَمْره لا فهم له. كقوله تعالى﴿فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين * إلاّ من هو صالِ الجحيم﴾ وقوله تعالى : ﴿قتل الخرّاصون﴾ قال قتادة : الخراصون أهل الغرة والظنون ﴿الذين هم في غمرة ساهون﴾ أي في الكفر والشك غافلون لاهون ، قاله ابن عباس وغيره ﴿يسألون أيان يوم الدّين﴾ أي متى يوم الحساب إنما يقولون هذا تكذيباً وعناداً وشكّاً واستبعاداً . وقوله تعالى : ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ أي يحرقون ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ أي حريقكم ﴿هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ ٱللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ * (١٩) وَفِي ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * (٢١) وَفِي ٱلسَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * (٢٢) فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ * (٢٣) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله عز وجل أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال . وقوله تعالى : ﴿آخذين ما آتاهم ربهم﴾ آخذين حال من قوله في جنات وعيون ، فالمتقون في حال

كونهم في الجنات والعيون آخذين ما آتاهم ربهم أي من النعيم والسرور والغبطة.وقوله عز وجل ﴿إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ أو في الدار الدنيا . كقوله تعالى: ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ثم إنه تعالى بيّن إحسانهم في العمل، فقال جلّ وعلا : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ أي قل ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون. قاله مجاهد وكذا قال قتادة . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لم تكن تمضي عليهم ليلة إلاّ يأخذون منها ولو شيئاً. وقال زيد بن أسلم: طوبى لمن رقد إذا نعس واتقى الله إذا استيقظ.

وقال عبدالله بن سلام رضي الله عنه: ٢٤٦ [لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، فكنت فيمن انجفل فلما رأيت وجهه ﷺ عرفت أن وجهه ليس وجهَ رجل كذّاب ، فكان أول ما سمعته ﷺ يقول : « يا أيها الناس أطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وأفشوا السلام ، وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام »] . وقوله عزّ وجل : ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ وإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ انه قال: ٢٤٧ [ان الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفرٍ فأغفرُ له ، هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجرُ] .

وقوله تعالى : ﴿ وفي أموالهم حقّ للسائل والمحروم ﴾لما وصفهم الله تعالى بالصلاة ثنّى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة. فقال سبحانه ﴿ وفي أموالهم حقّ ﴾ أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم . أما السائل فمعروف وهو الذي يبتدىء بالسؤال ، وله حق كما روى الإمام أحمد عن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ: ٢٤٨ [للسائل حق وان جاء على فرس] ورواه ابو داود من حديث سفيان الثوري به وأما المحروم قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : هو المحارف الذي ليس له سهم في الإسلام . يعني لا سهم له في بيت المال ولا كسب له ولا حرفة يتقوّت منها . وقالت أم المؤمنين : هو المحارف الذي لا يكاد يتيسّر له مكسبه. وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مال إلاّ ذهب .

وقوله تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ أي فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها، وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار ، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم ، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى ، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم ، والحركات والسعادة والشقاوة وما في

تركيبهم من الحكم في وضع كل عضوٍ من أُعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه . ولهذا قال : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ قال قتادة : من تفكّر في خلق نفسه عرف أنه إنّما خلق وليّنت مفاصله للعبادة .

ثم قال تعالى : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ يعني المطر هو الرزق من السماء والجنة هي التي يوعدون . وقوله تعالى : ﴿ فوربِّ السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة . وهو حقّ لا مرية فيه فلا تشكّوا فيه ، كما لا تشكون في نطقكم حين تنطقون . وكان معاذ رضي الله عنه إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه : إن هذا الحق كما أنك ههنا .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۞ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۞ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۞ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۞ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۞ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۞ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۞ (٣٠) ﴾

هذه القصة قد تقدمت في سورتي هود والحجر ... فقوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ أي أعدّ لهم الكرامة والضيافة ﴿ قالوا سلاماً قال سلامٌ ﴾ الرفع أقوى من النّصب أي ردّ السلام بردٍ أفضل. كما قال تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها ﴾ فالخليل اختار الأحسن . وقوله تعالى : ﴿ قوم منكرون ﴾ أي لا يعرفهم وهم في الحقيقة الملائكة المكرمون : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم. قدموا على إبراهيم في صورة شبّان حسان عليهم مهابة عظيمة . ولهذا قال: ﴿ قوم منكرون ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ فراغ إلى أهله ﴾ أي

إنسلّ خفيةً في سرعة. ﴿ فجاء بعجل سمين ﴾ أي من خيار ماله ، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذ ﴾ أي مشوي على الرضف ، ﴿ فقرَّبه إليهم ﴾ أي أدناه منهم. ﴿ قال ألا تأكلون ﴾ وهذا تلطف في العبارة وعرض حسن ، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة : فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة ، ولم يمتن عليهم أولاً فقال نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل سمين مشوي ، فقربه إليهم لم يضعه وقال اقتربوا ، بل وضعه بين أيديهم ، ولم يأمرهم أمراً يشقّ عليهم بصيغة الجزم،بل قال : ﴿ ألا تأكلون ﴾ على سبيل العرض والتلطف ، كما يقول القائل اليوم : إن رأيت أن تتفضل.وقوله تعالى : ﴿ فأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخف ﴾ أي نحن رسل ربّك إلى قوم لوط ثم بشروه بإسحق . ولهذا قال تعالى : ﴿ وبشّروه بغلامٍ عليم ﴾ فالبشارة له هي لها لأن الولد منهما فكل منهما بشّر به وقوله تعالى : ﴿ فأقبلت امرأته في صرَّةٍ ﴾ أي في صرخة عظيمة ورنّة ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره وهي قولها : ﴿ يا ويلتا ﴾ ﴿ فصكت وجهها ﴾ تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ﴿ وقالت عجوز عقيم ﴾ أي كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل ؟ ﴿ قالوا كذلك قال ربّكِ إنه هو الحكيم العليم ﴾ أي الحكيم في أقواله وأفعاله والعليم بما تستحقّون من الكرامة .



﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ (٣١) قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝ (٣٧) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ أي ما شأنكم .. وفيم جئتم ؟ ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعنون قوم لوط ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين مسوّمة ﴾ أي معلمة ﴿ عند ربّك للمسرفين ﴾ أي مكتتبة عنده بأسمائهم كلّ حجر عليه اسمُ صاحبه فقال في سورة العنكبوت ﴿ قال إن فيها لوطاً، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينّه وأهله إلاّ امرأته كانت من الغابرين ﴾ وقال تعالى ههنا : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من

المؤمنين﴾ وهم لوط وأهل بيته إلاَّ أمرأته ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ هو بيت لوط عليه السلام فحسب. وقوله تعالى : ﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ أي جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين . ﴿ للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ .

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۞ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۞ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۞ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۞ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ۞ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۞ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ۞ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۞ (٤٦) ﴾

يقول تعالى ﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ﴾ – وفي موسى معطوف على ﴿ فيها ﴾ الواردة في الآية التي قبلها : ﴿ وتركنا فيها آية ... ﴾ والمعنى : وجعلنا في قصة موسى آية – ﴿ إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ﴾ أي بدليل باهر وحجة قاطعة ﴿ فتولىَّ بركنه ﴾ أي فأعرض فرعون عما جاء به موسى من الحق المبين استكباراً وعناداً ﴿ وقال ساحر أو مجنون ﴾ أي لا تخلو من أحد الوصفين قال تعالى : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم ﴾ أي ألقيناهم ﴿ في اليم ﴾ وهو البحر ﴿ وهو مليم ﴾ أي وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند .

ثم قال عز وجل ﴿ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ أي المفسدة التي لا تنتج شيئاً. ولهذا قال تعالى : ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه ﴾ أي مما تفسده الريح. ﴿ إلاَّ جعلته كالرّميم ﴾ أي كالشيء الهالك البالي . وقد ثبت في الصحيح من رواية شعبة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : [نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور] ﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا

العمي على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتّعوا حتّى حين * فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون﴾ أي لا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه . وقوله عز وجل : ﴿وقوم نوح من قبل﴾ أي وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ وكل هذه القصص قد تقدّمت مبسوطة في أماكن كثيرة من سور متعددة والله تعالى أعلم .

﴿وَٱلسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * (٤٧) وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ ٱلْمَاهِدُونَ * (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ *(٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * (٥١)﴾

يقول تعالى منبّهاً على خلق العالم العلوي والسفلي ﴿والسماء بنيناها﴾ أي جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً ﴿بأيدٍ﴾ أي بقوّة ﴿وإنا لموسعون﴾ أي قد وسعنا أرجاءها فرفعناها بغير عمد حتى استقلّت. كما هي﴿والأرضَ فرشناها﴾ أي جعلناها فراشاً للمخلوقات . ﴿فنعمَ الماهدون﴾ أي وجعلناها مهداً لأهلها ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ أي جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ، وبر وبحر ، وضياء وظلام ، وإيمان وكفر ، وموت وحياة ، وشقاء وسعادة ، وجنة ونار ، حتى الحيوانات والنباتات. ولهذا قال تعالى: ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ﴿ففرُّوا إلى الله﴾ أي الجأوا إليه واعتمدوا في أموركم عليه. ﴿إني لكم منه نذير مبين * ولا تجعلوا مع الله إلٰهاً آخر﴾أي لا تشركوا به شيئاً﴿إني لكم منه نذير مبين﴾

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ * (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * (٥٧) إِنَّ ٱللَّهَ

هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۞ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ۞ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۞ (٦٠)

يسلّي الله تعالى نبيّه ﷺ : وكما قال لك هؤلاء المشركون قال المكذّبون الأوّلون لرسلهم : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلاّ قالوا ساحر أو مجنون ﴾ قال الله عزّ وجل ﴿ أتواصوا به ﴾ أي هل أوصى بعضهم بعضاً بذلك ؟ ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ أي لكنهم هم الطغاة أي هؤلاء وأولئك ، فقد تشابهت قلوبهم وأقوالهم . قال الله تعالى : ﴿ فتولّ عنهم ﴾ أي فأعرض عنهم يا محمد ﴿ فما أنت بملوم ﴾ على ذلك ﴿ وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ أي إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة . ثم قال عز وجل ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون ﴾ أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم ، وليقرّوا طوعاً أو كرهاً بعبادتي – وما أمرتهم بعبادتي إلا لأني استحقّها وحدي فإن هم أشركوا بها غيري حاق بهم سخَطي وان وحّدوني في العبادة رضيت عنهم وادخلتهم جنّتي ، ولا شك أن هذا رحمة منه تعالى بعباده أن يبيّن لهم هذا الأمر حتى يعملوا بما علموا على الوجه الذي يرضيه تعالى – وهو تعالى ليس بحاجة إليهم وهو الغني عن العالمين. ولهذا قال سبحانه : ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ۞ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ والمراد ان الله تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، وإنّه غير محتاج اليهم بل هم الفقراءُ إليه دائماً فهو خالقهم ورزاقهم روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ – عن ربه تعالى – : ٢٤٩ [يا ابن آدم تفرغ لعبادتي املأ صدرك غنى وأسد فقرك ، وإلاّ تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك] ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث عمران بن زائدة وقال الترمذي : حسن غريب. وقوله تعالى : ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوباً ﴾ أي نصيباً من العذاب ﴿ مثل ذنوب أصحابهم ﴾ أي الذين سبقوهم ﴿ فلا يستعجلون ﴾ العذاب ﴿ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴾ يعني يوم القيامة الذي يكذبون به .

آخر اختصار تفسير سورة الذاريات ولله الحمد والمنة عليه نتوكل وبه نستعين .

(٥٢) سورة الطور مكية وآياتها تسع وأربعون

نزلت بعد السجدة

روى مالك عن جبير بن مطعم عن أبيه : ٢٥٠ [سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه] أخرجاه .

وروى البخاري عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت ؛ ٢٥١ [شكوت إلى رسول الله ﷺ أني اشتكي فقال : « طوفي من وراء الناس وأنت راكبة » فطفت ورسول الله ﷺ يصلي إلى جانب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور .]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلطُّورِ ۞ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۞ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۞ (٣)
وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۞ (٤) وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۞ (٥) وَٱلْبَحْرِ
ٱلْمَسْجُورِ ۞ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۞ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۞ (٨)
يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَاءُ مَوْراً ۞ (٩) وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْراً ۞ (١٠) فَوَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۞ (١١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۞ (١٢)
يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۞ (١٣) هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنْتُمْ بِهَا
تُكَذِّبُونَ ۞ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۞ (١٥)
ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ (١٦) ﴾

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة، أن عذابه واقع بهم أي بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم. فالطور هو الجبل الذي يكون فيه الشجر وهو الذي كلم الله عليه موسى وأرسل منه عيسى – على نبينا وعليهما الصلاة والسلام – وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طوراً، إنّما يقال له جبل. والمراد في هذه الآية هو جبل الطور نفسه. ﴿ كتاب مسطور ﴾ هو الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهاراً. ولهذا قال تعالى : ﴿ في رقٍ منشور ﴾ وقيل هو اللوح المحفوظ – والأول أصح والله أعلم – ﴿ والبيت المعمور ﴾ ثبت في الصحيحين : ان رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته السماء السابعة ٢٥٢ [ثم رفع بي إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم] يعني يتعبَّدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة وهو بحيال الكعبة الأرضية وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلّون إليه والذي في السماء الدنيا يقال له بيت العزّة والله أعلم. وقوله تعالى ﴿ والسقف المرفوع ﴾ قال الربيع بن أنس هو العرش يعني انه سقف لجميع المخلوقات وهو مراد مع غيره كما قاله الجمهور.

وقوله تعالى : ﴿ والبحر المسجور ﴾ أي يوقد يوم القيامة ناراً. كقوله تعالى ﴿ وإذا البحار سجّرت ﴾ أي أُضرمت فتصير ناراً تتأجج. روي عن علي وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم. وقوله تعالى : ﴿ إن عذاب ربّك لواقع ﴾ هذا هو المقسم عليه أي لواقع بالكافرين. كما قال سبحانه في الآية الأخرى : ﴿ ما له من دافع ﴾ أي ليس له من دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله تعالى بهم ذلك. وقوله تعالى : ﴿ يوم تمور السماء موراً ﴾ قال ابن عباس وقتادة : تتحرك تحريكاً باستدارةٍ ﴿ وتسير الجبال سيراً ﴾ أي تذهب فتصير هباءً منبثاً وتنسف نسفاً. ﴿ فويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ أي ويل لهم يومئذ من عذاب الله تعالى ونكاله بهم وعقابه لهم. ﴿ الذين هم فيَ خوض يلعبون ﴾ أي هم في الدنيا يخوضون في الباطل ويتخذون دينهم هزواً ولعباً. ﴿ يوم يُدَعّون ﴾ أي يُدفعون ويساقون ﴿ إلى نار جهنم دعّاً ﴾ أي يدفعون فيها دفعاً ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ أي تقول لهم الزبانية ذلك تقريعاً وتوبيخاً ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ٭ إصلوها ﴾ أي أدخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿ فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم ﴾ أي سواء إن صبرتم أو جزعتم فلا محيد لكم عنها، ولا خلاص لكم منها. ﴿ وانما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أي ولا يظلم الله أحداً بل يجازي كلاً بعمله.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۞ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۞ (١٨) كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۞ (٢٠) ﴾

أخبر تعالى عن حال السعداء فقال عز من قائل: ﴿ إن المتقين في جنات ونعيم . ﴾ وذلك بضدّ ما أولئك فيه من العذاب والنكال ﴿ فاكهين بما آتاهم ربهم ﴾ أي يتفكّهون بما آتاهم الله تعالى من النعيم المقيم ﴿ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ﴾ أي وقد نجّاهم من عذاب النار وتلك نعمة مستقلة مع ما أضيف إليها من دخول الجنة فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ أي هذا بذاك تفضلاً منه وإحساناً وقوله تعالى : ﴿ متكئين على سرر مصفوفة ﴾ كقوله تعالى : ﴿ على سرر متقابلين ﴾ أي وجوههم بعضها إلى بعض ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ أي وجعلنا لهم قرينات صالحات، وزوجات حساناً من الحور العين. وقد تقدم وصفهن في غير موضع بما أغنى عن إعادته ههنا .

﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۞ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۞ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۞ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ۞ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۞ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۞ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۞ (٢٨) ﴾



يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه، ولطفه بخلقه وإحسانه، ان المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان، يلحقهم بآبائهم في المنزلة، وان لم يبلغوا عملهم لتقرَّ أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذاك. ولهذا قال تعالى: ﴿ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتْناهم من عملهم من شيء﴾ قال الثوري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ان الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وان كانوا دونه في العمل لتقرَّبهم عينه. ثم قرأ: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ ورواه ابن جرير وابن ابي حاتم، من حديث سفيان الثوري به ورواه البزار عن ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً.

وروى الإمام أحمد عن -علي رضي الله عنه- قال: ٢٥٣ [سألت خديجة النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية فقال رسول الله ﷺ «هما في النار» فلما رأى الكراهة في وجهها قال: «لو رأيتِ مكانهما لأبغضتهما» قالت: يا رسول الله فولدي منك؟ قال: «في الجنة» قال ثم قال ﷺ «ان المؤمنين وأولادهم في الجنة وإن المشركين وأولادهم في النار» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان﴾ الآية.] هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد قال الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ٢٥٤ [إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب أنّى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك] إسناده صحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ٢٥٥: [إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له]. وقوله تعالى: ﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾ لما أخبر عن مقام الفضل وهو درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل وهو أنه لا يؤآخذ أحداً بذنب أحد. فقال تعالى: ﴿كـل امرىءٍ بما كسب رهين﴾ أي مرتهن بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس. كقوله تعالى: ﴿كلّ نفس بما كسبتْ رهينة إلاّ أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عـن المجرمين﴾ وقوله تعالى: ﴿وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون * يتنازعون فيها كأساً﴾ أي من الخمر، ﴿لا لغوٌ فيها ولا تأثيم﴾ أي لا يتكلمون فيها بكلام لاغٍ. أي هذيان ولا إثم أي فحش، كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا، فنزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها صداع الرأس ووجع البطن، وازالة العقل بالكلية،

واخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء ، الفارغ عن الفائدة ، وأخبر بحسن منظرها وطيب طعمها ومخبرها. فقال جل وعلا : ﴿ بيضاء لذّة للشاربين * لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ وقال ههنا : ﴿ يتنازعون فيها كأساً لا لغوٌ فيها ولا تأثيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤٌ مكنون ﴾ إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة، كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون، في حسنهم وبهائهم ونظافتهم. كقوله تعالى : ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ معين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ أي أقبلوا يتحادثون ، ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا. وهذا كما يتحادث أهل الشراب بما كان من أمرهم : ﴿ قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ﴾ أي كنّا في الدار الدنيا ونحن بين أهلينا خائفين من ربنا ، مشفقين من عذابه وعقابه. ﴿ فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴾ أي فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف. ﴿ إنا كنّا من قبل ندعوه ﴾ أي نتضرع اليه فاستجاب لنا ، واعطانا سؤالنا. ﴿ إنه هو البر الرحيم ﴾ .

روى ابن أبي حاتم عن مسروق عن عائشة أنها قرأت هذه الآية . ﴿ فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ فقالت : اللهم منّ علينا وقنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم . قيل للأعمش : في الصلاة ؟ قال : نعم .

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * (٣٤) ﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ ، بأن يبلغ رسالته إلى عباده ، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان فقال جل وعلا : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهنٍ ولا مجنون ﴾ أي لست بحمد الله كاهناً ، وهو الذي يأتيه الرئي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء. ﴿ ولا مجنون ﴾ وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس. ثم أنكر تعالى عليهم قولهم في الرسول ﷺ ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ فنستريح منه ﴿ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾ أي انتظروا فإني منتظر معكم ، وستعلمون لمن ستكون العاقبة والنصرة في

الدارَيْن . ثم يقول تعالى : ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ أي عقولهم تأمرهم بما يقولون من الأباطيل والكذب والزور؟ ﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ أي ولكن هم قوم طاغون ضلاّل معاندون، وهذا ما حملهم على ما قالوه فيك . وقوله تعالى : ﴿ أم يقولون تقوّله ﴾ أي افتراه من عند نفسه ﴿ بل لا يؤمنون ﴾ أي كفرهم هو الذي دعاهم يقولون ما قالوه ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ في تقولهم ونسبة الافتراء إليه ﷺ فليأتوا بمثل هذا القرآن وأنى لهم ذلك؟ فلو اجتمع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاءوا بمثله... ولا بعشر سور بل ولا بسورة .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ ۝ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُسَيْطِرُونَ ۝ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ (٣٨) أَمْ لَهُ ٱلْبَنَاتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ۝ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ۝ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيْرُ ٱللهِ سُبْحَانَ ٱللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ (٤٣) ﴾

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية فقال تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾ أي هل أوجدوا من غير موجد ؟ ﴿ أم هم الخالقون ﴾ أم هم أوجدوا أنفسهم ، أي لا هذا ولا هذا ... بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً . روى البخاري عن جبير بن مطعم قال: ٢٥٦ [«سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ۝ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ۝ أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون ﴾ كاد قلبي أن يطير] وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، من طرق عن الزهري به . وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسرى، وكان إذ ذاك مشركاً. فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة، من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك . ثم قال تعالى :

﴿ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾ أي هم خلقوا السموات والأرض ؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له . ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك. ﴿ أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون ﴾ أي المحاسبون للخلائق ... ؟ لا .. ليس الأمر كذلك. بل الله عزّ وجلّ هو المالك، المتصرف الفعّال لما يريد .

وقوله تعالى : ﴿ أم لهم سلّم يستمعون فيه ﴾ أي مرقاة إلى الملأ الأعلى ﴿ فليأت مستمعهم بسلطان مبين ﴾ أي بحجة ظاهرة على صحة ما يزعم. فليس لهم دليل على شيء. ثم قال تعالى: ﴿ أم له البنات ولكم البنون ﴾ هذا إنكار عليهم فيما نسبوه إليه من البنات. وجعلهم الملائكة إناثا. واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث. هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله وعبدوهم مع الله. فقال تعالى: ﴿ أم له البنات ولكم البنون ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ﴿ أم تسألهم أجراً ﴾ أي أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله ، أي لست تسألهم على ذلك شيئاً. ﴿ فهم من مغرم مثقلون ﴾ أي يثقل ويشقّ عليهم ذلك. ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم الغيب إلاّ الله تعالى. : ﴿ أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ فإن كانوا يريدون كيداً . فإنه سيرجع في نحورهم ، وعلى أنفسهم ، وإنّهم المكيدون . ﴿ أم لهم إله غير الله سبحان الله عمّا يشركون ﴾ وهذا إنكار شديد على المشركين. في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله . ثم نزّه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون . فقال سبحانه جل وعلا : ﴿ سبحان الله عمّا يشركون ﴾ .

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ۝ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝(٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ۝ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝(٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ۝ (٤٩) ﴾

يخبر تعالى عن المشركين عناداً ومكابرةً للمحسوس : ﴿ وإن يَرَوْا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم ﴾ أي متراكم . وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولولا فتحنا عليهم باباً من السماء فظلّوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ وقال تعالى : ﴿ فذرهم ﴾ أي دعهم يا محمد ﴿ حتّى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ﴾ أي لا ينفعهم كيدهم يوم القيامة شيئاً، ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وان للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ﴾ أي قبل ذلك في الدار الدنيا. كقوله تعالى : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي لا يفهمون ما يراد بهم بل إذا جلّي عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه . كما جاء في بعض الأحاديث : ٢٥٧ [إن المنافق إذا مرض وعوفي مثَلُه في ذلك كمَثَل البعير ، لا يدري فيما عقلوه ، ولا فيما أرسلوه] وقوله تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ أي اصبر على أذاهم ولا تبالِهم، فإنك بمرأى مِنّا وفي حفظنا وعصمتنا . وقوله تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ لقد قيل في تفسيرها ثلاثة أقوال: قال الضحاك: أي في الصلاة: ٢٥٨ [سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إلهَ غيرك] وروى مسلم في صحيحه عن عمر أنه كان يقول : هذا في ابتداء الصلاة ، وكذلك رواه أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد وغيره عن النبي ﷺ انه كان يقول ذلك .

وقال ابو الجوزاء : ﴿ وسبّح بحمد ربّك حين تقوم ﴾ أي من نومك من فراشك ، واختاره ابن جرير ، ومصداقه ما رواه أحمد عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: ٢٥٩ [من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: رب اغفر لي — أو قال — ثم دعا استجيب له فإن عزم فتوضأ ثم صلّى قبلت صلاته] وأخرجه البخاري في صحيحه ، وأهل السنن من حديث الوليد بن مسلم به .

وقال مجاهد : ﴿ وسبح بحمد ربّك حين تقوم ﴾ قال من كل مجلس وقال أبو الأحوص إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال : سبحانك اللهم وبحمدك . وعن عطاء بن أبي رباح قال : حين تقوم من كل مجلس إن كنت أحسنت ازددتَ خيراً، وان كنت غير ذلك كان هذا كفارةً لك . وروى أبو داود اللفظ له ، والنسائي والحاكم في المستدرك عن أبي برزة الأسلمي قال : ٢٦٠ [كان رسول الله ﷺ يقول بآخر عمره إذا أراد أن يقوم

من المجلس « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » فقال رجل : يا رسول الله وإنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى قال : « كفارة لما يكون من المجلس »] .

وقوله تعالى: ﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ أي اذكره واعبده بالتلاوة، والصلاة في الليل . كما قال تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلةً لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وأدبار النجوم ﴾ قد تقدم في حديث ابن عباس ، إنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر ، فإنهما مشروعتان عند أدبار النجوم أي عند جنوحهما للغيبوبة . وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنهما قالت : ٢٦١ [لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر .] وفي لفظ مسلم٢٦٢ [ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها] .

* * *

آخر اختصار تفسير سورة الطور ولله الحمد والمنة وبه العصمة وعليه التكلان



إلاّ الآية ٣٢ فمدنية نزلت بعد سورة الإخلاص

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۞ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۞(٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۞(٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۞ (٤) ﴾

قال الشعبي وغيره : الخالق يقسم بما شاء من خلقه ، والمخلوق لا ينبغي له ان يقسم إلاّ بالخالق . رواه ابن أبي حاتم . وقوله تعالى : ﴿ والنجم إذا هوىٰ ﴾ يعني إذا رمىٰ الشياطين . قاله الضحاك ﴿ ما ضلّ صاحبكم وما غوىٰ ﴾ وهذا هو المقسم عليه وهو الشهادة من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ بأنه راشد تابع للحق ليس بضال ، والضال هو الجاهل الذي يمشي على غير هدى ولا علم . والغاوي هو العالم بالحق، العادل عنه إلى غيره قصداً . فالرسول ﷺ في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد . ولهذا قال تعالى عنه : ﴿ وما ينطق على الهوى ﴾ أي ما يقول قولاً عن غرض وهوى : ﴿ إنْ هو إلاّ وحيٌ يوحىٰ ﴾ أي إنما يقول ما أُمر به ، ويبلغه للناس كاملاً من غير زيادة ولا نقصان . كما روىٰ أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال : ٢٦٣ [كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ بشرٌ يتكلّم في الغضب، فأمسكت عن الكتابة فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منّي إلاّ الحق »] رواه أبو داود .

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ * (١٨) ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علّمه الذي جاء به إلى الناس ﴿ شديد القوىٰ ﴾ وهو جبريل عليه السلام ، كما قال تعالىٰ : ﴿ إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاعٍ ثم أمين ﴾ وقال ههنا : ﴿ ذو مرةٍ ﴾ أي ذو قوّة . وقوله تعالى : ﴿ فاستوىٰ ﴾ أي جبريل عليه الصلاة والسلام ، قاله الحسن ومجاهد وقتادة والربيع . ﴿ وهو بالأفق الأعلىٰ ﴾ يعني جبريل عليه السلام استوىٰ في الأفق الأعلى . قاله عكرمة وغيره . وروى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود : (أن رسول الله ﷺ لم يرَ جبريل عليه الصلاة والسلام في صورته العظمىٰ إلاّ مرتين : أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته ، فسدّ الأفق . وأما الثانية فانه كان معه حيث صعد فذلك قوله تعالى : ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾) . وكانت الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعد ما جاء جبريل عليه السلام أول مرة ، فأوحى اليه صدر سورة (إقرأ) ثم فتر الوحي فترة ذهب النبي ﷺ فيها مراراً ليتردّى من رؤوس الجبال ، فكلما همّ بذلك ، ناداه جبريل من الهواء يا محمد أنت رسول الله حقّاً وأنا جبريل ، فيسكن لذلك جأشُه وتقرّ عينه ، وكلما طال الأمر عاد لمثلها ، حتى تبدّىٰ له جبريل ، وهو بالأبطح في صورته التي خلقه عليها ، له ستمائة جناح قد سدَّ عظمُ خلقه الأفقَ ، فاقترب منه وأوحىٰ اليه عن الله عز وجل ما أمره به ، فعرف عند ذلك عظمة الملك الذي جاءه بالرسالة وجلالة قدره وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه اليه .

وقوله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلىٰ فكان قاب قوسين أو أدنىٰ ﴾ أي اقترب جبريل عليه السلام من محمد ﷺ لما هبط عليه إلى الأرض حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب

قوسين أي بقدرهما إذا مُدّا ، قاله مجاهد وقتادة . وقوله تعالىٰ : ﴿ أو أدنىٰ ﴾ أي ليس أزيد من بُعْدِ وتر القوس إلى كبدها . كقوله تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ أي ما هي ألين من الحجارة ، بل هي مثلها أو تزيد قسوةً وهذا الذي قلناه من أن هذا المقترب الداني الذي صار بينه وبين محمّد ﷺ قاب قوسين أو أدنىٰ،هو جبريل عليه الصلاة والسلام . وهو قول أم المؤمنين عائشة وابن مسعود ، وأبي ذر ، وأبي هريرة كما سنورد ما تيسر من أحاديثهم قريباً إن شاء الله تعالى . وروىٰ مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه انه قال : (رأى محمد ربّه بفؤاده مرتين) فجعل هذه إحداهما وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية وهي محمولة على المقيّدة بالفؤاد ... ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب ، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم . وروىٰ البخاري عن الشيباني قال : سألت زراً عن قوله تعالى : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلىعبده ما أوحىٰ ﴾ قال: حدثناعبدالله ٢٦٤ [ان محمداًﷺرأى جبريل له ستمائة جناح] وقوله تعالى : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأىٰ * أفتمارونه على ما يرىٰ ﴾ روى ابن جرير عن عبدالله قال: ٢٦٥ [رأىٰ رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض] فعلى ما ذكرناه يكون قوله تعالى : ﴿ فأوحىٰ إلى عبده ما أوحىٰ ﴾ معناه فأوحىٰ جبريل إلى عبدالله محمدٍ ما أوحىٰ ، أو فأوحىٰ الله إلى عبده محمد ما أوحىٰ بواسطة جبريل وكلا المعنيين صحيح .

وفي صحيحمسلم عن أبي ذر قال: ٢٦٦ [سألت رسول الله ﷺ ، هل رأيت ربّك فقال «نور أنّى اراه»] وفي روايةٍ ٢٦٧ [رأيت نوراً] . أما الحديث الذي رواه أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ ٢٦٨ [رأيت ربّي عز وجل] فانه حديث إسناده على شرط الصحيح لكنه مختصر من حديث المنام كما رواه أحمد أيضاً عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: ٢٦٩ [أتاني ربي في أحسن صورة ـأحسبه يعني في النوم ـ فقال يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال : قلت لا ، فوضع يده بين كتفيّ حتى وجدت بردها بين ثدييّ ـ أو قال ـ نحري] الحديث ... وقد تقدم في آخر سورة ﴿ صٓ ﴾ عن معاذ نحوه وقوله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى ﴾ هذه هي المرة الثانية التي رأىٰ رسول الله ﷺ فيها جبريل عـلى صورته التي خلقه الله عليها وكانت ليلةَ الإسراء . وقد قدمنا الأحاديث بطرقها في أول سورة سبحان ، بما أغنى عن إعادته ههنا ، وتقدم أن ابن عباس رضي الله عنهما ، كان

يثبت الرؤية ليلة الإسراء ويستشهد بهذه الآية . وتابعه جماعة من السلف والخلف ، وقد خالفه جماعات من الصحابة رضي الله عنهم ، والتابعين وغيرهم . روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ١٦٨ [رأيت جبريل على سدرة المنتهى وله ستمائة جناح ينتثر من ريشه التهاويل من الدر والياقوت] وهذا إسناد جيد قوي . وقال الإمام أحمد عن مسروق قال ١٦٩ [كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول : ﴿ ولقد رآه في الأفق المبين ﴾ ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ فقالت : أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عنها فقال : « إنما ذاك جبريل » لم يره في صورته التي خُلِقَ عليها إلاَّ مرتين رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض سادّاً عظمُ خَلْقه ما بين السماء والأرض] أخرجاه في الصحيحين ومن قال أنه عليه الصلاة والسلام خاطب عائشة على قدر عقلها كابن خزيمة في كتاب التوحيد الذي حاول تخطئتها فإنه هو المخطىء والله أعلم .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال في قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قال : ١٧٠ [رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته مرتين] ، وكذا قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قد تقدم في أحاديث الإسراء إنه غشيتها الملائكة مثل الغربان وغشيها نور الرب وغشيتها ألوان ما أدري ما هي [١] وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال: ١٧١ [لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض ، فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال فراش من ذهب قال : وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً : أعطي الصلوات الخمس وأعطي خواتيم سورة البقرة . وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقحمات] إنفرد به مسلم . وقوله تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾[٢] قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما ذهبت يميناً

---

(١) راجع سورة الاسراء رقم /١٧/ الأحاديث من رقم /٥٢٩ – ٥٣٩د/ . من المجلد الثاني .

(٢) قوله تعالى : « ما زاغ البصر وما طغى » دليل قاطع على أنَّ الاسراء والمعراج كانا بالروح والبدن ، لأن البصر من البدن ولا بصر بلا بدن . كما لا بصر بلا روح وعلى هذا فيكون رؤية محمد صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام (عند سدرة المنتهى) رؤية واقعية ماديّة وما زاغ في هذه الرؤية ببصره وما طغى ، بل رأى حقيقة ببصره المادي الحسي ما رأى ، والبصر هذا لا يكون إلا في البدن إذاً فالبدن كان موجوداً أثناء المعراج لاستحالة وجود بصر بلا بدن . وبدن بلا روح تستحيل فيه الرؤية ، لأن الروح مادة الرؤية للبصر ، كما ان الروح مادة الحياة للبدن ، إذاً فالمعراج كان روحاً وبدناً . والله الموفق للصواب وهو العليم الخبير .

ولا شمالاً ﴿ وما طغىٰ﴾ ما جاوز ما أمر به وهذه صفة عظيمة من الثبات والطاعة ، فإنه ما فعل إلاّ ما أُمر به ، ولا سأل فوق ما أعطي وما أحسن ما قال الناظم :

«رأى جنّة المأوى ومـا فوقها ولـو * رأى غيرُه ما قـد رآه ، لتاهـا .»

وقوله تعالى : ﴿ لقد رأى من آيات ربّه الكبرى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لنُريَه مـن آياتنا ﴾ أي الدالة على قدرتنا العظيمة وبهاتين الآيتين استدلّ من ذهب من أهل السنة أن الرؤية – أي رؤية الرب – تلك الليلة لم تقع لانه قال تعالى : ﴿ لقد رأىٰ من آيات ربه الكبرى ﴾ ولو كان رأى ربّه لأخبر بذلك ولقاله للناس. وقد تقدّم تقرير ذلك في سورة ﴿ سبحان ﴾ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۞ (١٩) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۞ (٢٠) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۞ (٢١) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۞ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰ ۞ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ۞ (٢٤) فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۞ (٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ۞ (٢٦) ﴾



يقرِّع الله تعالى المشركين ويوبخهم على عبادتهم الأصنام والأنداد ، واتخاذهم لهـا البيوت ، مضاهاةً للكعبة : ﴿ أفرأيتم اللاّت ﴾ وكانت اللات صخرة منقوشة ، عليها بيت بالطائف له استار وسدنة وحوله فناءٌ معظم عند أهل الطائف ، وهم ثقيف ومن تابعها . واللاّتُ بتشديد التاء ، وفسروه بما قال البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كان اللاّت رجلاً يلتُّ السويق سويق الحاج . وقال ابن جرير كان قد اشتقوا اسم اللاّت من اسم الله فقالوا اللات يعنون مؤنثة منه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وكذا العُزّى من العزيز ، وكانت شجرةٌ عليها بناءٌ وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف

كانت قريش يعظمونها كما قال ابو سفيان يوم أُحُدٍ لنا العزّى ولا عزّى لكم. فقال رسول الله ﷺ: ٢٧٤ [قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم] وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ٢٧٥ [من حلف فقال في حلفه واللات والعُزّى فليقل لا إله إلا الله ومن قال لصاحبه تعالَ أقامرْك . فليتصدّق .] وهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك. كما كانت ألسنتهم قد اعتادته من زمن الجاهلية . وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها. ويهلّون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخاري عن عائشة نحوه . وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخرى تعظّمها العرب كتعظيم الكعبة. غير هذه الثلاثة التي نصَّ عليها كتابه العزيز. ولهذا قال تعالى: ﴿ أفرأيتم اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها . وقد بعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب إلى اللات فهدماها وجعلا مكانها مسجداً بالطائف . وأرسل خالد بن الوليد إلى العزّى فهدمها . وأرسل أبا سفيان بن حرب إلى مناة وكانت بناحية المشلل بقديد فهدمها ، وهناك أصنام أخرى كذي الخلصة . وقيس ، وريام . ورضاء وذي الكعبات... موزعة في الجهات فأرسل رسول الله ﷺ من أصحابه رضي الله عنهم مَنْ هدمها جميعاً وطهر الجزيرة من أرجاسها. ثم قال تعالى: ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ أي أتجعلون له ولداً وتجعلون ولده الأنثى . وتختارون لأنفسكم الذكور فلو اقتسمتم هذه القسمة أنتم ومخلوق مثلكم ، لكانت: ﴿ قسمة ضيزى ﴾ أي جوراً باطلة . فكيف تقاسمون ربّكم هذه القسمة ...؟!! ثم قال تعالى: ﴿ إنْ هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ من تلقاء أنفسكم ، وهذا إنكار منه تعالى عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أي من حجّة. ﴿ إن يتّبعون إلا الظنّ وما تهوى الأنفس ﴾ أي ليس لهم مستند إلاّ تعظيم آبائهم لها. وحسن ظنّهم بآبائهم. وما تهوى نفوسهم لذلك. ﴿ ولقد جاءهم من ربّهم الهدى ﴾ بإرسال الرسل بالحق وبالحجة القاطعة ... ومع كل هذا اتبعوا ما كان عليهم آباؤهم . ثم قال تعالى: ﴿ أم للإنسان ما تمنّى ﴾ أي ليس كلّ من تمنّى خيراً حصل له. وما كل من زعم أنه مهتد يكون كذلك. ﴿ فلله الآخرة والأولى ﴾ أي إنّما الأمر كله لله مالك الدارين . المتصرف بهما طبق مشيئته سبحانه وتعالى . وقوله تعالى: ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلاّ من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ كقوله تعالى: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه ﴾ فإذا كان هذا في حق الملائكة المقرّبين . فكيف ترجون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله الذي نهى عن عبادتها . واتخاذها شفعاء على ألسنةِ جميع رسله ؟!! .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۞ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۞ (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۞ (٣٠) ﴾

ينكر تعالى على المشركين تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى ، وقولهم أنها بنات الله ، تعالى الله عن ذلك . كما قال تعالى : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وما لهم به من علم ﴾ أي ليس لهم علم صحيح بصدق ما قالوه ، بل هو زور وافتراء وكفر شنيع. ﴿ إن يتبعون إلاّ الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ أي لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال ٢٧٦ : [إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث] .

وقوله تعالى : ﴿ فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ﴾ أي أعرضْ عن الذي أعرضَ عن الحق واهجره. وقوله تعالى : ﴿ ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ أي جعلها أكثر همه ومنتهى غايته . ولهذا قال سبحانه : ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ أي طلب الدنيا وفي الدعاء المأثور ٢٧٧ [اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا] وقوله تعالى : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ أي هو العالم بمصالح عباده وهو الذي يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء ، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته ، وهو العادل الذي لا يجور أبداً لا في شرعه ولا في قدره .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِٱلْحُسْنَى ۞ (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ

هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ۞ (٣٢)

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغني عما سواه، الحاكم في خلقه بالعدل وخلَق الخلق بالحق ﴿ ليجزيَ الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ أي يجازي كلاً بعمله خيراً كان أو شراً ، ثم فسّر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون الكبائر والفواحش ولا يتعاطونها وإن وقع منهم بعض الصغائر فانه تعالى يغفر لهم ويستر عليهم . كما قال جل وعلا : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ وقال ههنا ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ وهذا استثناء منقطع ، لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال :٢٧٨ [ان الله تعالى كتب على ابن آدم حظَّه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنى العين النظر ، وزنى اللسان النطق ، والنفس تمنّى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه] وأخرجاه في الصحيحين . قال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له ابن لبابة الطائفي قال : سألت أبا هريرة عن قول الله : ﴿ إلاّ اللمم ﴾ قال : القبلة ، والغمزة ، والنظرة والمباشرة فإذا مس الختانُ الختانَ فقد وجب الغسل وهو الزنا . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ إلا اللمم ﴾ إلاَّ ما سلف وعن مجاهد قال : الذي يلم بالذنب ثم ينزع عنه قال : وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت وهم يقولون :

ان تغفرِ اللهمَّ تغفرْ جمّاً وأي عبدٍ لكَ ، ما ألمّا ؟

أي يلم بالذنب قليلاً ثم يقلع عنه -[١] وقوله تعالى : ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ أي رحمته وسعت كل شيء ، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها. كقوله تعالى: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ﴾ أي هو بصير بكم ، عليم بأحوالكم وافعالكم وأقوالكم ، التي ستصدر عنكم ، وتقع منكم حين أنشأ أباكم آدم من الأرض ، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر ثم قسمهم

(١) قلت : أرجح ان معنى « اللمم » ما فسره ابو هريرة من القبلة ، والغمزة وما شابه ... قال عليه الصلاة والسلام « ... وإن محقرات الذنوب متى يأخذ بها صاحبها تهلكه » .

فريقين ، فريقاً للجنّة وفريقاً للسعير . وكذا قوله تعالى : ﴿ وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ قد كتب الملك الذي يوكل به، رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد. وقوله تعالى: ﴿ فلا تزكّوا أنفسكم ﴾ أي تمدحوها وتشكروها ، وتمنّوا بأعمالكم. ﴿ هو أعلم بمن اتّقى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً ﴾ وقدثبت في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي بكرة قال ٢٧٩ [مدح رجلٌ رجلاً عند النبيّ ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « ويلك قطعتَ عنقَ صاحبك ـ مراراً ـ ، إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل أحسب فلاناً والله حسيبه ولا أزكي على الله أحداً أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك . »] رواه البخاري ومسلم وابو داود وابن ماجه من طرق عن خالد الحذّاء به . وروى الإمام أحمد عن همام بن الحارث قال : ٢٨٠ [جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه قال فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب، ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين، أن نحثو في وجوههم التراب .] ورواه مسلم وأبو داود .

﴿ أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ۞ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ۞(٣٤) أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ۞ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۞ (٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰ ۞ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۞ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۞ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۞ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۞ (٤١) ﴾

يذمُّ تعالى من تولّى عن طاعته فلا صدّق ولا صلّى ، ولكن كذّب وتولّى ﴿ وأعطى قليلاً وأكدى ﴾ قال ابن عباس: أطاع قليلاً ثم قطعه. وكذا قال مجاهد وغير واحد، وقوله تعالى : ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ أي أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق وقطع معروفه أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده ، حتى قد أمسك عن معروفه فهو يرى ذلك عياناً ؟ أي ليس الأمر كذلك ، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلعاً . ولهذا جاء في الحديث : ٢٨١ [أنفقْ بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالاً] وقد قال تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفّى ﴾ أي قام بجميع الأوامر

وترك جميع النواهي ، وبلغ الرسالة على التمام والكمال فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله . قال الله تعالى : ﴿ ثم أوحينا إليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ .

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال : ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب، فانما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد . كما قال تعالى : ﴿ وان تدعُ مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وأن ليس للانسان إلاّ ما سعى وان سعيه سوف يُرى ﴾ أي كما لا يُحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه ، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتّبعه ، أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتىٰ ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ولهذا لم يندب اليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضيُ الله عنهم ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ، ومنصوص من الشارع عليهما . وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ٢٨٢ [اذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاث من ولد صالح يدعو له، أو صدقةٍ جارية من بعده ، أو علم ينتفع به] فهذه الثلاثة في الحقيقة، هي من سعيه وكدّه وعمله. كما جاء في الحديث ٢٨٣ [ان أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه] والصدقة الجارية كالوقف ونحوه وهي من آثار عمله ووقفه. وقد قال تعالى: ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ الآية . والعلم الذي نشره في الناس فاقتدىٰ به الناس بعده، هو أيضاً من سعيه وعمله. وثبت في الصحيح : ٢٨٤ [من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتّبعهُ من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً] وقوله تعالى : ﴿ وأنّ سعيه سوف يُرىٰ ﴾ أي يوم القيامة ، أي فيخبركم الله به ويجزيكم عليه أتم الجزاء خيراً أو شراً ... وقوله تعالى : ﴿ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ أي الأوفر .

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ

وَٱلْأُنثَىٰ ۞ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۞ (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۞ (٤٧) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۞ (٤٨) وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۞ (٤٩) وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۞ (٥٠) وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۞ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۞ (٥٢) وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۞ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۞ (٥٤) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۞ (٥٥)

يقول تعالى : ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ أي المعاد يوم القيامة وقوله تعالى : ﴿ وأنه هو أضحك وأبكىٰ ﴾ أي خلق في عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وانه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تُمنَى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفةً من منيٍّ يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوّى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ أي كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة وهي النشأة الآخرة يوم القيامة ﴿ وأنه هو أغنىٰ وأقنىٰ ﴾ أي ملَّك عباده المال وجعله لهم قنيةً مقيماً عندهم لا يحتاجون إلى بيعه فهذا تمام النعمة عليهم ﴿ وأنه هو ربُّ الشِعرى ﴾ الشِعْرَى هو النجم الوقّاد الذي يقال له مرزم الجوزاء كانت طائفة من العرب يعبدونه ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾ وهم قوم هود وكانوا أقوى الناس وأعتاهم على الحق ، فأهلكهم الله . وقوله تعالى : ﴿ وثمود فما أبقىٰ ﴾ أي دمَّرهم فلم يُبقِ منهم أحداً ﴿ وقوم نوح من قبل ﴾ أي من قبل هؤلاء ﴿ إنهم كانوا هم أظلم وأطغىٰ ﴾ أي أشد تمرّداً من الذين من بعدهم ﴿ والمؤتفكة أهوىٰ ﴾ يعني مدائن لوط ... قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود . ولهذا قال تعالى : ﴿ فغشاها ما غشّى ﴾ يعني من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿ فبأي آلاء ربك تتمارى ﴾ أي ففي أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري؟ قاله قتادة .

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ۞ (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ۞ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۞ (٥٨) أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۞ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۞ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ۞ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۞ (٦٢)﴾



﴿هذا نذير﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿من النذر الأولى﴾ أي من جنسهم أرسل كما أرسلوا كما قال تعالى: ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ وقوله تعالى: ﴿أزفت الآزفة﴾ اقتربت القريبة وهي القيامة ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ أي لا يدفعها إذاً من دون الله أحد ولا يطلع على علمها سواه، والنذير الحذر لما يعاين من الشر الذي يخشىُ وقوعه فيمن أنذرهم. كما قال: ﴿إني نذير لكم بين يديْ عذابٍ شديد﴾ ثم قال تعالى منكراً على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه ﴿تعجبون﴾ من أن يكون صحيحاً ﴿وتضحكون﴾ منه استهزاء وسخرية ﴿ولا تبكون﴾ أي كما يفعل الموقنون به كما أخبر عنهم ﴿ويخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾ وقوله تعالى: ﴿وانتم سامدون﴾ أي مستكبرون معرضون. ثم قال تعالى آمراً عباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسول الله ﷺ والتوحيد والإخلاص: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ أي فاخضعوا له وأخلصوا ووحدوه.

روى البخاري عن ابن عباس قال: ٢٨٥ [سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس.] انفرد به دون مسلم. وروى الإمام أحمد عن المطلب بن أبي وداعة قال: ٢٨٦ [قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم فسجد وسجد من عنده فرفعت رأسي فأبيت أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً يقرأها إلاّ سجد معه] وقد رواه النسائي.

آخر اختصار تفسير سورة النجم ولله الحمد والمنة

(٥٤) سورة القمر مكية وآياتها خمس وخمسون

إلا الآيات ٤٤ , ٤٥ , ٤٦ فمدنيّة نزلت بعد سورة الطارق

قد تقدم في حديث أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف ، واقتربت الساعة في الأضحَى والفطر ، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته ، والتوحيد ، واثبات النبوات وغير ذلك من المقاصد العظيمة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ (١) وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ (٢) وَكَذَّبُوا وَٱتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝ (٣) وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ (٤) حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝ (٥) ﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها. كما قال تعالى : ﴿ أتىٰ أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ وقال سبحانه ﴿ أقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ وروىٰ الإمام أحمد عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٢٨٧ [بعثت أنا والساعة هكذا » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى] أخرجاه . وقوله تعالى : ﴿ وانشق القمر ﴾ قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة . وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود انه قال : خمس قد مضين : الروم والدخان واللزام والبطشة والقمر وهذا أمر متفق عليه بين العلماء، ان انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وانه كان احدى المعجزات الباهرات .

وروى البخاري عن أنس بن مالك ٢٨٨ [أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقَّيْن حتى رأوا حراء بينهما] وأخرجاه .

روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبدالله بن عمر في قوله تعالى: ٢٨٩ [« ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ قال وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ ، انشق فلقتين ، فلقة من دون الجبل وفلقة من خلف الجبل فقال النبي ﷺ « اللهم اشهد »] وهكذا رواه مسلم والترمذي من طرق وقال حسن صحيح روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : [إنشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين ، حتى نظروا إليه فقال رسول الله ﷺ : « اشهدوا »] وهكذا رواه البخاري ومسلم من حديث سفيان بن عيينة .

وروى البيهقي عن عبدالله بن مسعود قال: ٢٩٠ [إنشق القمر بمكة حتى صار فرقتين فقال كفار قريش أهل مكة : هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة ، انظروا السفّار فان كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق ، وان كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به. قال: فسئل السفّار قال : وقدموا من كل وجهة فقالوا : رأينا .]

ورواه ابن جرير من حديث المغيرة به وزاد : فأنزل الله عز وجل : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإن يروا آية ﴾ أي دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿ يعرضوا ﴾ أي لا ينقادون له ويتركونه وراء ظهورهم ﴿ ويقولوا سحر مستمر ﴾ أي باطل ﴿ وكذبوا واتّبعوا أهواءهم ﴾ أي كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا آراءهم بدافع جهلهم وسخافة عقولهم .

وقوله تعالى : ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ أي واقع بأهله خيراً كان أو شراً ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ﴾ أي قصص الأمم المكذبة برسلهم ما حلّ بهم من العقاب ﴿ ما فيه مزدجر ﴾ أي فيه رادع عن الشرك والتمادي فيه . وقوله تعالى : ﴿ حكمة بالغة ﴾ أي في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضلّه. ﴿ فما تغني النذر ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ = أي ليس يغني ذلك عن قوم علم الله منهم أنهم سيختارون الكفر على الإيمان من قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام فكتبه عليهم ، أي لا يفيدهم الدلائل ولا الإنذارت فإنهم لا يؤمنون . = [1]

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ ❁ (٦)

(١) ما بين المساويين من كلامي .

خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۞ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۞ (٨)

يقول تعالى : فتولَّ يا محمد عن هؤلاء الذين إن رأوا آية يعرضوا ويقولوا هذا سحر مستمر ، أعرضْ عنهم وانتظرهم ﴿ يوم يدعُ الداع إلى شيء نُكُرُ ﴾ أي إلى شيء منكر فظيع ، وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء بلَ والزلازل والأهوال ، ﴿ خشعاً أبصارهم ﴾ أي ذليلةً أبصارهم ﴿ يخرجون من الأجداث ﴾ أي القبور ﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب ، إجابة للداعي جراد منتشر في الآفاق. ولهذا قال تعالى : ﴿ مهطعين ﴾ أي مسرعين ﴿ إلى الداعي ﴾ لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿ يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ أي شديد الهول عبوس قمطرير . كقوله تعالى : ﴿ فذلك يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ .



كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۞ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۞ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۞ (١١) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُوناً فَٱلْتَقَى ٱلْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۞ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۞ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۞ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۞ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۞ (١٧)

يقول تعالى : ﴿ كذبت ﴾ أي قبلك يا محمد ﴿ قوم نوح فكذبوا عبدنا ﴾ أي صرحوا بتكذيبهم له ﴿ وقالوا مجنون وازدجر ﴾ أي اتهموه بالجنون ، وانتهروه وزجروه متوعدين لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ أي أني ضعيف فانتصر أنت لدينك . قال الله تعالى : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ وهو الكثير ﴿ وفجَّرنا الأرض عيوناً ﴾ أي نبعت جميع أرجاء الأرض ﴿ فالتقى الماء ﴾ أي ماء السماء وماء الأرض ﴿ على أمر قد قدر ﴾ أي أمر مقدر .

﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ أي ذات ألواح من الخشب ودسر أي مسامير واحدها دسار ويقال دسير والمقصود السفينة . أي حملناهم على السفينة . وقوله تعالى : ﴿ تجري بأعيننا ﴾ أي بمرأى منا ، وتحت حفظنا. ﴿ جزاء لمن كان كُفِرَ ﴾ أي جزاء لهم على كفرهم بما نزل عليهم من الحق ، وانتصاراً لنوح عليه السلام .

وقوله تعالى: ﴿ ولقد تركناها آيةً ﴾ = أي تركنا سفينة نوح خالدة المثال والصنع ، وكأنها ـ والله أعلم ـ أول سفينة علّم الله نوحاً صناعتها ، فبقيت هذه الصناعةُ قائمةً من بعده ، تصنع كل سفينة على غرارها تمشي على الماء بقدرته تعالى . وتكون ذكرىً لسفينة نوح تتعظون بما حل بقوم نوح الكافرين من الغرق ، وبما حلّ من الرضوان والنجاة بالمؤمنين الذين حملهم على السفينة وأنجاهم من الغرق . كقوله تعالى : ﴿ إنَّا لمّا طغىْ الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية[1] = ولهذا قال جلّت قدرته ﴿ فهل من مدّكر ﴾ أي فهل من يتذكّر ويتّعظ . وقوله تعالى : ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ أي كيف كان عذابي لمن كفر بي وبرسلي ولم يتعظ بما جاءت به نذري ، وكيف انتصرتُ لرسلي وثأرتُ لهم ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ يعني هونّا قراءته ويسرنا فهمه فله الحمد والمنة ﴿ فهل من مدّكر ﴾ أي فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسره الله حفظاً ومعنىً فهل من منزجرٍ به عن المعاصي ، ومتبع للأوامر فيحلَّ له نعيمي ورضواني ... ؟.

﴿ كَذَّبَتْ عَـــادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۞ (١٩) تَنْزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْـــلٍ مُنْقَعِرٍ ۞ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ (٢١) وَلَقَـدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَـــلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ۞ (٢٢) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عاد قوم هود ، انهم كذّبوا رسولهم أيضاً ، كما صنع قوم نوح وأنه تعالى أرسل عليهم ﴿ ريحاً صرصراً ﴾ وهي الباردة الشديدة البرد ﴿ في يوم نحس ﴾ أي عليهم ، ﴿ مستمر ﴾ عليهم نحسه ودماره لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي. وقوله تعالى : ﴿ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ثم تنكسه على أم رأسه فيسقط إلى الأرض ، فتثلغ

(١) ما بين المساويين كلامي لا من كلام المفسر رحمه الله تعالى .

رأسه فيبقى جثة بلا رأس . ولهذا قال : ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر ◦ فكيف كان عذابي ونذر ◦ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ❁ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ❁ (٢٤) ءَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ❁ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ❁ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ❁ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ❁ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ❁ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ❁ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ❁ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ❁ (٣٢) ﴾

هذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً عليه السلام ﴿ فقالوا أبشراً منّا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسُعُرٍ ﴾ يقولون : لقد خسرنا إن سلّمنا قيادنا لواحد منا أي لنبيّهم صالح عليه السلام . ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصةً من دونهم ثمّ رموه بالكذب. فقالوا : ﴿ بل هو كذاب أشر ﴾ أي متجاوز في حد الكذب ، فقال تعالى : ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد. ثم قال تعالى: ﴿ إنّا مرسلو الناقةِ فتنةً لهم ﴾ أي إختباراً لهم ، أخرج لهم ناقة عظيمة عشراء ، من صخرة صمّاء طبق ما سألوا لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام، فيما جاءهم به. ثم قال تعالى : آمراً عبده ورسوله صالحاً ﴿ فارتقبهم واصطبر ﴾ أي انتظر ما يؤول اليه أمرُهم واصبر عليهم فإن العاقبة لك والنصر في الدنيا والآخرة ﴿ ونبئهم أن الماء قسمةٌ بينهم ﴾ أي يوم لهم ويوم للناقة. كقوله تعالى : ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يومٍ معلوم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كل شرب محتضر ﴾ قال مجاهد : إذا غابت حضروا الماء وإذا جاءت حضروا اللبن . ثم قال تعالى : ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ هو عاقر الناقة واسمه قدار بن سالف وكان أشقى قومه كقوله تعالى : ﴿ إذ انبعث اشقاها ﴾

﴿ فتعاطى ﴾ أي حسر ﴿ فعقر • فكيف كان عذابي ونذرِ ﴾ أي فعاقبتهم فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ أي فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية ، وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والمحتظر هو المرعىٰ بالصحراء حين ييبس ويحترق وتسفيه الريح .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ۝ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۝ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ۝ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ۝ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ۝ (٤٠) ﴾

يخبر تعالى عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم واقترفوا فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين ولهذا فقد أُهلكوا إهلاكاً لم تُهلَكْه أمة من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم حتى وصل بها عنان السماء ثم قلبها عليهم ، ورجموا بحجارة من سجيل منضود . ولهذا قال ها هنا، ﴿ إنّا أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ وهي الحجارة ﴿ إلاّ آل لوطٍ نجيناهم بسَحَر ﴾ أي خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم لم يمسسهم سوء . ولهذا قال تعالى: ﴿ كذلك نجزي من شكر • ولقد أنذرهم بطشتنا ﴾ أي قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه فما أصغوا اليه بل شكّوا وتماروا .

﴿ ولقد راودوه عن ضيفه ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة : جبريل وميكائيل وإسرافيل في صور شباب مرد حسان، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام وبعثت إمرأته العجوز السوء ، إلى قومها فأعلمتهم بأضياف لوط فأسرعوا إليه ، فأغلق لوط دونهم الباب ، فحاولوا كسره ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم ويقول : ﴿ هؤلاء بناتي ﴾ يعني نساءهم فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدُّخول ، خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم ، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون

بالحيطان،ويتوعّدون لوطاً عليه السلام إلى الصباح . قال تعالى: ﴿ ولقد صبّحهم بكرةً عذاب مستقر ﴾ أي لا محيد لهم عنه ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ۞ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ﴾ .

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۞ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ۞ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ۞ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ۞ (٤٤) سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۞ (٤٥) بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۞ (٤٦)

يخبر تعالى عن فرعون وقومه : انهم جاءهم رسول الله موسىٰ وأخوه هارون عليهما الصلاة والسلام بالبشارة والنذارة وأيّدهما بالمعجزات المتعددة فكذبوا بها جميعاً فأخذهم ألله أخذ عزيز مقتدر ولم يبق منهم أثر. ثم قال تعالى : ﴿ أكفّارُكُمْ ﴾ أي أيها المشركون من قريش ﴿ خير من أولئكم ﴾ يعني ممن ذكرهم والذين أهلكهم بسبب تكذيبهم لرسلهم وكفرهم بكتبهم ﴿ أم لكم براءة في الزبر ﴾ أم معكم براءة ان لا ينالكم عذاب ولا نكال ؟ ثم أخبر جل جلاله : ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ أي أن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء. قال الله تعالى: ﴿ سيهزم الجمع ويولّون الدُبر ﴾ أي سيغلبون ويمزّقون .

روَى البخاري عن ابن عباس انالنبي ﷺ ٢٩١ [قال وهو في قبة لهيوم بدر : «أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً » فأخذ أبو بكر رضيَ الله عنه بيده وقال حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولّون الدبر ۞ بل الساعة موعدهم والساعة أدهىٰ وأمرّ ﴾] وكذا رواه البخاري والنسائي في غير موضع .

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۞ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۞ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ

خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء ، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق . ثم قال تعالى : ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ أي فكما كانوا في سعر وشكٍّ وتردد أورثهم ذلك النار ، وكما كانوا ضلالاً يسحبون فيها على وجوههم لا يدرون أين يذهبون ، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً ﴿ ذوقوا مسَّ سقر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنّا كلَّ شيء خلقناه بقدر ﴾ كقوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوىً والذي قدّر فهدى ﴾ أي قدّر قدراً ، وهدىٰ الخلائق إليه ، ولهذا يستدل أئمة السنة من هذه الآية الكريمة على اثبات قدر الله تعالى السابق لخلقه وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابتها لها قبل برئها ، وردُّوا بهذه الآية وبما شابهها من الآيات والأحاديث الثابتة ، على الفرقة القدرية ، الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة ولنذكر ما تيسر من هذه الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة .

روى أحمدعن أبي هريرة قال : ٢٩٢ [جاء مشركو قريش إلى النبيّ ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت : ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسَّ سقر ۰ إنّا كل شيء خلقناه بقدر ﴾] وهكذا رواه مسلم والترمذي وابن ماجه .

وروى ابن أبي حاتم عنزرارة عن النبي ﷺ ٢٩٣ [انه تلا هذه الآية : ﴿ ذوقوا مسَّ سقر ۰ إنّا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ قال : « نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان يكذبون بقدر الله . »] .

وروى أحمد عن عبدالله بن عمر ان رسول الله ﷺ قال : ٢٩٤ [لكل أمة مجوس ، ومجوس أمتي [1] الذين يقولون لا قدر إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم]

(١) أي المعتزلة .

وفي الحديث الصحيح: ٢٩٥ [استعن بالله ولا تعجز فإن اصابك أمر فقل قدر الله وما شاء فعل ، ولا تقل لو اني فعلت لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان] وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ ٢٩٦ [ان الله كتب مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة ــ زاد ابن وهب ــ وكان عرشه على الماء] ورواه الترمذي وقال : حسن صحيح غريب .

وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الوليد بن عبادة ، حدثني أبي قال : ٢٩٧ [دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت فقلت : أوصني واجتهد لي، فقال : أجلسوني... فلما أجلسوه قال : يا بُنيَّ إنك لم تطعم الإيمان ولم تبلغْ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره . قلت : يا أبتاه وكيف لي أن اعلم ما خير القدر و شره ؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يا بُنَيَّ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ان أول ما خلق الله القلم ثم قال له اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » يا بني إن متَّ ولست على ذلك دخلت النار] .

وقوله تعالى : ﴿ وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر ﴾ وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم ﴿ وما أمرنا الا واحدة ﴾ أي لا نحتاج إلى تأكيد بثانية لأن الأمر ينفذ حالاً لا يتأخر طرفة عين وما أحسن ما قال بعض الشعراء :

إذا ما أراد الله أمراً فإنمـــا يقول له : كنْ . قولةً فيكون

وقوله تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم ﴾ يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسل ﴿ فهل من مدّكر ﴾ أي فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك وقدّر لهم من العذاب؟ وقوله تعالى : ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ أي في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام ﴿ وكل صغير وكبير ﴾ من أعمالهم ﴿ مستطر ﴾ أي مسطرٌ في صحائفهم ومحصيّ . قال الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول: ٢٩٨ [يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً] ورواه النسائي وابن ماجه . وقوله تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات ونَهَر ﴾ أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسُعُر ، والسَّحب في النار على وجوههم. وقوله تعالى ﴿ في مقعد صدق ﴾ أي في دار كرامة الله ورضوانه ﴿ عند مليك مقتدر ﴾ أي عند الملك العظيم الخالق القادر على كلّ شيء مما يطلبون ويريدون. وقد روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر يبلغ به النبي ﷺ قال : [المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلّوا] انفرد باخراجه مسلم والنسائي .

آخر اختصار تفسير سورة القمر ولله الحمد والمنة وبه العصمة .

(٥٥) سورة الرحمن مدنية وآياتها ثمان وسبعون

نزلت بعد الرّعد

روى ابو عيسى الترمذي عن جابر قال: ٢٩٩ [خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: « لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»] غريب. روى ابن جرير عن عبدالله ابن عمر ٣٠٠ [إن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن أو قرئت عنده فقال «ما لي أسمع الجن أحسنَ جواباً لربها منكم ؟ » قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال « ما أتيت على قول الله تعالى: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذّبان ﴾ إلا قالت الجن: لا بشيء من نعم ربنا نكذّب»] ورواه الحافظ البزار عن عمرو بن مالك به ثم قال لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حزب ٥٤

ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ (١) عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ ۝ (٢) خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ ۝ (٣)
عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝ (٤) ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ (٥) وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ
يَسْجُدَانِ ۝ (٦) وَٱلسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا
فِي ٱلْمِيزَانِ ۝ (٨) وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا
ٱلْمِيزَانَ ۝ (٩) وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ
ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝ (١١) وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝(١٢) فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ (١٣)

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه أنه أنزل على عباده القرآن ويسر حفظه وفهمه على من رحمه . فقال تعالى: ﴿ الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان ﴾ قال الحسن : يعني النطق ، وهو أداء تلاوته ، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق،واللسان والشفتين على اختلاف مخارجها وانواعها. كقوله تعالى : ﴿ فالق الإصباح وجَعَل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ نص علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : النجم ما انبسط على وجه الأرض يعني النبات ، وكذا قال سعيد بن جبير والسدّي وسفيان الثوري واختاره ابن جرير رحمه الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾ يعني العدل . كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ وهكذا قال ههنا : ﴿ ألاّ تطغوا في الميزان ﴾ أي خلق السموات والأرض بالحق والعدل لتكون الأشياء كلها بالحقّ والعدل . ولهذا قال تعالى : ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسروا الميزان ﴾ أي لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط . كما قال تعالى : ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ أي كما رفع السماء وضع الأرض وجعلها مستقرّاً لمعاش أهلها ﴿ فيها فاكهة ﴾ أي مختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿ والنخل ذات الأكمام ﴾ والأكمام: قال ابن جريج عن ابن عباس: هي أوعية الطلع. وهكذا قال غير واحد من المفسّرين ، وهو الذي يطلع فيه القِنْو ثم ينشق عن العنقود ، فيكون بسراً ثم رطباً ثم ينضج ويتناهى يفعه واستواؤه .

﴿ والحبُّ ذو العصف والريحان ﴾ ذو العصف:يعني التبن وهو ما على السنبلة،والريحان: وهو الورق الملتف على ساقها . وقوله تعالى : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ أي فبأي النعم المغمورون بها يا معشر الثقلين من الإنس والجن تكذبان ؟ قاله مجاهد وغير واحد ، ويدل عليه السياق بعده فأيّ نعمة من هذه النعم التي لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها تكذّبون ؟ فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون به : اللهم ولا بشيء من آلائك ربّنا نكذّب ، فلك الحمد .

خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَٱلْفَخَّارِ ۞ (١٤) وَخَلَقَ

ٱلْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾
رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا
يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا
ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾
وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَآتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

يذكر تعالى خَلقه الإنسانَ من صلصالٍ كالفخار ، وخلقه الجان من مارج من نار ، أي من خالص النار قاله ابن عباس وغيره . روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ ٣٠١ [خلقتِ الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدمُ مما وصف لكم] ورواه مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ فبأي آلاءِ ربكما تكذبان ﴾ تقدم تفسيره ﴿ رب المشرقين ورب المغربَيْن ﴾ يعني مشرقي الصيف والشتاء ومغربي الصيف والشتاء ، ولما كان في اختلاف هذه المطالع مصالح للخلق من الجن والإنس قال سبحانه : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ وقوله تعالى : ﴿ مَرَجَ البحرين يلتقيان ﴾ قال ابن عباس أي أرسلهما وقوله تعالى : ﴿ يلتقيان ﴾ قال ابن زيد : أي منعهما أن يلتقيا بما جعل بينهما من الحاجز الفاصل بينهما والمراد بالبحرين : أي الملح والحلو ؛ فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، وقد قدمنا الكلام على ذلك في سورة الفرقان. عند قوله تعالى: ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذاب فُرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحِجْراً محجوراً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ أي وجعل بينهما حاجزاً من الأرض لئلاّ يبغي هذا على هذا ، وهذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه . وقوله تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ أي من مجموعهما ، فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى. كما قال تعالى: ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتِكم رسل منكم ﴾ والرسل إنما كانوا من الإنس خاصة دون الجن وقد صح هذا الإطلاق . واللؤلؤ معروف ، وأما المرجان

فقيل هو صغار اللؤلؤ ، وقيل : هو نوع من الجواهر أحمر اللون ، وقيل هو الخرز الأحمر .

وعن ابن عباس قال : إذا امطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهها فما وقع فيه من القطر فهو اللؤلؤ . إسناده صحيح.رواه ابن أبي حاتم . ولما كان اتخاذ هذه الحلية على أهل الأرض نعمة ، أمتنَّ بها عليهم فقال تعالى : ﴿ فبأي آلاء ربّكما تكذبان ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وله الجوار المنشآت ﴾ يعني السفن التي تجري ﴿ في البحر ﴾ قال مجاهد ما رُفِع قلعهُ من السفن فهي منشآت. ﴿ كالأعلام ﴾ أي كالجبال في كبرَها وما فيها من مصالح نقل التجارات من قُطر إلى قُطر ، مما فيه صلاح للناس.ولهذا قال سبحانه ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ وقال ابن أبي حاتم عن عمرة بن سويد قال : كنت مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على شاطىء الفرات إذ أقبلتْ سفينة مرفوع شراعها ، فبسط عليٌّ يديْه ثم قال : يقول الله عزّ وجل ﴿ وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ﴾ والذي أنشأها تجري في بحوره ما قتلتُ عثمان ولا مالأتُ على قتله (١) .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ ۞ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ (٢٨) يَسْئَلُهُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۞ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ (٣٠) ﴾

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيموتون ، وكذلك أهل السموات إلاّ من شاء الله ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم ؛ فإن الرب تعالى وتقدس هو الحي الذي لا يموت أبداً . قال قتادة: أنبأ بما خلق ثم أنبأ أن ذلك كلّه فان.وفي الدعاء المأثور: ٣٠٢ [يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت برحمتك نستغيث أصلح لنا شأننا كله ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفةَ عين ، ولا إلى أحد من خلقك] . وقال الشعبيّ : إذا قرأتَ : ﴿ كل من عليها فان ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ أي أنه أهل أن يُجَلّ فلا يُعصَى ، وأن يطاع فلا يخالف . ولما

---

(١) صدقت يا أمير المؤمنين صدقت... فأنت البريء المبرّأ من دمه على رسول الله وعليكما صلاة الله وسلامه ورحمته وبركاته.

أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة وصيرورتهم إلى الدار الآخرة . فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال سبحانه : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذّبان وقوله تعالى : ﴿ يسأله من في السموات والأرض كلّ يوم هو في شأن ﴾ وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه في جميع الأحوال . وقوله تعالى : ﴿كل يوم هو في شأن﴾ قال ابنُ أبي حاتم عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : ٣٠٣ [قال الله عز وجل ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ ـ قال ـ من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرّجَ كرباً ويرفعَ قوماً ويضعَ آخرين]

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۞ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ (٣٢) يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ۞ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِن نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۞ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ (٣٦) ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ قال : وعيد الله تعالى ـ للثقلين الإنس والجن ـ وليس بالله شغل وهو فارغ . قال البخاري : سنحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء ، وهو معروف في كلام العرب ، يقال لأتفرغنَّ لك وما به شغل ، يقول لآخذنّك على غرّتك ﴿ فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان ﴾ أي لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره بل هو محيط بكم ، لا تقدرون على التخلص من حكمه ولا النفوذ عن حكمه فيكم ، أينما ذهبتم أحيط بكم وهذا في مقام الحشر ؛ الملائكة محدِقة بالخلائق كقوله تعالى : ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ وكقوله تعالى ﴿ وترهقهم ذِلة مالهم من الله من عاصم ﴾ قال تعالى : ﴿ يرسل عليكما شواظٌ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ أي لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا ، ولهذا قال · ﴿ فلا تنتصران ٭ فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ﴾ .

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۞ (٣٧) فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ
وَلَا جَآنٌّ ۞ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ (٤٠) يُعْرَفُ
ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۞ (٤١) فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ (٤٢) هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا
ٱلْمُجْرِمُونَ ۞ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۞ (٤٤) فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ (٤٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء ﴾ أي يوم القيامة كما دلّت عليه هذه الآيات ... مع ما شابهها من الآيات الواردة في معناها كقوله تعالى : ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ﴾ وقولُه تعالى ﴿ فكانت وردةً كالدهان ﴾ أي تتلوّن كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها فتارة حمراء وتارة صفراء وخضراء وزرقاء وذلك من شدّة الأمر وهول يوم القيامة العظيم . وقوله تعالى : ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ أي بعد أن يسألوا عن جميع أعمالهم : لمَ عملتم كذا وكذا ... ثم يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. ثم يؤمر بهم إلى النار فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم ، بل يقادون إليها ويلقون فيها. كما قال تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ أي بعلامات تظهر عليهم، ويعرفونهم بسواد وجوههم. قلت: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء .

وقوله تعالى : ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ أي يجمع الزبانية ناصية الكافر مع قدميه في سلسلة من وراء ظهره ثم يلقى من جهنم فيهوي فيها سنين حتى يصل قاعها . وقوله تعالى : ﴿ هذه جهنم التي يكذّب بها المجرمون ﴾ أي هذه هي النار التي كنتم تكذبون بوجودها ، فها هي حاضرة تشاهدونها عياناً وتحسّون بلهيبها يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً . وقوله تعالى : ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ أي تارةً يعذّبون ، وطوراً يسقون من الحميم الذي هو كالنحاس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء . وقوله تعالى: ﴿ آن ﴾ أي حار قد بلغ منتهى حرارته. كقوله تعالى : ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أي لا تستطاع من شدة الحرارة . ولما كان معاقبة المجرمين وتنعيم المتقين

من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه ، وكان إنذاره لهم عن عذابه وبأسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك. قال ممتناً بذلك على بريته : ﴿ فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان ﴾ .

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ❁ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ❁ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ❁ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ❁ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ❁ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ❁ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ❁ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ❁ (٥٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره. يقول الله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه ﴾ بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ ولا آثر الحياة الدنيا ، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله واجتنب محارمه فله يوم القيامة عند ربه جنتان. كما روى البخاري رحمه الله تعالى عن عبدالله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: ٣٠٤ [جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب وآنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجلّ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن] وأخرجه بقية الجماعة إلاّ أبا داود .

وروى ابن جرير عن أبي الدرداء ٣٠٥ [أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن زنىٰ وإن سرق ؟ فقال : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنّتان ﴾ فقلت : وإن زنىٰ وإن سرق ؟ فقال : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن زنىٰ وإن سرق ؟ فقال : « وإن رغم أنف أبي الدرداء »] وروي عن أبي الدرداء موقوفاً : إن من خاف مقام ربه لم يزن ولم يسرق . وهذه الآية عامة في الإنس والجن فهي من أدلّ الدليل على الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوْا ، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء . فقال : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان * فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ثم نعت هاتين الجنتين فقال تعالى : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ أي أغصان نضرة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة. ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ روى محمد بن إسحق عن أسماء بنت أبي بكر قالت: ٣٠٦ [سمعت رسول الله ﷺ وذكر سدرةَ المنتهى ، فقال : «يسير

في ظل الفنن منها الراكب مائة سنة ـ أو قال يستظل في ظلّ الفنن منها مائة راكب ـ فيها فراش الذهب كأنّ ثمارها القلال »] ورواه الترمذي . وقوله تعالى : ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان ﴿ فبأي آلاءِ ربكما تكذبان ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فيهما من كلّ فاكهة زوجان ﴾ أي من جميع أنواع الثمار ممّا يعلمون وخير مما يعلمون ، ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قال ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الآخرة إلاّ الأسماء يعني أن بين ذلك بوناً عظيماً وفرقاً بيِّنا في التفاضل .

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۝ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ ۝ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ (٦١) ﴾

يقول تعالى : ﴿ متكئين ﴾ أي مضطجعين ﴿ على فرش بطائنها من إستبرق ﴾ وهو ما غلظ من الديباج والمزين بالذهب فنبّه على شرف الظهارة بشرف البطانة وعن ابن مسعود قال : هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر ؟ ! ﴿ وجنى الجنتين دانٍ ﴾ أي ثمرهما قريب إليهم متى شاءوا تناولوه على أي صفة كانوا . كما قال تعالى: ﴿ قطوفها دانية ﴾ أي لا تمتنع ممّنْ تناولها بل تنحط إليه من أغصانها . ﴿ فبأي آلاء ربّكما تكذبان ﴾ ولما ذكر الفرش وعظمتها. قال بعد ذلك ﴿ فيهن ﴾ أي من الفرش ﴿ قاصرات الطرف ﴾ أي غضيضات عن غير أزواجهن فلا يرين شيئاً في الجنة أحسن من أزواجهن قاله ابن عباس وغيره وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها : والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسنَ منك ، ولا في الجنة شيئاً أحب إليّ منك فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك .

وقوله تعالى : ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ أي بل هن أبكار عرب أتراب لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن ، وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة. ثمّ

قال تعالى ينعتهن للخُطّاب : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ قال مجاهد والحسن وغيرهما في صفاء الياقوت ، وبياض المرجان ، فجعلوا المرجان ها هنا : اللؤلؤ وعن عبدالله بن مسعود قال : إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير حتى يُرى مخها ، وذلك قوله تعالى : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ فأما الياقوت فإنّه حجر لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من روائه وهكذا فقد رواه ابن أبي حاتم مرفوعاً والترمذي موقوفاً ثم قال وهو أصح . وروى مسلم عن محمد بن سيرين قال: ٣٠٧ [إما تفاخروا واما تذاكروا، الرجال أكثر في الجنة أم النساء فقال أبو هريرة : أوَ لم يقل أبو القاسم ﷺ « ان أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والتي تليها على ضوء كوكب دري في السماء ، لكل امرىءٍ منهم زوجتان اثنتان يرى مــخ ساقها من وراء اللحم وما في الجنة أعزب »] وهذا الحَديث مخرج في الصحيحَين . من حديث همّام بن منبّه وأبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان ﴾ أي لا لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة . روى البغوي عن أنس بن مالك قال:٣٠٨ [قرأ رسول الله ﷺ ﴿ هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان ﴾ وقال : « هل تدرون ما قال ربكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة »] ولما كان في الذي ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل بل مجرد تفضل وامتنان قال بعد ذلك كله : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۞ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ ۞ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۞ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۞ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ۞ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ۞ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ

وَلَا جَانٌّ ۝ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ (٧٧) تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝ (٧٨)

قوله تعالى : ﴿ ومن دونهما جنّتان ﴾ هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن ؛ وقد تقدم الحديث : جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فِضّة وآنيتهما وما فيهما فالأوليان للمقربين والأخريان لأصحاب اليمين . والدليل على شرفِ الأوليَيْن على الأخريَين من وجوه أحدها أنه نعتَ الأوليين قبل هاتين والتقديم يدل على الاعتناء . ثم قال تعالى : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ وهي الأغصان وقال ها هنا : ﴿ مدهامتان ﴾ أي سوداوان من شدة الإخضرار والري من الماء . وقال هناك : ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ وقال تعالى ههنا : ﴿ نضاختان ﴾ أي فياضتان والجري أقوى من النضخ . وقال تعالى هناك : ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ وقال تعالى ههنا ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ ولا شك ان الأولى أعم وأكثر في الإفراد والتنويع على فاكهة وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم . ثم قال تعالى : ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ قيل المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة قاله قتادة وقيل خَيرات جمع خَيرة وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق والوجه قاله الجمهور . وروي مرفوعاً عن أم سلمة وفي الحديث الآخر الذي سنورده في سورة الواقعة إن شاء الله تعالى إن الحور العين يغنين: نحن الخيرات الحسان خلقنا لأزواج كرام ولهذا قرأ بعضهم : ﴿ فيهن خيّرات ﴾ بالتشديد ﴿ حسان ۝ فبأي آلاء ربّكما تكذبان ﴾ ثم قال جلّت عظمته ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ وهناك قال سبحانه ﴿ فيهن قاصرات الطرف ﴾ ولا شك ان التي قد قَصَرَتْ طرفها بنفسها ، أفضل ممن قُصِرَتْ ، وان كان الجميع مخدرات وقوله تعالى : ﴿ في الخيام ﴾ روى البخاري عن عبدالله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: ٣٠٩ [إنَّ في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوّفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون] ورواه مسلم بنفس المعنى وقال ابن عباس : ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ أي خيام اللؤلؤ وقوله تعالى : ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ قد تقدم مثله سواء إلاّ أنه زاد في وصف الأوائل بقوله تعالى : ﴿ كأنهنَّ الياقوت والمرجان ۝ فبأي آلاء ربّكما تكذبان ﴾ .

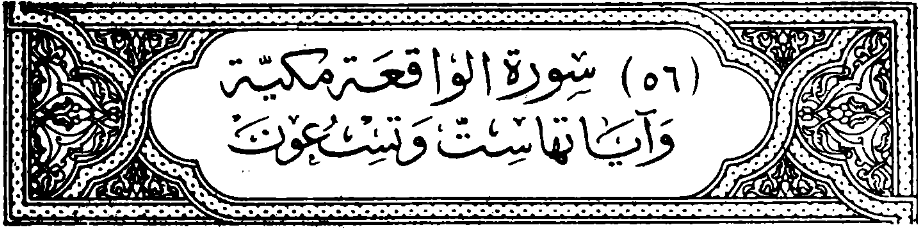
وقوله تعالى : ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقريّ حسان ﴾ الرفرف على السرير كهيئة المحابس المتدلي وقيل الوسائد وقال سعيد بن جبير : رياض الجنة ، وقوله تعالى :

﴿ وعبقري حسان ﴾ أي جياد بسط أهل الجنة الملوّنة الموشاة . قال الخليل بن أحمد كل شيء نفيس من الرجال وغير ذلك يسمّى عند العرب عبقرياً . ومنه قول النبي ﷺ في عمر : ٣١٠ [فلمْ أرَ عبقرياً يفري فريه] . فمرافق صفة أهل الجنتين الأوليين أرفع وأعلى من هذه الصفة، فإنه قد قال هناك: ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ﴾ فنعت بطائنها وسكت عن ظهائرها بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى ، وتمام الخاتمة أن قال تعالى بعض الصفات المتقدمة : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ والإحسان أعلى المراتب والنهايات . فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنّتين الأوليين على هاتين الأخريين ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين .

ثم قال جل وعلا : ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ أي هو أهل أن يُجَلَّ فلا يُعصَى ، وأنْ يكرَمَ فيعبَد ، ويُشكرَ فلا يُكفَرَ ، وأنْ يذكرَ فلا يُنسَى .

روى الإمام أحمد عن ربيعة بن عامر قال : ٣١١ [سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألظّوا بيا ذا الجلال والإكرام »] ورواه النسائي من حديث عبدالله المبارك به والإلظاظ هو : المداومة واللزوم والإلحاح وفي صحيح مسلم والسنن الأربعة من حديث عبدالله بن الحارث عن عائشة قالت : ٣١٢ [كان رسول الله ﷺ إذا سلّم لا يقعد يعني بعد الصلاة إلاّ بقدر ما يقول : « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام »] .

آخر اختصار تفسير سورة الرحمن ولله الحمد والمنة .



إلا الآية ٨١ و ٨٢ فمدنيتان نزلت بعد طه

روى الحافظ ابن عساكر عن عبدالله بن مسعود قال في المرض الذي توفي فيه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٣١٣ [من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » فكان أبو ظبية لا يدعها] وكذا رواه أبو يعلى عن ابن مسعود .

وروى أحمد عن جابر بن سمرة يقول : ٣١٤ [كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم ، ولكنه كان يخفف ، كانت صلاته أخف من صلاتكم وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور .]

بسم الله الرحمن الرحيم



إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۞ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۞ (٢)
خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۞ (٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۞ (٤) وَبُسَّتِ
ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۞ (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ۞ (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً
ثَلَٰثَةً ۞ (٧) فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۞ (٨) وَأَصْحَابُ
ٱلْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْئَمَةِ ۞ (٩) وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ ۞ (١٠)
أُوْلَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۞ (١١) فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ ۞ (١٢)

الواقعة من أسماء يوم القيامة سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها. كما قال تعالى :

﴿ فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ أي لا بد أن تكون، وليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها ولا دافع يدفعها. كما قال تعالى: ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ خافضة رافعة ﴾ أي تخفض أقواماً إلى الجحيم وان كانوا أعزاء في الدنيا وترفع آخرين إلى أعلى عليين إلى النعيم المقيم وان كانوا وضعاء في الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿ إذا رجّت الأرض رجّاً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وبست الجبال بسّاً ﴾ أي فتّتَتْ فتاً. كما قال تعالى: ﴿ كثيباً مهيلاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فكانت هباءً منبثّاً ﴾ أي كرهج الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء ، قاله علي رضي الله عنه . وقوله تعالى : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثةً ﴾ أي أصنافاً ثلاثة ، ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ وهم قوم عن يمين العرش ، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن ويؤتون كتبهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين وهم جمهور أهل الجنة ، ﴿ وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ﴾ وهم قوم عن يسار العرش وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ويؤتَون كتبهم بشمالهم،ويؤخذ بهم ذات الشمال وهم عامة أهل النار – عياذاً بالله من صنيعهم – ﴿ والسابقون السابقون ﴾ هم سابقون بين يديه عزّ وجلّ،وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين،الذين هم سادتهم ، فيهم الرسل والأنبياء والصدّيقون والشهداء وهم أهل عليين ؛ فمَنْ سابَقَ في هذه الدنيا ، وسبق إلى الخير ، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة فإن الجزاء من نوع العمل ، وكما تدين تدان . ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك المقربون * في جنات النعيم ﴾ أي المقربون إلى كنَفِ الله تعالى ورضاه نسأله تعالى أن يجعلنا منهم بفضله ومنّه وكرمه – . آمين

ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ ❁ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ ❁ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ❁ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ❁ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ❁ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ❁ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ❁ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ❁ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ❁ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ ❁ (٢٢)

كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۞ (٢٣) جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (٢٤)
لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۞ (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا
سَلَامًا ۞ (٢٦)

يخبر تعالى عن هؤلاء السابقين انهم ثلة أي جماعة من الأولين ، وقليل من الآخرين وقد اختلفوا في المراد بقوله الأولين والآخرين . فقيل : المراد بالأولين الأمم الماضية وبالآخرين هذه الأمة وهو قول ضعيف ، لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها ، اللهم إلاّ أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة ، والراجح أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ ثلة من الأوّلين ﴾ أي صدر هذه الأمة ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ أي من هذه الأمة . ولا شك أن أوّل كل أمّة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعمّ الآية جميع الأمم كل أمة بحسبها، وخير الأمم أمة محمد ﷺ. روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن بكر المزني قال: سمعت الحسن أتى على هذه الآية ﴿ والسابقون السابقون * أولئك المقرّبون ﴾ فقال: أما السابقون فقد مضَوْا...ولكن اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: ٣١٥ [خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.] والغرض ان هذه الأمة أشرفُ من سائر الأمم والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلةً لشرف دينها وعظم نبيها . ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر ٣١٦ [إنّ في هذه الأمة سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب] وفي لفظ : ٣١٧ [مع كل ألف سبعون ألفاً] – وفي لفظٍ آخر – ٣١٨ [مع كل واحد سبعون ألفاً] .

وروى الحافظ أبو قاسم الطبراني عن أبي مالك قال : قال رسول الله ﷺ ٣١٩ [أما والذي نفسي بيده ليبعثن منكم يوم القيامة مثل الليل الأسود، زمرة جميعها يحيطون الأرض تقول الملائكة : لما جاء مع محمد ﷺ أكثر مما جاء مع الأنبياء عليهم السلام] وقوله تعالى : ﴿ على سرر موضونة ﴾ أي منسوجة ومضفورة بالذهب واللؤلؤ . وقوله تعالى : ﴿ متكئين عليها متقابلين ﴾ أي وجوه بعضها إلى بعض ليس أحد وراء أحد ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ أي على صفة واحدة لا يكبرون ولا يشيبون ولا يتغيرون ﴿ بأكواب وأباريق وكأس من معين ﴾ والجميع من خمر من عين جارية معين ، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ بل من عيون سارحة . وقوله تعالى: ﴿ لا يُصدّعون عنها ولا

ينزفون ﴾ أي لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة . وروى الضحاك عن ابن عباس انه قال : في الخمر أربع خصال : السكر ، والصداع ، والقيء ، والبول . فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال .

وقوله تعالى : ﴿ وفاكهة مما يتخيّرون * ولحم طير مما يشتهون ﴾ أي ويطوفون عليهم بما يتخيّرون من الثمار ، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخيّر لها ويدل على ذلك حديث عكراش بن ذؤيب الذي يحدث عن مؤاكلته لرسول الله ﷺ في بيت أم سلمة ٣٢٠[... ثم أخذ بيدي فانطلقنا إلى منزل أم سلمة فقال - ﷺ « هل من طعام » فأتينا بجفنةٍ كالقصعة كثيرة الثريد والوذر فجعل يأكل منها فأقبلت أخبط بيدي في جوانبها فقبض رسول الله ﷺ بيده اليسرى على يدي اليمنى فقال : « يا عكراش ، كل من موضع واحد فإنه طعام واحد » ثم أتينا بطبق فيه تمر أو رطب - شك عبيدالله رطباً كان أو تمراً - فجعلت آكل من بين يدي وجالت يد رسول الله ﷺ في الطبق وقال : « يا عكراش كل من حيث شئت فانه غير لون واحد » ثم أتينا بماء فغسل رسول الله ﷺ يده ومسح وجهه وذراعيه ورأسه ثلاثاً ثم قال : « يا عكراش هذا الوضوء مما غيّرَتِ النار »] ورواه الترمذي مطوّلاً وابن ماجه جميعاً عن محمد بن بشار . وروى الحافظ الطبراني : عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ :٣٢١ [إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى] وقوله تعالى : ﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ قال الإمام أحمد عن أنس قال قال رسول الله ﷺ :٣٢٢ [«إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى في شجر الجنة» فقال أبو بكر : يا رسول الله إن هذه لطير ناعمة ، فقال : « آكلها أنعم منها - قالها ثلاثا - وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها »] وروى الحسن بن عرفة عن عبدالله بن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ :٣٢٣ [انك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخرُّ بين يديك مشوياً] وقوله تعالى : ﴿ وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ أي كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه. كما تقدم في سورة الصافّات : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ وقد تقدم في سورة الرحمن وصفهن أيضاً. ولهذا قال تعالى : ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أي هذا الذي اتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل . ثم قال تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً * إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ أي لا يسمعون في الجنة كلاماً لاغياً أي عبثاً خالياً عن المعنى أو مشتملاً على معنى حقير أو ضعيف. كما قال : ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ أي كلمةً لاغية ﴿ ولا تأثيماً ﴾ أي ولا كلاماً فيه قبح ﴿ إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ أي إلاّ التسليم منهم بعضهم على بعض. كما قال تعالى: ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ وكلامهم أيضاً سالم من اللغو والأثم .

﴿ وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ ۞ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ۞ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ۞ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ۞ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ۞ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۞ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۞ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ۞ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ۞ (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ۞ (٣٦) عُرُباً أَتْرَاباً ۞ (٣٧) لِأَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ۞ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ ۞ (٤٠) ﴾

لما ذكر تعالى مآل السابقين وهم المقربون ، عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين وهم الأبرار لأن أصحاب اليمين منزلتهم دون المقرّبين فقال تعالى : ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾ ثم فسر ذلك : ﴿ في سدر مخضود ﴾ وهو الذي لا شوك فيه وهو الموقر بالثمر بعكس سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر . روى الحافظ أبو بكر أحمد بن سلمان النجار عن سليم بن عامر قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : ٣٢٤ [إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم قال : أقبل اعرابي يوماً فقال : يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرةً تؤذي صاحبها ، فقال رسول الله ﷺ « وما هي » ؟ قال : السدر فإن له شوكاً مؤذياً فقال رسول الله ﷺ « أليس الله تعالى يقول : ﴿ في سدر مخضود ﴾ خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها لتنبت ثمراً تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام ، ما فيها لون يشبه الآخر »] .

وقوله تعالى : ﴿ وطلح منضود ﴾ الطلح شجر عظام يكون بأرض الحجاز ، واحدته طلحة . ومنضود أي متراكم الثمر . قال ابن عباس يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل ، فكأنه السدر ، وصفه بأنه مخضود وهو الذي لا شوك فيه وأن طلعه كثير الثمر وروى عن ابن عباس الطلح : الموز وكذلك يسمون أهل اليمن الموز الطلح .

وقوله تعالى : ﴿ وظل ممدود ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال : ٣٢٥ [إن في الجنّة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها ، إقرأوا إن شئتم : ﴿ وظلٍّ ممدود ﴾] ورواه مسلم . وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد ، وسهل

بن سعد عن رسول الله ﷺ قال : ٣٢٦ [ان في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مئة عام ما يقطعها] فهذا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ ، بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد ، لتعدد طرقه وقوة أسانيده وثقة رجاله . وقال الضحاك والسدي وابو حزرة في قوله تعالى : ﴿ وظل ممدود ﴾ لا ينقطع ، ليس فيها شمس ولا حر مثل قبل طلوع الشمس. وقوله تعالى: ﴿ وماء مسكوب ﴾ قال الثوري يجري في غير أخدود . وقد تقدم الكلام عند تفسير قوله تعالى ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن...(١) ﴾ بما أغنى عن أعادته ههنا . وقوله تعالى : ﴿ وفاكهة كثير ة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ أي وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . كما قال تعالى: ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأُتُوا به متشابهاً ﴾ أيْ يشبه الشكلُ الشكلَ ولكن الطعمَ غيرُ الطعم . وفي الصحيحين في ذكر سدرة المنتهى :٣٢٧ [... فإذا ورقها كآذان الفيلة ، ونبقها مثلُ قلال هجر] وفيهما أيضاً ــ أي في الصحيحين ــ عن ابن عباس قال: ٣٢٨ [خسفت الشمس فصلىّ رسول الله ﷺ والناس معه فذكر الصلاة وفيه قالوا : يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت ، قال : « إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا »] وقوله تعالى ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ لا تنقطع شتاءً ولا صيفاً بل أكلها دائم مستمر أبداً ، مهما طلبوا وجدوا لا يمتنع عليهم بقدرة الله تعالى شيء ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ أي عالية وطيئة ناعمة. وقوله تعالى : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاءً * فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً * لأصحاب اليمين ﴾ جرى الضمير على غير مذكور. لكن لما دل السياق وهو ذكر الفرش دلّ على النساء اللاتي يضاجعْنَ فيها. إكتفى بذلك عن ذكرهن وعاد الضمير عليهن. فقوله تعالى : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاءً ﴾ إنا أعدناهن في النشأة الأخرى بعد ما كُن عجائزَ رُمصاً صرن أبكاراً بعد الثيوبة عدن أبكاراً عرباً متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة .

روى ابو القاسم الطبراني عن أم سلمة قالت: ٣٢٩ [قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ حور عين ﴾ قال « حور بيض عين ضخام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر » قلت : أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ قال : « صفاؤهن صفاء الدر الذي في الأصداف الذي لم تمسه الأيدي » قلت : أخبرني عن قوله : ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ قال : « خيرات الأخلاق حسان الوجوه » قلت : اخبرني عن قوله : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ قال : « رقتهن كرقة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي

(١) سورة محمد الآية رقم / ١٥ / .

القشر وهو الغرقيء » قلت : يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ عُرُباً أتراباً ﴾ قال: « هنّ اللواتي قبضن في الدار الدنيا عجائز رمصاً شمطاً خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى عُرُباً متعشقات محبّبات أتراباً على ميلاد واحد » قلت : يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال « بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة » قلت : يا رسول الله وبم ذاك ؟ قال : « بصلاتهنّ وصيامهنّ وعبادتهنّ الله عزَّ وجل . ألبس الله وجوههن النورَ ، وأجسادهنّ الحريرَ . بيضُ الألوان خضرُ الثياب صفرُ الحليّ مجامرهن الدرّ وأمشاطهن الذهب ، يقلن : نحن الخالدات فلا نموت أبداً ، ونحن الناعمات فلا نبأس أبداً ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا طوبى لمن كنّا له وكان لنا » قلت : يا رسول الله المرأة منا تتزوج زوجين ، والثلاثة والأربعة ، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ قال : « يا أم سلمة إنها تُخيَّر فتختار أحسنهم خُلقاً ، فتقول يا رب إنّ هذا كان أحسن خلقا معي فزوجنيه. يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة »] .

وقوله تعالى : ﴿ عُرُباً ﴾ قال ابن عباس : العُرُب العواشق لأزواجهن وأزواجهن لهنَّ عاشقون .وقوله تعالى: ﴿ أتراباً ﴾ يعني في سنٍّ واحدة ثلاث وثلاثين سنة، والمستويات في الأخلاق ليس بينهن تباغض ولا تحاسد. وقوله تعالى: ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ أي خَلَقهن لأصحاب اليمين أو أنشأناهن لهم ويحتمل أن يكون المعنى أي في أسنانهم يعني ثلاثاً وثلاثين سنة كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٣٠[أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءةً لا يبولون ولا يتغوّطون ولا يتفلون ولا يتمخّطون ، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الإلوة [1] وأزواجهم الحور العين ، اخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء] وقوله تعالى : ﴿ ثلّة من الأولين وثلّة من الآخرين ﴾ أي جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين . روى ابن جرير عن ابن عباس : ٣٣١ [﴿ ثلّة من الأولين * وثلّة من الآخرين ﴾ قال:قال رسول الله ﷺ (هما جميعاً من أمتي » .]

(١) الإلوة العود الذي يتبخر به .

﴿ وَأَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ ۞ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۞ (٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ۞ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۞ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۞ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنْثِ ٱلْعَظِيمِ ۞ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ (٤٧) أَوَ ءَابَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۞ (٤٨) قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۞ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۞ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّالُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۞ (٥١) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ۞ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۞ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۞ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۞ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۞ (٥٦) ﴾

لما ذكر تعالى أصحاب اليمين عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال فقال سبحانه : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ أيْ أيُّ شيء هم فيه ؟ ... ثم فسر ذلك فقال تعالى : ﴿ في سموم ﴾ وهو الهواء الحار ﴿ وحميم ﴾ وهو الماء الحار ﴿ وظل من يحموم ﴾ وهو الدخان الأسود ، ﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ أي ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر ، وكل شيء ليس على ما يجب أن يكون ، فليس بكريم . ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك فقال عز من قائل : ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ﴾ أي كانوا في الدنيا مقبلين على لذائذ أنفسهم ، لا يلوُون على ما جاءتهم به الرسلُ ﴿ وكانوا يُصرّون ﴾ أي مقيمون ولا ينوون توبةً ﴿ على الحنث العظيم ﴾ وهو الشرك ، وقيل هو اليمين الغموس [1] بل هو الشرك قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة. ولهذا قال تعالى : ﴿ وكانوا يقولون أإذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ﴾ يعني يكذّبون بذلك مستبعدين وقوعه . قال الله تعالى : ﴿ قل إنّ الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ أي

---

(١) هو ان تحلف على شيء وأنت عالم بأنه على خلاف ما حلفت .

أخبرهم يا محمد انهم وبني آدم عامةً ، سيجمعون يوم القيامة. كقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ۞ وما نؤخّره إلاّ لأجل معدود ﴾ لا يزيد ولا ينقص . ﴿ ثم إنكم أيها الضالّون المكذّبون ۞ لآكلون من شجر من زقوم ۞ فمالئون منه البطون ﴾ وذلك أنهم يقبضون ويسجرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم حتى يملأوا منها بطونهم ﴿ فشاربون عليه من الحميم ۞ فشاربون شرب الهيم ﴾ وهي الإبل العطاش واحدها أهيم ، والأنثى هيماء . قال السدّي : الهيم : داء يأخذ الإبل فلا تروى أبداً حتى تموت فكذلك أهل جهنم لايروون من الحميم أبدا . ثم قال تعالى : ﴿ هذا نُزُلُهم يومَ الدين ﴾ أي هذا الذي وصفنا ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم . أما ضيافة المؤمنين فكما قال الكريم سبحانه ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً ﴾ أي ضيافـةٌ وكرامـةٌ .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۞ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۞ (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ ۞ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ (٦٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۞ (٦٢) ﴾

يقول تعالى مقرراً للمعاد ، وراداً على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد، من الذين أنكروا البعث تكذيباً واستبعاداً له. فقال تعالى: ﴿ نحن خلقناكم ﴾ من عدم أفلسنا قادرين على إعادتكم بطريق الأولى ؟ ولهذا قال سبحانه : ﴿ فلولا تصدّقون ﴾ أي فهلاّ تصدقون بالبعث؟ ثم قال جل وعلا : ﴿ أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ أي أنتم تقرون هذه النطف في الأرحام وتخلقونها أم نحن خلقناها ... ؟ ثم قال تعالى : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ أي صرّفناهُ بينكم ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أي وما نحن بعاجزين ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ أي نغيّر خلقكم يوم القيامة ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ أي من الصفات والأحوال . ثم قال تعالى: ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ أي قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة فهلاّ تتذكرون،وتعرفون أنّ الذي قدر على هذه البداءة قادرٌ على

الإعادة بطريق الأولى والأحرى. كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾.

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ ۞ (٦٣) ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّارِعُونَ ۞ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۞ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَاءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ ۞ (٦٨) ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۞ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۞ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ۞ (٧١) ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِئُونَ ۞ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ۞ (٧٣) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۞ (٧٤) ﴾

يقول تعالى: ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها: ﴿ أأنتم تزرعونه ﴾ أي تنبتونه في الأرض ﴿ أم نحن الزارعون ﴾ أي بل نحن الذي نقره ونبته في الأرض. روى ابن جرير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ [٣٣٢] « لا تقولن زرعت ولكن قل حرثت » قال أبو هريرة: ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿ أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾.] وقوله تعالى: ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ أي نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا وأبقيناه لكم رحمةً بكم ولو نشاء لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده وجعلناه حطاماً. ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ ثم فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿ إنا لمغرمون ۞ بل نحن محرومون ﴾ أي لو جعلناه حطاماً لظلتم تفكهون في المقالة تنوّعون كلامكم فتقولون تارة إنا لمغرمون أي لا يثبت لنا مال ولا ينتج لنا ربح، وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم وتقولون: ﴿ بل نحن محرومون ﴾ يعني لا حظّ لنا قال الكسائي: تفكه من الأضداد، تقول العرب تفكهتُ بمعنى تنعمت. وتفكهت بمعنى حزنتُ. ثم قال تعالى: ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون ۞ أأنتم أنزلتموه من المزن ﴾ يقول: بل نحن المنزِلون ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ أي زعاقاً مُراً لا يصلح لشرب ولا زرع ﴿ فلولا تشكرون ﴾ أي فهلاّ تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عذباً زلالاً. كما

قال تعالى : ﴿ لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ أي تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها ﴿ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾ أي بل نحن الذين جعلناها مودعةً في موضعها . وللعرب شجرتان : احداهما : المرخ والأخرى : العفار ، إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار . وقوله تعالى : ﴿ نحن جعلناها تذكرة ﴾ أي تذكّر النارَ الكبرى .

وروى الإمام مالك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال ٣٣٣ [« نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » فقالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية فقال : إنها قد فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً »] رواه البخاري من حديث مالك ومسلم من حديث أبي الزناد ، ورواه مسلم من حديث عبد الرزاق .

وقوله تعالى : ﴿ ومتاعاً للمقوين ﴾ قال مجاهد يعني المستمتعين من الناس أجمعين وان هذا التفسير أعمُّ من غيره ، فإن الحاضر والبادي من غنيٍ وفقير ، جميعاً محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع .

وقوله تعالى : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ الذي بقدرته خَلَق هذه الأشياء المختلفة المتضادّة : الماء الزلال العذب البارد ولو شاء لجعله أجاجاً كالبحار المغرقة ، وخلق النار المحرقة وجعل ذلك مصلحة للعباد ، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم وزجراً لهم في المعاد .



فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾

ليست (لا) من قوله تعالى : ﴿ فلا ﴾ لا معنى لها ؛ بل يؤتى بها في أول القسم به

على منفيّ كقول عائشة رضي الله عنها ٣٣٤ [لا .. والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأةٍ قط] وهكذا ههنا تقدير الكلام: لا .. ليس الأمر كما تظنون وتزعمون في القرآن أنّه سحر أو كهانة بل ﴿ أقسم بمواقع النجوم ۝ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ۝ إنه لقرآن كريم ﴾... قال الضحاك عن ابن عباس: نزل القرآن جملة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنجّمَتْه السفَرة على جبريل عشرين ليلة ونجمه جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة. فهو قوله تعالى: ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ أي نجوم القرآن. وكذا قال مجاهد وعكرمة والسدي وأبو حزرة. وقوله تعالى: ﴿ وانه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ أي وأن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ أي ان هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتابٌ عظيم ﴿ في كتاب مكنون ﴾ أي معظم في كتاب معظّم محفوظ موقّر ﴿ لا يمسه ﴾ أي هذا الكتاب الذي في السماء ﴿ إلاّ المطهّرون ﴾ يعني الملائكة. وكذا قال ابن عباس وأنس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وابو الشعثاء جابر بن زيد وابو نهيك والسدّي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم.

وروى ابن جرير عن قتادة ﴿ لا يمسّه إلا المطهَّرون ﴾ قال: لا يمسه عند الله إلا المطهَّرون، فأما في الدنيا يمسّه المجوسي النجس والمنافق الرجس. وقال ابو العاليه: ﴿ لا يمسه إلاّ المطهرون ﴾ ليس أنتم، أنتم أصحاب الذنوب. وقال ابن زيد: زعمت كفّار قريش أنّ هذا القرآن تنزّلتْ به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسّه إلا المطهرون كما قال تعالى: ﴿ وما تنزّلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ وهذا القول قول جيد وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله.

وقال آخرون: ﴿ لا يمسّه إلاَّ المطهَّرون ﴾ أي من الجنابة والحدث. ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب، قالوا والمراد بالقرآن المصحف بدليل ما رواه مسلم عن ابن عمر ٣٣٥ [ان رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو. واحتجّوا في ذلك بما رواه الإمام مالك في موطئه عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: ٣٣٦ [أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم أن لا يمسّ القرآن إلا طاهر]

وروى أبو داود في المراسيل من حديث الزهري قال: قرأت في صحيفة عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ان رسول الله ﷺ قال ٣٣٧ [ولا يمس القرآن إلا طاهر]

وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهري وغيره ، ومثل هذا ينبغي الأخذ به [1] وقوله تعالى : ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أي هذا القرآن منزل من رب العالمين وليس هو كما يقولون أنه سحر أو كهانة أو شعر ... !!! بل هو الحق الذي لا مرية فيه وليس وراءه حق نافع . وقوله تعالى : ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ أي تريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا إليهم . وقال ابن عباس : أي مكذبون غير مصدقين . وقوله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذّبون ﴾ وقد روي عن علي وابن عباس انهما قرآها : ﴿ وتجعلون شكركم أنكم تكذبون ﴾ كما سيأتي أي تكذّبون بدل الشكر . روى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٣٨ [وتجعلون رزقكم : شكركم أنكم تكذّبون ، تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وبنجم كذا وكذا] وروى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٣٣٩ [ما أنزل الله من السماء من بركة إلاّ أصبح فريق من الناس بها كافرين ينزل الغيث فيقولون بكواكب كذا وكذا] انفرد به مسلم من هذا الوجه .

قال قتادة : أما الحسن فكان يقول : بئس ما أخذ قوم لأنفسهم لم يرزقوا من كتاب الله إلاّ التكذيب ، فمعنى قول الحسن هذا : وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به . ولهذا قال تعالى : ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ۞ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۞ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۞ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۞ (٨٥) فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۞ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ (٨٧) ﴾

---

(١) قلت : فيما أرى – والله أعلم – أن مس المصحف للجنب حرام . لحديث عمرو بن حزم : (... ولا يمس القرآن إلا طاهر) وإن هذا الحديث وإن كان فيه مقال ، إلا أنه يتقوّى بتعدّد طرقه ، التي يقوي بعضها بعضاً . ولذا قال ابن كثير : (ومثل هذا ينبغي الأخذ به) . وأما قوله تعالى : (لا يمسه إلاّ المطهرون) إنما هو رد على ما زعم كفار قريش ... من أن القرآن تنزلت به الشياطين فأقسم تعالى : (إنه لقرآن كريم ، في كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون) أي أن القرآن محفوظ في كتاب مكنون ، لا يمسه أحد إلا المطهرون أي الملائكة الكرام الكاتبون في السماء الدنيا ، كما أن الله ينفي في آية أخرى زعم كفار قريش : (وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون) . والخلاصة : أنه يحرم على الجنب مس المصحف قبل أن يغتسل . لما جاء في الحديث،لا لما جاء في الآية ، والله تعالى أعلم ، وهو الموفق للصواب .

يقول تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت ﴾ أي الروح ﴿ الحلقوم ﴾ أي الحلق وذلك حين الاحتضار. كما قال تعالى: ﴿ كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق * وظن أنه الفراق * والتفّت الساق بالساق * إلى ربك يومئذ المساق ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ أي إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ أي بملائكتنا ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ أي لا ترونهم . كقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها ﴾ أي الروح التي بلغت الحلقوم، ترجعونها إلى مقرّها في الجسد. إن كنتم غير محاسبين ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ .

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞(٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۞ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ۞(٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ ۞ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّالِّينَ ۞(٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ۞ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۞ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۞ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۞ (٩٦) ﴾

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم ، إما أن يكون من المقرّبين أو ممن دونهم من أصحاب اليمين وإما أن يكون من المكذبين بالحق ، الضالين عن الهدى ، الجاهلين بأمر الله. ولهذا قال تعالى : ﴿ فأمّا إن كان ﴾ أي المحتضَر ﴿ من المقربين ﴾ وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبّات ، وتركوا المحرّمات والمكروهات وبعض المباحات ﴿ فروح وريحان وجنة نعيم ﴾ أي فلهم روح وريحان ، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت، كما جاء في حديث البراء ٣٤٠ [ان ملائكة الرحمة تقول أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيّب كنت تعمرينه، أخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان] والروح والريحان معناهما أي رحمة ورزق وفرح وسرور . ﴿ وجنة نعيم ﴾ فقد روى الإمام أحمد عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن كعب عن رسول الله ﷺ قال ٣٤١ [إنما نسمة المؤمن طائر يعلَق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه] . وهذا إسناد عظيم ومتن قويم . ومعنى يعلق : أي يأكل .

قال أبو العالية : لا يفارق أحد من المقرّبين حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيقبض

روحه فيه . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ٣٤٢ [ان أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في رياض الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش ...] الحديث .

وقوله تعالى : ﴿ وأما إن كان من أصحاب اليمين ﴾ أي وأما إن كان المحتضَر من أصحاب اليمين ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ أي تبشرهم الملائكة بذلك وهذا كقوله تعالى : ﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة إلاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعَدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون * نزلاً من غفور رحيم . ﴾ وقال البخاري : ﴿ فسلام لك ﴾ أي مسلّم لك أنك من أصحاب اليمين .

وقوله تعالى : ﴿ وأما إن كان من المكذّبين الضالّين فنزل من حميم وتصلية جحيم ﴾ أي وأما إن كان المحتضَر من المكذّبين بالحق الضالّين عن الهدى . ﴿ فنزل ﴾ أي فضيافة ﴿ من حميم ﴾ وهو المذاب يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿ وتصلية جحيم ﴾ أي وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته . ثم قال تعالى : ﴿ إن هذا لهو حق اليقين ﴾ أي لا مرية فيه ولا محيد لأحد عنه وهو الخبر اليقين . ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر الجهني قال : ٣٤٣ [لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال « اجعلوها في ركوعكم .ولما نزلت : ﴿ سبّح اسمَ ربّك الأعلى ﴾ قال رسول الله ﷺ اجعلوها في سجودكم] وكذا رواه ابو داود وابن ماجه .

وروى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٣٤٤ [كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم] ورواه بقيّة الجماعة إلا أبا داود .

آخر اختصار تفسير سورة الواقعة ولله الحمد والمنة وبه العصمة .

(٥٧) سورة الحديد مدنية وآياتها تسع وعشرون

نزلت بعد سورة الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات وما في الأرض ، أي من الحيوانات والنباتات ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ وإنْ من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنّه كان حليماً غفوراً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وهو العزيز ﴾ أي الذي خضع له كل شيء ﴿ الحكيم ﴾ في خلقه وأمره وشرعه ﴿ له ملك السموات والأرض يحيي ويميت ﴾ أي هو المالك المتصرف في خلقه حياةً وموتاً وعطاءً ومشيئةً ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقوله تعالى : ﴿ هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن ﴾ فقد روى مسلم في صحيحه عن سهيل قال: كان أبو صالح يأمرنا ٣٤٥ [إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول : « اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شرّ كلّ ذي شر أنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت الأوّل فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء ،

وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنك الباطن فليس دونك شيء ، أقض عنا الدين وأغننا من الفقر »] وكان يروي ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ (٤) لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۞ (٥) يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ (٦) ﴾

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في سته أيام ، ثمّ أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهها في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ههنا[1] وقوله تعالى: ﴿ يعلم ما يلج في الأرض[2] ﴾ من حب وقطر وما شابه ﴿ وما يخرج منها ﴾ من نبات وزرع وثمار كقوله تعالى ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما ينزل من السماء ﴾ أي من الأمطار والثلوج والبرد والأقدار والأحكام مع الملائكة الكرام وقوله تعالى ﴿ وما يعرج فيها ﴾ أي من الملائكة ، والأعمال كما جاء في الصحيح
٣٤٦ [يرفع إليه عمل الليل قبل النّهار وعمل النّهار قبلَ الليل] وقوله تعالى: ﴿ وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم ـ بصفاته ـ حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر في الليل أو النهار في البيوت أو القفار الجميع في علمه على السواء، وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سرّكم ونجواكم . كما قال

---

(١) عند الآية رقم /٥٤/ .

(٢) في الوقت الذي أخبر الله عن ذاته العلية أنه مستو على عرشه استواء يليق بجلاله كما فهمه السلف الصالح، يخبر أنه يعلم ما يلج في الأرض ... الآية أي ان ذاته في السماء فوق العرش وعلمه وسع كل شيء... لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وعلى هذا يقتضي انه جل وعلا معهم بعلمه وسائر صفاته ، ولا يلزم من ذلك انه معهم بذاته فهذا كفر وضلال لأنه يقتضي الحلول ولكنه معهم بصفاته ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

تعالى: ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرّون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ وقد ثبت في الصحيح ٣٤٧[أنّ رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه فإنلم تكن تراه فانه يراك »] وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى ينشد هذين البيتين :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقلْ ... خلوتُ،ولكنْ قلْ عليّ رقيبُ
ولا تحسبنّ اللهُ يغفلُ ساعةً ... ولا أنّ ما تُخفي عليهِ يغيبُ

وقوله تعالى : ﴿ له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وأنّ لنا للآخرةَ والأولى ﴾ فجميع ما في السموات والأرض ملك له وإليه المرجع يوم القيامة فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العدل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة. بل كما قال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلمُ نفسٌ شيئاً وإن كان مثقال حبّة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ .

وقولُه تعالى : ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ أي هو المتصرف في الخلق يقلّب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته ، كما يشاء من طول وقصر واعتدال ، وتقلّب الفصول الأربعة ، كل ذلك بحكمته وتقديره . ﴿ وهو عليم بذات الصدور ﴾ أي يعلم السرائر وإن دقّت وإن خفيت .

﴿ آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ (١٠) مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۞ (١١)

أمر تبارك وتعالى بالإيمان به وبرسوله ﷺ على الوجه الأكمل ، والدوام والثبات على ذلك، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه، أي مما هو معكم على سبيل العارية ، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته ، فإن يفعلوا وإلاّ حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه . وقوله تعالى : ﴿ مما جعلكم مستخلَفين فيه ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك ، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه ، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يعصي الله فتكون قد سعيت في معاونته على الأثم والعدوان. روى الأمام أحمد عن عبدالله بن الشخير قال ٣٤٨ [انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : ألهاكم التكاثر ، يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت،أو تصدقت فأمضيت»] ورواه مسلم من حديث شعبة به وزاد ٣٤٩ [وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس »] .

وقوله تعالى : ﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة،ثم قال تعالى : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ﴾ أيْ وأيّ شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به. وفي صحيح البخاري ٣٥٠ [ان رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه : « أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً » ؟ قالوا : الملائكة ، قال : « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم » ؟ قالوا فالأنبياء قال : « وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ » قالوا : فنحن . قال : « وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ » ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها »] [1] .

وقوله تعالى : ﴿ وقد أخذ ميثاقكم ﴾ يعني بذلك بيعة الرسول ﷺ وقوله تعالى : ﴿ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ﴾ أي حججاً واضحات ودلائل باهرات ، وبراهين قاطعات. ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ أي من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان ﴿ وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴾ أي في إنزال الكتب ، وإرسال الرسل . ثم حثّهم على الإنفاق فقال جلّ وعلا ، ﴿ وما لكم ألاّ تنفقوا في سبيل الله ولله

(١) راجع سورة البقرة عند قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » .

ميراث السموات والأرض ﴾ أي لا تخشوا فقراً فإن الذي عنده ميراث السموات والأرض سيخلف عليكم الذي تنفقونه . وقال جل وعلا : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ أي ان قبل الفتح كان الحال شديداً فلم يكن يؤمن حينئذٍ إلا الصديقون ، وأمّا بعد الفتح فقد ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك أعظم درجةً من الذين أُنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاًّ وعد الله الحسنى ﴾ والجمهور : على أن المراد بالفتح فتح مكة وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح ههنا : صلح الحديبية. وقد يُستدَلُّ لهذا القول بما روى الإمام أحمد عن أنس قال ٣٥١ [كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها . فبلغنا أن ذلك ذُكِر للنبي ﷺ فقال : « دعوا لي أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم »] ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكّة ... وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ٣٥٢ [لا تسبوا أصحابي والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحدٍ ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه] وقوله تعالى : ﴿ وكلاًّ وعد الله الحسنى ﴾ يعني المنفقين قبل الفتح وبعده ، كلهم لهم ثواب على ما عملوا وان كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء. ولهذا قال سبحانه : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد الفتح ، وما ذاك إلاّ لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق وفي الحديث: ٣٥٣ [سبق درهم مائة ألف] ولا شك عند أهل الإيمان أن الصدّيق أبا بكر رضي الله عنه ، له الحظ الأوفر من هذه الآية فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء . فإنه أنفق ماله كلّه ابتغاء وجه الله عزّ وجلّ ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها . وقوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ وهو الإنفاق في سبيل الله بنيّةٍ خالصة ، وعزيمة صادقة دخل في عموم هذه الآية .

روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود قال ٣٥٤ [لما نزلت هذه الآية: ﴿ من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله ، وان الله ليريد منا القرض ؟ قال : « نعم يا أبا الدحداح » قال : أرني يدك يا رسول الله قال فناوله يده قال فإني قد أقرضت ربي حائطي ، وله حائط فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها. قال: فجاء ابو الدحداح فناداها يا أم الدحداح . قالت : لبيك ، قال : أخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل -وفي رواية- أنها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح

ونقلت منه متاعها وصبيانها وان رسول الله ﷺ قال : « كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح » وفي لفظ « رُب نخلة مدلاّة عروقها در وياقوت لأبي الدحداح في الجنة»]

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * (١٢) يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ * (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ * (١٤) فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * (١٥) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة بحسب أعمالهم كما قال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ قال : على قدر أعمالهم يمرّون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم مَنْ نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره في ابهامه يتّقد مرةً ويطفأ مرةً ، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿ وبأيمانهم ﴾ قال الضحاك أي وبأيمانهم كتبهم . كما قال تعالى : ﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار. ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من

نوركم ﴾ وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة والزلازل العظيمة والأمور الفظيعة، وإنه لا ينجو يومئذ إلاّ من آمن بالله ورسوله وعمل بما أمر الله وترك ما زجر عنه . وعن ابن عباس: بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه . وكان النور دليلاً من الله إلى الجنّة فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتّبعوهم فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ فإنّا كنّا معكم في الدنيا قال المؤمنون ﴿ ارجعوا وراءكم ﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور. وروى ابو القاسم الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : ٣٥٥ «[إنّ الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم ستراً منه على عباده ، وأما عند الصراط فإن الله تعالى يعطي كل مؤمن نوراً ، وكل منافق نوراً ، فإذا استووا على الصراط سلب الله نورَ المنافقين والمنافقات فقال المنافقون انظرونا نقتبسْ من نوركم ، وقال المؤمنون ربّنا أتمم لنا نورنا فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً] .

وقوله تعالى : ﴿ فضرب بينهم بسورٍ له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ قال الحسن وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم هو الذي قال الله تعالى : ﴿ وبينهما حجاب ﴾ وهكذا روي عن مجاهد رحمه الله وغير واحد وهو الصحيح. ﴿ باطنه فيه الرحمة ﴾ أي الجنة وما فيها ﴿ وظاهره من قِبَله العذاب ﴾ أي النار قاله قتاده وابن زيد وغيرهما: والمراد انه سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة . ﴿ ينادونهم ألم نكن معكم ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين أما كنّا معكم في الدار الدنيا،نشهدُ معكم الجُمُعاتِ والجماعاتِ ، ونقفُ معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدي معكم سائر الواجبات . ؟ ﴿ قالوا بلى ﴾ أي قال المؤمنون : بلى قد كنتم معنا ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرّتكم الأماني ﴾ قال بعض السلف ، أي فتنتم أنفسكم باللذّات والمعاصي والشهوات ، وتربصتم أي أخرّتم التوبة من وقت إلى وقت وتربّصتم بالحق وأهله ﴿ وارتبتم ﴾ أي بالبعث بعد الموت ﴿ وغرّتكم الأماني ﴾ أي قلتم سيغفر لنا وقيل غرّتكم الدنيا ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ أي ما زلتم في هذا حتى جاءكم الموت ﴿ وغرّكم بالله الغرور ﴾ أي الشيطان .

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين ، إنكم كنتم معنا أي بأبدان لا نيه لها ولا قلوب معها،وإنما كنتم في حيرة وشك ، فكنتم تراءون الناس،ولا تذكرون الله إلاّ قليلاً .

وهذا القول من المؤمنين لا ينافي قولهم الذي أخبر الله تعالى به عنهم حيث يقول: وهو أصدق القائلين: ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلاّ أصحاب اليمين * في جنات يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين ﴾ فهذا خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ. ثم قال تعالى: ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ كما قال ههنا: ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ﴾ أي لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه. وقوله تعالى: ﴿ مأواكم النار ﴾ أي هي مصيركم وقوله تعالى: ﴿ هي مولاكم ﴾ أي هي أولى بكم من كلّ منزل على كفركم وارتيابكم وبئس المصير.

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * (١٧) ﴾

يقول تعالى: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ أي لما آن أن تلين قلوبهم عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له، وتسمع له وتطيعه. قال ابن عباس: ان الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن فنزلت هذه الآية رواه ابن أبي حاتم ثم روى هو ومسلم عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلاّ أربع سنين كذا رواه مسلم في آخر الكتاب وأخرجه النسائي وابن ماجه والبزار عن ابن مسعود.

وقوله تعالى: ﴿ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدّلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلاً ونبذوه وراء ظهورهم واقبلوا على الآراء المختلفة، وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد ... ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أي في الأعمال فقلوبهم فاسدة

وأعمالهم باطلة . كما قال تعالى : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكّروا به ﴾ ولهذا نهى الله المؤمنين ان يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية . وقوله تعالى : ﴿ إعلموا ان الله يحيي الأرض بعد موتها قد بيّنا لكم الآيات لعلّكم تعقلون ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ويهدي الحيارى بعد ضلتها ، ويفرج الكروب بعد شدتها . فكما يحيي الأرض الميتة بالغيث الهتان ، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة ، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال سبحانه فهو الحكيم العدل اللطيف الخبير .

إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجرٌ كَرِيمٌ ۝ (١٨) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ ۝ (١٩)

يخبر تعالى عما يثيب به المصّدّقين والمصّدّقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ أي دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله تعالى لا يريدون جزاءً ممن أعطوه ولا شكوراً . ولهذا قال سبحانه ﴿ يضاعف لهم ﴾ أي يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف . وفوق ذلك ﴿ ولهم أجر كريم ﴾ أي ثواب جزيل حسن ومرجع صالح ومآب كريم . وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون ﴾ وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صدّيقون عند ربهم ، هم ثلاثة أصناف : يعني المصّدّقين . والصّدّيقين ، والشهداء . كما قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين ﴾ ففرّق بين الصدّيقين والشهداء فدلّ على أنهما صنفان . ولا شك أن الصديقَ أعلى مقاماً من الشهيد ، كما رواه مالك بن أنس رحمه الله تعالى في كتابه الموطأ عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : [٣٥٦] « إنّ أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدريّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل

ما بينهم » قال : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال « بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » اتفق البخاري ومسلم على إخراجه .

وقوله تعالى: ﴿ والشهداء عند ربهم ﴾ أي في جنات النعيم كما جاء في الصحيحَين: ٣٥٧ [إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلّع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تريدون ؟! فقالوا : نحب أن تردَّنا إلى الدنيا فنقاتل فيك فنقتل كما قتلنا أول مرة فقال : إني قد قضيت أنهم اليها لا يرجعون] وقوله تعالى : ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ أي لهم عند الله عز وجل أجر جزيل ، ونور عظيم يسعى بين أيديهم وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال والله تعالى أعلم . ولما ذكر السعداء ومآلهم ، عطف بذكر الأشقياء وبيّـن حالهم

﴿ ٱعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ ۞ (٢٠) سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۞ (٢١) ﴾

يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقّراً لها : ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾ أي إنّما حاصل أمرها عند أهلها هو هذا... كما قال تعالى : ﴿ زُيّن للناس حبّ الشهوات ... ـ إلى قوله تعالى ـ حسن المآب ﴾ ثم مثّلَ الحياةَ الدنيا بنعمةٍ زائلة فقال عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ كمثل غيث ﴾ وهو المطر يأتي بعد قنوط الناس كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أعجب الكفار نباتُه ﴾ أي يُعجب الزراع نباته ، وكما يعجب الزراع ذلك ، كذلك تُعجبُ الحياة الدنيا الكفار؛ فإنهم أحرص شيء على الدنيا وأميل الناس إليها. ﴿ ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً ﴾ أي هكذا مثل الحياة الدنيا تكون أولاً شابّةً ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء. ولما كان هذا المثل ـ أي أن الدنيا مثلها كمثل الزرع الذي يكون

أخضر ثم يصفرّ ثم يكون حطاماً – دالاً على انقضاء الدنيا وزوالها لا محالة ، وان الآخرة آتية لا محالة حذر الله من أمر الدنيا ورغّب فيما فيها من الخير فقال جلّ جلالُه : ﴿ وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور ﴾ أي وليس في الآخرة إلاّ : إما عذاب شديد ، وإمّا مغفرة من الله ورضوان . أما الحياة الدنيا فانها تغرّ من ركن إليها حتى يعتقد أن لا دار سواها . ولا معاد وراءها وهي في حقيقتها حقيرة قليلة بالنسبة إلى دار الآخرة . روى جرير عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :٣٥٨ [لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها] وهذا حديث ثابت في الصحيح . وروى الإمام أحمد عن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ :٣٥٩ [لَلْجنّة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك] انفرد بإخراجه البخاري في الرقاق . ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان ولهذا حثّه تعالى على المبادرة إلى الخيرات وفعل الطاعات وترك المحرمات . فقال عزّ من قائل : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ والمراد جنس السماء والأرض(١) وقوله تعالى : ﴿ اعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ أي هذا الذي أهّلهم الله له من فضله ومنّه عليهم وإحسانه إليهم . – نسأله تعالى أن يوفقنا إلى ذلك ، ويؤتينا من فضله ومنّه وإحسانه . سبحانه وتعالى . وجلت عظمته لا إله إلاّ هو ولا ربّ سواه – .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۞ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ (٢٣) ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۞ (٢٤) ﴾

---

(١) يخيل إلى البعض أن الجنة في السموات أي ضمنها. فيستشكلون ويتشككون... فيقولون: اذا كانت الجنة عرضها عرض السموات والأرض فكيف تقع في السموات ثم ماذا يبقى من السموات ؟ فالجواب : ليست الجنة مكانها في السموات ، أو في إحداها ، بل هي مخلوقة مستقلة عن السموات ، إنما سعتها كسعة السموات والأرض معاً وهي فوق السموات ، وسقفها عرش الرحمن كما صحّ في السنّة فإذا فهم هذا ... يزول الاستشكال

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ الخليقة فقال جل وعلا : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم ﴾ أي في الآفاق وفي نفوسكم ﴿ إلاّ في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ أي من قبل أن نبرأ البرية ونبرأ النسمة . قال قتادة : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ﴾ هي السنون يعني الجدب ﴿ ولا في أنفسكم ﴾ أي الأوجاع والأمراض قال بلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم ولا خلجان عرق إلاّ بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر . وهذه الآية الكريمة العظيمة ، من أدل دليل على القدريّة نفاة العلم السابق قبحهم الله . وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول ٣٦٠[قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة . وزاد ابن وهب « وكان عرشه على الماء »] ورواه الترمذي وقال حسن صحيح. وقوله تعالى : ﴿ إنّ ذلك على الله يسير ﴾ أي ان علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابتها طبق ما سيكون في حينها سهل على الله عزّ وجل لأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون . وقوله تعالى : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ أي أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها ، وتقديرنا للكائنات قبل وجودها لتعلموا ان مـا أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطأكم لم يكـن ليصيبكم ، فلا تأسوا على ما فاتكم لأنه لو قدر شيء لكان . ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ أي أعطاكم أي لا تفخروا على الناس بما أنعم به عليكم ، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدّكم ، إنما هو عن قدر الله تعالى ورزقه لكم. فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً ، تفخرون بها على الناس . ولهذا قال تعالى : ﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ أي متكبر على الناس متعالٍ عليهم ،ولكن علينا أن نجعل الفرح شكراً ، والحزن صبراً . ثم قال تعالى : ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ أي يبخلون بما يجب عليهم ويحضّون الناس عليـه ﴿ ومن يتولّ ﴾ أي عن أمر الله وطاعته ﴿ فإن الله هو الغني الحميد ﴾ كما قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ

يقول تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبيِّنات﴾ أي بالمعجزات ، والحجج والدلائل القاطعة . ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ وهو النقل الصدق ﴿ والميزان ﴾ أي العدل وهو الحق الذي تشهد به العقول السليمة ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾ أي بالحق والعدل . وهو اتباع الرسل فيما أمروا ونهوا. وهو الحق الذي ما بعده إلا الضلال. كما قال تعالى: ﴿ وتمَّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأوامر والنواهي .

وقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ أي وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ، ولهذا قام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوّة ثلاث عشرة سنة توحى اليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين . وبيان وإيضاح للتوحيد . فلما قامت الحجة على من خالف . شرع الله الهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف . وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذّب به وعانده . ولهذا قال تعالى ﴿ فيه بأس شديد ﴾ يعني السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها . ﴿ ومنافع للناس ﴾ أي في معايشهم كالسكة والفأس والقدوم والمنشار وآلات الحياكة والحراثة . والطبخ والخبز . وما لا قوام للناس بدونه وغير ذلك . وقوله تعالى: ﴿ وليعلمن الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾ أي مَنْ نيَّتُه في حمل السلاح نصرةُ الله ورسوله ﴿ إنّ الله قوي عزيز ﴾ ينصر من ينصره من غير احتياجٍ منه إلى الناس ، وإنّما شرع الجهاد ليبلوَ بعضَكم ببعض .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ ٱلْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞ (٢٧) ﴾

يخبر تعالى أنه منذ أن بعث نوحاً عليه السلام وكذلك إبراهيم عليه السلام، لم ينزّل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً . ولا أوحى إلى بشرٍ من بعدهما إلاّ من سلالتهما ، حتى كان آخر أنبياء بني اسرائيل عيسى بن مريم الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، ولهذا قال تعالى: ﴿ ثم قفّينا على آثارهم برسلنا وقفّينا بعيسى بن مريم وآتيناه

الأنجيل ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه : ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه ﴾ وهم الحواريّون ﴿ رأفةً ﴾ أي رقه وهي الخشية ﴿ ورحمة ﴾ بالخلق. وقوله تعالى: ﴿ ورهبانيّة ابتدعوها ﴾ أي ابتدعها أمة النصارى ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾أي ما شرعناها وانّما هم التزموها من تلقاء أنفسهم ﴿ إلاّ ابتغاء رضوان الله ﴾ أي ما كتبنا عليهم ما ابتدعوه من الرهبانيّة أي ما شرعناه لهم إنّما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله ﴿ فما رعوها حقّ رعايتها ﴾ لأنهم ابتدعوا في الدين ما لم يأمر به الله، ولم يقوموا حتّى بما ألزموا أنفسهم به مما زعموه قربةً إليه تعالى فإن الله لا يتقبّل قربةً إليه إلاّ بما شرعه ، لا بما ابتدعه الناس .

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن‌مسعود قال قال رسول‌الله ﷺ: ٣٦١[يا ابن مسعود قلت : لبيك يا رسول الله . قال : « هل علمت أن بني اسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة لم ينجُ منها إلاّ ثلاثُ فرق ، قامت بين الملوك والجبابرة بعد عيسى بن مريم عليه السلام ، فدعت إلى دين الله ، ودين عيسى بن مريم فقاتلت الجبابرة فقتلت فصبرت ونجت . ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ، فقامت بين الملوك والجبابرة فدعوا إلى دين الله ودين عيسى بن مريم فقتلت وقطعت بالمناشير . وحرّقت بالنيران فصبرت ونجت . ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ولم تطق القيام بالقسط . فلحقت بالجبال فتعبدت وترهّبت . وهم الذين ذكر الله تعالى: ﴿ ورهبانيّة ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ »] .

وروى الحافظ أبو يعلى عن‌سهل بن أبي أمامة٣٦٢[إنه دخل‌وأبوه على أنس بن مالك في المدينة زمن عمر بن عبد العزيز وهو أمير ، وهو يصلي صلاة خفيفة وقعة كأنها صلاة مسافر أو قريباً منها فلما سلّم قال : يرحمك الله أرأيت هذه الصلاة ، المكتوبة أم شيء تنفلته ؟ قال إنها المكتوبة وإنّها صلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلاّ شيئاً سهوت عنه ، أن رسول الله ﷺ كان يقول«لا تشدّدوا على أنفسكم فيشدّد الله عليكم فإن قوماً شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانيّة ابتدعوها ماكتبناها عليهم » ثم غدوا من الغد فقالوا نركب فننظر ونعتبر قال : نعم فركبوا جميعاً فإذا هم بديار قفر قد باد أهلها وانقرضوا وفنوا ، خاوية على عروشها ، فقالوا : أتعرف هذه الديار ؟ قال : ما أعرفني بها وبأهلها هؤلاء أهل الديار أهلكهم البغي والحسد ، ان الحسد يطفىء نور الحسنات والبغي يصدق ذلك أو يكذبه ، والعين تزني والكفّ والقدم والجسد واللسان ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه .] روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه٣٦٣ [أن رجلاجاءه فقال: أوصني ،فقال: سألتَ عمّا سألتُ عنه رسول الله

ﷺ من قبلك « أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض »] تفرّد به أحمد والله تعالى أعلم .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

قد تقدّم أنه ورد في الصحيح عن أبي موسى الأشعري أنَّ مؤمني أهل الكتاب يؤتون أجرهم مرَّتَيْن كما في الآية ٥٤ من سورة القصص [1] قال سعيد بن جبير : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتَوْن أجرهم مرتين أنزل الله تعالى هذه الآية في حق هذه الأمة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وآمنوا برسوله يؤتِكم كفلين ﴾ أي ضِعفَيْن ﴿ من رحمتِه ﴾ وزادهم ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ يعني هدى يتبصّر به من العمى والجهالة ﴿ ويغفر لكم ﴾ ففضلهم بالنور والمغفرة . رواه ابن جرير . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتَّقوا الله يجعلْ لكم فرقاناً ويكفّر عنكم سيئاتِكم ويغفرْ لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾ روى أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :٣٦٤ [مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً فقال : من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت اليهود ، ثم قال : من يعمل لي من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت النصارى ، ثم قال : من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين عملتم ، فغضبت النصارى واليهود وقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً قال : هل ظلمتكم من أجركم شيئاً ؟ قالوا : لا قال : فانما هو فضلي أوتيه من أشاء] ورواه البخاري . قال ابن جرير : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله ﴾ أي ليتحققوا انهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع ﴿ وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ آخر اختصار تفسير سورة الحديد ولله الحمد والمنة وبه العصمة .

(٥٨) سورة المجادلة مدنية وآياتها اثنتان وعشرون

نزلت بعد سورة « المنافقون »

بسم الله الرحمن الرحيم



﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ (١) ﴾

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: ٣٦٥ [الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول. فأنزل الله عز وجل: ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾] إلى آخر الآية وهكذا رواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقاً فقال... فذكره. وأخرجه النسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير من غير وجه عن الأعمش به وزوجها أوس بن الصامت وهي خولة بنت ثعلبة. وكان أوس امرأ به لمم وكان اذا أخذه لممه واشتد به يظاهر من امرأته.

روى ابن أبي حاتم في رواية له عن عائشة أنها قالت ٣٦٦ [تبارك الله الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول يا رسول الله: أكل مالي وأفنى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللهم اني اشكو إليك، قالت فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾]..

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا ٱللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝ (٢) وَٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ

يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ❁ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ❁ (٤)

روى الإمام أحمد عن خويلة بنت ثعلبة قالت ٣٦٧ [فيَّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، قالت : فدخل علي يوماً فراجعته بشيء فغضب ، فقال : انتِ عليَّ كظهر أمّي . قالت ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ، ثم دخل عليَّ فإذا هو يريدني عن نفسي قالت : قلت كلاَّ ، والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليّ ، وقد قلت ما قلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه قالت فواثبني فامتنعت منه فغلبتُه بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عني. قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثياباً ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت منه وجعلت اشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه ، قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول « يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه »

قالت : فوا الله ما برحتُ حتى نزل فيَّ قرآن ، فتغشّى رسول الله ﷺ ما كان يتغشّاه ثم سُرِّيَ عَنْهُ . فقال لي « يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً — ثم قرأ عليّ — ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاورَكما إنّ الله سميع بصير — إلى قوله تعالى — وللكافرين عذاب أليم ﴾ قالت : فقال لي رسول الله ﷺ : « مُرِيهِ فليُعتق رقبةً » قالت : فقلت يا رسول الله ما عنده ما يعتق. قال : « فليصُمْ شهرَيْن متتابعين » قالت : فقلت والله إنّه لشيخ كبير ما به من صيام. قال : فليطعم ستّين مسكيناً وسقاً من تمر » قالت : فقلت والله يا رسول الله ما ذاك عنده ، قالت : فقال رسول الله ﷺ « فإنّا سنعينه بفرَقٍ من تمر » قالت : فقلت يا رسول الله وأنا سأعينه بفرَق آخر قال : « قد أصبتِ وأحسنتِ فاذهبي فتصدقي به عنه ثم استوصي بابن عمّك خيراً » قالت : ففعلت] ورواه أبو داود في كتابه الطلاق من سننه وهذا هو الصحيح في سبب نزول هذه السورة. وقصة الذي ظاهر امرأته في شهر رمضان

فوقع عليها ليلاً ليس هو أوس بن الصامت بل هي واقعة جرت بعد قصة أوس بن الصامت وزوجته كما دل عليه سياق تلك وهذه .

وقال خصيف عن مجاهد عن ابن عباس : أول من ظاهر من امرأته أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت وامرأته خولة بنت ثعلبة بن مالك . رواه ابن جرير .

فقوله تعالى : ﴿والذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ أصل الظهار مشتق من الظَّهر كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها : أنت عليّ كظهر أمي ؛ ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياساً على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً ، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفّارة ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم ؛ هكذا قال غير واحد من السلف . وقوله تعالى : ﴿ ما هنّ أمهاتهم إنْ امهاتهم إلاّ اللائي ولدنهم ﴾ أي لا تصير المرأة بقول الرجل أنت علي كأمّي أو مثل أمي أو كظهر أمي وما أشبه ذلك ، لا تصير أمّه بذلك ، إنما أمه التي ولدته. ولهذا قال تعالى: ﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ﴾ أي كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿ وإن الله لعفوٌّ غفور ﴾ أي عمّا كان منكم في حال الجاهلية ، وهكذا عما خرج من سبق اللسان ، ولم يقصد إليه المتكلم كما رواه ابو داود٣٦٨ [أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول لامرأته: يا أختي ، فقال « أختك هي؟ »] فهذا إنكار ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك لأنه لم يقصده ولو قصده لحرمت عليه ، لأنه لا فرق على الصحيح بين الأمّ وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ﴾ قيل العود إلى لفظ الظهار فيكرره وهذا باطل وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفّر بهذه الكفارة وفي أحد قوَلي مالك انه الجماع وكذلك عن سعيد بن جبير . ويرى الحسن البصري انه الغشيان في الفرج وكان لا يرى بأساً أن يغشي فيما دون الفرج قبل أن يكفّر. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ من قبل أن يتماسّا ﴾ والمس النكاح . وقوله تعالى : ﴿ فتحرير رقبة ﴾ أي فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسّا والرقبة هنا مطلقة ، وغير مقيدة بالإيمان بينما في كفارة القتل مقيدة بالإيمان ، والشافعي رحمه الله حمل ما أطلق ههنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب وهو عتق الرقبة واعتضد بقوله ﷺ٣٦٩ [« اعتقها فإنها مؤمنة »] [1] .

(١) قلت : فيما يبدو – والله أعلم – أن قول ابن كثير باطلاق الرقبة، بمعنى: تجزيء، كافرة كانت أو مؤمنة؛ أقرب إلى الصواب مما ذهب اليه الشافعي رحمه الله من حمل المطلق على المقيد بالإيمان . ولا سيما وإن ظاهر الآية يدل على الإطلاق في الظهار ، وعلى التقييد بالإيمان، في كفارة القتل ، فلا داعي للحرج .

وروى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال: ٣٧٠ [أتى رسول الله ﷺ رجل فقال : إني ظاهرت من امرأتي ثم وقعت عليها قبل أن أكفر ، فقال رسول الله ﷺ « ألم يقل الله تعالى : ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ » فقال أعجبتني . قال : « أمسك حتى تكفر »] ثم قال البزار لا يروى عن ابن عباس بأحسن من هذا ، واسماعيل بن مسلم تُكلّم فيه وروَى عنه جماعة كثيرة من أهل العلم . وفيه من الفقه أنه لم يأمره إلا بكفارة واحدة . وقوله تعالى : ﴿ ذلكم توعظون به ﴾ أي تزجرون به ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي خبير بما يصلحكم عليم بأحوالكم ، وقوله تعالى : ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعَيْن من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ﴾ أي على هذا الترتيب : رقبة أو صيام أو إطعام . كما ثبت ذلك أيضاً في الصحيحَين في قصة مجامع امرأته في رمضان .

﴿ ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ أي شرَعْنا هذا لهذا . وقوله تعالى : ﴿ وتلك حدود الله ﴾ أي محارمه فلا تنتهكوها . وقوله تعالى : ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ أي الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة ، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء، كلا..ليس الأمر كما زعموا . بل لهم عذاب أليم أي في الدنيا والآخرة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ (٧) ﴾

يخبر تعالى عمن شاقّوا الله ورسوله وعاندوا شرعه ﴿ كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ﴾ أي أهينوا ولعنوا وأُخزوا ، كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم . ﴿ وقد أنزلنا آيات

بيّنات ﴾ أي واضحات لا يعاندها ولا يخالفها إلاّ كافر فاجر مكابر ﴿ وللكافرين عذاب مُهين ﴾ أي في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله والانقياد له والخضوع لديه .

ثم قال تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ وذلك يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد . ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ أي فيخبرهم بما صنعو من خير وشر ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ أي ضبطه الله وحفظه عليهم ، وهم قد نسوا ما كانوا عملوا. ﴿ والله على كلّ شيء شهيد ﴾ أي لا يغيب ولا يخفى عليه شيء ولا ينسىَ . ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه ، واطلاعه عليهم وسماعه كلامهم ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا. فقال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة ﴾ أي من سر ثلاثة ﴿ إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم أينما كانوا ﴾ أي مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله به وسمعه له . كما قال تعالى : ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرّهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولا شك في إرادة ذلك . ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم وبصره نافذ فيهم ، فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء ، ثم قال تعالى : ﴿ ثم ينبّئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ قال الإمام أحمد : أفتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝ (٨) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ (٩) إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ (١٠) ﴾

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد : ﴿ ألم ترَ إلى الذين نُهوا عن النجوى ثم يعودون لما نُهوا عنه ﴾ قال : اليهود ، وكذا قال مقاتل بن حيّان وزاد : ٣٧١ [كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة ، وكانوا إذا مرّ بهم الرجلُ من أصحاب النبيّ ﷺ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجوْن بقتله أو بما يكره... فإذا رأى المؤمن ذلك، خشيهم فترك طريقه عليهم ، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إليها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نُهوا عن النجوى ثم يعودون لما نُهوا عنه » ﴾] .

وقوله تعالى : ﴿ ويتناجوْن بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴾ أي يتحدّثون فيما بينهم بالإثم وهو ما يختص بهم ﴿ والعدوان ﴾ وهو ما يتعلق بغيرهم ، ومنه معصية الرسول ومخالفته يصرّون عليها ويتواصَوْن بها . وقوله تعالى: ﴿ وإذا جاءوك حيّوك بما لم يحيّك به الله ﴾ روى ابن ابي حاتم عن عائشة قالت: ٣٧٢ [دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا السام عليك يا أبا القاسم فقالت عائشة : وعليكم السام قالت : فقال رسول الله ﷺ « يا عائشة ان الله لا يحب الفحشَ ولا التفحش » قلت : ألا تسمعهم يقولون السام عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ « أو ما سمعت أقول : وعليكم » ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا جاءوك حيّوك بما لم يحيّك به الله ﴾] وفي رواية في الصحيح ٣٧٣ [أنها قالت لهم: عليكم السام والذام واللعنة وأن رسول الله ﷺ قال : « إنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا »] وقوله تعالى : ﴿ ويقولون في أنفسهم لولا يعذّبنا الله بما نقول ﴾ أي يفعلون هذا ويقولون في أنفسهم لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن لأن الله يعلم ما نسرّه . فقال الله تعالى : ﴿ حسبُهم جهنم ﴾ أي جهنّم كفايتهم في الدار الآخرة ﴿ يصلَوْنها فبئس المصير ﴾ ثم قال تعالى مؤدباً عبادَه المؤمنين أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴾ أي كما تتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين ﴿ وتناجوا بالبرّ والتقوىَ واتقوا الله الذي إليه تحشرون ﴾ أي فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم ، وسيجزيكم بها .

روى الإمام أحمد عن صفوان بن محرز قال: ٣٧٤ [كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره **من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أن قد هلك قال فاني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها**

لك اليوم ثم يعطي كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ، أخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة

ثم قال تعالى: ﴿ إنـّما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلاّ بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي إنما النجوى وهي المسارّة حيث يتوهم مؤمن بها سوءً ﴿ من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ﴾ أي من تسويل الشيطان للمتناجيَيْن ليسوء المؤمنين وليس ذلك بضارِّهم شيئاً إلاّ بإذن الله ومن أحسَّ من ذلك شيئاً فليستعذ بالله وليتوكّل على الله فإنه لا يضرّه شيءٌ بإذن الله تعالى . روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ٣٧٥ [إذا كنتم ثلاثةً فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه] أخرجاه من حديث الأعمش .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١١)

يقول تعالى مؤدّباً عباده المؤمنين ويأمرهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسّحوا في المجالس ﴾ وقرىءَ في ﴿ المجلس ﴾ ﴿ فأفسحوا يفسحِ الله لكم ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل كما جاء في الحديث: ٣٧٦ [من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة] ، ولهذا أشباه كثيرة . ولهذا قال تعالى : ﴿ فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ قال قتادة : نزلت هذه الآية في مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ فأمرهم الله تعالى أن يفسحَ بعضهم لبعض . وقال مقاتل : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: ٣٧٧ [رحم الله رجلاً يفسح لأخيه] روى الإمام أحمد والشافعي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : ٣٧٨ [لا يُقِـمِ الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا] اخرجاه في الصحيحين .

وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم من رخص

في ذلك محتجاً بحديث ٣٧٩ «[قوموا إلى سيدكم فأنزلوه](١) ومنع آخرون محتجين بحديث ٣٨٠ [من أحبَّ أنْ يتمثَّل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار] وقد جاء في السنن انه ٣٨١ [لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكان إذا جاء لا يقومون له لما يعلمون من كراهيته لذلك] وقد روي عن ابن عباس وغيره انهم قالوا في قوله تعالى : ﴿..إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾ في مجالس الحرب . قالوا ومعنى قوله تعالى : ﴿ واذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ أيَ انهضوا للقتال . وقال قتادة إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أي إذا أمروا بالانصراف ان ينصرفوا كقوله تعالى : ﴿ واذا قيل لكم ارجعوا فارجعوا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير ﴾ أي لا تعتقدوا أنه اذا فسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل أو إذا أمر بالخروج فخرج أن يكون ذلك نقصاً في حقه ، بل هو رفعة ورتبة عند الله والله تعالى لا يضيع ذلك له بل يجزيه في الدنيا والآخرة.فإن من تواضع لله رفع الله قدره ونشر ذكره ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه .

---

(١) قلت : ليس لهم في هذا الحديث : [قوموا إلى سيدكم فأنزلوه] أية حجة البتة ، لأن أسباب ورود الحديث ما كانت من أجل أن يعظم قوم سعد سعداً بل لأن سعداً كان جريحاً من أثر نبل يوم الأحزاب أصيب به في أكحله ، وكان دعاه رسول الله ﷺ ليحكم في بني قريظة ، فلما أقبل على حماره ، ودنا سعد من خيمة رسول الله ﷺ قال عليه الصلاة والسلام : [قوموا إلى سيدكم فأنزلوه] أي ساعدوه على النزول من على حماره ، لما فيه من الجراح كما تقدم ... راجع تمام القصة في المجلد الثالث سورة الأحزاب الآية ٢٦ و٢٧ .

هذه خلاصة أسباب ورود الحديث ... ومن هنا يتضح الفارق الكبير بين معنى (القيام إلى القادم) وهو : المشي إليه لاستقباله أو لمساعدته ... وهذا هو المراد من قوله ﷺ [قوموا إلى سيدكم] وبين معنى (القيام للقادم) وهو الوقوف اجلالاً واعظاماً له ، فلا يجلسون في مجالسهم حتى يجلس ، أو يقفون على رأسه وهو جالس (كما يفعل الأعاجم بملوكهم) وكل ذلك نهي عنه ﷺ بقوله : [من أحب أن يتمثل الرجال له قياماً فليتبّوا مقعده من النار] أما الذين يحتجون بقوله ﷺ : [قوموا الى سيدكم فأنزلوه] فيسقطون منه ﴿ فأنزلوه ﴾ ليخفوا أسباب القيام إليه ، ثم لم يكتفوا بهذا الاسقاط !!! بل بدلوا [إلى سيدكم] بـ (لسيدكم) حتى يكون معنى القيام للقادم مراداً به الإجلال والتعظيم له ...!؟ وهذا هو التحريف والكذب عمداً على رسول الله ﷺ ذلك حتى يبقوا متعالين على الناس « بابراجهم العالية » و « اخراجهم الفضفاضة » ليتصيّدوا قلوب العامة والبسطاء بهذا الإجلال الفارغ ...!!! وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من أحب ان يتمثل الرجال له قياماً فليتبوأ مقعده من النار) وثبت ان الصحابة ما كانوا يقومون له صلى الله عليه وسلم لما يعلمون من كراهيته لذلك. فهلا برسول الله صلى الله عليه وسلم يقتدون ...؟ وبصحابته الكرام يتأسون !؟ اللهم اهدهم صراطك المستقيم وأصلح شأنهم و ارجعهم إلى أخلاقه صلى الله عليه وسلم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ (١٣) ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ أي يسارّه فيما بينه وبينه، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة، تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام. ولهذا قال تعالى: ﴿ ذلك خير لكم وأطهر ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ فإن لم تجدوا ﴾ أي إلاّ من عجز عن ذلك لفقره ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ فما أمر بها إلاّ من قدر عليها. ثم قال تعالى: ﴿ أأشفقتم أن تقدّموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ أي أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﴿ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون ﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم. وقد قيل انه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

روى ابن جرير عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: ٣٨٢ [ما ترى، دينار؟ قال: لا يطيقون. قال نصف دينار قال: لا يطيقون. قال: ما ترى؟ قال شعيرة فقال له النبي ﷺ انك لزهيد قال: فنزلت: ﴿ أأشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ قال علي: في خفف الله عن هذه الأمة] وقال معمر عن قتادة: ﴿ اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ انها منسوخة ما كانت إلاّ ساعة من نهار، وهكذا روى عبد الرزاق عن عليّ: ما عمل بها أحد غيري حتى نسخت وما كانت إلاّ ساعة.



﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ (١٥) اتَّخَذُوا

أيمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۞ (١٦) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ ۞ (١٨) ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ ٱللهِ أُولٰئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَانِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ۞ (١٩)

ينكر الله تعالى على المنافقين موالاتهم للكفار في الباطن ، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين . كما قال تعالى : ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ وقال تعالى ههنا : ﴿ ألم تر إلى الذين تولّوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ يعني اليهود الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن. ثم قال تعالى: ﴿ ما هم منكم ولا منهم ﴾ أي ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون ، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود . ثم قال تعالى : ﴿ ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ يعني وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا وهي اليمين الغموس ، ولا سيما في مثل حالهم اللعين عياذاً بالله منه ، فإنهم أي المنافقون كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا جاءوا الرسول حلفوا له بالله أنهم مؤمنون ، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به ، لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه ولهذا شهد الله بكذبهم في إيمانهم وشهادتهم لذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ أي أرصد الله لهم العذاب الأليم على موالاتهم للكفار ونصحهم لهم ، ومعاداة المؤمنين وغشهم ؛ ولهذا قال تعالى:﴿ اتخذوا أيمانهم جنّة فصدوا عن سبيل الله ﴾أي أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، واتقوا بالأيمان الكاذبة ، فاغترّ بهم من لا يعرف حقيقة أمرهم فصدقهم ، فحصل بهذا صدٌّ عن سبيل الله لبعض الناس . ﴿ فلهم عذاب مهين ﴾ أي في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم في الايمان الكاذبة الخائنة . ثم قال تعالى : ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ أي لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ أي يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً ﴿ فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم

على شيء ﴾ أي يحلفون بالله عز وجل انهم كانوا على الهدى والاستقامة ، كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا ، لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه ، ويعتقدون ان ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس فيُجرون عليهم الأحكامَ الظاهرة ، ولهذا قال : ﴿ ويحسبون أنهم على شيء ﴾ أي حلفهم ذلك لربهم عزّ وجلّ.

ثم قال تعالى منكراً عليهم حسبانهم : ﴿ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ فأكّد الخبر عنهم بالكذب. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس ٣٨٣ [أن رسول الله ﷺ ، كان في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل قال : « انه سيأتيكم انسان ينظر بعيني شيطان فاذا أتاكم فلا تكلموه » فجاء رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه فقال : « علام تشتمني أنت وفلان وفلان » نفر دعاهم بأسمائهم قال فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له واعتذروا إليه . قال فأنزل الله عز وجل ﴿ فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾] وهكذا رواه الإمام أحمد ورواه ابن جرير . وحال هؤلاء كما أخبر تعالى عن المشركين حيث يقول : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلاّ أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ﴾ أي استحوذ على قلوبهم حتى أنساهم أن يذكروا الله تعالى وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه . ولهذا روى ابو داود عن أبي الدرداء قال : ٣٨٤ [سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيه الصلاة إلاّ قد استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة... » ثم قال تعالى: ﴿ ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ۝(٢٠) كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ (٢١) لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ (٢٢) ﴾

يخبر تعالى عن الكفار المعاندين المحادّين لله ورسوله، يعني الذين هم في حد، والشرع في حد آخر، أي مجانبون للحق مشاقُّون له ﴿ أولئك في الأذَلّين ﴾ أي في الأشقياء الأذلّين في الدنيا والآخرة ﴿ كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلي ﴾ أي قد حكم وكتب وقدر بأن النصرة لله ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وإنَّ العاقبة للمتقين، وان النصر للمؤمنين. كما قال تعالى: ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ أي لا يوادّون المحادّين ولو كانوا من الأقربين. كما قال تعالى: ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلاَّ أن تتقوا منهم تقاةً ويحذِّركم الله نفسه ﴾ الآية. وقال سعيد بن عبد العزيز انزلت هذه الآية إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر ولهذا قال عمر: لو كان ابو عبيدة حياً لاستخلفته. – قلت – ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر فأشار الصدّيق بأن يفادوا، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين وهم بنو العم والعشيرة. ولعل الله ان يهديهم. وقال عمر: لا أرى ما رأى، يا رسول الله هل تمكني من فلان – قريب لعمر – فأقتله، وتمكن علياً من عقيل وتمكن فلاناً من فلان ليعلم الله انه ليست في قلوبنا موادَّةً للمشركين ... (القصة بكمالها). وقوله تعالى: ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ أي من اتصف بأنه لا يوادّ من حادّ الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه فهذا ممن كتب في قلبه الإيمان وزينه في بصيرته. وقوله تعالى: ﴿ ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ وهنا سرّ بديع وهو أنه لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله تعالى، عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم. وقوله تعالى: ﴿ أولئك حزب الله ﴾ أي عباده وأهل كرامته. وقوله تعالى: ﴿ ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ تنويه بفلاحهم في الدنيا والآخرة في مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان ﴿ ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾.

وقد قال ابن أبي حاتم عن الذيال بن عباد قال: كتب أبو حازم الأعرج إلى الزهري: إعلم أن الجاه جاهان جاه يجريه الله تعالى على أيدي أوليائه لأوليائه، وانهم الخامل ذكرهم الخفية شخوصهم، ولقد جاءت صفتهم على لسان رسول الله ﷺ ٣٨٥ [ان الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء الذين اذا غابوا لم يفتقدوا، واذا حضروا لم يدعوا، قلوبهم مصابيح

الهدى ، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة] فهؤلاء أولياء الله تعالى الذين قال الله : ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ وروى نعيم بن حماد عن الحسن قال : ٣٨٦ [قال رسول الله ﷺ اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يداً ولا نعمة فإني وجدت فيما أوحيته إلي : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾] [1] .

آخر اختصار تفسير سورة المجادلة ولله الحمد والمنة وبه العصمة وعليه التكلان

* * *

(١) مرسل والله أعلم .

(٥٩) سورة الحشر مدنيّة وآياتها أربع وعشرون

نزلت بعد سورة البيّنة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ❁ (١) هُوَ ٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ ٱللَّهِ فَأَتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا يَا أُولِي ٱلْأَبْصَارِ ❁ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ❁ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ❁ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَاسِقِينَ ❁ (٥)

يخبر تعالى ان جميع ما في السموات والأرض من شيء يسبح بحمده ويمجده ويقدسه ويصلّي له ويوحّده. كقوله تعالى: ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ وهو العزيز ﴾ أي منيع الجناب ﴿ الحكيم ﴾ في قدره وشرعه . وقوله تعالى : ﴿ هو الذي أخرج الذين

كفروا من أهل الكتاب ﴾ يعني يهود بني النضير . قاله ابن عباس وغيره ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار وبالله وحده المستعان .

ذكر أصحاب المغازي والسير : وكان سبب ذلك أنه لما قتل أصحاب بئر معونة [١] من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا سبعين وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري فلما كان في أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو ، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « لقد قتلت رجلين لأودِّينَّهما » وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ، ليستعينهم في دية ذينك الرجلين ، وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها . فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : انكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم ، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال : أنا لذلك . فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ... ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم ، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ثم تبعه أصحابه حتى انتهوا إليه فأخبرهم بما كانت يهود أرادت من الغدر به ، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم فسار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها ، فنادوه ، ان يا محمد : قد كنت تنهي عن الفساد في الأرض وتعيبه على من يصنعه فما بال قطع النخل وتحريقها .. ؟ وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبدالله بن أبي ابن سلول ، ووديعة ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النضير ان اثبتوا وتمنعوا ، فإنَّا لن نُسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وان خرجتم خرجنا معكم . فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا فقذف في قلوبهم الرعْب ، فسألوا رسول الله ﷺ ان يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الأبل من أموالهم إلاّ الحلقة [٢] ففعلوا . فاحتملوا من أموالهم ما استقلّت

(١) قلت : أصحاب بئر معونة هم الذين أرسلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عامر بن الطفيل بكتاب منه فأرسلوا الكتاب مع أحدهم فقتل عامر الرجل واستعدى عليهم القبائل فقاتلوهم وأخذ كل من أصحاب الرسول سيفه وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا عمرو بن أمية الضمري فحزن عليهم رسول الله أشد الحزن وقد تأثر المسلمون كذلك أشد الأثر لأخوانهم في الدين وعزاؤهم بهم بأن لهم الجنة .

(٢) الحلقة — وهي السلاح أي ما عدا أسلحتهم فليس لهم أن يأخذوها معهم .

به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته عن ايجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق بـه فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام وخلّوا الأموال لرسول الله ﷺ فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء ؛ فقسّمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلاّ سهل بن حنيف وأبا دجانه - سماك بن خرشه - ذكرا فقراً ... فأعطاهما رسول الله ﷺ ، ولم يسلم من بني النضير إلاّ رجلان: يا مين بن عمرو بن كعب، عم عمرو بن جحاش، وابو سعد بن وهب. أسلما على أموالهما فأحرزاها وقيل أن يامين بن عمرو جعل لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش - وهو المتآمر على حياة رسول الله ﷺ - فقتله . قاله محمد بن اسحق مختصراً .

قال ابن اسحق : ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها وهكذا روى يونس بن بكير عن ابن اسحق بنحو ما تقدم . فقوله تعالى : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ يعني بني النضير ﴿من ديارهم لأول الحشر ﴾ أي إلى أرض الشام وقوله تعالى : ﴿ ما ظننتم ان يخرجوا ﴾ أي في مدّة حصاركم لهم وقصرها وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها . ولهذا قال تعالى : ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ أي جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال . وقال تعالى : ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ أي الخوف والهلع والجزع ، وكيف لا وقد حاصرهم الذي نصر بالرعب مسيرة شهر ﷺ . وقوله تعالى : ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيـدي المؤمنين ﴾ وقد تقدم تفسير ابن اسحق لذلك ، وهو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم وحملها على الإبل ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ﴾ أي لعذبهم عذاباً آخر من القتل والسبي ونحو ذلك لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدنيا مع ما أعدّ لهم في الدار الآخرة مـن العذاب في نار جهنم. ولهذا قال تعالى : ﴿ ولهم في الآخرة عذاب النار ﴾ أي حتم لازم لا بدّ منه ﴿ ذلك بأنهم شاقّوا الله ورسوله ﴾ أي إنما فعل بهم ما فعل، لأنهم خالفوا الله ورسوله، وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال سبحانه : ﴿ ومن يشاقّ الله فإن الله شديد العقاب ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ اللينة : ألوان التمر سوى العجوة وذلك ان رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم ، وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم وكل ذلك بإذن الله تعالى ومشيئته ورضاه وفيه نكاية بالعدوّ وخزي لهم وارغام لأنوفهم .

قال مجاهد : نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل ، وقالوا إنّما هي مغانم المسلمين فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه ، وتحليل من قطعه من الإثم ، وإنما قطعه وتركه بإذنه ، وما فعلوا ذلك من القطع والحرق إلا ليستنزلوهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحاك في صدورهم فقال المسلمون : قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً فلنسألن رسول الله ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ ما قطعتم من لينة ... ﴾ .

= ولقد تبارى شعراء المسلمين في وصف هذه الوقعة وما كان فيها من قطع وتحريق وقتل كعب بن الأشرف ، فقالوا قصائد عظيمة امثال حسان بن ثابت وكعب بن مالك وابن القيم العبسي وقيس بن بحر بن طريف تركنا ذكرها احتصاراً واكتفينا بالتنويه عنها فقط ومن رغب الاطلاع على هذه القصائد فليرجع إلى تفسير ابن كثير الأصل . =

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۞ (٧) ﴾

يقول تعالى مبيّناً ما الفيء وما صفته وما حكمه ؛ فالفيء كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا ايجاف خيل ولا ركاب أي لم يقاتلوا الأعداء بالمبارزة والمصاولة بل نزل أولئك من الرعب ما ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ كما حصل لبني النضير فأفاء الله أموالهم التي تركوها على رسوله ﷺ خاصة ، ولهذا تصرّف في فيء بني النضير كما يشاء ، فردّه على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآيات تعالى : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ أي من بني النضير ﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ يعني الإبل ﴿ ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ أي لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر لكل شيء .

ما بين المساويين من كلامي

ثم قال تعالى : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير. ولهذا قال تعالى : ﴿ فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ إلى آخرها والتي بعدها فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه .

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ٣٨٧ [كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيلٍ ولا ركابٍ فكانت لرسول الله ﷺ خالصةً ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته ، وقال مرة قوت سنته وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله عز وجل] هكذا أخرجه أحمد ههنا مختصراً ، وقد أخرجه الجماعة في كتبهم إلاّ ابن ماجه .

والمعلوم ان ما تركه رسول الله ﷺ بعد وفاته فهو صدقة لا يرثه أحد لقوله ﷺ ٣٨٨ [لا نورّث ما تركنا صدقة] ولهذا فقد منع ابو بكر الصديق فاطمة مما ترك رسول الله ﷺ مستنداً إلى هذا الحديث وكان ابو بكر على حق في ذلك فلما توفي ابو بكر رضي الله عنه وتولى من بعده الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء بعد زمن من خلافته العباس وعليّ ودخلا عليه فقال العباس : يا أمير المؤمنين ٣٨٩ [إقض بيني وبين هذا فأقبل عليهما عمر وقال : انشدكما بالله الذي باذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان ان رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركناه صدقة » فقالا نعم ... ثم قال : فلما توفي رسول الله ﷺ قال ابو بكر : أنا وليّ رسول الله ﷺ فجئت أنت وهذا إلى أبي بكر تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك ، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها فقال ابو بكر رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ « لا نورث ما تركنا صدقة » والله يعلم أنه لصادق بار راشد تابع للحق فوليها أبو بكر . فلما توفي قلتُ أنا ولي رسول الله ﷺ وولي أبي بكر فوليتها ما شاء الله أن أليها ، فجئت انت وهذا وانتما جميع وأمركما واحد فسألتمانيها فقلت إن شئتما فانا أدفعها إليكما على أنّ عليكما عهد الله أن تلياها بالذي كان رسول الله ﷺ يليها ، فأخذتماها مني على ذلك ثم جئتماني لأقضي بينكما بغير ذلك ، والله لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنها فرداها إلي .] أخرجوه من حديث الزهري به وكان الذي سألاه : أي العباس وعلي : أموال بني النضير التي كانت خالصة لرسول الله ﷺ والله تعالى أعلم [1] . وقوله تعالى : ﴿ كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾

---

(١) بعض حديث مما رواه أبو داود أثبتنا بعضه هنا اختصاراً وبغية الفائدة .

أي جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرّفون فيها بمحض الشهوات والآراء ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء .

وقوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ أي مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فانه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شرّ .

روى ابن أبي حاتم عن مسروق قال : ٣٩ [جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : بلغني أنك تنهي عن الواشمة والواصلة ، أشيء وجدتَه في كتاب الله تعالى أو عن رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى شيء وجدتُه في كتاب الله وعن رسول الله ﷺ . قالت : والله لقد تصفّحت ما بين دفتي المصحف فما وجدت فيه الذي تقول قال : فما وجدت فيه ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ؟ قالت : بلى قال : فاني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة قالت فلعلّه في بعض أهلك ، قال فادخلي فانظري فدخلت فنظرت ثم خرجت قالت : ما رأيت بأساً فقال لها : أما حفظت وصية العبد الصالح ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ [1]] وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره فإنه شديد العقاب لمن عصاه ، وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ ❁ (٨) وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ❁ (٩) وَٱلَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ❁ (١٠) ﴾

(١) هو قول شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه .

يبين تعالى حال الفقراء المستحقين لمال الفيء ، أنهم : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ أي خرجوا من ديارهم مهاجرين إلى الله ورسوله ، وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه . ﴿ وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ أي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم ، وهؤلاء هم سادات المهاجرين . ثم قال تعالى مادحاً للأنصار مبيّناً فضلهم وشرفهم وكرمهم ، وعدم حسدهم وايثارهم مع الحاجة . فقال تعالى : ﴿ والذين تبوّأوا الدار والإيمان من قبلهم ﴾ أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم . قال عمر : وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوّأوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم . رواه البخاري . وقوله تعالى: ﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾ أي من كرم وشرف نفوسهم ، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم. قال الإمام أحمد عن أنس قال ٣٩١ [قال المهاجرون يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير ، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال : « لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم »] . ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجةً مما أُوتوا ﴾ أي ولا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة « وقوله تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ يعني حاجة أي يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدأون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك . روى البخاريّ عن أبي هريرة قال : ٣٩٢ [أتى رجل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً . فقال النبي ﷺ « ألا رجل يضيف هذا الليلةَ رحمه الله » فقام رجل من الأنصار فقال أنا يا رسول الله ، فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً ، فقالت : والله ما عندي إلاّ قوتُ الصبية . قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وتعالي فاطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة ، ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال « لقد عجب الله عز وجل – أو ضحك – من فلان وفلانة » وأنزل الله تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾] وكذا رواه البخاريّ ومسلم والترمذي والنسائي عن فضل بن غزوان به نحوه وفي رواية لمسلم تسميةُ هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه . وقوله تعالى : ﴿ ومن يوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ أي من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح .

روى أحمد عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: ٣٩٣ [إياكم والظلم فإن الظلم

ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم] إنفرد باخراجه مسلم . وقوله تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاّ للذين آمنوا ربّنا إنّك رؤوف رحيم ﴾ هؤلاء القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء : وهم المهاجرون ثم الأنصار والذين اتّبعوهم بإحسان . كما قال في آية براءة ﴿ والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتّبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ فالتابعون لهم بإحسان هم المتّبعون لآثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم في السرّ والعلانية . ولهذا قال تعالى : « في هذه الآية الكريمة : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربّنا اغفر لنا ولأخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاّ ﴾ أي بغضاً وحسداً ﴿ للذين آمنوا ربّنا إنك رؤوف رحيم ﴾ وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة : أن الرافضي الذي يسب الصحابةَ ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتّصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم ﴿ ربّنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاّ للذين آمنوا ربّنا إنّك رؤوف رحيم ﴾ .

قال ابن جرير عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : قرأ عمر بن الخطاب : ﴿ إنّما الصدقات للفقراء والمساكين — حتى بلغ — عليم حكيم ﴾ ثم قال هذه لهؤلاء ثم قرأ : ﴿ واعلموا انّ ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى ﴾ الآية ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى — حتى بلغ — للفقراء ... والذين تبوّأوا الدارَ والإيمانَ من قبلهم ... والذين جاءوا من بعدهم — إلى قوله تعالى — رؤوف رحيم ﴾ ثم قال : استوعبت هذه المسلمين عامة وليس أحد إلاّ وله فيها حق ثم قال : لئن عشت ليأتينّ الراعي وهو بسرو حمير نصيبه فيها لم يعرَقْ فيها جبينُهُ .



۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا

لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ❁ (١٢)
لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ ٱللهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
لَا يَفْقَهُونَ ❁ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ
وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ❁ (١٤) كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً
ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ❁ (١٥) كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَانِ إِذْ
قَالَ لِلْإِنْسَانِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ ٱللهَ
رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ ❁ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا
وَذٰلِكَ جَزَاؤُا ٱلظَّالِمِينَ ❁ (١٧)

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبيٍّ وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم. فقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجَن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنّكم ﴾ قال الله تعالى: ﴿ والله يشهد انهم لكاذبون ﴾ أي لكاذبون فيما وعدوهم به إمّا لأنهم قالوا لهم قولاً، ومقصدهم ان لا يفوا لهم به. وإمّا لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه ولهذا قال تعالى: ﴿ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ أي لا يقاتلون معهم ﴿ ولئن نصروهم ﴾ أي قاتلوا معهم ﴿ ليولُنّ الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها . ثم قال تعالى : ﴿ لأنتم أشدُّ رهبة في صدورهم من الله ﴾ أي يخافونكم أكثر مما يخافون الله. كقوله تعالى: ﴿ اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلاّ في قُرى محصنة أو من وراء جدُر ﴾ يعني أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة بل إمّا في حصون أو من وراء جدُرٍ محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة ثم قال تعالى : ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة . كما قال تعالى : ﴿ ويُذيق بعضكم بأس بعض ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى ﴾ أي

تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين وهم مختلفون غاية الاختلاف. ﴿ ذلك بإنهم قوم لا يعقلون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ﴾ كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع الذين كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا . وقوله تعالى : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني بريء منك ﴾ يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالمنافقين الذين وعدوهم النصر فلما جدّ الجد تخلّوا عنهم وأسلموهم للمهلكة ، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سوّل للإنسان ـ والعياذ بالله ـ الكفر فإذا أجابه تبرأ منه. وقال : ﴿ إني أخاف الله رب العالمين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ﴾ فكان عاقبة الآمر بالكفر والذي كفر مصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ﴿ وذلك جزاءُ الظالمين ﴾ أي جزاء كلّ ظالم .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ ۞ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ ۞ (٢٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أمرٌ بتقواه وهو يشمل ما به أمر وترك ما عنه زجر. وقوله تعالى : ﴿ ولتنظرْ نفس ما قدمت لغد ﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا ، وانظروا ماذا ادّخرتم لأنفسكم من الأعمال الصّالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربّكم. ﴿ واتقوا الله ﴾ تأكيد ثانٍ ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي اعلموا انه سبحانه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفَى عليه منكم خافية ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير. وقوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ أي لا تنسوا ذكر الله تعالى فينسيكم العملَ لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم ، فإن الجزاء من نوع العمل. ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله الهالكون يوم القيامة الخاسرون يوم معادهم. كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لا يستوي أصحابُ النار وأصحاب الجنة ﴾ أي لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا

السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون ﴾ وكثيرة الآيات الدالات على ان الله تعالى يكرم الأبرار ويهين الفجار. ولهذا قال تعالى ها هنا : ﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ أي الناجون المسلّمون من عذاب الله عزّ وجلّ .

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۞(٢١) هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ ۞ (٢٢) هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ (٢٣) هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِيءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ (٢٤) ﴾

يقول تعالى معظّماً لأمر القرآن ، ومبيناً علو قدره ، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدّع عند سماعه ، لما فيه من الوعد الحق ، والوعيد الأكيد : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾ أي اذا كان الجبل رغم قساوته وغلظته وصممه لو سمع وفهم هذا القرآن فتدبّر بما فيه لخشع وتصدّع من ثقله ومن خوف الله وخشيته . فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم آياته ؟ وكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشيته تبارك وتعالى ... ؟ ولهذا قال جلت عظمته : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ وقد ذكر في الحديث المتواتر ٣٩٤ [ان رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد، فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حنّ الجذعُ وجعل يئنّ كما يئن الصبي الذي يسكت لما كان يُسمَع من الذكر

والوحي عنده] . ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراده : فأنتم أحقّ أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع . ثم قال تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إلٓه إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾ أخبر تعالى أنّه هو الذي لا إلٓه إلاّ هو فلا ربّ غيره ولا إلٓه سواه وكل ما يعبد من دونه فباطل. وأنه عالم الغيب والشهادة أي يعلم الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنّا ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقير ، وصغير وكبير حتى الذرّ في الظلمات . وقوله تعالى : ﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ المراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات . فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها . كما قال تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إلٓه إلاّ هو الملك ﴾ أي المالك لجميع الأشياء المتصرّف فيها بلا ممانعة. وقوله تعالى : ﴿ القدُّوس ﴾ أي الذي تقدسه الملائكة الكرام ﴿ السلام ﴾ أي من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وافعاله : ﴿ المؤمن ﴾ قال ابن عباس : أي أَمِنَ خلقه من ان يظلمَهم ﴿ المهيمن ﴾ كقوله تعالى : ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ أي هو الشاهد على خلقه بمعنى رقيب عليهم . وقوله تعالى : ﴿ العزيز ﴾ أي الذي قد عز كلّ شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه. ولهذا قال تعالى: ﴿ الجبار المتكبّر ﴾ أي الذي لا يليق الجبروت إلاّ لجلاله ، ولا التكبّر إلاّ لعظمته . كما تقدّم في الصحيح ٣٩٥ [العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته] الجبّار المصلح أمور خلقه المتصرّف فيهم بما فيه صلاحهم والمتكبّر يعني عن كل سوء. ثم قال تعالى : ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هو الخالق البارىء المصور ﴾ الخلق : التقدير. والبرء : هو تنفيذ وابراز ما قدره وقرره إلى عالم الوجود. والمصور الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها ويختارها .كقوله تعالى : ﴿ في أي صورة ما شاء ركبكَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ قد تقدّم الكلام على ذلك في سورة الأعراف[1] ونذكر الحديث المروي في الصحيحين عن ابي هريرة عن رسول الله ﷺ : ٣٩٦ [إن لله تعالى تسعةً وتسعين اسماً مائة إلاّ واحداً، من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر] ورواه ابن ماجه، والترمذي عن أبي هريرة أيضاً وزاد ٣٩٧ [هو الله الذي لا إلٓه إلاّ هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار المتكبّر، الخالق، البارىء، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم،

(١) راجع تفسير الآية رقم /١٨٠/ المجلد الثاني / من هذا المختصر.

العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدّم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البر التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المعطي ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور .]

وقوله تعالى : ﴿ يسبح له ما في السموات والأرض ﴾ كقوله تعالى : ﴿ تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء إلاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وهو العزيز ﴾ أي فلا يرام جنابه ﴿ الحكيم ﴾ في شرعه وقدره .

* * *

آخر اختصار تفسير سورة الحشر ولله الحمد والمنة وله الشكر والفضل ، وبه التوفيق وعليه التُكلان

(٦٠) سورة الممتحنة مدنية وآياتها ثلاث عشرة

نزلت بعد سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ
أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ
يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ
جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ
بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ
السَّبِيلِ ❁ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ
أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ❁ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ
أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ❁ (٣)

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصَّةَ حاطب بن أبي بلتعة ، وذلك ان حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين ، ومن أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان ، فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد أمر المسلمين بالتجهيز لغزوهم وقال ٣٩٨ [اللهم عمّ عليهم

خبرنا] فعمدحاطب هذا، فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة ، يعلمهم بما عزم عليه الرسول ﷺ من غزوهم ، ليتّخذ بذلك عندهم يداً فأطلع الله تعالى على ذلك رسول الله ﷺ استجابةً لدعائه ، فبعث عليه الصلاة والسلام في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها، وهذا بيّنٌ في هذا الحديث المتّفق على صحته . روى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال : ٣٩٩ [بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبيرُ، والمقدادُ فقال: إنطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ فإنّ بها ظعينةً معها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تُعادي بنا خيلنا حتّى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة قلنا: أخرجي الكتابَ قالت : ما معي كتاب قلنا: لتُخرجِنَّ الكتابَ أو لتلقِين الثياب ، قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتابَ فأتينا به رسولَ الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعه إلى أناس من المشركين بمكّة ، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ « يا حاطب ما هذا ؟ » قال : لا تعجل عليَّ إني كنتُ امرءاً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهُم بمكّة ، فأحببتُ إنْ فاتني ذلك من النَّسب فيهم أن اتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضا بالكفر، بعد الإسلام . فقال رسول الله ﷺ « إنه صدقكم » . فقال عمرُ دعني أضرب عنقَ هذا المنافق ، فقال رسول الله ﷺ « إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله أطّلع إلى أهل بدر فقال : « إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »] وهكذا أخرجه الجماعة إلاّ ابن ماجه من غير وجهٍ وزاد البخاري في كتاب المغازي : فأنزل الله السورة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتّخذوا عدوي وعدوّكم أولياءَ﴾ وفي لفظ البخاري ... فدَمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم . وجاء في رواية ابن أبي حاتم عن علي... فقال رسول الله ﷺ ٤٠٠ [صدق حاطبُ فلا تقولوا لحاطب إلا خيراً] .

فقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخِذوا عدوي وعدوّكم أولياءَ تُلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾ يعني المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين الذين شرع الله عداوتهم ، ونهى عن أن يتّخذوا أولياءَ وأصدقاء كما قال تعالى : ﴿ لا يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلاّ أن تتقوا منهم تُقاةً ويحذركم الله نفسه ﴾ ولهذا قَبِلَ رسول الله ﷺ عذرَ حاطب لما ذكر أنه إنّما فعل ذلك مصانعةً لقريش لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد .

روى الإمام أحمد عن حذيفة يقول: ٤٠١ [ضرب رسول الله ﷺ أمثالاً واحداً وثلاثة

وخمسةً وسبعةً وتسعةً ، وإحدى عشر ، قال فضرب لنا منها مثلاً وترك سائرها قال : « إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبّرٍ وعداءٍ ، فأظهر الله أهلَ الضعف عليهم فعمدوا إلى عدوهم ، فاستعملوهم ، وسلطوهم فأسخطوا الله عليهم إلى يـوم يلقونه » .] وقوله تعالى: ﴿ يخرجون الرسول وإياكم ﴾ هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم ، وعدمِ موالاتهم ، لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابَه من بين أظهرِهم كراهةً لما هم عليه من التوحيد وإخلاصِ العبادة لله وحده ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ كقوله تعالى : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلاّ أن يقولوا ربنا الله ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ﴾ أي إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياءَ ، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم ، فلا توالوا أعدائي وأعداءَكم ، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم . وقوله تعالى : ﴿ تُسِرّون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بمـا أخفيتم وما أعلنتم ﴾ أي تفعلون ذلك ، وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ﴿ ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل * إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴾ أي لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال ﴿ وودّوا لو تكفرون ﴾ أي يحرصون على ان لا تنالوا خيراً فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ لن تنفعَكم أرحامُكم ولا أولادُكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ﴾ أي قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد بكم سوءً ، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله ، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضلّ عمله ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء . روى الإمام أحمد عن أنس: ٤٠٢ ان رجلاً قال: يا رسول الله أين أبي؟ قال في النار فلما قفّى دعاه فقال إن أبي وأباك في النار] رواه مسلم وأبو داود من حديث حماد بن سلمة .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ

مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۞ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۞ (٦)

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بعداوة الكافرين والتبرىء منهم : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ﴾ أي أتباعه الذين آمنوا معه ﴿ إذ قالوا لقومهم إنّا بُرَآءُ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ﴾ أي بدينكم وطريقكم ﴿ وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ﴾ يعني وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ، ما دمتم على كفركم فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿ حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ أي إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد.وقوله تعالى : ﴿ إلاّ قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك ﴾ أي لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسّون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه ، فإنه إنّما كان عن موعدةٍ وعدها إيّاه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وذلك إن بعض المؤمنين ، كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ، ويستغفرون لهم ويقولون إن ابراهيم كان يستغفر لأبيه . فأنزل الله عز وجل ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قُرْبىَ من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * وما كان استغفارُ إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدةٍ وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرّأ منه إن إبراهيم لأوّاه حليم ﴾ ثم يخبر تعالى عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرّأوا منهم فلجأوا إلى الله وتضرّعوا فقالوا ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ أي سلّمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك ، وإليك مصيرنا في المعاد في الدار الآخرة ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا ﴾ أي لا تنصرهم علينا فيفتتنوا بذلك يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحقٍ هم عليه ، واختاره ابن جرير وعن ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا .

وقوله تعالى : ﴿ واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي واستر ذنوبنا عن غيرك ، واعفُ عنها فيما بيننا وبينك ﴿ إنك أنت العزيز ﴾ الذي لا يضامُ من لاذ بجنابك

﴿ الحكيم ﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك ، ثم قال تعالى ﴿ لقد كان لكم فيهم أسوةٌ حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ وهذا تأكيد لما تقدم ، ومستثنى منه ما تقدم أيضاً لأن هذه الأسوة المثبتة ههنا،هي الأولى بعينها وقوله تعالى : ﴿ لمن كان يرجو الله اليوم الآخر ﴾ تهييج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد ، وقوله تعالى : ﴿ ومن يتولّ ﴾ أي من يعرض عما أمر الله به ﴿ فإن الله هو الغني الحميد ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فان الله لغني حميد ﴾ قال ابن عباس الغني الذي قد كمل في غناه وهو الله ، هذه صفته لا تنبغي إلاّ له ليس له كفء وليس كمثله شيء سبحان الله الواحد القهار والحميد المستحمد إلى خلقه أي هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله لا إله غيره ولا رب سواه .



﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ * (٩) ﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين : ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ أي محبة بعد البغضة، ومودة بعد النفرة . ﴿ والله قدير ﴾ أي على الجمع بين الأشياء المتنافرة ، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة فتصبح مجتمعة ، كما قال تعالى : ممتناً على الأنصار ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ الآية... وكذا قال لهم النبي ﷺ ٤٠٣ [ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرّقين فألفكم الله بي؟ »] وقوله تعالى : ﴿ والله غفورٌ رحيمٌ ﴾ أي يغفر للكافرين إذا تابوا منه إلى ربّهم واسلموا له .

وقوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ﴾ أي يعاونوا على إخراجكم أي لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لم

يقاتلوكم في الدين كالنساء والضعفة منهم ﴿ أن تبروهم ﴾ أي تحسنوا إليهم ﴿ وتقسطوا إليهم﴾أي تعدلوا﴿ ان الله يحب المقسطين ﴾ روى الإمام أحمد عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: ٤٠٤[قدمتْ أمّي وهي مشركة في عهدِ قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبيّ ﷺ فقلت : يا رسول الله إن أمّي قدمتْ وهي راغبة أفأصِلها ؟ قال : « نعم صِلي أمّكِ ») أخرجاه .

وقوله تعالى: ﴿ إنالله يحبالمقسطين ﴾ كما ورد فيالحديث الصحيح: ٤٠٥ [المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش ؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما وُلّوا][1]

وقوله تعالى : ﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ﴾ أي إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم ، ينهاكم الله عز وجل عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم . ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال: ﴿ ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولّهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَٱسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ۞ (١١)

(١) راجع الآية رقم /٩/ من سورة الحجرات رقم /٤٩/ .

تقدم في سورة الفتح ، ذكر صلح الحديبية الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش فكان فيه :٤٠٦ [...على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، وفي رواية : على أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلاّ رددته الينا .] وهذا قول عروة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد والزهري ومقاتل بن حيان والسدي فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنّة . وهذا من أحسن أمثله ذلك ؛ وعلى طريقة بعض السلف ناسخة . فان الله عز وجل أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن ، فإن علموهن مؤمناتٍ فلا يرجعوهن إلى الكفار لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن ، وقد ذكرنا في المسند الكبير عن عبدالله بن أبي أحمد قال :٤٠٧ [هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله ﷺ ، فكلماه فيها أن يردّها إليهما ، فاستثنى الله من العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصةً . فمنعهم أن يردّوهنّ إلى المشركين . وأنزل الله آية الامتحان .] قال ابن جرير عن أبي نصر الأسدي قال : سئل ابن عباس كيف كان أمتحان رسول الله ﷺ النساء ؟ قال : كان يمتحنهن :٤٠٨ [بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبةً عن أرض إلى أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلاّ حبّاً لله ولرسوله ؟] .

وقوله تعالى : ﴿ فإن علِمتموهن مؤمناتٍ فلا ترجعوهن إلى الكفَّار ﴾ فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً . وقوله تعالى : ﴿ لا هنّ حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين ، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشركُ المؤمنةَ . ولهذا كان أمر أبي العاص بن الربيع زوج ابنةِ النبيّ ﷺ زينب رضي الله عنها ، وقد كانت مسلمةً وهو على دين قومه ، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعثت زينب في فدائه بقلادة لها كانت لأمها خديجة رضي الله عنها ، فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقّة شديدة ، وقال للمسلمين : ٤٠٩ [إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا] ففعلوا . فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه ، فوفى له بذلك وصدَقه فيما وعدَه وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة رضي الله عنه ، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر . وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها ابو العاص ابن الربيع سنة ثمان فردها عليه بالنكاح الأول ولم يحدِثْ لها صَداقاً. كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس : ٤١٠ [أن رسول الله ﷺ رد ابنتَه زينبَ على أبي العاص ، وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنين على النكاح الأول ولم يحدث شهادة ولا صداقاً] وأما حديث عمر بن شعيب عن ابيه عن جده :٤١١ [ان رسول الله ﷺ رد ابنته زينب على أبي العاص بمهرٍ جديدٍ ونكاحٍ جديدٍ]

ضعفه الإمام أحمد وغير واحد والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ يعني أزواج المهاجرات من المشركين ادفعوا اليهم الذي غرموه عليهن من الأصدقة وقوله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم ان تنكحوهن اذا اتيتموهن اجورهن ﴾ يعني اذا اعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن أي تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولي وغيره وقوله تعالى : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ تحريم من الله عزّ وجل على عباده المؤمنين نكاح المشركات والاستمرار معهن . وفي الصحيح : ٤١٢[أن الرسول ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية ، جاءه نساء من المؤمنات فأنزل الله عز وجلّ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات – إلى قوله – ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين ، تزوّج إحداهما معاويةُ بن أبي سفيان والأخرى صفوانُ بن أميّة] . وقوله تعالى : ﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ﴾ أي وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن ، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين .

وقوله تعالى : ﴿ ذلكم حكم الله يحكم بينكم ﴾ أي في الصلح واستثناء النساء منه والأمر بهذا كلّه هو حكم الله يحكم به بين خلقه ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بما يصلح لعباده حكيم في ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ قال العوفي عن ابن عباس يعني إن لحقت امرأةُ رجلٍ من المهاجرين بالكفّار أمر له رسول الله ﷺ أن يعطىَ مثل ما أنفق من الغنيمة وهكذا قالَ مجاهد ﴿ فعاقبتم ﴾ أصبتم غنيمةً من قريش أو غيرهم ﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ يعني مهر مثلها .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ (١٢) ﴾

روى البخاريُّ عن عائشةَ : ٤١٣[أن رسول الله ﷺ كان يمتحِنُ من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية : ﴿ يا أيها النبيُّ ... إلى قوله ... غفور رحيم ﴾ قالت عائشة فمن أقر

بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ « قد بايعتكِ » كلاماً ولا والله ما مست يده يدَ امرأة في المبايعة قط ، ما بايعهن إلاّ بقوله « قد بايعتكِ على ذلك] هذا لفظ البخاريّ. ومن بعض الحديث للإمام أحمد عن أميمة بنت رقيقة : ٤١٤ [... قلنا يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : إني لا أصافح النساءَ إنما قوْلي لامرأةٍ واحدة قَوْلي لمائة امرأة] هذا إسناد صحيح .

وروى الإمام أحمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جدِّه قال : ٤١٥ [جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ تبايعه على الإسلام فقال : « أبايعكِ على أن لا تشركي بالله شيئاً ولا تسرقي ولا تزني ولا تقتلي ولدك ولا تأتي ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك ولا تنوحي ولا تبرجي تبرج الجاهليةِ الأولىَ »] وروى الإمام أحمد عن عَبادة بن الصامت قال : ٤١٦ [كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس فقال «تبايعوني على ان لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم - قرأ الآية التي أخذت على النساء اذا جاءك المؤمناتِ - فمن وفَّى منكم فأجرُه على الله ومن أصابَ من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء غفرله وان شاء عذبه »] أخرجاه في الصحيحين . وروى الإمام أحمد عن عائشة بنت قدامة بن مظعون قالت : ٤١٧ [أنا مع أمي رائطة بنت سفيان الخزاعية والنبي ﷺ يبايع النسوة ويقول : أبايعكن على أن لا تشركنَ بالله شيئاً ولا تسرقن ولا تزنينَ ولا تقتلنَ أولادكن ولا تأتين ببهتان تفترِينهَ بين أيديكُن وأرجلِكن ولا تَعصيني في معروف - قلن : نعم - فيما استطعتنَّ فكُن يقلن وأقول معهن وأمي تقول لي اي بنيَّة نعم فكنت أقولُ كما يقلنَ .]

روى البخاري عن أم عطية قالتْ : ٤١٨ .. [ونهانا عن النياحة فقبضَتِ امرأة يدَها قالت أُسعدتني فلانة فأريد أن أجزيَها ، فما قال لها رسول الله ﷺ شيئاً ، فانطلقت ورجعتْ فبايعَها »] ورواه مسلم .

وروى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : ٤١٩ [جاءت هندُ بنت عتبة إلى رسول الله ﷺ لتبايعه فنظر إلى يدها فقال : « اذهبي فغيري يدك » فذهبت فغيرتْها بحناء ثم جاءت فقال : « أبايعُك على أن لا تُشركي بالله شيئاً » فبايعته وفي يدها سواران من ذهب فقالت : ما تقول في هذين السوارين ؟ فقال : « جمرتان من نار جهنم »] .(١)

فقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ أي من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط فبايعها على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن أموال الناس الأجانب ،

(١) قلت : وهذا دليل لمن يقول بحل الذهب للنساء ما سوى الطوق والسوارَيـْن والخاتم . إضافة إلى أدلةٍ صحيحة أخرى .

فأما اذا كان الزوج مقصراً في نفقتها، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف. ما جرت به عادة أمثالها وإن كان من غير علمه، عملاً بحديث هند بنت عتبة انها قالت: ٤٢٠ [يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بنيّ، فهل عليّ جناح إن أخذتُ من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ : « خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك »] أخرجاه في الصحيحين.

وقوله تعالى : ﴿ ولا يزنين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهلُ الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهو جنين كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء، تطرح نفسها لئلا تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه.

وقوله تعالى : ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ قال ابن عباس يعني لا يُلحقن بأزواجهن غير أولادهم. وكذا قال مقاتل ويؤيد هذا الحديث الذي رواه ابو داود عن أبي هريرة : ٤٢١ [أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: « أيّما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء، ولن يدخلها الله الجنة. وايّما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رؤوس الأوّلين والآخرين »] وقوله تعالى : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ يعني فيما أمرتهن به من معروف ونهيتهن عنه من منكر، فلا يخمشن وجهاً، ولا ينشرن شعراً، ولا يشققن جيباً، ولا يدعين ويلاً.

وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : ٤٢٢ [ليس منا من ضرب الخدود، وشقّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية.] وفي الصحيحين أيضاً عن أبي موسى : ٤٢٣ [أن رسولَ الله ﷺ بريء من الصالقة والحالقة والشاقة] .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقُبُورِ ۞ (١٣) ﴾

ينهى الله تعالى عن موالاة الكفار في آخر هذه السورة، كما نهى عنها في أولها. فقال تعالى : ﴿ يا ايها الذين آمنوا لا تتولّوْا قوماً غضب الله عليهم ﴾ يعني اليهود والنصارى

وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم ولعنهم واستحقوا من الله الطرد والإبعاد ، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاءَ وأخلاء ، وقد يئسوا من الآخرة أي من ثواب الآخرة ونعيمها ، في حكم الله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿ كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ فيه قولان : أحدهما كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين في القبور ان يجتمعوا بهم بعد ذلك لأنهم لا يعتقدون بعثاً ولا نشوراً فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه. والثاني معناه : كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير . وعن ابن مسعود : كما يئس الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه ــ فيما لو كان مؤمناً ــ .

* * *

آخر اختصار تفسير سورة الممتحنة ولله الحمد والمنــة .

(٦١) سورة الصف مدنية وآياتها أربع عشرة

نزلت بعد سورة التغابن

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن سلام قال: ٤٢٤[تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله : أي الأعمال أحبُ إلى الله فلم يقم أحدٌ منا ، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ، يعني سورة الصف كلّها .]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ (١) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞(٢) كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ (٣) إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۞(٤) ﴾

قد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ غير مرة [1] بما أغنى عن إعادته . وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولاً لا يفي به . وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: ٤٢٥[آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان] ولهذا أكد الله تعالى بقوله جلّ وعز : ﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ قال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد

(١) راجع تفسير الآية الأولى من كل من سورتي الحشر والحديد المجلد /٤/

يقولون : لوددنا ان الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر نبيه ﷺ ان أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشقّ عليهم أمرهُ فقال الله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لمَ تقولون ما لا تفعلون ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ هذا إخبار منه تعالى بمحبة عباده المؤمنين الذين اذا صفّوا مواجهين لأعداء الله تعالى في حومة الوغى ، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان . يحب أن يكونوا كالبنيان ملتصق بعضه ببعض. روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :٤٢٦ [ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة والقوم إذا صفوا للقتال] وقال قتادة : ﴿ كأنّهم بنيان مرصوص ﴾ ألم ترَ إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه ، فكذلك الله عزّ وجلّ لا يحبُّ أن يختلفَ أمره وأن الله صف المؤمنين في قتالهم ، وصفّهم في صلاتهم ، فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ ۞ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۞ (٦) ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ﷺ انه قال لقومه : ﴿ لمَ تؤذونني وقد تعلمون أني رسولُ الله إليكم ﴾ أي لمَ تؤذونني وتعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة ، وهذا تسليةٌ لمحمد ﷺ فيما أصابه من كفّار قومه وغيرهم . وفيه حض للرسول على الصبر ، وللمؤمنين نهي عن إيذاء نبيهم مثل قوم موسى . وقوله تعالى : ﴿ فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ أي فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاغ الله قلوبهم

عن الهدى وأسكنها الشك والحيرة والخذلان . كما قال تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابنُ مريم يا بني إسرائيل إنّي رسولُ الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ يعني أن التوراة قد بشرت بي وأنا مصداق ما أخبرتْ عنه ، وأنا مبشر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد ، فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياءِ بني إسرائيل ، وقد أقام في ملأِ بني إسرائيل مبشراً بمحمدٍ ﷺ وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالةَ ولا نبوّةَ بعده . أحسن ما روى البخاري عن جبير بن مطعم قال : سمعت رسول الله ﷺ : ٤٢٧ [إن لي أسماء ... أنا محمد، أنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر وأنا الحاشر الذي يُحشرُ الناس على قدمي وأنا العاقب] رواه مسلم .

قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتابٍ وحكمة ثم جاءكم رسولٌ مصدّق لما معكم ، لتؤمنن به ولتنصرنّه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررْنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ قال ابن عباس ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهدَ لئن بعث محمد وهو حيٌّ ليتّبعنّهُ وأخذَ عليه أن يأخذَ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياءُ ليتبعُنّه وينصرنّه .

وقوله تعالى : ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ قال ابن جرير : فلما جاءهم أحمد أي المبشّر به في الأعصار السالفة وهو محمد ﷺ أي لما ظهر أمره وجاء بالبيّنات قال الكفَرةُ والمخالفون : ﴿ هذا سحر مبين ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ۝ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ ۝ (٨) هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝ (٩) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ﴾ أي لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله ويجعل له أنداداً وشركاء وهو يدعى إلى التوحيد

والإخلاص ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يريدون ليطفئوا نورَ الله بأفواههم ﴾ أي يحاولون أن يردّوا الحق بالباطل ، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يُطفىء شعاعَ الشمس بفيه ، وكما أن هذا مستحيلٌ فذلك مستحيلٌ. ولهذا قال تعالى : ﴿ والله متم نورِه ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهرَه على الدين كلِه ولو كره المشركون ﴾ ولقد تقدّم الكلام على هاتين الآيتين في سورة براءة بما فيه كفاية ولله الحمد والمنة (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * (١٣) ﴾

تقدم من حديث عبدالله بن سلام أن الصحابة رضي الله عنهم ارادوا أن يسألوا رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه ، فأنزل الله تعالى هذه السورة ومن جملتها هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ ثم فسر هذه التجارة فقال تعالى : ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلَمون ﴾ أي من تجارة الدنيا والكد لها ثم قال تعالى : ﴿ يغفرْ لكم ذنوبكم ﴾ أي إنْ نفذتم أوامره ويدخلكم جنّاتِه والدرجات العالياتِ . ولهذا قال تعالى : ﴿ ويدخلكم جناتٍ تجري مِن تحتها الأنهار ومساكن طيبةً في جناتِ عدنٍ ذلك الفوز العظيم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وأخرى تحبونها ﴾ أيْ وأزيدكم زيادةً تحبّونها وهي : ﴿ نصرَ من الله وفتح قريب ﴾ أي إذا قاتلتم في سبيل دينِه يضمن نصركم. وقال تعالى : ﴿وفتح قريب ﴾ أي عاجلٌ ، وهكذا فمن أطاع الله ورسوله ونصر دينَه له النصر والفتح متّصلاً بنعيم الآخرة ﴿ وبشّرِ المؤمنينَ ﴾ .

(١) راجع الآية / ٣٢ / ورقم / ٣٣ / من سورة التوبة المجلد / ٢ /

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ● (١٤) ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين ان يكونوا أنصارُ الله حالاً وقالاً، ونفساً ومآلاً. وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى عليه الصلاة والسلام حين قال لهم: ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ أي من يعينني على الدعوة إلى الله تعالى؟ ﴿ قال الحواريون ﴾ وهم أتباعُ عيسى عليه السلام: ﴿ نحن أنصارُ الله ﴾ أي انصارك على ما أُرسلتَ به. ولهذا بعثَهم دعاةً إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين. وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج ٤٢٨] من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالةَ ربي فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالةَ ربي] حتى قيّض الله له الأوس والخزرجَ من أهل المدينة، فبايعوه وآزروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم. فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا بعهودهم، ولهذا سمّاهم الله ورسوله الأنصار وصار ذلك علَماً عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم. وقوله تعالى: ﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ﴾ أي اهتدت طائفةٌ منهم بما جاء به، وضلّت طائفةٌ فخرجت عن هديه ورمُوه وأمَّه بالعظائم. وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى ما شاء الله، وغلت فيه طائفة ممن اتّبعوه حتى رفعوه فوق ما رفعه الله، فافترقوا شيعاً وفرقاً: فمن قائل: أنه هو ابنُ الله، وقائل إنه ثالثُ ثلاثة: الأب، والأبن، وروح القدس، ومن قائل أنه الله والعياذ بالله تعالى. ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ﴾ أي ناصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ أي عليهم، وذلك ببعثة محمد ﷺ.

كما قال ابن جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى عليه السلام إلى السماء خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلاً من عين في البيت ورأسه يقطر ماءً فقال: إن منكم من يكفر بي إثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي. ثم قال: أيكم يلقي عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ قال فقام شاب من أحدثهم سنّاً فقال: أنا. فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا. فقال أجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا. فقال:

نعم أُنت ذاك . قال فألقي عليه شبهُ عيسى ، ورُفع عيسى عليه السلام من روزنة البيت إلى السماء . وجاء الطلب من اليهود فأخذوا شبيهَه فقتلوه ، وصلبوه ، وكفر به بعضهم ، وتفرّقوا فيه ثلاثَ فِرقٍ . فقالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء (اليعقوبية) . وقالت فِرقة : كان فينا ابنُ الله ما شاء الله ثم رفعه إليه ، وهؤلاء : (النسطورية) وقالت فِرقة كان فينا عبدالله ورسوله ما شاء الله ، ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء « المسلمـــون » فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ ﴿ فآمنت طائفة من بني إسرائيـــل وكفرتْ طائفةٌ ﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى عليه السلام والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ بإظهار محمدٍ ﷺ دينَهم على دين الكفار . ورواه النسائي .

فأمةُ محمدٍ ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتيَ أمر الله وهم كذلك وحتى يقاتل آخرهم الدجالَ مع المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح . والله تعالى أعلم .

* * *

آخر اختصار تفسير سورة الصف ولله الحمد والمنّة وبه العصمة وعليه التُّكلان

(٦٢) سورة الجمعة مدنية وآياتها إحدى عشرة

نزلت بعد سورة الصف

عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهم : ٤٢٩ [أن رسولَ الله ﷺ كان يقرأُ في صلاة الجُمعة بسورة الجُمعة والمنافقين] رواه مسلم في صحيحه .

بسم الله الرحمن الرحيم



﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ (١) هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّنَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ (٣) ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝ (٤) ﴾

يخبر تعالى أنه يُسبِّح له ما في السموات وما في الأرض ، أي من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها ، كما قال تعالى : ﴿ وإنْ من شيءٍ إلاّ يسبح بحمدِهِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ الملكِ القدّوس ﴾ أي مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه وهو المقدس ، أي المنزّه عن النقائص الموصوف بصفات الكمال ﴿ العزيزِ الحكيم ﴾ تقدم تفسيرهما غير مرة.وقوله تعالى : ﴿ هو الذي بعثَ في الأميين رسولاً منهم ﴾ الأميّون هم العرب

وتخصيص الأميّين بالذكر لا ينفي من عداهم . ولكن المنّة عليهم أبلغُ وأكثرُ . كما قال تعالى : ﴿ وإنه لذكرٌ لك ولقومِك ﴾ وهو كذلك ذكرٌ لغيرهم يتذكرون به . وكقوله تعالى : ﴿ وأنذرْ عشيرتَك الأقربين ﴾ وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ إلى غير ذلك منَ الآيات الدالة على عموم بعثته . صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق ، أحمرهم وأسودهم وقد تقدم تفسير ذلك في سورة الأعراف بالآيات والأحاديث الصحيحة [1] . وهذه الآية هي مصداق إجابة دعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك انتَ العزيزُ الحكيم ﴾ فبعثه الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة على حين فترة من الرسل وطموس من السبل ، وقد اشتدت الحاجةُ إليه ولهذا قال تعالى: ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين ﴾ وذلك أن العرب كانوا متمسكين بدين إبراهيم عليه السلام فبدّلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه واستبدلوا بالتوحيد شركاً وباليقين شكاً ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله تعالى كما فعل أهلُ الكتاب الذين بدلوا كتبهُم وحرفوها وأولوها ، فبعث الله محمداً ﷺ بشرعٍ عظيم كامل شاملٍ يدعو الجميعَ إلى ما يقرّبهم الى الجنة وما يبعدهم عن النار .

وقوله تعالى : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾ روى الإمام ابو عبدالله البخاري رحمه الله تعالى عن أبي هريرةَ رَضي الله عنه قال : ٤٣٠ [كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجُمعة ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قالوا : من هُمْ يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً ، وفينا سلمان الفارسي فوضع رسول الله ﷺ يدَه على سلمان الفارسي . ثم قال : لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال — أو رجل — من هؤلاء] ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير من طرق بالسند إلى أبي هريرة به ففي هذا دليل على أن هذه السورة مدنية وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس ولهذا كتب كتبهُ إلى فارسَ والرومِ وغيرِهم من الأمم يدعوهم إلى الله عز وجل. وقال مجاهد وغيرُه في قوله تعالى : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قال هم الأعاجم وكل من صدّق النبي ﷺ من غيرِ العرب. وقوله تعالى: ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ أي ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره .

(١) راجع الآية /١٥٨/ من سورة الأعراف رقم /٧/ والمراد بالأحمر والأسود أي الناس جميعا عربهم وعجمهم إلى يوم القيامة .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞ (٧) قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ (٨) ﴾

يقول تعالى ذاماً لليهود الذين أُعطوا التوراة وحُمِّلُوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً . أي إذا حمل كتباً لا يدري ما فيهافهو يحملها حملاً حسياً لا يدري ما عليه ، وكذلك اليهود في حملهم التوراة التي أوتوها حفظوها لفظاً ولم يتفهموها ولا عملوا بمقتضاها، بل أوّلوها وحرّفوها وبدّلوها فهم أسوأ حالاً من الحمير،لأن الحمارَ لا فهم له ، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها . ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ وقال تعالى هاهنا : ﴿ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :٤٣١ [من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً والذي يقول له أنصت ليس له جمعة] ثم قال تعالى : ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياءُ لله من دون الناس فتمنّوا الموتَ إنْ كنتم صادقين ﴾ أي إن زعمتم أنّكم المهتدون دون محمد وأصحابه فادعوا بالموت على الضالّ من الفئتين إن كان زعمُكم صادقاً . ثم قال الله تعالى : ﴿ ولا يتمنّونه أبداًبما قدّمت أيديهم ﴾ أي بسبب ما يعملون من الكفر والظلم والفجور ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ وقد قدّمنا الكلام في سورة البقرة على هذه المباهلة لليهود (١) ومباهلة النصارى في آل عمران (٢) ومباهلة المشركين في سورة مريم (٣) روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال :

(١) راجع تفسير الآية رقم ٩٤و٩٥ من سورة البقرة المجلد الأول من هذا المختصر ص /٧٨و٧٩/ . (٢) راجع الآية /٦١/ آل عمران المجلد /١/ ص /٢٧٨. (٣) راجع الآية ٧٥ من سورة مريم المجلد /٣/ .

٤٣٢ [قال أبو جهل لعنه الله : إن رأيت محمداً عندَ الكعبة لآتينّه حتى أطأَ على عنقه.قال : فقال رسول الله ﷺ « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً . ولو أن اليهود تمنّوا الموتَ لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهِلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً »] رواه البخاري والترمذي والنسائي .

وقوله تعالى : ﴿ قل إن الموتَ الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردُّون الى عــالم الغيب والشهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون ﴾ كقوله تعالى في سورة النساء : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروجٍ مشيّدة ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِنْ يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ ٱللهِ وَذَرُوا ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنْتَشِرُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ ٱللهِ وَٱذْكُرُوا ٱللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ (١٠) ﴾

إنما سميت الجمعةُ جمعةً لأنها مشتقّةٌ من الجمْعِ فإن أهل الاسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرةً بالمعابد الكبار . هو اليوم السادس الذي أكمل الله فيه جميع الخلائق ، وفيه خلق آدمُ ، وفيه أُدخل الجنّةَ ، وفيه أُخرِج منها ، وفيه تقومُ الساعةُ ، وفيه ساعةٌ لا يوافقها عبدٌ مؤمنٌ يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح .

وكان يقال له في اللغة العربية القديمة يوم العروبة ، وثبت أن الأمم قبلنا أُمروا بــه فضلّوا عنه . روىَ مسلم في صحيحِه : ٤٣٣ [أضل الله عن الجمعة من كان قبلَنا ، فكان لليهود يومُ السبت وكان للنصارى يومُ الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعةِ فجعل الجمعةَ والسبتَ والأحد ، وكذلك هم تبعٌ لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة المقضيُّ بينهَم قبلَ الخلائق] وأخرجه البخاريُّ كلاهُمــا عن أبي هريرةَ .

وقد أمرَ الله المؤمنين في هذا اليوم بالاجتماع لعبادته فقال جلّ وعلا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعَوْا إلى ذكر الله ﴾ أي اقصدوا واعمدوا ، واهتمُّوا في سيركم إليها . كقوله تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ﴾

وأما المشي السريع فليس هو المقصود فانه منهيٌّ عنه لما أخرجاه في الصحيحَين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ٤٣٤ [إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا ، فما أدركتم فصلّوا وما فاتكم فأتموا] فالمقصود المشيُ لا السريع فقد روى عبد الرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٣٥ [إذا أقيمتِ الصلاة فلا تأتوها تسعَوْن ولكن ائْتوها تمشونَ ، وعليكم السكينةُ والوقارُ فما أدركتم فصلّوا وما فاتكم فأتِموّا] ويستحب لمَن جاءَ الجمعةَ أنْ يغتسل قبل مجيئه إليها لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ، وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ ٤٣٦[إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل]

روى الإمام أحمد عن أوس بن أوس الثقفي قال : ٤٣٧ [سمعت رسول الله ﷺ يقول « من غسل واغتسل يوم الجمعة وبكّر وابتكر ومشي ولم يركب ، ودنا من الإمام ، واستمع ولم يلغُ كان له بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها »] وهذا الحديث له طرق وألفاظ ، وقد أخرجه أهل السنن الأربعة وحسنه الترمذي . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : ٤٣٨[من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى [٢] فكأنما قرّب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشاً أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجةً ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضةً ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر] أخرجاه .

ويستحب لبس أحسن الثياب والتطيّب ، والتسوّك والإنصات للخطيب وعدم أذية أحد فإن فعل ما تقدّم وصلّى الجمعة كانت صلاتُه كفارةً لما بينَها وبين الجمعة الأُخرى وقوله تعالى: ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيعَ ﴾ والمراد : النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر فإنه كان حينئذٍ يؤذن بين يديه فهذا هو المراد وذلك النداء هو الذي يحرُم عنده الشراءُ والبيعُ إذا نوديَ به . أما النداءُ ... الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنما كان لكثرة الناس . وقد اتّفق العلماء رضي الله عنهم على تحريم البيع بعد النّداء الثاني . واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاطٍ أم لا ؟ على قولين وظاهر الآية عدم الصحّة كما هو مقرّرٌ في موضعه .

---

(١) قال البعض إنه يفيد الوجوب لا الاستحباب . (٢) أي إلى المسجد لصلاة الجمعة .

ويؤمَر بحضور الجمُعة الرجالُ الأحرارُ دون العبيد والنساء والصبيان ، ويعذر المسافر والمريض ، وقيم المريض ، وما أشبهَ ذلك من الأعذار كما هو مقرّر في كتبِ الفروع .

وقوله تعالى : ﴿ ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي ترككم البيعَ وإقبالكم إلى ذكرِ الله وإلى الصلاة خيرٌ لكم في الدارين . وقوله تعالى : ﴿ فإذا قضيتِ الصلاةُ ﴾ أي فُرِغَ منها ﴿ فانتشِروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ (١) لمّا حجر عليهم في التصرّف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض،والابتغاء من فضل الله . وقوله تعالى : ﴿ واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ أي في حالِ بيعِكم وشرائِكم ، وأخذِكم وعطائِكم اذكروا الله ذِكراً كثيراً ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة ، ولهذا جاء في الحديث ٤٣٩ [من دخل سوقاً من الأسواق فقال : لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، له الملكُ وله الحمد وهو على كل شيء قدير كتَبَ الله له ألفَ ألفِ حسنةٍ ومحا عنه ألفَ ألف سيّئةٍ]

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۞ (١١) ﴾

يعاتِب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة ، يوم الجمعة ، إلى التجارة التي قدمتِ المدينةَ يومئذ. فقال تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ﴾ أي على المنبر تخطّب . روى الإمام أحمد عن جابر قال : ٤٤٠ [قدمتْ عيرٌ مرةً المدينةَ ورسولُ الله ﷺ يخطب فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلاً فنزلت : ﴿ وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضوا إليها ﴾] أخرجاه . روى الحافظ أبو علي عن جابر ابن عبد الله قال : ٤٤١ [بينما النبيُّ ﷺ يخطب يومَ الجمعة قدمتْ عيرٌ الى المدينةفابتدرَها أصحابُ رسول الله ﷺ ، حتى لم يبقَ مع رسول الله ﷺ إلاّ اثنا عشرَ رجلاً، فقال رسول الله ﷺ « والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً » ونزلت هذه الآية : ﴿ وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ﴾ وقال : وكان في الاثني عشر الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما]

(١) وهذا دليل على عدم مشروعية أية صلاة مفروضة بعد الجمعة إلا صلاة العصر ولنا رسالة في الموضوع « حكم الشرعة في صلاة الظهر بعد الجمعة » .

وفي قوله تعالى : ﴿ وتركوك قائماً ﴾ دليلٌ على أن الإمامَ يخطب يوم الجمعة قائماً .

وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال : ٤٤٢ [كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويذكر الناس] ولكن ههنا شيء ينبغي أن يعلم وهو : أن هذه القصَّة قد قيل إنها كانت لما كان رسول الله ﷺ يقدّم الصلاةَ **يوم الجمعة على الخطبة ، كما رواه أبو داود في كتاب المراسيل عن ابن حيان:** [كان رسول الله ﷺ يصلي يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين ...)وقوله تعالى : ﴿ قل ما عند الله ﴾ أي من الثواب في الآخرة : ﴿ خيرٌ من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾ أي لمن توكل عليه وطلب الرزق في وقته .

آخر اختصار تفسير سورة الجمعة ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة

(٦٣) سورة المنافقون مدنيّة
وآياتها إحدى عشرة

نزلت بعد سورة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۞ (١)
ٱتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ۞ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۞ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا
تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ
ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۞ (٤) ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتفوّهون بالإسلام إذا جاءوا النبيَّ ﷺ ، فأما في الباطن فعلى الضدّ تماماً . ولذا قال سبحانه: ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ﴾ أي اذا واجهوك أظهروا لك ذلك وليسوا كذلك . ولهذا اعترض بجملة مخبرة انه لرسول الله.فقال عز وجل : ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ لأنهم لا يعتقدون بصحّة ما يقولون ، ولهذا كذّبهم الله تعالى . وقوله تبارك اسمه : ﴿ اتّخذوا أيمانهم جُنَّةً فصدُّوا عن سبيل الله ﴾ أي اتقوا الناس بالأَيْمان الكاذبة

ليُصدّقوا فيما يقولون فاغترَّ بهم من لا يعرف حقيقتَهم واعتقدوا أنهم مسلمون، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون، وصدَّقهم فيما يقولون، فسبّبوا للإسلام والمسلمين ضرراً كبيراً. ولهذا قال تعالى : ﴿ فصدّوا عن سبيل الله إنّهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ أي إنّما قدّر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفر [1] واستبدالهم الضلالة بالهدى ، فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون . أي فلا يصل إلى قلوبهم هدى،ولا يخلص إليها خير فلا تعي ولا تهتدي .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا رأيتهم تعجبُك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لهم ﴾ أي أشكالهم حسنة وألسنتهم فصاحٌ ، يُصغي السامع إلى أقوالهم لبلاغتها،ومع ذلك فهم في غاية الهلَع والجبْن. ولهذا قال تعالى : ﴿ يحسبون كلّ صيحةٍ عليهم ﴾ أي كلما وقع أمر يحسبون لجبنهم أنه نازلٌ بهم . كما قال تعالى : ﴿ أشحّة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴾ ...

ولهذا قال تعالى : ﴿ هم العدوّ فاحذر هم قاتلهم الله أنّى يؤفكون ﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال . وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال : ٤٤٣ [إن للمنافقين علامات يُعرَفون بها : تحيتُهم لعنة ، وطعامهم نُهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هجراً ، ولا يأتون الصلاة إلاّ دبُرا ، مستكبرين لا يألفون ولا يُؤلفون ، خشبٌ بالليل ، صخبٌ بالنهار]

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ❁ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ ❁ (٦) هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ

(١) وهكذا ... فالجزاء من نوع العمل .

وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۞ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٨)

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم : ﴿ إذا قيل لهم تعالوا يستغفرْ لكم رسول الله لوّوْا رؤوسهم﴾ أي صدّوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك واحتقاراً لِمَا قيلَ لهم. ولهذا قال تعالى : ﴿ ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون ﴾ ثم جازاهم على ذلك بقوله تعالى : ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ كما قال تعالى في سورة براءة ، وقد تقدم الكلام على ذلك وإيراد الأحاديث المرويّة هنالك [(١)] .

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبدالله بن أبي ابن سلول كما سنورده قريباً إنْ شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التّكلان .

وقد قال محمد بن اسحق في السيرة : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، يعني مرجعه من أحُد ، وكان عبدالله بن أبي ابن سلول ــ كما حدثني ابن شهاب الزهري ــ له مقام يقومُه كلَّ جمعة لا ينكر شرفاً له من نفسه ومن قومه ، وكان فيهم شريفاً إذا جلس النبيّ ﷺ يومَ الجمعة وهو يخطب الناسَ قام فقال : أيها الناس ، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم أكرمكم الله به ، وأعزكم به ، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا . ثم يجلس حتى إذا صنع يومَ احُدٍ ما صنع ، يعني مرجعه بثلث الجيش ورجع الناس ، قام يفعل ذلك كما كان يفعله ... فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس ، أي عدو الله لست لذلك بأهل، وقد صنعتَ ما صنعتَ... فخرج يتخطّى رقاب الناس، وهو يقول : والله لكأنما قلت بُجْراً [(٢)] أإن قمتُ أشدد أمرَه ، فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلكَ مالك ؟ قال : قمتُ أشدد أمرَه فوثب عليَّ رجال من أصحابه يعنفونني ، قالوا ويلك إرجعْ يستغفرْ لك رسول الله ﷺ ... فقال : والله ما أبتغي أن

(١) راجع الآيات ٨٠ – ٨٤ من سورة التوبة المجلد الثاني من هذا المختصر .
(٢) بجراً : أي أمراً عظيماً عجيباً .

يستغفرَ لي . وقال قتادة والسدّي : أنزلت هذه الآية في عبدالله بن أُبَيْ وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ ، فحدثه بحديث عنه وأمر شديد ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك . وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعزّلوه وأنزل الله فيه ما تسمعون وقيل لعدو الله : لو أتيتَ رسول الله ﷺ ، فجعل يلوي رأسه أي : لستُ فاعلاً .

روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن جابر بن عبدالله يقول ٤٤٤ [كنّا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري : يا للأنصار ! وقال المهاجري : يا للمهاجرين ! فقال رسول الله ﷺ : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة »]

وقال عبدالله بن أُبَيْ بن سلول : وقد فعلوها ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجَنّ الأعزُّ منها الأذلّ ؛ قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثرَ من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ، ثم كثر المهاجرون بعد ذلك ، فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق ؛ فقال النبيُّ ﷺ « دعهُ لا يتحدث الناس ان محمداً يقتل أصحابه »] ورواه أحمد والبخاري ومسلم به نحوه .

روى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم قال : ٤٤٥ [كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال عبدالله بن أبي : لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنّ الأعزُّ منها الأذلّ قال : فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، قال : فحلف عبدالله بن أُبَيْ انه لم يكن شيء من ذلك ، قال : فلامني قومي فقالوا : ما أردت إلى هذا ؟ قال فانطلقت فنمت كئيباً حزيناً قال : فأرسل إليّ نبي الله ﷺ فقال : « إن الله قد أنزل عذرك وصدقك » قال فنزلتْ هذه الآية ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا — حتى بلغ — لئن رجعنا الى المدينة ليُخرِجنّ الأعزُّ منها الأذلّ ﴾ » ورواه البخاريُّ عند هذه الآية ورواه الترمذيّ والنسائي عندها أيضاً .

وقال محمد بن اسحق بن يسار : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة ٤٤٦[ان عبدالله بنَ عبد الله بنَ أُبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بنُ أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمِل إليكَ رأسَه — فوالله لقد علمتِ الخزرجُ ما كان لها من رجلٍ أبر بوالده مني ، إني أخشى أن تأمرَ به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر الى قاتل عبدالله بن أبي يمشي في

الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال رسول الله ﷺ : « بل ترفق به وتحسن صحبته ما بقي معنا »]

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما : ٤٤٧[أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبدالله بن عبد الله هذا على باب المدينة ، واستل سيفَه فجعل الناس يمرّون عليه فلما جاء أبوه عبدالله بنُ أبي قال له ابنهُ : وراءك ! فقال : مالك ويلك ؟ فقال : والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل ، فلما جاءَ رسول الله ﷺ وكان إنما يسير [١] ساقة فشكا إليه عبدُالله بنُ أُبَيْ ابنَهُ فقال ابنُه عبدالله : والله يا رسولالله لا يدخلها حتى تأذن له فأذن له رسول الله ﷺ فقال : أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجزِ الآنَ] .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ۞ (٩) وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ۞ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ ٱللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَٱللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ (١١) ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بكثرة ذكره ، وينهاهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومن لم يراعِ هذا الأمر والنهي فإنه من الذين سيخسرون أنفسهم يوم القيامة ثم حثّهم على الإنفاقَ في طاعته. فقال جل ثناؤه : ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدَكم الموتُ فيقول رب لولا أخّرتني إلى أجل قريب فأصّدّقَ وأكن من الصالحين ﴾ فكل مفرّط يندم عند الاحتضار ، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً ليستدرك ما فاته وهيهات... وأما الكفار... فكما قال تعالى : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربّنا أخّرنا إلى أجل قريب نجبْ دعوتَك ونتبعْ الرسلَ أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ وقال تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدَهم الموتُ قال رب ارجعون

(١) ساقة الجيش : مؤخرته .

لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت كلاّ إنها كلمةٌ هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ .

وقولُه تعالى : ﴿ ولن يؤخِرَ الله نفساً إذا جاء أجلُها والله خبير بما تعملون ﴾ اي لا يُنظرُ أحد بعد حلول أجله ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ أي هو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً في قوله وسؤاله التأجيل، ممن لو رُدّ لعاد إلى شرٍ ممّا كان عليه .

آخر اختصار تفسير سورة (المنافقون) ولله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة

(٦٤) سورة التغابن مدنية
وآياتها ثماني عشرة

نزلت بعد سورة التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ
وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ (١) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ
كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ (٢) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۞ (٣)
يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ (٤)

هذه السورة هي آخر المسبحات وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها، ولهذا قال تعالى : ﴿ له الملك وله الحمد ﴾ اي هو المتصرف في خلقه المحمود على جميع ما يخلق ويقدر . وقوله تعالى : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي ما أراد يكن بلا ممانع ولا مدافع وما لم يشأ لم يكن . وقوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ أي هو الخالق لكم على هذه الصفة ، وأراد منكم ذلك فلا بد من وجود مؤمن وكافر وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال [1] وهو شهيد على أعمال

(١) أي من فرق بين الهدى والضلال بدلالة الشارع الحكيم، واختار أحدهما بعد تفكير وتعقل وتميز بينهما ، فيكون مسؤولاً عما اختاره لنفسه ديناً، خيراً كان أو شراً « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى .

عباده وسيجزيهم بها أتم الجزاء. ولهذا قال: ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أي بالعدل والحكمة ﴿ وصوّركم فأحسن صوركم ﴾ أي أحسن أشكالكم. كقوله تعالى: ﴿ يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك في أي صورةٍ ما شاء ركبك ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وإليه المصير ﴾ أي المرجع والمآب، ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات فقال تعالى: ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴾

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۞ (٦) ﴾

يخبر تعالى عن الأمم الماضين وما حلّ بهم من العذاب والنّكال في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق. فقال تعالى: ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل ﴾ أي خبرهم وما كان من أمرهم ﴿ فذاقوا وبال أمرهم ﴾ أي وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي في الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوي. ثم علل ذلك فقال تعالى: ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبيّنات ﴾ أي بالحجج والدلائل والبراهين ﴿ فقالوا أبشر يهدوننا ﴾ أي استبعدوا ان تكون الرسالة في البشر وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم ﴿ فكفروا وتولوا ﴾ أي كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل ﴿ واستغنى الله ﴾ أي عنهم ﴿ والله غني حميد ﴾

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۞ (٧) فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ

صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ❁ (٩) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ❁ (١٠)

يخبر تعالى عن الكفار والمشركين والملحدين يزعمون أنهم لا يبعثون ﴿ قل بلى وربي لتبعثنَّ ثم لتنبؤنَّ بما عملتم ﴾ أي لتُخبَرنَّ بجميع أعمالكم صغيرها وكبيرها ﴿ وذلك على الله يسير ﴾ أي يسير عليه بعثكم ومجازاتكم. وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد فالأولى في سورة يونس ٥٣ / ١٠ / والثانية في سورة سبأ / ٣ / ٣٤ . والثالثة هي هذه ﴿ زعم الذين كفروا ﴾ ...

ثم قال تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا ﴾ يعني القرآن ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية . وقوله تعالى : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ وهو يوم القيامة ، سمي بذلك لأنه يُجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر. كما قال تعالى: ﴿ قل ان الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ قال ابن عباس : هو اسم من أسماء يوم القيامة . وذلك أن أهل الجنّة يغبِنون أهل النار ، وقد فسر بقوله تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفّر عنه سيئآته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ﴾ وقد تقدم تفسير مثل هذه غير مرة .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلا بِإِذْنِ ٱللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَٱللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ❁ (١١) وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ ❁ (١٢) ٱللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ❁ (١٣)

يخبر تعالى أنه ﴿ ما أصاب من مصيبة إلاّ بإذن الله ﴾ أي بأمره وعن قدره ومشيئته تعالى في سورة الحديد ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلاّ في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم ﴾ أي من أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب، واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه . وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه ويقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيراً منه. وفي الحديث المتفق عليه :
٤٤٨ [عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلاّ كان خيراً له، ان أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له،وإن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له،وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن] وقوله تعالى : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع أمراً ونهياً ثم قال تعالى : ﴿ فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ أي إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حمل من البلاغ، وعليكم ما حملتم من السمع والطاعة . ثم قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلاّ هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ فقد اخبر تعالى أنه الأحد الصمد الذي لا آله غيره وطلب توحيد الألوهية له، أي وحدوه في إلٰهيته واخلصوها لديه وتوكّلوا عليه . كما قال تعالى : ﴿ رب المشرق والمغرب لا آله إلاّ هو فاتخذه وكيلاً ﴾ .

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۞ (١٥) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ (١٦) إِن تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ۞(١٧) عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ (١٨)

يخبر تعالى عن الأزواج والأولاد أن منهم من هو عدو الزوج والولد بمعنى أنه يلتهي به عن العمل الصالح . كقوله تعالى:﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فاحذروهم ﴾

أي على دينكم وقال مجاهد : ﴿ إن من ازواجكم وأولادكم عدواً لكم ﴾ قال يحمل الرجل على قطيعة الرحم، أو معصية ربّه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه. وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادُهم أن يدَعوهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله تعالى: ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ وكذا رواه الترمذي وقال حسن صحيح رواه ابن جرير ، والطبراني .

وقوله تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجرٌ عظيم ﴾ أي إنما الأموال والأولاد فتنة أي اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه ليعلمَ من يطيعه ممن يعصيه ﴿ والله عنده ﴾ أي يوم القيامة ﴿ أجر عظيم ﴾ وروى الإمام أحمد عن أبي بريدة قال : ٤٤٩ [كان رسول الله ﷺ يخطبُ فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما ، عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال « صدَق الله ورسولُه إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، فنظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما »] .

روى الطبراني عن أبي مالك الأشعري ان رسول الله ﷺ قال : ٤٥٠ [ليس عدوك الذي إن قتلته كان فوزاً لك، وإنْ قتلك دخلتَ الجنةَ، ولكن الذي لعله عدوٌ لك ولدك الذي خرج من صلبك ، ثم أعدى عدو لك مالك الذي ملكتْ يمينُك] وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ أي جهدكم وطاقتكم كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٤٥١ [إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه] قال سعيد بن جبير وأبو العالية وزيد بن أسلم وقتادة والربيع والسدي ومقاتل بن حيان ، ان هذه الآية : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ ناسخة للآية التي في سورة آل عمران : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم فأنزل الله تعالى تخفيفاً على المسلمين : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ فنسخت الآية الأولى . وقوله تعالى : ﴿ واسمعوا وأطيعوا ﴾ أي كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله ولا تحيدوا عنه يمنةً ولا يسرة ، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله ولا تتخلّفوا عما به أمرتم ولا ترتكبوا ما عنه زجرتم . وقوله تعالى : ﴿ وأنفقوا خيراً لأنفسكم ﴾ أي وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب الفقراء والمحتاجين ، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن الله إليكم

يكن خيراً لكم في الدارَين ، وان لم تفعلوا يكن لكم شراً فيهما . وقوله تعالى : ﴿ ومن يوقَ شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ تقدّم تفسيره في سورة الحشر ، وذكر الأحاديث الواردة في معنى هذه الآية بما أغنى عن إعادته ههنا (١) ولله الحمد والمنة . وقوله تعالى : ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم ﴾ أي مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه ، ونزل ذلك منزلة القرض له كما ثبت في الصحيحين : ٤٥٢ [ان الله تعالى يقول : من يقرض غير ظلوم ولا عديم] ولهذا قال سبحانه ﴿ يضاعفه لكم ﴾ أي أضعافاً كثيرة ﴿ ويغفر لكم ﴾ أي ويكفّرعنكم السيئآت ولهذا قال تعالى : ﴿ والله شكور ﴾ أي يجزي على القليل بالكثير ﴿ حليم ﴾ أي يصفح ويتجاوز عن الذنوب والسيئآت ﴿ عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴾ تقدّم تفسيره غير مـــــرة .

آخر اختصـــار تفسير سورة التغابن ولله الحمد والمنة وبه العصمة والتوفيق

(١) راجع الآية رقم /٩/ من سورة الحشر رقم ٥٩ من هذا المجلد .

(٦٥) سورة الطلاق مدنية
وآياتها اثنتا عشرة

نزلت بعد سورة الانسان

بسم الله الرحمن الرحيم



﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا * (١) ﴾

خوطب النبي ﷺ تشريفاً وتكريماً ثم خوطبت الأمة تبعاً. فقال تعالى : ﴿ يا أيها النبيُّ إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أنس قال : ٤٥٣ [طلّق رسول الله ﷺ حفصة، فأتت أهلها، فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيّها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ فقيل له راجعها فإنها صوّامة قوّامة وهي، من أزواجك ونسائك في الجنّة .] وقال البخاري عن سالم ٤٥٤ [إن عبدالله بن عمر أخبره أنه طلق امرأةً له وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ... ثم قال : ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهرُ، ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر بها رسول الله ﷺ الله عزّ وجل] وقد رواه مسلم ولفظه ٤٥٥ [فتلك العدة التي أمر الله أن يطلّق لها النساء] ورواه أصحاب الكتب والمسانيد من طرق متعدّدة وألفاظ كثيرة ، وأحسن لفظ يورد هنا ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي الزبير أنه سمع عبد الرحمن بنَ أيمن مولي عَزّة يسأل ابنَ عمر وابو الزبير يسمع : ٤٥٦ [كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضاً ؟ فقال :

طلق ابنُ عمر امرأته حائضاً على عهد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ « ليراجعها – فردّها وقال – إذا طهرت فليطلقْ أو يُمسِكْ » قال ابن عمر : وقرأ النبيّ ﷺ : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلّقوهُن لعدتِهن ﴾] وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاس في قوله تعالى : ﴿ فطلّقوهن لعِدّتهنّ ﴾ : لا يطلّقها وهي حائض،ولا في طهر قد جامعها فيه ، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقةً . وقال عكرمة : العِدّة الطهر والقرء الحيضة أن يطلّقها حبلى مستبيناً حملها ، ولا يطلقها وقد طاف عليها ولا يدري حبلى هي أم لا . ومن ههنا أخذ الفقهاءُ احكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنّة، وطلاق بدعة.فطلاق السنّة : أنْ يطلقها طاهرةً من غير جماع ، أو حاملاً قد استبان حَملها . وطلاق البدعة : هو أن يطلقها في حال الحيض،أو في طهرٍ قد جامعها فيه،ولا يدري أحملت أم لا . وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة : وهو طلاق الصغيرة، والآيسة وغير المدخول بها ومن شاء تفصيل ذلك فليراجع كتب الفروع .

وقوله تعالى : ﴿ وأحصوا العِدةَ ﴾ أي احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها لئلا تطولَ العدةُ على المرأة فتمنع من الزواج . ﴿ واتقوا الله ربكم ﴾ أي في إحصاء العِدة ، وقوله تعالى : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن ﴾ أي في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدّة منه، فليس للرجل أن يخرجها ولا يجوز لها أيضاً الخروج لأنها معتقلةٌ لحقّ الزوج أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ إلا أن يأتينَ بفاحشة مبيّنةٍ ﴾ أي لا يخرجن من بيوتهن إلاّ أن ترتكبَ المرأة فاحشةً مبينة، فتخرج من المنزل. والفاحشة المبينة تشمل الزنا كما قاله ابن مسعود وابن عباس وجماعة من التابعين. وتشمل ما إذا نشزت المرأة، أو بذّتْ على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال . كما قال أُبَيُّ بنُ كعب وابنُ عباس وعكرمةُ وغيرُهم . وقوله تعالى : ﴿ وتلك حدودُ الله ﴾ أي شرائعه ومحارمه ﴿ ومن يتعدَّ حدودَ الله ﴾ أي يخرج عنها ولا يأتمر بها ﴿ فقد ظلم نفسَه ﴾ أي بفعل ذلك . وقوله تعالى : ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ أي إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج مدةَ العِدة لعله يندم على طلاقها ويخلق الله تعالى في قلبه رجعتها، فيكون ذلك أيسر وأسهل. ومن هاهنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم، كالإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة أي – المطلقة ثلاثاً فلا تحلُ له حتى تنكحَ زوجاً غيرَه – واعتمَدوا أيضاً على حديث فاطمة بنت قيس الفِهريّة ، فقد روى الامام أحمد عن عامر قال : ٤٥٧ [قدمتُ المدينة فأتيت فاطمةَ بنتَ قيس فحدثتني أن زوجها طلقها على عهد رسول الله ﷺ ، فبعثه رسول الله ﷺ في سريّة قالت: فقال لي أخوه : أخرجي

من الدار فقلت: إن لي نفقةً وسكنى حتى يحل الأجل، قال : لا. قالت: فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : ان فلاناً طلقني وان أخاه أخرجني ومنعني السكنى والنفقة . فقال له « مالَكَ ولابنة قيسٍ ؟ » قال : يا رسول الله إن أخي طلقها ثلاثاً جميعاً قالت : فقال رسول الله ﷺ « أُنظري يا بنتَ آل قيس إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كانت لهعليها رَجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعةٌفلا نفقةَ ولا سكنى. أخرجي فانزلي على فلانة » ثم قال « إنه يتحدث إليها وانزلي على ابنِ ام مكتوم فإنه أعمىلا يراك] ... وذكر تمام الحديث .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۞ (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ۞ (٣) ﴾

يقول تعالى : فاذا بلغت المعتدات أجلهن أي شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك ، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية ، فحينئذٍ اما أن يعزم الزوج على إمساكها وهو رجعتها الى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿ بمعروف ﴾ أي محسناً إليها في صحبتها وإما أن يعزِمَ على مفارقتها بمعروف، أي من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف، بل يطلقها على وجه جميل ، وسبيل حسن .

وقوله تعالى : ﴿ وأشهدوا ذوي عدلٍ منكم ﴾ أي على الرجعة إذا عزمتم عليها ، روى أبو داود وابنُ ماجه عن عمران بن حصين أنه سئل عن الرجل يطلق المرأة ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها ، فقال : طلقت لغير سنة ورجعت لغير سنّة أشهدْ على طلاقها وعلى رَجعتها ولا تعُد . وقال ابن جريج كان عطاء يقول : ﴿ واشهدوا ذوي عدل ﴾ قال لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلاّ شاهدا عدل [1] كما قال الله

(١) قلت: لقد فهم «البعض ...؟!» وزعموا:أنه لا يقع طلاق البتة إذا لم يشهد على الطلاق شاهدا عدل !! ويجوز – فينظرهم– متابعة الحياة الزوجية بما فيها حلُّ الوطء ...!!! كما لو لم يقع أي شيء!ويعتمدون في فهمهم وحكمهم على قول عطاء ... هذا ولماكنا نخالفناهم في هذا الفهم، قلنا: ان الطلاق يقع بمجرد التلفظ به –مع مراعاة الشروط الشرعية –وإننا ندلل على ما ذهبنا إليه بالأدلة التالية : =

عز وجل إلا أن يكون من عذر . وقوله تعالى : ﴿ ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ ومن ههنا ذهب الشافعي في أحد قوليه إلى وجوب الإشهاد في الرجعة ، كما يجب عنده في ابتداء النكاح [1] ومن قال بهذا ... يقول : إن الرجعة لا تصح إلا بالقول

= ١ - إن قول عطاء « لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجعة إلا شاهدا عدل » قول نوافقه عليه في النكاح والرجعة لا في الطلاق. إذ إن عدم الجواز الذي ارتآه ، لا يفيد عدم الوقوع. بل يفيد أنه -في نظره- حرام وهو مخالف للشرع ... ولكن لا ينفي وقوع الطلاق...وذلك : كطلاق الحائض مثلا ..فإنه وإن كان بدعياً ، لكنه يقع... فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غضب لما طلق ابن عمر امرأته في الحيض وأمره أن يراجعها ، وأن تعتد ثلاثة قروء ، ثم إذا بدا له أن يفارقها فليفعل... إنما حسبها عليه طلقة ، ولو كانت في الحيض ، كما هو معلوم... إذاً : فقول عطاء (لا يجوز...) لا يعني عدم وقوع الطلاق بل يعني ارتكاب الحرام فقط كما هو الحال في قصة ابن عمر رضي الله عنهما . ومما يجدر ذكره أن النبي لم يأمر ابن عمر بالإشهاد على الطلاق ، ولا أمر أحداً غيره بذلك .

٢ - اذا كان عطاء... يرى ارتكاب الحرام في الطلاق بغير إشهاد... حتى وعلى فرض أنه يرى عدم وقوع الطلاق.. فعطاء ليس حجة في حكمه هذا ... لا سيما وإن أكثر علماء السلف والخلف يخالفونه. واذا كان يرى بعضهم استحباب الإشهاد ، فلكيلا يقع التجاحد من أحد الطرفين .. وهذا بشأن الإشهاد على الطلاق فقط .

٣ - لعلهم يقولون : إن حكم عطاء فهم من القرآن ونحن فهمنا من القرآن كما فهم عطاء وليس عطاء حجتنا المجردة . فنجيبهم مستعينين بالله تعالى : نحن لم نتهم عطاء رحمه الله تعالى بأنه بنى حكمه على مجرد الرأي الشخصي ، فنحن معكم بأنه فهم هذا من القرآن ، ولكنه رجل اجتهد فأخطأ ..فله أجر واحد. ولكن هل معنى ذلك ، أن القول كما قال عطاء ... ؟ الجواب : كلا ... واذا رجعنا إلى الآية الكريمة نرى ان الله تعالى أمر بالعدة فور الطلاق ... « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة » إذاً فلولا وقوع الطلاق ما وجبت العدة. ثم قال في الآية الثانية : « فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف واشهدوا ذوي عدل منكم ... » أي فإذا انتهت العدة أو شارفت... فهناك أمران : إما أن يتفقا على الرجعة ، أو يتفقا على المفارقة. فإن اتفقا على أحداهما ، فليُشهدا على هذا الاتفاق ، أي على الرجعة أو على المفارقة ، ذوي عدل من المؤمنين . وقوله تعالى : « فإذا بلغن أجلهن » فهذا نص صريح بأن المرأة اعتدت وكادت أن تبلغ نهاية العدة . هنا نسأل .. لماذا اعتدت هذه المرأة ... ؟ أليس لأنه وقع عليها طلاق من زوجها... ؟ ولولا وقوع هذا الطلاق ما كان من حاجة إلى العدة ، إذ لا عدة بلا طلاق أو وفاة. إذاً فالطلاق وقع بدليل وجوب العدة وتنفيذها. فهل نفهم من الآية أن الإشهاد على الطلاق ، أم على الرجعة أو المفارقة؟ لأن ذكر الإشهاد صريح بوروده بعد العدة وبعد ذكر الإمساك أو المفارقة فدل أنه على الإمساك أو على المفارقة. لا على الطلاق. وهذا هو المراد.. كي لا يقع التجاحد من أحد الطرفين. هذا هو فهم السلف والخلف كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ورضي عنه. قال رحمه الله في فتاواه : (... وقد ظن بعض الناس أن الإشهاد هو على الطلاق وظن أن الطلاق الذي لا يشهد عليه لا يقع وهذا خلاف إجماع السلف وخلاف الكتاب والسنة ولم يقل أحد من العلماء المشهورين به فان الطلاق أذِنَ فيه أولاً ولم يأمرْ فيه بالإشهاد ، وانما أمر بالإشهاد حين قال تعالى : « فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف » والمراد منها بالمفارقة تخلية سبيلها اذا قضت العدة وهذا ليس بطلاق ولا رجعة ولا نكاح. والاشهاد في هذا باتفاق المسلمين ...) والله الموفق للصواب وهو أعلم به .

(١) ولكن لم يوجبه في الطلاق ...

ليقع الأشهاد عليها . وقوله تعالى : ﴿ ومن يتَق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ أي ومن يتق الله فيما أمره به وترك ما نهاه عنه ، يجعل له من أمره مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب أي من جهة لا تخطر بباله .

روى ابن أبي حاتم عن عمران بن حصين قال رسول الله ﷺ ٤٥٨ [من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤونة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها]
وقوله تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ روى الامام أحمد ، عن عنس الصنعاني عن عبدالله بن عباس أنه حدثَه : أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً ، فقال له رسول الله ﷺ : « ٤٥٩ [يا غلام إني معلمك كلماتٍ : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجدْه تجاهك ، وإذا سألت فاسألِ الله ، واذا استعنتَ فاستعن بالله ، واعلم أن الأمّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك ، إلاّ بشيء قد كتبه الله لك. ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضرّوك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام ، وجفت الصحف.] وقوله تعالى : ﴿ إن الله بالغُ أمره ﴾ أي منفذُ قضاياه وأحكامِه في خلقه بما يريده ويشاؤه. ﴿ قد جعل الله لكلّ شيء قدرا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وكلّ شيء عنده بمقدار ﴾ .

﴿ وَٱللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ۝ (٤) ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ۝ (٥) ﴾

يقول تعالى مبيّنا لعدة الآيسة – وهي التي انقطع عنها المحيض لكبرها – أنها ثلاثة أشهر .. عوضاً عن الثلاثة قروء في حق من تحيض ، كما دلت على ذلك آية البقرة ، وكذا الصغار اللائي لم يبلغن سن المحيض ، إن عدتّهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر. ولهذا قال تعالى ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن ارتبتم ﴾ أي إن رأين دماً وشككتم في كونه حيضاً أو استحاضة وارتبتم فيه ﴿ فعدتّهن ثلاثة أشهر ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وأولاتُ الأحمال أجلهن ان يضعن حملهن ﴾ يقول تعالى : ومن كانت حاملاً فعدّتها بوضع حَملها ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفواق ناقة في قول

جمهور العلماء من السلف والخلف. كما هو نص هذه الآية الكريمة وكما وردت به السنّة النبويـــة .

روى الإمام أحمد عن المسوّر بن مخرمة ٤٦٠ [أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حامل فلم تمكث إلاّ ليالي حتى وضعت فلما تعلّت من نفاسها خطبتْ ، فاستأذنت رسولَ الله ﷺ في النكاح فأذن لها أن تنكح فنكحتْ] . ورواه البخاريّ ومسلمٌ في صحيحَيهما وأبو داود والنسائيّ وابن ماجه من طرقٍ عنها ـ أي عن سبيعة ـ كما قال مسلم بن الحجاج عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة ٤٦١ [أن أباه كتب إلى عمر بن عبدالله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية ، فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته ، فكتب عمر بن عبدالله يخبره أن سبيعة أخبرتْه أنها كانت تحت سعد بن خولة ، وكان ممن شهد بدراً فتوفي عنها في حَجة الوداع وهي حامل، فلم تنشبْ أن وضعتْ حَملها بعد وفاته، فلما تعلّت من نفاسها تجمّلت للخطاب... فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها : مالي أراك متجمّلةً ؟ لعلّك ترجين النكاح إنك والله ما أنت بناكح حتى تمرّ عليك أربعةُ أشهر وعشر . قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت ، فأتيت رسول الله ﷺ ، فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللتُ حين وضعتُ حملي وأمرني بالتزويج إن بدا لي] هذا لفظ مسلم ورواه البخاريّ مختصراً . وأما الاعتداد بأبعد الأجلين الوارد في سورة البقرة وهو الأربعة أشهر والعشر فهذا قبل أن تنزل هذه الآية بعدة الحوامل ..

وقوله تعالى : ﴿ ومن يتّقِ الله يجعلْ له من أمره يسرا ﴾ أي يسهل له أمره ، وييسره عليه ، ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً . ثم قال تعالى: ﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم ﴾ أي حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسول الله ﷺ ﴿ ومن يتّقِ الله يكفّرْ عنه سيئاته ويعظمْ له أجراً ﴾ أي يذهب عنه المحذور ويجزل له الثواب على العمل اليسير.

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ

وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ❁ (٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ❁ (٧)

يأمر تعالى عباده إذا طلّق أحدهم المرأة أن يُسكنها في منزل حتى تنقضي عدتُها. فقال عزّ من قائل : ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم ﴾ أي عندكم ﴿ من وجدكم ﴾ أي من سَعتكم ﴿ ولا تضاروهن لتضيّقوا عليهن ﴾ قال ابو الضحى:أي يطلقها حتى إذا بقي يومان راجعها . وقوله تعالى : ﴿ وإن كن أولات حَمل فأنفقوا عليهن حتّى يضعن حَملهن ﴾ قال كثير من العلماء منهم ابن عباس وطائفة من السلف وجماعات من الخلف : هذه هي البائن إن كانت حاملاً أو حائلاً ، وقال آخرون : بل السياق كله في الرجعيات ، وإنّما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية ، لأن الحملَ تطول مدته غالباً فاحتيج الى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع ، لئلاً يُتوهَّم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العــدة .

وقوله تعالى : ﴿ فإن أرضعن لكم ﴾ أي إذا وضعن حملهن وهن طوالق فقد بِنَّ بانقضاء عدتهن ، ولها حينئذٍ أن ترضع الولد ولها أن تمتنع منه . ولكن بعد أن تغذيه باللبأ وهو باكورة اللبن ، الذي لا قوام للمولود غالباً إلاّ به . فإن أُرضعت استحقت أجــر مثلها ، ولها أن تعاقد أباه أو وليّه على ما يتفقان عليه من أجرة. ولهذا قال تعالى: ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وأتمروا بينكم بمعروف ﴾ أي من غير إضرار ولا مضارّة . وقوله تعالى : ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع لــه أخرى ﴾ فإن اختلفتم على أُجرة الرضاع من حيث القلّة أو الكثرة والأم أولى بإرضاع ولدها إذا رضيت بما استؤجرت به الأجنبية .

وقوله تعالى : ﴿ لينفق ذوسَعة من سَعته ﴾ أي الوالد على مولوده أو وليه بحسب قدرته ﴿ ومن قُدِرَ عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلاّ ما آتاها ﴾ كقولــه تعالى : ﴿ لا يكلفُ الله نفساً إلاّ وسعها ﴾ أي بقدر ما تستطيع . وقوله تعالى : ﴿ سيجعل

الله بعد عسر يسراً ﴾ وعدٌ منه تعالى ووعده حق لا يخلفه. وهذه كقوله تعالى: ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : ٤٦٢ [دخل رجل على أهله فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية ، فلما رأت امرأته قامت الى الرحى فوضعتها ، وإلى التنور فسجرته ثم قالت : اللهم ارزقنا ، فنظرت ، فإذا الجفنة قد امتلأت قال، وذهبت الى التنّور فوجدتهُ ممتلئاً ، قال فرجع الزوجُ فقال : أصبتم بعدي شيئاً ؟ قالت امرأتــه : نعم من ربنا ، فأمَّ إلى الرّحى ، فذكر ذلك للنبيّ ﷺ فقال النبيّ ﷺ « أما إنه لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة »] .

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً ❁ (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ❁ (٩) أَعَدَّ ٱللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَٱتَّقُوا ٱللهَ يَا أُوْلِي ٱلْأَلْبَابِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ ٱللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ❁ (١٠) رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ ٱللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ ٱللهُ لَهُ رِزْقاً ❁ (١١) ﴾

يتوعّد الله تعالى من يخالف أمره ويكذّب رسله ويسلك غير ما شرعه ، ومخبراً عما حلَّ بالأمم السالفة بسبب ذلك فقال تعالى : ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ﴾ أي تمرّدت على اتّباع أمر الله تعالى ومتابعة رسله ﷺ ﴿ فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكرا ﴾ أي منكراً فظيعاً ﴿ فذاقت وبال أمرها ﴾ بعد مخالفتها وندموا حيث لا ينفع الندم ﴿ وكان عاقبة أمرها خسراً أعدّ الله لهم عذاباً شديداً ﴾ أي في الدار الآخرة مع ما حلَّ بهم من العذاب في الدنيا ثم قال تعالى بعدما قص من خبر هؤلاء ﴿ فاتّقوا الله يا أولي الألباب ﴾ أي الأفهام المستقيمة لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب

﴿ الذين آمنوا ﴾ أي صدقوا بالله ورسله . ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكرا ﴾ يعني القرآن وقوله تعالى : ﴿ رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبيّنات ﴾ اي الرسول ترجمة عن الذكر أي تفسيراً له . ولهذا قال تعالى: ﴿ رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ﴾ أي حال واضحة ﴿ ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾ كقوله تعالى تعالى ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ﴾ أي من ظلمات الكفر والجهل، الى نور الايمان والعلم . وقد سمّى الله تعالى الوحي الذي أنزله نوراً، لما يحصل به من الهدى. كما سمّاه روحاً، لما يحصل به من حياة القلوب . وقوله تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ﴾ قد تقدم تفسير مثل هذا أكثر من مرّة بما أغنى عن إعادته ولله الحمد والمنة .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ۞ (١٢) ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة وسلطانه العظيم ، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ﴾ كقوله تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ أي سبعاً أيضاً مثلهن كما ثبت في الصحيحَين : ٤٦٣ [من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه الله من سبع أرضين] ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة وأغرق في النزاع وخالف القرآن والحديث بلا مستند ، وفي الحديث الآخر ٤٦٤ [ما السموات السبع ومن فيهن وما بينهن والأرضون السبع[1] وما فيهن وما بينهن في الكرسي

إلا كحلقة ملقاةٍ بأرض فلاة]

آخر اختصار تفسير سورة الطلاق ولله الحمد والمنة .

(٦٦) سُورَةُ التَّحْرِيمِ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا اثْنَتَا عَشْرَة

نزلت بعد سورة الحجرات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ربع الحزب

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (١) قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۞ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۞ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۞ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ۞ (٥) ﴾

اختلف المفسرون في سبب نزول صدر هذه السورة فقيل نزلت في شأن مارية أم إبراهيم أمة رسول الله ﷺ التي كان قد حرّمها . فنزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لم

تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغي مرضات أزواجك ﴾ الآية . روى النسائي عن أنس : ٤٦٥ [أن رسول الله ﷺ كانت له أمةٌ يطأُها فلم تزل به عائشةُ وحفصةُ حتى حرّمها فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها النبيُّ لم تحرم ما أحل الله لكَ ﴾ الى آخر الآية] .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال : ٤٦٦ [قلت لعمر بن الخطاب : مَن المرأتان ؟ قال عائشة وحفصة . وكان بدء الحديث في شأن أم ابراهيم القبطية أصابها النبيُّ ﷺ في بيت حفصة في نوبتها ، فوجدت حفصة فقالت : يا نبي الله : لقد جئت إلي شيئاً ما جئت إلى أحدٍ من أزواجك في يومي وفي دوري وعلى فراشي ؟! قال : « ألا ترضين أحرمها فلا أقربها» قالت بلى فحرمها وقال لها : « لا تذكري ذلك لأحد »[1] فذكرتْه لعائشة فأظهره الله عليه فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاتَ أزواجك ﴾ الآيات كلها. فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفَّر عن يمينه وأصاب جاريته] . قال زيد بن أسلم : القول : أنتِ عليَّ حرام : لغو .

روى الهيثم بن كعب عن عمر ٣٦٧ [قال النبي ﷺ لحفصة : « لا تخبري أحداً وإن أم إبراهيم علي حرام » فقالت : أتحرّمُ ما أحلّ الله لك ؟ قال : « فوالله لا أقربها » قال فلم يقربها حتى أخبرت عائشةُ ، قال : فأنزل الله تعالى ﴿ قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم ﴾ وهذا إسناد صحيح ولم يخرّجه أحدٌ من الكتب الستة وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج . روى ابن جرير عن سعيد بن جبير : أن ابن عباس كان يقول في الحرام يمين تكفّرها ، وقال ابن عباس : ٤٦٨ [﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ يعني أن رسول الله ﷺ حرّم جاريته فقال الله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لم تحرمُ ما أحلّ الله لك - إلى قوله - قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ فكفّر يمينه فصيّر الحرام يميناً] ورواه البخاري ومسلمٌ والنسائي .

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى وجوب الكفارة على من حرم جاريته أو زوجتَه أو أي شيء من المباحات أكلاً أو شرباً أو ملبساً وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة . وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية ، إذا حرّم عينيهما أو أطلق التحريم فيهما في قول ، فأما إن نوى بالتحريم طلاق زوجته أو عتقَ الأمة نفذ فيهما .

والصحيح : ان ذلك كله كان في تحريمه العسل ، كما روى البخاري عند هذه الآية عن عائشة قالت : ٤٦٩ [كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث

(١) أي لا تذكري لأحد أني حرمتها .

عندها ، فتواطأتُ أنا وحفصة على أيّتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير إني أجد منك ريح مغافير قال : « لا ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعودَ له وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً ﴿ تبتغي مرضات أزواجك ﴾] والمغافير شبيه بالصمغ يكون في الرمث فيه حلاوة . أغفر الرِمْثُ إذا ظهر فيه . وأحدها مغفور . ويقال مغافير . وهكذا قال الجوهري . والرِمث بالكسر مرعى من مراعي الإبل وهو من الحمض .

ويقال إنهما واقعتان «١» ولا بُعدَ في ذلك، إلاّ أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر ... وعلى كلٍّ فإن عائشةَ وحفصةَ هما المتظاهرتان ومما يدلُّ على ذلك : ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس قال : ... قلت يا أمير المؤمنين ــ يعني عمر ــ مَن المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى : ﴿ إن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ فقال عمر : واعجباً لك يا ابن عباس ! قال الزهري كره والله ما سأله عنه ، ولم يكتمْه قال : هي عائشة وحفصة .

وقوله تعالى : ﴿ وإذْ أسرَّ النبيُّ إلى بعضِ أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا. قال نبأني العليم الخبير ﴾ أي لما قال ﷺ : « ولن أعودَ له وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً » [٢] قال ذلك لحفصة ولكنها أخبرت بذلك عائشة وهكذا رواه البخاريُّ في كتاب الطلاق .

وقوله تعالى : ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ أي عائشة وحفصة رضي الله عنهما أي إن تتوبا إلى الله تعالى مما تظاهرتما به على رسول الله ﷺ ، فقد صغت قلوبكما الى الحق . روى مسلمٌ عن عمر بن الخطاب قال : ٤٧٠ [لما اعتزل نبيُّ الله ﷺ نساءه دخلتُ المسجدَ فإذا الناس ينكتونَ بالحصي ويقولون طلق رسول الله ﷺ نساءه ، وذلك قبل أن يُؤمَرَ بالحجاب فقلت لأَعلمَنّ ذلك اليوم . فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة ووعظه إيّاهما إلى أن قال فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ على أُسكفة المشربة فناديت فقلت : يا رباح استأذن على رسول الله ﷺ ــ إلى أن قال ــ فقلت : يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكال وأناوابو بكر والمؤمنون معك وقلما تكلمت ــ وأحمد الله ــ بكلام إلا

(١) أي قصة مارية والعسل وأظنهما واقعتين اثنتين .
(٢) شرب العسل أو تحريم مارية .

رجوت أن يكون الله يصدّق قولي . فنزلت هذه الآية : ﴿ ... عسى ربّه إن طلقكن أن يبدّ له أزواجاً خيراً منكن ﴾ ﴿ وإن تظاهرا عليه فإن الله مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ فقلت : أطلقتهن ؟ قال : « لا » فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي : لم يطلق نساءه ، ونزلت هذه الآية : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطون منهم ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر]

روى ابن أبي حاتم عن أنس قال : قال عمر بن الخطاب : بلغني شيء كان بين أمّهات المؤمنين وبين النبي ﷺ فاستقريتهن أقول : لتكفّن عن رسول الله ﷺ أو ليبدلنّه الله أزواجاً خيراً منكن ، حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين فقالت : يا عمر أما في رسول الله ﷺ ما يعظُ نساءه حتى تعظَهنّ . فأمسكتُ. فأنزل الله عز وجل : ﴿ عسى ربُّه إنْ طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيِّبات وأبكاراً ﴾ وهذه المرأة التي رأته عما كان فيه من وعظ النساء هي أم سلمة كما ثبت ذلك في صحيح البخاري . وقد تبين ممّا أوردناه تفسير هذه الآيات الكريمة .

ومعنى قوله : ﴿ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات ﴾ ظاهر ... وقوله تعالى: ﴿ سائحات ﴾ قاله جماعة من الصحابة والتابعين وغيرهم . وتقدم فيه حديث مرفوع عند قوله تعالى : ﴿ السائحون ﴾ في سورة براءة ولفظه : سياحة هذه الأمة الصيام » وقوله تعالى : ﴿ ثيِّبات وابكاراً ﴾ أي منهن ثيِّبات ومنهن أبكاراً ليكون ذلك أشهى إلى النفس . وقيل ان الله سيزوّجه آسية ومريم في الجنة . والله أعلم .

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۞ (٦) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ (٧) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ

وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ (٨)

يقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ أي تأمر نفسك وأهلك من زوجة وولد وإخوان وقرابة وإماء وعبيد بطاعة الله. وتنهي نفسك وجميع من تعول، عن معصية الله تعالى. وتعلمهم وتؤدبهم، وأن تقوم عليهم بأمر الله، وتأمرهم به وتساعدهم عليه. فإذا رأيت لله معصية، قذعتهم وزجرتهم عنها. وهذا حق على كل مسلم أن يعلم من هم تحت إمرته وما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه. وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود عن سبرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٧١ [مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين فإذا بلغ عشر سنين فأضربوه عليها] وهذا لفظ أبي داود وقال الترمذي : هذا حديث حسن . قال الفقهاء : وهكذا في الصوم ليكون ذلك تمريناً له على العبادات لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة، ومجانبة المعصية وترك المنكر، والله الموفق. وقوله تعالى : ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ أي حطبها من الجنة والناس ﴿ والحجارة ﴾ قيل الأصنام وقال ابن مسعود وغيره : حجارة من كبريت زاد مجاهد : أنتن من الجيفة . رواه ابن أبي حاتم .

وقوله تعالى : ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد ﴾ أي غلاظ الطباع ، نزع الله من قلوبهم الرحمة بالكافرين. ﴿ شداد ﴾ أي تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج، سود وجوههم ، كالحة أنيابهم، ليس في قلب واحد منهم، مثقال ذرة من الرحمة بالكفار .

وقوله تعالى : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أي لا يتأخرون عن أمر الله طرفة عين وهم قادرون على ذلك ما بهم عجز عنه وهؤلاء الزبانية ــ عياذاً بالله منهم ــ وقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أي يقال للكفرة يوم القيامة لا تعتذروا اليوم فإنه لا يقبل منكم إنما تجزون اليوم بأعمالكم . ثم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ أي توبة صادقة جازمة ، تمحو ما قبلها من السيئات ، وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناآت .

روى ابن أبي حاتم عن زر بن حبيش قال: ٤٧٢ [... فقلت لأُبَيّ بن كعب : فما التوبة النصوح ؟ فقال سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال . « هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر ثم لا تعود إليه أبداً »] وهل من شرط

التوبة النصوح ، الاستمرار على ذلك إلى الممات . كما تقدم في الحديث ثم لا يعود فيه أبداً . أو يكفي العزم على أن لا يعود بحيث لو وقع منه ثانية لا يضر تكفيرَ ما تقدم، وللأول ان يحتج بما ثبت في الصحيح: ٤٧٣ [من أحسن في الإسلام لم يؤآخذ بما عمل في الجاهلية ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر]

وقوله تعالى : ﴿ عسى ربكم أن يكفّر عنكم سيئآتِكم ويدخِلَكم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ وعسى من الله موجبة. ﴿ يوم لا يخزي الله النبيَّ والذين آمنوا معه ﴾ أي ولا يخزيهم يعني يوم القيامة ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم ﴾ كما تقدم في سورة الحديد (١) ﴿ يقولون ربّنا أتممْ لنا نورَنا واغفر لنا إنك على كلّ شيء قدير ﴾ هذا يقوله المؤمنون يوم القيامة حين يرون نورَ المنافقين قد طفيء .

روى الإمام أحمد عن رجلٍ من بني كنانة قال : صليتُ خلف رسول الله ﷺ عام الفتح فسمعته يقول : ٤٧٤ [اللهم لا تخزني يوم القيامة] روى محمد بن نصر المروزي عن أبي ذر وأبي الدرداء قالا ٤٧٥ [... وقال رجل وكيف تعرف أمتك من بين الأمم ؟ قال: «غر محجّلون من آثار الطهور، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم، وأعرفهم يؤْتَوْن كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود ، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم »] (٢) ضعيف .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۞ (٩) ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ ۞ (١٠) ﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ، هؤلاء بالسلاح والقتال ، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ﴿ واغلظ عليهم ﴾ أي في الدنيا ﴿ ومأواهم جهنم وبئس

(١) الآية رقم /١٩/ . (٢) هذا الحديث فيه ابن لهيعة وهو ضعيف .

المصير ﴾ أي في الآخرة ثم قال تعالى: ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا ﴾ أي في مخالطتهم ومعاشرتهم للمسلمين ليس لهم أية جدوى، فلا ينفعهم ذلك عند الله تعالى إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم. ثم ذكر المثل فقال : ﴿ امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحَيْن ﴾ أي نبيين رسولَيْن عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً يؤاكلانهما ، ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ﴿ فخانتاهما ﴾ أي في الإيمان لم يوافقاهما على الإيمان ولا صدّقاهما في الرسالة ، فلم يجد ذلك كلّه شيئاً ولا دفع عنهما محذوراً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ﴾ أي لكفرهما ﴿ وقيل ﴾ للمرأتين ﴿ ادخلا النارَ مع الداخلين ﴾ وليس المراد بقوله تعالى : ﴿ فخانتاهما ﴾ في فاحشة بل في الدين **فإن نساء الأنبيــاء معَصُوماتٌ عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء** .كمــا قدّمنا في سورة النور .[1]

قال سفيان الثوري عن موسى بن أبي عائشة عن سليمان بن قرم : سمعت ابنَ عباس (رض) يقول في هذه الآية ﴿ فخانتاهما ﴾ قال : ما زنتا ؛ أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدلّ قومَها على أضيافه ؛ وقال العوفي عن ابن عباس : كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما ، فكانت امرأة نوح تطلع على سر نوح فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به. وأما امرأة لُوط ﷺ فكانتْ إذا أضاف لوط أحداً أخبرت به أهلَ المدينة ...! ! وقال الضحاك عن ابن عباس : **ما بغتِ امرأةُ نبيٍّ قط**[2]، إنما كانت خيانتاهما في الدين . وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم .

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (١١) وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَانِتِينَ ۞ (١٢) ﴾

وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم

(١) وقد ألفنا في هذا الموضوع كتاباً أسميناه : « نوال المنى ، في إثبات عصمة نساء الأنبياء من الزنى » .
(٢) له حكم المرفوع وروي مرفوعاً أيضاً من وجه آخر .

كما قال تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلاّ أن تتقوا منهم تقاةً ﴾ قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم ، فوالله ما ضر امرأتَه كفرُ زوجها حين أطاعت ربها ، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدلٌ لا يؤآخذ أحداً إلاّ بذنبه. وقال ابن جرير عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تعذّب في الشمس ، فإذا انصرف عنها أظلّتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتَها في الجنة .

ثم قال ابن جرير عن أبي بزّة قال : كانت امرأة فرعون تسأله من غلب ؟ فيقال : غلب رب موسى وهارون.فتقول : آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون فقال : انظروا أعظم صخرةٍ تجدونها،فإن مضت على قولها فألقوها عليها،وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي . فلمّا أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة ، فمضت على قولها ، وانتُزِعت روحها وألقيتِ الصخرة على جسد ليس فيه روح . فقولها : ﴿ رب ابنِ لي عندك بيتاً في الجنّة ﴾ قالت العلماء : اختارت الجار قبل الدار.وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع .

﴿ ونجّني من فرعون وعمله ﴾ أي خلّصني منه فإني أبرأ إليك من عمله ﴿ ونجّني من القوم الظالمين ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بالكفر برب السموات والأرض ومن فيهن وما بينهما وإله كلّ شيء ومعبوده . سبحانه وتعالى لا إله غيره، ولا رب سواه. وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها (وأرضاها) .

وكذلك امرأة خازن فرعون كانت مؤمنة أيضاً ، فشعرت بها ابنة فرعون فشكتها إلى أبيها. فأمر بتعذيبها لعلّها تكفر بالله وتتخذ فرعون رباً لها،فأبت وقالت : ربي وربك ورب كل شيء الله وإياه أعبد. فهددها بذبح ولديها في فيها ...! ! فقالت : اقض ما أنت قاضٍ فذبحهما الواحد بعد الآخر في فيها! ! ! وكان كل ولد تناديها روحه : « إصبري يا أُمّه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا وسمعت امرأةُ فرعون كلامَ روحَيْ ابنيها الأكبر والأصغر، فازدادتْ إيماناً وفاضت روح امرأة خازن فرعون، وأحسّ فرعون بإيمان زوجته فأمر بقتلها على الشكل الذي ذكرناه آنفاً رحم الله امرأة فرعون وامرأة خازنه ورضي عنهما وأرضاهما .

وقوله تعالى : ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها ﴾ أي حفظته وصانته والإحصان هو العفاف والحرية ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ أي بواسطة الملَك وهو جبريل

فإن الله تعالى بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي ، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها ، فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام ولهذا قال تعالى : ﴿ فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربّها وكتبه ﴾ أي بقدره وشرعه ﴿ وكانت من القانتين ﴾

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : ٤٧٦ [خطّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط وقال : « أتدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة : خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون »] .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث شعبة بسنده إلى أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ : ٤٧٧ [كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلاّ آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران . وخديجة بنت خويلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام] وقد ذكرنا طرق هذه الأحاديث وألفاظها والكلام عليها في قصة عيسى بن مريم عليهما السلام في كتابنا « البداية والنهاية » ولله الحمد والمنة ، وذكرنا ما ورد من الحديث من أنها تكون هي وآسية بنت مزاحم من أزواجه عليه السلام في الجنّة عند قوله تعالى : ﴿ ثيِّبات وأبكاراً ﴾

آخر اختصار تفسير سورة التحريم ولله الحمد والمنة وبه العصمة والتوفيق وعليه التُّكلان

(٦٧) سُورَةُ المُلْكِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا ثَلَاثُونَ

نزلت بعد سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)
الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ
الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ
ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)
وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا
لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥)

روى الإمام أحمد بسنده إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ٤٧٨ [إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له: ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾] ورواه أهل السنن الأربعة وقال الترمذي هذا حديث حسن. وروى الطبراني والحافظ الضياء المقدسي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ٤٧٩ [سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾].

وروى الترمذي عن جابر: ٤٨٠[ان رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿ألم. التنزيل، وتبارك الذي بيده الملك﴾]. **وإن يدَه صفة له، لا هي نعمته ولا قدرته، إنما هي يدُه حقيقةً بلا كيف لا تشبه أيدي المخلوقين في شيء ... يتصرف في ملكه بما يشاء**

* * *

يمجّد الله تعالى نفسه ويخبر أنه بيده الملك.. وهو المتصرف في جميع مخلوقاته بما يشاء، لا معقّب لحكمه ولا يسأل عما يفعل، لقهره وحكمته وعدله. ولهذا قال تعالى ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ ثم قال تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ واستدل بهذه الآية من قال: ان الموت أمر وجودي لأنه مخلوق، ومعنى الآية: أنه أوجد الخلائق من العدم ليبلوهم أي يختبرهم أيهم أحسن عملاً. كما قال تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ فسمَّى الحال الأول وهو العدم، موتاً. وسمَّى هذه النشأة، حياة. ولهذا قال تعالى: ﴿ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ وقوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً﴾ أي خير عملاً، ولم يقل أكثر عملاً. ثم قال تعالى ﴿وهو العزيز الغفور﴾ أي هو العزيز العظيم المنيع الجناب وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب بعدما عصاه وخالف أمره. ثم قال تعالى: ﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً﴾ أي طبقة بعد طبقة وهل هنَّ متواصلات بمعنى أنهنَّ علويات بعضهن على بعض، أو متفاصلات بينهن خلاء ... فيه قولان وأصحهما الثاني كما دلّ على ذلك حديث الإسراء. وقوله تعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ أي ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ولا نقص ولا عيب ولا خلل. ولهذا قال تعالى: ﴿فارجع البصر هل تَرى من فطور﴾ أي انظر إلى السماء فتأمَّلها هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو شقوقاً. وقوله تعالى: ﴿ثم ارجع البصر كرّتين﴾ أي مرتين ﴿ينقلبْ إليك البصر خاسئاً﴾ أي أنك لو كررت البصر ومهما كررت لانقلب اليك أي لرجع إليك البصر ﴿خاسئاً﴾ عن أن يرى عيباً أو خللاً ﴿وهو حسير﴾ أي كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار ولا يرى نقصاً، ولمَّا نفى عنها في خلقها النقص، بيَّنَ كمالَها وزينتها. فقال: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت. وقوله تعالى: ﴿وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ عاد الضمير في قوله: ﴿وجعلناها﴾ على جنس المصابيح لا على عينها لأنه لا يرمي بالكواكب التي في السماء بل بشهب من دونها وقد تكون مستمدةً منها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ أي جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا

واعتدنا لهم عذاب السعير في الأخرى . قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها الله زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها. فمن تأوّل فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به. رواه ابن جرير. وابن أبي حاتم .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۞ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ ۞ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۞ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۞ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۞ (١١) ﴾

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ اعتدنا ﴿ للذين كفروا بربّهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ أي بئس المآل والمنقلب ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً ﴾ يعني صياحاً ﴿ وهي تفور ﴾ تغلي بهم وقوله تعالى : ﴿ تكاد تميّزُ من الغيظ ﴾ أي يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها عليهم . ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذّبنا وقلنا ما نزّل الله من شيء إن أنتم إلاّ في ضلالٍ كبير ﴾ يذكر تعالى عدله في خلقه وانه لا يعذّب أحداً إلاّ بعد قيام الحجة عليه وإرسالِ الرسول إليه. كما قال تعالى : ﴿ وما كنّا معذّبين حتى نبعث رسولاً ﴾ وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا : ﴿ لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في اصحاب السعير ﴾ روى الإمام أحمد بسنده إلى من سمعه من رسول الله ﷺ :٤٨١ [لا يد خل أحد النار إلا وهو يعلم أنَّ النار أولى به من الجنة] ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۞ (١٢) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ

ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس فينكفّ عن المعاصي ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحدٌ إلاّ الله تعالى بأنه له مغفرة وأجر كبير أي تكفَّرُ عنه ذنوبه ويجازى بالثواب الجزيل كما ثبت في الصحيحَين : ٤٨٢ [«سبعة يظلُّهم الله تعالى في ظل عرشه يوم لا ظل إلاّ ظله»] فذكر منهم رجلاً دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال « إني أخاف الله ورجلاً تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » ثم قال تعالى منبّهاً على أنه مطّلع على الضمائر والسرائر ﴿ وأسِرُّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما يخطر في القلوب ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ أي ألا يعلم الخالقُ؟﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم بأن جعلها قارّة ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها المنافع ومواضع الزروع والثمار. فقال تعالى : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها ﴾ أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها وارتياد انواع المكاسب واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً إلاّ أن ييسره الله لكم. ولهذا قال تعالى : ﴿ وكلوا من رزقه ﴾ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ٤٨٣ [لو أنكم تتوكلون على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً] رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن هبيرة وقال الترمذي : حسن صحيح . فأثبت لها رواحاً وغُدُوّاً لطلب الرزق مع توكلها على الله عزّ وجل وهو المسخّر المسيّر المسبّب ﴿ وإليه النشور ﴾ أي المرجع يوم القيامة .

ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا

فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۞ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۞ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ۞ (١٩)

ومن لطفه تعالى ورحمته بخلقه انه يحلم ويصفح ويؤجل، مع أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره. فقال : ﴿ أأمنتم من في السماء[1] ان يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ﴾ أي تذهب وتجيء وتضطرب ﴿ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً ﴾ أي ريحاً فيها حصباء تدفعكم. كما قال تعالى: ﴿ أفأمنتم ان يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ﴾ وهكذا توعّدهم هنا بقوله : ﴿ فستعلمون كيف نذير ﴾ أي كيف يكون إنذاري. ثم قال : ﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم السالفة ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم وعقابي لهم . ثم قال تعالى : ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافّات ويقبضن ﴾ أي تارةً يصفقن اجنحتهن في الهواء وتارةً تجمع جناحاً وتنشر آخر ﴿ ما يمسكهنّ ﴾ أي في الجو ﴿ إلاّ الرحمن ﴾ أي بما سخّر لهنّ من الهواء من رحمته ولطفه ﴿ انه بكل شيء بصير ﴾ أي بما يصلح كل شيء من مخلوقاته . وهذه كقوله تعالى: ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخراتٍ في جو السماء ما يمسكهن إلاّ الله . إن في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون ﴾ .

---

(١) قلت: وهذه الآية من جملة الآيات الدالات على أن ذات الله في السماء؛ ولا يلزم من قوله «أأمنتم من في السماء ...» ان يكون الله داخل السماء... تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً. فالله أكبر من السموات ومن كل شيء. وليس معنى الآية أن السماء تحتويه سبحانه وتعالى لأن «في» ليست الظرفية... إنما هي تفيد العلو. أي بمعنى (على) ومثل هذا وارد في القرآن كقوله تعالى على لسان فرعون : « لأصلبنكم في جذوع النخل » أي في أعالي جذوع النخل لا في داخلها. وعقيدة علو ذات الله، هي عقيدة السلف الصالح بخلاف عقيدة الخلف التي تقول ان الله في كل مكان خسيساً كان أم نفيساً ، أو ان الله ليس فوقاً ولا تحتاً ولا يميناً ولا شمالاً ولا أماماً ولا خلفاً ولا هو داخل العالم ولا خارجه . وهذه صفات المعدوم والعياذ بالله تعالى من الكفر والضلال. فما أهدى عقيدة السلف الصالح ! كيف لا والسلف الصالح هم محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام والقرون الخيرة التي شهد لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخيرية. فنحن نؤمن يقيناً أن ذات الله في السماء أي فوق السماء، وفوق العرش وفوق الكرسي ، بلا تكييف . ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل ولا تجسيم . إنها فوقية حقيقية تليق بجلاله وعظمته . وهو مع خلقه جميعاً في صفاته العلى أينما كانوا ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك .

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ❁ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ❁ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ❁ (٢٢) قُلْ هُوَ ٱلَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ❁ (٢٣) قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ❁ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ❁ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ❁ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ❁ (٢٧) ﴾

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره يبتغون عندهم نصراً ورزقاً ، منكراً عليهم فيما اعتقدوه ، ومخبراً لهم انه لا يحصل لهم ما أمّلوه ؛ فقال تعالى : ﴿ أمّن هذا الذي هو جندٌ لكم ينصركم من دون الرحمن ﴾ أي ليس لكم من دونه من وليّ ولا واقٍ ولا ناصر لكم غيره . ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الكافرون إلاّ في غرور ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ أمّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ﴾ أي من هـــذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه ، يرزقكم بعده ؟ أي لا أحد يعطي ويمنع ، ويخلق ويرزق وينصر إلاّ الله عز وجل وحده لا شريك له ، أي وهم يعلمون ذلك،ومع هذا يعبدون غيره . ولهذا قال تعالى : ﴿ بل لجوّا ﴾ أي استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ في عتوٍّ ونفور ﴾ أي في معاندتهم ، ونفور على أدبارهم عن الحق لا يسمعون ولا يتبعون. ثم قال تعالى : ﴿ أفمن يمشي مكبّاً على وجهه أهدى أمّن يمشي سويّاً على صراط مستقيم ﴾ أي على طريقٍ واضح مستقيم في الدنيا والآخرة . فالمؤمن يمشي يوم القيامة سويّاً على صراطٍ مستقيم مفضٍ به إلى الجنة ، واما الكافر يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم .

روى الإمام أحمد رحمه الله بسنده إلى أنس بن مالك قال: ٤٨٤ [يا رسول الله كيف

يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : « أليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادراً أن يمشيهم على وجوههم »] وهذا الحديث مخرّج في الصحيحَين . وقوله تعالى : ﴿ هو الذي أنشأكم ﴾ أي ابتدأ خلقكم من العدم ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ أي العقول والإدراك ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي قلّما تستعملونها في طاعته ، وامتثاله أوامره وترك زواجره. ﴿ قل هو الذي ذرأكم في الأرض ﴾ أي بثّكم ونشركم مع اختلاف ألسنتكم وصوركم . ﴿ وإليه تحشرون ﴾ أي يجمعكم كما فرّقكم . ويقول الكفار : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ أي متى يقع يوم الحشر ﴿ قل إنما العلم عند الله ﴾ أي لا يعلم وقته إلا الله إنما أمرني أن أخبركم بحتميّة وقوعه ﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ أي إنما عليَّ البلاغ وقد أدّيته إليكم . وقال تعالى : ﴿ فلما رأوه زلفةً سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ أي لمّا شاهد الكفار يوم القيامة ووقع ما كذبوا به ساءهم ذلك وقد جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب. ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ : ﴿ هذا الذي كنتم به تدّعون ﴾ أي تستعجلون .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ❁ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ❁ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ❁ (٣٠) ﴾

يقول تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله ، الجاحدين لنعمه. ﴿ أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذابٍ أليم ﴾ أي سواء عذبنا الله أو رحمنا فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم ؛ فخلّصوا أنفسكم بالتوبة إلى الله والرجوع إلى دينه ، فلا ينفعكم تمنّي العذاب لنا . ثم قال تعالى : ﴿ قل هو الرحمن آمنّا به وعليه توكلنا ﴾ أي توكّلنا على الرحمن في كل أمورنا. ولهذا قال تعالى : ﴿ فستعلمون من هو في ضلال مبين ﴾ أي منّا ومنكم ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى إظهاراً لرحمته ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً ﴾ أي غائراً في الأرض ﴿ فمن يأتيكم بماء معين ﴾ أي نابع سائح جار على وجه الأرض،أي لا يقدر على ذلك إلا الله عزّ وجلّ من فضله وكرمه .

آخر سورة الملك والحمد لله وله المنّة وبه العصمة ، وعليه التُّكلان

(٦٨) سورة القلم مكية وآياتها اثنتان وخمسون

إلاّ من الآية ١٧ ـ ٢٢ ومن الآية ٤٨ ـ ٥٠ فمدنية نزلت بعد سورة العلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ



﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * (١) مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * (٥) بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ * (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ * (٧) ﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة [١] وان قوله تعالى : ﴿ ن ﴾ كقوله : ﴿ ص ، ق ﴾ ونحو ذلك من الحروف المقطعة في أوائل السور . وقيل المراد بقوله ﴿ ن ﴾ حوت عظيم على تيار الماء العظيم المحيط وهو حامل للأرضين السبع !!! ؟ وقيل هو الدواة وأيد هذا التفسير ابن عباس وقتادة والحسن [٢] ﴿ والقلم ﴾ الظاهر انه جنس القلم الذي يكتب به . كقوله ﴿ اقرأ بسم ربك الذي خلق ـ إلى قوله ـ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ فهو قسم منه تعالى وتنبيه لخلقه على

(١) راجع أول تفسير سورة البقرة ـ المجلد الأول ـ الصفحة : ٢١ ، ٢٢ .

(٢) (ن) أصحُّ تفسير لها «الله اعلم بمراده ». والنون في اللغة : الحوت . وهو ايضاً : الدواة . فان كان ولا بد فتفسير النون بالدواة أقرب مناسبة للقلم . وإلاّ فما مناسبة الحوت مع القلم ! وعلى كل فالله أعلم بمراده .

ما أنعم عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم. ولهذا قال ﴿ وما يسطرون ﴾ وقيل القلم الذي هو أول الخلق لقوله ﷺ ٤٨٥ [أول ما خلق الله القلم ...] وقوله : ﴿ وما يسطرون ﴾ قال ابن عباس وغيره يعني وما يكتبون أو ما يعلمون . وقال السدي : ﴿ وما يسطرون ﴾ يعني الملائكة وما تكتب من أعمال العباد. والأصحّ أي يكتبون . وقوله تعالى : ﴿ ما أنت بنعمة ربّك بمجنون ﴾ أي لست ولله الحمد بمجنون كما يقوله الجهلة من قومك ، المكذّبون بما جئتهم به من الهدىَ والحقِّ المبين ، فنسبوك إلى الجنون. ﴿ وأن لك لأجراً غير ممنون ﴾ أي بل إنّ لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد، على إبلاغك رسالة ربّك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم . ومعنى غير ممنون أي غير مقطوع. كقوله ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإنّك لعلى خُلُقٍ عظيم ﴾ روى مَعْمَرٌ عن قتادة : ٤٨٦ [سئلت عائشة عن خُلُق رسول الله ﷺ قالت : كان خلقه القرآن] كما هو في القرآن . وعن رجل من بني سواد قال : ٤٨٧ [سألت عائشة فقلت : اخبريني يا أم المؤمنين عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : أما تقرأ القرآن ﴿ وإنك لعلىَ خُلُق عظيم ﴾ قال: قلت حدثيني عن ذاك قالت : صنعتُ له طعاماً . وصنعتْ له حفصة طعاماً ، فقلت لجاريتي إذهبي فإن جاءت هي بالطعام فوضعته قبلُ فاطرحي الطعام. قالت فجاءت بالطعام قالت فألقت الجارية: فوقعت القصعة فانكسرت ، وكان نَطَعٌ[1] قالت فجمعه رسول الله ﷺ وقال : « أقتصوا – أو اقتصي شكّ أسود – ظرفاً مكان ظرفك » قالت فما قال شيئاً .] ومعنى قول عائشة : كان خلقه القرآن ... أي انه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجيةً له. وخلقاً تطبّعه. فمهما أمره القرآن فعلَه. ومهما نهاه عنه تركَه. هذا مع ما جبله الله عليه من الخُلُق العظيم من الحياءِ والكرم. والشجاعة والصفح والحِلم. وكل خُلُق جميل. كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال : ٤٨٨ [خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف قط . ولا قال لشيء فعلتُه لمَ فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلتَه؟ وكان ﷺ أحسن الناس خُلُقاً ولا مسَسْت خزّاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألينَ من كفّ رسول الله ﷺ ، ولا شَمَمْتُ مِسكاً ولا عُطراً كان أطيبَ من عَرَقِ رسول الله ﷺ] وروى أحمد عن عائشة قالت : ٤٨٩ [ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط ، ولا ضرب امرأة ولا ضرب بيده شيئاً قط . إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا كان أحبُّهما إليه أيسرُهما. حتى يكون إثماً فإذا كان إثماً كان أبعدَ الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه ، إلا أن تنتهك حرمات الله فيكون هو ينتقم لله عز وجل]

---

(١) نطع : شبع .

والأحاديث في هذا كثيرة . ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب الشمائل . وقوله تعالى : ﴿ فستبصر ويبصرون بأيّكم المفتون ﴾ أي فستعلم يا محمّدو سيعلم مخالفوك ومكذّبوك مَن المفتون الضالّ منكم ومنهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وإنّا أو إياكم لعلىٰ هدىً أو في ضلال مبين ﴾ ومعنى المفتون ظاهر أي الذي قد افتتن عن الحقّ وضلّ عنه . وإنّما دخلت الباء في قوله ﴿ بأيكم ﴾ لتدلّ على تضمين الفعل في قوله ﴿ فستبصر ويبصرون ﴾ وتقديره فستخبرَ ويخبَرون بأيكم المفتون والله أعلم . ثم قال: ﴿ إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ أي هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي، ويعلم الحزب الضالّ عن الحقّ .

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۞(٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ۞ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۞ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۞ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۞ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۞ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۞ (١٦) ﴾

يقول تعالى: كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم. ﴿ فلا تطع المكذّبين. ودُّوا لو تدهن فيدهنون ﴾ قال ابن عباس: لو ترخص لهم فيرخصون ثم قال تعالى : ﴿ ولا تطعْ كلّ حلاّف مهين ﴾ وذلك إنّ الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترىء بها على أسماء الله تعالى واستعمالها في كل وقت في غير محلّها . قال الحسن : كل حلاّفٍ ، مكابرٍ مهين ضعيف . وقوله تعالى : ﴿ همّازٍ ﴾ أي مغتاب ﴿ مشاءٍ بنميم ﴾ يعني الذي يمشي بين الناس تحريشاً وفساداً، ومشياً بالنميمة وهي الحالقة، وعن ابن عباس قال: ٤٩٠ [مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدُهما فكان لا يستتر من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»] متفق عليه وروى الإمام أحمد بسنده إلى حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٤٩١ [لا يدخل الجنة قتّات] رواه الجماعة إلاّ ابنُ ماجه ومعنى القتات النمام . وعن أحمد عن حذيفة مرفوعاً ٤٩٢ [لا يدخل الجنّة نمّام] وقوله تعالى: ﴿ منّاع للخير معتد أثيم ﴾ أي يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿ معتدٍ ﴾ في تناول ما أحل الله له يتجاوز فيها الحدّ المشروع ﴿ أثيمٍ ﴾

أي يتناول المحرّمات . وقوله تعالى: ﴿ عتلٍّ بعد ذلك زنيم ﴾ اما العتلّ فهو الفظ الغليظ الصحيح الجموع المنوع . وروى الإمام أحمد عن حارثة بن وهب قال قال رسول الله ﷺ : ٤٩٣ [ألا انبئكم بأهل الجنة، كلّ ضعيف متضعّف لو أقسم على الله لأبرّه ، ألا أنبئكم بأهل النار كل عتلٍّ جواظ مستكبر] وقال وكيع كـل جواظ جعظري مستكبر أخرجاه في الصحيحَيْن وبقية الجماعة إلا أبا داود . والزنيم في لغة العرب : هو الدعي في القوم ومنه قول حسان بن ثابت يذم بعض كفار قريش :

« وأنت زنيم نيط في آل هـاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد»

وعن عكرمة قال : يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزنماء. والزنماء من الشياه: التي في عنقها هنتان معلقتان في حلقها . قال البخاري: رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها . وقوله تعالى : ﴿ أن كان ذا مالٍ وبنين . إذا تتلى عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأوّلين ﴾ يقول تعالى: هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين كفر بآيات الله عزّ وجل وأعرض عنها، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين . كقوله تعالى: ﴿ ذرني ومن خلقت وحيدا * وجعلت له مالاً ممدوداً * وبنين شهوداً ﴾ – إلى قوله تعالى – ﴿ فقال إن هذا إلاّ سحر يؤثر * إن هذا إلاّ قول البشر * سأصليه سقر ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ قال ابن جرير : سنبين أمره بياناً واضحاً حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم كما لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم . وعن ابن عباس : أي يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف في القتال وقال آخرون يعني سنسمه سمة أهل النار . ولا مانع من اجتماع الجميع في الدنيا والآخرة . وعن عبدالله بن عمر من بعض حديث له مرفوعاً ٤٩٤ [... ومن مات همازاً لمازاً ملقّباً للناس كان علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم من كلا الشفتين] .

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ * (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * (٢٠) فَتَنَادَوْا

مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدي اليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعمة الجسيمة، وهو بعثه محمد ﷺ إليهم. فقابلوه بالتكذيب، والرد والمحاربة. ولهذا قال تعالى : ﴿ إنّا بلوناهم ﴾ أي اختبرناهم ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿ إذ أقسموا ليصرمُنّها مصبحين ﴾ أي حلفوا فيما بينهم ليجذنّ ثمرها لئلا يعلم بهم فقير، ليتوفّر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ﴿ ولا يستثنون ﴾ أي فيما حلفوا به، ولهذا حنثهم الله في أيمانهم. فقال تعالى: ﴿ فطاف عليها طائف من ربّك وهم نائمون ﴾ أي أصابتها آفة سماوية ﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ أي كالهشيم . وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٩٥ [إياكم والمعاصي إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هُيّيء له] ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ فطاف عليها طائف من ربّك وهم نائمون فأصبحت كالصريم ﴾ فحرموا خير جنّتهم بذنبهم .

﴿ فتنادوا مصبحين ﴾ أي نادى بعضهم بعضاً ليقطعوا ثمرهم ﴿ أنِ اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ أي تريدون القطع . قال مجاهد : كان حرثهم عنباً ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون ﴾ أي بحيث لا يُسمع كلامهم ، وفسّر الله ما كان يتخافتون به فقال تعالى : ﴿ أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين ﴾ أي لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم. قال الله تعالى: ﴿ وغدوا على حرد ﴾ أي على قوّة وشدة وجد وغيظ. ﴿ قادرين ﴾

أي عليها فيما يزعمون ويرومون ﴿ فلما رأوها قالوا إنّا لضالون ﴾ أي وصلوها وجدوا أنها استحالت مدهمّة سوداء لا يُنتفعُ بشيء منها وأدركوا خطأهم . ولهذا قالوا : ﴿ إنا لضالون ﴾ أي تهنا عن طريقها ثم تيقنوا أنها هي .. فقالوا : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ لا حظّ لنا فيها ولا نصيب ﴿ قال أوسطهم ﴾ أي أعدلهم وخيرهم ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ أي تقولون : إن شاء الله ، وقيل : هلاّ تسبّحون الله وتشكرونه على ما أنعم عليكم ﴿ قالوا سبحان ربنا إنّا كنّا ظالمين ﴾ أي ندموا حيث لا ينفع الندم ولهذا قالوا : ﴿ إنّا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً على ما فرطوا من جانب الفقراء واعترفوا بخطيئتهم ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنّا طاغين ﴾ أي معتدين باغين فأصابنا ما أصابنا .

﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنّا إلى ربنا راغبون ﴾ قيل احتسبوا ثوابها في الآخرة وذكر بعض السلف إن هؤلاء من أهل اليمن من قرية اسمها (ضروان) على ستة أميال من صنعاء . وقيل كانوا من أهل الحبشة . فلما عزموا على فعلهم ومنع الفقراء عنها ، عوقبوا بنقيض قصدهم فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية : رأس المال والربح والصدقة ، فلم يبق لهم شيء قال الله تعالى ﴿ كذلك العذاب ﴾ أي هكذا عذاب من خالف امر الله وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ، ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات ، وبدل نعمة الله كفراً . ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ أي عذاب الآخرة أشق وقد ورد عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ : ٣٩٦ [نهى عن الجذاذ بالليل والحصاد بالليل]

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ ۞ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۞ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۞ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۞ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۞ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۞ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۞ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ۞ (٤١)

(١) قلت : وفي تفسير الجلالين : « أي راغبون ليقبل توبتنا ويرد علينا خيراً من جنتنا . وروي أنهم أبدلوا خيراً منها » .

لما ذكر تعالى أهل الجنة الدنيوية التي أفناها الله بما خالفوا أمره ، ناسب أن يبيّن أن لمن اتقاه وأطاعه جنات النعيم في الآخرة ، لا تبيد ولا تفرغ ، ولا ينقص نعيمها. ثم قال تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ أي أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء ... ؟ كلا .. ولهذا قال : ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ أي كيف تظنون ذلك ؟

ثم قال تعالى : ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون إنّ لكم فيه لما تخيّرون ﴾ أي أفبأيديكم كتاب منزل من السماء يتضمن حكم ما تدّعونه ؟ ﴿ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة ؟ إن لكم لما تحكمون ﴾ أي أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة، وسيحصل لكم ما تريدون وتشتهون . ﴿ سلهم أيّهم بذلك زعيم ﴾ أي من هو الكفيل بهذا ؟ ﴿ أم لهم شركاء ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۞ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ۞ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۞ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۞ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ۞ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۞ (٤٧) ﴾

لما ذكر تعالى ان للمتقين عند ربهم جنات النعيم ، بيّن متى ذلك كائن وواقع فقال تعالى : ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ يعني يوم القيامة وما يكون فيه من الزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام . وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ٤٩٧ [يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً.] ورواه غيره من طرق وقوله تعالى : ﴿ خاشعةً أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾ أي في الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه. ولما دعوا إلى السجود في الدنيا، فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة . إذا تجلى الرب عز وجل فيسجد له المؤمنون ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد ، كما كانوا في الدنيا . بخلاف ما عليه

المؤمنون. ثم قال تعالى: ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ يعني القرآن. وهذا تهديد شديد. أي دعني وإياه أنا أعلم به منه كيف استدرجه وأمده في غيه، وأنظره ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر. ولهذا قال سبحانه: ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ أي وهم لا يشعرون. بل يعتقدون أن ذلك كرامة من الله. وهو في حقيقة الأمر إهانة. كما قال تعالى: ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ ولهذا قال ها هنا ﴿ وأملي لهم إن كيدي متين ﴾ أي وأؤخرهم وأمدهم وذلك من كيدي ومكري بهم. ولهذا قال تعالى: ﴿ إن كيدي متين ﴾ أي عظيم لمن خالف أمري وكذب رسلي واجترأ على معصيتي. وفي الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: ٤٩٨ [إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته] ثم قرأ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ وقوله تعالى: ﴿ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ أي إنك يا محمد تدعوهم إلى الله عز وجل بلا أجر تأخذه منهم. بل ترجو ثواب ذلك عند الله تعالى وهم يكذبون بما جئتهم به، بمجرد الجهل والكفر والعناد.

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ❁ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ❁ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ❁ (٥٠) وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ❁ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ❁ (٥٢) ﴾

يقول تعالى: ﴿ فاصبر ﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم، فإن الله سيحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ يعني ذا النون وهو يونس بن متى عليه الصلاة والسلام، حين ذهب مغاضباً على قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر. والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار، وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير الذي لا يرد ما أنفذه من التقدير، حينئذ نادى في الظلمات: ﴿ أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ قال الله تعالى: ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ وقال تعالى:

﴿ فلولا أنه كان من المسبّحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ وقال ههنا : ﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾ أي هو مغموم مكروب ، وفي الحديث ٤٩٩ [إنه لما قال ﴿ لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين ﴾ خرجت الكلمة تحنّ حول العرش فقالت الملائكة : يا ربّ هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال تبارك وتعالى : أما تعرفون هذا ؟ قالوا : لا . قال : هذا يونس ، قالوا يا ربّ عبدك الذي لا يزال يرفع له عمل صالح ودعوة مجابة ؟ قال نعم . قالوا : أفلا ترحم ما كان يعمله في الرخاء فتنجيه من البلاء . فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء] ولهذا قال تعالى : ﴿ فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾ وروى أحمد عن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٠٠ [لا ينبغي لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى] ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري وفي الصحيحَين من حديث أبي هريرة . وقوله تعالى : ﴿ وإنْ يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾ أي يحسدونك لبغضهم إيّاك لولا وقايته لك وحمايته إيّاك منهم . وفي هذه الآية : دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حقٌ بأمر الله عز وجل كما وردت بذلك الأخبار والأحاديث المروية من طرق كثيرة .

روى ابو داود في سننه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٠١ [لا رقيــة إلاّ من عين أو حُمَة أو دم لا يرقأ] . روى ابن ماجه عن بريدة بن الحصيب قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٠٢ [لا رُقية إلاّ من عين أو حُمَــة] وقد أخرجه مسلــم في صحيحه . عن حابس التميمي أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول ٥٠٣ [لا شيء في الهام ، والعين حقٌ ، وأصدق الطيرة الفألُ] ورواه الترمذي وقال غريب . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٠٤ [العين حقٌ ، ولو كان شيء سابق القدَر لسبقت العين وإذا استُغْسلتُم فاغسلوا] . وعن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يُعوِّذُ الحسنَ والحسينَ يقول : ٥٠٥ [أعيذكما بكلمات الله التامّة ، من كل شيطان وهامّة ، ومن كــل عين لامّة . ويقول : هكذا كان إبراهيم ﷺ يعوذ إسحاق وإسماعيل عليهما السلام] .

وقوله تعالى : ﴿ ويقولون إنّه لمجنون ﴾ أي يزدرونه بأعينهم ــ لعنهم الله ــ ويؤذونه بألسنتهم ويقولون انه لمجنون ، أي لمجيئه بالقرآن قال الله تعالى : ﴿ وما هو إلاّ ذكر للعالمين ﴾ .

آخر اختصار تفسير سورة القلم والحمد لله وله المنّة وبه العصمة

(٦٩) سُورَةُ الحَاقَّةِ مكيّة وآياتها اثنتان وخمسون

نزلت بعد سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نصف الحزب

ٱلْحَاقَّةُ ۝ (١) مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝ (٣)
كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِٱلْقَارِعَةِ ۝ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝ (٥)
وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ
لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ
خَاوِيَةٍ ۝ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۝ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ
قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ
أَخْذَةً رَابِيَةً ۝ (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى ٱلْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ۝ (١١)
لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ۝ (١٢)

الحاقة من أسماء يوم القيامة لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد. ولهذا عظّم الله أمرها فقال ﴿ وما أدراك ما الحاقّة ﴾ ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها . فقال تعالى: ﴿ فأمّا ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ وهي الصيحة التي أسكتتهم ، والزلزلة التي أسكنتهم . ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر ﴾ أي باردة ﴿ عاتية ﴾ شديدة الهبوب حتى نقبت افئدتهم بغير رحمة ﴿ سخّرها عليهم ﴾ أي سلطها عليهم ﴿ سبع ليال وثمانية أيام

حسوماً ﴾ أي كوامل متتابعات مشائيم عليهم. كقوله تعالى ﴿ في أيام نحسات ﴾ ويقال إنها التي تسميها الناس « الأعجاز » في آخر الشتاء . وكأنهم اخذوا ذلك من قوله تعالى : ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ قال ابن عباس ﴿ خاوية ﴾ خربة أي جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتاً على أم رأسه ، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان . وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال ٥٠٦ [نُصِرتُ بالصبا وأهلكت عادُ بالدبور] ﴿ فهل ترَى لهم من باقية ؟ ﴾ أي هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم، بل بادوا عن آخرهم، ولم يجعل الله لهم خلفاً . ثم قال تعالى : ﴿ وجاء فرعون ومن قبله ﴾ أي ومن قبله من الأمم المشبهين له . وقوله تعالى : ﴿ والمؤتفكات ﴾ وهم الأمم المكذبون بالرسل ﴿ بالخاطئة ﴾ وهي التكذيب بما أنزل الله وقال مجاهد بالخطايا: ولهذا قال تعالى: ﴿ فعصوا رسولِ ربهم ﴾ وهذا جنس . أي كلٌّ كذب رسول الله إليهم .كما قال تعالى : ﴿ إنْ كلٌّ كذّب الرسل فحقَّ وعيد ﴾ ومن كذّب برسول فقد كذّب بالجميع. كما قال تعالى: ﴿ كذّبت قوم نوحٍ المرسلين ﴾ ﴿ كذّبت عادٌ المرسلين ﴾ ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾ وإنما جاء إلى كل أمةٍ رسول واحد. ولهذا قال: ﴿ فعصَوْا رسولَ ربهم فأخذهم أخذةً رابية ﴾ أي عظيمة شديدة أليمة . ثم قال تعالى : ﴿ إنّا لما طغى الماء ﴾ أي زاد على الحد بإذن الله بسبب دعوة نوح عليه السلام على قومه حين كذبوه وخالفوه فعبدوا غير الله، فاستجاب الله له وعمّ أهل الأرض بالطوفان، إلاّ من كان مع نوح في السفينة. فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته. ﴿ حملناكم في الجارية ﴾ وهي السفينة الجارية على وجه الماء ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ﴾ أي وأبقينا لكم من جنسها . ما تركبون على تيار الماء في البحار .

﴿ وتعيها أذنٌ واعيةٌ ﴾ أي وتفهم هذه النعمة وتذكرها أُذُنٌ حافظةٌ سامعةٌ عقلت عن الله فانتفعتْ بما سمعتْ من كتاب الله .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۞ (١٣) وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۞ (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۞ (١٥) وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۞ (١٦) وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ۞ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۞ (١٨) ﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة ، وأول ذلك نفخة الفزع . ثم يعقبها نفخة الصعق ، حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله . ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور وهي هذه النفخة ، وقد أكّد ها هنا بانها واحدة لأن أمر الله لا يخالفُ ولا يمانِعُ ولا يحتاجُ إلى تكرارٍ ولا تأكيدٍ . وقال الربيع هي النفخة الأخيرة والظاهر ما قلناه ولهذا قال ها هنا ﴿ وحملتِ الأرض والجبال فدكّتا دكة واحدةً ﴾ أي فمدّت مدَّ الأديم وتبدلت الأرض غيرَ الأرض ﴿ فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ أي قامت القيامة ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذٍ واهية ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ .

﴿ والملَك على ارجائها ﴾ الملك اسم جنس أي الملائكة على أرجاء السماء أي أطرافها وقوله تعالى : ﴿ ويحمل عرشَ ربّك فوقهم يومئذٍ ثمانيةٌ ﴾ ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العظيم أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيـامة لفصل القضاء، والله أعلم. وروى ابنُ أبي حاتم بسنده إلى جابر قال: قال رسول الله ﷺ ٥٠٧ [أذِنَ لي أن أحدثكم عن ملَك من حملة العرش بُعدُ ما بين شحمة أذنه وعنقه مخفق الطير سبعمأة عام] وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات وقد رواه أبو داود في كتاب السنَّة من سننه . وعن العباس ابن عبد المطلب رضي الله عنه، في ذكر حمَلَةِ العرش أنّهم ثمانيةُ أو عالٍ . وعن سعيد بن جبيرٍ أنها ثمانيةُ صفوف من الملائكة وكذا عن ابن عباس . وقوله تعالى : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ أي تعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالمٌ بالظواهر والسرائر والضمائر. ولهذا قال تعالى : ﴿ لا تخفى منكم خافيةٌ ﴾ .

قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه : (حاسبوا أنفسَكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزَنوا ، فإنه أخفُّ عليكم في الحساب غداً أن تحاسِبوا أنفسَكم اليوم وتزّينوا للعرض الأكبر ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾) . وروى الإمام أحمد بسنده إلى أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ ٥٠٨ [يعرض الناس يوم القيامـة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله] .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * (٢٤) ﴾

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك ، وانه من شدة فرحه يقول لمن لقيه ﴿ هاؤمُ اقرأوا كتابيه ﴾ أي خذوا اقرأوا كتابيه لأنه يعلم أنّ فيه خيراً وحسناتٍ محضةً ، لأنه ممَّن بدل الله سيئاتِه حسنات ومعنى هاؤم ، أي هاكم .

وفي الصحيح حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ٥٠٩ [يدني الله العبدَ يوم القيامة فيقرره بذنوبه كلها حتى اذا رأى أنه قد هلك قال الله تعالى: إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه . وأما الكافرُ والمنافق فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربّهم ألا لعنة الله على الظالمين] وقوله تعالى : ﴿ إني ظننتُ أني ملاقٍ حسابيه ﴾ أي قد كنت موقناً في الدنيا أن هذا كائن لا محالة. كما قال تعالى : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ فهو في عيشةٍ راضية ﴾ أي مرضية ﴿ في جنةٍ عاليةٍ ﴾ أي رفيعة قصورُها ، حسانٌ حورُها ، نعيمةٌ دورُها ، دائمٌ حبورُها .

وعن أبي حاتم بسنده إلى أبي أمامة قال سأل رجل رسول الله ﷺ ٥١٠ [هل يتزاور أهل الجنّة؟ قال : نعم إنّه ليهبط أهل الدرجة العليا إلى أهل الدرجة السفلى ، فيحيّونهم ويسلمون عليهم ، ولا يستطيع أهلُ الدرجة السفلى يصعدون إلى الأعلين تقصر بهم أعمالهم.] وقد ثبت في الصحيح ٥١١ [أن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتَين كما بين السماء والأرض] وقوله تعالى : ﴿ قطوفها دانية ﴾ قال البراء بن عازب : (أي قريبة يتناولها أحدُهم وهو نائمٌ على سريره وكذا قال غير واحد .

وروى الضياءُ بسنده إلى سلمان عن رسول الله ﷺ قال ٥١٢ [يعطى المؤمن جوازاً على الصراط : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لفلان ادخلوه جنةً عاليةً قطوفُها دانية .] وقوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ أي يقال لهم ذلك تفضلاً عليهم وامتناناً وإنعاماً وإحساناً. وإلاّ فقد ثبت في الصحيح : عن

رسول الله ﷺ انه قال : ٥١٣ [اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً منكم لن يدخله عملُه الجنّة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلاّ ان يتغمدني الله برحمةٍ منه وفضل »] .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۞ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۞ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۞ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ۞ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۞ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۞ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۞(٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۞ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۞ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۞ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۞ (٣٧) ﴾

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا اعطي أحدُهم كتابَه في العرصات بشماله ، فحينئذٍ يندم غايةَ الندم ﴿ فيقول يا ليتني لم أوتَ كتابيه . ولم أدرِ ما حسابيَه . يا ليتَها كانت القاضيةَ ﴾ قال الضحاك أي موتة لا حياة بعدها ﴿ ما أغنَى عني ماليَه ۔ هلكعني سلطانيه ﴾ أي لم يدفعْ عني لا مالي ولا جاهي العذاب عذاب الله وبأسه بل خلص الأمر إليَّ وحدي فلا معينَ ولا مجير.فعندها يقول الله عز وجل : ﴿ خذوه فغلُّوه . ثم الجحيم صلّوه ﴾ أي يأمر الزبانيةَ أنتأخذَه عنفاً من المحشر فتغلّـه ، أيتضع الأغلال فيعنقه ثم تورده إلى جهنم فتغمره فيها . وقوله تعالى : ﴿ ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذِراعاً فاسلكوه ﴾ قال كعب الأحبار : كل حلقة منها قدر حديد الدنيا.قال ابن عباس ﴿ فاسلكوه ﴾ تدخل في أسته ثم تخرج من فيه، ثم ينظمون كما ينظم الجراد في العود حين يُشوَى . وقوله تعالى : ﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أي لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ولا ينفع خلقَه ، ويؤدي حقَهم ، فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وللعباد بعضهم على بعضهم حق الإحسان، والمعاونة على البر والتقوى . ولهذا

أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . وقُبض النبي ﷺ وهو يقول : ٥١٤ [الصلاة ، وما ملكت أيمانكم] وقوله تعالى : ﴿ فليس له اليوم ها هنا حميم ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلاّ الخاطئون ﴾ أي ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله تعالى لا حميم وهو القريب ، ولا شفيع يطاع ، ولا طعام له ههنا إلاّ من غسلين وهو صديد أهل النار .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۞ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۞ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ۞ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۞ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ (٤٣) ﴾

يقول تعالى مقسماً لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته ، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم : إن القرآن كلامُه ووحيُه وتنزيله على عبدهِ ورسولهِ الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة . فقال تعالى : ﴿ فلا أقسم بما تُبصرون وما لا تبصرون ۞ إنه لقول رسولٍ كريم ﴾ يعني محمداً ﷺ أضافه إليه على معنى التبليغ ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل . ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكّرون ﴾ .

روى الإمام أحمد بسنده إلى عمرَ بن الخطاب قال (خرجت أتعرَّضُ رسول الله ﷺ قبل أن أُسلِمَ فوجدتُه قد سبقَني إلى المسجد فقمت خلفَه فاستفتَح سورة الحاقّـة فجعلت أعجَب من تأليف القرآن قال : فقلت هذا والله شاعر كما قالت قريش ، قال فقرأ : ﴿ انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ﴾ قال فقلت كاهن قال : فقرأ : ﴿ ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين . ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ إلى آخر السورة قال فوقع الإسلام في قلبي كل موقع) فهذه من جملة الأسباب التي جعلها الله تعالى مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما أوردنا كيفية إسلامه في سيرته المفردة . ولله الحمد والمنة .

* * *

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۞ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ
بِٱلْيَمِينِ ۞ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۞ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ
عَنْهُ حَاجِزِينَ ۞ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۞ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ
مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۞ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ۞ (٥٠) وَإِنَّهُ
لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۞ (٥١) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۞ (٥٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولو تقوّل علينا ﴾ أي محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفترياً علينا فزاد في الرسالة أو أنقص منها ، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة . ولهذا قال تعالى : ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ لانتقمنا منه باليمين لأنها أشد في البطش ﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ وهو نياط القلب أي العِرْق المعلق فيه القلب وقوله تعالى : ﴿ فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ﴾ أي فما يستطيع أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه ، والمعنى : بل هو صادق بار راشد لأن الله عز وجل مقرر له ما يبلغه عنه ومؤيد له بالمعجزات الباهرات .

ثم قال تعالى : ﴿ وانه لتذكرة للمتقين ﴾ يعني القرآن كما قال تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هُدَى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمي ﴾ ثم قال ﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذّبين ﴾ أي مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم من يكذب بالقرآن ثم قال تعالى : ﴿ وإنّه لحسرة على الكافرين ﴾ أي ان القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين ﴿ وإنّه لحق اليقين ﴾ أي انه الخبر الصدق الحق الذي لا شك فيه ثم قال : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أي الذي أنزل هذا القرآن العظيم .

آخر اختصار تفسير سورة الحاقة والحمد لله وله المنة

(٧٠) سُورة المعارج مكيّة وآياتها أربع وأربعون

نزلت بعد سورة الحاقّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * (٢) مِنَ ٱللهِ ذِي ٱلْمَعَارِجِ * (٣) تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * (٤) فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا * (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * (٦) وَنَرَاهُ قَرِيباً * (٧) ﴾

﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ تقديره استعجل سائل بعذاب واقع .كقوله تعالى ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ﴾ أي عذابه واقع لا محالة وهو سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم. وقوله تعالى : ﴿ واقع للكافرين ﴾ أي مرصد معدٌّ للكافرين ﴿ ليس له دافع ﴾ أي لا دافع له إذا أراد الله كونه.ولهذا قال تعالى : ﴿ من الله ذى المعارج ﴾ أي العلو والدرجات،وقال مجاهد : معارج السماء ، وقوله تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ قال قتادة : تعرج تصعد ﴿ والروح ﴾ يحتمل ان يكون المراد به جبريل ويكون من باب عطف الخاص على العام .

وقوله تعالى : ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قيل انها المسافة ما بين سابع سماء إلى سابع أرض ، فقد روى ابن ابي حاتم عن ابن عباس انه قال : منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات خمسين الف عام وقيل أن المراد

بذلك يوم القيامة . وذلك مروي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال هو يوم القيامة ، واسناده صحيح .

وقد وردت أحاديث في معنى ذلك ومنها :

ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٥١٥ [من كانت له إبل لا يعطي حقها في نجدتها ورسلها قلنا يا رسول الله ما نجدتها ورسلها؟ قلنا : يا رسول الله ما نجدتها ورسلها ؟ قال « في عسرها ويسرها فانها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وآشره حتى يبطح لها بقاع قرقر ، فتطؤه بأخفافها فإذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله ..] ثم ذكر البقر والغنم إذا لم يعطَ حقها تطأه كلُّ ذات ظلف .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥١٦ [ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه إلا جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدّون . ثم يُرى سبيله إما إلى الجنة واما إلى النار ..ـ وذكر بقية الحديث في الغنم والإبل كما تقدم ـ . وفيه:«الخيل لثلاثة لرجل أجر ، ولرجل ستر وعلى رجل وزر » إلى آخره ...»]

ورواه مسلم في صحيحه بتمامه منفرداً دون البخاريّ من حديث سهيل عن أبيه عن أبي هريرة . والغرض من إيراده ههنا قوله ﷺ : « حتى يحكمَ الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . أي تأييداً لمن قال : آنه يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك ، واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه. كقوله ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾ ولهذا قال : ﴿ إنهم يرونه بعيداً ﴾ أي وقوع العذاب ، وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع بمعنى مستحيل الوقوع ﴿ ونراه قريباً ﴾ أي يعتقده المؤمنون قريباً وإن كان أمده لا يعلمه إلاَّ الله ، إنّما هو قريب واقع لا محالة .

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَاءُ كَٱلْمُهْلِ ۝ (٨) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ۝ (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝ (١١) وَصَاحِبَتِهِ

وَأَخِيهِ ۞ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُئْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ ۞ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ۞ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۞ (١٦) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۞ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ۞ (١٨)

يقول تعالى العذاب واقع بالكافرين : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ أي ككدر الزيت . ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ أي كالصوف المنفوش . وقوله تعالى : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً يبصّرونهم ﴾ أي لا يسأل القريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوإ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره ، ويفر بعضهم من بعض. كقوله تعالى : ﴿ يوم يفر المرءُ من أخيه . وأمّه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه كلا ... ﴾ أي لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض وملئها ذهباً أو من ولده وماله يود إذا رأى أهوال القيامة أن يفتدي نفسه ولا يقبل منه .

﴿ وفصيلته ﴾ قبيلته وعشيرته وقوله تعالى ﴿ كلا إنها لظَى ﴾ شدة حر النار ﴿ نزّاعة للشوَى ﴾ أي تنزع جلدة الرأس وما دون العظم من اللحم وأطراف اليدين والرجليْن ومكارم الوجه وتبري اللحم والجلد عن العظم . اللهمَّ نعوذ بمعافاتك من عقوبتك

وقوله تعالى : ﴿ تدعو من أدبر وتولىّ . وجمع فأوعىَ ﴾ أي تدعو النارُ من عمل لها في الدنيا يوم القيامة بلسانٍ طلقٍ ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطيرُ الحب وذلك إنهم كما قال تعالى كانوا ممن أدبر وتولىّ أي كذب بقلبه وترك العمل بجوارحه ﴿ وجمع فأوعىَ ﴾ أي جمع المالَ وربط عليه ومنع حق الله منه في الزكاة والصدقات وقد ورَد الحديث ٥١٧ [ولا توعي فيوعي الله عليك] وكان عبد الله بن عكيم لا يربط له كيساً ويقول : سمعت الله يقول : ﴿ وجمع فأوعى ﴾ .



إِنَّ ٱلْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ۞ (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً ۞ (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعاً ۞ (٢١) إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۞ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۞ (٢٣) وَٱلَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ

مَعْلُومٌ ۞ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۞ (٢٥) وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۞ (٢٦) وَٱلَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۞ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۞ (٢٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۞ (٢٩) إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ (٣٠) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۞ (٣١) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۞ (٣٢) وَٱلَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ۞ (٣٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ۞ (٣٥)

يخبر تعالى عن الإنسان وما هو مجبولٌ عليه من الأخلاق الدنيئة ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ﴾ ثم فسره بقوله ﴿ اذا مسّه الشر جزوعاً ﴾ أنْ ينخلعَ قلبُه من شدة الرعب وأَيسَ من الخير. ﴿ وإذا مسّه الخيرُ منوعاً ﴾ إذا غني بخلَ ومنعَ حق الله الذي لعباده . وروى أحمد عن أبي هريرة يقول:قال رسول الله ﷺ : ٥١٨ [شر ما في رجلٍ شح هالعٌ وجبن خالع] ورواه أبو داود ثم قال تعالى : ﴿ إلا المصلّين الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ أي الذين يحافظون على أوقاتها وواجباتها والسكون والخشوع فيها ومنه الماء الدائم الساكن الراكد . وهذا يدل على وجوب الطمأنينة في الصلاة فالذي لا يطمئن في ركوعه وسجوده ــ واعتداله وجلوسه ــ فليس بدائم على صلاته .

وقوله تعالى : ﴿ والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم ﴾ أي في أموالهم نصيبٌ مقررٌ لذوي الحاجات . ﴿ والذين يصدقون بيوم الدين ﴾ أي يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب . ولهذا قال تعالى : ﴿ والذين هم من عذاب ربِّهم مشفقون ﴾ أي خائفون وجلون ﴿ ان عذاب ربهم غير مأمون ﴾ أي لا يأمنه إلاّ الذين نفذوا أمر الله . وقوله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ أي يكفونها عن الحرام ﴿ إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ أي من الإماء ﴿ فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ وقد تقدم تفسير

هذا في أول سورة ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ أي اذا أتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا. وهذه صفات المؤمنين وضدّها صفات المنافقين . كما ورد في الحديث الصحيح ٥١٩ [آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذَب ، وإذا وعد أخلف ، واذا اؤتمن خان] . وفي رواية ٥٢٠ [إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر] وقوله تعالى : ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ أي محافظون عليها لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ولا يكتمونها ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ أي على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها ، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها ﴿ أولئك في جنّات مكرَمون ﴾ بأنواع الملاذ والمسار .

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۞ (٣٦) عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۞ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۞ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ۞ (٣٩) فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَارِقِ وَٱلْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ۞ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۞ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۞ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۞ (٤٤) ﴾

ينكر الله على الكفار الذين تفرقوا عن رسول الله ﷺ فِرقاً فِرقاً مع انهم كانوا في زمانه وشاهدوه وما أيّدهُ اللهُ بالمعجزات الباهرات . فيقول الله : ﴿ فما للذين كفروا قبلك مهطعين ﴾ أي نافرين منك منطلقين بسرعة ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ معرضين متفرقين يميناً وشمالاً يقولون : ما قال هذا الرجل ... ؟ وعن جابر بن سمرة

(١) من الآية : ١ – ١٠

٥٢١ [أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حِلَقٌ فقال : « مالي أراكم عزين »] - أي متفرّقين حِلَقاً حِلَقاً - رواه أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم

وقوله تعالى : ﴿ أيطمعُ كلُّ امرىءٍ منهم ان يُدخَلَ جنةَ نعيم . كلا ﴾ أي أيطمع هؤلاء ، والحالة هذه من فِرارهم عن رسول الله ﷺ ، ونفارهم عن الحق أن يدخلوا جنات النعيم...؟! كلاّ بل مأواهم جهنم. ثم قال تعالى مقرراً وقوعَ المعاد والعذاب بهم الذي انكروه واستبعدوا وجوده ، مستدلاً عليهم بالبداءة التي الإعادة أهون منها ، وهم معترفون بها. فقال تعالى : ﴿إنّا خلقناهم مما يعلمون﴾ أي من المني الضعيف. كما قال تعالى ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ ثم قال : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾ أي بخالق السمواتِ والأرض والنجوم التي تبدو من مشارقها وتغيب عن مغاربها وتقرير الكلام أن البعث والنشورَ والحسابَ كلّ ذلك واقعٌ لا محالةَ ولا يمنعه إنكارُكم ولهذا أتى : بـ(لا) في ابتداء القسم ليدل على ان المقسم عليه نفي أي : لا... ليس الأمر كما تزعمون : ﴿ أقسم ... ﴾ [١] وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله الله تعالى ما هو أبلغُ من إقامة القيامة. ولهذا قال : ﴿لَخَلْقُ السموات والأرض أكبرُ من خلق الناس ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . وقـال تعالى : ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلقَ مثلَهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فيكون ﴾ . وقال ههنا : ﴿ فلا أقسمُ برب المشارق والمغارب إنّا لقادرون على أن نبدّل خيراً منهم ﴾ أي يومَ القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أي بعاجزين. كما قال تعالى: ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمعَ عظامَه ؟ بلى قادرين على ان نُسوّيَ بنانَه ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فذرهم ﴾ أي يا محمد ﴿ يخوضوا ويلعبوا ﴾ أي دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ أي فسيعلمون نتائج ذلك ويذوقون الوبال ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نُصُبٍ يوفضون ﴾ أي يقومون من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب، ينهضون سراعاً كأنهم إلى أصنامهم يسرعون أي كأنهم في إسراعهم الى الموقف كما كانـوا في في الدنيا يهرولون إلى أصنامهم يبتدرون أيهم يستلمه أول . وهذا مروي عن مجاهد وغيره . وقوله تعالى : ﴿ خاشعةٌ أبصارُهم ﴾ أي خاضعةٌ ﴿ترهقهم ذِلّةٌ ﴾ في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ ذلك اليوم الذي كانوا يوعَدون ﴾ .

آخر سورة المعارج والحمد لله وله المنة والفضل

(١) قلت : أي نفي مزاعمهم القائلة بأن لا بعث ولا حشر ولا حساب بقوله : لا ... ثم أقسم. وكل ما جاء من الأقسام مسبوقاً بـ «لا» فهو نفي لمزاعم الكفار ... ثم يقسم ...

(٧١) سورة نوح مكية وآياتها ثمان وعشرون

نزلت بعد سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم * (١) قال يا قوم إني لكم نذير مبين * (٢) أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون * (٣) يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون * (٤) ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه ، آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ؛ فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ان أنذرْ قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال يا قوم إني لكم نذير مبين » أي بيّن النذارة ظاهرٌ واضح ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه﴾ أي اتركوا محارمه ﴿ وأطيعونِ ﴾ فيما آمركم وأنهاكم ﴿ يغفرْ لكم من ذنوبكم ﴾ أي إذا فعلتم ما آمركم به وصدقتم رسالتي التي أرسلت بها اليكم، غفرَ لكم ذنوبكم .﴿ ويؤخركم إلى أجلٍ مسمى ﴾ أي يمد في أعماركم [1] ويدرأ عنكم العذاب ، وقوله تعالى : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾ أي

(١) قلت : إن هذا الامتداد لن يزيد على الذي قدره الله في ام الكتاب انما يجعل الله العمر في راحة وهناءة فقوله : « إلى أجل مسمى » يعني المسمى في ام الكتاب .

بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة الذي لا رادّ له ولا مانع لأن الله هو العظيم قاهر كلُّ شيء ، والعزيزُ الذي تدين له المخلوقات .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَاراً * (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً * (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً * (٩) فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَاراً * (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً * (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجاً * (١٦) وَٱللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتاً * (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً * (١٨) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطاً * (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً * (٢٠) ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح ﷺ أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ما لقي من قومه وما صبرَ عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلاّ خمسين عاما ، وما بيّن لقومه ووضّح لهم ، ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم فقال : ﴿ رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ﴾ أي لم أترك دعاءهم في ليل أو نهار، امتثالاً لأمرك وابتغاءً لطاعتك. ﴿ فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ﴾ أي كلّما دعوتهم ليقتربوا من الحق فرّوا منه. ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم ﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه . كما أخبر تعالى : عن كفار قريش : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلّكم تغلبون ﴾ « واستغشوا ثيابهم » أي غطوا رؤوسهم

بها لئلا يسمعوا ما يقول ﴿ وأصرّوا ﴾ أي استمروا على شركهم ﴿ واستكبروا استكبارا ﴾ أي استنكفوا عن الانقياد للحق ﴿ ثم إني دعوتهم جهارا ﴾ أي جهرة ﴿ ثم إني أعلنت لهم ﴾ أي بصوت عالٍ ﴿ وأسررت لهم إسرارا ﴾ أي فيما بينهم وبيني فنوعت عليهم الدعوةَ لتكون أنجحَ فيهم .

﴿ فقلتُ استغفروا ربّكم انه كان غفاراً ﴾ أي توبوا من الشرك ووحّدوه تعالى؛ فمن تاب تاب الله عليه مهما عظمتْ آثامُه. ﴿ يرسلِ السماءَ عليكم مِدْراراً ﴾ أي متواصلة الأمطار ولهذا تستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء [1] وهكذا روي عن أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه أنه صعد المنبر ليستسقي فلم يزد على الاستغفار وقراءة الآيات في الاستغفار ومنها هذه الآية ﴿ فقلت استغفروا ربّكم إنه كان غفّاراً يرسلِ السماء عليكم مِدراراً ﴾ ثم قال : لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر . وقوله تعالى : ﴿ ويمدِدْكم بأموال وبنينَ ويجعلْ لكم جناتٍ ويجعلْ لكم أنهاراً ﴾ هذا وقام الترغيب إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه مدّكم بالمال والبنين وأنبت لكم الزرع ، وأدرَّ لكم الضرع ، ورزقكم الأنهار والجنات. ثم عدل إلى الترهيب فقال : ﴿ ما لكم لاترجون لله وقاراً ﴾ أي عظمةً ولا تخافون نِقمةً ﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ أي تطوّر بكم في خَلْقكم من نطفة إلى علقة ، إلى مضغة . وقوله تعالى : ﴿ ألم ترَوا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ﴾ أي واحدة فوق واحدة ﴿ وجعل القمر فيهنَّ نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ أي فاوت بينهما في الاستنارة فجعل كلاً منهما على حدة ، فعُرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدر القمر منازل وبروجاً وفاوت نورَه فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يشرع في النقص حتى يستسرَّ ليدل على مضي الشهور والأعوام ،كما قال تعالى : ﴿ ... والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾ أي هو الذي خلقكم منها ثم يعيدكم فيها حين موتكم ثم يخرجكم حين البعث والنشور ، كما بدأكم أول مرة . ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً ﴾ أي بسطها ومهّدها وقرَّرها وثبّتها بالجبال الراسيات ﴿ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ أي خلقها لكم لتستقرّوا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها . وكل هذا مما ينبههم

---

(١) قلت : بعد التوبة إلى الله من قبل الناس جميعاً ، والندم على ما فرّطوا من الذنوب ومن هذا دعاء العباس يوم استسقى للناس بعهد عمر فقال : (اللهم إننا نعلم أنك لا تنزل عقاباً إلاّ بذنب ولا ترفعه إلاّ بتوبة وها قد تبنا إليك) .

به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض ونعمه عليهم فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد، لأنه لا نِدّ له ولا كُفءَ ولا صاحبة ولا ولد ولا وزير أو مشير، بل هو العليّ الكبير سبحانه وتعالى .

﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً ۞ (٢١) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً ۞ (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ۞ (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً ۞ (٢٤) ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه أنهى إليه، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيءٌ ، إنه مع البيان المتقدّم ذكره والدعوة المتنوعة ترغيباً وترهيباً ، عصوه وكذّبوه ، واتبعوا الذين غفلوا عن أمر الله ومُتّعوا بمال وولد، وما ذلك إلا استدراجٌ وإنظارٌ لا إكرام. ولهذا قال : ﴿ واتبعوا من لم يزدْه ماله وولده إلاّ خسارا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ومكروا مكراً كبّاراً ﴾ أي باتباعهم لأولئك، لأنهم سوّلوا لهم أنهم على الحق والهدى. كما يقولون لهم يوم القيامة ﴿ بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا ﴾ ولذا قال ههنا ﴿ ومكروا مكراً كبّاراً . وقالوا لا تذرُنّ آلهتكم ولا تذرن وَدّاً ولا سوُاعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾ وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله . روى البخاري بسنده عن ابن عباس : ٥٢٢ [صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ : أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كلاع . وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً ، وسمّوها بأسمائهم ففعلوا ... فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت] . وقوله تعالى : ﴿ وقد أضلوا كثيراً ﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً ، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العربِ والعجم وسائر صنوف بني آدم ، وقد قال الخليل ﷺ في دعائه : ﴿ واجنبني وبنيّ ان نعبد الأصنام ، رب انهن أضْلَلْنَ كثيراً من الناس ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا تزدِ الظالمين إلاّ ضلالا ﴾ دعاءٌ منه على قومه لتمرّدهم وكفرهم وعنادهم كما دعا موسى

على فرعون وملئه في قوله ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ وقد استجاب الله لكل من النبيَّيْن في قومه واغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنصَاراً ۝ (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ۝ (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ۝ (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً ۝ (٢٨) ﴾

يقول تعالى : ﴿ مما خطيآتهم أغرقوا ﴾ أي من إصرارهم على الكفر ومخالفة رسولهم ﴿ أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾ أي نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار ﴿ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾ أي لم يكن لهم مجير من عذاب الله . كقوله تعالى : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم ﴾ أي رحمه الله ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً ﴾ أي لا تترك على وجه الأرض، منهم أحداً، ولا دياراً يسكن داراً. فاستجاب الله له فأهلك من على وجه الأرض حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن أبيه. وقال : ﴿ سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ ونجّى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح عليه السلام وهم الذين أمره الله بحملهم معه . وقوله تعالى : ﴿ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلّوا عبادك بعدهم ﴿ ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفارا ﴾ أي فاجراً في الأعمال ، كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم . ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلاّ خمسين عاما . ثم قال : ﴿ ربِّ اغفر لي ولوالديَّ ولمن دخل بيتي مؤمناً ﴾ أي لكل من دخل بيته مؤمناً روى الامام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ٥٢٣ [لا تصحب إلاّ مؤمناً ولا يأكل طعامك إلاّ تقيّ] ورواه أبو داود والترمذي . وقوله تعالى : ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلاّ تباراً ﴾ هذا دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات وذلك يعم الأحياء منهم والأموات . أما الظالمون فلا تزدهم إلاّ خساراً في الدنيا والآخرة . آخر اختصار تفسير سورة نوح والحمد لله.

(٧٢) سورة الجن مكية وآياتها ثمان وعشرون

نزلت بعد الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم



﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا
سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ۞ (١) يَهْدِي إِلَى ٱلرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ
بِرَبِّنَا أَحداً ۞ (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا
وَلَداً ۞ (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللهِ شَطَطاً ۞ (٤) وَأَنَّا
ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى ٱللهِ كَذِباً ۞ (٥) وَأَنَّهُ كَانَ
رِجَالٌ مِنَ ٱلْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ۞ (٦)
وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ ٱللهُ أَحداً ۞ (٧) ﴾

يقول تعالى آمراً رسول الله ﷺ أن يخبر قومه أنَّ الجن استمعوا القرآن ، فآمنوا به وصدّقوه وانقادوا له ، فقال تعالى : ﴿ قل أوحي إليَّ انه استمع نفر من الجن فقالوا إنّا سمعنا قرآناً عجباً . يهدي إلى الرشد ، أي إلى السداد والنجاح ﴿فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ وقد قدمنا الأحاديث الواردة في ذلك بما أغنى عن إعادته ههنا [١] .

(١) المجلد الرابع سورة الأحقاف تفسير الآية / ٢٩ / .

وقوله تعالى : ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ عن ابن عباس : (جد الله : آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه) قوله تعالى : ﴿ ما اتخذ صاحبةً ولا ولداً ﴾ أي تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد ، أي قالت الجن : تنزّه الربُّ جلَّ جلاله حين أسلموا وآمنوا بالقرآن من اتخاذ الصاحبة والولد . ثم قالوا : ﴿ وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً ﴾ سفيهنا : يعنون إبليسَ. وشططاً: أي ظلماً كبيراً وباطلاً وزوراً . ولهذا قالوا: ﴿ وأنّا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله كذبا ﴾ أي ما حسبنا أن الأنس والجن يتمالؤون على الكذب على الله تعالى في نسبة الصاحبة والولد إليه ، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنّا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وأنّه كان رجال من الإنس يعوذون برجالٍ من الجنّ فزادوهم رهقاً ﴾ أي كنّا نرى أنّ لنا فضلاً على الإنس. لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها ، كما كانت عادة العرب في جاهليتها ، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان . أن يصيبهم بشيء يسوءهم . ولما رأتِ الجن أنّ الإنس يخافون منهم . فازدادوا جرأةً عليهم. وزادوهم أذىً وخوفاً .

وقوله تعالى : ﴿ وأنّهم ظنّوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً ﴾ أي لن يبعث الله بعد هذه المدّة رسولاً .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴿١٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن الجن حين بعث رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن . وكان من حفظه له أن السماء ملئتْ حرساً شديداً وحفظتْ من سائر أرجائها وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلاّ يسترقوا شيئاً من القرآن . فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدري من الصادق . وهذا من لطف الله تعالى بخلقه ، ورحمته بعباده وحفظه لكتابه العزيز . ولهذا قال الجن : ﴿ وأنّا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا. وانا كنا نقعد منها مقاعدَ للسمع فمن يستمعِ الآن يجدْ له شهاباً رصداً ﴾ أي من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً يمحقه ويهلكه ﴿ وأنّا

لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ أي لا ندري أشرٌّ أريد بأهل الأرض أم رشد ، وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل والخير أضافوه إلى الله عز وجل .

وقد ورد في الصحيح ٥٢٤ [والشر ليس إليك] وقد كانت الكواكب يُرمى بها قبل ذلك ، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان كما في حديث العباس : ٥٢٥ [بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ رمى بنجم فاستنار فقال « ما كنتم تقولون في هذا ؟ » فقلنا : كنا نقول : يولد عظيم ، يموت عظيم . فقال: « ليس كذلك، ولكن الله اذا قضى الأمر في السماء ...] وذكر تمام الحديث لا وهذا هو السبب الذي حمل الجنّ على تطلّب السبب في ذلك فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة ، فعرفوا أن هذا الذي حفظت من أجله السماء فآمن من آمن منهم وتمرد في طغيانه من بقي كما تقدم حديث ابن عباس في ذلك عند قوله في سورة الأحقاف ﴿ وإذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ . وقد فزعت الشياطين في ليلة تكاثر فيها رمي الشهب فأتوا إبليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم،فقال:ائتوني من كلّ أرضٍ بقبضةٍ من تراب أشمها فأتوه فشم،فقال : صاحبكم بمكة فبعث سبعةَ نفر من جن نصيبين فقدموا مكّة فوجدوا نبيّ الله ﷺ قائماً يصلي في المسجد الحرام يقرأ القرآن ، فدنوا منه حرصاً على القرآن ثم أسلموا فأنزل الله تعالى أمرهم على رسول الله ﷺ (من كتاب السيرة) .

۞ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ۞ (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ ٱللهَ فِي ٱلارْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً ۞ (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَى ءامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً ۞ (١٣) وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَـٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً ۞ (١٤) وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَكَانُوا

لِجَهَنَّمَ حَطَباً ۞ (١٥) وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً ۞ (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ۞ (١٧)

يخبر تعالى عن الجن أنهم قالوا ﴿ وأنّا منّا الصالحون ومنّا دون ذلك كنا طرائق قدداً ﴾ متفرقة وقوله تعالى : ﴿ وأنّا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا ﴾ اي نعلم قدرة الله حاكمة علينا لا نستطيع ولا غيرنا أن يعجزه ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ﴾ يفخرون بذلك وإنّه لفخرٌ وشرفٌ وصفةٌ حسنةٌ . وقولهم : ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ أي لا يخاف ان ينقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته . كما قال تعالى : ﴿ فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ ﴿ وانّا منّا المسلمون ومنّا القاسطون ﴾ أي منّا المسلم ومنا الجائر عن الحق بخلاف المقسط فإنه العادل ﴿ فمن أسلم فأولئك تحرَّوا رشداً ﴾ أي طلبوا لأنفسهم النجاة ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ أي وقود تسعر بهم .

وقوله تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً لنفتنهم فيه ﴾ أي لو سلكوا طريق الإسلام واستقاموا ﴿ لأسقيناهم ماءً غدقاً ﴾ اي لوسعنا عليهم رزقهم

كقوله تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ وعلى هذا يكون معنى قوله ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أي لنختبرهم كما قال مالك عن زيد بن اسلم : لنبتليهم من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية . وقوله تعالى :

﴿ ومن يُعرضْ عن ذكر ربّه يسلكه عذاباً صَعَداً ﴾ أي عذاباً مشقاً شديداً موجعاً مؤلماً لا راحة معه .

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ۞ (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ۞ (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً ۞ (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً ۞ (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ

أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ۞ (٢٢) إِلَّا بَلَاغاً مِنَ ٱللهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ۞ (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً ۞ (٢٤)

يأمر الله عباده أن يوحّدوه في محال عبادته ولا يدعى معه أحد ولا يشرك به .كما قال قتادة في قوله تعالى ﴿ وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ قال كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم اشركوا بالله؛ فأمر الله نبيَّه ﷺ أن يوحّدوه وحده. وعن عكرمة : نزلت في المساجد كلّها . وقال سعيد بن جبير نزلت في أعضاء السجود أي هي لله فلا تسجدوا بها لغيره وفي الحديث الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ ٥٢٦ [أمرتُ أن أسجدَ على سبعة أعظم على الجبهة – أشار بيده إلى أنفه – واليدين والركبتين وأطراف القدمين .]

وقوله تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ قال قتادة في تفسير هذه الآية : تلبدت الانس والجن على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلاّ أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه وقيل في ذلك ولكن هذا هو الأظهر لقوله بعده : ﴿ قل إنما أدعو ربّي ولا أشرك به أحداً ﴾ أي قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عدوانه ﴿ إنما أدعو ربي ﴾ أي إنما أعبد ربي وحده لا شريك له. واستجير به وأتوكّل عليه. ﴿ ولا أشرك به أحداً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ﴾ أي إنما أنا بشر مثلكم يوحَى إلي، وعبد من عباد الله ليس لي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم . بل المرجع في ذلك كله إلى الله عزّ وجل . وأنه لا يجيرني من الله أحد لو عصيته فإنه لا يقدر على انقاذي من عذابه ﴿ ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ أي لا نصير ولا ملجأ وفي رواية لاوليّ ولا موئل .

وقوله تعالى : ﴿ إلاّ بلاغاً من الله ورسالاته ﴾ أي لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علي . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعصِ الله ورسوله فإنّ له نار جهنم خالدين فيها أبداً ﴾ أي أنا أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم ، خالدين فيها أبداً أي لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها .

وقوله تعالى : ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من اضعف ناصراً وأقل عدداً﴾ أي حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والانس ما يوعدون يوم القيامة ، فسيعلمون يومئذ مَن أضعف ناصراً وأقل عددا ، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى اي بل المشركون لا ناصرَ لهم بالكلية وهم أقل عدداً من جنود الله عز وجل .

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً ❁ (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ❁ (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ❁ (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ❁ (٢٨)﴾

أمر الله رسوله ﷺ أن يبلغ الناس أنه لاعلم له بوقت الساعة ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد ﴿قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً﴾ أي مدةً طويلةً . وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير من الجهلة من انه عليه الصلاة والسلام قال : (لا يؤلِّف تحت الأرض) كذب لا أصل له [1] ولم نره في شيء من الكتب ، ولما سأله جبريل عليه السلام – فيما سأله – :... يا محمد فأخبرني عن الساعة؟ قال ٥٢٧ [... ما المسؤول عنها بأعلم من السائل]

وقوله تعالى : ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلاَّ من ارتضى من رسول﴾ هذه كقوله تعالى : ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلاَّ بما شاء﴾ وهكذا قال ها هنا انه يعلم الغيب والشهادة وأنه لا يَطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا مما أطلعه تعالى عليه ولهذا قال : ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلاَّ من ارتضى من رسول﴾ وهذا يعم الرسول الملكيّ والبشريّ ثم قال : ﴿فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ أي يخصه بمزيد معقباتٍ من الملائكة يحفظونه من أمر الله ويساوقونه على ما معه من وحي

(١) قلت : كأن هذا الحديث المكذوب كان في عهد المفسر الشيخ ابن كثير وقد اختَرعه الكذابون أعداء الإسلام حتى يوهموا الجهلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم متى يوم القيامة ! ! ! ولما مضت الألف ولم تقم الساعة.. اختَرع الكذابون حديثاً آخر «ألّف ولا تؤلّفان» يعني سوف تقوم الساعة قبل الألفين ولكن لا ندري إذا انتهت الألفان ولم تقم الساعة ... هل سيأتي كذاب آخر ! ! ! ويقول : ثن ولا تثلثان ... ؟ ! ! !» إن الله وحده عنده علم الساعة . لا شريك له .

الله ، ولهذا قال : ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالاتِ ربّهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾ وقد اختلف المفسرون في الضمير الذي في قوله ﴿ ليعلم ﴾ إلى من يعود ؟ قيل انه عائد إلى النبي ﷺ بمعنى ليعلم نبيّ الله ان الرسل قد بلغت عن الله وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها وقيل : عن ابن عباس قال : هي معقبات من الملائكة يحفظون النبي ﷺ من الشيطان حتّى يتبيّن الذين أرسل اليهم وذلك حين يقول ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم .

ويحتمل ان يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل وهو قول حكاه ابن الجوزي في «زاد المسير» ، ويكون المعنى في ذلك أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من اداء رسالاته ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ويكون ذلك كقوله تعالى : ﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين ﴾ ولا شك أن الله يعلم الاشياء قبل وقوعها ﴿ وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾

آخر اختصار تفسير سورة الجن ولله الحمد والمنة

(٧٣) سورة المزمل مكية وآياتها عشرون

إلا الآيات ١٠ و ١١ و ٢٠ فمدنية نزلت بعد سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۞ (١) قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ (٢) نِصْفَهُ
أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۞ (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۞ (٤)
إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۞ (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً
وَأَقْوَمُ قِيلاً ۞ (٦) إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً ۞ (٧)
وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۞ (٨) رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ
وَٱلْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً ۞ (٩) ﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ ان يترك التزمّل ، وينهض إلى القيام لربّه عز وجل فكان عليه الصلاة والسلام ممتثلاً أمره تعالى ، وبيّن له ها هنا مقدار ما يقوم به فقال تعالى : ﴿ يا أيها المزّمل﴾ يا أيها النائم المزمّل ﴿ قم الليل إلا قليلاً نصفه أوانقص منه قليلاأو زد عليه ﴾ أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة . أو نقصان قليل لا حرج عليك في ذلك . ﴿ ورتّل القرآن ترتيلاً ﴾ اي اقرأه على تمهل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبّره [1]

(١) قلت : هكذا هو مراد الله تعالى من قراءة القرآن ، إن كان ذلك في الصلاة أو خارجها ، فلا يكون إلاّ على تمهل . ولكننا نرى في زماننا هذا من يقرأ القرآن بسرعة غريبة وبشكل لا يضبط لفظه فضلا عن تدبر معناه من الإمام والمؤتم ، فلا يحصل المستمع على التحقق من الغرض من مراد الله وأمره بالترتيل . وبدهي ألاّ يحصل الفهم؛ فإذا لم يحصل الفهم، لا يمكن العمل به، وإذا فقدالعمل يحصل الزيغ والتشتت فيالآراء =

وكذلك كان يقرأ صلوات الله عليه وسلامه .

وفي صحيح البخاري عن أنس : **٥٢٨** [انه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال : كانت مدّاً ثم قرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ يمد : ﴿ بسم الله ﴾ ويمد ﴿ الرحمن ﴾ ويمد ﴿ الرحيم ﴾ . وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت : **٥٢٩** [كان يقطّع قراءته آية آية .﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . الحمدلله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين.﴾ رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

وفي الحديث : **٥٣٠** [زينوا القرآن بأصواتكم] و **٥٣١** [ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن .] و**٥٣٢** [لقد أوتي هذا ... مزماراً من مزامير آل داود] يعني أبا موسى الأشعري . وقوله تعالى : ﴿ إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ أي ثقيل وقت نزوله من عظمته ، كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه : **٥٣٣** [أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي فكادت ترضُّ فخذي .]

وفي صحيح البخاريّ عن عائشة رضي الله عنها **٥٣٤** [إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيكَ الوحيُ ؟ فقال : « أحياناً يأتي في مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل ليَ الملكُ رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة:ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصّد عرَقاً] هذا لفظه وقوله تعالى : ﴿ إنَّ ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلا ﴾ يُقالُ نَشَأَ إذا قام من الليل ؛ والغرض ان ناشئة الليل هي ساعاته وأوقاته وكل ساعة منها تسمّى ناشئة . وهي الآنات . والمقصود : ان قيام الليل هو أشد مواطأةً بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة ولهذا قال تعالى : ﴿ هي أشد وطأً وأقوم قيلاً ﴾ أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار ، لأنه وقت انتشار الناس .

وقوله تعالى : ﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾ فراغاً وبغية ومتقلباً وهذا حين كانت

= وهذا ما يعانيه المسلمون اليوم حكاماً وشعوباً. حتى وصل الأمر بأئمة المساجد – إلاّ من رحم ربك – أن يتباهوا بالإسراع في القرآن والصلاة ، وخاصة في صلاة التراويح !! فإذا قال أحد الأئمة مثلا : أنا أنهي الثلاث والعشرين ركعة – زعموا– بثلث ساعة ... قال الآخر : بل أنا أنهيها بربع ساعة ... !!؟ كأنها عملية مناقصة !! هذا فضلا عن التكسّب أي بالقرآن وتوجيهه وجهة ما أنزله الله من أجلها، وذلك رغبة بالمال ... ؟!! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **٥٣٥** [... اقرأوه قبل أن يقرأه أقوام يقيمونه كما يقوم السهم يتعجل أجره ولا يتأجله].وما نزل القرآن إلاّ لتنفذ أحكامه ، وتقوم عليه دولة الإسلام .

صلاة الليل فريضةً ثم انّ الله تبارك وتعالى منَّ على عباده فخففها ووضعها . والدليل ما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن سعيد بن هشام (ملخصاً) :

أنه استأذن على عائشة ٥٣٦ [رضي الله عنها ومعه حكيم بن مفلح فقالت : حكيم — وعرفته — قال : نعم . قالت : من هذا الذي معك قال : سعيد بن هشام . قالت من هشام ؟ قال ابن عامر . قال : فترحّمت عليه وقالت : نعمَ المرء كان عامراً قلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلقُ رسول الله ﷺ قالت : ألستَ تقرأ القرآن ؟ قلت بلى . قالت : فإن خـُلُقَ رسول الله ﷺ كان القرآن . فهمَمْتُ أن أقومَ ثم بدا لي قيامُ رسول الله ﷺ . قلتُ:يا أم المؤمنين : أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ قالت : ألست تقرأ هذه السورة : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله واصحابه حولاً ،حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها في السماء اثنى عشر شهراً ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة ...

(وفي هذا الحديث قولهـــا) .... ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن في ليلة حتى أصبح ، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان . فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها فقال : صدقت أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني مشافهةً] . رواه بطوله وتمامه الإمام أحمد وقد أخرجه مسلم في صحيحه عن قتادة . وقال علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ قم الليل إلاّ قليلاً نصفــه أو انقص منه قليلاً ﴾ فشق ذلك على المؤمنين ثم خفّفَ الله تعالى عنهم ورحِمهم فأنزل بعد هذا : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله — إلى قوله — فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ وسع الله تعالى وله الحمد ولم يضيّق .

وقوله تعالى : ﴿ واذكر اسم ربّك وتبتّل إليه تبتيلاً ﴾ أي أكثر من ذكره وانقطع إليه ، وتفرغ لعبادته اذا فرغت من أشغالك وما تحتاج إليه من أمور الدنيا كما قال تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب﴾ أي إذا فرغت من أشغالك فانصب في طاعته لتكون فارغَ البال ﴿ وتبتّل إليه تبتيلاً ﴾ وقال ابن عباس : أي اخلص له العبادة. وقال ابن جرير يقال للعابد متبتّل .

وقوله تعالى : ﴿ ربّ المشرق والمغرب لا إلَه إلاّ هو فاتخذه وكيلاً ﴾ أي هو المالك

المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلاّ هو وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل فاتخذه وكيلاً . كما قال تعالى : ﴿ فاعبده وتوكّل عليه ﴾ (١)

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ۞ (١٠) وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ۞ (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً ۞ (١٢) وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً ۞ (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً ۞ (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ۞ (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ۞ (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيباً ۞ (١٧) ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ۞ (١٨) ﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذّبه من سفهاء قومه، وان يهجرهم هجراً جميلاً وهو الذي لا عتاب معه. ثم قال له متهدّداً لكفّار قومه، ومتوعّداً، وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء . ﴿ وذرني والمكذّبين أولي النعمة ﴾ أي دعني والمكذّبين المترفين أصحاب الأموال ، فإنّهم على الطاعة أقدر من غيرهم ، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم. ﴿ ومهلهم قليلاً ﴾ أي رويداً. كما قال تعالى: ﴿ نمتّعهم قليلاً ثم نضطرُّهم إلى عذاب غليظ ﴾ ولهذا قال ها هنا ﴿ إنّ لدينا أنكالاً ﴾ وهي القيود قاله ابن عباس وغيره . ﴿ وجحيماً ﴾ وهي السعير المضطرمة ﴿ وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً ﴾ وطعاماً ذا غصّة أي ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج. ﴿ وعذاباً أليما . يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ أي تزلزل . ﴿ وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ﴾ أي تصير ككثبان الرمل بعدما كانت حجارةً صمّاء ثم أنها تنسف نسفاً فلا يبقى منها شيء إلاّ ذهب حتى تصير الأرض قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً أي وادياً ولا أمتاً اي رابية ، ومعناه لا شيء ينخفض ولا يرتفع . ثم قال تعالى مخاطباً لكفار قريش والمراد سائر الناس ﴿ إنا أرسلنا

(١) قلت : وهذا دليل على أن التوكل عليه عبادة له سبحانه ومن توكل على غيره فقد عبد من عليه توكل .

إليكم رسولاً شاهداً عليكم ﴾ أي بأعمالكم ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً . فعصى فرعونُ الرسولَ فأخذناه أخذاً وبيلا ﴾ أي شديداً ويحذرهم تكذيب هذا الرسول كيلا يصيبهم ما أصاب فرعون من النكال كما قال تعالى: ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ وأنتم أولى بالهلاك والدمار ان كذّبتم رسولكم ، لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى ابن عمران عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى : ﴿ فكيف تتّقون إنْ كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ أي كيف يحصل لكم أمان من يوم الفزع العظيم إن كفرتم؟ ومعنى قوله : ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ أي من شدّة أهواله وزلازله وهو يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ السماء منفطرٌ به ﴾ أي كان وعد هذا اليوم مفعولاً اي واقعاً لا محالة وكائناً لا محيد عنه .

ربع الحزب

إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى : ﴿ إن هذه ﴾ اي السورة ﴿ تذكرةٌ ﴾ أي يتذكّر بها أولو الألباب . ولهذا قال: ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلاً ﴾ أي ممن شاء الله تعالى هدايته كما قيّد في: السورة الأخرى : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ ثم قال : ﴿ إنّ ربّك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ﴾ أي تارة هكذا وتارةً هكذا من غير قصد منكم ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل لأنه يشق عليكم ولذلك قال : ﴿ والله يقدّر الليل والنهار ﴾ أي تارةً

يعتدلان تارةً يزيدان وينقصان . ﴿ علم أنْ لن تحصوه ﴾ أي الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿ فاقرأوا ما تيسّر من القرآن ﴾ أي من غير تحديد بوقت ولكن قوموا من الليل بما تيسّر وعبّر عن الصلاة بالقراءة. كما قال في سورة «سبحان»﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ أي بقراءتك ﴿ ولا تخافت بها ﴾ وقد استدل الأحناف من قوله : ﴿ فاقرأوا ما تيسر من القرآن ﴾ على عدم وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة فتجزي إن قرأ بها أو بغيرها ، واعتضدوا أيضاً بحديث المسيء صلاته الذي في الصحيحين : ٥٣٧ [ثم اقرأ ما تيسّر معك من القرآن] وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت وهو في الصحيحين ٥٣٨ [أيضاً وهو : لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) [1] قوله تعالى : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون تقاتلون في سبيل الله ﴾ أي أي علم أن سيكون في هذه الأمة ذوو أعذار ، من مرض وسفر ، وشغل في الجهاد . وان هذه الآية من دلائل النبوّة لأنها من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة . لأن الآية مكّيّة، ولم يكن قد شرع القتال بعدُ .

وقوله تعالى: ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ أي قوموا بما تيسر عليكم منه . وقد جاء في الحديث ٥٣٩ [ان رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح فقال : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنه» فقيل نام عن المكتوبة ،وقيل نام عن قيام الليل. وفي السنن: ٥٤٠ [أوتروا يا أهل القرآن] وحديث آخر : ٥٤١ [من لم يوتر فليس منّا] وقوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أي أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة . وقد قال ابن عباس وغيره من السلف : أن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل وقد ثبت في الصحيحَين : ٥٤٢ [أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل : « خمس صلوات في اليوم والليلة » قال علي غيرها ؟ قال: لا ... إلاّ أن تطّوّع] .

وقوله تعالى : ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ يعني من الصدقات فإن الله يجازي على ذلك احسن الجزاء . وقوله تعالى : ﴿ وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ﴾ أي جميع ما تقدّمونه بين أيديكم فهو لكم حاصل ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا . وعن الحارث بن سويد قال: قال عبدالله قال رسول الله ﷺ

---

(١) راجع المجلد الأول عند تفسير سورة الفاتحة – الصفحة ٨ – ٩ و ١٩ ففيه تفصيل ذلك .

٥٤٣ [« أيّكم ما له أحب إليه من مال وارثه ؟ » قالوا يا رسول الله ما منّا من أحد إلاّ ماله أحب إليه من مال وارثه : قال : « إعلموا ما تقولون » قالوا : ما نعلم إلاّ ذلك يا رسول الله قال : « إنّما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر »] ورواه البخاريّ والنسائيّ .

ثم قال تعالى : ﴿ واستغفروا الله ان الله غفور رحيم . ﴾ أي أكثروا من ذكره واستغفاره في أموركم كلها فإنه غفور رحيم لمن استغفره .

آخر اختصار تفسير سورة المزمل والحمد لله

(٧٤) سُورة المدّثر مكيّة وآياتها ستّ وخمسون

نزلت بعد سورة المزّمّل

بسم الله الرّحمن الرّحيم

يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ❁ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ ❁ (٢) وَرَبَّكَ
فَكَبِّرْ ❁ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ❁ (٤) وَٱلرُّجْزَ فَاهْجُرْ ❁ (٥) وَلَا
تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ ❁ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ❁ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ❁ (٨)
فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ❁ (٩) عَلَى ٱلْكَافِرِينَ غَيْرُ
يَسِيرٍ ❁ (١٠)

ثبت في صحيح البخاري عن جابر انه كان يقول : (أول شيء نزل من القرآن : ﴿ يا أيها المدثر ﴾) إنما خالفه الجمهور وقالوا : بل : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ على أن جابراً رضي الله عنه إنما قال قوله ذلك اعتماداً على حديث سمعه من رسول الله ﷺ يقول فيه : ٥٤٤ [جاورت بحراء فلمّا قضيت جواري هبطت فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ونظرت خلفي فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً فأتيت خديجة فقلت دثروني وصبّوا علي ماءً بارداً — قال — فدثروني وصبّوا علي ماءً بارداً ثم قال — فنزلت : ﴿ يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبرّ ﴾] رواه البخاري. وقد رواه مسلم من طريق عقيل ... إلى جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : ٥٤٥ [... فبينا أنا أمشي اذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري قِبَلَ

السماء، فإذا الملَك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجئثتُ منه حتّى هويت إلى الأرض ، فجئت إلى أهلي فقلت زملوني زملوني ، فزملوني فأنزل » ﴿يا أيها المدثر . قم فأنذر — إلى — فاهجر .. ﴾]

وهذا يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا ... لقوله : « فاذا الملك الذي كان بحراء » وهو جبريل حين أتاه بقوله ﴿ اقرأ بسم ربك الذي خلق — إلى — ما لم يعلم ﴾ ووجه الجمع : أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة كما روى الإمام أحمد عن جابر ابن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ٥٤٦ [ثم فتر الوحي عني فترة فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري قبلَ السماء فإذا الملك الذي جاءني قاعد على كرسيّ بين السماء والأرض فجئثتُ منه فرقاً حتّى هويت على الأرض فجئت أهلي فقلت لهم : زملوني زملوني ... فزملوني ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبرّ ، وثيابك فطهرّ . والرجز فاهجر ﴾ ثم حمي الوحي وتتابع] أخرجاه من حديث الزهري به ﴿ قم فأنذر ﴾ . أي انذر الناس وبهذا حصل الإرسال [١] كما حصل بالأول النبوّة [٢] ﴿ وربك فكبر ﴾ أي عظّم . وقوله تعالى : ﴿ وثيابك فطهرّ ﴾ وقيل من الذنوب والمعاصي ، وقيل المقصود طهارة القلب ، وقيل اغسل ثيابك بالماء فقد كان المشركون لا يتطهرون فأمره الله ان يتطهر وأن يطهر ثيابه ، وهذا القول اختاره ابن جرير وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب فإن العرب تطلق « الثياب » على القلب ﴿ والرجز فاهجر ﴾ أي اترك المعصية وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبُّسُه بشيء من ذلك كقوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ أي لا تعطي العطية تلتمس أكثر منها قاله ابن عباس وناس من التابعين . وقوله تعالى : ﴿ ولربك فاصبر ﴾ أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل وقوله تعالى : ﴿ فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ ﴿ الناقور ﴾ الصور قال مجاهد كهيئة القرن لحديث ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ ٥٤٧ [كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ ...] وقوله تعالى : ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير ﴾ أي شديد على الكافرين ﴿ على الكافرين غير يسير ﴾ أي غير سهل عليهم كما قال تعالى : ﴿ يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ ويروى عن زرارة بن أوفى قاضي البصرة انه صلى بهم

(١) أي بسورة « المدثر » .
(٢) أي بسورة « إقرأ » .

الصبح فقرأ هذه السورة فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذٍ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ شهق شهقةً ثم خرَّ ميتاً رحمه الله .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول تعالى متوعداً للوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش لعنه الله. وقد روى ابن عباس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة ، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذْي من الجنون . وان قوله لمن كلام الله . فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا وقالوا : والله لئن صبأ الوليد لتصبو قريش . فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا والله أكفيكم شأنه. فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد: ألم ترَ إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال : ألستُ أكثرهم مالاً وولداً ؟ فقال أبو جهل يتحدثون أنك انما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه . فقال الوليد : أقد تحدَّث به عشيرتي ! فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلاّ سحر يؤثر فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ ﴿ ذرني ومن خلقت وحيدا ـ إلى قوله ـ لا تبقي ولا تذر ـ وقال قتادة زعموا أنه قال : والله لقد نظرت فيما قال الرجل، فإذا هو ليس بشعر، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وانه ليعلو وما يُعلَى عليه، وما أشك أنه سحر... ! ! فأنزل الله ﴿ قتل كيف قدر ﴾ فيقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه

بنعم الدنيا فكفر بأنعم الله وبدّلها كفراً، وقابلها بالجحد بآيات الله والافتراء عليها، وجعلها من قول البشر . وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال: ﴿ ذرني ومن خلقت وحيدا ﴾ أي خرج من بطن أمه وحيدا ، وحده لا مال له ولا ولد ثم رزقه الله تعالى رزقاً عظيماً فقال : ﴿ وجعلت له مالاً ممدوداً ﴾ أي واسعاً كثيراً قيل مائة ألف دينار وقيل أرضاً يستغلها ، وجعل له ﴿ بنين شهوداً ﴾ أي حضوراً عنده لا يسافرون بالتجارات بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم ، وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتملّى بهم . وكانوا فيما ذكره السُّدّي وأبو مالك وعاصم بن عمر وقتادة ثلاثة عشر... وهذا أبلغ في النعمة ﴿ ومهدت له تمهيداً ﴾ أي مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك. ﴿ ثم يطمع أن أزيد كلاّ إنه كان لآياتنا عنيدا ﴾ أي معانداً وهو الكفر بعد العلم . قال الله تعالى : ﴿ سأرهقه صعودا ﴾ روى الإمام أحمد بسنده إلى أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال: ٥٤٨ [ويل : وادٍ في جهنم يهوي به الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره والصعود : جبل من نار يتصعّد فيه الكافر سبعين خريفاً ثم يهوي به كذلك فيه أبدا .] وقوله تعالى : ﴿ إنه فكر وقدّر ﴾ أي تروّى ﴿ فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر ﴾ دعاءٌ عليه ﴿ ثم نظر ﴾ أي أعاد النظرة والتروّي ﴿ ثم عبس ﴾ أي قبض بين عينيه وقطب ﴿ وبسر ﴾ أي كلح وكره . وقوله ﴿ ثم أدبر واستكبر ﴾ أي صرف عن الحقّ ورجع القهقرى مستكبراً عن الانقياد للقرآن . ﴿ فقال إنْ هذا إلاّ سحر يؤثر ﴾ أي هذا سحرٌ ينقله محمّد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم . ولهذا قال: ﴿ إنْ هذا إلاّ قول البشر ﴾ أي ليس بكلام الله . قال تعالى : ﴿ سأصليه سقر ﴾ أي سأغمره فيها. وقال تعالى : ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ تهويل لأمرها . ثم فسّر ذلك بقوله: ﴿ لا تُبقي ولا تذَر ﴾ تأكل أجسادهم جميعاً ثم تبدّل غير ذلك على شكل لا يموتون ولا يحيون . وقوله تعالى : ﴿ لوّاحة للبشر ﴾ أي للجلد فتدعه اسود من الليل. وقوله تعالى: ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ أي من مقدّمي الزبانية عظيم خَلْقُهم غليظ خُلُقُهم .

۞ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ

ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ❁ (٣١) كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ❁ (٣٢) وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ❁ (٣٣) وَٱلصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ❁ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ❁ (٣٥) نَذِيراً لِلْبَشَرِ ❁ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ❁ (٣٧)

يقول تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار ﴾ أي خزنتها ﴿ إلاّ ملائكة ﴾ أي زبانية غلاظاً شداداً ، رداً على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزنة فقال أبو جهل : يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحدٍ منهم فتغلبونهم. فقال الله تعالى: ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلاّ ملائكة ﴾ أي شديدي الخَلق لا يغالَبون ولا يقاومون .

وقوله تعالى: ﴿ وما جعلنا عدتهم إلاّ فتنة للذين كفروا ﴾ أي إنّما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر إختباراً منا للناس. ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ أي يعلمون أن هذا الرسول حق . فإنّه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبلَه . وقوله تعالى ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ أي إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق أخبار نبيّهم محمّد ﷺ . ﴿ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقولَ الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي من المنافقين ﴿ والكافرون ماذا أراد الله بهــذا مثلاً ﴾ أي يقولون ما الحكمة من ذكر هذا ههنا؟ قال الله تعالى : ﴿ كذلك يضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ أي من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة . وقوله تعالى: ﴿ وما يعلم جنود ربّك إلاّ هو ﴾ أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلاّ هو تعالى لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط . كما قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين، ومن شايعهم من الملتين الذين سمعوا هذه الآية، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة، التي اخترعوها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها، فأفهموا صدر هذه الآية، وقد كفروا بآخرها وهو قوله ﴿ وما يعلم جنود ربّك إلا هو ﴾ وقد ثبت في الصحيحيَن وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة: ٥٤٩ [... فإذا

هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم] روى الحافظ أبو القاسم الطبراني بسنده إلى جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ **٥٥٠** [ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلاّ وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع فاذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلاّ انّا لم نشرك بك شيئاً] وقوله تعالى: ﴿ وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾ قال مجاهد وغير واحد ﴿ وما هي ﴾ أي النار التي وصفت ﴿ إلا ذكرى للبشر ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ كلاّ والقمر والليل إذا أدبر ﴾ أي ولىّ ﴿ والصبح اذا أسفر ﴾ أي أشرق ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ أي العظائم يعني النار . قاله ابن عباس وغير واحد من السلف ﴿ نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخر ﴾ أي لمن شاء أن يقبلَ النذارة ويهتدي للحق أو يتأخر عنها ويولّي ويردّها .

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ۝ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ۝ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝ (٥٢) كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ۝ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ۝ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ۝ (٥٦)

يقول تعالى مخبراً أن ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ أي معتقلة بعملها يوم القيامة قاله ابن عباس وغيره ﴿ إلاّ أصحاب اليمين ﴾ فإنهم ﴿ في جنات يتساءلون عن المجرمين ﴾

أي يسألون عن المجرمين وهم في غرفات الجنان ، وأولئك في الدركات قائلين لهم : ﴿ ما سلككم في سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين ﴾ أي ما عبدنا ربنا ولا أحسنّا إلى خلقه من جنسنا ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أي نتكلم فيما لا نعلم . وقال قتادة: كلما غوى غاوٍ غوينا معه. ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين حتّى أتانا اليقين ﴾ يعني الموت. كقوله تعالى : ﴿ واعبد ربك حتّى يأتيك اليقين ﴾ وقال رسول الله ﷺ : ٥٥١ [أما هو – يعني عثمان بن مظعون – فقد جاءه اليقين من ربه][1] قال الله تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ أي من كان متصفاً بمثل هذه الصفات، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة الشافعين . لأن الشفاعة انما تنجح إذا كان المحل قابلاً ، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة، فان له النار لا محالة خالداً فيها . ثم قال تعالى : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ﴾؟ أي فما لهؤلاء الكفرة الذين قِبَلَك عما تدعوهم إليه وتذكّرهم به معرضين. ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة ﴾ أي كأنهم في نفارهم عن الحق، واعراضهم عنه، حمر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد . وقوله تعالى : ﴿ كلاّ إنه تذكرة ﴾ أي حقاً أن القرآن تذكرة ﴿ فمن شاء ذكره وما يذكرون إلاّ أن يشاء الله ﴾ كقوله : ﴿ وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ أي هو أهل أن يخاف منه، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب . قاله قتادة .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ٥٥٢ [قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ وقال : قال ربكم أنا أهل أن أُتقَى فلا يُجعَلُ معي إلهٌ فمن اتقى ان يجعل معي إلهاً كان أهلاً أن أغفر له] رواه أحمد وغيره .

آخر اختصار تفسير سورة المدثّر ولله الحمد

---

(١) قلت : وقوله تعالى : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أي استقم على عبادته كما شرع حتى ينتهي الأجل ويأتيك اليقين أي الموت . وقوله تعالى حكاية عن الكافرين : (وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين) أي كان الكفار يكذبون بالمعاد والبعث وظلوا كذلك حتى أتاهم اليقين أي الموت : وقوله صلى الله عليه وسلم « أما هو – يعني عثمان بن مظعون لما توفي – فقد جاءه اليقين من ربه ، أي جاءه الموت ، كل ما تقدم عن الله والرسول في معنى « اليقين » انه الموت . ولكن ما يزال بين المسلمين – من فرق الأثنتين والسبعين – من يقول : اليقين: هو المعرفة ... وهي معرفة الإنسان نفسه أنه هو الله، فتسقط عنه التكاليف لأنه عرف الحقيقة واتضحت له بأنه هو الله ، فمن يعبد ؟ ! وهل أحد يعبد نفسه ؟ ! وهكذا دخل الشيطان على هؤلاء فأخرجهم عن الإسلام . وإذا سألت من هؤلاء؟ أقول: هم أهل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود اللهم ردهم إلى الحق ، أو عاملهم بما يستحقون .

(٧٥) سورة القيامة مكية وآياتها أربعون

نزلت بعد سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

نصف الحزب

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ
ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ
قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ
أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾
وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ
يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ
ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾
بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه اذا كان منتفياً جاز الإتيان بـ﴿لا﴾ قبل القسم لتأكيد النفي . والمقسم عليه ها هنا ... هو إثبات المعاد والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد. ولهذا قال ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوّامة ﴾ فأقسم الله تعالى بيوم القيامة وبالنفس اللوامة خلافاً لمن قال أنه تعالى أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة . أما يوم القيامة فمعروف ... وأما النفس اللوامة ، لقد اختلف

المفسرون فيها ... فمن قائل : أن المؤمن يلوم نفسه ، وأن الكافر يمضي في الذنوب قُدُماً ما يعاتب نفسه ! وقال آخرون معاني متقاربة والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر (١) وتندم على ما فات قاله ابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ أي يوم القيامة أيظن أنّا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة ... ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ أي أيظن الإنسان أنّا لا نجمع عظامه ؟ بل سنجمعها وقادرين على أن نسوي بنانه أي قدرتنا صالحة لجمعها. وقوله تعالى : ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ أي هو الكافر يكذّب بيوم الحساب قاله ابن عباس . ولهذا قال بعده ﴿ يسأل أيّان يوم القيامة ﴾ أي متى القيامة؟ وإنما سؤاله استبعادٌ لوقوعه وتكذيب لوجوده. كما قال تعالى: ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ وقال تعالى ها هنا : ﴿ فاذا برق البصر ﴾ أي حارَ فينظرون من الفزع هكذا وهكذا لا يستقرُّ لهم بصرٌ على شيء من شدة الرعب والأهوال يومَ القيامة . وقوله تعالى : ﴿ وخسف القمر ﴾ أي ذهب ضوؤه ﴿ وجُمع الشمس والقمر ﴾ قال مجاهد : كوّرا وقوله تعالى : ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ أي يحاول الفرار قائلاً : ﴿ أين المفرّ ﴾ أي هل من ملجأ أو موئل ... ؟ قال الله تعالى : ﴿ كلا لا وزر إلى ربّك يومئذ المستقر ﴾ أي لا نجاة ولا مُعتصم. ولذا قال : ﴿ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ أي المرجع والمصير . ثم قال تعالى : ﴿ ينبّأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر ﴾ أي يخبر بجميع أعماله من أولها إلى آخرها . كقوله تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ وقوله ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ أي هو شهيد على نفسه عالم بفعله ولو اعتذر وأنكر كما قال تعالى : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ وقوله : ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ أي حجته وقال مجاهد: ولو جادل عنها فهو بصير عليها وهذا هو الصحيح، ولكن ﴿ لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ .

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۞ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۞ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۞ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۞ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۞ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۞ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۞ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۞ (٢٣)

---

(١) قلت : قوله تلوم صاحبها على الخير والشر ... أي تلوم صاحبها لمَ لم يستزدْ من فعل الخير ، وتلوم على الشر الذي فعله : ... لمَ فعله ...؟ وتأمره بالندامة على ما فرط ، وبالاستغفار والتوبة النصوح .

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ❁ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ❁ (٢٥)

هذا تعليمٌ الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقّيه الوحيَ من الملَك ، فإنه كان يبادره إلى أخذه ويسابق الملَك في قراءته فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملَك بالوحي أن يستمع له ، وتكفّل الله أن يجمعَه في صدره ، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه . فالحالة الأولى: جمعه في صدره . والثانية : تلاوته . والثالثة : تفسيره وإيضاح معناه . ولهذا قال: ﴿ لا تحرّك به لسانك لتعجل به ﴾ أي بالقرآن . كما قال تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضَى إليك وحيُه وقل رب زدني علماً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إن علينا جمعَه ﴾ أي في صدرك ﴿ وقرآنه ﴾ أي أن تقرأه ﴿ فإذا قرأناه ﴾ أي إذا تلاه عليك الملَك عن الله تعالى ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ أي فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك. ﴿ ثم إن علينا بيانَه ﴾ أي بعد حفظه وتلاوته، نبيّنه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا .

وقوله تعالى : ﴿ كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة ﴾ أي إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزل الله هو: لهوهم عن الآخرة وحبّهم للدنيا. ثم قال تعالى : ﴿ وجوهٌ يومئذ ناضرة ﴾ أي مشرقة مسرورة ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ أي تراه عياناً . كما رواه البخاريّ رحمه الله في صحيحِه : ٥٥٣ [إنكم سترون ربَّكم عيّاناً] وقد تواترت الأحاديث عند أئمة الحديث بما لا يمكن دفعها ولا منعها ؛ لحديث أبي سعيد وأبي هريرة وهما في الصحيحين : ٥٥٤ [أن ناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارّون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ قالوا لا قال : إنكم ترون ربكم كذلك] . وهناك أحاديث أخرى في الصحيحين وغيرهما ... ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان . ولكن ذكرنا ذلك في مواضع متفرقة من هذا التفسير وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف الأمة ، ومن تأوّل النظر إلى الله تعالى بغير ما ذكر رسول الله ﷺ . وفسّره في حديثه الصادق فقد أبعد النجعة : وإن التأويلات من قوله تعالى : ﴿ كلاّ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ قال الشافعي رحمه الله تعالى : ما حجب الفجّار إلاّ وقد علم أن الأبرار يرونه عزّ وجلّ وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دلَّ عليه سياق الآية الكريمة. وهي قوله تعالى : ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ أي تنظر إلى الخالق وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق .

وقوله تعالى : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ هذه وجوه الفجّار تكون يوم القيامة باسرة أي كالحة عابسة . ﴿ تظن ﴾ أي تستيقن ﴿ أن يفعل بها فاقرة ﴾ أي تستيقن أنها هالكة . وهذا المقام كقوله تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ .



﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال - ثبتنا الله هنالك بالقول الثابت - فقال تعالى : ﴿ كلا إذا بلغت التراقيَ ﴾ أي إذا انتزعت الروح من الجسد وبلغت التراقي والتراقي جمع ترقوة وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق ﴿ وقيل من راق ﴾ أي من طبيب شافٍ ومن راقٍ يرقي ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ هما الساقان اذا التفتا في الكفن . وقوله تعالى : ﴿ إلى ربّك يومئذٍ المساق ﴾ أي المرجع والمآب. وذلك أن الروح ترفع إلى السموات، فيقول الله عز وجل: ٥٥٥ [ردّوا عبدي إلى الأرض فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى] . كما ورد في حديث البراء الطويل .

وقوله جل وعلا ﴿ فلا صدّقَ ولا صلّى . ولكن كذّب وتولى ﴾ . هو إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه ، متولّياً عن العمل بقالبه ، فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً . ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطّى ﴾ أي جذلان اشراً بطراً

كسلاناً ، لا همة له ولا عمل ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ﴾ ويتمطى أي يختال ويتبختر . وقوله تعالى : : ﴿ أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى ﴾ . وعيد على أثر وعيد من الله تعالى للكافر المتبختر في مشيه . كقوله تعالى : ﴿ كلوا وتمتّعوا قليلا انكم مجرمون ﴾ –.

روى ابن أبي حاتم عن موسى بن أبي عائشة قال : سألت سعيد بن جبير قلت : ﴿ أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ﴾ قال : ٥٥٦ [قاله النبي ﷺ لأبي جهل ثم أنزله الله عز وجل]. ورواه النسائي وقوله تعالى : ﴿ أيحسب الانسان أن يترك سُدَى ﴾ أي لا يترك في هذه الدنيا هملاً لا يؤمر ولا يُنهَى ، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث بل هو مأمور منهي في الدنيا ، محشور إلى الله في الدار الآخرة ، والمقصود هنا اثبات المعاد، والردّ على من أنكرَهُ من أهل الزيغ والجهل والعناد. ولهذا قال تعالى مستدلاً على الإعادة بالبداءة... فقال تعالى: ﴿ ألم يك نطفةً من منيٍّ يُمنَى ﴾ أي أما كان الانسان نطفةً ضعيفةً من ماءٍ مهين يُمنَى : يراق من الأصلاب ويصب في الأرحام . ﴿ ثم كان علقةً فخلق فسوّى ﴾ أي فصار علقةً ثم مضغة ثم شكّل ونفخ فيه الروح، فصار خلقاً آخر سويّا سليم الأعضاء ، ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره. ولهذا قال تعالى: ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيِ الموتى ﴾ . أي أما هذا الذي أنشأ الخلق السويّ من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه . ولا شك أن تناول القدرة للإعادة بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة .

وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى أحد الصحابة أنه كان فوق سطح يقرأ ويرفع صوته بالقرآن فإذا قرأ : ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ قال ٥٥٧ [سبحانك اللهم فَبَلَىٰ ، فسئل عن ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك] ورواه أبو داود بنحوه ولم يسمّ الصحابي ولا يضر ذلك . وروى أبو داود عن أبي هريرة يقول قال رسول الله ﷺ : ٥٥٨ [من قرأ منكم « بالتين والزيتون » فانتهى إلى آخرها : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فليقل: بلى وإنّا على ذلك من الشاهدين . ومن قرأ: ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ فانتهى إلى قوله : ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ فليقل : بلىٰ . ومن قرأ « المرسلات » فبلغ ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ . فليقل : آمنا بالله] ورواه أحمد والترمذي . آخر اختصار تفسير سورة القيامة. والحمد لله وله المنة.

(٧٦) سورة الإنسان مدنية وآياتها إحدى وثلاثون

نزلت بعد سورة الرّحمن

بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى ٱلْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ۞ (١) إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ۞ (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ۞ (٣) ﴾

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ :٥٥٩ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ الم تنزيل ﴾ السجدة و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ .

ويخبر تعالى عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه. فقال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا ﴾ ثم بيّن ذلك فقال جل جلاله : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾ هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة . وقوله تعالى : ﴿ نبتليه ﴾ أي نختبره ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ أي جعلنا له سمعاً وبصراً يساعدانه على طاعة الله أو معصيته وقوله تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ أي بينّاه ووضّحناه كقوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدَيْن ﴾ أي بيّنا طريق الخير وطريق الشر . ومن رواية جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ٥٦٠ [كل مولود يولد على الفطرة حتّى يعرب عنه لسانه إمّا شاكراً وإما كفوراً] . وروى

الامام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٥٦١ [ما من خارج يخرج إلاّ ببابه رايتان : راية بيد ملك وراية بيد شيطان فإن خرج لما يحب الله اتبعه الملك برايته فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته . وان خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته] .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً ۞ (٤) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ۞ (٥) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ۞ (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ۞ (٧) وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ۞ (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ۞ (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ۞ (١٠) فَوَقَاهُمُ ٱللهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ۞ (١١) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ۞ (١٢) ﴾

يخبر تعالى عما أرصد للكافرين من السلاسل والأغلال والسعير في جهنم ، ولما ذكر ما أعدّه لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ﴾ ومعلوم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنة قال الحسن: برد الكافور في طيب الزنجبيل ولهذا قال: ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيرا ﴾ أي هذا المزيج هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله ويُرووْنَ بها . ولهذا ضمّن يشرب معنى يروى حتى عداه بالباء ونصب عيناً على التمييز . وقوله تعالى : ﴿ يفجّرونها تفجيراً ﴾ أي يتصرفون فيها حيث شاءوا وأين شاءوا من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم .

وقوله تعالى : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرا ﴾ أي يتعبدون الله بالطاعات الواجبات بأصل الشرع وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر قال عليه الصلاة والسلام ٥٦٢ [من نذر أن يطيع الله فليطِعْه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه] رواه

البخاري من حديث مالك ويتركون المحرمات خيفةً من سوء الحساب يوم المعاد ذي الشرّ المنتشر العام على الناس إلاّ من رحم الله . وقوله تعالى: ﴿ ويطعمون الطعام على حبّه ﴾ أي ويطعمون الطعام في حال محبتهم له وشهوتهم. كقوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا ممّا تحبون ﴾ وفي الصحيح :٥٦٣ [أفضل الصدقة أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر] أي في حال محبّتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه . ولهذا قال : ﴿ ويُطعِمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيرا ﴾ أما المسكين واليتيم فقد تقدم بيانهما [1] وصفتهما : والأسير هو اسم مشترك للأسير المسلم والمشرك. وهكذا قال سعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة . وقد وصّىَ رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث حتّى أنّه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول ٥٦٤ [الصلاة وما ملكت أيمانكم] ﴿ إنّما نُطعِمكم لوجه الله ﴾ أي رجاء ثواب الله ورضاه ﴿ لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾ أي لا نطلب منكم مجازاةً تكافئوننا بها ولا أن تشكرونا عند الناس ﴿ إنّا نخاف من ربّنا يوماً عبوساً قمطريرا ﴾ أي إنّما نفعل هذا لعلّ الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس القمطرير . قال ابن عباس : عبوساً ضيّقا قمطريرا طويلاً وقال ابن جرير وذلك أشدّ الأيام وأطولها في البلاء والشدة . قال تعالى : ﴿ فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نَضرة وسرورا ﴾ أي آمنهم بما خافوا منه ﴿ ولقاهم نضرةً وسروراً ﴾ نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم وذلك ان القلب اذا سُرَّ استنار الوجه. وقوله تعالى : ﴿ وجزاهم بما صبروا ﴾ أي بسبب صبرهم أعطاهم ونوّلهم وبوأهم جنةً وحريرا، أي منزلاً رحباً وعيشاً رغداً ولباساً حسناً. وقد قرئت هذه الآية على أبي سليمان الداراني قال : إنما صبروا على ترك الشهوات في الدنيا .

مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً ۞ (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ۞(١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۞ (١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ۞(١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً ۞ (١٧) عَيْناً فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ۞ (١٨) وَيَطُوفُ



(١) وذلك في المجلد الأول . سورة البقرة في الآية ١٧٧ الصفحة ١٣٦ .

عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُوراً ❁ (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ❁ (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ❁ (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً ❁ (٢٢)

يخبر تعالى عن أهل الجنّة وما آتاهم من الفضل العميم فقال تعالى : ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ الاتكاء: التمرفق . والأرائك هي السرر تحت الحجال. وقوله تعالى: ﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا ﴾ أي لا حر مزعج ولا برد مؤلم، بل هي مزاج واحد دائم سرمديّ لا يبغون عنها حِولا . ﴿ ودانيةً عليهم ظلالها ﴾ أي قريبة إليهم أغصانها . ﴿ وذللت قطوفها تذليلا ﴾ أي متى تعاطاه، دنا القطف إليه. كقوله تعالى: ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب ﴾ أي يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام وهي من فضة وأكواب الشراب قوارير من فضة أي بياض الفضة في صفاء الزجاج يُرى ما في باطنها من ظاهرها وهذا مما لا نظير له في الدنيا ، وعن ابن عباس : ليس في الجنة شيء إلاّ وقد أُعطيتم في الدنيا شبهه إلاّ قوارير من فضة . رواه ابن ابي حاتم . وقوله تعالى : ﴿ قدّروها تقديراً ﴾ أي على قدر ريّهم أي لا تزيد عن ري صاحبها ولا تنقص . وقوله تعالى : ﴿ ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ﴾ فتارة يخرج لهم الشراب بالكافور البارد وتارة بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر أي للأبرار أما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً وقوله تعالى : ﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ سمّيت بذلك لسلاسة سيلها وحدّة جريها وسلاستها في الحلق. وقوله تعالى: ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلّدون إذا رأيتهم حسِبتهم لؤلؤاً منثورا ﴾ أي يطوف عليهم من ولدان الجنة للخدمة ﴿ مخلدون ﴾ اي على حالة واحدة ، ولا يتغيرون عنها ولا تزيد أعمارهم وقوله تعالى : ﴿ اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴾ أي اذا رأيتهم منتشرين في قضاء حوائج السادة وحسنهم في وجوههم وصباحتهم كأنهم اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن . وقوله جل جلاله : ﴿ وإذا رأيت ﴾ أي وإذا رأيت يا محمد ﴿ ثمّ ﴾ أيّ هناك في الجنة

ونعيمها وما فيها من السرور ﴿ رأيت نعيماً وملكاً كبيرا ﴾ أي مملكة لله هناك عظيمةً وسلطاناً باهراً . وثبت في الصحيح ٥٦٥[أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنّة دخولاً إليْها إن لك مِثل الدنيا وعشرةَ أمثالها] .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٦٦[إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفَيْ سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه] .

وقوله جل جلاله ﴿ عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق ﴾ أي لباس أهل الجنّة فيها الحرير ومنه سندس وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم ، والأستبرق منه ما فيه بريق ولمعان ، وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس . ﴿ وحُلّوا أساور من فضّة ﴾ وهذه صفة الأبرار ، وأما المقرّبون . فكما قال تعالى : ﴿ يحلّوْن فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ﴾ ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحليّ قال بعده ﴿ وسقاهم ربّهم شراباً طهوراً ﴾ أي طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة . وقوله تعالى : ﴿ إنّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً ﴾ أي يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم . كما قال تعالى ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ وقوله تعالى ﴿ وكان سعيكم مشكورا ﴾ أي جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ تَنْزِيلاً ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَٱلظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴿٣١﴾ ﴾

يمتنُّ الله سبحانه على رسوله ﷺ بما أنزله عليه من القرآن العظيم تنزيلاً ﴿ فاصبر لحكم ربّك ﴾ أي فاصبر على قضائه وقدره، وإنه سيدبرك بحسن تدبيره. ﴿ ولا تطعْ منهم آثماً أو كفورا ﴾ أي لا تطع من أرادوا صدّك عمّا أنزل إليك، بل بلّغ ما أنزل إليك من ربك وتوكّل على الله فإنه يعصمك من النّاس الفاجرين في أعمالهم، والكافرين في قلوبهم ﴿ واذكر اسمَ ربّك بكرةً وأصيلا ﴾ أي أوّل النهار وآخره ﴿ ومن الليل فاسجد لـــه وسبّحه ليلاً طويلا ﴾ كقوله تعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إنّ هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ﴾ أي هؤلاء الكفار يحبّون الدنيا وبهرجها ويذرون الآخرة . ثم قال تعالى : ﴿ نحن خلقناهم وشددْنا أسرهم ﴾ قال ابن عباس أي خلقهم ﴿ وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلاً ﴾ أي أتينا بقوم آخرين غيرهم . ثم قال تعالى : ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ يعني هذه السورة تذكرة ﴿ فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلاً ﴾ أي من شاء اهتدى بالقرآن ﴿ وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله ﴾ أي لا يستطيع أحدٌ أن يهديَ نفسه ﴿ إلاّ أن يشاء الله إنّ الله كان عليماً حكيماً ﴾ أي عليمٌ بمن يستحق الهداية فييسّرها له، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى وله الحجة البالغة[1] . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إن الله كان عليما حكيماً ﴾ ثم قال تعالى ﴿ يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً ﴾ أي يهدي من يشاء ويضل من يشاء فمن يهده فلا مضل له يضلل فلا هادي له .

آخر اختصار تفسير سورة الانسان ولله الحمد والمنة .

---

(١) قلت : ان الذي يستحق من الله الهداية، هو من سعى لها وأخلص النية، حتى يعلم الحق. فمثل هذا مستحق لهداية الله، أما من غوى وأمعن في غوايته، ولم يفتش عن الحق حتى يلقاه، فيجازيه الله بصرفه عن الهدى جزاءً وفاقاً كقوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » وكقوله تعالى « ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » . ولله الحجة البالغة ولا يظلم ربك أحداً.

(٧٧) سُورة المرسَلات مكيّة وآياتها خمسُون

إلاَّ الآية ٤٨ فمدنية نزلت بعد سورة الهُمَزَة

روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال ٥٦٧ [بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ في غارٍ بمنى إذ نزلت عليه ﴿ والمرسلات﴾ فإنّه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه وان فاه لرطبٌ بها . إذْ وثبت علينا حيّةٌ فقال النبيُّ ﷺ « أُقتلوها » فابتدرناها فذهبت فقال النبي ﷺ « وُقيتْ شرَّكم كما وقيتم شرها] وأخرجه مسلم .

وعن ابن عباس ٥٦٨ [أن أمَّ الفضل سمعته يقرأ ﴿ والمرسلاتِ عُرفاً ﴾ فقالت يا بُنيَّ أذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقرأ بهـا في المغرب] أخرجاه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً ۞ (١) فَٱلْعَاصِفَاتِ عَصْفاً ۞ (٢)
وَٱلنَّاشِرَاتِ نَشْراً ۞ (٣) فَٱلْفَارِقَاتِ فَرْقـاً ۞ (٤) فَٱلْمُلْقِيَاتِ
ذِكْراً ۞ (٥) عُذْراً أَوْ نُذْراً ۞ (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۞ (٧)
فَـإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۞ (٨) وَإِذَا ٱلسَّمَاءُ فُرِجَتْ ۞ (٩) وَإِذَا
ٱلْجِبَـالُ نُسِفَتْ ۞ (١٠) وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۞ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ
أُجِّلَتْ ۞ (١٢) لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۞ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۞ (١٤)
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۞ (١٥)

قد اختلف المفسّرون من الصحابة والتّابعين وغيرهم ... فمن قال : ﴿ والمرسلات عُرفـاً [(١)] ﴾ هي الملائكة . ومن قال : ان المرسلات ، والعاصفات ، والناشرات هي الرياح أما الفارقات والملقيات فلم يجرِ اختلاف في أنها الملائكة ، ومن قال أنها جميعاً هي الملائكة . والأظهر أن المرسلات هي الرياح كما قال تعالى : ﴿ وارسلنا الرياح لواقح ﴾ وهكذا العاصفات هي الرياح وكذا الناشرات هي الرياح التي تنشر السحاب ، كما يشاء الله[(٢)]. وقوله تعالى : ﴿ فالفارقات فرقاً . فالملقيات ذِكراً عذراً أو نذراً ﴾ يعني الملائكة ولا خلاف هٰهنا فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرّق بين الحق والباطل وتلقى الى الرسل وحياً فيه إعذار الى الخلق وإنذار لهم من عقابِ الله ان خافوا أمره .

وقوله تعالى : ﴿ إنّ ما توعدون لواقع ﴾ هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام أي ما وُعدتم به من قيام الساعة والبعث والحساب والجزاء والعقاب ، واقع لا محالة . ثم قـال : ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ أي ذهب ضوؤها كقوله تعالى : ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ أي انشقت ووهت أطرافها ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أي انفطرت ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ أي ذهب بها فلا عين ولا أثر ﴿ وإذا الرسل أقـّتت ﴾ أي جمعت كقوله ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ وقوله ﴿ لأي يوم آجلت. ليوم الفصل وما ادراك ما يوم الفصل . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ يقول تعالى لأي يومٍ أجِّلت الرسل وأرجىء أمرها حتى تقوم الساعة. كقوله تعالى : ﴿ فلا تحسبنّ الله مخلف وعدِه رسله ﴾ وقوله تعالى ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ أي ويل لهم من عذاب الله غداً .

أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۞ (١٧)
كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۞ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۞ (١٩)
أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۞ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ (٢١)

---

(١) أي ترسل بالمعروف .

(٢) قلت : هذا ما رجحه الحافظ ابن كثير رحمه الله ، ولكن أراني مع من ذهب إلى أنها جميعاً الملائكة من وجوه ١ – هذه الصفات الواردة هي إلى صفات الملائكة أقرب ٢ – لا مناسبة بين الريح والملائكة في موضوع القسم . ٣ – ليس هناك من فارق يفصل الصفات الثلاث الأولى عن الصفتين الأخيرتين ، ليعلم أنهما لموصوفَين. ٤– توالي فاآت التعقيب يدل على ان الموصوف شيء واحد. وإنّ كلّ صفة موضحة لما قبلها إلى أن تأتي الصفتان المتفق عليهما أنّهما الملائكة. ٥ – ان أكثر المرجحين على أنها الملائكة حتى ان الذين قالوا انها الريح ... منهم من توقف وتردد بين القولين ... والله تعالى أعلم ، وهو الموفق للصواب .

إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۞ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَادِرُونَ ۞ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۞ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۞ (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ۞ (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ۞ (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۞ (٢٨)

يقول تعالى : ﴿ ألم نهلك الأوّلين ﴾ يعني من المكذّبين للرسل ﴿ ثم نتبعهم الآخرين ﴾ أي ممن أشبههم . ولهذا قال تعالى: ﴿ كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ ثم قال تعالى ممتناً على خلقه ومحتجاً على الإعادة بالبداءة: ﴿ ألم نخلقكم من ماءٍ مهين ﴾ أي ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة الباري عزّ وجل ﴿ فجعلناه في قرار مكين ﴾ يعني جمعناه في الرحم وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرحم معدٌّ لذلك، حافظ لما أودع فيه من الماء . وقوله تعالى: ﴿ إلى قدرٍ معلوم ﴾ إلى مدّة معيّنة من ستةِ أشهر[1] أو تسعة أشهر . ولهذا قال تعالى : ﴿ فقدّرنا فنعمَ القادرون . ويلٌ يومئذٍ للمكذبين ﴾

ثم قال تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرضَ كفاتا . أحياءً وأمواتا ﴾ كفاتاً . قال الشعبي بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم ﴿ وجعلنا فيها رواسي شامخاتٍ ﴾ يعني الجبال ، ﴿ وأسقيناكم ماءً فراتاً ﴾ أي ماء عذباً زلالاً ﴿ ويلٌ يومئذ للمكذّبين ﴾ أي لمن يستمر بعد هذا البيان على تكذيبه وكفره .

ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۞ (٢٩) ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۞ (٣٠) لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ۞ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۞ (٣٢) كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ۞ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۞ (٣٤) هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۞ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۞ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۞ (٣٧) هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ۞ (٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۞ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۞ (٤٠)

---

(١) راجع سورة لقمان الآية /١٤/ والأحقاف الآية /١٥/

يخبر تعالى عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنّة والنار ، انهم يقال لهم يوم القيامة ﴿ إنطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظلٍّ ذي ثلاثِ شعب ﴾ يعني لهب النار إذا ارتفع يكون له من شدته ثلاث شعب ﴿ لا ظليل ولا يغني من اللهب ﴾ أي ظلّ الدخان لا ظليل هو في نفسه ، ولا يقيهم حر اللهب . وقوله تعالى : ﴿ إنهـا ترمى بشررٍ كالقصر ﴾ أي يتطاير الشرر من لهبها كالقصر ﴿ كأنه جمالةٌ صفر ﴾ أي كالإبل السود ﴿ ويلٌ يومئذٍ للمكذبين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ أي لا يتكلمون ﴿ ولا يؤذَن لهم فيعتذرون ﴾ أي لا يقدرون على الكلام ولا يؤذَن لهم فيه ليعتذروا ، بل قد قامتْ عليهم الحجّة فهم لا ينطقون . وعرصات يوم القيامة حالات ، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالات ، ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذٍ . ولهذا يقول بعد كلّ فصل من هذا الكلام ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾

وقوله تعالى : ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأوّلين . فإن كان لكم كيدٌ فكيدون ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد،أي إن قدرتم على أن تتخلّصوا من قبضتي وتنجوا من حكمي فافعلوا ، فإنكم لا تقدرون على ذلك . كما قال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان ﴾ وفي الحديث ٥٦٩ [يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغـوا ضري فتضرّوني]

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ۞ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۞ (٤٢) كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۞ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ۞ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۞ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ۞ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۞ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۞ (٥٠) ﴾

يخبر تعالى عن عباده المتقين الذين عبدوه بإداءِ الواجبات ، وترك المحرمـــات ، إنّهم يكونون يومَ القيامة في جنّاتٍ وعيون . ﴿ وفواكه مما يشتهون ﴾ أي من سائر أنواع الثمار ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ أي يقال لهم ذلك على سبيل الإحســـان إليهم . ثم قال تعالى : ﴿ إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾ أي هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ﴿ ويل يومئذ للمكـذّبين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كلوا وتمتعوا قليلاً إنّكم مجرمون ﴾ خطاب للمكذّبين بيوم الدين وأمرَهم أمر تهديد ووعيد . أي تمتّعوا مدّة قليلة ثم تساقون إلى نار جهنم ﴿ ويلٌ يومئذٍ للمكذبين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ أي اذا أمروا بالصلاة امتنعوا واستكبروا ولهذا قال تعالى : ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فبأيّ حديثٍ بعده يـُؤمنون ﴾ كقوله ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ ؟ أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأيّ كلامٍ يؤمنون به .

روى ابن أبي حاتم بسنده إلى أبي هريرة ٥٧٠ [انه اذا قرأ والمرسلات عرفاً – فقرأ – ﴿ فبأي حديث بعده يـُؤمنون ﴾ فليقل : آمنت بالله وبما أنزل] .

آخر اختصار تفسير سورة المرسلات ولله الحمد والمنة .

وبه العصمةُ ، وعليه التـُّكلان .

(٧٨) سُورة النبأ مكية وآياتها أربعون

نزلت بعد سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

جزء ٣٠ حزب ٥٩

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي
هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾
أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ
أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ
لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا
شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ
ٱلْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾
وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

ينكر تعالى على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة، وهو النبأ العظيم ﴿الذي هم فيه مختلفون﴾ أي الناس فيه على قولين: مؤمن به وكافر. ثم قال متوعداً لمنكري القيامة: ﴿كلاّ سيعلمون﴾ ﴿ثم كلاّ سيعلمون﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد. ثم شرع تبارك وتعالى يبيِّن قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة، والأمور العجيبة. الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره. فقال: ﴿ألم نجعل الأرض مهادا﴾ أي ممهدة للخلائق، ذلولاً لهم، قارّة ساكنة. ﴿والجبال أوتادا﴾ أي جعل لها أوتاداً أرساها بها حتى سكنت، ولم تضطرب بمن عليها. ثم قال تعالى: ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾ يعني ذكراً وأنثى يتمتع كل منهما بالآخر، ويحصل التناسل بذلك. كقوله: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم

أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّةً ورحمة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا نومكم سباتا ﴾ أي قطعاً للحركة لتحصل الراحة ، من كثرة الترداد والسعي في المعايش ﴿ وجعلنا الليلَ لباساً ﴾ أي سكناً. وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا النهار معاشا ﴾ أي جعلناه مشرقاً مضيئاً، ليتصرّف الناس في معاشهم جيئةً وذهابا. ﴿ وبنينا فوقكم سبعاً شدادا ﴾ يعني السموات السبع في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وتزيينها . بالكواكب والسيارات ولهذا قال تعالى : ﴿ وجعلنا سراجاً وهاجاً ﴾ يعني الشمس المنيره على جميع العالم . وقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً ﴾ اي من السحاب التي تتحلب بالمطر ولم تمطر بعد ، كما يقال : إمرأة معصر ، إذ دنا حيضها ولم تحض،وقيل الرياح. والأظهر ان المراد بالمعصرات السحاب. كما قال تعالى: ﴿ الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودْق يخرج من خلاله ﴾ أي من بينه . وقوله تعالى ﴿ ماءً ثجّاجاً ﴾ اي منصباً متتابعاً كثيراً . ومنه قوله ﷺ : ٥٧١ [أفضل الحج : العجّ والثجّ] يعني صبّ دماء البُدن. وقوله تعالى: ﴿ لنخرج به حبّاً ونباتاً وجنّات ألفافاً ﴾ أي لنخرج بهذا الماء الكثير الطيّب النافع المبارك ، ﴿ حباً ﴾ يدخر للأناسي والأنعام ﴿ ونباتاً ﴾ أي خضراً يؤكل رطباً ﴿ وجنات ﴾ حدائق من ثمرات متنوّعة ، وألوان مختلفة ، وطعوم وروائح متفاوتة . ﴿ وألفافاً ﴾ أي مجتمعة .

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً ۝ (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ۝ (١٨) وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً ۝ (١٩) وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً ۝ (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً ۝ (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآباً ۝ (٢٢) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً ۝ (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً ۝ (٢٤) إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً ۝ (٢٥) جَزَاءً وِفَاقاً ۝ (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً ۝ (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ۝ (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً ۝ (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً ۝ (٣٠)

يخبر تعالى عن يوم الفصل وهو يوم القيامة أنه مؤقت بأجل معدود لا يزداد عليه ولا ينقص منه ولا يعلم وقته على التعيين: إلاّ الله عز وجل. كما قال تعالى : ﴿ وما نؤخره إلاّ

لأجل معدود ﴾ ﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً ﴾ قال مجاهد : زُمَراً زُمَراً . قال ابن جرير : يعني تأتي كل أمةٍ مع رسولها ﴿ وفُتِحت السماء فكانت أبواباً ﴾ أي طرقاً ومسالك لنزول الملائكة ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وتــرى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرَّ السحاب ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ وقال ههنا ﴿ فكانت سرابا ﴾ أي يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء. وبعد هذا تذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر. كما قال تعالى: ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن جهنم كانت مرصادا ﴾ أي مرصدة معدَّة ﴿ للطاغين ﴾ وهم المردة العصاة، المخالفون للرسل. ﴿ مآبا ﴾ أي مرجعاً ونزلا . وقال سفيان الثوري عليها ثلاث قناطر .

وقوله تعالى : ﴿ لا بثين فيها أحقابا ﴾ أي ماكثين فيها أحقاباً . هي جمع حقب اي مدة من الزمن ، وقد اختلفوا في مقداره؛ قال علي بن أبي طالب لهلال الهجري: ما تجدون الحقب في كتاب الله المنزل؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، كلّ شهر ثلاثون يوماً ، كل يوم ألف سنة . وروى ابن ابي حاتم عن ابي أمامة عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿ لا بثين فيها أحقابا ﴾ قال : فالحقب شهر والشهر ثلاثون يوماً والسنة اثنا عشر شهراً والسنة ثلاثمأة وستون يوماً كل يوم منها ألف سنة مما تعدون فالحقب ثلاثون الف الف سنة ، وهذا حديث منكر جداً... والقاسم هو والزاوي عنه وهو جعفر ابن الزبير كلاهما متروك . والصحيح أنها لا انقضاء لها كما قال قتادة والربيع بن أنس فهي أحقاب ليس لها عدة إلا الخلود في النار (١) .

وقوله تعالى : ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا ﴾ أي لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم ولا شراباً طيباً يتغذون به . ولهذا قال تعالى : ﴿ إلا ّحميماً وغساقاً ﴾ فأما الحميم فهو الحارّ الذي بلغ منتهى حره وحموه ، والغسّاق : هو ما اجتمع من صديد أهل النـــار وعرقهم ودموعهم ، وجروحهم فهو بارد لا يستطاع من برده ولا يواجه من نتنه . وقد

---

(١) قلت : إن ذكر الأحقاب هنا ... ليست معنية الذات والعدد ، إنما هي كناية عن الخلود أبداً في النار للطاغين الكافرين، الذين كذّبوا بآيات الله وبيوم الحساب فهذه صفات الكافرين الخالدين في جهنم . وإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، بل عذاب أبدي لا ينتهي ولا ينقضي . «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » .

قدمنا الكلام على الغساق في سورة ﴿ صۤ ﴾ بما أغنى عن إعادته أجارنا الله من ذلك بمنّه وكرمه [١].

وقوله تعالى : ﴿ جزاءً وفاقاً ﴾ أي هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة،وفق أعمالهم الفاسدة،التي كانوا يعملونها في الدنيا . ثم قال تعالى : ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا ﴾ أي لم يكونوا يعتقدون أن ثمَّ داراً يجازون فيها ويحاسبون ﴿ وكذبوا بآياتنا كذّابا ﴾ أي وكانوا ، يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه، التي أنزلها على رسله صلى الله على نبيناوعليهم وسلّم، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة. وقوله : ﴿ كِذاباً ﴾ أي تكذيباً .

وقوله تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه كتابا ﴾ أي وقد علمنا أعمال العباد كلهم ، وكتبناها عليهم وسنجزيهم على ذلك بما يستحقون . وقوله تعالى : ﴿ فذوقوا فلن نزيدَكم إلاَّ عذابا ﴾ أي هم في المزيد من العذاب أبداً .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ۝ (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً ۝ (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً ۝ (٣٣) وَكَأْساً دِهَاقاً ۝ (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً ۝ (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً ۝ (٣٦) ﴾

يقول تعالى : مخبراً عن السعداء، وما أعدَّ لهم سبحانه من الكرامة والنعيم المقيم . فقال تعالى : ﴿ إن للمتّقين مفازاً ﴾ قال ابن عباس : متنزّها لأنه قال بعده : ﴿ حدائق ﴾ أي البساتين ﴿ وأعناباً . وكواعب أترابا ﴾ أي وحوراً كواعب أي نواهد لم يتدلّيْنَ لأنهن أبكارٌ عرب أتراب أي في سنّ واحد . وقوله تعالى : ﴿ وكأساً دهاقا ﴾ أي مترعةً متتابعة ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا كِذّاباً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ أي ليس فيها كلام لاغ عارٍ عن الفائدة ، ولا اثم كذب بل هي دار السلام وكل ما فيها سالمٌ من النقص . وقوله : ﴿ جزاءً من ربّك عطاءً حساباً ﴾ أي هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به، وأعطاهم بفضله ومنّه وإحسانه ورحمته ﴿ عطاءً حساباً ﴾ أي كافياً ومنه حسبي الله أي : الله كافيَّ .

---

(١) قلت : الغساق الذي تقدم ذكره في سورة « ص » لا يخرج معناه عما ورد هنا إجمالا أي : لا يستطاع برده ولا يواجه نتنه .

﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۞ (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۞ (٣٨) ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۞ (٣٩) إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۞ (٤٠) ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما وأنه الرحمن الذي شملتْ رحمته كل شيء . وقوله تعالى: ﴿ لا يملكون منه خطابا ﴾ أي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلاّ بإذنه . كقوله تعالى: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون ﴾ اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا ، ما هو ؟ على أقوال : (أحدها) انهم أرواح بني آدم . (الثاني) هم بنو آدم (الثالث) خلق ليسوا بني آدم إنّما هم على صورتهم (الرابع) انه جبريل عليه السلام (الخامس) أنه القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ إلاّ من أذن له الرحمن ﴾ وثبت في الصحيح انه: ٥٧٢ [ولا يتكلم يومئذ إلاّ الرسل] وقوله تعالى : ﴿ وقال صوابا ﴾ اي قال حقاً وقوله تعالى : ﴿ ذلك اليوم الحق ﴾ أي الكائن لا محالة ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربّه مآبا ﴾ اي مرجعاً وطريقاً . وقوله تعالى ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾ يعني يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريباً.
﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ أي يعرض عليه جميع أعماله خيرها وشرها كقوله تعالى ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾

﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تُرابا ﴾ وردت بعض آثار عن أبي هريرة ، وعبدالله ابن عمرو وغيرهما : ان ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات حتى انه يقتصّ للشاة الجمّاء من القرناء وإذا فرغ قال لها : كوني ترابا ، فتصير تراباً ، فيتمنّى الكافر عند ذلك أن يكون تراباً ويقول : ﴿ يا ليتني كنت ترابا ﴾ وقد ورد هذا المعنى في حديث الصور المشهور . والله أعلم .

---

(١) قلت : واني أرجح القول الرابع أي انه جبريل عليه السلام فإن من أسمائه الروح لا سيما وذكره مع الملائكة يقوي الترجيح الذي اعتمدناه والله تعالى أعلم .

(٧٩) سُورَةُ النَّازِعَاتِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا سِتٌّ وأربعُونَ

نزلت بعد سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّازِعَاتِ غَرْقاً ﴿١﴾ وَٱلنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ﴿٢﴾
وَٱلسَّابِحَاتِ سَبْحاً ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ
أمراً ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾
قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ ءإِنَّا
لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ ءإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا
تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾
فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

﴿ والنازعات غرقاً ﴾ الملائكة حين تنزع أرواح الكفّار من بني آدم تغرق في النار ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ حين تنزع أرواح المؤمنين برفق كأنّما حلتها من نشاط ﴿ والسابحات[1] سبحاً ﴾ ﴿ فالسابقات سبقاً [2] ﴾ ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ هي الملائكة تدبّر الأمر بإذن الله من السماء إلى الأرض . وقوله تعالى : ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ﴾ وقال ابن عباس : هما النفختان الأولى والثانية وعن مجاهد. أما الأولى وهي قوله جل وعلا ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ والثانية وهي الرادفة فهي كقوله تعالى ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا

(١) قال في الجلالين : تسبح من السماء بأمر الله أي تنزل . (٢) أي انها تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة .

دكة واحدة ﴾ وروى الترمذي وابن ابي حاتم ٥٧٣ [كان رسول الله ﷺ اذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه].

وقوله تعالى : ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ اي خائفة ﴿ أبصارها خاشعة ﴾ أي أبصار أصحابها ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال . وقوله تعالى: ﴿ أئنا لمردودون في الحافرة ﴾ يعني مشركي قريش ومن قال بقولهم ، في إنكار المعاد بعد تمزّق أجسادهم وتفتت عظامهم في القبور . ﴿ قالوا تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ أي قالت قريش لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرنّ. قال الله تعالى : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة. فإذا هم بالساهرة ﴾ اي فإنما هو أمر الله تعالى يأمر إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث ، فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب عز وجل ينظرون. وقال تعالى: ﴿ وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ قيل بالساهرة اقوال مختلفة والصحيح أنها الأرض وجهها الأعلى كما قال مجاهد : كانوا بأسفلها فأخرجوا الى أعلاها .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۞ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۞ (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۞ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۞ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۞ (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ۞ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۞ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۞ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۞ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۞ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۞ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۞ (٢٦) ﴾

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ أي هل سمعت بخبره ﴿ اذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى ﴾ وهو اسم الوادي على الصحيح كما تقدم في سورة طه ﴿ اذهب الى فرعون إنه طغى ﴾ أي تجبر وتمرد وعتا ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾ أي هل لك ان تجيب الى مسلك تزكى به، أي تسلم وتطيع . ﴿ وأهديك الى ربك ﴾ أي أدلُّك إلى عبادته ﴿ فتخشى ﴾ أي فيصير قلبك خاشعاً بعدما كان قاسياً بعيداً عن الخير. ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ أي وأظهر له موسى مع هذه الدعوة حجةً قوية ودليلاً واضحاً على صدق ما جاء به من عند الله .

﴿ فكذب وعصى ﴾ اي كفر قلبه فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره ، والعلم بالحق لا يلزم الايمان به ، لأن المعرفة علم القلب والإيمان عمله وهو الانقياد للحق والخضوع له .

وقوله تعالى : ﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ أي في مقابلة الحق بالباطل من جمع السحرة ، ليقابلوا ما جاء به موسى عليه الصلاة والسلام من المعجزات الباهرات . ﴿ فحشر فنادى ﴾ أي في قومه ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله : ﴿ ما علمت لكم من آله غيري ﴾ بأربعين سنة قال الله تعالى : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ أي انتقم منه بأن أغرقه في الدنيا وله في الآخرة عذاب عظيم ﴿ ان في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ أي لمن يتعظ وينزجر .

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ ٱلسَّمَاءُ بَنَاهَا ۞ (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۞ (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۞ (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ۞ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۞ (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۞ (٣٢) مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ۞ (٣٣) ﴾

يحتج الله على منكري البعث في اعادة الخلق بعد بدئه ﴿ أأنتم ﴾ أيها الناس ﴿ أشد خلقاً أم السماء ﴾ يعني: بل السماء أشد خلقاً منكم وقوله ﴿ بناها ﴾ فسرُه بقوله: ﴿ رفع سمكها فسوّاها ﴾ أي جعلها عالية البناء بعيدة الفناء ، مستوية الأرجاء مكلّلة بالكواكب في الليلة الظلماء وقوله تعالى : ﴿ واغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ أي جعل ليلها مظلماً ونهارها مضيئاً ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ فسّره بقوله ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾

وقد تقدم في سورة ﴿ حم ﴾ السجدة أن الأرض خلقت قبل السماء ولكن إنمّا دحيت بعد خلق السماء بمعنى انه أخرج ما كان فيها بالقوة الى الفعل وقوله تعالى : ﴿ والجبال أرساها ﴾ أي أثبتها في أماكنها وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : ٥٧٤ [لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت] وقوله تعالى : ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ أي دحا الأرض فأنبع عيونها وأظهر مكنونها وأجرى أنهارها وأنبت زرعها واثمارها وثبت جبالها لتستقر بأهلها ، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ، ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار ، الى ان ينتهي الأمر وينقضي الأجل .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۞ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۞ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۞ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۞ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۞ (٤١) يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۞ (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۞ (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۞ (٤٤) إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۞ (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۞ (٤٦) ﴾

يقول تعالى : ﴿ فإذا جاءت الطامّة الكبرى ﴾ أي يوم القيامة ﴿ يوم يتذكر الإنسان ما سعىَ ﴾ أي حينئذٍ يتذكر ابنُ آدم جميع عمله خيرِه وشرّه ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ أي أظهرت للناظرين فرآها الناس عياناً ﴿ فأما من طغى ﴾ أي تمرّد وعتا ﴿ وآثر الحياة الدنيا ﴾ أيْ قدّمها على أمرِ دينه وأُخراه ﴿ فإن الجحيم هي المأوىَ ﴾ أي فإنّ مصيره إلى الجحيم وإنّ مطعمه الزقّوم ومَشربه من الحميم ﴿ وأما من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى ﴾ أيْ خاف القيام بين يدَيه عز وجل ونهى نفسَه عن هواها وردَّها إلى طاعة مولاها ﴿ فإن الجنة هي المأوى ﴾ أي منقلبه ومصيره . ثم قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيّان مرساها فيم أنت من ذكراها . إلى ربّك منتهاها ﴾ . أي ليس علمها إليك ، ولا إلى أحد بل مردُّها إلى الله عزَّ وجلّ . كما يقول الله تعالى ﴿ ولا تأتيكم إلاّ بغتةً ﴾ وقوله ﴿ إلى ربّك منتهاها ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قل إنمّا علمها عند الله ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إنّما أنت منذرٌ من يخشاها ﴾ أي إنّما بعثتك لتنذرَ الناس وتحذّرَهم من بأسِ الله وعذابهِ فمن خشي اللهَ اتّبعك فأفلح . والخسار على من كذبك وخالفك . وقوله تعالىَ : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاّ عشيّةً أو ضحاها ﴾ إذا قاموا من قبورهم الى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا حتى كأنها عندهم كانت عشيةً من يوم أو ضُحى من يوم.

آخر اختصار تفسير سورة النازعات ولله الحمد والمنّة . وبه العصمة وعليه التّكلان .

(٨٠) سُورَةُ عَبَسَ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ

نزلت بعد سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربع الحزب

عَبَسَ وَتَوَلَّى ۞ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۞ (٢) وَمَا
يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۞ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۞ (٤) أَمَّا
مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۞ (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۞ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا
يَزَّكَّىٰ ۞ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۞ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ ۞ (٩)
فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۞ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۞ (١١) فَمَنْ شَاءَ
ذَكَرَهُ ۞ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۞ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۞ (١٤)
بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۞ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۞ (١٦)

ذكر غير واحد من المفسرين ٥٧٥ [ان رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش . ففي رواية عن أنس رضي الله عنه أنه « أُبيّ بن خلف » وفي رواية أخرى لابن عباس أنهم عتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وكان يتصدّى لهم كثيراً ، ويحرص عليهم أن يؤمنوا ؛ فأقبل إليه رجل أعمى ، يقال له : عبد الله بن أم مكتوم . فجعل عبدالله يستقرىء النبي ﷺ آيةً من القرآن وقال : يا رسول الله علمني مما علمك الله فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس في وجهه وتولّى وكره كلامه ، وأقبل على الآخرين فلمّا قضَى رسول الله ﷺ نجواه وأخذ ينقلب الى أهله أمسك الله بعض بصره

وخفق برأسه ثم أنزل الله تعالى : ﴿ عبسَ وتولى . أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعلّه يزكّى. أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ . على أن رسول الله ﷺ ، ودّلو أنْ كف ساعتَه تلكَ ليتمكّن من مخاطبة أولئك الرجال ، طمعاً ورغبةً في هدايتهم. وقوله تعالى : ﴿ عبَسَ وتولّى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعلّه يزّكّى﴾ أي يحصل له زكاة وطهارة في نفسه ﴿ أو يذكّر فتنفعه الذكرى ﴾ أي يحصل له اتعاظ وازدجارٌ عن المحارم ﴿ أما من استغنى فأنت له تَصدّى﴾ أي أما الغني المستكبر عن دعوتك فأنت تتعرض له لعله يهتدي ؟ ﴿ وما عليك الاّ يزّكّى﴾ أي ما أنت بمطالَب به اذا لم يحصل له زكاة ﴿ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ﴾ أي يقصدك ويؤمُّك ليهتدي بما تقول له . ﴿ فأنت عنه تلهّى ﴾ أي تتشاغل؟ ومن ههنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ بعد ذلك أن لا يخص بالإنذار أحداً ، بل يساوي فيه بين الجميع ، ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ؛ فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه. وابن ام مكتوم هذا كان أحد مؤذّني رسول الله ﷺ وكان يقول عليه الصلاة والسلام :
٥٧٦ [إن بلالاً يؤذّن بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم] والمشهور أن اسمَه عبدُالله ويقال عمرو والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ كلاّ إنها تذكرة ﴾ أي هذه السورة ، أو الوصية بالمساواة بين الناس ، في ابلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم . وقوله تعالى :

﴿ في صحفٍ مكرّمة . مرفوعة مطهّرة ﴾ أي هذه السورة أو العظة وكلاهما متلازم بل جميع القرآن في صحف مكرمة أي معظّمة موقرة ﴿ مرفوعة ﴾ أي عالية القدر ، ﴿ مطهرة ﴾ أي من الدنس والزيادة والنقص . وقوله تعالى : ﴿ بأيدي سفره ﴾ اي الملائكة يعني سفرة بين الله تعالى وبين خلقه وقوله تعالى : ﴿ كرام بررة ﴾ اي خلقهم كريم وأفعالهم بارّة طاهرة ، ومن ههنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله واقواله على السداد والرشـــاد .

وروى أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ [الذي يقرأ القرآن وهو ما هرٌ به مع السفرة الكرام البررة. والذي يقرأه وهو عليه شاق له أجران] أخرجه الجماعة من طريق قتادة .

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلُ

يَسَّرَهُ ۞ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۞ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۞ (٢٢)
كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ۞ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۞ (٢٤)
أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۞ (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۞ (٢٦) فَأَنْبَتْنَا
فِيهَا حَبًّا ۞ (٢٧) وَعِنَباً وَقَضْباً ۞ (٢٨) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ۞ (٢٩)
وَحَدَائِقَ غُلْباً ۞ (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۞ (٣١) مَتَاعاً لَكُمْ
وَلِأَنْعَامِكُمْ ۞ (٣٢)

يذم الله من أنكر البعثَ والنشورَ من بني آدم ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ أي لعن الإنسان وهذا لجنس الإنسان المكذب، لكثرة تكذيبه بلا مستند، بل بمجرد الاستبعاد والجهل. ﴿ ما أكفره ﴾ أي ما أشدَّ كفره ! ثم بيَّن تعالى له كيف خلقه من الشيء الحقير وأنه قادر على إعادته كما بدأه. فقال تعالى: ﴿ من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ﴾ أي قدرَّ أجله ورزقه وعمله وشقيٌّ أو سعيد ﴿ ثم السبيل يسّره ﴾ أي يسر عليه خروجه من بطن أمه وقال مجاهد : هذه كقوله تعالى : ﴿ إنّا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ أي بيّناه له وأوضحناه وسهلنا عليه علمه . وكذا قال الحسن وابن زيد وهذا هو الأرجح والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ ثم أماته فأقبره ﴾ أي أنه بعد خلقه له أماته فأقبره . وقوله تعالى : ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ أي بعثه بعد موته ومنه يقال البعث والنشور. ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ ﴿ وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً ﴾ . وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى أبي سعيد عن النبي ﷺ قال :٥٧٧ [يأكل الترابُ كلَّ شيء من الإنسان إلاَّ عجْبَ ذنبه] وهذا الحديث ثابت في الصحيحين من رواية الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ولفظه :٥٧٨ [كل ابن آدم يبلى إلاَّ عجب الذنب منه خلق وفيه يركب] .

وقوله تعالى : ﴿كلاَّ لمّا يقضِ ما أمره ﴾ أي لا يفعله الآن حتى تنقضيَ المدة ويفرغَ القدر من بني آدم ممن كتب الله أن سيوجد منهم ويخرج الى الدنيا ، وقد أمر به تعالى كوناً وقدراً فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الخلائق وأعادهم كما بدأهم .

وقوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ فيه امتنان وفيه استدلال بإحياء النبات

من الأرض الهامدة على احياء الأجسام بعد ما كانت عظاماً بالية وتراباً متفرقاً ﴿ أنّا صببنا الماء صبّاً ﴾ أي أنزلناه من السماء على الأرض ﴿ ثم شققنا الأرض شقاً ﴾ أي أسكناه فيها فدخل في تخومها، ويتخلل في أجزاء الحب المودع فيها فنبت وارتفع، وظهر على وجه الأرض. ﴿ فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً ﴾ فالحب كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والقضب هو الفصفصة[1] التي تأكلها الدواب رطبةً. ويقال لها القت ايضاً. وقال الحسن البصري: القضب العلف ﴿ وزيتوناً ﴾ وهو معروف وهو أُدْم وزيته أدم ويستصبح به ويدهن به ﴿ ونخلاً ﴾ يؤكل بلحاً وبسراً ورطباً وتمراً ونيئاً ومطبوخاً ويعتصر منه ربٌّ وخل. ﴿ وحدائق غلباً ﴾ أي بساتين وشجر ملتف ومجتمع يستظل به ﴿ وفاكهة وأبّاً ﴾ أما الفاكهة فكل ما يتفكه به من الثمار. والأب: ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس. وقوله تعالى: ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ أي عيشةً لكم ولأنعامكم في هذه الدار الى يوم القيامة.

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ ٱلصَّآخَةُ ۞ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۞ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۞ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۞ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۞ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۞ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۞ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۞ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۞ (٤٢) ﴾

قال ابن عباس: الصاخّة اسم من اسماء يوم القيامة، عظمه الله وحذرَه عبادَه. وقال البغوي الصاخّة يعني صيحة يوم القيامة ﴿ يوم يفرُّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴾ أي يراهم ويفرُّ منهم، ويبتعد عنهم لأن الهول عظيمٌ، والخطب جليلٌ. وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة أنه إذا طلب إلى كل من أولي العزم ان يشفع عند الله في الخلائق يقول: نفسي نفسي لا أسألك اليوم إلاّ نفسي. حتى أن عيسى بنَ مريم عليه السلام يقول: لا أسأله اليوم إلاّ نفسي لا أسأله مريم التي ولدتني. وقوله تعالى: ﴿ لكل امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه ﴾ أي هو في شغل شاغل عن غيره. وروى ابن أبي حاتم بسنده الى ابن عبـاس قال: قال رسول الله ﷺ. ٥٧٩ [تحشَرون حفاةً عراة مشاةً غُرْلاً

(١) لعلها التي نسميها اليوم (الفصّة) بالعاميـّة

قال : فقالت زوجته يا رسول الله ننظر أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : لكل امرىءٍ منهم يومئذ شأن يغنيه أو قال ما أُشغله عن النظر] .

وقوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ﴾ اي يكون للناس هنالك فريقين وجوهٌ مسفرةٌ أي مستنيرة ﴿ ضاحكة مستبشرة ﴾ أي مسرورة فرحة من السرور في قلوبهم ، قد ظهر البِشر على وجوههم وهؤلاء هم أهلُ الجنّة . ﴿ ووجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرَة . ترهقها قَتَرة ﴾ أي يعلوها ويغشاها قترة أي سواد .

وروى ابن ابي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ
٥٨٠ [يلجِم الكافرَ العرقُ ثم تقع الغبرَةُ على وجوههم] قال فهو قوله تعالى : ﴿ ووجوهٌ يومئذ عليها غبرَة ﴾] وقوله تعالى : ﴿ أولئك هم الكفرةُ الفجرة ﴾ أي الكفرة قلوبهم ، الفجرة في أعمالهم . كما قال تعالى : ﴿ ولا يلِدوا إلاّ فاجراً كفّاراً ﴾ .

آخر اختصار تفسير سورة « عبس » ولله الحمد والمنّة
وبه العصمة وله الفضل وعليه التّكلان

(٨١) سورة التكوير مكية وآياتها تسع وعشرون

نزلت بعد سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ❁ (١) وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ❁ (٢)
وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ❁ (٣) وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ❁ (٤) وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ
حُشِرَتْ ❁ (٥) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ❁ (٦) وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ
زُوِّجَتْ ❁ (٧) وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ❁ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ❁ (٩)
وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ❁ (١٠) وَإِذَا ٱلسَّمَاءُ كُشِطَتْ ❁ (١١) وَإِذَا
ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ❁ (١٢) وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ❁ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ
مَّا أَحْضَرَتْ ❁ (١٤)

روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ٥٨١ [من سره أن ينظر الى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿إذا الشمس كوّرت﴾ و ﴿إذا السماء انفطرت﴾ و ﴿إذا السماء إنشقّت﴾] ورواه الترمذي .

قوله تعالى : ﴿إذا الشمس كوّرت﴾ التكوُّر يرجع الشيء بعضه الى بعض ، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب ؛ فمعنى قوله : ﴿كوّرت﴾ جمع بعضها الى بعض ثم لفت فرمي بها واذا فعل بها ذلك ذهب ضوءُها .

روى البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ ٥٨٢ [الشمس والقمر يكوران يوم القيامة] وقوله تعالى: ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ أي انتثرت كما قال تعالى : ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ أي زالت عن أماكنها ونسفت، فتركت الأرض قاعاً صفصفاً وقوله: ﴿ واذا العشار عطلت ﴾ أي أهملها أهلها واشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها ، بعد ما كانوا أرغب شيء فيها، بما أهمّهم من الأمر العظيم المفظع الهائل، وهو أمر يوم القيامة . والعشار هي الإبل ولا يعرف عن الأئمة سواه والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ أي جمعت . كما قال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحَيْه إلاّ أممٌ أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربّهم يحشرون ﴾ قال ابن عباس : (يحشر كلُّ شيء حتّى الذباب) .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ أي أوقدت [1] . روى ابن جرير بسنده إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال لرجل من اليهود أين جهنم قال البحر فقال ما أراه إلاّ صادقاً. ﴿والبحر المسجور﴾. وقال ابن عباس وغير واحد، يرسل الله عليها الرياح الدبور فتُسعِرُها وتصيرُ ناراً تأجج وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى : ﴿ والبحر المسجور ﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا النفوس زوِّجتْ ﴾ عن مجاهد : أن الأمثال من الناس جمع بينهم واختاره ابن جرير وهو الصحيح وعن ابن عباس أن الأرواح تزوّج الأجساد [3] فذلك قول الله تعالى : ﴿ وإذا النفوس زوّجت ﴾ وكذا قال ابو العالية ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير والشعبي . وقال الحسن البصري : أي زوّجت بالأبدان .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الموؤودة سئلت . بأي ذنبٍ قُتلت ﴾ الموءودة هي التي كان أهلُ الجاهلية يدسّونها في التراب حيّة كراهية البنات. فيوم القيامة تسأل الموءودة عن أي ذنب قتلت؟ ليكون ذلك تهديداً لقاتلها فإنه إذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذاً ؟ وعن ابن عباس ﴿ سئلت ﴾ أي طالبت بدمها .

وروى عبد الرزاق بسنده الى عمر بن الخطاب في قوله تعالى : ﴿ وإذا الموءودة

(١) و(٢) قلت : راجع سورة الطور (٥٢) آية (٦) وإن البحر قد خلق الله فيه مادة مشتعلة هي « البوتاس ». وستشتعل بأمر الله متى شاء . (٣) قلت : أرجح ما ذهب اليه ابن عباس من أن الأرواح تُزوَّجُ الأجساد .

سئلت ﴾ قال : ٥٨٣ [جاء قيس بن عاصم الى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : وأدتُ ثمان بنات لي في الجاهلية قال :«أعتق عن كل واحدة منهن رقبة»قال : يا رسول الله : إني صاحب إبل قال :«فأهدِ إن شئت عن كل واحدة بدَنة»!]

وقوله تعالى : ﴿ وإذا السماء كُشطت ﴾ قال الضحاك تنكشط فتذهب وقوله تعالى : ﴿ وإذا الجحيم سعّرت ﴾ قال السدي : أحميت وقوله تعالى : ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ أي قُرِّبت إلى أهلها ، وقوله تعالى : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ هذا هو الجوابِ أي اذا وقعت هذه الأمور حينئذٍ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها. كما قال تعالى ﴿ يوم تجد كلُّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضَراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ وكما قال أيضاً ﴿ ينبَّأ الإنسان يومئذٍ بما قدّم وأخّر ﴾ وروى ابن أبي حاتم بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما نزلت ﴿ اذا الشمس كوّرتْ ﴾ قال عمر لما بلغ : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ قال لهذا أجري الحديث .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۞ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۞ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۞ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۞ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۞ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ۞ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۞ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۞ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۞ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۞ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۞ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ (٢٩) ﴾

روي عن علي رضي الله عنه : ﴿ فلا أقسم بالخنّس الجوار الكنّس ﴾ هي النجوم تخنس بالنهار وتكنس بالليل . ﴿ والليل إذا عسعسَ ﴾ أي إذا اشتد ظلامه والمراد : إذا أقبل كأنه أقسم بالليل وظلامِه إذا أقبل ، وبالفجر وضيائه إذا أشرقَ. كما قال تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى ﴾ ﴿ والصبح إذا تنفّس ﴾ أي إذا طلع وأضاء وأقبل . وقوله تعالى : ﴿ إنه لقولُ رسولٍ كريم ﴾ يعني إنّ هذا القرآن لتبليغُ رسولٍ كريم

أي ملك شريف وهو : جبريل عليه الصلاة والسلام . ﴿ ذي قوة ﴾ كقوله تعالى: ﴿ علّمه شديد القوى ، ذومرة ﴾ أي شديد الخلق شديد البطش والفعل ﴿ عند ذي العرش مكين ﴾ أي له مكانة عند الله عز وجل ، ومنزلة رفيعة ﴿ مطاعٍ ثَمَّ ﴾ أي في السموات وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى وليس هو من أفناد الملائكة ، بل هو من السادة والأشراف ، معتنى به ، انتخب لهذه الرسالة العظيمة . وقوله تعالى : ﴿ أمين ﴾ صفة لجبريل بالأمانة ، وهذا عظيم جداً أن الرب عزَّ وجل يزكّي عبدَه ورسوله الملكي جبريل كما زكّى عبدَه ورسوله البشري محمداً ﷺ بقوله تعالى : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ يعني محمداً ﷺ وقوله تعالى : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ يعني ولقد رأى محمّدٌ جبريلَ الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل، على الصورة الملكيّة التي خلقه الله عليها له ستمأة جناح. ﴿ بالأفق المبين ﴾ وهي الرؤية الأولى المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلّى ﴾ والظاهر والله أعلم أن هذه السورة نزلت قبل الإسراء لأنه لم يذكر فيها إلاَّ هذه الرؤية الأولى ؛ أما الثانية فهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ﴾ فتلك إنما ذكرت في سورة النجم وقد نزلت بعد سورة الإسراء . وقوله تعالى : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ قرىء ضنين وقرىء ظنين وكلاهما متواتر . فعلى قراءة ظنين : أي وما محمد على ما أنزله الله إليه بمتَّهم . وعلى قراءة ضنين : أي ماضنٍّ بالقرآن على الناس بل نشره وبلغه وبذله للناس جميعاً .

وقوله تعالى : ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ اي وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم أي لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغي له . كما قال تعالى: ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فأين تذهبون ﴾ ؟ اي فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه حقاً من عند الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ إنْ هو إلاَّ ذكر للعالمين ﴾ أي هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتّعظون. ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ أي من أراد الهداية، فعليه بهذا القرآن، ولا هداية فيما سواه. ﴿ وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله رب العالمين ﴾ أي ليست المشيئةُ موكولةً لكم فمن شاء اهتدى ومن شاء ضلَّ ... بل ذلك كله تابع لمشيئته تعالى رب العالمين .

آخر اختصار تفسير سورة التكوير ولله الحمد والمنة، وبه العصمة وعليه التُّكْلان .

(٨٢) سورة الانفطار مكيّة وآياتها تسع عشرة

نزلت بعد سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم



إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنفَطَرَتْ ۞ (١) وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۞ (٢)
وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۞ (٣) وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۞ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ
مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۞ (٥) يَا أَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ
ٱلْكَرِيمِ ۞ (٦) ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۞ (٧) فِي أَيِّ
صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۞ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۞ (٩)
وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ ۞ (١١) يَعْلَمُونَ
مَا تَفْعَلُونَ ۞ (١٢)

روى النسائي عن جابر قال : قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطوّل فقال النبي ﷺ
٤٨٢ [أفتّانٌ أنت يا معاذ ؟ أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى ، والضحى ، وإذا السماء انفطرت] . وأصل الحديث مخرج في الصحيحَين ولكن ذكر إذا السماء انفطرت في افراد النسائي .

يقول تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ أي انشقت ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ أي تساقطت ﴿ وإذا البحار فجِّرت﴾ أي تفجرت وذهب ماؤها ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ أي تحرّكت وخرج من فيها ﴿ علمتْ نفس ما قدمت وأخرت ﴾ أي إذا وقعت كل هذه الأمور المتقدِّمة حصل العلم عند النفس ما عملته من خير أو شرٍ .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم ﴾ أي ما غرك بربّك الكريم حتى أقدمت على معصيته كما جاء في الحديث: ٥٨٥ [يقول الله تعالى يوم القيامة : يا ابن ادم ما غـرَّكَ بي ؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين] .

وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى يحيى البكاء سمعت ابنَ عمر يقول وقرأ هذه الآية : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ قال ابن عمر : غرّه والله جهلُه . وروي عن ابن عباس وغيره : ما غر ابنَ آدم غيرَ هذا العدو الشيطان . وقال أبو بكر الورّاق : لو قال لي : ما غرّكَ بربك الكريم لقلت: غرّني كرم الكريم. وقال مثل هذا القول بعض أهل الإشارة ... ؟؟ !!! إنما قال بربك الكريم دون سائر اسمائه وصفاته كأنه لقنه الجواب (١) . وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بطائل لأنه إنما أتى باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابلَ الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور . لاسيما وان هذه الآية نزلت في الأسود بن شريق ضرب النبي ﷺ ولم يعاقبْ في الحالة الراهنة فأنزل الله تعالى ﴿ ما غرك بربك الكريم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ الذي خلقك فسوّاك فعدلك ﴾ أي ما غرك بالربِّ الكريم الذي جعلك سويّاً مستقيماً معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئآت والأشكال .

روى الإمام أحمد بسنده إلى بشر بن جحاش القرشي : ٥٨٦ [أن رسول الله ﷺ بصق يوماً بكفِه فوضع عليها أصبعه ثم قال :قال الله عز وجل : يا ابن آدم أنّى تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ...؟ حتى إذا سوّيتْك وعدلتُك مشيتَ بين بُردَيْن ، وللأرض منك وئيد ، فجمعتَ ومنعتَ حتى إذا بلغتِ التراقيَ قلتَ : أتصدق وأنّى أوان الصدقة؟] وكذا رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة .

---

(١) قلت : قوله : (أهل الإشارة ...) أي هم : أهل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ... وهم الذين لم يبتلَ الإسلام ببلاءٍ ... بمثل ما ابتلي بهم !!! فتأمل يا أخي المسلم قوله : « غرني كرم الكريم » وقولهم : « كأنه لقنه الجواب » إن مثل هذه الأقوال ... لا يوسوس بها في النفوس ، إلا الشيطان ، تحريضاً منه على المعصية تذرعاً بعفو الكريم ... فمثل هذا التفكير ... يدفع العبد إلى اللامبالاة بالمعصية أملا بالعفو ! بينما كرم الله الظاهر في نعمه العظمى التي لا تعد ولا تحصى ، والتي يعيشها الانسان ، ويتلمسها في كل لحظة ، كان يجب أن يقابل هذا الكرم ، بالإقلاع عن المعصية ، لا التمادي فيها حتى يلقي الله عليها ... أمِن طمعك بكرمه تعالى أن تقابل هذه النعم بالكفر بدل الشكر ... !!!؟. كان عليك أن تعالج نفسك قائلا : ليس من الإنصاف ان أقابل النعمة بالمعصية والكرم بالجحود ، ولو لقيت هذا الكرم من مخلوق لخجلت أن اقابل الإحسان بالإساءة ، فكيف باحسان الرب سبحانه ... ؟ !!! فالإحسان والكرم والإنعام بواعث على التوبة والإقلاع عن الذنب .. لا التمادي فيه ، أملا بكرم الكريم !!! هذا هو المراد من قوله تعالى : ما غرك بربك الكريم ، لا كما أوحاه الشيطان إلى حزبه ، خزاه الله وحزبه ووقانا الله شرورهم ، وشرور « إشاراتهم ... » والله تعالى أعلم وهو الموفق للصواب .

وقوله تعالى: ﴿ في أي صورة ما شاء ركّبك ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة:
٥٨٧ [أن رجلاً قال يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاماً أسود قال « هل لك من إبل ؟ قال نعم ، قال : فما ألوانها ؟ قال حمر قال فهل فيها من أورق ، قال نعم قال : فأنّى أتاها ذلك ؟ قال : عسىٰ ان يكون نزعة عرق قال : وهذا عسى أن يكون نزعة عرق] . والمعنى أن الله سبحانه وتعالى قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة ولكن بقدرته ولطفه، وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام، حسن المنظر والهيئة.

وقوله تعالى: ﴿ كلاّ بل تكذّبون بالدين ﴾ أي إنّما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب . وقوله تعالى : ﴿ وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون ﴾ يعني وان عليكم لملائكةً حفظةً كراماً فلا تقابلوهم بالقبائح فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ (١٣) وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ۝ (١٩) ﴾

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه ، وهم الذين أطاعوا الله عز وجل ولم يقابلوه بالمعاصي . وقد روى ابنُ عساكر بسنده الى ابن عمرَ عن النبي ﷺ قال : ٥٨٨ [إنما سمّاهم الله الأبرار لأنّهم برّوا الآباء والأبناء] ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم ولهذا قال : ﴿ يصلونها يوم الدين ﴾ اي يوم الحساب والجزاء والقيامة ﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ أي لا يغيبون عن العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ولو يوماً واحداً . وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما يومُ الدين ﴾ ثم فسره بقوله : ﴿ يوم لا تملك نفسٌ لنفس شيئاً ﴾ أي لا يقدر أحد على نفع أحدٍ ولا خلاص له مما هو فيه إلا بإذن الله لمن يشاء ويرضى . ونذكر هاهنا حديث :
٥٨٩ [يا بني هاشم: أنقذوا أنفسَكم من النار لا أملك لكم من الله شيئاً] ولهذا قال : ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ قال قتادة: والأمر والله اليومَ لله، ولكنه لا ينازعه فيه يومئذٍ أحد.

آخر اختصار تفسير سورة الانفطار ولله الحمد والمنة، وبه العصمة وعليه الإتّكال .

(٨٣) سُورَةُ المطفِّفِينَ مكيّة وآياتها ستّ وثلاثون

نزلت بعد سورة العنكبوت وإنها آخر سورة نزلت بمكّة المكرّمة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۞ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۞ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۞ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۞ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ (٦) ﴾

﴿ ويل للمطففين ﴾ المراد بالتطفيف ههنا : البخس في المكيال والميزان إما بالازدياد إنِ اقتضَى من الناس ، وإما بالنقصان إنْ قضَاهم . ولهذا فسر تعالى المطففين الذين قصدهم بالويل وهو الخسار والهلاك بقوله تعالى : ﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ أي يأخذون حقّهم بالوافي والزائد ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ أي يُنقصون . وقد أمر الله تعالى بالوفاء في الكيل والميزان . فقال تعالى: ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم . ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ وقد أهلك الله قوم شعيب ودمّرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال ثم قال متوعّداً لهم : ﴿ ألا يظن أولئك أنّهم مبعوثون ليوم عظيم ﴾ أي أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر في يوم عظيم الهول ، كثير الفزَع ، جليل الخطب، ومن خسر فيه أدخل ناراً حامية. وقوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ أي حفاةً عراةً غرلاً في موقف صعب، حرج ضنك على المجرم ، ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس

عنه . روى الإمام مالك عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال ٥٩٠ [يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيبُ أحدهم في رشحه إلى إنصاف أذنيه] رواه البخاري ومسلم .

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لبشير الغفاري : ٥٩١ [كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه ثلثمائـة سنة لرب العالمين من أيام الدنيا لا يأتيهم فيه خبر من السماء ولا يؤمر فيهم بأمر ؟ » قال بشير المستعان الله » قال « فإذا أويت إلى فراشك فتعوذ بالله من كرب يوم القيامة وسوء الحساب »]

وفي سنن أبي داود أنّ رسول الله ﷺ ٥٩٢ [كان يتعوّذ بالله من ضيق المقام يوم القيامـــة]

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ ٱلْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ ۝ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝(١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ۝ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا ٱلْجَحِيمِ ۝ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝ (١٧) ﴾



يقول تعالى حقاً ﴿ إن كتاب الفجّار لفي سجّين﴾ أي إن مصيرهم ومأواهم لفي سجّين.فعيل من السجن ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ أي هو أمر عظيم ، وسجن مقيم ، وعذاب أليم. وهو يجمع الضيق والسفول حيث مصير الفجّار الى جهنم. وهي أسفل سافلين. كما قال تعالى : ﴿ واذا ألقوا منها مكاناً ضيّقاً مقرّنين دعوا هنالك ثبورا﴾ وقوله تعالى : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ ليس تفسيراً لقوله : ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ وانما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين أي مرقوم مكتوب مفروغ منه لا يزاد فيه ولا ينقص منه أحد ﴿ ويل يومئذ للمكذّبين ﴾ أي اذا صاروا يوم القيامة إلى ما وعدهم الله من السجن والعذاب المهين والمراد الويل الهلاك والدمار ثم قال تعالى : مفسراً للمكذبين الفجار الكفرة ﴿ الذين يكذبون بيوم الدين ﴾ أيْ لا يصدقون بوقوعه ولا يعتقدون كونـــه ،

ويستبعدون أمره. قال الله تعالى: ﴿ وما يكذب به إلاّ كلّ معتدٍ أثيم ﴾ أي معتدٍ في أفعاله في تعاطي الحرام والمجاوزة في تناول المباح . والأثيم في أقواله إنْ حدث كذَب وإن وعد أخلف وإن خاصم فجر .

وقوله تعالى : ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ أي إذا سمع كلامُ الله تعالى من الرسول يكذب به ويعتقد أنه مجموع من كتب الأوائل . كما قال تعالى : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملَى عليه بكرةً وأصيلا ﴾ قال الله تعالى : ﴿ كلاّ بلْ رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ان هذا القرآن أساطير الأولين بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وانما حجب قلوبهم عن الإيمان به بما عليها من الرين الذي لبس قلوبهم من كـــثرة الذنوب والخطايا . وقد روى ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ٥٩٣ [ان العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب منها صقل قلبه، وان زاد زادت فذلك قوله تعالى : ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾] وقال الترمذي حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾ أي لهم يوم القيامة منزل ونزلُ سجين ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم واستدل الشافعي من هذه الآية : على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ كما دل عليه منطوق قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ وكما دلت علىّ ذلك الأحاديث المتواترة ﴿ ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾ أي ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن، من أهل النيران ﴿ ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ أي يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ.

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۞ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ ۞ (٢٠) يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۞ (٢١) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ (٢٢) عَلَى ٱلْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۞ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۞ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ۞ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ۞ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ۞ (٢٧) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۞ (٢٨)

يقول تعالى : حقاً ﴿ إنّ كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ أي مصيرهم إلى علّيين وهو بخلاف سجّين. والظاهر أن عليين مأخوذة من العلو وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع ولهذا قال تعالى معظّماً شأنه ﴿ وما أدراك ما علّيون ﴾ ثم قال مؤكداً لما كتب لهم ﴿ كتاب مرقوم يشهده المقرّبون ﴾ وهم الملائكة .

ثم قال تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ أي يوم القيامة في نعيم، مقيم وجنات فيها فضل عميم .﴿ على الأرائك ينظرون.﴾ أي هم على السرر تحت الحجال ينظرون الى الله عزّ وجلّ وهذا مقابلٌ لما وصف به أولئك الفجّار ﴿كلا إنهم عن ربّهم يومئذٍ لمحجوبون﴾ وقوله تعالى : ﴿ تعرف في وجوههم نضرةُ النعيم ﴾ أي تعرف إذا نظرت إليهم صفته الترافة والحشمة والرياسة مما هم فيه من النعيم العظيم .

وقوله تعالى : ﴿ يسقون من رحيق مختوم ﴾ أي يسقَوْن من خمر الجنّة والرحيق من أسماء الخمر وعن ابن عباس : طيب الله لهم الخمر فكان آخر شيء وجعل فيها مسك ختم بمسك .

وعن أبي الدرداء ﴿ ختامه مسك ﴾ شراب أبيض مثل الفضة يختمون به شرابهم ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلاّ وجد طيبها .

وقوله تعالى : ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ أي وفي مثل هذا الحال، فليتفاخر المتفاخرون ، ليستبق إليه المستبقون. كقوله تعالى ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ أي ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم أي من شراب يقال له تسنيم وهو أشرف شراب أهل الجنّة وأعلاه . ولهذا قال : ﴿ عيناً يشرب بها المقربون ﴾ أي يشربها المقربون صرفاً ، وتمزج لأصحاب اليمين مُزْجاً قاله ابن مسعود وابن عباس وغيرهما .

۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۞(٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۞ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا فَكِهِينَ ۞ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۞ (٣٢) وَمَآ أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۞ (٣٣) فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ ٱلْكُفَّارِ

يَضْحَكُونَ ❁ (٣٤) عَلَى ٱلْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ❁ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ❁ (٣٦)

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين يستهزئون بهم ويحتقرونهم ﴿ وإذا مروا بهم يتغامزون ﴾ أي محتقرون لهم ﴿ واذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ﴾ أي إذا رجع المجرمون إلى منازلهم انقلبوا إليها فكهين أي مهما طلبوا وجدوا ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم ، بل اشتغلوا باحتقار المسلمين .﴿ واذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالّون ﴾أي لكونهم على غير دينهم . قال الله تعالى: ﴿ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ أي وما بعث المجرمون حافظين على المؤمنين ولا كلفوا بذلك... فلما اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم كما قال تعالى: ﴿اخسأوا فيها ولا تكلّمون . إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الرّاحمين ، فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون . إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ولهذا قال هنا: ﴿ فاليوم ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ أي مقابلة ما ضحك بهم أولئك.﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ أي إلى الله عز وجل في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون وليسوا بضالين بل هم من أولياء الله المقربين ينظرون إلى ربّهم في دار كرامته . وقوله تعالى: ﴿ هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ أي هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من التنقيص أم لا ؟.. يعني قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

آخر اختصار تفسير سورة المطففين ولله الحمد والمنة والشكر والفضل .

وبه العصمة وعليه التُّكلان

(٨٤) سُورَةُ الانْشِقَاقِ مَكِّيَّة وآياتها خمس وعشرون

نزلت بعد سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنشَقَّتْ ۞ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۞ (٢)
وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۞ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۞ (٤) وَأَذِنَتْ
لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۞ (٥) يَا أَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً
فَمُلَاقِيهِ ۞ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ (٧) فَسَوْفَ
يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ۞ (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً ۞ (٩) وَأَمَّا
مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۞ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ۞ (١١) وَيَصْلَىٰ
سَعِيراً ۞ (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ۞ (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن
يَحُورَ ۞ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ۞ (١٥)

يقول تعالى : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ أي استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق. ﴿ وحُقَّت ﴾ أي وحق لها أن تطيع أمره لأنه العظيم. ﴿ وإذا الأرض مدّت ﴾ أي بسطت وفرشت ﴿ وألقت ما فيها وتخلّت ﴾ أي ألقت ما في بطنها من الأموات وتخلت منهم ﴿ وأذنت لربها وحُقَّت ﴾ كما تقدم وقوله ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ أي إنك ساعٍ إلى ربك سعياً وعاملاً عملاً ﴿ فملاقيه ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خيرٍ أو شر .

ويشهد بذلك ما رواه أبو داود الطيالسي بسنده عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٩٤ [قال جبريل : يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب ما شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه] . وقوله تعالى : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ أي دون الحساب على دقائق أعماله وذلك كما روى الإمام أحمد بسنده عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ ٥٩٥ [«من نوقش الحساب عذب» فقلت : أفليس قال الله تعالى : ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ قال ليس ذاك بالحساب ولكن ذلك العرض من نوقش الحساب يوم القيامة عذّب] وهكذا رواه البخاريّ ومسلمٌ والترمذيّ والنسائيّ .

وقوله تعالى : ﴿ وينقلب إلى أهله مسرورا ﴾ أي يرجع الى أهله في الجنة فرحاً بما أعطاه الله عز وجل وقوله تعالى : ﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ أي بشماله من وراء ظهره ، ﴿ فسوف يدعو ثبوراً ﴾ أي خساراً وهلاكاً ﴿ ويصلى سعيرا . إنه كان في أهله مسرورا ﴾ أي فرحاً في الدنيا لا يفكر في العواقب ، ولا يخاف مما أمامه فأعقب ذلك الفرحَ اليسير الحزنُ الطويل ﴿ إنه ظن أن لن يحورَ ﴾ اي كان يعتقد أنه لا يرجع الى الله ولا يعيده بعد موته ، والحور الرجوع . قال الله تعالى : ﴿ بلى إن ربَّه كان به بصيراً ﴾ يعني بلى سيعيده ويجازيه على أعماله، إنه كان به عليما خبيراً .

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۞ (١٦) وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۞ (١٧)
وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۞ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ ۞ (١٩) فَمَا لَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ۞ (٢٠) وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۞ (٢١)


بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ۞ (٢٢) وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۞ (٢٣)
فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ (٢٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ
لَهُمْ أَجرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۞ (٢٥)

روي عن علي وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين قالوا : الشفق الحمرة وقال عبد الرزاق بسنده عن أبي هريرة قال : الشفق البياض فالشفق هو حمرة الأفق من غروب الشمس الى وقت العشاء الآخرة . وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمر عن رسول

الله ﷺ انه قال: ٥٩٦ [وقت المغرب ما لم يغب الشفق] ﴿ وما وسق ﴾ أي وما ساق كل شيء إلى مأواه ﴿ والقمر اذا اتسق ﴾ إذا تكامل نوره وأبدر جعله مقابلاً للّيل وما وسق وقوله تعالى : ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ روى البخاري عن ابن عباس :٥٩٧ [حالاً بعد حال قال هذا نبيكم ﷺ] قال ابن جرير بعد ما حكى أقوال الناس في هذه الآية من القراء والمفسرين : والصواب من التأويل قول من قال لتركبن أنت يا محمد حالاً بعد حال وأمراً بعد أمر من الشدائد والمراد = وإن كان الخطاب موجهاً إلى رسول الله ﷺ = جميع الناس وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأحواله أهوالاً . وقوله تعالى : ﴿ فما لهم لا يؤمنون . واذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ فماذا يمنعهم من الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر . وما لهم اذا قرئت عليهم آيات الله وكلامه وهو هذا القرآن لا يسجدون إعظاما وإكراماً واحتراماً . وقوله تعالى : ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ أي من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق ﴿ والله أعلم بما يوعون ﴾ أي يكتمون في صدورهم ﴿ فبشّرهم بعذاب أليم ﴾ أي فأخبرهم يا محمد بأن الله عز وجل قد أعدّ لهم عذاباً أليماً .

وقوله تعالى : ﴿ إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ يعني لكن الذين آمنوا أي بقلوبهم وعملوا الصالحات أي بجوارحهم ﴿ لهم أجر ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع كما قال تعالى : ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾.

إن الله عز وجل له المنة على أهل الجنّة في كل حال وآن ولحظة وانّما دخلوها بفضله ورحمته لا بأعمالهم فله عليهم المنّة دائماً سرمداً والحمد لله وحده أبداً ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النَفَسَ وآخر دعواهم أنِ الحمدُ لله رب العالمين .

آخر اختصار تفسير سورة الانشقاق ولله الحمد والمنة .

وبه التوفيق والعصمة

(٨٥) سُورة البُروج مكيّة وآياتها ثنتان وعشرون

نزلت بعد سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۞ (١) وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۞ (٢)
وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۞ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ ۞ (٤) ٱلنَّارِ ذَاتِ
ٱلْوَقُودِ ۞ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ
بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۞ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْحَمِيدِ ۞ (٨) ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ
يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۞ (١٠) ﴾

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج والسماء والطارق . ويقسم الله تعالى بالسماء ، وبروجها هي النجوم العظام . واختار ابن جرير أنها منازل الشمس والقمر[1] . وقوله تعالى : ﴿ واليوم الموعود وشاهد ومشهود ﴾ فيُروَى عن ابي هريرة عن النبي ﷺ انه قال ٥٩٨ [اليوم الموعود : يوم القيامة

(١) قلت : لعلّ ما فسره ابن كثير رحمه الله تعالى أقرب إلى الصواب والله تعالى أعلم . مما فسره ابن جرير لأن هناك منازل غير منازل الشمس والقمر لا يحصيها الا الله تعالى . فالمقصود بالبروج كل بروج السماء فقوله تعالى : « ذات البروج » يعني البروج جميعها ليظهر عظم المقسوم به .

وشاهد : يوم الجمعة ، وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلاّ اعطاه إياه ، ولا يستعيذ فيها من شر إلاّ أعاذه . ﴿ ومشهود ﴾ يوم عرفة]

وقوله تعالى: ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ أي لعن أصحاب الأخدود . وجمعه أخاديد وهي الحفر في الأرض . وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا الى ما عندهم من المؤمنين بالله عزّ وجل ، فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم ، فأبوا عليهم فحفروا لهم في الأرض أخدوداً ، وأججوا فيه ناراً وأعدّوا لها وقودا يسعرونها به ، ثم أرادوهم .. فلم يقبلوا منهم ، فقذفوهم فيها. ولهذا قال تعالى: ﴿ قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ . أي مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين . قال الله تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ أي وما كان لهم عندهم ذنب إلاّ إيمانهم بالله العزيز الحميد الذي لا يضام من لاذ بجنابه المنيع ، الحميد في جميع أقواله وافعاله وشرعه وقدره . وان كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به فهو العزيز الحميد وان خفي سبب ذلك على كثير من الناس . ثم قال تعالى : ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ من تمام الصفة انه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ أي لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض ولا تخفى عليه خافية .

وقد اختلف أهل التفسير في أصل هذه القصة مَنْ هُمْ ...؟ قال أسباط عن السدي في قوله تعالى: ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ قال: كانت الأخدود ثلاثة: خد بالعراق، وخدٌ بالشام وخد باليمن رواه ابن ابي حاتم . وقد روى الإمام أحمد بسنده عن صهيب ان رسول الله ﷺ قال: ٥٩٩ [كان فيمن قبلكم ملك، وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : اني قد كبر سني وحضر أجلي، فادفع إليّ غلاماً لأعلّمه السحر فدفع اليه غلاماً كان يعلمه السحر ، وكان بين الساحر وبين الملك راهب فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه ، وكان إذا اتى الساحر ضربه وقال ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا : ما حبسك ؟ فشكا ذلك الى الراهب فقال : إذا اراد الساحر أن يضربك فقل حبسني أهلي . واذا أراد أهلك ان يضربوك فقل حبسني الساحر . قال فبينما هو ذات يوم ... إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس ، فلا يستطيعون ان يجوزوا... فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر... قال فأخذ حجراً فقال: اللهم ان كان أمر الراهب أحبَّ إليك وأرضى من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة

حتّى يجوز الناس ، ورماها فقتلها ومضى الناس فأخبر الراهب بذلك فقال . اي بنيّ انت أفضل مني وإنك ستُبتلَى ، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ . فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم ، وكان للملك جليس فعمي فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة فقال : اشفني ولك ما هاهنا أجمع . فقال : ما أنا أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل. فإن آمنت به دعوتُ الله فشفاك فآمن فدعا الله فشفاه .

ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس فقال له الملك يا فلان من ردّ عليك بصرك ؟ فقال ربي فقال أنا ؟ قال لا ... ربي وربك الله ، قال ولك رب غيري ؟ قال : نعم ربي وربك الله . فلم يزل يعذّبه حتى دلّ على الغلام ، فبعث إليه فقال : إي بني : بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ؟! قال : ما أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل . قال : أنا ؟ قال : لا قال: أو لك ربٌ غيري؟ قال ربي وربك الله، فأخذه أيضا بالعذاب فلم يزل به حتى دلّ على الراهب ، فأتى بالرّاهب فقال إرجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض. وقال للأعمى: إرجع عن دينك فأبى ،فوضع المنشار في مفرق رأسه ،حتى وقع شقاه إلى الأرض وقال للغلام ارجع عن دينك فأبى ، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا وقال إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلاّ فدهدهوه ، فذهبوا به فلمّا علَوا به الجبل قال : اللهم اكفنيهم بما شئت...فرجفَ بهم الجبل فدُهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك. فقال ما فعل أصحابك ؟ قال كفانيهم الله تعالى . فبعث به مع نفرٍ في قرقور فقال : إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلاّ فغرّقوه في البحر فلججوا به البحر فقال الغلام : اللّهم اكفنيهم بما شئت فغرقوا أجمعون .

وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال ما فعل أصحابك ؟ فقال كفانيهم الله تعالى ثم قال للملك : انت لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني وإلاّ فإنك لا تستطيع قتلي ، قال وما هو ؟ قال تجمع الناس في صعيد واحد ، ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي ثم قل : باسم الله ربّ الغلام فإنّك إذا فعلت ذلك تقتلني . ففعل ووضع السهم في كبد قوسه ثم رماه وقال : بسم الله رب الغلام فوقع السهم في صدغه . فوضع الغلام يدَه على موضع السهم ومات . فقال الناس آمنّا برب الغلام . فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر ؟ فقد والله نزل بك ، قد آمن الناس كلّهم . فأمر بأفواه السكك فخدّت فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران ، وقال : من رجع عن دينه فدعوه وإلاّ فأقحموه فيها ، فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون ، فجاءت

امرأة بابن لها ترضعه فكأنها تقاعست أن تقع في النار فقال الصبي أصبري يا أماه فانك على الحق] .

وهكذا رواه مسلم في آخر الصحيح عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة **به** نحوه . ورواه النسائي بسنده مختصراً ، وقد جوّده الإمام ابو عيسى الترمذي.

ويقال ان الملك هو ذو نواس ، والبلاد هي نجران دخل أهلها النصرانية ، وذو نواس كان قد تهوّد مع من تهوّد من أهل اليمن. ولأنهم دخلوا النصرانية...حرقهم في الأخدود فقتل منهم في غداة واحدة عشرين ألفاً ولم ينجُ منهم سوى رجل واحد يقال له دوس ذو ثغلبان، ذهب فارساً وطردوا وراءهُ، فلم يقدروا عليه، فذهب إلى قيصر ملك الروم، فكتب إلى النجاشي ملك الحبشة وأرسل معه جيشاً من نصارى الحبشة فاستنقذوا اليمن من اليهود . واستمر ملكهم فيهم سبعين سنة ثم استنقذه سيف بن ذي يزن من النصارى لما استجار بكسرى ملك الفرس ورجع الملك إلى حِمْيَر (١) .

وقوله تعالى : ﴿ ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي حرقوا ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ أي لم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا . ﴿ فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل ؛ قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ـ سبحانك اللهم ما أحلمك وما أكرمك ـ.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۞ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۞ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۞ (١٣) وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۞ (١٤) ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۞ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ۞ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۞ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۞ (١٨) بَلِ

---

(١) قلت : كان هذا من سيف بن ذي يزن على أثر عودة ابرهة الحبشي من محاولة غزوه لبيت الله وتشتت جيشه ومقتلهم جميعاً بفعل طير الأبابيل وموت ابرهة متأثراً من رمي « أبابيل » . ثم تولى ابنه يكسوم من بعده ثم ابنه مسروق ، ثم خرج سيف بن ذي يزن الحميري إلى كسرى ، فاستعانه على الحبشة فأنفذ معه من جيوشه فقاتلوا معه فرد الله إليهم بلادهم ، وما كان في آبائهم من الملك ... وجاءته وفود العرب بالتهنئة . من كل فج .

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ❁ (١٩) وَٱللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ❁ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ❁ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ❁ (٢٢)

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿ لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم . ولهذا قال ﴿ ذلك الفوز الكبير ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ (١) أي أن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذّبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم قوي ، فإنه تعالى ذو القوّة المتين الذي ما شاء كان كما يشاء في مثل لمح البصر ، أو هو أقرب. ولهذا قال تعالى: ﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ أي من قوته وقدرته التامّة يبدىء الخلق ويعيدُه كما بدأه بلا ممانع ولا مدافع ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ أي يغفر الذنب لمن تاب إليه وخضع لديه ولو كان الذنب من أي شيء كان. والودود قال ابن عباس وغيره: الحبيب . وقوله ﴿ ذو العرش ﴾ ان صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق . والمجيد فيه قراءتان ، الرفع على أنه صفةٌ للربِّ عزَّ وجل ، والجر على أنّه صفة للعرش وكلاهما معنى صحيح ﴿ فعّال لما يريد ﴾ أي مهما أراد فعله لا معقِّب لحكمه لا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته وعدله. – قيل لأبي بكر وهو في مرض الموت هل نظر إليك الطبيب؟ قال : نعم. قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي إني فعال لما أريد.

وقوله ﴿ هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود ﴾ أي هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس ، وأنزل عليهم من النقمة التي لم يردّها عنهم أحد ؟ وهذا تقرير لقوله تعالى : ﴿ إنّ بطش ربّك لشديد ﴾ أي إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً أليماً شديدا أخذ عزيز مقتدر (٢) وقوله تعالى : ﴿ بل الذين كفروا في تكذيب ﴾ أي هم في شكٍ وريب وكفرٍ وعناد ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ أي هو قادر عليهم قاهر لا يفوتونه ، ولا يُعجزونه .

(١) قلت : ان بطش الله صفة من صفاته التي لا ينبغي ان تشابهها أية صفة من صفات المخلوقين . ولكن لا تزال أقوال أهل (وحدة الوجود) المدونة في كتبهم .. تنعق بالزندقة والكفر إذ يقول « قائلهم ؟؟ » بعد أن قرأ : (إن بطش ربك لشديد) : (وأن بطشي لأشد) والعياذ بالله من الكفر والردّة وشرّ إلحاد هذه الطريقة الباغية التي ما وُجدت إلا مناوأةً للإسلام. ولكن الله سبحانه يردّ دائماً كيدهم في نحورهم بإلهام من يشاء من عباده لنصرة دينه وإعلاء كلمته .

(٢) قلت : فما قول من يقول : وإن بطشي لأشدّ ... ؟ هل يستطيع أن يأخذ أخذ عزيز مقتدر ؟ وهل إذا بطش الله به بطشاً بسيطاً فمسخه مثلا جرذيّاً ... فهل يستطيع أن يردّ بطش الله عنه ؟ الجواب : لا . فكيف إذاً يستطيع أن يكون بطشُه أشدّ من بطش الله ، في الوقت الذي لا يستطيع أن يردّ بطش الله عن نفسه؟ نعوذ بالله من الكفر . هذا القول نستبعد صدوره عن أي مسلم .

﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ أي عظيم كريم ﴿ في لوح محفوظ ﴾ أي هو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص ، والتحريف والتبديل [(١)] .

آخر اختصار تفسير سورة البروج ولله الحمد والمنّة

---

(١) قلت : ولكن الزنادقة أهل الحلول والاتحاد ووحدة الوجود خزاهم الله لا يعتقدون أن اللوح المحفوظ محفوظ ...!!!؟ ذلك لأنهم يزعمون أن باستطاعتهم أن يبدلوا فيه ما شاءوا ... وأن يثبتوا فيه ما أرادوا ... ويدعون : أن أحد مشايخهم محا بيده ما كان موجوداً من شقاء مريده، وأثبته سعيداً ...!!!؟ ومن المؤلم المخزي أنه ما يزال في أفراد هذه الأمة ، من يصدق بترهاتهم وأباطيلهم وزندقاتهم ... فاذا كان الأمر كما زعموا ، من أن اللوح المحفوظ ، يمكن أن يمس وتمحى منه المقادير ... فلماذا سماه الله محفوظاً ...؟ على أننا نتحداهم –إن ظلّوا على هذه العقيدة الخاسرة– أن يمحو من اللوح المحفوظ شقاوتهم هم ... قبل شقاوة مريديهم ، ويمحوا قدر خلودهم في الجحيم أبداً ... إن كانوا فاعلين ... اللهم عليك بالظالمين فانهم لا يعجزونك .

(٨٦) سُورة الطّارق مكيّة
وآياتها سبع عشرة

نزلت بعد سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَاءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ ٱلْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

روى النسائيُ عن جابر قال : صلى معاذ المغرب فقرأ البقرةَ والنساءَ فقال النبي ﷺ ٦٠٠ [أفتّانٌ أنت يا معاذ ! ما كان يكفيك أنْ تقرأَ بالسماء والطارق والشمس وضحاها ونحوها ؟] .

يقسم تبارك وتعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة ولهذا قال : ﴿ والسماء والطارق ﴾ ثم قال : ﴿ وما أدراك ما الطارق ﴾ ثم فسّره بقوله ﴿ النجم الثاقب ﴾ [١] قال قتادة وغيره : انما سمي النجم طارقاً لأنه انما يُرى بالليل ويختفي بالنهار ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح ٦٠١ [نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً أي يأتيهم فجأة بالليل] . وفي الحديث الآخر المشتمل على الدعاء ٦٠٢ [إلاّ طارقاً يطرق بخير يا

(١) قلت : زعم « بعضهم...؟؟! » أن الطارق والنجم الثاقب هو : محمد صلى الله عليه وسلم!!! وهذا باطل... والرسول صلوات الله عليه وسلامه أجل من ذلك وهو أشرف من كل مخلوق في الأرض وفي السماء، والأشرف لا يشبه بما دونه شرفاً!!! وما كان عليه الصلاة والسلام يوماً ما نجماً ثم تحوّل إلى بشر كما يزعمون ...؟!!!

رحمن] وقوله ﴿ الثاقب ﴾ أي مضيء محرق للشياطين. وقوله تعالى : ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ أي كل نفس عليها حافظ يحرسها من الآفات . كما قال تعالى: ﴿ له معقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان ممَّ خُلق ﴾ تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد، والمعادُ أهون عليه. كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ خلق من ماء دافق ﴾ يعني المنيّ يخرج دفقاً من الرجل ومن المرأة فيتولّد منهما الولد بإذن الله عزّ وجل . ولهذا قال : ﴿ يخرج من بين الصّلب والترائب ﴾ صلب الرجل وترائب المرأة وماؤها أصفر رقيق لا يكون الولد إلاّ منهما قال ابن عباد : هذه الترائب ووضع يده على صدره . وروي عنه : بين ثديي المرأة . وقوله تعالى : ﴿ انّه على رجعه لقادر ﴾ أي على رجع الإنسان المخلوق من ماء دافق أي إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر لأن من قدِر على البداءة قدِر على الإعادة من باب أولىَ . ولهذا قال ﴿ يوم تُبلىُ السرائر ﴾ أي يوم القيامة. أي تظهر ويبقى السر علانية . وقد ثبت في الصحيحين عن ابن عمر ان رسول الله ﷺ قال ٦٠٣ [يرفع لكل غادر لواء عند أسته يقال هذه غدرة فلان بن فلان] قوله تعالى : ﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾ أي لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله ولا يستطيع من أحد ذلك .

﴿ وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۞ (١١) وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۞ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۞ (١٣) وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۞ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً ۞ (١٥) وَأَكِيدُ كَيْداً ۞ (١٦) فَمَهِّلِ ٱلْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ۞ (١٧) ﴾

﴿ والسماء ذات الرجع ﴾ تمطر ثم تمطر فترجع رزق العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ هو انصداعها عن النبات وقوله تعالى : ﴿ إنّه لقولٌ فصل ﴾ حق وعدل ﴿ وما هو بالهزل ﴾ بل هو جد حق ﴿ إنهم يكيدون كيداً ﴾ أي ان الكافرين بكذبهم يصُدون عن سبيل الله ويمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن[1] ﴿ فمهِّل الكافرين ﴾ أي أنظرهم ولا تستعجل لهم ﴿ أمهلهم رويدا ﴾ أي قليلاً وسترى ماذا أُحلُّ بهم من العذاب والنكال والهلاك كما قال تعالى: ﴿ نمتّعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذابٍ غليظ ﴾ آخر تفسير سورة والطارق ولله الحمد والمنة .

(١) (وأكيد كيداً) أي أمدّهم في طغيانهم استدراجاً من حيث لا يعلمون ، ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر

(٨٧) سورة الأعلى مكيّة وآياتها تسع عشرة

نزلت بعد سورة التكوير

روَى الامام أحمد عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : ٦٠٤ [كان رسول الله ﷺ يحبُّ هذه السورة : ﴿ سبّح اسمَ ربّك الأعلى ﴾] تفرد به أحمد . وثبت في الصحيحيْن أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : ٦٠٥ [هلا صليت بسبح اسمَ ربّك الأعلى ، والشمس وضحاها والليل إذا يغشى] وروى الامام أحمد عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ ٦٠٦ [قرأ في العيدين « بسبح اسم ربك الأعلى » وهل أتاك حديث الغاشية » . وان وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً] ولفظ مسلم وأهل السنن ٦٠٧ [كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة « بسبح اسم ربّك الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية وربّما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما] وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن كعب وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن أبزى وعائشة أم المؤمنين ٦٠٨ [أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر ... بسبح اسم ربك الأعلى و « قل يا أيها الكافرون » وقل هو الله أحد . « زادت عائشة : والمعوِّذتَيْنَ] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حزب ٦٠

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾
وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ
غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ
يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن

نَفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۞ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۞ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۞ (١١) ٱلَّذِي يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۞ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۞ (١٣)

روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر الجهني ٦٠٩ [لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم قال لنا رسول الله ﷺ : اجعلوها في ركوعكم ، فلما نزلت : سبح اسم ربك الأعلى قال : اجعلوها في سجودكم] ورواه أبو داود وابن ماجه .

وعن ابن عباس ان رسول الله ﷺ ٦١٠ [إذا قرأ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال : سبحان ربي الأعلى] وعن عبد خير قال سمعت علياً قرأ : ﴿سبح اسمَ ربّك الأعلى﴾ فقال سبحان ربّي الأعلى . وقوله تعالى : ﴿الذي خلق فسوّى﴾ أي خلق الخليقة وسوى كلّ مخلوق في أحسن الهيئات . وقوله تعالى : ﴿والذي قدّر فهدى﴾ هدى الإنسان للشقاوة والسعادة ، وهدى الأنعام لمراتعها.كقوله تعالى اخباراً عن موسى أنه قال لفرعون ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدىٰ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : ٦١١ [ان الله قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء] .

وقوله تعالى : ﴿والذي أخرج المرعىٰ﴾ أي من جميع صنوف النباتات والزروع ﴿فجعله غثاءً أحوىٰ﴾ أي هشيماً متغيراً وقوله تعالى ﴿سنقرئك فلا تنسىٰ﴾ أي سنقرئك قراءةً لا تنساها ﴿إلاّ ما شاء الله﴾ فلا عليك أن تتركه وقوله تعالى : ﴿إنّه يعلم الجهر وما يخفىٰ﴾ أي يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه من ذلك شيء . وقوله تعالى : ﴿ونيسرك لليسرى﴾ أي نسهّل عليك أفعالَ الخير ،ونشرّع لك شرعاً مستقيماً لا حرج فيه ولا عسر . وقوله تعالى : ﴿فذكّر إنْ نفعت الذكرى﴾ أي ذكر حيث تنفع التذكرة ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا تضعه عند غير أهله ... كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم . وقوله تعالى : ﴿سيذكّر من يخشى﴾ أي سيتعظ بالرسالة مَن قلبه يخشى الله . ﴿ويتجنبّها الأشقى . الذي يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ أي لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفعه . لأنه يعاقب فيها بأليم العذاب وأنواع النكال . وروى

الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : ٦١٢ [أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أناس – أو كما قال – تصيبهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فيميتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً اذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة فيقال : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل] . ورواه مسلم .

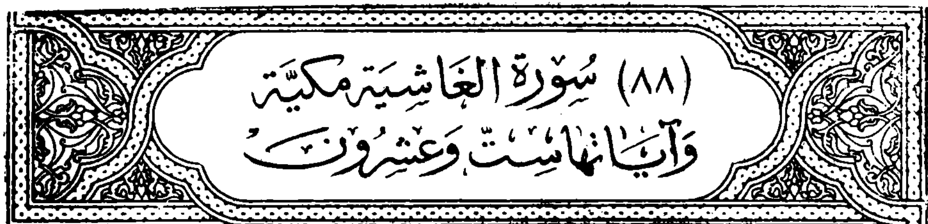
﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ ۞ (١٤) وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۞ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ (١٦) وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۞ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۞ (١٨) صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۞ (١٩) ﴾

يقول تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ وقد روى أبو بكر البزار بسنده عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : ٦١٣ [من شهد أن لا إلَه إلاّ الله وخلع الأنداد وشهد أني رسول الله ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قال هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها] وقال قتادة : زكّى ماله وأرضى خالقه .

ثم قال تعالى : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ أي تقدمونها على أمر الآخرة وتبدونها على ما فيه نفعُكم وصلاحُكم في معاشكم ومعادُكم ﴿ والآخرة خير وأبقىٰ ﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى لأن الدنيا فانية والآخرة باقية ؛ فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ... ؟ وروى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : ٦١٤ [من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرتَه أضرَ بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى] تفرد به أحمد . وقوله تعالى : ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولىٰ . صحف إبراهيم وموسى ﴾ .

أي إن مضمون هذه السورة هي في صحف إبراهيم وموسى . وروى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى ﴾ قال النبي ﷺ ٦١٥ [كان كل هذا – أو كان هذا – في صحف ابراهيم وموسى]

آخر اختصار تفسير سورة « الأعلى » ولله الحمد والمنة .



(٨٨) سورة الغاشية مكية وآياتها ست وعشرون

نزلت بعد سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۞ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۞ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۞ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۞ (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۞ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۞ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۞ (٧) ﴾

﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ الغاشية من أسماء يوم القيامة لأنها تغشى الناس وتعمهم ﴿وجوهٌ يومئذ خاشعةٌ﴾ أي ذليلة تخشع ولا ينفعها عملها، وقوله تعالى: ﴿عاملة ناصبة﴾ أي قد عملت عملاً كثيراً و نصبت فيه ، وصليت يوم القيامة ناراً حامية ﴿تصلىٰ ناراً حامية﴾ أي حارة شديدة الحر ﴿تسقىٰ من عين آنية﴾ أي انتهى حرها وغليانها . وقوله تعالى : ﴿ليس لهم طعام إلاّ من ضريع﴾ قال ابن عباس وغيره : هو الشبرق ، وقال البخاري : قال مجاهد : الضريع نبت يقال له الشبرق يسمّيه أهل الحجاز الضّريع إذا يبس وهو سمّ ، وهو من شرّ الطعام ، وأبشعه وأخبثه ؛ وقوله تعالى : ﴿لا يُسمن ولا يغني من جوع﴾ يعني لا يحصل به مقصود ، ولا يندفع به محذور .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۞ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۞ (٩) فِي

جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۞ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۞ (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۞ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۞ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۞ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۞ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۞ (١٦)

لما ذكر حال الأشقياء ثنّى بذكر السعداء. فقال: ﴿ وجوهٌ يومئذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ناعمة ﴾ أي يُعرَف النعيم فيها، إنما حصل ذلك بسعيها ﴿ لسعيها راضية ﴾ قد رضيت عملَها. وقوله تعالى: ﴿ في جنةٍ عالية ﴾ أي رفيعة بهية في الغرفات آمنون. ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ أي لا تسمع في الجنة التي لاهمّ فيها كلمةً لغوٍ. كما قال تعالى: ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً. إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فيها عين جارية ﴾ وهذه نكرة في سياق الإثبات وليس المراد بها عيناً واحدة وإنّما هذا جنس، يعني: فيها عيون جاريات. وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال ٦١٦ [انهار الجنة تفجرمن تحت تلال أومن تحت جبال المسك] فيها سررٌ مرفوعة. أي عالية ناعمة كثيرة الفرش، مرتفعة السمك عليهاالحور العين. قالوا فإذا أراد وليّ اللهان يجلس على تلك السرر العالية تواضعت. ﴿ وأكواب موضوعة ﴾ يعني أواني الشرب معدة مرصدة لمن أرادوهامن أربابها. ﴿ ونمارق مصفوفة ﴾ أي وسائد مصفوفة ﴿ وزرابي مبثوثة ﴾ أي البسط مبثوثة ها هنا، وها هنا، لمن أراد الجلوس عليها.

وعن أسامة بن زيد يقول: قال رسول الله ﷺ: ٦١٧ [ألا هَلْ من مشمرٍ للجنّة، فإن الجنّة لا خطر لها هي ورب الكعبة نورٌ يتلألأ، وريحانةٌ تهتز، وقصر مشيدٌ، ونهرٌ مطرد، وثمرةٌ نضيجة، وزوجةٌ حسناء جميلة، وحللٌ كثيرة، ومقام في أبد، في دار سليمة،وفاكهة، وخضرة، وحبرة، ونعمة، في محلةٍ عالية بهية. قالوا نعم يا رسول الله... نحن المشمرون لها، قال: قولوا: إن شاء الله.قال القوم: إن شاء الله] ورواه ابنُ ماجه.

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ (١٧) وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ (١٨) وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ (١٩) وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۞ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۞ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۞ (٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۞ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ

اَللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ فإنها خلق عجيب ، وتركيبها غريب وانها في غاية القوة والشدة وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل ، وتنقاد للقائد الضعيف ، وتؤكل ، وينتفع بوبرها ويشرب لبنها ، ونُبِّهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل ﴿ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ أي كيف رفعها الله عز وجل عن الأرض هذا الرفع العظيم ﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ أي جعلت منصوبة ، فانها ثابتة راسية لئلاَّ تميد الأرض بأهلها وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن ﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ أي كيف بسطت ومدت ومهدت فنبّه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من البعير والسماء والجبل والأرض، على قدرة الخالق وانه الرب العظيم الخالق المالك المتصرف، وانه الإله الذي يعبد وحده . وقوله تعالى : ﴿ فذكّر انما أنت مذكّر . لست عليهم بمسيطر ﴾ أي فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم « فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ولهذا قال ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ أي لست تخلق الإيمان في قلوبهم ، وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ ٦١٨ [أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقها وحسابهم على الله عز وجل ثم قرأ : ﴿ فذكِّر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر ﴾] وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون ذكر هذه الآية . وقوله تعالى : ﴿ إلاَّ من تولَّى وكفر ﴾ أي تولىَّ عن العمل بأركانه ، وكفر بالحق بجنانه ولسانه. وهذا كقوله تعالى: ﴿ فلا صدّق و لا صلّى ولكن كذّب وتولّى ﴾ ولهذا قال ﴿ فيعذبه اللهُ العذابَ الأكبر ﴾ وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة الباهلي أنه مرَّ على خالد بن يزيد بن معاوية فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ فقال : ٦١٩ [سمعت من رسول الله ﷺ يقول : كلكم يدخل الجنة إلاَّ من شرد على الله شراد البعير على أهله] .

وقوله تعالى : ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ أي : مرجعهم ومنقلبهم ﴿ ثم إن علينا حسابهم ﴾ اي نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها إن خيراً فخير ، وإنْ شرا فشر .

عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ : ٦٢٠ [كان يقرأ بسبح اسم ربك الأعلى، والغاشية، في صلاة العيد والجمعة.] . وسأل الضحاكُ بن قيس النعمانَ بنَ بشير ٦٢١ [بم كان رسول الله يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: هل أتاك حديث الغاشية] .

آخر اختصار تفسير سورة الغاشية ولله الحمد والمنة والشكر والفضل

(٨٩) سُورَةُ الفَجْرِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا ثَلاثُونَ

نزلت بعد سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ❁ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ ❁ (٢) وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ❁ (٣)
وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ❁ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ❁ (٥) أَلَمْ
تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ❁ (٦) إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ❁ (٧) ٱلَّتِي لَمْ
يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ ❁ (٨) وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ❁ (٩)
وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ❁ (١٠) ٱلَّذِينَ طَغَوْا فِي ٱلْبِلَادِ ❁ (١١) فَأَكْثَرُوا
فِيهَا ٱلْفَسَادَ ❁ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ❁ (١٣) إِنَّ
رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ❁ (١٤)

﴿ والفجرِ ﴾ أما الفجر فمعروف وهو الصّبحُ . والمراد به فجر يوم النَّحر خاصةً. ﴿ وليالٍ عشرٍ ﴾ هي عشرُ ذي الحجة وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعاً: ٦٢٢ [ما من أيامٍ العملُ الصالح أحبُ إلى الله فيهن من هذه الأيام يعني عشر ذي الحجة قالوا ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال ولا الجهاد في سبيل الله إلاَّ رجلاً خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء] وروى الامام أحمد عن جابر عن النبي ﷺ قال ٦٢٣ [ان العشرَ عشرُ الأضحى، والوترَ يومُ عرفة، والشفعَ يومُ النحر لكونه العاشر[1]].

(١) قلت : وهناك أقوال أخرى في تفسير الشفع والوتر، إنما اخترنا أقواها وأقربها مناسبة والله أعلم .

﴿ والليلِ إذا يسرِ ﴾ قال ابن عباس: إذا ذهب. وقيل إذا سار. وقال عكرمة: يعني ليلة جمعَ ليلة المزدلفة . روى ابن أبي حاتم بسنده إلى عبد الله بن عمرو قال سمعت محمد بن كعب القرظي يقول في قوله ﴿ والليل إذا يسرِ ﴾ قال : إسرِ يا سار ولا تبيتن إلاّ بجمع . وقوله تعالى : ﴿ هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ أي لذي عقل وإنّما سمّى العقلُ حِجْراً لأنه يحجرُ على الإنسان من تعاطي ما لا يليق به،من الأفعال والأقوال . وهذا القسم هو بأوقات العبادة،وبنفس العبادة من حج وصلاة، وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرَّب بها إليه عبادُه المتقون المطيعون له. ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم. قال بعد : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ . وهؤلاء عاد الأولى وهم ولد عاد بن إرم بن عُوص بن سام بن نوح عليه السلام ، وهم الذين بعث فيهم هود عليه السلام ، فكذّبوه وخالفوه . فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم وأهلك الآخرين بريح صرصر عاتيه وقد ذكر الله قصتهم في القرآن،ليعتبر بمصرعهم المؤمنون . وقوله :﴿ إرم ذات العماد ﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم . وقال قتادة والسدى: إن إرم بيت مملكة عاد وهذا قول جيد . وقوله تعالى ﴿ ذات العماد ﴾ أي كانوا طوالا وقيل ان العماد أبنية بنوها، أو أعمدة بيوتهم فعلى كل، سواء كان هذا أو هذا...فهم قبيلة وأمة من الأمم وهم المذكورون في القرآن في غير موضع المقرونون بثمود ، كما هاهنا والله تعالى أعلم ... لا أن المراد الإخبارُ عن مدينة أو إقليم ، وإنّما نبهت على ذلك لئلا يغترّ بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية من ذكر مدينة يقال لها (إرم ذات العماد) مبنية بلبن الذهب والفضة، قصورها ودورها، وبساتيها وان حصباءها لآلئُ وجواهر ، وترابها بنادق المسك ، وأنهارها سارحة ، وثمارها ساقطة ودورها لا أنيس بها ، وسورها وأبوابها تصفر ليس بها داع ولا مجيب ، وانها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام وتارة باليمن وتارة بالعراق وتارة بغير ذلك من البلاد . فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ومن وضع زنادقتهم ، ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك .

وهناك حكايات أخرى عنها يطول شرحها لا يصح منها شيء ... فهذه الحكايات وأمثالها قريب مما يخبر به كثير من المشعوذين والمتحيّلين من وجود مطالب تحت الأرض فيها قناطير الذهب والفضة ، وألوان الجواهر واليواقيت واللآلىء، والإكسير الكبير لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها فيحتالون على أموال الأغنياء

والضعفة والسفهاء، فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير، ونحو ذلك من الهذيانات. والذي يجزم به أن في الأرض دفائن جاهلية وإسلامية وكنوزاً كثيرة من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله . فأما على الصفة التي زعموها فكذب وافتراء وبهت. ولم يصح ذلك شيء مما يقولون والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب .

وقوله تعالى : ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾ يعني يقطعون الصخر بالوادي قال ابن عباس ينحتونها ويخرقونها . وقال ابن اسحق : كانوا عرباً وكان منزلهم بوادي القرى . وقوله تعالى : ﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾ وعن ابن عباس : الأوتاد الجنود الذين يشدّون له أمره . وقال ثابت البناني عن أبي رافع : قيل لفرعون ذي الأوتاد لأنه ضرب لامرأته المؤمنة ، أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت .

وقوله تعالى : ﴿ الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ﴾ أي قوم عاد وثمود وقوم فرعون تمردوا وعتوا، وعاثوا في الأرض بالفساد والأذية للناس. ﴿ فصبَّ عليهم ربُّك سوطَ عذاب ﴾ أي أنزل عليهم رجزاً من السماء وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين . وقوله تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ قال ابن عباس: يسمع ويرى . يعني يرصد خلقه فيما يعملون ويجازي كلاً بسعيه، وسيحكم فيهم بعدله، ويقابل كلاً بما يستحق، وهو المنزّه عن الظلم .

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَانُ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۞ (١٦) كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۞ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۞ (١٨) وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۞ (١٩) وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۞ (٢٠) ﴾

يُنكرُ الله على بعض عباده ، اعتقادهم انه إذا وسع عليهم رزقهم كان إكراماً لهم . وإن ضيّق عليهم كان إهانةً لهم . فقال الله تعالى: ﴿ كلاً ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ... فإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيّق على من يحب وعلى من لا يحب ... وانما المدار على الطاعة لله في كلا الحالين، إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك ، بإكثار الطاعة له، كما وإن كان فقيراً بأن يصبر= بمواصلة الطاعة واجتناب المعصية. ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ . =

وقوله تعالى : ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ﴾ فيه أمر بالإكرام له . وقد روى عبد الله بن المبارك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ٦٢٤ ض [خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسَنُ إليه ، وشرّ بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساءُ إليه ــ ثم قال بأصبعيه ــ : أنا وكافل اليتيم في الجنّة هكذا] وروى أبو داود عن سهل بن سعيد أن رسول الله ﷺ قال: ٦٢٥ [« أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنّة » وقرن بين إصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام] ﴿ ولا تحاضّون على طعام المسكين ﴾ يعني لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ، ويحث بعضهم على بعض في ذلك ﴿ وتأكلون التراث ﴾ يعني الميراث ﴿ أكلاً لمّاً ﴾ أي حلالاً كان أو حراماً ﴿ وتُحبون المال حباً جماً ﴾ أي كثيراً فاحشاً .

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝ (٢٢) وَجِـىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝ (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۝ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ۝ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ (٢٧) ٱرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۝ (٢٨) فَٱدْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ (٢٩) وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ۝ (٣٠) ﴾

يخبر تعالى عن أهوال القيامة فقال : ﴿ كلاّ ﴾ أي حقاً ﴿ إذا دكّت الأرض دكّاً دكّاً ﴾ أي سوّيت الأرض والجبال وقامت الخلائق من قبورهم لربهم ﴿ وجاء ربك ﴾[(١)] يعني لفصل القضاء بين خلقه كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً . وقوله تعالى : ﴿ وجيء يومئذ بجهنم ﴾ روى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ٦٢٦ [يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كلّ زمام سبعون ألف ملك يجرّونها] وقوله تعالى : ﴿ يومئذ يتذكّر الإنسان ﴾ أي عمله وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه ﴿ وأنّى له الذكرى ﴾ أي وكيف تنفعهُ الذكرى ﴿ يقول يا ليتني قدّمت لحياتي ﴾ يندم على ما أسلف من المعاصي إن كان عاصياً ويودّ لو كان ازداد من الطاعات إنْ كان طائعاً. كما روى أحمد عن محمد بن عمرة عن أصحاب رسول الله ﷺ قال :

(١) المجيء معلوم ، والكيف مجهول ، أي جاء مجيئاً حقيقياً لا يشبه مجيءَ المخلوقين .

٦٢٧ [لو أنّ عبداً خرَّ على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت في طاعة الله لحقره يوم القيامة ولودّ أنه رُدّ إلى الدنيا كيما يزدادَ من الاجر والثواب]. قال الله تعالى: ﴿ فيومئذ لا يعذّب عذابه أحد ﴾ أي ليس أحد أشدّ عذاباً من تعذيب الله لمن عصاه ﴿ ولا يوثِق وثاقَه أحد ﴾ أي ليس أحداً أشدَّ قبضاً ووثقاً من الزبانية لمن كفروا بربهم عزَّ وجلّ. وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين فأما النفس الزكيّة المطمئنة، وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق، فيقال لها: ﴿ يا أيتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك ﴾ أي ارجعي إلى جواره وثوابه في جنته ﴿ راضيةً ﴾ أي في نفسها ﴿ مرضية ﴾ أي قد رضيت عن الله ورضي عنها وأرضاها ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ أي في جملتهم ﴿ وادخلي جنّتي ﴾ وهذا يقال عند الاحتضار وفي يوم القيامة. وكما أن الملائكة يبشّرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره فكذلك ههنا.

روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة رواحة بنت أبي عمرو الأوزاعي بسنده إلى أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لرجل ٦٢٨ [قل: اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك **وتقنع بعطائك** »]

آخر اختصار تفسير سورة الفجر ولله الحمد والمنّة.

(٩٠) سورة البلد مكية وآياتها عشرون

نزلت بعد سورة (ق)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۞ (١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۞ (٢)
وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۞ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۞ (٤) أَيَحْسَبُ
أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۞ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۞ (٦)
أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۞ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۞ (٨) وَلِسَانًا
وَشَفَتَيْنِ ۞ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۞ (١٠) ﴾

﴿ لا ﴾ ردٌّ على الكفار ﴿ أقسم بهذا البلد ﴾ أي أقسم بمكة ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ أي بكونك حلالاً به غير محرم ، يحلّ لك القتال فيه [١] فقد أحل الله مكّة ساعة من نهار لنبيّه عليه الصلاة والسلام ، وقد ورد بذلك الحديث المتفق عليه : ٦٢٩ [إن هذا البلد حرّمه [٢] الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يُعضَدُ شجرُه [٣] ولا يُختلى خلاه [٤] وانما أحلت لي ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ألا فليبلغ الشاهد الغائب] وفي لفظ آخر ٦٣٠ [فإن أحد ترخَّص بقتال رسول الله فقولوا: إن الله أذنَ لرسوله ، ولم يأذنْ لكم] ﴿ ووالدٍ

(١) قلت : أي اقسم بمكة الحرام التي أحللتها لك أي يحل لها وأنت فيها . (٢) حرمه : أي حرم القتال فيه .
(٣) لا يعضد شجره : أي لا يقطع . (٤) لا يختلى خلاه : أي لا يُنتزَعُ نباته الرطب .

وما ولد ﴾ يعني بالوالد وما ولد. الوالد آدم وما ولد ولده. وهذا الذي ذهب اليه مجاهد وأصحابه، حسن قويّ لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى، وهي المساكن أقسم بعده بالساكن وهو آدم أبو البشر وولده. وقوله تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ أي في مكابدة الأمور ومشاقّها وقيل: ﴿ في كبد ﴾ أي منتصباً والكبد: الاستواء والاستقامة. أي خلقناه مستوياً مستقيماً. وقوله تعالى: ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ أي لن يقدر على سؤاله عن ماله من أين اكتسبه وأين أنفقه؟ وقوله تعالى: ﴿ يقول أهلكت مالاً لبدا ﴾ أي مالاً كثيراً ﴿ أيحسب أن لم يره أحدٌ ﴾ أي أيحسب أن لم يره الله عزّ وجلّ؟! وقوله تعالى: ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ أي يبصر بهما ﴿ ولساناً ﴾ ينطق به، فيعبر عما في ضميره. ﴿ وشفتين ﴾ يستعين بهما على الكلام، وأكل الطعام، وجمالاً لوجهه وفمه...؟ ٦٣٠ قال النبي ﷺ «يقول الله تعالى يا ابن آدم قد أنعمت عليك نعماً عظاماً لا تحصي عددها ولا تطيق شكرها، وإن مما أنعمت عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما وجعلت لهما غطاء، فانظر بعينيك إلى ما أحللت لك، وإن رأيت ما حرمت عليك فأطبق عليهما غطاءهما، وجعلت لك لساناً وجعلت له غلافاً فانطق بما أمرتك وأحللت لك، فإن عرض عليك ما حرمت عليك فأغلق عليك لسانك. وجعلت لك فرجاً وجعلت لك ستراً، فأصب بفرجك ما أحللت لك، فان عرض عليك ما حرمت عليك فأرخ عليك سترك، ابن آدم إنك لا تحمل سخطي ولا تطيق انتقامي».

﴿ وهديناه النجدين ﴾ أي الطريقين الخير والشر. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ أنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا ﴾.(١)

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۞ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۞ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۞ (١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ (١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ۞ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۞ (١٧) أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۞ (١٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ ۞ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ۞ (٢٠) ﴾

(١) الهداية هنا: هداية دلالة أي دله على الطريق، وهو الذي يختار الحق فيكون شاكراً، أو يختار الباطل فيكون كافراً ... والعياذ بالله. وليست الهداية هداية إلزام لخير أو شر، ... كيما يكون العبد مستحقاً للنعيم... بفضله ... أو العذاب ... بعدله.

﴿فلا اقتحم العقبة﴾ أي أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير ﴿العقبة﴾ قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله ثم قال: ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ ثم أخبر تعالى عن اقتحامها فقال: ﴿فك رقبة أو إطعام﴾ أي أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير ثم بيّنها فقال تعالى ﴿وما أدراك ما العقبة . فكّ رقبة﴾ الرقبة: المملوك . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ٦٣١ [« من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرْب – أي عضو – منها، إرْباً منه من النار حتى أنْ ليعتق باليد اليدَ وبالرجل الرجلَ وبالفرجَ الفرجَ » فقال علي بن الحسين : أُنتَ سمعت هذا من أبي هريرة فقال سعيد : نعم فقال علي بن الحسين لغلام أفره غلمانه [1] ادع مِطرَفاً ، فلمّا قام بين يديه قال : اذهب فأنت حرٌّ لوجه الله] رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن سعيد بن مرجانة به وعند مسلم أن هذا الغلام الذي اعتقه علي بن الحسين زين العابدين كان قد أعطي فيه عشرة آلاف درهم . وقوله تعالى : ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ قال ابن عباس أي ذي مجاعة. ﴿أو يتيماً﴾ أي أطعم في مثل اليوم ﴿ذا مقربة﴾ أي ذا قرابة من المطعِم. كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن سلمان بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: ٦٣٢ [الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة] وقوله تعالى : ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ أي فقيراً مدقعاً لاصقاً بالتراب وهو الذي لا بيت له ولا شيء يقيه من التراب ولا أحد له . وقوله تعالى : ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ أي ثم هو أي المتصدّق مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة، مؤمن بقلبه محتسب ثواب ذلك عند الله عزّ وجل. كما قال تعالى : ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ وقوله تعالى : ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾ أي كان من المؤمنين العاملين صالحاً ، المتواصين بالصبر على أذى الناس وعلى الرحمة بهم كما جاء في الحديث : ٦٣٣ [الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء] . وقوله تعالى : ﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾ أي المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين . ثم قال ﴿والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة﴾ أي أصحاب الشمال ﴿عليهم نارٌ مؤصدةٌ﴾ أي مطبقة عليهم فلا محيدَ عنها ولا خروج منها، ولا فرَج إلى آخر الأبد. «فلا تستقرّ أقدامهم على قرار، ولا ينظرون إلى أديم السماء أبداً، ولا تلتقي جفون أعينهم على غمض نومٍ أبداً ، ولا يذوقون فيها باردَ شرابٍ أبداً » رواه ابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني .

آخر اختصار تفسير سورة البلد ، ولله الحمد والمنة .

---

(١) أفره غلمانه أي أحذقهم .

(٩١) سورة الشمس مكيّة وآياتها خمس عشرة

نزلت بعد سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۞ (١) وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۞ (٢)
وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۞ (٣) وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۞ (٤) وَٱلسَّمَاءِ وَمَا
بَنَاهَا ۞ (٥) وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۞ (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ (٧)
فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ (٩) وَقَدْ
خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۞ (١٠)

تقدّم حديث جابر الذي في الصحيحين : [أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ « هلا صلّيت بسبّح اسم ربّك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى »] .

قال مجاهد ﴿ الشمس وضحاها ﴾ أقسم الله بالشمس ونهارها ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ تبعها ﴿ والنهار إذا جلاّها ﴾ أي إذا غشيها النهار [(١)] ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ يعني إذا يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق ﴿ والسماء وما بناها ﴾ (ما) بمعنى (من) ، يعني والسماء وبانيها ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ يعني بسطها وهذا اشهر الأقوال وعليه الأكثر من المفسرين وأهل اللغة . قال الجوهري : طحوته مثل دحوته اي بسطته .

وقوله تعالى : ﴿ ونفس وما سوّاها ﴾ أي خلقها سويةً مستقيمةً على الفطرة القويمة

(١) قلت : أي أظهرها بجلاء .

كما قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ وفي صحيح مسلم : قال رسول الله ﷺ : ٦٣٤ [يقول الله عز وجل : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم] وقوله تعالى : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ أي فأرشدها إلى فجورها وتقواها ، وبيّن لها الخير والشر .

وقوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ اي قد افلح من زكى نفسه بطاعة الله عز وجل ، ويحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه وقد خاب من دسى الله نفسه .

وروى ابن ابي حاتم عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول في قول الله عزّ وجلّ ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ قال النبي ﷺ ٦٣٥ [أفلحت نفس زكاها الله عز وجل (١)] ٦٣٦ [ومن دعائه ﷺ إذا مر بهذه الآية ... ﴿ ونفس وما سوّاها فألهمها فجورَها وتقواها ﴾ . وقف ثم قال : « اللهم آت نفسي تقواها أنت وليّها ومولاها ، وخير من زكّاها »]

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝ (١١) إِذِ ٱنبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝ (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝ (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝ (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝ (١٥) ﴾

يخبر تعالى عن ثمود انهم كذّبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي ، فأعقبهم بذلك تكذيباً في قلوبهم بما جاء به رسولهم عليه الصلاة والسلام من الهدى واليقين . ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ أي أشقى القبيلة وهو « قدار بن سالف » عاقر الناقة وهو أحيمر ثمود وهو الذي قال الله تعالى : ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ وكان هذا رئيساً مطاعاً في قومه . وروى ابن ابي حاتم عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ لعليّ : ٦٣٧ [ألا أحدثك بأشقى الناس ؟ قال : بلى ! قال : رجلان : أحيمر ثمود الذي عقر الناقة

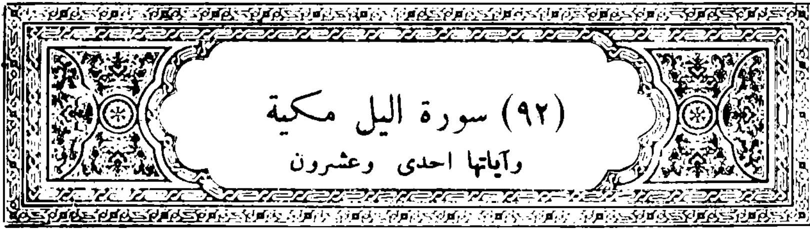
(١) ولا يزكّيها الله إلا إذا زكاها صاحبها بطاعة الله ولهذا قال « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » فيكون تزكية الله لها جزاء وفاقاً على طاعتها : كما قال تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » .

والذي يضربك يا علي على هذا يعني قرنه – حتى تبتلّ منه هذه) يعني لحيته

وقوله تعالى ﴿فقال لهم رسول الله﴾ يعني صالحاً عليه السلام ﴿ناقة الله﴾ اي احذروا ناقة الله أن تمسّوها بسوء ﴿وسقياها﴾ اي لا تعتدوا عليها في سقياها فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم . قال الله تعالى ﴿فكذّبوهُ فعقروها﴾ أي كذبوه فيما جاءهم به ثم عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم ﴿فدمدم عليهم ربُّهم بذنبهم﴾ أي غضِب عليهم فدمّرهم ﴿فسوّاها﴾ أي فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء لأنهم تابعوا أحيمر ثمود في عقر الناقة صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وانثاهم ولذا دمدم الله عليهم بذنبهم فسواها ﴿ولا يخاف عقباها﴾ أي لا يخاف الله من أحدٍ تبعةً[1] والله أعلم .

آخر اختصار تفسير سورة والشمس وضحاها ، ولله الحمد والمنة .

(١) قلت : هذا بطش الله بثمود وقد تقدم بطشه تعالى بعاد ، وبفرعون وقومه وسواهم ... فأين الذي كان يقول : (وإن بطشي لأشد) ؟ !! إنّه اليوم عند ربه ... فإذا كان لم يتب من قوله قبل أن يموت .. فسوف يريه الله كيف يكون بطشه به في قعر جهنم ... حتى يعلم أنه الحق . فتأمّل يا أخي ، كيف تقود « وحدة الوجود » أصحابها إلى النار وتدفعهم فيها دفعاً ... أعاذنا الله منها ومنهم .


(٩٢) سورة الليل مكية
وآياتها احدى وعشرون

نزلت بعد سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۞ (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۞ (٢) وَمَا
خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۞ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۞ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ
وَٱتَّقَىٰ ۞ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۞ (٧)
وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۞ (٨) وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ
لِلْعُسْرَىٰ ۞ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰ ۞ (١١) ﴾

تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ : [فهلاّ صليت : بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها والليل إذا يغشى ...]

أقسم تعالى بـ ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ أي إذا أُغشي الخليقة بظلامه ﴿ والنهار إذا تجلّى ﴾ أي بإشراقه وضيائه ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضاً متضاداً ، ولهذا قال تعالى :

﴿ إن سعيكم لشتّى ﴾ أي أعمالكم متخالفة ، فمن فاعل خيراً ومن فاعلٍ شراً . قال الله تعالى : ﴿ فأما من أعطىٰ واتقى ﴾ أي أعطى ما أُمر باخراجه ، واتقى الله في أموره ﴿ وصدّق بالحسنى ﴾ اي بالمجازاة على ذلك ، قاله قتادة . كما روى ابن ابي حاتم عن أبي بن كعب قال : ٦٣٨ [سألت رسول الله عن الحسنى ، قال: الحسنى : الجنة] .

(١) أعني رسالة الله الخالدة التي نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم وهي القرآن العظيم ، أعظم كتابٍ وأخلد رسالة .

وقوله تعالى: ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ قال ابن عباس: يعني للخير وقال زيد بن أسلم يعني للجنّة وقال بعض السلف: من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها ومن جزاء السيئة، السيئة بعدها. ولهذا قال تعالى ﴿ وأما من بخل ﴾ اي بما عنده ﴿ واستغنى ﴾ قال ابن عباس: أي بخل بماله واستغنى عن ربه عز وجل رواه ابن أبي حاتم ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ أي بالجزاء في الدار الآخرة ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ أي لطريق الشر. كما قال تعالى ﴿ ونقلّب افئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرّة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾. والآيات في هذا المعنى كثيرة، دالة على أن الله عزّ وجل، يجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان، وكل ذلك بقدر مقدر. والأحاديث الدالّة على هذا المعنى كثيرة. روى البخاريّ بسنده عن علي رضي الله عنه قال: ٦٣٩ [كنّا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة فقال: «ما منكم من أحد إلاّ وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل؟ فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ثم قرأ ﴿ فأما من أعطىٰ واتقىٰ وصدق بالحسنىٰ فسنيسره لليسرىٰ - إلى قوله - للعسرىٰ ﴾.] وهناك أحاديث أخرىٰ في نفس المآل من طرق مختلفة قال ابن جرير: وذكر أن هذه الآية، نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ثم روى السند إلى عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان ابو بكر رضي الله عنه يعتق على الإسلام بمكة فكان يعتق عجائز ونساء أسلمن. فقال له أبوه أي بنيّ أراك تعتق أناساً ضعفاء فلو أنك تعتق رجالاً جلداء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك فقال: إي أبت إنما أريد ما عند الله. قال فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية نزلت فيه.
وقوله تعالى: ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردّى ﴾ قال مجاهد إذا مات.. وقال زيد بن اسلم: إذا تردّى في النار.

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۞ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۞ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ ۞ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۞ (١٥) ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۞ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۞ (١٧) ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۞ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۞ (١٩) إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۞ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۞ (٢١) ﴾

أي نبيّن الحلال والحرام ﴿ وان لنا للآخرة والأولى ﴾ أي الجميع ملكنا وبتصرفنا

وأنا المتصرف فيهما . وقوله تعالى: ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظّى ﴾ أي توهّج . وروى الإمام أحمد بسنده إلى سماك بن حرب قال : سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول : ٦٤٠ [سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: « أنذرتكم النار » حتى لو ان رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا ، قال حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه] .

وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ ٦٤١ [ان أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً.] وقوله تعالى ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى ﴾ إي لايدخلها دخولاً يحيط به من جميع جوانبه إلاّ الأشقى. ثم فسره ﴿ الذي كذب ﴾ أي بقلبه ﴿ وتولّى ﴾ أي عن العمل بجوارحه وأركانه . وروى الامام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :٦٤٢ [كلُّ أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلاّ من أبي. قالوا: ومن يأبىٰ يا رسول الله ؟ قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبىٰ] ورواه البخاري .

وقوله تعالى : ﴿ وسيجنّبها الأتقى ﴾ أي وسيزحزح عن النار التقى النقي الأتقى ثم فسره بقوله ﴿ الذي يؤتي ماله يتزكّىٰ ﴾ أي يصرف ماله في طاعة ربه ليُزكي نفسَه وماله وما وهبه من دين ودنيا ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ أي ليس بذله ماله في مكافأةً من أسدى إليه معروفاً، فهو يعطي في مقابلة ذلك ، وانما دفعه ذلك ﴿ ابتغاء وجه ربّه الأعلى ﴾ أي طمعاً في أن يحصُل له رؤيته في روضات الجنة . قال الله تعالى ﴿ ولسوف يرضى ﴾ أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حتى أن بعضَهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك ، ولا شك انه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها ، فإن لفظها لفظ العموم. وهو قوله تعالى: ﴿ وسيجنبها الأتقىٰ الذي يؤتي ماله يتزكّى — وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تجزىٰ ﴾ ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الصفات وسائر الأوصاف الحميدة فإنه كان صدّيقاً تقيّاً كريماً جواداً بذّالاً لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسوله ﷺ. رضي الله عنه وأرضاه .

آخر اختصار تفسير سورة الليل ولله الحمد والمنة .

(٩٣) سُورَةُ الضُّحَىٰ مكية وآياتها إحدى عشرة

نزلت بعد سورة الفجر

روى الامام أحمد بسنده عن الأسود بن قيس قال سمعت جندباً يقول : ٦٤٣ [اشتكى النبي ﷺ فلم يقمْ ليلةً أو ليلتين فأتتْ امرأةٌ فقالت : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فانزل الله عز وجل ﴿ والضحىٰ والليلِ إذا سجىٰ ما ودّعك ربّك وما قلى ﴾) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۞ (١) وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۞ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۞ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۞ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۞ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ۞ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ۞ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ۞ (٨) فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ (٩) وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۞ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۞ (١١) ﴾

ذكر بعض السلف منهم ابن اسحق أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ حين تبدي له في صورته التي خلقه الله عليها . ودنا اليه وتدلىّ منهبطاً عليه وهو بالأبطح : ﴿ فأوحى إلى عبدهِ ما أوحىٰ ﴾ قال : قال له هذه السورة : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ﴾ وعن ابن عباس : ٦٤٤ [لما نزل على رسول الله ﷺ

القرآن أبطأ عنه جبريل أياما فتغيّر بذلك فقال المشركون : ودّعه ربه وقلاه. فأنزل الله: ﴿ ما ودّعك ربّك وما قلَى ﴾] وهذا قسَم منه بالضحى وما جعل فيه من الضياء ﴿ والليل إذا سجىٰ ﴾ أي سكن فأظلم. كما قال تعالى : ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمرَ حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ما ودّعك ربّك ﴾ أي ما تركك ﴿ وما قلىٰ ﴾ أي ما أبغضك . ﴿ وللآخرة خير لك من الأولىٰ ﴾ أي وللدار الآخرة خير لك في هذه الدار ومعلوم من سيرته بالضرورة أنه كان عليه الصلاة والسلام أزهد الناس في الدنيا . وقد روى الإمام أحمد بسنده إلى عبد الله بن مسعود قال : ٦٤٥ [اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثّر في جنبه ، فلمـا استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت : يا رسول الله ألا آذنتنا حتّى نبسط لك على الحصير فقال رسول الله ﷺ ما لي وللدنيا إنّما مثَلي ومثَل الدنيا كراكبٍ ظَلّ تحت شجرة ثم راح وتركها] ورواه ابن ماجه . والترمذيّ وقال حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربّك فترضى ﴾ اي في الدار الآخرة يعطيه حتّى يرضيَـهُ في أمته من الشفاعة فيهم. وروى ابو عمرو الأوزاعي عن عبدالله بن عباس: ٦٤٦ [عُرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً فسُرَّ بذلك فأنزل الله سبحانه : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾] ثم قال تعالى يعدّد نعمه على عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ وذلك أن أباه توفي وهو حمْل في بطن أمه. ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب، وله من العمر ست سنين. ثم كان في كفالة جدّه عبد المطلب إلى أن تُوفّي ، وله من العمر ثمان سنين. فكفله عمه أبو طالب ، ثم لم يزل يحوطهُ وينصره ويرفع من قدره ويوقّره ويكفُّ عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره ، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان ، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره إلى أن تُوفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل ... فاجترأ عليه سفهاءُ قريش وجهالهم فاختار الله له الهجرة إلى بلد الأنصار ؛ فلما وصل اليهم آووه ونصروه وأحاطوه وقاتلوا بين يديه رضى الله عنهم أجمعين. وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به . وقوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ كقوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ أي كنت فقيراً ذا عيال فأغناك الله عمّن سواه فجمع له بين مقامي ثواب الصبر والشكر وفي

الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : ٦٤٧ [ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس] وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ : ٦٤٨ [قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه] .

ثم قال تعالى : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ أي كما كنت يتيماً فآواك الله فلا تقهر اليتيم أي لا تذله وتنهره، ولكن أحسن اليه وتلطف به ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ أي وكما كنت ضالاً فهداك الله فلا تنهر السائل في العلم المسترشد ﴿ واما بنعمة ربك فحدّث ﴾ أي وكما كنت عائلاً وفقيراً فأغناك الله فحدّث بنعمة الله عليك. كما جاء في الدعاء المأثور النبوي ٦٤٩ [واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتمها علينا .] وقال ابو داود عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال ٦٥٠ [لا يشكر الله من لا يشكر الناس] .

آخر اختصار تفسير سورة الضحى ولله الحمد والمنة

(٩٤) سورة الشرح مكية وآياتها ثمان

نزلت بعد سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۞ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۞ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۞ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ۞ (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ۞ (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۞ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ۞ (٨) ﴾

نصف الحزب

يقول تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ يعني إنَّا شرحنا لك صدرك أي نوّرناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً. كقوله: ﴿فمن يرد الله أن يهديَه يشرحْ صدره للإسلام﴾ وكما شرح الله صدرك كذلك جعل شرعه فسيحاً واسعاً، سمحاً سهلاً، لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق. وقوله تعالى: ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ بمعنى ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ وقوله تعالى ﴿الذي انقض ظهرك﴾ اي الذي أثقلك حمله. وقوله تعالى: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ أي لا أُذكَرُ إلا ذُكِرتَ معي: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.)

وقال حسان بن ثابت من قصيدة له:

أغرُّ عليه للنبوة خاتمٌ	مِنَ اللهِ مِنْ نورٍ يلوحُ ويشهدُ
وضَمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمه	إذا قالَ في الخمسِ المؤذنُ أشهدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنِ اسْمِهِ ليُجِلّهُ	فذُو العرشِ مَحمودٌ وهذا محمّدُ

وقوله تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا ﴾ أُخبر تعالى أنّ مع العسر يوجد اليسر ، ثم أكّد هذا الخبر . وروى ابن أبي حاتم عن عائذ بن شريح قال : سمعت أنس بن مالك يقول ٦٥١ [كان النبي جالساً وحياله حجر ، فقال : « لو جاء العسر فدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه » فأنزل الله عز وجل ﴿ فإن مع العسر يسراً إنّ مع العسر يسرا ﴾]

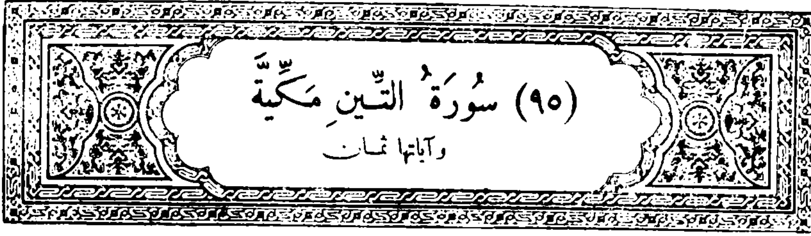
قال الشاعر :

ولرب نازلةٍ يضيقُ بها الفتَـى ... ذرْعاً وعنـد الله منها المخرجُ
كملتْ فلما استحكمت حلقاتها ... فُرجتْ وكان يظنُّها لا تفـرجُ

وقوله تعالى : ﴿ فإذا فرغتَ فانصب . وإلى ربّك فارغب ﴾ أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها، فانصب إلى العبادة ، وقم إليها نشيطاً فارغَ البال وأخلصْ لربّك النيّة والرغبة. ومن هذا القبيل قوله ﷺ في الحديث المتّفق على صحته : ٦٥٢ [لا صلاةَ بحضرة طعام ولاوهو يدافعه الأخبثان] .

وقوله : ٦٥٣ [اذا أقيمتِ الصلاة وحضر العَشاء فابدأوا بالعَشاء] .

آخر اختصار تفسير سورة الأنشراح ولله الحمد والمنة .


(٩٥) سُورَةُ التِّينِ مَكِّيَّة
وآياتها ثمان

نزلت بعد سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا
ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾
ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ
فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾
أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

روى مالك وشعبة عن البراء بن عازب : ٦٥٤ [كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في أحدى الركعتين بـ﴿ والتين والزيتون ﴾ فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه] أخرجه الجماعة ﴿ والتين والزيتون وطورسينين . وهذا البلد الأمين ﴾ التين والزيتون محلة التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى عليه السلام . ﴿ وطورسينين ﴾ وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ هو مكة البلد الذي من دخله كان آمناً وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ .

وقالوا في آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : « جاء الله من طور سيناء يعني الذي كلّم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وأشرق من ساعير يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى عليه السلام ، واستعلن من جبال فاران يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ » فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه ثم الأشرف منهما .

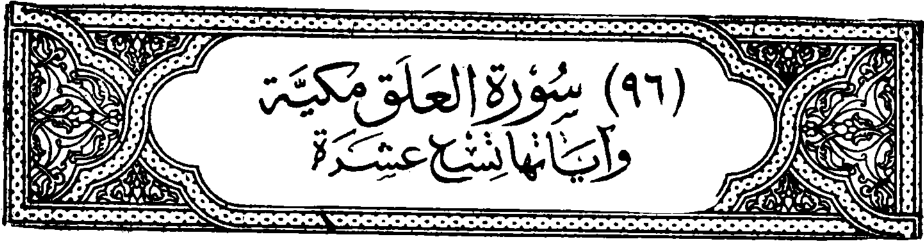
وقوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ هذا هو المقسم عليه وهو أنه تعالى

خلق الانسان في أحسن صورة ، وشكل منتصب القامة سوي الأعضاء حسنها ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين﴾ أي إلى النار إن لم يطع الله ويتّبع الرسل. ولهذا قال: ﴿ إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال بعضهم ﴿ أسفل سافلين ﴾ أي أرذل العمر ولو كان هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك لأن الهرم قد يصيب بعضهم إنّما المراد ما ذكرناه أي إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل . كقوله تعالى: ﴿ والعصر إنّ الإنسان لفي خسر إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات.﴾ وقوله تعالى : ﴿ فلهم أجرٌ غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع كما تقدم .

ثم قال : ﴿ فما يكذّبك ﴾أي يا ابن آدم ﴿ بعد بالدّين ﴾ اي بالجزاء في المعاد . ولقد علمت البداءة ، وعرفت أن من قدر على البداءة فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى ، فأيّ شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا ...؟ والخطاب هنا للإنسان المكذّب .. وقوله تعالى : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ أي أما هو احكم الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، ومن عدله أن يقيم القيامة فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه .

وفي الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً: ٦٥٥ [فإذا قرأ احدكم ﴿ والتين والزيتون ﴾ فأتى على آخرها ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فليقل : بلى! وإنا على ذلك من الشاهدين]

آخر اختصار تفسير سورة ﴿ والتين والزيتون ﴾ ولله الحمد والمنة .



وهي أول سورة نزلت من القرآن في غار حراء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ
عَلَقٍ ۞ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ (٤)
عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۞ (٥) ﴾

إن أول ما نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات ، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم ، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الانسان من علقة. وإن من كرمه تعالى أن علّم الإنسان ما لم يعلم، فشرّفه وكرّمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البريّة آدم على الملائكة . والعلم تارة يكون في الأذهان ، وتارة يكون باللسان ، وتارة يكون في الكتابة بالبنان ذهني ولفظي ورسمي. والرسمي يستلزمها من غير عكس فلهذا قال: ﴿ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾.» وفي الأثر: ٦٥٦ [قيّدوا العلمَ بالكتابة] وفيه :٦٥٧ [من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم] .

وحديث ابتداء الوحي : روى الأمام أحمد عن عائشة قالت ٦٥٨ [أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي : الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا وجاءت كفلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء ، فيتحنّث- وهو التعبّد - فيه الليالي ذوات العدد

ويتزوَّد لذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء. فجاءه الملَك فيه، فقال: اقرأ... قال رسول الله ﷺ: فقلت: ما أنا بقارىء — قال: — فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: إقرأ... فقلت: ما أنا بقارىء. فغطّني الثانية حتى بلغ من الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ فغطّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿ اقرأ بسم ربك الذي خلق — حتى بلغ — ما لم يعلم ﴾ قال: فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال « زمّلوني زمّلوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال: « يا خديجة مالي ؟ » وأخبرها الخبر وقال: وقد خشيتُ على نفسي فقالت له: كلاّ أبشر.. فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنّك لتصل الرّحم وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة حتى أتت ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى بن قصي. وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأً قد تنصّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربيّ، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت خديجة: إي ابنَ عم: اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى فقال ورقة: هذا الناموس الذي أُنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: « أو مخرجيَّ هم ؟ » فقال ورقة: نعم. لم يأت رجل قط بما جئت به إلاّ عودي. وإن يد ركني يومك أنصرك نصراً مؤزّراً.

ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً كي يتردّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلّما أوفى بذروة جبل لكي يلقيَ نفسه منه تبدّى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً. فيسكن بذلك جأشه وتقرّ نفسه فيرجع. فإذا طالت عليه فترة الوحي، غدا لمثل ذلك. فإذا أوفى بذروة الجبل تبدّى له جبريل فقال له مثل ذلك]. وهذا الحديث مخرج في الصحيحَين من حديث الزهري.

﴿ كَلَّا إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ (٦) أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۞ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۞ (٨) أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ ۞ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۞ (١٠) أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۞ (١١) أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۞ (١٢) أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۞ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۞ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ۞ (١٥) نَاصِيَةٍ

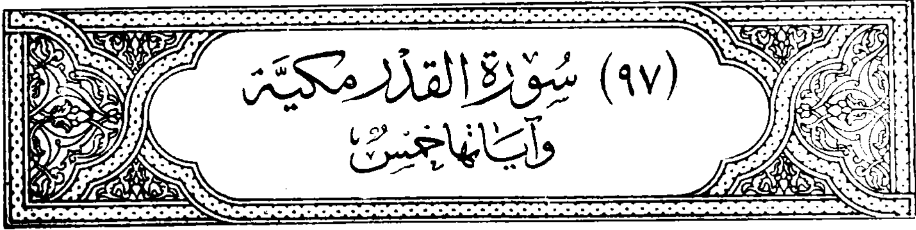
كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۞ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۞ (١٧) سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۞ (١٨)
كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ ۞ (١٩)

سجدة

يخبر تعالى عن الإنسان انه ذو طغيان ، إذا رأى نفسه قد كثر ماله ثم تهدّده فقال : ﴿ إنّ الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى. إنّ إلى ربّك الرجعى ﴾ أي إلى الله المصير والمرجع ، وسيحاسبك على مالك من أين جمعته، وفيم صرفته . وقد روي حديث مرفوع : ٦٥٩ منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب دنْيا .] ثم قال : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلّى ﴾ نزلت في أبي جهل لعنه الله توعد النبي ﷺ على الصلاة عند البيت . ثم قال : ﴿ أرأيت إن كان على الهدى ﴾ يعظ أبا جهل بالحسنى أولاً أي فما ظنّك يا أبا جهل إن كان هذا الذي تنهاه ، على الطريق المستقيمة في فعله . ﴿ أو أمر بالتقوى ﴾ بقوله . وأنت تزجره وتتوعّده على صلاته . ولهذا قال: ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ أي أما علم ان الله يراه ويسمع كلامه ، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء؟ ثم قال مهدداً: ﴿ كلاّ لئن لم ينته ﴾ أي ان لم يرجع عن عناده ﴿ لنسفعاً بالناصية ﴾ لنسمنّها سواداً يوم القيامة ثم قال : ﴿ ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئة ﴾ كاذبة في مقالها خاطئة في أفعالها ﴿ فليدعُ ناديَه ﴾ أي قومه يستنصر بهم ﴿ سندع الزبانية ﴾ وهم ملائكة العذاب حتى يعلم من يغلب أحزبنا أو حزبه .

روى البخاري عن ابن عباس قال: ٦٦٠ [قال أبو جهل : لئن رأيتُ محمداً يصلي عند الكعبة لأطأنّ على عنقه . فبلغ النبي ﷺ فقال : « لئن فعل لأخذته الملائكة »] وقوله تعالى : ﴿ كلاّ لا تطعه ﴾ يعني يا محمد لا تطعه فيما ينهاك عنه ، وصلّ حيث شئت والله حافظك وناصرك وعاصمك من الناس ﴿ واسجد واقترب ﴾ كما ثبت في الصحيح – صحيح مسلم – عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٦٦١ [أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء] وتقدم أيضاً أن رسول الله ﷺ وسلم كان يسجد في ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ و ﴿ اقرأ بسم ربك الذي خلق ﴾

آخر اختصار تفسير سورة العلق ولله الحمد والمنة .



نزلت بعد سورة عبس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ
ٱلْقَدْرِ ﴾ (٢) لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ (٣) تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ
وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ
مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ (٥)

﴿ إنّا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ أي إنا أنزلنا القرآن في ليلةٍ مباركةٍ هي ليلة القدر وهي في شهر رمضان المبارك [١] وقد نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا. ثم نزل شيئاً فشيئاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ هذا تعظيم لشأن هذه الليلة التي اختصها الله بإنزال القرآن العظيم فيها لا سيمـــا وهي: ﴿ خير من ألف شهر ﴾ أي ان عملاً فيها خير من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر. وذلك كقوله ﷺ: ٦٦٢ [رباط ليلةٍ في سبيل الله خير من الف ليلة مما سواه من المنازل] رواه أحمد. وروى أبو هريرة قال: لمّا جاء رمضان قال رسول الله ﷺ ٦٦٣ [قد جاءكم شهر رمضان شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغلُّ الشياطين؛ فيه ليلةٌ خير من ألف شهر. من حُرِمَ خيرُها فقد حُرِم] ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها ألفَ شهر. ثبت

(١) قلت: وذلك خلافاً لما يقولون انها في نصف شعبان وليس من دليل صحيح معهم. راجع تعليقنا بأول سورة الدخان.

في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٦٦٤ [من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه] .

وقوله تعالى : ﴿ تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ أي يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها والملائكة يتنزّلون مع تنزّل البركة والرحمة. كما يتنزّلون عند قراءة القرآن ، ويحيطون بحلق الذكر[1] ، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم الصادق تعظيماً له . وأما الرّوح فالمراد به جبريل عليه السلام وقوله ﴿ سلام هي حتّى مطلع الفجر ﴾ أي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءً أو يعمل فيها أذى وتُقضَى فيها الأمور وتقدَّر فيها الآجال والأرزاق. كما قال تعالى : ﴿ فيها يُفرّق كلُّ أمرٍ حكيم ﴾ [2] وقيل أن الملائكة تنزل وتمرُّ بالمصلين ليلة القدر وتسلم عليهم حتّى مطلعِ الفجر .

في أي ليلةٍ هي ...؟

١ — وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال : ٦٦٥ [ليلة القدر في العشر البواقي — من رمضان من قامهن ابتغاء حسبتهن فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهي ليلة وتر : تسع ، سبع ، خامسة ، أو ثالثة .]

٢ — وروى مسلم في صحيحه عن أبيّ بنِ كعب عن رسولِ الله ﷺ : ٦٦٦ [إنّها ليلةُ سبعٍ وعشرين] .

٣ — وعن معاوية وابنِ عمر وابنِ عباس وغيرِهم عن رسولِ الله ﷺ : ٦٦٧ [انها ليلة سبع وعشرين] .[3]

٤ — وقد حكى بعض السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن من قوله ﴿ هي ﴾ لأنها الكلمة السابعة والعشرون من السورة والله أعلم .

أمارتها :

قال رسول الله ﷺ ٦٦٨ [إن أمارة ليلة القدر أنها صافية بَلْجَة كأن فيها قمراً ساطعاً ساكنة ساجية لا برد فيها ولا حر ولا يحل لكوكب يرمي به حتّى يصبح .] وإنّ أمارتها : ٦٦٩[أن الشمس صبيحتها تخرج مستويةً ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر ولا يحلّ للشيطان ان يخرج معها يومئذٍ] وهذا إسناد حسن .

آخر اختصار تفسير سورة القدر ولله الحمد والمنة .

---

(١) قلت : يعني حِلَق العلم ، وقراءة القرآن ، لا حلق الرقص كما تفعل الطرق الصوفية اليوم (٢ و ٣) فما قول من لا يزالون يقولون أنها في (١٥) شعبان اعتقد انهم سيرجعون عن قولهم هذا بعد اطلاعهم على قول الله وأقوال رسوله (ص).

(٩٨) سورة البيّنة مدنيّة وآياتها ثمان

نزلت بعد سورة الطلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۞ (١) رَسُولٌ مِنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۞ (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۞ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۞ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۞ (٥) ﴾

روى الامام أحمد بسنده إلى عمار بن أبي عمار قال: سمعت أبا حبّة البدري وهو وهو مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري قال : ٦٧٠ [لما نزلت : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ... ﴾ قال جبريل : يا رسول الله إن ربك يأمرك ان تقرئها (أبيّاً) فقال النبي ﷺ لأبيّ : إن جبريل أمرني أنْ أُقرئك هذه السورة . قال أبيٌّ وقد ذُكرتُ ثمَّ يا رسول الله ؟ قال : نعم قال : **فبكى أبي**]

حديث آخر :

وروى الإمام أحمد بسنده إلى أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب ٦٧١ [إن الله أمرني أن أقرأ عليك : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ... ﴾

قال : وسمّاني لك ؟ قال : نعم . فبكى .] ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من حديث شعبة به .

وروى الحافظ أبو موسى المديني ، وابن الأثير ، من طريق الزهري عن اسماعيل بن أبي كلثم عن مطر المزني – أو المدني – عن النبي ﷺ : ٦٧٢ [إن الله يسمع قراءة : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ ويقول : أبشر عبدي ، فوعزتي لا أنساك على حال مَن أحوال الدنيا والآخرة ولأمكننّ لك في الجنّة حتّى ترضَى] . .

أمّا أهل الكتاب : فهم اليهود والنصارى . والمشركون : عبدة الأوثان والنيران من العرب والعجم . قال مجاهد : لم يكونوا ﴿ منفكّين ﴾ يعني منتهين حتّى يتبيّن لهم الحق ﴿ حتّى تأتيهم البينة ﴾ أي هذا القرآن ثم فسر البينة بقوله ﴿ رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ﴾ يعني محمداً ﷺ وما يتلوه من القرآن العظيم . وقوله تعالى : ﴿ فيها كتب قيّمة ﴾ أي عادلة مستقيمة ليس فيها خطأ لأنها من عند الله عز وجلّ .

وقوله تعالى : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءتهم البيّنة ﴾ يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا ، بعدما أقام الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم. وقوله تعالى: ﴿ وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ كقوله: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنّه لا إلّه إلاّ أنا فاعبدون ﴾ ولهذا قال : ﴿ حنفاء ﴾ أي متحنفين من الشرك إلى التوحيد وقد تقدم « الحنيف » في سورة الأنعام [١] بما أغنى عن إعادته ههنا ﴿ ويقيموا الصلاة ﴾ وهي أشرف عبادات البدن ﴿ ويؤتوا الزكاة ﴾ وهي الإحسان إلى الفقراء ﴿ وذلك دين القيّمة ﴾ أي الملة القائمة العادلة وقد استدل كثير من الأئمة كالزهري والشافعي بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة في الإيمان

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۞ (٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۞ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

(١) راجع سورة الأنعام آية /٧٩/ ج /٢/ من هذا المختصر .

جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۞ (٨)

يخبر تعالى عن كفَرةِ أهلِ الكتاب ، والمشركين أنهم خالدون في جهنم ﴿ أولئك هم شرّ البريّة ﴾ أي شرّ الخليقة . ثم أخبر سبحانه عن حال الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بأبدانهم ، بأنّهم خير البريّة وقد استدل أبو هريرة بهذه الآية ومعه طائفة من العلماء على تفضيل المؤمنين من البريّة على الملائكة لقوله : ﴿ أولئك هم خير البريّة ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ جزاؤهم عند ربهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ أي بلا انفصال ولا انقطاع ولا فراغ ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ ومقام رضاه عنهم ، أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ﴿ ورَضُوا عنه ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك لمن خشي ربَّه ﴾ أي هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتّقاه ، وعبده كأنّه يراه .

روى الامام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٧٣ [ألا أخبركم بخير البريّة ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال : رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هيعة استوى عليه . ألا أخبركم بخير البريّة ؟ قالوا بلى يا رسول الله : قال : رجل في ثلة من غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة . ألا أخبركم بشر البرية ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال : الذي يُسأل بالله ولا يعطي به] .

آخر اختصار تفسير سورة البيّنة ولله الحمد والمنة .

(٩٩) سُورَةُ الزَّلزَلة مَدَنيّة وآياتها ثمانٍ

نزلت بعد سورة النساء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝ (١) وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ
أَثۡقَالَهَا ۝ (٢) وَقَالَ ٱلۡإِنسَانُ مَا لَهَا ۝ (٣) يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ
أَخۡبَارَهَا ۝ (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝ (٥) يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ
أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝ (٦) فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝ (٧)
وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝ (٨) ﴾

قال ابنُ عباس ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ أي تحركت من أسفلها ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ يعني ألقت ما فيها من الموتى ، قاله غير واحد من السلف وهذه كقوله تعالى : ﴿ وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : ٦٧٤ [تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضّة ، فيجيء القاتل فيقول . في هذا قتلت. ويجيء القاطع فيقول في هذا قُطعت رحمي ويجيء السارق فيقول في هذا قطعتْ يدي ثم يدعونه فلا يأخذون منه

شيئاً] . وقوله عزّ وجل : ﴿ وقال الإنسان ما لها ﴾ أي استنكر أمرها فبعدما كانت ثابتةً صارت مضطربة ثم ألقت ما في جوفها من الأموات الأولين والآخرين وقوله تعالى : ﴿ يومئذٍ تحدّث أخبارها ﴾ أي تحدث بما عمل العاملون على ظهرها فقد روى الإمام أحمد بسنده إلى أبي هريرة قال ٦٧٥ [قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم. قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ وأمَةٍ بما عَمِل على ظهرها أن تقول : عمل كذاوكذا يوم كذا وكذا فهذه أخبارها] ورواه الترمذيّ وقال حديث حسن صحيح غريب .

وقوله تعالى : ﴿ بأن ربكَ أوحىَ لها ﴾ بمعنى أوحى إليها أي أمرها أن تنشقّ عنهم فانشقّت ، وأن تقول فقالت : ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ﴾ أي فِرقاً وأنواعاً وأصنافاً بين شقيّ وسعيد ﴿ ليرُوا أعمالَهم ﴾ أي ليعملوا ويجا زوا بما عملوا خيراً أو شراً ولهذا قال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يرَه ومن يعمل مثقال ذرّةٍ شراً يره ﴾ . روى الإمام أحمد بسنده عن الحسن ٦٧٦ [عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدقً أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿ فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره ﴾ قال : حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها]ً.

وفي صحيح البخاري عن عدي مرفوعاً: ٦٧٧ [اتقوا النار ولو بشقّ تمرة، ولو بكلمة طيّبة] وله أيضاً في الصحيح ٦٧٨ [لا تحقرنّ من المعروف شيئاً ولو أن تُفرغ من دَلْوِكَ في إناءِ المستسقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط] . وفي الصحيح أيضاً ٦٧٩ يامعشر نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة] يعني ظلفها . وفي الحديث الآخر ٦٨٠ [ردّوا السائل ولو بظلف محرقٍ] وروى الإمام أحمد عن عائشة ان النبي ﷺ كان يقول ٦٨١ [يا عائشة اياك ومحقراتِ الذنوب فإن لها من الله طالباً] وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود : ان رسول الله ﷺ قال: ٦٨٢ [إياكم ومحقراتِ الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنَه ...]

آخر اختصار تفسير سورة « إذا زلزلت» ولله الحمد والمنة .

(١٠٠) سورة العاديات مكية وآياتها إحدى عشرة

نزلت بعد سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم



وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ۞ (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ۞ (٢)
فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ۞ (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ۞ (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ
جَمْعاً ۞ (٥) إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۞ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ
لَشَهِيدٌ ۞ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۞ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ
مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۞ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۞ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ
يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ۞ (١١)

يقسم تعالى : بالخيل إذا أجريت في سبيله فعدت وضبحت وهو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ يعني اصطكاك نعالها بالصخر فتقدح منه النار . ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ يعني الإغارة وقت الصباح ٦٨٣ [كان رسول الله ﷺ يغير صباحاً ويستمع الأذان فإن سمع أذاناً وإلا أغار] . وقوله تعالى : ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ يعني غباراً في مكان معترك الخيول ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ أي توسطن ذلك المكان كلهن وعن علي ابن أبي طالب أنها الإبل . وعن ابن عباس هي الخيل فبلغ علياً قول ابن عباس فقال : ما كانت لنا خيل يوم بدر . وما كان معنا إلا فرسان : فرس للزبير وفرس للمقداد ؛ فكيف تكون العاديات ضبحاً ؟ إنما العاديات ضبحاً من عرفة الى المزدلفة ، فإذا أووا إلى

المزدلفة أوروا النيران . قال ابن عباس : فنزعت عن قولي ، ورجعت إلى الذي قال علي رضي الله عنه . قال ابن جرير والصواب أنهـا الخيل حين تقدح بحوافرها (١) ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ أي انه لنعم ربه لكفور جحود . والكَنُود الكفور . وقال الحسن هو الذي يعد المصائب وينسى نعم الله عليه . ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ أي إن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد،أي بلسان حاله . وقوله تعالى: ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ أي انه لحب المال لشديد أو حريص بخيل من محبة المال وكلاهما صحيح .

ثم قال تعالى مزهـدا في الدنيا ومرغـباً في الآخرة : ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ﴾ أي أخرج ما فيها من الأموات ﴿ وحصل ما في الصدور ﴾ قال ابن عباس وغيره يعني أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم ﴿ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ أي لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ويجازيهم عليه أوفر الجزاء ولا يظلم مثقال ذرة .

آخر اختصار تفسير سورة العاديات ولله الحمد والمنة .

---

(١) قلت : ونحن مع ابن عباس رضي الله عنه ، أنها الخيل ، — حتى ولو رجع عن قوله إلى قول علي رضي الله عنه من أنها الإبل ... — لأننا إذا قلنا انها الإبل تصبح من عرفة إلى مزدلفة ، فهذا وصف مخالف للوصف الوارد في الآية ١ــ لأن الإبل لا تقدح النار من خفافها... ٢ــ لأن الدفع من عرفة إلى مزدلفة إنما هو عند الغروب بينما الآية تقول : « فالموريات قدحاً * فالمغيرات صبحاً » .
٣ — أما تفسير « فالموريات قدحاً » : (بأن الناس إذا أووا إلى المزدلفة أوروا النيران) فالآية تقول (فالموريات قدحاً) بالتأنيث ولو كان المراد الناس لقال : فالمورين قدحاً .
٤ — قوله تعالى (فالمغيرات صبحاً) يدل على شدة العدو لان الإغارة تتطلب الغاية القصوى في العدو والجري على الأعداء . بينما الدفع من عرفة إلى مزدلفه ، ومن مزدلفة إلى منى ، لا يكون إغارة... بل على العكس فان النبي صلى الله عليه وسلم أمر المسلمين بالسكينة في مشيهم ، والسكينة عكس الإغارة . وهكذا يتضح أن المراد من العاديات الخيل لا الإبل والله تعالى أعلم وهو الموفق للصواب .

(١٠١) سورة القارعة مكية وآياتها إحدى عشرة

نزلت بعد سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

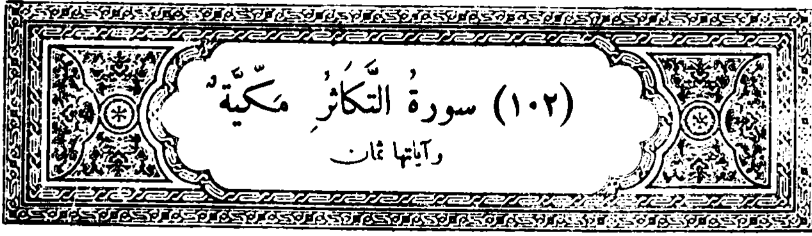
﴿ القَارِعَةُ ۞ (١) مَا القَارِعَةُ ۞ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا
القَارِعَةُ ۞ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ المَبْثُوثِ ۞ (٤)
وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ المَنْفُوشِ ۞ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۞ (٦)
فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۞ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۞ (٨) فَأُمُّهُ
هَاوِيَةٌ ۞ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ۞ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ ۞ (١١) ﴾

القارعة من أسماء يوم القيامة كالحاقة والطامة والصاخّة والغاشية وغير ذلك. ثم قال تعالى معظّماً أمرها ﴿ ما القارعة وما أدراك ما القارعة ﴾ ثم فسّر ذلك بقوله : ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ في انتشارهم وتفرقهم من حيرتهم مما هم فيه كقوله : ﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ أي كالصوف المنفوش الذي شرع في التمزق . ثم أخبر تعالى : عما يؤول إليه عمل العاملين من الكرامة والإهانة بحسب عملهم. فقال : ﴿ فأما من ثقلت موازينه ﴾ أي رجحت حسناته على سيآته ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ يعني في الجنة ﴿ وأما من خفّت موازينه ﴾ أي رجحت سيآته على حسناته ﴿ فأمّهُ هاوية ﴾ فهو ساقط هاوٍ بأم رأسه في جهنم . وقيل معناه : فأمّه

فأمّه التي يرجع اليها في المعاد كأنها الهاوية، أو هي الهاوية، وهي اسم من أسماء النار. قال ابن جرير وإنما قيل للهاوية أمّه لأنه لا مأوى له غيرها. ولهذا قال تعالى مفسّراً للهاوية ﴿ وما أدراك ما هية نار حامية ﴾ أي حارة شديدة الحر قوية اللهب والسعير. روى ابو مصعب بسنده إلى أبي هريرة أن النبي ﷺ قال ٦٨٤ [نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزء من نار جهنم قالوا يا رسول الله إن كانت لكافية فقال إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءً] ورواه البخاري ومسلم وفي بعض ألفاظه : ٦٨٥ [انها فضلت عليها بتسعة وستين جزءً كلهن مثل حرها] .

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال ٦٨٦ [اشتكت النار فقالت يا رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسَيْن نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها وأشدّ ما تجدون في الصيف من حرها] .

آخر اختصار تفسير سورة القارعة ولله الحمد والمنة .


(١٠٢) سورة التكاثر مكية
وآياتها ثمان

نزلت بعد سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلْهَاكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۞ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۞ (٢) كَلَّا
سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ
عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۞ (٥) لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۞ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۞ (٧)
ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۞ (٨)

﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ في الأولاد والأموال ، وشغلتكم الدنيا عن الآخرة. ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ أي حتى جاءكم الموت. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ٦٨٧[يقول العبد مالي مالي وإنما له من ماله: ما أكل فأفنى ، ولبس فأبلى ، أو تصدق فأمضى ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس.] وفي الصحيحين عن أنس أن النبي ﷺ قال ٦٨٨ [يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والأمل]. وروى ابن عساكر في ترجمة الأحنف بن قيس (أنه رأى في يد رجل درهماً فقال لمن هذا الدرهم ؟ فقال الرجل: لي فقال: إنما هو لك اذا انفقته في أجر أو ابتغاء شكر . ثم أنشد متمثلاقول الشاعر

أنت للمال إذا أمسكته ٭ فإذا انفقته فالمال لك

وقوله ﴿كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون﴾ قال الحسن هذا وعيد بعد

وعيد ﴿كلاّ لو تعلمون علم اليقين﴾ أي لو علمتم حق العلم لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة حتى صرتم إلى المقابر. ثم قال: ﴿ لترونّ الجحيم ثم لترونّها عين اليقين ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم وهو قوله : ﴿ كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ﴾ توعّدهم بهذا الحال . وهو رؤية أهل النار التي إذا زفرت زفرة واحدة خرّ كل ملك مقرب ونبيّ مرسل على ركبتيه من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال. وقوله تعالى: ﴿ ثمّ لتسألنّ يومئذ عن النعيم ﴾ أي ثم لتسألن يومئذٍ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك .

روى ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : [بينما أبو بكر وعمر جالسان إذ جاءهما النبيّ ﷺ فقال: ٦٨٩ «ما أجلسكما ههنا؟» قالا والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلاّ الجوع . قال: « والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره.» فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار فاستقبلتهم المرأة فقال لها النبي ﷺ : اين فلان فقالت ذهب يستعذب لنا ماء. فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال: مرحباً ما زار العباد شيء أفضل من نبي زارني اليوم . فعلّق قربته بكرب نخلة وانطلق فجاءهم بعِذق ؛ فقال النبيُّ ﷺ : «ألا كنت اجتنيتَ ؟» فقال: أحببتُ أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم ، ثم أخذ الشفرة فقال له النبي ﷺ: « إياك والحلوب » فذبح لهم يومئذ فأكلوا ؛ فقال لهما النبي ﷺ :« لتُسألُنّ عن هذا يوم القيامة . أخرجكم من بيوتكم الجوع فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا .. فهذا من النعيم»] ورواه مسلمٌ وأبو يعلى وابن ماجه وقد رواه أهل السنن الأربعة . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم ﴾ قال : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العباد فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم. وهو قوله تعالى : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾ وثبت في صحيح البخاريّ وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : ٦٩٠ [نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ] ومعنى هذا انهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما. ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون .

آخر اختصار تفسير سورة التكاثر ولله الحمد و المنّة .

(١٠٣) سورة العصر مكية وآياتها ثلاث

نزلت بعد سورة الشرح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ (١) إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ (٢) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ (٣) ﴾

﴿ والعصر ﴾ الزمان وقال زيد بن أسلم : صلاة العصر والمشهور الأول . فأقسم تعالى بذلك على ان الإنسان لفي خسارة وهلاك ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فاستثنى من جنس الإنسان من الخسران الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿ وتواصَوْا بالحقّ وتواصَوا بالصبر ﴾ أي على المصائب والأقدار وأذى من يؤذيه ممن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر .

وذكر عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم عمرو فقال له مسيلمة ، ماذا نزل على صاحبكم في هذه المدة ؟ فقال : لقد نزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال : وما هي؟ فقال: ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوا بالحق وتواصَوا بالصبر ﴾ ففكر مسيلمة هنيهةً ثم قال : وقد أنزل عليّ مثلها . فقال له عمرو : وما هو ؟ فقال يا وبْر يا وَبْر وإنما أنت اذنان وصدر ، وسائرك حفر نقر ، ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب .

وقال الشافعي رحمه الله تعالى : لو تدبّر الناس هذه السورة لوسِعتهم .

آخر اختصار تفسير سورة والعصر ولله الحمد والمنة .

(١٠٤) سُورَةُ الهُمَزَةِ مكيّة وآياتها تسع

نزلت بعد سورة القيامة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ۞ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۞ (٢)
يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) ۞ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ۞ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ
مَا ٱلْحُطَمَةُ ۞ (٥) نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۞ (٦) ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى
ٱلْأَفْئِدَةِ ۞ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ۞ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ۞ (٩)

﴿ ويل لكلّ همزة لمزة ﴾ الهمّاز بالقول، واللمّاز بالفعل. يعني يزدري الناس وينتقص بهم، وقد تقدم ذلك في قوله تعالى ﴿ همّازٍ مشّاءٍ بنميم ﴾ [١] قال ابن عباس همزة لمزة طعان معياب . قال قتادة : الهُمزة واللمزَة لسانه وعينه ، ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم . وقال مجاهد الهمزة باليد والعين واللمزة باللسان [٢] وقوله تعالى: ﴿ الذي جمع مالاً وعدّده ﴾ أي جمعه بعضه على بعض وأحصى عدده. وقوله تعالى: ﴿ يحسب أنّ ماله أخلده ﴾ أي يظن أنّ جمعه المال يخلّده في هذا الدار ﴿كلاّ﴾ أي ليس الأمر كما زعم. ثم قال ﴿ لينبذنّ في الحطمة ﴾ أي ليلقينّ في النار لأنها تحطم من فيها . ولهذا قال : ﴿ وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة ﴾ أي تحرقهم إلى

(١) راجع سورة القلم رقم /٦٨/ الآية رقم ١١ من هذا المجلد .
(٢) الهمزة المغتاب ، واللمزة العياب .

الأفئدة وهم أحياء . وقوله تعالى : ﴿إنها عليهم مؤصَدة﴾ أي مطبقةٌ كما تقدم تفسيره في سورة البلد [١] وقوله تعالى : ﴿في عمَدٍ ممدَّدة﴾ أي مؤصدة بعمد من نار ممدّدة .

آخر اختصار تفسير سورة الهمزة ولله الحمد والمنة .

(١) راجع سورة البلد عند قوله تعالى : « عليهم نار مؤصدة » .



نزلت بعد سورة (الكافرون)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۞ (١) أَلَمْ
يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۞ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ۞ (٣)
تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ۞ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ۞ (٥) ﴾

﴿ ألم ترَ كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل ﴾ أصحاب الفيل هم الذين قدموا مع أبرهة الحبشي من اليمن لهدم الكعبة. فتولىّ تعالى وحده، الدّفاع عن بيته المحرم. وهذه من النعم التي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود . فأبادهم الله ، وأرغم آنافهم ، وخيب سعيهم ، وأضلّ عملهم، وردّهم بشرِ خيبة . وكانوا قوماً نصارى وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأصنام ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال وأن الله لم ينصر قريشاً على الحبشة لخيريتهم عليهم ولكن صيانةً للبيت العتيق الذي شرفه الله وعظمه ووقره ببعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ .

موجز القصة : بنىٰ أبرهة الحبشيُ كنيسةً في صنعاءَ شاهقةً مزخرفةَ الأرجاء ، وقد عزم أن يصرف حج العرب إليها بدلاً من الكعبة! ونادى بذلك في مملكته؛ فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك...وغضبت قريش غضباً شديداً، حتى قصدها بعضهم وتوصّل

إلى دخول الكنيسة ليلاً «فأحدثَ فيها ...» وكرّ راجعاً فأخبر أبرهةُ بذلك ؛ فأقسم انه ليسيرنَّ إلى بيت مكة وليخربنّه حجراً حجراً . وذكر مقاتل بن سليمان أن فتيةً من قريش دخلوها وأجّجوا فيها ناراً وكان يوماً شديد الريح فاحترقت وسقطت إلى الأرض . فسار ابرهة في جيش كثيف عرمرم ، واستصحب فيلاً عظيماً كبير الجثة يقال له محمود ورأى العرب انه حقٌ عليهم المحاجبة دون البيت فخرج « ذو نفر » في قومٍ وهو أحد أشراف اليمن وملوكِهم ولكن هزمَه أبرهة وأسره ، وكذلك اعترض أبرهة نفيل بن حبيب الخثعمي هو وقومه مدة شهرين فهزمهم ابرهةُ أيضاً وأسر نفيلاً وهم بقتله ثم عفا عنه واستصحبه ليدله في بلاد الحجاز ولما مر بالطائف صانعه أهلها وأرسلوا معه « أبا رغال » دليلاً فلمّا انتهى أبرهةُ بجيشه إلى (المغمّس) وهو قريب من مكة نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه وكان فيه مئتا بعير (لعبد المطلب) ، وأرسل أبرهة (حناطة الحميري) وأمره أن يأتيه بأشرفِ قريش، ويخبرهم أنه لم يأت لحربهم، إلاَّ أن يصدّوه عن البيت. فعاد حناطة ومعه عبد المطلب فأجلَّه أبرهة ونزل عن السرير ، وجلس معه على البساط ، وسأله ـ بواسطة ترجمانه ـ عن حاجته فقال حاجتي ان يردَّ علي الملكُ مئتَيْ بعير أصابها لي . فقال أبرهة : أُعجِبتُ بمرآكَ وزهدني فيك كلامُك ! أتكلّمني في مئتي بعير أصبتُها لكَ، وتتركُ بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ! ؟ فقال عبد المطلب : إني أنا ربّ الإبل وإن للبيت ربّاً سيمنعه» قال : ما كان ليمتنع منّي. قال أنتَ وذاك. ثم ردَّ أبرهةُ الإبل إلى عبدِ المطلب ﴿ ألم يجعل كيدهم في تضليل ﴾ ثم رجع إلى قريش فأمرهم بالتحصن في رؤوس جبال مكة تخوفاً عليهم من معرة الجيش ثم قام ومعه نفر من قريش يدعون الله فأخذ عبد المطلب بحلقه باب الكعبة وقال :

لا همَّ ان المرء يمنع رحله فامنع رحالَك، لا يغلبنَّ صليبُهم ومحالُهم أبداً محالَك[١] .

ولما هيأ أبرهةُ فيلَه ووجَّهوه نحو مكة أقبل (نفيل بن حبيب) حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال : (أبركْ محمود... وارجع راشداً من حيث أتيت ، فإنك في بلد الله الحرام.) ثم أرسلَ أذنه فبرك الفيل. وخرج (نفيل) يشتد حتى أصعدَ في الجبل والتحق بقريش . أما أصحابُ الفِيل فضربوا الفيل ليقومَ ، فأبى ... وجعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلاَّ ذهب إليها واذا وجهوه إلى الحرم ربض .

﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصفٍ مأكول ﴾

---

(١) المحال : الكيد والمكر .

روى ابنُ أبي حاتم بسنده عن عبيد بن عمير قال : ولما أراد الله ان يُهلِكَ أصحابَ الفيل بعث عليهم طيراً أُنشئت من البحر أمثال الخطاطيف كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار : حجرين في رجليه ، وحجراً في منقاره قال فجاءت حتى صفّت على رؤوسهم ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها فما يقع حجر على رأس رجل إلاّ خرج من دبره ولا يقع على شيء من جسده إلاّ خرج من الجانب الآخر . هذا وان عبدَ المطلب وجماعة من قريش ومعهم (نفيل الخثعمي) ومطعم بن عدي ، وعمر بن عائذ المخزومي ومسعود بن عمرو الثقفي على حِراء ينظرون ما الحبشة يصنعونه وما أُنزل الله بأصحابِ الفيل من النقمة وجعل نفيل يقول :

أين المفرّ والإلـــه الطالبْ والأشرمُ المغلوبُ ، ليس الغالبْ

وذكر مقاتل بن سليمان : أن قريشاً أصابوا مالاً جزيلاً من أسلابهم وما كان معهم وأن عبد المطلب أصاب يومئذٍ من الذهب ما ملأ حفرةً .

قال عطاء بن يسار : ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة ، بل منهم من هلك سريعاً ومنهم من جعل يتساقط لحمه عضواً عضواً وهم هاربون . فلما بعث الله محمداً ﷺ كان فيما يعدُّ به على قريش من نعمته عليهم وفضله ما ردّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدّتهم فقال :

﴿ ألم ترَ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل . وارسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارةٍ من سجيل فجعلهم كعصفٍ مأكول ﴾ .

الأبابيل : الجماعات الكثيرة تأتي من هنا وهمنا . قال ابن هشام لم تتكلم العرب بواحدة ولكن قال النسائي سمعت بعض النحويين يقول : واحد الأبابيل إبيل . أمـــا السجيل قال ابن هشام أخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب الشديد الصلب . قال وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمةً واحدة وانما هو : (سنج) و (جل) يعني بالسنج (الحجر) والجل (الطين) فهي كما قال ابن عباس : حجارة من سجّيل قال طين في حجارة . والعصف : ورق الزرع وورق البقل إذا أكلته البهائم فراثته ... والمعنى : ان الله سبحانه وتعالى أهلكهم ودمرهم وردّهم بكيدهم وغيظِهم لم ينالوا خيراً ، وأهلك عامتهم ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح كما جرى لملكهم أبرهة . وكان أبرهة ممن تساقط عضوَاً عضوَاً وأنملةً أنملةً وإنه انصدعَ قلبُه حين وصل إلى بلده صنعاء. وما مات والله إلاّ وأخبرهم بما جرى لهم ثم مات ، فملك بعده ابنه

(يكسوم) ثم من بعده ابنه الثاني (مسروق) ثم طردهم جميعاً الملك سيف بن ذي يزن الحميري بمعونة كسرى .

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة٦٩١ة« إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ألا فليبلغ الشاهدُ الغائبَ »

آخر اختصار تفسير سورة الفيل ولله الحمد والمنة .

(١٠٦) سورة قريش مكية وآياتها أربع

نزلت بعد سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۞ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۞ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۞ (٤) ﴾

﴿ لإيلاف قريش ﴾ أي لإيلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين ، وقيل ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، في التجارة وغير ذلك. ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم . وأما في إقامتهم في البلد، فكما قال الله تعالى: ﴿ أولم يرَوْا أنّا جعلنا حرَماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم ﴾ .

ثم أرشدَهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة.فقال : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ فليوحّدوه بالعبادة. كما قال تعالى: ﴿ قل إنما أمرت أن أعبدَ ربَّ هذه البلدة الذي حرّمها وله كلّ شيء وأمرت أن أكونَ من المسلمين ﴾ وقوله تعالى: ﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾ أي هو رب البيت ﴿ وآمنَهم من خوْف ﴾ أي تَفضل عليهم بالأمن والرخص . فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نِداً ولا وثناً. ولهذا من استجاب لهذا الأمر، جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه . كما قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنة يأتيها رزقُها رغَداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾

آخر اختصار تفسير سورة لإيلاف قريش ولله الحمد والمنة .



نزلت بعد سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَرَأَيْتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ (١) فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ
ٱلْيَتِيمَ ۞ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۞ (٣) فَوَيْلٌ
لِّلْمُصَلِّينَ ۞ (٤) ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ (٥) ٱلَّذِينَ هُمْ
يُرَاءُونَ ۞ (٦) وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۞ (٧) ﴾

يقول تعالى : ارأيتَ يا محمد الذي يكذب بيوم المعاد والجزاء والثواب ﴿ فذلك الذي يدعُّ اليتيم ﴾ أي الذي يقهره ويظلمه حقه ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أي الذي لا شيءَ له يقوم بأوده . ثم قال تعالى: ﴿ فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ فعن سعد بن أبي وقاص قال ٦٩٢[سألت رسول الله ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون قال «هم الذين يؤخرون الصلاةَ عن وقتها »][1] ﴿ الذين هم يراءون ﴾ فقد روى الإمام أحمد بسنده عن عبدالله بن عمرو يقول قال رسول الله ﷺ ٦٩٣ [من سمّع الناس بعمله سمّع الله به سامع خلقه وحقره وصغره] ومما يتعلق بقوله تعالى : ﴿ الذين هم يُراءون ﴾ ان من عمل عملاً لله فاطّلع عليه الناس فأعجبه ذلك ان هذا لا يعدرياءً والدليل على ذلك ما رواه الحافظ ابو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ٦٩٤ [كنت أصلي فدخل علي رجل فأعجبني ذلك فذكرته لرسول الله ﷺ فقال : « ثبت لك أجران أجر السر وأجر العلانية »] ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ أي لا أحسنوا عبادة ربهم ولا أحسنوا

(١) لنا رسالة في موضوع الصلاة الفائتة « نصوص الشريعة الثابتة في حكم قضاء الصلوات الفائتة » .

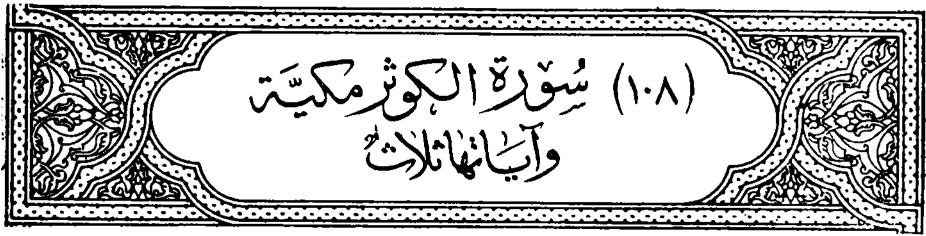
إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم. فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى. وقيل ان الماعون الزكاة روى ذلك عن علي وابن عمر . قال الحسن البصري : إن صلى راءى وإن فاتته لم يأس عليها ويمنع زكاة ماله وفي لفظ صدقة ماله . وسئل ابن مسعود عن الماعون فقال : هو ما يتعاطاه الناس بينهم من الفأس والقِدْر والدلْو وأشباه ذلك وعن ابن عباس أنه متاعُ البيت ، وترك المعاونة بمال أو منفعة ولهذا قال محمد بن كعب ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ قال المعروف ولهذا جاء في الحديث ٦٩٥. [كل معروف صدقة] وروى ابن مانع بسنده إلى عامر بن ربيعة عن علي بن فلان النميري ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٦٩٦ [المسلم أخو المسلم إذا لقيه جاء بالسلام ويرد عليه ما هو خير منه لا يمنع الماعون قلتُ : يا رسول الله ما الماعون ؟ قال : الحجر والحديد وأشباه ذلك .] والله أعلم .

آخر اختصار تفسير سورة الماعون ولله الحمد والمنة .

على ذكر الصلاة الفائتة :

(ليس من دليل على جواز تأخير الصلاة عمداً عن وقتها ، حتى يكون :– لمؤخرها عمداً– دليل على استدراكها وقضائها. وليس للقائلين بجواز قضائها من دليل يتشبثون به... إلاّ قوله ﷺ : [من نام عن صلاة أو نسيها فليصلّها إذا ذكرها لا كفارة لها إلاّ ذلك]

وهذا الحديث كما هو واضح حجّة عليهم لا لهم . لأنهم يقيسون العامد على المعذور . وهذا قياس مع الفارق ، كما هو واضح . لأن الشارع الحكيم اعتبر النائم عن الصلاة أو الناسي لها معذوراً، فأمره بصلاتها «أداءً» فور استيقاظه أو تذكره... فهو والحالة هذه معذور إذ ليس بمقدوره أن يستيقظ أو يتذكر، إلاّ أن يشاءُ الله له ذلك. فأين حال هذا... من حال العامد اليقظ المتذكر؟ والرسول ﷺ يقول : [من ترك صلاةً واحدةً –أي عامداً– برئت منه ذمّة الله ورسوله] أو كما قال... ويحتجون أيضاً بقضاء الرسول والصحابة الصلوات يوم غزوة الخندق... مع أنهم يعلمون أن هذا منسوخ بصلاة الخوف ، ولا حجة لهم به . وقد وضحنا هذه القضايا توضيحاً تاماً في رسالتنا « نصوص الشريعة الثابتة في حكم قضاء الصلوات الفائتة » وهي تحت الطبع . وإن الذين أفتوا بجواز قضاء الصلاة الفائتة ، فتحوا –ولو بدون قصد– باباً بل أبواباً لتركها نهائياً. إذ أنّ الذي يعتقد بإمكانية استدراكها بالقضاء ... قد يترك الوقت والوقتين والثلاثة... ثم اليوم واليومين والأسبوع والأسبوعين... إلى أن يتركها نهائياً. والعياذ بالله تعالى . بينما إذا علم أنّ من فوّت صلاةً واحدةً يستحيل عليه استدراكها ، ولو صلّى الدهر... ! حرص كل الحرص على أن لا تفوته صلاة قط . ومن هنا يظهر الفارق جلياً بين نتائج كلٍّ من القولَين : بالقضاء ... أو عدمه . والله أعلم وهو الموفق للصواب . « نسيب »


(١٠٨) سورة الكوثر مكية وآياتها ثلاث

وكثير من القراء قال أنها مدنية ! نزلت بعد سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ۞ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۞ (٢)
إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۞ (٣) ﴾

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال : ٦٩٧ [بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذا أغفى إغفاءةً ثم رفع رأسه متبسِّماً ، قلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال لقد نزلت عليَّ آنفاً سورة ، فقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر . فصلِّ لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر ﴾ ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خيرٌ كثيرٌ هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عددَ النجوم في السماءِ فيختلج [1] العبد منهم فأقول : رب إنه من أمتي ، فيقول إنك لا تدري ما أحدث بعدك] وقد استدل به كثير من القراء على ان هذه السورة مدنيّة [2] وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة وانها منزلة معها [3] وعن انس مرفوعاً : ٦٩٨ [دخلت الجنة فإذا بنهرٍ حافّتاه خيام اللؤلؤ] .

---

(١) يعني تجذبه الملائكة وترده عن الحوض .

(٢) لقول أنس بن مالك ، بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا في المسجد .. الحديث ... فأنس أنصاري وقوله في المسجد ، يدل على أنه مسجده صلى الله عليه وسلم بالمدينة . أي نزلت سورة الكوثر بالمدينة ، اذاً فهي مدنيّة لا مكية .

(٣) لعل قراءته عليه الصلاة والسلام البسملة في أول الكوثر للاستفتاح لا أنها من أصل السورة .

وروى البخاري بسنده إلى أنس بن مالك قال : لما عُرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال [أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوّف فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر][1]. وأما قوله: ﴿ إنّا أعطيناك الكوثر ﴾ فقد تقدم أنه نهر في الجنة كما في حديث أنس المتقدم بروايته . وقوله تعالى : ﴿ فصل لربّك وانحر ﴾ أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ومن ذلك النهر الذي تقدم وصفه ... فأخلص لربّك وانحر أي أخلص لربّك صلاتك المكتوبة والنافلة ، ونحرك أي نسكك يعني ذبحك فانحر على اسمه تعالى وحده لا شريك له : كما قال تعالى : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين ... ﴾ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: ٦٩٩[من صلّى صلاتنا ونسُك نسكَنا فقد أصابَ النسُكَ ، ومن نسَك قبلَ الصّلاةِ فلا نُسْكَ له فقام أبو بردة بن نيار فقال : يا رسول الله إني نسكت شاتي قبل الصلاة وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم فقال شاتك شاة لحم قال: فإن عندي عناقاً[2]. هي أحب إليّ من شاتين أفتجزىء عني؟ قال: تجزئك ولا تجزىء أحداً بعدك] .

وقوله تعالى: ﴿ إنّ شانئك هو الأبتر ﴾ أي مبغضك يا محمد، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق ، والبرهان الساطع ، والنور المبين ، هو الأبتر الأقل الأذل، المنقطع ذكره. وقال السدي : كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا : بتر فلما مات أبناء رسول الله ﷺ. قالوا: بتر محمد فأنزل الله: ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ حاشا وكلاّ... بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمراً على دوام الآباد ، إلى يوم المحشر والمعاد ، صلوات الله عليه وسلامه إلى يوم التناد .

آخر اختصار تفسير سورة العصر ولله الحمد والمنة .

(١) وتمام الحديث : (... فضربت بيدي إلى ما يجرى فيه الماء فإذا مسك اذفر قلت ما هذا يا جبريل ؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله عز وجل) .

(٢) العناق : الأنثى من اولاد الماعز قبل استكمالها السنة ج أعنق وعنوق .

(١٠٩) سورة الكافرون مكية وآياتها ست

نزلت بعد سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ ۝ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ (٢)
وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ ۝ (٤)
وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ (٦)

ثبت في صحيح مسلم عن جابر ٧٠٠[أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبقل هو الله أحد في ركعتي الطواف] وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ٧٠١[ان رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر] وفي مسند أحمد عن ابن عمر ٧٠٢[ان رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعاً وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد] .

وروى أبو القاسم الطبراني بسنده إلى جبلة بن حارثة وهو أخو زيد بن حارثة أن النبي ﷺ قال : ٧٠٣[إذا أويت إلى فراشك فاقرأ: قل يا أيها الكافرون حتى تمر بآخرها فإنها براءةٌ من الشرك] ومن بعض حديث عن ابن عباس مرفوعاً : ... ٧٠٤[قل يا ايها الكافرون تعدل ربع القرآن] .

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون ، وهي آمرة بالاخلاص لله فقوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض ، ولكن

المواجَهين بهذا الخطاب هم كفار قريش . وقيل أنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنةً ، ويعبدون معبوده سنةً. فأنزل الله تعالى هذه السورة وأمر رسوله ﷺ فيها ، أن يتبرّأ من دينهم بالكليّة فقال : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ يعني الأصنام والأنداد ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ وهو الله وحده لا شريك له . فما ها هنا بمعنى من ؛ ثم قال ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أي ولا أعبد عبادتكم أي لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنّما أعبد الله على الوجه الذي يحبّه ويرضاه، ولهذا قال: ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أي لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم . كما قال: ﴿ إن يتّبعون إلاّ الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربّهم الهدَى ﴾ نتبرأ من جميع ما هم فيه.ولهذا كان معنى : (لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله) أي لا معبود إلاّ الله، ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ . والمشركون يعبدون غير الله، عبادة لم يأذن بها الله. ولهذا قال لهم الرسول ﷺ : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ كما قال تعالى ﴿ وإن كذّبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريءٌ مما تعملون ﴾ وقال تعالى : ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ وقد استدلَّ الشافعي رحمه الله وغيره بهذه الآية الكريمة ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ على أنَّ الكفرَ ملةٌ واحدة، فورث اليهود من النصارى وبالعكس إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به، لأن الأديان ما عدا الإسلام، كلها كالشيء الواحد في البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس ، لحديث عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال قال رسول الله ﷺ ٧٠٥[لا يتوارث أهل ملتين شتّى] .

آخر اختصار تفسير سورة (الكافرون) ولله الحمد والمنة .

(١١٠) سورة النصر مدنية وآياتها ثلاث

نزلت بمنىً في حَجة الوداع بعد سورة التوبة . فتعد مدنيّةً ، وهي آخر سورة نزلت من القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۞ (١) وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجاً ۞ (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ۞ (٣) ﴾

روى البخاريّ عن ابن عباس قال (كان عمر يدخلني مع اشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال : لمَ يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه ممن قد علمتم ... فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم . فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريـَهم... فقال : ما تقولون في قول الله عزّ وجلّ ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ... ؟ فقال بعضهم : أمرنا ان نحمد الله ونستَغفره إذا نصرنا وفتح علينا ؛ وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً . فقال لي : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت لا ... فقال : ما تقول ؟ فقلت هو أجَلُ رسول الله ﷺ أعلمَه لهُ. قال : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فذلك علامةُ أجلِكَ ، ﴿ فسبح بحمد ربّك واستغفره إنّه كان توّابا ﴾ فقال عمر بن الخطاب : لا أعلم منها إلاّ ما تقول) تفرّد به البخاري .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال:٧٠٦ [لما نزلت : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله ﷺ : « نعيتُ إليّ نفسي » فإنه مقبوض في تلك السنة] .

ورويَ أيضاً عن عائشة قالت ٧٠٧ كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قوله :

«سبحان الله وبحمده استغفر الله واتوب اليه» وقال: «إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامةً في أمّتي وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده واستغفره إنّه كان توّاباً ، فقد رأيتها : ﴿ إذا جاء نصر الله ... ﴾ »] ورواه مسلم .

فبعد أن نزلت هذه السورة ، كان رسول الله ﷺ أشدّ ما يكون اجتهاداً في أمر الآخرة. وقال رسول الله ﷺ ٧٠٨ [«جاء الفتح وجاء نصر الله وجاء أهل اليمن فقال رجل: يا رسول الله وما أهل اليمن ... ؟ قال قوم رقيقة قلوبُهم ، لينة طباعُهم ، الإيمان يمان والفقه يمان] . فالمعنى الذي فسّره بعض أهل بدر من جلساء عمر، كما تقدم من حديث البخاري، من أنه تعالى أمرنا إذا فتح علينا المدائن والحصون، ان نحمده ونشكره ونسبّحه، هو معنى مليح صحيح. وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثماني ركعات فقال قائلون : هي صلاة الضحى؛ وأُجيبوا : بأنه لم يكن يواظب عليها في الحضر فكيف صلاها ذلك اليوم وقد كان مسافراً ، لم ينوِ الإقامة بمكّة ؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان، قريباً من تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة ويفطر، هو وجميع الجيش. وكانوا نحواً من عشرة آلاف، قال هؤلاء وإنما كانت صلاة الفتح. قالوا : فيستحَبُّ لأمير الجيش إذا فتح بلداً، أن يصلّيَ فيه أوّل ما يدخله ثماني ركعات . وهكذا فعل سعد بن أبي وقّاص يوم فتحَ «المدائن» . ثم قال بعضهم يصليها كلها بتسليمةٍ واحدةٍ . والصحيحُ أنه يسلّم من كل ركعتين، كما ورد في سنن أبي داود: ٧٠٩ [أن رسول الله ﷺ كان يسلم يوم الفتح من كلّ ركعتين] . (١)

وأمّا ما فسّره ابن عباس وعمرُ رضي الله عنهما كما جاء في حديث البخاري نفسه من ان هذه السورة نعي فيها إلى رسول الله ﷺ روحه الكريمة ، فمعناه : أعلم انك اذا فتحت مكة وهي قريتك التي أخرجتْك ، ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً، فقد فرغ شغلنا بكَ في الدنيا ، فتهيأ للقدوم علينا ، فالآخرة خيرٌ لك من الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك فترضى. ولهذا قال : ﴿ فسبّح بحمد ربّك واستغفره إنه كان توابا ﴾ . والمراد بالفتح ها هنا « فتح مكة » قولاً واحداً فإن أحياء العرب كانت تتلوّمُ –أي تتريث– بإسلامها فتحَ مكة . يقولون إن ظهَرَ على قومه فهو نبيٌّ وعن جار لجابر بن عبدالله قال [٧١٠ **قدمت من سفر فجاءني جابر بن عبد الله فسلم علي ، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا ، فجعل جابر يبكي ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجــــا » آخر تفسير سورة النصر ولله الحمد والمنة**

(١) ونرجوا الله تعالى أن نصليها غداً في كل بلد نحرره من فلسطين، بل ومن العالم أجمع. كما نوصي الأجيال بعدنا بهذه الأمانة ... إلى أن تكون كلمة الله هي العليا على الأرض .

(١١١) سُورة المسَد مكيّة وآياتها خمس

نزلت بعد سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * (٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ * (٥) ﴾

روى البخاريّ عن ابن عباس ٧١١ [أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه... فاجتمعت إليه قريش: فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تباً لك. فأنزل الله: ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾] أي خسرت وخابت، وضل عمله وسعيه. وأبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ واسمه عبد العُزَّى بن عبد المطلب وكنيته أبو عتيبة وإنما سمي أبا لهب لإشراق وجهه. وكانَ كثير الأذيَّة لرسول الله ﷺ والبغضة له، والازدراء به، والتنقص له ولدينه. وعندما كان النبي يدعو: (يا أيها الناس قولوا لا إله إلاّ الله تُفلحوا. والناس مجتمعون عليه كان أبو لهب يلحق به ويقف وراءه ويقول: إنه صابىء كاذب ويتبعه حيث ذهب) ﴿ وتبَّ ﴾ أي وقد تبَّ يعني تحققت خسارتُه وهلاكه. وكان أبو لهب يقول: إنْ كان ما يقوله ابنُ أخي حقاً فإني افتدي نفسيَ يومَ القيامة من العذاب بمالي وولدي. فأنزل الله: ﴿ ما أغنى عنه ماله ﴾ ﴿ وما كسب ﴾ يعني ولده. وقوله تعالى: ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ أي ذات شرر ولهب

وإحراق شديد . ﴿ وامرأته حمَّالة الحطب ﴾ وكانت من سادات نساء قريش، وهي أم جميل . واسمها : أروَى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان ، وكانت عوناً لزوجها على كفره وعناده . ولهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم . ولهذا قال تعالى : ﴿ حمّالة الحطب في جيدها حبل من مسد ﴾ وعن سعيد بن المسيب إنه كان لها قلادة فاخرة فقالت لأنفقنَّها في عداوة محمّد! يعني فأعقبها الله منها حبلاً من مسد في النار وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى : ﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ أي في عنقها حبل من نار ترفع به إلى شفيرها ثم ترمى إلى أسفلها ثم كذلك دائماً . قال العلماء : وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليلٌ واضح على النبوَّة فإنّه منذ نزل قوله تعالى : ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب وَامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مَسَد ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لا باطناً ولا ظاهراً ولا مسرّاً ولا معلناً ، فكان هذا من أقوى أدلّة النبوَّة (١) .

آخر اختصار تفسير سورة اللهب فلله الحمد والمنة .

(١) قلت : ولكن رغم كل هذا ... ما يزال في هذه الأمة ، « جماعة ... ؟ » يشفقون على أبي لهب فيتأذون من قراءة سورة « تبت يدا أبي لهب » وكثيراً ما ينهون عن قراءتها زاعمين ان في ذلك إيذاءً لرسول الله ! ! ؟ لأنه عمـُّه . مع أن رسول الله عليه الصلاة والسلام متبرىء منه ، لأنه مشرك . وكيف ينزل الله على حبيبه ونبيـِّه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، سورة تؤذيه ! ! ! ؟ إن هذه السورة إخبار بما أعدّ الله لعدوه وعدوّ رسوله أبي لهب من العذاب في قرار جهنم ، إنتقاماً منه لما كان يقوم به من الكفر بالرسالة ، والتكذيب والإمعان في العداوة والإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم . إذاً فإن هذه السورة ما هي إلاّ تأييد من الله لرسوله ، وغيرةٌ عليه وحِميـّة له ، فكيف يتأذى بها الرسول صلى الله عليه وسلم؟ والحقيقة... أن أولئك (الجماعة ...) هم الذين يتأذون من تلاوة السورة ... وممّا يؤسف له... انهم زوّروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مناماً زعموا فيه : أن بعض من كان يكثر من قراءة « تبت يدا أبي لهب .. » في الصلاة ، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه يقول له معاتباً : سبحان الله ... ! ! ! ! أما تحفظ من القرآن سوى « تبت يدا أبي لهب » ثم أمره أن يقلع عن قراءتها ! ! ! وهذا منام كذب مزوّر عليه صلى الله عليه وسلم من قبلهم كعادتهم دائماً ... وقانا الله شرورهم وزورهم وزندقاتهم الكافرة الفاجرة . وإننا إرضاء لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم – إغاظة لمحـبِّي أبي لهب نردّد هذه السورة : (تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى ناراً ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد) . وإننا نوالي من والى رسول الله ونعادي من عاداه .

(١١٢) سُورَةُ الإِخْلاصِ مكية وآياتها أربع

نزلت بعد سورة الناس

سبب نزولها : روى الإمام أحمد عن أُبيّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : ٧١٢ [يا محمد : أنسب لنا ربّك ، فأنزل الله تعالى: ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ وروى الطبراني عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٧١٣ [لكل شيء نسبة ونسبة الله : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾ والصمد ليس بأجوف] .

فضلها ٧١٤ [كان رجل من الأنصار يؤمُّهم في مسجد قباء ، فكان كلّما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به ... افتتح : بـ ﴿ قل هو الله أحد﴾ حتى يفرغ منها ثم كان يقرأ سورة أخرى معها ،وكان يصنع ذلك في كل ركعة : فكلمه أصحابه فقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى ، فإما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى ، فقال : ما أنا بتاركها ، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت وإن كرهتم تركتكم ،وكانوا يرون انه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر فقال « يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة » قال إني أحبها ، قال « حبك إياها أدخلك الجنة »]

وروى البخاري عن أبي سعيد ٧١٥ [إن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿ قل هو الله أحد﴾ يردِّدها فلما أصبح جاء إلى النبيّ ﷺ فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقالّها فقال النبيّ ﷺ : « والذي نفسي بيده إنّها لتعدل ثلُث القرآن »] .

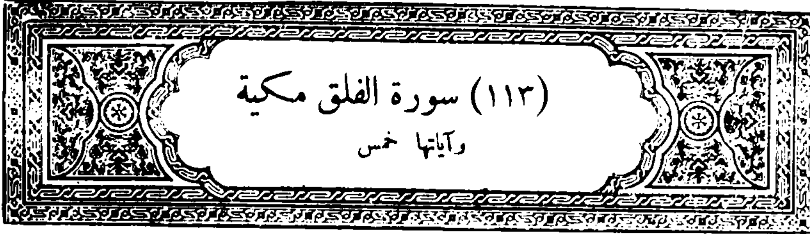
وروى البخاري عن عائشة عن النبي ﷺ ٧١٦ [كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كفّيْه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿ قل أعوذ بربّ الناس ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات] وهكذا رواه أهل السنة من حديث عقيل به .

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ۞ (٤)

﴿ قل هو الله أحد ﴾ يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير له ولا نديد ولا شبيه ولا عديل . ولا يطلق هذا اللفظ إلاَّ على الله عزَّ وجل، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله. وقوله تعالى﴿ الله الصمد ﴾ قال ابن عباس : يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم وقالوا هو السيد . والذي لا جوف له . ولا يأكل ولا يشرب ، وهو الباقي بعد خلقه وكل هذه صحيحة وهي صفات ربِّنا عز وجل . وقوله تعالى : ﴿ لم يلِد ولم يولَد ﴾ أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة . قال مجاهد : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ أي ليس له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه، تعالى وتقدس وتنزه. ﴿ بديع السموات والأرض أنَّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كلَّ شيء ﴾ وقال تعالى: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمٰن ولداً ۞ لقد جئتم شيئاً إدّاً ۞ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّا ۞ أنْ دعوا للرحمٰن ولدا ۞ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ۞ إنْ كل من في السموات والأرض إلاَّ آتي الرحمٰنَ عبدا ۞ لقد احصاهم وعدّهم عدّاً ۞ وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ وفي صحيح البخاري : ٧١٧[لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم] .

آخر اختصار تفسير سورة الاخلاص ولله الحمد والمنة .



نزلت بعد سورة الفيل

روى الإمام أحمد بسنده عن زر بن حبيش قال : قلت لأبيٍّ بن كعب ان ابن مسعود لا يكتب المعوِّذتين في مصحفه فقال : ٧١٨[أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فقلتها قال : ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ فقلتها . فنحن نقول ما قال النبي ﷺ] ورواه البخاري والنسائي .

ولعلَّ ابن مسعود لم يسمعها من النبي ﷺ ولم يتواتر عنده ، ثم لعله قد رجع عن قوله ذلك،إلى قول الجماعة.فإن الصحابة رضي الله عنهم أثبتوها في المصاحف الأئمة، ونفذوها إلى سائر الآفاق . وقد روى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ ٧١٩[ألم ترَ آياتٍ أنزلت هذه الليلةلم يرَ مثلهن قط : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾) . وعن أبي سعيد : ٧٢٠ [أنَّ رسول الله ﷺ كان يتعوَّذ من أعين الجنّ وأعين الإنس .] قال الترمذيّ حسنٌ صحيح .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ (٣) وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ (٥)

قيل في الفلق تفاسير شتّى والأصح: الصبح. وهو اختيار البخاري في صحيحه رحمه الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿من شر ما خلق﴾ أي من شر جميع المخلوقات. ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ قال مجاهد: غاسق الليل إذا وقب غروب الشمس. حكاه البخاري عنه وكذا قاله ابن عباس وغيره. وقال آخرون هو القمر وعمدة اصحاب هذا القول ما رواه الإمام أحمد عن الحارث بن أبي سلمة قال: قالت عائشة رضي الله عنها: ٧٢١ [أخذ رسول الله بيدي فأراني القمر حين طلع وقال: تعوّذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب] ورواه الترمذي والنسائي. قال أصحاب القول الأول: وهو آية الليل اذا ولج. هذا لا ينافي قولنا لأن القمر آية الليل، ولا يوجدله سلطان إلا فيه. وكذلك النجوم لا تضيىء إلاّ بالليل، فهو يرجع إلى ما قلناه والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ومن شرِّ النفاثات في العقد﴾ يعني: السواحر إذا رَقَيْنَ ونفثْنَ في العُقَد.

وروى البخاري في كتاب الطب في صحيحه عن عائشة قالت: ٧٢٢ [كان رسول الله ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتي نساءه ولا يأتيهن، قال سفيان [٢] وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا فقال: يا عائشة أعلمتِ ان الله قد افتاني فيما استفتيته فيه. أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي. فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب قال: ومن طبّه؟ قال: لبيدُ بن أعصم رجل من بني زريق حليفُ اليهود كان منافقاً. قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاطة. قال: وأين؟ قال: في جف طلعة ذكرٍ تحت راعوفة في بئر ذروان. قالت: فأتى البئر حتى استخرجه. فقال: «هذه البئر التي أُريتها... وكأن ماءها نقاعةُ الحناءِ، وكأن نخلَها رؤوس الشياطين» قال: فاستخرج. فقلت: أفلا تنشَّرت؟ [٣] فقال: «أما الله فقد شفاني. وأكره أن أثير على أحدٍ من الناس شراً»] ورواه مسلم وأحمد. والجف: قشر الطلع. والراعوفة حجرٌ في أسفل البئر ناتىء يقوم عليه الماتح..

وقال المفسر الثعلبي في تفسيره قال ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ فدبّت إليه اليهود فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبيّ ﷺ وعدةً من أسنان مشطه فأعطاها اليهود فسحروه فيها.

---

(١) تفسير اعوذ بالله: راجع تفسير الاستعاذة والبسملة في المجلد الأول ص/٩-١٢/.

(٢) أي ابن عيينة.

(٣) النشرة عمل ضد السحر.

وروى الإمام أحمد بسنده إلى زيد بن أرقم قال ٧٢٣ [سحرَ النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود فاشتكى لذلك أياماً قال : فجاء جبريل فقال إن رجلاً من اليهود سحرك وعقد لك عقداً في بئر كذا وكذا فأرسلْ إليها من يجيء بها . فبعث رسول الله ﷺ فاستخرجها فجاء بها فحللها ، قال : فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال ، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه حتى مات.] وروى ابن جرير : ٧٢٤ [ان جبريل جاء إلى النبيّ ﷺ فقال : اشتكيت يا محمد ؟ فقال : نعم . فقال : باسم الله أرقيك، من كل داء يؤذيك، ومن شر كل حاسد وعين، الله يشفيك] ولعلّ هذا كان من شكواه يوم سحر. ثم عافاه الله تعالى وشفاه وردّ كيدَ السحرة الحساد من اليهود في رؤوسهم ، وجعل تدميرَهم في تدبيرهم وفضَحَهم . ولكن مع هذا لم يعاتِب رسول الله ﷺ من سحره يوماً من الدّهر، بل كفى الله وشفَى وعافَى .

آخر اختصار تفسير سورة الفلق ولله الحمد والمنة .

(١١٤) سورة الناس مكيّة وآياتها ستّ

نزلت بعد سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ (١) مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ (٢) إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝ (٣) مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ (٤) ٱلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ (٥) مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝ (٦) ﴾

هذه ثلاث صفات من صفات الرب عزّ وجل: الربوبية، والملك، والألوهية، فهو رب كل شيء ومليكُه وإلهه. فجميع الأشياء مخلوقةٌ له مملوكة عبيد له. فأمر المستعيذ أن يتعوّذ بالمتصف بهذه الصفات من شرّ الوسواس الخنّاس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان فإنه ما من أحد من بني آدم، إلاّ وله قرين يزيّن له الفواحش، ولا يألوه جهداً في الخبال[1]، والمعصوم من عصمه الله. وقد ثبت في الصحيح أنه: ٧٢٥ [ما منكم من أحد إلاّ قد وُكل به قرينه. قالوا: وأنتَ يا رسول الله؟ قال نعم. إلاّ أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلاّ بخير] وثبت في الصحيحَين عن أنسٍ قوله ﷺ: ٧٢٦ [إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدّم ...] وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي تميمة يحدث عن رديف رسول الله ﷺ قال: ٧٢٧ [عثر بالنبيّ ﷺ حمارُه فقلت: تعسَ الشيطانُ. فقال النبي ﷺ: لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلتَ تعس الشيطان تعاظمَ. وقال: بقوّتي صرعتُه. وإذا قلت: بِسم الله، تصاغرَ حتى يصير مثلَ الذباب.] تفرد به أحمد وإسناده جيد قوي. وفيه دلالة على أنّ القلب متى ذَكَر الله

(١) الخبال: الفساد.

تصاغر الشيطان وغُلِب ، وإن لم يذكر الله تعاظم وغَلَبَ : وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : ﴿ الوسواس الخناس ﴾ قال الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله خنَس . وقال المعتمر بن سليمان عن أبيه : ذكر أن الشيطان الوسواس ، ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح ، فإذا ذكر الله خنس. وقوله تعالى : ﴿ الذي يوسوس في صدور الناس ﴾ يعني بالناس : الناس والجن تغليباً. وقال ابن جرير : وقد استعمل فيهم رجال من الجن فلا بدع من إطلاق الناس عليهم . وقوله تعالى : ﴿ من الجنة والناس ﴾ وهذا يقوّي إطلاقَ الناس على الجِنّة والناس. وقيل : قوله ﴿ من الجنة والناس ﴾ تفسير للذي يوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن. كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾ .

وكما قال الإمام أحمد عن أبي ذر قال : ٧٢٨ [اتيت رسولَ الله ﷺ وهو في المسجد فقال : يا أبا ذر هل صلّيتَ ؟ قلت : لا. قال : قم فصلّ . قال : فقمت فصليت ثم جلست. فقال يا أبا ذر : تعوّذ بالله من شر شياطين الأنس والجن قال : فقلت يا رسول الله : وللانس شياطين...؟! قال : نعم ..] الحديث . وروى الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس قال :

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : ٧٢٩ [يا رسول الله اني لأحدّث نفسي بالشيء لأن أخرّ من السماء أحبّ إليّ من أن أتكلم به قال : الله أكبر الله أكبر الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة] ورواه أبو داود والنسائي .

آخر اختصار تفسير سورة الناس ولله الحمد والمنّة

* * *

وهكذا فقد تمّ بتوفيق الله هذا الكتاب : « تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير » فالحمد لله الذي تتم بنعمه الصالحات الباقيات وصلى الله على من نـزّلت عليه من ربّه هذه الآيات البيّنات فبلغها للناس فكانت هُدًى للعالمين وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً . وكان الفراغُ منه في ٢٤ رمضان سنة ١٣٩٠ الموافق ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لك اللهم لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك

حمداً لك اللهم وشكراً على ما أنعمتَ وأفضلتَ ... أكرمتَني بخير الأعمال وأجلّها، وشرفتَني بما سهّلتَ لي من تقريب كتابك إلى عبادك، ولا سهلَ إلاّ ما جعلتَه سهلاً، وإنّك تجعلُ الحزْنَ إن شئتَ سهلاً. أللهم فما أصبتُ فيه، فمنكَ الوهب والتيسير. وما أخطأت فيه، فمنيّ الذنبُ والتقصير. اللهمّ فاغفر لي حَوبي، وتجاوز عن ذنبي، وعاملني بفضلك والرحمة، وأنقذني بلطفك من النقمة. أللهم لا تجازني بما أستحق ... فإنك بالعفو أجدر وبالصفح أحق. وإنّك يا ربي عفوٌّ تحبُّ العفوَ فاعفُ عنّي، وإنك يا ربيّ لأولىَ بيَ منّي.

أللهم اجعل عملي هذا لوجهك الكريم، وتقبّلْه منّي وزحزحني به عن النار، وأدخلني دارَ النعيم، واجعله في صحائفي وأثقِل به موازيني، وادّخره لي عندك يومَ القيامة يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنونَ إلاّ من أتى اللهَ بقلبٍ سليم.

اللهم اجعلْ أفضلَ صلواتِك، وأكملَ تحيّاتِك، وأنمىْ بركاتِك، وأتم تسليماتِك، على عبدِك ورسولِك محمّدٍ أفضلِ خلقِك، وخيرِ عبادِك، وصفوةِ أنبيائِك وأوليائِك، وأكرمِهم عليك. وأعظمِهم لديْك.

اللهمّ إنّي أشهدُ أن طاعتَه من طاعتِك، ومعصيتَه من معصيتِك. ومحبّتَه من محبّتِك، وهُداه من هُداك، ورِضاه من رِضاك.

أللهمّ إني أُشْهِدُكَ بأني لا أطيعُ أحداً من خلقك سواه، ولا أتّبع أحداً من عبادِك إلاّ على هُداه.

اللهم فثبتني على سنّتِه، وأَحيني على شِرعَتِه، وأَمِتني على ملّتِه، واحشرني على محجّتِه.

اللهم إني أشهدُ أنه ﷺ بلّغَ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصحَ الأمة. اللهم فاجزه عنّا وعن الإسلام والمسلمينَ خيرَ الجزاء. وآتِه الوسيلةَ والفضيلةَ وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدتَه.

اللهمّ اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يومَ يقوم الحساب. اللهم اغفر وارحم المفسّر الأول عبدك إسماعيل بن كثير واجزِه عنّا بما هو أهله، وأدخلنا وإيّاه والمسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهمّ وألهم ملوك المسلمين ورؤساءهم وحكامهم أن يحكموا بكتابك وسنة نبيك، واجمعهم في دولة إسلاميّة واحدة، رشيدة راشدة، بفضلِكَ ومنكَ وكرمِكَ. وصلِّ اللهمّ على محمد، وعلى آلِه وصحبِه وسلّمْ تسليماً كثيراً. والحمدُ لجلالك في البدءِ والختامِ، يا ذا الجلال والإكرام.

عبدك وابن عبدك وأمتك

« نسيب »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ..﴾

نزلت هذه الآية الكريمة في شأن الأوس والخزرج ... لما أثار بعض اليهود ذكرياتِ حروبهم بينهم ، فثارت نفوسُهم وطلبوا أسلحتهَم ، وكادوا أن يقتتلوا ... لولا أن بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فأتاهم ، وجعل يسكّنهم ويقول : (أبدعوى الجاهلية ... !! وأنا بين ظهرانَيكم ... ؟) ويقول : (دعوها ... إنها منتنة) فندموا وألقوا السلاح .

وكنتُ علّقتُ على اختصار تفسير هذه الآية الكريمة في ذيل الصفحة رقم / ٢٩٩ / من المجلد الأول من هذا المختصر ... بقولي : (فهل تتاسّى الدول العربيةُ بهم ، فيتناسون فرقتهم ، ويصدُقون في حرب اليهود ، حتى يُزيحوهم عن فلسطين ... ؟ فتعودَ لأهلها العرب والمسلمين ... هذا ما ندعوا الله أن يكون) .

وقد كان ذلك والحمد لله بدايةً ... ونرجوا الله تعالى أن يبقي الصف متحداً حتى النهاية ... فيطهّر العرب والمسلمون فلسطينَهم من أرجاس اليهود الذين غضب الله عليهم .

إنها والحمد لله بدايةٌ طيبّة...فقد اتحد العرب جميعاً اتحاداً وثيقاً، وتضامنوا تضامناً متيناً ، وصدَقوا الحملة على اليهود في ١٠ رمضان ١٣٩٣ وكان شعارهم (الله أكبر) فزلزَلوا اليهودَ وأخرجوهم من أمنع حصونهم في (سيناء) و(الجولان). حتى لاذوا بالفرار و(الله اكبر) تقرعُ أسماعَهم ... أنّى توجّهوا ... فانهلعت نفوسُهم ، وانخلعت قلوبُهم ... وجنودُ الله في أثرَهم كأنهم القضاءُ المحتوم ، يتعقّبونهم في كل مكان ... ومن كل مكان... حتى انجلتِ الجولةُ الأولى عن نصرٍ مؤزّر محجّل ... تبشّر بجولات قادمة ... وانتصارات محقّقة بإذن الله .

أيها العرب : أرأيتم لما عدتم لبعض أوامر الله بالاتحاد ، واعتصمتم بحبله ، كيف نصركم الله على أعدائكم ، وألّف حولكم قلوب الشعوب والدول الإسلامية وغير الإسلامية في أفريقيا وآسيا والعالم أجمع ... ؟ فقطع أكثرهم علاقاتهم بالدولة اليهودية . وأيّدوكم ... ؟! فكيف بكم إذا تضامنتم جميعاً وعدتم صادقين إلى أحكام كتاب الله

وسنة رسوله ﷺ ... ؟ ستكونون والله إن فعلتم ... أعظم قوةٍ ضــاربة على وجه الأرض ، وتكونُ كلمةُ الله هي العليا وكلمةُ الذين كفروا السفلى ، وتعودُ راية (**لا إله إلاّ الله محمد رسول الله**) مرفرفةً على الدنيا رمزاً للأمن والســلام والخير والحق والهدى ... فهيّا يا أيها العرب والمسلمون إلى ذلك الهدف الأسمى ، والغاية المنشودة .

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾

خادم الدعوة السلفية للصراط المستقيم

محمد نسيب الرفاعي

فهرس تفسير المجلد الرابع

أهم ما جاء في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة	الصفحة

٣٧ – سورة الصافّات مكيّة نزلت بعد سورة الأنعام

٣٨ - سورة ص مكيّة نزلت بعد سورة القمر

٣٩ ـ سورة الزُّمَر مكية نزلت بعد سورة سبأ

٤٠ – سورة المؤمن مكية نزلت بعد سورة الزُّمر

٤١ – سورة فصّلتْ مكيّة نزلت بعد سورة غافر « المؤمن »

٤٢ ـ سورة الشورى مكيّة نزلت بعد سورة فصّلت

٤٣ سورة الزخرف مكية نزلت بعد سورة الشورى

٤٨ سورة الفتح مدنيّة نزلت بعد سورة الجمعة

٤٩ سورة الحجرات مدنيّة نزلت بعد سورة المجادلة

٥٠ سورة (ق) مكية نزلت بعد سورة المرسلات

٥١ سورة الذاريات مكية نزلت بعد سورة الأحقاف

٥٧ سورة الحديد مدنيّة نزلت بعد سورة الزلزلة

٦٠ سورة الممتحنة مدنيّة نزلت بعد سورة الأحزاب

٦١ سورة الصف مدنية ، نزلت بعد سورة التغابن

٦٢ سورة الجمعة مدنية نزلتْ بعد سورة الصفّ

٦٧ سورة المُلْك مكية ، نزلت بعد سورة الطور

٦٨ سورة القلم مكيّة نزلت بعد سورة العلق

٨١ سورة التكوير مكية نزلت بعد سورة المسد

٨٢ سورة الانفطار مكية نزلت بعد سورة النازعات

٨٣ المطفّفين مكية نزلت بعد العنكبوت آخر سورة نزلت بمكة

٨٤ سورة الانشقاق مكية نزلت بعد سورة الانفطار

٨٥ سورة البروج مكية نزلت بعد سورة الشمس

٨٦ سورة الطارق مكية نزلت بعد سورة البلد

٨٨ سورة الغاشية مكية نزلت بعد سورة الذاريات

٨٩ سورة الفجر مكية نزلت بعد سورة الليل

٩٠ سورة البلد مكية نزلت بعد سورة (قٓ)

٩١ سورة الشمس مكيّة نزلت بعد سورة القدر

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

فهرس أحاديث المجلد الرابع

٣٨ ــ سورة ص

٢٥	صح	... قال ﷺ يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم »	١٦
٢٦	صح	... دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قوله : لا إله إلا الله .	١٧
٢٧	صح فق	أحبُّ الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود وأحب الصيام إلى	١٨
٢٩	صح	... فسجدها داود عليه الصلاة والسلام فسجدها رسول	١٩
٢٩	صح	المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن . . .	٢٠
٣١	صح فق	... فصلّى العصر بعدما غربت الشمس ، ثم صلّى بعدها	٢١
٣٣	صح فق	إنّ عفريتا من الجن تفلّت عليّ البارحة ــ ليقطع عليّ	٢٢
٣٣	صح م	أعوذ بالله منك ــ ثم قال ــ ألعنك بلعنة الله	٢٣
٣٣		قال الله عز وجل لداود عليه السلام ابن لي بيتاً في الأرض	٢٤
٣٥	صح بخ	بينما أيوب يغتسل عريانا خرّ عليه جرادٌ من ذهب . .	٢٥

٣٩ ــ سورة الزمر

٤٤	صح م	يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم . .	٢٦
٤٥		دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت فقال له	٢٧
٤٧	صح	إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغرف كما تراءون	٢٨
٤٧		قلنا يا رسول إنّا إذا رأيناك رقّت قلوبنا وكنّا من أهل	٢٩
٥١		... يا رسول الله أتكرّر علينا الخصومة قال ﷺ نعم . .	٣٠
٥١	صح	رأى رسول الله شاتين تنتطحان فقال : أتدري فيما	٣١
٥٣	صح	أفلح من هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به	٣٢
٥٣	صح	احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك	٣٣
٥٣		من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى	٣٤
٥٦	صح م	بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته من الليل	٣٥
٥٦	صح	من قال : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب	٣٦
٥٨	صح فق	ان أناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا ..	٣٧
٥٨	صح	... يا رسول الله إنّ لي غدراتٍ وفجرات فهل يغفر لي	٣٨
٥٩	صح م	... لولا أنكم تذنبون لخلق الله عز وجل قوماً يذنبون .	٣٩

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٥٩	صح	كفارة الذنب الندامة	٤٠
٥٩	صح	كل أهل النار يرى مقعده من الجنة ، فيقول لو أن الله	٤١
٦٠		إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صورة	٤٢
٦١	صح فق	... يا محمد إنّا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على	٤٣
٦١	صح فق	... يقبض الله تعالى الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول	٤٤
٦٢	صح م	ان رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ... (وما قدروا الله .	٤٥
٦٢	صح م	يخرج الدجال في أمتي فيمكث فيهم أربعين يوماً . . .	٤٦
٦٥	صح م	أنا أول شفيع في الجنة	٤٧
٦٥	صح م	آتي باب الجنة يوم القيامة فاستفتح فيقول الخازن من أنت	٤٨
٦٥	صح فق	أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر.	٤٩
٦٥	صح فق	إن في الجنة ثمانية أبواب باب منها يسمى الريّان . . .	٥٠
٦٥	صح م	ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول	٥١
٦٦	صح فق	أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإن ترابها المسك . .	٥٢
		٤٠ ــ سورة المؤمن أو غافر	
٦٧		من قرأ آية الكرسي وأول (حــم) عصم ذلك اليوم من	٥٣
٦٧	صح	إن بيتم الليلة فقولوا : حــم لا ينصرون	٥٤
٦٩		من أعان باطلاً ليدحض به حقاً فقد برئت منه ذمة الله.	٥٥
٦٩	صح م	إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك	٥٦
٧١	صح	كان يقول عقب الصلوات المكتوبات لا إله إلا الله وحده	٥٧
٧١		أدعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة . . .	٥٨
٧٢	صح	يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم	٥٩
٧٥	صح	... وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر . . .	٦٠
٧٦		ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاشٌ لرعيته إلاّ لم	٦١
٨٠	صح بخ	إن يهودية دخلت عليها ... فقالت : نعوذ بالله من عذاب	٦٢
٨٠		... ثم انطلق بي إلى خلق كثير من خلق الله رجال . . .	٦٣
٨٣	صح	... أربع خصال واحدة منهن لي ، وواحدة لك وواحدة	٦٤
٨٤	صح	إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ (ادعوني أستجب لكم ...)	٦٥

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٥٣	مرسل	إنَّ الله تعالى أمرني أن أقولَ لك (أولى لك فأولى ...) .	١١٨
١٥٤	صح فق	ويؤتَى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة	١١٩
١٥٤	صح م	يقال لأهلِ الجنة إنّ لكم أن تَصِحّوا فلا تسقَموا أبداً .	١٢٠
١٥٤		سئل النبيُّ ﷺ أينام أهل الجنة فقال ﷺ : النوم أخو	١٢١
١٥٤	صح	إعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً لن يدخله	١٢٢
		٤٥ ــ سورة الجاثية	
١٥٧	صح م	نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدوّ	١٢٣
١٦٠	صح فق	يقول تعالى : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر . .	١٢٤
١٦١	صح	لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر	١٢٥
١٦٣	صح	إنَّ الله تعالى قال للجنة : أنت رحمتي أرحم بك مَن أشاء	١٢٦
١٦٣	صح	إن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة : ألم أزوجْك	١٢٧
١٦٤	صح م	يقول الله تعالى : العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن	١٢٨
		٤٦ ــ سورة الاحقاف	
١٦٧	صح بخ	... وما يدريكِ أنَّ الله تعالى أكرمه. ..؟.	١٢٩
١٦٧	صح بخ	ما أدرى وأنا رسول الله ﷺ ما يفعل به	١٣٠
١٦٨	صح فق	أسباب نزول آية وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله	١٣١
١٧٠		العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة خفّف الله تعالى حسابه .	١٣٢
١٧١		يؤتى بحسناتِ العبد وسيئاتِه فيقتص بعضها ببعض . . .	١٣٣
١٧٣	صح فق	كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك من	١٣٤
١٧٤	صح م	... اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت	١٣٥
١٧٥	صح	(وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) . . .	١٣٦
١٧٥	صح فق	ما قرأ رسول الله على الجن ولا رآهم . إنطلق رسول الله	١٣٧
١٧٦	صح	هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة . .	١٣٨
١٧٦	صح م	... هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحداً ؟	١٣٩
١٧٧	صح	من أحبّ منكم أن يحضر أمر الجن الليلة ... فليفعل . .	١٤٠
١٧٨	صح	قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال .	١٤١

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
		٤٨ – سورة الفتح	
١٩٥	صح بخ	... كنّا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مئة ، والحديبية	١٦٨
١٩٥	صح فق	نزلت على النبيّ ﷺ : (ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك	١٦٩
١٩٥		... إي والذي نفس محمَّد بيده لفتحٌ	١٧٠
١٩٥	صح فق	... فقال : أفلا أكون عبّداً مشكوراً	١٧١
١٩٦		والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظّمون حرمات	١٧٢
١٩٦	صح	ما زاد الله عبداً بعفو إلاّ عِزّا ، وما تواضع أحدٌ لله . .	١٧٣
١٩٨		من سلّ سيفه في سبيل الله فقد بايع الله	١٧٤
١٩٨	صح	لا نبرح حتّى نناجزَ القومَ	١٧٥
١٩٨	صح	كنّا يوم الحديبية ألفاً وأربعماية فقال لنا رسول الله ﷺ	١٧٦
١٩٩	.	لا يدخل النار أحدٌ ممن بايع تحت الشجرة	١٧٧
١٩٩	صح م	... كذبت لا يدخلها... فإنه قد شهد بدراً والحديبية. .	١٧٨
٢٠٢	صح	... أيها الناس البيعةَ البيعةَ نزل روحُ القدس	١٧٩
٢٠٤	صح م	لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه	١٨٠
٢٠٥		... (وألزمهم كلمة التقوى) قال : لا إلَه إلاّ الله . .	١٨١
٢٠٥		خرج رسول الله ﷺ يريد زيارة البيت والاعتمار به .	١٨٢
٢٠٨	صح بخ	... ثم رجع النبيُّ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من	١٨٣
٢١٠	صح	أفلم تكن مخبرنا أنّا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى	١٨٤
٢١٠	صح فق	رحم الله المحلّقين قالوا : والمقصّرين يا رسول الله قال	١٨٥
٢١١	صح فق	... أمر رسول الله ﷺ أن يرملوا الأشواطَ الثلاثة ليرى	١٨٦
٢١١	صح م	... إنّما سعى النبيُّ ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة ليرى	١٨٧
٢١٢	صح	مثَل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم	١٨٨
٢١٢	صح	المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضا	١٨٩
٢١٢		إنّ الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من	١٩٠
٢١٣		لا تسبّو أصحابي فوالذي نفسي بيده	١٩١

٤٩ ـ سورة الحجرات

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٥٧	صح م	... وفي رواية : رأيت نوراً	٢٦٧
٢٥٧	صح	رأيت ربّي عز وجل ...(لكنه مختصر من حديث المنام)	٢٦٨
٢٥٧	صح	أتاني ربّي في أحسن صورة ... — أحسبه يعني في النوم	٢٦٩
٢٥٨	صح	رأيت جبريلَ على السدرة المنتهى وله ستمئة جناح . .	٢٧٠
٢٥٨	صح فق	... سألت رسول ﷺ عنها فقال : (إنما ذاك جبريل)	٢٧١
٢٥٨	صح م	رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته مرتين	٢٧٢
٢٥٨	صح م	لما أسرى رسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى . .	٢٧٣
٢٦٠		قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم	٢٧٤
٢٦٠	صح بخ	من حلف فقال : واللاتِ والعزّى فليقل لا إله إلاّ الله	٢٧٥
٢٦١	صح	إيّاكم والظن فإن الظنّ أكذبُ الحديث	٢٧٦
٢٦١	صح	اللهم لا تجعلِ الدنيا أكبرَ همّنا ولا مبلغَ علمنا	٢٧٧
٢٦٢	صح فق	إنّ الله كتب على ابنِ آدم حظّه من الزنى	٢٧٨
٢٦٣	صح فق	مدح رجلٌ رجلاً عند النبي ﷺ ... ويلك قطعت عنق	٢٧٩
٢٦٣	صح م	... أمرنا ﷺ إذا لقينا المدّاحين أن نحثوا في وجوههم	٢٨٠
٢٦٣	صح	أنفق بلالاً ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً	٢٨١
٢٦٤	صح	اذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثلاث	٢٨٢
٢٦٤	صح	إنّ أطيبَ ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه	٢٨٣
٢٦٤	صح	من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتّبعه	٢٨٤
٢٦٦		سجد النبيُّ ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون	٢٨٥
٢٦٦	صح	قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم فسجد وسجد من	٢٨٦

٥٤ — سورة القمر

٢٦٧	صح فق	بعثت أنا والساعة هكذا وأشار بأصبعيه السبّابة والوسطى	٢٨٧
٢٦٨	صح فق	... سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر	٢٨٨
٢٦٨	صح م	... إنشقّ فلقتين ، فلقة من دون الجبل وفلقة خلف الجبل	٢٨٩
٢٦٨	صح	... انظروا السفّار فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق	٢٩٠
٢٧٣	صح بخ	... أنشدك عهدك ووعدك أللهمَّ إنْ شئت لم تعبد بعد	٢٩١
٢٧٤	صح م	جاء مشركو قريش إلى النبيّ ﷺ يخاصمونه في القدر	٢٩٢

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٤٠	صح	... فجاوز الجذع إلى نحو المنبر فعند ذلك حنّ الجذع	٣٩٤
٣٤١	صح	العظمة ازاري ، والكبرياء ردائي	٣٩٥
٣٤١	صح فق	ان لله تسعةً وتسعين اسماً مئة إلاّ واحداً من أحصاها .	٣٩٦
٣٤١		هو الله الذي لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم الملك . . .	٣٩٧

٦٠ ـ سورة الممتحنة

٣٤٣	صح	اللهم عمّ عليهم خبرنا	٣٩٨
٣٤٤	صح فق	... إنطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها	٣٩٩
٣٤٤	صح	صدق حاطب فلا تقولوا لحاطب إلاّ خيراً	٤٠٠
٣٤٤		ضرب رسول الله ﷺ أمثالاً واحداً وثلاثة وخمسة	٤٠١
٣٤٥	صح م	إن رجلاً قال : يا رسول الله أين أبي ؟ قال في النار . .	٤٠٢
٣٤٧	صح	ألم أجدكم ضلاّلاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرّقين	٤٠٣
٣٤٨	صح فق	قدمت أمّي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا	٤٠٤
٣٤٨	صح	المقسطون على منابر من نور	٤٠٥
٣٤٩	صح	... على ألاّ يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلاّ	٤٠٦
٣٤٩	صح	هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط فخرج أخواها	٤٠٧
٣٤٩	صح	الامتحان : بالله ما خرجتِ من بغض زوج وبالله ما	٤٠٨
٣٤٩	صح	... إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا ... ففعلوا . .	٤٠٩
٣٤٩	صح	إنّ رسول الله ردّ ابنته زينب على أبي العاص	٤١٠
٣٤٩	ضعيف	إنّ رسول الله ﷺ ردّ ابنته زينب على أبي العاص بمهر	٤١١
٣٥٠	صح	إنّ الرسول ﷺ لما عاهد كفّار قريش يوم الحديبية ، جاءه	٤١٢
٣٥٠	صح بخ	... كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية.	٤١٣
٣٥١	صح بخ	قلنا يا رسول الله ألا تصافحنا قال : إني لا أصافح	٤١٤
٣٥١	صح	... أبايعك على ألاّ تشركي بالله شيئاً ولا تسرقي ولا تزني	٤١٥
٣٥١	صح فق	... تبايعوني على أنْ لا تشركوا بالله ولا تسرقوا ولا تزنوا	٤١٦
٣٥١	صح	... أنا مع أميّ رائطة بنت سفيان الخزاعية والنبيّ ﷺ	٤١٧

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٥١	صح فق	... ونهانا عن النياحة فقبضتْ امرأة يدَها قالت أسعدَتْني	٤١٨
٣٥١	صح	... فقالت : ماتقول في هذين السوارين ؟ فقال : جمرتان	٤١٩
٣٥٢	صح	يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني . . .	٤٢٠
٣٥٢	صح	أيّما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم	٤٢١
٣٥٢	صح فق	ليس منّا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا	٤٢٢
٣٥٢	صح فق	إن رسول الله بريءٌ من الصّالقة والحالقة والشاقه . . .	٤٢٣
		٦١ ـ سورة الصف	
٣٥٤		تذاكرنا أيُّكم يأتي رسولَ الله ﷺ فيسأله أي الأعمال	٤٢٤
٣٥٤	صح فق	آية المنافق ثلاث إذا وعد أخلف وإذا حدث كذب و...	٤٢٥
٣٥٥		ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل . . .	٤٢٦
٣٥٦	ضح فق	إن لي أسماء ... أنا محمّد أنا أحمد ، وأنا الماحي . . .	٤٢٧
٣٥٨	صح	من رجلٌ يُؤويني حتى أبلِّغَ رسالةَ ربيّ	٤٢٨
		٦٢ ـ سورة الجمعة	
٣٦٠	صح م	... كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين	٤٢٩
٣٦١	صح فق	كنّا جلوساً عند النبيّ ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة	٤٣٠
٣٦٢		من تكلّم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار .	٤٣١
٣٦٣	صح بخ	قال أبو جهل لعنه الله إنْ رأيت محمّداً عند الكعبة . . .	٤٣٢
٣٦٣	صح فق	أضلّ الله عن الجمعة من كان قبلنا	٤٣٣
٣٦٤	صح فق	إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة	٤٣٤
٣٦٤	صح	إذا أقيمتِ الصلاة فلا تأتوها تسعون ولكن ائتوها تمشون	٤٣٥
٣٦٤	صح فق	إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل	٤٣٦
٣٦٤	صح	من غسل واغتسل يوم الجمعة وبكر وابتكر ومشَى ولم	٤٣٧
٣٦٤	صح فق	من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح الساعةَ الأولى	٤٣٨
٣٦٥		من دخل سوقاً من الأسواق فقال لا إله إلاّ الله وحده .	٤٣٩
٣٦٥	صح فق	قدمت غيرَ مرّة المدينةَ ورسول الله ﷺ يخطب فخرج	٤٤٠
٣٦٥	صح	بينما النبيُّ ﷺ يخطب يوم الجمعة قدمت عيرٌ إلى المدينة	٤٤١
٣٦٦		كانت للنبيّ ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن	٤٤٢

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
		٦٣ ـ سورة (المنافقون)	
٣٦٨		إن للمنافقين علامات يُعرفون بها : تحيتهم لعنة وطعامهم	٤٤٣
٣٧٠	صح فق	... ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنّها منتنة	٤٤٤
٣٧٠	صح بخ	... فقال عبد الله بن أبيّ : لئن رجعنا المدينة ليخرجنّ	٤٤٥
٣٧٠	صح	... يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي .	٤٤٦
٣٧١	صح	والله لا تجوز من هٰهنا حتى يأذنَ لك رسولُ الله ﷺ .	٤٤٧
		٦٤ ـ سورة التغابن	
٣٧٦	فق	عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلاّ كان خيراً له .	٤٤٨
٣٧٧	صح	كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين رضي	٤٤٩
٣٧٧		ليس عدوك الذي إن قتلته كان فوزاً لك ، وإن قتلك	٤٥٠
٣٧٧	صح فق	إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم	٤٥١
٣٧٨	صح فق	ان الله تعالى يقول : من يقرض غير مظلوم ولا عديم .	٤٥٢
		٦٥ ـ سورة الطلاق	
٣٧٩		طلق رسول الله ﷺ حفصة فأتت أهلها : أنزل الله تعالى	٤٥٣
٣٧٩	صح فق	إن عبد الله بنَ عمر طلّق امرأةً له وهي حائض	٤٥٤
٣٧٩	صح	... فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء	٤٥٥
٣٧٩	صح	كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضاً فقال: طلق ابن	٤٥٦
٣٨٠		إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كانت له عليها	٤٥٧
٣٨٣		من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من . . .	٤٥٨
٣٨٣	صح	يا غلام إني معلمك كلماتٍ أحفظِ الله يحفظك . . .	٤٥٩
٣٨٤	صح فق	إن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجُها وهي حامل فلم	٤٦٠
٣٨٤	صح م	... إنّ سبيعة أخبرته ... فأفتاني بأني قد حللت حين	٤٦١
٣٨٦		... أما أنه لو لم ترفعها لم تزل تدور إلى يوم القيامة . .	٤٦٢
٣٨٧	صح فق	من ظلم قيد شبرٍ من الأرض طوّقه الله من سبع أرضين	٤٦٣
٣٨٧	صح	ما السموات السبع ومن فيهن وما بينهن والأرضون	٤٦٤

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٤١	صح	يا أم المؤمنين : أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ؟ قالت :	٥٣٦
٤٤٤	صح فق	اقرأ ما تيسّر معك من القرآن	٥٣٧
٤٤٤	صح فق	لا صلاةَ لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب	٥٣٨
٤٤٤	صح	إنّ رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح فقال	٥٣٩
٤٤٤	صح	أو ترِوا يا أهل القرآن	٥٤٠
٤٤٤	صح	من لم يوترّ فليس منا	٥٤١
٤٤٤	صح فق	... خمس صلوات في اليوم والليلة . قال عليّ غيرها ..؟	٥٤٢
٤٤٥	صح بخ	أيّكم ماله أحبُّ إليه من مال وارثه ؟ قالوا	٥٤٣

٧٤ ـ سورة المدثر

٤٤٦	صح بخ	جاورت بحراء فلمّا قضيت جواري هبطت فنوديت . .	٥٤٤
٤٤٦	صح م	... فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت	٥٤٥
٤٤٧	صح فق	... ثم فتر الوحي عنّي فترةً . فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً	٥٤٦
٤٤٧	صح	كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته	٥٤٧
٤٤٩	صح	ويل وادٍ في جهنم يهوي به الكافر أربعين خريفاً . . .	٥٤٨
٤٥٠	صح فق	... فإذا هو يدخله في كلّ يوم سبعون ألف ملك . . .	٥٤٩
٤٥١	صح	ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف .	٥٥٠
٤٥٢	صح	... أما هو ـ يعني عثمان بن مظعون ـ فقد جاءه اليقين	٥٥١
٤٥٢		قال ربّكم : أنا أهل أن أتّقي فلا يُجعلُ معي إله . .	٥٥٢

٧٥ ـ سورة القيامة

٤٥٥	صح	... إنكم سترون ربّكم عياناً	٥٥٣
٤٥٥	صح	إن أناساً قالوا : يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة	٥٥٤
٤٥٦	صح	ردُّوا عبدي إلى الأرض فإني منها خلقتهم	٥٥٥
٤٥٧		أولى لك فأولى ... قاله النبيّ ﷺ لأبي جهل	٥٥٦
٤٥٧		سبحانك اللهم فبلَى ، فسئل عن ذلك فقال: سمعت	٥٥٧
٤٥٧	صح	من قرأ بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها ... فليقل : بلى و	٥٥٨
٤٥٨	صح م	كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة (الـم تنزيل)...و	٥٥٩

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٥٤٧	صح فق	يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والأمل . . .	٦٨٧
٥٤٨	صح م	بينما أبو بكر وعمر جالسان إذ جاءهما النبيُّ ﷺ فقال:	٦٨٨
٥٤٨	صح بخ	نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصِّحة والفراغ .	٦٨٩

١٠٣ ــ سورة العصر

١٠٤ ــ سورة الهمزة

١٠٥ ــ سورة الفيل

٥٥٥	صح فق	ان الله حبس أصحاب الفيل عن مكة وسلَّط الله عليها .	٦٩٠

١٠٦ ــ سورة قريش

١٠٧ ــ سورة الماعون

٥٥٧		سألت رسول الله ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون	٦٩١
٥٥٧	صح	من سمَّع الناسَ بعمله سمع الله به سامع خلقه وحقَّره .	٦٩٢
٥٥٧	صح	كنت أصلي فدخل عليَّ رجل فأعجبني ذلك فذكرته	٦٩٣
٥٥٨	صح	كل معروف صدقه	٦٩٤
٥٥٨	صح	المسلم أخو المسلم إذا لقيه جاء بالسلام ويردُّ عليه . . .	٦٩٥

١٠٨ ــ سورة الكوثر

٥٥٠	صح	بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى	٦٩٦
٥٥١	صح	دخلتُ الجنَّة فإذا بنهر حافتّاه خيام اللؤلؤ.	٦٩٧
٥٦٠	صح	من صلّى صلاتنا ونسك نسكنا ، فقد أصاب النسك .	٦٩٨

١٠٩ ــ سورة الكافرون

٥٦١	صح م	إنّ رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبقُلْ هو ... في	٦٩٩
٥٦١	صح م	إنَّ رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر	٧٠٠
٥٦١	صح	إنَّ رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين	٧٠١
٥٦١		إذا أويت إلى فراشك فاقرأ قل يا أيها الكافرون . . .	٧٠٢
٥٦١		قل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن	٧٠٣
٥٦٢	صح	لا يتوارث أهل ملتين شتى	٧٠٤

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
		١١٠ – سورة النصر	
٥٦٣	صح	لما نزلت : اذا جاء نصر الله ... قال ... نُعيتْ إليَّ نفسي	٧٠٥
٥٦٣	صح م	كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قوله . . .	٧٠٦
٥٦٤	صح	... جاء الفتح وجاء النصر وجاء أهل اليمن	٧٠٧
٥٦٤	صح	إنّ رسولُ الله ﷺ كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين	٧٠٨
٥٦٤	صح بخ	إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً	٧٠٩
		١١١ – سورة اللهب	
٥٦٥	صح بخ	إن النبيَّ ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى :	٧١٠
		١١٢ – سورة الاخلاص	
٥٦٧	صح	يا محمّد أنسبْ لنا ربَّك فأنزل الله قل هو الله أحد . . .	٧١١
٥٦٧	صح	لكلّ شيء نسبة، ونسبة الله . قل هو الله أحد. . . .	٧١٢
٥٦٧	صح بخ	كان رجل من الأنصار يؤمُّهم في مسجد قباء ... يفتتح	٧١٣
٥٦٧	صح بخ	ان رجلاً سمع رجلاً يقرأ وهو الله أحد يردِّدها . . .	٧١٤
٥٦٧	صح بخ	... وقرأ فيهما : قل هو الله أحد ، (والفلق والناس)	٧١٥
٥٦٨	صح بخ	لا أحد أصبرَ على أذى سمعه من الله	٧١٦
		١١٣ – سورة الفلق	
٥٦٩	صح بخ	... أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أنَّ جبريل ﷺ	٧١٧
٥٦٩	صح م	... ألم ترَ آيات أنزلت هذه الليلة لم ترَ مثلهن قط . . .	٧١٨
٥٦٩	صح	إنَّ رسول الله ﷺ كان يتعوّذ من أعين الجن وأعين	٧١٩
٥٧٠	صح	أخذ رسول الله بيدي فأراني القمر حين طلع وقال:	٧٢٠
٥٧٠	صح	كان رسول الله ﷺ سُحِرَ حتى كان يرى	٧٢١
٥٧١	صح	سحَرَ النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود	٧٢٢
٥٧١	صح	إنَّ جبريل جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال إشتكيتَ يا محمد ؟	٧٢٣
		١١٤ – سورة الناس	
٥٧٢	صح	ما منكم من أحد إلاَّ قد وكّل به قرينه قالوا	٧٢٤

والحمد لله رب العالمين